

# مُقَدِّمَاتُ ابْنِ خَلْدُونَ

وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى  
بِأَيُّوْمِ الْمَبْتَدَأِ وَالْمَخْبَرِ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ وَالسُّبُرِ  
وَمِنْ عَايِرِ عِلْمٍ مِنْ فُرُوقِ السَّنَاءِ وَالرُّكْبِ

تأليف

عبد الرحمن بن خلدون

٧٣٢-٨٠٨ هـ - ١٣٣٢-١٤٠٦ م

مراجعة الدكتور

سهيل زكار

ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس

الاستاذ خليل شحادة

طبعة مُسْتَكْمَلَةٌ وَمُقَارَنَةٌ مَعَ عِدَّةِ نَسَخٍ  
وَمَخْطُوطَاتٍ وَمُذَيَّلَةٌ بِحَوَاشِيٍّ وَشُرُوحٍ وَتَمْتَّازُ  
بِفَهَارِسٍ لِلْمَوْضُوعَاتِ وَالْأَعْلَامِ وَالْأَمَاكِنِ الْجُغْرَافِيَّةِ

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة للناشر  
الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع : لبنان - بيروت - حارة حريك شارع عبد النور  
هاتف ٢٧٣٦٥٠ - ٢٧٣٨٧ ص . ب ٧٠٦١ برقا فيكسي

# بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف والكتاب

كلمة الناشر

العلامة ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، ولد في تونس سنة ٧٣٢هـ — ٣٣٢م ، ينحدر من أصل أندلسي أشبيلي ، تلقى العلم على عدد كبير من العلماء الأندلسيين الذين هاجروا إلى تونس .

وإذا كان في شبابه اجتذبه بلاط بني مرين في فاس للخدمة فيه فقد أتيح له الاتصال هناك بالوزير لسان الدين ابن الخطيب خلال فترة نفيه مع سلطانه إلى المغرب وقد توطدت بين الرجلين صداقة متينة ظهرت بوضوح في تلك الترجمة التي افرداها له ابن الخطيب في كتابه «الاحاطة في أخبار غرناطة» بعد عودته الى وطنه قال فيه :

... مفخر من مفاخر التخوم المغربية — أي ابن خلدون — شرح البردة شرحاً بديعاً دل على غزارة حفظه وتفنن ادراكه ولخص كثيراً من كتب — ابن رشد وعلق للسلطان أبي سالم في العقليات تقييداً مفيداً في المنطق ، ولخص محصل الامام فخر الدين الرازي ، وألف كتاباً في الحساب ، وشرع في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه بشيء لا غاية فوّه في الكمال (١) .

وإذا كان ابن خلدون انغمس في حياة سياسية حافلة سواء في بلاط المرينيين بفاس أو الحفصيين في تونس فإنه اعتزل السياسة وأثر الانطواء بعد مقتل صديقه ابن الخطيب في سجنه فقد ملّ السياسة وانسحب من الحياة العامة واختلّى أربع سنوات ٧٧٦ — ٧٨٠هـ في قلعة بني سلامة في ولاية وهران غربي الجزائر وفي تلك الخلوة كتب «مقدمة» والتي اشتهرت بمقدمة ابن خلدون والتي قال عنها هو : «سالت فيها شأيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتحنت زبدتها وتألّفت نتائجها ، على ذلك النحو الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة» .

وعاش ابن خلدون بعد ذلك مدة طويلة ارتحل خلالها الى الشام ومصر حيث ولي منصب قاضي القضاة المالكية ، في مصر عدة مرات ، وتصادف أيضاً وجوده في دمشق عندما حاصرها المغولي ، تيمورلنك . وتمكن من الخروج قاصداً تيمورلنك ، متوسلاً إليه انقاذ المدينة . وبعدها

(١) يشير بذلك الى كتاب الحلال المرموقة في اللمع المنظومة لابن الخطيب وهو الفية في أصول الفقه .

عاد ابن خلدون الى مصر وتوفي فيها سنة ٨٠٨ هـ ومن أشهر مؤلفاته في التاريخ : « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » وكتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر » وهو كتابنا هذا الذي نقدم له .

يتألف الكتاب من سبعة أجزاء وجزء ثامن للفهارس الجزء الأول منه : مقدمة ابن خلدون المشهورة والتي تضمنت نظريته في التاريخ على أنه فرع من الفلسفة وأنه لا بد من تحليل الحوادث التاريخية وذلك بدراسة طبائع البشر والعمران وأنظمة الحكم والسلطان واستقصاء عللها وأسبابها لفهم التاريخ وإستخلاص منه العبر وتناول في بقية الاجزاء الستة التالية أخبار العرب وأجيالهم ودولهم ومن عاصرهم من الدول المشاهير منذ بدء الخليقة الى عصره ، ثم أخبار البربر وأجيالهم وما كان بديار المغرب خاصة والمشرق عامة من الملك والدول .

والجزء الثامن فهارس عامة .

وقد تفردت هذه النسخة بتعليقات وشروحات معتمدة على المقارنة بين كل النسخ المتوافرة بالاضافة الى المراجع العديدة لضبط النص والأحداث والأسماء حيث لاحظنا تحريف في الأسماء ناجم عن الأسماء الأعجمية والبربرية وغيرها كما يعود الاضطراب الى أخطاء النساخ والناقلين وقد ضبطنا هذه الأسماء وأشرنا في الهوامش اليها كما وردت في مختلف النسخ واستعنا لذلك بتاريخ ابن الأثير « الكامل في التاريخ » وتاريخ الطبري كما استعنا بمكتبة الدكتور سهيل زكار فيما يخص تاريخ شمال افريقية .

كما لاحظنا اضطراباً في نقل النص أحياناً وأحياناً أخرى عمد المؤلف الى ترك أمكنة بيضاء ليعود الى إكمالها فيما بعد ولكن الموت عاجله قبل ذلك كما أن بعض النساخ أحياناً يترك فراغاً مكان الكلمة التي لا يفهمها أو غير المقروءة ولا يعود اليها وعمدنا الى ملأ الفراغ ما أمكن من النسخ الأخرى وأشرنا اليه في الهوامش .

كما وجدنا بعض الفصول قد حذف من نسخة ووجد في نسخة أخرى وبالعكس لذلك أضفنا هذا النقص الحاصل بحيث تخرج هذه الطبعة كاملة متكاملة .

وأضفنا اليها جزءاً خاصاً يحتوي على فهارس للأسماء والقبائل والمدن والاماكن .

هذه النسخة الجديدة نضعها بين أيدي القراء الكرام آمين أن يجدوا فيها ما يتوخون من الدقة شاكرين لكل من ساهم معنا وقدم لنا العون والله من وراء القصد .

٢٥ جادى الآخرة ١٤٠١

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَقُولُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْغَنِيِّ يُلْطِفُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ  
خَلْدُونَ الْحَضْرَمِيُّ وَقَفَهُ اللَّهُ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ الْعِزَّةُ وَالْجَبْرُوتُ ، وَبِيَدِهِ الْمَلِكُ وَالْمَلَكُوتُ ، وَلَهُ الْأَسْمَاءُ  
الْحَسَنَى وَالنُّعُوتُ ، الْعَالِمِ فَلَا يَغْرِبُ عَنْهُ مَا تُظْهِرُهُ النَّجْوَى أَوْ يُخْفِيهِ السُّكُوتُ ،  
الْقَادِرُ فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَقُوتُ ، أَنْشَأَنَا مِنَ الْأَرْضِ نَسْماً<sup>(١)</sup>  
وَاسْتَعْمَرْنَا فِيهَا أَجْيَالاً وَأَمَّا وَيَسِّرْ لَنَا مِنْهَا أَرْزَاقاً وَقَسِّمْنَا الْأَرْحَامَ  
وَالْبَيُوتَ ، وَيَكْفُلْنَا الرِّزْقَ وَالْقُوتَ ، وَتَبَلِّغْنَا الْأَيَّامَ وَالْوُقُوتَ ، وَتَقْتَوِّرْنَا الْأَجَالَ  
الَّتِي خُطَّ عَلَيْنَا كِتَابُهَا الْمَوْقُوتُ وَلَهُ الْبَقَاءُ وَالشُّبُوتُ ، وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ،  
وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدِ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكْتُوبِ فِي التَّوْرَةِ  
وَالْإِنْجِيلِ الْمَنْعُوتِ ، الَّذِي تَمَحَّضَ لِفَضَالِهِ الْكُؤُنُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَاقَبَ الْآحَادُ وَالسُّبُوتُ ،  
وَيَتَّبَعَيْنِ زُحْلٌ وَالْيَهْمُوتُ<sup>(٢)</sup> ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ لَهُمْ فِي صُحْبَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ الْأَثَرُ

(١) أي نفوساً ، والله باريء التسم أي خالق النفوس ( قاموس ) .

(٢) قوله اليهموت هو النون أي الحوت الذي على ظهره الأرض السابقة ويسمى أيضاً لوتيا كما في الزهر  
وروح البيان واللجة ومعلوم ان بينه وبين زحل الذي مر في الفلك السابع يوماً بعيداً وقال الشهاب الخفاجي في  
حاشيته على البيضاوي ١ هـ في أول سورة نون اليهموت بفتح المثناة التحمية وسكون الهاء وما لشهر من أنه بالباء  
الوحدة غلط على ما ذكره الفاضل المحشي ومثله في روح البيان قاله نصر البهروني أقره المصحح الثاني .

الْبَعِيدُ وَالصَّيْتُ ، وَالشَّمْلُ الْجَمِيعُ فِي مُظَاهَرَتِهِ وَلِعَدْوِهِمِ الشَّمْلُ الشَّتِيْتُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ مَا اتَّصَلَ بِالْإِسْلَامِ جَدُّهُ الْمُبْحُوتُ . وَانْقَطَعَ بِالْكَفْرِ حَبْلُهُ الْمَبْتُوتُ ، وَسَلِمَ كَثِيرًا ..

أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ فَنَّ التَّارِيخِ مِنَ الْفُنُونِ الَّتِي تَتَدَاوَلُهُ الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ وَتَشُدُّ إِلَيْهِ الرُّكَائِبُ وَالرَّحَالُ ، وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ السُّوقَةُ وَالْأَغْفَالُ ، وَتَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُلُوكُ وَالْأَقْيَالُ <sup>(١)</sup> ، وَتَسَاوَى فِي فَهْمِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَّالُ ، إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى أَخْبَارِ عَنِ الْأَيَّامِ وَالذُّوَلِ ، وَالسُّوَابِقِ مِنَ الْقُرُونِ الْأُولَى ، تَنْمُو <sup>(٢)</sup> فِيهَا الْأَقْوَالُ ، وَتُضْرَبُ فِيهَا الْأَمْثَالُ ، وَتُطْرَفُ بِهَا الْأَنْدِيَّةُ إِذَا غَضِبَ الْإِحْتِفَالُ ، وَتُؤَدَّى لَنَا شَأْنُ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا الْأَحْوَالُ ، وَاتَّسَعَ لِلذُّوَلِ فِيهَا النُّطَاقُ وَالْمَجَالُ ، وَعَمَّرُوا الْأَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمِ الْإِرْتِحَالُ ، وَحَانَ مِنْهُمْ الرُّوَالُ ، وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ ، وَتَغْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِيهَا دَقِيقٌ ، وَعَلِمٌ بِكَيْفِيَّاتِ الْوَقَائِعِ وَأَسْبَابِهَا عَمِيقٌ ، فَهُوَ لِذَلِكَ أَصِيلٌ فِي الْحِكْمَةِ عَرِيقٌ ، وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٌ .

وَإِنَّ فُحُولَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي الْإِسْلَامِ قَدْ اسْتَوْعَبُوا أَخْبَارَ الْأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا ، وَسَطَّرُوهَا فِي صَفَحَاتِ الذِّفَاتِرِ وَأَوْدَعُوهَا ، وَخَلَطُوهَا التَّتَطْفُلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ الْبَاطِلِ وَهَمُّوا فِيهَا وَابْتَدَعُوهَا ، وَزَخَّارَفَ مِنَ الرُّوَايَاتِ الْمُضَعَفَةَ لَفَّقُوهَا وَوَضَعُوهَا ، وَاقْتَفَى تِلْكَ الْأَثَارَ الْكَثِيرَ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَاتَّبَعُوهَا ، وَأَدْوَاهَا إِلَيْنَا كَمَا سَمِعُوهَا ، وَلَمْ يَلَاحِظُوا أَسْبَابَ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْوَالِ وَلَمْ يَرَاعُوهَا ، وَلَا رَفَضُوا تُرَاهَاتِ الْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا ، فَالتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ ، وَطُرْفُ التَّنْقِيحِ فِي الْغَالِبِ كَلِيلٌ ، وَالْعَلَطُ وَالْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ ، وَالتَّغْلِيدُ عَرِيقٌ فِي الْأَدْمِيَيْنِ وَسَلِيلٌ ، وَالتَّتَطْفُلُ عَلَى الْفُنُونِ عَرِيضٌ طَوِيلٌ ، وَمَرَعَى الْجَهْلِ بَيْنَ الْأَنَامِ وَخِيَمٌ وَبَيْلٌ ، وَالْحَقُّ لَا يَقَاوِمُ سُلْطَانَهُ ، وَالْبَاطِلُ يَقْدَفُ بِشَهَابِ النَّظَرِ شَيْطَانَهُ ، وَالنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يُعْلِي وَيُنْقَلُ ، وَالْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ الصَّحِيحَ إِذَا تَمَقَّلَ ، وَالْعَلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ الْقُلُوبِ وَيَضْقَلُ .

(١) جمع قَيْلٍ ، وَالْقَيْلُ الْمَلِكُ وَقَيْلٌ ، هُوَ الرَّئِيسُ دُونَ الْمَلِكِ الْأَعْلَى .

(٢) نَمَا الْخَبْرُ أَوْ الْحَدِيثُ ، ارْتَفَعَ وَذَاعَ .

هذا وقد دونَ النَّاسُ في الأَخْبَارِ وَأَكثَرُوا ، وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ الأُمَمِ وَالدُّوَلِ في العَالَمِ وَسَطَرُوا ؛ وَالَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ الشُّهْرَةِ وَالإِمَامَةِ الْمُعْتَبَرَةِ ، وَاسْتَفْرَعُوا دَوَابِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ في صُحُفِهِمُ المُتَأَخَّرَةِ ، هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ الأَنَامِلِ ؛ وَلَا حَرَكَاتِ العَوَامِلِ ؛ مِثْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ وَالعَطْبَرِيِّ وَابْنِ الكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بنِ عَمَرَ الوَاقِدِيِّ وَسَيِّفِ بنِ عَمَرَ الأَسَدِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ المُشَاهِيرِ ، المُتَمَيِّزِينَ عَنِ الجَمَاهِيرِ ؛ وَإِنْ كَانَ في كُتُبِ المُسْعُودِيِّ وَالعَطْبَرِيِّ مِنَ المُطْعَمِ وَالمُغَمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الأَثْبَاتِ ؛ وَمَشْهُورٌ بَيْنَ الحَفَظَةِ الثَّقَاتِ ؛ إِلَّا أَنَّ الكَافَةَ اخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ ؛ وَاقْتِفَاءَ سُنَنِهِمْ في التَّصْنِيفِ وَاتِّبَاعَ آثَارِهِمْ ؛ وَالنَّاقِدُ البَصِيرُ قَسَطَاسٌ نَفْسِهِ في تَرْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقَلُونَ أَوْ اغْتَبَرَهُمْ ؛ فَلِلْعُمَرَانِ طَبَائِعُ في أَحْوَالِهِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا الأَخْبَارُ ؛ وَتَحْمَلُ عَلَيْهَا الرِّوَايَاتُ وَالأَثَارُ .

ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ التَّوَارِيخِ لَهُوَلَاءُ عَامَّةُ المَنَاهِجِ وَالمَسَالِكِ ، لِعُمُومِ الدُّوَلَتَيْنِ صَدَرَ الإِسْلَامُ <sup>(١)</sup> في الأَفَاقِ وَالمَمَالِكِ ؛ وَتَنَاوَلَهَا البَعِيدُ مِنَ الغَايَاتِ في المَأْخِذِ وَالمَتَارِكِ وَمِنْ هُوَلَاءِ مَنْ اسْتَوْعَبَ مَا قَبَلَ المِلَّةَ مِنَ الدُّوَلِ وَالأُمَمِ ، وَالأَمْرَ العَمَمَ <sup>(٢)</sup> . كَالْمُسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنَحَاهُ وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الإِطْلَاقِ إِلَى التَّقْيِيدِ وَوَقَّفَ في العُمُومِ وَالإِحَاطَةِ عَنِ الشَّوِّ البَعِيدِ ، فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَضْرِهِ ؛ وَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أَفْقِهِ وَقَطْرِهِ ، وَاقْتَصَرَ عَلَى تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَمِضْرِهِ ، كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ الأَنْدَلُسِ وَالدُّوَلَةِ الأَمَوِيَّةِ بِهَا وَابْنُ الرُّفَيْعِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَّةِ وَالدُّوَلَةِ الَّتِي كَانَتْ بِالقَيْرَوَانِ .

ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هُوَلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ ، وَبَلِيدٌ الطَّبِيعِ وَالعَقْلِ وَ بَلِيدٌ ، يَنْسُجُ عَلَى ذَلِكَ المَنَوَالِ ، وَيَخْتَدِي مِنْهُ بِالمِثَالِ ، وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتهُ الأَيَّامُ مِنَ الأَحْوَالِ ، وَاسْتَبَدَّلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ الأُمَمِ وَالأَجْيَالِ ، فَيَجْلِبُونَ <sup>(٣)</sup> الأَخْبَارَ عَنِ الدُّوَلِ .

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ وتصويب العبارة : لعموم صدر الإسلام والدولتين (أي دولة بني أمية والدولة العباسية) .

(٢) امر عمم ، تام ، عام (لسان العرب) .

(٣) بمعنى يجمعون .

وَحِكَايَاتِ الْوَقَائِعِ فِي الْعُصُورِ الْأُولِ ، صَوْرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا ، وَصِفَاحًا  
 انْتَضَيْتْ مِنْ أَعْمَادِهَا ، وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكِرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتَلَابِهَا <sup>(١)</sup> ، إِنَّمَا هِيَ  
 حَوَادِثٌ لَمْ تُعْلَمْ أَسْوَالُهَا ، وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُفْتَبَرِ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا ، يَكْرُرُونَ  
 فِي مَوْضُوعَاتِهَا الْأَخْبَارَ الْمُتَدَاوِلَةَ بِأَعْيَانِهَا ، اتِّبَاعًا لِمَنْ عَنِى مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِشَانِهَا ،  
 وَيُفْعَلُونَ أَمْرَ الْأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ فِي دِيَوَانِهَا ، بِمَا أَعُوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجُمَانِهَا ،  
 فَسْتَعِجِمُ <sup>(٢)</sup> صُحُفَهُمْ عَنْ بَيَانِهَا ، ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ الدُّوَلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا  
 مُحَافِظِينَ عَلَى تَقْلِيدِهَا وَهَمًّا أَوْ صِدْقًا ، لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَائِيَّتِهَا ، وَلَا يَذْكُرُونَ السَّبَبَ  
 الَّذِي رَفَعَ مِنْ رَأْيِهَا ، وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا ، وَلَا عِلَّةَ الْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا ، فَيَنْتَقِي  
 النَّاطِرُ مُتَطَلِعًا بَعْدَ إِلَى افْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِيءِ الدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا ، مُفْتَشًّا عَنْ أَسْبَابِ  
 تَرَاحِمِهَا أَوْ تَعَاقُفِهَا ، بِإِحْتِئَازٍ عَنِ الْمُنْعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ تَنَاسُطِهَا ، حَسْبَمَا تَذْكُرُ ذَلِكَ كَلَّةً  
 فِي مَقْدَمَةِ الْكِتَابِ ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ الْإِخْتِصَارِ ، وَذَهَبُوا إِلَى الْاِكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ  
 الْمُلُوكِ وَالْاِقْتِصَارِ ، مَقْطُوعَةً عَنِ الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ ، مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ  
 بِحُرُوفِ الْعُبَارِ <sup>(٣)</sup> ، كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي مِيزَانِ الْعَمَلِ ، وَمَنْ اِقْتَفَى هَذَا الْأَثَرَ  
 مِنَ الْعَمَلِ ، وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لَهُوَلَاءَ مَقَالٌ ، وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا اِنْتِقَالٌ ، لَمَّا أَذْهَبُوا  
 مِنَ الْفَوَائِدِ ، وَأَخْلَوْا بِالْمَذَاهِبِ الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْعَوَائِدِ .

وَلَمَّا طَالَعْتُ كُتُبَ الْقَوْمِ ، وَسَبَرْتُ غَوْرَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ ، نَبَّهْتُ عَيْنَ الْقَرِيحَةِ  
 مِنْ سَنَةِ الْفَقْلَةِ وَالنُّوْمِ ، وَسَمِئْتُ التُّصْنِيفَ مِنْ نَفْسِي وَأَنَا الْمَقْلِسُ أَحْسِنُ السُّوْمِ <sup>(٤)</sup> ،  
 فَانْشَأْتُ فِي التَّارِيخِ كِتَابًا ، رَفَعْتُ بِهِ عَنْ أَحْوَالِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَجْيَالِ حِجَابًا ،  
 وَفَصَّلْتُ فِي الْأَخْبَارِ وَالْاِعْتِبَارِ بَابًا بَابًا ، وَأَبْدَيْتُ فِيهِ لِأَوْلِيَةِ الدُّوَلِ وَالْعِمْرَانِ عِلَلًا  
 وَأَسْبَابًا ، وَبَنَيْتُهُ عَلَى أَخْبَارِ الْأُمَّمِ الَّذِينَ عَمَّرُوا الْمَغْرِبَ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ ، وَمَلَأُوا

(١) أي قديمها وحديثها .

(٢) لسجع الكلام ، أصبح مبهماً .

(٣) لسم العلامات تدل على الأعداد ( قاموس ) .

(٤) السوم ، طلب الشراء ( لسان العرب ) .



أَكْنَافِ الصُّوَاحِي مِنْهُ وَالْأَمْصَارِ؛ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الطُّوَالِ أَوْ الْقِصَارِ؛ وَمَنْ  
سَلَفَ لَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأَنْصَارِ؛ وَهَمَّا الْعَرَبُ وَالْبَرْبَرُ؛ إِذْ هُمَا الْجِيلَانِ اللَّذَانِ عُرِفَ  
بِالْمَغْرِبِ مَاؤَاهُمَا وَطَالَ فِيهِ عَلَى الْأَحْقَابِ مَثْوَاهُمَا؛ حَتَّى لَا يَكَادُ يَتَصَوَّرُ فِيهِ  
مَا عَدَاهُمَا، وَلَا يَعْرِفُ أَهْلَهُ مِنْ أَجْيَالِ الْأَدَمِيِّينَ سِوَاهُمَا؛ فَهَذَبْتُ مَنَاجِيهَ  
تَهْدِيًّا؛ وَقَرَّبْتُهُ لِأَفْهَامِ الْعُلَمَاءِ وَالْخَاصَّةِ تَقْرِيًّا؛ وَسَلَكْتُ فِي تَرْتِيبِهِ وَتَبْوِيهِ  
مَسْلَكًا غَرِيبًا؛ وَاخْتَرَعْتُهُ مِنْ بَيْنِ الْمَنَاجِي مَذْهَبًا عَجِيبًا؛ وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً  
وَأَسْلُوبًا؛ وَشَرَحْتُ فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ وَالتَّمَدُّنِ وَمَا يَغْرُضُ فِي الْاجْتِمَاعِ  
الْإِنْسَانِي مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّاتِيَّةِ مَا يَمْتَعِكُ يِعْلِلُ الْكَوَائِنَ وَأَسْبَابَهَا؛ وَيَعْرِفُكَ كَيْفَ  
دَخَلَ أَهْلُ الدُّوَلِ مِنْ أُنُوبِهَا؛ حَتَّى تَنْزِعَ مِنَ التَّقْلِيدِ يَدَكَ؛ وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ  
مَا قَبْلَكَ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ وَرَتَّبْتُهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ.

المُقَدِّمَةُ فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّارِيخِ وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ وَالْإِلْمَاعِ بِمَعَالِطِ الْمُؤَرِّخِينَ.

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ فِي الْعُمَرَانِ وَذَكَرَ مَا يَغْرُضُ فِيهِ مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّاتِيَّةِ مِنَ الْمُلْكِ  
وَالسُّلْطَانِ وَالْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَمَا لِدَلِكِ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ.

الْكِتَابُ الثَّانِي فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَجْيَالِهِمْ وَدَوْلِهِمْ مِنْذُ مَبْدَأِ الْخَلِيقَةِ إِلَى هَذَا  
الْعَهْدِ وَفِيهِ مِنَ الْإِلْمَاعِ يَبْغِضُ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَشَاهِيرِ وَدَوْلِهِمْ مِثْلَ النَّبْطِ  
وَالسَّرْيَانِيِّينَ وَالْفَرَسِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْقَبْطِ وَالْيُونَانِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكَ وَالْإِفْرَنْجِيَّةَ

الْكِتَابُ الثَّلَاثُ فِي أَخْبَارِ الْبَرْبَرِ وَمَوَالِيهِمْ مِنْ زَنَاتِهِ وَذَكَرَ أَوْلِيَّتِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ  
وَمَا كَانَ يَدْيَارِ الْمَغْرِبِ خَاصَّةً مِنَ الْمُلْكِ وَالدُّوَلِ ثُمَّ كَانَتْ الرِّحْلَةُ إِلَى الْمَشْرِقِ  
لِاجْتِنَاءِ<sup>(١)</sup> أَنْوَارِهِ؛ وَقَضَاءِ الْفَرَضِ وَالسُّنَّةِ فِي مَطَافِهِ وَمَزَارِهِ؛ وَالْوُقُوفِ عَلَى آثَارِهِ فِي  
دَوَالِيهِ وَأَسْفَارِهِ؛ فَزِدْتُ مَا نَقَصَ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِ الْعَجَمِ يَتَلَكَّ الدِّيَارِ؛ وَدَوْلِ  
التُّرْكَ فِيَمَا مَلَكُوهُ مِنَ الْأَقْطَارِ؛ وَأَتْبَعْتُ بِهَا مَا كَتَبْتُهُ فِي تِلْكَ الْأَسْطَارِ؛ وَأَدْرَجْتَهَا

(١) وفي بعض النسخ لاجتلاء.

في ذكر المعاصرين لتلك الأجيال من أمم النواحي ، وملوك الأمتار والضواحي ،  
 سالكاً سبيل الاختصار والتلخيص ، مُفتدياً بالمرام السهل من العويص ، داخلاً من  
 باب الأسباب على العموم إلى الإخبار على الخصوص فاستوعب أخبار الخليقة  
 استيعاباً ، ودلّل من الحكم النافرة صعباً ، وأعطى لحوادث الدول عللاً وأسباباً ،  
 فأصبح للحكمة صواناً . وللتاريخ جراباً .

ولما كان مُشتملاً على أخبار العرب والبربر ، من أهل المدن والوُبر ، والإملاع  
 بمن عاصرهم من الدول الكبر ، وأفصح بالذكري والعبير ، في مبتدأ الأحوال ومما  
 بعدها من الخبر ، سمّيته كتاب العبير ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب  
 والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ولم أترك شيئاً في أولية  
 الأجيال والدول ، وتعاصر الأمم الأول ، وأسباب التصرف والحول ، في القرون  
 الخالية والملل ، وما يعرض في العمران من دولة وملة ، ومدينة وحلة<sup>(١)</sup> ، وعزة  
 ودلة ، وكثرة وقلة ، وعلم وصناعة ، وكسب وإضاعة ، وأحوال متقلبة مشاعة ،  
 وبدور وحضر ، وواقع ومُنْتَظَر ، إلا واستوعبت جملة ، وأوضحت برأيهه وعلله ،  
 فجاء هذا الكتاب فداً بما ضمنت من العلوم الغريبة ، والحكم المخجوبة القريبة ،  
 وأنا من بعدها موقن بالقصور ، بين أهل العصور ، مُعترف بالمعجز عن المضاء ، في  
 مثل هذا القضاء<sup>(٢)</sup> ، راعب من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المتسعة الفضاء ، في  
 النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء ، والتغميد<sup>(٣)</sup> لما يعثرون عليه بالإصلاح  
 والإغضاء ، فالبصاعة بين أهل العلم مزجاة ، والاعتراف من اللوم منجاة ،  
 والحسنى من الإخوان مرتجاة ، والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه  
 الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل .

وبعد أن استوفيت علاجه ، وأنرت مشكاته للمستبصرين وأذكيت سراجهُ ،

(١) الحلة : القرية مجازاً ، ومعناها في الأصل : القوم النازلون في مكان ما .

(٢) بمعنى : هذه القضايا .

(٣) تقدمه : ستر ما كان منه .

وَأَوْضَحَتْ بَيْنَ الْعُلُومِ طَرِيقَهُ وَمِنْهَاجَهُ ، وَأَوْسَعَتْ فِي فِضَاءِ الْمَعَارِفِ نِطَاقَهُ وَأَدْرَتْ سِيَّاحَهُ ، أَتَحَفَّتْ بِهَذِهِ النُّسخَةِ مِنْهُ <sup>(١)</sup> خِزَانَةَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْإِمَامِ الْمُجَاهِدِ ، الْفَاتِحِ الْمَاهِدِ ، الْمُتَحَلِّيِّ مُنْذُ خَلْعِ التَّمَائِمِ <sup>(٢)</sup> ، وَلَوْثِ <sup>(٣)</sup> الْعَمَائِمِ ، بِحِلْيَةِ الْقَانِتِ الزَّاهِدِ ، الْمُتَوَشِّحِ بِزَكَاءِ الْمَنَاقِبِ وَالْمَحَامِدِ ، وَكَرَمِ الشَّمَائِلِ وَالشُّوَاهِدِ ، بِأَجْمَلِ مِنَ الْقَلَائِدِ ، فِي نُحُورِ الْوَلَائِدِ ، الْمُتَنَاوِلِ بِالْعَزْمِ الْقَوِيِّ السَّاعِدِ ، وَالْجِدِّ الْمَوَاتِي الْمُسَاعِدِ ، وَالْمَجِدِّ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ ، ذَوَائِبِ مُلْكِهِمُ الرُّاسِي الْقَوَاعِدِ ، الْكَرِيمِ الْمَعَالِي وَالْمَصَاعِدِ ، جَامِعِ أَشْتَاتِ الْعُلُومِ وَالْفَوَائِدِ ، وَنَاطِمِ شَمْلِ الْمَعَارِفِ وَالشُّوَارِدِ ، وَمُظْهِرِ آيَاتِ الرُّبَانِيَّةِ ، فِي فَضْلِ الْمَدَارِكِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، بِفِكْرِهِ الثَّاقِبِ النَّاقِدِ ، وَرَأْيِهِ الصَّحِيحِ الْمَعَاوِدِ ، النَّيْرِ الْمَذَاهِبِ وَالْعَقَائِدِ ، نُورِ اللَّهِ الْوَاضِحِ الْمَرَّاشِدِ ، وَنِعْمَتِهِ الْعُذْبِيَّةِ الْمَوَارِدِ ، وَلُطْفِهِ الْكَامِنِ بِالْمَرَّاصِدِ لِلشَّدَائِدِ ، وَرَحْمَتِهِ الْكَرِيمَةِ الْمَقَالِدِ ، الَّتِي وَسِعَتْ صِلَاحَ الزَّمَانِ الْفَاسِدِ ) ، وَاسْتِقَامَةَ الْمَائِدِ مِنَ الْأَحْوَالِ

(١) قوله اتحفت بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله اتحفت وبعد قوله وادرت سياجه ونصها التمسست له الكف الذي يلمح بعين الاستبصار فنونه . ويلحظ بمداركه الشريفة معياره الصحيح وقانونه . ويميز رتبته في المعارف عما دونه . فسرحت فكري في فضا الوجود . واجلت نظري ليل التمام والهجود . بين التهايم والنجود . في العلماء الركع والسجود . والخلفاء أهل الكرم والوجود . حتى وقف الاختيار بساحة الكمال . وطافت الأفكار بموقف الآمال . وظفرت أيدي المساعي والاعتمال . بمنتدى المعارف مشرقة فيه غرر الجمال . وحدائق العلوم الوارفة الظلال . عن اليمين والشمال . فانخت مطيى الأفكار في عرصاتها . وجلوت محاسن الأنظار على منصاتها . واتحفت بديوانها مقاصير إيوانها . واطلعت كوكباً وقاداً في أفق خزانها وصوانها . ليكون آية للعقلاء يبتدون بمناره . ويعرفون فضل المدارك الإنسانية في آثاره . وهي خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد . الفاتح الماهد . إلى آخر النعوت المذكورة هنا ثم قال الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبو العباس أحمد ابن مولانا الأمير الطاهر المقدس أبي عبد الله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس أمير المؤمنين . أبي يحيى أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين . من أئمة الوجودين الذين جددوا الدين . ونجحوا السبل للمهتدين . ومحو أثر البغاة المفسدين من الجسمة والمعتدين . سلالة أبي الحفص والفاروق . والنبعة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق . والنور المتلألئ ، من تلك الأشعة والبروق . فاوردته من مودعه إلى العلمي بحيث مقر الهدى . ورياض المعارف خضلة الندي . إلى اخر ما ذكر هنا الا أنه لم يقيد الامامة بالفارسية لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من خزانة الكتب الفارسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة إلى المشرق الخ .

(٢) التيمية : خرزة رقطاء تنظم في السير ، ثم يعقد في العنق . وهي التمام والتيميم . عن ابن جنبي وقيل : هي قلادة يجعل فيها سور وعود . وحكي عن ثعلب : تمقت المولود . علققت عليه التمام ( لسان العرب ) .  
(٣) لوث : غضب العمامة .

وَالْعَوَائِدِ ، وَدَهَبَتْ بِالْخُطُوبِ الْأَوَائِدِ ، وَخَلَعَتْ عَلَى الزَّمَانِ رَوْنَقَ الشَّبَابِ الْعَائِدِ ، وَحُجَّتِهِ الَّتِي لَا يُبْطِلُهَا إِنْكَارُ الْجَا حِدِ وَلَا شُبُهَاتُ الْمُعَانِدِ ، ( أمير المؤمنين ) أَبِي فَارِسِ عَبْدِ الْغَزِيرِ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُعْظَمِ الشَّهِيرِ الشَّهِيدِ أَبِي سَالِمِ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُقَدَّسِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبِي الْحَسَنِ ابْنِ السَّادَةِ الْأَعْلَامِ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مُرَيْنَ ، الَّذِينَ جَدُّوهُمُ الَّذِينَ ، وَنَهَجُوا السَّبِيلَ لِلْمُهْتَدِينَ ، وَمَحَوْا آثَارَ الْبُغَاةِ الْمُفْسِدِينَ ، أَفَاءَ اللَّهِ عَلَى الْأُمَّةِ ضَلَالَهُ ، ( وَبَلَّغَهُ فِي نَصْرِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ أَمَالَهُ ) .

وَبَعَثْتَهُ إِلَى خِزَانَتِهِمُ الْمُوقِفَةَ لِطَلْبَةِ الْعِلْمِ بِجَامِعِ الْقُرَوَيْنِ مِنْ مَدِينَةِ فَاسٍ حَاضِرَةِ مُلْكِهِمْ وَكُرْسِيِّ سُلْطَانِهِمْ ، حَيْثُ مَقَرَّ الْهُدَى ، وَرِيَاضِ الْمَعَارِفِ خِضْلَةَ النَّدَى ، وَقَضَاءِ الْأَسْرَارِ الرُّبَانِيَّةِ فَسِيحُ الْمَدَى ، وَالْإِمَامَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْكَرِيمَةِ<sup>(١)</sup> الْغَزِيرَةَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِنَظَرِهَا الشَّرِيفِ ، وَفَضْلِهَا الْغَنِيِّ عَنِ التَّعْرِيفِ ، تَبَسُّطَ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ مَهَادًا ، وَتَفَسُّحَ لَهُ فِي جَانِبِ الْقَبُولِ أَمَادًا ، فَتَوَضَّحَ بِهَا أَدْلَةً عَلَى رُسُوحِهِ وَأَشْهَادًا ، فَمِنِ سَوْقِهَا تَنَفَّقُ بَضَائِعُ الْكُتَابِ وَعَلَى حَضْرَتِهَا تُعَكِّفُ رَكَائِبُ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ ، وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا الْمُنِيرَةِ نَتَائِجُ الْقَرَائِحِ وَالْأَلْبَابِ ، وَاللَّهُ يُوزِعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا ، وَيُوفِّرُنَا لِنَا حُظُوظَ الْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا وَيُعِينُنَا عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا ، وَيَجْعَلُنَا مِنَ السَّابِقِينَ فِي مِيدَانِهَا الْمُحْلِينَ فِي حَوْمَتِهَا ، وَيُضْفِي عَلَى أَهْلِ إِيَالَتِهَا ، وَمَا أَوْبَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى حَرَمِ عَمَالَتِهَا ، لِبُوسِ حِمَائَتِهَا وَحُرْمَتِهَا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً فِي وَجْهِتِهَا ، بَرِيئَةً مِنْ شَوَائِبِ الْغَفْلَةِ وَشُبُهَاتِهَا ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

(١) قَوْلُهُ الْفَارِسِيَّةِ أَيِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى أَبِي فَارِسٍ الْمَتَّقِمِ ذَكَرَهُ ١ هـ .

## المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض  
للمؤرخين

من المغالط وذكر شيء من أسبابها

اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو  
يوقفنا<sup>(١)</sup> على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم . والأنبياء في سيرهم . والملوك  
في دولهم وسياساتهم . حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين  
والدنيا فهو محتاج إلى ماخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبوت يفضيان  
بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتمد فيها  
على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال  
في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فرُبما لم  
يؤمن فيها من العُثور ومزلة القدم والحديد عن جادة الصدق وكثيراً ما وقع  
للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لإعتمادهم  
فيها على مجرد النقل غناً أو سميماً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها  
ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة  
في الأخبار ففصلوا عن الحق وتأهوا في بيضاء الوهم والغلط ولا سيما في إخفاء  
الأعداد من الأموال والمسائر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب ومطية  
الهدر ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد .

(٢) بمعنى يطلنا . وهي لغة ضعيفة .

وَهَذَا كَمَا تَقَلَّ الْمَسْعُودِي وَكَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي جِيُوشِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّ  
 مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحْصَاهُمْ فِي التَّيِّهِ بَعْدَ أَنْ أَجَازَ مَنْ يُطَبِّقُ حَمَلَ السَّلَاحِ خَاصَّةً  
 مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ فَمَا فَوْقَهَا فَكَانُوا سِتْمِائَةَ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وَيَذْهَلُ فِي ذَلِكَ عَنْ  
 تَقْدِيرِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَاتِّسَاعِيهِمَا لِمِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ مِنَ الْجِيُوشِ لِكُلِّ مَمْلَكَةٍ مِنْ  
 الْمَمَالِكِ حِصَّةً مِنَ الْحَامِيَةِ تَتَّسَعُ لَهَا وَتَقُومُ بِوِطَائِنِهَا وَتَضِيقُ عَمَّا فَوْقَهَا تَشْهَدُ  
 بِذَلِكَ الْعَوَائِدُ الْمَعْرُوفَةُ وَالْأَحْوَالُ الْمَأْلُوفَةُ ثُمَّ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجِيُوشِ الْبَالِغَةَ إِلَى مِثْلِ  
 هَذَا الْعَدَدِ يَبْعُدُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا زَحْفٌ أَوْ قِتَالٌ لِيَضِيقَ سَاحَةَ الْأَرْضِ عَنْهَا وَبَعْدَهَا إِذَا  
 اضْطَفَّتْ عَنْ مَدَى الْبَصَرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَزِيدَ فَكَيْفَ يَقْتَتِلُ هَذَانِ الْفَرِيقَانِ أَوْ  
 تَكُونُ غَلْبَةُ أَحَدِ الصَّفِينِ وَشَيْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ لَا يَشْعُرُ بِالْجَانِبِ الْآخَرَ وَالْحَاضِرُ  
 يَشْهَدُ لِذَلِكَ فَالْمَاضِي أَشْبَهُ بِالْآتِي مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ .

وَلَقَدْ كَانَ مَلِكُ الْفَرَسِ وَدَوْلَتُهُمْ أَعْظَمُ مِنْ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ يَشْهَدُ  
 لِذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ غَلْبِ بَخْتَنْصَرٍ لَهُمْ وَالتَّيْهَامِهِ بِلَادَهُمْ وَاسْتِيْلَانِهِ عَلَى أَمْرِهِمْ  
 وَتَخْرِيبِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَاعِدَةَ مِلَّتِهِمْ وَسُلْطَانِيهِمْ وَهُوَ مِنْ بَعْضِ عَمَالِ مَمْلَكَةِ فَارِسَ  
 يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مَرْزَبَانَ الْمَغْرِبِ مِنْ تَخُومِهَا وَكَانَتْ مَمَالِكُهُمْ بِالْعِرَاقَيْنِ وَخُرَاسَانَ  
 وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَالْأَنْبَابِ أَوْسَعُ مِنْ مَمَالِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَبْلُغْ  
 جِيُوشُ الْفَرَسِ قَطُّ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَأَعْظَمُ مَا كَانَتْ جُمُوعُهُمْ  
 بِالْقَادِسِيَّةِ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتَّبِعٌ عَلَى مَا نَقَلَهُ سَيْفٌ <sup>(١)</sup> قَالَ وَكَانُوا فِي  
 اتِّبَاعِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْ أَلْفٍ وَعَنْ عَائِشَةَ وَالزُّهْرِيِّ فَإِنَّ جُمُوعَ رُسْتَمِ الَّذِينَ زَحَفَ  
 بِهِمْ سَعْدٌ بِالْقَادِسِيَّةِ إِذَا كَانُوا سِتِينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتَّبِعٌ وَأَيْضًا فَلَوْ بَلَغَ بَنُو إِسْرَائِيلَ  
 مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ لَاتَّسَعَ نِطَاقُ مُلْكِهِمْ وَانْفَسَخَ مَدَى دَوْلَتِهِمْ فَإِنَّ الْعَمَالَاتِ وَالْمَمَالِكِ فِي  
 الدُّوَلِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَامِيَةِ وَالْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي قِلَّتِهَا وَكَثْرَتِهَا حَسْبَمَا نَبِينُ فِي  
 فَضْلِ الْمَمَالِكِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْقَوْمُ لَمْ تَتَّسَعْ مَمَالِكُهُمْ إِلَى غَيْرِ الْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ  
 مِنَ الشَّامِ وَبِلَادِ يَثْرِبَ وَخَيْبَرَ مِنَ الْحِجَازِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ .

(١) هو سيف بن عمر الأسدي ، من جامعي تواريخ الأمم والدول .

وأيضاً فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون فإنه موسى بن عمران بن يضر بن قاهت بفتح الهاء وكسرهما ابن لاوي بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو إسرائيل الله هكذا نسبة في التوراة والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال دخل إسرائيل مِصرَ مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً وكان مقامهم بمِصرَ إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة ويتعد أن يتشعب النسب في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده فبيد أيضاً إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أباً فإنه سليمان بن داود بن يشا بن عوفيد (ويقال ابن عوفد) ابن باعز (ويقال بوعز) بن سلمون بن نخشون بن عمينودب (ويقال حميناداب) بن رم بن حصرون (ويقال حسرون) بن بارس (ويقال بارس) بن يهودا بن يعقوب ولا يتشعب النسب في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم إلى المئتين والآلاف فرُبما يكون وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبيد واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلاً ونقلهم كاذباً .

والذي ثبت في الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً خاصة وأن مقرباته<sup>(١)</sup> كانت ألفاً وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت إلى خرافات العامة منهم وفي أيام سليمان (عليه السلام) وملكه كان عنقوان دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريباً منه وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين توغلوا في العدد

(١) المقربات : جمع مقربة : وهي من الخيل التي يقرب معلقها ومربطها لكرامتها .

وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ الْعَوَائِدِ وَطَاوَعُوا وَسَاوَسَ الْإِعْرَابِ فَإِذَا اسْتَكْشَفَ أَصْحَابُ  
الدَّوَابِّ عَنْ عَسَاكِرِهِمْ وَاسْتَنْبَطَتْ أحوَالُ أَهْلِ الثَّرْوَةِ فِي بَضَائِعِهِمْ وَفَوَائِدِهِمْ  
وَاسْتَجْلَيْتْ عَوَائِدُ الْمُتَرَفِّينَ فِي نَفَقَاتِهِمْ لَمْ تَجِدْ مِعْشَارَ مَا يَعُدُّونَهُ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَوْلُوعِ  
النَّفْسِ بِالْفَرَائِبِ وَسَهْوَةِ التَّجَاوُزِ عَلَى اللِّسَانِ وَالْعَفْلَةِ عَلَى الْمُتَعَقِّبِ وَالْمُنْتَقِدِ حَتَّى  
لَا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى خَطِيئَةٍ وَلَا عَمْدٍ وَلَا يَطَالِبُهَا فِي الْخَبْرِ بِتَوْسِطٍ وَلَا عَدَالَةٍ  
وَلَا يُرْجِعُهَا إِلَى بَحْثٍ وَتَفْتِيْشٍ فَيُرْسِلُ عِنَانَهُ وَيَسِيمُ فِي مَرَاتِعِ الْكُذِبِ لِسَانَهُ وَيَتَّخِذُ  
آيَاتِ اللَّهِ هِزْأً<sup>(١)</sup> وَيَشْتَرِي لَهْوَ الْخَدِيثِ لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَحَسْبُكَ بِهَا صَفْقَةٌ  
خَاسِرَةٌ .

وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي أَخْبَارِ التَّبَاعَةِ مُلُوكِ  
الْيَمَنِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْزُونَ مِنْ قُرَاهِمُ بِالْيَمَنِ إِلَى أُفْرِيْقِيَّةِ<sup>(٢)</sup> وَالْبَرْبْرِ  
مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَأَنَّ أُفْرِيْقِيْشَ بْنَ قَيْسِ بْنِ صَيْفِيٍّ مِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِهِمُ الْأَوَّلِ وَكَانَ  
لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ غَزَا أُفْرِيْقِيَّةَ وَأَخْحَنَ فِي الْبَرْبْرِ وَأَنَّهُ الَّذِي  
سَمَّاهُمْ بِهَذَا الْإِسْمِ حِينَ سَمِعَ رَطَاتِنَهُمْ وَقَالَ مَا هَذِهِ الْبَرْبِرَةُ فَأَخَذَ هَذَا الْإِسْمَ عَنْهُ  
وَدَعَا بِهِ مِنْ حِينئِذٍ وَأَنَّهُ لَمَّا أَنْصَرَفَ مِنَ الْمَغْرِبِ حَجَرَ هُنَالِكَ قَبَائِلَ مِنْ حَمِيرٍ  
فَأَقَامُوا بِهَا وَاخْتَلَطُوا بِأَهْلِهَا وَمِنْهُمْ صَنْهَاجَةٌ<sup>(٣)</sup> وَكِتَامَةٌ وَمِنْ هَذَا ذَهَبَ الطَّبْرِيُّ  
وَالجَرْجَانِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَابْنُ الْكَلْبِيِّ وَالْبَيْهَقِيُّ إِلَى أَنَّ صَنْهَاجَةَ وَكِتَامَةَ مِنْ حَمِيرٍ  
وَتَأْبَاهُ نَسَابَةُ الْبَرْبْرِ وَهُوَ الصَّحِيْحُ وَذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضاً أَنَّ ذَا الْإِذْغَارِ مِنْ مُلُوكِهِمْ  
قَبْلَ أُفْرِيْقِيْشَ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ ( عَلَيْهِ السَّلَامُ ) غَزَا الْمَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ وَكَذَلِكَ  
ذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ يَاسِرِ ابْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَّهُ بَلَغَ وَادِي الرُّمْلِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَلَمْ يَجِدْ  
فِيهِ مَسْلِكاً لِكثْرَةِ الرُّمْلِ فَرَجَعَ وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي تَبَعِ الْآخِرِ وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرِبٍ  
وَكَانَ عَلَى عَهْدِ يَسْتَاسِفٍ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَسِ الْكِيَانِيَّةِ أَنَّهُ مَلِكُ الْمَوْصِلِ وَأَذْرَبِيْجَانَ

(١) وفي بعض النسخ هزواً.

(٢) كذا المشهور بدون تشديد الباء . وقد تشددت الباء . ( افریقیة ) في معجم البلدان لياقوت الحموي .

(٣) صنهاجة بفتح الصاد كما هي معروفة في المغرب . وبكسر الصاد كما وردت في ألف .



وَلَقِيَ التُّرْكَ فَهَزَمَهُمْ وَأَثخنَ ثُمَّ غَرَاهُمْ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَذَلِكَ وَأَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أُغْزِيَ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِيهِ بِلَادَ فَارِسَ وَإِلَى بِلَادِ الصُّغَدِ مِنْ بِلَادِ أَمَمِ التُّرْكِ وَرَاءَ النَّهْرِ وَإِلَى بِلَادِ الرُّومِ فَمَلَكَ الْأَوَّلُ الْبِلَادَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَطَعَ الْمَفَازَةَ إِلَى الصِّينِ فَوَجَدَ أَخَاهُ الثَّانِي الَّذِي غَزَا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا فَأَثخنَا فِي بِلَادِ الصِّينِ وَرَجَعَا جَمِيعاً بِالْفَنَائِمِ وَتَرَكَوْا بِلَادَ الصِّينِ قَبَائِلَ مِنْ حِمِيرٍ فَهَمُّ بِهَا إِلَى هَذَا الْعَهْدِ وَبَلَغَ الثَّالِثُ إِلَى قِسْطَنْطِينِيَّةَ فَدَرَسَهَا <sup>(١)</sup> وَدَوَّخَ بِلَادَ الرُّومِ وَرَجَعَ .

وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الصَّحَةِ عَرِيقَةٌ فِي الْوَهْمِ وَالغُلْطِ وَأَشْبَهَ بِأَحَادِيثِ الْقِصَصِ الْمَوْضُوعَةِ . وَذَلِكَ أَنَّ مُلْكَ التَّبَابِعَةِ إِنَّمَا كَانَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَقَرَارَهُمْ وَكُرْسِيِّهِمْ بِصَنْعَاءَ الْيَمَنِ . وَجَزِيرَةُ الْعَرَبِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا فَبَحْرُ الْهِنْدِ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ فَارِسَ الْهَاطِطُ مِنْهُ إِلَى الْبَصْرَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَبَحْرُ السُّوَيْسِ الْهَاطِطُ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ كَمَا تَرَاهُ فِي مِصُورِ الْجُغْرَافِيَا فَلَا يَجِدُ السَّالِكُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ طَرِيقاً مِنْ غَيْرِ السُّوَيْسِ وَالْمَسْلُوكُ هُنَاكَ مَا بَيْنَ بَحْرِ السُّوَيْسِ وَالْبَحْرِ الشَّامِيِّ قَدَرُ مَرَحَلَتَيْنِ فَمَا دُونَهُمَا وَيَبْعُدُ أَنْ يَمُرَّ بِهَذَا الْمَسْلُوكِ مَلِكٌ عَظِيمٌ فِي عَسَاكِرِ مَوْفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيرَ مِنْ أَعْمَالِهِ هَذِهِ مُمْتَنِعٌ فِي الْعَادَةِ . وَقَدْ كَانَ يَتَلَكَّ الْأَعْمَالِ الْعَمَالِقَةَ وَكُنْعَانَ بِالشَّامِ وَالْقَبْطِ بِمِصْرَ ثُمَّ مَلِكُ الْعَمَالِقَةَ مِصْرَ وَمَلِكُ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّامَ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَابِعَةَ حَارَبُوا أَحَدًا مِنْ هَوْلَاءِ الْأَمَمِ وَلَا مَلَكَوْا شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَأَيْضاً فَالشُّقَّةُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بَعِيدَةٌ وَالْأَزُودَةُ وَالْعُلُوفَةُ لِلْعَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ فَإِذَا سَارُوا فِي غَيْرِ أَعْمَالِهِمْ اِخْتَأَجُوا إِلَى انْتِهَابِ الزَّرْعِ وَالنَّعْمِ وَانْتِهَابِ الْبِلَادِ فِيمَا يَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَلَا يَكْفِي ذَلِكَ لِلْأَزُودَةِ وَاللُّعُوفَةِ عَادَةً وَإِنْ نَقَلُوا كِفَايَتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلَا تَقِي لَهُمُ الرُّوَاحِلُ بِنَقْلِهِ فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَمُرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ كُلِّهَا بِأَعْمَالٍ قَدْ مَلَكَوْهَا وَدَوَّخُوهَا لِتَكُونَ الْمِيرَةَ مِنْهَا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ تِلْكَ الْعَسَاكِرَ تَمُرُّ بِهَوْلَاءِ الْأَمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ

(٢) درس الأثر ، بمعنى محاه ( لسان العرب ) .

تَهَيَّجَهُمْ فَتَحْضُلْ لَهُمُ الْمِيرَةُ بِالْمُسَالَمَةِ فَذَلِكَ أُبْعَدُ وَأَشَدُّ امْتِنَاعاً فَذَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ  
الْأَخْبَارَ وَاهِيَةً أَوْ مَوْضُوعَةً .

وَأَمَّا وَادِي الرُّمْلِ الَّذِي يُعْجِزُ السَّالِكَ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي الْمَغْرِبِ عَلَى  
كَثْرَةِ سَالِكِيهِ وَمَنْ يَقْصُ طَرِيقَهُ مِنَ الرُّكَّابِ وَالْقَرَى <sup>(١)</sup> فِي كُلِّ عَصْرٍ وَكُلِّ جِهَةٍ وَهُوَ  
عَلَى مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْغُرَابِيَةِ تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى تَقْلِهِ . وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلَادَ الشَّرْقِ وَأَرْضَ  
التُّرْكِ وَإِنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَسَالِكِ السُّوَيْسِ إِلَّا أَنَّ الشُّقَّةَ هُنَا أُبْعَدُ وَأَمَمَ فَارِسَ  
وَالرُّومَ مُعْتَرِضُونَ فِيهَا دُونَ التُّرْكِ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَاعِيَةَ مَلَكَوْا بِلَادَ فَارِسَ  
وَلَا بِلَادَ الرُّومِ وَإِنَّمَا كَانُوا يُحَارِبُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ الْعِرَاقِ وَمَا بَيْنَ  
الْبَحْرَيْنِ وَالْحَيْرَةِ وَالْجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ وَالْفَرَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي الْأَعْمَالِ وَقَدْ وَفَّعَ  
ذَلِكَ بَيْنَ ذِي الْإِذْعَارِ مِنْهُمْ وَكَيْكَائِوسَ مِنْ مُلُوكِ الْكَيْنَانِيَّةِ وَبَيْنَ تَيْجِ الْأَصْغَرِ أَبِي  
كِرْبَ وَيَسْتَأْسِفَ مِنْهُمْ أَيْضاً وَمَعَ مُلُوكِ الطُّوَانِفِ بَعْدَ الْكَيْنَانِيَّةِ وَالسَّاسَانِيَّةِ مِنْ  
بَعْدِهِمْ بِمَجَاوِزَةِ <sup>(٢)</sup> أَرْضِ فَارِسَ بِالغَزْوِ إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ وَالتَّبْتِ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ عَادَةً مِنْ  
أَجْلِ الْأَمَمِ الْمُعْتَرِضَةِ مِنْهُمْ وَالْحَاجَةِ إِلَى الْأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَاتِ مَعَ بَعْدِ الشُّقَّةِ كَمَا مَرَّ  
فَالْأَخْبَارُ بِذَلِكَ وَاهِيَةٌ مَدْخُولَةٌ وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً النُّقْلِ لَكَانَ ذَلِكَ قَادِحاً فِيهَا  
فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تَنْقَلْ مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي خَبَرِ يَثْرِبَ وَالْأَوْسِ  
وَالْخَزْرَجِ أَنَّ تَبْعاً الْآخِرَ سَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ مَحْمُولاً عَلَى الْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَمَّا بِلَادُ  
التُّرْكِ وَالتَّبْتِ فَلَا يَصْحُ غَزْوُهُمْ إِلَيْهَا بِوَجْهِ لَمَّا تَقَرَّرَ فَلَا تَثْقَنَ بِمَا يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ  
ذَلِكَ وَتَأْمَلِ الْأَخْبَارَ وَاعْرِضْهَا عَلَى الْقَوَانِينِ الصَّحِيحَةِ يَقَعُ لَكَ تَمْحِصُهَا بِأَحْسَنِ  
وَجْهِ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصُّوَابِ .

## فصل

وَأُبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْرَقَ فِي الْوَهْمِ مَا يَتَنَاقَلُهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ «وَالْفَجْرِ»

(١) بمعنى : الأشخاص الذين يطوفون في البلاد (قاموس) .

(٢) كذا بالأصل في جميع النسخ وتصويب العبارة : وأما مجاوزة أرض فارس .

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ) فَيَجْعَلُونَ لِقِظَةِ إِرَمَ  
 اسماً لِمَدِينَتِهِ وَصَفَتْ بِأَنَّهَا ذَاتُ عِمَادٍ أَيِ أَسَاطِينٍ وَيَنْقُلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادِ بْنِ  
 عُوصِرِ بْنِ إِرَمَ ابْنَانِ هُمَا شَدِيدٌ وَشَدَادٌ مَلَكَا مِنْ بَعْدِهِ وَهَلَكَ شَدِيدٌ فَخَلَصَ الْمَلِكُ  
 لَشَدَادٍ وَذَانَتْ لَهُ مَلُوكُهُمْ وَسَمِعَ وَصَفَ الْجَنَّةِ فَقَالَ لِابْنَيْنِ مِثْلَهَا فَبَنَى مَدِينَةَ إِرَمَ فِي  
 صَحَارَى عَدَنَ فِي مُدَّةِ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ عُمُرُهُ تِسْعِمِائَةِ سَنَةٍ وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ  
 قُصُورُهَا مِنَ الذَّهَبِ وَأَسَاطِينُهَا مِنَ الزَّبْرِجَدِ وَالْيَاقُوتِ وَفِيهَا أَصْنَافُ الشَّجَرِ  
 وَالْأَنْهَارُ الْمُطْرَدَةُ<sup>(١)</sup> وَلَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا سَارَ إِلَيْهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى  
 مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً مِنَ السَّمَاءِ فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ . ذَكَرَ ذَلِكَ  
 الطَّبْرِيُّ وَالثَّعَالِبِيُّ وَالزَّمْخَشَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَيَنْقُلُونَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
 قَلَابَةَ<sup>(٢)</sup> مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا وَحَمَلَ مِنْهَا مَا قَدِرَ  
 عَلَيْهِ وَبَلَغَ خَبْرَهُ مُعَاوِيَةَ فَأَخْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ فَبَحَثَ عَنْ كَيْفِ الْأَخْبَارِ وَسَأَلَهُ عَنْ  
 ذَلِكَ فَقَالَ هِيَ إِرَمُ ذَاتُ الْعِمَادِ وَسَيَدْخُلُهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحْمَرُ أَشَقْرُ قَصِيرٌ عَلَى  
 حَاجِبِهِ خَالَ وَعَلَى عُنُقِهِ خَالَ يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ ثُمَّ التَفَّتْ فَأَبْصَرَ ابْنَ قَلَابَةَ  
 فَقَالَ هَذَا وَاللَّهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ .

وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ لَمْ يُسْمَعْ لَهَا خَبْرٌ مِنْ يَوْمَيْدٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ  
 وَصَحَارَى عَدَنَ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا بُنِيَتْ فِيهَا هِيَ فِي وَسْطِ الْيَمَنِ وَمَا زَالَ عُمُرَانُهُ  
 مُتَعاقِباً وَالْأَدِلَاءُ تَقْصُ طَرَفَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ خَبْرٌ  
 وَلَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ مِنَ الْإِخْبَارِيِّينَ وَلَا مِنَ الْأَمَمِ وَلَوْ قَالُوا إِنَّهَا دُرُسَتْ فِيمَا دُرِسَ مِنَ  
 الْأَثَارِ لَكَانَ أَشْبَهَ إِلَّا أَنْ ظَاهَرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا دِمَشْقُ بِنَاءِ  
 عَلَى أَنْ قَوْمٌ عَادُوا مَلَكُوهَا وَقَدْ يَنْتَهِي الْهَدْيَانُ بِبَعْضِهِمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ وَإِنَّمَا يَغْتَرُّ  
 عَلَيْهَا أَهْلُ الرِّيَاضَةِ وَالسُّخْرِ مَزَائِمُ كُلِّهَا أَشْبَهُ بِالْخِرَافَاتِ وَالَّذِي حَمَلَ الْمُفَسِّرِينَ

(١) الجارية .

(٢) هو عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي وكنيته ، أبو قلابة ، وهو من التابعين (معجم الأدباء) .

عَلَى ذَلِكَ مَا اقْتَضَتْهُ صِنَاعَةُ الإِغْرَابِ فِي لَفْظَةِ ذَاتِ الْعِمَادِ أَنَّهَا صِفَةٌ إِزْمٌ وَحَمَلُوا  
 الْعِمَادَ عَلَى الْأَسَاطِينِ فَتَمَعِينَ أَنْ يَكُونَ بِنَاءٌ وَرَشَّحَ لَهُمْ ذَلِكَ قِرَاءَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ عَادَ  
 إِزْمٌ عَلَى الإِضَافَةِ مِنْ غَيْرِ تَنْوِينٍ ثُمَّ وَقَفُوا عَلَى تِلْكَ الْحِكَايَاتِ الَّتِي هِيَ أَشْبَهُ  
 بِالْأَفَاصِيصِ الْمَوْضُوعَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الْكُذْبِ الْمُنْقُولَةِ فِي عِدَادِ الْمُضْحَكَاتِ  
 وَإِلَّا فَالْعِمَادُ هِيَ عِمَادُ الْأَخْبِيَةِ بَلِ الْخِيَامِ وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا الْأَسَاطِينُ فَلَا بَدْعَ فِي  
 وَضْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ بِنَاءٍ وَأَسَاطِينُ عَلَى الْعُمُومِ بِمَا اشْتَهَرَ مِنْ قُوَّتِهِمْ لِأَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌّ  
 فِي مَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ غَيْرِهَا وَإِنْ أُضِيفَتْ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَقَلَى إِضَافَةُ الْفَصِيلَةِ  
 إِلَى الْقَبِيلَةِ كَمَا تَقُولُ قُرَيْشٌ كِنَانَةٌ وَإِلْيَاسُ مُضَرٌّ وَرَبِيعَةٌ نِزَارٌ وَأَيُّ ضُرُورَةٍ إِلَى هَذَا  
 الْمَحْمَلِ التَّبَعِيدِ الَّذِي تُمَحَّلَتْ<sup>(١)</sup> لِتَوْجِيهِهِ لِأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي يُنَزَّهُ  
 كِتَابُ اللَّهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعْدِهَا عَنِ الصَّحَّةِ .

وَمِنَ الْحِكَايَاتِ الْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ الرَّشِيدِ  
 لِلْبِرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ الْعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ مَوْلَاهُ وَأَنَّهُ لِكَلْفِهِ  
 بِمَكَانِهِمَا مِنْ مَعَاقِرَتِهِ إِيَّاهُمَا الْخَمْرَ أَدْنَى لِهَمَّا فِي عَقْدِ النِّكَاحِ دُونَ الْخُلُوةِ حِرْصًا  
 عَلَى اجْتِمَاعِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ وَأَنَّ الْعَبَّاسَةَ تَحَيَّلَتْ عَلَيْهِ فِي التَّمَّاسِ الْخُلُوةَ بِهِ لَمَّا شَغَفَهَا  
 مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَاقَعَهَا ( زَعَمُوا فِي حَالَةِ السُّكْرِ ) فَحَمَلَتْ وَوَشِيَ بِذَلِكَ لِلرُّشِيدِ  
 فَاسْتَنْغَضَبَ وَهَيْهَاتَ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ الْعَبَّاسَةِ فِي دِينِهَا وَأَبْوَانِهَا وَجَلَالِهَا وَأَنَّهَا بِنْتُ  
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَرْبَعَةٌ رِجَالٌ هُمْ أَشْرَافُ الدِّينِ وَعُظَمَاءُ  
 الْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَالْعَبَّاسَةُ بِنْتُ مُحَمَّدِ الْمُهَدِيِّ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرِ  
 الْمَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدِ السُّجَّادِ ابْنِ عَلِيِّ أَبِي الْخُلَفَاءِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ تَرْجُمَانِ  
 الْقُرْآنِ ابْنِ الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ ( ﷺ ) ابْنَةُ خَلِيفَةِ أُخْتِ خَلِيفَةِ مَخْضُوفَةٍ بِالْمَلِكِ  
 الْعَزِيزِ وَالْخِلَافَةُ النَّبَوِيَّةُ وَصُحْبَةُ الرَّسُولِ وَعُمُومَتِهِ وَإِقَامَةُ الْمِلَّةِ وَنُورُ الْوَحْيِ وَمَهَبُطُ

(١) تحمل للشيء بمعنى احتال في طلبه . وفي العبارة اضطراب . والتصويب « الذي تحمل لتوجيهه

بأمثال هذه الحكايات » .

الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد بيداوة العروبية وسداجة<sup>(١)</sup> الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتب الفواحش فأين يطلب الصون والغفاف إذا ذهب عنها أو أين توجد الطهارة والذكاء<sup>(٢)</sup> إذا فقدنا من بيتها أو كيف تلحم نسبها بحفتر بن يحيى وتدنس شرفها العريئ بمولى من موالى العجم بملكة جدّه من الفرس أو بولاء جدّها من عمومة الرسول وأشرف قرئش وغايتها أن جذبت دولتهم بضيمه وضع أبيه واستخلصتهم ورفقتهم إلى منازل الأشراف وكيف يسوع من الرشيد أن يضره إلى موالى الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس القياسة بآنية ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولج في تكذيبه وأين قدر العباسية والرشيد من الناس .

وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجاجهم<sup>(٣)</sup> أموال الجبائية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فغضبت آثارهم وبعث صيئهم وعمرؤا مراتب الدولة وخططها<sup>(٤)</sup> بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واختاروها عن سواهم من وزارة وكتاية وقيادة وحجاية وسيف وقلم . يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالزجاج لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج

(١) بمعنى الوضع الصحيح الطبيعي الذي لم تشبه شائبة ( قاموس ) .

(٢) في جميع النسخ المطبوعة الذكاء بالذال . وفي النسخة الباريسية المخطوطة ، الزكاء بالزين وهو

الأصح بمعنى الصلاح .

(٣) احتجف الشيء ، استخلصه وحازه . والأصح استعمال كلمة احتجائهم . واحتج الشيء أي جذبته .

ولكن ابن خلدون يعتمد استعمال الكلمات الفريدة .

(٤) جمع خطة بضم الخاء وهي بمعنى الامر . واما بالكسر كما أوردها محقق لجنة البيان العربي

بمعنى « المكان المختط لعمارة ، فليس لها معنى في هذا المقام .

مِنْ عَشِيهِ وَعَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ وَكَانَ يَدْعُوهُ يَا أَبَتِ فَتَوَجَّهَ الْإِيثَارُ مِنَ السُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ  
 وَعَظَّمَتِ الدَّالَّةُ مِنْهُمْ وَأَنْبَسَطَ الْجَاهُ عِنْدَهُمْ وَأَنْصَرَفَتْ نَحْوَهُمُ الْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهُمْ  
 الرِّقَابُ وَقَصِرَتْ عَلَيْهِمُ الْأَمَالُ وَتَخَطَّتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَقْصَى التُّخُومِ هَدَايَا الْمُلُوكِ  
 وَتَحَفَّ الْأَمْرَاءُ وَتَسَرَّبَتْ إِلَى خَزَائِنِهِمْ فِي سَبِيلِ التَّرْلَفِ وَالِاسْتِمَالَةِ أَمْوَالُ الْجَبَايَةِ  
 وَأَفَاضُوا فِي رِجَالِ الشَّيْعَةِ وَعَظَمَاءِ الْقَرَايَةِ الْعَطَاءَ وَطَوَّقُوهُمْ الْمِنْنَ وَكَسَبُوا<sup>(١)</sup> مِنْ  
 بِيُوتَاتِ الْأَشْرَافِ الْمُعَدَّمِ وَفَكَرُوا الْعَانِي<sup>(٢)</sup> وَمَدَحُوا بِمَا لَمْ يُمْدَحْ بِهِ خَلِيفَتَهُمْ وَأَسْنَوْا  
 لِعَفَاتِهِمْ<sup>(٣)</sup> الْجَوَائِزَ وَالصَّلَاتِ وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْقُرَى وَالضِّيَاعِ مِنَ الضَّوَاهِي وَالْأَنْصَارِ  
 فِي سَائِرِ الْمَمَالِكِ حَتَّى أَسْفُوا الْبَطَانَةَ وَأَخْفَدُوا الْخَاصَّةَ وَأَغْضُوا<sup>(٤)</sup> أَهْلَ الْوِلَايَةِ  
 فَكَشِفَتْ لَهُمْ وَجُوهُ الْمُنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ وَذُبَّتْ إِلَى مِهَادِهِمُ الْوَثِيرِ مِنَ الدُّوَلَةِ عَقَارِبُ  
 السَّعَايَةِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ بَنُو قُحْطَبَةَ أَخْوَالَ جَفْفَرٍ مِنْ أَعْظَمِ السَّاعِينَ عَلَيْهِمْ لَمْ  
 تَعْطِفْهُمْ لَمَّا وَقَرَ فِي نَفُوسِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ عَوَاطِفُ الرَّحْمِ وَلَا وَزَعَتْهُمْ أَوَاصِرُ الْقَرَايَةِ  
 وَقَارَنَ ذَلِكَ عِنْدَ مَخْدُومِهِمْ نَوَاشِيءَ الْغَيْرَةِ وَالِاسْتِنكَافِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْأَنْفَةِ  
 وَكَانَ الْحَقُودُ الَّتِي بَعَثَتْهَا مِنْهُمْ صَفَائِرُ الدَّالَّةِ . وَأَنْتَهَى بِهَا الْإِضْرَارُ عَلَى شَأْنِهِمْ إِلَى  
 كِبَائِرِ الْمُخَالَفَةِ كَقِصَّتِهِمْ فِي يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ  
 عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي مُحَمَّدِ الْمَهْدِيِّ الْمُلقَّبِ بِالنَّفْسِ الزُّكِّيَّةِ الْخَارِجِ عَلَى  
 الْمَنْصُورِ وَيَحْيَى هَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى مِنْ بِلَادِ الدَّيْلَمِ عَلَى أَمَانِ  
 الرَّشِيدِ بِخَطِّهِ وَبَدَّلَ لَهُمْ فِيهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَدَفَعَهُ الرَّشِيدُ  
 إِلَى جَفْفَرٍ وَجَعَلَ اعْتِقَالَهُ بَدَارِهِ وَإِلَى نَظَرِهِ فَحَبَسَهُ مُدَّةً ثُمَّ حَمَلْتُهُ الدَّالَّةُ عَلَى تَخْلِيَةِ  
 سَبِيلِهِ وَالِاسْتِبْدَادِ بِحَلِّ عَقَالِهِ حَزْمًا<sup>(٥)</sup> لِدِمَاءِ أَهْلِ الْبَيْتِ بِرِزْمِهِ وَدَالَّةً عَلَى السُّلْطَانِ  
 فِي حُكْمِهِ . وَسَأَلَهُ الرَّشِيدُ عَنْهُ لَمَّا وَشَى بِهِ إِلَيْهِ فَفَطِنَ وَقَالَ أَطْلَقْتَهُ فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَ

(١) يتمدى فعل كسب بنفسه إلى مفعول ثانٍ . وهو هنا بمعنى . كسب فلاناً ما لا أي اناله ( قاموس ) .

(٢) العاني . الأسير .

(٣) أسنوا الجوائز . أي اجزلوها . والعفاة جمع عاف . وهو طالب المعروف .

(٤) ثقال كلمة غص للطعام . واستعملها هنا ابن خلدون للغيظ على التشبيه .

(٥) أي لحرمة دماء أهل البيت .

الاستخسانِ وأسرّها في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثلّ عرشهم  
وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين  
أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر  
ممهّد الأسباب وانظر ما نقله ابن عبّيد ربه في مفاوضة الرشيد عمّ جدّه داود بن  
علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء في كتاب العقد في معاورة  
الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تتفهم أنه إنما قتلتهم الغيرة  
والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من  
البطانة فيما نسوه للمغنين من الشعر احتيالاً على إسماعه للخليفة وتخريك  
حفايظهم وهو قوله :

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزْنَا مَا تَعِدُ      وَشَفْتَ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَجِدُ  
وَأَسْتَبَدْتُ مَرَّةً وَاحِدَةً      إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدُ  
وإن الرشيد لما سمعها قال : « إني والله إني عاجز » حتى بعثوا بأمثال هذه  
كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال .  
وأما ما تموه له الحكاية من معاورة الرشيد الخمر واقتزان سكره يسكر النذمان  
فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء ، وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب  
لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء  
ومخاويراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري  
وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة  
على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها . حكى الطبري وغيره أنه كان  
يُصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاماً ويحج عاماً ولقد زجر ابن  
أبي مريم مضحكة في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ  
« ومالي لا أعبدُ الذي فطرني » وقال والله ما أدري لم ؟ فما تمالك الرشيد أن  
ضحك ثم التفت إليه مغضباً وقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً إياك إياك

وَالْقُرْآنَ وَالَّذِينَ وَلَكَ مَا شِئْتَ بَعْدَهُمَا وَأَيْضاً فَقَدْ كَانَ مِنَ الْعِلْمِ وَالسَّدَاجَةِ بِمَكَانٍ  
لِقُرْبِ عَهْدِهِ مِنْ سَلْفِهِ الْمُنتَحِلِينَ لِذَلِكَ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَدِّهِ أَبِي جَعْفَرٍ بَعِيدٌ  
زَمَنٌ إِنَّمَا خَلَفَهُ غُلَاماً وَقَدْ كَانَ أَبُو جَعْفَرٍ بِمَكَانٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالَّذِينَ قَبْلَ الْخِلَافَةِ  
وَبَعْدَهَا وَهُوَ الْقَائِلُ لِمَالِكٍ حِينَ أَشَارَ عَلَيْهِ بِتَأْلِيفِ الْمُوطَأِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّهُ لَمْ  
يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ وَإِنِّي قَدْ شَغَلْتَنِي الْخِلَافَةُ فَضَعَّ أَنْتَ لِلنَّاسِ  
كِتَاباً يَنْتَفِعُونَ بِهِ تَجَنَّبَ فِيهِ رُحْصَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَشَدَائِدَ ابْنِ عُمَرَ وَوَطْئَهُ لِلنَّاسِ  
تَوْطِئَةً قَالَ مَالِكٌ فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلَّمَنِي التَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ابْنُهُ الْمَهْدِيُّ أَبُو  
الرُّشَيْدِ هَذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كُسُوةِ الْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ بَيْتِ الْعَمَالِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْماً  
وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ يَبَاشِرُ الْخِيَّاطِينَ فِي إِزْقَاعِ<sup>(١)</sup> الْخُلُقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ فَاسْتَنْكَفَ  
الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ كُسُوةَ هَذِهِ الْعِيَالِ عَامِنَا هَذَا مِنْ  
عَطَائِي فَقَالَ لَهُ لَكَ ذَلِكَ وَلَمْ يَصُدَّهُ عَنْهُ وَلَا سَمَحَ بِالْإِنْفَاقِ فِيهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ  
فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالرُّشَيْدِ عَلَى قُرْبِ الْعَهْدِ مِنْ هَذَا الْخَلِيفَةِ وَأَبُوته وَمَا رَبِّي عَلَيْهِ مِنْ  
أَمْثَالِ هَذِهِ السَّيْرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَالتَّخَلُّقِ بِهَا أَنْ يُعَاقِرَ الْخَمْرَ أَوْ يُجَاهِرَ بِهَا وَقَدْ كَانَتْ  
حَالَةُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي اجْتِنَابِ الْخَمْرِ مَعْلُومَةٌ وَلَمْ يَكُنْ الْكُزْمُ  
شَجَرَتَهُمْ وَكَانَ شُرْبُهَا مَذْمُومَةً عِنْدَ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ وَالرُّشَيْدُ وَأَبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى تَبِيعِ<sup>(٢)</sup> مِنْ  
اجْتِنَابِ الْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَالتَّخَلُّقِ بِالْمَحَامِدِ وَأَوْصَافِ الْكَمَالِ  
وَنَزَعَاتِ الْعَرَبِ . وَأَنْظَرَ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ فِي قِصَّةِ جَبْرِيلَ بْنِ  
بَخْتِشُوعِ الطَّبِيبِ حِينَ أَحْضَرَ لَهُ السَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَحَمَاهُ عَنْهُ ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ  
الْمَائِدَةِ بِحَمَلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَقَطَّنَ الرُّشَيْدُ وَارْتَابَ بِهِ وَدَسَّ خَادِمُهُ حَتَّى عَايَنَهُ  
يَتَنَاوَلُهُ فَأَعَدَّ ابْنُ بَخْتِشُوعٍ لِلْإِعْتِدَارِ ثَلَاثَ قِطْعٍ مِنَ السَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ خَلَطَ  
إِحْدَاهَا بِاللَّحْمِ الْمَعَالِجِ بِالتَّوَابِلِ وَالبُقُولِ وَالبُّوَارِدِ وَالحَلْوَى وَصَبَّ عَلَى الثَّانِيَةِ مَاءً

(١) الأصح أن يقول في رقع الخلقان أو في ترقيعها . والخلقان الثياب البالية ( قاموس ) .

(٢) التبج من كل شيء ، معظمه . أعلاه ووسطه ومنه حديث عبادة : يوشك أن يرى الرجل من تبج

المسلمين أي من وسطهم . وقيل : من سراتهم وعليتهم ( قاموس )



مُثَلِّجًا وَعَلَى الثَّلَاثَةِ خَمْرًا صِرْفًا وَقَالَ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي هَذَا طَعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ  
خَلَطَ السَّمَكُ بغيرِهِ أَوْلَمْ يَخْلُطُهُ وَقَالَ فِي الثَّلَاثِ هَذَا طَعَامُ ابْنِ بَخْتِيشُوعَ وَدَفَعَهَا  
إِلَى صَاحِبِ الْمَائِدَةِ حَتَّى إِذَا انْتَبَهَ الرَّشِيدُ وَأَخْضَرَهُ لِلتَّوْبِيخِ . أَخْضَرَ الثَّلَاثَةَ الْأَقْدَاحَ  
فَوَجَدَ صَاحِبَ الْخَمْرِ قَدْ اخْتَلَطَ وَأَمَاعَ وَتَفَتَّتْ وَوَجَدَ الْآخَرِينَ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ  
رَائِحَتُهُمَا فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ مَعْدَرَةٌ وَتَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَالَ الرَّشِيدِ فِي اجْتِنَابِ  
الْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بَطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ وَلَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهْدَ بِحَسَنِ أَبِي  
نُوَاسٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِنَ انْتِهَاكِهِ فِي الْمَعَاقِرَةِ حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعَ وَإِنَّمَا كَانَ الرَّشِيدُ يَشْرَبُ  
نَبِيذَ التَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ <sup>(١)</sup> وَفَتَاوِيهِمْ فِيهَا مَعْرُوفَةٌ وَأَمَّا الْخَمْرُ الصَّرْفُ فَلَا  
سَبِيلَ إِلَى اتِّهَامِهِ بِهَا وَلَا تَقْلِيدَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ فِيهَا فَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ بِحَيْثُ يُوَاقِعُ  
مَحْرَمًا مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَلَقَدْ كَانَ أَوْلِيكَ الْقَوْمِ كُلِّهِمْ بِمَنْحَاةٍ مِنْ  
ارْتِكَابِ السَّرْفِ وَالتَّرَفِ فِي مَلَابِسِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَسَائِرِ مَتَنَائِلِهِمْ لَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ  
خُشُونَةِ الْبِدَاوَةِ وَسَدَاجَةِ الدِّينِ الَّتِي لَمْ يُفَارِقُوهَا بَعْدَ فَمَا ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ  
الْإِبَاحَةِ إِلَى الْحَظَرِ وَعَنِ الْحِلَّةِ إِلَى الْحَرَمَةِ وَلَقَدْ اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ الطَّبْرِيُّ  
وَالْمُسْعُودِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ إِنَّمَا  
كَانُوا يَرْتَكِبُونَ بِالْحِلْيَةِ الْخَفِيفَةِ مِنَ الْفِضَّةِ فِي الْمَنَاطِقِ وَالسُّيُوفِ وَاللُّجْمِ وَالسُّرُوجِ  
وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةِ أَحَدَثِ الرُّكُوبِ بِحِلْيَةِ الذَّهَبِ هُوَ الْمُعْتَرِزُ بْنُ الْمُتَوَكِّلِ ثَامِنُ الْخُلَفَاءِ  
بَعْدَ الرَّشِيدِ وَهَكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضًا فِي مَلَابِسِهِمْ فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ ؟ وَتَبَيَّنَ  
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ مِنْ هَذَا إِذَا فَهَمَّتْ طَبِيعَةُ الدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالغَضَاضَةِ كَمَا نَشْرَحُ  
فِي مَسَائِلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ . وَيُنَاسِبُ هَذَا أَوْ  
قَرِيبٌ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً عَنِ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمِ قَاضِي الْمَأْمُونِ وَصَاحِبِهِ وَأَنَّهُ كَانَ  
يَعَاقِرُ الْخَمْرَ وَأَنَّهُ سَكِرَ لَيْلَةً مَعَ شَرِيهِ <sup>(٢)</sup> فَذَفَنَ فِي الرِّيْحَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيُنْشِدُونَ عَلَى

لسانيه:

يَا سَيِّدِي وَأَمِيرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِي

(١) يقصد به مذهب ابي حنيفة .

(٢) الشرب ، الذين يشربون معاً . جمع شارب ( قاموس ) .

إِنِّي غَفَلْتُ عَنِ السَّاقِي فَصَيَّرَنِي كَمَا تَرَانِي سَلِيبَ الْعَقْلِ وَالذِّينِ  
 وَحَالِ ابْنِ أَكْثَمَ وَالْمَأْمُونِ فِي ذَلِكَ مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَشَرَابُهُمْ إِنَّمَا كَانَ النَّبِيدَ  
 وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُورًا عِنْدَهُمْ وَأَمَّا السُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا  
 كَانَتْ خِلَّةً فِي الدِّينِ وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ وَتَقَلُّ فِي فِضَائِلِ الْمَأْمُونِ  
 وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ أَنَّهُ انْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَطْشَانٌ فَقَامَ يَتَحَسَّسُ وَيَلْتَمِسُ الْإِنَاءَ مَخَافَةَ أَنْ  
 يُوقِظَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ وَثَبَّتْ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ الصُّبْحَ جَمِيعًا فَأَيْنَ هَذَا مِنْ  
 الْمَعَاوَرَةِ وَأَيْضًا فَإِنَّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ كَانَ مِنْ عَلَيْهِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ  
 الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي وَخَرَجَ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ كِتَابَهُ الْجَامِعَ <sup>(١)</sup>  
 وَذَكَرَ الْمُرْزِيُّ الْحَافِظُ أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَامِعِ فَالْقَدْخُ فِيهِ قَدْخٌ فِي  
 جَمِيعِهِمْ وَكَذَلِكَ مَا يَنْبِزُهُ <sup>(٢)</sup> الْمَجَانُ بِالْمَيْلِ إِلَى الْعِلْمَانِ بَهْتَانًا عَلَى اللَّهِ  
 وَفِرْيَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ وَيَسْتَنْدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخْبَارِ الْقُضَاةِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي لَعَلَّهَا مِنْ  
 افْتِرَاءِ أَغْدَائِهِ فَإِنَّهُ كَانَ مَحْسُودًا فِي كَمَالِهِ وَخَلِيَّةً لِلسُّلْطَانِ وَكَانَ مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ  
 وَالذِّينِ مُنْزَهًا عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَقَدْ ذَكَرَ لِابْنِ حَنْبَلٍ مَا يَزِمِيهِ بِهِ النَّاسُ فَقَالَ سُبْحَانَ  
 اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَمَنْ يَقُولُ هَذَا ؟ وَأَنْكَرَ ذَلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا وَأَثْنَى عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ  
 الْقَاضِي فَقِيلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَزُولَ عَدَالَتُهُ مِثْلَهُ بِتَكْذِيبِ  
 بَاغٍ وَجَاسِدٍ وَقَالَ أَيْضًا يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ أَبْرَأَ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا  
 كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْعِلْمَانِ وَلَقَدْ كُنْتُ أَقْفُ عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ الْخَوْفِ  
 مِنَ اللَّهِ لَكِنَّهُ كَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خَلْقٍ فَرُمِيَ بِمَا رُمِيَ بِهِ ابْنُ حَيَّانٍ فِي  
 الثَّقَاتِ وَقَالَ لَا يُسْتَفْعَلُ بِمَا يُحْكَى عَنْهُ لِأَنَّ أَكْثَرَهَا لَا يَصِحُّ عَنْهُ وَمِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ  
 الْحِكَايَاتِ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعِقْدِ مِنْ حَدِيثِ الزُّنْبِيلِ فِي سَبَبِ إِضْهَارِ  
 الْمَأْمُونِ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ فِي بَنْتِهِ بُورَانَ وَأَنَّ عَشْرًا فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فِي تَطَوُّفِهِ  
 بِسِكَكِ بَغْدَادَ فِي زُنْبِيلٍ <sup>(٣)</sup> مَدْلَى مِنْ بَعْضِ السُّطُوحِ بِمَعَالِقٍ وَجَدَلَ مَعَارَةَ الْفَتْلِ

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ . والتصويب . وخرج عنه الترمذي في كتابه الجامع .

(٢) الأصح ، ما ينزعه به المجان . وفي بعض النسخ ( ما يشبه المجان ) .

(٣) كذا بالأصل في جميع النسخ ولعلها عشر على زنبيل . أو بمعنى زل ، أي لم ينتبه للزنبيل فوقع فيه .

مِنَ الْحَرِيرِ فَأَعْتَقَدَهُ وَتَنَاوَلَ الْمَعَالِقَ فَاهْتَزَّتْ وَذَهَبَ بِهِ صُعُوداً إِلَى مَجْلِسِ شَأْنِهِ كَذَا  
 وَوَصَفَ مِنْ زِينَةِ فُرْشِهِ وَتَنْضِيدِ ابْنَيْتِهِ وَجَمَالِ رُؤْيَتِهِ مَا يَسْتَوْقِفُ الطَّرْفَ وَيَمْلِكُ  
 النَّفْسَ وَأَنَّ امْرَأَةً بَرَزَتْ لَهُ مِنْ حَلَلِ السُّتُورِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ رَائِقَةٌ الْجَمَالِ فَتَانَةٌ  
 الْمَحَاسِنِ فَحَيْثُ وَدَعَتْهُ إِلَى الْمُنَادِمَةِ فَلَمْ يَزَلْ يُعَاقِرُهَا الْحُمْرَ حَتَّى الصُّبْحِ وَرَجَعَ إِلَى  
 أَصْحَابِهِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ انْتِظَارِهِ وَقَدْ شَغَفَتْهُ حُبًّا بَعَثَهُ عَلَى الإِصْهَارِ إِلَى أَبِيهَا وَأَيَّنَ  
 هَذَا كُلَّهُ مِنْ حَالِ الْأُمَامُونَ الْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ وَعَلِمِهِ وَاقْتِفَائِهِ سُنَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ  
 مِنْ آبَائِهِ وَأَخَذَهُ بِسِيرِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ أَرْكَانِ الْمِلَّةِ وَمَنَاطِرَتِهِ الْعُلَمَاءِ وَحَفِظَهُ  
 لِحُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى فِي صَلَوَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ فَكَيْفَ تَصْحُ عَنْهُ أَحْوَالُ الْفُسَاقِ  
 الْمُسْتَهْتَرِينَ <sup>(١)</sup> فِي التَّطَوَّافِ بِاللَّيْلِ وَطُرُوقِ الْمَنَازِلِ وَعَشِيَانِ السَّمْرِ سَبِيلِ عَشَاقِ  
 الْأَعْرَابِ وَأَيَّنَ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ ابْنَةِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا وَمَا كَانَ يَدَارِ أَبِيهَا  
 مِنَ الصُّونِ وَالْعَفَافِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَثِيرَةٌ وَفِي كُتُبِ الْمُؤَرِّخِينَ مَعْرُوفَةٌ  
 وَإِنَّمَا يَبْعَثُ عَلَى وَضْعِهَا وَالْحَدِيثِ بِهَا الْإِنْهَمَاكَ فِي اللَّذَاتِ الْمَحْرَمَةِ وَهَتَكَ قِنَاعِ  
 الْمُخَدَّرَاتِ وَيَتَعَلَّلُونَ بِالتَّأْسِي بِالْقَوْمِ فِيمَا يَأْتُونَهُ مِنْ طَاعَةِ لِدَاتِهِمْ فَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ  
 كَثِيراً مَا يَلْهَجُونَ بِأَشْبَاهِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَيَنْقَرُونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصْفِيحِهِمْ لِأَوْرَاقِ  
 الدُّوَابِ وَلَوْ ائْتَسُوا بِهِمْ فِي غَيْرِ هَذَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَصِفَاتِ الْكَمَالِ اللَّائِقَةِ بِهِمْ  
 الْمَشْهُورَةِ عَنْهُمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَذَلْتُ يَوْمًا بَعْضَ الْأَمْرَاءِ  
 مِنْ أبنَاءِ الْمُلُوكِ فِي كَلْفِهِ بِتَعَلُّمِ الْغِنَاءِ وَوَلُوعِهِ بِالْأَوْتَارِ وَقُلْتُ لَهُ لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِكَ  
 وَلَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِكَ فَقَالَ لِي أَفَلَا سَرَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ كَيْفَ كَانَ إِمَامَ هَذِهِ  
 الصَّنَاعَةِ وَرَيْسَ الْمُعْنَيْنِ فِي زَمَانِهِ ؟ فَقُلْتُ لَهُ يَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَهَلَّا تَأَسَّيْتَ بِأَبِيهِ أَوْ  
 أَخِيهِ أَوْ مَا رَأَيْتَ كَيْفَ قَعَدَ ذَلِكَ بِإِبْرَاهِيمَ عَنْ مَنَاصِبِهِمْ فَصَمَّ عَنْ عَذْلِي وَأَعْرَضَ  
 وَاللَّهِ يُهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

وَمِنْ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ وَالْأَثْبَاتِ فِي  
 الْعُبَيْدِيِّينَ خُلَفَاءِ الشَّيْعَةِ بِالْقَيْرَوَانِ وَالْقَاهِرَةِ مِنْ نَفِيهِمْ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ صَلَوَاتُ اللَّهِ

(١) للمستهتر : لشيء بالفتح الولع به لا يبالي بما فعل فيه وشمته له والذي كثرت أباطيله ١ هـ قلاموس .

عَلَيْهِمْ وَالطَّغْنِ فِي نَسَبِهِمْ إِلَى إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ ابْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ يَغْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى أَحَادِيثَ لَفَقَتْ لِلْمُسْتَضْعِفِينَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ تَرْلُفًا إِلَيْهِمْ بِالْقُدْحِ فِيمَنْ نَاصِبَهُمْ وَتَفَنَّنَا فِي الشَّمَاتِ بَعْدُوهُمْ حَسَبًا تَذَكَّرُ بَعْضُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيَفْعَلُونَ عَنِ التَّفْطِنِ لَشَوَاهِدِ الْوَأَقَاعَاتِ وَأَدْلَةَ الْأَحْوَالِ الَّتِي اقْتَضَتْ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ تَكْذِيبِ دَعْوَاهُمْ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ .

فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ فِي حَدِيثِهِمْ عَنْ مَبْدَأِ دَوْلَةِ الشَّيْمَةِ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْمُحْتَسِبِ لَمَّا دَعِيَ بِكُتَامَةَ لِلرُّضِيِّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَاشْتَهَرَ خَبْرَهُ وَعَلِمَ تَحْوِيمَهُ عَلَى عُبَيْدِ اللَّهِ الْمُهَدِّيِّ وَابْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ خَشِيَا عَلَى أَنْفُسِهِمَا فَهَرَبَا مِنَ الْمَشْرِقِ مَحَلَّ الْخِلَافَةِ وَاجْتَارَا بِمِصْرَ وَأَنْتَهَمَا خَرَجَا مِنَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ فِي زَيْبِ التُّجَّارِ وَنَمِيَ خَبْرُهُمَا إِلَى عَيْسَى النُّوشَرِيِّ غَامِلِ مِصْرَ وَالْإِسْكَندَرِيَّةِ فَسَرَّحَ فِي طَلَبِهِمَا الْخِيَالَةَ حَتَّى إِذَا أُذْرِكَا خَفِيَ خَالَهُمَا عَلَى تَابِعِيهِمَا بِمَا لَبَسُوا بِهِ مِنَ الشَّارَةِ وَالزَّيْبِ فَافْلَتُوا إِلَى الْمَغْرِبِ . وَأَنَّ الْمُعْتَضِدَ أَوْعَزَ إِلَى الْأَعَالِيَةِ أَمْرَاءَ أَفْرِيْقِيَا بِالْقَيْرَوَانِ وَبَنِي مِذْرَارٍ أَمْرَاءَ سِجْلَمَاسَةَ بِأَخْذِ الْأَفَاقِ عَلَيْهِمَا وَإِذْكَاءِ الْعُيُونِ فِي طَلَبِهِمَا فَغَثُرَ الْيَشْعُ صَاحِبُ سِجْلَمَاسَةَ مِنْ آلِ مِذْرَارٍ عَلَى خَفِيِّ مَكَانِهِمَا بِبَلَدِهِ وَاعْتَقَلَهُمَا مَرْضَاةً لِلْخَلِيفَةِ .

هَذَا قَبْلَ أَنْ تَطَهَّرَ الشَّيْمَةُ عَلَى الْأَعَالِيَةِ بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْرِيْقِيَّةِ ثُمَّ بِالْيَمَنِ ثُمَّ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ ثُمَّ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَقَاسَمُوا بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ شِقَّ الْأَبْلَمَةِ <sup>(١)</sup> وَكَادُوا يَلْجُونَ عَلَيْهِمْ مَوَاطِنَهُمْ وَيَزَالُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَقَدْ أَظْهَرَ دَعْوَتَهُمْ بِبَغْدَادَ وَعِرَاقَهَا الْأَمِيرَ الْبَسَاسِيرِيَّ مِنْ مَوَالِي الدَّيْلَمِ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَى خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مُغَاضِبَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْرَاءِ الْعِجَمِ وَخَطَبَ لَهُمْ عَلَى مَنَابِرِهَا حَوْلًا كَامِلًا وَمَا زَالَ بَنُو الْعَبَّاسِ يَفْعُضُونَ بِمَكَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ وَمُلُوكَ بَنِي أَمِيَّةٍ وَرَاءَ الْبَحْرِ يُنَادُونَ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ

(١) يقال : الأمر بيننا شق الأبلمة . والأبلمة هي الخوصة أي ورقة الدوم وهي شجرة تشبه النخلة . وذلك لأنها تؤخذ فتشق طولاً على السواء . والمعنى أنهم قاسموا بني العباس أعمالهم . وفي نسخة لجنة البيان العربي « شق الأبلمة » وهو تحريف .

مِنْهُمْ وَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا كُلُّهُ لِدَعْيِي فِي النَّسَبِ يَكْذِبُ فِي انْتِحَالِ الْأَمْرِ وَاعْتَبِرْ خَالَ  
الْقُرْمَطِيِّ إِذْ كَانَ دَعِيًّا فِي انْتِسَابِهِ كَيْفَ تَلَاشَتْ دَعْوَتُهُ وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ وَظَهَرَ سَرِيعًا  
عَلَى خَبِيثِهِمْ وَمَكْرِهِمْ فَسَاءَتْ عَاقِبَتُهُمْ وَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَوْ كَانَ أَمْرُ الْعَبِيدِيِّينَ  
كَذَلِكَ لَعُرِفَ وَلَوْ بَعْدَ مَهْلَةٍ .

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ  
فَقَدْ اتَّصَلَتْ دَوْلَتُهُمْ نَحْوًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَمَلَكَوا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ وَمُضَلَّاهُ وَمَوْطِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَمَذْنَبَهُ وَمَوْقِفَ الْحَجِيحِ وَمَهْبِطَ الْمَلَائِكَةِ  
ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَشِيعَتُهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى أُمَّتٍ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُمْ وَالْحُبِّ  
فِيهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ بِنَسَبِ الْإِمَامِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَلَقَدْ خَرَجُوا مِرَارًا بَعْدَ  
ذَهَابِ الدَّوْلَةِ وَدُرُوسِ أَثَرِهَا دَاعِينَ إِلَى بَدْعَتِهِمْ هَاتِفِينَ بِأَسْمَاءِ صِبْيَانٍ مِنْ أَغْقَابِهِمْ  
يَزْعُمُونَ اسْتِحْقَاقَهُمْ لِلْخِلَافَةِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى تَعْيِينِهِمْ بِالْوَصِيَّةِ مِنْ سَلَفٍ قَبْلَهُمْ مِنَ  
الْأَيْمَةِ وَلَوْ ارْتَابُوا فِي نَسَبِهِمْ لَمَا رَكِبُوا أَغْنَاقَ الْأَخْطَارِ فِي الْإِنْتِصَارِ لَهُمْ فَصَاحِبُ  
الْبِدْعَةِ لَا يُلْبَسُ فِي أَمْرِهِ وَلَا يُشَبَّهُ فِي بَدْعَتِهِ وَلَا يَكْذِبُ نَفْسَهُ فِيمَا يَنْتَحِلُهُ .

وَالْعَجَبُ مِنَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيِّ شَيْخِ النُّظَارِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ كَيْفَ  
يَجْنَحُ إِلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ الْمَرْجُوحَةِ وَيَرَى هَذَا الرَّأْيَ الضَّعِيفَ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَا  
كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِلْحَادِ فِي الدِّينِ وَالتَّعَمُّقِ فِي الرَّافِضِيَّةِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَافِعٍ فِي صَدْرِ  
دَعْوَتِهِمْ وَلَيْسَ إِثْبَاتُ مُنْتَسِبِهِمْ بِالَّذِي يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا فِي كُفْرِهِمْ فَقَدْ قَالَ  
تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شَأْنِ ابْنِهِ «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ أَنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ فَلَا  
تَسْأَلُنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» (١) وَقَالَ ﷺ لِفَاطِمَةَ يَعِظُهَا يَا فَاطِمَةُ اغْمَلِي فَلَنْ  
أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَمَتَى عَرَفَ امْرُوءٌ قَضِيَّةً أَوْ اسْتَيْقَنَ أَمْرًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ  
يُضَدَعَ بِهِ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ وَالْقَوْمُ كَانُوا فِي مَجَالٍ لِيُظَنُّوا الدُّوَلُ  
بِهِمْ وَتَحْتَ رِقَبَةِ مِنَ الطَّغَاةِ لِتَوْفُرِ شِيعَتِهِمْ وَانْتِشَارِهِمْ فِي الْقَاصِيَةِ بِدَعْوَتِهِمْ وَتَكَرُّرِ

(١) سورة هود آية ٤٦

خُرُوجِهِمْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَلَاذَتْ رِجَالُهُمْ بِالِاخْتِفَاءِ وَلَمْ يَكَادُوا يُعْرَفُونَ كَمَا  
قِيلَ .

فَلَوْ تَسَأَلَ الْأَيَّامَ مَا اسْمِي مَا دَرَّتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِيَا

حَتَّى لَقَدْ سُمِّيَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامَ جَدُّ عَبْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ بِالْمَكْتُومِ  
سَمْتَهُ بِذَلِكَ شِيَعَتُهُمْ لَمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ إِخْفَائِهِ حَذْرًا مِنَ الْمُتَعَلِّبِينَ عَلَيْهِمْ فَتَوَصَّلَ  
شِيَعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ بِذَلِكَ عِنْدَ ظُهُورِهِمْ إِلَى الطُّغْنِ فِي نَسَبِهِمْ وَأَزْدَلُّوا بِهَذَا الرَّأْيِ  
الْقَائِلِ <sup>(١)</sup> لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ خُلَفَائِهِمْ وَأَعْجَبَ بِهِ أَوْلِيَائِهِمْ وَأَمْرَاءَ دَوْلَتِهِمُ الْمُتَوَلِّينَ  
لِخُرُوبِهِمْ مَعَ الْأَعْدَاءِ يَدْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَعْرَةَ الْعَجْزِ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ  
وَالْمُدَافَعَةِ لِمَنْ غَلَبَهُمْ عَلَى الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ مِنَ الْبُزْبُرِ الْكُتَامِينَ شِيَعَةَ  
الْعَبِيدِيِّينَ وَأَهْلَ دَعْوَتِهِمْ حَتَّى لَقَدْ أَسْجَلَ الْقَضَاءُ بِبَغْدَادَ بِنَفْيِهِمْ عَنْ هَذَا النَّسَبِ  
وَشَهِدَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْلَامِ النَّاسِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ وَأَخُوهُ الْمُرْتَضَى  
وَأَبْنُ الْبُطْحَاوِيِّ وَمِنْ الْعُلَمَاءِ أَبُو حَامِدٍ الْإِسْفَرَايِينِيُّ وَالْقُدُورِيُّ وَالصُّيَمَرِيُّ وَأَبْنُ  
الْأَكْفَانِيِّ وَالْأَبِيورْدِيُّ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ النُّعْمَانِ فَقِيهِ الشِّيَعَةِ وَعَبْرَهُمْ مِنْ أَعْلَامِ  
الْأُمَّةِ بِبَغْدَادَ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ وَذَلِكَ سَنَةَ سِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فِي أَيَّامِ الْقَادِرِ وَكَانَتْ  
شَهَادَتُهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى السَّمَاعِ لَمَا اشْتَهَرَ وَعُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ بِبَغْدَادَ وَغَالِبِيهَا شِيَعَةَ  
بَنِي الْعَبَّاسِ الطَّاعِنُونَ فِي هَذَا النَّسَبِ فَتَقَلَّهَ الْأَخْبَارِيُّونَ كَمَا سَمِعُوهُ وَرَوَوْهُ حَسْبَمَا  
وَعَوَّهُ وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ .

وَفِي كِتَابِ الْمُعْتَصِدِ فِي شَأْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى ابْنِ الْأَعْلَبِ بِالْقَيْرَوَانِ وَأَبْنِ مِدْرَارِ  
بِسِجِلْمَاسَةَ أَصْدَقُ شَاهِدٍ وَأَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِمْ فَالْمُعْتَصِدُ أَقْعَدُ <sup>(٢)</sup> بِنَسَبِ  
أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَالِدُوْلَةِ وَالسُّلْطَانَ سَوْقَ لِلْعَالَمِ تُجْلَبُ إِلَيْهِ بِضَائِعِ الْعُلُومِ  
وَالصَّنَائِعِ وَتَلْتَمَسُ فِيهِ ضَوَالُ الْحِكْمِ وَتُحْدَى إِلَيْهِ رِكَائِبُ الرِّوَايَاتِ وَالْأَخْبَارِ وَمَا

(١) أي الضعيف أو الخاطيء .

(٢) أقعد . بمعنى أكفأ .

نَفَقَ فِيهَا نَفَقَ عِنْدَ الْكَافَةِ فَإِنْ تَنَزَّهَتْ الدُّوْلَةُ عَنِ التَّعَسُّفِ وَالْمَيْلِ وَالْأَفْنِ (١)  
 وَالسُّفْسُفَةِ وَسَلَكَتْ النَّهْجَ الْأَمَمَ وَلَمْ تَجْزُ (٢) عَنْ قُضْدِ السَّبِيلِ نَفَقَ فِي سَوْقِهَا الْإِبْرِيْزُ  
 الْخَالِصُ وَاللَّجِيْنُ (٣) الْمُصْفَى وَإِنْ ذَهَبَتْ مَعَ الْأَعْرَاضِ وَالْحُقُودِ وَمَاجَتْ بِسَمَاسِرَةِ  
 الْعَرَبِ الْبَغْيِ وَالْبَاطِلِ نَفَقَ الْبَهْرَجُ وَالزَّرَائِفُ وَالنَّاقِدُ الْبَصِيْرُ قَسْطَاسُ نَظَرِهِ وَمِيْزَانُ  
 بَحْثِهِ وَمُلْتَمَسِيْهِ .

وَمِثْلُ هَذَا وَأَبْعَدُ مِنْهُ كَثِيْرًا مَا يَتَنَاجَى بِهِ الطَّاعِنُونَ فِي نَسَبِ إِدْرِيسَ بْنِ  
 إِدْرِيسَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ( رَضَوَانَ اللَّهُ  
 عَلَيْهِمْ ) الْإِمَامِ بَعْدَ أَبِيهِ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَيُعْرَضُونَ تَغْرِيبُ الْحَدِّ بِالتَّظُنِّ فِي  
 الْجَمَلِ الْمُخْلَفِ عَنْ إِدْرِيسِ الْأَكْبَرِ إِنَّهُ لِرَاشِدٍ مَوْلَاهُمْ قَبَحَهُمُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُمْ  
 مَا أَجْهَلَهُمْ أَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّ إِدْرِيسَ الْأَكْبَرَ كَانَ إِضْهَارُهُ فِي الْبَرْبَرِ وَأَنَّهُ مُنْذُ دَخَلَ  
 الْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَرِيْقٌ فِي الْبَدْوِ وَأَنَّ حَالَ الْبَادِيَةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ غَيْرُ  
 خَافِيَةٍ إِذْ لَا مَكَامِنَ لَهُمْ يَتَأْتَى فِيهَا الرِّيْبُ وَأَحْوَالُ حُرْمِهِمْ أَجْمَعِينَ يَمْرَأَى مِنْ  
 جَارَاتِهِمْ وَمَسْمَعٍ مِنْ جِيرَانِهِمْ لِتَلَاصُقِ الْجُدْرَانِ وَتَطَامِنِ (٤) الْبُنْيَانِ وَعَدَمِ الْفَوَاصِلِ  
 بَيْنَ الْمَسَاكِينِ وَقَدْ كَانَ رَاشِدٌ يَتَوَلَّى خِدْمَةَ الْحَرَمِ أَجْمَعَ مِنْ بَعْدِ مَوْلَاهُ بِمَشْهَدٍ مِنْ  
 أَوْلِيَائِهِمْ وَشَيْعَتِهِمْ وَمَرَاتِبِهِ مِنْ كَافَتِهِمْ وَقَدْ اتَّفَقَ بَرَابِرَةُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى عَامَّةٌ عَلَى  
 بِيْعَةِ إِدْرِيسِ الْأَضْفَرِ مِنْ بَعْدِ أَبِيهِ وَأَتَوْهُ طَاعَتَهُمْ عَنْ رِضَى وَإِضْفَاقٍ (٥) وَبَايَعُوهُ عَلَى  
 الْمَوْتِ الْأَخْمَرِ وَخَاضُوا دُونَهُ بِحَارِ الْمَنَآيَا فِي حُرُوبِهِ وَعَزْوَاتِهِ وَلَوْ حَدَّثُوا أَنْفُسَهُمْ  
 بِمِثْلِ هَذِهِ الرِّيْبَةِ أَوْ قَرَعَتْ أَسْمَاعَهُمْ وَلَوْ مِنْ عَدُوٍّ كَاشِحٍ أَوْ مُنَافِقٍ مُرْتَابٍ لَتَخَلَّفَ

(١) الأفن ، ضعف الرأي .

(٢) قوله ولم تجز بضم الجيم ، أي لم تمل .

(٣) اللجين ، الفضة .

(٤) اطمانت وتطامن ، انخفضت ( لسان العرب ) .

(٥) واصفقت يده بكذا أي صادفته ووافقته . وقد استعملها ابن خلدون بمعنى الموافقة وهو ضعيف .

والأصح عن رضا وضمق من ضفق ، أي ضرب يده على يده ( لسان العرب ) .

عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ بَعْضُهُمْ كَلًّا وَاللَّهِ إِنَّمَا صَدَرَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ  
أَقْتَالِهِمْ<sup>(١)</sup> وَمِنْ بَنِي الْأَغْلَبِ عُمَالِهِمْ كَانُوا بِأَفْرِيقِيَّةَ وَوَلَاتِهِمْ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّ إِدْرِيسُ الْأَكْبَرُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ وَرَعَةِ بَلَخِ أَوْعَزَ الْهَادِي إِلَى  
الْأَغَالِبَةِ أَنْ يَقْعُدُوا لَهُ بِالْمَرَاوِدِ وَيَذْكُوا عَلَيْهِ الْعِيُونَ فَلَمْ يَطْفُرُوا بِهِ وَخَلَصَ إِلَى  
الْمَغْرِبِ فَتَمَّ امْرَأَةٌ وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ وَظَهَرَ الرَّشِيدُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ وَاضِحِ  
مَوْلَاهُمْ وَعَامِلِهِمْ عَلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ مِنْ دَسِيْسَةِ التَّشْيِيعِ لِلْعَلَوِيَّةِ وَإِذْهَانِهِ<sup>(٢)</sup> فِي نَجَاةِ  
إِدْرِيسَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَقَتَلَهُ وَدَسَّ الشُّمَّاحَ مِنْ مَوَالِي الْمَهْدِيِّ أَيْبَهُ لِلتَّحْيِيلِ عَلَى قَتْلِ  
إِدْرِيسَ فَأَظْهَرَ اللَّحَاقَ بِهِ وَالْبَرَاءَةَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مَوَالِيهِ فَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ إِدْرِيسُ  
وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ وَنَاوَلَهُ الشُّمَّاحَ فِي بَعْضِ خَلَوَاتِهِ سُمًّا اسْتَهْلَكَهُ بِهِ<sup>(٣)</sup> وَوَقَعَ خَبْرُ  
مَهْلِكِهِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَحْسَنَ الْمَوَاقِعِ لَمَّا رَجَوْهُ مِنْ قَطْعِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ الْعَلَوِيَّةِ  
بِالْمَغْرِبِ وَاقْتِلَاعِ جُرْثُومَتِهَا وَلَمَّا تَأَدَّى إِلَيْهِمْ خَبْرُ الْجَمَلِ الْمُخْلَفِ لِإِدْرِيسَ فَلَمْ  
يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا كَلًّا وَلَا<sup>(٤)</sup> وَإِذَا بِالدَّعْوَةِ قَدْ عَادَتْ وَالشَّيْعَةَ بِالْمَغْرِبِ قَدْ ظَهَرَتْ  
وَدَوَّلْتَهُمْ بِإِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ قَدْ تَجَدَّدَتْ فَكَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَنْكِي مِنْ وَفِعِ السَّهَامِ  
وَكَانَ الْفُشْلُ وَالْهَرَمُ قَدْ نَزَلَا بِدَوْلَةِ الْعَرَبِ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى الْقَاصِيَةِ فَلَمْ يَكُنْ  
مُنْتَهَى قُدْرَةِ الرَّشِيدِ عَلَى إِدْرِيسَ الْأَكْبَرِ بِمَكَانِهِ مِنْ قَاصِيَةِ الْمَغْرِبِ وَاشْتَمَالَ الْبَرْبَرِ  
عَلَيْهِ إِلَّا التَّحْيِيلَ فِي إِهْلَاكِهِ بِالسُّمُومِ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَرَعُوا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْأَغَالِبَةِ  
بِأَفْرِيقِيَّةَ فِي سَدِّ تِلْكَ الْفُرْجَةِ مِنْ نَاحِيَّتِهِمْ وَحَسَمَ الدَّاءَ الْمُتَوَقِّعَ بِالدَّوْلَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ  
وَاقْتِلَاعَ تِلْكَ الْعُرُوقِ قَبْلَ أَنْ تَشْجَ<sup>(٥)</sup> مِنْهُمْ يُخَاطِبُهُمْ بِذَلِكَ الْمَأْمُونُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ  
خُلَفَائِهِمْ فَكَانَ الْإِغَالِبَةُ عَنْ بَرَابَرَةِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى أَعْجَزَ وَلَمْ يَلْمِلْهَا مِنَ الزُّبُونِ<sup>(٦)</sup>

(١) جمع قتل وهو العدو للمقابل .

(٢) بمعنى الغش .

(٣) بمعنى أهلكه .

(٤) كذا في جميع النسخ . وأظن أنها محرفة عن كلاله أي الوارث الذي ليس بولد للميت ولا والد له .

(٥) بمعنى تمتد وترسخ .

(٦) يقال للناقة إذا كان من عاداتها أن تدفع حالبها عن حلبها « زبون » ( لسان العرب ) وقد استعملت

هنا بمعنى الأشخاص الذين يدافعون عن الملوك . وإن كان هذا الاستعمال ضعيفاً . وقد تكررت هذه العبارة بنصها  
عدة مرات في تاريخ ابن خلدون . لذلك لا يمكننا أن نقول أن ابن خلدون قصد بها كلمة سواها .



على ملوكهم أخوج لما طرقت الخِلافة من انتزاع<sup>(١)</sup> ممالك العجم على سُدتها  
وامتطائهم صهوة التغلب عليها وتضريفهم أحكامها طوع أغراضهم في رجالها  
وجبايتها وأهل خطبتها<sup>(٢)</sup> وسائر نفضها وإبرامها كما قال شاعرهم :

خليفة في قفص بين وصيف وبنا  
يقول ما قالاً له كما تقول البينا

فخشي هؤلاء الأمراء الأغالية بوادر السعيات وتلوا بالمعاذير فطوراً  
باختقار المغرب وأهله وطوراً بالإنزهاب بشأن إدريس الخارج به ومن قام مقامه  
من أعقابيه يخاطبونهم بتجاوزه حدود التخوم من عمله وينفذون سكتته في تحفيهم  
وهذا ياهم ومرتفع جباياتهم تغريضاً باستفحاله وتحويلاً باستداد شوكتيه وتعظيماً  
لما دفعوا إليه من مطالبيته ومراسيه وتهديدا بقلب الدعوة إن الجئوا إليه وطوراً  
يطعنون في نسب إدريس بمثل ذلك الطعن الكاذب تخفيضاً لشانه لا يبالون  
بصدقه من كذبه لبعد المسافة وأقن عقول من خلف من صنية بني العباس  
وممالكهم العجم في القبول من كل قائل والسمع لكل ناعق ولم يزل هذا ذابهم  
حتى انقضى أمر الأغالية ففرعت هذه الكلمة الشنقاء أسماع الغوغاء وصر عليها  
بعض الطاعنين أذنه واعتدتها ذريعة إلى النيل من خلفهم عند المناسفة . وما لهم  
قبحهم الله والعدول عن مقاصد الشريعة فلا تعارض فيها بين المقطوع والمظنون  
وإدريس ولد على فراش أبيه والولد للفراش .

على أن تنزیه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الإيمان فالله سبحانه  
قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ففراش إدريس طاهر من الدنس ومُنزاة  
عن الرجس بحكم القرآن ومن اعتقد خلاف هذا فقد بآثمه وولج الكفر من  
بآيه وإنما أطنبت في هذا الرد سداً لأبواب الریب ودفعاً في صدر الحاسد لما

(١) بمعنى الوثوب .

(٢) الخطة ، الأرض . والدار يخطها الرجل في أرض غير مملوكة ليحجرها ويبنى فيها وذلك إذا أذن

السلطان ( لسان العرب ) وعنى بها ابن خلدون هنا ، بالموظفين الشرقيين على أعمال الخطط .

سَمِعَتْهُ أَذْنَائِي مِنْ قَائِلِهِ الْمُعْتَدِي عَلَيْهِمُ الْقَادِحِ فِي نَسَبِهِمْ بِفِرْيَتِهِ وَيَنْقَلُهُ بِزَعْمِهِ عَنْ بَعْضِ  
 مُؤَرِّخِي الْمَغْرِبِ مِمَّنْ انْحَرَفَ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَارْتَابَ فِي الْإِيمَانِ بَسَلْفِهِمْ وَالْأَ  
 فَالْمَحَلُّ مُنَزَّةٌ عَنْ ذَلِكَ مَعْصُومٌ مِنْهُ وَنَفَى الْعَيْبَ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْبٌ لَكِنِّي  
 جَادَلْتُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَرْجُو أَنْ يَجَادِلُوا عَنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ أَكْثَرَ  
 الْمَطَاعِينَ فِي نَسَبِهِمْ إِنَّمَا هُمْ الْحَسَدَةُ لِأَعْقَابِ إِدْرِيسَ هَذَا مِنْ مُنْتَمِئِينَ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ أَوْ  
 دَخِيلٍ فِيهِمْ فَإِنَّ ادِّعَاءَ هَذَا النَّسَبِ الْكَرِيمِ دَعْوَى شَرَفٍ عَرِيضَةٌ عَلَى الْأُمَّةِ وَالْأَجْيَالِ  
 مِنْ أَهْلِ الْإِفَاقِ فَتَعْرِضُ التُّهْمَةَ فِيهِ .

وَلَمَّا كَانَ نَسَبُ بَنِي إِدْرِيسَ هَوْلَاءَ بِمَوَاطِنِهِمْ مِنْ فَارِسَ وَسَائِرِ دِيَارِ الْمَغْرِبِ  
 قَدْ بَلَغَ مِنَ الشُّهْرَةِ وَالْوُضُوحِ مَبْلَغًا لَا يَكَادُ يُلْحَقُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي دَرْكِهِ إِذْ هُوَ  
 تَقَلُّ الْأُمَّةِ وَالْحَيْلِ مِنَ الْخَلْفِ عَنِ الْأُمَّةِ وَالْحَيْلِ مِنَ السَّلَفِ وَبَيَّتْ جَدَّهُمْ إِدْرِيسَ  
 مُخْتَطِّطًا فَاسَ وَمُؤَسَّسَهَا مِنْ بُيُوتِهِمْ وَمَسْجِدَهُ لَصِقَ مَحَلَّتِهِمْ وَدُرُوبِهِمْ وَسَيْفُهُ مُنْتَضَى  
 بِرَأْسِ الْمَأَذَنَةِ الْعُظْمَى مِنْ قَرَارِ بَلَدِهِمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَثَارِهِ الَّتِي جَاوَزَتْ أَخْبَارَهَا  
 حُدُودَ التَّوَاتُرِ مَرَّاتٍ وَكَادَتْ تَلْحَقُ بِالْعِيَانِ فَإِذَا نَظَرَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ هَذَا النَّسَبِ إِلَى  
 مَا أَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ أَمْثَالِهَا وَمَا عَضَدَ شَرَفُهُمُ النَّبَوِيُّ مِنْ جَلَالِ الْمُلْكِ الَّذِي كَانَ  
 لِسَلْفِهِمْ بِالْمَغْرِبِ وَاسْتَيْقَنَ أَنَّهُ بِمَعْرُزٍ عَنِ ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَدًّا أَحَدِهِمْ  
 وَلَا نَصِيفَهُ <sup>(١)</sup> وَأَنَّ غَايَةَ أَمْرِ الْمُنْتَمِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْكَرِيمِ مِمَّنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ أَمْثَالُ  
 هَذِهِ الشُّوَاهِدِ أَنْ يُسَلَّمَ لَهُمْ حَالَهُمْ لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَبَوْنٌ مَا بَيْنَ  
 الْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَالْيَقِينِ وَالسَّلِيمِ فَإِذَا عَلِمَ بِذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ غَضَّ بِرَبِيْقِهِ وَوَدَّ كَثِيرَ مِنْهُمْ  
 لَوْ يَرُدُّونَهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ سَوْفَةٌ وَوَضْعَاءٌ <sup>(٢)</sup> حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ فَيَرْجِعُونَ إِلَى  
 الْعِنَادِ وَارْتِكَابِ اللَّجَاجِ وَالْبُهْتِ بِمِثْلِ هَذَا الطُّغْنِ الْفَائِلِ وَالْقَوْلِ الْمَكْذُوبِ تَعْلَلًا  
 بِالْمَسَاوَاةِ فِي الظَّنِّ وَالْمَشَابَهَةِ فِي تَطَرُّقِ الْاِحْتِمَالِ وَهَيْهَاتَ لَهُمْ ذَلِكَ فَلَيْسَ فِي

(١) قوله « لا يبلغ قد أحدهم ولا نصيفه » مثل يكنى به عن ضعة مكانة شخص بالنسبة لشخص آخر .

(٢) قوله « ووضعاء بضم الواو جمع وضع .

المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه  
مبالغ أعقاب إدريس هذا من آل الحسن .

وكبرائهم لهذا العهد بنو عمران يفاس من ولد يحيى الحوطي بن  
محمّد بن يحيى العوام بن القاسم بن إدريس بن إدريس وهم نقباء أهل البيت  
هناك والسالكون ببنت جدّهم إدريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة حسبما  
نذكرهم عند ذكر الإدارة إن شاء الله تعالى ويلحق بهذه المقالات الفاسدة  
والمذاهب الفائلة ما يتناولها ضعف الرأي من فقهاء المغرب من القذح في الإمام  
المهديّ صاحب دولة الموحدين ونسبته إلى الشعوذة والتلبيس فيما أتاه من القيام  
بالتوحيد الحق والنهي على أهل البغي قبله وتكذيبهم لجميع مدعيّاته في ذلك  
حتى فيما يزعم الموحّدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت وإنما حمل الفقهاء  
على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه فإنهم لما رأوا من أنفسهم  
مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي  
مسموع القول موطؤ العقب نفسوا ذلك عليه <sup>(١)</sup> وغضوا منه بالقذح في مذاهبه  
والتكذيب لمدعيّاته وأيضاً فكانوا يؤسسون <sup>(٢)</sup> من ملوك المتونة أعدائه تجلّة  
وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة فكان  
لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل في بلده وعلى  
قدره في قومه فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحرّبا لعدوهم ونقموا على المهديّ ما جاء  
به من خلافهم والتشريب <sup>(٣)</sup> عليهم والمناصبة <sup>(٤)</sup> لهم تشييعاً للمتونة وتعصّباً لدولتهم  
ومكان الرجل غير مكانهم وحاله على غير معتقداتهم وما ظنك برجل نقم على أهل  
الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فقهاؤهم فنأدى في قومه ودعا إلى

(١) أي حسده .

(٢) بمعنى يعلمون .

(٣) التشريب كالتأنيث والتعمير والاستفشاء في اللوم ( قاموس ) .

(٤) ناصبه مناصبة : عاداه وقاومه .

جِهَادِهِمْ بِنَفْسِهِ فَاقْتَلَعَ الدَّوْلَةَ مِنْ أَصُولِهَا وَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا أَعْظَمَ مَا كَانَتْ قُوَّةُ  
 وَأَشَدَّ شَوْكَةً وَأَعَزَّ أَنْصَاراً وَحَامِيَةً وَتَسَاقَطَتْ فِي ذَلِكَ مِنْ أَتْبَاعِهِ نَفُوسٌ لَا يُحْصِيهَا  
 إِلَّا خَالِقُهَا وَقَدْ بَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ وَوَقَّوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَكَةِ وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى  
 بِاتِّلَافٍ مَهْجَمٍ فِي إِظْهَارِ تِلْكَ الدَّعْوَةِ وَالتَّعْصِبِ لِتِلْكَ الْكَلِمَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمِ  
 وَدَالَتْ بِالْمَعْدُوتَيْنِ مِنَ الدُّوَلِ وَهُوَ بِحَالِهِ مِنَ التَّقْشُفِ وَالْحَصْرِ <sup>(١)</sup> وَالصَّبْرِ عَلَى  
 الْمَكَارِهِ وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحِظِّ وَالمَتَاعِ فِي  
 دُنْيَاةٍ حَتَّى الْوُلْدُ الَّذِي رُبَّمَا تَجَنَّحَ إِلَيْهِ النُّفُوسُ وَتَخَادَعُ عَنْ تَمَتِّيهِ فَلَيْتَ شِعْرِي  
 مَا الَّذِي قَصَدَ بِذَلِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَجْهَ اللَّهِ وَهُوَ لَمْ يَخْضَلْ لَهُ حِظٌّ مِنَ الدُّنْيَا فِي  
 عَاجِلِهِ وَمَعَ هَذَا فَلَوْ كَانَ قَصْدُهُ غَيْرَ صَالِحٍ لَمَا تَمَّ أَمْرُهُ وَأَنْفَسَحَتْ دَعْوَتُهُ سُنَّةَ اللَّهِ  
 الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَأَمَّا إِنْكَارُهُمْ نَسَبَهُ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ فَلَا تَعْضُدُهُ <sup>(٢)</sup> حُجَّةٌ لَهُمْ  
 مَعَ أَنَّهُ إِنْ ثُبِتَ أَنَّهُ ادَّعَاهُ وَاتَّسَبَ إِلَيْهِ فَلَا دَلِيلَ يَقُومُ عَلَى بَطْلَانِهِ لِأَنَّ النَّاسَ  
 مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَإِنْ قَالُوا إِنْ الرِّئَاسَةَ لَا تَكُونُ عَلَى قَوْمٍ فِي غَيْرِ أَهْلِ جِلْدَتِهِمْ كَمَا  
 هُوَ الصَّحِيحُ حَسْبَمَا يَأْتِي فِي الْفَضْلِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَالرَّجُلُ قَدْ رَأَسَ سَائِرَ  
 الْمَضَامِدِ وَدَانُوا بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِنْقِيَادِ إِلَيْهِ وَإِلَى عِصَابَتِهِ مِنْ هَرَعَةٍ حَتَّى تَمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِي  
 دَعْوَتِهِ فَاغْلَمَ أَنَّ هَذَا النِّسْبَ الْفَاطِمِيَّ لَمْ يَكُنْ أَمْرُ الْمَهْدِيِّ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ وَلَا اتَّبَعَهُ  
 النَّاسُ بِسَبَبِهِ وَإِنَّمَا كَانَ اتِّبَاعُهُمْ لَهُ بِعِصْبِيَّةِ الْهَرَعِيَّةِ وَالْمُضْمُودِيَّةِ وَمَكَانِهِ مِنْهَا  
 وَرُسُوحُ شَجَرَتِهِ فِيهَا وَكَانَ ذَلِكَ النِّسْبَ الْفَاطِمِيَّ خَفِيًّا قَدْ دَرَسَ عِنْدَ النَّاسِ وَبَقِيَ  
 عِنْدَهُ وَعِنْدَ عَشِيرَتِهِ يَتَنَاقَلُونَهُ بَيْنَهُمْ فَيَكُونُ النِّسْبَ الْأَوَّلُ كَأَنَّهُ انْسَلَخَ مِنْهُ وَلَيْسَ  
 جِلْدَةٌ هُوَ لَاءٌ وَظَهَرَ فِيهَا فَلَا يَبْصُرُهُ الْإِنْتِسَابَ الْأَوَّلُ فِي عِصْبِيَّتِهِ إِذْ هُوَ مَجْهُولٌ عِنْدَ  
 أَهْلِ الْعِصَابَةِ وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ كَثِيراً إِذَا كَانَ النِّسْبَ الْأَوَّلُ خَفِيًّا وَأَنْظَرُ قِصَّةَ عَرْفَجَةَ  
 وَجَرِيرِ فِي رِئَاسَةِ بَيْحِلَةَ وَكَيْفَ كَانَ عَرْفَجَةُ مِنَ الْأَزْدِ وَلَيْسَ جِلْدَةٌ بِجَيْلَةٍ حَتَّى  
 تَنَازَعَ مَعَ جَرِيرِ رِئَاسَتَهُمْ عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا هُوَ مَذْكَورٌ تَتَقَرَّبُ مِنْهُ وَجْهَ

(١) بمعنى الامتناع عن النساء .

(٢) عضده : بكسر الضاد : بمعنى أعانه وكان له عضداً ( لسان العرب ) .

الْحَقَّ وَاللَّهَ الْهَادِيَ لِلصَّوَابِ وَقَدْ كِذَّبْنَا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ عَرْضِ الْكِتَابِ بِالْإِطْنَابِ فِي  
 هَذِهِ الْمَغَالِطِ فَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤَرِّخِينَ الْحَفَاطِ فِي مِثْلِ هَذِهِ  
 الْأَحَادِيثِ وَالْآرَاءِ وَعَلَقَتْ أَفْكَارُهُمْ وَتَقَلَّبَتْ عَنْهُمْ الْكَافَّةُ مِنْ ضَعْفَةِ النَّظَرِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ  
 الْقِيَاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضًا كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رُؤْيَةٍ وَأَنْدَرَجَتْ فِي مَخْفُوظَاتِهِمْ  
 حَتَّى صَارَ فَنُ التَّارِيخِ وَاهِيًا مُخْتَلِطًا وَنَاطِرُهُ مَرْتَبِكًا وَعُدُّ مِنْ مَنَاحِي الْعَامَّةِ فَإِذَا  
 يَخْتَاجُ صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ إِلَى الْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ السِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ الْمَوْجُودَاتِ وَاخْتِلَافِ  
 الْأُمَمِ وَالْبِقَاعِ وَالْأَعْصَارِ فِي السِّيَرِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَوَائِدِ وَالنَّحْلِ وَالْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ  
 الْأَحْوَالِ وَالْإِحَاطَةِ بِالْحَاضِرِ مِنْ ذَلِكَ وَمِمَّا تَلَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْغَائِبِ مِنَ الْوَفَاقِ أَوْ  
 بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ الْمُتَّفِقِ مِنْهَا وَالْمُخْتَلِفِ وَالْقِيَامِ عَلَى أَصُولِ  
 الدُّوَلِ وَالْمَلِكِ وَمَبَادِيءِ ظُهُورِهَا وَأَسْبَابِ خُدُوثِهَا وَذَوَاعِي كَوْنِهَا وَأَحْوَالِ الْقَائِمِينَ  
 بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِبًا لِأَسْبَابِ كُلِّ خَبْرِهِ وَحِينَئِذٍ يَغْرُضُ خَبَرَ  
 الْمُنْقُولِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَالْأَصُولِ فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ  
 صَحِيحًا وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَاسْتَفْنَى عَنْهُ وَمَا اسْتَكْبَرَ الْقُدَمَاءُ عِلْمَ التَّارِيخِ إِلَّا لِذَلِكَ حَتَّى  
 انْتَحَلَهُ الطَّبْرِيُّ وَالبُخَارِيُّ وَابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالَهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَقَدْ  
 ذَهَلَ الْكَثِيرُ عَنْ هَذَا السَّرْفِيهِ حَتَّى صَارَ انْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً<sup>(١)</sup> وَاسْتَخَفَّ الْعَوَامُ وَمَنْ  
 لَا رُسُوخَ لَهُ فِي الْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَخَمَلَهُ وَالْخَوْضُ فِيهِ وَالتَّطَفُّلُ عَلَيْهِ فَاخْتَلَطَ  
 الْمَرْعِيُّ بِالْمَهْمَلِ<sup>(٢)</sup> وَاللَّبَّابُ بِالْقَشْرِ وَالصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمَنْ  
 الْعَلَطُ الْخَفِيُّ فِي التَّارِيخِ الدُّهُولُ عَنْ تَبْدُلِ الْأَحْوَالِ فِي الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ يَتَبَدَّلُ  
 الْأَعْصَارُ وَمُزُورِ الْأَيَّامِ وَهُوَ دَاءٌ دَوِيٌّ شَدِيدُ الْخَفَاءِ إِذْ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ أَحْقَابِ  
 مَتَطَاوِلَةٍ فَلَا يَكَادُ يَنْفُطُنُ لَهُ إِلَّا الْآحَادُ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَحْوَالِ الْعَالَمِ  
 وَالْأُمَمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَنَحْلَهُمْ لَا تَدُومُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَا جُ مُسْتَقَرٌّ إِنَّمَا هُوَ اخْتِلَافٌ  
 عَلَى الْأَيَّامِ وَالْأَزْمِنَةِ وَانْتِقَالَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَكَمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَشْخَاصِ

(١) المجهولة ، ما يحملك على الجهل ( قاموس )

(٢) هو مثل جيد لاختلاط الجيد بالقيبح

وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَمْصَارِ فَكَذَلِكَ يَقَعُ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَقْطَارِ وَالْأَزْمِنَةِ وَالذُّوَلِ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي  
قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَقَدْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ أُمَّمَ الْفَرَسِ الْأُولَى وَالسَّرْيَانِيُونَ وَالنَّبَطُ  
وَالتَّبَاعَةُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْقَبِطُ وَكَانُوا عَلَى أحوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دُولِهِمْ وَمَمَالِكِهِمْ  
وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ<sup>(١)</sup> وَلِغَايَتِهِمْ وَاصْطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرِ مُشَارَكَاتِهِمْ مَعَ أبنَاءِ جَنَسِهِمْ  
وَأحوَالِ اعْتِمَارِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا آثارُهُمْ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمُ الْفَرَسُ الثَّانِيَةُ وَالرُّومُ  
وَالعَرَبُ فَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأحوَالُ وَانْقَلَبَتْ بِهَا الْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُجَانِسُهَا أَوْ يُشَابِهُهَا  
وَالى مَا يُبَايِنُهَا أَوْ يُبَاعِدُهَا ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِدَوْلَةٍ مُضَرَّ فَانْقَلَبَتْ تِلْكَ الْأحوَالُ  
أَجْمَعُ انْقِلَابَةً أُخْرَى وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارِفٍ لِهَذَا الْعَهْدِ يَأْخُذُهُ الْخَلْفُ عَنِ  
السُّلْفِ ثُمَّ دَرَسَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَأَيَامُهُمْ وَذَهَبَتْ الْأَسْلَافُ الَّذِينَ شَيَّدُوا عِزَّهُمْ وَمَهَّدُوا  
مُلْكَهُمْ وَصَارَ الْأَمْرُ فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْعَجَمِ مِثْلِ التُّرْكِ بِالمَشْرِقِ وَالبَرْبَرِ  
بِالمَغْرِبِ وَالفَرَنْجَةِ بِالشَّمَالِ فَذَهَبَتْ بِذَهَابِهِمْ أُمَّمٌ وَانْقَلَبَتْ أحوَالٌ وَعَوَائِدُ نَسِي  
شَانَهَا وَأَغْفَلَ أَمْرُهَا وَالسَّبَبُ الشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ الْأحوَالِ وَالْعَوَائِدِ أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ  
تَابِعَةٌ لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ الْحِكْمِيَّةِ النَّاسُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ وَأَهْلُ  
الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ إِذَا اسْتَوْلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْأَمْرِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَفْزَعُوا إِلَى<sup>(٢)</sup> عَوَائِدِ  
مَنْ قَبْلَهُمْ وَيَأْخُذُونَ الكَثِيرَ مِنْهَا وَلَا يُغْفَلُونَ عَوَائِدَ جِيلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ  
الدَّوْلَةِ بَعْضُ الْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ الْجِيلِ الْأَوَّلِ فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ  
وَمَزَجَتْ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا خَالَفَتْ أَيْضاً بَعْضَ الشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلأُولَى أَشَدَّ  
مُخَالَفَةً ثُمَّ لَا يَزَالُ التَّدْرِيجُ فِي الْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمُبَايَنَةِ بِالْجُمْلَةِ فَمَا  
دَامَتِ الأُمَّمُ وَالْأَجْيَالُ تَتَعاقَبُ فِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ لَا تَزَالُ الْمُخَالَفَةُ فِي الْعَوَائِدِ  
وَالْأحوَالِ وَاقِعَةً . وَالْقِيَاسُ وَالْمُحَاكَاةُ لِلإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمِنَ الْغَلْطِ غَيْرُ  
مَأْمُونَةٍ تُخْرِجُهُ مَعَ الذُّهُولِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ قُصْدِهِ وَتَعَوُّجُ بِهِ<sup>(٣)</sup> عَنِ مَرَامِهِ فَرُبَّمَا يَسْمَعُ

(١) صنائع : جمع صناعة . وجمع صنيعه بمعنى الإحسان ( قاموس ) .

(٢) وفي بعض النسخ ( لابد وأن ) وهو تركيب غير فصيح وقد استعمله ابن خلدون كثيراً في كتابه  
والأصح استعمال « لا بد أن . . . » وفتح على معنى : لجأ إلى .

(٣) بمعنى ترجع به . . .

السَّمْعُ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ وَلَا يَنْفَطِنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَانْقِلَابِهَا  
فَيُخْرِجُهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى مَا عَرَفَ وَيَقِيْسُهَا بِمَا شَهِدَ وَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيرًا  
فَيَقَعُ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ الْغَلَطِ فَمِنْ هَذَا النَّبَابِ مَا يَنْقُلُهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَحْوَالِ الْحَجَّاجِ  
وَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مِنَ الْمُعَلِّمِينَ مَعَ أَنَّ التَّغْلِيمَ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَةِ  
الْبَعِيدَةِ مِنْ اغْتِرَازِ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَالْمُعَلِّمِ مُسْتَضْعَفٍ مَسْكِينٍ مُنْقَطِعِ الْجُذْمِ<sup>(١)</sup>  
فَيَتَشَوَّفُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ أَهْلَ الْحِرْفِ وَالصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَةِ إِلَى نَيْلِ الرَّتَبِ  
الَّتِي لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ وَيَعْدُونَهَا مِنَ الْمُمْكِنَاتِ لَهُمْ فَتَذْهَبُ بِهِمْ وَسَاوِسُ الْمَطَامِعِ  
وَرُبَّمَا انْقَطَعَ حَبْلُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ فَسَقَطُوا فِي مَهْوَاةِ الْهَلَكَةِ وَالتَّلَفِ وَلَا يَعْلَمُونَ  
اسْتِحَالَتَهَا فِي حَقِّهِمْ وَأَنَّ أَهْلَ حِرْفِ وَصَّنَائِعِ الْمَعَاشِ وَأَنَّ التَّغْلِيمَ صَدَرَ الْإِسْلَامِ  
وَالدُّوَلَتَيْنِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَلَمْ يَكُنِ الْعِلْمُ بِالْجُمْلَةِ صِنَاعَةً إِنَّمَا كَانَ نَقْلًا لِمَا سَمِعَ مِنَ  
الشَّارِعِ وَتَغْلِيمًا لِمَا جَهِلَ مِنَ الدِّينِ عَلَى جِهَةِ الْبَلَاغِ فَكَانَ أَهْلُ الْأَنْسَابِ  
وَالْعَصِيَّةِ الدِّينِ قَامُوا بِالْمِلَّةِ هُمْ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ عَلَى  
مَعْنَى التَّبْلِيغِ الْخَبْرِيِّ لَا عَلَى وَجْهِ التَّغْلِيمِ الصَّنَاعِيِّ إِذْ هُوَ كِتَابُهُمُ الْمُنزَلُ عَلَى  
الرُّسُولِ مِنْهُمْ وَبِهِ هَذَا يَأْتِيهِمْ وَالْإِسْلَامُ دِينُهُمْ فَاتَّلَوْا عَلَيْهِ وَقَتَّلُوا وَاخْتَصَمُوا بِهِ مِنْ بَيْنِ  
الْأُمَّمِ وَشَرَفُوا فَيُخْرِصُونَ عَلَى تَبْلِيغِ ذَلِكَ وَتَفْهِيمِهِ لِلْأُمَّةِ لَا تُصَدِّهُمُ عَنْهُ لَأِئِمَّةُ الْكَبِيرِ  
وَلَا يَزْعُمُهُ عَادِلُ الْأَنْفَةِ وَيَشْهَدُ لَذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيَّ ﷺ كِبَارَ أَضْحَايِهِ مَعَ وَفُودِ  
الْعَرَبِ يُعَلِّمُونَهُمْ حُدُودَ الْإِسْلَامِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ بَعَثَ فِي ذَلِكَ مِنْ  
أَضْحَايِهِ الْعَشْرَةَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ فَمَا اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ وَوَشَّجَتْ عُرُوقُ الْمِلَّةِ حَتَّى تَنَاوَلَهَا  
الْأُمَّمُ الْبَعِيدَةُ مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا وَاسْتَحَالَتْ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ أَحْوَالَهَا وَكَثُرَ اسْتِنْبَاطُ  
الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النُّصُوصِ لِتَعَدُّدِ الْوَقَائِعِ وَتَلَاخُفِهَا فَاخْتَجَّ ذَلِكَ لِقَانُونٍ  
يَحْفَظُهُ مِنَ الْخَطَا وَصَارَ الْعِلْمُ مَلَكَةً يَخْتَجُّ إِلَى التَّعَلُّمِ فَاصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ  
وَالْحِرْفِ كَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي فَضْلِ الْعِلْمِ وَالتَّغْلِيمِ وَاسْتَعْمَلَ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ بِالْقِيَامِ

(١) الجذم ، الأصل ( قاموس ) .

بِالْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ فَدَفَعَ لِعَلِمٍ مِنْ قَامَ بِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأُضْبِحَ حِرْفَةً لِلْمَعَاشِ وَشَمَخَتْ  
 أَنْوْفُ الْمُتَرَفِّينَ وَأَهْلِ السُّلْطَانِ عَنِ التَّصَدِّي لِلتَّغْلِيمِ وَاخْتَصَّ انْتِحَالَهُ بِالْمُسْتَضْعَفِينَ  
 وَصَارَ مُنْتَحَلُهُ مُخْتَقراً عِنْدَ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَالْمَلِكِ وَالْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ كَانَ أَبُوهُ  
 مِنْ سَادَاتِ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافِهِمْ وَمَكَانَتُهُمْ مِنْ عَصِيَّةِ الْعَرَبِ وَمُنَاهِضَةُ قُرَيْشٍ فِي الشَّرَفِ  
 مَا عَلِمْتَ وَلَمْ يَكُنْ تَغْلِيمُهُ لِلْقُرْآنِ عَلَى مَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَنَّهُ حِرْفَةٌ  
 لِلْمَعَاشِ وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنَ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ فِي الْإِسْلَامِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضاً  
 مَا يَتَوَهَّمُهُ الْمُتَضَفِّحُونَ لِكُتُبِ التَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا أَحْوَالَ الْقَضَاءِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ  
 الرَّئَاسَةِ فِي الْحُرُوبِ وَقُودِ الْعَسَاكِرِ فَتَتَرَامَى بِهِمْ وَسَاوَسَ الْهَيْمَمِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الرَّئِيبِ  
 يَحْسَبُونَ أَنَّ الشَّانَ خِطَّةُ الْقَضَاءِ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ وَيَطْنُونَ

بِابْنِ أَبِي عَامِرٍ صَاحِبِ<sup>(١)</sup> هِشَامِ الْمُسْتَبَدِّ عَلَيْهِ وَابْنِ عَبَّادٍ مِنْ مُلُوكِ الطُّوَائِفِ  
 بِإِسْبِيلِيَّةٍ إِذَا سَمِعُوا أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا قَضَاءً أَنَّهُمْ مِثْلُ الْقَضَاءِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا يَتَفَتَّنُونَ  
 لِمَا وَقَعَ فِي رُتْبَةِ الْقَضَاءِ مِنْ مُخَالَفَةِ الْعَوَائِدِ كَمَا تُبَيِّنُهُ فِي فَضْلِ الْقَضَاءِ مِنَ الْكِتَابِ  
 الْأَوَّلِ وَابْنُ أَبِي عَامِرٍ وَابْنُ عَبَّادٍ كَانَا مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ  
 بِالْأَنْدَلُسِ وَأَهْلِ عَصِيَّتَيْهَا وَكَانَ مَكَانَتُهُمْ فِيهَا مَعْلُوماً وَلَمْ يَكُنْ نَيْلُهُمْ لِمَا نَالُوهُ مِنْ  
 الرَّئَاسَةِ وَالْمَلِكِ بِخِطَّةِ الْقَضَاءِ كَمَا هِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ بَلْ إِنَّمَا كَانَ الْقَضَاءُ فِي الْأَمْرِ  
 الْقَدِيمِ لِأَهْلِ الْعَصِيَّةِ مِنْ قَبِيلِ<sup>(٢)</sup> الدَّوْلَةِ وَمَوَالِيهَا كَمَا هِيَ الْوِزَارَةُ لِعَهْدِنَا بِالْمَغْرِبِ  
 وَأَنْظَرُ خُرُوجَهُمْ بِالْعَسَاكِرِ فِي الطُّوَائِفِ<sup>(٣)</sup> وَتَقْلِيدَهُمْ عِظَائِمَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَقْلُدُ إِلَّا  
 لِمَنْ لَهُ الْغِنَى<sup>(٤)</sup> فِيهَا بِالْعَصِيَّةِ فَيَغْلَطُ السَّمِيعُ فِي ذَلِكَ وَيَحْمِلُ الْأَحْوَالَ عَلَى غَيْرِ  
 مَا هِيَ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِي هَذَا الْغَلَطِ ضَعْفَاءُ الْبَصَائِرِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ . وأظنها تحريف من الناسخ وصوابها (حاجب هشام) وهشام هذا هو  
 أحد ملوك الأندلس . وكان ابن أبي عامر حاجباً له .

(٢) بمعنى جماعة الدولة .

(٣) كذا بالأصل في جميع النسخ والغالب أنه تحريف عن « صوائف » وهي غزوات الصين .

(٤) كذا بالأصل في جميع النسخ ولا معنى لها هنا والصحيح : الفناء بمعنى الاجزاء والكفاية .



لِفَقْدَانِ الْعَصِيَّةِ فِي مَوَاطِنِهِمْ مِنْذُ أَعْصَارِ بَعِيْذَةِ يَفْنَاءِ الْعَرَبِ وَدَوْلَتِهِمْ بِهَا وَخُرُوجِهِمْ  
عَنْ مَلِكَةِ أَهْلِ الْعَصِيَّاتِ <sup>(١)</sup> مِنَ الْبَرْبَرِ فَبَقِيَتْ أَنْسَابُهُمُ الْعَرَبِيَّةُ مَحْفُوظَةً وَالذَّرِيْعَةُ  
إِلَى الْعِزِّ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَالْتِنَاصِرُ مَفْقُودَةٌ بَلْ صَارُوا مِنْ جُمْلَةِ الرُّعَايَا الْمُتَخَادِلِينَ  
الَّذِينَ تَعَبَّدَهُمُ الْقَهْرُ وَرَتَّمُوا لِلْمَدْلَةِ <sup>(٢)</sup> يَخْسِبُونَ أَنَّ أَنْسَابَهُمْ مَعَ مُخَالَطَةِ الدَّوْلَةِ هِيَ  
الَّتِي يَكُونُ لَهُمْ بِهَا الْغَلْبُ وَالتَّحْكُمُ فَتَجِدُ أَهْلَ الْحَرْفِ وَالصَّنَائِعِ مِنْهُمْ مُتَّصِدِينَ  
لِلذَلِكَ سَاعِينَ فِي نَيْلِهِ فَأَمَّا مَنْ بَاشَرَ أحوَالَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصِيَّةِ وَدَوْلَتِهِمْ بِالْعُدْوَةِ  
الغَرَبِيَّةِ وَكَيْفَ يَكُونُ التَّغْلُبُ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالْعَشَائِرِ فَقَلَّمَا يَغْلُطُونَ فِي ذَلِكَ  
وَيُخْطِئُونَ فِي اعْتِبَارِهِ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضاً مَا يَسْلُكُهُ الْمُؤَرِّخُونَ عِنْدَ ذِكْرِ الدُّوَلِ  
وَنَسَبِ مُلُوكِهَا فَيَذْكُرُونَ اسْمَهُ وَنَسَبَهُ وَأَبَاهُ وَأُمَّهُ وَنِسَاءَهُ وَقَبَهُ وَخَاتَمَهُ وَقَاضِيَهُ  
وَحَاجِبَهُ وَوَزِيرَهُ كُلَّ ذَلِكَ تَقْلِيدٌ لِمُؤَرِّخِي الدَّوَلَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَفْطِنٍ لِمَقَاصِدِهِمْ  
وَالْمُؤَرِّخُونَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ كَانُوا يَضَعُونَ تَوَارِيخَهُمْ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَأَبْنَاءُهَا مُتَشَوِّقُونَ  
إِلَى سِيرِ أَسْلَافِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أحوَالِهِمْ لِيَقْتَفُوا آثَارَهُمْ وَيَنْسَجُوا عَلَى مَنَوَالِهِمْ حَتَّى فِي  
أَصْطِنَاعِ الرِّجَالِ مِنْ خَلْفِ دَوْلَتِهِمْ وَتَقْلِيدِ الْخَطِّ وَالْمَرَاتِبِ لِأَبْنَاءِ صَنَائِعِهِمْ  
وَدَوِيهِمْ وَالْقَضَاةِ أَيْضاً كَانُوا مِنْ أَهْلِ عَصِيَّةِ الدَّوْلَةِ وَفِي عِدَادِ الْوُزَرَاءِ كَمَا ذَكَرْنَا  
لَكَ فَيَحْتَاجُونَ إِلَى ذِكْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَمَّا حِينَ تَبَايَنَتِ الدُّوَلُ وَتَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الْعُصُورِ  
وَوَقَفَ الْغَرَضُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُلُوكِ بِأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً وَنَسَبِ الدُّوَلِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ فِي

(١) العصبية بفتح العين التعصب وهو أن يذنب الرجل عن حريم صاحبه ويشمر عن ساق الجد في نصره  
منسوبة إلى العصب محرركة وهم أقارب الرجل من قبل أبيه لأنهم هم الذابون عن حريم من هو منتهاهم وهي بهذا  
المعنى ممدوحة وإما العصبية للدمومة في الحديث الجامع الصغير ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل  
على عصبية فهي تعصب رجال لقبيلة على رجال لقبيلة أخرى لغير ديانة كما كان يقع من قيام سعد على حرام  
نسبة إلى العصبية بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير أقاربه ظالماً كان أو مظلوماً وفي الفتاوي  
الخيرية من مواعقبول الشهادة العصبية وهي أن يبغض الرجل الرجل لأنه من بني فلان أو من قبيلة كذا والوجه  
في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم ففي الحديث ليس منا من دعى إلى عصبية وهو موجب للفسق ولا شهادة  
لمرتكبه . قاله الأستاذ أبو الوفا .

(٢) في القاموس ، يقولون ، « هو رؤوم للضميم أي دليل راضي بالخسف » وهذه العبارة قليلة الاستعمال .  
والأصح ، رتموا المدلثة بمعنى القواها .

قُوَّتَهَا وَعَظَمَتَهَا وَمَنْ كَانَ يُنَاهِضُهَا مِنَ الْأَمَمِ أَوْ يَقْصُرُ عَنْهَا فَمَا الْفَائِدَةُ لِلْمُصَنِّفِ فِي  
هَذَا الْعَهْدِ فِي ذِكْرِ الْأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ وَنَقَشِ الْخَاتَمِ وَاللَّقَبِ وَالْقَاضِي وَالْوَزِيرِ وَالْحَاجِبِ  
مِنْ دَوْلَةِ قَدِيمَةٍ لَا يَعْرِفُ فِيهَا أَصُولَهُمْ وَلَا أَنْسَابَهُمْ وَلَا مَقَامَاتِهِمْ إِنَّمَا حَمَلْتُمْ عَلَى  
ذَلِكَ التَّقْلِيدِ وَالْمُفْلِتَةَ عَنْ مَقَاصِدِ الْمُؤَلِّفِينَ الْأَقْدَمِينَ وَالذُّهُولَ عَنْ تَحْرِي الْأَعْرَاضِ  
مِنَ التَّارِيخِ اللَّهْمُ إِلَّا ذَكَرَ الْوُزَرَاءَ الَّذِينَ عَظَمَتِ آثَارُهُمْ وَعَفَّتْ <sup>(١)</sup> عَلَى الْمُلُوكِ  
أَخْبَارُهُمْ كَالْحِجَاجِ وَبَنِي الْمَهَلْبِ وَالتَّبْرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوبَخْتِ وَكَافُورِ  
الْأَخْشِيدِيِّ وَابْنِ أَبِي عَامِرٍ وَأُمَّثَالِهِمْ فَغَيْرَ نَكِيرِ الْأَلْمَاعِ بِأَبَائِهِمْ وَالْإِشَارَةَ إِلَى أَحْوَالِهِمْ  
لَا تَنْتَظِمُهُمْ فِي عِدَادِ الْمُلُوكِ . وَلِنَذَكُرْ هُنَا فَائِدَةً نَخْتِمُ كَلَامَنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ بِهَا وَهِيَ  
أَنَّ التَّارِيخَ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ الْأَخْبَارِ الْخَاصَّةِ بِعَضْرِ أَوْ جِيلٍ فَأَمَّا ذِكْرُ الْأَحْوَالِ الْعَامَّةِ  
لِلْأَفَاقِ وَالْأَجْيَالِ وَالْأَعْصَارِ فَهُوَ أَسُّ لِلْمُؤَرِّخِ تَنْبِيهِ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مَقَاصِدِهِ وَتَنْبِيْنُ بِهِ  
أَخْبَارَهُ وَقَدْ كَانَ النَّاسُ يُفَرِّدُونَهُ بِالتَّالِيفِ كَمَا فَعَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ فِي كِتَابِ مُرُوجِ  
الذَّهَبِ شَرَحَ فِيهِ أَحْوَالَ الْأَمَمِ وَالْأَفَاقِ لِعَهْدِهِ فِي عَضْرِ الثَّلَاثِينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ غَرْبًا  
وَشَرْقًا وَذَكَرَ نَحْلَهُمْ وَعَوَائِدَهُمْ وَوَصَفَ الْبُلْدَانَ وَالْجِبَالَ وَالْبَحَارَ وَالْمَمَالِكَ وَالدُّوَلِ  
وَفَرَّقَ شُعُوبَ الْعَرَبِ وَالْمَعْجَمَ فَصَارَ إِمَامًا لِلْمُؤَرِّخِينَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَأَصْلًا يُعُولُونَ فِي  
تَحْقِيقِ الْكَثِيرِ مِنْ أَخْبَارِهِمْ عَلَيْهِ ثُمَّ جَاءَ الْبَكْرِيُّ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي  
الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَحْوَالِ لِأَنَّ الْأَمَمَ وَالْأَجْيَالَ لِعَهْدِهِ لَمْ  
يَقَعْ فِيهَا كَثِيرٌ ائْتَقَالَ وَلَا عَظِيمٌ تَغْيِيرٌ وَأَمَّا لِهَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ آخِرُ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ فَقَدْ  
انْقَلَبَتْ أَحْوَالَ الْمَغْرِبِ الَّذِي نَحْنُ شَاهِدُوهُ وَتَبَدَّلَتْ بِالْجُمْلَةِ وَاعْتَاضَ مِنْ أَجْيَالِ  
الْبَرْبَرِ أَهْلُهُ عَلَى الْقَدَمِ بِمَا طَرَأَ فِيهِ مِنْ لَدُنِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ أَجْيَالِ الْعَرَبِ بِمَا  
كَسَرُوهُمْ وَعَلَبُوهُمْ وَانْتَزَعُوا مِنْهُمْ عَامَّةَ الْأَوْطَانِ وَشَارَكُوهُمْ فِيهَا بَقِيَ مِنَ الْبُلْدَانِ  
لِمَلِكِهِمْ هَذَا إِلَى مَا نَزَلَ بِالْعُمُرَانِ شَرْقًا وَغَرْبًا فِي مُنْتَصَفِ هَذِهِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ  
الطَّاعُونَ الْجَارِفِ الَّذِي تَحْيَفُ الْأَمَمَ وَذَهَبَ بِأَهْلِ الْجِيلِ وَطَوَى كَثِيرًا مِنْ مَحَاسِنِ

(١) عفا عليه : زاد ( قاموس ) .

الْعُمْرَانَ وَمَحَاها وَجَاءَ لِلدُّوْلِ عَلَى حِينِ هَرَمِها وَبُلُوغِ الْغَايَةِ مِنْ مَذَاها فَقَلَصَ مِنْ  
 ظِلَالِها وَقَلَّ مِنْ حَدِّها وَأَوْهَنَ مِنْ سُلْطَانِها وَتَدَاعَتْ إِلَى التَّلَاشِي وَالْاضْمِخْلَالَ  
 أَمْوَالِها وَأَنْتَقَضَ عُمْرَانُ الْأَرْضِ بِانْتِقَاضِ الْبَشَرِ فَخَرَبَتِ الْأَمْصَارُ وَالْمَصَانِعُ وَدَرَسَتِ  
 السُّبُلُ وَالْمَعَالِمُ وَخَلَّتِ الدِّيَارُ وَالْمَنَازِلُ وَضَعْفَتِ الدُّوُلُ وَالْقَبَائِلُ وَتَبَدَّلَ السَّاكِنُ  
 وَكَانَتِي بِالْمَشْرِقِ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِالْمَغْرِبِ لَكِنْ عَلَى نَسْبَتِهِ وَمَقْدَارِ عُمْرَانِهِ  
 وَكَأَنَّمَا نَادَى لِسَانَ الْكُؤُنِ فِي الْعَالَمِ بِالْخُمُولِ وَالْانْتِقِاضِ فَبَادَرَ بِالِإِجَابَةِ وَاللَّهُ  
 وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْها وَإِذَا تَبَدَّلَتِ الْأَحْوَالُ جُمْلَةً فَكَأَنَّمَا تَبَدَّلَ الْخَلْقُ مِنْ أَصْلِهِ  
 وَتَحَوَّلَ الْعَالَمُ بِأَسْرِهِ وَكَأَنَّهُ خَلَقَ جَدِيدًا وَنَشَأَ مُسْتَأَنَفَةً وَعَالَمٌ مُحَدَّثٌ فَاحْتِاجَ لِهَذَا  
 الْعَهْدِ مَنْ يَدُونُ أَحْوَالِ الْخَلِيقَةِ وَالْآفَاقِ وَأَجْيَالِها وَالْعَوَائِدِ وَالنَّحْلِ الَّتِي تَبَدَّلَتْ  
 لِأَهْلِها وَيَقْفُو مَسْئَلِكَ الْمَسْعُودِيِّ لِعَضْرِهِ لِيَكُونَ أَصْلًا يَقْتَدِي بِهِ مَنْ يَأْتِي مِنْ  
 الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَا ذَاكِرِي فِي كِتَابِي هَذَا مَا أَمَكَّنِي مِنْهُ فِي هَذَا الْقَطْرِ الْمَغْرِبِيِّ  
 إِمَّا صَرِيحًا أَوْ مُنْدَرَجًا فِي أَخْبَارِهِ وَتَلْوِيحًا لِإِحْتِصَاصِ قَضِيي فِي التَّأْلِيفِ بِالْمَغْرِبِ  
 وَأَحْوَالِ أَجْيَالِهِ وَأَمَمِهِ وَذَكَرَ مَمَالِكِهِ وَدَوْلَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَقْطَارِ لِعَدَمِ الطَّلَاعِي  
 عَلَى أَحْوَالِ الْمَشْرِقِ وَأَمَمِهِ وَأَنَّ الْأَخْبَارَ الْمُتَنَاقِلَةَ لَا تَقْيِي كُنْهَ مَا أُرِيدُهُ مِنْهُ  
 وَالْمَسْعُودِيُّ إِنَّمَا اسْتَوْفَى ذَلِكَ لِبُعْدِ رَحْلَتِهِ وَتَقْلِبِهِ فِي الْبِلَادِ كَمَا ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ مَعَ  
 أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْرِبَ قَصَرَ فِي اسْتِيفَاءِ أَحْوَالِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ وَمَرَدُّ الْعِلْمِ كُلِّهِ  
 إِلَى اللَّهِ وَالْبَشَرُ عَاجِزٌ قَاصِرٌ وَالْإِعْتِرَافُ مُتَعَيِّنٌ وَاجِبٌ وَمَنْ كَانَ اللَّهُ فِي عَوْنِهِ تَيَسَّرَتْ  
 عَلَيْهِ الْمَذَاهِبُ وَأُنْجِحَتْ لَهُ الْمَسَاعِي وَالْمَطَالِبُ وَنَحْنُ آخِذُونَ بِعَوْنِ اللَّهِ فِيمَا رُمْنَا  
 مِنْ أَغْرَاضِ التَّأْلِيفِ وَاللَّهُ الْمُسَدِّدُ وَالْمُعِينُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَقْدِمَ  
 مَقْدَمَةً فِي كَيْفِيَّةِ وَضْعِ الْحُرُوفِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ لُغَاتِ الْعَرَبِ إِذَا عَرَضَتْ فِي كِتَابِنَا  
 هَذَا .

إَعْلَمُ أَنَّ الْحُرُوفَ فِي النُّطْقِ كَمَا يَأْتِي شَرْحُهُ بَعْدُ هِيَ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ  
 الْخَارِجَةِ مِنَ الْحَنْجَرَةِ تَعْرِضُ مِنْ تَقْطِيعِ الصَّوْتِ بِقَرَعِ اللَّهَاءِ وَأَطْرَافِ اللِّسَانِ مَعَ

الْحَنَكِ وَالْحَلْقِ وَالْأَضْرَاسِ أَوْ بَقْرَعِ الشَّفَتَيْنِ أَيْضًا فَتَتَغَايَرُ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ  
بِتَغَايَرِ ذَلِكَ الْقَرْعِ وَتَجِيءُ الْحُرُوفُ مُتَمَايِزَةً فِي السَّمْعِ وَتَتَرَكَّبُ مِنْهَا الْكَلِمَاتُ  
الِدَالَّةُ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ وَلَيْسَتْ الْأَمَمُ كُلُّهَا مُتَسَاوِيَةً فِي النُّطْقِ يَتَلَكَّ الْحُرُوفُ فَقَدْ  
يَكُونُ لِأَمَةٍ مِنَ الْحُرُوفِ مَا لَيْسَ لِأَمَةٍ أُخْرَى وَالْحُرُوفُ الَّتِي نَطَقْتُ بِهَا الْعَرَبُ  
هِيَ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا كَمَا عَرَفْتُ وَنَجِدُ لِلْعِبْرَانِيِّينَ حُرُوفًا لَيْسَتْ فِي لُغَتِنَا وَفِي  
لُغَتِنَا أَيْضًا حُرُوفٌ لَيْسَتْ فِي لُغَتِهِمْ وَكَذَلِكَ الْإِفْرَنْجِيُّ وَالْتُرْكِيُّ وَالْبَرْبَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ هَؤُلَاءِ مِنْ  
الْعَجَمِ ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْعَرَبِ اضْطَلَحُوا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى حُرُوفِهِمِ الْمَسْمُوعَةِ  
بِأَوْضَاعِ حُرُوفِ مَكْتُوبِيَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ بِأَشْخَاصِهَا كَوَضْعِ الْهَاءِ وَبَاءِ وَجِيمِ وَرَاءِ وَطَاءِ إِلَى  
آخِرِ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ وَإِذَا عَرَضَ لَهُمُ الْحَرْفُ الَّذِي لَيْسَ مِنْ حُرُوفِ لُغَتِهِمْ بَقِيَ  
مُهْمَلًا عَنِ الدَّلَالَةِ الْكِتَابِيَّةِ مُغْفَلًا عَنِ الْبَيَانِ وَرُبَّمَا يَرْسُمُهُ بَعْضُ الْكُتَّابِ بِشَكْلِ  
الْحَرْفِ الَّذِي يَكْتَفِيهِ مِنْ لُغَتِنَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ وَلَيْسَ بِكَافٍ فِي الدَّلَالَةِ بَلْ هُوَ تَغْيِيرٌ  
لِلْحَرْفِ مِنْ أَصْلِهِ . وَلَمَّا كَانَ كِتَابُنَا مُشْتَمَلًا عَلَى أَخْبَارِ الْبَرْبَرِيِّ وَبَعْضِ الْعَجَمِ  
وَكَانَتْ تَعْرُضُ لَنَا فِي أَسْمَائِهِمْ أَوْ بَعْضِ كَلِمَاتِهِمْ حُرُوفٌ لَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ كِتَابَتِنَا وَلَا  
اضْطِلَاحَ أَوْضَاعِنَا اضْطَرَرْنَا إِلَى بَيَانِهِ وَلَمْ نَكْتَفِ بِرِسْمِ الْحَرْفِ الَّذِي يَلِيهِ كَمَا قُلْنَا  
لَأَنَّهُ عِنْدَنَا غَيْرُ وَافٍ بِالدَّلَالَةِ عَلَيْهِ فَاضْطَلَحْتُ فِي كِتَابِي هَذَا عَلَى أَنْ أَضَعُ ذَلِكَ  
الْحَرْفَ الْعَجَمِيَّ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْحَرْفَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكْتَفِيَانِهِ لِيَتَوَسَّطَ الْقَارِئُ بِالنُّطْقِ  
بِهِ بَيْنَ مَخْرَجِي ذَيْنِكَ الْحَرْفَيْنِ فَتَحْصَلَ تَأْدِيتهُ وَإِنَّمَا اقْتَبَسْتُ ذَلِكَ مِنْ رِسْمِ أَهْلِ  
الْمُضْحَفِ حُرُوفِ الْإِشْمَامِ كَالصَّرَاطِ فِي قِرَاءَةِ خَلْفٍ فَإِنَّ النُّطْقَ بِضَادِهِ فِيهَا مُعْجَمٌ  
مُتَوَسَّطٌ بَيْنَ الضَّادِ وَالزَّايِ فَوَضَعُوا الضَّادَ وَرَسَمُوا فِي دَاخِلِهَا شَكْلَ الزَّايِ وَدَلَّ ذَلِكَ  
عِنْدَهُمْ عَلَى التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ فَكَذَلِكَ رَسَمْتُ أَنَا كُلَّ حَرْفٍ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ  
حَرْفَيْنِ مِنْ حُرُوفِنَا كَالْكَافِ الْمُتَوَسِّطَةِ عِنْدَ الْبَرْبَرِيِّ بَيْنَ الْكَافِ الصَّرِيحَةِ عِنْدَنَا  
وَالْجِيمِ أَوْ الْقَافِ مِثْلَ اسْمِ بَلَكِينٍ فَاضْمَعَهَا كَافًا وَأَنْقَطَهَا بِنُقْطَةِ الْجِيمِ وَاحِدَةً مِنْ  
أَسْفَلٍ أَوْ بِنُقْطَةِ الْقَافِ وَاحِدَةً مِنْ فَوْقٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مُتَوَسَّطٌ بَيْنَ  
الْكَافِ وَالْجِيمِ أَوْ الْقَافِ وَهَذَا الْحَرْفُ أَكْثَرُ مَا يَجِيءُ فِي لُغَةِ الْبَرْبَرِيِّ وَمَا جَاءَ مِنْ

غَيْرِهِ فَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ أَضَعُ الْحَرْفَ الْمُتَوَسِّطَ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ لُقْتِنَا بِالْحَرْفَيْنِ مَعَا  
لِيَعْلَمَ الْقَارِئُ أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ فَيَنْطِقُ بِهِ كَذَلِكَ فَتَكُونُ قَدْ دَلَّلْنَا عَلَيْهِ وَلَوْ وَضَعْنَاهُ بِرَسْمِ  
الْحَرْفِ الْوَاحِدِ عَنْ جَانِبِهِ لَكُنَّا قَدْ صَرَفْنَاهُ مِنْ مَخْرَجِهِ إِلَى مَخْرَجِ الْحَرْفِ الَّذِي مِنْ  
لُقْتِنَا وَغَيْرِنَا لُغَةً الْقَوْمِ فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ (١)

(١) يعتبر ابن خلدون أول من حاول استخدام العلوم الاجتماعية والسياسية مجتمعة وتسخيرها لدراسة التاريخ . غير أنه لم يجد من يخلفه في الإسلام إلى أن جاءت المؤثرات الحديثة تؤثر في العالم الإسلامي وقد بامت بالفشل حتى اليوم كل محاولة لمعرفة المثال الذي احتذاه ابن خلدون في تفكيره ومن المحتمل انه كانت في بيئته . شمالي افريقيا وفي اسبانيا . أفكار تناقش أمامه بشكل أولي . غير أنه لا جدال في إبداعه الأساس . وقد ذكر ابداعه بقوة إذ قال « ونحن ألهمنا الله إلى ذلك الهاماً ، واعثرنا على علم بين بكرة وجهينة خيره . فان كنت قد استوفيت مسأله وميزت عن سائر الضائع أنظاره وأنجاهه . فتوفيق من الله وهداية . وان فاتني شيء من إحصائه واشتبهت بغيره مسأله فللتناظر المحقق اصلاحه ولي الفضل لأنني نهجت له السبيل وأوضح له الطريق . والله يهدي بنوره من يشاء » ويؤيد صدق قوله تواضعه الواضح . ثم انه ليس هناك مبرر للريبة بأبن خلدون عندما يقول ان مصادر الهامه هي أصول الفقه وكتب الآداب . فهو يقول « وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد مسائل تجري بالمرض لأهل العلوم في براهين علومهم من جنس مسأله بالموضوع والمطلب مثل ما يذكره الحكماء في اثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه الحاكم والوازع . ومثلما يذكر في أصول الفقه في باب اثبات اللغات أن الناس محتاجون للمبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وشأن العبارات أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تحليل الأحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا مخلط للأنساب مفسد للنوع والقتل أيضاً مفسد للنوع وان الظلم مؤذن بخراب العمران . . . » ولا شك أن أعظم ما قام به ابن خلدون هو تطبيق الأفكار السياسية والاجتماعية المبعثرة على التاريخ الذي يعتبره القوة الحية التي تربط الماضي بالحاضر بعملية واحدة مستمرة .

فالإنسان والبيئة والجهود الفردية والتنظيمات الاجتماعية كلها مادة أولية للتاريخ . حسب تحليل ابن خلدون العميق رغم تصفه أحياناً . وتحليل ابن خلدون هذا رغم امكان تفسيره على ضوء أسسه الإسلامية . إلا أنه أقرب إلى التوقف الفذ منه إلى مجرد وقفة عادية في مجرى علم التاريخ الإسلامي .

( علم التاريخ عند المسلمين ص ١٦٥ - ١٦٦ . فرانز روزنتال )

## الكتاب الأول

في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر  
والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من  
العلل والأسباب

إعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو  
عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس  
والفصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من  
الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش  
والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال . ولما  
كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه . فمنها التشيعات للآراء  
والمذاهب فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من  
التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه وإذا خامرها تشيع لرأي أو نخلة  
قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاءً على عين  
بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب وتقبله . ومن الأسباب  
المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يزرع إلى  
التعديل والتجريح . ومنها الدهور عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف  
القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب .  
ومنها توهم الصدق وهو كثير وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين ومنها  
الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبس والتصنع  
فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه . ومنها تقرب الناس

فِي الْأَكْثَرِ لِأَصْحَابِ التَّجَلَّةِ وَالْمَرَاتِبِ بِالشَّئَاءِ وَالْمَدْحِ وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ  
 الذِّكْرِ بِذَلِكَ فَيَسْتَفِيضُ الإِخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةِ فَالْنُفُوسُ مُوَلَّعَةٌ بِحُبِّ الشَّئَاءِ  
 وَالنَّاسُ مُتَطَلِّعُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاهِ أَوْ ثَرْوَةٍ وَلَيْسُوا فِي الْأَكْثَرِ بِرَاعِيَيْنِ فِي  
 الْفَضَائِلِ وَلَا مُتَنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا . وَمِنَ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ أَيْضًا وَهِيَ سَابِقَةٌ عَلَى  
 جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ الْجَهْلُ بِطَبَائِعِ الْأَحْوَالِ فِي الْعُمَرَانِ فَإِنَّ كُلَّ حَدِيثٍ مِنَ الْحَوَادِثِ  
 ذَاتًا كَانَ أَوْ فِعْلًا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ طَبِيعَةٍ تَخْصُهُ فِي ذَاتِهِ وَفِيمَا يَغْرُضُ لَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ فَإِذَا  
 كَانَ السَّمِيعُ عَارِفًا بِطَبَائِعِ الْحَوَادِثِ وَالْأَحْوَالِ فِي الْوُجُودِ وَمُقْتَضِيَاتِهَا أَعَانَهُ ذَلِكَ فِي  
 تَمْحِصِ الْخَبَرِ عَلَى تَمْيِيزِ الصِّدْقِ مِنَ الْكُذْبِ وَهَذَا أُبْلِغُ فِي التَّمْحِصِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ  
 يَغْرُضُ وَكَثِيرًا مَا يَغْرُضُ لِلْسَّامِعِينَ قَبُولَ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ وَيَنْقُلُونَهَا وَتُؤَثِّرُ عَنْهُمْ  
 كَمَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ عَنِ الإِسْكَانْدَرِ لَمَّا صَدَّتْهُ دَوَابُّ الْبَحْرِ عَنْ بِنَاءِ الإِسْكَانْدَرِيَّةِ  
 وَكَيْفَ اتَّخَذَ صُنْدُوقَ الرُّجَاجِ وَغَاصَ فِيهِ إِلَى قَعْرِ الْبَحْرِ حَتَّى صَوَّرَ تِلْكَ الدَّوَابَّ  
 الشَّيْطَانِيَّةَ الَّتِي رَأَاهَا وَعَمِلَ تَمَائِيلَهَا مِنْ أَجْسَادِ مَعْدِنِيَّةٍ وَنَصَبَهَا حِذَاءَ الْبِنْيَانِ فَمَرَّتْ  
 تِلْكَ الدَّوَابُّ حِينَ خَرَجَتْ وَعَايَنْتَهَا وَتَمَّ بِنَاؤُهَا فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ مِنْ أَحَادِيثِ  
 خُرَافَةِ مُسْتَحِيلَةٍ مِنْ قَبْلِ اتِّخَاذِهِ التَّابُوتِ الرُّجَاجِيِّ وَمُضَادَمَةِ الْبَحْرِ وَأَمْوَاجِهِ  
 بِجُزْمِهِ وَمَنْ قَبِلَ أَنَّ الْمَلُوكَ لَا تَحْمِلُ أَنْفُسَهَا عَلَى مِثْلِ هَذَا الْغُرُورِ <sup>(١)</sup> وَمَنْ اعْتَمَدَهُ  
 مِنْهُمْ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكَةِ وَانْتِقَاضِ الْعُقْدَةِ وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَى غَيْرِهِ وَفِي ذَلِكَ  
 إِتْلَافُهُ وَلَا يَنْظُرُونَ بِهِ رُجُوعَهُ مِنْ غُرُورِهِ <sup>(٢)</sup> ذَلِكَ طَرْفَةٌ عَيْنٍ وَمِنْ قَبْلِ أَنْ الْجِنُّ  
 لَا يَعْرِفُ لَهَا صُورًا وَلَا تَمَائِيلَ تَخْتَصُّ بِهَا إِنَّمَا هِيَ قَادِرَةٌ عَلَى التَّشْكِيلِ وَمَا يُذَكَّرُ  
 مِنْ كَثْرَةِ الرُّؤُوسِ لَهَا فَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْبَشَاعَةُ وَالتَّهْوِيلُ لَا أَنَّهُ حَقِيقَةٌ . وَهَذِهِ كُلُّهَا  
 قَادِحَةٌ فِي تِلْكَ الْحِكَايَةِ وَالْقَادِحُ الْمَحِيلُ لَهَا مِنْ طَرِيقِ الْوُجُودِ أُبَيِّنُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ  
 وَهُوَ أَنَّ الْمُنْعَمَسَ فِي الْمَاءِ وَلَوْ كَانَ فِي الصُّنْدُوقِ يَضِيقُ عَلَيْهِ الْهَوَاءُ لِلتَّنَفُّسِ الطَّبِيعِيِّ  
 وَتَسْخُنُ رُوحُهُ بِسُرْعَةٍ لِقَلْبَتِهِ فَيَفْقَدُ صَاحِبَهُ الْهَوَاءَ الْبَارِدَ الْمَعْدَّلَ لِمَزَاجِ الرُّوْحِ وَالرُّوحِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ الْغُرُورُ أَيُّ بِمَعْنَى تَعْرِيبِ النَّفْسِ لِلْهَلَاكِ .

(٢) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ وَمَقْتَضَى السِّيَاقِ ، أَغْرَرَهُ .

القلبي ويهلك مكانه وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمامات إذا أطبقت<sup>(١)</sup> عليهم عن الهواء البارد والمتدلين في الآبار والمطامير العميقة المهوى إذا سخن هواؤها بالفقونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها فإن المتدلي فيها يهلك لحيته وبهذا السبب يكون موت الحوت إذا فارق البحر فإن الهواء لا يكفيه في تعديل رثته إذ هو حار بإفراط والماء الذي يعدله بارداً والهواء الذي خرج إليه حاراً فيستولي الحار على روحه الحيواني ويهلك دفعةً ومنه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك ومن الأخبار المستحيلة ما نقله المسعودي أيضاً في تمثال الزرور الذي برومة تجتمع إليه الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم وانظر ما أبعد ذلك عن المجزى الطبيعي في اتخاذ الزيت . ومنها ما نقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتعل على عشرة آلاف باب والمدن إنما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله المسعودي أيضاً في حديث مدينة النحاس وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصخراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير في غزوته إلى المغرب وأنها مغلقة الأبواب وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص وصخراء سجلماسة قد نفّصها<sup>(٢)</sup> الركاب والأدلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر ثم إن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة منافية للأمور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وأن المعادن غاية الموجود منها أن يصرف في الآنية والخرثي<sup>(٣)</sup> وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد وأمثال ذلك كثيرة وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العفران وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق

(١) بمعنى دامت .

(٢) نفص المكان ، نظر جمع ما فيه حتى يتعرفه ( قاموس ) .

(٣) الخرثي بالضم أثاث البيت ( قاموس ) .



على التَّمْحِصِ بِتَعْدِيلِ الرُّوَاةِ وَلَا يُرْجَعُ إِلَى تَعْدِيلِ الرُّوَاةِ حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ  
الْخَبَرَ فِي نَفْسِهِ مُمَكِّنٌ أَوْ مُمْتَنَعٌ وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُسْتَحِيلًا فَلَا فَائِدَةَ لِلنَّظَرِ فِي التَّعْدِيلِ  
وَالتَّجْرِيعِ وَلَقَدْ عَدَّ أَهْلُ النَّظَرِ مِنَ الْمَطَاعِينَ فِي الْخَبْرِ اسْتِحَالَةَ مَدْلُولِ اللَّفْظِ وَتَأْوِيلَهُ  
بِمَا لَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ وَإِنَّمَا كَانَ التَّعْدِيلُ وَالتَّجْرِيعُ هُوَ الْمُعْتَبَرُ فِي صِحَّةِ الْأَخْبَارِ  
الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا تَكَالِيفُ إِنشَائِيَّةٌ <sup>(١)</sup> أَوْجِبَ الشَّارِعُ الْعَمَلَ بِهَا حَتَّى حَصَلَ  
الظَّنُّ بِصِدْقِهَا وَسَبِيلُ صِحَّةِ الظَّنِّ الثِّقَةُ بِالرُّوَاةِ بِالْعَدَالَةِ وَالصُّبْطِ . وَأَمَّا الْأَخْبَارُ عَنِ  
الْوَاقِعَاتِ فَلَا بُدَّ فِي صِدْقِهَا وَصِحَّتِهَا مِنْ اعْتِبَارِ الْمَطَابَقَةِ فَلِذَلِكَ وَجِبَ أَنْ يُنْظَرَ فِي  
إِمْكَانِ وَقُوعِهِ وَصَارَ فِيهَا ذَلِكَ أَهَمُّ مِنَ التَّعْدِيلِ وَمَقْدَمًا عَلَيْهِ إِذْ فَائِدَةُ الْإِنْشَاءِ  
مُقْتَبَسَةٌ مِنْهُ فَقَطُّ وَفَائِدَةُ الْخَبْرِ مِنْهُ وَمِنَ الْخَارِجِ بِالْمَطَابَقَةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَالْقَانُونُ  
فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ بِالْإِمْكَانِ وَالْإِسْتِحَالَةِ أَنْ نَنْظُرَ فِي الْإِجْتِمَاعِ  
الْبَشَرِيِّ الَّذِي هُوَ الْعُمْرَانُ وَنُمَيِّزَ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَيَمْتَقِضِي طَبِيعَهُ وَمَا  
يَكُونُ عَارِضًا لَا يُعْتَدُّ بِهِ وَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَغْرَضَ لَهُ وَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ لَنَا  
قَانُونًا فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ وَالصِّدْقِ مِنَ الْكُذِبِ بِوَجْهِ بُرْهَانِيٍّ  
لَا مَدْخَلَ لِلشُّكِّ فِيهِ وَحِينَئِذٍ إِذَا سَمِعْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ فِي الْعُمْرَانِ  
عَلِمْنَا مَا نَحْكُمُ بِقَبُولِهِ مِمَّا نَحْكُمُ بِتَرْيِيفِهِ وَكَانَ ذَلِكَ لَنَا مَعْيَارًا صَحِيحًا يَتَحَرَّى  
بِهِ الْمُؤَرِّخُونَ طَرِيقَ الصِّدْقِ وَالصُّوَابِ فِيمَا يَنْقُلُونَهُ وَهَذَا هُوَ غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ  
الْأَوَّلِ مِنْ تَأْلِيفِنَا وَكَأَنَّ هَذَا عِلْمٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ دُوْمَوْضُوعٌ وَهُوَ الْعُمْرَانُ الْبَشَرِيُّ  
وَالْإِجْتِمَاعُ الْإِنْسَانِيُّ وَدُوْمَسَائِلٌ وَهِيَ بَيَانُ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْعَوَارِضِ وَالْأَحْوَالِ  
لِذَاتِهِ <sup>(٢)</sup> وَاحِدَةٌ بَعْدَ أُخْرَى وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَضَعِيًّا كَانَ أَوْ عَقْلِيًّا .  
وَاعْلَمُ أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا الْغَرَضِ مُسْتَحْدَثُ الصَّنْعَةِ غَرِيبُ النَّزْعَةِ عَزِيزُ الْفَائِدَةِ اعْتَمَرَ  
عَلَيْهِ الْبَحْثُ وَأَدَّى إِلَيْهِ الْغَوْصُ وَلَيْسَ مِنْ عِلْمِ الْخِطَايَةِ إِنَّمَا هُوَ الْأَقْوَالُ الْمُقْبَعَةُ

(١) انشائية نسبة إلى انشاء وهو الذي يشمل الأمر والنهي وما شاكل وهو قابل الخبر ويقال جملة انشائية  
في مقابل جملة خبرية .

(٢) أي ما يلحق للمجتمع من العوارض والأحوال لذاته .

النَّافِعَةُ فِي اسْتِمَالَةِ الْجُمْهُورِ إِلَى رَأْيِ أَوْ صَدِّهِمْ عَنْهُ وَلَا هُوَ أَيْضًا مِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ  
الْمَدِينِيَّةِ إِذِ السِّيَاسَةُ الْمَدِينِيَّةُ هِيَ تَدْيِيرُ الْمَنْزِلِ أَوْ الْمَدِينَةِ بِمَا يَجِبُ بِمُقْتَضَى  
الْأَخْلَاقِ وَالْحِكْمَةِ لِيُخْمَلَ الْجُمْهُورُ عَلَى مِنْهَاجِ يَكُونُ فِيهِ حِفْظُ النَّوْعِ وَبِقَاوِهِ فَقَدْ  
خَالَفَ مَوْضُوعَهُ مَوْضُوعَ هَذَيْنِ الْفَنِّينِ اللَّذَيْنِ رُبَّمَا يُشْبِهَانِهِ وَكَأَنَّهُ عِلْمٌ مُسْتَنْبَطٌ  
النُّشَاءِ وَلِعَمْرِي لَمْ أَقِفْ عَلَى الْكَلَامِ فِي مَنْحَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلِيقَةِ مَا أَذْرِي الْفِغْلَاتِهِمْ عَنْ  
ذَلِكَ وَلَيْسَ الظَّنُّ بِهِمْ أَوْ لَعَلَّهُمْ كَتَبُوا فِي هَذَا الْغَرَضِ وَاسْتَوْفَوْهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا  
فَالْعُلُومُ كَثِيرَةٌ وَالْحُكَمَاءُ فِي أُمَّةِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ مُتَعَدِّدُونَ وَمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنْ  
الْعُلُومِ أَكْثَرُ مِمَّا وَصَلَ فَأَيْنَ عُلُومِ الْفَرَسِ الَّتِي أَمَرَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَخْوِهَا عِنْدَ  
الْفَتْحِ وَأَيْنَ عُلُومِ الْكِلْدَانِيِّينَ وَالسَّرْيَانِيِّينَ وَأَهْلِ بَابِلَ وَمَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ آثَارِهَا  
وَتَنَائِجِهَا وَأَيْنَ عُلُومِ الْقُبْطِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ وَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْنَا عُلُومُ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ يُونَانٌ  
خَاصَّةً لِكَلْفِ الْمَأْمُونِ بِإِخْرَاجِهَا مِنْ لَعْنَتِهِمْ وَاقْتِدَارِهِ عَلَى ذَلِكَ بِكَثْرَةِ الْمُتَرْجِمِينَ  
وَبَدَلِ الْأَمْوَالِ فِيهَا وَلَمْ نَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عُلُومِ غَيْرِهِمْ وَإِذَا كَانَتْ كُلُّ حَقِيقَةٍ  
مُتَعَلِّقَةً طَبِيعِيَّةً يَصْلُحُ أَنْ يُنْحَثَ عَمَّا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ الْعَوَارِضِ لِذَاتِهَا وَجِبَ أَنْ  
يَكُونَ بِإِعْتِبَارِ كُلِّ مَفْهُومٍ وَحَقِيقَةٍ عِلْمٌ مِنَ الْعُلُومِ يَخْصُهُ لَكِنَّ الْحُكَمَاءَ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا  
لَاخِظُوا فِي ذَلِكَ الْعِنَايَةَ بِالثَّمَرَاتِ وَهَذَا إِنَّمَا ثَمَرَتُهُ فِي الْأَخْبَارِ فَقَطُّ كَمَا رَأَيْتَ وَإِنْ  
كَانَتْ مَسَائِلُهُ فِي ذَاتِهَا وَفِي اخْتِصَاصِهَا شَرِيفَةً لَكِنَّ ثَمَرَتَهُ تَصْحِيحُ الْأَخْبَارِ وَهِيَ  
ضَعِيفَةٌ فَلِهَذَا هَجَرُوهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » . وَهَذَا الْفَنُّ الَّذِي  
لَاخَ لَنَا النَّظَرُ فِيهِ نَجِدُ مِنْهُ مَسَائِلَ تَجْرِي بِالْغَرَضِ لِأَهْلِ الْعُلُومِ فِي بَرَاهِينِ عُلُومِهِمْ  
وَهِيَ مِنْ جِنْسِ مَسَائِلِهِ بِالْمَوْضُوعِ وَالطَّلِبِ مِثْلَ مَا يَذْكُرُهُ الْحُكَمَاءُ وَالْعُلَمَاءُ فِي  
إثْبَاتِ النُّبُوَّةِ مِنْ أَنَّ الْبَشَرَ مُتَعَاوِنُونَ فِي وُجُودِهِمْ فَيَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى الْحَاكِمِ  
وَالْوَزَاعِ <sup>(١)</sup> وَمِثْلَ مَا يَذْكُرُ فِي أَصُولِ الْفِقْهِ فِي بَابِ إِثْبَاتِ اللُّغَاتِ أَنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ  
إِلَى الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ بِطَبِيعَةِ التَّعَاوُنِ وَالْاجْتِمَاعِ وَتَبْيَانِ الْعِبَارَاتِ أَخْفُ وَمِثْلُ  
مَا يَذْكُرُهُ الْفُقَهَاءُ فِي تَغْلِيلِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْمَقَاصِدِ فِي أَنَّ الزَّنَا مُخْلَطٌ لِلنَّسَابِ

(١) الوازع ج وزعة ووَزَاع ، من يدبّر أمور الجيش ، الزاجر . ( قاموس )

مُفسِدٍ لِلنُّوعِ وَأَنَّ الْقَتْلَ أَيْضاً مُفسِدٌ لِلنُّوعِ وَأَنَّ الظُّلْمَ مُؤذِنٌ بِخَرَابِ العُمَرَانِ المُفضي  
لِفَسَادِ النُّوعِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ المَقاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الأَحْكَامِ فَإِنَّهَا كُلُّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى  
المُحَافَظَةِ عَلَى العُمَرَانِ فَكَانَ لَهَا النُّظَرُ فِيمَا يَعرِضُ لَهُ وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنْ كَلَامِنَا هَذَا فِي  
هَذِهِ المَسَائِلِ المُمَثِّلَةِ وَكَذَلِكَ أَيْضاً يَفَعُّ إِلَيْنَا القَلِيلُ مِنْ مَسَائِلِهِ فِي كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ  
لِحُكَمَاءِ الخَلِيقَةِ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَوْفَوْهُ فَمِنْ كَلَامِ المُوَبِّدَانِ <sup>(١)</sup> بَهْرَامِ بْنِ بَهْرَامِ فِي  
حِكَايَةِ البُومِ الَّتِي نَقَلَهَا المَسْعُودِيُّ . « أَيُّهَا المَلِكُ إِنَّ المَلِكَ لَا يَتِمُّ عِزُّهُ إِلَّا  
بِالشَّرِيعَةِ وَالقِيَامِ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ وَالتَّصَرُّفِ تَحْتَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَلَا قِيَامَ لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا  
بِالمَلِكِ وَلَا عِزَّ لِلمَلِكِ إِلَّا بِالرِّجَالِ وَلَا قِيَامَ لِلرِّجَالِ إِلَّا بِالمَالِ وَلَا سَبِيلَ لِلمَالِ إِلَّا  
بِالعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلَ لِلعِمَارَةِ إِلَّا بِالعَدْلِ وَالعَدْلُ المِيزَانُ المَنْصُوبُ بَيْنَ الخَلِيقَةِ  
نَصْبَهُ الرَّبُّ وَجَعَلَ لَهُ قِيَمًا وَهُوَ المَلِكُ » . وَمِنْ كَلَامِ أَنُوشِروَانَ فِي هَذَا المَعْنَى بِعَيْنِهِ  
« المَلِكُ بِالجُنْدِ وَالجُنْدُ بِالمَالِ وَالمَالُ بِالخَرَاجِ وَالمَالُ بِالعِمَارَةِ وَالعِمَارَةُ  
بِالعَدْلِ وَالعَدْلُ بِإِصْلَاحِ العُمَّالِ وَإِصْلَاحِ العُمَّالِ بِاسْتِقَامَةِ النُّورَاءِ وَرَأْسُ الكُلِّ  
بِإِفْتِقَادِ المَلِكِ حَالَ رَعِيَّتِهِ بِنَفْسِهِ وَاقْتِدَارِهِ عَلَى تَأْدِيبِهَا حَتَّى يَمْلِكَهَا وَلَا تَمْلِكُهُ .  
وَفِي الكِتَابِ المَنْسُوبِ لِأرسطُو فِي السِّيَاسَةِ المُتَدَاوِلِ بَيْنَ النَّاسِ جُزْءٌ صَالِحٌ مِنْهُ إِلَّا  
أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَوْفٍ وَلَا مُعْطَى حَقُّهُ مِنَ البَرَاهِينِ وَمُخْتَلِطٌ بِغَيْرِهِ وَقَدْ أَشَارَ فِي ذَلِكَ  
الكِتَابِ إِلَى هَذِهِ الكَلِمَاتِ الَّتِي نَقَلْنَاها عَنِ المُوَبِّدَانِ وَأَنُوشِروَانَ وَجَعَلَهَا فِي الدَّائِرَةِ  
القُرْبِيَّةِ الَّتِي أَعْظَمَ القَوْلُ فِيهَا هُوَ قَوْلُهُ : « العَالَمُ بُسْتَانٌ سِيَاجُهُ الدَّوْلَةُ الدَّوْلَةُ  
سُلْطَانٌ تَحْيَا بِهِ السُّنَّةُ السُّنَّةُ سِيَاسَةٌ يَسُوسُهَا المَلِكُ العَمَلُ نِظَامٌ يَعْضُدُهُ الجُنْدُ  
الجُنْدُ أَعْوَانٌ يَكْفُلُهُمُ المَالُ المَالُ رِزْقٌ تَجْمَعُهُ الرُّعِيَّةُ الرُّعِيَّةُ عَمِيدٌ يَكْنِفُهُمُ العَدْلُ  
العَدْلُ مَالُوفٌ وَبِهِ قِيَامُ العَالِمِ العَالَمُ بُسْتَانٌ » ثُمَّ تَرَجَّعَ إِلَى أَوَّلِ الكَلَامِ . فَهَذِهِ ثَمَانُ  
كَلِمَاتٍ حِكْمِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ ارْتَبَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَارْتَدَّتْ أَعْجَازُهَا إِلَى صُورِهَا  
وَاتَّصَلَتْ فِي دَائِرَةٍ لَا يَتَعَيَّنُ طَرَفُهَا فَخَرَّ بِعُثُورِهِ عَلَيْهَا وَعَظَّمْ مِنْ فَوَائِدِهَا . وَأَنْتَ إِذَا

(١) الموبدان فقيه الفرس وحاكم الجوس ( قاموس ) .

تَأَمَّلْتَ كَلَامَنَا فِي فَضْلِ الدُّوَلِ وَالْمَلِكِ وَأَعْطَيْتَهُ حَقَّهُ مِنَ التَّصْفُحِ وَالتَّفْهِيمِ عَثَرْتَ فِي  
أَثْنَائِهِ عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَتَفْصِيلِ إِجْمَالِهَا مُسْتَوْفَى بَيِّنًا بِأَوْعَبِ <sup>(١)</sup> بَيَانٍ  
وَأَوْضَحِ دَلِيلٍ وَبَزْهَانٍ أَطْلَقَنَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَغْلِيمِ أَرِسْطُو وَلَا إِفَادَةِ مَوْبِدَانٍ  
وَكَذَلِكَ تَجِدُ فِي كَلَامِ ابْنِ الْمُقَفِّعِ وَمَا يُسْتَطَرَّدُ فِي رَسَائِلِهِ مِنْ ذِكْرِ السِّيَاسَاتِ الْكَثِيرِ  
مِنْ مَسَائِلِ كِتَابِنَا هَذَا غَيْرَ مَبْرَهَنَةٍ كَمَا بَزْهَنَاهُ إِنَّمَا يُجْلِسُهَا فِي الذِّكْرِ عَلَى مَنْحَى  
الْخِطَابَةِ فِي أَسْلُوبِ التَّرْسُلِ وَبَلَاغَةِ الْكَلَامِ وَكَذَلِكَ حَوْمِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ  
الطَّرْطُوشِيُّ فِي كِتَابِ سِرَاجِ الْمُلُوكِ وَبَوْبَةٍ عَلَى أَبْوَابِ تَقَرُّبٍ مِنْ أَبْوَابِ كِتَابِنَا هَذَا  
وَمَسَائِلِهِ لَكِنَّهُ لَمْ يَصَادَفْ فِيهِ الرَّمِيَّةَ وَلَا أَصَابَ الشَّاكِلَةَ <sup>(٢)</sup> وَلَا اسْتَوْفَى الْمَسَائِلَ وَلَا  
أَوْضَحَ الْأَدْلَةَ إِنَّمَا يُبَوِّبُ الْبَابَ لِلْمَسْئَلَةِ ثُمَّ يَسْتَكْثِرُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَيَنْقُلُ  
كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةً لِحُكَمَاءِ الْفَرَسِ مِثْلَ بَزْرَجْمَهَرِ وَالْمَوْبِدَانِ وَحُكَمَاءِ الْهِنْدِ وَالْمَأْثُورِ  
عَنْ دَانِيَالٍ وَهَرْمَسَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَكَابِرِ الْخَلِيقَةِ وَلَا يَكْشِفُ عَنِ التَّحْقِيقِ قِنَاعًا وَلَا  
يَرْفَعُ الْبَرَاهِينَ الطَّبِيعِيَّةَ حِجَابًا إِنَّمَا هُوَ نَقْلٌ وَتَرْكِيْبٌ شَبِيهٌ بِالْمَوَاعِظِ وَكَأَنَّهُ حَوْمٌ  
عَلَى الْفَرَضِ وَلَمْ يَصَادَفْهُ وَلَا تَحَقَّقْ قَضْدَهُ وَلَا اسْتَوْفَى مَسَائِلَهُ وَنَحْنُ الْهَمْنَا اللَّهُ إِلَى  
ذَلِكَ إِلَهَامًا وَأَعَثَرْنَا عَلَى عِلْمِ جَعَلْنَا بَيْنَ نَكْرَةٍ وَجَهِيْنَةٍ خَبْرَهُ <sup>(٣)</sup> فَإِنْ كُنْتَ قَدِ  
اسْتَوْفَيْتَ مَسَائِلَهُ وَمَيَّرْتَ عَنْ سَائِرِ الصَّنَائِعِ أَنْظَارَهُ وَأَنْخَاءَهُ فَتَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ وَهَدَايَةٌ  
وَإِنْ فَاتَنِي شَيْءٌ فِي إِخْصَائِهِ وَاشْتَبَهَتْ بِغَيْرِهِ فَلِلنَّظَائِرِ الْمُحَقِّقِ إِصْلَاحُهُ وَلِيَّ الْفَضْلِ  
لَأَنِّي نَهَجْتُ لَهُ السَّبِيلَ وَأَوْضَحْتُ لَهُ الطَّرِيقَ وَاللَّهُ يَهْدِي بِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ . وَنَحْنُ  
الْآنُ نُبَيِّنُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا يَفْرَضُ لِلْبَشَرِ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمْرَانِ فِي  
الْمُلْكِ وَالْكَسْبِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِوُجُوهِ بَزْهَانِيَّةٍ يَتَّضِحُ بِهَا التَّحْقِيقُ فِي مَعَارِفِ  
الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَتَنْدَفِعُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَتُرْفَعُ الشُّكُوكُ . وَنَقُولُ لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ

(١) أوعب ، ايحايأ الشيء ، أخذه بأجمعه ( قاموس ) .

(٢) الرميَّة : ما يرمى من حيوان ، والشاكلة ، الوجهة والطريقة والمعنى في الجملتين لم يصب الفرض .

(٣) في بعض النسخ ، جعلنا سن بكره وجهيْنَةٌ خبره وهو مثل يطلق على من يأتي بالخبر الصادق

واليقين . وفيه إشارة إلى المثل المشهور « وعند جبهة الخبر اليقين » .

مُمَيِّزاً عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ بِخَوَاصِّ اخْتِصَّ بِهَا فَمِنْهَا الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ الَّتِي هِيَ نَتِيجَةُ الْفِكْرِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَشَرَفَ بِوَضْفِهِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَمِنْهَا الْحَاجَةُ إِلَى الْحَكْمِ الْوَازِعِ وَالسُّلْطَانِ الْقَاهِرِ إِذْ لَا يُمَكِّنُ وُجُودَهُ دُونَ ذَلِكَ <sup>(١)</sup> مِنْ بَيْنِ الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا إِلَّا مَا يُقَالُ عَنِ النَّحْلِ وَالْجَرَادِ وَهَذِهِ وَإِنْ كَانَ لَهَا مِثْلُ ذَلِكَ فَبَطْرِيْقِ الْهَامِي لَا يَفْكَرُ وَرَوِيَّةٍ وَمِنْهَا السَّمِيُّ فِي الْمَعَاشِ وَالْإِعْتِمَالِ فِي تَخْصِيلِهِ مِنْ وُجُوهِهِ وَاكْتِسَابِ أَسْبَابِهِ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الْإِفْتِقَارِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَبَقَايِهِ وَهَذَا إِلَى الْتِمَاسِهِ وَطَلْبِهِ قَالَ تَعَالَى : « أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وَمِنْهَا الْعُمْرَانُ وَهُوَ التَّسَاكُنُ وَالتَّنَازُلُ فِي مِصْرٍ <sup>(٢)</sup> أَوْ حِلَّةٍ لِلْأَنْسِ بِالْعَشِيرِ وَاقْتِضَاءُ الْحَاجَاتِ لِمَا فِي طِبَاعِهِمْ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَى الْمَعَاشِ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَمِنْ هَذَا الْعُمْرَانِ مَا يَكُونُ بَدَوِيًّا وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ فِي الصَّوَاحِي وَفِي الْجِبَالِ وَفِي الْحِلَالِ الْمُنْتَجِعَةِ فِي الْقَفَارِ وَأَطْرَافِ الرَّمَالِ وَمَنْهُ مَا يَكُونُ حَضْرِيًّا وَهُوَ الَّذِي بِالْأَمْصَارِ وَالْقُرَى وَالْمَدَنِ وَالْمَدَرِ <sup>(٣)</sup> لِلْإِعْتِصَامِ بِهَا وَالتَّحْصُنِ بِجُدْرَانِهَا وَلَهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ أُمُورٌ تَفْرُسُ مِنْ حَيْثُ الْاجْتِمَاعُ عُرُوضاً ذَاتِيًّا لَهُ فَلَا جَرَمَ أَنْ حَصَرَ الْكَلَامَ فِي هَذَا الْكِتَابِ فِي سِتَّةِ فُصُولٍ . الْأَوَّلُ فِي الْعُمْرَانِ الْبَشَرِيِّ عَلَى الْجُمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وَقِسْطِهِ مِنَ الْأَرْضِ . وَالثَّانِي فِي الْعُمْرَانِ الْبَدَوِيِّ وَذَكَرَ الْقَبَائِلَ وَالْأَمَمِ الْوَحْشِيَّةَ . وَالثَّلَاثُ فِي الدُّوَلِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ وَذَكَرَ الْمَرَاتِبَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالرَّابِعَ فِي الْعُمْرَانِ الْحَضْرِيِّ وَالْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ . وَالْخَامِسَ فِي الصَّنَائِعِ وَالْمَعَاشِ وَالْكَسْبِ وَوُجُوهِهِ . وَالسَّادِسَ فِي الْعُلُومِ وَاكْتِسَابِهَا وَتَعَلُّمِهَا . وَقَدْ قَدَّمْتُ الْعُمْرَانَ الْبَدَوِيَّ لِأَنَّهُ سَابِقٌ عَلَى جَمِيعِهَا كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدَ وَكَذَا تَقْدِيمَ الْمَلِكِ عَلَى الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَأَمَّا تَقْدِيمُ الْمَعَاشِ فَلَأَنَّ الْمَعَاشَ ضَرُورِيٌّ طَبِيعِيٌّ وَتَعَلُّمُ الْعِلْمِ كَمَالِيٌّ أَوْ حَاجِيٌّ وَالطَّبِيعِيُّ أَقْدَمُ مِنَ الْكَمَالِيِّ وَجَعَلْتُ

(١) يظهر أن هنا عبارة ساقطة من جميع النسخ لأن الكلام غير مستقيم . وفي نسخة لجنة البيان العربي

عبارة بين قوسين وهي : « ولا يشبهه في ذلك » .

(٢) مخرج أمصار . أي البلد أو المدينة .

(٣) الدر . سكان القرى والأمصار والعرب تسمى القرية الدرّة ( قاموس ) .

الصَّنَائِعَ مَعَ الْكَسْبِ لِأَنَّهَا مِنْهُ يَبْغُضُ الْوَجْوهَ وَمَنْ حَيْثُ الْعُمْرَانُ كَمَا نَبَّيْنُ لَكَ بَعْدَ  
وَاللَّهِ الْمَوْفُوقُ لِلصُّوَابِ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ .

## الباب الأول

### من الكتاب الأول

في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

الأولى في أن الاجتماع الإنساني ضروري وَيَعْبَرُ الْحُكَمَاءُ عَنْ هَذَا بِقَوْلِهِمْ  
الْإِنْسَانُ مَدْنِيٌّ بِالطَّبِيعِ أَيْ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْجَمَاعَةِ الَّذِي هُوَ الْمَدِينَةُ فِي اضْطِلَاحِهِمْ  
وَهُوَ مَعْنَى الْعُمْرَانِ وَبَيَانُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَرَكَّبَهُ عَلَى صُورَةٍ لَا يَصِحُّ  
حَيَاتُهَا وَبِقَائُومِهَا إِلَّا بِالْغِذَاءِ وَهَذَا إِلَى التَّمَاسِهِ بِفِطْرَتِهِ وَبِمَا رَكَّبَ فِيهِ مِنَ الْقُدْرَةِ  
عَلَى تَخْصِيلِهِ إِلَّا أَنَّ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ مِنَ الْبَشَرِ قَاصِرَةٌ عَنْ تَخْصِيلِ حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ  
الْغِذَاءِ غَيْرَ مُوفِيَةٍ لَهُ بِمَادَّةِ حَيَاتِهِ مِنْهُ وَلَوْ فَرَضْنَا مِنْهُ أَقَلَّ مَا يُمَكِّنُ فَرَضُهُ وَهُوَ قُوَّةُ  
يَوْمٍ مِنَ الْحِنْطَةِ مَثَلًا فَلَا يَحْصُلُ إِلَّا بِعِلَاجٍ كَثِيرٍ مِنَ الطَّخَنِ وَالْعَجْنِ وَالطَّبْخِ وَكُلِّ  
وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الثَّلَاثَةِ يَخْتَاجُ إِلَى مَوَاعِينِ وَالآيَاتِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِصِنَاعَاتِ  
مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ حَدَادٍ وَنَجَّارٍ وَفَاخُورِيِّ وَهَبَّ أَنَّهُ يَأْكُلُهُ حَبًّا مِنْ غَيْرِ عِلَاجٍ فَهُوَ أَيْضًا  
يَخْتَاجُ فِي تَخْصِيلِهِ أَيْضًا حَبًّا إِلَى أَعْمَالٍ أُخْرَى أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ مِنَ الزَّرَاعَةِ وَالْحِصَادِ  
وَالدَّرَاسِ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ مِنْ غِلَافِ السُّنْبُلِ وَيَخْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ  
مُتَعَدِّدَةً وَصِنَائِعَ كَثِيرَةً أَكْثَرَ مِنَ الْأُولَى بِكَثِيرٍ وَيَسْتَحِيلُ أَنْ تَفِي بِذَلِكَ كُلُّهُ أَوْ  
يَبْغُضِهِ قُدْرَةُ الْوَاحِدِ فَلَا بُدَّ مِنَ اجْتِمَاعِ الْقَدْرِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أُنْبَاءِ جِنْسِهِ لِيَحْصَلَ  
الْقُوَّةُ لَهُ وَلَهُمْ فَيَحْصُلُ بِالتَّعَاوُنِ قَدْرٌ الْكِفَايَةِ مِنَ الْحَاجَةِ لِأَكْثَرِ مِنْهُمْ بِأَضْعَافٍ  
وَكَذَلِكَ يَخْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَيْضًا فِي الدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى الْاِسْتِعَانَةِ بِأُنْبَاءِ جِنْسِهِ  
لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا رَكَّبَ الطَّبَاعَ فِي الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا وَقَسَمَ الْقَدْرَ بَيْنَهَا جَعَلَ

حُظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان فقدرته الفرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة الإنسان وكذا قدرة الحمار والثور و قدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته . ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها عضواً يختص بمداقته ما يصل إليه من عادية غيره وجعل للإنسان عوضاً من ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النائية عن المخالب الجارحة والتراس<sup>(١)</sup> النائية عن البشرات الجلسية<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك وغيره مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الأعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مداقته وحده بالجملة ولا تفي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة لها فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبته الله تعالى

عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته ولا يحصل له أيضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته وينبطل نوع البشر وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اغتمار العالم بهم واستخلافه إياهم وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع إثبات للموضوع في فيه الذي هو موضوع له وهذا وإن لم يكن واجباً على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم إثبات الموضوع في ذلك العلم فليس أيضاً من الممنوعات عندهم فيكون إثباته من التبرعات والله الموفق بفضله . ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وزع يدفع

(١) جمع ترس وهو ما يلبس على الجسم لاتقاء السهام والسيوف ( قاموس )

(٢) الفاسية والصلبة .

بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي طَبَاعِهِمُ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ وَلَيْسَتْ السَّلَاحُ الَّتِي  
جَعَلَتْ دَافِعَةً لِعُدْوَانِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَنْهُنَّ كَافِيَةً فِي دَفْعِ الْعُدْوَانِ عَنْهُنَّ لِأَنَّهَا  
مَوْجُودَةٌ لِجَمِيعِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ يَدْفَعُ عُدْوَانَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ وَلَا يَكُونُ  
مِنْ غَيْرِهِمْ لِقُصُورِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ عَنْ مَدَارِكِهِمْ وَالنَّهَامَاتِيهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَازِعُ  
وَإِحْدًا مِنْهُنَّ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِنَّ الْعَلْبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْيَدُ الْقَاهِرَةُ حَتَّى لَا يَصِلَ أَحَدٌ إِلَى  
غَيْرِهِ بِعُدْوَانٍ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْمَلِكِ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ بِهَذَا أَنَّ لِلْإِنْسَانَ خَاصَّةً طَبِيعِيَّةً  
وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا وَقَدْ يُوْجَدُ فِي بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْحُكَمَاءُ كَمَا فِي  
النَّحْلِ وَالْجِرَادِ لِمَا اسْتَقْرَى فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ وَالْإِتْقِيَادِ وَالِاتِّبَاعِ لِرَبِّيسٍ مِنْ أَشْخَاصِهَا  
مُتَمَيِّزٌ عَنْهُمْ فِي خَلْقِهِ وَجُثْمَانِهِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ لِغَيْرِ الْإِنْسَانِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ  
وَالْهِدَايَةِ لَا بِمُقْتَضَى الْفِكْرَةِ وَالسِّيَاسَةِ « أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وَتَزِيدُ  
الْفَلَاسِفَةُ عَلَى هَذَا الْبُرْهَانِ حَيْثُ يُحَاوِلُونَ إِثْبَاتَ النُّبُوَّةِ بِالذَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ وَأَنَّهَا  
خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ فَيَفْرَرُونَ هَذَا الْبُرْهَانَ إِلَى غَايَةٍ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْبَشَرِ مِنَ الْحُكْمِ  
الْوَازِعِ ثُمَّ يَقُولُونَ بَعْدَ ذَلِكَ وَذَلِكَ الْحُكْمُ يَكُونُ بِشَرَعٍ مَفْرُوضٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَأْتِي  
بِهِ وَاحِدٌ مِنَ الْبَشَرِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزًا عَنْهُمْ بِمَا يُودَعُ اللَّهُ فِيهِ مِنْ خَوَاصِّ  
هَدَايَتِهِ لِيَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُ وَالْقَبُولُ مِنْهُ حَتَّى يَتِمَّ الْحُكْمُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ انْتِكَارٍ وَلَا  
تَزْيِيفٍ وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لِلْحُكَمَاءِ غَيْرِ بُرْهَانِيَّةٍ كَمَا تَرَاهُ إِذِ الْوُجُودُ وَحَيَاةُ الْبَشَرِ قَدْ تَتِمُّ  
مِنْ دُونِ ذَلِكَ بِمَا يَفْرُضُهُ الْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ أَوْ بِالْعَصَبِيَّةِ الَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ  
وَخَمَلِهِمْ عَلَى جَادَتِهِ فَأَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَلِيلُونَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمَجُوسِ  
الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعَالَمِ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ الدُّوَلُ وَالْأَنْبَاءُ  
فَضْلًا عَنِ الْحَيَاةِ وَكَذَلِكَ هِيَ لَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ فِي الشَّمَالِ  
وَالْجَنُوبِ بِخِلَافِ حَيَاةِ الْبَشَرِ فَوْضَى دُونَ وَازِعٍ لَهُمُ الْبَتَّةُ فَإِنَّهُ يَمْتَنَعُ وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ  
لَكَ غَلْطُهُمْ فِي وَجُوبِ النُّبُوتِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلِيٍّ وَإِنَّمَا مَدْرَكُهُ الشَّرْعُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ  
السُّلْفِ مِنَ الْأُمَّةِ وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ .



## المقدمة الثانية

في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه  
من الأشجار<sup>(١)</sup> والأنهار والأقاليم

إِغْلَمَ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ النَّاطِرِينَ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ أَنَّ شَكْلَ الْأَرْضِ  
كَرْوِيٌّ وَأَنَّهَا مَخْفُوفَةٌ بِعُنْصُرِ الْمَاءِ كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ فَانْحَسَرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ  
جَوَانِبِهَا لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَكْوِينِ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا وَعُمُرَانِهَا بِالنُّوعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لَهُ  
الْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا وَقَدْ يَتَوَهَّمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ  
وَأِنَّمَا النَّحْتُ الطَّبِيعِيُّ قَلْبُ الْأَرْضِ وَوَسْطُ كُرَّتِهَا الَّذِي هُوَ مَرْكَزُهَا وَالْكُلُّ يَطْلُبُهُ  
بِمَا فِيهِ مِنَ الثَّقَلِ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِهَا وَأَمَّا الْمَاءُ الْمُحِيطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ الْأَرْضِ  
وَأَنْ قِيلَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ فَبِالإِضَافَةِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى مِنْهُ . وَأَمَّا الَّذِي  
انْحَسَرَ عَنْهُ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ النُّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَّتِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةِ أَحَاطَ  
الْعُنْصُرُ الْمَائِيَّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بَحْرًا يُسَمَّى الْبَحْرَ الْمُحِيطَ وَيُسَمَّى أَيْضًا  
لِبَلَايَةِ بِنْفِخِيمِ اللَّامِ الثَّانِيَةِ وَيُسَمَّى أَوْقِيَانُوسَ أَسْمَاءَ أُعْجَمِيَّةٍ وَيُقَالُ لَهُ الْبَحْرُ  
الْأَخْضَرُ وَالْأَسْوَدُ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْمُنْكَشِفَ مِنَ الْأَرْضِ لِلْعُمُرَانِ فِيهِ الْفِقَارُ وَالْخَلَاءُ أَكْثَرُ  
مِنْ عُمُرَانِهِ وَالْخَالِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَإِنَّمَا الْمَعْمُورُ مِنْهُ  
أَمِيلٌ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ عَلَى شَكْلِ مُسَطَّحٍ كَرْوِيٍّ يَنْتَهِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ إِلَى

(١) ورد بالأصل في جميع النسخ الأشجار وهو تحريف . وفي النسخة الباريسية المخطوطة ، البحار وهو  
الصحيح لأن البحث في هذه المقدمة مستفيض عن البحار ولا يكاد يكون للأشجار بها ذكر .

حَظَّ الإِسْتِوَاءِ وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى حَظِّ كُرْوَيْ وَوَرَاءَهُ الْجِبَالُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ  
 الْمَاءِ الْعُنْصُرِيِّ الَّذِي بَيْنَهُمَا سُدٌّ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهَذِهِ الْجِبَالُ مَائِلَةٌ إِلَى جِهَةِ  
 الْمَشْرِقِ وَيَنْتَهِي مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَى عُنْصُرِ الْمَاءِ أَيْضًا بِقَطْعَتَيْنِ مِنَ الدَّائِرَةِ  
 الْمُحِيطَةِ وَهَذَا الْمُنْكَشِفُ مِنَ الْأَرْضِ قَالُوا هُوَ مِقْدَارُ النُّصْفِ مِنَ الْكُرَّةِ أَوْ أَقْلُ  
 وَالْمَعْمُورُ مِنْهُ مِقْدَارُ رُبْعِهِ وَهُوَ الْمُنْقَسِمُ بِالْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ وَحَظُّ الإِسْتِوَاءِ يَفْسِمُ  
 الْأَرْضَ بِنِصْفَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَهُوَ طَوْلُ الْأَرْضِ وَأَكْبَرُ حَظِّ فِي كُرَّتِهَا  
 كَمَا أَنَّ مِنْطَقَةَ فَلَكِ الْبُرُوجِ وَدَائِرَةَ مَعْدَلِ النَّهَارِ أَكْبَرُ حَظِّ فِي الْفَلَكَ وَمِنْطَقَةُ الْبُرُوجِ  
 مُنْقَسِمَةٌ بِثَلَاثِمِائَةٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً وَالذَّرَجَةُ مِنْ مَسَافَةِ الْأَرْضِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرَسَخًا  
 وَالْفَرَسَخُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ ذِرَاعٍ وَدِرَاعٌ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ إِبْصَاعًا وَالْإِصْبَعُ سِتُّ حَبَّاتِ  
 شَعِيرٍ مَضْفُوفَةٌ مُلْصَقٌ بِغَضِّهَا إِلَى بَعْضِ ظَهْرٍ لِبَطْنٍ وَبَيْنَ دَائِرَةِ مَعْدَلِ النَّهَارِ الَّتِي  
 تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ وَتَسَامِتُ حَظُّ الإِسْتِوَاءِ مِنَ الْأَرْضِ وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ  
 الْقُطْبَيْنِ تِسْعُونَ دَرَجَةً لَكِنَّ الْعِمَارَةَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ حَظِّ الإِسْتِوَاءِ أَرْبَعٌ  
 وَسِتُّونَ دَرَجَةً وَالْبَاقِي مِنْهَا خَلَاءٌ لَا عِمَارَةَ فِيهِ لِشِدَّةِ الْبُرْدِ وَالْجُمُودِ كَمَا كَانَتْ  
 الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ خَلَاءٌ كُلُّهَا لِشِدَّةِ الْحَرِّ كَمَا نَبَّيْنُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . ثُمَّ إِنَّ  
 الْمُخْبِرِينَ عَنْ هَذَا الْمَعْمُورِ وَحُدُودِهِ وَعَمَّا فِيهِ مِنَ الْأَمْصَارِ وَالْمَدُنِ وَالْجِبَالِ وَالْبَحَارِ  
 وَالْأَنْهَارِ وَالْقِفَارِ وَالرَّمَالِ مِثْلَ بَطْلِيمُوسَ فِي كِتَابِ الْجُغْرَافِيَا وَصَاحِبِ كِتَابِ  
 زَخَارِ<sup>(١)</sup> مِنْ بَعْدِهِ قَسَمُوا هَذَا الْمَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسَامٍ يُسَمُّونَهَا الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِحُدُودِ  
 وَهَمِيَّةٍ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مُتَسَاوِيَةٍ فِي الْعَرْضِ مُخْتَلِفَةٍ فِي الطَّوْلِ فَالْإِقْلِيمُ الْأَوَّلُ  
 أَطْوَلُ مِمَّا بَعْدَهُ وَهَكَذَا الثَّانِي إِلَى آخِرِهَا فَيَكُونُ السَّابِعُ أَقْصَرَ لِمَا اقْتَضَاهُ وَضَعُ

(١) وردت في بعض النسخ روجار وهو الصحيح وروجار هو ملك صقلية وقد ألف له الشريف الإدريسي  
 كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وقد طاف الإدريسي في بلاد الروم واليونان ومصر والمغرب وفرنسا  
 وجزيرة بريطانيا وقد دعاه الملك روجار إلى زيارة صقلية فرسم له ما عاينه من البلاد على كرة من فضة . وقد  
 ازدهرت العلوم في أيام الملك روجار لاحتكاك الثقافتين العربية واليونانية في بلاده ( قاموس ) .

الدائرة الناشئة عن انحسار الماء عن كرة الأرض وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بقشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي وفي كل جزء الخبر عن أحواله وأحوال عمرانه . وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج من جهة المغرب في الإقليم الرابع البحر الرومي المعروف يبدأ في خليج متضيق في عرض اثني عشر ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق ثم يذهب مشرقاً وينفسح إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الإقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبداه وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم أفريقية<sup>(١)</sup> ثم برقة إلى الإسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الإفرنجة ثم الأندلس إلى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية قالوا : ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين . أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضيقاً في عرض رمية السهم ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسح في عرض أربعة أميال ويمر في جزيره ستين ميلاً ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمض بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق فيمر بأرض هرقله وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلاثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والتürk وبرجان والروس . والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة<sup>(٢)</sup> يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فإذا انتهى إلى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة وينتهي إلى بلاد إنكلاية على ألف ومائة ميل من مبداه وعلى حافته من

(١) كانت تطلق قديماً على المغرب الأدنى أي تونس وما يليها .

(٢) هو بحر الادرياتيك . نسبة إلى شعوب البنادقة الذين توطنوا على سواحله ودعوا بنادقة نسبة إلى

مدينة البندقية ( فينيسيا اليوم ) .

البَنَادِقَةُ وَالرُّومَ وَغَيْرَهُمْ أُمَّةً وَيُسَمَّى خَلِيجَ البَنَادِقَةِ . قَالُوا وَيَنسَاحُ مِنْ هَذَا البَحْرِ  
 المَحِيطِ أَيْضاً مِنَ الشَّرْقِ وَعَالَى ثَلَاثَ عَشْرَةَ دَرَجَةً فِي الشَّمَالِ مِنْ حَظِّ الإِسْتِوَاءِ بَحْرٌ  
 عَظِيمٌ مُتَّسِعٌ يَمُرُّ فِي الجَنُوبِ قَلِيلاً حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الإِقْلِيمِ الأوَّلِ ثُمَّ يَمُرُّ فِيهِ مَغْرِباً  
 إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الجُزْءِ الخَامِسِ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ الحَيْشَةِ والزَّنْجِ وَإِلَى بِلَادِ بَابِ  
 المَنْدَبِ مِنْهُ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافِ فَرَسَجٍ مِنْ مَبْدِئِهِ وَيُسَمَّى البَحْرَ الصِّينِيِّ وَالمِهنْدِيِّ  
 وَالحَبَشِيِّ <sup>(١)</sup> وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الجَنُوبِ بِلَادُ الزَّنْجِ وَبِلَادُ بَرَبَرِ التِّي ذَكَرَهَا امْرُؤُ  
 التَّمِيسِ فِي شِغْرِهِ وَلَيْسُوا مِنَ البَرَبَرِ الَّذِينَ هُمْ قَبَائِلُ المَغْرِبِ ثُمَّ بَلَدٌ مَقْدُشُو ثُمَّ بَلَدٌ  
 سَفَالَةٌ وَأَرْضُ الوَاقِ وَاقٍ وَأُمَّةٌ أُخْرَى لَيْسَ بَعْدَهُمْ إِلَّا القِفَارُ وَالخَلَاءُ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ  
 الشَّمَالِ الصِّينُ مِنْ عِنْدِ مَبْدِئِهِ ثُمَّ المِهنْدُ ثُمَّ السُّنْدُ ثُمَّ سَوَاحِلُ اليَمَنِ مِنَ الأَخْفَافِ  
 وَزَيْبِدٍ وَغَيْرِهَا ثُمَّ بِلَادُ الزَّنْجِ عِنْدَ نِهَآئِهِ وَبَعْدَهُمُ الحَبَشَةُ . قَالُوا وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا  
 البَحْرِ الحَبَشِيُّ بَحْرَانِ آخَرَانِ أَحَدُهُمَا يَخْرُجُ مِنْ نِهَآئِهِ عِنْدَ بَابِ المَنْدَبِ فَيَبْدَأُ  
 مُتَضَآيِقاً ثُمَّ يَمُرُّ مُسْتَبِجِراً إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَمَغْرِباً قَلِيلاً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى القَلْزَمِ  
 فِي الجُزْءِ الخَامِسِ مِنَ الإِقْلِيمِ الثَّانِيِ عَلَى أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ مِيلٍ مِنْ مَبْدِئِهِ وَيُسَمَّى  
 بَحْرَ القَلْزَمِ <sup>(٢)</sup> وَبَحْرَ السُّوَيْسِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ فِسْطَاطِ مِصْرَ مِنْ هُنَالِكَ ثَلَاثُ مَرَاحِلَ  
 وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ اليَمَنِ ثُمَّ الحِجَازُ وَجَدَةُ ثُمَّ مَدِينُ وَأَيْلَةُ وَفَارَانُ عِنْدَ  
 نِهَآئِهِ وَمِنْ جِهَةِ المَغْرِبِ سَوَاحِلُ الصُّعَيْدِ وَعَيْذَابُ وَسَوَاكِينُ وَزَيْلَعُ ثُمَّ بِلَادُ الحَبَشَةِ  
 عِنْدَ مَبْدِئِهِ وَآخِرُهُ عِنْدَ القَلْزَمِ يَسَامِتُ البَحْرَ الرُّومِيَّ عِنْدَ العَرِيشِ وَبَيْنَهُمَا نَحْوُ  
 سِتِّ مَرَاحِلَ وَمَا زَالَ المُلُوكُ فِي الإِسْلَامِ وَقَبْلَهُ يَرُومُونَ خَرَقَ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَتَمَّ  
 ذَلِكَ <sup>(٣)</sup> . وَالبَحْرُ الثَّانِي مِنْ هَذَا البَحْرِ الحَبَشِيِّ وَيُسَمَّى الخَلِيجَ الأَخْضَرَ <sup>(٤)</sup> يَخْرُجُ

(١) هو المحيط الهندي .

(٢) بحر القلزم . اسم أطلقه العرب سابقاً على البحر الأحمر وسمي نسبة إلى مدينة ( قليزما ) بالقرب

من السويس . ( المنجد ) .

(٣) هنا شرح للدكتور علي عبد الواحد وافي . في طبعه دار « الجنة البيان العربي » نقلها بنصها « تم

ذلك بعد وفاة ابن خلدون بنحو أربعة قرون ونصف قرن عن طريق فتاة السويس . وكلام ابن خلدون يدل على  
أن توصيل هذين البحرين أحدهما بالآخر مشروع قديم فكر فيه الملوك في الإسلام ومن قبل الإسلام . وفي الحق أن

مَا بَيْنَ بِلَادِ السِّنْدِ وَالْأَخْقَافِ مِنَ الْيَمَنِ وَيَمُرُّ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُغْرَبًا قَلِيلًا إِلَى أَنْ  
 يَنْتَهِيَ إِلَى الْأَبْلَةِ مِنْ سَوَاحِلِ الْبَصْرَةِ فِي الْجُزءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي عَلَى  
 أَرْبَعِمِائَةِ فَرَسَخٍ وَأَرْبَعِينَ فَرَسَخًا مِنْ مَبْدِئِهِ وَيُسَمَّى بَحْرَ فَارِسَ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ  
 الشَّرْقِ سَوَاحِلُ السِّنْدِ وَمَكْرَانَ وَكُرْمَانَ وَفَارِسَ وَالْأَبْلَةَ وَعِنْدَ نَهَائِهِ مِنْ جِهَةِ  
 الْغَرْبِ سَوَاحِلُ الْبَحْرَيْنِ وَالْيَمَامَةِ وَعُمَانَ وَالشَّعْرَ وَالْأَخْقَافَ عِنْدَ مَبْدِئِهِ وَفِيمَا بَيْنَ  
 بَحْرِ فَارِسَ وَالْقَلْزَمِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ كَانَتْهَا دَاخِلَةً مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ  
 الْحَبَشِيُّ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ الْقَلْزَمِ مِنَ الْغَرْبِ وَبَحْرُ فَارِسَ مِنَ الشَّرْقِ وَتَقْضَى إِلَى  
 الْعِرَاقِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْبَصْرَةِ عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ مَيْلٍ بَيْنَهُمَا وَهَذَا الْكُوفَةُ  
 وَالْقَادِسِيَّةُ وَبَغْدَادُ وَإِيوَانُ كِشْرَى وَالْحِيرَةُ وَوَرَاءَ ذَلِكَ أُمَّمُ الْأَعَاجِمِ مِنَ التُّرْكِ  
 وَالْخَزَرِّ وَغَيْرِهِمْ وَفِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِلَادُ الْحِجَازِ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ مِنْهَا وَبِلَادُ الْيَمَامَةِ  
 وَالْبَحْرَيْنِ وَعُمَانَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ مِنْهَا وَبِلَادُ الْيَمَنِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهَا وَسَوَاحِلُهُ  
 عَلَى الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ . قَالُوا وَفِي هَذَا الْمَعْمُورِ بَحْرٍ آخَرَ مُنْقَطِعٍ مِنْ سَائِرِ الْبَحَارِ فِي  
 نَاحِيَةِ الشَّمَالِ بِأَرْضِ الدِّيْلَمِ يُسَمَّى بَحْرَ جُرْجَانَ وَطَبْرِسْتَانَ طَوْلُهُ أَلْفٌ مَيْلًا فِي  
 عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مَيْلٍ فِي غَرْبِيهِ أَدْرَبِيجَانَ وَالدِّيْلَمِ وَفِي شَرْقِيهِ أَرْضُ التُّرْكِ وَخَوَازِمَ  
 وَفِي جَنُوبِيهِ طَبْرِسْتَانَ وَفِي شَمَالِيهِ أَرْضُ الْخَزَرِّ وَاللَّانِ . هَذِهِ جُمْلَةُ الْبَحَارِ الْمَشْهُورَةِ  
 الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجُغْرَافِيَا . قَالُوا وَفِي هَذَا الْجُزءِ الْمَعْمُورِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ أَكْثَرُهَا  
 أَرْبَعَةٌ أَنْهَارٌ وَهِيَ النَّيْلُ وَالْفُرَاتُ وَدَجْلَةُ وَنَهْرُ بَلْخِ الْمُسَمَّى جِيخُونَ . فَأَمَّا النَّيْلُ  
 فَمَبْدَأُهُ مِنْ جَبَلٍ عَظِيمٍ وَرَاءَ حَظِّ الْإِسْتِوَاءِ بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً عَلَى سَمْتِ الْجُزءِ  
 الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَيُسَمَّى جَبَلُ الْقَمَرِ وَلَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ جَبَلٌ أَعْلَى مِنْهُ  
 تَخْرُجُ مِنْهُ عَيُونٌ كَثِيرَةٌ فَيَصُبُّ بَعْضُهَا فِي بَحِيرَةٍ هُنَاكَ وَبَعْضُهَا فِي أُخْرَى ثُمَّ تَخْرُجُ  
 أَنْهَارٌ مِنَ الْبَحِيرَتَيْنِ فَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي بَحِيرَةٍ وَاحِدَةٍ عِنْدَ حَظِّ الْإِسْتِوَاءِ عَلَى عَشْرِ

تاريخه يبدأ من العهد الفرعوني نفسه ويقال ان أول ملك من الفراعنة فكر في حفر القناة هو سنوبرات الثالث  
 الذي يفكر أولياء الأمور في مصر الآن في إقامة تمثال له في بور سعيد .

(٤) هو الخليج الفارسي .

مَرَّاحِلَ مِنَ الْجَبَلِ وَيَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ نَهْرَانِ يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ  
الشَّمَالِ عَلَى سَمْتِهِ وَيَمُرُّ بِلَادِ التُّوْبَةِ ثُمَّ بِلَادِ مِصْرَ فَإِذَا جَاوَزَهَا تَشَعَّبَ فِي شُعَبٍ  
سِتِّقَارِيَّةٍ يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَلِيجًا وَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي الْبَحْرِ الرَّومِيِّ عِنْدَ  
الإِسْكَندَرِيَّةِ وَيُسَمَّى نَيْلَ مِصْرَ وَعَلَيْهِ الصَّعِيدُ مِنْ شَرْقِيَّةِ وَالْوَاخَاتُ مِنْ غَرْبِيَّةِ  
وَيَذْهَبُ الْآخَرُ مُنْعَطِفًا إِلَى الْمَغْرِبِ ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ  
المُحِيطِ وَهُوَ نَهْرُ السُّودَانِ وَأَمَمُهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى صِفْتِيهِ . وَأَمَّا الْفُرَاتُ فَمَبْدُؤُهُ مِنْ بِلَادِ  
أَرْمِينِيَّةٍ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَمُرُّ جَنُوبًا فِي أَرْضِ الرُّومِ وَمَلْطِيَّةِ  
إِلَى مَنبِجٍ ثُمَّ يَمُرُّ بِصِفَيْنِ ثُمَّ بِالرَّقَّةِ ثُمَّ بِالْكُوفَةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَطْحَاءِ الَّتِي بَيْنَ  
الْبَصْرَةِ وَوَأَسِطِ وَمِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ أَنْهَارٌ  
كثِيرَةٌ وَيَخْرُجُ مِنْهَا أَنْهَارٌ أُخْرَى تَصُبُّ فِي دِجْلَةَ . وَأَمَّا دِجْلَةُ فَمَبْدُؤُهَا عَيْنٌ بِبِلَادِ خِلَاطِ  
مِنْ أَرْمِينِيَّةٍ أَيْضًا وَتَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْجَنُوبِ بِالْمَوْصِلِ وَأَذْرَبِيحَانَ وَبَعْدًا إِلَى وَاسِطِ  
فَتَتَفَرَّقُ إِلَى خَلْجَانٍ كُلُّهَا تَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ الْبَصْرَةِ وَتَقْضِي إِلَى بَحْرِ فَارَسٍ وَهُوَ فِي  
الشَّرْقِ عَلَى يَمِينِ الْفُرَاتِ وَيَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَفِيمَا  
بَيْنَ الْفُرَاتِ وَدِجْلَةَ مِنْ أَوَّلِهِ جَزِيرَةُ الْمَوْصِلِ قِبَالَ الشَّامِ مِنْ غُدُوتِي الْفُرَاتِ وَقِبَالَ  
أَذْرَبِيحَانَ مِنْ غُدُوتِ دِجْلَةَ . وَأَمَّا نَهْرُ جِيحُونَ فَمَبْدُؤُهُ مِنْ بَلْخِ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ  
الإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ مِنْ عَمُونَ هُنَاكَ كَثِيرَةٌ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ عِظَامٌ وَيَذْهَبُ مِنْ  
الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فَيَمُرُّ بِبِلَادِ خُرَّاسَانَ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ خَوَازِرْمَ فِي الْجُزْءِ  
الثَّامِنِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ الْجُرْجَانِيَّةِ الَّتِي بِأَسْفَلِ مَدِينَتِهَا وَهِيَ  
مَسِيرَةُ شَهْرٍ فِي مِثْلِهِ وَإِلَيْهَا يَنْصَبُّ نَهْرُ فَرَّغَانَةَ وَالشَّاشِ الْآتِي مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ وَعَلَى  
غَرْبِي نَهْرُ جِيحُونَ بِبِلَادِ خُرَّاسَانَ وَخَوَازِرْمَ وَعَلَى شَرْقِيَّةِ بِلَادِ بُخَارَى وَتَرْمُذَ  
وَسَمَرْقَنْدَ وَمِنْ هُنَاكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ بِلَادِ التُّرْكِ وَفَرَّغَانَةَ وَالخَزَلْجِيَّةِ وَأَمَمُ الْأَعَاجِمِ  
وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ بَطْلِيمُوسُ فِي كِتَابِيهِ وَالشَّرِيفُ فِي كِتَابِ رُوحَارِ وَصَوَّرُوا فِي  
الجُغْرَافِيَا جَمِيعَ مَا فِي الْمَعْمُورِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَوْدِيَّةِ وَاسْتَوْفُوا مِنْ ذَلِكَ

مَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ لِطَوْلِهِ وَلَآنَ عِنَايَتَنَا فِي الْأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِالْمَغْرِبِ الَّذِي هُوَ وَطَنُ  
الْبَرْبَرِ وَبِالْأَوْطَانِ الَّتِي لِلْمَرْبِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَاللَّهُ الْمَوْقُوقُ .

## تكملة لهذه المقدمة الثانية

في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي  
وذكر السبب في ذلك

وَنَحْنُ نَرَى بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي مِنَ الْأَقَالِيمِ  
الْمَعْمُورَةِ أَقْلُ عُمَرَانًا مِمَّا بَعْدَهُمَا وَمَا وَجَدَ مِنْ عُمَرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ  
وَالرَّمَالُ وَالْبَحْرُ الْهِنْدِيُّ الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا وَأَمُّ هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ وَأُنَاسِيُهُمَا  
لَيْسَتْ لَهُنَّ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ وَأَمْصَارُهُ وَمُدُنُهُ كَذَلِكَ وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا  
يَخْلَافُ ذَلِكَ فَالْقِفَارُ فِيهَا قَلِيلَةٌ وَالرَّمَالُ كَذَلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ وَأَمُّهَا وَأُنَاسِيُهَا تَجُوزُ  
الْحَدَّ مِنَ الْكَثْرَةِ وَأَمْصَارُهَا وَمُدُنُهَا تَجَاوِزُ الْحَدَّ عَدَدًا وَالْعُمَرَانُ فِيهَا مُنْدَرِجٌ مَا بَيْنَ  
الثَّالِثِ وَالسَّادِسِ وَالْجَنُوبُ خَلَاءٌ كُلُّهُ وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ لِإِفْرَاطِ  
الْحَرِّ وَقَلَّةِ مِيلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فَلَنُوضِحُ ذَلِكَ بِبُرْهَانِهِ وَيَتَبَيَّنُ مِنْهُ  
سَبَبُ كَثْرَةِ الْعِمَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ  
وَالسَّابِعِ . فَنَقُولُ إِنَّ قُطْبِي الْفَلَكَ الْجَنُوبِيَّ وَالشَّمَالِيَّ إِذَا كَانَا عَلَى الْأَفْقِ فَهُنَالِكَ  
دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ هِيَ أَعْظَمُ الدَّوَائِرِ الْعَامَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ  
وَتَسْمَى دَائِرَةَ مُعَدَّلِ النَّهَارِ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْهَيْئَةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ  
مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يَحْرُكُ بِهَا سَائِرَ الْأَفْلَاقِ فِي جَوْفِهِ قَهْرًا وَهَذِهِ  
الْحَرَكَةُ مَحْسُوسَةٌ وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاقِهَا حَرَكَةً مُخَالِفَةً لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ  
وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَخْتَلِفُ أَمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ فِي

السُرْعَةُ وَالْبُطْءُ وَمَمَرَاتُ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا تَوَازِيهَا كُلُّهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ  
الْفَلَكَ الْأَعْلَى تَقْسِمُهُ بِنِصْفَيْنِ وَهِيَ دَائِرَةُ فَلَكِ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِأَثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا  
وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مَقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى نَقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ  
مِنَ الْبُرُوجِ هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ وَأَوَّلُ الْمِيزَانِ فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ بِنِصْفَيْنِ  
نِصْفٌ مَائِلٌ عَنِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السُّنْبُلَةِ وَنِصْفٌ  
مَائِلٌ عَنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ الْحُوتِ وَإِذَا وَقَعَ الْقُطْبَانِ عَلَى  
الْأَفْقِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْأَرْضِ كَانَ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ خَطٌ وَاحِدٌ يُسَامَتُ دَائِرَةُ  
مُعَدِّلِ النَّهَارِ يَمُرُّ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَيُسَمَّى خَطَ الْإِسْتِوَاءِ وَوَقَعَ هَذَا الْخَطُ  
بِالرُّضْدِ عَلَى مَا زَعَمُوا فِي مَبْدَأِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ وَالْعُمُرَانُ كُلُّهُ فِي  
الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ يَرْتَفِعُ عَنِ آفَاقِ هَذَا الْمَعْمُورِ بِالتَّدرِيجِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ ارْتِفَاعُهُ إِلَى  
أَرْبَعِ وَسْتِينَ دَرَجَةً وَهَذَا يَنْقَطِعُ الْعُمُرَانُ وَهُوَ آخِرُ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَإِذَا ارْتَفَعَ عَلَى  
الْأَفْقِ تِسْعِينَ دَرَجَةً وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ الْقُطْبِ وَدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى الْأَفْقِ وَبَقِيَتْ  
سِتَّةَ مِنْ الْبُرُوجِ فَوْقَ الْأَفْقِ وَهِيَ الشَّمَالِيَّةُ وَسِتَّةَ تَحْتَ الْأَفْقِ وَهِيَ الْجَنُوبِيَّةُ  
وَالْعِمَارَةُ فِيمَا بَيْنَ الْأَرْبَعَةِ وَالسَّتِينَ إِلَى التَّسْعِينَ مُتَمَنِّعَةٌ لِأَنَّ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ حِينَئِذٍ  
لَا يَخْضَلَانِ مُتَمَرِّجَيْنِ لِبُعْدِ الزَّمَانِ بَيْنَهُمَا فَلَا يَخْضَلُ التَّكْوِينُ فَإِذَا الشَّمْسُ  
تَسَامَتُ الرُّؤُوسَ عَلَى خَطِ الْإِسْتِوَاءِ فِي رَأْسِ الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ ثُمَّ تَمِيلُ عَنِ الْمَسَامَتَةِ  
إِلَى رَأْسِ السَّرْطَانِ وَرَأْسِ الْجَدِيِّ وَيَكُونُ نَهَايَةَ مَيْلِهَا عَنْ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ أَرْبَعًا  
وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ثُمَّ إِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنِ الْأَفْقِ مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَنْ  
سَمْتِ الرُّؤُوسِ بِمِقْدَارِ ارْتِفَاعِهِ وَانْخَفَضَ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ كَذَلِكَ بِمِقْدَارِ مُتَسَاوِيهِ  
الثَّلَاثَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ الْمَوَاقِيْتِ عَرْضُ الْبَلَدِ وَإِذَا مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ  
عَنِ سَمْتِ الرُّؤُوسِ عَلَتْ عَلَيْهَا الْبُرُوجُ الشَّمَالِيَّةُ مُنْدَرَجَةً فِي مِقْدَارِ عُلُوِّهَا إِلَى رَأْسِ  
السَّرْطَانِ وَانْخَفَضَتِ الْبُرُوجُ الْجَنُوبِيَّةُ مِنَ الْأَفْقِ كَذَلِكَ إِلَى رَأْسِ الْجَدِيِّ لِانْحِرَافِهَا  
إِلَى الْجَانِبَيْنِ فِي أَفْقِ الْإِسْتِوَاءِ كَمَا قُلْنَا فَلَا يَزَالُ الْأَفْقُ الشَّمَالِيُّ يَرْتَفِعُ حَتَّى يَصِيرَ



أَبْعَدَ الشَّمَالِيَّةِ وَهُوَ رَأْسُ السَّرَطَانِ فِي سَمْتِ الرَّؤُوسِ وَذَلِكَ حَيْثُ يَكُونُ عَرْضُ الْبَلَدِ  
أَرْبَعًا وَعَشْرِينَ فِي الْحِجَازِ وَمَا يَلِيهِ وَهَذَا هُوَ الْمَيْلُ الَّذِي إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرَطَانِ عَنْ  
مَعْدَلِ النَّهَارِ فِي أَفْقِ الْإِسْتِوَاءِ اِرْتَفَعَ بِارْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ حَتَّى صَارَ مُسَامِتًا فَإِذَا  
ارْتَفَعَ الْقُطْبُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ نَزَلَتِ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَتَةِ وَلَا تَزَالُ فِي  
انْخِفَاضٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ ارْتِفَاعُ الْقُطْبِ أَرْبَعًا وَسِتِّينَ وَيَكُونُ انْخِفَاضُ الشَّمْسِ عَنِ  
الْمُسَامَتَةِ كَذَلِكَ وَانْخِفَاضُ الْقُطْبِ الْجَنُوبِيِّ عَنِ الْأَفْقِ مِثْلَهَا فَيَنْقَطِعُ التَّكْوِينُ  
لِافْرَاطِ الْبَرْدِ وَالْجَمْدِ وَطَوِيلِ زَمَانِهِ غَيْرَ مُمْتَرِجٍ بِالْحَرِّ . ثُمَّ إِنَّ الشَّمْسَ عِنْدَ الْمُسَامَتَةِ  
وَمَا يُقَارِبُهَا تَبَعَتْ الْأَشِعَّةَ قَائِمَةً وَفِيمَا دُونَ الْمُسَامَتَةِ عَلَى زَوَايَا مُنْفَرِجَةٍ وَحَادَّةٍ وَإِذَا  
كَانَتْ زَوَايَا الْأَشِعَّةِ قَائِمَةً عَظُمَ الضَّوُّ وَانْتَشَرَ بِخِلَافِهِ فِي الْمُنْفَرِجَةِ وَالْحَادَّةِ فَلِهَذَا  
يَكُونُ الْحَرُّ عِنْدَ الْمُسَامَتَةِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ فِيمَا بَعْدَ لِأَنَّ الضَّوَّ سَبَبُ الْحَرِّ  
وَالشَّخِيزِ .

ثُمَّ إِنَّ الْمُسَامَتَةَ فِي خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ تَكُونُ مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ عِنْدَ تَقَطُّعِي الْحَمَلِ  
وَالْمِيزَانِ وَإِذَا مَالَتْ فَغَيْرُ بَعِيدٍ وَلَا يَكَادُ الْحَرُّ يَغْتَدِلُ فِي آخِرِ مَيْلِهَا عِنْدَ رَأْسِ  
السَّرَطَانِ وَالْجُذِيِّ إِلَّا أَنْ صَعِدَتْ إِلَى الْمُسَامَتَةِ فَتَبْقَى الْأَشِعَّةُ الْقَائِمَةُ الزَّوَايَا تُلْحِقُ عَلَى  
ذَلِكَ الْأَفْقِ وَيَطْوُلُ مُكْثُهَا أَوْ يَدْوُمُ فَيَسْتَعْمَلُ الْهَوَاءُ حَرَارَةً وَيَفْرُطُ فِي شِدَّتِهَا وَكَذَا  
مَا دَامَتِ الشَّمْسُ تُسَامِتُ مَرَّتَيْنِ فِيمَا بَعْدَ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ إِلَى عَرْضِ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ  
فَإِنَّ الْأَشِعَّةَ مُلْحَقَةٌ عَلَى الْأَفْقِ فِي ذَلِكَ بِقَرِيبٍ مِنَ الْحَاحِهَا فِي خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ وَافْرَاطِ  
الْحَرِّ يَفْعَلُ فِي الْهَوَاءِ تَجْفِيفًا وَيَبْسًا يَمْنَعُ مِنَ التَّكْوِينِ لِأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ الْحَرُّ جَفَّتْ  
الْمِيَاءُ وَالرُّطُوبَاتُ وَفَسَدَ التَّكْوِينُ فِي الْمَعْدِنِ وَالْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ إِذَ التَّكْوِينُ  
لَا يَكُونُ إِلَّا بِالرُّطُوبَةِ ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرَطَانِ عَنْ سَمْتِ الرَّؤُوسِ فِي عَرْضِ  
خَمْسٍ وَعَشْرِينَ فَمَا بَعْدَهُ نَزَلَتِ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَتَةِ فَيَصِيرُ الْحَرُّ إِلَى الْإِعْتِدَالِ أَوْ  
يَمِيلُ عَنْهُ مَيْلًا قَلِيلًا فَيَكُونُ التَّكْوِينُ وَيَتَزَايِدُ عَلَى التَّدرِيجِ إِلَى أَنْ يَفْرُطَ الْبَرْدُ فِي  
شِدَّتِهِ لِقَلَّةِ الضَّوِّ وَكَوْنِ الْأَشِعَّةِ مُنْفَرِجَةً الزَّوَايَا فَيَنْقُصُ التَّكْوِينُ وَيَفْسُدُ بَيْنَ أَنْ

فَسَادَ التَّكْوِينِ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْحَرِّ أَكْثَرَ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْبَرْدِ لِأَنَّ الْحَرَّ أَسْرَعُ تَأْثِيرًا فِي التَّجْفِيفِ مِنْ تَأْثِيرِ الْبَرْدِ فِي الْجَمْدِ فَلِذَلِكَ كَانَ الْعُمْرَانُ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي قَلِيلًا وَفِي الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مُتَوَسِّطًا لِإِعْتِدَالِ الْحَرِّ بِنَقْصَانِ الضُّوْءِ وَفِي السَّادِسِ وَالسَّابِعِ كَثِيرًا لِنَقْصَانِ الْحَرِّ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ الْبَرْدِ لَا تُؤَثِّرُ عِنْدَ أَوَّلِهَا فِي فَسَادِ التَّكْوِينِ كَمَا يَفْعَلُ الْحَرُّ إِذَا لَا تَجْفِيفَ فِيهَا إِلَّا عِنْدَ الْإِفْرَاطِ بِمَا يَعْضُرُ لَهَا حِينَئِذٍ مِنَ النَّبَسِ كَمَا بَعْدَ السَّابِعِ فَلِهَذَا كَانَ الْعُمْرَانُ فِي الرُّبْعِ الشَّمَالِيِّ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَمِنْ هُنَا أَخَذَ الْحُكَمَاءُ خِلَافَ حُطِّ الْإِسْتِوَاءِ وَمَا وَرَاءَهُ وَأُورِدَ<sup>(١)</sup> عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِالمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ فَكَيْفَ يَتِمُّ الْبُرْهَانُ عَلَى ذَلِكَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا امْتِنَاعَ الْعُمْرَانِ فِيهِ بِالْكُلِّيَّةِ إِنَّمَا أَذَاهُمْ الْبُرْهَانُ إِلَى أَنَّ فَسَادَ التَّكْوِينِ فِيهِ قَوِيٌّ بِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَالْعُمْرَانُ فِيهِ إِمَّا مُمْتَنِعٌ أَوْ مُمَكِّنٌ أَقْلِيٌّ وَهُوَ كَذَلِكَ فَإِنَّ حُطَّ الْإِسْتِوَاءِ وَالَّذِي وَرَاءَهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ عُمْرَانٌ كَمَا نَقَلَ فَهُوَ قَلِيلٌ جَدًّا . وَقَدْ زَعَمَ ابْنُ رُشْدٍ أَنَّ حُطَّ الْإِسْتِوَاءِ مُعْتَدِلٌ وَأَنَّ مَا وَرَاءَهُ فِي الْجَنُوبِ بِمِثَالِ مَا وَرَاءَهُ فِي الشَّمَالِ فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا عَمَرَ مِنْ هَذَا وَالَّذِي قَالَهُ غَيْرُ مُمْتَنِعٌ مِنْ جِهَةِ فَسَادِ التَّكْوِينِ وَإِنَّمَا امْتَنَعَ فِيهَا وَرَاءَ حُطِّ الْإِسْتِوَاءِ فِي الْجَنُوبِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْعُنْصَرَ الْمَائِيَّ عَمَرَ وَجْهَ الْأَرْضِ هُنَالِكَ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي كَانَ مُقَابِلَهُ مِنَ الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ قَابِلًا لِلتَّكْوِينِ<sup>(٢)</sup> وَلَمَّا امْتَنَعَ الْمُعْتَدِلُ لِغَيْبَةِ الْمَاءِ تَبَعَهُ مَا سِوَاهُ لِأَنَّ الْعُمْرَانَ مُتَدَرِّجٌ وَيَأْخُذُ فِي التَّدْرِيجِ مِنْ جِهَةِ الْوُجُودِ لَا مِنْ جِهَةِ الْإِمْتِنَاعِ وَأَمَّا الْقَوْلُ بِامْتِنَاعِهِ فِي حُطِّ الْإِسْتِوَاءِ فَيَرُدُّهُ النُّقْلُ الْمُتَوَاتِرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَلِنَرْسُمِ بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ صُورَةَ الْجُغْرَافِيَا كَمَا رَسَمَهَا صَاحِبُ كِتَابِ رُوجَارِ ثُمَّ نَأْخُذُ فِي تَفْصِيلِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ .

(١) أورد عليه الخبر: قضه ( قاموس ) .

(٢) جاء كشف اوستراليا واميركا والقسم الواقع جنوب خط الاستواء من افريقيا مؤيدا لرأي ابن رشد .

ومبينا فساد ما كان يعتقد حينئذ من قلة العمران جنوب خط الاستواء ( عن طبعة لجنة البيان العربي ) .

## تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

إعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب يُسمون كل قسم منها إقليماً فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم كل واحد منها أخذ من الغرب إلى الشرق على طوله . فالأول منها مار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء بحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك إلا القفار والرمال وبفض عمارة إن صحت فهي كلاً عمارة وتلييه من جهة شماليه الإقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب إلا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب . ثم إن أزمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معادل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس الليل والنهار لذلك وينتهي طول الليل والنهار في آخر الإقليم الأول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي لليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر الإقليم الثاني مما يلي الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلبها الصيفي إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوي برأس الجدي وينتهي للأقصر من الليل والنهار ما يتقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهي دورة انفلك الكاملة وكذلك في آخر الإقليم الثالث مما يلي الشمال أيضاً ينتهيان إلى أربع عشرة ساعة وفي آخر الرابع إلى أربع عشرة ساعة

وَنَصْفِ سَاعَةٍ وَفِي آخِرِ الْخَامِسِ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَفِي آخِرِ السَّادِسِ إِلَى خَمْسِ  
عَشْرَةَ سَاعَةً وَنَصْفِ وَإِلَى آخِرِ السَّابِعِ إِلَى سِتِّ عَشْرَةَ سَاعَةً وَهَذَا يَنْقَطِعُ الْعُمُرَانُ  
فَيَكُونُ تَفَاوُتُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ فِي الْأَطْوَلِ مِنْ لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا بِنَصْفِ سَاعَةٍ لِكُلِّ إِقْلِيمٍ  
يَتَزَايِدُ مِنْ أَوَّلِهِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ إِلَى آخِرِهِ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُوزَّعَةً عَلَى أَجْزَاءِ هَذَا  
الْبُعْدِ . وَأَمَّا عَرْضُ الْبُلْدَانِ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ بُعْدِ مَا بَيْنَ سَمْتِ رَأْسِ  
الْبَلَدِ وَدَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ الَّذِي هُوَ سَمْتُ رَأْسِ حَظِّ الْإِسْتِوَاءِ وَبِمِثْلِهِ سِوَاهُ يَنْخَفِضُ  
الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ عَنْ أَفْقِ ذَلِكَ الْبَلَدِ وَيَرْتَفِعُ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنْهُ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أُنْبُعَادٍ  
مُتَسَاوِيَةٍ تُسَمَّى عَرْضُ الْبَلَدِ كَمَا مَرَّ ذَلِكَ قَبْلُ . وَالْمُتَكَلِّمُونَ عَلَى هَذِهِ الْجُغْرَافِيَا  
قَسَمُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ فِي طَوْلِهِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ بِعَشْرَةِ  
أَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ وَيَذَكِّرُونَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْأَنْصَارِ  
وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالْمَسَافَاتِ بَيْنَهَا فِي الْمَسَالِكِ وَنَحْنُ الْآنَ نُوْجِزُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ  
وَنَذَكُرُ مَشَاهِيرَ الْبُلْدَانِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبَحَارِ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا وَنَحَازِي بِذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي  
كِتَابِ نَزْهِةِ الْمُشْتَقِ الَّذِي أَلْفَهُ الْعَلَوِيُّ الْأَدْرِيْسِيُّ الْحَمُودِيُّ لِمَلِكِ صِقْلِيَّةِ مِنَ  
الْإِفْرَنْجِ وَهُوَ زَخَارُ بْنُ زَخَارٍ<sup>(١)</sup> عِنْدَمَا كَانَ نَازِلًا عَلَيْهِ بِصِقْلِيَّةِ بَعْدَ خُرُوجِ صِقْلِيَّةِ  
مِنْ إِمَارَةِ مَالِقَةَ وَكَانَ تَأْلِيْفُهُ لِلْكِتَابِ فِي مُنْتَصَفِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ وَجَمَعَ لَهُ كُتُبًا جَمَّةً  
لِلْمَسْعُودِيِّ وَابْنِ خَزْدَادِيهِ وَالْحَوْقَلِيِّ وَالْقَدْرِيِّ وَابْنِ إِسْحَاقِ الْمُنْجَمِ وَبَطْلِيمُوسَ  
وَعِيْرَهُمْ وَنَبَدَأَ مِنْهَا بِالْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى آخِرِهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْصِمُنَا بِمَنْهِ  
وَفَضْلِهِ .

الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ . وَفِيهِ مِنْ جِهَةِ غَرْبِهِ الْجَزَائِرُ الْخَالِدَاتُ الَّتِي مِنْهَا بَدَأَ  
بَطْلِيمُوسَ بِأَخْذِ أَطْوَالِ الْبِلَادِ وَلَيْسَتْ فِي بَسِيطِ الْإِقْلِيمِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ  
جُزْرٌ مُتَكَثِرَةٌ أَكْبَرُهَا وَأَشْهَرُهَا ثَلَاثٌ وَيُقَالُ إِنَّهَا مَعْمُورَةٌ وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ سَفَائِنَ مِنَ  
الْإِفْرَنْجِ مَرَّتْ بِهَا فِي أَوْسَطِ هَذِهِ الْمِائَةِ وَقَاتَلُوهُمْ فَغَنِمُوا مِنْهُمْ وَسَبَّوْا وَبَاعَوْا بَعْضَ

(١) روجار الثاني

أَسْرَاهُمْ بِسَوَاحِلِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَصَارُوا إِلَى خِدْمَةِ السُّلْطَانِ فَلَمَّا تَعَلَّمُوا اللِّسَانَ  
الْعَرَبِيَّ أَخْبَرُوا عَنْ حَالِ جَزَائِرِهِمْ وَأَنَّهُمْ يَخْتَفِرُونَ الْأَرْضَ لِلزَّرَاعَةِ بِالْقُرُونِ وَأَنَّ  
الْحَدِيدَ مَفْقُودٌ بِأَرْضِهِمْ وَعَيْشُهُمْ مِنَ الشَّعِيرِ وَمَاشِيَتَهُمُ الْمَعَزُ وَقِتَالَهُمْ بِالْحِجَارَةِ  
يَزْمُونَهَا إِلَى خَلْفٍ وَعِبَادَتُهُمُ السُّجُودُ لِلشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ وَلَا يَعْرِفُونَ دِينًا وَلَمْ  
تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ وَلَا يُوقَفُ عَلَى مَكَانِ هَذِهِ الْجَزَائِرِ إِلَّا بِالْعُثُورِ لَا بِالْقَصْدِ إِلَيْهَا لِأَنَّ  
سَفَرَ السُّفْنِ فِي الْبَحْرِ إِنَّمَا هُوَ بِالرِّيَّاحِ وَمَعْرِفَةِ جِهَاتِ مَهَابِهَا وَإِلَى أَيْنَ يُوَصَّلُ إِذَا  
مَرَّتْ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي فِي مَمَرِ ذَلِكَ الْمَهَبِ وَإِذَا اخْتَلَفَ الْمَهَبُ وَعَلِمَ  
حَيْثُ يُوَصَّلُ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ حُودِي بِهِ الْقَلْعُ مُحَاذَاةً يَحْمِلُ السُّفِينَةَ بِهَا عَلَى قَوَائِنِ  
فِي ذَلِكَ مُحَصَّلَةٌ عِنْدَ النَّوَاتِيَةِ <sup>(١)</sup> وَالْمَلَّاحِينَ الَّذِينَ هُمْ رُؤَسَاءُ السُّفْنِ فِي الْبَحْرِ وَالْبِلَادِ  
الَّتِي فِي حَافَاتِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَفِي عُدُوتِهِ مَكْتُوبَةٌ كَلَّمَهَا فِي صَحِيفَةٍ عَلَى شَكْلِ مَا هِيَ  
عَلَيْهِ فِي الْوُجُودِ وَفِي وَضْعِهَا فِي سَوَاحِلِ الْبَحْرِ عَلَى تَرْتِيبِهَا وَمَهَابِ الرِّيَّاحِ وَمَمَرَاتِهَا  
عَلَى اخْتِلَافِهَا مَعَهَا فِي تِلْكَ الصَّحِيفَةِ وَيُسَمُّونَهَا الْكِنْبَاصَ وَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُونَ فِي  
أَسْفَارِهِمْ وَهَذَا كُلُّهُ مَفْقُودٌ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فَلِذَلِكَ لَا تَلْجُ فِيهِ السُّفْنُ لِأَنَّهَا إِنْ غَابَتْ  
عَنْ مَرَأَى السَّوَابِلِ فَقَدْ أَنْ تَهْتَدِي إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهَا مَعَ مَا يَنْعَقِدُ فِي جَوْهَذَا الْبَحْرِ  
وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ الْأَنْبَحَةِ الْمُمَانِعَةِ لِلسُّفْنِ فِي مَسِيرِهَا وَهِيَ لِبُعْدِهَا لَا تُدْرِكُهَا  
أَضْوَاءُ الشَّمْسِ الْمُعْكَسَةَ مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ فَتَحْلَلُهَا فَلِذَلِكَ عَسَرَ الْإِهْتِدَاءُ إِلَيْهَا  
وَصَعِبَ الْوُقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا . وَأَمَّا الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِيهِ مَصْبُ النَّيْلِ  
الْآتِي مِنْ مَبْدُئِهِ عِنْدَ جَبَلِ الْقَمَرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيُسَمَّى نَيْلَ السُّودَانَ وَيَنْدَهَبُ إِلَى  
الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أَوْلِيكَ وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ مَدِينَةٌ سَلَا وَتَكْرُورُ  
وَعَانَةُ وَكُلُّهَا لِهَذَا الْعَهْدِ فِي مَمْلَكَةِ مَلِكِ مَالِي مِنْ أَمَمِ السُّودَانَ وَإِلَى بِلَادِهِمْ تُسَافِرُ  
تُجَارُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَبِالْقُرْبِ مِنْهَا مِنْ شَمَالِهَا بِلَادُ لِمْتُونَةَ وَسَائِرِ طَوَائِفِ  
الْمُلْثَمِينَ وَمَفَاوِزُ يَجُولُونَ فِيهَا وَفِي جَنُوبِي هَذَا النَّيْلِ قَوْمٌ مِنَ السُّودَانَ يُقَالُ لَهُمْ

(١) بالعامية : الملاحون .

« لَيْلَمٌ » وَهُمْ كَفَارٌ وَيَكْتَوُونَ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَصْدَاعِهِمْ وَأَهْلُ غَانَةَ وَالتَّكْرُورِ يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَسْبُونَهُمْ وَيَبِعُونَهُمْ لِلتُّجَّارِ فَيَجْلِبُونَهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ وَكُلُّهُمْ غَامَةٌ رَقِيقُهُمْ وَلَيْسَ وَرَاءَهُمْ فِي الْجَنُوبِ عُمَرَانٌ يُغْتَبَرُ إِلَّا أَنْاسِيٌّ أَقْرَبُ إِلَى الْحَيَوَانِ الْمُعْجَمِ مِنَ النَّاطِقِ يَسْكُنُونَ الْفِيَّافِي وَالْكُهُوفَ وَيَأْكُلُونَ الْعِشْبَ وَالْحُبُوبَ غَيْرَ مَهْيَاةٍ وَرَبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَلَيْسُوا فِي عِدَادِ الْبَشَرِ . وَفَوَاكِهِ بِلَادِ السُّودَانِ كُلُّهَا مِنْ قُصُورِ صَخْرَاءِ الْمَغْرِبِ مِثْلِ تَوَاتٍ وَتَكَدَّرَارِينَ وَوَزْكَلَانَ . فَكَانَ فِي غَانَةَ فِيمَا يُقَالُ مَلِكٌ وَدَوْلَةٌ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ يُعْرَفُونَ بِبَنِي صَالِحٍ وَقَالَ صَاحِبُ كِتَابِ رُوحِ الْجَارِ إِنَّهُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ وَلَا يُعْرَفُ صَالِحٌ هَذَا فِي وُلْدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ وَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَصَارَتْ غَانَةُ لِسُلْطَانِ مَالِيٍّ وَفِي شَرْقِيٍّ هَذَا الْبَلَدِ فِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ بَلَدٌ ( كُوكُو ) عَلَى نَهْرٍ يَنْبَعُ مِنْ بَعْضِ الْجِبَالِ هُنَالِكَ وَيَمُرُّ مَغْرَبًا فَيَقُوصُ فِي رِمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي وَكَانَ مَلِكُ كُوكُو قَائِمًا بِنَفْسِهِ ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ مَالِيٍّ وَأَصْبَحَتْ فِي مَمْلَكَتِهِ وَخَرِبَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَجْلِ قِتْنَةٍ وَقَعَتْ هُنَاكَ نَذْرُهَا عِنْدَ ذِكْرِ دَوْلَةِ مَالِيٍّ فِي مَحَلِّهَا مِنْ تَارِيخِ التَّرْتِيبِ وَفِي جَنُوبِيٍّ بَلَدٌ كُوكُو بِلَادِ كَاتَمٍ <sup>(١)</sup> مِنْ أُمَّمِ السُّودَانِ وَبَعْدَهُمْ وَنَعَارَةَ عَلَى ضِفَّةِ النَّيْلِ مِنْ شَمَالِيٍّ وَفِي شَرْقِيٍّ بِلَادِ وَنَعَارَةَ وَكَاتَمِ بِلَادِ زَغَاوَةَ وَتَاجِرَةَ الْمُتَّصِلَةَ بِأَرْضِ النَّوْبَةِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِيهِ يَمُرُّ نَيْلٌ مِضْرٌ ذَاهِبًا مِنْ مَبْدَاهِ عِنْدَ حُطِّ الْإِسْتِوَاءِ إِلَى الْبَحْرِ الرَّؤُمِيِّ فِي الشَّمَالِ وَمَخْرُجُ هَذَا النَّيْلِ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ الَّذِي فَوْقَ حُطِّ الْإِسْتِوَاءِ بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً وَاخْتَلَفُوا فِي ضَبْطِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فَضَبَطَهَا بَعْضُهُمْ بِفَتْحِ الْقَافِ وَالْمِيمِ نِسْبَةً إِلَى قَمَرِ السَّمَاءِ لِسُدَّةِ تِيَاضِهِ وَكَثْرَةِ ضَوْوِهِ وَفِي كِتَابِ الْمُشْتَرَكِ لِيَأْقُوتَ يَضُمُّ الْقَافِ وَسُكُونِ الْمِيمِ نِسْبَةً إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ وَكَذَا ضَبَطَهُ ابْنُ سَعِيدٍ فَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْجَبَلِ عَشْرُ عِيُونٍ تَجْتَمِعُ كُلُّ خَمْسَةٍ مِنْهَا فِي بُحَيْرَةٍ وَبَيْنَهُمَا سِتَّةٌ أَمْيَالٍ وَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْبُحَيْرَتَيْنِ ثَلَاثَةٌ أَنْهَارٍ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي بَطِيحَةٍ

(١) كاتم وليس كاتم . بكسر النون من بلاد البربر بأقصى الغرب في بلاد السودان وقيل كاتم صنف من

السودان . ( معجم البلدان )

وَاحِدَةً فِي أَسْفَلِهَا جَبَلٌ مُعْتَرِضٌ يَشُقُّ الْبَحِيرَةَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَيَنْقَسِمُ مَاؤُهَا  
 بِقِسْمَيْنِ فَيَمُرُّ الْغَرْبِيُّ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ مُعْرَبًا حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ  
 وَيَخْرُجُ الشَّرْقِيُّ مِنْهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّمَالِ عَلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالنُّوبَةِ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا  
 وَيَنْقَسِمُ فِي أَعْلَى أَرْضِ مِصْرَ فَيَصُبُّ ثَلَاثَةً مِنْ جَدَاوِلِهِ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ عِنْدَ  
 الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَرَشِيدٍ وَدَمِيَّاطَ وَيَصُبُّ وَاحِدٌ فِي بُحَيْرَةِ مُلْحَةَ قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ بِالْبَحْرِ  
 فِي وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ بِلَادُ النُّوبَةِ وَالْحَبَشَةِ وَبَعْضُ بِلَادِ  
 الْوَاخَاتِ إِلَى أُسْوَانَ وَحَاضِرَةِ بِلَادِ النُّوبَةِ مَدِينَةُ دَنْقَلَةَ وَهِيَ فِي غَرْبِيِّ هَذَا النَّيْلِ  
 وَبَعْدَهَا غَلْوَةٌ وَبِلَاقٌ <sup>(١)</sup> وَبَعْدَهُمَا جَبَلُ الْجِنَادِلِ عَلَى سِتَّةِ مَرَاجِلٍ مِنْ بِلَاقٍ فِي  
 الشَّمَالِ وَهُوَ جَبَلٌ عَالٍ مِنْ جِهَةِ مِصْرَ وَمُنْخَفِضٌ مِنْ جِهَةِ النُّوبَةِ فَيَنْفِذُ فِيهِ النَّيْلُ  
 وَيَصُبُّ فِي مَهَوَى بَعِيدًا صَبًّا هَائِلًا فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْلُكَهُ الْمَرَائِبُ بَلْ يَحْوُلُ الْوَسْقُ  
 مِنْ مَرَائِبِ السُّودَانِ فَيُخَمَلُ عَلَى الظُّهْرِ إِلَى بَلَدِ أُسْوَانَ قَاعِدَةَ الصُّعَيْدِ إِلَى فَوْقِ  
 الْجِنَادِلِ وَبَيْنَ الْجِنَادِلِ وَأُسْوَانَ اثْنَتَا عَشْرَةَ مَرْحَلَةً وَالْوَاخَاتِ فِي غَرْبِهَا عَدْوَةُ النَّيْلِ  
 وَهِيَ الْآنَ خَرَابٌ وَبِهَا آثَارُ الْعِمَارَةِ الْقَدِيمَةِ . وَفِي وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ  
 الْخَامِسِ مِنْهُ بِلَادُ الْحَبَشَةِ عَلَى وَادٍ يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ حُطِّ الْإِسْتِوَاءِ ذَاهِبًا إِلَى أَرْضِ  
 النُّوبَةِ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي النَّيْلِ الْهَاطِطِ إِلَى مِصْرَ وَقَدْ وَهَمَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَرَعَمُوا  
 أَنَّهُ مِنْ نَيْلِ الْقَمَرِ وَبَطْلِيمُوسُ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ الْجُغْرَافِيَا وَذَكَرَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ هَذَا  
 النَّيْلِ . وَإِلَى وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ يَنْتَهِي بَحْرُ الْهِنْدِ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْ  
 نَاحِيَةِ الصِّينِ وَيَغْمُرُ عَامَّةَ هَذَا الْإِقْلِيمِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَلَا يَبْقَى فِيهِ عُمْرَانٌ  
 إِلَّا مَا كَانَ فِي الْجَزَائِرِ الَّتِي فِي دَاخِلِهِ وَهِيَ مُتَفَدِّدَةٌ يُقَالُ تَنْتَهَى إِلَى أَلْفِ جَزِيرَةٍ أَوْ  
 فِيمَا عَلَى سَوَاحِلِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَلَيْسَ مِنْهَا فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَّا طَرَفٌ مِنْ  
 بِلَادِ الصِّينِ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ وَفِي بِلَادِ الْيَمَنِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِيمَا  
 بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ الْهَاطِطَيْنِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَهَمَا بَحْرُ قَلْزَمَ

(١) بلاق . هي . بولاق .

وَبَحْرُ فَارِسَ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ الْعَرَبِ وَتَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ الْيَمَنِ وَبِلَادِ الشَّحْرِ<sup>(١)</sup> فِي شَرْقِيَّتِهَا عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَعَلَى بِلَادِ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهِمَا كَمَا نَذَكُرُهُ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ فَأَمَّا الَّذِي عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيهِ فَبَلَدُ زَالَعٍ مِنْ أَطْرَافِ بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَمَجَالَاتُ الْبَجَّةِ<sup>(٢)</sup> فِي شِمَالِي الْحَبَشَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْعَلَاقِي فِي أَعَالِي الصُّعَيْدِ وَبَيْنَ بَحْرِ الْقَلْزَمِ الْهَابِطِ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَتَحْتَ بِلَادِ زَالَعٍ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ فِي هَذَا الْجُزْءِ خَلِيجٌ بَابِ الْمُنْدَبِ يَصِيقُ الْبَحْرَ الْهَابِطَ هُنَاكَ بِمَرَاخِمَةِ جَبَلِ الْمُنْدَبِ الْمَائِلِ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ مُمْتَدًّا مَعَ سَاحِلِ الْيَمَنِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فِي طُولِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا فَيَصِيقُ الْبَحْرَ بِسَبَبِ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ فِي غَرْضِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ أَوْ نَحْوِهَا وَيُسَمَّى بَابَ الْمُنْدَبِ وَعَلَيْهِ تَمُرُّ مَرَائِبُ الْيَمَنِ إِلَى سَاحِلِ السُّوَيْسِ قَرِيبًا مِنْ مِصْرَ وَتَحْتَ بَابِ الْمُنْدَبِ جَزِيرَةٌ سَوَاكِنٌ وَذَهْلُكَ وَقِبَالَتُهُ مِنْ غَرْبِيهِ مَجَالَاتُ الْبَجَّةِ مِنْ أَمَمِ السُّودَانِ كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ شَرْقِيَّتِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ تَهَائِمُ الْيَمَنِ وَمِنْهَا عَلَى سَاحِلِهِ بَلَدٌ عَلِيُّ بْنُ يَعْقُوبَ وَفِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْ بَلَدِ زَالَعٍ وَعَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيهِ قَرْيَةُ بَرْبَرٍ يَتَلَوُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَنْعَطِفُ مِنْ جَنُوبِيهِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَلِيهَا هُنَاكَ مِنْ جِهَةِ شَرْقِيَّتِهَا بِلَادُ الزَّنْجِ ثُمَّ بِلَادُ سَفَالَةَ مِنْ سَاحِلِ الْجَنُوبِيِّ بِلَادُ الْوَقَوَاقِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ عِنْدَ مَدْخَلِ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ . وَأَمَّا جَزَائِرُ هَذَا الْبَحْرِ فَكَثِيرَةٌ مِنْ أَكْثَرِهَا جَزِيرَةُ سَرَنْدِيبَ مَدْوُورَةُ الشُّكْلِ . وَبِهَا الْجَبَلُ الْمَشْهُورُ يُقَالُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَعْلَى مِنْهُ وَهِيَ قِبَالَةُ سَفَالَةَ . ثُمَّ جَزِيرَةُ الْقَمَرِ وَهِيَ جَزِيرَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ تَبْدَأُ مِنْ قِبَالَةِ أَرْضِ سَفَالَةَ وَتَذَهَبُ إِلَى الشَّرْقِ مُنْحَرِفَةً بِكَثِيرٍ إِلَى أَنْ تَقْرُبَ مِنْ سَوَاحِلِ أَعَالِي الصِّينِ وَيَخْتَفُ بِهَا فِي هَذَا الْبَحْرِ مِنْ جَنُوبِيَّتِهَا جَزَائِرُ الْوَقَوَاقِ وَمِنْ شَرْقِيَّتِهَا جَزَائِرُ السَّيْلَانِ إِلَى جَزَائِرِ أُخَرَ فِي هَذَا الْبَحْرِ كَثِيرَةٌ الْعَدَدِ وَفِيهَا أَنْوَاعُ الطَّيِّبِ

(١) الشحر : ساحل اليمن وقيل الساحل ما بين عدن وعمان .

(٢) ويقال أيضا البجاة واما زالع فهي زيلع : مجموعة قبائل تسكن ما بين النيل والبحر الأحمر .



وَالْأَفَاقِيهِ وَفِيهَا يُقَالُ مَعَادِنُ الذَّهَبِ وَالزُّمُرُودِ وَعَامَّةُ أَهْلِهَا عَلَى دِينِ الْمَجُوسِيَّةِ وَفِيهِمْ  
مُلُوكٌ مُتَعَدِّدُونَ وَبِهَذِهِ الْجَزَائِرِ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانَ عَجَائِبُ ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجُغُرَافِيَا  
وَعَلَى الصُّفَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ الْيَمَنِ  
كُلُّهَا مِنْ جِهَةِ بَحْرِ الْقَلْزَمِ بِلَدِ زَبِيدَ وَالْمَنْجَمِ وَتِهَامَةَ الْيَمَنِ وَبَعْدَهَا بِلَدُ صَعْدَةَ مَقَرُّ  
الإِمَامَةِ الزَّيْدِيَّةِ وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَعَنِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ وَفِيهَا بَعْدَ  
ذَلِكَ مَدِينَةُ عَدَنَ وَفِي شَمَالِهَا صَنْعَاءُ وَبَعْدَهُمَا إِلَى الْمَشْرِقِ أَرْضُ الْأَحْقَافِ وَظَفَّارِ  
وَبَعْدَهَا أَرْضُ حَضْرَمَوْتِ ثُمَّ بِلَادُ الشُّحْرِ مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَبَحْرِ فَارِسَ .  
وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ هِيَ الَّتِي انْكَشَفَ عَنْهَا الْبَحْرُ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْإِقْلِيمِ  
الْوَسْطِيِّ وَيَنْكَشِفُ بَعْدَهَا قَلِيلٌ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ وَأَكْثَرُ مِنْهُ مِنَ الْعَاشِرِ فِيهِ أَعَالِي  
بِلَادِ الصِّينِ وَمِنْ مَدَنِهِ الشَّهِيرَةُ خَانِكُو وَقَبَالَتَهَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَزَائِرُ السَّيْلَانِ وَقَدْ  
تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا وَهَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ  
بِضْنِهِ وَفَضْلِهِ .

الإِقْلِيمُ الثَّانِي ، وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالْأَوَّلِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَقَبَالَةِ الْمَغْرِبِ مِنْهُ فِي  
الْبَحْرِ الْمُحِيطِ جَزِيرَتَانِ مِنَ الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ  
وَالثَّانِي مِنْهُ فِي الْجَانِبِ الْأَعْلَى مِنْهُمَا أَرْضُ قَنُورِيَّةَ وَبَعْدَهَا فِي جِهَةِ الشَّرْقِ أَعَالِي  
أَرْضِ غَانَةَ ثُمَّ مَجَالَاتُ زَعَاوَةَ مِنَ السُّودَانَ وَفِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ مِنْهُمَا صَحْرَاءُ نَسْتَرِ  
مُتَّصِلَةٌ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الشَّرْقِ ذَاتُ مَفَاوِزَ تَسْلُكُ فِيهَا التُّجَّارُ مَا بَيْنَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ  
وَبِلَادِ السُّودَانَ وَفِيهَا مَجَالَاتُ الْمَلْتَمِينَ مِنْ صِنْهَاجَةَ وَهُمْ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ مَا بَيْنَ  
كَزُولَةَ وَلِمْتُونَةَ وَمَسْرَاتَةَ وَلِمَطَّةَ وَوَرِيكَةَ وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْمَفَاوِزِ شَرْقًا أَرْضُ فِرَّانَ  
ثُمَّ مَجَالَاتُ أَرْكَارَ<sup>(١)</sup> مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ ذَاهِبَةٌ إِلَى أَعَالِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ عَلَى سَمْتِهَا فِي  
الشَّرْقِ وَبَعْدَهَا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّلَاثِ وَهِيَ جِهَةُ الشَّمَالِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَّانَ وَعَلَى  
سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ سِنْتَرِيَّةَ وَتَسْمَى الْوَأَحَاتِ الدَّاخِلَةَ وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ أَعْلَاهُ

(١) وفي بعض النسخ اركار .

بَقِيَّةُ أَرْضِ الْبَاجَوِيِّينَ ثُمَّ يَعْترِضُ فِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادَ الصَّعِيدِ حَافَاتُ النَّيْلِ  
الدَّاهِبِ مِنْ مَبْدَاهِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى مَصْبِهِ فِي الْبَحْرِ فَيَمُرُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ  
الْجَبَلَيْنِ الْحَاجِزِينَ وَهُمَا جَبَلُ الْوَاحَاتِ مِنْ غَرْبِيهِ وَجَبَلُ الْمُقَطَّمِ مِنْ شَرْقِيهِ وَعَلَيْهِ  
مِنْ أَعْلَاهُ بِلَادُ أَسْنَا وَأَزْمَنْتُ وَيَتَّصِلُ كَذَلِكَ حَافَاتُهُ إِلَى أَسْيُوطَ وَقُوصَ ثُمَّ إِلَى صُولِ  
وَيَفْتَرِقُ النَّيْلُ هُنَالِكَ عَلَى شِعْبَيْنِ يَنْتَهِي الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا فِي هَذَا الْجُزْءِ عِنْدَ اللَّاهُونَ  
وَالْأَيْسَرُ عِنْدَ دِلَاصٍ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا أَعَالِي دِيَارِ مِصْرَ وَفِي الشَّرْقِ مِنْ جَبَلِ الْمُقَطَّمِ  
صَحَارَى عَيْذَابَ ذَاهِبَةً فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ السُّوَيْسِ وَهُوَ بَحْرُ  
الْقَلْزَمِ الْهَابِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ فِي عُدُوتِهِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ  
هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ الْحِجَازِ مِنْ جَبَلٍ يَلْمَلَمُ إِلَى بِلَادِ يَثْرِبَ فِي وَسْطِ الْحِجَازِ مَكَّةَ شَرْفَهَا  
اللَّهُ وَفِي سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جَدَّةَ تَقَابِلُ بِلَادَ عَيْذَابَ فِي الْعُدُوتِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ .  
وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ غَرْبِيهِ بِلَادُ نَجْدِ أَعْلَاهَا فِي الْجَنُوبِ وَتَبَالَهُ وَجَرَشُ إِلَى عَكَظَ  
مِنَ الشَّمَالِ وَتَحْتَ نَجْدٍ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ الْحِجَازِ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّرْقِ  
بِلَادُ نَجْرَانَ وَخَيْبَرَ وَتَحْتَهَا أَرْضُ الْيَمَامَةِ وَعَلَى سَمْتِ نَجْرَانَ فِي الشَّرْقِ أَرْضُ سَبَأَ  
وَمَأْرِبَ ثُمَّ أَرْضُ الشَّحْرِ وَيَنْتَهِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ الْبَحْرُ الثَّانِي الْهَابِطُ مِنَ الْبَحْرِ  
الْهِنْدِيِّ إِلَى الشَّمَالِ كَمَا مَرَّ وَيَذْهَبُ فِي هَذَا الْجُزْءِ بِانْحِرَافٍ إِلَى الْغَرْبِ فَيَمُرُّ مَا بَيْنَ  
شَرْقِيهِ وَجُوفِيهِ قِطْعَةً مُثَلَّثَةً عَلَيْهَا مِنْ أَعْلَاهُ مَدِينَةُ قَلْهَاتَ وَهِيَ سَاحِلُ الشَّحْرِ ثُمَّ  
تَحْتَهَا عَلَى سَاحِلِهِ بِلَادُ عَمَانَ . ثُمَّ بِلَادُ الْبَحْرَيْنِ وَهَجَرَ مِنْهَا فِي آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي  
الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْ غَرْبِيهِ قِطْعَةً مِنْ بَحْرِ فَارِسَ تَتَّصِلُ بِالْقِطْعَةِ الْأُخْرَى فِي  
السَّادِسِ وَيَعْمُرُ بَحْرُ الْهِنْدِ جَانِبَهُ الْأَعْلَى كُلَّهُ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ بِلَادُ السِّنْدِ إِلَى بِلَادِ  
مَكْرَانَ وَيَقَابِلُهَا بِلَادُ الطُّوْبَرَانَ وَهِيَ مِنَ السِّنْدِ أَيْضاً فَيَتَّصِلُ السِّنْدُ كُلُّهُ فِي الْجَانِبِ  
الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَتَحُولُ الْمَفَاوِزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ الْهِنْدِ وَيَمُرُّ فِيهِ نَهْرُهُ الْآتِي  
مِنْ نَاحِيَةِ بِلَادِ الْهِنْدِ وَيَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ وَأَوَّلُ بِلَادِ الْهِنْدِ عَلَى  
سَاحِلِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقاً بِلَادُ بَلْهَرَا وَتَحْتَهَا الْمَلْتَانُ بِلَادُ الصَّنَمِ

المعظم عندهم ، ثم إلى أسفل من السند ، ثم إلى أعالي بلاد سيجستان . وفي الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بلهرا من الهند ، وعلى سمتها شرقاً بلاد القندهار ، ثم بلاد مينيبار وفي الجانب الأعلى على ساحل البحر الهندي وتحتها في الجانب الأسفل أرض كابل وبعدها شرقاً إلى البحر المحيط بلاد القنوج ما بين قشيمير الداخلة وقشيمير الخارجة عند آخر الإقليم وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه إلى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه إلى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه سبحانه التوفيق وهو ولي الفضل والكرم .

الإقليم الثالث ، وهو متصل بالثاني من جهة الشمال ففي الجزء الأول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يخصيهم إلا خالقهم حسبما يأتي ذكره وفي القطعة التي بين هذا الجبل والإقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة ويتصل به شرقاً بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقاً بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة من صحراء نستز المفازة التي ذكرناها في الإقليم الثاني وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياها ومسالكه إلى أن ينتهي وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة ثم هنتانة ثم تينملك ثم كدميوه ثم مشكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبائل صنهاكة وهم صنهاجة وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك من جوفيه جبل أوراس وهو جبل كمامة وبعده ذلك أمم أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكنهم . ثم إن جبل درن هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفيه ففي

النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهَا بِلَادُ مَرَائِشَ وَأَعْمَاتٍ وَتَادِلًا<sup>(١)</sup> وَعَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا رِبَاطُ أَسْفَى وَمَدِينَةُ سَلَا وَفِي الْجَوْفِ عَنْ بِلَادِ مَرَائِشَ بِلَادُ فَاسٍ وَمَكْنَسَةُ وَتَازَا وَقَصْرُ كَتَامَةَ وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى فِي عَرَفِ أَهْلِهَا وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا بِلْدَانُ أُصَيْلَا وَالْعَرَايِشَ وَفِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ وَقَاعِدَتَهَا تَلْمُسَانُ وَفِي سَوَاحِلِهَا عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ بَلَدُ هَنْبِنِ وَوَهْرَانُ وَالْجَزَائِرُ لِأَنَّ هَذَا الْبَحْرَ الرُّومِيَّ يَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْ خَلِيجِ طَنْجَةَ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مُشْرَقًا فَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ الشَّامِ فَإِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلِيجِ الْمُتَضَائِقِ غَيْرَ تَعْيِيدِ أَنْفَسِحَ جَنُوبًا وَشَمَالًا فَدَخَلَ فِي الْإِقْلِيمِ

الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ فَلِهَذَا كَانَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ الْكَثِيرُ مِنْ بِلَادِهِ ثُمَّ يَتَّصِلُ بِبِلَادِ الْجَزَائِرِ مِنْ شَرْقِيَّهَا بِلَادُ بَجَايَةَ فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ ثُمَّ قُسْطَنْطِينِيَّةَ فِي الشَّرْقِ مِنْهَا وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَعَلَى مَرْحَلَةٍ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ فِي جَنُوبِيَّ هَذِهِ الْبِلَادِ وَمُرْتَفَعًا إِلَى جَنُوبِ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ بَلَدُ أَشِيرَ ثُمَّ بَلَدُ الْمَسِيلَةِ ثُمَّ الزَّابُ وَقَاعِدَتُهُ بِسُكْرَةَ تَحْتَ جَبَلِ أَوْرَاسِ الْمُتَّصِلِ بِدَرَنْ كَمَا مَرَّ وَذَلِكَ عِنْدَ آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَالْجُزْءِ الثَّانِيِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ عَلَى هَيْئَةِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ ثُمَّ جَبَلُ دَرَنْ عَلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْ جَنُوبِهِ ذَاهِبًا فِيهِ مِنْ غَرْبٍ إِلَى شَرْقٍ فَيَقْسِمُهُ بِقِطْعَتَيْنِ وَيَغْمُرُ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ مَسَافَةً مِنْ شَمَالِهِ فَالْقِطْعَةُ الْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ غَرْبِيَّهَا كُلُّهُ مَفَاوِزُ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بَلَدُ عُدَامِسَ وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ وَدَانَ الَّتِي بَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِيِ كَمَا مَرَّ وَالْقِطْعَةُ الْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْغَرْبِ مِنْهَا جَبَلُ أَوْرَاسِ وَتَبَسَةَ وَالْأَوْبَسُ وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بَلَدُ بُونَةَ ثُمَّ فِي سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ أَفْرِيْقِيَّةَ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مَدِينَةُ تُونِسَ ثُمَّ السُّوسَةَ ثُمَّ الْمَهْدِيَّةَ وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْبِلَادِ تَحْتَ جَبَلِ دَرَنْ بِلَادُ الْجَرِيدِ تَوَزَّرُ وَقَفْصَةُ وَنَفْرَاوَةٌ وَفِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّوَاوِحِلِ مَدِينَةُ الْقَيْرَوَانَ وَجَبَلُ وَسَلَاتٍ وَسَيْطَلَّةَ وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ

(١) كذا في جميع النسخ وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجمه تادلة.

كَلَّمَا شَرْقًا بَلَدَ طَرَابُلُسَ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَبِأَزَائِهَا فِي الْجَنُوبِ جَبَلٌ دُمَّرَ وَنَقَرَةٌ  
مِنْ قَبَائِلِ هَوَارَةَ مُتَّصِلَةٌ بِجَبَلِ دَرَنْ وَفِي مُقَابِلَةِ غُدَامِسَ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي آخِرِ  
الْقِطْعَةِ الْجَنُوبِيَّةِ وَآخِرُ هَذَا الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ سَوِيقَةُ ابْنِ مَشْكُورَةَ عَلَى الْبَحْرِ وَفِي  
جَنُوبِهَا مَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِي أَرْضِ وَدَانَ وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ يَمُرُّ أَيْضًا  
فِيهِ جَبَلٌ دَرَنْ إِلَّا أَنَّهُ يَنْعَطِفُ عِنْدَ آخِرِهِ إِلَى الشَّمَالِ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ  
يَدْخُلَ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ طَرْفَ أَوْثَانَ وَالْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنْ شَمَالِيهِ  
يَعْمُرُ طَائِفَةٌ مِنْهُ إِلَى أَنْ يُضَاقِقَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَبَلِ دَرَنْ فَالَّذِي وَرَاءَ الْجَبَلِ فِي  
الْجَنُوبِ وَفِي الْعَرَبِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَانَ . وَمَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِيهَا ثُمَّ زُوَيْلَةُ ابْنِ  
خَطَّابِ ثُمَّ رِمَالٌ وَقَفَارٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ وَفِيمَا بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ فِي الْعَرَبِ  
مِنْهُ بَلَدٌ سَرَتْ عَلَى الْبَحْرِ ثُمَّ خَلَاءٌ وَقَفَارٌ تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ ثُمَّ أَجْدَابِيَّةٌ ثُمَّ بَرْقَةٌ عِنْدَ  
مُنْعَطِفِ الْجَبَلِ ثُمَّ طَلْمَسَةٌ عَلَى الْبَحْرِ هُنَالِكَ ثُمَّ فِي شَرْقِ الْمُنْعَطِفِ مِنَ الْجَبَلِ  
مَجَالَاتٌ هَيْبٌ وَرَوَاحَةٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِي الْأَعْلَى  
مِنْ غَرْبِيهِ صَحَارَى بَرْزِيقٍ وَأَسْفَلُ مِنْهَا بِلَادٌ هَيْبٌ وَرَوَاحَةٌ ثُمَّ يَدْخُلُ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ  
فِي هَذَا الْجُزْءِ فَيَعْمُرُ طَائِفَةٌ مِنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يُزَاحِمَ طَرْفَهُ الْأَعْلَى وَيَنْقَى بَيْنَهُ  
وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزْءِ قَفَارٌ تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ الْفَيُومِ وَهِيَ عَلَى  
مَصَبِّ أَحَدِ الشَّعْبَيْنِ مِنَ النَّيْلِ <sup>(١)</sup> الَّذِي يَمُرُّ عَلَى اللَّاهُونَ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ فِي الْجُزْءِ  
الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِيِ وَيَصُبُّ فِي بَحِيرَةِ فَيُومٍ <sup>(٢)</sup> وَعَلَى سَمْتِهِ شَرْقًا أَرْضُ مِصْرَ  
وَمَدِينَتُهَا الشَّهِيرَةُ عَلَى الشَّعْبِ الثَّانِيِ الَّذِي يَمُرُّ بِدِلَاصٍ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ عِنْدَ آخِرِ  
الْجُزْءِ الثَّانِيِ وَيَفْتَرِقُ هَذَا الشَّعْبُ افْتِرَاقًا ثَانِيَةً مِنْ تَحْتِ مِصْرَ عَلَى شَعْبَيْنِ آخَرَيْنِ  
مِنْ شَطْنُوفٍ وَزَنْفِيٍّ وَيَنْقَسِمُ الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا مِنْ قَرْمُطٍ بِشَعْبَيْنِ آخَرَيْنِ وَيَصُبُّ

(١) يقصد به بحر يوسف الذي يأخذ مياهه من ترعة الإبراهيمية عند ديروط . ويمر بمديريات  
أسيوط والمنيا وبني سويف والفيوم ( عن نسخة لجنة البيان العربي ) .  
(٢) يقصد بها بحيرة قارون . وهي المشهورة في التاريخ باسم « بحيرة موريس » ( عن نسخة لجنة البيان  
العربي ) .

جَمِيعُهَا فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فَعَلَى مَصَبِّ الْغُرْبِيِّ مِنْ هَذَا الشَّعْبِ بَلَدُ الْإِسْكَندَرِيَّةِ  
 وَعَلَى مَصَبِّ الْوَسْطِ بَلَدُ رَشِيدٍ وَعَلَى مَصَبِّ الشَّرْقِيِّ بَلَدُ دَمِيَّاطَ وَيَنْ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ  
 وَيَنْ هَذِهِ السَّوَاهِلِ الْبَحْرِيَّةِ أَسْفَلَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ كُلِّهَا مَخْشُوعَةٌ عَمْرَانًا وَقَلْبًا<sup>(١)</sup>  
 وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ الشَّامِ وَأَكْثَرُهَا عَلَى مَا أَصِفُ وَذَلِكَ لِأَنَّ  
 بَحْرَ الْقَلْزَمِ يَنْتَهِي مِنَ الْجَنُوبِ فِي الْغُرْبِ مِنْهُ عِنْدَ السُّوَيْسِ لِأَنَّهُ فِي مَمَرِهِ مُبْتَدِئٌ  
 مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى الشَّمَالِ يَنْعَطِفُ أَخْذًا إِلَى جِهَةِ الْغُرْبِ فَتَكُونُ قِطْعَةٌ مِنْ  
 أَنْعِطَافِهِ فِي الْجُزْءِ طَوِيلَةٌ فَيَنْتَهِي فِي الطَّرْفِ الْغُرْبِيِّ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ وَعَلَى هَذِهِ  
 الْقِطْعَةِ بَعْدَ السُّوَيْسِ فَارَانُ ثُمَّ جَبَلُ الطُّورِ ثُمَّ أَيْلَةُ مَدْيَنَ ثُمَّ الْخُوزَاءُ فِي آخِرِهَا وَمِنْ  
 هُنَالِكَ يَنْعَطِفُ بِسَاحِلِهِ إِلَى الْجَنُوبِ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَمَا مَرَّ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي فِي  
 الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ  
 عَمَرَتْ كَثِيرًا مِنْ غُرْبِيَّةِ عَلَيْهَا الْفُرْمَا وَالْعَرِيشُ وَقَارِبَ طَرْفِهَا بَلَدُ الْقَلْزَمِ فَيُضَاقُ  
 مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هُنَالِكَ وَيَقْبِي شِبْهُ الْبَابِ مُضْيًا إِلَى أَرْضِ الشَّامِ وَفِي غُرْبِيِّ هَذَا الْبَابِ  
 فَحْصُ التِّيهِ أَرْضٌ جَرْدَاءٌ لَا تَنْبُتُ كَانَتْ مَجَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ  
 مِصْرَ وَقَبْلَ دُخُولِهِمْ إِلَى الشَّامِ أَرْبَعِينَ سَنَةً كَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ وَفِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ  
 الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي هَذَا الْجُزْءِ طَائِفَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ قُبْرُصَ وَبَقِيَّتِهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ كَمَا  
 نَذَرْتُهُ وَعَلَى سَاحِلِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ عِنْدَ الطَّرْفِ الْمُتَضَاقِ لِبَحْرِ السُّوَيْسِ بَلَدُ الْعَرِيشِ  
 وَهُوَ آخِرُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَعَسْقَلَانُ وَيَنْهُمَا طَرْفُ هَذَا الْبَحْرِ ثُمَّ تَنْحَطُّ هَذِهِ الْقِطْعَةُ  
 فِي أَنْعِطَافِهَا مِنْ هُنَالِكَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ طَرَابُلُسَ وَغَزَّةَ وَهُنَالِكَ يَنْتَهِي الْبَحْرُ  
 الرُّومِيُّ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ أَكْثَرُ سَوَاحِلِ الشَّامِ فِيهِ شَرْقِيَّةُ غَزَّةَ ثُمَّ  
 عَسْقَلَانُ وَيَنْحَرَفُ يَسِيرٌ عَنْهَا إِلَى الشَّمَالِ بَلَدُ قَيْسَارِيَّةَ ثُمَّ كَذَلِكَ بَلَدُ عَكَاءَ ثُمَّ  
 صُورَ ثُمَّ صَيْدَاءَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ الْبَحْرُ إِلَى الشَّمَالِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَقَابِلُ هَذِهِ الْبِلَادَ  
 السَّاحِلِيَّةَ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يَخْرُجُ مِنْ سَاحِلِ أَيْلَةَ مِنْ بَحْرِ

(١) وفي بعض النسخ خلجاً، جمع خليج، والفلج الشق في الأرض الزراعة (قاموس)

الْقَلْزَمُ وَيَذْهَبُ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُنْحَرِفًا إِلَى الشَّرْقِ إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ هَذَا الْجُزْءَ وَيُسَمَّى جَبَلِ اللَّكَّامِ وَكَأَنَّهُ حَاجِزٌ بَيْنَ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ فِيهِ طَرَفُهُ عِنْدَ أُيْلَةَ الْعَقَبَةِ الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا الْحُجَّاجُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ بَعْدَهَا فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مَدْفَنُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ السَّرَاةِ يَتَّصِلُ مِنْ عِنْدِ جَبَلِ اللَّكَّامِ الْمَذْكُورِ مِنْ شَمَالِ الْعَقَبَةِ ذَاهِبًا عَلَى سَمْتِ الشَّرْقِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ قَلِيلًا وَفِي شَرْقِهِ هُنَاكَ بَلَدُ الْحَجَرِ وَدِيَارُ ثُمُودَ وَتِيْمَاءَ وَدُومَةَ الْجَنْدَلِ وَهِيَ أَسَافِلُ الْحِجَازِ وَفَوْقَهَا جَبَلُ رِضْوَى

وَحُصُونُ خَيْبَرَ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ عَنْهَا وَفِيمَا بَيْنَ جَبَلِ السَّرَاةِ وَبَحْرِ الْقَلْزَمِ صَخْرَاءُ تَبُوكَ وَفِي شَمَالِ جَبَلِ السَّرَاةِ مَدِينَةُ الْقُدْسِ عِنْدَ جَبَلِ اللَّكَّامِ ثُمَّ الْأَرْدُنُّ ثُمَّ طَبْرِيَّةُ وَفِي شَرْقِيَّهَا بِلَادُ الْغُورِ إِلَى أَدْرُعَاتٍ وَفِي سَمْتِهَا دُومَةُ الْجَنْدَلِ آخِرُ هَذَا الْجُزْءِ وَهِيَ آخِرُ الْحِجَازِ . وَعِنْدَ مُنْعَطِفِ جَبَلِ اللَّكَّامِ إِلَى الشَّمَالِ مِنْ آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مَدِينَةُ دِمَشْقَ مُقَابِلَةَ صَيْدَا وَبَيْرُوتَ مِنَ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ وَجَبَلِ اللَّكَّامِ يَغْتَرِضُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا وَعَلَى سَمْتِ دِمَشْقَ فِي الشَّرْقِ مَدِينَةُ بَعْلَبَكُ ثُمَّ مَدِينَةُ حِمَصَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ آخِرُ الْجُزْءِ عِنْدَ مُنْقَطِعِ جَبَلِ اللَّكَّامِ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بَعْلَبَكُ وَحِمَصَ بَلَدٌ تَدْمُرُ وَمَجَالَاتُ الْبَادِيَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ أَعْلَاهُ مَجَالَاتُ الْأَعْرَابِ تَحْتَ بِلَادِ نَجْدٍ وَالْيَمَامَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْفُرْجِ وَالصَّمَانِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ وَهَجَرَ عَلَى بَحْرِ فَارِسَ وَفِي أَسَافِلِ هَذَا الْجُزْءِ تَحْتَ الْمَجَالَاتِ بَلَدُ الْحِيرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ وَمَغَايِضُ الْفُرَاتِ . وَفِيمَا بَعْدَهَا شَرْقًا مَدِينَةُ الْبَصْرَةِ وَفِي هَذَا الْجُزْءِ يَنْتَهِي بَحْرُ فَارِسَ عِنْدَ عَبَادَانَ وَالْأَبْلَةَ مِنْ أَسَافِلِ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ عَبَادَانَ نَهْرُ دِجْلَةَ بَعْدَ أَنْ يَنْقَسِمَ بِجَدَاوِلِ كَثِيرَةٍ وَتَخْتَلِطُ بِهِ جَدَاوِلُ أُخْرَى مِنَ الْفُرَاتِ ثُمَّ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا عِنْدَ عَبَادَانَ وَتَصُبُّ فِي بَحْرِ فَارِسَ وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْبَحْرِ مُتَّسِعَةٌ فِي أَعْلَاهُ مُتَّصِيقَةٌ فِي آخِرِهِ فِي شَرْقِيَّهِ وَضَيْقَةٌ عِنْدَ مُنْتَهَاهُ مُتَّصِيقَةٌ لِلْحَدِّ الشَّمَالِيِّ مِنْهُ وَعَلَى عُدُوتِهَا الْغَرِيبِيُّ مِنْهُ أَسَافِلُ الْبَحْرَيْنِ وَهَجَرَ وَالْإِحْسَاءَ وَفِي غَرْبِهَا أُخْطَبُ وَالصَّمَانُ وَبَقِيَّةُ أَرْضِ الْيَمَامَةِ وَعَلَى عُدُوتِهِ الشَّرْقِيَّةِ سَوَاحِلُ فَارِسَ مِنْ أَعْلَاهَا وَهُوَ مِنْ عِنْدِ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّرْقِ

على طرفٍ قد امتدَّ من هذا البحرِ مُشرقاً ووراءَهُ إلى الجنُوبِ في هذا الجزءِ جبالُ  
 القفصِ من كُزْمانَ وتحتَ هِرمِزِ على الساحلِ بِلدِ سِيرافَ ونَجيرَمَ على ساحلِ هذا  
 البحرِ وفي شَرْقيهِ إلى آخِرِ هذا الجزءِ وتحتَ هِرمِزِ بِلادِ فارسِ مثلَ سابورَ ودارَ  
 أبجرَدَ ونَسا وإصطخَرَ والشاهجانَ وشيرازَ وهي قاعدتُها كُلُّها وتحتَ بِلادِ فارسِ  
 إلى الشَمالِ عندَ طرفِ البحرِ بِلادِ خُوْدَسْتانَ وَمِنها الأهوازُ وتَسْتُرُ وصدى وسابورُ  
 والسوسُ ورامَ هِرمِزَ وغيرَها وأرجانَ وهي حدُّ ما بينَ فارسَ وخُوْدَسْتانَ وفي شَرْقيهِ  
 بِلادِ خُوْرَسْتانَ جبالُ الأكرادِ مُتصلةٌ إلى نواحيِ أَصْبَهانَ وبِها مَساكِنُهُمْ وَمَجالاتُهُمْ  
 ورَءِها في أرضِ فارسَ وتُسمى الرُسومُ . وفي الجزءِ السَّايِعِ في الأعلى مِنْهُ مِنَ المَغْرِبِ  
 بَقِيَّةُ جبالِ القفصِ وَيَلِيها مِنَ الجنُوبِ والشَمالِ بِلادُ كُزْمانَ ومَكْرانَ وَمِنْ مُدُنِها  
 الرُودَنَ والشيرجانَ<sup>(١)</sup> وجيرفتَ وَيَزْدَشِيرُ والبَهْرَجُ وتحتَ أرضِ كُزْمانَ إلى الشَمالِ  
 بَقِيَّةُ بِلادِ فارسَ إلى حُدودِ أَصْبَهانَ ومَدِينَةُ أَصْبَهانَ<sup>(٢)</sup> في طرفِ هذا الجزءِ ما بينَ  
 غَرْبِهِ وشَمالِهِ ثُمَّ في المَشْرِيقِ عَن بِلادِ كُزْمانَ وبِلادِ فارسَ أرضُ سِجِسْتانَ  
 وكُوْهَسْتانَ<sup>(٣)</sup> في الجنُوبِ وأرضُ كُوْهَسْتانَ في الشَمالِ عَنها وَيَتوسَّطُ بينَ كُزْمانَ  
 وفارسَ وَيَبينَ سِجِسْتانَ وكُوْهَسْتانَ وفي وَسَطِ هذا الجزءِ المَفاوِزُ العُظْمى القليلةُ  
 المَسالِكِ لَصُغُوبَتِها وَمِنْ مُدُنِ سِجِسْتانَ بَسْتُ والطاقُ وأما كُوْهَسْتانَ فِهي من بِلادِ  
 خُراسانَ وَمِنْ مَشايرِ بِلادِها سَرْخَسُ وقُوْهَسْتانَ آخِرُ الجزءِ . وفي الجزءِ الثامِنِ مِنَ  
 غَرْبِهِ وَجنُوبِهِ مَجالاتُ الحَلِجِ مِنَ أَمَمِ التُّركِ مُتصلةٌ بأرضِ سِجِسْتانَ مِنَ غَرْبِها  
 وبِأرضِ كابلِ الهِنْدِ مِنَ جنُوبِها . وفي الشَمالِ عَن هَذِهِ المَجالاتِ جبالُ الغُورِ  
 وبِلادِها وقاعدتُها غَزَنَةُ فُرْضَةُ الهِنْدِ وفي آخِرِ الغُورِ مِنَ الشَمالِ بِلادُ أُسْتَرابادَ ثُمَّ في  
 الشَمالِ غَرْباً إلى آخِرِ الجزءِ بِلادُ هِراةَ أوسطَ خُراسانَ وبِها سَفْرَينُ وقاشانُ  
 وشَنجُ ومَرُو الرُودَ والطالقانُ والجوزجانُ وتنتهي خُراسانُ هُنالِكَ إلى نَهْرِ

(١) تُعبرُ على شيرجان في معجم البلدان ولكن وجدنا سيرجان ونعتقد أنها المقصودة .

(٢) هي مدينة أصفهان اليوم .

(٣) ذكرها ياقوت الحموي في معجمه « قوهستان » .



جِيحُونَ . وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ بِلَادِ خُرَّاسَانَ مِنْ غَرْبِيهِ مَدِينَةُ بَلْخَ وَفِي شَرْقِيهِ  
 مَدِينَةُ تَرْمُذَ وَمَدِينَةُ بَلْخَ كَانَتْ كُرْسِيَّ مَمْلَكَةِ التُّرْكِ وَهَذَا النَّهْرُ نَهْرُ جِيحُونَ  
 مَخْرَجُهُ مِنْ بِلَادِ وَجَارَ فِي حُدُودِ بَدْخْشَانَ مِمَّا يَلِي الْهِنْدَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَنُوبِ هَذَا  
 الْجُزْءِ وَعِنْدَ آخِرِهِ مِنَ الشَّرْقِ فَيَنْعَطِفُ عَنْ قَرَبٍ مُغْرَباً إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ وَيُسَمَّى  
 هُنَالِكَ نَهْرَ خَرْنَابَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَمُرَّ بِخُرَّاسَانَ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ  
 إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي بَحِيرَةِ خُوَارِزْمَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ كَمَا نَذَكُرُهُ وَيَمُدُّهُ عِنْدَ انْعِطَافِهِ  
 فِي وَسْطِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ خَمْسَةَ أَتْهَارٍ عَظِيمَةٍ مِنْ بِلَادِ الْخَتَلِ  
 وَالْوُخْشِ مِنْ شَرْقِيهِ وَأَنْهَارٍ أُخْرَى مِنْ جِبَالِ الْبَتِّمْ مِنْ شَرْقِيهِ أَيْضاً وَجَوْفِي الْجَبَلِ  
 حَتَّى يَتَّسِعَ وَيَعْظُمَ بِمَا لَا كِفَاءَ <sup>(١)</sup> لَهُ وَمِنْ هَذِهِ الْأَنْهَارِ الْخَمْسَةِ الْمُمَدَّةُ لَهُ نَهْرٌ  
 وَخَشَابٌ يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ التَّبَّتِ وَهِيَ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فَيَمُرُّ  
 مُغْرَباً بِأَنْجِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيباً مِنْ شَمَالِ هَذَا  
 الْجُزْءِ يَعْتَرِضُهُ فِي طَرِيقِهِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يَمُرُّ مِنْ وَسْطِ الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجُزْءِ وَيَذْهَبُ  
 مُشْرِقاً بِأَنْجِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيباً مِنْ شَمَالِ هَذَا  
 الْجُزْءِ فَيَجُوزُ بِلَادَ التَّبَّتِ إِلَى الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيَحُولُ بَيْنَ  
 التُّرْكِ وَبَيْنَ بِلَادِ الْخَتَلِ وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا مَسَلِّكَ وَاحِدٌ فِي وَسْطِ الشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ  
 جَعَلَ فِيهِ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى سُدّاً وَبَنَى فِيهِ بَاباً كَسَدَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ فَإِذَا خَرَجَ  
 نَهْرٌ وَخَشَابٌ مِنْ بِلَادِ التَّبَّتِ وَاعْتَرِضَهُ هَذَا الْجَبَلُ فَيَمُرُّ تَحْتَهُ فِي مَدَى بَعِيدٍ إِلَى أَنْ  
 يَمُرَّ فِي بِلَادِ الْوُخْشِ وَيَصُبُّ فِي نَهْرِ جِيحُونَ عِنْدَ حُدُودِ بَلْخَ ثُمَّ يَمُرُّ هَاطِطاً إِلَى  
 التَّرْمُذِ فِي الشَّمَالِ إِلَى بِلَادِ الْجُوزْجَانَ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بِلَادِ الْغُورِ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ  
 نَهْرِ جِيحُونَ بِلَادَ النَّسَانَ مِنْ خُرَّاسَانَ وَفِي الْعُدُوةِ الشَّرْقِيَّةِ هُنَالِكَ مِنَ النَّهْرِ بِلَادُ  
 الْخَتَلِ وَأَكْثَرُهَا جِبَالٌ وَبِلَادُ الْوُخْشِ وَيَحُدُّهَا مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ جِبَالُ الْبَتِّمْ تَخْرُجُ  
 مِنْ طَرَفِ خُرَّاسَانَ غَرْبِيَّ نَهْرِ جِيحُونَ وَتَذْهَبُ مُشْرِقَةً إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ طَرَفُهَا  
 بِالْجَبَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي خَلْفَهُ بِلَادُ التَّبَّتِ وَيَمُرُّ تَحْتَهُ نَهْرٌ وَخَشَابٌ كَمَا قُلْنَا فَيَتَّصِلُ

(١) بمعنى لا مثيل له .

عِنْدَ بَابِ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَيَمُرُّ نَهْرُ جِيحُونَ بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَأَنْتَهَارَ أُخْرَى  
تَصُبُّ فِيهِ مِنْهَا نَهْرُ بِلَادِ الْوُخْشِ يَصُبُّ فِيهِ مِنَ الشَّرْقِ تَحْتَ التُّرْمُذِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ  
وَنَهْرُ بَلُخٍ يَخْرُجُ مِنْ جِبَالِ الْبَتَمِ مَبْدَاهُ عِنْدَ الْجَوْزْجَانِ وَيَصُبُّ فِيهِ مِنْ غَرْبِيهِ وَعَلَى  
هَذَا النَّهْرِ مِنْ غَرْبِيهِ بِلَادُ أَمِدٍ مِنْ خُرَاسَانَ وَفِي شَرْقِيهِ النَّهْرُ مِنْ هُنَالِكَ أَرْضُ الصُّغْدِ  
وَأَسْرُ وَشَنَّةٌ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ فِرْغَانَةَ أَيْضاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَكُلُّ  
بِلَادِ التُّرْكِ تَحْوِزُهَا جِبَالُ الْبَتَمِ إِلَى شِمَالِهَا وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ غَرْبِهِ أَرْضُ التَّبِتِ  
إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ وَفِي جَنُوبِهَا بِلَادُ الْهِنْدِ وَفِي شَرْقِهَا بِلَادُ الصِّينِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي  
أَسْفَلِ هَذَا الْجُزْءِ شِمَالاً عَنِ بِلَادِ التَّبِتِ بِلَادُ الْخَزَلِجِيَّةِ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ إِلَى آخِرِ  
الْجُزْءِ شَرْقاً وَشِمَالاً وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ غَرْبِهَا أَرْضُ فِرْغَانَةَ أَيْضاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً  
وَمِنْ شَرْقِهَا أَرْضُ التَّغْرُغْرِ مِنَ التُّرْكِ إِلَى الْجُزْءِ شَرْقاً وَشِمَالاً . وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ فِي  
الْجَنُوبِ مِنْهُ جَمِيعاً بَقِيَّةُ الصِّينِ وَأَسَافِلُهُ وَفِي الشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ التَّغْرُغْرِ ثُمَّ شَرْقاً  
عَنْهُمْ بِلَادُ خِرْخِيرٍ مِنَ التُّرْكِ أَيْضاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَفِي الشَّمَالِ مِنْ أَرْضِ  
خِرْخِيرٍ بِلَادُ كَتْمَانَ مِنَ التُّرْكِ وَقِبَالَتِهَا فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ جَزِيرَةُ الْيَاقُوتِ فِي وَسْطِ  
جَبَلٍ مُسْتَدِيرٍ لَا مَنْفَذَ مِنْهُ إِلَيْهَا وَلَا مَسْلَكَ وَالصُّعُودُ إِلَى أَغْلَاهُ مِنْ خَارِجِهِ صَعْبٌ فِي  
الْفَاقِيَةِ وَفِي الْجَزِيرَةِ حَيَاتٌ قَتَالَةٌ وَحَصَى مِنَ الْيَاقُوتِ كَثِيرَةٌ فَيَحْتَالُ أَهْلُ تِلْكَ  
النَّاحِيَةِ بِمَا يُلْهَمُهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ فِي هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ وَالْعَاشِرِ فِيمَا وَرَاءَ  
خُرَاسَانَ وَالْجِبَالِ كُلِّهَا مَجَالَاتٌ لِلتُّرْكِ أُمَّةٌ لَا تُحْصَى وَهُمْ طَوَاعِنُ رِجَالَةٍ أَهْلُ إِبِلِ  
وَشَاءٍ وَبَقَرٍ وَخَيْلٍ لِلتَّنَاجِ وَالرُّكُوبِ وَالْأَكْلِ وَطَوَائِفُهُمْ كَثِيرَةٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ  
وَفِيهِمْ مُسْلِمُونَ مِمَّا يَلِي بِلَادَ النَّهْرِ نَهْرُ جِيحُونَ وَيَغْرُونَ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ الدَّائِنِينَ <sup>(١)</sup>  
بِالْمَجُوسِيَّةِ فَيَبِيعُونَ رَقِيْقَهُمْ لِمَنْ يَلِيهِمْ وَيَخْرُجُونَ إِلَى بِلَادِ خُرَاسَانَ وَالْهِنْدِ  
وَالْعِرَاقِ

الإقليم الرابع : يتصل بالثالث من جهة الشمال . والجزء الأول منه في غربيه

(١) الذين يدينون بالمجوسية .

قِطْعَةً مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مُسْتَطِيلَةً مِنْ أَوَّلِهِ جَنُوبًا إِلَى آخِرِهِ شَمَالًا وَعَلَيْهَا فِي  
 الْجَنُوبِ مَدِينَةٌ طَنْجَةٌ وَمِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ تَحْتَ طَنْجَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى الْبَحْرِ  
 الرُّومِيِّ فِي خَلِيجٍ مُتَضَائِقٍ بِمِقْدَارِ اثْنَيْ عَشَرَ مَيْلًا مَا بَيْنَ طَرِيفِ وَالْجَزِيرَةِ  
 الْخَضْرَاءِ شَمَالًا وَقَضْرِ الْمَجَازِ وَسَبْتَةَ جَنُوبًا وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى وَسْطِ  
 الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَيَنْفَسِحُ فِي ذَهَابِهِ بِتَدْرِيحٍ إِلَى أَنْ يَغْمُرَ الْأَرْبَعَةَ  
 الْأَجْزَاءَ وَأَكْثَرَ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَالْخَامِسِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَيُسَمَّى هَذَا  
 الْبَحْرُ الْبَحْرُ الشَّامِيُّ أَيْضًا وَفِيهِ جَزَائِرٌ كَثِيرَةٌ أَعْظَمُهَا فِي جِهَةِ الْغَرْبِ يَابَسَةٌ ثُمَّ  
 مَايْرَقَةٌ ثُمَّ مِرْقَةٌ ثُمَّ سَرْدَانِيَّةٌ ثُمَّ صِقْلِيَّةٌ وَهِيَ أَعْظَمُهَا ثُمَّ بَلُونُسُ ثُمَّ أَقْرِيطُسُ ثُمَّ  
 قَبْرُصُ كَمَا نَذَكُرُهَا كُلَّهَا فِي أَجْزَائِهَا الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيِّ  
 عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْهُ وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ خَلِيجُ الْبِنَادِقَةِ  
 يَذْهَبُ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ عِنْدَ وَسْطِ الْجُزْءِ مِنْ جَوْفِهِ وَيَمُرُّ مَغْرِبًا إِلَى أَنْ  
 يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْخَامِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَيْضًا فِي آخِرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ شَرْقًا  
 مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَمُرُّ فِي الشَّمَالِ مُتَضَائِقًا فِي غَرْضِ رَمِيَّةِ  
 السُّهْمِ إِلَى آخِرِ الْإِقْلِيمِ ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَنْعَطِفُ إِلَى  
 بَحْرِ نِيطُسَ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ كُلِّهِ وَنِصْفِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ  
 السَّادِسِ كَمَا نَذَكُرُ ذَلِكَ فِي أَمَاكِينِهِ وَعِنْدَمَا يَخْرُجُ هَذَا الْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنَ الْبَحْرِ  
 الْمُحِيطِ فِي خَلِيجِ طَنْجَةٍ وَيَنْفَسِحُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ . يَبْقَى فِي الْجَنُوبِ عَنِ الْخَلِيجِ  
 قِطْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا مَدِينَةٌ طَنْجَةٌ عَلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ وَبَعْدَهَا مَدِينَةٌ  
 سَبْتَةٌ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ثُمَّ قَطَاوُنُ ثُمَّ بَادِيسُ ثُمَّ يَغْمُرُ هَذَا الْبَحْرُ بَقِيَّةَ هَذَا الْجُزْءِ  
 شَرْقًا وَيَخْرُجُ إِلَى الثَّلَاثِ وَأَكْثَرَ الْعِمَارَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي شَمَالِهِ وَشَمَالِ الْخَلِيجِ مِنْهُ  
 وَهِيَ كُلُّهَا بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ أُولَئِهَا  
 طَرِيفُ عِنْدَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ الْجَزِيرَةُ  
 الْخَضْرَاءُ ثُمَّ مَالِقَةٌ ثُمَّ الْمَنْقَبُ <sup>(١)</sup> ثُمَّ الْمِرْيَةُ وَتَحْتَ هَذِهِ مِنْ لَدُنِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا

(١) وفي بعض النسخ النكب.

وَعَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ شَرِيشٌ ثُمَّ لَبْلَةٌ وَقُبَالَتَهَا فِيهِ جَزِيرَةٌ قَادِسٌ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ شَرِيشٍ  
وَلَبْلَةٍ إِسْبِيلِيَّةٌ ثُمَّ أُسْتَجَّةٌ وَقَرْطَبَةٌ وَمَدْيَلَةٌ ثُمَّ غَرْنَاطَةٌ وَجِيَانٌ وَأَبْدَةٌ ثُمَّ وَاْدِيَاشٌ  
وَبَسْطَةٌ وَتَحْتَ هَذِهِ شَنْتَمْرِيَّةٌ وَشَلْبٌ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا وَفِي الشَّرْقِ عَنْهُمَا  
بَطْلْيُوسٌ وَمَارِدَةٌ وَيَابِرَةٌ ثُمَّ غَافِقٌ وَبَرْجَالَةٌ ثُمَّ قَلْعَةٌ رِيَاخٌ وَتَحْتَ هَذِهِ أَشْبُونَةٌ عَلَى  
الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا وَعَلَى نَهْرٍ بَاجَةٌ وَفِي الشَّرْقِ عَنْهَا شَنْتَرِينٌ وَمَوْزِيَّةٌ عَلَى النَّهْرِ  
الْمَذْكُورِ ثُمَّ قَنْطَرَةُ السَّيْفِ وَيَسَامِتُ أَشْبُونَةٌ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَبَلُ الشَّارَاتِ يَبْدَأُ مِنَ  
الْمَغْرِبِ هُنَاكَ وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا مَعَ آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ شِمَالِيهِ فَيَنْتَهِي إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ  
فِيمَا بَعْدَ النُّصْفِ مِنْهُ وَتَحْتَ هَذَا الْجَبَلِ طَلْبِيرَةٌ فِي الشَّرْقِ مِنْ فُورِنَةٌ ثُمَّ طَلْبِيلَةٌ ثُمَّ  
وَادِي الْحِجَارَةِ ثُمَّ مَدِينَةُ سَالِمٍ وَعِنْدَ أَوَّلِ هَذَا الْجَبَلِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَشْبُونَةَ بَلَدٌ  
قَلْمَرِيَّةٌ وَهَذِهِ غَرْبِي الْأَنْدَلُسِ . وَأَمَّا شَرْقِي الْأَنْدَلُسِ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ  
مِنْهَا بَعْدَ الْمَرْيَةِ قَرْطَاخِنَةٌ ثُمَّ لَفْتَةٌ ثُمَّ دَانِيَّةٌ ثُمَّ بَلَنْسِيَّةٌ إِلَى طَرْطُوشَةَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي  
الشَّرْقِ . وَتَحْتَهَا شِمَالًا لِيُورْقَةٌ وَشَقُورَةٌ تَتَاخَمَانِ بَسْطَةٌ وَقَلْعَةٌ رِيَاخٌ مِنْ غَرْبِ  
الْأَنْدَلُسِ ثُمَّ مَرْسِيَّةٌ شَرْقًا ثُمَّ شَاطِبَةٌ تَحْتَ بَلَنْسِيَّةِ شِمَالًا ثُمَّ شَقْرُ ثُمَّ طَرْطُوشَةٌ ثُمَّ  
طَرْكُونَةٌ آخِرِ الْجُزْءِ ثُمَّ تَحْتَ هَذِهِ شِمَالًا أَرْضٌ مِنْجَالَةٌ وَرَيْدَةٌ مُتَاخِمَانِ لِشَقُورَةٍ  
وَطَلْبِيلَةٌ مِنَ الْمَغْرِبِ ثُمَّ أَفْرَاعَةٌ شَرْقًا تَحْتَ طَرْطُوشَةَ وَشِمَالًا عَنْهَا ثُمَّ فِي الشَّرْقِ عَنِ  
مَدِينَةِ سَالِمٍ قَلْعَةٌ أَيُّوبٌ ثُمَّ سِرْقَسْطَةٌ ثُمَّ لَارِدَةٌ <sup>(١)</sup> آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَشِمَالًا . وَالْجُزْءُ  
الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَمْرُ الْمَاءِ جَمِيعُهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنْ غَرْبِيهِ فِي الشَّمَالِ فِيهَا بَقِيَّةُ  
جَبَلِ الْبُرْنَاتِ وَمَعْنَاهُ جَبَلُ الشَّنَايَا وَالسَّالِكُ يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ  
الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ يَبْدَأُ مِنَ الطَّرْفِ الْمُنْتَهِي مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ عِنْدَ آخِرِ ذَلِكَ الْجُزْءِ  
جَنُوبًا وَشَرْقًا وَيَمُرُّ فِي الْجَنُوبِ بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ  
مُنْحَرَفًا عَنِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ الثَّانِي فَيَقَعُ فِيهِ قِطْعَةٌ مِنْهُ تَفْضِي ثَنَايَاهَا  
إِلَى الْبَرِّ الْمُتَّصِلِ وَتُسَمَّى أَرْضُ غَشْكَوْنِيَّةٍ وَفِيهِ مَدِينَةُ خَرِيدَةٌ وَقَرْقَشُونَةٌ وَعَلَى سَاحِلِ  
الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مَدِينَةُ بَرْشَلُونَةَ ثُمَّ أَرْبُونَةَ وَفِي هَذَا الْبَحْرِ الَّذِي غَمْرُ

(١) هكذا في معجم البلدان وفي نسخة لجنة البيان العربي لارادة وهو تحريف

الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها ففي غربيه جزيرة  
سردانية<sup>(١)</sup> وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الأقطار يقال إن دورها سبعمائة ميل  
وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلرزم وطرايعة ومازير ومسيني وهذه  
الجزيرة تقابل أرض أفريقية وفيما بينهما جزيرة أعدوش ومالطة . والجزء  
الثالث من هذا الإقليم مغمور أيضاً بالبحر إلا ثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية  
منها أرض قلورية والوسطى من أرض أبكيرة والشرقية من بلاد البنادقة .  
والجزء الرابع من هذا الإقليم مغمور أيضاً بالبحر كما مر وجزائره كثيرة وأكثرها  
غير مسكون كما في الثالث والمغمور منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية  
الشمالية وجزيرة أقریطش مستطيلة من وسط الجزء إلى ما بين الجنوب والشرق  
منه . والجزء الخامس من هذا الإقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب  
والغرب ينتهي الضلع الغربي منها إلى آخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع  
الجنوبي منها إلى نحو الثلثين من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء  
قطعة نحو الثلث يمر الشمالي منها إلى الغرب منعطفاً مع البحر كما قلناه وفي  
النصف الجنوبي منها أسافل الشام ويمر في وسطها جبل اللكام إلى أن ينتهي إلى  
آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهباً إلى القطر الشرقي الشمالي ويسمى  
بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج إلى الإقليم الخامس ويجوز من عند  
منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة إلى جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من جهة  
المغرب جبال متصلة بعضها يبعض إلى أن ينتهي إلى طرف خارج من البحر  
الرومي متأخر إلى آخر الجزء من الشمال وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب  
وهي التي تقضي إلى بلاد الأرمين وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين  
جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام وأن جبل اللكام  
معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب إلى الشمال فعلى ساحل

(١) أي سردانية .

الْبَحْرِ بَلَدٌ أَنْطَرَطُوسٌ <sup>(١)</sup> فِي أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ مُتَاخِمَةً لِعَفْرَةَ وَطَرَابُلُسَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَفِي شَمَالِ أَنْطَرَطُوسَ جَبَلَةٌ ثُمَّ اللَّادِقِيَّةُ ثُمَّ إِسْكَندَرُونَةُ ثُمَّ سَلُوقِيَّةٌ وَبَعْدَهَا شَمَالًا بِلَادُ الرُّومِ وَأَمَّا جَبَلُ اللَّكَّامِ الْمُعْتَرِضُ بَيْنَ الْبَحْرِ وَآخِرِ الْجُزْءِ بِحَافَاتِهِ فَيُصَاقِبُهُ مِنَ بِلَادِ الشَّامِ مِنْ أَعْلَى الْجُزْءِ جَنُوبًا مِنْ غَرْبِيهِ حُصْنُ الْحَوَانِي وَهُوَ لِلْحَشِيشَةِ <sup>(٢)</sup> الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَيُعْرَفُونَ لِهَذَا الْعَمْدِ بِالْفِدَاوِيَّةِ وَيُسَمَّى مِصْيَاتٍ <sup>(٣)</sup> وَهُوَ قِبَالَةَ أَنْطَرَطُوسَ وَقِبَالَةَ هَذَا الْحُصْنِ فِي شَرْقِ الْجَبَلِ بَلَدٌ سَلْمِيَّةٌ <sup>(٤)</sup> فِي الشَّمَالِ عَنِ حِمصَ وَفِي الشَّمَالِ وَفِي مِصْيَاتٍ بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ بَلَدٌ أَنْطَاكِيَّةٌ وَيَقَابِلُهَا فِي شَرْقِ الْجَبَلِ الْمَعْرَةَ وَفِي شَرْقِهَا الْمَرَاغَةَ وَفِي شَمَالِ أَنْطَاكِيَّةِ الْمَصِيصَةَ ثُمَّ أَدَنَةَ ثُمَّ طَرَسُوسَ آخِرَ الشَّامِ وَيَحَاضِيهَا مِنْ غَرْبِ الْجَبَلِ قَنْسَرِينَ ثُمَّ عَيْنَ زُرْبَةَ <sup>(٥)</sup> وَقِبَالَةَ قَنْسَرِينَ فِي شَرْقِ الْجَبَلِ حَلْبُ وَيَقَابِلُ عَيْنَ زُرْبَةَ مَنبِجَ آخِرَ الشَّامِ . وَأَمَّا الدُّرُوبُ فَعَنْ يَمِينِهَا مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيَّ بِلَادُ الرُّومِ الَّتِي هِيَ لِهَذَا الْعَمْدِ لِلتُّرْكَمَانَ وَسُلْطَانِهَا ابْنُ عُثْمَانَ وَفِي سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنْهَا بَلَدٌ أَنْطَاكِيَّةٌ وَالْعَلَايَا . وَأَمَّا بِلَادُ الْأَرْمَنِ الَّتِي بَيْنَ جَبَلِ الدُّرُوبِ وَجَبَلِ السُّلْسِلَةِ فَمِنْهَا بَلَدٌ مَرْعَشُ وَمَلْطِيَّةُ وَالْمَعْرَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ الشَّمَالِيِّ وَيَخْرُجُ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ فِي بِلَادِ الْأَرْمَنِ نَهْرُ جِيحَانَ وَنَهْرُ سِيحَانَ فِي شَرْقِيهِ فَيَمُرُّ بِهَا جِيحَانَ جَنُوبًا حَتَّى يَتَجَاوَزَ الدُّرُوبَ ثُمَّ يَمُرُّ بِطَرَسُوسَ ثُمَّ بِالْمَصِيصَةِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ هَا بَطَأً إِلَى الشَّمَالِ وَمَغْرِبًا حَتَّى يَصْبُ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيَّ جَنُوبَ سَلُوقِيَّةِ وَيَمُرُّ نَهْرُ سِيحَانَ مُوَارِيًا لِنَهْرِ جِيحَانَ فَيَحَاضِي الْمَعْرَةَ وَمَرْعَشَ وَيَتَجَاوَزُ جِبَالَ الدُّرُوبِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ ثُمَّ يَمُرُّ بِعَيْنِ زُرْبَةَ وَيَحُورُ عَنِ نَهْرِ جِيحَانَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ مُغْرِبًا فَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ جِيحَانَ عِنْدَ الْمَصِيصَةِ

(١) أي طرطوس .

(٢) أظن أنه يعني الحشاشون الاسماعيلية .

(٣) ورد ذكرها في معجم البلدان مصياب أو مصيف كما تعرف اليوم أما مصيات فهي محرفة .

(٤) كذا ذكرها ياقوت بياء مفتوحة غير مشددة وتعرف في انحاء بلاد الشام بياء مشددة وفتح اللام

وتسكين الميم .

(٥) ذكرها ياقوت « عين زربي » .

وَمِنْ غَرْبِهَا وَأَمَّا بِلَادُ الْجَزِيرَةِ الَّتِي يُحِيطُ بِهَا مُنْعَطَفُ جَبَلِ اللَّكَّامِ إِلَى جَبَلِ  
 السُّلْسِلَةِ فَفِي جَنُوبِهَا الرَّافِضَةُ وَالرَّقَّةُ ثُمَّ حُرَّانُ ثُمَّ سُرُوجُ وَالرُّهَّا ثُمَّ نَصِيبِينَ ثُمَّ  
 سَمِيسَاطُ وَأَمْدُ تَحْتَ جَبَلِ السُّلْسِلَةِ وَآخِرُ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَهُوَ أَيْضاً آخِرُ الْجُزْءِ مِنْ  
 شَرْقِيهِ وَيَمُرُّ فِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ نَهْرُ الْفَرَاتِ وَنَهْرُ دِجْلَةَ يَخْرُجَانِ مِنَ الْإِقْلِيمِ  
 الْخَامِسِ وَيَمُرَّانِ فِي بِلَادِ الْأَرَمَنِ جَنُوباً إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَا جَبَلِ السُّلْسِلَةِ فَيَمُرُّ نَهْرُ  
 الْفَرَاتِ مِنْ غَرْبِي سَمِيسَاطُ وَسُرُوجُ وَيَنْحَرِفُ إِلَى الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِقَرْبِ الرَّافِضَةِ  
 وَالرَّقَّةِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ دِجْلَةَ فِي شَرْقِ أَمْدَ وَيَنْعَطِفُ قَرِيباً إِلَى  
 الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ قَرِيباً إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ  
 غَرْبِيهِ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بِلَادُ الْعِرَاقِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا تَنْتَهِي فِي الشَّرْقِ إِلَى  
 قَرْبِ آخِرِ الْجُزْءِ وَيَعْتَرِضُ مِنْ آخِرِ الْعِرَاقِ هُنَالِكَ جَبَلُ أَصْبَهَانَ هَا بَطَأً مِنْ جَنُوبِ  
 الْجُزْءِ مُنْحَرِفاً إِلَى الْغَرْبِ فَإِذَا انْتَهَى إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ مِنْ آخِرِهِ فِي الشَّمَالِ يَذْهَبُ  
 مَغْرَباً إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ وَيَتَّصِلَ عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ السُّلْسِلَةِ فِي الْجُزْءِ  
 الْخَامِسِ فَيَنْقَطِعُ هَذَا الْجُزْءُ السَّادِسُ بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ فَفِي الْغَرْبِيَّةِ مِنْ  
 جَنُوبِيهَا مَخْرَجُ الْفَرَاتِ مِنَ الْخَامِسِ وَفِي شَمَالِيهَا مَخْرَجُ دِجْلَةَ مِنْهُ أَمَّا الْفَرَاتُ فَأَوَّلُ  
 مَا يَخْرُجُ إِلَى السَّادِسِ يَمُرُّ بِقَرْقِيسِيَا وَيَخْرُجُ مِنْ هُنَالِكَ جَدُولٌ إِلَى الشَّمَالِ يَنْسَابُ  
 فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَيَغْوُصُ فِي نَوَاحِيهَا وَيَمُرُّ مِنْ قَرْقِيسِيَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى  
 الْجَنُوبِ فَيَمُرُّ بِقَرْبِ الْخَابُورِ إِلَى غَرْبِ الرُّحْبَةِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدَاوِلُ مِنْ هُنَالِكَ يَمُرُّ  
 جَنُوباً وَيَنْقَى صَفَيْنِ فِي غَرْبِيهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقاً وَيَنْقَسِمُ بِشُعُوبٍ فَيَمُرُّ بَعْضُهَا  
 بِالْكُوفَةِ وَبَعْضُهَا بِقَصْرِ ابْنِ هَبِيرَةَ وَبِالْجَامِعَيْنِ وَتَخْرُجُ جَمِيعاً فِي جَنُوبِ الْجُزْءِ إِلَى  
 الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ فَيَغْوُصُ هُنَالِكَ فِي شَرْقِ الْحِيرَةِ وَالْقَادِسيَّةِ وَيَخْرُجُ الْفَرَاتُ مِنْ  
 الرُّحْبَةِ مُشْرِقاً عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هَيْتَ مِنْ شَمَالِهَا يَمُرُّ إِلَى الزَّابِ وَالْأَنْبَارِ مِنْ جَنُوبِيهَا  
 ثُمَّ يَصُبُّ فِي دِجْلَةَ عِنْدَ بَغْدَادَ . وَأَمَّا نَهْرُ دِجْلَةَ فَإِذَا دَخَلَ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى هَذَا  
 الْجُزْءِ يَمُرُّ بِجَزِيرَةِ ابْنِ عَمَرَ عَلَى شَمَالِهَا ثُمَّ بِالْمَوْصِلِ كَذَلِكَ وَتَكْرِيثَ وَيَنْتَهِي إِلَى

الْحَدِيثَةُ فَيَنْعَطِفُ جَنُوبًا وَتَبْقَى الْحَدِيثَةُ فِي شَرْقِهِ وَالزَّابُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ كَذَلِكَ  
وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ جَنُوبًا وَفِي غَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى بَغْدَادَ وَيَخْتَلِطُ  
بِالْفَرَاتِ ثُمَّ يَمُرُّ جَنُوبًا عَلَى غَرْبِ جَزْجَرَايَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزءِ إِلَى الْإِقْلِيمِ  
الثَّالِثِ فَتَنْتَشِرُ هُنَالِكَ شُعُوبُهُ وَجَدَاوِلُهُ ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ فَارِسَ  
عِنْدَ عِبَادَانَ وَفِيمَا بَيْنَ نَهْرِ دِجْلَةَ وَالْفَرَاتِ قَبْلَ مَجْمَعِهِمَا بِنَغْدَادَ هِيَ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ  
وَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ دِجْلَةَ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ بِنَغْدَادَ نَهْرٌ آخَرُ يَأْتِي مِنَ الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ  
الشَّمَالِيَّةِ مِنْهُ وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ النَّهْرَوَانَ قُبَالَةَ بَغْدَادَ شَرْقًا ثُمَّ يَنْعَطِفُ جَنُوبًا  
وَيَخْتَلِطُ بِدِجْلَةَ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَيَبْقَى مَا بَيْنَ هَذَا النَّهْرِ وَبَيْنَ  
جَبَلِ الْعِرَاقِ وَالْأَعَاجِمِ بِلَدِ جَلُولَاءَ وَفِي شَرْقِهَا عِنْدَ الْجَبَلِ بِلَدُ حُلُوانَ وَصِيمَرَةَ (١)  
وَأَمَّا الْقِطْعَةُ الْغَرْبِيَّةُ مِنَ الْجُزءِ فَيَعْتَرِضُهَا جَبَلٌ يَبْدَأُ مِنْ جَبَلِ الْأَعَاجِمِ مَشْرَقًا إِلَى  
آخِرِ الْجُزءِ وَيُسَمَّى جَبَلُ شَهْرَزُورَ وَيَقْسِمُهَا بِقِطْعَتَيْنِ فِي الْجَنُوبِ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ  
الصُّغْرَى بِلَدُ خُونْجَانَ مِنَ الْغَرْبِ وَالشَّمَالِ عَنْ أَصْبَهَانَ وَتُسَمَّى هَذِهِ الْقِطْعَةُ بِلَدِ  
الْهَلُوسِ وَفِي وَسْطِهَا بِلَدُ نَهَاوَنْدَ وَفِي شَمَالِهَا بِلَدُ شَهْرَزُورَ غَرْبًا عِنْدَ مُلتَمَى الْجَبَلَيْنِ  
وَالدُّنْيُورُ شَرْقًا عِنْدَ آخِرِ الْجُزءِ وَفِي الْقِطْعَةِ الصُّغْرَى الثَّانِيَةِ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةِ قَاعِدَتُهَا  
الْمَرَاغَةُ وَالَّذِي يُقَالُ لَهَا مِنْ جَبَلِ الْعِرَاقِ يُسَمَّى بَارِيَا وَهُوَ مَسَاكِنُ لِلْأَكْرَادِ وَالزَّابُ  
الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ الَّذِي عَلَى دِجْلَةَ مِنْ وَرَائِهِ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ  
بِلَادُ أَدْرَبِيجَانَ وَمِنْهَا تَبْرِيزُ وَالْبَيْدَقَانَ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزءِ  
قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطَشَ وَهُوَ بَحْرُ الْخَزَّرِ وَفِي الْجُزءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ  
وَجَنُوبِهِ مُعْظَمُ بِلَادِ الْهَلُوسِ وَفِيهَا هَمْدَانَ وَقَرْوِينَ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَفِيهَا  
هُنَالِكَ أَصْبَهَانَ وَيُحِيطُ بِهَا مِنَ الْجَنُوبِ جَبَلٌ يَخْرُجُ مِنْ غَرْبِهَا وَيَمُرُّ بِالْإِقْلِيمِ  
الثَّالِثِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مِنَ الْجُزءِ السَّادِسِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْعِرَاقِ فِي  
شَرْقِيَّةِ الَّذِي مَرَّ ذَكَرَهُ هُنَالِكَ وَإِنَّهُ مُحِيطٌ بِبِلَادِ الْهَلُوسِ فِي الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ وَيَهْبِطُ

(١) ورد في بعض النسخ صميرة وهو تحريف.



هَذَا الْجَبَلُ الْمُحِيطُ بِأَصْبَهَانَ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَيَخْرُجُ إِلَى هَذَا  
الْجُزْءِ السَّابِعِ فَيُحِيطُ بِبِلَادِ الْهَلُوسِ مِنْ شَرْقِهَا وَتَحْتَهُ هُنَالِكَ قَاشَانَ ثُمَّ قَمٌ وَيَنْعَطِفُ  
فِي قُرْبِ النُّصْفِ مِنْ طَرِيقِهِ مُغْرَبًا بَعْضَ الشَّيْءِ ثُمَّ يَرْجِعُ مُسْتَدِيرًا فَيَذْهَبُ مُشْرِقًا  
وَمُنْحَرَفًا إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى مُنْعَطِفِهِ  
وَاسْتِدَارَتِهِ عَلَى بَلَدِ الرَّيِّ فِي شَرْقِيهِ وَيَبْدَأُ مِنْ مُنْعَطِفِهِ جَبَلٌ آخَرٌ يَمُرُّ غَرْبًا إِلَى آخِرِ  
هَذَا الْجُزْءِ وَمِنْ جَنُوبِهِ مِنْ هُنَالِكَ قَرْوِينَ وَمِنْ جَانِبِهِ الشَّمَالِيِّ وَجَانِبِ جَبَلِ الرَّيِّ  
الْمُتَّصِلِ مَعَهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ وَالشَّمَالِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ ثُمَّ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ بِلَادَ  
طَبْرَسْتَانَ فِيمَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَيَبِينُ قِطْعَةً مِنْ بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ وَيَدْخُلُ مِنَ الْإِقْلِيمِ  
الْخَامِسِ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي نَحْوِ النُّصْفِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَيَعْتَرِضُ عِنْدَ جَبَلِ الرَّيِّ  
وَعِنْدَ انْعِطَافِهِ إِلَى الْغَرْبِ جَبَلٌ مُتَّصِلٌ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ مُشْرِقًا وَيَانْحَرِفُ قَلِيلًا إِلَى  
الْجَنُوبِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَيَبْنَى بَيْنَ جَبَلِ الرَّيِّ وَهَذَا  
الْجَبَلِ مِنْ عِنْدِ مَبْدَأِهِمَا بِلَادَ جُرْجَانَ فِيمَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ وَمِنْهَا بِسْطَامٌ وَوَرَاءَ هَذَا  
الْجَبَلِ قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا بَقِيَّةُ الْمَفَازَةِ الَّتِي بَيْنَ فَارِسَ وَخِرَاسَانَ وَهِيَ فِي  
شَرْقِيِّ قَاشَانَ وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ هَذَا الْجَبَلِ بَلَدٌ أُسْتَرَابَادٌ وَحَاقَاتُ هَذَا الْجَبَلِ مِنْ  
شَرْقِيهِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ نَيْسَابُورَ مِنْ خِرَاسَانَ فِيهِ جَنُوبُ الْجَبَلِ وَشَرْقِ الْمَفَازَةِ  
بَلَدُ نَيْسَابُورَ ثُمَّ مَرُؤُ الشَّاهِجَانَ آخِرَ الْجُزْءِ وَفِي شِمَالِهِ وَشَرْقِيِّ جُرْجَانَ بَلَدُ مَهْرَجَانَ  
وَخَازِرُونَ وَطُوسَ آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا وَكُلُّ هَذَا تَحْتَ الْجَبَلِ وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا بِلَادُ نَسَا  
وَيُحِيطُ بِهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ الْجُرْزَيْنِ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ مَفَاوِزُ مَعْطَلَةٌ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ  
مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِي غَرْبِيهِ نَهْرٌ جِيحُونَ ذَاهِبًا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فِيهِ عُدُوتِهِ  
الْعَرَبِيَّةُ رَمَمٌ <sup>(١)</sup> وَأَمْلٌ مِنْ بِلَادِ خِرَاسَانَ وَالطَّاهِرِيَّةُ وَالْجُرْجَانِيَّةُ مِنْ بِلَادِ خَوَارِزَمَ  
وَيُحِيطُ بِالزَاوِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلٌ أُسْتَرَابَادٌ الْمُعْتَرِضُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ رَمَ بفتح أوله وتشديد ثانيه . جمع رموم ومعناها محال الاكرد ومنازلهم . بلغة أهل فارس . وهي مواضع بفارس (معجم البلدان) .

قَبْلَهُ وَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ غَرْبِيهِ وَيُحِيطُ بِهِدِ الزَّائِيَةِ وَفِيهَا بَقِيَّةُ بِلَادِ هَرَاةَ  
وَالجُوزْخَانَ حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ البُتْمِ كَمَا ذَكَرْنَا هُنَاكَ وَفِي شَرْقِي نَهْرِ جِيخُونَ  
مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِي الْجَنُوبِ مِنْهُ بِلَادُ بُخَارَى ثُمَّ بِلَادُ الصُّغْدِ وَقَاعِدَتُهَا سَمَرْقَنْدُ ثُمَّ  
سَرْدَارَا وَأَشْنَةُ <sup>(١)</sup> وَمِنْهَا خَجَنْدَةُ آخِرُ الْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي الشَّمَالِ عَنْ سَمَرْقَنْدِ وَسَرْدَارِ  
وَأَشْنَةُ أَرْضُ إِيْلَاقِ <sup>(٢)</sup> ثُمَّ فِي الشَّمَالِ عَنْ إِيْلَاقِ أَرْضُ الشَّاشِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا  
وَيَأْخُذُ قِطْعَةً مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ فِي جَنُوبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ فَرْغَانَةَ وَيَخْرُجُ  
مِنْ تِلْكَ الْقِطْعَةِ الَّتِي فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ الشَّاشِ يَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ إِلَى  
أَنْ يَنْصَبَ فِي نَهْرِ جِيخُونَ عِنْدَ مَخْرَجِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّامِنِ فِي شَمَالِهِ إِلَى الإقْلِيمِ  
الخَامِسِ وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ فِي أَرْضِ إِيْلَاقِ نَهْرٌ يَأْتِي مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الإقْلِيمِ الثَّالِثِ  
مِنْ تَخُومِ بِلَادِ التُّبَّتِ وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ قَبْلَ مَخْرَجِهِ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ فَرْغَانَةَ وَعَلَى  
سَمْتِ نَهْرِ الشَّاشِ جَبَلُ جَبْرَاعُونَ يَبْدَأُ مِنَ الإقْلِيمِ الخَامِسِ وَيَنْعَطِفُ شَرْقًا وَمُنْحَرَفًا  
إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مُحِيطًا بِأَرْضِ الشَّاشِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ فِي  
الْجُزْءِ التَّاسِعِ فَيُحِيطُ بِالشَّاشِ وَفَرْغَانَةَ هُنَاكَ إِلَى جَنُوبِهِ فَيَدْخُلُ فِي الإقْلِيمِ الثَّالِثِ  
وَيَبِينُ نَهْرَ الشَّاشِ وَطَرْفَ هَذَا الْجَبَلِ فِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ فَاوَابَ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ  
أَرْضِ بُخَارَى وَخَوَازِمَ وَمَافُوزَ مَعْطَلَةَ وَفِي زَاوِيَةِ هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ أَرْضُ  
خَجَنْدَةَ وَفِيهَا بَلَدُ إِسْبِيْجَابَ وَطَرَارُ . وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ فِي غَرْبِيهِ  
بَعْدَ أَرْضِ فَرْغَانَةَ وَالشَّاشِ أَرْضُ الخَزْلِيْجِيَّةِ فِي الْجَنُوبِ وَأَرْضُ الخَلِيْجِيَّةِ فِي الشَّمَالِ  
وَفِي شَرْقِ الْجُزْءِ كُلِّهِ أَرْضُ الكِيْمَاكِيَّةِ وَيَتَّصِلُ فِي الْجُزْءِ العَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى جَبَلِ قُوقِيَا  
آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَعَلَى قِطْعَةٍ مِنَ البَحْرِ المُحِيطِ هُنَاكَ وَهُوَ جَبَلُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ  
وَهَذِهِ الأَمَمُ كُلُّهَا مِنْ شُعُوبِ التُّرْكِ . انتهى .

الإقْلِيمِ الخَامِسِ : الْجُزْءُ الأوَّلُ مِنْهُ أَكْثَرُهُ مَغْمُورٌ بِالمَاءِ إِلا قَلِيلاً مِنْ جَنُوبِهِ

(١) في بعض النسخ اسروشة وفي معجم البلدان : اسروسة .

(٢) في المشترك اقليم ايلاق متصل بإقليم الشاش لا فصل بينهما وهو بكسر الهمزة وسكون الياء بعدها .

وَشَرْقِهِ لِأَنَّ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ بِهَذِهِ الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ دَخَلَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ  
وَالسَّابِعِ عَنِ الدَّائِرَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْإِقْلِيمِ فَأَمَّا الْمُنْكَشَفُ مِنْ جَنُوبِهِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ  
مُثَلِّثٍ مُتَّصِلَةٍ مِنْ هُنَالِكَ بِالْأَنْدَلُسِ وَعَلَيْهَا بَقِيَّتُهَا وَيُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ  
كَأَنَّهَا ضِلْعَانِ مُحِيطَانِ بِزَاوِيَةِ الْمُثَلِّثِ فَفِيهَا مِنْ بَقِيَّةِ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ سَفِيحَةٌ عَلَى  
الْبَحْرِ عِنْدَ أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَسَلْمَنْكَةُ شَرْقًا عَنْهَا وَفِي جَوْفِهَا سَمُورَةٌ  
وَفِي الشَّرْقِ عَنْ سَلْمَنْكَةَ أَيْلَةٌ آخِرُ الْجَنُوبِ وَأَرْضٌ قَسْتَالِيَّةٌ <sup>(١)</sup> شَرْقًا عَنْهَا وَفِيهَا مَدِينَةٌ  
شَقُونِيَّةٌ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضٌ لِيُونَ وَبَرْغَشْتُ <sup>(٢)</sup> ثُمَّ وَرَاءَهَا فِي الشَّمَالِ أَرْضٌ جَلِيقِيَّةٌ إِلَى  
زَاوِيَةِ الْقِطْعَةِ وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي آخِرِ الضِّلْعِ الْغَرْبِيِّ بَلَدٌ شَنْتِيَاقُو وَمَعْنَاهُ  
يَعْقُوبُ وَفِيهَا مِنْ شَرْقِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَدِينَةٌ شِطْلِيَّةٌ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الْجَنُوبِ  
وَشَرْقًا عَنْ قَسْتَالِيَّةٍ وَفِي شَمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشَقَّةٌ وَيَنْبَلُونَةُ عَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا وَشَمَالًا وَفِي  
غَرْبِ بَنْبَلُونَةَ قَسْتَالَةَ ثُمَّ نَاجِزَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَرْغَشْتُ وَيَعْتَرِضُ وَسَطَ هَذِهِ  
الْقِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ مُحَاذٍ لِلْبَحْرِ وَلِلضِّلْعِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ وَعَلَى قَرْبٍ وَيَتَّصِلُ  
بِهِ وَيَطْرَفُ الْبَحْرُ عِنْدَ بَنْبَلُونَةَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّصِلَ فِي  
الْجَنُوبِ بِالْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَصِيرُ حَجْرًا <sup>(٣)</sup> عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ  
جِهَةِ الشَّرْقِ وَثَنَايَاهُ لَهَا أَبْوَابٌ تَفْضِي إِلَى بِلَادِ عَشْكَوْنِيَّةٍ مِنْ أَمَمِ الْفَرَنْجِ فَمِنْهَا مِنْ  
الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ بَرْشَلُونَةُ وَأَرْبُونَةُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَرِيدَةُ وَقَرْقَشُونَةُ  
وَرَاءَهُمَا فِي الشَّمَالِ وَمِنْهَا مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ طَلُوشَةُ شَمَالًا عَنْ خَرِيدَةَ . وَأَمَّا  
الْمُنْكَشَفُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلِّثٍ مُسْتَطِيلٍ زَاوِيَتُهُ  
الْحَادَّةُ وَرَاءَ الْبُرْنَاتِ شَرْقًا وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ عَلَى رَأْسِ الْقِطْعَةِ الَّتِي يَتَّصِلُ  
بِهَا جَبَلُ الْبُرْنَاتِ بَلَدٌ نِيُونَةُ وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ  
الْجُزْءِ أَرْضٌ يَنْطَوِي مِنَ الْفَرَنْجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ

(١) قستالة .

(٢) برغش (معجم البلدان) .

(٣) يصير مانعاً .

مِنْهُ أَرْضُ عَشْكَوْنِيَّةَ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ بِنْتُو وَبَرْغَشْتِ وَقَدْ ذَكَرْنَا هُمَا فِي شَرْقِ بِلَادِ  
 عَشْكَوْنِيَّةَ فِي شَمَالِهَا قِطْعَةً أَرْضٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ دَخَلَتْ فِي هَذَا الْجُزْءِ كَالضَّرْسِ  
 مَائِلَةً إِلَى الشَّرْقِ قَلِيلًا وَصَارَتْ بِلَادَ عَشْكَوْنِيَّةَ فِي غَرْبِهَا دَاخِلَةً فِي جُودِ مِنَ الْبَحْرِ  
 وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ شَمَالًا بِلَادُ جَنُودَ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّمَالِ جَبَلٌ نَبْتِ جُودِ  
 وَفِي شَمَالِهِ وَعَلَى سَمْتِهِ أَرْضُ بَرْغُونَةَ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ طَرَفِ جَنُودَ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ  
 الرُّومِيِّ طَرَفٌ آخَرَ خَارِجٌ مِنْهُ يَنْقَى بَيْنَهُمَا جُودٌ دَاخِلٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ فِي غَرْبِيهِ  
 نَيْشُ وَفِي شَرْقِيهِ مَدِينَةُ رُومَةَ الْعُظْمَى كُرْسِيُّ مَلِكِ الْإِفْرَنْجَةِ وَمَسْكِنُ الْبَابَا  
 بَطْرِكِهِمُ الْأَعْظَمِ وَفِيهَا مِنَ الْمَبَانِي الضَّخْمَةِ وَالْهَيَاكِلِ الْهَائِلَةِ وَالْكَنَائِسِ الْعَادِيَّةِ (١)  
 مَا هُوَ مَعْرُوفٌ الْأَخْبَارِ وَمِنْ عَجَائِبِهَا النَّهْرُ الْجَارِي فِي وَسْطِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى  
 الْمَغْرِبِ مَفْرُوشٌ قَاعُهُ بِبِلَاطِ النُّحَاسِ وَفِيهَا كَنِيسَةٌ بَطْرُسَ وَبُولُسَ مِنَ الْخَوَارِيثِ  
 وَهُمَا مَدْفُونَانِ بِهَا وَفِي الشَّمَالِ عَنْ بِلَادِ رُومَةَ بِلَادُ أَمْرَنْصِيصَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ . وَعَلَى  
 هَذَا الطَّرَفِ مِنَ الْبَحْرِ الَّذِي فِي جَنُوبِهِ رُومَةَ بِلَادُ نَابِلِ (٢) فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ  
 مُتَّصِلَةٌ بِبِلَادِ قَلُورِيَّةَ مِنْ بِلَادِ الْفَرَنْجِ وَفِي شَمَالِهَا طَرَفٌ مِنْ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ دَخَلَ فِي  
 هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مُغْرَبًا وَمُحَادِيًا لِلشَّمَالِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَأَنْتَهَى إِلَى نَحْوِ  
 الثُّلُثِ مِنْهُ وَعَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ الْبِنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ جَنُوبِهِ فِيمَا بَيْنَهُ  
 وَبَيْنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَمِنْ شَمَالِهِ بِلَادُ إِنْكَلَايَةَ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ . وَفِي الْجُزْءِ  
 الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِيهِ بِلَادُ قَلُورِيَّةَ بَيْنَ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ  
 يُحِيطُ بِهَا مِنْ شَرْقِيهِ يَصِلُ مِنْ بَرِّهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي جُودِ  
 بَيْنَ طَرَفَيْنِ خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ فِي شَرْقِيهِ بِلَادِ  
 قَلُورِيَّةَ بِلَادُ أَنْكِيرَدَةَ فِي جُودِ بَيْنَ خَلِيجِ الْبِنَادِقَةِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيَدْخُلُ طَرَفٌ  
 مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي الْجُودِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَفِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيُحِيطُ بِهِ مِنْ شَرْقِيهِ

(١) نسبة إلى عاد .

(٢) نابولي .

خَلِيْجُ الْبَنَادِقَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ذَاهِباً إِلَى سَمْتِ الشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْغَرْبِ  
 مُحَادِياً لِأَخْرِ الْجُزْءِ الشَّمَالِيِّ وَيَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ جَبَلٌ عَظِيمٌ  
 يُوَازِيهِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى الشَّمَالِ ثُمَّ يُغْرِبُ مَعَهُ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ  
 قِبَالَ خَلِيْجٍ فِي شَمَالِيهِ فِي بِلَادِ إِنْكَلَايَةِ مِنْ أُمَّمِ اللَّمَّانِيِّينَ كَمَا تَذَكَّرُ وَعَلَى هَذَا  
 الْخَلِيْجِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذَا الْجَبَلِ مَاذَا ذَاهِبِينَ إِلَى الشَّمَالِ بِلَادُ الْبَنَادِقَةِ فَإِذَا ذَهَبَا إِلَى  
 الْمَغْرِبِ فَيَبْنِيَانِ بِلَادَ حَرَوَايَا ثُمَّ بِلَادَ الْأَلْمَانِيِّينَ عِنْدَ طَرَفِ الْخَلِيْجِ . وَفِي الْجُزْءِ  
 الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ  
 مُضْرَسَةٌ كُلُّهَا يَقْطَعُ مِنَ الْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّمَالِ وَبَيْنَ كُلِّ ضَرْسَيْنِ مِنْهَا  
 طَرَفٌ مِنَ الْبَحْرِ فِي الْجَوْنِ بَيْنَهُمَا وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً قِطْعٌ مِنَ الْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا  
 إِلَى الشَّمَالِ خَلِيْجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الطَّرَفِ الْجَنُوبِيِّ وَيَذْهَبُ عَلَى  
 سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَالِكَ عَنْ قُرْبِ  
 مَشْرِقاً إِلَى بَحْرِ نِيطَشٍ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ وَبَعْضُ الرَّابِعِ قِبَلَهُ وَالسَّادِسِ بَعْدَهُ مِنْ  
 الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ كَمَا تَذَكَّرُ وَبِلَدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَرْقِيِّ هَذَا الْخَلِيْجِ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ  
 مِنَ الشَّمَالِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي كَانَتْ كُرْسِيَّ الْقِيَاصِرَةِ وَبِهَا مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ  
 وَالضَّخَامَةِ مَا كَثُرَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالْقِطْعَةُ الَّتِي مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَلِيْجِ  
 الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِيهَا بِلَادُ مَقْدُونِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْيُونَانِيِّينَ وَمِنْهَا  
 ابْتِدَاءُ مُلْكِهِمْ وَفِي شَرْقِيِّ هَذَا الْخَلِيْجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ بَاطُوسَ وَأَظْنَهَا  
 لِهَذَا الْعَهْدِ مَجَالَاتٍ لِلتُّرْكَمَانَ وَبِهَا مُلْكُ ابْنِ عُثْمَانَ وَقَاعِدَتُهُ بِهَا بَوْرَصَةُ وَكَانَتْ  
 مِنْ قَبْلِهِمْ لِلرُّومِ وَعَلَبَهُمْ عَلَيْهَا الْأَمَمُ إِلَى أَنْ صَارَتْ لِلتُّرْكَمَانَ . وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ  
 مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيهِ وَجَنُوبِيهِ أَرْضُ بَاطُوسَ وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ  
 بِلَادُ عُمُورِيَّةَ وَفِي شَرْقِيِّ عُمُورِيَّةَ نَهْرٌ قَبَاقِبِ الَّذِي يُمِدُّ الْفُرَاتَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ  
 هُنَالِكَ وَيَذْهَبُ فِي الْجَنُوبِ حَتَّى يَخَالِطَ الْفُرَاتَ قَبْلَ وُصُولِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ إِلَى  
 مَمَرِهِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَهُنَالِكَ فِي غَرْبِيهِ آخِرُ الْجُزْءِ فِي مَبْدَأِ نَهْرِ سِيحَانَ ثُمَّ نَهْرُ  
 جِيحَانَ غَرْبِيَّةَ الذَّاهِبِينَ عَلَى سَمْتِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُمَا وَفِي شَرْقِهِ هُنَالِكَ مَبْدَأُ نَهْرِ دَجَلَةَ

الذاهب على سفيته وفي موازاته حتى يُخالطه عند بغداد وفي الزاوية التي بين  
الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد ميفارقين  
ونهر قبايق الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء يقطعتين إحداهما غربية جنوبية وفيها  
أرض باطوس كما قلناه وأسافلها إلى آخر الجزء شمالاً ووراء الجبل الذي يبدأ منه  
نهر قبايق أرض عمورية كما قلناه والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في  
الجنوب منها مبدأ دجلة والفرات وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية  
من وراء جبل قبايق وهي عريضة وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد خرشنة وفي  
الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطس الذي يمدّه خليج القسطنطينية .  
وفي الجزء السادس من هذا الإقليم في جنوبيه وغربه بلاد أرمينية متصلة إلى أن  
يتجاوز وسط الجزء إلى جانب الشرق وفيها بلدان أردن في الجنوب والغرب وفي  
شمالها تفلّيس ودبيل وفي شرق أردن مدينة خلط ثم بردعة في جنوبها بانحراف  
إلى الشرق مدينة أرمينية ومن هنالك مخرج بلاد أرمينية إلى الإقليم الرابع وفيها  
هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الأكراد المسمى بأرمي وقد مر ذكره في الجزء  
السادس منه ويتأخض بلاد أرمينية في هذا الجزء وفي الإقليم الرابع قبله من جهة  
الشرق فيها بلاد أذربيجان وآخرها في هذا الجزء شرقاً بلاد اردبيل على قطعة من  
بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر  
طبرستان وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان ويبدأ  
من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال يتصل بعضها ببعض على سمت  
الغرب إلى الجزء الخامس فتتم فيه منطفة ومحيطة ببلد ميفارقين ويخرج إلى  
الإقليم الرابع عند آمد ويتصل بجبل السلسلة في أسافل الشام ومن هنالك يتصل  
بجبل اللكام كما مرّ وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثنائيا كالأبواب  
تفصي من الجانبين ففي جنوبها بلاد الأبواب متصلة في الشرق إلى بحر  
طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب وتتصل بلاد الأبواب في

الغرب من ناحية جنوبيها ببلد أزمينية وبينهما في الشرق وبين بلاد أذربيجان الجنوبية بلاد الزاب<sup>(١)</sup> متصلة إلى بحر طبرستان وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السريز في الزاوية الغربية الشمالية منها وفي زاوية الجزء كله قطعة أيضاً من بحر نيطش الذي يمدّه خليج القسطنطينية وقد مر ذكره ويحف بهذه القطعة من نيطش بلاد السريز وعليها منها بلد أطرابزيدة<sup>(٢)</sup> وتتصل بلاد السريز بين جبل الأبواب والجهة الشمالية من الجزء إلى أن ينتهي شرقاً إلى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر وعند آخرها مدينة صول ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من أرض الخزر تنتهي إلى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالاً. والجزء السابع من هذا الإقليم غربيته كله مغمور ببحر طبرستان وخرج من جنوبه في الإقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان وجبال الدينلم إلى قزوين وفي غربي تلك القطعة متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من الإقليم الرابع وتتصل بها من شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقه أيضاً وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نهر أثل<sup>(٣)</sup> في هذا البحر ويتقى من هذا الجزء في ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هي مجالات للفر من أمم الترك يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل في الجزء الثامن ويذهب في الغرب إلى ما دون وسطه فينعطف إلى الشمال إلى أن يلاقي بحر طبرستان فيحترف به ذاهباً معه إلى بقيته في الإقليم السادس ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل سياء ويذهب مغرباً إلى الجزء السادس من الإقليم السادس ثم يرجع جنوباً إلى الجزء السادس من الإقليم الخامس وهذا الطرف منه وهو الذي اعترض في هذا الجزء بين

(١) لا بد أن الزاب محرفة فالزاب تقع في الجزائر ولا صلة لها بالمنطقة التي يتكلم عنها ابن خلدون.

(٢) كذا في جميع النسخ وفي معجم البلدان. أما اليوم فتسمى طرابزون.

(٣) هو نهر أورال.

أَرْض السَّرِيرِ وَأَرْض الخَزَرِ وَأَتَصَلَّتْ بِأَرْضِ الخَزَرِ فِي الجُزءِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ  
خَافَاتُ هَذَا الجَبَلِ المَسْمَى جَبَلِ سِيَاهَ كَمَا سَيَأْتِي . وَالجُزءُ الثَّامِنُ مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ  
الخَامِسِ كُلُّهُ مَجَالَاتٌ لِلغَزَمِ مِنْ أَمَمِ التُّرْكِ وَفِي الجِهَةِ الجَنُوبِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةُ  
خَوَارِزَمِ الَّتِي يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ جِنْحُونَ دَوْرَهَا ثَلَاثُمِائَةَ مِيلٍ وَيَصُبُّ فِيهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ  
مِنْ أَرْضِ هَذِهِ المَجَالَاتِ وَفِي الجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةُ عَرْعُونَ دَوْرَهَا  
أَرْبَعُمِائَةَ مِيلٍ وَمَاوُهَا حُلُوٌّ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الجُزءِ جَبَلٌ مِرْعَارٌ وَمَعْنَاهُ  
جَبَلُ الثَّلْجِ لِأَنَّهُ لَا يَدُوبُ فِيهِ وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِأَخْرِ الجُزءِ وَفِي الجَنُوبِ عَنْ بُحَيْرَةِ  
عَرْعُونَ جَبَلٌ مِنَ الحَجَرِ الصُّلْدِ لَا يَنْبُتُ شَيْئاً يُسَمَّى عَرْعُونَ وَبِهِ سُمِّيَتِ البُحَيْرَةُ  
وَيَنْجَلِبُ مِنْهُ وَمِنْ جَبَلِ مِرْعَارِ شَمَالِيَّ البُحَيْرَةِ أَنْهَارٌ لَا تَنْحَصِرُ عِدَّتُهَا فَتَصُبُّ فِيهَا  
مِنْ الجَانِبَيْنِ . وَفِي الجُزءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ بِلَادُ أَرْكُسَ مِنْ أَمَمِ التُّرْكِ فِي غَرْبِ  
بِلَادِ الغَزِّ وَشَرْقِ بِلَادِ الكِيمَاكِيَّةِ وَيَخْفُ بِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ آخِرُ الجُزءِ جَبَلٌ قَوْقِيَا  
المُحِيطُ بِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَفْتَرِضُ هُنَالِكَ مِنَ الجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَنْعَطِفَ  
أَوَّلَ دُخُولِهِ مِنَ الجُزءِ العَاشِرِ وَقَدْ كَانَ دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الجُزءِ العَاشِرِ مِنَ الإقْلِيمِ  
الرَّابِعِ قَبْلَهُ وَاحْتَفَّ هُنَالِكَ بِالبَحْرِ المُحِيطِ إِلَى آخِرِ الجُزءِ فِي الشَّمَالِ ثُمَّ انْعَطَفَ  
مُغْرَباً فِي الجُزءِ العَاشِرِ مِنَ الإقْلِيمِ الرَّابِعِ إِلَى مَا دُونَ نِصْفِهِ وَأَحَاطَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى هُنَا  
بِبِلَادِ الكِيمَاكِيَّةِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الجُزءِ العَاشِرِ مِنَ الإقْلِيمِ الخَامِسِ فَذَهَبَ فِيهِ مُغْرَباً  
إِلَى آخِرِهِ وَبَقِيَّتْ فِي جَنُوبِيهِ مِنْ هَذَا الجُزءِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الغَرْبِ قَبْلَ آخِرِ  
بِلَادِ الكِيمَاكِيَّةِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الجُزءِ التَّاسِعِ فِي شَرْقِيهِ وَفِي الأَعْلَى مِنْهُ وَانْعَطَفَ قَرِيباً  
إِلَى الشَّمَالِ وَذَهَبَ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الجُزءِ التَّاسِعِ مِنَ الإقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِيهِ السُّدُّ هُنَالِكَ  
كَمَا نَذَكُرُهُ وَبَقِيَّتْ مِنْهُ القِطْعَةُ الَّتِي أَحَاطَ بِهَا جَبَلٌ قَوْقِيَا عِنْدَ الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ  
الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الجُزءِ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الجَنُوبِ وَهِيَ مِنْ بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَفِي  
الجُزءِ العَاشِرِ مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ أَرْضُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ كُلُّهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنَ  
البَحْرِ غَمَرَتْ طَرَفاً فِي شَرْقِيهِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ إِلَّا القِطْعَةَ الَّتِي يَفْضَلُهَا إِلَى جِهَةِ



الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ جَبَلٌ قَوْقِيَا حِينَ مَرَّ فِيهِ وَمَا سَوَى ذَلِكَ فَأَرْضٌ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ  
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الإقليم السادس . فالجزء الأول منه عمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقاً  
مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية إلى الجنوب وانتهى قريباً من  
الناحية الجنوبية فأنكشف قطعة من هذه الأرض في هذا الجزء داخله بين  
الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح  
طولاً وعرضاً وهي كلها أرض بريطانية وفي بابها بين الطرفين وفي الزاوية  
الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في  
الجزء الأول والثاني من الإقليم الخامس . والجزء الثاني من هذا الإقليم دخل  
البحر المحيط من غربه وشماله فمن غربه قطعة مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي  
من شرق أرض بريطانية في الجزء الأول، واتصلت بها القطعة الأخرى في الشمال  
من غربه إلى شرقه وانفسحت في النصف الغربي منه بعض الشيء وفيه هنالك  
قطعة من جزيرة أنكلترا وهي جزيرة عظيمة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم  
وبقيتها في الإقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من  
هذا الجزء بلاد أرمندية وبلاد أفلاذس متصلين بها ثم بلاد إفرنسية جنوباً وغرباً  
من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقاً عنها وكلها لأمم الأفرنجية وبلاد اللمانيين في  
النصف الشرقي من الجزء فجنوبه بلاد أنكلانية ثم بلاد برغونية شمالاً ثم أرض  
لهويكة وشطونية وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض  
أفريرة وكلها لأمم اللمانيين . وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في الناحية الغربية  
بلاد مرانية في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد أنكوية  
في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخلاً من الجزء  
الرابع ويمر مغرباً بانحراف إلى الشمال إلى أن يقف في بلاد شطونية آخر النصف  
الغربي . وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوب أرض جثولية وتحتها في الشمال بلاد

الرُوسِيَّةُ وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ بَلَوَاطٍ مِنْ أَوَّلِ الْجُزْءِ غَرْباً إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي النُّصْفِ الشَّرْقِيِّ وَفِي شَرْقِ أَرْضِ جَثُولِيَّةِ بِلَادِ جَرْمَانِيَّةِ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَمَدِينَتُهَا عِنْدَ آخِرِ الْخَلِيجِ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَعِنْدَ مَدْفَعِهِ فِي بَحْرِ نِيطِشٍ فَيَقَعُ قَطِيعَةً مِنْ بَحْرِ نِيطِشٍ فِي أَعَالِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيَمُدُّهَا الْخَلِيجُ وَبَيْنَهُمَا فِي الزَّوَايَةِ بِلَادُ مَسِينَاةٍ . وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ عِنْدَ بَحْرِ نِيطِشٍ يَتَّصِلُ مِنَ الْخَلِيجِ فِي آخِرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ وَيَخْرُجُ مِنْ سَمْتِهِ مَشْرِقاً فَيَمُرُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ كُلِّهِ وَفِي بَعْضِ السَّادِسِ عَلَى طَوْلِ أَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ مِيلٍ مِنْ مَبْدَاهِ فِي عَرْضِ سِتْمِائَةِ مِيلٍ وَيَبْقَى وَرَاءَ هَذَا الْبَحْرِ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا إِلَى شَرْقِهَا بَرٌّ مُسْتَطِيلٌ فِي غَرْبِهِ هِرْقَلِيَّةٌ عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ نِيطِشٍ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ الْبَيْلِقَانَ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَفِي شَرْقِهِ بِلَادُ اللَّانِيَّةِ وَقَاعِدَتُهَا سَوْتَلِي عَلَى بَحْرِ نِيطِشٍ وَفِي شَمَالِ بَحْرِ نِيطِشٍ فِي هَذَا الْجُزْءِ غَرْباً أَرْضُ تَرْخَانَ وَمَشْرِقاً بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَكُلُّهَا عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ وَبِلَادُ الرُّوسِيَّةِ مُحِيطَةٌ بِبِلَادِ تَرْخَانَ مِنْ شَرْقِهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهَا فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَمِنْ غَرْبِهَا فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ بَحْرِ نِيطِشٍ وَيَنْحَرِفُ قَلِيلاً إِلَى الشَّمَالِ وَيَبْقَى بَيْنَهُ هُنَالِكَ وَيَبِينُ آخِرَ الْجُزْءِ شَمَالاً بِلَادُ قَمَانِيَّةِ وَفِي جَنُوبِهِ مُنْفَسِحاً إِلَى الشَّمَالِ بِمَا انْحَرَفَ هُوَ كَذَلِكَ بَقِيَّةُ بِلَادِ اللَّانِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ آخِرَ جَنُوبِهِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مُتَّصِلٌ أَرْضُ الْخَزَرِ وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ بَرْطَاسَ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَلْغَارَ وَفِي الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ أَرْضُ بَلْجَرَ يَجُوزُهَا هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَبَلِ سِيَاكُوهِ الْمُنْعَطِفِ مَعَ بَحْرِ الْخَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ بَعْدَهُ وَيَذْهَبُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ مَغْرَباً فَيَجُوزُ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ وَيَدْخُلُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِجَبَلِ الْأَبْوَابِ وَعَلَيْهِ مِنْ هُنَالِكَ نَاحِيَةُ بِلَادِ الْخَزَرِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مَا جَازَهُ جَبَلُ سِيَاةٍ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ

بَحْر طَبْرَسْتَانَ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ غَرْباً وَفِي شَرْقِهَا الْقِطْعَةُ  
مِنْ بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ الَّتِي يَجُوزُهَا هَذَا الْجَبَلُ مِنْ شَرْقِهَا وَشَمَالِهَا وَوَرَاءَ جَبَلِ سِيَاهَ فِي  
النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَرْطَاسَ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضُ  
شَحْرَبَ وَيَخْنَاكَ وَهُمْ أُمَّةُ التُّرْكِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَالنَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ كُلُّهَا  
أَرْضُ الْجَوْلِجِ مِنَ التُّرْكِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ غَرْباً وَالْأَرْضُ الْمُنتَنَةُ وَشَرْقُ الْأَرْضِ  
الَّتِي يُقَالُ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ خَرَبَاها قَبْلَ بِنَاءِ السُّدِّ وَفِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُنتَنَةِ مَبْدَأُ  
نَهْرِ الْأَثَلِ مِنْ أَكْثَرِ أَنْهَارِ الْعَالَمِ وَمَمْرُهُ فِي بِلَادِ التُّرْكِ وَمَصْبُهُ فِي بَحْرِ طَبْرَسْتَانَ فِي  
الإقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ وَهُوَ كَثِيرُ الْإِنْعِطَافِ يَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ مِنَ  
الْأَرْضِ الْمُنتَنَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ يَنَابِيعَ تَجْتَمِعُ فِي نَهْرٍ وَاحِدٍ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِ الْغَرْبِ إِلَى  
آخِرِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ فَيَنْعَطِفُ شَمَالاً إِلَى الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الإقْلِيمِ السَّابِعِ  
فَيَمُرُّ فِي طَرَفِهِ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْمَغْرِبِ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ السَّابِعِ وَيَذْهَبُ  
مُغْرَباً غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَانِيَةً إِلَى الْجَنُوبِ وَيَرْجِعُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الإقْلِيمِ  
السَّادِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدُولٌ يَذْهَبُ مُغْرَباً وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ نِيطِشَ فِي ذَلِكَ الْجُزْءِ  
وَيَمُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ فِي بِلَادِ بَلْفَارَ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ  
الإقْلِيمِ السَّادِسِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَالِثَةً إِلَى الْجَنُوبِ وَيَنْفُذُ فِي جَبَلِ سِيَاهَ وَيَمُرُّ فِي بِلَادِ  
الْخَزَرِ وَيَخْرُجُ إِلَى الإقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي بَحْرِ  
طَبْرَسْتَانَ فِي الْقِطْعَةِ الَّتِي انْكَشَفَتْ مِنَ الْجُزْءِ عِنْدَ الزَّوَايَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ .  
وَالْجُزْءُ التَّاسِعُ مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خَفْشَاخَ مِنَ التُّرْكِ وَهُمْ  
قَفْجَاقٌ وَبِلَادُ الشُّرْكَسَ مِنْهُمْ أَيْضاً وَفِي الشَّرْقِ مِنْهُ بِلَادُ يَأْجُوجَ يَفْصُلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ  
قَوِيًّا الْمُحِيطُ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ بِنِذَاءٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي شَرْقِ الإقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَذْهَبُ  
مَعَهُ إِلَى آخِرِ الإقْلِيمِ فِي الشَّمَالِ وَيُفَارِقُهُ مُغْرَباً وَبِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَدْخُلَ  
فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الإقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَرْجِعُ إِلَى سَمْتِهِ الْأَوَّلِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هَذَا  
الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الإقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ بِانْحِرَافٍ إِلَى الْمَغْرِبِ وَفِي وَسْطِهِ هَهُنَا

السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الإسْكَندَرُ ثُمَّ يَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْهُ فِيمَرُ فِيهِ إِلَى الْجَنُوبِ إِلَى أَنْ يَلْقَى الْبَحْرَ الْمُحِيطَ فِي شَمَالِهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَهُ مِنْ هُنَالِكَ مُعْرِباً إِلَى الإِقْلِيمِ السَّابِعِ إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي غَرْبِيهِ وَفِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ هُوَ السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الإسْكَندَرُ كَمَا قُلْنَا وَالصَّحِيحُ مِنْ خَبْرِهِ فِي الْقُرْآنِ وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَرْدَادْبَةَ فِي كِتَابِهِ فِي الْجُغْرَافِيَا أَنَّ الْوَاتِقَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ السُّدَّ انْفَتَحَ فَانْتَبَهَ فَرَعَا وَبَعَثَ سَلَامًا التَّرْجَمَانَ فَوَقَّفَ عَلَيْهِ وَجَاءَ بِخَبْرِهِ وَوَصَفَهُ فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هَذَا وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الإِقْلِيمِ بِلَادٌ مَأْجُوجٌ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هُنَالِكَ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ مُسْتَطِيلَةٌ فِي الشَّمَالِ وَعَرِيضَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ فِي الشَّرْقِ .

الإِقْلِيمُ السَّابِعُ ، وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ قَدْ غَمَرَ عَامَّتَهُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ الْخَامِسِ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِجِبَلِ قُوقِيَا الْمُحِيطِ بِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ . فَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي مَغْمُورَانِ بِالمَاءِ إِلَّا مَا انْكَشَفَ مِنْ جَزِيرَةٍ أَنْكَلِتْرَا الَّتِي مُعْظَمُهَا فِي الثَّانِي وَفِي الْأَوَّلِ مِنْهَا طَرَفٌ انْعَطَفَ بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ وَبَقِيَّتُهَا مَعَ قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ مُسْتَدِيرَةٌ عَلَيْهِ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَهِيَ مَذْكَورَةٌ هُنَاكَ وَالْمَجَازُ مِنْهَا إِلَى الْبَرِّ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ سَعَةٌ اثْنِي عَشَرَ مِيلاً وَوَرَاءَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ فِي شَمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي جَزِيرَةٌ رَسْلَانِدَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ . وَالْجُزْءُ الثَّلَاثُ مِنْ هَذَا الإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَكْثَرُهُ بِالْبَحْرِ إِلَّا قِطْعَةً مُسْتَطِيلَةً فِي جَنُوبِهِ وَتَسْعُ فِي شَرْقِهَا وَفِيهَا هُنَالِكَ مُتَّصِلٌ أَرْضِ فَلُونِيَّةِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الثَّلَاثِ مِنَ الإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَأَنَّهَا فِي شَمَالِهِ وَفِي الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الَّتِي تَغْمُرُ هَذَا الْجُزْءَ ثُمَّ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهَا مُسْتَدِيرَةٌ فَسِيحَةٌ وَتَتَّصِلُ بِالْبَرِّ مِنْ بَابٍ فِي جَنُوبِهَا يُفْضِي إِلَى بِلَادِ فَلُونِيَّةِ وَفِي شَمَالِهَا جَزِيرَةٌ بَرْعَاقِبَةٌ ( وَفِي نَسْخَةِ بَوَاقِعَةِ ) مُسْتَطِيلَةٌ مَعَ الشَّمَالِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ . وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الإِقْلِيمِ شَمَالُهُ كُلُّهُ مَغْمُورٌ بِالْبَحْرِ

المُحِيطِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَجَنُوبَهُ مُنْكَشِفٌ وَفِي غَرْبِهِ أَرْضٌ قِيمَازَكٌ مِنَ  
التُّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا بِلَادٌ طُسْتٌ ثُمَّ أَرْضٌ رَسْلَانٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَهِيَ دَائِمَةٌ  
الشُّلُوجِ وَعُمُرَانُهَا قَلِيلٌ وَيَتَّصِلُ بِبِلَادِ الرُّوسِيَّةِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ  
وَالْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بِلَادٌ  
الرُّوسِيَّةِ وَيَنْتَهِي فِي الشَّمَالِ إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلٌ قُوقِيَا  
كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلٌ أَرْضُ الْقَمَانِيَّةِ الَّتِي عَلَى قِطْعَةٍ  
بَحْرٍ نِيطِشٌ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَنْتَهِي إِلَى بُحَيْرَةِ طَرْمِيٍّ مِنْ  
هَذَا الْجُزْءِ وَهِيَ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْجِبَالِ عَنِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ  
وَفِي شَمَالِ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ التَّتَارِيَّةِ مِنَ التُّرْكِ ( وَفِي نَسْخَةِ  
الترکمان ) إِلَى آخِرِهِ . وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مُتَّصِلٌ  
بِلَادِ الْقَمَانِيَّةِ وَفِي وَسْطِ النَّاحِيَةِ بُحَيْرَةٌ عَثُورٌ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا الْأَنْهَارُ مِنَ الْجِبَالِ  
فِي النُّوَاحِيِ الشَّرْقِيَّةِ وَهِيَ جَامِدَةٌ دَائِمًا لِشِدَّةِ الْبَرْدِ إِلَّا قَلِيلاً فِي زَمَنِ الصَّيْفِ وَفِي  
شَرْقِ بِلَادِ الْقَمَانِيَّةِ بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَبْدُوهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ فِي النَّاحِيَةِ  
الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا  
الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بَلْغَارِ الَّتِي كَانَتْ مَبْدُوهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ  
الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ وَفِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بَلْغَارٍ مُنْعَطَفُ نَهْرٍ  
أَثَلِ الْقِطْعَةِ الْأُولَى إِلَى الْجَنُوبِ كَمَا مَرَّ وَفِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَمَالِهِ جَبَلٌ  
قُوقِيَا مُتَّصِلٌ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ  
أَرْضِ يَخْنَاكٌ مِنْ أُمَّمِ التُّرْكِ وَكَانَتْ مَبْدُوهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ  
السَّادِسِ قَبْلَهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ  
السَّادِسِ مِنْ فَوْقِهِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ سُحْرَبٍ ثُمَّ بَقِيَّةُ الْأَرْضِ الْمُنْتَبِهَةِ  
إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ جَبَلٌ قُوقِيَا الْمُحِيطُ مُتَّصِلاً مِنْ  
غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلٌ

الأرضِ الْمُنتَنِبَةِ وَفِي شَرْقِهَا الأَرْضُ الْمُخْفُورَةُ وَهِيَ مِنَ المَجَائِبِ حَزَقٌ عَظِيمٌ فِي  
الأرضِ بَعِيدُ المَهْوَى فَسِيحُ الأَقْطَارِ مُتَمَتِّعٌ الوُصُولِ إِلَى قَعْرِهِ يُسْتَبَدَلُ عَلَى عُمُرَانِهِ  
بِالدُّخَانِ فِي النَّهَارِ وَالنَّيْرَانِ فِي اللَّيْلِ تُضِيءُ وَتَخْفَى وَرُبَّمَا رُبِّيَ فِيهَا نَهْرٌ يَشْقُهَا مِنَ  
الجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الجُزْءِ البِلَادُ الخَرَابُ المُتَاخِمْةُ  
لِلسُّدِّ وَفِي آخِرِ الشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلٌ قُوقِيَا مُتَّصِلًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الغَرْبِ وَفِي الجُزْءِ التَّاسِعِ

مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ فِي الجَنَابِ الغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادٌ خَفْشَاخَ وَهُمْ قَفَجَقُ يَجُوزُهَا جَبَلٌ قُوقِيَا  
حِينَ يَنْعَطِفُ مِنَ شَمَالِهِ عِنْدَ البَحْرِ المُحِيطِ وَيَذْهَبُ فِي وَسْطِهِ إِلَى الجَنُوبِ  
بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي الجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الإقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِيهِ  
وَفِي وَسْطِهِ هُنَالِكَ سُدٌّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا  
الجُزْءِ أَرْضَ يَأْجُوجَ وَرَاءَ جَبَلِ قُوقِيَا عَلَى البَحْرِ قَلِيلَةَ العُرْضِ مُسْتَطِيلَةً أَحَاطَتْ بِهِ  
مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ . وَالجُزْءُ العَاشِرُ عَمَرَ البَحْرِ جَمِيعُهُ . هَذَا آخِرُ الكَلَامِ عَلَى  
الجُغْرَافِيَا وَأَقَالِيمِهَا السَّبْعَةِ وَفِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ <sup>(١)</sup>

(١) جاء في سورة آل عمران الآية ١٩٠ قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار  
لآيات لأولي الألباب » وقوله تعالى في سورة الروم الآية ٢٢ « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم  
واللوانكم ان في ذلك آيات للعالمين » .

## المقدمة الثالثة

في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر

والكثير في أحوالهم

قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْمَعْمُورَ مِنْ هَذَا الْمُنْكَشِفِ مِنَ الْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ وَسَطُهُ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ وَالْبَرْدِ فِي الشَّمَالِ . وَلَمَّا كَانَ الْجَانِبَانِ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ مُتَضَادَّيْنِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَجَبَ أَنْ تَتَدَرَّجَ الْكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى الْوَسْطِ فَيَكُونُ مُعْتَدِلًا فَالْإَقْلِيمُ الرَّابِعُ أَعْدَلُ <sup>(١)</sup> الْعُمْرَانِ وَالَّذِي حَافَاتُهُ مِنَ الثَّلَاثِ وَالْخَامِسِ أَقْرَبُ إِلَى الْإِعْتِدَالِ وَالَّذِي يَلِيهِمَا وَالثَّانِي وَالسَّادِسُ بَعِيدَانِ مِنَ الْإِعْتِدَالِ وَالْأَوَّلُ وَالسَّابِعُ أَبْعَدُ بِكَثِيرٍ فَلِهَذَا كَانَتِ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَالْمَبَانِي وَالْمَلَابِسُ وَالْأَقْوَاتُ وَالْفَوَاكِهُ بَلْ وَالْحَيَوَانَاتُ وَجَمِيعُ مَا يَتَكُونُ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ مَخْصُوصَةً بِالْإِعْتِدَالِ وَسُكَّانُهَا مِنَ الْبَشَرِ أَعْدَلُ أَجْسَامًا وَأَلْوَانًا وَأَخْلَاقًا وَأَذْيَانًا حَتَّى النُّبُوتُ فَإِنَّمَا تَوْجَدُ فِي الْأَكْثَرِ فِيهَا وَلَمْ نَقِفْ عَلَى خَبَرٍ بَعْثُهُ فِي الْأَقَالِيمِ الْجَنُوبِيَّةِ وَلَا الشَّمَالِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ أَكْمَلُ النَّوْعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ قَالَ تَعَالَى « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » وَذَلِكَ لِئِتِمَّ الْقَبُولُ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَكْمَلُ لَوْجُودِ الْإِعْتِدَالِ لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةِ مِنَ التَّوَسُّطِ فِي مَسَاكِينِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ الْمُنْجَدَةَ بِالْحِجَارَةِ الْمُنْمَقَةِ بِالصَّنَاعَةِ وَيَتَنَاعُونَ فِي اسْتِجَادَةِ الْأَلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ وَيَذْهَبُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ وَتَوْجَدُ لَدَيْهِمُ الْمَعَادِنُ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ

(١) أعدل مشتقة من عدل وليس لها معنى والأصح : أكثر اعتدالاً

وَالنَّحَاسَ وَالرِّصَاصَ وَالقِّصْدِيرَ وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَعَامِلَاتِهِمْ بِالتَّقْدِيرِ الْعَزِيزِينَ وَيَبْعُدُونَ عَنِ الْإِنْحِرَافِ فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِمْ وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقِينَ وَالْهِنْدَ وَالسَّنْدَ وَالصِّينَ وَكَذَلِكَ الْأَنْدَلُسُ وَمَنْ قُرْبَ مِنْهَا مِنَ الْفَرَنْجَةِ وَالْجَلَالِقَةِ وَالرُّومِ وَالْيُونَانِيِّينَ وَمَنْ كَانَ مَعَ هَؤُلَاءِ أَوْ قَرِيباً مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَلِهَذَا كَانَ الْعِرَاقُ وَالشَّامُ أَعْدَلَ هَذِهِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا وَسَطٌ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ . وَأَمَّا الْأَقَالِيمُ الْبَعِيدَةُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ مِثْلَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي وَالسَّادِسَ وَالسَّابِعَ فَأَهْلُهَا أَبْعَدُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ فَبِنَاؤُهُمْ بِالطِّينِ وَالْقَصَبِ وَأَقْوَاتُهُمْ مِنَ الذَّرَّةِ وَالْعِشْبِ وَمَلَابِسُهُمْ مِنْ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ يَخْصِفُونَهَا عَلَيْهِمْ أَوْ الْجُلُودَ وَأَكْثَرَهُمْ عَرَايَا مِنَ اللَّبَاسِ وَفَوَاكِهِ بِلَادِهِمْ وَأَدْمُهَا غَرِيبَةٌ التَّكْوِينِ مَائِلَةٌ إِلَى الْإِنْحِرَافِ وَمَعَامِلَاتُهُمْ بِغَيْرِ الْحَجَرَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ مِنَ نَحَاسٍ أَوْ حديدٍ أَوْ جُلُودٍ يَقْدَرُونَهَا لِلْمَعَامِلَاتِ وَأَخْلَاقُهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبَةٌ مِنْ خَلْقِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ حَتَّى لِيَنْتَقِلَ عَنْ الْكَثِيرِ مِنَ السُّودَانِ أَهْلُ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ أَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ الْكُفُوفَ وَالغِيَاضَ وَيَأْكُلُونَ الْعِشْبَ وَأَنَّهُمْ مُتَوَحِّشُونَ غَيْرَ مُسْتَأْنِسِينَ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَكَذَا الصَّقَالِبَةُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لِبُعْدِهِمْ عَنِ الْإِعْتِدَالِ يَقْرُبُ عَرَضُ أَمْرَجَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ عَرَضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ وَيَبْعُدُونَ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِمُقْدَارِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي الدِّيَانَةِ أَيْضاً فَلَا يَعْرِفُونَ نُبُوءَةَ وَلَا يَدِينُونَ بِشَرِيعَةٍ إِلَّا مَنْ قُرْبَ مِنْهُمْ مِنْ جَوَانِبِ الْإِعْتِدَالِ وَهُوَ فِي الْأَقْلِ النَّادِرُ مِثْلَ الْحَبَشَةِ الْمُجَاوِرِينَ لِلْيَمَنِ الدَّائِنِينَ بِالنُّصْرَانِيَّةِ فِيمَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَمَا بَعْدَهُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمِثْلُ أَهْلِ مَالِي وَكُوكُو وَالتَّكْرُورِ الْمُجَاوِرِينَ لِأَرْضِ الْمَغْرِبِ الدَّائِنِينَ بِالْإِسْلَامِ لِهَذَا الْعَهْدِ يُقَالُ إِنَّهُمْ دَانُوا بِهِ فِي الْمَائَةِ السَّابِعَةِ وَمِثْلُ مَنْ دَانَ بِالنُّصْرَانِيَّةِ مِنْ أُمَّةِ الصَّقَالِبَةِ وَالْإِفْرَنْجَةِ وَالتُّرْكِ مِنَ الشَّمَالِ وَمَنْ سِوَى هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ جَنُوباً وَشَمَالاً فَالَّذِينَ مَجْهُولٌ عِنْدَهُمْ وَالْعِلْمُ مَفْقُودٌ بَيْنَهُمْ وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ قَرِيبَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْبَهَائِمِ « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . وَلَا يُعْتَرِضُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ



بوجود اليمن وحضرموت والأخفاف وبلاد الحجاز واليمامة وما يليها من جزيرة  
العرب في الإقليم الأول والثاني فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من  
الجهات الثلاث كما ذكرنا فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من  
اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة  
البحر. وقد توهم بعض النساين ممن لا علم لديهم بطبائع الكائنات أن السودان  
هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في  
لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه وينقلون في ذلك حكاية من خرافات  
القصاص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في الثوراة وليس فيه ذكر السواد وإنما  
دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد إخوته لا غير وفي القول بنسبة السواد إلى حام  
غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات  
وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة  
المتضاعفة بالجنوب فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة  
إحدهما من الأخرى فتطول المسامته عامة الفصول فيكثر الضوء لأجلها ويلج  
الفيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لإفراط الحر ونظير هذين الإقليمين مما  
يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضا البياض من  
مزاج هوائهم للبرد المفريط بالشمال إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى  
العين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المسامته ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها  
ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعورة<sup>(١)</sup> ويتبع ذلك  
ما يقتضيه مزاج البرد المفريط من زرقه العيون وبرش الجلود وصوبة الشعور  
وتوسطت بينهما الأقاليم الثلاثة الخامس والرابع والثالث فكان لها في الاعتدال  
الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر والرابع أبلغها في الاعتدال غاية لنهايته في  
التوسط كما قدمناه فكان لأهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج  
أهويتهم وتبعه من جانبته الثالث والخامس وإن لم يبلغا غاية التوسط لميل هذا

(١) كلمة ليست من الفصحى وعنى بها شدة البياض.

قَلِيلًا إِلَى الْجَنُوبِ الْحَارِّ وَهَذَا قَلِيلًا إِلَى الشَّمَالِ الْبَارِدِ إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ يَنْتَهِيَا إِلَى  
الْإِنْحِرَافِ وَكَانَتِ الْأَقَالِيمُ الْأَرْبَعَةُ مُنْحَرَفَةً وَأَهْلِهَا كَذَلِكَ فِي خُلُقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ فَأَلَّوْا  
وَالثَّانِي لِلْحَرِّ وَالسُّوَادِ وَالسَّابِعِ لِلْبُرْدِ وَالْبِيَاضِ وَيُسَمَّى سُكَّانُ الْجَنُوبِ مِنَ  
الْإِقْلِيمَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي بِاسْمِ الْحَبَشَةِ وَالزَّنَجِ وَالسُّودَانَ أَسْمَاءً مُتَرَادِفَةً عَلَى الْأَمَمِ  
الْمُتَغَيِّرَةِ بِالسُّوَادِ وَإِنْ كَانَ اسْمُ الْحَبَشَةِ مُخْتَصًّا مِنْهُمْ بِمَنْ تَجَاءُ مَكَّةَ وَالْيَمَنَ وَالزَّنَجِ  
بِمَنْ تَجَاءُ بَحْرَ الْهِنْدِ وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى آدَمِ أَسْوَدَ  
لَا حَامٍ وَلَا غَيْرِهِ وَقَدْ نَجَدُ مِنَ السُّودَانِ أَهْلَ الْجَنُوبِ مَنْ يَسْكُنُ الرُّبْعَ الْمُعْتَدِلَ أَوْ  
السَّابِعَ الْمُنْحَرَفَ إِلَى الْبِيَاضِ فَتَبَيَّنَ أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ عَلَى التَّدْرِيجِ مَعَ الْأَيَّامِ  
وَبِالْعَكْسِ فَيَمَنُ يَسْكُنُ مِنَ أَهْلِ الشَّمَالِ أَوْ الرَّابِعِ بِالْجَنُوبِ فَسَوَدُ أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ  
وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّوْنَ تَابِعٌ لِمِزَاجِ الْهَوَاءِ قَالَ ابْنُ سِينَا فِي أَرْجُوزَتِهِ فِي الطَّبِّ

بِالزَّنَجِ حَرٌّ غَيْرُ الْأَجْسَادِ حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادًا  
وَالصُّقْلِبُ اكْتَسَبَتِ الْبِيَاضَا حَتَّى غَدَّتْ جُلُودَهَا بِيَضًا

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّمَالِ فَلَمْ يُسَمَّوْا بِإِعْتِبَارِ أَلْوَانِهِمْ لِأَنَّ الْبِيَاضَ كَانَ لَوْنًا لِأَهْلِ تِلْكَ  
اللِّغَةِ الْوَاضِعَةِ لِلْأَسْمَاءِ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ غَرَابَةٌ تَحْمِلُ عَلَى إِعْتِبَارِهِ فِي التَّسْمِيَةِ لِمُوَافَقَتِهِ  
وَإِعْتِيَادِهِ وَوَجَدْنَا سُكَّانَهُ مِنَ التُّرْكِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالطُّغْرُغُرِ وَالْخَزَرِ وَاللَّانِ وَالْكَثِيرِ مِنَ  
الْإِفْرَنْجَةِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَأَسْمَاءَ مُتَفَرِّقَةً وَأَجْيَالًا مُتَعَدِّدَةً مُسَمَّيْنَ بِأَسْمَاءٍ مُتَنَوِّعَةٍ  
وَأَمَّا أَهْلُ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ أَهْلُ الْإِعْتَدَالِ فِي خُلُقِهِمْ وَسَيْرِهِمْ وَكَافَّةُ الْأَحْوَالِ  
الطَّبِيعِيَّةِ لِلْإِعْتِمَارِ لَدَيْهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَسَاكِينِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالرِّئَاسَاتِ  
وَالْمُلْكِ فَكَانَتْ فِيهِمُ النُّبُوتُ وَالْمُلْكُ وَالِدُّوْلُ وَالشَّرَائِعُ وَالْعُلُومُ وَالْبُلْدَانُ وَالْأَمْصَارُ  
وَالْمَبَانِي وَالْفِرَاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْفَائِقَةُ وَسَائِرُ الْأَحْوَالِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ  
الَّتِي وَقَفْنَا عَلَى أَجْبَارِهِمْ مِثْلَ الْعَرَبِ وَالرُّومِ وَفَارَسَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْيُونَانَ وَأَهْلَ  
السُّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ . وَلَمَّا رَأَى النَّسَابُونَ اخْتِلَافَ هَذِهِ الْأَمَمِ بِسِمَاتِهَا وَشِعَارِهَا

حَسِبُوا ذَلِكَ لِأَجْلِ الْأَنْسَابِ فَجَعَلُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلَّهُمُ السُّودَانَ مِنْ وُلْدِ حَامٍ  
 وَارْتَابُوا فِي الْوَانِيهِمْ فَتَكَلَّفُوا تَقْلِ تِلْكَ الْحِكَايَةِ الْوَاهِيَةِ وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّمَالِ كُلَّهُمْ أَوْ  
 أَكْثَرَهُمْ مِنْ وُلْدِ يَافِثٍ وَأَكْثَرَ الْأُمَّةِ الْمُعْتَدِلَةَ وَأَهْلَ الْوَسَطِ الْمُنتَجِلِينَ لِلْعُلُومِ  
 وَالصَّنَائِعِ وَالْمَلَلِ وَالشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْمَلِكِ مِنْ وُلْدِ سَامٍ وَهَذَا الزَّعْمُ وَإِنْ صَادَفَ  
 الْحَقُّ فِي انْتِسَابِ هَؤُلَاءِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسٍ مُطَرَّدٍ إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ لَا أَنْ  
 تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ بِالسُّودَانَ وَالْحُبْشَانَ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامِ الْأَسْوَدِ . وَمَا  
 آدَاهُمْ إِلَى هَذَا الْعَلَطِ إِلَّا اغْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْأُمَّةِ إِنَّمَا يَقَعُ بِالْأَنْسَابِ فَقَطَّ  
 وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ التَّمْيِيزَ لِلْجِيلِ أَوْ الْأُمَّةِ يَكُونُ بِالنَّسَبِ فِي بَعْضِهِمْ كَمَا لِلْعَرَبِ  
 وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْفَرَسِ وَيَكُونُ بِالْجِهَةِ وَالسِّمَةِ كَمَا لِلزَّنَجِ وَالْحَبَشَةِ وَالصَّقَالِيَّةِ  
 وَالسُّودَانَ وَيَكُونُ بِالْعَوَائِدِ وَالشَّعَارِ وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ . وَيَكُونُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ  
 أَحْوَالِ الْأُمَّةِ وَخَوَاصِهِمْ وَمُمَيِّزَاتِهِمْ فَتَعْمِيمُ الْقَوْلِ فِي أَهْلِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبٍ أَوْ  
 شَمَالٍ بِأَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ فَلَانٍ الْمَعْرُوفِ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ نِخْلَةٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ سِمَةٍ وَجَدَتْ  
 لِذَلِكَ الْأَبِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَغَالِيطِ الَّتِي أَوْقَعَ فِيهَا الْغَفْلَةُ عَنْ طَبَائِعِ الْأَكْوَانِ وَالْجِهَاتِ  
 وَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا تَبَدُّلٌ فِي الْأَعْقَابِ وَلَا يَجِبُ اسْتِمْرَارُهَا سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ  
 لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ وَأَحْكَمُ وَهُوَ الْمَوْلَى الْمُنْعِمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ .



## المقدمة الرابعة

### في أثر الهواء في أخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ السُّودَانِ عَلَى الْعُمُومِ الْخِفَّةَ وَالطَّيْشَ وَكَثْرَةَ الطَّرَبِ فَتَجِدُهُمْ مُؤَلِّعِينَ بِالرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوْقِيعِ مَوْصُوفِينَ بِالْحُمَقِ فِي كُلِّ قَطْرٍ وَالسَّبَبَ الصَّحِيحَ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ طَبِيعَةَ الْفَرْحِ وَالسُّرُورِ هِيَ انْتِشَارُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ وَتَفْشِيهِ وَطَبِيعَةُ الْحُزَنِ بِالْعَكْسِ وَهُوَ انْقِبَاضُهُ وَتَكَاثُفُهُ . وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْحَرَارَةَ مُفْشِيَةً لِلْهَوَاءِ وَالْبَخَارَ مُخْلِخَلَةً لَهُ زَائِدَةٌ فِي كَمِّيَّتِهِ وَلِهَذَا يَجِدُ الْمُنتَشِي مِنَ الْفَرْحِ وَالسُّرُورِ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ وَذَلِكَ بِمَا يَدْخُلُ بَخَارُ الرُّوحِ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْحَرَارَةِ الْعَرِيزِيَّةِ الَّتِي تَبْعَثُهَا سَوْرَةُ الْخَمْرِ فِي الرُّوحِ مِنْ مِرَاجِهِ فَيَتَفَشَّى الرُّوحُ وَتَجِيءُ طَبِيعَةُ الْفَرْحِ وَكَذَلِكَ نَجِدُ الْمُتَنَعِّمِينَ بِالْحَمَامَاتِ إِذَا تَنَفَّسُوا فِي هَوَائِهَا وَاتَّصَلَتْ حَرَارَةُ الْهَوَاءِ فِي أَرْوَاحِهِمْ فَتَسَخَّنَتْ لِذَلِكَ حَدَثَ لَهُمْ فَرْحٌ وَرُبَّمَا انْبَعَثَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ بِالْغِنَاءِ النَّاشِءِ عَنِ السُّرُورِ . وَلَمَّا كَانَ السُّودَانُ سَاكِنِينَ فِي الْإِقْلِيمِ الْحَارِّ وَاسْتَوْلَى الْحَرُّ عَلَى أَمْرَجَتِهِمْ وَفِي أَصْلِ تَكْوِينِهِمْ كَانَ فِي أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْحَرَارَةِ عَلَى نِسْبَةِ أَيْدَانِهِمْ وَإِقْلِيمِهِمْ فَتَكُونُ أَرْوَاحُهُمْ بِالْقِيَاسِ إِلَى أَرْوَاحِ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ أَشَدَّ حَرًّا فَتَكُونُ أَكْثَرَ تَفْشِيًّا فَتَكُونُ أَسْرَعَ فَرْحًا وَسُرُورًا وَأَكْثَرَ انْبِسَاطًا وَيَجِيءُ الطَّيْشُ عَلَى أَثَرِ هَذِهِ وَكَذَلِكَ يَلْحَقُ بِهِمْ قَلِيلًا أَهْلُ الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ لَمَّا كَانَ هَوَاؤها مُتَضَاعِفَ الْحَرَارَةِ بِمَا يَنْعَكِسُ عَلَيْهِ مِنْ أَضْوَاءِ بَسِيطِ الْبَحْرِ وَأَشْعَتِهِ كَانَتْ حِصَّتَهُمْ مِنْ تَوَابِعِ الْحَرَارَةِ فِي الْفَرْحِ وَالْخِفَّةِ مَوْجُودَةً أَكْثَرَ مِنْ بِلَادِ التَّلُولِ وَالْجِبَالِ الْبَارِدَةِ وَقَدْ نَجِدُ يَسِيرًا مِنْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ لِتَوْفُرِ الْحَرَارَةِ فِيهَا وَفِي

هوائها لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتلوي واعتبر ذلك أيضاً بأهل مضر فإنها مثل عرض البلاد الحزيرية أو قريباً منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أوقات سنتهم ولا شهرهم وعامة ما كلهم من أسواقهم . ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلوي الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى إن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يزرأ<sup>(١)</sup> شيئاً من مدخره وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثراً من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم وقد تعرض السنعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن إسحاق الكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

## المقدمة الخامسة

في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك

من الآثار في ابدان البشر وأخلاقهم

إعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لأهل خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لركاء المنايب واعتدال الطينة ووفور العمران وفيها الأرض الحرّة التي لا تثبت زرعاً ولا عشباً بالجملة فسكانها في شطف من العيش مثل

(١) أن ينقص .

أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل المثلثين من صنهاجة الساكنين بصحراء  
المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فإن هؤلاء يفقدون الحبوب  
والأدم جملة وإنما اغذيتهم وأقواتهم الألبان واللحوم ومثل العرب أيضاً الجائلين في  
القفار فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب والأدم من التلول إلا أن ذلك في الأحيان  
وتحت ربقية من حاميته وعلى الإقلال لقلّة وجدهم فلا يتوصلون منه إلى سدّ  
الخلّة<sup>(١)</sup> أو دونها فضلاً عن الرغد والخضب وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم  
على الألبان وتعضّهم من الحنطة أحسن معاض وتجد مع ذلك هؤلاء الفقادين  
للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول  
المنغمسين في العيش فالوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أنم وأحسن وأخلاقهم  
أبعد من الانحراف وأذهانهم أثقّب في المعارف والإدراكات هذا أمر تشهد له  
التجربة في كل جيل منهم فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين  
المثلثين وأهل التلول يعرف ذلك من خبره والسبب في ذلك والله أعلم أن كثرة  
الأغذية وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة  
تنشأ عنها بعد إفطارها في غير نسبة ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الأشكال  
من كثرة اللحم كما قلناه وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى  
الدماغ من أبحررتها الرديئة فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال  
بالجملة واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجذب من الغزال والنعام والمها  
والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والأرياف والمراعي  
الخصبة كيف تجد بينها بونا بعيداً في صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها  
وتناسب أعضائها وحده مداركها فالغزال أخو المعز والزرافة أخو النعير والحمار  
والبقر أخو الحمار والبقر والبون بينها ما رأيت وما ذاك إلا لأجل أن الخضب في  
التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والأخلاط الفاسدة ما ظهر عليها

أثره والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ما شاء واعتبر ذلك في  
الآدميين أيضاً فإننا نجد أهل الأقاليم المخصصة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم  
والفواكه يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم وهذا شأن  
البربر المنغمسين في الأدم والحنطة مع المتقشفين في عيشتهم المقتصرين على  
الشعير أو الذرة مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس فتجد هؤلاء أحسن حالاً  
في عقولهم وجسومهم وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسين في الأدم والبر  
مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن حُمَّلة وغالب عيشتهم الذرة فتجد لأهل  
الأندلس من ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم مالا يوجد لغيرهم وكذا  
أهل الصواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضر والأمصار فإن الأمصار وإن  
كانوا أكثرين مثلهم من الأدم ومخصيين في العيش إلا أن استعمالهم إياها بعد  
العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظتها ويرق قوامها  
وعامة ماكلهم لحوم الضأن والدجاج ولا يغبطون<sup>(١)</sup> السمن من بين الأدم لتفاهته  
فتقل الرطوبات لذلك في أغذيتهم ويخف ما تؤدّيه إلى أجسامهم من الفضلات  
الرديّة فلذلك تجد جسوم أهل الأمصار اللطف من جسوم البادية المخشنين في  
العيش وكذلك تجد المعوذين بالجوع من أهل البادية لا فضلات في جسومهم  
غليظة ولا لطيفة . واعلم أن أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال  
الدين والعبادة فتجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه  
بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن ديناً وأقبالاً على العبادة من أهل الترف  
والخصب بل نجد أهل الدين قليلين في المدن والأمصار لما يعمها من القساوة  
والغفلة المتصلة بالإكثار من اللحمان والأدم ولباب البر ويختص وجود العباد  
والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي وكذلك نجد هؤلاء  
المخصيين في العيش المنغمسين في طبيباته من أهل البادية ومن أهل الحواضر

(١) لا يكثر من استعمال السمن ولا يلتزمونه في أدمهم .

وَالْأَمْصَارُ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ السَّنُونَ <sup>(١)</sup> وَأَخَذَتْهُمْ الْمَجَاعَاتُ يُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْهَلَاكُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ مِثْلَ بَرَابِرَةِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِ مَدِينَةِ فَاسٍ وَمِصْرَ فِيمَا يَبْلُغُنَا لَا مِثْلَ الْعَرَبِ أَهْلِ الْقَفْرِ وَالصَّخْرَاءِ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ بِلَادِ النَّخْلِ الَّذِينَ غَالِبَ عَيْشِهِمُ التَّمْرُ وَلَا مِثْلَ أَهْلِ أَفْرِيْقِيَّةَ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِينَ غَالِبَ عَيْشِهِمُ الشُّعَيْرُ وَالزَّيْتُ وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ غَالِبَ عَيْشِهِمُ الدُّرَّةُ وَالزَّيْتُ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ وَإِنْ أَخَذَتْهُمْ السَّنُونَ وَالْمَجَاعَاتُ فَلَا تَنَالُ مِنْهُمْ مَا تَنَالُ مِنْ أَوْلِيكَ وَلَا يَكْثُرُ فِيهِمُ الْهَلَاكُ بِالْجُوعِ بَلْ وَلَا يَنْذَرُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْمُتَمَعِّسِينَ فِي الْخَضْبِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلْأَدَمِ وَالسَّمْنِ خُصُوصاً تَكْتَسِبُ مِنْ ذَلِكَ أَمْعَاؤُهُمْ رُطُوبَةً فَوْقَ رُطُوبَتِهَا الْأَصْلِيَّةِ الْمِزَاجِيَّةِ حَتَّى تَجَاوِزَ حَدَّهَا فَإِذَا خُولِفَ بِهَا الْعَادَةُ بِقَلَّةِ الْأَقْوَاتِ وَفِقْدَانِ الْأَدَمِ وَاسْتِعْمَالِ الْخَشَنِ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ مِنَ الْغِدَاءِ أُسْرِعَ إِلَى الْمَعَا الْيَبَسِ وَالْإِنْكِمَاشِ وَهُوَ ضَعِيفٌ فِي الْغَايَةِ فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَرَضُ وَيَهْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَةً لِأَنَّهُ مِنَ الْمُقَاتِلِ فَالْهَالِكُونَ فِي الْمَجَاعَاتِ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الشَّبَعُ الْمُعْتَادُ السَّابِقُ لَا الْجُوعُ الْحَادِثُ الْلَاحِقُ . وَأَمَّا الْمُتَعَوِّدُونَ لِقَلَّةِ الْأَدَمِ <sup>(٢)</sup> وَالسَّمْنِ فَلَا تَزَالُ رُطُوبَتُهُمُ الْأَصْلِيَّةُ وَاقِفَةً عِنْدَ حَدِّهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهِيَ قَابِلَةٌ لِجَمِيعِ الْأَغْذِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَلَا يَقَعُ فِي مَعَاهِمُ بِتَبْدُلِ الْأَغْذِيَّةِ يَبَسٌ وَلَا انْحِرَافٌ فَيَسْلَمُونَ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي يَغْرُضُ لِعَيْرِهِمْ بِالْخَضْبِ وَكَثْرَةِ الْأَدَمِ فِي الْمَاكِلِ وَأَضَلُّ هَذَا كُلُّهُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَغْذِيَّةَ وَائْتِلَافَهَا أَوْ تَرَكَّهَا إِنَّمَا هُوَ بِالْعَادَةِ فَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ غِدَاءً وَلَا عَمَّةً تَنَاوَلَهُ كَانَ لَهُ مَأْلُوفاً وَصَارَ الْخُرُوجُ عَنْهُ وَالتَّبْدُلُ بِهِ دَاءً مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ غَرَضِ الْغِدَاءِ بِالْجُمْلَةِ كَالسُّمُومِ وَالْيَتُوعِ <sup>(٣)</sup> وَمَا أَفْرَطَ فِي الْإِنْحِرَافِ فَأَمَّا مَا وَجَدَ فِيهِ التَّغْذِي وَالْمَلَاءَمَةُ فَيَنْصِيرُ غِدَاءً مَأْلُوفاً بِالْعَادَةِ فَإِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِاسْتِعْمَالِ اللَّبَنِ وَالْبَقْلِ عَوْضاً عَنِ الْجِنِطَةِ حَتَّى صَارَ لَهُ دَيْدِناً فَقَدْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ

(١) السنون : ج السنة : الجذب والقحط ( قاموس ) .

(٢) في بعض النسخ : اما المتعودون للعيمة وترك الأدم والعيمة شهوة اللبن ( قاموس ) .

(٣) قال في القاموس يتوع كصور أو تنور نبات له لبن دار مسهل محرق مقطع والمشهور منه سبعة الشيرم

واللاعية والمرطيشا والماهدانه والملازريون والفجلشت والعشر وكل اليتوعات إذا استعملت في غير وجهها اهلكت .



غذاء واستغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شك وكذا من عوكه نفسه الصبر على  
الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضيات فإننا نسمع عنهم في  
ذلك أخباراً غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فإن النفس  
إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون فإذا حصل لها اعتياد  
الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها وما يتوهمه الأطباء  
من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعة وقطع  
عنها الغذاء بالكلية فإنه حينئذ ينحسم المعاء ويناله المرض الذي يخشى معة  
الهلاك وأما إذا كان ذلك القدر تدرجاً ورياضة بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً كما  
يفعله المتصوفة فهو بمنزلة عن الهلاك وهذا التدرج ضروري حتى في الرجوع  
عن هذه الرياضة فإنه إذا رجع به إلى الغذاء الأول دفعة خيف عليه الهلاك وإنما  
يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين  
يوماً وصلاً وأكثر. وحضر أسياننا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه  
امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ  
سنتين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن  
ماتتا ورأينا كثيراً من أصحابنا أيضاً من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتئم  
ثديها في بعض النهار أو عند الإفطار ويكون ذلك غذاءه واستدام على ذلك خمس  
عشرة سنة وغيرهم كثير ولا يستنكر ذلك. واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار  
الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الإقلال منها وإن له أثراً في الأجسام  
والعقول في صفاتها وصلاحتها كما قلناه واعتبر ذلك بآثار الأغذية التي تحصل  
عنها في الجسوم فقد رأينا المتغذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان  
تنشأ أجيالهم كذلك وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة وكذا المتغذون  
بالبنان الإبل ولحومها أيضاً مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة  
على حمل الأثقال الموجود ذلك للإبل وتنشأ أمعاؤهم أيضاً على نسبة أمعاء الإبل

فِي الصَّحَّةِ وَالْعِلَظِ فَلَا يَطْرُقُهَا الْوَهْنُ وَلَا يَنَالُهَا مِنْ مَدَارِ الْأَغْذِيَةِ مَا يَنَالُ غَيْرَهُمْ  
 فَيَشْرَبُونَ الْيَتُوعَاتِ لِاسْتِطْلَاقِ بَطُونِهِمْ غَيْرَ مَخْجُوبَةٍ كَالْحَنْظَلِ قَبْلَ طَبِخِهِ  
 وَالذَّرِّيَّاسِ وَالقَّرْبِيِّونَ وَلَا يَنَالُ أَمْعَاءَهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ وَهِيَ لَوْ تَنَاوَلَهَا أَهْلُ الْحَضَرِ  
 الرِّقِيقَةُ أَمْعَاءُهُمْ بِمَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ الْأَغْذِيَةِ لَكَانَ الْهَلَاكُ أَسْرَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ  
 طَرَفَةِ الْعَيْنِ لِمَا فِيهَا مِنَ السَّمِيَةِ وَمِنْ تَأْثِيرِ الْأَغْذِيَةِ فِي الْأَبْدَانِ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ  
 الْفِلَاحَةِ وَشَاهَدَهُ أَهْلُ التَّجْرِبَةِ أَنَّ الدَّجَاجَ إِذَا غُذِيَ بِالْحُبُوبِ الْمَطْبُوحَةِ فِي بَعْرِ  
 الْإِبِلِ وَاتَّخَذَ بَيْضَهَا ثُمَّ حَصَّنَتْ عَلَيْهِ جَاءَ الدَّجَاجُ مِنْهَا أَعْظَمَ مَا يَكُونُ وَقَدْ  
 يَسْتَفْتُونَ عَنْ تَغْذِيَتِهَا وَطَبِخِ الْحُبُوبِ بِطَرَحِ ذَلِكَ الْبَعْرِ مَعَ الْبَيْضِ الْمَحْضَنِ  
 فَيَجِيءُ دَجَاجُهَا فِي غَايَةِ الْعِظَمِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فَإِذَا رَأَيْنَا هَذِهِ الْآثَارَ مِنْ  
 الْأَغْذِيَةِ فِي الْأَبْدَانِ فَلَا شَكَّ أَنَّ لِلْجُوعِ أَيْضاً آثَاراً فِي الْأَبْدَانِ لِأَنَّ الضُّدَّيْنِ عَلَى نِسْبَةٍ  
 وَاحِدَةٍ فِي التَّأْثِيرِ وَعَدَمِهِ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ الْجُوعِ فِي تَقَاءِ الْأَبْدَانِ مِنَ الزِّيَادَاتِ الْفَاسِدَةِ  
 وَالرُّطُوبَاتِ الْمُخْتَلِطَةِ الْمُخَلَّةِ بِالْجِسْمِ وَالْعَقْلِ كَمَا كَانَ الْغِذَاءُ مُؤَثِّراً فِي وَجُودِ ذَلِكَ  
 الْجِسْمِ وَاللَّهِ مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ .



## المقدمة السادسة

في اصناف المدركين من البشر بالفطرة أو الرياضة

ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا

إِغْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اضْطَفَى مِنَ الْبَشَرِ أَشْخَاصًا فَضَلَّهْمُ بِخَطَايِهِ وَقَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَجَعَلَهُمْ وَسَائِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادِهِ يُعْرِفُونَهُمْ بِمَصَالِحِهِمْ وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَيَأْخُذُونَ بِحُجْزَاتِهِمْ عَنِ النَّارِ وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ وَكَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَعَارِفِ وَيُظْهِرُهُ عَلَى السَّنَنِ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْأَخْبَارِ الْكَائِنَاتِ الْمُغَيَّبَةِ عَنِ الْبَشَرِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنَ اللَّهِ بِوَسَاطَتِهِمْ وَلَا يَعْلَمُونَهَا إِلَّا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ قَالَ ﷺ «أَلَا وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ وَأَعْلَمُ أَنْ خَبَرَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ خَاصِيَّتِهِ وَضُرُورَتِهِ الصِّدْقُ لِمَا يَتَبَيَّنُ لَكَ عِنْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ وَعَلَامَةُ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ تُوْجَدَ لَهُمْ فِي حَالِ الْوَحْيِ غَيْبَةٌ عَنِ الْحَاضِرِينَ مَعَهُمْ مَعَ غَطِيظٍ كَأَنَّهَا غَشِيَتْ أَوْ إغْمَاءٌ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ وَلَيْسَتْ مِنْهُمَا فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ اسْتِغْرَاقٌ فِي لِقَاءِ الْمَلِكِ الرُّوحَانِيِّ بِإِذْرَاكِهِمُ الْمُنَاسِبَ لَهُمُ الْخَارِجَ عَنِ مَدَارِكِ الْبَشَرِ بِالْكُلِّيَّةِ ثُمَّ يَنْتَزِلُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ إِذَا سَمِعَ ذَوْبِي مِنَ الْكَلَامِ فَيَتَفَهَّمُهُ أَوْ يَتَمَثَّلُ لَهُ صُورَةً شَخْصٍ يُخَاطِبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ تَنْجَلِي عِنْدَهُ تِلْكَ الْحَالِ وَقَدْ وَعَى مَا الْقِيَّ إِلَيْهِ قَالَ ﷺ «وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الْوَحْيِ «أَخْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيَفْضَمُ<sup>(١)</sup> عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَخْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعْنِي مَا يَقُولُ» وَيُذَرِّكُهُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ مِنْ

(١) يفضم عني : يفارقني

السِّدَّةِ وَالْفَطْمَاءِ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ فِي الْحَدِيثِ كَانَ مِمَّا يُعَالَجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً<sup>(١)</sup> وَقَالَتْ عَائِشَةُ كَانَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَنْصَمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا وَقَالَ تَعَالَى «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» وَلَا جُلَّ هَذِهِ الْغَايَةِ فِي تَنْزِيلِ الْوَحْيِ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَزْمُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِالْجُنُونِ وَيَقُولُونَ لَهُ رَبِّي أَوْ تَابِعَ مِنَ الْجِنِّ وَإِنَّمَا لُبَسَ عَلَيْهِمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ ظَاهِرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمِنْ عِلَامَاتِهِمْ أَيْضًا أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُمْ قَبْلَ الْوَحْيِ خُلُقُ الْخَيْرِ وَالرِّكَاءِ وَمُجَانِبَةُ الْمَذْمُومَاتِ وَالرَّجْسِ أَجْمَعٍ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعِصْمَةِ وَكَأَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى التَّنَزُّهِ عَنِ الْمَذْمُومَاتِ وَالْمُنَافَرَةِ لَهَا وَكَأَنَّمَا مُنَافِيَةٌ لِجَبَلْتِهِ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ حَمَلَ الْحِجَارَةَ وَهُوَ غَلَامٌ مَعَ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ فَجَعَلَهَا فِي إِزَارِهِ فَانْكَشَفَ فَسَقَطَ مَغْشِيٌّ عَلَيْهِ حَتَّى اسْتَرَّ بِإِزَارِهِ وَدَعِيَ إِلَى مُجْتَمَعٍ وَلِيَمَّةٍ فِيهَا عُرْسٌ وَلِعَبٌّ فَأَصَابَهُ غَشْيٌ النَّوْمِ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَمْ يُخْضِرْ شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِمْ بَلْ نَزَّهَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ حَتَّى إِنَّهُ بِجَبَلْتِهِ يَتَنَزَّهُ عَنِ الْمَطْعُومَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ فَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَقْرُبُ الْبَصَلَ وَالشُّومَ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ إِنِّي أَنَا حِي مِنْ لَا تُنَاجُونَ وَأَنْظُرْ لِمَا أُخْبِرُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِحَالِ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَا فَجَأَتْهُ وَأَرَادَتْ اخْتِبَارَهُ فَقَالَتْ اجْعَلْنِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ ثَوْبِكَ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ فَقَالَتْ إِنَّهُ مَلَكٌ وَلَيْسَ بِشَيْطَانٍ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْرُبُ النِّسَاءَ وَكَذَلِكَ سَأَلَتْهُ عَنْ أَحَبِّ الثِّيَابِ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ فِيهَا فَقَالَ الْبَيَاضُ وَالْخَضْرَاءُ فَقَالَتْ إِنَّهُ الْمَلَكُ يَعْنِي أَنَّ الْبَيَاضَ وَالْخَضْرَاءَ مِنَ الْوَانِ الْخَيْرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالسُّوَادَ مِنَ الْوَانِ الشَّرِّ وَالشَّيَاطِينِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَمِنْ عِلَامَاتِهِمْ أَيْضًا دَعَاؤُهُمْ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعِفَافِ وَقَدْ اسْتَدَلَّتْ خَدِيجَةُ عَلَى صِدْقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَخْتِجَا فِي أَمْرِهِ إِلَى دَلِيلٍ خَارِجٍ عَنْ حَالِهِ وَخُلُقِهِ وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ هِرْقُلَ حِينَ جَاءَهُ كِتَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ أَحْضَرَ مَنْ وَجَدَ بَيْلَدَهُ مِنْ قَرْنِشٍ وَفِيهِمْ أَبُو سَفْيَانَ لِيَسْأَلَهُمْ عَنْ حَالِهِ فَكَانَ

(١) الحديث : « كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعالج من التنزيل بشدة » رواه ابن عباس .

فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ بِهِ يَا مُرْكُمُ فَقَالَ أَبُو سَفِيَانَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّلَةِ وَالْعَفَافِ إِلَى  
أَخْرَمَا سَأَلَ فَأَجَابَهُ فَقَالَ إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقًّا فَهُوَ نَبِيٌّ وَسَيَمْلِكُ مَا تَحْتَ قَدَمَيْ  
هَاتَيْنِ وَالْعَفَافُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هِرْقَلُ <sup>(١)</sup> هُوَ الْعِصْمَةُ فَانظُرْ كَيْفَ أَخَذَ مِنَ الْعِصْمَةِ  
وَالدُّعَاءَ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى مُعْجِزَةٍ فَذَلُّ عَلَى أَنَّ  
ذَلِكَ مِنْ عِلْمَاتِ النُّبُوَّةِ وَمِنْ عِلْمَاتِهِمْ أَيْضًا أَنْ يَكُونُوا ذَوِي حَسَبٍ فِي قَوْمِهِمْ وَفِي  
الصَّحِيحِ مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي ثُرُوءِ مَنْ قَوْمِهِ  
اسْتَدْرَكَهُ الْحَاكِمُ عَلَى الصَّحِيحِينَ وَفِي مَسْئَلَةِ هِرْقَلِ لِأَبِي سَفِيَانَ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ  
قَالَ كَيْفَ هُوَ فِيكُمْ فَقَالَ أَبُو سَفِيَانَ هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ فَقَالَ هِرْقَلُ وَالرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي  
أَحْسَابِ قَوْمِهَا وَمَعْنَاهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِصْبَةٌ وَشَوْكَةٌ تَمْنَعُهُ عَنِ أَدَى الْكُفَّارِ حَتَّى يَبْلُغَ  
رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيَتِمَّ مَرَادَ اللَّهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ . وَمِنْ عِلْمَاتِهِمْ أَيْضًا وَقُوعُ  
الْخَوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةٌ بِصِدْقِهِمْ وَهِيَ أَفْعَالٌ يَفْعِزُ الْبَشَرَ عَنْ مِثْلِهَا فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ  
مُعْجِزَةً وَلَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِ الْعِبَادِ وَإِنَّمَا تَقَعُ فِي غَيْرِ مَحَلِّ قُدْرَتِهِمْ وَلِلنَّاسِ فِي  
كَيْفِيَّةِ وَقُوعِهَا وَدَلَالَتِهَا عَلَى تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ خِلَافَ فَالْمُتَكَلِّمُونَ بِنَاءً عَلَى الْقَوْلِ  
بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ قَائِلُونَ بِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ لَا بِفِعْلِ النَّبِيِّ وَإِنْ كَانَتْ أَفْعَالُ  
الْعِبَادِ عِنْدَ الْمُفْتَرِزَةِ صَادِرَةً عَنْهُمْ إِلَّا أَنَّ الْمُعْجِزَةَ لَا تَكُونُ مِنْ جِنْسِ أَفْعَالِهِمْ وَلَيْسَ  
لِلنَّبِيِّ فِيهَا عِنْدَ سَائِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا التَّحْدِي بِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ وَهُوَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا  
النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ وَقُوعِهَا عَلَى صِدْقِهِ فِي مُدْعَاهُ فَإِذَا وَقَعَتْ تَنْزَلَتْ مَنْزِلَةَ الْقَوْلِ  
الصَّرِيحِ مِنَ اللَّهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ وَتَكُونُ دَلَالَتُهَا حِينَئِذٍ عَلَى الصِّدْقِ قَطْعِيَّةً فَالْمُعْجِزَةُ  
الدَّالَّةُ بِمَجْمُوعِ الْخَارِقِ وَالتَّحْدِي وَلِذَلِكَ كَانَ التَّحْدِي جُزْءًا مِنْهَا وَعِبَارَةٌ  
الْمُتَكَلِّمِينَ صِفَةً نَفْسِيًّا وَهُوَ وَاحِدٌ لِأَنَّهُ مَعْنَى الذَّاتِيِّ عِنْدَهُمْ وَالتَّحْدِي هُوَ الْفَارِقُ  
بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكِرَامَةِ وَالسُّخْرِ إِذْ لَا حَاجَةَ فِيهِمَا إِلَى التَّصْدِيقِ فَلَا وَجُودَ لِلتَّحْدِي إِلَّا  
إِنْ وَجَدَ اتِّفَاقًا وَإِنْ وَقَعَ التَّحْدِي فِي الْكِرَامَةِ عِنْدَ مَنْ يُحْيِزُهَا وَكَانَتْ لَهَا دَلَالَةٌ فَإِنَّمَا  
هِيَ عَلَى الْوِلَايَةِ وَهِيَ غَيْرُ النُّبُوَّةِ وَمِنْ هُنَا مَنَعَ الْأَسْتَاذُ أَبُو إِسْحَقَ وَغَيْرُهُ وَقُوعُ

(١) قوله الذي أشار إليه هرقل الظاهر أبو سفيان

الْخَوَارِقِ كَرَامَةً فِرَاراً مِنَ الْإِتْبَاسِ بِالنُّبُوَّةِ عِنْدَ التَّحْدِي بِالْوِلَايَةِ وَقَدْ أَرَيْنَاكَ  
 الْمَغَايِرَةَ بَيْنَهُمَا وَإِنَّهُ يَتَّخِذُ بغير مَا يَتَّخِذُ بِهِ النَّبِيُّ فَلَا لُبْسَ عَلَى أَنْ النَّقْلَ عَنِ  
 الْأَسْتَاذِ فِي ذَلِكَ لَيْسَ صَرِيحاً وَرُبَّمَا حَمَلَ عَلَى إِنْكَارِ لَأَنَّ تَقَعُ خَوَارِقُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ  
 بِنَاءً عَلَى اخْتِصَاصِ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِخَوَارِقِهِ . وَأَمَّا الْمُعْتَرِزَةُ فَالْمَانِعُ مِنْ وَقُوعِ  
 الْكِرَامَةِ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْخَوَارِقَ لَيْسَتْ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَأَعْمَالُهُمْ مُعْتَادَةٌ فَلَا فَرْقَ وَأَمَّا  
 وَقُوعُهَا عَلَى يَدِ الْكِبَادِ تَلْبِيساً فَهُوَ مُحَالٌ أَمَا عِنْدَ الْأَشْعَرِيَّةِ فَلَأَنَّ صِفَةَ نَفْسِ  
 الْمُعْجِزَةِ التَّصْدِيقُ وَالْهُدَايَةُ فَلَوْ وَقَعَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ انْقَلَبَ الدَّلِيلُ شُبْهَةً وَالْهُدَايَةُ  
 ضَلَالَةً وَالتَّصْدِيقُ كِذْباً وَاسْتَحَالَتِ الْحَقَائِقُ وَانْقَلَبَتِ صِفَاتُ النَّفْسِ وَمَا يَلْزَمُ مِنْ  
 فَرْضِ وَقُوعِ الْمُحَالِ لَا يَكُونُ مُمَكِّناً وَأَمَّا عِنْدَ الْمُعْتَرِزَةِ فَلَأَنَّ وَقُوعَ الدَّلِيلِ شُبْهَةً  
 وَالْهُدَايَةَ ضَلَالَةً قَبِيحٌ فَلَا يَقَعُ مِنَ اللَّهِ . وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ فَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ مِنْ فِعْلِ  
 النَّبِيِّ وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ مَجَلِّ الْقُدْرَةِ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي الْإِيجَابِ الذَّاتِيِّ وَوَقُوعِ  
 الْحَوَادِثِ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ مُتَوَقَّفٌ عَلَى الْأَسْبَابِ وَالشُّرُوطِ الْحَادِثَةُ مُسْتَنْدَةً أُخِيرَ  
 إِلَى الْوَاجِبِ الْفَاعِلِ بِالذَّاتِ لَا بِالِاخْتِيَارِ وَإِنَّ النَّفْسَ النَّبَوِيَّةَ عِنْدَهُمْ لَهَا خَوَاصُّ  
 ذَاتِيَّةٌ مِنْهَا صُدُورُ هَذِهِ الْخَوَارِقِ بِقُدْرَتِهِ وَطَاعَةِ الْعُنَاصِرِ لَهُ فِي التَّكْوِينِ وَالنَّبِيُّ  
 عِنْدَهُمْ مَجْبُولٌ عَلَى التَّصْرِيفِ <sup>(١)</sup> فِي الْأَكْوَانِ مِنْهُمَا تَوَجُّهُ إِلَيْهَا وَاسْتِجْمَاعُ لَهَا بِمَا جَعَلَ  
 اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَالْخَارِقُ عِنْدَهُمْ يَقَعُ لِلنَّبِيِّ سِوَاءَ كَانَ لِلتَّحْدِي أَمْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ  
 شَاهِدٌ بِصِدْقِهِ مِنْ حَيْثُ دَلَالَتُهُ عَلَى تَصْرِيفِ النَّبِيِّ فِي الْأَكْوَانِ الَّذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِّ  
 النَّفْسِ النَّبَوِيَّةِ لَا بِأَنَّهُ يَنْتَزِلُ مَنْزِلَةَ الْقَوْلِ الصَّرِيحِ بِالتَّصْدِيقِ فَلِذَلِكَ لَا تَكُونُ  
 دَلَالَتُهَا عِنْدَهُمْ قَطْعِيَّةً كَمَا هِيَ عِنْدَ الْمُشْكَلِمِينَ وَلَا يَكُونُ التَّحْدِي جِزْأً مِنَ الْمُعْجِزَةِ  
 وَلَمْ يَصْخُ فَارِقاً لَهَا عَنِ السُّخْرِ وَالْكَرَامَةِ وَفَارِقَهَا عِنْدَهُمْ عَنِ السُّخْرِ أَنَّ النَّبِيَّ مَجْبُولٌ  
 عَلَى أَعْمَالِ الْخَيْرِ مَضْرُوفٌ عَنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ فَلَا يَلِمُ الشَّرُّ بِخَوَارِقِهِ وَالسَّاحِرُ عَلَى الضَّدِّ  
 فَاثْمَالُهُ كُلُّهَا شَرٌّ وَفِي مَقَاصِدِ الشَّرِّ وَفَارِقَهَا عَنِ الْكَرَامَةِ أَنَّ خَوَارِقَ النَّبِيِّ مَخْصُوصَةٌ

(١) صرِّفه في الأمر، فوض الأمر إليه (قاموس)

كَالصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ وَالنُّفُودِ فِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَتَكْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ  
 وَالطَّيْرَانِ فِي الْهَوَاءِ وَخَوَارِقِ الْوَلِيِّ دُونَ ذَلِكَ كَتَكْثِيرِ الْقَلِيلِ وَالْحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ  
 الْمُسْتَقْبَلِ وَأَمْثَالِهِ مِمَّا هُوَ قَاصِرٌ عَنْ تَضْرِيْفِ الْأَنْبِيَاءِ وَيَأْتِي النَّبِيُّ بِجَمِيعِ خَوَارِقِهِ  
 وَلَا يَقْدِرُ هُوَ عَلَى مِثْلِ خَوَارِقِ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ الْمُتَّصِفَةُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي  
 طَرِيقَتِهِمْ وَلَقْنُوهُ عَمَّنْ أَخْبَرَهُمْ وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُعْجَزَاتِ وَأَشْرَفَهَا  
 وَأَوْضَحَهَا دَلَالَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْمُنَزَّلِ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّ الْخَوَارِقَ فِي  
 الْغَالِبِ تَقَعُ مُغَايِرَةٌ لِلْوَحْيِ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ النَّبِيُّ وَيَأْتِي بِالْمُعْجَزَةِ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِ  
 وَالْقُرْآنُ هُوَ بِنَفْسِهِ الْوَحْيِيُّ الْمُدْعَى وَهُوَ الْخَارِقُ الْمُعْجَزُ فَشَاهِدَةٌ فِي عَيْنِهِ وَلَا يَفْتَقِرُ  
 إِلَى دَلِيلٍ مُغَايِرٍ لَهُ كَسَائِرِ الْمُعْجَزَاتِ مَعَ الْوَحْيِ فَهُوَ أَوْضَحُ دَلَالَةً لِاتِّحَادِ الدَّلِيلِ  
 وَالْمَذْلُولِ فِيهِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ « مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَاتَى مِنَ الْآيَاتِ  
 مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَى إِلَيَّ فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ  
 أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُعْجَزَةَ مَتَى كَانَتْ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فِي  
 الْوُضُوحِ وَقُوَّةِ الدَّلَالَةِ وَهُوَ كَوْنُهَا نَفْسَ الْوَحْيِ كَانَ الصِّدْقُ لَهَا أَكْثَرَ لَوْضُوحًا فَكَثُرَ  
 الْمُصَدِّقُ الْمُؤْمِنُ وَهُوَ التَّابِعُ وَالْأُمَّةُ .



ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من  
المحققين

ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شان العرافين  
وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول

إِغْلَمَ . أَرْشَدَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ أَنَا نَشَاهِدُ هَذَا الْعَالَمَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا  
عَلَى هَيْئَةٍ مِنَ التَّرْتِيبِ وَالْإِحْكَامِ وَرَبِطَ الْأَسْبَابَ بِالْمُسَبَّبَاتِ وَاتَّصَلَ الْأَكْوَانُ  
بِالْأَكْوَانِ وَاسْتَحَالَ بَعْضُ الْمَوْجُودَاتِ إِلَى بَعْضٍ لَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ فِي ذَلِكَ وَلَا  
تَنْتَهِي غَايَاتُهُ وَأَبْدَأَ مِنْ ذَلِكَ بِالْعَالَمِ الْمَحْسُوسِ الْجُمْثَانِيِّ وَأَوَّلًا عَالَمِ الْعُنَاصِرِ  
الْمُشَاهِدَةِ كَيْفَ تَنْزُجُ صَاعِدًا مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْمَاءِ ثُمَّ إِلَى الْهَوَاءِ ثُمَّ إِلَى النَّارِ مُتَّصِلًا  
بَعْضَهَا بِبَعْضٍ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُسْتَعِدٌّ إِلَى أَنْ يَسْتَحِيلَ إِلَى مَا يَلِيهِ صَاعِدًا وَهَاطِبًا  
وَيَسْتَحِيلُ بَعْضُ الْأَوْقَاتِ وَالصَّاعِدُ مِنْهَا الْأَطْفُ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى عَالَمِ  
الْأَفْلَاقِ وَهُوَ الْأَطْفُ مِنَ الْكُلِّ عَلَى طَبَقَاتٍ اتَّصَلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى هَيْئَةٍ لَا يُدْرِكُ  
الْحِسُّ مِنْهَا إِلَّا الْحَرَكَاتِ فَقَطُ وَبِهَا يَهْتَدِي بَعْضُهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَقَادِيرِهَا وَأَوْضَاعِهَا  
وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وُجُودِ الذَّوَاتِ الَّتِي لَهَا هَذِهِ الْأَثَارُ فِيهَا ثُمَّ انْظُرْ إِلَى عَالَمِ التَّكْوِينِ  
كَيْفَ ابْتَدَأَ مِنَ الْمَعَادِنِ ثُمَّ النَّبَاتِ ثُمَّ الْحَيَوَانَ عَلَى هَيْئَةٍ بَدِيعَةٍ مِنَ التَّدْرِيجِ آخِرُ  
أَفْقِ الْمَعَادِنِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلَ الْحَشَائِشِ وَمَا لَا بَدْرَ لَهُ وَآخِرُ أَفْقِ  
النَّبَاتِ مِثْلَ النَّخْلِ وَالْكَرْمِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ الْحَيَوَانَ مِثْلَ الْحَلَزُونِ وَالصَّدْفِ وَلَمْ  
يُوجَدْ لِهَئِمَا إِلَّا قُوَّةُ اللَّمْسِ فَقَطُ وَمَعْنَى الْإِتِّصَالِ فِي هَذِهِ الْمَكُونَاتِ أَنْ آخِرُ أَفْقِ مِنْهَا



مُسْتَعِدُّ بِالِاسْتِعْدَادِ الْغَرِيبِ <sup>(١)</sup> لِأَن يَصِيرَ أَوَّلَ أَفْقِ الَّذِي بَعْدَهُ وَاتَّسَعَ عَالَمُ الْحَيَوَانِ وَتَعَدَّدَتْ أَنْوَاعُهُ وَانْتَهَى فِي تَدْرِيجِ التَّكْوِينِ إِلَى الْإِنْسَانِ صَاحِبِ الْفِكْرِ وَالرُّوِيَّةِ تَرْتَفِعُ إِلَيْهِ مِنْ عَالَمِ الْقُدْرَةِ <sup>(٢)</sup> الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ الْحِسُّ وَالْإِدْرَاكُ وَلَمْ يَنْتَهَ إِلَى الرُّوِيَّةِ وَالْفِكْرِ بِالْفِعْلِ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ أَفْقٍ مِنَ الْإِنْسَانِ بَعْدَهُ وَهَذَا غَايَةُ شُهُودِنَا ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي الْعَوَالِمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا أَثَارًا مَتْنَوَعَةً فِيهِ عَالَمُ الْحِسِّ أَثَارٌ مِنْ حَرَكَاتِ الْأَفْلَاكِ وَالْعَنَاصِرِ وَفِي عَالَمِ التَّكْوِينِ أَثَارٌ مِنْ حَرَكَةِ النُّمُوِّ وَالْإِدْرَاكِ تَشْهَدُ كُلُّهَا بِأَنَّ لَهَا مُؤَثَّرًا مَبَايِنًا لِلْأَجْسَامِ فَهُوَ رُوحَانِيٌّ وَيَتَّصِلُ بِالْمَكُونَاتِ لَوْجُودِ اتِّصَالِ هَذَا الْعَالَمِ فِي وُجُودِهَا وَلِذَلِكَ هُوَ النَّفْسُ الْمُدْرِكَةُ وَالْمَحْرَكَةُ وَلَا بُدَّ فَوْقَهَا مِنْ وُجُودِ آخَرَ يُعْطِيهَا قُوَى الْإِدْرَاكِ وَالْحَرَكَةِ وَيَتَّصِلُ بِهَا أَيْضًا وَيَكُونُ ذَاتَهُ إِدْرَاكًا صِرْفًا وَتَعْقُلًا مَخْصُصًا وَهُوَ عَالَمُ الْمَلَائِكَةِ فَوَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ اسْتِعْدَادٌ لِلِانْسِلَاخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ لِيَصِيرَ بِالْفِعْلِ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ وَقْتًا مِنَ الْأَوْقَاتِ فِي لَمَحَّةٍ مِنَ اللَّمَحَاتِ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَكْمَلَ ذَاتُهَا الرُّوحَانِيَّةُ بِالْفِعْلِ كَمَا نَذَكُرُهُ بَعْدَ وَيَكُونُ لَهَا اتِّصَالٌ بِالْأَفْقِ الَّذِي بَعْدَهَا شَأْنِ الْمَوْجُودَاتِ الْمُرْتَبَةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَهَا فِي الْإِتِّصَالِ جِهَتَا الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ وَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِالْبَدَنِ مِنْ أَسْفَلِ مِنْهَا وَتَكْتَسِبُ بِهِ الْمَدَارِكَ الْحِسِّيَّةَ الَّتِي تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْحُصُولِ عَلَى التَّعْقُلِ بِالْفِعْلِ وَمُتَّصِلَةٌ مِنْ جِهَةِ الْأَعْلَى مِنْهَا بِأَفْقِ الْمَلَائِكَةِ وَمُكْتَسِبَةٌ بِهِ الْمَدَارِكَ الْعِلْمِيَّةَ وَالغَيْبِيَّةَ فَإِنَّ عَالَمَ الْحَوَادِثِ مَوْجُودٌ فِي تَعَقُّلَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ زَمَانٍ وَهَذَا عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ التَّرْتِيبِ الْمُحَكَّمِ فِي الْوُجُودِ بِاتِّصَالِ ذَوَاتِهِ وَقَوَاهُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ غَائِبَةً عَنِ الْعِيَانِ وَأَثَارُهَا ظَاهِرَةٌ فِي الْبَدَنِ فَكَأَنَّهُ وَجَمِيعِ أَجْزَائِهِ مُجْتَمِعَةٌ وَمُتَّفِرِّقَةٌ آلَاتٌ لِلنَّفْسِ وَلِقَوَاهَا أَمَا الْفَاعِلِيَّةُ فَالْبَطْشُ بِالْيَدِ وَالْمَشْيُ بِالرَّجْلِ وَالْكَلَامُ بِاللِّسَانِ وَالْحَرَكَةُ الْكُلِّيَّةُ بِالْبَدَنِ مُتَدَاعِفًا وَأَمَا الْمُدْرِكَةُ وَإِنْ كَانَتْ قُوَى الْإِدْرَاكِ مُرْتَبَةً

(١) وفي بعض النسخ ، القريب وليس لهما أي معنى هنا . والمرجح أنها محرفة عن كلمة غريزي .

(٢) كذا في جميع النسخ ما عدا نسخة لجنة البيان العربي ، القردة وهي منسجمة مع سياق معنى العبارة

وَمُرْتَقِيَةً إِلَى الْقُوَّةِ الْعُلْيَا مِنْهَا وَمِنَ الْمُفَكَّرَةِ الَّتِي يُعْبَرُ عَنْهَا بِالنَّاطِقِيَّةِ فَقَوَى الْحِسَّ  
الظَّاهِرَةَ بِآلَاتِهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَسَائِرِهَا يَرْتَقِي إِلَى الْبَاطِنِ وَأَوَّلُهُ الْحِسُّ  
الْمُشْتَرِكُ وَهُوَ قُوَّةٌ تَدْرِكُ الْمَحْسُوسَاتِ مُبْصِرَةً وَمَسْمُوعَةً وَمَلْمُوسَةً وَغَيْرَهَا فِي حَالَةٍ  
وَاحِدَةٍ وَبِذَلِكَ فَارَقَتْ قُوَّةَ الْحِسِّ الظَّاهِرِ لِأَنَّ الْمَحْسُوسَاتِ لَا تَزْدَحِمُ عَلَيْهَا فِي  
الْوَقْتِ الْوَاحِدِ ثُمَّ يُؤَدِّيهِ الْحِسُّ الْمُشْتَرِكُ إِلَى الْخِيَالِ وَهِيَ قُوَّةٌ تَمَثَّلُ الشَّيْءَ  
الْمَحْسُوسَ فِي النَّفْسِ كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ فَقَطُّ وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ فِي  
تَضْرِيْفِهِمَا الْبَطْنُ الْأَوَّلُ مِنَ الدَّمَاعِ مُقَدَّمَةٌ لِلأُولَى وَمُؤَخَّرَةٌ لِلثَّانِيَةِ ثُمَّ يَرْتَقِي الْخِيَالُ  
إِلَى الْوَاهِمَةِ وَالْحَافِظَةِ فَالْوَاهِمَةُ لِإِدْرَاكِ الْمَعَانِي الْمَتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِيَّاتِ كَعِدَاوَةِ زَيْدٍ  
وَصَدَاقَةِ عَمْرٍو وَرَحْمَةِ الْأَبِ وَافْتِرَاسِ الذَّنْبِ وَالْحَافِظَةُ لِإِنْدَاعِ الْمُدْرَكَاتِ كُلِّهَا  
مُتَخَيِّلَةٌ وَهِيَ لَهَا كَالْخِزَانَةِ تَحْفَظُهَا لَوْقَتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ فِي  
تَضْرِيْفِهِمَا الْبَطْنُ الْمُؤَخَّرُ مِنَ الدَّمَاعِ أَوَّلُهُ لِلأُولَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلأُخْرَى ثُمَّ تَرْتَقِي  
جَمِيعُهَا إِلَى قُوَّةِ الْفِكْرِ وَآلَتُهُ الْبَطْنُ الْأَوْسَطُ مِنَ الدَّمَاعِ وَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَقَعُ بِهَا  
حَرَكََةُ الرُّؤْيَا وَالتَّوَجُّهُ نَحْوَ التَّعْقُلِ فَتُحَرِّكُ النَّفْسَ بِهَا دَائِمًا لِمَا رُكِبَ فِيهَا مِنْ  
النُّزُوعِ لِلتَّخْلِصِ مِنْ دَرَكِ الْقُوَّةِ وَالِاسْتِعْدَادِ الَّذِي لِلبَشَرِيَّةِ وَتَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ فِي  
تَعْقُلِهَا مُشَبَّهَةٌ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى الرُّوحَانِيِّ وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ الرُّوحَانِيَّاتِ فِي  
إِدْرَاكِهَا بِغَيْرِ الْآلَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ فَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ دَائِمًا وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ وَقَدْ تَنْسَلِخُ  
بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَكِيَّةِ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ بَلْ  
بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْجَبَلَةِ وَالْفِطْرَةِ الْأُولَى فِي ذَلِكَ .

### أصناف النفوس البشرية

إِنَّ النُّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ : صِنْفٌ عَاجِزٌ بِالطَّبِيعِ عَنِ الْوُصُولِ  
فَيَنْقَطِعُ بِالْحَرَكَةِ إِلَى الْجِهَةِ السُّفْلَى نَحْوَ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ وَتَرْكِيبُ  
الْمَعَانِي مِنَ الْحَافِظَةِ وَالْوَاهِمَةِ عَلَى قَوَانِينٍ مَحْصُورَةٍ وَتَرْتِيبِ خَاصٍّ يَسْتَفِيدُونَ بِهِ  
الْعُلُومَ التَّصَوُّرِيَّةَ وَالتَّضَدِّيْقِيَّةَ الَّتِي لِلْفِكْرِ فِي الْبَدَنِ وَكُلِّهَا خَيَالِيٌّ مُنْحَصِرٌ نِطَاقُهُ إِذْ

هُوَ مِنْ جِهَةٍ مُبْدَاهُ يَنْتَهِي إِلَى الْأَوْلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا وَإِنْ فَسَدَ فَسَدَ مَا بَعْدَهَا وَهَذَا هُوَ فِي الْأَغْلَبِ نِطَاقُ الْإِدْرَاكِ الْبَشْرِيِّ الْجِسْمَانِيِّ وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ وَفِيهِ تَرَسُّخُ أَقْدَامِهِمْ . وَصَنَّفَ مُتَوَجِّهٌ بِتِلْكَ الْحَرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ نَحْوَ الْعَقْلِ الرُّوحَانِيِّ وَالْإِدْرَاكِ الَّذِي لَا يَفْتَقِرُ إِلَى الْأَلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ بِمَا جَعَلَ فِيهِ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ ، فَيَتَسَّعُ نِطَاقُ إِدْرَاكِهِ عَنِ الْأَوْلِيَّاتِ الَّتِي هِيَ نِطَاقُ الْإِدْرَاكِ الْأَوَّلِ الْبَشْرِيِّ وَيَسْرُحُ فِي فُضَاءِ الْمَشَاهِدَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ وَهِيَ وَجْدَانٌ كُلُّهَا نِطَاقٌ مِنْ مُبْدَاهَا وَلَا مِنْ مُنْتَهَاهَا وَهَذِهِ مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ الْأَوْلِيَاءِ أَهْلِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الرَّبَّانِيَّةِ وَهِيَ الْحَاصِلَةُ بَعْدَ الْمَوْتِ لِأَهْلِ السَّعَادَةِ فِي الْبَرَزَخِ .

### الوحي

وَصَنَّفَ مَفْطُورٌ عَلَى الْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشْرِيَّةِ جُمْلَةً جِسْمَانِيَّتِهَا وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى لِيَصِيرَ فِي لَمْحَةٍ مِنَ اللَّمَحَاتِ مَلَكًا بِالْفِعْلِ وَيَخْضُلُ لَهُ شُهُودُ الْمَلَائِكَةِ فِي أَفْقِهِمْ وَسَمَاعُ الْكَلَامِ النَّفْسَانِيِّ وَالْخِطَابِ الْإِلَهِيِّ فِي تِلْكَ اللَّمْحَةِ وَهَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْإِنْسِلَاحَ مِنَ الْبَشْرِيَّةِ فِي تِلْكَ اللَّمْحَةِ وَهِيَ حَالَةُ الْوَحْيِ فَطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا وَجَبَلَهُ صُورَهُمْ فِيهَا وَنَزَّهَهُمْ عَنْ مَوَانِعِ الْبَدَنِ وَعَوَائِقِهِ مَا دَامُوا مَلَاسِيِنَ لَهَا بِالْبَشْرِيَّةِ بِمَا رَكَّبَ فِي غَرَائِزِهِمْ مِنَ الْقَصْدِ وَالِاسْتِقَامَةِ الَّتِي يُحَادِّثُونَ بِهَا تِلْكَ الْوَجْهَةَ وَرَكَّزَ فِي طِبَائِعِهِمْ رَغْبَةً فِي الْعِبَادَةِ تَكْشِفُ بِتِلْكَ الْوَجْهَةِ وَتَسْبِيغُ نَحْوَهَا فَهُمْ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ بِذَلِكَ النَّوْعِ مِنَ الْإِنْسِلَاحِ مَتَى شَاءُوا بِتِلْكَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرُوا عَلَيْهَا لَا بِاِكْتِسَابِ وَلَا صِنَاعَةٍ فَلِذَا تَوَجَّهُوا وَانْسَلَخُوا عَنْ بَشْرِيَّتِهِمْ وَتَلَقَّوْا فِي ذَلِكَ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى مَا يَتَلَقَّوْنَهُ . وَعَاجَوْا بِهِ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشْرِيَّةِ مُنْزَلًا فِي قُوَاهَا لِحِكْمَةِ التَّبْلِيغِ لِلْعِبَادِ فَتَارَةً يَسْمَعُ أَحَدُهُمْ دَوِيًّا كَأَنَّهُ رَمَزٌ مِنَ الْكَلَامِ يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَعْنَى الَّذِي أَلْقَى إِلَيْهِ فَلَا يَنْقُضِي الدَّوِيَّ إِلَّا وَقَدْ وَعَاهُ وَفَهَمَهُ وَتَارَةً يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ الَّذِي يُلْقِي إِلَيْهِ رَجُلًا فَيُكَلِّمُهُ وَيَعِي مَا يَقُولُهُ وَالتَّلْقِي مِنَ الْمَلِكِ وَالرُّجُوعُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشْرِيَّةِ وَفَهْمُهُ

مَا أَلْقَى عَلَيْهِ كُلُّهُ كَأَنَّهُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ أَقْرَبَ مِنْ لَمَحِ الْبَصْرِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي زَمَانٍ  
 بَلْ كُلُّهَا تَفَعُّ جَمِيعاً فَيُظْهِرُ كَأَنَّهَا سَرِيعَةٌ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ وَخِيّاً لِأَنَّ الْوَحْيَ فِي اللُّغَةِ  
 الْإِسْرَاعُ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُولَى وَهِيَ حَالَةُ الدَّوِيِّ هِيَ رُتْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى  
 مَا حَقَّقُوهُ وَالثَّانِيَةُ وَهِيَ حَالَةُ تُمَثُّلِ الْمَلِكِ رَجُلًا يُخَاطَبُ هِيَ رُتْبَةُ الْأَنْبِيَاءِ  
 الْمُرْسَلِينَ وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَكْمَلَ مِنَ الْأُولَى وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ الَّذِي فَسَّرَ فِيهِ  
 النَّبِيُّ ﷺ الْوَحْيَ لَمَّا سَأَلَهُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ وَقَالَ : كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ ؟  
 فَقَالَ : « أحياناً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيُقْصِمُ عَنِّي وَقَدْ  
 وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأحياناً يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ فَيَكَلِّمُنِي فَأَعْبِي مَا يَقُولُ » وَإِنَّمَا كَانَتْ  
 الْأُولَى أَشَدُّ لِأَنَّهَا مَبْدَأُ الْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ فَيُعْسِرُ بَعْضُ  
 الْعُسْرِ وَلِذَلِكَ لَمَّا عَاجَ فِيهَا عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ اخْتَصَّتْ بِالسَّمْعِ وَصَعِبَ مَا سِوَاهُ  
 وَعِنْدَمَا يَتَكَرَّرُ الْوَحْيُ وَيَكْثُرُ التَّلْقِي يَسْهَلُ ذَلِكَ الْإِتِّصَالُ فَعِنْدَمَا يُعْرَجُ إِلَى  
 الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ يَأْتِي عَلَى جَمِيعِهَا وَخُصُوصاً الْأَوْضَحَ مِنْهَا وَهُوَ إِذْرَاكُ الْبَصْرِ وَفِي  
 الْعِبَارَةِ عَنِ الْوَعْيِ فِي الْأُولَى بِصَيْغَةِ الْمَاضِي وَفِي الثَّانِيَةِ بِصَيْغَةِ الْمَضَارِعِ لَطِيفَةٌ مِنَ  
 الْبَلَاغَةِ وَهِيَ أَنَّ الْكَلَامَ جَاءَ مَجِيءَ التَّمَثِيلِ لِحَالَتِي الْوَحْيِ فَمَثَلُ الْحَالَةِ الْأُولَى  
 بِالْدَّوِيِّ الَّذِي هُوَ فِي الْمَتَعَارِفِ غَيْرُ كَلَامٍ وَأَخْبَرَ أَنَّ الْفَهْمَ وَالْوَعْيَ يَتَّبَعُهُ غَبٌّ  
 انْقِضَائِهِ فَنَاسَبَ عِنْدَ تَصْوِيرِ انْقِضَائِهِ وَانْفِصَالِهِ الْعِبَارَةَ عَنِ الْوَعْيِ بِالْمَاضِي  
 الْمَطَابِقِ لِلانْقِضَاءِ وَالانْقِطَاعِ وَمَثَلُ الْمَلِكِ فِي الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ بِرَجُلٍ يُخَاطَبُ  
 وَيَتَكَلَّمُ وَالْكَلَامَ يُسَاقِطُهُ الْوَعْيُ فَنَاسَبَ الْعِبَارَةَ بِالْمَضَارِعِ الْمُقْتَضِي لِلتَّجَدُّدِ . وَاعْلَمْ  
 أَنَّ فِي حَالَةِ الْوَحْيِ كُلِّهَا صُعُوبَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ وَشِدَّةٌ قَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ قَالَ تَعَالَى :  
 « إِنَّا سَنَلْقِيكَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » وَقَالَتْ عَائِشَةُ : « كَانَ مِمَّا يُعَانِي مِنَ التَّنْزِيلِ  
 شِدَّةٌ » <sup>(١)</sup> وَقَالَتْ : « كَانَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيُقْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ  
 جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرْقاً » . وَلِذَلِكَ كَانَ يَخْذُتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مِنَ الْغَيْبَةِ وَالْغَطِيطِ

(١) رواه ابن عباس وليست عائشة .

مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ الْوَحْيَ كَمَا قَرَّرْنَا مَفَارِقَةَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَدَارِكِ الْمَلَكِيَّةِ وَتَلَقَّى كَلَامَ النَّفْسِ فَيُحَدِّثُ عَنْهُ شِدَّةٌ مِنْ مَفَارِقَةِ الذَّاتِ ذَاتَهَا وَأَنْسِلَاخِهَا عَنْهَا مِنْ أَقْفِهَا إِلَى ذَلِكَ الْأَقْفَى الْآخَرَ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْفَطْمِ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ فِي مَبْدَأِ الْوَحْيِ فِي قَوْلِهِ « فَفَطَمْنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ وَكَذَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً ». كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ يُفْضَى الْإِعْتِيَادُ بِالتَّدرِيجِ فِيهِ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَى بَعْضِ السُّهُولَةِ بِالْقِيَّاسِ إِلَى مَا قَبْلَهُ وَلِذَلِكَ كَانَ تَنْزُولُ نُجُومِ الْقُرْآنِ وَسُورِهِ وَأَيُّهُ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ أَقْصَرَ مِنْهَا وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ وَأَنْظُرْ إِلَى مَا نُقِلَ فِي نُزُولِ سُورَةِ بَرَاءةٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَأَنَّهَا نَزَلَتْ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَسِيرٌ عَلَى نَاقَتِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ بِمَكَّةَ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ بَعْضُ السُّورَةِ مِنْ قِصَارِ الْمَفْصِلِ فِي وَقْتٍ وَيُنَزَّلُ الْبَاقِي فِي حِينَ آخَرَ وَكَذَلِكَ كَانَ آخِرُ مَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ آيَةُ الدِّينِ وَهِيَ مَا هِيَ فِي الطُّوْلِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الْآيَةُ تَنْزُلُ بِمَكَّةَ مِثْلَ آيَاتِ الرَّحْمَنِ وَالذَّارِيَاتِ وَالْمُدَّثِّرِ وَالضُّحَى وَالْفَلَقِ وَأَمْثَالِهَا . وَاعْتَبِرْ مِنْ ذَلِكَ عَلَامَةً تُمَيِّزُ بَيْنَ الْمَكِّيِّ وَالْمَدِينِيِّ مِنَ السُّورِ وَالْآيَاتِ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ إِلَى الصُّوَابِ . هَذَا مُحْصَلُ أَمْرِ النُّبُوَّةِ .

### الكهانة

وَأَمَّا الْكُهَانَةُ فَهِيَ أَيْضاً مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ أَنَّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ اسْتِعْدَاداً لِلْإِنْسِلَاخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي فَوْقَهَا وَأَنَّهُ يَحْضَلُ مِنْ ذَلِكَ لَمِحَةٌ لِلْبَشْرِ فِي صِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا فَطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَحْضَلُ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَلَا مِنَ التَّصَوُّرَاتِ وَلَا مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ كَلَاماً أَوْ حَرَكَةً وَلَا بِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ إِنَّمَا هُوَ أَنْسِلَاخٌ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ بِالْفِطْرَةِ فِي لَحْظَةِ اقْتِرَابٍ مِنْ لَمِحِ الْبَصْرِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَكَانَ ذَلِكَ الْاسْتِعْدَادُ مُوجُوداً فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَيُعْطَى التَّقْسِيمَ الْعَقْلِيَّ وَإِنَّ هُنَا صِنْفاً آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ نَاقِصاً عَنْ رُتْبَةِ الصَّنْفِ الْأَوَّلِ نَقْضَانَ الضَّدِّ عَنْ ضِدِّهِ الْكَامِلِ لِأَنَّ عَدَمَ الْاسْتِعَانَةِ فِي ذَلِكَ الْإِذْرَاكِ ضِدُّ الْاسْتِعَانَةِ فِيهِ وَشَتَانُ مَا بَيْنَهُمَا

فَإِذَا أُعْطِيَ تَقْسِيمَ الْوُجُودِ إِلَى هُنَا صِنْفًا آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ مَفْطُورًا عَلَى أَنْ تَتَحَرَّكَ قُوَّتُهُ  
الْعَقْلِيَّةُ حَرَكَتَهَا الْفِكْرِيَّةَ بِالْإِرَادَةِ عِنْدَمَا يَبْعَثُهَا النُّزُوعُ لِذَلِكَ وَهِيَ نَاقِصَةٌ عَنْهُ  
بِالْجَبَلَةِ عِنْدَمَا يُعَوِّقُهَا الْعَجْزُ عَنْ ذَلِكَ تَشَبُّهُتْ بِأُمُورٍ جُزْئِيَّةٍ مَحْسُوسَةٍ أَوْ مُتَخَيَّلَةٍ  
كَالْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ وَعِظَامِ الْحَيَوَانَاتِ وَسَجْعِ الْكَلَامِ وَمَا سَنَحَ مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ  
فَيَسْتَدِيمُ ذَلِكَ الْإِحْسَاسَ أَوْ التَّخْيِيلَ مُسْتَعِينًا بِهِ فِي ذَلِكَ الْإِنْسِلَاحِ الَّذِي يَقْصِدُهُ  
وَيَكُونُ كَالْمُشَيِّعِ لَهُ وَهَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي فِيهِمْ مَبْدَأُ ذَلِكَ الْإِدْرَاكِ هِيَ الْكُهَانَةُ وَلَكُونِ  
هَذِهِ النُّفُوسُ مَفْطُورَةٌ عَلَى النِّقْصِ وَالْقُصُورِ عَنِ الْكَمَالِ كَانَ إِدْرَاكُهَا فِي الْجُزْئِيَّاتِ  
أَكْثَرَ مِنَ الْكُلِّيَّاتِ وَلِذَلِكَ تَكُونُ الْمُخَيَّلَةُ فِيهِمْ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ لِأَنَّهَا آتَةٌ الْجُزْئِيَّاتِ  
فَتَنْفِذُ فِيهَا نَفُودًا تَامًا فِي نَوْمٍ أَوْ يَقْظَةٍ وَتَكُونُ عِنْدَهَا حَاضِرَةٌ عَتِيدَةٌ تُحَضِّرُهَا الْمُخَيَّلَةُ  
وَتَكُونُ لَهَا كَالْمِرْآةِ تَنْظُرُ فِيهَا دَائِمًا وَلَا يَقْوَى الْكَاهِنُ عَلَى الْكَمَالِ فِي إِدْرَاكِ  
الْمَعْقُولَاتِ لِأَنَّ وَحْيَهُ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَرْفَعُ أَحْوَالِ هَذَا الصَّنْفِ أَنْ يَسْتَعِينُ  
بِالْكَلَامِ الَّذِي فِيهِ السَّجْعُ وَالْمُوازَنَةُ لِيَسْتَفْلَ بِهِ عَنِ الْحَوَاسِ وَيَقْوَى بَعْضُ الشَّيْءِ  
عَلَى ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ النَّاقِصِ فَيَهْجِسُ فِي قَلْبِهِ عَنْ تِلْكَ الْحَرَكَةِ وَالَّذِي يُشَيِّعُهَا مِنْ ذَلِكَ  
الْأَجْنِبِيِّ مَا يَقْدِفُهُ عَلَى لِسَانِهِ فَرُبَّمَا صَدَقَ وَوَافَقَ الْحَقَّ وَرُبَّمَا كَذَبَ لِأَنَّهُ يُتَمَّمُ  
نَقْصَهُ بِأَمْرِ أَجْنِبِيِّ عَنِ ذَاتِهِ الْمُدْرِكَةِ وَمَبَايِنِ لَهَا غَيْرِ مَلَائِمٍ فَيَعْرِضُ لَهُ الصُّدْقُ  
وَالْكَذِبُ جَمِيعًا وَلَا يَكُونُ مَوْثُوقًا بِهِ وَرُبَّمَا يَفْزَعُ إِلَى الظُّنُونِ وَالتَّخْمِينَاتِ حِرْصًا  
عَلَى الظَّفَرِ بِالْإِدْرَاكِ بِزَعْمِهِ وَتَمْوِيهِهَا عَلَى السَّائِلِينَ وَأَصْحَابِ هَذَا السَّجْعِ هُمُ  
الْمَخْصُوصُونَ بِاسْمِ الْكُهَّانِ لِأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ وَقَدْ قَالَ ﷺ فِي مِثْلِهِ « هَذَا  
« مِنْ سَجْعِ الْكُهَّانِ » فَجَعَلَ السَّجْعَ مُخْتَصًّا بِهِمْ بِمُقْتَضَى الْإِضَافَةِ وَقَدْ قَالَ لِابْنِ  
صَيَّادٍ حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفًا عَنْ حَالِهِ بِالْأَخْبَارِ كَيْفَ يَأْتِيكَ هَذَا الْأَمْرُ؟ قَالَ :  
« يَأْتِينِي صَادِقًا وَكَاذِبًا » فَقَالَ : « خَلَطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ » يَعْنِي أَنَّ النُّبُوَّةَ خَاصَّتْهَا  
الصُّدْقُ فَلَا يَعْتَرِيهَا الْكَذِبُ بِحَالٍ لِأَنَّهَا اتَّصَلَ مِنْ ذَاتِ النَّبِيِّ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى مِنْ  
غَيْرِ مُشَيِّعٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِأَجْنِبِيِّ وَالْكُهَّانَةُ لَمَّا اجْتَنَحَ صَاحِبُهَا بِسَبَبِ عَجْزِهِ إِلَى

الإِسْتِعَانَةَ بِالتَّصَوُّرَاتِ الأَجْنِبِيَّةِ كَانَتْ دَاخِلَةً فِي إِذْرَاكِهِ وَالتَّبَسُّتُ بِالإِذْرَاكِ الَّذِي  
 تَوَجَّهَ إِلَيْهِ فَصَارَ مُخْتَلِطاً بِهَا وَطَرَفَهُ الكَذِبُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ فَاِمْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ نُبُوءَةٌ  
 وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنْ أُرْفِعَ مَرَاتِبِ الكَهَانَةِ حَالَةَ السُّجْعِ لِأَنَّ مَعْنَى السُّجْعِ أَخْفُ مِنْ سَائِرِ  
 المَعْنِيَاتِ مِنَ المَرْتَبَاتِ وَالمَسْمُوعَاتِ وَتَدُلُّ خِيفَةُ المَعْنَى عَلَى قُرْبِ ذَلِكَ الإِتِّصَالِ  
 وَالإِذْرَاكِ وَالبُعْدُ فِيهِ عَنِ العَجْزِ بَعْضُ الشَّيْءِ وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الكَهَانَةَ  
 قَدْ انْقَطَعَتْ مُنْذُ زَمَنِ النُّبُوءَةِ بِمَا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ رَجْمِ الشَّيَاطِينِ بِالشُّهْبِ بَيْنَ يَدَيْ  
 البَعْثَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِمَنْعِهِمْ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ كَمَا وَقَعَ فِي القُرْآنِ وَالكُهَّانِ إِنَّمَا  
 يَتَعَرَّفُونَ أَخْبَارَ السَّمَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَبَطَلَتِ الكَهَانَةُ مِنْ يَوْمِئِذٍ وَلَا يَقُومُ مِنْ ذَلِكَ  
 دَلِيلٌ لِأَنَّ عُلُومَ الكُهَّانِ كَمَا تَكُونُ مِنَ الشَّيَاطِينِ تَكُونُ مِنْ نَفْسِهِمْ أَيْضاً كَمَا  
 قَرَّرْنَاهُ وَأَيْضاً فَالآيَةُ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى مَنْعِ الشَّيَاطِينِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ  
 وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِخَبَرِ البَعْثَةِ وَلَمْ يَمْنَعُوا مِمَّا سِوَى ذَلِكَ . وَأَيْضاً فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ  
 الإِنْقِطَاعُ بَيْنَ يَدَيْ النُّبُوءَةِ فَقَطْ وَلَعَلَّهَا عَادَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَهَذَا هُوَ  
 الظَّاهِرُ لِأَنَّ هَذِهِ المَدَارِكَ كُلَّهَا تَخَمَّدَتْ فِي زَمَنِ النُّبُوءَةِ كَمَا تَخَمَّدَ الكَوَاكِبُ وَالسُّرُجُ  
 عِنْدَ وَجُودِ الشَّمْسِ لِأَنَّ النُّبُوءَةَ هِيَ النُّورُ الأَعْظَمُ الَّذِي يَخْفَى مَعَهُ كُلُّ نُورٍ وَيَذْهَبُ .

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ أَنَّهَا إِنَّمَا تُوْجَدُ بَيْنَ يَدَيْ النُّبُوءَةِ ثُمَّ تَنْقَطِعُ وَهَكَذَا كُلُّ نُبُوءَةٍ  
 وَقَعَتْ لِأَنَّ وَجُودَ النُّبُوءَةِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ وَضْعِ فَلَكيٍّ يَقْتَضِيهِ وَفِي تَمَامِ ذَلِكَ الوَضْعِ تَمَامُ  
 تِلْكَ النُّبُوءَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا وَنَقَصَ ذَلِكَ الوَضْعِ عَنِ التَّمَامِ يَقْتَضِيهِ وَجُودَ طَبِيعَةٍ مِنْ  
 ذَلِكَ النُّوعِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ نَاقِصَةٌ وَهُوَ مَعْنَى الكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ فَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ  
 ذَلِكَ الوَضْعُ الكَامِلُ يَقَعُ الوَضْعُ النَاقِصُ وَيَقْتَضِيهِ وَجُودَ الكَاهِنِ إِمَّا وَاحِداً أَوْ  
 مُتَعَدِّداً فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ الوَضْعُ تَمَّ وَجُودُ النَّبِيِّ بِكَمَالِهِ وَانْقَضَتِ الأَوْضَاعُ الدَّالَّةُ عَلَى مِثْلِ  
 تِلْكَ الطَّبِيعَةِ فَلَا يُوجَدُ مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدَ وَهَذَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ بَعْضَ الوَضْعِ الفَلَكيِّ  
 يَقْتَضِيهِ بَعْضُ أُثْرِهِ وَهُوَ غَيْرُ مُسَلَّمٍ . فَلَعَلَّ الوَضْعَ إِنَّمَا يَقْتَضِي ذَلِكَ الأَثَرَ بِهَيْئَتِهِ  
 الخَالِصَةِ وَلَوْ نَقَصَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا فَلَا يَقْتَضِي شَيْئاً ، لِأَنَّهُ يَقْتَضِي ذَلِكَ الأَثَرَ

نَاقِصاً كَمَا قَالُوهُ . ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْكُهَّانَ إِذَا عَاصَرُوا زَمَنَ النُّبُوءَةِ فَإِنَّهُمْ عَارِفُونَ بِصِدْقِ النَّبِيِّ وَدَلَالَةِ مُعْجَزَتِهِ لِأَنَّ لَهُمْ بَعْضَ الْوُجْدَانِ مِنْ أَمْرِ النُّبُوءَةِ كَمَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أَمْرِ الْيَوْمِ وَمَعْقُوبِيَّةِ تِلْكَ النَّسَبَةِ مَوْجُودَةٌ لِلْكَاهِنِ بِأَشَدِّ مِمَّا لِلنَّائِمِ وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيُوقِعُهُمْ فِي التَّكْذِيبِ إِلَّا قُوَّةُ الْمَطَامِعِ فِي أَنَّهَا نُبُوءَةٌ لَهُمْ فَيَقْعُونَ فِي الْعِنَادِ كَمَا وَقَعَ لِأَمِيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ فَإِنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يَتَنَبَّأَ وَكَذَا وَقَعَ لِابْنِ صَيَّادٍ وَلِمَسْلِمَةَ وَغَيْرِهِمْ فَإِذَا غَلَبَ الْإِيمَانَ وَانْقَطَعَتْ تِلْكَ الْأَمَانِيُّ آمَنُوا أَحْسَنَ إِيْمَانٍ كَمَا وَقَعَ لِطَلِيحَةَ الْأَسَدِيِّ وَسَوَادِ بْنِ قَارِبٍ وَكَانَ لَهُمَا فِي الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْآثَارِ الشَّاهِدَةُ بِحُسْنِ الْإِيْمَانِ .

## الرؤيا

وَأَمَّا الرُّؤْيَا فَحَقِيقَتُهَا مُطَالَعَةُ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ فِي ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةَ لَمَحَّةً مِنْ صُورِ الْوَأَقِعَاتِ فَإِنَّهَا عِنْدَمَا تَكُونُ رُوحَانِيَّةً تَكُونُ صُورَ الْوَأَقِعَاتِ فِيهَا مَوْجُودَةٌ بِالْفِعْلِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الذُّوَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ كُلِّهَا وَتَصِيرُ رُوحَانِيَّةً بَأَنَّ تَتَجَرَّدَ عَنِ الْمَوَادِّ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ وَقَدْ يَقَعُ لَهَا ذَلِكَ لَمَحَّةً بِسَبَبِ النَّوْمِ كَمَا نَذَكُرُ فَتَقْتَبِسُ بِهَا عِلْمَ مَا تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ وَتَعُودُ بِهِ إِلَى مَدَارِكِهَا فَإِنَّ كَانَ ذَلِكَ الْإِقْتِبَاسَ ضَعِيفاً وَغَيْرَ جَلِيٍّ بِالْمُحَاكَاةِ وَالْمِثَالِ فِي الْخِيَالِ لِتَخْلُصِهِ فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمُحَاكَاةِ إِلَى التَّعْبِيرِ وَقَدْ يَكُونُ الْإِقْتِبَاسُ قَوِيّاً يُسْتَغْنَى فِيهِ عَنِ الْمُحَاكَاةِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْبِيرٍ لِخُلُوصِهِ مِنَ الْمِثَالِ وَالْخِيَالِ وَالسَّبَبِ فِي وَقُوعِ هَذِهِ اللَّمَحَّةِ لِلنَّفْسِ أَنَّهَا ذَاتُ رُوحَانِيَّةٍ بِالْقُوَّةِ مُسْتَكْمِلَةٌ بِالْبَدَنِ وَمَدَارِكِهِ <sup>(١)</sup> حَتَّى تَصِيرَ ذَاتَهَا تَعْقُلاً مَحْضاً وَيَكْمُلُ وَجُودُهَا بِالْفِعْلِ فَتَكُونُ حِينَئِذٍ ذَاتاً رُوحَانِيَّةً مُدْرِكَةً بِغَيْرِ شَيْءٍ مِنَ الْآلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ إِلَّا أَنَّ نَوْعَهَا فِي الرُّوحَانِيَّاتِ دُونَ نَوْعِ

(١) في نسخة لجنة البيان العربي عبارة بين قوسين وهي ( ولا بد من تخلصها من البدن ومداركه ) وهذه

الجملة غير واردة في جميع النسخ الأخرى وهي متممة لمعنى الجملة التي قبلها . ولا يستقيم المعنى بدونها .



الْمَلَائِكَةُ أَهْلِ الْأَفْقِ الْأَعْلَى عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْتَكْمِلُوا ذَوَاتِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ مَدَارِكِ الْبَدَنِ  
 وَلَا غَيْرِهِ فَهَذَا الْإِسْتِعْدَادُ حَاصِلٌ لَهَا مَا دَامَتْ فِي الْبَدَنِ وَمِنْهُ خَاصٌّ كَالَّذِي لِلْأَوْلِيَاءِ  
 وَمِنْهُ عَامٌّ لِلْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ وَهُوَ أَمْرُ الرُّؤْيَا . وَأَمَّا الَّذِي لِلْأَنْبِيَاءِ فَهُوَ اسْتِعْدَادُ  
 بِالْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكِيَّةِ الْمُخْضِصَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الرُّوحَانِيَّاتِ وَيَخْرُجُ  
 هَذَا الْإِسْتِعْدَادُ فِيهِمْ مُتَكَرِّراً فِي حَالَاتِ الْوُخْيِ وَهُوَ عِنْدَمَا يُعْرَجُ عَلَى الْمَدَارِكِ  
 الْبَدَنِيَّةِ وَيَقَعُ فِيهَا مَا يَقَعُ مِنَ الْإِدْرَاكِ يَكُونُ <sup>(١)</sup> شَبِيهاً بِحَالِ النَّوْمِ شَبهاً بَيْنَا وَإِنْ  
 كَانَ حَالِ النَّوْمِ أَذْوَنَ مِنْهُ بِكَثِيرٍ فَلَأَجْلِ هَذَا الشَّبهِ عَبَّرَ الشَّارِعُ عَنِ الرُّؤْيَا بِأَنَّهَا  
 جُزْءٌ مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ جُزْأً مِنَ النَّبُوءَةِ وَفِي رِوَايَةٍ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعِينَ وَفِي رِوَايَةٍ سَبْعِينَ  
 وَلَيْسَ الْعَدَدُ فِي جَمِيعِهَا مَقْصُوداً بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْكَثْرَةُ فِي تَفَاوُتِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ  
 بِدَلِيلِ ذِكْرِ السَّبْعِينَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ وَهُوَ لِلتَّكْثِيرِ عِنْدَ الْعَرَبِ وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ  
 فِي رِوَايَةِ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ مِنْ أَنَّ الْوُخْيَ كَانَ فِي مَبْدَإِهِ بِالرُّؤْيَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَهِيَ نِصْفُ  
 سَنَةٍ وَمُدَّةُ النَّبُوءَةِ كُلُّهَا بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ ثَلَاثَ وَعِشْرُونَ سَنَةً فَنِصْفُ السَّنَةِ مِنْهَا جُزْءٌ  
 مِنْ سِتَّةِ وَأَرْبَعِينَ فَكَلَامٌ يَعْمِدُ مِنَ التَّحْقِيقِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَمِنْ  
 أَيْنَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْمُدَّةَ وَقَعَتْ لغيرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُعْطَى نِسْبَةً زَمَنِ  
 الرُّؤْيَا مِنْ زَمَنِ النَّبُوءَةِ وَلَا يُعْطَى حَقِيقَتَهَا مِنْ حَقِيقَةِ النَّبُوءَةِ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ هَذَا مِمَّا  
 ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا عَلِمْتَ أَنَّ مَعْنَى هَذَا الْجُزْءِ نِسْبَةُ الْإِسْتِعْدَادِ الْأَوَّلِ الشَّامِلِ لِلْبَشَرِ إِلَى  
 الْإِسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ الْخَاصِّ بِصِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ الْفِطْرِيِّ لَهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ هُوَ  
 الْإِسْتِعْدَادُ الْبَعِيدُ وَإِنْ كَانَ عَاماً فِي الْبَشَرِ وَمَعَهُ عَوَاقِقُ وَمَوَانِعُ كَثِيرَةٌ مِنْ حُصُولِهِ  
 بِالْفِعْلِ وَمِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ الْمَوَانِعِ الْحَوَاسُ الظَّاهِرَةُ فَفَطَرَ اللَّهُ الْبَشَرَ عَلَى ارْتِفَاعِ  
 حِجَابِ الْحَوَاسِ بِالنُّوْمِ الَّذِي هُوَ جَبَلِيٌّ لَهُمْ فَتَتَعَرَّضُ النَّفْسُ عِنْدَ ارْتِفَاعِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ  
 مَا تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ فِي عَالَمِ الْحَقِّ فَتُدْرِكُ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ مِنْهُ لَمَحَّةٌ يَكُونُ فِيهَا الظُّفْرُ

(١) وردت هذه الكلمة في نسخة لجنة البيان العربي فقط وهي غير موجودة في جميع النسخ ولا يستقيم

المعنى بدونها.

بِالْمَطْلُوبِ وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا الشَّارِعُ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ فَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوءَةِ إِلَّا  
 الْمُبَشِّرَاتُ قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ  
 الصَّالِحُ أَوْ تَرَى لَهُ وَأَمَّا سَبَبُ ارْتِفَاعِ حِجَابِ الْخَوَاسِّ بِالنُّوْمِ فَعَلَى مَا أَصِفُهُ لَكَ وَذَلِكَ  
 أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ إِنَّمَا إِذْرَاكُهَا وَأَفْعَالُهَا بِالرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ الْجِسْمَانِيِّ وَهُوَ بُخَارٌ  
 لَطِيفٌ مَرْكُزُهُ بِالتَّجْوِيفِ الْأَيْسَرِ مِنَ الْقَلْبِ عَلَى مَا فِي كُتُبِ التَّشْرِيحِ لِجَالِينُوسَ  
 وَعَیْرِهِ وَيَنْبَعُ مَعَ الدَّمِ فِي الشَّرْيَانَاتِ وَالْعُرُوقِ فَيُعْطِي الْحِسَّ وَالْحَرَكَةَ وَسَائِرَ  
 الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ وَيَرْتَفِعُ لَطِيفُهُ إِلَى الدِّمَاغِ فَيُعَدِّلُ مِنْ بَرْدِهِ وَتَبْتِمُ أَفْعَالُ الْقُوَى الَّتِي فِي  
 بَطُونِهِ فَالنَّفْسُ النَّاطِقَةُ إِنَّمَا تُدْرِكُ وَتَعْقُلُ بِهَذَا الرُّوحِ الْبُخَارِيِّ وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِمَا  
 اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ التَّكْوِينِ فِي أَنَّ اللَّطِيفَ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْكَثِيفِ وَلَمَّا لَطَفَ هَذَا الرُّوحُ  
 الْحَيَوَانِيُّ مِنْ بَيْنِ الْمَوَادِّ الْبَدَنِيَّةِ صَارَ مَحَلًّا لِآثَارِ الذَّاتِ الْمُبَايِنَةِ لَهُ فِي جِسْمَانِيَّتِهِ  
 وَهِيَ النَّفْسُ النَّاطِقَةُ وَصَارَتْ آثَارُهَا حَاصِلَةً فِي الْبَدَنِ بِوَسْطِيَّتِهِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ  
 إِذْرَاكَهَا عَلَى نَوْعَيْنِ إِذْرَاكِ بِالظَّاهِرِ وَهُوَ الْخَوَاسِّ الْخَمْسُ وَإِذْرَاكِ بِالْبَاطِنِ وَهُوَ  
 الْقُوَى الدِّمَاغِيَّةُ وَأَنَّ هَذَا الْإِذْرَاكِ كُلُّهُ صَارَفَ لَهَا عَنْ إِذْرَاكِهَا مَا فَوْقَهَا مِنْ ذَوَاتِهَا  
 الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ بِالْفِطْرَةِ وَلَمَّا كَانَتْ الْخَوَاسُّ الظَّاهِرَةَ جِسْمَانِيَّةً  
 كَانَتْ مُعْرَضَةً لِلْوَسَنِ وَالنَّفْثِ بِمَا يُدْرِكُهَا مِنَ التَّبَعِ وَالْكَلالِ وَتَغْشَى الرُّوحُ  
 بِكَثْرَةِ التَّصْرِيفِ فَخَلَقَ اللَّهُ لَهَا طَلَبَ الْإِسْتِخْصَامِ لِتَجْرُدَ الْإِذْرَاكِ عَلَى الصُّورَةِ الْكَامِلَةِ  
 وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِانْخِنَاسِ<sup>(١)</sup> الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ مِنَ الْخَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ كُلِّهَا وَرُجُوعِهِ  
 إِلَى الْحِسِّ الْبَاطِنِ وَيُعِينُ عَلَى ذَلِكَ مَا يَغْشَى الْبَدَنَ مِنَ الْبَرْدِ بِاللَّيْلِ فَتَطْلُبُ  
 الْحَرَارَةَ الْغَرِيْبِيَّةَ أَعْمَاقَ الْبَدَنِ وَتَذْهَبُ مِنْ ظَاهِرِهِ إِلَى بَاطِنِهِ فَتَكُونُ مُشْبَعَةً  
 مَرْكَبًا وَهُوَ الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ إِلَى الْبَاطِنِ وَلِذَلِكَ كَانَ النُّوْمُ لِلْبَشْرِ فِي الْعَالِبِ إِنَّمَا هُوَ  
 بِاللَّيْلِ فَإِذَا انْخَسَ الرُّوحُ عَنِ الْخَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ وَرَجَعَ إِلَى الْقُوَى الْبَاطِنَةِ وَخَفَّتْ  
 عَنِ النَّفْسِ شَوَاغِلُ الْحِسِّ وَمَوَانِعُهُ وَرَجَعَتْ إِلَى الصُّورَةِ الَّتِي فِي الْحَافِظَةِ تَمَثَّلُ مِنْهَا

(١) انخناس : تأخر وانقباض وتخلف ( قاموس ) .

بالتركيب والتحليل صور خيالية وأكثر ما تكون معتادة لأنها منتزعة من  
المدركات المتعاهدة قريبا ثم ينزلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس  
الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة وربما التفتت النفس لفتة  
إلى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية فتدرك بإدراكها الروحاني لأنها  
مفطورة عليه وتقتبس من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ثم يأخذ  
الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوال المعهودة  
والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور  
الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي أضغاث أحلام . وفي الصحيح  
أن النبي ﷺ قال : « الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من  
الشيطان » وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلي من الله والمحاكاة الداعية  
إلى التعبير من الملك وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كلها باطل  
والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم وهي  
خواص للنفس الإنسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها أحد منهم بل  
كل واحد من الإنساني رأى في نومه ما صدر له في يقظته مرارا غير واحدة وحصل  
له على القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ولا بد وإذا جاز ذلك في عالم النوم  
فلا يمتنع في غيره من الأحوال لأن الذات المدركة واحدة وخواصها عامّة في كل  
حال والله الهادي إلى الحق بمنه وفضله .

فصل : ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالبا إنما هو من غير قصد ولا قدرة  
عليه وإنما تكون النفس مشتوقة لذلك الشيء فيقع يتلك اللمحة في النوم لأنها  
تقصد إلى ذلك فتراه وقد وقع في كتاب الغاية وغيره من كتب أهل الرياضيات  
ذكر أسماء تذكر عند النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يتشوف إليه ويسمونها  
الحالومية وذكر منها مسلمة في كتاب الغاية حالومية سماها حالومة الطباع التام  
وهو أن يقال عند النوم بعد فراغ السر وصحة التوجه هذه الكلمات الأعجمية وهي

« تماغس بعد أن يسواد وغداس نوفنا غادس<sup>(١)</sup> » وَيَذْكَرُ حَاجَتَهُ فَإِنَّهُ يَرَى الْكَشْفَ  
عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ فِي النَّوْمِ . وَحُكْيَ إِنْ رَجُلًا فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ رِيَاضَةٍ لَيْالٍ فِي مَا كَلِمَهُ  
وَذَكَرَهُ فَمَثَلٌ لَهُ شَخْصٌ يَقُولُ لَهُ أَنَا طَبَّاعُكَ التَّامُ فَسَأَلَهُ وَأَخْبَرَهُ عَمَّا كَانَ يَتَشَوَّفُ  
إِلَيْهِ وَقَدْ وَقَعَ لِي أَنَا بِهِذِهِ الْأَسْمَاءِ مَرَّاءَ عَجِيبَةً وَأَطْلَعْتُ بِهَا عَلَى أُمُورٍ كُنْتُ أَتَشَوَّفُ  
عَلَيْهَا مِنْ أَحْوَالِي وَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْقَصْدَ لِلرُّؤْيَا يُحْدِثُهَا وَإِنَّمَا هَذِهِ  
الْحَالُومَاتُ تُحْدِثُ اسْتِعْدَادًا فِي النَّفْسِ لَوْقُوعِ الرُّؤْيَا فَإِذَا قَوِيَ الْاسْتِعْدَادُ كَانَ أَقْرَبَ  
إِلَى حُصُولِ مَا يُسْتَعَدُّ لَهُ وَلِلشَّخْصِ أَنْ يَفْعَلَ مِنَ الْاسْتِعْدَادِ مَا أَحَبُّ وَلَا يَكُونُ  
دَلِيلًا عَلَى إِتْقَاعِ الْمُسْتَعَدِّ لَهُ فَالْقُدْرَةُ عَلَى الْاسْتِعْدَادِ غَيْرُ الْقُدْرَةِ عَلَى الشَّيْءِ فَاعْلَمْ  
ذَلِكَ وَتَدَبَّرْهُ فِيمَا تَجِدُ مِنْ أَمْثَالِهِ وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

فصل : ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ أَشْخَاصًا يُخْبِرُونَ بِالْكَائِنَاتِ قَبْلَ  
وَقُوعِهَا بِطَبِيعَةٍ فِيهِمْ يَتَمَيَّزُ بِهَا صِنْفُهُمْ عَنِ سَائِرِ النَّاسِ وَلَا يَرْجِعُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى  
صِنَاعَةٍ وَلَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَثَرٍ مِنَ النُّجُومِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا إِنَّمَا نَجِدُ مَدَارِكَهُمْ فِي ذَلِكَ  
بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمُ الَّتِي فَطَرُوا عَلَيْهَا وَذَلِكَ مِثْلُ الْعُرَافِينَ وَالنَّاطِرِينَ فِي الْأَجْسَامِ  
الشَّفَافَةِ كَالْمَرَايَا وَطَسَاسِ الْمَاءِ وَالنَّاطِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا  
وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ الزَّجْرِ فِي الطَّيْرِ وَالسَّبَّاعِ وَأَهْلِ الطَّرِيقِ بِالْحِصَى وَالْحُبُوبِ مِنَ  
الْحِنْطَةِ وَالنُّوَى وَهَذِهِ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ لَا يَسَعُ أَحَدًا جَحْدَهَا وَلَا  
إِنْكَارَهَا وَكَذَلِكَ الْمَجَانِينُ يُلْقَى عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ كَلِمَاتٌ مِنَ الْغَيْبِ فَيُخْبِرُونَ بِهَا  
وَكَذَلِكَ النَّائِمُ وَالْمَيِّتُ لِأَوَّلِ مَوْتِهِ أَوْ نَوْمِهِ يَتَكَلَّمُ بِالْغَيْبِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الرِّيَاضِيَّاتِ  
مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ لَهُمْ مَدَارِكٌ فِي الْغَيْبِ عَلَى سَبِيلِ الْكِرَامَةِ مَعْرُوفَةٌ . وَنَحْنُ الْآنَ نَتَكَلَّمُ  
عَنْ هَذِهِ الْإِذْرَاكَاتِ كُلِّهَا وَنَبْتَدِئُ مِنْهَا بِالْكَهَانَةِ ثُمَّ نَأْتِي عَلَيْهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً إِلَى  
آخِرِهَا وَنَقْدُمُ عَلَى ذَلِكَ مُقَدِّمَةً فِي أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ كَيْفَ تَسْتَعِدُّ لِإِذْرَاكِ الْغَيْبِ فِي  
جَمِيعِ الْأَصْنَافِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَذَلِكَ أَنَّهَا ذَاتٌ رُوحَانِيَّةٌ مَوْجُودَةٌ بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ

(١) ليس لهذه الكلمات أي معنى في اللغات التي نعرفها وربما تكون لأسماء بعض الجن .

بالبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ وَهَذَا أَمْرٌ مُدْرِكٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَكُلُّ مَا بِالْقُوَّةِ فَلَهُ مَادَّةٌ وَصُورَةٌ وَصُورَةٌ هَذِهِ  
النَّفْسُ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ وَجُودُهَا هُوَ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ وَالتَّعْقُلِ فِيهِ تُوْجَدُ أَوَّلًا بِالْقُوَّةِ  
مُسْتَعِدَّةً لِلْإِدْرَاكِ وَقَبُولِ الصُّورِ الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ ثُمَّ يَتِمُّ نَشْؤُهَا وَوُجُودُهَا بِالْفِعْلِ  
بِمُصَاحَبَةِ الْبَدَنِ وَمَا يَعُودُهَا بِوُرُودِ مُدْرَكَاتِهَا الْمُخْسُوسَةِ عَلَيْهَا وَمَا تَنْتَزِعُ مِنْ تِلْكَ  
الْإِدْرَاكَاتِ مِنَ الْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ فَتَتَعَقَّلُ الصُّورَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى يَحْصُلَ لَهَا الْإِدْرَاكُ  
وَالْتَّعَقُّلُ بِالْفِعْلِ فَتَتِمُّ ذَاتُهَا وَتَبْقَى النَّفْسُ كَالْهَيُولَى وَالصُّورُ مُتَعَاقِبَةٌ عَلَيْهَا بِالْإِدْرَاكِ  
وَاحِدَةٌ بَعْدَ وَاحِدَةٍ وَلِذَلِكَ نَجِدُ الصَّبِيَّ فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِدْرَاكِ الَّذِي لَهَا مِنْ  
ذَاتِهَا لَا بِنَوْمٍ وَلَا بِكَشْفٍ وَلَا بِغَيْرِهِمَا وَذَلِكَ أَنَّ صُورَتَهَا الَّتِي هِيَ عَيْنُ ذَاتِهَا وَهِيَ  
الْإِدْرَاكُ وَالتَّعَقُّلُ لَمْ يَتِمَّ بَعْدَ بَلْ لَمْ يَتِمَّ لَهَا انْتِزَاعُ الْكُلِّيَّاتِ ثُمَّ إِذَا تَمَّتْ ذَاتُهَا بِالْفِعْلِ  
حَصَلَ لَهَا مَا دَامَتْ مَعَ الْبَدَنِ نَوْعَانِ مِنَ الْإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ بِآلَاتِ الْجِسْمِ تُؤَدِّيهِ إِلَيْهَا  
الْمُدَارِكُ الْبَدَنِيَّةُ وَإِدْرَاكٌ بِذَاتِهَا مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنْهُ بِالْإِنْفِصَالِ فِي  
الْبَدَنِ وَالْحَوَاسِ وَبِشَوَاعِلِهَا لِأَنَّ الْحَوَاسَ أَبَدًا جَاذِبَةٌ لَهَا إِلَى الظَّاهِرِ بِمَا فَطَرَتْ  
عَلَيْهِ أَوَّلًا مِنَ الْإِدْرَاكِ الْجِسْمَانِيِّ وَرُبَّمَا تَنْعَمِسُ مِنَ الظَّاهِرِ إِلَى الْبَاطِنِ فَيَرْتَفِعُ  
حِجَابُ الْبَدَنِ لِحَظَّةٍ إِمَّا بِالْخَاصِيَّةِ الَّتِي هِيَ لِلْإِنْسَانِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِثْلَ النَّوْمِ أَوْ  
بِالْخَاصِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ لِبَعْضِ الْبَشَرِ مِثْلَ الْكَهَانَةِ وَالطَّرِيقِ أَوْ بِالرِّيَاضَةِ مِثْلَ أَهْلِ  
الْكَشْفِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ فَتَلْتَفِتُ حِينَئِذٍ إِلَى الذَّوَاتِ الَّتِي فَوْقَهَا مِنَ الْمَلَايِمَا بَيْنَ أَفْقِهَا  
وَأَفْقِهِمْ مِنَ الْإِتِّصَالِ فِي الْوُجُودِ كَمَا قَرَّرْنَا قَبْلَ وَتِلْكَ الذَّوَاتُ رُوحَانِيَّةٌ وَهِيَ إِدْرَاكُ  
مَخْصُوعٌ وَعَقُولٌ بِالْفِعْلِ وَفِيهَا صُورُ الْمَوْجُودَاتِ وَحَقَائِقُهَا كَمَا مَرَّ فَيَنْجَلِي فِيهَا شَيْءٌ  
مِنْ تِلْكَ الصُّورِ وَتَقْتَبِسُ مِنْهَا عُلُومًا وَرُبَّمَا دَفَعَتْ تِلْكَ الصُّورُ الْمُدْرَكَةُ إِلَى الْخِيَالِ  
فَيَصْرِفُهُ فِي الْقَوَالِبِ الْمُعْتَادَةِ ثُمَّ يِرَاجِعُ الْجِسْمَ بِمَا أُدْرِكَتْ إِمَّا مُجَرِّدًا أَوْ فِي قَوَالِبِهِ  
فَتُخْبِرُ بِهِ . هَذَا هُوَ شَرْحُ اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ لِهَذَا الْإِدْرَاكِ الْعَيْنِيِّ . وَلِنَرْجِعَ إِلَى  
مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ بَيَانِ أَصْنَافِهِ . فَأَمَّا النَّاطِرُونَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ مِنَ الْمَرَايَا  
وِطَسَاسِ الْمِيَاهِ وَقُلُوبِ الْحَيَوَانَ وَكُبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ الطَّرِيقِ بِالْحِصَى وَالنَّوَى

فَكُلُّهُمْ مِنْ قَبِيلِ الْكُهَّانِ إِلَّا أَنَّهُمْ أضعَفُ رُتْبَةً فِيهِ فِي أَصْلِ خَلْقِهِمْ لِأَنَّ الْكَاهِنَ  
لَا يَخْتَاجُ فِي رَفْعِ حِجَابِ الْحِسِّ إِلَى كَثِيرِ مَعَانَاةٍ وَهُؤُلَاءِ يَعَانُونَهُ بِانْحِصَارِ الْمَدَارِكِ  
الْحِسِّيَّةِ كُلِّهَا فِي نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا وَأَشْرَفُهَا الْبَصَرُ فَيَعْكُفُ عَلَى الْمَرْئِيِّ الْبَسِيطِ حَتَّى  
يَبْدُو لَهُ مُدْرَكُهُ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ وَرُبَّمَا يَظُنُّ أَنَّ مُشَاهِدَةَ هؤُلَاءِ لَمَّا يَرُونَهُ هُوَ فِي  
سَطْحِ الْمِرَاةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ لَا يَزَالُونَ يَنْظُرُونَ فِي سَطْحِ الْمِرَاةِ إِلَى أَنْ يَغِيبَ  
عَنِ الْبَصَرِ وَيَبْدُو فِيمَا بَيْنَهُمْ وَيَبِينُ سَطْحِ الْمِرَاةِ حِجَابٌ كَأَنَّهُ عَمَامٌ يَتَمَثَّلُ فِيهِ صُورُ  
هِيَ مَدَارِكُهُمْ فَيُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَقْصُودِ لَمَّا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ نَفْسِي أَوْ إِبْتِائَاتِ  
فَيُخْبِرُونَ بِذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا أَدْرَكُوهُ وَأَمَّا الْمِرَاةُ وَمَا يُدْرِكُ فِيهَا مِنَ الصُّورِ فَلَا  
يُدْرِكُونَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَإِنَّمَا يَنْشَأُ لَهُمْ بِهَا هَذَا النُّوعُ الْآخَرُ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَهُوَ  
نَفْسَائِي لَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْبَصَرِ بَلْ يَتَشَكَّلُ بِهِ الْمُدْرِكُ النَّفْسَائِي لِلْحِسِّ كَمَا هُوَ  
مَعْرُوفٌ وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا يَعْضُ لِلنَّاظِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَلِلنَّاظِرِينَ  
فِي الْمَاءِ وَالطَّسَّاسِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ هؤُلَاءِ مَنْ يُشْغَلُ الْحِسُّ بِالْبُخُورِ  
فَقَطُّ ثُمَّ بِالْفَرَائِمِ لِلِاسْتِعْدَادِ ثُمَّ يُخْبِرُ كَمَا أَدْرِكُ وَيَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ يَرُونَ الصُّورَ  
مُتَشَخِّصَةً فِي الْهَوَاءِ تَحْكِي لَهُمْ أَحْوَالَ مَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى إِدْرَاكِهِ بِالْمِثَالِ وَالْإِشَارَةِ  
وَعَيْبَةَ هؤُلَاءِ عَنِ الْحِسِّ أَخْفُ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْعَالَمِ أَبُو الْفَرَائِمِ . وَأَمَّا الزَّجْرُ وَهُوَ  
مَا يَخْدُثُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْعَيْبِ عِنْدَ سُوحِ طَائِرٍ أَوْ حَيَوَانٍ وَالْفِكْرُ  
فِيهِ بَعْدَ مَغِيْبِهِ وَهِيَ قُوَّةٌ فِي النَّفْسِ تَبْعَثُ عَلَى الْحِرْصِ وَالْفِكْرِ فِيمَا زَجَرَ فِيهِ مِنْ  
مَرْئِيٍّ أَوْ مَسْمُوعٍ وَتَكُونُ قُوَّتُهُ الْمُخَيَّلَةَ كَمَا قَدَّمْنَا قُوَّةً فَيَبْعَثُهَا فِي الْبَحْثِ مُسْتَعِينًا  
بِمَا رَأَى أَوْ سَمِعَهُ فَيُؤَدِّيهِ ذَلِكَ إِلَى إِدْرَاكِ مَا . كَمَا تَفْعَلُهُ الْقُوَّةُ الْمُخَيَّلَةُ فِي النَّوْمِ وَعِنْدَ  
رُكُودِ الْحَوَاسِّ تَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْمَحْسُوسِ الْمَرْئِيٍّ فِي يَقْظَتِهِ وَتَجْمَعُهُ مَعَ مَا عَقَلْتَهُ  
فَيَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا . وَأَمَّا الْمَجَانِينُ فَنَفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ ضَعِيفَةٌ التَّعَلُّقُ بِالْبَدَنِ لِمَسَادِ  
أَمْرَجَتِهِمْ غَالِبًا وَضعِفَ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيَّ فِيهَا فَتَكُونُ نَفْسُهُ غَيْرَ مُسْتَفْرَقَةٍ فِي الْحَوَاسِّ  
وَلَا مُنْفَعِسَةٍ فِيهَا بِمَا شَغَلَهَا فِي نَفْسِهَا مِنْ أَلَمِ النَّقْصِ وَمَرْضِهِ وَرُبَّمَا زَاخَمَهَا عَلَى

التعلّق به روحانيّة أخرى شيطانيّة تتشبّه به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون  
 عنه التخبّط فإذا أصابه ذلك التخبّط إما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمزاحمة  
 من النفوس الشيطانيّة في تعلّقه غاب عن حسّه جملة فأدرك لمحة من عالم نفسه  
 وانطبع فيها بغض الصوّر وصرفها الخيال وربّما نطق عن لسانه في تلك الحال من  
 غير إرادة النطق وإدراك هؤلاء كلّهم مشوّب فيه الحقّ بالباطل لأنّه لا يحصل لهم  
 الاتّصال وإن فقدوا الحسّ إلا بعد الاستعانة بالتصوّرات الأجنبيّة كما قرّرناه ومن  
 ذلك يجيء الكذب في هذه المدارك وأما العرّافون فهم المتعلّقون بهذا الإدراك  
 وليس لهم ذلك الاتّصال فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجّهون إليه ويأخذون  
 فيه بالظنّ والتخمين بناء على ما يتوهّمونه من مبادئ ذلك الاتّصال والإدراك  
 ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة هذا تحصيل هذه الأمور وقد  
 تكلم عليها المسعودي في مروج الذهب فما صادف تحقيقاً ولا إصابة ويظهر من  
 كلام الرّجل أنّه كان يعيداً عن الرّسوخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن  
 غير أهله وهذه الإدراكات التي ذكرناها موجودة كلّها في نوع البشر فقد كان  
 العرب يفزعون إلى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم في الخصومات  
 ليعرفوهم بالحقّ فيها من إدراك غيبهم وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك واشتهر  
 منهم في الجاهليّة شقّ بن أنمار بن نزار وسطيح بن مازن بن عسان وكان يدرج  
 كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلا الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل  
 رؤيا ربيعة بن مضر وما أخبراه به ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم  
 وظهور النبوة المحمّديّة في قریش ورؤيا المؤبذان التي أولها سطيح لما بعث إليه  
 بها كسرى عند المسيح فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلّها  
 مشهورة وكذلك العرّافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم قال  
 فقلت لعرّاف اليمامة داوني فإنك إن داويتني لطيب  
 وقال الآخر

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه وعرّاف نجد إن هما شفياني

فَقَالَا شَفَاكَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَا لَنَا بِمَا حَمَلْتَ مِنْكَ الضَّلُوعُ يَدَانِ<sup>(١)</sup>

وَعَرُافُ الِيمَامَةِ هُوَ رَبَاحُ بِنِ عِجَلَةَ وَعَرُافُ نَجْدِ الْأَبْلَقِ الْأَسَدِيِّ . وَمِنْ هَذِهِ الْمَدَارِكِ الْغَيْبِيَّةِ مَا يَصْدُرُ لِبَعْضِ النَّاسِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقْظَةِ وَالتَّبَاسِهِ بِالنُّومِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ بِمَا يُعْطِيهِ غَيْبُ ذَلِكَ الْأَمْرِ كَمَا يُرِيدُ وَلَا يَقَعُ ذَلِكَ إِلَّا فِي مَبَادِيءِ النَّوْمِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقْظَةِ وَذَهَابِ الْإِخْتِبَارِ فِي الْكَلَامِ فَيَتَكَلَّمُ كَأَنَّهُ مُجْبُورٌ عَلَى التُّنْقِي وَغَايَتُهُ أَنْ يَسْمَعَهُ وَيَفْهَمَهُ وَكَذَلِكَ يَصْدُرُ عَنِ الْمَقْتُولِينَ عِنْدَ مُفَارَقَةِ رُؤُوسِهِمْ وَأَوْسَاطِ أَيْدِيهِمْ كَلَامٌ يَمِثِلُ ذَلِكَ . وَلَقَدْ بَلَّغْنَا عَنْ بَعْضِ الْجَبَابِرَةِ الظَّالِمِينَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا مِنْ سُجُونِهِمْ أَشْخَاصًا لِيَتَعَرَّفُوا مِنْ كَلَامِهِمْ عِنْدَ الْقَتْلِ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَأَعْلَمُوهُمْ بِمَا يُسْتَبْشَعُ . وَذَكَرَ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ لَهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَنَّ آدَمِيًّا إِذَا جُعِلَ فِي دَنْ مَمْلُوءٍ بِدِهْنِ السَّمْسِمِ وَمَكَثَ فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يُعْذَى بِالتَّيْنِ وَالْجُوزِ حَتَّى يَذْهَبَ لَحْمُهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْعُرُوقُ وَشُؤُونَ رَأْسِهِ فَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الدَّهْنِ فَحِينَ يَحْفُ عَلَيْهِ الْهَوَاءُ يُجِيبُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَهَذَا فِعْلٌ مِنْ مَنَاكِبِ أَعْمَالِ السَّحْرَةِ لَكِنْ يُفْهَمُ مِنْهُ عَجَائِبُ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحَاوِلُ حُصُولَ هَذَا الْمُدْرَكِ الْغَيْبِيِّ بِالرِّيَاضَةِ فَيَحَاوِلُونَ بِالْمُجَاهَدَةِ مَوْتًا صِنَاعِيًّا بِإِمَاتَةِ جَمِيعِ الْقُوَى الْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ مَحْوِ آثَارِهَا الَّتِي تَلَوَّنَتْ بِهَا النَّفْسُ ثُمَّ تَغْدِيَتَهَا بِالذِّكْرِ لِتَزْدَادَ قُوَّةً فِي نَشْئِهَا وَيَحْصُلُ ذَلِكَ بِجَمْعِ الْفِكْرِ وَكَثْرَةِ الْجُوعِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْمَوْتُ بِالْبَدَنِ ذَهَبَ الْحِسُّ وَحِجَابُهُ وَأَطْلَعَتِ النَّفْسُ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الرِّيَاضَةِ السَّحْرِيَّةِ يَرْتَاضُونَ بِذَلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ الْإِطْلَاعُ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ فِي الْعَوَالِمِ وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرَفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا خُصُوصًا بِلَادِ الْهِنْدِ وَيُسَمَّوْنَ هُنَالِكَ الْحُوكِيَّةَ وَلَهُمْ كُتُبٌ فِي كَيْفِيَّةِ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ كَثِيرَةٌ وَالْأَخْبَارُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ غَرِيبَةٌ . وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ فَرِيَاضَتُهُمْ دِينِيَّةٌ وَعَرِيَّةٌ عَنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْمَذْمُومَةِ

(١) أي لا نستطيع أن نشفيك من الحب الذي تحمله ضلوعك



وَأِنَّمَا يَقْضُونَ جَمْعَ الْهَيْمَةِ وَالْإِقْبَالَ عَلَى اللَّهِ بِالْكَلِيَّةِ لِيَحْضَلَ لَهُمْ أَذْوَاقُ أَهْلِ  
الْعِرْفَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَيَرْيَدُونَ فِي رِيَاضَتِهِمْ إِلَى الْجَمْعِ وَالْجُوعِ التَّغْذِيَّةِ بِالذِّكْرِ فَسَبَّحَ  
تَبَّحَ وَجَهَّتْهُمْ فِي هَذِهِ الرِّيَاضَةِ لِأَنَّهُ إِذَا نَشَأَتِ النَّفْسُ عَلَى الذِّكْرِ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى  
الْعِرْفَانِ بِاللَّهِ وَإِذَا عَزَّيْتُ عَنِ الذِّكْرِ كَانَتْ شَيْطَانِيَّةً وَحُضُولُ مَا يَحْضُلُ مِنْ مَعْرِفَةِ  
الْغَيْبِ وَالتَّصَرُّفِ لَهُؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَرَضِ وَلَا يَكُونُ مَقْصُوداً مِنْ أَوَّلِ  
الْأَمْرِ لِأَنَّهُ إِذَا قَصِدَ ذَلِكَ كَانَتْ الْوَجْهَةُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَإِنَّمَا هِيَ لِقَصْدِ التَّصَرُّفِ  
وَالْإِطْلَاعِ عَلَى الْغَيْبِ وَأَخْسِرَ بِهَا صَفَقَةً فَإِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ شَرَكٌ قَالَ بَعْضُهُمْ : « مَنْ  
أَثَرَ الْعِرْفَانَ لِلْعِرْفَانِ فَقَدْ قَالَ بِالثَّانِي <sup>(١)</sup> » فَهُمْ يَقْضُونَ بِوَجْهَتِهِمُ الْمَعْبُودَ لَا لِشَيْءٍ  
سِوَاهُ وَإِذَا حَصَلَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَا يَحْضُلُ فَبِالْعَرَضِ وَغَيْرِ مَقْصُودٍ لَهُمْ وَكَثِيرٍ مِنْهُمْ  
يَفْرُ مِنْهُ إِذَا عَرَضَ لَهُ وَلَا يَخْفَلُ بِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِذَاتِهِ لَا لِغَيْرِهِ وَحُضُولُ ذَلِكَ لَهُمْ  
مَعْرُوفٌ وَيَسْمُونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَالْحَدِيثِ عَلَى الْخَوَاطِرِ فِرَاسَةً وَكَشْفاً وَمَا  
يَقَعُ لَهُمْ مِنَ التَّصَرُّفِ كَرَامَةً وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بِبَكِيرٍ فِي حَقِّهِمْ وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى  
إِنْكَارِهِ الْأَسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايْنِيُّ وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدِ الْمَالِكِيِّ فِي  
آخِرِينَ <sup>(٢)</sup> فِرَاراً مِنَ التَّبَاسِ الْمُعْجِزَةِ بِغَيْرِهَا وَالْمَعْمُولُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ حُضُولُ  
التَّفَرُّقَةِ بِالتَّحْدِي فَهُوَ كَافٍ . وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :  
« إِنْ فِيكُمْ مُحَدِّثِينَ وَإِنْ مِنْهُمْ عَمْرٌ » وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ مِنْ ذَلِكَ وَقَائِعٌ مَعْرُوفَةٌ  
تَشْهَدُ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « يَا سَارِيَةَ الْجَبَلِ » وَهُوَ سَارِيَةُ بْنُ  
زَيْبِمْ كَانَ قَائِداً عَلَى بَعْضِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ بِالْعِرَاقِ أَيَّامَ الْفُتُوحَاتِ وَتَوَرَّطَ مَعَ  
الْمُشْرِكِينَ فِي مَعْتَرِكٍ وَهُمْ بِالْإِنْهَزَامِ وَكَانَ بِقَرْيَةِ جَبَلٍ يَتَحَيَّرُ إِلَيْهِ فَرُفِعَ لِعَمَرِ  
ذَلِكَ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِالْمَدِينَةِ فَنَادَاهُ يَا سَارِيَةَ الْجَبَلِ وَسَمِعَهُ سَارِيَةَ وَهُوَ  
بِمَكَانِهِ وَرَأَى شَخْصَةً هُنَالِكَ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَوَقَعَ مِثْلُهُ أَيْضاً لِأَبِي بَكْرٍ فِي وَصِيَّتِهِ

(١) أي اشرك بالله بمعنى ان الله له ثابن .

(٢) استعمال غير صحيح . وقد استعمله ابن خلدون في مواضع متفرقة من كتابه والصحيح : آخرون .

عَائِشَةَ ابْنَتَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي شَأْنِ مَا نَحَلَهَا <sup>(١)</sup> مِنْ أَوْسَقٍ <sup>(٢)</sup> التَّمْرِ مِنْ حَدِّ يَقِيهِ ثُمَّ نَبَّهَهَا عَلَى جَدَائِهِ لِتَحْوِزِهِ <sup>(٣)</sup> عَنِ الْوَرِثَةِ فَقَالَ فِي سِيَاقِ كَلَامِهِ « وَإِنَّمَا هُمَا أَخَوَاكِ وَأَخْتَاكِ » فَقَالَتْ « إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ فَمَنْ الْأُخْرَى ؟ » فَقَالَ « إِنَّ ذَا بَطْنُ بِنْتِ خَارِجَةَ أَرَاهَا جَارِيَةً » فَكَانَتْ جَارِيَةً وَقَعَ فِي الْمَوْطِئِ فِي بَابِ مَا لَا يَجُوزُ مِنَ النَّحْلِ وَمِثْلُ هَذِهِ الْوَقَائِعِ كَثِيرَةٌ لَهُمْ وَلَمْ يَنْبَغِ مِنْ الصَّالِحِينَ وَأَهْلِ الْإِقْتِدَاءِ إِلَّا أَنْ أَهْلَ التَّصَوُّفِ يَقُولُونَ إِنَّهُ يِقْبَلُ فِي زَمَنِ النَّبُوءَةِ إِذْ لَا يَبْتَقَى لِلْمُرِيدِ حَالَةً بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ حَتَّى إِنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ الْمُرِيدَ إِذَا جَاءَ لِلْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ يَسْتَلِبُ حَالَهُ مَا دَامَ فِيهَا حَتَّى يَفَارِقَهَا وَاللَّهُ يَرْزُقُنَا الْهِدَايَةَ وَيُرْشِدُنَا إِلَى الْحَقِّ .

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُرِيدِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ قَوْمٌ بِبِهَالِيلٍ <sup>(٤)</sup> مَعْتُوهُونَ أَشْبَهَ بِالْمَجَانِينِ مِنَ الْعَقْلَاءِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَدْ صَحَّتْ لَهُمْ مَقَامَاتُ الْوَلَايَةِ وَأَحْوَالُ الصِّدِّيقِينَ وَعَلِمَ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ مَنْ يَفْهَمُ عَنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الدُّوْقِ <sup>(٥)</sup> مَعَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مَكْلَفِينَ وَيَقَعُ لَهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنِ الْمُعْجِبَاتِ عَجَائِبٌ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَقَيَّدُونَ بِشَيْءٍ فَيُطْلِقُونَ كَلَامَهُمْ فِي ذَلِكَ وَيَأْتُونَ مِنْهُ بِالْعَجَائِبِ وَرُبَّمَا يَنْكُرُ الْفُقَهَاءُ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَقَامَاتِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ سُقُوطِ التَّكْلِيفِ عَنْهُمْ وَالْوَلَايَةِ لَا تَحْضُلُ إِلَّا بِالْعِبَادَةِ وَهُوَ غَلَطٌ فَإِنَّ فَضْلَ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَتَوَقَّفُ حُصُولُ الْوَلَايَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَلَا غَيْرَهَا وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ ثَابِتَةً الْوُجُودِ فَاللَّهُ تَعَالَى يَخْصُصُهَا بِمَا شَاءَ مِنْ مَوَاهِبِهِ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَمْ تَعْدَمْ نَفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ وَلَا فَسَدَتْ كَحَالِ الْمَجَانِينِ وَإِنَّمَا فَقَدَ لَهُمُ الْعَقْلُ الَّذِي يُنَاطُ بِهِ التَّكْلِيفُ وَهِيَ صِفَةٌ خَاصَّةٌ لِلنَّفْسِ وَهِيَ عُلُومٌ ضَرُورِيَّةٌ لِلإِنْسَانِ يَشْتَدُّ بِهَا نَظَرُهُ وَيَعْرِفُ أَحْوَالَ مَعَاشِهِ وَاسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ وَكَأَنَّهُ إِذَا مَيَّزَ أَحْوَالَ مَعَاشِهِ وَاسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ

(١) نحلها . أعطاه . ولكن هنا تعني خصها . والأصح أن يقول أنحلها .

(٢) أوسق : ج وشق . وهو وزن ستهن صاعاً أو خمل بعير .

(٣) لتختص به .

(٤) بهاليل : ج بهلول وهو السيد الجامع لكل خير . والمعنى الشائع لكلمة البهلول هو المعتوه .

(٥) أهل الدوق : ( الذين يتاح لهم أن يدوقوا جلاوة المعرفة الالهية ) .

لَمْ يَبْقَ لَهُ عُدْرٌ فِي قَبُولِ التَّكْلِيفِ لِإِصْلَاحِ مَعَاذِهِ وَلَيْسَ مَنْ فَقَدَ هَذِهِ الصِّفَةَ بِفَاقِدِ  
لِنَفْسِهِ وَلَا ذَاهِلٍ عَنِ حَقِيقَتِهِ فَيَكُونُ مَوْجُودَ الْحَقِيقَةِ مَعْدُومَ الْعَقْلِ التَّكْلِيفِيِّ الَّذِي  
هُوَ مَعْرِفَةُ الْمَعَاشِ وَلَا اسْتِحْوَاحَهُ فِي ذَلِكَ وَلَا يَتَوَقَّفُ اضْطِفَاءَ اللَّهِ عِبَادَهُ لِمَعْرِفَةِ عَلَى  
شَيْءٍ مِنَ التَّكْلِيفِ وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ رُبَّمَا يَلْتَسِسُ خَالَ هَؤُلَاءِ بِالْمَجَانِينِ  
الَّذِينَ تَفْسُدُ نَفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ وَيَلْتَحِقُونَ بِالْبَهَائِمِ وَلَكَّ فِي تَمْيِيزِهِمْ عَلَامَاتٍ مِنْهَا أَنَّ  
هَؤُلَاءِ الْبَهَائِلِ لَا تَجِدُ لَهُمْ وَجْهَةً أَضْلًا وَمِنْهَا أَنَّهُمْ يُخْلِقُونَ عَلَى الْبَلَهِ مِنْ أَوَّلِ نَشَأَتِهِمْ  
وَالْمَجَانِينُ يَعْزُضُ لَهُمُ الْجُنُونُ بَعْدَ مَدَّةٍ مِنَ الْعُمُرِ لِعَوَارِضٍ بَدَنِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ فَإِذَا  
عَرَضَ لَهُمْ ذَلِكَ وَفَسَدَتْ نَفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ ذَهَبُوا بِالْخَيْبَةِ وَمِنْهَا كَثْرَةُ تَصَرُّفِهِمْ فِي  
النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّفُونَ عَلَى إِذْنِ لِعَدَمِ التَّكْلِيفِ فِي حَقِّهِمْ وَالْمَجَانِينُ  
لَا تَصَرُّفُ لَهُمْ وَهَذَا فَضْلٌ أَنْتَهَى بِنَا الْكَلَامِ إِلَيْهِ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ لِلصَّوَابِ .

وَقَدْ يَزْعَمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هُنَا مَدَارِكَ <sup>(١)</sup> لِلْغَيْبِ مِنْ دُونِ غَيْبِهِ عَنِ الْحَسِّ  
فَمِنْهُمْ الْمُنْجَمُونَ الْقَائِلُونَ بِالذَّلَالَاتِ النُّجُومِيَّةِ وَمُقْتَضَى أَوْضَاعِهَا فِي الْفَلَكِ وَأَثَارِهَا  
فِي الْعَنَاصِرِ وَمَا يَخْضَلُ مِنَ الْإِمْتِزَاجِ بَيْنَ طِبَاعِهَا بِالتَّنَاطُرِ وَيَتَأَدَّى مِنْ ذَلِكَ  
الْمِزَاجِ إِلَى الْهَوَاءِ وَهَؤُلَاءِ الْمُنْجَمُونَ لَيْسُوا مِنَ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هِيَ ظُنُونٌ  
حَدْسِيَّةٌ وَتَخْمِينَاتٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّأثيرِ النُّجُومِيَّةِ وَحُصُولِ الْمِزَاجِ مِنْهُ لِلْهَوَاءِ مَعَ مَزِيدِ  
حَدْسٍ يَقِفُ بِهِ النَّاطِرُ عَلَى تَفْصِيلِهِ فِي الشَّخْصِيَّاتِ فِي الْعَالَمِ كَمَا قَالَهُ بَطْلِيمُوسُ  
وَنَحْنُ نُبَيِّنُ بَطْلَانَ ذَلِكَ فِي مَحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَهُوَ لَوْ ثُبَّتْ فَعَايَتُهُ حَدْسٌ وَتَخْمِينٌ  
وَلَيْسَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فِي شَيْءٍ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ الْعَامَّةِ اسْتَنْبَطُوا لِاسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ  
وَتَعْرِيفِ الْكَائِنَاتِ صِنَاعَةً سَمَّوْهَا خَطَّ الرُّمْلِ نِسْبَةً إِلَى الْمَادَّةِ الَّتِي يَصْعُونَ فِيهَا  
عَمَلَهُمْ وَمَحْصُولُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنَّهُمْ صَيَّرُوا مِنَ النُّقْطِ أَشْكَالًا ذَاتَ أَرْبَعِ مَرَاتِبٍ  
تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا فِي الرُّوحِيَّةِ وَالْفِرْدِيَّةِ وَاسْتَوَائِهَا فِيهِمَا فَكَانَتْ سِتَّةَ عَشَرَ

(١) كذا في جميع النسخ والكلمة ضعيفة والأصح أن يقال : قد يظن البعض أن هنا من يدرك الغيب .

فتنجم العبارة كلها .

شكلاً لأنها إن كانت أزواجاً كلها أو أفراداً كلها فشكلاً وإن كان الفرد فيهما في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وإن كان الفرد في مرتبتين فستة أشكال وإن كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال جاءت ستة عشر شكلاً ميزوها كلها بأسمائها وأنواعها إلى صعود ونحوس شأن الكواكب وجعلوا لها ستة عشر بيتاً طبيعياً بزعمهم وكانها البروج الاثنا عشر التي للفلك والأوتاد الأربعة وجعلوا لكل شكل منها بيتاً وخطوطاً<sup>(١)</sup> ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به واستنبطوا من ذلك فناً حادوا به فن النجامة ونوع فضائه إلا أن أحكام النجامة مستندة إلى أوضاع طبيعية كما يزعم بطليموس وهذه إنما مستندة أوضاع تخكيميّة وأهواء اتفاقية ولا دليل يقوم على شيء منها ويزعمون أن أصل ذلك من النبوات القديمة في العالم وربما نسبوها إلى دانيال أو إلى إدريس صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها وربما يدعون مشروعيّتها ويحتجون بقوله ﷺ : « كان نبيّ يخطُ فَمَنْ وافق خطه فذاك » وليس في الحديث دليل على مشروعيّة خط الرّمْل كما يزعمه بعض من لا تخصيل لديه لأن معنى الحديث كان نبيّ يخطُ فيأتيه الوحي عند ذلك الخط ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء فَمَنْ وافق خطه ذلك النبيّ فهو ذاك أي فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحي لذلك النبيّ الذي كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجرداً من غير موافقة وحي فلا وهذا معنى الحديث والله أعلم . فإذا أرادوا استخراج مغيّب بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضّعوا النقط سطوراً على عدد المراتب الأربع ثم كرّروا ذلك أربع مرات فتجيء ستة عشر سطرًا ثم يطرّحون النقط أزواجاً ويضعون ما بقي من كل سطر زوجاً كان أو فرداً في مرتبته على الترتيب فتجيء أربعة أشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما

(١) في بعض النسخ : خطوطاً .

قَابِلَهَا مِنَ الشُّكْلِ الَّذِي بِإِزَائِهِ وَمَا يَجْتَمِعُ مِنْهُمَا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ ثَمَانِيَةَ أَشْكَالٍ مَوْضُوعَةً فِي سَطْرٍ ثُمَّ يُوَلَّدُونَ مِنْ كُلِّ شَكْلَيْنِ شَكْلًا تَحْتَهُمَا بِإِعْتِبَارِ مَا يَجْتَمِعُ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ الشُّكْلَيْنِ أَيْضًا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ أَرْبَعَةً أُخْرَى تَحْتَهَا ثُمَّ يُوَلَّدُونَ مِنَ الْأَرْبَعَةِ شَكْلَيْنِ كَذَلِكَ تَحْتَهَا مِنَ الشُّكْلَيْنِ شَكْلًا كَذَلِكَ تَحْتَهُمَا ثُمَّ مِنْ هَذَا الشُّكْلِ الْخَامِسَ عَشَرَ مَعَ الشُّكْلِ الْأَوَّلِ شَكْلًا يَكُونُ آخَرَ السِّتَّةَ عَشَرَ ثُمَّ يَحْكُمُونَ عَلَى الْخَطِّ كُلِّهِ بِمَا اقْتَضَتْهُ أَشْكَالُهُ مِنَ السُّعُودَةِ وَالنُّحُوسَةِ بِالذَّاتِ وَالنَّظَرِ وَالْحُلُولِ وَالْإِمْتِزَاجِ وَالذَّلَالَةَ عَلَى أَصْنَافِ الْمَوْجُودَاتِ وَسَائِرِ ذَلِكَ تَحْكُمًا غَرِيبًا وَكَثُرَتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ فِي الْعُمَرَانِ وَوَضِعَتْ فِيهَا التَّالِيفُ وَاشْتَهَرَ فِيهَا الْأَعْلَامُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ تَحْكُمُ وَهَوَى وَالتَّحْقِيقُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نَضَبَ فِكْرِكَ أَنْ الْغُيُوبَ لَا تَذْرُكُ بِصِنَاعَةِ الْبَتَّةِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَعْرِفِهَا إِلَّا لِلْخَوَاصِّ مِنَ الْبَشَرِ الْمَفْطُورِينَ عَلَى الرَّجُوعِ مِنْ عَالَمِ الْحِسِّ إِلَى عَالَمِ الرُّوحِ وَلِذَلِكَ يُسَمَّى الْمُنْجَمُونَ هَذَا الصَّنْفَ كُلَّهُمْ بِالزُّهْرِيِّينَ نِسْبَةً إِلَى مَا تَقْتَضِيهِ دَلَالَةُ الزُّهْرَةِ بِرُغْمِهِمْ فِي أَصْلِ مَوَالِيدِهِمْ عَلَى إِذْرَاكِ الْغَيْبِ فَالْخَطُّ وَغَيْرُهُ مِنْ هَذِهِ إِنْ كَانَ النَّاطِرُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْخَاصِيَّةِ وَقَصَدَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ النُّقْطِ أَوْ الْعِظَامِ أَوْ غَيْرِهَا إِشْغَالَ الْحِسِّ لِتَرْجِعَ النَّفْسُ إِلَى عَالَمِ الرُّوحَانِيَّاتِ لِحَظَّةٍ مَا ، فَهُوَ مِنْ بَابِ الطَّرْقِ بِالْحَصَى وَالنَّظَرِ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْمَرَايَا الشُّفَافَةِ كَمَا ذَكَرْنَا . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا قَصَدَ مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَأَنَّهَا تُفِيدُهُ ذَلِكَ فَهَدَّرَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَاللَّهِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وَالْعَلَامَةُ لِهَذِهِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا أَهْلُ هَذَا الْإِذْرَاكِ الْغَيْبِيِّ أَنَّهُمْ عِنْدَ تَوَجُّهِهِمْ إِلَى تَعْرِفِ الْكَائِنَاتِ يَغْتَرِبُهُمْ خُرُوجُ عَنْ حَالَتِهِمِ الطَّبِيعِيَّةِ كَالْتِثَاوُبِ وَالتَّمْطِطِ وَمَبَادِيءِ الْغَيْبِيَّةِ عَنِ الْحِسِّ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِالْقُوَّةِ وَالضُّعْفِ عَلَى اخْتِلَافِ وُجُودِهَا فِيهِمْ فَمَنْ لَمْ تُوَجَدْ لَهُ هَذِهِ الْعَلَامَةُ فَلَيْسَ مِنْ إِذْرَاكِ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ سَاعٍ فِي تَنْفِيْقِ <sup>(١)</sup> كَذِيهِ .

## فصل

وَمِنْهُمْ طَوَائِفٌ يَضَعُونَ قَوَانِينَ لِاسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ لَيْسَتْ مِنْ الطُّورِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ مِنْ مَدَارِكِ النَّفْسِ الرُّوحَانِيَّةِ وَلَا مِنَ الْحَدْسِ الْمُبْنِيِّ عَلَى تَأْثِيرَاتِ النُّجُومِ كَمَا زَعَمَهُ بَطْلِيمُوسُ وَلَا مِنَ الظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ الَّذِي يُحَاوِلُ عَلَيْهِ الْعَرَّافُونَ وَإِنَّمَا هِيَ مَغَالِطٌ يَجْعَلُونَهَا كَالْمَصَائِدِ لِأَهْلِ الْعُقُولِ الْمُسْتَضْعَفَةِ وَلَسْتُ أَذْكَرُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُونَ وَوَلَعَ بِهِ الْخَوَاصُّ فَمِنْ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْحِسَابُ الَّذِي يُسَمُّونَهُ حِسَابَ النِّيمِ وَهُوَ مَذْكَورٌ فِي آخِرِ كِتَابِ السِّيَاسَةِ الْمُنْسُوبِ لِأَرِسْطُو يُعْرَفُ بِهِ الْغَالِبُ مِنَ الْمَغْلُوبِ فِي الْمُتَحَارِبِينَ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ أَنْ تُحَسَبَ الْحُرُوفُ الَّتِي فِي اسْمِ أَحَدِهِمَا بِحِسَابِ الْجَمَلِ الْمُصْطَلِحِ عَلَيْهِ فِي حُرُوفِ أُبْجَدٍ <sup>(١)</sup> مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى

(١) حساب الجمل المصطلح عليه في حروف أبجد هو أن لكل حرف من الحروف الهجائية رقماً خاصاً على

النحو الآتي :

أولاً : على طريقة المغاربة وهي الطريقة التي عنها ابن خلدون وسار عليها :

ا	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	الك	م	ن	ص	ع	ف	ض	ق	ر	س	ث	ت	خ	ذ	ظ	غ	ش	
١٠٠٠	٩٠٠	٨٠٠	٧٠٠	٦٠٠	٥٠٠	٤٠٠	٣٠٠	٢٠٠	١٠٠	٩٠	٨٠	٧٠	٦٠	٥٠	٤٠	٣٠	٢٠	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١

ثانياً : على طريقة المشاركة وهي الطريقة المشهورة في مصر والعراق وسورية وغيرها من البلاد العربية

الأخرى :

ا	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ظ	غ	
١٠٠٠	٩٠٠	٨٠٠	٧٠٠	٦٠٠	٥٠٠	٤٠٠	٣٠٠	٢٠٠	١٠٠	٩٠	٨٠	٧٠	٦٠	٥٠	٤٠	٣٠	٢٠	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١

ويستعمل حساب الجمل هذا المنجمون والذين يتعاطون تاريخ الاحداث التاريخية والوفيات والولادات

وما شاكل .

الألف آحاداً وَعَشْرَاتٍ وَمِئِينَ وَأَلُوفاً فَإِذَا حَسِبْتَ الإِسْمَ وَتَحَصَّلَ لَكَ مِنْهُ عَدَدٌ فَاحْسِبِ اسْمَ الآخِرِ كَذَلِكَ ثُمَّ اطْرَحْ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا تِسْعَةً تِسْعَةً وَاحْفَظْ بَقِيَّةَ هَذَا وَبَقِيَّةَ هَذَا ثُمَّ انظُرْ بَيْنَ العَدَدَيْنِ البَاقِيَيْنِ مِنْ حِسَابِ الإِسْمَيْنِ فَإِنْ كَانَ العَدَدَانِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي الكَمِّيَّةِ وَكَانَا مَعاً زَوْجَيْنِ أَوْ فَرْدَيْنِ مَعاً فَصَاحِبُ الأَقْلِ مِنْهُمَا هُوَ العَالِبُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا زَوْجاً وَالأَخرُ فَرْداً فَصَاحِبُ الأَكْثَرِ هُوَ العَالِبُ وَإِنْ كَانَ مَتَسَاوِيَيْنِ فِي الكَمِّيَّةِ وَهُمَا مَعاً زَوْجَانِ فَالمَطْلُوبُ هُوَ العَالِبُ وَإِنْ كَانَ مَعاً فَرْدَيْنِ فَالمَطْلُوبُ هُوَ العَالِبُ وَيُقَالُ هُنَالِكَ بَيِّنَانِ فِي هَذَا العَمَلِ اشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ وَهُمَا :

أَرَى الزَّوْجَ وَالأَفْرَادَ يَسْمُو أَقْلَهَا      وَأَكْثَرَهَا عِنْدَ التَّحَالُفِ غَالِبُ  
وَيُغْلَبُ مَطْلُوبٌ إِذَا الزَّوْجُ يَسْتَوِي      وَعِنْدَ اسْتِواءِ الفَرْدِ يُغْلَبُ طَالِبُ

ثُمَّ وَضَعُوا لِمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ الحُرُوفِ بَعْدَ طَرْحِهَا بِتِسْعَةِ قَانُوناً مَعْرُوفاً عِنْدَهُمْ فِي طَرْحِ تِسْعَةٍ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا الحُرُوفَ الدَّالَّةَ عَلَى الوَاحِدِ فِي المَرَاتِبِ الأَرْبَعِ وَهِيَ ( ا ) الدَّالَّةُ عَلَى الوَاحِدِ وَهِيَ : ( ي ) الدَّالَّةُ عَلَى العَشْرَةِ وَهِيَ وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ العَشْرَاتِ وَ ( ق ) الدَّالَّةُ عَلَى المِائَةِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ المِئِينَ وَ ( ش ) الدَّالَّةُ عَلَى الأَلْفِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الأَلْفِ وَلَيْسَ بَعْدَ الأَلْفِ عَدَدٌ يُدَلُّ عَلَيْهِ بِالحُرُوفِ لِأَنَّ الشَّيْنَ هِيَ آخِرُ حُرُوفِ أبجدِ ثُمَّ رَتَبُوا هَذِهِ الأَحْرَفَ الأَرْبَعَةَ عَلَى نَسَقِ المَرَاتِبِ فَكَانَ مِنْهَا كَلِمَةٌ رُبَاعِيَّةٌ وَهِيَ ( ايقش ) ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى اثْنَيْنِ فِي المَرَاتِبِ الثَّلَاثِ وَأَسْقَطُوا مَرْتَبَةَ الأَلْفِ مِنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ حُرُوفِ أبجدِ فَكَانَ مَجْمُوعُ حُرُوفِ الإِثْنَيْنِ فِي المَرَاتِبِ الثَّلَاثِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ وَهِيَ ( ب ) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي الآحَادِ وَ ( ك ) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي العَشْرَاتِ وَهِيَ عَشْرُونَ وَ ( ر ) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِي المِئِينَ وَهِيَ مِائَتَانِ وَصَيَّرُوهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً ثَلَاثِيَّةً عَلَى نَسَقِ المَرَاتِبِ وَهِيَ بَكَرٌ ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى ثَلَاثَةِ

فَنَشَأَتْ عَنْهَا كَلِمَةٌ جَلَسَ وَكَذَلِكَ إِلَى آخِرِ حُرُوفِ أَبْجَدٍ وَصَارَتْ تِسْعَ كَلِمَاتٍ نَهَائِيَّةٍ  
عَدَدِ الْأَحَادِ وَهِيَ اَيْقَشُ بِكَرِ جَلَسَ دَمَتْ هَنْثَ وَصَخَ زَعَدَ حَفْظَ طَضَعَ مُرْتَبَةً عَلَى  
تَوَالِي الْأَعْدَادِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا الَّذِي هِيَ فِي مُرْتَبَتِهِ فَالْوَاحِدُ لِكَلِمَةِ اَيْقَشِ  
وَالْإِثْنَانِ لِكَلِمَةِ بَكَرٍ وَالثَّلَاثَةِ لِكَلِمَةِ جَلَسَ وَكَذَلِكَ إِلَى التَّاسِعَةِ الَّتِي هِيَ طَضَعَ  
فَتَكُونُ لَهَا التَّسْعَةُ فَإِذَا أَرَادُوا طَرْحَ الْإِسْمِ بِتِسْعَةٍ نَظَرُوا كُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ فِي أَيِّ كَلِمَةٍ  
هُوَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَأَخَذُوا عَدَدَهَا مَكَانَهُ ثُمَّ جَمَعُوا الْأَعْدَادَ الَّتِي يَأْخُذُونَهَا بَدَلًا  
مِنْ حُرُوفِ الْإِسْمِ فَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى التَّسْعَةِ أَخَذُوا مَا فَضَلَ عَنْهَا وَإِلَّا أَخَذُوهُ كَمَا  
هُوَ ثُمَّ يَفْعَلُونَ كَذَلِكَ بِالْإِسْمِ الْآخَرَ وَيَنْظُرُونَ بَيْنَ الْخَارِجِينَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ وَالسَّرِّيَّ فِي  
هَذَا بَيِّنٌ وَذَلِكَ أَنَّ الْبَاقِيَّ مِنْ كُلِّ عَقْدٍ مِنْ عَقُودِ الْأَعْدَادِ بِطَرْحِ تِسْعَةٍ إِنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ  
فَكَأَنَّهُ يَجْمَعُ عَدَدَ الْعُقُودِ خَاصَّةً مِنْ كُلِّ مُرْتَبَةٍ فَصَارَتْ أَعْدَادُ الْعُقُودِ كَأَنَّهَا أَحَادٌ فَلَا  
فَرْقَ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ وَالْعِشْرِينَ وَالْمِائَتَيْنِ وَالْأَلْفَيْنِ وَكُلُّهَا اِثْنَانٌ وَكَذَلِكَ الثَّلَاثَةُ  
وَالثَّلَاثُونَ وَالثَّلَاثِمِائَةُ وَالثَّلَاثَةُ الْآلَافِ كُلُّهَا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ فَوُضِعَتْ الْأَعْدَادُ عَلَى التَّوَالِي  
دَائِلَةً عَلَى أَعْدَادِ الْعُقُودِ لَا غَيْرَ وَجُعِلَتْ الْحُرُوفُ الدَّالَّةُ عَلَى أَصْنَافِ الْعُقُودِ فِي كُلِّ  
كَلِمَةٍ مِنَ الْأَحَادِ وَالْعِشْرَاتِ وَالْمِئِينَ وَالْأَلُوفِ <sup>(١)</sup> وَصَارَ عَدَدُ الْكَلِمَةِ الْمَوْضُوعِ عَلَيْهَا  
نَائِبًا عَنْ كُلِّ حَرْفٍ فِيهَا سِوَاءَ ذَلِكَ عَلَى الْأَحَادِ أَوِ الْعِشْرَاتِ أَوِ الْمِئِينَ فَيُؤْخَذُ عَدَدُ كُلِّ  
كَلِمَةٍ عِوَضًا مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي فِيهَا وَتُجْمَعُ كُلُّهَا إِلَى آخِرِهَا كَمَا قُلْنَا هَذَا هُوَ الْعَمَلُ  
الْمُتَدَاوِلُ بَيْنَ النَّاسِ مُنْذُ الْأَمْرِ الْقَدِيمِ وَكَانَ بَعْضُ مَنْ لَقِينَاهُ مِنْ شَيْوَحْنَا يَرَى أَنَّ  
الصَّحِيحَ فِيهَا كَلِمَاتٌ أُخْرَى تِسْعَةٌ مَكَانَ هَذِهِ وَمُتَوَالِيَةٌ كَتَوَالِيهَا وَيَفْعَلُونَ بِهَا فِي  
الطَّرْحِ بِتِسْعَةٍ مِثْلَ مَا يَفْعَلُونَهُ بِالْأُخْرَى سِوَاءَ وَهِيَ هَذِهِ اَرْبَ يَسْقُكُ جَزَلْطُ  
مَدُوصُ هَفُ تَحْذَنُ عَشُ خَعُ نِضْظُ تِسْعُ كَلِمَاتٌ عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا

(١) قوله الألو ف فيه نظر لأن الحروف ليس فيها ما يزيد عن الألف كما سبق في كلامه (الهوري في طبعة بولاقي) وعلق د. علي عبد الواحد وافي على قولهوري: «وقد أورد ابن خلدون كلمة الألو ف بالجمع للمشاكله مع قوله الأحاد والعشرات والمئين. وإن لم يكن في الحروف الألف واحد».



عَدَدَهَا الَّذِي فِي مَرْتَبَتِهِ فِيهَا الثَّلَاثِيُّ وَالرُّبَاعِيُّ وَالشَّنَائِيُّ وَلَيْسَتْ جَارِيَةً عَلَى أَصْلٍ  
مُطَرَّدٍ كَمَا تَرَاهُ لَكِنْ كَانَ شَيْوَحْنَا يَنْقَلُونَهَا عَنْ شَيْخِ الْمَغْرِبِ فِي هَذِهِ الْمَعَارِفِ مِنَ  
السِّمِيَاءِ وَأَسْرَارِ الْحُرُوفِ وَالنَّجَامَةِ وَهُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنِ الْبِنَاءِ وَيَقُولُونَ عَنْهُ أَنَّ  
الْعَمَلَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي طَرَحِ حِسَابِ النِّيمِ أَصْحَ مِنْ الْعَمَلِ بِكَلِمَاتِ ائِشِ وَاللَّهِ  
يَعْلَمُ كَيْفَ ذَلِكَ وَهَذِهِ كُلُّهَا مَدَارِكٌ لِلْغَيْبِ غَيْرَ مَعْرُوفٍ إِلَى أَرْسَطُو عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ لِمَا  
فِيهِ مِنَ الْآرَاءِ الْبَعِيدَةِ عَنِ التَّحْقِيقِ وَالْبُرْهَانِ يَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ تَصَفُّحُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ  
أَهْلِ الرُّسُوحِ ١ هـ . وَمِنْ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الصَّنَاعِيَّةِ لِاسْتِخْرَاجِ الْغُيُوبِ فِيمَا يَزْعُمُونَ  
الزَّايِرِجَةَ الْمَسْمُوءَةَ « بَزَايِرِجَةُ الْعَالِمِ » الْمَعْرُوءَةَ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ سَيِّدِي أَحْمَدَ  
السَّبْتِيَّ مِنْ أَعْلَامِ الْمُتَّصِفَةِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ بِمَرَكَشَ وَلِعَهْدِ  
أَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ مِنْ مُلُوكِ الْمُوَحِّدِينَ وَهِيَ غَرِيبَةٌ الْعَمَلِ صِنَاعَةٌ . وَكَثِيرٌ مِنْ  
الْخَوَاصِّ يُوَلَّعُونَ بِإِفَادَةِ الْغَيْبِ مِنْهَا بِعَمَلِهَا الْمَعْرُوفِ الْمَلْفُوزِ فَيُحَرِّضُونَ بِذَلِكَ  
عَلَى حَلِّ رَمْزِهِ وَكَشْفِ غَامِضِهِ . وَصُورَتِهَا الَّتِي يَقَعُ الْعَمَلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ  
فِي دَاخِلِهَا دَوَائِرٌ مُتَوَازِيَةٌ لِلْأَفْلَاقِ وَالْعُنَاصِرِ وَالْمُكُونَاتِ وَالرُّوْحَانِيَّاتِ وَغَيْرُ ذَلِكَ  
مِنْ أَصْنَافِ الْكَائِنَاتِ وَالْعُلُومِ وَكُلُّ دَائِرَةٍ مَقْسُومَةٌ بِأَقْسَامٍ فَلِكِهَا إِمَّا الْبُرُوجُ وَإِمَّا  
الْعُنَاصِرُ أَوْ غَيْرُهُمَا وَخُطُوطٌ كُلُّ قِسْمٍ مَارَّةٌ إِلَى الْمَرْكَزِ وَيُسَمُّونَهَا الْأُوتَارَ وَعَلَى كُلِّ  
وَتَرِ حُرُوفٌ مُتَتَابِعَةٌ مَوْضُوعَةٌ فَمِنْهَا بَرُشُومٌ <sup>(١)</sup> الزَّمَامُ الَّتِي هِيَ أَشْكَالُ الْأَعْدَادِ عِنْدَ  
أَهْلِ الدَّوَاوِينِ وَالْحُسَابِ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمِنْهَا بَرُشُومُ الْغُبَارِ الْمُتَعَارَفَةِ فِي  
دَاخِلِ الزَّايِرِجَةِ وَبَيْنَ الدَّوَائِرِ أَسْمَاءُ الْعُلُومِ وَمَوَاضِعُ الْأَكْوَانِ وَعَلَى ظَاهِرِ الدَّوَائِرِ  
جَدُولٌ مُتَكَثَرُ الْبُيُوتِ الْمُتَقَاطِعَةِ طُولًا وَعَرْضًا يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةِ وَخَمْسِينَ بَيْتًا فِي  
الْعَرْضِ وَمِائَةٍ وَوَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ فِي الطُّولِ جَوَانِبٌ مِنْهُ مَعْمُورَةٌ الْبُيُوتِ تَارَةً بِالْعَدَدِ

(١) قوله برشوم أي موضوعة بضم الراء جمع رشم بالشين المعجمة ١ هـ . ومعنى رشم : كتب . والرشم الكتابة والشكل . ومعنى رسوم الزمام : أشكال الأعداد المستعملة في الغرب . وبرشوم الغبار : أشكال الأرقام الهندية المصطلح عليها في الشرق .

وَأُخْرَى بِالْحُرُوفِ وَجَوَانِبِ خَالِيَةِ الْبَيْوتِ وَلَا تَعْلَمُ نِسْبَةَ تِلْكَ الْأَعْدَادِ فِي أَوْضَاعِهَا وَلَا الْقِسْمَةَ الَّتِي عَيَّنَتْ الْبَيْوتَ الْعَامِرَةَ مِنَ الْخَالِيَةِ وَحَافَاتِ الزَّايِرَةِ أُنْيَاتٍ مِنْ عُرُوضِ الطُّوبِيلِ عَلَى رُويِّ اللَّامِ الْمَنْصُوبَةِ تَتَضَمَّنُ صُورَةَ الْعَمَلِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَطْلُوبِ مِنْ تِلْكَ الزَّايِرَةِ إِلَّا أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْإِنْفَازِ فِي عَدَمِ الْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ وَفِي بَعْضِ جَوَانِبِ الزَّايِرَةِ بَيِّنَةٌ مِنَ الشُّعْرِ مَنْسُوبٍ لِبَعْضِ أَكْبَابِ أَهْلِ الْحَدِيثَانِ <sup>(١)</sup> بِالْمَغْرِبِ وَهُوَ مَالِكُ بْنِ وَهَيْبٍ مِنْ عُلَمَاءِ أَشْجَلِيَّةٍ كَانَتْ فِي الدَّوْلَةِ الْفُتُوْنِيَّةِ وَنَصُّ الْبَيِّنَةِ:

سُؤَالَ عَظِيمِ الْخَلْقِ حُرَّتْ فَضُنْ إِذَنْ      غَرَائِبُ شَكَّ ضَبْطُهُ الْجِدُّ مَثَلًا

وَهُوَ الْبَيِّنَةُ الْمَتَدَاوِلُ عِنْدَهُمْ فِي الْعَمَلِ لِاسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ السُّؤَالِ فِي هَذِهِ الزَّايِرَةِ وَغَيْرِهَا فَإِذَا أَرَادُوا اسْتِخْرَاجَ الْجَوَابِ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مِنَ الْمَسَائِلِ كَتَبُوا ذَلِكَ السُّؤَالَ وَقَطَعُوهُ حُرُوفًا ثُمَّ أَخَذُوا الطَّلَاعَ لِذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ بُرُوجِ الْفَلَكَ وَدَرَجَاتِهَا وَعَمَدُوا إِلَى الزَّايِرَةِ ثُمَّ إِلَى الْوَتْرِ الْمَكْتَنَفِ فِيهَا بِالْبُرْجِ الطَّلَاعِ مِنْ أَوَّلِهِ مَا رَأَى إِلَى الْمَرْكَزِ ثُمَّ إِلَى مُحِيطِ الدَّائِرَةِ قِبَالَةَ الطَّلَاعِ فَيَأْخُذُونَ جَمِيعَ الْحُرُوفِ الْمَكْتُوبَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَالْأَعْدَادَ الْمَرْسُومَةَ بَيْنَهُمَا وَيُصَيِّرُونَهَا حُرُوفًا بِحَسَابِ الْجُمْلِ وَقَدْ يَنْقُلُونَ آخِذًا إِلَى الْعَشْرَاتِ وَعَشْرَاتِهَا إِلَى الْمِئِينَ وَبِالْعَكْسِ فِيهَا كَمَا يَقْتَضِيهِ قَانُونُ الْعَمَلِ عِنْدَهُمْ وَيَضْعُونَهَا مَعَ حُرُوفِ السُّؤَالِ وَيُضَيِّفُونَ إِلَى ذَلِكَ جَمِيعَ مَا عَلَى الْوَتْرِ الْمَكْتَنَفِ بِالْبُرْجِ الثَّلَاثِ مِنَ الطَّلَاعِ مِنَ الْحُرُوفِ وَالْأَعْدَادِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى الْمَرْكَزِ فَقَطُّ لَا يَتَجَاوِزُونَهُ إِلَى الْمُحِيطِ وَيَفْعَلُونَ بِالْأَعْدَادِ مَا فَعَلُوهُ بِالْأَوَّلِ وَيُضَيِّفُونَهَا إِلَى الْحُرُوفِ الْأُخْرَى ثُمَّ يَقْطَعُونَ حُرُوفَ الْبَيِّنَةِ الَّتِي هُوَ أَصْلُ الْعَمَلِ وَقَانُونُهُ عِنْدَهُمْ وَهُوَ بَيِّنَةُ مَالِكِ بْنِ وَهَيْبِ الْمَقْدَمِ وَيَضْعُونَهَا نَاحِيَةً ثُمَّ يَضْرِبُونَ عَدَدَ دَرَجِ الطَّلَاعِ فِي أَسِّ الْبُرْجِ وَأَسُّهُ عِنْدَهُمْ هُوَ بَعْدَ الْبُرْجِ عَنْ آخِرِ الْمَرَاتِبِ عَكْسَ مَا عَلَيْهِ الْأَسُّ عِنْدَ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْحِسَابِ فَإِنَّهُ عِنْدَهُمْ الْبُعْدُ عَنْ أَوَّلِ الْمَرَاتِبِ ثُمَّ

(١) أي إنه من كبار المحدثين والمخبرين عما يخبئه الغيب من أحداث الدهر وشؤون المستقبل.

يَضْرِبُونَهُ فِي عَدَدٍ آخَرَ يُسَمُّونَهُ الْأَسَّ الْأَكْبَرَ وَالذُّورَ الْأَصْلِيَّ وَيُدْخِلُونَ بِمَا تَجَمَّعَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ فِي بَيِّنَاتِ الْجَدْوَلِ عَلَى قَوَانِينٍ مَعْرُوفَةٍ وَأَعْمَالٍ مَذْكُورَةٍ وَأَدْوَارٍ مَعْدُودَةٍ وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا حُرُوفًا وَيُسْقِطُونَ أُخْرَى وَيَقَابِلُونَ بِمَا مَعَهُمْ فِي حُرُوفِ الْبَيْتِ وَيَنْقُلُونَ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَ إِلَى حُرُوفِ السُّؤَالِ وَمَا مَعَهَا ثُمَّ يَطْرَحُونَ تِلْكَ الْحُرُوفَ بِأَعْدَادٍ مَعْلُومَةٍ يُسَمُّونَهَا الْأَدْوَارَ وَيُخْرِجُونَ فِي كُلِّ ذَوْرٍ الْحَرْفَ الَّذِي يَنْتَهِي عِنْدَهُ الذُّورُ وَيَعَاوِدُونَ ذَلِكَ بِعَدَدِ الْأَدْوَارِ الْمُعَيَّنَةِ عِنْدَهُمْ لِذَلِكَ فَيَخْرِجُ آخَرَهَا حُرُوفَ مَقْطَعَةٍ وَتَوَلَّفَ عَلَى التَّوَالِي فَتَصِيرُ كَلِمَاتٍ مَنْظُومَةٌ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ عَلَى وَزْنِ الْبَيْتِ الَّذِي يُقَابَلُ بِهِ الْعَمَلُ وَرَوِيهِ وَهُوَ بَيْتُ مَالِكِ ابْنِ وَهَيْبِ الْمَقْدَمِ حَسْبَمَا نَذَكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي فَضْلِ الْعُلُومِ عِنْدَ كَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ بِهَذِهِ الزَّايِرَةِ وَقَدْ رَأَيْنَا كَثِيرًا مِنَ الْخَوَاصِّ يَتَهَافَتُونَ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ مِنْهَا بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ وَيَحْسِبُونَ أَنَّ مَا وَقَعَ مِنْ مُطَابَقَةِ الْجَوَابِ لِلسُّؤَالِ فِي تَوَافُقِ الْخِطَابِ دَلِيلٌ عَلَى مُطَابَقَةِ الْوَاقِعِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنَّ الْغَيْبَ لَا يُدْرِكُ بِأَمْرِ صِنَاعِي الْبَيْتَةِ وَإِنَّمَا الْمُطَابَقَةُ الَّتِي فِيهَا بَيْنَ الْجَوَابِ وَالسُّؤَالِ مِنْ حَيْثُ الْإِفْهَامِ وَالتَّوَافُقِ فِي الْخِطَابِ حَتَّى يَكُونَ الْجَوَابُ مُسْتَقِيمًا أَوْ مُوَافِقًا لِلسُّؤَالِ وَوُقُوعُ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي تَكْسِيرِ الْحُرُوفِ الْمُجْتَمِعَةِ مِنَ السُّؤَالِ وَالْأَوْتَارِ وَالذُّخُولِ فِي الْجَدْوَلِ بِالْأَعْدَادِ الْمُجْتَمِعَةِ مِنْ ضَرْبِ الْأَعْدَادِ الْمَفْرُوضَةِ وَاسْتِخْرَاجِ الْحُرُوفِ مِنَ الْجَدْوَلِ بِذَلِكَ وَطَرَحُ أُخْرَى وَمَعَاوِدَةٌ ذَلِكَ فِي الْأَدْوَارِ الْمَعْدُودَةِ وَمُقَابَلَةٌ ذَلِكَ كُلِّهِ بِحُرُوفِ الْبَيْتِ عَلَى التَّوَالِي غَيْرُ مُسْتَنَكِرٍ وَقَدْ يَقَعُ الْإِطْلَاعُ مِنْ بَعْضِ الْأَذْكِيَاءِ عَلَى تَنَاسُبِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَيَقَعُ لَهُ مَعْرِفَةُ الْمَجْهُولِ فَالتَّنَاسُبُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ هُوَ سَبَبُ الْحُصُولِ عَلَى الْمَجْهُولِ مِنَ الْمَعْلُومِ الْحَاصِلِ لِلنَّفْسِ وَطَرِيقَ لِحُصُولِهِ سَيِّمًا مِنْ أَهْلِ الرِّيَاضَةِ فَإِنَّهَا تُفِيدُ الْعَقْلَ قُوَّةً عَلَى الْقِيَاسِ وَزِيَادَةً فِي الْفِكْرِ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَمِنْ أَجْلِ هَذَا الْمَعْنَى يَنْسِبُونَ هَذِهِ الزَّايِرَةَ فِي الْغَالِبِ لِأَهْلِ الرِّيَاضَةِ فِيهَا مَنْسُوبَةٌ لِلسُّنِّيِّ وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى أُخْرَى مَنْسُوبَةٍ لِسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَلَعَمْرِي إِنَّهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ

وَالْمَعَانَاةُ <sup>(١)</sup> الْعَجِيبَةُ وَالْجَوَابُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهَا فَالْسُرُّ فِي خُرُوجِهِ مَنْظُومًا يَظْهَرُ لِي إِنَّمَا هُوَ الْمَقَابَلَةُ بِحُرُوفِ ذَلِكَ الْبَيْتِ وَلِهَذَا يَكُونُ النُّظْمُ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَا وَجَدْنَا أَعْمَالًا أُخْرَى لَهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ اسْتَقَطُوا فِيهَا الْمَقَابَلَةَ بِالْبَيْتِ فَلَمْ يَخْرُجِ الْجَوَابُ مَنْظُومًا كَمَا تَرَاهُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ تَضَيَّقُ مَدَارِكُهُمْ عَنِ التَّصْدِيقِ بِهَذَا الْعَمَلِ وَنَفُودِهِ إِلَى الْمَطْلُوبِ فَيُنْكِرُ صِحَّتَهَا وَيَعْصِبُ أَنَّهَا مِنَ التَّخِيلَاتِ وَالْإِيهَامَاتِ وَأَنْ صَاحِبَ الْعَمَلِ بِهَا يُثَبِّتُ حُرُوفَ الْبَيْتِ الَّذِي يَنْظِمُهُ كَمَا يُرِيدُ بَيْنَ أَثْنَاءِ حُرُوفِ السُّؤَالِ وَالْأَوْتَارِ وَيَفْعَلُ تِلْكَ الصَّنَاعَاتِ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَلَا قَانُونَ ثُمَّ يَجِيءُ بِالْبَيْتِ وَيُوهِمُ أَنَّ الْعَمَلَ جَاءَ عَلَى طَرِيقَةٍ مَنْضَبَةٍ وَهَذَا الْحُسْبَانُ تَوَهُمٌ فَاسِدٌ حَمَلَ عَلَيْهِ الْقُصُورُ عَنْ فَهْمِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالتَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمَدَارِكِ وَالْعُقُولِ وَلَكِنْ مِنْ شَأْنِ كُلِّ مَذْرُوعٍ إِنْكَارُ مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِ إِذْرَاكُهُ وَيَكْفِينَا فِي رَدِّ ذَلِكَ مُشَاهَدَةُ الْعَمَلِ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَالْحَدْسُ الْقَطْعِيُّ فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِعَمَلٍ مُطَرِّدٍ وَقَانُونٍ صَحِيحٍ لَا مِرْيَةَ فِيهِ عِنْدَ مَنْ يُبَاشِرُ ذَلِكَ مِمَّنْ لَهُ ذَكَاةٌ وَحَدْسٌ وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَعَايَاةِ فِي الْعَدَدِ الَّذِي هُوَ أَوْضَحُ الْوَاضِحَاتِ يَعْسُرُ عَلَى الْفَهْمِ إِذْرَاكُهُ لِبُعْدِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَخَفَائِهَا فَمَا ظَنُّكَ يُمَثِّلُ هَذَا مَعَ خِفَاءِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَغَرَاتِهَا فَلْنَذَكُرْ مَسْئَلَةً مِنَ الْمَعَايَاةِ يَتَضَحُّ لَكَ بِهَا شَيْءٌ مِمَّا ذَكَّرْنَا مِثَالَهُ لَوْ قِيلَ لَكَ خُذْ عَدَدًا مِنَ الدَّرَاهِمِ وَاجْعَلْ بِإِزَاءِ كُلِّ دِرْهَمٍ ثَلَاثَةً مِنَ الْفُلُوسِ ثُمَّ اجْمَعْ الْفُلُوسَ الَّتِي أَخَذْتَ وَاشْتَرِ بِهَا طَائِرًا ثُمَّ اشْتَرِ بِالدَّرَاهِمِ كُلِّهَا طَيُورًا بِسِعْرِ ذَلِكَ الطَّائِرِ فَكَمْ الطَّيُورُ الْمُشْتَرَاةُ بِالدَّرَاهِمِ فَجَوَابُهُ أَنْ تَقُولَ هِيَ تِسْعَةٌ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ فُلُوسَ الدَّرَاهِمِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ وَأَنَّ الثَّلَاثَةَ تُثَمَّنُهَا وَأَنَّ عِدَّةَ أَثْمَانِ الْوَاحِدِ ثَمَانِيَّةٌ فَإِذَا جَمَعْتَ الثَّمَنَ مِنَ الدَّرَاهِمِ إِلَى الثَّمَنِ الْآخِرِ فَكَانَ كُلُّهُ ثَمَنَ طَائِرٍ فِيهِ ثَمَانِيَّةٌ طَيُورٍ عِدَّةُ أَثْمَانِ الْوَاحِدِ وَتَزِيدُ عَلَى الثَّمَانِيَّةِ طَائِرًا آخَرَ وَهُوَ الْمُشْتَرَى بِالْفُلُوسِ الْمَأْخُودَةِ أَوَّلًا وَعَلَى سِعْرِهِ اشْتَرَيْتَ بِالدَّرَاهِمِ فَتَكُونُ تِسْعَةٌ فَأَنْتَ تَرَى

(١) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ . « وَلَعَلَّهَا مُحَرَّفَةٌ عَنِ ( الْمَعَايَاةِ ) وَهُوَ الْإِتْيَانُ بِكَلَامٍ لَا يَهْتَدِي كُلُّهُ هَكَذَا يَقْتَضِي

سِيَاقَ الْكَلَامِ » .

كَيْفَ خَرَجَ لَكَ الْجَوَابُ الْمُضْمَرُ بِسِرِّ التَّنَاسُبِ الَّذِي بَيْنَ أَعْدَادِ الْمَسْئَلَةِ وَالْوَهْمِ أَوَّلُ مَا يُلْقَى إِلَيْكَ هَذِهِ وَأَمْثَالُهَا إِنَّمَا يَجْعَلُهُ مِنْ قَبِيلِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ وَظَهَرَ أَنَّ التَّنَاسُبَ بَيْنَ الْأُمُورِ هُوَ الَّذِي يُخْرِجُ مَجْهُولَهَا مِنْ مَعْلُومِهَا وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ فِي الْوَاقِعَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي الْوُجُودِ أَوْ الْعِلْمِ وَأَمَّا الْكَائِنَاتُ الْمُسْتَقْبَلَةُ إِذَا لَمْ تُعْلَمْ أَسْبَابُ وَقُوعِهَا وَلَا يَثْبُتَ لَهَا خَبْرٌ صَادِقٌ عَنْهَا فَهُوَ غَيْبٌ لَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذَلِكَ فَلَا أَعْمَالَ الْوَاقِعَةِ فِي الزَّائِرَةِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ الْفَاطِظِ السُّؤَالِ لِأَنَّهَا كَمَا رَأَيْتَ اسْتِنْبَاطَ حُرُوفٍ عَلَى تَرْتِيبٍ مِنْ تِلْكَ الْحُرُوفِ بِعَيْنِهَا عَلَى تَرْتِيبٍ آخَرَ وَسِرٌّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَنَاسُبِ بَيْنَهُمَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ بَعْضٌ دُونَ بَعْضٍ فَمَنْ عَرَفَ ذَلِكَ التَّنَاسُبَ تَيَسَّرَ عَلَيْهِ اسْتِخْرَاجُ ذَلِكَ الْجَوَابِ بِتِلْكَ الْقَوَانِينِ وَالْجَوَابُ يَدُلُّ فِي مَقَامٍ آخَرَ مِنْ حَيْثُ مَوْضُوعُ الْفَاطِظِ وَتَرَكَيبِهِ عَلَى وَقُوعِ أَحَدِ طَرَفِي السُّؤَالِ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ بَلْ إِنَّمَا يَرْجِعُ لِمَطَابَقَةِ الْكَلَامِ لِمَا فِي الْخَارِجِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ بَلِ الْبَشَرُ مَحْجُوبُونَ عَنْهُ وَقَدْ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ يَعْلَمِهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

## الباب الثاني

في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في

ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات

### الفصل الأول

في أن أجيال البدو والحضر طبيعية

إِغْلَمَ أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَجْيَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ نِخْلَتِهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ فَإِنَّ اجْتِمَاعَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّعَاوُنِ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَالْإِتِّدَاءِ بِمَا هُوَ ضَرُورِيٌّ مِنْهُ وَنَشِيطٌ قَبْلَ الْحَاجِي وَالْكَمَالِي فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْمِلُ الْفُلْحَ مِنَ الْغِرَاسَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ

يَنْتَجِلُ الْقِيَامَ عَلَى الْحَيَوَانِ مِنَ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالْمَعَزِ وَالنَّخْلِ وَالذُّودِ لِتَنَاجِيهَا  
وَأَسْتِخْرَاجِ فَضْلَاتِهَا وَهَؤُلَاءِ الْقَائِمُونَ عَلَى الْفُلُجِ وَالْحَيَوَانِ تَدْعُوهُمْ الضَّرُورَةُ وَلَا بُدَّ  
إِلَى الْبَدْوِ لِأَنَّهُ مُتَّسِعٌ لِمَا لَا يَتَّسِعُ لَهُ الْحَوَاضِرُ مِنَ الْمَزَارِعِ وَالْفُدُنِ <sup>(١)</sup> وَالْمَسَارِحِ  
لِلْحَيَوَانِ وَعَبِيرَ ذَلِكَ فَكَانَ اخْتِصَاصُ هَؤُلَاءِ بِالْبَدْوِ أَمْرًا ضَرُورِيًّا لَهُمْ وَكَانَ حِينَئِذٍ  
اجْتِمَاعُهُمْ وَتَعَاوُنُهُمْ فِي حَاجَاتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَعَمْرَانِهِمْ مِنَ الْقَوْتِ وَالْكَيْنِ وَالذَّفءِ إِنَّمَا  
هُوَ بِالْمِقْدَارِ الَّذِي يَحْفَظُ الْحَيَاةَ وَيَحْصُلُ بُلْغَةَ الْعَيْشِ مِنْ غَيْرِ مَزِيدٍ عَلَيْهِ لِلْمَعْجَزِ  
عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ ثُمَّ إِذَا اتَّسَعَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ الْمُنتَحِلِينَ لِلْمَعَاشِ وَحَصَلَ لَهُمْ مَا فَوْقَ

الْحَاجَةِ مِنَ الْغِنَى وَالرَّفَةِ دَعَاهُمْ ذَلِكَ إِلَى السُّكُونِ وَالذَّعَةِ وَتَعَاوَنُوا فِي الزَّائِدِ عَلَى  
الضَّرُورَةِ وَاسْتَكْتَفَوْا مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالتَّائِقِ فِيهَا وَتَوَسَّعَ الْبُيُوتِ وَاخْتِطَاطِ  
الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ لِلتَّحَضُّرِ ثُمَّ تَرِيدُ أَحْوَالُ الرَّفَةِ وَالذَّعَةِ فَتَجِيءُ عَوَائِدُ التَّرَفِ الْبَالِغَةِ  
مَبَالِغَهَا فِي التَّائِقِ فِي عِلَاجِ الْقَوْتِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَابِخِ وَانْتِقَاءِ الْمَلَابِسِ الْفَاحِشَةِ فِي  
أَنْوَاعِهَا مِنَ الْحَرِيرِ وَالذَّبِيحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَمُعَالَاةِ الْبُيُوتِ وَالصُّرُوحِ وَإِحْكَامِ وَضْعِهَا  
فِي تَنْجِيدِهَا <sup>(٢)</sup> وَالْإِنْتِهَاءِ فِي الصَّنَائِعِ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِلَى غَايَتِهَا  
فَيَتَّخِذُونَ الْقُصُورَ وَالْمَنَازِلَ وَيُجْرُونَ فِيهَا الْمِيَاهَ وَيُعَالُونَ فِي صَرْحِهَا وَيُبَالِغُونَ فِي  
تَنْجِيدِهَا وَيَخْتَلِفُونَ فِي اسْتِجَادَةِ مَا يَتَّخِذُونَهُ لِمَعَاشِهِمْ مِنْ مَلْبُوسٍ أَوْ فِرَاشٍ أَوْ آتِيَةٍ أَوْ  
مَاعُونٍ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْحَضَرُ وَمَعْنَاهُ الْحَاضِرُونَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ وَالْبُلْدَانِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ  
يَنْتَجِلُ فِي مَعَاشِهِ الصَّنَائِعَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَجِلُ التَّجَارَةَ وَتَكُونُ مَكَاسِيَهُمْ أُنْمَى وَأَرْفَهُ  
مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ وَمَعَاشُهُمْ عَلَى نِسْبَةِ وَجْدِهِمْ فَقَدْ  
تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا .

(١) الفدن : ج فدان ، مزرعة ( منجد )

(٢) ترتيبها وتزيينها .

## الفصل الثاني

### في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي

قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْفَضْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ هُمْ الْمُنتَحِلُونَ لِلْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ مِنَ الْفَلْحِ وَالْقِيَامِ عَلَى الْأَنْعَامِ وَأَنَّهُمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِينِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ وَمُقْتَصِرُونَ عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَالِيٍّ يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ مِنَ الشَّعْرِ وَالْوَبْرِ أَوْ الشَّجَرِ أَوْ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ غَيْرَ مُنْجِدَةٍ إِنَّمَا هُوَ قَضُؤُ الْإِسْتِظْلَالِ وَالْكَيْنَ لَا مَا وَرَاءَهُ وَقَدْ يَأْوُونَ إِلَى الْغَيْرَانِ<sup>(١)</sup> وَالْكُهُوفِ وَأَمَّا أَقْوَاتُهُمْ فَيَتَنَاوَلُونَ بِهَا يَسِيرًا بِعِلَاجٍ أَوْ بِغَيْرِ عِلَاجِ الْبَتَّةِ إِلَّا مَا مَسَّتْهُ النَّارُ فَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ مِنْهُمْ فِي الزَّرَاعَةِ وَالْقِيَامِ بِالْفَلْحِ كَانَ الْمَقَامُ بِهِ أَوْلَى مِنَ الطَّغْنِ وَهَؤُلَاءِ سُكَّانُ الْمَدَرِ وَالْقُرَى وَالْجِبَالِ وَهُمْ عَامَّةُ الْبَرْبَرِ وَالْأَعَاجِمِ وَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ فِي السَّائِمَةِ مِثْلَ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ فَهُمْ طَغْنٌ فِي الْأَغْلِبِ لِارْتِيَادِ الْمَسَارِحِ وَالْمِيَاهِ لِحَيَوَانَاتِهِمْ فَالتَّقَلُّبُ فِي الْأَرْضِ أَضْلَحُ بِهِمْ وَيَسْمُونَ شَاوِيَةً وَمَعْنَاهُ الْقَائِمُونَ عَلَى الشَّاءِ وَالْبَقَرِ وَلَا يُبْعَدُونَ فِي الْقَفْرِ لِفَقْدَانِ الْمَسَارِحِ الطَّبِيعِيَّةِ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ الْبَرْبَرِ وَالْتُرْكِ وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ التَّرْكْمَانِ وَالصَّقَالِيَّةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشُهُمْ فِي الْإِبْلِ فَهُمْ أَكْثَرُ طَغْنًا وَأَبْعَدُ فِي الْقَفْرِ مَجَالًا لِأَنَّ مَسَارِحَ التَّلُولِ وَنَبَاتَهَا وَشَجَرَهَا لَا يَسْتَفْنِي بِهَا الْإِبِلُ فِي قَوَامِ حَيَاتِهَا عَنْ مَرَاعِي الشَّجَرِ بِالْقَفْرِ وَوُرُودِ مِيَاهِهِ الْمِلْحَةِ<sup>(٢)</sup> وَالتَّقَلُّبُ فَضْلُ الشَّاءِ فِي نَوَاحِيهِ فَرَارًا مِنْ أَدَى الْبُرْدِ إِلَى دِفءِ هَوَائِهِ وَطَلْبًا لِمَا خَصِ النَّتَاجِ فِي رِمَالِهِ إِذِ الْإِبِلُ أَضْعَبُ الْحَيَوَانَ فَصَلَا

(١) الغور: ما انحدر واطمأن من الأرض وجمعها مغاور ومغارات. وهذا مقتضى السياق. وقد استعمل

ابن خلدون الغيران بهذا المعنى. والأصح مغاور أو مغارات.

(٢) يقال: أملح الماء: صار «ملحاً» بعد أن كان عذبا (قاموس).

وَمَخَاضاً وَأَخْوَجَهَا فِي ذَلِكَ إِلَى الدَّفءِ فَاضْطَرُّوا إِلَى إِبْعَادِ النُّجْمَةِ وَرُبَّمَا زَادَتْهُمْ  
الْحَامِيَّةُ عَنِ التَّلْوْلِ أَيْضاً فَأَوْغَلُوا فِي القِفَارِ نَفْرَةً عَنِ الضَّعَةِ مِنْهُمْ فَكَانُوا لِذَلِكَ أَشَدَّ  
النَّاسِ تَوَحُّشاً وَيَنْزِلُونَ مِنْ أَهْلِ الحَوَاضِرِ مَنْزِلَةَ الوَحْشِ غَيْرِ المَقْدُورِ عَلَيْهِ  
وَالْمُقْتَرَسِ مِنَ الحَيَوَانَ العُجْمِ وَهَؤُلَاءِ هُمُ العَرَبُ وَفِي مَفْنَاهُمْ طُغْمُونُ البَرْبَرِ وَزَنَاتَةٌ  
بِالمَغْرِبِ وَالأَكْرَادِ وَالتُّرْكَمَانَ وَالتُّرْكَ بِالمَشْرِقِ إِلَّا أَنَّ العَرَبَ أبعَدُ نُجْمَةً وَأَشَدَّ  
بِدَاوَةً لِأَنَّهم مُخْتَصُونَ بِالقِيَامِ عَلَى الإِبِلِ فَقَطُّ وَهَؤُلَاءِ يَقُومُونَ عَلَيْهَا وَعَلَى الشِّيَاهِ  
والبَقَرِ مَعَهَا فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ جِيلَ العَرَبِ طَبِيعِيٌّ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي العُمَرَانِ وَاللَّهِ  
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

### الفصل الثالث

في أن البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه وان البادية أصل العمران

#### والأمصار مدد لها

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ البَدْوَ هُمُ المَقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ فِي أَحْوَالِهِمُ العَاجِزُونَ عَمَّا  
فَوْقَهُ وَأَنَّ الحَضَرَ المَعْتَنُونَ بِحَاجَاتِ التَّرْفِ وَالكَمَالِ فِي أَحْوَالِهِمُ وَعَوَائِدِهِمْ وَلَا شَكَّ  
أَنَّ الضَّرُورِيِّ أَقْدَمُ مِنَ الحَاجِيِّ وَالكَمَالِيِّ وَسَابِقُ عَلَيْهِ وَلِأَنَّ الضَّرُورِيَّ أَصْلُ  
وَالكَمَالِيِّ فَرَعٌ نَاشِئٌ عَنْهُ فَالْبَدْوُ أَصْلٌ لِلْمَدَنِ وَالحَضَرِ . وَسَابِقُ عَلَيْهِمَا لِأَنَّ أَوَّلَ  
مَطَالِبِ الإِنْسَانِ الضَّرُورِيَّ وَلَا يَنْتَهِي إِلَى الكَمَالِ وَالتَّرْفِ إِلَّا إِذَا كَانَ الضَّرُورِيَّ  
حَاصِلًا فَخُشُونَةُ البِدَاوَةِ قَبْلَ رِقَّةِ الحِضَارَةِ وَلِهَذَا نَجِدُ التَّمَدُّنَ غَايَةً لِلبَدْوِيِّ يَجْرِي  
إِلَيْهَا وَيَنْتَهِي بِسَعْيِهِ إِلَى مُقْتَرِحِهِ مِنْهَا وَمَتَى حَصَلَ عَلَى الرِّيَاشِ الَّذِي يَخْضَلُ لَهُ بِهِ  
أَحْوَالِ التَّرْفِ وَعَوَائِدِهِ عَاجَ إِلَى الدُّعَاةِ وَأَمَكَّنَ نَفْسَهُ إِلَى قِيَادِ المَدِينَةِ وَهَكَذَا شَأْنُ  
القَبَائِلِ المَتَبَدِّيَةِ كُلِّهِمُ وَالحَضَرِيِّ لَا يَتَشَوَّفُ إِلَى أَحْوَالِ البَادِيَةِ إِلَّا لِضُرُورَةٍ تَدْعُوهُ  
إِلَيْهَا أَوْ لِتَقْصِيرٍ عَنِ أَحْوَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ وَمِمَّا يَشْهَدُ لَنَا أَنَّ البَدْوَ أَصْلُ لِلْحَضَرِ



وَمَتَقَدَّمَ عَلَيْهِ أَنَا إِذَا فَتَشْنَا أَهْلَ مِضْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ وَجَدْنَا أَوْلِيَّةَ أَكْثَرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَدُوِّ  
الَّذِينَ بِنَاحِيَةِ ذَلِكَ الْمِضْرِ وَعَدَلُوا إِلَى الدُّعَاةِ وَالتَّرْفِ الَّذِي فِي الْحَضَرِ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى  
أَنَّ أَحْوَالَ الْحَضَارَةِ نَاشِئَةٌ عَنْ أَحْوَالِ الْبَدَاوَةِ وَأَنَّهَا أَضَلُّ لَهَا فَتَفْهَمُهُ . ثُمَّ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ  
مِنَ الْبَدُوِّ وَالْحَضَرِ مُتَّفَاوِتُ الْأَحْوَالِ مِنْ جِنْسِهِ قَرُبُ حَيٍّ أَعْظَمُ مِنْ حَيٍّ وَقَبِيلَةٌ  
أَعْظَمُ مِنْ قَبِيلَةٍ وَمِضْرٌ أَوْسَعُ مِنْ مِضْرٍ وَمَدِينَةٌ أَكْثَرُ عُمَرَانًا مِنْ مَدِينَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ  
وُجُودَ الْبَدُوِّ مُتَقَدِّمٌ عَلَى وُجُودِ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ وَأَضَلُّ لَهَا بِمَا أَنَّ وُجُودَ الْمُدُنِ  
وَالْأَمْصَارِ مِنْ عَوَائِدِ التَّرْفِ وَالدُّعَاةِ الَّتِي هِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ عَوَائِدِ الصُّرُورَةِ الْمَعَاشِيَّةِ  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

## الفصل الرابع

في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة

وَسَبَبُهُ أَنَّ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى كَانَتْ مُتَهَيِّئَةً لِقَبُولِ مَا يَرِدُ  
عَلَيْهَا وَيَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ قَالَ ﷺ « كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ  
فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِيَةٍ أَوْ يَمَجَّسَانِيَةٍ » وَبِقَدْرِ مَا سَبَقَ إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ الْخُلُقَيْنِ  
تَبَعْدُ عَنِ الْآخَرِ وَيَضَعُ عَلَيْهَا كِتْسَابَهُ فَصَاحِبُ الْخَيْرِ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى نَفْسِهِ عَوَائِدُ  
الْخَيْرِ وَحَصَلَتْ لَهَا مَلَكَتُهُ بَعْدَ عَنِ الشَّرِّ وَصَعَبَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ وَكَذَا صَاحِبُ الشَّرِّ إِذَا  
سَبَقَتْ إِلَيْهِ أَيْضًا عَوَائِدُهُ وَأَهْلُ الْحَضَرِ لِكَثْرَةِ مَا يُعَانُونَ مِنْ فَنُونِ الْمَلَأْدِ وَعَوَائِدِ  
التَّرْفِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الدُّنْيَا وَالْمَعْكَوفِ عَلَى شَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا وَقَدْ تَلَوْنَتْ أَنْفُسَهُمْ بِكَثِيرٍ  
مِنْ مَذْمُومَاتِ الْخُلُقِ وَالشَّرِّ وَبَعَدَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقُ الْخَيْرِ وَمَسَالِكُهُ بِقَدْرِ مَا حَصَلَ  
لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى لَقَدْ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ مَذَاهِبُ الْحِشْمَةِ فِي أَحْوَالِهِمْ فَتَجَدَّ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ  
يَقْدَعُونَ فِي أَقْوَالِ الْفَحْشَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَيَبِينُ كِبْرَائِهِمْ وَأَهْلُ مَحَارِمِهِمْ لَا يَصُدُّهُمْ  
عَنْهُ وَازِعُ الْحِشْمَةِ لِمَا أَخَذْتَهُمْ بِهِ عَوَائِدُ السُّوءِ فِي التَّظَاهِرِ بِالْفَوَاحِشِ قَوْلًا وَعَمَلًا  
وَأَهْلُ الْبَدُوِّ وَإِنْ كَانُوا مُقْبِلِينَ عَلَى الدُّنْيَا مِثْلَهُمْ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْمِقْدَارِ الصُّرُورِيِّ لَا فِي

التَّرْفِ وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ وَدَوَائِعِهَا فَعَوَائِدُهُمْ فِي مَعَامَلَاتِهِمْ  
 عَلَى نِسْبَتِهَا وَمَا يَخْصُلُ فِيهِمْ مِنْ مَذَاهِبِ السُّوءِ وَمَذْمُومَاتِ الْخَلْقِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ  
 الْحَضَرِ أَقْلٌ بِكَثِيرٍ فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى وَأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النَّفْسِ مِنْ سُوءِ  
 الْمَلَكَاتِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْمَذْمُومَةِ وَقُبْحِهَا فَيَسْهَلُ عِلَاجُهُمْ عَنْ عِلَاجِ الْحَضَرِ وَهُوَ  
 ظَاهِرٌ وَقَدْ يَتَوَضَّحُ فِيهَا بَعْدُ أَنَّ الْحَضَارَةَ هِيَ نَهَايَةُ الْعُمْرَانِ وَخُرُوجِهِ إِلَى الْفَسَادِ  
 وَنَهَايَةُ الشَّرِّ وَالْبُعْدُ عَنِ الْخَيْرِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ  
 الْحَضَرِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَلَا يُعْتَرِضُ عَلَى ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ  
 قَوْلِ الْحَجَّاجِ لِسَلْمَةَ بِنِ الْأَكْوَعِ وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى سُكْنَى الْبَادِيَةِ فَقَالَ لَهُ  
 ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقْبِكَ تَعَرَّبْتَ فَقَالَ لَا وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَذِنَ لِي فِي الْبَدْوِ  
 فَأَعْلَمْتُ أَنَّ الْهَجْرَةَ افْتَرَضَتْ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ لِيَكُونُوا مَعَ  
 النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ حَلَّ مِنَ الْمَوَاطِنِ يَنْصُرُونَهُ وَيُظَاهِرُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَيَحْرُسُونَهُ  
 وَلَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَى الْأَعْرَابِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يَمْسُهُمْ مِنْ عَصِيَّةِ  
 النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمُظَاهَرَةِ وَالْحِرَاسَةِ مَا لَا يَمَسُّ غَيْرَهُمْ مِنْ بَادِيَةِ الْأَعْرَابِ وَقَدْ  
 كَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَسْتَعِينُونَ بِاللَّهِ مِنَ التَّعَرُّبِ وَهُوَ سُكْنَى الْبَادِيَةِ حَيْثُ لَا تَجِبُ  
 الْهَجْرَةُ وَقَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عِنْدَ مَرَضِهِ بِمَكَّةَ «اللَّهُمَّ  
 أَمْرٌ لِأَصْحَابِي هُجْرَتُهُمْ وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ» وَمَعْنَاهُ أَنْ يُوقِفَهُمْ لِمَلَاذِمَةِ  
 الْمَدِينَةِ وَعَدَمِ التَّحْوِيلِ عَنْهَا فَلَا يَرْجِعُوا عَنْ هُجْرَتِهِمُ الَّتِي ابْتَدَأُوا بِهَا وَهُوَ مِنْ بَابِ  
 الرَّجُوعِ عَلَى الْعَقَبِ فِي السَّعْيِ إِلَى وَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَقِيلَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ خَاصًّا بِمَا  
 قَبْلَ الْفَتْحِ حِينَ كَانَتْ الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَى الْهَجْرَةِ لِقَلَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ  
 وَحِينَ كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ وَاعْتَزَلُوا وَتَكَفَّلَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ بِالْعِصْمَةِ مِنَ النَّاسِ فَإِنَّ الْهَجْرَةَ  
 سَاقِطَةٌ حِينَئِذٍ لِقَوْلِهِ ﷺ «لَا هَجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ» وَقِيلَ سَقَطَ إِشَاؤُهَا عَمَّنْ  
 يُسَلِّمُ بَعْدَ الْفَتْحِ وَقِيلَ سَقَطَ وَجُوبُهَا عَمَّنْ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ قَبْلَ الْفَتْحِ وَالْكُلُّ مُجْمَعُونَ  
 عَلَى أَنَّهَا بَعْدَ الْوَفَاةِ سَاقِطَةٌ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ افْتَرَقُوا مِنْ يَوْمِئِذٍ فِي الْأَفَاقِ وَانْتَشَرُوا وَلَمْ

يَبْقَى إِلَّا فَضْلَ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ هُجْرَةٌ فَقَوْلُ الْحَجَّاجِ لِسَلْمَةَ حِينَ سَكَنَ  
 الْبَادِيَةَ ارْتَدَّدَتْ عَلَى عَقْبَيْكَ تَعَرَّبَتْ نَعَى عَلَيْهِ فِي تَرْكِ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ بِالْإِشَارَةِ  
 إِلَى الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ لَا تَرُدُّهُمْ عَلَى أَغْفَابِهِمْ وَقَوْلُهُ تَعَرَّبَتْ إِشَارَةٌ  
 إِلَى أَنَّهُ صَارَ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَا يُهَاجِرُونَ وَأَجَابَ سَلْمَةَ بِإِنْكَارِ مَا الزَّمَهُ مِنَ  
 الْأَمْرَيْنِ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَذِنَ لَهُ فِي الْبَدْوِ وَيَكُونُ ذَلِكَ خَاصًّا بِهِ كَشَهَادَةِ  
 خَزِيمَةَ<sup>(١)</sup> وَعِنَاقِ أَبِي بُرْدَةَ<sup>(٢)</sup> أَوْ يَكُونُ الْحَجَّاجُ إِنَّمَا نَعَى عَلَيْهِ تَرْكَ السُّكْنَى  
 بِالْمَدِينَةِ فَقَطَّ لِعَلِمِهِ بِسُقُوطِ الْهَجْرَةِ بَعْدَ الْوَفَاةِ وَأَجَابَهُ سَلْمَةُ بِأَنَّ اغْتِنَامَهُ لِأَذْنِ  
 النَّبِيِّ ﷺ أَوْلَى وَأَفْضَلُ فَمَا أَثَرَهُ بِهِ وَاخْتَصُّهُ إِلَّا لِمَعْنَى عَلَيْهِ فِيهِ وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ  
 فَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى مَذْمَةِ الْبَدْوِ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِالتَّعَرُّبِ لِأَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ الْهَجْرَةِ إِنَّمَا  
 كَانَتْ كَمَا عَلِمْتَ لِمُظَاهَرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَحِرَاسَتِهِ لَا لِمَذْمَةِ الْبَدْوِ فَلَيْسَ فِي النَّعْيِ  
 عَلَى تَرْكِ هَذَا الْوَاجِبِ دَلِيلٌ عَلَى مَذْمَةِ التَّعَرُّبِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

## الفصل الخامس

في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْحَضَرِ أَلْفَوْا جُنُوبَهُمْ عَلَى مِهَادِ الرَّاحَةِ وَالذُّعَاةِ  
 وَأَنْفَعَسُوا فِي النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ وَوَكَلُوا أَمْرَهُمْ فِي الْمَدَافِعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى وَالِيهِمْ  
 وَالتَّحَاكِمِ الَّذِي يَسُوسُهُمُ وَالتَّحَامِيَةِ الَّتِي تَوَلَّتْ حِرَاسَتَهُمْ وَاسْتَنَامُوا إِلَى الْأَسْوَارِ الَّتِي  
 تَحُوطُهُمْ وَالتَّحْرِزِ الَّذِي يَحُولُ دُونَهُمْ فَلَا تَهَيِّجُهُمْ هَيْعَةً<sup>(٣)</sup> وَلَا يَنْفَرُ لَهُمْ صَيْدٌ فَهُمْ  
 غَارُونَ<sup>(٤)</sup> آمَنُونَ . قَدْ أَلْفَوْا السَّلَاحَ وَتَوَالَّتْ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ الْأَجْيَالُ وَتَنَزَّلُوا مَنَزِلَةَ

(١) هو خزيمة بن ثابت الأنصاري من أصحاب رسول الله ﷺ . وقد جعل شهادته بشهادة رجلين .

(٢) العناق ، أم الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها السنة . وقد أجاز النبي ﷺ لأبي بردة ابن نيار

خاصة أن يضحي بها . قصد ابن خلدون فهو استثناء الخصوصيات من عموم الأحكام . لما ورد بشأنها في

أحاديث الرسول ﷺ

(٣) هيمية ، الصوت المرعب والمخيف .

(٤) غارون ، مطمئنون .

النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثناهم حتى صار ذلك خلقاً ينزل منزلة الطبيعة وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبغدهم عن الحامية وانتبادهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن النهجوع إلا غرراً في المجالس وعلى الرجال وفوق الأقتاب ويتوجسون للنبات<sup>(١)</sup> والهيئات ويتفردون في القفر والبيداء مذلين بيأسهم وإثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفزهم صارخ وأهل الحضر مَهْمَا خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئاً من أمر أنفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه ومشارع السبل وسبب ذلك ما شرخناه وأضله أن الإنسان ابن عوائده ومآلوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً ومملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة واعتبر ذلك في الأدميين تجده كثيراً صحيحاً والله يخلق ما يشاء .



(١) يتوجسون ، يسمعون . النبات ، الأصوات الخفية .

## الفصل السادس

في أن معاناة أهل الحضرة للأحكام مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنعة

منهم

وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه إذ الرؤساء والأمراء المالكون لأمر الناس قليل بالنسبة إلى غيرهم فمن الغالب أن يكون الإنسان في ملكة غيره . ولا بُد فإن كانت الملكة رقيقةً وعادلةً لا يعانى منها حكم ولا منع وصد كان الناس من تحت يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن وثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الإذلال جيلة لا يعرفون سواها وأما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاثر في النفوس المضطهدة كما تبينه وقد نهى عمر سعداً رضي الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن حوبة سلب الجالوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفاً من الذهب وكان اتبع الجالوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه فانتزعه منه سعد وقال له هلا انتظرت في اتباعه إذني وكتب إلى عمر يستأذنه فكتب إليه عمر تغمذ إلى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به <sup>(١)</sup> وبقي عليك ما بقي من حربك وتكسر فوقه <sup>(٢)</sup> وتفسد قلبه وأمضى له عمر سلبه وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمذهبة للباس بالكليّة لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك وأما إذا كانت الأحكام تاديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثمرت في ذلك بعض الشيء لمزباه على المخافة والانقياد

(١) بمعنى قاسى شدائد الحرب .

(٢) تشبط همته .

فَلَا يَكُونُ مِدْلًا بِنَاسِهِ وَلِهَذَا نَجِدُ الْمُتَوَحِّشِينَ مِنَ الْعَرَبِ <sup>(١)</sup> أَهْلَ الْبَدْوِ أَشَدَّ بَأْسًا  
مِمَّنْ تَأْخُذُهُ الْأَحْكَامُ وَنَجِدُ أَيْضًا الَّذِينَ يُعَانُونَ الْأَحْكَامَ وَمَلَكَتْهَا مِنْ لَدُنْ مَرَبَاهُمْ  
فِي التَّأْدِيبِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالدِّيَانَاتِ يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ بَأْسِهِمْ كَثِيرًا  
وَلَا يَكَادُونَ يَنْدَفِعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ عَادِيَةً بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَهَذَا شَأْنُ طَلِبَةِ الْعِلْمِ  
الْمُنْتَجِلِينَ لِلْقِرَاءَةِ وَالْأَخْذِ عَنِ الْمَشَايخِ وَالْأَيِّمَةِ الْمُمَارِسِينَ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ فِي  
مَجَالِسِ الْوُقُوفِ وَالْهَيْئَةِ فِيهِمْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ وَذَهَابُهَا بِالْمَنْعَةِ وَالْبَأْسِ . وَلَا تَسْتَكْبِرُ  
ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الصَّحَابَةِ مِنْ أَخْذِهِمْ بِأَحْكَامِ الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ وَلَمْ يُنْقِصْ ذَلِكَ مِنْ  
بَأْسِهِمْ بَلْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ بَأْسًا لِأَنَّ الشَّارِعَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ  
عَنْهُ دِينَهُمْ كَانَ وَارِزُهُمْ فِيهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَمَّا تَلَّى عَلَيْهِمْ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَلَمْ  
يَكُنْ بِتَّعْلِيمِ صِنَاعِيٍّ وَلَا تَأْدِيبِ تَعْلِيمِيٍّ إِنَّمَا هِيَ أَحْكَامُ الدِّينِ وَأَدَابُهُ الْمُتَلَقَّاتُ تَقْلًا  
يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا بِمَا رَسَخَ فِيهِمْ مِنْ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ فَلَمْ تَرَلْ سُورَةُ  
بَأْسِهِمْ مُسْتَحْكِمَةً كَمَا كَانَتْ وَلَمْ تَخْدِشْهَا أَظْفَارُ التَّأْدِيبِ وَالحُكْمِ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُ « مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ الشَّرْعُ لَا أَدَبَهُ اللَّهُ » حِرْصًا عَلَى أَنْ يَكُونَ الْوَارِعُ لِكُلِّ أَحَدٍ  
مِنْ نَفْسِهِ وَيَقِينًا بِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ وَلَمَّا تَنَاقَصَ الدِّينُ فِي النَّاسِ  
وَأَخَذُوا بِالْأَحْكَامِ الْوَارِعَةِ ثُمَّ صَارَ الشَّرْعُ عِلْمًا وَصِنَاعَةً يُؤْخَذُ بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ  
وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى الْحَضَارَةِ وَخُلِقَ الْإِنْتِقَادُ إِلَى الْأَحْكَامِ نَقَصَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْبَأْسِ  
فِيهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْأَحْكَامَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مُفْسِدَةٌ لِلْبَأْسِ لِأَنَّ الْوَارِعَ فِيهَا  
ذَاتِيٌّ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مِمَّا تَوَثَّرُ فِي أَهْلِ الْحَوَاضِرِ فِي  
ضَعْفِ نَفْسِهِمْ وَخَضِ <sup>(٢)</sup> الشُّوكَةَ مِنْهُمْ بِمَعَانِيَّتِهِمْ فِي وِلْدَانِهِمْ وَكَهُولِهِمْ وَالتَّبَدُّو بِمَعْرَلِ  
مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ لِبَعْدِهِمْ عَنْ أَحْكَامِ السُّلْطَانِ وَالتَّعْلِيمِ وَالأَدَابِ وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ  
أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ فِي أَحْكَامِ الْمُعَلِّمِينَ وَالتَّمَعِّلِينَ « أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤَدِّبِ أَنْ  
يَضْرِبَ أَحَدًا مِنَ الصَّبِيَّانِ فِي التَّعْلِيمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ » نَقَلَهُ عَنْ شَرِيحِ الْقَاضِي

(١) المتوحشين من العرب : بمعنى البدو أو سكان البادية .

(٢) انكسار الشوكة .

وَاحْتَجَّ لَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ بَدءِ الْوَحْيِ مِنْ شَأْنِ الْفَطْرِ وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَ  
مَرَّاتٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَلَا يَصْلُحُ شَأْنَ الْفَطْرِ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ لِبُعْدِهِ عَنِ التَّعْلِيمِ  
الْمُتَعَارِفِ وَاللَّهِ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ .

## الفصل السابع

في أن سكنى البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العصبية

إِغْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَكَّبَ فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى  
« وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » وَقَالَ « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » وَالشَّرُّ أَقْرَبُ الْخَلَالِ إِلَيْهِ  
إِذَا أَهْمِلَ فِي مَرَعَى عَوَائِدِهِ وَلَمْ يَهْتَدِ بِهِ الْإِقْتِدَاءُ بِالذِّينِ وَعَلَى ذَلِكَ الْجَمُّ الْغَفِيرُ إِلَّا  
مَنْ وَقَفَهُ اللَّهُ وَمِنْ أَخْلَاقِ الْبَشَرِ فِيهِمُ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فَمَنْ امْتَدَّتْ  
عَيْنُهُ إِلَى مَتَاعِ أَخِيهِ فَقَدْ امْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى أَخِيهِ إِلَّا أَنْ يَضُدَّهُ وَازَرَ كَمَا قَالَ :

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْبِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجَدَّ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

فَأَمَّا الْمُدُنُ وَالْأَمْصَارُ فَعُدْوَانُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ تَدْفَعُهُ الْحُكَّامُ وَالِدَوْلَةُ بِمَا  
قَبَضُوا عَلَى أَيْدِي مَنْ تَحْتَهُمْ مِنَ الْكَافَّةِ أَنْ يَمْتَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ يَعْدُو عَلَيْهِ  
فَهُمْ مَكْبُوحُونَ بِحُكْمَةِ الْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ عَنِ التَّظَالِمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْحَاكِمِ بِنَفْسِهِ  
وَأَمَّا الْعُدْوَانُ الَّذِي مِنْ خَارِجِ الْمَدِينَةِ فَيَدْفَعُهُ سِيَاجُ الْأَسْوَارِ عِنْدَ الْغَفْلَةِ أَوْ الْغِرَّةِ لَيْلًا  
أَوْ الْعَجْزِ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ نَهَارًا أَوْ يَدْفَعُهُ ازْدِيَادُ الْحَامِيَةِ مِنْ أَعْوَانِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ  
الِاسْتِعْدَادِ وَالْمَقَاوِمَةِ وَأَمَّا أَحْيَاءُ الْبَدْوِ فَيَزِعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَشَائِخُهُمْ وَكِبَرَاؤُهُمْ  
بِمَا وَفَرَ فِي نَفُوسِ الْكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ الْوَقَارِ وَالتَّجَلُّةِ وَأَمَّا جَلَلُهُمْ فَإِنَّمَا يَدُودُ عَنْهَا مِنْ  
خَارِجِ حَامِيَةِ الْحَيِّ مِنْ أَنْجَادِهِمْ وَفَتْيَانِهِمُ الْمَعْرُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ فِيهِمْ وَلَا يَصْدُقُ  
دِفَاعُهُمْ وَذِيَادُهُمْ إِلَّا إِذَا كَانُوا عَصِيَّةً وَأَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ لِأَنَّهِمْ بِذَلِكَ تَشْتَدُّ شَوْكَتُهُمْ  
وَيُخْشَى جَانِبَهُمْ إِذْ نَعْرَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصِيَّتِهِ أَهْمٌ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ

عِبَادِهِ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالنُّعْرَةِ<sup>(١)</sup> عَلَى ذَوِي أَرْحَامِهِمْ وَقُرْبَاهُمْ مَوْجُودَةً فِي الطَّبَائِعِ  
 الْبَشَرِيَّةِ وَبِهَا يَكُونُ التَّعَاوُدُ وَالتَّنَاصُرُ وَتَعْظُمُ رَهْبَةُ الْعَدُوِّ لَهُمْ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِيمَا  
 حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالُوا لِأَبِيهِ لِمَ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ  
 عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَّاسِرُونَ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُتَوَهَّمُ الْعُدْوَانُ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ الْعُصْبَةِ لَهُ  
 وَأَمَّا الْمُتَفَرِّدُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ فَقَلَّ أَنْ تُصِيبَ أَحَدًا مِنْهُمْ نُعْرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَإِذَا أَظْلَمَ  
 الْجَوُّ بِالشَّرِّ يَوْمَ الْحَرْبِ تَسَلَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَبْغِي النِّجَاةَ لِنَفْسِهِ خِيفَةً وَاسْتِيحَاشًا  
 مِنَ التَّخَاذُلِ فَلَا يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَلَى سُكْنَى الْفَقْرِ لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُعْمَةٌ لِمَنْ  
 يَلْتَهُمُهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ سِوَاهُمْ وَإِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي السُّكْنَى الَّتِي تَحْتَاجُ لِلْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ  
 فَبِمَثَلِهِ يَتَبَيَّنُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَخْمَلُ النَّاسَ عَلَيْهِ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ إِقَامَةِ مَلِكٍ أَوْ دَعْوَةٍ إِذْ  
 بُلُوغِ الْعَرَضِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا يَتَمُّ بِالْقِتَالِ عَلَيْهِ لِمَا فِي طَّبَائِعِ الْبَشَرِ مِنَ الْإِسْتِعْصَاءِ  
 وَلَا بُدَّ فِي الْقِتَالِ مِنَ الْعُصْبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا فَاتَّخِذْهُ إِمَامًا تَقْتَدِي بِهِ فِيمَا نُورِدُهُ  
 عَلَيْكَ بَعْدَ وَاللَّهِ الْمَوْفُوقُ لِلصَّوَابِ .

## الفصل الثامن

في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه

وَذَلِكَ أَنَّ صِلَةَ الرَّحْمِ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ إِلَّا فِي الْأَقْلَلِ وَمَنْ صَلَّتْهَا النُّعْرَةُ عَلَى ذَوِي  
 الْقُرْبَى وَأَهْلِ الْأَرْحَامِ أَنْ يَنَالَهُمْ ضَيْمٌ أَوْ تُصِيبَهُمْ هَلَكَةٌ فَإِنَّ الْقَرِيبَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ  
 غَضَاضَةً مِنْ ظَلَمِ قَرِيبِهِ أَوْ الْعَدَاءِ عَلَيْهِ وَيَوُدُّ لَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَيَبِينُ مَا يَصِلُهُ مِنَ  
 الْمَعَاطِبِ وَالْمَهَالِكِ نَزْعَةً طَبِيعِيَّةً فِي الْبَشَرِ مِمَّا كَانُوا فَإِذَا كَانَ النَّسَبُ الْمُتَوَاصِلُ  
 بَيْنَ الْمُتَنَاصِرِينَ قَرِيبًا جَدًّا بَحِثْ حَصَلَ بِهِ الْإِتِّحَادُ وَالْإِلْتِحَامُ كَانَتْ الْوَصْلَةُ  
 ظَاهِرَةً فَاسْتَدْعَتْ ذَلِكَ بِمَجْرَدِهَا وَوُضُوحَهَا وَإِذَا بَعُدَ النَّسَبُ بَعْضُ الشَّيْءِ فَرُبَّمَا

(١) النعرة والتعار بالضم فيهما والتعير: الصراخ والصرخ في حرب أو شر ( قاموس ) والمعنى هنا التعصب

لذوي الأرحام ونجدتهم .



تُنَوِّسِي بَعْضَهَا وَيَبْتَقِي مِنْهَا شُهْرَةً فَتَحْمِلُ عَلَى النُّصْرَةِ لِذَوِي نَسَبِهِ بِالْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْهُ فِرَاراً مِنَ الْفَضَاظَةِ الَّتِي يَتَوَهَّمُهَا فِي نَفْسِهِ مِنْ ظُلْمٍ مَنْ هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْوَلَاءُ وَالْحِلْفُ إِذْ نُعْرَةُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى أَهْلِ وِلَايَتِهِ وَحَلْفِيهِ لِلْأَلْفَةِ الَّتِي تَلْحَقُ النَّفْسَ مِنْ اهْتِضَامِ جَارِهَا أَوْ قَرِيبِهَا أَوْ نَسَبِيهَا بِوَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ النَّسَبِ وَذَلِكَ لِأَجْلِ اللَّحْمَةِ الْحَاصِلَةِ مِنَ الْوَلَاءِ مِثْلَ لُحْمَةِ النَّسَبِ أَوْ قَرِيباً مِنْهَا وَمِنْ هَذَا تَقَهُمْ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ «تَعَلَّمُوا مِنْ أُنْسَابِكُمْ مَا تَصَلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ» بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِنَّمَا فَائِدَتُهُ هَذَا الْإِلْتِحَامَ الَّذِي يُوجِبُ صِلَةَ الْأَرْحَامِ حَتَّى تَقَعَ الْمُنَاصَرَةُ وَالنُّعْرَةُ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مُسْتَعْنَى عَنْهُ إِذِ النَّسَبُ أَمْرٌ وَهَمِيٌّ لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَنَفْعُهُ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذِهِ الْوُصْلَةِ وَالْإِلْتِحَامِ فَإِذَا كَانَ ظَاهِراً وَاضِحاً حَمَلَ النَّفْسَ عَلَى طَبِيعَتِهَا مِنَ النُّعْرَةِ كَمَا قُلْنَا وَإِذَا كَانَ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْخَبَرِ الْبَعِيدِ ضَعْفٌ فِيهِ الْوَهْمُ وَذَهَبَتْ فَائِدَتُهُ وَصَارَ الشُّغْلُ بِهِ مَجَاناً وَمِنْ أَعْمَالِ اللَّهْوِ الْمَنْهَبِيِّ عَنْهُ وَمِنْ هَذَا الْإِعْتِبَارِ مَعْنَى قَوْلِهِمُ النَّسَبُ عَلْمٌ لَا يَنْفَعُ وَجِهَالَةٌ لَا تُضِرُّ بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِذَا خَرَجَ عَنِ الْوُضُوحِ وَصَارَ مِنْ قَبِيلِ الْعُلُومِ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ الْوَهْمِ فِيهِ عَنِ النَّفْسِ وَأَنْتَفَتِ النُّعْرَةُ الَّتِي تَحْمِلُ عَلَيْهَا الْعَصِيَّةَ فَلَا مَنَفْعَةَ فِيهِ حِينَئِذٍ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

## الفصل التاسع

في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من

العرب ومن في معنائهم

وَذَلِكَ لِمَا اخْتَصَّوْا بِهِ مِنْ نَكْدِ الْعَيْشِ وَشَطْفِ الْأَحْوَالِ وَسُوءِ الْمَوَاطِنِ حَمَلَتْهُمْ عَلَيْهَا الضَّرُورَةُ الَّتِي عَيَّنَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْقِسْمَةَ وَهِيَ لِمَا كَانَ مَعَاشُهُمْ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْإِبِلِ وَنِتَاجِهَا وَرِعَايَتِهَا وَالْإِبِلُ تَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوَحُّشِ فِي الْقَفْرِ لِرِعْيِهَا مِنْ شَجَرِهِ

(١) الاصول أن يقول مجاعة أو مجونا .

وَتَنَاجَهَا فِي رِمَالِهِ كَمَا تَقَدَّمَ وَالْقَفْرُ مَكَانُ الشَّطْفِ وَالسَّغْبُ <sup>(١)</sup> فَصَارَ لَهُمُ الْفَأُ وَعَادَةٌ  
وَرَبِيَّتٌ فِيهِ أَجْيَالُهُمْ حَتَّى تَمَكَّنَتْ خُلُقًا وَجِبَلَةً فَلَا يَنْزِعُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأُمَمِ أَنْ  
يُسَاهِمَهُمْ فِي حَالِهِمْ وَلَا يَأْنَسُ بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ بَلْ لَوْ وَجَدَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ السَّبِيلَ  
إِلَى الْفِرَارِ مِنْ حَالِهِ وَأَمَكْنَهُ ذَلِكَ لَمَا تَرَكَهُ فَيُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنَ اخْتِلَاطِ  
أَنْسَابِهِمْ وَفَسَادِهَا وَلَا تَزَالُ بَيْنَهُمْ مَحْفُوظَةٌ صَرِيحَةٌ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي مُضَرَ مِنْ قُرَيْشٍ  
وَكَيْنَانَةَ وَتَقِيفَ وَبَنِي أَسَدٍ وَهَذَيْلٍ وَمَنْ جَاوَرَهُمْ مِنْ خُرَاعَةَ لَمَّا كَانُوا أَهْلَ شَطْفِ  
وَمَوَاطِنَ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ وَبَعُدُوا مِنْ أَرْيَافِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعَادِنِ الْأَدَمِ  
وَالْحُبُوبِ كَيْفَ كَانَتْ أَنْسَابُهُمْ صَرِيحَةٌ مَحْفُوظَةٌ لَمْ يَدْخُلْهَا اخْتِلَاطٌ وَلَا عَرَفَ فِيهَا  
شَوْبٌ . وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ كَانُوا بِالتَّلُولِ وَفِي مَعَادِنِ الْخَضْبِ لِلْمَرَاعِي وَالْعَيْشِ مِنْ  
حِمِيرٍ وَكَهْلَانَ مِثْلَ لَحْمٍ وَجَذَامٍ وَعَسَّانٍ وَطَبِيٍّ وَقُضَاعَةَ وَإِيَادَ فَاخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ  
وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ فِيهِ كُلٌّ وَاحِدٌ مِنْ بِيُوتِهِمْ مِنَ الْخِلَافِ عِنْدَ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ  
وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْعَجَمِ وَمُخَالِطَتِهِمْ وَهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ الْمَحَافِظَةَ عَلَى  
النَّسَبِ فِي بِيُوتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ وَإِنَّمَا هَذَا لِلْعَرَبِ <sup>(٢)</sup> فَقَطُ . قَالَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى  
عَنْهُ « تَعَلَّمُوا النَّسَبَ وَلَا تَكُونُوا كَنَبِطِ السُّوَادَةِ إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ  
قُرَيْبَةٍ كَذَا هَذَا أَيْ مَا لِحَقِّ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ أَهْلُ الْأَرْيَافِ مِنَ الْإِزْدَحَامِ مَعَ النَّاسِ عَلَى  
الْبَلَدِ الطَّيِّبِ وَالْمَرَاعِي الْخَضِيبَةِ فَكَثُرَ الْإِخْتِلَاطُ وَتَدَاخَلَتْ الْأَنْسَابُ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ  
فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ الْإِنْتِمَاءُ إِلَى الْمَوَاطِنِ فَيُقَالُ جُنْدٌ قَنْسَرِينَ جُنْدٌ دِمَشْقَ جُنْدٌ الْعَوَاصِمِ  
وَأَنْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَطْرَاحِ الْعَرَبِ أَمْرُ النَّسَبِ وَإِنَّمَا كَانَ  
لِاخْتِصَاصِهِمْ بِالْمَوَاطِنِ بَعْدَ الْفَتْحِ حَتَّى عَرَفُوا بِهَا وَصَارَتْ لَهُمْ عَلَامَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى  
النَّسَبِ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عِنْدَ أَمْرَائِهِمْ ثُمَّ وَقَعَ الْإِخْتِلَاطُ فِي الْحَوَاضِرِ مَعَ الْعَجَمِ وَغَيْرِهِمْ

(١) السغب : الجوع مع التعب .

(٢) بمعنى ان المحافظة على النسب محصورة في العرب سكان البادية والأرياف أو كما يعني بهم ابن

خلدون ( العرب المتوحشون ) .

وَفَسَدَتِ الْأَنْسَابُ بِالْجُمْلَةِ وَفَقِدَتْ ثَمَرَتَهَا مِنَ الْعَصِيَّةِ فَاطْرَحَتْ ثُمَّ تَلَاثَتْ الْقَبَائِلُ  
وَدَثِرَتْ فَدَثِرَتِ الْعَصِيَّةُ بِدَثُورِهَا وَبَقِيَ ذَلِكَ فِي الْبَدْوِ كَمَا كَانَ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ  
وَمَنْ عَلَيْهَا .

## الفصل العاشر

### في اختلاط الأنساب كيف يقع

إِعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ الْأَنْسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ  
بِقَرَايَةِ إِلَيْهِمْ أَوْ حَلْفٍ أَوْ وِلَاءٍ أَوْ لِفَرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجَنَائِيَةِ أَصَابِهَا فَيُدْعَى بِنَسَبِ  
هَؤُلَاءِ وَيُعَدُّ مِنْهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ مِنَ النَّعْرَةِ وَالْقَوَدِ<sup>(١)</sup> وَحَمْلِ الدِّيَاتِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَإِذَا  
وُجِدَتْ ثَمَرَاتُ النَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وَجَدَ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِكُونِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا  
جَرِيَانُ أَحْكَامِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ التَّحَمُّ بِهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى النَّسَبَ الْأَوَّلَ  
بِطَوْلِ الزَّمَانِ وَيَذْهَبُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِهِ فَيُخْفَى عَلَى الْأَكْثَرِ وَمَا زَالَتِ الْأَنْسَابُ تَسْقُطُ  
مِنْ شَعْبٍ إِلَى شَعْبٍ وَيَلْتَحِمُ قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ وَالْعَجَمِ .  
وَانظُرْ خِلَافَ النَّاسِ فِي نَسَبِ آلِ الْمُنْدِرِ وَغَيْرِهِمْ يَتَبَيَّنُ لَكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْهُ شَأْنُ  
بِجِيلَةٍ فِي عَرْفَجَةَ بْنِ هَرْتَمَةَ لَمَّا وُلَّاهُ عُمَرُ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ الْإِعْفَاءَ مِنْهُ وَقَالُوا هُوَ فِينَا  
لَزِيْقٌ أَيْ دَخِيلٌ وَلَصِيْقٌ وَطَلَبُوا أَنْ يُوَلِّيَ عَلَيْهِمْ جَرِيرًا فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ  
عَرْفَجَةَ صَدَقُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ أَصَبْتُ دَمًا فِي قَوْمِي وَلِحِقْتُ  
بِهِمْ وَانظُرْ مِنْهُ كَيْفَ اخْتَلَطَ عَرْفَجَةُ بِبِجِيلَةٍ وَلَيْسَ جَلَدَتْهُمْ وَدُعِيَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى  
تَرَشَّحَ لِلرِّئَاسَةِ عَلَيْهِمْ لَوْلَا عِلْمُ بَعْضِهِمْ بِوَشَائِحِهِ وَلَوْ غَفَلُوا عَنْ ذَلِكَ وَامْتَدَّ الزَّمَنُ  
لَتَنَوَسَى بِالْجُمْلَةِ وَعَدَّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهِ وَمَذْهَبٍ فَافْهَمَهُ وَاعْتَمَرَ سِرَّ اللَّهِ فِي خَلِيقَتِهِ  
وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْعُهُودِ وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ  
وَكَرَمِهِ .

(١) القود : القصاص في القتل .

## الفصل الحادي عشر<sup>(١)</sup>

في أن الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية

إِغْلَمَ أَنْ كُلَّ حَيٍّ أَوْ بَطْنٍ مِنَ الْقَبَائِلِ وَإِنْ كَانُوا عِصَابَةً وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمُ الْعَامَّ  
فَفِيهِمْ أَيْضاً عَصَبِيَّاتٌ أُخْرَى لَأَنْسَابٍ خَاصَّةٍ هِيَ أَشَدُّ التَّحَاماً مِنَ النَّسَبِ الْعَامِّ لَهُمْ  
مِثْلَ عَشِيرٍ وَاحِدٍ أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ أَوْ إِخْوَةِ بَنِي أَبِي وَاحِدٍ لَا مِثْلَ بَنِي الْعَمِّ  
الْأَقْرَبِينَ أَوْ الْأَبْعَدِينَ فَبِهَؤُلَاءِ أَقْعَدُ بِنَسَبِهِمُ الْمَخْصُوصِ وَيُشَارِكُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ  
الْعَصَائِبِ فِي النَّسَبِ الْعَامِّ وَالنُّعْرَةِ تَفَعُّ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمُ الْمَخْصُوصِ وَمَنْ أَهْلِ النَّسَبِ  
الْعَامِّ إِلَّا أَنَّهَا فِي النَّسَبِ الْخَاصِّ أَشَدُّ لِقُرْبِ اللَّحْمَةِ وَالرَّئِيسَةِ فِيهِمْ إِنَّمَا تَكُونُ فِي  
نِصَابٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلَا تَكُونُ فِي الْكُلِّ وَلَمَّا كَانَتِ الرَّئِيسَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْغَلْبِ وَجِبَ  
أَنْ تَكُونَ عَصَبِيَّةً ذَلِكَ النَّصَابِ أَقْوَى مِنْ سَائِرِ الْعَصَائِبِ لِيَقَعَ الْغَلْبُ بِهَا وَتَيَّمَّ  
الرَّئِيسَةُ لِأَهْلِهَا فَإِذَا وَجِبَ ذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ الرَّئِيسَةَ عَلَيْهِمْ لَا تَزَالُ فِي ذَلِكَ النَّصَابِ  
الْمَخْصُوصِ بِأَهْلِ الْغَلْبِ عَلَيْهِمْ إِذْ لَوْ خَرَجَتْ عَنْهُمْ وَصَارَتْ فِي الْعَصَائِبِ الْأُخْرَى  
النَّازِلَةِ عَنْ عَصَابَتِهِمْ فِي الْغَلْبِ لَمَّا تَمَّتْ لَهُمُ الرَّئِيسَةُ فَلَا تَزَالُ فِي ذَلِكَ النَّصَابِ  
مُتَنَاقِلَةً مِنْ فَرْعٍ مِنْهُمْ إِلَى فَرْعٍ وَلَا تَنْتَقِلُ إِلَّا إِلَى الْأَقْوَى مِنْ فُرُوعِهِ لَمَّا قَلْنَا هُوَ مِنْ سِرِّ  
الْغَلْبِ لِأَنَّ الْاجْتِمَاعَ وَالْعَصَبِيَّةَ بِمَثَابَةِ الْمِرْجَاحِ لِلْمُتَكَوِّنِ وَالْمِرْجَاحُ فِي الْمُتَكَوِّنِ  
لَا يَصْلُحُ إِذَا تَكَافَأَتِ الْعُنَاصِرُ فَلَا بُدَّ مِنْ غَلْبَةِ أَحَدِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ التَّكْوِينُ فَهَذَا هُوَ  
سِرُّ اشْتِرَاطِ الْغَلْبِ فِي الْعَصَبِيَّةِ وَمِنْهُ تَعَيَّنَ اسْتِمْرَارُ الرَّئِيسَةِ فِي النَّصَابِ الْمَخْصُوصِ  
بِهَا كَمَا قَرَّرْنَا.

(١) هذا الفصل ساقط من النسخ الفارسية وموجود في النسخة التونسية وإثباته أولى ليطابق كلام أول

الفصل ١١٢ هـ قاله نصر الهوريني .

## الفصل الثاني عشر

في ان الرئاسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

وذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالقلب والقلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصبياتهم واحدة واحدة لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقرؤا بالإذعان والاتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب إنما هو ملصق لزيق وغاية التعصب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتة وإذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوسى عنده الأول من الالتصاق وليس جلدتهم ودعي بنسبهم فكيف له الرئاسة قبل هذا الالتحام أو لأحد من سلفه والرئاسة على القوم إنما تكون متناقلة في منبب واحد تعين له القلب بالعصبية فالأوليئة التي كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الالتصاق من الرئاسة حينئذ فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الإلصاق والرئاسة لا بد وأن تكون موروثه عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب إلى أنساب يلتهجون بها إما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق فينزغون إلى ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القذح في رئاستهم والطعن في شرفهم وهذا كثير في الناس لهذا العهد فمن ذلك ما يدعيه زناتة جملة أنهم من العرب ومنه ادعاء أولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر أحد شعوب زغبة أنهم من بني سليم ثم من الشريد

مِنْهُمْ لِحَقِّ جَدُّهُمْ بِنَبِيِّ عَامِرِ نَجَاراً يَصْنَعُ الْحِرْجَانَ<sup>(١)</sup> وَاخْتَلَطَ بِهِمْ وَالتَّحَمَ بِنَسَبِهِمْ  
 حَتَّى رَأَسَ عَلَيْهِمْ وَيُسَمُّونَهُ الْحِجَازِيَّ . وَمِنْ ذَلِكَ ادِّعَاءُ بِنِيِّ عَبْدِ الْقَوِيِّ بْنِ  
 الْعَبَّاسِ بْنِ تَوْجِينٍ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَغْبَةً فِي هَذَا النَّسَبِ  
 الشَّرِيفِ وَعَلَطُوا بِاسْمِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَطِيَّةِ أَبِي عَبْدِ الْقَوِيِّ وَلَمْ يَعْلَمْ دُخُولَ أَحَدٍ مِنَ  
 الْعَبَّاسِيِّينَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَنَّهُ كَانَ مُنْذُ أَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ عَلَى دَعْوَةِ الْعَلَوِيِّينَ أَعْدَائِهِمْ مِنَ  
 الْأَدَارِسَةِ وَالْعَبِيدِيِّينَ فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ سَبْطِ الْعَبَّاسِ أَحَدٌ مِنْ شَيْعَةِ الْعَلَوِيِّينَ ؟  
 وَكَذَلِكَ مَا يَدَّعِيهِ أَبْنَاءُ زِيَّانَ مُلُوكِ تَلْمَسَانَ مِنْ بِنِيِّ عَبْدِ الْوَاحِدِ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ  
 الْقَاسِمِ بْنِ إِدْرِيسَ ذَهَاباً إِلَى مَا اشْتَهَرَ فِي نَسَبِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ الْقَاسِمِ فَيَقُولُونَ  
 بِلِسَانِهِمُ الزَّنَاتِيَّ أَنْتَ الْقَاسِمُ أَيُّ بَنُو الْقَاسِمِ ثُمَّ يَدَّعُونَ أَنَّ الْقَاسِمَ هَذَا هُوَ الْقَاسِمُ بْنُ  
 إِدْرِيسَ أَوْ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحاً فَغَايَةُ الْقَاسِمِ هَذَا  
 أَنَّهُ فَرَّ مِنْ مَكَانِ سُلْطَانِهِ مُسْتَجِيراً بِهِمْ فَكَيْفَ تَتِمُّ لَهُ الرِّئَاسَةُ عَلَيْهِمْ فِي بَادِيَتِهِمْ  
 وَإِنَّمَا هُوَ غَلَطٌ مِنْ قَبْلِ اسْمِ الْقَاسِمِ فَإِنَّهُ كَثِيرُ الوجودِ فِي الْأَدَارِسَةِ فَتَوَهَّمُوا أَنَّ قَاسِمَهُمْ  
 مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ وَهُمْ غَيْرُ مُخْتَاجِينَ لِذَلِكَ فَإِنَّ مَنَالَهُمْ لِلْمَلِكِ وَالْعِزَّةَ إِنَّمَا كَانَ  
 بِعَصِيَّتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ بِادِّعَاءِ عَلَوِيَّةٍ وَلَا عَبَّاسِيَّةٍ وَلَا شَيْءٍ مِنَ الْأَنْسَابِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ  
 عَلَى هَذَا الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَى الْمُلُوكِ بِمَنَازِعِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَيَشْتَهَرُ حَتَّى يَبْغَدَ عَنِ الرَّدِّ  
 وَلَقَدْ بَلَّغْنِي عَنْ يَغْمَرَّاسِنَ بْنِ زِيَّانٍ مُؤْتَلٍ سُلْطَانِهِمْ أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ ذَلِكَ أَنْكَرَهُ وَقَالَ  
 بِلِقَةِ الزَّنَاتِيَّةِ مَا مَعْنَاهُ أَمَا الدُّنْيَا وَالْمَلِكُ فَنَلْنَاهُمَا بِسُيُوفِنَا لَا بِهَذَا النَّسَبِ وَأَمَا  
 نَفْعُهُمَا فِي الْآخِرَةِ فَمَرَدُودٌ إِلَى اللَّهِ وَأَعْرَضَ عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ . وَمِنْ هَذَا  
 الْبَابِ مَا يَدَّعِيهِ بَنُو سَعِيدِ شَيْوُخِ بِنِيِّ يَزِيدَ مِنْ رَغْبَةٍ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ أَبِي بَكْرٍ  
 الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبَنُو سَلَامَةَ شَيْوُخِ بِنِيِّ يَدْلَتْنِ مِنْ تَوْجِينٍ أَنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمِ  
 وَالزَّوَادَةَ شَيْوُخِ رِيَّاحٍ أَنَّهُمْ مِنْ أَغْقَابِ الْبَرَامِكَةِ وَكَذَا بَنُو مَهْنَأَ طَبِيءٍ  
 بِالْمَشْرِقِ يَدَّعُونَ فِيمَا بَلَّغْنَا أَنَّهُمْ مِنْ أَغْقَابِهِمْ وَأَمثالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَرِئَاسَتُهُمْ فِي قَوْمِهِمْ  
 مَانِعَةٌ مِنَ ادِّعَاءِ هَذِهِ الْأَنْسَابِ كَمَا ذَكَرْنَا بَلْ تُعَيَّنُ أَنْ يَكُونُوا مِنْ صَرِيحِ ذَلِكَ

(١) قوله الحرجان بكسر الحاء جمع حرج بفتحين نغش الموتى ١٠ هـ .

النَّسَبِ وَأَقْوَى عَصِيَّاتِهِ فَأَعْتَبِرْهُ وَاجْتَنِبِ الْمَغَالِطَ فِيهِ وَلَا تَجْعَلْ مِنْ هَذَا النَّبَابِ  
إِلْحَاقَ مَهْدِيِّ الْمُوَحِدِينَ بِنَسَبِ الْعُلُوِّيَّةِ فَإِنَّ الْمَهْدِيَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنْبِتِ الرَّئِاسَةِ فِي  
هَرِثْمَةَ قَوْمِهِ ، وَإِنَّمَا رَأْسَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ اشْتِهَارِهِ بِالْعِلْمِ وَالذِّينِ وَدُخُولِ قَبَائِلِ  
الْمَصَامِدَةِ فِي دَعْوَتِهِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْمَنَابِتِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِيهِمْ وَاللَّهُ عَالِمُ  
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .

### الفصل الثالث عشر

في أن البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لأهل العصبية

ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وَذَلِكَ أَنَّ الشَّرْفَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِالْإِخْلَالِ وَمَعْنَى الْبَيْتِ أَنْ يَعُدَّ الرَّجُلُ فِي  
آبَائِهِ أَشْرَافًا مَذْكُورِينَ يَكُونُ لَهُ بِوِلَادَتِهِمْ إِيَّاهُ وَالْإِنْتِسَابِ إِلَيْهِمْ تَجَلَّةٌ فِي أَهْلِ  
جِلْدَتِهِ لِمَا وَقَرَ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ تَجَلَّةِ سَلْفِهِ وَشَرَفِهِمْ بِإِخْلَالِهِمْ وَالنَّاسَ فِي نَشَأَتِهِمْ  
وَتَنَاسُلِهِمْ مَعَادِنُ قَالَ ﷺ « النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي  
الْإِسْلَامِ إِذَا قَفُّوا » فَمَعْنَى الْحَسَبِ رَاجِعٌ إِلَى الْأَنْسَابِ وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ثَمَرَةَ الْأَنْسَابِ  
وَفَائِدَتَهَا إِنَّمَا هِيَ الْعَصِيَّةُ لِلنُّعْرَةِ وَالتَّنَاصُرُ فَحَيْثُ تَكُونُ الْعَصِيَّةُ مَرْهُوبَةً وَالْمَنْبِتُ  
فِيهَا زَكِيٌّ مَخْمِيٌّ تَكُونُ فَائِدَةُ النَّسَبِ أَوْضَحَ وَثَمَرَتُهَا أَقْوَى وَتَعْدِيدُ الْأَشْرَافِ مِنْ  
الْآبَاءِ زَائِدٌ فِي فَائِدَتِهَا فَيَكُونُ الْحَسَبُ وَالشَّرْفُ أَصْلِيَّيْنِ فِي أَهْلِ الْعَصِيَّةِ لَوْجُودِ ثَمَرَةِ  
النَّسَبِ وَتَقَاوُتِ الْبَيْتِ فِي هَذَا الشَّرْفِ بِتَقَاوُتِ الْعَصِيَّةِ لِأَنَّهُ سِرُّهَا وَلَا يَكُونُ  
لِلْمُنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بَيْتٌ إِلَّا بِالْمَجَازِ وَإِنْ تَوَهَّمُوهُ فَزُخْرَفٌ مِنَ الدَّعَاوَى  
وَإِذَا اعْتَبَرْتَ الْحَسَبَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَجَدْتَ مَعْنَاهُ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَعُدُّ سَلْفًا فِي  
إِخْلَالِ الْخَيْرِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ مَعَ الرُّكُونِ إِلَى الْعَاقِبَةِ مَا اسْتَطَاعَ وَهَذَا مُغَايِرٌ لِسِرِّ  
الْعَصِيَّةِ الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ النَّسَبِ وَتَعْدِيدُ الْآبَاءِ لِكِنَّةِ يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَسَبٌ وَبَيْتٌ

بِالْمَجَازِ لِعِلَاقَةِ مَا فِيهِ مِنْ تَعْدِيدِ الْآبَاءِ الْمُتَعَاقِبِينَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخَيْرِ  
وَمَسَالِكِهِ وَلَيْسَ حَسْبًا بِالْحَقِيقَةِ وَعَلَى الْإِطْلَاقِ وَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا بِالْوَضْعِ  
الْلُغَوِيِّ فَيَكُونُ مِنَ الْمَشْكُوكِ الَّذِي هُوَ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِهِ أَوْلَى وَقَدْ يَكُونُ لِلْبَيْتِ  
شَرَفٌ أَوْلَى بِالْعَصِيَّةِ وَالْخِلَالِ ثُمَّ يَنْسَلِخُونَ مِنْهُ لِذَهَابِهَا بِالْحَضَارَةِ كَمَا تَقَدَّمَ  
وَيَخْتَلِطُونَ بِالْعَمَارِ وَيَبْقَى فِي نَفُوسِهِمْ وَسَوَاسُ ذَلِكَ الْحَسَبِ يُعَدُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ  
أَشْرَافِ الْبَيُوتَاتِ أَهْلِ الْعَصَائِبِ وَلَيْسُوا مِنْهَا فِي شَيْءٍ لِذَهَابِ الْعَصِيَّةِ جَمَلَةٌ وَكَثِيرٌ  
مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ النَّاشِئِينَ فِي بَيُوتِ الْعَرَبِ أَوْ الْعَجَمِ لِأَوَّلِ عَهْدِهِمْ مُوسُوسُونَ بِذَلِكَ  
وَأَكْثَرُ مَا رَسَخَ الْوَسْوَاسُ فِي ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ كَانَ لَهُمْ بَيْتٌ مِنْ أَكْثَرِ بَيُوتِ  
الْعَالَمِ بِالْمَنْبِتِ أَوْلَى لِمَا تَعَدَّدَ فِي سَلْفِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ لَدُنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ إِلَى مُوسَى صَاحِبِ مِلَّتِهِمْ وَشَرِيْعَتِهِمْ ثُمَّ بِالْعَصِيَّةِ ثَانِيًا وَمَا أَنَاهُمُ اللَّهُ بِهَا مِنْ  
الْمُلْكِ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ ثُمَّ أَنْسَلَخُوا مِنْ ذَلِكَ أَجْمَعَ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ  
وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ فِي الْأَرْضِ وَأَنْفَرَدُوا بِالِاسْتِعْبَادِ لِلْكَفْرِ الْآفَاءِ مِنَ السِّنِينَ وَمَا زَالَ  
هَذَا الْوَسْوَاسُ مُصَاحِبًا لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ يَقُولُونَ هَذَا هَارُونِي هَذَا مِنْ نَسْلِ يُوْشَعَ هَذَا مِنْ  
عَقِبِ كَالِبِ هَذَا مِنْ سِنِيطِ يَهُودًا مَعَ ذَهَابِ الْعَصِيَّةِ وَرُسُوحِ الذُّلِّ فِيهِمْ مِنْذُ أَحْقَابِ  
مُتَطَاوِلَةٍ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَغَيْرِهِمُ الْمُنْقَطِعِينَ فِي أَنْسَابِهِمْ عَنِ الْعَصِيَّةِ  
يَذْهَبُ إِلَى هَذَا الْهَدْيَانِ . وَقَدْ غَلِطَ أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ فِي هَذَا لَمَّا ذَكَرَ الْحَسَبَ فِي  
كِتَابِ الْخِطَابِيَةِ مِنْ تَلْخِيصِ كِتَابِ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ <sup>(١)</sup> وَالْحَسَبُ هُوَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ  
قَدِيمٍ نَزَلَهُمْ بِالْمَدِينَةِ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَلَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَنْفَعُهُ قَدَّمَ  
نَزَلَهُمْ بِالْمَدِينَةِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عِصَابَةٌ يَزْهَبُ بِهَا جَانِبَهُ وَتَحْمِلُ غَيْرَهُمْ عَلَى الْقَبُولِ  
مِنْهُ فَكَأَنَّهُ أَطْلَقَ الْحَسَبَ عَلَى تَعْدِيدِ الْآبَاءِ فَقَطُّ مَعَ أَنَّ الْخِطَابَةَ إِنَّمَا هِيَ اسْتِمَالَةٌ  
مَنْ تَوَثَّرَ اسْتِمَالَتُهُ وَهُمْ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَأَمَّا مَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ الْبَتَّةَ فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ  
وَلَا يَقْدَرُ عَلَى اسْتِمَالَةِ أَحَدٍ وَلَا يُسْتَمَالُ هُوَ وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ مِنَ الْحَضَرِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ  
إِلَّا أَنْ ابْنَ رُشْدٍ رَبَّا فِي جَبَلٍ وَبَلَدٍ وَلَمْ يَمَارِسُوا الْعَصِيَّةَ وَلَا أَنْسُوا أَحْوَالَهَا فَبَقِيَ فِي

(١) العلم الأول هو أرسطو . أما المعلم الثاني فهو الفارابي .



أمر البيت والحسب على الأمر المشهور من تعديد الآباء على الإطلاق ولم يراجع فيه حقيقة العصبية وسرها في الخليفة والله بكل شيء عليم .

## الفصل الرابع عشر

في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم  
لا بأنسابهم

وذلك أنا قدمنا أن الشرف بالأصالة والحقيقة إنما هو لأهل العصبية فإذا اضطنع أهل العصبية قوماً من غير نسبهم أو اشتروا العبدان والموالي والتحموا به كما قلناه ضرب معهم أولئك الموالى والمضطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتها كأنها عصبته وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رق أو مولى اصطناع وحلف<sup>(١)</sup> وليس نسب ولادته ينفع له في تلك العصبية إذ هي مبينة لذلك النسب وعصبية ذلك النسب مفقودة لذهاب سريها عند التحامه بهذا النسب الآخر وفقدانه أهل عصبيتها فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم شرف وبيت على نسبه في ولائهم واضطناعهم لا يتجاوزة إلى شرفهم بل يكون أذون منهم على كل حال وهذا شأن الموالى في الدول والخدمة كلهم فإنهم إنما يشرفون بالرؤسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولايتها ألا ترى إلى موالى الأتراك في دولة بني العباس وإلى بني برمك من قبلهم وبني نوبخت كيف أذركوا البيت والشرف وبنوا المجد والأصالة بالرؤسوخ في ولاء الدولة فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتاً وشرفاً بالانتساب إلى ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب في الفرس وكذا موالى كل

(١) مولى الرق هو العبد يعتقد سيده فيصبح ولاؤه له . ثم يرثه إذا مات ولم يترك غصبة . ومولى

الحلف . الرجل الحر الأصل يتخذ له مولى بعقد صريح . فيصبح بمنزلة عضو في أسرة مولاه .

دَوْلَةٌ وَخَدَمَهَا إِنَّمَا يَكُونُ لَهُمُ الْبَيْتُ وَالْحَسَبُ بِالرُّسُوحِ فِي وِلَايَتِهَا وَالْأَصَالَةَ فِي  
 اضْطِنَاعِهَا وَيَضْمَحَلُّ نَسَبُهُ الْأَقْدَمُ مِنْ غَيْرِ نَسَبِهَا وَيَبْقَى مُلْفَى لَا عِبْرَةَ بِهِ فِي  
 أَصَالَتِهِ وَمَجْدِهِ وَإِنَّمَا الْمُعْتَبَرُ نَسَبُهُ وَوِلَايَتُهُ وَاضْطِنَاعُهُ إِذْ فِيهِ سِرُّ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا  
 الْبَيْتُ وَالشَّرْفُ فَكَانَ شَرَفُهُ مُشْتَقًّا مِنْ شَرَفِ مَوَالِيهِ وَبِنَاؤُهُ مِنْ بِنَائِهِمْ فَلَمْ يَنْفَعَهُ  
 نَسَبُ وَوِلَادَتِهِ وَإِنَّمَا بَنَى مَجْدَهُ نَسَبُ الْوَلَاءِ فِي الدَّوْلَةِ وَلُحْمَةُ الْإِضْطِنَاعِ فِيهَا  
 وَالتَّرْبِيَّةُ وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُهُ الْأَوَّلُ فِي لُحْمَةِ عَصِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وَوَلَاؤُهُ  
 وَاضْطِنَاعُهُ فِي أُخْرَى لَمْ تَنْفَعَهُ الْأُولَى لِذَهَابِ عَصِيَّتِهَا وَانْتَفَعِ بِالثَّانِيَةِ لِوُجُودِهَا وَهَذَا  
 حَالُ بَنِي بَرْمَكٍ إِذِ الْمَنْقُولُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْفَرَسِ مِنْ سَدَنَةِ بِيُوتِ النَّارِ  
 عِنْدَهُمْ وَلَمَّا صَارُوا إِلَى وِلَاةِ بَنِي الْعَبَّاسِ لَمْ يَكُنْ بِالْأَوَّلِ اعْتِبَارًا وَإِنَّمَا كَانَ شَرَفُهُمْ  
 مِنْ حَيْثُ وَوَلَايَتُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ وَاضْطِنَاعُهُمْ وَمَا سِوَى هَذَا فَوَهْمٌ تَوَسَّوسَ بِهِ النَّفُوسُ  
 الْجَامِحَةُ وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ وَالْوُجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَا « وَإِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ »  
 وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

## الفصل الخامس عشر

في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء

إِغْلَمُ أَنَّ الْعَالَمَ الْعَنْصُرِيُّ بِمَا فِيهِ كَائِنٌ فَاسِدٌ لَا مِنْ ذَرَاتِهِ وَلَا مِنْ أَحْوَالِهِ  
 وَالْمُكُونَاتُ مِنَ الْمُعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ كَائِنَةٌ فَاسِدَةٌ  
 بِالْمَعَانِيَةِ وَكَذَلِكَ مَا يَغْرِضُ لَهَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَخُصُوصًا الْإِنْسَانِيَّةُ فَالْعُلُومُ تَنْشَأُ ثُمَّ  
 تُدْرَسُ وَكَذَا الصَّنَائِعُ وَأَمْثَالُهَا وَالْحَسَبُ مِنَ الْعَوَارِضِ الَّتِي تَغْرِضُ لِلدَّمِيئِينَ فَهُوَ  
 كَائِنٌ فَاسِدٌ لَا مَحَالَةَ وَلَيْسَ يُوجَدُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ شَرَفٌ مُتَّصِلٌ فِي آبَائِهِ مِنْ  
 لَدُنْ آدَمَ إِلَيْهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ كِرَامَةً بِهِ وَحِيَاظَةً عَلَى السَّرْفِ فِيهِ  
 وَأَوَّلُ كُلِّ شَرَفٍ خَارِجِيَّةٌ كَمَا قِيلَ ، وَهِيَ الْخُرُوجُ عَنِ الرَّئَاسَةِ وَالشَّرْفِ إِلَى الضَّعْفِ



يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ « إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ بَلَغَ الْغَايَةَ مِنَ الْمَجْدِ وَفِي التَّوْرَةِ مَا مَعْنَاهُ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكَ طَائِقٌ <sup>(١)</sup> غَيْرُ مُطَالَبٍ بِذُنُوبِ الْآبَاءِ لِلْبَنِينَ عَلَى الثَّوَالِثِ وَالرُّوَابِعِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْبَعَةَ الْأَعْقَابِ غَايَةٌ فِي الْأَنْسَابِ وَالْحَسَبِ . وَفِي كِتَابِ الْأَغَانِي فِي أَخْبَارِ عَزِيفِ الْعَوَانِي أَنَّ كِسْرَى قَالَ لِلنُّعْمَانِ هَلْ فِي الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ تَتَشَرَّفُ عَلَى قَبِيلَةٍ قَالَ نَعَمْ قَالَ بِأَيِّ شَيْءٍ قَالَ مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ آبَاءٍ مُتَوَالِيَةً رُؤْسَاءُ ثُمَّ اتَّصَلَ ذَلِكَ بِكَمَالِ الرَّابِعِ فَالْبَيْتُ مِنْ قَبِيلَتِهِ وَطَلَبَ ذَلِكَ فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فِي آلِ حَذِيفَةَ بْنِ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ وَهُمْ بَيْتُ قَيْسِ وَالِ ذِي الْجَدَّانِ بَيْتُ شَيْبَانَ وَالِ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ كِنْدَةَ وَالِ حَاجِبِ بْنِ زِرَّارَةَ وَالِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ الْمَنْقَرِيِّ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَجَمَعَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَأَقْعَدَ لَهُمُ الْحُكَّامَ وَالْعُدُولَ فَقَامَ حَذِيفَةُ بْنُ بَدْرِ ثُمَّ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِقَرَاتِيهِ مِنَ النُّعْمَانِ ثُمَّ بِسْطَامَ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَيْبَانَ ثُمَّ حَاجِبُ بْنُ زِرَّارَةَ ثُمَّ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ وَخَطَبُوا وَنَشَرُوا فَقَالَ كِسْرَى كُلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ لِمَوْضِعِهِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْبَيُوتَاتُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْعَرَبِ بَعْدَ بَنِي هَاشِمٍ وَمَعَهُمْ بَيْتُ بَنِي الذُّبْيَانِ مِنْ بَنِي الْحَرِثِ بْنِ كَعْبٍ الْيَمَنِيِّ وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْبَعَةَ الْآبَاءَ نِهَايَةَ فِي الْحَسَبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

## الفصل السادس عشر

في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها

إِغْلَمَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الْبِدَاوَةُ سَبَبًا فِي الشَّجَاعَةِ كَمَا قُلْنَا فِي الْمَقْدِمَةِ الثَّلَاثَةِ <sup>(٢)</sup> لَا جَرَمَ كَانَ هَذَا الْجَيْلُ الْوَحْشِيُّ أَشَدَّ شَجَاعَةً مِنَ الْجَيْلِ الْآخِرِ فَهُمْ أَقْدَرُ عَلَى التَّغْلِبِ وَانْتِزَاعِ مَا فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْأَمَمِ بَلِ الْجَيْلُ الْوَاحِدُ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُ فِي ذَلِكَ

(١) طائِق : قادر .

(٢) ورد هذا العنوان في المقدمة الخامسة .

باختلاف الأعصار فكلما نزلوا الأرياف وتفنقوا<sup>(١)</sup> النعيم وألغوا عوائد الخصب في  
 المعاش والنعيم . نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحيشهم وبدأوتهم  
 واعتبر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الطباء والبقر الوحشية والحمر إذا زال  
 توحيشها بمخالطة الأدميين وأخصب عيشها كيف يختلف حالها في الانتهاض<sup>(٢)</sup>  
 والشدة حتى في مشيتها وحسن أديمها وكذلك الأدمي المتوحش إذا انس وألف  
 وسببه أن تكون السجايا والطبائع إنما هو عن المألوفات والعوائد وإذا كان الغلب  
 للآدمي إنما يكون بالإقدام والبسالة فمن كان من هذه الأجيال أعرق في البداوة  
 وأكثر توحيشاً كان أقرب إلى التغلب على سواه إذا تقاربا في العدد وتكافأ في القوة  
 العصبية وانظر في ذلك شأن مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين إلى  
 الملك والنعيم ومع ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونيمة لما بقي مضر في  
 بدأوتهم وتقدمهم الآخرون إلى خصب العيش وغضارة<sup>(٣)</sup> النعيم كيف أرهفت  
 البداوة حدتهم في التغلب فغلبوهم على ما في أيديهم وانتزعوه منهم وهذا حال بني  
 طيء وبني عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور ومن بعدهم لما تأخروا في  
 باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يتلبسوا بشيء من دنياهم كيف أمسكت  
 حال البداوة عليهم قوة عصبيتهم ولم تخلفها مذهب الترف حتى صاروا أغلب على  
 الأمر منهم وكذا كل حي من العرب يلي نعيماً وعيشاً خصباً دون الحي الآخر فإن  
 الحي المتبدي<sup>(٤)</sup> يكون أغلب له وأقدر عليه إذا تكافأ في القوة والعدد . سنة الله في  
 خلقه .

(١) تفنقوا : تنموا

(٢) الانتهاض : القيام بالأمر .

(٣) الغضارة : النعمة والخصب ( قاموس ) .

(٤) المتبدي : المقيم في البادية .

## الفصل السابع عشر

في ان الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك

وَذَلِكَ لِأَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الْعَصِيَّةَ بِهَا تَكُونُ الْحِمَايَةَ وَالْمُدَافَعَةَ وَالْمُطَالَبَةَ وَكُلُّ  
أَمْرٍ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْأَدْمِيَّيْنَ بِالطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَحْتَاجُونَ فِي كُلِّ اجْتِمَاعٍ  
إِلَى وَازِعٍ وَحَاكِمٍ يَزْعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَغَلِّبًا عَلَيْهِمْ يَتْلِكُ  
الْعَصِيَّةَ وَالْأَمْرَ لَمْ تَتَمَّ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا التَّغْلِبُ هُوَ الْمُلْكُ وَهُوَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى  
الرَّئِيسَةِ لِأَنَّ الرَّئِيسَةَ إِنَّمَا هِيَ سُودَدٌ وَصَاحِبُهَا مَتَبَوِّعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ  
وَأَمَّا الْمُلْكُ فَهُوَ التَّغْلِبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ وَصَاحِبُهَا مَتَبَوِّعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي  
أَحْكَامِهِ وَأَمَّا الْمُلْكُ فَهُوَ التَّغْلِبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ وَصَاحِبُ الْعَصِيَّةِ إِذَا بَلَغَ إِلَى رُتْبَةِ  
طَلَبَ مَا فَوْقَهَا فَإِذَا بَلَغَ رُتْبَةَ السُّودَدِ وَالِاتِّبَاعِ وَوَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى التَّغْلِبِ وَالْقَهْرِ  
لَا يَتْرُكُهُ لِأَنَّهُ مَطْلُوبٌ لِلنَّفْسِ وَلَا يَتَمُّ اقْتِدَارُهَا عَلَيْهِ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا  
مَتَبَوِّعًا فَالتَّغْلِبُ الْمَلِكِيُّ غَايَةٌ لِلْعَصِيَّةِ كَمَا رَأَيْتُ ثُمَّ إِنَّ الْقَبِيلَ الْوَاحِدَ وَإِنْ كَانَتْ  
فِيهِ بِيُوتَاتٌ مُفْتَرَقَةٌ وَعَصَبِيَّاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ فَلَا بُدَّ مِنْ عَصِيَّةٍ تَكُونُ أَقْوَى مِنْ جَمِيعِهَا  
تَغْلِبُهَا وَتَسْتَبْعِبُهَا وَتَلْتَحِمُ جَمِيعَ الْعَصَبِيَّاتِ فِيهَا وَتَصِيرُ كَأَنَّهَا عَصِيَّةٌ وَاحِدَةٌ كُبْرَى  
وَالْأَمْرَ وَقَعَ الْإِفْتِرَاقُ الْمُفْضِي إِلَى الْإِخْتِلَافِ وَالتَّنَازُعِ « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ  
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » <sup>(١)</sup> ثُمَّ إِذَا حَصَلَ التَّغْلِبُ يَتْلِكُ الْعَصِيَّةَ عَلَى قَوْمِهَا طَلَبَتْ  
بِطَبِيعِهَا التَّغْلِبَ عَلَى أَهْلِ عَصَبِيَّةٍ أُخْرَى يَبْعِدُهُ عَنْهَا فَإِنْ كَافَأَتْهَا أَوْ مَانَعَتْهَا كَانُوا  
أَقْتَالًا وَأَنْظَارًا وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا التَّغْلِبُ عَلَى حَوَزَتِهَا وَقَوْمِهَا شَأْنُ الْقَبَائِلِ وَالْأُمَمِ  
الْمُفْتَرَقَةِ فِي الْعَالَمِ وَإِنْ غَلِبَتْهَا وَاسْتَبْعَبَتْهَا التَّحَمَّتْ بِهَا أَيْضًا وَزَادَتْ قُوَّةً فِي التَّغْلِبِ

(١) سورة البقرة الآية ٢٥١

إلى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكيم أعلى من الغاية الأولى وأبعد وهكذا دائماً حتى تكافىء بقوتها قوة الدولة في هزمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبية استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها وإن انتهت قوتها ولم يُقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبية انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعين من مقاصدها وذلك ملك آخر دون الملك المُستبد وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس ولصنهاجة وزناته مع كُتامة ولبنى حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبية وأنها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة الملك إما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك وإن عاقها عن بلوغ الغاية عوائق كما نبينه وفتت في مقامها إلى أن يقضى الله بأمره .

## الفصل الثامن عشر

في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بغض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصه بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فإن كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون<sup>(١)</sup> فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم إلى شيء من منازع الملك ولا أسبايه وإنما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة إلى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني

(١) شركته في البيع والميراث والأمر . أشركه . إذا صرت له شريكاً ( قاموس ) .

وَالْمَلَاسِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ وَالتَّائِقِ فِيهِ بِمَقْدَارِ مَا حَصَلَ مِنَ الرِّيشِ وَالتَّرْفِ  
وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ تَوَابِعِ ذَلِكَ فَتَذْهَبُ خُشُونَةُ الْبَدَاوَةِ وَتَضَعُفُ الْعَصِيَّةُ وَالْبَسَالَةُ  
وَيَتَنَعَّمُونَ فِيهَا أَنَاهُمْ اللَّهُ مِنَ الْبَسْطَةِ وَتَنْشَأُ بِنُوهُمْ وَأَعْقَابُهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ  
التَّرْفِ عَنْ خِدْمَةِ أَنْفُسِهِمْ وَوَلَايَةِ حَاجَاتِهِمْ وَيَسْتَنْكِفُونَ عَنْ سَائِرِ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ  
فِي الْعَصِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ خُلُقًا لَهُمْ وَسَجِيَّةً فَتَنْقُصُ عَصِيَّتُهُمْ وَبَسَالَتُهُمْ فِي  
الْأَجْيَالِ بَعْدَهُمْ يَتَعَاثَبُهَا إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الْعَصِيَّةُ فَيَأْذَنُونَ بِالِانْقِرَاضِ وَعَلَى قَدْرِ  
تَرْفِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ يَكُونُ إِشْرَافُهُمْ عَلَى الْفَنَاءِ فَضْلًا عَنِ الْمُلْكِ فَإِنَّ عَوَارِضَ التَّرْفِ  
وَالْفَرَقَ فِي النَّعِيمِ كَاسَرَ مِنْ سُورَةِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا التَّغْلُبُ وَإِذَا انْقَرَضَتِ الْعَصِيَّةُ  
قَصُرَ الْقَبِيلُ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَضْلًا عَنِ الْمُطَالَبَةِ وَالتَّهْمَتِ الْأَمَمِ سِوَاهُمْ فَقَدْ  
تَبَيَّنَ أَنَّ التَّرْفَ مِنْ عَوَائِقِ الْمُلْكِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَنْ يَشَاءُ .

## الفصل التاسع عشر

في أن من عوائق الملك المذلة للقبيل والانتقياد إلى سواهم

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَذَلَّةَ وَالِانْتِقِيَادَ كَاسِرَانَ لِسُورَةِ الْعَصِيَّةِ وَشِدَّتِهَا فَإِنَّ انْتِقِيَادَهُمْ  
وَمَذَلَّتَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى فِقْدَانِهَا فَمَا رَثِمُوا لِلْمَذَلَّةِ حَتَّى عَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ فَأُولَى أَنْ  
يَكُونُ عَاجِزًا عَنِ الْمَقَاوِمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا دَعَاهُمْ  
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَلِكِ الشَّامِ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ لَهُمْ مَلَكَهَا كَيْفَ  
عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ وَقَالُوا : « إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا  
مِنْهَا » <sup>(١)</sup> أَيْ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا بِضَرْبٍ مِنْ قُدْرَتِهِ غَيْرَ عَصِيَّتِنَا وَتَكُونُ مِنْ  
مُعْجِزَاتِكَ يَا مُوسَى وَلَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِمْ لَجُوعًا وَارْتَكَبُوا الْعِصْيَانَ وَقَالُوا لَهُ : « أَذْهَبَ  
أَنْتَ وَرَبِّكَ فَقَاتِلَا » <sup>(٢)</sup> وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا أُنْسُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ

(١) سورة المائدة الآية ٢٢

(٢) سورة المائدة الآية ٢٤



وَالْمُطَالِبَةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْآيَةُ <sup>(١)</sup> وَمَا يُؤْتِرُ فِي تَفْسِيرِهَا وَذَلِكَ بِمَا حَصَلَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ الْإِنْتِيَادِ وَمَا رَتَمُوا مِنَ الدُّلِّ لِلْقَبْطِ أَحْقَابًا حَتَّى ذَهَبَتِ الْعَصِيَّةُ مِنْهُمْ جُمْلَةً مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَنَّ الشَّامَ لَهُمْ وَأَنَّ الْعَمَالِقَةَ الَّذِينَ كَانُوا بِأَرِيحَا فَرِيَسْتَهُمْ بِحُكْمِ مِنَ اللَّهِ قَدَرَهُ لَهُمْ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَعَجَزُوا تَعْوِيلًا عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُطَالِبَةِ لِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ خُلُقِ الْمَذَلَّةِ وَطَعَنُوا فِيهَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيِّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِالتَّيِّبِ وَهُوَ أَنَّهُمْ تَاهُوا فِي قَفْرِ مِنَ الْأَرْضِ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْوُوا فِيهَا الْعُمُرَانَ وَلَا نَزَلُوا مِصْرًا وَلَا خَالَطُوا بَشَرًا كَمَا قَضَى الْقُرْآنُ لِغَلْظَةِ الْعَمَالِقَةِ بِالشَّامِ وَالْقَبْطِ بِمِصْرَ عَلَيْهِمْ لِعَجْزِهِمْ عَنِ مُقَاوَمَتِهِمْ كَمَا زَعَمُوهُ وَيُظْهِرُ مِنْ مَسَاقِ الْآيَةِ وَمَفْهُومِهَا أَنَّ حِكْمَةَ ذَلِكَ التَّيِّبِ مَقْصُودَةٌ وَهِيَ فَنَاءُ الْجِيلِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ قَبْضَةِ الدُّلِّ وَالْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ وَتَخَلَّقُوا بِهِ وَأَفْسَدُوا مِنْ عَصِيَّتِهِمْ حَتَّى نَشَأَ فِي ذَلِكَ التَّيِّبِ جِيلٌ آخَرَ عَزِيزٌ لَا يَعْرِفُ الْأَحْكَامَ وَالْقَهْرَ وَلَا يَسَامُ بِالْمَذَلَّةِ فَنَشَأَتْ بِذَلِكَ عَصِيَّةٌ أُخْرَى اقْتَدَرُوا بِهَا عَلَى الْمُطَالِبَةِ وَالتَّغْلِبِ وَيُظْهِرُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً أَقَلُّ مَا يَأْتِي فِيهَا فَنَاءُ جِيلٍ وَنَشَأُ جِيلٍ آخَرَ سُبْحَانَ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ وَفِي هَذَا أَوْضَحَ دَلِيلٌ عَلَى شَأْنِ الْعَصِيَّةِ وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْمُدَافَعَةُ وَالْمُقَاوِمَةُ وَالْحِمَايَةُ وَالْمُطَالِبَةُ وَأَنَّ مَنْ فَقَدَهَا عَجَزَ عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَيَلْحَقُ بِهَذَا الْفَضْلِ فِيهَا يُوْجِبُ الْمَذَلَّةَ لِلْقَبِيلِ شَأْنَ الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ فَإِنَّ الْقَبِيلَ الْغَارِمِينَ مَا أَعْطَوْا الْيَدَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى رَضُوا بِالْمَذَلَّةِ فِيهِ لِأَنَّ فِي الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ ضَيْمًا وَمَذَلَّةً لَا تَحْتَمِلُهَا النَّفُوسُ الْأَبِيَّةُ إِلَّا إِذَا اسْتَهْوَنَتْهُ عَنِ الْقَتْلِ وَالتَّلْفِ وَأَنَّ عَصِيَّتَهُمْ حِينَئِذٍ ضَعِيفَةٌ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ وَمَنْ كَانَتْ عَصِيَّتُهُ لَا تَدْفَعُ عَنْهُ الضَّيْمَ فَكَيْفَ لَهُ بِالْمُقَاوِمَةِ وَالْمُطَالِبَةِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْإِنْتِيَادُ لِلدُّلِّ وَالْمَذَلَّةُ عَائِقَةٌ كَمَا قَدَّمْنَا . وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي شَأْنِ الْحَرْثِ لَمَّا رَأَى سِكَّةَ الْمِخْرَاطِ فِي بَعْضِ دُورِ الْأَنْصَارِ « مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُمُ الدُّلُّ »

(١) جاء ختام هذه القصة في القرآن الكريم بقوله تعالى : « قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض . فلا تأس على القوم الفاسقين . (سورة المائدة) .

فَهُوَ دَلِيلٌ صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ الْمَغْرَمَ مُوجِبٌ لِلذَّلَّةِ <sup>(١)</sup> هَذَا إِلَى مَا يَصْحَبُ ذَلِكَ الْمَغَارِمَ مِنْ خَلْقِ الْمَكْر وَالْحَدِيدَةِ بِسَبَبِ مَلَكَةِ الْقَهْرِ فَإِذَا رَأَيْتَ الْقَبِيلَ بِالْمَغَارِمِ فِي رِبْقَةٍ مِنَ الذَّلِّ فَلَا تَطْمَعَنَّ لَهَا بِمُلْكٍ آخَرَ الدَّهْرِ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلْطُ مَنْ يَزْعَمُ أَنَّ زِنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ كَانُوا شَاوِيَةً يُؤَدُّونَ الْمَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَهُوَ غَلْطٌ فَاحِشٌ كَمَا رَأَيْتَ إِذْ لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لَمَا اسْتَتَبَ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا تَمَّتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَانظُرْ فِيمَا قَالَهُ شَهْرَبَرَّازُ مَلِكِ الْبَابِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا أَطْلَعَ عَلَيْهِ وَسَأَلَ شَهْرَ بَرَّازُ أَمَانَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ فَقَالَ أَنَا الْيَوْمَ مِنْكُمْ يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ وَصَعْرِي <sup>(٢)</sup> مَعَكُمْ فَمَرْحَباً بِكُمْ وَبَارَكَ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ وَجَزَيْتَنَا إِلَيْكُمْ النُّصْرَ لَكُمْ وَالْقِيَامَ بِمَا تُحِبُّونَ وَلَا تَذَلُّونَا بِالْجِزْيَةِ فَتَوْهُونَا لِعَدُوِّكُمْ فَاعْتَبِرْ هَذَا فِيمَا قُلْنَا فَإِنَّهُ كَافٍ .

## الفصل العشرون

في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لَمَّا كَانَ الْمُلْكُ طَبِيعِيًّا لِلْإِنْسَانِ لَمَّا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْاجْتِمَاعِ كَمَا قُلْنَا وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ الْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ النَّاطِقَةِ الْعَاقِلَةِ لِأَنَّ الشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قِبَلِ الْقَوَى الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي فِيهِ وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ إِلَى الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبُ وَالْمُلْكُ وَالسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ لِأَنَّهُمَا لِلْإِنْسَانِ خَاصَّةٌ لَا لِلْحَيَوَانَ فَإِذَا خِلَالُ الْخَيْرِ فِيهِ هِيَ الَّتِي تُنَاسِبُ السِّيَاسَةَ وَالْمُلْكَ إِذِ الْخَيْرُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلسِّيَاسَةِ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَجْدَ لَهُ أَصْلٌ يُبْنَى عَلَيْهِ وَتَتَحَقَّقُ بِهِ حَقِيقَتُهُ وَهُوَ الْعَصِيَّةُ وَالْعَشِيرُ وَفَرْعٌ يَتَمَّمُ وَجُودَهُ وَيَكْمِلُهُ وَهُوَ الْخِلَالُ وَإِذَا كَانَ الْمُلْكُ غَايَةً لِلْعَصِيَّةِ فَهُوَ غَايَةٌ لِفُرُوعِهَا وَمُتَمِّمَاتِهَا وَهِيَ الْخِلَالُ لِأَنَّ وَجُودَهُ دُونَ

(١) لأن الشغلين بالزراعة كانوا يدفعون غالباً الخراج للدولة . وهناك حديث شائع على السنة العامة ، « إذا غضب الله على قوم أسكنهم القرى أو للزارع » وهو مثل قديم سببه أن الدولة العثمانية التي كانت تحكم على بلادنا كان جل اعتمادها على الضرائب الزراعية .

(٢) صعر ، صغراً وجهه ، مال إلى أحد الشقين ( قاموس ) .

مُتَمَمَاتِهِ كَوْجُودِ شَخْصٍ مَقْطُوعِ الْأَعْضَاءِ أَوْ ظُهُورِهِ عُرْيَانًا بَيْنَ النَّاسِ وَإِذَا كَانَ  
وَجُودُ الْعَصِيَّةِ فَقَطُّ مِنْ غَيْرِ انْتِحَالِ الْخِلَالِ الْحَمِيدَةِ نَقْصًا فِي أَهْلِ الْبُيُوتِ  
وَالْأَحْسَابِ فَمَا ظَنُّكَ بِأَهْلِ الْمُلْكِ الَّذِي هُوَ غَايَةٌ لِكُلِّ مَجْدٍ وَنَهَايَةٌ لِكُلِّ حَسَبٍ  
وَأَيْضًا فَالسياسةُ وَالْمُلْكُ هِيَ كِفَالَةٌ لِلخَلْقِ وَخِلافةُ اللَّهِ فِي الْعِبَادِ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ  
وَأَحْكَامُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ إِنَّمَا هِيَ بِالْخَيْرِ وَمُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ  
الشَّرَائِعُ وَأَحْكَامُ الْبَشَرِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْجَهْلِ وَالشَّيْطَانِ بِخِلَافِ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ  
وَقُدْرَهُ فَإِنَّهُ فَاعِلٌ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعًا وَمُقَدَّرُهُمَا إِذْ لَا فَاعِلَ سِوَاهُ فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ  
الْعَصِيَّةُ الْكُفَيْلَةُ بِالْقُدْرَةِ وَأُونِسَتْ مِنْهُ خِلَالَ الْخَيْرِ الْمُنَاسِبَةِ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ اللَّهِ فِي  
خَلْقِهِ فَقَدْ تَهَيَّأَ لِلْخِلافةِ فِي الْعِبَادِ وَكِفَالَةِ الْخَلْقِ وَوُجِدَتْ فِيهِ الصَّلَاحِيَّةُ لِذَلِكَ . وَهَذَا  
الْبُرْهَانُ أَوْثَقُ مِنَ الْأَوَّلِ وَأَصَحُّ مَبْنَى فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ خِلَالَ الْخَيْرِ شَاهِدَةٌ بِوَجُودِ الْمُلْكِ  
لِمَنْ وَجِدَتْ لَهُ الْعَصِيَّةُ فَإِذَا نَظَرْنَا فِي أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْغَلْبِ عَلَى  
كَثِيرٍ مِنَ النَّوَاحِي وَالْأَمَمِ فَوَجَدْنَاهُمْ يَتَنَافَسُونَ فِي الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ مِنَ الْكِرَمِ وَالْعَفْوِ  
عَنِ الزَّلَّاتِ وَالْإِخْتِمَالِ مِنْ غَيْرِ الْقَادِرِ وَالْقِرَى لِلضُّيُوفِ وَحَمْلِ الْكُلِّ <sup>(١)</sup> وَكَسْبِ  
الْمُعْجَمِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَبِذَلِ الْأَمْوَالِ فِي صَوْنِ الْأَعْرَاضِ  
وَتَعْظِيمِ الشَّرِيعَةِ وَإِجْلَالِ الْعُلَمَاءِ الْحَامِلِينَ لَهَا وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَا يَحْدُدُونَهُ لَهُمْ مِنْ  
فِعْلِ أَوْ تَرْكِ وَحَسَنِ الظَّنِّ بِهِمْ وَاعْتِقَادِ أَهْلِ الدِّينِ وَالتَّبَرُّكِ بِهِمْ وَرَغْبَةِ الدُّعَاءِ مِنْهُمْ  
وَالْحَيَاءِ مِنَ الْأَكَابِرِ وَالْمَشَايخِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَإِجْلَالِهِمْ وَالْإِنْقِيَادَ إِلَى الْحَقِّ مَعَ الدَّاعِي  
إِلَيْهِ وَإِنْصَافِ الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَالتَّبَدُّلِ <sup>(٢)</sup> فِي أَحْوَالِهِمْ وَالْإِنْقِيَادَ لِلْحَقِّ  
وَالْتَوَاضِعَ لِلْمَسْكِينِ وَاسْتِمَاعَ شَكْوَى الْمُسْتَفِيزِينَ وَالتَّدْبِيرَ بِالشَّرَائِعِ وَالْعِبَادَاتِ  
وَالْقِيَامَ عَلَيْهَا وَعَلَى أَسْبَابِهَا وَالتَّجَافِي عَنِ الْعُدْرِ وَالْمَكْرِ وَالْحَدِيْمَةِ وَنَقْضِ الْعَهْدِ  
وَأَمْثَالِ ذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ خَلْقُ السِّيَاسَةِ قَدْ حَصَلَتْ لَدَيْهِمْ وَاسْتَحَقُّوا بِهَا أَنْ يَكُونُوا  
سَاسَةً لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ أَوْ عَلَى الْعُمُومِ وَأَنَّهُ خَيْرٌ سَاقَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ مُنَاسِبٌ

(١) الكل . اليتيم . من لا يقدر على القيام بشؤون نفسه ( قاموس ) .

(٢) التبديل . ترك التزير والتهبؤ بالهيئة الحسنى على جهة التواضع ( قاموس ) .

لِعَصِيَّتِهِمْ وَعَلَيْهِمْ وَلَيْسَ ذَلِكَ سُدىً فِيهِمْ وَلَا وَجَدَ عَبَثًا مِنْهُمْ وَالْمَلِكُ أَنْسَبَ الْمَرَاتِبِ  
وَالْخَيْرَاتِ لِعَصِيَّتِهِمْ فَعَلِمْنَا بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَأَذَّنَ لَهُمْ بِالْمَلِكِ وَسَاقَهُ إِلَيْهِمْ وَبِالْعَكْسِ  
مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الْمَلِكِ مِنْ أُمَّةٍ حَمَلَهُمْ عَلَى ارْتِكَابِ الْمَذْمُومَاتِ  
وَانْتِحَالِ الرِّذَائِلِ وَسُلُوكِ طَرَفِهَا فَتَفَقَدَ الْفَضَائِلَ السِّيَاسِيَّةَ مِنْهُمْ جُمْلَةً وَلَا تَزَالُ فِي  
انْتِقَاصِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْمَلِكُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَتَبَدَّلَ بِهِ سِوَاهُمْ لِيَكُونَ نَعِيًا عَلَيْهِمْ فِي  
سَلْبِ مَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ مِنَ الْمَلِكِ وَجَعَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ  
نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا »<sup>(١)</sup>  
وَاسْتَقْرَى ذَلِكَ وَتَتَبَعَهُ فِي الْأُمَّةِ السَّابِقَةِ تَجَدُّ كَثِيرًا مِمَّا قَلْنَاهُ وَرَسَّسْنَاهُ وَاللَّهُ يَخْلُقُ  
مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ خِلَالِ الْكَمَالِ الَّتِي يَتَنَافَسُ فِيهَا الْقَبَائِلُ أَوِ الْعَصِيَّةِ  
وَتَكُونُ شَاهِدَةً لَهُمْ بِالْمَلِكِ إِكْرَامُ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَشْرَافِ وَأَهْلِ الْأَخْسَابِ  
وَأَصْنَافِ التِّجَارِ وَالْعُرَبَاءِ وَإِنْزَالُ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ إِكْرَامَ الْقَبَائِلِ وَأَهْلِ  
الْعَصِيَّاتِ وَالْعَشَائِرِ لِمَنْ يُنَاهِضُهُمْ فِي الشَّرَفِ وَيَجَادُ بِهِمْ حَبْلَ الْعَشِيرِ وَالْعَصِيَّةِ  
وَيُشَارِكُهُمْ فِي اتِّسَاعِ الْجَاهِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ يَحْمِلُ عَلَيْهِ فِي الْأَكْثَرِ الرَّغْبَةَ فِي الْجَاهِ أَوْ  
الْمُخَافَةَ مِنْ قَوْمِ الْمُكْرَمِ أَوْ التَّمَاسُ مِثْلَهَا مِنْهُ وَأَمَّا أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ عَصِيَّةٌ  
تَتَّقَى وَلَا جَاهٌ يُرْتَجَى فَيَنْدَفِعُ الشُّكُّ فِي شَأْنِ كِرَامَتِهِمْ وَيَتَمَحَّضُ الْقَضْدُ فِيهِمْ أَنَّهُ  
لِلْمَجْدِ وَانْتِحَالِ الْكَمَالِ فِي الْخِلَالِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى السِّيَاسَةِ بِالْكُلِّيَّةِ لِأَنَّ إِكْرَامَ  
أَقْتَالِهِ<sup>(٢)</sup> وَأَمْثَالِهِ ضَرْوِيٌّ فِي السِّيَاسَةِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ قَبِيلِهِ وَنَظَرَاتِهِ وَإِكْرَامَ الطَّارِئِينَ  
مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالْخُصُوصِيَّاتِ كَمَالٌ فِي السِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ فَالصَّالِحُونَ لِلذِّينِ  
وَالْعُلَمَاءُ لِلجَّاهِ إِلَيْهِمْ فِي إِقَامَةِ مَرَامِ الشَّرِيعَةِ وَالتِّجَارِ لِلتَّرْغِيبِ حَتَّى تَعْمَ الْمَنْفَعَةُ  
بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَالْعُرَبَاءُ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَإِنْزَالُ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ مِنَ الْإِنْصَافِ  
وَهُوَ مِنَ الْعَدْلِ فَيَعْلَمُ بِوُجُودِ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ عَصِيَّتِهِ انْتِمَاؤَهُمْ لِلسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَهِيَ  
الْمَلِكُ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ تَأَذَّنَ بِوُجُودِهَا فِيهِمْ لِوُجُودِ عِلَامَاتِهَا وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلُ مَا يَذْهَبُ

(١) سورة الاسراء الآية ١٦ .

(٢) اقتال ، ج قتل بكسر القاف ، العدو - الصديق - القرن ، النظر وهنا تعني النظر ( قاموس ) .

مِنَ الْقَبِيلِ أَهْلَ الْمَلِكِ إِذَا تَأَذَّنَ اللَّهُ تَعَالَى بِسَلْبِ مُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ إِكْرَامَ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْخَلْقِ فَإِذَا رَأَيْتَهُ قَدْ ذَهَبَ مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَضَائِلَ قَدْ أَخَذَتْ فِي الذَّهَابِ عَنْهُمْ وَارْتَقَبْ زَوَالَ الْمَلِكِ مِنْهُمْ » وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ « وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

## الفصل الحادي والعشرون

في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع

وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى التَّغْلِبِ وَالِاسْتِبْدَادِ كَمَا قُلْنَا وَاسْتِعْبَادِ الطَّوَائِفِ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَى مُحَارَبَةِ الْأُمَمِ سِوَاهُمْ وَلِأَنَّهُمْ يَنْتَزِلُونَ مِنَ الْأَهْلِينَ مِنْزِلَةَ الْمُفْتَرَسِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ الْعَرَبِ <sup>(١)</sup> وَزَنَاتُهُ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْأَكْرَادِ وَالتَّرْكَمَانِ وَأَهْلِ اللُّثَامِ مِنْ صَنْهَاجَةَ وَأَيْضًا فَهَؤُلَاءِ الْمُتَوَحُّشُونَ لَيْسَ لَهُمْ وَطَنٌ يَرْتَاقُونَ <sup>(٢)</sup> مِنْهُ وَلَا بَلَدٌ يَجْنَحُونَ إِلَيْهِ فَنِسْبَةُ الْأَقْطَارِ وَالْمَوَاطِنِ إِلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ فَلِهَذَا لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَلَكيَّةِ قَطْرِهِمْ وَمَا جَاوَرَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ وَلَا يَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِ أَقْبَمِهِمْ بَلْ يَظْفُرُونَ إِلَى الْأَقَالِيمِ الْبَعِيدَةِ وَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْأُمَمِ النَّائِيَةِ وَانظُرْ مَا يُحْكِي فِي ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بُويعَ وَقَامَ يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى الْعِرَاقِ فَقَالَ : إِنَّ الْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بِدَارٍ إِلَّا عَلَى النُّجْعَةِ وَلَا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذَلِكَ أَيْنَ الْقُرَاءِ الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعِدِ اللَّهِ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَكُمْ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ أَنْ يورثكموها ، فقال : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » <sup>(٣)</sup> وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ أَيْضًا بِحَالِ الْعَرَبِ السَّالِفَةِ مِنْ قَبْلِ مِثْلِ التَّبَابِعَةِ وَحَمِيرَ كَيْفَ كَانُوا يَخْطُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ مَرَّةً وَإِلَى الْعِرَاقِ وَالْهِنْدِ أُخْرَى وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِغَيْرِ

(١) يعني ابن خلدون العرب المتوحشون الذين ذكرهم في مواضع عدة .

(٢) يمتاشون منه .

(٣) سورة الصف الآية ٩ .

العرب من الأمم وكذا حال الملتئمين من المغرب لما نزعوا إلى الملك طغفروا من الإقليم الأول ومجالاتهم منه في جوار السودان إلى الإقليم الرابع والخامس في ممالك الأندلس من غير واسطة وهذا شأن هذه الأمم الوحشية فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقاً وأبعد من مراكزها نهاية « والله يُقدر الليل والنهار »<sup>(١)</sup> وهو الواحد القهار لا شريك له .

## الفصل الثاني والعشرون

في أن الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عوده إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

والسبب في ذلك أن الملك إنما حصل لهم بعد سورة الغلب والإذعان لهم من سائر الأمم سواهم فيتعين منهم المباشرين للأمر الحاملون سرير الملك ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المراحة والغيرة التي تجذع أنوف كثير من المتطاولين للرغبة فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا في النعيم وعرفوا في بحر الترف والخضب واستغبدوا إخوانهم من ذلك الجيل وأنفقوهم في وجوه الدولة ومذاهبها وبقية الذين بعدوا عن الأمر وكبحوا عن المشاركة في ظل من عز الدولة التي شاركوها بنسبهم وبمنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه فإذا استولت على الأولين الأيام وأباد غضاءهم الهرم فطبختهم الدولة وأكل الدهر عليهم وشرب بما أزهف النعيم من حدهم واستتقت غريزة الترف من مائهم وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدين الإنساني والتغلب السياسي (شعر) :

كُدودُ القَرِّ يَنْسِجُ ثُمَّ يَفْنَى بِمَرْكَزِ نَسِجِهِ فِي الْإِنْعَاسِ

(١) سورة المزمل الآية ٢٠ .

كَانَتْ حِينِيذٍ عَصِيَّةِ الْآخِرِينَ مَوْفُورَةً وَسُورَةَ غَلِبِهِمْ مِنَ الْكَاسِرِ مَحْفُوظَةً  
وَشَارَتْهُمْ فِي الْغَلْبِ مَعْلُومَةً فَتَسْمُو أَمَالَهُمْ إِلَى الْمَلِكِ الَّذِي كَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنْهُ بِالْقُوَّةِ  
الْغَالِيَةِ مِنْ جِنْسِ عَصَبِيَّتِهِمْ وَتَرْتَفِعُ الْمُنَازَعَةُ لِمَا عُرِفَ مِنْ غَلِبِهِمْ فَيَسْتَوْلُونَ عَلَى  
الْأَمْرِ وَيَصِيرُ إِلَيْهِمْ وَكَذَا يَتَّفِقُ فِيهِمْ مَعَ مَنْ بَقِيَ أَيْضاً مُنْتَبِذاً عَنْهُ مِنْ عَشَائِرِ أُمَّتِهِمْ  
فَلَا يَزَالُ الْمَلِكُ مُلْجِئاً فِي الْأُمَّةِ إِلَى أَنْ تَنْكَسِرَ سُورَةُ الْعَصِيَّةِ مِنْهَا أَوْ يَفْنَى سَائِرُ  
عَشَائِرِهَا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا « وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » <sup>(١)</sup> وَاعْتَبِرْ هَذَا  
بِمَا وَقَعَ فِي الْعَرَبِ لَمَّا انْقَرَضَ مُلْكُ عَادٍ قَامَ بِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ ثَمُودَ وَمِنْ  
بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمُ الْعَمَالِقَةُ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ حَمِيرٍ أَيْضاً وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ  
التَّبَابِعَةُ مِنْ حَمِيرٍ أَيْضاً وَمِنْ بَعْدِهِمُ الْأَذْوَاءُ كَذَلِكَ ثُمَّ جَاءَتِ الدُّوَلَةُ لِمُضَرَ وَكَذَا  
الْفُرْسُ لَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ الْكِنِيزِيَّةِ مَلِكٍ مِنْ بَعْدِهِمُ السَّاسَانِيَّةِ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ  
بِانْقِرَاضِهِمْ أَجْمَعٍ بِالْإِسْلَامِ وَكَذَا الْيُونَانِيُّونَ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَانْتَقَلَ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنْ  
الرُّومِ وَكَذَا الْبَرْبَرُ بِالْمَغْرِبِ لَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ مِغْرَاوَةَ وَكِتَامَةَ الْمُلُوكِ الْأُولَى مِنْهُمْ  
رَجَعَ إِلَى صَنْهَاجَةَ ثُمَّ الْمُتَمِيمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ مِنْ بَقِيٍّ مِنْ شُعُوبِ زَنَاطَةَ وَهَكَذَا سُنَّةُ  
اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَخَلْقِهِ وَأَصْلُ هَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْأَجْيَالِ  
وَالْمُلْكِ يُخْلَقُهُ التَّرَفُ وَيُذْهِبُهُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ <sup>(٢)</sup> بَعْدُ فَإِذَا انْقَرَضَتْ دَوْلَةٌ فَإِنَّمَا  
يَتَنَاوَلُ الْأَمْرَ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ عَصِيَّةٌ مُشَارِكَةٌ لِعَصَبِيَّتِهِمُ الَّتِي عُرِفَ لَهَا التَّسْلِيمُ وَالْإِنْقِيَادُ  
وَأُونَسَ مِنْهَا الْغَلْبُ لِجَمِيعِ الْعَصِيَّاتِ وَذَلِكَ إِنَّمَا يُوْجَدُ فِي النَّسَبِ الْقَرِيبِ مِنْهُمْ لِأَنَّ  
تَفَاوُتَ الْعَصِيَّةِ بِحَسَبِ مَا قَرَّبَ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ الَّتِي هِيَ فِيهِ أَوْ بَعْدَ حَتَّى إِذَا وَقَعَ  
فِي الْعَالَمِ تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ مِلَّةٍ أَوْ ذَهَابِ عُمَرَانٍ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ قُدْرَتِهِ  
فَحِينِيذٍ يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ الْجَيْلِ إِلَى الْجَيْلِ الَّذِي يَأْذَنُ اللَّهُ بِقِيَامِهِ بِذَلِكَ التَّبْدِيلِ  
كَمَا وَقَعَ لِمُضَرَ حِينَ غَلَبُوا عَلَى الْأَمَمِ وَالِدُّوَلِ وَأَخَذُوا الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ الْعَالَمِ بَعْدَ  
أَنْ كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ اخْتِطَاباً .

(١) سورة الزخرف آخر الآية ٣٥ .

(٢) ذكر ابن خلدون هذا في الفصلين ١٦ و ١٨ ولعله غير ترتيب الفصول فكان هذا الفصل سابقاً للفصلين

المذكورين ثم أصبح لاحقاً . ولم ينتبه ابن خلدون إلى هذه الكلمة ليحذفها أو يبدلها .

## الفصل الثالث والعشرون

في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه

ونحلته وسائر أحواله وعوائده

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ أَبَدًا تَتَقَدُّ الْكَمَالَ فِي مَنْ غَلَبَهَا وَانْقَادَتْ إِلَيْهِ إِمَّا لِنَظَرِهِ بِالْكَمَالِ بِمَا وَقُرَّ<sup>(١)</sup> عِنْدَهَا مِنْ تَعْظِيمِهِ أَوْ لِمَا تَغَالَطَ بِهِ مِنْ أَنْ انْقِيَادَهَا لَيْسَ لِعَلْبٍ طَبِيعِيٍّ إِنَّمَا هُوَ لِكَمَالِ الْغَالِبِ فَإِذَا غَالَطَتْ بِذَلِكَ وَاتَّصَلَ لَهَا اِعْتِقَادًا فَانْتَحَلَتْ جَمِيعَ مَذَاهِبِ الْغَالِبِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْاِقْتِدَاءُ أَوْ لِمَا تَرَاهُ وَاللَّهِ أَعْلَمُ مِنْ أَنْ غَلَبَ الْغَالِبُ لَهَا لَيْسَ بِعَضِيَّةٍ وَلَا قُوَّةَ بَأْسٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِمَا انْتَحَلْتَهُ مِنَ الْعَوَائِدِ وَالْمَذَاهِبِ تَغَالَطَ أَيْضًا بِذَلِكَ عَنِ الْغَلْبِ وَهَذَا رَاجِعٌ لِلأَوَّلِ وَلِذَلِكَ تَرَى الْمَغْلُوبَ يَتَشَبَّهُ أَبَدًا بِالْغَالِبِ فِي مَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَسِلَاحِهِ فِي اتِّخَاذِهَا وَأَشْكَالِهَا بَلْ وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ وَانظُرْ ذَلِكَ فِي الْأَبْنَاءِ مَعَ آبَائِهِمْ كَيْفَ تَجِدُهُمْ مُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ دَائِمًا وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِاِعْتِقَادِهِمُ الْكَمَالَ فِيهِمْ وَانظُرْ إِلَى كُلِّ قَطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ كَيْفَ يَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهِ زَيْ الحَامِيَةِ وَجُنْدُ السُّلْطَانِ فِي الْأَكْثَرِ لِأَنَّهمُ الْغَالِبُونَ لَهُمْ حَتَّى أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمَّةٌ تُجَاوِرُ أُخْرَى وَلَهَا الْغَلْبُ عَلَيْهَا فَيَسْرِي إِلَيْهِمْ مِنْ هَذَا التَّشْبِيهِ وَالِاِقْتِدَاءِ حَظٌّ كَبِيرٌ كَمَا هُوَ فِي الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَعَ أُمَّةِ الْجَلَالِقَةِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ وَالْكَثِيرِ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ حَتَّى فِي رَسْمِ التَّمَاثِيلِ فِي الْجُدْرَانِ وَالْمَصَانِعِ وَالْبَيْوتِ حَتَّى لَقَدْ يَسْتَشْعِرُ مِنْ ذَلِكَ النَّاطِرُ بِعَيْنِ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ مِنْ عِلَامَاتِ الْاِسْتِيْلَاءِ وَالْأَمْرِ لِلَّهِ . وَتَأْمَلْ فِي هَذَا سِرَّ قَوْلِهِمُ الْعَامَّةُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ

(١) وقر، يؤقر، وقارة، وقاراً الرجل، كان رزينا ذا وقار (المنجد).



فإنه من بابه إذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لا اعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بأبائهم والمتعلمين بمعلميهم والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق .

## الفصل الرابع والعشرون

في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء

والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاثر إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آله لسواها وعالته عليهم فيقصر الأمل ويضعف التناسل والإعتماد إنما هو عن جذة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فإذا ذهب الأمل بالتكاثر وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسيهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خضد<sup>(١)</sup> الغلب من شوكتهم فأصبحوا مغلبين لكل متغلب وطعمة لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أم لم يحصلوا . وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له والرئيس إذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شيع بطنه وري كبده وهذا موجود في أخلاق الأناسي . ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة وإنها لا تسافد إلا إذا كانت في ملكة الأدميين فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير وأكثر من الكثير يقال إن سعداً أحصى ما وراء المداين فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً منهم سبعة وثلاثون

(١) خضد : خضداً العود : كسره ولم بين .

أَفَا رَبِّ بَيْتٍ وَلَمَّا تَحَضَّلُوا فِي مَلَكَةِ الْعَرَبِ وَقَبْضَةِ الْقَهْرِ لَمْ يَكُنْ بَقَاؤُهُمْ إِلَّا قَلِيلًا  
وَدَثِرُوا كَأَن لَمْ يَكُونُوا وَلَا تَحَسَّبَنَّ أَنَّ ذَلِكَ لِظُلْمِ نَزْلِ بِهِمْ أَوْ عُدْوَانِ شَمَلْتِهِمْ فَمَلَكَتْهُ  
الْإِسْلَامُ فِي الْعَدْلِ مَا عَلِمْتَ وَإِنَّمَا هِيَ طَبِيعَةٌ فِي الْإِنْسَانِ إِذَا غَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ وَصَارَ آتَةً  
لِغَيْرِهِ وَلِهَذَا إِنَّمَا تُدْعَى لِلرِّقِّ فِي الْغَالِبِ أُمَّةِ السُّودَانِ لِتَقْصِ الْإِنْسَانِيَّةَ فِيهِمْ وَقَرَّبِهِمْ  
مِنْ عَرْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ كَمَا قَلْنَا أَوْ مَنْ يَزْجُو بِانْتِظَامِهِ فِي رِبْقَةِ الرِّقِّ حُصُولَ  
رُتْبَةٍ أَوْ إِفَادَةِ مَالٍ أَوْ عِزٍّ كَمَا يَقَعُ لِمَمَالِكِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ وَالْمُلُوجِ <sup>(١)</sup> مِنَ الْجَلَالِقَةِ  
وَالْإِفْرَنْجِيَّةِ فَإِنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةً بِاسْتِخْلَاصِ الدَّوْلَةِ لَهُمْ فَلَا يَأْتُونَ مِنَ الرِّقِّ لِمَا  
يَأْمُلُونَهُ مِنَ الْجَاهِ وَالرُّتْبَةِ بِاصْطِفَاءِ الدَّوْلَةِ وَاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ.

## الفصل الخامس والعشرون

في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بِطَبِيعَةِ التَّوَحُّشِ الَّذِي فِيهِمْ أَهْلُ انْتِهَابٍ وَعَيْثُ يَنْتَهَبُونَ مَا قَدَرُوا  
عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ مُعَالِيَّةٍ وَلَا رُكُوبِ خَطَرٍ وَيَفِرُّونَ إِلَى مُنْتَجِعِهِمْ بِالْقَفْرِ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى  
الْمُزَاحِفَةِ وَالْمَحَارَبَةِ إِلَّا إِذَا دَفَعُوا بِذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَكُلُّ مَعْقِلٍ أَوْ مُسْتَضْعَبٍ عَلَيْهِمْ  
فَهُمْ تَارِكُوهُ إِلَى مَا يَسْهُلُ عَنْهُ وَلَا يَعْرِضُونَ لَهُ وَالْقَبَائِلُ الْمُمْتَنِعَةُ عَلَيْهِمْ بِأَوْعَارِ  
الْجِبَالِ بِمَنْجَاةٍ مِنْ عَيْشِهِمْ وَفَسَادِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَسَنَّمُونَ إِلَيْهِمْ الْهَضَابَ وَلَا يَزْكَبُونَ  
الصَّعَابَ وَلَا يُحَاوِلُونَ الْخَطَرَ وَأَمَّا الْبَسَائِطُ فَهِيَ اقْتَدَرُوا عَلَيْهَا بِفِقْدَانِ الْحَامِيَّةِ  
وَضَعْفِ الدَّوْلَةِ فِيهِ نَهَبَ لَهُمْ وَطَمَعَةٌ لَا كِلِيمَهُمْ يَرُدُّونَ عَلَيْهَا الْغَارَةَ وَالنَّهْبَ وَالرَّحْفَ  
لِسَهُولَتِهَا عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ أَهْلُهَا مُغْلِبِينَ لَهُمْ ثُمَّ يَتَعَاوَرُونَهُمْ بِاخْتِلَافِ الْأَيْدِي  
وَأَنْحِرَافِ السِّيَاسَةِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ عُمْرَانَهُمْ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ  
لَا رَبَّ غَيْرَهُ .

(١) الملوج ، بمعنى كفار العجم .

## الفصل السادس والعشرون

في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَخَشِيئَةٌ بِاسْتِحْكَامِ عَوَائِدِ التَّوْحُشِ وَأَسْبَابِيهِ فِيهِمْ  
فَصَارَ لَهُمْ خُلُقًا وَجِبِلَّةً وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَلْدُودًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ رَبَقَةِ الْحُكْمِ  
وَعَدَمِ الْإِنْتِقَادِ لِلسِّيَاسَةِ وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعُمْرَانِ وَمُنَاقِضَةٌ لَهُ فَعَايَةُ الْأَحْوَالِ  
العَادِيَّةِ كُلِّهَا عِنْدَهُمُ الرَّخْلَةُ وَالتَّغْلِبُ <sup>(١)</sup> وَذَلِكَ مُنَاقِضٌ لِلسُّكُونِ الَّذِي بِهِ الْعُمْرَانُ  
وَمُنَافٍ لَهُ فَالْحَجَرُ مَثَلًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِنُصْبِهِ أَثَاقِي الْقِدْرِ فَيَنْقَلِبُونَ مِنَ الْمَبَانِي  
وَيُخَرَّبُونَهَا عَلَيْهِ وَيَعْدُونَ لَهُ ذَلِكَ وَالْخَشْبُ أَيْضًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِيُعْمَدُوا <sup>(٢)</sup> بِهِ  
خِيَامَهُمْ وَيَتَّخِذُوا الْأوتَادَ مِنْهُ لِيُبَيِّتَهُمْ فَيُخَرَّبُونَ السَّقْفَ عَلَيْهِ لِذَلِكَ فَصَارَتْ طَبِيعَةُ  
وَجُودِهِمْ مُنَافِيَةٌ لِلْبِنَاءِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْعُمْرَانِ هَذَا فِي خَالِهِمْ عَلَى الْعُمُومِ وَأَيْضًا  
فَطَبِيعَتُهُمْ انْتِهَابُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَأَنْ رَزَقَهُمْ فِي ظِلَالِ رِمَاحِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي  
أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ حُدٌّ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ بَلْ كُلَّمَا امْتَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ إِلَى مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ أَوْ مَاعُونٍ  
انْتَهَبُوهُ فَإِذَا تَمَّ اقْتِدَارُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِالتَّغْلِبِ وَالْمَلَكِ بَطَلَتِ السِّيَاسَةُ فِي حِفْظِ أَمْوَالِ  
النَّاسِ وَخَرِبَ الْعُمْرَانُ وَأَيْضًا فَلِأَنَّهُمْ يُكَلِّفُونَ عَلَى أَهْلِ الْأَعْمَالِ مِنَ الصَّنَائِعِ  
وَالْحِرَفِ أَعْمَالَهُمْ لَا يَرُونَ لَهَا قِيمَةً وَلَا قِسْطًا مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّمَنِ وَالْأَعْمَالِ كَمَا  
سَنَذْكُرُهُ هِيَ أَصْلُ الْمَكَاسِبِ وَحَقِيقَتُهَا وَإِذَا فَسَدَتِ الْأَعْمَالُ وَصَارَتْ مَجَانًا ضَعُفَتِ  
الْأَمَالُ فِي الْمَكَاسِبِ وَانْقَبَضَتِ الْأَيْدِي عَنِ الْعَمَلِ وَابْتَدَعَرُ السَّاكِنُ وَفَسَدَ الْعُمْرَانُ  
وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِالْأَحْكَامِ وَزَجَرَ النَّاسِ عَنِ الْمَفَاسِدِ وَدَفَاعِ بَعْضِهِمْ

(١) بمعنى التنقل.

(٢) عمد السقف : دعائمه وركائزه.

عَنْ بَعْضِ إِنَّمَا هُمُّهُ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ نَهْبًا أَوْ غَرَامَةً فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ وَحَصَلُوا عَلَيْهِ أَغْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ مِنْ تَسْيِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَالنُّظُرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَقَهْرِ بَعْضِهِمْ عَنْ أَغْرَاضِ الْمَفَاسِدِ وَرُبَّمَا فَرَضُوا الْعُقُوبَاتِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ الْفَائِدَةِ وَالْجِبَايَةِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ وَذَلِكَ لَيْسَ بِمَعْنٍ فِي دَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَزَجْرِ الْمُتَعَرِّضِ لَهَا بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ زَائِدًا فِيهَا لِاسْتِسْهَالِ الْغَرَمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ الْفَرْضِ فَتَبْقَى الرُّعَايَا فِي مَلَكَتِهِمْ كَأَنَّهَا فَوْضَى <sup>(١)</sup> دُونَ حُكْمِ وَالْفَوْضَى مَهْلِكَةٌ لِلْبَشَرِ مُفْسِدَةٌ لِلْعُمَرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنْ وُجُودَ الْمَلِكِ خَاصَّةً طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ إِلَّا بِهَا وَتَقَدَّمَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْفَضْلِ وَآيضًا فَهَمُّ مُتَنَافِسُونَ فِي الرِّئَاسَةِ وَقُلُّ أَنْ يَسْلَمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ الْأَمْرَ لِغَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلَّا فِي الْأَقَلِّ وَعَلَى كُرْهِهِ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاءِ فَيَتَعَدَّدُ الْحُكَّامُ مِنْهُمْ وَالْأَمْرَاءُ وَتَخْتَلِفُ الْأَيْدِي عَلَى الرُّعِيَّةِ فِي الْجِبَايَةِ وَالْأَحْكَامِ فَيُفْسِدُ الْعُمَرَانُ وَيَنْتَقِضُ . قَالَ الْأَعْرَابِيُّ الْوَاقِدُ عَلَى عَهْدِ الْمَلِكِ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْحَجَّاجِ وَأَرَادَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِحُسْنِ السِّيَاسَةِ وَالْعُمَرَانِ فَقَالَ : « تَرَكْتَهُ يَظْلِمُ وَحَدَهُ » وَانظُرْ إِلَى مَا مَلَكَوهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْطَانِ مِنْ لَدُنِ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقْوُضُ عُمَرَانُهُ وَأَقْفَرُ سَاكِنُهُ وَبَدَلَتْ الْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ الْأَرْضِ فَالْيَمَنُ قَرَارُهُمْ خَرَابٌ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْأَمْصَارِ وَعِرَاقُ الْعَرَبِ كَذَلِكَ قَدْ خَرِبَ عُمَرَانُهُ الَّذِي كَانَ لِلْفُرْسِ أَجْمَعَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ كَذَلِكَ وَأَفْرِيقِيَّةٌ وَالْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بَنُو هِلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ مُنْذُ أَوَّلِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَتَمَرَّسُوا بِهَا لِثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ السِّنِينَ قَدْ لِحَقَ بِهَا وَعَادَتْ بِسَائِطِهَا خَرَابًا كُلُّهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ السُّودَانِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ كُلُّهُ عُمَرَانًا تَشْهَدُ بِذَلِكَ آثَارُ الْعُمَرَانِ فِيهِ مِنَ الْمَعَالِمِ وَتَمَائِيلِ الْبِنَاءِ وَشَوَاهِدِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ وَاللَّهِ يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

(١) ومما يعزى إلى سيدنا علي :

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

## الفصل السابع والعشرون

في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية  
أو أثر عظيم من الدين على الجملة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَخُلُقِ التَّوْحُشِ الَّذِي فِيهِمْ أَضْعَبُ الأُمَّمِ انْتِقَاداً بَعْضُهُمْ  
لِبَعْضٍ لِلغِلْظَةِ وَالأنْفَةِ وَبُعْدِ الهِمَّةِ وَالْمُنَافَسَةِ فِي الرِّئَاسَةِ فَقَلَّمَا تَجَمَّعَ أَهْوَاؤُهُمْ فَإِذَا  
كَانَ الدِّينُ بِالنُّبُوَّةِ أَوْ الْوِلَايَةِ كَانَ الْوِزَاعُ لَهُمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَذَهَبَ خُلُقُ الْكَبِيرِ  
وَالْمُنَافَسَةُ مِنْهُمْ فَسَهَّلَ انْتِقَادَهُمْ وَاجْتِمَاعَهُمْ وَذَلِكَ بِمَا يَشْمَلُهُمْ مِنَ الدِّينِ الْمَذْهَبِ  
لِلغِلْظَةِ وَالأنْفَةِ الْوِزَاعِ عَنِ التَّحَاسُدِ وَالتَّنَافُسِ فَإِذَا كَانَ فِيهِمُ النَّبِيُّ أَوْ الْوَلِيُّ الَّذِي  
يَبْعَثُهُمْ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَذْهَبُ عَنْهُمْ مَذْمُومَاتِ الأَخْلَاقِ وَيَأْخُذُهُمْ بِمَحْمُودِهَا  
وَيُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ تَمَّ اجْتِمَاعَهُمْ وَحَصَلَ لَهُمُ التَّغَلُّبُ وَالْمَلِكُ وَهُمْ مَعَ  
ذَلِكَ أَسْرَعُ النَّاسِ قَبُولاً لِلْحَقِّ وَالْهَدَى لِسَلَامَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عَوَجِ الْمَلِكَاتِ وَبِرَأْيَتِهَا  
مِنْ ذَمِيمِ الأَخْلَاقِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خُلُقِ التَّوْحُشِ الْقَرِيبِ الْمُعَانَاةِ الْمُتَهَيِّءِ لِقَبُولِ  
الْخَيْرِ بِبِقَائِهِ عَلَى الْفِطْرَةِ الأُولَى وَبُعْدِهِ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ قَبِيحِ الْعَوَائِدِ  
وَسُوءِ الْمَلِكَاتِ فَإِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ .

## الفصل الثامن والعشرون

في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ بَدَاوَةٍ مِنْ سَائِرِ الأُمَّمِ وَأَبْعَدُ مَجَالاً فِي الْفَقْرِ وَأَغْنَى  
عَنْ حَاجَاتِ التَّلَوُّلِ وَحُبُوبِهَا لِاعْتِيَادِهِمُ الشُّطْفَ وَخَشُونَةَ الْعَيْشِ فَاسْتَغْنَوْا عَنْ  
غَيْرِهِمْ فَصَعَبَ انْتِقَادُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لِإِيْلَافِهِمْ ذَلِكَ وَلِلتَّوْحُشِ وَرِئَيسُهُمْ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ

غَالِباً لِلْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا الْمُدَافَعَةُ فَكَانَ مُضْطَرّاً إِلَى إِحْسَانِ مَلَكَتِهِمْ وَتَرْكِ مُرَاعَمَتِهِمْ<sup>(١)</sup> لِئَلَّا يَخْتَلُ عَلَيْهِ شَأْنُ عَصِيَّتِهِ فَيَكُونُ فِيهَا هَلَاكُهُ وَهَلَاكُهُمْ وَسِيَاسَةُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ السَّائِسُ وَازِعاً بِالْقَهْرِ وَالْإِلْمِ لَمْ تَسْتَقِمْ سِيَاسَتُهُ وَأَيْضاً فَإِنَّ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَخَذَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ خَاصَّةً وَالتَّجَافِي عَمَّا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ وَدَفَاعَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ فَإِذَا مَلَكَوْا أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ جَعَلُوا غَايَةَ مَلَكَتِهِمُ الْإِنْتِفَاعَ بِأَخْذِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَتَرْكُوا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ وَرُبَّمَا جَعَلُوا الْعُقُوبَاتِ عَلَى الْمَفَاسِدِ فِي الْأَمْوَالِ حِرْصاً عَلَى تَكْثِيرِ الْجَبَايَاتِ وَتَحْصِيلِ الْفَوَائِدِ فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ وَازِعاً وَرُبَّمَا يَكُونُ بَاعِثاً بِحَسَبِ الْأَعْرَاضِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْمَفَاسِدِ وَاسْتِهَانَةً مَا يُعْطِي مِنْ مَالِهِ فِي جَانِبِ غَرَضِهِ فَتَنَمُّو الْمَفَاسِدُ بِذَلِكَ وَيَقَعُ تَخْرِيْبُ الْعُمَرَانِ فَتَبْقَى تِلْكَ الْأُمَّةُ كَأَنَّهَا فَوْضَى مُسْتَطِيلَةٌ أَيْدِي بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَلَا يَسْتَقِيمُ لَهَا عُمُرَانٌ وَتَخْرُبُ سَرِيعاً شَأْنَ الْفَوْضَى كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَبَعَدَتْ طِبَاعُ الْعَرَبِ لِذَلِكَ كُلِّهِ عَنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ وَإِنَّمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ انْقِلَابِ طِبَاعِهِمْ وَتَبَدُّلِهَا بِصِنْفَةٍ دِينِيَّةٍ تَمْحُو ذَلِكَ مِنْهُمْ وَتَجْعَلُ الْوِازِعَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى دِفَاعِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِدَوْلَتِهِمْ فِي الْمِلَّةِ لَمَّا شَيْدَ لَهُمُ الدِّينُ أَمْرَ السِّيَاسَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا الْمُرَاعِيَةِ لِمَصَالِحِ الْعُمَرَانِ ظَاهِراً وَبَاطِناً وَتَتَابَعِ فِيهَا الْخُلَفَاءَ عَظَمَ حِينَئِذٍ مَلَكَتِهِمْ وَقَوِي سُلْطَانَتِهِمْ .

كَانَ رُسْتَمُ<sup>(٢)</sup> إِذَا رَأَى الْمُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلَاةِ يَقُولُ أَكُلَ عُمَرُ كَيْدِي يُعَلِّمُ الْكِلَابَ الْآدَابَ ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ انْقَطَعَتْ مِنْهُمْ عَنِ الدَّوْلَةِ أَجْيَالٌ نَبَذُوا الدِّينَ فَنَسُوا السِّيَاسَةَ وَرَجَعُوا إِلَى قَهْرِهِمْ وَجَهَلُوا شَأْنَ عَصِيَّتِهِمْ مَعَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ يَبْغِدُهُمْ عَنِ الْإِنْتِقَادِ وَإِعْطَاءِ النُّصْفَةِ فَتَوْحُّشُوا كَمَا كَانُوا وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنْ اسْمِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنْ جِنْسِ الْخُلَفَاءِ وَمِنْ جِيلِهِمْ وَلَمَّا ذَهَبَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَامْحَى رَسْمُهَا انْقَطَعَ الْأَمْرُ جُمْلَةً مِنْ أَيْدِيهِمْ وَعَلَبَ عَلَيْهِمُ الْعَجَمُ دُونَهُمْ وَأَقَامُوا فِي بَادِيَةِ قِفَارِهِمْ لَا يَعْرِفُونَ الْمَلِكَ

(١) عدائهم وهجرانهم .

(٢) رستم هو قائد جيوش الفرس في معركة القادسية .

وَلَا سِيَاسَتَهُ بَلْ قَدْ يَجْهَلُ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَانَ لَهُمْ مُلْكٌ فِي الْقَدِيمِ وَمَا كَانَ فِي  
الْقَدِيمِ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ فِي الْخَلِيقَةِ مَا كَانَ لِأَجْيَالِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ وَدَوْلٍ عَادٍ وَتُمُودٍ  
وَالْعَمَالِقَةِ وَحَمِيرٍ وَالتَّبَابِغَةِ شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ ثُمَّ دَوْلَةٌ مُضَرٌّ فِي الْإِسْلَامِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي  
الْعُبَّاسِ لَكِنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ لَمَّا نَسُوا الَّذِينَ فَرَجَعُوا إِلَى أَصْلِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ  
وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ غَلَبٌ عَلَى الدُّوَلِ الْمُسْتَضْعَفَةِ كَمَا فِي الْمَغْرِبِ لِهَذَا  
الْعَهْدِ فَلَا يَكُونُ مَالُهُ وَعَايَتُهُ إِلَّا تَخْرِيْبٌ مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُمَرَانِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ  
وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ .

## الفصل التاسع والعشرون

في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار

قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ عُمَرََانَ الْبَادِيَةَ نَاقِصٌ عَنِ عُمَرَانِ الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ لِأَنَّ الْأُمُورَ  
الضَّرُورِيَّةَ فِي الْعُمَرَانِ لَيْسَ كُلُّهَا مَوْجُودَةً لِأَهْلِ الْبَدْوِ . وَإِنَّمَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ فِي  
مَوَاطِنِهِمْ أُمُورَ الْفَلْحِ وَمَوَادِّهَا مَعْدُومَةٌ وَمُعْظَمُهَا الصَّنَائِعُ فَلَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ فِي الْكَلْبِيَّةِ  
مِنْ نَجَّارٍ وَخَيْاطٍ وَحَدَّادٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يُقِيمُ لَهُمْ ضَّرُورِيَّاتِ مَعَاشِهِمْ فِي الْفَلْحِ  
وغيره وَكَذَا الدَّنَانِيرُ وَالذَّرَاهِمُ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ وَإِنَّمَا بِأَيْدِيهِمْ أَعْوَاضُهَا مِنْ مَغَلٍّ  
الزَّرَاعَةِ وَأَعْيَانِ الْخَيْوَانِ أَوْ فِضَالِيهِ الْبَنَانِ وَأُوتَبَاراً وَأَشْعَاراً وَهَابِأَ مِمَّا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ  
أَهْلُ الْأَمْصَارِ فَيَعْوِضُونَهُمْ عَنْهُ بِالذَّنَانِيرِ وَالذَّرَاهِمِ إِلَّا أَنْ حَاجَتَهُمْ إِلَى الْأَمْصَارِ فِي  
الضَّرُورِيِّ وَحَاجَةٌ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِلَيْهِمْ فِي الْحَاجِيِّ <sup>(١)</sup> وَالْكَمَالِيِّ فَهَمْ مُخْتَاجُونَ إِلَى  
الْأَمْصَارِ بِطَبِيعَةِ وَجُودِهِمْ فَمَا دَامُوا فِي الْبَادِيَةِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا اسْتِيلَاءٌ عَلَى  
الْأَمْصَارِ فَهَمْ مُخْتَاجُونَ إِلَى أَهْلِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَصَالِحِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ مَتَى دَعَوْهُمْ إِلَى  
ذَلِكَ وَطَالِبُوهُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ فِي الْمِضْرِ مَلِكٌ كَانَ خُضُوعُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِغَلْبِ الْمَلِكِ

(١) بمعنى الضروري .

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمِصْرِ مَلِكٌ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ رِئَاسَةِ وَنَوْعِ اسْتِئْذَانٍ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهِ عَلَى  
الْبَاقِينَ وَإِلَّا انْتَقَضَ عُمرَانُهُ وَذَلِكَ الرَّئِيسُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَالسَّغِي فِي مَصَالِحِهِ  
إِمَّا طَوْعاً بِبَدْلِ الْمَالِ لَهُمْ ثُمَّ يُبْدِي لَهُمْ مَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ فِي مِصْرِهِ  
فَيَسْتَقِيمُ عُمرَانُهُمْ وَإِمَّا كَرْهاً إِنْ تَمَّتْ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَلَوْ بِالتَّغْرِيْبِ بَيْنَهُمْ حَتَّى  
يَحْضُلَ لَهُ جَانِبٌ مِنْهُمْ يُعَالِبُ بِهِ الْبَاقِينَ فَيَضْطَرُّ الْبَاقُونَ إِلَى طَاعَتِهِ بِمَا يَتَوَقَّعُونَ  
لِذَلِكَ مِنْ فَسَادِ عُمرَانِهِمْ وَرَبَّما لَا يَسْعَهُمْ مُفَارَقَةُ تِلْكَ النُّوَاجِي إِلَى جِهَاتٍ أُخْرَى  
لَأَنَّ كُلَّ الْجِهَاتِ مَعْمُورٌ بِالْبُدُو الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَيْهَا وَمَنْعُوهَا مِنْ غَيْرِهَا فَلَا يَجِدُ  
هُؤُلاءِ مُلْجأً إِلَّا طَاعَةَ الْمِصْرِ فَهُمْ بِالضَّرُورَةِ مَغْلُوبُونَ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَاللَّهُ قَاهِرٌ فَوْقَ  
عِبَادِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْقَهَّارُ .





## الباب الثالث من الكتاب الأول

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك  
كله من الأحوال وفيه قواعد ومتممات

### الفصل الأول

في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية

وَذَلِكَ أَنَا قَرَرْنَا فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ أَنَّ الْمُغَالِبَةَ وَالْمُمَانَعَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْعَصَبِيَّةِ لِمَا فِيهَا مِنَ النُّعْرَةِ وَالتَّدَامُرِ <sup>(١)</sup> وَاسْتِمَاتَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دُونَ صَاحِبِهِ . ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ مَنْصِبَ شَرِيفٍ مَلْدُودٍ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالشُّهُوَاتِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْمَلَاذِ النَّفْسَانِيَّةِ فَيَقَعُ فِيهِ التَّنَافُسُ غَالِبًا وَقُلُّ أَنْ يُسَلِّمَهُ أَحَدٌ لِصَاحِبِهِ إِلَّا إِذَا غَلَبَ عَلَيْهِ فَتَقَعُ الْمُنَازَعَةُ وَتَقْضَى إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْمُغَالِبَةِ وَشَيْءٌ مِنْهَا لَا يَقَعُ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَا أَيْضًا وَهَذَا الْأَمْرُ يَعِيدُ عَنْ أَفْهَامِ الْجُمْهُورِ بِالْجُمْلَةِ وَمُتَنَاسُونَ لَهُ لِأَنَّهُمْ نَسُوا عَهْدَ تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ مِنْذُ أَوَّلِهَا وَطَالَ أَمَدُ مَرَبَاهِمُ فِي الْحِضَارَةِ وَتَعَاقَبَتْ فِيهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ فَلَا يَعْرِفُونَ مَا فَعَلَ اللَّهُ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ إِنَّمَا يَذَرُكُونَ أَصْحَابَ الدَّوْلَةِ وَقَدْ اسْتَحْكَمَتْ صَبْغَتُهُمْ وَوَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُمْ وَالِاسْتِغْنَاءُ عَنِ الْعَصَبِيَّةِ فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ وَلَا يَعْرِفُونَ كَيْفَ كَانَ الْأَمْرُ مِنْ أَوَّلِهِ وَمَا لَقِيَ أَوَّلُهُمْ مِنَ الْمُتَاعِبِ دُونَهُ

(١) تذاثر القوم ، حص بعضهم بعضاً على القتال

وخصوصاً أهل الأندلس في نسيان هذه العصبية وأثرها لطول الأمد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصبية بما تلاشى وطنهم وخلا من العصائب والله قادر على ما يشاء وهو بكل شيء عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل .

## الفصل الثاني

في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يعضب على النفوس الإنقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب للغزابة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه فإذا استقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الأولية واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة ورسخ في العقائد دين الإنقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عناية بل كأن طاعتها كتاب من الله لا يبدل ولا يعلم خلافه ولأمر ما يوضع الكلام في الإمامة آخر الكلام على العقائد الإيمانية كأنه من جملة عقودها ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة إما بالموالي والمضطنعين الذين نشأوا في ظل العصبية وغيرها وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها ومثل هذا وقع لبني العباس فإن عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنيه الوائق واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالموالي من العجم والتürk والديلم والسلجوقية وغيرهم ثم تغلب العجم الأولياء على النواحي وتقلص ظل الدولة فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملكوها وصار الخلائق في حكمهم ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم ثم انقرض أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحووا رسم الدولة وكذا صنهاجة

بِالْمَغْرِبِ فَسَدَتْ عَصِيَّتُهُمْ مُنْذُ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمُ الدَّوْلَةُ مُتَقَلِّصَةَ الظِّلِّ بِالْمَهْدِيَّةِ وَبِجَايَةِ وَالْقَلَمَةِ وَسَائِرِ ثُغُورِ أَفْرِيْقِيَّةٍ وَرُبَّمَا انْتزَى <sup>(١)</sup> يَتَلَكَّ الثُّغُورَ مِنْ نَارِعِهِمُ الْمُلْكَ وَاعْتَصَمَ فِيهَا وَالسُّلْطَانَ وَالْمُلْكَ مَعَ ذَلِكَ مُسَلِّمٌ لَهُمْ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاصِ الدَّوْلَةِ وَجَاءَ الْمُوَحِّدُونَ بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ الْعَصِيَّةِ فِي الْمَصَامِدَةِ

فَمَحَوْا آثَارَهُمْ وَكَذَا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ لَمَّا فَسَدَتْ عَصِيَّتُهَا مِنَ الْعَرَبِ اسْتَوْلَى مُلُوكُ الطَّوَائِفِ عَلَى أَمْرِهَا وَاقْتَسَمُوا خَطَّتَهَا وَتَنَافَسُوا بَيْنَهُمْ وَتَوَزَّعُوا مَمَالِكَ الدَّوْلَةِ وَانْتزَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِي وِلَايَتِهِ وَشَمَخَ بِأَنفِهِ وَبَلَغَهُمْ شَأْنُ الْعَجَمِ مَعَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فَتَلَقَّبُوا بِالْقَابِ الْمَلِكِ وَلِسُوا شَارِتَهُ وَأَمِنُوا مِمَّنْ يَنْقُضُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُغَيِّرُهُ لِأَنَّ الْأَنْدَلُسَ لَيْسَ يَدَارُ عَصَائِبَ وَلَا قَبَائِلَ كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَاسْتَمَرَّ لَهُمْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ ابْنُ شَرْفٍ .

مِمَّا يُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسِ      أَسْمَاءُ مُعْتَصِمٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدِ  
الْقَابِ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا      كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحًا صُورَةَ الْأَسَدِ

فَاسْتَظْهَرُوا عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْمَوَالِي وَالْمُضْطَنِّعِينَ وَالطَّرَاءَ <sup>(٢)</sup> عَلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ الْعُدُوَّةِ مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ وَزَنَاتِهِ وَغَيْرِهِمْ اقْتِدَاءً بِالدَّوْلَةِ فِي آخِرِ أَمْرِهَا فِي الْإِسْتَظْهَارِ بِهِمْ حِينَ ضَعُفَتْ عَصِيَّةُ الْعَرَبِ وَاسْتَبَدَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَى الدَّوْلَةِ فَكَانَ لَهُمْ دَوْلٌ عَظِيمَةٌ اسْتَبَدَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَحَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ الْمُلْكِ عَلَى نِسْبَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي اقْتَسَمُوهَا وَلَمْ يَزَالُوا فِي سُلْطَانِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى جَارَ إِلَيْهِمُ الْبَحْرُ الْمَرَابِطُونَ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ الْقَوِيَّةِ مِنْ لَمْتُونَةَ فَاسْتَبَدَّلُوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَنْ مَرَازِكِهِمْ وَمَحَوْا آثَارَهُمْ وَلَمْ يَقْتَدِرُوا عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ لِفَقْدَانِ الْعَصِيَّةِ لَدَيْهِمْ فَهَيْدِهِ الْعَصِيَّةُ يَكُونُ تَهْمِيدُ الدَّوْلَةِ وَحَمَايَتِهَا مِنْ أَوْلِيهَا وَقَدْ ظَنَّ الطَّرْطُوشِيُّ أَنَّ حَامِيَةَ الدَّوْلِ بِإِطْلَاقِ هُمْ الْجُنْدِ أَهْلُ الْعَطَاءِ الْمَفْرُوضِ مَعَ الْإِهْلَةِ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي

(١) بمعنى توشب . والأصح تنزى .

(٢) بمعنى الذين أتوا من أماكن أخرى .

سَاءَ سِرَاجِ الْمُلُوكِ وَكَلَامُهُ لَا يَتَنَاوَلُ تَأْسِيسَ الدُّوَلِ الْعَامَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَإِنَّمَا هُوَ مَخْصُوصٌ بِالدُّوَلِ الْأَخِيرَةِ بَعْدَ التَّمْهِيدِ وَاسْتِقْرَارِ الْمُلْكِ فِي النَّصَابِ وَاسْتِحْكَامِ الصُّبْغَةِ لِأَهْلِهِ فَالرَّجُلُ إِنَّمَا أَدْرَكَ الدُّوْلَةَ عِنْدَ هَرَمِهَا وَخَلَقَ جِدَّتَهَا وَرَجُوعَهَا إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ بِالمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ ثُمَّ إِلَى المُسْتَخْدِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ بِالأَجْرِ عَلَى المَدَافِعِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَدْرَكَ دَوَلَ الطَّوَائِفِ وَذَلِكَ عِنْدَ اخْتِلَالِ بَنِي أُمَيَّةَ وَانْقِرَاضِ عَضْبِيَّتِهَا مِنَ الْعَرَبِ وَاسْتِبْدَادِ كُلِّ أَمِيرٍ بِقَطْرِهِ وَكَانَ فِي إِيَالَةِ المُسْتَعِينِ بِنِ هُوْدَ وَابْنِهِ الْمُظْفَرِ أَهْلُ سِرْقَسْطَةَ وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْعَضْبِيَّةِ شَيْءٌ لِاسْتِيْلَاءِ التَّرَفِ عَلَى الْعَرَبِ مُنْذُ ثَلَاثِمِائَةٍ مِنَ السَّنِينَ وَهَلَاكِهِمْ وَلَمْ يَرَ إِلَّا سُلْطَانًا مُسْتَبْدَأً بِالمُلْكِ عَنْ عَشَائِرِهِ قَدْ اسْتَحْكَمَتْ لَهُ صِبْغَةُ الْإِسْتِبْدَادِ مُنْذُ عَهْدِ الدُّوْلَةِ وَبَقِيَّةِ الْعَضْبِيَّةِ فَهُوَ لِذَلِكَ لَا يُنَازِعُ فِيهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى أَمْرِهِ بِالأَجْرَاءِ مِنَ الْمُتَرْزِقَةِ فَأَطْلَقَ الطَّرْطُوشِي الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَتَفَقَّنْ لِكَيْفِيَّةِ الأَمْرِ مُنْذُ أَوَّلِ الدُّوْلَةِ وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِأَهْلِ الْعَضْبِيَّةِ فَتَفَقَّنْ أَنْتَ لَهُ وَافْهَمْ سِرَّ اللهِ فِيهِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ .

### الفصل الثالث

في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية

وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِعَضْبِيَّةٍ غَلْبٌ كَثِيرٌ عَلَى الأَمَمِ وَالأَجْيَالِ وَفِي نَفُوسِ القَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنَ أَهْلِ القَاصِيَةِ إِذْعَانٌ لَهُمْ وَانْقِيَادٌ فَإِذَا نَزَعَ إِلَيْهِمْ هَذَا الخَارِجُ وَانْتَبَذَ عَنْ مَقَرِّ مُلْكِهِ وَمَنْبَتِ عِزِّهِ اشْتَمَلُوا عَلَيْهِ وَقَامُوا بِأَمْرِهِ وَظَاهَرُوا عَلَى شَأْنِهِ وَعَنُوا بِتَمْهِيدِ دَوْلَتِهِ يَرْجُونَ اسْتِقْرَارَهُ فِي نِصَابِهِ وَتَنَاوَلَهُ الأَمْرَ مِنْ يَدِ أَعْيَاصِهِ <sup>(١)</sup> وَجَزَاءَهُ لَهُمْ عَلَى مَظَاهِرَتِهِ بِاصْطِفَائِهِمْ لِرُتَبِ الْمُلْكِ وَخَطَطِهِ مِنْ وَزَارَةٍ أَوْ قِيَادَةٍ أَوْ وَلايَةِ تُغْرَوْنَ وَلَا

(١) أعياص : ج عيص . الاصل بمعنى أنهم يرجون انتقال الملك إليه من أصوله أي من أبائه وأجداده .

يَطْمَعُونَ فِي مُشَارَكَتِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ تَسْلِيماً لِعَصِيَّتِهِ وَانْقِياداً لِمَا اسْتَحْكَمَ لَهُ  
وَلِقَوْمِهِ مِنْ صَبْغَةِ الْغَلَبِ فِي الْعَالَمِ وَعَقِيدَةِ إِيْمَانِيَّةٍ اسْتَقَرَّتْ فِي الإِدْعَانِ لَهُمْ فَلَوْ  
رَامُوهَا مَعَهُ أَوْ دُونَهُ لَزُلْزَلَتِ الأَرْضُ زَلْزَالَهَا وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلأَدَارِسَةِ بِالمَغْرِبِ  
الأَقْصَى وَالْعُبَيْدِيِّينَ بِأفْرِيقِيَّةٍ وَمَضَرَ لَمَّا انْتَبَذَ الطَّالِبِيُّونَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى القَاصِيَةِ  
وَإِتْبَعَدُوا عَنْ مَقَرِّ الخِلَافَةِ وَسَمَوْا إِلَى طَلِبِهَا مِنْ أَيْدِي بَنِي العَبَّاسِ بَعْدَ أَنْ  
اسْتَحْكَمَتِ الصَّبْغَةُ لِبَنِي عُبَيْدِ مَنَافٍ لِبَنِي أُمَيَّةٍ أَوْلَا ثُمَّ لِبَنِي هَاشِمٍ مِنْ بَعْدِهِمْ  
فَخَرَجُوا بِالقَاصِيَةِ مِنَ المَغْرِبِ وَدَعَاوُا لِأَنْفُسِهِمْ وَقَامَ بِأَمْرِهِمُ البَرَابِرَةُ مَرَّةً بَعْدَ  
أُخْرَى فَأَوْرُبَةُ وَمَقِيلَةُ لِلأَدَارِسَةِ وَكُتَامَةُ وَصَنْهَاجَةُ وَهُوَارَةُ لِلْعُبَيْدِيِّينَ فَشِيدُوا دَوْلَتَهُمْ  
وَمَهَّدُوا بِعَصَائِبِهِمْ أَمْرَهُمْ وَاقْتَطَعُوا مِنْ مَمَالِكِ العَبَّاسِيِّينَ المَغْرِبِ كُلَّهُ ثُمَّ أَفْرِيقِيَّةَ  
وَلَمْ يَزَلْ ظِلُّ الدَّوْلَةِ يَتَقَلَّصُ وَظِلُّ العُبَيْدِيِّينَ يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ مَلَكَوا مِضَرَ وَالشَّامَ  
وَالْحِجَازَ وَقَاسَمُوهُمْ فِي المَمَالِكِ الإِسْلَامِيَّةِ شَقَّ الأَنْبَلَةَ وَهُوَلاءِ البَرَابِرَةَ القَائِمُونَ  
بِالدَّوْلَةِ مَعَ ذَلِكَ كُلُّهُمْ مُسْلِمُونَ لِلْعُبَيْدِيِّينَ أَمْرَهُمْ مُذْعِنُونَ لِمَلِكِهِمْ وَإِنَّمَا كَانُوا  
يَتَنَافَسُونَ فِي الرُّتْبَةِ عِنْدَهُمْ خَاصَّةً تَسْلِيماً لِمَا حَصَلَ مِنَ صَبْغَةِ المُلْكِ لِبَنِي هَاشِمٍ  
وَلَمَّا اسْتَحْكَمَ مِنَ الغَلَبِ لِقَرْنِشٍ وَمُضَرَ عَلَى سَائِرِ الأَمَمِ فَلَمْ يَزَلِ المُلْكَ فِي أَغْصَابِهِمْ  
إِلَى أَنْ انْقَرَضَتْ دَوْلَةُ العَرَبِ بِأَسْرِهَا وَاللَّهُ يَخْكُمُ لِمَنْعَبٍ لِحُكْمِهِ .

## الفصل الرابع

في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين

أما من نبوة أو دعوة حق

وَذَلِكَ لِأَنَّ المُلْكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالتَّغْلِبِ وَالتَّغْلِبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالعَصِيَّةِ وَاتِّفَاقِ  
الأَهْوَاءِ عَلَى المَطَالِبَةِ وَجَمْعِ القُلُوبِ وَتَأْلِيفِهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةِ مِنَ اللَّهِ فِي إِقَامَةِ  
دِينِهِ قَالَ تَعَالَى « لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » وَسِرُّهُ أَنَّ

الْقُلُوبَ إِذَا تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ الْبَاطِلِ وَالْمَيْلِ إِلَى الدُّنْيَا حَصَلَ التَّنَافُسُ وَفَشَا الْخِلَافُ  
وَإِذَا انصَرَفَتْ إِلَى الْحَقِّ وَرَفَضَتْ الدُّنْيَا وَالْبَاطِلَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى اللَّهِ اتَّخَذَتْ وَجْهَهَا  
فَذَهَبَ التَّنَافُسُ وَقَلَّ الْخِلَافُ وَحَسُنَ التَّعَاوُنُ وَالتَّعَاوَضُ وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الْكَلِمَةِ لِذَلِكَ  
فَعَظُمَتِ الدَّوْلَةُ كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدَ إِِنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ  
سِوَاهُ .

## الفصل الخامس

في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية  
التي كانت لها من عددها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَنَّ الصُّبْعَةَ الدِّينِيَّةَ تَذْهَبُ بِالتَّنَافُسِ وَالتَّحَاسُدِ  
الَّذِي فِي أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَتَفْرُدُ الْوَجْهَةَ إِلَى الْحَقِّ فَإِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْإِسْتِبْصَارُ فِي أَمْرِهِمْ لَمْ  
يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ لِأَنَّ الْوَجْهَةَ وَاحِدَةً وَالْمَطْلُوبُ مُتَسَاوٍ عِنْدَهُمْ وَهُمْ مُسْتَمِيتُونَ عَلَيْهِ  
وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الَّتِي هُمْ طَالِبُوهَا وَإِنْ كَانُوا أضعَافَهُمْ فَأَعْرَاضُهُمْ مُتَبَايِنَةٌ بِالْبَاطِلِ  
وَتَخَادَلُهُمْ لِتَقِيَّةِ الْمَوْتِ حَاصِلٍ فَلَا يُقَاوِمُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ بَلْ يَغْلِبُونَ  
عَلَيْهِمْ وَيَعَاجِلُهُمُ الْفَنَاءُ بِمَا فِيهِمْ مِنَ التَّرَفِ وَالذُّلِّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ  
صَدْرَ الْإِسْلَامِ فِي الْفَتْوحَاتِ فَكَانَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَادِسِيَّةِ وَالْيَرْمُوكِ بِضَعْفَةِ  
وِثْلَاتَيْنِ أَلْفًا فِي كُلِّ مَعْسَكٍ وَجُمُوعُ فَارِسَ مِائَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفًا بِالْقَادِسِيَّةِ وَجُمُوعُ  
هَزَقِلَ عَلَى مَا قَالَهُ الْوَاقِدِيُّ أَرْبَعِمِائَةَ أَلْفٍ فَلَمْ يَقِفْ لِلْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ  
وَهَزَمُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا بِأَيْدِيهِمْ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ أَيْضًا فِي دَوْلَةِ لِمْتُونَةَ وَدَوْلَةِ  
الْمُوَحَّدِينَ فَقَدْ كَانَ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْقَبَائِلِ كَثِيرٌ مِمَّنْ يُقَاوِمُهُمْ فِي الْعَدَدِ وَالْعَصَبِيَّةِ أَوْ  
يَشْفُ<sup>(١)</sup> عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنَّ الْاجْتِمَاعَ الدِّينِيَّ ضَاعَفَ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالْإِسْتِبْصَارِ

(١) يشف ، يزيد .

وَالِاسْتِمَاتَةِ كَمَا قُلْنَا فَلَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ إِذَا حَالَتْ صِغَةُ الدِّينِ  
 وَفَسَدَتْ كَيْفَ يَنْتَقِضُ الْأَمْرُ وَيَصِيرُ الْعَلْبُ عَلَى نِسْبَةِ الْعَصِيَّةِ وَخِذْهَا دُونَ زِيَادَةِ  
 الدِّينِ فَتَغْلِبُ الدُّوْلَةُ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ الْعَصَائِبِ الْمَكَافِيَةِ لَهَا أَوْ الرَّائِدَةِ الْقُوَّةِ  
 عَلَيْهَا الدِّينِ غَلَبَتْهُمْ بِمُضَاعَفَةِ الدِّينِ لِقُوَّتِهَا وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصِيَّةٍ مِنْهَا وَأَشَدَّ بَدَاوَةَ  
 وَاعْتَبِرْ هَذَا فِي الْمُوَحِّدِينَ مَعَ زَنَاتِهِ لَمَّا كَانَتْ زَنَاتُهُ أَبَدِيًّا <sup>(١)</sup> مِنَ الْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ  
 تَوْحُشًا وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ الدُّعْوَةُ الدِّينِيَّةُ بِاتِّبَاعِ الْمَهْدِيِّ فَلَبَسُوا صِغَتَهَا وَتَضَاعَفَتْ  
 قُوَّةُ عَصِيَّتِهِمْ بِهَا فَغَلَبُوا عَلَى زَنَاتِهِ أَوْلَى وَاسْتَبَعُوهُمْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ الْعَصِيَّةِ  
 وَالْبَدَاوَةُ أَشَدَّ مِنْهُمْ فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ تِلْكَ الصَّبْغَةِ الدِّينِيَّةِ انْتَقَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَاتُهُ مِنْ كُلِّ  
 جَانِبٍ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى الْأَمْرِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

## الفصل السادس

في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية وفي  
 الحديث الصحيح كما مر « ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه » وإذا كان هذا  
 في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق له العادة  
 في العلب بغير عصبية وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلع  
 الثعلين في التصوف ثار بالأندلس داعياً إلى الحق وسمي أصحابه بالمرايطين  
 قبيل دعوة المهدي فاستتب له الأمر قليلاً لشغل لمتونة بما دهمهم من أمر  
 الموحدين ولم تكن هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن شأنه فلم يلبث حين  
 استولى الموحدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من مغفله  
 (١) أبدى : من البداوة وأبدى أفعال التفضيل من بدا ومعناها أشد بدَاوة .

يُحْضِنُ أَرْكَشَ <sup>(١)</sup> وَأَمَكَنَّهُمْ مِنْ ثَغْرِهِ وَكَانَ أَوَّلَ دَاعِيَةٍ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ وَكَانَتْ ثَوْرَتُهُ تَسْمَى ثَوْرَةَ الْمُرَابِطِينَ وَمِنْ هَذَا النَّبَابِ أَحْوَالُ الثُّوَارِ الْقَائِمِينَ بِتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْفُقَهَاءِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُتَنَحِّلِينَ لِلْعِبَادَةِ وَسُلُوكِ طُرُقِ الدِّينِ يَذْهَبُونَ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى أَهْلِ الْجَوْرِ مِنَ الْأَمْرَاءِ دَاعِينَ إِلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ رَجَاءً فِي الثَّوَابِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ فَيَكْثُرُ أَتْبَاعُهُمْ وَالْمُتَلَثِّثُونَ <sup>(٢)</sup> بِهِمْ مِنَ الْغَوْغَاءِ وَالذُّهْمَاءِ وَيَعْرَضُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ لِلْمَهَالِكِ وَأَكْثَرُهُمْ يَهْلِكُونَ فِي هَذَا السَّبِيلِ مَا زُورِينَ <sup>(٣)</sup> غَيْرَ مَاجُورِينَ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَكْتُبْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّمَا أَمَرَ بِهِ حَيْثُ تَكُونُ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ قَالَ ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ » وَأَحْوَالُ الْمُلُوكِ وَالذُّوَالِ رَاسِخَةٌ قَوِيَّةٌ لَا يُزْخَرْحَهَا وَيَنْهَدُمُ بِنَاءَهَا إِلَّا الْمَطَالِبَةُ الْقَوِيَّةُ الَّتِي مِنْ وَرَائِهَا عَصِيَّةُ الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ كَمَا قَدَّمْنَا وَهَكَذَا كَانَ حَالُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ بِالْعَشَائِرِ وَالْعَصَائِبِ وَهُمْ الْمُؤَيَّدُونَ مِنَ اللَّهِ بِالْكَوْنِ كُلِّهِ لَوْ شَاءَ ، لَكِنَّهُ إِنَّمَا أَجْرَى الْأُمُورَ عَلَى مُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ « وَاللَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » فَإِذَا ذَهَبَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ هَذَا الْمَذْهَبِ وَكَانَ فِيهِ مُحِقًّا قَصَرَ بِهِ الْإِنْفِرَادُ عَنِ الْعَصِيَّةِ فَطَاحَ فِي هَوَاةِ الْهَلَاكِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَلَبِّسِينَ بِذَلِكَ فِي طَلَبِ الرِّئَاسَةِ فَأَجْدَرُ أَنْ تَعَوَّقَهُ الْعَوَاقِقُ وَتَنْقَطِعَ بِهِ الْمَهَالِكُ لِأَنَّ أَمْرَ اللَّهِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِرِضَاةٍ وَإِعَانَتِهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالنَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ مُسْلِمٌ وَلَا يَرْتَابُ فِيهِ ذُو بَصِيرَةٍ وَأَوَّلُ ابْتِدَاءِ هَذِهِ النَّزْعَةِ فِي الْمِلَّةِ بِبَغْدَادَ حِينَ وَقَعَتْ فِتْنَةُ طَاهِرٍ <sup>(٤)</sup> وَقَتْلِ الْأَمِينِ وَأَنْبُطِ الْمَأْمُونِ بِخُرَّاسَانَ عَنْ مَقْدَمِ الْعِرَاقِ ثُمَّ عَهْدِ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرَّضِيِّ مِنْ آلِ الْحُسَيْنِ فَكَشَفَ بَنُو الْعَبَّاسِ عَنْ

(١) لم نعر على حصن اركش في معجم البلدان وكذلك في المراجع التي بين أيدينا وربما هناك تحريف بالاسم وهو حصن اركون ، وهو حصن منبع في الأندلس وموقعه ينسجم مع سياق الحديث عن المرابطيين بالأندلس .

(٢) وفي بعض النسخ المتشبهون .

(٣) الأصح موزوردين .

(٤) هو طاهر بن الحسين ، كان قائداً لجيش المأمون زمن الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون وقد خرج

أيام الأمين .



وَجِهَ التُّكْبِيرِ عَلَيْهِ وَتَدَاعَوْا لِلْقِيَامِ وَخَلَعَ طَاعَةَ الْمَأْمُونِ وَالِاسْتِئْذَانَ مِنْهُ وَبَوَّعَ  
 إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْمُهْدِيِّ فَوْقَ الْهَرَجِ<sup>(١)</sup> يَبْغَدَادَ وَأَنْطَلَقَتْ أَيْدِي الزُّعْرَةِ<sup>(٢)</sup> بِهَا مِنْ  
 الشُّطَارِ<sup>(٣)</sup> وَالْحَزِيئَةِ<sup>(٤)</sup> عَلَى أَهْلِ الْعَافِيَةِ وَالصُّونِ وَقَطَعُوا السَّبِيلَ وَأَمْتَلَاتِ أَيْدِيهِمْ  
 مِنْ نَهَابِ النَّاسِ وَبَاعُوهَا عَلَانِيَةً فِي الْأَسْوَاقِ وَاسْتَعْدَى<sup>(٥)</sup> أَهْلَهَا الْحُكَّامَ فَلَمْ يَغْدُوهُمْ  
 فَتَوَافَرَ أَهْلُ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ عَلَى مَنَعِ الْفَسَاقِ وَكَفَّ عَادِيَتِهِمْ وَقَامَ يَبْغَدَادَ رَجُلٌ  
 يُعْرَفُ بِخَالِدِ الدُّزْيُوسِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ  
 فَأَجَابَهُ خَلْقٌ وَقَاتَلَ أَهْلَ الزُّعْرَةِ فَغَلَبَهُمْ وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِيهِمْ بِالضَّرْبِ وَالتَّنْكِيلِ ثُمَّ قَامَ  
 مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرٌ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَغْدَادَ يُعْرَفُ بِسَهْلِ بْنِ سَلَامَةَ الْأَنْصَارِيِّ  
 وَيُكْنَى أَبُو حَاتِمٍ وَعَلَّقَ مُضْحَقًا فِي عُنُقِهِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ  
 الْمُنْكَرِ وَالْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ فَاتَّبَعَهُ النَّاسُ كَافَّةً مِنْ بَيْنِ شَرِيفِ  
 وَوَضِيْعٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَمَنْ دُونَهُمْ وَنَزَلَ قَضَرَ طَاهِرًا وَأَتَّخَذَ الدِّيَّوَانَ وَطَافَ يَبْغَدَادَ  
 وَمَنَعَ كُلَّ مَنْ أَخَافَ الْمَارَةَ وَمَنَعَ الْخِفَارَةَ<sup>(٦)</sup> لِأَوْلِيكَ الشُّطَارِ وَقَالَ لَهُ خَالِدُ  
 الدُّزْيُوسِ أَنَا لَا أُعِيبُ عَلَى السُّلْطَانِ فَقَالَ لَهُ سَهْلٌ لَكِنِّي أَقَاتِلُ كُلَّ مَنْ خَالَفَ  
 الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَذَلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَمِائَتَيْنِ وَجَهَّزَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ  
 الْمُهْدِيِّ الْعَسَاكِرَ فَغَلَبَهُ وَأَسْرَهُ وَأَنْحَلَ أَمْرَهُ سَرِيعًا وَذَهَبَ وَنَجَا بِنَفْسِهِ ثُمَّ اقْتَدَى  
 بِهَذَا الْعَمَلِ بَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُوسُوسِينَ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَلَا يَغْرُقُونَ  
 مَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي إِقَامَتِهِ مِنَ الْعَصْبِيَّةِ وَلَا يَشْفُرُونَ بِمَغْيَبَةِ أَمْرِهِمْ وَمَالِ أحوَالِهِمْ  
 وَالَّذِي يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِهِ هَؤُلَاءِ إِمَّا الْمُدَاوَاةَ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجُنُونِ وَإِمَّا التَّنْكِيلَ  
 بِالْقَتْلِ أَوْ الضَّرْبِ إِنْ أَحْدَثُوا هَرْجًا وَإِمَّا إِذَاعَةَ السُّخْرِيَّةِ مِنْهُمْ وَعَدَّهُمْ مِنْ جُمْلَةِ

(١) الفتنة.

(٢) الزعرة ج زعر وفي العامية ازعر وزعران وهم ذوي الأخلاق السيئة. (قاموس).

(٣) اللصوص والمجرمين.

(٤) هو نهب مال الإنسان بأجمعه. وفي الحديث الحارب المثلح أي الغاصب الناهب. الذي يعزى

الناس ثيابهم.

(٥) طلب النجدة والعون.

(٦) المحافظة أي منع المحافظة عليهم.

الصَّفَاعِينَ<sup>(١)</sup> وَقَدْ يَنْتَسِبُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ إِمَّا بِأَنَّهُ هُوَ أَوْ بِأَنَّهُ دَاعٍ لَهُ  
وَلَيْسَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَلَا مَا هُوَ وَأَكْثَرُ الْمُنْتَجَلِينَ لِمِثْلِ هَذَا  
تَجِدُهُمْ مُوسُوسِينَ أَوْ مَجَانِينَ أَوْ مُلَبِّسِينَ يَطْلُبُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ رِئَاسَةَ امْتِلَاتٍ  
بِهَا جَوَانِحُهُمْ وَعَجِزُوا عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَيْهَا بِشَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِهَا الْعَادِيَةِ فَيَحْسِبُونَ أَنَّ  
هَذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الْبَالِغَةِ بِهِمْ إِلَى مَا يُؤْمَلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَحْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ فِيهِ  
مِنَ الْهَلَكَةِ فَيُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْقَتْلُ بِمَا يُحْدِثُونَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ وَتَسْوَأِ عَاقِبَةِ مَكْرَهُمْ وَقَدْ  
كَانَ لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ خَرَجَ بِالسُّوسِ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ يُدْعَى التُّوْبُدْرِيُّ عَمَدٌ إِلَى  
مَسْجِدِ مَاسَةَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ هُنَاكَ وَزَعَمَ أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ تَلْبِيساً عَلَى الْعَامَّةِ  
هُنَاكَ بِمَا مَلَأَ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْحَدَثَانِ بِإِنْتِظَارِهِ هُنَاكَ وَأَنَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَسْجِدِ يَكُونُ  
أَصْلُ دَعْوَتِهِ فَتَهَافَّتَتْ عَلَيْهِ طَوَائِفٌ مِنْ عَامَّةِ الْبُرْبُرِ تَهَافَّتَ الْفَرَّاشُ ثُمَّ خَشِيَ  
رُؤْسَاؤُهُمْ اتَّسَاعَ نِطَاقِ الْفِتْنَةِ فَدَسَّ إِلَيْهِ كَبِيرَ الْمَصَامِدَةِ يَوْمَئِذٍ عَمْرَ السُّكْسِيوِيِّ مِنْ  
قَتْلِهِ فِي فَرَّاشِهِ وَكَذَلِكَ خَرَجَ فِي غَمَارِهِ أَيْضاً لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ  
وَادْعَى مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَاتَّبَعَ نَعِيقَهُ الْأَزْدَلُونَ مِنْ سَفَهَاءِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وَأَعْمَارِهِمْ<sup>(٢)</sup>  
وَزَحَفَ إِلَى بَادِسَ مِنْ أَمْصَارِهِمْ وَدَخَلَهَا عُنُودُهُ . ثُمَّ قَتَلَ لِأَرْبَعِينَ يَوْماً مِنْ ظُهُورِ  
دَعْوَتِهِ وَمَضَى فِي الْهَالِكِينَ الْأَوَّلِينَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ كَثِيرٌ وَالغَلَطُ فِيهِ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنِ  
اِعْتِبَارِ الْعَصِيَّةِ فِي مِثْلِهَا وَأَمَّا إِنْ كَانَ التَّلْبِيسُ فَأَحْرَى أَنْ لَا يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ وَأَنْ يَبُوءَ  
بِإِثْمِهِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا  
مَعْبُودٌ سِوَاهُ .

## الفصل السابع

في أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تريد عليها  
والسبب في ذلك أن عصاة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لا بد

(١) الكذابين .

(٢) اغمارهم ، احداثهم الذين لم يقضوا الامور بعد .

مِنْ تَوْزِيْعِهِمْ حِصْصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالثُّغُورِ الَّتِي تَصِيرُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا  
 لِحِمَايَتِهَا مِنَ الْعُدُوِّ وَإِمْضَاءِ أَحْكَامِ الدَّوْلَةِ فِيهَا مِنْ جَبَايَةِ وَرَدْعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِذَا  
 تَوَزَّعَتِ الْعَصَابُ كُلُّهَا عَلَى الثُّغُورِ وَالْمَمَالِكِ فَلَا بُدَّ مِنْ نَفَادِ عَدَدِهَا وَقَدْ بَلَغَتْ  
 الْمَمَالِكُ حِينَئِذٍ إِلَى حَدِّ يَكُونُ ثَغْرًا لِلدَّوْلَةِ وَتَحْمًا لَوْطِنِهَا وَنَطَاقًا لِمَرْكَزِ مُلْكِهَا فَإِنْ  
 تَكْفَلَتِ الدَّوْلَةُ بَعْدَ ذَلِكَ زِيَادَةً عَلَى مَا بِيَدِهَا بَقِيَ دُونَ حَامِيَةٍ وَكَانَ مَوْضِعًا  
 لِانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ مِنَ الْعُدُوِّ وَالْمَجَاوِرِ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ  
 التَّجَاسُرِ وَخَرْقِ سِيَاحِ الْهَيْبَةِ وَمَا كَانَتِ الْعِصَابَةُ مَوْفُورَةً وَلَمْ يَنْفِذْ عَدَدُهَا فِي تَوْزِيْعِ  
 الْحِصْصِ عَلَى الثُّغُورِ وَالنَّوَاحِي بَقِيَ فِي الدَّوْلَةِ قُوَّةٌ عَلَى تَنَاوُلِ مَا وَرَاءَ الْغَايَةِ حَتَّى  
 يَنْفَسِحَ نَطَاقُهَا إِلَى غَايَتِهِ وَالْعِلْمَةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي ذَلِكَ هِيَ قُوَّةُ الْعَصَبِيَّةِ مِنْ سَائِرِ الْقُوَى  
 الطَّبِيعِيَّةِ وَكُلُّ قُوَّةٍ يَضْدُرُّ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ الْأَفْعَالِ فَشَأْنُهَا ذَلِكَ فِي فِعْلِهَا وَالدَّوْلَةُ فِي  
 مَرْكَزِهَا أَشَدُّ مِمَّا يَكُونُ فِي الطَّرْفِ وَالنَّطَاقِ وَإِذَا انْتَهَتْ إِلَى النَّطَاقِ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ  
 عَجِزَتْ وَأَقْصَرَتْ عَمَّا وَرَاءَهُ شَأْنُ الْأَشْعَةِ وَالْأَنْوَارِ إِذَا انْتَبَعَتْ مِنَ الْمَرَائِجِ وَالدَّوَائِرِ  
 الْمُنْفَسِحَةِ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مِنَ الثَّقَرِ عَلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَدْرَكَهَا النَّهْرُ وَالضَّعْفُ فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِي  
 التَّنَاقُصِ مِنْ جِهَةِ الْأَطْرَافِ وَلَا يَزَالُ الْمَرْكَزُ مَحْفُوظًا إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ  
 الْأَمْرِ جُمْلَةً فَحِينَئِذٍ يَكُونُ انْقِرَاضُ الْمَرْكَزِ وَإِذَا غَلِبَ عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ مَرْكَزِهَا فَلَا  
 يَنْفَعُهَا بَقَاءُ الْأَطْرَافِ وَالنَّطَاقِ بَلْ تَضْمَحَلُّ لَوَقْتِهَا فَإِنَّ الْمَرْكَزَ كَالْقَلْبِ الَّذِي  
 تَنْبَعُثُ مِنْهُ الرُّوحُ فَإِذَا غَلِبَ عَلَى الْقَلْبِ وَمَلَكَ انْتَهَزَ جَمِيعَ الْأَطْرَافِ وَأَنْظَرَ هَذَا فِي  
 الدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ كَانَ مَرْكَزُهَا الْمَدَائِنُ فَلَمَّا غَلِبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْمَدَائِنِ انْقَرَضَ أَمْرُ  
 فَارِسَ أَجْمَعٍ وَلَمْ يَنْفَعِ يَزْدَجْرَدُ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنْ أَطْرَافِ مَمَالِكِهِ وَبِالْعَكْسِ مِنْ  
 ذَلِكَ الدَّوْلَةُ الرُّومِيَّةُ بِالشَّامِ لَمَّا كَانَ مَرْكَزُهَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَغَلِبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ  
 بِالشَّامِ تَحْيِيزُوا إِلَى مَرْكَزِهِمُ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَلَمْ يَضُرَّهُمْ انْتِزَاعُ الشَّامِ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَلَمَّ  
 يَزَلْ مُلْكُهُمْ مُتَّصِلًا بِهَا إِلَى أَنْ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهِ وَأَنْظَرَ أَيْضًا شَأْنَ الْعَرَبِ أَوَّلِ  
 الْإِسْلَامِ لَمَّا كَانَتْ عَصَابَتُهُمْ مَوْفُورَةً كَيْفَ غَلَبُوا عَلَى مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ

وَمِضْرَ لِأَسْرَعِ وَقَبْتَ ثُمَّ تَجَاوَزُوا ذَلِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ السِّنْدِ وَالْحَبْشَةِ وَأَفْرِيقِيَّةِ  
وَالْمَغْرِبِ ثُمَّ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا تَفَرَّقُوا حِصْصاً عَلَى الْمَمَالِكِ وَالثُّغُورِ وَنَزَلُوهَا حَامِيَّةً  
وَنَفَذَ عَدَدَهُمْ فِي تِلْكَ التَّوْزِيَعَاتِ أَقْصَرُوا عَنِ الْفَتْوحَاتِ بَعْدَ وَانْتَهَى أَمْرُ الْإِسْلَامِ وَلَمْ  
يَتَجَاوَزْ تِلْكَ الْحُدُودَ وَمِنْهَا تَرَاجَعَتِ الدَّوْلَةُ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا وَكَذَا كَانَ  
حَالُ الدَّوْلِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كُلِّ دَوْلَةٍ عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي الْقِلَّةِ وَالكَثْرَةِ وَعِنْدَ  
نَفَادِ عَدَدِهِمْ بِالتَّوْزِيَعِ يَنْقَطِعُ لَهُمُ الْفَتْحُ وَالْإِسْتِيلَاءُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .

## الفصل الثامن

في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها  
في القلة والكثرة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَأَهْلُ الْعَصِيَّةِ هُمُ الْحَامِيَّةُ  
الَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِمَمَالِكِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا وَيَنْقَسِمُونَ عَلَيْهَا فَمَا كَانَ مِنَ الدَّوْلَةِ  
الْعَامَّةِ قَبِيلَتَهَا وَأَهْلُ عِصَابَتِهَا أَكْثَرَ كَانَتْ أَقْوَى وَأَكْثَرَ مَمَالِكِ وَأَوْطَاناً وَكَانَ مُلْكُهَا  
أَوْسَعَ لِذَلِكَ وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ بِالدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَمَّا أَلْفَ اللَّهُ كَلِمَةَ الْعَرَبِ عَلَى الْإِسْلَامِ  
وَكَانَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ آخِرَ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ ﷺ مِائَةَ أَلْفٍ وَعِشْرَةَ  
آلَافٍ مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَرَاجِلَ إِلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى  
الْوَفَاةِ فَلَمَّا تَوَجَّهُوا لِطَلْبِ مَا فِي أَيْدِي الْأُمَمِ مِنَ الْمُلْكِ لَمْ يَكُنْ دُونَهُ حِمَى وَلَا  
وَزْرٌ<sup>(١)</sup> فَاسْتَبِيحَ حِمَى فَارِسَ وَالرُّومِ أَهْلُ الدَّوْلَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ فِي الْعَالَمِ لِعَهْدِهِمْ  
وَالتُّرْكَ بِالْمَشْرِيقِ وَالْإِفْرَنْجِيَّةِ وَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ وَالْقُوْطِ بِالْأَنْدَلُسِ وَخَطُّوا مِنْ  
الْحِجَازِ إِلَى السُّوسِ الْأَقْصَى وَمِنَ الْيَمَنِ إِلَى التُّرْكَ بِأَقْصَى الشَّمَالِ وَاسْتَوْلُوا عَلَى  
الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ دَوْلَةَ صَنْهَاجَةَ وَالْمَوْحِدِينَ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ قَبْلَهُمْ

(١) للعقل والملجأ ( قاموس ) .

لَمَا كَانَ كُنَامَةُ الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ أَكْثَرَ مِنْ صُنْهَاجَةٍ وَمِنْ الْمَصَامِدَةِ كَانَتْ  
دَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ فَمَلَكُوا أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ وَالشَّامَ وَمِصْرَ وَالْحِجَازَ ثُمَّ انظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ  
دَوْلَةَ زَنَاتَةَ لَمَا كَانَ عَدَدُهُمْ أَقْلَ مِنَ الْمَصَامِدَةِ قَصَرَ مَلِكُهُمْ عَنْ مَلِكِ الْمُوَحِّدِينَ  
لِقُصُورِ عَدَدِهِمْ عَنْ عَدَدِ الْمَصَامِدَةِ مِنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ ثُمَّ اعْتَبِرْ بَعْدَ ذَلِكَ حَالَ الدَّوْلَتَيْنِ  
لِهَذَا الْعَهْدِ لِرِزْنَاتَةِ بَنِي مُرَيْنَ وَبَنِي عَبْدِ الْوَادِ . كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَقْوَى مِنْهَا وَأَوْسَعُ  
نِطَاقًا وَكَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ الْغَلْبُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى . يُقَالُ إِنَّ عَدَدَ بَنِي مُرَيْنَ لِأَوَّلِ  
مَلِكِهِمْ كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَإِنَّ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ كَانُوا أَلْفًا إِلَّا أَنَّ الدَّوْلَةَ بِالرَّفْهِ وَكَثْرَةِ  
التَّابِعِ كَثُرَتْ مِنْ أَعْدَادِهِمْ وَعَلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ فِي أَعْدَادِ الْمُتَغَلِّبِينَ لِأَوَّلِ الْمَلِكِ يَكُونُ  
اتِّسَاعُ الدَّوْلَةِ وَقُوَّتُهَا وَأَمَّا طَوْلُ أَمْدِهَا أَيْضًا فَعَلَى تِلْكَ النِّسْبَةِ لِأَنَّ عُمَرَ الْحَادِثِ مِنْ  
قُوَّةِ مِرَاجِهِ وَمِرَاجِ الدَّوْلِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصْبِيَّةِ فَإِذَا كَانَتْ الْعَصْبِيَّةُ قَوِيَّةً كَانَ الْمِرَاجُ  
تَابِعًا لَهَا وَكَانَ أَمْدُ الْعُمُرِ طَوِيلًا وَالْعَصْبِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَوُجُوهِهِ كَمَا قُلْنَا  
وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النِّقْصَ إِنَّمَا يَبْدُو فِي الدَّوْلَةِ مِنَ الْأَطْرَافِ فَإِذَا كَانَتْ  
مَمَالِكُهَا كَثِيرَةً كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَعِيدَةً عَنْ مَرْكَزِهَا وَكَثِيرَةً وَكُلُّ نِقْصٍ يَقَعُ فَلَا بُدَّ لَهُ  
مِنْ زَمَنٍ فَتَكْثُرُ أَرْزَانُ النِّقْصِ لِكَثْرَةِ الْمَمَالِكِ وَاخْتِصَاصِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنِقْصٍ  
وَزَمَانٍ فَيَكُونُ أَمْدُهَا أَطْوَلَ الدَّوْلِ لَا بَنُو الْعَبَّاسِ أَهْلُ الْمَرْكَزِ وَلَا بَنُو أُمَيَّةِ  
الْمُسْتَبْدُونَ بِالْأَنْدَلُسِ <sup>(١)</sup> . وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ الْأَرْبَعِمِائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ  
وَدَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ كَانَ أَمْدُهَا قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَدَوْلَةُ صُنْهَاجَةَ دُونَهُمْ  
مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مِعْزِ الدَّوْلَةِ أَمْرًا أَفْرِيقِيَّةً لِئَلَيْكِينَ بِنِ زَيْرِي فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ  
وَتَلَاثِمِائَةٍ إِلَى حِينِ اسْتِيْلَاءِ الْمُوَحِّدِينَ عَلَى الْقَلْعَةِ وَبِجَايَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ  
وَخَمْسِمِائَةٍ وَدَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَنَاهَزُ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَهَكَذَا نَسَبُ  
الدَّوْلِ فِي أَعْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا سَنَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ .

(١) هناك تشويش في معنى العبارة وربما تكون العبارة . يتساوى في ذلك بنو العباس أهل المركز وبنوا

أمية المستبدون بالاندلس .

## الفصل التاسع

في ان الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافُ الآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَأَنَّ وِرَاءَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْهَا وَهَوَىٰ عَصَبِيَّةٌ تَمَانَعُ دُونَهَا فَيَكْثُرُ الْإِنْتِقَاضُ عَلَى الدَّوْلَةِ وَالخُرُوجُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ عَصَبِيَّةٍ لِأَنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مِمَّنْ تَحْتَ يَدِهَا تَنْظُرُ فِي نَفْسِهَا مَنَعَةً وَقُوَّةً وَأَنْظُرُ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ بِأَفْرِيْقِيَّةٍ وَالْمَغْرِبِ مِنْذُ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَلِهَذَا الْعَهْدُ فَإِنْ سَاكِنَ هَذِهِ الْأَوْطَانَ مِنْ الْبَرْبَرِ أَهْلِ قَبَائِلٍ وَعَصَبِيَّاتٍ فَلَمْ يُغْنِ فِيهِمُ الْغَلْبُ الْأَوَّلُ الَّذِي كَانَ لِابْنِ أَبِي سَرْجٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الْإِفْرَنْجِيَّةِ شَيْئًا وَعَاوَدُوا بَعْدَ ذَلِكَ الثُّورَةَ وَالرَّدَّةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَعَظَمَ الْإِنْتِحَانُ <sup>(١)</sup> مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الدِّينُ عِنْدَهُمْ عَادُوا إِلَى الثُّورَةِ وَالخُرُوجِ وَالْأَخْذِ بِيَدِيں الْخَوَارِجِ مَرَاتٍ عَدِيدَةً قَالَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ اِزْدَدَتْ الْبَرْابِرَةُ بِالْمَغْرِبِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَلَمْ تَسْتَقِرَّ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ فِيهِمْ إِلَّا لِعَهْدِ وَلَايَةِ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ فَمَا بَعْدَهُ وَهَذَا مَعْنَى مَا يُنْقَلُ عَنْ عَمْرٍ أَنْ أَفْرِيْقَةَ مُفْرَقَةٌ لِقُلُوبِ أَهْلِهَا إِشَارَةٌ إِلَى مَا فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ الْحَامِلَةِ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ الْإِدْعَانِ وَالْإِنْتِقِيَادِ وَلَمْ يَكُنِ الْعِرَاقُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ يَتَلَكَّ الصِّفَةَ وَلَا الشَّامُ إِنَّمَا كَانَتْ حَامِيَّتِهَا مِنْ فَارِسَ وَالرُّومِ وَالْكَافَّةِ ذَهْمَاءِ أَهْلِ مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ فَلَمَّا غَلِبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْأَمْرِ وَأَنْتَزَعُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا مَمَانَعٌ وَلَا مُشَاقٌ <sup>(٢)</sup> وَالْبَرْبَرُ قَبَائِلُهُمْ بِالْمَغْرِبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى وَكُلُّهُمْ بَادِيَّةٌ وَأَهْلُ عَصَائِبٍ وَعَشَائِرٍ وَكَلَّمَا هَلَكَتْ قَبِيلَةٌ عَادَتْ الْأُخْرَى مَكَانَهَا وَإِلَى دِينِهَا مِنَ الْخِلَافِ وَالرَّدَّةِ فَطَالَ أَمْرُ الْعَرَبِ فِي تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ بِوَطْنِ أَفْرِيْقِيَّةٍ وَالْمَغْرِبِ وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ بِالشَّامِ لِعَهْدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ فِيهِ مِنْ

(١) انتحن في العدو، أكثر في القتل والجرح وورد في الآية ٦٧ من سورة الأنفال « ما كان لنبهي أن يكون

له أسرى حتى يشخن في الأرض ».

(٢) مخالف وفي الآية ٤ من سورة الحشر « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ».

قَبَائِلِ فِلَسْطِينَ وَكَنْعَانَ وَبَنِي عِيصُو وَبَنِي مَدْيَنَ وَبَنِي لُوطَ وَالرُّومَ وَالْيُونَانَ  
وَالْعَمَالِقَةَ وَأَكْرِيكِشَ وَالنَّبْطَ مِنْ جَانِبِ الْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلَ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً  
وَتَنَوُّعًا فِي الْعَصَبِيَّةِ فَصَعَبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ تَمْهِيدُ دَوْلَتِهِمْ وَرُسُوحُ أَمْرِهِمْ  
وَاضْطْرَبَ عَلَيْهِمُ الْمُلْكُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَسَرَى ذَلِكَ الْخِلَافُ إِلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا عَلَى  
سُلْطَانِهِمْ وَخَرَجُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَلِكٌ مُوَطَّدٌ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ إِلَى أَنْ غَلَبَهُمُ الْفَرَسُ  
ثُمَّ يُونَانُ ثُمَّ الرُّومُ آخِرَ أَمْرِهِمْ عِنْدَ الْجَلَاءِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَيَعَكْسُ هَذَا أَيْضًا  
الْأَوْطَانَ الْحَالِيَةَ مِنَ الْعَصَبِيَّاتِ يَسْهُلُ تَمْهِيدُ الدَّوْلَةِ فِيهَا وَيَكُونُ سُلْطَانُهَا وَازِعًا  
لِقِلَّةِ الْهَرَجِ وَالْإِنْتِقَاضِ وَلَا تَخْتَاجُ الدَّوْلَةُ فِيهَا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ كَمَا هُوَ الشَّانُ فِي  
مِصْرَ وَالشَّامِ لِهَذَا الْعَهْدِ إِذْ هِيَ خَلُوٌ مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ كَأَنَّ لَمْ يَكُنِ الشَّامُ  
مَعِينًا لَهُمْ كَمَا قُلْنَا فَمَلِكُ مِصْرَ فِي غَايَةِ الدَّعَةِ وَالرُّسُوحِ لِقِلَّةِ الْخَوَارِجِ وَأَهْلِ  
الْعَصَائِبِ إِنَّمَا هُوَ سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ وَدَوْلَتُهَا قَائِمَةٌ بِمُلُوكِ التُّرْكِ وَعَصَائِبِهِمْ يَغْلِبُونَ  
عَلَى الْأَمْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَيَنْتَقِلُ الْأَمْرُ فِيهِمْ مِنْ مَنْبِتٍ إِلَى مَنْبِتٍ وَالْخِلَافَةُ مُسْمَاةٌ  
لِلْعَبَاسِيِّ مِنْ أَعْقَابِ الْخُلَفَاءِ بِنِعْدَادِ وَكَذَلِكَ الْأَنْبَاءُ فِي الْإِسْلَامِ وَالْأَنْبَاءُ فِي الْإِسْلَامِ .

الْأَحْمَرُ سُلْطَانُهَا لَمْ تَكُنْ لِأَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ بِي  
بَيْتٍ مِنْ بِيُوتِ الْعَرَبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْأَنْدَلُسِ لَمَّا انْقَرَضَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْهُ  
سَمُّوا مَلِكْتَهُمْ وَثَقَلَتْ وَطَأَتْهُمْ عَلَيْهِمْ فَأَشْ  
وَالسَّادَةُ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ كَثِيرًا مِنَ الْخُصُوصِ  
شَأْنِهِمْ مِنْ تَمَلُّكِ الْحَضْرَةِ مَرَكَشَ فَاجْتَمَعُوا  
الْقَدِيمَةَ مَعَادِنُ مِنْ بِيُوتِ الْعَرَبِ تَجَافَى  
الشَّيْءَ وَرَسَخُوا فِي الْعَصَبِيَّةِ مِثْلَ ابْنِ هُوْدِ  
ابْنِ هُوْدِ بِالْأَمْرِ وَدَعَا بِدَعْوَةِ الْخِلَافَةِ الْعُرْبِ

(١) متتالية ومتناهية

(٢) الاسم الذي أطلقه عرب الأندلس على ملك

عَلَى الْمُوحِدِينَ فَنَبَذُوا إِلَيْهِمُ الْعَمِدَ وَأَخْرَجُوهُمْ وَاسْتَقَلَّ ابْنُ هُودٍ بِالْأَمْرِ فِي الْأَنْدَلُسِ  
ثُمَّ سَمَّا ابْنَ الْأَحْمَرَ لِلْأَمْرِ وَخَالَفَ ابْنُ هُودٍ فِي دَعْوَتِهِ فَدَعَا هُوَ لِابْنِ أَبِي حَفْصٍ  
صَاحِبِ أَفْرِيقِيَّةٍ مِنَ الْمُوحِدِينَ وَقَامَ بِالْأَمْرِ وَتَنَاوَلَهُ بَعْضَايَةٌ قَرِيبَةٌ مِنْ قَرَاتِيَّةٍ  
كَانُوا يُسَمُّونَ الرُّؤْسَاءَ وَلَمْ يَحْتَجْ لِأَكْثَرِ مِنْهُمْ لِقِلَّةِ الْعَصَائِبِ بِالْأَنْدَلُسِ وَإِنَّا سُلْطَانٌ  
وَرَعِيَّةٌ ثُمَّ اسْتَظْهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الطَّاعِيَةِ بِمَنْ يُحْيِزُ إِلَيْهِ الْبَحْرَ مِنْ أَعْيَاصِ زَنَاتَةٍ  
فَصَارُوا مَعَهُ عَضْبَةً عَلَى الْمَثَاغِرَةِ وَالرُّبَاطِ ثُمَّ سَمَّا لِصَاحِبِ مِنْ مُلُوكِ زَنَاتَةٍ أَمَلٌ فِي  
الِاسْتِيْلَاءِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ فَصَارَ أَوْلَيْكَ الْأَعْيَاصِ عَصَابَةٌ ابْنِ الْأَحْمَرَ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ مِنْهُ  
إِلَى أَنْ تَأْتَلَ (١) أَمْرُهُ وَرَسَخَ وَأَلْفَتَهُ النُّفُوسُ وَعَجِزَ النَّاسُ عَنْ مُطَالَبَتِهِ وَوَرِثَهُ أَعْقَابُهُ  
لِهَذَا الْعَمِدِ فَلَا تَطُنُّ أَنَّهُ بِغَيْرِ عَصَايَةٍ فَلَيْسَ كَذَلِكَ وَقَدْ كَانَ مُبْدَأُهُ بَعْضَايَةً إِلَّا أَنَّهَا  
قَلِيلَةٌ وَعَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ فَإِنَّ قَطْرَ الْأَنْدَلُسِ لِقِلَّةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ فِيهِ يُغْنِي عَنْ  
كَثْرَةِ الْعَصَبِيَّةِ فِي التَّغْلِبِ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

## الفصل العاشر

في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وَذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصَبِيَّةِ وَالْعَصَبِيَّةُ مُتَأَلِّفَةٌ مِنْ عَصَبَاتٍ  
كَثِيرَةٍ تَكُونُ وَاحِدَةً مِنْهَا أَقْوَى مِنَ الْأُخْرَى كُلِّهَا فَتَغْلِبُهَا وَتَسْتَوْلِي عَلَيْهَا حَتَّى  
تُصَيِّرَهَا جَمِيعاً فِي ضِمْنِهَا وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْاجْتِمَاعُ وَالغَلْبُ عَلَى النَّاسِ وَالذُّوْلُ وَسِرُّهُ  
أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ الْعَامَّةَ لِلْقَبِيلِ هِيَ مِثْلُ الْمِرْجَاحِ لِلْمُتَكَوِّنِ وَالْمِرْجَاحُ إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ  
الْعُنَاصِرِ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ أَنَّ الْعُنَاصِرَ إِذَا اجْتَمَعَتْ مُتَكَافِئَةٌ فَلَا يَقَعُ مِنْهَا مِرْجَاحٌ  
أَضْلًا بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْهَا هِيَ الْغَالِبَةُ عَلَى الْكُلِّ حَتَّى تَجْمَعَهَا  
وَتَوَلِّفَهَا وَتُصَيِّرَهَا عَصَبِيَّةً وَاحِدَةً شَامِلَةً لِجَمِيعِ الْعَصَائِبِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ضِمْنِهَا

(١) ترسخ وتأصل .



وَتِلْكَ الْعَصِيَّةُ الْكُبْرَى إِنَّمَا تَكُونُ لِقَوْمِ أَهْلِ بَيْتِ وَرِثَانَةِ فِيهِمْ ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رَئِيسًا لَهُمْ غَالِبًا عَلَيْهِمْ فَيَتَعَيَّنُ رَئِيسًا لِلْعَصِيَّاتِ كُلِّهَا لِعَلْبِ مَنِيَّتِهِ لِجَمِيعِهَا وَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ فَمِنَ الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ خُلِقَ الْكِبْرُ وَالْأَنْفَةُ فَيَأْتِي حِينَئِذٍ مِنَ الْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي اسْتِنْبَاعِهِمْ وَالتَّحْكُمِ فِيهِمْ وَيَجِيءُ خُلُقُ التَّالِيهِ الَّذِي فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ مَعَ مَا تَقْتَضِيهِ السِّيَاسَةُ مِنْ انْفِرَادِ الْحَاكِمِ لِفَسَادِ الْكُلِّ بِاخْتِلَافِ الْحُكَّامِ « لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » <sup>(١)</sup> فَتُجَدِّعُ حِينَئِذٍ أَنْوْفَ الْعَصِيَّاتِ وَتَفْلُحُ شَكَائِمُهُمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي التَّحْكُمِ وَتَفْرَعُ عَصَبِيَّتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَنْفَرِدُ بِهِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَتْرَكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْأَمْرِ لَا نَاقَةَ وَلَا جَمَلًا فَيَنْفَرِدُ بِذَلِكَ الْمَجْدُ بِكُلِّيَّتِهِ وَيُدْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَالثَّلَاثِ عَلَى قَدَرِ مُمَانَعَةِ الْعَصِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الدَّوْلِ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

## الفصل الحادي عشر

في ان طبيعة الملك الترف

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْمُلْكِ قَبْلَهَا كَثُرَ رِيَاشُهَا وَنِعْمَتُهَا فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاوَزُونَ ضَرُورَاتِ الْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِقَّتِهِ وَزِينَتِهِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَتَضِيرُ لَتِلْكَ النُّوَافِلِ عَوَائِدُ ضَرُورِيَّةٌ فِي تَحْصِيلِهَا وَيَنْزِعُونَ مَعَ ذَلِكَ إِلَى رِقَّةِ الْأَحْوَالِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْفُرُشِ وَالْأَنْبِيَةِ وَيَتَفَاخَرُونَ فِي ذَلِكَ وَيَفَاخِرُونَ فِيهِ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ فِي أَكْلِ الطَّيِّبِ وَلُبْسِ الْأَنْبِيَةِ وَرُكُوبِ الْفَارِهِ <sup>(٢)</sup> وَيُنَاعِي خَلْفَهُمْ فِي ذَلِكَ سَلْفَهُمْ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَعَلَى قَدَرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَرْفَهُمْ فِيهِ إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذَلِكَ

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

(٢) الفارة في الفرس والبرذون والحصار ، الجيد السير .

الغاية التي للدولة إلى أن تبلغها بحسب قوتها وعوائد من قبلها سنة الله في خلقه  
والله تعالى أعلم .

## الفصل الثاني عشر

في ان من طبيعة الملك الدعة والسكون

وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة والمطالبة غايتها الغلب  
والملك وإذا حصلت الغاية انقضى السعي إليها ( قال الشاعر )

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا  
الراحة والسكون والدعة ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المآني والمساكن  
والملايس فيبتنون القصور ويجرون المياه ويفرسون الرياض ويستمتعون بأحوال  
الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب ويتأنقون في أحوال الملايس والمطاعم  
والآنية والفرش ما استطاعوا ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم ولا  
يزال ذلك يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره وهو خير الحاكمين والله تعالى  
أعلم .

## الفصل الثالث عشر

في أنه إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف  
والدعة

اقبلت الدولة على الهرم

وبيانه من وجوه . الأول أنها تقتضي الانفراد بالمجد كما قلناه ومهما كان  
المجد مشتركاً بين العصابة وكان سعيهم له واحداً كانت همهم في التغلب على

الغير والذئب عن الحوزة<sup>(١)</sup> أسوة في طموحها وقوة شكائيمها ومرماهم إلى العز جميعاً يستطيعون الموت في بناء مجديهم ويؤثرون الهلكة على فسادهم وإذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع غضبيتهم وكبح من اعنتهم واستأثر بالأموال دونهم فتكاسلوا عن الغزو وفشل ربحهم ورئموا<sup>(٢)</sup> المذلة والاستعباد ثم ربي الجيل الثاني منهم على ذلك يخسبون ما ينالهم من العطاء أجراً من السلطان لهم عن الحماية والمعونة لا يجري في عقولهم سواه وقل أن يستأجر أحد نفسه على الموت فيصير ذلك وهنا في الدولة وخضداً من الشوكة وتقبل به على مناحي الضعف والنهرم لفساد العصبية يذهب الناس من أهلها . والوجه الثاني أن طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفيه ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم يحصر نفقاتهم في الغزو والحروب فلا يجدون وليجة<sup>(٣)</sup> عنها فيوقعون بهم العقوبات وينتزعون ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم لذلك عن إقامة أخوالهم ويضعف صاحب الدولة بضعفهم وأيضاً إذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان إلى الزيادة في أعطياتهم حتى يسد خللهم<sup>(٤)</sup> ويوزيح عللهم والجبانية مقدارها معلوم ولا تزيد ولا تنقص وإن زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدوداً فإذا وزعت الجبانية على الأعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحماية حينئذ عما كان قبل زيادة الأعطيات ثم يعظم

(١) الدفاع عن الناحية .

(٢) أحبوا وألغوا .

(٣) الوليجة : البطانة والخاصة ومن يتخذها الانسان معتمداً عليه من غير أهله ( قاموس ) .

(٤) الخلل : الوهن في الأمر والرقعة في الناس ( قاموس ) ولعل الكلمة محرقة من كلمة الخلّة وهي

التَّرَفُ وَتَكْثُرُ مَقَادِيرُ الْأَعْطِيَّاتِ لِذَلِكَ فَيَنْقُصُ عَدَدُ الْحَامِيَةِ وَثَالِثًا وَرَابِعًا إِلَى أَنْ  
 يَعُودَ الْعَسْكَرُ إِلَى أَقْلِ الْأَعْدَادِ فَتَضَعُفُ الْحِمَايَةُ لِذَلِكَ وَتَسْقُطُ قُوَّةُ الدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَّرُ  
 عَلَيْهَا مَنْ يُجَاوِزُهَا مِنَ الدُّوَلِ أَوْ مَنْ هُوَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَيَأْذَنُ  
 اللَّهُ فِيهَا بِالْفَنَاءِ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَى خَلْقِيَّتِهِ وَأَيْضًا فَالتَّرَفُ مُفْسِدٌ لِلخَلْقِ بِمَا يَحْصُلُ فِي  
 النَفْسِ مِنَ الْوَانِ الشَّرِّ وَالسُّنْفَةِ <sup>(١)</sup> وَعَوَائِدُهَا كَمَا يَأْتِي فِي فَضْلِ الْحَضَارَةِ فَتَذْهَبُ  
 مِنْهُمْ خِلَالُ الْخَيْرِ الَّتِي كَانَتْ عَلَامَةً عَلَى الْمُلْكِ وَظِيلًا عَلَيْهِ وَيَتَصَفُّونَ بِمَا يُنَاقِضُهَا  
 مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ فَيَكُونُ عَلَامَةً عَلَى الإِدْبَارِ وَالانْقِرَاضِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فِي  
 خَلْقِيَّتِهِ وَتَأْخُذُ الدَّوْلَةُ مَبَادِيءَ الْعَطَبِ وَتَتَضَعُّعُ أَحْوَالَهَا وَتَنْزِلُ بِهَا أَمْرَاضَ مُزْمَنَةً  
 مِنَ الْهَرَمِ إِلَى أَنْ يُقْضَى عَلَيْهَا . الْوَجْهُ الثَّالِثُ أَنَّ طَبِيعَةَ الْمُلْكِ تَقْتَضِي الدَّعَةَ كَمَا  
 ذَكَرْنَا وَإِذَا اتَّخَذُوا الدَّعَةَ وَالرَّاحَةَ مَالِفًا وَخُلُقًا صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ طَبِيعَةً وَجِبَلَةً شَأْنُ  
 الْعَوَائِدِ كُلِّهَا وَإِيْلَافِهَا فَتَرْبِي أجيَالَهُمُ الْحَادِثَةَ فِي غِيَارَةِ الْعَيْشِ وَمِهَادِ التَّرَفِ  
 وَالدَّعَةِ وَيَنْقَلِبُ خُلُقُ التَّوَحُّشِ وَيَنْسُونَ عَوَائِدَ الْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَ بِهَا الْمُلْكَ مِنْ شِدَّةِ  
 النَّبَاسِ وَتَعُودُ الْإِفْتِرَاسِ وَرُكُوبِ الْبَيْدَاءِ وَهَدَايَةِ الْفَقْرِ فَلَا يُفْرَقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السُّوقَةِ  
 مِنَ الْحَضَرِ إِلَّا فِي الثَّقَافَةِ وَالشَّارَةِ فَتَضَعُفُ حِمَايَتُهُمْ وَيَذْهَبُ بِأَسْمِهِمْ وَتَنْخَضُ  
 شُوكَتُهُمْ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا تَلْبَسُ مِنْ ثِيَابِ الْهَرَمِ ثُمَّ لَا يَزَالُونَ  
 يَتَلَوَّنُونَ بِعَوَائِدِ التَّرَفِ وَالْحَضَارَةِ وَالسُّكُونِ وَالدَّعَةِ وَرِقَّةِ الْحَاشِيَةِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ  
 وَيَنْغَمِسُونَ فِيهَا وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَبْعُدُونَ عَنِ الْبِدَاوَةِ وَالْخُشُونَةِ وَيَنْسَلِخُونَ عَنْهَا شَيْئًا  
 فَشَيْئًا وَيَنْسُونَ خُلُقَ النَّسَالَةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا الْحِمَايَةُ وَالْمُدَافَعَةُ حَتَّى يَعُودُوا عِيَالًا  
 عَلَى حَامِيَةٍ أُخْرَى إِنْ كَانَتْ لَهُمْ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ الَّتِي أَخْبَارَهَا فِي الصُّحُفِ  
 لَدَيْكَ تَجِدُ مَا قُلْتَهُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ صَحِيحًا مِنْ غَيْرِ رِيْبَةٍ وَرُبَّمَا يَخْدُثُ فِي الدَّوْلَةِ إِذَا  
 طَرَفَهَا هَذَا الْهَرَمُ بِالتَّرَفِ وَالرَّاحَةِ أَنْ يَتَّخِيزَ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنْصَارًا وَشَيْعَةً مِنْ غَيْرِ  
 جِلْدَتِهِمْ مِمَّنْ تَعُودُ الْخُشُونَةَ فَيَتَّخِذُهُمْ جُنْدًا يَكُونُ أَصْبَرَ عَلَى الْحَرْبِ وَأَقْدَرَ عَلَى

(١) الرديء من كل شيء .

مَعَانَةِ الشَّدَائِدِ مِنَ الْجُوعِ وَالشُّطْفِ وَيَكُونُ ذَلِكَ دَوَاءً لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْهَرَمِ الَّذِي عَسَاهُ أَنْ يَطْرُقَهَا حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِيهَا بِأَمْرِهِ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فَإِنَّ غَالِبَ جُنْدِهَا الْعَوَالِي مِنَ التُّرْكِ فَتَتَخَيَّرُ مُلُوكُهُمْ مِنْ أَوْلِيكَ الْمَمَالِيكِ الْمَجْلُوبِينَ إِلَيْهِمْ فُرْسَانًا وَجُنْدًا فَيَكُونُونَ أَجْرًا عَلَى الْحَرْبِ وَأَضْبَرَ عَلَى الشُّطْفِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَمَالِيكِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُمْ وَرَبُّوا فِي مَاءِ النِّعِيمِ وَالسُّلْطَانِ وَظَلَهُ وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةٍ فَإِنَّ صَاحِبَهَا كَثِيرًا مَا يَتَّخِذُ أَجْنَادَهُ مِنْ زَنَاتِهِ وَالْعَرَبِ وَيَسْتَكْثِرُ مِنْهُمْ وَيَتْرُكُ أَهْلَ الدَّوْلَةِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلتَّرَفِ فَتَسْتَجِدُّ الدَّوْلَةَ بِذَلِكَ عُمْرًا آخَرَ سَالِمًا مِنَ الْهَرَمِ وَاللَّهِ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا .

## الفصل الرابع عشر

في أن الدولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص

إِنَّمَا أَنْ الْعُمَرَ الطَّبِيعِيَّ لِلأَشْخَاصِ عَلَى مَا زَعَمَ الْأَطِبَّاءُ وَالْمُنْجَمُونَ مِائَةً وَعِشْرُونَ سَنَةً وَهِيَ سِنُو الْقَمَرِ الْكَبْرَى عِنْدَ الْمُنْجَمِينَ وَيَخْتَلِفُ الْعُمُرُ فِي كُلِّ جِيلٍ بِحَسَبِ الْقِرَانَاتِ فَيَزِيدُ عَنْ هَذَا وَيَنْقُصُ مِنْهُ فَتَكُونُ أَعْمَارُ بَعْضِ أَهْلِ الْقِرَانَاتِ مِائَةً تَامَةً وَبَعْضِهِمْ خَمْسِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ أُدْلَةُ الْقِرَانَاتِ عِنْدَ النَّاطِرِينَ فِيهَا وَأَعْمَارُ هَذِهِ الْمَلَّةِ مَا بَيْنَ السَّتِينَ إِلَى السَّبْعِينَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَلَا يَزِيدُ عَلَى الْعُمَرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هُوَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ إِلَّا فِي الصُّورِ النَّادِرَةِ وَعَلَى الْأَوْضَاعِ الْغَرِيبَةِ مِنَ الْفَلَكَ كَمَا وَقَعَ فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَلِيلٌ مِنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ . وَأَمَّا أَعْمَارُ الدُّوَلِ أَيْضًا وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الْقِرَانَاتِ إِلَّا أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي الْغَالِبِ لَا تَعْدُو أَعْمَارَ ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ وَالْجِيلُ هُوَ عُمُرُ شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنَ الْعُمَرِ الْوَسْطِ فَيَكُونُ أَرْبَعِينَ الَّذِي هُوَ انْتِهَاءُ النُّمُوِّ وَالنُّشُوءِ إِلَى غَايَتِهِ قَالَ تَعَالَى « حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً » <sup>(١)</sup> وَلِهَذَا قُلْنَا إِنَّ عُمَرَ الشَّخْصِ الْوَالِدِ هُوَ عُمُرُ الْجِيلِ

(١) سورة الأحقاف الآية ١٥ .

وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي حِكْمَةِ التَّيِّهِ الَّذِي وَقَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّ الْمَقْصُودَ  
بِالْأَرْبَعِينَ فِيهِ فَنَاءُ الْجِيلِ الْأَخْيَاءِ وَنَشَأَةُ جِيلٍ آخَرَ لَمْ يَغْفِدُوا الدَّلَّ وَلَا عَرَفُوهُ فَدَلَّ  
عَلَى اِغْتِبَارِ الْأَرْبَعِينَ فِي عُمُرِ الْجِيلِ الَّذِي هُوَ عُمُرُ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ عُمُرَ  
الدَّوْلَةِ لَا يَغْدُو فِي الْغَالِبِ ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ لِأَنَّ الْجِيلَ الْأَوَّلَ لَمْ يَزَالُوا عَلَى خُلُقِ الْبِدَاوَةِ  
وَخُشُونَتِهَا وَتَوْحُشِهَا مِنْ شَطْفِ الْعَيْشِ وَالْبَسَالَةِ وَالْإِفْتِرَاسِ وَالِاشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ فَلَا  
تَزَالُ بِذَلِكَ سُورَةُ الْعَصِيَّةِ مَحْفُوظَةً فِيهِمْ فَحَدَهُمْ مُرْهَفٌ وَجَانِبُهُمْ مَرْهُوبٌ وَالنَّاسُ  
لَهُمْ مَغْلُوبُونَ وَالْجِيلُ الثَّانِي تَحْوَلُ حَالُهُمْ بِالْمُلْكِ وَالتَّرَفِ مِنَ الْبِدَاوَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ  
وَمِنَ الشُّطْفِ إِلَى التَّرَفِ وَالْخُصْبِ وَمِنَ الْإِشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ إِلَى انْفِرَادِ الْوَاحِدِ بِهِ  
وَكَسَلِ الْبَاقِينَ عَنِ السُّعْيِ فِيهِ وَمِنَ عِزِّ الْإِسْطِطَالَةِ إِلَى ذُلِّ الْإِسْتِكَانَةِ فَتَنْكَسِرُ سُورَةُ  
الْعَصِيَّةِ بَعْضُ الشَّيْءِ وَتُؤَنَسُ مِنْهُمُ الْمَهَانَةُ وَالْخُضُوعُ وَيَبْقَى لَهُمُ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ  
بِمَا أَدْرَكُوا الْجِيلَ الْأَوَّلَ وَبَاشَرُوا أَوْحَالَهُمْ وَشَاهَدُوا اِغْتِرَازَهُمْ وَسَعْيَهُمْ إِلَى الْمَجْدِ  
وَمَرَامِيهِمْ فِي الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَلَا يَسَعُهُمْ تَرْكُ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ وَإِنْ ذَهَبَ مِنْهُ  
مَا ذَهَبَ وَيَكُونُونَ عَلَى رَجَاءٍ مِنْ مَرَاجِعَةِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانَتْ لِلْجِيلِ الْأَوَّلِ أَوْ عَلَى  
ظَنٍّ مِنْ وُجُودِهَا فِيهِمْ وَأَمَّا الْجِيلُ الثَّالِثُ فَيَنْسُونُ عَهْدَ الْبِدَاوَةِ وَالْخُشُونَةَ كَأَنَّ لَمْ  
تَكُنْ وَيَفْقِدُونَ خِلَاوَةَ الْعِزِّ وَالْعَصِيَّةِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَلَكَةِ الْقَهْرِ وَيَبْلُغُ فِيهِمُ التَّرَفُ  
غَايَتَهُ بِمَا تَبْتَقُوهُ<sup>(١)</sup> مِنَ النَّعِيمِ وَغَضَارَةِ الْعَيْشِ فَيَصِيرُونَ عِيَالًا عَلَى الدَّوْلَةِ وَمِنَ  
جُمْلَةِ النِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ الْمُحْتَاجِينَ لِلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَتَسْقُطُ الْعَصِيَّةُ بِالْجُمْلَةِ وَيَنْسُونَ  
الْحِمَايَةَ وَالْمُدَافَعَةَ وَالْمُطَالَبَةَ وَيَلْبَسُونَ عَلَى النَّاسِ فِي الشَّارَةِ وَالرِّبِّيِّ وَرُكُوبِ الْخَيْلِ  
وَخُسْنِ الثَّقَافَةِ يَمُوهُونَ بِهَا وَهُمْ فِي الْأَكْثَرِ أَجْبَنُ مِنَ النِّسْوَانِ عَلَى ظُهُورِهَا فَإِذَا جَاءَ  
الْمُطَالِبُ لَهُمْ لَمْ يَقَاوِمُوا مُدَافَعَتَهُ فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ  
بِسَوَاهِمُ مِنَ أَهْلِ النُّجْدَةِ وَيَسْتَكْثِرُ بِالْمَوَالِي وَيَضْطَنِعُ مَنْ يُغْنِي عَنِ الدَّوْلَةِ بَعْضُ  
الْعِيْنَاءِ حَتَّى يَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا فَتَذْهَبُ الدَّوْلَةُ بِمَا حَمَلَتْ فَهَذِهِ كَمَا تَرَاهُ ثَلَاثَةَ  
أَجْيَالٍ فِيهَا يَكُونُ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَتَخْلُفُهَا وَلِهَذَا كَانَ انْقِرَاضُ الْحَسْبِ فِي الْجِيلِ الرَّابِعِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ تَبْتَقُوهُ ، أَي تَتَمَعُّوا بِهِ ( قَامُوسٌ ) وَتَبْتَقُوهُ ، تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ .

كَمَا مَرَّ فِي أَنَّ الْمَجْدَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءٍ وَقَدْ أَتَيْنَاكَ فِيهِ بِبَرَهَانٍ طَبِيعِيٍّ  
كَافٍ ظَاهِرٍ مَبْنِيٍّ عَلَى مَا مَهْدِنَاهُ قَبْلَ مِنَ الْمَقْدَمَاتِ فَتَأْمَلُهُ فَلَنْ تَعْدُوَ وَجْهَ الْحَقِّ إِنْ  
كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْإِنْصَافِ وَهَذِهِ الْأَجْيَالُ الثَّلَاثَةُ عُمُرُهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً عَلَى مَا مَرَّ  
وَلَا تَعْدُوَ الدَّوْلُ فِي الْغَالِبِ هَذَا الْعُمُرَ بِتَقْرِيْبٍ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ إِلَّا إِنْ عَرَضَ لَهَا عَارِضٌ  
آخَرٌ مِنْ فَقْدَانِ الْمَطَالِبِ فَيَكُونُ النَّهْمُ حَاصِلًا مُسْتَوِيًّا وَالطَّالِبُ لَمْ يَخْضُرْهَا وَلَوْ قَدْ  
جَاءَ الطَّالِبُ لَمَّا وَجَدَ مُدَافِعًا « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا  
يَسْتَقْدِمُونَ » فَهَذَا الْعُمُرُ لِلدَّوْلَةِ بِمِثَالِيَةِ عُمُرِ الشَّخْصِ مِنَ التَّزْيِيدِ إِلَى سِنِّ الْوُقُوفِ ثُمَّ  
إِلَى سِنِّ الرَّجُوعِ وَلِهَذَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّ عُمُرَ الدَّوْلَةِ مِائَةٌ سَنَةً  
وَهَذَا مَعْنَاهُ فَاعْتَبِرْهُ وَاتَّخِذْ مِنْهُ قَانُونًا يُصَحِّحُ لَكَ عَدَدَ الْآبَاءِ فِي عُمُودِ النَّسَبِ الَّذِي  
تُرِيدُهُ مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَةِ السِّنِّينَ الْمَاضِيَةِ إِذَا كُنْتَ قَدْ اسْتَرَبْتِ فِي عَدَدِهِمْ وَكَانَتْ  
السَّنُونَ الْمَاضِيَةَ مِنْذُ أَوْلَاهُمْ مُحْصَلَةً لَدَيْكَ فَعُدْ لِكُلِّ مِائَةٍ مِنَ السِّنِّينَ ثَلَاثَةً مِنَ الْآبَاءِ  
فَإِنْ نَفَدَتْ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ مَعَ نَفُودِ <sup>(١)</sup> عَدَدِهِمْ فَهُوَ صَحِيحٌ وَإِنْ نَقَصَتْ عَنْهُ بِجِيلٍ  
فَقَدْ غُلِطَ عَدَدُهُمْ بِزِيَادَةِ وَاحِدٍ فِي عُمُودِ النَّسَبِ وَإِنْ زَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ  
وَكَذَلِكَ تَأْخُذُ عَدَدَ السِّنِّينَ مِنْ عَدَدِهِمْ إِذَا كَانَ مُحْصَلًا لَدَيْكَ فَتَأْمَلُهُ تَجِدُهُ فِي الْغَالِبِ  
صَحِيحًا « وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » .

## الفصل الخامس عشر

### في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة

إِغْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدَّوْلِ فَإِنَّ الْغَلْبَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْمَلِكُ إِنَّمَا هُوَ  
بِالْعَصِيَّةِ وَبِمَا يَتَّبَعُهَا مِنْ شِدَّةِ النَّاسِ وَتَعَوُّدِ الْإِفْتِرَاسِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ غَالِبًا إِلَّا مَعَ  
الْبَدَاوَةِ فَطَوْرُ الدَّوْلَةِ مِنْ أَوْلَاهَا بَدَاوَةٌ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ الْمَلِكُ تَبَعَهُ الرِّفْقَةُ وَاتَّسَاعَ الْأَحْوَالِ

(١) الأصح أن يقول نفاذ عددهم .

وَالْحَضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَفَنُّنٌ فِي التَّرَفِ وَإِحْكَامِ الصَّنَائِعِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي وُجُوهِهِ وَمَذَاهِبِهِ مِنْ الْمَطَابِخِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَبَانِي وَالْفُرُشِ وَالْأَبْنِيَةِ وَسَائِرِ عَوَائِدِ الْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعٌ فِي اسْتِجَادَتِهِ وَالتَّائِقُ فِيهِ تَخْتَصُّ بِهِ وَيَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَتَكَثَّرُ بِاخْتِلَافِ مَا تَنْزِعُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ وَالتَّنْعُمِ بِأَحْوَالِ التَّرَفِ وَمَا تَتَلَوْنَ بِهِ مِنَ الْعَوَائِدِ فَصَارَ طُورُ الْحَضَارَةِ فِي الْمُلْكِ يَتَّبِعُ طُورَ الْبِدَاوَةِ ضُرُورَةً لِحُضُورَةِ تَبَعِيَّةِ الرُّفْهِ لِلْمُلْكِ وَأَهْلِ الدُّوَلِ أَبَدًا يُقَلِّدُونَ فِي طُورِ الْحَضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا لِلدُّوَلَةِ السَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ . فَأَحْوَالُهُمْ يُشَاهِدُونَ ، وَمِنْهُمْ فِي الْغَالِبِ يَأْخُذُونَ ، وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ وَمَلَكُوا فَارِسَ وَالرُّومَ وَاسْتَعْتَمَدُوا بَنَاتِهِمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَلَمْ يَكُونُوا لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحَضَارَةِ فَقَدْ حُكِيَ أَنَّهُ قَدَّمَ لَهُمُ الْمَرْقُوقَ <sup>(١)</sup> فَكَانُوا يَحْسِبُونَهُ رِقَاعًا وَعَثَرُوا عَلَى الْكَافُورِ فِي خَزَائِنِ كِسْرَى فَاسْتَعْمَلُوهُ فِي عَجِينِهِمْ مِلْحًا وَمِثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ فَلَمَّا اسْتَعْبَدُوا أَهْلَ الدُّوَلِ قَبْلَهُمْ وَاسْتَعْمَلُوهُمْ فِي مِهْنِهِمْ وَحَاجَاتِ مَنَازِلِهِمْ وَاخْتَارُوا مِنْهُمْ الْمَهْرَةَ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ وَالْقَوْمَةَ عَلَيْهِمْ أَفَادَوْهُمْ عِلَاجَ ذَلِكَ وَالْقِيَامَ عَلَى عَمَلِهِ وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ مَعَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ اتِّسَاعِ الْعَيْشِ وَالتَّفَنُّنِ فِي أَحْوَالِهِ فَبَلَّغُوا الْغَايَةَ فِي ذَلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطُورِ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ فِي الْأَحْوَالِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَابِخِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَبَانِي وَالْأَسْلِحَةِ وَالْفُرُشِ وَالْأَبْنِيَةِ وَسَائِرِ الْمَاعُونِ وَالْخُرْتِيِّ <sup>(٢)</sup> وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي أَيَّامِ الْمُبَاهَاةِ وَالْوَلَائِمِ وَلِيَالِي الْأَعْرَاسِ فَاتُّوا مِنْ ذَلِكَ وَرَاءَ الْغَايَةِ وَانظُرْ مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ وَالطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُمَا فِي أَعْرَاسِ الْمَأْمُونِ بِبُورَانَ بِنْتِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَمَا بَدَّلَ أَبُوهَا لِحَاشِيَةِ الْمَأْمُونِ حِينَ وَافَاهُ فِي خُطْبَتَيْهَا إِلَى دَارِهِ بِفَمِ الصُّلْحِ وَرَكِبَ إِلَيْهَا فِي السَّفِينِ وَمَا أَنْفَقَ فِي أَمْلاَكِهَا <sup>(٣)</sup> وَمَا نَحَلَهَا الْمَأْمُونُ وَأَنْفَقَ فِي عَرَسِهَا تَقِفُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْعَجَبِ فَمِنْهُ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ نَشَرَ يَوْمَ الْأَمْلاَكِ فِي الصَّنِيعِ الَّذِي حَضَرَهُ حَاشِيَةُ الْمَأْمُونِ فَنَشَرَ عَلَى

(١) الخبز المرقوق .

(٢) اردأ اللتاع .

(٣) املاكها : زواجها .



الطَبَقَةُ الْأُولَى مِنْهُمْ بِنَادِقِ الْمِسْكِ مَلْتَوُثَةٌ عَلَى الرَّقَاعِ بِالضِّيَاعِ وَالْعَقَارِ مُسَوَّغَةٌ لِمَنْ  
 حَصَلَتْ فِي يَدِهِ يَقَعُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا أَدَاهُ إِلَيْهِ الْإِتِّفَاقُ وَالْبَخْتُ وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ  
 الثَّانِيَةِ بَدْرٌ<sup>(١)</sup> الدَّنَانِيرِ فِي كُلِّ بَدْرَةٍ عَشْرَةُ آفٍ وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّلَاثَةِ بَدْرَ  
 الدَّرَاهِمِ كَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أُنْفِقَ عَلَى مَقَامَةِ الْمَأْمُونِ بِدَارِهِ أضعاف ذلك ومنه أن  
 الْمَأْمُونِ أَعْطَاهَا فِي مَهْرِهَا لَيْلَةَ زَفَائِهَا أَلْفَ حَصَاةٍ مِنَ الْيَاقُوتِ وَأَوْقَدَ شَمُوعَ الْعَنْبَرِ فِي  
 كُلِّ وَاحِدَةٍ مِائَةً مِنْ وَهُوَ رِطْلٌ وَثُلْثَانِ<sup>(٢)</sup> وَبَسَطَ لَهَا فُرْشاً كَانَ الْحَصِيرُ مِنْهَا  
 مَنسُوجاً بِالذَّهَبِ مُكَلَّلًا بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ وَقَالَ الْمَأْمُونُ حِينَ رَأَاهُ قَاتِلَ اللَّهِ أَبَا نُوَّاسٍ  
 كَأَنَّهُ أَبْصَرَ هَذَا حَيْثُ يَقُولُ فِي صِفَةِ الْخَمْرِ :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَضْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ  
 وَأَعْدَدَ بِدَارِ الطَّبْخِ مِنَ الْحَطْبِ لِللَّيْلَةِ الْوَلِيمَةَ تَقَلُّ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ بَعْلًا مَدَّةَ عَامٍ  
 كَامِلٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَفَنِي الْحَطْبِ لِلثَّلَاثِينَ وَأَوْقَدُوا الْجَرِيدَ يَصُبُّونَ عَلَيْهِ  
 الزَّيْتِ وَأَوْعَزَ إِلَى النُّوَاتِيَةِ بِإِخْضَارِ السُّفْنِ لِإِجَازَةِ الْخَوَاصِّ مِنَ النَّاسِ بِدَجَلَةَ مِنْ  
 بَعْدَادَ إِلَى قُصُورِ الْمَلِكِ بِمَدِينَةِ الْمَأْمُونِ لِحُضُورِ الْوَلِيمَةِ فَكَانَتِ الْحَرَاقَاتُ<sup>(٣)</sup>  
 الْمَعْدَّةُ لِذَلِكَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا أَجَازُوا النَّاسَ فِيهَا أُخْرِيَاتٍ نَهَارَهُمْ وَكَثِيرٍ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ  
 وَكَذَلِكَ عَرَسَ الْمَأْمُونُ بِنَ ذِي النُّونِ بِطَلَيْطَلَةَ تَقَلُّهُ ابْنُ سَامٍ فِي كِتَابِ الذَّخِيرَةِ  
 وَابْنُ حَيَّانَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا كُلُّهُمْ فِي الطُّورِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبِدَاوَةِ عَاجِزِينَ عَنِ ذَلِكَ جُمْلَةً  
 لِفَقْدَانِ أَسْبَابِهِ وَالْقَائِمِينَ عَلَى صَنَائِعِهِ فِي غَضَاضَتِهِمْ<sup>(٤)</sup> وَسَدَّاجَتِهِمْ يُذَكِّرُ أَنَّ الْحَجَّاجَ  
 أَوْلَمَ فِي اخْتِتَانِ بَعْضِ وُلْدِهِ فَاسْتَحْضَرَ بَعْضَ الدَّهَاتِينِ<sup>(٥)</sup> يَسْأَلُهُ عَنِ وِلْدَانِ الْفَرَسِ  
 وَقَالَ أَخْبَرَنِي بِأَعْظَمِ صَنِيعِ شَهْدَتِهِ فَقَالَ لَهُ نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ شَهِدْتُ بَعْضَ مَرَازِيَةِ  
 كِسْرَى وَقَدْ صَنَعَ لِأَهْلِ فَارِسَ صَنِيعاً أَحْضَرَ فِيهِ صِحَافَ الذَّهَبِ عَلَى أُخُونَةِ الْفِضَّةِ

(١) بدر، ج بدره وهي عشرة آلاف درهم.

(٢) قوله وثلثان الذي كتب في اللغة ان المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة التونسية لثلاثان.

(٣) الحراقات بالفتح جمع حراقة سفينة فيها مرامي نار يرمى بها العدو هـ مختار.

(٤) نضارتهم.

(٥) اسم فارسي يطلق على رئيس القرية وأصحاب العقارات الكبيرة.

أزبعا على كل واحد وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس فإذا  
طعموا أتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصفائها فقال الحجاج : « يا غلام أنحر  
الجزر وأطعم الناس » <sup>(١)</sup> وعلم أنه لا يستعمل بهذه الأبهة وكذلك كانت . ومن هذا  
الباب أعطية بني أمية وجوائزهم فإنما كان أكثرها الإبل أخذاً بمذاهب العرب  
وبداوتهم ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والعبيديين من بعدهم ما علمت  
من أحمال المال وتخوت الثياب وإعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شأن كرامة  
مع الأغالبة بأفريقية وكذا بني طفج بمصر وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف  
بالأندلس والموحدين كذلك وشأن زناتة مع الموحدين وهلم جرا تنتقل الحضارة  
من الدول السالفة إلى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني أمية  
وبني العباس وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس إلى ملوك المغرب من  
الموحدين وزناتة لهذا العهد وانتقلت حضارة بني العباس إلى الديلم ثم إلى الترك  
ثم إلى السلجوقية ثم إلى الترك المماليك بمصر والتتر بالعراقين وعلى قدر عظم  
الدولة يكون شأنها في الحضارة إذ أمور الحضارة من توابيع الترف والترف من توابيع  
الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابيع الملك ومقدار ما يستولي عليه أهل  
الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحاً في  
العمران « والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » .

## الفصل السادس عشر

في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها

والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التنازل والولد  
والعمومية فكثرت العصابة واستكثروا أيضاً من العوالي والصنائع وربيت أجيالهم

(١) إن طبيعة الحجاج البدوية أبت التصنع والتكلف فأمر غلامه بذبح الجزر واطعام الناس .

فِي جَوْ ذَلِكَ النِّعِيمِ وَالرَّفَةِ فَازْدَادُوا بِهِ عَدَدًا إِلَى عَدَدِهِمْ وَقُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِمْ بِسَبَبِ كَثْرَةِ  
 الْعَصَائِبِ حِينَئِذٍ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ فَإِذَا ذَهَبَ الْجَيْلُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي وَأَخَذَتِ الدَّوْلَةُ فِي  
 الْهَرَمِ لَمْ تَسْتَقِلْ أَوْلِيكَ الصَّنَائِعِ وَالْمَوَالِي بِأَنْفُسِهِمْ فِي تَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ مُلْكِيهَا  
 لِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إِنَّمَا كَانُوا عِيَالًا عَلَى أَهْلِهَا وَمَعُونَةً لَهَا فَإِذَا ذَهَبَ  
 الْأَصْلُ لَمْ يَسْتَقِلْ الْفَرْعُ بِالرُّسُوحِ فَيَذْهَبُ وَيَتَلَأَسَى وَلَا تَبْقَى الدَّوْلَةُ عَلَى حَالِهَا مِنْ  
 الْقُوَّةِ . وَاعْتَبِرْ هَذَا بِمَا وَقَعَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ . كَانَ عَدَدُ الْعَرَبِ كَمَا قُلْنَا  
 لِعَهْدِ النَّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا وَمَا يُقَارِبُهَا مِنْ مُضَرٍّ وَقَحْطَانٍ وَلَمَّا بَلَغَ  
 التَّرَفُ مَبَالِغَهُ فِي الدَّوْلَةِ وَتَوَفَّرَ نُمُوهُمْ بِتَوَفُّرِ النِّعْمَةِ وَاسْتِكْثَارِ الْخُلَفَاءِ مِنَ الْمَوَالِي  
 وَالصَّنَائِعِ بَلَغَ ذَلِكَ الْعَدَدَ إِلَى أضعافِهِ يُقَالُ إِنَّ الْمُعْتَصِمَ نَازِلَ عُمُورِيَّةً لَمَّا افْتَتَحَهَا فِي  
 تِسْعِمِائَةِ أَلْفٍ وَلَا يَبْعُدُ مِثْلُ هَذَا الْعَدَدِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا إِذَا اعْتَبِرْتَ حَامِيَتَهُمْ فِي  
 الشُّعُورِ الدَّائِيَّةِ وَالْقَاصِيَةِ شَرْقًا وَغَرْبًا إِلَى الْجُنْدِ الْحَامِلِينَ سَرِيرِ الْمُلْكِ وَالْمَوَالِي  
 وَالْمُضْطَّعِينَ وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ أَحْصَى بَنُو الْعَبَّاسِ ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ  
 الْمَأْمُونِ لِلْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا بَيْنَ ذِكْرَانٍ وَإِنَّا نَظَرْنَا مَبَالِغَ هَذَا الْعَدَدِ  
 لِأَقَلِّ مِنْ مِائَتِي سَنَةٍ وَاعْلَمْ أَنَّ سَبَبَةَ الرَّفَةِ وَالنِّعِيمِ الَّذِي حَصَلَ لِلدَّوْلَةِ وَرَبِي فِيهِ  
 أَجْيَالُهُمْ وَإِلَّا فَعَدَدُ الْعَرَبِ لِأَوَّلِ الْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هَذَا وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ  
 الْعَلِيمُ .

## الفصل السابع عشر

فِي أَطْوَارِ الدَّوْلَةِ وَاخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا وَخَلْقِ أَهْلِهَا بِاخْتِلَافِ الْأَطْوَارِ  
 اعْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَتَنَقَّلُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالَاتٍ مُتَّجِدَةٍ وَيَكْتَسِبُ الْقَائِمُونَ  
 بِهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ خُلُقًا مِنْ أَحْوَالِ ذَلِكَ الطَّوْرِ لَا يَكُونُ مِثْلَهُ فِي الطَّوْرِ الْآخِرِ لِأَنَّ  
 الْخُلُقَ تَابِعَ بِالطَّبِيعِ لِمِزَاجِ الْحَالِ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَحَالَاتِ الدَّوْلَةِ وَأَطْوَارِهَا لَا تَعْدُو فِي  
 الْغَالِبِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ . الطَّوْرُ الْأَوَّلُ طَوْرُ الظُّفْرِ بِالْبُعْيَةِ وَغَلْبِ الْمُدَافِعِ وَالْمَمَانِعِ

وَالِاسْتِيْلَاءَ عَلَى الْمَلِكِ وَانْتِزَاعِهِ مِنْ أَيْدِي الدُّوْلَةِ فِي هَذَا الطُّورِ أَسْوَأَ قَوْمِهِ فِي الْكَيْسَابِ  
 الْمَجْدِ وَجَبَايَةِ الْمَالِ وَالْمُدَافَعَةَ عَنِ الْحُوْزَةِ وَالْحِمَايَةَ لَا يَنْفَرُدُ دُونَهُمْ بِشَيْءٍ، لِأَنَّ  
 ذَلِكَ هُوَ مُقْتَضَى الْعَصِيَّةِ الَّتِي وَقَعَ بِهَا الْعَلْبُ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَعْدَ بِحَالِهَا . الطُّورُ  
 الثَّانِي طُوْرُ الْاِسْتِبْدَادِ عَلَى قَوْمِهِ وَالْاِنْفِرَادِ، دُونَهُمْ بِالْمَلِكِ وَكَبْحِهِمْ عَنِ التَّطَاوُلِ  
 لِلْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدُّوْلَةِ فِي هَذَا الطُّورِ مَعْنِيًا بِاصْطِنَاعِ الرِّجَالِ  
 وَاتِّخَاذِ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ لِجَدْعِ أَتُوفِ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ  
 الْمَقَاسِمِينَ لَهُ فِي نِسْبَةِ الضَّارِبِينَ فِي الْمَلِكِ بِمِثْلِ سَهْمِهِ فَهُوَ يُدَافِعُهُمْ عَنِ الْأَمْرِ  
 وَيَصُدُّهُمْ عَنِ مَوَارِدِهِ وَيَرُدُّهُمْ عَلَى أَغْقَابِهِمْ ، أَنْ يُخْلِصُوا إِلَيْهِ حَتَّى يَقْرَأَ الْأَمْرَ فِي  
 نِصَابِهِ وَيُفَرِّدَ أَهْلَ بَيْتِهِ بِمَا يَبْنِي مِنْ مَجْدِهِ فَيُعَانِي مِنْ مُدَافِعَتِهِمْ وَمُعَالِيَتِهِمْ مِثْلَ  
 مَا عَانَاهُ الْأَوَّلُونَ فِي طَلَبِ الْأَمْرِ أَوْ أَشَدُّ لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ دَافَعُوا الْأَجَانِبَ فَكَانَ ظَهْرًا وَهُمْ  
 عَلَى مُدَافِعَتِهِمْ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ بِأَجْمَعِهِمْ وَهَذَا يُدَافِعُ الْأَقَارِبَ لَا يُظَاهِرُهُ عَلَى  
 مُدَافِعَتِهِمْ إِلَّا الْأَقْلُ مِنَ الْأَبَاعِدِ فَيَرْكَبُ صَعْبًا مِنَ الْأَمْرِ . الطُّورُ الثَّلَاثُ طُوْرُ  
 الْفِرَاقِ وَالذُّعَى لِتَحْضِيلِ ثَمَرَاتِ الْمَلِكِ مِمَّا تَنْزِعُ طِبَاعَ الْبَشَرِ إِلَيْهِ مِنْ تَحْضِيلِ الْمَالِ  
 وَتَخْلِيدِ الْأَثَارِ وَبُعْدِ الصِّيْتِ فَيَسْتَفْرَعُ وَسَعَهُ فِي الْجَبَايَةِ وَضَبْطِ الدُّخْلِ وَالخَرْجِ  
 وَإِحْصَاءِ النِّفَقَاتِ وَالْقَصْدِ فِيهَا وَتَشْيِيدِ الْمَبَانِي الْحَافِلَةِ وَالْمَصْنَعِ الْعَظِيمَةِ وَالْأَمْصَارِ  
 الْمُسْتَسْعَةِ وَالنَّهْيَاكِلِ الْمُرْتَفِعَةِ وَإِجَازَةِ الْوُقُودِ مِنْ أَشْرَافِ الْأُمَمِ وَوُجُوهِ الْقَبَائِلِ وَبَثِّ  
 الْمَعْرُوفِ فِي أَهْلِهِ هَذَا مَعَ التَّوَسُّعِ عَلَى صَنَائِعِهِ وَحَاشِيَتِهِ فِي أَحْوَالِهِمْ بِالْمَالِ وَالنَّجَاهِ  
 وَاعْتِرَاضِ <sup>(١)</sup> جُنُودِهِ وَإِذْرَارِ أَرْزَاقِهِمْ وَإِنْصَافِهِمْ فِي أُعْطِيَاتِهِمْ لِكُلِّ هَلَالٍ حَتَّى يَظْهَرَ  
 أَثَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَشِكْمَتِهِمْ <sup>(٢)</sup> وَشَارَاتِهِمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ فَيُبَاهِي بِهِمُ الدُّوْلَ  
 الْمُسَالِمَةَ وَيَزْهَبُ الدُّوْلَ الْمُحَارِبَةَ وَهَذَا الطُّورُ آخِرُ أَطْوَارِ الْاِسْتِبْدَادِ مِنْ أَصْحَابِ  
 الدُّوْلَةِ لِأَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ كَلَّمَا مُسْتَقِلُّونَ بِأَرَائِهِمْ بَانُونَ لِعِزِّهِمْ مُوضِحُونَ الطَّرِيقَ  
 لِمَنْ بَعْدَهُمْ . الطُّورُ الرَّابِعُ طُوْرُ الْقُنُوعِ وَالْمُسَالَمَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدُّوْلَةِ فِي هَذَا

(١) بمعنى استعراض جنده .

(٢) سلاحهم .

قَانِمًا بِمَا بَنَى أَوْلُوهُ سِلْمًا لِأَنْظَارِهِ مِنَ الْمُلُوكِ وَأَقْتَالِهِ مُقْلِدًا لِلْمَاضِينَ مِنْ سَلْفِهِ  
فَيْتَّبِعُ آثَارَهُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَيَقْتَنِي طَرَقَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَاهِجِ الْإِقْتِدَاءِ وَيَرَى أَنْ  
فِي الْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فَسَادَ أَمْرُهُ وَأَنْتَهُمْ أَبْصَرُ بِمَا بَنَوْا مِنْ مَجْدِهِ . الطُّورُ  
الْخَامِسُ طُورُ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطُّورِ مُتْلِفًا لِمَا  
جَمَعَ أَوْلُوهُ فِي سَبِيلِ الشُّهُوتِ وَالْمَلَادِ وَالْكَرَمِ عَلَى بَطَانَتِهِ وَفِي مَجَالِسِهِ وَاضْطِنَاعِ  
أَخْدَانِ السُّوءِ وَخَضْرَاءِ الدَّمَنِ <sup>(١)</sup> وَتَقْلِيدِهِمْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَسْتَقِيلُونَ  
بِحَمْلِهَا وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ مِنْهَا مُسْتَفْسِدًا لِكِبَارِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ قَوْمِهِ  
وَصَنَائِعِ سَلْفِهِ حَتَّى يَضْطَغِنُوا عَلَيْهِ وَيَتَّخِذُوا عَنْ نُصْرَتِهِ مُضْيعًا مِنْ جُنْدِهِ بِمَا أَنْفَقَ  
مِنْ أُعْطِيَاتِهِمْ فِي شَهَوَاتِهِ وَحَجَبَ عَنْهُمْ وَجْهَ مِبَاشَرَتِهِ وَتَفَقَّدهِ فَيَكُونُ مُخْرَبًا لِمَا كَانَ  
سَلْفُهُ يُؤَسِّسُونَ وَهَادِمًا لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ وَفِي هَذَا الطُّورِ تَحْصُلُ فِي الدَّوْلَةِ طَبِيعَةُ  
الْهَرَمِ وَيَسْتَوْلِي عَلَيْهَا الْمَرَضُ الْمَزْمِنُ الَّذِي لَا تَكَادُ تَخْلُصُ مِنْهُ وَلَا يَكُونُ لَهَا مَعَهُ  
بُرَّةٌ إِلَى أَنْ تَنْقَرُضَ كَمَا نَبَّيْنُهُ فِي الْأَحْوَالِ الَّتِي نَسَرَّدُهَا وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

## الفصل الثامن عشر

في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَثَارَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عَنِ الْقُوَّةِ الَّتِي بِهَا كَانَتْ أَوْلًا وَعَلَى  
قَدْرِهَا يَكُونُ الْأَثَرُ فَمِنْ ذَلِكَ مَبَانِي الدَّوْلَةِ وَهِيَ كُلُّهَا الْعَظِيمَةُ فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ  
قُوَّةِ الدَّوْلَةِ فِي أَصْلِهَا لِأَنَّهَا لَا تَتِمُّ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْفَعْلَةِ وَاجْتِمَاعِ الْأَيْدِي عَلَى الْعَمَلِ  
بِالتَّعَاوُنِ فِيهِ فَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ عَظِيمَةً فَسِيحَةُ الْجَوَانِبِ كَثِيرَةٌ الْمَمَالِكِ وَالرَّعَايَا  
كَانَ الْفَعْلَةُ كَثِيرِينَ جِدًّا وَحَشَرُوا مِنْ آفَاقِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا فَتَمَّ الْعَمَلُ عَلَى أَعْظَمِ  
هَيَاكِلِهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَصَانِعِ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ عَنْهُمَا .

(١) ( بمعنى الجميل في مظهره . الوضع في مخبره وفي الحديث : « وياكم خضراء الدمن » قالوا ، وما  
خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال ، « المرأة الحسناء في المنبت السوء » ) .

وَانظُرْ بِالمُشَاهَدَةِ إِيوانَ كِسْرَى وَمَا اقْتَدَرَ فِيهِ الفَرَسُ حَتَّى إِنَّهُ عَزَمَ الرُّشِيدُ  
 عَلَى هَدْمِهِ وَتَخْرِيْبِهِ فَتَكَادَ<sup>(١)</sup> عَنْهُ وَشَرَعَ فِيهِ ثُمَّ أَذْرَكَهُ العَجْزُ وَقِصَّةُ اسْتِشَارَتِهِ  
 لِيَحْيَى بنِ خَالِدٍ فِي شَأْنِهِ مَعْرُوفَةٌ فَاَنْظُرْ كَيْفَ تَقْتَدِرُ دَوْلَةٌ عَلَى بِنَاءٍ لَا تَسْتَطِيعُ  
 أُخْرَى عَلَى هَدْمِهِ مَعَ بَوْنٍ مَا بَيْنَ الهَدْمِ وَالبِنَاءِ فِي السُّهُولَةِ . تَعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ بَوْنَ  
 مَا بَيْنَ الدُّوَلَتَيْنِ وَانظُرْ إِلَى بِلَاطِ الوَلِيدِ بِدِمَشْقَ وَجامِعِ بَنِي أُمَيَّةَ بِقُرْطَبَةَ  
 وَالقَنْطَرَةَ الَّتِي عَلَى وادِيهَا وَكَذَلِكَ بِنَاءُ الحَنَائِمِ لِجَلْبِ المَاءِ إِلَى قَرْطَابَجَنَةَ فِي القَنَاةِ  
 الرَّاكِيَةِ عَلَيْهَا وَآثارُ شَرْشَالِ بِالمَغْرِبِ وَالأَهْرَامِ بِمِصْرَ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الأَثَارِ المِثَالَةِ  
 لِلْعِيَانِ يُعْلَمُ مِنْهُ اخْتِلافُ الدُّوَلِ فِي القُوَّةِ وَالصُّغْفِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ الأَفْعَالَ لِالأَقْدَمِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِالبَهْدَامِ<sup>(٢)</sup> وَاجْتِمَاعِ الفِعْلَةِ  
 وَكثْرَةِ الأَيْدِي عَلَيْهَا فَبِذَلِكَ شِيدَتْ تِلْكَ النِّهَاكِلُ وَالمِصانِعُ وَلَا تَتَوَهَّمُ مَا تَتَوَهَّمُهُ  
 العَامَّةُ أَنَّ ذَلِكَ لِعَظَمِ أجْسامِ الأَقْدَمِينَ عَنِ أجْسامِنَا فِي أطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا فَلَيْسَ بَيْنَ  
 البَشَرِ فِي ذَلِكَ كَبِيرُ بَوْنٍ كَمَا نَحْدُ بَيْنَ النِّهَاكِلِ وَالأَثَارِ وَلَقَدْ وَلِعَ القُصَّاصُ بِذَلِكَ  
 وَتَعَالَوْا فِيهِ وَسَطَرُوا عَنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَالعَمَالِقَةَ فِي ذَلِكَ أَخْبَاراً عَرِيقَةً فِي الكَذِبِ مِنْ  
 أُغْرِبِهَا مَا يَحْكُونُ عَنْ عَوْجِ بنِ عِنَاقِ<sup>(٣)</sup> رَجُلٍ مِنَ العَمَالِقَةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ بَنُو  
 إِسْرَائِيلَ فِي الشَّامِ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لِطَوِيلِهِ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ مِنَ البَحْرِ وَيَشُوِيهِ إِلَى  
 الشَّمْسِ وَيَزِيدُونُ إِلَى جَهْلِهِمْ بِأَحْوالِ البَشَرِ الجَهْلِ بِأَحْوالِ الكَوَاكِبِ لِمَا اعْتَقَدُوا  
 أَنَّ لِلشَّمْسِ حَرَارَةً وَأَنَّهَا شَدِيدَةٌ فِيمَا قَرَبَ مِنْهَا وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الحَرَّ هُوَ الضُّوءُ وَأَنَّ  
 الضُّوءَ فِيمَا قَرَبَ مِنَ الأَرْضِ أَكْثَرُ لِانْعِكَاسِ الأَشِعَّةِ مِنْ سَطْحِ الأَرْضِ بِمُقَابِلَةِ  
 الأَضْواءِ فَتَتَضَاعَفُ الحَرَارَةُ هُنَا لِأَجْلِ ذَلِكَ وَإِذَا تَجَاوَزَتْ مَطَارِحَ الأَشِعَّةِ المُنْعَكِسَةِ

(١) تكاد ، تكلفه وكابده . والأصح أن يقول تكاءده .

(٢) البهندام ، التنظيم والإصلاح .

(٣) قوله ابن عناق الذي في القاموس في باب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على ألسنة الناس عنق

بالتون قاله نصر البهري ( وهو رجل ولد في منزل آدم . فعاش إلى زمن موسى . وذكر من عظم خلقه مالا يصدقه

العقل )

فَلَا حَرَّ هُنَاكَ بَلْ يَكُونُ فِيهِ الْبَرْدُ حَيْثُ مَجَارِي السَّحَابِ وَأَنْ الشَّمْسُ فِي نَفْسِهَا  
لَا حَارَةٌ وَلَا بَارِدَةٌ وَإِنَّمَا هِيَ جِسْمٌ بَسِيطٌ مُضِيءٌ لَا مِزَاجَ لَهُ <sup>(١)</sup> .

وَكَذَلِكَ عُوجُ بَنِي عِنَاقٍ هُوَ فِيمَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْعَمَالِقَةِ أَوْ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ  
كَانُوا فَرِيسَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ فَتْحِهِمُ الشَّامَ وَأَطْوَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَجِسْمَانَهُمْ  
لِلذِّكَ الْعَمِيدِ قَرِيبَةٌ مِنْ هَيْكَلِنَا يَشْهَدُ لِذَلِكَ أَبْوَابُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَإِنَّهَا وَإِنْ خُرَبَتْ  
وَجُدِدَتْ لَمْ تَزَلْ الْمُحَافِظَةُ عَلَى أَشْكَالِهَا وَمَقَادِيرِ أَبْوَابِهَا وَكَيْفَ يَكُونُ التَّفَاوُتُ  
بَيْنَ عُوجٍ وَبَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ بِهَذَا الْمِقْدَارِ وَإِنَّمَا مَثَارُ غَلْطِهِمْ فِي هَذَا أَنَّهُمْ اسْتَعْظَمُوا  
آثَارَ الْأَمَمِ وَلَمْ يَفْهَمُوا حَالَ الدُّوَلِ فِي الْإِجْتِمَاعِ وَالتَّعَاوُنِ وَمَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ  
وَبِالْهِنْدَامِ مِنَ الْآثَارِ الْعَظِيمَةِ فَصَرَفُوهُ إِلَى قُوَّةِ الْأَجْسَامِ وَشَدِّتْهَا بِعَظَمِ هَيْكَلِهَا  
وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . وَقَدْ زَعَمَ الْمَسْعُودِيُّ وَتَقَلَّهَ عَنِ الْفَلَاسِفَةِ مَزْعَمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُ إِلَّا  
التَّحَكُّمُ وَهُوَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ الَّتِي هِيَ جَبَلَةٌ لِلْأَجْسَامِ لَمَّا بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَانَتْ فِي تَمَامِ  
الْكُرَّةِ <sup>(٢)</sup> وَنَهَايَةَ الْقُوَّةِ وَالْكَمَالِ وَكَانَتْ الْأَعْمَارُ أَطْوَلَ وَالْأَجْسَامُ أَقْوَى لِكَمَالِ تِلْكَ  
الطَّبِيعَةِ فَإِنَّ طُرُوءَ الْمَوْتِ إِنَّمَا هُوَ بِانْحِلَالِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ فَإِذَا كَانَتْ قُوَّةُ

كَانَتْ الْأَعْمَارُ أَزِيدَ فَكَانَ الْعَالَمُ فِي أَوَّلِيَّةِ نَشَأَتِهِ تَامَ الْأَعْمَارُ كَامِلَ الْأَجْسَامِ ثُمَّ لَمْ  
يَزَلْ يَتَنَاقَصُ لِنَقْصَانِ الْمَادَّةِ إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا ثُمَّ لَا يَزَالُ  
يَتَنَاقَصُ إِلَى وَقْتِ الْإِنْحِلَالِ وَانْتِقَاضِ الْعَالَمِ وَهَذَا رَأْيِي لَا وَجْهَ لَهُ إِلَّا التَّحَكُّمُ كَمَا  
تَرَاهُ وَلَيْسَ لَهُ عَلَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ وَلَا سَبَبٌ بُرْهَانِيٌّ وَنَحْنُ نَشَاهِدُ مَسَاكِينَ الْأَوَّلِينَ  
وَأَبْوَابَهُمْ وَطُرُقَهُمْ فِيمَا أَحَدُوهُ مِنَ الْبُنْيَانِ وَالْهَيْكَلِ وَالذِّيَارِ وَالْمَسَاكِينِ كِدْيَارِ  
ثَمُودَ الْمَنْحُوتَةِ فِي الصُّلَيْدِ مِنَ الصُّخْرِ بِيُوتَا صِغَارًا وَأَبْوَابِهَا ضَيْقَةً وَقَدْ  
أَشَارَ ﷺ إِلَى أَنَّهَا دِيَارُهُمْ وَنَهَى عَنِ اسْتِعْمَالِ مِيَاهِهِمْ وَطَرَحَ مَا عَجَنَ بِهِ وَأَهْرَقَ

(١) ثبت للعلم الحديث أن الشمس جسم ملتهب . وأنها محتفظة بالتهابها وحرارتها .

(٢) في بعض النسخ المرة : بمعنى القوة وقال تعالى في آيتي ٥ و ٦ من سورة النجم : « علمه شديد القوى

ذو مرة فاستوى »

وَقَالَ « لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » .

وَكَذَلِكَ أَرْضُ عَاذٍ وَمِصْرَ وَالشَّامَ وَسَائِرَ بَقَاعِ الْأَرْضِ شَرْقاً وَغَرْباً وَالْحَقُّ مَا قَرَّرْنَاهُ وَمِنْ آثَارِ الدُّوَلِ أَيْضاً حَالُهَا فِي الْأَعْرَاسِ وَالْوَلَايَمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي وِلِيْمَةِ بُورَانَ وَصَنِيعِ الْحَجَّاجِ وَابْنِ ذِي النُّونِ وَقَدْ مَرَّ ذَلِكَ كُلُّهُ .

وَمِنْ آثَارِهَا أَيْضاً عَطَايَا الدُّوَلِ وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نَسَبِهَا وَيُظْهِرُ ذَلِكَ فِيهَا وَلَوْ أَشْرَفَتْ عَلَى الْهَرَمِ فَإِنَّ الْهَمَمَ الَّتِي لِأَهْلِ الدُّوَلَةِ تَكُونُ عَلَى نَسَبِ قُوَّةِ مُلْكِهِمْ وَعَلَيْهِمْ لِلنَّاسِ وَالْهَمَمُ لَا تَزَالُ مُصَاحِبَةً لَهُمْ إِلَى انْقِرَاصِ الدُّوَلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِجَوَائِزِ ابْنِ ذِي يَزْنَ لَوْفِدِ قُرَيْشٍ كَيْفَ أَعْطَاهُمْ مِنْ أَرْطَالِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَعْبُدِ وَالْوَصَائِفِ عَشْرًا عَشْرًا وَمِنْ كَرَشٍ <sup>(١)</sup> الْعَنْبَرِ وَاحِدَةً وَأَضْعَفَ ذَلِكَ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهِ لِعَبْدِ الْمُطَلِّبِ وَإِنَّمَا مُلْكُهُ يَوْمَئِذٍ قَرَارَةٌ الْيَمَنِ خَاصَّةً تَحْتَ اسْتِبْدَادِ فَارِسَ وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ هِمَّةٌ نَفْسِهِ بِمَا كَانَ لِقَوْمِهِ التَّبَاعَةَ مِنَ الْمَلِكِ فِي الْأَرْضِ وَالغَلْبَ عَلَى الْأَمَمِ فِي الْعِرَاقَيْنِ وَالْهِنْدِ وَالْمَغْرِبِ وَكَانَ الصَّنَهَاجِيُّونَ بِأَفْرِيْقِيَّةٍ أَيْضاً إِذَا أَجَازُوا الْوَفْدَ مِنْ أَمْرَاءِ زَنَاتَةَ الْوَأَفِدِينَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّمَا يُعْطَوْنَهُمُ الْمَالَ أَحْمَالاً وَالْكِسَاءَ تُخَوِّتُهَا مَمْلُوءَةً وَالْحَمَلَانَ <sup>(٢)</sup> جَنَائِبَ عَدِيدَةً .

وَفِي تَارِيخِ ابْنِ الرَّقِيقِيِّ مِنْ ذَلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ وَكَذَلِكَ كَانَ عَطَاءُ الْبَرَامِكَةِ وَجَوَائِزُهُمْ وَنَفَقَاتُهُمْ وَكَانُوا إِذَا كَسَبُوا مُعْذِمًا فَإِنَّمَا هُوَ الْوَلَايَةُ وَالنَّعْمَةُ آخِرَ الدَّهْرِ لَا الْعَطَاءُ الَّذِي يَسْتَنْفِذُهُ يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مَسْطُورَةٌ وَهِيَ كُلُّهَا عَلَى نَسَبِ الدُّوَلِ جَارِيَةٌ هَذَا جَوْهَرُ الصَّقْلِيِّ الْكَاتِبِ قَائِدِ جَيْشِ الْعُبَيْدِيِّينَ لَمَّا ارْتَحَلَ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ اسْتَعْمَدَ مِنَ الْقَيْرَوَانِ بِالْفِ جِمْلٍ مِنَ الْمَالِ وَلَا تَنْتَهِي الْيَوْمَ دَوْلَةٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا . وَكَذَلِكَ وَجَدَ بِحَطِّ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ عَمَلٌ بِمَا يَخْمَلُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ بِبَغْدَادَ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي نَقَلْتُهُ مِنْ جَرَابِ

(١) كَرَشٌ ، وَعَاءُ الطَّيِّبِ ( قَامُوسٌ ) .

(٢) الْحَمَلَانَ ، مَا يَحْمَلُ عَلَيْهِ مِنَ الدَّوَابِّ فِي الْبَهَةِ خَاصَّةً ( قَامُوسٌ ) .



الدَّوْلَةَ ( غلات السواد )<sup>(١)</sup> سَعَّ وَعَشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ الْجَلَلِ<sup>(٢)</sup> النَّجْرَانِيَّةِ مِائَتًا حَلِيَّةً وَمِنَ طِينِ الْخَنْمِ مِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ رَطْلًا ( كَنَكَر )<sup>(٣)</sup> أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسِتِّمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ( كورد جلة )  
عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَثَمَانِيَّةَ دَرَاهِمٍ . ( حلوان )<sup>(٤)</sup> أَرْبَعَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ( الأهواز ) خَمْسَةَ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّةً وَمِنَ السُّكَّرِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَطْلٍ ( فارس ) سَبْعَةَ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ مَاءِ الْوَرْدِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ قَارُورَةَ وَمِنَ الزَّيْتِ الْأَسْوَدِ عِشْرُونَ أَلْفَ رَطْلٍ ( كرمان ) أَرْبَعَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِائَتًا أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ الْمَتَاعِ الْيَمَانِيِّ خَمْسِمِائَةَ ثُوبٍ وَمِنَ التَّمْرِ عِشْرُونَ أَلْفَ رَطْلٍ ( مكران ) أَرْبَعِمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّةً ( السند وما يليه ) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسِمِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ الْعُودِ الْهِنْدِيِّ مِائَةَ وَخَمْسُونَ رَطْلًا ( سجستان ) أَرْبَعَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ الشِّيَابِ الْمَعْيِنَةِ ثَلَاثِمِائَةَ ثُوبٍ وَمِنَ الْفَانِيدِ<sup>(٥)</sup> عِشْرُونَ رَطْلًا ( خراسان ) ثَمَانِيَّةً وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ نَقْرِ<sup>(٦)</sup> الْفِضَّةِ أَلْفًا نَقْرَةً وَمِنَ الْبَرَادِيزِ أَرْبَعَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ الرَّيْقِيِّ أَلْفَ رَأْسٍ وَمِنَ الْمَتَاعِ عِشْرُونَ أَلْفَ ثُوبٍ وَمِنَ الْإِهْلِيلِجِ<sup>(٧)</sup> ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَطْلٍ ( جرجان ) اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ الْإِنْبَرِيسِ أَلْفَ شُقَّةٍ . ( قومس ) أَلْفُ أَلْفِ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسِمِائَةَ مِنْ نَقْرِ الْفِضَّةِ ( طبرستان والروبان ونهاوند ) سِتَّةَ أَلْفِ أَلْفِ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثِمِائَةَ أَلْفِ وَمِنَ الْفَرَشِ الطَّبْرِيِّ سِتِّمِائَةَ قِطْعَةً وَمِنَ الْأَكْسِيَّةِ مِائَتَانِ وَمِنَ الشِّيَابِ خَمْسِمِائَةَ ثُوبٍ وَمِنَ الْمَنَادِيلِ ثَلَاثِمِائَةَ وَمِنَ الْجَامَاتِ ثَلَاثِمِائَةَ ( الري ) اثْنَا عَشَرَ

(١) السواد : كان العرب يطلقونها على الأراضي الزراعية ( سواد العراق سواد فارس الخ . )

(٢) الحلل : ج حلة ، ثوبان من جنس واحد .

(٣) كَنَكَور في معجم البلدان هكذا ذكرها ياقوت الحموي .

(٤) حلوان ، مقاطعة في العراق وهي غير حلوان مصر وهي في شرقي العراق .

(٥) نوع من الحلوى .

(٦) القِطْعَةُ المذابة من الفضة أو الذهب .

(٧) ثمر معروف ج اهليلجة .

ألف ألف درهم مرتين ومن العسل عشرون ألف رطل ( همدان ) أحد عشر ألف  
ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف ومن رب الرمان ألف رطل ومن العسل اثنا عشر  
ألف رطل ( ما بين البصرة والكوفة ) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف  
درهم ( ماسذان والدينار <sup>(١)</sup> ) أربعة آلاف ألف درهم مرتين ( شهر زور ) ستة  
آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم ( الموصل وما يليها ) أربعة وعشرون  
ألف ألف درهم مرتين ومن العسل الأبيض عشرون ألف رطل ( ادريجان )  
أربعة آلاف ألف درهم مرتين ( الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات ) أربعة  
وثلاثون ألف ألف درهم مرتين ومن الرقيق ألف راس ومن العسل اثنا عشر ألف رطل  
ومن البزاة <sup>(٢)</sup> عشرة ومن الأكسية عشرون ( ارمينية ) ثلاثة عشر ألف ألف درهم  
مرتين ومن البسط <sup>(٣)</sup> المخفور عشرون ومن الزمق خمسمائة وثلاثون رطلاً ومن  
المسايح السور ما هي عشرة آلاف رطل ومن الصونج عشرة آلاف رطل ومن  
البغال مائتان ومن الصهرة ثلاثون ( قنسرين ) أربعمائة ألف دينار ومن الزيت  
ألف حمل ( دمشق ) أربعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار ( الأردن ) سبعة  
وتسعون ألف دينار ( فلسطين ) ثلاثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن  
الزيت ثلاثمائة ألف رطل ( مصر ) ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون  
ألف دينار . ( برقة ) ألف ألف درهم مرتين . ( افريقية ) ثلاثة عشر ألف ألف  
درهم مرتين ومن البسط مائة وعشرون . ( اليمن ) ثلاثمائة ألف دينار وسبعون  
ألف دينار سوى المتاع . ( الحجاز ) ثلاثمائة ألف دينار انتهى .

وأما الأندلس فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف  
في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها  
بالقناطير خمسمائة ألف قنطار .

(١) قوله والدينار والظاهر أنها الدينور وفي الترجمة التركية ماسندان وربان اه

(٢) قوله ومن البزاة في التركية ومن السكر عشرة صناديق اه

(٣) وفي نسخة القسط وهو عود يتداوى به

وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ تَوَارِيخِ الرَّشِيدِ أَنَّ الْمَحْمُولَ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ فِي أَيَّامِهِ سَبْعَةٌ  
 آلافٍ قِنْطَارٍ وَخَمْسُمِائَةٍ قِنْطَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي نِسْبِ الدُّوَلِ بَعْضُهَا مِنْ  
 بَعْضٍ وَلَا تُتَكَبَّرَنَّ مَا لَيْسَ بِمَعْبُودٍ عِنْدَكَ وَلَا فِي عَضْرِكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْثَالِهِ فَتَضَيِّقَ  
 حَوْصَلَتُكَ عِنْدَ مُلْتَقَطِ الْمُمْكِنَاتِ فَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاصِ إِذَا سَمِعُوا أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ  
 عَنِ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ بَادَرَ بِالْإِنْكَارِ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الصَّوَابِ فَإِنَّ أَحْوَالَ الْوُجُودِ  
 وَالْعُمُرَانَ مُتَفَاوِتَةٌ وَمَنْ أَدْرَكَ مِنْهَا رَتْبَةً سَفْلَى أَوْ وَسْطَى فَلَا يَخْصُرُ الْمَدَارِكَ كُلَّهَا  
 فِيهَا وَنَحْنُ إِذَا اعْتَبَرْنَا مَا يُنْقَلُ لَنَا عَنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَبَنِي أُمَيَّةَ وَالْعَبِيدِيَّيْنَ  
 وَنَاسَبْنَا الصَّحِيحَ مِنْ ذَلِكَ وَالَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ بِالَّذِي نَشَاهَدُهُ مِنْ هَذِهِ الدُّوَلِ الَّتِي  
 هِيَ أَقْلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا وَجَدْنَا بَيْنَهَا بَوْنًا وَهُوَ لَمَّا بَيْنَهَا مِنَ التَّفَاوُتِ فِي أَصْلِ قُوَّتِهَا  
 وَعُمُرَانِ مَمَالِكِهَا فَالْآثَارُ كُلُّهَا جَارِيَةٌ عَلَى نِسْبَةِ الْأَصْلِ فِي الْقُوَّةِ كَمَا قَدَّمْنَا وَلَا  
 يَسَعُنَا إِنْكَارُ ذَلِكَ عَنْهَا إِذْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي غَايَةِ الشُّهْرَةِ وَالْوُضُوحِ بَلْ فِيهَا  
 مَا يُلْحَقُ بِالْمُسْتَفِيضِ وَالْمُتَوَاتِرِ وَفِيهَا الْمَعَايِنُ وَالْمُشَاهِدُ مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ وَعَيْرِهِ فَخُذْ  
 مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُنْقُولَةِ مَرَاتِبَ الدُّوَلِ فِي قُوَّتِهَا أَوْ ضَعْفِهَا وَضَخَامَتِهَا أَوْ صِغَرِهَا وَاعْتَبِرْ  
 ذَلِكَ بِمَا نَقَّضَهُ عَلَيْكَ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ الْمُسْتَظْرَفَةِ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ وَرَدَ بِالْمَغْرِبِ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانَ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرْزِينَ رَجُلٌ  
 مِنْ مَشِيخَةِ طَنْجَةَ يُعْرَفُ بِابْنِ بَطُوطَةَ <sup>(١)</sup> كَانَ رَحَلَ مِنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً قَبْلَهَا إِلَى  
 الْمَشْرِقِ وَتَقَلَّبَ فِي بِلَادِ الْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ وَالْهِنْدِ وَدَخَلَ مَدِينَةَ دِهْلِي <sup>(٢)</sup> حَاضِرَةَ مَلِكِ  
 الْهِنْدِ وَهُوَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ شَاهٍ وَأَتَّصَلَ بِمَلِكِهَا لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَهُوَ فَيْرُوزْجُوهَ وَكَانَ لَهُ  
 مِنْهُ مَكَانٌ وَاسْتَعْمَلَهُ فِي خِطْبَةِ الْقَضَاءِ بِمَذْهَبِ الْمَالِكِيَّةِ فِي عَمَلِهِ ثُمَّ انْقَلَبَ إِلَى  
 الْمَغْرِبِ وَأَتَّصَلَ بِالسُّلْطَانِ أَبِي عِنَانَ وَكَانَ يُحَدِّثُ عَنْ شَأْنِ رَحْلَتِهِ وَمَا رَأَى مِنْ  
 الْعَجَائِبِ بِمَمَالِكِ الْأَرْضِ وَأَكْثَرَ مَا كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ دَوْلَةِ صَاحِبِ الْهِنْدِ وَيَأْتِي مِنْ

(١) كان ابتداء رحلة ابن بطوطه سنة ٧٢٥ وانهائها سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرها ٧ كراريس ١ هـ .

(٢) كذا في جميع النسخ وتعرف اليوم باسم دلهي .

أحواله بما يستغربه السامعون مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أخصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به وينصب أمامه في ذلك الحقل منجنيقات على الظهر ترمى بها شكاير<sup>(١)</sup> الدرهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه وأمثال هذه الحكايات فتناحى الناس بتكذيبه ولقيت أياض وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته في هذا الشأن وأرئته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه .

فقال لي الوزير فارس إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشيء في السجن وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانة ومكث في السجن سنين ربي فيها ابنة في ذلك المجلس فلما أدرک وعقل سأل عن اللحمان التي كان يتغذى بها فقال له أبوه هذا لحم الغنم فقال وما الغنم فيصيفها له أبوه بشيائها ونعوتها فيقول يا أبت تراها مثل الفأر فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفأر وكذا في لحم الإبل والبقر إذ لم يعاين في مخبئه من الحيوانات إلا الفأر فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر ولهذا كثيراً ما يغتري الناس في الأخبار كما يغتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الإغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الإنسان إلى أصوله وليكن مهيمناً على نفسه ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الإمكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق فإن نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حداً بين الواقعات وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء فإننا إذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وصفته ومقدار عظمه وقوته أجرنا الجكم من نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه « وقل رب زدني علماً وأنت أرحم الراحمين » والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) شكاير من شكر : بمعنى الصروع .

## الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبته بالموالي  
والمصطنعين

إِعْلَمَنَّ أَنَّ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ أَمْرُهُ كَمَا قُلْنَا بِقَوْمِهِ فَهُمْ عَصَابَتُهُ وَظَهْرَاؤُهُ  
عَلَى شَأْنِهِ وَبِهِمْ يُقَارَعُ الْخَوَارِجُ عَلَى دَوْلَتِهِ وَمِنْهُمْ يُقْلَدُ أَعْمَالُ مَمْلَكَتِهِ وَوِزَارَةُ دَوْلَتِهِ  
وَجَبَايَةُ أُمُورِهِ لِأَنَّهُمْ أَعْوَانُهُ عَلَى الْغَلْبِ وَشُرَكَاءُ فِي الْأَمْرِ وَمَسَاهِمُوهُ فِي سَائِرِ مَهْمَاتِهِ  
هَذَا مَا دَامَ الطُّورُ الْأَوَّلُ لِلدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَا فَإِذَا جَاءَ الطُّورُ الثَّانِي وَظَهَرَ الْإِسْتِبْدَادُ  
عَنْهُمْ وَالْإِنْفِرَادُ بِالْمَجْدِ وَدَافَعَهُمْ عَنْهُ بِالْمَرَّاحِ صَارُوا فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ مِنْ بَعْضِ  
أَعْدَائِهِ وَاحْتِاجَ فِي مَدَافَعَتِهِمْ عَنِ الْأَمْرِ وَصَدَّهِمْ عَنِ الْمُشَارَكَةِ إِلَى أَوْلِيَاءِ آخَرِينَ مِنْ  
غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ يَسْتَظْهِرُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَيَتَوَلَّاهُمْ دُونَهُمْ فَيَكُونُونَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِهِمْ  
وَأَخْصَ بِهِ قُرْبًا وَاضْطِنَاعًا وَأَوْلَى إِيْثَارًا وَجَاهًا لِمَا أَنَّهُمْ يَسْتَمِيتُونَ دُونَهُ فِي مَدَافَعَةِ  
قَوْمِهِ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ وَالرُّتْبَةِ الَّتِي أَلْفُوهَا فِي مُشَارَكَتِهِمْ فَيَسْتَخْلِصُهُمْ  
صَاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَخْصُمُهُ بِمَزِيدِ التَّكْرَمَةِ وَالْإِيْثَارِ وَيَقْسِمُ لَهُمْ مَا لِلْكَثِيرِ مِنْ قَوْمِهِ  
وَيُقْلِدُهُمْ جَلِيلَ الْأَعْمَالِ وَالْوَلَايَاتِ مِنَ الْوِزَارَةِ وَالْقِيَادَةِ وَالْجَبَايَةِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ  
لِنَفْسِهِ وَتَكُونُ خَالِصَةً لَهُ دُونَ قَوْمِهِ مِنَ الْقَابِ الْمَمْلَكَةِ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ أَوْلِيَاءُ  
الْأَقْرَبُونَ وَنَصَحَاؤُهُ الْمُخْلِصُونَ وَذَلِكَ حِينَئِذٍ مُؤَدَّنٌ بِاهْتِضَامِ<sup>(١)</sup> الدَّوْلَةِ وَعِلَامَةٌ عَلَى  
الْمَرَضِ الْمَزْمِنِ فِيهَا لِفَسَادِ الْعَصْبِيَّةِ الَّتِي كَانَ بِنَاءَ الْغَلْبِ عَلَيْهَا .

وَمَرَضُ قُلُوبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنَ الْإِمْتِهَانِ وَعِدَاوَةِ السُّلْطَانِ فَيَضْطَمِنُونَ<sup>(٢)</sup>  
عَلَيْهِ وَيَتَرَبُّصُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ وَيَعُودُ وَبِالْذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ وَلَا يُطْمَعُ فِي بُرْنِهَا مِنْ

(١) بمعنى رخاوة .

(٢) بمعنى يحقدون عليه .

هَذَا الدَّاءُ لِأَنَّهُ مَا مَضَى يَتَأَكَّدُ فِي الْأَعْقَابِ إِلَى أَنْ يَذْهَبَ رَسْمَهَا وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ  
بَنِي أُمَيَّةَ كَيْفَ كَانُوا إِنَّمَا يَسْتَظْهِرُونَ فِي حُرُوبِهِمْ وَوَلَايَةَ أَعْمَالِهِمْ بِرِجَالِ الْعَرَبِ  
مِثْلَ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادِ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ  
وَالْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسَفَ وَالْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ وَخَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ وَابْنَ  
هَبِيرَةَ وَمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ وَبِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَنَضْرَ بْنَ  
سَيَّارٍ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ رِجَالِ الْعَرَبِ وَكَذَا صَدَّرَ مِنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ كَمَا الْإِسْتِظْهَارُ  
فِيهَا أَيْضاً بِرِجَالِ الْعَرَبِ فَلَمَّا صَارَتِ الدَّوْلَةُ لِلْإِنْفِرَادِ بِالْمَجْدِ وَكَبِحَ الْعَرَبُ عَنْ  
التَّطَاوُلِ لِلْوَلَايَاتِ صَارَتِ الْوِزَارَةُ لِلْعَجَمِ وَالصَّنَائِعُ مِنَ الْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ  
نُوبَخْتٍ وَبَنِي طَاهِرٍ ثُمَّ بَنِي بُوَيْهِ وَمَوَالِي التُّرْكِ مِثْلَ بَغَا وَوَصِيفٍ وَأَثَلَمِشَ  
وَبَاكِتَاكَ وَابْنَ طُولُونَ وَأَبْنَائِهِمْ وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ فَتَكُونُ الدَّوْلَةُ لِغَيْرِ  
مَنْ مَهَّدَهَا وَالْعِزُّ لِغَيْرِ مَنْ اجْتَلَبَهُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

## الفصل العشرون

### في أحوال الموالى والمصطنعين في الدول

إِغْلَمُ أَنَّ الْمُصْطَنَعِينَ فِي الدُّوَلِ يَتَفَاوَتُونَ فِي الْإِلْتِحَامِ بِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ يَتَفَاوَتُ  
قَدِيمِيهِمْ وَحَدِيثِيهِمْ فِي الْإِلْتِحَامِ بِصَاحِبِهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَقْصُودَ فِي الْعَصِيَّةِ  
مِنَ الْمُدَافَعَةِ وَالْمُغَالَبَةِ إِنَّمَا يَتَمُّ بِالنَّسَبِ لِأَجْلِ التَّنَاصُرِ فِي دَوِي الْأَرْحَامِ وَالْقُرْبَى  
وَالْتِخَاذِ فِي الْأَجَانِبِ وَالْبَعْدَاءِ كَمَا قَدَّمَناهُ وَالْوَلَايَةَ وَالْمُخَالَطَةَ بِالرَّقِّ أَوْ بِالْحَلْفِ  
تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةً ذَلِكَ لِأَنَّ أَمْرَ النَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ وَالْمَعْنَى الَّذِي  
كَانَ بِهِ الْإِلْتِحَامُ إِنَّمَا هُوَ الْعِشْرَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَطَوْلُ الْمَمَارَسَةِ وَالصُّحْبَةُ بِالْمَرْبَى  
وَالرِّضَاعُ وَسَائِرُ أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ وَإِذَا حَصَلَ الْإِلْتِحَامُ بِذَلِكَ جَاءَتِ النُّعْرَةُ  
وَالتَّنَاصُرُ وَهَذَا مُشَاهِدٌ بَيْنَ النَّاسِ وَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي الْإِضْطِنَاعِ فَإِنَّهُ يَحْدُثُ بَيْنَ  
الْمُصْطَنِعِ وَمَنْ اضْطَنَعَهُ نِسْبَةً خَاصَّةً مِنَ الْوَصْلَةِ تَتَنَزَّلُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَتُوَكِّدُ اللَّحْمَةَ

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَفَمَرَاتُ النَّسَبِ مَوْجُودَةٌ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْوَلَايَةُ بَيْنَ الْقَبِيلِ  
وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ قَبْلَ حُصُولِ الْمَلِكِ لَهُمْ كَانَتْ عُرُوقُهَا أَوْشَجَ وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ وَنَسَبُهَا  
أَصْرَحَ لِرُؤُوسِهِمْ أَحَدُهُمَا أَتَتْهُمُ قَبْلَ الْمَلِكِ أَسْوَةٌ فِي خَالِهِمْ فَلَا يَتَمَيَّزُ النَّسَبُ عَنِ  
الْوَلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ الْأَقْلِ مِنْهُمْ فَيَتَنَزَّلُونَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةً ذَوِي قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلُ أَرْحَامِهِمْ وَإِذَا  
اضْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ الْمَلِكِ كَانَتْ مَرْتَبَةُ الْمَلِكِ مُمَيَّزَةً لِلسَّيِّدِ عَنِ الْمَوْلَى . وَأَهْلُ  
الْقَرَابَةِ عَنِ أَهْلِ الْوَلَايَةِ وَالِاضْطِنَاعِ لِمَا تَقْتَضِيهِ أَحْوَالُ الرِّئَاسَةِ وَالْمَلِكِ مِنْ تَمَيُّزِ  
الرُّتَبِ وَتَفَاوُثِهَا فَتَمَيَّزُ حَالَتُهُمْ وَيَتَنَزَّلُونَ مَنْزِلَةَ الْأَجَانِبِ وَيَكُونُ الْإِلْتِحَامُ بَيْنَهُمْ  
أَضْعَفَ وَالتَّنَاصُرُ لِذَلِكَ أَبْعَدَ وَذَلِكَ أَنْقَصَ مِنَ الْإِضْطِنَاعِ قَبْلَ الْمَلِكِ .

الْوَجْهُ الثَّانِي أَنَّ الْإِضْطِنَاعَ قَبْلَ الْمَلِكِ يَبْعُدُ عَهْدَهُ عَنِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِطُولِ  
الزَّمَانِ وَيُخْفِي شَأْنَ تِلْكَ اللَّحْمَةِ وَيُظَنُّ بِهَا فِي الْأَكْثَرِ النَّسَبُ فَيَقْوَى حَالُ الْعَصَبِيَّةِ  
وَأَمَّا بَعْدَ الْمَلِكِ فَيَقْرُبُ الْعَهْدُ وَيَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ الْأَكْثَرُ فَتَتَبَيَّنُ اللَّحْمَةُ وَتَتَمَيَّزُ عَنِ  
النَّسَبِ فَتَضَعُ الْعَصَبِيَّةُ بِالنَّسَبِ إِلَى الْوَلَايَةِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الدَّوْلَةِ وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ فِي  
الدُّوَلِ وَالرِّئَاسَاتِ تَجِدُهُ فَكُلُّ مَنْ كَانَ إِضْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ الرِّئَاسَةِ وَالْمَلِكِ  
لِمُضْطِنَعِيهِ تَجِدُهُ أَشَدَّ الْإِحْتِمَامَ بِهِ وَأَقْرَبَ قَرَابَةً إِلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَبْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ  
وَذَوِي رَحِمِهِ وَمَنْ كَانَ إِضْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمَلِكِ وَالرِّئَاسَةِ لِمُضْطِنَعِيهِ لَا يَكُونُ  
لَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ وَاللَّحْمَةِ مَا لِلأُولَى . وَهَذَا مُشَاهَدٌ بِالْعِيَانِ حَتَّى إِنْ الدَّوْلَةُ فِي آخِرِ  
عُمْرِهَا تَرْجِعُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْأَجَانِبِ وَاضْطِنَاعِهِمْ وَلَا يُبْنَى لَهُمْ مَجْدٌ كَمَا بَنَاهُ  
المُضْطِنَعُونَ قَبْلَ الدَّوْلَةِ لِقَرَبِ الْعَهْدِ حِينَئِذٍ بِأَوْلِيَّتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْإِنْتِقَاضِ  
فَيَكُونُونَ مُنْحَطِّينَ فِي مَهَاوِي الضَّعْفِ .

وَإِنَّمَا يَخْمَلُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ عَلَى إِضْطِنَاعِهِمْ وَالْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنِ أَوْلِيَائِهَا  
الْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا الْأُولَى مَا يَغْتَرِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعِزَّةِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ  
وَقَلَّةِ الْخُضُوعِ لَهُ وَنَظَرِهِ بِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ لِتَأْكِيدِ اللَّحْمَةِ مُنْذُ الْعُصُورِ  
الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْمَرْبِيِّ وَالْإِتِّصَالِ بِأَبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَالْإِنْتِظَامِ مَعَ كِبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ

فِيخْضَلُ لَهُمْ بِذَلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَاعْتِرَازٌ فَيُنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى اسْتِعْمَالِ سِوَاهُمْ وَيَكُونُ عَهْدُ اسْتِخْلَاصِهِمْ وَأَصْطِنَاعِهِمْ قَرِيبًا فَلَا يَبْتَلُونَ رُتَبَ الْمَجْدِ وَيَبْتَقُونَ عَلَى خَالِهِمْ مِنَ الْخَارِجِيَّةِ وَهَكَذَا شَأْنُ الدَّوْلِ فِي أَوَاخِرِهَا وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ اسْمُ الصَّنَائِعِ وَالْأَوْلِيَاءِ عَلَى الْأَوْلِيَيْنِ وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُحَدَّثُونَ فَخَدَمٌ وَأَعْوَانٌ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

## الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجب السلطان والاستبداد عليه

إِذَا اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ فِي نِصَابٍ مُعَيَّنٍ وَمَنْبَتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ وَأَنْفَرَدُوا بِهِ وَدَفَعُوا سَائِرَ الْقَبِيلِ عَنْهُ وَتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ بِحَسَبِ التَّرْشِيحِ فَرُبَّمَا حَدَثَ التَّغَلُّبُ عَلَى الْمَنْصِبِ مِنْ وَرَثَتِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ وَسَبَبُهُ فِي الْأَكْثَرِ وِلَايَةُ صَبِيٍّ صَغِيرٍ أَوْ مُضْعَفٍ مِنْ أَهْلِ الْمَنْبَتِ يَتَرَشَّحُ لِلْوِلَايَةِ بَعْدَ أَبِيهِ أَوْ بِتَرْشِيحِ ذَوِيهِ وَخَوْلِهِ وَيُونَسُ مِنْهُ الْعَجْزُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وَرَثَةِ أَبِيهِ وَحَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ وَيُورِثِي بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤَنَسَ مِنْهُ الْإِسْتِبْدَادُ وَيَجْعَلَ ذَلِكَ ذُرِيعةً لِلْمُلْكِ فَيَحْبِبُ الصَّبِيَّ عَنِ النَّاسِ وَيَعُوذُ إِلَيْهَا تَرْفُ أَحْوَالِهِ وَيَسِيْمُهُ فِي مَرَاعِيهَا مَتَى أَمَكَّنَهُ وَيُنْسِيهِ النَّظَرَ فِي الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ وَهُوَ بِمَا عُوذَهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ حَظَّ السُّلْطَانِ مِنَ الْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ السَّرِيرِ وَإِعْطَاءُ الصَّفَقَةِ وَخَطَابُ التَّهْوِيلِ وَالْقُعُودُ مَعَ النِّسَاءِ خَلْفَ الْحِجَابِ وَأَنَّ الْحُلَّ وَالرِّبْطَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَمَبَاشَرَةَ الْأَحْوَالِ الْمُلُوكِيَّةِ وَتَفَقُّدُهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجَيْشِ وَالْمَالِ وَالشُّعُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ وَيُسَلِّمُ لَهُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ صِبْغَةَ الرِّئَاسَةِ وَالْإِسْتِبْدَادُ وَيَتَحَوَّلُ الْمُلْكُ إِلَيْهِ وَيُؤَثِّرُ بِهِ عَشِيرَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي بُوَيْهِ وَالتُّرْكَ وَكَافُورِ الْأَخْشِيدِيِّ وَغَيْرِهِمْ بِالْمَشْرِقِ وَالْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بِالْأَنْدَلُسِ .



وَقَدْ يَتَفَطَّنُ ذَلِكَ الْمَخْجُورُ الْمُغْلَبُ لِشَأْنِهِ فَيَحَاوِلُ عَلَى <sup>(١)</sup> الْخُرُوجِ مِنْ رَبْقَةِ الْحَجَرِ وَالِاسْتِبْدَادِ وَيَرْجِعُ الْمَلِكُ إِلَى نِصَابِهِ وَيَضْرِبُ عَلَى أَيْدِي الْمُتَغْلِبِينَ عَلَيْهِ إِمَّا بِقَتْلِ أَوْ بَرَفْعِ عَنِ الرَّبْتَةِ فَقَطْ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ فِي النَّادِرِ الْأَقْلِّ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا أَخَذَتْ فِي تَغْلِبِ الْوُزَرَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ اسْتَمَرَّتْ لَهَا ذَلِكَ وَقَلَّ أَنْ تَخْرُجَ عَنْهُ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُوْجَدُ فِي الْأَكْثَرِ عَنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ وَنَشْأَةِ أُنْبَاءِ الْمَلِكِ مُنْعَمِينَ فِي نَعِيمِهِ قَدْ نَسُوا عَهْدَ الرَّجُولَةِ وَالْفُؤَادِ أَخْلَاقَ الدَّيَاتِ وَالْأَطَارِ <sup>(٢)</sup> وَرَبَّوْا عَلَيْهَا فَلَا يَنْزِعُونَ إِلَى رِئَاسَةِ وَلَا يَعْرِفُونَ اسْتِبْدَادًا مِنْ تَغْلِبِ إِنَّمَا هَمُّهُمْ فِي الْقُنُوعِ بِالْأَبْهَةِ وَالتَّنْفُسِ فِي اللَّذَاتِ وَأَنْوَاعِ التَّرَفِ وَهَذَا التَّغْلِبُ يَكُونُ لِلْمَوَالِي وَالْمُضْطَنِّعِينَ عِنْدَ اسْتِبْدَادِ عَشِيرِ الْمَلِكِ عَلَى قَوْمِهِمْ وَأَنْفِرَادِهِمْ بِهِ دُونَهُمْ وَهُوَ عَارِضٌ لِلدَّوْلَةِ ضَرُورِيٌّ كَمَا قَدَّمْنَا وَهَذَا مِنْ مَرْضَانِ لَا بُرءَ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إِلَّا فِي الْأَقْلِّ النَّادِرِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

## الفصل الثاني والعشرون

في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك

وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ وَالسُّلْطَانَ حَصَلَ لِأَوَّلِهِ مَدْ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ بِعَصَبِيَّةِ قَوْمِهِ وَعَصَبِيَّةِ الَّتِي اسْتَبَعَتْهُمْ حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَلِقَوْمِهِ صِبْغَةَ الْمَلِكِ وَالغَلْبِ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَاقِيَةً وَبِهَا انْحَفَظَ رَسْمُ الدَّوْلَةِ وَبَقَاؤُهَا وَهَذَا الْمُتَغْلِبُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ عَصَبِيَّةٍ مِنْ قَبِيلِ الْمَلِكِ أَوْ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ فَعَصَبِيَّتُهُ مُنْدَرِجَةٌ فِي عَصَبِيَّةِ أَهْلِ الْمَلِكِ وَتَابِعَةٌ لَهَا وَلَيْسَ لَهُ صِبْغَةٌ فِي الْمَلِكِ وَهُوَ لَا يَحَاوِلُ فِي اسْتِبْدَادِهِ انْتِزَاعَ ثَمَرَاتِهِ مِنَ الْأُمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالْإِبْرَامِ وَالتَّقْضِ يُوْهِمُ فِيهَا أَهْلَ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ عَنْ

(١) ليس لها معنى وربما تكون زائدة .

(٢) اطَّار ج ظئر : الموضع . وظئر القصر ، ركنه ( قاموس )

سُلْطَانِهِ مُنْفَذٌ فِي ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ لِأَحْكَامِهِ . فَهُوَ يَتَجَافَى عَنْ سِمَاتِ الْمَلِكِ  
وَشَارَاتِهِ وَأَلْقَايِهِ جَهْدَهُ وَيُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنِ التُّهْمَةِ بِذَلِكَ .

وَأِنْ حَصَلَ لَهُ الْإِسْتِبْدَادُ لِأَنَّهُ مُسْتَتِرٌ فِي اسْتِبْدَادِهِ ذَلِكَ بِالْحِجَابِ الَّذِي ضَرَبَهُ  
السُّلْطَانُ وَأَوْلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَنِ الْقَبِيلِ مُنْذُ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ وَمَعَالِطُ عَنْهُ بِالنِّيَاةِ وَلَوْ  
تَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ <sup>(١)</sup> عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ وَقَبِيلُ الْمَلِكِ وَحَاوَلُوا الْإِسْتِثْنَاءَ  
بِهِ دُونَهُ لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكِمْ لَهُ فِي ذَلِكَ صِبْغَةً تَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّسْلِيمِ لَهُ وَالْإِنْقِيَادِ فِيهِلِكَ  
لِأَوَّلِ وَهَلِيَّةٍ وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا لِعَبِيدِ الرَّحْمَنِ بْنِ النَّاصِرِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ  
حِينَ سَمَا إِلَى مُشَارَكَةِ هِشَامٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ فِي لَقَبِ الْخِلَافَةِ وَلَمْ يَقْنَعْ بِمَا قَنَعَ بِهِ أَبُوهُ  
وَأَخُوهُ مِنَ الْإِسْتِبْدَادِ بِالْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالْمَرَاسِمِ الْمُتَتَابِعَةِ فَطَلَبَ مِنْ هِشَامٍ خَلِيفَتِهِ أَنْ  
يَعْهَدَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ فَنَفَسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بَنُو مَرْوَانَ وَسَائِرُ قُرَيْشٍ وَبَايَعُوا لِابْنِ عَمِّ  
الْخَلِيفَةِ هِشَامٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ النَّاصِرِ وَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ  
خَرَابٌ دَوْلَةَ الْعَامِرِيِّينَ وَهَلَكَ الْمُؤَيَّدُ خَلِيفَتِهِمْ وَاسْتَبْدَلَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَعْيَاصٍ <sup>(٢)</sup>  
الدَّوْلَةَ إِلَى آخِرِهَا وَاخْتَلَّتْ مَرَاسِمُ مُلْكِهِمْ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

## الفصل الثالث والعشرون

### في حقيقة الملك وأصنافه

الْمَلِكُ مَنْصِبٌ طَبِيعِيُّ لِلْإِنْسَانِ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْبَشَرَ لَا يُمَكِّنُ حَيَاتُهُمْ  
وَوُجُودَهُمْ إِلَّا بِاجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ قُوتِهِمْ وَضُرُورِيَّاتِهِمْ وَإِذَا اجْتَمَعُوا  
دَعَتْ الضَّرُورَةَ إِلَى الْمَعَامَلَةِ وَأَقْتِضَاءِ الْحَاجَاتِ وَمَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ  
يَأْخُذُهَا مِنْ صَاحِبِهَا لِمَا فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والنون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشيء كفرح لم يره اهلا له كما في

القاموس .

(٢) أعياص ج عيص ، منبت خيار الشجر ، ويقال هو من عيص كريم ، أي من أصل كريم (قاموس)

وَيَمَانِعُهُ الْآخِرُ عَنْهَا بِمُقْتَضَى الْعُضْبِ وَالْأَنْفَةِ وَمُقْتَضَى الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ فَيَقَعُ التَّنَازُعُ الْمُفْضِي إِلَى الْمَقَاتَلَةِ وَهِيَ تُؤَدِّي إِلَى الْهَرْجِ وَسَفْكِ الدَّمَاءِ وَأَذْهَابِ النُّفُوسِ الْمُفْضِي ذَلِكَ إِلَى انْقِطَاعِ النَّوْعِ وَهُوَ مِمَّا خَصَّهُ الْبَارِي سُبْحَانَهُ بِالْمُحَافَظَةِ فَاسْتَحَالَ بَقَاؤُهُمْ فَوْضَى دُونَ حَالِهِ يَزْعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَاحْتِاجُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الْوِزَاعِ وَهُوَ الْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَلِكِ الْقَاهِرِ الْمُتَحَكِّمِ وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَصِيَّةِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمُطَالِبَاتِ كُلَّهَا وَالْمُدَافَعَاتِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ وَهَذَا الْمَلِكُ كَمَا تَرَاهُ مِنْصَبٌ شَرِيفٌ تَتَوَجَّهُ نَحْوَهُ الْمُطَالِبَاتُ وَيَخْتَاجُ إِلَى الْمُدَافَعَاتِ .

وَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْعَصِيَّاتِ كَمَا مَرَّ وَالْعَصِيَّاتُ مُتَفَاوِتَةٌ وَكُلُّ عَصِيَّةٍ فَلَهَا تَحَكُّمٌ وَتَغَلُّبٌ عَلَى مَنْ يَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرَتِهَا وَلَيْسَ الْمَلِكُ لِكُلِّ عَصِيَّةٍ وَإِنَّمَا الْمَلِكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِمَنْ يَسْتَعْبُدُ الرَّعِيَّةَ وَيَجْبِي الْأَمْوَالَ وَيَبْعَثُ الْبُعُوثَ وَيَخِيْمِي الثُّغُورَ وَلَا تَكُونُ فَوْقَ يَدِهِ يَدٌ قَاهِرَةٌ وَهَذَا مَعْنَى الْمَلِكِ وَحَقِيقَتُهُ فِي الْمَشْهُورِ فَمَنْ قَصُرَتْ بِهِ عَصِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا مِثْلَ حِمَايَةِ الثُّغُورِ أَوْ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ أَوْ بَعَثِ الْبُعُوثِ فَهُوَ مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ كَمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ الْبَرْبَرِ فِي دَوْلَةِ الْأَعْلَابِيَّةِ بِالْقَيْرَوَانِ وَلِمُلُوكِ الْعَجَمِ صَدْرَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ .

وَمَنْ قَصُرَتْ بِهِ عَصِيَّتُهُ أَيْضاً عَنِ الْإِسْتِعْلَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَصِيَّاتِ ، وَالضَّرْبِ عَلَى سَائِرِ الْأَيْدِي وَكَانَ فَوْقَهُ حُكْمٌ غَيْرُهُ فَهُوَ أَيْضاً مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ أَمْرَاءِ النَّوَاحِي وَرُؤَسَاءِ الْجِهَاتِ الَّذِينَ تَجَمَّعُ مِنْهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَكَثِيرًا مَا يُوْجَدُ هَذَا فِي الدَّوْلَةِ الْمُتَّسِعَةِ النَّطَاقِ أَغْنَى تَوْجُدَ مُلُوكٍ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي النَّوَاحِي الْقَاصِيَةِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي جَمَعَتْهُمْ مِثْلَ صَنْهَاجَةَ مَعَ الْعُبَيْدِيِّينَ وَزَنَاتَةَ مَعَ الْأُمَوِيِّينَ تَارَةً وَالْعُبَيْدِيِّينَ تَارَةً أُخْرَى وَمِثْلَ مُلُوكِ الْعَجَمِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَمِثْلَ مُلُوكِ الطُّوَائِفِ مِنَ الْفَرَسِ مَعَ الْإِسْكَانْدَرِ وَقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّينَ وَكَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ فَاعْتَبِرْهُ تَجِدُهُ وَاللَّهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ .

## الفصل الرابع والعشرون

في أن إرهاف الحد مضرٌ بالملك ومفسد له في الأكثر

إِغْلَمَ أَنْ مَضْلَحَةَ الرُّعِيَّةِ فِي السُّلْطَانِ لَيْسَتْ فِي ذَاتِهِ وَجَسْمِهِ مِنْ حُسْنِ شَكْلِهِ أَوْ مَلَاخَةِ وَجْهِهِ أَوْ عَظِيمِ جُثْمَانِهِ أَوْ اتِّسَاعِ عِلْمِهِ أَوْ جُودَةِ خَطِّهِ أَوْ ثِقُوبِ ذَهْنِهِ وَإِنَّمَا مَضْلَحَتُهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ الْمَلِكَ وَالسُّلْطَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ وَهِيَ نِسْبَةٌ بَيْنَ مُنْتَسِبَيْنِ فَحَقِيقَةُ السُّلْطَانِ أَنَّهُ الْمَالِكُ لِلرُّعِيَّةِ الْقَائِمِ فِي أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ فَالسُّلْطَانُ مَنْ لَهُ رَعِيَّةٌ وَالرُّعِيَّةُ مَنْ لَهَا سُلْطَانٌ وَالصِّفَةُ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ هِيَ الَّتِي تَسْمَى الْمَلَكَةَ وَهِيَ كَوْنُهُ يَمْلِكُهُمْ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ وَتَوَابَعَهَا مِنَ الْجُودَةِ بِمَكَانٍ حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى أُمَّةٍ الْوُجُوهِ فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً صَالِحَةً كَانَ ذَلِكَ مَضْلَحَةً لَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً مُتَعَسِّفَةً كَانَ ذَلِكَ ضَرراً عَلَيْهِمْ وَإِهْلَاقاً لَهُمْ .

وَيَعُودُ حُسْنُ الْمَلَكَةِ إِلَى الرَّفْقِ فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِراً بَاطِشاً بِالْمَعْقُوبَاتِ مُنْقَباً عَنِ عَوْرَاتِ النَّاسِ وَتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ سَمَلَهُمُ الْخَوْفُ وَالذُّلُّ وَلَاذُوا مِنْهُ بِالْكَذِبِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فَتَخَلَّقُوا بِهَا وَفَسَدَتْ بَصَائِرُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ وَرُبَّمَا خَذَلُوهُ فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ وَالْمُدَافَعَاتِ فَفَسَدَتِ الْحِمَايَةُ بِفَسَادِ النِّيَّاتِ وَرُبَّمَا أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ لِذَلِكَ فَتَفْسُدَ الدَّوْلَةُ وَيَخْرُبَ السِّيَاحُ وَإِنْ دَامَ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ وَقَهَرَهُ فَسَدَتِ الْعَصِييَةُ لِمَا قَلْنَاهُ أَوْلاً وَفَسَدَ السِّيَاحُ مِنْ أَصْلِهِ بِالْمَعْزَرِ عَنِ الْحِمَايَةِ وَإِذَا كَانَ رَفِيقاً بِهِمْ مُتَجَاوِزاً عَنِ سَيِّئَاتِهِمْ اسْتَنَامُوا إِلَيْهِ وَلَاذُوا بِهِ وَأَشْرَبُوا مَحَبَّتَهُ وَاسْتَمَاتُوا دُونَهُ فِي مُحَارَبَةِ أَعْدَائِهِ فَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَمَّا تَوَابِعُ حُسْنِ الْمَلَكَةِ فِيهِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْمُدَافَعَةُ عَنْهُمْ فَالْمُدَافَعَةُ بِهَا تَتِمُّ حَقِيقَةُ الْمَلِكِ وَأَمَّا النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانُ لَهُمْ فَمِنْ جَمَلَةِ الرَّفْقِ بِهِمْ وَالنَّظَرِ لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَهِيَ أَصْلُ كَبِيرٍ مِنَ التَّحَبُّبِ إِلَى الرُّعِيَّةِ وَإِغْلَمَ أَنَّهُ

قَلَمَّا تَكُونُ مَلَكَ الرَّفْقِ فِي مَنْ يَكُونُ يَقْطَأُ شَدِيدَ الذِّكَاءِ مِنَ النَّاسِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ الرَّفْقُ فِي الْفُغْلِ وَالْمُتَعَفِّلِ وَأَقْلُ مَا يَكُونُ فِي الْيَقِظِ لِأَنَّهُ يُكَلِّفُ الرُّعْيَةَ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ لِنَفوذِ نَظَرِهِ فِيمَا وَرَاءَ مَدَارِكِهِمْ وَأَطْلَاعِهِ عَلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ فِي مَبَادِئِهَا بِالْمَعِيَةِ فَيَهْلِكُونَ لِذَلِكَ قَالَ ﷺ « سِيرُوا عَلَى سِيرِ أضعفكم » وَمِنْ هَذَا النَّبَابِ اشْتَرَطَ الشَّارِعُ فِي الْحَاكِمِ قِلَّةَ الْإفْرَاطِ فِي الذِّكَاءِ ، وَمَأْخُذُهُ مِنْ قِصَّةِ زِيَادِ ابْنِ أَبِي سَفْيَانَ لَمَّا عَزَلَهُ عُمَرُ عَنِ الْعِرَاقِ وَقَالَ لَهُ : « لِمَ عَزَلْتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَجْزُ أَمْ لِيخِيَانَةٌ » فَقَالَ عُمَرُ : « لَمْ أَغْزِلْكَ لِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أُحْمَلَ فَضْلُ عَقْلِكَ عَنِ النَّاسِ » فَأَخَذَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَكُونُ مُفْرَطَ الذِّكَاءِ وَالْكَيْسِ مِثْلَ زِيَادِ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ وَعُمَرُو بْنِ الْعَاصِ لَمَّا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنَ التَّعَسُّفِ وَسُوءِ الْمَلَكََةِ وَحَمْلِ الْوُجُودِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَبِيعِهِ كَمَا يَأْتِي فِي آخِرِ هَذَا الْكِتَابِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَالِكِينَ وَتَقَرَّرَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْكَيْسَ وَالذِّكَاءَ عَيْبٌ فِي صَاحِبِ السِّيَاسَةِ لِأَنَّهُ إِفْرَاطٌ فِي الْفِكْرِ كَمَا أَنَّ الْبَلَادَةَ إِفْرَاطٌ فِي الْجُمُودِ وَالطَّرْفَانَ مَذْمُومَانِ مِنْ كُلِّ صِفَةِ إِنْسَانِيَّةٍ وَالْمَحْمُودُ هُوَ التَّوَسُّطُ كَمَا فِي الْكُرْمِ مَعَ التَّنْذِيرِ وَالْبَخْلِ وَكَمَا فِي الشَّجَاعَةِ مَعَ الْهَوَجِ وَالْجُبْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَلِهَذَا يُوصَفُ الشَّدِيدُ الْكَيْسِ بِصِفَاتِ الشَّيْطَانِ فَيَقَالُ شَيْطَانٌ وَمُتَشَيْطِنٌ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ .

## الفصل الخامس والعشرون

### في معنى الخلافة والامامة

لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ الْمَلِكِ أَنَّهُ الْإِجْتِمَاعُ الضَّرُورِيُّ لِلبَشَرِ وَمُقْتَضَاهُ التَّعَلُّبُ وَالْقَهْرُ اللَّذَانِ هُمَا مِنْ آثَارِ الْغَضَبِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ كَانَتْ أَحْكَامُ صَاحِبِهِ فِي الْغَالِبِ جَائِزَةً عَنِ الْحَقِّ مُجْحَفَةً بِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ مِنَ الْخَلْقِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ لِحَمَلِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْغَالِبِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِمْ مِنْ أَغْرَاضِهِ وَشَهْوَاتِهِ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ

المقاصد من الخلف والسلف منهم فتفسر طاعته لذلك وتجيء العصبية المفضية إلى  
الهرج والقتل فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة  
وينقادون إلى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم وإذا خلت الدولة  
من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولم يتم استيلاؤها «سنة الله في الذين خلوا  
من قبل». فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها  
كانت سياسة عقلية وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت  
سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم  
دنياهم فقط فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء، والله يقول  
«أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً» فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى  
السعادة في آخرتهم «صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض» فجاءت  
الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي  
هو طبيعي للاجتماع الإنساني فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً  
بنظر الشارع. فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة العصبية في  
مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه  
بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضاً لأنه نظر بغير نور الله «ومن لم يجعل  
الله له نوراً فما له من نور» لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم  
من أمور آخرتهم وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم من ملك أو غيره  
قال ﷺ «إنما هي أعمالكم ترد عليكم» وأحكام السياسة إنما تطلع على  
مصالح الدنيا فقط «يعلمون ظاهراً من حياة الدنيا»، ومقصود الشارع بالناس  
صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في  
أحوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه  
مقامهم وهم الخلفاء فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وأن الملك الطبيعي هو  
حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى

النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد والله الحكيم العليم .

## الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه

وإذ قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماماً فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والافتداء به ولهذا يقال الإمامة الكبرى وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله واختلف في تسميته خليفة الله فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للادميين في قوله تعالى « إني جاعل في الأرض خليفة » وقوله « جعلكم خلائف الأرض » .

ومنع الجمهور منه لأن معنى الآية ليس عليه وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به وقال : « لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ » ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب وأما الحاضر فلا . ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فوضى في عصر من الأعصار واستقر ذلك

إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام . وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبه العقل . وأن الإجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه .

قالوا وإنما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لأزدحام الأغراض . فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نبهنا على فسادِه وأن إحدى مقدماتِه أن الوازع إنما يكون بشرع من الله تسلّم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد وهو غير مسلم لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما في أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو تقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادعأوهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الإمام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمه فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو الإجماع الذي قدّمناه .

وقد شدّ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم . والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء الحكم الشرع فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحنج إلى إمام ولا يجب نصبه وهؤلاء مخجوجون بالإجماع . والذي حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتماع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممثلة بذم ذلك والتعني على أهله ومرغبة في رفضه . واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حطر القيام به وإنما ذم المفسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات ولا شك أن في هذه مفسد محظورة



وَهِيَ مِنْ تَوَابِعِهِ كَمَا أَتَتْ عَلَى الْعَذْلِ وَالنُّصَفَةِ وَإِقَامَةِ مَرَامِ الدِّينِ وَالذَّبِّ عَنْهُ  
وَأَوْجَبَ بِإِزَائِهَا الثَّوَابَ وَهِيَ كُلُّهَا مِنْ تَوَابِعِ الْمُلْكِ .

فَإِذَا إِنَّمَا وَقَعَ الذَّمُّ لِلْمُلْكِ عَلَى صِفَةٍ وَحَالٍ دُونَ حَالٍ أُخْرَى وَلَمْ يَذْمُهُ لِذَاتِهِ وَلَا  
طَلَبَ تَرْكُهُ كَمَا ذَمَّ الشَّهْوَةَ وَالغَضَبَ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ وَلَيْسَ مَرَادُهُ تَرْكُهُمَا بِالْكُلِّيَّةِ  
لِدِعَايَةِ الضَّرُورَةِ إِلَيْهَا وَأَمَّا الْمَرَادُ تَضْرِيْفُهُمَا عَلَى مُقْتَضَى الْحَقِّ وَقَدْ كَانَ لِدَاوُدَ  
وَسُلَيْمَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا الْمُلْكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِمَا وَهُمَا مِنْ أَنْبِيَاءِ  
اللَّهِ تَعَالَى وَأَكْرَمِ الْخَلْقِ عِنْدَهُ ثُمَّ نَقُولُ لَهُمْ إِنَّ هَذَا الْفِرَارَ عَنِ الْمُلْكِ بَعْدَمِ وَجُوبِ هَذَا  
النُّصَبِ <sup>(١)</sup> لَا يُغْنِيكُمْ شَيْئاً لِأَنَّكُمْ مُوَافِقُونَ عَلَى وَجُوبِ إِقَامَةِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَذَلِكَ  
لَا يَخْصُلُ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ وَالشُّوْكَةِ وَالْعَصِيَّةُ مُقْتَضِيَةٌ بِطَبِيعِهَا لِلْمُلْكِ فَيَخْصُلُ الْمُلْكَ  
وَإِنْ لَمْ يُنْصَبْ إِمَامٌ وَهُوَ عَيْنُ مَا قَرَّرْتُمْ عَنْهُ . وَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ هَذَا النُّصَبَ وَاجِبٌ  
بِاجْتِمَاعِ فُهْوٍ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ وَرَاجِعٌ إِلَى اخْتِيَارِ أَهْلِ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ  
نُصَبُهُ وَيَجِبُ عَلَى الْخَلْقِ جَمِيعاً طَاعَتَهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ  
وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » .

وَأَمَّا شُرُوطُ هَذَا الْمَنْصِبِ فَهِيَ أَرْبَعَةٌ : الْعِلْمُ وَالْعَدَالَةُ وَالْكَفَايَةُ وَسَلَامَةُ  
الْحَوَاسِّ وَالْأَعْضَاءِ مِمَّا يُؤَثِّرُ فِي الرِّأْيِ وَالْعَمَلِ وَاخْتَلَفَ فِي شَرْطِ خَامِسٍ وَهُوَ النَّسَبُ  
الْقَرَشِيُّ فَأَمَّا اشْتِرَاطُ الْعِلْمِ فَظَاهِرٌ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مُنْفِذاً لِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا كَانَ  
عَالِماً بِهَا وَمَا لَمْ يَعْلَمْهَا لَا يَصِحُّ تَقْدِيمُهُ لَهَا وَلَا يَكْفِي مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ  
مُجْتَهِداً لِأَنَّ التَّقْلِيدَ نَقْصٌ وَالْإِمَامَةَ تَسْتَدْعِي الْكَمَالَ فِي الْأَوْصَافِ وَالْأَخْوَالِ وَأَمَّا  
الْعَدَالَةُ فَلِأَنَّ مَنْصِبَ دِينِي يُنظَرُ فِي سَائِرِ الْمَنَاصِبِ الَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِيهَا فَكَانَ أَوْلَى  
بِاشْتِرَاطِهَا فِيهِ .

وَلَا خِلَافَ فِي انْتِفَاءِ الْعَدَالَةِ فِيهِ بِفَسْقِ الْجَوَارِحِ مِنْ اِزْتِكَابِ الْمَحْظُورَاتِ  
وَأَمْثَالِهَا وَفِي انْتِفَائِهَا بِالْبِدْعِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ خِلَافٌ .

(١) أي نصب الامام .

وَأَمَّا الْكِفَايَةُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ جَرِيئاً عَلَى إِقَامَةِ الْحُدُودِ وَاقْتِحَامِ الْحُرُوبِ  
بَصِيراً بِهَا كَفَيْلاً يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَيْهَا عَارِفاً بِالْعَصَبِيَّةِ وَأَحْوَالِ الدَّهَاءِ قَوِيّاً عَلَى  
مُعَانَاةِ السِّيَاسَةِ لِيَصْحَحَ لَهُ بِذَلِكَ مَا جَعَلَ إِلَيْهِ مِنْ حِمَايَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْعُدُوِّ وَإِقَامَةِ  
الْأَحْكَامِ وَتَدْيِيرِ الْمَصَالِحِ .

وَأَمَّا سَلَامَةُ الْحَوَاسِ وَالْأَعْضَاءِ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَطَلَةِ <sup>(١)</sup> كَالْجُنُونِ وَالْعَمَى وَالصَّمِّ  
وَالخَرَسِ وَمَا يُؤَثِّرُ فَقَدَهُ مِنَ الْأَعْضَاءِ فِي الْعَمَلِ كَقَدِّ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَالْأَنْثَيْنِ  
فَتَشْتَرِطُ السَّلَامَةُ مِنْهَا كُلَّهَا لِتَأْتِيرَ ذَلِكَ فِي تَمَامِ عَمَلِهِ وَقِيَامِهِ بِمَا جَعَلَ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ  
إِنَّمَا يَشِينُ فِي الْمَنْظَرِ فَقَطْ كَقَدِّ إِحْدَى هَذِهِ الْأَعْضَاءِ فَشَرَطُ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرَطُ  
كَمَالٍ وَيُلْحَقُ بِفَقْدَانِ الْأَعْضَاءِ الْمَنْعُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَهُوَ ضَرْبَانِ ضَرْبٌ يُلْحَقُ بِهِدِهِ  
فِي اشْتِرَاطِ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرَطُ وُجُوبِ وَهُوَ الْقَهْرُ وَالْعَجْزُ عَنِ التَّصَرُّفِ جُمْلَةً بِالْأَسْرِ  
وَشِبْهِهِ وَضَرْبٌ لَا يُلْحَقُ بِهِدِهِ وَهُوَ الْحَجْرُ بِاسْتِيْلَاءِ بَعْضِ أَغْوَانِهِ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ  
عِضْيَانٍ وَلَا مُشَاقَّةٍ فَيَنْتَقِلُ النَّظْرُ فِي حَالِ هَذَا الْمُسْتَوْلِيِ فَإِنْ جَرَى عَلَى حُكْمِ الدِّينِ  
وَالْعَدْلِ وَحَمِيدِ السِّيَاسَةِ جَازَ قَرَارُهُ وَإِلَّا اسْتَنْصَرَ الْمُسْلِمُونَ بِمَنْ يَقْبِضُ يَدَهُ عَنْ  
ذَلِكَ وَيُدْفَعُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْفَذَ فِعْلَ الْخَلِيفَةِ .

وَأَمَّا النَّسَبُ الْقُرَشِيُّ فَلِاجْتِمَاعِ الصَّحَابَةِ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ عَلَى ذَلِكَ وَاجْتِجَتْ  
قُرَيْشٌ عَلَى الْأَنْصَارِ لَمَّا هَمُّوا يَوْمَئِذٍ بِبَيْعَةِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَقَالُوا « مَنَا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ  
أَمِيرٌ » بِقَوْلِهِ ﷺ : « الْأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ » وَبِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَانَا بِأَنْ  
نُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِكُمْ وَنَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِكُمْ وَلَوْ كَانَتْ الْإِمَارَةُ فِيكُمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ  
بِكُمْ فَحَجُّوا الْأَنْصَارَ وَرَجَعُوا عَنْ قَوْلِهِمْ « مَنَا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ » وَعَدَلُوا عَمَّا كَانُوا  
هَمُّوا بِهِ مِنْ بَيْعَةِ سَعْدٍ لِذَلِكَ . وَتَبَّتْ أَيْضاً فِي الصَّحِيحِ « لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي هَذَا  
الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ » وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ كَثِيرَةٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ قُرَيْشٍ وَتَلَاشَتْ

(١) تعطل الرجل إذا بقي لا عمل له . والاسم العطلة وفلان ذو عطلة إذا لم تكن له صنعة يمارسها  
( لسان العرب ) وقد استعملها ابن خلدون بمعنى فقد الحواس أو تعطلها .

عَصِيَّتُهُمْ بِمَا نَالَهُمْ مِنَ التَّرَفِ وَالنِّعَمِ وَبِمَا أَنْفَقْتَهُمُ الدُّوْلَةُ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ عَجَزُوا بِذَلِكَ عَنْ حَمْلِ الْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعَاجِمُ وَصَارَ الْحَلُّ وَالْعَقْدُ لَهُمْ فَاشْتَبَهَ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ حَتَّى دَهَبُوا إِلَى نَفْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ وَعَوَّلُوا عَلَى ظَوَاهِرِ فِي ذَلِكَ ، مِثْلَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ وُلِّيَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ذُو زَبِيْبَةٍ » وَهَذَا لَا تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّمْثِيلِ وَالْفَرْضِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي إِيْجَابِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَمِثْلَ قَوْلِ عُمَرَ « لَوْ كَانَ سَالِمٌ مَوْلَى حَذِيْفَةَ حَيًّا لَوُلِّئَتْهُ أَوْ لَمَّا دَخَلْتَنِي فِيهِ الظَّنُّ » وَهُوَ أَيْضًا لَا يُفِيدُ ذَلِكَ لِمَا عَلِمْتَ أَنَّ مَذْهَبَ الصَّحَابِيِّ لَيْسَ بِحُجَّةٍ وَأَيْضًا فَمَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ وَعَصِيَّةُ الْوَلَاءِ حَاصِلَةٌ لِسَالِمٍ فِي قُرَيْشٍ وَهِيَ الْفَائِدَةُ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ وَلَمَّا اسْتَعْظَمَ عُمَرُ أَمْرَ الْخِلَافَةِ وَرَأَى شُرُوطَهَا كَأَنَّهَا مَفْقُودَةٌ فِي ظَنِّهِ عَدَلَ إِلَى سَالِمٍ لِتَوْفُرِ شُرُوطِ الْخِلَافَةِ عِنْدَهُ فِيهِ حَتَّى مِنَ النَّسَبِ الْمَفِيدِ لِلْعَصِيَّةِ كَمَا نَذَرْنَا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُرَاخَةُ النَّسَبِ فَرَأَهُ غَيْرَ مُخْتِاجٍ إِلَيْهِ إِذَ الْفَائِدَةُ فِي النَّسَبِ إِنَّمَا هِيَ الْعَصِيَّةُ وَهِيَ حَاصِلَةٌ مِنَ الْوَلَاءِ فَكَانَ ذَلِكَ حِرْصًا مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى النَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ وَتَقْلِيدِ أَمْرِهِمْ لِمَنْ لَا تَلْحَقُهُ فِيهِ لِأَيْمَةٌ وَلَا عَلَيْهِ فِيهِ عَهْدَةٌ .

وَمِنَ الْقَائِلِينَ بِنَفْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ لَمَّا أَدْرَكَ عَلَيْهِ عَصِيَّةُ قُرَيْشٍ مِنَ التَّلَاشِي وَالْإِضْمِحْلَالِ وَاسْتِبْدَادِ مُلُوكِ الْعَجَمِ مِنَ الْخُلَفَاءِ فَاسْقَطَ شَرْطَ الْقُرَشِيَّةِ وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِرَأْيِ الْخَوَارِجِ لَمَّا رَأَى عَلَيْهِ حَالَ الْخُلَفَاءِ لِعَهْدِهِ وَبَقِيَ الْجُمْهُورُ عَلَى الْقَوْلِ بِاشْتِرَاطِهَا وَصِحَّةِ الْإِمَامَةِ لِلْقُرَشِيِّ وَلَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الْقِيَامِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ سَقُوطُ شَرْطِ الْكِفَايَةِ الَّتِي يَقْوَى بِهَا عَلَى أَمْرِهِ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَتِ الشُّوْكَةُ بِذَهَابِ الْعَصِيَّةِ فَقَدْ ذَهَبَتِ الْكِفَايَةُ وَإِذَا وَقَعَ الْإِخْلَالُ بِشَرْطِ الْكِفَايَةِ تَطَرَّقَ ذَلِكَ أَيْضًا إِلَى الْعِلْمِ وَالدِّينِ وَسَقَطَ اعْتِبَارُ شُرُوطِ هَذَا الْمَنْصِبِ وَهُوَ خِلَافُ الْاجْتِمَاعِ .

وَلْتَتَكَلَّمِ الْآنَ فِي حِكْمَةِ اشْتِرَاطِ النَّسَبِ لِيَتَحَقَّقَ بِهِ الصُّوَابُ فِي هَذِهِ الْمَذَاهِبِ

فَنَقُولُ : إِنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَقَاصِدٍ وَحَكْمٍ تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا وَتُشْرَعُ لِأَجْلِهَا وَنَحْنُ إِذَا بَحَثْنَا عَنِ الْحِكْمَةِ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ الْقُرَشِيِّ وَمَقْصِدِ الشَّارِعِ مِنْهُ لَمْ يُقْتَضَرْ فِيهِ عَلَى التَّبَرُّكِ بِوَصْلَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا هُوَ فِي الْمَشْهُورِ وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْوَصْلَةُ مُوجُودَةً وَالتَّبَرُّكُ بِهَا حَاصِلًا لَكِنَّ التَّبَرُّكَ لَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ كَمَا عَلِمْتَ فَلَا بُدَّ إِذَنْ مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّتِهَا وَإِذَا سَبَرْنَا وَقَسَمْنَا لَمْ نَجِدْهَا إِلَّا اِعْتِبَارَ الْعَصِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْحِمَايَةُ وَالْمُطَالَبَةُ وَيَرْتَفِعُ الْخِلَافُ وَالْفِرْقَةُ بِوُجُودِهَا لِصَاحِبِ الْمَنْصِبِ فَتَسْكُنُ إِلَيْهِ الْمِلَّةُ وَأَهْلُهَا وَيَنْتَظِمُ حُبُّ الْإِلْفَةِ فِيهَا وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا عَضَبَةً مُضَرَّ وَأَضْلَمَهُمْ وَأَهْلُ الْغَلْبِ مِنْهُمْ وَكَانَ لَهُمْ عَلَى سَائِرِ مُضَرِّ الْعِزَّةُ بِالكَثْرَةِ وَالْعَصِيَّةُ وَالشَّرْفُ فَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَعْتَرِفُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَيَسْتَكِينُونَ لِعَلْبِهِمْ فَلَوْ جَعَلَ الْأَمْرُ فِي سِوَاهُمْ لَتَوَقَّعَ افْتِرَاقَ الْكَلِمَةِ بِمُخَالَفَتِهِمْ وَعَدَمَ انْقِيَادِهِمْ وَلَا يَقْدِرُ غَيْرُهُمْ مِنْ قِبَائِلِ مُضَرَّ أَنْ يَرُدَّهُمْ عَنِ الْخِلَافِ وَلَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْكُرَّةِ فَتَتَفَرَّقُ الْجَمَاعَةُ وَتَخْتَلِفُ الْكَلِمَةُ .

وَالشَّارِعُ مُحَدَّرٌ مِنْ ذَلِكَ حَرِيصٌ عَلَى اتِّفَاقِهِمْ وَرَفَعِ التَّنَازُعَ وَالشَّتَاتِ بَيْنَهُمْ لِتَحْصُلِ اللَّحْمَةِ وَالْعَصِيَّةِ وَتَحْسُنِ الْحِمَايَةَ بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ . لِأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى سَوْقِ النَّاسِ بَعْضَ الْغَلْبِ إِلَى مَا يَرَادُ مِنْهُمْ فَلَا يُخْشَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ خِلَافِ عَلَيْهِمْ وَلَا فِرْقَةَ لِأَنَّهُمْ كَفِيلُونَ حِينَئِذٍ بِدَفْعِهَا وَمَنْعِ النَّاسِ مِنْهَا فَاشْتَرَطَ نَسَبَهُمُ الْقُرَشِيِّ فِي هَذَا الْمَنْصِبِ وَهُمْ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ الْقَوِيَّةِ لِيَكُونَ أُبْلَغَ فِي انْتِظَامِ الْمِلَّةِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ وَإِذَا انْتَضَمَتْ كَلِمَتُهُمْ انْتَضَمَتْ بِانْتِظَامِهَا كَلِمَةُ مُضَرَّ أَجْمَعَ فَأَدْعَى لَهُمْ سَائِرُ الْعَرَبِ وَانْقَادَتِ الْأُمَّمُ سِوَاهُمْ إِلَى أَحْكَامِ الْمِلَّةِ وَوَطِئَتْ جُنُودُهُمْ قَاصِيَةَ الْبِلَادِ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ الْفَتْوحَاتِ وَاسْتَمَرَّ بَعْدَهَا فِي الدَّوْلَتَيْنِ إِلَى أَنْ اضمحلَّ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَتَلَاشَتْ عَصِيَّةُ الْعَرَبِ وَيَعْلَمُ مَا كَانَ لِقُرَيْشٍ مِنَ الْكَثْرَةِ وَالتَّغَلُّبِ عَلَى بَطُونِ مُضَرَّ مَنْ مَارَسَ أَخْبَارَ الْعَرَبِ وَسِيرَهُمْ وَتَفَطَّنَ لِذَلِكَ فِي أَحْوَالِهِمْ .

وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ السِّيرِ وَغَيْرِهِ فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ اشْتِرَاطَ

الْقُرَشِيَّةُ إِنَّمَا هُوَ لِدْفَعِ التَّنَازُعِ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ وَالغَلَبِ وَعَلِمْنَا أَنَّ الشَّارِعَ  
لَا يَخْصُ الْأَحْكَامَ بِجِيلٍ وَلَا عَضْرٍ وَلَا أُمَّةٍ عَلِمْنَا أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْكِفَايَةِ  
فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْهَا وَطَرَدْنَا الْعِلَّةَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْقُرَشِيَّةِ وَهِيَ وُجُودُ الْعَصَبِيَّةِ  
فَاشْتَرَطْنَا فِي الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ أُولَى عَصَبِيَّةٍ قَوِيَّةٍ غَالِيَةٍ عَلَى  
مَنْ مَعَهَا لِعَضْرِهَا لِيَسْتَتَبِعُوا مِنْ سِوَاهُمْ وَتَجْتَمِعَ الْكَلِمَةُ عَلَى حُسْنِ الْحِمَايَةِ وَلَا يُعْلَمَ  
ذَلِكَ فِي الْأَقْطَارِ وَالْآفَاقِ كَمَا كَانَ فِي الْقُرَشِيَّةِ إِذِ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ  
كَانَتْ عَامَّةً وَعَصَبِيَّةً الْعَرَبِ كَانَتْ وَافِيَةً بِهَا فَغَلَبُوا سَائِرَ الْأُمَّةِ وَإِنَّمَا يَخْصُ لِهَذَا  
الْعَهْدِ كُلِّ قَطْرٍ بِمَنْ تَكُونُ لَهُ فِيهِ الْعَصَبِيَّةُ الْغَالِبَةُ وَإِذَا نَظَرْتَ سِرَّ اللَّهِ فِي الْخِلَافَةِ لَمْ  
تَعُدْ هَذَا لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا جَعَلَ الْخَلِيفَةَ نَائِبًا عَنْهُ فِي الْقِيَامِ بِأُمُورِ عِبَادِهِ لِيَحْمِلَهُمْ  
عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيُرُدَّهُمْ عَنْ مَضَارِهِمْ وَهُوَ مُخَاطَبٌ بِذَلِكَ وَلَا يُخَاطَبُ بِالْأَمْرِ إِلَّا مَنْ  
لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ أَلَا تَرَى مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ <sup>(١)</sup> فِي شَأْنِ النِّسَاءِ وَأَنَّهِنَّ فِي كَثِيرٍ  
مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ جَمَلْنَ تَبَعًا لِلرِّجَالِ وَلَمْ يَدْخُلْنَ فِي الْخِطَابِ بِالْوَضْعِ . وَإِنَّمَا  
دَخَلْنَ عِنْدَهُ بِالْقِيَاسِ وَذَلِكَ لِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَكَانَ الرِّجَالُ قَوَامِينَ  
عَلَيْهِنَّ اللَّهْمُ إِلَّا فِي الْعِبَادَاتِ الَّتِي كُلُّ أَحَدٍ فِيهَا قَائِمٌ عَلَى نَفْسِهِ فَخِطَابُهُنَّ فِيهَا  
بِالْوَضْعِ لَا بِالْقِيَاسِ ثُمَّ إِنَّ الْوُجُودَ شَاهِدٌ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ بِأَمْرِ أُمَّةٍ أَوْ جِيلٍ إِلَّا  
مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ وَقُلْ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ مُخَالِفًا لِلْأَمْرِ الْوُجُودِيِّ وَاللَّهُ تَعَالَى  
أَعْلَمُ .

(١) قوله الإمام ابن الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر .

## الفصل السابع والعشرون

### في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

إِغْلَمَ أَنَّ الشَّيْعَةَ لَعْمَةٌ هُمْ الصُّخْبُ وَالْأَتْبَاعُ وَيُطْلَقُ فِي عَرَفِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ <sup>(١)</sup> مِنَ الْخَلْفِ وَالسَّلَفِ عَلَى اتِّبَاعِ عَلِيِّ وَبَنِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَذْهَبِهِمْ جَمِيعاً مُتَّفِقِينَ عَلَيْهِ أَنَّ الْإِمَامَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَفْوُضُ إِلَى نَظَرِ الْأُمَّةِ وَيَتَعَيَّنُ الْقَائِمُ بِهَا بِتَعْيِينِهِمْ بَلْ هِيَ رُكْنُ الدِّينِ وَقَاعِدَةُ الْإِسْلَامِ وَلَا يَجُوزُ لِنَبِيِّ إِغْفَالِهِ وَلَا تَفْوِيضُهُ إِلَى الْأُمَّةِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعْيِينُ الْإِمَامِ لَهُمْ وَيَكُونُ مَعْصُوماً مِنَ الْكِبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ وَإِنْ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الَّذِي عَيَّنَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِنُصُوصٍ يَنْقُلُونَهَا وَيُؤْوِلُونَهَا عَلَى مُقْتَضَى مَذْهَبِهِمْ لَا يَعْرِفُهَا جِهًا بِدَعْوَةِ السُّنَّةِ وَلَا تَقْلَهُ الشَّرِيعَةَ بَلْ أَكْثَرُهَا مَوْضُوعٌ أَوْ مَطْعُونٌ فِي طَرِيقِهِ أَوْ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلَاتِهِمُ الْفَاسِدَةِ .

وَتَنْقَسِمُ هَذِهِ النُّصُوصُ عِنْدَهُمْ إِلَى جَلِيٍّ وَخَفِيٍّ فَالْجَلِيُّ مِثْلُ قَوْلِهِ « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ » قَالُوا وَلَمْ تُطْرَدْ هَذِهِ الْوَلَايَةُ إِلَّا فِي عَلِيٍّ وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عُمَرُ « أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ » وَمِنْهَا قَوْلُهُ « أَفْضَاكُمُ عَلِيٌّ » وَلَا مَعْنَى لِلْإِمَامَةِ إِلَّا الْقَضَاءُ بِأَحْكَامِ اللَّهِ وَهُوَ الْمُرَادُ بِأَوْلِي الْأَمْرِ الْوَاجِبَةِ طَاعَتُهُمْ بِقَوْلِهِ « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » وَالْمُرَادُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ وَلِهَذَا كَانَ حُكْمًا

(١) هم علماء التوحيد المسمى بعلم الكلام .

فِي قَضِيَّةِ الْإِمَامَةِ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ دُونَ غَيْرِهِ وَمِنْهَا قَوْلُهُ « مَنْ تَبَايَعُنِي عَلَى رُوحِهِ وَهُوَ وَصِيٌّ وَوَلِيُّ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي » فَلَمْ تَبَايَعَهُ إِلَّا عَلِيٌّ .

وَمِنَ الْخَفِيِّ عِنْدَهُمْ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا لِقِرَاءَةِ سُورَةِ بَرَاءَةِ فِي الْمَوْسِمِ حِينَ أَنْزَلَتْ فَإِنَّهُ بَعَثَ بِهَا أَوْلَادًا أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْهِ لِيَتْلِفَهُ رَجُلٌ مِنْكَ أَوْ مِنْ قَوْمِكَ فَبَعَثَ عَلِيًّا لِيَكُونَ الْقَارِئَ الْمُبْلَغَ قَالُوا ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيمِ عَلِيٍّ . وَأَيْضًا فَلَمْ يُعْرَفْ أَنَّهُ قَدَّمَ أَحَدًا عَلَى عَلِيٍّ . وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَدَّمَا عَلَيْهِمَا فِي غَزَاتَيْنِ <sup>(١)</sup> أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ مَرَّةً وَعُمَرَ بْنَ الْعَاصِ أُخْرَى وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدَلَّةٌ شَاهِدَةٌ بِتَعْيِينِ عَلِيٍّ لِلْخِلَافَةِ دُونَ غَيْرِهِ فَمِنْهَا مَا هُوَ غَيْرٌ مَعْرُوفٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلِهِمْ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ تَدُلُّ عَلَى تَعْيِينِ عَلِيٍّ وَتَشْخِصِهِ . وَكَذَلِكَ تَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْإِمَامِيَّةُ وَيَتَّبِعُونَ مِنَ الشَّيْخِينَ حَيْثُ لَمْ يُقَدِّمُوا عَلِيًّا وَيَبَايَعُوهُ بِمَقْتَضَى هَذِهِ النُّصُوصِ وَيَغْمِضُونَ <sup>(٢)</sup> فِي إِمَامَتَيْهَا وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى نَقْلِ الْقَدْحِ فِيهِمَا مِنْ غَلَاتِهِمْ فَهُوَ مَرْدُودٌ عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ هَذِهِ الْأَدِلَّةَ إِنَّمَا اقْتَضَتْ تَعْيِينَ عَلِيٍّ بِالْوَصْفِ لَا بِالشَّخْصِ وَالنَّاسُ مَقْصُورُونَ حَيْثُ لَمْ يَضَعُوا الوَصْفَ مَوْضِعَهُ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الزَّيْدِيَّةُ وَلَا يَتَّبِعُونَ مِنَ الشَّيْخِينَ وَلَا يَغْمِضُونَ فِي إِمَامَتَيْهَا مَعَ قَوْلِهِمْ بَأَنَّ عَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْهُمَا لَكِنَّهُمُ يُجَوِّزُونَ إِمَامَةَ الْمَفْضُولِ مَعَ وُجُودِ الْأَفْضَلِ .

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ نُقُولُ هَؤُلَاءِ الشَّيْخَةِ فِي مَسَاقِ الْخِلَافَةِ بَعْدَ عَلِيٍّ فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا فِي وُلْدِ فَاطِمَةَ بِالنِّصِّ عَلَيْهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى مَا يُذَكَّرُ بَعْدَ وَهَؤُلَاءِ يُسَمُّونَ الْإِمَامِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى مَقَالَتِهِمْ بِاشْتِرَاطِ مَعْرِفَةِ الْإِمَامِ وَتَعْيِينِهِ فِي الْإِيمَانِ وَهِيَ أَضَلُّ عِنْدَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا فِي وُلْدِ فَاطِمَةَ لَكِنْ بِالِاخْتِيَارِ مِنَ الشُّيُوخِ وَيَشْتَرِطُ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ مِنْهُمْ عَالِمًا زَاهِدًا جَوَادًا شَجَاعًا وَيَخْرُجُ دَاعِيًا إِلَى إِمَامَتِهِ وَهَؤُلَاءِ هُمُ

(١) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ وَالْأَصَحُّ أَنْ يَقُولَ غَزَوَتَيْنِ . مَشَى غَزْوَةً .

(٢) غَمَضَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : كَذَبَ عَلَيْهِ كَلَامُهُ . عَابَهُ عَلَيْهِ . وَغَمَضَهُ : حَقَرَهُ وَاسْتَصْفَرَهُ ( قَامُوسٌ ) .

الزَيْدِيَّةُ نِسْبَةٌ إِلَى صَاحِبِ الْمَذْهَبِ وَهُوَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ السَّبْطِ (١) وَقَدْ كَانَ يَنَاطِرُ أَخَاهُ مُحَمَّدًا الْبَاقِرَ عَلَى اشْتِرَاطِ الْخُرُوجِ فِي الْإِمَامَةِ فَيُلْزِمُهُ الْبَاقِرُ أَنْ لَا يَكُونَ أَبُوهُمَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ إِمَامًا لِأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ وَلَا تَعَرَّضَ لِلْخُرُوجِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَنْعَى عَلَيْهِ مَذَاهِبَ الْمُعْتَزَلِيَّةِ وَأَخَذَهُ إِيَّاهَا عَنْ وَاصِلِ بْنِ عَطِيَاءٍ وَلَمَّا نَاطَرَ الْإِمَامِيَّةَ زَيْدًا فِي إِمَامَةِ الشُّيْخِينَ وَرَأَوْهُ يَقُولُ بِإِمَامَتَيْهِمَا وَلَا يَتَّبِرُ مِنْهُمَا رَفْضُوهُ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ مِنَ الْأَيْمَةِ وَبِذَلِكَ سُمُوا رَافِضَةً وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَ عَلِيٍّ وَابْنَيْهِ السَّبْطَيْنِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَى أُخِيهِمَا مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ ثُمَّ إِلَى وَلَدِهِ وَهُمْ الْكَيْسَانِيَّةُ نِسْبَةً إِلَى كَيْسَانَ مَوْلَاهُ وَبَيْنَ هَذِهِ الطَّوَائِفِ اخْتِلَافَاتٌ كَثِيرَةٌ تَرَكْنَاهَا اخْتِصَارًا

وَمِنْهُمْ طَوَائِفٌ يَسْمُونَ الْغُلَاةَ تَجَاوَزُوا حَدَّ الْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ فِي الْقَوْلِ بِالْهُوِيَّةِ هُوَلَاءُ الْأَيْمَةِ . إِمَّا عَلَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ أَتَّصَفُوا بِصِفَاتِ الْأَلُوْهِيَّةِ أَوْ أَنَّ الْإِلَهَ حَلَّ فِي ذَاتِهِ الْبَشَرِيَّةَ وَهُوَ قَوْلٌ بِالْحُلُولِ يُوَافِقُ مَذْهَبَ النَّصَارَى فِي عَيْسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَقَدْ حَرَّقَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ مَنْ ذَهَبَ فِيهِ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ وَسَخَطَ (٢) مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ الْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْهُ فَصَرَخَ بِلُغْتَيْهِ وَالْبَرَاءَةَ مِنْهُ وَكَذَلِكَ فَعَلَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِمَنْ بَلَغَهُ مِثْلُ هَذَا عَنْهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّ كَمَالَ الْإِمَامِ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ فَإِذَا مَاتَ انْتَقَلَتْ رُوحُهُ إِلَى إِمَامٍ آخَرَ لِيَكُونَ فِيهِ ذَلِكَ الْكَمَالُ وَهُوَ قَوْلٌ بِالتَّنَاسُخِ وَمِنْ هُوَلَاءِ الْغُلَاةِ مَنْ يَقِفُ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ الْأَيْمَةِ لَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى غَيْرِهِ بِحَسَبِ مَنْ يَعِينُ لِذَلِكَ عِنْدَهُمْ وَهُوَلَاءُ هُمْ الْوَاقِفِيَّةُ فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ هُوَ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ إِلَّا أَنَّهُ غَائِبٌ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وَيَسْتَشْهَدُونَ لِذَلِكَ بِقِصَّةِ الْخَضِرِ (٣) قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِنَّهُ فِي السَّحَابِ وَالرُّعْدُ

(١) السبط، ولد البنت، ولذلك يطلق على الحسن والحسين ابني الإمام علي (رضي الله عنهم) من فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) بنت رسول الله ﷺ فكل منهما سبط للرسول ﷺ .  
 (٢) ربما سقط حرف على من الجملة، بحيث تصبح الجملة « وسخط محمد بن الحنفية على المختار... » .

(٣) ورد ذكر هذه القصة في القرآن الكريم « سورة الكهف بين الآية ٦٥ - ٨٥ » .



صَوْتُهُ وَالْبَرْقُ فِي صَوْتِهِ وَقَالُوا مِثْلَهُ فِي مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَإِنَّهُ فِي جَبَلِ رَضْوَى مِنْ  
أَرْضِ الْحِجَازِ .

وَقَالَ شَاعِرُهُمْ .

أَلَا إِنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ .      وُلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ  
عَلِيٌّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ      هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خِفَاءٌ  
فَسَبَطُ سَبَطِ إِيْمَانٍ وَبِرٍّ      وَسَبَطُ غَيْبَتِهِ كَرْبَلَاءُ  
وَسَبَطُ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى      يَقُودَ الْجَيْشَ يَقْدُمُهُ اللُّوَاءُ  
تَغَيَّبَ لَا يَرَى فِيهِمْ زَمَانًا      بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءٌ  
وَقَالَ مِثْلَهُ غَلَاةُ الْإِمَامِيَّةِ وَخُصُوصًا الْإِثْنَا عَشْرِيَّةِ مِنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الثَّانِي عَشَرَ  
مِنْ أَيْمَتِهِمْ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ وَيُلَقَّبُونَهُ الْمَهْدِيَّ دَخَلَ فِي سِرْدَابٍ  
بِدَارِهِمْ فِي الْحِلَّةِ <sup>(١)</sup> وَتَغَيَّبَ حِينَ اعْتَقِلَ مَعَ أُمِّهِ وَغَابَ هُنَالِكَ وَهُوَ يَخْرُجُ آخِرَ  
الزَّمَانِ فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا يُشِيرُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْحَدِيثِ الْوَاقِعِ فِي كِتَابِ التَّرْمِذِيِّ فِي  
الْمَهْدِيِّ وَهُمْ إِلَى الْآنَ يَنْتَظِرُونَهُ وَيُسَمُّونَهُ الْمُنْتَظَرَ لِذَلِكَ . وَيَقْفُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْدَ  
صَلَاةِ الْمَغْرِبِ بِبَابِ هَذَا السَّرْدَابِ وَقَدْ قَدَّمُوا مَرْكَبًا فَيَنْتَقُونَ بِاسْمِهِ وَيَدْعُونَهُ  
لِلْخُرُوجِ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُومُ ثُمَّ يَنْفُضُونَ وَيَرْجُئُونَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّيْلَةِ الْآتِيَةِ وَهُمْ عَلَى  
ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَبَعْضُ هَؤُلَاءِ الْوَاقِفِيَّةِ يَقُولُ إِنَّ الْإِمَامَ الَّذِي مَاتَ يَرْجِعُ إِلَى حَيَاتِهِ  
الدُّنْيَا وَيَسْتَشْهَدُونَ لِذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَالَّذِي مَرَّ  
عَلَى قَرْيَةِ وَقْتِيلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ ضُرِبَ بِعِظَامِ الْبَقْرَةِ الَّتِي آمَرُوا بِذَبْحِهَا وَمِثْلُ  
ذَلِكَ مِنَ الْخَوَارِقِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَى طَرِيقِ الْمُعْجِزَةِ وَلَا يَصِحُّ الْإِسْتِشْهَادُ بِهَا فِي غَيْرِ  
مَوَاضِعِهَا وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّيِّدِ الْحَمِيرِيِّ وَمَنْ شِعْرُهُ فِي ذَلِكَ

إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَدَالٌ      وَعَلَّلَهُ الْمَوَاشِطُ بِالْخِضَابِ <sup>(٢)</sup>  
فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَتُهُ وَأَوْدَى      فَقُمْ يَا صَاحِبَ نَبِكِ عَلَى الشَّبَابِ

(١) المعروف أنه غاب في سامراء ومقامه معروف إلى اليوم .

(٢) قذال : ج قذال وأقذلة : ما بين الاذنين من مؤخر الرأس . الخضاب : الحنة .

إلى يَوْمِ تَتُوبُ النَّاسُ فِيهِ      إلى ذُنُوبِهِمْ قَبْلَ الْحِسَابِ  
فَلَيْسَ بِعَائِدٍ مَا فَاتَ مِنْهُ      إلى أَحَدٍ إلى يَوْمِ الْإِيَابِ  
أَدِينُ بِأَنَّ ذَلِكَ دِينُ حَقِّ      وَمَا أَنَا فِي النُّشُورِ بِذِي اِزْتِيَابِ  
كَذَاكَ اللَّهُ أَخْبَرَ عَنِ أَنَسٍ      حَيُوا مِنْ بَعْدِ دَرَسِ فِي التُّرَابِ

وَقَدْ كَفَانَا مُؤُونَةَ هَوْلَاءِ الْغَلَاةِ أَيْمَةَ الشَّيْعَةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِهَا وَيُنْطَلُونَ  
اِخْتِجَاجَاتِهِمْ عَلَيْهَا وَأَمَّا الْكَيْسَانِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَخْفِيِّ إِلَى  
ابْنِهِ أَبِي هَاشِمٍ وَهَوْلَاءُ هُمْ الْهَاشِمِيَّةُ ثُمَّ افْتَرَقُوا فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَهُ إِلَى أَخِيهِ عَلِيِّ  
ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ وَأَخْرُونَ يَزْعَمُونَ أَنَّ أَبَا هَاشِمٍ لَمَّا مَاتَ بِأَرْضِ السَّرَاةِ  
مُنْصَرَفًا مِنَ الشَّامِ أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَأَوْصَى مُحَمَّدٌ  
إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ الْمَعْرُوفِ بِالْإِمَامِ وَأَوْصَى إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِيَّةِ  
الْمُلَقَّبِ بِالسَّفَّاحِ وَأَوْصَى هُوَ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرِ الْمُلَقَّبِ بِالْمَنْصُورِ  
وَأَنْتَقَلَتْ فِي وُلْدِهِ بِالنُّصِّ وَالْعَهْدِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهِمْ وَهَذَا مَذْهَبُ الْهَاشِمِيَّةِ  
الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو مُسْلِمٍ وَسُلَيْمَانُ بْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو سَلَمَةَ  
الْخَلَّالُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ شَيْعَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَرُبَّمَا يَعْضُدُونَ ذَلِكَ بِأَنَّ حَقَّهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ  
يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَبَّاسِ لِأَنَّهُ كَانَ حَيًّا وَقَتَ الْوَفَاةِ وَهُوَ أَوْلَى بِالْوَرَاثَةِ بِعَصْبِيَّةِ  
الْعُمُومَةِ وَأَمَّا الزَّيْدِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِيهَا وَإِنَّهَا بِاخْتِيَارِ أَهْلِ الْحَلِّ  
وَالْعَقْدِ لَا بِالنُّصِّ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ عَلِيٍّ ثُمَّ ابْنِهِ الْحَسَنِ ثُمَّ أَخِيهِ الْحُسَيْنِ ثُمَّ ابْنِهِ  
زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ وَهُوَ صَاحِبُ هَذَا الْمَذْهَبِ وَخَرَجَ بِالْكُوفَةِ ذَاعِيًا إِلَى الْإِمَامَةِ فَقُتِلَ  
وَصَلِبَ بِالْكِنَاسَةِ وَقَالَ الزَّيْدِيَّةُ بِإِمَامَةِ ابْنِهِ يَحْيَى مِنْ بَعْدِهِ فَمَضَى إِلَى خُرَاسَانَ  
وَقُتِلَ بِالْجَوْزْجَانِ بَعْدَ أَنْ أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ  
السَّنْبُطِيِّ وَيُقَالُ لَهُ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ ، فَخَرَجَ بِالْحِجَازِ وَتَلَقَّبَ بِالْمُهْدِيِّ وَجَاءَتْهُ عَسَاكِرُ  
الْمَنْصُورِ فَقُتِلَ وَعُهِدَ إِلَى أَخِيهِ إِبْرَاهِيمَ فَقَامَ بِالْبَصْرَةِ وَمَعَهُ عَيْسَى بْنُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ  
فَوَجَّهَ إِلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ عَسَاكِرَهُ فَهَزَمَ وَقُتِلَ إِبْرَاهِيمَ وَعَيْسَى وَكَانَ جَعْفَرُ الصَّادِقِ

أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَعْدُودَةٌ فِي كَرَامَاتِهِ وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّفْسَ الزُّكِّيَّةَ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عُمَرَ، وَعُمَرُ هُوَ أَخُو زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَخَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بِالطَّالِقَانِ فَقَبِضَ عَلَيْهِ وَسَبَقَ إِلَى الْمُعْتَصِمِ فَحَبَسَهُ وَمَاتَ فِي حَبْسِهِ وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الزُّيْدِيَّةِ إِنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ يَحْيَى بْنِ زَيْدٍ هُوَ أَخُوهُ عَيْسَى الَّذِي حَضَرَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قِتَالِهِ مَعَ مَنْصُورٍ وَتَقَلُّوا الْإِمَامَةَ فِي عَقِبِهِ وَالْيَهُ انْتَسَبَ دَعْوَى الزُّنْجِ كَمَا نَذَرُوهُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الزُّيْدِيَّةِ إِنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَخُوهُ إِدْرِيسُ الَّذِي فَرَّ إِلَى الْمَغْرِبِ وَمَاتَ هُنَالِكَ وَقَامَ بِأَمْرِهِ ابْنُهُ إِدْرِيسُ وَاخْتَطَطَ مَدِينَةَ فَاسَ وَكَانَ مِنْ بَعْدِهِ عَقِبُهُ مَلُوكًا بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَنْ انْقَرَضُوا كَمَا نَذَرُوهُ فِي أَخْبَارِهِمْ . وَبَقِيَ أَمْرُ الزُّيْدِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ وَكَانَ مِنْهُمْ الدَّاعِي الَّذِي مَلَكَ طَبْرَسْتَانَ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ زَيْدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ السَّنْبِطِيِّ وَأَخُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ ثُمَّ قَامَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةَ فِي الدَّيْلَمِ النَّاصِرُ الْأَطْرُوشِيُّ مِنْهُمْ . وَأَسْلَمُوا عَلَى يَدِهِ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عُمَرَ وَعُمَرُ أَخُو زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَكَانَتْ لِبَنِيهِ بَطْبَرْسْتَانَ دَوْلَةٌ وَتَوَصَّلَ الدَّيْلَمِيُّ مِنْ نَسَبِهِمْ إِلَى الْمَلِكِ وَالْإِسْتِبْدَادِ عَلَى الْخُلَفَاءِ بِنِقْدَادٍ كَمَا نَذَرُوهُ فِي أَخْبَارِهِمْ . وَأَمَّا الْإِمَامِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ عَلِيٍّ الرَّضِيِّ <sup>(١)</sup> إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ بِالْوَصِيَّةِ ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ الْحُسَيْنِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَمِنْ هُنَا افْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةٌ سَاقُواهَا إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْرِفُونَهُ بَيْنَهُمْ بِالْإِمَامِ وَهُمْ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَفِرْقَةٌ سَاقُواهَا إِلَى ابْنِهِ مُوسَى الْكَاطِمِ وَهُمْ الْإِثْنَا عَشْرِيَّةُ لَوْقُوفِهِمْ عِنْدَ الثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْأَيْمَةِ وَقَوْلُهُمْ بِغَيْبَتِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا مَرَّ فَأَمَّا الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلِ الْإِمَامَ بِالنَّصِّ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ وَفَائِدَةُ النَّصِّ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ أَبِيهِ إِنَّمَا هُوَ بَقَاءُ الْإِمَامَةِ فِي عَقِبِهِ كَقِصَّةِ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا قَالُوا ثُمَّ انْتَقَلَتِ الْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْمَكْتُومِ وَهُوَ أَوَّلُ الْأَيْمَةِ

(١) يقصد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

الْمُسْتَوْرِينَ لِأَنَّ الْإِمَامَ عِنْدَهُمْ قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ شَوْكَةٌ فَيَسْتَبْرُ وَتَكُونُ دُعَاتُهُ ظَاهِرِينَ  
 إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ وَإِذَا كَانَتْ لَهُ شَوْكَةٌ ظَهَرَ وَأُظْهِرَ دَعْوَتَهُ قَالُوا وَبَعْدَ مُحَمَّدٍ  
 الْمَكْتُومِ ابْنُهُ جَعْفَرُ الصَّادِقُ <sup>(١)</sup> وَبَعْدَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْحَبِيبِ وَهُوَ آخِرُ الْمُسْتَوْرِينَ  
 وَبَعْدَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ الَّذِي أُظْهِرَ دَعْوَتَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيُّ فِي كِتَابَةِ  
 وَتَتَابَعَ النَّاسُ عَلَى دَعْوَتِهِ ثُمَّ أُخْرِجَهُ مِنْ مُعْتَقَلِهِ بِسِجْلِمَاسَةَ وَمَلَكَ الْقَيْرَوَانَ  
 وَالْمَغْرِبَ وَمَلَكَ بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ مِضْرَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيُسَمَّى هَؤُلَاءِ  
 نِسْبَةً إِلَى الْقَوْلِ بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ وَيُسَمُّونَ أَيْضًا بِالْبَاطِنِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى قَوْلِهِمْ بِالْإِمَامِ  
 الْبَاطِنِ أَيْ الْمَسْتَوْرِ وَيُسَمُّونَ أَيْضًا الْمُلْحَدَةَ لِمَا فِي ضَمَنِ مَقَالَتِهِمْ مِنَ الْإِلْحَادِ وَلَهُمْ  
 مَقَالَاتٌ قَدِيمَةٌ وَمَقَالَاتٌ جَدِيدَةٌ دَعَا إِلَيْهَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصُّبَّاحِ فِي آخِرِ الْمِائَةِ  
 الْخَامِسَةِ وَمَلَكَ حِصُونًا بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَلَمْ تَزَلْ دَعْوَتُهُ فِيهَا إِلَى أَنْ تَوَزَّعَ الْهَلَاكُ  
 بَيْنَ مَلُوكِ التُّرْكِ بِمِضْرَ وَمَلُوكِ الشُّرِّ بِالْعِرَاقِ فَانْقَرَضَتْ . وَمَقَالَةُ هَذَا الصُّبَّاحِ فِي  
 دَعْوَتِهِ مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ « الْمِلَلِ وَالنَّحْلِ » لِلشَّهْرِسْتَانِيِّ ، وَأَمَّا الْإِثْنَا عَشْرِيَّةُ فَرُبَّمَا  
 حُصُوا بِاسْمِ الْإِمَامِيَّةِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ مُوسَى الْكَاطِمِ بْنِ جَعْفَرِ  
 الصَّادِقِ لَوْفَاةِ أُخِيهِ الْأَكْبَرِ إِسْمَاعِيلِ الْإِمَامِ فِي حَيَاةِ أُبَيْهِمَا جَعْفَرٍ فَنَصَّ عَلَى إِمَامَةِ  
 مُوسَى هَذَا ، ثُمَّ ابْنُهُ عَلِيُّ الرِّضَا الَّذِي عَهْدَ إِلَيْهِ الْأَمَامُونَ وَمَاتَ قَبْلَهُ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ  
 ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ التَّقِيُّ ثُمَّ ابْنُهُ عَلِيُّ الْهَادِي ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيُّ ثُمَّ ابْنُهُ  
 مُحَمَّدُ الْمَهْدِيُّ الْمُنْتَظَرُ الَّذِي قَدَّمْنَا قَبْلُ وَفِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ لِلشَّيْعَةِ  
 اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ أَشْهُرُ مَذَاهِبِهِمْ وَمَنْ أَرَادَ اسْتِيْعَابَهَا وَمَطَالَعَتَهَا فَعَلَيْهِ  
 بِكِتَابِ الْمِلَلِ وَالنَّحْلِ لِابْنِ حَزْمٍ <sup>(٢)</sup> وَالشَّهْرِسْتَانِيِّ وَغَيْرِهِمَا فَيَبَيِّنُ ذَلِكَ وَاللَّهُ  
 يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

(١) لقب الاسماعيلية جعفر بن محمد المكتوم بلقب جده الثاني جعفر الصادق .

(٢) كتاب ابن حزم اسمه : « الفِضْلُ فِي الْمِلَلِ وَالنَّحْلِ » وكتاب الشهرستاني « الملل والنحل »

## الفصل الثامن والعشرون

### في انقلاب الخلافة إلى الملك

إِغْلَمَ أَنَّ الْمُلْكَ غَايَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْعَصِيَّةِ لَيْسَ وَقُوعُهُ عَنْهَا بِاخْتِيَارٍ إِنَّمَا هُوَ بِضُرُورَةِ الْوُجُودِ وَتَرْتِيبِهِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ الشَّرَائِعَ وَالذِّيَانَاتِ وَكُلَّ أَمْرٍ يَخْلُ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْعَصِيَّةِ إِذِ الْمَطَالِبَةُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِهَا كَمَا قَدَّمْنَا . فَالْعَصِيَّةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْمِلَّةِ وَيُوجِدُهَا يَتِمُّ أَمْرُ اللَّهِ مِنْهَا وَفِي الصَّحِيحِ « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ » ثُمَّ وَجَدْنَا الشَّارِعَ قَدْ ذَمَّ الْعَصِيَّةَ وَنَدَبَ إِلَى اطْرَاحِهَا وَتَرْكِهَا فَقَالَ « إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةً <sup>(١)</sup> الْجَاهِلِيَّةَ وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ » وَقَالَ تَعَالَى « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » وَوَجَدْنَا أَيْضًا قَدْ ذَمَّ الْمُلْكَ وَأَهْلَهُ وَنَعَى عَلَى أَهْلِهِ أحوَالَهُمْ مِنَ الْإِسْتِمْتَاعِ بِالْخِلَاقِ <sup>(٢)</sup> وَالْإِسْرَافِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ وَالتَّنَكُّبِ عَنِ صِرَاطِ اللَّهِ وَإِنَّمَا حَضَّ عَلَى الْإِلْفَةِ فِي الدِّينِ وَحَذَرَ مِنَ الْخِلَافِ وَالْفُرْقَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَأحوَالُهَا مَطِيَّةٌ لِلْآخِرَةِ وَمَنْ فَقَدَ الْمَطِيَّةَ فَقَدَ الْوُصُولَ . وَلَيْسَ مُرَادُهُ فِيهَا يَنْهَى عَنْهُ أَوْ يَدْمُهُ مِنْ أفعالِ الْبَشَرِ أَوْ يَنْدُبُ إِلَى تَرْكِهِ إِهْمَالَهُ بِالْكَلِيَّةِ أَوْ اقْتِلَاعَهُ مِنْ أَصْلِهِ وَتَعْطِيلِ الْقَوَى الَّتِي يَنْشَأُ عَلَيْهَا بِالْكَلِيَّةِ إِنَّمَا قَضَاهُ تَضْرِيْفُهَا فِي أَغْرَاضِ الْحَقِّ جُهْدَ الْإِسْتِطَاعَةِ حَتَّى تَصِيرَ الْمَقَاصِدُ كُلُّهَا حَقًّا وَتَتَّجِدَ الْوُجْهَةُ كَمَا قَالَ ﷺ « مَنْ كَانَتْ هُجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هُجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَرَوَّجُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » فَلَمْ يَذُمَّ الْغَضَبَ وَهُوَ يَقْصِدُ نَزْعَهُ مِنَ الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ لَوْ زَالَتْ مِنْهُ قُوَّةُ الْغَضَبِ لَفَقِدَ مِنْهُ الْإِنْتِصَارَ لِلْحَقِّ وَبَطَلَ الْجِهَادَ وَإِعْلَاءَ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِنَّمَا يَذُمَّ الْغَضَبَ

(١) غبة بضم العين وكسر هاء الموحدة المشددة وتشديد المثناة التحتية الكبر والفخر والنخوة اه قاموس

(٢) الخلاق ، النصيب الوافر من الخير . وبكسر الخاء نوع من الطيب أعظم أجزائه الزعفران .

لِلشَّيْطَانِ وَاللَّاغْرَاضِ الذَّمِيمَةِ فَإِذَا كَانَ الْغَضَبُ لِذَلِكَ كَانَ مَذْمُومًا وَإِذَا كَانَ الْغَضَبُ  
فِي اللَّهِ وَاللَّهُ كَانَ مَمْدُوحًا وَهُوَ مِنْ شَمَائِلِهِ ﷺ وَكَذَا ذُمُّ الشَّهَوَاتِ أَيْضًا لَيْسَ  
الْمُرَادُ إِبْطَالُهَا بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّ مَنْ بَطَلَتْ شَهْوَتُهُ كَانَ تَقْصًا فِي حَقِّهِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ  
تَضْرِيْفُهَا فِيمَا أُبِيحَ لَهُ بِاسْتِمَالِهِ عَلَى الْمَصَالِحِ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ عَبْدًا مُتَضَرِّفًا طَوْعَ  
الْأَوْامِرِ الْإِلَهِيَّةِ وَكَذَا الْعَصِيَّةُ حَيْثُ ذَمُّهَا الشَّارِعُ وَقَالَ : « لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا  
أَوْلَادُكُمْ » فَإِنَّمَا مُرَادُهُ حَيْثُ تَكُونُ الْعَصِيَّةُ عَلَى الْبَاطِلِ وَأَحْوَالِهِ كَمَا كَانَتْ فِي  
الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فَخْرٌ بِهَا أَوْ حَقٌّ عَلَى أَحَدٍ لِأَنَّ ذَلِكَ مِجَانٌ مِنْ أَعْمَالِ  
الْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ نَافِعٍ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ دَارُ الْقَرَارِ فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْعَصِيَّةُ فِي الْحَقِّ  
وِإِقَامَةِ أَمْرِ اللَّهِ فَأَمْرٌ مَطْلُوبٌ وَلَوْ بَطَلَ لَبَطَلَتْ الشَّرَائِعُ إِذْ لَا يَتِمُّ قَوْمُهَا إِلَّا  
بِالْعَصِيَّةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ وَكَذَا الْمَلِكُ لَمَّا ذَمَّهُ الشَّارِعُ لَمْ يَذُمَّ مِنْهُ الْغَلْبُ بِالْحَقِّ  
وَقَهْرَ الْكَافَةِ عَلَى الدِّينِ وَمُرَاعَاةَ الْمَصَالِحِ وَإِنَّمَا ذَمُّهُ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّغْلِبِ بِالْبَاطِلِ  
وَتَضْرِيْفِ الْإِدْمِيْنِ طَوْعَ الْأَغْرَاضِ وَالشَّهَوَاتِ كَمَا قُلْنَا ، فَلَوْ كَانَ الْمَلِكُ مُخْلِصًا  
فِي غَلْبِهِ لِلنَّاسِ أَنَّهُ اللَّهُ وَلِحَمْلِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَجِهَادِ عَدُوِّهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَذْمُومًا وَقَدْ  
قَالَ سُلَيْمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ « رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » لِمَا عَلِمَ  
مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَمْعَزِلُ عَنِ الْبَاطِلِ فِي النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ . وَلَمَّا لَقِيَ مُعَاوِيَةَ عَمْرُ بْنُ  
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ قُدُومِهِ إِلَى الشَّامِ فِي أُبْهَةِ الْمَلِكِ وَرِيهِ مِنَ الْعَدِيدِ  
وَالْعُدَّةِ اسْتَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ : « أَكْسَرِيَّةُ يَا مُعَاوِيَةُ ؟ » فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ  
أَنَا فِي ثَغْرِ تَجَاهِ الْعَدُوِّ وَبِنَا إِلَى مِبَاهَاتِهِمْ بِزِينَةِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ حَاجَةٌ » فَسَكَتَ وَلَمْ  
يُخَطِّئْهُ لِمَا اخْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِ الْحَقِّ وَالدِّينِ فَلَوْ كَانَ الْقَضْدُ رَفْضُ  
الْمَلِكِ مِنْ أَصْلِهِ لَمْ يُقْبَعِ الْجَوَابُ فِي تِلْكَ الْكِسْرِيَّةِ وَانْتِحَالِهَا بَلْ كَانَ يُحْرَضُ  
عَلَى خُرُوجِهِ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا أَرَادَ عَمْرٌ بِالْكِسْرِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارَسٍ فِي  
مُلْكِهِمْ مِنْ اِزْتِكَابِ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَسُلُوكِ سَبِيلِهِ وَالغَفْلَةِ عَنِ اللَّهِ وَأَجَابَهُ  
مُعَاوِيَةُ بِأَنَّ الْقَضْدَ بِذَلِكَ لَيْسَ كِسْرِيَّةً فَارَسَ وَبَاطِلُهُمْ وَإِنَّمَا قَضَدَهُ بِهَا وَجَهَ اللَّهُ

فَسَكَتَ ، وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ الصُّحَابَةِ فِي رَفْضِ الْمَلِكِ وَأُخُوَالِهِ وَنِسْيَانِ عَوَائِدِهِ حَذْرًا  
 مِنَ التَّبَاسُطِ بِالْبَاطِلِ فَلَمَّا اسْتُخْصِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى  
 الصَّلَاةِ إِذْ هِيَ أَهْمُ أُمُورِ الدِّينِ وَارْتِضَاهُ النَّاسُ لِلْخِلَافَةِ وَهِيَ حَمَلُ الْكَافَةِ عَلَى أَحْكَامِ  
 الشَّرِيعَةِ وَلَمْ يَجْرِ لِلْمَلِكِ ذِكْرٌ لِمَا أَنَّهُ مَظْنَةُ لِلْبَاطِلِ وَنَخْلَةٌ يَوْمئِذٍ لِأَهْلِ الْكُفْرِ  
 وَأَعْدَاءِ الدِّينِ فَقَامَ بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ مَا شَاءَ اللَّهُ مُتَّبِعًا سُنَنُ صَاحِبِهِ وَقَاتَلَ أَهْلَ الرِّدَّةِ  
 حَتَّى اجْتَمَعَ الْعَرَبُ عَلَى الْإِسْلَامِ ثُمَّ عَاهَدَ إِلَى عُمَرَ فَأَقْتَمَى أَثَرَهُ وَقَاتَلَ الْأُمَّةَ فَغَلِبَهُمْ  
 وَإِذْنٌ لِلْعَرَبِ بِانْتِزَاعِ مَا بِيَدَيْهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالْمَلِكِ فَغَلِبُوهُمُ عَلَيْهِ وَانْتَرَعُوهُ مِنْهُمْ  
 ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ ثُمَّ إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالْكَلُّ يُتَبَرُّونَ مِنَ  
 الْمَلِكِ مُنْكَبُونَ عَنْ طَرَفِهِ وَأَكَّدَ ذَلِكَ لَدَيْهِمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ غَضَاةِ الْإِسْلَامِ  
 وَيَدَاوَةِ الْعَرَبِ فَقَدْ كَانُوا أَبْعَدَ الْأُمَّةِ عَنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَتَرْفِهَا لَا مِنْ حَيْثُ دِينُهُمْ  
 الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الزُّهْدِ فِي النَّعِيمِ وَلَا مِنْ حَيْثُ بَدَاوَتُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ  
 مِنْ خُشُوعِ الْعَيْشِ وَسُطْفِيهِ الَّذِي الْفَوْهُ ، فَلَمْ تَكُنْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَّةِ اسْتَبَدَّتْ عَيْشًا مِنْ مُضَرٍّ  
 لَمَّا كَانُوا بِالْحِجَازِ فِي أَرْضٍ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ وَكَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ الْأَرْيَافِ  
 وَحُبُوبِهَا لِبُعْدِهَا وَاخْتِصَاصِهَا بِمَنْ وَلِيَهَا مِنْ رِبِيعَةَ وَالْيَمَنِ فَلَمْ يَكُونُوا يَتَطَاوَلُونَ  
 إِلَى خِصْبِهَا وَلَقَدْ كَانُوا كَثِيرًا مَا يَأْكُلُونَ الْعَقَارِبَ وَالْخَنَافِسَ وَيَفْخَرُونَ بِأَكْلِ  
 الْعَلْهَزِ وَهُوَ وَبَرُّ الْإِبِلِ يَمْهُونَهُ<sup>(١)</sup> بِالْحِجَازَةِ فِي الدَّمِ وَيَطْبُخُونَهُ وَقَرِيبًا مِنْ هَذَا  
 كَانَتْ حَالُ قَرِيشٍ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَتْ عَصِيَّةُ الْعَرَبِ عَلَى  
 الدِّينِ بِمَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ زَحَفُوا إِلَى أُمَّةِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَطَلَبُوا  
 مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِوَعْدِ الصَّدَقِ فَأَبْتَزُوا مُلْكَهُمْ وَاسْتَبَاحُوا دُنْيَاهُمْ  
 فَرَحَزَتْ بِحَارِ الرَّفِهِ لَدَيْهِمْ حَتَّى كَانَ الْفَارِسُ الْوَاحِدُ يُقَسِّمُ لَهُ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ  
 ثَلَاثُونَ أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ أَوْ نَحْوَهَا فَاسْتَوْلُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ الْحَصْرُ وَهُمْ مَعَ  
 ذَلِكَ عَلَى خُشُوعِ عَيْشِهِمْ فَكَانَ عُمَرُ يُرْقِعُ ثَوْبَهُ بِالْجِلْدِ وَكَانَ عَلِيُّ يَقُولُ :

(١) أي يضربونه بالحجارة حتى يرقع.

« يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غَرِي غَيْرِي » وَكَانَ أَبُو مُوسَى يَتَجَاوَى عَنْ أَكْلِ الدَّجَاجِ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْهَدْهَا لِلْعَرَبِ لِقِلَّتِهَا يَوْمئِذٍ وَكَانَتْ الْمَنَاحِلُ مَفْقُودَةً عِنْدَهُمْ بِالْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ الْحِنْطَةَ بِنَحَالِهَا وَمَكَاسِيهِمْ مَعَ هَذَا أُمَّ مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ قَالَ الْمَسْعُودِيُّ فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ أَقْتَنَى الصُّحَابَةُ الضِّيَاعَ وَالْمَالُ فَكَانَ لَهُ يَوْمَ قُتِلَ عِنْدَ خَازِنِهِ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ أَلْفَ دِينَارٍ وَأَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَقِيمَةُ ضِيَاعِهِ بِوَادِي الْقَرَى وَحُنَيْنٍ وَغَيْرِهِمَا مِائَتَا أَلْفٍ<sup>(١)</sup> دِينَارٍ وَخَلْفَ إِبِلًا وَخَيْلًا كَثِيرَةً وَبَلَغَ الثَّمَنُ الْوَاحِدُ مِنْ مَتْرُوكِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَخَلْفَ أَلْفَ فَرَسٍ وَأَلْفَ أُمَةٍ وَكَانَتْ غَلَّةُ طَلْحَةَ مِنَ الْعِرَاقِ أَلْفَ دِينَارٍ كُلُّ يَوْمٍ وَمِنْ نَاحِيَةِ السَّرَاةِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَ عَلَى مَرْبِطِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَلْفُ فَرَسٍ وَلَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ وَعَشْرَةُ آلَافٍ مِنَ النِّعَمِ وَبَلَغَ الرَّبْعُ مِنْ مَتْرُوكِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ أَرْبَعَةٌ وَثَمَانِينَ أَلْفًا وَخَلْفَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ مَا كَانَ يُكْسَرُ بِالْفُؤُوسِ غَيْرَ مَا خَلْفَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالضِّيَاعِ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَبَنَى الزُّبَيْرُ دَارَهُ بِالْبَصْرَةِ وَكَذَلِكَ بَنَى بِمِصْرَ وَالْكُوفَةِ وَالْإِسْكَندَرِيَّةِ وَكَذَلِكَ بَنَى طَلْحَةُ دَارَهُ بِالْكُوفَةِ وَشَيْدَ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَبَنَاهَا بِالْحِصِّ وَالْأَجْرُ وَالسَّاجَ وَبَنَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ دَارَهُ بِالْعَقِيقِ وَرَفَعَ سَمَكَهَا وَأَوْسَعَ فِضَاءَهَا وَجَعَلَ عَلَى أَغْلَاهَا شُرْفَاتٍ وَبَنَى الْمِقْدَادُ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَجَعَلَهَا مُجَصَّصَةً الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَخَلْفَ يَعْلَى بْنِ مُنْبِيهِ<sup>(٢)</sup> خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَعَقَارًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مَا قِيمَتُهُ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ١ هـ كَلَامُ الْمَسْعُودِيِّ . فَكَانَتْ مَكَاسِبُ الْقَوْمِ كَمَا تَرَاهُ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَنَعِيًا عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ إِذْ هِيَ أَمْوَالٌ حَلَالٌ لِأَنَّهَا غَنَائِمٌ وَفِيئَةٌ وَلَمْ يَكُنْ تَصَرُّفُهُمْ فِيهَا بِإِسْرَافٍ إِنَّمَا كَانُوا عَلَى قَضْدٍ فِي أَحْوَالِهِمْ كَمَا قُلْنَا فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ الْإِسْتِكْثَارُ مِنَ الدُّنْيَا مَذْمُومًا فَإِنَّمَا يَرْجَعُ إِلَى مَا أَسْرَنَّا إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْرَافِ وَالْخُرُوجِ بِهِ عَنِ الْقَضْدِ وَإِذَا كَانَ حَالُهُمْ قَضْدًا وَتَفَقَّاتُهُمْ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ كَانَ ذَلِكَ الْإِسْتِكْثَارَ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَاتِّسَابِ

(١) وفي بعض النسخ مائة ألف .

(٢) يعلى بن منبه أو يعلى بن أمية (أعلام الرجال) .



الدار الآخرة فلما تدرجت البداوة والغضاضة إلى نهايتها وجاءت طبيعة الملك  
التي هي مقتضى العصبية كما قلناه وحصل التغلب والقمهز كان حكم ذلك الملك  
عندهم حكم ذلك الرقه والاستكثار من الأموال فلم يصرّفوا ذلك التغلب في باطل  
ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق ، ولما وقعت الفتنة بين علي  
ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في  
مخاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لإشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم  
وينزع إليه ملحد وإنما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه  
باجتهاده في الحق فاقنتلوا عليه وإن كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائما فيها  
بقصد الباطل إنما قصد الحق وأخطأ والكل كانوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت  
طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع عن  
نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم  
يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوبوا عليه واستماتوا  
دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقع  
في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير  
مخالفة وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن  
محمد بن أبي بكر « لو كان لي من الأمر شيء لوليت الخليفة » ولو أراد أن يعهد  
إليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر  
أن يحول الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة . وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي  
هي مقتضى العصبية فالمملك إذا حصل وفرضا أن الواحد انفرد به وصرفه في  
مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك نكير عليه ولقد انفرد سليمان وأبوه داود  
صلوات الله عليهما بملك بني إسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك من الانفراد به  
وكانوا ما علمت من النبوة والحق وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفا من افتراق  
الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم . فلو قد عهد إلى

غَيْرِهِ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ مَعَ أَنْ ظَنَّهُمْ كَانَ بِهِ صَالِحًا وَلَا يَزْتَابُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ وَلَا يُظُنُّ  
 بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُهُ فَلَمْ يَكُنْ لِيُعْتَدَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَعْتَقِدُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْفُسُوقِ حَاشَا لِلَّهِ  
 لِمُعَاوِيَةَ مِنْ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ كَانَ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَابْنَهُ وَإِنْ كَانُوا مُلُوكًا لَمْ يَكُنْ  
 مَذْهَبُهُمْ فِي الْمُلْكِ مَذْهَبَ أَهْلِ الْبَطَالَةِ وَالْبَغْيِ إِنَّمَا كَانُوا مُتَحَرِّينَ لِمَقَاصِدِ الْحَقِّ  
 جُهْدَهُمْ إِلَّا فِي ضَرُورَةٍ تَحْمِلُهُمْ عَلَى بَعْضِهَا مِثْلَ خَشْيَةِ افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّتِي هُوَ أَهْمُ  
 لَدَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَقْصِدٍ يَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِتْبَاعِ وَالْإِقْتِدَاءِ وَمَا عَلِمَ  
 السُّلْفُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ فَقَدْ اخْتَجَّ مَالِكٌ فِي الْمَوْطِئِ<sup>(١)</sup> بِعَمَلِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَمَّا  
 مَرْوَانُ فَكَانَ مِنَ الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنَ التَّائِبِينَ وَعَدَالَتُهُمْ مَعْرُوفَةٌ ثُمَّ تَدْرَجَ الْأَمْرُ فِي وَدِّ  
 عَبْدِ الْمَلِكِ وَكَانُوا مِنَ الدِّينِ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ وَتَوَسَّطَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ  
 الْعَزِيزِ فَنَزَعَ إِلَى طَرِيقَةِ الْخُلَفَاءِ الْأَزْبَعَةِ وَالصَّحَابَةِ جُهْدَهُ وَلَمْ يَهْمَلْ . ثُمَّ جَاءَ  
 خَلْفُهُمْ وَاسْتَعْمَلُوا طَبِيعَةَ الْمُلْكِ فِي أَعْرَاضِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ وَمَقَاصِدِهِمْ وَسَوُوا مَا كَانَ  
 عَلَيْهِ سَلْفُهُمْ مِنْ تَحْرِيِ الْقَضِيَّةِ فِيهَا وَاعْتِمَادِ الْحَقِّ فِي مَذَاهِبِهَا فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا دَعَا  
 النَّاسَ إِلَى أَنْ نَعُوا عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَأَدَالُوا بِالذُّعْوَةِ الْعَبَاسِيَّةِ مِنْهُمْ وَوَلَّى رِجَالَهَا الْأَمْرَ  
 فَكَانُوا مِنَ الْعَدَالَةِ بِمَكَانٍ وَصَرَّفُوا الْمُلْكَ فِي وَجُوهِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ مَا اسْتَطَاعُوا  
 حَتَّى جَاءَ بَنُو الرَّشِيدِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانَ مِنْهُمْ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ثُمَّ أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى  
 بَنِيهِمْ فَأَعْطَوْا الْمُلْكَ وَالتَّرَفَ حَقَّهُ وَانْعَمَسُوا فِي الدُّنْيَا وَبَاطَلُهَا وَتَبَدُّوا الدِّينَ وَرَأَاهُمْ  
 ظَهْرِيًّا فَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِحَرْبِهِمْ وَانْتزَاعِ الْأَمْرِ مِنْ أَيْدِي الْعَرَبِ جُمْلَةً وَأَمَكْنَ سِوَاهُمْ  
 وَاللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ . وَمَنْ تَأَمَّلَ سَيْرَ هَؤُلَاءِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ وَاخْتِلَافَهُمْ فِي  
 تَحْرِيِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ عَلِمَ صِحَّةَ مَا قُلْنَا وَقَدْ حَكَاهُ الْمَسْعُودِيُّ مِثْلَهُ فِي أَحْوَالِ  
 بَنِي أُمَيَّةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ وَقَدْ حَضَرَ عُمُومَتَهُ وَذَكَرُوا بَنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ : « أَمَّا  
 عَبْدُ الْمَلِكِ فَكَانَ جَبَّارًا لَا يُبَالِي بِمَا صَنَعَ وَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَكَانَ هُمَةً بَطْنَةً وَفَرَجَةً  
 وَأَمَّا عُمَرُ فَكَانَ أَعْوَرَ بَيْنَ عُمَيَّانٍ وَكَانَ رَجُلٌ الْقَوْمِ هَشَامًا » قَالَ وَلَمْ يَزَلْ بَنُو أُمَيَّةَ  
 ضَايِبِينَ لِمَا مَهَّدَ لَهُمْ مِنَ السُّلْطَانِ يَحْوِطُونَهُ وَيَصُونُونَ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْهُ مَعَ

(١) هو كتاب مشهور في الحديث لمالك بن أنس .

تَسْنِمِهِمْ مَعَالِي الْأُمُورِ وَرَفِضِهِمْ دُنْيَانَهَا حَتَّى أَقْضَى الْأَمْرَ إِلَى أُنْبَائِهِمُ الْمُتَشْرِفِينَ  
فَكَانَتْ هِمَّتُهُمْ قَصْدَ الشَّهَوَاتِ وَرُكُوبَ اللَّذَاتِ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ جَهْلًا بِاسْتِزْرَاجِهِ  
وَأَمْنَا لِمَكْرِهِ مَعَ اطْرَاحِهِمْ صِيَانَةَ الْخِلَافَةِ وَاسْتِخْفَافِهِمْ بِحَقِّ الرِّئَاسَةِ وَضَعْفِهِمْ عَنِ  
السِّيَاسَةِ فَسَلَبَهُمُ اللَّهُ الْعِزَّ وَالْبَسَمَهُمُ الذُّلَّ وَنَفَى عَنْهُمْ النُّعْمَةَ ثُمَّ اسْتَحْضَرَ عَبْدَ اللَّهِ <sup>(١)</sup>  
ابْنَ مَرْوَانَ فَقَصَّ عَلَيْهِ خَبْرَهُ مَعَ مَلِكِ النُّوْبَةِ لَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُمْ فَأَرَا أَيَّامَ السُّفَاحِ قَالَ  
أَقَمْتُ مَلِيًّا ثُمَّ أَتَانِي مَلِكُهُمْ فَقَعَدَ عَلَيَّ عَلَى الْأَرْضِ وَقَدْ بَسَطَتْ لِي فُرْشَ دَاتٍ قِيَمَةٌ فَقُلْتُ  
مَا مَنَعَكَ عَنِ الْقُعُودِ عَلَيَّ يَا بِنَا <sup>(٢)</sup> فَقَالَ إِنِّي مَلِكٌ وَحَقٌّ لِكُلِّ مَلِكٍ أَنْ يَتَوَاضَعَ  
لِعَظْمَةِ اللَّهِ إِذْ رَفَعَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ لِي : لِمَ تَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَهِيَ مُحْرَمَةٌ عَلَيْكُمْ فِي  
كِتَابِكُمْ ؟ فَقُلْتُ : اجْتَرَأَ عَلَى ذَلِكَ عِبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا قَالَ : فَلِمَ تَطْطُونُ الزَّرْعَ  
بِدَوَابِّكُمْ وَالْفَسَادَ مُحْرَمًا عَلَيْكُمْ ؟ قُلْتُ : فَعَلَّ ذَلِكَ عِبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا بِجَهْلِهِمْ قَالَ :  
فَلِمَ تَلْبَسُونَ الدِّيَابِجَ وَالذَّهَبَ وَالْحَرِيرَ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ ؟ قُلْتُ : ذَهَبَ  
مِنَّا الْمُلْكُ وَانْتَصَرْنَا بِقَوْمٍ مِنَ الْعَجَمِ دَخَلُوا فِي دِينِنَا فَلَبَسُوا ذَلِكَ عَلَى الْكُرْهِ مِنَّا .  
فَأَطْرَقَ يَنْكِثُ بِيَدِهِ فِي الْأَرْضِ وَيَقُولُ عِبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا وَأَعَاجِمُ دَخَلُوا فِي دِينِنَا ثُمَّ  
رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ : « لَيْسَ كَمَا ذَكَرْتَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ اسْتَحْلَلْتُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ  
وَأَتَيْتُمْ مَا عَنْهُ نَهَيْتُمْ وَظَلَمْتُمْ فِيمَا مَلَكَتُمْ فَسَلَبَكُمْ اللَّهُ الْعِزَّ وَالْبَسَكُمْ الذُّلَّ بِذُنُوبِكُمْ  
وَلِلَّهِ نَقْمَةٌ لَمْ تُبْلَغْ غَايَتُهَا فِيكُمْ وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يَحُلَّ بِكُمْ الْعَذَابُ وَأَنْتُمْ بِيَلَدِي  
فِيئَالِي مَعَكُمْ وَإِنَّمَا الضِّيَافَةُ ثَلَاثٌ فَتَزُودُ مَا اخْتَجْتَ إِلَيْهِ وَارْتَحِلْ عَنِّي أَرْضِي »  
فَتَعَجَّبَ الْمَنْصُورُ وَأَطْرَقَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ كَيْفَ انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمُلْكِ وَأَنَّ الْأَمْرَ  
كَانَ فِي أَوْلِهِ خِلَافَةً وَوَأَزَعَ كُلَّ أَحَدٍ فِيهَا مِنْ نَفْسِهِ وَهُوَ الدِّينُ وَكَانُوا يُؤْتِرُونَهُ عَلَى  
أُمُورِ دُنْيَانِهِمْ وَإِنْ أَنْصَتَ إِلَى هَلَاكِهِمْ وَخَدَّهُمْ دُونَ الْكُفَافَةِ هَذَا عُمَانٌ لَمَّا حَصَرَ فِي  
الْدَارِ جَاءَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَابْنُ جَعْفَرٍ وَأَمْثَالُهُمْ يُرِيدُونَ

(١) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض الفارسية وفي بعضها عبد الملك وأظنه تصحيحاً (قوله

نصر)

(٢) فرشنا .

المدافعة عنه فأبى ومنع من سلّ السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظاً  
للإلفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه . وهذا عليّ أشار عليه المغيرة  
لأول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على  
بيعتيه وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك  
فأبى فراراً من العش الذي ينافيه الإسلام وغداً عليه المغيرة من الغداة فقال :  
« لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدت إلى نظري فعلمت أنه ليس من  
الحق والنصيحة وأن الحق فيما رأيته أنت » فقال عليّ : « لا والله بل أعلم أنك  
نصختني بالأمس وغششتني اليوم ولكن منعتني مما أشرت به زائد الحق وهكذا  
كانت أحوالهم في إصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبتقت معاني الخلافة من تحري  
الدين ومداهيه والجري على منهاج الحق ولم يظهر التغير إلا في الزارع الذي كان  
ديناً ثم انقلب عصبيةً وسيفاً وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد  
الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت  
معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكاً بختاً وجرت طبيعة التغلب إلى  
غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان  
الأمر لولد عبد الملك ولما جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقياً  
فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس ببعضهما ببعض ثم  
ذهب رسم الخلافة وأثرها يذهب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم  
وبقي الأمر ملكاً بختاً كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة  
الخليفة تبركاً والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء وكذلك  
فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديين ومغراوة وبني يفرن أيضاً  
مع خلفاء بني أمية بالأندلس والعبيديين بالقيروان فقد تبين أن الخلافة قد

وَجَدَتْ بِدُونِ الْمَلِكِ أَوْلَا ثُمَّ التَّبَسَّتْ مَعَانِيهِمَا وَاخْتَلَطَتْ ثُمَّ انْفَرَدَ الْمَلِكُ حَيْثُ  
افْتَرَقَتْ عَصِيَّتُهُ مِنْ عَصِيَّةِ الْخِلَافَةِ وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

## الفصل التاسع والعشرون

### في معنى البيعة<sup>(١)</sup>

إِعْلَمَ أَنَّ الْبَيْعَةَ هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ كَأَنَّ الْمُبَايِعَ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يُسَلِّمُ  
لَهُ النَّظَرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُنَازِعُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَيُطِيعُهُ فِيمَا  
يُكَلِّفُهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى الْمُنْشِطِ وَالْمُكْرَهِ وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا الْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ  
جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ تَأْكِيداً لِلْعَهْدِ فَأَشْبَهَ ذَلِكَ فِعْلَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِيِ فَسُمِّيَ بَيْعَةً  
مَضَرَّ بَاعَ وَصَارَتْ الْبَيْعَةُ مُصَافِحَةً بِالْأَيْدِيِ هَذَا مَذْلُوبُهَا فِي عَرَفِ اللَّغَةِ وَمَعْنُودِ  
الشَّرْعِ وَهُوَ الْمَرَادُ فِي الْحَدِيثِ فِي بَيْعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ وَعِنْدَ الشَّجَرَةِ  
وَحَيْثُمَا وَرَدَ هَذَا اللَّفْظُ وَمِنَهُ بَيْعَةُ الْخُلَفَاءِ وَمِنَهُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ كَانَ الْخُلَفَاءُ  
يُسْتَحْلَفُونَ عَلَى الْعَهْدِ وَيَسْتَوْعِبُونَ الْأَيْمَانَ كُلَّهَا لِذَلِكَ فَسُمِّيَ هَذَا الْإِسْتِيعَابُ  
أَيْمَانَ الْبَيْعَةِ وَكَانَ الْإِكْرَاهُ فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ وَلِهَذَا لَمَّا أَقْتَى مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
بِسُقُوطِ يَمِينِ الْإِكْرَاهِ أَنْكَرَهَا الْوَلَاةُ عَلَيْهِ وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِي أَيْمَانِ الْبَيْعَةِ ، وَوَقَعَ  
مَا وَقَعَ مِنْ مَخْنَةِ الْإِمَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَمَّا الْبَيْعَةُ الْمَشْهُورَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فَهِيَ تَحِيَّةُ  
الْمُلُوكِ الْكِسْرَوِيَّةِ مِنْ تَقْبِيلِ الْأَرْضِ أَوْ الْيَدِ أَوْ الرَّجْلِ أَوْ الذَّنْبِلِ أُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ  
الْبَيْعَةِ الَّتِي هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ مَجَازاً لِمَا كَانَ هَذَا الْخُضُوعُ فِي التَّحِيَّةِ وَالْتِزَامُ  
الْأَدَابِ مِنْ لَوَازِمِ الطَّاعَةِ وَتَوَابِعِهَا وَعَلَبَ فِيهِ حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً وَاسْتَفْنَى  
بِهَا عَنْ مُصَافِحَةِ أَيْدِيِ النَّاسِ الَّتِي هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي الْأَصْلِ لِمَا فِي الْمُصَافِحَةِ لِكُلِّ  
أَحَدٍ مِنَ التَّنَزُّلِ وَالْإِتِّدَالِ الْمُنَافِقِينَ لِلرَّئِاسَةِ وَصَوْنِ الْمَنْصِبِ الْمُلُوكِيِّ إِلَّا فِي الْأَقَلِّ

(١) البيعة بفتح الواحدة أما بكسرهما على وزن شيعمة بسكون الياء فيها فهي معبد النصارى . هـ ١ .

مِمَّنْ يَفْصِدُ التَّوَاضُعَ مِنَ الْمُلُوكِ فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ خَوَاصِهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ فَأَقْبَلَهُمْ مَعْنَى الْبَيْعَةِ فِي الْعُرْفِ فَإِنَّهُ أَكِيدٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتَهُ لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِيهِ وَإِمَامِيهِ وَلَا تَكُونُ أَعْمَالُهُ عَبَثًا وَمَجَانًا وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِكَ مَعَ الْمُلُوكِ وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ .

## الفصل الثالثون

### في ولاية العهد

إِغْلَمَ أَنَا قَدَمْنَا الْكَلَامَ فِي الْإِمَامَةِ وَمَشْرُوعِيَّتِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَأَنَّ حَقِيقَتَهَا لِلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الْأُمَّةِ لِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ فَهَوَ وَوَلِيَّتُهُمُ وَالْأَمِينُ عَلَيْهِمْ يَنْظُرُ لَهُمْ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ أَنْ يَنْظُرَ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ وَيَقِيمَ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ كَمَا كَانَ هُوَ يَتَوَلَّاهَا وَيَتَّقُونَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَا وَثَقُوا بِهِ فِيمَا قَبْلَ وَقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى جَوَازِهِ وَأَنْعِقَادِهِ إِذْ وَقَعَ بِعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعُمَرَ بِمَخْضَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَجَازُوهُ وَأَوْجَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ طَاعَةَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ وَكَذَلِكَ عَهْدَ عُمَرَ فِي الشُّورَى إِلَى السَّنَةِ بَقِيَّةِ الْعَشْرَةِ وَجَعَلَ لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا لِلْمُسْلِمِينَ فَفُوضَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى أَفْضَى ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَاجْتَهَدَ وَنَاطَرَ الْمُسْلِمِينَ فَوَجَدَهُمْ مُتَّفِقِينَ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلَى عَلِيٍّ فَأَثَرَ عُثْمَانَ بِالْبَيْعَةِ عَلَى ذَلِكَ لِمُؤَافَقَتِهِ إِيَّاهُ عَلَى لُزُومِ الْإِقْتِدَاءِ بِالشَّيْخَيْنِ فِي كُلِّ مَا يَبِينُ دُونَ اجْتِهَادِهِ فَانْتَقَدَ أَمْرَ عُثْمَانَ لِذَلِكَ وَأَوْجَبُوا طَاعَتَهُ وَالْمَلَائِمَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ حَاضِرُونَ لِلْأُولَى وَالثَّانِيَةِ وَلَمْ يُنْكَرْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْعَهْدِ عَارِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّتِهِ .

وَالْإِجْمَاعُ حُجَّةٌ كَمَا عُرِفَ وَلَا يُتَّهَمُ الْإِمَامُ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَإِنْ عَهْدَ إِلَى أَبِيهِ أَوْ ابْنِهِ لِأَنَّهُ مَأْمُونٌ عَلَى النَّظَرِ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ فَأَوْلَى أَنْ لَا يَخْتَمِلَ فِيهَا تَبِعَةً بَعْدَ مَمَاتِهِ

خِلَافًا لِمَنْ قَالَ بِإِتِهَامِهِ فِي الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ أَوْ لِمَنْ خَصَّصَ التَّهْمَةَ بِالْوَلَدِ دُونَ الْوَالِدِ فَإِنَّهُ يَبْعِدُ عَنِ الظَّنِّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ دَاعِيَةٌ تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ إِثَارِ مَضْلِحَةٍ أَوْ تَوَقُّعِ مَفْسَدَةٍ فَتَنْتَفِي الظَّنُّ فِي ذَلِكَ رَأْسًا كَمَا وَقَعَ فِي عَهْدِ مُعَاوِيَةَ لِابْنِهِ يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فِعْلٌ مُعَاوِيَةَ مَعَ وِفَاقِ النَّاسِ لَهُ حُجَّةٌ فِي الْبَابِ وَالَّذِي دَعَا مُعَاوِيَةَ لِإِثَارِ ابْنِهِ يَزِيدَ بِالْعَهْدِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ إِنَّمَا هُوَ مَرَاعَاةُ الْمَضْلِحَةِ فِي اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ أَهْوَائِهِمْ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِذْ بَنُو أُمَيَّةٍ يَوْمئِذٍ لَا يَرْضُونَ سِوَاهُمْ وَهُمْ عَصَابَةٌ قُرَيْشٍ وَأَهْلُ الْعِلَّةِ أَجْمَعُ وَأَهْلُ الْغَلْبِ مِنْهُمْ فَآثَرَهُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ يُظُنُّ أَنَّهُ أَوْلَى بِهَا وَعَدَلَ عَنِ الْفَاضِلِ إِلَى الْمَفْضُولِ حِرْصًا عَلَى الْإِتِّفَاقِ وَاجْتِمَاعِ الْأَهْوَاءِ الَّتِي شَأْنُهُ أَهْمٌ عِنْدَ الشَّارِعِ .

وَإِنْ كَانَ لَا يُظُنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُ هَذَا فَعَدَالَتُهُ وَصُحْبَتُهُ مَانِعَةٌ مِنْ سِوَى ذَلِكَ وَحُضُورُ أَكْبَابِ الصَّحَابَةِ لِذَلِكَ وَسُكُوتُهُمْ عَنْهُ دَلِيلٌ عَلَى انْتِفَاءِ الرَّيْبِ فِيهِ فَلْيَسُوا مِمَّنْ يَأْخُذُهُمْ فِي الْحَقِّ هَوَادَةٌ وَلَيْسَ مُعَاوِيَةَ مِمَّنْ تَأْخُذُهُ الْعِزَّةُ فِي قَبُولِ الْحَقِّ فَإِنَّهُمْ كُلُّهُمْ أَجَلٌ مِنْ ذَلِكَ وَعَدَالَتُهُمْ مَانِعَةٌ مِنْهُ وَفِرَارُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ مِنَ الدَّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ مُبَاحًا كَانَ أَوْ مَحْظُورًا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي الْمُخَالَفَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ إِلَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ وَنُدُورُ الْمُخَالَفِ مَعْرُوفٌ ثُمَّ إِنَّهُ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ مُعَاوِيَةَ مِنَ الْخُلَفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ مِثْلَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَسَلِيمَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ وَالسُّفَّاحِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِيِّ وَالرَّشِيدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ عُرِفَتْ عَدَالَتُهُمْ وَحَسُنَ رَأْيُهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالنَّظَرُ لَهُمْ وَلَا يَغَابُ عَلَيْهِمْ إِشَارَاتُ أَبْنَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَخُرُوجُهُمْ عَنْ سُنَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي ذَلِكَ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِ أَوْلِيكَ الْخُلَفَاءِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حِينٍ لَمْ تَخْدُثْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَكَانَ الْوَارِعُ دِينِيًّا فَعِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ وَازِعٌ مِنْ نَفْسِهِ فَمَهْدُوا إِلَى مَنْ يَرْضِيهِ الَّذِينَ فَقَطُّ وَالرَّوْعُ عَلَى غَيْرِهِ وَوَكَلُوا كُلُّ مَنْ يَسْمُو إِلَى ذَلِكَ إِلَى وَازِعِهِ . وَأَمَّا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ لَدُنْ مُعَاوِيَةَ فَكَانَتْ الْعَصِيَّةُ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَى غَايَتِهَا مِنَ الْمَلِكِ

وَالْوَارِعُ الدِّينِيُّ قَدْ ضَعَفَ وَاحْتِيجَ إِلَى الْوَارِعِ السُّلْطَانِيِّ وَالْمُضْبَانِيِّ فَلَوْ عَمِدَ إِلَى غَيْرِ  
مَنْ تَرْتَضِيهِ الْعَصِيَّةُ لَرُدَّتْ ذَلِكَ الْعَهْدَ وَانْتَفَضَ أَمْرُهُ سَرِيعاً وَصَارَتْ الْجَمَاعَةُ إِلَى  
الْفُرْقَةِ وَالْإِخْتِلَافِ .

سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيّاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، « مَا بَالُ الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ  
يَخْتَلَفُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ؟ » فَقَالَ ، « لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَا وَالْبَيْنِ عَلَى  
مِثْلِي وَأَنَا الْيَوْمَ وَالِ عَلَى مِثْلِكَ » يُشِيرُ إِلَى وَارِعِ الدِّينِ أَفَلَا تَرَى إِلَى الْمَأْمُونِ لَمَّا  
عَمِدَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَسَمَّاهُ الرِّضَا كَيْفَ أَنْكَرَتْ الْعَبَاسِيَّةُ  
ذَلِكَ وَتَقَضُوا بَيْعَتَهُ وَبَايَعُوا لِعَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَدِّيِّ وَظَهَرَ مِنَ النُّهْجِ وَالْخِلَافِ  
وَأَنْقِطَاعِ السُّبُلِ وَتَعَدُّدِ الثُّوَارِ وَالْخَوَارِجِ مَا كَادَ أَنْ يَضْطَلِمَ الْأَمْرَ حَتَّى بَادَرَ الْمَأْمُونُ  
مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ وَرَدَّ أَمْرَهُمْ لِمَعَاهِدِهِ فَلَا بُدَّ مِنْ اعْتِبَارِ ذَلِكَ فِي الْعَهْدِ فَالْمَعْصُورُ  
تَخْتَلَفُ بِاخْتِلَافِ مَا يَخْدُثُ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ وَالْقَبَائِلِ وَالْعَصِيَّاتِ وَتَخْتَلَفُ  
بِاخْتِلَافِ الْمَصَالِحِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُكْمٌ يَخُصُّهُ لُطْفاً مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَأَمَّا أَنْ  
يَكُونَ الْقَضْدُ بِالْعَهْدِ حِفْظَ التَّرَاثِ عَلَى الْأَبْنَاءِ فَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدِّينِيَّةِ إِذْ هُوَ  
أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ يَخُصُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَنْبَغِي أَنْ تَحْسُنَ فِيهِ النِّيَّةُ مَا أَمَكْنَ خَوْفاً  
مِنَ الْعَبَثِ بِالْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ وَالْمُلْكَ لِلَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو  
الضَّرُورَةَ إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ فِيهَا .

فَالْأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مِنَ الْفِسْقِ أَيَّامَ خِلَافَتِهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ  
بِمَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ يَزِيدَ فَإِنَّهُ أَعْدَلَ مِنْ ذَلِكَ وَأَفْضَلَ بَلْ كَانَ  
يَعْدُلُهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ الْغِنَاءِ وَبِنَهَاةِ عَنْهُ وَهُوَ أَقْلٌ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ  
مُخْتَلِفَةً وَلَمَّا حَدَّثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَّثَ مِنَ الْفِسْقِ اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ حِينَئِذٍ فِي شَأْنِهِ  
فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَتَقَضَى بَيْعَتَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ الْحُسَيْنُ وَعَبْدُ  
اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ لِمَا فِيهِ مِنْ  
إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ مَعَ الْعَجْزِ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمئِذٍ هِيَ



عَصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ قُرَيْشٍ وَتَسْتَشِعُّ عَصِيَّةَ مُضَرَ أَجْمَعَ وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلَا تُطَاقُ مَقَاوِمَتُهُمْ فَأَقْصَرُوا عَنْ تَزْيِيدِ سَبَبِ ذَلِكَ وَأَقَامُوا عَلَى الدُّعَاءِ بِهِدَايَتِهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ وَهَذَا كَانَ شَأْنَ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُلِّ مُجْتَهِدُونَ وَلَا يَنْكُرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فَمَقَاصِدُهُمْ فِي الْبَرِّ وَتَحْرِي الْعَقِّ مَعْرُوفَةٌ وَفَقْنَا اللَّهَ لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ .

وَالْأَمْرَ الثَّانِي هُوَ شَأْنُ الْعَهْدِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا تَدْعِيهِ الشَّيْعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصَحَّ وَلَا تَقْلَهُ أَحَدٌ مِنْ أُمَّةِ النُّقْلِ وَالَّذِي وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدَّوَاةِ وَالْقَرْطَاسِ لِيَكْتُبَ الْوَصِيَّةَ وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ فَذَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ فِي الْعَهْدِ فَقَالَ : « إِنْ أَعْهَدَ فَقَدْ عَهَدَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي » يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ « وَإِنْ أَتْرَكَ فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي » يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَعْهَدْ وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ لِلْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلَانِهِ عَنْ شَأْنِهِمَا فِي الْعَهْدِ فَأَبَى عَلِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ إِنْ مَنَعْنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهْرِ وَهَذَا ذَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوصَ وَلَا عَهْدَ إِلَى أَحَدٍ وَشُبْهَةُ الْإِمَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ الْإِمَامَةِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ كَمَا يَزْعُمُونَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْمَفُوضَةِ إِلَى نَظَرِ الْخَلْقِ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ لَكَانَ شَأْنُهَا شَأْنَ الصَّلَاةِ وَلَكَانَ يُسْتَخْلَفُ فِيهَا كَمَا اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي الصَّلَاةِ وَلَكَانَ يَشْتَهَرُ كَمَا اشْتَهَرَ أَمْرُ الصَّلَاةِ وَاجْتِنَاجُ الصَّحَابَةِ عَلَى خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ بِقِيَاسِهَا عَلَى الصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِمْ ارْتِضَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِدِينِنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا ذَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ لَمْ تَقَعْ . وَيَدُلُّ ذَلِكَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ أَمْرَ الْإِمَامَةِ وَالْعَهْدَ بِهَا لَمْ يَكُنْ مَهْمًا كَمَا هُوَ الْيَوْمَ وَشَأْنُ الْعَصِيَّةِ الْمَرَاغَاةِ فِي الْجَمِيعِ وَالْإِفْتِرَاقِ فِي مَجَارِي الْعَادَةِ لَمْ يَكُنْ يَوْمئِذٍ بِذَلِكَ الْإِعْتِبَارِ لِأَنَّ أَمْرَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ كَانَ كُلُّهُ بِخَوَارِقِ الْعَادَةِ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ وَاسْتِمَاتَةِ النَّاسِ دُونَهُ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانُوا يُشَاهِدُونَهَا فِي حُضُورِ

الْمَلَائِكَةَ لِنُصْرِهِمْ وَتَرَدُّدِ خَبَرِ السَّمَاءِ بَيْنَهُمْ وَتَجَدُّدِ خِطَابِ اللَّهِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ تَتَلَّى عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَخْتَجِ إِلَى مَرَاعَاةِ الْعَصِيَّةِ لِمَا شَمَلَ النَّاسَ مِنْ صِنْفَةِ الْإِنْقِيَادِ وَالْإِذْعَانِ وَمَا يَسْتَفِرُّهُمْ مِنْ تَتَابُعِ الْمُعْجَزَاتِ الْخَارِقَةِ وَالْأُخْوَالِ الْإِلَهِيَّةِ الْوَاقِعَةِ وَالْمَلَائِكَةِ الْمُتَرَدِّدَةِ الَّتِي وَجَمُوا مِنْهَا وَدَهَشُوا مِنْ تَتَابُعِهَا فَكَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَالْمَلِكِ وَالْعَهْدِ وَالْعَصِيَّةِ وَسَائِرِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مُنْذِرًا فِي ذَلِكَ الْقَبِيلِ كَمَا وَقَعَ فَلَمَّا انْحَصَرَ ذَلِكَ الْمَدَدُ بِذَهَابِ تِلْكَ الْمُعْجَزَاتِ ثُمَّ بِفَنَاءِ الْقُرُونِ الَّذِينَ شَاهَدُوهَا فَاسْتَحَالَتْ تِلْكَ الصَّبْغَةُ قَلِيلًا قَلِيلًا وَذَهَبَتِ الْخَوَارِقُ وَصَارَ الْحُكْمُ لِلْعَادَةِ كَمَا كَانَ فَاعْتَبِرْ أَمْرَ الْعَصِيَّةِ وَمَجَارِي الْعَوَائِدِ فِيمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ وَالْخِلَافَةُ وَالْعَهْدُ بِهِمَا مَهْمًا مِنَ الْمَهْمَاتِ الْأَكِيدَةِ كَمَا زَعَمُوا وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ الْخِلَافَةُ لِعَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرَ مَهْمَةٍ فَلَمْ يَعْبُدْ فِيهَا ثُمَّ تَدَرَّجَتْ الْأَهْمِيَّةُ زَمَانَ الْخِلَافَةِ بَعْضُ الشَّيْءِ بِمَا دَعَتْ الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ فِي الْحِمَايَةِ وَالْجِهَادِ وَشَأْنِ الرَّدِّ وَالْفَتْوحَاتِ فَكَانُوا بِالْخِيَارِ فِي الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ كَمَا ذَكَرْنَا عَنْ عَمَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُمَّ صَارَتْ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ الْأُمُورِ لِلْإِلْفَةِ عَلَى الْحِمَايَةِ وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ فَاعْتَبِرْتِ فِيهَا الْعَصِيَّةَ الَّتِي هِيَ سِرُّ الْوَارِعِ عَنِ الْفُرْقَةِ وَالتَّخَاذُلِ وَمَنْشَأُ الْإِجْتِمَاعِ وَالتَّوَافُقِ الْكَفِيلُ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا .

**وَالْأَمْرُ الثَّلَاثُ شَأْنُ الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ**  
 فَاعْلَمْ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ إِنَّمَا يَقَعُ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَيَنْشَأُ عَنِ الْإِجْتِهَادِ فِي الْأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَدَارِكِ الْمُعْتَبَرَةِ وَالْمُجْتَهِدُونَ إِذَا اخْتَلَفُوا فَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْحَقَّ فِي الْمَسَائِلِ الْإِجْتِهَادِيَّةِ وَاحِدٌ مِنَ الطَّرْفَيْنِ وَمَنْ لَمْ يُصَادِفْهُ فَهُوَ مُخْطِئٌ فَإِنْ جِهَتْهُ لَا تَتَعَيَّنُ بِإِجْمَاعٍ فَيَنْقُى الْكُلُّ عَلَى اخْتِمَالِ الْإِضَايَةِ وَلَا يَتَعَيَّنُ الْمُخْطِئُ مِنْهَا وَالتَّائِيْمُ مَدْفُوعٌ عَنِ الْكُلِّ إِجْمَاعًا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْكُلَّ حَقٌّ وَإِنْ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ فَأُخْرَى يَنْفِي الْخَطَأَ وَالتَّائِيْمُ وَغَايَةُ الْخِلَافِ الَّذِي بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّهُ خِلَافٌ اجْتِهَادِيٌّ فِي مَسَائِلِ دِينِيَّةٍ ظَنِّيَّةٍ وَهَذَا حُكْمُهُ وَالَّذِي وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ إِنَّمَا هُوَ

وَاقِعَةَ عَلِيٍّ مَعَ مُعَاوِيَةَ وَمَعَ الزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَوَاقِعَةَ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَوَاقِعَةَ  
ابن الزُّبَيْرِ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَمَّا وَاقِعَةُ عَلِيٍّ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ  
مُفْتَرِقِينَ فِي الْأَمْصَارِ فَلَمْ يَشْهَدُوا بِنِعَّةِ عَلِيٍّ وَالَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنْهُمْ مَنْ بَايَعَ وَمِنْهُمْ  
مَنْ تَوَقَّفَ حَتَّى يَجْتَمَعَ النَّاسُ وَيَتَّفِقُوا عَلَى إِمَامِ كَسَعِدٍ وَسَعِيدٍ وَابْنِ عَمَرَ  
وَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَالْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ وَقَدَامَةَ بْنَ مَطْعُونٍ وَأَبِي  
سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ وَكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَالنُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ وَحَسَانَ بْنَ ثَابِتٍ  
وَمُسْلِمَةَ بْنَ مُخَلِّدٍ وَفَضَالََةَ بْنَ عُبَيْدٍ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَكْبَابِ الصَّحَابَةِ وَالَّذِينَ كَانُوا فِي  
الْأَمْصَارِ عَدَلُوا عَنْ بَيْعَتِهِ أَيْضاً إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ وَتَرَكَوا الْأَمْرَ فَوْضَى حَتَّى  
يَكُونَ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ يُؤَلُّونَهُ وَظَنُّوا بِعَلِيٍّ هَوَادَةَ فِي السُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ  
عُثْمَانَ مِنْ قَاتِلِهِ لَا فِي الْمَمَالَةِ عَلَيْهِ فَحَاشَ لِلَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

وَلَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صَرَخَ بِمَلَامَتِهِ إِنَّمَا يُوجِّهُهَا عَلَيْهِ فِي سُكُوتِهِ فَقَطُّ ثُمَّ  
اِخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّ بَيْعَتَهُ قَدْ انْعَقَدَتْ وَلَزِمَتْ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا بِاجْتِمَاعِ  
مَنْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا بِالْمَدِينَةِ دَارِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَوْطِنِ الصَّحَابَةِ وَأَرْجَاءِ الْأَمْرِ فِي  
الْمُطَالَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ فَيَتِمَّ كُنْ حِينَئِذٍ مِنْ ذَلِكَ  
وَرَأَى الْآخَرُونَ أَنَّ بَيْعَتَهُ لَمْ تَنْعَقِدْ لِافْتِرَاقِ الصَّحَابَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بِالْآفَاقِ وَلَمْ  
يَخْضُرْ إِلَّا قَلِيلٌ وَلَا تَكُونُ الْبَيْعَةُ إِلَّا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَلَا تَلْزَمُ بِعَقْدِ مَنْ  
تَوَلَّاهَا مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ مِنْ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ فَوْضَى فَيُطَالِبُونَ أَوَّلًا  
بِدَمِ عُثْمَانَ ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامٍ وَذَهَبَ إِلَى هَذَا مُعَاوِيَةُ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَأُمُّ  
الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَابْنَةُ عَبْدِ اللَّهِ وَطَلْحَةُ وَابْنَةُ مُحَمَّدٍ وَسَعْدٌ وَسَعِيدٌ  
وَالنُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ وَمُعَاوِيَةُ بْنُ خَدِيجٍ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ  
تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَةِ عَلِيٍّ بِالْمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعَصْرِ الثَّانِي مِنْ بَعْدِهِمْ  
اتَّفَقُوا عَلَى انْعِقَادِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ وَلِزُومِهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ وَتَصَوُّبِ رَأْيِهِ فِيمَا ذَهَبَ  
إِلَيْهِ وَتَعْيِينِ الْخَطَأِ مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ وَخُصُوصاً طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ

لَا تَبْتَاعِيهِمَا عَلَى عَلِيٍّ بَعْدَ الْبَيْعَةِ لَهُ فِيمَا نُقِلَ مَعَ دَفْعِ الثَّائِمِ عَنْ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ  
كَالشَّانِ فِي الْمُجْتَهِدِينَ وَصَارَ ذَلِكَ إِجْمَاعاً مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي عَلَى أَحَدِ قَوْلِي  
أَهْلِ الْعَصْرِ الْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ .

وَلَقَدْ سُئِلَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلِ الْجَمَلِ وَصَفَيْنَ فَقَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي  
بِيَدِهِ لَا يَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَقِيٌّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » يُشِيرُ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ نَقْلَهُ  
الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِي عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا قَدْحٌ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ  
فَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ وَأَقْوَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنِ الْمُسْتَنْدَاتِ وَعَدَالَتُهُمْ مَفْرُوعٌ مِنْهَا عِنْدَ  
أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَرِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ وَلَا  
عَرَجَ عَلَيْهِ وَإِذَا نَظَرْتَ بَعَيْنَ الْإِنْصَافِ عَذَرْتَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ الْإِخْتِلَافِ فِي  
عُثْمَانَ وَاخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدِ وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً ابْتَلَى اللَّهُ بِهَا الْأُمَّةَ  
بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَدُوَّهُمْ وَمَلَكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدَيَارَهُمْ وَنَزَلُوا الْأَمْصَارَ عَلَى  
حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلُوا هَذِهِ  
الْأَمْصَارَ جُفَاءً لَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ صُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا ارْتِاضُوا بِخُلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ  
فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْعَصِيَّةِ وَالتَّفَاخُرِ وَالبُعْدِ عَنْ سَكِينَةِ الْإِيمَانِ وَإِذَا  
بِهِمْ عِنْدَ اسْتِنْفَالِ الدَّوْلَةِ قَدْ أَصْبَحُوا فِي مَلَكَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ  
وَكَنَانَةَ وَتَقِيفٍ وَهَذِيلٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ وَيَثْرِبَ السَّابِقِينَ الْأُولِينَ إِلَى الْإِيمَانِ  
فَاسْتَنَكَفُوا مِنْ ذَلِكَ وَعَصُوا بِهِ لَمَّا يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ  
وَمُضَادِمَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ مِثْلَ قَبَائِلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وَعَبِيدِ الْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ وَقَبَائِلِ  
كَنْدَةَ وَالْأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ وَتَمِيمِ وَقَيْسِ مِنْ مِصْرَ فَصَارُوا إِلَى الْعُضِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنْفَةِ  
عَلَيْهِمْ ، وَالتَّمْرِيزِ فِي طَاعَتِهِمْ وَالتَّعَلُّلِ فِي ذَلِكَ بِالتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ وَالِاسْتِعْدَاءِ عَلَيْهِمْ  
وَالطَّغْنِ فِيهِمْ بِالْعَجْزِ عَنِ السُّوِيَّةِ وَالْعَدْلِ فِي الْقِسْمِ عَنِ السُّوِيَّةِ وَفَشَتْ الْمَقَالَةُ بِذَلِكَ  
وَانْتَهَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانَ فَبَعَثَ إِلَى الْأَمْصَارِ مَنْ  
يُكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ .

بَعَثَ ابْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمْثَالَهُمْ فَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَى  
الْأَمْرَاءِ شَيْئاً وَلَا رَأَوْا عَلَيْهِمْ طَعْناً وَأَدَّوْا ذَلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِعِ الطَّعْنُ مِنْ أَهْلِ  
الْأَمْصَارِ وَمَا زَالَتِ الشَّنَاعَاتُ تَنْمُو وَرُمِيَ الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ بِشَرْبِ  
الْخَمْرِ وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَحَدَّهُ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ أَهْلِ  
الْأَمْصَارِ يَسْأَلُونَ عَزْلَ الْعُمَّالِ وَشَكُّوا إِلَى عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ وَالزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَعَزَلَ لَهُمْ  
عُثْمَانُ بَعْضَ الْعُمَّالِ فَلَمْ تَنْقَطِعْ بِذَلِكَ أَلْسِنَتُهُمْ بَلْ وَفَدَّ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِي وَهُوَ عَلَى  
الْكُوفَةِ فَلَمَّا رَجَعَ اغْتَرَضُوهُ بِالطَّرِيقِ وَرَدُّوهُ مَعْرُولاً ثُمَّ انْتَقَلَ الْخِلَافُ بَيْنَ عُثْمَانَ  
وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْمَدِينَةِ وَنَقَمُوا عَلَيْهِ امْتِنَاعَهُ مِنَ الْعَزْلِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ  
عَلَى جُرْحَةٍ <sup>(١)</sup> ثُمَّ نَقَلُوا النُّكَيْرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِ وَهُوَ مَتَمَسِّكٌ بِالِاجْتِهَادِ وَهُمْ  
أَيْضاً كَذَلِكَ ثُمَّ تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنَ الْفَوْغَاءِ وَجَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ يُظْهِرُونَ طَلَبَ النِّصْفَةِ  
مِنْ عُثْمَانَ وَهُمْ يُضْمِرُونَ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِهِ وَفِيهِمْ مِنَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَمِصْرَ  
وَقَامَ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلِيٌّ وَعَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ وَغَيْرُهُمْ يُحَاوِلُونَ تَسْكِينِ الْأُمُورِ  
وَرَجُوعِ عُثْمَانَ إِلَى رَأْيِهِمْ وَعَزَلَ لَهُمْ عَامِلٌ مِصْرَ فَاَنْصَرَفُوا قَلِيلاً ثُمَّ رَجَعُوا وَقَدْ لَبَسُوا  
بِكِتَابِ مَدْلَسٍ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لِقُوَّةِ فِي يَدِ حَامِلِهِ إِلَى عَامِلِ مِصْرَ بِأَنْ يَقْتُلَهُمْ وَخَلَفَ  
عُثْمَانَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا مَكَّنَّا مِنْ مَرْوَانَ فَإِنَّهُ كَاتِبُكَ فَخَلَفَ مَرْوَانَ فَقَالَ لَيْسَ فِي  
الْحُكْمِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا فَحَاصِرُوهُ بِدَارِهِ ثُمَّ بَيْتُوهُ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ النَّاسِ وَقَتَلُوهُ  
وَانْفَتَحَ بَابُ الْفِتْنَةِ فَلِكُلِّ مِنْ هَؤُلَاءِ عُدْرٌ فِيمَا وَقَعَ وَكُلُّهُمْ كَانُوا مُهْتَمِّينَ بِأَمْرِ الدِّينِ  
وَلَا يُضِيعُونَ شَيْئاً مِنْ تَعَلُّقَاتِهِ .

ثُمَّ نَظَرُوا بَعْدَ هَذَا الْوَاقِعِ وَاجْتَهَدُوا وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَعَالِمٌ بِهِمْ وَنَحْنُ  
لَا نَظُنُّ بِهِمْ إِلَّا خَيْراً لِمَا شَهِدَتْ بِهِ أَحْوَالُهُمْ وَمَقَالَاتُ الصَّادِقِ فِيهِمْ وَأَمَّا الْحُسَيْنُ  
فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ فَسَقَ يَزِيدٌ عِنْدَ الْكَافَةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ بَعَثَتْ شَيْعَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ  
بِالْكُوفَةِ لِلْحُسَيْنِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فَيَقُومُوا بِأَمْرِهِ فَرَأَى الْحُسَيْنُ أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدٍ  
مُنْعَيْنٍ مِنْ أَجْلِ فَسَقِهِ لَا سِيَّما مَنْ لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى ذَلِكَ وَظَنُّهَا مِنْ نَفْسِهِ بِأَهْلِيَّتِهِ

(١) ما تخرج به شهادة خصمك أو حجته .

وَشَوْكَتِهِ فَأَمَّا الْأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ كَمَا ظَنَّ وَزِيَادَةً وَأَمَّا الشُّوْكَةُ فَغَلِطَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ فِيهَا لِأَنَّ عَصِيَّةَ مُضَرَ كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ وَعَصِيَّةَ عَبْدِ مَنَافٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَنِي أُمِيَّةَ تَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُمْ قُرَيْشٌ وَسَائِرُ النَّاسِ وَلَا يُنْكِرُونَهُ وَإِنَّمَا نَسِيَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لِمَا شَغَلَ النَّاسَ مِنَ الذُّهُولِ بِالْخَوَارِقِ وَأَمْرِ الْوَحْيِ وَتَرَدُّدِ الْمَلَائِكَةِ لِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ فَأَغْفَلُوا أُمُورَ عَوَائِدِهِمْ وَذَهَبَتْ عَصِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنَارِعُهَا وَنُسِيَتْ وَلَمْ يَثْبُقْ إِلَّا الْعَصِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي الْحِمَايَةِ وَالِدِفَاعِ يُنْتَفَعُ بِهَا فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْمُشْرِكِينَ وَالذِّينُ فِيهَا مُحْكَمٌ وَالْعَادَةُ مَعْرُوْلَةٌ حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أَمْرُ الثُّبُوتِ وَالْخَوَارِقِ الْمَهْوُولَةِ تَرَاجَعَ الْحُكْمُ بَعْضُ الشَّيْءِ لِلْعَوَائِدِ فَعَادَتِ الْعَصِيَّةُ كَمَا كَانَتْ وَلَمَنْ كَانَتْ وَأَصْبَحَتْ مُضَرٌ أَطْوَعَ لِبَنِي أُمِيَّةَ مِنْ سِوَاهُمْ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ فَقْدِ تَبَيُّنِ لَكَ غَلَطَ الْحُسَيْنِ إِلَّا أَنَّهُ فِي أَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ لَا يُضِرُّهُ الْغَلَطُ فِيهِ وَأَمَّا الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فَلَمْ يَغْلُطْ فِيهِ لِأَنَّهُ مَنْوُطٌ بِظَنِّهِ وَكَانَ ظَنُّهُ الْقُدْرَةَ عَلَى ذَلِكَ وَلَقَدْ عَذَلَهُ ابْنُ الْعَبَّاسِ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ الْحَنْفِيَّةِ أَخُوهُ وَعَمِيرُهُ فِي مَسِيرِهِ إِلَى الْكُوفَةِ وَعَلِمُوا غَلَطَهُ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ بِسَبِيلِهِ لِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ .

وَأَمَّا غَيْرُ الْحُسَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْحِجَازِ وَمَعَ يَزِيدَ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ فَرَأَوْا أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَجُوزُ لِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَرَجِ وَالِدَّمَاءِ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَتَابِعُوا الْحُسَيْنَ وَلَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ وَلَا أْتَمُّوهُ لِأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ وَهُوَ أَسْوَأُ الْمُجْتَهِدِينَ وَلَا يَذْهَبُ بِكَ الْغَلَطُ أَنْ تَقُولَ بِتَأْتِيهِمْ هَؤُلَاءِ بِمُخَالَفَةِ الْحُسَيْنِ وَقَعُودِهِمْ عَنْ نُصْرِهِ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ وَكَانُوا مَعَ يَزِيدَ وَلَمْ يَرَوْا الْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَشْهَدُ بِهِمْ وَهُوَ يَكْزِبُ بِلَاءَ عَلَى فَضْلِهِ وَحَقِّهِ وَيَقُولُ سَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا سَعِيدَ الْخُدْرِيَّ وَأَنْسَ بْنَ مَالِكٍ وَسَهْلَ بْنَ سَعِيدٍ وَيَزِيدَ بْنَ أَرْقَمَ وَأَمْثَالَهُمْ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ قَعُودَهُمْ عَنْ نُصْرِهِ وَلَا تَعَرُّضَ لِلذِّكْرِ لِعَلَمِهِ أَنَّهُ عَنِ اجْتِهَادٍ وَإِنْ كَانَ هُوَ عَلَى اجْتِهَادٍ وَيَكُونُ ذَلِكَ كَمَا يَحْدُ الشَّافِعِيُّ وَالْمَالِكِيُّ وَالْحَنْفِيُّ عَلَى شَرْبِ النَّبِيذِ وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمْرَ لِنَسِ كَذَلِكَ وَقِتَالَهُ لَمْ يَكُنْ عَنِ

اجْتِهَادِ هُوَلَاءَ وَإِنْ كَانَ خِلَافُهُ عَنِ اجْتِهَادِهِمْ وَإِنَّمَا انْفَرَدَ بِقِتَالِهِ يَزِيدَ وَأَصْحَابَهُ وَلَا تَقُولُنَّ إِنَّ يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا وَلَمْ يَجْزِ هُوَلَاءَ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ فَأَفْعَالُهُ عِنْدَهُمْ صَحِيحَةٌ وَاعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْفِذُ مِنْ أَعْمَالِ الْفَاسِقِ مَا كَانَ مَشْرُوعًا وَقِتَالِ الْبُعَاةِ عِنْدَهُمْ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَهُوَ مَفْقُودٌ فِي مَسْئَلَتِنَا فَلَا يَجُوزُ قِتَالُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَلَا لِيَزِيدَ بَلْ هِيَ مِنْ فَعَلَاتِهِ الْمُؤَكَّدَةِ لِنَفْسِهِ وَالْحُسَيْنُ فِيهَا شَهِيدٌ مُثَابٌ وَهُوَ عَلَى حَقٍّ وَاجْتِهَادِ وَالصَّحَابَةُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ يَزِيدَ عَلَى حَقٍّ أَيْضًا وَاجْتِهَادِ وَقَدْ غَلَطَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ فِي هَذَا فَقَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِالْمَوَاصِمِ وَالْقَوَاصِمِ مَا مَعْنَاهُ :

إِنَّ الْحُسَيْنَ قَتَلَ بِشَرِّعِ جَدِّهِ وَهُوَ غَلَطَ حَمَلْتَهُ عَلَيْهِ الْغَفْلَةَ عَنِ اشْتِرَاطِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَمَنْ أَعْدَلَ مِنَ الْحُسَيْنِ فِي زَمَانِهِ فِي إِمَامَتِهِ وَعَدَالَتِهِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْآرَاءِ وَأَمَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ رَأَى فِي مَنَامِهِ مَا رَأَى الْحُسَيْنُ وَظَنَّ كَمَا ظَنَّ وَغَلَطَ فِي أَمْرِ الشُّوَكَةِ أَعْظَمَ لِأَنَّ بَنِي أُسَيْدٍ لَا يُقَاوِمُونَ بَنِي أُمَيَّةَ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامَ . وَالْقَوْلُ بِتَعْيِينِ الْخَطَاءِ فِي جِهَةِ مُخَالَفَةِ كَمَا كَانَ فِي جِهَةِ مُعَاوِيَةَ مَعَ عَلِيٍّ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ . لِأَنَّ الْإِجْمَاعَ هُنَالِكَ قَضَى لَنَا بِهِ وَلَمْ نَجِدْهُ هَا هُنَا . وَأَمَّا يَزِيدُ فَعَيْنَ خَطَأَهُ فَسَقَهُ . وَعَبْدُ الْمَلِكِ صَاحِبُ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَعْظَمَ النَّاسِ عَدَالَةً وَنَاهِيكَ بَعْدَ اللَّهِ اِحْتِجَاجَ مَالِكٍ بِفِعْلِهِ وَعَدُولِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عَمْرِو بْنِ بَيْعَتِهِ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُمْ مَعَهُ بِالْحِجَازِ مَعَ أَنَّ الْكَثِيرَ<sup>(١)</sup> مِنَ الصَّحَابَةِ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ بَيْعَةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَمْ تَنْعَقِدْ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْضُرْهَا أَهْلُ الْعَقِيدِ وَالْحَلْ كَبَيْعَةِ مَرْوَانَ وَابْنِ الزُّبَيْرِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ وَالْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ مَحْمُولُونَ عَلَى الْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَإِنْ لَمْ يَتَّعَيْنِ فِي جِهَةِ مِنْهُمَا وَالْقَتْلُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ مَا قَرَّرْنَاهُ يَجِيءُ عَلَى قَوَاعِدِ الْفِقْهِ وَقَوَائِنِهِ مَعَ أَنَّهُ شَهِيدٌ مُثَابٌ بِاعْتِبَارِ قَضِيهِ وَتَحْرِيهِ الْحَقُّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تُحْمَلَ عَلَيْهِ أَفْعَالُ السَّلْفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَهُمْ خِيَارُ الْأُمَّةِ وَإِذَا جَعَلْنَاهُمْ عُرْضَةً لِلْقُدْحِ فَمَنْ الَّذِي يَخْتَصُّ

(١) كذا في جميع النسخ ومقتضى السياق ، هذا إلى أن الكثير .

بِالْعَدَالَةِ وَالنَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ « خَيْرُ النَّاسِ قِرْنِي » <sup>(١)</sup> ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ يَفْشُو الْكُذِبُ فَجَعَلَ الْخَيْرَةَ وَهِيَ الْعَدَالَةُ مُخْتَصَّةٌ بِالْقَرْنِ الْأَوَّلِ وَالَّذِي يَلِيهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَعُودَ نَفْسَكَ أَوْ لِسَانَكَ التَّعَرُّضَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا يُشَوِّشُ قَلْبَكَ بِالرَّيْبِ فِي شَيْءٍ مِمَّا وَقَعَ مِنْهُمْ وَالْتِمِسْ لَهُمْ مَذَاهِبَ الْحَقِّ وَطُرُقَهُ مَا اسْتَطَعْتَ فَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا عَنْ بَيِّنَةٍ وَمَا قَاتَلُوا أَوْ قَاتَلُوا إِلَّا فِي سَبِيلِ جِهَادٍ أَوْ إِظْهَارِ حَقٍّ وَاعْتَقَدَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ رَحْمَةٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ لِيَقْتَدِيَ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ وَيَجْعَلُهُ إِمَامَةً وَهَادِيَةً وَدَلِيلَةً فَافْتَهُمُ ذَلِكَ وَتَبَيَّنَ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَكْوَانِهِ وَاعْلَمْ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَإِلَيْهِ الْمُلْجَأُ وَالْمَصِيرُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

## الفصل الحادي والثلاثون

### في الخطط الدينية الخلاقية

لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ الْخِلَافَةِ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا فَصَاحِبُ الشَّرْعِ مُتَّصِرٌ فِي الْأَمْرَيْنِ أَمَّا فِي الدِّينِ فَبِمُقْتَضَى التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيِّ الَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ بِتَبْلِيغِهَا وَحَمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا سِيَاسَةُ الدُّنْيَا فَبِمُقْتَضَى رِعَايَتِهِ لِمَصَالِحِهِمْ فِي الْعُمَرَانِ الْبَشَرِيِّ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا الْعُمَرَانُ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ وَأَنَّ رِعَايَةَ مَصَالِحِهِ كَذَلِكَ لِئَلَّا يَفْسُدَ إِنْ أَهْمَلْتَ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْمَلِكَ وَسَطْوَتَهُ كَافٍ فِي حُصُولِ هَذِهِ الْمَصَالِحِ .

نَعَمْ إِنْمَا تَكُونُ أَكْمَلُ إِذَا كَانَتْ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّ <sup>(٢)</sup> أَعْلَمُ بِهِذِهِ الْمَصَالِحِ

(١) (ورد في لسان العرب قول الأزهري ، والذي يقع عندي ، والله أعلم ، ان القرن) هل كل مدة كان فيها ، أو كان فيها طبقة من أهل العلم . قلت السنون أو كثر والدليل على هذا قول النبي ﷺ « خيركم قرني ، يعني أصحابي ثم الذين يلونهم ، يعني التابعين ، ثم الذين يلونهم ، يعني الذين أخذوا عن التابعين » قال ، وجائز أن يكون القرن لجملة الأمة ، وهؤلاء قرون فيها .  
(٢) (الضمير يعود إلى الله تعالى .



فَقَدْ صَارَ الْمَلِكُ يَنْدَرُجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ إِذَا كَانَ إِسْلَامِيًّا وَيَكُونُ مِنْ تَوَابِعِهَا وَقَدْ يَنْفَرِدُ إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ الْمِلَّةِ وَلَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَاتِبُ خَادِمَةٍ وَوِطَائِفُ تَابِعَةٍ تَتَعَيَّنُ خِطَطًا وَتَتَوَرَّعُ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَوِطَائِفُ فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ بِوِظَافَتِهِ حَسَبَمَا يَمِينُهُ الْمَلِكُ الَّذِي تَكُونُ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَيْهِمْ فَيَتِمُّ بِذَلِكَ أَمْرُهُ وَيَحْسُنُ قِيَامُهُ بِسُلْطَانِهِ وَأَمَّا الْمَنْصِبُ الْخِلَافِيُّ وَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ يَنْدَرُجُ تَحْتَهُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فَتَصَرُّفُهُ الدِّينِي يَخْتَصُّ بِخِطَطِ وَمَرَاتِبِ لَا تُعْرَفُ إِلَّا لِلْخُلَفَاءِ الْإِسْلَامِيِّينَ فَلْنَذْكُرِ الْآنَ الْخِطَطَ الدِّينِيَّةَ الْمُخْتَصَّةَ بِالْخِلَافَةِ وَنَرْجِعْ إِلَى الْخِطَطِ الْمُلُوكِيَّةِ السُّلْطَانِيَّةِ .

فَاعْلَمْ أَنَّ الْخِطَطَ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ وَالْجِهَادِ وَالْحِسْبَةِ كُلِّهَا مُنْدَرِجَةٌ تَحْتَ الْإِمَامَةِ الْكُبْرَى الَّتِي هِيَ الْخِلَافَةُ فَكَانَتْهَا الْإِمَامُ الْكَبِيرُ وَالْأَصْلُ الْجَامِعُ وَهَذِهِ كُلُّهَا مُتَفَرِّعَةٌ عَنْهَا وَدَاخِلَةٌ فِيهَا لِعُمُومِ نَظَرِ الْخِلَافَةِ وَتَصَرُّفِهَا فِي سَائِرِ أَحْوَالِ الْمِلَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ وَتَنْفِيذِ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فِيهَا عَلَى الْعُمُومِ .

فَأَمَّا إِمَامَةُ الصَّلَاةِ فَهِيَ أَرْفَعُ هَذِهِ الْخِطَطِ كُلِّهَا وَأَرْفَعُ مِنَ الْمَلِكِ بِخُصُوصِهِ الْمُنْدَرِجَ مَعَهَا تَحْتَ الْخِلَافَةِ . وَلَقَدْ يَشْهَدُ لِذَلِكَ اسْتِدْلَالُ الصَّحَابَةِ فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِاسْتِخْلَافِهِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى اسْتِخْلَافِهِ فِي السِّيَاسَةِ فِي قَوْلِهِمْ ارْتِضَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِدِينِنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا ؟ فَلَوْلَا أَنَّ الصَّلَاةَ أَرْفَعُ مِنَ السِّيَاسَةِ لَمَا صَحَّ الْقِيَاسُ وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْمَسَاجِدَ فِي الْمَدِينَةِ صِنْفَانِ ، مَسَاجِدَ عَظِيمَةً كَثِيرَةً الْغَاشِيَّةَ <sup>(١)</sup> مُعَدَّةً لِلصَّلَوَاتِ الْمَشْهُودَةِ . وَأُخْرَى دُونَهَا مُخْتَصَّةٌ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ وَلَيْسَتْ لِلصَّلَوَاتِ الْعَامَّةِ فَأَمَّا الْمَسَاجِدَ الْعَظِيمَةَ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْخَلِيفَةِ أَوْ مَنْ يَفُوضُ إِلَيْهِ مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ مِنْ وَزِيرٍ أَوْ قَاضٍ فَيَنْصِبُ لَهَا الْإِمَامَ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ وَالْحُسُوفَيْنِ وَالْإِسْتِسْقَاءِ وَتَعَيَّنَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ الْأَوَّلَى

(١) الذين يزورونها للصلاة .

وَالِاسْتِحْسَانِ وَلَيْلًا يَفْتَاتُ<sup>(١)</sup> الرُّعَايَا عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَقَدْ يَقُولُ بِالْوُجُوبِ فِي ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ بِوُجُوبِ إِقَامَةِ الْجُمُعَةِ فَيَكُونُ نَضْبُ الْإِمَامِ لَهَا عِنْدَهُ وَاجِبًا وَأَمَّا الْمَسَاجِدُ الْمُخْتَصَّةُ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى الْحِيرَانِ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرِ خَلِيفَةٍ وَلَا سُلْطَانٍ وَأَحْكَامُ هَذِهِ الْوِلَايَةِ وَشُرُوطُهَا وَالْمَوْلَى فِيهَا مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَمَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ لِلْمَاوَرِدِيِّ وَغَيْرِهِ فَلَا نَطْوُلُ بِذِكْرِهَا وَلَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوَّلُونَ لَا يَقْلُدُونَهَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ . وَأَنْظُرْ مَنْ طَعِنَ مِنَ الْخُلَفَاءِ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ وَتَرَصَّدَهُمْ لِذَلِكَ فِي أَوْقَاتِهَا . يَشْهَدُ لَكَ ذَلِكَ بِمُبَاشَرَتِهِمْ لَهَا وَأَنْهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَخْلِفِينَ فِيهَا . وَكَذَا كَانَ رِجَالُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ اسْتِثْنَاءً بِهَا وَاسْتِعْظَامًا لِرَبِّيَّتِهَا .

يُخَكِّي عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنَّهُ قَالَ لِحَاجِبِهِ « قَدْ جَعَلْتُ لَكَ حِجَابَةً يَا بَنِي الْأَعْنِ ثَلَاثَةٌ : صَاحِبِ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ بِالتَّأخِيرِ وَالْأَذَانِ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ وَالتَّبْرِيدِ فَإِنَّ فِي تَأخِيرِهِ فَسَادَ الْقَاصِيَةِ » فَلَمَّا جَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ وَعَوَارِضُهُ مِنَ الْغِلْظَةِ وَالتَّرَفُّعِ عَنْ مُسَاوَاةِ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ اسْتَنْابُوا فِي الصَّلَاةِ فَكَانُوا يَسْتَأْثِرُونَ بِهَا فِي الْأَحْيَانِ وَفِي الصَّلَوَاتِ الْعَامَّةِ كَالْعَمِيدِينَ وَالْجُمُعَةِ إِشَارَةً وَتَنْوِينًا فَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعَبِيدِيِّينَ صَدَرَ دَوْلَتِهِمْ .

وَأَمَّا الْفُتْيَا فَلِلْخَلِيفَةِ تَصَفُّحُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّدْرِيسُ وَرُدُّ الْفُتْيَا إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهَا وَإِعَاتَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَمَنْعُ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لَهَا وَزَجْرُهُ لِأَنَّهَا مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَدْيَانِهِمْ فَتَجِبُ عَلَيْهِ مُرَاعَاتُهَا لِئَلَّا يَتَعَرَّضَ لِذَلِكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلُّ النَّاسَ . وَلِلْمُدْرَسِ الْإِنْتِصَابُ لِتَعْلِيمِ الْعِلْمِ وَبَثُّهُ وَالْجُلُوسُ لِذَلِكَ فِي الْمَسَاجِدِ فَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْمَسَاجِدِ الْعِظَامِ الَّتِي لِلْسُلْطَانِ الْوِلَايَةِ عَلَيْهَا وَالنَّظَرُ فِي أُمَّتِهَا كَمَا مَرَّ فَلَا بُدَّ مِنْ اسْتِئْذَانِهِ فِي ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ مَسَاجِدِ الْعَامَّةِ فَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى إِذْنِهِ . عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الْمُفْتِينَ وَالْمُدْرَسِينَ زَاجِرٌ مِنْ نَفْسِهِ يَمْنَعُهُ عَنِ

(١) يخالفه .

التَّصَدِّي لِمَا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلُّ<sup>(١)</sup> بِهِ الْمُسْتَهْدِي وَيُضِلُّ بِهِ الْمُسْتَرْشِدَ وَفِي الْأَثَرِ  
 « أَجْرَاكُمْ عَلَى الْفِتْيَا أَجْرَاكُمْ عَلَى جَرَائِمِ جَهَنَّمَ » فَلِلْمُسْلِمَانِ فِيهِمْ لِذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ  
 مَا تَوْجِبُهُ الْمُضْلَحَةُ مِنْ إِجَازَةٍ أَوْ رَدٍّ .

وَأَمَّا الْقَضَاءُ فَهُوَ مِنَ الْوُطَائِفِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ الْخِلَافَةِ لِأَنَّهُ مَنْصِبُ الْفَضْلِ بَيْنَ  
 النَّاسِ فِي الْخُصُومَاتِ حَسْبًا لِلتَّدَاعِي وَقَطْعًا لِلتَّنَازُعِ إِلَّا أَنَّهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ  
 الْمُتَلَقَّاةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَكَانَ لِذَلِكَ مِنْ وَطَائِفِ الْخِلَافَةِ وَمُنْدَرَجًا فِي عُمُومِهَا  
 وَكَانَ الْخُلَفَاءُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ يُبَاشِرُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَلَا يَجْعَلُونَ الْقَضَاءَ إِلَى مَنْ  
 سِوَاهُمْ . وَأَوَّلُ مَنْ دَفَعَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَفَوَّضَهُ فِيهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَوَلَّى أَبَا الدَّرْدَاءِ  
 مَعَهُ بِالْمَدِينَةِ وَوَلَّى شَرِيحًا بِالْبَصْرَةِ وَوَلَّى أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ بِالْكُوفَةِ وَكَتَبَ لَهُ  
 فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ الْمَشْهُورِ الَّذِي تَدْوُرُ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْقَضَاءِ وَهِيَ مُسْتَوْفَاةٌ فِيهِ يَقُولُ أَمَّا  
 بَعْدُ :

« فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فَافْهَمْ إِذَا أَدَلِيَّ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ  
 تَكْلَمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَادَ لَهُ وَأَسْ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعُ  
 شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا يِنَاسٌ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ  
 أَنْكَرَ . وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا وَلَا  
 يَمْنَعُكَ قَضَاءُ قَضِيَّتِهِ أَمْسَ فَرَأَجَعْتَ الْيَوْمَ فِيهِ عَقْلَكَ وَهَدَيْتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ  
 إِلَى الْحَقِّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ الْفَهْمُ الْفَهْمُ  
 فِيمَا يَتَلَجَّلُجُ فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ثُمَّ اعْرِفِ الْأَمْثَالَ وَالْأَشْبَاهَ وَقَسِ  
 الْأُمُورَ بِنظَائِرِهَا وَاجْعَلْ لِمَنْ ادَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمْدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ فَإِنْ أَحْضَرَ  
 بَيِّنَتَهُ أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا اسْتَخْلَلْتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَى لِلشُّكِّ وَأَجْلَى  
 لِلْعَمَى . الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ أَوْ مُجْرَى<sup>(٢)</sup> عَلَيْهِ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ : فَيُذِلُّ أَيِ يَشُقُّ بِهِ وَيَعْتَرِزُ .

(٢) وَفِي بَعْضِ النُّسخِ : مَجْرَبًا .

شَهَادَةَ زُورٍ أَوْ ظَنِينًا فِي نَسَبٍ أَوْ وِلَاءٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَفَا عَنِ الْإِيمَانِ وَدَرَأَ  
بِالْبَيِّنَاتِ . وَإِيَّاكَ وَالْقَلْقَ وَالضُّجْرَ وَالتَّأْفَفَ بِالْخُصُومِ فَإِنَّ اسْتِقْرَارَ الْحَقِّ فِي مَوَاطِنِ  
الْحَقِّ يُعْظَمُ اللَّهُ بِهِ الْأَجْرَ وَيُحْسِنُ بِهِ الذِّكْرَ وَالسَّلَامَ » .

إِنْتَهَى كِتَابُ عَمَرَ وَإِنَّمَا كَانُوا يُقْلِدُونَ الْقَضَاءَ لِغَيْرِهِمْ وَإِنْ كَانَ مِنْهُمَا يَتَعَلَّقُ  
بِهِمْ لِقِيَامِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَكَثْرَةِ اشْتِغَالِهَا مِنَ الْجِهَادِ وَالْفَتْوحَاتِ وَسَدِّ الشُّغُورِ  
وَحِمَايَةِ الْبَيْضَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُمَا يَقُومُ بِهِ غَيْرُهُمْ لِعِظَمِ الْعِنَايَةِ فَاسْتَحَقُّوا  
الْقَضَاءَ فِي الْوَأَقِعَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَاسْتَخْلَفُوا فِيهِ مَنْ يَقُومُ بِهِ تَخْفِيفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ  
وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُقْلِدُونَهُ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالنَّسَبِ أَوْ الْوِلَاءِ وَلَا يُقْلِدُونَهُ لِمَنْ بَعْدَ  
عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ . وَأَمَّا أَحْكَامُ هَذَا الْمَنْصِبِ وَشُرُوطُهُ فَمَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَخُصُوصًا  
كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ . إِلَّا أَنَّ الْقَاضِيَّ إِنَّمَا كَانَ لَهُ فِي عَصْرِ الْخُلَفَاءِ الْفَضْلُ بَيْنَ  
الْخُصُومِ فَقَطْ ثُمَّ دَفَعَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُورٌ أُخْرَى عَلَى التَّدْرِيجِ بِحَسَبِ اشْتِغَالِ الْخُلَفَاءِ  
وَالْمُلُوكِ بِالسِّيَاسَةِ الْكُبْرَى وَاسْتَقَرَّ مَنْصِبُ الْقَضَاءِ آخِرَ الْأُمُرِ عَلَى أَنَّهُ يَجْمَعُ مَعَ  
الْفَضْلِ بَيْنَ الْخُصُومِ اسْتِيفَاءَ بَعْضِ الْحُقُوقِ الْعَامَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ بِالنَّظَرِ فِي أُمُورٍ (١)  
الْمَخْجُورِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَجَانِينِ وَالْيَتَامَى وَالْمُفْلِسِينَ وَأَهْلِ السَّفْهِ وَفِي وَصَايَا  
الْمُسْلِمِينَ وَأَوْقَافِهِمْ وَتَزْوِيجِ الْأَيَامَى عِنْدَ فَقْدِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى رَأْيٍ مَنْ رَأَاهُ وَالنَّظَرَ فِي  
مَصَالِحِ الطَّرِيقَاتِ وَالْأَبْنِيَّةِ وَتَصْفُحِ الشُّهُودِ وَالْأَمْنَاءِ وَالنُّوَابِ وَاسْتِيفَاءِ الْعِلْمِ وَالْخُبْرَةِ  
فِيهِمْ بِالْعَدَالَةِ وَالْجَرَحِ لِيُخْصَلَ لَهُ الْوُثُوقُ بِهِمْ وَصَارَتْ هَذِهِ كُلُّهَا مِنْ تَعَلُّقَاتِ  
وِظِيفَتِهِ وَتَوَاجِعِ وَلَايَتِهِ . وَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْعَلُوا لِلْقَاضِيِ النَّظَرَ فِي  
الْمِظَالِمِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ مُمْتَرِجَةٌ مِنْ سَطْوَةِ السُّلْطَنِيَّةِ وَنِصْفَةِ الْقَضَاءِ وَتَحْتَاجُ إِلَى غُلُوِّ يَدِ  
وَعَظِيمِ رَهْبَةٍ تَقْمَعُ الظَّالِمَ مِنَ الْخُصْمَيْنِ وَتَزْجُرُ الْمُتَعَدِّيَّ وَكَأَنَّهُ يُنْضِي مَا عَجَزَ  
الْقَضَاءُ أَوْ غَيْرُهُمْ عَنْ إِمْضَائِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ فِي الْبَيِّنَاتِ وَالتَّقْرِيرِ وَاعْتِمَادِ الْأَمَارَاتِ

(١) وفي بعض النسخ : أمور .

وَالْقَرَائِنِ وَتَأْخِيرِ الْحُكْمِ إِلَى اسْتِجْلَاءِ الْحَقِّ وَحَمْلِ الْخُضْمَيْنِ عَلَى الصُّلْحِ وَاسْتِخْلَافِ الشُّهُودِ وَذَلِكَ أَوْسَعُ مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي .

وَكَانَ الْخُلَفَاءُ الْأَوْلُونَ يَبَاشِرُونَهَا بِأَنْفُسِهِمْ إِلَى أَيَّامِ الْمُهْتَدِيِّ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَهَا لِقَضَاتِهِمْ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ قَاضِيهِ أَبِي أُدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ وَكَمَا فَعَلَهُ الْمَأْمُونُ لِيَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ وَالْمُعْتَصِمُ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِي قِيَادَةَ الْجِهَادِ فِي عَسَاكِرِ الطَّوَائِفِ <sup>(١)</sup> وَكَانَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ يَخْرُجُ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ بِالطَّائِفَةِ إِلَى أَرْضِ الرُّومِ وَكَذَا مُنْذَرُ بْنُ سَعِيدٍ قَاضِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ تَوَلِيَّةُ هَذِهِ الْوَطَائِفِ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْخُلَفَاءِ أَوْ مَنْ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ لَهُ مِنْ وَزِيرٍ مُفَوَّضٍ أَوْ سُلْطَانٍ مُتَعَلِّبٍ . وَكَانَ أَيْضاً النَّظَرُ فِي الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْعُبَيْدِيِّينَ يَمِضِرُ وَالْمَغْرِبَ رَاجِعاً إِلَى صَاحِبِ الشَّرْطَةِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ أُخْرَى دِينِيَّةٌ كَانَتْ مِنْ الْوَطَائِفِ الشَّرْعِيَّةِ فِي تِلْكَ الدَّوْلِ تَوْسَعُ النَّظَرُ فِيهَا عَنْ أَحْكَامِ الْقَضَاءِ قَلِيلاً فَيَجْعَلُ لِلتُّهْمَةِ فِي الْحُكْمِ مَجَالاً وَيَفْرُضُ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةَ قَبْلَ ثُبُوتِ الْجَرَائِمِ وَيَقِيمُ الْحُدُودَ الثَّابِتَةَ فِي مَحَالِّهَا وَيَحْكُمُ فِي الْقَوَدِ <sup>(٢)</sup> وَالْقِصَاصِ وَيَقِيمُ التَّغْزِيرَ وَالتَّادِيْبَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَنْتَهَ عَنِ الْجَرِيْمَةِ .

ثُمَّ تَنُوسِي شَأْنَ هَاتَيْنِ الْوُظَيْفَتَيْنِ فِي الدَّوْلِ الَّتِي تَنُوسِي فِيهَا أَمْرَ الْإِخْلَافَةِ فَصَارَ أَمْرَ الْمَظَالِمِ رَاجِعاً إِلَى السُّلْطَانِ كَانَ لَهُ تَفْوِيضٌ مِنَ الْخَلِيفَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ وَانْقَسَمَتْ وَظِيفَةُ الشَّرْطَةِ قِسْمَيْنِ مِنْهَا وَظِيفَةُ التُّهْمَةِ عَلَى الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا وَمَبَاشَرَةُ الْقَطْعِ وَالْقِصَاصِ حَيْثُ يَتَعَيَّنُ وَنُصِبَ لِذَلِكَ فِي هَذِهِ الدَّوْلِ حَاكِمٌ يَحْكُمُ فِيهَا بِمُوجِبِ السِّيَاسَةِ دُونَ مُرَاجَعَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَيُسَمَّى تَارَةً بِاسْمِ الْوَالِي وَتَارَةً بِاسْمِ الشَّرْطَةِ وَبَقِي قِسْمُ التَّغَايِيرِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ فِي الْجَرَائِمِ الثَّابِتَةِ شَرْعاً فَجُمِعَ

(١) ربما تكون محرفة من الصوائف ؛ أي الغزو أثناء الصيف .

(٢) القود ؛ قتل القاتل بدل القاتيل ( منجد ) .

ذَلِكَ لِلْقَاضِي مَعَ مَا تَقَدَّمَ وَصَارَ ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِ وَظِيْفَةٍ وَلَا يَتِيهِ وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى ذَلِكَ وَخَرَجَتْ هَذِهِ الْوِظِيْفَةُ عَنْ أَهْلِ عَصِيْبَةِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الْأَمْرَ لَمَّا كَانَ خِلَافَةَ دِيْنِيَّةٍ وَهَذِهِ الْخِطَّةُ مِنْ مَرَامِسِ الدِّينِ فَكَانُوا لَا يُؤَلُّونَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَهْلِ عَصِيْبَتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ بِالْحَلْفِ أَوْ بِالرِّقِّ أَوْ بِالِاضْطِنَاعِ مِمَّنْ يُوثِقُ بِكِفَايَتِهِ أَوْ غِنَائِهِ فِيمَا يُدْفَعُ إِلَيْهِ ، وَلَمَّا انْقَرَضَ شَأْنُ الْخِلَافَةِ وَطَوَّرَهَا وَصَارَ الْأَمْرُ كُلُّهُ مُلْكًا أَوْ سُلْطَانًا صَارَتْ هَذِهِ الْخِطَّةُ الدِّيْنِيَّةُ بَعِيدَةً عَنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ أَلْقَابِ الْمَلِكِ وَلَا مَرَامِسِهِ ثُمَّ خَرَجَ الْأَمْرُ جُمَّلَةً مِنَ الْعَرَبِ وَصَارَ الْمَلِكُ لِسِوَاهُمْ مِنْ أُمَّةِ التُّرْكِ وَالتَّبَرُّبَرِ فَازْدَادَتْ هَذِهِ الْخِطَّةُ الْخِلَافِيَّةُ بَعْدَ عَنْهُمْ بِمَنْحَاهَا وَعَصِيْبَتِيهَا . وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الشَّرِيْعَةَ دِيْنُهُمْ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْهُمْ وَأَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ نَحَلْتَهُمْ بَيْنَ الْأُمَّةِ وَطَرِيقَهُمْ ، وَغَيْرَهُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤَلُّونَهَا جَانِبًا مِنَ التَّعْظِيمِ لِمَا دَانُوا بِالْمِلَّةِ فَقَطُّ . فَصَارُوا يُقَلِّدُونَهَا مِنْ غَيْرِ عَصَايَتِهِمْ مِمَّنْ كَانَ تَأَهَّلَ لَهَا فِي دَوْلِ الْخُلَفَاءِ السَّالِفَةِ .

وَكَانَ أَوْلِيكَ الْمُتَأَهِّلُونَ بِمَا أَخَذَهُمْ تَرْفُ الدَّوْلِ مُنْذُ مَبْنِيٍّ مِنَ السَّنِينَ قَدْ نَسُوا عَهْدَ الْبِدَاوَةِ وَخُشُوْنَتَهَا وَالتَّبَسُّوْا بِالْحَضَارَةِ فِي عَوَائِدِ تَرْفِهِمْ وَدَعَبَتِهِمْ ، وَقَلَّةِ الْمُمَانَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَصَارَتْ هَذِهِ الْخِطَّةُ فِي الدَّوْلِ الْمُلُوكِيَّةِ مِنْ بَعْدِ الْخُلَفَاءِ مُخْتَصَّةً بِهَذَا الصَّنْفِ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَنَزَلَ أَهْلُهَا عَنْ مَرَاتِبِ الْعِزِّ لِفَقْدِ الْأَهْلِيَّةِ بِأَنْسَابِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَضَارَةِ فَلَحِقَهُمْ مِنَ الْإِحْتِقَارِ مَا لِحَقَ الْحَضَرَ الْمُتَنْغَمِسِينَ فِي التَّرْفِ وَالدَّعَةِ ، الْبَعْدَاءُ عَنْ عَصِيْبَةِ الْمَلِكِ الَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى الْحَامِيَّةِ ، وَصَارَ اعْتِبَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ أَجْلِ قِيَامِهَا بِالْمِلَّةِ وَأَخِذَهَا بِأَحْكَامِ الشَّرِيْعَةِ ، لِمَا أَنَّهُمْ الْحَامِلُونَ لِلْأَحْكَامِ الْمُقْتَدُونَ بِهَا . وَلَمْ يَكُنْ إِشَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِكْرَامًا لِدَوَاتِهِمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا يَتَلَمَّحُ مِنَ التَّحْمُلِ بِمَكَانِهِمْ فِي مَجَالِسِ الْمَلِكِ لِتَعْظِيمِ الرُّتَبِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ شَيْءٌ ، وَإِنْ حَضَرُوهُ فَحُضُورَ رَسْمِيٍّ لَا حَقِيْقَةَ وَرَاءَهُ ، إِذْ حَقِيْقَةُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ إِنَّمَا هِيَ لِأَهْلِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ

فَمَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ فَلَا حَلَّ لَهُ وَلَا عَقْدَ لَدَيْهِ . اللَّهُمَّ إِلَّا أَخَذَ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ عَنْهُمْ ، وَتَلَقَّى الْفِتَاوَى مِنْهُمْ فَنَعَمْ وَاللَّهِ الْمَوْفُقُ . وَرُبَّمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْحَقَّ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ وَأَنَّ فِعْلَ الْمُلُوكِ فِيمَا فَعَلُوهُ مِنْ إِخْرَاجِ الْفُقَهَاءِ وَالْقَضَاءِ مِنَ الشُّورَى مَرْجُوحٌ وَقَدْ قَالَ ﷺ « الْعُلَمَاءُ وَرِثَةُ الْأَنْبِيَاءِ » فَاعْلَمَنَّ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ كَمَا ظَنَّهُ (١) وَحُكْمُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ وَإِلَّا كَانَ يَبْعِدُ عَنِ السِّيَاسَةِ . فَطَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ فِي هَؤُلَاءِ لَا تَقْضِي لَهُمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ الشُّورَى وَالْحَلَّ وَالْعَقْدَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِصَاحِبِ عَضِيَّةٍ يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى حَلِّ أَوْ عَقْدِ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ ، وَأَمَّا مَنْ لَا عَضِيَّةَ لَهُ وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ شَيْئاً وَلَا مِنْ حِمَايَتِهَا وَإِنَّمَا هُوَ عِيَالٌ عَلَى غَيْرِهِ فَأَيُّ مَدْخَلٍ لَهُ فِي الشُّورَى أَوْ أَيُّ مَعْنَى يَدْعُو إِلَى اعْتِبَارِهِ فِيهَا ؟ اللَّهُمَّ إِلَّا شُورَاهُ فِيمَا يَعْلَمُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَمَوْجُودَةٌ فِي الْإِسْتِفْتَاءِ خَاصَّةً . وَأَمَّا شُورَاهُ فِي السِّيَاسَةِ فَهُوَ يَبْعِدُ عَنْهَا لِفَقْدَانِهِ الْعَضِيَّةَ وَالْقِيَامَ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا وَأَحْكَامِهَا وَإِنَّمَا إِكْرَامُهُمْ مِنْ تَبَرُّعَاتِ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ الشَّاهِدَةِ لَهُمْ بِجَمِيلِ الْإِعْتِقَادِ فِي الدِّينِ وَتَعْظِيمِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ بِأَيِّ جِهَةٍ انْتَسَبَ وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ « الْعُلَمَاءُ وَرِثَةُ الْأَنْبِيَاءِ » فَاعْلَمَنَّ أَنَّ الْفُقَهَاءَ فِي الْأَغْلَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمَا اخْتَفَ بِهِ إِنَّمَا حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ أَقْوَالاً فِي كَيْفِيَّةِ الْأَعْمَالِ فِي الْعِبَادَاتِ وَكَيْفِيَّةِ الْقَضَاءِ فِي الْمُعَامَلَاتِ يَنْصُونَهَا عَلَى مَنْ يَخْتَاجُ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا هِدْيَةً أَوْ كَأَبْرَهُمْ وَلَا يَتَّصِفُونَ إِلَّا بِالْأَقْلِ مِنْهَا وَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَالسَّلْفُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَاهْلُ الدِّينِ وَالْوَرَعِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ اتِّصَافاً بِهَا وَتَحَقُّقاً بِمَذَاهِبِهَا . فَمَنْ حَمَلَهَا اتِّصَافاً وَتَحَقُّقاً دُونَ نَقْلِ فَهُوَ مِنَ الْوَارِثِينَ مِثْلَ أَهْلِ رِسَالَةِ الْقَشِيرِيِّ وَمَنْ اجْتَمَعَ لَهُ الْأَمْرَانِ فَهُوَ الْعَالِمُ وَهُوَ الْوَارِثُ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِثْلَ فُقَهَاءِ التَّابِعِينَ وَالسَّلْفِ وَالْأَيْمَةِ الْأَرْبَعَةِ وَمَنْ اقْتَمَى طَرِيقَهُمْ وَجَاءَ عَلَى أَثَرِهِمْ وَإِذَا انْفَرَدَ وَاحِدٌ مِنَ الْأُمَّةِ بِأَحَدِ الْأَمْرَيْنِ فَالْعَابِدُ أَحَقُّ بِالْوَرَاثَةِ مِنَ الْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لِأَنَّ الْعَابِدَ وَرِثَ بِصِفَةِ الْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لَمْ يَرِثْ

(١) الضمير يعود إلى الناس أو العامة .

شَيْئاً إِنَّمَا هُوَ صَاحِبُ أَقْوَالٍ يَنْصُهَا عَلَيْنَا فِي كَيْفِيَّاتِ الْعَمَلِ وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ قَهَّاءِ  
عَضْرَنَا « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » .

العدالة : وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن موادّ تَضْرِيْفِهِ وَحَقِيقَةُ هَذِهِ  
الْوُضُوفَةِ الْقِيَامُ عَنِ إِذْنِ الْقَاضِي بِالشَّهَادَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ تَحْمُلاً عِنْدَ  
الإِشْهَادِ وَأَدَاءً عِنْدَ التَّنَازُعِ وَكُتِبَ فِي السَّجَلَاتِ تُحْفَظُ بِهِ حُقُوقُ النَّاسِ وَأَمْلَاقُهُمْ  
وَدَيُونُهُمْ وَسَائِرُ مَعَامَلَاتِهِمْ وَشَرَطُ هَذِهِ الْوُضُوفَةِ الْإِتِّصَافُ بِالْعَدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْبَرَاءَةُ  
مِنَ الْجُرْحِ ثُمَّ الْقِيَامُ بِكُتْبِ السَّجَلَاتِ وَالْعُقُودِ مِنْ جِهَةِ عِبَارَاتِهَا وَإِنْتِظَامِ فُضُولِهَا  
وَمِنْ جِهَةِ إِحْكَامِ شُرُوطِهَا الشَّرْعِيَّةِ وَعُقُودِهَا فَيُحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ  
مِنَ الْفِقْهِ وَأَجَلِ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمِرَانِ <sup>(١)</sup> عَلَى ذَلِكَ وَالْمُمَارَسَةِ لَهُ  
اِخْتِصَافُ ذَلِكَ بِبَعْضِ الْعُدُولِ وَصَارَ الصَّنْفُ الْقَائِمُونَ بِهِ كَانْتَهُمْ مُخْتَصِصُونَ بِالْعَدَالَةِ  
وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا الْعَدَالَةُ مِنْ شُرُوطِ اِخْتِصَاصِهِمْ بِالْوُضُوفَةِ وَيَجِبُ عَلَى الْقَاضِي  
تَضْفُحُ أَحْوَالِهِمْ وَالْكَشْفُ عَنْ سِيَرِهِمْ رِعَايَةً لَشَرَطِ الْعَدَالَةِ فِيهِمْ وَأَنْ لَا يَنْهَمِلَ ذَلِكَ  
لِمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ مِنْ حِفْظِ حُقُوقِ النَّاسِ فَالْمَعْدَةُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَهُوَ ضَامِنٌ دَرَكُهُ  
وَإِذَا تَعَيَّنَ هَؤُلَاءِ لِهَذِهِ الْوُضُوفَةِ عَمَّتِ الْفَائِدَةُ فِي تَعْيِينِ مَنْ تَخْفَى عَدَالَتُهُ عَلَى الْقَضَاةِ  
بِسَبَبِ اتِّسَاعِ الْأَمْصَارِ وَاشْتِبَاهِ الْأَحْوَالِ وَاضْطِرَّارِ الْقَضَاةِ إِلَى الْفَضْلِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ  
بِالْبَيِّنَاتِ الْمُوثُوقَةِ فَيَعْمَلُونَ غَالِباً فِي الْوُثُوقِ بِهَا عَلَى هَذَا الصَّنْفِ وَلَهُمْ فِي سَائِرِ  
الْأَمْصَارِ دَكَكَيْنِ وَمَصَاطِبُ يَخْتَصُونَ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهَا فَيَتَعَاهَدُهُمْ أَصْحَابُ  
الْمَعَامَلَاتِ لِلْإِشْهَادِ وَتَقْيِيدِهِ بِالْكِتَابِ وَصَارَ مَذْلُولُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ مُشْتَرِكاً بَيْنَ هَذِهِ  
الْوُضُوفَةِ الَّتِي تَبَيَّنَ مَذْلُولُهَا وَبَيْنَ الْعَدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي هِيَ أُخْتُ الْجُرْحِ وَقَدْ  
يَتَوَارَدَانِ وَيَفْتَرِقَانِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

## الحسبة والسكة

إِذَا الْحِسْبَةُ فِيهِ وَظِيفَةُ دِينِيَّةٌ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ

(١) المران بكسر الميم التمرن والاعتباد على الشيء ١ هـ



الَّذِي هُوَ فَرَضَ عَلَى الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ يُعَيِّنُ لِدَلِكِ مَنْ يَرَاهُ أَهْلًا لَهُ فَيَتَعَيَّنُ  
فَرْضُهُ عَلَيْهِ وَيَتَّخِذُ الْأَعْوَانَ عَلَى ذَلِكَ وَيُنْحَتُ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَيُعَزِّرُ وَيُؤَدِّبُ عَلَى  
قَدْرِهَا وَيَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِي الْمَدِينَةِ مِثْلَ الْمَنْعِ مِنَ الْمَضَائِقِ فِي  
الطَّرِيقَاتِ وَمَنْعِ الْحَمَّالِينَ وَأَهْلِ السُّفُنِ مِنَ الْإِكْثَارِ فِي الْحَمْلِ وَالْحُكْمِ عَلَى أَهْلِ  
الْمَبَانِي الْمَتَدَاعِيَةِ لِلسُّقُوطِ بِهِمْهَا وَإِزَالَةِ مَا يَتَوَقَّعُ مِنْ ضَرَرِهَا عَلَى السَّابِلَةِ  
وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الْمَعْلَمِينَ فِي الْمَكَاتِبِ وَغَيْرِهَا فِي الْإِبْلَاحِ فِي ضَرْبِهِمُ لِلصُّبْيَانِ  
الْمَعْلَمِينَ وَلَا يَتَوَقَّفُ حُكْمَهُ عَلَى تَنَازُعٍ أَوْ اسْتِعْدَاءٍ بَلْ لَهُ النَّظَرُ وَالْحُكْمُ فِيمَا يَصِلُ  
إِلَى عِلْمِهِ مِنْ ذَلِكَ وَيَرْفَعُ إِلَيْهِ وَلَيْسَ لَهُ إِمضَاءُ الْحُكْمِ فِي الدَّعَاوِي مُطْلَقًا بَلْ فِيمَا  
يَتَمَلَّقُ بِالْعِشِّ وَالتَّنْذِيلِ فِي الْمَعَائِشِ وَغَيْرِهَا فِي الْمَكَايِلِ وَالْمَوَازِينِ وَلَهُ أَيْضًا  
حَمْلُ الْمَطَاطِلِينَ عَلَى الْإِنْصَافِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ سَمَاعٌ بَيِّنَةٌ وَلَا إِنْفَادٌ حُكْمٍ  
وَكَانَتْهَا أَحْكَامٌ يُنَزَّهُ الْقَاضِي عَنْهَا لِعُمُومِهَا وَسُهُولَةِ أَعْرَاضِهَا فَتُدْفَعُ إِلَى صَاحِبِ هَذِهِ  
الْوِظَافَةِ لِيَقُومَ بِهَا فَوْضُوعُهَا عَلَى ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ خَادِمَةً لِمَنْصِبِ الْقَضَاءِ وَقَدْ كَانَتْ فِي  
كَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِثْلَ الْعَبِيدِيِّينَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَمُويِّينَ بِالْأَنْدَلُسِ  
دَاخِلَةً فِي عُمُومِ وَلَايَةِ الْقَاضِي يُؤَلَّى فِيهَا بِاخْتِيَارِهِ ثُمَّ لَمَّا انْفَرَدَتْ وَظِيفَةُ السُّلْطَانِ  
عَنِ الْخِلَافَةِ وَصَارَ نَظَرُهُ عَامًا فِي أُمُورِ السِّيَاسَةِ انْدَرَجَتْ فِي وَظَائِفِ الْمَلِكِ وَأَفْرَدَتْ  
بِالْوِلَايَةِ .

وَأَمَّا السُّكَّةُ فَهِيَ النَّظَرُ فِي النُّقُودِ الْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ وَحِفْظُهَا مِمَّا  
يُدَاخِلُهَا مِنَ الْعِشِّ أَوْ النِّقْصِ إِنْ كَانَ يُتَعَامَلُ بِهَا عَدَدًا أَوْ مَا يَتَمَلَّقُ بِذَلِكَ وَيُوصَلُ  
إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْإِعْتِبَارَاتِ ثُمَّ فِي وَضْعِ عِلَامَةِ السُّلْطَانِ عَلَى تِلْكَ النُّقُودِ بِالِاسْتِجَادَةِ  
وَالخُلُوصِ بِرِسْمِ تِلْكَ الْعِلَامَةِ فِيهَا مِنْ خَاتَمِ حَدِيدٍ اتَّخَذَ لِذَلِكَ وَنُقِشَ فِيهِ نُقُوشٌ  
خَاصَّةٌ بِهِ فَيُوضَعُ عَلَى الدِّيْنَارِ بَعْدَ أَنْ يُقَدَّرَ وَيُضْرَبَ عَلَيْهِ بِالْمِطْرَقَةِ حَتَّى تُرْسَمَ  
فِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ وَتَكُونَ عِلَامَةً عَلَى جُودَتِهِ بِحَسَبِ الْغَايَةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا السُّبُكُ  
وَالتَّخْلِيفُ فِي مَعَارِفِ أَهْلِ الْقَطْرِ وَمَذَاهِبِ الدُّوَلَةِ الْحَاكِمَةِ فَرَأَى السُّبُكُ وَالتَّخْلِيفُ

فِي النُّقُودِ لَا يَفْقَهُ عِنْدَ غَايَةِ وَإِنَّمَا تُرْجَعُ غَايَتُهُ إِلَى الإِجْتِهَادِ فَإِذَا وَقَفَ أَهْلُ أَتَقَى أَوْ  
 قَطْرًا عَلَى غَايَةِ مِنَ التَّخْلِيفِ وَقَفُوا عِنْدَهَا وَسَمَّوْهَا إِمَامًا وَعِيَارًا يَفْتَرُونَ بِهِ نُقُودَهُمْ  
 وَيَنْتَقِدُونَهَا بِمِمَّا لَتِيهِ فَإِنَّ نَقْصَ عَنْ ذَلِكَ كَانَ زَيْفًا وَالنَّظْرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لِصَاحِبِ  
 هَذِهِ الوَظِيْفَةِ وَهِيَ دِينِيَّةٌ بِهَذَا الإِعْتِبَارِ فَتَنْدَرُجُ تَحْتَ الخِلَافَةِ وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرُجُ فِي  
 عُمُومِ وَلايَةِ القَاضِي ثُمَّ أَفْرَدَتْ لِهَذَا العَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِي الحَبَشَةِ .

هَذَا آخِرُ الكَلَامِ فِي الوَظَائِفِ الخِلَافِيَّةِ وَبَقِيَتْ مِنْهَا وَظَائِفٌ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ  
 مَا يُنظَرُ فِيهِ وَأُخْرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً فَوَظِيْفَةُ الإِمَارَةِ وَالوِزَارَةِ وَالْحَرْبِ وَالخِرَاجِ  
 صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً تَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِنِهَا بَعْدَ وَظِيْفَةِ الجِهَادِ وَوَظِيْفَةِ الجِهَادِ بَطَلَتْ  
 بِبَطْلَانِهِ إِلا فِي قَلِيلٍ مِنَ الدُّوَلِ يَمَارِسُونَهُ وَيَنْدَرُجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِبًا فِي السُّلْطَانِيَّاتِ  
 وَكَذَا تَقَابَةُ الأَنْسَابِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الخِلَافَةِ أَوْ الحَقِّ فِي بَيْتِ المَالِ قَدْ بَطَلَتْ  
 لِذُئُورِ الخِلَافَةِ وَرُسُومِهَا وَبِالْجُمْلَةِ قَدْ أُنْدَرَجَتْ رُسُومُ الخِلَافَةِ وَوَظَائِفُهَا فِي رُسُومِ  
 المُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ فِي سَائِرِ الدُّوَلِ لِهَذَا العَهْدِ وَاللَّهِ مُصَرِّفُ الأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ .

## الفصل الثاني والثلاثون

فِي اللِّقْبِ بِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَانْه مِنْ سَمَاتِ الخِلَافَةِ وَهُوَ مَحْدُثٌ مِنْذِ عَهْدِ  
 الخِلْفَاءِ

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بُويعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ  
 وَسَائِرُ المُسْلِمِينَ يُسَمُّونَهُ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَمْ يَزَلِ الأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ  
 هَلَكَ فَلَمَّا بُويعَ لِعُمَرَ بِعَهْدِهِ إِلَيْهِ كَانُوا يَدْعُونَهُ خَلِيفَةَ خَلِيفَةَ رَسُولِ  
 اللهِ ﷺ وَكَانَهُمْ اسْتَشْقَلُوا هَذَا اللِّقْبَ بِكَثْرَتِهِ وَطَوَّلِ إِضَافَتِهِ وَأَنَّهُ يَتْرَايْدُ فِيمَا  
 بَعْدَ دَائِمًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الهُجْنَةِ وَيَذْهَبُ مِنْهُ التَّمْيِيزُ بِتَعَدُّدِ الإِضَافَاتِ وَكَثْرَتِهَا  
 فَلَا يُعْرَفُ فَكَانُوا يَغْدِلُونَ عَنْ هَذَا اللِّقْبِ إِلَى مَا سِوَاهُ مِمَّا يُنَاسِبُهُ وَيُدْعَى بِهِ مِثْلَهُ

وَكَانُوا يُسَمُّونَ قُوَادِ الْبُعُوثِ بِاسْمِ الْأَمِيرِ وَهُوَ فَعِيلٌ مِنَ الْإِمَارَةِ وَقَدْ كَانَ الْجَاهِلِيَّةُ  
يَدْعُونَ النَّبِيَّ ﷺ أَمِيرَ مَكَّةَ وَأَمِيرَ الْحِجَازِ وَكَانَ الصَّحَابَةُ أَيْضًا يَدْعُونَ  
سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِإِمَارَتِهِ عَلَى جَيْشِ الْقَادِسِيَّةِ وَهُمْ مَعْظَمُ  
الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ وَاتَّفَقَ أَنْ دَعَا بَعْضَ الصَّحَابَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا أَمِيرَ  
الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَحْسَنَهُ النَّاسُ وَاسْتَضَوُّوهُ وَدَعَوْهُ بِهِ .

يُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ دَعَا بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وَقِيلَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِي  
وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَقِيلَ بَرِيدٌ جَاءَ بِالْفَتْحِ مِنْ بَعْضِ الْبُعُوثِ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ وَهُوَ  
يَسْأَلُ عَنْ عُمَرَ وَيَقُولُ أَيْنَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَمِعَهَا أَصْحَابُهُ فَاسْتَحْسَنُوهُ وَقَالُوا  
أَصَبَتْ وَاللَّهِ اسْمُهُ إِنَّهُ وَاللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا فَدَعَوْهُ بِذَلِكَ وَذَهَبَ لِقَبَالَهُ فِي النَّاسِ  
وَتَوَارَثَهُ الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ سِمَةً لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ سِوَاهُمْ إِلَّا سَائِرُ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ  
ثُمَّ إِنَّ الشَّيْعَةَ خَصُّوا عَلِيًّا بِاسْمِ الْإِمَامِ نَعْتًا لَهُ بِالْإِمَامَةِ الَّتِي هِيَ اخْتُ الْخِلَافَةِ  
وَتَعْرِضًا بِمَذْهَبِهِمْ فِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِإِمَامَةِ الصَّلَاةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ لِمَا هُوَ مَذْهَبُهُمْ  
وَبَدَعَتُهُمْ فَخَصُّوهُ بِهَذَا اللَّقَبِ وَلَمَنْ يَسُوقُونَ إِلَيْهِ مَنْصِبَ الْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانُوا  
كُلُّهُمْ يُسَمُّونَ بِالْإِمَامِ مَا دَامُوا يَدْعُونَ لَهُمْ فِي الْخُلَفَاءِ حَتَّى إِذَا يَسْتَوْلُونَ عَلَى الدَّوْلَةِ  
يُحَوِّلُونَ<sup>(١)</sup> اللَّقَبَ فِيمَا بَعْدَهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا فَعَلَهُ شَيْعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ فَإِنَّهُمْ  
مَا زَالُوا يَدْعُونَ أَيْمَتَهُمْ بِالْإِمَامِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ الَّذِي جَسَرُوا بِالِدُّعَاءِ لَهُ وَعَقَدُوا الرِّايَاتِ  
لِلْحَرْبِ عَلَى أَمْرِهِ فَلَمَّا هَلَكَ دَعِيَ أَخُوهُ السُّفَّاحُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَكَذَا الرَّافِضَةُ بِأَفْرِيقِيًّا فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ أَيْمَتَهُمْ مِنْ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ بِالْإِمَامِ  
حَتَّى انْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى عَبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ وَكَانُوا أَيْضًا يَدْعُونَهُ بِالْإِمَامِ وَلَا بِنَيْهِ أَبِي  
الْقَاسِمِ مِنْ بَعْدِهِ فَلَمَّا اسْتَوْثِقَ لَهُمُ الْأَمْرُ دَعَوْا مِنْ بَعْدِهِمَا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَذَا  
الْأَدَارِسَةُ بِالْمَغْرِبِ كَانُوا يَلْقَبُونَ إِدْرِيسَ بِالْإِمَامِ وَابْنَتَهُ إِدْرِيسَ الْأَضْفَرَ كَذَلِكَ  
وَهَكَذَا شَأْنُهُمْ وَتَوَارَثَ الْخُلَفَاءُ هَذَا اللَّقَبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَعَلُوهُ سِمَةً لِمَنْ يَمْلِكُ

(١) الأصح أن يقول ، حتى إذا استولوا على الدولة حولوا اللقب .

الْحِجَازَ وَالشَّامَ وَالْعِرَاقَ وَالْمَوَاطِنَ الَّتِي هِيَ دِيَارُ الْعَرَبِ وَمَرَكَزُ الدَّوْلَةِ وَأَهْلَ الْمِلَّةِ  
وَالْفَتْحِ وَأَزْدَادَ لِدَلِكِ فِي عُنُقِ الدَّوْلَةِ وَبَدِخَهَا لَقَبَ آخِرُ لِلْخُلَفَاءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ بَعْضُهُمْ  
عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِشْتِرَاكِ بَيْنَهُمْ فَاسْتَحَدَتْ لِدَلِكِ بَنُو الْعَبَّاسِ  
حِجَابًا لِأَسْمَائِهِمُ الْأَعْلَامَ عَنِ امْتِهَانِهَا فِي أَلْسِنَةِ السُّوقَةِ وَصَوْنًا لَهَا عَنِ الْإِيتِدَالِ  
فَتَلَقَّبُوا بِالسَّفَاحِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِيِّ وَالنَّهَادِيِّ وَالرُّشِيدِ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ  
فِي دَلِكِ الْعُبَيْدِيُّونَ بِأَفْرِيْقِيَّةٍ وَمِصْرَ وَتَجَافَى بَنُو أُمَيَّةَ عَنْ دَلِكِ بِالْمَشْرِقِ قَبْلَهُمْ مَعَ  
الْفَضَاضَةِ وَالسَّدَاجَةِ لِأَنَّ الْعُرُوبِيَّةَ وَمَنَازِعَهَا لَمْ تُفَارِقَهُمْ حِينَئِذٍ وَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْهُمْ  
شِعَارُ الْبِدَاوَةِ إِلَى شِعَارِ الْحَضَارَةِ وَأَمَّا بِالْأَنْدَلُسِ فَتَلَقَّبُوا كَسَلْفِهِمْ مَعَ مَا عَمِلُوهُ مِنْ  
أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْقُصُورِ عَنْ دَلِكِ بِالْقُصُورِ عَنْ مُلْكِ الْحِجَازِ أَصْلِ الْعَرَبِ وَالْمِلَّةِ وَالْبُعْدِ  
عَنْ دَارِ الْخِلَافَةِ الَّتِي هِيَ مَرْكَزُ الْعَصِيَّةِ وَأَنْتَهُمْ إِنَّمَا مَنَعُوا بِإِمَارَةِ الْقَاصِيَةِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ  
مَهَالِكِ بَنِي الْعَبَّاسِ حَتَّى إِذَا جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّخِلُ الْآخِرُ مِنْهُمْ وَهُوَ النَّاصِرُ بْنُ  
مُحَمَّدِ بْنِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ لِأَوَّلِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ  
وَاشْتَهَرَ مَا نَالَ الْخِلَافَةَ بِالْمَشْرِقِ مِنَ الْحَجْرِ وَاسْتِبْدَادِ الْمَوَالِي وَعَيْشِهِمْ فِي الْخُلَفَاءِ  
بِالْعَزْلِ وَالْإِسْتِبْدَالِ وَالْقَتْلِ وَالسَّمْلِ ذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ هَذَا إِلَى مِثْلِ مَذَاهِبِ الْخُلَفَاءِ  
بِالْمَشْرِقِ وَأَفْرِيْقِيَّةٍ وَتَسَمَّى بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَلَقَّبَ بِالنَّاصِرِ لِذِي اللَّهِ . وَأَخَذَتْ  
مِنْ بَعْدِهِ عَادَةٌ وَمَذَهَبٌ لَقْنُ عَنْهُ وَلَمْ يَكُنْ لِأَبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ . وَاسْتَمَرَ الْحَالُ عَلَى  
ذَلِكِ إِلَى أَنْ انْقَرَضَتْ عَصِيَّةُ الْعَرَبِ أَجْمَعٍ وَذَهَبَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَ الْمَوَالِي مِنْ  
الْعَجَمِ عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ وَالصَّنَائِعِ عَلَى الْعُبَيْدِيِّينَ بِالْقَاهِرَةِ وَصَنَهَاجَةَ عَلَى أَمْرَاءِ  
أَفْرِيْقِيَّةٍ وَزَنَاتَةَ عَلَى الْمَغْرِبِ وَمُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى أَمْرِ بَنِي أُمَيَّةَ  
وَاقْتَسَمُوهُ وَافْتَرَقَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ فَاخْتَلَفَتْ مَذَاهِبُ الْمُلُوكِ بِالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ فِي  
الِاخْتِصَاصِ بِالْأَلْقَابِ بَعْدَ أَنْ تَسَمَّوْا جَمِيعًا بِاسْمِ السُّلْطَانِ .

فَأَمَّا مُلُوكُ الْمَشْرِقِ مِنَ الْعَجَمِ فَكَانَ الْخُلَفَاءُ يَخُصُونَهُمْ بِالْقَابِ تَشْرِيفِيَّةٍ حَتَّى  
يُسْتَشْعَرُ مِنْهَا انْقِيَادُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ وَحُسْنُ وَلَايَتِهِمْ مِثْلَ شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَعَضِدِ الدَّوْلَةِ

وَرُكْنِ الدَّوْلَةِ وَمِعْزِ الدَّوْلَةِ وَنَصِيرِ الدَّوْلَةِ وَنِظَامِ الْمَلِكِ وَبِهَاءِ الدَّوْلَةِ وَذَخِيرَةِ الْمَلِكِ  
وَأَمْثَالِ هَذِهِ وَكَانَ الْعُبَيْدِيُّونَ أَيْضاً يَخْصُونَ بِهَا أَمْرَاءَ صَنْهَاجَةَ فَلَمَّا اسْتَبَدُّوا عَلَى  
الْخِلَافَةِ قَنَعُوا بِهَذِهِ الْأَلْقَابِ وَتَجَافَوْا عَنِ الْأَقَابِ الْخِلَافَةِ أَدْباً مَعَهَا وَعُدُولاً عَنْ  
سِمَاتِهَا الْمُخْتَصَّةِ بِهَا شَأْنَ الْمُتَغَلِّبِينَ الْمُسْتَبَدِّينَ كَمَا قُلْنَا وَنَزَعَ الْمُتَأَخِّرُونَ أَعَاجِمُ  
الْمَشْرِقِ حِينَ قَوِيَ اسْتِبْدَادُهُمْ عَلَى الْمَلِكِ وَعَلَا كَفْبُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ وَتَلَاشَتْ  
عَصَبِيَّةُ الْخِلَافَةِ وَاضْمَحَلَّتْ بِالْجُمْلَةِ إِلَى انْتِحَالِ الْأَلْقَابِ الْخَاصَّةِ بِالْمَلِكِ مِثْلِ  
النَّاصِرِ وَالْمَنْصُورِ وَزِيَادَةِ عَلَى الْأَقَابِ يَخْصُونَ بِهَا قَبْلَ هَذَا الْإِنْتِحَالَ مُشْعِرَةً  
بِالْخُرُوجِ عَنِ رَبَقَةِ الْوَلَاءِ وَالِإِضْطِنَاعِ بِمَا أَضَافُوهَا إِلَى الدِّينِ فَقَطُّ فَيَقُولُونَ صَلَاحُ  
الدِّينِ أَسَدُ الدِّينِ نُورُ الدِّينِ . وَأَمَّا مُلُوكُ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ فَاقْتَسَمُوا الْأَقَابَ  
الْخِلَافَةَ وَتَوَزَّعُوهَا لِقُوَّةِ اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَيْهَا بِمَا كَانُوا مِنْ قَبِيلِهَا وَعَصَبِيَّتِهَا فَتَلَقَّبُوا  
بِالنَّاصِرِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمُعْتَمِدِ وَالْمُظَفَّرِ وَأَمْثَالِهَا كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي شَرْفٍ <sup>(١)</sup> يَنْعَى  
عَلَيْهِمْ :

مِمَّا يُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ      أَسْمَاءُ مُعْتَمِدٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ  
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا      كَالِهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحاً صُورَةَ الْأَسَدِ

وَأَمَّا صَنْهَاجَةُ فَاقْتَصَرُوا عَنِ الْأَقَابِ الَّتِي كَانَ الْخُلَفَاءُ الْعُبَيْدِيُّونَ يَلْقَبُونَ بِهَا  
لِلتَّنَوُّيَةِ مِثْلَ نَصِيرِ الدَّوْلَةِ وَمِعْزِ الدَّوْلَةِ وَاتَّصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ لَمَّا أَدَالُوا مِنْ دَعْوَةِ  
الْعُبَيْدِيِّينَ بِدَعْوَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ ثُمَّ بَعَدَتْ الشُّقَّةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخِلَافَةِ وَنَسُوا عَهْدَهَا  
فَنَسُوا هَذِهِ الْأَقَابَ وَاقْتَصَرُوا عَلَى اسْمِ السُّلْطَانِ وَكَذَا شَأْنَ مُلُوكِ مَغْرَاوَةَ بِالمَغْرِبِ  
لَمْ يَنْتَحِلُوا شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْأَقَابِ إِلَّا اسْمَ السُّلْطَانِ جَزِئاً عَلَى مَذَاهِبِ الْبِدَاوَةِ  
وَالْفِضَاضَةِ . وَلَمَّا مَجِيَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَعَطَّلَ دَسْتُهَا <sup>(٢)</sup> وَقَامَ بِالمَغْرِبِ مِنْ قَبَائِلِ  
الْبَرْبَرِ يَوْسُفُ بْنُ تَاشَفِينَ مَلِكٌ لِمَتُونَةَ فَمَلَكَ الْعُدَوْتَيْنِ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ  
وَالِإِقْتِدَاءِ نَزَعَتْ بِهِ هِمَّتُهُ إِلَى الدُّخُولِ فِي طَاعَةِ الْخَلِيفَةِ تَكْمِيلاً لِمَرَامِ دِينِهِ

(١) كذا في جميع النسخ واسمه ابن شرف .

(٢) الدست كلمة أعجمية لم ترد في لسان العرب ومعناها صدر البيت أو المجلس والدست من الثياب

ما يكفي حاجة الإنسان ( المنجد ) وقد استعملها ابن خلدون بمعنى المراسم .

فَخَاطَبَ الْمُسْتَظْهَرَ الْعَبَّاسِيَّ وَأَوْفَدَ عَلَيْهِ بَيْعَتَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْعَرَبِيِّ وَابْنَهُ الْقَاضِي  
أَبَا بَكْرٍ مِنْ مَشِيخَةِ إِسْبِيلِيَّةٍ يَطْلُبَانِ تَوْلِيَتَهُ إِيَّاهَا عَلَى الْمَغْرِبِ وَتَقْلِيدَهُ ذَلِكَ  
فَانْقَلَبُوا إِلَيْهِ <sup>(١)</sup> بَعْدَ الْخِلَافَةِ لَهُ عَلَى الْمَغْرِبِ وَاسْتَشْعَارِ زَيْهِمْ فِي لُبُوسِهِ <sup>(٢)</sup> وَرُتْبَتِهِ  
وَخَاطَبَهُ فِيهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَشْرِيفاً وَاخْتِصَاصاً فَاتَّخَذَهَا لِقَباً وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ  
دُعِيَ لَهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلِ أَدْبَا مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَقَوْمُهُ  
الْمَرَّاطُونَ مِنْ انْتِحَالِ الدِّينِ وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَجَاءَ الْمُهْدِيُّ عَلَى أَثَرِهِمْ دَاعِياً إِلَى الْحَقِّ  
أَخِذاً بِمَذَاهِبِ الْأَشْعَرِيَّةِ نَاعِياً عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ عُدُولَهُمْ عَنْهَا إِلَى تَقْلِيدِ السُّلْفِ فِي  
تَرْكِ التَّأْوِيلِ لِظَوَاهِرِ الشَّرِيعَةِ وَمَا يُؤُولُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنَ التَّجْسِيمِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي  
مَذْهَبِ الْأَشْعَرِيَّةِ وَسَمَّى اتِّبَاعَهُ الْمُوَحِّدِينَ تَغْرِيفاً بِذَلِكَ النُّكْبِ وَكَانَ يَرَى رَأْيَ  
أَهْلِ النَّبِيِّ فِي الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ يُحْفَظُ بِوُجُودِهِ نِظَامُ  
هَذَا الْعَالَمِ فَسَمَّى بِالْإِمَامِ لِمَا قُلْنَا أَوَّلاً مِنْ مَذْهَبِ الشَّيْعَةِ فِي الْقَابِ خُلَفَائِهِمْ وَأَزْدَفَ  
بِالْمَعْصُومِ إِشَارَةً إِلَى مَذْهَبِهِ فِي عِصْمَةِ الْإِمَامِ وَتَنْزَعَهُ عِنْدَ اتِّبَاعِهِ عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ  
أَخِذاً بِمَذَاهِبِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الشَّيْعَةِ وَلَمَّا فِيهَا مِنْ مُشَارَكَةِ الْأَعْمَارِ وَالْوُلْدَانِ مِنْ  
أَعْقَابِ أَهْلِ الْخِلَافَةِ يُؤَمِّدُ بِالْمَشْرِقِ .

ثُمَّ انْتَحَلَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَلِيُّ عَهْدِهِ اللَّقْبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ  
خُلَفَاءُ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَالْأَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ اسْتِثْنَاءً بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُمْ لِمَا دَعَا  
إِلَيْهِ شَيْخُهُمُ الْمُهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ صَاحِبُ الْأَمْرِ وَأَوْلِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ دُونَ كُلِّ  
أَحَدٍ لِانْتِفَاءِ عَصْبِيَّةِ قُرَيْشٍ وَتَلَاشِيهَا فَكَانَ ذَلِكَ دَائِبُهُمْ . وَلَمَّا انْتَقَضَ الْأَمْرُ  
بِالْمَغْرِبِ وَانْتَزَعَهُ زَنَاتُهُ ذَهَبَ أَوْلَاهُمْ مَذَاهِبَ الْبِدَاوَةِ وَالسَّدَاجَةِ وَاتَّبَاعَ لِمَثُونَةٍ فِي  
انْتِحَالِ اللَّقْبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ <sup>(٣)</sup> أَدْبَا مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَى طَاعَتِهَا لِبَنِي

(١) الأصح أن يقول : فانقلبا إليه .

(٢) اللبوس - الثياب والسلاح . قال الله تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم » قالوا : هي الدرع تلبس في

الحروب ( لسان العرب ) .

(٣) يتضح من سياق الجملة وما يليها أن الأصح أن يقول : في عدم انتحال اللقب بأمر المؤمنين .

عَبْدَ الْمُؤْمِنِ أَوْلَا وَلِبْنِي أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ نَزَعَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْهُمْ إِلَى اللَّقْبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَاتَّحَلَّوْهُ لِهَذَا الْعَهْدِ اسْتِبْلَاغًا فِي مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَتَتْمِيمًا لِمَذَاهِبِهِ وَسِمَاتِهِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

## الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

إِعْلَمُ أَنَّ الْمِلَّةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ قَائِمٍ عِنْدَ غَيْبَةِ النَّبِيِّ يَحْمِلُهُمْ عَلَى أَحْكَامِهَا وَشَرَائِعِهَا وَيَكُونُ كَالْخَلِيفَةِ فِيهِمْ لِلنَّبِيِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّكَالِيفِ وَالنُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ أَيْضًا بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ضَرُورَةِ السِّيَاسَةِ فِيهِمْ لِلِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ شَخْصٍ يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيَزَعُمُهُمْ عَنْ مَفَاسِدِهِمْ بِالْقَهْرِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْمَلِكِ وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَمَّا كَانَ الْجِهَادُ فِيهَا مَشْرُوعًا لِعُمُومِ الدَّعْوَةِ وَحَمْلِ الْكَافَّةِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا اتَّخَذَتْ فِيهَا الْخِلَافَةَ وَالْمَلِكُ لِتَوَجُّهِ الشُّوْكَةِ مِنَ الْقَائِمِينَ بِهَا إِلَيْهِمَا مَعًا . وَأَمَّا مَا سِوَى الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَلَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهُمْ عَامَّةً وَلَا الْجِهَادُ عِنْدَهُمْ مَشْرُوعًا إِلَّا فِي الْمُدَافَعَةِ فَقَطُّ فَصَارَ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الدِّينِ فِيهَا لَا يَعْْنِيهِ شَيْءٌ مِنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ وَإِنَّمَا وَقَعَ الْمَلِكُ لِمَنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بِالْعَرَضِ وَالْأَمْرُ غَيْرُ دِينِي وَهُوَ مَا اقْتَضَتْهُ لَهُمُ الْعَصِيَّةُ لِمَا فِيهَا مِنَ الطَّلَبِ لِلْمَلِكِ بِالطَّبَعِ لِمَا قَدَّمْنَا لَهُمْ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مَكْلُفِينَ بِالتَّغَلُّبِ عَلَى الْأَمَمِ كَمَا فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَإِنَّمَا هُمْ مَطْلُوبُونَ بِإِقَامَةِ دِينِهِمْ فِي خَاصَّتِهِمْ .

وَلِذَلِكَ بَقِيَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَيُوشَعَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا نَحْوَ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ لَا يَعْتَنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْمَلِكِ إِنَّمَا هُمْهُمْ إِقَامَةُ دِينِهِمْ فَقَطُّ وَكَانَ الْقَائِمُ بِهِ بَيْنَهُمْ يُسَمَّى الْكُوهَنَ كَأَنَّهُ خَلِيفَةُ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُقِيمُ لَهُمْ أَمْرَ

الصَّلَاةِ وَالْقُرْبَانَ وَيَشْتَرِطُونَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذُرِّيَةِ هَارُونَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِأَنَّ  
مُوسَى لَمْ يُعَقَّبْ ثُمَّ اخْتَارُوا لِإِقَامَةِ السِّيَاسَةِ الَّتِي هِيَ لِلْبَشَرِ بِالطَّبَعِ سَبْعِينَ سِنًا  
كَانُوا يَتَلَوْنَ أَحْكَامَهُمُ الْعَامَّةَ وَالْكُوهَنُ أَكْثَرُ مِنْهُمْ رُتَبَةً فِي الدِّينِ وَأَبْعَدَ عَنْ شَغَبِ  
الْأَحْكَامِ وَاتَّصَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ إِلَى أَنْ اسْتَحْكَمَتْ طَبِيعَةُ الْعَصِيَّةِ وَتَمَحَّضَتِ الشُّوْكَةُ  
لِلْمَلِكِ فَغَلَبُوا الْكَنْعَانِيِّينَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَوْرَثَهُمُ اللَّهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَمَا جَاوَرَهَا  
كَمَا بَيَّنَّ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فَحَارَبَتْهُمْ أُمَّةُ الْفِلِسْطِينِ  
وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْأَرْمَنِ وَالْأَرْدَنِّ وَعَمَّانَ وَمَأْرِبَ وَرِئَاسَتَهُمْ فِي ذَلِكَ رَاجِعَةً إِلَى شِيُوخِهِمْ  
وَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِ مِائَةِ سَنَةٍ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ صَوْلَةُ الْمَلِكِ وَضَجَرَ بَنُو  
إِسْرَائِيلَ مِنْ مُطَالَبَةِ الْأَمَمِ ، فَطَلَبُوا عَلَى لِسَانِ صَمُوئِيلَ <sup>(١)</sup> مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ  
لَهُمْ فِي تَمْلِكِ رَجُلٍ عَلَيْهِمْ فَوَلَّى عَلَيْهِمْ طَالُوتَ وَغَلِبَ الْأَمَمَ وَقَتْلَ جَالُوتَ مَلِكِ  
الْفِلِسْطِينِ . ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ دَاوُدُ ثُمَّ سُلَيْمَانُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَاسْتَفْحَلَ مَلِكُهُ  
وَامتَدَّ إِلَى الْحِجَازِ ثُمَّ أَطْرَافِ الْيَمَنِ ثُمَّ إِلَى أَطْرَافِ بِلَادِ الرُّومِ ثُمَّ افْتَرَقَ الْأَسْبَاطُ مِنْ  
بَعْدِ سُلَيْمَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِمُقْتَضَى الْعَصِيَّةِ فِي الدُّوَلِ كَمَا قَدَّمْنَا إِلَى دَوْلَتَيْنِ  
كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْحِجَازِ وَالْمَوْصِلِ لِلْأَسْبَاطِ الْعَشْرَةِ وَالْأُخْرَى بِالْقُدْسِ وَالشَّامِ  
لِبَنِي يَهُوذَا وَبِنِيَامِينَ .

ثُمَّ غَلَبَهُمْ بَحْتَ نَصْرُ مَلِكِ بَابِلَ عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَلِكِ أَوْلَى  
الْأَسْبَاطِ الْعَشْرَةِ ثُمَّ ثَانِيًا بَنِي يَهُوذَا وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ بَعْدَ اتِّصَالِ مَلِكِهِمْ نَحْوَ أَلْفِ  
سَنَةٍ وَخَرَّبَ مَسْجِدَهُمْ وَأَحْرَقَ تَوْرَاتَهُمْ وَأَمَاتَ دِينَهُمْ وَنَقَلَهُمْ إِلَى أَصْبَهَانَ وَبِلَادِ  
الْعِرَاقِ إِلَى أَنْ رَدَّهُمْ بَعْضُ مُلُوكِ الْكِيَانِيَّةِ مِنَ الْفَرَسِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ بَعْدِ  
سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ خُرُوجِهِمْ فَبَنَوْا الْمَسْجِدَ وَأَقَامُوا أَمْرَ دِينِهِمْ عَلَى الرَّسْمِ الْأَوَّلِ لِلْكَهَنَةِ  
فَقَطَّ وَالْمَلِكُ لِلْفَرَسِ ثُمَّ غَلَبَ الْإِسْكَندَرُ وَبَنُو يُونَانَ عَلَى الْفَرَسِ وَصَارَ الْيَهُودُ فِي  
مَلَكَتِهِمْ ثُمَّ فَشِلَ أَمْرُ الْيُونَانِيِّينَ فَاعْتَزَّ الْيَهُودُ عَلَيْهِمْ بِالْعَصِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ وَدَفَعُوهُمْ عَنِ

(١) هو صموئيل كما في التوراة .



الإستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنه الذين كانوا فيهم من بني حشمناي وقتلوا  
يونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا إلى بيت  
المقدس وفيها بنو هيرودس أضهار بني حشمناي وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة  
ثم افتتحوها عنوة وأفحشوا في القتل والهدم والتحريق وخرّبوا بيت المقدس  
وأجلّوهم عنها إلى رومة وما وراءها وهو الخراب الثاني للمسجد ويسميه اليهود  
بالجلوة<sup>(١)</sup> الكبرى فلم يبق لهم بعدها ملك لفقدان العصية منهم وبقوا بعد ذلك  
في ملكة الروم من بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن.

ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به من الدين والنسخ  
لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من إبراء الأكمه  
والأبرص وإحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم  
الحواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر وبعث منهم رسلاً إلى الآفاق داعين إلى  
ملكه وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القياصرة وفي مدة هيرودس ملك اليهود الذي  
انتزع الملك من بني حشمناي أضهاره فحسده اليهود وكذبوه<sup>(٢)</sup> وكاتب هيرودس  
ملكهم ملك القياصرة أوغسطس يغيره به فأذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن  
من أمره وافترق الحواريون شيعاً ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين إلى دين  
النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة ثم كتبوا الإنجيل  
الذي أنزل على عيسى صلوات الله عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب  
متى إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي منهم إلى اللسان  
اللأيني وكتب لوقا منهم إنجيله بالأليني إلى بعض أكابر الروم وكتب  
يوحنا بن زبدي منهم إنجيله برومة وكتب بطرس إنجيله بالأليني ونسبه إلى  
مرقا<sup>(٣)</sup> تلميذه واختلفت هذه النسخ الأربع من الإنجيل مع أنها ليست كلها

(١) الجلوة : زفاف العروس وليس لها معنى هنا والأصح أن يقول الجلاء أو الجلو من جلا .

(٢) أي حسدوا المسيح وكذبوه .

(٣) وهو مرقص الرسول .

وَحَيَا صِرْفاً بَلْ مَشُوبَةً بِكَلَامِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِكَلَامِ الْحَوَارِيِّينَ وَكُلِّهَا مَوَاعِظٌ وَقِصَصٌ وَالْأَحْكَامُ فِيهَا قَلِيلَةٌ جَدًّا وَاجْتَمَعَ الْحَوَارِيُّونَ الرُّسُلَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ بِرُومَةَ وَوَضَعُوا قَوَانِينَ الْمِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَصَيَّرُوهَا بَيْدَ أَقْلِيمَنْطُسَ تَلْمِيذَ بَطْرُسَ وَكَتَبُوا فِيهَا عَدَدَ الْكُتُبِ الَّتِي يَجِبُ قَبُولُهَا وَالْعَمَلُ بِهَا .

فَمِنْ شَرِيعةِ الْيَهُودِ الْقَدِيمَةِ التَّوْرَةُ وَهِيَ خَمْسَةُ أَسْفَارٍ وَكِتَابُ يُوشَعَ وَكِتَابُ الْقِضَّةِ وَكِتَابُ رَاعُوثَ وَكِتَابُ يَهُودَا وَأَسْفَارُ الْمُلُوكِ أَرْبَعَةٌ وَسِفْرُ بَنِيَامِينَ وَكِتَابُ الْمُقَابِيئِينَ لِابْنِ كَرِيونَ ثَلَاثَةٌ <sup>(١)</sup> وَكِتَابُ غَزْرَا الْإِمَامِ وَكِتَابُ أَوْشِيرٍ <sup>(٢)</sup> وَقِصَّةُ هَامَانَ وَكِتَابُ أَيُوبَ الصِّدِّيقِ وَمَزَامِيرُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكِتَابُ ابْنِهِ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَمْسَةٌ وَنُبُوءَاتُ الْأَنْبِيَاءِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ سِتَّةٌ عَشَرَ وَكِتَابُ يَشُوعَ بْنِ شَارخَ <sup>(٣)</sup> وَزَيْرِ سَلِيمَانَ . وَمِنْ شَرِيعةِ عَيْسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمُتَلَقَّاةُ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ نَسَخَ الْإِنْجِيلَ الْأَرْبَعَ وَكُتِبَ الْقِتَالِيْقُونَ سَبْعَ رَسَائِلَ وَثَامِنَهَا الْإِبْرِيكْسِيْسُ فِي قِصَصِ الرُّسُلِ وَكِتَابُ بُولْسَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ رِسَالَةً وَكِتَابُ أَقْلِيمَنْطُسَ وَفِيهِ الْأَحْكَامُ وَكِتَابُ أَبُوغَالْمِيسَ وَفِيهِ رُؤْيَا يُوْحَنَّا بْنِ زَبْدِي . وَاخْتَلَفَ شَأْنُ الْقِيَاصِرَةِ فِي الْأَخْذِ بِهَذِهِ الشَّرِيعةِ تَارَةً وَتَعْظِيمِ أَهْلِهَا ثُمَّ تَرْكِيهَا أُخْرَى وَالتَّسَلُّطِ عَلَيْهِمْ بِالْقَتْلِ وَالبَغْيِ إِلَى أَنْ جَاءَ قِسْطَنْطِينُ وَأَخَذَ بِهَا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا . وَكَانَ صَاحِبُ هَذَا الدِّينِ وَالْمَقِيمُ لِمَرَّاسِيمِهِ يُسَمَّوْنَهُ الْبَطْرِكَ وَهُوَ رَئِيسُ الْمِلَّةِ عِنْدَهُمْ وَخَلِيفَةُ الْمَسِيحِ فِيهِمْ يَنْبَغُ نَوَابَهُ وَخُلَفَاءَهُ إِلَى مَا بَعْدَ عَنْهُ مِنْ أَمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ وَيُسَمَّوْنَهُ الْأَشْقَفَ أَيَّ نَائِبِ الْبَطْرِكِ وَيُسَمُّونَ الْإِمَامَ الَّذِي يَقِيمُ الصَّلَوَاتَ وَيُقْتِيهِمْ فِي الدِّينِ بِالْقِسْيسَ وَيُسَمُّونَ الْمُنْقَطِعَ الَّذِي حَبَسَ نَفْسَهُ فِي الْخَلْوَةِ لِلْعِبَادَةِ بِالرَّاهِبِ .

وَأَكْثَرَ خَلَوَاتِهِمْ فِي الصَّوَامِعِ وَكَانَ بَطْرُسُ الرُّسُولُ رَأْسَ الْحَوَارِيِّينَ وَكَبِيرُ

(١) وفي التوراة : سفر المكابيين ( بتشديد الميم والكاف ) الأول والثاني وليس هناك ثالث . ولم يرد ذكر

ابن كاريون وربما تكون محرفة عن اسم الرجل الذي اختصر اسفار المكابيين واسمه ( يس الكريوني ) نسبة إلى كريان وهي الاسم القديم لمقاطعة برقة في ليبيا .

(٢) هو سفر استير ( التوراة ) .

(٣) هو يشوع بن سيراخ ( التوراة ) .

التلاميذ برومة يقيم بها دين النصرانية إلى أن قتله نيرون خامس القيصرية فيمن قتل من البطارق والأساقفة ثم قام بخلافته في كرسي رومة أريوس<sup>(١)</sup> وكان مرقاس الإنجيلي بالإسكندرية ومصر والمغرب دايعاً سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطاركة فيها وجعل معه اثني عشر قسياً على أنه إذا مات البطرك يكون واحد من الاثني عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحداً مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطاركة إلى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا ببنقية أيام قسطنطين لتحرير الحق في الدين واتفق ثلاثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأي واحد في الدين فكتبوه وسموه الإمام وصيروه أصلاً يزعمون إليه وكان فيما كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه إلى اجتهد الأقبية كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس وأبطلوا ذلك الرأي وإنما يقدم عن بلاء واختبار<sup>(٢)</sup> من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقي الأمر كذلك .

ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقي الأمر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطاركة وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب أيضاً تعظيماً له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل بإسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جرجيس بن العميد في تاريخه ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم عندهم وهو كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه حتى الآن ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح

(١) كذا بالأصل وهو خطأ . لأن اريوس قسيس . ولم يتول مطلقاً كرسي الباباوية ولا ما يقرب

منها . وله مذهب خاص يقول بنفي الطبيعة اللاهوتية للمسيح . ولذلك حكم مجمع نيقية بتجريد من ألقابه الكهنوتية سنة ٣٢٥ م .

(٢) وفي بعض النسخ ملاء واختبار .

وَصَارُوا طَوَائِفَ وَفَرَقًا وَاسْتَظْهَرُوا بِمُلُوكِ النُّصْرَانِيَّةِ كُلِّ عَلَى صَاحِبِهِ فَاخْتَلَفَ  
 الْحَالُ فِي الْعُصُورِ فِي ظُهُورِ فِرْقَةٍ دُونَ فِرْقَةٍ إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّتْ لَهُمْ ثَلَاثُ طَوَائِفَ هِيَ  
 فِرْقَتُهُمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى غَيْرِهَا وَهِيَ الْمُلْكِيَّةُ وَالْيَعْقُوبِيَّةُ وَالنُّسْطُورِيَّةُ ثُمَّ اخْتَصَّتْ كُلُّ  
 فِرْقَةٍ مِنْهُمْ بِبَطْرِكٍ فَبَطْرِكِ رُومَةَ الْيَوْمِ الْمُسَمَّى بِالْبَابَا عَلَى رَأْيِ الْمُلْكِيَّةِ وَرُومَةَ  
 لِلْإِفْرَنْجِيَّةِ وَمَلِكُهُمْ قَائِمٌ يَتْلِكَ النَّاحِيَّةِ وَبَطْرِكِ الْمَعَاهِدِينَ بِمِصْرَ عَلَى رَأْيِ  
 الْيَعْقُوبِيَّةِ وَهُوَ سَاكِنٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيَّتِهِمْ وَالْحَبَشَةَ يَدِينُونَ بِدِينِهِمْ وَلِبَطْرِكِ مِصْرَ فِيهِمْ  
 أَسَاقِفَةٌ يَنْوَبُونَ عَنْهُ فِي إِقَامَةِ دِينِهِمْ هُنَالِكَ .

وَاخْتَصَّ اسْمُ الْبَابَا بِبَطْرِكِ رُومَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا تَسْمَى الْيَعَاقِبَةُ بِبَطْرِكِهِمْ بِهَذَا  
 الْاسْمِ وَضَبَطَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ بِنَاءِ نِيْنِ مُوَحَّدَتَيْنِ مِنْ أَسْفَلِ وَالنُّطْقِ بِهَا مُفْخَمَةٌ وَالثَّانِيَّةُ  
 مُشَدَّدَةٌ وَمِنْ مَذَاهِبِ الْبَابَا عِنْدَ الْإِفْرَنْجِيَّةِ أَنَّهُ يَخْضَعُ عَلَى الْإِنْقِيَادِ لِمَلِكٍ وَاحِدٍ  
 يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي اخْتِلَافِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ تَخْرُجًا مِنْ افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ وَيَتَحَرَّى بِهِ  
 الْعَصِيَّةَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا مِنْهُمْ لِتَكُونَ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَى جَمِيعِهِمْ وَيُسَمَّوْنَهُ الْإِنْبَرْدُورَ<sup>(١)</sup>  
 وَحَرْفُهُ الْوَسْطُ بَيْنَ الذَّالِ وَالظَّاءِ الْمُعْجَمَتَيْنِ وَمُبَاشِرُهُ يَضَعُ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ لِلتَّبَرُّكِ  
 فَيُسَمَّى الْمَتَوَجَّحَ<sup>(٢)</sup> . وَلَعَلَّهُ مَعْنَى لَفْظَةِ الْإِنْبَرْدُورِ وَهَذَا مُلْخَصُ مَا أوردناه مِنْ شَرْحِ  
 هَذَيْنِ الْاسْمَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا الْبَابَا وَالْكُوهَنُ وَاللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ  
 يَشَاءُ .

## الفصل الرابع والثلاثون

### في مراتب الملك والسلطان والقابها

إِعْلَمَنَّ أَنَّ السُّلْطَانَ فِي نَفْسِهِ ضَعِيفٌ يَحْمَلُ أَمْرًا ثَقِيلًا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ

(١) المشهور قديماً إمبراطور بالطاء المهملة والفرنسيس تقول (أميرور) ومعناها عندهم ملك الملوك .

(٢) أي أن البابا يضع التاج على رأس الإمبراطور ثم يباركه .

بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي ضَرُورَةِ مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَهْنِهِ <sup>(١)</sup> فَمَا ظَنُّكَ بِسِيَاسَةِ نَوْعِهِ وَمَنْ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ وَهُوَ مُخْتَاَجٌ إِلَى حِمَايَةِ الْكَافَّةِ مِنْ عَدُوِّهِمْ بِالْمَدَافِعَةِ عَنْهُمْ وَإِلَى كَفِّ عُدُوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي أَنْفُسِهِمْ بِإِمْضَاءِ الْأَحْكَامِ الْوَازِعَةِ فِيهِمْ وَكَفِّ الْعُدُوَانِ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ بِإِصْلَاحِ سَائِلَتِهِمْ <sup>(٢)</sup> وَإِلَى حَمَلِهِمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَا تَعْمَهُمْ بِهِ الْبَلْوَى فِي مَعَاشِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ مِنْ تَفْقِيدِ الْمَعَايِشِ وَالْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ حَذْرًا مِنَ التَّطْفِيفِ وَإِلَى النَّظْرِ فِي السَّكَّةِ بِحِفْظِ التَّقْوَدِ الَّتِي يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنَ الْعِشِّ وَإِلَى سِيَاسَتِهِمْ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الْإِنْقِيَادِ لَهُ وَالرِّضَى بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ وَإِنْفِرَادِهِ بِالْمَجْدِ ذَوْنَهُمْ فَيَتَحَمَّلُ مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ الْغَايَةِ مِنْ مُعَانَاةِ الْقُلُوبِ قَالَ بَعْضُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْحُكَمَاءِ « لِمُعَانَاةِ نَقْلِ الْجِبَالِ مِنْ أَمَاكِنِهَا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مُعَانَاةِ قُلُوبِ الرِّجَالِ » ثُمَّ إِنَّ الْإِسْتِعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِأَوْلِي الْقُرْبَى مِنْ أَهْلِ النَّسَبِ أَوْ التَّرْبِيَةِ أَوْ الْإِصْطِنَاعِ الْقَدِيمِ لِلدَّوْلَةِ كَانَتْ أَكْمَلَ لِمَا يَنْقَعُ فِي ذَلِكَ مِنْ مُجَانِسَةِ خَلْقِهِمْ لِخَلْقِهِ فَتَمِّمِ الْمَشَاكَلَةَ فِي الْإِسْتِعَانَةِ قَالَ تَعَالَى « وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي » <sup>(٣)</sup> وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينَ فِي ذَلِكَ بِسَيْفِهِ أَوْ قَلَمِهِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ أَوْ بِحُجَابِيهِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ فَيَشْغَلُوهُ عَنِ النَّظْرِ فِي مَهْمَاتِهِمْ <sup>(٤)</sup> أَوْ يَدْفَعُ النَّظَرَ فِي الْمُلْكِ كُلِّهِ <sup>(٥)</sup> وَيُعَوَّلُ عَلَى كِفَايَتِهِ فِي ذَلِكَ وَاضْطِلَاعِهِ فَلِذَلِكَ قَدْ تَوَجَّدَ فِي رَجُلٍ وَاحِدٍ وَقَدْ تَفْتَرَقَ فِي أَشْخَاصٍ وَقَدْ يَتَفَرَّعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ كَالْقَلَمِ يَتَفَرَّعُ إِلَى قَلَمِ الرِّسَائِلِ وَالْمُخَاطَبَاتِ وَقَلَمِ الصُّكُوكِ وَالْإِقْطَاعَاتِ وَإِلَى قَلَمِ الْمُحَاسَبَاتِ وَهُوَ صَاحِبُ الْجِبَايَةِ وَالْعَطَاءِ وَدِيْوَانَ الْجَيْشِ وَكَالْسَيْفِ يَتَفَرَّعُ إِلَى صَاحِبِ الْحَرْبِ وَصَاحِبِ الشَّرْطَةِ

(١) المهنة الخدمة وجمعها من بكسر الميم .

(٢) أبناء السبيل .

(٣) سورة طه ( الآية ٢٩ - ٣٢ ) .

(٤) معنى الجملة : ان الملك يستعين بسيف هذا في شؤون الحرب وقلم ذاك في شؤون الكتابة . ورأي

آخر في شؤون السياسة .

(٥) الأصح أن يقول « يدفع النظر إليه في الملك كله » .

وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ وَوَلَايَةِ الشُّعُورِ ثُمَّ اَعْلَمَ أَنَّ الْوُظَائِفَ السُّلْطَانِيَّةَ فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُنْذَرَجَةٌ تَحْتَ الْخِلَافَةِ لِاحْتِمَالِ مَنْصِبِ الْخِلَافَةِ عَلَى الدِّينِ وَالْدُنْيَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَالْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ مُتَعَلِّقَةً بِجَمِيعِهَا وَمَوْجُودَةً لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فِي سَائِرِ وُجُوهِهَا لِعُمُومِ تَعَلُّقِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ بِجَمِيعِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَالْفَقِيهَ يَنْظُرُ فِي مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ وَشُرُوطَ تَقْلِيدِهَا اسْتِبْدَادًا عَلَى الْخِلَافَةِ وَهُوَ مَعْنَى السُّلْطَانَ أَوْ تَعْوِيضًا مِنْهَا وَهُوَ مَعْنَى الْوِزَارَةَ عِنْدَهُمْ كَمَا يَأْتِي وَفِي نَظَرِهِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَمْوَالِ وَسَائِرِ السِّيَاسَاتِ مُطْلَقًا أَوْ مُقْتَدَأً وَفِي مُوجِبَاتِ الْعَزْلِ إِنْ عَرَضَتْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ وَكَذَا فِي سَائِرِ الْوُظَائِفِ الَّتِي تَحْتَ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ مِنْ وِزَارَةٍ أَوْ جَبَايَةِ أَوْ وِلَايَةٍ لَا بُدَّ لِلْفَقِيهِ مِنَ النَّظَرِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ اَنْسِحَابِ حُكْمِ الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى رُتْبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ إِلَّا أَنَّ كَلَامَنَا فِي وُظَائِفِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانَ وَرُتْبَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِمُقْتَضَى طَبِيعَةِ الْعُمُرَانِ وَوُجُودِ الْبَشَرِ لَا بِمَا يَخْصُهَا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا كَمَا عَلِمْتَ فَلَا نَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ مَعَ أَنَّهَا مُسْتَوْفَاةٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ مِثْلِ كِتَابِ الْقَاضِي أَبِي الْحَسَنِ الْمَآوَرِدِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْلَامِ الْفُقَهَاءِ فَإِنْ أَرَدْتَ اسْتِيفَاءَهَا فَعَلَيْكَ بِمُطَالَعَتِهَا هُنَالِكَ وَإِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي الْوُظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ وَأَفْرَدْنَاهَا لِنُمِيزَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُظَائِفِ السُّلْطَانِيَّةِ فَقَطْ لَا لِتَحْقِيقِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِي ذَلِكَ بِمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمُرَانِ فِي الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ وَاللَّهِ الْمَوْفِقُ .

الوزارة : وهي أم الخِطَطِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالرُّتْبِ الْمُلُوكِيَّةِ لِأَنَّ اسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ الْإِعَانَةِ فَإِنَّ الْوِزَارَةَ مَأْخُودَةٌ إِثْمًا مِنَ الْمُوَازَرَةِ وَهِيَ الْمُعَاوَنَةُ أَوْ مِنَ الْوِزْرِ وَهُوَ الثَّقْلُ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مَعَ مَفَاعِلِهِ أَوْزَارَهُ وَأَثْقَالَهُ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْمُعَاوَنَةِ الْمُطْلَقَةِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ الْفَضْلِ أَنَّ أَحْوَالَ السُّلْطَانَ وَتَضَرُّفَاتِهِ لَا تَعْدُو أَرْبَعَةً لِأَنَّهَا إِثْمًا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ حِمَايَةِ الْكِفَافَةِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجِدِّ وَالسَّلَاحِ وَالْحُرُوبِ وَسَائِرِ أُمُورِ

الْحِمَايَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ الْوَزِيرُ الْمُتَعَارَفُ فِي الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ بِالْمَشْرِقِ  
وَلِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ مُخَاطَبَاتِهِ لِمَنْ بَعْدَ عَنهُ فِي أُمُورِ جَبَايَةِ  
الْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ وَضَبْطِ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ وَجُوهِهِ أَنْ يَكُونَ بِمَضْبَطَةٍ وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ  
صَاحِبُ الْمَالِ وَالْجَبَايَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْوَزِيرِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ  
فِي مُدَافَعَةِ النَّاسِ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنهُ أَنْ يَزِدْحَمُوا عَلَيْهِ فَيُشْغَلُوهُ عَن فَهْمِهِ وَهَذَا  
رَاجِعٌ لِصَاحِبِ الْبَابِ الَّذِي يَخْجُبُهُ . فَلَا تَعْدُوا أحوَالَهُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ بِوَجْهِهِ . وَكُلُّ  
خِطْبَةٍ أَوْ رُتْبَةٍ مِنْ رُتَبِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ فَإِنَّهَا تَرْجَعُ . إِلَّا أَنْ الْأَرْفَعُ مِنْهَا مَا كَانَتْ  
الْإِعَانَةُ فِيهِ عَامَّةً فِيمَا تَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ مِنْ ذَلِكَ الصَّنْفِ إِذْ هُوَ يَقْتَضِي مُبَاشَرَةَ  
السُّلْطَانِ دَائِمًا وَمُشَارَكَتَهُ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أحوَالِ مُلْكِهِ وَإِنَّمَا مَا كَانَ خَاصًا بِبَعْضِ  
النَّاسِ أَوْ بِبَعْضِ الْجِهَاتِ فَيَكُونُ دُونَ الرُّتْبَةِ الْأُخْرَى كَقِيَادَةِ ثَغْرِ أَوْ وِلَايَةِ جَبَايَةِ  
خَاصَّةٍ أَوْ النَّظَرِ فِي أَمْرِ خَاصٍّ كَحِسْبَةِ الطَّعَامِ أَوْ النَّظَرِ فِي السَّكَّةِ فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا نَظَرٌ  
فِي أحوَالٍ خَاصَّةٍ فَيَكُونُ صَاحِبُهَا تَبَعًا لِأَهْلِ النَّظَرِ الْعَامِّ وَتَكُونُ رُتْبَتُهُ مَرْوُوسَةً  
لِأُولَئِكَ . وَمَا زَالَ الْأَمْرُ فِي الدُّوَلِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ هَكَذَا حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ وَصَارَ الْأَمْرُ  
خِلَافَةً فَذَهَبَتْ تِلْكَ الْخِطْبَةُ كُلُّهَا بِذَهَابِ رَسْمِ الْمَلِكِ إِلَى مَا هُوَ طَبِيعِيٌّ مِنْ  
الْمُعَاوَنَةِ بِالرَّأْيِ وَالْمُفَاوَضَةِ فِيهِ فَلَمْ يُمْكِنْ زَوَالُهُ إِذْ هُوَ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ  
فَكَانَ ﷺ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ وَيُفَاوِضُهُمْ فِي مَهْمَاتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَيَخْصُصُ مَعَ  
ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ بِخُصُوصِيَّاتٍ أُخْرَى حَتَّى كَانَ الْعَرَبُ الَّذِينَ عَرَفُوا الدُّوَلِ وَأحوَالَهَا  
فِي كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِي يُسَمُّونَ أَبَا بَكْرٍ وَزَيْرَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَفِظُ الْوَزِيرِ يُعْرَفُ  
بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِذَهَابِ رُتْبَةِ الْمَلِكِ بِسَدَاجَةِ الْإِسْلَامِ وَكَذَا عَمَرَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَلِيٌّ  
وَعُثْمَانُ مَعَ عَمْرٍ وَأَمَّا حَالُ الْجَبَايَةِ وَالْإِنْفَاقِ وَالْحِسْبَانِ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ بِرُتْبَةٍ لِأَنَّ  
الْقَوْمَ كَانُوا عَرَبًا أَمِّيِّينَ لَا يُحْسِنُونَ الْكِتَابَ <sup>(١)</sup> وَالْحِسَابَ فَكَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ فِي  
الْحِسَابِ أَهْلَ الْكِتَابِ <sup>(٢)</sup> أَوْ أَفْرَادًا مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ مِمَّنْ يُجِيدُهُ وَكَانَ قَلِيلًا فِيهِمْ

(١) أي الكتابة .

(٢) أهل الكتاب . أي النصارى واليهود .

وأما أشرافهم فلم يكونوا يُجيدونه لأن الأئمة كانت صفتهم التي امتازوا بها وكذا  
 حال المخاطبات وتنفيذ الأمور لم تكن عندهم رتبة خاصة للأئمة التي كانت فيهم  
 والأمانة العامة في كتمان القول وتأديته ولم تخرج السياسة إلى اختياره لأن الخلافة  
 إنما هي دين ليست من السياسة الملكية في شيء وأيضا فلم تكن الكتابة صناعة  
 فيستجد الخليفة أحسنها لأن الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات  
 ولم يبق إلا الخط فكان الخليفة يستنيب في كتابته متى عن له من يحسنه وأما  
 مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان مخطورا بالشرعية فلم يفعلوه فلما  
 انقلبت الخلافة إلى الملك وجاءت رسوم السلطان والقابله كان أول شيء يديء به  
 في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون عن أنفسهم من اغتيال  
 الخوارج وغيرهم كما وقع بعممر وعلي ومعاوية وعمر بن العاصي وغيرهم مع  
 ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم  
 بذلك وسموه الحاجب وقد جاء أن عبد الملك لما ولي حاجبه قال له « قد وليتك  
 حجابة بابي إلا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فإنه داعي الله وصاحب البريد فأمر  
 ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد » ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر  
 المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستتلافهم وأطلق عليه اسم الوزير  
 وبقي أمر الحسابان في الموالى والذميين واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطة  
 على أسرار السلطان أن تشتهر فتنفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لأنه  
 إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام إذ  
 اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ في  
 سائر دولة بني أمية فكان النظر للوزير عاما في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر  
 أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء  
 بالأهلية وغير ذلك فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت  
 مراتبه وارتفعت وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد



تَعَيَّنَتْ مَرْتَبَتُهُ فِي الدَّوْلَةِ وَعَنْتَ لَهَا الْوُجُوهَ وَخَضَعَتْ لَهَا الرِّقَابَ وَجُعِلَ لَهَا النَّظَرُ فِي دِيْوَانِ الْحِسْبَانِ لَمَّا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ خِطَّتُهُ مِنْ قِسْمِ الْأَعْطِيَّاتِ فِي الْجُنْدِ فَاحْتَاجَ إِلَى النَّظَرِ فِي جَمْعِهِ وَتَفْرِيقِهِ وَأُضِيفَ إِلَيْهِ النَّظَرُ فِيهِ ثُمَّ جُعِلَ لَهُ النَّظَرُ فِي الْقَلَمِ وَالتَّرْسِيلِ لِصَوْنِ أَسْرَارِ السُّلْطَانِ وَلِحِفْظِ الْبَلَاغَةِ لَمَّا كَانَ اللِّسَانُ قَدْ فَسَدَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ وَجُعِلَ الْخَاتَمُ لِسَجَلَاتِ السُّلْطَانِ لِيَحْفَظَهَا مِنَ الذِّيَاعِ وَالشِّيَاعِ <sup>(١)</sup> وَدَفَعَ إِلَيْهِ فَصَارَ اسْمُ الْوَزِيرِ جَامِعًا لِخِطَّتِي السِّيفِ وَالْقَلَمِ وَسَائِرِ مَعَانِي الْوِزَارَةِ وَالْمُعَاوَنَةِ حَتَّى لَقَدْ دُعِيَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِالسُّلْطَانِ أَيَّامَ الرَّشِيدِ إِشَارَةً إِلَى عُمُومِ نَظَرِهِ وَقِيَامِهِ بِالدَّوْلَةِ وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ مِنَ الرُّتَبِ السُّلْطَانِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا الْجَبَابَةُ الَّتِي هِيَ الْقِيَامُ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ لِاسْتِنكَافِهِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ ثُمَّ جَاءَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ شَأْنُ الْإِسْتِبْدَادِ عَلَى السُّلْطَانِ <sup>(٢)</sup> وَتَعَاوَرَ فِيهَا اسْتِبْدَادُ الْوِزَارَةِ مَرَّةً وَالسُّلْطَانِ أُخْرَى وَصَارَ الْوَزِيرُ إِذَا اسْتَبَدَّ مُحْتَاجًا إِلَى اسْتِنَايَةِ الْخَلِيفَةِ إِثَاءً لِذَلِكَ لِتَصَحُّ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَتَجِيءَ عَلَى حَالِهَا كَمَا تَقَدَّمَتْ فَانْقَسَمَتِ الْوِزَارَةُ حِينَئِذٍ إِلَى وَزَارَةٍ تَنْفِيذٍ وَهِيَ حَالٌ مَا يَكُونُ السُّلْطَانُ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ وَإِلَى وَزَارَةٍ تَفْوِيزٍ وَهِيَ حَالٌ مَا يَكُونُ الْوَزِيرُ مُسْتَبَدًّا عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَمَرَ الْإِسْتِبْدَادُ وَصَارَ الْأَمْرُ لِمُلُوكِ الْعَجَمِ وَتَعَطَّلَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَلَمْ يَكُنْ لِأَوْلِيكَ الْمُتَغَلِّبِينَ أَنْ يَنْتَحِلُوا الْقَابَ الْخِلَافَةِ وَاسْتَنكَفُوا مِنْ مُشَارَكَةِ الْوِزَرَاءِ فِي اللَّقْبِ لِأَنَّهُمْ حَوْلَ لَهُمْ فَتَسَمَّوْا بِالْإِمَارَةِ وَالسُّلْطَانِ وَكَانَ الْمُسْتَبَدُّ عَلَى الدَّوْلَةِ يُسَمَّى أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ أَوْ بِالسُّلْطَانِ إِلَى مَا يُحْلِيهِ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْقَابِ كَمَا تَرَاهُ فِي الْقَابِهِمْ وَتَرَكَوْا اسْمَ الْوِزَارَةِ إِلَى مَنْ يَتَوَلَّاهَا لِلْخَلِيفَةِ فِي خَاصَّتِهِ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الشَّأْنُ عِنْدَهُمْ إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ وَفَسَدَ اللِّسَانُ خِلَالَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَصَارَتْ صِنَاعَةٌ يَنْتَحِلُهَا بَعْضُ النَّاسِ فَاثْمَهَتْ وَتَرَفَعَ الْوِزَرَاءُ عَنْهَا لِذَلِكَ وَلِأَنَّهُمْ عَجَمٌ وَلَيْسَتْ تِلْكَ الْبَلَاغَةُ هِيَ الْمَقْصُودَةُ مِنْ لِسَانِهِمْ فَتَخَيَّرَ لَهَا مِنْ سَائِرِ الطَّبَقَاتِ وَاخْتَصَّتْ بِهِ وَصَارَتْ خَادِمَةً لِلْوَزِيرِ وَاخْتَصَّ اسْمُ الْأَمِيرِ بِصَاحِبِ الْحُرُوبِ وَالْجُنْدِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَدُهُ مَعَ ذَلِكَ غَالِيَةً

(١) الذِّيَاعُ وَالشِّيَاعُ : لَيْسَا مِنْ مَصَادِرِ ذَاعٍ وَشَاعَ وَالْأَصَحُّ أَنْ يَقُولَ : الذِّيُوعُ وَالشِّيُوعُ .

(٢) أَيِ الْخَلِيفَةِ كَمَا يَبْضَحُ مِنَ الْعِبَارَةِ الْلاحِقَةِ .

على أهل الرتب وأمره نافذ في الكل إما نيابة أو استبداداً واستمر الأمر على هذا ثم  
جاءت دولة الترك آخرأ بمصر فرأوا أن الوزارة قد ابتدئت بترفع أولئك عنها  
ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المخجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير  
فصارت مرؤوسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة  
وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي  
اسم الحاجب في مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الحباية . وأما دولة  
بنى أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أضافاً  
وأفردوا لكل صنف وزيراً فجعلوا لحساب المال وزيراً وللترسيل وزيراً وللنظر في  
حوایج المنتظمين وزيراً وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً وجعل لهم بيت  
يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له  
وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل  
وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا إلى  
آخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك  
الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره ثم جاءت  
دولة الشيعة بأفريقية والقيروان وكان للقائمين بها رُسوخ في البداوة فأغفلوا أمر  
هذه الخطة أولاً وتنقيح أسمائها كما تراه في أخبار دولتهم . ولما جاءت دولة  
الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولاً للبداوة ثم صارت إلى انتحال الأسماء  
والألقاب وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذاهب  
السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود  
والداخلين على السلطان عند الحدود في تحييتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في  
الكون بين يديه ورفعوا خطة الحباية عنه ما شاءوا ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا  
العهد وأما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود  
الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه الدويدار

وَيُضَيَّفُونَ إِلَيْهِ اسْتِتْبَاعَ كَاتِبِ السَّرِّ وَأَصْحَابِ الْبَرِيدِ الْمُتَضَرِّفِينَ فِي حَاجَاتِ  
السُّلْطَانِ بِالْقَاصِيَةِ وَبِالْحَاضِرَةِ وَحَالِهِمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهُ مُوَلِّي الْأُمُورِ لِمَنْ  
يَشَاءُ .

( الحجابة ) : قَدْ قَدَّمْنَا أَنْ هَذَا اللَّقَبُ كَانَ مَخْصُوصاً فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ  
وَالْعَبَّاسِيَّةِ بِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانَ عَنِ الْعَامَّةِ وَيُعَلِّقُ بَابَهُ دُونَهُمْ أَوْ يَفْتَحُهُ لَهُمْ عَلَى  
قَدْرِهِ فِي مَوَاقِيْتِهِ وَكَانَتْ هَذِهِ مُنْزَلَةً يَوْمًا عَنِ الْخِطِّ مَرْوُوسَةً لَهَا إِذَا الْوَزِيرُ مُتَضَرِّفٌ  
فِيهَا بِمَا يَرَاهُ وَهَكَذَا كَانَتْ سَائِرَ أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ فَهِيَ بِمَضْرٍ  
مَرْوُوسَةً لِصَاحِبِ الْخِطَّةِ الْعُلْيَا الْمُسَمَّى بِالنَّائِبِ . وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ  
بِالْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ الْحِجَابَةُ لِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانَ عَنِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَيَكُونُ  
وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُزَرَاءِ فَمَنْ دُونَهُمْ فَكَانَتْ فِي دَوْلَتِهِمْ رَفِيعَةً غَايَةً كَمَا تَرَاهُ فِي  
أَخْبَارِهِمْ كَأَبْنِ حَدِيدٍ وَغَيْرِهِ مِنْ حُجَّابِهِمْ ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْإِسْتِيزَادُ عَلَى الدَّوْلَةِ اخْتَصَّ  
الْمُسْتَبْدُ بِاسْمِ الْحِجَابَةِ لِشَرَفِهَا فَكَانَ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ وَأَبْنَاؤُهُ كَذَلِكَ وَلَمَّا  
بَدَا فِي مَظَاهِرِ الْمَلِكِ وَأَطْوَارِهِ جَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ فَلَمْ يَتْرُكُوا  
لِقَبِهَا وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ شَرَفًا لَهُمْ وَكَانَ أَعْظَمُهُمْ مُلْكًا بَعْدَ انْتِحَالِ الْقَابِ الْمَلِكِ  
وَأَسْمَائِهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذِكْرِ الْحَاجِبِ وَذِي الْوِزَارَتَيْنِ يَعْنُونَ بِهِ السَّيْفَ وَالْقَلَمَ  
وَيَدُلُّونَ بِالْحِجَابَةِ عَلَى حِجَابَةِ السُّلْطَانِ عَنِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَبِذِي الْوِزَارَتَيْنِ عَنْ  
جَمْعِهِ لِخِطَّتَيْ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ . ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِي دَوْلِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ ذِكْرُ لِهَذَا الْإِسْمِ  
لِلْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَرَبَّمَا يُوجَدُ فِي دَوْلَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ بِمَضْرٍ عِنْدَ اسْتِعْظَامِهَا  
وَخَضَارَتِهَا إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ . وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ لَمْ تَسْتَمَكِّنْ فِيهَا الْخَضَارَةَ  
الدَّاعِيَّةَ إِلَى انْتِحَالِ الْأَلْقَابِ وَتَمْيِيزِ الْخِطِّ وَتَعْيِينِهَا بِالْأَسْمَاءِ إِلَّا آخِرًا فَلَمْ يَكُنْ  
عِنْدَهُمْ مِنَ الرَّتَبِ إِلَّا الْوَزِيرُ فَكَانُوا أَوْلَى يَخْضُونَ بِهَذَا الْإِسْمِ الْكَاتِبِ الْمُتَضَرِّفِ  
الْمُشَارِكِ لِلْسُّلْطَانِ فِي خَاصِّ أَمْرِهِ كَأَبْنِ عَطِيَّةٍ وَعَبْدِ السَّلَامِ الْكُومِيِّ وَكَانَ لَهُ مَعَ  
ذَلِكَ النَّظَرُ فِي الْحِسَابِ وَالْأَشْغَالِ الْمَالِيَّةِ ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ اسْمُ الْوَزِيرِ لِأَهْلِ نَسَبِ

الدولة من الموحدين كآبن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفاً في دولتهم يومئذ. وأما بنو أبي حفص بأفريقية فكانت الرئاسة في دولتهم أولاً والتقدم لوزير والرأي والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى ويسمى متوليها بصاحب الأشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط وكان من شرطه أن يكون من الموحدين واختص عندهم القلم أيضاً بمن يحدد الترسيل ويؤمن على الأسرار لأن الكتابة لم تكن من منتحل القوم ولا الترسيل يلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره إلى قهرمان خاص بداره في أحواله يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والإضبلات وغيرها وحضر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية فخصوه باسم الحاجب وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الأمر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة فصارت الخطة أرفع الرتب وأوعبها<sup>(١)</sup> للخطط ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم ثم استبدد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه وأذهب آثار الحجر والاستبداد بإذها خطة الجباية التي كانت سلماً إليه وبأشر أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد والأمر على ذلك لهذا العهد.

وأما دولة زناتة بالمغرب وأعظمها دولة بني مرين فلا أثر لاسم الحاجب عندهم وأما رئاسة الحرب والعساكر فهي للوزير ورتبة القلم في الحسبان والرسائل راجعة إلى من يحسنها من أهلها وإن اختصت ببعض البيوت المضطمين في

(١) بمعنى استيعابها للخطط.

دَوْلَتِهِمْ وَقَدْ تَجَمَّعَ عِنْدَهُمْ وَقَدْ تَفَرَّقَ وَأَمَّا بَابُ السُّلْطَانِ وَحَجَبُهُ عَنِ الْعَامَّةِ فَهِيَ رُتْبَةٌ عِنْدَهُمْ فَيُسَمَّى صَاحِبَهَا عِنْدَهُمْ بِالْمِزْوَارِ وَمَعْنَاهُ الْمُقَدَّمُ عَلَى الْجِنَادِرَةِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ السُّلْطَانِ فِي تَنْفِيدِ أَمْرِهِ وَتَضْرِيفِ عُقُوبَاتِهِ وَإِنزَالِ سَطَوَاتِهِ وَحِفْظِ الْمُعْتَقَلِينَ فِي سِجُونِهِ وَالْعَرِيفُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ فَالْبَابُ لَهُ وَأَخَذَ النَّاسُ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِي دَارِ الْعَامَّةِ رَاجِعٌ إِلَيْهِ فَكَانَتْهَا وَزَارَةٌ صُغْرَى . وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ فَلَا أَثَرَ عِنْدَهُمْ لِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْقَابِ وَلَا تَمْيِيزَ الْخِطَطِ لِبِدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا وَإِنَّمَا يَخْصُونَ بِاسْمِ الْحَاجِبِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ مُنْفَذَ الْخَاصِّ بِالسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَقَدْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْحِسْبَانَ وَالسَّجَلَّ كَمَا كَانَ فِيهَا حَمَلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَقْلِيدَ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي تَبِعَتِهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ .

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَالْمَخْصُوصُ عِنْدَهُمْ بِالْحِسْبَانِ وَتَنْفِيدُ خَالَ السُّلْطَانِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْمَالِيَّةِ يُسَمُّونَهُ بِالْوَكِيلِ وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَكَالْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّهُ يُجْمَعُ لَهُ التَّرْسِيلُ وَالسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خَطَّهُ عَلَى السَّجَلَاتِ كُلِّهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ خِطَّةُ الْعَلَامَةِ كَمَا لِعَبْرَهُمْ مِنَ الدَّوْلِ . وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمِصْرَ فَاسْمُ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضُوعٌ لِحَاكِمٍ مِنْ أَهْلِ الشُّوَكَةِ وَهُمْ التُّرْكُ يُنْفِذُ الْأَحْكَامَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ وَهَذِهِ الْوُظَيْفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَظَيْفَةِ النِّيَابَةِ الَّتِي لَهَا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَفِي الْعَامَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلِلنَّائِبِ التَّوْلِيَّةِ وَالْعَزْلُ فِي بَعْضِ الْوُظَائِفِ عَلَى الْأَخْيَانِ وَيَقْطَعُ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَيَبْتَسِرُ وَتُنْفِذُ أَمْرَهُ كَمَا تُنْفِذُ الْعَرَاسِمُ السُّلْطَانِيَّةُ وَكَانَ لَهُ النِّيَابَةُ الْمَطْلُوقَةُ عَنِ السُّلْطَانِ وَلِلْحُجَابِ الْحُكْمُ فَقَطُّ فِي طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ وَالْجُنْدِ عِنْدَ التَّرَافِعِ إِلَيْهِمْ وَإِجْبَارِ مَنْ أَبِي الْإِنْتِقِيَادِ لِلْحُكْمِ وَطَوْرُهُمْ تَحْتَ طَوْرِ النِّيَابَةِ وَالْوَزِيرُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جَبَابَةِ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جَزِيَّةٍ ثُمَّ فِي تَضْرِيفِهَا فِي الْإِنْفَاقَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ أَوْ الْجَرَائِزِ الْمُقَدَّرَةِ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ التَّوْلِيَّةِ وَالْعَزْلُ فِي سَائِرِ الْعَمَالِ الْمُبَاشِرِينَ لِهَذِهِ

الجباية والتنفيد على اختلاف مراتبهم وتباين أوضاعهم ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك في مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الأعيان لأهل الشوكة من رجالات الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الأمور ومصرفها بحكمته لا إله إلا هو رب الأولين والآخرين

## ديوان الأعمال والجبايات

إعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في إباناتها والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارمة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد يتفصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها . ويقال إن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون فقال ديوانه أي مجاني بلغة الفرس فسُمي موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقلد ديوان ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسابات وقيل إنه اسم للشياطين بالفارسية سمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي وجمعهم لما شد وتفرق ثم نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الأعمال وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسه بناب السلطان على ما يأتي بعد وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في سائر هذه الأعمال وقد يفرد كل صنف منها بناظر كما يفرد في بعض الدول النظر في العساكر وإقطاعاتهم وحسبان أعطياتهم أو غير ذلك على حسب مصطلح الدولة وما

قَرَرَهُ أَوْلُوهَا . وَاعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ إِنَّمَا تُحَدَّثُ فِي الدَّوْلِ عِنْدَ تَمَكُّنِ الْغَلْبِ  
وَالِاسْتِيْلَاءِ وَالنَّظَرِ فِي أَعْطَافِ الْمَلِكِ وَفُنُونِ التَّمْهِيدِ . وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الدِّيَوَانَ فِي  
الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقَالُ لِسَبَبِ مَا لَأْتَى بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَاسْتَكْشَرُوهُ وَتَبِعُوا فِي قَسَمِهِ فَسَمَوْا إِلَى إِحْصَاءِ الْأَمْوَالِ وَضَبْطِ  
الْعَطَاءِ وَالْحَقُوقِ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِالدِّيَوَانَ وَقَالَ : « رَأَيْتُ مُلُوكَ الشَّامِ  
يَدُونُونَ » فَقَبِلَ مِنْهُ عَمْرٌ وَقِيلَ بَلْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ الْهَرَمِزَانُ لَمَّا رَأَهُ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ  
بِغَيْرِ دِيَوَانَ فَقِيلَ لَهُ وَمَنْ يَعْلَمُ بَعِيْبَةَ مَنْ يَغِيْبُ مِنْهُمْ فَإِنْ مَنْ تَخَلَّفَ أَخْلَ بِمَكَانِهِ  
وَإِنَّمَا يَضْبُطُ ذَلِكَ الْكِتَابَ فَأُثْبِتَ لَهُمْ دِيَوَانًا وَسَأَلَ عَمْرٌ عَنِ اسْمِ الدِّيَوَانَ فَعَبَّرَ لَهُ  
وَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ أَمْرَ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمَخْرَمَةَ بْنِ نَوْفَلٍ وَجُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ  
وَكَانُوا مِنْ كُتَّابِ قُرَيْشٍ فَكَتَبُوا دِيَوَانَ الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى تَرْتِيْبِ الْأَنْسَابِ  
مُبْتَدَأً مِنْ قَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَا بَعْدَهَا الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ هَكَذَا كَانَ ابْتِدَاءُ  
دِيَوَانَ الْجَيْشِ وَرَوَى الزُّهْرِيُّ بْنُ سَعِيدٍ أَنَّ الْمُسَيَّبَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الْمَحْرَمِ سَنَةَ  
عِشْرِينَ وَأَمَّا دِيَوَانَ الْخَرَاجِ وَالْجَبَايَاتِ فَبَقِيَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ  
قَبْلِ دِيَوَانَ الْعِرَاقِ بِالْفَارِسِيَّةِ وَدِيَوَانَ الشَّامِ بِالرُّومِيَّةِ وَكُتَابِ الدَّوَالِيْنَ مِنْ أَهْلِ  
الْعَهْدِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَاسْتَحَالَ الْأَمْرَ مُلْكًا وَانْتَقَلَ  
الْقَوْمُ مِنْ غَضَاضَةِ الْبِدَاوَةِ إِلَى رَوْنِقِ الْحَضَارَةِ وَمِنْ سَدَاجَةِ الْأَمِيَّةِ إِلَى حَذَقِ الْكِتَابَةِ  
وَوَظَهَرَ فِي الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهْرَةً فِي الْكُتَّابِ وَالْحِسْبَانِ فَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ بْنَ  
سَعْدٍ وَالْيَاقُوتَ الْأَرْدَنَ لِعَهْدِهِ أَنْ يَنْقُلَ دِيَوَانَ الشَّامِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةِ مِنْ يَوْمِ  
ابْتِدَائِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ سَرْحُونَ كَاتِبُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ لِكُتَّابِ الرُّومِ : « اظْلُبُوا  
الْعَيْشَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَقَدْ قَطَعَهَا اللَّهُ عَنْكُمْ » . وَأَمَّا دِيَوَانَ الْعِرَاقِ فَأَمَرَ  
الْحَجَّاجَ كَاتِبَهُ صَالِحَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَكَانَ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ وَلَقِّنَ ذَلِكَ  
عَنْ زَادَانَ فَرُوخَ كَاتِبِ الْحَجَّاجِ قَبْلَهُ وَلَمَّا قُتِلَ زَادَانُ فِي حَرْبِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ  
الْأَشْعَثِ اسْتَخْلَفَ الْحَجَّاجُ صَالِحًا هَذَا مَكَانَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَنْقُلَ الدِّيَوَانَ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ

إلى العَرَبِيَّةِ فَفَعَلَ وَرَغِمَ لِدَلِكِ كُتَابِ الْفُرْسِ وَكَانَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنِ يَحْيَى يَقُولُ لِلَّهِ  
دَرْ صَالِحٍ مَا أَعْظَمَ مِنَّتَهُ عَلَى الْكُتَابِ ثُمَّ جُعِلَتْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ  
مُضَافَةً إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ النَّظَرُ فِيهِ كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي بَرْمَكٍ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ  
نُوبَخْتٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ وُزَرَاءِ الدَّوْلَةِ . وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْوُظَيْفَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ  
الشَّرْعِيَّةِ مِمَّا يَخْتَصُّ بِالْجَيْشِ أَوْ يَنْبَغِي فِي الدُّخْلِ وَالْخُرُجِ وَتَمْيِيزِ النَّوَاجِي  
بِالصَّلِحِ وَالْعُنُوتِ وَفِي تَقْلِيدِ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ لِمَنْ يَكُونُ وَشُرُوطِ النَّظَرِ فِيهَا وَالْكَاتِبِ  
وَقَوَائِمِ الْحِسْبَانَاتِ فَأَمْرٌ رَاجِعٌ إِلَى كُتُبِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَهِيَ مَسْطُورَةٌ هُنَالِكَ  
وَلَيْسَتْ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِيهَا مِنْ حَيْثُ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ الَّذِي نَحْنُ  
بِصَدِّ الْكَلَامِ فِيهِ وَهَذِهِ الْوُظَيْفَةُ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمَلِكِ بَلْ هِيَ ثَالِثَةٌ أَرْكَانُهُ لِأَنَّ  
الْمَلِكَ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْجُنْدِ وَالْمَالِ وَالْمُخَاطَبَةِ لِمَنْ غَابَ عَنْهُ فَاحْتِاجَ صَاحِبِ الْمَلِكِ  
إِلَى الْأَعْوَانِ فِي أَمْرِ السِّيفِ وَأَمْرِ الْقَلَمِ وَأَمْرِ الْمَالِ فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُهَا لِذَلِكَ بِجُزْءٍ مِنْ  
رِئَاسَةِ الْمَلِكِ وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالطَّوَائِفِ بَعْدَهُمْ  
وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ فَكَانَ صَاحِبُهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَسْتَقِلُّ بِالنَّظَرِ  
فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَضَبْطِهَا وَتَعْقُبِ نَظَرِ الْوَلَاةِ وَالْعُمَالِ فِيهَا ثُمَّ تَنْفِيذِهَا  
عَلَى قَدْرِهَا وَفِي مَوَاقِيْتِهَا وَكَانَ يُعْرَفُ بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ وَكَانَ رُبَّمَا يَلِيهَا فِي  
الْجِهَاتِ غَيْرِ الْمُوَحِّدِينَ مِمَّنْ يُحْسِنُهَا . وَلَمَّا اسْتَبَدَّ بَنُو أَبِي حَفْصٍ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَكَانَ  
شَأْنُ الْجَالِيَّةِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْبَيْتَاتِ وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ ذَلِكَ  
فِي الْأَنْدَلُسِ مِثْلَ بَنِي سَعِيدِ أَصْحَابِ الْقَلْعَةِ جَوَارِ غَرْنَاطَةَ الْمَعْرُوفِينَ بِبَنِي أَبِي  
الْحَسَنِ فَاسْتَكْفَوْا بِهِمْ فِي ذَلِكَ وَجَعَلُوا لَهُمُ النَّظَرَ فِي الْأَشْغَالِ كَمَا كَانَ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ  
وَدَالُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُوَحِّدِينَ ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِهَا أَهْلُ الْحِسْبَانِ وَالْكَتَابِ وَخَرَجَتْ  
عَنِ الْمُوَحِّدِينَ ثُمَّ لَمَّا اسْتَغْلَظَ أَمْرُ الْحَاجِبِ وَنَفَذَ أَمْرَهُ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُنِ الدَّوْلَةِ  
تَعَطَّلَ هَذَا الرَّسْمُ وَصَارَ صَاحِبُهُ مَرْؤُوسًا لِلْحَاجِبِ وَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ الْجَبَاةِ وَذَهَبَتْ  
تِلْكَ الرِّئَاسَةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُ فِي الدَّوْلَةِ . وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي مُرَيْنٍ لِهَذَا الْعَهْدِ فَحِسْبَانُ



العطاء والخراج مجموع لواحِدٍ وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسابات كلها ويرجع إلى ديوانه ونظيره معقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحساب في الخارج والعطاء هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان . وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة وصاحب ديوان العطاء يعرف بنظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الأموال لأن النظر في الأموال عندهم يتنوع إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الأموال والجايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغه فتعين للنظر العام منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان وأهل عصبته وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير إلى نظيره ويختهد جهده في متابعتيه ويسمى عندهم أستاذ الدولة وهو أحد الأمراء الأكابر في الدولة من الجند وأرباب السيوف ويتبع هذه الحطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة إلى الأموال والحسابان مقصورة النظر إلى أمور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة به من إقطاعاته أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار وإن كان الوزير من الجند فلا يكون لأستاذ الدار نظر عليه ونظر الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من ممتلكاته المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص . هذا بيان هذه الحطة بدولة الترك بالمشرق بعد ما قدمناه من أمرها بالمغرب والله مصرف الأمور لا رب غيره .

## ديوان الرسائل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً كما

فِي الدُّوْلِ العَرِيقَةِ فِي البِدَاوَةِ الَّتِي لَمْ يَأْخُذْهَا تَهْذِيبُ الحَضَارَةِ وَلَا اسْتِحْكَامُ الصَّنَائِعِ  
 وَإِنَّمَا أَكَّدَ الحَاجَةَ إِلَيْهَا فِي الدُّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ شَأْنَ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ وَالبَلَاغَةِ فِي العِبَارَةِ  
 عَنِ المَقَاصِدِ فَصَارَ الكِتَابُ يُؤَدِّي كُنْهَ الحَاجَةِ بِأَبْلَغِ مِنَ العِبَارَةِ اللِّسَانِيَّةِ فِي الأَكْثَرِ  
 وَكَانَ الكِتَابُ لِلأَمِيرِ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِ وَمِنْ عَظَمَاءِ قَبِيلِهِ كَمَا كَانَ لِلخُلَفَاءِ  
 وَأَمْرَاءِ الصَّحَابَةِ بِالشَّامِ وَالعِرَاقِ لِعَظَمِ أَمَانَتِهِمْ وَخُلُوصِ أَسْرَارِهِمْ فَلَمَّا فَسَدَ اللِّسَانُ  
 وَصَارَ صِنَاعَةٌ اخْتَصَّ بِمَنْ يُحْسِنُهُ وَكَانَتْ عِنْدَ بَنِي العَبَّاسِ رَفِيعَةً وَكَانَ الكِتَابُ  
 يُضِدِرُ السَّجَلَاتِ مُطْلَقَةً وَيَكْتُبُ فِي آخِرِهَا اسْمَهُ وَيَخْتَمُّ عَلَيْهَا بِخَاتَمِ السُّلْطَانِ وَهُوَ  
 طَابِعٌ مَنقُوشٌ فِيهِ اسْمُ السُّلْطَانِ أَوْ شَارَتْهُ يُعَمَّسُ فِي طِينٍ أَحْمَرَ مُذَابٍ بِالمَاءِ  
 وَيُسَمَّى طِينِ الخْتَمِ وَيُطْبَعُ بِهِ عَلَى طَرَفِي السَّجْلِ عِنْدَ طَيْبِهِ وَإِصْاقِهِ ثُمَّ صَارَتْ  
 السَّجَلَاتُ مِنْ بَعْدِهِمْ تُصَدَّرُ بِاسْمِ السُّلْطَانِ وَيَضَعُ الكِتَابُ فِيهَا عِلَامَتَهُ أَوَّلًا أَوْ آخِرًا  
 عَلَى حَسَبِ الإِخْتِيَارِ فِي مَحَلِّهَا وَفِي لَفْظِهَا ثُمَّ قَدْ تَنَزَّلَ هَذِهِ الخِطَّةُ بِارْتِفَاعِ المَكَانِ  
 عِنْدَ السُّلْطَانِ لِغَيْرِ صَاحِبِهَا مِنْ أَهْلِ المَرَاتِبِ فِي الدُّوْلَةِ أَوْ اسْتِبْدَادِ وَزِيرٍ عَلَيْهِ فَتَصِيرُ  
 عِلَامَةٌ هَذَا الكِتَابِ مُلغَاةُ الحُكْمِ بِعِلَامَةِ الرَّئِيسِ عَلَيْهِ يَسْتَدِلُّ بِهَا فَيَكْتُبُ صُورَةَ  
 عِلَامَتِهِ المَعْهُودَةِ وَالحُكْمَ لِعِلَامَةِ ذَلِكَ الرَّئِيسِ كَمَا وَقَعَ آخِرَ الدُّوْلَةِ الحَفْصِيَّةِ لَمَّا  
 ارْتَفَعَ شَأْنَ الحِجَابِيَّةِ وَصَارَ أَمْرُهَا إِلَى التَّفْوِيضِ ثُمَّ الإِسْتِبْدَادِ صَارَ حُكْمُ العِلَامَةِ الَّتِي  
 لِلكِتَابِ مُلغَى وَصُورَتُهَا ثَابِتَةٌ إِتْبَاعًا لِمَا سَلَفَ مِنْ أَمْرِهَا فَصَارَ الحَاجِبُ يَرْسِمُ  
 لِلكِتَابِ إِمضَاءَ كِتَابِهِ ذَلِكَ بِخَطِّ يَضَعُهُ وَيَتَخَيَّرُ لَهُ مِنْ صَبِغِ الإِنْفَادِ مَا شَاءَ فَيَأْتِمُرُ  
 الكِتَابُ لَهُ وَيَضَعُ العِلَامَةَ المَعْتَادَةَ وَقَدْ يُخْتَصُّ السُّلْطَانُ لِنَفْسِهِ بِوَضْعِ ذَلِكَ إِذَا كَانَ  
 مُسْتَبْدَأً بِأَمْرِهِ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ فَيَرْسِمُ الأَمْرَ لِلكِتَابِ لِيَضَعَ عِلَامَتَهُ؛ وَمِنْ خِطَطِ  
 الكِتَابِيَّةِ التَّوْقِيعِ وَهُوَ أَنْ يَجْلِسَ الكِتَابُ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ فِي مَجَالِسِ حُكْمِهِ  
 وَفَضْلِهِ وَيُوقَعُ عَلَى القِصَصِ المَرْفُوعَةِ إِلَيْهِ أَحْكَامُهَا وَالفَضْلِ فِيهَا مُتَلَقَاةً مِنَ السُّلْطَانِ  
 بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَبْلَغِهِ فَإِذَا أَنْ تُصَدَّرَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا أَنْ يَخْدُوَ الكِتَابُ عَلَى مِثْلِهَا فِي سَجْلِ  
 يَكُونُ بِيَدِ صَاحِبِ القِصَّةِ وَيَخْتِاجُ المَوْقِعَ إِلَى عَارِضَةٍ مِنَ البَلَاغَةِ يَسْتَقِيمُ بِهَا

تَوْفِيعُهُ وَقَدْ كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى يُوقِعُ فِي الْقِصَصِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ وَيَرْمِي  
بِالْقِصَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا فَكَانَتْ تَوْفِيعَاتُهُ يَتَنَافَسُ الْبُلَغَاءُ فِي تَحْصِيلِهَا لِلْوُقُوفِ فِيهَا عَلَى  
أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ وَفُنُونِهَا حَتَّى قِيلَ إِنَّهَا كَانَتْ تُبَاعُ كُلُّ قِصَّةٍ مِنْهَا بِدِينَارٍ وَهَكَذَا  
كَانَ شَأْنُ الدُّوَلِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْخُطْبَةِ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَخَيَّرَ أَرْفَعَ طَبَقَاتِ  
النَّاسِ وَأَهْلِ الْمُرُوءَةِ وَالْحِشْمَةِ مِنْهُمْ وَزِيَادَةَ الْعِلْمِ وَعَارِضَةَ الْبَلَاغَةِ فَإِنَّهُ مَعْرُضٌ لِلنَّظَرِ  
فِي أَصُولِ الْعِلْمِ لِمَا يُعْرَضُ فِي مَجَالِسِ الْمُلُوكِ وَمَقَاصِدِ أَحْكَامِهِمْ مِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ  
مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَشْرَةُ الْمُلُوكِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْأَدَابِ وَالتَّخَلُّقِ بِالْفَضَائِلِ مَعَ مَا يُضْطَرُّ  
إِلَيْهِ فِي التَّرْسِيلِ وَتَطْبِيقِ مَقَاصِدِ الْكَلَامِ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَأَسْرَارِهَا وَقَدْ تَكُونُ الرَّثْبَةُ فِي  
بَعْضِ الدُّوَلِ مُسْتِنْدَةً إِلَى أَرْبَابِ السُّيُوفِ لِمَا يَقْتَضِيهِ طَبَعُ الدُّوَلَةِ مِنَ الْبُعْدِ عَنْ  
مُعَانَاةِ الْعُلُومِ لِأَجْلِ سَدَاجَةِ الْعَصِيَّةِ فَيَخْتَصُّ السُّلْطَانُ أَهْلَ عَصِيَّتِهِ بِخَطِّ دَوْلَتِهِ  
وَسَائِرِ رَثْبِهِ فَيَقْلُدُ الْمَالَ وَالسِّيفَ وَالْكِتَابَةَ مِنْهُمْ فَأَمَّا رَثْبَةُ السِّيفِ فَتَسْتَغْنِي عَنْ  
مُعَانَاةِ الْعِلْمِ وَأَمَّا الْمَالُ وَالْكِتَابَةُ فَيُضْطَرُّ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَاغَةَ فِي هَذِهِ وَالْحِسْبَانُ فِي  
الْأُخْرَى فَيَخْتَارُونَ لَهَا مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ مَا دَعَتْ إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ وَيَقْلُدُونَهُ إِلَّا أَنَّهُ  
لَا تَكُونُ يَدٌ آخَرَ مِنْ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ غَالِبَةً عَلَى يَدِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ مُنْصَرَفًا عَنْ نَظَرِهِ  
كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ فَإِنَّ الْكِتَابَةَ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ لِصَاحِبِ  
الْإِنْشَاءِ إِلَّا أَنَّهُ تَحْتَ يَدِ أَمِيرٍ مِنْ أَهْلِ عَصِيَّةِ السُّلْطَانِ يُعْرِفُ بِالْذَوِي دَارٍ وَتَعْوِيلُ  
السُّلْطَانِ وَوُثُوقُهُ بِهِ وَاسْتِنَامَتُهُ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِ إِلَيْهِ وَتَعْوِيلُهُ عَلَى الْآخِرِ فِي أَحْوَالِ  
الْبَلَاغَةِ وَتَطْبِيقِ الْمَقَاصِدِ وَكُتْمَانِ الْأَسْرَارِ وَعَبْرَ ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِهَا . وَأَمَّا الشُّرُوطُ  
الْمُعْتَبَرَةُ فِي صَاحِبِ هَذِهِ الرَّثْبَةِ الَّتِي يُلَاحِظُهَا السُّلْطَانُ فِي اخْتِيَارِهِ وَانْتِقَائِهِ مِنْ  
أَصْنَافِ النَّاسِ فِيهَا كَثِيرَةٌ وَأَحْسَنُ مَنْ اسْتَوْعَبَهَا عَبْدُ الْحَمِيدِ الْكَاتِبُ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى  
الْكَتَّابِ وَهِيَ : « أَمَّا بَعْدُ فَحَفِظْكُمْ اللَّهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ وَحَاطِكُمْ وَوَفَّقْكُمْ  
وَأَرْشِدْكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتِ اللَّهِ  
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَمَنْ بَعَدَ الْمُلُوكِ الْمُكْرَمِينَ أَصْنَافًا وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ

سواءَ وَصَرَفَهُمْ فِي صُنُوفِ الصَّنَاعَاتِ وَضُرُوبِ الْمُحَاوَلَاتِ إِلَى أَشْبَابِ مَعَاشِهِمْ وَأَنْبَابِ  
أَرْزَاقِهِمْ فَجَعَلَكُمْ مَعَشَرَ الْكُتَّابِ فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ أَهْلَ الْأَدَبِ وَالْمَرْوَاتِ وَالْعِلْمِ  
وَالرِّزَانَةِ بِكُمْ يَنْتَظِمُ لِلْخِلَافَةِ مَحَاسِنَهَا وَتَسْتَقِيمُ أُمُورُهَا وَبِنُصْحَائِكُمْ يُصْلِحُ اللَّهُ  
لِلْخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ وَتَعْمُرُ بُلْدَانَهُمْ لَا يَسْتَغْنِي الْمَلِكُ عَنْكُمْ وَلَا يُوجَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ  
فَمَوْقِعَكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْعٍ أَسْمَاعِهِمُ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ وَأَبْصَارِهِمُ الَّتِي بِهَا  
يُبْصِرُونَ وَالسِّنِّيَّتِهِمُ الَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ وَأَيْدِيهِمُ الَّتِي بِهَا يَنْطُشُونَ فَأَمْتَعَكُمْ اللَّهُ  
بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ وَلَا نَزَعْ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاءَ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ وَلَيْسَ  
أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَحْوَجَ إِلَى اجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمَحْمُودَةِ وَخِصَالِ  
الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْكُتَّابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ  
مِنْ صِفَتِكُمْ فَإِنَّ الْكُتَّابَ يَخْتَاجُ فِي نَفْسِهِ وَيَخْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَثِقُ بِهِ فِي  
مَهْمَاتِ أُمُورِهِ أَنْ يَكُونَ خَلِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحِلْمِ فَهِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ مِقْدَامًا فِي  
مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ مُخِجِمًا فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ مُؤَثِّرًا لِلْعَفَافِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ كَثُومًا  
لِلْأَسْرَارِ وَفِيئًا عِنْدَ الشَّدَائِدِ عَالِمًا بِمَا يَأْتِي مِنَ النَّوَازِلِ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا  
وَالطُّوَارِقَ فِي أَمَاكِنِهَا قَدْ نَظَرَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ فَأَحْكَمَهُ وَإِنْ لَمْ يُحْكِمَهُ أَخَذَ  
مِنْهُ بِمِقْدَارِ مَا يَكْتَفِي بِهِ يَعْرِفُ بِغَرِيزَةِ عَقْلِهِ وَحُسْنِ أَدَبِهِ وَفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ مَا يَرُدُّ  
عَلَيْهِ قَبْلَ وُرُودِهِ وَعَاقِبَتَهُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ فَيَعُدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عِدَّتَهُ وَعَتَادَهُ  
وَيَهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهِ هَيْئَتَهُ وَعَادَتَهُ فَتَنَافَسُوا يَا مَعَشَرَ الْكُتَّابِ فِي صُنُوفِ الْأَدَابِ  
وَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَأَبْدَأُوا بِعِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْفَرَائِضِ ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا  
ثِقَافُ السِّنِّيَّتِكُمْ ثُمَّ أُجِيدُوا الْخَطَّ فَإِنَّهُ حِلْيَةُ كُتُبِكُمْ وَارْوُوا الْأَشْعَارَ وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا  
وَمَعَانِيَهَا وَأَيَّامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا فَإِنَّ ذَلِكَ مَعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو  
إِلَيْهِ هِمَمَكُمْ وَلَا تُضْيِعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ فَإِنَّهُ قِوَامُ كِتَابِ الْخَرَاجِ وَارْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ  
عَنِ الْمَطَامِعِ سَنِيَّهَا وَدَنِيَّهَا وَسَفْسَافِ الْأُمُورِ وَمَحَاقِرِهَا فَإِنَّهَا مُدَّةٌ لِلرِّقَابِ مُفْسِدَةٌ  
لِلْكِتَابِ وَنَزْهُوا صِنَاعَتَكُمْ عَنِ الدَّنَاءَةِ وَارْبَأُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَمَا

فِيهِ أَهْلُ الْجَهَالَاتِ وَإِيَّاكُمْ وَالْكِبْرَ وَالسُّخْفَ وَالْعَظْمَةَ فَإِنَّهَا عَدَاوَةٌ مُجْتَلِبَةٌ مِنْ غَيْرِ  
 إِخْنَةٍ وَتَحَابُّوا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ أَلْبَقُ لِأَهْلِ  
 الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنَّبْلِ مِنْ سَلْفِكُمْ وَإِنْ نَبَا الرِّمَانُ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَاعْطِفُوا عَلَيْهِ وَأَسْوَهُ  
 حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ خَالَهُ وَيَثُوبَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدًا مِنْكُمْ الْكِبْرَ عَنْ مَكْسَبِهِ  
 وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ فَزُورُوهُ وَعَظْمُوهُ وَشَاوِرُوهُ وَاسْتَظْهِرُوا بِفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ  
 وَلْيَكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ اضْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ بِهِ لِيَوْمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحْوَطَ مِنْهُ عَلَى  
 وَلَدِهِ وَأَخِيهِ فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مَخْمِدَةٌ فَلَا يَصِفْهَا إِلَّا إِلَى صَاحِبِهِ وَإِنْ عَرَضَتْ  
 مَذْمُومَةٌ فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ وَلْيُخَذِرِ السَّقَطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالْمَلَلَ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْحَالِ فَإِنَّ  
 الْعَيْبَ إِلَيْكُمْ مَغْشَرَ الْكِتَابِ أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى الْقِرَاءِ وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ لَهُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ  
 الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ مَنْ يَبْذُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ فَوَاجِبٌ  
 عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَدِلَ لَهُ مِنْ وَقَائِهِ وَشُكْرِهِ وَاحْتِمَالِهِ وَخَيْرِهِ وَنَصِيحَتِهِ وَكَيْفَانِ سِرِّهِ وَتَذْيِيرِ  
 أَمْرِهِ مَا هُوَ جَزَاءٌ لِحَقِّهِ وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ بِفَعَالِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالِاضْطِرَارِ إِلَى  
 مَا لَدَيْهِ فَاسْتَشْعَرُوا ذَلِكَ وَقَفِّكُمُ اللَّهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي حَالَةِ الرِّخَاءِ وَالشَّدَةِ وَالْحِرْمَانِ  
 وَالْمَوْاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ وَالسَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ فَنِعِمَّتِ السَّيْمَةُ هَذِهِ مِنْ وَسْمِ بَيْهَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ  
 الصَّنَاعَةِ الشَّرِيفَةِ وَإِذَا وَلَّى الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَوْ صَيَّرَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقِ اللَّهِ وَعِيَالِهِ أَمْرًا  
 فَلْيُرَاقِبِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلْيُؤَثِّرْ طَاعَتَهُ وَلْيَكُنْ عَلَى الضَّعِيفِ رَفِيقًا وَلِلْمَظْلُومِ مُنْصِفًا  
 « فَإِنَّ الْخُلُقَ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَرْفَقَهُمْ بِعِيَالِهِ » ثُمَّ لِيَكُنِ بِالْعَدْلِ حَاكِمًا  
 وَلِلْأَشْرَافِ مُكْرِمًا وَلِلْفُقَرَاءِ مُؤَفِّرًا وَلِلْبِلَادِ غَامِرًا وَلِلرَّعِيَّةِ مُتَأَلِّفًا وَعَنْ أَذَاهُمْ مُتَخَلِّفًا  
 وَلْيَكُنْ فِي مَجْلِسِهِ مُتَوَاضِعًا حَلِيمًا وَفِي سَجَلَاتِ خَرَاجِهِ وَاسْتِقْضَاءِ حُقُوقِهِ رَفِيقًا وَإِذَا  
 صَحِبَ أَحَدَكُمْ رَجُلًا فَلْيُخْتَبِرْ خَلَائِقَهُ فَإِذَا عَرَفَ حُسْنَهَا وَقَبْحَهَا أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَافِقُهُ  
 مِنَ الْحُسْنِ وَاخْتَالَ عَلَى صَرْفِهِ عَمَّا يَنْهَوَاهُ مِنَ الْقُبْحِ بِالطَّفِ حِيلَةً وَأَجْمَلَ وَسِيلَةً وَقَدْ  
 عَلِمْتُمْ أَنَّ سَائِسَ الْبَهِيمَةِ إِذَا كَانَ بِصِيرًا بِسِيَاسَتِهَا التَّمَسَّ مَعْرِفَةَ أَخْلَاقِهَا فَإِنْ كَانَتْ  
 رَمُوحًا<sup>(١)</sup> لَمْ يَهْجَهَا إِذَا رَكِبَهَا وَإِنْ كَانَتْ شُبُوبًا<sup>(٢)</sup> اتَّقَاهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَإِنْ خَافَ

(١) كثيرة الرمس .

(٢) كثيرة رفع اليدين .

مِنْهَا شَرُوداً تَوْقَاهَا مِنْ نَاحِيَةِ رَأْسِهَا وَإِنْ كَانَتْ حَرُوناً قَمَعَ بِرَفَقٍ هَوَاهَا فِي طَرَقِهَا <sup>(١)</sup>  
فَإِنْ اسْتَمَرَّتْ عَطْفَهَا يَسِيرًا فَيَسْلُسُ لَهُ قِيَادَهَا وَفِي هَذَا الْوَصْفِ مِنَ السِّيَاسَةِ دَلَائِلُ  
لِمَنْ سَاسَ النَّاسَ وَعَامَلَهُمْ وَجَرَّبَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ وَالْكَاتِبُ يَفْضِلُ أَدَبَهُ وَشَرِيفَ صَنْعَتِهِ  
وَلَطِيفَ حِيلَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِمَنْ يُحَاوِرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُنَاطِرُهُ وَيَفْهَمُ عَنْهُ أَوْ يَخَافُ  
سَطْوَتَهُ أَوْلَى بِالرَّفَقِ لِصَاحِبِهِ وَمُدَارَاتِهِ وَتَقْوِيمِ أَوْدِهِ مِنْ سَائِسِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي  
لَا تُحِيرُ جَوَابًا وَلَا تُعْرِفُ صَوَابًا وَلَا تَفْهَمُ خَطَابًا إِلَّا بِقَدَرِ مَا يُصَيِّرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبَهَا  
الرَّكِبُ عَلَيَّهَا إِلَّا أَفَازَ قَفُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فِي النَّظَرِ وَاعْمَلُوا مَا أَمَكَّنَكُم فِيهِ مِنَ الرُّوِيَّةِ  
وَالْفِكْرِ تَأْمَنُوا بِإِذْنِ اللَّهِ مِمَّنْ صَحِبْتُمُوهُ النُّبُوَّةَ وَالِاسْتِثْقَالَ وَالْجَفْوَةَ وَيَصِيرُ مِنْكُمْ إِلَى  
الْمُوَافَقَةِ وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى الْمُواخَاةِ وَالشَّفَقَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَلَا يُجَاوِزَنَّ الرَّجُلُ مِنْكُمْ  
فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَبِنَائِهِ وَخَدْمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ  
فُنُونِ أَمْرِهِ قَدَرَ حَقِّهِ فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا فَضَّلَكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ شَرَفِ صَنْعَتِكُمْ خِدْمَةَ  
لَا تُحْمَلُونَ فِي خِدْمَتِكُمْ عَلَى التَّقْصِيرِ وَحَفْظَةِ لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَعْمَالُ التَّضْيِيعِ  
وَالتَّبْدِيرِ وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَافِكُمْ بِالْقُضْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ  
وَاحذَرُوا مَتَالِفَ السَّرْفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ وَيَذَلَّانِ الرِّقَابَ  
وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا وَسَيِّمَا الْكُتَابِ وَأَرْبَابِ الْأَدَابِ وَالْأُمُورِ أَشْبَاهَ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى  
بَعْضٍ فَاسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفٍ <sup>(٢)</sup> أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجْرِبَتِكُمْ ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ  
مَسَالِكِ التَّدْبِيرِ أَوْضَحَهَا مَحَجَّةً وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّدْبِيرِ  
أَفَةً مُتَلَفَةً وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ عَنِ إِنْقَادِ عِلْمِهِ وَرُؤْيَتِهِ فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ  
فِي مَجْلِسِهِ قُضْدَ الْكَافِي مِنْ مَنْطِقِهِ وَلِيُوجِزْ فِي ابْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ وَلِيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ  
حِجَّتِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مُصْلِحَةٌ لِفِعْلِهِ وَمَدْفَعَةٌ لِلتَّشَاغُلِ عَنْ إِكْثَارِهِ وَلِيُضْرِعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ  
تَوْفِيقِهِ وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ مَخَافَةَ وَقُوعِهِ فِي الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِدَنِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ فَإِنَّهُ إِنْ  
ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانَ أَوْ قَالَ قَائِلٌ إِنْ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ

(١) بمعنى الضرب .

(٢) الجديد الذي لم تسبق فيه تجربة .

بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ فَقَدْ تَعَرَّضَ بَطْنُهُ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِيلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ  
إِلَى نَفْسِهِ فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ وَلَا يَقُلُّ أَحَدٌ  
مِنْكُمْ إِنَّهُ أَنْبَصَرُ بِالْأُمُورِ وَأَحْمَلُ لِعِبَاءِ التَّدْبِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي  
خِدْمَتِهِ فَإِنَّ أَغْفَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَبْيَابِ مَنْ رَمَى بِالْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَرَأَى  
أَنَّ أَصْحَابَهُ أَغْفَلُوا مِنْهُ وَأَحْمَدُوا فِي طَرِيقَتِهِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ  
فَضْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ وَلَا تَزْكِيَةَ لِنَفْسِهِ وَلَا يَكَاثُرَ<sup>(١)</sup> عَلَى  
أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ  
لِعَظَمَتِهِ وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ  
مَنْ تَلَزَمَهُ النَّصِيحَةُ يَلْزَمُهُ الْعَمَلُ وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغَرَّةُ كَلَامِهِ بَعْدَ الَّذِي فِيهِ  
مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ وَتَمَّمْتُهُ بِهِ تَوَلَّانا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ  
الطَّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مِنْ سَبَقِ عِلْمِهِ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ  
وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

( الشرطية ) : وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَفْرِيقِيَّةِ الْحَاكِمِ وَفِي دَوْلَةِ أَهْلِ  
الْأَنْدَلُسِ صَاحِبِ الْمَدِينَةِ وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكِ الْوَالِي . وَهِيَ وَظِيْفَةٌ مَرْوُوسَةٌ لِصَاحِبِ  
السَّيْفِ فِي الدَّوْلَةِ وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ وَكَانَ أَصْلُ وَضْعِهَا فِي  
الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يُقِيمُ أَحْكَامَ الْجَرَائِمِ فِي حَالِ اسْتِبْدَادِهَا أَوْلَا ثُمَّ الْحُدُودَ بَعْدَ  
اسْتِيفَائِهَا فَإِنَّ التَّهَمَ الَّتِي تَعْرُضُ فِي الْجَرَائِمِ لَا نَظَرَ لِلشَّرْعِ إِلَّا فِي اسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا  
وَلِلسِّيَاسَةِ النَّظَرُ فِي اسْتِيفَاءِ مُوجِبَاتِهَا بِإِقْرَارِ يُكْرَهُهُ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ إِذَا احْتَفَّتْ بِهِ  
الْقَرَائِنُ لِمَا تُوْجِبُهُ الْمَضْلَحَةُ الْعَامَّةُ فِي ذَلِكَ فَكَانَ الَّذِي يَقُومُ بِهَذَا الْاسْتِبْدَادِ  
وَبِاسْتِيفَاءِ الْحُدُودِ بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّهَ عَنْهُ الْقَاضِي يُسَمَّى صَاحِبَ الشَّرْطَةِ وَرَبَّمَا جَعَلُوا  
إِلَيْهِ النَّظَرَ فِي الْحُدُودِ وَالِدَّمَاءِ بِإِطْلَاقٍ ، وَأَفْرَدُوهَا مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي وَنَزَّهُوا هَذِهِ  
الْمَرْتَبَةَ وَقَلَّدُوهَا كِبَارَ الْقَوَادِ وَعَظَمَاءَ الْخَاصَّةِ مِنْ مَوَالِيهِمْ وَلَمْ تَكُنْ عَامَّةَ التَّنْفِيذِ فِي

(١) يتعاطم أو يفاخر .

طَبَقَاتِ النَّاسِ إِنَّمَا كَانَ حُكْمُهُمْ عَلَى الذَّهْمَاءِ وَأَهْلِ الرَّيْبِ وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الرُّعَاعِ وَالْفَجْرَةِ . ثُمَّ عَظُمَتْ نَبَاهَتُهَا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَنَوَعَتْ إِلَى شَرْطَةِ كُبْرَى وَشَرْطَةِ صُفْرَى وَجُعِلَ حُكْمُ الْكُبْرَى عَلَى الْخَاصَّةِ وَالذَّهْمَاءِ وَجُعِلَ لَهُ الْحُكْمُ عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالضَّرْبُ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الظُّلَامَاتِ وَعَلَى أَيْدِي أَقَارِبِهِمْ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِ وَجُعِلَ صَاحِبُ الصُّفْرَى مَخْصُوصاً بِالْعَامَّةِ وَنُصِبَ لِصَاحِبِ الْكُبْرَى كُرْسِيٌّ بِنَابِ دَارِ السُّلْطَانِ وَرِجَالٌ يَتَبَوَّؤْنَ الْمَقَاعِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَبْرَحُونَ عَنْهَا إِلَّا فِي تَصْرِيفِهِ وَكَانَتْ وَلَا يَتَّهَى لِلْأَكَابِرِ مِنْ رِجَالِ الدَّوْلَةِ حَتَّى كَانَتْ تَرْشِيحاً لِلْوِزَارَةِ وَالْحِجَابَةِ .

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ بِالْمَغْرِبِ فَكَانَ لَهَا حَظٌّ مِنَ التَّنْوِيهِ وَإِنْ لَمْ يَجْعَلُوهَا عَامَّةً وَكَانَ لَا يَلِيهَا إِلَّا رِجَالَاتُ الْمُوَحِّدِينَ وَكِبْرَاؤُهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ التَّحْكُمُ عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ ثُمَّ فَسَدَ الْيَوْمَ مَنْصِبُهَا وَخَرَجَتْ عَنْ رِجَالِ الْمُوَحِّدِينَ وَصَارَتْ وَلَا يَتَّهَى لِمَنْ قَامَ بِهَا مِنَ الْمُضْطَنِّعِينَ . وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ بَنِي مُرَيْنٍ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ فَوَلَّيْتَهَا فِي بِيُوتِ مَوَالِيهِمْ وَأَهْلِ اضْطِنَاعِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فِي رِجَالَاتِ التُّرْكِ أَوْ عَاقِبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ قَبْلَهُمْ مِنَ التُّرْكِ يَتَخَيَّرُونَ لَهَا فِي النَّظَرِ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْمَضَاءِ فِي الْأَحْكَامِ لِقَطْعِ مَوَادِّ الْفَسَادِ وَحَسْمِ أَبْوَابِ الدَّعَاةِ وَتَخْرِيْبِ مَوَاطِنِ الْفُسُوقِ وَتَفْرِيقِ مَجَامِعِهِ مَعَ إِقَامَةِ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ رِعَايَةُ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِي الْمَدِينَةِ وَاللَّهِ مَقْلَبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

( قِيَادَةُ الْأَسَاطِيلِ ) : وَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ الدَّوْلَةِ وَخَطِطِهَا فِي مَلِكِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيْقِيَّةِ وَمَرْؤَسَةِ لِصَاحِبِ السِّيفِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَيُسَمَّى صَاحِبَهَا فِي عَرَفِهِمُ الْبَلْمَنْدُ بِتَفْخِيمِ اللَّامِ مَنْقُولاً مِنْ لُغَةِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ فَإِنَّهُ اسْمُهَا فِي اضْطِلَاحِ لُغَتِهِمْ وَإِنَّمَا اخْتَصَّتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ بِمَلِكِ أَفْرِيْقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ لِأَنَّهَا جَمِيعاً عَلَى ضِفَّةِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ وَعَلَى عُدُوتِهِ الْجَنُوبِيَّةِ بِأَدَاةِ الْبَرْبَرِ كُلِّهِمْ



مِنْ سَبْتَةَ إِلَى الشَّامِ وَعَلَى عُدُوتِهِ الشَّمَالِيَّةِ بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ وَالْإِفْرَنْجَةِ وَالصَّقَالِيَّةِ وَالرُّومِ إِلَى  
 بِلَادِ الشَّامِ أَيْضاً وَيُسَمَّى الْبَحْرَ الرُّومِيَّ وَالْبَحْرَ الشَّامِيَّ نِسْبَةً إِلَى أَهْلِ عُدُوتِهِ  
 وَالسَّاكِنُونَ بِسَيْفِ هَذَا الْبَحْرِ وَسَوَاحِلِهِ مِنْ عُدُوتَيْهِ يُعَانُونَ مِنْ أَحْوَالِهِ مَا لَا تُعَانِيهِ  
 أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةِ الْبِحَارِ فَقَدْ كَانَتْ الرُّومُ وَالْإِفْرَنْجَةُ وَالْقُوطُ بِالْعُدُوتِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا  
 الْبَحْرِ الرُّومِيَّ وَكَانَتْ أَكْثَرُ حُرُوبِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ فِي السُّفُنِ فَكَانُوا مَهْرَةً فِي رُكُوبِهِ  
 وَالْحَرْبِ فِي أَسَاطِيلِهِ وَلَمَّا أَسَفَ <sup>(١)</sup> مَنْ أَسَفَ مِنْهُمْ إِلَى مُلْكِ الْعُدُوتِ الْجَنُوبِيَّةِ مِثْلَ  
 الرُّومِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةِ وَالْقُوطِ إِلَى الْمَغْرِبِ أَجَازُوا <sup>(٢)</sup> فِي الْأَسَاطِيلِ وَمَلَكُوهَا وَتَغَلَّبُوا عَلَى  
 الْبَرْبَرِ بِهَا وَانْتَزَعُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ أَمْرَهَا وَكَانَ لَهَا بِهَا الْمَدُنُ الْخَافِلَةُ مِثْلَ قَرْطَاجِنَةَ  
 وَسَيْبِلَةَ وَجَلُولَاءَ وَمِرْنَاقَ وَشِرْشَالَ وَطَنْجَةَ وَكَانَ صَاحِبُ قَرْطَاجِنَةَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
 يُحَارِبُ صَاحِبَ رُومَةَ وَيَبْعَثُ الْأَسَاطِيلَ لِحَرْبِهِ مَشْحُونَةً بِالْعَسَاكِرِ وَالْعِدَدِ فَكَانَتْ  
 هَذِهِ عَادَةٌ لِأَهْلِ هَذَا الْبَحْرِ السَّاكِنِينَ حَفَافِيهِ مَعْرُوفَةٌ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ وَلَمَّا مَلَكَ  
 الْمُسْلِمُونَ مِصْرَ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا « أَنْ  
 صِفْ لِي الْبَحْرَ » فَكَتَبَ إِلَيْهِ « إِنَّ الْبَحْرَ خَلَقَ عَظِيمٌ يَرْكَبُهُ خَلْقٌ ضَعِيفٌ دُودٌ عَلَى  
 عُودٍ » فَأَوْعَزَ حِينَئِذٍ بِمَنْعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رُكُوبِهِ وَلَمْ يَرْكَبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا مِنْ  
 افْتَاتَ عَلَى عَمْرٍ فِي رُكُوبِهِ وَنَالَ مِنْ عِقَابِهِ كَمَا فَعَلَ بِعَرْفَجَةَ بْنِ هُرَيْثَةَ الْأَزْدِيِّ سَيِّدِ  
 بَحِيلَةَ لَمَّا أَغْزَاهُ عَمَّانَ فَبَلَّغَهُ غَزْوَهُ فِي الْبَحْرِ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَعَنْفَهُ أَنَّهُ رَكِبَ الْبَحْرَ لِلْغَزْوِ  
 وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ لِعَهْدِ مَعَاوِيَةَ أُذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي رُكُوبِهِ وَالْجِهَادِ  
 عَلَى أَعْوَادِهِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لِبِدَاوَتِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مَهْرَةً فِي ثِقَاتِهِ وَرُكُوبِهِ  
 وَالرُّومُ وَالْإِفْرَنْجَةُ لِمُمَارَسَتِهِمْ أَحْوَالَهُ وَمَرْبَاهُمْ فِي التَّقَلُّبِ عَلَى أَعْوَادِهِ مَرِنُوا عَلَيْهِ  
 وَأَحْكَمُوا الدَّرَازِيَةَ بِثِقَاتِهِ فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ لِلْعَرَبِ وَشَمَخَ سُلْطَانُهُمْ وَصَارَتْ أُمَّةُ  
 الْعَجَمِ خَوْلًا لَهُمْ وَتَحْتَ أَيْدِيهِمْ وَتَقَرَّبَ كُلُّ ذِي صَنْعَةٍ إِلَيْهِمْ بِمَبْلَغِ صِنَاعَتِهِ  
 وَاسْتَحْدَمُوا مِنَ النَّوَاتِيَةِ فِي حَاجَاتِهِمُ الْبَحْرِيَّةِ أَمَّا وَتَكَرَّرَتْ مُمَارَسَتُهُمْ لِلْبَحْرِ

(١) دنا .

(٢) قطعوا .

وَتَقَاتِيَهُ وَاسْتَحَدُّوا بَصْرَاءَ بِهَا فَشَرُّهُوا إِلَى الْجِهَادِ فِيهِ وَأَنْشَأُوا السُّفْنَ فِيهِ وَالشُّوَانِيَّ  
وَشَحَنُوا الْأَسَاطِيلَ بِالرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ وَأَمْطَوْهَا الْمَسَاكِرَ وَالْمَقَاتِلَةَ لِمَنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ  
مِنْ أُمَّمِ الْكُفْرِ وَاخْتَصُّوا بِذَلِكَ مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَتَغَوَّرَهُمْ مَا كَانَ أَقْرَبَ لِهَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى  
خَافِيَتِهِ مِثْلَ الشَّامِ وَأَفْرِيْقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَأَوْعَزَ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى  
حَسَّانِ بْنِ النُّعْمَانِ غَامِلِ أَفْرِيْقِيَّةَ بِاتِّخَاذِ دَارِ صِنَاعَةِ بَتُونَسَ لِإِنْشَاءِ الْآلَاتِ  
الْبَحْرِيَّةِ حِرْصًا عَلَى مَرَامِ الْجِهَادِ وَمِنْهَا كَانَ فَتْحُ صِقْلِيَّةَ أَيَّامَ زِيَادَةَ اللَّهِ الْأَوَّلِ ابْنِ  
إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَعْلَبِ عَلَى يَدِ أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ شَيْخِ الْفَتْحِ وَفَتْحُ قَوْصَرَةَ أَيْضًا فِي  
أَيَّامِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُعَاوِيَةَ بْنُ حَدِيحٍ أَغْرَى صِقْلِيَّةَ أَيَّامَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ  
فَلَمْ يَفْتَحِ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ وَفَتْحَتْ عَلَى يَدِ ابْنِ الْأَعْلَبِ وَقَائِدِهِ أَسَدُ بْنُ الْفُرَاتِ  
وَكَانَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَسَاطِيلُ أَفْرِيْقِيَّةَ وَالْأَنْدَلُسِ فِي دَوْلَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ وَالْأُمَوِيِّينَ  
تَتَعَاقَبُ إِلَى بِلَادِهِمَا فِي سَبِيلِ الْفِتْنَةِ فَتَجُوسُ خِلَالَ السُّوَاخِلِ بِالْإِفْسَادِ وَالتَّخْرِيْبِ .  
وَأَنْتَهَى اسْطُولُ الْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ إِلَى مَائَتِي مَرْكَبٍ أَوْ نَحْوِهَا  
وَأَسْطُولُ أَفْرِيْقِيَّةَ كَذَلِكَ مِثْلَهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ وَكَانَ قَائِدُ الْأَسَاطِيلِ بِالْأَنْدَلُسِ ابْنُ  
دِمَاحِسَ وَمَرْفَأُهَا لِلْحَطِّ وَالْإِفْلَاحِ بِجَايَةِ وَالْمِرْيَةِ وَكَانَتْ أَسَاطِيلُهَا مُجْتَمِعَةً مِنْ  
سَائِرِ الْمَمَالِكِ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ تَتَّخِذُ فِيهِ السُّفْنُ اسْطُولًا يُرْجَعُ نَظَرُهُ إِلَى قَائِدٍ مِنْ  
النُّوَاتِيَّةِ يُدَبِّرُ أَمْرَ حَرْبِهِ وَسِلَاحِهِ وَمَقَاتِلَتِهِ وَرَيْسَ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَرِيَّتِهِ بِالرِّيْحِ أَوْ  
بِالْمَجَازِيْفِ وَأَمْرَ إِرْسَائِهِ فِي مَرْفَأِهِ فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَسَاطِيلُ لِعَزْوِ مُخْتَفِلٍ أَوْ غَرَضٍ  
سُلْطَانِيٍّ مِنْهُمْ عَسْكَرَتْ بِمَرْفَأِهَا الْمَعْلُومِ وَشَحَنَهَا السُّلْطَانُ بِرِجَالِهِ وَأَنْجَادِ عَسَاكِرِهِ  
وَمَوَالِيِهِ وَجَعَلَهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرٍ وَاحِدٍ مِنْ أَعْلَى طَبَقَاتِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ  
ثُمَّ يُسَرِّحُهُمْ لَوَجْهِهِمْ وَيَنْتَظِرُ إِيَابَهُمْ بِالْفَتْحِ وَالغَنِيْمَةِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِعَهْدَةِ الدَّوْلَةِ  
الْإِسْلَامِيَّةِ قَدْ غَلَبُوا عَلَى هَذَا الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ وَعَظُمَتِ صَوْلَتُهُمْ وَسُلْطَانَتُهُمْ  
فِيهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلْأَمَمِ النُّصْرَانِيَّةِ قَبْلَ بِأَسَاطِيلِهِمْ شَيْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ وَأَمْتَطَوْا ظَهْرَهُ  
لِلْفَتْحِ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ فَكَانَتْ لَهُمُ الْمَقَامَاتُ الْمَعْلُومَةُ مِنَ الْفَتْحِ وَالغَنَائِمِ وَمَلَكُوا سَائِرَ

الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويايسة وسردانية وصقلية  
وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرس وسائر ممالك الروم والإفرنج وكان أبو القاسم  
الشيعة وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهديّة جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر  
والغنيمه وأفتتح مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية  
في أساطيله سنة خمس وأربعمائة وأرتجعها النصارى لوقيتها والمسلمون خلال ذلك  
كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وصارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة  
والعساكر الإسلامية تحيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها  
من العدو الشمالية فتوقع بملوك الأفرنج وتثنخ في ممالكهم كما وقع في أيام بني  
الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبديين وانحازت أمم النصرانية  
بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنجية والصقلية  
وجزائر الرومانية لا يعدونها وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد  
على فريسته وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت في طرقه  
سلما وحربا فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح حتى إذا أدرك الدولة العبديّة والأموية  
الفشل والوهن وطرقها الإعتلال مدّ النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل  
صقلية وأقريطش ومالطة فملكوها ثم ألحوا على سواحل الشام في تلك الفترة  
وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام  
وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليه كنيسة لمظهر دينهم وعبادتهم وغلبوا بني  
خزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية ثم ملكوا  
المهديّة مقر ملوك العبديين من يد أعقاب بلكين بن زيري وكانت لهم في  
المائة الخامسة الكثرة بهذا البحر وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن  
انقطع ولم يفتنوا بشيء من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدولة العبديّة  
عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك  
وبقيت بأفريقية والمغرب فصارت مختصة بها وكان الجانب الغربي من هذا

الْبَحْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ مَوْفُورَ الْأَسَاطِيلِ ثَابِتَ الْقُوَّةِ لَمْ يَتَحَيَّفْ عَدُوٌّ وَلَا كَانَتْ لَهُمْ بِهِ  
 كَرَّةٌ فَكَانَ قَائِدَ الْأَسْطُولِ بِهِ لِعَهْدِ لِمْتُونَةَ بَنِي مَيْمُونِ رُؤْسَاءَ جَزِيرَةِ قَادِسَ وَمِنْ  
 أَيْدِيهِمْ أَخَذَهَا عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِتَسْلِيمِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَانْتَهَى عَدَدُ أَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْمِائَةِ مِنْ  
 بِلَادِ الْعُدُوتَيْنِ جَمِيعاً . وَلَمَّا اسْتَفْحَلَتْ ذُوْلَةُ الْمُؤَحِّدِينَ فِي الْمِائَةِ السَّادِسَةِ وَمَلَكَوْا  
 الْعُدُوتَيْنِ أَقَامُوا خِطَّةَ هَذَا الْأَسْطُولِ عَلَى أَنْتُمْ مَا عُرِفَ وَأَعْظَمَ مَا عَهْدَ وَكَانَ قَائِدُ  
 أَسْطُولِهِمْ أَحْمَدَ الصَّقَلِيُّ أَصْلُهُ مِنْ صَدِّ غِيَارِ الْمُوْطِنِينَ بِجَزِيرَةِ جَرْبَةَ مِنْ سَرْوِيكِيَشَ  
 أَسْرَةَ النَّصَارَى مِنْ سَوَاحِلِهَا وَرَبِيَّ عِنْدَهُمْ وَاسْتَخْلَصَهُ صَاحِبُ صِقْلِيَّةَ وَاسْتَكْفَاهُ ثُمَّ  
 هَلَكَ . وَوَلِيَّ ابْنَهُ فَأَسْخَطَهُ بِيَغْضِ النَّزْعَاتِ وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ وَلِحَقِّ بَنُونِسَ وَنَزَلَ  
 عَلَى السَّيِّدِ بِهَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَأَجَارَ مَرَكَشَ فَتَلَقَّاهُ الْخَلِيفَةُ يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ  
 الْمُؤْمِنِ بِالْمَبْرَةِ وَالْكَرَامَةِ وَأَجْرَلَ الصَّلَةَ وَقَلَّدَهُ أَمْرَ أَسَاطِيلِهِ فَجَلَّى فِي جِهَادِ أَمَمِ  
 النَّصْرَانِيَّةِ وَكَانَتْ لَهُ آثَارٌ وَأَخْبَارٌ وَمَقَامَاتٌ مَذْكُورَةٌ فِي ذُوْلَةِ الْمُؤَحِّدِينَ . وَانْتَهَتْ  
 أَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِهِ فِي الْكَثْرَةِ وَالِاسْتِجَادَةِ إِلَى مَا لَمْ تَبْلُغْهُ مِنْ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ  
 فِيمَا عَهْدَنَاهُ وَلَمَّا قَامَ صَلَاحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ مَلِكِ مِصْرَ وَالشَّامِ لِعَهْدِهِ  
 بِاسْتِرْجَاعِ ثُغُورِ الشَّامِ مِنْ يَدِ أَمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ وَتَطْهِيرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ تَتَابَعَتْ  
 أَسَاطِيلُهُمْ بِالْمَدَدِ لِتِلْكَ الثُّغُورِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَّةٍ قَرِيبَةٍ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ الَّذِي كَانُوا قَدِ  
 اسْتَوْلُوا عَلَيْهِ فَأَمَدُوهُمْ بِالْعَدَدِ وَالْأَقْوَاتِ وَلَمْ تُقَاوِمَهُمْ أَسَاطِيلُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ لِاسْتِمْرَارِ  
 الْغَلْبِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْبَحْرِيَّةِ وَتَعَدُّدِ أَسَاطِيلِهِمْ فِيهِ وَضَعْفِ  
 الْمُسْلِمِينَ مِنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ عَنْ مُمَانَعَتِهِمْ هُنَاكَ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ قَبْلُ فَأَوْفَدَ صَلَاحُ  
 الدِّينِ عَلَى أَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ سُلْطَانَ الْمَغْرِبِ لِعَهْدِهِ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ رَسُولَهُ عَبْدَ  
 الْكَرِيمِ بْنَ مُنْقِدِ مِنْ بَيْتِ بَنِي مُنْقِدِ مُلُوكِ شَيْزَرَ . وَكَانَ مَلِكُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَأَبْقَى  
 عَلَيْهِمْ فِي دَوْلَتِهِ فَبَعَثَ عَبْدَ الْكَرِيمِ مِنْهُمْ هَذَا إِلَى مَلِكِ الْمَغْرِبِ طَالِباً مَدَدَ الْأَسَاطِيلِ  
 لِتَحْوُلِ فِي الْبَحْرِ بَيْنَ أَسَاطِيلِ الْأَجَانِبِ وَبَيْنَ مَرَامِهِمْ مِنْ أَمْدَادِ النَّصْرَانِيَّةِ بِثُغُورِ  
 الشَّامِ وَأَضْحَبَهُ كِتَابَهُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِنْ إِنْشَاءِ الْفَاضِلِ الْبَيْسَانِيِّ يَقُولُ فِي افْتِتَاحِهِ

« فَتَحَ اللهُ لِسَيِّدِنَا أَبْوَابَ الْمَنَاحِجِ وَالْمَيَامِينِ » حَسْبَمَا نَقَلَهُ الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ الْفَتْحِ الْقَيْسِيُّ فَنَقَمَ عَلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ تَجَافِيَهُمْ عَنْ خُطَابِهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَنَهِجِ الْبِرِّ وَالْكَرَامَةِ وَرَدَّهُمْ إِلَى مُرْسِلِهِمْ وَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى اخْتِصَاصِ مَلِكِ الْمَغْرِبِ بِالْأَسَاطِيلِ وَمَا حَصَلَ لِلنُّصْرَانِيَّةِ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مِنَ الْإِسْطِطَالَةِ وَعَدَمِ عِنَايَةِ الدُّوَلِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَمَا بَعْدَهُ لِشَأْنِ الْأَسَاطِيلِ الْبَحْرِيَّةِ وَالِاسْتِغْدَادِ مِنْهَا لِلدُّوَلَةِ وَلَمَّا هَلَكَ أَبُو يَفْقُوبَ الْمَنْصُورُ وَاعْتَلَّتْ دَوْلَةُ الْمُوحِدِينَ وَاسْتَوْلَتْ أُمَّمُ الْجَلَالِيَّةِ عَلَى الْأَكْثَرِ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْجَاوَا الْمُسْلِمِينَ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ وَمَلَكَوْا الْجَزَائِرَ الَّتِي بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ قَوِيَتْ رِيحُهُمْ فِي بَسِيطِ هَذَا الْبَحْرِ وَاسْتَدَّتْ شَوْكُهُمْ وَكَثُرَتْ فِيهِ أَسَاطِيلُهُمْ وَتَرَاجَعَتْ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ إِلَى الْمَسَاوَاةِ مَعَهُمْ كَمَا وَقَعَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ مَلِكِ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ فَإِنَّ أَسَاطِيلَهُ كَانَتْ عِنْدَ مَرَامِهِ الْجِهَادِ مِثْلَ عُدَّةِ النُّصْرَانِيَّةِ وَعَدِيدِهِمْ ثُمَّ تَرَاجَعَتْ عَنْ ذَلِكَ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَسَاطِيلِ لِضَعْفِ الدُّوَلَةِ وَنَسْيَانِ عَوَائِدِ الْبَحْرِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْبَدَوِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ وَانْقِطَاعِ الْعَوَائِدِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَرَجْعِ النُّصَارَى فِيهِ إِلَى دِينِهِمُ الْمَعْرُوفِ مِنَ الذُّرِّيَّةِ فِيهِ وَالْمِرَانَ عَلَيْهِ وَالبَصْرَ بِأَحْوَالِهِ وَعَلِبَ الْأَمَمُ فِي لُجَّتِهِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ كَالْأَجَانِبِ الْإِقْلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ لَهُمُ الْمِرَانُ عَلَيْهِ لَوْ وَجَدُوا كَثْرَةَ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ أَوْ قَلَّةً مِنَ الدُّوَلَةِ تَسْتَجِيشُ لَهُمْ أَعْوَانًا وَتَوْضُحُ لَهُمْ فِي هَذَا الْغَرَضِ مَسْلُكًا وَبَقِيَّتِ الرُّتْبَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الدُّوَلَةِ الْغَرْبِيَّةِ مَحْفُوظَةٌ وَالرُّسْمُ فِي مَعَانَاةِ الْأَسَاطِيلِ بِالْإِنْشَاءِ وَالرُّكُوبِ مَعْفُودًا لِمَا عَسَاهُ أَنْ تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنَ الْأَغْرَاضِ السُّلْطَانِيَّةِ فِي الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ وَالْمُسْلِمُونَ يَسْتَهْبِئُونَ الرِّيحَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ فَمِنْ الْمَشْتَهَرِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ عَنْ كُتُبِ الْحَدَثَانِ أَنَّهُ لَا يَدُّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكُرَّةِ عَلَى النُّصْرَانِيَّةِ وَافْتِتَاحِ مَا وَرَاءَ الْبَحْرِ مِنْ بِلَادِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الْأَسَاطِيلِ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

## الفصل الخامس والثلاثون

### في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

إِعْلَمُ أَنَّ السِّيفَ وَالْقَلَمَ كِلَاهُمَا آلَةٌ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّ الْحَاجَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ إِلَى السِّيفِ مَا دَامَ أَهْلُهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ أَشَدَّ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْقَلَمِ لِأَنَّ الْقَلَمَ فِي تِلْكَ الْحَالِ خَادِمٌ فَقَطُ: مُنْفَذٌ لِلْحُكْمِ السُّلْطَانِيِّ وَالسِّيفُ شَرِيكٌ فِي الْمَعُونَةِ وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ حَيْثُ تَضَعُفُ عَضِيَّتُهُمَا كَمَا ذَكَرْنَا وَيَقِلُّ أَهْلُهَا بِمَا يَنَالُهُمْ مِنَ الْهَرَمِ الَّذِي قَدَمْنَا فَتَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى الْإِسْطِظْهَارِ بِأَرْبَابِ السُّيُوفِ وَيَقْوَى الْحَاجَةُ إِلَيْهِمْ فِي حِمَايَةِ الدَّوْلَةِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهَا كَمَا كَانَ الشَّانُ أَوَّلَ الْأَمْرِ فِي تَمْهِيدِهَا فَيَكُونُ لِلسِّيفِ مَزِيَّةٌ عَلَى الْقَلَمِ فِي الْحَالَتَيْنِ وَيَكُونُ أَرْبَابُ السِّيفِ حِينَئِذٍ أَوْسَعَ جَاهًا وَأَكْثَرَ نِعْمَةً وَأَسْنَى إِقْطَاعًا وَأَمَّا فِي وَسْطِ الدَّوْلَةِ فَيَسْتَعِينِي صَاحِبُهَا بَعْضُ الشَّيْءِ عَنِ السِّيفِ لِأَنَّهُ قَدْ تَمَهَّدَ أَمْرُهُ وَلَمْ يَبْقَ هَمُّهُ إِلَّا فِي تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنَ الْجَبَايَةِ وَالضُّبُطِ وَمَبَاهَاةِ الدُّوْلِ وَتَنْفِيذِ الْأَحْكَامِ وَالْقَلَمُ هُوَ الْمُعِينُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَتَعْتَظُمُ الْحَاجَةُ إِلَى تَضْرِيْفِهِ وَتَكُونُ السُّيُوفُ مُهْمَلَةً فِي مَضَاجِعِ أَعْمَادِهَا إِلَّا إِذَا أَنَابَتْ نَائِبَةٌ أَوْ دُعِيَتْ إِلَى سَدِّ فُرْجَةٍ <sup>(١)</sup> وَمِمَّا سِوَى ذَلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهَا فَتَكُونُ أَرْبَابُ الْأَقْلَامِ فِي هَذِهِ الْحَاجَةِ أَوْسَعَ جَاهًا وَأَعْلَى رُتْبَةً وَأَعْظَمَ نِعْمَةً وَثَرْوَةً وَأَقْرَبَ مِنَ السُّلْطَانِ مَجْلِسًا وَأَكْثَرَ إِلَيْهِ تَرُدُّدًا وَفِي خَلَوَاتِهِ نَجِيًّا لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ آتَى الْبَيْتِ بِهَا يَسْتِظْهَرُ عَلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ مُلْكِهِ وَالنَّظَرِ إِلَى أَعْطَافِهِ وَتَثْقِيفِ أَطْرَافِهِ وَالْمَبَاهَاةِ بِأَحْوَالِهِ وَيَكُونُ الْوُزَرَاءُ حِينَئِذٍ وَأَهْلُ السُّيُوفِ مُسْتَعْنَى عَنْهُمْ مُبْعَدِينَ عَنِ بَاطِنِ السُّلْطَانِ حَذِيرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَوَادِرِهِ . وَفِي مَعْنَى ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو مُسْلِمٍ لِلْمَنْصُورِ حِينَ أَمَرَهُ بِالْقُدُومِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ مِمَّا حَفِظْنَا مِنْ وَصَايَا الْفَرَسِ أَخَوْفُ مَا يَكُونُ الْوُزَرَاءُ إِذَا سَكَنَتِ الدُّهُمَا سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) الفُرْجَةُ ، ج فُرْج ، كل منفرج بين شيئين وهنا بمعنى خلل .

## الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إِغْلَمَ أَنْ لِلسُّلْطَانِ شَارَاتٍ وَأَحْوَالًا تَقْتَضِيهَا الْأَبْهَةُ وَالْبَذْخُ فَيَخْتَصُّ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ بِانْتِحَالِهَا عَنِ الرَّعِيَّةِ وَالْبَطَانَةِ وَسَائِرِ الرُّؤَسَاءِ فِي دَوْلَتِهِ فَلَنذَكُرُ مَا هُوَ مُشْتَهَرٌ مِنْهَا بِمَبْلَغِ الْمَعْرِفَةِ « وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ » .

الآلة : فَمِنْ شَارَاتِ الْمَلِكِ اتِّخَاذُ الْآلَةِ مِنْ نَشْرِ الْأَلْوِيَةِ وَالرَّايَاتِ وَقَرَعِ الطُّبُولِ وَالنَّفْخِ فِي الْأَبْوَاقِ وَالْقُرُونِ وَقَدْ ذَكَرَ أَرْسَطُو فِي الْكِتَابِ الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ فِي السِّيَاسَةِ أَنَّ السَّرَّ فِي ذَلِكَ إِزْهَابُ الْعُدُوِّ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّ الْأَصْوَاتَ الْهَائِلَةَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي النُّفُوسِ بِالرُّوْعَةِ وَالْعَمْرِيِّ إِنَّهُ أَمْرٌ وَجَدَانِيٌّ فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ يَجِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَهَذَا السَّبَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَرْسَطُو إِنْ كَانَ ذَكَرَهُ فَهُوَ صَحِيحٌ يَبْغُضُ الْإِعْتِبَارَاتِ . وَأَمَّا الْحَقُّ فِي ذَلِكَ فَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ عِنْدَ سَمَاعِ النَّعْمِ وَالْأَصْوَاتِ يَذُرُّهَا الْفَرْحُ وَالطَّرَبُ بِلَا شَكٍّ فَيُصِيبُ مِرَاجَ الرُّوحِ نَشْوَةً يَسْتَسْهَلُ بِهَا الصُّعْبُ وَيَسْتَمِيْتُ فِي ذَلِكَ الْوَجْهَ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَهَذَا مَوْجُودٌ حَتَّى فِي الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ بِانْفِعَالِ الْإِبْلِ بِالْحِدَاءِ وَالْخَيْلِ بِالصَّفِيرِ وَالصَّرِيحِ كَمَا عَلِمْتَ وَيَزِيدُ ذَلِكَ تَأْثِيرًا إِذَا كَانَتِ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً كَمَا فِي الْغِنَاءِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا يَخْدُثُ لِسَامِعِهِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى لِأَجْلِ ذَلِكَ تَتَّخِذُ الْعَجَمُ فِي مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمُ الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةَ<sup>(١)</sup> لَا طَبْلًا وَلَا بُوْقًا فَيَخْدِقُ الْمَعْنُونَ بِالسُّلْطَانِ فِي مَوْكِبِهِ بِالْأَتِيهِمْ وَيُغْنُونَ فَيَحْرُكُونَ نَفُوسَ الشُّجْعَانِ بِضَرْبِهِمْ إِلَى الْإِسْتِمَاتَةِ وَلَقَدْ رَأَيْنَا فِي حُرُوبِ الْعَرَبِ مَنْ يَتَغَنَّى أَمَامَ الْمَوْكِبِ بِالشُّعْرِ وَيَطْرَبُ فَتَجِيشُ هَمَمُ الْأَبْطَالِ بِمَا فِيهَا وَيَسَارِعُونَ إِلَى مَجَالِ الْحَرْبِ وَيَنْبَعِثُ كُلُّ قَرْنٍ إِلَى قَرْنِهِ وَكَذَلِكَ زِنَاتُهُ مِنْ أُمَّمِ الْمَغْرِبِ يَتَقَدَّمُ الشَّاعِرُ عِنْدَهُمْ أَمَامَ الصُّفُوفِ وَيَتَغَنَّى فَيَحْرُكُ بِغِنَائِهِ الْجِبَالَ الرَّوَاسِي وَيَنْبَعِثُ عَلَى

(١) قَوْلُهُ مَوْسِيقِيَّةٌ فِي نَسْخَةِ الْمَوْسِيقَارِيَّةِ وَهِيَ صَحِيحَةٌ لِأَنَّ الْمَوْسِيقَى بِكسْرِ الْقَافِ بَيْنَ التَّحْتِيَّتَيْنِ اسْمٌ لِلنَّعْمِ وَالْأَلْحَانِ وَتَوْقِيْعِهَا وَيُقَالُ فِيهَا مَوْسِيقِيٌّ وَيُقَالُ لِمَنْ يَلْطَبُّ بِهَا مَوْسِيقَارٌ وَبِهَا مَوْسِيقَارٌ انْظُرْ أَوَّلَ سَفِينَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ شَهَابٍ .

الِاسْتِمَاتَةِ مَنْ لَا يَظُنُّ بِهَا وَيَسْمُونَ ذَلِكَ الْغِنَاءَ تَأْصُو كَايْتٍ وَأَصْلُهُ كُلُّهُ فَرَحٌ  
يَحْدُثُ فِي النَّفْسِ فَتَنْبَعُ عَنْهُ الشُّجَاعَةُ كَمَا تَنْبَعُ عَنْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ بِمَا حَدَّثَ  
عَنْهَا مِنَ الْفَرَحِ وَاللَّهِ أَعْلَمُ وَأَمَّا تَكْثِيرُ الرَّايَاتِ وَتَلْوِينُهَا وَإِطَالَتُهَا فَالْقَصْدُ بِهِ  
التَّهْوِيلُ لَا أَكْثَرَ وَرُبَّمَا تَحْدُثُ فِي النَّفْسِ مِنَ التَّهْوِيلِ زِيَادَةٌ فِي الْأَقْدَامِ وَأَحْوَالِ  
النَّفُوسِ وَتَلْوِينَاتِهَا غَرِيبَةٌ وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . ثُمَّ إِنَّ الْمُلُوكَ وَالِدُولَ يَخْتَلِفُونَ فِي  
اتِّخَاذِ هَذِهِ الشَّرَاةِ فَمِنْهُمْ مَكْثَرٌ وَمِنْهُمْ مَقَلٌّ بِحَسَبِ اتِّسَاعِ الدَّوْلَةِ وَعَظَمِهَا فَأَمَّا  
الرَّايَاتُ فَإِنَّهَا شِعَارُ الْحُرُوبِ مِنْ عَهْدِ الْخَلِيفَةِ وَلَمْ تَزَلِ الْأُمَّةُ تَعْقِدُهَا فِي مَوَاطِنِ  
الْحُرُوبِ وَالغَزَوَاتِ لِعَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ . وَأَمَّا قَرْعُ الطُّبُولِ  
وَالنَّفْخِ فِي الْأَبْوَاقِ فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوَّلِ الْمِلَّةِ مُتَجَافِينَ عَنْهُ تَنْزَهُاً عَنْ غِلْظَةِ الْمَلِكِ  
وَرَفْضاً لِأَحْوَالِهِ وَاحْتِقَاراً لِأَبْهَتِهِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنَ الْحَقِّ فِي شَيْءٍ حَتَّى إِذَا انْقَلَبَتْ  
الْخِلَافَةُ مَلَكاً وَتَبَجَّحُوا بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا وَلَا يَسْمَهُمُ الْمَوَالِي مِنَ الْفُرسِ وَالرُّومِ  
أَهْلِ الدَّوْلِ السَّالِفَةِ وَأَرْوَهُمْ مَا كَانَ أَوْلَيْكَ يَنْتَحِلُونَهُ مِنْ مَذَاهِبِ الْبَذْخِ وَالتَّرَفِ  
فَكَانَ مِمَّا اسْتَحْسَنُوهُ اتِّخَاذَ الْآلَةِ فَأَخَذُوهَا وَأَذْنُوا لِعَمَالِهِمْ فِي اتِّخَاذِهَا تَنْوِيهاً بِالْمَلِكِ  
وَأَهْلِهِ فَكَثِيراً مَا كَانَ الْعَامِلُ صَاحِبَ الثَّغْرِ أَوْ قَائِدَ الْجَيْشِ يَعْقِدُ لَهُ الْخَلِيفَةُ مِنَ  
الْعَبَّاسِيِّينَ أَوْ الْعُبَيْدِيِّينَ لَوَاءَهُ وَيَخْرُجُ إِلَى بَعْثِهِ أَوْ عَمَلِهِ مِنْ دَارِ الْخَلِيفَةِ أَوْ دَارِهِ فِي  
مَوْكِبٍ مِنْ أَصْحَابِ الرَّايَاتِ وَالآلَاتِ فَلَا يُمَيِّزُ بَيْنَ مَوْكِبِ الْعَامِلِ وَالْخَلِيفَةِ إِلَّا  
بِكَثْرَةِ الْأَلْوِيَةِ وَقَلَّتِهَا أَوْ بِمَا اخْتَصَّ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْأَلْوَانِ لِرَايَتِهِ كَالسَّوَادِ فِي  
رَايَاتِ بَنِي الْعَبَّاسِ فَإِنَّ رَايَاتِهِمْ كَانَتْ سُوداً حُزْناً عَلَى شَهْدَائِهِمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ  
وَنَعِيّاً عَلَى بَنِي أُمَيَّةٍ فِي قَتْلِهِمْ وَلِذَلِكَ سُمُّوا الْمَسْوَدَةَ . وَلَمَّا افْتَرَقَ أَمْرُ الْهَاشِمِيِّينَ  
وَخَرَجَ الطَّالِبِيُّونَ عَلَى الْعَبَّاسِيِّينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَعَظُرَ دَهَبُوا إِلَى مُخَالَفَتِهِمْ فِي ذَلِكَ  
فَاتَّخَذُوا الرَّايَاتِ بِيضاً وَسُمُّوا الْمُبَيَّضَةَ لِذَلِكَ سَائِرَ أَيَّامِ الْعُبَيْدِيِّينَ وَمَنْ خَرَجَ مِنَ  
الطَّالِبِيِّينَ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ بِالمَشْرِقِ كَالدَّاعِي بِطَبْرِسْتَانَ وَدَاعِي صَعْدَةَ أَوْ مَنْ دَعَا  
إِلَى بَدْعَةِ الرَّافِضَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ كَالْقَرَامِطَةِ . وَلَمَّا نَزَعَ الْمَأْمُونُ عَنْ لُبْسِ السَّوَادِ



وَشِعَارِهِ فِي دَوْلَتِهِ عَدَلَ إِلَى لَوْنِ الْخَضْرَاءِ فَجَعَلَ رَايَتَهُ خَضْرَاءَ . وَأَمَّا الْإِسْتِكْثَارُ مِنْهَا  
 فَلَا يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ وَقَدْ كَانَتْ آلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ لَمَّا خَرَجَ الْعَزِيزُ إِلَى فَتْحِ الشَّامِ  
 خَمْسِمِائَةَ مِنَ الْبُنُودِ وَخَمْسِمِائَةَ مِنَ الْأَبْوَاقِ . وَأَمَّا مُلُوكُ الْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ مِنْ  
 صَنْهَاجَةَ وَغَيْرِهَا فَلَمْ يُخْتَصُوا بِلَوْنٍ وَاحِدٍ بَلْ وَشَوْهَا بِالذَّهَبِ وَاتَّخَذُوهَا مِنْ  
 الْحَرِيرِ الْخَالِصِ مُلَوَّنَةً وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الْإِذْنِ فِيهَا لِعُمَالِهِمْ حَتَّى إِذَا جَاءَتْ دَوْلَةُ  
 الْمُوَحِّدِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ زَنَاتَةَ قَصَرُوا الْآلَةَ مِنَ الطُّبُولِ وَالْبُنُودِ عَلَى السُّلْطَانِ  
 وَحَظَرُوهَا عَلَى مَنْ سِوَاهُ مِنْ عُمَالِهِ وَجَعَلُوا لَهَا مَوْكِبًا خَاصًّا يَتَّبِعُ أَثَرَ السُّلْطَانِ فِي  
 مَسِيرِهِ يُسَمَّى السَّاقَةَ وَهُمْ فِيهِ بَيْنَ مُكْثَرٍ وَمَقْلٍ بِاخْتِلَافِ مَذَاهِبِ الدُّوَلِ فِي ذَلِكَ  
 فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنَ الْعَدَدِ تَبْرُكًا بِالسَّبْعَةِ كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ  
 وَبَنِي الْأَحْمَرِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَشْرَةَ وَالْعِشْرِينَ كَمَا هُوَ عِنْدَ زَنَاتَةَ وَقَدْ  
 بَلَغَتْ فِي أَيَّامِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ فِيمَا أُذْرِكْنَاهُ مِائَةَ مِنَ الطُّبُولِ وَمِائَةَ مِنَ الْبُنُودِ  
 مُلَوَّنَةً بِالْحَرِيرِ مَنْسُوجَةً بِالذَّهَبِ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَيَأْذَنُونَ لِلْوَلَاةِ وَالْعُمَالِ  
 وَالْقَوَادِ فِي اتِّخَاذِ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الْكُتَّانِ بَيْضَاءَ وَطَبْلٍ صَغِيرٍ أَيَّامَ الْحَرْبِ  
 لَا يَتَجَاوَزُونَ ذَلِكَ وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ فَيَتَّخِذُونَ رَايَةَ وَاحِدَةً  
 عَظِيمَةً وَفِي رَاسِهَا خِصْلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الشَّعْرِ يُسَمُّونَهَا الشَّالِشَ وَالْجِثْرَ وَهِيَ شِعَارُ  
 السُّلْطَانِ عِنْدَهُمْ ثُمَّ تَتَعَدَّدُ الرَّاياتُ وَيُسَمُّونَهَا السَّنَاجِقَ وَاحِدُهَا سَنَجَقٌ وَهِيَ الرَّايةُ  
 بِلِسَانِهِمْ . وَأَمَّا الطُّبُولُ فَيُبَالِغُونَ فِي الْإِسْتِكْثَارِ مِنْهَا وَيُسَمُّونَهَا الْكُوسَاتِ وَيُبِيحُونَ  
 لِكُلِّ أَمِيرٍ أَوْ قَائِدٍ عَسْكَرٍ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ إِلَّا الْجِثْرَ فَإِنَّهُ خَاصٌّ  
 بِالسُّلْطَانِ . وَأَمَّا الْجَلَالِقَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أُمَّمِ الْإِفْرَنْجَةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَأَكْثَرُ شَأْنِهِمْ  
 اتِّخَاذُ الْأَلْوِيَةِ الْقَلِيلَةِ ذَاهِبَةً فِي الْجَوْصُعدَا وَمَعَهَا قَرْعُ الْأُوتَارِ مِنَ الطَّنَابِيرِ وَنَفْخُ  
 الْغَيْطَاتِ يَذْهَبُونَ فِيهَا مَذْهَبَ الْغِبَاءِ وَطَرِيقَهُ فِي مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمْ هَكَذَا يَبْلُغُنَا  
 عَنْهُمْ وَعَمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ  
 السَّنِيَّتِكُمْ وَالْوَانِكُمْ « إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ » .

(السرير) : وأما السرير والمنبر والتخت والكرسي فهي أَعْوَادٌ مَنْصُوبَةٌ أَوْ أَرَاكُ مَنْصُودَةٌ لَجُلُوسِ السُّلْطَانِ عَلَيْهَا مُرْتَفِعًا عَنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ أَنْ يُسَاوِيَهُمْ فِي الصَّعِيدِ وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ مِنْ سُنَنِ الْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَفِي دَوْلِ الْعَجَمِ وَقَدْ كَانُوا يَجْلِسُونَ عَلَى أَسِرَّةِ الذَّهَبِ وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ كُرْسِيٌّ وَسَرِيرٌ مِنْ عَاجٍ مَغْشَى بِالذَّهَبِ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَأْخُذُ بِهِ الدَّوْلُ إِلَّا بَعْدَ الْإِسْتِحْجَالِ وَالتَّرْفِ شَأْنِ الْأُبْهَةِ كُلِّهَا كَمَا قُلْنَا وَأَمَّا فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الْبِدَاوَةِ فَلَا يَتَشَوَّقُونَ إِلَيْهِ . وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهُ فِي الْإِسْلَامِ مُعَاوِيَةُ وَاسْتَأْذَنَ النَّاسَ فِيهِ وَقَالَ لَهُمْ إِنِّي قَدْ بَدَنْتُ <sup>(١)</sup> فَأَذِنُوا لَهُ فَاتَّخَذَهُ وَاتَّبَعَهُ الْمُلُوكُ الْإِسْلَامِيُّونَ فِيهِ وَصَارَ مِنْ مَنَارِعِ الْأُبْهَةِ وَلَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِي يَمْصُرُ يَجْلِسُ فِي قَصْرِهِ عَلَى الْأَرْضِ مَعَ الْعَرَبِ وَيَأْتِيهِ الْمُتَقَوِّسُ إِلَى قَصْرِهِ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ مَحْمُولًا عَلَى الْأَيْدِي لِجُلُوسِهِ شَأْنِ الْمُلُوكِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُوَ أَمَامَهُ وَلَا يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِ <sup>(٢)</sup> وَفَاءَ لَهُ بِمَا عَقَدَ مَعَهُمْ مِنَ الذَّمَّةِ وَاطْرَاحًا لِأُبْهَةِ الْمُلْكِ . ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ لِبَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعَبِيدِيِّينَ وَسَائِرِ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ شَرْقًا وَغَرْبًا مِنَ الْأَسِرَّةِ وَالْمَنَابِرِ وَالتُّخُوتِ مَا عَفَا عَنِ الْأَكَاسِرَةِ وَالْقِيَاصِرَةِ وَاللَّهِ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .

(السكة) : وَهِيَ الْخَتْمُ عَلَى الدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ الْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ بِطَائِعِ حَدِيدٍ يُنْقَشُ فِيهِ صُورٌ أَوْ كَلِمَاتٌ مَقْلُوبَةٌ وَيُضْرَبُ بِهَا عَلَى الدَّنَانِيرِ أَوْ الدَّرَاهِمِ فَتَخْرُجُ رُسُومٌ تَلِكِ النُّقُوشِ عَلَيْهَا ظَاهِرَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ بَعْدَ أَنْ يُعْتَبَرَ عِيَارُ النُّقْدِ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ فِي خُلُوصِهِ بِالسَّنْبِكِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَبَعْدَ تَقْدِيرِ أَشْخَاصِ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ بِوَزْنٍ مُعَيَّنٍ صَحِيحٍ يُصْطَلَحُ عَلَيْهِ فَيَكُونُ التَّعَامُلُ بِهَا عَدْدًا وَإِنْ لَمْ تُقَدَّرْ أَشْخَاصًا يَكُونُ التَّعَامُلُ بِهَا وَزْنًا وَلَفْظُ السَّكَّةِ كَانَ اسْمًا لِلطَّائِعِ وَهِيَ الْحَدِيدَةُ الْمُتَّخَذَةُ لِذَلِكَ ثُمَّ نَقِلَ إِلَى أَثَرِهَا وَهِيَ النُّقُوشُ الْمَائِلَةُ عَلَى الدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ ثُمَّ نَقِلَ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى ذَلِكَ وَالتَّنْظَرِ فِي اسْتِيفَاءِ حَاجَاتِهِ وَشُرُوطِهِ وَهِيَ الْوُظَيْفَةُ فَصَارَ عِلْمًا

(١) أي سمت والبدن : عظم بدنه بكثرة لحمه . أصبح جسيما ( قاموس )

(٢) أي يهجمون على المقوس .

عَلَيْهَا فِي عَزْفِ الدَّوْلِ وَهِيَ وَظِيْفَةٌ ضَرْوِيَّةٌ لِلْمَلِكِ إِذْ بِهَا يَتَمَيَّزُ الْخَالِصُ مِنَ  
 الْمَغْشُوشِ بَيْنَ النَّاسِ فِي النُّقُودِ عِنْدَ الْمَعَامَلَاتِ وَيَتَّقُونَ فِي سَلَامَتِهَا الْعِشَّ بِخَتَمِ  
 السُّلْطَانِ عَلَيْهَا يَتَلَكَّ النُّقُوشُ الْمَعْرُوفَةُ وَكَانَ مُلُوكُ الْعَجَمِ يَتَّخِذُونَهَا وَيَنْقُشُونَ  
 فِيهَا تَمَائِيلَ تَكُونُ مَخْصُوصَةً بِهَا مِثْلُ تَمَثَالِ السُّلْطَانِ لِعَهْدِهَا أَوْ تَمَثِيلِ حُضْنٍ أَوْ  
 حَيَوَانٍ أَوْ مَضْنُوعٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الشَّأْنُ عِنْدَ الْعَجَمِ إِلَى آخِرِ أَمْرِهِمْ . وَلَمَّا  
 جَاءَ الْإِسْلَامُ أَغْفَلَ ذَلِكَ لِسَدَاجَةِ الدِّينِ وَبِدَاوَةِ الْعَرَبِ وَكَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِالذَّهَبِ  
 وَالْفِضَّةِ وَزَنَّا وَكَانَتْ دَنَانِيرُ الْفُرْسِ وَدَرَاهِمُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَرُدُّونَهَا فِي مَعَامَلَتِهِمْ إِلَى  
 الْوَزْنِ وَيَتَصَارِفُونَ بِهَا بَيْنَهُمْ إِلَى أَنْ تَفَاحَشَ الْعِشُّ فِي الدَّنَانِيرِ وَالذَّرَاهِمِ لِعَفْلَةِ  
 الدَّوْلَةِ عَنْ ذَلِكَ وَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْحَجَّاجُ عَلَى مَا نَقَلَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ وَأَبُو الزِّنَادِ  
 بِضَرْبِ الذَّرَاهِمِ وَتَمْيِيزِ الْمَغْشُوشِ مِنَ الْخَالِصِ وَذَلِكَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَقَالَ  
 الْمَدَائِنِيُّ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ ثُمَّ أَمَرَ بِضَرْفِهَا فِي سَائِرِ النُّوَاحِي سَنَةَ سِتِّ وَسَبْعِينَ  
 وَكُتِبَ عَلَيْهَا « اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ » ثُمَّ وَلِيَ ابْنُ هُبَيْرَةَ الْعِرَاقَ أَيَّامَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ  
 الْمَلِكِ فَجَوَّدَ السُّكَّةَ <sup>(١)</sup> ثُمَّ بَالَعَ خَالِدُ الْقُسْرِيُّ فِي تَجْوِيدِهَا ثُمَّ يُوسُفُ بْنُ عُمَرَ بَعْدَهُ  
 وَقِيلَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّنَانِيرَ وَالذَّرَاهِمَ مُضْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ بِالْعِرَاقِ سَنَةَ سَبْعِينَ  
 بِأَمْرِ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ لَمَّا وَلِيَ الْحِجَازَ وَكُتِبَ عَلَيْهَا فِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ « بَرَكَتَةُ اللَّهِ »  
 وَفِي الْآخَرِ « اسْمُ اللَّهِ » ثُمَّ غَيَّرَهَا الْحَجَّاجُ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَةِ وَكُتِبَ عَلَيْهَا اسْمُ الْحَجَّاجِ  
 وَقَدَّرَ وَزْنَهَا عَلَى مَا كَانَتْ اسْتَقَرَّتْ أَيَّامَ عُمَرَ وَذَلِكَ أَنَّ الذَّرْهَمَ كَانَ وَزْنُهُ أَوَّلَ  
 الْإِسْلَامِ سِتَّةَ دَوَانِقَ وَالْمِثْقَالُ وَزْنُهُ دِرْهَمٌ وَثَلَاثَةُ أَسْبَاعٍ دِرْهَمٌ فَتَكُونُ عَشْرَةُ دَرَاهِمَ  
 بِسَبْعَةِ مِثْقَالٍ وَكَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَوْزَانَ الدَّرْهَمِ أَيَّامَ الْفُرْسِ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً  
 وَكَانَ مِنْهَا عَلَى وَزْنِ الْمِثْقَالِ عِشْرُونَ قِيرَاطًا وَمِنْهَا اثْنَا عَشَرَ وَمِنْهَا عَشْرَةٌ فَلَمَّا  
 احْتِيَجَ إِلَى تَقْدِيرِهِ فِي الزَّكَاةِ أَخَذَ الْوَسْطَ وَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ قِيرَاطًا فَكَانَ الْمِثْقَالُ  
 دِرْهَمًا وَثَلَاثَةَ أَسْبَاعٍ دِرْهَمٌ وَقِيلَ كَانَ مِنْهَا الْبَغْلِيُّ بِثَمَانِيَةِ دَوَانِقَ وَالطَّبْرِيُّ أَرْبَعَةَ  
 دَوَانِقَ وَالْمَغْرِبِيُّ ثَمَانِيَةَ دَوَانِقَ وَالْيَمِينِيُّ سِتَّةَ دَوَانِقَ فَأَمَرَ عُمَرَ أَنْ يُنْظَرَ الْأَغْلَبُ فِي

(١) وكانت الدنانير تسمى بالهبيرية نسبة إلى ابن هبيرة . واشتهرت بجودتها .

التَّعَامِلُ فَكَانَ الْبُغْلِيُّ وَالطَّبْرِيُّ اثْنَيْ عَشَرَ دَانِقًا وَكَانَ الدَّرْهَمُ سِتَّةَ دَوَانِقَ وَإِنْ زِدْتَ ثَلَاثَةَ أَسْبَاعِهِ كَانَ مِثْقَالًا وَإِذَا انْتَقَصَتْ ثَلَاثَةُ أَعْشَارِ الْمِثْقَالِ كَانَ دِرْهَمًا فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ الْمَلِكِ اتِّخَاذَ السِّكَّةِ لِصَيَانَةِ النَّقْدَيْنِ الْجَارِيَيْنِ فِي مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْغِشِّ عَيْنَ مِقْدَارِهَا عَلَى هَذَا الَّذِي اسْتَقَرَّ لِعَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَاتَّخَذَ فِيهِ كَلِمَاتٍ لَا صُورًا ، لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَ الْكَلَامَ وَالْبَلَاغَةَ أَقْرَبَ مَنَاجِحِهِمْ وَأَظْهَرَهَا مَعَ أَنَّ الشَّرْعَ يَنْهَى عَنِ الصُّورِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ اشْتَمَرَ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَيَّامِ الْمِلَّةِ كُلِّهَا وَكَانَ الدِّينَارُ وَالدَّرْهَمُ عَلَى شَكْلَيْنِ مُدَوَّرَيْنِ وَالْكِتَابَةُ عَلَيْهِمَا فِي دَوَائِرٍ مُتَوَازِيَةٍ يُكْتَبُ فِيهَا مِنْ أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَهْلِيلًا وَتَحْمِيدًا وَصَلَاةٌ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ . وَفِي الْوَجْهِ الثَّانِي التَّارِيخُ وَاسْمُ الْخَلِيفَةِ وَهَكَذَا أَيَّامُ الْعَبَّاسِيِّينَ وَالْعُبَيْدِيِّينَ وَالْأُمَوِيِّينَ وَأَمَّا صَنْهَاجَةُ فَلَمْ يَتَّخِذُوا سِكَّةً إِلَّا آخِرَ الْأَمْرِ اتَّخَذَهَا مَنْصُورٌ صَاحِبُ بَجَايَةَ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ حَمَادٍ فِي تَارِيخِهِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمَوْحِدِينَ كَانَ مِمَّا سَنَّ لَهُمُ الْمَهْدِيُّ اتِّخَاذَ سِكَّةِ الدَّرْهَمِ مَرْتَبَعِ الشَّكْلِ وَأَنْ يُرْسَمَ فِي دَائِرَةِ الدِّينَارِ شَكْلُ مَرْتَبَعٍ فِي وَسْطِهِ وَيُمْلَأُ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ تَهْلِيلًا وَتَحْمِيدًا وَمِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ كُتِبَ فِي السُّطُورِ بِاسْمِهِ وَاسْمِ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ ذَلِكَ الْمَوْحِدُونَ وَكَانَتْ سِكَّتُهُمْ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَقَدْ كَانَ الْمَهْدِيُّ فِيمَا يُنْقَلُ يُنْعَتُ قَبْلَ ظُهُورِهِ بِصَاحِبِ الدَّرْهَمِ الْمَرْتَبَعِ نَعْتَهُ بِذَلِكَ الْمُتَكَلِّمُونَ بِالْحَدَثَانِ مِنْ قَبْلِهِ الْمُخْبِرُونَ فِي مَلَاحِمِهِمْ عَنْ دَوْلَتِهِ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَشْرِقِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَسِكَّتُهُمْ غَيْرُ مُقَدَّرَةٍ وَإِنَّمَا يَتَّعَامَلُونَ بِالْأَدَانِيرِ وَالْأَدْرَاهِمِ وَزِنًا بِالصَّنَجَاتِ الْمُقَدَّرَةِ بَعْدَهُ مِنْهَا وَلَا يَطْبَعُونَ عَلَيْهَا بِالسِّكَّةِ نَقُوشَ الْكَلِمَاتِ بِالتَّهْلِيلِ وَالصَّلَاةِ وَاسْمِ السُّلْطَانِ كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ « ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

وَلِنَحْنُمُ الْكَلَامَ فِي السِّكَّةِ بِذِكْرِ حَقِيقَةِ الدَّرْهَمِ وَالْأَدَانِيرِ الشَّرْعِيَيْنِ وَبَيَانِ حَقِيقَةِ مِقْدَارِهِمَا .

### مقدار الدرهم والدينار الشرعيين

وَذَلِكَ أَنَّ الدِّينَارَ وَالدَّرْهَمَ مُخْتَلِفَا السِّكَّةِ فِي الْمِقْدَارِ وَالْمَوَازِينِ بِالْأَفَاقِ

وَالْأَمْصَارَ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالشَّرْعُ قَدْ تَعَرَّضَ لِذِكْرِهِمَا وَعَلَّقَ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْكَامِ بِهِمَا فِي الزُّكَاةِ وَالْأَنْكِحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا فَلَا بُدَّ لِهُمَا عِنْدَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ وَمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ فِي تَقْدِيرِ تَجْرِي عَلَيْهِمَا أَحْكَامُهُ دُونَ غَيْرِ الشَّرْعِيِّ مِنْهُمَا فَاعْلَمْ أَنَّ الْإِجْمَاعَ مُنْعَقِدٌ مُنْذُ صَدَرَ الْإِسْلَامَ وَعَهْدِ الصُّحَابِيَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّ الْبِذْرَهَ الشَّرْعِيَّ هُوَ الَّذِي تَزَنُ الْعَشْرَةَ مِنْهُ سَبْعَةُ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَوْقِيَّةُ مِنْهُ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا وَهُوَ عَلَى هَذَا سَبْعَةُ أَغْشَارِ الدِّينَارِ وَوَزَنُ الْمِثْقَالِ مِنَ الذَّهَبِ اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ فَالْبِذْرَهَ الَّذِي هُوَ سَبْعَةُ أَغْشَارِهِ خُمْسُونَ حَبَّةً وَخُمْسًا حَبَّةً وَهَذِهِ الْمَقَادِيرُ كُلُّهَا ثَابِتَةٌ بِالْإِجْمَاعِ فَإِنَّ الْبِذْرَهَ الْجَاهِلِيَّ كَانَ بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْوَاعِ أَجْوَدَهَا الطَّبْرِيُّ وَهُوَ أَرْبَعَةُ دَوَانِقَ وَالْبَغْلِيُّ وَهُوَ ثَمَانِيَّةُ دَوَانِقَ فَجَعَلُوا الشَّرْعِيَّ بَيْنَهُمَا وَهُوسِتَةُ دَوَانِقَ فَكَانُوا يُوجِبُونَ الزُّكَاةَ فِي مِائَةِ دِرْهَمٍ بَغْلِيَّةً وَمِائَةِ طَبْرِيَّةٍ خُمْسَةَ دِرَاهِمٍ وَسَطًا وَقَدْ ائْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ وَضْعِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ إِجْمَاعِ النَّاسِ بَعْدَ عَلَيْهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ. ذَكَرَ ذَلِكَ الْخِطَابُ فِي كِتَابِ مَعَالِمِ السُّنَنِ وَالْمَاوَرِدِيِّ فِي الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَنْكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِمَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الدِّينَارُ وَالْبِذْرَهَ الشَّرْعِيَّانِ مَجْهُولَيْنِ فِي عَهْدِ الصُّحَابِيَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مَعَ تَعَلُّقِ الْحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ بِهِمَا فِي الزُّكَاةِ وَالْأَنْكِحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَالْحَقُّ أَنَّهُمَا كَانَا مَعْلُومِي الْمِقْدَارِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ لِجَرَيَانِ الْأَحْكَامِ يَوْمئِذٍ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا مِنَ الْحُقُوقِ وَكَانَ مِقْدَارُهُمَا غَيْرَ مُسْتَخْصٍ فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا كَانَ مُتَعَارَفًا بَيْنَهُمْ بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ عَلَى الْمِقْدَارِ فِي مِقْدَارِهِمَا وَزَنْتَهُمَا حَتَّى اسْتَفْحَلَ الْإِسْلَامَ وَعَظُمَتِ الدَّوْلَةُ وَدَعَتِ الْحَالُ إِلَى تَشْخِصِهِمَا فِي الْمِقْدَارِ وَالْوَزْنِ كَمَا هُوَ عِنْدَ الشَّرْعِ لِيَسْتَرِيحُوا مِنْ كِلْفَةِ التَّقْدِيرِ وَقَارَنَ ذَلِكَ أَيَّامَ عَبْدِ الْمَلِكِ <sup>(١)</sup> فَشَخَّصَ مِقْدَارَهُمَا وَعَيْنَهُمَا فِي الْخَارِجِ كَمَا هُوَ فِي الذَّهْنِ وَنَقَشَ عَلَيْهِمَا السِّكَّةَ بِاسْمِهِ وَتَأْرِيخِهِ أَمْرَ الشَّهَادَتَيْنِ الْإِيمَانِيَّتَيْنِ وَطَرَحَ النُّقُودَ الْجَاهِلِيَّةَ رَأْسًا حَتَّى خَلَصَتْ وَنَقَشَ عَلَيْهَا سِكَّةً وَتَلَأَسَى وَجُودَهَا فَهَذَا هُوَ

(١) مقتضى السياق « وقارن ذلك عبد الملك ... »

الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَمَنْ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَعَ اخْتِيَارُ أَهْلِ السُّكَّةِ فِي الدَّوَلِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْمِقْدَارِ الشَّرْعِيِّ فِي الدِّينَارِ وَالذَّرْهَمِ وَاخْتَلَفَتْ فِي كُلِّ الْأَقْطَارِ وَالْأَفَاقِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى تَصَوُّرِ مَقَادِيرِهِمَا الشَّرْعِيَّةِ ذَهْنًا كَمَا كَانَ فِي الصُّدْرِ الْأَوَّلِ وَصَارَ أَهْلُ كُلِّ أَفْقٍ يَسْتَخْرِجُونَ الْحُقُوقَ الشَّرْعِيَّةَ مِنْ سِكَّتِهِمْ بِمَعْرِفَةِ النَّسْبَةِ الَّتِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَقَادِيرِهَا الشَّرْعِيَّةِ وَأَمَّا وَزْنُ الدِّينَارِ بِاثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ الْوَسْطِ فَهُوَ الَّذِي نَقَلَهُ الْمُحَقِّقُونَ وَعَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ إِلَّا ابْنَ حَزْمٍ خَالَفَ ذَلِكَ وَزَعَمَ أَنَّ وَزْنَهُ أَرْبَعٌ وَثَمَانُونَ حَبَّةً . نَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُ الْقَاضِي عَبْدُ الْحَقِّ وَرَدَّهُ الْمُحَقِّقُونَ وَعَدَّوْهُ وَهْمًا وَعَلَطًا وَهُوَ الصَّحِيحُ وَاللَّهُ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَكَذَلِكَ تَعَلَّمَ أَنَّ الْأَوْقِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الْمُتَعَارَفَةُ بَيْنَ النَّاسِ لِأَنَّ الْمُتَعَارَفَةَ مُخْتَلِفَةً بِاخْتِلَافِ الْأَقْطَارِ وَالشَّرْعِيَّةَ مُتَّحِدَةً ذَهْنًا لَا اخْتِلَافَ فِيهَا وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا .

( الخاتم ) وَأَمَّا الْخَاتَمُ فَهُوَ مِنَ الْخِطِّ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْوِظَائِفِ الْمُلُوكِيَّةِ وَالْخَتْمُ عَلَى الرِّسَالِ وَالصُّكُوكِ مَعْرُوفٌ لِلْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى قَيْصَرَ قَيْلٍ لَهُ إِنَّ الْعَجَمَ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُومًا فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ وَنَقَشَ فِيهِ « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » قَالَ الْبُخَارِيُّ جَعَلَ الثَّلَاثَ الْكَلِمَاتِ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ وَخَتَمَ بِهِ وَقَالَ لَا يَنْقُشُ أَحَدٌ مِثْلَهُ قَالَ وَتَخَتَمَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ثُمَّ سَقَطَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ فِي بَيْتِ أَرِيَسَ وَكَانَتْ قَلِيلَةَ الْمَاءِ فَلَمْ يَدْرِكْ قَعْرَهَا بَعْدَ وَاعْتَمَّ عُثْمَانُ وَتَطَيَّرَ مِنْهُ وَصَنَعَ آخَرَ عَلَى مِثْلِهِ وَفِي كَيْفِيَّةِ نَقْشِ الْخَاتَمِ وَالْخَتْمِ بِهِ وَجُودِهِ ذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ يُطْلَقُ عَلَى الْآلَةِ الَّتِي تُجْعَلُ فِي الْإِصْبَعِ وَمِنْهُ تَخَتَمُ إِذَا لَبَسَهُ وَيُطْلَقُ عَلَى النَّهَائِيَّةِ وَالتَّمَامِ وَمِنْهُ خَتَمْتُ الْأَمْرَ إِذَا بَلَغْتُ آخِرَهُ وَخَتَمْتُ الْقُرْآنَ كَذَلِكَ وَمِنْهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَخَاتَمَ الْأَمْرَ وَيُطْلَقُ عَلَى السِّدَادِ الَّذِي يُسَدُّ بِهِ الْأَوَانِي وَالذَّنَانِ وَيُقَالُ فِيهِ خِتَامٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى « خِتَامُهُ مِسْكٌ » وَقَدْ غَلَطَ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالنَّهَائِيَّةِ وَالتَّمَامِ قَالَ لِأَنَّ آخِرَ مَا يَجِدُونَهُ فِي شَرَابِهِمْ رِيحَ الْمِسْكِ وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْخِتَامِ هُوَ السِّدَادُ لِأَنَّ الْخُمْرَ

يُجْعَلُ لَهَا فِي الدَّنِّ سَدَادُ الطَّيْنِ أَوْ الْقَارِ يَحْفَظُهَا وَيَطَيِّبُ عَرْفَهَا وَذَوْقَهَا فَبَوْلُغِ فِي وَضْفِ خَمْرِ الْجَنَّةِ بِأَنَّ سَدَادَهَا مِنَ الْمِسْكِ وَهُوَ أَطْيَبُ عَرْفًا وَذَوْقًا مِنَ الْقَارِ وَالطَّيْنِ الْمَعْمُودَيْنِ فِي الدُّنْيَا فَإِذَا صَحَّ إِطْلَاقُ الْخَاتَمِ عَلَى هَذِهِ كُلِّهَا صَحَّ إِطْلَاقُهُ عَلَى أَثَرِهَا النَّاسِيءِ عَنْهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ إِذَا نَقِشَتْ بِهِ كَلِمَاتٌ أَوْ أَشْكَالٌ ثُمَّ غُمِسَ فِي مَدَادِ مِنَ الطَّيْنِ أَوْ مَدَادٍ وَوُضِعَ عَلَى صَفْحِ الْقِرْطَاسِ بَقِيَ أَكْثَرُ الْكَلِمَاتِ فِي ذَلِكَ الصَّفْحِ وَكَذَلِكَ إِذَا طُبِعَ بِهِ عَلَى جِسْمٍ لَيِّنٍ كَالشَّمْعِ فَإِنَّهُ يَبْقَى نَقْشُ ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ مُرْتَسِمًا فِيهِ وَإِذَا كَانَتْ كَلِمَاتٌ وَارْتَسَمَتْ فَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى إِذَا كَانَ النَّقْشُ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ مِنَ الْيُمْنَى وَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُمْنَى إِذَا كَانَ النَّقْشُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى لِأَنَّ الْخَتْمَ يَقْلِبُ جِهَةَ الْخَطِّ فِي الصَّفْحِ عَمَّا كَانَ فِي النَّقْشِ مِنْ يَمِينٍ أَوْ يَسَارٍ فَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْخَتْمُ بِهَذَا الْخَاتَمِ بِغَمْسِهِ فِي الْمِدَادِ أَوْ الطَّيْنِ وَوَضْعِهِ فِي الصَّفْحِ فَتَنْتَقِشُ الْكَلِمَاتُ فِيهِ وَيَكُونُ هَذَا مِنْ مَعْنَى النِّهَايَةِ وَالتَّمَامِ بِمَعْنَى صِحَّةِ ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ وَتَفُؤْدِهِ كَأَنَّ الْكِتَابَ إِذَا يَتِمُّ الْعَمَلُ بِهِ بِهَذِهِ الْعَلَامَاتِ وَهُوَ مِنْ دُونِهَا مُلْفَى لَيْسَ بِتَمَامٍ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْخَتْمُ بِالْخَطِّ آخِرَ الْكِتَابِ أَوْ أَوَّلَهُ بِكَلِمَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ مِنْ تَحْمِيدٍ أَوْ تَسْبِيحٍ أَوْ بِاسْمِ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ أَوْ صَاحِبِ الْكِتَابِ مَنْ كَانَ أَوْ شَيْءٍ مِنْ نَعْوَتِهِ يَكُونُ ذَلِكَ الْخَطُّ عَلَامَةً عَلَى صِحَّةِ الْكِتَابِ وَتَفُؤْدِهِ وَيُسَمَّى ذَلِكَ فِي الْمُتَعَارِفِ عَلَامَةً ، وَيُسَمَّى خَتْمًا تَشْبِيهًا لَهُ بِأَثَرِ الْخَاتَمِ الْأَصْفِيِّ <sup>(١)</sup> فِي النَّقْشِ وَمِنْ هَذَا خَاتَمُ الْقَاضِي الَّذِي يَبْعَثُ بِهِ لِلْخُصُومِ أَيَّ عِلْمَتَهُ وَخَطُّهُ الَّذِي يُنْفَذُ بِهِمَا أَحْكَامُهُ وَمِنْهُ خَاتَمُ السُّلْطَانِ أَوْ الْخَلِيفَةِ أَيَّ عِلْمَتَهُ . قَالَ الرَّشِيدُ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْتَوِزَرَ جَعْفَرًا وَيَسْتَبْدِلَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ أَخِيهِ فَقَالَ لِأَبِيهِمَا يَحْيَى : « يَا أَبَتِ إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَحْوَلَ الْخَاتَمَ مِنْ يَمِينِي إِلَى شِمَالِي » فَكُنِيَ لَهُ بِالْخَاتَمِ عَنِ الْوِزَارَةِ لَمَّا كَانَتْ الْعِلْمَتَةُ عَلَى الرَّسَائِلِ وَالصُّكُوكِ مِنْ وَظَائِفِ الْوِزَارَةِ لِمَعْبُودِهِمْ وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ هَذَا الْإِطْلَاقِ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَرْسَلَ إِلَى

(١) نسبة إلى أصف ، كاتب النبي سليمان عليه السلام .

الْحَسَنَ عِنْدَ مُرَاوَدَتِهِ إِيَّاهُ فِي الصُّلْحِ صَحِيفَةً بَيضاءَ خَتَمَ عَلَى أَسْفَلِهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ  
اشْتَرَطَ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي خَتَمْتُ أَسْفَلَهَا مَا شِئْتَ فَهُوَ لَكَ وَمَعْنَى الْخَتْمِ هُنَا  
عَلَامَةٌ فِي آخِرِ الصَّحِيفَةِ يَخْطُهُ أَوْ غَيْرُهُ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُخْتَمَ بِهِ فِي جِسْمِ لَيْنٍ فَتَنْتَشِشُ  
فِيهِ حُرُوفُهُ وَيُجْعَلُ عَلَى مَوْضِعِ الْحَزْمِ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حَزَمَ وَعَلَى الْمَوْدُوعَاتِ وَهُوَ مِنْ  
السَّدَادِ كَمَا مَرَّ وَهُوَ فِي الْوَجْهَيْنِ آثَارُ الْخَاتَمِ فَيَنْطَلِقُ عَلَيْهِ خَاتَمٌ وَأَوَّلُ مَنْ أَطْلَقَ الْخَتْمَ  
عَلَى الْكِتَابِ أَيِ الْعَلَامَةِ مُعَاوِيَةُ لِأَنَّهُ أَمَرَ لِعَمْرَ بْنِ الزُّبَيْرِ عِنْدَ زِيَادٍ بِالْكُوفَةِ بِمِائَةِ  
أَلْفٍ فَفَتَحَ الْكِتَابَ وَصَيَّرَ الْمِائَةَ مِائَتَيْنِ وَرَفَعَ زِيَادَ حِسَابَهُ فَأَنْكَرَهَا مُعَاوِيَةُ وَطَلَبَ  
بِهَا عَمْرَ وَحَبَسَهُ حَتَّى قَضَاهَا عَنْهُ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ وَاتَّخَذَ مُعَاوِيَةُ عِنْدَ ذَلِكَ دِيْوَانَ  
الْخَاتَمِ . ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَقَالَ آخَرُونَ وَحَزَمَ الْكُتُبَ وَلَمْ تَكُنْ تُحْزَمُ أَيُّ جَعَلَ لَهَا  
السَّدَادَ وَدِيْوَانَ الْخَتْمِ عِبَارَةً عَنِ الْكُتُبِ الْقَائِمِينَ عَلَى إِنْفَادِ كُتُبِ السُّلْطَانِ وَالْخَتْمِ  
عَلَيْهَا إِمَّا بِالْعَلَامَةِ أَوْ بِالْحَزْمِ وَقَدْ يُطْلَقُ الدِّيْوَانُ عَلَى مَكَانِ جُلُوسِ هَؤُلَاءِ الْكُتُبِ  
كَمَا ذَكَرْنَا فِي دِيْوَانِ الْأَعْمَالِ وَالْحَزْمُ لِلْكِتَابِ يَكُونُ إِمَّا بِدَسِّ الْوَرَقِ كَمَا فِي عَرَفِ  
كِتَابِ الْمَغْرِبِ وَإِمَّا بِالْإِصَاقِ رَأْسَ الصَّحِيفَةِ عَلَى مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ كَمَا فِي  
عَرَفِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَقَدْ يُجْعَلُ عَلَى مَكَانِ الدُّسِّ أَوْ الْإِصَاقِ عَلَامَةٌ يُؤْمَنُ مَعَهَا مِنْ  
فَتْحِهِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى مَا فِيهِ فَأَهْلُ الْمَغْرِبِ يَجْعَلُونَ عَلَى مَكَانِ الدُّسِّ قِطْعَةً مِنَ  
الشَّمْعِ وَيَخْتَمُونَ عَلَيْهَا بِخَاتَمِ نَقَشَتْ فِيهِ عَلَامَةٌ لِذَلِكَ فَيَرْتَسِمُ النَّقْشُ فِي الشَّمْعِ  
وَكَانَ فِي الْمَشْرِقِ فِي الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ يُخْتَمُ عَلَى مَكَانِ اللَّصِقِ بِخَاتَمِ مَنْقُوشٍ أَيْضًا قَدْ  
غَمِسَ فِي مَدَافِ مِنَ الطِّينِ مُعَدًّا لِذَلِكَ صِبْغُهُ أَحْمَرَ فَيَرْتَسِمُ ذَلِكَ النَّقْشُ عَلَيْهِ وَكَانَ  
هَذَا الطِّينُ فِي الدُّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ يُعْرَفُ بِطِّينِ الْخَتْمِ وَكَانَ يُجْلَبُ مِنْ سِيرَافٍ فَيُظْهِرُ  
أَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِهَا فَهَذَا الْخَاتَمُ الَّذِي هُوَ الْعَلَامَةُ الْمَكْتُوبَةُ أَوْ النَّقْشُ لِلْسَّدَادِ وَالْحَزْمِ  
لِلْكِتَابِ خَاصٌّ بِدِيْوَانِ الرِّسَائِلِ وَكَانَ ذَلِكَ لِلْوَزِيرِ فِي الدُّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ثُمَّ اخْتَلَفَ  
الْعَرَفُ وَصَارَ لِمَنْ إِلَيْهِ التَّرْسِيلُ وَدِيْوَانِ الْكُتُبِ فِي الدُّوَلَةِ ثُمَّ صَارُوا فِي دَوْلِ الْمَغْرِبِ  
يَعْدُونَ مِنْ عَلَامَاتِ الْمَلِكِ وَشَارَاتِهِ الْخَاتَمَ لِلِإِصْبِغِ فَيَسْتَجِيدُونَ صَوْغَهُ مِنَ الذَّهَبِ



وَيُرْصَعُونَهُ بِالْفُصُوصِ مِنَ الْيَاقُوتِ وَالْفَيْرُوزِجِ وَالزُّمُرُدِ وَيَلْبَسُهُ السُّلْطَانُ شَارَةً فِي  
عُرْفِهِمْ كَمَا كَانَتْ الْبُرْدَةُ وَالْقَضِيبُ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْمَظَلَّةُ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبِيدِيَّةِ  
وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ بِحُكْمِهِ .

( الطراز ) : مِنْ أُمَّةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَمَذَاهِبِ الدُّوَلِ أَنْ تُرْسَمَ أَسْمَاؤُهُمْ أَوْ  
عَلَامَاتُ تَخْتَصُّ بِهِمْ فِي طِرَازِ أَثْوَابِهِمُ الْمُعَدَّةِ لِلْبَاسِيهِمْ مِنَ الْحَرِيرِ أَوْ الدِّبَاجِ أَوْ  
الْإِبْرِسِيمِ تُعْتَبَرُ كِتَابَةٌ خَطُّهَا فِي نَسِجِ الثَّوْبِ الْحَامِأً وَإِسْدَاءً بِخَيْطِ الذَّهَبِ أَوْ  
مَا يُخَالِفُ لَوْنَ الثَّوْبِ مِنَ الْخَيْوِطِ الْمُلَوَّنَةِ مِنْ غَيْرِ الذَّهَبِ عَلَى مَا يُحْكِمُهُ الصَّنَاعُ  
فِي تَقْدِيرِ ذَلِكَ وَوَضِعِهِ فِي صِنَاعَةِ نَسِجِهِمْ فَتَصِيرُ الثِّيَابُ الْمُلُوكِيَّةُ مُعَلَّمَةً بِذَلِكَ  
الطِّرَازِ قَصْدُ التَّنْوِيهِ بِإِلَاسِيهَا مِنَ السُّلْطَانِ فَمَنْ دُونَهُ أَوْ التَّنْوِيهِ بِمَنْ يَخْتَصُّهُ  
السُّلْطَانُ بِمَلْبُوسِهِ إِذَا قَصَدَ تَشْرِيفَهُ بِذَلِكَ أَوْ لِوَلَايَتِهِ لِيُؤْظِفَهُ مِنْ وَطَائِفِ دَوْلَتِهِ  
وَكَانَ مُلُوكِ الْعَجَمِ مِنْ قَبْلِ الْإِسْلَامِ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ الطِّرَازَ بِصُورِ الْمُلُوكِ وَأَشْكَالِهِمْ  
أَوْ أَشْكَالِ وَصُورِ مُعَيَّنَةٍ لِذَلِكَ ثُمَّ اغْتَاضَ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ عَنْ ذَلِكَ بِكُتُبِ أَسْمَائِهِمْ مَعَ  
كَلِمَاتٍ أُخْرَى تَجْرِي مَجْرَى الْفَعَالِ أَوْ السَّجَلَاتِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي الدَّوْلَتَيْنِ مِنْ أُمَّةِ  
الْأُمُورِ وَأَفْخَمِ الْأَحْوَالِ وَكَانَتِ الدُّورُ الْمُعَدَّةُ لِنَسِجِ أَثْوَابِهِمْ فِي قُصُورِهِمْ تُسَمَّى دُورَ  
الطِّرَازِ لِذَلِكَ وَكَانَ الْقَائِمُ عَلَى النَّظَرِ فِيهَا يُسَمَّى صَاحِبَ الطِّرَازِ . يَنْظُرُ فِي أُمُورِ  
الصَّبَاغِ وَالْأَلَةِ وَالْحَاكَةِ فِيهَا وَإِجْرَاءِ أَرْزَاقِهِمْ وَتَسْهِيلِ آيَاتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ أَعْمَالِهِمْ وَكَانُوا  
يَقْلُدُونَ ذَلِكَ لِحَوَاضِ دَوْلَتِهِمْ وَثِقَاتِ مَوَالِيهِمْ وَكَذَلِكَ كَانَ الْحَالُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ  
بِالْأَنْدَلُسِ وَالطَّوَائِفِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ بِمِصْرَ وَمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ  
مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ ثُمَّ لَمَّا ضَاقَ نِطَاقُ الدُّوَلِ عَنِ التَّرَفِ وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ لِيَضِيقَ  
نِطَاقَهَا فِي الْإِسْتِيْلَاءِ وَتَعَدَّدَتِ الدُّوَلُ تَعَطَّلَتِ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ وَالْوَلَايَةُ عَلَيْهَا مِنْ أَكْثَرِ  
الدُّوَلِ بِالْجُمْلَةِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُؤَحِّدِينَ بِالْمَغْرِبِ بَعْدَ بَنِي أُمَيَّةٍ أَوَّلَ الْمِائَةِ  
السَّادِسَةِ لَمْ يَأْخُذُوا بِذَلِكَ أَوَّلَ دَوْلَتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مَنَازِعِ الدِّيَانَةِ وَالسَّدَاجَةِ  
الَّتِي لَقْنُوهَا عَنْ إِمَامِهِمْ مُحَمَّدِ بْنِ تَوَمَرْتِ الْمَهْدِيِّ وَكَانُوا يَتَوَرَّعُونَ عَنْ لِبَاسِ

الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها أعتابهم آخر  
الدولة طرفاً لم يكن يتلك النباهة وأما لهذا العهد ، فأدركنا بالمغرب في الدولة  
المرينية لعنفوانها وشموحها رسماً جليلاً لقنوه من دولة ابن الأحمر معاصريهم  
بالأندلس واتبع هو في ذلك ملوك الطوائف فأتى منه بلمحة شاهدة بالأثر . وأما  
دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيها من الطراز تحرير آخر على مقدار ملكهم  
وعمران بلادهم إلا أن ذلك لا يوضع في دورهم وقصورهم وليست من وطائف  
دولتهم وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب  
الخالص ويسمونه المزرکش لفظة أعجمية ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه  
ويعدّه الصناع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللاتقة بها « والله مقدر  
الليل والنهار والله خير الوارثين » .

## الفساطيط والسياج

إعلم أن من شازات الملك وترفه اتخذ الأخبية والفساطيط والفازات<sup>(١)</sup> من  
ثياب الكتان والصوف والقطن فيباهى بها في الأسفار وتتنوع منها الألوان ما بين  
كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار وإنما يكون الأمر في أول الدولة في  
بيوتهم التي جرت عاداتهم باتخاذها قبل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الأولين  
من بني أمية إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياماً من التوبر والصوف ولم  
تزل العرب لذلك العهد باديين<sup>(٢)</sup> إلا الأقل منهم فكانت أسفارهم لغزواتهم  
وحروبهم بظعونهم وسائر حليلهم وأخيائهم من الأهل والولد كما هو شأن العرب  
لهذا العهد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحليل بعيدة ما بين المنازل متفرقة  
الأحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب ولذلك  
ما كان عبد الملك يحتاج إلى ساقية تحشد الناس على أثره وأن يقيموا إذا ظعن .

(١) مظلة بعامودين .

(٢) من البداوة .

وَقِيلَ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ فِي ذَلِكَ الْحَجَّاجَ حِينَ أَشَارَ بِهِ رَوْحُ بْنُ زُرْبَاعٍ وَقَصَّتُهُمَا فِي إِحْرَاقِ  
فَسَاطِيطِ رَوْحٍ وَخِيَامِهِ لِأَوَّلِ وَلَايَتِهِ حِينَ وَجَدَهُمْ مَقِيمِينَ فِي يَوْمِ رَحِيلِ عَبْدِ الْمَلِكِ  
قِصَّةً مَشْهُورَةً . وَمِنْ هَذِهِ الْوَلَايَةِ تُعْرَفُ رُتْبَةُ الْحَجَّاجِ بَيْنَ الْعَرَبِ فَإِنَّهُ لَا يَتَوَلَّى  
إِرَادَتَهُمْ عَلَى الظَّنِّ إِلَّا مَنْ يَأْمَنُ بِوَادِرِ السَّفَهَاءِ مِنْ أَحْيَائِهِمْ بِمَا لَهُ مِنَ الْعَصِيَّةِ  
الْحَائِلَةِ دُونَ ذَلِكَ وَلِذَلِكَ اخْتَصَّهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بِهَذِهِ الرُّتْبَةِ ثِقَةً يَفْنَانُهُ فِيهَا بِعَصِيَّتِهِ  
وَصَرَامَتِهِ فَلَمَّا تَفَنَّنَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي مَذَاهِبِ الْحَضَارَةِ وَالْبَدْحِ وَنَزَلُوا الْمُدُنَ  
وَالْأَمْصَارَ وَانْتَقَلُوا مِنْ سُكْنَى الْخِيَامِ إِلَى سُكْنَى الْقُصُورِ وَمِنْ ظَهْرِ الْحُفِّ إِلَى ظَهْرِ  
الْحَافِرِ اتَّخَذُوا لِلسُّكْنَى فِي أَسْفَارِهِمْ ثِيَابَ الْكُتَّانِ يَسْتَعْمِلُونَ مِنْهَا بَيُوتًا مُخْتَلِفَةً  
الْأَشْكَالِ مُقَدَّرَةً الْأَمْثَالِ مِنَ الْقُورَاءِ <sup>(١)</sup> وَالْمُسْتَطِيلَةِ وَالْمُرَبَّعَةِ وَيَحْتَفِلُونَ فِيهَا بِأَبْلَغِ  
مَذَاهِبِ الْإِحْتِفَالِ وَالزِّيْنَةِ وَيُدِيرُ الْأَمِيرُ وَالْقَائِدُ لِلْعَسَاكِرِ عَلَى فَسَاطِيطِهِ وَفَازَاتِهِ مِنْ  
بَيْنِهِمْ سِيَاجًا مِنَ الْكُتَّانِ يُسَمَّى فِي الْمَغْرِبِ بِلِسَانِ الْبَرْبَرِ الَّذِي هُوَ لِسَانُ أَهْلِهِ  
أَفْرَاكٍ بِالْكَافِ وَالْقَافِ وَيَخْتَصُّ بِهِ السُّلْطَانُ بِذَلِكَ الْقَطْرِ لَا يَكُونُ لغيرِهِ . وَأَمَّا  
فِي الْمَشْرِقِ فَيَتَّخِذُهُ كُلُّ أَمِيرٍ وَإِنْ كَانَ دُونَ السُّلْطَانِ ثُمَّ جَنَحَتِ الدَّعَاةُ بِالنِّسَاءِ  
وَالْوُلْدَانِ إِلَى الْمَقَامِ بِقُصُورِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ فَحُفَّ لِذَلِكَ ظَهْرُهُمْ وَتَقَارَبَتِ السِّيَاجُ بَيْنَ  
مَنَازِلِ الْعَسْكَرِ وَاجْتَمَعَ الْجَيْشُ وَالسُّلْطَانُ فِي مَعْسَكِرٍ وَاحِدٍ يَخْضَرُهُ الْبَصْرُ فِي  
بَسِيطَةٍ زَهْوًا أُنَيْقًا لِاخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَذَاهِبِ الدَّوْلِ فِي  
بَدْحِهَا وَتَرْفِهَا . وَكَذَا كَانَتْ دَوْلَةُ الْمُؤَحِّدِينَ وَزِنَانَةُ الَّتِي أَطْلَقْنَا كَانَ سَفَرُهُمْ أَوَّلَ  
أَمْرِهِمْ فِي بَيُوتِ سُكْنَاهُمْ قَبْلَ الْمُلْكِ مِنَ الْخِيَامِ وَالْقِيَاطِينَ <sup>(٢)</sup> حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ  
الدَّوْلَةُ فِي مَذَاهِبِ التَّرْفِ وَسُكْنَى الْقُصُورِ وَعَادُوا إِلَى سُكْنَى الْأَخْيَةِ وَالْفَسَاطِيطِ  
بَلَّفُوا مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ مَا أَرَادُوهُ وَهُوَ مِنَ التَّرْفِ بِمَكَانٍ إِلَّا أَنْ الْعَسَاكِرَ بِهِ تَصِيرُ  
عُرْضَةً لِلبِّيَاتِ لِاجْتِمَاعِهِمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ تَشْمَلُهُمْ فِيهِ الصِّيْحَةُ وَلِخَفَّتِهِمْ مِنَ الْأَهْلِ

(١) القوراء : الواسعة .

(٢) القياطين : المخادع .

وَالْوُلْدِ الَّذِينَ تَكُونُ الْإِسْتِمَاتَةُ دُونَهُمْ فَيَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ إِلَى تَحْفِظِ آخَرِ وَاللَّهُ الْقَوِيُّ  
الْعَزِيزُ .

## المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وَهُمَا مِنَ الْأُمُورِ الْخِلَافِيَّةِ وَمِنْ شَارَاتِ الْمُلْكِ الْإِسْلَامِيِّ وَلَمْ يُعْرَفْ فِي غَيْرِ دَوْلِ  
الْإِسْلَامِ . فَأَمَّا الْبَيْتُ الْمَقْصُورَةُ مِنَ الْمَسْجِدِ لِصَلَاةِ السُّلْطَانِ فَيَتَّخِذُ سِيَّاجًا عَلَى  
الْمِخْرَابِ فَيَحُوزُهُ وَمَا يَلِيهِ فَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ حِينَ طَعَنَهُ  
الْخَارِجِيُّ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَقِيلَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا مَرْوَانَ بْنُ الْحَكَمِ حِينَ طَعَنَهُ  
الْيَمَانِيُّ ثُمَّ اتَّخَذَهَا الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِمَا وَصَارَتْ سُنَّةً فِي تَمْيِيزِ السُّلْطَانِ عَنِ النَّاسِ  
فِي الصَّلَاةِ وَهِيَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ حُضُورِ التَّرْفِ فِي الدَّوَلِ وَالْإِسْتِفْحَالِ شَأْنِ أَحْوَالِ  
الْأَبِيَّةِ كُلِّهَا وَمَا زَالَ الشَّأْنُ ذَلِكَ فِي الدَّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا وَعِنْدَ افْتِرَاقِ الدَّوَلَةِ  
الْعَبَّاسِيَّةِ وَتَعَدُّدِ الدَّوَلِ بِالْمَشْرِقِ وَكَذَا بِالْأَنْدَلُسِ عِنْدَ انْقِرَاضِ الدَّوَلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَتَعَدُّدِ  
مُلُوكِ الطَّوَائِفِ وَأَمَّا الْمَغْرِبُ فَكَانَ بَنُو الْأَغْلَبِ يَتَّخِذُونَهَا بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ الْخُلَفَاءُ  
الْعُبَيْدِيُّونَ ثُمَّ وَلَاتَهُمْ عَلَى الْمَغْرِبِ مِنْ صَنْهَاجَةَ بَنُو بَابِيْسَ بِفَاسَ وَبَنُو حَمَادِ  
بِالْقَلْعَةِ ثُمَّ مَلِكُ الْمَوْحِدِينَ سَائِرَ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَمَحَا ذَلِكَ الرَّسْمَ عَلَى طَرِيقَةِ  
الْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَتْ شِعَارَهُمْ وَلَمَّا اسْتَفْحَلَتِ الدَّوَلَةُ وَأَخَذَتْ يَحْظُهَا مِنَ التَّرْفِ وَجَاءَ  
أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ ثَالِثُ مُلُوكِهِمْ فَاتَّخَذَ هَذِهِ الْمَقْصُورَةَ وَبَقِيَتْ مِنْ بَعْدِهِ سُنَّةً  
لِمُلُوكِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَهَكَذَا كَانَ الشَّأْنُ فِي سَائِرِ الدَّوَلِ سُنَّةً لِلَّهِ فِي عِبَادِهِ .  
وَأَمَّا الدُّعَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ فِي الْخِطْبَةِ فَكَانَ الشَّأْنُ أَوَّلًا عِنْدَ الْخُلَفَاءِ وَلَايَةِ الصَّلَاةِ  
بِأَنْفُسِهِمْ فَكَانُوا يَدْعُونَ لِذَلِكَ بَعْدَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالرَّضَى عَنْ أَصْحَابِهِ  
وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لَمَّا بَنَى جَامِعَهُ بِمِصْرَ وَأَوَّلُ مَنْ دَعَا لِلْخَلِيفَةِ  
عَلَى الْمِنْبَرِ ابْنُ عَبَّاسٍ دَعَا لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي خِطْبَتِهِ وَهُوَ بِالْبَصْرَةِ عَامِلٌ لَهُ  
عَلَيْهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ انصُرْ عَلِيًّا عَلَى الْحَقِّ وَاتَّصِلْ الْعَمَلَ عَلَى ذَلِكَ فِيمَا بَعْدُ وَبَعْدُ أَخِذْ

عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ الْمِنْبَرِ بَلَغَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ذَلِكَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ  
أَمَا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ اتَّخَذْتَ مِنْبَرًا تَرْقَى بِهِ عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مَا يَكْفِيكَ  
أَنْ تَكُونَ قَائِمًا وَالْمُسْلِمُونَ تَحْتَ عَقْبِكَ فَعَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا كَسَرْتَهُ فَلَمَّا حَدَّثَتْ  
الْأُبُهَّةُ وَحَدَّثَتْ فِي الْخُلَفَاءِ الْمَانِعِ مِنَ الْخُطْبَةِ وَالصَّلَاةِ اسْتَنَابُوا فِيهِمَا فَكَانَ الْخَطِيبُ  
يُشِيدُ بِذِكْرِ الْخَلِيفَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ تَنْوِيهَا بِاسْمِهِ وَدَعَاءُ لَهُ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ مَصْلَحَةَ الْعَالَمِ  
فِيهِ وَلَآنَ تِلْكَ السَّاعَةَ مَظِنَّةٌ لِلْإِجَابَةِ وَلَمَّا ثَبَتَ عَنِ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِمْ مَنْ كَانَتْ لَهُ  
دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ فَلْيُضَعِّمْهَا فِي السُّلْطَانِ وَكَانَ الْخَلِيفَةُ يُفْرَدُ بِذَلِكَ فَلَمَّا جَاءَ الْحَجْرُ  
وَالِاسْتِبْدَادُ صَارَ الْمُتَعَلِّبُونَ عَلَى الدُّوَلِ كَثِيرًا مَا يُشَارِكُونَ الْخَلِيفَةَ فِي ذَلِكَ وَيَشَادُ  
بِاسْمِهِمْ عَقِبَ اسْمِهِ وَذَهَبَ ذَلِكَ بِذَهَابِ تِلْكَ الدُّوَلِ وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى اخْتِصَاصِ  
السُّلْطَانِ بِالِدُّعَاءِ لَهُ عَلَى الْمِنْبَرِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ وَحُطِرَ أَنْ يُشَارِكَهُ فِيهِ أَحَدٌ أَوْ يَسْمُو  
إِلَيْهِ وَكَثِيرًا مَا يُفْعَلُ الْمُعَاهِدُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ هَذَا الرُّسْمَ عِنْدَمَا تَكُونُ الدُّوَلَةُ فِي  
أَسْلُوبِ الْغَضَاضَةِ وَمَنَاجِيِ الْبِدَاوَةِ فِي التَّغَافُلِ وَالْخُشُونَةِ وَيَقْنَعُونَ بِالِدُّعَاءِ عَلَى  
الْإِنْبَهَامِ وَالْإِجْمَالِ لِمَنْ وَلِي أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ وَيَسْمُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْخُطْبَةِ إِذَا كَانَتْ  
عَلَى هَذَا الْمَنْحَى عَبَاسِيَّةً يَغْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الدُّعَاءَ عَلَى الْإِجْمَالِ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْعَبَّاسِيُّ

تَقْلِيدًا فِي ذَلِكَ لِمَا سَلَفَ مِنَ الْأَمْرِ وَلَا يَخْفَلُونَ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ تَعْيِينِهِ وَالتَّصْرِيحِ  
بِاسْمِهِ يُحْكِي أَنَّ يَغْمَرَسِينَ بْنَ زِيَانَ عَاهَدَ دَوْلَةَ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ لَمَّا غَلَبَهُ الْأَمِيرُ  
أَبُو زَكْرِيَاءَ يَحْيَى بْنُ أَبِي حَفْصٍ عَلَى تَلْمَسَانَ ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فِي إِعَادَةِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ عَلَى  
شُرُوطِ شَرْطِهَا كَانَ فِيهَا ذِكْرُ اسْمِهِ عَلَى مَنَابِرِ عَمَلِهِ فَقَالَ يَغْمَرَسِينَ تِلْكَ أَعْوَادُهُمْ  
يَذْكُرُونَ عَلَيْهَا مَنْ شَاءَ أَوْ وَكَذَلِكَ يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الْحَقِّ عَاهَدَ دَوْلَةَ بَنِي مُرِينَ  
حَضْرَهُ رَسُولَ الْمُنتَصِرِ الْخَلِيفَةِ بِنُونِسَ مِنْ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَثَالِثُ مُلُوكِهِمْ وَتَخَلَّفَ  
بَعْضُ أَيَّامِهِ عَنْ شُهُودِ الْجَمْعَةِ فَقِيلَ لَهُ لَمْ يَحْضُرْ هَذَا الرَّسُولُ كَرَاهِيَةً لِحُلُوقِ الْخُطْبَةِ  
مِنْ ذِكْرِ سُلْطَانِهِ فَأَذِنَ فِي الدُّعَاءِ لَهُ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِأَخْذِهِمْ بِدَعْوَتِهِ وَهَكَذَا شَأْنُ  
الدُّوَلِ فِي بَدَايَتِهَا وَتَمَكُّنِهَا فِي الْغَضَاضَةِ وَالْبِدَاوَةِ فَإِذَا انْتَبَهَتْ عَيُونُ سِيَاسَتِهِمْ

وَنظَرُوا فِي أَعْطَافِ مُلْكِهِمْ وَاسْتَتَمُوا شِيَاتٍ <sup>(١)</sup> الْحَضَارَةَ وَمَفَانِي الْبُدْخِ وَالْأَبْيَةِ  
 انْتَحَلُوا جَمِيعَ هَذِهِ السَّمَاتِ وَتَفَنَّنُوا فِيهَا وَتَجَارَوْا إِلَى غَايَتِهَا وَأَنْفَوْا مِنَ الْمُشَارَكَةِ  
 فِيهَا وَجَزَعُوا مِنْ ائْتِقَادِهَا وَخَلَوْ دَوْلَتِهِمْ مِنْ آثَارِهَا وَالْعَالَمُ بُسْتَانٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ  
 شَيْءٍ رَقِيبٌ .

## الفصل السابع والثلاثون

### في الحروب ومذاهب الأمم وترتيبها

إِعْلَمُ أَنَّ الْحُرُوبَ وَأَنْوَاعَ الْمُقَاتَلَةِ لَمْ تَزَلْ وَاقِعَةً فِي الْخَلِيقَةِ مُنْذُ بَرَأَهَا اللَّهُ  
 وَأَصْلَهَا إِرَادَةُ ائْتِقَامِ بَعْضِ الْبَشَرِ مِنْ بَعْضٍ وَيَتَعَصَّبُ لِكُلِّ مِنْهَا أَهْلٌ عَصَبِيَّتِهِ فَأِذَا  
 تَدَامَرُوا لِذَلِكَ وَتَوَافَقَتِ الطَّائِفَتَانِ إِحْدَاهُمَا تَطَلَّبُ الْاِئْتِقَامِ وَالْأُخْرَى تُدَافِعُ كَانَتْ  
 الْحَرْبُ وَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ لَا تَخْلُو عَنْهُ أُمَّةٌ وَلَا جِيلٌ وَسَبَبُ هَذَا الْاِئْتِقَامِ فِي  
 الْأَكْثَرِ إِمَّا غَيْرَةٌ وَمُنَافَسَةٌ . وَإِمَّا عُدْوَانٌ وَإِمَّا غَضَبٌ لِلَّهِ وَلِدِينِهِ وَإِمَّا غَضَبٌ لِلْمَلِكِ  
 وَسَعْيٌ فِي تَمْهِيدِهِ فَالْأَوَّلُ أَكْثَرُ مَا يَجْرِي بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْمُتَجَاوِرَةِ وَالْعَشَائِرِ  
 الْمُتَنَاطِرَةِ وَالثَّانِي وَهُوَ الْعُدْوَانُ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأُمَّةِ الْوَحْشِيَّةِ السَّاكِنِينَ بِالْقَفْرِ  
 كَالْعَرَبِ وَالتُّرْكِ وَالتُّرْكُمَانَ وَالْأَكْرَادِ وَأَشْبَاهِهِمْ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا أَرْزَاقَهُمْ فِي رِمَاحِهِمْ  
 وَمَعَاشَهُمْ فِيمَا بَأَيْدِي غَيْرِهِمْ وَمَنْ دَافَعَهُمْ عَنْ مَتَاعِهِ أَدْنُوهُ بِالْحَرْبِ وَلَا بُغْيَةَ لَهُمْ  
 فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ رُتْبَةٍ وَلَا مَلِكٍ وَإِنَّمَا هُمُومُهُمْ وَنُصَبُ أَعْيُنِهِمْ غَلَبَ النَّاسِ عَلَى مَا فِي  
 أَيْدِيهِمْ وَالثَّلَاثُ هُوَ الْمُسْمَى فِي الشَّرِيعَةِ بِالْجِهَادِ وَالرَّابِعُ هُوَ حُرُوبُ الدُّوَلِ مَعَ  
 الْخَارِجِينَ عَلَيْهَا وَالْمَانِعِينَ لِطَاعَتِهَا فَهَذِهِ أَرْبَعَةٌ أَصْنَافٍ مِنَ الْحُرُوبِ الصَّنْفَانِ  
 الْأَوَّلَانِ مِنْهَا حُرُوبُ بَغْيٍ وَفِتْنَةٍ وَالصَّنْفَانِ الْآخِرَانِ حُرُوبُ جِهَادٍ وَعَدْلٍ وَصِفَةُ  
 الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ مُنْذُ أَوَّلِ وُجُودِهِمْ عَلَى نَوْعَيْنِ نَوْعٌ بِالرَّحْفِ

(١) الوان الحضارة .

صُفُوفاً وَنَوْعٍ بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ أَمَا الَّذِي بِالرَّحْفِ فَهُوَ قِتَالُ الْعَجَمِ كُلِّهِمْ عَلَى تَعَاقِبِ أَجْيَالِهِمْ وَأَمَا الَّذِي بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ فَهُوَ قِتَالُ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَقِتَالُ الرَّحْفِ أَوْثَقُ وَأَشَدُّ مِنْ قِتَالِ الْكَرِّ وَالْفَرِّ وَذَلِكَ لِأَنَّ قِتَالَ الرَّحْفِ تَرْتَبُ فِيهِ الصُّفُوفُ وَتَسْوَى كَمَا تَسْوَى الْقِدَاحُ أَوْ صُفُوفُ الصَّلَاةِ وَيَمْشُونَ بِصُفُوفِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ قُدَمَا ، فَلِذَلِكَ تَكُونُ أَثْبَتَ عِنْدَ الْمَصَارِعِ وَأَصْدَقَ فِي الْقِتَالِ وَأَزْهَبَ لِلْعَدُوِّ . لِأَنَّهُ كَالْحَائِطِ الْمُمْتَدِّ وَالْقَصْرِ الْمَشِيدِ لَا يَطْمَعُ فِي إِزَالَتِهِ وَفِي التَّنْزِيلِ « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » أَي يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالثَّبَاتِ وَفِي الْحَدِيثِ الْكَرِيمِ « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ لَكَ حِكْمَةُ إِجْبَابِ الثَّبَاتِ وَتَحْرِيمِ التَّوَلَّى فِي الرَّحْفِ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الصَّفِّ فِي الْقِتَالِ حِفْظَ النَّظَامِ كَمَا قُلْنَا فَمَنْ وَلَّى الْعَدُوَّ ظَهْرَهُ فَقَدْ أَخْلَى بِالْمَصَافِ وَبَاءَ بِإِثْمِ الْهَزِيمَةِ إِنْ وَقَعَتْ وَصَارَ كَأَنَّهُ جَرَّهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَمَكَنَ مِنْهُمْ عَدُوَّهُمْ فَعَظَمَ الذَّنْبُ لِعُمُومِ الْمَفْسَدَةِ وَتَعَدَّيَا إِلَى الدِّينِ بِخَرْقِ سِيَاحِهِ فَعُدَّ مِنَ الْكِبَائِرِ وَيَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ الْأَدْلَةِ أَنَّ قِتَالَ الرَّحْفِ أَشَدُّ عِنْدَ الشَّارِعِ وَأَمَا قِتَالُ الْكَرِّ وَالْفَرِّ فَلَيْسَ فِيهِ مِنَ الشَّدَّةِ وَالْأَمْنِ مِنَ الْهَزِيمَةِ مَا فِي قِتَالِ الرَّحْفِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ يَتَّخِذُونَ وَرَاءَهُمْ فِي الْقِتَالِ مَصَافًا ثَابِتًا يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَرِّ وَالْفَرِّ وَيَقُومُ لَهُمْ مَقَامَ قِتَالِ الرَّحْفِ كَمَا نَذَرْنَاهُ بَعْدُ . ثُمَّ إِنَّ الدُّوَلِ الْقَدِيمَةَ الْكَثِيرَةَ الْجُنُودِ الْمُتَسِعَةَ الْمَمَالِكِ كَانُوا يَقْسِمُونَ الْجُيُوشَ وَالْعَسَاكِرَ أَقْسَامًا يُسْمُونَهَا كِرَادِيْسَ وَيَسُوْنُ فِي كُلِّ كِرْدُوسٍ صُفُوفَهُ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَتْ جُنُودُهُمْ الْكَثْرَةَ الْبَالِغَةَ وَحَشِدُوا مِنْ قَاصِيَةِ النَّوَاحِي اسْتَدْعَى ذَلِكَ أَنْ يَجْهَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذَا اخْتَلَطُوا فِي مَجَالِ الْحَرْبِ وَاعْتَوَرُوا مَعَ عَدُوِّهِمُ الطَّعْنَ وَالضَّرْبَ فَيَخْشَى مِنْ تَدَافِعِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِأَجْلِ النُّكْرَاءِ <sup>(١)</sup> وَجَهْلِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فَلِذَلِكَ كَانُوا يَقْسِمُونَ الْعَسَاكِرَ جُمُوعًا وَيَضُمُّونَ الْمُتَعَارِفِينَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ وَيُرْتَبُونَهَا قَرِيبًا مِنَ التَّرْتِيبِ الطَّبِيعِيِّ فِي الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ وَرِئِيسُ الْعَسَاكِرِ

(١) نُكْرَاءُ الدَّهْرِ : شَدَّتْهُ . النُّكْرُ بفتح النون وضمها ، الدَّهَاءُ وَالْفَطْنَةُ . ( المُنْجِد ) .

كُلُّهَا مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ قَائِدٍ فِي الْقَلْبِ وَيُسَمُّونَ هَذَا التَّرْتِيبَ التَّعْبِيَّةَ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي  
أَخْبَارِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَالدُّوَلَتَيْنِ وَصَدَرَ الْإِسْلَامَ فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ يَدَيْ الْمَلِكِ عَسْكَرًا  
مُنْفَرِدًا بِصُفُوفِهِ مُتَمَيِّزًا بِقَائِدِهِ وَرَايَتِهِ وَشِعَارِهِ وَيُسَمُّونَهُ الْمُقَدِّمَةَ ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ  
نَاحِيَةَ الْيَمِينِ عَنِ مَوْقِفِ الْمَلِكِ وَعَلَى سَمْتِهِ يُسَمُّونَهُ الْمَيْمَنَةَ ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ مِنْ  
نَاحِيَةِ الشَّمَالِ كَذَلِكَ يُسَمُّونَهُ الْمَيْسِرَةَ ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ مِنْ وَرَاءِ الْعَسْكَرِ يُسَمُّونَهُ  
السَّاقَةَ وَيَقِفُ الْمَلِكُ وَأَصْحَابُهُ فِي الْوَسْطِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَرْبَعِ وَيُسَمُّونَ مَوْقِفَهُ الْقَلْبَ  
فَإِذَا تَمَّ لَهُمْ هَذَا التَّرْتِيبُ الْمُحْكَمُ إِذَا فِي مَدَى وَاحِدٍ لِلْبَصْرِ أَوْ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ  
أَكْثَرَهَا الْيَوْمَ وَالْيَوْمَانِ بَيْنَ كُلِّ عَسْكَرَيْنِ مِنْهَا أَوْ كَيْفَمَا أُعْطَاهُ جِالَ الْعَسَاكِرِ فِي  
الْقَلَّةِ وَالكَثْرَةِ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ الرَّحْفُ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ التَّعْبِيَّةِ وَانظُرْ ذَلِكَ فِي أَخْبَارِ  
الْفَتْوحَاتِ وَأَخْبَارِ الدُّوَلَتَيْنِ بِالْمَشْرِقِ وَكَيْفَ كَانَتِ الْعَسَاكِرُ لِعَبْدِ الْمَلِكِ  
تَتَخَلَّفُ عَنْ رَحِيلِهِ لِبُعْدِ الْمَدَى فِي التَّعْبِيَّةِ فَاخْتِيجَ لِمَنْ يَسُوقُهَا مِنْ خَلْفِهِ وَعَيْنَ  
لِذَلِكَ الْحَجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَكَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِ وَكَانَ فِي  
الدُّوَلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ أَيْضًا كَثِيرٌ مِنْهُ وَهُوَ مَجْهُولٌ فِيمَا لَدَيْنَا لِأَنَّا إِنَّمَا أَدْرَكْنَا  
دَوْلًا قَلِيلَةً الْعَسَاكِرِ لَا تَنْتَهِي فِي مَجَالِ الْحَرْبِ إِلَى التَّنَاكُرِ بَلْ أَكْثَرُ الْجِيُوشِ مِنْ  
الطَّائِفَتَيْنِ مَعَايِجِمُهُمْ لَدَيْنَا حَلَّةٌ <sup>(١)</sup> أَوْ مَدِينَةٌ وَيَعْرِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قِرْنَهُ وَيُنَادِيهِ  
فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ بِاسْمِهِ وَلَقَبِهِ فَاسْتَعْنَى عَنْ تِلْكَ التَّعْبِيَّةِ .

وَمِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ الْكُرِّ وَالْفَرِّ فِي الْحُرُوبِ ضَرْبُ الْمَصَافِ وَرَاءَ عَسْكَرِهِمْ مِنْ  
الْجَمَادَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ فَيَتَّخِذُونَهَا مَلْجَأً لِلْخَيْالَةِ فِي كُرِّهِمْ وَفَرِّهِمْ يَطْلُبُونَ بِهِ  
ثَبَاتِ الْمُقَاتِلَةِ لِيَكُونَ أَدْوَمَ لِلْحَرْبِ وَأَقْرَبَ إِلَى الْعَلْبِ وَقَدْ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الرَّحْفِ أَيْضًا  
لِيَزِيدَهُمْ ثَبَاتًا وَشِدَّةً فَقَدْ كَانَ الْفَرَسُ وَهُمْ أَهْلُ الرَّحْفِ يَتَّخِذُونَ الْفَيْلَةَ فِي الْحُرُوبِ  
وَيَحْمَلُونَ عَلَيْهَا أَبْرَاجًا مِنَ الْخَشَبِ أَمْثَالَ الصُّرُوحِ مَشْحُونَةً بِالْمُقَاتِلَةِ وَالسَّلَاحِ  
وَالرَّايَاتِ وَيَصُفُّونَهَا وَرَاءَهُمْ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ كَأَنَّهَا حُصُونٌ فَتَقْوَى بِذَلِكَ نَفْسُهُمْ

× (١) الحلة : ج خلل وخلال ، كل ثوب جديد أو عموماً الثوب الساتر لجميع البدن والخلعة ، الزنبيل

الكبير من القصب . والجلعة من الشيء جهته ( المنجد ) .



وَيَزِدَادُ وَثُوقَهُمْ وَأَنْظُرُ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْقَادِسيَّةِ وَإِنَّ فَارِسَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ اشْتَدُوا بِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى اشْتَدَّتْ رَجَالَاتُ مِنَ الْعَرَبِ فَخَالَطُوهُمْ وَبَعَجَوْهَا بِالسُّيُوفِ عَلَى خَرَاطِيمِهَا فَنَفَرَتْ وَنَكَصَتْ <sup>(١)</sup> عَلَى أَعْقَابِهَا إِلَى مَرَابِطِهَا بِالْمَدَائِنِ فَجَفَا مَعْسَكَرُ فَارِسَ لِذَلِكَ وَأَنْهَزُمُوا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ . وَأَمَّا الرُّومُ وَمُلُوكُ القُوطِ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَكْثَرُ الْعَجَمِ فَكَانُوا يَتَّخِذُونَ لِذَلِكَ الْأَسْرَةَ يَنْصُبُونَ لِلْمَلِكِ سَرِيرَهُ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ وَيَحْفُ بِهِ مِنْ خَدَمِهِ وَحَاشِيَتِهِ وَجُنُودِهِ مَنْ هُوَ زَعِيمٌ بِالِاسْتِمَاتَةِ دُونَهُ وَتَرْفَعُ الرَّايَاتُ فِي أَرْكَانِ السَّرِيرِ وَيُحْدِقُ بِهِ سِيَاجٌ آخَرٌ مِنَ الرُّمَةِ وَالرَّجَالَةِ فَيَعْظُمُ هَيْكَلُ السَّرِيرِ وَيَصِيرُ فِئَةً لِلْمُقَاتِلَةِ وَمَلْجَأً لِلْكَرِّ وَالْفَرِّ وَجَعَلَ ذَلِكَ الْفَرَسُ أَيَّامَ الْقَادِسيَّةِ وَكَانَ رُسْتَمُ <sup>(٢)</sup> جَالِساً عَلَى سَرِيرِ نَصْبِهِ لَجُلُوسِهِ حَتَّى اخْتَلَفَتْ صُفُوفُ فَارِسَ وَخَالَطَهُ الْعَرَبُ فِي سَرِيرِهِ ذَلِكَ فَتَحَوَّلَ عَنْهُ إِلَى الْفُرَاتِ وَقَتِلَ . وَأَمَّا أَهْلُ الْكُرِّ وَالْفَرِّ مِنَ الْعَرَبِ وَأَكْثَرُ الْأَمَمِ الْبَدَوِيَّةِ الرَّحَالَةِ فَيُضْفُونَ لِذَلِكَ إِبِلَهُمْ وَالظَّهْرَ الَّذِي يَحْمِلُ طَعْمَانَهُمْ فَيَكُونُ فِئَةً لَهُمْ وَيُسَمُّونَهَا الْمَجْبُودَةَ وَلَيْسَ أُمَّةٌ مِنَ الْأَمَمِ إِلَّا وَهِيَ تَفْعَلُ فِي حُرُوبِهَا وَتَرَاهُ أَوْتَقُ فِي الْجَوْلَةِ وَأَمِنَ مِنَ الْغِرَّةِ وَالْهَزِيمَةِ وَهُوَ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ وَقَدْ أَغْفَلَتْهُ الدُّوَلُ لِعَهْدِنَا بِالْجُمْلَةِ وَاعْتَاضُوا عَنْهُ بِالظَّهْرِ الْحَامِلِ لِلْأَثْقَالِ وَالنَّسَاطِيطِ يَجْعَلُونَهَا سَاقَةً مِنْ خَلْفِهِمْ وَلَا تُغْنِي غِنَاءَ الْفَيْلَةِ وَالْإِبِلِ فَصَارَتِ الْعَسَاكِرُ بِذَلِكَ عَرْضَةً لِلْهَزَائِمِ وَمُسْتَشْعِرَةً لِلْفِرَارِ فِي الْمَوَاقِفِ . وَكَانَ الْحَرْبُ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ كُلَّهُ زَخْفاً وَكَانَ الْعَرَبُ إِنَّمَا يَعْرِفُونَ الْكُرَّ وَالْفَرَّ لَكِنْ حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا أَنَّ أَعْدَاءَهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ زَخْفاً فَيُضْطَرُّونَ إِلَى مُقَاتَلَتِهِمْ بِمِثْلِ قِتَالِهِمْ . وَالثَّانِي أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَمِيمَتِينَ فِي جِهَادِهِمْ لِمَا رَغَبُوا فِيهِ مِنَ الصَّبْرِ ، وَلَمَّا رَسَخَ فِيهِمْ مِنَ الْإِيْمَانِ وَالزَّخْفِ إِلَى الْإِسْتِمَاتَةِ أَقْرَبَ . وَأَوَّلُ مَنْ أَنْبَطَ الصَّفَّ فِي الْحُرُوبِ وَصَارَ إِلَى التَّعْبَةِ كِرَادِيسَ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فِي قِتَالِ الضَّحَّاكِ الْخَارِجِيِّ وَالْجُبَيْرِيِّ بَعْدَهُ قَالَ الطَّبْرِيُّ لَمَّا ذَكَرَ قِتَالَ الْجُبَيْرِيِّ « فَوَلَّى الْخَوَارِجُ عَلَيْهِمْ شَيْبَانَ بْنَ عَبْدِ

(١) أجمت .

(٢) هو قائد الجيوش الفارسية في معركة القادسية .

العزير اليشكري وَيَلْقَبُ أبا الذَّلْفَاءِ قَاتَلَهُمْ مَرْوَانُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْكَرَادِيسِ وَأَبْطَلَ  
الْصَّفَّ مِنْ يَوْمَيْدٍ « أَنْتَهَى . فَتَنُوسِي قِتَالِ الرَّحْفِ بِإِبْطَالِ الصَّفِّ ثُمَّ تَنُوسِي الصَّفِّ  
وَرَاءَ الْمُقَاتِلَةِ بِمَا دَاخَلَ الدَّوْلَ مِنَ التَّرْفِ وَذَلِكَ أَنَّهَا حِينَمَا كَانَتْ بَدْوِيَّةً وَسَكَنَاهُمْ  
الْخِيَامَ كَانُوا يَسْتَكْثِرُونَ مِنَ الْإِبِلِ وَسَكَنِي النِّسَاءَ وَالْوِلْدَانَ مَعَهُمْ فِي الْأَحْيَاءِ فَلَمَّا  
حَصَلُوا عَلَى تَرْفِ الْمَلِكِ وَالْفُؤَادِ سَكَنِي الْقُصُورِ وَالْحَوَاضِرِ وَتَرَكَوْا شَأْنَ الْبَادِيَةِ وَالْقَفْرِ  
نَسُوا لِذَلِكَ عَهْدَ الْإِبِلِ وَالطَّمَعَيْنِ أَوْصَعَبَ عَلَيْهِمْ اتِّخَاذَهَا فَخَلَفُوا النِّسَاءَ فِي الْأَسْفَارِ  
وَحَمَلَهُمُ الْمَلِكُ وَالتَّرْفَ عَلَى اتِّخَاذِ الْفَسَاطِيطِ وَالْأَخْبِيَّةِ فَاقْتَصَرُوا عَلَى الظَّهْرِ الْحَامِلِ  
لِلْأَقْبَالِ <sup>(١)</sup> وَالْأَبْنِيَّةِ وَكَانَ ذَلِكَ صِفَتَهُمْ فِي الْحَرْبِ وَلَا يَغْنِي كُلَّ الْغَنَاءِ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو  
إِلَى الْإِسْتِمَاتَةِ كَمَا يَدْعُو إِلَيْهَا الْأَهْلُ وَالْمَالُ فَيُخْفُ الصَّبْرُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَتَضَرَّفَهُمُ  
الْهَيْعَاتُ <sup>(٢)</sup> وَتَحَرَّمَ صُفُوفَهُمْ . وَلَمَّا ذَكَرْنَا مِنْ ضَرْبِ الْمَصَافِ وَرَاءَ الْعَسَاكِرِ وَتَأَكُّدِهِ  
فِي قِتَالِ الْكُرِّ وَالْفَرِّ صَارَ مُلُوكُ الْمَغْرِبِ يَتَّخِذُونَ طَائِفَةً مِنَ الْإِفْرَنْجِ فِي جُنْدِهِمْ  
وَإِخْتَصُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّ قِتَالَ أَهْلِ وَطَنِهِمْ كِلَهُ بِالْكَرِّ وَالْفَرِّ وَالسُّلْطَانَ يُتَأَكَّدُ فِي حَقِّهِ  
ضَرْبُ الْمَصَافِ لِيَكُونَ رِذَاءً لِلْمُقَاتِلَةِ أَمَامَهُ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ ذَلِكَ الصَّفِّ  
مِنْ قَوْمٍ مُتَعَوِّدِينَ لِلثَّبَاتِ فِي الرَّحْفِ وَالْأَجْفَلُوا عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكُرِّ وَالْفَرِّ فَانْتَهَزَمَ  
السُّلْطَانُ وَالْعَسَاكِرُ بِإِجْفَالِهِمْ فَاحْتِاجَ الْمُلُوكِ بِالْمَغْرِبِ أَنْ يَتَّخِذُوا جُنْدًا مِنْ هَذِهِ  
الْأُمَّةِ الْمُتَعَوِّدَةِ الثَّبَاتِ فِي الرَّحْفِ وَهُمْ الْإِفْرَنْجُ وَيَرْتَبُونَ مَصَافَهُمْ الْمُحَدِّقَ بِهِمْ مِنْهَا  
هَذَا عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِأَهْلِ الْكُفْرِ . وَإِنَّهُمْ اسْتَخَفُوا ذَلِكَ لِلضَّرُورَةِ الَّتِي  
أَرَيْنَاكُمَا مِنْ تَخَوُّفِ الْإِجْفَالِ عَلَى مَصَافِ السُّلْطَانَ وَالْإِفْرَنْجِ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الثَّبَاتِ  
فِي ذَلِكَ لِأَنَّ عَادَتَهُمْ فِي الْقِتَالِ الرَّحْفُ فَكَانُوا أَقْوَمَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ مَعَ أَنَّ الْمُلُوكَ  
فِي الْمَغْرِبِ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ عِنْدَ الْحَرْبِ مَعَ أُمَّةِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ وَقِتَالَهُمْ عَلَى  
الطَّاعَةِ وَأَمَّا فِي الْجِهَادِ فَلَا يَسْتَعِينُونَ بِهِمْ حَذْرًا مِنْ مَمَّا لَانْتَهُمُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ هَذَا هُوَ

(١) قوله للاتقال والأبنية مراده بالأبنية الخيام كما يدل عليه قوله في فصل الخندق الآتي قريباً إذا نزلوا

وضربوا أبنيتهم ١ هـ .

(٢) الأصوات اللخيفة .

الواقع لهذا العهد وقد أبدينا سببه والله بكل شيء عليم . وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهام وأن تعبئة الحزب عندهم بالمصاف وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفاً وراء صف ويترجلون عن خيولهم ويفرعون سهامهم بين أيديهم ثم يتناضلون جلوساً وكل صف ردة للذي أمامه أن يكسبهم العدو إلى أن يتهيا النصر لإحدى الطائفتين على الأخرى وهي تعبئة محكمة غريبة . وكان من مذاهب الأول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون للزحف حذراً من معرة البيات والهجوم على المعسكر بالليل لما في ظلمته ووخشيته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجذ النفوس في الظلمة ستراً من غاره فإذا تساوا في ذلك أرحف المعسكر ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يخفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبييتهم<sup>(١)</sup> ويديرون الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم حرصاً أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا . وكانت للدول في أمثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الأيدي عليه في كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك فلما حرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفعلة نسي هذا الشأن جملة كأنه لم يكن والله

خير القادرين . وانظر وصية علي رضي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفين تجد كثيراً من علم الحزب ولم يكن أحد أبصر بها منه قال في كلام له : « فسؤوا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن الهام والتووا على أطراف الرماح فإنه أضون للأسنة وعضوا الأنصار فإنه أربط للجاش وأسكن للقلوب واخفتوا الأصوات فإنه أطرذ للفشل وأولى بالوقار وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر » وقال الأشر يومئذ يحرض الأزد : « عضوا على النواجذ من الأضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا

(١) خيامهم .

شِدَّة قَوْمٍ مَوْتُورِينَ يَثَارُونَ بِأَبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ حِنَاقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ وَقَدْ وَطَّنُوا عَلَى  
 الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ لئَلَّا يُسْبَقُوا بِوَثْرِهِ وَلَا يَلْحَقَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَارٌ « وَقَدْ أَشَارَ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ  
 ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصِّيرْفِيُّ شَاعِرٌ لِمَتُونَةَ وَأَهْلِ الأَنْدَلُسِ فِي كَلِمَةٍ يَمْدَحُ بِهَا  
 تَاشِفِينَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ يُونُسَ وَيَصِفُ ثَبَاتَهُ فِي حَرْبٍ شَهِدَهَا وَيَذْكُرُهُ بِأُمُورِ الحَرْبِ  
 فِي وَصَايَا تَحْذِيرَاتٍ تُنَبِّهُكَ عَلَى مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِنْ سِيَاسَةِ الحَرْبِ يَقُولُ فِيهَا .

يَا أَيُّهَا المَلَأُ الَّذِي يَتَّقَنُ	مَنْ مِنْكُمْ المَلِكُ الهِمَامُ الأَرُوعُ
وَمَنْ الَّذِي عَدَرَ العَدُوَّ بِهِ دُجَى	فَانْفَضَّ كُلُّ وَهَوٍ لَا يَتَزَعزَعُ
تَمْضِي الفَوَارِسُ وَالطَّعَانُ يَصُدُّهَا	عَنهُ وَيُذِمُّرُهَا الوَفَاءُ فَتَرْجِعُ
وَاللَّيْلُ مِنْ وَضِحِ التَّرَائِكِ إِنَّهُ	صُبْحٌ عَلَى هَامِ العُيُوشِ يَلْمَعُ
أَنْى فَرَعْتُمْ يَا بَنِي صَنْهَاجِيَةَ	وَإِلَيْكُمْ فِي السَّرُوعِ كَانَ المَفزَعُ
إِنْسَانٍ عَيْنٍ لَمْ يَصِيحْهَا مِنْكُمْ	حُضْنَ وَقَلْبٍ أَسْلَمْتَهُ الأَضْلَعُ
وَصَدَدْتُمْ عَنْ تَاشِفِينَ وَإِنَّهُ	لِعِقَابِهِ لَوْ شَاءَ فِيكُمْ مَوْضِعُ
مَا أَنْتُمْ إِلَّا أَسْوَدُ خَفِيَّةِ	كُلُّ لِكَلِّ كَرِيهَةٍ مُسْتَطَلَعُ
يَا تَاشِفِينَ أقمْ لِحَيْشِكَ عُدْرَهُ	بِاللَّيْلِ وَالْعُدْرُ الَّذِي لَا يُدْفَعُ

#### وَمِنْهَا فِي سِيَاسَةِ الحَرْبِ

أَهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ السِّيَاسَةِ مَا بِهِ	كَانَتْ مُلُوكُ الفُرْسِ قَبْلَكَ تُوَلَّعُ
لَا إِنِّي أَذْرِي بِهَا لِكِنَّهَا	ذِكْرِي تَحْضُ المُؤْمِنِينَ وَتَنْفَعُ
وَالْبَسَ مِنَ العَلْقِ المَضَاعِفَةِ الَّتِي	وَصَى بِهَا صَنَعُ الصَّنَائِعِ تَبَعُ
وَالهِنْدَوَانِيَّ الرَّقِيقَ فَإِنَّهُ	أَمْضَى عَلَى حَدِّ الدَّلَاصِ وَأَقْطَعُ
وَارَكَّبَ مِنَ الخَيْلِ السَّوَابِقِ عِدَّةً	حُضْنَا حَصِينًا لَيْسَ فِيهِ مِذْفَعُ
خَنِيقٌ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ مَحَلَّةً	سَيَانَ تَتَّبِعُ طَافِرًا أَوْ تَتَّبِعُ
وَالوَادِ لَا تَعْبُرُهُ وَانزِلْ عِنْدَهُ	بَيْنَ العَدُوِّ وَبَيْنَ جَيْشِكَ يَقْطَعُ

وَاجْعَلْ مُنَاجِزَةَ الْجِيُوشِ عَشِيَّةً  
وَإِذَا تَضَايَقَتِ الْجِيُوشُ بِمَعْرِكِ  
وَاصْدُمَهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرُثُ  
وَاجْعَلْ مِنَ الطَّلَاعِ أَهْلَ شَهَامَةٍ  
لَا تَسْمَعُ الْكِذَابَ جَاءَكَ مُرْجِئاً  
وَوَرَاءَكَ الصِّدْقَ الَّذِي هُوَ أَمْنَعُ  
صَنْكِ فَأَطْرَافَ الرِّمَاحِ تُوَسِّعُ  
شَيْئاً فَأِظْهَارُ النُّكُولِ يُضْعَعُ  
لِلصِّدْقِ فِيهِمْ شِيْمَةٌ لَا تَخْدَعُ  
لَا رَأْيَ لِلْكَذَابِ فِيمَا يَصْنَعُ

قَوْلُهُ وَاصْدُمَهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْتَرُثُ الْبَيْتُ مُخَالِفٌ لِمَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ فَقَدْ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودِ الثَّقَفِيِّ لَمَّا وُلَاهُ حَرْبَ فَارِسَ وَالْعِرَاقِ فَقَالَ لَهُ اسْمَعْ وَأَطِعْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَشْرِكْهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَا تُجِيبَنَّ مُسْرِعاً حَتَّى تَتَبَيَّنَ فَإِنَّهَا الْحَرْبُ وَلَا يُضْلِحُ لَهَا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ <sup>(١)</sup> الَّذِي يَعْرِفُ الْفُرْصَةَ وَالْكَفَّ وَقَالَ لَهُ فِي أُخْرَى : « إِنَّهُ لَنْ يَمْنَعَنِي أَنْ أُوْمَرَ سَلِيطاً إِلَّا سُرْعَتُهُ فِي الْحَرْبِ وَفِي التَّسْرُعِ فِي الْحَرْبِ إِلَّا عَنِ بَيَانِ ضِيَاعِ وَاللَّهِ لَوْلَا ذَلِكَ لَأَمْرْتُهُ لَكِنَّ الْحَرْبَ لَا يُضْلِحُهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ » هَذَا كَلَامُ عُمَرَ وَهُوَ شَاهِدٌ بِأَنَّ التَّشَاغُلَ فِي الْحَرْبِ أَوْلَى مِنَ الْخُفُوفِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَالُ تِلْكَ الْحَرْبِ وَذَلِكَ عَكْسُ مَا قَالَهُ الصِّيرَفِيُّ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ أَنْ الصَّدْمَ بَعْدَ الْبَيَانِ <sup>(٢)</sup> فَلَهُ وَجْهٌ وَاللَّهِ تَعَالَى أَعْلَمُ . وَلَا وَثُوقَ فِي الْحَرْبِ بِالظَّفَرِ وَإِنْ حَصَلَتْ أَسْبَابُهُ مِنَ الْعِدَّةِ وَالْعَدِيدِ وَإِنَّمَا الظَّفَرُ فِيهَا وَالغَلْبُ مِنْ قَبِيلِ الْبَحْثِ وَالِاتِّفَاقِ وَبَيَانِ ذَلِكَ أَنَّ أَسْبَابَ الْغَلْبِ فِي الْأَكْثَرِ مُجْتَمِعَةٌ مِنْ أُمُورٍ ظَاهِرَةٌ وَهِيَ الْجِيُوشُ وَوُفُورُهَا وَكَمَالُ الْأَسْلِحَةِ وَاسْتِجَادَتُهَا وَكَثْرَةُ الشُّجْعَانِ وَتَرْتِيبُ الْمَصَافِ وَمِنْهُ صِدْقُ الْقِتَالِ وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ وَمِنْ أُمُورٍ خَفِيَّةٍ وَهِيَ إِمَامٌ مِنْ خِدَاعِ النَّبَشِ وَحِيلِهِمْ فِي الْإِرْجَافِ وَالتَّشَانِيعِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا التَّخْذِيلُ وَفِي التَّقَدُّمِ إِلَى الْأَمَاكِينِ الْمُرْتَفِعَةِ لِيَكُونَ الْحَرْبُ مِنْ أَعْلَى فَيَتَوَهَّمُ الْمُنْخَفِضُ لِلذِّكِّ وَفِي الْكُمُومِ فِي الْغِيَاضِ وَمُطْمَئِنُّ الْأَرْضِ وَالتَّوَارِي بِالْكَدَى <sup>(٣)</sup> حَوْلَ الْعُدُوِّ حَتَّى يَتَدَاوَلَهُمُ الْعَسْكَرُ

(١) المكيث : الرزين المتأني ( النجد ) .

(٢) كلمة البيان ليس لها معنى في هذه الجملة ولعلها محرفة من كلمة بيات كما يقتضيه سياق المعنى .

(٣) يقال : الحافر بلغ الكدية فلا يمكنه أن يحفر . حفر فاكدي أي بلغ الصلب والكدي الأرض

الصلبة . ( النجد ) .

دَفْعَةً وَقَدْ تَوَرَّطُوا فَيَتَلَفَّتُونَ إِلَى النَّجَاةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْأَسْبَابُ  
الْخَفِيَّةُ أَمْوَرًا سَمَاوِيَّةً لَا قُدْرَةَ لِلْبَشَرِ عَلَى اكْتِسَابِهَا تُلْقَى فِي الْقُلُوبِ فَيَسْتَوْلِي  
الرَّهْبُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِهَا فَتَحْتَلُّ مَرَازِكُهُمْ فَتَقَعُ الْهَزِيمَةُ وَأَكْثَرُ مَا تَقَعُ الْهَزَائِمُ عَنْ هَذِهِ  
الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ لِكَثْرَةِ مَا يُعْتَمَلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِيهَا حِرْصًا عَلَى الْغَلْبِ  
فَلَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِ التَّائِيْرِ فِي ذَلِكَ لِأَحَدِهِمَا ضَرُورَةٌ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ « الْحَرْبُ  
خُدْعَةٌ » وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ « رَبِّ حِيلَةَ أَنْفَعَ مِنْ قَبِيلَةٍ » فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وَقُوعَ الْغَلْبِ  
فِي الْحُرُوبِ غَالِبًا عَنْ أَسْبَابِ خَفِيَّةٍ غَيْرِ ظَاهِرَةٍ وَوُقُوعِ الْأَشْيَاءِ عَنِ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ  
هُوَ مَعْنَى الْبَحْتِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ فَاعْتَبِرْهُ وَتَفَهَّمْ مِنْ وَقُوعِ الْغَلْبِ عَنِ الْأَمْوَرِ  
السَّمَاوِيَّةِ كَمَا شَرَحْنَاهُ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ « نَصَرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » وَمَا  
وَقَعَ مِنْ غَلْبِهِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي حَيَاتِهِ بِالْعَدَدِ الْقَلِيلِ وَغَلْبِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ  
فِي الْفَتْوحَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَكْفُلُ لِنَبِيِّهِ بِالْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ  
حَتَّى يَسْتَوْلِي عَلَى قُلُوبِهِمْ فَيَنْهَزُمُوا مُعْجِزَةً لِرَسُولِهِ ﷺ فَكَانَ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِهِمْ  
سَبَبًا لِلْهَزَائِمِ فِي الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا أَنَّهُ خَفِيَ عَنِ الْعَيُونِ . وَقَدْ ذَكَرَ  
الطَّرْطُوشِيُّ : أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْغَلْبِ فِي الْحَرْبِ أَنْ تَفْضَلَ عِدَّةَ الْفُرْسَانِ الْمَشَاهِيرِ مِنَ  
الشُّجْعَانِ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى عِدَّتِهِمْ فِي الْجَانِبِ الْآخَرَ مِثْلَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ  
الْجَانِبَيْنِ فِيهِ عَشْرَةٌ أَوْ عَشْرُونَ مِنَ الشُّجْعَانِ الْمَشَاهِيرِ وَفِي الْجَانِبِ الْآخَرَ ثَمَانِيَّةٌ أَوْ  
سِتَّةٌ عَشَرَ فَالْجَانِبُ الزَّائِدُ وَلَوْ بِوَاحِدٍ يَكُونُ لَهُ الْغَلْبُ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَى وَهُوَ  
رَاجِعٌ إِلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي قَدَّمْنَا وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ . وَإِنَّمَا الصَّحِيحُ الْمُعْتَبَرُ فِي  
الْغَلْبِ حَالُ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَصَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّهِمْ وَفِي  
الْجَانِبِ الْآخَرَ عَصَائِبُ مُتَعَدِّدَةٌ لِأَنَّ الْعَصَائِبَ إِذَا كَانَتْ مُتَعَدِّدَةً يَقَعُ بَيْنَهَا مِنْ  
التَّخَاذُلِ مَا يَقَعُ فِي الْوَحْدَانِ الْمُتَفَرِّقِينَ الْفَاقِدِينَ لِلْعَصَبِيَّةِ تَنْزُلُ كُلُّ عَصَابَةٍ مِنْهُمْ  
مَنْزِلَةَ الْوَاحِدِ وَيَكُونُ الْجَانِبُ الَّذِي عَصَابَتُهُ مُتَعَدِّدَةٌ لَا يَقَاوِمُ الْجَانِبَ الَّذِي عَصَبَتُهُ  
وَاحِدَةٌ لِأَجْلِ ذَلِكَ فَتَفَهَّمْهُ وَاعْلَمْ أَنَّهُ أَصْحَحُ فِي الْإِعْتِبَارِ مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ الطَّرْطُوشِيُّ وَلَمْ

يَحْمِلُهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا نِسْيَانُ شَأْنِ الْعَصِيَّةِ فِي حُلَّةِ وَبِلْدَةِ وَأَنْهُمْ إِنَّمَا يَرَوْنَ ذَلِكَ الدَّفَاعَ  
وَالْحِمَايَةَ وَالْمُطَالَبَةَ إِلَى الْوَحْدَانِ وَالْجَمَاعَةَ النَّاشِئَةَ عَنْهُمْ لَا يُعْتَبِرُونَ فِي ذَلِكَ  
عَصِيَّةً وَلَا نَسْبًا وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ أَوَّلَ الْكِتَابِ مَعَ أَنَّ هَذَا وَأَمْثَالَهُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ  
إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ مِثْلِ اتِّفَاقِ الْجَيْشِ فِي الْعِدَّةِ وَصِدْقِ الْقِتَالِ وَكَثْرَةِ  
الْأَسْلِحَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا فَكَيْفَ يُجْعَلُ ذَلِكَ كَفِيلاً بِالْغَلْبِ وَنَحْنُ قَدْ قَرَّرْنَا لَكَ الْآنَ أَنَّ  
شَيْئاً مِنْهَا لَا يُعَارِضُ الْأَسْبَابَ الْخَفِيَّةَ مِنَ الْحَيْلِ وَالْخِدَاعِ وَلَا الْأُمُورَ السَّمَاوِيَّةَ مِنَ  
الرُّعْبِ وَالْخِذْلَانِ الْإِلَهِيِّ فَافْهَمْهُ وَتَفَهَّمْ أَحْوَالَ الْكُونِ « وَاللَّهِ مَقْدَرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » .  
وَيُلْحَقُ بِمَعْنَى الْغَلْبِ فِي الْحُرُوبِ وَأَنَّ أَسْبَابَهُ خَفِيَّةٌ وَغَيْرُ طَبِيعِيَّةٌ حَالَ الشُّهْرَةِ  
وَالصِّيتِ فَقُلْ أَنَّ تَصَادِفَ مَوْضِعِهَا فِي أَحَدٍ مِنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ  
وَالصَّالِحِينَ وَالْمُنْتَحِلِينَ لِلْفَضَائِلِ عَلَى الْعُمُومِ وَكَثِيرٍ مِمَّنْ اشتهَرَ بِالشَّرِّ وَهُوَ بِخِلَافِهِ  
وَكَثِيرٍ مِمَّنْ تَجَاوَزَتْ عَنْهُ الشُّهْرَةُ وَهُوَ أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا وَقَدْ تَصَادَفَ مَوْضِعُهَا وَتَكُونُ  
طَبَقاً عَلَى صَاحِبِهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الشُّهْرَةَ وَالصِّيتَ إِنَّمَا هُمَا بِالْإِخْبَارِ وَالْإِخْبَارُ  
يَدْخُلُهَا الذُّهُولُ عَنِ الْمَقَاصِدِ عِنْدَ التَّنَاقُلِ وَيَدْخُلُهَا التَّعَصُّبُ وَالتَّشْيِيعُ وَيَدْخُلُهَا  
الْأَوْهَامُ وَيَدْخُلُهَا الْجَهْلُ بِمُطَابَقَةِ الْحِكَايَاتِ لِلْأَحْوَالِ لِخِفَائِهَا بِالتَّلْبِيسِ وَالتَّصْنِيعِ  
أَوْ لِجَهْلِ النَّاقِلِ وَيَدْخُلُهَا التَّقَرُّبُ لِأَصْحَابِ التَّجَلَّةِ وَالْمَرَاتِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِالثَّنَاءِ  
وَالْمَدْحِ وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ الذِّكْرِ بِذَلِكَ وَالنُّفُوسُ مُوَلَّعَةٌ بِحُبِّ الثَّنَاءِ وَالنَّاسُ  
مُتَطَاوِلُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابُهَا مِنْ جَاهِ أَوْ ثَرْوَةٍ وَلَيْسُوا مِنَ الْأَكْثَرِ بِرَاغِبِينَ فِي  
الْفَضَائِلِ وَلَا مُنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا وَأَيْنَ مُطَابَقَةُ الْحَقِّ مَعَ هَذِهِ كُلِّهَا فَتَخْتَلُ الشُّهْرَةُ عَنْ  
أَسْبَابِ خَفِيَّةٍ مِنْ هَذِهِ وَتَكُونُ غَيْرَ مُطَابِقَةٍ وَكُلُّ مَا حَصَلَ بِسَبَبِ خَفِيٍّ فَهُوَ الَّذِي  
يَعْبُرُ عَنْهُ بِالْبَخْتِ كَمَا تَقَرَّرَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

## الفصل الثامن والثلاثون

### في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

إِغْلَمَ أَنَّ الْجَبَايَةَ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ تَكُونُ قَلِيلَةً الْوَزَائِعُ كَثِيرَةً الْجُمْلَةَ وَآخِرَ الدَّوْلَةِ تَكُونُ كَثِيرَةً الْوَزَائِعُ قَلِيلَةً الْجُمْلَةَ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ الدِّينِ فَلَيْسَتْ تَقْتَضِي إِلَّا الْمَغَارِمَ الشَّرْعِيَّةَ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْخَرَاجِ وَالْجِزْيَةِ وَهِيَ قَلِيلَةٌ الْوَزَائِعُ لِأَنَّ مِقْدَارَ الزَّكَاةِ مِنَ الْمَالِ قَلِيلٌ كَمَا عَلِمْتَ وَكَذَا زَكَاةُ الْحُبُوبِ وَالْمَاشِيَةِ وَكَذَا الْجِزْيَةُ وَالْخَرَاجُ وَجَمِيعُ الْمَغَارِمِ الشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ حُدُودٌ لَا تَتَعَدَّى وَإِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ التَّغْلِبِ وَالْعَصَبِيَّةِ فَلَا بُدَّ مِنَ الْبِدَاوَةِ فِي أَوَّلِهَا كَمَا تَقَدَّمَ وَالْبِدَاوَةُ تَقْتَضِي الْمُسَامَحَةَ وَالْمُكَارَمَةَ وَخَفْضَ الْجَنَاحِ وَالتَّجَافِي عَنِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالْغَفْلَةَ عَنِ تَحْصِيلِ ذَلِكَ إِلَّا فِي النَّادِرِ فَيَقِلُّ لِذَلِكَ مِقْدَارُ الْوِظِيْفَةِ الْوَاحِدَةِ وَالْوِزْيَعَةُ الَّتِي تُجْمَعُ الْأَمْوَالُ مِنْ مَجْمُوعِهَا وَإِذَا قَلَّتِ الْوَزَائِعُ وَالْوِظَائِفُ عَلَى الرِّعَايَا نَشِطُوا لِلْعَمَلِ وَرَغَبُوا فِيهِ فَيَكْثُرُ الْإِعْتِمَارُ وَيَتَزَايِدُ لِحُصُولِ الْإِعْتِبَاطِ بِقَلَّةِ الْمَغْرَمِ وَإِذَا كَثُرَ الْإِعْتِمَارُ كَثُرَتْ أَعْدَادُ تِلْكَ الْوِظَائِفِ وَالْوَزَائِعِ فَكَثُرَتْ الْجَبَايَةُ الَّتِي هِيَ جُمْلَتُهَا فَإِذَا اسْتَمَرَّتِ الدَّوْلَةُ وَاتَّصَلَتْ وَتَعَاقَبَ مَلُوكُهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَاتَّصَفُوا بِالْكَيسِ وَذَهَبَ سِرُّهُ<sup>(١)</sup> الْبِدَاوَةُ وَالسُّدَاجَةُ وَخُلِقَ مِنْهَا مِنَ الْإِعْضَاءِ وَالتَّجَافِي وَجَاءَ الْمَلِكُ الْعَضُوضُ<sup>(٢)</sup> وَالْحَضَارَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْكَيسِ وَتَخَلَّقَ أَهْلُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِخُلُقِ التَّحَذَلِ وَتَكَثَّرَتْ عَوَائِدُهُمْ وَحَوَائِجُهُمْ بِسَبَبِ مَا انْفَعَسُوا فِيهِ مِنَ النِّعِيمِ وَالتَّرَفِ فَيَكْثُرُونَ الْوِظَائِفَ وَالْوَزَائِعَ حِينَئِذٍ عَلَى الرِّعَايَا وَالْأَكْرَةَ<sup>(٣)</sup> وَالْفَلَاحِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ

(١) وفي نسخة أخرى شرٌ ولعلها محرفة من كلمة أثر كما يقتضي معنى السياق .

(٢) ج العَضُ : الشديد القوي ( المنجد ) .

(٣) الأكرة ج أكار وأكارون ، الحرات ( المنجد ) .



الْمَعَارِمِ وَيَزِيدُونَ فِي كُلِّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيْعَةٍ مِقْدَاراً عَظِيماً لِتَكْثُرَ لَهُمُ الْجَبَايَةُ  
 وَيَضَعُونَ الْمَكُوسَ عَلَى الْمَبَايِعَاتِ وَفِي الْأَبْوَابِ كَمَا نَذَكُرُ بَعْدُ ثُمَّ تَتَدْرَجُ الزِّيَادَاتُ  
 فِيهَا بِمِقْدَارِ بَعْدُ مِقْدَارٍ لِتَدْرُجَ عَوَائِدُ الدَّوْلَةِ فِي التَّرْفِ وَكَثْرَةِ الْحَاجَاتِ وَالْإِنْفَاقِ  
 بِسَبَبِهِ حَتَّى تَثْقُلَ الْمَعَارِمُ عَلَى الرِّعَايَا وَتَهْضِمَهُمْ وَتَصِيرَ عَادَةً مَفْرُوضَةً لِأَنَّ تِلْكَ  
 الزِّيَادَةُ تَدْرُجَتْ قَلِيلاً قَلِيلاً وَلَمْ يَشْعُرْ أَحَدٌ بِمَنْ زَادَهَا عَلَى التَّغْيِينِ وَلَا مَنْ هُوَ  
 وَاضِعُهَا إِنَّمَا ثَبَّتَ عَلَى الرِّعَايَا فِي الْإِعْتِمَارِ لِذَهَابِ الْأَمَلِ مِنْ نَفْسِهِمْ بِقِلَّةِ النِّفْعِ إِذَا  
 قَابَلَ بَيْنَ نَفْسِهِ وَمَعَارِمِهِ وَبَيْنَ ثَمَرَتِهِ وَقَائِدَتِهِ فَتَنْقَبِضُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَيْدِي عَنِ  
 الْإِعْتِمَارِ جُمْلَةً فَتَنْقُصُ جُمْلَةً الْجَبَايَةَ حِينَئِذٍ يَنْقُصَانِ تِلْكَ الْوَزَائِعَ مِنْهَا وَرُبَّمَا  
 يَزِيدُونَ فِي مِقْدَارِ الْوِظَائِفِ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ النِّقْصَ فِي الْجَبَايَةِ وَيَحْسِبُونَهُ جَبْرًا لَمَّا  
 نَقَصَ حَتَّى تَنْتَهِيَ كُلُّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيْعَةٍ إِلَى غَايَةِ لَيْسَ وَرَاءَهَا نَفْعٌ وَلَا فَائِدَةٌ لِكثْرَةِ  
 الْإِنْفَاقِ حِينَئِذٍ فِي الْإِعْتِمَارِ وَكَثْرَةِ الْمَعَارِمِ وَعَدَمِ وِفَاءِ الْفَائِدَةِ الْمَرْجُوعَةِ بِهِ فَلَا تَزَالُ  
 الْجُمْلَةُ فِي نَقْصٍ وَمِقْدَارُ الْوَزَائِعِ وَالْوِظَائِفِ فِي زِيَادَةٍ لَمَّا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ جَبْرِ الْجُمْلَةِ  
 بِهَا إِلَى أَنْ يَنْتَقِصَ الْعُمَرَانُ بِذَهَابِ الْأَمَالِ مِنَ الْإِعْتِمَارِ وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى  
 الدَّوْلَةِ لِأَنَّ فَائِدَةَ الْإِعْتِمَارِ عَائِدَةٌ إِلَيْهَا وَإِذَا فَهَمْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ أَنَّ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي  
 الْإِعْتِمَارِ تَقْلِيلُ مِقْدَارِ الْوِظَائِفِ عَلَى الْمُعْتَمِرِينَ مَا أَمَكَّنَ فَبِذَلِكَ تَنْبَسِطُ النُّفُوسُ  
 إِلَيْهِ لِثِقَتِهَا بِإِذْرَاكِ الْمُنْفَعَةِ فِيهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى « مَالِكُ الْأُمُورِ كُلِّهَا وَبِيَدِهِ  
 مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » <sup>(١)</sup>

## الفصل التاسع والثلاثون

### في ضرب المكوس أواخر الدولة

إَعْلَمُ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَكُونُ فِي أَوَّلِهَا بَدْوِيَّةً كَمَا قُلْنَا فَتَكُونُ لِذَلِكَ قَلِيلَةَ الْحَاجَاتِ  
 لِعَدَمِ التَّرْفِ وَعَوَائِدِهِ فَيَكُونُ خَرْجُهَا وَإِنْفَاقُهَا قَلِيلاً فَيَكُونُ فِي الْجَبَايَةِ حِينَئِذٍ وِفَاءً

(١) سورة يس من الآية الأخيرة.

بِأَزِيدٍ مِنْهَا كَثِيرٌ عَنْ حَاجَاتِهِمْ ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَأْخُذَ بِيَدَيْنِ الْحَضَارَةِ فِي التَّرْفِ وَعَوَائِدِهَا وَتَجْرِي عَلَى نَهْجِ الدُّوَلِ السَّابِقَةِ قَبْلَهَا فَيَكْثُرُ لِنَدِكَ خَرَاجُ أَهْلِ الدُّوَلَةِ وَيَكْثُرُ خَرَاجُ السُّلْطَانِ خُصُوصاً كَثْرَةً بِالْعَةِ بِنَفَقَتِهِ فِي خَاصَّتِهِ وَكَثْرَةً عَطَائِهِ وَلَا تَفِي بِذَلِكَ الْجَبَايَةُ فَتَحْتَاجُ الدُّوَلَةُ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي الْجَبَايَةِ لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْحَامِيَةُ مِنَ الْعَطَاءِ وَالسُّلْطَانُ مِنَ النَّفَقَةِ فَيَزِيدُ فِي مَقْدَارِ الْوُظَائِفِ وَالْوَزَائِعِ أَوَّلًا كَمَا قُلْنَا ثُمَّ يَزِيدُ الْخَرَاجَ وَالْحَاجَاتَ وَالتَّدْرِيجَ فِي عَوَائِدِ التَّرْفِ وَفِي الْعَطَاءِ لِلْحَامِيَةِ وَيَذْرُكُ الدُّوَلَةَ الْهَرَمَ وَتَضَعُ عَصَابَتَهَا عَنْ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْقَاصِيَةِ فَتَقِلُّ الْجَبَايَةُ وَتَكْثُرُ الْعَوَائِدُ وَيَكْثُرُ بِكَثْرَتِهَا أَرْزَاقُ الْجُنْدِ وَعَطَاؤُهُمْ فَيَسْتَحْدِثُ صَاحِبُ الدُّوَلَةِ أَنْوَاعاً مِنَ الْجَبَايَةِ يَضْرِبُهَا عَلَى الْبِيَاعَاتِ وَيَفْرُضُ لَهَا قَدْرًا مَعْلُومًا عَلَى الْأَثْمَانِ فِي الْأَسْوَاقِ وَعَلَى أَعْيَانِ السَّلْعِ فِي أَمْوَالِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ مَعَ هَذَا مُضْطَرٌّ لِذَلِكَ بِمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ طُرُقُ النَّاسِ مِنْ كَثْرَةِ الْعَطَاءِ مِنْ زِيَادَةِ الْجِيُوشِ وَالْحَامِيَةِ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ الدُّوَلَةِ زِيَادَةً بِالْعَةِ فَتَكْسَدُ الْأَسْوَاقُ لِفَسَادِ الْأَمَالِ وَيُؤَدِّنُ ذَلِكَ بِاخْتِلَالِ الْعُمَرَانِ وَيَعُودُ عَلَى الدُّوَلَةِ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتْرَايِدُ إِلَى أَنْ تَضْمَحَلَّ . وَقَدْ كَانَ وَقَعَ مِنْهُ بِأَمْصَارِ الْمَشْرِقِ فِي أَخْرِيَاتِ الدُّوَلَةِ الْعُبَيْسِيَّةِ وَالْعُبَيْدِيَّةِ كَثِيرٌ وَفَرَضَتْ الْمَغَارِمَ حَتَّى عَلَى الْحَاجِّ فِي الْمَوْسِمِ وَأَسْقَطَ صَلاَحُ الدِّينِ أَيُّوبُ تِلْكَ الرُّسُومَ جُمْلَةً وَأَعَاضَهَا بِأَثَارِ الْخَيْرِ وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ لِعَهْدِ الطُّوَائِفِ حَتَّى مَحَى رَسْمَهُ يَوْسُفُ بْنُ تَاشَفِينَ أَمِيرُ الْمَرَابِطِينَ وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِأَمْصَارِ الْجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ لِهَذَا الْعَهْدِ حِينَ اسْتَبَدَّ بِهَا رُؤَسَاؤُهَا وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

## الفصل الأربعون

في أن التجارة من السلطان مضرّة بالرعايا ومفسدة للجباية  
إعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد

وَالنَّفَقَاتِ وَقَصْرَ الْحَاصِلِ مِنْ جِبَايَتِهَا عَلَى الْوَفَاءِ بِحَاجَاتِهَا وَنَفَقَاتِهَا وَاحْتِاجَتْ إِلَى مَزِيدِ الْمَالِ وَالْجِبَايَةِ فَتَارَةً تُوَضَعُ الْمَكُوسُ عَلَى بِنَاعَاتِ الرَّعَايَا وَأَسْوَاقِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي الْفَضْلِ قَبْلَهُ وَتَارَةً بِالزِّيَادَةِ فِي الْقَابِ الْمَكُوسِ إِنْ كَانَ قَدْ اسْتُحْدِثَ مِنْ قَبْلِ وَتَارَةً بِمُقَاسَمَةِ الْعُمَالِ وَالْجِبَاةِ وَامْتِكَاكِ<sup>(١)</sup> عِظَامِهِمْ لِمَا يَرُونَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى شَيْءٍ طَائِلٍ مِنْ أَمْوَالِ الْجِبَايَةِ لَا يُظْهِرُهُ الْحِسْبَانُ وَتَارَةً بِاسْتِحْدَاثِ التُّجَارَةِ وَالْفَلَاحَةِ لِلسُّلْطَانِ عَلَى تَسْمِيَةِ الْجِبَايَةِ لِمَا يَرُونَ التُّجَارَ وَالْفَلَاحِينَ يَحْصُلُونَ عَلَى الْفَوَائِدِ وَالغَلَّاتِ مَعَ يَسَارَةٍ<sup>(٢)</sup> أَمْوَالِهِمْ وَأَنَّ الْأَرْبَاحَ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ فَيَأْخُذُونَ فِي اكْتِسَابِ الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ لِاسْتِغْلَالِهِ فِي شِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَالتَّعَرُّضِ بِهَا لِحَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ وَيَحْسِبُونَ ذَلِكَ مِنْ إِدْرَارِ الْجِبَايَةِ وَتَكْثِيرِ الْفَوَائِدِ وَهُوَ غَلَطٌ عَظِيمٌ وَإِذْخَالُ الضَّرَرِ عَلَى الرَّعَايَا مِنْ وُجُوهِ مُتَعَدِّدَةٍ فَأَوْلَى مُضَاقِقَةَ الْفَلَاحِينَ وَالتُّجَارِ فِي شِرَاءِ الْحَيَوَانَ وَالْبَضَائِعِ وَتَيْسِيرِ أَسْبَابِ ذَلِكَ فَإِنَّ الرَّعَايَا مُتَكَافِئُونَ فِي الْيَسَارِ مُتَقَارِبُونَ وَمُزَاحِمَةٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا تَنْتَهِي إِلَى غَايَةِ مَوْجُودِهِمْ أَوْ تَقَرُّبٍ وَإِذَا رَافَقَهُمُ السُّلْطَانُ فِي ذَلِكَ وَمَالُهُ أَعْظَمُ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَحْصُلُ عَلَى غَرَضِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ حَاجَاتِهِ وَيَدْخُلُ عَلَى النُّفُوسِ مِنْ ذَلِكَ غَمٌّ وَنَكَدٌ ثُمَّ إِنْ السُّلْطَانُ قَدْ يَنْتَزِعُ الْكَثِيرَ مِنْ ذَلِكَ إِذَا تَعَرَّضَ لَهُ غَضًا أَوْ بِأَيْسَرِ ثَمَنٍ أَوْ لَا يَجِدُ مَنْ يُنَاقِشُهُ فِي شِرَائِهِ فَيَبْتَغِي ثَمَنَهُ عَلَى بَائِعِهِ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ فَوَائِدُ الْفَلَاحَةِ وَمُغْلَهَا كُلُّهُ مِنْ زَرْعٍ أَوْ حَرِيرٍ أَوْ عَسَلٍ أَوْ سَكَّرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْغَلَّاتِ وَحَصَلَتْ بَضَائِعُ التُّجَارَةِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ فَلَا يَنْتَظِرُونَ بِهِ حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ وَلَا نِفَاقَ الْبِنَاعَاتِ لِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ تَكَالِيفُ الدَّوْلَةِ فَيَكْلِفُونَ أَهْلَ تِلْكَ الْأَصْنَافِ مِنْ تَاجِرٍ أَوْ فَلَاحٍ بِشِرَاءِ تِلْكَ الْبَضَائِعِ وَلَا يَرْضُونَ فِي أَثْمَانِهَا إِلَّا الْقِيمَ وَأَزِيدَ فَيَسْتَوْعِبُونَ فِي ذَلِكَ نَاضٍ<sup>(٣)</sup> أَمْوَالِهِمْ وَتَبْقَى تِلْكَ الْبَضَائِعُ بِأَيْدِيهِمْ عُرُوضًا جَامِدَةً وَيَمَكُثُونَ عَطْلًا مِنَ الْإِدَارَةِ

(١) متك الشيء خطمه وكسره والمعنى هنا مجاز .

(٢) قلة .

(٣) ناض ، الدرهم والدينار ويقال استخلصه منه نضاً أي نقداً ( النجد ) .

التي فيها كسبهم ومعاشهم وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن . وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله فيتعهد عن سوقه ويتعدّد ذلك ويتكرر ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدي إلى فساد الجباية فإن معظم الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار ولا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقل من القليل ثم إنه ولو كان مفيداً فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانیه من شراء أو بيع فإنه من البعيد أن يوجد فيه من المكس ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسبها كلها حاصلاً من جهة الجباية ثم فيه التعرض لأهل عمرانه واختلال الدولة بفسادهم ونقصهم فإن الرعايا إذا قعدوا عن تسمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها تلاف أحوالهم . فافهم ذلك (١) وكان الفرس لا يملكون عليهم إلا من أهل بيت المملكة ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخاء والشجاعة والكرم ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وأن لا يتخذ صنعة فيضرب بجيرانه ولا يتاجر فيحب غلاء الأسعار في البضائع وأن لا يستخدم العبيد فإنهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة . وأعلم أن السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده إلا الجباية وإدراؤها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال والنظر لهم بذلك فنبت تنبسط آمالهم وتشرح صدورهم للأخذ في تسمير الأموال وتنميتها فتعظم منها جباية

(١) علق الدكتور علي عبد الواحد وأفي على ذلك في نسخة لجنة البيان العربي فيقول :

( يتفق ما يراه ابن خلدون في صدد الأضرار المترتبة على دخول الحكومة مشترية في السوق وعلى اشتغالها بالتجارة أو احتكارها لبعض الأصناف واعتبار ذلك ضرائب غير مباشرة على المستهلكين . . . يتفق ذلك مع ما يراه كثير من المحدثين من علماء الاقتصاد السياسي . انظر كتابنا في « الاقتصاد السياسي » فصل « المنافسة الحرة » . ص ١٩٤ - ٢٠٠ في الطبعة الخامسة ) .

السُّلْطَانِ وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ تِجَارَةِ أَوْ فَلَاحٍ فَإِنَّمَا هُوَ مُضْرَّةٌ عَاجِلَةٌ لِلرُّعَايَا وَفَسَادٌ لِلجَبَايَةِ وَنَقْصٌ لِلعِمَارَةِ وَقَدْ يَنْتَهِي الْحَالُ بِهَؤُلَاءِ الْمُنْسَلِخِينَ لِلتِّجَارَةِ وَالْفَلَاحَةِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْمُتَعَلِّبِينَ فِي الْبُلْدَانِ أَنَّهُمْ يَتَعَرَّضُونَ لِشِرَاءِ الْعَلَاتِ وَالسَّلْعِ مِنْ أَرْبَابِهَا الْوَارِدِينَ عَلَى بِلَدِهِمْ وَيَفْرَضُونَ لِذَلِكَ مِنَ الثَّمَنِ مَا يَشَاءُونَ وَيَبِيعُونَهَا فِي وَقْتِهَا لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الرُّعَايَا بِمَا يَفْرَضُونَ مِنَ الثَّمَنِ وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى وَأَقْرَبُ إِلَى فَسَادِ الرُّعْيَةِ وَاخْتِلَالِ أَحْوَالِهِمْ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ مَنْ يَدَاخِلُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَغْنَى التُّجَّارِ وَالْفَلَاحِينَ لِمَا هِيَ صِنَاعَتُهُ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا فَيَحْمِلُ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ وَيَضْرِبُ مَعَهُ بِسَهْمٍ لِنَفْسِهِ لِيَحْضَلَ عَلَى غَرَضِهِ مِنْ جَمْعِ الْمَالِ سَرِيعاً وَلَا سِيَّامَ مَعَ مَا يَحْضُلُ لَهُ مِنَ التِّجَارَةِ بِلَا مَعْرُومٍ وَلَا مَكْسٍ فَإِنَّمَا أَجْدَرُ بِنُمُو الْأَمْوَالِ وَأَسْرَعُ فِي تَثْمِيرِهِ وَلَا يَفْهَمُ مَا يَدْخُلُ عَلَى السُّلْطَانِ مِنَ الضَّرْرِ بِنَقْصِ جَبَايَتِهِ فَيَنْبَغِي لِلسُّلْطَانِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَيَعْرِضَ عَنْ سَعَايَتِهِمُ الْمُضِرَّةِ بِجَبَايَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَاللَّهُ يُلْهِمُنَا رُشْدَ أَنْفُسِنَا وَيَنْفَعُنَا بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

## الفصل الحادي والأربعون

في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْجَبَايَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ تَتَوَزَّعُ عَلَى أَهْلِ الْقَبِيلِ وَالْعَصِيَّةِ بِمِقْدَارِ غَنَائِهِمْ وَعَصَبِيَّتِهِمْ وَلِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ فِي تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ فَرَأَيْتُهُمْ فِي ذَلِكَ مُتَجَافٍ لَهُمْ عَمَّا يَسْمُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْتِئْذَانِ عَلَيْهِمْ فَلَهُ عَلَيْهِمْ عِزَّةٌ وَلَهُ إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ فَلَا يُطَيَّرُ<sup>(١)</sup> فِي سُهُمَانِهِ مِنَ الْجَبَايَةِ إِلَّا الْأَقْلُ مِنْ حَاجَتِهِ فَتَجِدُ حَاشِيَتَهُ لِذَلِكَ وَأَذْيَالَهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكَتَّابِ وَالْمَوَالِي مُتَمَلِّقِينَ فِي الْغَالِبِ وَجَاهَهُمْ مُتَقَلِّصٌ لِأَنَّهُ مِنْ جَاهِ مَخْدُومِهِمْ وَنِطَاقِهِ قَدْ ضَاقَ بِمَنْ يُرَاحِمُهُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ

(١) طَيَّرَ وَطَارَ الْمَالُ : قَسَمَهُ .

فَإِذَا اسْتَفْحَلَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ وَحَصَلَ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ الْإِسْتِئْذَانُ عَلَى قَوْمِهِ قَبْضَ أَيْدِيهِمْ عَنِ الْجَبَايَاتِ إِلَّا مَا يَطِيرُ لَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي سُهْمَانِهِمْ وَتَقِلُّ حُطُوطُهُمْ إِذْ ذَاكَ لِقَلَّةِ غِنَائِهِمْ فِي الدَّوْلَةِ بِمَا انْكَبَحَ مِنْ أَعْنَتِهِمْ وَصَارَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعُ مُسَاهِمِينَ لَهُمْ فِي الْقِيَامِ بِالدَّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ الْأَمْرِ فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِالْجَبَايَةِ أَوْ مُعْظِمَهَا وَيَخْتَوِي عَلَى الْأَمْوَالِ وَيَخْتَجِنُهَا لِلنَّفَقَاتِ فِي مِهْمَاتِ الْأَحْوَالِ فَتَكْثُرُ ثَرْوَتُهُ وَتَمْتَلِي خَزَائِنُهُ وَيَتَسَّعُ نِطاقُ جَاهِهِ وَيَعْتَزُّ عَلَى سَائِرِ قَوْمِهِ فَيُعْظِمُ حَالَ حَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ مِنْ وَزِيرٍ وَكَاتِبٍ وَحَاجِبٍ وَمَوْلَى وَشُرْطِيٍّ وَيَتَسَّعُ جَاهُهُمْ وَيَقْتَنُونَ الْأَمْوَالَ وَيَتَأَلَّفُونَهَا<sup>(١)</sup> . ثُمَّ إِذَا أَخَذَتِ الدَّوْلَةُ فِي الْهَرَمِ بِتَلَاشِي الْعَصِيَّةِ وَفَنَاءِ الْقَلِيلِ الْمُعَاهِدِينَ لِلدَّوْلَةِ اِحْتِاجَ صَاحِبِ الْأَمْرِ حِينَئِذٍ إِلَى الْأَعْوَانِ وَالْأَنْصَارِ لِكثْرَةِ الْخَوَارِجِ وَالْمَنَارِعِينَ وَالشُّوَارِ وَتَوَهُمِ الْإِنْتِقَاضِ فَصَارَ خَرَاجُهُ لِيظْهَرَانِهِ وَأَعْوَانِهِ وَهُمْ أَرْبَابُ السُّيُوفِ وَأَهْلُ الْعَصِيَّاتِ وَأَنْفَقَ خَزَائِنِهِ وَحَاصِلَهُ فِي مِهْمَاتِ الدَّوْلَةِ وَقَلَّتْ مَعَ ذَلِكَ الْجَبَايَةُ لِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْعَطَاءِ وَالْإِنْفَاقِ فَيَقِلُّ الْخَرَاجُ وَتَشْتَدُّ حَاجَةُ الدَّوْلَةِ إِلَى الْمَالِ فَيَتَقَلَّصُ ظِلُّ النِّعْمَةِ وَالتَّرَفِ عَنِ الْخَوَاصِّ وَالْحُجَابِ وَالْكَتَابِ بِتَقَلُّصِ الْجَاهِ عَنْهُمْ وَضَيْقِ نِطاقِهِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ تَشْتَدُّ حَاجَةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ إِلَى الْمَالِ وَتَنْفِقُ أَبْنَاءُ الْبَطَانَةِ وَالْحَاشِيَّةِ مَا تَأْتِلُهُ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ فِي غَيْرِ سَبِيلِهَا مِنْ إِعَانَةِ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَيُقْبَلُونَ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ وَسَلَفُهُمْ مِنَ الْمُنَاصِحَةِ وَيَرَى صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ أَحَقُّ بِتِلْكَ الْأَمْوَالِ الَّتِي اِكْتَسَبَتْ فِي دَوْلَةِ سَلْفِهِ وَبِجَاهِهِمْ فَيَضْطَلِمُهَا وَيَنْتَزِعُهَا مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَوَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى نِسْبَةِ رُتَبِهِمْ وَتَنْكُرُ الدَّوْلَةُ لَهُمْ وَيَعُودُ وَبِالْ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِفَنَاءِ حَاشِيَتِهَا وَرِجَالِهَا وَأَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالنِّعْمَةِ مِنْ بَطَانَتِهَا وَيَتَقَوَّضُ بِذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ مَبَانِي الْمَجْدِ بَعْدَ أَنْ يَدْعُمَهُ أَهْلُهُ وَيَرْفَعُوهُ . وَأَنْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ لِرُوزَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي بَنِي قَحْطَبَةَ وَبَنِي بَرْمَكٍ وَبَنِي سَهْلٍ وَبَنِي طَاهِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ ثُمَّ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ عِنْدَ

(١) تأمل المال ، اكتسبه وتقره .

أَنْحِلَالِهَا أَيَّامَ الطَّوَائِفِ فِي بَنِي شُهَيْدٍ وَبَنِي أَبِي عَبْدِ وَبَنِي حُدَيْرٍ وَبَنِي بُرْدٍ  
وَأَمْثَالِهِمْ وَكَذَا فِي الدَّوْلَةِ الَّتِي أَدْرَكْنَاهَا لِمَهْدِنَاسُنَّةِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ .

**فصل :** وَلَمَّا يَتَوَقَّعُهُ أَهْلُ الدَّوْلَةِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَعَاطِبِ صَارَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ  
يَنْزِعُونَ إِلَى الْفِرَارِ عَنِ الرُّتَبِ وَالتَّخْلُصِ مِنْ رِبْقَةِ السُّلْطَانِ بِمَا حَصَلَ فِي أَيْدِيهِمْ  
مِنْ مَالِ الدَّوْلَةِ إِلَى قَطْرِ آخَرَ وَيَرُونَ أَنَّهُ أَهْنَأُ لَهُمْ وَأَسْلَمُ فِي إِتْفَاقِهِ وَحُصُولِ ثَمَرَتِهِ وَهُوَ  
مِنَ الْأَغْلَاطِ الْفَاحِشَةِ وَالْأَوْهَامِ الْمُفْسِدَةِ لِأَحْوَالِهِمْ وَذُنْيَاهُمْ وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلَاصَ مِنْ  
ذَلِكَ بَعْدَ الْحُصُولِ فِيهِ عَسِيرٌ مُمْتَنِعٌ فَإِنْ صَاحِبَ هَذَا الْغَرَضِ إِذَا كَانَ هُوَ الْمَلِكُ  
نَفْسَهُ فَلَا تَمَكَّنُهُ الرَّعِيَّةُ مِنْ ذَلِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَهْلُ الْعَصِيَّةِ الْمُزَاحِمُونَ لَهُ بَلْ فِي  
ظُهُورِ ذَلِكَ مِنْهُ هَذَمٌ لِمَلِكِهِ وَاتِّلَافٌ لِنَفْسِهِ بِمَجَارِي الْعَادَةِ بِذَلِكَ لِأَنَّ رِبْقَةَ الْمَلِكِ  
يَعْسُرُ الْخَلَاصَ مِنْهَا وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ وَضَيْقِ نِطَاقِهَا وَمَا يَغْرُضُ فِيهَا  
مِنَ الْبُعْدِ عَنِ الْمَجِيدِ وَالْخِلَالِ وَالتَّخَلُّقِ بِالشَّرِّ وَأَمَّا إِذَا كَانَ صَاحِبُ هَذَا الْغَرَضِ مِنْ  
بِطَانَةِ السُّلْطَانِ وَحَاشِيَتِهِ وَأَهْلِ الرُّتَبِ فِي دَوْلَتِهِ فَقَلَّ أَنْ يُخْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ .  
أَمَّا أَوْلًا فَلَمَّا يَرَاهُ الْمُلُوكُ أَنَّ ذَوِيهِمْ وَحَاشِيَتَهُمْ بَلْ وَسَائِرَ رِعَايَاهُمْ مَمَالِكُ لَهُمْ  
مُطْلِعُونَ عَلَى ذَاتِ صُدُورِهِمْ فَلَا يَسْمَحُونَ بِحَلِّ رِبْقَتِهِ مِنَ الْخِدْمَةِ ضِنًّا بِأَسْرَارِهِمْ  
وَأَحْوَالِهِمْ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهَا أَحَدٌ ، وَغَيْرَةٌ مِنْ خِدْمَتِهِ لِسَوَاهِهِمْ وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ  
بِالْأَنْدَلُسِ يَمْنَعُونَ أَهْلَ دَوْلَتِهِمْ مِنَ السَّفَرِ لِفَرِيضَةِ الْحَجِّ لِمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ وَقُوعِهِمْ  
بِأَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ فَلَمْ يَخْجُ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِمْ وَمَا أُبِيحَ الْحَجُّ  
لِأَهْلِ الدَّوْلِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ شَأْنِ الْأُمَوِيَّةِ وَرُجُوعِهَا إِلَى الطَّوَائِفِ وَأَمَّا  
ثَانِيًا فَلِأَنَّهُمْ وَإِنْ سَمَحُوا بِحَلِّ رِبْقَتِهِ فَلَا يَسْمَحُونَ بِالتَّجَافِي عَنِ ذَلِكَ الْمَالِ لِمَا  
يَرُونَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ مَالِهِمْ كَمَا يَرُونَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ دَوْلَتِهِمْ إِذْ لَمْ يَكْتَسِبْ إِلَّا بِهَا وَفِي  
ظِلِّ جَاهِهَا ، فَتَحُومُ نَفُوسُهُمْ عَلَى انْتِزَاعِ ذَلِكَ الْمَالِ وَالتَّقَامِيهِ كَمَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ الدَّوْلَةِ  
يَنْتَفِعُونَ بِهِ ثُمَّ إِذَا تَوَهَّمْنَا أَنَّهُ خُلِّصَ بِذَلِكَ الْمَالِ إِلَى قَطْرِ آخَرَ وَهُوَ فِي النَّادِرِ الْأَقْلُ  
فَتَمَنُّدُ إِلَيْهِ أَغْنَى الْمُلُوكِ بِذَلِكَ الْقَطْرِ وَيَنْتَزِعُونَهُ بِالْإِرْهَابِ وَالتَّخْوِيفِ تَعْرِيبًا أَوْ

بِالْقَهْرِ ظَاهِرًا لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ مَالُ الْجَبَايَةِ وَالِدَوْلِ وَأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْإِنْفَاقِ فِي الْمَصَالِحِ  
وَإِذَا كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ تَمْتَدُّ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ الْمُتَكَسِّبِينَ مِنْ وُجُوهِ الْمَعَاشِ  
فَأُخْرَى بِهَا أَنْ تَمْتَدَّ إِلَى أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ وَالِدَوْلِ الَّتِي تَجِدُ السَّبِيلَ إِلَيْهِ بِالشَّرْعِ  
وَالْعَادَةِ وَلَقَدْ حَاوَلَ السُّلْطَانُ أَبُو يَحْيَى زَكَرِيَّا بْنُ أَحْمَدَ اللُّخْيَانِيَّ تَاسِعَ أَوْ عَاشِرَ  
مُلُوكِ الْحَفْصِيِّينَ بِأَفْرِيقَةَ الْخُرُوجِ عَنْ عَهْدَةِ الْمَلِكِ وَاللِّحَاقِ بِمِضْرَ فِرَارًا مِنْ طَلَبِ  
صَاحِبِ الثُّغُورِ الْغُرَبِيَّةِ لَمَّا اسْتَجْمَعَ لِعَزْوِ تُونِسَ فَاسْتَعْمَلَ اللُّخْيَانِيَّ الرَّحْلَةَ إِلَى ثَغْرِ  
طَرَابُلُسَ يُورِي بِتَمْهِيدِهِ وَرَكِبَ السَّفِينِ مِنْ هُنَاكَ وَخَلَصَ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ بَعْدَ  
أَنْ حَمَلَ جَمِيعَ مَا وَجَدَهُ بِنَيْتِ الْمَالِ مِنَ الصَّامِتِ <sup>(١)</sup> وَالذَّخِيرَةِ وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ  
يَخْزَائِنُهُمْ مِنَ الْمَتَاعِ وَالْعِقَارِ وَالْجَوْهَرِ حَتَّى الْكُتُبِ وَاحْتَمَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى مِضْرَ  
وَنَزَلَ عَلَى الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ سَنَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ مِنَ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ فَأَكْرَمَ  
نَزْلَهُ وَرَفَعَ مَجْلِسَهُ وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَخْلِصُ ذَخِيرَتَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِالتَّعْرِيزِ إِلَى أَنْ حَصَلَ  
عَلَيْهَا وَلَمْ يَبْقَ مَعَاشُ ابْنِ اللُّخْيَانِيَّ إِلَّا فِي جِرَائِتِهِ الَّتِي فَرَضَتْ لَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ  
ثَمَانِ وَعَشْرِينَ حَسْبَمَا نَذَرَهُ فِي أَخْبَارِهِ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ جُمْلَةِ الْوَسْوَاسِ الَّذِي  
يَعْتَرِي أَهْلَ الدَّوْلِ لَمَّا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ مُلُوكِهِمْ مِنَ الْمَعَاطِبِ وَإِنَّمَا يَخْلُصُونَ إِنْ اتَّفَقَ  
لَهُمُ الْخُلَاصُ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنَ الْحَاجَةِ فَعَلَطَ وَوَهَمَ وَالَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنْ  
الشُّهْرَةِ بِخِدْمَةِ الدَّوْلِ كَافٍ فِي وَجْدَانِ الْمَعَاشِ لَهُمْ بِالْجِرَائِيَّاتِ السُّلْطَانِيَّةِ أَوْ بِالْجَاهِ  
فِي انْتِحَالِ طُرُقِ الْكَسْبِ مِنَ التَّجَارَةِ وَالْفِلَاحَةِ وَالِدَوْلِ أَنْسَابَ لَكِنْ :

النَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تَرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الرِّزَاقُ وَهُوَ الْمُوقِفُ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .



## الفصل الثاني والأربعون

في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالسُّلْطَانَ هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ لِلْعَالَمِ وَمِنْهُ مَادَّةُ الْعُمَرَانِ فَإِذَا احْتَجَّ السُّلْطَانُ الْأَمْوَالَ أَوْ الْجَبَايَاتِ أَوْ فَقَدَتْ فَلَمْ يَصْرِفَهَا فِي مَصَارِفِهَا قَلَّ حِينِيذُ مَا بِأَيْدِي الْحَاشِيَةِ وَالْحَامِيَةِ وَأَنْقَطَعَ أَيْضًا مَا كَانَ يَصِلُ مِنْهُمْ لِحَاشِيَتِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَقَلَّتْ نَفَقَاتُهُمْ جُمْلَةً وَهُمْ مُعْظَمُ السُّوَادِ وَنَفَقَاتُهُمْ أَكْثَرُ مَادَّةٍ لِلْأَسْوَاقِ مِنْ سِوَاهُمْ فَيَقَعُ الْكَسَادُ حِينِيذُ فِي الْأَسْوَاقِ وَتَضَعُفُ الْأَرْبَاحُ فِي الْمَتَاجِرِ فَيَقِلُّ الْخَرَجُ لِذَلِكَ لِأَنَّ الْخَرَجَ وَالْجَبَايَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْإِعْتِمَارِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَنَفَاقِ الْأَسْوَاقِ وَطَلَبِ النَّاسِ لِلْفَوَائِدِ وَالْأَرْبَاحِ وَوَبَالَ ذَلِكَ عَائِدٌ عَلَى الدَّوْلَةِ بِالنَّقْصِ لِقِلَّةِ أَمْوَالِ السُّلْطَانِ حِينِيذُ بِقِلَّةِ الْخَرَجِ فَإِنَّ الدَّوْلَةَ كَمَا قُلْنَا هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ أُمَّ الْأَسْوَاقِ كُلِّهَا وَأَصْلُهَا وَمَادَّتُهَا فِي الدُّخْلِ وَالخَرْجِ فَإِنْ كَسَدَتْ وَقَلَّتْ مَصَارِفُهَا فَأَجْدِرُ بِمَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَسْوَاقِ أَنْ يَلْحَقَهَا مِثْلُ ذَلِكَ وَأَشَدُّ مِنْهُ وَأَيْضًا فَالْمَالُ إِنَّمَا هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ وَالسُّلْطَانِ مِنْهُمْ إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا حَبَسَهُ السُّلْطَانُ عِنْدَهُ فَقَدَتْهُ الرَّعِيَّةُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ .

## الفصل الثالث والأربعون

في أن الظلم مؤذن بخراب العمران

إِعْلَمُ أَنَّ الْعُدْوَانَ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ ذَاهِبٌ بِأَمْوَالِهِمْ فِي تَحْصِيلِهَا وَاكْتِسَابِهَا

لَمَّا يَرُونَهُ حِينِيذٍ مِنْ أَنْ غَايَتَهَا وَمَصِيرَهَا انْتَبَهَتْ بِهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَإِذَا ذَهَبَتْ أَمَالُهُمْ فِي  
اِكْتِسَابِهَا وَتَحْصِيلِهَا انْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ السُّعْيِ فِي ذَلِكَ وَعَلَى قَدْرِ اِغْتِنَاءِ وَنَسْبَتِهِ  
يَكُونُ انْقِبَاضُ الرُّعَايَا عَنِ السُّعْيِ فِي اِلاِكْتِسَابِ فَإِذَا كَانَ اِلاِغْتِنَاءُ كَثِيرًا عَامًّا فِي  
جَمِيعِ اَبْوَابِ المَعَاشِ كَانَ التُّعُودُ عَنِ الكَسْبِ كَذَلِكَ لِذِهَابِهِ بِاَلْاَمَالِ جُمْلَةً  
بِدُخُولِهِ مِنْ جَمِيعِ اَبْوَابِهَا وَإِنْ كَانَ اِلاِغْتِنَاءُ يَسِيرًا كَانَ اِلاِنْقِبَاضُ عَنِ الكَسْبِ عَلَى  
نَسْبَتِهِ وَالعُمُرَانُ وَوَفُورُهُ وَنَفَاقِ اَسْوَاقِهِ إِنَّمَا هُوَ بِاَلْاَعْمَالِ وَسُعْيِ النَّاسِ فِي المَصَالِحِ  
وَالْمَكَاسِبِ ذَاهِبِينَ وَجَائِينَ فَإِذَا قَعَدَ النَّاسُ عَنِ المَعَاشِ وَانْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ  
المَكَاسِبِ كَسَدَتْ اَسْوَاقُ العُمُرَانِ وَانْتَفَضَتِ اَلْاَحْوَالُ وَابْدَعَرُ<sup>(١)</sup> النَّاسُ فِي اَلْاَفَاقِ مِنْ  
غَيْرِ تِلْكَ اَلْاِيَالَةِ فِي طَلَبِ الرُّزْقِ فِيمَا خَرَجَ عَنْ نِطَاقِهَا فَخَفَّ سَاكِنُ القُطْرِ وَخَلَّتْ  
ذِيَارُهُ وَخَرَجَتْ اَمْصَارُهُ وَاخْتَلَّ بِاِخْتِلَالِهِ حَالُ الدُّوَلَةِ وَالسُّلْطَانِ لَمَّا اُنْتَهَى صُورَةُ  
لِالعُمُرَانِ تَفْسُدُ بِفَسَادِ مَاذَنْتِهَا صُرُورُهُ وَانظُرْ فِي ذَلِكَ مَا حَكَاهُ المَسْعُودِيُّ فِي اَخْبَارِ  
الفُرسِ عَنِ المُوْبَذَانَ صَاحِبِ الدِّينِ عِنْدَهُمْ أَيَّامَ بَهْرَامِ بْنِ بَهْرَامٍ وَمَا عَرَضَ بِهِ  
لِلْمَلِكِ فِي اِنْكَارِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالعُفْلَةِ عَنْ عَائِدَتِهِ عَلَى الدُّوَلَةِ بِضَرْبِ  
المِثَالِ فِي ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ البُومِ حِينَ سَمِعَ المَلِكُ اَصْوَاتَهَا وَسَأَلَهُ عَنْ فِهْمِ كَلَامِهَا فَقَالَ  
لَهُ : « اِنْ بَوْمًا ذَكَرْنَا يَرُومُ نِكَاحِ بَوْمِ اَنْثَى وَإِنَّا شَرَطْتُ عَلَيْهِ عِشْرِينَ قَرْيَةً مِنْ  
الْخَرَابِ فِي أَيَّامِ بَهْرَامٍ فَقَبِلَ شَرْطَهَا . وَقَالَ لَهَا : اِنْ دَامَتْ أَيَّامَ المَلِكِ اَقْطَعْتُكَ  
أَلْفَ قَرْيَةٍ وَهَذَا اَسْهَلُ مَرَامٍ » . فَتَنَّبَهُ المَلِكُ مِنْ عُفْلَتِهِ وَخَلَا بِالمُوْبَذَانَ وَسَأَلَهُ عَنْ  
مُرَادِهِ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا المَلِكُ اِنْ المَلِكُ لَا يَتِمُّ عِزُّهُ اِلَّا بِالشَّرِيعَةِ وَالقِيَامِ لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ  
وَالتَّصَرُّفِ تَحْتَ اَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَلَا قِوَامِ لِلشَّرِيعَةِ اِلَّا بِالمَلِكِ وَلَا عِزٌّ لِلْمَلِكِ اِلَّا  
بِالرِّجَالِ وَلَا قِوَامٌ لِلرِّجَالِ اِلَّا بِالمَالِ وَلَا سَبِيلٌ إِلَى المَالِ اِلَّا بِالعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلٌ  
لِلْعِمَارَةِ اِلَّا بِالعَدْلِ وَالعَدْلُ المِيزَانُ المَنْصُوبُ بَيْنَ اَلْخَلِيقَةِ نَضْبَةَ الرُّبِّ وَجَعَلَ لَهُ  
قِيَمًا وَهُوَ المَلِكُ وَأَنْتَ أَيُّهَا المَلِكُ عَمَدَتْ إِلَى الضِّيَاعِ فَانْتَزَعْتَهَا مِنْ اَرْبَابِهَا

(١) بمعنى تفرق .

وَعَمَارَهَا وَهُمْ أَرْبَابُ الْخَرَاجِ وَمَنْ تُوخِذُ مِنْهُمْ الْأَمْوَالُ وَأَقْطَعَتْهَا الْحَاشِيَةُ وَالْخَدَمُ  
وَأَهْلُ الْبِطَالَةِ فَتَرَكَوا الْعِمَارَةَ وَالنَّظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ وَمَا يُصْلِحُ الضِّيَاعَ وَسُومُخُوا فِي  
الْخَرَاجِ لِقُرْبِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَوَقَعَ الْحَيْفُ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْ أَرْبَابِ الْخَرَاجِ وَعَمَّارِ  
الضِّيَاعِ فَانْجَلُوا عَنْ ضِيَاعِهِمْ وَخَلُّوا دِيَارَهُمْ وَأَوُوا إِلَى مَا تَعَذَّرَ مِنَ الضِّيَاعِ فَسَكَنُوهَا  
فَقَلَّتِ الْعِمَارَةُ وَخَرَبَتِ الضِّيَاعُ وَقَلَّتِ الْأَمْوَالُ وَهَلَكَتِ الْجُنُودُ وَالرُّعِيَّةُ وَطَمِعَ فِي  
مُلْكِ فَارِسَ مَنْ جَاوَزَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ لِعِلْمِهِمْ بِانْقِطَاعِ الْمَوَادِّ الَّتِي لَا تَسْتَقِيمُ دَعَائِمُ  
الْمُلْكِ إِلَّا بِهَا . فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى النَّظَرِ فِي مُلْكِهِ وَانْتَزَعَتِ الضِّيَاعُ مِنْ  
أَيْدِي الْأَخَاصِ وَرُدَّتْ عَلَى أَرْبَابِهَا وَحَمِلُوا عَلَى رُسُومِهِمُ السَّالِفَةِ وَأَخَذُوا فِي الْعِمَارَةِ  
وَقَوِي مَنْ ضَعَفَ مِنْهُمْ فَعَمَّرَتِ الْأَرْضُ وَأَخْصَبَتِ الْبِلَادُ وَكَثُرَتِ الْأَمْوَالُ عِنْدَ جَبَاةِ  
الْخَرَاجِ وَقَوِيَتِ الْجُنُودُ وَقُطِعَتِ مَوَادُّ الْأَعْدَاءِ وَشُحِنَتِ الثُّغُورُ وَأَقْبَلَ الْمَلِكُ عَلَى  
مُبَاشَرَةِ أُمُورِهِ بِنَفْسِهِ فَحَسُنَتْ أَيَّامُهُ وَانْتَضَمَ مُلْكُهُ فَتَفَهَّمُ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَنَّ الظُّلْمَ  
مُخْرَبٌ لِلْعُمَرَانِ وَأَنَّ عَائِدَةَ الْخَرَابِ فِي الْعُمَرَانِ عَلَى الدَّوْلَةِ بِالْفَسَادِ وَالْإِنْتِقَاضِ . وَلَا  
تَنْظُرُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْإِعْتِدَاءَ قَدْ يُوْجَدُ بِالْأَمْصَارِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الدَّوْلِ الَّتِي بِهَا وَلَمْ  
يَقَعْ فِيهَا خَرَابٌ وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قَبْلِ الْمُنَاسِبَةِ بَيْنَ الْإِعْتِدَاءِ وَأَحْوَالِ  
أَهْلِ الْمِصْرِ فَلَمَّا كَانَ الْمِصْرُ كَبِيرًا وَعُمُرَانُهُ كَثِيرًا وَأَحْوَالُهُ مُتَّسِعَةً بِمَالًا يَنْحَصِرُ  
كَانَ وَقُوعُ النِّقْصِ فِيهِ بِالْإِعْتِدَاءِ وَالظُّلْمِ يَسِيرًا لِأَنَّ النِّقْصَ إِنَّمَا يَقَعُ بِالتَّدْرِيجِ فَإِذَا  
خَفِيَ بِكثْرَةِ الْأَحْوَالِ وَاتَّسَاعِ الْأَعْمَالِ فِي الْمِصْرِ لَمْ يَظْهَرْ أَثَرُهُ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ وَقَدْ  
تَذَهَبَ تِلْكَ الدَّوْلَةُ الْمُعْتَدِيَّةُ مِنْ أَصْلِهَا قَبْلَ خَرَابِ وَتَجِيءُ الدَّوْلَةُ الْأُخْرَى فَتَرْفَعُهُ  
بِحِدَّتِهَا وَتَجْبُرُ النِّقْصَ الَّذِي كَانَ خَفِيًّا فِيهِ فَلَا يَكَادُ يُشْعَرُ بِهِ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ فِي الْأَقْلِ  
النَّادِرِ وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ حُصُولَ النِّقْصِ فِي الْعُمَرَانِ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ أَمْرٌ وَقَعَ  
لَا بُدَّ مِنْهُ لِمَا قَدَّمَناه وَوَبَّالَهُ عَائِدَةٌ عَلَى الدَّوْلِ . وَلَا تَحْسَبَنَّ الظُّلْمَ إِنَّمَا هُوَ أَخَذَ الْمَالِ  
أَوْ الْمُلْكِ مِنْ يَدِ مَالِكِهِ مِنْ غَيْرِ عَوْضٍ وَلَا سَبَبٍ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ بِلِ الظُّلْمِ أَعْمٌ مِنْ  
ذَلِكَ وَكُلُّ مَنْ أَخَذَ مَلِكًا أَحَدًا أَوْ غَضَبَهُ فِي عَمَلِهِ أَوْ طَالَبَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ أَوْ فَرَضَ عَلَيْهِ

حَقًّا لَمْ يَفْرُضْهُ الشَّرْعُ فَقَدْ ظَلَمَهُ فَجَبَاةُ الْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ظَلَمَةٌ وَالْمُعْتَدُونَ عَلَيْهَا  
ظَلَمَةٌ وَالْمُنْتَهَبُونَ لَهَا ظَلَمَةٌ وَالْمَانِعُونَ لِحُقُوقِ النَّاسِ ظَلَمَةٌ وَخُصَابُ الْأَمْوَالِ عَلَى  
الْعُمُومِ ظَلَمَةٌ وَوَبَالَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَائِدٌ عَلَى الدَّوْلَةِ بِخَرَابِ الْعُمُرَانِ الَّذِي هُوَ مَا دَتْهَا  
لِإِذْهَابِهِ الْأَمْوَالُ مِنْ أَهْلِهِ وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْحِكْمَةُ الْمَقْصُودَةُ لِلشَّارِعِ فِي تَحْرِيمِ  
الظُّلْمِ وَهُوَ مَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنْ فَسَادِ الْعُمُرَانِ وَخَرَابِهِ وَذَلِكَ مُؤَدِّنٌ بِانْقِطَاعِ النَّوْعِ  
الْبَشَرِيِّ وَهِيَ الْحِكْمَةُ الْعَامَّةُ الْمُرَاعِيَةُ لِلشَّرْعِ فِي جَمِيعِ مَقَاصِدِهِ الصَّرُورِيَّةِ الْخَمْسَةِ  
مِنْ حِفْظِ الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالنَّسْلِ وَالْمَالِ . فَلَمَّا كَانَ الظُّلْمُ كَمَا رَأَيْتَ مُؤَدِّنًا  
بِانْقِطَاعِ النَّوْعِ لِمَا أَدَّى إِلَيْهِ مِنْ تَخْرِيْبِ الْعُمُرَانِ . كَانَتْ حِكْمَةُ الْخَطْرِ فِيهِ  
مَوْجُودَةً . فَكَانَ تَحْرِيمُهُ مَهْمًا . وَأَدْلَتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ كَثِيرَةٌ . أَكْثَرَ مِنْ أَنْ  
يَأْخُذَهَا قَانُونُ الضُّبْطِ وَالْحَضْر . وَلَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ قَادِرًا عَلَى الظُّلْمِ لَوْضِعَ بِإِزَائِهِ  
مِنَ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةِ مَا وُضِعَ بِإِزَاءِ غَيْرِهِ مِنَ الْمَفْسِدَاتِ لِلنَّوْعِ الَّتِي يَقْدِرُ كُلُّ أَحَدٍ  
عَلَى اقْتِرَافِهَا مِنَ الرِّزَا وَالْقَتْلِ وَالسُّكْرِ إِلَّا أَنَّ الظُّلْمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ  
لَأَنَّهُ إِنَّمَا يَقَعُ مِنْ أَهْلِ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ فَبُلُوغِ فِي ذِمَّةِ وَتَكَرُّرِ الوَعِيدِ فِيهِ عَسَى أَنْ  
يَكُونَ الْوَازِعُ فِيهِ لِلْقَادِرِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ  
الْعُقُوبَةَ قَدْ وُضِعَتْ بِإِزَاءِ الْحِرَايَةِ فِي الشَّرْعِ وَهِيَ مِنْ ظَلَمِ الْقَادِرِ لِأَنَّ الْمُحَارِبَ زَمَنَ  
حِرَايَتِهِ قَادِرٌ فَإِنَّ فِي الْجَوَابِ عَنِ ذَلِكَ طَرِيقَيْنِ . أَحَدُهُمَا أَنْ تَقُولَ الْعُقُوبَةُ عَلَى  
مَا يَقْتَرِفُهُ مِنَ الْجِنَايَاتِ فِي نَفْسِ أَمْوَالِ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ  
بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالْمُطَالَبَةِ بِجِنَايَتِهِ وَأَمَّا نَفْسُ الْحِرَايَةِ فَهِيَ خُلُوٌّ مِنَ الْعُقُوبَةِ .  
الطَّرِيقُ الثَّانِي أَنْ تَقُولَ : الْمُحَارِبُ لَا يُوصَفُ بِالْقُدْرَةِ لِأَنَّا إِنَّمَا نَعْنِي بِقُدْرَةِ  
الظُّلْمِ الْيَدِ الْمُبْسُوطَةِ الَّتِي لَا تُعَارِضُهَا قُدْرَةٌ فِيهِ الْمُوَدَّنَةُ بِالْخَرَابِ وَأَمَّا قُدْرَةُ  
الْمُحَارِبِ فَإِنَّمَا هِيَ إِخَافَةٌ يَجْعَلُهَا ذَرِيعَةً لِأَخْذِ الْأَمْوَالِ وَالْمُدَافَعَةَ عَنْهَا بِيَدِ الْكُلِّ  
مَوْجُودَةٍ شَرْعًا وَسِيَاسَةً فَلَيْسَتْ مِنَ الْقَدْرِ الْمُوَدَّنِ بِالْخَرَابِ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى  
مَا يَشَاءُ .

فصل : وَمِنْ أَشَدِّ الظُّلَمَاتِ وَأَعْظَمِهَا فِي إِفْسَادِ العُمَرَانِ تَكْلِيفُ الأَعْمَالِ وَتَسْخِيرُ الرِّعَايَا بِغَيْرِ حَقِّ وَذَلِكَ أَنَّ الأَعْمَالَ مِنْ قَبِيلِ المَتَمَوْلَاتِ كَمَا سَنَبِّينُ فِي بَابِ الرِّزْقِ لِأَنَّ الرِّزْقَ وَالكَسْبَ إِنَّمَا هُوَ قِيمَةُ أَعْمَالِ أَهْلِ العُمَرَانِ . فَإِذَا مَسَّاعِيهِمْ وَأَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا مَتَمَوْلَاتٌ وَمَكَاسِبٌ لَهُمْ بَلْ لَا مَكَاسِبَ لَهُمْ سِوَاهَا فَإِنَّ الرُّعِيَّةَ المَعْتَمِلِينَ فِي العِمَارَةِ إِنَّمَا مَعَاشُهُمْ وَمَكَاسِبُهُمْ مِنْ اعْتِمَالِهِمْ ذَلِكَ فَإِذَا كَلَّفُوا العَمَلَ فِي غَيْرِ شَأْنِهِمْ وَأَتَّخَذُوا سُخْرِيًّا فِي مَعَاشِهِمْ بَطَلَ كَسْبُهُمْ وَاعْتَصَبُوا قِيمَةَ عَمَلِهِمْ ذَلِكَ وَهُوَ مَتَمَوْلُهُمْ فَدَخَلَ عَلَيْهِمُ الضَّرَرُ وَذَهَبَ لَهُمْ حِطٌّ كَبِيرٌ مِنْ مَعَاشِهِمْ بَلْ هُوَ مَعَاشُهُمْ بِالجُمْلَةِ وَإِنْ تَكَرَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَفْسَدَ أَمَالُهُمْ فِي العِمَارَةِ وَقَعَدُوا عَنِ السُّعْيِ فِيهَا جُمْلَةً فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى انْتِفَاضِ العُمَرَانِ وَتَخْرِيْبِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الاحتكار : وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ فِي الظُّلْمِ وَإِفْسَادِ العُمَرَانِ وَالدَّوْلَةِ السُّلْطَةُ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ بِشِرَاءِ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ بِأَبْخَسِ الأَثْمَانِ ثُمَّ فَرَضَ البَضَائِعَ عَلَيْهِمْ بِأَرْفَعِ الأَثْمَانِ عَلَى وَجْهِ الغَضَبِ وَالإِكْرَاهِ فِي الشِّرَاءِ وَالبَيْعِ وَرَبُّمَا تَفَرَّضَ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الأَثْمَانُ عَلَى التَّوَاحِي وَالتَّعْجِيلِ <sup>(١)</sup> فَيَتَعَلَّلُونَ فِي تِلْكَ الخِسَارَةِ الَّتِي تَلْحَقُهُمْ بِمَا تَحَدَّثُهُمُ المَطَاعِمُ مِنْ جَبْرِ ذَلِكَ بِحَوَالَةِ الأَسْوَاقِ فِي تِلْكَ البَضَائِعِ الَّتِي فَرَضَتْ عَلَيْهِمْ بِالغَلَاءِ إِلَى بَيْعِهَا بِأَبْخَسِ الأَثْمَانِ ، وَتَعُودُ خِسَارَةٌ مَا بَيْنَ الصَّفَقَتَيْنِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ . وَقَدْ يَعُمُّ ذَلِكَ أَصْنَافَ التِّجَارِ المَقِيمِينَ بِالمَدِينَةِ وَالمُؤَرِّدِينَ مِنَ الأَفَاقِ فِي البَضَائِعِ وَسَائِرِ السُّوقِ وَأَهْلِ الدُّكَاكِينِ فِي المَآكِلِ وَالمُؤَاكِهِ وَأَهْلِ الصَّنَائِعِ فِيمَا يَتَّخِذُ مِنَ الآلَاتِ وَالمَوَاعِينِ فَتَشْمَلُ الخِسَارَةُ سَائِرَ الأَصْنَافِ وَالمَطْبَقَاتِ وَتَتَوَالَى عَلَى السَّاعَاتِ وَتُجْحَفُ بِرُؤُوسِ الأَمْوَالِ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا وَليجَةَ إِلَّا القَعُودَ عَنِ الأَسْوَاقِ لِذَهَابِ رُؤُوسِ الأَمْوَالِ فِي جَبْرِهَا بِالأَرْبَاحِ وَيَتَشَاقَلُ المُؤَرِّدُونَ مِنَ الأَفَاقِ لِشِرَاءِ البَضَائِعِ وَبَيْعِهَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فَتَكْسُدُ الأَسْوَاقُ وَيَبْطُلُ مَعَاشُ الرِّعَايَا لِأَنَّ عَامَّتَهُ مِنَ البَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَإِذَا كَانَتِ الأَسْوَاقُ عَطْلًا مِنْهَا بَطَلَ مَعَاشُهُمْ وَتَنْقُصُ جِبَايَةُ

(١) وفي بعض النسخ : التراخي والتأجيل .

السُّلْطَانِ أَوْ تَفْسُدُ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا مِنْ أَوْسَطِ الدَّوْلَةِ وَمَا بَعْدَهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْمَكُوسِ عَلَى الْبِيَاعَاتِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَيُوَوَّلُ ذَلِكَ إِلَى تَلَاشِي الدَّوْلَةِ وَفَسَادِ عُمَرَانِ الْمَدِينَةِ وَيَتَطَرَّقُ هَذَا الْخَلَلُ عَلَى التَّدْرِيجِ وَلَا يُشْعِرُ بِهِ . هَذَا مَا كَانَ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الذَّرَائِعِ وَالْأَسْبَابِ إِلَى اخْتِذِ الْأَمْوَالِ وَأَمَّا اخْتِذُهَا مَجَانًا وَالْعُدْوَانَ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَحُرْمِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ فَهُوَ يُفْضِي إِلَى الْخَلَلِ وَالْفَسَادِ دَفْعَةً وَتَنْتَقِضُ الدَّوْلَةُ سَرِيعًا بِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَرَجِ الْمُفْضِي إِلَى الْإِنْتِقَاضِ وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ حَظَرَ الشَّرْعُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَشَرَعَ الْمَكَائِسَةَ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَحَظَرَ أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ سَدًّا لِلْأَبْوَابِ الْمَفَاسِدِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى انْتِقَاضِ الْعُمَرَانِ بِالْهَرَجِ أَوْ بَطْلَانِ الْمَعَاشِ وَاعْلَمْ أَنَّ الدَّاعِيَ لِذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ حَاجَةُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ إِلَى الْإِكْتِسَابِ مِنَ الْمَالِ بِمَا يَعْضُضُ لَهُمْ مِنَ التَّرْفِ فِي الْأَحْوَالِ فَتَكْتَثُرُ نَفَقَاتُهُمْ وَيَعْظُمُ الْخَرْجُ وَلَا يَفِي بِهِ الدَّخْلُ عَلَى الْقَوَانِينِ الْمُعْتَادَةِ يَسْتَحْدِثُونَ أَلقَابًا وَوَجُوهًا يُوسَّعُونَ بِهَا الْجَبَايَةَ لِيَفِي لَهُمُ الدَّخْلُ بِالْخَرْجِ ثُمَّ لَا يَزَالُ التَّرْفُ يَزِيدُ وَالْخَرْجُ يَسْبِيهِ يَكْتَثُرُ وَالْحَاجَةُ إِلَى أَمْوَالِ النَّاسِ تَشْتَدُّ وَنِطاقُ الدَّوْلَةِ بِذَلِكَ يَزِيدُ إِلَى أَنْ تَمُجِي دَائِرَتُهَا وَيَذْهَبَ بِرِسْمِهَا وَيَغْلِبَهَا طَالِبُهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

## الفصل الرابع والأربعون

في أن الحجاب كيف يقع في الدول وفي أنه يعظم عند الهرم  
 اعْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَكُونُ بَعِيدَةً عَنِ مَنَازِعِ الْمَلِكِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْعَضْبِيَّةِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ أَمْرُهَا وَيَحْصُلُ اسْتِيْلَاؤُهَا وَالْبِدَاوَةُ هِيَ شِعَارُ الْعَضْبِيَّةِ وَالْدَّوْلَةُ إِنْ كَانَ قِيَامُهَا بِالذِّينِ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنِ مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَإِنْ كَانَ قِيَامُهَا بِعِزِّ الْعُلْبِ فَقَطُّ فَالْبِدَاوَةُ الَّتِي بِهَا يَحْصُلُ الْعُلْبُ بَعِيدَةٌ أَيْضًا عَنِ مَنَازِعِ الْمَلِكِ وَمَذَاهِبِهِ فَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا بَدْوِيَّةً كَانَ صَاحِبُهَا عَلَى حَالِ الْفِضَاضَةِ وَالْبِدَاوَةُ وَالْقُرْبُ مِنَ النَّاسِ وَسُهُولَةُ الْإِذْنِ فَإِذَا رَسَخَ عِزُّهُ وَصَارَ إِلَى الْإِنْفِرَادِ

يَنْفَسِيهِ عَنِ النَّاسِ لِلْحَدِيثِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ فِي خَوَاصِّ شُؤُونِهِ لِمَا يَكْثُرُ حِينَئِذٍ بِخَاشِيَتِهِ  
 فَيَطْلُبُ الْإِنْفِرَادَ مِنَ الْعَامَّةِ مَا اسْتَطَاعَ وَيَتَّخِذُ الْإِذْنَ بِبَابِهِ عَلَى مَنْ لَا يَأْمَنُهُ مِنْ  
 أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ دَوْلَتِهِ وَيَتَّخِذُ حَاجِبًا لَهُ عَنِ النَّاسِ يُقِيمُهُ بِبَابِهِ لِهَذِهِ الْوُظَيْفَةِ ثُمَّ إِذَا  
 اسْتَفْحَلَ الْمَلِكُ وَجَاءَتْ مَذَاهِبُهُ وَمَنَارِعُهُ اسْتَحَالَتْ أَخْلَاقُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ إِلَى أَخْلَاقِ  
 الْمَلِكِ وَهِيَ أَخْلَاقُ غَرِيبَةٍ مَخْصُوصَةٍ يَحْتَاجُ مُبَاشَرَهَا إِلَى مَدَارَاتِهَا وَمَعَامَلَتِهَا بِمَا  
 يَجِبُ لَهَا وَرُبَّمَا جَهَلَ تِلْكَ الْأَخْلَاقَ مِنْهُمْ بَعْضُ مَنْ يُبَاشِرُهُمْ فَوْقَ فِيمَا  
 لَا يُرْضِيهِمْ فَسَخَطُوا وَصَارُوا إِلَى حَالَةِ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ فَانْفَرَدَ بِمَعْرِفَةِ هَذِهِ الْأَدَابِ  
 الْخَوَاصِّ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ وَحَجَبُوا غَيْرَ أَوْلِيكَ الْخَاصَّةِ عَنِ لِقَائِهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ حِفْظًا عَلَى  
 أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُعَايِنَةِ مَا يُسَخِطُهُمْ عَلَى النَّاسِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِعَقَابِهِمْ فَصَارَ حِجَابٌ آخَرَ  
 أَحْصُ مِنَ الْحِجَابِ الْأَوَّلِ يُفْضِي إِلَيْهِمْ مِنْهُ خَوَاصُّهُمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَيُحْجَبُ دُونَهُ مِنْ  
 سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ . وَالْحِجَابُ الثَّانِي يُفْضِي إِلَى مَجَالِسِ الْأَوْلِيَاءِ وَيُحْجَبُ دُونَهُ مِنْ  
 سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ <sup>(١)</sup> . وَالْحِجَابُ الْأَوَّلُ يَكُونُ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ كَمَا ذَكَرْنَا كَمَا حَدَّثَ  
 لِأَيَّامِ مُعَاوِيَةَ وَعَبْدِ الْمَلِكِ وَخُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ وَكَانَ الْقَائِمُ عَلَى ذَلِكَ الْحِجَابِ يُسَمَّى  
 عِنْدَهُمُ الْحَاجِبَ جَزِيًّا عَلَى مَذْهَبِ الْإِسْتِقْاقِ الصَّحِيحِ . ثُمَّ لَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي  
 الْعُبَّاسِ وَجَدَتْ الدَّوْلَةَ مِنَ التَّرَفِ وَالْعِزِّ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَكَمَلَتْ خُلُقَ الْمَلِكِ عَلَى  
 مَا يَجِبُ فِيهَا فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى الْحِجَابِ الثَّانِي وَصَارَ اسْمُ الْحَاجِبِ أَحْصُ بِهِ وَصَارَ  
 بِبَابِ الْخُلَفَاءِ دَارَانَ لِلْعُبَّاسِيَّةِ ، دَارَ الْخَاصَّةِ ، وَدَارَ الْعَامَّةِ كَمَا هُوَ مَسْطُورٌ فِي  
 أَخْبَارِهِمْ . ثُمَّ حَدَّثَ فِي الدَّوَلِ حِجَابٌ ثَالِثٌ أَحْصُ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَهُوَ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ  
 الْحَجْرِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الدَّوْلَةِ وَخَوَاصَّ الْمَلِكِ إِذَا نَصَبُوا الْأَنْبَاءَ مِنْ

(١) علق الدكتور علي عبد الواحد وافي على هذه العبارة في نسخة لجنة البيان العربي « فقال ، ( هكذا

وردت العبارة في جميع النسخ ولا بد أن يكون قد حدث فيها حذف وتكرار والوضع الصحيح للعبارة هو ما يلي  
 « فصار لهم حجاب آخر أحص من الحجاب الأول يفضي إليهم منه خواصهم من الأولياء . ويحجب دونه من سواهم  
 من الخاصة والعامه . بينما كان الحجاب الأول يفضي إليهم منه الخاصة ويحجب دونه من سواهم من العامة  
 والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا . . . » ) وقد سهل هذا السقط وهذه الزيادة وجود كلمة « سواهم »  
 في الجملتين .

الأعقاب وحاوَلُوا الإِسْتِبْدَادَ عَلَيْهِمْ فَأَوَّلُ مَا يَبْدَأُ بِهِ ذَلِكَ المُسْتَبَدُّ أَنْ يَحْجُبَ عَنْهُ  
 بِطَانَةَ ابْنِهِ وَخَوَاصَّ أَوْلِيَائِهِ يُوهِمُهُ أَنَّ فِي مُبَاشَرَتِهِمْ إِيَّاهُ خَرَقَ حِجَابَ الهَيْبَةِ وَفَسَادَ  
 قَانُونِ الأَدَبِ لِيَقْطَعَ بِذَلِكَ لِقَاءَ الغَيْرِ وَيَعُوذُهُ مَلَابَسَةُ أَخْلَاقِهِ هُوَ حَتَّى لَا يَتَبَدَّلَ  
 بِهِ سِوَاهُ إِلَى أَنْ يَسْتَحْكِمَ الإِسْتِيلَاءَ عَلَيْهِ فَيَكُونُ هَذَا الحِجَابُ مِنْ دَوَاعِيهِ وَهَذَا  
 الحِجَابُ لَا يَقَعُ فِي الغَالِبِ إِلَّا أَوَاحِرَ الدَّوْلَةِ كَمَا قَدَّمْنَا فِي الحِجْرِ وَيَكُونُ دَلِيلًا عَلَى  
 هَرَمِ الدَّوْلَةِ وَنَفَادِ قُوَّتِهَا وَهُوَ مِمَّا يَخْشَاهُ أَهْلُ الدَّوْلِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّ القَائِمِينَ  
 بِالدَّوْلَةِ يُحَاوِلُونَ عَلَى ذَلِكَ بِطِبَاعِهِمْ عِنْدَ هَرَمِ الدَّوْلَةِ وَذَهَابِ الإِسْتِبْدَادِ مِنْ أَعْقَابِ  
 مُلُوكِهِمْ لِمَا رُكِبَ فِي النُّفُوسِ مِنْ مَحَبَّةِ الإِسْتِبْدَادِ بِالمُلْكِ وَخُصُوصًا مَعَ التَّرْشِيحِ  
 لِذَلِكَ وَخُصُولِ دَوَاعِيهِ وَمَبَادِيهِ .

## الفصل الخامس والأربعون

### في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

إِعلمُ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَقَعُ مِنْ آثارِ الهَرَمِ فِي الدَّوْلَةِ انْقِسَامُهَا وَذَلِكَ أَنَّ المُلْكَ عِنْدَمَا  
 يَسْتَفْجِلُ وَيَبْلُغُ مِنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ والنَّعِيمِ إِلَى غَايَتِهَا وَيَسْتَبْدُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ  
 بِالمَجْدِ وَيَنْفَرِدُ بِهِ وَيَأْتِفُ حِينَئِذٍ عَنِ المُشَارَكَةِ يَصِيرُ إِلَى قَطْعِ أسبابِهَا مَا اسْتَطَاعَ  
 بِإِهْلَاكِ مَنْ اسْتَرَابَ بِهِ مِنْ ذَوِي قِرَانَتِهِ المُرْشِحِينَ لِمَنْصِبِهِ فَرُبَّمَا ارْتَابَ  
 المُسَاهِمُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَنَزَعُوا إِلَى القَاصِيَةِ إِلَيْهِمْ مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ مِثْلَ حَالِهِمْ  
 مِنَ الإِعْتِزَارِ وَالإِسْتِرَايَةِ وَيَكُونُ نِطاقُ الدَّوْلَةِ قَدْ أَخَذَ فِي التُّضَاقِ وَرَجَعَ عَنِ  
 القَاصِيَةِ فَيَسْتَبْدُ ذَلِكَ النَّازِعُ مِنَ القَرَابَةِ فِيهَا وَلَا يَزَالُ أَمْرُهُ يَعْظُمُ بِتَرَاجُعِ نِطاقِ  
 الدَّوْلَةِ حَتَّى يُقَاسِمَ الدَّوْلَةَ أَوْ يَكَادُ وَانظُرْ ذَلِكَ فِي الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ العَرَبِيَّةِ حِينَ  
 كَانَ أَمْرُهَا حَرِيزًا مُجْتَمِعًا وَنِطاقًا مُمْتَدًّا فِي الإِتْسَاعِ وَعَضِيَّةً بِنِي عَبْدِ مَنْافٍ وَاحِدَةً  
 غَالِبَةً عَلَى سَائِرِ مُضَرَ يَنْبُضُ عِرْقُ مِنَ الخِلافةِ سَائِرَ أَيَّامِهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ بَدْعَةِ  
 الخَوَارِجِ المُسْتَمِيتِينَ فِي شَأْنِ بَدْعَتِهِمْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِنِزَعَةِ مُلْكٍ وَلَا رِئَاسَةِ وَلَمْ يَتِمَّ



أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية ثم لما خرج الأمر من بني أمية واستقل بنو  
العباس بالأمر . وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وأذنت  
بالتفلس عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس قاصية دولة الإسلام  
فاستحدثت بها ملكاً واقتطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع إدريس إلى  
المغرب وخرج به وقام بأمره وأمر ابنه من بعده البرابرة من أوربة ومغيلة وزناتة  
واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة تقلصاً فاضطرب الأغالب في  
الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كتمامة وصنهاجة واستولوا على أفريقية  
والمغرب ثم مضر والشام والحجاز وغلبوا على الأدارسة وقسموا الدولة دولتين  
أخرتين وصارت الدولة العربية ثلاث دول : دولة بني العباس مركز العرب  
وأصلهم ومادتهم الإسلام ، ودولة بني أمية المجديين بالأندلس ملكهم القديم  
وخلافتهم بالمشرق ، ودولة العبيديين بأفريقية ومصر والشام والحجاز ولم تنزل  
هذه الدولة إلى أن أصبح انقراضها متقارباً أو جميعاً وكذلك انقسمت دولة بني  
العباس بدول أخرى وكان بالقاصية بنو ساسان فيما وراء النهر وخراسان  
والملوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقيين وعلى  
بغداد والخلفاء ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم أيضاً بعد  
الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب  
وأفريقية لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور ، خرج عليه عمه حماد  
واقتطع ممالك العرب لنفسه ما بين جبل أوراس إلى تلمسان وملوية واخطط  
القلعة بجبل كتمامة حيال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطرى  
واستحدثت ملكاً آخر قسيماً لملك آل باديس وبقية آل باديس بالقيروان وما إليها  
ولم ينزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعاً . وكذلك دولة الموحدين ، لما تقلص  
ظلمها ثار بأفريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكاً لأعقابهم  
بنواحيها ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك الغربية من

أَعْقَابِهِمِ الْأَمِيرُ أَبُو زَكَرِيَاءَ يَحْيَى ابْنُ السُّلْطَانِ أَبِي إِسْحَقَ إِبْرَاهِيمَ رَابِعَ خُلَفَائِهِمْ  
وَأَسْتَحْدَثَ مُلْكًا بِجَبَايَةِ وَقَسَنْطِينَةَ وَمَا إِلَيْهَا ، أَوْرَثَهُ بَنِيهِ وَقَسَمُوا بِهِ الدَّوْلَةَ قِسْمَيْنِ  
ثُمَّ اسْتَوْلُوا عَلَى كُرْسِيِّ الْحَضْرَةِ بَتُونِسَ ثُمَّ انْقَسَمَ مَا بَيْنَ أَعْقَابِهِمْ ثُمَّ عَادَ الْاِسْتِيلَاءُ  
فِيهِمْ وَقَدْ يَنْتَهِي الْاِنْتِقَامُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ دَوْلَتَيْنِ وَثَلَاثٍ وَفِي غَيْرِ أَعْيَاصِ الْمُلْكِ مِنْ  
قَوْمِهِ كَمَا وَقَعَ فِي مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ وَفِي مُلْكِ  
صَنْهَاجَةَ بِأَفْرِيْقِيَّةٍ فَقَدْ كَانَ لِأَخِرِ دَوْلَتِهِمْ فِي كُلِّ حَضْرٍ مِنْ حُصُونِ أَفْرِيْقِيَّةٍ ثَائِرٌ  
مُسْتَقْبِلٌ بِأَمْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ وَكَذَا حَالُ الْجَرِيدِ وَالزَّابِ مِنْ أَفْرِيْقِيَّةٍ قَبِيلٌ هَذَا  
الْعَهْدِ كَمَا نَذَكْرُهُ وَهَكَذَا شَأْنُ كُلِّ دَوْلَةٍ لِأَبَدٍ وَأَنْ يَغْرَضَ فِيهَا عَوَارِضُ الْهَرَمِ  
بِالْتَرَفِ وَالذَّعَةِ وَتَقْلُصِ ظِلِّ الْعَلْبِ فَيَنْقَسِمُ أَعْيَاصُهَا أَوْ مَنْ يَغْلِبُ مِنْ رِجَالِ دَوْلَتِهَا  
الْأَمْرَ وَيَتَعَدَّدُ فِيهَا الدُّوَلُ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا .

## الفصل السادس والأربعون

في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع

قَدْ قَدَّمْنَا ذَكَرَ الْعَوَارِضِ الْمُؤَذَّنَةِ بِالْهَرَمِ وَأَسْبَابَهُ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَبَيَّنَّا أَنَّهَا  
تَحْدُثُ لِلدَّوْلَةِ بِالطَّبِيعِ وَأَنَّهَا كُلُّهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ لَهَا وَإِذَا كَانَ الْهَرَمُ طَبِيعِيًّا فِي الدَّوْلَةِ  
كَانَ حَدُوثُهُ بِمِثَالِيَةِ حَدُوثِ الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ كَمَا يَحْدُثُ الْهَرَمُ فِي الْمِرْجَاحِ الْحَيَوَانِيِّ  
وَالْهَرَمُ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمُزْمِنَةِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ دَوَائُهَا وَلَا اِرْتِفَاعُهَا لِمَا أَنَّهُ طَبِيعِيٌّ  
وَالْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ لَا تَتَبَدَّلُ وَقَدْ يَتَّبَعُهُ كَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الدُّوَلِ مِمَّنْ لَهُ يَفْقَظَةٌ فِي  
السِّيَاسَةِ فَيَرَى مَا نَزَلَ بِدَوْلَتِهِمْ مِنْ عَوَارِضِ الْهَرَمِ وَيَظُنُّ أَنَّهُ مُمَكِّنُ الْاِرْتِفَاعِ فَيَأْخُذُ  
نَفْسَهُ بِتَلَاْفِي الدَّوْلَةِ وَإِصْلَاحِ مِرْجَاحِهَا عَنْ ذَلِكَ الْهَرَمِ وَيَحْسِبُهُ أَنَّهُ لِحَقِّهَا بِتَقْصِيرِ مَنْ  
قَبْلَهُ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَغَفْلَتِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلدَّوْلَةِ وَالْعَوَائِدُ هِيَ  
الْمَانِعَةُ لَهُ مِنْ تَلَاْفِيهَا وَالْعَوَائِدُ مَنْزِلَةٌ طَبِيعِيَّةٌ أُخْرَى فَإِنْ مَنْ أَدْرَكَ مِثْلًا أَبَاهُ وَأَكْثَرَ

أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والرّي والاختلاط بالناس إذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة ، وخشي عليه غائده ذلك وعاقبته في سلطانه وانظر شأن الأنبياء في إنكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الإلهي والنصر السماوي وربما تكون العصية قد ذهبت فتكون الأبهة تعوض عن موقعها من النفوس فإذا أزيلت تلك الأبهة مع ضعف العصية تجاسرت الرعايا على الدولة يدهاب أوهاج الأبهة فتندرع الدولة بتلك الأبهة ما أمكنها حتى ينقضي الأمر وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها إيماضة الخمود كما يقع في الذبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال وهي انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في أطراد وجوده على ما قدر فيه « ولكل أجل كتاب » .

## الفصل السابع والأربعون

### في كيفية طروق الخلل للدولة

إعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما فالأول الشوكة والعصية وهو المعبر عنه بالجند والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال . والخلل إذا طرقت الدولة طرقتها في هذين الأساسين فلندكر أولاً طروق الخلل في الشوكة والعصية ثم نرجع إلى طروقه في المال والجبانية . وإعلم أن تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصية وأنه لا بد من عصية كبرى جامعة للعصائب مستبعدة لها وهي عصية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة فإذا جاءت الدولة طبيعة الملك من الترف وجذع أنوف أهل

الْعَصِيَّةُ كَانَ (١) أَوَّلَ مَا يُجَدِّعُ أَنْوَفَ عَشِيرَتِهِ وَدَوَى قُرْبَاهُ الْمُقَاسِمِينَ لَهُ فِي اسْمِ  
 الْمَلِكِ فَيَسْتَبِدُّ فِي جَدِّعِ أَنْوَفِهِمْ بِمَا بَلَغَ مِنْ سَوَادِهِمْ لِمَكَانِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ وَالْعِزِّ  
 وَالغَلْبِ فَيَحِيطُ بِهِمْ هَادِمَانِ وَهُمَا التَّرْفُ وَالْقَهْرُ ثُمَّ يَصِيرُ الْقَهْرُ آخِرًا إِلَى الْقَتْلِ لِمَا  
 يَخْضَلُ مِنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ عِنْدَ رُسُوحِ الْمَلِكِ لِصَاحِبِ الْأَمْرِ فَيَقْلِبُ غَيْرَتَهُ مِنْهُمْ إِلَى  
 الْخَوْفِ عَلَى مُلْكِهِ فَيَأْخُذُهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْإِهَانَةِ وَسُلْبِ النُّعْمَةِ وَالتَّرْفِ الَّذِي تَعَوَّدُوا  
 الْكَثِيرَ مِنْهُ فَيَهْلِكُونَ وَيَقْلُونَ وَتَفْسُدُ عَصِيَّةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ مِنْهُمْ وَهِيَ الْعَصِيَّةُ  
 الْكُبْرَى الَّتِي كَانَتْ تُجْمَعُ بِهَا الْعَصَائِبُ وَتَسْتَبْعَمُ فَتَنْحَلُ عُرْوَتَهَا وَتَضَعُفُ  
 شَكِيمَتَهَا وَتُسْتَبَدُّ عَنْهَا بِالْبَطَانَةِ مِنْ مَوَالِي النُّعْمَةِ وَصَنَائِعِ الْإِحْسَانِ وَتَتَّخِذُ مِنْهُمْ  
 عَصِيَّةً إِلَّا أَنَّهُمَا لَيْسَتْ مِثْلَ تِلْكَ الشَّدَّةِ الشُّكِيمَةِ لِفَقْدَانِ الرَّحْمِ وَالْقَرَابَةِ مِنْهَا وَقَدْ  
 كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ شَأْنَ الْعَصِيَّةِ وَقَوَّتَهَا إِنَّمَا هِيَ بِالْقَرَابَةِ وَالرَّحْمِ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ  
 فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ عَنِ الْعَشِيرِ وَالْأَنْصَارِ الطَّبِيعِيَّةِ وَيَحْسُ بِذَلِكَ أَهْلَ الْعَصَائِبِ  
 الْأُخْرَى فَيَتَجَاسَرُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى بَطَانَتِهِ تَجَاسَرُ طَبِيعِيًّا فَيَهْلِكُهُمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ  
 وَيَتَّبِعُهُمْ بِالْقَتْلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَيَقْلُدُ الْآخَرَ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ فِي ذَلِكَ ، الْأَوَّلِ مَعَ  
 مَا يَكُونُ قَدْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ مُهْلِكَةِ التَّرْفِ الَّذِي قَدَّمْنَا فَيَسْتَوْلِي عَلَيْهِمُ الْهَلَاكُ  
 بِالتَّرْفِ وَالْقَتْلِ حَتَّى يَخْرُجُوا عَنْ صِنْعَةِ تِلْكَ الْعَصِيَّةِ وَيُفْشُوا بِعِزَّتِهَا وَثَوْرَتِهَا  
 وَيَصِيرُوا أَوْجَزَ عَلَى الْحِمَايَةِ وَيَقْلُونَ لِذَلِكَ فَتَقِلُّ الْحِمَايَةُ الَّتِي تَنْزِلُ بِالْأَطْرَافِ  
 وَالثُّغُورِ فَتَتَجَاسَرُ الرُّعَايَا عَلَى بَعْضِ الدَّعْوَةِ فِي الْأَطْرَافِ وَيَبَادِرُ الْخَوَارِجُ عَلَى الدَّوْلَةِ  
 مِنَ الْأَعْيَاصِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى تِلْكَ الْأَطْرَافِ لِمَا يَرْجُونَ حِينَئِذٍ مِنْ حُصُولِ غَرَضِهِمْ  
 بِمُبَايَعَةِ أَهْلِ الْقَاصِيَةِ لَهُمْ وَأَمْنِهِمْ مِنْ وَصُولِ الْحَامِيَةِ إِلَيْهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَدْرَجُ  
 وَنِطَاقُ الدَّوْلَةِ يَتَضَاقُ حَتَّى تَصِيرَ الْخَوَارِجُ فِي أَقْرَبِ الْأَمَاكِنِ إِلَى مَرْكَزِ الدَّوْلَةِ  
 وَرُبَّمَا انْقَسَمَتِ الدَّوْلَةُ عِنْدَ ذَلِكَ بِدَوْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ عَلَى قَدْرِ قَوَّتِهَا فِي الْأَصْلِ كَمَا  
 قُلْنَا وَيَقُومُ بِأَمْرِهَا غَيْرُ أَهْلِ عَصِيَّتِهَا لَكِنْ إِذْغَانًا لِأَهْلِ عَصِيَّتِهَا وَلِغَلْبِهِمُ الْمَعْمُودِ  
 وَاعْتَبِرْ هَذَا فِي دَوْلَةِ الْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ كَيْفَ انْتَهَتْ أَوَّلًا إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ

(١) أي صاحب الدولة .

وَكَانَ أَمْرُ بَنِي أُمَيَّةٍ نَافِذًا فِي جَمِيعِ الْعَرَبِ بِعَصِيَّةِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حَتَّى لَقَدْ أَمَرَ  
سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بِدِمَشْقَ بِقَتْلِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ بِقَرْطَبَةَ  
فَقَتِلَ وَلَمْ يَرُدَّ أَمْرُهُ . ثُمَّ تَلَاشَتْ عَصِيَّةُ بَنِي أُمَيَّةٍ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ التَّرَفِ  
فَانْقَرَضُوا . وَجَاءَ بَنُو الْعَبَّاسِ فَفَعَّضُوا مِنْ أَعْنَةِ بَنِي هَاشِمٍ وَقَتَلُوا الطَّالِبِيْنَ وَشَرَدُوهُمْ  
فَانْحَلَّتْ عَصِيَّةُ عَبْدِ مَنَافٍ وَتَلَاشَتْ وَتَجَاسَرَ الْعَرَبُ عَلَيْهِمْ فَاسْتَبَدُّ عَلَيْهِمْ أَهْلُ  
الْقَاصِيَةِ مِثْلَ بَنِي الْأَغْلَبِ بِأَفْرِيقِيَّةٍ وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهِمْ وَأَنْقَسَمَتِ الدَّوْلَةُ ثُمَّ  
خَرَجَ بَنُو إِدْرِيسَ بِالْمَغْرِبِ وَقَامَ الْبَرْبَرُ بِأَمْرِهِمْ إِذْ عَانَا لِلْعَصِيَّةِ الَّتِي لَهُمْ وَأَمْنَا أَنْ  
تَصِلَهُمْ مُقَاتِلَةٌ أَوْ حَامِيَةٌ لِلدَّوْلَةِ . فَإِذَا خَرَجَ الدُّعَاةُ آخِرًا فَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْأَطْرَافِ  
وَالْقَاصِيَةِ وَتَحْصُلُ لَهُمْ هُنَاكَ دَعْوَةٌ وَمُلْكٌ تَنْقَسِمُ بِهِ الدَّوْلَةُ وَرُبَّمَا يَزِيدُ ذَلِكَ مَتَى  
زَادَتِ الدَّوْلَةُ تَقْلُصًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَرْكَزِ وَتَضْعَفُ الْبَطَانَةُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا أَخَذَ  
مِنْهَا التَّرَفَ فَتَهْلِكُ وَتَضْمَحِلُ وَتَضْعَفُ الدَّوْلَةُ الْمُتَقَسِّمَةُ كُلُّهَا وَرُبَّمَا طَالَ أَمْدُهَا بَعْدَ  
ذَلِكَ فَتَسْتَعْنِي عَنِ الْعَصِيَّةِ بِمَا حَصَلَ لَهَا مِنَ الصُّبْغَةِ فِي نَفُوسِ أَهْلِ إِيَالَتِهَا وَهِيَ  
صِبْغَةُ الْإِنْقِيَادِ وَالتَّسْلِيمِ مِنْذُ السَّنِينَ الطَّوِيلَةِ الَّتِي لَا يَفْعَلُ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ مَبْدَأَهَا  
وَلَا أَوَّلِيَّتَهَا فَلَا يَفْعَلُونَ إِلَّا التَّسْلِيمَ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ فَيَسْتَعْنِي بِذَلِكَ عَنْ قُوَّةِ  
الْعَصَائِبِ وَيَكْفِي صَاحِبَهَا بِمَا حَصَلَ لَهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهَا الْإِجْرَاءَ عَلَى الْحَامِيَةِ مِنْ  
جُنْدِيٍّ وَمُرْتَرِقٍ وَيَعْضُدُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي النُّفُوسِ عَامَةً مِنَ التَّسْلِيمِ فَلَا يَكَاذُ أَحَدٌ  
يَتَصَوَّرُ عُضْيَانًا أَوْ خُرُوجًا إِلَّا وَالْجُمْهُورُ مُنْكَرُونَ عَلَيْهِ مُخَالَفُونَ لَهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى  
التَّصَدِّيِّ لِذَلِكَ وَلَوْ جَهَدَ جُهْدَهُ وَرُبَّمَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ فِي هَذَا الْحَالِ أَسْلَمَ مِنَ الْخَوَارِجِ  
وَالْمَنَازِعَةِ لِاسْتِحْكَامِ صِبْغَةِ التَّسْلِيمِ وَالْإِنْقِيَادِ لَهُمْ فَلَا تَكَاذُ النُّفُوسُ تُحَدِّثُ سِرَّهَا  
بِمُخَالَفَةِ وَلَا يَخْتَلِجُ فِي ضَمِيرِهَا انْحِرَافٌ عَنِ الطَّاعَةِ فَيَكُونُ أَسْلَمَ مِنَ النَّهْرَجِ  
وَالْإِنْتِقَاضِ الَّذِي يَخْدُثُ مِنَ الْعَصَائِبِ وَالْعَشَائِرِ ثُمَّ لَا يَزَالُ أَمْرُ الدَّوْلَةِ كَذَلِكَ وَهِيَ  
تَتَلَاسَى فِي ذَاتِهَا شَأْنَ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ فِي الْبَدَنِ الْعَادِمِ لِلْغَدَاءِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى  
وَقْتِهَا الْمَقْدُورِ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ وَلِكُلِّ دَوْلَةٍ أَمَدٌ وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَهُوَ

الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . وَأَمَّا الْخَلْلُ الَّذِي يَتَطَرَّقُ مِنْ جِهَةِ الْمَالِ فَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِهَا  
 تَكُونُ بَدْوِيَّةً كَمَا مَرَّ فَيَكُونُ خُلُقُ الرَّفِيقِ بِالرَّعَايَا وَالْقَصْدُ فِي النِّفَقَاتِ وَالتَّعْفُفُ عَنِ  
 الْأَمْوَالِ فَتَتَجَانَى عَنِ الْإِمْعَانِ فِي الْجَبَايَةِ وَالتَّحَذُّلِ وَالْكَيسِ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ  
 وَحُسْبَانِ الْعُمَالِ وَلَا دَاعِيَةَ حِينِيذٍ إِلَى الْإِسْرَافِ فِي النِّفَقَةِ فَلَا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى كَثْرَةِ  
 الْمَالِ ثُمَّ يَحْصُلُ الْإِسْتِيلَاءُ وَيَعْظُمُ وَيَسْتَفْجِلُ الْمُلْكُ فَيَدْعُو إِلَى التَّرَفِ وَيَكْثُرُ  
 الْإِنْفَاقُ بِسَبَبِهِ فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ السُّلْطَانِ وَأَهْلِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْعُمُومِ بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى  
 أَهْلِ الْمِصْرِ وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي الْأَعْطِيَاةِ الْجُنْدِ وَأَرْزَاقِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ يَعْظُمُ  
 التَّرَفُ فَيَكْثُرُ الْإِسْرَافُ فِي النِّفَقَاتِ وَيَنْتَشِرُ ذَلِكَ فِي الرَّعِيَّةِ لِأَنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ  
 مُلُوكِهَا وَعَوَائِدِهَا وَيَحْتَاجُ السُّلْطَانُ إِلَى ضَرْبِ الْمَكُوسِ عَلَى أَيْمَانِ الْبِيَاعَاتِ فِي  
 الْأَسْوَاقِ لِإِذْرَارِ الْجَبَايَةِ لَمَّا يَرَاهُ مِنْ تَرَفِ الْمَدِينَةِ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمْ بِالرَّفْرِهِ وَلَمَّا  
 يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ مِنْ نَفَقَاتِ سُلْطَانِهِ وَأَرْزَاقِ جُنْدِهِ ثُمَّ تَرِيدُ عَوَائِدُ التَّرَفِ فَلَا تَقْبَلُهَا  
 الْمَكُوسُ وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ قَدِ اسْتَفْحَلَتْ فِي الْإِسْطِطَالَةِ وَالْقَهْرِ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهَا مِنْ  
 الرَّعَايَا فَتَمْتَدُّ أَيْدِيهِمْ إِلَى جَمْعِ الْمَالِ مِنْ أَمْوَالِ الرَّعَايَا مِنْ مَكْسٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ نَقْدٍ  
 فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بِشُبُهَةٍ أَوْ بَغَيْرِ شُبُهَةٍ وَيَكُونُ الْجُنْدُ فِي ذَلِكَ الطَّوْرِ قَدْ تَجَاسَرَ عَلَى  
 الدَّوْلَةِ بِمَا لِحَقَّهَا مِنَ الْفُشْلِ وَالنَّهْمِ فِي الْعَصِيَّةِ فَتَتَوَقَّعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَتَدَاوَى بِسَكِينَةٍ  
 الْعَطَايَا وَكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ فِيهِمْ وَلَا تَجِدُ عَنْ ذَلِكَ وَليجَةً وَتَكُونُ جَبَاةُ الْأَمْوَالِ فِي  
 الدَّوْلَةِ قَدْ عَظُمَتْ ثُرُوتُهُمْ فِي هَذَا الطَّوْرِ بِكَثْرَةِ الْجَبَايَةِ وَكَوْنِهَا بِأَيْدِيهِمْ وَبِمَا اتَّسَعَ  
 لِذَلِكَ مِنْ جَاهِهِمْ فَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ بِاخْتِجَانِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْجَبَايَةِ وَتَنْفُسُو السَّعَايَةَ  
 فِيهِمْ . بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ لِلْمُنَافَسَةِ وَالْحَقْدِ فَتَعْمَهُمُ النِّكْبَاتُ وَالْمُصَادِرَاتُ وَاحِدًا  
 وَاحِدًا إِلَى أَنْ تَذْهَبَ ثُرُوتُهُمْ وَتَتَلَاشَى أَحْوَالُهُمْ وَيَفْقَدُ مَا كَانَ لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْأَنْبِيَةِ  
 وَالْجَمَالِ بِهِمْ وَإِذَا اصْطَلَمَتْ نِعْمَتُهُمْ تَجَاوَزَتْهُمْ الدَّوْلَةُ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ مِنَ الرَّعَايَا  
 سِوَاهُمْ وَيَكُونُ الْوَهْنُ فِي هَذَا الطَّوْرِ قَدْ لَحِقَ الشُّوْكَةَ وَضَعُفَتْ عَنِ الْإِسْطِطَالَةِ وَالْقَهْرِ  
 فَتَنْصَرِفُ سِيَاسَةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ حِينِيذٍ إِلَى مُدَارَاةِ الْأُمُورِ بِبَدْلِ الْمَالِ وَيَرَاهُ أَرْفَعُ مِنْ

السيف لِقَلَّةِ غِنَائِهِ فَتَعْظُمُ حَاجَتُهُ إِلَى الْأَمْوَالِ زِيَادَةً عَلَى النِّفَقَاتِ وَأَرْزَاقِ الْجُنْدِ وَلَا يَغْنَى فِيهَا يُرِيدُ وَيَعْظُمُ الْهَرَمُ بِالدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ النُّوَاجِي وَالدَّوْلَةُ تَنْحَلُّ عُرَاهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ هَذِهِ إِلَى أَنْ تَفْضِيَ إِلَى الْهَلَاكِ وَتَتَعَوَّضَ مِنَ الْإِسْتِيْلَاءِ الْكَلَلِ فَإِنْ قَصَدَهَا طَالِبٌ أَنْتَزَعَهَا مِنْ أَيْدِي الْقَائِمِينَ بِهَا وَالْأَبْقِيَتْ وَهِيَ تَتَلَاشَى إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ كَالذُّبَالِ فِي السَّرَاجِ إِذَا فَنِيَ زَيْتُهُ وَطَفِيَءَ وَاللَّهُ مَالِكُ الْأُمُورِ وَمُدَبِّرُ الْأَكْوَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

## الفصل الثامن والأربعين

### فصل في اتساع الدولة

أولا إلى نهايته ثم تضايقه طورا بعد طور إلى فناء الدولة واضمحلالها<sup>(١)</sup>

قَدْ كَانَ تَقَدَّمَ لَنَا فِي فَضْلِ الْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ ، وَهُوَ الثَّالِثُ مِنْ هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ أَنْ كُلَّ دَوْلَةٍ لَهَا حِصَّةٌ مِنَ الْمَمَالِكِ وَالْعِمَالَاتِ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا . وَاعْتَبَرِ ذَلِكَ بِتَوْزِيعِ عِصَابَةِ الدَّوْلَةِ عَلَى حِمَايَةِ أَقْطَارِهَا وَجِهَاتِهَا . فَحَيْثُ نَفَذَ عَدَدُهُمْ فَالطَّرْفُ الَّذِي انْتَهَى عِنْدَهُ هُوَ الشَّعْرُ ، وَيُحِيطُ بِالدَّوْلَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا كَالنِّطَاقِ . وَقَدْ تَكُونُ النِّهَايَةِ هِيَ نِطَاقُ الدَّوْلَةِ الْأُولَى . وَقَدْ تَكُونُ أَوْسَعَ مِنْهُ إِذَا كَانَ عَدَدُ الْعِصَابَةِ أَوْفَرَ مِنَ الدَّوْلَةِ قَبْلَهَا . وَهَذَا كُلُّهُ عِنْدَمَا تَكُونُ الدَّوْلَةُ فِي شِعَارِ الْبِدَاوَةِ وَخُشُونَةِ النَّاسِ . فَإِذَا اسْتَفْحَلَ الْعِزُّ وَالغَلْبُ وَتَوَفَّرَتِ النِّعَمُ وَالْأَرْزَاقُ بِدُرُورِ الْجَبَايَاتِ ، وَزَخَرَ بِحَرِّ التَّرَفِ وَالْحَضَارَةِ وَنَشَأَتِ الْأَجْيَالُ عَلَى اعْتِبَارِ ذَلِكَ لَطْفَتْ أَخْلَاقُ الْحَامِيَةِ وَرَقَّتْ

(١) تم نقل هذا الفصل عن نسخة ( لجنة البيان العربي ) وقد علق الدكتور علي عبد الواحد وافي على هذا لفصل بقوله : « هذا الفصل هو أحد الفصول التي تزيد بها طبعة باريس عن الطبقات المتداولة في العالم العربي . وقد وضع هذا الفصل في طبعة باريس بعد الفصل السابع والأربعين من هذا الباب » وقد نقلنا هذا الفصل حرصاً على أن لا نترك من المقدمة فصلاً لم يذكر برمته . فيحرم قراؤنا من فائدته .

خَوَاشِيهِمْ ، وَعَادَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِمْ هَيْئَاتُ الْجَبِينِ وَالْكَسَلِ ، بِمَا يُعَانُونَهُ مِنْ  
صَنْثِ الْحَضَارَةِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْإِنْسِلَاحِ مِنْ شِعَارِ الْبَأْسِ وَالرُّجُولِيَّةِ بِمُفَارَقَةِ الْبِدَاوَةِ  
وَحُسُونِهَا ، وَيَأْخُذُهُمُ الْعِزُّ بِالنَّطَاوُلِ إِلَى الرِّيَاسَةِ وَالتَّنَازُعِ عَلَيْهَا ، فَيُفْضِي إِلَى قَتْلِ  
بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَيَكْبَحُهُمُ السُّلْطَانُ عَنْ ذَلِكَ بِمَا يُؤَدِّي إِلَى قَتْلِ أَكْأَبَرِهِمْ وَإِهْلَاكِ  
رُؤَسَائِهِمْ ، فَتَفْقُدُ الْأَمْرَاءُ وَالْكَبْرَاءُ ، وَتَكْثُرُ التَّابِعُ وَالْمَرْوُوسُ ، فَيَقْلُ ذَلِكَ مِنْ حَدِّ  
الدَّوْلَةِ ، وَيَكْسِرُ مِنْ شَوْكِهَا . وَيَقَعُ الْخَلَلُ الْأَوَّلُ فِي الدَّوْلَةِ ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ جِهَةِ  
الْجُنْدِ وَالْحَامِيَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَيَسَاقُ ذَلِكَ السَّرْفُ فِي النِّفَقَاتِ بِمَا يَقْتَرِبُهُمْ مِنْ أَبْهَةِ  
الْعِزِّ ، وَتَجَاوُزُ الْحُدُودَ بِالْبَدَخِ . بِالْمُنَاغَاةِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَتَشْيِيدِ الْقُصُورِ  
وَاسْتِجَادَةِ السَّلَاحِ وَارْتِبَاطِ الْخِيُولِ ، فَيَقْصُرُ دَخْلُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ عَنْ خَرَجِهَا  
وَيَطْرُقُ الْخَلَلُ .

الثَّانِي فِي الدَّوْلَةِ وَهُوَ الَّذِي مِنْ جِهَةِ الْمَالِ وَالْجَبَايَةِ . وَيَحْصُلُ الْعُجْزُ  
وَالْإِنْتِقَاصُ بِوُجُودِ الْخَلَلَيْنِ . وَرُبَّمَا تَنَافَسَ رُؤَسَاؤُهُمْ فَتَنَازَعُوا وَعَجَزُوا عَنْ مُغَالَبَةِ  
الْمُجَاوِرِينَ وَالْمُنَازِعِينَ وَمَدَافَعَتِهِمْ . وَرُبَّمَا اعْتَزَّ أَهْلُ الثُّغُورِ وَالْأَطْرَافِ بِمَا  
يَحْسِبُونَ مِنْ ضَعْفِ الدَّوْلَةِ وَرَأَاهُمْ ، فَيَصِيرُونَ إِلَى الْإِسْتِغْلَالِ وَالْإِسْتِبْدَادِ بِمَا فِي  
أَيْدِيهِمْ مِنَ الْعِمَالَاتِ ، وَيَعْجِزُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ عَنْ حَمْلِهِمْ عَلَى الْجَادَةِ فَيَضِيقُ نِطَاقُ  
الدَّوْلَةِ عَمَّا كَانَتْ أَنْتَهَتْ إِلَيْهِ فِي أَوَّلِهَا ، وَتَرْجِعُ الْعِنَايَةَ فِي تَدْبِيرِهَا بِنِطَاقِ دُونِهِ ،  
إِلَى أَنْ يَحْدُثَ فِي النِّطَاقِ الثَّانِي مَا حَدَثَ فِي الْأَوَّلِ بَعِينِهِ مِنَ الْعُجْزِ وَالْكَسَلِ فِي  
الْعِصَابَةِ وَقَلَّةِ الْأُمُورِ وَالْجَبَايَةِ . فَيَذْهَبُ الْقَائِمُ بِالدَّوْلَةِ إِلَى تَغْيِيرِ الْقَوَانِينِ الَّتِي  
كَانَتْ عَلَيْهَا سِيَاسَةُ الدَّوْلَةِ مِنْ قَبْلِ الْجُنْدِ وَالْمَالِ وَالْوَلَايَاتِ ، لِيُخْرِجَ حَالَهَا عَلَى  
اسْتِقَامَةٍ بِتَكَافُؤِ الدَّخْلِ وَالْخَرْجِ وَالْحَامِيَةِ وَالْعِمَالَاتِ وَتَوْزِيْعِ الْجَبَايَةِ عَلَى  
الْأَرْزَاقِ ، وَمُقَايَسَةِ ذَلِكَ بِأَوَّلِ الدَّوْلَةِ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ .

وَالْمَفَاسِدُ مَعَ ذَلِكَ مُتَوَقَّعَةٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ . فَيَحْدُثُ فِي هَذَا الطُّورِ مِنْ بَعْدِ  
مَا حَدَثَ فِي الْأَوَّلِ مِنْ قَبْلِ . وَيَعْتَبِرُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ مَا اعْتَبَرَهُ الْأَوَّلُ ، وَيُقَاسِسُ



بِالْوِزَانِ (١) الْأَوَّلِ أَحْوَالِهَا الثَّانِيَةَ ، يَرُومُ دَفْعَ مَفَاسِدِ الْخَلَلِ الَّذِي يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ طَوْرٍ وَيَأْخُذُ مِنْ كُلِّ طَرْفٍ حَتَّى يَضِيقَ نِطَاقَهَا الْآخَرَ إِلَى نِطَاقِ دُونِهِ كَذَلِكَ ، وَيَقَعُ فِيهِ مَا وَقَعَ فِي الْأَوَّلِ . فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُغْيِرِينَ لِلْقَوَانِينِ قَبْلَهُمْ كَأَنَّهُمْ مُنْشِئُونَ دَوْلَةً أُخْرَى ، وَمُجَدِّدُونَ مُلْكَاً . حَتَّى تُنْقَرِضَ الدَّوْلَةُ ، وَتَتَطَاوَلَ الْأُمَمُ حَوْلَهَا إِلَى التَّغْلِبِ عَلَيْهَا وَإِنْشَاءِ دَوْلَةٍ أُخْرَى لَهُمْ ، فَيَقَعُ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدَّرَ اللَّهُ وَقُوعَهُ .

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَيْفَ اتَّسَعَ نِطَاقُهَا بِالْفَتْوحَاتِ وَالتَّغْلِبِ عَلَى الْأُمَمِ ، ثُمَّ تَزَايَدَ الْحَامِيَّةُ وَتَكَاثَرَ عَدَدُهُمْ مِمَّا تَحْوُلُوهُ مِنَ النِّعَمِ وَالْأَرْزَاقِ ، إِلَى أَنْ انْقَرَضَ أَمْرُ بَنِي أُمَيَّةَ وَغَلَبَ بَنُو الْعَبَّاسِ . ثُمَّ تَزَايَدَ التَّرَفُ ، وَنَشَأَتِ الْحَضَارَةُ وَطَرِقَ الْخَلَلُ ، فَضَاقَ النِّطَاقُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ بِحُدُوثِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ الْمَرْوَانِيَّةِ وَالْعُلُوِيَّةِ ، وَاقْتَطَعُوا ذَيْبَكَ الثُّغْرَيْنِ عَنْ نِطَاقِهَا ، إِلَى أَنْ وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ بَنِي الرَّشِيدِ ، وَظَهَرَ دُعَاةُ الْعُلُوِيَّةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَتَمَهَّدَتِ لَهُمْ دَوْلٌ ، ثُمَّ قُتِلَ الْمُتَوَكِّلُ ، وَاسْتَبَدَّ الْأَحْرَارُ عَلَى الْخُلَفَاءِ وَحَجَرُوهُمْ ، وَاسْتَقَلَّ الْوَلَاةُ بِالْعِمَالَاتِ فِي الْأَطْرَافِ . وَانْقَطَعَ الْخِرَاجُ مِنْهَا ، وَتَزَايَدَ التَّرَفُ . وَجَاءَ الْمُعْتَضِدُ فَغَيَّرَ قَوَانِينِ الدَّوْلَةِ إِلَى قَانُونٍ آخَرَ مِنَ السِّيَاسَةِ أَقْطَعَ فِيهِ وِلَاةَ الْأَطْرَافِ مَا غَلَبُوا عَلَيْهِ ، مِثْلُ بَنِي سَامَانَ وَرَاءَ النَّهْرِ وَبَنِي طَاهِرِ الْعِرَاقِ وَخَرَّاسَانَ ، وَبَنِي الصُّغَارِ السَّنَدِ وَفَارِسَ ، وَبَنِي طُولُونَ مِصْرَ ، وَبَنِي الْأَغْلَبِ أَفْرِيقِيَّةَ ، إِلَى أَنْ افْتَرَقَ أَمْرُ الْعَرَبِ وَغَلَبَ الْعَجَمُ ، وَاسْتَبَدَّ بَنُو بُوَيَّهِ وَالذَّيْلَمُ بِدَوْلَةِ الْإِسْلَامِ وَحَجَرُوا الْخِلَافَةَ ، وَبَقِيَ بَنُو سَامَانَ فِي اسْتِبْدَادِهِمْ وَرَاءَ النَّهْرِ ، وَتَطَاوَلَ الْفَاطِمِيُّونَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى مِصْرَ وَالشَّامِ فَمَلَكُوهُ . ثُمَّ قَامَتِ الدَّوْلَةُ السُّلْجُوقِيَّةُ مِنَ التُّرْكِ فَاسْتَوْلَوْا عَلَى مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ وَأَبْقُوا الْخُلَفَاءَ فِي حَجْرِهِمْ ، إِلَى أَنْ تَلَاشَتْ دَوْلُهُمْ . وَاسْتَبَدَّ الْخُلَفَاءُ مِنْذُ عَهْدِ النَّاصِرِ فِي نِطَاقِ أَضِيقٍ مِنْ هَالَةِ الْقَمَرِ وَهُوَ عِرَاقُ الْعَرَبِ إِلَى أَصْبَهَانَ وَفَارِسَ وَبِالْبَحْرَيْنِ . وَأَقَامَتِ الدَّوْلَةُ كَذَلِكَ بَعْضُ الشَّيْءِ إِلَى أَنْ انْقَرَضَ أَمْرُ الْخُلَفَاءِ عَلَى يَدِ هَوْلَاكُو بْنِ

(١) قايِس بين الأمرين : قَدَّرَ ، وَازَنَهُ ، عَادَلَهُ وَقَابَلَهُ ( قَامُوسُ )

طولي بن دوشي خان ملك التتر والمغل حين غلبوا السلجوقية وملكوا ما كان  
بأيديهم من ممالك الإسلام . وهكذا يتضابق نطاق كل دولة على نسبة نطاقها  
الأول . ولا يزال طوراً بعد طور إلى أن تنقرض الدولة . واعتبر ذلك في كل دولة  
عظمت أو صغرت . فهكذا سنة الله في الدول إلى أن يأتي ما قدر الله من الغناء  
على خلقه . و « كل شيء هالك إلا وجهه <sup>(١)</sup> » .

---

(١) من آية ٨٨ من سورة القصص .

## الفصل التاسع والأربعون

في حدوث الدولة وتجدها كيف يقع

إِعْلَمُ أَنَّ نَشَأَةَ الدَّوْلِ وَبِدَائِعَهَا إِذَا أَخَذَتِ الدَّوْلَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ فِي الْهَرَمِ وَالْإِنْتِقَاصُ تَكُونُ عَلَى نَوْعَيْنِ إِمَّا بِأَنْ يَسْتَبِدَّ وِلَاةُ الْأَعْمَالِ فِي الدَّوْلَةِ بِالْقَاصِيَةِ عِنْدَمَا يَتَقَلَّصُ ظِلْمُهَا عَنْهُمْ فَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دَوْلَةٌ يَسْتَجِدُّهَا لِقَوْمِهِ وَمَا يَسْتَقِرُّ فِي نِصَابِهِ يُرِثُهُ عَنْهُ أَبْنَاؤُهُ أَوْ مَوَالِيهِ وَيَسْتَفْجِلُ لَهُمُ الْمَلِكُ بِالتَّدرِيجِ وَرُبَّمَا يَزِدِّحُمُونَ عَلَى ذَلِكَ الْمَلِكِ وَيَتَقَارِعُونَ عَلَيْهِ وَيَتَنَازَعُونَ فِي الْإِسْتِثْنَاءِ بِهِ وَيَغْلِبُ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ فَضْلُ قُوَّةٍ عَلَى صَاحِبِهِ وَيَنْتَزِعُ مَا فِي يَدِهِ كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ حِينَ أَخَذَتْ دَوْلَتَهُمْ فِي الْهَرَمِ وَتَقَلَّصَ ظِلْمُهَا عَنِ الْقَاصِيَةِ وَاسْتَبَدَّ بَنُو سَاسَانَ بِمَا وَرَاءَ الشَّهْرِ وَبَنُو حَمْدَانَ بِالمُوصِلِ وَالشَّامِ وَبَنُو طُولُونَ بِمِصْرَ وَكَمَا وَقَعَ بِالدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالأَنْدَلُسِ وَافْتَرَقَ مَلِكُهَا فِي الطَّوَائِفِ الَّذِينَ كَانُوا وَلاَتِهَا فِي الْأَعْمَالِ وَانْقَسَمَتِ دَوْلًا وَمَلُوكًا أَوْرَثُوهَا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ قَرَابَتِهِمْ أَوْ مَوَالِيهِمْ وَهَذَا النُّوعُ لَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ حَرْبًا لِأَنَّهُمْ مُسْتَقِرُّونَ فِي رِئَاسَتِهِمْ وَلَا يَطْمَعُونَ فِي الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ بِحَرْبٍ وَأَمَّا الدَّوْلَةُ أَدْرَكَهَا الْهَرَمُ وَتَقَلَّصَ ظِلْمُهَا عَنِ الْقَاصِيَةِ وَعَجَزَتْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا وَالنُّوعُ الثَّانِي بِأَنْ يَخْرُجَ عَلَى الدَّوْلَةِ خَارِجٌ مِمَّنْ يَجَاوِرُهَا مِنَ الْأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ إِمَّا بِدَعْوَةٍ يَحْمِلُ النَّاسُ عَلَيْهَا كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ أَوْ يَكُونُ صَاحِبَ شَوْكَةٍ وَعَظْمِيَّةٍ كَبِيرًا فِي قَوْمِهِ قَدِ اسْتَفْجَلَ أَمْرَهُ فَيَسْمُو بِهِمْ إِلَى الْمَلِكِ وَقَدْ حَدَّثُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْإِعْتِرَازِ عَلَى الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ وَمَا نَزَلَ بِهَا مِنَ الْهَرَمِ فَيَتَعَيَّنُ لَهُ وَلِقَوْمِهِ الْإِسْتِيْلَاءُ عَلَيْهَا وَيَمَارِسُونَهَا بِالمُطَالَبَةِ إِلَى أَنْ يَظْفَرُوا بِهَا وَيَرْزُونُ<sup>(١)</sup> كَمَا تَبَيَّنَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) قوله ويزنون وفي نسخة ويرفون من الرفو بالراء والفاء . ١ هـ

## الفصل الخمسون

في ان الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطالبة  
لا بالمناجزة

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الدَّوْلَ الحَادِثَةَ المُتَجَدِّدَةَ نَوْعَانِ نَوْعٍ مِنْ وِلَايَةِ الأَطْرَافِ إِذَا تَقَلَّصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ عَنْهُمْ وَأَنْحَسَرَ تِيَارُهَا وَهَوَّلَاءَ لَا يَقَعُ مِنْهُمْ مُطَالِبَةٌ لِلدَّوْلَةِ فِي الأَكْثَرِ كَمَا قَدَّمْنَا لِأَنَّ قُصَارَاهُمْ القُنُوعُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَهُوَ نِهَائِيَّةٌ قُوَّتِهِم وَالنَّوْعُ الثَّانِي نَوْعُ الدُّعَاةِ وَالخَوَارِجِ عَلَى الدَّوْلَةِ وَهَوَّلَاءَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ المُطَالِبَةِ لِأَنَّ قُوَّتَهُمْ وَافِيَّةٌ بِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي نِصَابٍ يَكُونُ لَهُ مِنَ العَصِيَّةِ وَالاغْتِرَازِ مَا هُوَ كِفَاءٌ<sup>(١)</sup> ذَلِكَ وَوَأَفِ بِهِ يَقَعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدَّوْلَةِ المُسْتَقِرَّةِ حُرُوبٌ سِحَالٌ تَتَكَوَّرُ وَتَتَّصِلُ إِلَى أَنْ يَقَعُ لَهُمُ الإِسْتِيْلَاءُ وَالظَّفَرُ بِالمَطْلُوبِ وَلَا يَخْصُلُ لَهُمْ فِي الغَالِبِ ظَفَرٌ بِالمُنَاجَزَةِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الظَّفَرَ فِي الحُرُوبِ إِنَّمَا يَقَعُ كَمَا قَدَّمْنَا بِأُمُورٍ نَفْسَانِيَّةٍ وَهَمِيَّةٍ وَإِنْ كَانَ العَدَدُ وَالسَّلَاحُ وَصِدْقُ القِتَالِ كَفِيلاً بِهِ لَكِنَّهُ قَاصِرٌ مَعَ تِلْكَ الأُمُورِ الوَهْمِيَّةِ كَمَا مَرَّ وَلِذَلِكَ كَانَ الخِدَاعُ مِنْ أَرْفَعِ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الحَرْبِ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ الظَّفَرُ بِهِ وَفِي الحَدِيثِ الحَرْبُ خُدْعَةٌ وَالدَّوْلَةُ المُسْتَقِرَّةُ قَدْ صَيَّرَتِ العَوَائِدَ المَالُوفَةَ طَاعَتَهَا ضَرْوْرِيَّةً وَاجِبَةً كَمَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فَتَكْثُرُ بِذَلِكَ العَوَائِقُ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ المُسْتَجِدَّةِ وَيَكْثُرُ مِنْ هَمِّ أَتْبَاعِهِ وَأَهْلِ شَوْكَيْتِهِ وَإِنْ كَانَ الأَقْرَبُونَ

(١) الأصح كفاء أو كفيء أو كفو وقد ورد في لسان العرب « وتقول ، الاكفاء له . بالكسر . وهو في الأصل مصدر . أي لا نظير له . »

مِنْ بَطَانَتِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ فِي طَاعَتِهِ وَمُؤَاذَرَتِهِ إِلَّا أَنْ الْأَخْرِينَ أَكْثَرَ وَقَدْ دَاخَلَهُمُ الْفُشْلُ  
 يَتْلُكَ الْعَقَائِدُ فِي التَّسْلِيمِ لِلدَّوْلَةِ الْمُسْتَقْرَّةِ فَيُحْضَلُ بَعْضُ الْفُتُورِ مِنْهُمْ وَلَا يَكَادُ  
 صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقْرَّةِ يَرْجِعُ إِلَى الصَّبْرِ وَالْمُطَاوَلَةِ حَتَّى يَتَّضِحَ هَرَمُ الدَّوْلَةِ  
 الْمُسْتَقْرَّةِ فَتَضْمَحِلَّ عَقَائِدُ التَّسْلِيمِ لَهَا مِنْ قَوْمِهِ وَتَنْبَعِثُ مِنْهُمْ الْهَمَمُ لِصَدِّقِ الْمُطَالِبَةِ  
 مَعَهُ فَيَقَعُ الظَّفَرُ وَالِاسْتِيْلَاءُ وَأَيْضاً فَالدَّوْلَةُ الْمُسْتَقْرَّةُ كَثِيرَةُ الرِّزْقِ <sup>(١)</sup> بِمَا اسْتَحْكَمَ  
 لَهُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَتَوَسَّعَ مِنَ النِّعِيمِ وَاللَّذَاتِ وَاخْتَصُّوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ  
 فَيَكْتُرُ عِنْدَهُمْ ارْتِبَاطُ الْخَيُْولِ وَاسْتِجَادَةُ الْأَسْلِحَةِ وَتَعْظُمُ فِيهِمُ الْأَبْهَةُ الْمُلْكِيَّةُ  
 وَيَفِيضُ الْعَطَاءُ بَيْنَهُمْ مِنْ مَلُوكِهِمْ اخْتِياراً وَاضْطِراراً فَيَرْهَبُونَ بِذَلِكَ كُلَّهُ عَدُوَّهُمْ  
 وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ بِمَغْزَلٍ عَنْ ذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَأَحْوَالِ الْفَقْرِ  
 وَالْخِصَاصَةِ <sup>(٢)</sup> فَيَسْبِقُ إِلَى قُلُوبِهِمْ أَوْهَامُ الرَّعْبِ بِمَا يَبْلُغُهُمْ مِنْ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ  
 الْمُسْتَقْرَّةِ وَيَحْرَمُونَ عَنْ قِتَالِهِمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فَيَصِيرُ أَمْرُهُمْ إِلَى الْمُطَاوَلَةِ حَتَّى تَأْخُذَ  
 الْمُسْتَقْرَّةُ مَا خَذَهَا مِنَ النَّهْمِ وَيَسْتَحْكِمُ الْخَلَلَ فِيهَا فِي الْعَصِيَّةِ وَالْجَبَايَةِ فَيَنْتَهِرُ  
 حِينَئِذٍ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ فَرَضَتَهُ فِي الْاسْتِيْلَاءِ عَلَيْهَا بَعْدَ حِينَ مُنْذِ الْمُطَالِبَةِ  
 سُنَّةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَأَيْضاً فَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ كُلُّهُمْ مُبَايِنُونَ لِلدَّوْلَةِ الْمُسْتَقْرَّةِ  
 بِأَنْسَابِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَفِي سَائِرِ مَنَاحِيهِمْ ثُمَّ هُمْ مَفَاخِرُونَ لَهُمْ وَمُنَايِدُونَ بِمَا وَقَعَ مِنْ  
 هَذِهِ الْمُطَالِبَةِ وَبِطَمَعِهِمْ فِي الْاسْتِيْلَاءِ عَلَيْهِ فَتَتِمَّكُنُ الْمُبَاعَدَةُ بَيْنَ أَهْلِ الدَّوْلَتَيْنِ سِرّاً  
 وَجَهراً وَلَا يَصِلُ إِلَى أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ خَبْرٌ عَنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقْرَّةِ يُصِيبُونَ  
 مِنْهُ غَرَّةً <sup>(٣)</sup> بَاطِناً وَظَاهِراً لِانْقِطَاعِ الْمُدَاخَلَةِ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ فَيَقِيمُونَ عَلَى الْمُطَالِبَةِ  
 وَهُمْ فِي إِحْجَامٍ وَيَنْكَلُونَ <sup>(٤)</sup> عَنِ الْمُنَاجَزَةِ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ بِزَوَالِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقْرَّةِ  
 وَفَنَاءِ عُمْرِهَا وَوُقُورِ الْخَلْلِ فِي جَمِيعِ جِهَاتِهَا وَاتَّضَحَ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ  
 مَا كَانَ يَخْفَى مِنْهُمْ مِنْ هَرَمِهَا وَتَلَاشِيهَا وَقَدْ عَظُمَتْ قُوَّتُهُمْ بِمَا اقْتَطَعُوهُ مِنْ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخ « كَثِيرَةُ التَّرَفِ » .

(٢) الْفَقْرُ وَسُوءُ الْحَالِ

(٣) قَوْلُهُ غَرَّةٌ بِكسر الْغَيْنِ أَي غَفْلَةٌ .

(٤) يَجِينُونَ .

أَعْمَالِهَا وَتَقْصُوهَ مِنْ أَطْرَافِهَا فَتَنْبِئْتُ هِمَمَهُمْ يَدَا وَاحِدَةً لِلْمَنَاجِزَةِ وَيَذْهَبُ مَا كَانَ  
بُثٌّ فِي عَزَائِمِهِمْ مِنَ التَّوَهُّمَاتِ وَتَنْتَهِي الْمَطَاوِلَةَ إِلَى حَدِّهَا وَيَقَعُ الْإِسْتِيْلَاءُ آخِرًا  
بِالْمَعَاجِلَةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ حِينَ ظَهَرَهَا حِينَ قَامَ الشَّيْعَةُ  
بِخُرَّاسَانَ بَعْدَ انْعِقَادِ الدَّعْوَةِ وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْمُطَالَبَةِ عَشْرَ سِنِينَ أَوْ تَزِيدَ وَحِينَئِذٍ  
تَمَّ لَهُمُ الظُّفْرُ وَاسْتَوْلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَكَذَا الْعَلَوِيَّةِ بِطَبْرِسْتَانَ عِنْدَ ظُهُورِ  
دَعْوَتِهِمْ فِي الدَّيْلَمِ كَيْفَ كَانَتْ مُطَاوَلَتُهُمْ حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى تِلْكَ النَّاجِيَةِ ثُمَّ لَمَّا  
انْقَضَى أَمْرُ الْعَلَوِيَّةِ وَسَمَا الدَّيْلَمِ إِلَى مُلْكِ فَارِسَ وَالْعِرَاقَيْنِ فَمَكَّثُوا سِنِينَ كَثِيرَةً  
يُطَاوِلُونَ حَتَّى اقْتَطَعُوا أَصْبَهَانَ ثُمَّ اسْتَوْلُوا عَلَى الْخَلِيفَةِ بَغْدَادَ . وَكَذَا الْعَبِيدِيُّونَ  
أَقَامَ دَاعِيَتَهُمْ بِالْمَغْرِبِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيُّ بَيْنِي كُتَامَةَ مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ عَشْرَ  
سِنِينَ وَيَزِيدَ تَطَاوُلَ بَنِي الْأَغْلَبِ بِأَنْفَرِيقَةَ حَتَّى ظَفِرَ بِهِمْ وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْمَغْرِبِ  
كُلَّهُ وَسَمَوْا إِلَى مُلْكِ مِصْرَ فَمَكَّثُوا ثَلَاثِينَ <sup>(١)</sup> سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا فِي طَلَبِهَا يَجْهَرُونَ إِلَيْهَا  
الْعَسَاكِرَ وَالْأَسَاطِيلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَجِيءُ الْمَدَدُ لِمَدَافِعَتِهِمْ بَرًّا وَبَحْرًا مِنْ بَغْدَادَ  
وَالشَّامِ وَمَلَكُوا الإسْكَندَرِيَّةَ وَالْفَيْوومَ وَالصَّعِيدَ وَتَخَطَّتْ دَعْوَتُهُمْ مِنْ هُنَاكَ إِلَى  
الْحِجَازِ وَأَقِيمَتْ بِالْحَرَمَيْنِ ثُمَّ نَازَلَ قَائِدُهُمْ جَوْهَرُ الْبَكَاتِبِ بِعَسَاكِرِهِ مَدِينَةَ مِصْرَ  
وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا وَاقْتَلَعَ دَوْلَةَ بَنِي طُغْجٍ مِنْ أَصُولِهَا وَاخْتَطَّ الْقَاهِرَةَ فَجَاءَ الْخَلِيفَةُ بَعْدَ  
الْمِعْزَلِ دِينَ اللَّهِ فَنَزَلَهَا لِسْتِينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا مُنْذُ اسْتِيْلَائِهِمْ عَلَى الإسْكَندَرِيَّةِ وَكَذَا  
السُّلْجُوقِيَّةُ مُلُوكُ التُّرْكِ لَمَّا اسْتَوْلُوا عَلَى بَنِي سَاسَانَ وَأَجَازُوا مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ مَكَّثُوا  
نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً يُطَاوِلُونَ بَنِي سُبُكْتِكِينَ بِخُرَّاسَانَ حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى دَوْلَتِهِ .  
ثُمَّ زَحَفُوا إِلَى بَغْدَادَ فَاسْتَوْلُوا عَلَيْهَا وَعَلَى الْخَلِيفَةِ بِهَا بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ الدَّهْرِ . وَكَذَا  
التَّتَرُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَرَجُوا مِنَ الْمَفَازَةِ عَامَ سَبْعَةِ عَشَرَ وَسِتْمِائَةَ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُمُ الْإِسْتِيْلَاءُ  
إِلَّا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً . وَكَذَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ خَرَجَ بِهِ الْمُرَاطُونَ مِنْ لِمْتُونَةَ عَلَى  
مُلُوكِهِ مِنْ مِغْرَاوَةَ فَطَاوَلُوهُمْ سِنِينَ ثُمَّ اسْتَوْلُوا عَلَيْهِ . ثُمَّ خَرَجَ الْمُوَحِّدُونَ بِدَعْوَتِهِمْ

(١) كذا في الأصل والواضح من المراجع التاريخية ومنها تاريخ ابن خلدون نفسه ان اللدة هي ستون سنة

وان ثلاثين خطأ .

عَلَى لِسْتُونَةٍ فَمَكَّثُوا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً يُحَارِبُونَهُمْ حَتَّى اسْتَوْلَوْا عَلَى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَائِشٍ وَكَذَا بَنُو مُرَيْنَ مِنْ زَنَاتَةَ خَرَجُوا عَلَى الْمُؤَحَّدِينَ فَمَكَّثُوا يُطَاوِلُونَهُمْ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَاسْتَوْلُوا عَلَى فَاسٍ وَاقْتَطَعُوهَا وَأَعْمَلَهَا مِنْ مَلُوكِهِمْ ثُمَّ أَقَامُوا فِي مَحَارِبَتِهِمْ ثَلَاثِينَ أُخْرَى حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَائِشٍ حَسْبَمَا نَذَكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي تَوَارِيخِ هَذِهِ الدَّوَلِ فَهَكَذَا حَالُ الدَّوَلِ الْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ الْمُسْتَقَرَّةِ فِي الْمَطَاوِلَةِ وَالْمَطَاوِلَةِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا . وَلَا يُعَارِضُ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَكَيْفَ كَانَ اسْتِيلَاؤُهُمْ عَلَى فَارِسَ وَالرُّومِ لِثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ مِنْ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ . وَاعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا سِرُّهَا اسْتِمَاتَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ اسْتِبْعَادًا بِالْإِيمَانِ وَمَا أَوْقَعَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمْ مِنَ الرَّعْبِ وَالتَّخَاذُلِ فَكَانَ ذَلِكَ خَارِقًا لِلْعَادَةِ الْمَقْرَّرَةِ فِي مُطَاوِلَةِ الدَّوَلِ الْمُسْتَجِدَّةِ لِلْمُسْتَقَرَّةِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ خَارِقًا فَهُوَ مِنْ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمَتَعَارِفِ ظُهُورُهَا فِي الْعَمَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْمُعْجِزَاتِ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا الْأُمُورُ الْعَادِيَّةُ وَلَا يُعْتَرَضُ بِهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

## الفصل الحادي والخمسون

في وفور العمران اخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

إِعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الرُّفْقِ فِي مَلَكَتِهَا <sup>(١)</sup> وَالْإِعْتِدَالِ فِي إِيَالَتِهَا إِذَا مِنَ الدِّينِ إِنْ كَانَتْ الدَّعْوَةُ دِينِيَّةً أَوْ مِنَ الْمَكَارِمَةِ وَالْمَحَاسِنَةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الْبِدَاوَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلدَّوَلِ وَإِذَا كَانَتْ الْمَلَكَةُ رَفِيقَةً مُحْسِنَةً انْبَسَطَتْ أَمَالُ الرُّعَايَا وَانْتَشَطُوا لِلْعُمَرَانِ وَأَسْبَابِهِ فَتَوَفَّرَ وَيَكْثُرُ التَّنَاسُلُ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِالتَّدرِيجِ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ بَعْدَ جِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ فِي الْأَقْلِ وَفِي

(١) بمعنى ملكها .

انْقِضَاءُ الْجِيلَيْنِ تَشْرَفُ الدَّوْلَةُ عَلَى نَهَايَةِ عُمْرِهَا الطَّبِيعِيِّ فَيَكُونُ حِينُئِذٍ العُمَرَانُ فِي  
 غَايَةِ الوُفُورِ وَالنَّمَاءِ وَلَا تَقُولُنَّ إِنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنْ أَوَاخِرَ الدَّوْلَةَ يَكُونُ فِيهَا الإِجْحَافُ  
 بِالرِّعَايَا وَسُوءُ الْمَلَكََةِ فَذَلِكَ صَحِيحٌ وَلَا يُعَارِضُ مَا قُلْنَا لِأَنَّ الإِجْحَافَ وَإِنْ حَدَثَ  
 حِينُئِذٍ وَقَلَّتِ الْجَبَايَاتُ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي تَنَاقُصِ العُمَرَانِ بَعْدَ حِينٍ مِنْ أَجْلِ  
 التَّدْرِيجِ فِي الأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ ثُمَّ إِنَّ المَجَاعَاتِ وَالْمَوْتَانَ تَكْثُرُ عِنْدَ ذَلِكَ فِي  
 أَوَاخِرِ الدَّوَلِ وَالسَّبَبُ فِيهِ ، إِمَّا المَجَاعَاتُ فَلِقَبْضِ النَّاسِ أَيْدِيهِمْ عَنِ الفُلْجِ فِي  
 الأَكْثَرِ بِسَبَبِ مَا يَقَعُ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ مِنَ العُدْوَانِ فِي الأَمْوَالِ وَالْجَبَايَاتِ أَوْ الفِتَنِ  
 الوَاقِعَةِ فِي انْتِقَاصِ الرِّعَايَا وَكثْرَةِ الخَوَارِجِ لِهَرَمِ الدَّوْلَةِ فَيَقِلُّ اِخْتِكَارُ الزَّرْعِ عَالِيًا  
 وَلَيْسَ صَلاَحُ الزَّرْعِ وَثَمَرَتُهُ بِمُسْتَمِرِّ الوُجُودِ وَلَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فَطَبِيعَةُ العَالَمِ فِي  
 كَثْرَةِ الأَمْطَارِ وَقَلَّتِهَا مُخْتَلِفَةٌ وَالْمَطَرُ يَقْوَى وَيَضْعَفُ وَيَقِلُّ وَيَكْثُرُ وَالزَّرْعُ وَالشَّمَارُ  
 وَالضَّرْعُ عَلَى نِسْبَتِهِ إِلَّا أَنَّ النَّاسَ وَاثِقُونَ فِي أَقْوَاتِهِمْ بِالإِخْتِكَارِ فَإِذَا قُفِدَ الإِخْتِكَارُ  
 عَظُمَ تَوَقُّعُ النَّاسِ لِلْمَجَاعَاتِ فَعَلَا الزَّرْعُ وَعَجَزَ عَنْهُ أَوْلُو الخُصَاصَةِ <sup>(١)</sup> فَهَلَكُوا وَكَانَ  
 بَعْضُ السَّنَوَاتِ الإِخْتِكَارُ مَفْقُودًا فَشَمَلَ النَّاسَ الجُوعُ وَأَمَّا كَثْرَةُ المَوْتَانِ فَلَهَا أَسْبَابٌ  
 مِنْ كَثْرَةِ المَجَاعَاتِ كَمَا ذَكَرْنَا أَوْ كَثْرَةِ الفِتَنِ لِإِخْتِلَالِ الدَّوْلَةِ فَيَكْثُرُ البُهْرَجُ وَالقَتْلُ  
 أَوْ وَقُوعُ الوَبَاءِ وَسَبَبُهُ فِي الغَالِبِ فَسَادُ الهَوَاءِ بِكثْرَةِ العُمَرَانِ لِكثْرَةِ مَا يُخَالِطُهُ مِنْ  
 العَفْنِ وَالرُّطُوبَاتِ الفَاسِدَةِ وَإِذَا فَسَدَ الهَوَاءُ وَهُوَ غِذَاءُ الرُّوحِ الحَيَوَانِيِّ وَمَلَابِسُهُ  
 دَائِمًا فَيَسْرِي الفَسَادُ إِلَى مِزَاجِهِ فَإِنْ كَانَ الفَسَادُ قَوِيًا وَقَعَ المَرَضُ فِي الرُّئَةِ وَهَذِهِ  
 هِيَ الطَّوَاعِينُ وَأَمْرَاضُهَا مَخْصُوصَةٌ بِالرُّئَةِ وَإِنْ كَانَ الفَسَادُ دُونَ القَوِيِّ وَالكَثِيرِ  
 فَيَكْثُرُ العَفْنُ وَيَتَضَاعَفُ فَتَكْثُرُ الحَمِيَّاتُ فِي الأَمْرَاجَةِ وَتَمْرَضُ الأَبْدَانُ وَتَهْلِكُ  
 وَسَبَبُ كَثْرَةِ العَفْنِ وَالرُّطُوبَاتِ الفَاسِدَةِ فِي هَذَا كُلُّهُ كَثْرَةُ العُمَرَانِ وَوُفُورُهُ آخِرَ  
 الدَّوْلَةِ لِمَا كَانَ فِي أَوَائِلِهَا مِنْ حُسْنِ الْمَلَكََةِ وَرِفْقِهَا وَقِلَّةِ المَغْرَمِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَلِهَذَا  
 تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الحِكْمَةِ أَنَّ تَخَلُّلَ الخَلَاءِ وَالقَفْرِ بَيْنَ العُمَرَانِ ضَرُورِيٌّ لِيَكُونَ  
 تَمَوُّجُ الهَوَاءِ يَذْهَبُ بِمَا يَخْصُلُ فِي الهَوَاءِ مِنَ الفَسَادِ وَالعَفْنِ بِمُخَالَطَةِ الحَيَوَانَاتِ

(١) الفقر وسوء الحال ( المنجد ) .



وَيَأْتِي بِالْهَوَاءِ الصَّحِيحِ وَلِهَذَا أَيْضاً فَإِنَّ الْمَوْتَانَ يَكُونُ فِي الْمُدُنِ الْمُؤَفَّرَةِ الْعُمُرَانَ  
أَكْثَرَهُنَّ غَيْرَهَا بِكَثِيرٍ كَمَضَرَ بِالْمَشْرِقِ وَفَاسَ بِالْمَغْرِبِ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ (١)

## الفصل الثاني والخمسون

في أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره

إِعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ الْاجْتِمَاعَ لِلْبَشَرِ ضَرُورِيٌّ وَهُوَ مَعْنَى  
الْعُمُرَانِ الَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُمْ فِي الْاجْتِمَاعِ مِنْ وَازِعٍ حَاكِمٍ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ  
وَحُكْمُهُ فِيهِمْ تَارَةً يَكُونُ مُسْتَنَدًا إِلَى شَرْعٍ مُنْزَلٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُوجِبُ انْقِيَادَهُمْ إِلَيْهِ  
إِيمَانَتُهُمْ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ عَلَيْهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبْلَغُهُ وَتَارَةً إِلَى سِيَاسَةٍ عَقْلِيَّةٍ يُوجِبُ  
انْقِيَادَهُمْ إِلَيْهَا مَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ ثَوَابٍ ذَلِكَ الْحَاكِمِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِمَصَالِحِهِمْ . فَأَلَاوَلَى  
يَحْضُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِلْمِ الشَّارِعِ بِالْمَصَالِحِ فِي الْعَاقِبَةِ وَلِمُرَاعَاتِهِ نَجَاةَ  
الْعِبَادِ فِي الْآخِرَةِ وَالثَّانِيَةَ إِنَّمَا يَحْضُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا فَقَطْ وَمَا تَسْمَعُهُ مِنَ السِّيَاسَةِ  
الْمَدَنِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ  
وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمُجْتَمَعِ فِي نَفْسِهِ وَخُلُقِهِ حَتَّى يَسْتَعْنُوا عَنِ الْحُكَامِ رَأْسًا  
وَيُسَمُّونَ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي يَحْضُلُ فِيهِ مَا يُسَمَّى مِنْ ذَلِكَ « بِالْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ » .  
وَالْقَوَانِينِ الْمُرَاعَاةَ فِي ذَلِكَ « بِالسِّيَاسَةِ الْمَدَنِيَّةِ » وَلَيْسَ مُرَادُهُمُ السِّيَاسَةَ الَّتِي  
يَحْمِلُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْاجْتِمَاعِ بِالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فَإِنَّ هَذِهِ غَيْرُ تِلْكَ وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ  
الْفَاضِلَةُ عِنْدَهُمْ نَادِرَةٌ أَوْ بَعِيدَةٌ الْوُقُوعِ وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ عَلَيْهَا عَلَى جِهَةِ الْفَرَضِ  
وَالْتَقْدِيرِ ثُمَّ إِنَّ السِّيَاسَةَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي قَدَّمْنَاهَا تَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا يِرَاعَى

(١) بعد الدراسات الحديثة المتعلقة بحياة الإنسان في المدينة والريف . حيث أن متوسط عمر الإنسان في  
الريف يزيد عن مثله في المدينة كثيراً . وهذا يؤكد نظرية ابن خلدون من هذه الناحية . لان مناخ المدينة المشيع  
بدخان المصانع والمعامل والسيارات وغيرها غير مناخ الريف النظيف النقي .

فِيهَا الْمَصَالِحُ عَلَى الْعُمُومِ وَمَصَالِحِ السُّلْطَانِ فِي اسْتِقَامَةِ مُلْكِهِ عَلَى الْخُصُوصِ وَهَذِهِ كَانَتْ سِيَاسَةَ الْفُرْسِ وَهِيَ عَلَى جِهَةِ الْحِكْمَةِ . وَقَدْ أَغْنَانَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا فِي الْمِلَّةِ وَلِعَهْدِ الْخِلَافَةِ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ مُغْنِيَةٌ عَنْهَا فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَأَحْكَامُ الْمَلِكِ مُنْدرَجَةٌ فِيهَا . الْوَجْهُ الثَّانِي أَنْ يُرَاعَى فِيهَا مَصْلَحَةُ السُّلْطَانِ وَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ لَهُ الْمُلْكُ مَعَ الْقَهْرِ وَالْإِسْطِطَالَةِ وَتَكُونُ الْمَصَالِحُ الْعَامَّةُ فِي هَذِهِ تَبَعًا وَهَذِهِ السِّيَاسَةُ الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْاجْتِمَاعِ الَّتِي لِسَائِرِ الْمُلُوكِ فِي الْعَالَمِ مِنْ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ إِلَّا أَنْ مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ يَجْرُونَ مِنْهَا عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِحَسَبِ جُهْدِهِمْ فَقَوَانِينُهَا إِذَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ أَحْكَامِ شَرْعِيَّةٍ وَأَدَابِ خُلُقِيَّةٍ وَقَوَانِينُ فِي الْاجْتِمَاعِ طَبِيعِيَّةٍ ، وَأَشْيَاءٌ مِنْ مَرَاعَاةِ الشُّوْكَةِ وَالْعَصِيَّةِ ضَرْوْرِيَّةٍ وَالْإِقْتِدَاءِ فِيهَا بِالشَّرْعِ أَوْلَا ثَمَّ الْحُكْمَاءُ فِي آدَابِهِمْ وَالْمُلُوكُ فِي سَيْرِهِمْ وَمِنْ أَحْسَنِ مَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ وَأَوْدَعَ كِتَابَ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ لَمَّا وُلِّاهُ الْمَأْمُونُ الرَّقَّةَ وَمَضَرَ وَمَا بَيْنَهُمَا فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَبُوهُ طَاهِرٌ كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ عَهْدَ إِلَيْهِ فِيهِ وَوَصَاةٌ بِجَمِيعِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ فِي دَوْلَتِهِ وَسُلْطَانِهِ مِنَ الْآدَابِ الدِّيْنِيَّةِ وَالْخُلُقِيَّةِ وَالسِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْمُلُوكِيَّةِ ، وَحَثُّهُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشَّيْمِ بِمَا لَا يَسْتغْنِي عَنْهُ مَلِكٌ وَلَا سُوْقَةٌ . وَنَصُ الْكِتَابِ ( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ) أَمَّا بَعْدُ فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَحُدَّةِ لَا شَرِيكَ لَهُ وَخَشْيَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُرَايَلَةٍ <sup>(١)</sup> سَخِطَهُ وَاحْفَظْ رِعْيَتَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالزَّمَّ مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ الْعَافِيَةِ بِالذِّكْرِ لِمَعَادِكَ وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَمَوْقُوفٌ عَلَيْهِ وَمَسْئُولٌ عَنْهُ ، وَالْعَمَلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعْصِمُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنْجِيكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِقَابِهِ وَالْإِيمَ عَذَابِهِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَوْجَبَ الرَّأْفَةَ عَلَيْكَ بِمَنْ اسْتَرْعَاكَ أَمْرَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ وَالزَّمَكَ الْعَدْلَ فِيهِمْ وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ وَحُدُودِهِ عَلَيْهِمْ وَالذَّبَّ عَنْهُمْ وَالدَّفْعَ عَنْ حَرِيمِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ وَالْحَقْنَ لِيَدْمَائِهِمْ وَالْأَمْنَ لِسِرِّيهِمْ وَإِدْخَالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ وَمُواخِذَكَ بِمَا فَرَضَ عَلَيْكَ وَمَوْفَقَكَ عَلَيْهِ وَسَائِلَكَ عَنْهُ وَمُشِيكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخْرَجْتَ فَفَرِّغْ لِدَلِكِ فَمَنْكَ

(١) مزايلة ، بمعنى الابتعاد عن .

وَعَقْلِكَ وَبَصْرِكَ وَلَا يُشْغَلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ ، وَإِنَّ رَأْسَ أَمْرِكَ وَمِلاَكَ<sup>(١)</sup> شَأْنِكَ وَأَوَّلُ مَا يُوقِفُكَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَيْكُنْ أَوَّلُ مَا تُلْزِمُ بِهِ نَفْسَكَ وَتَنْسِبُ إِلَيْهِ فِعْلَكَ الْمَوَاطَبَةَ عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ قَبْلَكَ وَتَوَابِعِهَا عَلَى سُنَنِهَا مِنْ إِسْبَاحِ الْوُضُوءِ لَهَا وَافْتِتَاحِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا وَرَتْلِ فِي قِرَاءَتِكَ وَتَمَكُّنِ فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشْهُدِكَ وَتَنْصَرِفِ فِيهِ رَأْيِكَ وَنَيْتِكَ وَاحْضُضْ عَلَيْهِ جَمَاعَةً مِمَّنْ مَعَكَ وَتَحْتَ يَدِكَ وَإِذَا بَ عَلَيْهِهَا فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ثُمَّ اتَّبِعْ ذَلِكَ بِالْأَخْذِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُتَابَرَةَ عَلَى خِلَافِهِ وَاقْتِنَاءِ أَثَرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِاسْتِخَارَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَقْوَاهُ وَبِلُزُومِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ وَائْتِمَامِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِالْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تَمِيلَنَّ عَنِ الْعَدْلِ فِيمَا أَحْبَبْتَ أَوْ كَرِهْتَ لِقَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ لِبَعِيدٍ وَأَثَرِ الْفَقْهِ وَأَهْلِهِ وَالِدِينَ وَحَمَلْتَهُ وَكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْعَامِلِينَ بِهِ<sup>(٢)</sup> فَإِنْ أَفْضَلَ مَا يَتَزَيَّنُ بِهِ الْمَرْءُ الْفَقْهُ فِي الدِّينِ وَالطَّلَبُ لَهُ وَالْحَثُّ عَلَيْهِ وَالْمَعْرِفَةُ بِمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ وَالْقَائِدُ إِلَيْهِ وَالْأَمْرُ وَالنَّاهِي عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمُؤَبِّقَاتِ كُلِّهَا وَمَعَ تَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَزِدَادُ الْمَرْءَ مَعْرِفَةً وَإِجْلَالاً لَهُ وَدَرَكَاً<sup>(٣)</sup> لِلدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الْمَعَادِ مَعَ مَا فِي ظُهُورِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْفِيقِ لِأَمْرِكَ وَالْهَيْبَةِ لِسُلْطَانِكَ وَالْأَنْسَةِ بِكَ وَالثَّقَةِ بِعَدْلِكَ وَعَلَيْكَ بِالْإِقْتِصَادِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا فَلَيْسَ شَيْءٌ أَبْيَنَ نَفْعاً وَلَا أَحْصَى أَمْنًا وَلَا أَجْمَعَ فَضْلاً مِنْهُ . وَالْقَصْدُ دَاعِيَةٌ إِلَى الرُّشْدِ وَالرُّشْدُ دَلِيلٌ عَلَى التَّوْفِيقِ وَالتَّوْفِيقُ قَائِدٌ إِلَى السَّعَادَةِ وَقِوَامِ الدِّينِ وَالسُّنَنِ الْهَادِيَةِ بِالْإِقْتِصَادِ وَكَذَا فِي دُنْيَاكَ كُلِّهَا . وَلَا تَقْصُرْ فِي طَلَبِ

(١) ملاك ، ملاك الأمر ، قوامه ( المنجد ) .

(٢) صحيح العبارة ومقتضى سياق الجملة ، « وأثر الفقه وأهله ، والدين والعاملين به ، وكتاب الله عز

وجل وحملته » .

(٣) وصولاً .

الآخِرَةَ وَالْأَجْرَ وَالْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَالسُّنَنَ الْمَعْرُوفَةَ وَمَعَالِمَ الرُّشْدِ وَالْإِعَانَةَ  
وَالِاسْتِكْثَارَ مِنَ الْبُرِّ وَالسُّعْيَ لَهُ إِذَا كَانَ يُطْلَبُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى وَمَرْضَاتُهُ وَمُرَافَقَةَ  
أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَصْدَ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا يُورِثُ الْعِزَّ وَيَمَحُصُ مِنَ  
الدُّنُوبِ وَأَنَّكَ لَنْ تَحُوطَ نَفْسَكَ مِنْ قَائِلٍ وَلَا تَنْصَلِحَ أُمُورَكَ بِأَفْضَلِ مِنْهُ فَأَتِيهِ وَاهْتَدِ  
بِهِ تَتِمَّ أُمُورُكَ وَتَزِدْ مَقْدِرَتَكَ وَتَصْلِحَ عَامَّتُكَ وَخَاصَّتُكَ وَأَحْسِنِ ظَنَكَ بِاللَّهِ عَزَّ  
وَجَلَّ تَسْتَقِمَ لَكَ رَعِيَّتُكَ وَالتَّمَسِ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا تَسْتَدِمُ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ  
وَلَا تَتِهَمَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فِيمَا تَوَلَّيَهُ مِنْ عَمَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ أَمْرَهُ فَإِنْ إِيْقَاعِ  
الشُّبُهَى بِالْبُرِّاءِ وَالظُّنُونِ السَّيِّئَةِ بِهِمْ أَتَمَّ إِشْرَ . فَاجْعَلْ مِنْ شَأْنِكَ حُسْنَ الظَّنِّ  
بِأَصْحَابِكَ وَاطْرُدْ عَنْكَ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ . وَارْفُضْ فِيهِمْ يُعْنِكَ ذَلِكَ عَلَى اسْتِطَاعَتِهِمْ  
وَرِيَاضَتِهِمْ . وَلَا يَجِدَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الشَّيْطَانَ فِي أَمْرِكَ مَعْمَرًا<sup>(١)</sup> فَإِنَّهُ يَكْتَفِي بِالْقَلِيلِ  
مِنْ وَهْنِكَ وَيَدْخُلُ عَلَيْكَ مِنَ النِّعَمِ بِسُوءِ الظَّنِّ بِهِمْ مَا يُنْقِصُ لِدَاذَةِ عَيْشِكَ . وَاعْلَمْ  
أَنَّكَ تَجِدُ بِحُسْنِ الظَّنِّ قُوَّةَ وَرَاحَةَ . وَتَكْتَفِي بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِفَايَتَهُ مِنْ أُمُورِكَ  
وَتَدْعُو بِهِ النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا وَلَا يَمْنَعُكَ حُسْنُ الظَّنِّ  
بِأَصْحَابِكَ وَالرَّافَةَ بِرَعِيَّتِكَ أَنْ تَسْتَعْمَلَ الْمَسْأَلَةَ وَالْبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالْمُبَاشَرَةَ  
لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ وَحِيَاطَةَ الرَّعِيَّةِ وَالنَّظَرَ فِي حَوَائِجِهِمْ وَحَمَلَ مَوْوَنَاتِهِمْ أَيْسَرَ عِنْدَكَ  
مِمَّا سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ أَقْوَمُ لِلدِّينِ وَأَخْيَا لِلسُّنَّةِ . وَأَخْلِصْ نِيَّتَكَ فِي جَمِيعِ هَذَا وَتَفَرَّدْ  
بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ تَفَرَّدْ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَمَّا صَنَعَ وَمَجْزِيٌّ بِمَا أَحْسَنَ وَمُواخِذٌ بِمَا  
أَسَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الدِّينَ حِرْزًا وَعِزًّا وَرَفَعَ مَنْ اتَّبَعَهُ وَعَزَّزَهُ وَاسْلُكْ بِمَنْ  
تَسُوسُهُ وَتَرْعَاهُ نَهْجَ الدِّينِ وَطَرِيقَةَ الْهُدَى<sup>(٢)</sup> . وَأَقِمْ حُدُودَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَصْحَابِ  
الْجَرَائِمِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ وَمَا اسْتَحَقُّوه وَلَا تَعْطَلْ ذَلِكَ وَلَا تَتَهَاوَنَ بِهِ وَلَا تُؤَخِّرْ  
عُقُوبَةَ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ فَإِنَّ فِي تَفْرِيطِكَ فِي ذَلِكَ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حُسْنَ ظَنِّكَ وَاعْتَمِرْ  
عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالسُّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ وَجَانِبِ الْبِدْعِ وَالشُّبُهَاتِ يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ وَتَقُمْ

(١) وفي بعض النسخ وردت هذه العبارة : « ولا تتخذن عدو الله الشيطان في أمرك مَعْمَرًا » .

(٢) وفي بعض النسخ طريقه الأهدى .

لَكَ مُرُوتِكَ . وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا قَافٍ بِهِ وَإِذَا وَعَدْتَ خَيْرًا فَأَنْجِزَهُ وَأَقْبِلِ الْحَسَنَةَ  
وَادْفَعْ بِهَا ، وَأَغْمِضْ عَنْ عَيْبِ كُلِّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَأَشْدُدْ لِسَانَكَ عَنْ قَوْلِ  
الْكَذِبِ وَالزُّورِ ، وَأَيْغِضْ أَهْلَ النَّيْمَةِ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فَسَادِ أُمُورِكَ فِي عَاجِلِهَا وَأَجْلِهَا ،  
تَقْرِيْبُ الْكَذُوبِ ، وَالْجِرَاءَةُ عَلَى الْكَذِبِ ، لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَائِمِ ، وَالزُّورَ  
وَالنَّيْمَةَ خَاتِمَتُهَا ، لِأَنَّ النَّيْمَةَ لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهَا وَقَائِلُهَا ، لَا يَسْلُمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلَا  
يَسْتَقِيمُ لَهُ أَمْرٌ . وَأَحِبِّ أَهْلَ الصَّلَاحِ وَالصَّدْقِ ، وَأَعِزِّ الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ ، وَأَسْ (١)  
الضُّعْفَاءَ ، وَصِلِ الرَّحِمَ ، وَابْتَغِ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى وَاعْزِزْ أَمْرَهُ ، وَالتَّمَسْ فِيهِ  
ثَوَابَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ . وَاجْتَنِبْ سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجُورِ ، وَاصْرِفْ عَنْهُمَا رَأْيَكَ ، وَأَظْهِرْ  
بِرَاءَتَكَ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ وَأَنْعِمِ بِالْعَدْلِ فِي سِيَاسَتِهِمْ (٢) وَقُمْ بِالْحَقِّ فِيهِمْ ،  
وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى . وَأَمْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَآثِرِ  
الْحِلْمَ وَالْوَقَارَ ، وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ وَالطَّيِّشَ وَالغُرُورَ فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ  
أَنَا مُسَلِّطٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ إِلَى نَقْصِ الرَّأْيِ وَقَلَّةِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ (٣) عَزَّ  
وَجَلَّ وَأَخْلِضْ لِلَّهِ وَحْدَهُ النَّيَّةَ فِيهِ وَالْيَقِينَ بِهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى  
يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ . وَلَنْ تَجِدَ تَغْيِيرَ النُّعْمَةِ وَحُلُولَ النُّقْمَةِ عَلَى أَحَدٍ  
أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى حَمَلَةِ (٤) النُّعْمَةِ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ وَالْمَسْوَطِ لَهُمْ فِي الدُّوَلَةِ إِذَا  
كَفَرُوا نِعَمَ اللَّهِ وَإِحْسَانَهُ وَاسْتَطَالُوا بِمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ . وَدَعَّ عَنْكَ  
شَرَّ نَفْسِكَ وَلِتَكُنْ ذَخَائِرِكَ وَكُنُوزِكَ الَّتِي تَدْخِرُ وَتَكْتُمُ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَاسْتِضْلَاحَ  
الرُّعْيَةِ وَعِمَارَةَ بِلَادِهِمْ وَالتَّفَقُّدَ لِأُمُورِهِمْ وَالْحِفْظَ لِذِمَائِهِمْ وَالْإِعَاثَةَ لِمَلِكِهِمْ . وَاعْلَمْ  
أَنَّ الْأَمْوَالَ إِذَا اكْتَنَزَتْ وَادْخَرَتْ فِي الْخَزَائِنِ لَا تَنْمُو وَإِذَا كَانَتْ فِي صِلَاحِ الرُّعْيَةِ  
وَإِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ وَكَفِّ الْأَذْيَةِ عَنْهُمْ نَمَتْ وَزَكَتْ وَصَلَحَتْ بِهَا الْعَامَّةُ وَتَرْتَبَتْ بِهَا  
الْوِلَايَةُ وَطَابَ بِهَا الزَّمَانُ وَاعْتَقِدْ فِيهَا الْعِزَّ وَالْمَنْفَعَةَ . فَلْيَكُنْ كَنْزُ خَزَائِنِكَ تَفْرِيقَ

(١) وفي بعض النسخ واعن الضعفاء .

(٢) وفي بعض النسخ وانعم بالعدل سياستهم .

(٣) وفي بعض النسخ وقلة اليقين لله .

(٤) وفي بعض النسخ جهلة النعمة .

الأموال في عمارة الإسلام وأهله . ووفّر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهّد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فإنك إذا فعلت ذلك قرّرت النعمة عليك<sup>(١)</sup> واستوجبّت المزيد من الله تعالى وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر<sup>(٢)</sup> وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك وأطيب أنفساً بكل ما أردت<sup>(٣)</sup> وأجهد نفسك فيما حدّدت لك في هذا الباب وليعظم حَقُّك فيه وإنما يتقى من المال ما أنفق في سبيل الله واعرف للشاكرين حقهم وأثبتهم عليه وإياك أن تنسيك الدنيا وعُروها هَوْل الآخرة فتتهاون بما يحق عليك فإن التهاون يورث التفريط والتفريط يورث البوار . وليكن عمَلُك لله عزّ وجلّ وارجُ الثواب فيه<sup>(٤)</sup> فإن الله سبحانه قد أسخغ عليك فضله . واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً وإحساناً فإن الله عزّ وجلّ يثيب بقدر شكر الشاكرين وإحسان المحسنين . ولا تحقرن ذنباً ولا تمالئن حاسداً ولا تزحمن فاجراً ولا تصلن كفوراً ولا تدهنن عدواً ولا تصدقن نماماً ولا تأمنن غداراً ولا توالين فاسقاً ولا تتبعن غاوباً ولا تخمدن مرائياً ولا تحقرن إنساناً ولا تردن سائلاً فقيراً ولا تحسنن باطلاً ولا تلاحظن مضحكاً ولا تخلفن وعداً ولا تزهون فخراً ولا تظهرن غضباً ولا تباينن رجاءً ولا تمشين مراحاً ولا تفرطن في طلب الآخرة ولا ترفع<sup>(٥)</sup> للنمام عيناً ولا تغمضن عن ظالم رهبةً منه أو مخاباةً ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا . وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم وخذ عن أهل التجارب وذوي العقول والرأي والحكمة . ولا تدخلن في مشورتك أهل الرفه والبخل ولا تسمعن لهم قولاً فإن ضررهم أكثر من نفعهم وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشخ . واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت

(١) وفي بعض النسخ قررت النعمة بك .

(٢) وفي نسخة أخرى : وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخراجك أقدر .

(٣) وفي نسخة أخرى : وطب نفساً بكل ما أردت .

(٤) وفي نسخة أخرى منه .

(٥) وفي نسخة أخرى ترفض .

كثير الأخذ قليل العطيّة وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك<sup>(١)</sup> إلا قليلاً فإن رعيّتك إنما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم. وابتدىء<sup>(٢)</sup> من صافك من أوليائك بالإفصال عليهم وحسن العطيّة لهم. واجتنب الشحّ واعلم أنه أول ما عصى الإنسان به ربه وإن العاصي بمنزلة خزي<sup>(٣)</sup> وهو قول الله عزّ وجلّ « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »<sup>(٤)</sup> فسهل طريق الجود بالحقّ واجعل للمسلمين كلهم من فيئك<sup>(٥)</sup> حظاً ونصيباً وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد فأعده لنفسك خلقاً وارض به عملاً ومذهباً. وتفقد الجند في دواوينهم ومكانتهم<sup>(٦)</sup> وأدر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معاشهم يذهب الله عزّ وجلّ بذلك فاقتمهم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وأنشراحاً. وحسب ذي السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيّته ذا رحمة في عدله وحيطيّته<sup>(٧)</sup> وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسّيته فزايلاً مكروه أحد البائين باستشعار فضيلة<sup>(٨)</sup> الباب الآخر ولزوم العمل به تلقى إن شاء الله تعالى نجاحاً وصلاًحاً وفلاًحاً. واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس فوقه شيء من الأمور لأنه ميزان الله الذي تعدل عليه أحوال الناس في الأرض. وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح أحوال الرعيّة وتأمين السبل وينتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدّى حق الطاعة ويرزق الله العافية والسلاّمة ويقيم الدين ويجري السنن والشرائع في مجاريها. واشتدّ في أمر الله عزّ

(١) وفي نسخة أخرى لم يستقم أمرك .

(٢) وفي نسخة أخرى ووال .

(٣) وفي نسخة أخرى الخزي .

(٤) آخر آية ١٦ من سورة التغابن .

(٥) وفي نسخة أخرى « في فيئك » .

(٦) وفي نسخة أخرى مكاتبهم .

(٧) وفي نسخة أخرى وعطيّته .

(٨) وفي نسخة أخرى فضل .

وَجَلَّ وَتَوَرَّعَ عَنِ النَّطْفِ <sup>(١)</sup> وَامْضِ لِإِقَامَةِ الْحُدُودِ . وَأَقِلَّ <sup>(٢)</sup> الْعَجَلَةَ وَابْعُدْ عَنِ  
الضُّجْرِ وَالْقَلَقِ وَأَقْنَعْ بِالْقَسَمِ وَأَنْتَفِعْ بِتَجْرِبَتِكَ وَأَنْتَبِهْ فِي صَمْتِكَ وَأَسُدِّدْ فِي مَنْطِقِكَ  
وَأَنْصِفِ الْخَصْمَ وَقِفْ عِنْدَ الشُّبْهَةِ وَأَبْلُغْ فِي الْحُجَّةِ وَلَا يَأْخُذْكَ فِي أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ  
مُحَابَاةً وَلَا مُجَامَلَةً وَلَا لَوْمَةً لِأَيِّمٍ وَتَثَبْتُ وَتَأَنَّ وَرَأَبْ وَأَنْظُرْ وَتَنَكَّرْ وَتَدَبَّرْ وَاعْتَبِرْ  
وَتَوَاضَعْ لِرَبِّكَ وَارْفُقْ بِجَمِيعِ الرِّعِيَّةِ وَسَلِّطِ الْحَقَّ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى سَفْكَ  
دَمٍ . فَإِنَّ الدَّمَاءَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَانٍ عَظِيمٍ انْتَهَاكَ لَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا . وَأَنْظُرْ هَذَا  
الْخِرَاجَ الَّذِي اسْتَقَامَتْ عَلَيْهِ الرِّعِيَّةُ وَجَعَلَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا وَرَفْعَةً وَأَهِلَّهُ تَوْسِعَةً  
وَمِنَعَةً وَلِعُدُوهُ وَعَدُوَّهُمْ <sup>(٣)</sup> كُنْتُمْ وَعَيْظًا وَأَهِلَّ الْكُفْرَ مِنْ مُعَادِيهِمْ ذَلًّا وَصَغَارًا فَوَزِعَهُ  
بَيْنَ أَصْحَابِهِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ وَالْعُمُومِ وَلَا تَدْفَعَنَّ شَيْئًا مِنْهُ عَنْ شَرِيفٍ  
لِشَرَفِهِ وَلَا عَنْ غَنِيِّ لِيغْنَاهُ وَلَا عَنْ كَاتِبٍ لَكَ وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ خَاصَّتِكَ وَلَا حَاشِيَتِكَ  
وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ فَوْقَ الْإِحْتِمَالِ لَهُ . وَلَا تَكْلُفْ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ . وَاحْمِلِ النَّاسَ كُلَّهُمْ  
عَلَى أَمْرِ الْحَقِّ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعٌ لَأَنْفُسِهِمْ <sup>(٤)</sup> وَالزُّمُّ لِرِضَاءِ الْعَامَّةِ . وَاعْلَمْ أَنَّكَ جَعَلْتَ  
بِوَلَايَتِكَ خَازِنًا وَحَافِظًا وَرَاعِيًا وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ رَعِيَّتِكَ لِأَنَّكَ رَاعَيْهِمْ  
وَقَيَّمَهُمْ . فَخُذْ مِنْهُمْ مَا أَعْطَوْكَ مِنْ عَفْوِهِمْ وَنَفَّذُهُ فِي قِوَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَابَتِهِمْ وَتَقْوِيمِ  
أُودِهِمْ . وَاسْتَعْمِلْ عَلَيْهِمْ أَوْلِيَّ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّجْرِبَةِ وَالتَّجَبُّرَةِ بِالْعِلْمِ وَالتَّوَقُّفِ <sup>(٥)</sup>  
بِالسياسةِ وَالعِفَافِ . وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحُقُوقِ اللَّازِمَةِ لَكَ فِيمَا  
تَقَلَّدْتَ وَأَسْنَدَ إِلَيْكَ فَلَا يُشْغَلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَلَا يَصْرَفُكَ عَنْهُ صَارِفٌ فَإِنَّكَ مَتَى  
آثَرْتَهُ وَقَمَّتْ فِيهِ بِالْوَجِبِ اسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ النِّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ وَحُسْنَ الْأُخْدُوتِ فِي  
عَمَلِكَ وَاجْتَرَرْتَ بِهِ الْمَحَبَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَعْنَتَ عَلَى الصَّلَاحِ فَدَرَّتِ الْخَيْرَاتُ  
بِبَدْلِكَ وَفَشَّتِ الْعِمَارَةُ بِنَاحِيَتِكَ وَظَهَرَ الْخِصْبُ فِي كُورِكَ وَكَثُرَ خِرَاجُكَ وَتَوَفَّرَتْ

(١) النطف : التلطيخ بالعيب .

(٢) وفي نسخة أخرى « وأقلل » .

(٣) في بعض النسخ لم ترد هذه الكلمة .

(٤) في بعض النسخ « لألفتهم » .

(٥) في بعض النسخ « والعدل » .



أَمْوَالِكَ وَقَوِيَّتَ بِذَلِكَ عَلَى اِزْتِيَاضِ جُنْدِكَ وَإِرْضَاءِ الْعَامَّةِ بِإِفَاضَةِ الْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ نَفْسِكَ وَكُنْتَ مَحْمُودَ السِّيَاسَةِ مَرْضِيَّ الْعَدْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ وَكُنْتَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ذَا عَدْلٍ وَآلَةٍ وَقُوَّةٍ وَعَدَّةٍ . فَنَافِسٌ <sup>(١)</sup> فِي ذَلِكَ وَلَا تُقَدِّمُ عَلَيْهِ شَيْئاً تُحْمَدُ عَاقِبَتَهُ أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَاجْعَلْ فِي كُلِّ كُورَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِيناً يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ <sup>(٢)</sup> عَمَلِكَ وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسَيْرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ مُعَايِنٌ لِأُمُورِهِ كُلِّهَا . فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُمْ بِأَمْرٍ فَانظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ فَإِنْ رَأَيْتَ السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَافِيَةَ وَرَجَوْتَ فِيهِ حُسْنَ الدَّفَاعِ وَالصُّنْعِ فَأَمْضِهِ وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ وَرَاجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ بِهِ ثُمَّ خُذْ فِيهِ عِدَّتَهُ فَإِنَّهُ رَبَّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرِهِ وَقَدَّرَهُ وَأَتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى <sup>(٣)</sup> فَأَغْوَاهُ ذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ فَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ وَنَقَصَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ . فَاسْتَعْمِلِ الْحَزْمَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ وَبَاشِرْهُ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُوَّةِ . وَأَكْثِرْ مِنْ اسْتِخَارَةِ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ . وَافْرَغْ مِنْ يَوْمِكَ وَلَا تُؤَخِّرْهُ لِعَدِكَ وَأَكْثِرْ مُبَاشَرَتَهُ بِنَفْسِكَ فَإِنَّ لِلْعَدِ <sup>(٤)</sup> أُمُوراً وَحَوَادِثَ تَلْهِيكَ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ الَّذِي أُخِّرْتَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ بِمَا فِيهِ وَإِذَا أُخِّرْتَ عَمَلَهُ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ عَمَلُ يَوْمَيْنِ فَيَتَغَلِّكُ <sup>(٥)</sup> ذَلِكَ حَتَّى تَمْرُضَ مِنْهُ . وَإِذَا أَمْضَيْتَ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ أَرَحْتَ بَدَنَكَ وَنَفْسَكَ وَجَمَعْتَ أَمْرَ سُلْطَانِكَ وَأَنْظَرَ أَحْرَارَ النَّاسِ وَذَوِي الْفَضْلِ مِنْهُمْ مِمَّنْ بَلَوْتَ صَفَاءَ طَوِيَّتِهِمْ وَشَهِدْتَ مَوَدَّتَهُمْ لَكَ وَمُظَاهَرَتَهُمْ بِالنُّصْحِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَمْرِكَ فَاسْتَخْلِصْهُمْ وَأَحْسِنْ إِلَيْهِمْ وَتَعَاهَدْ أَهْلَ الْبُيُوتَاتِ مِمَّنْ قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةُ وَاحْتَمَلِ مَوُوتَتَهُمْ وَأَصْلِحْ حَالَهُمْ حَتَّى لَا يَجِدُوا لِحِلَّتِهِمْ مَسّاً <sup>(٦)</sup> وَأَفْرِدْ نَفْسَكَ لِلنَّظَرِ <sup>(٧)</sup> فِي أُمُورِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمَنْ لَا يَقَارُ عَلَى رَفْعِ مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ

(١) فِي بَعْضِ النِّسْخِ « فَنَافِسٌ » .

(٢) فِي بَعْضِ النِّسْخِ « خَيْرٌ » .

(٣) فِي بَعْضِ النِّسْخِ « وَقَدَّرَهُ وَأَتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى » .

(٤) فِي بَعْضِ النِّسْخِ « الْغَيْرِ » .

(٥) فِي بَعْضِ النِّسْخِ « فَيَشْغَلُكَ » .

(٦) فِي بَعْضِ النِّسْخِ « مَنَافِرَا » بِمَعْنَى مَفَاخِرَا .

(٧) فِي بَعْضِ النِّسْخِ « بِالنَّظَرِ » .

وَالْمُخْتَمَرُ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ فَسَلَّ عَنْهُ أَحْفَى مَسْأَلَةٍ وَوَكَّلَ بِأَمثَالِهِ أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَمُرَهُمْ بِرَفْعِ حَوَائِجِهِمْ وَحَالَاتِهِمْ<sup>(١)</sup> إِلَيْكَ لِتَنْظُرَ فِيمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَهُمْ وَتَعَاهِدَ ذَوِي النَّسَاءِ وَأَيْتَامَهُمْ<sup>(٢)</sup> وَأَرَامِلَهُمْ وَاجْعَلْ لَهُمْ أَرْزَاقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ اقْتِدَاءً بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ وَالصَّلَةِ لَهُمْ لِيُصْلِحَ اللَّهُ بِذَلِكَ عَيْشَهُمْ وَيَرْزُقَكَ بِهِ بَرَكَتَهُ وَزِيَادَةً . وَأَجِرْ لِلأَصْرَاءِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَقَدِّمْ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ وَالْحَافِظِينَ لِأَكْثَرِهِ فِي الْجَرَائِيَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ وَأَنْصِبْ لِمَرْضَى الْمُسْلِمِينَ دُورًا تَأْوِيهِمْ وَقَوْمًا يَرْفُقُونَ بِهِمْ وَأَطِبَّاءَ يَعَالِجُونَ أَسْقَامَهُمْ وَأَسْعِفُهُمْ بِشَهَوَاتِهِمْ مَا لَمْ يُؤَدِّ ذَلِكَ إِلَى إِسْرَافٍ<sup>(٣)</sup> فِي بَيْتِ الْمَالِ . وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ إِذَا أُعْطُوا حَقُوقَهُمْ وَأَفْضَلَ أَمَانِيهِمْ لَمْ يُرْضِهِمْ ذَلِكَ وَلَمْ تَطِبْ أَنْفُسُهُمْ دُونَ رَفْعِ حَوَائِجِهِمْ إِلَى وَلايَتِهِمْ طَمَعًا فِي نَيْلِ الزِّيَادَةِ وَفَضْلِ الرَّفْقِ مِنْهُمْ<sup>(٤)</sup> . وَرَبِّمَا تَبَرَّمَ الْمُتَصَفِّحُ لِأُمُورِ النَّاسِ لِكَثْرَةِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ وَيُسْغَلُ فِكْرَهُ وَذَهْنَهُ فِيهَا<sup>(٥)</sup> مَا يَنَالُهُ بِهِ مِنْ مَوْوَنَةٍ وَمَشَقَّةٍ . وَلَيْسَ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْعَدْلِ وَيَعْرِفُ مَحَاسِنَ أُمُورِهِ فِي الْعَاجِلِ وَفَضْلَ ثَوَابِ الْآجِلِ كَالَّذِي يَسْتَقْبِلُ مَا يَقْرُبُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَيَلْتَمِسُ رَحْمَتَهُ<sup>(٦)</sup> وَأَكْثَرَ الْإِذْنِ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ وَأَبْرَزْلَهُمْ<sup>(٧)</sup> وَجَهَكَ وَسَكَنَ لَهُمْ حَوَاسِكَ وَأَخْفِضَ لَهُمْ جَنَاحَكَ وَأَظْهَرَ لَهُمْ بِشْرَكَ وَلِنْ لَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالنُّطْقِ وَاعْطِفْ عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ وَفَضْلِكَ . وَإِذَا أُعْطِيَتْ فَأَعْطِ بِسَمَاحَةٍ وَطَيْبِ نَفْسٍ وَالتَّمَاسِ لِلصَّنِيعَةِ وَالْأَجْرِ مِنْ غَيْرِ تَكْدِيرٍ وَلَا امْتِنَانٍ فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَيَّ ذَلِكَ تِجَارَةٌ مُرَبِحَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَاعْتَبِرْ بِمَا تَرَى مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَمَنْ مَضَى قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ السُّلْطَانِ وَالرَّئِيسَةِ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْأُمَّمِ

(١) في بعض النسخ « وخاللهم » .

(٢) في بعض النسخ « ويتامهم » .

(٣) في بعض النسخ « مسرف » .

(٤) في بعض النسخ « بهم » .

(٥) في بعض النسخ « ويشغل ذكره وفكره منها » .

(٦) في بعض النسخ « يستقل ما يقربه من الله تعالى . وتلتبس به رحمته » .

(٧) في بعض النسخ « وأرهم » .

الْبَائِدَةَ . ثُمَّ اغْتَصَمَ فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَحَبَّتِهِ  
وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ وَسُنَّتِهِ وَبِإِقَامَةِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَاجْتَنِبَ مَا فَارَقَ ذَلِكَ وَخَالَفَهُ وَدَعَا  
إِلَى سُخْطِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَاعْرِفْ مَا يَجْمَعُ عُمَّالَكَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمَا يُنْفِقُونَ مِنْهَا وَلَا  
تَجْمَعُ حَرَامًا وَلَا تُنْفِقُ إِسْرَافًا . وَأَكْثِرْ مُجَالَسَةَ الْعُلَمَاءِ وَمُشَاوَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَتَهُمْ  
وَلْيَكُنْ هَوَاكَ اتِّبَاعَ السُّنَنِ وَإِقَامَتَهَا وَإِيْثَارَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا وَلْيَكُنْ أَكْرَمُ  
دُخْلَانِكَ وَخَاصَّتِكَ عَلَيْكَ مَنْ إِذَا رَأَى عَيْبًا فِيكَ لَمْ تَمْنَعُهُ هَيْبَتِكَ عَنْ إِنْهَاءِ ذَلِكَ  
إِلَيْكَ فِي سِرِّكَ وَإِعْلَانِكَ<sup>(١)</sup> بِمَا فِيهِ مِنَ النَّقْصِ فَإِنَّ أَوْلِيَّكَ أَنْصَحُ أَوْلِيَّائِكَ  
وَمُظَاهِرُونَ لَكَ<sup>(٢)</sup> . وَانظُرْ عُمَّالَكَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ وَكُتَابِكَ فَوْقَتْ لِكُلِّ رَجُلٍ  
مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتًا يَدْخُلُ فِيهِ عَلَيْكَ بِكِتَابِهِ وَمُؤَامَرَاتِهِ وَمَا عِنْدَهُ مِنْ حَوَائِجِ  
عُمَّالِكَ وَأُمُورِ الدَّوْلَةِ وَرَعِيَّتِكَ ثُمَّ فَرِّغْ لِمَا يُورِدُ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ سَمْعَكَ وَبَصْرَكَ  
وَفَهْمَكَ وَعَقْلَكَ وَكُرْرِ النَّظَرَ فِيهِ وَالتَّدْبِيرَ لَهُ فَمَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْحَقِّ وَالْحَزْمِ فَأَمُضِهِ  
وَاسْتَخِرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ وَمَا كَانَ مُخَالَفًا لِذَلِكَ فَاصْرِفْهُ إِلَى الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ وَالتَّشْبِثِ  
مِنْهُ وَلَا تَمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ وَلَا غَيْرِهِمْ بِمَعْرُوفِ تَوْتِيهِ إِلَيْهِمْ . وَلَا تَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا  
الْوَفَاءَ وَالِاسْتِقَامَةَ وَالْعَوْنَ فِي أُمُورِ أَمِيرٍ<sup>(٣)</sup> الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَضَعَنَّ الْمَعْرُوفَ إِلَّا عَلَى  
ذَلِكَ . وَتَفَهَّمْ كِتَابِي إِلَيْكَ وَأَنْبِعِ النَّظَرَ فِيهِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَاسْتَعِينْ بِاللَّهِ عَلَى جَمِيعِ  
أُمُورِكَ وَاسْتَخِرْهُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الصَّلَاحِ وَأَهْلِهِ وَلْيَكُنْ أَعْظَمُ سِيرَتِكَ وَأَفْضَلُ  
رَغْبَتِكَ مَا كَانَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَضَى وَلِدِينِهِ نِظَامًا وَأَهْلِهِ عِزًّا وَتَمَكِينًا وَلِلْمَلَّةِ  
وَالذِّمَّةِ<sup>(٤)</sup> عَدْلًا وَصَلَاحًا وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُحْسِنَ عَوْنَكَ وَتَوْفِيقَكَ وَرَشْدَكَ وَكِلَافَتَكَ  
وَالسَّلَامَ . وَحَدَّثَ الْإِخْبَارِيُّونَ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَمَّا ظَهَرَ وَشَاعَ أَمْرُهُ أُعْجِبَ بِهِ النَّاسُ  
وَاتَّصَلَ بِالْمَأْمُونِ فَلَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ قَالَ مَا أَبْقَى أَبُو الطَّيِّبِ يَغْنِي طَاهِرًا شَيْئًا مِنْ  
أُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ وَالتَّدْبِيرِ وَالرَّأْيِ وَالسِّيَاسَةِ وَصَلَاحِ الْمُلْكِ وَالرَّعِيَّةِ وَحِفْظِ

(١) في بعض النسخ « في ستر . وإعلامك . . . »

(٢) في بعض النسخ « ومظاهريك » .

(٣) لم ترد هذه الكلمة في بعض النسخ .

(٤) الملة : الإسلام . وأهل الذمة : أهل الكتاب من يهود ونصارى وقد دخلوا في ذمة الإسلام وحمايتهم .

السُّلْطَانِ وَطَاعَةِ الْخُلَفَاءِ وَتَقْوِيمِ الْخِلَافَةِ إِلَّا وَقَدْ أَحْكَمَهُ وَأَوْصَى بِهِ ثُمَّ أَمَرَ الْمَأْمُونُ  
فَكُتِبَ بِهِ إِلَى جَمِيعِ الْعُمَّالِ فِي النُّوَاحِي لِيَقْتَدُوا بِهِ وَيَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ هَذَا أَحْسَنُ  
مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ السِّيَاسَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

## الفصل الثالث والخمسون

في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك

إِعْلَمُ أَنَّ فِي الْمَشْهُورِ بَيْنَ الْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى مَمَرِ الْأَعْصَارِ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي  
آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ ظَهْوَرِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ يُؤَيِّدُ الدِّينَ وَيُظْهِرُ الْعَدْلَ وَيَتَّبِعُهُ  
الْمُسْلِمُونَ وَيَسْتَوْلِي عَلَى الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَيُسَمَّى بِالْمَهْدِيِّ وَيَكُونُ خُرُوجُ  
الدَّجَالِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَشْرَاطٍ<sup>(١)</sup> السَّاعَةِ الثَّابِتَةِ فِي الصَّحِيحِ عَلَى أَثَرِهِ وَأَنَّ عِيسَى  
يَنْزِلُ مِنْ بَعْدِهِ فَيَقْتُلُ الدَّجَالَ أَوْ يَنْزِلُ مَعَهُ فَيَسَاعِدُهُ عَلَى قَتْلِهِ وَيَأْتِيهِ بِالْمَهْدِيِّ فِي  
صَلَاتِهِ وَيَحْتَجُّونَ فِي الشَّانِ بِأَحَادِيثَ خَرَجَهَا الْأَئِمَّةُ وَتَكَلَّمُ فِيهَا الْمُنْكَرُونَ لِذَلِكَ  
وَرُبَّمَا عَارَضُوهَا بِبَعْضِ الْأَخْبَارِ وَالْمُنْصَوِّفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي أَمْرِ هَذَا الْفَاطِمِيِّ طَرِيقَةً  
أُخْرَى وَنَوْعٌ مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ وَرُبَّمَا يَعْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى الْكَشْفِ الَّذِي هُوَ أَضَلُّ  
طَرَائِقِهِمْ . وَنَحْنُ الْآنَ نَذَكُرُ هُنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي هَذَا الشَّانِ وَمَا لِلْمُنْكَرِينَ  
فِيهَا مِنَ الْمَطَاعِينَ وَمَا لَهُمْ فِي إِنْكَارِهِمْ مِنَ الْمُسْتَنْدِ ثُمَّ نَتَّبِعُهُ بِذِكْرِ كَلَامِ الْمُنْصَوِّفَةِ  
وَرَأْيِهِمْ لِيَتَبَيَّنَ لَكَ الصَّحِيحُ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فَنَقُولُ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْأَئِمَّةِ  
خَرَجُوا أَحَادِيثَ الْمَهْدِيِّ مِنْهُمْ التُّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ وَالْحَاكِمُ  
وَالطَّبْرَانِيُّ وَأَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ وَأَسْنَدُوهَا إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِثْلَ عَلِيِّ وَابْنِ  
عَبَّاسٍ وَابْنِ عَمْرٍ وَطَلْحَةَ وَابْنَ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنْسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ وَأُمِّ  
حُبَيْبَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَثَوْبَانَ وَقُرَّةَ بِنِ إِيَّاسٍ وَعَلِيٍّ الْهَلَالِيِّ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ

(١) علامات

جزء بأسانيد رُبما يُعْرَضُ لَهَا الْمُنْكَرُونَ كَمَا نَذَكْرُهُ إِلَّا أَنْ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ أَهْلِ  
الْحَدِيثِ أَنَّ الْجَرْحَ مُقَدَّمٌ عَلَى التَّعْدِيلِ فَإِذَا وَجَدْنَا طَعْنًا فِي بَعْضِ رِجَالِ الْأَسَانِيدِ  
بِعَفْلَةٍ أَوْ بِسُوءِ حِفْظٍ أَوْ ضَعْفٍ أَوْ سُوءِ رَأْيٍ تَطَرَّقَ ذَلِكَ إِلَى صِحَّةِ الْحَدِيثِ وَأَوْهَنَ  
مِنْهَا وَلَا تَقُولَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ رُبَّمَا يَتَطَرَّقُ إِلَى رِجَالِ الصَّحِيحِينَ فَإِنَّ الْإِجْمَاعَ قَدْ اتَّصَلَ  
فِي الْأُمَّةِ عَلَى تَلْقِيهِمَا بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِمَا وَفِي الْإِجْمَاعِ أَكْثَرُ حِمَايَةٍ وَأَحْسَنُ  
دَفْعًا وَلَيْسَ غَيْرُ الصَّحِيحِينَ بِمِثْلَيْتِهِمَا فِي ذَلِكَ فَقَدْ تَجَدَّدَ مَجَالًا لِلْكَلامِ فِي أُسَانِيدِهَا  
بِمَا نُقِلَ عَنْ أُئِمَّةِ الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ .

وَلَقَدْ تَوَعَّلَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ عَلَى مَا نُقِلَ السَّهْلِيُّ عَنْهُ فِي جَمْعِهِ  
لِلْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْمَهْدِيِّ فَقَالَ وَمِنْ أَغْرَبِهَا إِسْنَادًا مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْكَافُ  
فِي فَوَائِدِ الْأَخْبَارِ مُسْتَنِدًا إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ كَذَبَ بِالْمَهْدِيِّ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ كَذَبَ بِالِدَجَالِ فَقَدْ  
كَذَبَ <sup>(١)</sup> وَقَالَ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا مِثْلَ ذَلِكَ فِيمَا أَحْسَبُ وَحَسْبُكَ هَذَا  
عُلُوقًا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ طَرِيقِهِ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْإِسْكَافُ  
عِنْدَهُمْ مُتَّهَمٌ وَضَاعٌ .

وَأَمَّا التُّرْمِذِيُّ فَخَرَجَ هُوَ وَأَبُو دَاوُدَ بِسَنَدَيْهِمَا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ  
عَاصِمِ بْنِ أَبِي النُّجُودِ أَحَدِ الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ إِلَى زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَوْلَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى  
يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِ رَجُلًا مَنِيَّ أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمَهُ اسْمِي وَأَسْمُ أَبِيهِ اسْمَ  
أَبِي . هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي رِسَالَتِهِ الْمَشْهُورَةِ إِنَّ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ  
فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَلَفْظُ التُّرْمِذِيِّ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ  
أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمَهُ اسْمِي وَفِي لَفْظِ آخَرَ حَتَّى يَلِيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي  
وَكَلاهُمَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَرَوَاهُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقٍ مَوْقُوفًا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ « فَقَدْ كَفَرَ » .

الْحَاكِمُ رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ وَسُعْبَةُ وَزَائِدَةٌ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ عَاصِمٍ قَالَ ،  
 وَطَرُقَ عَاصِمٌ عَنْ زُرِّعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ عَلَى مَا أَصْلَتْهُ مِنَ الْإِحْتِجَاجِ بِأَخْبَارِ  
 عَاصِمٍ إِذْ هُوَ إِمَامٌ مِنْ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ( انْتَهَى ) إِلَّا أَنَّ عَاصِمًا قَالَ فِيهِ أَحْمَدُ بْنُ  
 حَنْبَلٍ : كَانَ رَجُلًا صَالِحًا قَارِئًا لِلْقُرْآنِ خَيْرًا ثِقَةً وَالْأَعْمَشُ أَحْفَظُ مِنْهُ وَكَانَ شُعْبَةُ  
 يَخْتَارُ الْأَعْمَشَ عَلَيْهِ فِي تَثْبِيهِ الْحَدِيثِ وَقَالَ الْعِجْلِيُّ كَانَ يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ فِي زُرِّ  
 وَأَبِي وَإِلَيْهِ يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى ضَعْفِ رَوَايَتِهِ عَنْهُمَا وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ كَانَ ثِقَةً إِلَّا  
 أَنَّهُ كَثِيرُ الْخَطَا فِي حَدِيثِهِ وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سَفْيَانَ فِي حَدِيثِهِ اضْطِرَابٌ وَقَالَ عَبْدُ  
 الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ قُلْتُ لِأَبِي إِبْرَاهِيمَ زُرْعَةُ يَقُولُ عَاصِمٌ ثِقَةً فَقَالَ لَيْسَ مَحَلُّهُ  
 هَذَا وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ ابْنُ عُليَّةٍ فَقَالَ كُلُّ مَنْ اسْمُهُ عَاصِمٌ سَيِّءُ الْحِفْظِ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ  
 مَحَلُّهُ عِنْدِي مَحَلُّ الصَّدْقِ صَالِحُ الْحَدِيثِ وَلَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ الْحَافِظُ وَاخْتَلَفَ فِيهِ  
 قَوْلُ النَّسَائِيِّ وَقَالَ ابْنُ حَرَّاشٍ فِي حَدِيثِهِ نَكِيرَةٌ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْعَقِيلِيُّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ  
 إِلَّا سُوءُ الْحِفْظِ وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ فِي حِفْظِهِ شَيْءٌ وَقَالَ يَحْيَى الْقَطَّانُ مَا وَجَدْتُ  
 رَجُلًا اسْمُهُ عَاصِمٌ إِلَّا وَجَدْتُهُ رَدِيءَ الْحِفْظِ وَقَالَ أَيْضًا سَمِعْتُ شُعْبَةَ يَقُولُ حَدَّثَنَا  
 عَاصِمُ بْنُ أَبِي الْجُودِ وَفِي النَّاسِ مَا فِيهَا وَقَالَ الذَّهَبِيُّ ثَبَّتَ فِي الْقِرَاءَةِ وَهُوَ حَسَنُ  
 الْحَدِيثِ . وَإِنْ اِحْتَجَّ أَحَدٌ بِأَنَّ الشَّيْخَيْنِ أَخْرَجَا لَهُ فَتَقُولُ أَخْرَجَاهُ مَقْرُونًا بِغَيْرِهِ  
 لَا أَضْلًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي الْبَابِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ رَوَايَةِ قَطْنِ بْنِ خَلِيفَةَ  
 عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي مَرْةٍ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ عَلِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَوْلَمْ  
 يَثِقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا يَوْمَ لَبَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا كَمَا مَلَأَتْ  
 جَوْرًا » وَقَطْنٌ <sup>(١)</sup> بَنُ خَلِيفَةَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَحْمَدُ وَيَحْيَى بْنُ الْقَطَّانِ وَابْنُ مَعِينٍ  
 وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ إِلَّا أَنَّ الْعِجْلِيَّ قَالَ : حَسَنُ الْحَدِيثِ وَفِيهِ تَشْيِيعٌ قَلِيلٌ . وَقَالَ ابْنُ  
 مَعِينٍ مَرَّةً : ثِقَّةٌ شَيْعِيٌّ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُونُسَ : كُنَّا نَمُرُّ عَلَى قَطْنِ  
 وَهُوَ مَطْرُوحٌ لَا نَكْتُبُ عَنْهُ . وَقَالَ مَرَّةً : كُنْتُ أَمُرُّ بِهِ وَأَدْعُهُ مِثْلَ الْكَلْبِ . وَقَالَ

(١) وفي نسخ نسخة أخرى فطر بن خليفة .

الذَّارِقُطْنِي : لَا يُحْتَجُّ بِهِ . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ : مَا تَرَكْتُ الرِّوَايَةَ عَنْهُ إِلَّا  
لِسُوءِ مَذْهَبِهِ . وَقَالَ الْجَرَجَانِيُّ : زَائِعٌ غَيْرُ ثِقَةٍ انْتَهَى . وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً بِسَنَدِهِ  
إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْمُعَيَّرَةِ عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ عَنْ  
شُعَيْبِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ النَّسْفِيِّ قَالَ : قَالَ عَلِيُّ وَنَظَرَ إِلَى ابْنِهِ  
الْحَسَنِ إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ كَمَا سَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلٌ  
يُسَمَّى بِاسْمِ نَبِيِّكُمْ يُشَبِّهُهُ فِي الْخُلُقِ وَلَا يُشَبِّهُهُ فِي الْخُلُقِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقَالَ  
هَارُونُ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي قَيْسٍ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَنْ  
هِلَالِ بْنِ عُمَرَ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ  
يُقَالُ لَهُ الْحَارِثُ عَلَى مُقَدَّمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَنْصُورٌ يُوْطِئُ أَوْ يُمَكِّنُ لَالٍ مُحَمَّدٍ  
كَمَا مَكَنتَ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَبَّ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ نَصْرُهُ أَوْ قَالَ إِجَابَتُهُ »  
سَكَتَ أَبُو دَاوُدَ عَلَيْهِ . وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي هَارُونَ : هُوَ مِنْ وُلْدِ الشَّيْعَةِ . وَقَالَ  
السُّلَيْمَانِيُّ : فِيهِ نَظَرٌ . وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ : لَا بَأْسَ فِي حَدِيثِهِ  
خَطَأً . وَقَالَ الدَّهْبِيُّ : صَدَقَ لَهُ أَوْهَامٌ . وَأَمَّا أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْعِيُّ وَإِنْ خَرَجَ عَنْهُ فِي  
الصَّحِيحِينَ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ اخْتَلَطَ آخِرَ عُمُرِهِ وَرِوَايَتُهُ عَنْ عَلِيٍّ مُنْقَطِعَةٌ . وَكَذَلِكَ  
رِوَايَةُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ هَارُونَ بْنِ الْمُعَيَّرَةِ . وَأَمَّا السُّنَدُ الثَّانِي فَأَبُو الْحَسَنِ فِيهِ  
وَهَلَالُ بْنُ عُمَرَ مَجْهُولَانِ وَلَمْ يُعْرَفِ أَبُو الْحَسَنِ إِلَّا مِنْ رِوَايَةِ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ  
عَنْهُ انْتَهَى . وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (١) مِنْ  
طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ نَفِيلٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « الْمَهْدِيُّ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ » وَلَفْظُ الْحَاكِمِ : سَمِعْتُ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الْمَهْدِيَّ فَقَالَ : « نَعَمْ هُوَ حَقٌّ وَهُوَ مِنْ بَنِي فَاطِمَةَ » وَلَمْ يَتَكَلَّمْ  
عَلَيْهِ بِالصَّحِيحِ وَلَا غَيْرِهِ وَقَدْ ضَعَفَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْقَيْلِيُّ وَقَالَ : لَا يُتَابَعُ عَلِيُّ بْنُ  
نَفِيلٍ عَلَيْهِ وَلَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ . وَخَرَجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ مِنْ رِوَايَةِ صَالِحِ

(١) وردت هذه الجملة في نسخة أخرى كما يلي : « وخرج أبو داود أيضا عن أم سلمة وكذا ابن ماجه

والحاكم في المستدرک . . . »

أَبِي الْخَلِيلِ<sup>(١)</sup> عَنْ صَاحِبٍ لَهُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : يَكُونُ اجْتِلَافٌ عِنْدَ مَوْتِ جَلِيفَةٍ  
فَيُخْرَجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ هَارِباً إِلَى مَكَّةَ فَيَأْتِيهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَيُخْرِجُونَهُ  
وَهُوَ كَارِهٌ فَيَبَايَعُونَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ مِنَ الشَّامِ فَيُخَسِفُ بِهِمْ  
بِالْبَيْدَاءِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَإِذَا رَأَى النَّاسَ ذَلِكَ أَتَاهُ أُبْدَالُ<sup>(٢)</sup> أَهْلِ الشَّامِ وَعَصَائِبُ  
أَهْلِ الْعِرَاقِ فَيَبَايَعُونَهُ ثُمَّ يَنْشَأُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَخُوهُ كَلْبٌ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِمْ بَعْثاً  
فَيُظْهِرُونَ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ بَعْثُ كَلْبٍ وَالْخَيْبَةُ لَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ غَنِيمَةَ كَلْبٍ فَيَقْسِمُ الْمَالَ  
وَيَعْمَلُ فِي النَّاسِ بَسْنَةً نَبِيَّهُمْ ﷺ وَيُلْقِي الْإِسْلَامَ بِجِرَانِهِ عَلَى الْأَرْضِ فَيَلْبِثُ  
سَبْعَ سِنِينَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ تِسْعَ سِنِينَ ثُمَّ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ عَبْدِ  
اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ الْمُبْهَمُ فِي الْإِسْنَادِ الْأَوَّلِ وَرَجَالَهُ رَجَالُ  
الصَّحِيحِينَ لَا مَطْعَنَ فِيهِمْ وَلَا مَغْمَزَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْخَلِيلِ  
وَقَتَادَةُ مُدْلَسٌ وَقَدْ عَنَعَنَهُ وَالْمُدْلَسُ لَا يُقْبَلُ مِنْ حَدِيثِهِ إِلَّا مَا صُرِّحَ فِيهِ بِالسَّمَاعِ .  
مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ لَيْسَ فِيهِ تَصْرِيحٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِيِّ نَعَمْ ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي أَبْوَابِهِ .  
وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً وَتَابَعَهُ الْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْمَهْدِيُّ مِنْي أَجْلَى الْجَبْهَةِ أَقْنَى<sup>(٣)</sup> الْأَنْفِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ  
قِسْطاً وَعَدْلًا كَمَا مَلَأْتُ ظُلْماً وَجَوْرًا يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ » هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ وَسَكَتَ  
عَلَيْهِ وَلَفْظُ الْحَاكِمِ : « الْمَهْدِيُّ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَشْمُ الْأَنْفِ أَقْنَى أَجْلَى يَمْلَأُ الْأَرْضَ  
قِسْطاً وَعَدْلًا كَمَا مَلَأْتُ جَوْرًا وَظُلْماً يَعْشَى هَكَذَا وَيَبْسُطُ يَسَارَهُ وَاصْبِعَيْنِ مِنْ  
يَمِينِهِ السَّبَابِيَةَ وَالْإِبْهَامَ وَعَقْدَ ثَلَاثِ<sup>(٤)</sup> » قَالَ الْحَاكِمُ : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى  
شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرَجَاهُ . ١ هـ . وَعَمْرَانُ الْقَطَّانُ مُخْتَلِفٌ فِي الْإِحْتِجَاجِ بِهِ إِنَّمَا  
أَخْرَجَ لَهُ الْبُخَارِيُّ اسْتِشْهَاداً لَا أَصْلاً وَكَانَ يَحْيَى الْقَطَّانُ لَا يُحَدِّثُ عَنْهُ وَقَالَ  
يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ : لَيْسَ بِالْقَوِيِّ وَقَالَ مَرَّةً : لَيْسَ بِشَيْءٍ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ

(١) وفي نسخة أخرى صالح بن الخليل .

(٢) الأبدال ، الأولياء .

(٣) اجلى الجبهة : واسع الجبهة . اقنى الأنف : مرتفع أعلاه . محذوب في الوسط .

(٤) وفي نسخة أخرى : « وعقد ثلاثة » .



أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَالِحَ الْحَدِيثِ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ كَانَ حَرُورِيًّا<sup>(١)</sup> وَكَانَ يَرَى الشَّيْفَ عَلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ وَقَالَ النَّسَائِيُّ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ الْإِجْرِيُّ : سَأَلْتُ أَبَا دَاوُدَ عَنْهُ ، فَقَالَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ وَمَا سَمِعْتُ إِلَّا خَيْرًا . وَسَمِعْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى ذَكَرَهُ فَقَالَ : ضَعِيفٌ أَفْتَى فِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بَفْتَوَى شَدِيدَةً فِيهَا سَفَكَ الدَّمَاءَ . وَخَرَجَ التُّرْمُذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ مِنْ طَرِيقِ زَيْدِ الْعَمِيِّ عَنْ أَبِي صَدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ : خَشِينَا أَنْ يَكُونَ بَعْضُ شَيْءٍ حَدَّثَ فَسَأَلْنَا نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « إِنْ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ يَخْرُجُ وَيَعِيشُ خَمْسًا أَوْ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا » زَيْدُ الشَّائِكُ قَالَ قُلْنَا : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ سِنِينَ ! قَالَ : « فَيَجِيءُ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَيَقُولُ : يَا مَهْدِيُّ أَعْطِنِي » قَالَ : « فَيَحْثُلُوهُ فِي ثَوْبِهِ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُ » لَفْظُ التُّرْمُذِيِّ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَقَدْ رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَفْظُ ابْنِ مَاجَةَ وَالْحَاكِمِ : « يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ قَصَرَ فَسَنَعٌ وَإِلَّا فَتَسَعٌ فَتَنَعَمُ أُمَّتِي فِيهِ نِعْمَةٌ لَمْ يَسْمَعُوا بِمِثْلِهَا قَطُّ تَوُتَى الْأَرْضُ أَكْلَهَا وَلَا يُدْخَرُ مِنْهُ شَيْءٌ وَالْمَالُ يَوْمئِذٍ كُدُوسٌ فَيَقُومُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ : يَا مَهْدِيُّ أَعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ . » إِنْتَهَى . وَزَيْدُ الْعَمِيِّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ الدَّارَقُطْنِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْنُ مُعِينٍ إِنَّهُ صَالِحٌ وَزَادَ أَحْمَدُ إِنَّهُ فَوْقَ يَزِيدِ الرَّقَاشِيِّ وَفَضْلُ بْنُ عَيْسَى إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ : ضَعِيفٌ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يَحْتَجُّ بِهِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : لَا شَيْءَ . وَقَالَ مَرَّةً يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ . وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ : مَتَمَّاسِكَ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ : بِقَوِيٍّ وَاهِي الْحَدِيثِ ضَعِيفًا وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِذَلِكَ وَقَدْ حَدَّثَ عَنْهُ شُعْبَةُ . وَقَالَ النَّسَائِيُّ : ضَعِيفٌ وَقَالَ ابْنُ عَدِي : عَامَّةٌ مَا يَرْوِيهِ وَمَنْ يَرْوِي عَنْهُمْ ضَعْفَاءُ عَلَى أَنْ شُعْبَةَ قَدْ رَوَى عَنْهُ وَلَعَلَّ شُعْبَةَ لَمْ يَرَوْا عَنْ أَضْعَفٍ مِنْهُ .

وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ حَدِيثَ التُّرْمُذِيِّ وَقَعَ تَفْسِيرًا لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ

(١) نسبة إلى حروراء بلدة قرب الكوفة والحرورية فرقة من الخوارج .

حَدِيثُ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَخْشُو  
 الْمَالَ خَشْوًا لَا يَعُدُّهُ عَدًّا » وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : « مِنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ  
 يَخْشُو الْمَالَ خَشْوًا » وَمِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْهُمَا قَالَ : « يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَلِيفَةٌ  
 يَقْسِمُ الْمَالَ وَلَا يَعُدُّهُ » انْتَهَى . وَأَحَادِيثُ مُسْلِمٍ لَمْ يَقَعْ فِيهَا ذِكْرُ الْمَهْدِيِّ وَلَا دَلِيلٌ  
 يَقُومُ عَلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ مِنْهَا . وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ عَوْفِ الْأَعْرَابِيِّ عَنْ أَبِي  
 الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَقُومُ  
 السَّاعَةُ حَتَّى تَمْلَأَ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا وَعُدْوَانًا ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي رَجُلٌ  
 يَمْلَأُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَأْتُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا » وَقَالَ فِيهِ الْحَاكِمُ : هَذَا صَحِيحٌ عَلَى  
 شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرَجَاهُ . وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا عَنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ  
 أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ :  
 « يَخْرُجُ فِي آخِرِ أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ يَسْقِيهِ اللَّهُ الْغَيْثَ وَتُخْرَجُ الْأَرْضُ نَبَاتَهَا وَيُعْطَى  
 الْمَالُ صِحَاحًا وَتَكْتُمُ الْمَاشِيَةَ وَتَعْظُمُ الْأُمَّةُ يَعْيشُ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا » يَفْنِي حِجْبًا .  
 وَقَالَ فِيهِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرَجَاهُ . مَعَ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عُبَيْدٍ لَمْ يُخْرَجْ  
 لَهُ أَحَدٌ مِنَ السَّنَةِ لَكِنْ ذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي الثَّقَاتِ وَلَمْ يَرُدَّ أَنَّ أَحَدًا تَكَلَّمَ فِيهِ ثُمَّ رَوَاهُ  
 الْحَاكِمُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أَسَدِ بْنِ مُوسَى عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلْمَةَ عَنْ مَطَرِ الْوَرَّاقِ  
 وَأَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ  
 اللَّهِ ﷺ قَالَ : « تَمْلَأُ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِزَّتِي فَيَمْلِكُ  
 سَبْعًا أَوْ تِسْعًا فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلَأْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا » وَقَالَ الْحَاكِمُ  
 فِيهِ : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ لِأَنَّهُ أَخْرَجَ عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلْمَةَ وَعَنْ  
 شَيْخِهِ مَطَرِ الْوَرَّاقِ . وَأَمَّا شَيْخُهُ الْآخَرُ وَهُوَ أَبُو هَارُونَ الْعَبْدِيُّ فَلَمْ يُخْرَجْ لَهُ . وَهُوَ  
 ضَعِيفٌ جَدًّا مُتَمِّمٌ بِالْكَذِبِ وَلَا حَاجَةَ إِلَى بَسْطِ أَقْوَالِ الْأُئِمَّةِ فِي تَضْعِيفِهِ . وَأَمَّا  
 الرَّاوِي لَهُ عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلْمَةَ فَهُوَ أَسَدُ بْنُ مُوسَى يُلَقَّبُ أَسَدَ السَّنَةِ وَإِنْ قَالَ  
 الْبُخَارِيُّ : مَشْهُورُ الْحَدِيثِ وَاسْتَشْهَدَ بِهِ فِي صَحِيحِهِ . وَاحْتَجَّ بِهِ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ

إِلَّا أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً أُخْرَى : ثِقَةٌ لَوْلَمْ يُصَنَّفَ كَانَ خَيْرًا لَهُ . وَقَالَ فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَزْمٍ :  
 مُنْكَرُ الْحَدِيثِ . وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْوَاصِلِ عَبْدِ  
 الْحَمِيدِ بْنِ وَاصِلٍ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ النَّاجِي عَنِ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ السَّعْدِيِّ أَحَدِ  
 بَنِي بَهْدَلَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « يَخْرُجُ  
 رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يَقُولُ بِسُنَّتِي يُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَتُخْرَجُ  
 الْأَرْضُ بِرَكَّتِهَا وَتُمَلَأُ الْأَرْضُ مِنْهُ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَأْتَ جَوْرًا وَظُلْمًا يَعْمَلُ عَلَى  
 هَذِهِ الْأُمَّةِ سَبْعَ سِنِينَ وَيُنْزَلُ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ » وَقَالَ الطَّبْرَانِيُّ : فِيهِ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ  
 عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ وَلَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي سَعِيدٍ أَحَدًا إِلَّا أَبُو الْوَاصِلِ  
 فَإِنَّهُ رَوَاهُ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنْتَهَى . وَهَذَا الْحَسَنُ بْنُ يَزِيدَ  
 ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَلَمْ يَعْرِفْهُ بِأَكْثَرٍ مِمَّا فِي هَذَا الْإِسْنَادِ مِنْ رِوَايَتِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ  
 وَرِوَايَةِ أَبِي الصَّدِيقِ عَنْهُ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمَيْزَانِ : إِنَّهُ مَجْهُولٌ . لَكِنْ ذَكَرَهُ ابْنُ  
 حَبَّانَ فِي الثَّقَاتِ وَأَمَّا أَبُو الْوَاصِلِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ أَبِي الصَّدِيقِ فَلَمْ يُخْرَجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ  
 السُّنَّةِ . وَذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي الثَّقَاتِ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ وَقَالَ فِيهِ : يُرْوَى عَنْ أَنَسِ  
 رَوَى عَنْهُ شُعْبَةُ وَعَتَابُ بْنُ بُشَيْرٍ وَخُرَجَ ابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
 مَسْعُودٍ مِنْ طَرِيقِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ  
 بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَمَّا رَأَاهُمْ رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ قَالَ فَقُلْتُ مَا نَزَالُ نَرَى فِي وَجْهِكَ شَيْئًا  
 نَكْرَهُهُ فَقَالَ : « إِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا وَإِنَّ أَهْلَ بَيْتِي  
 سَيَلْقَوْنَ بَعْدِي بَلَاءً وَتَشْرِيدًا وَتَطْرِيدًا حَتَّى يَأْتِيَ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَعَهُمْ  
 رَايَاتٌ سُودٌ فَيَسْأَلُونَ الْخَبَرَ فَلَا يُعْطَوْنَهُ فَيَقَاتِلُونَ وَيُنْصَرُونَ فَيُعْطَوْنَ مَا سَأَلُوا فَلَا  
 يَقْبَلُونَهُ حَتَّى يَدْفَعُوهَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَمْلَأُهَا قِسْطًا كَمَا مَلَأُوهَا جَوْرًا  
 فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَأْتِهِمْ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ » أَنْتَهَى .

وَهَذَا الْحَدِيثُ يُعْرَفُ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ بِحَدِيثِ الرَّايَاتِ . وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي

زِيَادِ رَاوِيهِ قَالَ فِيهِ شُعْبَةٌ ، كَانَ رَفَاعًا يَعْنِي يَرْفَعُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي لَا تُعْرَفُ مَرْفُوعَةً . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضِيلِ : مِنْ كِبَارِ أَيْمَةِ الشَّيْعَةِ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : لَمْ يَكُنْ بِالْحَافِظِ وَقَالَ مَرَّةً : حَدِيثُهُ لَيْسَ بِذَلِكَ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ : ضَعِيفٌ . وَقَالَ الْعَجَلِيُّ : جَائِزُ الْحَدِيثِ ، وَكَانَ بِآخِرِهِ يُلَقَّنُ . وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ : لَيْنٌ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ . وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ : لَيْسَ بِالْقَوِيِّ . وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ : سَمِعْتُهُمْ يُضَعِّفُونَ حَدِيثَهُ . وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ : لَا أَعْلَمُ أَحَدًا تَرَكَ حَدِيثَهُ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ . وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ هُوَ مِنْ شَيْعَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَمَعَ ضَعْفِهِ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ . وَرَوَى لَهُ مُسْلِمٌ لَكِنْ مَقْرُونًا بغيره . وَبِالْجُمْلَةِ فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى ضَعْفِهِ . وَقَدْ صَرَّحَ الْأَيْمَةُ بِتَضْعِيفِ هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ حَدِيثُ الرَّايَاتِ . وَقَالَ وَكَيْعُ بْنُ الْجَرَّاحِ فِيهِ : لَيْسَ بِشَيْءٍ . وَكَذَلِكَ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ أَبُو قُدَامَةَ سَمِعْتُ أَبَا أَسَامَةَ يَقُولُ فِي حَدِيثِ يَزِيدَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي الرَّايَاتِ لَوْ حَلَفَ عِنْدِي خَمْسِينَ يَمِينًا أَسَامَةَ<sup>(١)</sup> مَا صَدَّقْتُهُ أَهَذَا مَذْهَبُ إِبْرَاهِيمَ ؟ أَهَذَا مَذْهَبُ عَلْقَمَةَ ؟ أَهَذَا مَذْهَبُ عَبْدِ اللَّهِ ؟ وَأُورِدَ الْعَقِيلِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ فِي الضُّعْفَاءِ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ لَيْسَ بِصَحِيحٍ . وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ يَاسِينَ الْعَجَلِيِّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْمَهْدِيُّ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ فِي لَيْلَةٍ » .

وَيَاسِينَ الْعَجَلِيُّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ ابْنُ مُعِينٍ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ قَالَ الْبُخَارِيُّ فِيهِ نَظْرٌ . وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ مِنْ اصْطِلَاحِهِ قَوِيَّةٌ فِي التَّضْعِيفِ جِدًّا . وَأُورِدَ لَهُ ابْنُ عَدِيٍّ فِي الْكَامِلِ وَالذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ هَذَا الْحَدِيثَ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِنْكَارِ لَهُ وَقَالَ هُوَ مَعْرُوفٌ بِهِ . وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ « أَمِنَا الْمَهْدِيُّ أَمْ مِنْ غَيْرِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ » فَقَالَ : « بَلْ مِنْ بَنِي يَخْتَمُ اللَّهُ كَمَا بَنِي فَتَحَ وَبَنِي يُسْتَنْقَدُونَ مِنَ الشَّرْكِ وَبَنِي يُؤَلَّفُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ

(١) فِي نَسْخَةِ أُخْرَى : قَسَامَةٌ .

عَدَاوَةٌ بَيِّنَةٌ كَمَا بَدَأَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ عَدَاوَةِ الشِّرْكِ . قَالَ عَلِيُّ : « أُمُومَنُونَ  
 أَمْ كَافِرُونَ ؟ » قَالَ : « مَفْتُونَ وَكَافِرٌ » . انْتَهَى . وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهَيْعَةَ وَهُوَ  
 ضَعِيفٌ مَعْرُوفٌ الْحَالِ . وَفِيهِ عُمَرُ بْنُ جَابِرِ الْحَضْرَمِيِّ وَهُوَ أضعفُ مِنْهُ . قَالَ  
 أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : رَوَى عَنْ جَابِرٍ مَنَاكِيرٌ وَبَلَّغَنِي أَنَّهُ كَانَ يَكْذِبُ وَقَالَ النَّسَائِيُّ :  
 لَيْسَ بِثِقَةٍ وَقَالَ كَانَ ابْنُ لَهَيْعَةَ شَيْخًا أَحْمَقَ ضَعِيفَ الْعَقْلِ وَكَانَ يَقُولُ : « عَلِيُّ فِي  
 السَّحَابِ » وَكَانَ يَجْلِسُ مَعَنَا فَيُبْصِرُ سَحَابَةً فَيَقُولُ : « هَذَا عَلِيُّ قَدْ مَرَّ فِي  
 السَّحَابِ » وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ  
 اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فِتْنَةٌ يَحْضُلُ النَّاسُ فِيهَا كَمَا يَحْضُلُ  
 الذَّهَبُ فِي الْمَعْدِنِ فَلَا تَسُبُّوا أَهْلَ الشَّامِ وَلَكِنْ سُبُّوا أَشْرَارَهُمْ فَإِنَّ فِيهِمُ الْإِبْدَالَ <sup>(١)</sup>  
 يُوشِكُ أَنْ يُرْسَلَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ صَيْبٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيُفَرِّقُ جَمَاعَتَهُمْ حَتَّى لَوْ قَاتَلْتَهُمْ  
 الثُّعَالِبُ غَلَبْتَهُمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ خَارِجٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي ثَلَاثِ رَايَاتٍ الْمَكْثُرُ  
 يَقُولُ بِهِمْ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا وَالْمَقْلُ يَقُولُ بِهِمْ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا وَأَمَارَتُهُمْ « أَمْت <sup>(٢)</sup> »  
 يُلْقُونَ سَبْعَ رَايَاتٍ تَحْتَ كُلِّ رَايَةٍ مِنْهَا رَجُلٌ يَطْلُبُ الْمُلْكَ فَيَقْتُلُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا  
 وَيَرُدُّ اللَّهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ الْفِتْنَةَ وَنِعْمَتَهُمْ وَقَاصِيَتَهُمْ وَرَأْيَهُمْ <sup>(٣)</sup> » هـ .

وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهَيْعَةَ وَهُوَ ضَعِيفٌ مَعْرُوفٌ الْحَالِ وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي  
 الْمُسْتَدْرَكِ وَقَالَ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرَجَاهُ فِي رِوَايَتِهِ ثُمَّ يَظْهَرُ الْهَاشِمِيُّ فَيَرُدُّ اللَّهُ  
 النَّاسَ إِلَى الْفِتْنَةِ الْخِ وَالْيَسَ فِي طَرِيقِهِ ابْنُ لَهَيْعَةَ وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ كَمَا ذَكَرَ .  
 وَخَرَجَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الطُّفَيْلِ عَنْ  
 مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ قَالَ : « كُنَّا عِنْدَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الْمَهْدِيِّ  
 فَقَالَ لَهُ : هِيَ هَاتِ ثُمَّ عَقَدَ بِيَدِهِ سَبْعًا فَقَالَ ذَلِكَ يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ إِذَا قَالَ الرَّجُلُ  
 اللَّهُ اللَّهُ قُتِلَ وَيَجْمَعُ اللَّهُ لَهُ قَوْمًا قَرَعًا <sup>(٤)</sup> كَقَرَعِ السَّحَابِ يُؤَلَّفُ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَلَا

(١) الأولياء .

(٢) هذه الكلمة كانت كلمة السر بين أفراد المسلمين في غزوة بدر .

(٣) في نسخة أخرى : « رأيتهم » .

(٤) أي أفواجاً .

يَسْتَوْحِشُونَ إِلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْرَحُونَ بِأَحَدٍ دَخَلَ فِيهِمْ عِدَّتُهُمْ عَلَى عِدَّةِ أَهْلِ بَدْرٍ لَمْ  
يَسْبِقَهُمُ الْأَوْلُونَ وَلَا يُدْرِكُهُمُ الْآخِرُونَ وَعَلَى عَدَدِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا  
مَعَهُ النَّهْرَ . قَالَ أَبُو الطَّفِيلِ قَالَ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ : أَتْرِيدُهُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : فَإِنَّهُ  
يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ هَذَيْنِ الْأَخْشَبَيْنِ <sup>(١)</sup> قُلْتُ لَا جَرَمَ وَاللَّهِ وَلَا أَدْعُهَا حَتَّى أَمُوتَ «  
وَمَاتَ بِهَا يَعْنِي مَكَّةَ قَالَ الْحَاكِمُ : « هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ » .  
وَأِنَّمَا هُوَ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ فَقَطْ فَإِنَّ فِيهِ عَمَّاراً الذَّهَبِيَّ <sup>(٢)</sup> وَيُونُسَ بْنَ أَبِي إِسْحَاقَ  
وَلَمْ يَخْرُجْ لَهُمَا الْبُخَارِيُّ وَفِيهِ عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَبْقَرِيُّ وَلَمْ يَخْرُجْ لَهُ الْبُخَارِيُّ  
اِحْتِجَاجاً بَلِ اسْتِشْهَاداً مَعَ مَا يَنْضُمُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَشْيِيعِ عَمَّارِ الذَّهَبِيِّ وَهُوَ وَإِنْ وَثَّقَهُ  
أَحْمَدُ وَابْنُ مَعِينٍ وَأَبُو حَاتِمِ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ فَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ <sup>(٣)</sup> عَنْ  
سَفِيَانَ أَنْ بَشَرَ بْنَ مَرْوَانَ قَطَعَ عَرْقُوبِيئَهُ قُلْتُ فِي أَيِّ شَيْءٍ ؟ قَالَ : فِي التَّشْيِيعِ .  
وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي رِوَايَةِ سَعْدِ بْنِ عَبْدِ  
الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زِيَادِ الْيَمَامِيِّ عَنْ عِكْرَمَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ  
عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « نَحْنُ وَوَلَدُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ  
سَادَاتُ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَا وَحَمْرَةَ وَعَلِيٌّ وَجَعْفَرٌ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَالْمُهَدِيُّ » . انْتَهَى .  
وَعِكْرَمَةُ بْنُ عَمَّارٍ وَإِنْ أَخْرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَإِنَّمَا أَخْرَجَ لَهُ مُتَابِعَةٌ . وَقَدْ ضَعَفَهُ  
بَعْضُ وَوَثَّقَهُ آخَرُونَ وَقَالَ أَبُو حَاتِمِ الرَّازِيُّ : هُوَ مُدَلِّسٌ فَلَا يَقْبَلُ إِلَى أَنْ يَصْرَحَ  
بِالسَّمَاعِ عَلِيُّ بْنُ زِيَادٍ . قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ : لَا نَدْرِي مَنْ هُوَ . ثُمَّ قَالَ  
الصَّوَابُ فِيهِ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ وَسَعْدُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَإِنْ وَثَّقَهُ يَعْقُوبُ بْنُ أَبِي  
شَيْبَةَ وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ الثَّوْرِيُّ قَالُوا لِأَنَّهُ رَأَى  
يُقْتَبَى فِي مَسَائِلٍ وَيُخْطِئُ فِيهَا . وَقَالَ ابْنُ حَبَّانَ : كَانَ مِنْ فَحْشِ عَطَاؤُهُ فَلَا  
يُحْتَجُّ فِيهِ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : سَعِيدٌ <sup>(٤)</sup> بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ يَدْعِي أَنَّهُ سَمِعَ عَرَضَ

(١) « الجبلان اللطيفان بمكة وهما : أبو قبيس والأحمر . وهو جبل مشرف وجهه على قميقان » .

(٢) وفي نسخة أخرى « عمارة الذهبية » .

(٣) وفي نسخة أخرى « علي بن المديني » .

(٤) وفي نسخة أخرى « سعد بن عبد الحميد » .

كَتَبَ مَالِكٌ وَالنَّاسُ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَهُوَ هَهُنَا بِنَفْسِهِ لَمْ يُخْتَجِ<sup>(١)</sup> فَكَيْفَ  
 سَمِعَهَا؟ وَجَعَلَهُ الذَّهَبِيُّ مَمْنٌ لَمْ يَقْدَحْ فِيهِ كَلَامٌ مِنْ تَكَلَّمَ فِيهِ وَخَرَجَ الْحَاكِمُ فِي  
 مُسْتَدْرِكِهِ مِنْ رِوَايَةِ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا عَلَيْهِ قَالَ مُجَاهِدٌ قَالَ لِي ابْنُ  
 عَبَّاسٍ: لَوْ لَمْ أَسْمَعْ أَنَّكَ مِثْلُ أَهْلِ الْبَيْتِ مَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ قَالَ فَقَالَ  
 مُجَاهِدٌ: فَإِنَّهُ فِي سِتْرٍ لَا أَذْكُرُهُ لِمَنْ يَكْرَهُ قَالَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ  
 أَرْبَعَةٌ مِمَّنَّا السَّفَاحُ وَمِمَّنَّا الْمُنْدِرُ وَمِمَّنَّا الْمَنْصُورُ وَمِمَّنَّا الْمَهْدِيُّ» قَالَ فَقَالَ مُجَاهِدٌ: بَيْنَ  
 لِي هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةَ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَمَّا السَّفَاحُ فَرُبَّمَا قَتَلَ أَنْصَارَهُ وَعَفَا عَنْ  
 عَدُوِّهِ. وَأَمَّا الْمُنْدِرُ أَرَاهُ قَالَ فَإِنَّهُ يُعْطِي الْمَالَ الْكَثِيرَ وَلَا يَتَعَاطَمُ فِي نَفْسِهِ وَيُمْسِكُ  
 الْقَلِيلَ مِنْ حَقِّهِ وَأَمَّا الْمَنْصُورُ فَإِنَّهُ يُعْطِي النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِ الشَّطْرَ مِمَّا كَانَ يُعْطِي  
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَيَرْهَبُ مِنْهُ عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرَيْنِ وَالْمَنْصُورُ يَرْهَبُ مِنْهُ  
 عَدُوُّهُ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرٍ وَأَمَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا كَمَا مَلَأَتْ جُورًا وَتَأْمَنُ  
 الْبَهَائِمُ السَّبَاعَ وَتَلْقَى الْأَرْضُ أَفْلَادَ كَيْدِهَا». قَالَ: «قُلْتُ وَمَا أَفْلَادُ كَيْدِهَا؟»  
 قَالَ: «أَمْثَالُ الْأَسْطَوَانَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ». وَقَالَ الْحَاكِمُ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ  
 الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ وَهُوَ مِنْ رِوَايَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُهَاجِرٍ عَنْ أَبِيهِ  
 وَإِسْمَاعِيلَ ضَعِيفٌ وَإِبْرَاهِيمُ أَبُوهُ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فَأَلَاكُثْرُونَ عَلَى تَضْعِيفِهِ.  
 وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقْتُلُ عِنْدَ  
 كِبْرِكُمْ<sup>(٢)</sup> ثَلَاثَةَ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ  
 السُّودُ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَهُمْ قَتْلًا لَمْ يَقْتُلْهُ قَوْمٌ» ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ قَالَ:  
 «فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايَعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ». ١ هـ.

وَرِجَالَهُ رِجَالُ الصَّحِيحِينَ إِلَّا أَنْ فِيهِ أَبَا قَلَابَةَ الْجَرْمِيِّ وَذَكَرَ الذَّهَبِيُّ وَغَيْرُهُ  
 أَنَّهُ مُدَلِّسٌ وَفِيهِ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ وَهُوَ مَشْهُورٌ بِالتَّدْلِيسِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنَعَنَ وَلَمْ  
 يُصْرِّحْ بِالسَّمَاعِ فَلَا يُقْبَلُ وَفِيهِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ هَمَّامٍ وَكَانَ مَشْهُورًا بِالتَّشْيِيعِ وَعَمِي

(١) وفي نسخة أخرى «لم يحج»

(٢) وفي نسخة أخرى «كزركم»

فِي آخِرِ وَقْتِهِ فَخَلَطَ قَالَ ابْنُ عَدِي : « حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ فِي الْفَضَائِلِ لَمْ يُوَافِقْهُ عَلَيْهَا  
 أَحَدٌ » وَنَسَبُوهُ إِلَى التَّشْيِيعِ . إِنْتَهَى . وَخَرَجَ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ  
 جَزْءِ الزَّيْدِيِّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ لَهَيْعَةَ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ جَابِرِ الْحَضْرَمِيِّ عَنْ  
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَخْرُجُ نَاسٌ مِنَ  
 الْمَشْرِقِ فَيُؤْطَوْنَ لِلْمَهْدِيِّ » . يَعْنِي سُلْطَانَهُ . قَالَ الطَّبْرَانِيُّ : تَفَرَّدَ بِهِ ابْنُ لَهَيْعَةَ  
 وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي حَدِيثِ عَلِيِّ الَّذِي خَرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ أَنَّ ابْنَ  
 لَهَيْعَةَ ضَعِيفٌ وَأَنَّ شَيْخَهُ عُمَرَ بْنَ جَابِرٍ أضعفُ مِنْهُ وَخَرَجَ الْبَزَارُ فِي مُسْنَدِهِ  
 وَالطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ وَاللَّفْظُ لِلطَّبْرَانِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ  
 النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ قَصَرَ فَسَبَّحَ وَإِلَّا فَشَمَانَ وَإِلَّا فَتَسَبَّحَ  
 تَنْعَمَ فِيهَا أُمَّتِي نِعْمَةً لَمْ يَنْعَمُوا بِمِثْلِهَا تُرْسِلُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَلَا تَدْخُرُ الْأَرْضُ  
 شَيْئًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْمَالِ كُدُوسٌ يَقُومُ الرَّجُلُ يَقُولُ يَا مَهْدِيُّ اعْطِنِي فَيَقُولُ خُدْ » .  
 قَالَ الطَّبْرَانِيُّ وَالْبَزَارُ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ الْعَجَلِيُّ زَادَ الْبَزَارُ : وَلَا نَعْلَمُ أَنَّهُ  
 تَابَعَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ وَإِنْ وَثَقَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ حَبَّانٍ أَيْضًا بِمَا ذَكَرَهُ فِي الثَّقَاتِ وَقَالَ  
 فِيهِ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ صَالِحٌ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَقَالَ أَبُو  
 زُرْعَةَ : لَيْسَ عِنْدِي بِذَلِكَ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ : رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ  
 مَرْوَانَ الْعَجَلِيَّ حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ وَأَنَا شَاهِدٌ لَمْ نَكْتُبْهَا تَرَكْتُهَا عَلَى عَمْدٍ وَكُتِبَ  
 بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْهُ كَأَنَّهُ ضَعْفَهُ . وَخَرَجَهُ أَبُو يُعْلَى الْمَوْصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي  
 هُرَيْرَةَ وَقَالَ : « حَدَّثَنِي خَلِيلِي أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ قَالَ : لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى  
 يَخْرُجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَضْرِبُهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ قَالَ قُلْتُ :  
 وَكَمْ يَمْلِكُ ؟ قَالَ : خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ قُلْتُ وَمَا خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ قَالَ لَا أُدْرِي » .  
 وَهَذَا السَّنَدُ غَيْرُ مُحْتَجِّجٍ بِهِ وَإِنْ قَالَ فِيهِ بَشِيرُ بْنُ نَهْيِكٍ وَقَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ  
 لَا يُحْتَجُّ بِهِ فَقَدْ اخْتَجَّ بِهِ الشَّيْخَانِ وَوَثَقَهُ النَّاسُ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى قَوْلِ أَبِي حَاتِمٍ  
 لَا يُحْتَجُّ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ رَجَاءٌ <sup>(١)</sup> ابْنُ أَبِي رَجَاءٍ الْيَشْكُرِيُّ وَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ قَالَ

(١) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى : « إِلَّا أَنْ فِيهِ رَجَاءٌ » .



أَبُو زُرْعَةَ ثِقَّةٌ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ : ضَعِيفٌ . وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ : ضَعِيفٌ . وَقَالَ  
 مَرَّةً : صَالِحٌ . وَعَلَّقَ لَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ حَدِيثًا وَاحِدًا . وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ  
 فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ عَنْ قُرَّةَ بِنِ إِيَّاسَ قَالَ قَالَ رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ : « لَتَمْلَأَنَّ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَإِذَا مَلَأْتَ جَوْرًا وَظُلْمًا بَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا  
 مِنْ أُمَّتِي اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلَأْتَ جَوْرًا  
 وَظُلْمًا فَلَا تَمْنَعُ السَّمَاءُ مِنْ قَطْرِهَا شَيْئًا وَلَا تَدْخِرُ الْأَرْضُ مِنْ نَبَاتِهَا يَلْبَثُ فِيكُمْ  
 سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا أَوْ تِسْعًا » . يَعْنِي سِنِينَ . ١ هـ . وَفِيهِ دَاوُدُ بْنُ الْمُحَبَّبِ بْنِ  
 الْمُحَرَّمِ <sup>(١)</sup> عَنْ أَبِيهِ وَهُمَا ضَعِيفَانِ جِدًّا . وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ  
 ابْنِ عَمَرَ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ  
 وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ يَسَارِهِ وَالْعَبَّاسُ عَنْ يَمِينِهِ إِذْ تَلَاخَى الْعَبَّاسُ وَرَجُلٌ مِنَ  
 الْأَنْصَارِ فَأَغْلَظَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْعَبَّاسِ فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِ الْعَبَّاسِ وَبِيَدِ عَلِيٍّ »  
 وَقَالَ : « سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا فَتَى يَمْلَأُ الْأَرْضَ جَوْرًا وَظُلْمًا وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ  
 هَذَا فَتَى يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ بِالْفَتَى التَّمِيمِيِّ فَإِنَّهُ  
 يُقْبَلُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ وَهُوَ صَاحِبُ رَايَةِ الْمَهْدِيِّ » . انْتَهَى . وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
 عَمَرَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ لُهَيْعَةَ وَهُمَا ضَعِيفَانِ . ١ هـ .

وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ  
 النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « سَتَكُونُ فِتْنَةٌ لَا يَسْكُنُ مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا تَشَاجَرَ جَانِبٌ حَتَّى  
 يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ أَمِيرَكُمْ فَلَانٌ . ١ هـ . وَفِيهِ الْمُثَنَّى بْنُ الصَّبَّاحِ وَهُوَ  
 ضَعِيفٌ جِدًّا . وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ تَصْرِيحٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِيِّ وَإِنَّمَا ذَكَرُوهُ فِي أَبْوَابِهِ  
 وَتَرْجَمَتِهِ اسْتِثْنَاءً . فَهَذِهِ جُمْلَةُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي خَرَجَهَا الْأَيْمَّةُ فِي شَأْنِ الْمَهْدِيِّ  
 وَخُرُوجِهِ آخِرَ الزَّمَانِ . وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ لَمْ يَخْلُصْ مِنْهَا مِنَ النَّقْدِ إِلَّا الْقَلِيلُ وَالْأَقْلُ  
 مِنْهُ . وَرُبَّمَا تَمَسَّكَ الْمُتَكَبِّرُونَ لِشَأْنِهِ بِمَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدِ الْجَنْدِيُّ عَنْ  
 أَبَانَ بْنِ صَالِحِ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ

(١) وفي نسخة أخرى : داود بن الجبر بن قحذم .

النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ » وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعِينٍ فِي مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدِ الْجَنْدِيِّ : إِنَّهُ ثَقَّةٌ . وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ : تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ . وَقَالَ الْحَاكِمُ فِيهِ : إِنَّهُ رَجُلٌ مَجْهُولٌ وَاخْتَلَفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِهِ فَمَرَّةٌ يَزُورُهُ <sup>(١)</sup> كَمَا تَقَدَّمَ وَيُنْسَبُ ذَلِكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ وَمَرَّةٌ يَزُورُهُ <sup>(٢)</sup> عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبَانَ عَنِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُرْسَلًا . قَالَ الْبَيْهَقِيُّ : فَرَجَعَ إِلَى رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ مَجْهُولٌ عَنْ أَبَانَ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ وَهُوَ مَتْرُوكٌ عَنِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُنْقَطِعٌ وَبِالْجُمْلَةِ فَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ مُضْطَرِبٌ . وَقَدْ قِيلَ « أَنْ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عَيْسَى » أَي لَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ إِلَّا عَيْسَى يُحَاوِلُونَ بِهَذَا التَّأْوِيلَ رَدَّ الْإِحْتِجَاجِ بِهِ أَوْ الْجَمْعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَحَادِيثِ وَهُوَ مَذْفُوعٌ بِحَدِيثِ جُرَيْجٍ وَمِثْلِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ . وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ فَلَمْ يَكُنْ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْهُمْ يَخْوَضُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَإِنَّمَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِي الْمَجَاهِدَةِ بِالْأَعْمَالِ وَمَا يَحْصُلُ عَنْهَا مِنْ نَتَائِجِ الْمَوَاجِدِ وَالْأَحْوَالِ وَكَانَ كَلَامُ الْإِمَامِيَّةِ وَالرَّافِضِيَّةِ مِنَ الشَّيْعَةِ فِي تَفْضِيلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِ وَادِّعَاءِ الْوَصِيَّةِ لَهُ بِذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ . وَالتَّبْرُؤُ مِنْ الشَّيْخَيْنِ كَمَا ذَكَرْنَا فِي مَذَاهِبِهِمْ ثُمَّ حَدَّثَ فِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَوْلُ بِالْإِمَامِ الْمُعْصُومِ وَكَثُرَتِ التَّالِيفُ فِي مَذَاهِبِهِمْ . وَجَاءَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ مِنْهُمْ يَدْعُونَ الْوَهْيَةَ الْإِمَامِ بِنَوْعٍ مِنَ الْحُلُولِ وَآخَرُونَ يَدْعُونَ رَجْعَةَ مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَيْمَةِ بِنَوْعِ التَّنَاسُخِ . وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ مَجِيءَ مَنْ يَقْطَعُ بِمَوْتِهِ مِنْهُمْ وَآخَرُونَ مُنْتَظِرُونَ عَوْدَ الْأَمْرِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ مُسْتَدْلِينَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْنَا مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي الْمَهْدِيِّ وَغَيْرِهَا . ثُمَّ حَدَّثَ أَيْضًا عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الْكَلَامُ فِي الْكُشْفِ وَفِي مَا وَرَاءَ الْحِسِّ وَظَهَرَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ الْقَوْلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِالْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ فَشَارَكُوا فِيهَا الْإِمَامِيَّةَ وَالرَّافِضِيَّةَ لِقَوْلِهِمْ بِالْوَهْيَةِ الْأَيْمَةِ وَحُلُولِ الْإِلَهِ فِيهِمْ .

وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضًا الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَالْإِبْدَالِ وَكَأَنَّهُ يُحَاكِي مَذَهَبَ الرَّافِضِيَّةِ فِي

(١) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى : يَرُودُ .

الإمام والنقباء . وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم ، حتى جعلوا  
مُستند طريقهم في نسب الخزفة أن علياً رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ  
عليه العهد بالتزام الطريقة . واتصل ذلك عنهم بالجنيذ من شيوخهم . ولا يعلم  
هذا عن علي من وجه صحيح . ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه  
بل الصحابة كلهم أسوة في طريق الهدى وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحة من  
التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها من القوم دخلهم<sup>(١)</sup> في التشيع وانخرطهم في  
سلكه . وظهر منهم أيضاً القول بالقطب وامتلات كتب الإسماعيلية من الرافضة  
وكتب المتأخرين من المتصوفة يمثل ذلك في الفاطمي المنتظر . وكان بعضهم  
يمليه على بعض ويلقنه بعضهم عن بعض وكأنه مبنئ على أصول وإهية من  
الفريقين وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرانات وهو من نوع الكلام  
في الملاحم ويأتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا . وأكثر من تكلم من هؤلاء  
المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي ، ابن العربي ، الحاتمي في كتاب ( عتقاء  
مغرب ) وابن قسي في كتاب ( خلع النعلين ) وعند الحق بن سبعين وابن أبي  
واصل<sup>(٢)</sup> تلميذه في شرحه لكتاب ( خلع النعلين ) . وأكثر كلماتهم في شأنه الغار  
وأمثال وربما يصرحون في الأقل أو يصرح مفسرو كلامهم . وحاصل مذاهبهم فيه  
على ما ذكر ابن أبي واصل أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى  
وأنها تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة الملك ثم يعود تجبراً وتكبراً وباطلاً .  
قالوا : ولما كان في المعهود من سنة الله رجوع الأمور إلى ما كانت وجب أن يخيا  
أمر النبوة والحق بالولاية ثم بخلافتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط ثم  
يعود الكفر بحاله . يشارون بهذا لما وقع من شأن النبوة والخلافة بعدها والملك  
بعد الخلافة . هذه ثلاث مراتب . وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي والدجل  
بعدها كناية عن خروج الدجال على أثره والكفر من بعد ذلك . فهي ثلاث

(١) وفي نسخة أخرى : يفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم .

(٢) وفي نسخة أخرى : ابن أبي واصل .

مَرَاتِبَ عَلَى نِسْبَةِ الثَّلَاثِ الْمَرَاتِبِ الْأُولَى . قَالُوا : وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ لِقُرَيْشٍ حُكْمًا شَرْعِيًّا بِالْإِجْمَاعِ الَّذِي لَا يُوْهِنُهُ إِنْكَارُ مَنْ يُزَاوِلُ عِلْمَهُ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ الْإِمَامَةُ فِيمَنْ هُوَ أَحْصُ مِنْ قُرَيْشٍ بِالنَّبِيِّ ﷺ . إِمَّا ظَاهِرًا كَبْنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَإِمَّا بَاطِنًا مِمَّنْ كَانَ مِنْ حَقِيقَةِ الْآلِ . وَالْآلُ مَنْ إِذَا حَضَرَ لَمْ يُلَقَّبْ <sup>(١)</sup> مَنْ هُوَ آلُهُ .

وَإِبْنُ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيُّ سَمَّاهُ فِي كِتَابِهِ « عُنُقَاءُ مُغْرِبٍ » مِنْ تَأْلِيْفِهِ : خَاتِمَ الْأَوْلِيَاءِ وَكَنَى عَنْهُ بِلُبْنَةِ الْفِضَّةِ إِشَارَةً إِلَى حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ فِي بَابِ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ قَالَ ﷺ : « مَثَلِي فِيمَنْ قَبْلِي مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بَيْتًا وَأَكْمَلَهُ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعُ لُبْنَةٍ فَأَنَا تِلْكَ اللَّبْنَةُ » فَيَفْسُرُونَ خَاتِمَ النَّبِيِّينَ بِاللُّبْنَةِ حَتَّى أَكْمَلْتُ الْبُنْيَانَ وَمَعْنَاهُ النَّبِيُّ الَّذِي حَصَلَتْ لَهُ النَّبُوءَةُ الْكَامِلَةُ . وَيُمَثِّلُونَ الْوِلَايَةَ فِي تَفَاوُتِ مَرَاتِبِهَا بِالنَّبُوءَةِ وَيَجْعَلُونَ صَاحِبَ الْكَمَالِ فِيهَا خَاتِمَ الْأَوْلِيَاءِ أَيْ حَائِزَ الرُّتْبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ الْوِلَايَةِ كَمَا كَانَ خَاتِمَ الْأَنْبِيَاءِ حَائِزًا لِلْمَرْتَبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ النَّبُوءَةِ . فَكُنَى الشَّارِحُ <sup>(٢)</sup> عَنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ الْخَاتِمَةَ بِلُبْنَةِ الْبَيْتِ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ .

وَهُمَا عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِيهِمَا . فَهِيَ لُبْنَةٌ وَاحِدَةٌ فِي التَّمْثِيلِ . فَفِي النَّبُوءَةِ لُبْنَةٌ ذَهَبٍ وَفِي الْوِلَايَةِ لُبْنَةٌ فِضَّةٍ لِلتَّفَاوُتِ بَيْنَ الرُّتْبَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . فَيَجْعَلُونَ لُبْنَةَ الذَّهَبِ كِنَايَةً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ . وَلُبْنَةَ الْفِضَّةِ كِنَايَةً عَنِ هَذَا الْوَلِيِّ الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ وَذَلِكَ خَاتِمَ الْأَنْبِيَاءِ وَهَذَا خَاتِمَ الْأَوْلِيَاءِ . وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِيمَا نَقَلَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ عَنْهُ وَهَذَا الْإِمَامُ الْمُنْتَظَرُ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ وَدِ فَاطِمَةَ وَظُهُورُهُ يَكُونُ مِنْ بَعْدِ مُضِيِّ ( خ ف ج ) مِنَ الْهَجْرَةِ وَرَسَمَ حُرُوفًا ثَلَاثَةً يُرِيدُ عَدَدَهَا بِحِسَابِ الْجَمْلِ وَهُوَ الْخَاءُ الْمُعْجَمَةُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ فَوْقِ سِتِّمَائَةٍ وَالْفَاءُ أُخْتُ الْقَافِ بِشَمَانِينَ وَالْجِيمُ الْمُعْجَمَةُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ أَسْفَلَ ثَلَاثَةً وَذَلِكَ سِتِّمَائَةٌ وَثَلَاثُ وَثَمَانُونَ سَنَةً وَهِيَ آخِرُ الْقُرْنِ السَّابِعِ وَلَمَّا انْصَرَمَ هَذَا الْعَصْرُ وَلَمْ يَظْهَرْ حَمَلُ ذَلِكَ

(١) وفي نسخة أخرى : لم يقب .

(٢) وفي نسخة أخرى : الشارح .

بَعْضُ الْمُقَلِّدِينَ لَهُمْ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِتِلْكَ الْمُدَّةِ مَوْلِدُهُ وَعَبَّرَ بِظُهُورِهِ عَنْ مَوْلِدِهِ وَأَنَّ خُرُوجَهُ يَكُونُ بَعْدَ الْعَشْرِ السَّبْعِمِائَةِ فَإِنَّهُ الْإِمَامُ النَّاجِمُ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ . قَالَ : « وَإِذَا كَانَ مَوْلِدُهُ كَمَا زَعَمَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ فَيَكُونُ عُمْرُهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ سِتًّا وَعِشْرِينَ سَنَةً » قَالَ وَزَعَمُوا أَنَّ خُرُوجَ الدَّجَالِ يَكُونُ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مِنَ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ وَابْتِدَاءُ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ عِنْدَهُمْ مِنْ يَوْمِ وِفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى تَمَامِ أَلْفِ سَنَةٍ « قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ فِي شَرْحِهِ كِتَابَ ( خُلْعِ النَّعْلَيْنِ ) الْوَلِيِّ الْمُنْتَظَرُ الْقَائِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِمُحَمَّدِ الْمَهْدِيِّ وَخَاتِمِ الْأَوْلِيَاءِ وَلَيْسَ هُوَ بِنَبِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ وَلِيُّ ابْتِغَاةِ رُوحِهِ وَحَبِيْبِهِ . قَالَ ﷺ : « الْعَالَمُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ » . وَقَالَ : « عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَزَلِ الشُّرَى تَتَابَعُ بِهِ مِنْ أَوَّلِ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ إِلَى قَبِيلِ الْخُمْسِمِائَةِ نِصْفِ الْيَوْمِ وَتَأَكَّدَتْ وَتَضَاعَفَتْ بِتَبَاشِيرِ الْمَشَائِخِ بِتَقْرِيْبِ وَقْتِهِ وَازْدِلَافِ زَمَانِهِ مِنْذُ انْقَضَتْ إِلَى هَلُمَّ جَرًّا » قَالَ وَذَكَرَ الْكِنْدِيُّ : « أَنَّ هَذَا الْوَلِيَّ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي بِالنَّاسِ صَلَاةَ الظُّهْرِ وَيُجَدِّدُ الْإِسْلَامَ وَيُظَهِّرُ الْعَدْلَ وَيَفْتَحُ جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ وَيَصِلُ إِلَى رُومِيَّةٍ فَيَفْتَحُهَا وَيَسِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَيَفْتَحُهَا وَيَفْتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَيَصِيرُ لَهُ مُلْكُ الْأَرْضِ فَيَتَقَوَّى الْمُسْلِمُونَ وَيَعْلُو الْإِسْلَامُ وَيُظَهِّرُ دِينَ الْخَنِيفِيَّةِ فَإِنَّ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ وَقْتُ صَلَاةٍ » قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « مَا بَيْنَ هَذَيْنِ وَقْتُ » وَقَالَ الْكِنْدِيُّ أَيْضًا : « الْحُرُوفُ الْعَرَبِيَّةُ غَيْرُ الْمُعْجَمَةِ يَعْنِي الْمَفْتَتَحُ بِهَا سُورَةُ الْقُرْآنِ جُمْلَةً عَدَدُهَا سَبْعِمِائَةٌ وَثَلَاثٌ وَأَرْبَعُونَ وَسَنَعُ دَجَالِيَّةٌ <sup>(١)</sup> ثُمَّ يَنْزِلُ عَيْسَى فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَيُصَلِّحُ الدُّنْيَا وَتَمُشِي الشَّاةُ مَعَ الذَّنْبِ ثُمَّ مَبْلَعٌ <sup>(٢)</sup> مُلْكُ الْعَجَمِ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ مَعَ عَيْسَى مِائَةٌ وَسِتُّونَ عَامًا عَدَدُ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ وَهِيَ ( ق ي ن ) دَوْلَةٌ الْعَدْلُ مِنْهَا أَرْبَعُونَ عَامًا قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ وَمَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ لَا مَهْدِي إِلَّا عَيْسَى فَمَعْنَاهُ لَا مَهْدِي تَسَاوِي هِدَايَتَهُ وَلَا يَتَهُ وَقِيلَ لَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ إِلَّا عَيْسَى وَهَذَا

(١) نسبة إلى دجال .

(٢) وفي نسخة أخرى : ثم يبقى .

مَدْفُوعٌ بِحَدِيثِ جَرِيحٍ وَغَيْرِهِ . وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ : « لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْهِمُ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً يَعْنِي قُرَشِيًّا » .

وَقَدْ أُعْطِيَ الْوُجُودُ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَمِنْهُمْ مَنْ سَيَكُونُ فِي آخِرِهِ . وَقَالَ : « الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ أَوْ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ أَوْ سِتُّ وَثَلَاثُونَ وَانْقِضَاؤُهَا فِي خِلَافَةِ الْحَسَنِ وَأَوَّلِ أَمْرٍ مُعَاوِيَةَ فَيَكُونُ أَوَّلُ أَمْرٍ مُعَاوِيَةَ خِلَافَةَ أَخْذًا بِأَوَائِلِ الْأَسْمَاءِ فَهُوَ سَادِسُ الْخُلَفَاءِ وَأَمَّا سَابِعُ الْخُلَفَاءِ فَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ . وَالْبَاقُونَ خَمْسَةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ ذُرِّيَّةِ عَلِيٍّ يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ : « إِنَّكَ لَدُو قُرَيْشِيهَا » يُرِيدُ الْأُمَّةَ أَيَّ إِنَّكَ لِخَلِيفَتُهُ فِي أَوْلَاهَا وَذُرِّيَّتِكَ فِي آخِرِهَا . وَرَبَّمَا اسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْقَائِلُونَ بِالرُّجْعَةِ ، فَالْأَوَّلُ هُوَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ عِنْدَهُمْ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا . وَقَدْ قَالَ ﷺ إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَنْتَفِقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَنْفَقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كُنُوزَ كِسْرَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِي يُهْلِكُ قَيْصَرَ وَيَنْفِقُ كُنُوزَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ هَذَا الْمُنْتَظَرُ حِينَ يَفْتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ : فَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ .

كَذَا قَالَ ﷺ : « وَمُدَّةُ حُكْمِهِ بِضْعٌ » وَالْبِضْعُ مِنْ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ وَقِيلَ إِلَى عَشْرٍ وَجَاءَ ذِكْرُ أَرْبَعِينَ فِي بَعْضِ الرُّوَايَاتِ سَبْعِينَ . وَأَمَّا الْأَرْبَعُونَ فَإِنَّهَا مُدَّتُهُ وَمُدَّةُ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ الْبَاقِينَ مِنْ أَهْلِهِ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى جَمِيعِهِمُ السَّلَامُ قَالَ وَذَكَرَ أَصْحَابُ النُّجُومِ وَالْقِرَانَاتِ أَنَّ مُدَّةَ بَقَاءِ أَمْرِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَخَمْسُونَ عَامًا فَيَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا جَارِيًا عَلَى الْخِلَافَةِ وَالْعَدْلِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ ثُمَّ تَخْتَلِفُ الْأَحْوَالُ فَتَكُونُ مُلْكًا « انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ أَبِي وَاصِلٍ . وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : « نَزُولُ عِيسَى يَكُونُ فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ مِنَ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ حِينَ تَمْضِي ثَلَاثَةٌ أَرْبَعَةٌ » قَالَ وَذَكَرَ الْكِنْدِيُّ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ الْجَنْفَرِ الَّذِي

ذَكَرَ فِيهِ الْقِرَانَاتِ ، « أَنَّهُ إِذَا وَصَلَ الْقُرْآنُ إِلَى الثُّورِ عَلَى رَأْسِ صَخٍ بِحَرْفَيْنِ الضَّادِ <sup>(١)</sup> الْمُعْجَمَةِ وَالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ » يُرِيدُ ثَمَانِيَةَ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةَ مِنَ الْهَجْرَةِ يَنْزِلُ الْمَسِيحُ فَيَحْكُمُ فِي الْأَرْضِ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ يَنْزِلُ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ يَعْنِي حُلَّتَيْنِ مُزْعَفَرَتَيْنِ صَفْرَاوَيْنِ مُمَصَّرَتَيْنِ وَاضِعاً كَفِيهِ عَلَى أُجْنَحَةِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ لِمَّةٌ كَأَنَّهَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ فَطَرَّ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّوْلُو كَثِيرٌ خِيَلَانِ الْوَجْهِ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ مَرْبُوعُ الْخَلْقِ وَإِلَى الْبَيَاضِ وَالْحُمْرَةِ . وَفِي آخَرَ : أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ فِي الْغَرْبِ . وَالْغَرْبُ ذَلْوُ الْبَادِيَةِ يُرِيدُ أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ مِنْهَا وَتَلِدُ زَوْجَتَهُ . وَذَكَرَ وَفَاتَهُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ عَاماً . وَجَاءَ أَنَّ عِيسَى يَمُوتُ بِالْمَدِينَةِ وَيُدْفَنُ إِلَى جَانِبِ عَمْرٍ بِنِ الْخَطَّابِ . وَجَاءَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ يُخَشِرَانِ بَيْنَ نَبِيَّيْنِ قَالَ ابْنُ أَبِي وَاطِيلٍ ، « وَالشَّيْعَةُ تَقُولُ إِنَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ مَسِيحُ الْمَسَائِحِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ قُلْتُ وَعَلَيْهِ حَمَلُ بَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ حَدِيثٌ لَا مَهْدِيٍّ إِلَّا عِيسَى أَيْ لَا يَكُونُ مَهْدِيٍّ إِلَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي نَسَبَتْهُ إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ نَسَبَتْهُ عِيسَى إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمَوْسَوِيَّةِ فِي الْإِتْبَاعِ وَعَدَمِ النَّسَخِ إِلَى كَلَامٍ مِنْ أُمَّثَالِ هَذَا يُعَيِّنُونَ فِيهِ الْوَقْتَ وَالرَّجُلَ وَالْمَكَانَ بِأَدْلَةٍ وَاهِيَةٍ وَتَحْكَمَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ فَيَنْقُضِي الزَّمَانَ وَلَا أَثَرَ لشيءٍ مِنْ ذَلِكَ فَيَرْجِعُونَ إِلَى تَجْدِيدِ رَأْيِ آخَرَ مُنْتَحَلٍ كَمَا تَرَاهُ مِنْ مَفْهُومَاتِ لُغَوِيَّةٍ وَأَشْيَاءِ تَخْيِيلِيَّةٍ وَأَحْكَامِ نَجُومِيَّةٍ فِي هَذَا انْتَقَضَتْ أَعْمَارُ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَالْآخِرِ .

وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ الَّذِينَ عَاصَرْنَا هُمْ فَأَكْثَرُهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى ظَهْوَرِ رَجُلٍ مُجَدِّدٍ لِأَحْكَامِ الْمِلَّةِ وَمَرَاسِمِ الْحَقِّ وَيَتَخَيَّنُونَ ظَهْوَرَهُ لِمَا قَرَّبَ مِنْ عَضْرَانَا فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ وَبَعْضُهُمْ يُطَلِّقُ الْقَوْلَ فِيهِ سَمِعْنَاهُ مِنْ جَمَاعَةٍ أَكْبَرَهُمْ أَبُو يَعْقُوبَ الْبَادِيسِيُّ كَبِيرُ الْأَوْلِيَاءِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَأَخْبَرَنِي عَنْهُ خَافِدَةُ صَاحِبُنَا أَبُو يَحْيَى زَكَرِيَاءَ عَنْ أَبِيهِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ الْوَلِيِّ أَبِي

(١) الضاد عند المغاربة بتسعين والصاد بستين . ١ هـ . قالة نصر .

يَعْقُوبَ الْمَذْكُورَ هَذَا آخِرُ مَا أَطْلَعْنَا عَلَيْهِ أَوْ بَلَّغْنَا مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَمَا  
أُورِدَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ مِنْ أَحْبَابِ الْمَهْدِيِّ قَدْ اسْتَوْفَيْنَا جَمِيعَهُ بِمَبْلَغِ طَاقَتِنَا وَالْحَقُّ  
الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَقَرَّرَ لَدَيْكَ أَنَّهُ لَا تَتِمُّ دَعْوَةٌ مِنَ الدِّينِ وَالْمَلِكِ إِلَّا بِوُجُودِ شَوْكَةِ  
عَضِيَّةِ تَظْهِرَهُ وَتُدَافِعُ عَنْهُ مِنْ يَدْفَعُهُ حَتَّى يَتِمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِيهِ . وَقَدْ قَرَّرْنَا ذَلِكَ مِنْ  
قَبْلِ الْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ الَّتِي أَرَيْنَاكَ هُنَاكَ وَعَضِيَّةِ الْفَاطِمِيِّينَ بَلْ وَقَرِيشِ أَجْمَعٍ  
قَدْ تَلَّشَتْ مِنْ جَمِيعِ الْأَفَاقِ وَوُجِدَ أُمَّمٌ آخَرُونَ قَدْ اسْتَعْلَتْ عَضِيَّتَهُمْ عَلَى عَضِيَّةِ  
قَرِيشٍ إِلَّا مَا بَقِيَ بِالْحِجَازِ فِي مَكَّةَ وَيَنْبُعَ بِالْمَدِينَةِ مِنَ الطَّالِبِينَ مِنْ بَنِي حَسَنِ  
وَبَنِي حُسَيْنٍ وَبَنِي جَعْفَرٍ وَهُمْ مُنْتَشِرُونَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَغَالِبُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَصَائِبُ  
بَدْوِيَّةٌ مُتَفَرِّقُونَ فِي مَوَاطِنِهِمْ وَأَمَارَاتِهِمْ يَبْلُغُونَ آلَافًا مِنَ الْكَثْرَةِ فَإِنْ صَحَّ ظَهُورُ هَذَا  
الْمَهْدِيِّ فَلَا وَجْهَ لِظَهُورِ دَعْوَتِهِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ وَيُؤَلِّفُ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فِي  
اتِّبَاعِهِ حَتَّى تَتِمَّ لَهُ شَوْكَةٌ وَعَضِيَّةٌ وَافِيَةٌ بِإِظْهَارِ كَلِمَتِهِ وَحَمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا عَلَى  
غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ مِثْلُ أَنْ يَدْعُو فَاطِمِيٌّ مِنْهُمْ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ فِي أَفْقٍ مِنَ الْأَفَاقِ مِنْ  
غَيْرِ عَضِيَّةٍ وَلَا شَوْكَةٍ إِلَّا مُجَرَّدَ نَسَبِيَّةٍ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ فَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ وَلَا يُمَكِّنُ لِمَا  
أَسْلَفْنَاهُ مِنَ الْبَرَاهِينِ الصَّحِيحَةِ . وَأَمَّا مَا تَدْعِيهِ الْعَامَّةُ وَالْأَعْمَارُ مِنَ الدُّهْمَاءِ مِمَّنْ  
لَا يَرْجِعُ فِي ذَلِكَ إِلَى عَقْلِ يَهْدِيهِ وَلَا عِلْمٍ يُفِيدُهُ فَيُحْيِيُونَ <sup>(١)</sup> ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ نَسَبِيَّةٍ وَفِي  
غَيْرِ مَكَانٍ ، تَقْلِيدًا لِمَا اشْتَهَرَ مِنْ ظَهُورِ فَاطِمِيٍّ وَلَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ كَمَا بَيَّنَّاهُ  
وَأَكْثَرَ مَا يُحْيِيُونَ <sup>(٢)</sup> فِي ذَلِكَ الْقَاصِيَةَ مِنَ الْمَمَالِكِ وَأَطْرَافِ الْعُمُرَانِ مِثْلِ الزَّابِ  
بِأَفْرِيْقِيَّةِ وَالسُّوسِ مِنَ الْمَغْرِبِ . وَنَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْ ضَعْفَاءِ الْبَصَائِرِ يَقْصِدُونَ رَبَاطًا  
بِمَاسَةٍ لِمَا كَانَ ذَلِكَ الرَّبَاطُ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْمُكْتَمِينَ مِنْ كَدَالَةٍ وَاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ مِنْهُمْ  
أَوْ قَائِمُونَ بِدَعْوَتِهِ زَعْمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ إِلَّا عَرَابَةٌ تِلْكَ الْأَمَمِ وَبَعْدَهُمْ عَنْ يَقِينِ  
الْمَعْرِفَةِ بِأَحْوَالِهَا مِنْ كَثْرَةِ أَوْ قَلَّةِ أَوْ ضَعْفِ أَوْ قُوَّةِ وَبَلْعَدِ الْقَاصِيَةَ عَنْ مَنَالِ الدُّوَلَةِ  
وَخُرُوجِهَا عَنْ نِطَاقِهَا فَتَقْوَى عِنْدَهُمُ الْأَوْهَامُ فِي ظَهْرِهِ هُنَاكَ بِخُرُوجِهِ عَنْ رَبْقَةِ

(١) وفي نسخة أخرى : ولا علم يقيده . فيتحينون .

(٢) وفي نسخة أخرى : يتحنون .



الدَّوْلَةَ وَمَنَالِ الْأَحْكَامِ وَالْقَهْرِ وَلَا مَحْضُولَ لَدَيْهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا هَذَا . وَقَدْ يَقْصِدُ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ كَثِيرٌ مِنْ ضُعْفَاءِ الْعُقُولِ لِلتَّلْبِيسِ بِدَعْوَةِ يَمِيَّةٍ<sup>(١)</sup> تَمَامَهَا وَسَوَاسًا وَحُمَقًا ، وَقَتْلَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ . أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْأَبْلِيُّ قَالَ خَرَجَ بِرِبَاطِ مَاسَةَ لِأَوَّلِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَعَصَرَ السُّلْطَانَ يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ رَجُلًا مِنْ مُتَحَلِّي التَّصَوُّفِ يُعْرَفُ بِالتَّوْنِزِرِيِّ نِسْبَةً إِلَى تَوْنَزِرٍ مُضْغَرًّا وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ وَاتَّبَعَهُ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ السُّوسِ مِنْ ضَالَّةٍ وَكَزُولَةٍ وَعَظْمِ أَمْرُهُ وَخَافَهُ رُؤَسَاءُ الْمَصَامِدَةِ عَلَى أَمْرِهِمْ فَدَسَّ عَلَيْهِ السُّكْسُؤِيُّ مِنْ قَتْلِهِ بَيَاتًا وَأَنْحَلَ أَمْرَهُ . وَكَذَلِكَ ظَهَرَ فِي عَمَارَةَ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَعَشْرِ التَّسْعِينَ مِنْهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ وَاتَّبَعَهُ الدَّهْمَاءُ مِنْ عَمَارَةَ وَدَخَلَ مَدِينَةَ فَاسَ عُنُوةً وَحَرَّقَ أَسْوَاقَهَا وَارْتَحَلَ إِلَى بَلَدِ الْمَزْمَةِ فَقَتَلَ بِهَا غَيْلَةً وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ . وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا النَّمِطِ . وَأَخْبَرَنِي شَيْخُنَا الْمَذْكَورُ بِغَرِيبَةٍ فِي مِثْلِ هَذَا وَهُوَ أَنَّهُ صَحِبَ فِي حِجَّةٍ فِي رِبَاطِ الْعِبَادِ وَهُوَ مَدْفَنُ الشَّيْخِ أَبِي مَدِينٍ فِي جَبَلٍ تَلْمَسَانَ الْمُطَّلَ عَلَيْهَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ سَكَّانِ كَرْبَلَاءَ كَانَ مَتْبُوعًا مَعْظَمًا كَثِيرَ التَّلْمِيذِ وَالْخَادِمِ . قَالَ وَكَانَ الرَّجَالُ مِنْ مَوْطِنِهِ يَتَلَقَّوْنَهُ بِالْفَنَقَاتِ فِي أَكْثَرِ الْبُلْدَانِ . قَالَ وَتَأَكَّدَتِ الصُّحْبَةُ بَيْنَنَا فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ فَانْكَشَفَ لِي أَمْرُهُمْ وَأَنْتُمْ إِنَّمَا جَاءُوا مِنْ مَوْطِنِهِمْ بِكَرْبَلَاءَ لِطَلَبِ هَذَا الْأَمْرِ وَانْتَحَالَ دَعْوَةَ الْفَاطِمِيِّ بِالْمَغْرِبِ . فَلَمَّا عَايَنَ دَوْلَةَ بَنِي مُرَيْنَ وَيُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ يَوْمَئِذٍ مُنَازِلَ تَلْمَسَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : ارْجِعُوا فَقَدْ أَرَى بِنَا الْغَلَطَ وَلَيْسَ هَذَا الْوَقْتُ وَقَتْنَا . وَيَدُلُّ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَبْصِرٌ فِي أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ الْمَكَافِيَّةِ لِأَهْلِ الْوَقْتِ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ غَرِيبٌ فِي ذَلِكَ الْوَطْنِ وَلَا شَوْكَةَ لَهُ وَأَنَّ عَصِيَّةَ بَنِي مُرَيْنَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ لَا يُقَاوِمُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ اسْتَكَانَ وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ وَأَقْصَرَ عَنِ مَطَامِعِهِ . وَبَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَيْقِنَ أَنَّ عَصِيَّةَ الْفَوَاطِمِ وَقُرَيْشٍ أَجْمَعٍ قَدْ ذَهَبَتْ لَا سِيَّمَا فِي الْمَغْرِبِ إِلَّا أَنَّ التَّعْصِبَ لِشَأْنِهِ لَمْ

(١) كذا في جميع النسخ وهو تحريف ولا معنى لكلمة يمية . ومقتضى السياق أن تكون العبارة :

« بدعوة يكون تمامها وسواساً وحمقاً » وفي نسخة لجنة البيان العربي « بدعوة تمنيه النفس تمامها » .

يتركه لهذا القول والله يعلم وأنتم لا تعلمون . وقد كانت بالمغرب لهذه العصور  
القرية نزعاً من الدعوة إلى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا  
غيره وإنما ينزع منهم في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير  
المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعه . وأكثر ما يعنون بإصلاح السابلة لما أن  
أكثر فساد الأعراب فيها لما قدمناه من طبيعة معاشهم فيأخذون في تغيير المنكر  
بما استطاعوا إلا أن الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم  
إلى الدين إنما يقصدون بها الإقصار عن الغارة والنهب لا يعقلون في توبتهم  
واقبالهم إلى مناحي الديانة غير ذلك لأنها المعصية التي كانوا عليها قبل القرية  
ومنها توبتهم . فتجد ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة غير متعمقين في  
فروع الاقتداء والاتباع إنما دينهم الإعراض عن النهب والبغى وفساد السابلة ثم  
الإقبال على طلب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم . وشتان بين طلب هذا الأجر  
من إصلاح الخلق ومن طلب الدنيا فاتفقهما ممتنع لا تستحكم له صبغة في الدين  
ولا يكمل له نزوع عن الباطل على الجملة ولا يكثر . ويختلف حال صاحب  
الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعه فإذا هلك انحل أمرهم  
وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك بأفريقية لرجل من كعب من سليم يسمى  
قاسم بن مرة بن أحمد في المائة السابعة ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح  
من بطن منهم يعرفون بمسلم وكان يسمى سعادة وكان أشد ديناً من الأول وأقوم  
طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه كما ذكرناه حسبما يأتي ذكر  
ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة  
يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها إلا الأقل فلا  
يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم . انتهى .

## الفصل الرابع والخمسون

في ابتداء الدول والأمم وفي الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى  
الجفر

إِغْلَمَ أَنَّ مِنْ خَوَاصِّ النُّفُوسِ البَشَرِيَّةِ التَّشَوُّقُ إِلَى عَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ وَعَلِمَ  
مَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنْ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ سِيمَا الْحَوَادِثُ الْعَامَّةُ كَمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ  
مِنَ الدُّنْيَا وَمَعْرِفَةِ مَدَدِ الدُّوَلِ أَوْ تَفَاوُثِهَا وَالتَّطَلُّعُ إِلَى هَذَا طَبِيعَةٌ مُجْبُولُونَ عَلَيْهَا  
وَلِذَلِكَ تَجِدُ الكَثِيرَ مِنَ النَّاسِ يَتَشَوَّقُونَ إِلَى الوُقُوفِ عَلَى ذَلِكَ فِي المَنَامِ وَالْأَخْبَارِ مِنَ  
الْكُفَّانِ لِمَنْ قَصَدَهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنَ المُلُوكِ وَالسُّوقَةِ مَعْرُوفَةٌ وَلَقَدْ نَجَدُ فِي المَدِينِ  
صِنْفًا مِنَ النَّاسِ يَنْتَحِلُونَ المَعَاشَ مِنْ ذَلِكَ لِعِلْمِهِمْ بِحِرْصِ النَّاسِ عَلَيْهِ فَيَنْتَصِبُونَ  
لَهُمْ فِي الطَّرِيقَاتِ وَالدَّكَائِينِ يَتَعَرَّضُونَ لِمَنْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ فَتَعْدُو عَلَيْهِمْ وَتَرُوحُ نِسْوَانُ  
المَدِينَةِ وَصَبِيَّانَهَا وَكَثِيرٌ مِنَ ضَعْفَاءِ العُقُولِ يَسْتَكْشِفُونَ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي الكَسْبِ  
وَالجَاهِ وَالمَعَاشِ وَالمُعَاشِرَةِ وَالعَدَاوَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مَا بَيْنَ خَطِّ فِي الرَّمْلِ وَيَسْمُونَهُ  
المُنْجَمَ وَطَرَقِي بِالحِصَى وَالحُجُوبِ وَيَسْمُونَهُ الحَاسِبَ وَنَظَرَ فِي المَرَايَا وَالمِيَاهِ  
وَيَسْمُونَهُ ضَارِبَ المَنْدَلِ وَهُوَ مِنَ المُنْكَرَاتِ الفَاشِيَةِ فِي الأُمُصَارِ لِمَا تَقَرَّرَ فِي  
الشَّرِيعَةِ مِنْ ذَمِّ ذَلِكَ وَإِنَّ البَشَرَ مَخْجُوبُونَ عَنِ الغَيْبِ إِلَّا مَنْ أطلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ  
عِنْدِهِ فِي نَوْمٍ أَوْ وَلايَةٍ . وَأَكْثَرُ مَا يَعْتَنِي <sup>(١)</sup> بِذَلِكَ وَيَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ الأَمْرَاءُ وَالمُلُوكُ فِي  
أَمَادِ دَوْلَتِهِمْ وَلِذَلِكَ انْصَرَفَتِ العِنَايَةُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ إِلَيْهِ وَكُلُّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَّمِ يُوجَدُ لَهُمْ  
كَلَامٌ مِنْ كَاهِنٍ أَوْ مُنْجِمٍ أَوْ وَليٍّ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ مُلْكٍ يَرْتَقِبُونَهُ أَوْ دَوْلَةٍ يُحَدِّثُونَ  
أَنْفُسَهُمْ بِهَا وَمَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنَ الحَرْبِ وَالمَلَاحِمِ وَمُدَّةِ بَقَاءِ الدَّوْلَةِ وَعَدَدِ المُلُوكِ  
فِيهَا وَالتَّعَرُّضِ لِأَسْمَائِهِمْ وَيَسْمَى مِثْلَ ذَلِكَ الحَدِّثَانَ وَكَانَ فِي العَرَبِ الكُفَّانُ

(١) الأصح أن يقول : وأكثر من يعتني .

وَالْعَرَّافُونَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ وَقَدْ أَخْبَرُوا بِمَا سَيَكُونُ لِلْعَرَبِ مِنَ الْمُلْكِ  
وَالدَّوْلَةِ كَمَا وَقَعَ لِسَيْحٍ وَسَطِيحٍ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَا رِبِيعَةَ بْنِ نَضْرٍ مِنْ مَلُوكِ اليمَنِ  
أَخْبَرَهُمْ بِمُلْكِ الْحَبَشَةِ بِلَادَهُمْ ثُمَّ رَجُوعَهَا إِلَيْهِمْ ثُمَّ ظَهَرَ الْمُلْكُ وَالدَّوْلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ  
بَعْدِ ذَلِكَ وَكَذَا تَأْوِيلُ سَطِيحٍ لِرُؤْيَا الْمُؤَبَّدَانِ حَيْثُ بَعَثَ إِلَيْهِ كِسْرَى بِهَا مَعَ عَبْدِ  
المَسِيحِ وَأَخْبَرَهُمْ بِظُهُورِ دَوْلَةِ الْعَرَبِ . وَكَذَا كَانَ فِي جِيلِ البَرْبَرِ كُهَّانٍ مِنْ  
أَشْهَرِهِمْ مُوسَى بْنُ صَالِحٍ مِنْ بَنِي يَفْرَنْ وَيُقَالُ مِنْ عَمْرَةٍ لَهُ كَلِمَاتٌ حَدَثَانِيَّةٌ عَلَى  
طَرِيقَةِ الشُّعْرِ بِرَطَانِيَّتِهِمْ وَفِيهَا حَدَثَانٌ كَثِيرٌ وَمُعْظَمُهُ فِيمَا يَكُونُ . لِزَنَاتِهِ مِنْ  
المُلْكِ وَالدَّوْلَةِ بِالمَغْرِبِ وَهِيَ مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ أَهْلِ الجِيلِ وَهُمْ يَزْعُمُونَ تَارَةً أَنَّهُ وَلِيُّ  
وَتَارَةً أَنَّهُ كَاهِنٌ وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ مَزَاعِمِهِمْ أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا لِأَنَّ تَارِيخَهُ عِنْدَهُمْ قَبْلَ  
الْهَجْرَةِ بِكثِيرٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ يَسْتَنِدُ الجِيلُ إِلَى خَبَرِ الأنبيَاءِ إِنْ كَانَ لِعَهْدِهِمْ كَمَا  
وَقَعَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّ أَنْبيَاءَهُمُ الْمُتَعَاقِبِينَ فِيهِمْ كَانُوا يُخْبِرُونَهُمْ بِمِثْلِهِ عِنْدَمَا  
يَعْنُونَهُمْ فِي السُّؤَالِ عَنْهُ . وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ فَوَقَعَ مِنْهُ كَثِيرٌ فِيمَا يَرْجَعُ إِلَى  
بَقَاءِ الدُّنْيَا وَمُدَّتِهَا عَلَى الْعُمُومِ وَفِيمَا يَرْجَعُ إِلَى الدَّوْلَةِ وَأَعْمَارِهَا عَلَى الْخُصُوصِ  
وَكَانَ الْمُعْتَمِدُ فِي ذَلِكَ فِي صَدْرِ الإِسْلَامِ لِأَثَارِ مَنْقُولَةٍ عَنِ الصَّحَابَةِ وَخُصُوصاً مُسَلِّمَةَ  
بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ كَعْبِ الأَخْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنْبِيهِ وَأَمْثَالِهِمَا وَرُبَّمَا اقْتَبَسُوا بَعْضُ  
ذَلِكَ مِنْ ظُوْهِرِ مَأْثُورَةٍ وَتَأْوِيلَاتٍ مُحْتَمَلَةٍ . وَوَقَعَ لِجَعْفَرٍ وَأَمْثَالِهِ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ  
كثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ مُسْتَنَدُهُمْ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ الكَشْفُ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الوِلَايَةِ وَإِذَا كَانَ  
مِثْلُهُ لَا يُنْكَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الأوَّلِيَاءِ فِي ذَوِيهِمْ وَأَعْقَابِهِمْ وَقَدْ قَالَ ﷺ : « إِنْ  
فِيكُمْ مُحَدَّثِينَ » فَهَمُّ أَوْلَى النَّاسِ بِهَيْدَةِ الرُّتْبِ الشَّرِيفَةِ وَالكِرَامَاتِ الْمُوهُوِيَةِ . وَأَمَّا  
بَعْدُ صَدْرِ المِلَّةِ وَحِينَ عَلِقَ النَّاسُ عَلَى العُلُومِ وَالإِصْطِلَاحَاتِ وَتُرْجِمَتْ كُتُبُ  
الحُكَمَاءِ إِلَى اللِّسَانِ العَرَبِيِّ . فَأَكْثَرُ مُعْتَمِدِهِمْ فِي ذَلِكَ كَلَامُ المُنْجِمِينَ فِي المُلْكِ  
وَالدُّوَلِ وَسَائِرِ الأُمُورِ العَامَّةِ مِنَ القِرَآنَاتِ وَفِي المَوَالِيدِ وَالمَسَائِلِ وَسَائِرِ الأُمُورِ  
الْخَاصَّةِ مِنَ الطَّوَالِحِ لَهَا وَهِيَ شَكْلُ الفَلَكِ عِنْدَ حُدُوثِهَا فَلَنذُكُرُ الآنَ مَا وَقَعَ لِأَهْلِ

الأثر في ذلك ثم نرجع إلى كلام المنجمين . أما أهل الأثر فلهم في مدة الميل وبقاء الدنيا على ما وقع في كتاب السهيلي فإنه نقل عن الطبري ما يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة ونقض ذلك بظهور كذبه ومستند الطبري في ذلك أنه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم يذكر لذلك دليلاً . وسره والله أعلم تقدير الدنيا بأيام خلق السماوات والأرض وهي سبعة ثم اليوم بألف سنة لقوله : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » وقد ثبت في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى غروب الشمس » وقال : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى وقدّر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين صيرورة ظل كل شيء مثليه يكون على التقريب نصف سبع ، وكذلك وصل الوسطى على السبابة فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها وهو خمسمائة سنة ويؤيده قوله ﷺ : « لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم » فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة وعن وهب بن منبه أنها خمسة آلاف وستمائة سنة أعني الماضي وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة قال السهيلي : « وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه » . فأما قوله : « لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم » فلا يقتضي نفى الزيادة على النصف وأما قوله : « بعثت أنا والساعة كهاتين » فإنما فيه الإشارة إلى القرب وأنه ليس بينه وبين الساعة نبي غيره ولا شرع غير شرعه ثم رجع السهيلي إلى تعيين أمد الملة من مدرك آخر لو ساعده التحقيق وهو أنه جمع الحروف المقطعة في أوائل السور بعد حذف المكرر قال وهي أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك ( ألم يسطع نص حق كره ) فأخذ عددها بحساب الجمل فكان سبعمائة وثلاثة<sup>(١)</sup> أضافه إلى المنقضي من الألف الآخر قبل بعثته فهذه هي مدة

(١) هذا العدد غير مطابق كما أن المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٣٠ وإنما المطابق للحروف المذكورة

الْمِلَّةَ قَالَ وَلَا يَبْعُدُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ هَذِهِ الْحُرُوفِ وَفَوَائِدِهَا قُلْتُ :  
 وَكَوْنُهُ لَا يَبْعُدُ لَا يَقْتَضِي ظُهُورَهُ وَلَا التَّعْوِيلَ عَلَيْهِ . وَالَّذِي حَمَلَ السُّهَيْلِيُّ عَلَى  
 ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ السَّيْرِ لِابْنِ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثِ ابْنِي أَخْطَبَ مِنْ  
 أَخْبَارِ الْيَهُودِ وَهَمَّا أَبُو يَاسِرَ وَأَخُوهُ حَيٌّ حِينَ سَمِعَا مِنَ الْأَحْرَفِ الْمُقْتَطَعَةِ ( أَلَمْ )  
 وَتَأْوِيلَهَا عَلَى بَيَانِ الْمُدَّةِ بِهَذَا الْحِسَابِ فَبَلَّغَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ فَاسْتَقْلًا الْمُدَّةَ وَجَاءَ  
 حَيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ : هَلْ مَعَ هَذَا غَيْرُهُ ؟ فَقَالَ ( الْمَصُّ ) ثُمَّ اسْتَزَادَ  
 ( الرَّثْمَ ) ثُمَّ اسْتَزَادَ ( الْمُرَّ ) فَكَانَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ فَاسْتَطَالَ الْمُدَّةَ وَقَالَ :  
 قَدْ لُبَسَ عَلَيْنَا أَمْرُكَ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى لَا نَدْرِي أَقَلِيلًا أَعْطَيْتَ أَمْ كَثِيرًا ثُمَّ ذَهَبُوا عَنْهُ  
 وَقَالَ لَهُمْ أَبُو يَاسِرَ مَا يُدْرِيكُمْ لَعَلَّهُ أَعْطَى عَدَدَهَا كُلَّهَا تِسْعِمِائَةٍ وَأَرْبَعِ سِنِينَ قَالَ  
 ابْنُ إِسْحَاقَ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ  
 مُتَشَابِهَاتٌ » . ١ هـ . وَلَا يَقُومُ مِنَ الْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى تَقْدِيرِ الْمِلَّةِ بِهَذَا الْعَدَدِ لِأَنَّ  
 دَلَالَتهُ هَذِهِ الْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ الْأَعْدَادِ لَيْسَتْ طَبِيعِيَّةً وَلَا عَقْلِيَّةً وَإِنَّمَا هِيَ بِالتَّوَاضُعِ  
 وَالِإِصْطِلَاحِ الَّذِي يُسْمُونَهُ حِسَابَ الْجُمْلِ نَعَمْ إِنَّهُ قَدِيمٌ مَشْهُورٌ وَقَدَّمَ الْإِصْطِلَاحُ  
 لَا يَصِيرُ حُجَّةً وَلَيْسَ أَبُو يَاسِرَ وَأَخُوهُ حَيٌّ مِمَّنْ يُؤْخَذُ رَأْيُهُ فِي ذَلِكَ دَلِيلًا وَلَا مِنْ  
 عُلَمَاءِ الْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بَادِيَّةً بِالْحِجَازِ غَفْلًا عَنِ الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ حَتَّى عَنِ عِلْمِ  
 شَرِيعَتِهِمْ وَفِقِهِ كِتَابِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَإِنَّمَا يَتَلَقَّفُونَ مِثْلَ هَذَا الْحِسَابِ كَمَا تَتَلَقَّفُهُ الْعَوَامُّ  
 فِي كُلِّ مِلَّةٍ فَلَا يَنْهَضُ لِلْسُّهَيْلِيِّ دَلِيلٌ عَلَى مَا ادَّعَاهُ مِنْ ذَلِكَ . وَوَقَعَ فِي الْمِلَّةِ فِي  
 حَدَثَانِ دَوْلَتِهَا عَلَى الْخُصُوصِ مُسْنَدٌ مِنَ الْأَثَرِ إِجْمَالِيٍّ فِي حَدِيثِ خُرْجَةِ أَبُو دَاوُدَ  
 عَنْ حَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانَ مِنْ طَرِيقِ شَيْخِهِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الذَّهَبِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ  
 أَبِي مَرْيَمَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ فَرُوحَ عَنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدِ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي قَبِيصَةَ بْنِ  
 دُوَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ حَذِيفَةُ بْنُ الْيَمَانَ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أُنْسِي أَصْحَابِي أَمْ  
 تَنَاسَوْهُ وَاللَّهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَائِدِ فَيْئَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقُضِيَ الدُّنْيَا لَا يَبْلُغُ  
 مِنْ مَعَهُ ثَلَاثِمِائَةٍ فَصَاعِدًا إِلَّا قَدْ سَمَّاهُ لَنَا بِاسْمِهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ وَقَبِيلَتِهِ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَبُو

دَاوُدَ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي رِسَالَتِهِ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَهَذَا الْحَدِيثُ  
 إِذَا كَانَ صَحِيحًا فَهُوَ مُجْمَلٌ وَيَتَقَرَّرُ فِي بَيَانِ إِجْمَالِهِ وَتَعْيِينِ مُبْهَمَاتِهِ إِلَى آثَارِ أُخْرَى  
 يُجَوِّدُ أَسَانِيدَهَا . وَقَدْ وَقَعَ إِسْنَادُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ كِتَابِ السُّنَنِ عَلَى غَيْرِ هَذَا  
 الْوَجْهِ فَوَقَعَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ حَدِيْفَةَ أَيْضًا قَالَ : قَامَ رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ فِينَا خَطِيْبًا فَمَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَاكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا  
 حَدَّثَ عَنْهُ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ قَدْ عَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ هُوَ لَاء . ١ هـ . وَلَفِظُ  
 الْبُخَارِيِّ : مَا تَرَكَ شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ وَفِي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ  
 أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ يَنْهَارِيثُمْ قَامَ  
 خَطِيْبًا فَلَمْ يَدْعُ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ  
 مَنْ نَسِيَهُ ١ هـ . وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا مَحْمُولَةٌ عَلَى مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ  
 أَحَادِيثِ الْفِتَنِ وَالْإِشْتِرَاطِ لَا غَيْرَ لِأَنَّهُ الْمَعْمُودُ مِنَ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ  
 عَلَيْهِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْعُمُومَاتِ وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ الَّتِي تَفَرَّدَ بِهَا أَبُو دَاوُدَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ  
 شَاذَةٌ مُنْكَرَةٌ مَعَ أَنَّ الْأَنْثَمَةَ اخْتَلَفُوا فِي رَجَالِهِ فَقَالَ ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ فِي ابْنِ فَرُوحَ  
 أَحَادِيثُهُ مُنَاكِبِيرٌ . وَقَالَ الْبُخَارِيُّ يُعْرَفُ مِنْهُ وَيُنْكَرُ وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ أَحَادِيثُهُ غَيْرُ  
 مَحْفُوظَةٍ وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَوَثَّقَهُ ابْنُ مَعِينٍ فَإِنَّمَا خَرَجَ  
 لَهُ الْبُخَارِيُّ اسْتِشْهَادًا وَضَعْفَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ ابْنُ حَاتِمٍ  
 يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ . وَأَبُو قَبِيصَةَ ابْنُ دُوَيْبٍ مَجْهُولٌ . فَتَضَعُفُ هَذِهِ  
 الزِّيَادَةُ الَّتِي وَقَعَتْ لِأَبِي دَاوُدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ مَعَ شَذُوذِهَا كَمَا  
 مَرَّ . وَقَدْ يَسْتَنْدُونَ فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ عَلَى الْخُصُوصِ إِلَى كِتَابِ الْجَفْرِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ  
 فِيهِ عِلْمٌ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ طَرِيقِ الْآثَارِ وَالنُّجُومِ لَا يَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَعْرِفُونَ أَصْلَ  
 ذَلِكَ وَلَا مُسْتَنَدِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ كِتَابَ الْجَفْرِ كَانَ أَصْلُهُ أَنَّ هَارُونَ بْنَ سَعِيدِ الْعِجْلِيِّ وَهُوَ  
 رَأْسُ الزَّيْدِيَّةِ كَانَ لَهُ كِتَابٌ يَرْوِيهِ عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَفِيهِ عِلْمٌ مَا سَيَقَعُ لِأَهْلِ  
 الْبَيْتِ عَلَى الْعُمُومِ وَلِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ مِنْهُمْ عَلَى الْخُصُوصِ وَقَعَ ذَلِكَ لِجَعْفَرٍ وَنَطَائِرِهِ

مِنْ رَجَالَتِهِمْ عَلَى طَرِيقِ الْكِرَامَةِ وَالْكَشْفِ الَّذِي يَقَعُ لِمِثْلِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَكَانَ  
 مَكْتُوباً عِنْدَ جَعْفَرٍ فِي جِلْدِ ثَوْبٍ صَغِيرٍ فَرَوَاهُ عَنْهُ هَارُونَ الْعَجَلِيُّ وَكَتَبَهُ وَسَمَّاهُ  
 الْجَعْفَرَ بِاسْمِ الْجِلْدِ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ لِأَنَّ الْجَعْفَرَ فِي اللَّغَةِ هُوَ الصَّغِيرُ وَصَارَ هَذَا الْإِسْمُ  
 عِلْماً عَلَى هَذَا الْكِتَابِ عِنْدَهُمْ وَكَانَ فِيهِ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ وَمَا فِي بَاطِنِهِ مِنْ غَرَائِبِ  
 الْمَعَانِي مَرْوِيَةً عَنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ . وَهَذَا الْكِتَابُ لَمْ تَتَّصِلْ رِوَايَتُهُ وَلَا عَرَفَ عَيْنُهُ  
 وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْهُ شَوَاطِدُ مِنَ الْكَلِمَاتِ لَا يَضْحَبُهَا دَلِيلٌ وَلَوْ صَحَّ السُّنْدُ إِلَى جَعْفَرِ  
 الصَّادِقِ لَكَانَ فِيهِ نَعَمُ الْمُسْتَنْدُ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ رَجَالِ قَوْمِهِ فَهَمُّ أَهْلِ الْكِرَامَاتِ وَقَدْ  
 صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ بَعْضَ قِرَائِتِهِ بِوَقَائِعِ تَكُونُ لَهُمْ فَتَصْحُ كَمَا يَقُولُ وَقَدْ حَدَّثَ  
 يَحْيَى ابْنَ عَمِيهِ زَيْدٌ مِنْ مَضْرَعِهِ وَعَصَاهُ فَخَرَجَ وَقَتِلَ بِالْجَوْزْجَانِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ .  
 وَإِذَا كَانَتْ الْكِرَامَةُ تَقَعُ لِغَيْرِهِمْ فَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ عِلْماً وَدِيناً وَأَثَاراً مِنَ النُّبُوَّةِ وَعِنَايَةِ  
 مِنَ اللَّهِ بِالْأَصْلِ الْكَرِيمِ تَشْهَدُ لِفُرُوعِهِ الطَّيِّبَةِ وَقَدْ يُنْقَلُ بَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ  
 هَذَا الْكَلَامِ غَيْرُ مَنْسُوبٍ إِلَى أَحَدٍ وَفِي أَخْبَارِ دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَأَنْظَرُ  
 مَا حَكَاهُ ابْنُ الدَّقِيقِ فِي لِقَاءِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيِّ لِعَبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ مَعَ ابْنِهِ  
 مُحَمَّدِ الْحَبِيبِ وَمَا حَدَّثَاهُ بِهِ وَكَيْفَ بَعَثَاهُ إِلَى ابْنِ حَوْشَبٍ دَاعِيَتِهِمْ بِالْيَمَنِ فَأَمَرَهُ  
 بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَبَثَّ الدَّعْوَةَ فِيهِ عَلَى عِلْمِ لُقْنَةَ أَنَّ دَعْوَتَهُ تَبِيهُ هُنَاكَ وَأَنَّ عُبَيْدَ  
 اللَّهِ لَمَّا بَنَى الْمَهْدِيَّةَ بَعْدَ اسْتِفْحَالِ دَوْلَتِهِمْ بِأَفْرِيْقِيَّةٍ قَالَ : « بَنَيْتَهَا لِيَعْتَصِمَ بِهَا  
 الْفَوَاطِمُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » وَأَرَاهُمْ مَوْقِفَ صَاحِبِ الْحِمَارِ أَبِي يَزِيدَ بِالْهَدْيَةِ وَكَانَ  
 يَسْأَلُ عَنْ مُنْتَهَى مَوْقِفِهِ حَتَّى جَاءَهُ الْخَبَرُ بِبُلُوعِهِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي عَيْنُهُ جَدُّهُ أَبُو  
 عُبَيْدِ اللَّهِ فَأَيَّقَنَ بِالظَّفَرِ وَبَرَزَ مِنَ الْبَلَدِ فَهَرَمَهُ وَاتَّبَعَهُ إِلَى نَاحِيَةِ الزَّابِ فَظَفَرَ بِهِ  
 وَقَتَلَهُ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ كَثِيرَةٌ .

وَأَمَّا الْمُنْجَمُونَ فَيَسْتَنْدُونَ فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ إِلَى الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ أَمَا فِي  
 الْأُمُورِ الْعَامَّةِ مِثْلِ الْمُلْكِ وَالِدُّوَلِ فَمِنَ الْقِرَائِنَاتِ وَخُصُوصاً بَيْنَ الْعُلُوِّيِّينَ وَذَلِكَ أَنَّ  
 الْعُلُوِّيِّينَ رَحَلَ وَالْمُسْتَشْرِيَّ يَقْتَرِنَانِ فِي كُلِّ عَشْرِينَ سَنَةً مَرَّةً ثُمَّ يَعُودُ الْقِرَانُ إِلَى



بُرْجٍ آخَرَ فِي تِلْكَ الْمُثَلَّثَةِ مِنَ التَّثْلِيثِ الْأَيْمَنِ ثُمَّ بَعْدَهُ إِلَى آخِرِ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ  
 فِي الْمُثَلَّثَةِ الْوَاحِدَةِ اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً تَسْتَوِي بُرُوجُهُ الثَّلَاثَةُ فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ  
 فَيَسْتَوِي بِهَا فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ ثَالِثَةً ثُمَّ رَابِعَةً فَيَسْتَوِي فِي الْمُثَلَّثَةِ بِاِثْنَتَيْ عَشْرَةَ  
 مَرَّةً وَأَرْبَعِ عَوْدَاتٍ فِي مَائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَيَكُونُ انْتِقَالُهُ فِي كُلِّ بُرْجٍ عَلَى التَّثْلِيثِ  
 الْأَيْمَنِ وَيَنْتَقِلُ مِنَ الْمُثَلَّثَةِ إِلَى الْمُثَلَّثَةِ الَّتِي تَلِيهَا أَغْنِي الْبُرْجَ الَّذِي يَلِي الْبُرْجَ  
 الْأَخِيرَ مِنَ الْقِرَانِ الَّذِي قَبْلَهُ فِي الْمُثَلَّثَةِ وَهَذَا الْقِرَانُ الَّذِي هُوَ قِرَانُ الْعُلُوِّيِّينَ يَنْقَسِمُ  
 إِلَى كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَوَسْطٍ فَالْكَبِيرُ هُوَ اجْتِمَاعُ الْعُلُوِّيِّينَ فِي دَرَجَةِ وَاحِدَةٍ مِنَ الْفَلَكَ إِلَى  
 أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا بَعْدَ تِسْعِمَائَةِ وَسِتِّينَ سَنَةً مَرَّةً وَاحِدَةً وَالْوَسْطُ هُوَ اقْتِرَانُ الْعُلُوِّيِّينَ فِي  
 كُلِّ مُثَلَّثَةٍ اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَبَعْدَ مِئَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْتَقِلُ إِلَى مُثَلَّثَةٍ أُخْرَى  
 وَالصَّغِيرُ هُوَ اقْتِرَانُ الْعُلُوِّيِّينَ فِي دَرَجَةِ بُرْجٍ وَبَعْدَ عَشْرِينَ سَنَةً يَقْتَرِنَانِ فِي بُرْجٍ  
 آخَرَ عَلَى تَثْلِيثِهِ الْأَيْمَنِ فِي مِثْلِ دَرَجِهِ أَوْ دَقَائِقِهِ مِثَالُ ذَلِكَ وَقَعَ الْقِرَانُ يَكُونُ أَوَّلُ  
 دَقِيقَةٍ مِنَ الْحَمَلِ وَبَعْدَ عَشْرِينَ يَكُونُ فِي أَوَّلِ دَقِيقَةٍ مِنَ الْأَسَدِ وَهَذِهِ كُلُّهَا نَارِيَّةٌ  
 وَهَذَا كُلُّهُ قِرَانٌ صَغِيرٌ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَوَّلِ الْحَمَلِ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً وَيُسَمَّى دَوْرَ الْقِرَانِ  
 وَعَوْدَ الْقِرَانِ وَبَعْدَ مَائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ يَنْتَقِلُ مِنَ النَّارِيَّةِ إِلَى التَّرَائِيَّةِ لِأَنَّهَا بَعْدَهَا  
 وَهَذَا قِرَانٌ وَسْطٌ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْهَوَائِيَّةِ ثُمَّ الْمَائِيَّةِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ الْحَمَلِ فِي  
 تِسْعِمَائَةِ وَسِتِّينَ سَنَةً وَهُوَ الْكَبِيرُ وَالْقِرَانُ الْكَبِيرُ يَدُلُّ عَلَى عِظَامِ الْأُمُورِ مِثْلَ تَغْيِيرِ  
 الْمُلْكِ وَالذُّوْلَةِ وَانْتِقَالِ الْمُلْكِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ وَالْوَسْطُ عَلَى ظُهُورِ الْمُتَغَلِّبِينَ  
 وَالطَّالِبِينَ لِلْمُلْكِ وَالصَّغِيرُ عَلَى ظُهُورِ الْخَوَارِجِ وَالذُّعَاةِ وَخَرَابِ الْمُدُنِ أَوْ عُمْرَانِهَا  
 وَيَقَعُ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْقِرَانَاتِ قِرَانُ النُّحْسَيْنِ فِي بُرْجِ السَّرَطَانِ فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ سَنَةً  
 مَرَّةً وَيُسَمَّى الرَّابِعَ وَبُرْجُ السَّرَطَانِ هُوَ طَالِعُ الْعَالَمِ وَفِيهِ وَبَالَ زَحَلٍ وَهَبُوطُ  
 الْمَرْيَخِ فَتَعْظُمُ دَلَالَةُ هَذَا الْقِرَانِ فِي الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ وَسَفْكِ الدَّمَاءِ وَظُهُورِ الْخَوَارِجِ  
 وَحَرَكَةِ الْعَسَاكِرِ وَعُضْيَانِ الْجُنْدِ وَالْوَبَاءِ وَالْقَحْطِ وَيَدُومُ ذَلِكَ أَوْ يَنْتَهِي عَلَى قَدْرِ  
 السَّعَادَةِ وَالنُّحُوسَةِ فِي وَقْتِ قِرَانِهِمَا عَلَى قَدْرِ تَنْسِيرِ الدَّلِيلِ فِيهِ . قَالَ جِرَاسُ بْنُ

أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك ورجوع المريخ إلى العقرب له أثر عظيم في الملة الإسلامية لأنه كان دليلها فالمولد النبوي كان عند قران العلويين ببرج العقرب فلما رجع هنالك حدث التشويش على الخلفاء وكثر المرض في أهل العلم والدين ونقصت أحوالهم وربما انهدم بعض بيوت العبادة وقد يقال إنه كان عند قتل علي رضي الله عنه ومروان من بني أمية والمتوكل من بني العباس فإذا روعيت هذه الأحكام مع أحكام القرانات كانت في غاية الإحكام وذكر شاذان البلخي : أن الملة تنتهي إلى ثلاثمائة وعشرين . وقد ظهر كذب هذا القول . وقال أبو معشر : يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير ولم يصح ذلك . وقال خراش : رأيت في كتب القدماء أن المنجمين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهر النبوة فيهم . وأن دليلهم الزهرة وكانت في شرفها فيبقى الملك فيهم أربعين سنة . وقال أبو معشر في كتاب القرانات القسمة إذا انتهت إلى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة ووقع القران مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقي من درجات شرف الزهرة وهي إحدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت ومدة ذلك ستمائة وعشرون سنة وكان ظهور أبي مسلم عند انتقال الزهرة ووقوع القسمة أول الحمل وصاحب الجد المشتري . وقال يعقوب بن إسحاق الكندي إن مدة الملة تنتهي إلى ستمائة وثلاث وتسعين سنة . قال : لأن الزهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت فالباقي إحدى عشرة درجة وثمان عشرة دقيقة ودقائقها ستون فيكون ستمائة وثلاثاً وتسعين سنة . قال : وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء ويعضده الحروف الواقعة في أول السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجمل . قلت وهذا هو الذي ذكره السهيلي والغالب أن الأول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه . قال خراش (١) :

(١) وفي نسخة أخرى : جراس .

« سَأَلَ هِرْمِزُ إِبْرَيْدَ الْحَكِيمِ عَنْ مُدَّةِ أَرْدَشِيرَ وَوَلَدِهِ مُلُوكِ السَّاسَانِيَّةِ » فَقَالَ :  
« دَلِيلُ مُلْكِهِ الْمُشْتَرِي » وَكَانَ فِي شَرْفِهِ فَيُعْطَى أَطْوَلَ السِّنِينَ وَأَجْوَدَهَا أَرْبَعِمِائَةَ  
وَسَبْعًا وَعَشْرِينَ سَنَةً ثُمَّ تَزِيدُ الزُّهْرَةَ وَتَكُونُ فِي شَرْفِهَا وَهِيَ دَلِيلُ الْعَرَبِ فَيَمْلِكُونَ  
لَأَنَّ طَالَعَ الْقِرَانَ الْمِيزَانَ وَصَاحِبِهِ الزُّهْرَةَ وَكَانَتْ عِنْدَ الْقِرَانِ فِي شَرْفِهَا فَدَلَّ أَنَّهُمْ  
يَمْلِكُونَ أَلْفَ سَنَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً . وَسَأَلَ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ وَزِيرَهُ بَزْرَجْمَهَرَ الْحَكِيمِ  
عَنْ خُرُوجِ الْمَلِكِ مِنَ فَارِسَ إِلَى الْعَرَبِ فَأَخْبَرَهُ : أَنَّ الْقَائِمَ مِنْهُمْ يُوَلِّدُ لَخَمْسِ  
وَأَرْبَعِينَ مِنْ دَوْلَتِهِ وَيَمْلِكُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ وَالْمُشْتَرِي يَفُوضُ إِلَى الزُّهْرَةِ وَيَنْتَقِلُ  
الْقِرَانَ مِنَ النَّوَائِيَّةِ إِلَى الْعَقْرِبِ وَهُوَ مَائِيٌّ وَهُوَ دَلِيلُ الْعَرَبِ فَهَذِهِ الْأَدْلَةُ تُفْضِي لِلْمَلَّةِ  
بِعُدَّةِ دَوْرِ الزُّهْرَةِ وَهِيَ أَلْفٌ وَسِتُّونَ سَنَةً . وَسَأَلَ كِسْرَى أَبْرُويزَ الْيُوسَ الْحَكِيمِ عَنْ  
ذَلِكَ فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِ بَزْرَجْمَهَرَ . وَقَالَ تُوْفَيْلُ الرُّومِيُّ الْمُنْجَمُ فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةَ : إِنَّ  
مِلَّةَ الْإِسْلَامِ تَبْقَى مُدَّةَ الْقِرَانِ الْكَبِيرِ تِسْعِمِائَةَ وَسِتِّينَ سَنَةً فَإِذَا عَادَ الْقِرَانُ إِلَى بُرْجِ  
الْعَقْرِبِ كَمَا كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الْمِلَّةِ وَتَغْيِيرِ وَضْعِ الْكُوكِبِ عَنْ هَيْئَتِهَا فِي قِرَانِ الْمِلَّةِ  
فَحِينَئِذٍ إِمَّا أَنْ يَفْتَرَ الْعَمَلُ بِهِ أَوْ يَتَّجِدَّ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا يُوجِبُ خِلَافَ الظَّنِّ . قَالَ  
خِرَاشٌ : وَأَتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ خَرَابَ الْعَالَمِ يَكُونُ بِاسْتِيلَاءِ الْمَاءِ وَالنَّارِ حَتَّى تَهْلِكَ سَائِرُ  
الْمَكُونَاتِ وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَقْطَعُ قَلْبُ الْأَسَدِ أَرْبَعًا وَعَشْرِينَ دَرَجَةً وَهِيَ حَدُّ  
الْمَرِيخِ . وَذَلِكَ بَعْدَ مُضِيِّ تِسْعِمِائَةَ وَسِتِّينَ سَنَةً . وَذَكَرَ خِرَاشٌ : أَنَّ مَلِكَ  
زَابُلِسْتَانَ بَعَثَ إِلَى الْمَأْمُونِ بِحَكِيمِهِ دُوبَانَ أَنْخَفَهُ بِهِ فِي هَدِيَّةٍ وَأَنَّهُ تَصَرَّفَ  
لِلْمَأْمُونِ فِي الْإِخْتِيَارَاتِ بِحُرُوبِ أَخِيهِ وَبِعَقْدِ اللِّوَاءِ لِطَاهِرٍ وَأَنَّ الْمَأْمُونِ أَعْظَمَ  
حِكْمَتَهُ فَسَأَلَهُ عَنْ مُدَّةِ مُلْكِهِمْ فَأَخْبَرَهُ بِانْقِطَاعِ الْمَلِكِ مِنْ عَقْبِهِ وَاتِّصَالِهِ فِي وُلْدِ  
أَخِيهِ وَأَنَّ الْعَجَمَ يَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْخِلَافَةِ مِنَ الدَّلِيمِ فِي دَوْلَةِ سَنَةِ خَمْسِينَ وَيَكُونُ  
مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ ثُمَّ يَسُوءُ حَالَهُمْ ثُمَّ تَظْهَرُ التُّرْكُ مِنْ شِمَالِ الْمَشْرِقِ فَيَمْلِكُونَ إِلَى الشَّامِ  
وَالْفَرَاتِ وَسِيحُونَ وَسَيَمْلِكُونَ بِلَادَ الرُّومِ وَيَكُونُ مَا يُرِيدُهُ اللَّهُ فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ :  
مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا ؟ فَقَالَ : مِنْ كُتُبِ الْحُكَمَاءِ وَمِنْ أَحْكَامِ صَصَةَ بْنِ ذَاهِرِ الْهِنْدِيِّ

الَّذِي وَضَعَ الشُّطْرَنْجَ . قُلْتُ وَالتُّرْكَ الَّذِينَ أَشَارَ إِلَى ظُهُورِهِمْ بَعْدَ الدَّيْلِمِ هُمْ  
السُّلْجُوقِيَّةُ وَقَدْ انْقَضَتْ دَوْلَتُهُمْ أَوَّلَ الْقَرْنِ السَّابِعِ . قَالَ خِرَاشٌ : وَانْتِقَالَ الْقِرَانُ إِلَى  
الْمُثَلَّثَةِ الْمَائِيَّةِ مِنْ بُرْجِ الْحَوْتِ يَكُونُ سَنَةٌ ثَلَاثٌ وَثَلَاثِينَ وَثَمَانِمِائَةً لِيَزْدَجِرْدَ  
وَبَعْدَهَا إِلَى بُرْجِ الْعَقْرَبِ حَيْثُ كَانَ قِرَانُ الْمِئَةِ سَنَةً ثَلَاثٌ وَخَمْسِينَ . قَالَ : وَالَّذِي  
فِي الْحَوْتِ هُوَ أَوَّلُ الْإِنْتِقَالِ وَالَّذِي فِي الْعَقْرَبِ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ دَلَائِلُ الْمِئَةِ . قَالَ :  
وَتَحْوِيلُ السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْقِرَانِ الْأَوَّلِ فِي الْمُثَلَّثَاتِ الْمَائِيَّةِ فِي ثَانِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانِ  
وَسِتِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ وَلَمْ يَسْتَوْفِ الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ . وَأَمَّا مُسْتَنْدُ الْمُتَجَمِّعِينَ فِي دَوْلَةِ عَلَى  
الْخُصُوصِ فَمِنَ الْقِرَانِ الْأَوْسَطِ وَهَيْئَةُ الْفَلَكَ عِنْدَ وَقُوعِهِ لِأَنَّ لَهُ دِلَالَةً عِنْدَهُمْ عَلَى  
حُدُوثِ الدَّوْلَةِ وَجِهَاتِهَا مِنَ الْعُمَرَاءِ وَالْقَائِمِينَ بِهَا مِنَ الْأُمَمِ وَعَدَدِ مَلُوكِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ  
وَأَعْمَارِهِمْ وَنَحْلِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ كَمَا ذَكَرَ أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِهِ فِي  
الْقِرَانَاتِ وَقَدْ تَوَجَّدَ هَذِهِ الدَّلَالَةُ مِنَ الْقِرَانِ الْأَصْغَرِ إِذَا كَانَ الْأَوْسَطُ دَالًّا عَلَيْهِ فَمِنْ  
يُوجَدُ الْكَلَامَ فِي الدَّوْلِ وَقَدْ كَانَ يَفْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيُّ مُنْجَمُ الرَّشِيدِ  
وَالْمَأْمُونِ وَضَعَ فِي الْقِرَانَاتِ الْكَائِنَةِ فِي الْمِئَةِ كِتَابًا سَمَّاهُ الشَّيْخَةَ بِالْجَفْرِ بِاسْمِ  
كِتَابِهِمُ الْمَنْسُوبِ إِلَى جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَذَكَرَ فِيهِ فِيمَا يُقَالُ حَدَثَانٌ : دَوْلَةُ بَنِي  
الْعَبَّاسِ وَأَنَّهَا نَهَائِيَّةٌ وَأَشَارَ إِلَى انْقِرَاضِهَا وَالْحَادِثَةِ عَلَى بَعْدَادَ أَنَّهَا تَقَعُ فِي انْتِصَافِ  
الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَأَنَّهُ بِانْقِرَاضِهَا يَكُونُ انْقِرَاضُ الْمِئَةِ وَلَمْ نَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَبَرِ هَذَا  
الْكِتَابِ وَلَا رَأَيْنَا مَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ وَلَعَلَّهُ غَرِقَ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي طَرَحَهَا هَلَكَوْا مَلِكُ  
التُّرْ فِي دِجْلَةَ عِنْدَ اسْتِيْلَائِهِمْ عَلَى بَعْدَادَ وَقَتْلِ الْمُسْتَعَصِمِ آخِرِ الْخُلَفَاءِ وَقَدْ وَقَعَ  
بِالْمَغْرِبِ جُزْءٌ مَنْسُوبٌ إِلَى هَذَا الْكِتَابِ يُسَمُّوهُ الْجَفْرَ الصَّغِيرَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ وَضَعَ  
لِبَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ لِذِكْرِ الْأَوَّلِينَ مِنْ مَلُوكِ الْمُوَحِّدِينَ فِيهِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَمُطَابَقَةً  
مَنْ تَقَدَّمَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثَانِهِ وَكَذَّبَ مَا بَعْدَهُ وَكَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ بَعْدِ  
الْكِنْدِيِّ مُنْجَمُونَ وَكُتِبَ فِي الْحَدِيثَانِ وَأَنْظَرَ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ فِي أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ عَنْ  
أَبِي بَدِيلٍ مِنْ أَصْحَابِ صَنَائِعِ الدَّوْلَةِ قَالَ بَعَثَ إِلَيَّ الرَّبِيعُ وَالْحَسَنُ فِي غُرَاتِهِمَا مَعَ

الرشيدي أيام أبيه فحجنتهما جوف الليل فإذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعني  
الحدثان وإذا مدة المهدي فيه عشر سنين فقلت : هذا الكتاب لا يخفى على  
المهدي وقد مضى من دولته ما مضى فإذا وقف عليه كنتم قد نعتتم إليه نفسه .  
قالا ، فما الحيلة فاستدعيت عنبسة الوراق مولى آل بديل وقلت له انسخ هذه  
الورقة واكتب مكان عشر أربعين ففعل فوالله لولا أنني رأيت العشرة في تلك  
الورقة والأربعين في هذه ما كنت أشك أنها هي ثم كتب الناس من بعد ذلك في  
حدثان الدول منطوماً ومنشوراً ورجزاً ما شاء الله أن يكتبوه وبأيدي الناس  
متفرقة كثير منها وتسمى الملاحم . وبعضها في حدثان الملة على العموم وبعضها  
في دولة على الخصوص وكلها منسوبة إلى مشاهير من أهل الخليفة وليس منها أصل  
يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب إليه فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة  
ابن مرانة من بحر الطويل على روي الرء وهي متداولة بين الناس وتحسب  
العامّة أنها من الحدثان العام فيطلقون الكثير منها على الحاضر والمستقبل والذي  
سمعتاه من شيوخنا أنها مخصوصة بدولة لمتونة لأن الرجل كان قبيل دولتهم  
وذكر فيها استيلاءهم على سبعة من يد موالى بني حمود وملكهم لعدوة الأندلس  
ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضاً قصيدة تسمى التبعية أولها :

طربت وما ذاك مني طرب وقد يطرِب الطائر المغتصب  
وما ذاك مني للهو أراه ولكن لتذكار بعض السبب  
قريباً من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال ذكر فيها كثيراً من دولة  
الموحدين وأشار فيها إلى الفاطمي وغيره والظاهر أنها مصنوعة ومن الملاحم  
بالمغرب أيضاً ملحبة من الشعر الزجلي منسوبة لبعض اليهود ذكر فيها أحكام  
القرانات لعصره العلويين والنحسين وغيرهما وذكر ميتته قتيلاً بفاس وكان  
كذلك فيما زعموه وأوله :

في صبغ ذا الأزرق لشرفه خيارا فافهموا يا قوم هذي الاشارا

نجم زحل اخبر بزدي العلاما      وبذل الشكلا وهي سلاما  
شاشية زرقا بدل العماما      وشاش أزرق بدل الغراما

يقول في آخره

قد تم ذا التجنيس لانسان يهودي      يصلب في بلدة فاس في يوم عيد  
حتى يجيه الناس من البوادي      وقتله يا قوم على الفرد

وَأَيَّاتُهُ نَحْوُ الْخَمْسِمِائَةِ وَهِيَ فِي الْقِرَانَاتِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ وَمِنْ  
مَلَاحِمِ الْمَغْرِبِ أَيْضاً قَصِيدَةٌ مِنْ عَرُوضِ الْمُتَقَارِبِ عَلَى رَوِيِّ الْبِنَاءِ فِي حَدَثَانِ دَوْلَةِ  
بَنِي أَبِي حَفْصِ بِنْتُونَسَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ مَنَسُوبَةٌ لِابْنِ الْأَبَارِ . وَقَالَ لِي قَاضِي  
قُسْنَطِينِيَّةِ الْخَطِيبِ الْكَبِيرُ أَبُو عَلِيٍّ بَنُ بَادِيسَ وَكَانَ بَصِيراً بِمَا يَقُولُهُ وَلَهُ قَدَمٌ  
فِي التَّنْجِيمِ فَقَالَ لِي : إِنَّ هَذَا ابْنُ الْأَبَارِ لَيْسَ هُوَ الْحَافِظُ الْأَنْدَلُسِيُّ الْكَاتِبُ مَقْتُولُ  
الْمُسْتَنْصِرِ وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ خِيَّاطٌ مِنْ أَهْلِ تُونَسَ تَوَاطَأَتْ شَهْرَتُهُ مَعَ شَهْرَةِ الْحَافِظِ  
وَكَانَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يُنْشِدُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ مِنْ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ وَبَقِيَ بَعْضُهَا فِي  
حَفْظِي مَطْلَعُهَا :

عَذِيرِي مِنْ زَمَنِ قَلْبِ يَغْرُ بِيَارِقِهِ الْأَشْنَبِ

ومنها .

وَيَبْعَثُ مِنْ جَيْشِهِ قَائِداً      وَيَبْقَى هُنَاكَ عَلَى مَرْقَبِ  
فَتَأْتِي إِلَى الشَّيْخِ أَخْبَارُهُ      فَيَقْبَلُ كَالْجَمَلِ الْأَجْرَبِ  
وَيُظْهِرُ مِنْ عَذْلِهِ سِيرَةَ      وَتِلْكَ سِيَاسَةَ مُسْتَجَلِبِ

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم .

فَأَمَّا <sup>(١)</sup> رَأَيْتَ الرُّسُومَ أَمَحَّتْ      وَلَمْ يَزَعْ حَقَّ لِيذِي مَنْصِبِ

(١) قوله فإما رأيت أصله فان رأيت زبدت ما وادغمت في أن الشريطية المحذوف نونها خطأ وفي نسخة فلما رأيت والأولى هي الموجودة في النسخة التونسية . ١ هـ . قاله نصر .

فَخُذْ فِي التَّرْحُلِ عَنْ تُونِسِ وَوَدِّعْ مَعَالِمَهَا وَأَذْهَبْ  
فَسَوْفَ تَكُونُ بِهَا فِتْنَةً تُضِيفُ الْبَرِيءَ إِلَى الْمَذْنِبِ

وَوَقَفْتُ بِالْمَغْرِبِ عَلَى مَلْحَمَةٍ أُخْرَى فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ هُوَلاءِ بَتُونَسِ  
فِيهَا بَعْدَ السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى الشَّهِيرِ عَاشِرِ مُلُوكِهِمْ ذَكَرَ مُحَمَّدٌ أَخِيهِ مِنْ بَعْدِهِ  
يَقُولُ فِيهَا :

وَبَعْدَ أَبِي عَبْدِ الإِلَهِ شَقِيقُهُ وَيُعْرَفُ بِالْوَثَّابِ فِي نُسْخَةِ الأَصْلِ

إِلَّا أَنْ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَمْلِكْهَا بَعْدَ أَخِيهِ وَكَانَ يُمْنِي بِذَلِكَ نَفْسَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ  
وَمِنَ الْمَلَاحِمِ فِي الْمَغْرِبِ أَيْضاً الْمُلْعَبَةُ الْمَنْسُوبَةُ إِلَى الْهُوثِيَّةِ<sup>(١)</sup> عَلَى لُغَةِ الْعَامَّةِ فِي  
عَرُوضِ الْبَلَدِ :

دعني بدمعي الهتان	فترت الأمطار ولم تفتري
واستقت كلها الويدان	وانسى تملى وتغدر
البلاد كلها تروى	فأولى ما ميل ما تدرى
ما بين الصيف والشتوي	والعام والربيع تجري
قال حين صحت الدعوى :	دعنى نبكي ومن عذري
أنادي من ذي الأزمان	ذا القرن اشتد وتمري

وَهِيَ طَوِيلَةٌ وَمَحْفُوظَةٌ بَيْنَ عَامَّةِ الْمَغْرِبِ الأَقْصَى وَالْغَالِبِ عَلَيْهَا الْوَضْعُ  
لأنه لَمْ يَصْحَ مِنْهَا قَوْلٌ إِلا عَلَى تَأْوِيلِ تَحْرُفَةِ الْعَامَّةِ أَوْ الْحَارِفِ فِيهِ مَنْ يَنْتَحِلُهَا مِنْ  
الْخَاصَّةِ وَوَقَفْتُ بِالْمَشْرِقِ عَلَى مَلْحَمَةٍ مَنْسُوبَةٍ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ الْحَاتِمِيِّ فِي كَلَامِ  
طَوِيلٍ شَبَّهِ الأُلْغَازَ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ لِتَحَلُّلِهِ إِلَى أَوْفَاقِ عَدَدِيَّةٍ وَرَمُوزٍ مَلْغُوزَةٍ  
وَأَشْكَالِ حَيَوَانَاتٍ تَامَّةٍ وَرُؤُوسِ مَقْطَعَةٍ وَتَمَائِيلِ مِنْ حَيَوَانَاتٍ غَرِيبَةٍ . وَفِي آخِرِهَا  
قَصِيدَةٌ عَلَى رُويِ الأَمِّ وَالْغَالِبِ أَنَّهَا كُلُّهَا غَيْرُ صَحِيحَةٍ لِأَنَّهَا لَمْ تَنْشَأْ عَنْ أَصْلِ عِلْمِيٍّ

(١) وفي نسخة أخرى الهوشنى .

مِنْ نِجَامَةٍ وَلَا غَيْرَهَا وَسَمِعْتُ أَيْضاً أَنَّ هُنَاكَ مَلَا حِمَّ أُخْرَى مَنَسُوبَةٌ لِابْنِ سَيْنَاءَ  
وَإِبْنِ عُقَابٍ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا دَلِيلٌ عَلَى الصَّحَّةِ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْقِرَآنَاتِ  
وَوَقَفْتُ بِالْمَشْرِقِ أَيْضاً عَلَى مَلْحَمَةٍ مِنْ حَدَثَانِ دَوْلَةِ التُّرْكِ مَنَسُوبَةٍ إِلَى رَجُلٍ مِنَ  
الصُّوفِيَّةِ يُسَمَّى الْبَاجِرِ بَقِيٍّ وَكُلُّهَا الْغَازِ بِالْحُرُوفِ أُولَئِكَ :

إِنْ شِئْتَ تَكْسِفُ سِرَّ الْجَفْرِ يَا سَائِلِي  
فَأَفْهَمُ وَكُنْ وَإِعْيَا حَرْفًا وَجُمْلَتَهُ  
أَمَّا الَّذِي قَبْلَ عَضْرِي لَسْتُ أَذْكَرُهُ  
بِشَهْرِ بَيْبَرَسٍ يَبْقَى بَعْدَ خَمْسَتَيْهَا  
شَيْئٌ لَهُ أَثَرٌ مِنْ تَحْتِ سُرَّتِهِ  
فَمِضْرُ وَالشَّامُ مَعَ أَرْضِ الْعِرَاقِ لَهُ  
وَمِنْهَا :

مِنْ عِلْمِ جَفْرِ وَصِيٍّ وَالِدِ الْحَسَنِ  
وَالْوَصْفِ فَأَفْهَمُ كَفِعْلِ الْحَادِقِ الْفَطِنِ  
لَكِنِّي أَذْكَرُ الْآتِي مِنَ الزَّمَنِ  
بِحَاءِ مِيرِ بَطِيْشٍ نَامَ فِي الْكُنَنِ  
لَهُ الْقَضَاءُ قَضَى أَي ذَلِكَ الْمَنَنِ  
وَأَذْرَبِيحَانُ فِي مُلْكِ إِلَى الْيَمَنِ

وَأَلْ بُوْرَانَ لَمَّا نَالَ طَاهِرُهُمْ  
لِخَلْعِ سَيْنِ ضَعِيفِ السَّنِّ سَيْنٌ أَتَى  
قَوْمٌ شَجَاعٌ لَهُ عَقْلٌ وَمَشُورَةٌ  
وَمِنْهَا :

الْفَاتِكُ الْبَاتِكُ الْمَعْنِيُّ بِالسِّمَنِ  
لَا لَوْفَاقٍ وَنَوْتُ ذِي قَرَنِ  
يَبْقَى بِحَاءِ وَأَيْنَ بَعْدُ ذُو سِمَنِ

مِنْ بَعْدِ بِيَاءٍ مِنَ الْأَعْوَامِ قَتَلْتَهُ  
وَمِنْهَا :

يَلِي الْمَشُورَةَ مِيمُ الْمَلِكِ ذُو اللِّسَنِ

هَذَا هُوَ الْأَعْرَجُ الْكَلْبِيُّ فَاعَنْ بِهِ  
يَأْتِي مِنَ الشَّرْقِ فِي جَيْشٍ يَفْقَدُهُمْ  
بِقَتْلِ دَالٍ وَمِثْلُ الشَّامِ أَجْمَعِهَا  
إِذَا أَتَى زَلَزَلَتْ يَا وَيْحَ مِضْرَمِ  
طَاءَ وَظَاءَ وَعَيْنٌ كُلُّهُمْ حَبَسُوا  
فِي عَضْرِهِ فِتْنٌ نَاهِيكَ مِنْ فِتْنِ  
عَارٍ عَنِ الْقَافِ قَافٍ جَدُّ بِالْفِتْنِ  
أَبَدْتَ بِشُجُوْعِ الْأَهْلِيِّ وَالْوَطَنِ  
مِنَ الزَّلْزَالِ مَا زَالَ حَاءٌ غَيْرُ مُقْتَطِنِ  
هَلَكًا وَيَنْفِقُ أَمْوَالًا بِلَا ثَمَنِ



يَسِيرُ الْقَافَ قَافًا عِنْدَ جَمْعِهِمْ      هَوْنٌ بِهِ إِنَّ ذَاكَ الْحِضْنَ فِي سَكْنِ  
وَيَنْصَبُونَ أَخَاهُ وَهُوَ صَالِحُهُمْ      لَا سَلَّمَ الْأَلْفَ سَيْنَ لَذَاكَ بُنْي  
تَمَّتْ وَلَا يَتَّبِعُهُمُ بِالْحَاءِ لَا أَحَدٌ      مِنَ السَّنِينَ يُدَانِي الْمَلِكَ فِي الزَّمَنِ

ويقال إنه أشار إلى الملك الظاهر وقدم أبيه عليه بمصر :

يَأْتِي إِلَيْهِ أَبُوهُ بَعْدَ هُجْرَتِهِ      وَطُولِ غَيْبَتِهِ وَالشُّطْفِ وَالزَّرَنِ  
وَأَبْيَاتُهَا كَثِيرَةٌ وَالْغَالِبُ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ وَمِثْلُ صَنِعَتِهَا كَانَ فِي الْقَدِيمِ كَثِيرٌ  
وَمَعْرُوفٌ الْإِنْتِحَالِ .

حكى المؤرخون لأخبار بغداد أنه كان بها أيام المقتدر وراق ذكبي يعرف  
بالداني (١) يبل الأوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من أسماء  
أهل الدولة ويشير بها إلى ما يعرف ميلهم إليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها  
ملاحم ويحصل على ما يريده منهم من الدنيا وإنه وضع في بعض دفاتره ميمًا  
مكررة ثلاث مرات وجاء به إلى مفلح مولى المقتدر . فقال له : هذا كناية عنك  
وهو مفلح مولى المقتدر وذكر عنه ما يرضاه ويناله من الدولة ونصب لذلك  
علامات يموه بها عليه فبدل له ما أغناه به ثم وضعه للوزير ابن القاسم بن وهب  
على مفلح هذا وكان مغزولاً فجاءه بأوراق مثلها وذكر اسم الوزير بمثل هذه  
الحروف وبعلامات ذكرها وأنه يلي الوزارة للثاني عشر من الخلفاء وتستقيم  
الأمر على يديه ويقهر الأعداء وتعمر الدنيا في أيامه وأوقف مفلحاً هذا على  
الأوراق وذكر فيها كوائن أخرى وملاحم من هذا النوع مما وقع ومما لم يقع ونسب  
جميعه إلى دانيال فأعجب به مفلح . ووقف عليه المقتدر واهتدى من تلك الأمور  
والعلامات إلى ابن وهب وكان ذلك سبباً لوزارته بمثل هذه الحيلة العريفة في  
الكذب والجهل بمثل هذه الألغاز والظاهر أن هذه الملحمة التي ينسبونها إلى

(١) وفي نسخة أخرى : الدنيالي .

الْبَاجِرْبِقِيُّ مِنْ هَذَا النَّوْعِ . وَلَقَدْ سَأَلْتُ أَكْمَلَ الدِّينِ ابْنَ شَيْخِ الحَنْفِيَّةِ مِنَ العَجَمِ  
بِالدِّيَارِ المَصْرِيَّةِ عَنِ هَذِهِ المَلْحَمَةِ وَعَنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي تُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ  
وَهُوَ البَاجِرْبِقِيُّ وَكَانَ عَارِفًا بِطَرَائِقِهِمْ فَقَالَ كَانَ مِنَ القَلَنْدَرِيَّةِ المُبْتَدِعَةِ فِي حَلْقِ  
اللَّحْيَةِ وَكَانَ يَتَحَدَّثُ عَمَّا يَكُونُ بِطَرِيقِ الكَشْفِ وَيَوْمِي إِلَى رِجَالِ مُعَيَّنِينَ عِنْدَهُ  
وَيُلْفِزُ عَلَيْهِمْ بِحُرُوفٍ يُعَيِّنُهَا فِي ضَمْنِهَا لِمَنْ يَرَاهُ مِنْهُمْ وَرُبَّمَا يَظْهَرُ نَظْمٌ ذَلِكَ فِي  
أَنْبِيَاءٍ قَلِيلَةٍ كَانَ يَتَعَاهَدُهَا فَتَنَوَّقَلْتُ عَنْهُ وَوَلَعَ النَّاسُ بِهَا وَجَعَلُوهَا مَلْحَمَةً مَرْمُوزَةً  
وَزَادَ فِيهَا الخِرَاصُونَ مِنْ ذَلِكَ الجِنْسِ فِي كُلِّ عَضْرِ وَشِعْلِ العَامَّةِ بِفِكَ رَمُوزَهَا وَهُوَ  
أَمْرٌ مُمْتَنِعٌ إِذِ الرَّمْزُ إِنَّمَا يَهْدِي إِلَى كَشْفِهِ قَانُونٌ يُعْرَفُ قَبْلَهُ وَيُوضَعُ لَهُ وَأَمَّا مِثْلُ هَذِهِ  
الحُرُوفِ فِدِلَالَتُهَا عَلَى المَرَادِ مِنْهَا مَخْصُوصَةٌ بِهَذَا النِّظْمِ لَا يَتَجَاوِزُوهُ فَرَأَيْتُ مِنْ  
كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ الفَاضِلِ شِفَاءً لِمَا كَانَ فِي النَفْسِ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ المَلْحَمَةِ « وَمَا كُنَّا  
لِنَهْتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ » وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

## الباب الرابع

### من الكتاب الأول

في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال

وفيه سوابق ولواحق

### الفصل الأول

في أن الدول من المدن والأمصار وأنها إنما توجد ثانية عن الملك  
وبيانته أن البناء واختطاط المنازل إنما من منازع الحضارة التي يدعوا إليها  
الترف والدعة كما قدمناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها وأيضاً فالممدن

وَالْأَمْصَارُ ذَاتُ هَيَاكِلٍ وَأَجْرَامٍ عَظِيمَةٍ وَبِنَاءٍ كَبِيرٍ وَهِيَ مَوْضُوعَةٌ لِلْعُمُومِ لَا لِلْخُصُوصِ فَتَحْتَاجُ إِلَى اجْتِمَاعِ الْأَيْدِي وَكَثْرَةِ التَّعَاوُنِ وَلَيْسَتْ مِنَ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ لِلنَّاسِ الَّتِي تَعْمُ بِهَا الْبُلُوى حَتَّى يَكُونَ نَزُوعُهُمْ إِلَيْهَا اضْطِرَّاراً بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِكْرَاهِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَسَوْقِهِمْ إِلَيْهِ مُضْطَهِّدِينَ بَعْضَا الْمَلِكِ أَوْ مَرْغَبِينَ فِي الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ الَّذِي لَا يَفِي بِكَثْرَتِهِ إِلَّا الْمَلِكُ وَالْدَوْلَةُ . فَلَا بُدَّ فِي تَمْصِيرِ الْأَمْصَارِ وَاخْتِطَاطِ الْمَدِينِ مِنَ الدَّوْلَةِ وَالْمَلِكِ . ثُمَّ إِذَا بُنِيَتِ الْمَدِينَةُ وَكَمُلَ تَشْيِيدُهَا بِحَسَبِ نَظَرٍ مِنْ شَيْدِهَا وَبِمَا اقْتَضَتْهُ الْأَحْوَالُ السَّمَاوِيَّةُ وَالْأَرْضِيَّةُ فِيهَا فَعَمُرُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ عَمُرٌ لَهَا فَإِنْ كَانَ عَمُرُ الدَّوْلَةِ قَصِيراً وَقَفَ الْحُلُ فِيهَا عِنْدَ انْتِهَاءِ الدَّوْلَةِ وَتَرَاجَعَ عَمْرَانُهَا وَخَرِبَتْ وَإِنْ كَانَ أَمَدُ الدَّوْلَةِ طَوِيلاً وَمُدَّتْهَا مُنْفَسِحَةً فَلَا تَزَالُ الْمَصَانِعُ فِيهَا تُشَادُ وَالْمَنَارِلُ الرَّحِيْبَةُ تَكْثُرُ وَتَتَعَدَّدُ وَنِطَاقُ الْأَسْوَاقِ يَتَّبَاعِدُ وَيَنْفَسِحُ إِلَى أَنْ تَتَّسِعَ الْخِطَّةُ وَتَتَّبَعِدَ الْمَسَافَةُ وَيَنْفَسِحَ ذَرْعُ الْمَسَاحَةِ كَمَا وَقَعَ بِبَغْدَادَ وَأُمَثَالِهَا . ذَكَرَ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ أَنَّ الْحَمَامَاتِ بَلَغَ عَدْدُهَا بِبَغْدَادَ لِعَهْدِ الْمَأْمُونِ خَمْسَةَ وَسِتِّينَ أَلْفَ حَمَامٍ وَكَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَدِينِ وَأَمْصَارٍ مُتَلَاصِقَةٍ وَمُنْقَارِيَّةٍ تَجَاوَزُ الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ تَكُنْ مَدِينَةً وَحْدَهَا يَجْمَعُهَا سُورٌ وَاحِدٌ لِإِفْرَاطِ الْعُمَرَانِ وَكَذَا حَالُ الْقَيْرَوَانِ وَقَرْطَبَةَ وَالْمَهْدِيَّةِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَحَالُ مِصْرَ الْقَاهِرَةِ بَعْدَهَا فِيمَا بَلَّغْنَا لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَمَّا بَعْدَ انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ الْمُشَيَّدَةِ لِلْمَدِينَةِ فِيمَا أَنْ يَكُونَ لِضَوَاحِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَمَا قَارَبَهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَسَائِطِ بَادِيَةٌ يُمِدُّهَا الْعُمَرَانُ دَائِماً فَيَكُونُ ذَلِكَ حَافِظاً لَوْجُودِهَا وَيَسْتَمِرُّ عَمْرُهَا بَعْدَ الدَّوْلَةِ كَمَا تَرَاهُ بِفَاسَ وَبِجَايَةَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَيَعْرَاقِ الْعَجَمِ مِنَ الْمَشْرِقِ الْمَوْجُودِ لَهَا الْعُمَرَانُ مِنَ الْجِبَالِ لِأَنَّ أَهْلَ الْبِدَاوَةِ إِذَا انْتَهَتْ أَحْوَالُهُمْ إِلَى غَايَاتِهَا مِنَ الرَّفْهِ وَالْكَسْبِ تَدْعُو إِلَى الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ الَّذِي فِي طَبِيعَةِ الْبَشَرِ فَيَنْزِلُونَ الْمَدِينَةَ وَالْأَمْصَارَ وَيَتَأَهَّلُونَ وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَتِلْكَ الْمَدِينَةِ الْمَوْسِسَةُ مَادَّةُ تَفِيدِهَا الْعُمَرَانُ بِتَرَادُفِ السَّاكِنِ مِنْ بَدْوِهَا فَيَكُونُ انْقِرَاضُ الدَّوْلَةِ خَرْقاً لِسِيَاحِهَا فَيَزُولُ حِفْظُهَا وَيَتَنَاقِضُ عَمْرَانُهَا شَيْئاً فَيْشَيْئاً إِلَى أَنْ يَبْتَدِعَ<sup>(١)</sup>

(١) يَتَفَرَّقُ

سَاكِنَهَا وَتَخَرَّبَ كَمَا وَقَعَ بِمِصْرَ وَبَغْدَادَ وَالْكُوفَةَ بِالشَّرْقِ وَالْقَيْرَوَانَ وَالْمَهْدِيَةَ  
 وَقَلْعَةَ بَنِي حَمَادٍ بِالشَّرْقِ وَأَمْثَالَهَا فَتَفَهَّمَهُ وَرُبَّمَا يَنْزِلُ الْمَدِينَةَ بَعْدَ انْقِرَاضِ  
 مُخْتَطِهَا الْأُولَى مَلِكٌ آخَرَ وَدَوْلَةٌ ثَانِيَةً يَتَّخِذُهَا قَرَارًا وَكُرْسِيًّا يَسْتَعْنِي بِهَا عَنِ  
 اخْتِطَاطِ مَدِينَةٍ يَنْزِلُهَا فَتَحْفَظُ تِلْكَ الدَّوْلَةَ سِيَاحَهَا وَتَنْزَايِدُ مَبَانِيَهَا وَمَصَانِعَهَا  
 بِتَزَايِدِ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ الثَّانِيَةِ وَتَرْفَعُهَا وَتَسْتَجِدُّ بِعُمَرَانِهَا عُمُرًا آخَرَ كَمَا وَقَعَ بِفَاسَ  
 وَالْقَاهِرَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ .

## الفصل الثاني

### في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار

وَذَلِكَ أَنَّ الْقَبَائِلَ وَالْعَصَائِبَ إِذَا حَصَلَ لَهَا الضَّرُورَةُ لِلِاسْتِيْلَاءِ عَلَى  
 الْأَمْصَارِ لِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْمَلِكُ مِنَ الدَّعْوَةِ وَالرَّاحَةِ وَحَطِّ الْأَثْقَالِ  
 وَاسْتِكْمَالِ مَا كَانَ نَاقِصًا مِنْ أُمُورِ الْعُمَرَانِ فِي الْبَدْوِ وَالثَّانِي دَفْعُ مَا يَتَوَقَّعُ عَلَى  
 الْمَلِكِ مِنْ أَمْرِ الْمُنَازَعِينَ وَالْمُشَاغِبِينَ لِأَنَّ الْمِصْرَ الَّذِي يَكُونُ فِي نَوَاحِيهِمْ رُبَّمَا  
 يَكُونُ مَلْجَأً لِمَنْ يَرُومُ مَنَازِعَتَهُمْ وَالْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ وَاتِّزَاعَ ذَلِكَ الْمَلِكِ الَّذِي سَمُوا  
 إِلَيْهِ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَيَعْتَصِمُ بِذَلِكَ الْمِصْرِ وَيُعَالِبُهُمْ وَمُعَالِبَةُ الْمِصْرِ عَلَى نَهَائِيَةٍ مِنْ  
 الصُّعُوبَةِ وَالْمَشَقَّةِ وَالْمِصْرُ يَقُومُ مَقَامَ الْعَسَاكِرِ الْمُتَعَدِّدَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِمْتِنَاعِ  
 وَنِكَايَةِ<sup>(١)</sup> الْحَرْبِ مِنْ وَرَاءِ الْجُدْرَانِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى كَثِيرِ عَدَدٍ وَلَا عَظِيمِ شَوْكَةٍ  
 لِأَنَّ الشَّوْكََةَ وَالْعِصَابَةَ إِنَّمَا اِحْتِيجَ إِلَيْهِمَا فِي الْحَرْبِ لِلثَّبَاتِ لِمَا يَقَعُ مِنْ بَعْدِ كَرَّةِ  
 الْقَوْمِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ عِنْدَ الْجَوْلَةِ وَثَبَاتِ هَوْلَاءِ بِالْجُدْرَانِ فَلَا يَضْطَرُّونَ إِلَى كَثِيرِ  
 عِصَابِيَةٍ وَلَا عَدَدٍ فَيَكُونُ حَالُ هَذَا الْحِصْنِ وَمَنْ يَعْتَصِمُ بِهِ مِنَ الْمُنَازَعِينَ مِمَّا يَفْتُ  
 فِي عَضِدِ<sup>(٢)</sup> الْأُمَّةِ الَّتِي تَرُومُ الْإِسْتِيْلَاءَ وَيَخْضُدُ شَوْكََةَ اسْتِيْلَائِهَا فَإِذَا كَانَتْ بَيْنَ

(١) نكيت في العدو : أي هزيمته وغلبته ( لسان العرب ) .

(٢) فت في عضده : كسر قوته وفرق عنه أعدائه ( قاموس ) .

أَجْنَابِهِمْ أَمْصَارَ أَنْتَظَمُوهَا فِي اسْتِيْلَائِهِمْ لِلْأَمْنِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْإِنْخِرَامِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ  
هُنَاكَ مِصْرٌ اسْتَحْدَثُوهُ ضَرُورَةً لِتَكْمِيلِ عُمْرَانِهِمْ أَوَّلًا وَحَطَّ أَثْقَالِهِمْ وَلِيَكُونَ شَجَاً فِي  
حَلْقٍ مَنْ يَرُومُ الْعِزَّةَ وَالْإِمْتِنَاعَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَوَائِفِهِمْ وَعَصَائِبِهِمْ فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمُلْكَ يَدْعُو  
إِلَى نَزُولِ الْأَمْصَارِ وَالْإِسْتِيْلَاءِ عَلَيْهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ  
سِوَاهُ .

### الفصل الثالث

في أن المدن العظيمة والهيكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير

قَدْ قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي آثَارِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْمَبَانِي وَغَيْرِهَا وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا  
وَذَلِكَ أَنَّ تَشْيِيدَ الْمُدُنِ إِنَّمَا يَحْضُلُ بِاجْتِمَاعِ الْفَعْلَةِ وَكَثْرَتِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ فَإِذَا كَانَتْ  
الدَّوْلَةُ عَظِيمَةً مُتَّسِعَةً الْمَمَالِكِ حُشِرَ الْفَعْلَةُ مِنْ أَقْطَارِهَا وَجُمِعَتْ أَيْدِيهِمْ عَلَى عَمَلِهَا  
وَرُبَّمَا اسْتَعِينُ فِي ذَلِكَ فِي أَكْثَرِ الْأُمُرِ بِالْهِنْدَامِ الَّذِي يُضَاعَفُ الْقَوِيُّ وَالْقَدْرُ فِي حَمْلِ  
أَثْقَالِ الْبِنَاءِ لِعَجْزِ الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ وَضَعْفِهَا عَنْ ذَلِكَ كَالْمَخَالِ<sup>(١)</sup> وَغَيْرِهِ وَرُبَّمَا يَتَوَهَّمُ  
كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا نَظَرَ إِلَى آثَارِ الْأَقْدَمِينَ وَمَصَانِعِهِمُ الْعَظِيمَةِ مِثْلَ إِيْوَانِ كِسْرَى  
وَأَهْرَامِ مِصْرَ وَحَنَايَا الْمُعَلَّقَةِ وَشُرْشَالِ بِالْمَغْرِبِ إِنَّمَا كَانَتْ بِقُدْرِهِمْ مَتَفَرِّقِينَ أَوْ  
مُجْتَمِعِينَ فَيَتَخَيَّلُ لَهُمْ أَجْسَامًا تَنَاسِبُ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ بِكَثِيرٍ فِي طُولِهَا وَقُدْرَتِهَا  
لِتَنَاسِبِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقُدْرِ الَّتِي صَدَرَتْ تِلْكَ الْمَبَانِي عَنْهَا وَيُعْفَلُ عَنْ شَأْنِ الْهِنْدَامِ  
وَالْمَخَالِ وَمَا اقْتَضَتْهُ فِي ذَلِكَ الصَّنَاعَةُ الْهِنْدَسِيَّةُ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُتَغَلِّبِينَ فِي الْبِلَادِ  
يُعَايِنُ فِي شَأْنِ الْبِنَاءِ وَاسْتِعْمَالِ الْحَيْلِ فِي تَقْلِ الْأَجْرَامِ عِنْدَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الْمُعْتَنِينَ  
بِذَلِكَ مِنَ الْعَجْمِ مَا يَشْهَدُ لَهُ بِمَا قُلْنَا عَيْنًا وَأَكْثَرُ آثَارِ الْأَقْدَمِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَسْمِيهَا

(١) لم نعر على هذه الكلمة في القاموس ولا في لسان العرب . والمعروف المخل وهو آلة حديدية تستعمل

لرفع الحجارة .

الْعَامَّةُ عَادَاتِهِ نِسْبَةً إِلَى قَوْمِ عَادٍ لِتَوْهُمِهِمْ أَنْ مَبَانِي عَادٍ وَمَصَانِعِهِمْ إِنَّمَا عَظُمَتْ لِعَظَمِ  
 أَجْسَامِهِمْ وَتَضَاعَفَ قُدْرَتُهُمْ . وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَقَدْ نَجَدُ آثَارًا كَثِيرَةً مِنْ آثَارِ الَّذِينَ  
 تُعْرَفُ مَقَادِيرُ أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْأَمَمِ وَهِيَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْعِظْمِ أَوْ أَعْظَمَ كَأَيَّوَانِ كِسْرَى  
 وَمَبَانِي الْعُبَيْدِيِّينَ مِنَ الشَّيْعَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَالصُّنْهَاجِيِّينَ وَأَثَرُهُمْ بَادٍ إِلَى الْيَوْمِ فِي  
 صَوْمَعَةٍ قَلْعَةٍ بَنَى حَمَادٌ وَكَذَلِكَ بِنَاءُ الْأَغَالِبَةِ فِي جَامِعِ الْقَيْرَوَانَ وَبِنَاءُ الْمُوَحِّدِينَ  
 فِي رَبَاطِ الْفَتْحِ وَرَبَاطِ السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ لِعَهْدِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْمَنْصُورَةِ بِإِزَاءِ  
 تَلْمَسَانَ وَكَذَلِكَ الْخَنَائِيَا الَّتِي جَلَبَ إِلَيْهَا أَهْلُ قَرْطَاجَنَةَ الْمَاءِ فِي الْفَنَاءِ الرَّاكِبَةِ  
 عَلَيْهَا مَائِلَةٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَبَانِي وَالنَّيَاكِلِ الَّتِي تَقَلَّتْ إِلَيْنَا أَخْبَارُ أَهْلِهَا  
 قَرِيبًا وَبَعِيدًا وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بِإِفْرَاطٍ فِي مَقَادِيرِ أَجْسَامِهِمْ وَإِنَّمَا هَذَا رَأْيٌ وَلَعَّ  
 بِهِ الْقَضَاصُ عَنْ قَوْمِ عَادٍ وَثُمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ . وَنَجَدُ بَيُوتَ ثُمُودَ فِي الْحَجَرِ مَنْحُوْتَةً إِلَى  
 هَذَا الْعَهْدِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهَا بَيُوتُهُمْ يَمُرُّ بِهَا الرُّكْبُ الْحَجَازِيُّ  
 أَكْثَرَ السَّنِينَ وَيَشَاهِدُونَهَا لَا تَزِيدُ فِي جَوْهَا وَمَسَاحَتِهَا وَسَمَكِهَا عَلَى الْمُتَعَاهِدِ وَإِنَّهُمْ  
 لَيُبَالِغُونَ فِيهَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَزْعُمُونَ أَنَّ عَوْجَ بَنِ عَنَاقٍ مِنْ جَبَلِ  
 الْعَمَالِقَةِ كَانَ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ مِنَ الْبَحْرِ طَرِيئًا فَيَشْوِيهِ فِي الشَّمْسِ يَزْعُمُونَ بِذَلِكَ  
 أَنَّ الشَّمْسَ حَارَّةٌ فِيمَا قَرَبَ مِنْهَا وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْحَرَّ فِيمَا لَدَيْنَا هُوَ الضَّوُّ  
 لِأَنعَكَاسِ الشَّعَاعِ بِمُقَابَلَةِ سَطْحِ الْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ وَأَمَّا الشَّمْسُ فِي نَفْسِهَا فَغَيْرُ حَارَّةٍ  
 وَلَا بَارِدَةٍ وَإِنَّمَا هِيَ كَوْكَبٌ مُضِيءٌ لَا مِرَاجَ لَهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا فِي الْفَضْلِ  
 الثَّانِي حَيْثُ ذَكَرْنَا أَنَّ آثَارَ الدَّوْلَةِ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّتِهَا فِي أَصْلِهَا . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ  
 وَيُحْكِمُ مَا يُرِيدُ .

## الفصل الرابع

في أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقل بناؤها الدولة الواحدة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَاجَةِ الْبِنَاءِ إِلَى التَّعَاوُنِ وَمُضَاعَفَةِ الْقَدْرِ  
الْبَشَرِيَّةِ وَقَدْ تَكُونُ الْمَبَانِي فِي عَظِيمِهَا أَكْثَرَ مِنَ الْقَدْرِ مُفْرَدَةً أَوْ مُضَاعَفَةً بِالْهِنْدَامِ  
كَمَا قُلْنَا فِيحْتَاجُ إِلَى مُعَاوَدَةِ قَدْرٍ أُخْرَى مِثْلَهَا فِي أَرْزَمِيَّةٍ مُتَعَايِبَةٍ إِلَى أَنْ تَتِمَّ .  
فَيَبْتَدِءُ الْأَوَّلُ مِنْهُمْ بِالْبِنَاءِ ، وَيَعْقِبُهُ الثَّانِي وَالثَّلَاثُ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ  
اسْتَكْمَلَ شَأْنَهُ فِي حَشْرِ الْفَعْلَةِ وَجَمْعِ الْأَيْدِي حَتَّى يَتِمَّ الْقَضُ مِنْ ذَلِكَ وَيَكْمُلُ  
وَيَكُونُ مَثِلاً لِلْعِيَانِ يَظُنُّهُ مَنْ يَرَاهُ مِنَ الْآخِرِينَ أَنَّهُ بِنَاءُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ . وَانظُرْ فِي  
ذَلِكَ مَا تَقْلَهُ الْمُؤَرِّخُونَ فِي بِنَاءِ سَدِّ مَارَبَ وَأَنَّ الَّذِي بَنَاهُ سَبَأُ بْنُ يَشْجَبَ وَسَاقَ  
إِلَيْهِ سَبْعِينَ وَاذِيًا وَعَاقَهُ الْمَوْتُ عَنْ إِتْمَامِهِ فَاتَمَّهُ مُلُوكُ حِمِيرٍ مِنْ بَعْدِهِ وَمِثْلُ هَذَا  
مَا تَقِلُ فِي بِنَاءِ قَرْطَاجِنَةَ وَقَنَاتِهَا الرَّاكِبَةِ عَلَى الْحَنَائِي الْعَادِيَّةِ وَأَكْثَرُ الْمَبَانِي  
الْعَظِيمَةِ فِي الْعَالَمِ هَذَا شَأْنُهَا وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةَ لِعَهْدِنَا نَجِدُ الْمَلِكِ  
الْوَّاحِدَ يَشْرَعُ فِي اخْتِطَاطِهَا وَتَأْسِيسِهَا فَإِذَا لَمْ يَتَّبِعْ أَثَرَهُ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْمُلُوكِ فِي  
إِتْمَامِهَا بَقِيَتْ بِحَالِهَا وَلَمْ يَكْمُلِ الْقَضُ فِيهَا . وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ أَيْضًا أَنَّا نَجِدُ آثَارَ  
كَثِيرَةً مِنَ الْمَبَانِي الْعَظِيمَةِ تَفْجُرُ الدُّوَلُ عَنْ هَدْمِهَا وَتَخْرِيْبِهَا مَعَ أَنَّ الْهَدْمَ أَيْسَرَ مِنَ  
الْبِنَاءِ بِكَثِيرٍ لِأَنَّ الْهَدْمَ رُجُوعٌ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ الْعَدَمُ وَالْبِنَاءُ عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ .  
فَإِذَا وَجَدْنَا بِنَاءً تَضَعُفُ قُوَّتُنَا الْبَشَرِيَّةُ عَنْ هَدْمِهِ مَعَ سُهُولَةِ الْهَدْمِ عَلِمْنَا أَنَّ الْقُدْرَةَ  
الَّتِي أَسَّسَتْهُ مُفْرَطَةُ الْقُوَّةِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ أَثَرُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهَذَا مِثْلُ مَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ فِي  
إِيْوَانَ كِسْرَى لَمَّا اعْتَزَمَ الرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَبَعَثَ إِلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ فِي  
مَحْبَسِهِ يُسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَفْعَلْ وَاتْرُكْهُ مَثِلاً يُسْتَدَلُّ بِهِ

عَلَى عِظَمِ مُلْكِ آبَائِكَ الَّذِينَ سَلَبُوا الْمُلْكَ لِأَهْلِ ذَلِكَ الْهَيْكَلِ فَاتَّهَمَهُ فِي النَّصِيحَةِ  
 وَقَالَ أَخَذْتَهُ النُّعْرَةَ لِلْعَجَمِ وَاللَّهُ لِأَضْرَعْنَهُ وَشَرَعَ فِي هَدْمِهِ وَجَمَعَ الْأَيْدِي عَلَيْهِ وَاتَّخَذَ  
 لَهُ الْفُؤُسَ وَحَمَاهُ بِالنَّارِ وَصَبَّ عَلَيْهِ الْخَلَّ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَجْزُ بَعْدَ ذَلِكَ كَلَّمَهُ  
 وَخَافَ الْفَضِيحَةَ بَعَثَ إِلَى يَحْيَى يَسْتَشِيرُهُ ثَانِيًا فِي التَّجَافِي عَنِ الْهَدْمِ فَقَالَ لَا تَفْعَلْ  
 وَاسْتَمَرَ عَلَى ذَلِكَ لِيَلَّا يُقَالَ عَجَزَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَلِكُ الْعَرَبِ عَنْ هَدْمِ مَصْنَعٍ مِنْ  
 مَصْنَعِ الْعَجَمِ فَعَرَفَهَا الرَّشِيدُ وَأَقْصَرَ عَنْ هَدْمِهِ وَكَذَلِكَ اتَّفَقَ لِلْمَأْمُونِ فِي هَدْمِ الْأَهْرَامِ  
 الَّتِي بِبِضْرٍ وَجَمَعَ الْفَعْلَةَ لِهَدْمِهَا فَلَمْ يَحُلْ بِطَائِلٍ وَشَرَعُوا فِي نَقْبِهِ فَانْتَهَوْا إِلَى جَوْ  
 بَيْنَ الْحَائِطِ وَالظَّاهِرِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْحَيْطَانِ وَهَذَا كَانَ مُنْتَهَى هَدْمِهِمْ وَهُوَ إِلَى  
 الْيَوْمِ فِيمَا يُقَالُ مَنْفَذٌ ظَاهِرٌ وَيَزْعَمُ الزَّاعِمُونَ أَنَّهُ وَجَدَ رِكَازًا بَيْنَ تِلْكَ الْحَيْطَانِ  
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَكَذَلِكَ حَنَايَا الْمُعَلَّقَةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ تَحْتَاجُ أَهْلَ مَدِينَةِ تُونِسَ إِلَى  
 انْتِخَابِ الْحِجَارَةِ لِإِنْبَائِهِمْ وَتَسْتَجِيدُ الصَّنَاعُ حِجَارَةَ تِلْكَ الْحَنَايَا فَيَحَاوِلُونَ عَلَى  
 هَدْمِهَا الْأَيَّامَ الْعَدِيدَةَ وَلَا يَسْقُطُ الصَّغِيرُ مِنْ جُدْرَانِهَا إِلَّا بَعْدَ عَضِّ الرِّيقِ وَتَجْتَمِعُ  
 لَهُ الْمَخَافِلُ الْمَشْهُورَةُ شَهِدَتْ مِنْهَا فِي أَيَّامِ صِبَايَ كَثِيرًا « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا  
 تَعْلَمُونَ » .

## الفصل الخامس

فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن المراعاة  
 إعلم أن المَدْنَ قَرَارٌ يَتَّخِذُهُ الْأُمَّمُ عِنْدَ حُصُولِ الْعَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنَ التَّرْفِ  
 وَدَوَاعِيهِ فَتَوَثَّرُ الدَّعَاةُ وَالسُّكُونُ وَتَتَوَجَّهُ إِلَى اتِّخَاذِ الْمَنَازِلِ لِلْقَرَارِ وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ  
 الْقَرَارُ وَالْمَأْوَى وَجِبَ أَنْ يُرَاعَى فِيهِ دَفْعُ الْمَضَارِّ بِالْحِمَايَةِ مِنْ طَوَارِقِهَا وَجَلَبُ  
 الْمَنَافِعِ وَتَسْهِيلُ الْمَرَافِقِ لَهَا فَأَمَّا الْحِمَايَةُ مِنَ الْمَضَارِّ فَيُرَاعَى لَهَا أَنْ يُدَارَ عَلَى



مَنَازِلَهَا جَمِيعاً سِيَاحُ الْأَسْوَارِ وَأَنْ يَكُونَ وَضَعُ ذَلِكَ فِي مَتَمَّنَجٍ مِنَ الْأَمَكِنَةِ إِمَّا عَلَى هَضْبَةٍ مُتَوَعَّرَةٍ مِنَ الْجَبَلِ وَإِمَّا بِاسْتِدَارَةِ بَحْرِ أَوْ نَهْرٍ بِهَا حَتَّى لَا يُوَصَّلَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ الْعُبُورِ عَلَى جِسْرِ أَوْ قَنْطَرَةٍ فَيُضَعَبُ مَنَازِلُهَا عَلَى الْعَدُوِّ وَيَتَضَاعَفُ امْتِنَاعُهَا وَحُصْنُهَا . وَمِمَّا يُرَاعَى فِي ذَلِكَ لِلْحِمَايَةِ مِنَ الْأَفَاتِ السَّمَاوِيَّةِ طَيْبُ الْهَوَاءِ لِلسَّلَامَةِ مِنَ الْأَمْرَاضِ . فَإِنَّ الْهَوَاءَ إِذَا كَانَ رَاكِداً خَبِيثاً أَوْ مُجَاوِراً لِلْمِيَاهِ الْفَاسِدَةِ أَوْ مَنَافِعٍ <sup>(١)</sup> مُعَفَّنَةٍ أَوْ مُرُوجٍ خَبِيثَةٍ أَسْرَعَ إِلَيْهَا الْعَفْنُ مِنْ مُجَاوِرَتِهَا فَأَسْرَعَ الْمَرَضُ لِلْحَيَوَانَ الْكَثَائِنِ فِيهِ لَا مَحَالَةَ وَهَذَا مُشَاهَدٌ . وَالْمُدُنُ الَّتِي لَمْ يُرَاعَ فِيهَا طَيْبُ الْهَوَاءِ كَثِيرَةٌ الْأَمْرَاضُ فِي الْغَالِبِ . وَقَدْ اشْتَهَرَ بِذَلِكَ فِي قَطْرِ الْمَغْرِبِ بَلَدُ قَابِسَ مِنْ بِلَادِ الْجَرِيدِ بِأَفْرِيْقِيَّةٍ فَلَا يَكَادُ سَاكِنُهَا أَوْ طَارِقُهَا يَخْلُصُ مِنْ حُمَى الْعَفْنِ بِوَجْهِهِ . وَلَقَدْ يُقَالُ إِنْ ذَلِكَ حَدِثَ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلِ وَنَقَلَ الْبُكْرِيُّ فِي سَبَبِ حَدُوثِهِ أَنَّهُ وَقَعَ فِيهَا حَفْرٌ ظَهَرَ فِيهِ إِنْاءٌ مِنْ نَحَاسٍ مَخْتُومٌ بِالرُّصَاصِ . فَلَمَّا فَضَّ خِتَامُهُ صَعِدَ مِنْهُ دُخَانٌ إِلَى الْجَوْ وَانْقَطَعَ . وَكَانَ ذَلِكَ مَبْدَأَ أَمْرَاضِ الْحُمِيَّاتِ فِيهِ وَأَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ الْإِنْاءَ كَانَ مُشْتَمِلاً عَلَى بَعْضِ أَعْمَالِ الطَّلَسْمَاتِ لَوَبَائِهِ وَأَنَّهُ ذَهَبَ سِرُّهُ بِذَهَابِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهَا الْعَفْنُ وَالْوَبَاءُ . وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ مِنْ مَذَاهِبِ الْعَامَّةِ وَمَبَاجِثِهِمِ الرُّكِيكَةِ وَالْبُكْرِيُّ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَبَاهَةِ الْعِلْمِ وَاسْتِنَارَةِ الْبَصِيرَةِ بِحَيْثُ يَدْفَعُ مِثْلَ هَذَا أَوْ يَتَبَيَّنُ خَرَفَهُ فَنَقَلَهُ كَمَا سَمِعَهُ . وَالَّذِي يَكْشِفُ لَكَ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَهْوِيَّةَ الْعَفْنَةَ أَكْثَرَ مَا يُبْهِئُهَا لِتَغْفِيهِنِ الْأَجْسَامُ وَأَمْرَاضِ الْحُمِيَّاتِ رُكُودُهَا . فَإِذَا تَخَلَّلَتْهَا الرِّيْحُ وَتَفَشَّتْ وَذَهَبَتْ بِهَا يَمِيناً وَشَمَالاً خَفَّ شَأْنُ الْعَفْنِ وَالْمَرَضِ الْبَادِي مِنْهَا لِلْحَيَوَانَاتِ . وَالْبَلَدُ إِذَا كَانَ كَثِيرَ السَّاكِنِ وَكَثُرَتْ حَرَكَاتُ أَهْلِهِ فَيَتَمَوَّجُ الْهَوَاءُ ضَرُورَةً وَتَحْدُثُ الرِّيْحُ الْمُتَخَلِّلَةُ لِلْهَوَاءِ الرَّاكِدِ وَيَكُونُ ذَلِكَ مُعِيناً لَهُ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالتَّمَوُّجِ وَإِذَا خَفَّ السَّاكِنُ لَمْ يَجِدِ الْهَوَاءَ مُعِيناً عَلَى حَرَكَتِهِ وَتَمَوُّجِهِ وَبَقِيَ سَاكِناً رَاكِداً وَعَظُمَ عَفْنُهُ وَكَثُرَ ضَرَرُهُ . وَبَلَدُ قَابِسَ هَذِهِ كَانَتْ عِنْدَمَا كَانَتْ أَفْرِيْقِيَّةً

(١) جمع منقوع ، موضع منخفض قليلاً تتجمع فيه المياه فتتحول إلى مستنقع .

مُسْتَجِدَّةُ الْعُمَرَانِ كَثِيرَةَ السَّاكِنِ تَمْوُجُ بِأَهْلِهَا مَوْجًا فَكَانَ ذَلِكَ مُعِينًا عَلَى تَمْوُجِ  
النَّهْوِ وَأَضْطِرَابِهِ وَتَخْفِيفِ الْأَذَى مِنْهُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا كَثِيرُ عَفْنٍ وَلَا مَرَضٍ وَعِنْدَمَا  
خَفَّ سَاكِنُهَا رَكَدَ هَوَاؤُهَا الْمُتَعَفِّنُ بِفَسَادِ مِيَاهِهَا فَكَثُرَ الْعَفْنُ وَالْمَرَضُ . فَهَذَا وَجْهُهُ  
لَا غَيْرُ . وَقَدْ رَأَيْنَا عَكْسَ ذَلِكَ فِي بِلَادٍ وَضَعَتْ وَلَمْ يَرَاعَ فِيهَا طَيْبُ النَّهْوِ وَكَانَتْ  
أَوَّلًا قَلِيلَةَ السَّاكِنِ فَكَانَتْ أَمْرَاضَهَا كَثِيرَةً فَلَمَّا كَثُرَ سَكَّانُهَا انْتَقَلَ حَالُهَا عَنْ ذَلِكَ  
وَهَذَا مِثْلُ دَارِ الْمَلِكِ بِفَاسٍ لِهَذَا الْعَهْدِ الْمُسَمَّى بِالْبَلَدِ الْجَدِيدِ وَكَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ فِي  
العَالَمِ فَتَفَهَّمْهُ تَجِدَ مَا قُلْتُهُ لَكَ . وَأَمَّا جَلْبُ الْمَنَافِعِ وَالْمَرَافِقِ لِلْبَلَدِ فَيُرَاعَى فِيهِ أُمُورٌ  
مِنْهَا الْمَاءُ بِأَنْ يَكُونَ الْبَلَدُ عَلَى نَهْرٍ أَوْ بِإِرَائِهَا عِيُونَ عَذْبَةٌ ثَرَّةٌ فَإِنْ وُجِدَ الْمَاءُ  
قَرِيبًا مِنَ الْبَلَدِ يُسَهَّلُ عَلَى السَّاكِنِ حَاجَةَ الْمَاءِ وَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ فَيَكُونُ لَهُمْ فِي وُجُودِهِ  
مَرْفَقَةٌ عَظِيمَةٌ عَامَّةٌ . وَمِمَّا يُرَاعَى مِنَ الْمَرَافِقِ فِي الْمَدِينِ طَيْبُ الْمَرَاعِي لِسَائِمَتِهِمْ إِذْ  
صَاحِبُ كُلِّ قَرَارٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ دَوْجِنِ الْحَيَوَانَ لِلنَّتَاجِ وَالضَّرْعِ وَالرُّكُوبِ وَلَا بُدَّ لَهَا  
مِنَ الْمَرَاعِي فَإِذَا كَانَ قَرِيبًا طَيِّبًا كَانَ ذَلِكَ أَرْفَقَ بِحَالِهِمْ لِمَا يِعَانُونَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي  
بُعْدِهِ وَمِمَّا يُرَاعَى أَيْضًا الْمَرَاعُ فَإِنَّ الزُّرُوعَ هِيَ الْأَقْوَاتُ . فَإِذَا كَانَتْ مَرَاعُ الْبَلَدِ  
بِالْقُرْبِ مِنْهَا كَانَ ذَلِكَ أَسْهَلَ فِي اتِّخَاذِهِ وَأَقْرَبَ فِي تَحْصِيلِهِ وَمِنْ ذَلِكَ الشَّجَرُ  
لِلْحَطْبِ وَالْبِنَاءِ فَإِنَّ الْحَطْبَ مِمَّا تَعْمُ الْبُلُوعُ فِي اتِّخَاذِهِ لِقُودِ النَّيْرَانِ لِلِاصْطِلَاءِ  
وَالطَّبِيخِ . وَالخَشَبُ أَيْضًا ضَرُورِيٌّ لِسَقْفِهِمْ وَكَثِيرٌ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ الخَشَبُ مِنْ  
ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَقَدْ يُرَاعَى أَيْضًا قُرْبُهَا مِنَ الْبَحْرِ لِتَسْهِيلِ الْحَاجَاتِ الْقَاصِيَةِ مِنَ الْبِلَادِ  
النَّائِيَةِ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ الْأَوَّلِ وَهَذِهِ كُلُّهَا مُتَّفَاوِتَةٌ بِتَفَاوُتِ الْحَاجَاتِ وَمَا  
تَدْعُو إِلَيْهِ ضَرُورَةُ السَّاكِنِ . وَقَدْ يَكُونُ الْوَاضِعُ غَافِلًا عَنْ حُسْنِ الْإِخْتِيَارِ الطَّبِيعِيِّ أَوْ  
إِنَّمَا يُرَاعِي مَا هُوَ أَهْمٌ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ . وَلَا يَذْكُرُ حَاجَةَ غَيْرِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ الْعَرَبُ  
لِأَوَّلِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَدِينِ الَّتِي اخْتَطَبُوهَا بِالْعِرَاقِ وَأَفْرِيقِيَّةَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَرَاعُوا فِيهَا إِلَّا  
الْأَهْمَ عِنْدَهُمْ مِنْ مَرَاعِي الْإِبْلِ وَمَا يَضِلُّ لَهَا مِنَ الشَّجَرِ وَالْمَاءِ الْمِلْحِ وَلَمْ يَرَاعُوا  
الْمَاءَ وَلَا الْمَرَاعَ وَلَا الْحَطْبَ وَلَا مَرَاعِي السَّائِمَةِ مِنْ ذَوَاتِ الظَّنْفِ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ

كَالْقَيْرَوَانَ وَالْكُوفَةَ وَالْبَصْرَةَ وَأَمْثَالِهَا وَلِهَذَا كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْخَرَابِ مَا لَمْ تُرَاعَ فِيهَا  
الْأُمُورَ الطَّبِيعِيَّةَ .

وَمِمَّا يُرَاعَى فِي الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي عَلَى الْبَحْرِ أَنْ تَكُونَ فِي جَبَلٍ أَوْ تَكُونَ  
بَيْنَ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَّمِ مَوْفُورَةَ الْعَدَدِ تَكُونَ صَرِيحاً لِلْمَدِينَةِ مَتَى طَرَقَهَا طَارِقٌ مِنْ  
الْعَدُوِّ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ وَلَمْ يَكُنْ يَسَاحَتِهَا  
عَمْرَانٌ لِلْقَبَائِلِ أَهْلِ الْعَصِيَّاتِ وَلَا مَوْضِعَهَا مُتَوَعَّرٌ مِنَ الْجَبَلِ كَانَتْ فِي غَزَّةٍ لِلْبَنِيَّاتِ  
وَسَهْلٍ طُرُوقَهَا فِي الْأَسَاطِيلِ الْبَحْرِيَّةِ عَلَى عَدُوِّهَا وَتَخِيفُهُ لَهَا لِمَا يَأْتِي مِنْ وُجُودِ  
الصَّرِيخِ لَهَا . وَأَنَّ الْحَضَرَ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلدَّعَةِ قَدْ صَارُوا عِيَالاً وَخَرَجُوا عَنْ حُكْمِ  
الْمُقَاتَلَةِ . وَهَذِهِ كَالِإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَطَرَابُلُسَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَبُونَةَ وَسَلَا .  
وَمَتَى كَانَتْ الْقَبَائِلُ وَالْعَصَائِبُ مُوْطِنِينَ بِقُرْبِهَا بِحَيْثُ يَبْلُغُهُمُ الصَّرِيخُ وَالنَّعِيرُ  
وَكَانَتْ مُتَوَعَّرَةً الْمَسَالِكِ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا بِاخْتِطَاطِهَا فِي هَضَابِ الْجِبَالِ وَعَلَى  
أَسْنِمَتِهَا كَانَ لَهَا بِذَلِكَ مَنَعَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ وَيَسُّوا مِنْ طُرُوقِهَا لِمَا يُكَابِدُونَهُ مِنْ  
وَعْرِهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ إِجَابَةِ صَرِيخِهَا كَمَا فِي سِنْتَةِ وَبِجَايَةِ وَبَلَدِ الْقَلِّ عَلَى  
صِغَرِهَا فَأَفْهَمَ ذَلِكَ وَاعْتَبَرَهُ فِي اخْتِصَاصِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بِاسْمِ الشُّغْرِ مِنْ لُدُنِ الدَّوْلَةِ  
الْعَبَّاسِيَّةِ مَعَ أَنَّ الدَّعْوَةَ مِنْ وَرَائِهَا بِبَرْقَةٍ وَأَفْرِيْقِيَّةٍ . وَإِنَّمَا اغْتَبِرَ فِي ذَلِكَ الْمَخَافَةَ  
الْمَتَوَقَّعَةَ فِيهَا مِنَ الْبَحْرِ لِسُهُولَةِ وَضْعِهَا وَلِذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ كَانَ طُرُوقُ الْعَدُوِّ  
لِلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَطَرَابُلُسَ فِي الْمِلَّةِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

## الفصل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

إِغْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَضْلَ مِنَ الْأَرْضِ بِقَاعاً اخْتَصَّهَا بِتَشْرِيفِهِ وَجَعَلَهَا  
مَوَاطِنَ لِعِبَادَتِهِ يُضَاعَفُ فِيهَا الثَّوَابُ وَيَنْمُو بِهَا الْأَجُورُ وَأَخْبَرْنَا بِذَلِكَ عَلَى أَلْسِنِ

رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ لُطْفًا بِعِبَادِهِ وَتَسْهِيلًا لَطَرِيقِ السَّعَادَةِ لَهُمْ . وَكَانَتِ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَفْضَلُ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَسَبًا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِينَ وَهِيَ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ . أَمَّا الْبَيْتُ الْحَرَامُ الَّذِي بِمَكَّةَ فَهُوَ بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ . أَمَرَهُ اللَّهُ بِبِنَائِهِ وَأَنْ يُؤَدِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ إِلَيْهِ فَبَنَاهُ هُوَ وَابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ كَمَا نَصَّهُ الْقُرْآنُ وَقَامَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ فِيهِ وَسَكَنَ إِسْمَاعِيلُ بِهِ مَعَ هَاجِرَ وَمَنْ نَزَلَ مَعَهُمْ مِنْ جُرْهُمَ إِلَى أَنْ قَبَضَهُمَا اللَّهُ وَدَفَنَاهُمَا بِالْحَجَرِ <sup>(١)</sup> مِنْهُ . وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ بَنَاهُ دَاوُدُ وَسَلَيْمَانُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . أَمَرَهُمَا اللَّهُ بِبِنَاءِ مَسْجِدِهِ وَنَصَبِ هَيْكَلِهِ وَدَفِنِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ وَلَدِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوَالِيهِ . وَالْمَدِينَةُ مَهَاجِرُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا وَإِقَامَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ بِهَا فَبَنَى مَسْجِدَهُ الْحَرَامَ بِهَا وَكَانَ مَلْحَدُهُ الشَّرِيفُ فِي تَرْبَتِهَا فَهَذِهِ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ قَرَّةٌ عَيْنِ الْمُسْلِمِينَ وَمَهْوَى أَفْئِدَتِهِمْ وَعَظْمَةٌ دِينِهِمْ وَفِي الْأَثَارِ مِنْ فَضْلِهَا وَمُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ فِي مَجَاوِرَتِهَا وَالصَّلَاةِ فِيهَا كَثِيرٌ مَعْرُوفٌ فَلَنْشُرَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْخَبَرِ عَنْ أَوْلِيَّةِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ وَكَيْفَ تَدْرَجَتْ أَحْوَالُهَا إِلَى أَنْ كَمُلَ ظُهُورُهَا فِي الْعَالَمِ . فَأَمَّا مَكَّةُ فَأَوْلَيْتِهَا فِيمَا يُقَالُ أَنَّ آدَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بَنَاهَا قِبَالَةَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ثُمَّ هَدَمَهَا الطُّوفَانُ بَعْدَ ذَلِكَ وَلَيْسَ فِيهِ خَبَرٌ صَحِيحٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ . وَإِنَّمَا اقْتَبَسُوهُ مِنْ مَخْمَلِ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ » ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ وَشَأْنِ زَوْجَتِهِ سَارَةَ وَغَيْرَتِهَا مِنْ هَاجِرَ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَ ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ هَاجِرَ بِالْفَلَاةِ فَوَضَعَهُمَا فِي مَكَانِ الْبَيْتِ وَسَارَ عَنْهُمَا وَكَيْفَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمَا مِنَ اللَّطْفِ فِي نَعْمِ مَاءِ زَمْزَمَ وَمُرُورِ الرُّفْقَةِ مِنْ جُرْهُمَ بِهَا حَتَّى احْتَمَلُوهُمَا وَسَكَنُوا إِلَيْهِمَا وَنَزَلُوا مَعَهُمَا حَوَالِي زَمْزَمَ كَمَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ فَاتَّخَذَ إِسْمَاعِيلُ بِمَوْضِعِ الْكَعْبَةِ بَيْتًا يَاوِي إِلَيْهِ وَأَدَارَ عَلَيْهِ سِيَاجًا مِنَ الرُّدْمِ وَجَعَلَهُ زَرْبًا <sup>(٢)</sup> لِنَعْمِهِ وَجَاءَ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ مَرَارًا لِنِزَارَتِهِ مِنَ الشَّامِ

(١) الكعبة . وقال ابن الأثير لمن الحجر هو الحائط المستدير إلى جانب الكعبة الغربي .

(٢) زربية المواشي .

أَمَرَ فِي آخِرِهَا بِنَاءَ الْكَعْبَةِ مَكَانَ ذَلِكَ الزَّرْبِ فَبَنَاهُ وَاسْتَعَانَ فِيهِ بِإِبْنِهِ إِسْمَاعِيلَ  
وَدَعَا النَّاسَ إِلَى حَجِّهِ وَبَقِيَ إِسْمَاعِيلُ سَاكِنًا بِهِ وَلَمَّا قَبِضَتْ أُمُّهُ هَاجِرًا وَقَامَ بَنُوهُ مِنْ  
بَعْدِهِ بِأَمْرِ الْبَيْتِ مَعَ أَخْوَالِهِمْ مِنْ جُرْهُمَ ثُمَّ الْعَمَالِيقُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَاسْتَمَرَ الْحَالُ عَلَى  
ذَلِكَ وَالنَّاسُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ أَفْقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ لَا مِنْ بَنِي  
إِسْمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَنَا أَوْ نَأَى فَقَدْ نُقِلَ أَنَّ التَّبَابِعَةَ كَانَتْ تَحُجُّ الْبَيْتَ  
وَتَعْظُمُهُ وَأَنَّ تَبْعًا كَسَاهَا الْمُلَاءُ وَالْوَصَائِلُ وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِهَا وَجَعَلَ لَهَا مِفْتَاحًا .  
وَنُقِلَ أَيْضًا أَنَّ الْفُرْسَ كَانَتْ تَحُجُّهُ وَتَقْرُبُ إِلَيْهِ وَأَنَّ غَزَالِي الذَّهَبِ الَّذِينَ وَجَدَهُمَا  
عِنْدَ الْمُطَلِبِ حِينَ اخْتَفَرَ زَمْرَمَ كَانَا مِنْ قَرَابِيِّنِهِمْ . وَلَمْ يَزَلْ لِحُرْهُمَ الْوِلَايَةُ عَلَيْهِ  
مِنْ بَعْدِ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ قَبْلِ خُوُولَتِهِمْ حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ خِرَاعَةٌ وَأَقَامُوا بِهَا  
بَعْدَهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ كَثُرَ وُلْدُ إِسْمَاعِيلَ وَانْتَشَرُوا وَتَشَعَّبُوا إِلَى كِنَانَةَ ثُمَّ كِنَانَةَ إِلَى  
قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ وَسَاءَتْ وَوَلَايَةُ خِرَاعَةَ فَعَلَبَتْهُمْ قُرَيْشٌ عَلَى أَمْرِهِ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ  
الْبَيْتِ وَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ قَصِيٌّ بِنُ كِلَابِ فَبَنَى الْبَيْتَ وَسَقَفَهُ بِخَشَبِ الدُّومِ  
وَجَرِيدِ النَّخْلِ وَقَالَ الْأَعْمَشِيُّ :

خَلَفْتُ بِثَوْبِي رَاهِبَ الدُّورِ وَالْتَبِي      بَنَاهَا قَصِيٌّ وَالْمِضَاضُ بِنُ جُرْهُمِ  
ثُمَّ أَصَابَ الْبَيْتَ سَيْلٌ وَيُقَالُ حَرِيقٌ وَتَهْدَمُ وَأَعَادُوا بِنَاءَهُ وَجَمَعُوا النَّفْقَةَ لِذَلِكَ  
مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَانْكَسَرَتْ سَفِينَةٌ بِسَاحِلِ جَدَّةَ فَاشْتَرَوْا خَشَبَهَا لِلسَّقْفِ وَكَانَتْ جُدْرَانُهُ  
فَوْقَ الْقَامَةِ فَجَعَلُوهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَكَانَ الْبَابُ لَاصِقًا بِالْأَرْضِ فَجَعَلُوهُ فَوْقَ  
الْقَامَةِ لئَلَّا تَدْخُلَهُ السُّيُولُ وَقَصُرَتْ بِهِمُ النَّفْقَةُ عَنْ إِتْمَامِهِ فَقَصُرُوا عَنْ قَوَاعِيدِهِ وَتَرَكَوْا  
مِنْهُ سِتَّ أَذْرُعٍ وَشِيرًا أَذَارُوهَا بِجِدَارٍ قَصِيرٍ يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ الْحَجَرُ وَبَقِيَ  
الْبَيْتُ عَلَى هَذَا الْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحَصَّنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ وَرَحَفَتْ إِلَيْهِ  
جِيُوشُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ مَعَ الْحَصِينِ بْنِ نُمَيْرِ السُّكُونِيِّ . وَرَمَى الْبَيْتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ  
وَسِتِّينَ فَأَصَابَهُ حَرِيقٌ . يُقَالُ مِنَ النَّفْطِ الَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ فَتَصَدَّعَتْ  
حَيْطَانُهُ فَهَدَمَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ فَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ بَعْدَ أَنْ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ

الصَّحَابَةَ فِي بِنَائِهِ . وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، « لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِكُفْرِ لَرَدَدْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ شَرْقِيًّا وَعَرَبِيًّا » فَهَدَمَهُ وَكَشَفَ عَنْ أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَمَعَ الْوُجُوهَ وَالْأَكَابِرَ حَتَّى عَايَنُوهُ وَأَشَارَ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالتَّحْرِي فِي حِفْظِ الْقِبْلَةِ عَلَى النَّاسِ فَأَدَارَ عَلَى الْأَسَاسِ الْخَشَبَ وَنَصَبَ مِنْ فَوْقِهَا الْأَسْتَارَ <sup>(١)</sup> حِفْظًا لِلْقِبْلَةِ وَبَعَثَ إِلَى صَنْعَاءَ فِي الْفِضَّةِ <sup>(٢)</sup> وَالْكِلْسِ فَحَمَلَهَا . وَسَأَلَ عَنْ مَقْطَعِ الْحِجَارَةِ الْأُولِ فَجَمَعَ مِنْهَا مَا احتَاجَ إِلَيْهِ ثُمَّ شَرَعَ فِي الْبِنَاءِ عَلَى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَفَعَ جُدْرَانَهَا سَبْعًا وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا وَجَعَلَ لَهَا بَابَيْنِ لِاصِقَيْنِ بِالْأَرْضِ كَمَا رَوَى فِي حَدِيثِهِ وَجَعَلَ فَرَشَهَا وَإِزْرَهَا بِالرَّخَامِ وَصَاعَ لَهَا الْمَفَاتِيحَ وَصَفَائِحَ الْأَبْوَابِ مِنَ الذَّهَبِ . ثُمَّ جَاءَ الْحَجَّاجُ لِحِصَارِهِ أَيَّامَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَرَمَى عَلَى الْمَسْجِدِ بِالْمَنْجَنِيقاتِ إِلَى أَنْ تَصَدَّعَتْ حِيطَانُهَا . ثُمَّ لَمَّا ظَفَرَ بَابِنِ الزُّبَيْرِ شَاوَرَ عَبْدِ الْمَلِكِ فِيمَا بَنَاهُ وَزَادَهُ فِي الْبَيْتِ فَأَمَرَهُ بِهِدْمِهِ وَرَدَّ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ قُرَيْشٍ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ . وَيَقَالُ : إِنَّهُ نَدِمَ عَلَى ذَلِكَ حِينَ عَلِمَ صِحَّةَ رِوَايَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ ، وَقَالَ : « وَدَدْتُ أَنِّي كُنْتُ حَمَلْتُ أَبَا حَبِيبٍ فِي أَمْرِ الْبَيْتِ وَبِنَائِهِ مَا تَحْمَلُ » فَهَدَمَ الْحَجَّاجُ مِنْهَا سِتَّ أذْرُعَ وَشِيرًا مَكَانَ الْحَجَرِ وَبَنَاهَا عَلَى أُسَاسِ قُرَيْشٍ وَسَدَّ الْبَابَ الْغَرْبِيَّ وَمَا تَحْتَ عَتَبَةِ بَابِهَا الْيَوْمَ مِنَ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ . وَتَرَكَ سَائِرَهَا لَمْ يُغَيِّرْ مِنْهُ شَيْئًا فَكُلُّ الْبِنَاءِ الَّذِي فِيهِ الْيَوْمَ بِنَاءُ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَبِنَاءُ الْحَجَّاجِ فِي الْحَائِطِ صَلَّةَ ظَاهِرَةَ لِلْعِيَانِ لِحَمَّةَ ظَاهِرَةَ بَيْنَ الْبِنَاءِ نِينَ . وَالْبِنَاءُ مُتَمَيِّزٌ عَنِ الْبِنَاءِ بِمِقْدَارِ إصْبَعٍ شِبْهُ الصُّدْعِ وَقَدْ لِحِمَ . وَيَعْرِضُ هَهُنَا إِشْكَالٌ قَوِيٌّ لِمُنَافَاتِهِ لِمَا يَقُولُهُ الْفُقَهَاءُ فِي أَمْرِ الطَّوَافِ وَيَحْذَرُ الطَّائِفُ أَنْ يَمِيلَ عَلَى الشَّاذِرِوَانِ الدَّائِرِ عَلَى أُسَاسِ الْجُدْرِ مِنْ أَسْفَلِهَا فَيَقَعُ طَوَافُهُ دَاخِلَ الْبَيْتِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْجُدْرَ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَى بَعْضِ الْأَسَاسِ وَتَرَكَ بَعْضَهُ وَهُوَ مَكَانُ الشَّاذِرِوَانِ وَكَذَا قَالُوا فِي تَقْيِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ لَا بُدَّ مِنْ رُجُوعِ الطَّائِفِ مِنَ

(١) فِي النسخة الباريسية : السُتُور .

(٢) فِي النسخة الباريسية : القِضَّةُ وَمَعْنَاهَا الْحِصَّةُ وَهُوَ الْأَصَحُّ .

التَّحْيِيلِ حَتَّى يَسْتَوِيَ قَائِمًا لَيْلًا يَقَعُ بَعْضُ طُؤَافِهِ دَاخِلَ الْبَيْتِ وَإِذَا كَانَتْ الْجُدْرَانُ كُلُّهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ إِنَّمَا بُنِيَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ فَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا الَّذِي قَالُوهُ وَلَا مَخْلَصَ مِنْ هَذَا إِلَّا بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ الْحَجَّاجُ هَدَمَ جَمِيعَهُ وَأَعَادَهُ وَقَدْ نَقَلَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ إِلَّا أَنَّ الْعِيَانَ فِي شَوَاهِدِ الْبِنَاءِ بِالتَّحَامِ مَا بَيْنَ الْبِنَاءَيْنِ وَتَمْيِيزِ أَحَدِ الشَّقَيْنِ مِنْ أَعْلَاهُ عَلَى الْآخَرِ فِي الصَّنَاعَةِ يَرُدُّ ذَلِكَ وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ ابْنُ الزُّبَيْرِ لَمْ يَرُدَّ الْبَيْتَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي الْحَجَرِ فَقَطْ لِيَدْخُلَهُ فِيهِ الْآنَ مَعَ كَوْنِهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَيْسَتْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَهَذَا بَعِيدٌ وَلَا مَحِيصٌ مِنْ هَذَيْنِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . ثُمَّ إِنَّ مَسَاحَةَ الْبَيْتِ وَهُوَ الْمَسْجِدُ كَانَ فِضَاءً لِلطَّائِفِينَ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ جُدْرٌ أَيَّامَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ مِنْ بَعْدِهِ . ثُمَّ كَثُرَ النَّاسَ فَاشْتَرَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُورًا هَدَمَهَا وَزَادَهَا فِي الْمَسْجِدِ وَأَدَارَ عَلَيْهَا جِدَارًا دُونَ الْقَامَةِ وَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ عُثْمَانُ ثُمَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ ثُمَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبِنَاهُ بِعُمْدِ الرَّخَامِ ثُمَّ زَادَ فِيهِ الْمَنْصُورَ وَابْنَهُ الْمُهَدِّيَّ مِنْ بَعْدِهِ وَوَقَفَتِ الزِّيَادَةُ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ لِعَهْدِنَا . وَتَشْرِيفُ اللَّهِ لِهَذَا الْبَيْتِ وَعِنَايَتُهُ بِهِ أَكْثَرُ<sup>(١)</sup> مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ وَكَفَى بِذَلِكَ أَنْ جَعَلَهُ مَهْبِطًا لِلْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ وَمَكَانًا لِلْعِبَادَةِ وَفَرَضَ شَرَائِعَ الْحَجِّ وَمَنَاسِكَهِ وَأَوْجَبَ لِحَرَمِهِ مِنْ سَائِرِ نَوَاحِيهِ مِنْ حُقُوقِ التَّعْظِيمِ وَالْحَقِّ مَا لَمْ يُوجِبْهُ لِغَيْرِهِ فَمَنْعَ كُلِّ مَنْ خَالَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ مِنْ دُخُولِ ذَلِكَ الْحَرَمِ وَأَوْجَبَ عَلَى دَاخِلِهِ أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنَ الْمَخِيطِ إِلَّا إِزَارًا يَسْتُرُهُ وَحَمَى الْعَائِدَ بِهِ وَالرَّاتِعَ فِي مَسَارِحِهِ مِنْ مَوَاقِعِ الْآفَاتِ فَلَا يُرَامُ فِيهِ خَائِفٌ وَلَا يُصَادُ لَهُ وَخَشٌّ وَلَا يُحْتَطَبُ لَهُ شَجَرٌ . وَحَدُّ الْحَرَمِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِذِهِ الْحِرْمَةَ مِنْ طَرِيقِ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَةَ أَمْيَالٍ إِلَى التَّنْعِيمِ<sup>(٢)</sup> وَمِنْ طَرِيقِ الْعِرَاقِ سَبْعَةَ أَمْيَالٍ إِلَى الشَّنِيَّةِ مِنْ جَبَلِ الْمُنْقَطِعِ وَمِنْ طَرِيقِ الطَّائِفِ سَبْعَةَ أَمْيَالٍ إِلَى بَطْنِ نَمْرَةَ وَمِنْ طَرِيقِ جَدَّةِ سَبْعَةَ أَمْيَالٍ إِلَى مُنْقَطِعِ الْعَشَائِرِ . هَذَا شَأْنُ مَكَّةَ

(١) وفي النسخة الباريسية : أعظم .

(٢) التنعيم : مكان بمكة في الحل . وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة وقيل أربعة . وبه

مساجد حول مسجد عائشة وسقايا على طريق المدينة منه . يحرم المكيون بالعمرة ( معجم البلدان ) .

وَخَبَرَهَا وَتُسَمَّى أُمَّ الْقُرَى وَتَسْمَى الْكَعْبَةَ لِعُلُوقِهَا مِنْ اسْمِ الْكَعْبِ . وَيُقَالُ لَهَا أَيْضاً  
 بَكَّةٌ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : لِأَنَّ النَّاسَ يَبْكُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَيْهَا أَيْ يَدْفَعُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ بَاءً  
 بَكَّةً أَبْدَلُوهَا مِيماً كَمَا قَالُوا لَا زَبَّ وَلَا زِمَّ لِقُرْبِ الْمَخْرَجَيْنِ . وَقَالَ النَّخَعِيُّ بِالْبَاءِ  
 وَبِالْمِيمِ الْبَلَدُ وَقَالَ الزُّهْرِيُّ بِالْبَاءِ لِلْمَسْجِدِ كُلِّهِ وَبِالْمِيمِ لِلْحَرَمِ وَقَدْ كَانَتْ الْأُمَّمُ مِنْذُ  
 عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ تَعْظُمُهُ وَالْمُلُوكُ تَبْعَثُ إِلَيْهِ بِالْأَمْوَالِ وَالذُّخَائِرِ مِثْلَ كِسْرَى وَغَيْرِهِ  
 وَقِصَّةُ الْأَسْيَافِ وَغَرَالِي الذَّهَبِ اللَّذِينَ وَجَدَهُمَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حِينَ اخْتَفَرَ زَمْرَمَ  
 مَعْرُوفَةً وَقَدْ وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ مَكَّةَ فِي الْجُبِّ الَّذِي كَانَ فِيهَا  
 سَبْعِينَ أَلْفَ أَوْقِيَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ مِمَّا كَانَ الْمُلُوكُ يُهْدُونَ لِلْبَيْتِ فِيهَا أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ  
 مُكَرَّرَةً مَرَّتَيْنِ بِمَائَتِي قِنْطَارٍ وَزناً وَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :  
 « يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اسْتَعْنَتَ بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِكَ » فَلَمْ يَفْعَلْ . ثُمَّ ذَكَرَ لِأَبِي  
 بَكْرٍ فَلَمْ يَحْرِكْهُ . هَكَذَا قَالَ الْأَزْرَقِيُّ . وَفِي الْبُخَارِيِّ يُسْنِدُهُ إِلَى أَبِي وَائِلٍ قَالَ :  
 جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ بْنِ عُثْمَانَ وَقَالَ جَلَسَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ : « هَمَمْتُ أَنْ  
 لَا أَدْعَ فِيهَا صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ » قُلْتُ : مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ ؟  
 قَالَ : وَلِمَ ؟ قُلْتُ : فَلَمْ يَفْعَلْ صَاحِبَاكَ فَقَالَ هُمَا اللَّذَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا . وَخَرَجَهُ أَبُو  
 دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ وَأَقَامَ ذَلِكَ الْمَالُ إِلَى أَنْ كَانَتْ فِتْنَةُ الْأَفْطَسِ وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ  
 الْحُسَيْنِ <sup>(١)</sup> بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ حِينَ غَلَبَ  
 مَكَّةَ عَمَدٌ إِلَى الْكَعْبَةِ فَأَخَذَ مَا فِي خَزَائِنِهَا وَقَالَ مَا يَتَضَعُ الْكَعْبَةَ بِهَذَا الْمَالِ مَوْضِعاً  
 فِيهَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ نَحْنُ أَحَقُّ بِهِ نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى حَرْبِنَا وَأَخْرَجَهُ وَتَصَرَّفَ فِيهِ  
 وَبَطَلَتِ الذَّخِيرَةُ مِنَ الْكَعْبَةِ مِنْ يَوْمَيْدٍ . ( وَأَمَا بَيْتُ الْمَقْدِسِ ) وَهُوَ الْمَسْجِدُ  
 الْأَقْصَى فَكَانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ أَيَّامَ الصَّابِغَةِ مَوْضِعَ الزُّهْرَةِ وَكَانُوا يَقْرَبُونَ إِلَيْهِ الزَّيْتَ فِيمَا  
 يَقْرَبُونَهُ يَصُبُونَهُ عَلَى الصُّخْرَةِ الَّتِي هُنَاكَ ثُمَّ دَثَرَ ذَلِكَ الْهَيْكَلَ وَاتَّخَذَهَا بَنُو  
 إِسْرَائِيلَ حِينَ مَلَكُوهَا قِبْلَةً لصلَاتِهِمْ . وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لَمَّا خَرَجَ

(١) وفي النسخة الباريسية : الحسين بن الحسين .



بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ لَتَمْلِكِيَهُمْ<sup>(١)</sup> بَيْتَ الْمَقْدِسِ كَمَا وَعَدَ اللَّهُ آبَاهُمْ إِسْرَائِيلَ وَأَبَاهُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِ وَأَقَامُوا بِأَرْضِ التِّيهِ أَمْرَهُ اللَّهُ بِاتِّخَاذِ قُبَّةٍ مِنْ خَشَبِ السَّنِطِ عَيْنَ بِالْوَحْيِ مَقْدَارُهَا وَصَفَتُهَا وَهَيَّا كُلَّهَا وَتَمَاتِيلُهَا وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا التَّابُوتُ وَمَائِدَةٌ بِصَخَافِهَا وَمَنَارَةٌ بِقِنَادِيلِهَا وَأَنْ يَضَعَ مَذْبَحًا لِلْقُرْبَانِ وَصَفَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي التَّوْرَةِ أَكْمَلَ وَصَفَ فَصَنَعَ الْقُبَّةَ وَوَضَعَ فِيهَا تَابُوتَ الْعَهْدِ وَهُوَ التَّابُوتُ الَّذِي فِيهِ الْأَلْوَاحُ الْمَضْنُوعَةُ عِوَضًا عَنِ الْأَلْوَاحِ الْمُنزَلَةِ بِالْكَلِمَاتِ الْعَشْرِ لَمَّا تَكَسَّرَتْ وَوَضَعَ الْمَذْبَحَ عِنْدَهَا . وَعَهَدَ اللَّهُ إِلَى مُوسَى بِأَنْ يَكُونَ هَارُونَ صَاحِبَ الْقُرْبَانِ وَنَصَبُوا تِلْكَ الْقُبَّةَ بَيْنَ خِيَامِهِمْ فِي التِّيهِ يُصَلُّونَ إِلَيْهَا وَيَتَقَرَّبُونَ فِي الْمَذْبَحِ أَمَامَهَا وَيَتَعَرَّضُونَ<sup>(٢)</sup> لِلْوَحْيِ عِنْدَهَا .

وَلَمَّا مَلَكَوا أَرْضَ الشَّامِ أَنْزَلُوهَا ( بَكَلْكَال ) مِنْ بِلَادِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مَا بَيْنَ قَسَمِ بَنِي يَامِينَ وَبَنِي أُفْرَايِيمَ . وَبَقِيَتْ هُنَالِكَ أَرْبَعُ عَشْرَةَ سَنَةً : سَبْعًا مَدَّةَ الْحَرْبِ ، وَسَبْعًا بَعْدَ الْفَتْحِ أَيَّامَ قِسْمَةِ الْبِلَادِ . وَلَمَّا تَوَفَّى يَوْشَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَقَلُوهَا إِلَى بَلَدِ شِيلُو قَرِيبًا مِنْ كَلْكَالِ ، وَأَذَارُوا عَلَيْهَا الْحَيْطَانَ . وَأَقَامَتْ عَلَى ذَلِكَ ثَلَاثِمِائَةَ سَنَةٍ . حَتَّى مَلَكَهَا بَنُو فِلِسْطِينَ مِنْ أَيْدِيهِمْ كَمَا مَرَّ ، وَتَغْلَبُوا عَلَيْهِمْ . ثُمَّ رَدُّوا عَلَيْهِمُ الْقُبَّةَ وَنَقَلُوهَا بَعْدَ وَفَاةِ عَلِيِّ الْكُوهَنِ إِلَى نُوفِ . ثُمَّ نَقَلَتْ أَيَّامَ طَالُوتَ إِلَى كَنْعَانَ فِي بِلَادِ بَنِي يَامِينَ . وَلَمَّا مَلَكَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَقَلَ الْقُبَّةَ وَالتَّابُوتَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَعَلَ عَلَيْهَا خِيبَاءً خَاصًّا وَوَضَعَهَا عَلَى الصُّخْرَةِ . . .

وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْقُبَّةُ قِبْلَتَهُمْ وَوَضَعُوهَا عَلَى الصُّخْرَةِ بَيْنَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَرَادَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَاءَ مَسْجِدِهِ عَلَى الصُّخْرَةِ مَكَانَهَا فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ وَعَهَدَ بِهِ إِلَى ابْنِهِ سُلَيْمَانَ فَبَنَاهُ لِأَرْبَعِ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِ وَلِخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ وَفَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَاتَّخَذَ عَمْدَهُ مِنَ الصَّفْرِ وَجَعَلَ بِهِ صَرْحَ الزُّجَاجِ وَعَشَى أَبْوَابَهُ وَحَيْطَانَهُ بِالذَّهَبِ

(١) وفي النسخة الباريسية : ليملكهم .

(٢) وفي النسخة الباريسية : ويقربون في المذبح أمامها ويتوجهون .

وَصَاعَ هَيْكَلَهُ وَتَمَائِيلَهُ وَأَوْعَيْتَهُ وَمَنَارَتَهُ وَمِفْتَاحَهُ مِنَ الذَّهَبِ وَجَعَلَ فِي ظَهْرِهِ قَبْرًا لِيَضَعَ<sup>(١)</sup> فِيهِ تَابُوتَ الْعَهْدِ وَهُوَ التَّابُوتُ الَّذِي فِيهِ الْأَلْوَاحُ وَجَاءَ بِهِ مِنْ صِهْيُونَ بَلَدَ أَبِيهِ دَاوُدَ نَقْلَهُ إِلَيْهَا أَيَّامَ عَمَارَةِ الْمَسْجِدِ ، فَجِيءَ بِهِ تَحْمِلُهُ الْأَسْبَاطُ وَالْكَهَنُوتِيَُّّةُ حَتَّى وَضَعَهُ فِي الْقَبْرِ وَوَضِعَتِ الْقَبَّةُ وَالْأَوْعِيَّةُ وَالْمَذْبُوحُ كُلُّ وَاحِدٍ حَيْثُ أَعَدَّ لَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ . وَأَقَامَ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ خَرَبَهُ بَخْتٌ نَصْرٌ بَعْدَ ثَمَانِمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ بِنَائِهِ وَأَحْرَقَ التُّورَةَ وَالْعَصَا وَصَاعَ الْهَيْكَلِ وَنَثَرَ الْأَحْجَارَ . ثُمَّ لَمَّا أَعَادَهُمْ مُلُوكُ الْفُرْسِ بِنَاءَ عَزْرِيزِ نَبِيِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِعَهْدِهِ بِإِغَانَةِ بَهْمَنْ مَلِكِ الْفُرْسِ الَّذِي كَانَتْ الْوِلَادَةُ<sup>(٢)</sup> لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ مِنْ سِبْيِ بَخْتٍ نَصْرٌ وَحَدَّ لَهُمْ فِي بُنْيَانِهِ حُدُودًا دُونَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَلَمْ يَتَجَاوَزُوهَا .

وَأَمَّا الْأَوَاوِينَ الَّتِي تَحْتَ الْمَسْجِدِ ، يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، عَمُودُ الْأَعْلَى مِنْهَا عَلَى قَوْسِ الْأَسْفَلِ فِي طَبَقَتَيْنِ . وَيَتَوَهَّمُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا إِصْطَبَلَاتُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ . وَإِنَّمَا بَنَاهَا تَنْزِيهًا لِلْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ عَمَّا يَتَوَهَّمُ مِنَ النَّجَاسَةِ ، لِأَنَّ النَّجَاسَاتِ فِي شَرِيعَتِهِمْ وَإِنْ كَانَتْ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ ، وَكَانَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ ظَاهِرِ الْأَرْضِ مَخْشُوعًا بِالتُّرَابِ ، بِحَيْثُ يَصِلُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الظَّاهِرِ خَطٌ مُسْتَقِيمٌ يَنْجَسُ ذَلِكَ الظَّاهِرُ بِالتَّوَهَّمِ . وَالتَّوَهَّمُ عِنْدَهُمْ كَالْمَحْقِقِ ، فَبَنَوْا هَذِهِ الْأَوَاوِينَ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ بِعَمُودِ الْأَوَاوِينَ السُّفْلِيَّةِ تَنْتَهِي إِلَى أَقْوَاسِهَا وَيَنْقَطِعُ خَطُّهَا ، فَلَا تَتَّصِلُ النَّجَاسَةُ بِالْأَعْلَى عَلَى خِطِّ مُسْتَقِيمٍ . وَتَنْزَهُ الْبَيْتُ عَنْ هَذِهِ النَّجَاسَةِ الْمُتَوَهَّمَةِ لِيَكُونَ ذَلِكَ أُبْلَغَ فِي الطَّهَارَةِ وَالتَّقْدِيسِ .

ثُمَّ تَدَاوَنَتْهُمْ مُلُوكُ يُونَانَ وَالْفُرْسِ وَالرُّومِ وَاسْتَفْحَلَ الْمَلِكُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ ثُمَّ لِبَنِي حَشْمَنِيٍّ مِنْ كَهَنَتِهِمْ ثُمَّ لِحَصْرَهْمَ هِيرُودُسَ وَلِبَنِيهِ مِنْ بَعْدِهِ . وَبَنَى هِيرُودُسُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ عَلَى بِنَاءِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَأْتَقُ فِيهِ حَتَّى

(١) وفي النسخة الباريسية : ليودع .

(٢) وفي نسخة أخرى : الولادة .

أَكْمَلَهُ فِي سِتِّ سِنِينَ فَلَمَّا جَاءَ طَيْطِشُ مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ وَعَلَبَهُمْ وَمَلَكَ أَمْرَهُمْ خَرَبَ  
 بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَمَسْجِدَهَا وَأَمَرَ أَنْ يُزْرَعَ مَكَانَهُ ثُمَّ أَخَذَ الرُّومُ بِيَدَيْنِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ  
 السَّلَامِ وَدَانُوا بِتَعْظِيمِهِ ثُمَّ اخْتَلَفَ حَالَ مُلُوكِ الرُّومِ فِي الْأَخْذِ بِيَدَيْنِ النَّصَارَى تَارَةً  
 وَتَرْكِهِ أُخْرَى إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ وَتَنَصَّرَتْ أُمُّهُ هِيلَانَةُ وَارْتَحَلَتْ إِلَى الْقُدْسِ فِي  
 طَلَبِ الْخَشْبَةِ الَّتِي صُلِبَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ بِزَعْمِهِمْ فَأَخْبَرَهَا الْقَسَاوِسَةُ بِأَنَّهُ رَمَى  
 بِخَشْبَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ وَالْقَى عَلَيْهَا الْقَمَامَاتِ وَالْقَادُورَاتِ فَاسْتَخْرَجَتِ الْخَشْبَةَ وَبَنَتْ  
 مَكَانَ تِلْكَ الْقَمَامَاتِ كَنِيسَةَ الْقَمَامَةِ <sup>(١)</sup> كَانَتْهَا عَلَى قَبْرِه بِزَعْمِهِمْ وَهَرَبَتْ مَا وَجَدَتْ  
 مِنْ عِمَارَةِ الْبَيْتِ وَأَمَرَتْ بِطَرْحِ الرُّبْلِ وَالْقَمَامَاتِ عَلَى الصُّخْرَةِ حَتَّى عَطَّاهَا وَخَفِيَتْ  
 مَكَانَهَا جِزَاءً بِزَعْمِهَا لِمَا فَعَلُوهُ بِقَبْرِ الْمَسِيحِ ثُمَّ بَنَوْا بِإِزَاءِ الْقَمَامَةِ بَيْتَ لَحْمٍ وَهُوَ  
 الْبَيْتُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ  
 وَحَضَرَ عُمَرُ لِفَتْحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَسَأَلَ عَنِ الصُّخْرَةِ فَأَرَى مَكَانَهَا وَقَدْ عَلَاهَا الرُّبْلُ  
 وَالتُّرَابُ فَكَشَفَ عَنْهَا وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِدًا عَلَى طَرِيقِ الْبِدَاوَةِ وَعَظَّمَهُ مِنْ شَأْنِهِ  
 مَا أَدِنَ اللَّهُ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَمَا سَبَقَ مِنْ أُمَّ الْكِتَابِ فِي فَضْلِهِ حَسْبَمَا ثَبَّتَ ثُمَّ اخْتَفَلَ  
 الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي تَشْيِيدِ مَسْجِدِهِ عَلَى سُنَنِ مَسَاجِدِ الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ  
 الْإِخْتِفَالِ كَمَا فَعَلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَفِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ وَفِي  
 مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُسَمِّيهِ بِلَاطِ الْوَلِيدِ وَالزَّمَّ مَلِكِ الرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ الْفَعْلَةَ  
 وَالْمَالَ لِبِنَاءِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ وَأَنْ يُنَمِّقُوهَا بِالْفَسِينَسَاءِ فَاطَاعَ لَذَلِكَ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا عَلَى  
 مَا اقْتَرَحَهُ . ثُمَّ لَمَّا ضَعَفَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ أَعْوَامَ الْخُمْسِمَائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ فِي آخِرِهَا  
 وَكَانَتْ فِي مَلَكََةِ الْعُبَيْدِيِّينَ خُلَفَاءَ الْقَاهِرِينَ مِنَ الشَّيْعَةِ وَاخْتَلَّ أَمْرُهُمْ زَحَفَ الْفَرَنْجَةُ  
 إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَمَلَكَوهُ وَمَلَكَوْا مَعَهُ عَامَةً تُغَوِّرُ الشَّامَ وَبَنَوْا عَلَى الصُّخْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ  
 مِنْهُ كَنِيسَةً كَانُوا يُعْظَمُونَهَا وَيَفْتَخِرُونَ بِبِنَائِهَا حَتَّى إِذَا اسْتَقَلَّ صَلَاحُ الدِّينِ بْنِ  
 أَيُّوبَ الْكُرْدِيِّ بِمُلْكِ مِصْرَ وَالشَّامَ وَمَحَا أَثَرَ الْعُبَيْدِيِّينَ وَبَدَعَهُمْ زَحَفَ إِلَى الشَّامِ

(١) كذا في جميع النسخ وكذا أوردها ابن الأثير والطبري وتعرف اليوم بكنيسة القيامة .

وَجَاهَدَ مَنْ كَانَ بِهِ مِنَ الْفَرَنْجَةِ حَتَّى غَلَبَهُمْ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَعَلَى مَا كَانُوا  
مَلْكُوهُ مِنْ تُغُورِ الشَّامِ وَذَلِكَ لِنَحْوِ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ وَهَدَمَ تِلْكَ  
الْكَنِيسَةَ وَأَظْهَرَ الصُّخْرَةَ وَبَنَى الْمَسْجِدَ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ لِهَذَا الْعَهْدِ .  
وَلَا يَغْرُضُ لَكَ الْإِشْكَالُ الْمَعْرُوفُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ  
أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ فَقَالَ : « بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ » قِيلَ فَكَمْ بَيْنَهُمَا ؟  
قَالَ : « أَرْبَعُونَ سَنَةً » فَإِنَّ الْمُدَّةَ بَيْنَ بِنَاءِ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِمِقْدَارِ  
مَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَسُلَيْمَانَ لِأَنَّ سُلَيْمَانَ بَانِيَهُ وَهُوَ يُنْفَعُ عَلَى الْأَلْفِ بِكَثِيرٍ . وَاعْلَمْ  
أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَضْعِ فِي الْحَدِيثِ لَيْسَ الْبِنَاءُ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَوَّلُ بَيْتٍ عُنِيَ لِلْعِبَادَةِ وَلَا  
يَبْنَعُدُ أَنْ يَكُونَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ عُنِيَ لِلْعِبَادَةِ قَبْلَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَقَدْ  
نُقِلَ أَنَّ الصَّابِئَةَ بَنُوا عَلَى الصُّخْرَةِ هَيْكَلَ الزُّهْرَةِ فَلَعَلَّ ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ مَكَانًا  
لِلْعِبَادَةِ كَمَا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَضَعُ الْأَصْنَامَ وَالتَّمَاثِيلَ حَوْلِي الْكَعْبَةِ وَفِي جُوفِهَا  
وَالصَّابِئَةُ الَّذِينَ بَنُوا هَيْكَلَ الزُّهْرَةِ كَانُوا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَا تَبْعُدُ  
مُدَّةَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً بَيْنَ وَضْعِ مَكَّةَ لِلْعِبَادَةِ وَوَضْعِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ  
بِنَاءٌ كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَفَهَّمَهُ  
فَفِيهِ حَلُّ هَذَا الْإِشْكَالِ . وَأَمَّا الْمَدِينَةُ وَهِيَ الْمُسَمَّاءُ بِشَرْبِ فِيهَا مِنْ بِنَاءِ  
يَثْرِبَ بْنِ مَهْلَائِيلَ مِنَ الْعَمَالِقَةِ وَمَلَكَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيمَا مَلَكُوهُ مِنْ  
أَرْضِ الْحِجَازِ ثُمَّ جَاوَرَهُمْ بَنُو قَبِيلَةٍ مِنْ غَسَّانَ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهَا وَعَلَى حُصُونِهَا . ثُمَّ أَمَرَ  
النَّبِيُّ ﷺ بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ بِهَا فَهَاجَرَ إِلَيْهَا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ  
وَتَبِعَهُ أَصْحَابُهُ وَنَزَلَ بِهَا وَبَنَى مَسْجِدَهُ وَبَيُوتَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ اللَّهُ قَدْ أَعَدَّهُ  
لِذَلِكَ وَشَرَّفَهُ فِي سَابِقِ أَرْزِلِهِ وَأَوَاهِ أُنْبَاءِ قَبِيلَةٍ وَنَصْرُوهُ فَلِذَلِكَ سُمُّوا الْأَنْصَارَ وَتَمَّتْ  
كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمَاتِ وَغَلَبَ عَلَى قَوْمِهِ وَفَتَحَ مَكَّةَ  
وَمَلَكَهَا وَظَنَّ الْأَنْصَارَ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى بَلَدِهِ فَأَهْمَهُمْ ذَلِكَ فَخَاطَبَهُمْ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَحَوِّلٍ حَتَّى إِذَا قُبِضَ ﷺ كَانَ مُلْحَدُهُ الشَّرِيفُ

بِهَا وَجَاءَ فِي فَضْلِهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مَا لَا خِفَاءَ بِهِ وَوَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ  
الْعُلَمَاءِ فِي تَفْضِيلِهَا عَلَى مَكَّةَ وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ لِمَا ثَبَتَ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ  
النَّصِّ الصَّرِيحِ عَنْ رَفِيعِ بْنِ مُخَدَّجٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ الْمَدِينَةُ خَيْرٌ مِنْ مَكَّةَ  
نَقَلَ ذَلِكَ أَبُو الْوَهَّابِ فِي الْمَعُونَةِ إِلَى أَحَادِيثٍ أُخْرَى تَدُلُّ بِظَاهِرِهَا عَلَى ذَلِكَ  
وَخَالَفَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ . وَأَصْبَحَتْ عَلَى كُلِّ حَالٍ ثَانِيَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَجَنَحَ  
إِلَيْهَا الْأَمَمُ بِأَفْئِدَتِهِمْ مِنْ كُلِّ أُوْبٍ فَانظُرْ كَيْفَ تَدْرَجَتْ الْفَضِيلَةُ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ  
الْمُعْظَمَةِ لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ لَهَا وَتَفَهَّمْ سِرَّ اللَّهِ فِي الْكُونِ وَتَدْرِجَةِ عَلَى تَرْتِيبِ  
مُحْكَمٍ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا . وَأَمَّا غَيْرُ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ فَلَا نَعْلَمُهُ فِي الْأَرْضِ  
إِلَّا مَا يُقَالُ مِنْ شَأْنِ مَسْجِدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَرَنْدِيبَ مِنْ جَزَائِرِ الْهِنْدِ لَكِنَّهُ لَمْ  
يُثْبِتْ فِيهِ شَيْءٌ يُعْوَلُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَتْ لِلْأَمَمِ فِي الْقَدِيمِ مَسَاجِدُ يُعْظَمُونَهَا عَلَى جِهَةِ  
الدِّيَانَةِ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا بَيْتُ النَّارِ لِلْفَرَسِ وَهَيْكَلُ يُونَانَ وَبَيْتُ الْعَرَبِ بِالْحِجَازِ  
الَّتِي أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَدْمِهَا فِي غَزْوَاتِهِ وَقَدْ ذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ مِنْهَا بَيْتًا لَسْنَا مِنْ  
ذِكْرِهَا فِي شَيْءٍ إِذْ هِيَ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ وَلَا هِيَ عَلَى طَرِيقِ دِينِي وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا وَلَا  
إِلَى الْخَبَرِ عَنْهَا وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي التَّوَارِيخِ فَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ الْأَخْبَارِ فَعَلَيْهِ  
بِهَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ .

## الفصل السابع

في أن المدن والأمصار بافريقية والمغرب قليلة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَقْطَارَ كَانَتْ لِلْبَرْبَرِ مُنْذُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ قَبْلَ  
الإِسْلَامِ وَكَانَ عُمَرَانُهَا كُلُّهُ بَدْوِيًّا وَلَمْ تَسْتَمِرَّ فِيهِمُ الْحَضَارَةُ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ أَحْوَالُهَا  
وَالدُّوَلُ الَّتِي مَلَكَتْهُمْ مِنَ الْإِفْرَنْجِيَّةِ وَالْعَرَبِ لَمْ يَطْلُ أَمْدٌ مُلْكِهِمْ فِيهِمْ حَتَّى تَرْسَخَ  
الْحَضَارَةُ مِنْهَا فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ الْبِدَاوَةِ وَشُؤُونُهَا فَكَانُوا إِلَيْهَا أَقْرَبَ فَلَمْ تَكْثُرْ مَبَانِيهِمْ  
وَأَيْضًا فَالصَّنَائِعُ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَرْبَرِ لِأَنَّهُمْ أَغْرَقُوا فِي الْبَدْوِ وَالصَّنَائِعُ مِنْ تَوَابِعِ الْحَضَارَةِ  
وَأِنَّمَا تَتِمُّ الْمَبَانِي بِهَا فَلَا بُدَّ مِنَ الْحِذْقِ فِي تَعَلُّمِهَا فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلْبَرْبَرِ انْتِحَالُهَا  
لَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَشَوُّقٌ<sup>(١)</sup> إِلَى الْمَبَانِي فَضَلَّ عَنِ الْمَدِينِ . وَأَيْضًا فَهَمُّ أَهْلِ عَصِيَّاتٍ  
وَأَنْسَابٍ لَا يَخْلُو عَنْ ذَلِكَ جَمْعٌ مِنْهُمْ وَالْأَنْسَابُ وَالْعَصِيَّةُ أُجْنَحُ إِلَى الْبَدْوِ وَإِنَّمَا  
يَدْعُو إِلَى الْمَدِينِ الدَّعَةُ وَالسُّكُونُ وَيَصِيرُ سَاكِنًا عِيَالًا عَلَى حَامِيَّتِهَا فَتَجِدُ أَهْلَ الْبَدْوِ  
لِذَلِكَ يَسْتَنْكِفُونَ عَنْ سُكْنَى الْمَدِينَةِ أَوْ الْإِقَامَةِ بِهَا فَلَا يَدْعُو إِلَى ذَلِكَ إِلَّا التَّرَفُ  
وَالْغِنَى وَقَلِيلٌ مَا هُوَ فِي النَّاسِ فَلِذَلِكَ كَانَ عُمَرَانُ أَفْرِيْقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ  
بَدْوِيًّا أَهْلُ خِيَامٍ وَظَوَاعِنَ وَقِيَاظِنَ وَكُنَنَ فِي الْجِبَالِ وَكَانَ عُمَرَانُ بِلَادِ الْعَجَمِ كُلُّهُ أَوْ  
أَكْثَرُهُ قُرَى وَأَمْصَارًا وَرَسَاتِيْقَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَعِرَاقَ الْعَجَمِ وَأَمْثَالِهَا  
لِأَنَّ الْعَجَمَ لَيْسُوا بِأَهْلِ أَنْسَابٍ يَحَافِظُونَ عَلَيْهَا وَيَتَّبِعُونَ فِي صِرَاحَتِهَا وَالتَّحَامِهَا  
إِلَّا فِي الْأَقْلِ وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ سُكْنَى الْبَدْوِ لِأَهْلِ الْأَنْسَابِ لِأَنَّ لُحْمَةَ النَّسَبِ أَقْرَبُ  
وَأَشَدُّ فَتَكُونُ عَصِيَّتُهُ كَذَلِكَ وَتَنْزِعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى سُكْنَى الْبَدْوِ وَالتَّجَافِي عَنِ الْمِصْرِ  
الَّذِي يَذْهَبُ بِالْبَسَالَةِ وَيُصَيِّرُهُ عِيَالًا عَلَى غَيْرِهِ فَافْهَمَهُ وَقَسَّ عَلَيْهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ  
وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

(١) وفي نسخة أخرى تشوف . وتشوف إلى الشيء . تطلع إليه .

## الفصل الثامن

في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها  
وإلى من كان قبلها من الدول

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِثْلَهُ فِي التَّرْبِيرِ بِعَيْنِهِ إِذِ الْعَرَبُ أَيْضاً أُعْرِقَ فِي الْبَدْوِ  
وَأَبْعَدَ عَنِ الصَّنَائِعِ وَأَيْضاً فَكَانُوا أَجَانِبَ مِنَ الْمَمَالِكِ الَّتِي اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا قَبْلَ  
الْإِسْلَامِ وَلَمَّا تَمَلَّكُوهَا لَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رُسُومَ الْحِضَارَةِ مَعَ أَنَّهُمْ  
اسْتَفْتَنُوا بِمَا وَجَدُوا مِنْ مَبَانِي غَيْرِهِمْ وَأَيْضاً فَكَانَ الدِّينُ أَوَّلَ الْأَمْرِ مَانِعاً مِنْ  
الْمُعَالَاةِ أَوْ الْبُنْيَانِ وَالْإِسْرَافِ فِيهِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ كَمَا عَهَدَ لَهُمْ عَمْرُ حِينَ اسْتَأْذَنُوهُ فِي  
بِنَاءِ الْكُوفَةِ بِالْحِجَارَةِ وَقَدْ وَقَعَ الْحَرِيقُ فِي الْقَصَبِ الَّذِي كَانُوا بَنَوْا بِهِ مِنْ قَبْلِ  
فَقَالَ أَفْعَلُوا وَلَا يَزِيدُنَّ أَحَدٌ عَلَيَّ ثَلَاثَةَ أُنْيَابٍ وَلَا تُطَاوِلُوا فِي الْبُنْيَانِ وَالزَّمُوا السَّنَةَ  
تَلْزَمُكُمْ الدَّوْلَةُ وَعَهْدِي إِلَى الْوَفْدِ وَتَهْتَمُّ إِلَى النَّاسِ أَنْ لَا يَزِفَعُوا بُنْيَاناً فَوْقَ الْقَدْرِ  
قَالُوا : وَمَا الْقَدْرُ ؟ قَالَ : « لَا يَقْرُبُكُمْ مِنَ السَّرْفِ وَلَا يُخْرِجُكُمْ عَنِ الْقَصْدِ » .  
فَلَمَّا بَعُدَ الْعَهْدُ بِالدِّينِ وَالتَّخْرُجُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ وَعَلَبَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ  
وَالتَّرَفِ وَاسْتَحْدَمَ الْعَرَبُ أُمَّةَ الْفَرَسِ وَأَخَذُوا عَنْهُمْ الصَّنَائِعَ وَالْمَبَانِي وَدَعَتَهُمْ إِلَيْهَا  
أَحْوَالِ الدَّعَةِ وَالتَّرَفِ فَحِينَيْدُ شَيْدُوا الْمَبَانِي وَالْمَصَانِعَ وَكَانَ عَهْدُ ذَلِكَ قَرِيباً  
بِانْقِرَاصِ الدَّوْلَةِ وَلَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ لِكثْرَةِ الْبِنَاءِ وَاخْتِطَاطِ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ إِلَّا قَلِيلاً  
وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ فَالْفَرَسُ طَالَتْ مَدَّتُهُمْ آفَافاً مِنَ السِّنِينَ وَكَذَلِكَ الْقَبْطُ  
وَالنَّبْطُ وَالرُّومُ وَكَذَلِكَ الْعَرَبُ الْأُولَى مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعَمَالِقَةَ وَالتَّبَاعَةَ طَالَتْ  
أَمَادُهُمْ وَرَسَخَتْ الصَّنَائِعُ فِيهِمْ فَكَانَتْ مَبَانِيهِمْ وَهَيَاكِلُهُمْ أَكْثَرَ عَدَداً وَأَبْقَى عَلَى  
الْأَيَّامِ أَثْراً وَاسْتَبْصَرَ فِي هَذَا تَجْدَهُ كَمَا قُلْتُ وَاللَّهِ وَارِثَ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا .

## الفصل التاسع

في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ الْبِدَاوَةِ وَالْبُعْدُ عَنِ الصَّنَائِعِ كَمَا قَدَّمْنَا فَلَا تَكُونُ الْمَبَانِي وَثِيقَةً فِي تَشْيِيدِهَا وَلَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَجْهٌ آخَرٌ وَهُوَ أَمْسُ بِهِ وَذَلِكَ قَلَّةٌ مَرَاعَاتِهِمْ لِحُسْنِ الْإِخْتِيَارِ فِي اخْتِطَاطِ الْمَدِينِ كَمَا قُلْنَا فِي الْمَكَانِ وَطَيْبِ الْهَوَاءِ وَالْمِيَاهِ وَالْمَزَارِعِ وَالْمَرَاعِي فَإِنَّهُ بِالتَّفَاوُتِ فِي هَذَا تَتَفَاوَتُ جُودَةُ الْمِضْرِ وَرَدَائَتْهُ مِنْ حَيْثُ الْعُمُرَانِ الطَّبِيعِيِّ وَالْعَرَبِ بِمَغْزَلٍ عَنْ هَذَا وَإِنَّمَا يِرَاعُونَ مَرَاعِي إِبِلِهِمْ خَاصَّةً لَا يَبَالُونَ بِالمَاءِ طَابَ أَوْ خَبَثَ وَلَا قَلَّ أَوْ كَثُرَ وَلَا يَسْأَلُونَ عَنْ زَكَاةِ الْمَزَارِعِ وَالْمَنَابِتِ وَالْأَهْوِيَةِ لِانْتِقَالِهِمْ فِي الْأَرْضِ وَتَقْلِيمِ الْحُبُوبِ مِنَ الْبَلَدِ الْبَعِيدِ وَأَمَّا الرِّيَّاحُ فَالْقَفْرُ مُخْتَلِفٌ لِلْمَهَابِ كُلِّهَا وَالظُّعْنُ كَفِيلٌ لَهُمْ بِطَبِيعِهَا لِأَنَّ الرِّيَّاحَ إِذَا تَخَبَثُ مَعَ الْقَرَارِ وَالسُّكْنَى وَكَثْرَةَ الْفَضَلَاتِ وَانظُرْ لِمَا اخْتَطَبُوا الْكُوفَةَ وَالْبَصْرَةَ وَالْقَيْرَوَانَ كَيْفَ لَمْ يِرَاعُوا فِي اخْتِطَاطِهَا إِلَّا مَرَاعِي إِبِلِهِمْ وَمَا يَقْرُبُ مِنَ الْقَفْرِ وَمَسَالِكِ الظُّعْنِ فَكَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ الْوَضْعِ الطَّبِيعِيِّ لِلْمَدِينِ وَلَمْ تَكُنْ لَهَا مَادَّةٌ تُمَدُّ عُمُرَانَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا أَنَّهُ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرَانِ فَقَدْ كَانَتْ مَوَاطِنُهَا غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ لِلْقَرَارِ وَلَمْ تَكُنْ فِي وَسْطِ الْأُمَّمِ فَيَعْمُرُهَا النَّاسُ فَلأُولَئِكَ وَهَلَاةٌ مِنْ انْحِلَالِ أَمْرِهِمْ وَذَهَابِ عَصَبِيَّتِهِمِ الَّتِي كَانَتْ سِيَاجًا لَهَا أَتَى عَلَيْهَا الْخَرَابُ وَالانْحِلَالُ كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ . « وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ » .



## الفصل العاشر

### في مبادي الخراب في الأمصار

إِغْلَمَ أَنَّ الْأَمْصَارَ إِذَا اخْتَطَّتْ أَوْ لَا تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَسَاكِينِ وَقَلِيلَةَ آيَاتِ الْبِنَاءِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْجِيزِ وَغَيْرَهُمَا مِمَّا يُعَالَى عَلَى الْحَيْطَانِ عِنْدَ التَّائِقِ كَالزُّلْجِ <sup>(١)</sup> وَالرَّخَامِ وَالرُّبَيْجِ <sup>(٢)</sup> وَالزُّجَاجِ وَالْفَسْفِسَاءِ وَالصَّدْفِ فَيَكُونُ بِنَاؤُهَا يَوْمئِذٍ بَدْوِيًّا وَالْأَتْنُهَا فَاسِدَةً فَإِذَا عَظُمَ عُمُرَانِ الْمَدِينَةِ وَكَثُرَ سَاكِنُهَا كَثُرَتِ الْآلَاتُ بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ حِينَئِذٍ وَكَثُرَتِ الصُّنَاعُ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ غَايَتَهَا مِنْ ذَلِكَ كَمَا سَبَقَ بِشَأْنِهَا إِذَا تَرَاجَعَ عُمُرَانُهَا وَخَفَّتْ سَاكِنُهَا قَلَّتِ الصُّنَاعُ لِأَجْلِ ذَلِكَ وَقَدَّتِ الْإِجَادَةُ فِي الْبِنَاءِ وَالْإِحْكَامِ وَالْمَعَالَاةِ عَلَيْهِ بِالتَّنْمِيقِ ثُمَّ تَقَلُّ الْأَعْمَالُ لِعَدَمِ السَّاكِينِ فَيَقْلُ جَلْبُ الْآلَاتِ مِنَ الْحَجَرِ وَالرَّخَامِ وَغَيْرِهِمَا فَتَفْقَدُ وَيَصِيرُ بِنَاؤُهُمْ وَتَشْيِيدُهُمْ مِنَ الْآلَاتِ الَّتِي فِي مَبَانِيهِمْ فَيَنْقَلِبُونَهَا مِنْ مَضْنَعٍ إِلَى مَضْنَعٍ لِأَجْلِ خَلَاءِ أَكْثَرِ الْمَصَانِعِ وَالْقُصُورِ وَالْمَنَازِلِ بِقِلَّةِ الْعُمُرَانِ وَقُصُورِهِ عَمَّا كَانَ أَوَّلًا ثُمَّ لَا تَزَالُ تَنْقَلُ مِنْ قَضْرٍ إِلَى قَضْرٍ وَمِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ إِلَى أَنْ يُفْقَدَ الْكَثِيرُ مِنْهَا جُمْلَةً فَيَعُودُونَ إِلَى الْبِدَاوَةِ فِي الْبِنَاءِ وَاتِّخَاذِ الطُّوبِ عَوَضًا عَنِ الْحِجَارَةِ وَالْقُصُورِ عَنِ التَّنْمِيقِ بِالْكُلِّيَّةِ فَيَعُودُ بِنَاءُ الْمَدِينَةِ مِثْلَ بِنَاءِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ وَتَطْهَرُ عَلَيْهَا سِيْمَاءُ الْبِدَاوَةِ ثُمَّ تَمُرُّ فِي التَّنَاقُصِ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ الْخَرَابِ إِنْ قَدَّرَ لَهَا بِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .

(١) الزلج : الصخور الملس ( لسان العرب ) .

(٢) الربج : الدرهم الصغير ( لسان العرب ) وفي النسخة الباريسية السجج : الخرز الأسود ( البيان

## الفصل الحادي عشر

في ان تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرزق لأهلها ونفاق الأسواق

إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلّة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُرِفَ وَثَبَتَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنَ الْبَشَرِ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ بِتَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ فِي مَعَاشِهِ وَأَنَّهُمْ مُتَعَاوِنُونَ جَمِيعاً فِي عُمُرَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَالْحَاجَةُ الَّتِي تَحْضُلُ بِتَعَاوُنِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَشْتَدُّ ضَرُورَةً الْأَكْثَرَ مِنْ عَدِيدِهِمْ أضعافاً . فَالْقُوَّةُ مِنَ الْحِنْطَةِ مَثَلًا لَا يَسْتَقِلُّ الْوَاحِدُ بِتَحْصِيلِ حِصَّتِهِ مِنْهُ . وَإِذَا انْتَدَبَ لِتَحْصِيلِهِ السَّنَةَ أَوْ الْعَشْرَةَ مِنْ حَدَائِدِ وَنَجَارٍ لِلآلَاتِ وَقَائِمٍ عَلَى الْبَقَرِ وَإِثَارَةِ الْأَرْضِ وَحِصَادِ السُّنْبُلِ وَسَائِرِ مَوْنِ الْفُلُجِ وَتَوَزُّعُوا عَلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ أَوْ اجْتَمَعُوا وَحَصَلَ بِعَمَلِهِمْ ذَلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ الْقُوَّةِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قُوَّةٌ لِأضعافِهِمْ مَرَّاتٍ . فَالْأَعْمَالُ بَعْدَ الْاجْتِمَاعِ زَائِدَةٌ عَلَى حَاجَاتِ الْعَامِلِينَ وَضُرُورَاتِهِمْ . فَأَهْلُ مَدِينَةٍ أَوْ مِصْرٍ إِذَا وَرَعَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلَّهَا عَلَى مِقْدَارِ ضُرُورَاتِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ أَكْتَفَى فِيهَا بِالْأَقَلِّ مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَبَقِيَتِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا زَائِدَةً عَلَى الضَّرُورَاتِ فَتُضْرَفُ فِي حَالَاتِ التَّرْفِ وَعَوَائِدِهِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَيَسْتَجْلِبُونَهُ مِنْهُمْ بِأَعْوَابِهِ وَقِيمِهِ فَيَكُونُ لَهُمْ بِذَلِكَ خَطٌّ مِنَ الْعِنَى وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ فِي الْفُضْلِ الْخَامِسِ فِي بَابِ الْكَسْبِ وَالرِّزْقِ أَنَّ الْمَكَاسِبَ إِنَّمَا هِيَ قِيمَةُ الْأَعْمَالِ فَإِذَا كَثُرَتِ الْأَعْمَالُ كَثُرَتْ قِيمَتُهَا بَيْنَهُمْ فَكَثُرَتْ مَكَاسِبُهُمْ ضَرُورَةٌ وَدَعَتْهُمْ أَحْوَالُ الرِّفَةِ وَالْعِنَى إِلَى التَّرْفِ وَحَاجَاتِهِ مِنَ التَّائِقِ فِي الْمَسَاكِينِ وَالْمَلَايِسِ وَاسْتِجَادَةِ الْآيِنَةِ وَالْمَاعُونِ وَاتِّخَاذِ الْخَدَمِ وَالْمَرَائِكِبِ وَهَذِهِ كُلُّهَا أَعْمَالٌ تُسْتَدْعَى بِقِيمَتِهَا وَيُخْتَارُ الْمَهْرَةُ فِي صِنَاعَتِهَا وَالْقِيَامُ عَلَيْهَا فَتَنْفَقُ أَسْوَاقُ الْأَعْمَالِ وَالصَّنَائِعِ وَيَكْثُرُ دَخْلُ الْمِصْرِ وَخَرْجُهُ وَيَحْضُلُ الْيَسَارُ لِمُنْتَجِلِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِمْ . وَمَتَى زَادَ الْعُمُرَانُ زَادَتِ الْأَعْمَالُ ثَانِيَةً ثُمَّ زَادَ التَّرْفُ تَابِعاً لِلْكَسْبِ

وَزَادَتْ عَوَائِدُهُ وَحَاجَاتُهُ . وَاسْتَنْبَطَتِ الصَّنَائِعُ لِتَحْصِيلِهَا فَزَادَتْ قِيمُهَا وَتَضَاعَفَ  
الْكَسْبُ فِي الْمَدِينَةِ لِذَلِكَ ثَانِيَةً وَنَفَقَتْ سُوقُ الْأَعْمَالِ بِهَا أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلِ . وَكَذَا فِي  
الزِّيَادَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ الزَّائِدَةَ كُلَّهَا تَخْتَصُّ بِالتَّرْفِ وَالْغِنَى بِخِلَافِ  
الْأَعْمَالِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِالْمَعَاشِ . فَالْمِضْرُ إِذَا فَضَلَ بِعُمْرَانٍ وَاحِدٍ فَفَضْلُهُ  
بِزِيَادَةِ كَسْبٍ وَرَفِهِ بِعَوَائِدٍ مِنَ التَّرْفِ لَا تَوْجَدُ فِي الْآخِرِ فَمَا كَانَ عُمْرَانُهُ مِنْ  
الْأَمْصَارِ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ كَانَ حَالُ أَهْلِهِ فِي التَّرْفِ أْبْلَغَ مِنْ حَالِ الْمِضْرِ الَّذِي دُونَهُ عَلَى  
وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْأَصْنَافِ . الْقَاضِي مَعَ الْقَاضِي وَالتَّاجِرُ مَعَ التَّاجِرِ وَالصَّانِعُ مَعَ  
الصَّانِعِ وَالسُّوقِيُّ مَعَ السُّوقِيِّ وَالْأَمِيرُ مَعَ الْأَمِيرِ وَالشَّرْطِيُّ مَعَ الشَّرْطِيِّ . وَاعْتَبِرْ  
ذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ مَثَلًا بِحَالِ فِاسَ مَعَ غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِهِ مِثْلَ بَجَايَةَ وَتَلْمَسَانَ وَسَبْتَةَ  
تَجِدُ بَيْنَهُمَا بَوْنًا كَثِيرًا عَلَى الْجُمْلَةِ . ثُمَّ عَلَى الْخُصُوصِيَّاتِ فَحَالُ الْقَاضِي بِفِاسَ  
أَوْسَعُ مِنْ حَالِ الْقَاضِي بِتَلْمَسَانَ وَهَكَذَا كُلُّ صِنْفٍ مَعَ صِنْفِ أَهْلِهِ . وَكَذَا أَيْضًا حَالُ  
تَلْمَسَانَ مَعَ وَهْرَانَ أَوْ الْجَزَائِرِ وَحَالُ وَهْرَانَ وَالْجَزَائِرِ مَعَ مَا دُونَهُمَا إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى  
الْمَدْرِ<sup>(١)</sup> الَّذِينَ اعْتَمَالَهُمْ فِي ضَرُورِيَّاتِ<sup>(٢)</sup> مَعَاشِهِمْ فَقَطُّ وَيَقْصُرُونَ عَنْهَا . وَمَا ذَلِكَ  
إِلَّا لِتَفَاوُتِ الْأَعْمَالِ فِيهَا فَكَأَنَّهَا كُلُّهَا أَسْوَاقٌ لِلْأَعْمَالِ . وَالْخَرْجُ فِي كُلِّ سُوْقٍ عَلَى  
نِسْبَتِهِ فَالْقَاضِي بِفِاسَ دَخَلَهُ كِفَاءُ خَرْجِهِ وَكَذَا الْقَاضِي بِتَلْمَسَانَ وَحَيْثُ الدُّخْلُ  
وَالْخَرْجُ أَكْثَرُ تَكُونُ الْأَحْوَالُ أَعْظَمَ وَهُمَا بِفِاسَ أَكْثَرُ لِتَفَاقِ سُوْقِ<sup>(٣)</sup> الْأَعْمَالِ بِمَا  
يَدْعُو إِلَيْهِ التَّرْفُ فَالْأَحْوَالُ أَضْحَمُ . ثُمَّ هَكَذَا حَالُ وَهْرَانَ وَقُسْنطينِيَّةِ وَالْجَزَائِرِ  
وَبِسْكَرَةَ حَتَّى تَنْتَهِيَ كَمَا قُلْنَا إِلَى الْأَمْصَارِ الَّتِي لَا تُوْفَى<sup>(٤)</sup> أَعْمَالُهَا بِضَرُورَاتِهَا  
وَلَا تُعَدُّ فِي الْأَمْصَارِ إِذْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْقُرَى وَالْمَدْرِ . فَلِذَلِكَ تَجِدُ أَهْلَ هَذِهِ الْأَمْصَارِ  
الصَّغِيرَةِ ضَعْفَاءَ الْأَحْوَالِ مُتَقَارِبِينَ فِي الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ لِمَا أَنَّ أَعْمَالَهُمْ لَا تَفِي

(١) وفي النسخة الباريسية : المدائر

(٢) وفي النسخة الباريسية : ضرورات .

(٣) وفي النسخة الباريسية : سائر الأعمال .

(٤) وفي النسخة الباريسية : تفي .

بِضُرُورَاتِهِمْ وَلَا يَفْضُلُ مَا يَتَأَلَّوْنَهُ كَسْباً فَلَا تَنْمُو مَكَاسِبُهُمْ . وَهُمْ لِذَلِكَ مَسَاكِينٌ  
مَحَاوِيحٌ إِلَّا فِي الْأَقَلِّ النَّادِرِ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ حَتَّى فِي أحوَالِ الْفُقَرَاءِ وَالسُّوَالِ فَإِنَّ  
السَّائِلَ يَفَاسُ أَحْسَنُ حَالاً مِنَ السَّائِلِ يَتَلْمَسَانِ أَوْ وَهْرَانَ . وَلَقَدْ شَاهَدْتُ بِفَاسِ  
السُّوَالِ يَسْأَلُونَ أَيَّامَ الْأَصَاحِي أَثْمَانَ ضَحَايَاهُمْ وَرَأَيْتُهُمْ يَسْأَلُونَ كَثِيراً مِنْ أحوَالِ  
التَّرْفِ وَاقْتِرَاحِ الْمَأْكَلِ مِثْلَ سُوَالِ اللَّحْمِ وَالسَّمْنِ وَعِلَاجِ الطَّبْخِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَاعُونِ  
كَالْفَرْبَالِ وَالْآبِيَةِ . وَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ مِثْلَ هَذَا يَتَلْمَسَانِ أَوْ وَهْرَانَ لَأَسْتَنْكَرَ وَعَنَّفَ  
وَزَجَرَ . وَيَبْلُغُنَا لِهَذَا الْعَهْدِ عَنْ أحوَالِ الْقَاهِرَةِ وَمَضَرَ مِنَ التَّرْفِ وَالْغِنَى فِي عَوَائِدِهِمْ  
مَا يَقْضَى <sup>(١)</sup> مِنْهُ الْعَجَبُ حَتَّى أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْفُقَرَاءِ بِالْمَغْرِبِ يَنْزِعُونَ مِنَ الثَّقَلَةِ إِلَى  
مِضْرَ لِذَلِكَ وَلَمَّا يَبْلُغُهُمْ مِنْ شَأْنِ الرِّفَةِ بِمِضْرَ أَعْظَمَ مِنْ غَيْرِهَا . وَيَعْتَقِدُ الْعَامَّةُ مِنَ  
النَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ لِرِيزَادَةِ إِيْثَارِ فِي أَهْلِ تِلْكَ الْأَفَاقِ عَلَى غَيْرِهِمْ أَوْ أَمْوَالِ مُخْتَرَنَةِ  
لِدِيهِمْ <sup>(٢)</sup> . وَأَنْتُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةٍ وَإِيْثَاراً مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هُوَ  
لِمَا تَعْرِفُهُ مِنْ أَنَّ عُمَرََانَ مِضْرَ وَالْقَاهِرَةَ أَكْثَرُ مِنْ عُمَرََانَ هَذِهِ الْأَمْصَارِ الَّتِي لَدَيْكَ  
فَعَظَمْتَ لِذَلِكَ أحوَالَهُمْ . وَأَمَّا حَالُ الدُّخْلِ وَالْخُرْجِ فَمُتَكَافِئَةٌ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ  
وَمَتَى عَظُمَ الدُّخْلُ عَظُمَ الْخُرْجُ وَبِالْعَكْسِ وَمَتَى عَظُمَ الدُّخْلُ وَالْخُرْجُ اتَّسَعَتْ  
أحوَالُ السَّاكِنِ وَوَسَّعَ الْمِضْرُ . كُلُّ شَيْءٍ يَبْلُغُكَ مِنْ مِثْلِ هَذَا فَلَا تُنْكِرْهُ وَاعْتَبِرْهُ  
بِكثْرَةِ الْعُمَرََانَ وَمَا يَكُونُ عَنْهُ مِنْ كَثْرَةِ الْمَكَاسِبَةِ الَّتِي يَسْهَلُ بِسَبَبِهَا الْبَدَلُ  
وَالْإِيْثَارُ عَلَى مُبْتَغِيهِ وَمِثْلُهُ بِشَأْنِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ مَعَ بِيُوتِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ  
وَكَيفَ تَخْتَلِفُ أحوَالُهَا فِي هُجْرَانِهَا أَوْ غَشْيَانِهَا فَإِنَّ بِيُوتَ أَهْلِ النِّعَمِ وَالشَّرْوَةِ  
وَالْمَوَائِدِ الْخَصِيصَةِ <sup>(٣)</sup> مِنْهَا تَكْثُرُ بِسَاحَتِهَا وَأَقْنِيَّتِهَا يَنْشُرُ الْحُبُوبَ وَسَوَاقِطِ الْفَتَاتِ  
فَيَزْدَحِمُ عَلَيْهَا غَوَاشِي النَّمْلِ وَالْخِشَاشِ وَيَلْحَقُ فَوْقَهَا عَصَائِبُ الطَّيُورِ حَتَّى تَرُوحَ  
بِطَاناً وَتَمْتَلِيءَ شَبْعاً وَرِيّاً وَبِيُوتَ أَهْلِ الْخِصَاصَةِ وَالْفُقَرَاءِ الْكَاسِدَةِ أَرْزَاقَهُمْ

(١) وفي نسخة أخرى : ما تقضي .

(٢) وفي النسخة الباريسية : لطمو الأموال في تلك الأفاق . وإن الأموال مختزنة لديهم .

(٣) وفي النسخة الباريسية : الخصيصة .

لَا يَسْرِي بِسَاحَتِهَا دَبِيبٌ وَلَا يَحْلُقُ بِجَوْهَا طَائِرٌ وَلَا تَأْوِي إِلَى زَوَايَا بُيُوتِهِمْ فَأَرَّةٌ  
وَلَا هِرَّةٌ<sup>(١)</sup> كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

تَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ تَلْتَقِطُ الْحَبَّ وَتَغْشَى مَنَازِلَ الْكُرْمَاءِ<sup>(٢)</sup>

فَتَأْمَلُ سِرَّ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ وَاعْتَبِرْ غَاشِيَةَ الْأَنْاسِيِّ بِغَاشِيَةِ الْعُجْمِ مِنْ  
الْحَيَوَانَاتِ وَقَاتِ الْمَوَائِدِ بِفَضْلَاتِ الرِّزْقِ وَالتَّرَفِ وَسَهُولَتِهَا عَلَى مَنْ يَبْدُلُهَا  
لِاسْتِغْنَائِهِمْ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ لَوْجُودِ أَمْثَالِهَا لَدَيْهِمْ وَأَعْلَمُ أَنَّ اتِّسَاعَ الْأَحْوَالِ وَكَثْرَةَ  
النِّعَمِ فِي الْعُمْرَانِ تَابِعٌ لِكَثْرَتِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

## الفصل الثاني عشر

### في أسعار المدن

إِعْلَمُ أَنَّ الْأَسْوَاقَ كُلَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى حَاجَاتِ النَّاسِ فَمِنْهَا الضَّرُورِيُّ وَهِيَ  
الْأَقْوَاتُ مِنَ الْحِنْطَةِ وَمَا مَعْنَاهَا كَالْبَاقِلَاءِ وَالْبَصْلِ وَالثُّومِ وَأَشْبَاهِهِ وَمِنْهَا الْحَاجِيُّ  
وَالْكَمَالِيُّ مِثْلُ الْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَاعُونِ وَالْمَرَائِبِ وَسَائِرِ الْمَصْنَعِ  
وَالْمَبْنِيِّ فَإِذَا اسْتَبَحَرَ الْمِضْرُ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ رَخِصَتْ أَسْعَارُ الضَّرُورِيِّ مِنَ الْقَوْتِ وَمَا  
فِي مَعْنَاهُ وَغَلَّتْ أَسْعَارُ الْكَمَالِيِّ مِنَ الْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا يَتَّبِعُهَا وَإِذَا قَلَّ سَاكِنُ الْمِضْرِ  
وَضَعُفَ عُمْرَانُهُ كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْحُبُوبَ مِنْ  
ضَرُورَاتِ الْقَوْتِ فَتَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى اتِّخَاذِهَا إِذْ كُلُّ أَحَدٍ لَا يَهْمِلُ قَوْتَ نَفْسِهِ وَلَا  
قَوْتَ مَنْزِلِهِ لِشَهْرِهِ أَوْ سَنَتِهِ فَيَعْمُ اتِّخَاذُهَا أَهْلُ الْمِضْرِ أَجْمَعُ أَوْ الْأَكْثَرُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ  
الْمِضْرِ أَوْ فِيمَا قَرَبَ مِنْهُ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ . وَكُلُّ مُتَّخِذٍ لِقَوْتِهِ فَتَفْضُلُ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ  
بَيْتِهِ فَضْلَةٌ كَبِيرَةٌ تُسَدُّ خَلَّةَ كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمِضْرِ فَتَفْضُلُ الْأَقْوَاتُ عَنْ أَهْلِ

(١) وفي النسخة الباريسية وردت هذه العبارة : « يأوي إلى أسراب بيوتها فأرة ولا هر » .

(٢) وفي النسخة الباريسية : يسقط الطير حيث يلتقط الحب ويغشى منازل الكرماء .

المِضْرَمِ غَيْرِ شَكِّ فَتَرُخُصُ أَسْعَارُهَا فِي الْغَالِبِ إِلَّا مَا يُصِيبُهَا فِي بَعْضِ السَّنِينَ مِنْ  
الْآفَاتِ السَّمَاءِيَّةِ وَلَوْلَا اخْتِكَارُ النَّاسِ لَهَا لِمَا يَتَوَقَّعُ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ لَبَدَّلَتْ دُونَ  
ثَمَنِ وَلَا عَوْضَ لِكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ الْعُمَرَانِ . وَأَمَّا سَائِرُ الْمَرَافِقِ مِنَ الْأَدَمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا  
إِلَيْهَا لَا تَعْمُ بِهَا الْبَلْوَى وَلَا يَسْتَفْرِقُ اتِّخَاذُهَا أَعْمَالَ أَهْلِ الْمِضْرَمِ أَجْمَعِينَ وَلَا الْكَثِيرَ  
مِنْهُمْ ثُمَّ إِنَّ الْمِضْرَمَ إِذَا كَانَ مُسْتَبْجِرًا مَوْفُورَ الْعُمَرَانِ كَثِيرَ حَاجَاتِ التَّرْفِ تَوَفَّرَتْ  
حِينَئِذٍ الدَّوَاعِي عَلَى طَلَبِ تِلْكَ الْمَرَافِقِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا كُلِّ بِحَسَبِ حَالِهِ فَيَقْصُرُ  
الْمَوْجُودُ مِنْهَا عَلَى الْحَاجَاتِ قُصُورًا بَالِغًا وَيَكْثُرُ الْمُسْتَأْمُونَ لَهَا وَهِيَ قَلِيلَةٌ فِي  
نَفْسِهَا فَتَزْدَحِمُ أَهْلَ الْأَغْرَاضِ وَيَبْذُلُ أَهْلُ الرَّفْهِ وَالتَّرْفِ أَثْمَانَهَا بِإِسْرَافٍ فِي الْغَلَاءِ  
لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَقَعُ فِيهَا الْغَلَاءُ كَمَا تَرَاهُ . وَأَمَّا الصَّنَائِعُ وَالْأَعْمَالُ  
أَيْضًا فِي الْأَمْصَارِ الْمَوْفُورَةِ الْعُمَرَانِ فَسَبَبُ الْغَلَاءِ فِيهَا أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ : الْأَوَّلُ كَثْرَةُ  
الْحَاجَةِ لِمَكَانِ التَّرْفِ فِي الْمِضْرَمِ بِكَثْرَةِ عُمَرَانِهِ ، وَالثَّانِي اعْتِزَّازُ أَهْلِ الْأَعْمَالِ  
لِخِدْمَتِهِمْ <sup>(١)</sup> وَامْتِهَانِ أَنْفُسِهِمْ لِسُهُولَةِ الْمَعَاشِ فِي الْمَدِينَةِ بِكَثْرَةِ أَقْوَاتِهَا ، وَالثَّلَاثُ  
كَثْرَةُ الْمُتَرْفِينَ وَكَثْرَةُ حَاجَاتِهِمْ إِلَى امْتِهَانِ غَيْرِهِمْ وَإِلَى اسْتِعْمَالِ الصَّنَاعِ فِي مِهْنِهِمْ  
فَيَبْذُلُونَ فِي ذَلِكَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ أَكْثَرَ مِنْ قِيَمَةِ أَعْمَالِهِمْ مَزَاحِمَةً وَمُنَافَسَةً فِي الْإِسْتِكْثَارِ  
بِهَا فَيَعْتَزُّ الْعُمَّالُ وَالصَّنَاعُ وَأَهْلُ الْحِرْفِ وَتَغْلُو أَعْمَالُهُمْ وَتَكْثُرُ نَفَقَاتُ أَهْلِ الْمِضْرَمِ فِي  
ذَلِكَ . وَأَمَّا الْأَمْصَارُ الصَّغِيرَةُ وَالْقَلِيلَةُ السَّاكِنِ فَأَقْوَاتُهُمْ قَلِيلَةٌ لِقَلَّةِ الْعَمَلِ فِيهَا وَمَا  
يَتَوَقَّعُونَهُ لِصِغَرِ مِضْرَمِهِمْ مِنْ عَدَمِ الْقُوَّةِ فَيَتَمَسَّكُونَ بِمَا يَخْصُلُ مِنْهُ فِي أَيْدِيهِمْ  
وَيَحْتَكِرُونَهُ فَيَعِزُّ وَجُودُهُ لَدَيْهِمْ وَيَغْلُو ثَمَنُهُ عَلَى مُسْتَأْمِهِ . وَأَمَّا مَرَافِقُهُمْ فَلَا تَدْعُو  
إِلَيْهَا أَيْضًا حَاجَةٌ بَقِيلَةٌ <sup>(٢)</sup> السَّاكِنِ وَضَعْفِ الْأَحْوَالِ فَلَا تَنْفُقُ لَدَيْهِمْ سَوْقُهُ فَيَخْتَصُّ  
بِالرُّخْصِ فِي سِعْرِهِ . وَقَدْ يَدْخُلُ أَيْضًا فِي قِيَمَةِ الْأَقْوَاتِ قِيَمَةُ مَا يَغْرُضُ <sup>(٣)</sup> عَلَيْهَا  
مِنَ الْمَكُوسِ وَالْمَعَارِمِ لِلسُّلْطَانِ فِي الْأَسْوَاقِ وَبَابِ الْحَفْرِ وَالْحَيَاةِ فِي مَنَافِعِ وَصُولِهَا

(١) وفي نسخة أخرى بخدمتهم .

(٢) وفي نسخة أخرى : لقله .

(٣) وفي نسخة أخرى : يفرض .

عَنِ الْبَيْوَعَاتِ لَمَّا يَمَسُّهُمُ<sup>(١)</sup> . وَبِذَلِكَ كَانَتْ الْأَشْعَارُ فِي الْأَمْصَارِ أَعْلَى مِنَ الْأَشْعَارِ فِي  
الْبَادِيَةِ إِذِ الْمَكُوسُ وَالْمَعَارِمُ وَالْفَرَائِضُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِمْ أَوْ مَعْدُومَةٌ . وَكَثُرَتْهَا<sup>(٢)</sup> فِي  
الْأَنْصَارِ لَا سِيَّمَا فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ تَدَخَّلَ أَيْضًا فِي قِيَمَةِ الْأَقْوَاتِ قِيَمَةٌ عِلَاجِيهَا فِي  
الْفَلْحِ وَيَحَافِظُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَسْعَارِهَا كَمَا وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَمِيدِ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا  
الْجَاهُ النَّصَارَى إِلَى سِنْفِ الْبُخْرِ وَبِلَادِهِ الْمُتَوَعَّرَةِ الْخَبِيثَةِ الزَّرَاعَةِ التَّكِدَةَ النَّبَاتِ  
وَمَلَكُوا عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ الزَّاكِيَةَ وَالْبَلَدَ الطَّيِّبَ فَاحْتَاجُوا إِلَى عِلَاجِ الْمَزَارِعِ وَالْفُدُنِ  
لِإِصْلَاحِ نَبَاتِهَا وَفَلِحِهَا وَكَانَ ذَلِكَ الْعِلَاجُ بِأَعْمَالِ ذَاتِ قِيَمٍ وَمَوَادِّ مِنَ الزَّبْلِ وَغَيْرِهِ  
لَهَا مَوْئَةٌ وَصَارَتْ فِي فَلَاحِهِمْ نَفَقَاتٌ لَهَا خَطَرٌ فَاعْتَبَرُوهَا فِي سِعْرِهْمُ . وَاخْتَصَّ قَطْرُ  
الْأَنْدَلُسِ بِالْغَلَاءِ مُنْذُ اضْطَرَّهُمُ النَّصَارَى إِلَى هَذَا الْمَعْمُورِ بِالْإِسْلَامِ مَعَ سَوَاحِلِهَا  
لَأَجْلِ ذَلِكَ . وَيَخْسِبُ النَّاسُ إِذَا سَمِعُوا بِنِغْلَاءِ الْأَشْعَارِ فِي قَطْرِهْمُ أَنَّهَا لِقَلَّةِ الْأَقْوَاتِ  
وَالْحُبُوبِ فِي أَرْضِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَهَمُ أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَعْمُورِ فَلِحَا فِيمَا عَلِمْنَاهُ وَأَقْوَمُهُمْ  
عَلَيْهِ وَقَلَّ أَنْ يَخْلُوَ مِنْهُمْ سُلْطَانٌ أَوْ سُوقَةٌ عَنْ فِدَانٍ أَوْ مَزْرَعَةٍ أَوْ فَلَاحٍ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ  
أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ وَالْمِهَنِ أَوْ الطَّرَاءِ عَلَى الْوَطَنِ مِنَ الْغَزَاةِ الْمُجَاهِدِينَ . وَلِهَذَا  
يَخْتَصُّهُمُ السُّلْطَانُ فِي عَطَائِهِمْ بِالْعَوْلَةِ وَهِيَ أَقْوَاتُهُمْ وَعُلُوفَاتُهُمْ مِنَ الزَّرْعِ . وَإِنَّمَا  
السَّبَبُ فِي غَلَاءِ سِعْرِ الْحُبُوبِ عِنْدَهُمْ مَا ذَكَرْنَا . وَلَمَّا كَانَتْ بِلَادُ الْبَرْبَرِ بِالْعَكْسِ  
مِنْ ذَلِكَ فِي زَكَاءِ مَنَابِتِهِمْ وَطَيِّبِ أَرْضِهِمْ ارْتَفَعَتْ عَنْهُمْ الْمُونُ جُمْلَةً فِي الْفَلَاحِ مَعَ  
كَثْرَتِهِ وَعُمُومَتِهِ<sup>(٣)</sup> فَصَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لِرُخْصِ الْأَقْوَاتِ بِيَدِهِمْ « وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ  
وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا رَبَّ سِوَاهُ » .

(١) وفي نسخة أخرى : وأبواب أخرى : وأبواب مصر وللجباه في منافع يفرضونها على البياعات لأنفسهم

(٢) وفي نسخة أخرى : وبالعكس كثيرة .

(٣) وفي نسخة أخرى : عمومه .

## الفصل الثالث عشر

### في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمِصْرَ الْكَثِيرَ الْعُمْرَانَ يَكْثُرُ تَرْفُهُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَتَكْثُرُ حَاجَاتُ سَاكِنِهِ مِنْ أَجْلِ التَّرْفِ . وَتُعْتَادُ تِلْكَ الْحَاجَاتُ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهَا فَتَنْقَلِبُ ضُرُورَاتٍ وَتَصِيرُ فِيهِ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا مَعَ ذَلِكَ عَزِيْزَةً وَالْمَرَافِقُ غَالِيَةً بِازْدِحَامِ الْأَعْرَاضِ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ التَّرْفِ وَبِالْمَعَارِمِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي تَوْضَعُ عَلَى الْأَسْوَاقِ وَالْبِيَاعَاتِ وَتُعْتَبَرُ فِي قِيَمِ الْمِصْبَعَاتِ وَيَعْظُمُ فِيهَا الْغَلَاءُ فِي الْمَرَافِقِ وَالْأَوْقَاتِ <sup>(١)</sup> وَالْأَعْمَالِ فَتَكْثُرُ لِذَلِكَ نَفَقَاتُ سَاكِنِهِ كَثْرَةً بَالِغَةً عَلَى نِسْبَةِ عُمْرَانِهِ . وَيَعْظُمُ خَرْجُهُ فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى الْمَالِ الْكَثِيرِ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ فِي ضُرُورَاتِ عَيْشِهِمْ وَسَائِرِ مَوْوِنَتِهِمْ <sup>(٢)</sup> . وَالْبَدْوِيُّ لَمْ يَكُنْ دَخْلُهُ كَثِيراً سَاكِناً بِمَكَانِ كَاسِدِ الْأَسْوَاقِ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْكَسْبِ فَلَمْ يَتَأْتَلْ كَسْباً وَلَا مَالاً فَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سُكْنَى الْمِصْرِ الْكَبِيرِ لِغَلَاءِ مَرَافِقِهِ وَعِزَّةِ حَاجَاتِهِ . وَهُوَ فِي بَدْوِهِ يَسُدُّ خَلْتَهُ بِأَقْلِ الْأَعْمَالِ لِأَنَّهُ قَلِيلٌ عَوَائِدِ التَّرْفِ فِي مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مَوْوِنَتِهِ <sup>(٣)</sup> فَلَا يُضْطَرُّ إِلَى الْمَالِ وَكُلُّ مَنْ يَتَشَوَّفُ إِلَى الْمِصْرِ وَسُكْنَاهُ مِنَ الْبَادِيَةِ <sup>(٤)</sup> فَسَرِيعاً مَا يَظْهَرُ عَجْزُهُ وَيَفْتَضِحُ فِي اسْتِطْبَانِهِ إِلَّا مَنْ يَقْدَمُ <sup>(٤)</sup> مِنْهُمْ تَأْتَلُ الْمَالِ وَيَحْصُلُ لَهُ مِنْهُ فَوْقَ الْحَاجَةِ وَيَجْرِي إِلَى الْغَايَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِأَهْلِ الْعُمْرَانَ مِنَ الدَّعَةِ وَالتَّرْفِ فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ إِلَى الْمِصْرِ وَيَنْتَظِمُ حَالَهُ مَعَ أَحْوَالِ أَهْلِهِ فِي عَوَائِدِهِمْ وَتَرْفِهِمْ . وَهَكَذَا شَأْنُ بَدَاةِ عُمْرَانَ الْأَمْصَارِ . وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ .

(١) وفي نسخة أخرى : الأقوات .

(٢) وفي نسخة أخرى : مؤونهم .

(٣) وفي نسخة أخرى : من أهل البادية .

(٤) وفي نسخة أخرى : تقدم .



## الفصل الرابع عشر

في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرّفه والفقّر مثل الأمصار

إِغْلَمَ أَنَّ مَا تَوَفَّرَ عُمْرَانُهُ مِنَ الْأَقْطَارِ وَتَعَدَّدَتِ الْأُمَمُ فِي جِهَاتِهِ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ اتَّسَعَتْ أحوالُ أَهْلِهِ وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَمْصَارُهُمْ وَعَظُمَتْ دَوْلَتُهُمْ وَمَمَالِكُهُمْ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْأَعْمَالِ وَمَا سَيَّأَتِي ذِكْرُهُ مِنْ أَنَّهَا سَبَبٌ لِلثَّرْوَةِ بِمَا يَفْضَلُ عَنْهَا بَعْدَ الْوَفَاءِ بِالضَّرُورِيَّاتِ فِي حَاجَاتِ السَّاكِنِينَ مِنَ الْفَضْلَةِ الْبَالِغَةِ عَلَى مِقْدَارِ الْعُمْرَانِ وَكَثْرَتِهِ فَيَعُودُ عَلَى النَّاسِ كَسْبًا يَتَأَثَّلُونَهُ حَسَبًا نَذَكُرُ ذَلِكَ فِي فَصْلِ الْمَعَاشِ وَبَيَانِ الرِّزْقِ وَالْكَسْبِ فَيَتَزَيَّدُ الرِّفْقَةُ لِذَلِكَ وَتَتَسَّعُ الْأَحْوَالُ وَيَجِيءُ التَّرْفُ وَالغِنَى وَتَكْثُرُ الْجَبَايَةُ لِلدَّوْلَةِ بِنِفاقِ الْأَسْوَاقِ فَيَكْثُرُ مَالُهَا وَيَشْمَخُ سُلْطَانُهَا وَتَتَفَنَّنُ فِي اتِّخَاذِ الْمَعَاوِلِ وَالْحُصُونِ وَاخْتِطَاطِ الْمُدُنِ وَتَشْيِيدِ الْأَمْصَارِ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَقْطَارِ الْمَشْرِقِ مِثْلَ مِصْرَ وَالشَّامِ وَعِرَاقِ الْعَجَمِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ وَنَاحِيَةِ الشَّمَالِ كُلِّهَا وَأَقْطَارِهَا وَرِأَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ لَمَّا كَثُرَ عُمْرَانُهَا كَيْفَ كَثُرَ الْمَالُ فِيهِمْ وَعَظُمَتْ دَوْلَتُهُمْ<sup>(١)</sup> وَتَعَدَّدَتْ مُدُنُهُمْ وَحَوَاضِرُهُمْ وَعَظُمَتْ مَتَاجِرُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ . فَالَّذِي نَشَاهِدُهُ لِهَذَا الْعَبْدِ مِنْ أحوالِ تِجَارِ الْأُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ الْوَارِدِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْمَغْرِبِ فِي رِفْقِهِمْ وَاتِّسَاعِ أحوالِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ الْوُضْفُ . وَكَذَا تِجَارُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَمَا يَبْلُغُنَا عَنْ أحوالِهِمْ وَأَبْلَغُ مِنْهَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ الْأَقْصَى مِنْ عِرَاقِ الْعَجَمِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ فَإِنَّهُ يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ فِي بَابِ الْغِنَى وَالرِّفْقَةِ عَرَائِبُ تَسِيرِ الرُّكْبَانِ بِحَدِيثِهَا وَرُبَّمَا تَتَلَقَّى بِالْإِنْكَارِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ . وَيَحْسِبُ مَنْ يَسْمَعُهَا مِنَ الْعَامَّةِ أَنَّ ذَلِكَ لِرِيزَادَةِ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ لِأَنَّ الْمَعَادِنَ الذَّهَبِيَّةَ وَالْفِضِّيَّةَ أَكْثَرَ بِأَرْضِهِمْ أَوْ لِأَنَّ ذَهَبَ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الْأُمَمِ اسْتَأَثَرُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَمَعْدِنُ الذَّهَبِ

(١) وفي بعض النسخ : دولتهم .

الَّذِي نَعْرِفُهُ فِي هَذِهِ الْأَقْطَارِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بِلَادِ<sup>(١)</sup> السُّودَانِ وَهِيَ إِلَى الْمَغْرِبِ أَقْرَبُ .  
وَجَمِيعُ مَا فِي أَرْضِهِمْ مِنَ الْبِضَاعَةِ فَإِنَّمَا يَجْلِبُونَهُ إِلَى غَيْرِ بِلَادِهِمْ لِلتَّجَارَةِ . فَلَوْ كَانَ  
الْمَالُ عَتِيداً مَوْفُوراً لَدَيْهِمْ لَمَا جَلَبُوا بِضَائِعَهُمْ إِلَى سِوَاهُمْ يَسْتَعُونُ بِهَا الْأَمْوَالَ وَلَا  
اسْتَعْنُوا<sup>(٢)</sup> عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْجُمْلَةِ . وَلَقَدْ ذَهَبَ الْمُنْجَمُونَ لَمَّا رَأَوْا مِثْلَ ذَلِكَ  
وَاسْتَعْرَبُوا مَا فِي الْمَشْرِقِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَحْوَالِ وَاتَّسَاعِهَا وَوُفُورِ أَمْوَالِهَا فَقَالُوا بَإِنَّ  
عَطَايَا الْكَوَاكِبِ وَالسَّهَامِ فِي مَوَالِدِ الْمَشْرِقِ أَكْثَرُ مِنْهَا حِصْصاً فِي مَوَالِدِ أَهْلِ  
الْمَغْرِبِ وَذَلِكَ صَحِيحٌ مِنْ جِهَةِ الْمُطَابَقَةِ بَيْنَ الْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ  
الْأَرْضِيَّةِ كَمَا قُلْنَا هُمْ إِنَّمَا أُعْطُوا فِي ذَلِكَ السَّبَبِ النُّجُومِيِّ وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعْطُوا  
السَّبَبَ الْأَرْضِيَّ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْعُمَرَانِ وَاخْتِصَاصِهِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ  
وَأَقْطَارِهِ وَكَثْرَةِ الْعُمَرَانِ تَقْيِداً كَثْرَةَ الْكَسْبِ بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُهُ فَلِذَلِكَ  
اخْتَصَّ الْمَشْرِقُ بِالرِّفَةِ مِنْ بَيْنِ الْآفَاقِ لَا إِنْ ذَلِكَ لِمَجْرَدِ الْأَثَرِ النُّجُومِيِّ . فَقَدْ  
فَهِمْتَ مِمَّا أَشْرْنَا لَكَ أَوَّلاً أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ بِذَلِكَ وَأَنَّ الْمُطَابَقَةَ بَيْنَ حُكْمِهِ وَعُمَرَانِ  
الْأَرْضِ وَطَبِيعَتِهَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ . وَاعْتَبِرْ حَالَ هَذَا الرِّفَةِ مِنَ الْعُمَرَانِ فِي قَطْرِ  
أَفْرِيْقِيَّةِ وَبَرْقَةِ لَمَّا خَفَّ سَكْنُهَا<sup>(٣)</sup> وَتَنَاقَصَ عُمَرَانُهَا كَيْفَ تَلَاشَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهَا  
وَأَنْتَهَوْا إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ . وَضَعُفَتْ جَبَايَاتُهَا فَقَلَّتْ أَمْوَالُ دَوْلِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ  
دَوْلَ الشَّيْعَةِ وَصَنَاجَةِ بِهَا عَلَى مَا بَلَغَكَ مِنَ الرِّفَةِ وَكَثْرَةِ الْجَبَايَاتِ وَاتَّسَاعِ  
الْأَحْوَالِ فِي نَفَقَاتِهِمْ وَأَعْطِيَاتِهِمْ . حَتَّى لَقَدْ كَانَتْ الْأَمْوَالُ تُرْفَعُ مِنَ الْقَبْرِ وَانِ إِلَى  
صَاحِبِ مِصْرَ لِحَاجَاتِهِ وَمَهْمَاتِهِ وَكَانَتْ أَمْوَالُ الدَّوْلَةِ بِحَيْثُ حَمَلَ جَوْهَرَ الْكَاتِبِ فِي  
سَفَرِهِ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ أَلْفَ حِمْلٍ مِنَ الْمَالِ يَسْتَعِدُّ بِهَا لِأَرْزَاقِ الْجُنُودِ وَأَعْطِيَاتِهِمْ  
وَنَفَقَاتِ الْعُرَاةِ . وَقَطْرُ الْمَغْرِبِ وَإِنْ كَانَ فِي الْقَدِيمِ دُونَ أَفْرِيْقِيَّةِ فَلَمْ يَكُنْ بِالْقَلِيلِ  
فِي ذَلِكَ وَكَانَتْ أَحْوَالُهُ فِي دَوْلِ الْمُؤَحِّدِينَ مُتَّسِعَةً وَجَبَايَاتُهُ مَوْفُورَةً وَهُوَ لِهَذَا الْعَهْدِ

(١) وفي بعض النسخ : ببلاد .

(٢) وفي بعض النسخ : ولاستغنوا .

(٣) وفي بعض النسخ : ساكنها .

قَدْ أَقْصَرَ عَنْ ذَلِكَ لِقُصُورِ الْعُمَرَانِ فِيهِ وَتَنَاقُصِهِ فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ عُمَرَانَ الْبَرْبَرِ فِيهِ  
 أَكْثَرُهُ وَتَقَصَّ عَنْ مَعْبُودِهِ نَقْصاً ظَاهِراً مَحْسُوساً ، وَكَادَ أَنْ يَلْحَقَ فِي أَحْوَالِهِ بِمِثْلِ  
 أَحْوَالِ أَفْرِيْقِيَّةٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ عُمَرَانُهُ مُتَّصِلاً مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ فِي  
 طُولِ مَا بَيْنَ السُّوسِ الْأَقْصَى وَبَرْقَةَ . وَهِيَ الْيَوْمَ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا قِفَارٌ وَخَلَاءٌ  
 وَصَحَارَى إِلَّا مَا هُوَ مِنْهَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ مِنَ التُّلُولِ وَاللَّهِ وَارِثُ الْأَرْضِ  
 وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

## الفصل الخامس عشر

في تأثر العقار والضياع في الأمصار وحال فوائدها ومستغلاتها

إِغْلَمَ أَنْ تَأْتَلَ الْعُقَارَ وَالضِّيَاعَ الْكَثِيرَةَ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ لَا يَكُونُ دَفْعَةٌ  
 وَاحِدَةً وَلَا فِي عَصْرِ وَاحِدٍ إِذْ لَيْسَ يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مِنَ الثَّرْوَةِ مَا يَمْلِكُ بِهِ  
 الْأَمْلاكَ الَّتِي تَخْرُجُ قِيمَتُهَا عَنِ الْحَدِّ وَلَوْ بَلَغَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي الرَّفْعِ مَا عَسَى أَنْ تَبْلُغَ .  
 وَإِنَّمَا يَكُونُ مُلْكُهُمْ وَتَأْتَلُهُمْ لَهَا تَدْرِيْجاً إِمَّا بِالْوَرَاثَةِ مِنْ آبَائِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ حَتَّى  
 تَتَأْدَى أَمْلاكَ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ إِلَى الْوَاحِدِ وَأَكْثَرَ لِذَلِكَ <sup>(١)</sup> أَوْ أَنْ يَكُونَ بِحَوَالِهِ  
 الْأَسْوَاقِ فَإِنَّ الْعُقَارَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ وَأَوَّلِ الْأُخْرَى عِنْدَ فَنَاءِ الْحَامِيَةِ وَخَرْقِ السِّيَاحِ  
 وَتَدَاعِي الْمِصْرِ إِلَى الْخَرَابِ تَقِلُّ الْغَبْطَةُ بِهِ لِقِلَّةِ الْمَنْفَعَةِ فِيهَا بِتَلَاشِي الْأَحْوَالِ  
 فَتَرْخُصُ قِيمَتُهَا وَتَتَمَلَّكَ بِالْأَثْمَانِ الْيَسِيرَةِ وَتَتَخَطَّى بِالْمِيرَاثِ إِلَى مُلْكٍ آخَرَ وَقَدْ  
 اسْتَجَدَّ الْمِصْرُ شَبَابَهُ بِاسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ الثَّانِيَةِ وَانْتَضَمَتْ لَهُ أَحْوَالٌ رَائِقَةٌ حَسَنَةٌ  
 تَخْضَلُ مَعَهَا الْغَبْطَةُ فِي الْعُقَارِ وَالضِّيَاعِ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا حِينَئِذٍ فَتَعْظُمُ قِيمَتُهَا وَيَكُونُ  
 لَهَا خَطَرٌ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَوَّلِ . وَهَذَا مَعْنَى الْحَوَالَةِ فِيهَا وَيُضِحُّ مَالِكِهَا مِنْ أَهْلِ  
 الْمِصْرِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِسَعْيِهِ وَاكْتِسَابِهِ إِذْ قُدْرَتُهُ تَعْجِزُ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ . وَأَمَّا فَوَائِدُ

(١) وفي نسخة أخرى . كذلك .

العقار والضياع فهي غير كافية لمالكها في حاجات معاشه إذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه وإنما هي في الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش . والذي سمعناه من مشيخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياع إنما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء<sup>(١)</sup> ليكون مرباهم به ورزقه فيه ونشؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الإكتساب فإذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم وربما يكون من الولد من يعجز عن التمسك للضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي فيكون ذلك العقار قواماً لحاله . هذا قصد المترفين في اقتنائه . وأما التمول منه وإجراء أحوال المترفين فلا . وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحوالة الأسواق وحصول الكثرة البالغة منه والعالى<sup>(٢)</sup> في جنسه وقيمته في المضر إلا أن ذلك إذا حصل ربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة واعتصبوه في الغالب أو أراذوه على بيعه منهم ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب والله غالب على أمره وهو رب العرش العظيم .

## الفصل السادس عشر

في حاجات المتمولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة

وذلك أن الحصري إذا عظم تموله وكثر للعقار والضياع تأثله وأصبح أغنى أهل المضر ورمقته العيون بذلك وانفسخت أحواله في الترف والعوائد زاحم عليها الأمراء والملوك وغصوا به . ولما في طباع البشر من العدوان تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده وينافسونه فيه ويتحيلون على ذلك بكل ممكن حتى يحصلوه<sup>(٣)</sup> في رتبة حكم سلطانى وسبب من المؤاخدة ظاهر ينتزع به ماله وأكثر الأحكام

(١) وفي النسخة الباريسية : الضعاف .

(٢) وفي النسخة الباريسية : والتغالي . وفي نسخة أخرى المغالي .

(٣) وفي النسخة الباريسية : حتى يحصلوه وفي بعض النسخ : حتى يحصلونها - وحتى محصوله والربقة :

العروة في العجل .

السُّلْطَانِيَّةِ جَائِزَةً فِي الْغَالِبِ إِذِ الْعَدْلُ الْمَحْضُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ قَلِيلَةٌ اللَّبِثُ قَالَ ﷺ : « الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَعُودُ مُلْكًا عَضُوضًا » .  
 فَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ لِصَاحِبِ الْمَالِ وَالشَّرْوَةِ الشَّهِيرَةِ فِي الْعُمَرَانِ مِنْ حَامِيَّةٍ تَدُودُ عَنْهُ وَجَاهٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذِي قَرَابَةِ لِلْمَلِكِ أَوْ خَالِصَةٍ لَهُ أَوْ عَضِيَّةٍ يَتَحَامَاهَا السُّلْطَانُ فَيَسْتِظِلُّ هُوَ بِظِلِّهَا وَيَرْتَعُ فِي أَمْنِهَا مِنْ طَوَارِقِ التَّعَدِّي . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ أَصْبَحَ نَهْبًا بِوُجُوهِ التَّخِيلَاتِ وَأَسْبَابِ الْحُكَامِ <sup>(١)</sup> . وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ .

## الفصل السابع عشر

في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة  
 ورسوخها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْحَضَارَةَ هِيَ أَحْوَالٌ عَادِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ زِيَادَةٌ تَتَفَاوَتُ بِتَفَاوُتِ الرَّفْهِ وَتَفَاوُتِ الْأُمَمِ <sup>(٢)</sup> فِي الْقِلَّةِ وَالكَثْرَةِ تَفَاوُتًا غَيْرَ مُنْخَصِرٍ وَتَقَعُ فِيهَا عِنْدَ كَثْرَةِ التَّمَنُّنِ فِي أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَائِعِ وَيَخْتَاجُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا إِلَى الْقَوْمَةِ عَلَيْهِ وَالْمَهْرَةَ فِيهِ وَيَقْدَرُ مَا يَتَزَيَّدُ مِنْ أَصْنَافِهَا تَتَزَيَّدُ أَهْلُ صِنَاعَتِهَا وَيَتَلَوَّنُ ذَلِكَ الْجِيلُ بِهَا وَمَتَى اتَّصَلَتِ الْأَيَّامُ وَتَعَاقَبَتِ تِلْكَ الصَّنَاعَاتُ <sup>(٣)</sup> حَذَقَ أَوْلِيَاكَ الصَّنَاعِ فِي صِنَاعَتِهِمْ وَمَهَرُوا فِي مَعْرِفَتِهَا وَالْأَعْصَارُ بِطَوْلِهَا وَأَنْفَسَاحِ أَمْدِهَا وَتَكَرَّرِ أَمْثَالِهَا تَزِيدُهَا اسْتِحْكَامًا وَرُسُوخًا وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ لِاسْتِجَارِ الْعُمَرَانِ وَكَثْرَةِ الرَّفْهِ فِي أَهْلِهَا . وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ تَجْمَعُ أَمْوَالَ الرُّعِيَّةِ وَتُنْفِقُهَا فِي بَطَانَتِهَا وَرِجَالِهَا وَتَسْعُ أَحْوَالَهُمْ بِالْجَاهِ أَكْثَرَ مِنْ اتِّسَاعِهَا بِالْمَالِ فَيَكُونُ دَخْلُ تِلْكَ الْأَمْوَالِ مِنَ الرُّعَايَا وَخَرَجُهَا فِي

(١) وفي النسخة الباريسية : الحكم .

(٢) وفي النسخة الباريسية : تفاوت الأمر .

(٣) وفي النسخة الباريسية : الصبغات .

أهل الدولة ثم في من تعلق بهم من أهل المضر وهم الأكثر فتعظم لذلك ثروتهم  
ويكثر غناهم وتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع في سائر  
قونيه وهذه هي الحضارة . ولهذا تجد الأمصار التي في القاصية ولو كانت موفورة  
العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف  
المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها وما ذاك إلا لمجاورة  
السلطان لهم وفيض أمواله فيهم كالماء يخضر ما قرب منه فما قرب من الأرض إلى  
أن ينتهي إلى الجوف على البعد وقد قدمنا أن السلطان والدولة شوق للعالم .  
فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه وإذا أبعدت عن السوق أفتقدت  
البضائع جملة ثم إنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المضر واحداً  
بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رُسوخاً واعتبر ذلك في اليهود لما طال  
ملكهم بالشام نحواً من ألف وأربعمائة سنة رَسخت حضارتهم وحذقوا في أحوال  
المعاش وعوائده والتفنن في صناعاته من المطاعيم والملابس وسائر أحوال المنزل  
حتى إنها لتؤخذ عنهم في الغالب إلى اليوم . ورَسخت الحضارة أيضاً وعوائدها في  
الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة فكانوا في غاية الحضارة . وكذلك  
أيضاً القبط دام ملكهم في الخليفة ثلاثة آلاف من السنين فرَسخت عوائد الحضارة  
في بلديهم مضر وأغقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الإسلام الناسخ للكل . فلم  
تزل عوائد الحضارة بها متصلة وكذلك أيضاً رَسخت عوائد الحضارة باليمن  
لاتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالقمة والتبابعة آلاف من السنين وأغقبهم ملك  
مضر . وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة التنبط والفرس بها من لدن  
الكلدانيين والكنيانية<sup>(١)</sup> والكنسروية والعرب بعدهم آلاف من السنين فلم يكن على

(١) وفي نسخة أخرى : الكينية .

وَجِهَ الْأَرْضَ لِهَذَا الْعَهْدِ أَحْضَرَ<sup>(١)</sup> مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ . وَكَذَا أَيْضاً رَسَخَتْ  
 عَوَائِدُ الْحِضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ بِالْأَنْدَلُسِ لِاتِّصَالِ الدَّوْلَةِ الْعَظِيمَةِ فِيهَا لِلْقَوِطِ ثُمَّ  
 مَا أَعْقَبَهَا مِنْ مُلْكِ بَنِي أُمَيَّةَ آفَافاً مِنَ السِّنِينَ وَكِلْتَا الدَّوْلَتَيْنِ عَظِيمَةً فَاتَّصَلَتْ فِيهَا  
 عَوَائِدُ الْحِضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ . وَأَمَّا أُفْرِيْقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ فَلَمْ يَكُنْ بِهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ  
 مُلْكٌ ضَخْمٌ إِنَّمَا قَطَعَ الْإِفْرَنْجَةُ إِلَى أُفْرِيْقِيَّةِ الْبَحْرِ وَمَلَكُوا السَّاحِلَ وَكَانَتْ طَاعَةُ  
 الْبَرْبَرِ أَهْلِ الصَّاحِيَةِ لَهُمْ طَاعَةٌ غَيْرَ مُسْتَحْكَمَةٍ فَكَانُوا عَلَى قَلْعَةٍ وَأَوْفَازٍ<sup>(٢)</sup> وَأَهْلِ  
 الْمَغْرِبِ لَمْ تَجَاوِزْهُمْ دَوْلَةٌ وَإِنَّمَا كَانُوا يَبْعَثُونَ بِطَاعَتِهِمْ إِلَى الْقَوِطِ مِنْ وَرَاءِ الْبَحْرِ  
 وَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَمَلَكَ الْعَرَبُ أُفْرِيْقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ لَمْ يَلْبَثْ فِيهِمْ مُلْكُ الْعَرَبِ  
 إِلَّا قَلِيلاً أَوَّلَ الْإِسْلَامِ وَكَانُوا لِلذِّكْرِ الْعَهْدِ فِي طَوْرِ الْبِدَاوَةِ وَمَنْ اسْتَقَرَّ مِنْهُمْ بِأُفْرِيْقِيَّةِ  
 وَالْمَغْرِبِ لَمْ يَجِدْ بِهِمَا مِنَ الْحِضَارَةِ مَا يُقْلَدُ فِيهِ مِنْ سَلْفِهِ إِذْ كَانُوا بَرَابِرَ مُنْعَمِسِينَ  
 فِي الْبِدَاوَةِ ثُمَّ انْتَقَضَ بَرَابِرَةُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى لِأَقْرَبِ الْعَهْدِ عَلَى مَيْسَرَةِ الْمُطْفِرِيِّ  
 أَيَّامَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَلَمْ يَرِاجِعُوا أَمْرَ الْعَرَبِ بَعْدَ وَاسْتَقْلَوْا بِأَمْرِ أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ  
 بَايَعُوا لِإِدْرِيسَ فَلَا تُعَدُّ دَوْلَتُهُ فِيهِمْ عَرَبِيَّةً لِأَنَّ الْبَرَابِرَ هُمْ الَّذِينَ تَوَلَّوْهَا وَلَمْ يَكُنْ  
 مِنَ الْعَرَبِ فِيهَا كَثِيرٌ عَدَدٌ وَبَقِيَتْ أُفْرِيْقِيَّةُ لِلْأَغَالِبَةِ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَرَبِ فَكَانَ لَهُمْ  
 مِنَ الْحِضَارَةِ بَعْضُ الشَّيْءِ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ تَرْفِ الْمَلِكِ وَنَعِيمِهِ وَكَثْرَةِ عُمَرَانِ  
 الْقَيْرَوَانَ وَوَرِثَ ذَلِكَ عَنْهُمْ كُتَامَةٌ ثُمَّ صَنَهَاجَةٌ مِنْ بَعْدِهِمْ وَذَلِكَ كُلُّهُ قَلِيلٌ لَمْ يَبْلُغْ  
 أَرْبَعِمِائَةَ سَنَةٍ وَأَنْصَرَمَتْ دَوْلَتُهُمْ وَاسْتَحَالَتْ صِبْغَةُ الْحِضَارَةِ بِمَا كَانَتْ غَيْرَ  
 مُسْتَحْكَمَةٍ وَتَغَلَّبَ بَدْوُ الْعَرَبِ الْهَلَالِيِّنَ عَلَيْهَا وَخَرَّبُوهَا وَبَقِيَ أَثَرُ خَفِيِّ مِنْ  
 حِضَارَةِ الْعُمَرَانَ فِيهَا وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ يُونِسُ فِيمَنْ سَلَفَ لَهُ بِالْقَلْعَةِ أَوْ الْقَيْرَوَانَ أَوْ  
 الْمَهْدِيَّةِ سَلَفٌ فَتَجِدُ لَهُ مِنَ الْحِضَارَةِ فِي شُؤْنِ مَنْزِلِهِ وَعَوَائِدِ أَحْوَالِهِ آثَاراً مُلْتَبَسَةً  
 بِغَيْرِهَا يُمَيِّزُهَا الْحَضْرِيُّ الْبَصِيرُ بِهَا وَكَذَا فِي أَكْثَرِ أَمْصَارِ أُفْرِيْقِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فِي

(١) الأصح أن يقول: أكثر حضارة.

(٢) في النسخة الباريبية: وأوفاز. وفي نسخة أخرى: قلعة وافان وفي نسخة غيرها: قلعة وأوفاز. وفازج

فازة: بناء من خرق وغيرها تبني في العساكر.

المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بأفريقية أكثر أمدا منذ عهد الأغالية والشيعية  
وصنهاجة وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير  
من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد  
الأندلس وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعاً وكرهاً وكانت من اتساع النطاق  
ما علمت فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومُعظمتها من أهل  
الأندلس ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى أفريقية فأبقوا فيها  
وبأمصارها من الحضارة آثاراً ومُعظمتها بتونس امتزجت بحضارة مضر وما ينقله  
المسافرون من عوائدها فكان بذلك للمغرب وأفريقية حظ صالح من الحضارة  
عني عليه الخلاء ورجع إلى أعقابه وعاد البربر بالمغرب إلى أديانهم من البداوة  
والخشونة وعلى كل حال فآثار الحضارة بأفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما  
تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مضر  
بكثرية المترددين بينهم . فتفطن لهذا السر فإنه خفي عن الناس . واعلم أنها أمور  
متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف وكثرة الأئمة أو الجيل وعظم المدينة أو  
المضر وكثرة النعمة واليسار وذلك أن الدولة والمملك صورة الخليفة والعمران  
وكلها مادة لها من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال وأموال الجباية عائدة عليهم  
ويسارهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم وإذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في  
أهلها انبثت فيهم ورجعت إليه ثم إليهم منه فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج  
عائدة عليهم في العطاء فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا وعلى يسار  
الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة وأصله كلة العمران وكثرتة فاعتبره وتأمله في  
الدول تجده والله يحكم ولا معقب لحكمه .



## الفصل الثامن عشر

في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده

قَدْ بَيَّنَّا لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ الْمَلِكَ وَالِدَوْلَةَ غَايَةٌ لِلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّ الْحَضَارَةَ غَايَةٌ لِلْبِدَاوَةِ وَأَنَّ الْعُمْرَانَ كُلَّهُ مِنْ بِدَاوَةٍ وَحَضَارَةٍ وَمُلْكٍ وَسُوقَةٍ<sup>(١)</sup> لَهُ عُمُرٌ مَخْسُوسٌ كَمَا أَنَّ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ مِنْ أَشْخَاصِ الْمَكُونَاتِ عُمُرًا مَخْسُوسًا وَتَبَيَّنَ فِي الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ أَنَّ الْأَرْبَعِينَ لِلْإِنْسَانِ غَايَةٌ فِي تَزَايُدِ قَوَاهِ وَنُمُوهَا وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ سِنَ الْأَرْبَعِينَ وَقَفَتِ الطَّبِيعَةُ عَنِ أَثَرِ النُّشُوءِ وَالنُّمُوِّ بَرْهَةً ثُمَّ تَأْخُذُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْإِنْحِطَاطِ . فَلْتَعْلَمْ أَنَّ الْحَضَارَةَ فِي الْعُمْرَانَ أَيْضًا كَذَلِكَ لِأَنَّ غَايَةَ لَا مَزِيدَ وَرَاءَهَا وَذَلِكَ أَنَّ التَّرْفَ وَالنَّعْمَةَ إِذَا حَصَلَ لِأَهْلِ الْعُمْرَانِ دَعَاهُمْ بِطَبِيعِهِ إِلَى مَذَاهِبِ الْحَضَارَةِ وَالتَّخَلُّقِ بِعَوَائِدِهَا وَالْحَضَارَةَ كَمَا عَلِمْتَ هِيَ التَّفَنُّنُ فِي التَّرْفِ وَاسْتِجَادَةِ أَحْوَالِهِ وَالْكَفْلُ بِالصَّنَائِعِ الَّتِي تُؤْتَقُ مِنْ أَصْنَافِهِ وَسَائِرِ فُنُونِهِ مِنَ الصَّنَائِعِ الْمُهِمِّيَّةِ لِلْمَطَايِخِ أَوِ الْمَلَابِسِ أَوِ الْمَبَانِي أَوِ الْفُرُشِ أَوِ الْإِنِّيَّةِ وَلِسَائِرِ أَحْوَالِ الْمَنْزِلِ . وَلِلتَّائِقِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ صَنَائِعٌ كَثِيرَةٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهَا عِنْدَ الْبِدَاوَةِ وَعَدَمِ التَّائِقِ فِيهَا . وَإِذَا بَلَغَ التَّائِقُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمَنْزِلِيَّةِ الْغَايَةَ تَبَعَهُ طَاعَةُ الشَّهَوَاتِ فَتَتَلَوَّنُ النَّفْسُ مِنْ تِلْكَ الْعَوَائِدِ بِالْوَانِ كَثِيرَةٌ لَا يَسْتَقِيمُ حَالُهَا مَعَهَا فِي دِينِهَا وَلَا دُنْيَاهَا أَمَا دِينُهَا فَلَا اسْتِحْكَامَ صِنْعَةِ الْعَوَائِدِ الَّتِي يَعْسُرُ نَزْعُهَا وَأَمَا دُنْيَاهَا فَلِكثرةِ الْحَاجَاتِ وَالْمُؤَنَاتِ الَّتِي تُطَالِبُ بِهَا الْعَوَائِدُ وَيُعْجِزُ وَيُنْكَبُ<sup>(٢)</sup> عَنِ الْوَفَاءِ بِهَا . وَبَيَانُهُ أَنَّ الْمِضْرَ بِالتَّفَنُّنِ فِي الْحَضَارَةِ تَعْظُمُ نَفَقَاتُ أَهْلِهَا وَالْحَضَارَةُ تَتَفَاوَتُ بِتَفَاوُتِ الْعُمْرَانِ فَمَتَى كَانَ الْعُمْرَانُ أَكْثَرَ كَانَتِ الْحَضَارَةُ أَكْمَلَ . وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الْمِضْرَ الْكَثِيرَ الْعُمْرَانَ يَخْتَصُّ بِالْغَلَاءِ فِي أَسْوَاقِهِ وَأَسْعَارِ حَاجَتِهِ . ثُمَّ تَزِيدُهَا الْمَكُوسُ غَلَاءً لِأَنَّ الْحَضَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ عِنْدَ انْتِهَاءِ الدَّوْلَةِ فِي اسْتِفْحَالِهَا وَهُوَ زَمَنُ وَضْعِ الْمَكُوسِ فِي الدَّوَلِ لِكثرةِ

(١) الرعية

(٢) وفي نسخة أخرى : الكسب

خَرَجَهَا حِينِيذٍ كَمَا تَقَدَّمَ . وَالْمَكُوسُ تَعُودُ إِلَى الْبَيَاعَاتِ بِالْعَلَاءِ لِأَنَّ السُّوقَةَ وَالتَّجَارَ  
كُلَّهُمْ يَخْتَسِبُونَ عَلَى سَلِيمِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ جَمِيعَ مَا يُنْفِقُونَهُ حَتَّى فِي مُؤْنَةِ أَنْفُسِهِمْ  
فَيَكُونُ الْمَكْسُ لِدَلِكِ دَاخِلًا فِي قِيَمِ الْمَيْبَعَاتِ وَأَثْمَانِهَا . فَتَغْضُمُ نَفَقَاتُ أَهْلِ  
الْحِضَارَةِ وَتَخْرُجُ عَنِ الْقَصْدِ إِلَى الْإِسْرَافِ . وَلَا يَجِدُونَ وَليجَةً عَن ذَلِكَ لِمَا مَلَكَهُمْ  
مِنَ أَثَرِ الْعَوَائِدِ وَطَاعَتِهَا وَتَذَهَبُ مَكَاسِبُهُمْ كُلُّهَا فِي النِّفَقَاتِ وَيَتَتَابِعُونَ<sup>(١)</sup> فِي  
الْإِمْلَاقِ وَالْخَاصَةِ<sup>(٢)</sup> وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْفَقْرُ وَيَقِلُّ الْمُسْتَامُونَ لِلْمَبَائِعِ<sup>(٣)</sup> فَتَكْسُدُ  
الْأَسْوَاقُ وَيَفْسُدُ حَالُ الْمَدِينَةِ وَدَاعِيَةُ ذَلِكَ كُلُّهُ إِفْرَاطُ الْحِضَارَةِ وَالتَّرَفِ . وَهَذِهِ  
مُفْسِدَاتُ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى الْعُمُومِ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْعُمَرَانِ . وَأَمَّا فَسَادُ أَهْلِهَا فِي ذَاتِهِمْ  
وَإِحْدًا وَإِحْدًا عَلَى الْخُصُوصِ فَمِنَ الْكُذِّ وَالتَّعَبِ فِي حَاجَاتِ الْعَوَائِدِ وَالتَّلَوْنِ بِاللُّوَانِ  
الشَّرِّ فِي تَخْصِيلِهَا وَمَا يَعُودُ عَلَى النَّفْسِ مِنَ الضَّرْرِ بَعْدَ تَخْصِيلِهَا بِحُصُولِ لَوْنٍ آخَرَ  
مِنَ أَلْوَانِهَا . فَلِذَلِكَ يَكْثُرُ مِنْهُمْ الْفِسْقُ وَالشَّرُّ وَالسُّفْسَفَةُ وَالتَّحْيِيلُ عَلَى تَخْصِيلِ  
الْمَعَاشِ مِنْ وَجْهِهِ وَمِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ . وَتَنْصَرِفُ النَّفْسُ إِلَى الْفِكْرِ فِي ذَلِكَ وَالْغَوْصِ  
عَلَيْهِ وَاسْتِجْمَاعِ الْحِيلَةِ لَهُ فَتَجِدُهُمْ أَجْرِيَاءَ عَلَى الْكُذْبِ وَالمُقَامَرَةِ وَالغِشِّ وَالْخِلَابَةِ  
وَالسَّرْقَةِ وَالفُجُورِ فِي الْأَيْمَانِ وَالرِّبَا فِي الْبَيَاعَاتِ ثُمَّ تَجِدُهُمْ لِكثْرَةِ الشَّهَوَاتِ وَالمَلَاذِ  
النَّاشِئَةِ عَنِ التَّرَفِ أَبْصَرَ بِطُرُقِ الْفِسْقِ وَمَذَاهِبِهِ وَالمُجَاهِرَةِ بِهِ وَبِدَاوَعِيهِ وَأَطْرَاحِ  
الْحِشْمَةِ فِي الْخَوْصِ فِيهِ حَتَّى تَبِينَ الْأَقَارِبُ وَدَوِي الْأَرْحَامِ وَالمَحَارِمُ الَّذِينَ تَقْتَضِي  
الْبِدَاوَةَ الْحَيَاءَ مِنْهُمْ فِي الْإِقْدَاعِ بِذَلِكَ . وَتَجِدُهُمْ أَيْضًا أَبْصَرَ بِالمَكْرِ وَالمُخَدِيعَةِ  
يَذْفَعُونَ بِذَلِكَ مَا عَسَاهُ أَنْ يَنَالَهُمْ مِنَ الْقَهْرِ وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى تِلْكَ  
الْقَبَائِحِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ عَادَةً وَخُلُقًا لِأَكْثَرِهِمْ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ . وَيَمُوجُ بِخَرِّ  
الْمَدِينَةِ بِالسُّفْلَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ وَيَجَارِيهِمْ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ نَاشِئَةِ الدَّوْلَةِ  
وَوُلْدَانِهِمْ مِمَّنْ أَهْمَلَ عَنِ التَّأْدِيبِ وَأَهْمَلْتَهُ الدَّوْلَةُ مِنْ عِدَادِهَا وَعَلَبَ عَلَيْهِ خُلُقُ

(١) وفي نسخة أخرى : ويتتبعون .

(٢) وفي نسخة أخرى : الخاصة .

(٣) وفي نسخة أخرى : البضائع .

الِجَوَارِ وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ أَنْسَابٍ وَيُبُوتَاتٍ <sup>(١)</sup> وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ بَشَرٌ مُتَمَاثِلُونَ وَإِنَّمَا تَفَاضَلُوا وَتَمَيَّزُوا بِالْخَلْقِ وَاتِّسَابِ الْفَضَائِلِ وَاجْتِنَابِ الرِّذَائِلِ . فَمَنْ اسْتَحْكَمَتْ فِيهِ صِنْعَةُ الرِّذِيلَةِ بِأَيِّ وَجْهِ كَانَ ، وَفَسَدَ خَلْقِ الْخَيْرِ فِيهِ ، لَمْ يَنْفَعَهُ زَكَاةُ نَسَبِهِ وَلَا طِيبُ مَنْبَتِهِ . وَلِهَذَا تَجَدُّ كَثِيراً مِنْ أَعْقَابِ الْبُيُوتِ وَذَوِي الْأَحْسَابِ وَالْأَصَالَةِ وَأَهْلِ الدُّوَلِ مُنْطَرِحِينَ فِي الْعَمَارِ <sup>(٢)</sup> مُنْتَحِلِينَ لِلْحَرْفِ الدِّنْيِيَّةِ فِي مَعَاشِهِمْ بِمَا فَسَدَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَمَا تَلَوَّنُوا بِهِ مِنْ صِنْعَةِ الشَّرِّ وَالسُّفْسَفَةِ وَإِذَا كَثُرَ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ الْأُمَّةِ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِخَرَابِهَا وَانْقِرَاضِهَا وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيراً » <sup>(٣)</sup> . وَوَجْهُهُ حِينَئِذٍ إِنْ مَكَاسِبُهُمْ حِينَئِذٍ لَا تَقْبِي بِحَاجَاتِهِمْ لِكثْرَةِ الْعَوَائِدِ وَمُطَالَبَةِ النَّفْسِ بِهَا فَلَا تَسْتَقِيمُ أَحْوَالُهُمْ . وَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ الْأَشْخَاصِ وَاحِداً وَاحِداً اخْتَلَّ نِظَامُ الْمَدِينَةِ وَخَرِبَتْ وَهَذَا مَعْنَى مَا يَقُولُهُ بَعْضُ أَهْلِ الْخَوَاصِ <sup>(٤)</sup> أَنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَثُرَ فِيهَا غَرَسُ النَّارَنْجِ تَأَذَّنَتْ بِالْخَرَابِ حَتَّى أَنْ كَثِيراً مِنَ الْعَامَّةِ يَتَحَامَى غَرَسَ النَّارَنْجِ بِالذُّورِ تَطِيراً بِهِ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَلِكَ وَلَا أَنَّهُ خَاصِيَّةٌ <sup>(٥)</sup> فِي النَّارَنْجِ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْبَسَاتِينَ وَاجْرَاءَ الْمِيَاهِ هُوَ مِنْ تَوَابِعِ الْحَضَارَةِ . ثُمَّ إِنَّ النَّارَنْجَ وَاللِّيَّةَ <sup>(٦)</sup> وَالسَّرُورَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِمَّا لَا طَعْمَ فِيهِ وَلَا مَنْفَعَةَ هُوَ مِنْ غَايَةِ <sup>(٧)</sup> الْحَضَارَةِ إِذْ لَا يَقْصُدُ بِهَا فِي الْبَسَاتِينَ إِلَّا أَشْكَالَهَا فَقَطْ وَلَا تُغْرَسُ إِلَّا بَعْدَ التَّنْفِيهِ فِي مَذَاهِبِ التَّرْفِ . وَهَذَا هُوَ الطُّورُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ هَلَاكُ الْمِصْرِ وَخَرَابُهُ كَمَا قُلْنَا . وَلَقَدْ قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الدَّفْلِيِّ وَهُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ إِذِ الدَّفْلِيُّ لَا يَقْصُدُ بِهَا إِلَّا تَلَوُّنُ الْبَسَاتِينَ بِنُورِهَا مَا بَيْنَ أَحْمَرَ وَأَبْيَضَ وَهُوَ مِنْ مَذَاهِبِ التَّرْفِ . وَمِنْ مَفَاسِدِ الْحَضَارَةِ الْإِنْهَمَاكُ فِي الشَّهَوَاتِ وَالِاسْتِرْسَالُ

( ١ ) وفي النسخة الباريسية : وأبوتات .

( ٢ ) جماعة من الناس .

( ٣ ) سورة الإسراء الآية ١٦ .

( ٤ ) وفي نسخة أخرى : أهل الحواضر .

( ٥ ) وفي نسخة أخرى : خاصة . وفي النسخة الباريسية : طيرة .

( ٦ ) وفي نسخة أخرى : الليم .

فِيهَا لِكثْرَةِ التَّرَفِ فَيَقَعُ التَّفَنُّنُ فِي شَهَوَاتِ البَطْنِ مِنَ المَأْكَلِ وَالْمَلَأَدِ وَالْمَشَارِبِ وَطَيْبِهَا . وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ التَّفَنُّنُ فِي شَهَوَاتِ الفَرْجِ بِأَنْوَاعِ المَنَاجِحِ مِنَ الزَّيْنِ وَاللَّوِاطِ . فَيُنْضِي ذَلِكَ إِلَى فَسَادِ النُّوعِ . إِمَّا بِوَاسِطَةِ اخْتِلَاطِ الأَنْسَابِ . كَمَا فِي الزَّيْنِ ، فَيَجْهَلُ كُلُّ وَاحِدٍ ابْنَهُ ، إِذْ هُوَ لِعَبْرِ رِشْدَةٍ ، لِأَنَّ المِيَاهَ مُخْتَلِطَةٌ فِي الأَرْحَامِ ، فَتُنْقَدُ الشَّفَقَةُ الطَّبِيعِيَّةُ عَلَى النِّبِينِ وَالْقِيَامُ عَلَيْهِمْ فَيَهْلِكُونَ ، وَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى انْقِطَاعِ النُّوعِ ، أَوْ يَكُونُ فَسَادُ النُّوعِ بغيرِ وَاسِطَةٍ ، كَمَا فِي اللَّوِاطِ المُؤَدِّي إِلَى عَدَمِ النَسْلِ رَأْسًا وَهُوَ أَشَدُّ فِي فَسَادِ النُّوعِ . وَالزَّيْنُ يُؤَدِّي إِلَى عَدَمِ مَا يُوجَدُ مِنْهُ . وَلِذَلِكَ كَانَ مَذْهَبُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي اللَّوِاطِ أَظْهَرَ مِنْ مَذْهَبِ غَيْرِهِ ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَبْصَرَ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَاعْتَبَرَهَا لِلْمَصَالِحِ .

فَانْفَهَمَ ذَلِكَ وَاعْتَبَرَ بِهِ أَنَّ غَايَةَ العُمُرَانِ هِيَ الحِضَارَةُ وَالتَّرَفُ وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ غَايَتَهُ انْقَلَبَ إِلَى الفَسَادِ وَأَخَذَ فِي الهَرَمِ كالأَعْمَارِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلحَيَوَانَاتِ . بَلْ نَقُولُ إِنَّ الأَخْلَاقَ الحَاصِلَةَ مِنَ الحِضَارَةِ وَالتَّرَفِ هِيَ عَيْنُ الفَسَادِ لِأَنَّ الإِنْسَانَ إِنَّمَا هُوَ إِنْسَانٌ بِاقْتِدَارِهِ عَلَى جَلْبِ مَنَافِعِهِ وَدَفْعِ مَضَارِهِ وَاسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسُّعْيِ فِي ذَلِكَ . وَالحَضْرِيُّ لَا يَقْدِرُ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ حَاجَاتِهِ إِمَّا عَجْزًا لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الدَّعَةِ أَوْ تَرْفُعًا لِمَا حَصَلَ مِنَ المَرْبِي فِي النِّعَمِ وَالتَّرَفِ وَكِلَا الأَمْرَيْنِ ذَمِيمٌ . وَكَذَلِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ المَضَارِ وَاسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسُّعْيِ فِي ذَلِكَ . وَالحَضْرِيُّ بِمَا قَدْ فَقَدَ مِنْ خُلُقِ الإِنْسَانِ بِالتَّرَفِ وَالنِّعَمِ <sup>(١)</sup> فِي قَهْرِ التَّادِيْبِ وَالتَّعَلُّمِ فَهُوَ بِذَلِكَ عِيَالٌ عَلَى الحَامِيَةِ الَّتِي تُدَافِعُ عَنْهُ . ثُمَّ هُوَ فَاسِدٌ أَيْضًا غَالِبًا بِمَا فَسَدَتْ <sup>(٢)</sup> مِنْهُ العَوَائِدُ وَطَاعَتُهَا وَمَا تَلَوَّنَتْ بِهِ النَفْسُ مِنْ مَكَانَتِهَا <sup>(٣)</sup> كَمَا قَرَّرْنَاهُ إِلا فِي الأَقْلِ النَّادِرِ . وَإِذَا فَسَدَ الإِنْسَانُ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى أَخْلَاقِهِ وَدِينِهِ فَقَدْ فَسَدَتْ إِنْسَانِيَّتُهُ وَصَارَ مَسْخًا عَلَى الحَقِيقَةِ . وَبِهَذَا الإِعْتِبَارِ كَانَ الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ مِنْ جُنْدِ السُّلْطَانِ إِلَى البِدَاوَةِ وَالخُشُونَةِ أَنْفَعُ مِنَ الَّذِينَ

(١) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى : بِمَا قَدْ فَقَدَ مِنْ خُلُقِ البَاسِ بِالتَّرَفِ وَالمَرْبِي .

(٢) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى : أَمْسَدَتْ .

(٣) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى : وَمَلَكَاتِهَا .

يَتَرَبُّونَ عَلَى الْحِضَارَةِ وَخَلَقَهَا . مَوْجُودُونَ<sup>(١)</sup> فِي كُلِّ دَوْلَةٍ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْحِضَارَةَ هِيَ سِنُ الْوُقُوفِ لِعُمُرِ الْعَالَمِ فِي الْعُمُرَانِ وَالذُّوْلَةِ<sup>(٢)</sup> وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ .

## الفصل التاسع عشر

فِي أَنَّ الْأَمْصَارَ الَّتِي تَكُونُ كِرَاسِي لِّلْمَلِكِ تَعْرَبُ بِخِرَابِ الدَّوْلَةِ  
وَانْقِرَاضِهَا

قَدْ اسْتَفْرَيْنَا فِي الْعُمُرَانِ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا اخْتَلَّتْ وَانْتَقَضَتْ فَإِنَّ الْمِضْرَ الَّذِي يَكُونُ كُرْسِيًّا لِسُلْطَانِهَا يَنْتَقِضُ عُمُرَانُهُ وَرُبَّمَا يَنْتَهِي فِي انْتِقَاضِهِ إِلَى الْخِرَابِ وَلَا يَكَادُ ذَلِكَ يَتَخَلَّفُ . وَالسَّبَبُ فِيهِ أُمُورٌ : الْأَوَّلُ أَنَّ الدَّوْلَةَ لَا بُدَّ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلتَّجَافِي عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ وَالْبُعْدِ عَنِ التَّحَدُّثِ . وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى تَخْفِيفِ الْحِبَابِيَّةِ وَالْمَعَارِمِ الَّتِي مِنْهَا مَادَّةُ الدَّوْلَةِ فَتَقِلُّ النِّفَقَاتُ وَيَقِلُّ<sup>(٣)</sup> التَّرْفُ فَإِذَا صَارَ الْمِضْرُ الَّذِي كَانَ كُرْسِيًّا لِلْمَلِكِ فِي مَلَكَةِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ وَنَقَصَتْ أَحْوَالُ التَّرْفِ فِيهَا نَقَصَ التَّرْفُ فِيمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهَا مِنْ أَهْلِ الْمِضْرِ لِأَنَّ الرِّعَايَا تَبْعُ لِلدَّوْلَةِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى خُلُقِ الدَّوْلَةِ إِذَا طَوَّعًا لِمَا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنْ تَقْلِيدِ مَتَّبِعِهِمْ أَوْ كُرْهًا لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ خُلُقُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْإِنْتِبَاضِ عَنِ التَّرْفِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَقِلَّةِ الْفَوَائِدِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْعَوَائِدِ فَتَقْصُرُ لِذَلِكَ حِضَارَةُ الْمِضْرِ وَيَذْهَبُ مِنْهُ كَثِيرٌ مِنْ عَوَائِدِ التَّرْفِ . وَهُوَ مَعْنَى مَا نَقُولُ فِي خِرَابِ الْمِضْرِ . الْأَمْرُ الثَّانِي أَنَّ الدَّوْلَةَ إِنَّمَا يَخْصُلُ لَهَا الْمَلِكُ وَالْإِسْتِيْلَاءُ بِالْغَلْبِ . وَإِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْعِدَاوَةِ وَالْحُرُوبِ . وَالْعِدَاوَةُ تَقْتَضِي مَنَافَاةً بَيْنَ أَهْلِ الدَّوْلَتَيْنِ . وَتَكْثُرُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ . وَغَلْبُ أَحَدِ الْمُتَنَافِسِينَ يَذْهَبُ بِالْمُنَافِي الْأَخْرَى فَتَكُونُ أَحْوَالُ الدَّوْلَةِ

(١) وفي نسخة أخرى : وهذا موجود .

(٢) وفي نسخة أخرى : من العمران والدول .

(٣) وفي نسخة أخرى : يقصر .

السابقة منكراً عند أهل الدولة الجديدة ومُسْتَبْشَعَةً وَقَبِيحَةً . وَخُصُوصاً أَحْوَالُ  
التَّرَفِ فَتَفَقَّدُوا فِي عُرْفِهِمْ بِنَكِيرِ الدَّوْلَةِ لَهَا حَتَّى تَنشَأَ لَهُمْ بِالتَّدْرِيجِ عَوَائِدُ أُخْرَى مِنْ  
التَّرَفِ فَتَكُونُ عَنْهَا حِصَارَةٌ مُسْتَأْنِفَةٌ . وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ قُصُورُ الْحِصَارَةِ الْأُولَى  
وَنَقْصُهَا وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِ الْعُمَرَانِ فِي الْمِصْرِ . الْأَمْرُ الثَّلَاثُ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ لَا بُدَّ لَهُمْ  
مِنْ وَطَنٍ وَهُوَ مَنْشَأُهُمْ وَمِنْهُ أَوْلِيَّةٌ مُلْكِهِمْ . وَإِذَا مَلَكَوا مُلْكَاً آخَرَ صَارَ تَبَعاً لِلأَوَّلِ  
وَأَمْصَارُهُ تَابِعَةٌ لِأَمْصَارِ الْأَوَّلِ . وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الْمُلْكِ عَلَيْهِمْ . وَلَا بُدَّ مِنْ تَوْسُطِ  
الْكُرْسِيِّ بَيْنَ تَحْوِمِ الْمَمَالِكِ الَّتِي لِلدَّوْلَةِ لِأَنَّهُ شِبْهُ الْمَرْكَزِ لِلنِّطَاقِ فَيَبْعُدُ مَكَانَهُ عَنِ  
مَكَانِ الْكُرْسِيِّ الْأَوَّلِ وَتَهْوَى أَفئِدَةُ النَّاسِ مِنْ أَجْلِ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ فَيَنْتَقِلُ إِلَيْهِ  
الْعُمَرَانُ وَيَخْفُ مِنْ مِصْرِ الْكُرْسِيِّ الْأَوَّلِ . وَالْحِصَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَوْفَرٌ <sup>(١)</sup> الْعُمَرَانِ كَمَا  
قَدَّمَاهُ فَتَنْقُصُ حِصَارَتُهُ وَتَمُدُّنُهُ وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِهِ . وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلسُّلْجُوقِيَّةِ فِي  
عُدُولِهِمْ بِكُرْسِيِّهِمْ عَنِ بَغْدَادَ إِلَى أَصْبَهَانَ وَلِلْعَرَبِ قَبْلَهُمْ فِي الْعُدُولِ عَنِ الْمَدَائِنِ إِلَى  
الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ ، وَلِبَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْعُدُولِ عَنِ دِمَشْقَ إِلَى بَغْدَادَ وَلِبَنِي مُرِينِ  
بِالْمَغْرِبِ فِي الْعُدُولِ عَنِ مَرَاكِشَ إِلَى فَاسَ . وَبِالْجُمْلَةِ فَاتَّخَذَ الدَّوْلَةُ الْكُرْسِيَّ فِي  
مِصْرٍ يُخَلُّ بِعُمَرَانِ الْكُرْسِيِّ الْأَوَّلِ . الْأَمْرُ الرَّابِعُ أَنَّ الدَّوْلَةَ الثَّانِيَةَ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ  
تَبَعٍ <sup>(٢)</sup> أَهْلِ الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ وَأَشْيَاعَهَا بِتَحْوِيلِهِمْ إِلَى قَطْرٍ آخَرَ يُؤْمَنُ فِيهِ غَائِلَتُهُمْ عَلَى  
الدَّوْلَةِ وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْمِصْرِ الْكُرْسِيِّ أَشْيَاعَ الدَّوْلَةِ . إِمَّا مِنْ الْحَامِيَةِ الَّذِينَ نَزَلُوا بِهِ  
أَوَّلَ الدَّوْلَةِ أَوْ أَعْيَانِ الْمِصْرِ لِأَنَّ لَهُمْ فِي الْعَالِبِ مُحَالَطَةَ لِلدَّوْلَةِ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ وَتَنَوُّعِ  
أَصْنَافِهِمْ . بَلْ أَكْثَرُهُمْ نَاشِئٌ فِي الدَّوْلَةِ فَهَمْ شَيْعَةٌ لَهَا . وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا بِالسُّوَكَةِ  
وَالْعَصِيَّةِ فَهَمْ بِالْمَيْلِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْعَقِيدَةِ . وَطَبِيعَةُ الدَّوْلَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ مَحْوِ آثَارِ الدَّوْلَةِ  
السَّابِقَةِ فَيَنْقَلِبُ مِنْ مِصْرِ الْكُرْسِيِّ إِلَى وَطَنِهَا الْمُتَمَكِّنِ فِي مَلَكَتِهَا . فَبَعْضُهُمْ عَلَى  
نَوْعِ التَّغْرِيْبِ وَالْحَبْسِ وَبَعْضُهُمْ عَلَى نَوْعِ الْكِرَامَةِ وَالتَّلَطُّفِ بِحَيْثُ لَا يُؤَدِّي إِلَى  
النَّفَرَةِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِي مِصْرِ الْكُرْسِيِّ إِلَّا الْبَاعَةُ وَالْهَمَلُ مِنْ أَهْلِ الْفُلْجِ وَالْعِيَارَةِ

(١) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى : بِوَفْرِ .

(٢) وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى : تَبَعِ .

وَسَوَادِ الْعَامَةِ وَيَنْزِلُ مَكَانَهُمْ حَامِيَتَهَا وَأَشْيَاعَهَا مَنْ يَشْتَدُّ بِهِ الْمِضْرُ وَإِذَا ذَهَبَ مِنَ  
 الْمِضْرِ أَعْيَانُهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ تَقْصُ سَاكِنُهُ وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِ عُمْرَانِهِ . ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ  
 أَنْ يَسْتَجِدَّ عُمْرَانَ آخَرَ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ الْجَدِيدَةِ وَتَخْصُلَ فِيهِ حِضَارَةٌ أُخْرَى عَلَى قَدْرِ  
 الدَّوْلَةِ . وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمِثَابَةِ ( مَنْ لَهُ بَيْتٌ عَلَى أَوْصَافٍ مَخْصُوصَةٍ فَأَظْهَرَ مِنْ قُدْرَتِهِ  
 عَلَى تَغْيِيرِ تِلْكَ الْأَوْصَافِ ) <sup>(١)</sup> وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا عَلَى مَا يَخْتَارُهُ وَيُقْتَرَحُهُ فَيُخْرَبُ ذَلِكَ  
 الْبَيْتُ ثُمَّ يُعِيدُ بِنَاءَهُ ثَانِيًا . وَقَدْ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي هِيَ كُرَاسِيُّ  
 لِلْمَلِكِ وَشَاهِدُنَا وَعِلْمَانَا « وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » . وَالسَّبَبُ الطَّبِيعِيُّ الْأَوَّلُ  
 فِي ذَلِكَ عَلَى الْجُمْلَةِ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالْمَلِكَ لِلْعُمْرَانَ بِمِثَابَةِ الصُّورَةِ لِلْمَادَّةِ وَهُوَ الشَّكْلُ  
 الْحَافِظُ بِنَوْعِهِ لَوْجُودِهَا . وَقَدْ تَفَرَّرَ فِي عُلُومِ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ انْفِكَاكُ أَحَدِهِمَا  
 عَنِ الْآخَرِ . فَالدَّوْلَةُ دُونَ الْعُمْرَانَ لَا تَتَّصُورُ وَالْعُمْرَانُ دُونَ الدَّوْلَةِ وَالْمَلِكُ مَتَعَدِّرٌ لِمَا  
 فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ الْعُدْوَانِ <sup>(٢)</sup> الدَّاعِي إِلَى الْوَارِثِ فَتَتَعَيَّنُ السِّيَاسَةُ لِذَلِكَ إِمَّا الشَّرْعِيَّةُ  
 أَوِ الْمُلْكِيَّةُ وَهُوَ مَعْنَى الدَّوْلَةِ وَإِذَا كَانَا لَا يَنْفَكَا فَاخْتِلَالُ أَحَدِهِمَا مُؤَثِّرٌ فِي اخْتِلَالِ  
 الْآخَرِ كَمَا أَنَّ عَدَمَهُ مُؤَثِّرٌ فِي عَدَمِهِ وَالْخَلْلُ الْعَظِيمُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خَلْلِ الدَّوْلَةِ  
 الْكُلِّيَّةِ مِثْلَ دَوْلَةِ الرُّومِ أَوِ الْفَرَسِ أَوِ الْعَرَبِ عَلَى الْعُمُومِ أَوْ بِنِي أُمِّيَّةٍ أَوْ بِنِي الْعَبَّاسِ  
 كَذَلِكَ . وَأَمَّا الدَّوْلَةُ الشَّخْصِيَّةُ مِثْلَ دَوْلَةِ أَنْوَشِرْوَانَ أَوْ هِرَقْلٍ أَوْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ  
 مَرْوَانَ أَوِ الرَّشِيدِ فَأَشْخَاصَهَا مُتَعَاقِبَةٌ عَلَى الْعُمْرَانَ حَافِظَةٌ لَوْجُودِهِ وَبَقَائِهِ وَقَرِيبَةٌ  
 الشُّبْهِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَلَا تُؤَثِّرُ كَثِيرَ اخْتِلَالٍ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ بِالْحَقِيقَةِ الْفَاعِلَةَ فِي مَادَّةِ  
 الْعُمْرَانَ إِنَّمَا هِيَ الْعَصْبِيَّةُ وَالشُّوْكَةُ وَهِيَ مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى أَشْخَاصِ الدَّوْلَةِ فَإِذَا ذَهَبَتْ  
 تِلْكَ الْعَصْبِيَّةُ وَدَفَعَتْهَا عَصْبِيَّةٌ أُخْرَى مُؤَثَّرَةٌ فِي الْعُمْرَانَ ذَهَبَتْ أَهْلُ الشُّوْكَةِ بِأَجْمَعِهِمْ  
 وَعَظَمَ الْخَلْلُ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوْلًا « وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ » <sup>(٣)</sup>

(١) وفي نسخة أخرى وردت الجملة كما يلي : « من يملك بيتاً داخلة البلى . والكثير من أوضاعه في

بيوته ومرافقه لا توافق مقترحه وله قدرة على أوصافٍ مخصوصة على تغيير تلك الأوضاع » .

(٢) وفي النسخة الباريسية ( من التعاون

(٣) وفي نسخة أخرى : والله قادر على ما يشاء . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله

## الفصل العشرون

في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض

وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ أَعْمَالَ أَهْلِ الْمِصْرِ يَسْتَدْعِي بَعْضُهَا بَعْضًا لِمَا فِي طَبِيعَةِ الْعُمَرَانِ مِنَ التَّعَاوُنِ وَمَا يَسْتَدْعِي مِنَ الْأَعْمَالِ يَخْتَصُّ بَعْضُ أَهْلِ الْمِصْرِ فَيَقُومُونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَبْصِرُونَ فِي صِنَاعَتِهِ وَيَخْتَصُونَ بِوُظَيْفَتِهِ وَيَجْعَلُونَ مَعَاشَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَهُمْ مِنْهُ لِعُمُومِ الْبَلَوَى بِهِ فِي الْمِصْرِ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهِ . وَمَا لَا تَسْتَدْعِي فِي الْمِصْرِ يَكُونُ غَفْلًا إِذْ لَا فَائِدَةَ لِمُنْتَحِلِهِ فِي الْإِحْتِرَافِ بِهِ . وَمَا يَسْتَدْعِي مِنْ ذَلِكَ لِضُرُورَةِ الْمَعَاشِ فَيُوجَدُ فِي كُلِّ مِصْرٍ كَالْخَيْطِ وَالْحَدَّادِ وَالنَّجَّارِ وَأَمْثَالِهَا وَمَا يَسْتَدْعِي لِعَوَائِدِ التَّرْفِ وَأَحْوَالِهِ فَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي الْمَدِينِ الْمُسْتَبْجِرَةِ فِي الْعِمَارَةِ الْآخِذَةِ فِي عَوَائِدِ التَّرْفِ وَالْحَضَارَةِ مِثْلَ الرُّجَاجِ وَالصَّائِعِ وَالذَّهَانِ وَالطَّبَّاحِ وَالصَّفَّارِ وَالسَّفَّاجِ وَالْفَرَّاشِ وَالذَّبَّاجِ وَأَمْثَالِ هَذِهِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ . وَبِقَدْرِ مَا تَزِيدُ الْحَضَارَةُ وَتَسْتَدْعِي أَحْوَالَ التَّرْفِ تَحْدُثُ صِنَائِعٌ لِذَلِكَ النَّوْعِ فَتُوجَدُ بِذَلِكَ الْمِصْرِ دُونَ غَيْرِهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْحَمَامَاتُ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تُوجَدُ فِي الْأَمْصَارِ الْمُسْتَحْضِرَةِ الْمُسْتَبْجِرَةِ الْعُمَرَانِ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ التَّرْفُ وَالغِنَى مِنَ التَّنْعَمِ وَلِذَلِكَ لَا تَكُونُ فِي الْمَدِينِ الْمُتَوَسِّطَةِ . وَإِنْ نَزَعَ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ إِلَيْهَا فَيَخْتَطُّهَا وَيُجْرِي أَحْوَالَهَا . إِلَّا أَنَّهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهَا دَاعِيَةٌ مِنْ كَافَّةِ النَّاسِ فَسَرَعَانَ مَا تُهْجَرُ وَتَخْرَبُ وَتَفْرُ عَنْهَا الْقَوْمَةُ لِقَلَّةِ فَائِدَتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ مِنْهَا . وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ .

## الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الأمصار وتغلب بعضهم على بعض

مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ الْإِلْتِحَامَ وَالْإِتِّصَالَ مَوْجُودٌ فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ إِلَّا أَنَّهُ كَمَا قَدَّمَاهُ أضعفُ مِمَّا يَكُونُ بِالنَّسَبِ وَأَنَّهُ تَخْصُلُ بِهِ الْعَصْبِيَّةُ



بِعَضَا مِمَّا تَحْضَلُ بِالنَّسَبِ . وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مُلْتَحِمُونَ بِالضُّهْرِ يَجْذُبُ  
بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَى أَنْ يَكُونُوا لِحْمًا لِحْمًا وَقَرَابَةً قَرَابَةً وَتَجِدُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ  
وَالصَّدَاقَةِ مَا يَكُونُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ مِثْلَهُ فَيَفْتَرِقُونَ شَيْعًا <sup>(١)</sup> وَعَصَائِبَ فَإِذَا  
نَزَلَ الْهَرَمُ بِالدَّوْلَةِ وَتَقَلَّصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ <sup>(٢)</sup> عَنِ الْقَاصِيَةِ اخْتِاجَ أَهْلِ أَمْصَارِهَا إِلَى  
الْقِيَامِ عَلَى أَمْرِهِمُ وَالنَّظَرِ فِي حِمَايَةِ بِلَدِهِمْ وَرَجَعُوا إِلَى الشُّورَى وَتَمَيَّزَ الْعِلْيَةُ عَنِ  
السَّفَلَةِ وَالنُّفُوسُ بِطِبَاعِهَا مُتَطَاوِلَةٌ إِلَى الْعَلْبِ وَالرَّئِاسَةِ فَتَطْمَحُ الْمَشِيخَةُ لِخَلَاءِ الْجَوِّ  
مِنَ السُّلْطَانِ وَالدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ إِلَى الْإِسْتِبْدَادِ وَيَنَازِعُ كُلُّ صَاحِبِهِ وَيَسْتَوْصِلُونَ  
بِالْإِتْبَاعِ مِنَ الْمَوَالِي وَالشَّيْعِ وَالْأَخْلَافِ وَيَبْذُلُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ لِلْأَوْغَادِ وَالْأَوْشَابِ  
فَيَعْضُوبُ كُلُّ لِصَاحِبِهِ وَيَتَعَيَّنُ الْعَلْبُ لِبَعْضِهِمْ فَيَعْطِفُ عَلَى أَكْفَائِهِ لِيَقْصُرَ مِنْ  
أَغْنَتِهِمْ وَيَتَّبِعُهُمْ بِالْقَتْلِ أَوْ التَّغْرِيبِ حَتَّى يَخْضُدَ مِنْهُمْ الشُّوكَاتِ النَّافِذَةَ وَيَقْلَمَ  
الْأَطْفَارَ الْخَادِشَةَ وَيَسْتَبِدُّ بِمِضْرِهِ أَجْمَعَ وَيَرَى أَنَّهُ قَدْ اسْتَحْدَثَ مُلْكًا يورثه عقبه  
فِيحْدُثُ فِي ذَلِكَ الْمُلْكِ الْأَصْغَرَ مَا يَحْدُثُ فِي الْمُلْكِ الْأَعْظَمِ مِنْ عَوَارِضِ الْجِدَّةِ  
وَالْهَرَمِ وَرُبَّمَا يَسْمُو بَعْضُ هَؤُلَاءِ إِلَى مَنَازِعِ الْمُلُوكِ الْأَعْظَمِ أَصْحَابِ الْقَبَائِلِ  
وَالْعَشَائِرِ وَالْعَصِيَّاتِ وَالزُّخُوفِ وَالْخُرُوبِ وَالْأَقْطَارِ وَالْمَمَالِكِ فَيَنْتَحِلُونَ بِهَا مِنْ  
الْجُلُوسِ عَلَى السَّرِيرِ وَاتِّخَاذِ الْآلَةِ وَإِعْدَادِ الْمَوَاكِبِ لِلسَّيْرِ فِي أَقْطَارِ الْبِلَدِ وَالتَّخْتِمْ  
وَالْتَّحِيَّةِ وَالْخِطَابِ بِالتَّهْوِيلِ مَا يَسْخَرُ مِنْهُ مَنْ يَشَاهِدُ أَحْوَالَهُمْ لِمَا انْتَحَلُوهُ مِنْ  
شَارَاتِ الْمُلْكِ الَّتِي لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ . إِنَّمَا دَفَعَهُمْ إِلَى ذَلِكَ تَقَلُّصُ الدَّوْلَةِ وَالتَّحَامُّ  
بَعْضِ الْقَرَابَاتِ حَتَّى صَارَتْ عَصِيَّةً . وَقَدْ يَنْتَزِعُ بَعْضُهُمْ عَنِ ذَلِكَ وَيَجْرِي عَلَى  
مَذْهَبِ <sup>(٣)</sup> السَّدَاجَةِ فِرَارًا مِنَ التَّغْرِيبِ بِنَفْسِهِ لِلسُّخْرِيَّةِ وَالْعَبَثِ . وَقَدْ وَقَعَ هَذَا  
بِأَفْرِيْقِيَّةَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الْحَفْصِيَّةِ لِأَهْلِ بِلَادِ الْجَرِيدِ مِنْ طَرَابُلُسَ  
وَقَابِسَ وَنُؤُوزَرَ وَنَفْطَةَ وَقَفْصَةَ وَبِسْكَرَةَ وَالزَّابِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ . سَمَّوْا إِلَى مِثْلِهَا عِنْدَ

(١) وفي النسخة الباريسية : شعبا .

(٢) وفي النسخة الباريسية : وتقلص الملك عن القاصية .

(٣) وفي نسخة أخرى : مذاهب .

تَقْلَصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ عَنْهُمْ مُنْذُ عُقُودِ مِنَ السَّنِينَ فَاسْتَغْلَبُوا عَلَى أَمْصَارِهِمْ وَاسْتَبَدُّوا بِأَمْرِهَا عَلَى الدَّوْلَةِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْجَبَايَةِ . وَأَعْطَوْا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ وَصَفْقَةَ مُمْرُضَةَ وَأَقْطَعُوهَا جَانِبًا مِنَ الْمَلَايِنَةِ وَالْمَلَاطِفَةِ وَالْإِنْتِقَادِ وَهُمْ بِمَعَزِلِ عَنْهُ . وَأَوْرَثُوا ذَلِكَ أَعْقَابَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَحَدَّثَ فِي خَلْفِهِمْ<sup>(١)</sup> مِنَ الْعِلْظَةِ وَالشَّجْرِ مَا يَحْدُثُ لِأَعْقَابِ الْمُلُوكِ وَخَلْفِهِمْ وَنَظَّمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي عِدَادِ السُّلَاطِينِ عَلَى قُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالسُّوقَةِ حَتَّى مَحَا ذَلِكَ مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو الْعَبَّاسِ وَانْتَزَعَ مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ كَمَا نَذَرَهُ فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ . وَقَدْ كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ وَقَعَ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ الصَّنَهَاجِيَّةِ وَاسْتَقَلَّ بِأَمْصَارِ الْجَرِيدِ أَهْلُهَا وَاسْتَبَدُّوا عَلَى الدَّوْلَةِ حَتَّى انْتَزَعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شَيْخُ الْمُوَحِّدِينَ وَمَلِكُهُمْ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ وَنَقَلَهُمْ مِنْ إِمَارَاتِهِمْ بِهَا إِلَى الْمَغْرِبِ وَمَحَا مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ آثَارَهُمْ كَمَا نَذَرْنَا فِي أَخْبَارِهِ . وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِسَبْتَةِ لآخرِ دَوْلَةِ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ . وَهَذَا التَّغْلِبُ يَكُونُ غَالِبًا فِي أَهْلِ السَّرَوَاتِ وَالْبَيْوَاتِ الْمُرْشِحِينَ لِلْمَشِيخَةِ وَالرَّئِيسَةِ فِي الْمِصْرِ ، وَقَدْ يَحْدُثُ التَّغْلِبُ لِبَعْضِ السَّفَلَةِ مِنَ الْغَوْعَاءِ وَالذُّهْمَاءِ . وَإِذَا حَصَلَتْ لَهُ الْعَصِيَّةُ وَالْإِلْتِحَامُ بِالْأَوْعَادِ لِأَسْبَابٍ يَجْرُهَا لَهُ الْمِقْدَارُ فَيَتَغْلَبُ عَلَى الْمَشِيخَةِ وَالْعِلْيَةِ إِذَا كَانُوا فَاقِدِينَ لِلْعِصَايَةِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

## الفصل الثاني والعشرون

### في لغات أهل الأمصار

إِغْلَمَ أَنْ لُغَاتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِنَّمَا تَكُونُ بِلِسَانِ الْأُمَّةِ أَوْ الْجِيلِ الْغَالِبِينَ عَلَيْهَا أَوْ الْمُخْتَطِّينَ لَهَا وَلِذَلِكَ كَانَتْ لُغَاتُ الْأَمْصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا بِالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ عَرَبِيَّةً وَإِنْ كَانَ اللُّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمَضْرِيَّ قَدْ فَسَدَتْ مَلَكَتُهُ وَتَغَيَّرَ إِعْرَابُهُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا وَقَعَ لِلدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْعَلْبِ عَلَى الْأَمَمِ وَالذِّينِ وَالْمِلَّةِ صُورَةً

(١) وفي نسخة أخرى : خلفهم .

لِلوُجُودِ وَالْمَمْلِكِ : وَكُلُّهَا مَوَادُّ لَهُ وَالصُّورَةُ مَقْدَمَةٌ عَلَى الْمَادَّةِ وَالذِّينُ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ  
الشَّرِيعَةِ وَهِيَ يَلْسَانُ الْعَرَبِ لِمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَرَبِيٌّ فَوَجِبَ هَجْرُ مَا سِوَى  
اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْأَلْسِنِ فِي جَمِيعِ مَمَالِكِهَا . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي نَهْيِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ عَنْ بَطَانَةِ<sup>(١)</sup> الْأَعَاجِمِ وَقَالَ إِنَّهَا خَبٌّ . أَيْ مَكْرٌ وَخَدِيعَةٌ . فَلَمَّا هَجَرَ الذِّينُ  
اللُّغَاتِ الْأَعْجَمِيَّةَ وَكَانَ لِسَانُ الْقَائِمِينَ بِالدُّوَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَرَبِيًّا هُجِرَتْ كُلُّهَا فِي  
جَمِيعِ مَمَالِكِهَا لِأَنَّ النَّاسَ تَبِعَ لِلسُّلْطَانِ وَعَلَى دِينِهِ فَصَارَ اسْتِعْمَالُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ  
مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَطَاعَةِ الْعَرَبِ . وَهَجَرَ الْأُمَّمُ لُغَاتِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ  
وَالْمَمَالِكِ . وَصَارَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ لِسَانَهُمْ حَتَّى رَسَخَ ذَلِكَ لُغَةً فِي جَمِيعِ أَمْصَارِهِمْ  
وَمُدُنِهِمْ وَصَارَتِ الْأَلْسِنَةُ الْعَجَمِيَّةُ دَخِيلَةً فِيهَا وَعَرَبِيَّةً . ثُمَّ فَسَدَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ  
بِمُخَالَطَتِهَا فِي بَعْضِ أَحْكَامِهِ وَتَغْيِيرِ أَوَاخِرِهِ وَإِنْ كَانَ بَقِيَ فِي الدَّلَالَاتِ عَلَى أَصْلِهِ  
وَسُمِّيَ لِسَانًا حَضْرِيًّا فِي جَمِيعِ أَمْصَارِ الْإِسْلَامِ . وَأَيْضًا فَأَكْثَرَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ فِي الْمِلَّةِ  
لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَعْقَابِ الْعَرَبِ الْمَالِكِينَ لَهَا . الْهَالِكِينَ فِي تَرْفِهَا بِمَا كَثُرُوا الْعَجَمُ  
الَّذِينَ كَانُوا بِهَا وَوَرِثُوا أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ . وَاللُّغَاتُ مُتَوَارِثَةٌ فَبَقِيَتْ لُغَةُ الْأَعْقَابِ عَلَى  
حِيَالِ لُغَةِ الْأَبَاءِ وَإِنْ فَسَدَتْ أَحْكَامُهَا بِمُخَالَطَةِ الْأَعْجَامِ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَسُمِّيَتْ  
لُغَتَهُمْ حَضْرِيَّةً مَنْسُوبَةً إِلَى أَهْلِ الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصَارِ بِخِلَافِ لُغَةِ الْبَدْوِ مِنَ الْعَرَبِ  
فَإِنَّهَا كَانَتْ أَعْرَقَ فِي الْعُرُوبِيَّةِ وَلَمَّا تَمَلَّكَ الْعَجَمُ مِنَ الذِّيلِ وَالسُّلْجُوقِيَّةِ بَعْدَهُمْ  
بِالْمَشْرِقِ . وَزَنَاتَهُ وَالْبَرْبَرُ بِالْمَغْرِبِ . وَصَارَ لَهُمُ الْمَلِكُ وَالِاسْتِيْلَاءُ عَلَى جَمِيعِ  
الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَسَدَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ لِذَلِكَ وَكَادَ يَذْهَبُ لَوْلَا مَا حَفِظَهُ مِنْ  
عِنَايَةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اللَّذِينَ بِهِمَا حَفِظَ الذِّينُ وَسَارَ ذَلِكَ مُرْجِحًا  
لِبَقَاءِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُضْرِيَّةِ مِنَ الشُّعْرِ وَالْكَلامِ إِلَّا قَلِيلًا بِالْأَمْصَارِ فَلَمَّا مَلَكَ التُّتْرُ  
وَالْمُعُولُ بِالْمَشْرِقِ وَلَمْ يَكُونُوا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ذَهَبَ ذَلِكَ الْمُرْجِحُ وَفَسَدَتِ اللُّغَةُ  
الْعَرَبِيَّةُ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا رَسْمٌ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْعِرَاقِ وَخُرَّاسَانَ

(١) وفي نسخة أخرى : رطانة ( وهي الأصح مع مقتضى سياق الجملة ) .

وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَرْضِ الْهِنْدِ وَالسُّنْدِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الشَّمَالِ وَبِلَادِ الرُّومِ وَذَهَبَتْ  
 أَسَالِيبُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الشَّعْرِ وَالْكَلَامِ إِلَّا قَلِيلاً يَقَعُ تَعْلِيمُهُ صِنَاعِيًّا بِالقَوَانِينِ  
 الْمُتَدَارِسَةِ مِنْ كَلَامٍ <sup>(١)</sup> الْعَرَبِ وَحَفِظَ كَلَامِهِمْ لِمَنْ يَسْرَهُ اللهُ تَعَالَى لِذَلِكَ . وَرُبَّمَا  
 بَقِيَتْ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُضْرِيَّةُ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسَ وَبِالْمَغْرِبِ لِبَقَاءِ الدِّينِ طَلَباً  
 لَهَا فَانْحَفِظْتُ بِنِعْضِ الشَّيْءِ وَأَمَّا فِي مَمَالِكِ الْعِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ وَلَا  
 عَيْنٌ حَتَّى إِنْ كُتِبَ الْعُلُومُ صَارَتْ تُكْتَبُ بِاللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ وَكَذَا تَدْرِيْسُهُ فِي  
 الْمَجَالِسِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ . وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا  
 مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً دَائِماً أَبَداً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ  
 الْعَالَمِينَ .

## الباب الخامس

### من الكتاب الأول

في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله

من الأحوال وفيه مسائل

### الفصل الأول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال  
 البشرية

إِغْلَمَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُفْتَقِرٌ بِالطَّبْعِ إِلَى مَا يَقُوْتُهُ وَيَمُوْنُهُ فِي خَالَاتِهِ وَأَطْوَارِهِ مِنْ  
 لَدُنْ نَشْوَاهِ إِلَى أَشَدِّهِ إِلَى كِبَرِهِ « وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ » وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ  
 جَمِيعَ مَا فِي الْعَالَمِ لِلْإِنْسَانِ وَأَمْتَنَ بِهِ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ : « خَلَقَ

(١) وفي نسخة : علوم .

لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ <sup>(١)</sup> وَسَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ وَسَخَّرَ لَكُمْ  
الْفُلْكَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ . وَكَثِيرٌ مِنْ شَوَاهِدِهِ . وَيَدُ الْإِنْسَانِ مَبْسُوطَةٌ عَلَى الْعَالَمِ  
وَمَا فِيهِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْإِسْتِخْلَافِ . وَأَيْدِي الْبَشَرِ مُنْتَشِرَةٌ فِيهِ مُشْتَرِكَةٌ فِي  
ذَلِكَ . وَمَا حَصَلَ عَلَيْهِ يَدُ هَذَا امْتَنَعَ عَنِ الْآخِرِ إِلَّا بِعَمُوضٍ . فَلَا إِنْسَانَ مَتَى اقْتَدَرَ  
عَلَى نَفْسِهِ وَتَجَاوَزَ طُورَ الضُّعْفِ سَعَى فِي اقْتِنَاءِ الْمَكْسَبِ لِيُنْفِقَ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْهَا فِي  
تَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ وَضُرُورَاتِهِ بِدَفْعِ الْأَعْوَاضِ عَنْهَا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « فَاتَّبِعُوا عِنْدَ  
اللَّهِ الرِّزْقَ » وَقَدْ يَحْضُلُ لَهُ ذَلِكَ بِغَيْرِ سَعْيٍ كَالْمَطَرِ الْمُضْلِحِ لِلزَّرْعَةِ وَأَمْثَالِهِ . إِلَّا  
أَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ مُعِينَةً وَلَا بُدَّ مِنْ سَعْيِهِ مَعَهَا كَمَا يَأْتِي فَتَكُونُ لَهُ تِلْكَ الْمَكْسَبُ  
مَعَاشاً إِنْ كَانَتْ بِمِقْدَارِ الضَّرُورَةِ وَالْحَاجَةِ وَرِيَاشاً وَمُتَمَوِّلاً إِنْ زَادَتْ عَلَى ذَلِكَ . ثُمَّ  
إِنَّ ذَلِكَ الْحَاصِلَ أَوْ الْمُقْتَنَى إِنْ عَادَتْ مَنْفَعَتُهُ عَلَى الْعَبْدِ وَحَصَلَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ مِنْ  
إِنْفَاقِهِ فِي مَصَالِحِهِ وَحَاجَاتِهِ سُمِّيَ ذَلِكَ رِزْقاً . قَالَ ﷺ : « إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ  
مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فِي  
شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ وَلَا حَاجَاتِهِ فَلَا يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَالِكِ رِزْقاً وَالْمُتَمَلِّكُ مِنْهُ  
حِينَئِذٍ بِسَعْيِ الْعَبْدِ وَقُدْرَتِهِ يُسَمَّى كَسْباً . وَهَذَا مِثْلُ التَّرَاثِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ  
إِلَى الْهَالِكِ كَسْباً وَلَا يُسَمَّى رِزْقاً إِذْ لَمْ يَحْضُلْ بِهِ مُنْتَفِعٌ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَارِثِينَ مَتَى  
انْتَفَعُوا بِهِ يُسَمَّى رِزْقاً . هَذَا حَقِيقَةُ مُسَمَّى الرِّزْقِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَقَدْ اشْتَرَطَ  
الْمُفْتَزِلُ فِي تَسْمِيَتِهِ رِزْقاً أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ يَصْحُ تَمَلُّكُهُ وَمَا لَا يَتَمَلِّكُ عِنْدَهُمْ  
لَا يُسَمَّى رِزْقاً وَأَخْرَجُوا الْغُصُوبَاتِ <sup>(٢)</sup> وَالْحَرَامَ كُلَّهُ عَنْ أَنْ يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْهَا رِزْقاً  
وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ الْغَاصِبَ وَالظَّالِمَ وَالْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ بِرَحْمَتِهِ وَهَدَايَتِهِ مَنْ يَشَاءُ .  
وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ حُجَجٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ بَسْطِهَا . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْكَسْبَ إِنَّمَا يَكُونُ  
بِالسَّعْيِ فِي الْإِقْتِنَاءِ وَالْقَصْدِ إِلَى التَّحْصِيلِ فَلَا بُدَّ فِي الرِّزْقِ مِنْ سَعْيٍ وَعَمَلٍ وَلَوْ فِي

(١) من الآية ١٣ من سورة الجاثية .

(٢) في النسخة الباريسية . الغصوبات . ولم ترد بلسان العرب الغصوبات . لذلك من الأصح أن يقول

الغصوبة .

تَنَاوَلِهِ وَابْتِغَائِهِ مِنْ وَجْهِهِ . قَالَ تَعَالَى : « فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ » وَالسَّعْيَ إِلَيْهِ  
إِنَّمَا يَكُونُ بِأَقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْهَامِهِ ، فَأَلْكَلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . فَلَا بُدَّ مِنَ الْأَعْمَالِ  
الْإِنْسَانِيَّةِ فِي كُلِّ مَكْسُوبٍ وَمُتَمَوِّلٍ . لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ عَمَلًا بِنَفْسِهِ مِثْلَ الصَّنَائِعِ فَظَاهِرٌ  
وَإِنْ كَانَ مُقْتَنَى مِنَ الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ وَالْمَعْدِنِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَمَا  
تَرَاهُ وَإِلَّا لَمْ يَحْضَلْ وَلَمْ يَقَعْ بِهِ ابْتِغَاعٌ . ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْحَجَرَيْنِ الْمَعْدِنَيْنِ  
مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ قِيَمَةً لِكُلِّ مُتَمَوِّلٍ . وَهُمَا الذَّخِيرَةُ وَالْقِنِيَّةُ لِأَهْلِ الْعَالَمِ فِي  
الْغَالِبِ . وَإِنْ اقْتَنَى سِوَاهُمَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ فَإِنَّمَا هُوَ لِقَصْدِ تَحْصِيلِهِمَا بِمَا يَقَعُ  
فِي غَيْرِهِمَا مِنْ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ الَّتِي هُمَا عَنْهَا بِمَعْزَلٍ فَهُمَا أَصْلُ الْمَكَاسِبِ وَالْقِنِيَّةِ  
وَالذَّخِيرَةِ . وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا كُلُّهُ فَاعْلَمْ أَنَّ مَا يُفِيدُهُ الْإِنْسَانُ وَيَقْتَنِيهِ مِنَ الْمُتَمَوَّلَاتِ  
إِنْ كَانَ مِنَ الصَّنَائِعِ فَالْمَقَادُ الْمُقْتَنَى مِنْهُ قِيَمَةٌ عَمَلِهِ وَهُوَ الْقَصْدُ بِالْقِنِيَّةِ إِذْ لَيْسَ  
هُنَاكَ إِلَّا الْعَمَلُ وَلَيْسَ بِمَقْصُودٍ بِنَفْسِهِ لِلْقِنِيَّةِ . وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الصَّنَائِعِ فِي بَعْضِهَا  
غَيْرُهَا مِثْلُ التَّجَارَةِ وَالْحَيَاكَةِ مَعَهُمَا الْخَشَبُ وَالغَزْلُ إِلَّا أَنَّ الْعَمَلَ فِيهِمَا أَكْثَرُ فِقِيَمَتُهُ  
أَكْثَرُ وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ الصَّنَائِعِ فَلَا بُدَّ مِنْ قِيَمَةِ ذَلِكَ الْمَقَادِ وَالْقِنِيَّةِ مِنْ دُخُولِ قِيَمَةِ  
الْعَمَلِ الَّذِي حَصَلَتْ بِهِ إِذْ لَوْلَا الْعَمَلُ لَمْ تَحْضَلْ قِنِيَّتُهَا . وَقَدْ تَكُونُ مَلَاخِظَةُ الْعَمَلِ  
ظَاهِرَةً فِي الْكَثِيرِ مِنْهَا فَتُجْعَلُ لَهُ حِصَّةٌ مِنَ الْقِيَمَةِ عَظُمَتْ أَوْ صَغُرَتْ . وَقَدْ تَخْفَى  
مَلَاخِظَةُ الْعَمَلِ كَمَا فِي أَسْعَارِ الْأَقْوَاتِ بَيْنَ النَّاسِ فَإِنَّ اعْتِبَارَ الْأَعْمَالِ وَالنَّفَقَاتِ فِيهَا  
مَلَاخِظٌ فِي أَسْعَارِ الْحُبُوبِ كَمَا قَدَّمَ نَاهُ لَكِنَّهُ خَفِيٌّ فِي الْأَقْطَارِ الَّتِي عِلَاجُ الْفُلُجِ فِيهَا  
وَمَوْتُهُ يَسِيرَةٌ فَلَا يَشْعُرُ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْ أَهْلِ الْفُلُجِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْمَقَادَاتِ  
وَالْمُكْتَسَبَاتِ كُلِّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا إِنَّمَا هِيَ قِيَمُ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَبَيَّنَ مُسَمَى الرَّزْقِ  
وَأَنَّهُ الْمُتَمَتَّعُ بِهِ . فَقَدْ بَانَ مَعْنَى الْكَسْبِ وَالرَّزْقِ وَشَرَحَ مُسَمَّاهُمَا . وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا  
فَقِدْتَ الْأَعْمَالَ أَوْ قَلَّتْ بِانْتِقَاصِ الْعُمَرَانِ تَأَذَّنَ اللَّهُ بِرَفْعِ الْكَسْبِ أَوْ تَرَى الْأَ  
الْأَمْصَارَ الْقَلِيلَةَ السَّاكِنِينَ كَيْفَ يَقِلُّ الرَّزْقُ وَالْكَسْبُ فِيهَا أَوْ يُفْقَدُ لِقَلَّةِ الْأَعْمَالِ  
الْإِنْسَانِيَّةِ وَكَذَلِكَ الْأَمْصَارُ الَّتِي يَكُونُ عُمُرَانَهَا <sup>(١)</sup> أَكْثَرَ يَكُونُ أَهْلِهَا أَوْسَعَ أَحْوَالًا

(١) وفي النسخة الباريسية : تكون اعمالها .

وَأَشَدُّ رَفَاهِيَةً كَمَا قَدَّمْنَاهُ قَبْلُ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ تَقُولُ الْعَامَّةُ فِي الْبِلَادِ إِذَا تَنَاقَصَ عُمَرَانَهَا إِنَّهَا قَدْ ذَهَبَ رِزْقُهَا حَتَّى أَنْ الْأَنْهَارَ وَالْعُيُونَ يَنْقَطِعُ جَرِيئُهَا فِي الْقَفْرِ لِمَا أَنْ قَوْرَ الْعُيُونَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْأَنْبَاطِ وَالْإِمْتِرَاءِ الَّذِي هُوَ بِالْعَمَلِ الْإِنْسَانِيِّ كَالْحَالِ فِي ضُرُوعِ الْأَنْعَامِ فَمَا لَمْ يَكُنْ إِنْبَاطٌ وَلَا إِمْتِرَاءٌ نَضَبَتْ وَغَارَتْ بِالْجُمْلَةِ كَمَا يَحِفُّ الضَّرْعُ إِذَا تَرَكَ امْتِرَاؤَهُ . وَانظُرْهُ فِي الْبِلَادِ الَّتِي تُعْهَدُ فِيهَا الْعُيُونَ لِأَيَّامِ عُمَرَانِهَا ثُمَّ يَأْتِي عَلَيْهَا الْخُرَابُ كَيْفَ تَغُورُ مِيَاهُهَا جُمْلَةً كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ « وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » .

## الفصل الثاني

### في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

إِغْلَمَ أَنْ الْمَعَاشَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ ائْتِمَاءِ الرِّزْقِ وَالسَّغْيِ فِي تَحْصِيلِهِ وَهُوَ مَغْفَلٌ مِنَ الْعَيْشِ . كَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْعَيْشُ الَّذِي هُوَ الْحَيَاةُ لَا يَخْضَلُ إِلَّا بِهَذِهِ جُعِلَتْ مَوْضِعًا لَهُ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ ثُمَّ إِنَّ تَحْصِيلَ الرِّزْقِ وَكَسْبَهُ ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِأَخْذِهِ مِنْ يَدِ الْغَيْرِ وَانْتِزَاعِهِ بِالْإِقْتِدَارِ عَلَيْهِ عَلَى قَانُونِ مُتَعَارِفٍ وَيُسَمَّى مَغْرَمًا وَجَبَايَةً وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانَ الْوَحْشِيِّ بِإِفْتِرَاسِهِ<sup>(١)</sup> وَأَخْذِهِ بِرَمِيهِ مِنَ الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ وَيُسَمَّى اضْطِيَادًا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانَ الدَّاجِنِ بِاسْتِخْرَاجِ فُضُولِهِ الْمُنْصَرَفَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَنَافِعِهِمْ كَاللَّبَنِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَرِيرِ مِنْ دَوْدِهِ وَالْعَسَلِ مِنْ نَحْلِهِ أَوْ يَكُونَ مِنَ النَّبَاتِ فِي الرُّزْعِ وَالشَّجَرِ بِالْقِيَامِ عَلَيْهِ وَإِعْدَادِهِ لِاسْتِخْرَاجِ ثَمَرَتِهِ وَيُسَمَّى هَذَا كُلُّهُ فَلْحًا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِمَّا فِي مَوَادِّ مُعَيَّنَةٍ وَتُسَمَّى الصَّنَائِعُ مِنْ كِتَابِيَّةٍ وَتِجَارَةٍ وَخِيَاطِيَّةٍ وَحِيَاكِيَّةٍ وَفَرُوسِيَّةٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ أَوْ فِي مَوَادِّ غَيْرِ مُعَيَّنَةٍ وَهِيَ جَمِيعُ الْإِمْتِهَانَاتِ وَالتَّصْرُفَاتِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْبَضَائِعِ

(١) وفي نسخة أخرى : باقتناسه .

وَأَعْدَادِهَا لِلْأَعْوَاضِ إِذَا بِالْتَّغْلِبِ بِهَا فِي الْبِلَادِ وَاحْتِكَارِهَا وَازْتِقَابِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فِيهَا . وَيُسَمَّى هَذَا تِجَارَةً . فَهَذِهِ وَجوهُ الْمَعَاشِ وَأَصْنَافُهُ وَهِيَ مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ كَالْحَرِيرِيِّ وَغَيْرِهِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : « الْمَعَاشُ إِمَارَةٌ وَتِجَارَةٌ وَفِلَاحَةٌ وَصِنَاعَةٌ » . فَأَمَّا الْإِمَارَةُ فَلَيْسَتْ بِمَذْهَبِ طَبِيعِيٍّ لِلْمَعَاشِ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ الْجَبَايَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَهْلِهَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي . وَأَمَّا الْفِلَاحَةُ وَالصَّنَاعَةُ وَالتَّجَارَةُ فَهِيَ وَجوهُ طَبِيعِيَّةٍ لِلْمَعَاشِ أَمَّا الْفِلَاحَةُ فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا بِالذَّاتِ إِذْ هِيَ بَسِيطَةٌ وَطَبِيعِيَّةٌ فَطَرِيَّةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَلَا عِلْمٍ وَلِهَذَا تَنْسَبُ فِي الْخَلِيقَةِ إِلَى آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ وَأَنَّهُ مُعَلِّمُهَا وَالْقَائِمُ عَلَيْهَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا أَقْدَمُ وَجوهُ الْمَعَاشِ وَأَنْسَبُهَا إِلَى الطَّبِيعَةِ . وَأَمَّا الصَّنَائِعُ فَهِيَ ثَانِيَتُهَا وَمُتَأَخَّرَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهَا مَرْكَبَةٌ وَعِلْمِيَّةٌ تُصَرَّفُ فِيهَا الْأَفْكَارُ وَالْأَنْظَارُ وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ غَالِبًا إِلَّا فِي أَهْلِ الْحَضَرِ الَّذِي هُوَ مُتَأَخَّرٌ عَنِ الْبَدْوِ وَثَانٍ عَنْهُ . وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى نُسِبَتْ إِلَى إِدْرِيسَ الْأَبِ الثَّانِي لِلْخَلِيقَةِ فَإِنَّهُ مُسْتَنْبِطُهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْبَشَرِ بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . وَأَمَّا التَّجَارَةُ وَإِنْ كَانَتْ طَبِيعَةً فِي الْكَسْبِ فَالْأَكْثَرُ مِنْ طَرَفِهَا وَمَذَاهِبِهَا إِنَّمَا هِيَ تَحِيلَاتٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى مَا بَيْنَ الْقِيَمَتَيْنِ فِي الشَّرَاءِ وَالْبَيْعِ لِتَحْصُلِ فَائِدَةِ الْكَسْبِ مِنْ تِلْكَ الْفَضْلَةِ . وَلِذَلِكَ أَبَاحَ الشَّرْعُ فِيهِ الْمُكَاسَبَةَ<sup>(١)</sup> لِمَا أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْمُقَامَرَةِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ أَخْذَ الْمَالِ الْغَيْرِ مَجَانًا فَلِهَذَا اخْتَصَّ بِالْمَشْرُوعِيَّةِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

### الفصل الثالث

في أن الخدمة ليست من الطبيعي

إِعْلَمُ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ اتِّخَاذِ الْخِدْمَةِ فِي سَائِرِ أَسْبَابِ الْإِمَارَةِ وَالْمَلِكِ الَّذِي هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْجُنْدِيِّ وَالشَّرْطِيِّ وَالْكَاتِبِ . وَيَسْتَكْفِي فِي كُلِّ بَابٍ بِمَنْ

(١) وفي النسخة الباريسية : المكاسب .



المُضَيِّعُ وَلَوْ كَانَ مَأْمُونًا فَضَرَّرَهُ بِالتَّضْيِيعِ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهِ . فَأَعْلَمَ ذَلِكَ وَاتَّخَذَهُ قَانُونًا فِي الإِسْتِكْفَاءِ بِالْخِدْمَةِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

## الفصل الرابع

في ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي

إِعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ ضُعْفَاءِ الْعُقُولِ فِي الْأَمْصَارِ يَحْرُصُونَ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ وَيَبْتَغُونَ الْكَسْبَ مِنْ ذَلِكَ . وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْوَالَ الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ مُخْتَزَنَةٌ كُلُّهَا تَحْتِ الْأَرْضِ مَخْتُومٌ عَلَيْهَا كُلُّهَا بِطَلَّاسِمِ سِحْرِيَّةٍ ، لَا يَفُضُّ خِتَامَهَا ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَشَرَ عَلَى عِلْمِهِ وَاسْتَحْضَرَ مَا يَحُلُّهُ مِنَ الْبُخُورِ وَالِدُعَاءِ وَالْقُرْبَانِ . فَأَهْلُ الْأَمْصَارِ بِأَفْرِيْقِيَّةِ يَرَوْنَ أَنَّ الْإِفْرَنْجَةَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ بَهَا دَفَنُوا أَمْوَالَهُمْ كَذَلِكَ وَأَوْدَعُوهَا فِي الصُّحُفِ بِالْكِتَابِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا السَّبِيلَ إِلَى اسْتِخْرَاجِهَا . وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ بِالْمَشْرِقِ يَرَوْنَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي أُمَّمِ الْقَبْطِ وَالرُّومِ وَالْفَرَسِ . وَيَتَنَاقَلُونَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثَ تُشْبِهُ حَدِيثَ حُرَاقَةَ مِنْ انْتِهَاءِ بَعْضِ الطَّالِبِينَ لِذَلِكَ إِلَى حَفْرِ مَوْضِعِ الْمَالِ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ طِلْسَمَهُ وَلَا خَبْرَهُ فَيَجِدُونَهُ خَالِيًا أَوْ مَعْمُورًا بِالذِّيدَانِ . أَوْ يُشَاهِدُ الْأَمْوَالَ وَالْجَوَاهِرَ مَوْضُوعَةً وَالْحَرَسَ دُونَهَا مُنْتَضِينَ سُيُوفَهُمْ . أَوْ تَمِيدُ بِهِ الْأَرْضَ حَتَّى يَظُنُّهُ حَسَفًا أَوْ مِثْلَ ذَلِكَ مِنَ الْهَذَرِ . وَنَجِدُ كَثِيرًا مِنْ طَلَبِيَةِ الْبَرَبْرِ بِالْمَغْرِبِ الْعَاجِزِينَ عَنِ الْمَعَاشِ الطَّبِيعِيِّ وَأَسْبَابِهِ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا بِالْأَوْزَاقِ الْمُتَخَرِّمَةِ <sup>(١)</sup> الْحَوَاشِي إِمَّا بِخُطُوطٍ عَجْمِيَّةٍ أَوْ بِمَا تُرْجَمُ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا مِنْ خُطُوطِ أَهْلِ الدَّفَائِنِ بِإِعْطَاءِ الْأَمَارَاتِ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِنِهَا يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ الرِّزْقَ مِنْهُمْ بِمَا يَبْتَغُونَهُ عَلَى الْحَفْرِ وَالطَّلَبِ وَيَمُوهُونَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى الإِسْتِعَانَةِ بِهِمْ طَلَبُ الْجَاهِ فِي مِثْلِ هَذَا مِنْ مَنَالِ الْحُكَّامِ وَالْعُقُوبَاتِ . وَرُبَّمَا تَكُونُ عِنْدَ

(١) وفي النسخة الباريسية : المخترمة .

يَعْلَمُ غِنَاءَهُ فِيهِ وَيَتَكْفَلُ بِأَرْزَاقِهِمْ مِنْ بَيْتِ مَالِهِ . وَهَذَا كُلُّهُ مُنْدَرِجٌ فِي الْإِمَارَةِ  
وَمَعَاشِهَا إِذْ كُلُّهُمْ يَنْسَحِبُ<sup>(١)</sup> عَلَيْهِمْ حُكْمُ الْإِمَارَةِ وَالْمَلِكُ الْأَعْظَمُ هُوَ يَنْبُوعُ  
جَدَاوِلِهِمْ . وَأَمَّا مَا دُونَ ذَلِكَ مِنَ الْخِدْمَةِ فَسَبَبُهَا أَنَّ أَكْثَرَ الْمُتَرْفِعِينَ يَتَرَفَّعُ عَنْ  
مُبَاشَرَةِ حَاجَاتِهِ أَوْ يَكُونُ عَاجِزاً عَنْهَا لِمَا رَبَّى عَلَيْهِ مِنْ خُلُقِ التَّنَعُّمِ وَالتَّرَفِّهِ فَيَتَّخِذُ  
مَنْ يَتَوَلَّى ذَلِكَ لَهُ وَيَقْطَعُهُ عَلَيْهِ أَجْراً مِنْ مَالِهِ . وَهَذِهِ الْحَالَةُ غَيْرُ مَخْمُودَةٍ بِحَسَبِ  
الرُّجُولِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ إِذِ الثَّقَةُ بِكُلِّ أَحَدٍ عِجْزٌ ، وَلِأَنَّهَا تَزِيدُ فِي الْوِظَائِفِ  
وَالخُرُجِ وَتَدُلُّ عَلَى الْعَجْزِ وَالخَنْثِ الَّذِي يَنْبَغِي فِي مَذَاهِبِ الرُّجُولِيَّةِ التَّنَزُّهُ عَنْهُمَا .  
إِلَّا أَنَّ الْعَوَائِدَ تَقْلِبُ طَبَاعَ الْإِنْسَانِ إِلَى مَالُوفِهَا فَهَوَّابُنُ عَوَائِدِهِ لَا ابْنَ نَسَبِهِ . وَمَعَ  
ذَلِكَ فَالْخَدِيمُ الَّذِي يُسْتَكْفَى بِهِ وَيُوثَقُ بِغِنَائِهِ كَالْمَقْمُودِ إِذَا الْحَدِيثُ الْقَائِمُ بِذَلِكَ  
لَا يَعْدُو أَرْبَعَ حَالَاتٍ : إِمَّا مُضْطَلَعٌ بِأَمْرِهِ وَلَا مُوْتَوَقٌ فِيمَا يَحْضُلُ بِيَدِهِ وَإِمَّا  
بِالعَكْسِ فِيهِمَا ، وَهُوَ أَنَّ يَكُونُ غَيْرُ مُضْطَلَعٍ بِأَمْرِهِ وَلَا مُوْتَوَقٌ فِيمَا يَحْضُلُ بِيَدِهِ  
وَإِمَّا بِالعَكْسِ فِي إِحْدَاهُمَا فَقَطْ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ مُضْطَلَعاً غَيْرَ مُوْتَوَقٍ أَوْ مُوْتَوَقاً غَيْرَ  
مُضْطَلَعٍ . فَأَمَّا الْأَوَّلُ وَهُوَ الْمُضْطَلَعُ الْمُوْتَوَقُ فَلَا يُمْكِنُ أَحَداً اسْتِعْمَالَهُ بِوَجْهِ إِذْ هُوَ  
بِاضْطِلَاعِهِ وَثِقْتِهِ غَنِيٌّ عَنْ أَهْلِ الرُّتَبِ الدُّنْيَا وَمَحْتَقِرٌ لِمِثَالِ الْأَجْرِ مِنَ الْخِدْمَةِ  
لِاقْتِدَارِهِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا الْأَمْرَاءُ أَهْلُ الْجَاهِ الْعَرِيضِ لِعُمُومِ  
الْحَاجَةِ إِلَى الْجَاهِ . وَأَمَّا الصَّنْفُ الثَّانِي وَهُوَ مِمَّنْ لَيْسَ بِمُضْطَلَعٍ وَلَا مُوْتَوَقٍ فَلَا  
يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ اسْتِعْمَالَهُ لِأَنَّهُ يُحْجَفُ بِمَخْدُومِهِ فِي الْأَمْرَيْنِ مَعاً فَيَضِيعُ عَلَيْهِ لِعَدَمِ  
الِاضْطِنَاعِ تَارَةً وَيَذْهَبُ مَالُهُ بِالْخِيَانَةِ أُخْرَى فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ كُلُّهُ عَلَى مَوْلَاهُ .  
فَهَذَانِ الصَّنِفَانِ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي اسْتِعْمَالِهِمَا . وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اسْتِعْمَالُ الصَّنِفَيْنِ  
الْآخَرَيْنِ : مُوْتَوَقٍ غَيْرِ مُضْطَلَعٍ وَمُضْطَلَعٍ غَيْرِ مُوْتَوَقٍ وَلِلنَّاسِ فِي التَّرْجِيحِ بَيْنَهُمَا  
مَذْهَبَانِ . وَلِكُلِّ مِنَ التَّرْجِيحَيْنِ وَجْهٌ . إِلَّا أَنَّ الْمُضْطَلَعِ وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مُوْتَوَقٍ أَرْجَحُ  
لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ مِنْ تَضْيِيعِهِ وَيَحَاوُلُ عَلَى التَّحَرُّزِ مِنْ خِيَانَتِهِ جُهْدَ الْإِسْتِطَاعَةِ وَأَمَّا

(١) بمعنى ينطبق عليهم . وقد استعملت على المجاز .

بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يمؤه بها على تصديق ما بقي من  
دعواه وهو بمنزل عن السحر وطرقه فتولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي  
على الإحتفار والتسترف فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول ، فإذا لم  
يعثروا على شيء زدوا ذلك إلى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال  
يخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم . والذي يحمّل على ذلك في الغالب  
زيادة على ضعف العقل إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية  
للكسب من التجارة والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجوه المنحرفة وعلى غير  
المجزي<sup>(١)</sup> الطبيعي من هذا وأمثاله عجزاً عن السعي في المكاسب وركوناً إلى  
تناول الرزق من غير تعب ولا نصيب في تحصيله واكتسابه ولا يعلمون أنهم  
يوقعون أنفسهم بائتغاء ذلك من غير وجهه في نصيب ومتاعب وجهه شديد أشد  
من الأول ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال العقوبات . وربما يحمّل على ذلك في  
الأكثر زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حد النهاية حتى تقصر عنها وجوه  
الكسب ومذاهبه ولا تفي بمطالبها . فإذا عجز عن الكسب بالمجزي الطبيعي لم  
يجد وليجة في نفسه إلا التمني لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة لينفي له ذلك  
بالعوائد التي حصل في أسرها فيحرص على ائتغاء ذلك ويسعى فيه جهده ولهذا  
فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة ومن سكان  
الأمصار الكثيرة الترف المتسعة الأحوال مثل مضر وما في معناها فنجد الكثير  
منهم مغرمين بائتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه كما يحرصون  
على الكيمياء . هكذا بلغني<sup>(٢)</sup> عن أهل مضر في مفاوضة من يلقونه من طلبه  
المغاربة لعلمهم يعثرون منه على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير  
المياه لما يرون أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها في مجاري النيل وأنه أعظم  
ما يسترد دفيناً أو مختزناً في تلك الآفاق ويمؤه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتعلة

(١) وفي النسخة البارية : الوجه .

(٢) وفي نسخة أخرى : يبلغنا .

في الإعتذار عن الوصول إليها بحزبية النيل تسترأ بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلفا بشأن السحر متوارثا في ذلك القطر عن أوليه فعلمهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم في البراري<sup>(١)</sup> وغيرها . وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها إلى حكماء المشرق تعطى فيها كنيمة العمل بالتقوير بصناعة سحرية حسبا تراه فيها وهي  
هذه :

يا طالباً للسر في التقوير  
دع عنك ما قد صنّفوا في كتبهم .  
واسمع لصديق مقالتي ونصيحتي  
فإذا أردت تغور البئر التي  
صوّر كصورتك التي أوقفها  
ويدها ماسكتان للخبيل الذي  
وبصدره هاء كما عاينتها  
ويطأ على الطّاءات غير ملامس  
ويكون حول الكل<sup>(٢)</sup> خط دائر  
واذبح عليه الطير والطخه به  
بالسندروس وباللبان وميعة  
من أحمر أو أصفر لا<sup>(٤)</sup> أزرق  
ويشده خيطان صوف أبيض

(٢) وفي النسخة الباريسية : البرابي .

(٣) ونسخة أخرى : والشكل .

(٤) وفي النسخة الباريسية : واقصد عقب .

(٥) وفي النسخة الباريسية : أصفر أو .

وَالطَّلَعُ الْأَسَدُ الَّذِي قَدْ بَيَّنُّوا وَيَكُونُ بَدْءُ<sup>(١)</sup> الشَّهْرِ غَيْرَ مُنِيرٍ  
وَالْبَدْرُ مُتَّصِلٌ بِسَعْدِ عَطَارِدٍ فِي يَوْمِ سَبْتِ سَاعَةِ التَّدْبِيرِ  
يَعْنِي أَنْ تَكُونَ الطَّاءَاتُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يَمْشِي عَلَيْهَا وَعِنْدِي أَنَّ هَذِهِ  
الْقَصِيدَةَ مِنْ تَمْوِيهَاتِ الْمُتَخَرِّفِينَ<sup>(٢)</sup> فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ وَأَصْطِلَاحَاتٌ  
عَجِيبَةٌ وَتَنْتَهَى التَّخْرِفَةُ<sup>(٣)</sup> وَالْكَذِبُ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَسْكُنُوا الْمَنَازِلَ الْمَشْهُورَةَ وَالذُّورَ  
الْمَعْرُوفَةَ لِمِثْلِ هَذِهِ وَيَحْتَفِرُونَ الْحُفْرَ وَيَضْعُونَ الْمَطَابِقَ فِيهَا وَالشَّوَاهِدَ الَّتِي  
يَكْتُبُونَهَا فِي صَحَائِفٍ كَذِبِهِمْ ثُمَّ يَقْصِدُونَ ضَعْفَاءَ الْعُقُولِ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الصَّحَائِفِ  
(وَيَعْتُونَ عَلَى كِبْرَاءِ)<sup>(٤)</sup> ذَلِكَ الْمَنْزِلِ وَسَكْنَاهُ وَيُوْهَمُونَ أَنَّ بِهِ دَفِينًا مِنَ الْأَمْالِ  
لَا يَعْبُرُ عَنْ كَثْرَتِهِ وَيَطَالِبُونَ بِالْأَمْالِ لِاشْتِرَاءِ الْعَقَاقِيرِ وَالْبُخُورَاتِ لِحَلِّ الطَّلَاسِمِ  
وَيَعْدُونَهُ بِظُهُورِ الشَّوَاهِدِ الَّتِي قَدْ أَعْدَوْهَا هُنَالِكَ بَأَنْفُسِهِمْ وَمَنْ فَعَلَهُمْ فَيَنْبِيعَتْ لِمَا  
يِرَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ قَدْ خُدِعَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ وَبَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ  
أَصْطِلَاحٌ فِي كَلَامِهِمْ يُلَبِّسُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ لِيَخْفَى عِنْدَ مُحَاوَرَتِهِمْ فِيمَا يَتَلَوْنَهُ<sup>(٥)</sup> مِنْ  
حُفْرٍ وَبُخُورٍ وَذَبِجِ حَيَوَانَ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ فَلَا أَصْلَ  
لَهُ فِي عِلْمٍ وَلَا خَبْرٍ وَاعْلَمْ أَنَّ الْكُنُوزَ وَإِنْ كَانَتْ تَوْجَدُ لَكِنِّهَا فِي حُكْمِ النَّادِرِ وَعَلَى  
وَجْهِ الْإِتْفَاقِ لَا عَلَى وَجْهِ الْقَصْدِ إِلَيْهَا . وَلَيْسَ ذَلِكَ بِأَمْرٍ تَعْمُ بِهِ الْبَلَوَى حَتَّى  
يُدْخِرَ النَّاسُ أَمْوَالَهُمْ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَخْتُمُونَ عَلَيْهَا بِالطَّلَاسِمِ لَا فِي الْقَدِيمِ وَلَا فِي  
الْحَدِيثِ . وَالرُّكَّازُ الَّذِي وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَفَرَضَهُ الْفُقَهَاءُ وَهُوَ دَفِينُ الْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا  
يُوجَدُ بِالْعُنُورِ وَالْإِتْفَاقِ لَا بِالْقَصْدِ وَالطَّلِبِ وَأَيْضًا فَمَنْ اخْتَزَنَ مَالَهُ وَخَتَمَ عَلَيْهِ  
بِالْأَعْمَالِ السُّخْرِيَّةِ فَقَدْ بَالَعَ فِي إِخْفَائِهِ فَكَيْفَ يَنْصِبُ عَلَيْهِ الْأَدْلَةَ وَالْأَمَارَاتِ لِمَنْ  
يَبْتَغِيهِ . وَيَكْتُبُ ذَلِكَ فِي الصَّحَائِفِ حَتَّى يَطَّلِعَ عَلَى ذَخِيرَتِهِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ

(١) وفي النسخة الباريسية : بدر .

(٢) وفي النسخة الباريسية : المخرفين .

(٣) وفي النسخة الباريسية : المخرفة .

(٤) وفي نسخة أخرى : ويبعثونه على اكتراء .

(٥) وفي نسخة أخرى : يتناولونه .

وَالْآفَاقِ؟ هَذَا يُنَاقِضُ قَصْدَ الْإِحْفَاءِ. وَأَيْضاً فَافْعَالُ الْعُقَلَاءِ لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ لِعَرَضٍ مَقْصُودٍ فِي الْإِنْتِفَاعِ. وَمَنْ اخْتَزَنَ الْمَالَ فَإِنَّهُ يَخْتَرِنُهُ لِوَلَدِهِ أَوْ قَرِيبِهِ أَوْ مَنْ يُؤَثِّرُهُ. وَأَمَّا أَنْ يَقْصِدَ إِحْفَاءَهُ بِالْكَلِيَّةِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ وَإِنَّمَا هُوَ لِلْبَلَاءِ وَالْهَلَاكِ أَوْلَمَنْ لَا يَعْرِفُهُ بِالْكَلِيَّةِ مِمَّنْ سَيَاتِي مِنَ الْأَمَمِ فَهَذَا لَيْسَ مِنْ مَقَاصِدِ الْعُقَلَاءِ بِوَجْهِهِ. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: أَيْنَ أَمْوَالُ الْأَمَمِ مِنْ قَبْلِنَا وَمَا عَلِمَ فِيهَا مِنْ الْكَثْرَةِ وَالْوُفُورِ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْوَالَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَمْتِعَةِ إِنَّمَا هِيَ مَعَادِنٌ وَمَكَاسِبٌ مِثْلُ الْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ وَالرِّصَاصِ وَسَائِرِ الْعَقَارَاتِ وَالْمَعَادِنِ. وَالْعُمَرَانُ يُظْهِرُهَا بِالْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَيَزِيدُ فِيهَا أَوْ يُنْقِصُهَا وَمَا يُوجَدُ مِنْهَا بِأَيْدِي النَّاسِ فَهُوَ مُنْتَقِلٌ مُتَوَارِثٌ وَرُبَّمَا انْتَقَلَ مِنْ قَطْرٍ إِلَى قَطْرٍ وَمِنْ دَوْلَةٍ إِلَى أُخْرَى بِحَسَبِ أَعْرَاضِهِ<sup>(١)</sup>. وَالْعُمَرَانُ الَّذِي يَسْتَدْعِي لَهُ فَإِنْ نَقَصَ الْمَالُ فِي الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةِ فَلَمْ يَنْقُصْ بِلَادِ الصَّقَالِيَّةِ وَالْإِفْرَنْجِ وَإِنْ نَقَصَ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ فَلَمْ يَنْقُصْ فِي الْهِنْدِ وَالصِّينِ. وَإِنَّمَا هِيَ الْآلَاتُ وَالْمَكَاسِبُ وَالْعُمَرَانُ يُوفِّرُهَا أَوْ يُنْقِصُهَا، مَعَ أَنَّ الْمَعَادِنَ يُدْرِكُهَا الْبَلَاءُ كَمَا يُدْرِكُ سَائِرَ الْمَوْجُودَاتِ وَيُسْرِعُ إِلَى اللَّوْلُؤِ وَالْجَوَاهِرِ أَعْظَمَ مِمَّا يُسْرِعُ إِلَى غَيْرِهِ. وَكَذَا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالنُّحَاسُ وَالْحَدِيدُ وَالرِّصَاصُ وَالْقَصْدِيرُ يَنَالُهَا مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفَنَاءِ مَا يَذْهَبُ بِأَعْيَانِهَا لِأَقْرَبِ وَقْتٍ. وَأَمَّا مَا وَقَعَ فِي مِصْرَ مِنْ أَمْرِ الْمَطَالِبِ وَالْكُنُوزِ فَسَبَبُهُ أَنَّ مِصْرَ فِي مَلَكَةِ الْقُبْطِ مِنْذُ آلَافٍ<sup>(٢)</sup> أَوْ يَزِيدُ مِنَ السِّنِينَ وَكَانَ مَوْتَاهُمْ يُدْفَنُونَ بِمَوْجُودِهِمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوَاهِرِ وَاللَّالِيءِ عَلَى مَذْهَبٍ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ فَلَمَّا انْقَضَتْ دَوْلَةُ الْقُبْطِ وَمَلَكَ الْفُرْسُ بِلَادَهُمْ تَقَرَّوْا عَلَى ذَلِكَ فِي قُبُورِهِمْ فَكَشَفُوا عَنْهُ فَأَخَذُوا مِنْ قُبُورِهِمْ مَا لَا يُوصَفُ، كَالْأَهْرَامِ مِنْ قُبُورِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهَا. وَكَذَا فَعَلَ الْيُونَانِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَصَارَتْ قُبُورُهُمْ مَظَنَّةً لِذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ. وَيَعْتَرُّ عَلَى الدِّفِينِ فِيهَا كَثِيراً مِنَ الْأَوْقَاتِ. أَمَّا مَا يَدْفَنُونَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ مَا يَكْرُمُونَ بِهِ مَوْتَاهُمْ فِي الدِّفِينِ مِنْ أَوْعِيَّةٍ وَتَوَابِيْتٍ مِنْ

(١) وفي النسخة الباريسية، أعواضه.

(٢) وفي النسخة الباريسية، منذ ألفين اثنين وفي نسخة أخرى منذ ألف.

الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مُعَدَّةٌ لِذَلِكَ فَصَارَتْ قُبُورُ الْقَبِطِ مُنْذُ آلاَفِ مِنَ السِّنِينَ مَظَنَّةً لَوْجُودِ ذَلِكَ فِيهَا . فَلِذَلِكَ عَنِي أَهْلُ مِصْرَ بِالْبَحْثِ عَنِ الْمَطَالِبِ لَوْجُودِ ذَلِكَ فِيهَا وَاسْتِخْرَاجِهَا . حَتَّى إِنَّهُمْ حِينَ ضُرِبَتِ الْمَكُوسُ عَلَى الْأَصْنَافِ آخِرِ الدَّوْلَةِ ضُرِبَتْ عَلَى أَهْلِ الْمَطَالِبِ . وَصَدَرَتْ ضَرْبِيَّةٌ عَلَى مَنْ يَشْتَعِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْحَمَقَى وَالْمُهَوِّسِينَ فَوَجَدَ بِذَلِكَ الْمُتَعَاظُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَطْمَاعِ الذَّرِيعَةَ إِلَى الْكَشْفِ عَنْهُ وَالذَّرْعَ <sup>(١)</sup> بِاسْتِخْرَاجِهِ وَمَا حَصَلُوا إِلَّا عَلَى الْخِيْبَةِ فِي جَمِيعِ مَسَاعِيهِمْ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُسْرَانِ فَيَحْتَاجُ مَنْ وَقَعَ لَهُ شَيْءٌ <sup>(٢)</sup> مِنْ هَذَا الْوَسْوَاسِ وَابْتَلِي بِهِ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ فِي طَلَبِ مَعَاشِهِ كَمَا تَعَوَّذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ وَيَنْصَرِفُ عَنْ طَرِيقِ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَاسِهِ وَلَا يَشْغَلُ بِالْمَحَالَاتِ وَالْمَكَادِبِ مِنَ الْحِكَايَاتِ « وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

## الفصل الخامس

### في أن الجاه مفيد للمال

وَذَلِكَ أَنَا نَجِدُ صَاحِبَ الْمَالِ وَالْحُظُوتَةَ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَعَاشِ أَكْثَرَ يَسَاراً وَثَرَوَةً مِنْ فَاقِدِ الْجَاهِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الْجَاهِ مَخْدُومٌ بِالْأَعْمَالِ يَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ فِي سَبِيلِ التَّزَلُّفِ وَالْحَاجَةِ إِلَى جَاهِهِ فَالنَّاسُ مُعِينُونَ لَهُ بِأَعْمَالِهِمْ فِي جَمِيعِ حَاجَاتِهِ مِنْ ضَرُورِيٍّ أَوْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَالِيٍّ فَتَحْصُلُ قِيَمُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا مِنْ كَسْبِهِ وَجَمِيعِ مَعَاشَاتِهِ أَنْ تُبَدَلَ فِيهِ الْأَعْوَاضُ مِنَ الْعَمَلِ يَسْتَعْمِلُ فِيهَا النَّاسَ مِنْ غَيْرِ عَوْضٍ فَتَتَوَفَّرُ قِيَمُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ عَلَيْهِ . فَهُوَ بَيْنَ قِيَمِ الْأَعْمَالِ يَكْتَسِبُهَا وَقِيَمِ أُخْرَى تَدْعُوهُ الضَّرُورَةُ إِلَى إِخْرَاجِهَا فَتَتَوَفَّرُ عَلَيْهِ . وَالْأَعْمَالُ لِصَاحِبِ الْجَاهِ كَثِيرَةٌ فَتَمِيدُ الْغِنَى لِأَقْرَبِ وَقْتٍ وَيَزْدَادُ مَعَ الْأَيَّامِ يَسَاراً وَثَرَوَةً . وَلِهَذَا الْمَعْنَى كَانَتْ الْإِمَارَةُ أَحَدَ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَفَاقِدُ الْجَاهِ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَوْ كَانَ صَاحِبَ مَالٍ فَلَا

(١) وفي النسخة الباريسية : والزرع .

(٢) وفي النسخة الباريسية : من دفع إلى شيء .

يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَالِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ سَعْيِهِ وَهُوَ لَأَوْلَاهُمْ أَكْثَرُ التَّجَارِ . وَلِهَذَا تَجِدُ أَهْلَ الْجَاهِ مِنْهُمْ يَكُونُونَ أَيْسَرَ بِكَثِيرٍ . وَمِمَّا يَشْهَدُ لِدَلِيلِكَ أَنَا نَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ إِذَا اشْتَهَرُوا حَسَنَ الظَّنِّ بِهِمْ وَاعْتَقَدَ الْجُمْهُورُ مُعَامَلَةَ اللَّهِ فِي إِزْفَادِهِمْ فَأَخْلَصَ النَّاسُ فِي إِعَانَتِهِمْ عَلَى أحوَالِ دُنْيَاهُمْ وَالِاعْتِمَالِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِمُ الثَّرْوَةُ وَأَصْبَحُوا مَيَاسِيرَ مِنْ غَيْرِ مَالٍ مُقْتَنَى إِلَّا مَا يَحْضُلُ لَهُمْ مِنْ قِيَمِ الْأَعْمَالِ الَّتِي وَقَعَتْ الْمَعُونَةُ بِهَا مِنَ النَّاسِ لَهُمْ . رَأَيْنَا مِنْ ذَلِكَ أَعْدَادًا فِي الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ . وَفِي الْبُيُوتِ يَسْعَى لَهُمُ النَّاسُ فِي الْفُلْحِ وَالتَّجْرِ وَكُلِّ هُوَ قَاعِدٌ يَمْنَزِلُهُ لَا يَنْزَحُ مِنْ مَكَانِهِ فَيَنْمُو مَالُهُ وَيَعْظُمُ كَسْبُهُ وَيَتَأْتَلُ الْغِنَى مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ . وَيَعْجَبُ مَنْ لَا يَفْطَنُ لِهَذَا السَّرِّ فِي حَالِ ثَرْوَتِهِ وَأَسْبَابِ غِنَاهُ وَيَسَارِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

### الفصل السادس

في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتملق

وان هذا الخلق من أسباب السعادة

قَدْ سَلَفَ لَنَا فِيمَا سَبَقَ أَنْ الْكَسْبَ الَّذِي يَسْتَفِيدُهُ الْبَشَرُ إِنَّمَا هُوَ قِيَمُ أَعْمَالِهِمْ وَلَوْ قَدَّرَ أَحَدٌ عَطْلًا<sup>(١)</sup> عَنِ الْعَمَلِ جُمْلَةً لِكَانَ فَاقِدَ الْكَسْبِ بِالْكُلِّيَّةِ . وَعَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ وَشَرَفِهِ بَيْنَ الْأَعْمَالِ وَحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ يَكُونُ قَدْرُ قِيَمَتِهِ . وَعَلَى نِسْبَةِ ذَلِكَ نُمُو كَسْبِهِ أَوْ تَقْصَانُهُ . وَقَدْ بَيَّنَّا أَنْفَاءً أَنَّ الْجَاهَ يُفِيدُ الْمَالَ لِمَا يَحْضُلُ لِصَاحِبِهِ مِنْ تَقَرُّبِ النَّاسِ إِلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي دَفْعِ الْمَضَارِّ وَجَلْبِ الْمَنَافِعِ . وَكَانَ مَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ أَوْ مَالٍ عَوْضًا عَمَّا يَحْضُلُونَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ الْجَاهِ مِنَ الْأَعْرَاضِ<sup>(٢)</sup> فِي صَالِحِ أَوْ طَالِحِ . وَتَصِيرُ تِلْكَ الْأَعْمَالُ فِي كَسْبِهِ وَقِيَمَتِهَا أَمْوَالٌ وَثَرْوَةٌ لَهُ فَيَسْتَفِيدُ الْغِنَى وَالْيَسَارَ لِأَقْرَبِ وَقْتٍ . ثُمَّ إِنَّ الْجَاهَ مُتَوَزِعٌ فِي النَّاسِ وَمُتَرْتَّبٌ فِيهِمْ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ

(١) وفي النسخة الباريسية : عاطل .

(٢) وفي النسخة الباريسية : من كثير الاعراض .



يَنْتَهِي فِي الْعُلُوِّ إِلَى الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَيْسَ فَوْقَهُمْ يَدٌ عَالِيَةٌ<sup>(١)</sup> وَفِي السَّفَلِ إِلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا بَيْنَ أَوْلَادِهِ وَبَيْنَ ذَلِكَ طَبَقَاتٌ مُتَعَدَّدَةٌ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَنْتَظِمُ مَعَاشَهُمْ وَتَتَيَسَّرُ مَصَالِحُهُمْ وَيَتِمُّ بَقَاؤُهُمْ لِأَنَّ النَّوْعَ الْإِنْسَانِيَّ لَا يَتِمُّ وَجُودُهُ وَبَقَاؤُهُ إِلَّا بِالتَّعَاوُنِ بَيْنَ أَوْلَادِهِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَا يَتِمُّ وَجُودُهُ وَإِنَّ نَدْرَ ذَلِكَ فِي صُورَةِ مَقْرُوضَةٍ لَا يَضُحُّ بِقَاؤُهُ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا التَّعَاوُنَ لَا يَخْصُلُ إِلَّا بِالْإِكْرَاهِ عَلَيْهِ لِجَهْلِهِمْ فِي الْأَكْثَرِ بِمَصَالِحِ النَّوْعِ وَلَمَّا جُعِلَ لَهُمْ مِنَ الْإِخْتِيَارِ وَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ إِنَّمَا تُضَدُّ بِالْفِكْرِ وَالرُّوْيَةِ لَا بِالطَّبْعِ . وَقَدْ يَمْتَنِعُ مِنَ الْمُعَاوَنَةِ فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَيْهَا فَلَا بُدَّ مِنْ حَامِلٍ يُكْرَهُ أَوْلَادَهُ النَّوْعَ عَلَى مَصَالِحِهِمْ لِتَتِمَّ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي بَقَاءِ هَذَا النَّوْعِ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى « وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْجَاهَ هُوَ الْقُدْرَةُ الْحَامِلَةُ لِلْبَشَرِ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَوْلَادِهِ جِنْسِيَهُمْ بِالْإِذْنِ وَالْمَنْعِ وَالتَّسَلُّطِ بِالْقَهْرِ وَالْعَلْيَةِ لِيَحْمِلَهُمْ عَلَى دَفْعِ مَضَارِّهِمْ وَجَلْبِ مَنَافِعِهِمْ فِي الْعَدْلِ بِأَحْكَامِ الشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَعَلَى أَعْرَاضِهِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ مَقْصُودٌ فِي الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بِالذَّاتِ وَالثَّانِي دَاخِلٌ فِيهَا بِالْعَرَضِ كَسَائِرِ الشُّرُورِ الدَّاخِلَةِ فِي الْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ ، لِأَنَّهُ قَدْ لَا يَتِمُّ وَجُودُ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ إِلَّا بِوُجُودِ شَرٍّ يَسِيرٍ مِنْ أَجْلِ الْمَوَادِّ فَلَا يَفُوتُ الْخَيْرُ بِذَلِكَ بَلْ يَقَعُ عَلَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ الْيَسِيرِ . وَهَذَا مَعْنَى وَقُوعِ الظُّلْمِ فِي الْخَلِيقَةِ فَتَمَّهِمْ . ثُمَّ إِنَّ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ<sup>(٢)</sup> أَهْلِ الْعُمْرَانِ مِنْ مَدِينَةٍ أَوْ إِقْلِيمٍ لَهَا قُدْرَةٌ عَلَى مَنْ دُونَهَا مِنَ الطَّبَقَاتِ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى يَسْتَمِدُّ بِذِي الْجَاهِ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي فَوْقَهُ وَيَزِدَادُ كَسْبَهُ تَصَرُّفًا فَيَمُنُّ تَحْتَ يَدِهِ عَلَى قَدَرِ مَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ وَالْجَاهُ عَلَى ذَلِكَ دَاخِلٌ عَلَى النَّاسِ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْمَعَاشِ وَيَتَّسِعُ وَيَضِيقُ بِحَسَبِ الطَّبَقَةِ وَالطُّورِ

(١) وفي النسخة الباريسية : غالية .

(٢) ورد في لسان العرب : « السماوات طباق بعضها على بعض . وكل واحد من الطباق طبقة . والطبق

والطبقة : الفقرة حيث كانت . قيل : هي ما بين الفقرتين وجمعها طباق .

الَّذِي فِيهِ صَاحِبُهُ . فَإِنْ كَانَ الْجَاهُ مُتَّسِعًا كَانَ الْكَسْبُ النَّاشِئُ عَنْهُ كَذَلِكَ وَإِنْ  
كَانَ ضَيِّقًا قَلِيلًا فَمِثْلُهُ . وَفَاقِدَ الْجَاهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلَا يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمِقْدَارِ  
عَمَلِهِ أَوْ مَالِهِ وَنِسْبَةِ سَعْيِهِ ذَاهِبًا وَأَيًّا فِي تَنْمِيَّتِهِ كَأَكْثَرِ التَّجَارِ وَأَهْلِ الْفِلَاحَةِ فِي  
الْغَالِبِ وَأَهْلِ الصَّنَائِعِ كَذَلِكَ إِذَا فَقَدُوا الْجَاهَ وَاقْتَصَرُوا عَلَى فَوَائِدِ صَنَائِعِهِمْ فَإِنَّهُمْ  
يَصِيرُونَ إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ فِي الْأَكْثَرِ وَلَا تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ ثُرُوءٌ وَإِنَّمَا يَرْمَقُونَ الْعَيْشَ  
تَرْمِيقًا وَيُدَافِعُونَ<sup>(١)</sup> ضُرُورَةَ الْفَقْرِ مُدَافَعَةً . وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ وَأَنَّ الْجَاهَ مُتَفَرِّغٌ<sup>(٢)</sup> وَأَنَّ  
السَّعَادَةَ وَالْخَيْرَ مُقْتَرِنَانِ بِحُصُولِهِ عَظِمَتْ أَنْ بَدَلَهُ وَفَادَتَهُ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وَأَجَلَهَا  
وَأَنَّ بَادِلَهُ مِنْ أَجْلِ الْمُتَمَعِّينَ وَإِنَّمَا يَبْدُلُهُ لِمَنْ تَحْتَ يَدَيْهِ فَيَكُونُ بَدَلُهُ بِيَدِ عَالِيَةٍ  
وَعِزَّةٍ فَيَحْتَاجُ طَالِبَهُ وَمُبْتَغِيَهُ إِلَى خُضُوعٍ وَتَمَلُّقٍ كَمَا يَسْأَلُ أَهْلَ الْعِزِّ وَالْمُلُوكِ وَالْأَ  
فِيَعْتَذِرُ حُصُولَهُ . فَلِذَلِكَ قُلْنَا إِنَّ الْخُضُوعَ وَالتَّمَلُّقَ مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِ هَذَا الْجَاهِ  
الْمُحْصَلِ لِلْسَّعَادَةِ وَالْكَسْبِ وَإِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالسَّعَادَةِ بِهَذَا التَّمَلُّقِ وَلِهَذَا نَجِدُ  
الْكَثِيرَ مِمَّنْ يَتَخَلَّقُ بِالتَّرْفُعِ وَالشَّمَمِ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ غَرَضُ الْجَاهِ فَيَقْتَصِرُونَ فِي  
التَّكْسِبِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَيَصِيرُونَ إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكِبْرَ وَالتَّرْفُعَ  
مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ مِنْ تَوْهَمِ الْكَمَالِ وَأَنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَى  
بِضَاعَتِهِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ كَالْعَالِمِ الْمُتَبَخَّرِ فِي عِلْمِهِ وَالْكَاتِبِ الْمُجِيدِ فِي كِتَابَتِهِ أَوْ  
الشَّاعِرِ الْبَلِيغِ فِي شِعْرِهِ وَكُلِّ مُحْسِنٍ فِي صِنَاعَتِهِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ لِمَا بِيَدِهِ  
فَيَحْدُثُ لَهُ تَرْفُعٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَكَذَا يَتَوَهَّمُ أَهْلُ الْأَنْسَابِ مِمَّنْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ أَوْ  
عَالِمٌ مَشْهُورٌ أَوْ كَامِلٌ فِي طَوْرِ يُعْبَرُونَ<sup>(٣)</sup> بِهِ بِمَا رَأَوْهُ أَوْ سَمِعُوهُ مِنْ رِجَالِ آبَائِهِمْ فِي  
الْمَدِينَةِ وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوا مِثْلَ ذَلِكَ بِقَرَابَتِهِمْ إِلَيْهِمْ وَوَرَاثَتِهِمْ عَنْهُمْ . فَهُمْ  
مَتَمَسِّكُونَ فِي الْحَاضِرِ بِالْأَمْرِ الْمَعْدُومِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْحِيلَةِ وَالْبَصْرِ وَالتَّجَارِبِ  
بِالْأُمُورِ<sup>(٤)</sup> قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ كَمَالًا فِي نَفْسِهِ بِذَلِكَ وَاحْتِيَاجًا إِلَيْهِ . وَتَجِدُ هَؤُلَاءِ

(٢) وفي نسخة أخرى : يدفعون . (٢) وفي النسخة الباريسية : متوزع .

(٣) وفي النسخة الباريسية : يفترون . وفي نسخة أخرى يعشرون

(٤) وفي النسخة الباريسية : أهل الحنكة والتجارب والبصر بالأمور .

الأضناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه ولا يتملقون لمن هو أعلى منهم ويستصغرون من سواهم لإعتقادهم الفضل على الناس فيستكف أحدهم عن الخضوع ولو كان للملك ويعدّه مذلة وهواناً وسفهاً . ويحاسب الناس في معاملتهم إياه بمقدار ما يتوهم في نفسه ويحقد على من قصر له في شيء مما يتوهمه من ذلك . وربما يدخل على نفسه الهوم والأخران من تقصيرهم فيه ويستمر في عناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه أو إباية الناس له من ذلك . ويحصل له المقت من الناس لما في طباع البشر من التآله . وقل أن يسلم أحد منهم لأحد في الكمال والترفع عليه إلا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة . وهذا كله في ضمن الجاه . فإذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبين لك مقته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من إحسانهم وفقد الجاه لذلك من أهلي الطبقة التي هي أعلى منه لأجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهدهم وعشيان<sup>(١)</sup> منازلهم ففسد معاشه وبقي في خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل . وأما الثروة فلا تحصل له أصلاً . ومن هذا اشتهر بين الناس أن الكامل في المعرفة محروم من الحظ وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع له ذلك من الحظ وهذا معناه . ومن خلق لشيء يسر له . والله المقدر لا رب سواه . ولقد يقع في الدول أضراب في المراتب من أهل<sup>(٢)</sup> الخلق ويرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك أن الدول إذا بلغت نهايتها<sup>(٣)</sup> من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ويئس من سواهم من ذلك وإنما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكانهم حول له . فإذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ في المنزلة عند السلطان كل من انتمى إلى خدمته وتقرّب إليه بنصيحة واضطنعه السلطان لغنايه في كثير من مهماته .

(١) غشى المكان : أتاه .

(٢) وفي النسخة الباريية : من أجل .

(٣) وفي النسخة الباريية : غايتها .

فَتَجِدُ كَثِيرًا مِنَ السُّوقَةِ يَسْعَى فِي التَّقَرُّبِ مِنَ السُّلْطَانِ بِجِدِّهِ وَنُضْحِهِ وَيَتَزَلَّفُ إِلَيْهِ  
بِوُجُوهِ خِدْمَتِهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِعَظِيمٍ مِنَ الْخُضُوعِ وَالتَّمَلُّقِ لَهُ وَلِحَاشِيَّتِهِ وَأَهْلِ  
نَسَبِهِ ، حَتَّى يُرْسِخَ قَدَمَهُ مَعَهُمْ وَيُنَظِّمَهُ السُّلْطَانُ فِي جُمْلَتِهِ فَيَحْضُلُ لَهُ بِذَلِكَ حَظٌّ  
عَظِيمٌ مِنَ السَّعَادَةِ وَيَنْتَظِمُ فِي عَدَدِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَنَاشِئَةِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنْ أَوْلَادِ قَوْمِهَا  
الَّذِينَ ذَلَّلُوا أَضْغَانَهُمْ<sup>(١)</sup> وَمَهَّدُوا أَكْنَافَهُمْ مُغْتَرِّينَ بِمَا كَانَ لَا بَائِسَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ  
لَمْ تَسْمَعْ<sup>(٢)</sup> بِهِ نَفْسُهُمْ عَلَى السُّلْطَانِ وَيَعْتَدُونَ بِآثَارِهِ وَيَجْرُونَ فِي مِضْمَارِ الدَّوْلَةِ  
بِسَبَبِهِ فَيَمْتَقَّتُهُمُ السُّلْطَانُ لِذَلِكَ وَيَبَاعِدُهُمْ . وَيَمِيلُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُضْطَنِّعِينَ الَّذِينَ  
لَا يَعْتَدُونَ بِقَدِيمٍ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى دَالَّةٍ وَلَا تَرْفَعُ . إِنَّمَا دَأْبُهُمُ الْخُضُوعُ لَهُ وَالتَّمَلُّقُ  
وَالإِعْتِمَالُ فِي غَرَضِهِ مَتَى ذَهَبَ إِلَيْهِ فَيَتَسَّعُ جَاهُهُمْ وَتَعْلُو مَنَارِلُهُمْ وَتَنْصَرِفُ إِلَيْهِمُ  
الْوُجُوهُ وَالْخَوَاطِرُ<sup>(٣)</sup> بِمَا يَحْضُلُ لَهُمْ مِنْ قَبْلِ<sup>(٤)</sup> السُّلْطَانِ وَالمَكَانَةِ عِنْدَهُ وَيَبْقَى  
نَاشِئَةُ الدَّوْلَةِ<sup>(٥)</sup> فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ التَّرْفَعِ وَالإِعْتِدَادِ بِالقَدِيمِ لَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بُعْدًا  
مِنَ السُّلْطَانِ وَمَقْتًا وَإِثَارًا لِهَؤُلَاءِ الْمُضْطَنِّعِينَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الدَّوْلَةُ . وَهَذَا  
أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي الدَّوْلَةِ وَمِنْهُ جَاءَ شَأْنُ الْمُضْطَنِّعِينَ فِي الغَالِبِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى  
أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

## الفصل السابع

في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة  
والخطابة والاذان

ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

وَالسَّبَبُ لِذَلِكَ أَنَّ الكَسْبَ كَمَا قَدَّمَناهُ قِيمَةُ الأَعْمَالِ وَأَنَّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ الحَاجَةِ  
إِلَيْهَا . فإِذَا كَانَتِ الأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي العُمُرَانِ عَامَّةً البَلَوَى بِهِ كَانَتِ قِيمَتُهَا أَعْظَمَ

(١) وفي نسخة أخرى : تشمخ .

(٢) وفي نسخة أخرى : صعابها .

(٣) وفي نسخة أخرى : الخواص .

(٤) وفي نسخة أخرى : من ميل .

(٥) وفي النسخة الباريية : ناشئة السلطان .

وَكَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ . وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَائِعِ الدِّينِيَّةِ لَا تَضْطَرُّ إِلَيْهِمْ عَامَّةُ الْخَلْقِ  
وَأِنَّمَا يَخْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمُ الْخَوَاصُّ مِمَّنْ أُقْبِلَ عَلَى دِينِهِ . وَإِنْ اخْتِيجَ إِلَى الْفَتْيَا  
وَالْقَضَاءِ فِي الْخُصُومَاتِ فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْإِضْطِرَارِ وَالْعُمُومِ فَيَقَعُ الْإِسْتِغْنَاءُ عَنْ هَؤُلَاءِ  
فِي الْأَكْثَرِ . وَإِنَّمَا يَهْتَمُّ بِإِقَامَةِ مَرَاسِمِهِمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بِمَا نَالَهُ<sup>(١)</sup> مِنَ النَّظَرِ فِي  
الْمَصَالِحِ فَيَقْسِمُ لَهُمْ حَظًّا مِنَ الرِّزْقِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي  
قَرَّرْنَاهُ . لَا يُسَاوِيهِمْ بِأَهْلِ الشُّوْكَةِ وَلَا بِأَهْلِ الصَّنَائِعِ مِنْ حَيْثُ الدِّينُ وَالْمَرَاسِمُ  
الشَّرْعِيَّةُ لَكِنَّهُ يَقْسِمُ بِحَسَبِ عُمُومِ الْحَاجَةِ وَضُرُورَةِ أَهْلِ الْعُمَرَانِ فَلَا يَصِحُّ فِي  
قِسْمِهِمْ<sup>(٢)</sup> إِلَّا الْقَلِيلُ . وَهُمْ أَيْضًا لَشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ أَعَزَّةٌ عَلَى الْخَلْقِ وَعِنْدَ نَفْسِهِمْ فَلَا  
يَخْضَعُونَ لِأَهْلِ الْجَاهِ حَتَّى يَنَالُوا مِنْهُ حَظًّا يَسْتَدِرُّونَ بِهِ الرِّزْقَ بَلْ وَلَا تَفْرُغُ  
أَوْقَاتُهُمْ لِذَلِكَ لَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّغْلِ بِهَذِهِ الْبَضَائِعِ<sup>(٣)</sup> الشَّرِيفَةِ الْمُشْتَمَلَةِ عَلَى إِعْمَالِ  
الْفِكْرِ وَالْبَدَنِ<sup>(٤)</sup> . بَلْ وَلَا يَسَعُهُمْ ائْتِدَالُ أَنْفُسِهِمْ لِأَهْلِ الدُّنْيَا لَشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ فَهَمُّ  
بِمَعْزُولٍ عَنْ ذَلِكَ . فَلِذَلِكَ لَا تَعْظُمُ ثُرُوتُهُمْ فِي الْعَالِمِ . وَلَقَدْ بَاحَثْتُ بَعْضَ الْفَضَلَاءِ  
فَأُنْكِرَ ذَلِكَ عَلَيَّ فَوْقَ بَيْدِي أَوْرَاقٌ مُخْرَقَةٌ مِنْ حِسَابَاتِ<sup>(٥)</sup> الدَّوَاوِينِ بِدَارِ الْمَأْمُونِ  
تَشْتَمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الدُّخْلِ وَالْخُرْجِ وَكَانَ فِيهَا طَالَعَتْ فِيهِ أَرْزَاقُ الْقَضَاةِ وَالْأَيْمَةِ  
وَالْمُؤَدِّينَ فَوَقَفْتُ عَلَيْهِ وَعِلِمَ مِنْهُ صِحَّةٌ مَا قُلْتُهُ وَرَجَعُ إِلَيْهِ وَقَضِينَا الْعَجَبُ مِنْ أَسْرَارِ  
اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي عَوَالِمِهِ وَاللَّهُ الْخَالِقُ الْقَادِرُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

## الفصل الثامن

في أن الفلاحة من معاش المتضعين وأهل العافية من البدو  
وذلك لأنه أصيل<sup>(٦)</sup> في الطبيعة وبسيط في منجأه ولذلك لا تجده ينتحلُه أحد

(١) وفي نسخة أخرى : بما له .

(٢) وفي نسخة أخرى : قسمتهم .

(٣) وفي نسخة أخرى : الصنائع .

(٤) وفي نسخة أخرى : التدبير .

(٥) وفي النسخة الباريسية : حسابات . (٦) وفي النسخة الباريسية : أصل .

مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ فِي الْغَالِبِ وَلَا مِنْ الْمُتَرَفِينَ . وَيَخْتَصُّ مُنْتَحِلَهُ بِالْمَذَلَّةِ  
 قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ رَأَى السُّكَّةَ يَبْغُضُ دُورَ الْأَنْصَارِ : « مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا  
 دَخَلَهُ الذُّلُّ » وَحَمَلَهُ الْبُخَارِيُّ عَلَى الْإِسْتِكْثَارِ مِنْهُ . وَتَرَجَمَ عَلَيْهِ بَابَ مَا يُحْذَرُ مِنْ  
 عَوَاقِبِ الْإِسْتِغْثَالِ بِآلَةِ الزَّرْعِ أَوْ تَجَاوُزِ الْحَدِّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ . وَالسَّبَبُ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ  
 مَا يَتَّبَعُهَا مِنَ الْمَغْرَمِ الْمَفْضِيِّ إِلَى التَّحْكُمِ وَالْيَدِّ الْعَالِيَةِ <sup>(١)</sup> فَيَكُونُ الْغَارِمُ ذَلِيلًا بَائِسًا  
 بِمَا تَتَنَاوَلُهُ أَيْدِي الْقَهْرِ وَالْإِسْطِطَالَةِ . قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ  
 الزَّكَاةُ مَغْرَمًا » إِشَارَةً إِلَى الْمَلِكِ الْعُضُوضِ الْقَاهِرِ لِلنَّاسِ الَّذِي مَعَهُ التَّسَلُّطُ وَالْجُورُ  
 وَنِسْيَانُ حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمَتَمَوْلَاتِ وَاعْتِبَارُ الْحُقُوقِ كُلِّهَا مَغْرَمٌ لِلْمَلُوكِ  
 وَالذُّوْلِ . وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ .

## الفصل التاسع

### في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها

إِعْلَمُ أَنَّ التَّجَارَةَ مُحَاوَلَةٌ الْكَسْبِ بِتَنْمِيَةِ الْمَالِ بِشِرَاءِ السَّلْعِ بِالرُّخْصِ وَيَبِيعَهَا  
 بِالْغَلَاءِ أَيَّامَ كَانَتِ السَّلْعَةُ مِنْ دَقِيقٍ أَوْ زَرْعٍ أَوْ حَيَوَانٍ أَوْ قَمَاشٍ . وَذَلِكَ الْقَدْرُ  
 النَّامِي يُسَمَّى رِبْحًا . فَالْمُحَاوِلُ لِذَلِكَ الرَّبْحِ إِمَّا أَنْ يَخْتَزِنَ السَّلْعَةَ وَيَتَخَيَّنَ بِهَا  
 حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ مِنَ الرُّخْصِ إِلَى الْغَلَاءِ فَيُعْظِمُ رِبْحَهُ وَإِمَّا أَنْ يَنْقُلَهُ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ  
 تَنَفَّقَ فِيهِ تِلْكَ السَّلْعَةُ أَكْثَرَ مِنْ بَلَدِهِ الَّذِي اشْتَرَاهَا فِيهِ فَيُعْظِمُ رِبْحَهُ . وَلِذَلِكَ قَالَ  
 بَعْضُ الشُّيُوخِ مِنَ التُّجَّارِ لَطَلِبِ الْكُشْفِ عَنْ حَقِيقَةِ التَّجَارَةِ أَنَا أَعْلَمُهَا لَكَ فِي  
 كَلِمَتَيْنِ : اشْتِرَاءُ الرُّخِيسِ وَبَيْعُ الْغَالِي . فَقَدْ حَصَلَتِ التَّجَارَةُ إِشَارَةً مِنْهُ بِذَلِكَ إِلَى  
 الْمَعْنَى الَّتِي قَرَّرْنَاهُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

(١) وفي النسخة الباريبية : الغالية .

## الفصل العاشر

في أي أصناف الناس يحترف بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب  
حرفها

قَدْ قَدَّمْنَا<sup>(١)</sup> أَنْ مَعْنَى التَّجَارَةِ تَنْمِيَةُ الْمَالِ بِشِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَمُحَاوَلَةَ بَيْعِهَا  
بِأَعْلَى مِنْ ثَمَنِ الشُّرَاءِ إِمَّا بِانْتِظَارِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ أَوْ نَقْلِهَا إِلَى بَلَدٍ هِيَ فِيهِ أَنْفَقَ  
وَأَعْلَى أَوْ بَيْعِهَا بِالْغَلَاءِ عَلَى الْأَجَالِ . وَهَذَا الرَّبْحُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى أَصْلِ الْمَالِ يَسِيرٌ إِلَّا  
أَنَّ الْمَالَ إِذَا كَانَ كَثِيرًا عَظُمَ الرَّبْحُ لِأَنَّ الْقَلِيلَ فِي الْكَثِيرِ كَثِيرٌ . ثُمَّ لَا بُدَّ فِي مُحَاوَلَةِ  
هَذِهِ التَّنْمِيَةِ الَّذِي هُوَ الرَّبْحُ مِنْ حُصُولِ هَذَا الْمَالِ بِأَيْدِي الْبَاعَةِ فِي شِرَاءِ الْبَضَائِعِ  
وَبَيْعِهَا ، وَمُعَامَلَتِهِمْ فِي تَقَاضِي أَثْمَانِهَا . وَأَهْلُ النُّصْفَةِ قَلِيلٌ ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْعِشْرِ  
وَالْتَطْفِيفِ الْمُجْحِفِ بِالْبَضَائِعِ وَمِنَ الْمَطْلِ فِي الْأَثْمَانِ الْمُجْحِفِ بِالرَّبْحِ .  
كَتَعْطِيلِ الْمُحَاوَلَةِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ وَبِهَا نَمَاؤُهُ . وَمِنَ الْجُحُودِ وَالْإِنْكَارِ الْمُسْحَتِ  
لِرَأْسِ الْمَالِ إِنْ لَمْ يَتَّقَيْدُ بِالْكِتَابِ وَالشَّهَادَةِ ، وَغَنَى الْحُكَّامِ فِي ذَلِكَ قَلِيلٌ لِأَنَّ  
الْحُكْمَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الظَّاهِرِ ، فَيُعَانِي التَّاجِرُ مِنْ ذَلِكَ أَحْوَالًا صَعْبَةً . وَلَا يَكَادُ  
يُحْصَلُ عَلَى ذَلِكَ التَّافِهِ مِنَ الرَّبْحِ إِلَّا بِعَظْمِ الْعَنَاءِ وَالْمَشَقَّةِ ، أَوْ لَا يُحْصَلُ أَوْ  
يَتَلَاشَى رَأْسُ مَالِهِ . فَإِنْ كَانَ جَرِيئًا عَلَى الْخُصُومَةِ بَصِيرًا بِالْحِسْبَانِ شَدِيدَ  
الْمُمَاحَكَةِ مَقْدَامًا عَلَى الْحُكَّامِ كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ لَهُ إِلَى النُّصْفَةِ بِجُرْأَتِهِ مِنْهُمْ  
وَمُمَاحَكَتِهِ وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ جَاهٍ يَدْرَعُ بِهِ ، يُوقِعُ لَهُ الْهَيْبَةَ عِنْدَ الْبَاعَةِ وَيَحْمِلُ  
الْحُكَّامَ عَلَى إِنْصَافِهِ مِنْ مُعَامِلِيهِ<sup>(٢)</sup> فَيَحْصَلُ لَهُ بِذَلِكَ النُّصْفَةَ فِي مَالِهِ طَوْعًا<sup>(٣)</sup> فِي  
الْأَوَّلِ وَكَرْهًا فِي الثَّانِي وَأَمَّا مَنْ كَانَ فَاقِدًا لِلْجُرْأَةِ وَالْإِقْدَامِ مِنْ نَفْسِهِ فَاقْدِ الْجَاهِ مِنَ  
الْحُكَّامِ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَجْتَنِبَ الْإِحْتِرَافَ بِالتَّجَارَةِ لِأَنَّهُ يُعْرِضُ مَالَهُ لِلضِّيَاعِ  
وَالذَّهَابِ وَيَصِيرُ مَأْكَلَةً لِلْبَاعَةِ وَلَا يَكَادُ يَنْتَصِفُ مِنْهُمْ ( لِأَنَّ الْغَالِبَ فِي النَّاسِ

(١) وفي نسخة أخرى : قد تقدم لنا .

(٢) وفي نسخة أخرى : غرمانه .

(٣) وفي نسخة أخرى : واستخلاص ماله منهم طوعاً .

وخصوصاً الرِّعَاعَ وَالْبَاعَةَ شَرَهُونَ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ سِوَاهُمْ مُتَوَثِّبُونَ عَلَيْهِ .  
 وَلَوْلَا وَازِعُ الْأَحْكَامِ لَأَضْبَحَتْ أَمْوَالُ النَّاسِ نَهْبًا (١) « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ  
 بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » .

## الفصل الحادي عشر

في أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك

وَذَلِكَ أَنَّ التُّجَّارَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا يِعَانُونَ الْبَيْعَ وَالشِّرَاءَ وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ  
 الْمَكَايَسَةِ ضَرُورَةً فَإِنْ اقْتَصِرَ عَلَيْهَا اقْتَصِرَتْ بِهِ عَلَى خُلُقِهَا وَهِيَ أَغْنِي خُلُقَ  
 الْمَكَايَسَةِ بَعِيدَةً عَنِ الْمُرُوءَةِ الَّتِي تَتَخَلَّقُ بِهَا الْمُلُوكُ وَالْأَشْرَافُ . وَأَمَّا إِنْ اسْتُرْذِلَ  
 خُلُقُهُ بِمَا يَتَّبَعُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنْهُمْ مِنَ الْمُمَاحَكَةِ وَالغِشِّ وَالْخَلَايَةِ  
 وَتَعَاهُدِ الْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ عَلَى الْأَيْمَانِ رَدًّا وَقَبُولًا فَاجِدِرُ بِذَلِكَ الْخُلُقِ أَنْ يَكُونَ فِي  
 غَايَةِ الْمَذَلَّةِ لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ . وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَهْلَ الرِّئَاسَةِ يَتَحَامُونَ الْإِحْتِرَافَ بِهِدِهِ  
 الْحِرْفَةَ لِأَجْلِ مَا يُكْسَبُ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ . وَقَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ هَذَا الْخُلُقِ  
 وَيَتَحَامَاهُ لِشَرَفِ نَفْسِهِ وَكَرَمِ جَلَالِهِ إِلَّا أَنَّهُ فِي النَّادِرِ بَيْنَ الْوُجُودِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ  
 يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَهُوَ رَبُّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ .

## الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

التَّاجِرُ الْبَصِيرُ بِالتَّجَارَةِ لَا يَنْقُلُ مِنَ السَّلْعِ إِلَّا مَا تَعْمُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ الْغَنِيِّ  
 وَالْفَقِيرِ وَالسُّلْطَانِ وَالسُّوقَةِ إِذْ فِي ذَلِكَ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ . وَأَمَّا إِذَا اخْتَصَّ نَقْلَهُ بِمَا يَحْتَاجُ

(١) وفي النسخة الباريية : « لَأَنَّ النَّاسَ فِي الْغَالِبِ مُتَطَلِعُونَ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ . وَلَوْلَا وَازِعُ أَحْكَامِ  
 مَا سَلِمَ لِأَحَدٍ شَيْءٌ مِمَّا فِي يَدِهِ . وَخُصُوصًا الْبَاعَةَ وَسَفَلَةَ النَّاسِ وَرِعَاعَهُمْ » .



إِلَيْهِ الْبَعْضُ فَقَطْ فَقَدْ يَتَعَدَّرُ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ حِينَئِذٍ بِإِعْوَازِ الشَّرَاءِ مِنْ ذَلِكَ الْبَعْضِ  
لِعَارِضٍ مِنَ الْعَوَارِضِ فَتَكْسُدُ سَوْقُهُ وَتَفْسُدُ أَرْبَاحُهُ . وَكَذَلِكَ إِذَا نَقَلَ السِّلْعَةَ  
الْمُحْتَاجَ إِلَيْهَا فَإِنَّمَا يَنْقُلُ الْوَسْطَ مِنْ صِنْفِهَا فَإِنَّ الْعَالِيَّ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ السِّلْعِ  
إِنَّمَا يُخْتَصُّ بِهِ أَهْلُ الثَّرْوَةِ وَحَاشِيَةُ الدَّوْلَةِ وَهُمْ الْأَقْلُ . وَإِنَّمَا يَكُونُ النَّاسُ أَسْوَأَ فِي  
الْحَاجَةِ إِلَى الْوَسْطِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ فَلْيَتَحَرَّ ذَلِكَ جُهْدَهُ فَمِثْلُ نَفَاقِ سِلْعَةٍ (١) أَوْ كَسَادِهَا  
وَكَذَلِكَ نَقَلَ السِّلْعَ مِنَ الْبَلَدِ الْبَعِيدِ الْمَسَافَةِ أَوْ فِي شِدَّةِ الْخَطَرِ فِي الطَّرِيقَاتِ يَكُونُ  
أَكْثَرَ فَائِدَةً لِلتُّجَّارِ وَأَعْظَمَ أَرْبَاحاً وَأَكْفَلَ بِحَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ لِأَنَّ السِّلْعَةَ الْمُنْقَوْلَةَ  
حِينَئِذٍ تَكُونُ قَلِيلَةً مَعْوِزَةً لِبُعْدِ مَكَانِهَا أَوْ شِدَّةِ الْغَرَرِ فِي طَرِيقِهَا فَيَقِلُّ حَامِلُوهَا  
وَيَعِزُّ وَجُودُهَا وَإِذَا قَلَّتْ وَعَزَّتْ غَلَّتْ أُنْمَانُهَا . وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْبَلَدُ قَرِيبَ الْمَسَافَةِ  
وَالطَّرِيقُ سَابِلاً بِالْأَمْنِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكْثُرُ نَاقِلُوهَا فَتَكْثُرُ وَتَرْخُصُ أُنْمَانُهَا وَلِهَذَا  
تَجِدُ التُّجَّارَ الَّذِينَ يُوَلِّمُونَ بِالْدُخُولِ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ أَرْفَهُ النَّاسَ وَأَكْثَرَهُمْ أَمْوَالاً  
لِبُعْدِ طَرِيقِهِمْ وَمَشَقَّتِهِ وَاعْتِرَاضِ الْمَفَازَةِ الصَّعْبَةِ الْمُخْطَرَةِ بِالْخَوْفِ وَالْعَطَشِ .  
لَا يُوجَدُ فِيهَا الْمَاءُ إِلَّا فِي أَمَاكِنَ مَعْلُومَةٍ يَهْتَدِي إِلَيْهَا أَدْلَاءُ الرُّكْبَانِ فَلَا يَزْتَكِبُ  
خَطَرَ هَذَا الطَّرِيقِ وَبُعْدَهُ إِلَّا الْأَقْلُ مِنَ النَّاسِ فَتَجِدُ سِلْعَ بِلَادِ السُّودَانِ قَلِيلَةً لَدُنَا  
فَتُخْتَصُّ بِالْغَلَاءِ وَكَذَلِكَ سِلْعُنَا لَدَيْهِمْ . فَتَعْظُمُ بَضَائِعُ التُّجَّارِ مِنْ تَنَاقُلِهَا وَيُسْرَعُ  
إِلَيْهِمُ الْغِنَى وَالثَّرْوَةُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ الْمُسَافِرُونَ مِنْ بِلَادِنَا إِلَى الْمَشْرِقِ لِبُعْدِ  
الشُّقَّةِ أَيْضاً . وَأَمَّا الْمُرْتَدِّدُونَ فِي أَفْقٍ وَاحِدٍ مَا بَيْنَ أَمْصَارِهِ وَبِلْدَانِهِ فَفَائِدَتُهُمْ قَلِيلَةٌ  
وَأَرْبَاحُهُمْ تَافِهَةٌ لِكَثْرَةِ السِّلْعِ وَكَثْرَةِ نَاقِلِيهَا « وَاللَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ »

## الفصل الثالث عشر

### في الاحتكار

وَمِمَّا اشْتَهَرَ عِنْدَ ذَوِي الْبَصَرِ وَالتَّجْرِبَةِ فِي الْأَمْصَارِ أَنَّ احْتِكَارَ الزَّرْعِ لِتَحْيِنِ  
أَوْقَاتِ الْغَلَاءِ مَشُومٌ . وَأَنَّهُ يَعُودُ عَلَى فَائِدَتِهِ بِالتَّلْفِ وَالْخُسْرَانِ . وَسَبَبُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

(١) وفي نسخة أخرى : سلعته .

أَنَّ النَّاسَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَى الْأَقْوَاتِ مُضْطَّرُّونَ إِلَى مَا يَبْدُلُونَ فِيهَا مِنَ الْمَالِ اضْطِرَّارًا  
 فَتَبْقَى النَّفُوسُ مُتَعَلِّقَةً بِهِ وَفِي تَعَلُّقِ النَّفُوسِ بِمَا لَهَا سِرٌّ<sup>(١)</sup> كَبِيرٌ فِي وَبَالِهِ عَلَى مَنْ  
 يَأْخُذُهُ مَجَانًا وَلَعَلَّهُ الَّذِي اِغْتَبَرَهُ الشَّارِعُ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ  
 يَكُنْ مَجَانًا فَالنَّفُوسُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِإِعْطَائِهِ ضَرُورَةً مِنْ غَيْرِ سَعَةٍ فِي الْعُدْرِ فَهُوَ  
 كَالْمَكْرَهِ وَمَا عَدَا الْأَقْوَاتِ وَالْمَأْكُولَاتِ مِنَ الْمَبِيعَاتِ لَا اضْطِرَّارَ لِلنَّاسِ إِلَيْهَا وَإِنَّمَا  
 يَبْعَثُهُمْ عَلَيْهَا التَّقَنُّنُ فِي الشَّهَوَاتِ فَلَا يَبْدُلُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا إِلَّا بِاخْتِيَارٍ وَحَرَصٍ . وَلَا  
 يَبْقَى لَهُمْ تَعَلُّقٌ بِمَا أُعْطَوْهُ فَلِهَذَا يَكُونُ مَنْ عُرِفَ بِالِاخْتِكَارِ تَجْتَمِعُ الْقَوَى  
 النَّفْسَانِيَّةُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ لِمَا يَأْخُذُهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَيَفْسُدُ رِبْحُهُ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .  
 وَسَمِعْتُ فِيمَا يُنَاسِبُ هَذَا حِكَايَةَ ظَرِيفَةً عَنْ بَعْضِ مَشَيْخَةِ الْمَغْرِبِ . أَخْبَرَنِي  
 شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْأَبْلِيُّ قَالَ : حَضَرْتُ عِنْدَ الْقَاضِي بِفَاسَ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي  
 سَعِيدٍ وَهُوَ الْفَقِيهَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَلِيبِيَّ وَقَدْ عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضَ الْأَلْقَابِ  
 الْمَخْرَزِيَّةِ لِجِرَاتِيهِ قَالَ فَأَطْرَقَ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ : مِنْ مَكْسِ الْخَمْرِ . فَاسْتَضْحَكَ  
 الْحَاضِرُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَعَجِبُوا وَسَأَلُوهُ عَنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ . فَقَالَ : إِذَا كَانَتْ  
 الْجَبَايَاتُ كُلُّهَا حَرَامًا فَأَخْتَارَ مِنْهَا مَا لَا تَتَابَعُهُ نَفْسُ مُعْطِيهِ وَالْخَمْرُ قُلٌّ أَنْ يَبْدُلَ  
 فِيهَا أَحَدٌ مَالَهُ إِلَّا وَهُوَ طَرِبَ مَسْرُورٌ بِوُجُودَاتِهِ غَيْرَ أَسْفٍ عَلَيْهِ وَلَا مُتَعَلِّقَةٍ بِهِ نَفْسُهُ  
 وَهَذِهِ مَلَاخِظَةٌ غَرِيبَةٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا تَكُنُّ الصُّدُورُ .

## الفصل الرابع عشر

في أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخص

وَذَلِكَ أَنَّ الْكُسْبَ وَالْمَعَاشَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِالصَّنَائِعِ أَوْ التِّجَارَةِ .  
 وَالتِّجَارَةُ هِيَ شِرَاءُ الْبَضَائِعِ وَالسَّلْعِ وَادِّخَارُهَا . يُتَحَيَّنُ بِهَا حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ بِالزِّيَادَةِ

(١) وفي النسخة الباريسية : شر .

فِي أَثْمَانِهَا وَيُسَمَّى رِبْحاً . وَيَخْضَلُ مِنْهُ الْكَسْبُ وَالْمَعَاشُ لِلْمُخْتَرِفِينَ بِالتَّجَارَةِ  
 دَائِماً فَإِذَا اسْتَدِيمَ الرَّخْصُ فِي سَلْعَةٍ أَوْ عَرَضٍ مِنْ مَأْكُولٍ أَوْ مَلْبُوسٍ أَوْ مَمْمُولٍ عَلَى  
 الْجُمْلَةِ وَلَمْ يَخْضَلْ لِلتَّاجِرِ حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ فَسَدَ الرَّبِيعُ وَالنَّمَاءُ بِطَوِيلِ تِلْكَ الْمُدَّةِ  
 وَكَسَدَتْ سُوقُ ذَلِكَ الصَّنْفِ وَلَمْ يَخْضَلْ التَّاجِرُ إِلَّا عَلَى الْعَنَاءِ فَقَعَدَ التَّجَارُ عَنْ  
 السَّعْيِ فِيهَا وَفَسَدَتْ رُؤُوسُ أَمْوَالِهِمْ . وَاعْتَبِرَ ذَلِكَ أَوَّلًا بِالزَّرْعِ فَإِنَّهُ إِذَا اسْتَدِيمَ  
 رُخْصَهُ يَفْسُدُ بِهِ حَالُ الْمُخْتَرِفِينَ <sup>(١)</sup> بِسَائِرِ أَطْوَارِهِ مِنَ الْفُلْجِ وَالزَّرَاعَةِ لِقَلَّةِ الرَّبِيعِ  
 فِيهِ وَنَدَارَتِهِ <sup>(٢)</sup> أَوْ فَقْدِهِ . فَيَفْقَدُونَ النَّمَاءَ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ يَجِدُونَهُ عَلَى قَلَّةٍ وَيَعُودُونَ  
 بِالْإِنْفَاقِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ وَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ وَيَصِيرُونَ إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ .  
 وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ فَسَادَ حَالِ الْمُخْتَرِفِينَ أَيْضاً بِالطَّخَنِ وَالخَبْزِ وَسَائِرِ مَا يَتَّعَلَقُ بِالزَّرَاعَةِ  
 مِنَ الْحَرْثِ إِلَى صَيْرُورَتِهِ مَأْكُولاً . وَكَذَا يَفْسُدُ حَالُ الْجُنْدِ إِذَا كَانَتْ أَرْزَاقُهُمْ مِنْ  
 السُّلْطَانِ عَلَى <sup>(٣)</sup> أَهْلِ الْفُلْجِ زَرْعاً فَإِنَّهَا تَقِلُّ جَبَايَتُهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَيَعْجِزُونَ عَنْ إِقَامَةِ  
 الْجُنْدِيَّةِ الَّتِي ( هِيَ بِسَبَبِهَا وَمُطَالَبُونَ بِهَا وَمُنْقَطِعُونَ لَهَا ) <sup>(٤)</sup> فَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ  
 وَكَذَا إِذَا اسْتَدِيمَ الرَّخْصُ فِي السُّكَّرِ أَوْ الْعَسَلِ فَسَدَ جَمِيعُ مَا يَتَّعَلَقُ بِهِ وَقَعَدَ  
 الْمُخْتَرِفُونَ عَنِ التَّجَارَةِ فِيهِ وَكَذَا حَالُ الْمَلْبُوسَاتِ إِذَا اسْتَدِيمَ فِيهَا الرَّخْصُ أَيْضاً  
 فَإِذَا الرَّخْصُ الْمَفْرُطُ يُجْحِفُ بِمَعَاشِ الْمُخْتَرِفِينَ بِذَلِكَ الصَّنْفِ الرَّخِيسِ وَكَذَا  
 الْفَلَاءُ الْمَفْرُطُ أَيْضاً . وَإِنَّمَا مَعَاشُ النَّاسِ وَكَسْبُهُمْ فِي التَّوَسُّطِ مِنْ ذَلِكَ وَسُرْعَةَ حَوَالَةِ  
 الْأَسْوَاقِ وَعَلِمَ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى الْعَوَائِدِ الْمُتَقَرَّرَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْعُمَرَانِ . وَإِنَّمَا يُخَمِّدُ  
 الرَّخْصُ فِي الزَّرْعِ مَنْ بَيْنَ الْمَبِيعَاتِ لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَاضْطِرَارِ النَّاسِ إِلَى الْأَقْوَاتِ  
 مِنْ بَيْنِ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ . وَالْعَالَةُ مِنَ الْخَلْقِ هُمْ الْأَكْثَرُ فِي الْعُمَرَانِ فَيَعْمُ الرِّفْقُ بِذَلِكَ  
 وَيَرْجِعُ جَانِبُ الْقُوَّةِ عَلَى جَانِبِ التَّجَارَةِ فِي هَذَا الصَّنْفِ الْخَاصِ « وَاللَّهُ الرَّزَاقُ ذُو  
 الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

(١) وفي نسخة أخرى : فإذا استديم رخصه كيف تفسر أحوال المخترفين به .

(٢) وفي نسخة أخرى : ونزارته . (٣) وفي نسخة أخرى : عند .

(٤) وفي نسخة أخرى : هم بسببها ويرتزقون من السلطان عليها ويقطع عنهم الرزق .

## الفصل الخامس عشر

في أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة

قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْفَضْلِ قَبْلَهُ أَنَّ التَّاجِرَ مَدْفُوعٌ إِلَى مَعَانَاةِ الْبَيْعِ وَالشَّرَاءِ وَجَلِبِ  
 الْفَوَائِدِ وَالْأَرْبَاحَ وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَكَايَسَةِ وَالْمَمَاحِكَةِ وَالتَّحَذُّقِ وَمُمَارَسَةِ  
 الْخُصُومَاتِ وَاللَّجَاجِ وَهِيَ عَوَارِضُ هَذِهِ الْجِرْفَةِ . وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ نَقَصَ <sup>(١)</sup> مِنَ الذِّكَاةِ  
 وَالْمُرُوءَةِ وَتَجْرُحُ <sup>(٢)</sup> فِيهَا لِأَنَّ الْأَفْعَالَ لَا بُدَّ مِنْ عَوْدِ آثَارِهَا عَلَى النَّفْسِ . فَأَفْعَالُ  
 الْخَيْرِ تَعُودُ بِآثَارِ الْخَيْرِ وَالذِّكَاةِ وَأَفْعَالُ الشَّرِّ وَالسُّفْسَفَةِ تَعُودُ بِضِدِّ ذَلِكَ فَتَتِمَّكُنُ  
 وَتَرْتَسِخُ إِنْ سَبَقَتْ وَتَكَرَّرَتْ وَتَنْقُصُ خِلَالَ الْخَيْرِ إِنْ تَأَخَّرَتْ عَنْهَا بِمَا يَنْطَبِعُ مِنْ  
 آثَارِهَا الْمَذْمُومَةِ فِي النَّفْسِ شَأْنَ الْمَلَكَاتِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْأَفْعَالِ . وَتَتَفَاوَتُ هَذِهِ الْأَثَارُ  
 بِتَفَاوَتِ أَصْنَافِ التُّجَّارِ فِي أَطْوَارِهِمْ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ سَافِلِ الطَّوْرِ مُخَالِفًا لِأَشْرَارِ  
 الْبَاعَةِ أَهْلِ الْغَشِّ وَالْخَلَايَةِ وَالْخَدِيْعَةِ وَالْفُجُورِ فِي الْأَثْمَانِ <sup>(٣)</sup> إِفْرَارًا وَإِنْكَارًا ، كَانَتْ  
 رَدَاءَةٌ تِلْكَ الْخُلُقِ عَنْهُ أَشَدَّ وَعَلَبَتْ عَلَيْهِ السُّفْسَفَةُ وَبَعُدَ عَنِ الْمُرُوءَةِ وَكَيْسَابِهَا  
 بِالْجُمْلَةِ . وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَأْتِيرِ الْمَكَايَسَةِ وَالْمَمَاحِكَةِ فِي مُرُوءَتِهِ ، وَفَقْدَانِ ذَلِكَ  
 مِنْهُمْ فِي الْجُمْلَةِ . وَوُجُودُ الصَّنْفِ الثَّانِي مِنْهُمْ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ فِي الْفَضْلِ قَبْلَهُ أَنَّهُمْ  
 يَدْرِعُونَ بِالْجَاهِ وَيَعْوِضُ لَهُمْ مِنْ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ ، فَهُمْ <sup>(٤)</sup> نَادِرٌ وَأَقْلُ مِنَ النَّادِرِ .  
 وَذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ الْمَالُ قَدْ يُوْجَدُ <sup>(٥)</sup> عِنْدَهُ دَفْعَةً بِنَوْعِ غَرِيْبٍ أَوْ وَرَثَةٍ عَنْ أَحَدٍ مِنْ  
 أَهْلِ بَيْتِهِ فَحَصَلَتْ لَهُ ثُرُوءَةٌ تَعِينُهُ عَلَى الْإِتِّصَالِ بِأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَتَكْسِبُهُ ظَهُورًا وَشُهْرَةً  
 بَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ فَيَرْتَفِعُ عَنْ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ وَيَدْفَعُهُ إِلَى مَنْ يَقُومُ لَهُ بِهِ مِنْ  
 وَكَلَايَةِ وَحَشْمِهِ . وَيَسْهَلُ لَهُ الْحُكْمُ النَّصْفَةَ فِي حُقُوقِهِمْ بِمَا يُؤَسِّنُونَهُ مِنْ بَرِّهِ

(٢) وفي نسخة أخرى : تحديج .

(١) وفي نسخة أخرى : نقص .

(٣) وفي نسخة أخرى : الإيمان .

(٤) وفي نسخة أخرى : فيهم .

(٥) وفي نسخة أخرى : توفر .

وَإِتْخَافِهِ فَيَبْعِدُونَهُ عَنِ تِلْكَ الْخُلُقِي بِالْبَعْدِ عَنِ مُعَانَاةِ الْأَفْعَالِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهَا كَمَا مَرَّ .  
 فَتَكُونُ مَرُوءَتُهُمْ أَرْسَخٌ وَأَبْعَدُ عَنِ تِلْكَ الْمَحَاجَاةِ <sup>(١)</sup> إِلَّا مَا يَسْرِي مِنْ آثَارِ تِلْكَ  
 الْأَفْعَالِ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ فَإِنَّهُمْ يُضْطَرُّونَ إِلَى مُشَارَفَةِ أَحْوَالِ أَوْلِيكَ الْوُكَلَاءِ  
 وَرِفَاقِهِمْ أَوْ خِلَافِهِمْ فِيمَا يَأْتُونَ أَوْ يَذْرُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ وَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ أَثَرُهُ  
 « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » .

## الفصل السادس عشر

في أن الصنائع لا بد لها من العلم <sup>(٢)</sup>

إِغْلَمُ أَنَّ الصَّنَاعَةَ هِيَ مَلَكَةٌ فِي أَمْرِ عَمَلِيٍّ فِكْرِيٍّ وَبِكُونِهِ عَمَلِيًّا هُوَ جِسْمَانِيٌّ  
 مَحْسُوسٌ . وَالْأَحْوَالُ الْجِسْمَانِيَّةُ الْمَحْسُوسَةُ فَتَقْلَمُهَا بِالْمُبَاشَرَةِ أَوْعَبُ لَهَا وَأَكْمَلُ ،  
 لِأَنَّ الْمُبَاشَرَةَ فِي الْأَحْوَالِ الْجِسْمَانِيَّةِ الْمَحْسُوسَةِ أَتَمُّ فَائِدَةٌ وَالْمَلَكَةُ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ  
 تَحْصُلُ عَنِ اسْتِفْعَالِ ذَلِكَ الْفِعْلِ وَتَكَرُّرِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى تَرَسَّخَ صُورَتُهُ . وَعَلَى  
 نِسْبَةِ الْأَصْلِ تَكُونُ الْمَلَكَةُ . وَتَقْلُ الْمَعَانِيَةَ أَوْعَبُ وَأَتَمُّ مِنْ تَقْلِ الْخَبَرِ وَالْعِلْمِ .  
 فَالْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ عَنِ الْخَبَرِ . وَعَلَى قَدْرِ جُودَةِ التَّعْلِيمِ وَمَلَكَةِ الْمُعَلِّمِ يَكُونُ حَذَقُ  
 الْمُتَعَلِّمِ فِي الصَّنَاعَةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ . ثُمَّ إِنَّ الصَّنَائِعَ مِنْهَا الْبَسِيطُ وَمِنْهَا الْمُرَكَّبُ .  
 وَالْبَسِيطُ هُوَ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالضَّرُورِيَّاتِ وَالْمُرَكَّبُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لِلْكَمَالِيَّاتِ .  
 وَالْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي التَّعْلِيمِ هُوَ الْبَسِيطُ لِبَسَاطَتِهِ أَوْلَى ، وَإِلَانَهُ مُخْتَصٌّ بِالضَّرُورِيِّ الَّذِي  
 تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ فَيَكُونُ سَابِقًا فِي التَّعْلِيمِ وَيَكُونُ تَعْلِيمُهُ لِذَلِكَ نَاقِصًا . وَلَا  
 يَزَالُ الْفِكْرُ يُخْرِجُ أَضْنَافَهَا وَمَرْكَبَاتِهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ بِالِاسْتِنْبَاطِ شَيْئًا فَشَيْئًا  
 عَلَى التَّنْزِيحِ حَتَّى تَكْمُلُ . وَلَا يَخْصُلُ ذَلِكَ دَفْعَةً وَإِنَّمَا يَخْصُلُ فِي أَرْزَانٍ وَأَجْيَالٍ إِذْ  
 خُرُوجُ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ لَا يَكُونُ دَفْعَةً لَا سِيَّمَا فِي الْأُمُورِ الصَّنَاعِيَّةِ فَلَا  
 بُدَّ لَهُ إِذْنٌ مِنْ زَمَانٍ . وَلِهَذَا تَجِدُ الصَّنَائِعَ فِي الْأَمْصَارِ الصَّغِيرَةِ نَاقِصَةً وَلَا يُوْجَدُ مِنْهَا

(٢) وفي النسخة الباريسية : المعلم .

(١) وفي نسخة أخرى : المحرجات .

إِلَّا البَسِيطُ فَإِذَا تَزَايَدَتْ حِصَارَتُهَا وَدَعَتْ أُمُورَ التَّرَفِ فِيهَا إِلَى اسْتِعْمَالِ الصَّنَائِعِ خَرَجَتْ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ . وَتَنْقَسِمُ الصَّنَائِعُ أَيْضًا إِلَى مَا يَخْتَصُّ بِأَمْرِ الْمَعَاشِ ضَرُورِيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ ضَرُورِيٍّ وَإِلَى مَا يَخْتَصُّ بِالْأَفْكَارِ الَّتِي هِيَ خَاصِيَّةُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ . وَمِنَ الْأَوَّلِ الْحَيَاكَةُ وَالْجِزَارَةُ وَالنَّجَارَةُ وَالْجِدَادَةُ وَأَمْثَالُهَا . وَمِنَ الثَّانِيِ الْوِرَاقَةُ وَهِيَ مُعَانَاةُ الْكُتُبِ بِالِانْتِسَاحِ وَالتَّجْلِيدِ وَالغِنَاءِ وَالشُّغْرُ وَتَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَمِنَ الثَّلَاثِ الْجُنْدِيَّةُ وَأَمْثَالُهَا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

## الفصل السابع عشر

في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكشرفته

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ مَا لَمْ يُسْتَوْفِ الْعُمْرَانَ الْحَضْرِيَّ وَتَتَمَدَّنُ الْمَدِينَةُ إِنَّمَا هُمُّهُمْ فِي الضَّرُورِيِّ مِنَ الْمَعَاشِ وَهُوَ تَحْصِيلُ الْأَقْوَاتِ مِنَ الْحِنْطَةِ وَغَيْرِهَا . فَإِذَا تَمَدَّنَتِ الْمَدِينَةُ وَتَزَايَدَتْ فِيهَا الْأَعْمَالُ وَوَفَّتْ بِالضَّرُورِيِّ وَزَادَتْ عَلَيْهِ صُرْفَ الزَّائِدِ حِينَئِذٍ إِلَى الْكَمَالَاتِ مِنَ الْمَعَاشِ . ثُمَّ إِنَّ الصَّنَائِعَ وَالْعُلُومَ إِنَّمَا هِيَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ فِكْرُهُ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْقَوْتِ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْحَيَوَانِيَّةِ وَالغِذَائِيَّةِ فَهُوَ مُقَدَّمٌ لِضَرُورِيَّتِهِ عَلَى الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَهِيَ مُتَأَخَّرَةٌ عَنِ الضَّرُورِيِّ . وَعَلَى مِقْدَارِ عُمْرَانِ الْبَلَدِ تَكُونُ جُودَةُ الصَّنَائِعِ لِلتَّائِقِ فِيهَا حِينَئِذٍ وَاسْتِجَادَةُ مَا يُطْلَبُ مِنْهَا بِحَيْثُ تَتَوَفَّرُ دَوَاعِي التَّرَفِ وَالشُّرُوءِ . وَأَمَّا الْعُمْرَانُ الْبَدْوِيُّ أَوْ الْقَلِيلُ فَلَا يَحْتَاجُ مِنَ الصَّنَائِعِ إِلَّا البَسِيطَ خَاصَّةً الْمُسْتَعْمَلِ فِي الضَّرُورِيَّاتِ مِنْ نَجَارٍ أَوْ حِدَادٍ أَوْ خِيَاطٍ أَوْ حَائِكٍ أَوْ جَزَارٍ . وَإِذَا وَجَدَتْ هَذِهِ بَعْدَ فَلَا تَوْجَدُ فِيهِ كَامِلَةٌ وَلَا مُسْتَجَادَةٌ وَإِنَّمَا يُوجَدُ مِنْهَا بِمِقْدَارِ الضَّرُورَةِ إِذْ هِيَ كُلُّهَا وَسَائِلُ إِلَى غَيْرِهَا وَلَيْسَتْ مَقْصُودَةٌ لِذَاتِهَا . وَإِذَا زَخَرَ بَحْرُ الْعُمْرَانِ وَطَلِبَتْ فِيهِ الْكَمَالَاتُ كَانَ مِنْ جَمَلَتِهَا التَّائِقُ فِي الصَّنَائِعِ وَاسْتِجَادَتِهَا فَكَمَلَتْ بِجَمِيعِ مُتَمَمَاتِهَا وَتَزَايَدَتْ صَّنَائِعُ

أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخرار وصانغ  
وأمثال ذلك . وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران إلى أن يوجد فيها كثير  
من الكمالات والتائق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المضر لمنتجها .  
بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال لما يدعو إليه الترف في المدينة مثل  
الدهان والصفار والحمامي والطباخ والشماع<sup>(١)</sup> والهراس ومعلم الغناء والرقص  
وقرع الطبول على التوقيع . ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساج الكتب  
وتجليدها وتضريحها فإن هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف في المدينة من  
الاشتغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك . وقد تخرج عن الحد إذا كان العمران  
خارجاً عن الحد كما بلغنا عن أهل مضر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحمر  
الإنسية ويتخيل أشياء من العجائب بإيهاهم قلب الأعيان وتعليم الحداء والرقص  
والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من  
الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب . لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مضر  
والقاهرة . أدام الله عمرانها بالمسلمين . والله الحكيم العليم .

## الفصل الثامن عشر

في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول  
أمده

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا عَوَائِدُ لِلْعُمَرَانِ وَالْأَوَانِ<sup>(٢)</sup> . وَالْعَوَائِدُ  
إِنَّمَا تَرَسُخُ بِكَثْرَةِ التُّكْرَارِ وَطُولِ الْأَمَدِ فَتَسْتَحْكِمُ صِبْغَةَ ذَلِكَ وَتَرَسُخُ فِي الْأَجْيَالِ .  
وَإِذَا اسْتَحْكَمَتِ الصَّبْغَةُ عَسِرَ نَزْعُهَا . وَلِهَذَا نَجَدُ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي كَانَتْ اسْتَبْحَرَتْ  
فِي الْحَضَارَةِ لَمَّا تَرَا جَعُ عُمُرَانُهَا وَتَنَاقَصَ بَقِيَّتُ فِيهَا آثَارُ مِنْ هَذِهِ الصَّنَائِعِ لَيْسَتْ فِي

(١) وفي نسخة أخرى : السفاغ .

(٢) وفي نسخة أخرى : الوأم أي البيت الدافئ .

غيرها من الأمصار المُستحدثة العُمران ولو بُلغَتْ مبالِغها في الوُفُورِ والكثرة وما  
 ذاك إلا لأنَّ أحوال تلك القديمة العُمران مُستحكمة راسخة بطول الأخقاب  
 وتداول الأحوال وتكرُّرها وهذه لم تَبْلُغ الغاية بعد . وهذا كالحال في الأندلس لهذا  
 العهد فإننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مُستحكمة راسخة في جميع  
 ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهم من الآلات  
 والأوتار والرقص وتنصيد الفُرش في القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء  
 وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وإقامة الولائم والأعراس وسائر  
 الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده . فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها . ونجد  
 صنائعها مُستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ مُتميز بين جميع  
 الأمصار . وإن كان عُمرانها قد تناقص . والكثير منه لا يساوي عُمران غيرها من  
 بلاد العُدوة . وما ذاك إلا لما قدمناه من رُسوخ الحضارة فيهم برُسوخ الدولة  
 الأموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوائف وهلم جرا . فبلغت  
 الحضارة فيها مبلغاً لم تَبْلُغ في قطرٍ إلا ما يُنقل عن العراق والشام ومصر أيضاً  
 لطول آماة الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على  
 الاستحادة والتتميق . وبقيت صِنَعَتها ثابتة في ذلك العُمران لا تفارقه إلى أن  
 ينتقض بالكليّة حال الصنيع إذا رسخ في الثوب . وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل  
 فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والمُوحدين من بعدهم وما استكمل لها في  
 ذلك من الصنائع في سائر الأحوال وإن كان ذلك دون الأندلس . إلا أنه متضاعف  
 برُسوم منها تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من  
 قطرها إلى قطر مصر في كل سنة وربما سكن أهلها هناك عَصُوراً فينقلون من عوائد  
 ترفهم ومُحكَم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان . فصارت أحوالها في ذلك  
 مُشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الأندلس لما أن أكثر ساكنيها من  
 شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة . ورسخ فيها من ذلك أحوال وإن



كَانَ عُمْرَانُهَا لَيْسَ بِمُنَاسِبٍ لِذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ . إِلَّا أَنْ الصَّبْغَةَ إِذَا اسْتَحْكَمَتْ فَقَلِيلًا مَا تَعْوَلُ إِلَّا بِزَوَالِ مَحَلِّهَا . وَكَذَا نَجِدُ بِالْفَيْرَوَانِ وَمَرَكَشِ وَقَلْعَةِ ابْنِ حَمَادٍ أَثْرًا بَاقِيًا مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ كُلُّهَا الْيَوْمَ خَرَابًا أَوْ فِي حُكْمِ الْخَرَابِ . وَلَا يَتَّفَقُنَ لَهَا إِلَّا الْبَصِيرُ مِنَ النَّاسِ فَيَجِدُ مِنْ هَذِهِ الصَّنَائِعِ أَثَارًا تَدُلُّهُ عَلَى مَا كَانَ بِهَا كَأَثَرِ الْخَطِّ الْمَمْحُورِ فِي الْكِتَابِ « وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » .

## الفصل التاسع عشر

في أن الصنائع إنما تستجد وتكثر إذا كثر طالبها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْمَحُ بِعَمَلِهِ أَنْ يَقَعَ مَجَانًا لِأَنَّهُ كَسْبُهُ وَمِنْهُ مَعَاشُهُ . إِذْ لَا فَائِدَةَ لَهُ فِي جَمِيعِ عُمْرِهِ فِي شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ فَلَا يَضْرِفُهُ إِلَّا فِيمَا لَهُ قِيمَةٌ فِي مِضْرِهِ لِيَعُودَ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ . وَإِنْ كَانَتْ الصَّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً وَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا النِّفَاقُ كَانَتْ حِينئِذٍ الصَّنَاعَةُ بِمَثَابَةِ السَّلْعَةِ الَّتِي تَنْفَقُ سَوْقَهَا وَتُجَلَّبُ لِلْبَيْعِ . فَتَجْتَهِدُ النَّاسُ فِي الْمَدِينَةِ لِتَعْلَمَ تِلْكَ الصَّنَاعَةَ لِيَكُونَ مِنْهَا مَعَاشُهُمْ . وَإِذَا لَمْ تَكُنِ الصَّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً لَمْ تَنْفَقْ سَوْقَهَا وَلَا يُوجَّهَ قَصْدٌ إِلَى تَعْلَمِهَا ، فَاخْتَصَّتْ بِالتَّرْكِ وَفَقِدَتْ لِلْإِهْمَالِ . وَلِهَذَا يُقَالُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، « قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ » بِمَعْنَى أَنَّ صِنَاعَتَهُ هِيَ قِيمَتُهُ أَيْ قِيمَةُ عَمَلِهِ الَّذِي هُوَ مَعَاشُهُ . وَأَيْضًا فَمِنَّا سِرٌّ آخَرٌ وَهُوَ أَنَّ الصَّنَائِعَ وَاجِدَاتُهَا إِنَّمَا تَطْلُبُهَا الدَّوْلَةُ فِيهِ الَّتِي تَنْفَقُ سَوْقَهَا وَتَوَجَّهَ الطَّالِبَاتُ إِلَيْهَا . وَمَا لَمْ تَطْلُبْهُ الدَّوْلَةُ وَإِنَّمَا يَطْلُبُهَا غَيْرُهَا مِنْ أَهْلِ الْمِضْرِ فَلَيْسَ عَلَى نِسْبَتِهَا لِأَنَّ الدَّوْلَةَ هِيَ السُّوقُ الْأَعْظَمُ وَفِيهَا نَفَاقُ كُلِّ شَيْءٍ وَالْقَلِيلُ وَالكَثِيرُ فِيهَا عَلَى نِسْبَةِ وَاحِدَةٍ . فَمَا نَفَقَ مِنْهَا كَانَ أَكْثَرِيًّا ضَرُورَةً . وَالسُّوقَةُ وَإِنْ طَلَبُوا الصَّنَاعَةَ فَلَيْسَ طَلِبُهُمْ بِعَامٍّ وَلَا سَوْقُهُمْ بِنَافِقَةٍ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ .

## الفصل العشرون

في أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقضت منها المصانع

وذلك لما بيننا أن الصنائع إنما تستجد إذا احتيج إليها وكثر طلبها . وإذا ضعفت أحوال المضر وأخذ في الهرم بانتقاض عمرانه وقلة ساكنيه تناقص فيه الترف ورجعوا إلى الإقتصار على الضروري من أحوالهم فتقل الصنائع التي كانت من توايع الترف لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه فيفر إلى غيرها ، أو يموت ولا يكون خلف منه ، فيذهب رسم تلك الصنائع جملة ، كما يذهب النقاشون والصواع<sup>(١)</sup> والكتاب والنساج وأمثالهم من الصنائع<sup>(٢)</sup> لحاجات الترف . ولا تزال الصناعات في التناقص إلى أن تضحل . والله الخلاق العليم وسبحانه وتعالى .

## الفصل الحادي والعشرون

في أن العرب أبعده الناس عن الصنائع

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري ، وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها . والعجم من أهل المشرق وأمم النضرانية غدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها ، لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه . حتى إن الإبل التي أعانت العرب على التوحش في القفر ، والإغراق في البدو ، مفقودة لديهم بالجملة ، ومفقودة مراعيها ، والرماة المهينة لتاجها . ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة ، حتى تجلب إليه من قطر آخر . وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم

(١) وفي نسخة الصواغون .

(٢) وفي نسخة أخرى : الصنائع .

النُضْرَانِيَّة ، كَيْفَ اسْتَكْثَرَتْ فِيهِمُ الصَّنَائِعُ وَاسْتَجْلَبَتْهَا الْأُمَمُ مِنْ عِنْدِهِمْ . وَعَجَمَ  
 الْمَغْرِبَ مِنَ الْبَرْبَرِ مِثْلَ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ لِرُسُوخِهِمْ فِي الْبِدَاوَةِ مُنْذُ أَحْقَابِ مِنَ  
 السِّنِينَ . وَيَشْهَدُ لَكَ بِذَلِكَ قَلَّةُ الْأَمْصَارِ بِقَطْرِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا . فَالصَّنَائِعُ بِالْمَغْرِبِ  
 لِذَلِكَ قَلِيلَةٌ وَغَيْرُ مُسْتَحْكِمَةٍ الْأَمَاكِنِ<sup>(١)</sup> مِنْ صِنَاعَةِ الصُّوفِ مِنْ نَسْجِهِ ، وَالْجِلْدِ فِي  
 خَزَرِهِ وَدَبْنِهِ . فَإِنَّهُمْ لَمَّا اسْتَحْضَرُوا بَلَّغُوا فِيهَا الْمَبَالِغَ لِعُمُومِ الْبُلُوى بِهَا وَكَوْنِ  
 هَذَيْنِ أَغْلَبِ السَّلْعِ فِي قَطْرِهِمْ ، لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حَالِ الْبِدَاوَةِ . وَأَمَّا الْمَشْرِقُ فَقَدْ  
 رَسَخَتْ الصَّنَائِعُ فِيهِ مُنْذُ مُلْكِ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الْفُرْسِ وَالنَّبِطِ وَالْقَبِطِ وَبَنِي  
 إِسْرَائِيلَ وَيُونَانَ وَالرُّومِ أَحْقَابًا مُتَطَاوِلَةً ، فَرَسَخَتْ فِيهِمْ أَحْوَالُ الْحِضَارَةِ ، وَمِنْ  
 جُمَلَتِهَا الصَّنَائِعُ كَمَا قَدَّمْنَا ، فَلَمْ يُنْمَحْ رَسْمُهَا . وَأَمَّا الْيَمَنُ وَالْبَحْرَيْنُ وَعَمَانَ  
 وَالْحِجْزِيَّةُ وَإِنْ مَلَكَ الْعَرَبُ إِلَّا أَنَّهُمْ تَدَاوَلُوا مُلْكَهُ آفَافًا مِنَ السِّنِينَ فِي أَمْرِ كَثِيرِينَ<sup>(٢)</sup>  
 مِنْهُمْ . وَاسْتَحْضَرُوا أَمْصَارَهُ وَمُدْنَهُ وَبَلَّغُوا الْغَايَةَ مِنَ الْحِضَارَةِ وَالتَّرَفِ مِثْلَ عَادٍ وَثَمُودَ  
 وَالْعَمَالِقَةَ وَحَمِيرَ مِنْ بَعْدِهِمْ . وَالتَّبَابِعَةَ وَالْأَذْوَاءَ فَطَالَ أَمْدُ الْمُلْكِ وَالْحِضَارَةِ  
 وَاسْتَحْكَمَتْ صِنْعَتُهَا وَتَوَفَّرَتْ الصَّنَائِعُ وَرَسَخَتْ ، فَلَمْ تَبَلَّ بِبَلَى الدَّوْلَةِ كَمَا قَدَّمْنَا .  
 فَبَقِيَتْ مُسْتَحْجِدَةٌ حَتَّى الْآنَ . وَاسْتَحْضَتْ بِذَلِكَ لِلْوَطَنِ ، كَصِنَاعَةِ الْوَشْيِ وَالْعَصَبِ  
 وَمَا يُسْتَجَادُ مِنْ حَوْكِ الثِّيَابِ وَالْحَرِيرِ فِيهَا وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ  
 خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

## الفصل الثاني والعشرون

فيمين حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعد في ملكة أخرى  
 ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورَسَخَتْ فِي نَفْسِهِ فَلَا  
 يُجِيدُ مِنْ بَعْدِهَا مَلَكَ النَّجَارَةِ أَوْ الْبِنَاءِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْأُولَى لَمْ تَسْتَحْكِمِ بَعْدَ وَلَمْ  
 تَرَسَخْ صِنْعَتُهَا . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَلَكَاتِ صِفَاتُ لِلنَّفْسِ وَالْوَانُ فَلَا تَزْدَحِمُ

(٢) وفي نسخة أخرى : في أمم كثيرة .

(١) وفي نسخة أخرى : إلا ما كان .

دَفْعَةً . وَمَنْ كَانَ عَلَى الْفِطْرَةِ كَانَ أَسْهَلَ لِقَبُولِ الْمَلَكَاتِ وَأَحْسَنَ اسْتِعْدَادًا لِحُصُولِهَا . فَإِذَا تَلَوْنَتِ النَّفْسُ بِالْمَلَكَاتِ الْأُخْرَى وَخَرَجَتْ عَنِ الْفِطْرَةِ ضَعْفٌ فِيهَا الْاسْتِعْدَادُ بِاللَّوْنِ الْحَاصِلِ مِنْ هَذِهِ الْمَلَكَاتِ فَكَانَ قُبُولُهَا لِلْمَلَكَاتِ الْأُخْرَى أضعف . وَهَذَا بَيْنَ يَسْهَدَ لَهُ الْوُجُودُ . فَقُلْ أَنْ تَجِدَ صَاحِبَ صِنَاعَةٍ يُحْكِمُهَا ثُمَّ يُحْكِمُ مِنْ بَعْدِهَا أُخْرَى وَيَكُونُ فِيهِمَا مَعًا عَلَى رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْإِجَادَةِ . حَتَّى أَنْ أَهْلَ الْعِلْمِ الَّذِينَ مَلَكَتَهُمْ فِكْرِيَّةٌ فَهَمُّ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ . وَمَنْ حَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى مَلَكَاتٍ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَأَجَادَهَا فِي الْغَايَةِ فَقُلْ أَنْ يُجِيدَ مَلَكَاتُ عِلْمٍ آخَرَ عَلَى نِسْبَتِهِ بَلْ يَكُونُ مُقْصِرًا فِيهِ إِنْ طَلَبَهُ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَمَبْنِي سَبَبَهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْاسْتِعْدَادِ وَتَلَوْنِيهِ يَلُونِ الْمَلَكَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي النَّفْسِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

## الفصل الثالث والعشرون

### في الإشارة إلى أمهات الصنائع

إِغْلَمَ أَنَّ الصَّنَائِعَ فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ كَثِيرَةٌ لِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ الْمَتَدَاوِلَةِ فِي الْعُمْرَانِ . فَهِيَ بِحَيْثُ تَشْدُ عَنِ الْحَضَرِ وَلَا يَأْخُذُهَا الْعَدُ . إِلَّا أَنْ مِنْهَا مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ فِي الْعُمْرَانِ أَوْ شَرِيفٌ بِالْمَوْضِعِ <sup>(١)</sup> فَتَخْصُهَا بِالذِّكْرِ وَتَتْرُكُ مَا سِوَاهَا . فَأَمَّا الضَّرُورِيُّ فَالْفَلَاخَةُ وَالْبِنَاءُ وَالخِيَاطَةُ وَالنَّجَارَةُ وَالْحِيَاكَةُ ، وَأَمَّا الشَّرِيفَةُ بِالْمَوْضِعِ <sup>(٢)</sup> فَكَالتَّوْلِيدِ وَالْكِتَابَةِ وَالْوَرَاقَةَ وَالغِنَاءَ وَالطَّبَّ . فَأَمَّا التَّوْلِيدُ فَإِنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ فِي الْعُمْرَانِ وَعَامَّةُ الْبُلُوَى إِذْ بِهَا تَحْصُلُ حَيَاةُ الْمَوْلُودِ وَتَتِمُّ غَالِبًا . وَمَوْضُوعُهَا مَعَ ذَلِكَ الْمَوْلُودُونَ وَأُمَّهَاتُهُمْ . وَأَمَّا الطَّبُّ فَهُوَ حِفْظُ الصَّحَّةِ لِلْإِنْسَانِ وَدَفْعُ الْمَرَضِ عَنْهُ وَيَتَفَرَّغُ عَنِ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ ، وَمَوْضُوعُهُ مَعَ ذَلِكَ بَدَنُ الْإِنْسَانِ . وَأَمَّا الْكِتَابَةُ وَمَا يَتَّبَعُهَا مِنَ الْوَرَاقَةِ فَهِيَ حَافِظَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ حَاجَتَهُ وَمَقِيدَةٌ لَهَا

(١) وفي نسخة أخرى ، الموضوع .

عَنِ النَّسِيَانِ وَمَبْلَغَةَ صَمَائِرِ النَّفْسِ إِلَى الْبَعِيدِ الْغَائِبِ وَمُخَلَّدَةَ نَتَائِجِ الْأَفْكَارِ وَالْعُلُومِ فِي الصُّحُفِ وَرَافِعَةَ رُتَبِ الْوُجُودِ لِلْمَعَانِي . وَأَمَّا الْعِنَاءُ فَهُوَ نَسْبُ الْأَصْوَاتِ وَمَظْهَرُ جَمَالِهَا لِلْأَسْمَاعِ . وَكُلُّ هَذِهِ الصَّنَائِعِ الثَّلَاثِ دَاجٍ إِلَى مُخَالَطَةِ الْمُلُوكِ الْأَعَظِمِ فِي خَلَوَاتِهِمْ وَمَجَالِسِ أَنْسِهِمْ فَلَهَا بِذَلِكَ شَرَفٌ لَيْسَ لغيرِهَا . وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ فَتَابِعَةٌ وَمُمْتَهَنَةٌ فِي الْغَالِبِ . وَقَدْ يَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأَغْرَاضِ وَالذَّوَاعِي ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

## الفصل الرابع والعشرون

### في صناعة الفلاحة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ ثَمَرَتْهَا اتِّخَاذُ الْأَقْوَاتِ وَالْحُبُوبِ بِالْقِيَامِ عَلَى إِثَارَةِ الْأَرْضِ لَهَا ازْدِرَاعِهَا وَعِلَاجِ نَبَاتِهَا وَتَعْمِيدِهِ بِالسَّقْيِ وَالتَّنْمِيَةِ إِلَى بُلُوغِ غَايَتِهِ ثُمَّ حِصَادِ سُنْبُلِهِ وَاسْتِخْرَاجِ حَبِّهِ مِنْ غِلَافِهِ وَإِحْكَامِ الْأَعْمَالِ لِذَلِكَ ، وَتَحْصِيلِ أَسْبَابِهِ وَذَوَاعِيهِ . وَهِيَ أَوَّلُ الصَّنَائِعِ لِمَا أَنَّهَا مُحْصَلَةٌ لِلْقُوَّةِ الْمُكْمَلِ لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ غَالِبًا إِذْ يُمَكِّنُ وَجُودَهُ مِنْ دُونِ الْقُوَّةِ . وَلِهَذَا اخْتَصَّتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ بِالْبَدْوِ . إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَحْضَرَ وَسَابِقٌ عَلَيْهِ فَكَانَتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ لِذَلِكَ بَدْوِيَّةً لَا يَقُومُ عَلَيْهَا الْحَضَرُ وَلَا يَعْرِفُونَهَا لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ كُلُّهَا ثَانِيَّةٌ عَلَى الْبِدَاوَةِ فَصَنَائِعُهُمْ ثَانِيَّةٌ عَنْ صَنَائِعِهَا وَتَابِعَةٌ لَهَا . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُقِيمُ الْعِبَادِ فِيمَا أَرَادَ .

## الفصل الخامس والعشرون

### في صناعة البناء

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ أَوَّلُ صَنَائِعِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ وَأَوَّلُهَا وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْعَمَلِ فِي اتِّخَاذِ الْبُيُوتِ وَالْمَنَازِلِ لِلْكَثَنِ <sup>(١)</sup> وَالْمَأْوَى لِلْأَبْدَانِ فِي الْمُدُنِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لِمَا

(١) وفي النسخة الباريسية : للسكن .

جَبَلٍ عَلَيْهِ مِنَ الْفِكْرِ فِي عَوَاقِبِ أَحْوَالِهِ ، لَا بُدَّ أَنْ يُفَكِّرَ فِيمَا يَدْفَعُ عَنْهُ الْأَذَى مِنَ  
الْحَرِّ وَالْبُرْدِ كَاتِّخَاذِ الْبُيُوتِ الْمَكْتَنَفَةِ بِالسُّفْفِ وَالْحِيطَانِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا<sup>(١)</sup>  
وَالْبَشَرِ مُخْتَلَفٍ فِي هَذِهِ الْجِلَّةِ الْفِكْرِيَّةِ فَمِنْهُمْ الْمُعْتَدِلُونَ فِيهَا فَيَتَّخِذُونَ ذَلِكَ  
بِاعْتِدَالِ أَهَالِي<sup>(٢)</sup> الثَّانِي وَالثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ وَالسَّادِسِ وَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ  
فَيَبْعُدُونَ عَنِ اتِّخَاذِ ذَلِكَ لِقُصُورِ أَفْكَارِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِ الصَّنَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ فَيَبَادِرُونَ  
لِلْغَيْرَانِ وَالْكُهُوفِ الْمُعَدَّةِ مِنْ غَيْرِ عِلَاجٍ<sup>(٣)</sup> . ثُمَّ الْمُعْتَدِلُونَ وَالْمُتَّخِذُونَ الْبُيُوتِ  
لِلْمَأْوَى قَدْ يَتَكَثَّرُونَ فِي الْبَسِيطِ الْوَاحِدِ بِحَيْثُ يَتَنَازَرُونَ وَلَا يَتَعَارَفُونَ فَيَحْشُونَ  
طَرِيقَ<sup>(٤)</sup> بَعْضِهِمْ بَعْضًا بَيَاتًا فَيَحْتَاجُونَ إِلَى حِفْظِ مُجْتَمَعِهِمْ بِإِدَارَةِ مَاءٍ أَوْ أُسُورِ  
تَحُوطِهِمْ<sup>(٥)</sup> وَيَصِيرُ جَمِيعًا مَدِينَةً وَاحِدَةً وَمِضْرًا وَاحِدًا وَيَحُوطُهُمُ الْحَكْمُ مِنْ دَاخِلِ  
يَدْفَعُ<sup>(٦)</sup> بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَقَدْ يَحْتَاجُونَ إِلَى الْإِنْتِصَافِ<sup>(٧)</sup> وَيَتَّخِذُونَ الْمَعَاوِلَ  
وَالْحُصُونَ لَهُمْ وَلَمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ وَهَوْلَاءَ مِثْلِ الْمُلُوكِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْأَمْرَاءِ  
وَكِبَارِ الْقَبَائِلِ . ثُمَّ تَخْتَلَفُ أَحْوَالُ الْبِنَاءِ فِي الْمُدُنِ كُلِّ مَدِينَةٍ عَلَى مَا يَتَعَارَفُونَ  
وَيُضْطَلِحُونَ عَلَيْهِ وَيُنَاسِبُ مِرَاجَ هَوَائِهِمْ وَاخْتِلَافَ أَحْوَالِهِمْ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ . وَكَذَا  
حَالُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّخِذُ الْقُصُورَ وَالْمِصَانِعَ الْعَظِيمَةَ السَّاحَةِ  
الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى عِدَّةِ الدُّورِ وَالْبُيُوتِ وَالْغُرَفِ الْكَبِيرَةِ لِكَثْرَةِ وُلْدِهِ وَحَشْمِهِ وَعِيَالِهِ  
وَتَأْيِيعِهِ وَيُؤَسِّسُ جُدْرَانَهَا بِالْحِجَارَةِ وَيَلْحَمُ بَيْنَهَا بِالْكَلْسِ وَيُعَالِي عَلَيْهَا بِالْأَصْبَغَةِ  
وَالْحِصِّ وَيَبَالِغُ فِي كُلِّ ذَلِكَ بِالتَّنْجِيدِ وَالتَّنْمِيقِ إِظْهَارًا لِلْبَسْطَةِ بِالْعِنَايَةِ فِي شَأْنِ

(١) وفي النسخة الباريسية : « لا بد له أن يفكر في موانع اذابة الحر والبرد عنه باتخاذ البيوت ذوات

الحيطان والسقف المائلة دونه من جهاتها » .

(٢) وفي نسخة أخرى : « والبشر مختلفون في هذه الجبلية الفكرية التي هي معنى الإنسانية . فالملقيون

فيها . ولو على التفاوت . يتخذون ذلك باعتدال كأهل الإقليم . . . » .

(٣) وفي النسخة الباريسية : « وأما أهل الأول والسابع فيبعدون عن اتخاذ ذلك لانحرافهم وقصور أفكارهم

عن كيفية العمل في الصنائع الإنسانية . فيأوون إلى الغيران والكهوف . كما يتناولون الأغذية من غير علاج ولا  
نضح » .

(٤) وفي نسخة أخرى : ويحشى من طروق . (٥) وفي نسخة أخرى : بإدارة مياح الأسوار التي تحيطهم .

(٦) وفي نسخة أخرى : يحوطهم فيها الحكام بدفاع . . .

(٧) وفي نسخة أخرى : إلى الاعتصام من العدو . . .

الْمَأْوَى . وَيَهَيِّئُ مَعَ ذَلِكَ الْأَسْرَابَ وَالْمَطَامِيرَ لِلَاخْتِرَانِ لِأَقْوَاتِهِ وَالْإِسْطَبْلَاتِ  
لِرَبِطِ مَقَرَّبَاتِهِ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجُنُودِ وَكَثْرَةِ التَّابِعِ وَالْحَاشِيَةِ<sup>(١)</sup> كَالْأَمْرَاءِ وَمَنْ فِي  
مَعْنَاهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْنِي الدُّوَيْرَةَ وَالْبُيُوتَ<sup>(٢)</sup> لِنَفْسِهِ وَسَكْنِهِ وَوَلَدِهِ لَا يَبْتَغِي  
مَا وَرَاءَ ذَلِكَ لِقُصُورِ حَالِهِ عَنْهُ وَاقْتِصَارِهِ عَلَى الْكِنِ<sup>(٣)</sup> الطَّبِيعِيِّ لِلْبَشَرِ وَيَبْنِي ذَلِكَ  
مَرَاتِبَ غَيْرَ مُنْحَصِرَةٍ وَقَدْ يُحْتَاجُ لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَيْضاً عِنْدَ تَأْسِيسِ الْمُلُوكِ وَأَهْلِ  
الدُّوَلِ الْمُدُنِ الْعَظِيمَةِ وَالْهَيَاكِلِ الْمُرْتَفِعَةِ وَيَبَالِغُونَ فِي إِتْقَانِ الْأَوْضَاعِ وَعُلُوِّ الْأَجْرَامِ  
مَعَ الْإِحْكَامِ يَتَبَلَّغُ الصَّنَاعَةُ مَبَالِغَهَا . وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ هِيَ الَّتِي تُحْصَلُ الدَّوَاعِي  
لِذَلِكَ كُلِّهِ وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ مِنَ الرَّابِعِ وَمَا حَوْلَيْهِ  
إِذَا الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرَفَةُ لَا بِنَاءَ فِيهَا . وَإِنَّمَا يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ حِطَائِرَ مِنَ الْقَصَبِ  
وَالطِّينِ أَوْ يَأْوُونَ إِلَى الْكُهُوفِ وَالغَيْرَانِ . وَأَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْقَائِمُونَ عَلَيْهَا  
مُتَفَاوِتُونَ ، فَمِنْهُمْ الْبَصِيرُ الْمَاهِرُ وَمِنْهُمْ الْقَاصِرُ . ثُمَّ هِيَ تَنْتَوِعُ أَنْوَاعاً كَثِيرَةً فَمِنْهَا  
الْبِنَاءُ بِالْحِجَارَةِ الْمُنْجَدَةِ أَوْ بِالْأَجْرِ يُقَامُ بِهَا الْجُدْرَانُ مُلَصِّقاً بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ  
بِالطِّينِ وَالْكِلْسِ الَّذِي يُعْقَدُ مَعَهَا وَيَلْتَحِمُ كَأَنَّهَا جِسْمٌ وَاحِدٌ وَمِنْهَا الْبِنَاءُ بِالتُّرَابِ  
خَاصَّةً تَقَامُ مِنْهُ حِيطَانٌ يَتَّخِذُ لَهَا لَوْحَانٍ مِنَ الْخَشَبِ مُقَدَّرَانِ طَوِلاً وَعَرْضاً  
بِاخْتِلَافِ الْعَادَاتِ فِي التَّقْدِيرِ . وَأَوْسَطُهُ أَرْبَعُ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعَيْنِ فَيُنْصَبَانِ عَلَى أَسَاسٍ  
وَقَدْ يُوعَدُ مَا بَيْنَهُمَا بِمَا يَرَاهُ صَاحِبُ الْبِنَاءِ فِي عَرْضِ الْأَسَاسِ وَيُوصَلُ بَيْنَهُمَا  
بِأَذْرُعٍ مِنَ الْخَشَبِ يُرَبِّطُ عَلَيْهَا بِالْحَبَالِ وَالْجُدْرِ<sup>(٤)</sup> . وَيَسُدُّ الْجِهَتَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ مِنْ  
ذَلِكَ الْخَلَاءِ بَيْنَهُمَا بِلَوْحَيْنِ آخَرَيْنِ صَغِيرَيْنِ ثُمَّ يُوضَعُ فِيهِ التُّرَابُ مُخْلَطاً<sup>(٥)</sup>  
بِالْكِلْسِ وَيُرَكِّزُ بِالْمَرَائِزِ الْمُعَدَّةِ حَتَّى يَنْعَمَ رُكُوزُهُ وَيَخْتَلِطُ أَجْزَاؤُهُ بِالْكِلْسِ ثُمَّ

( ١ ) وفي النسخة الباريسية : والغاشية .

( ٢ ) وفي النسخة الباريسية : والبويت .

( ٣ ) الكن : وقاء كل شيء وستره .

( ٤ ) وفي نسخة أخرى : الجدل .

( ٥ ) وفي نسخة أخرى : مختلطاً .

يَزَادُ التُّرَابَ ثَانِيًا وَثَالِثًا إِلَى أَنْ يَمْتَلِيَهُ ذَلِكَ الْخَلَاءُ بَيْنَ اللُّوْحَيْنِ وَقَدْ تَدَاخَلَتْ  
أَجْزَاءُ الْكِلْسِ وَالتُّرَابِ وَصَارَتْ جِسْمًا وَاحِدًا . ثُمَّ يُعَادُ نَضْبُ اللُّوْحَيْنِ عَلَى صُورَةٍ (١)  
وَيُرَكِّزُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَيَنْظُمَ الْأَلْوَاحُ كُلَّهَا سَطْرًا مِنْ فَوْقِ سَطْرٍ إِلَى أَنْ يَنْتَظِمَ  
الْحَائِطُ كُلُّهُ مُلْتَحِمًا كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى الطَّايِبَةَ وَصَانِعُهُ الطُّوَابُ . وَمِنْ  
صَنَائِعِ الْبِنَاءِ أَيْضًا أَنْ تُجَلَّلَ الْحَيْطَانُ بِالْكِلْسِ بَعْدَ أَنْ يُحَلَّ بِالمَاءِ وَيُخَمَّرُ أَسْبُوعًا  
أَوْ أَسْبُوعَيْنِ عَلَى قَدَرِ مَا يَتَعَدَّلُ مِرَاجُهُ عَنِ إِفْرَاطِ النَّارِيَّةِ الْمُفْسِدَةِ لِللِّحَامِ . فَإِذَا تَمَّ  
لَهُ مَا يَرْضَاهُ مِنْ ذَلِكَ عِلَاقَةً (٢) مِنْ فَوْقِ الْحَائِطِ وَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَلْتَحِمَ . وَمِنْ صَنَائِعِ  
الْبِنَاءِ عَمَلُ السَّقْفِ بِأَنْ يُمَدَّ الخَشْبُ الْمُخَكَّمَةُ النَّجَارَةُ أَوْ السَّادِجَةُ عَلَى حَائِطِي  
الْبَيْتِ وَمِنْ فَوْقِهَا الْأَلْوَاحُ كَذَلِكَ مَوْصُولَةٌ بِالدَّسَائِرِ وَيَصُبُّ عَلَيْهَا التُّرَابُ وَالْكِلْسُ  
وَيَبْسُطُ (٣) بِالْمَرَازِكِ حَتَّى تَتَدَاخَلَ أَجْزَاؤُهَا وَتَلْتَحِمَ وَيُعَالَى عَلَيْهَا الْكِلْسُ كَمَا  
يُعَالَى عَلَى الْحَائِطِ . وَمِنْ صِنَاعَةِ الْبِنَاءِ مَا يَرْجَعُ إِلَى التَّثْمِيقِ وَالتَّزْيِينِ كَمَا يُصْنَعُ  
مِنْ فَوْقِ الْحَيْطَانِ الْأَشْكَالَ الْمُجَسَّمَةَ مِنَ الْجِصِّ يُخَمَّرُ بِالمَاءِ ثُمَّ يَرْجَعُ جَسَدًا (٤)  
وَفِيهِ بَقِيَّةُ اللَّبَلِ ، فَيَشْكُلُ عَلَى التَّنَاسُبِ تَخْرِيمًا بِمِثَاقِ الْحَدِيدِ إِلَى أَنْ يَبْقَى لَهُ  
رَوْنَقٌ وَرَوَاءٌ . وَرُبَّمَا عُولِيَ عَلَى الْحَيْطَانِ أَيْضًا بِقِطْعِ الرِّخَامِ أَوْ الْأَجْرَاءِ أَوْ الْخَزْفِ أَوْ  
بِالصَّدْفِ أَوْ السَّبِجِ يُفْضَلُ أَجْزَاءٌ مُتَجَانِسَةٌ أَوْ مُخْتَلِفَةٌ وَتَوْضَعُ فِي الْكِلْسِ عَلَى نَسَبِ  
وَأَوْضَاعٍ مُقَدَّرَةٍ عِنْدَهُمْ يَبْدُو بِهِ الْحَائِطُ لِلْعِيَانِ ، كَأَنَّهُ قِطْعُ الرِّيَاضِ الْمُتَمَنِّمَةِ . إِلَى  
غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بِنَاءِ الْجِبَابِ وَالصَّهَارِيحِ لِسَفْحِ (٥) المَاءِ بَعْدَ أَنْ تُعَدَّ فِي الْبُيُوتِ قِصَاعُ  
الرِّخَامِ الْقَوْرَاءِ الْمُخَكَّمَةُ الْخَرْطُ بِالقُفُوهَاتِ فِي وَسْطِهَا لِنَبْعِ المَاءِ الْجَارِي إِلَى  
الصَّهْرِيحِ يُجَلِّبُ إِلَيْهِ مِنْ خَارِجِ الْقَنَوَاتِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْبُيُوتِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ  
الْبِنَاءِ . وَتَخْتَلِفُ الصَّنَاعُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْحَذَقِ وَالبَصْرِ وَيَعْظُمُ عَمْرَانُ

(١) وفي نسخة أخرى ، على الصورة الأولى .

(٢) وفي نسخة أخرى ، علاه .

(٣) وفي نسخة أخرى ، ويبلط .

(٤) وفي النسخة الباريسية : ثم يرفع مجدداً .

(٥) وفي نسخة أخرى ، لسبح .

يظهر أن هناك سقط بعد هذه الورقة مما قد  
ورد في النسخة السابقة ١٧٧ ص



الْمَدِينَةَ وَيَتَسَّعُ فَيَكْثُرُونَ . وَرُبَّمَا يَرْجِعُ الْحُكَّامُ إِلَى نَظَرِهِ هَؤُلَاءِ فَيَمَّا هُمْ أَبْصَرُ بِهِ  
 مِنْ أَحْوَالِ الْبِنَاءِ . وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ فِي الْمُدُنِ لِكَثْرَةِ <sup>(١)</sup> الْإِزْدِحَامِ وَالْعُمْرَانِ  
 يَتَشَاوُونَ حَتَّى فِي الْفَضَاءِ وَالْهَوَاءِ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ وَمِنْ الْإِنْتِفَاعِ بِظَاهِرِ الْبِنَاءِ مِمَّا  
 يَتَوَقَّعُ مَعَهُ حُصُولُ الضَّرَرِ فِي الْحَيْطَانِ . فَيَمْنَعُ جَارَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ فِيهِ  
 حَقٌّ . وَيَخْتَلِفُونَ أَيْضًا فِي اسْتِحْقَاقِ الطَّرِيقِ وَالْمَنَافِدِ لِلْمِيَاهِ الْجَارِيَةِ وَالْفَضَلَاتِ  
 الْمُسْرِيَةِ فِي الْقَنَوَاتِ وَرُبَّمَا يَدْعِي بَعْضُهُمْ حَقَّ بَعْضٍ فِي حَائِطِهِ أَوْ عُلُوِّهِ أَوْ قَنَاتِهِ  
 لِتَضَائِقِ الْجَوَارِ أَوْ يَدْعِي بَعْضُهُمْ عَلَى جَارِهِ اخْتِلَالًا <sup>(٢)</sup> حَائِطِهِ خَشِيَةَ سُقُوطِهِ  
 وَيَخْتَاجُ إِلَى الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِهِدْمِهِ وَدَفْعِ ضَرَرِهِ عَنْ جَارِهِ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يَخْتَاجُ إِلَى  
 قِسْمَةِ دَارٍ أَوْ عَرْضَةِ بَيْنَ شَرِيكَيْنِ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ مَعَهَا فَسَادٌ فِي الدَّارِ وَلَا إِهْمَالٌ  
 لِمَنْفَعَتِهَا . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَيَخْفَى جَمِيعُ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْبَصْرِ الْعَارِفِينَ بِالْبِنَاءِ  
 وَأَحْوَالِهِ الْمُسْتَدْلِينَ عَلَيْهَا بِالْمَعَايِدِ وَالْقَمِطِ وَمَرَازِكِ الْخَشَبِ وَمِثْلِ الْحَيْطَانِ  
 وَاعْتِدَالِهَا وَقِسْمِ الْمَسَاكِينِ عَلَى نِسْبَةِ أَوْضَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا وَتَسْرِيْبِ الْمِيَاهِ فِي الْقَنَوَاتِ  
 مَجْلُوبَةً وَمَرْفُوعَةً بِحَيْثُ لَا تَضُرُّ بِمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُيُوتِ وَالْحَيْطَانِ وَغَيْرِ  
 ذَلِكَ . فَلَهُمْ بِهَذَا كُلِّهِ الْبَصَرُ وَالْخُبْرَةُ الَّتِي لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ . وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُونَ  
 بِالْجُودَةِ وَالْقُصُورِ فِي الْأَجْيَالِ بِإِعْتِبَارِ الدَّوَلِ وَقُوَّتِهَا . فَإِنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ  
 وَكَمَالَهَا ، إِنَّمَا هُوَ بِكَمَالِ الْحَضَارَةِ وَكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ الطَّالِبِ لَهَا . فَلِذَلِكَ عِنْدَمَا  
 تَكُونُ الدَّوْلَةُ بَدْوِيَّةً فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَفْتَقِرُ فِي أَمْرِ الْبِنَاءِ إِلَى غَيْرِ قَطْرِهَا . كَمَا وَقَعَ  
 لِلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ أَجْمَعَ عَلَى بِنَاءِ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ وَالْقُدْسِ وَمَسْجِدِهِ  
 بِالشَّامِ . فَبَعَثَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي الْفَعْلَةِ الْمَهْرَةَ فِي الْبِنَاءِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ  
 مِنْهُمْ مَنْ حَصَلَ <sup>(٣)</sup> لَهُ غَرَضُهُ مِنْ تِلْكَ الْمَسَاجِدِ وَقَدْ يَعْرِفُ صَاحِبُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ  
 أَشْيَاءَ مِنَ الْهَنْدَسَةِ مِثْلَ تَسْوِيَةِ الْحَيْطَانِ بِالْوِزْنِ وَإِجْرَاءِ الْمِيَاهِ بِأَخْذِ الْإِرْتِفَاعِ

(١) وفي نسخة أخرى : الكثيرة .

(٢) وفي نسخة أخرى : اعتلال .

(٣) وفي النسخة الباريسية : بمن كمل له غرضه .

وَأَمْثَالِ ذَلِكَ فَيَحْتَاجُ إِلَى الْبَصْرِ بِشَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ . وَكَذَلِكَ فِي جَرِّ الْأَثْقَالِ بِالْهِنْدَامِ فَإِنَّ الْأَجْرَامَ الْعَظِيمَةَ إِذَا شِيدَتْ بِالْحِجَارَةِ الْكَبِيرَةِ يَعْجَزُ قَدْرُ الْفَعْلَةِ عَنْ رَفْعِهَا إِلَى مَكَانِهَا مِنَ الْحَائِطِ فَيَتَحَيَّلُ لِذَلِكَ بِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الْحَبْلِ بِإِدْخَالِهِ فِي الْمَعَالِقِ مِنْ أَثْقَابِ مُقَدَّرَةٍ عَلَى نِسْبِ هِنْدَسِيَّةِ تَصْيِيرِ الثَّقِيلِ عِنْدَ مُعَانَاةِ الرَّفْعِ خَفِيفاً فَيَتِمُّ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ بِغَيْرِ كَلْفَةٍ وَهَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ بِأَصُولِ هِنْدَسِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ مُتَدَاوِلَةٍ بَيْنَ الْبَشَرِ وَبِمِثْلِهَا كَانَ بِنَاءُ الْهَيَْاكِلِ الْمَائِلَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّتِي يُحْسَبُ أَنَّهَا مِنْ بِنَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَأَنَّ أَسْبَابَهُمْ كَانَتْ عَلَى نِسْبَتِهَا فِي الْعَظِيمِ الْجِسْمَانِيِّ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ بِالْحِيلِ الْهِنْدَسِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ . فَتَفَهَّمْ ذَلِكَ . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ .

## الفصل السادس والعشرون

### في صناعة النجارة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الْعُمَرَانِ وَمَادَّتُهَا الْخَشَبُ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ لِلْأَدَمِيِّ فِي كُلِّ مَكُونٍ مِنَ الْمَكُونَاتِ مَنَافِعَ تَكْمُلُ بِهَا ضَرُورَاتُهُ وَكَانَ مِنْهَا الشَّجَرُ فَإِنَّ لَهُ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ مَا لَا يَنْخَصِرُ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ لِكُلِّ أَحَدٍ . وَمِنْ مَنَافِعِهَا اتِّخَاذُهَا خَشْباً إِذَا يَبَسَتْ وَأَوَّلُ مَنَافِعِهَا أَنْ يَكُونَ وَقُوداً لِلنَّيْرَانِ فِي مَعَاشِهِمْ وَعَصِيّاً لِلِاتِّكَاءِ وَالذُّودِ وَغَيْرَهُمَا مِنْ ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَدَعَائِمِ لِمَا يُخْشَى مِثْلَهُ مِنْ أَثْقَالِهِمْ . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَافِعَ أُخْرَى لِأَهْلِ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ فَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ فَيَتَّخِذُونَ مِنْهَا الْعُمْدَ وَالْأَوْتَادَ لِخِيَامِهِمْ وَالْحُدُوجَ لِظَعَائِنِهِمْ وَالرِّمَاحَ وَالْقَسِيَّ وَالسَّهَامَ لِسِلَاحِهِمْ وَأَمَّا أَهْلُ الْحَضَرِ فَالسَّقْفُ لِبُيُوتِهِمْ وَالْأَغْلَاقُ لِأَبْوَابِهِمْ وَالْكَرَاسِيُّ لِجُلُوسِهِمْ . وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ فَالْخَشَبَةُ مَادَّةٌ لَهَا وَلَا تَصِيرُ إِلَى الصُّورَةِ الْخَاصَةِ بِهَا إِلَّا بِالصَّنَاعَةِ . وَالصَّنَاعَةُ الْمُتَكَفِّلَةُ بِذَلِكَ الْمُحْصَلَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ صُورِهَا هِيَ النُّجَارَةُ عَلَى اخْتِلَافِ رَتِبَتِهَا . فَيَحْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلَى تَفْصِيلِ الْخَشَبِ أَوَّلًا ؛ إِمَّا بِخَشَبِ أَضْعَفٍ مِنْهُ أَوْ الْوَجْهِ .

ثُمَّ تَرَكْبُ تِلْكَ الْفَضَائِلُ بِحَسَبِ الصُّورِ الْمَطْلُوبَةِ . وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ يُحَاوَلُ  
 بِصَنْعَتِهِ إِعْدَادَ تِلْكَ الْفَضَائِلِ بِالِانْتِظَامِ إِلَى أَنْ تَصِيرَ أَعْضَاءُ لَدَلِكِ الشَّكْلِ  
 الْمَخْصُوصِ . وَالْقَائِمُ عَلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ هُوَ النَّجَّارُ وَهُوَ ضَرُورِيٌّ فِي الْعُمْرَانِ . ثُمَّ إِذَا  
 عَظُمَتِ الْحِضَارَةُ وَجَاءَ التَّرَفُّ وَتَأَنَّقَ النَّاسُ فِيمَا يَتَّخِذُونَهُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ سَقْفٍ  
 أَوْ بَابٍ أَوْ كُرْسِيٍّ أَوْ مَاعُونٍ ، حَدَثَ التَّائِقُ فِي صِنَاعَةِ ذَلِكَ وَاسْتِجَادَتِهِ بِغَرَائِبِ مِنَ  
 الصَّنَاعَةِ كَمَا لِيَتْ مِنَ الضَّرُورِيِّ فِي شَيْءٍ مِثْلِ التَّخْطِيطِ فِي الْأَبْوَابِ وَالْكَرَاسِيِّ  
 وَمِثْلِ تَهْيِئَةِ الْقَطْعِ مِنَ الْخَشَبِ بِصِنَاعَةِ الْخَرْطِ يُحَكِّمُ بَرِيئًا وَتَشْكِيْلَهَا ثُمَّ تَوْلَفُ  
 عَلَى نِسْبِ مُقَدَّرَةٍ وَتَلْحَمُ بِالدَّسَائِرِ فَتَبْدُو لِرَأْيِ <sup>(١)</sup> الْعَيْنِ مُلْتَحِمَةً وَقَدْ أَخَذَ مِنْهَا  
 اخْتِلَافَ الْأَشْكَالِ عَلَى تَنَاسُبٍ . يُضْنَعُ هَذَا فِي كُلِّ شَيْءٍ يَتَّخَذُ مِنَ الْخَشَبِ فَيَجِيءُ أَنْقَ  
 مَا يَكُونُ . وَكَذَلِكَ فِي جَمِيعِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْآلَاتِ الْمُتَّخَذَةِ مِنَ الْخَشَبِ مِنْ  
 أَيِّ نَوْعٍ كَانَ . وَكَذَلِكَ قَدْ يُحْتَاجُ إِلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي إِنْشَاءِ الْمَرَاقِبِ الْبَحْرِيَّةِ ذَاتِ  
 الْأَلْوَابِ وَالْدُّسْرِ وَهِيَ أَجْرَامٌ هَنْدَسِيَّةٌ صُنِعَتْ عَلَى قَالِبِ الْحَوْتِ وَاعْتِبَارِ سَبْحِهِ فِي  
 الْمَاءِ بِقَوَادِمِهِ وَكُلِّكَلِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ الشَّكْلُ أَعْوَنَ لَهَا فِي مُضَادِمَةِ الْمَاءِ وَجَعَلَ لَهَا  
 عَوْضَ الْحَرَكَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي لِلسَّمَكِ تَحْرِيكَ الرِّيَّاحِ . وَرُبَّمَا أَعِينَتْ بِحَرَكَةِ  
 الْمَقَادِيرِ كَمَا فِي الْأَسَاطِيلِ . وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ أَصْلِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى أَصْلٍ <sup>(٢)</sup> كَبِيرٍ  
 مِنَ الْهَنْدَسَةِ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِهَا لِأَنَّ إِخْرَاجَ الصُّورِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ عَلَى وَجْهِ  
 الْإِحْكَامِ مُحْتَاجٌ إِلَى مَعْرِفَةِ التَّنَاسُبِ فِي الْمَقَادِيرِ إِثْمًا عُمُومًا أَوْ خُصُوصًا وَتَنَاسُبِ  
 الْمَقَادِيرِ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى الْمُهَنْدِسِ . وَلِهَذَا كَانَتْ أُمَّةُ الْهَنْدَسَةِ الْيُونَانِيُّونَ  
 كُلُّهُمْ أُمَّةٌ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَكَانَ أَوْقَلِيدُوسُ صَاحِبُ كِتَابِ الْأَصُولِ فِي الْهَنْدَسَةِ  
 نَجَّارًا وَبِهَا كَانَ يُعْرَفُ . وَكَذَلِكَ أَبُلُونِيوسُ صَاحِبُ كِتَابِ الْمَخْرُوطَاتِ وَمِيلَاوُشُ  
 وَغَيْرُهُمْ . وَفِيمَا يُقَالُ : أَنَّ مَعْلَمَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي الْخَلِيقَةِ هُوَ نَوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِهَا  
 أَنْشَأَ سَفِينَةَ النِّجَاحِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا مُعْجَزَتُهُ عِنْدَ الطُّوفَانِ . وَهَذَا الْخَبْرُ وَإِنْ كَانَ

(١) وفي نسخة أخرى ، بالدساتر فتبدو لمراى .

(٢) وفي نسخة أخرى ، جزء .

مُمْكِنًا أَعْنِي كَوْنَهُ نَجَارًا إِلَّا أَنْ كَوْنَهُ أَوَّلَ مَنْ عَلَّمَهَا أَوْ تَعَلَّمَهَا لَا يَقُومُ دَلِيلٌ مِنْ  
النَّقْلِ عَلَيْهِ لِبَعْدِ الْأَمَادِ . وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ الْإِشَارَةَ إِلَى قَدَمِ النَّجَارَةِ لِأَنَّهُ لَمْ  
يَصِحَّ حِكَايَةُ عَنْهَا قَبْلَ خَبَرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجَعَلَ كَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَعَلَّمَهَا . فَتَمَّهْمُ  
أَسْرَارِ الصَّنَائِعِ فِي الْخَلِيقَةِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

## الفصل السابع والعشرون

### في صناعة الحياكة والخياطة

إِعْلَمُ أَنَّ الْمُعْتَدِلِينَ مِنَ الْبَشَرِ فِي مَعْنَى الْإِنْسَانِيَّةِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الْفِكْرِ فِي الدَّفءِ  
كَالْفِكْرِ فِي الْكِنِّ . وَيَحْصُلُ الدَّفءُ بِاشْتِمَالِ الْمَنْسُوجِ لِلْوَقَايَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ . وَلَا  
بُدَّ لِذَلِكَ مِنَ الْإِحَامِ الْغَزْلِ حَتَّى يَصِيرَ ثَوْبًا وَاحِدًا ، وَهُوَ النَّسُجُ وَالْحِيَاكَةُ . فَإِنْ  
كَانُوا بِإِدْيَةٍ اقْتَصَرُوا عَلَيْهِ ، وَإِنْ قَالُوا إِلَى الْحِضَارَةِ فَصَلُّوا تِلْكَ الْمَنْسُوجَةَ قِطْعًا  
يُقَدَّرُونَ مِنْهَا ثَوْبًا عَلَى الْبَدَنِ بِشَكْلِهِ وَتَعَدُّدِ أَعْضَائِهِ وَاخْتِلَافِ نَوَاحِيهَا . ثُمَّ  
يَلْتَمُونَ بَيْنَ تِلْكَ الْقِطَعِ بِالْوَصَائِلِ حَتَّى تَصِيرَ ثَوْبًا وَاحِدًا عَلَى الْبَدَنِ وَيَلْبَسُونَهَا .  
وَالصَّنَاعَةُ الْمُحْصَلَةُ لِهَذِهِ الْمَلَاءَمَةِ هِيَ الْحِيَاطَةُ .

هَاتَانِ الصَّنَاعَتَانِ ضَرُورِيَّتَانِ فِي الْعُمُرَانِ لِمَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ مِنَ الرَّفْعِ<sup>(١)</sup>  
فَالأولى لِنَسْجِ الْغَزْلِ مِنَ الصُّوفِ وَالْكَتَّانِ وَالْقَطَنِ إِسْدَاءً فِي الطُّولِ وَالْحَامَاً فِي  
الْعَرْضِ وَإِحْكَامًا لِذَلِكَ النَّسْجِ بِالِالْتِحَامِ الشَّدِيدِ ، فَيَتِمُّ مِنْهَا قِطْعٌ مُقَدَّرَةٌ ، فَمِنْهَا  
الْأَكْسِيَّةُ مِنَ الصُّوفِ لِلِاشْتِمَالِ ، وَمِنْهَا الثِّيَابُ مِنَ الْقَطَنِ وَالْكَتَّانِ لِلْبَاسِ .  
وَالصَّنَاعَةُ الثَّانِيَّةُ لِتَقْدِيرِ الْمَنْسُوجَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَشْكَالِ وَالْعَوَائِدِ ، تَفْضُلُ  
بِالْمِقْرَاضِ قِطْعًا مُنَاسِبَةً لِلْأَعْضَاءِ الْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ تَلْحَمُ تِلْكَ الْقِطْعُ بِالْحِيَاطَةِ الْمُحْكَمَةِ  
وَضَلَا أَوْ تَنْبِيئًا أَوْ تَفْسُحًا<sup>(٢)</sup> عَلَى حَسَبِ نَوْعِ الصَّنَاعَةِ . وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ مُخْتَصَّةٌ

(١) وفي النسخة الباريسية : من الدَّفءِ .

(٢) وفي نسخة أخرى : أَوْ تَفْتِيحًا .

بِالْعُمْرَانِ الْحَضْرِيِّ لِمَا أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ يَسْتَعْنُونَ عَنْهَا وَإِنَّمَا يَسْتَمْلُونَ الْأَثْوَابَ  
 اشْتِمَالًا . وَإِنَّمَا تَفْصِيلُ الثِّيَابِ وَتَقْدِيرُهَا وَالْحَامِهَا بِالْخِيَاطَةِ لِلْبَاسِ مِنْ مَذَاهِبِ  
 الْحَضَارَةِ وَفُنُونِهَا . وَتَفَهُمُ هَذِهِ فِي سِرِّ تَحْرِيمِ الْمَخِيطِ فِي الْحَجِّ لِمَا أَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ الْحَجِّ  
 مُشْتَمِلَةٌ عَلَى نَبَذِ الْعَلَائِقِ الدُّنْيَوِيَّةِ كُلِّهَا وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى « كَمَا خَلَقْنَا أَوَّلَ  
 مَرَّةٍ ، حَتَّى لَا يَعْلُقَ الْعَبْدُ قَلْبَهُ بِشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِ تَرْفِهِ ، لَا طَيِّبًا وَلَا نِسَاءً وَلَا  
 مَخِيطًا وَلَا خُفًّا ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لِصَيْدٍ وَلَا لِشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِهِ الَّتِي تَلَوَّنَتْ <sup>(١)</sup> بِهَا نَفْسُهُ  
 وَخَلَقَهُ ، مَعَ أَنَّهُ يُفْقِدُهَا بِالمَوْتِ ضَرُورَةً . وَإِنَّمَا يَجِيءُ كَأَنَّهُ وَارِدٌ إِلَى الْمَحْشَرِ  
 ضَارِعًا بِقَلْبِهِ مُخْلِصًا لِرَبِّهِ . وَكَانَ جَزَاؤُهُ إِنْ تَمَّ لَهُ إِخْلَاصُهُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ  
 ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ . سُبْحَانَكَ مَا أَرْفَقَكَ بِعِبَادِكَ وَأَرْحَمَكَ بِهِمْ فِي طَلَبِ  
 هِدَايَتِهِمْ إِلَيْكَ . وَهَاتَانِ الصُّنْعَتَانِ قَدِيمَتَانِ فِي الْخَلِيقَةِ لِمَا أَنَّ الدَّفْعَ ضَرُورِيَّ  
 لِلْبَشْرِ فِي الْعُمْرَانِ الْمُتَعَدِّلِ . وَأَمَّا الْمُنْحَرَفُ إِلَى الْحَرِّ فَلَا يَحْتَاجُ أَهْلُهُ إِلَى دِفْعَةٍ .  
 وَلِهَذَا يَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنَ السُّودَانِ أَنَّهُمْ عُرَاةٌ فِي الْغَالِبِ . وَلَقَدْ مِمَّا هَذِهِ  
 الصَّنَائِعُ يَنْسِبُهَا الْعَامَّةُ إِلَى إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ أَقْدَمُ الْأَنْبِيَاءِ . وَرُبَّمَا يَنْسِبُونَهَا  
 إِلَى هَرْمِسَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هَرْمِسَ هُوَ إِدْرِيسُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْخَلَّاقُ  
 الْعَلِيمُ .

## الفصل الثامن والعشرون

### في صناعة التوليد

وَهِيَ صِنَاعَةٌ يُعْرَفُ بِهَا الْعَمَلُ فِي اسْتِخْرَاجِ المَوَلُودِ الِادْمِيِّ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ مِنْ  
 الرِّفْقِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنْ رَحِمِهَا وَتَهْيِئَةِ سَبَابِ ذَلِكَ . ثُمَّ مَا يُضْلِحُهُ بَعْدَ الخُرُوجِ عَلَى  
 مَا نَذَكُرُ . وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِالنِّسَاءِ فِي غَالِبِ الْأُمُرِ لِمَا أَنَّهِنَّ الظَّاهِرَاتُ بَعْضُهُنَّ عَلَى  
 عَوْرَاتٍ بَعْضٌ . وَتُسَمَّى الْقَائِمَةُ عَلَى ذَلِكَ مِنْهِنَّ الْقَابِلَةُ . اسْتَعْمِرَ فِيهَا مَعْنَى الْإِعْطَاءِ

(١) وفي نسخة أخرى : تكونت .

وَالْقُبُولِ كَأَنَّ النُّفْسَاءَ تُعْطِيهَا الْجَنِينَ وَكَأَنَّهَا تَقْبَلُهُ . وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنِينَ إِذَا اسْتَكْمَلَ خَلْقَهُ فِي الرَّحِمِ وَأَطْوَارَهُ وَبَلَغَ إِلَى غَايَتِهِ وَالْمُدَّةُ الَّتِي قَدَّرَهَا اللَّهُ لِمَكْتَبِهِ هِيَ تِسْعَةٌ أَشْهُرٍ فِي الْغَالِبِ فَيَطْلُبُ الْخُرُوجَ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي الْمَوْلُودِ مِنَ النُّزُوعِ لِذَلِكَ وَيَضِيقُ عَلَيْهِ الْمَنْفَذُ فَيَعْسُرُ . وَرُبَّمَا مَزَقَ بَعْضُ جَوَانِبِ الْفَرْجِ بِالضَّغْطِ وَرُبَّمَا انْقَطَعَ بَعْضُ مَا كَانَ مِنَ الْأَعْشِيَةِ مِنَ الْإِلْتِصَاقِ وَالِإِلْتِحَامِ بِالرَّحِمِ . وَهَذِهِ كُلُّهَا آيَةٌ يَشْتَدُّ لَهَا الْوَجَعُ وَهُوَ مَعْنَى الطَّلُقِ فَتَكُونُ الْقَابِلَةُ مُعِينَةً فِي ذَلِكَ تُبْعَضُ الشَّيْءَ بِغَمْزِ الظُّهْرِ وَالْوَرَكَيْنِ وَمَا يُحَاذِي الرَّحِمَ مِنَ الْأَسْفَلِ تَسَاقِقُ بِذَلِكَ فِعْلَ الدَّفَاعَةِ فِي إِخْرَاجِ الْجَنِينَ وَتَسْهِيلِ مَا يَصْعُبُ مِنْهُ بِمَا يُمَكِّنُهَا وَعَلَى مَا تَهْتَدِي إِلَى مَعْرِفَةِ عُسْرَةِ . ثُمَّ إِنْ أَخْرَجَ الْجَنِينَ بَقِيَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّحِمِ الْوَصْلَةُ حَيْثُ كَانَ يَتَعَدَّى مِنْهَا مُتَّصِلَةً مِنْ سُرْتِهِ بِمَعَاهُ . وَتِلْكَ الْوَصْلَةُ عَضْوٌ فَضِلِّي لِتَغْذِيَةِ الْمَوْلُودِ خَاصَّةً فَتَقْطَعُهَا الْقَابِلَةُ مِنْ حَيْثُ لَا تَتَعَدَّى مَكَانَ الْفَضْلَةِ وَلَا تُضِرُّ بِمَعَاهُ وَلَا يَرْحِمُ أُمَّهُ ثُمَّ تَدْمِلُ مَكَانَ الْجِرَاحَةِ مِنْهُ بِالْكَيْيِ أَوْ بِمَا تَرَاهُ مِنْ وَجْهِهِ الْإِنْدِمَالِ . ثُمَّ إِنْ الْجَنِينَ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْفَذِ الضِّيقِ وَهُوَ رَطْبُ الْعِظَامِ سَهْلُ الْإِنْعِطَافِ وَالِإِنْشَاءِ فَرُبَّمَا تَتَغَيَّرُ أَشْكَالُ أَعْضَائِهِ وَأَوْضَاعُهَا لِقُرْبِ التَّكْوِينِ وَرَطُوبَةِ الْمَوَادِّ فَتَتَنَاوَلُهُ الْقَابِلَةُ بِالْغَمْزِ وَالِإِضْلَاحِ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَضْوٍ إِلَى شَكْلِهِ الطَّبِيعِيِّ وَوَضِعِهِ الْمُقَدَّرَ لَهُ وَيَرْتَدُّ خَلْقَهُ سَوِيًّا . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُرَاجِعُ النُّفْسَاءَ وَتُحَاذِيهَا بِالْغَمْزِ وَالْمَلَايِنَةَ لِخُرُوجِ أَعْشِيَةِ الْجَنِينَ لِأَنَّهَا رُبَّمَا تَتَأَخَّرُ عَنْ خُرُوجِهِ قَلِيلًا . وَيُخْشَى عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ تُرَاجِعَ الْمَاسِكَةَ حَالَهَا الطَّبِيعِيَّةَ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ خُرُوجِ الْأَعْشِيَةِ وَهِيَ فَضَلَاتٌ فَتَتَعَفَّنُ وَيَسْرِي عَفْنُهَا إِلَى الرَّحِمِ فَيَقَعُ الْهَلَاكُ فَتُحَاذِرُ الْقَابِلَةَ هَذَا وَتُحَاوِلُ فِي إِعَانَةِ الدَّفْعِ إِلَى أَنْ تَخْرُجَ تِلْكَ الْأَعْشِيَةُ الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَأَخَّرَتْ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى الْمَوْلُودِ فَتَمْرُخُ<sup>(١)</sup> أَعْضَاءَهُ بِالْأَذْهَانِ وَالذَّرُورَاتِ<sup>(٢)</sup> الْقَابِضَةَ لِتَشُدَّهُ وَتَجْفَفَ رُطُوبَاتِ الرَّحِمِ وَتُحَنِّكَه لِرَفْعِ لَهَايِهِ وَتَسْبِعُطَهُ لِاسْتِفْرَاقِ نُطُوفِ دِمَاعِهِ وَتَفْرَعْرَعُهُ بِاللُّعُوقِ لِدَفْعِ السُّدِّدِ مِنْ مَعَاهُ وَتَجْوِيفِهَا عَنِ

(١) تمرخ : تدهن ( قاموس ) .

(٢) الذرورات : ج اذرة وهو ما يذر في العين أو الجرح من دواء .

الِإِتِّصَاقِ . ثُمَّ تُدَاوِي النُّفْسَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْوَهْنِ الَّذِي أَصَابَهَا بِالطَّلُوقِ وَمَا لِحِقِ  
رَحِمَهَا مِنَ أَلَمِ الْإِنْفِصَالِ ، إِذَ الْمَوْلُودُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عُضْوًا طَبِيعِيًّا فَحَالَةُ التَّكْوِينِ فِي  
الرَّحِمِ صَيْرَتْهُ بِالِإِتِّخَامِ كَالْعُضْوِ الْمُتَّصِلِ فَلِذَلِكَ كَانَ فِي أَنْفِصَالِهِ أَلَمٌ يَقْرُبُ مِنَ أَلَمِ  
الْقَطْعِ . وَتُدَاوِي مَعَ ذَلِكَ مَا يَلْحَقُ الْفَرْجَ مِنَ أَلَمٍ مِنْ جِرَاحَةِ التَّمْزِيقِ عِنْدَ الضُّغْطِ  
فِي الْخُرُوجِ . وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدْوَاءٌ نَجِدُ هَؤُلَاءِ الْقَوَائِلَ أَبْصَرَ بِدَوَائِهَا . وَكَذَلِكَ  
مَا يَعْرِضُ لِلْمَوْلُودِ مَدَّةَ الرُّضَاعِ مِنْ أَدْوَاءٍ فِي بَدَنِهِ إِلَى حِينِ الْفِصَالِ نَجِدُهُنَّ أَبْصَرَ  
بِهَا مِنَ الطَّبِيبِ الْمَاهِرِ . وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِنَّمَا هُوَ بَدَنُ  
إِنْسَانِيٍّ بِالْقُوَّةِ فَقَطْ . فَإِذَا جَاوَزَ الْفِصَالِ صَارَ بَدَنًا إِنْسَانِيًّا بِالْفِعْلِ فَكَانَتْ حَاجَتُهُ  
حِينَئِذٍ إِلَى الطَّبِيبِ أَشَدَّ . فَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ كَمَا تَرَاهُ ضَرُورِيَّةً فِي الْعُمْرَانِ لِلنُّوعِ  
الْإِنْسَانِيِّ ، لَا يَتِمُّ كَوْنُ أَشْخَاصِهِ فِي الْعَالِبِ دُونَهَا . وَقَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِ أَشْخَاصِ  
النُّوعِ الْإِسْتِغْنَاءُ عَنِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، إِمَّا بِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ لَهُمْ مُعْجِزَةً وَخَرَقًا لِلْعَادَةِ  
كَمَا فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَوْ بِالْهَامِ وَهَدَايَةِ يُلْهِمُ لَهَا الْمَوْلُودَ  
وَيُفْطِرُ عَلَيْهَا فَيَتِمُّ وَجُودُهُمْ مِنْ دُونِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ . فَأَمَّا شَأْنُ الْمُعْجِزَةِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ  
وَقَعَ كَثِيرًا . وَمِنْهُ مَا رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وُلِدَ مَسْرُورًا مَخْتُونًا وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى  
الْأَرْضِ شَاخِصًا بَبْصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ . وَكَذَلِكَ شَأْنُ عِيسَى فِي الْمَهْدِ وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَأَمَّا  
شَأْنُ الْإِلْهَامِ فَلَا يُنْكَرُ . وَإِذَا كَانَتْ الْحَيَوَانَاتُ الْعُجْمُ تُخْتَصُّ بِغَرَائِبِ الْإِلْهَامَاتِ  
كَالنَّخْلِ وَغَيْرِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِالْإِنْسَانِ الْمُفْضَلِ عَلَيْهَا . وَخُصُوصًا بِمَنْ اخْتَصَّ  
بِكِرَامَةِ اللَّهِ . ثُمَّ الْإِلْهَامُ الْعَامُّ لِلْمَوْلُودِينَ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى الشَّدِيِّ أَوْضَحُ شَاهِدٍ عَلَى  
وُجُودِ الْإِلْهَامِ الْعَامِّ لَهُمْ . فَشَأْنُ الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ . وَمِنْ هُنَا  
يُفْهَمُ بَطْلَانُ رَأْيِ الْفَارَابِيِّ وَحُكْمَاءِ الْأَنْدَلُسِ فِيمَا اخْتَجُّوا بِهِ لِعَدَمِ انْقِرَاضِ الْأَنْوَاعِ  
وَاسْتِحَالَةِ انْقِطَاعِ الْمَكُونَاتِ . وَخُصُوصًا فِي النُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَقَالُوا : لَوْ انْقَطَعَتْ  
أَشْخَاصُهُ لَاسْتَحَالَ وَجُودُهَا بَعْدَ ذَلِكَ لِتَوَقُّفِهِ عَلَى وُجُودِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الَّتِي لَا يَتِمُّ  
كَوْنُ الْإِنْسَانِ إِلَّا بِهَا . إِذْ لَوْ قَدَّرْنَا مَوْلُودًا دُونَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكَفَّالَتِهَا إِلَى حِينِ

الفصل<sup>(١)</sup> لم يتم بقاؤه أضلاً . ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لأنها ثمرته وتابعة له . وتكلف ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته إياه وذهايه إلى إمكان انقطاع الأنواع وخراب عالم التكوين ثم عوده ثانياً لاقتضاءات فلكيئة وأوضاع غريبة تندر في الأحقاب بزعمه فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه إنساناً ثم يقيض له حيوان يخلق فيه إلهاماً لتربيته والحنو عليه إلى أن يتم وجوده وفصاله . وأطنب في بيان ذلك في الرسالة التي سماها رسالة حي بن يقظان . وهذا الاستدلال غير صحيح وإن كنا نوافق على انقطاع الأنواع لكن من غير ما استدلل به . فإن دليله مبني على إسناد الأفعال إلى العلة الموجبة . ودليل القول بالفاعل المختار يرد عليه ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الأفعال والقدرة القديمة ولا حاجة إلى هذا التكلف . ثم لو سلمناه جدلاً فغاية ما ينبني عليه اطراء وجود هذا الشخص بخلق الإلهام لترتيبه في الحيوان الأعجم . وما الضرورة الداعية لذلك ؟ وإذا كان الإلهام يخلق في الحيوان الأعجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه أولاً . وخلق الإلهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره فكلا المذهبين شاهدان على أنفسهما بالبطلان في مناحيهما لما قررته لك والله تعالى أعلم .

## الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وانها محتاج إليها في الحواضر

والأمصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمصار لما عرف من فائدتها فإن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم . وأعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية كما قال عليه السلام في الحديث الجامع للطب وهو قوله : « المعدة بيت الداء والحمية

(١) وفي النسخة الباريسية : الانفصال .



رَأْسُ الدَّوَاءِ وَأَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبَرْدَةُ « فَأَمَّا قَوْلُهُ الْمَعِدَةُ بَيَّتَ الدَّاءَ فَهُوَ ظَاهِرٌ وَأَمَّا قَوْلُهُ الْحَمِيَّةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ فَالْحَمِيَّةُ الْجُوعُ وَهُوَ الْإِحْتِمَاءُ مِنَ الطَّعَامِ . وَالْمَعْنَى أَنَّ الْجُوعَ هُوَ الدَّوَاءُ الْعَظِيمُ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْأَدْوِيَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُ أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبَرْدَةُ <sup>(١)</sup> » فَمَعْنَى الْبَرْدَةِ إِدْخَالُ الطَّعَامِ عَلَى الطَّعَامِ فِي الْمَعِدَةِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ هَضْمُ الْأَوَّلِ . وَشَرَحَ هَذَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَحَفِظَ حَيَاتَهُ بِالْغِذَاءِ يَسْتَعْمِلُهُ بِالْأَكْلِ وَيُنْفِذُ فِيهِ الْقُوَى الْهَاضِمَةَ وَالغَازِيَةَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ دَمًا مَلَأَمًا لِأَجْزَاءِ الْبَدَنِ مِنَ اللَّحْمِ وَالْعَظْمِ ، ثُمَّ تَأْخُذُهُ النَّامِيَّةُ فَيَنْقَلِبُ لَحْمًا وَعَظْمًا . وَمَعْنَى الْهَضْمِ طَبْخُ الْغِذَاءِ بِالْحَرَارَةِ الْغَرِيْزِيَّةِ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ حَتَّى يَصِيرَ جُزْءًا بِالْفِعْلِ مِنَ الْبَدَنِ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ الْغِذَاءَ إِذَا حَصَلَ فِي الْفَمِ وَلَا كُنْتَهُ الْأَشْدَاقُ أَثَرَتْ فِيهِ حَرَارَةُ الْفَمِ طَبْخًا يَسِيرًا وَقَلَبَتْ مِزَاجَهُ بَعْضَ الشَّيْءِ ، كَمَا تَرَاهُ فِي اللَّقْمَةِ إِذَا تَنَاوَلْتَهَا طَعَامًا ثُمَّ أَجَدْتَهَا مَضْغًا فَتَرَى مِزَاجَهَا غَيْرَ مِزَاجِ الطَّعَامِ ثُمَّ يَخْصُلُ فِي الْمَعِدَةِ فَتَطْبُخُهُ حَرَارَةُ الْمَعِدَةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ كَيْمُوسًا وَهُوَ صَفْوُ ذَلِكَ الْمَطْبُوخِ وَتُرْسَلُهُ إِلَى الْكَبِدِ وَتُرْسَلُ مَا رَسَبَ مِنْهُ فِي الْمَعَى ثَقُلًا يَنْفِذُ إِلَى الْمَخْرَجَيْنِ . ثُمَّ تَطْبُخُ حَرَارَةُ الْكَبِدِ ذَلِكَ الْكَيْمُوسَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ دَمًا عَيْطًا <sup>(٢)</sup> وَتَطْفُو عَلَيْهِ رَغْوَةٌ مِنَ الطَّبْخِ هِيَ الصُّفْرَاءُ . وَتُرْسَبُ مِنْهُ أَجْزَاءٌ يَابِسَةٌ هِيَ السُّوْدَاءُ وَيَقْصُرُ الْحَارُّ الْغَرِيْزِيُّ بَعْضَ الشَّيْءِ عَنِ طَبْخِ الْغَلِيْظِ مِنْهُ فَهُوَ الْبَلْغَمُ . ثُمَّ تُرْسَلُهَا الْكَبِدُ كُلِّهَا فِي الْعُرُوقِ وَالْجَدَاوِلِ ، وَيَأْخُذُهَا طَبْخُ الْحَالِ <sup>(٣)</sup> الْغَرِيْزِيُّ هُنَاكَ فَيَكُونُ عَنِ الدَّمِ الْخَالِصِ بَخَارٌ حَارٌّ رَطْبٌ يُمِدُّ الرُّوحَ الْحَيَوَانِيَّ وَتَأْخُذُ النَّامِيَّةُ مَا خَذَهَا فِي الدَّمِ فَيَكُونُ لَحْمًا ثُمَّ غَلِيْظُهُ عِظَامًا . ثُمَّ يُرْسَلُ الْبَدَنُ مَا يَفْضَلُ عَنْ حَاجَاتِهِ مِنْ ذَلِكَ فَضَلَاتٍ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ الْعَرَقِ وَاللَّعَابِ وَالْمَخَاطِ وَالذَّمَعِ . هَذِهِ صُورَةُ الْغِذَاءِ وَخُرُوجِهِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ لَحْمًا . ثُمَّ إِنَّ أَصْلَ الْأَمْرَاضِ وَمُعْظَمَهَا هِيَ الْحَمِيَّاتُ . وَسَبَبُهَا أَنَّ الْحَارَّ الْغَرِيْزِيَّ قَدْ يَضْعُفُ عَنْ تَمَامِ <sup>(٤)</sup> النَّضْجِ فِي طَبْخِهِ فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ

( ٢ ) الخالص الطري ( قاموس ) .

( ١ ) النخمة .

( ٣ ) وفي نسخة أخرى : الحار .

( ٤ ) وفي نسخة أخرى : إتمام .

هذه ، فيبقى ذلك الغذاء دون نضج ، وسببه غالباً كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزي أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الأزل فيستقل<sup>(١)</sup> به الحار الغريزي ويترك الأول بحالة أو يتوزع عليهما فيقصُر عن تمام الطبخ والنضج . وترسله المعدة كذلك إلى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد أيضاً على إنضاجه . ورُبما بقي في الكبد من الغذاء الأول فضلة غير ناضجة . وترسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير ناضج كما هو . فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدَّمع واللَّعاب إن اقتدر على ذلك . ورُبما يعجز عن الكثير منه فيبقى في العروق والكبد والمعدة وتتزايد مع الأيام . وكل ذي رطوبة من الممتزجات إذا لم يأخذه الطبخ والنضج يعفن فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط . وكل متعفن فيه حرارة غريبة وتلك هي المسماة في بدن الإنسان بالحُمى . واختبر<sup>(٢)</sup> ذلك بالطعام إذا ترك حتى يتعفن وفي الزبل إذا تعفن أيضاً ، كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها . فهذا معنى الحميات في الأبدان وهي رأس الأمراض وأصلها كما وقع في الحديث . وهذه الحميات علاجها<sup>(٣)</sup> يقطع الغذاء عن المريض أسابيح معلومة ثم يتناول<sup>(٤)</sup> الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه . وذلك في حال الصحة له علاج في التحفظ من هذا المرض وغيره وأصله كما وقع في الحديث وقد يكون ذلك العفن في عضو مخصوص ، فيتولد عنه مرض في ذلك العضو ويحدث جراحات في البدن ، إما في الأعضاء الرئيسية أو في غيرها . وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له . هذه كلها جماع الأمراض ، وأصلها في الغالب من الأغذية وهذا كله مرفوع إلى الطبيب . ووقوع هذه الأمراض في أهل الحضر والأمصار أكثر ، ليخضب عيشتهم وكثرة ماكلهم وقلّة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية وعدم توقّيتهم

(٢) وفي نسخة أخرى : واعتبر .

(١) وفي نسخة أخرى : فيشتغل .

(٣) وفي نسخة أخرى : علاجات .

(٤) وفي نسخة أخرى : ثم تناوله .

لِتَنَاوِلَهَا . وَكَثِيرًا مَا يَخْلَطُونَ بِالْأَغْذِيَّةِ مِنَ التَّوَابِلِ وَالْبُقُولِ وَالْفَوَاكِهِ ، رَطْبًا  
وَيَابَسًا فِي سَبِيلِ الْعِلَاجِ بِالطَّبِيخِ وَلَا يَقْتَصِرُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى نَوْعٍ أَوْ أَنْوَاعٍ . فَرُبَّمَا  
عَدَّدْنَا فِي الْيَوْمِ <sup>(١)</sup> الْوَاحِدِ مِنَ الْأَوَانِ الطَّبِيخَ أَرْبَعِينَ نَوْعًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ فَيَصِيرُ  
لِلْغَدَاءِ مِزَاجٌ غَرِيبٌ . وَرُبَّمَا يَكُونُ غَرِيبًا <sup>(٢)</sup> عَنْ مَلَأَمَةِ الْبَدَنِ وَأَجْزَائِهِ . ثُمَّ إِنَّ  
الْأَهْوِيَّةَ فِي الْأَمْصَارِ تَفْسُدُ بِمُخَالَطَةِ الْأَبْحَرَةِ الْعَفِنَةِ مِنْ كَثْرَةِ الْفَضَلَاتِ . وَالْأَهْوِيَّةُ  
مُنْشِطَةٌ لِلْأَرْوَاحِ وَمُقَوِّيةٌ بِنَشَاطِهَا الْأَثْرَ الْحَارَّ الْغَرِيزِيَّ فِي الْهَضْمِ . ثُمَّ الرِّيَاضَةُ  
مَفْقُودَةٌ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ إِذْ هُمْ فِي الْغَالِبِ وَادْعُونَ سَاكِنُونَ لَا تَأْخُذُ مِنْهُمْ الرِّيَاضَةُ  
شَيْئًا وَلَا تَوَثُرُ فِيهِمْ أَثْرًا ، فَكَانَ وَقُوعُ الْأَمْرَاضِ كَثِيرًا فِي الْمَدِينِ وَالْأَمْصَارِ وَعَلَى قَدَرِ  
وَقُوعِهِ كَانَتْ حَاجَتُهُمْ إِلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ . وَأَمَّا أَهْلُ الْبَدْوِ فَمَا كَوَّلَهُمْ قَلِيلٌ فِي الْغَالِبِ  
وَالْجُوعُ أَغْلَبُ عَلَيْهِمْ لِقَلَّةِ الْحُبُوبِ حَتَّى صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ عَادَةً . وَرُبَّمَا يُظَنُّ أَنَّهَا جَبِلَةٌ  
لِاسْتِمْرَارِهَا . ثُمَّ الْأَدَمُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِمْ أَوْ مَفْقُودَةٌ بِالْجُمْلَةِ . وَعِلَاجُ الطَّبِيخِ بِالتَّوَابِلِ  
وَالْفَوَاكِهِ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَى تَرْفِ الْحِصَارَةِ الَّذِينَ هُمْ بِمَعْزَلٍ عَنْهُ فَيَتَنَاوَلُونَ أَغْذِيَّتَهُمْ  
بَسِيطَةً بَعِيدَةً عَمَّا يُخَالِطُهَا وَيُقَرِّبُ مِزَاجَهَا مِنْ مَلَأَمَةِ الْبَدَنِ . وَأَمَّا أَهْوِيَّتَهُمْ  
فَقَلِيلَةُ الْعَفْنِ لِقَلَّةِ الرُّطُوبَاتِ وَالْعَفُونَاتِ إِنْ كَانُوا أَهْلِينَ ، أَوْ لِاخْتِلَافِ الْأَهْوِيَّةِ إِنْ  
كَانُوا ظَوَاعِنَ . ثُمَّ إِنْ الرِّيَاضَةُ مَوْجُودَةٌ فِيهِمْ لِكَثْرَةِ الْحَرَكَةِ فِي رَكْضِ الْخَيْلِ أَوْ  
الصَّيْدِ أَوْ طَلَبِ الْحَاجَاتِ لِمَهْنَةِ أَنْفُسِهِمْ فِي حَاجَاتِهِمْ فَيَحْسُنُ بِذَلِكَ كُلُّهُ الْهَضْمُ  
وَيَجُودُ وَيَفْقَدُ إِذْ خَالَ الطَّعَامُ عَلَى الطَّعَامِ فَتَكُونُ أَمْرَجَتُهُمْ أَصْلَحَ وَأَبْعَدَ مِنَ  
الْأَمْرَاضِ فَتَقِلُّ حَاجَتُهُمْ إِلَى الطَّبِّ . وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ الطَّبِيبُ فِي الْبَادِيَةِ بِوَجْهِهِ . وَمَا  
ذَاكَ إِلَّا لِلاِسْتِعْنَاءِ عَنْهُ إِذْ لَوْ اِخْتِيجَ إِلَيْهِ لُوجِدَ ، لِأَنَّهُ يَكُونُ لَهُ بِذَلِكَ فِي الْبَدْوِ مَعَاشٌ  
يَدْعُوهُ إِلَى سُكْنَاهُ « سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » .

(١) وفي نسخة أخرى : اللوث .

(٢) وفي نسخة أخرى : بعيداً .

## الفصل الثالثون

في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية

وَهُوَ رُسُومٌ وَأَشْكَالٌ حَرْفِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى الْكَلِمَاتِ الْمَسْمُوعَةِ الدَّالَّةِ عَلَى مَا فِي النَّفْسِ . فَهُوَ ثَانِي رُتْبَةٍ مِنَ الدَّلَالَةِ اللُّغَوِيَّةِ وَهُوَ صِنَاعَةٌ شَرِيفَةٌ إِذْ الْكِتَابَةُ مِنْ خَوَاصِّ الْإِنْسَانِ الَّتِي يُمَيِّزُ بِهَا عَنِ الْحَيَوَانَ . وَأَيْضًا فِيهَا تَطَّلُعٌ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ وَتَتَأَدَّى بِهَا الْأَغْرَاضُ إِلَى الْبِلَادِ<sup>(١)</sup> الْبَعِيدَةِ فَتَقْضِي الْحَاجَاتِ وَقَدْ دَفَعَتْ مَوْنَةَ الْمُبَاشَرَةِ لَهَا وَيَطَّلُعُ بِهَا عَلَى الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَصَحْفِ الْأَوَّلِينَ وَمَا كَتَبُوهُ مِنْ عُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ فِيهَا شَرِيفَةٌ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ وَالْمَنَافِعِ . وَخُرُوجُهَا فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالتَّعْلِيمِ وَعَلَى قَدْرِ الْإِجْتِمَاعِ وَالْعُمُرَانِ وَالتَّنَاعِي فِي الْكَمَالَاتِ وَالطَّلَبِ لِذَلِكَ تَكُونُ جُودَةُ الْخَطِّ فِي الْمَدِينَةِ إِذْ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ . وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا شَأْنُهَا وَأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِلْعُمُرَانِ وَلِهَذَا نَجِدُ أَكْثَرَ الْبَدُوِّ أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ وَلَا يَقْرَأُونَ وَمَنْ قَرَأَ مِنْهُمْ أَوْ كَتَبَ فَيَكُونُ خَطُّهُ قَاصِرًا أَوْ قِرَاءَتُهُ غَيْرَ نَافِذَةٍ . وَنَجِدُ تَعْلِيمَ الْخَطِّ فِي الْأَمْصَارِ الْخَارِجِ عُمُرَانُهَا عَنِ الْحَدِّ أَبْلَغَ وَأَحْسَنَ وَأَسْهَلَ طَرِيقًا لِاسْتِحْكَامِ الصَّنْعَةِ فِيهَا . كَمَا يُخَكِّي لَنَا عَنْ مِصْرٍ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَنَّ بِهَا مُعَلِّمِينَ مُنْتَصِبِينَ لِتَعْلِيمِ الْخَطِّ يُلْقُونَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ قَوَانِينَ وَأَحْكَامًا فِي وَضْعِ كُلِّ حَرْفٍ وَيَزِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ الْمُبَاشَرَةَ بِتَعْلِيمِ وَضْعِهِ فَتَقْتَضِدُ لَدَيْهِ رُتْبَةُ الْعِلْمِ وَالْحِسِّ فِي التَّعْلِيمِ وَتَأْتِي مَلَكَتُهُ عَلَى أُنْتَمِ الْوُجُوهِ . وَإِنَّمَا أَتَى هَذَا مِنْ كَمَالِ الصَّنَائِعِ وَوُفُورِهَا بِكَثْرَةِ الْعُمُرَانِ وَانْفِصَاحِ الْأَعْمَالِ وَقَدْ كَانَ الْخَطُّ الْعَرَبِيُّ بِالْغَا مَبَالِغَةً مِنَ الْإِحْكَامِ وَالِاتِّقَانِ وَالْجُودَةِ فِي دَوْلَةِ التَّبَايَعَةِ لِمَا بَلَغَتْ مِنَ الْحِصَارَةِ وَالتَّرَفِّ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْخَطِّ الْحِمَيْرِيِّ . وَانْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى الْحِيرَةِ لِمَا كَانَ بِهَا مِنْ دَوْلَةِ آلِ الْمُنْدِيرِ نُسْبَاءَ التَّبَايَعَةِ فِي الْعَصِيَّةِ وَالْمُجَدِّدِينَ لِمُلْكِ الْعَرَبِ بِأَرْضِ الْعِرَاقِ . وَلَمْ يَكُنِ الْخَطُّ

(١) وفي نسخة أخرى : البلد .

عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِجَادَةِ كَمَا كَانَ عِنْدَ التَّبَاعَةِ لِقُصُورِ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ . وَكَانَتْ  
 الْحَضَارَةُ وَتَوَابِعُهَا مِنَ الصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا قَاصِرَةً عَنْ ذَلِكَ . وَمِنَ الْحَيْرَةِ لِقِنَهُ أَهْلُ  
 الطَّائِفِ وَقُرَيْشُ فِيمَا ذُكِرَ . وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي تَعَلَّمَ الْكِتَابَةَ مِنَ الْحَيْرَةِ هُوَ سَفِيَانُ بْنُ  
 أُمَيَّةَ وَيُقَالُ حَرَبُ بْنُ أُمَيَّةَ وَأَخَذَهَا مِنْ أَسْلَمَ بْنِ سُدْرَةَ . وَهُوَ قَوْلٌ مُمَكِّنٌ وَأَقْرَبُ  
 مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُمْ تَعَلَّمُوهَا مِنْ إِيَادَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ لِقَوْلِ شَاعِرِهِمْ :

قَوْمٌ لَهُمْ سَاحَةُ الْعِرَاقِ إِذَا سَارُوا جَمِيعاً وَالْخَطُّ وَالْقَلَمُ

وَهُوَ قَوْلٌ يَبَعِدُ لِأَنَّ إِيَادَةَ وَإِنْ نَزَلُوا سَاحَةَ الْعِرَاقِ فَلَمْ يَزَالُوا عَلَى شَأْنِهِمْ مِنْ  
 الْبِدَاوَةِ . وَالْخَطُّ مِنَ الصَّنَائِعِ الْحَضَرِيَّةِ . وَإِنَّمَا مَعْنَى قَوْلِ الشَّاعِرِ أَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى  
 الْخَطِّ وَالْقَلَمِ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ لِقُرْبِهِمْ مِنْ سَاحَةِ الْأَمْصَارِ وَضَوَاحِيهَا فَالْقَوْلُ  
 بِأَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ إِنَّمَا لَقِنُوهَا مِنَ الْحَيْرَةِ وَلَقِنَهَا أَهْلُ الْحَيْرَةِ مِنَ التَّبَاعَةِ وَحَمِيرٌ هُوَ  
 الْأَلْيَقُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَرَأَيْتُ فِي كِتَابِ التَّكْمِلَةِ لِابْنِ الْأَبَّارِ عِنْدَ التَّعْرِيفِ بِابْنِ فَرُوحِ  
 الْفَيْرَوَانِيِّ الْقَاسِي الْأَنْدَلُسِيِّ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
 فَرُوحِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زِيَادِ بْنِ أَنْعَمَ . عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قُلْتُ لِعَبِيدِ اللَّهِ بْنِ  
 عَبَّاسٍ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، خَبَرُونِي عَنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ ، هَلْ كُنْتُمْ تَكْتَبُونَهُ  
 قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ تَجْمَعُونَ مِنْهُ مَا اجْتَمَعَ وَتَفْرُقُونَ مِنْهُ مَا افْتَرَقَ  
 مِثْلَ الْأَلِفِ وَاللَّامِ وَالْمِيمِ وَالنُّونِ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قُلْتُ : وَمِمَّنْ أَخَذَ تَمُوهَ ؟ قَالَ : مِنْ  
 حَرَبِ بْنِ أُمَيَّةَ . قُلْتُ : وَمِمَّنْ أَخَذَهُ حَرَبٌ ؟ قَالَ : مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ .  
 قُلْتُ : وَمِمَّنْ أَخَذَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَدْعَانَ ؟ قَالَ : مِنْ أَهْلِ الْأَنْبَارِ . قُلْتُ : وَمِمَّنْ  
 أَخَذَهُ أَهْلُ الْأَنْبَارِ ؟ قَالَ : مِنْ طَارِيءٍ طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ . قُلْتُ وَمِمَّنْ أَخَذَهُ  
 ذَلِكَ لَطَارِيءٍ ؟ قَالَ : مِنْ الْخَلْجَانِ بْنِ الْقَسَمِ كَاتِبِ الْوَحْيِ لِيَهُودِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ  
 السَّلَامُ . وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

أَفِي كُلِّ عَامٍ سَنَةً تُحَدِّثُونَهَا      وَرَأَيْ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ يُعَبَّرُ  
 وَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةِ تَسْبُنَا      بِهَا جُرْهُمُ فَيَمُنُ يُسَبُّ وَحَمِيرُ

انتهى ما نقله ابن الأبار في كتاب التكملة . وزاد في آخره : حدثني بذلك أبو بكر بن أبي حمير في كتابه عن أبي بحر بن العاص عن أبي الوليد الوقيشي عن أبي عمر الطلعنكي بن أبي عبد الله بن مفرج . ومن خطه نقلته عن أبي سعيد بن يونس عن محمد بن موسى بن النعمان عن يحيى بن محمد بن حشيش بن عمر بن أيوب المغافري التونسي عن بهلول بن عبدة الحمي عن عبد الله بن فروخ . انتهى .

وَكَانَ لِحَمِيرِ كِتَابَةٌ تُسَمَّى الْمُسْنَدَ حُرُوفَهَا مُنْفَصِلَةً وَكَانُوا يَمْنَعُونَ مِنْ تَعْلِمِهَا إِلَّا بِأَذْنِهِمْ . وَمِنْ حَمِيرٍ تَعَلَّمَتْ مُضَرَ الْكِتَابَةُ الْعَرَبِيَّةُ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُجِيدِينَ لَهَا شَأْنَ الصَّنَائِعِ إِذَا وَقَعَتْ بِالْبَدْوِ فَلَا تَكُونُ مُحْكَمَةً الْمَذَاهِبِ وَلَا مَائِلَةً إِلَى الْإِتْقَانِ وَالتَّنْمِيقِ لِبُنَى مَا بَيْنَ الْبَدْوِ وَالصَّنَاعَةِ وَاسْتِغْنَاءِ الْبَدْوِ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ . وَكَانَتْ كِتَابَةٌ الْعَرَبِ بَدْوِيَّةً مِثْلَ كِتَابَتِهِمْ أَوْ قَرِيبًا مِنْ كِتَابَتِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَوْ نَقُولُ إِنَّ كِتَابَتَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَحْسَنُ صِنَاعَةٍ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ إِلَى الْحِضَارَةِ وَمُخَالَطَةِ الْأَمْصَارِ وَالدُّوَلِ . وَأَمَّا مُضَرٌ فَكَانُوا أَغْرَقَ فِي الْبَدْوِ وَأَبْعَدَ عَنِ الْحَضَرِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الشَّامِ وَمِضَرٌ فَكَانَ الْخَطُّ الْعَرَبِيُّ لِأَوَّلِ الْإِسْلَامِ غَيْرَ بَالِغٍ إِلَى الْغَايَةِ مِنْدِ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ وَالْإِجَادَةِ وَلَا إِلَى التَّوَسُّطِ لِمَكَانِ الْعَرَبِ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالتَّوَحُّشِ وَبُعْدِهِمْ عَنِ الصَّنَائِعِ ، وَأَنْظَرُوا مَا وَقَعَ لِأَجْلِ ذَلِكَ فِي رَسْمِهِمُ الْمُضْحَفِ حَيْثُ رَسَمَهُ الصَّحَابَةُ بِخَطِّهِمْ وَكَانَتْ غَيْرَ مُسْتَحْكَمَةٍ فِي الْإِجَادَةِ فَخَالَفَ الْكَثِيرُ مِنْ رُسُومِهِمْ مَا اقْتَضَتْهُ أَقْبَسَةُ رُسُومِ صِنَاعَةِ الْخَطِّ عِنْدَ أَهْلِهَا . ثُمَّ اقْتَفَى التَّابِعُونَ مِنَ السَّلَفِ رَسْمَهُمْ فِيهَا تَبْرُكًا بِمَا رَسَمَهُ أَصْحَابُ الرَّسُولِ ﷺ وَخَيْرُ الْخَلْقِ مِنْ بَعْدِهِ الْمُتَلَقُّونَ لَوْحِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ . كَمَا يَقْتَفَى لِهَذَا الْعَهْدِ خَطُّ وَلِيِّ أَوْ عَالِمٍ تَبْرُكًا وَيَتَّبِعُ رَسْمَهُ خَطًّا أَوْ صَوَابًا . وَأَيْنَ نِسْبَةُ ذَلِكَ مِنَ الصَّحَابَةِ فِيمَا كَتَبُوهُ فَاتَّبَعَ ذَلِكَ وَأَثْبَتَ رَسْمًا وَنَبَّهَ الْعُلَمَاءُ بِالرَّسْمِ عَلَى مَوَاضِعِهِ . وَلَا تَلْتَفِتَنَّ فِي ذَلِكَ إِلَى مَا يَزْعَمُهُ بَعْضُ الْمُغْفَلِينَ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُحْكِمِينَ لِصِنَاعَةِ الْخَطِّ وَأَنَّ مَا يَتَخِيلُ

مِنْ مُخَالَفَةِ خُطُوبِهِمْ لِأُصُولِ الرَّسْمِ لَيْسَ كَمَا يُتَخَيَّلُ بَلْ لِكُلِّهَا وَجْهٌ . يَقُولُونَ فِي  
 مِثْلِ زِيَادَةِ الْأَلْفِ فِي لَا أَدْ بَحْنَهُ ، إِنَّهُ تَنْبِيْهٌ عَلَى أَنَّ الدَّبْحَ لَمْ يَقَعْ وَفِي زِيَادَةِ الْيَاءِ فِي  
 بَأْيِدِ إِنَّهُ تَنْبِيْهٌ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا لَا أَصْلَ لَهُ إِلَّا التَّحَكُّمُ  
 الْمَحْضُ . وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ تَنْزِيْهًا لِلصَّحَابَةِ عَنْ تَوْهَمِ  
 النَّقْصِ فِي قِلَّةِ إِجَادَةِ الْخَطِّ . وَحَسِبُوا أَنَّ الْخَطَّ كَمَالًا فَتَزَهُوهُمْ عَنْ نَقْصِهِ وَنَسَبُوا  
 إِلَيْهِمُ الْكَمَالَ بِإِجَادَتِهِ وَطَلَبُوا تَغْلِيْلَ مَا خَالَفَ الْإِجَادَةَ مِنْ رَسْمِهِ وَذَلِكَ لَيْسَ  
 بِصَحِيْحٍ . وَاعْلَمُ أَنَّ الْخَطَّ لَيْسَ بِكَمَالٍ فِي حَقِّهِمْ إِذِ الْخَطُّ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَدْنِيَّةِ  
 الْمَعَاشِيَّةِ كَمَا رَأَيْتَهُ فِيمَا مَرَّ . وَالْكَمَالُ فِي الصَّنَائِعِ إِضَافِيٌّ وَلَيْسَ بِكَمَالٍ مُطْلَقٌ إِذِ  
 لَا يَعُودُ نَقْصُهُ عَلَى الذَّاتِ فِي الدِّينِ وَلَا فِي الْخِلَالِ وَإِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَسْبَابِ الْمَعَاشِ  
 وَيَحْسَبُ الْعُمْرَانَ وَالتَّعَاوُنَ عَلَيْهِ لِأَجْلِ دِلَالَتِهِ عَلَى مَا فِي النُّفُوسِ . وَقَدْ  
 كَانَ ﷺ أَمِيًّا وَكَانَ ذَلِكَ كَمَالًا فِي حَقِّهِ وَبِالنَّسْبَةِ إِلَى مَقَامِهِ لِشَرَفِهِ وَتَنْزِهِهِ عَنِ  
 الصَّنَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ الْمَعَاشِ وَالْعُمْرَانَ كُلِّهَا . وَلَيْسَتْ الْأَمِيَّةُ كَمَالًا فِي  
 حَقِّهَا نَحْنُ إِذْ هُوَ مُنْقَطِعٌ إِلَى رَبِّهِ وَنَحْنُ مُتَعَاوِنُونَ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا شَأْنَ الصَّنَائِعِ  
 كُلِّهَا حَتَّى الْعُلُومِ الْإِصْطِلَاحِيَّةِ فَإِنَّ الْكَمَالَ فِي حَقِّهِ هُوَ تَنْزَهُهُ عَنْهَا جُمْلَةً بِخِلَافِنَا .

ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْمَلِكُ لِلْعَرَبِ وَفَتَحُوا الْأَمْصَارَ وَمَلَكَوا الْمَمَالِكَ وَنَزَلُوا الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ  
 وَاحْتَاجَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى الْكِتَابَةِ اسْتَعْمَلُوا الْخَطَّ وَطَلَبُوا صِنَاعَتَهُ وَتَعَلَّمُوهُ وَتَدَاوَلُوهُ  
 فَتَرَقَّتِ الْإِجَادَةُ فِيهِ وَاسْتَحْكَمَ وَبَلَغَ فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةَ رُتْبَةً مِنَ الْإِتْقَانِ إِلَّا أَنَّهَا  
 كَانَتْ دُونَ الْعَايَةِ . وَالْخَطُّ الْكُوفِيُّ مَعْرُوفُ الرَّسْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ . ثُمَّ انْتَشَرَ الْعَرَبُ فِي  
 الْأَقْطَارِ وَالْمَمَالِكِ وَافْتَتَحُوا أَفْرِيْقِيَّةَ وَالْأَنْدَلُسَ وَاخْتَطَّ بَنُو الْعَبَّاسِ بَغْدَادَ وَتَرَقَّتْ  
 الْخُطُوطُ فِيهَا إِلَى الْعَايَةِ لَمَّا اسْتَبَحَرَتْ فِي الْعُمْرَانَ وَكَانَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ وَمَرْكَزَ  
 الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَخَالَفَتْ أَوْضَاعَ الْخَطِّ بِبَغْدَادَ أَوْضَاعَهُ بِالْكُوفَةِ ، فِي الْمِيلِ إِلَى إِجَادَةِ  
 الرُّسُومِ وَجَمَالِ الرُّوْنَقِ وَحُسْنِ الرِّوَاءِ . وَاسْتَحْكَمَتْ هَذِهِ الْمُخَالَفَةُ فِي الْأَمْصَارِ إِلَى أَنْ  
 رَفَعَ رَأْيَتَهَا بِبَغْدَادَ عَلِيُّ بْنُ مُقَلَّةَ الْوَزِيرِ . ثُمَّ تَلَاهُ فِي ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ هِلَالٍ ، الْكَاتِبُ

الشهير يابن البواب . ووقف سند تعليمها عليه في المائة الثالثة وما بعدها .  
 وبعثت رسوم الخط البغدادي وأوضاعه عن الكوفة ، حتى انتهت إلى المباشرة . ثم  
 ازدادت المخالفة بعد تلك القصور بتفنن الجهابذة في إحكام رسومه وأوضاعه ،  
 حتى انتهت إلى المتأخرين مثل ياقوت والولي علي العجمي . ووقف سند تعليم  
 الخط عليهم وانتقل ذلك إلى مصر ، وخالفت طريقة العراق بعض الشيء ولقنها  
 العجم هنالك ، وظهرت مخالفة لخط أهل مصر أو مباشرة .

وكان الخط البغدادي معروف الرسم وتبعه الأفريقي المعروف رسمه القديم  
 لهذا العهد . ويقرب من أوضاع الخط المشرقي وتخير<sup>(١)</sup> ملك الأندلس بالأمويين  
 فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميز صنف خطهم الأندلسي  
 كما هو معروف الرسم لهذا العهد . وطما بحر العمران والحضارة في الدول  
 الإسلامية في كل قطر . وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب  
 وأجيد كتبها وتجليدها<sup>(٢)</sup> وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له  
 وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه . ثم لما انحلت نظام الدولة الإسلامية  
 وتناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط  
 والكتابة بل والعلم إلى مصر والقاهرة فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد وله<sup>(٣)</sup>  
 بها معلمون يرسمون لتعليم<sup>(٤)</sup> الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة  
 بينهم فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد  
 لقنها حسناً وحقق فيها ذرابة وكتاباً وأخذها قوانين علمية<sup>(٥)</sup> فتجىء أحسن  
 ما يكون . وأما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك العرب بها  
 ومن خلفهم من البربر ، وتغلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب

(٢) وفي النسخة الباريسية : تخليدها .

(١) وفي نسخة أخرى : وتميز .

(٣) وفي نسخة أخرى : للخط .

(٤) وفي نسخة أخرى : للمتعلم .

(٥) وفي نسخة أخرى : عملية .



وأفريقيّة من لدن الدولة المثنويّة إلى هذا العهد . وشاركوا أهل العُمران بما لديهم من الصنّاع وتعلّموا بأذيال الدولة فغلب خطّهم على الخطّ الأفريقيّ وعفى عليه ونسيّ خطّ القيروان والمهديّة ينسيان عوائدهما وصنّاعيهما . وصارت خطوط أهل أفريقيّة كلّها على الرّسم الأندلسيّ يتونس وما إليها لتوفّر أهل الأندلس بها عند الحاليّة من شرق الأندلس . وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرّسوا بجوارهم . إنّما كانوا يغدّون على دار الملك يتونس فصار خطّ أهل أفريقيّة من أحسن خطوط أهل الأندلس حتّى إذا تقلّص ظلّ الدولة الموحديّة بغض الشّيء وتراجع أمر الحضارة والتّرف بتراجع العُمران نقص حينئذ حال الخطّ وفسدت رسومته وجهل فيه وجه التّعليم بفساد الحضارة وتناقص العُمران . وبقيت فيه آثار الخطّ الأندلسيّ تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدّمناه من أن الصنّاع إذا رسخت بالحضارة فيفسر مخرجها وحصل في دولة بني مرّين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لَوْن من الخطّ الأندلسيّ لقرب جزارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريباً واستعمالهم إيّاهم سائر الدولة . ونسيّ عهد الخطّ فيما بعد عن سدة الملك وداره . كأنه لم يُعرف . فصارت الخطوط بأفريقيّة والمغربيّين مائلّة إلى الرّداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتّاب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمُتصّفحها منها إلاّ العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتّضخيف وتغيير الأشكال الخطيّة عن الجودة حتّى لا تكاد تُقرأ إلاّ بعد عسر ووقّع فيه ما وقع في سائر الصنّاع بنقص الحضارة وفساد الدّول والله يحكمم لا معقب لحكمه .

وللأستاذ أبي الحسن عليّ بن هلال الكاتب البغداديّ الشّهير بابن البواب قصيدة من بحر البسيط<sup>(١)</sup> على رويّ الرّاء يذكّر فيها صناعة الخطّ وقوادها من أحسن ما كتبت في ذلك . رأيت إثباتها في هذا الكتاب من هذا الباب ليستفيع بها من يريد تعلّم هذه الصناعة . وأولّها :

(١) هذه القصيدة من بحر الكامل وليس من بحر البسيط .

وَيَرُومُ حُسْنَ الْخَطِّ وَالتَّصْوِيرِ  
فَارْغَبْ إِلَى مَوْلَاكَ فِي التَّيْسِيرِ  
صَلِّبِ يَصُوغُ صِنَاعَةَ التَّحْيِيرِ  
عِنْدَ الْقِيَّاسِ بِأَوْسَطِ التَّقْدِيرِ  
مِنْ جَانِبِ التَّدْقِيقِ وَالتَّحْضِيرِ  
خُلُوعاً عَنِ التَّطْوِيلِ وَالتَّقْصِيرِ

مِنْ جَانِبِيهِ مُشَاكِلِ التَّقْدِيرِ  
فَالْقَطْ فِيهِ جَمَلَةٌ التَّدْبِيرِ  
إِنِّي أَضِنُ بِسِرِّهِ الْمَسْتَوْرِ  
مَا يَبِينُ تَخْرِيفِ إِلَى تَدْوِيرِ  
بِالْخَلِّ أَوْ بِالْحَضْرِمِ الْمَعْصُورِ  
مَعَ أَصْفَرِ الزَّرْبِيخِ وَالكَافُورِ  
الْوَرَقِ النَّقِيِّ النَّاعِمِ الْمَخْبُورِ  
يَنَائِي عَنِ التَّشْعِيثِ وَالتَّغْيِيرِ  
مَا أَدْرَكَ الْمَأْمُولُ مِثْلَ صَبُورِ  
عَرْمًا تُجَرِّدُهُ عَنِ التَّشْمِيرِ  
فِي أَوَّلِ التَّمْثِيلِ وَالتَّشْطِيرِ  
وَلَرُبَّ سَهْلٍ جَاءَ بَعْدَ عَسِيرِ  
أَضْحَيْتَ رَبِّ مَسْرَّةٍ وَحُبُورِ  
إِنَّ الْإِلَهَ يُجِيبُ كُلَّ شَكُورِ  
خَيْرًا يُخْلَقُهُ بِدَارِ غُرُورِ  
عِنْدَ الشَّقَاءِ كِتَابَهُ الْمَشُورِ

يَا مَنْ يُرِيدُ إِجَادَةَ التَّخْرِيرِ  
إِنْ كَانَ عَزْمَكَ فِي الْكِتَابَةِ صَادِقًا  
أَعِدْ مِنَ الْأَقْلَامِ كُلِّ مُتَقَفٍ  
وَإِذَا عَمَدْتَ لِبرِيَّةٍ فَتَوَخَّهْ  
أَنْظُرْ إِلَى طَرْفِيهِ فَاجْعَلْ بَرِيَّةً  
وَاجْعَلْ لِجَلْفَتِيهِ قَوَامًا عَادِلًا

وَالشَّقُ وَسَطِيهِ لِيَبْقَى بِرِيَّةً  
حَتَّى إِذَا أَيَقُنْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ  
لَا تَطْمَعَنَّ فِي أَنْ أُبَوِّحَ بِسِرِّهِ  
لَكِنَّ جَمَلَةً مَا أَقُولُ بِأَنَّهُ  
وَأَلِقْ دَوَاتِكَ بِالذُّخَانِ مُدَبَّرًا  
وَأَصْفِ إِلَيْهِ قَفْرَةً قَدْ صَوْلَتْ  
حَتَّى إِذَا مَا خَمِرْتَ فَأَعْمِدْ إِلَى  
فَاكْسِيهِ بَعْدَ الْقَطْعِ بِالْمِعْصَارِ كَيْ  
ثُمَّ اجْعَلِ التَّمْثِيلَ ذَا بَكَ صَابِرًا  
إِبْدَاءً بِهِ فِي اللَّوْحِ مُنْتَفِيًا لَهُ  
لَا تَخْجَلَنَّ مِنَ الرَّدَى تَخْتَطُّهُ  
فَالْأَمْرُ يَصْعَبُ ثُمَّ يَرْجِعُ هَيِّنًا  
حَتَّى إِذَا أَدْرَكْتَ مَا أَمَلْتَهُ  
فَأشْكُرْ آلِهَكَ وَاتَّبِعْ رِضْوَانَهُ  
وَارْغَبْ لِكَفِّكَ أَنْ تَخْطُ بِنَانِهَا  
فَجَمِيعُ فِعْلِ الْمَرْءِ يَلْقَاهُ عَدَا

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْخَطَّ بَيَانٌ عَنِ الْقَوْلِ وَالْكَلامُ ، كَمَا أَنَّ الْقَوْلَ وَالْكَلامَ بَيَانٌ عَمَّا فِي

النَّفْسِ وَالضَّمِيرِ مِنَ الْمَعَانِي ، فَلَا بُدَّ لِكُلِّ مِنْهُمَا أَنْ يَكُونَ وَاضِحَ الدَّلَالَةِ .  
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » <sup>(١)</sup> وَهُوَ يَشْتَمِلُ بَيَانَ الْأَدْلَةِ  
 كُلِّهَا . فَالْخَطُّ الْمَجُودُ كَمَالَهُ أَنْ تَكُونَ دَلَالَتُهُ وَاضِحَةً ، بِإِبَانَةِ حُرُوفِهِ الْمُتَوَاضِعَةِ  
 وَإِجَادَةِ وَضْعِهَا وَرَسْمِهَا كُلِّ وَاحِدٍ عَلَى حِدَةٍ مُتَمَيِّزٍ عَنِ الْآخَرِ . إِلَّا مَا اضْطَلَحَ عَلَيْهِ  
 الْكُتَّابُ مِنْ إِصْطِلَاحِ حَرْفِ الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ . سِوَى حُرُوفِ اضْطَلَحُوا  
 عَلَى قَطْعِهَا . مِثْلُ الْأَلِفِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الْكَلِمَةِ ، وَكَذَا الرَّاءِ وَالزَّيِّ وَالذَّالِ وَالذَّالِ  
 وَغَيْرِهَا ، بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَتْ مُتَأَخِّرَةً ، وَهَكَذَا إِلَى آخِرِهَا . ثُمَّ إِنَّ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ  
 الْكُتَّابِ اضْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِ كَلِمَاتٍ ، بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَحَذْفِ حُرُوفٍ مَعْرُوفَةٍ  
 عِنْدَهُمْ ، لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا أَهْلُ مُضْطَلِحِهِمْ فَتَسْتَعْجِمُ عَلَى غَيْرِهِمْ وَهَؤُلَاءِ كُتَّابُ دَوَاوِينِ  
 السُّلْطَانِ وَسِجِلَّاتِ الْقَضَاةِ ، كَأَنَّهُمْ أَنْفَرَدُوا بِهَذَا الْإِضْطِلَاحِ عَنْ غَيْرِهِمْ ، لِكثْرَةِ  
 مَوَارِدِ الْكِتَابَةِ عَلَيْهِمْ ، وَشَهْرَةِ كِتَابَتِهِمْ وَإِحَاطَةِ كَثِيرٍ مِنْ دُونِهِمْ بِمُضْطَلِحِهِمْ فَإِنَّ  
 كَتَبُوا ذَلِكَ لِمَنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ بِمُضْطَلِحِهِمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْدِلُوا عَنْ ذَلِكَ إِلَى الْبَيَانِ  
 مَا اسْتَطَاعُوهُ ، وَإِلَّا كَانَ بِمَثَابَةِ الْخَطِّ الْأَعْجَمِيِّ ، لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ مِنْ عَدَمِ  
 التَّوَاضُعِ عَلَيْهِ . وَلَيْسَ بِعُدْرِي فِي هَذَا الْقَدْرِ ، إِلَّا كِتَابُ الْأَعْمَالِ السُّلْطَانِيَّةِ فِي الْأَمْوَالِ  
 وَالْجِيُوشِ ، لِأَنَّهُمْ مَطْلُوبُونَ بِكِتْمَانِ ذَلِكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهُ مِنَ الْأَسْرَارِ السُّلْطَانِيَّةِ  
 الَّتِي يَجِبُ إِخْفَاؤُهَا ، فَيَبَالِغُونَ فِي رَسْمِ اضْطِلَاحِ حَاصِ بِهِمْ ، وَيَصِيرُ بِمَثَابَةِ  
 الْمُعْمَى . وَهُوَ الْإِضْطِلَاحُ عَلَى الْعِبَارَةِ عَنِ الْحُرُوفِ بِكَلِمَاتٍ مِنْ أَسْمَاءِ الطَّيِّبِ  
 وَالْفَوَاكِهِ وَالطُّيُورِ وَالْأَزَاهِيرِ ، وَوَضْعُ أَشْكَالٍ أُخْرَى غَيْرِ أَشْكَالِ الْحُرُوفِ الْمُتَعَارَفَةِ  
 يَضْطَلِحُ عَلَيْهَا الْمُتَخَاطِبُونَ لِتَادِيَةِ مَا فِي ضَمَائِرِهِمْ بِالْكِتَابَةِ . وَرُبَّمَا وَضَعَ الْكُتَّابُ  
 لِلْعُثُورِ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ لَمْ يَضْعُوهُ أَوْلًا ، قَوَانِينَ بِمَقَائِيسَ اسْتَخْرَجُوهَا لِذَلِكَ  
 بِمَدَارِكِهِمْ يُسَمُّونَهَا فَكَّ الْمُعْمَى . وَلِلنَّاسِ فِي ذَلِكَ دَوَاوِينٌ مَشْهُورَةٌ . وَاللَّهُ الْعَلِيمُ  
 الْحَكِيمُ .

(١) آية ٣ و ٤ من سورة الرحمن .

## الفصل الحادي والثلاثون

### في صناعة الوراقة

كَانَتِ الْعِنَايَةُ قَدِيمًا بِالدَّوَّابِينَ الْعِلْمِيَّةِ وَالسَّجَلَاتِ فِي نَسْخِهَا وَتَجْلِيدِهَا وَتَضْحِيحِهَا بِالرَّوَايَةِ وَالضُّبْطِ . وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ مِنْ ضَخَامَةِ الدَّوَلَةِ وَتَوَابِعِ الْحَضَارَةِ . وَقَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِذَهَابِ الدَّوَلَةِ وَتَنَاقُصِ الْعُمَرَانِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْهُ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَحْرٌ زَاخِرٌ بِالْعِرَاقِ وَالْأَنْدَلُسِ إِذْ هُوَ كُلُّهُ مِنْ تَوَابِعِ الْعُمَرَانِ وَاتِّسَاعِ نِطَاقِ الدَّوَلَةِ وَنِفَاقِ أَسْوَاقِ ذَلِكَ لَدَيْهِمَا . فَكَثُرَتِ التَّالِيفُ الْعِلْمِيَّةُ وَالدَّوَّابِينَ وَحَرَصَ النَّاسُ عَلَى تَنَاقُلِهَا فِي الْآفَاقِ وَالْأَعْصَارِ فَانْتَسَخَتْ وَجُلِدَتْ . وَجَاءَتْ صِنَاعَةُ الْوَرَّاقِينَ الْمُعَانِينَ لِلِانْتِسَاحِ وَالتَّضْحِيحِ وَالتَّجْلِيدِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْكُتَيْبَةِ وَالدَّوَّابِينَ وَاخْتَصَّتْ بِالْأَمْصَارِ الْعَظِيمَةِ الْعُمَرَانِ . وَكَانَتِ السَّجَلَاتُ أَوْلَى ، لِانْتِسَاحِ الْعُلُومِ وَكُتُبِ الرِّسَائِلِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْإِقْطَاعَاتِ ، وَالصُّكُوكِ فِي الرُّفُوقِ الْمُهَيَّأَةِ بِالصَّنَاعَةِ مِنَ الْجِلْدِ لِكَثْرَةِ الرِّفَةِ وَقِلَّةِ التَّالِيفِ صَدَرَ الْمِلَّةِ كَمَا نَذَرْنَا . وَقِلَّةِ الرِّسَائِلِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالصُّكُوكِ مَعَ ذَلِكَ فَاقْتَصَرُوا عَلَى الْكِتَابِ فِي الرِّقِّ تَشْرِيفًا لِلْمَكْتُوبَاتِ وَمِثْلًا بِهَا إِلَى الصَّحَّةِ وَالِانْتِقَانِ . ثُمَّ طَمَأَ بَحْرُ التَّالِيفِ وَالتَّدْوِينِ وَكَثُرَ تَرْسِيلُ السُّلْطَانِ وَصُكُوكُهُ وَضَاقَ الرِّقُّ عَنْ ذَلِكَ . فَأَشَارَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى بِصِنَاعَةِ الْكَاعِدِ وَصَنَعَهُ وَكُتِبَ فِيهِ رَسَائِلُ السُّلْطَانِ وَصُكُوكُهُ . وَاتَّخَذَهُ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ صُخْفًا لِمَكْتُوبَاتِهِمُ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ . وَبَلَغَتِ الْإِجَادَةُ فِي صِنَاعَتِهِ مَا شَاءَتْ . ثُمَّ وَقَفَتْ عِنَايَةُ أَهْلِ الْعُلُومِ وَهُمْ أَهْلُ الدَّوَلِ عَلَى ضَبْطِ الدَّوَّابِينَ الْعِلْمِيَّةِ وَتَضْحِيحِهَا بِالرَّوَايَةِ الْمُسْتَدَّةِ إِلَى مُؤَلِّفِهَا وَوَاضِعِهَا لِأَنَّهُ الشَّانُ الْأَهْمُ مِنَ التَّضْحِيحِ وَالضُّبْطِ . فَبِذَلِكَ تُسَنَدُ الْأَقْوَالُ إِلَى قَائِلِهَا وَالْفُتْيَا إِلَى الْحَاكِمِ بِهَا الْمُجْتَهِدِ فِي طَرِيقِ اسْتِنْبَاطِهَا . وَمَا لَمْ يَكُنْ تَضْحِيحُ الْمُتُونِ بِإِسْنَادِهَا إِلَى مَدُونِهَا فَلَا يَصِحُّ إِسْنَادُ قَوْلِ لَهُمْ وَلَا فُتْيَا . وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَحَمَلَتِهِ فِي الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ وَالْآفَاقِ .

حَتَّى لَقَدْ قَصِرَتْ فَائِدَةُ الصَّنَاعَةِ الْحَدِيثِيَّةِ فِي الرَّوَايَةِ عَلَى هَذِهِ فَقَطْ إِذْ ثَمَرَتْهَا  
الْكُبْرَى مِنْ مَعْرِفَةِ صَحِيحِ الْأَحَادِيثِ وَحُسْنِهَا وَمُسْنَدِهَا وَمُرْسَلِهَا وَمَقْطُوعِهَا  
وَمَوْقُوفِهَا مِنْ مَوْضُوعِهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَتَمَخَّضَتْ زُبْدَةٌ فِي ذَلِكَ <sup>(١)</sup> الْأَمَهَاتُ الْمُتَلَقَّاةُ  
بِالْقَبُولِ عِنْدَ الْأُمَّةِ . وَصَارَ الْقَصْدُ إِلَى ذَلِكَ لَعَوًا مِنَ الْعَمَلِ . وَلَمْ تَبْقَ ثَمَرَةُ الرَّوَايَةِ  
وَالِاشْتِغَالِ بِهَا إِلَّا فِي تَصْحِيحِ تِلْكَ الْأَمَهَاتِ الْحَدِيثِيَّةِ وَسِوَاهَا مِنْ كُتُبِ الْفِقْهِ  
لِلْفُتْيَا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدُّوَاوِينِ وَالتَّالِيفِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَاتَّصَلَ سَنَدُهَا بِمُؤَلِّفِهَا لِيَصْحُ  
النَّقْلُ عَنْهُمْ ، وَالْإِسْنَادُ إِلَيْهِمْ . وَكَانَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ بِالمَشْرِقِ وَالأَنْدَلُسِ مُعْبَدَةً  
الطَّرِيقِ وَاضِحَةً الْمَسَالِكِ . وَلِهَذَا نَجَدُ الدُّوَاوِينِ الْمُنْتَسَخَةَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي أَقْطَارِهِمْ  
عَلَى غَايَةِ مِنَ الْإِتْقَانِ وَالِإِحْكَامِ وَالصَّحَّةِ . وَمِنْهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَيْدِي النَّاسِ فِي الْعَالَمِ  
أَصُولٌ عَتِيقَةٌ تَشْهَدُ بِبُلُوغِ الْغَايَةِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ . وَأَهْلُ الْآفَاقِ يَتَنَاقَلُونَهَا إِلَى الْآنِ  
وَيَسْتَدُونَ عَلَيْهَا يَدَ الضَّنَائَةِ وَلَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الرُّسُومُ لِهَذَا الْعَهْدِ جُمْلَةً بِالمَغْرِبِ  
وَأَهْلِهِ لِانْقِطَاعِ صِنَاعَةِ الْخَطِّ وَالضَّبْطِ وَالرَّوَايَةِ مِنْهُ بِانْتِقَاصِ عُمُرَانِهِ وَبِدَاوَةِ أَهْلِهِ  
وَصَارَتِ الْأَمَهَاتُ وَالدُّوَاوِينُ تُنْسَخُ بِالْخَطِّ الْيَدَوِيِّ تَنْسَخُهَا طَلَبَةُ الْبَرْبَرِ  
صَحَائِفٌ مُسْتَعْجَمَةٌ بِرَدَاةِ الْخَطِّ وَكَثْرَةِ الْفَسَادِ وَالتَّضْحِيفِ فَتَسْتَعْلِقُ عَلَى مُتَصَفِّحِهَا  
وَلَا يَخْضَلُ مِنْهَا فَائِدَةٌ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ . وَأَيْضًا فَقَدْ دَخَلَ الْخَلَلُ مِنْ ذَلِكَ فِي  
الْفُتْيَا فَإِنَّ غَالِبَ الْأَقْوَالِ الْمَعْرُوزَةِ غَيْرِ مَرْوِيَّةٍ عَنْ أئِمَّةِ الْمَذْهَبِ وَإِنَّمَا تُتَلَقَّى مِنْ تِلْكَ  
الدُّوَاوِينِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ . وَتَبَعَ ذَلِكَ أَيْضًا مَا يَتَصَدَّى إِلَيْهِ بَعْضُ أئِمَّتِهِمْ مِنْ  
التَّالِيفِ لِقَلَّةِ بَصَرِهِمْ بِصِنَاعَتِهِ وَعَدَمِ الصَّنَائِعِ الْوَافِيَةِ بِمَقَاصِدِهِ . وَلَمْ يَبْقَ مِنْ هَذَا  
الرُّسْمِ بِالأَنْدَلُسِ إِلَّا إِثَارَةٌ خَفِيَّةٌ بِالإِمْحَاءِ <sup>(٢)</sup> وَهِيَ الْإِضْمِحْلَالُ فَقَدْ كَادَ الْعِلْمُ  
يَنْقَطِعُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْمَغْرِبِ . وَاللَّهِ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . وَيَبْلُغُنَا لِهَذَا الْعَهْدِ أَنَّ صِنَاعَةَ  
الرَّوَايَةِ قَائِمَةٌ بِالمَشْرِقِ وَتَصْحِيحُ الدُّوَاوِينِ لَمَنْ يَرُومُهُ بِذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى مُبْتَغِيهِ  
لِنَفَاقِ أَسْوَاقِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ كَمَا نَذَكُرُهُ بَعْدُ . إِلَّا أَنَّ الْخَطَّ الَّذِي بَقِيَ مِنَ الْإِجَادَةِ

(١) وفي نسخة أخرى : تلك

(٢) وفي نسخة أخرى : الأنحاء .

فِي الْإِنْتِسَاحِ هُنَالِكَ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَجْمِ وَفِي خُطُوطِهِمْ . وَأَمَّا النَّسْخُ بِمِصْرَ فَفَسَدَ كَمَا  
فَسَدَ بِالْمَغْرِبِ وَأَشَدُّ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

## الفصل الثاني والثلاثون

### في صناعة الغناء

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ هِيَ تَلْحِينُ الْأَشْعَارِ الْمُوزُونَةِ بِتَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ عَلَى نِسْبٍ  
مُنْتَظِمَةٍ مَعْرُوفَةٍ يُوقَعُ كُلُّ صَوْتٍ مِنْهَا تَوْقِيعًا عِنْدَ قَطْعِهِ فَيَكُونُ نِعْمَةً . ثُمَّ تُؤَلَّفُ  
تِلْكَ النِّعْمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى نِسْبٍ مُتَعَارِفَةٍ فَيَلْتَمَسُ سَمَاعُهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ التَّنَاسُبِ  
وَمَا يَخْدُثُ عَنْهُ مِنَ الْكَيْفِيَّةِ فِي تِلْكَ الْأَصْوَاتِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي عِلْمِ الْمَوْسِيقِيِّ أَنَّ  
الْأَصْوَاتَ تَتَنَاسَبُ ، فَيَكُونُ صَوْتٌ نِصْفُ صَوْتٍ وَرُبْعٌ آخَرَ وَخُمْسٌ آخَرَ وَجُزْءٌ مِنْ  
أَحَدٍ عَشَرَ مِنْ آخَرَ وَاخْتِلَافُ هَذِهِ النِّسْبِ عِنْدَ تَأْدِيتِهَا إِلَى السَّمْعِ بِخُرُوجِهَا <sup>(١)</sup> مِنْ  
الْبَسَاطَةِ إِلَى التَّرْكِيبِ وَلَيْسَ كُلُّ تَرْكِيبٍ مِنْهَا مَلْدُودًا عِنْدَ السَّمْعِ بَلْ لِلْمَلْدُودِ  
تَرَكَيبٌ خَاصَّةٌ وَهِيَ الَّتِي حَصَرَهَا أَهْلُ عِلْمِ الْمَوْسِيقِيِّ وَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا كَمَا هُوَ  
مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ وَقَدْ يُسَاقُ ذَلِكَ التَّلْحِينُ فِي النِّعَمَاتِ الْغِنَائِيَّةِ بِتَقْطِيعِ أَصْوَاتِ  
أُخْرَى مِنَ الْجَمَادَاتِ إِمَّا بِالْقَرْعِ أَوْ بِالنَّفْخِ فِي الْأَلَاتِ تُتَّخَذُ لِذَلِكَ فَتَرَى لَهَا <sup>(٢)</sup> لَذَّةً  
عِنْدَ السَّمْعِ . فَمِنْهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ أَصْنَافٌ مِنْهَا الْمِزْمَارُ وَيُسَمَّوْنَهُ الشُّبَابَةَ  
وَهِيَ قِصْبَةٌ جَوْفَاءُ بِأَبْخَاشٍ فِي جَوَانِبِهَا مَعْدُودَةٌ يُنْفَخُ فِيهَا فَتُصَوِّتُ . فَيَخْرُجُ  
الصَّوْتُ مِنْ جَوْفِهَا عَلَى سِدَادِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَبْخَاشِ وَيَقْطَعُ الصَّوْتُ بِوَضْعِ الْأَصَابِعِ  
مِنَ الْيَدَيْنِ جَمِيعًا عَلَى تِلْكَ الْأَبْخَاشِ وَضَعًا مُتَعَارِفًا حَتَّى تَخْدُثَ النِّسْبُ بَيْنَ  
الْأَصْوَاتِ فِيهِ وَتَتَّصِلُ كَذَلِكَ مُتَنَاسِبَةً فَيَلْتَمَسُ السَّمْعُ بِإِدْرَاكِهَا لِلتَّنَاسُبِ الَّذِي

(١) وفي نسخة أخرى : يخرجها .

(٢) وفي نسخة أخرى : فتزيدها .

ذَكَرْنَاهُ . وَمِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْأَلَةِ الْمِزْمَارُ الَّذِي يُسَمَّى الزَّلَامِيُّ وَهُوَ شَكْلُ الْقَصَبَةِ  
مَنْحُوَّةِ الْجَانِبَيْنِ مِنَ الْخَشَبِ جَوْفَاءً مِنْ غَيْرِ تَدْوِيرٍ لِأَجْلِ ائْتِلَافِهَا مِنْ قِطْعَتَيْنِ  
مُنْفَرَدَتَيْنِ<sup>(١)</sup> كَذَلِكَ بِأَبْخَاشٍ مَعْدُودَةٍ يُنْفَخُ فِيهَا بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُوَصَّلُ فَيَنْفِذُ النَّفْخَ  
بِوَاسِطَتِهَا إِلَيْهَا وَتَصَوَّتْ بِنِعْمَةٍ حَادَّةٍ يُجْرَى فِيهَا مِنْ تَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ مِنْ تِلْكَ  
الْأَبْخَاشِ بِالْأَصَابِعِ مِثْلَ مَا يَجْرَى فِي الشُّبَابَةِ . وَمَنْ أَحْسَنَ آلَاتِ الزُّمْرِ لِهَذَا الْعَهْدِ  
الْبُوقُ وَهُوَ بُوقٌ مِنْ نُحَاسٍ أَجْوَفٌ فِي مِقْدَارِ الذَّرَاعِ يَتَّسِعُ إِلَى أَنْ يَكُونَ انْفِرَاجُ  
مَخْرَجِهِ فِي مِقْدَارِ دُونَ الْكَفِّ فِي شَكْلِ بَرِي الْقَلَمِ . وَيَنْفَخُ فِيهِ بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُؤَدِّي  
الرِّيحَ مِنَ الْفَمِ إِلَيْهِ فَيَخْرُجُ الصَّوْتُ ثَخِينًا دَوِيًّا وَفِيهِ أَبْخَاشٌ أَيْضًا مَعْدُودَةٌ . وَتَقْطَعُ  
نِعْمَةٌ مِنْهَا كَذَلِكَ بِالْأَصَابِعِ عَلَى التَّنَاسُبِ فَيَكُونُ مَلْدُودًا . وَمِنْهَا آلَاتُ الْأُوتَارِ وَهِيَ  
جَوْفَاءٌ كُلُّهَا إِمَّا عَلَى شَكْلِ قِطْعَةٍ مِنَ الْكُرَّةِ مِثْلِ الْمِرْبِطِ<sup>(٢)</sup> وَالرَّبَابِ أَوْ عَلَى شَكْلِ  
مُرْبِعٍ كَالْقَانُونِ تُوَضَعُ الْأُوتَارُ عَلَى بَسَائِطِهَا مَشْدُودَةٌ فِي رَأْسِهَا إِلَى دُسْرِ جَائِلَةٍ لِيَأْتِيَ  
شَدُّ الْأُوتَارِ وَرِخْوَتُهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ بِإِدَارَتِهَا . ثُمَّ تَقْرَعُ الْأُوتَارُ إِمَّا بِعُودٍ آخَرَ أَوْ  
بِوَتَرٍ مَشْدُودٍ بَيْنَ طَرَفَيْ قَوْسٍ يَمُرُّ عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ يُطْلَى بِالشَّمْعِ وَالْكَنْدَرِ . وَيَقْطَعُ  
الصَّوْتُ فِيهِ بِتَخْفِيفِ الْيَدِ فِي إِمْرَارِهِ أَوْ تَقْلِيلِهِ مِنْ وَتَرٍ إِلَى وَتَرٍ . وَالْيَدُ الْيُسْرَى مَعَ ذَلِكَ  
فِي جَمِيعِ آلَاتِ الْأُوتَارِ تَوْقَعُ بِأَصَابِعِهَا عَلَى أَطْرَافِ الْأُوتَارِ فِيمَا يَقْرَعُ أَوْ يَحْكُ  
بِالْوَتَرِ فَتَخْدُثُ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً مَلْدُودَةٌ . وَقَدْ يَكُونُ الْقِرْعُ فِي الطُّسُوتِ  
بِالْقُضْبَانِ أَوْ فِي الْأَعْوَادِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى تَوْقِيعٍ مُنَاسِبٍ يَخْدُثُ عَنْهُ التِّدَادُ  
بِالْمَسْمُوعِ . وَلِنُبَيِّنَ لَكَ السَّبَبَ فِي اللَّذَّةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْغِنَاءِ . وَذَلِكَ أَنَّ اللَّذَّةَ كَمَا  
تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ هِيَ إِدْرَاكُ الْمَلَائِمِ وَالْمَحْسُوسِ إِنَّمَا تُدْرِكُ مِنْهُ كَيْفِيَّةٌ . فَإِذَا كَانَتْ  
مُنَاسِبَةً لِلْمُدْرِكِ وَمَلَائِمَةً كَانَتْ مَلْدُودَةٌ . وَإِذَا كَانَتْ مُنَافِيَةً لَهُ مُنَافِرَةٌ كَانَتْ  
مُؤَلِّمَةً . فَالْمَلَائِمُ مِنَ الطُّعُومِ مَا نَاسَبَتْ كَيْفِيَّتَهُ حَاسَةً الذُّوقِ فِي مِزَاجِهَا وَكَذَا  
الْمَلَائِمُ مِنَ الْمَلْمُوسَاتِ وَفِي الرُّوَائِحِ مَا نَاسَبَ مِزَاجَ الرُّوحِ الْقَلْبِيِّ الْبُخَارِيِّ لِأَنَّهُ

(١) وفي نسخة أخرى : متفردتين .

(٢) وفي نسخة أخرى : البربط .

الْمُدْرِكُ وَإِلَيْهِ تُؤَدِّيهِ الْحَاسَةُ . وَلِهَذَا كَانَتِ الرِّيَاحِينَ وَالْأَزْهَارُ الْعِطْرِيَّاتُ أَحْسَنَ  
 رَائِحَةً وَأَشَدَّ مَلَأَمَةً لِلرُّوحِ لِغَلْبَةِ الْحَرَارَةِ فِيهَا الَّتِي هِيَ مِزَاجُ الرُّوحِ الْقَلْبِيِّ . وَأَمَّا  
 الْمَرْئِيَّاتُ وَالْمَسْمُوعَاتُ فَالْمَلَأَمُ فِيهَا تَنَاسُبُ الْأَوْضَاعِ فِي أَشْكَالِهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا فَهَوُ  
 أَنْسَبُ عِنْدَ النَّفْسِ وَأَشَدُّ مَلَأَمَةً لَهَا . فَإِذَا كَانَ الْمَرْئِيُّ مُتَنَاسِبًا فِي أَشْكَالِهِ  
 وَتَخَاطِيطِهِ الَّتِي لَهُ بِحَسَبِ مَاذَتِهِ بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ عَمَّا تَقْتَضِيهِ مَاذَتُهُ الْخَاصَّةُ مِنْ  
 كَمَالِ الْمُنَاسَبَةِ وَالْوَضْعِ وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ فِي كُلِّ مُدْرِكٍ ، كَانَ ذَلِكَ  
 حِينَئِذٍ مُنَاسِبًا لِلنَّفْسِ الْمُدْرِكَةِ فَتَلْتَدُّ بِإِذْرَاكِ مَلَائِمِهَا ، وَلِهَذَا تَجِدُ الْعَاشِقِينَ  
 الْمُسْتَهْتَرِينَ <sup>(١)</sup> فِي الْمَحَبَّةِ يُعْبَرُونَ عَنْ غَايَةِ مَحَبَّتِهِمْ وَعَشْقِهِمْ بِامْتِزَاجِ أَرْوَاحِهِمْ  
 بِرُوحِ الْمَحْبُوبِ . وَفِي هَذَا سِرٌّ تَفْهَمُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَهُوَ اتِّخَاذُ الْمَبْدَأِ وَإِنْ كَانَ  
 مَا سِوَاكَ إِذَا نَظَرْتَهُ وَتَأَمَّلْتَهُ رَأَيْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ اتِّخَاذًا فِي الْبِدَاءَةِ . يَشْهَدُ لَكَ بِهِ  
 اتِّخَاذُ كَمَا فِي الْكُونَ وَمَعْنَاهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ أَنَّ الْوُجُودَ يُشْرِكُ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ كَمَا  
 تَقُولُهُ الْحُكَمَاءُ . فَتَوَدُّ أَنْ يَمْتَرِجَ بِمُشَاهَدَاتِ <sup>(٢)</sup> فِيهِ الْكَمَالِ لِتَتَّحِدَ بِهِ ، بَلْ تَرُومُ  
 النَّفْسُ حِينَئِذٍ الْخُرُوجَ عَنِ الْوَهْمِ إِلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ اتِّخَاذُ الْمَبْدَأِ وَالْكَوْنِ . وَلَمَّا  
 كَانَ أَنْسَبُ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَأَقْرَبُهَا إِلَى أَنْ يُدْرِكَ <sup>(٣)</sup> الْكَمَالِ فِي تَنَاسُبِ  
 مَوْضُوعِهَا هُوَ شَكْلُهُ الْإِنْسَانِيُّ فَكَانَ إِذْرَاكُهُ لِلْجَمَالِ وَالْحُسْنِ فِي تَخَاطِيطِهِ وَأَصْوَاتِهِ  
 مِنَ الْمُدَارِكِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى فِطْرَتِهِ ، فَيَلْهَجُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِالْحَسَنِ مِنَ الْمَرْئِيِّ أَوْ  
 الْمَسْمُوعِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ . وَالْحُسْنُ فِي الْمَسْمُوعِ أَنْ تَكُونَ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً  
 لَا مُتَنَافِرَةً . وَذَلِكَ أَنَّ الْأَصْوَاتَ لَهَا كَيْفِيَّاتٌ مِنَ الْهَمْسِ وَالْجَهْرِ وَالرَّخَاوَةِ وَالشَّدَةِ  
 وَالْفَلْقَلَةِ وَالصُّغْطِ وَعَبِيرِ ذَلِكَ . وَالتَّنَاسُبُ فِيهَا هُوَ الَّذِي يُوجِبُ لَهَا الْحُسْنَ .  
 فَأَوْلًا ، أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنَ الصَّوْتِ إِلَى مَدَّةٍ دَفْعَةً بَلْ يَتَدْرِيجُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ كَذَلِكَ ،  
 وَهَكَذَا إِلَى الْمِثْلِ ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ تَوْسُطِ الْمَغَايِرِ بَيْنَ الصَّوْتَيْنِ . وَتَأَمَّلْ هَذَا مِنْ

(١) وفي نسخة أخرى : المشتهرين .

(٢) وفي نسخة أخرى : بما شاهدت .

(٣) وفي نسخة أخرى : مدرك .



افْتِتَاحٌ <sup>(١)</sup> أَهْلُ اللِّسَانِ التَّرَاكِيْبِ مِنَ الحُرُوفِ المُتَنَافِرَةِ أَوْ المُتَقَارِبَةِ المَخَارِجِ فَإِنَّهُ  
 مِنْ بَابِهِ . وَثَانِيًا : تُنَاسِبُهَا فِي الأَجْزَاءِ كَمَا مَرَّ أَوَّلُ البَابِ فَيُخْرَجُ مِنَ الصَّوْتِ إِلَى  
 نِصْفِهِ أَوْ ثُلُثِهِ أَوْ جُزْءٍ مِنْ كَذَا مِنْهُ . عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ التَّنْقُلُ مُتَنَاسِبًا عَلَى  
 مَا حَصَرَهُ أَهْلُ الصَّنَاعَةِ <sup>(٢)</sup> . فَإِذَا كَانَتِ الأَصْوَاتُ عَلَى تَنَاسُبٍ فِي الكَيْفِيَّاتِ كَمَا  
 ذَكَرَهُ أَهْلُ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ كَانَتْ مُلَاقِمَةً مُلْدَوْدَةً . وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يَكُونُ  
 بَسِيطًا وَيَكُونُ الكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ مَطْبُوعًا عَلَيْهِ لَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى تَعْلِيمٍ وَلَا  
 صِنَاعَةٍ كَمَا نَجِدُ المَطْبُوعِينَ عَلَى المَوَازِينِ الشُّعْرِيَّةِ وَتَوْقِيعِ الرُّقْصِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ .  
 وَتُسَمَّى العَامَّةُ هَذِهِ القَابِلِيَّةُ بِالمِضْمَارِ . وَكَثِيرٌ مِنَ القُرَّاءِ بِهَذِهِ المَثَابَةِ يَقْرَأُونَ  
 القُرْآنَ فَيُجِيدُونَ فِي تَلَاْحِينِ أَصْوَاتِهِمْ كَأَنَّهَا المَزَامِيرُ فَيُطْرَبُونَ بِحُسْنِ مَسَاقِيمِهِمْ  
 وَتَنَاسِبِ نَعْمَاتِهِمْ . وَمِنْ هَذَا التَّنَاسُبِ مَا يَحْدُثُ بِالتَّرْكِيبِ وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ  
 يَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ وَلَا كُلُّ الطَّبَاعِ <sup>(٣)</sup> تُوَافِقُ صَاحِبَهَا فِي العَمَلِ بِهِ إِذَا عَلِمَ . وَهَذَا هُوَ  
 التَّلْحِينُ الَّذِي يَتَكَفَّلُ بِهِ عِلْمُ المَوْسِيقِيِّ كَمَا نَشْرَحُهُ بَعْدَ ذِكْرِ العُلُومِ . وَقَدْ  
 أَنْكَرَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى القِرَاءَةَ بِالتَّلْحِينِ وَأَجَازَهَا الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى  
 عَنْهُ . وَلَيْسَ المُرَادُ تَلْحِينَ المَوْسِيقِيِّ الصَّنَاعِيِّ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْتَلَفَ فِي حَظْرِهِ  
 إِذْ صِنَاعَةُ العِنَاءِ مُبَايِنَةٌ للقُرْآنِ بِكُلِّ وَجْهِ لِأَنَّ القِرَاءَةَ والأَدَاءَ تَحْتَاجُ إِلَى مِقْدَارٍ مِنَ  
 الصَّوْتِ لِتَعْيِينِ أَدَاءِ الحُرُوفِ لَا مِنْ حَيْثُ اتِّبَاعُ الحَرَكَاتِ فِي مَوَاضِعِهَا وَمِقْدَارِ المَدِّ  
 عِنْدَ مَنْ يُطَلِّقُهُ أَوْ يَقْصُرُهُ . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَالتَّلْحِينُ أَيْضًا يَتَعَيَّنُ لَهُ مِقْدَارٌ مِنَ  
 الصَّوْتِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ مِنْ أَجْلِ التَّنَاسُبِ الَّذِي قُلْنَا فِي حَقِيقَةِ التَّلْحِينِ . وَاعْتِبَارُ  
 أَحَدِهِمَا قَدْ يَخْلُ بِالأَخْرَ إِذَا تَعَارَضَا . وَتَقْدِيمُ الرِّوَايَةِ <sup>(٤)</sup> مُتَعَيَّنٌ فَرَارًا مِنْ تَغْيِيرِ  
 الرِّوَايَةِ المَنْقُولَةِ فِي القُرْآنِ ، فَلَا يُمَكِّنُ اجْتِمَاعَ التَّلْحِينِ والأَدَاءِ المُعْتَبَرِ فِي القُرْآنِ

(١) وفي نسخة أخرى : استفتاح .

(٢) أي أهل صناعة الموسيقى .

(٣) وفي نسخة أخرى : الطباع .

(٤) وفي نسخة أخرى : التلاوة .

بُوجِهٍ وَإِنَّمَا مَرَادُهُمُ التَّلْحِينُ البَّسِيطُ الَّذِي يَهْتَدِي إِلَيْهِ صَاحِبُ المِضْمَارِ بِطَبِيعِهِ  
كَمَا قَدَّمَاهُ فَيَرَدُّدُ أَصَوَاتُهُ تَرْدِيداً عَلَى نِسْبِ يُدْرِكُهَا العَالِمُ بِالغِنَاءِ وَغَيْرُهُ وَلَا  
يَنْبَغِي ذَلِكَ بُوجِهٍ وَإِنَّمَا المُرَادُ مِنْ اخْتِلَافِهِمُ التَّلْحِينُ البَّسِيطُ الَّذِي يَهْتَدِي إِلَيْهِ  
صَاحِبُ المِضْمَارِ بِطَبِيعِهِ كَمَا قَدَّمَاهُ ، فَيَرَدُّدُ أَصَوَاتُهُ تَرْدِيداً عَلَى نِسْبِ يُدْرِكُهَا  
العَالِمُ بِالغِنَاءِ وَغَيْرُهُ ، وَلَا يَنْبَغِي ذَلِكَ بُوجِهٍ كَمَا قَالَه مَالِكٌ . هَذَا هُوَ مَحَلُّ  
الْخِلَافِ . وَالظَّاهِرُ تَنْزِيهِه القُرْآنَ عَنْ هَذَا كُلِّهِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى  
لأنَّ القُرْآنَ مَحَلُّ خُشُوعٍ يَذْكَرُ المَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ وَلَيْسَ مَقَامُ التَّنَادُ بِإِذْرَاكِ الحَسَنِ  
مِنَ الأَصْوَاتِ . وَهَكَذَا كَانَتْ قِرَاءَةُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كَمَا فِي أَخْبَارِهِمْ . وَأَمَّا  
قَوْلُهُ ﷺ : « لَقَدْ أوتِي مِزْمَاراً مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » فَلَيْسَ المُرَادُ بِهِ التَّرْدِيدُ  
والتَّلْحِينُ إِنَّمَا مَعْنَاهُ حُسْنُ الصَّوْتِ وَأَدَاءُ القِرَاءَةِ وَالإِبَانَةُ فِي مَخَارِجِ الحُرُوفِ  
وَالنُّطْقُ بِهَا . وَإِذْ قَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى الغِنَاءِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَحْدُثُ فِي العُمُرَانِ إِذَا تَوَفَّرَ  
وَتَجَاوَزَ حَدَّ الضَّرُورِيِّ إِلَى الحَاجِي . ثُمَّ إِلَى الكَمَالِيِّ ، وَتَفَنَّنُوا فِيهِ ، فَتَحَدَّثَ هَذِهِ  
الصَّنَاعَةُ ، لِأَنَّهُ لَا يَسْتَدْعِيهَا إِلَّا مَنْ فَرَعَ مِنْ جَمِيعِ حَاجَاتِهِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْمُهَيِّمَةِ مِنْ  
المَعَاشِ وَالْمَنْزِلِ وَغَيْرِهِ فَلَا يَطْلُبُهَا إِلَّا الفَارِغُونَ عَنْ سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ تَفَنَّنُوا فِي مَذَاهِبِ  
المَلْدُودَاتِ . وَكَانَ فِي سُلْطَانِ العَجَمِ قَبْلَ المِائَةِ مِنْهَا بَحْرٌ زَاخِرٌ فِي أَمْصَارِهِمْ  
وَمُدُنِهِمْ . وَكَانَ مُلُوكُهُمْ يَتَّخِذُونَ ذَلِكَ وَيُولَعُونَ بِهِ ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ لِمُلُوكِ الفُرسِ  
اهْتِمَامٌ بِأَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَلَهُمْ مَكَانٌ فِي دَوْلَتِهِمْ ، وَكَانُوا يَحْضُرُونَ مَشَاهِدَهُمْ  
وَمَجَامِعَهُمْ وَيَعْنُونَ فِيهَا . وَهَذَا شَأْنُ العَجَمِ لِهَذَا العَهْدِ فِي كُلِّ أَفْقٍ مِنْ أَفَاقِهِمْ ،  
وَمَمْلَكَةٍ مِنْ مَمَالِكِهِمْ . وَأَمَّا العَرَبُ فَكَانَ لَهُمْ أَوْلَا فُنُّ الشُّعْرِ يُؤَلَّفُونَ فِيهِ الكَلَامُ  
أَجْزَاءً مُتَسَاوِيَةً عَلَى تَنَاسُبِ بَيْنِهَا فِي عِدَّةِ حُرُوفِهَا المُتَحَرِّكَةِ وَالسَّاكِنَةِ . وَيُفَضَّلُونَ  
الكَلَامَ فِي تِلْكَ الأَجْزَاءِ تَفْصِيلاً يَكُونُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مُسْتَقِلاً بِالإِفَادَةِ ، لَا يَنْعَطِفُ  
عَلَى الأَخْرِ . وَيُسَمُّونَهُ البَيْتَ . فَتِلَاثُ الطَّبَعِ بِالتَّجْزِئَةِ أَوْلَا ، ثُمَّ يَتَنَاسَبُ الأَجْزَاءُ فِي  
المَقَاطِعِ وَالْمَبَادِيءِ ، ثُمَّ يَتَأَدِّيهِ المَعْنَى المَقْصُودَ وَتَطْبِيقِ الكَلَامِ عَلَيْهَا . فَلَهَجُوا

بِهِ فَاِمْتَاَزَ مِنْ بَيْنِ كَلَامِهِمْ بِخَطِّ مِنَ الشَّرْفِ لَيْسَ لِغَيْرِهِ لِأَجْلِ اِخْتِصَاصِهِ . بِهَذَا  
 التَّنَاسُبِ . وَجَعَلُوهُ دِيوَانًا لِأَخْبَارِهِمْ وَحُكْمِهِمْ وَشَرَفِهِمْ وَمَحْكَأً لِقَرَائِحِهِمْ فِي إِصَابَةِ  
 الْمَعَانِي وَإِجَادَةِ الْأَسَالِيبِ . وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ . وَهَذَا التَّنَاسُبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِ  
 الْأَجْزَاءِ وَالْمُتَحَرِّكِ وَالسَّاكِنِ مِنَ الْحُرُوفِ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ مِنْ تَنَاسُبِ الْأَصْوَاتِ كَمَا  
 هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ الْمَوْسِيقَى . إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا بِمَا سِوَاهُ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ لَمْ  
 يَنْتَحِلُوا عِلْمًا وَلَا عَرَفُوا صِنَاعَةً . وَكَانَتْ الْبِدَاوَةُ أَغْلَبَ نَجْلِهِمْ . ثُمَّ تَغَنَّى الْحَدَاةُ  
 مِنْهُمْ فِي جِدَاءِ إِيْلِهِمْ وَالْفَتْيَانُ فِي فِضَاءِ خَلَوَاتِهِمْ فَرَجَعُوا الْأَصْوَاتِ وَتَرْتَمَوْا . وَكَانُوا  
 يُسْمُونَ التَّرْنُمَ إِذَا كَانَ بِالشَّعْرِ غِنَاءً وَإِذَا كَانَ بِالتَّهْلِيلِ أَوْ نَوْعِ الْقِرَاءَةِ تَغْيِيرًا بِالْغَيْنِ  
 الْمُعْجَمَةِ وَالْبَاءِ الْمَوْحَدَةِ . وَعَلَّلَهَا أَبُو إِسْحَاقَ الرَّجَّاجُ بِأَنَّهَا تُذَكَّرُ بِالْغَايِرِ وَهُوَ  
 الْبَاقِي أَي بِأَحْوَالِ الْآخِرَةِ . وَرُبَّمَا نَاسَبُوا فِي غِنَائِهِمْ بَيْنَ النَّغْمَاتِ مُنَاسَبَةً بَسِيطَةً  
 كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيقٍ آخِرَ كِتَابِ الْعُمْدَةِ وَغَيْرِهِ . وَكَانُوا يُسْمُونَهُ السَّنَادَ . وَكَانَ  
 أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي الْخَفِيفِ الَّذِي يُرْقِصُ عَلَيْهِ وَيَمْشَى بِالْدَفِّ وَالْمِرْمَارِ  
 فَيَضْطَرِبُ وَيَسْتَخِفُّ الْحُلُومَ . وَكَانُوا يُسْمُونَ هَذَا التَّهْرَجَ وَهَذَا الْبَسِيطَ كُلَّهُ مِنْ  
 التَّلَاحِينِ هُوَ مِنْ أَوَائِلِهَا وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَنْفَطِنَ لَهُ الطَّبَاعُ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمِ شَأْنِ الْبَسَائِطِ  
 كُلِّهَا مِنَ الصَّنَائِعِ . وَلَمْ يَزَلْ هَذَا شَأْنَ الْعَرَبِ فِي بَدَاوَتِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ . فَلَمَّا جَاءَ  
 الْإِسْلَامُ وَاسْتَوْلُوا عَلَى مَمَالِكِ الدُّنْيَا وَحَازُوا سُلْطَانَ الْعَجَمِ وَعَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَكَانُوا مِنْ  
 الْبِدَاوَةِ وَالْعِضَاصَةِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي عَرَفَتْ لَهُمْ مَعَ غَضَارَةِ الدِّينِ وَشِدَّتِهِ فِي تَرْكِ  
 أَحْوَالِ الْفُرَاقِ وَمَا لَيْسَ بِنَافِعٍ فِي دِينٍ وَلَا مَعَاشٍ فَهَجَرُوا ذَلِكَ شَيْئًا مَا . وَلَمْ يَكُنْ  
 الْمَلْدُودُ عِنْدَهُمْ إِلَّا تَرْجِيعَ الْقِرَاءَةِ<sup>(١)</sup> وَالتَّرْنُمَ بِالشَّعْرِ الَّذِي هُوَ دَيْدِنُهُمْ وَمَذْهَبُهُمْ .  
 فَلَمَّا جَاءَهُمُ التَّرَفُ وَعَلَبَ عَلَيْهِمُ الرَّفَّةُ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ غَنَائِمِ الْأَمَمِ صَارُوا إِلَى  
 نَضَارَةِ الْعَيْشِ وَرَقَّةِ الْحَاشِيَةِ وَاسْتَحْلَاءِ الْفُرَاقِ . وَافْتَرَقَ الْمُغْنُونَ مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ  
 فَوَقَعُوا إِلَى الْحِجَازِ وَصَارُوا مَوَالِي لِّلْعَرَبِ وَغَنُّوا جَمِيعًا بِالْعِيدَانِ وَالطَّنَائِيرِ

(١) وفي نسخة أخرى : ترجيع القرآن .

وَالْمَعَارِفِ وَالْمَزَامِيرِ وَسَمِعَ الْعَرَبُ تَلْحِينَهُمْ لِلأَصْوَاتِ فَلَحْنُوا عَلَيْهَا أَشْعَارَهُمْ . وَظَهَرَ  
بِالْمَدِينَةِ نَشِيطُ الْفَارِسِيِّ وَطُوَيْسٌ وَسَائِبُ بْنُ جَابِرٍ<sup>(١)</sup> مَوْلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ  
فَسَمِعُوا شِعْرَ الْعَرَبِ وَلَحْنُوهُ وَأَجَادُوا فِيهِ وَطَارَ لَهُمْ ذِكْرٌ . ثُمَّ أَخَذَ عَنْهُمْ مَعْبَدٌ وَطَبَقْتُهُ  
وَأَبْنُ شُرَيْجٍ<sup>(٢)</sup> وَأَنْظَارَةٌ . وَمَا زَالَتْ صِنَاعَةُ الْغِنَاءِ تَتَدْرَجُ إِلَى أَنْ كَمَلَتْ أَيَّامَ بَنِي  
الْعَبَّاسِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ الْمُؤَصِّلِيِّ وَأَبْنِهِ إِسْحَاقَ وَأَبْنِهِ حَمَّادَ .  
وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ فِي دَوْلَتِهِمْ بِنَغْدَادَ مَا تَبَعَهُ الْحَدِيثُ بَعْدَهُ بِهِ وَبِمَجَالِسِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ  
وَأَمَعْنُوا فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَاتَّخَذَتْ آيَاتُ الرُّقْصِ فِي الْمَلِيسِ وَالْقُضْبَانِ وَالْأَشْعَارُ الَّتِي  
يَتَرَنَّمُ بِهَا عَلَيْهِ . وَجُعِلَ صِنْفًا وَخَدَهُ وَاتَّخَذَتْ آيَاتُ أُخْرَى لِلرُّقْصِ تُسَمَّى  
بِالْكُرْجِ<sup>(٣)</sup> وَهِيَ تَمَائِيلُ خَيْلٍ مُسْرَجَةٍ مِنَ الْخَشَبِ مُعَلَّقَةٌ بِأَطْرَافِ أُقْبِيَّةٍ يَلْبَسُهَا  
النِّسْوَانُ وَيُحَاكِينَ بِهَا امْتِطَاءَ الْخَيْلِ فَيَكْرُونَ وَيَفِرُونَ وَيَتَشَاقِفُونَ<sup>(٤)</sup> وَأَمْثَالُ ذَلِكَ  
مِنَ اللَّعِبِ الْمُعَدَّةِ لِلْوَلَائِمِ وَالْأَعْرَاسِ وَأَيَّامِ الْأَعْيَادِ وَمَجَالِسِ الْفِرَاقِ وَاللَّهْوِ . وَكَثُرَ  
ذَلِكَ بِبَغْدَادَ وَأَمْصَارَ الْعِرَاقِ وَانْتَشَرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا . وَكَانَ لِلْمُؤَصِّلِيِّينَ غَلَامٌ اسْمُهُ  
زُرْيَابٌ أَخَذَ عَنْهُمْ الْغِنَاءَ فَأَجَادَ فَصَرَفُوهُ إِلَى الْمَغْرِبِ غَيْرَةَ مِنْهُ فَلَحِقَ بِالْحَكَمِ بْنِ  
هَشَامِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّخِيلِ أَمِيرِ الْأَنْدَلُسِ . فَبَالَغَ فِي تَكْرِمَتِهِ وَرَكِبَ لِقَائِهِ  
وَأَسْنَى لَهُ الْجَوَائِزَ وَالْإِقْطَاعَاتِ وَالْجِرَايَاتِ وَأَحْلَهُ مِنْ دَوْلَتِهِ وَنَدَمَائِهِ بِمَكَانٍ .  
فَأَوْرَثَ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ صِنَاعَةِ الْغِنَاءِ مَا تَنَاقَلُوهُ إِلَى أَرْزَامِ الطَّوَائِفِ . وَطَمًا مِنْهَا  
بِأُسْبِيلِيَّةٍ بَحْرٌ زَاخِرٌ وَتَنَاقَلَ مِنْهَا بَعْدَ ذَهَابِ غُضَارَتِهَا إِلَى بِلَادِ الْعُدُوَّةِ بِأَفْرِيْقِيَّةٍ  
وَالْمَغْرِبِ . وَانْقَسَمَ عَلَى أَمْصَارِهَا وَبِهَا الْآنَ مِنْهَا صُبَابَةٌ عَلَى تَرَاجُعِ عُمْرَانِهَا وَتَنَاقُصِ  
دَوْلِهَا . وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ أُخْرَى مَا يَحْضَلُ فِي الْعُمْرَانِ مِنَ الصَّنَائِعِ لِأَنَّهَا كَمَالِيَّةٌ فِي غَيْرِ  
وِظِيْفَةٍ مِنَ الْوِظَائِفِ إِلَّا وَظِيْفَةُ الْفِرَاقِ وَالْفَرَحِ . وَهُوَ أَيْضًا أَوَّلُ مَا يَنْقَطِعُ مِنَ  
الْعُمْرَانِ عِنْدَ اخْتِلَالِهِ وَتَرَاجُعِهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(١) وفي نسخة أخرى : سائب وحائر . وفي النسخة الباريسية خائر مولى عبد الله بن جعفر .

(٢) وفي نسخة أخرى : ابن سريج .

(٤) أي يلعبون بالسلاح .

(٣) وفي نسخة أخرى : الكرج .

## الفصل الثالث والثلاثون

في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب  
 قَدْ ذَكَّرْنَا فِي الْكِتَابِ أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ لِلْإِنْسَانِ إِنَّمَا تَوْجَدُ فِيهِ بِالْقُوَّةِ . وَأَنَّ  
 خُرُوجَهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِنَّمَا هُوَ بِتَجَدُّدِ الْعُلُومِ وَالْإِدْرَاكَاتِ عَنِ الْمَحْسُوسَاتِ  
 أَوَّلًا ، ثُمَّ مَا يُكْتَسَبُ بَعْدَهَا بِالْقُوَّةِ النَّظْرِيَّةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ إِدْرَاكًا بِالْفِعْلِ وَعَقْلًا  
 مَخْضًا فَتَكُونُ ذَاتًا رُوحَانِيَّةً وَيَسْتَكْمِلُ حِينَئِذٍ وَجُودَهَا . فَوَجِبَ لِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ  
 كُلُّ نَوْعٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّظَرِ يُفِيدُهَا عَقْلًا فَرِيدًا <sup>(١)</sup> وَالصَّنَائِعُ أَبَدًا يَخْصُلُ عَنْهَا وَعَنْ  
 مَلَكَتِهَا قَانُونٌ عِلْمِيٌّ مُسْتَفَادٌ مِنْ تِلْكَ الْمَلَكَةِ . فَلِهَذَا كَانَتِ الْخُنْكَةُ فِي التَّجْرِبَةِ تُفِيدُ  
 عَقْلًا وَالْحِضَارَةُ الْكَامِلَةُ تُفِيدُ عَقْلًا لِأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ صَنَائِعٍ فِي شَأْنِ تَذْيِيرِ الْمَنْزِلِ  
 وَمُعَاشَرَةِ أَوْلَادِهَا وَشَرَائِطِهَا . وَهَذِهِ كُلُّهَا قَوَانِينُ تَنْتَظِمُ عُلُومًا فَيَخْصُلُ مِنْهَا زِيَادَةُ  
 عَقْلٍ . وَالْكِتَابَةُ مِنْ بَيْنِ الصَّنَائِعِ أَكْثَرُ إِفَادَةً لِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى الْعُلُومِ  
 وَالْأَنْظَارِ بِخِلَافِ الصَّنَائِعِ . وَبَيَانُهُ أَنَّ فِي الْكِتَابَةِ انْتِقَالَ مِنَ الْحُرُوفِ الْخَطِيَّةِ إِلَى  
 الْكَلِمَاتِ اللَّفْظِيَّةِ فِي الْخَيَالِ وَمِنَ الْكَلِمَاتِ اللَّفْظِيَّةِ فِي الْخَيَالِ إِلَى الْمَعَانِي الَّتِي فِي  
 النَّفْسِ فَهِيَ يَنْتَقِلُ أَبَدًا مِنْ دَلِيلٍ إِلَى دَلِيلٍ ، مَا دَامَ مُلْتَبِسًا بِالْكِتَابَةِ وَتَتَعَوَّدُ النَّفْسُ  
 ذَلِكَ دَائِمًا . فَيَخْصُلُ لَهَا مَلَكَةُ الْإِنْتِقَالِ مِنَ الْأَدَلَّةِ إِلَى الْمَدْلُولَاتِ وَهُوَ مَعْنَى النَّظَرِ  
 الْعَقْلِيِّ الَّذِي يُكْسَبُ <sup>(٢)</sup> الْعُلُومَ الْمَجْهُولَةَ فَيُكْسَبُ بِذَلِكَ مَلَكَةٌ مِنَ التَّعْقُلِ تَكُونُ  
 زِيَادَةَ عَقْلٍ وَيَخْصُلُ بِهِ قُوَّةٌ <sup>(٣)</sup> فِطْنِيَّةٌ وَكَيْسٌ فِي الْأُمُورِ لِمَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ ذَلِكَ  
 الْإِنْتِقَالِ . وَلِذَلِكَ قَالَ كِسْرِيُّ فِي كِتَابِهِ لِمَا رَأَاهُمْ يَتْلُوكِ الْفِطْنَةَ وَالْكَيسَ فَقَالَ :  
 « دِيْوَانُهُ أَيْ شَيَاطِينُ وَجُنُونَ . قَالُوا : وَذَلِكَ أَصْلُ اسْتِثْقَاقِ الدِّيْوَانِ لِأَهْلِ الْكِتَابَةِ »

(١) وفي النسخة الباريسية : عقلاً مزيداً .

(٢) وفي نسخة أخرى : يكتب به .

(٣) وفي نسخة أخرى : مزيد .

وَيُلْحَقُ بِذَلِكَ الْحُسَابُ فَإِنَّ فِي صِنَاعَةِ الْحُسَابِ نَوْعَ تَصَرُّفٍ فِي الْعَدَدِ بِالضَّمِّ  
وَالْتَفْرِيقِ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى اسْتِدْلَالٍ كَثِيرٍ فَيَبْقَى مُتَعَوِّدًا لِلِاسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ وَهُوَ مَعْنَى  
الْعَقْلِ . وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ  
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ .

## الباب السادس

### من الكتاب الأول

في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك  
كله

#### من الأحوال وفيه مقدمة ولواحق

فَالْمُقَدِّمَةُ فِي الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ ، الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ الْبَشَرُ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَاهْتَدَى بِهِ  
لِتَحْصِيلِ مَعَاشِهِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَالنَّظَرُ فِي مَعْبُودِهِ ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ  
الرُّسُلُ مِنْ عِنْدِهِ ، فَصَارَ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ فِي طَاعَتِهِ وَمَلِكُ قُدْرَتِهِ وَفَضْلِهِ بِهِ عَلَى  
كَثِيرٍ خَلَقِهِ .

### الفصل الأول

#### في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ شَارَكَهُ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ مِنَ الْجِسِّ  
وَالْحَرَكَةِ وَالغِذَاءِ وَالْكَيْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَإِنَّمَا تَمَيَّزَ عَنْهَا بِالْفِكْرِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ  
لِتَحْصِيلِ مَعَاشِهِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَالِاجْتِمَاعِ الْمُهَيَّءِ لِذَلِكَ التَّعَاوُنِ

وَقَبُولِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْعَمَلِ بِهِ وَاتِّبَاعِ صَلَاحِ آخِرَاهُ . فَهُوَ مُنْكَرٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ دَائِمًا لَا يَفْتَرُّ عَنِ الْفِكْرِ فِيهِ طَرَفَةً عَيْنٍ بَلِ اخْتِلَاجِ الْفِكْرِ أَسْرَعُ مِنْ لَمَحِ الْبَصْرِ . وَعَنْ هَذَا الْفِكْرِ تَنْشَأُ الْعُلُومُ وَمَا قَدَّمَاهُ مِنَ الصَّنَائِعِ . ثُمَّ لِأَجْلِ هَذَا الْفِكْرِ وَمَا جَبَلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ بَلِ الْحَيَوَانَ مِنْ تَحْصِيلِ مَا تَسْتَدْعِيهِ الطَّبَاعُ فَيَكُونُ الْفِكْرُ رَاجِعًا فِي تَحْصِيلِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الْإِذْرَاقَاتِ فَيَرْجِعُ إِلَى مَنْ سَبَقَهُ بِعِلْمٍ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَةٍ أَوْ إِذْرَاقٍ أَوْ أَخَذَهُ مِمَّنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَهُ لِمَنْ تَلَقَّاهُ فَيَلْقُنُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيَحْرُصُ عَلَى أَخْذِهِ وَعِلْمِهِ . ثُمَّ إِنَّ فِكْرَهُ وَنَظَرَهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ الْحَقَائِقِ وَيَنْظُرُ مَا يَعْضُ لَهُ لِذَاتِهِ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ وَيَتَمَرَّنُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَصِيرَ إِلْحَاقَ الْعَوَارِضِ بِتِلْكَ الْحَقِيقَةِ مَلَكَةً لَهُ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ عِلْمُهُ بِمَا يَعْضُ لِتِلْكَ الْحَقِيقَةِ عِلْمًا مَخْصُوصًا . وَتَتَشَوَّفُ نَفُوسُ أَهْلِ الْجِيلِ النَّاشِئِ إِلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ فَيَفْزَعُونَ إِلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِهِ وَيَجِيءُ التَّعْلِيمُ مِنْ هَذَا . فَقَدْ تَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

## الفصل الثاني

### في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع

وَذَلِكَ أَنَّ الْحِذْقَ فِي الْعِلْمِ وَالتَّفَنُّنَ فِيهِ وَالِاسْتِيْلَاءَ عَلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ مَلَكَةِ فِي الْإِحَاطَةِ بِمَبَادِيهِ وَقَوَاعِدِهِ وَالْوُقُوفَ عَلَى مَسَائِلِهِ وَاسْتِنْبَاطِ فُرُوعِهِ مِنْ أَصُولِهِ . وَمَا لَمْ تَحْضَلْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لَمْ يَكُنِ الْحِذْقُ فِي ذَلِكَ الْفَنِّ الْمُتَنَاوِلِ حَاصِلًا . وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ هِيَ فِي غَيْرِ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ . لِأَنَّا نَجِدُ فَنَّهُ الْمَسْأَلَةَ الْوَاحِدَةَ مِنَ الْفَنِّ الْوَاحِدِ وَوَعْيِهَا مُشْتَرَكًا بَيْنَ مَنْ شَدَا فِي ذَلِكَ الْفَنِّ وَبَيْنَ مَنْ هُوَ مُبْتَدِئٌ فِيهِ وَبَيْنَ الْعَامِيِّ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ<sup>(١)</sup> عِلْمًا وَبَيْنَ الْعَالِمِ النَّحْرِيْرِ . وَالْمَلَكَةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْعَالِمِ أَوْ الشَّادِي فِي الْفُنُونِ دُونَ مَنْ سِوَاهُمَا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَلَكَةَ غَيْرُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ . وَالْمَلَكَاتُ

(١) وفي نسخة أخرى: يَحْضَلُ .

كُلِّمَهَا جِسْمَانِيَّةً سِوَاءَ كَانَتْ فِي الْبَدَنِ أَوْ فِي الدِّمَاجِ مِنَ الْفِكْرِ وَغَيْرِهِ كَالْحِسَابِ .  
وَالْجِسْمَانِيَّاتُ كُلُّهَا مَحْسُوسَةٌ فَتَفْتَقِرُ إِلَى التَّعْلِيمِ . وَلِهَذَا كَانَ السُّنْدُ فِي التَّعْلِيمِ فِي كُلِّ  
عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ يَفْتَقِرُ إِلَى مَشَاهِيرِ الْمُعَلِّمِينَ فِيهَا مُعْتَبَرًا عِنْدَ كُلِّ أَهْلِ أَفْقٍ وَجِيلٍ .  
وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ صِنَاعَةٌ اخْتِلَافِ الْإِضْطِلَاحَاتِ فِيهِ . فَلِكُلِّ إِمَامٍ مِنَ  
الْأَيِّمَةِ الْمَشَاهِيرِ اضْطِلَاحٌ فِي التَّعْلِيمِ يَخْتَصُّ بِهِ شَأْنَ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا فَذَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ  
الِاضْطِلَاحَ لَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ ، وَإِذْ لَوْ كَانَ مِنَ الْعِلْمِ لَكَانَ وَاحِدًا عِنْدَ جَمِيعِهِمْ . أَلَا  
تَرَى إِلَى عِلْمِ الْكَلَامِ كَيْفَ تَخَالَفَ فِي تَعْلِيمِهِ اضْطِلَاحُ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ وَكَذَا  
أُصُولُ الْفِقْهِ وَكَذَا الْعَرَبِيَّةُ وَكَذَا كُلُّ عِلْمٍ يَتَوَجَّهُ <sup>(١)</sup> إِلَى مُطَالَعَتِهِ تَجِدُ الْإِضْطِلَاحَاتِ  
فِي تَعْلِيمِهِ مُتَخَالَفَةً فَذَلَّ عَلَى أَنَّهَا صِنَاعَاتٌ فِي التَّعْلِيمِ . وَالْعِلْمُ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ . وَإِذَا  
تَفَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ سُنْدَ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ كَادَ يَنْقَطِعُ عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ  
بِاخْتِلَالِ عُمُرَانِهِ وَتَنَاقُصِ الدُّوَلِ فِيهِ . وَمَا يَخْدُثُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ نَقْصِ الصَّنَائِعِ  
وَفِقْدَانِهَا كَمَا مَرَّ . وَذَلِكَ أَنَّ الْقَيْرَوَانَ وَقَرْطَبَةَ كَانَتَا حَاضِرَتَيْ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ  
وَاسْتَبْحَرَ عُمُرَانُهُمَا وَكَانَ فِيهِمَا لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ أَسْوَاقٌ نَافِقَةٌ وَبُحُورٌ زَاحِرَةٌ . وَرَسَخَ  
فِيهِمَا التَّعْلِيمُ لِإِمْتِدَادِ عَصُورِهِمَا وَمَا كَانَ فِيهِمَا مِنَ الْحَضَارَةِ . فَلَمَّا خَرَبْنَا انْقَطَعَ  
التَّعْلِيمُ مِنَ <sup>(٢)</sup> الْمَغْرِبِ إِلَّا قَلِيلًا كَانَ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ بِمَرَاكِشَ مُسْتَفَادًا مِنْهَا .  
وَلَمْ تَرَسَخِ الْحَضَارَةُ بِمَرَاكِشَ لِبِدَاوَةِ الدَّوَلَةِ الْمُوَحِّدِيَّةِ فِي أُولَاهَا وَقُرْبِ عَهْدِ انْقِرَاضِهَا  
بِمَبْدئِهَا فَلَمْ تَتَّصِلْ أَحْوَالُ الْحَضَارَةِ فِيهَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ . وَبَعْدَ انْقِرَاضِ الدَّوَلَةِ  
بِمَرَاكِشَ ازْتَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ مِنْ أَفْرِيْقِيَّةِ الْقَاضِي أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ زَيْتُونٍ لِعَهْدِ  
أَوَاسِطِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ فَأَذْرَكَ تَلْمِيذَ الْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ فَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلَقِّنَ تَعْلِيمَهُمْ .  
وَخَدَّقَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَالنَّقْلِيَّاتِ وَرَجَعَ إِلَى تُونَسَ يِعْلَمُ كَثِيرًا وَتَعْلِيمُ حَسَنٍ . وَجَاءَ عَلَى  
أَثَرِهِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ شُعَيْبِ الدُّكَّالِيُّ . كَانَ ازْتَحَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَغْرِبِ  
فَأَخَذَ عَنْ مَشِيخَةِ مِضْرٍ وَرَجَعَ إِلَى تُونَسَ وَاسْتَقَرَّ بِهَا وَكَانَ تَعْلِيمُهُ مُفِيدًا فَأَخَذَ عَنْهُمَا

(٢) وفي النسخة الباريسية : عن المغرب .

(١) وفي النسخة الباريسية : يحتاج .



أهل تُونِسَ . وَاتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِمَا فِي تَلَامِيذِهِمَا جَيْلًا بَعْدَ جَيْلٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْقَاضِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ ، شَارِحِ بْنِ الْحَاجِبِ وَتَلْمِيذِهِ وَانْتَقَلَ مِنْ تُونِسَ إِلَى تَلْمَسَانَ فِي ابْنِ الْإِمَامِ وَتَلْمِيذِهِ . فَإِنَّهُ قَرَأَ مَعَ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ عَلَى مَشِيخَةٍ وَاحِدَةٍ فِي مَجَالِسَ بِأَعْيَانِهَا وَتَلْمِيذِ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ بِتُونِسَ وَابْنِ الْإِمَامِ بِتَلْمَسَانَ لِهَذَا الْعَهْدِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنَ الْقِلَّةِ بِحَيْثُ يُخْشَى انْقِطَاعَ سَنَدِهِمْ . ثُمَّ ارْتَحَلَ مِنْ زَوَاوَةِ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ الدِّينِ الْمَشْدَالِيُّ وَأَذْرَكَ تَلْمِيذَ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْحَاجِبِ وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلَقِّنَ تَعْلِيمَهُمْ . وَقَرَأَ مَعَ شَهَابِ الدِّينِ الْفِرَافِيِّ فِي مَجَالِسَ وَاحِدَةٍ وَحَدِّقَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَالنَّقْلِيَّاتِ . وَرَجَعَ إِلَى الْمَغْرِبِ يَعْلَمُ كَثِيرًا وَتَعْلِيمٌ مُفِيدٌ . وَنَزَلَ بِبِجَايَةَ وَاتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِ فِي طَلَبَتِهَا . وَرُبَّمَا انْتَقَلَ إِلَى تَلْمَسَانَ عُمَرَانُ الْمَشْدَالِيُّ <sup>(١)</sup> مِنْ تَلْمِيذِهِ وَأَوْطَنَهَا وَبَثَّ طَرِيقَتَهُ فِيهَا . وَتَلْمِيذُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ بِبِجَايَةَ وَتَلْمَسَانَ قَلِيلٌ أَوْ أَقَلُّ مِنَ الْقَلِيلِ . وَبَقِيَتْ فَاسٌ وَسَائِرُ أَقْطَارِ الْمَغْرِبِ خُلُوعًا مِنْ حُسْنِ التَّعْلِيمِ مِنْ لَدُنْ انْقِرَاضِ تَعْلِيمِ قُرْطُبَةَ وَالْقَيْرَوَانَ وَلَمْ يَتَّصِلْ سَنَدُ التَّعْلِيمِ فِيهِمْ فَعَسَرَ عَلَيْهِمْ حُصُولُ الْمَلَكَةِ وَالْحَدِّقُ فِي الْعُلُومِ . وَأَيْسَرَ طَرِيقَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فَتَقَى <sup>(٢)</sup> اللِّسَانَ بِالمُحَاوَرَةِ وَالمُنَاطَرَةِ فِي الْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ فَهُوَ الَّذِي يُقَرَّبُ شَأْنَهَا وَيَحْضُلُ مَرَامَهَا . فَتَجَدُّ طَالِبِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ الْكَثِيرِ مِنْ أَعْمَارِهِمْ فِي مِلَازِمَةِ الْمَجَالِسِ الْعِلْمِيَّةِ سَكُوتًا لَا يَنْطَقُونَ وَلَا يُفَاوِضُونَ وَعِنَايَتُهُمْ بِالْحِفْظِ أَكْثَرُ مِنَ الْحَاجَةِ . فَلَا يَحْضُلُونَ عَلَى طَائِلٍ مِنَ مَلَكَةِ التَّصْرِيفِ فِي الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ ، ثُمَّ بَعْدَ تَخْصِيلِ مَنْ يَرَى مِنْهُمْ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ تَجَدُّ مَلَكَتَهُ قَاصِرَةً فِي عِلْمِهِ إِنْ فَاوَضَ أَوْ نَاطَرَ أَوْ عَلَّمَ وَمَا أَتَاهُمْ الْقُصُورُ إِلَّا مِنْ قَبْلِ التَّعْلِيمِ وَانْقِطَاعِ سَنَدِهِ . وَإِلَّا فَحِفْظُهُمْ أَبْلَغُ مِنْ حِفْظِ سِوَاهُمْ لِشِدَّةِ عِنَايَتِهِمْ بِهِ . وَظَنُّهُمْ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ مِنَ الْمَلَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . وَمِمَّا يَشْهَدُ بِذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ أَنَّ الْمُدَّةَ الْمُعَيَّنَةَ لِسُكْنَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ بِالمَدَارِسِ عِنْدَهُمْ سِتُّ عَشْرَةَ سَنَةً وَهِيَ بِتُونِسَ خَمْسُ سِنِينَ . وَهَذِهِ الْمُدَّةُ بِالمَدَارِسِ عَلَى الْمُتَعَارِفِ

(١) وفي نسخة أخرى : المشد إلى وهو تحريف والمشد إلى ليسة إلى مشدالة من قبائل زوارة في المغرب .

(٢) وفي نسخة أخرى : قوة .

هِيَ أَقْلُ مَا يَتَأْتِي فِيهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ حُصُولُ مُبْتَغَاهُ مِنَ الْمَلَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ أَوْ الْيَأْسِ مِنْ  
تَخْصِيلِهَا فَطَالَ أَمْدُهَا فِي الْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الْمُدَّةِ لِأَجْلِ عُسْرِهَا مِنْ قِلَّةِ الْجُودَةِ فِي التَّعْلِيمِ  
خَاصَّةً لَا مِمَّا سِوَى ذَلِكَ . وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَذَهَبَ رَسْمُ التَّعْلِيمِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَذَهَبَتْ  
عِنَايَتُهُمْ بِالْعُلُومِ لِتَنَاقُصِ عُمُرَانِ الْمُسْلِمِينَ بِهَا مُنْذُ مَبْنِي مِنَ السَّنِينَ . وَلَمْ يَبْقَ مِنْ  
رَسْمِ الْعِلْمِ فِيهِمْ إِلَّا فَنُ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ . اِقْتَصَرُوا عَلَيْهِ وَانْحَفَظَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِ بَيْنَهُمْ  
فَانْحَفَظَ بِحِفْظِهِ . وَأَمَّا الْفِقْهُ بَيْنَهُمْ فَرَسَمَ خُلُوَ وَأَثَرَ بَعْدَ عَيْنٍ . وَأَمَّا الْعُقَلِيَّاتُ فَلَا  
أَثَرَ وَلَا عَيْنَ . وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِانْقِطَاعِ سَنَدِ التَّعْلِيمِ فِيهَا بِتَنَاقُصِ الْعُمُرَانِ وَتَغَلُّبِ الْعَدُوِّ  
عَلَى عَامَّتِهَا إِلَّا قَلِيلًا بِسَيْفِ الْبَحْرِ شَغَلَهُمْ بِمَعَايِشِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ شُغْلِهِمْ بِمَا بَعْدَهَا .  
وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . وَأَمَّا الْمَشْرِقُ فَلَمْ يَنْقَطِعْ سَنَدُ التَّعْلِيمِ فِيهِ بَلْ أَسْوَاقُهُ نَافِقَةٌ  
وَبُحُورُهُ زَاخِرَةٌ لِاتِّصَالِ الْعُمُرَانِ الْمَوْفُورِ وَاتِّصَالِ السَّنَدِ فِيهِ . وَإِنْ كَانَتْ الْأُمُصَارُ  
الْعَظِيمَةُ الَّتِي كَانَتْ مَعَادِنَ الْعِلْمِ قَدْ خَرِبَتْ مِثْلَ بَغْدَادَ وَالْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ إِلَّا أَنَّ  
اللَّهَ تَعَالَى قَدْ آدَالَ مِنْهَا بِأُمُصَارٍ أَعْظَمَ مِنْ تِلْكَ . وَانْتَقَلَ الْعِلْمُ مِنْهَا إِلَى عِرَاقِ الْعَجَمِ  
بِخُرَاسَانَ ، وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ مِنَ الْمَشْرِقِ ، ثُمَّ إِلَى الْقَاهِرَةِ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ، فَلَمْ  
تَزَلْ مَوْفُورَةٌ وَعُمُرَانُهَا مُتَّصِلًا وَسَنَدُ التَّعْلِيمِ بِهَا قَائِمًا . فَأَهْلُ الْمَشْرِقِ عَلَى الْجُمْلَةِ  
أَرْسَخَ فِي صِنَاعَةِ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ بَلْ وَفِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ . حَتَّى إِنَّهُ لَيُظَنُّ كَثِيرٌ مِنْ رَحَالَةٍ  
أَهْلِ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ أَنْ عَقُولُهُمْ<sup>(١)</sup> عَلَى الْجُمْلَةِ أَكْمَلُ مِنْ عَقُولِ  
أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَنَّهِمْ أَشَدُّ نَبَاهَةً وَأَعْظَمَ كَيْسًا بِفِطْرَتِهِمْ الْأُولَى . وَأَنَّ نَفُوسَهُمُ النَّاطِقَةَ  
أَكْمَلُ بِفِطْرَتِهَا مِنْ نَفُوسِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ . وَيَعْتَقِدُونَ التَّفَاوُتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فِي  
حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَيَتَشَيَعُونَ لِذَلِكَ وَيُولَعُونَ بِهِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ كَيْسِهِمْ فِي الْعُلُومِ  
وَالصَّنَائِعِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . وَلَيْسَ بَيْنَ قَطْرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ تَفَاوُتٌ بِهَذَا الْمِقْدَارِ  
الَّذِي هُوَ تَفَاوُتٌ فِي الْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ اللَّهُمَّ إِلَّا الْأَقَالِيمَ الْمُنْحَرِفَةَ مِثْلَ الْأَوَّلِ وَالسَّابِعِ  
فَإِنَّ الْأُمْرَجَةَ فِيهَا مُنْحَرِفَةٌ وَالنُّفُوسَ عَلَى نِسْبَتِهَا كَمَا مَرَّ وَإِنَّمَا الَّذِي فَضَّلَ بِهِ أَهْلُ

(١) أي عقول أهل المشرق .

الْمَشْرِقِ أَهْلَ الْمَغْرِبِ هُوَ مَا يَحْضُلُ فِي النَّفْسِ مِنْ آثَارِ الْحَضَارَةِ مِنَ الْعَقْلِ الْمَزِيدِ  
 كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّنَائِعِ ، وَتَزِيدُهُ الْآنَ شَرْحًا وَتَحْقِيقًا . وَذَلِكَ أَنَّ الْحَضَرَ لَهُمْ آدَابٌ فِي  
 أَحْوَالِهِمْ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَسْكَنِ وَالْبِنَاءِ وَأُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَكَذَا سَائِرِ أَعْمَالِهِمْ  
 وَعَادَاتِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ وَجَمِيعِ تَصَرُّفَاتِهِمْ . فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ آدَابٌ يُوقِفُ عِنْدَهَا فِي  
 جَمِيعِ مَا يَتَنَاوَلُونَهُ وَيَتَلَبَّسُونَ<sup>(١)</sup> بِهِ مِنْ أَخِذٍ وَتَرَكٍ حَتَّى كَأَنَّهَا حُدُودٌ لَا تَتَعَدَى .  
 وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ صَنَائِعٌ يَتَلَقَّاهَا الْآخِرُ عَنِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ . وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ مُرْتَبَةٌ  
 يَرْجِعُ مِنْهَا إِلَى النَّفْسِ أَثَرٌ يُكْسِبُهَا عَقْلًا جَدِيدًا تَسْتَعِدُّ بِهِ لِقَبُولِ صِنَاعَةٍ أُخْرَى  
 وَيَتَهَيَّأُ بِهَا الْعَقْلُ بِسُرْعَةٍ الْإِدْرَاكِ لِلْمَعَارِفِ . وَلَقَدْ بَلَّغْنَا فِي تَغْلِيمِ الصَّنَائِعِ عَنْ أَهْلِ  
 مِصْرَ غَايَاتٍ لَا تُدْرِكُ مِثْلَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْحُمْرَ الْإِنْسِيَّةَ وَالْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمَ مِنْ  
 الْمَاشِيِّ وَالطَّائِرِ مُفْرَدَاتٍ مِنَ الْكَلَامِ وَالْأَفْعَالِ يُسْتَعْرَبُ نُدُورُهَا وَيَعْجَزُ أَهْلُ  
 الْمَغْرِبِ عَنْ فَهْمِهَا فَضْلًا عَنْ تَعْلِيمِهَا وَحُسْنِ الْمَلَكَاتِ فِي التَّغْلِيمِ وَالصَّنَائِعِ وَسَائِرِ  
 الْأَحْوَالِ الْعَادِيَّةِ يَزِيدُ الْإِنْسَانَ ذِكَاءً فِي عَقْلِهِ وَإِضَاءَةً فِي فِكْرِهِ بِكَثْرَةِ الْمَلَكَاتِ  
 الْحَاصِلَةِ لِلنَّفْسِ . إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّ النَّفْسَ إِنَّمَا تَنْشَأُ بِالْإِدْرَاكِاتِ . وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مِنْ  
 الْمَلَكَاتِ فَيَزِدَادُونَ بِذَلِكَ كَيْسًا لِمَا يَرْجِعُ إِلَى النَّفْسِ مِنَ الْآثَارِ الْعِلْمِيَّةِ فَيُظَنُّهُ  
 الْعَامِيُّ تَفَاوُتًا فِي الْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . الْأَتْرَى إِلَى أَهْلِ الْحَضَرَ مَعَ أَهْلِ  
 الْبَدْوِ كَيْفَ تَجِدُ الْحَضْرِيَّ مُتَحَلِّيًا بِالذِّكَاءِ مُمْتَلِكًا مِنَ الْكَيْسِ حَتَّى إِنْ الْبَدْوِيَّ  
 لَيُظَنُّهُ أَنَّهُ قَدْ فَاتَهُ فِي حَقِيقَةِ إِنْسَانِيَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِجَادَتِهِ فِي  
 مَلَكَاتِ الصَّنَائِعِ وَالْآدَابِ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ الْحَضْرِيَّةِ مَا لَا يَعْرِفُهُ الْبَدْوِيُّ . فَلَمَّا  
 امْتَلَأَ الْحَضْرِيُّ مِنَ الصَّنَائِعِ وَمَلَكَاتِهَا وَحُسْنِ تَعْلِيمِهَا ظَنَّ كُلُّ مَنْ قَصَرَ عَنْ تِلْكَ  
 الْمَلَكَاتِ أَنَّهَا لِكَمَالٍ فِي عَقْلِهِ وَأَنَّ نَفْسَ أَهْلِ الْبَدْوِ قَاصِرَةٌ بِفِطْرَتِهَا وَجَبِلَتِهَا عَنْ  
 فِطْرَتِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . فَإِنَّا نَجِدُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ مَنْ هُوَ فِي أَعْلَى رُتْبَةٍ مِنَ الْفَهْمِ  
 وَالْكَمَالِ فِي عَقْلِهِ وَفِطْرَتِهِ إِنَّمَا الَّذِي ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ الْحَضَرَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ رَوْنُقٌ

(١) وفي نسخة أخرى يتكسون .

الصَّنَائِعِ وَالتَّعْلِيمِ فَإِنَّ لَهَا آثاراً تَرْجِعُ إِلَى النَّفْسِ كَمَا قَدَّمْنَا . وَكَذَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ لَمَّا كَانُوا فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَائِعِ أَرْسَخَ رُتْبَةً وَأَعْلَى قَدَمًا وَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ أَقْرَبَ إِلَى الْبِدَاوَةِ لِمَا قَدَّمْنَا فِي الْفَضْلِ قَبْلَ هَذَا ظَنَّ الْمُغْفَلُونَ فِي بَادِيءِ الرَّأْيِ أَنَّهُ لِكَمَالٍ فِي حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ اخْتَصُوا بِهِ عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ فَتَفَهَّمَهُ وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ وَهُوَ إِلَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

### الفصل الثالث

في ان العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ كَمَا قَدَّمْنَا مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ . وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَكْتَثُرُ فِي الْأَمْصَارِ . وَعَلَى نِسْبَةِ عُمُرَانِهَا فِي الْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ وَالْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِّ تَكُونُ نِسْبَةُ الصَّنَائِعِ فِي الْجُودَةِ وَالْكَثْرَةِ لِأَنَّهُ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الْمَعَاشِ . فَمَتَى فَضَلَتْ أَعْمَالُ أَهْلِ الْعُمُرَانِ عَنْ مَعَاشِهِمْ أَنْصَرَفَتْ إِلَى مَا وَرَاءَ الْمَعَاشِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي خَاصِيَّةِ الْإِنْسَانِ وَهِيَ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ . وَمَنْ تَشَوَّفَ بِفِطْرَتِهِ إِلَى الْعِلْمِ مِمَّنْ نَشَأَ فِي الْقُرَى وَالْأَمْصَارِ غَيْرِ الْمُتَمَدِّنَةِ فَلَا يَجِدُ فِيهَا التَّعْلِيمَ الَّذِي هُوَ صِنَاعِيٌّ لِفَقْدَانِ الصَّنَائِعِ فِي أَهْلِ الْبَدْوِ . كَمَا قَدَّمْنَا وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الرَّحَلَةِ فِي طَلَبِهِ إِلَى الْأَمْصَارِ الْمُسْتَبْجِرَةِ شَأْنَ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا . وَاعْتَبِرْ مَا قَرَّرْنَاهُ بِحَالِ بَغْدَادَ وَقَرْطَبَةَ وَالْقَيْرَوَانَ وَالبَصْرَةَ وَالكُوفَةَ لَمَّا كَثُرَ عُمُرَانُهَا صَدَرَ الْإِسْلَامُ وَاسْتَوَتْ فِيهَا الْحَضَارَةُ . كَيْفَ زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارِ الْعِلْمِ وَتَفَنَّنُوا فِي اضْطِلَاحَاتِ التَّعْلِيمِ وَأَصْنَافِ الْعُلُومِ وَاسْتِنْبَاطِ الْمَسَائِلِ وَالفُنُونِ حَتَّى أُرْبُوا عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ وَفَاتُوا الْمَتَأَخِّرِينَ . وَلَمَّا تَنَاقَصَ عُمُرَانُهَا وَابْتَدَعَتْ سُكَّانُهَا أَنْطَوَى ذَلِكَ الْبَسَاطُ بِمَا عَلَيْهِ جُمْلَةٌ . وَفَقِدَ الْعِلْمُ بِهَا وَالتَّعْلِيمُ . وَانْتَقَلَ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِ الْإِسْلَامِ . وَنَحْنُ لِهَذَا الْعَهْدِ نَرَى أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ إِنَّمَا هُوَ بِالقَاهِرَةِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ لَمَّا أَنَّ عُمُرَانَهَا مُسْتَبْجِرٌ وَحَضَارَتُهَا مُسْتَحْكِمَةٌ مُنْذُ آفَافٍ مِنَ السِّنِينَ . فَاسْتَحْكَمَتْ فِيهَا الصَّنَائِعُ وَتَفَنَّنَتْ وَمِنْ جُمْلَتِهَا

تَعْلِيمِ الْعِلْمِ . وَكَذَلِكَ فِيهَا وَحَفِظَهُ مَا وَقَعَ لِهَذِهِ الْعُصُورِ بِهَا مُنْذُ مَائَتَيْنِ مِنْ  
السِّنِينَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ مِنْ أَيَّامِ صَلَاحِ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ وَهَلُمَّ جَرًّا . وَذَلِكَ أَنَّ أَمْرَاءَ  
التُّرْكِ فِي دَوْلَتِهِمْ يَخْشَوْنَ عَادِيَةَ سُلْطَانِهِمْ عَلَى مَنْ يَتَخَلَّفُونَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ لِمَا لَهُ  
عَلَيْهِمْ مِنَ الرَّقِّ أَوْ الْوَلَاءِ وَلَمَّا يُخْشَى مِنْ مَعَاطِبِ الْمَلِكِ وَنَكْبَاتِهِ . فَاسْتَكْثَرُوا مِنْ  
بِنَاءِ الْمَدَارِسِ وَالزُّوَايَا وَالرُّبُطِ <sup>(١)</sup> وَوَقَفُوا عَلَيْهَا الْأَوْقَافَ الْمُعَلَّةَ يَجْعَلُونَ فِيهَا  
شِرْكَاءَ <sup>(٢)</sup> لِوَلَدِهِمْ يَنْظُرُ عَلَيْهَا أَوْ يُصِيبُ مِنْهَا مَعَ مَا فِيهِمْ غَالِبًا مِنَ الْجُنُوحِ إِلَى الْخَيْرِ  
وَالْتِمَاسِ الْأَجُورِ فِي الْمَقَاصِدِ وَالْأَفْعَالِ . فَكَثُرَتِ الْأَوْقَافُ لِدَلِكِ وَعَظُمَتِ الْغَلَاتُ  
وَالْفَوَائِدُ وَكَثُرَ طَالِبُ الْعِلْمِ وَمُعَلَّمُهُ بِكَثْرَةِ جَرَائِزِهِمْ مِنْهَا وَازْتَحَلَ إِلَيْهَا النَّاسُ فِي  
طَلَبِ الْعِلْمِ مِنَ الْعِرَاقِ وَالْمَغْرِبِ وَنَفَقَتْ بِهَا أَسْوَاقُ الْعُلُومِ وَرَخَرَتْ بِحَارِهَا . وَاللَّهِ  
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

## الفصل الرابع

### في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

إِعْلَمُ أَنَّ الْعُلُومَ الَّتِي يَخُوضُ فِيهَا الْبَشَرُ وَيَتَدَاوَلُونَهَا فِي الْأَمْصَارِ تَحْصِيلًا  
وَتَعْلِيمًا هِيَ عَلَى صِنْفَيْنِ : صِنْفٍ طَبِيعِيٍّ لِلْإِنْسَانِ يَهْتَدِي إِلَيْهِ بِفِكْرِهِ ، وَصِنْفٍ  
تَقْلِيٍّ يَأْخُذُهُ عَمَّنْ وَضَعَهُ . وَالْأَوَّلُ هِيَ الْعُلُومُ الْحِكْمِيَّةُ الْفَلْسَافِيَّةُ وَهِيَ الَّتِي يُمَكِّنُ  
أَنْ يَقِفَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ بِطَبِيعَةِ فِكْرِهِ وَيَهْتَدِي بِمَدَارِكِهِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَوْضُوعَاتِهَا  
وَمَسَائِلِهَا وَأَنْحَاءِ بَرَاهِينِهَا وَوُجُوهِ تَعْلِيمِهَا حَتَّى يَقْفَهُ <sup>(٣)</sup> نَظْرَهُ وَيَحْتَهُ <sup>(٤)</sup> عَلَى  
الصَّوَابِ مِنَ الْخَطِإِ فِيهَا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ذُو فِكْرٍ . وَالثَّانِي هِيَ الْعُلُومُ النَّقْلِيَّةُ  
الْوَضْعِيَّةُ وَهِيَ كُلُّهَا مُسْتِنْدَةٌ إِلَى الْخَبَرِ عَنِ الْوَاضِعِ الشَّرْعِيِّ . وَلَا مَجَالَ فِيهَا لِلْعَقْلِ

(١) جمع رباط ، الحصن أو المكان الذي يرباط فيه الجيش . والأنسب كلمة رباطات وهي المعاهد البنينة  
والموقوفة للفقراء .

(٢) الشرك : الحصة .

(٣) قوله : حتى يقفه نظره . يستعمل وقف متعديا فتقول : وقفته على كذا أي اطلعت عليه . قاله نصر .

(٤) وفي نسخة أخرى : بحثه .

إِلا فِي إِحْقاقِ الفُرُوعِ مِنْ مَسائِلِها بِالأُصولِ لِأَنَّ الجُزئِيَّاتِ الجادِثَةَ المُتَعاقِبَةَ  
 لا تُدرِجُ تَحْتَ النُّقْلِ الكُلِّيِّ بِمُجرَدِ وَضْعِهِ فَتُحْتَاجُ إِلى الإلْحاقِ بِوَجْهِ قِياسِي . إِلا  
 أَنَّ هَذَا القِياسَ يَتَفَرَّعُ عَنِ الخَبَرِ بِثُبُوتِ الحُكْمِ فِي الأُصلِ وَهُوَ نَقْلِيٌّ فَرَجَعَ هَذَا  
 القِياسُ إِلى النُّقْلِ لِتَفَرُّعِهِ عَنْهُ . وَأُصلُ هَذِهِ العُلُومِ النُّقْلِيَّةِ كُلِّها هِيَ الشَّرْعِيَّاتُ مِنْ  
 الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الَّتِي هِيَ مَشْرُوعَةٌ لَنَا مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ العُلُومِ  
 الَّتِي تَهَيُّئُها لِلإِفاذَةِ . ثُمَّ يَسْتَتَبِعُ ذَلِكَ عُلُومُ اللِّسانِ العَرَبِيِّ الَّذِي هُوَ لِسَانُ المِلَّةِ  
 وَبِهِ نَزَلَ القُرْآنُ . وَأُصْنافُ هَذِهِ العُلُومِ النُّقْلِيَّةِ كَثِيرَةٌ لِأَنَّ المُكَلَّفَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ  
 يَعرِفَ أَحكامَ اللهِ تَعَالَى المَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَبناءِ جَنسِهِ وَهِيَ ما خُودَةٌ مِنْ  
 الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِالنُّصِّ أَوْ بِالإِجماعِ أَوْ بِالإلْحاقِ فَلَا بُدَّ مِنَ النُّظَرِ بِالكِتَابِ بِبَيانِ  
 الأَفاظِهِ أَوَّلًا وَهَذَا هُوَ عِلْمُ التَّفْسِيرِ ثُمَّ بِإسنادِ نَقْلِهِ وَروايَتِهِ إِلى النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي  
 جاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاخْتِلافِ رِوايَاتِ القُرَّاءِ فِي قِراءَتِهِ وَهَذَا هُوَ عِلْمُ القِراءاتِ ثُمَّ  
 بِإسنادِ السُّنَّةِ إِلى صَاحِبِها وَالكَلامِ فِي الرُّواةِ الناقِلِينَ لَها وَمَعْرِفَةِ أَحوالِهِم وَعَدالَتِهِم  
 لِيَتَقَعَ الوُثُوقُ بِأَخبارِهِم بِعِلْمٍ<sup>(١)</sup> ما يَجِبُ العَمَلُ بِمُقْتَضاهِ مِنْ ذَلِكَ . وَهَذِهِ هِيَ  
 عُلُومُ الحَدِيثِ . ثُمَّ لا بُدَّ فِي اسْتِنْباطِ هَذِهِ الأحكامِ مِنْ أَصولِها مِنْ وَجْهِ قانُونِيٍّ  
 يُفِيدُ العِلْمَ بِكَيْفِيَّةِ هَذَا الاسْتِنْباطِ وَهَذَا هُوَ أَصُولُ الفِيقِهِ . وَبَعْدَ هَذَا تُخْصَلُ الثَّمَرَةُ  
 بِمَعْرِفَةِ أَحكامِ اللهِ تَعَالَى فِي أَفعالِ المُكَلِّفِينَ وَهَذَا هُوَ الفِيقَهُ . ثُمَّ إِنَّ التُّكاليِفَ مِنْها  
 بَدَنِيٌّ . وَمِنْها قَلْبِيٌّ . وَهُوَ المُخْتَصُّ بِالإيمانِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَقَدَ مِمَّا لا يُعْتَقَدُ .  
 وَهَذِهِ هِيَ العَقائِدُ الإيمانيَّةُ فِي الذَّاتِ وَالصِّفاتِ وَأُمُورِ الحَشْرِ وَالنَّعِيمِ وَالعَذابِ  
 وَالقَدْرِ . وَالْحِجاجُ عَنْ هَذِهِ بِالأدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ هُوَ عِلْمُ الكَلامِ . ثُمَّ النُّظَرُ فِي القُرْآنِ  
 وَالْحَدِيثِ لا بُدَّ أَنْ تَتَقَدَّمَ العُلُومُ اللِّسانِيَّةُ لِأَنَّه مُتَوَقَّفٌ عَلَيْها وَهِيَ أَصْنافُ . فَمِنْها  
 عِلْمُ اللُّغَةِ وَعِلْمُ النُّحوِ وَعِلْمُ البَيانِ وَعِلْمُ الآدابِ حَسَبَما نَتَكَلَّمُ عَلَيْها . وَهَذِهِ العُلُومُ  
 النُّقْلِيَّةُ كُلُّها مُخْتَصَّةٌ بِالمِلَّةِ الإِسلامِيَّةِ وَأَهْلِها وَإِنْ كانَتْ كُلُّ مِلَّةٍ عَلَى الجُمْلَةِ لا بُدَّ

(١) وفي نسخة أخرى : ويعمل

فِيهَا مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ فَهِيَ مُشَارَكَةٌ لَهَا فِي الْجِنْسِ الْبَعِيدِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا الْعُلُومُ  
الشَّرْعِيَّةُ <sup>(٢)</sup> الْمُنزَلَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ الْمُنْلَغِ لَهَا . وَأَمَّا عَلَى  
الْخُصُوصِ فَمُبَايِنَةٌ لِجَمِيعِ الْمِلَالِ لِأَنَّهَا نَاسِخَةٌ لَهَا . وَكُلُّ مَا قَبْلَهَا مِنْ عُلُومِ الْمِلَالِ  
فَمَهْجُورَةٌ وَالنَّظَرُ فِيهَا مَحْظُورٌ . فَقَدْ نَهَى الشَّرْعُ عَنِ النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ الْمُنزَلَةِ غَيْرِ  
الْقُرْآنِ . قَالَ ﷺ : « لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذُبوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي  
أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَالْهَذَا وَالْهَذَا وَاحِدٌ » وَرَأَى النَّبِيُّ ﷺ فِي يَدِ عُمَرَ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُ وَرَقَةً مِنَ التَّوْرَةِ فَغَضِبَ حَتَّى تَبَيَّنَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ : « أَلَمْ آتِكُمْ  
بِهَا بَيِّنَاتٍ نَقِيَّةٌ ؟ وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَتْبَاعِي . ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ  
الشَّرْعِيَّةَ قَدْ نَفَقَتْ أَسْوَاقَهَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ وَأَنْتَهَتْ فِيهَا مَدَارِكُ  
النَّاظِرِينَ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي لَا شَيْءَ فَوْقَهَا وَهَذَبَتِ الْإِصْطِلَاحَاتُ وَرَتَّبَتِ الْفُنُونُ  
فَجَاءَتْ مِنْ وَرَاءِ الْغَايَةِ فِي الْحُسْنِ وَالْتِمِيقِ . وَكَانَ لِكُلِّ فَنٍّ رِجَالٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ فِيهِ  
وَأَوْضَاعٌ يُسْتَفَادُ مِنْهَا التَّعْلِيمُ . وَاخْتَصَّ الْمَشْرِقُ مِنْ ذَلِكَ وَالْمَغْرِبُ بِمَا هُوَ مَشْهُورٌ  
مِنْهَا حَسَبًا نَذَكُرُهُ الْآنَ عِنْدَ تَعْدِيدِ هَذِهِ الْفُنُونِ . وَقَدْ كَسَدَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَسْوَاقُ  
الْعِلْمِ بِالْمَغْرِبِ لِتِنَاقُصِ الْعُمَرَانِ فِيهِ وَأَنْقِطَاعِ سِنْدِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ كَمَا قَدَّمْنَا فِي  
الْفَصْلِ قَبْلَهُ . وَمَا أَذْرِي مَا فَعَلَ اللَّهُ بِالْمَشْرِقِ وَالظَّنُّ بِهِ نِفَاقُ الْعِلْمِ فِيهِ وَاتِّصَالَ  
التَّعْلِيمِ فِي الْعُلُومِ وَفِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ الصَّرُورِيَّةِ وَالْكَمَالِيَّةِ لِكَثْرَةِ عُمَرَانِهِ وَالْحَضَارَةِ  
وَوُجُودِ الْإِعَانَةِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِالْجِرَايَةِ مِنَ الْأَوْقَافِ الَّتِي اتَّسَعَتْ بِهَا أَرْزَاقُهُمْ . وَاللَّهُ  
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ وَبِيَدِهِ التَّوْفِيقُ وَالْإِعَانَةُ .

## الفصل الخامس

### في علوم القرآن من التفسير والقراءات

الْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْمُنزَلُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمَكْتُوبُ بَيْنَ دَفْتَيْ الْمُصْحَفِ . وَهُوَ  
مُتَوَاتِرٌ بَيْنَ الْأُمَّةِ إِلَّا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَوَوْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي

( ٢ ) وفي نسخة أخرى : علوم الشريعة .

بَعْضِ الْفَاطِيهِ وَكَيْفِيَّاتِ الْحُرُوفِ فِي أَدَائِهَا . وَتُنَوَّقَلْ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّتْ مِنْهَا سَبْعُ طُرُقٍ مُعَيَّنَةٌ تَوَاتَرَتْ نَقْلَهَا أَيْضاً بِأَدَائِهَا وَاخْتَصَّتْ بِالِانْتِسَابِ إِلَى مَنْ اشْتَهَرَ بِرِوَايَتِهَا مِنَ الْجَمِّ الْغَفِيرِ فَصَارَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ أَسْوَلاً لِلْقِرَاءَةِ . وَرُبَّمَا زِيدَ بَعْدَ ذَلِكَ قِرَاءَاتٌ أُخْرَى لِحَقَّتْ بِالسَّبْعِ إِلَّا أَنَّهَا عِنْدَ أُمَّةِ الْقِرَاءَةِ لَا تَقْوَى قُوَّتُهَا فِي النُّقْلِ . وَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِهَا . وَقَدْ خَالَفَ بَعْضُ النَّاسِ فِي تَوَاتُرِ طُرُقِهَا لِأَنَّهَا عِنْدَهُمْ كَيْفِيَّاتٌ لِلْأَدَاءِ وَهُوَ غَيْرُ مَنْضَبٍ . وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ بِقَادِحٍ فِي تَوَاتُرِ الْقُرْآنِ . وَأَبَاهُ الْأَكْثَرُ وَقَالُوا بِتَوَاتُرِهَا وَقَالَ آخَرُونَ بِتَوَاتُرِ غَيْرِ الْأَدَاءِ مِنْهَا كَالْمَدِّ وَالتَّشْهِيلِ <sup>(١)</sup> لِعَدَمِ الْوُقُوفِ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ بِالسَّمْعِ وَهُوَ الصَّحِيحُ . وَلَمْ يَزَلِ الْقِرَاءَةُ يَتَدَاوَلُونَ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ وَرِوَايَتِهَا إِلَى أَنْ كُتِبَتِ الْعُلُومُ وَدَوَّنَتْ فَكُتِبَتْ فِيهَا كُتُبٌ مِنَ الْعُلُومِ وَصَارَتْ صِنَاعَةٌ مَخْصُوصَةٌ وَعِلْمٌ مُنْفَرِداً وَتَنَاقَلَهُ النَّاسُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ فِي جِيلٍ بَعْدَ جِيلٍ . إِلَى أَنْ مَلَكَ بِشَرْقِ الْأَنْدَلُسِ مُجَاهِدٌ مِنْ مَوَالِي الْعَامِرِيِّينَ وَكَانَ مُعْتَبِراً بِهَذَا الْفَنِّ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْقُرْآنِ لَمَّا أَخَذَهُ بِهِ مَوْلَاهُ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي الْعَامِرِ وَاجْتَهَدَ فِي تَعْلِيمِهِ وَعَرَضَهُ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ أُمَّةِ الْقِرَاءَةِ بِحَضْرَتِهِ فَكَانَ سَهْمُهُ فِي ذَلِكَ وَافِراً . وَاخْتَصَّ مُجَاهِدٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِمَارَةِ دَانِيَّةَ وَالْجَزَائِرِ الشَّرْقِيَّةِ فَانْفَقَتْ بِهَا سَوْقُ الْقِرَاءَةِ لَمَّا كَانَ هُوَ مِنْ أُمَّتِهَا وَبِمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِسَائِرِ الْعُلُومِ عُمُوماً وَبِالْقِرَاءَاتِ خُصُوصاً . فَظَهَرَ لِعَهْدِهِ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ وَبَلَغَ الْعَافِيَةَ فِيهَا وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهَا . وَأَنْتَهَتْ إِلَى رِوَايَتِهِ أَسَانِيدُهَا وَتَعَدَّدَتْ تَأْلِيفُهُ فِيهَا . وَعَوَّلَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَعَدَّلُوا عَنْ غَيْرِهَا وَاعْتَمَدُوا مِنْ بَيْنِهَا كِتَابَ التَّيْسِيرِ لَهُ . ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِيهَا يَلِيهِ مِنَ الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ فَيْرَةَ <sup>(٢)</sup> مِنْ أَهْلِ شَاطِبَةَ فَعَمَدَ إِلَى تَهْذِيبِ مَا دَوَّنَهُ أَبُو عَمْرٍو وَتَلَخِيصِهِ فَنَظَّمَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي قَصِيدَةٍ لَعَزَ فِيهَا أَسْمَاءُ الْقِرَاءَةِ بِحُرُوفِ ( ا ب ج د ) تَرْتِيباً أَحْكَمَهُ لِيَتَيَسَّرَ

(١) وفي نسخة أخرى . والتشهيل .

(٢) ورد ذكره في كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي وهو القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعييني أبو محمد الشاطبي إمام القراء وكان ضريباً .



عَلَيْهِ مَا قَصَدَهُ مِنَ الْإِخْتِصَارِ وَلِيَكُونَ أَسْهَلَ لِلْحِفْظِ لِأَجْلِ نَظْمِهَا . فَاسْتَوْعَبَ فِيهَا  
الْفَنَّ اسْتِيعَابًا حَسَنًا وَعَنَى النَّاسَ بِحِفْظِهَا وَتَلْقِينِهَا لِلْوِلْدَانِ <sup>(١)</sup> الْمُتَعَلِّمِينَ وَجَرَى  
الْعَمَلُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ . وَرُبَّمَا أُضِيفَ إِلَى فَنِّ الْقِرَاءَاتِ فَنُّ  
الرُّسْمِ أَيْضًا وَهِيَ أَوْضَاعُ حُرُوفِ الْقُرْآنِ فِي الْمُصْحَفِ وَرُسُومُهُ الْخَطِيئَةُ لِأَنَّ فِيهِ  
حُرُوفًا كَثِيرَةً وَقَعَ رَسْمُهَا عَلَى غَيْرِ الْمَعْرُوفِ مِنْ قِيَاسِ الْخَطِّ كَزِيَادَةِ الْيَاءِ فِي بَابِ  
وَزِيَادَةِ الْأَلِفِ فِي لَا أَذْبَحَنَّهُ وَلَا أَوْضَعُوا وَالْوَاوِ فِي جَزَاؤِ الظَّالِمِينَ وَحَذْفِ الْأَلِفَاتِ  
فِي مَوَاضِعَ دُونَ أُخْرَى وَمَا رَسِمَ فِيهِ مِنَ التَّاءَاتِ مَمْدُودًا ، وَالْأَصْلُ فِيهِ مَرْبُوطٌ عَلَى  
شَكْلِ الْهَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَقَدْ مَرَّ تَغْلِيلُ هَذَا الرُّسْمِ الْمُصْحَفِيِّ عِنْدَ الْكَلَامِ فِي الْخَطِّ .  
فَلَمَّا جَاءَتْ هَذِهِ الْمُخَالَفَةُ لِأَوْضَاعِ الْخَطِّ وَقَانُونِهِ اخْتِيجَ إِلَى حَضْرَتِهَا ، فَكَتَبَ النَّاسُ  
فِيهَا أَيْضًا عِنْدَ كُتُبِهِمْ فِي الْعُلُومِ . وَانْتَهَتْ بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَبِي عَمْرِو الدَّانِيِّ الْمَذْكُورِ  
فَكَتَبَ فِيهَا كُتُبًا مِنْ أَشْهَرِهَا ، كِتَابَ الْمُقْنِعِ وَأَخَذَ بِهِ النَّاسُ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ . وَنَظَّمَهُ  
أَبُو الْقَاسِمِ الشَّاطِبِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ عَلَى رِوِيِّ الرِّاءِ وَوَلَعَ النَّاسَ بِحِفْظِهَا . ثُمَّ  
كَثُرَ الْخِلَافُ فِي الرُّسْمِ فِي كَلِمَاتٍ وَحُرُوفٍ أُخْرَى ، ذَكَرَهَا أَبُو دَاوُدَ سَلِيمَانُ بْنُ  
نَجَاحٍ مِنْ مَوَالِي مُجَاهِدٍ فِي كُتُبِهِ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيذِ <sup>(٢)</sup> أَبِي عَمْرِو الدَّانِيِّ وَالْمُشْتَهَرِ  
بِحَمَلِ عُلُومِهِ وَرِوَايَةِ كُتُبِهِ ثُمَّ نَقَلَ بَعْدَهُ خِلَافَ آخَرَ فَنَظَّمَ الْخِرَازُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ  
بِالْمَغْرِبِ أَرْجُوزَةً أُخْرَى زَادَ فِيهَا عَلَى الْمُقْنِعِ خِلَافًا كَثِيرًا ، وَعَزَاهُ لِناقِلِيهِ ،  
وَاشْتَهَرَتْ بِالْمَغْرِبِ ، وَاقْتَصَرَ النَّاسُ عَلَى حِفْظِهَا . وَهَجَرُوا بِهَا كُتُبَ أَبِي دَاوُدَ  
وَأَبِي عَمْرِو وَالشَّاطِبِيِّ فِي الرُّسْمِ .

( وأما التفسير ) . فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم  
فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه . وكان ينزل جملاً  
جملاً وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع . ومنها ما هو

(١) وفي النسخة الباريسية : للولد .

(٢) وفي النسخة الباريسية : وهو تلميذ .

فِي الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي أَحْكَامِ الْجَوَارِحِ ، وَمِنْهَا مَا يَتَقَدَّمُ وَمِنْهَا  
 مَا يَتَأَخَّرُ وَيَكُونُ نَاسِخًا لَهُ . وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْمُبِينُ لِذَلِكَ كَمَا قَالَ  
 تَعَالَى : « لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ » <sup>(١)</sup> فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُبَيِّنُ الْمُجْمَلَ وَيُمَيِّزُ  
 النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ وَيَعْرِفُهُ أَصْحَابَهُ فَعَرَفُوهُ وَعَرَفُوا سَبَبَ نَزُولِ الْآيَاتِ وَمَقْتَضَى  
 الْحَالِ مِنْهَا مَنْقُولًا عَنْهُ . كَمَا عَلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » إِنَّهَا  
 نِعْمُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَنَقَلَ ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ  
 أَجْمَعِينَ . وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ التَّابِعُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَنَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ . وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَاقِلًا  
 بَيْنَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ وَالسَّلَفِ حَتَّى صَارَتِ الْمَعَارِفُ عُلُومًا وَدَوْنَتِ الْكُتُبُ فَكُتِبَ  
 الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ وَنُقِلَتِ الْآثَارُ الْوَارِدَةُ فِيهِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى  
 الطَّبْرِيِّ وَالْوَاقِدِيِّ وَالتَّعَالِيْبِيِّ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فَكُتِبُوا فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ  
 يَكْتُبُوهُ مِنَ الْآثَارِ . ثُمَّ صَارَتِ عُلُومُ اللِّسَانِ صِنَاعِيَّةً <sup>(٢)</sup> مِنَ الْكَلَامِ فِي مَوْضُوعَاتِ  
 اللُّغَةِ وَأَحْكَامِ الْإِعْرَابِ وَالبَّلَاغَةِ فِي التَّرَاكِيِبِ فَوَضَعَتِ الدَّوَاوِينَ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ  
 كَانَتْ مَلَكَاتٍ لِلْعَرَبِ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَى نَقْلِ وَلَا كِتَابٍ فَتَنَوَسَى ذَلِكَ وَصَارَتْ  
 تَتَلَقَّى مِنْ كُتُبِ أَهْلِ اللِّسَانِ . فَاحْتِيجَ إِلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ يَلِسَانِ الْعَرَبِ  
 وَعَلَى مِنْهَاجِ بِلَاغَتِهِمْ . وَصَارَ التَّفْسِيرُ عَلَى صِنْفَيْنِ : تَفْسِيرٍ نَقْلِيٍّ مُسْنَدٍ إِلَى الْآثَارِ  
 الْمُنْقُولَةِ عَنِ السَّلَفِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَأَسْبَابِ النُّزُولِ وَمَقَاصِدِ الْآيِ .  
 وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَعْرِفُ إِلَّا بِالنَّقْلِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ . وَقَدْ جَمَعَ الْمُتَقَدِّمُونَ فِي  
 ذَلِكَ وَأَوْعَوْا ، إِلَّا أَنْ كُتِبَتْهُمْ وَمَنْقُولَاتِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَى الْغَثِّ وَالسَّمِينِ وَالْمَقْبُولِ  
 وَالْمَرْدُودِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا غَلِبَتْ  
 عَلَيْهِمُ الْبِدَاوَةُ وَالْأُمِّيَّةُ . وَإِذَا تَشَوَّقُوا إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِمَّا تَشَوَّقُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ  
 الْبَشَرِيَّةُ <sup>(٣)</sup> فِي أَسْبَابِ الْمَكُونَاتِ وَبَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَأَسْرَارِ الْوُجُودِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ  
 أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَمَنْ تَبِعَ دِينَهُمْ

(٢) وفي نسخة أخرى : صناعة .

(١) سورة النحل ( من الآية ٤٤ ) .

(٣) وفي النسخة الباريسية : النفوس الإنسانية .

مِنَ النَّصَارَى . وَأَهْلُ التَّوْرَةِ الَّذِينَ بَيْنَ الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ بَادِيَةٌ مِثْلَهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا تَعْرِفُهُ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُعْظَمُهُمْ مِنْ حَمِيرِ الَّذِينَ أَخَذُوا بِدِينِ الْيَهُودِيَّةِ . فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا عَلَى مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِمَّا لَا تَعْلُقُ لَهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يَخْتَاطُونَ لَهَا مِثْلَ أَخْبَارِ بَدءِ الْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى الْحِذْثَانِ وَالْمَلَا حِمِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنْبِيهِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمْثَالِهِمْ . فَا مَثَلَاتِ التَّفَاسِيرِ مِنَ الْمَنْقُولَاتِ عِنْدَهُمْ<sup>(١)</sup> فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَخْبَارٌ مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى الْأَحْكَامِ فَيَتَحَرَّى فِي الصَّحَّةِ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الْعَمَلُ . وَتَسَاهَلُ الْمَفْسُرُونَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ وَمَلَأُوا كُتُبَ التَّفْسِيرِ بِهَذِهِ الْمَنْقُولَاتِ . وَأَصْلُهَا كَمَا قُلْنَا عَنْ أَهْلِ التَّوْرَةِ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْبَادِيَةَ ، وَلَا تَحْقِيقَ عِنْدَهُمْ بِمَعْرِفَةِ مَا يَنْقُلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ بَعْدَ صِيَّتِهِمْ وَعَظَمَتِ أَقْدَارُهُمْ ، لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَقَامَاتِ فِي الدِّينِ وَالْمِلَّةِ ، فَتَلَقَّيْتُ بِالْقَبُولِ مِنْ يَوْمَئِذٍ . فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالتَّمْجِيسِ وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ عَطِيَّةٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ بِالْمَغْرِبِ فَلَخَّصَ تِلْكَ التَّفَاسِيرَ كُلَّهَا وَتَحَرَّى مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّحَّةِ مِنْهَا وَوَضَعَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ مُتَدَاوِلٍ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ حَسَنَ الْمُنْحَى . وَتَبَعَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تِلْكَ الطَّرِيقَةِ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ فِي كِتَابِ آخَرَ مَشْهُورٍ بِالْمَشْرِقِ .

وَالصَّنْفُ الْآخَرُ مِنَ التَّفْسِيرِ وَهُوَ مَا يَرْجِعُ إِلَى اللِّسَانِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّغَةِ وَالْإِعْرَابِ وَالبَلَاغَةِ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى بِحَسَبِ الْمَقَاصِدِ وَالْأَهْلِيَّاتِ . وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ التَّفْسِيرِ قَلٌّ أَنْ يَنْفَرِدَ عَنِ الْأَوَّلِ إِذِ الْأَوَّلُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ . وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا بَعْدَ أَنْ صَارَ اللِّسَانُ وَعُلُومُهُ صِنَاعَةً<sup>(٢)</sup> . نَعَمْ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ غَالِبًا وَمِنْ أَحْسَنِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْفَرْقُ مِنَ التَّفَاسِيرِ كِتَابُ الْكُشَافِ لِلرَّمْخَشَرِيِّ<sup>(٣)</sup> مِنْ أَهْلِ خَوَارِزْمِ الْعِرَاقِ إِلَّا أَنَّ مُؤَلَّفَهُ مِنْ أَهْلِ الْإِعْتِرَالِ فِي الْعَقَائِدِ فَيَأْتِي بِالْحِجَاجِ عَلَى

(١) وفي النسخة الباريبية ، من المنقولات عنهم . (٢) وفي نسخة أخرى : صناعات .

(٣) (ورد في معجم البلدان : خوارزم ليس اسما للمدينة إنما هو اسم للناحية بجملتها وورد في كتاب

الأعلام للزركلي : الرمزخري ولد في رمزخ من قرى خوارزم ) .

مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة . فصار ذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتخذير للجُمهور من مكابيه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية محسناً للحجاج عنها فلا جرم إنه مأمون من غوائله فلتفتنم مطالعته لغرابية فنونه في اللسان . ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من أهل تويريز من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزييفها<sup>(١)</sup> ويبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه<sup>(٢)</sup> المعتزلة فأحسن في ذلك ما شاء مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة وفوق كل ذي علم عليم .

## الفصل السادس

### في علوم الحديث

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة لأن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده وتخفيفاً عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل الله لهم بها . قال تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها »<sup>(٣)</sup> ( ومعرفة النسخ والمنسوخ وإن كان عاقلاً للقرآن والحديث إلا أن الذي في القرآن منه إندرج في تفاسيره وبقي ما كان خاصاً بالحديث راجعاً إلى علومه . فإذا تعارض الخبران بالنفي والإثبات وتعدّر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما تعين أن المتأخر ناسخ ) . ومعرفة النسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث وأصعبها . قال الزهري : « أغنيا

(١) وفي النسخة الباريية : وأدلته يزيها .

(٢) وفي النسخة الباريية : لا على مذهب المعتزلة .

(٣) سورة البقرة الآية ١٠٦

الْفُقَهَاءَ وَأَعْجَزَهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا نَاسِخَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَنْسُوخِهِ .  
 وَكَانَ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيهِ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ . ( وَمِنْ عُلُومِ الْأَحَادِيثِ <sup>(١)</sup> النَّظَرُ فِي  
 الْأَسَانِيدِ وَمَعْرِفَةُ مَا يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِوُقُوعِهِ عَلَى السَّنَدِ الْكَامِلِ  
 الشَّرْطِ لِأَنَّ الْعَمَلَ إِنَّمَا وَجِبَ بِمَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقُهُ مِنْ أَخْبَارِ رَسُولِ  
 اللَّهِ ﷺ فَيُجْتَهَدُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تَحْصُلُ ذَلِكَ الظَّنُّ وَهُوَ بِمَعْرِفَةِ رِوَاةِ الْحَدِيثِ  
 بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ . وَإِنَّمَا يَثْبُتُ ذَلِكَ بِالنَّقْلِ عَنْ أَغْلَامِ الَّذِينَ لَتَعْدِيْلِهِمْ وَبِرَاءَتِهِمْ  
 مِنَ الْجَرْحِ وَالْعَفْلَةِ وَيَكُونُ لَنَا ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى الْقَبُولِ أَوْ التَّرْكِ . وَكَذَلِكَ مَرَاتِبُ  
 هَذِهِ النِّقْلَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفَاوُثُهُمْ فِي ذَلِكَ وَتَمَيُّزُهُمْ فِيهِ وَاحِدًا وَاحِدًا .  
 وَكَذَلِكَ الْأَسَانِيدُ تَتَفَاوَتْ بِاتِّصَالِهَا وَانْقِطَاعِهَا بِأَنَّ يَكُونَ الرَّاوي لَمْ يَلْقَ الرَّاوي  
 الَّذِي نَقَلَ عَنْهُ وَبِسَلَامَتِهَا مِنَ الْعِلَلِ الْمُوهِنَةِ لَهَا وَتَنْتَهِي بِالتَّفَاوُتِ إِلَى طَرَفَيْنِ  
 فَحَكِيمٌ <sup>(٢)</sup> يَقْبُولُ الْأَعْلَى وَرَدُّ الْأَسْفَلِ . وَيُخْتَلَفُ فِي الْمُتَوَسِّطِ بِحَسَبِ الْمُنْقُولِ عَنْ  
 أَيْمَةِ الشَّانِ . وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ الْفَاطَاطُ اضْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِهَا لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْمُرْتَبَةِ . مِثْلُ  
 الصَّحِيحِ وَالْحَسَنِ وَالضَّعِيفِ وَالْمُرْسَلِ وَالْمُنْقَطِعِ وَالْمُعْضِلِ وَالشَّاذِّ وَالْغَرِيبِ ، وَغَيْرِ  
 ذَلِكَ مِنَ الْقَابِيهِ الْمُتَدَاوِلَةِ بَيْنَهُمْ . وَبَوَّبُوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَنَقَلُوا مَا فِيهِ مِنْ  
 الْخِلَافِ لِأَيْمَةِ اللِّسَانِ أَوْ الْوَفَاقِ . ثُمَّ النَّظَرُ فِي كَيْفِيَّةِ أَخْذِ الرَّوَايَةِ <sup>(٣)</sup> بَعْضُهُمْ عَنْ  
 بَعْضٍ بِقِرَاءَةٍ أَوْ كِتَابِيَّةٍ أَوْ مُنَاوَلَةٍ أَوْ إِجَازَةٍ وَتَفَاوُتِ رَتْبِهَا وَمَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنْ  
 الْخِلَافِ بِالْقَبُولِ وَالرَّدِّ . ثُمَّ اتَّبَعُوا ذَلِكَ بِكَلَامٍ فِي الْفَاطَاطِ تَقَعُ فِي مُتَوْنِ الْحَدِيثِ مِنْ  
 غَرِيبٍ أَوْ مُشْكِلٍ أَوْ تَضْحِيفٍ أَوْ مُفْتَرِقٍ مِنْهَا أَوْ مُخْتَلِفٍ وَمَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ . هَذَا  
 مُعْظَمُ مَا يُنْظَرُ فِيهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَغَالِبُهُ وَكَانَتْ أَحْوَالُ نَقْلَةِ الْحَدِيثِ فِي عَصُورِ  
 السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَعْرُوفَةً عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِهِ فَمِنْهُمْ بِالْحِجَازِ وَمِنْهُمْ  
 بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ مِنَ الْعِرَاقِ وَمِنْهُمْ بِالشَّامِ وَمِصْرَ وَالْجَمِيعَ مَعْرُوفُونَ مَشْهُورُونَ فِي

(١) وفي نسخة أخرى : الحديث .

(٢) وفي النسخة الباریسیة ، إلى طریقتین یحکم .

(٣) وفي نسخة أخرى : الرواة .

أَعْصَارِهِمْ وَكَانَتْ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ فِي أَعْصَارِهِمْ فِي الْأَسَانِيدِ أَعْلَى مِنْ سِوَاهُمْ وَأَمَّنَ فِي الصَّحَّةِ لِاسْتِبْدَادِهِمْ<sup>(١)</sup> فِي شُرُوطِ النَّقْلِ مِنَ الْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ وَتَجَافِيهِمْ عَنِ قَبُولِ الْمَجْهُولِ الْحَالِ فِي ذَلِكَ<sup>(٢)</sup> ) وَسَنَدُ<sup>(٣)</sup> الطَّرِيقَةِ الْحِجَازِيَّةِ بَعْدَ السَّلْفِ الْإِمَامِ مَالِكٍ عَالِمِ الْمَدِينَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ثُمَّ أَصْحَابُهُ مِثْلُ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، وَابْنُ وَهَبٍ وَابْنُ بَكِيرٍ وَالْقُصْنِينِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ وَمِنْ بَعْدِهِمُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَفِي آخَرِينَ مِنْ أُمَّتَالِهِمْ . وَكَانَ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ فِي مَبْدِئِ هَذَا الْأَمْرِ نَقْلًا صَرَفًا شَمَّرَ لَهَا السَّلْفُ وَتَحَرَّوْا الصَّحِيحَ حَتَّى أَكْمَلُوهَا . وَكَتَبَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَ الْمُوطَأِ أَوْدَعَهُ أَصُولَ الْأَحْكَامِ مِنَ الصَّحِيحِ الْمَتَّقِ عَلَيْهِ وَرَتَّبَهُ عَلَى أَبْوَابِ الْفِقْهِ . ثُمَّ عَنِيَ الْحَافِظُ بِمَعْرِفَةِ طَرِيقِ الْأَحَادِيثِ

(١) وفي نسخة أخرى : لاشتدادهم .

(٢) إن المحصور بين ( ) ورد في النسخة الباريسية على شكلين ، ورد في الشرح كما في نسختنا هذه . وورد في المتن على الوجه التالي : ومن علوم الحديث معرفة القوانين التي وضعها أئمة المحدثين لمعرفة الأسانيد والرواة وأسمائهم وكيفية أخذ بعضهم عن بعض وأحوالهم وطبقاتهم واختلاف اصطلاحاتهم . وتحصيل ذلك ان الاجماع واقع على وجود العمل بالخير الثابت عن رسول الله ﷺ وذلك بشرط أن يغلب على الظن صدقه . فيجب على المجتهد تحقيق الطرق التي تحصل ذلك الظن . وذلك بالنظر في أسانيد الحديث بمعرفة رواته بالعدالة والضبط والانتقان والبراءة من السهو والغفلة . بوصف عدول الأمة لهم بذلك . ثم تفاوت مراتبهم فيه . ثم كيفية رواية بعضهم عن بعض . بسماع الراوي من الشيخ أو قراءته عليه أو سماعه يقرأ عليه . وكتابة الشيخ له أو مناولته أو اجازته في الصحة والقبول منقول عنهم . وأعلى مراتب المقبول عندهم الصحيح ثم الحسن . وأدون مراتبها الضعيف . ويشتمل على المرسل والمنقطع والفصل والعلل والشاذ والغريب والمنكر . فمنها ما اختلفوا في رده ومنها ما اجتمعوا عليه . وذلك شأنهم في الصحيح : فمنه ما اجتمعوا على قبوله وصحته . ومنه ما اختلفوا فيه . وبينهم في تفسير هذه الالقباب اختلاف كثير ثم اتبعوا ذلك بالكلام في الفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق . ووضعوا لهذه الفصول كلها قانونا كفيلا ببيان تلك المراتب والألقاب وسلامة الطرق عن دخول النقص فيها . وأول من وضع في هذا القانون من فحول أئمة الحديث أبو عبد الله الحاكم وهو الذي هذب وأظهر محاسنه وتوليفه فيه مشهورة . ثم كتب أئمتهم فيه من بعده . واشتهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبي عمر بن الصلاح . كان في أوائل المائة السابعة وتلاه محيي الدين النووي بمثل ذلك . والفن شريف في مغزاه لأنه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة حتى يتعين قبولها أو ردها . واعلم أن رواية السنة من الصحابة والتابعين معروفون في أوصار الإسلام . منهم بالحجاز وبالكوفة والبصرة ثم بالشام ومصر . والجميع معروفون ومشهورون في أعصارهم . وكانت طريقة أهل الحجاز في الأسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن في الصحة . لاشتدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط . بتجافيهم عن قبول المستورين المجهولة أحوالهم .

(٣) وفي نسخة أخرى : وسيد .

وَأَسَانِيدَهَا الْمُخْتَلِفَةَ . وَرُبَّمَا يَقَعُ إِسْنَادُ الْحَدِيثِ مِنْ طَرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنْ رِوَاةٍ  
 مُخْتَلِفِينَ وَقَدْ يَقَعُ الْحَدِيثُ أَيْضًا فِي أَبْوَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِاخْتِلَافِ الْمَعَانِي الَّتِي اشْتَمَلَ  
 عَلَيْهَا . وَجَاءَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ إِمَامَ الْمُحَدِّثِينَ فِي عَضْرِهِ فَخَرَّجَ  
 أَحَادِيثَ السُّنَّةِ عَلَى أَبْوَابِهَا فِي مُسْنَدِهِ الصَّحِيحِ بِجَمِيعِ الطَّرِيقِ الَّتِي لِلْحِجَازِيِّينَ  
 وَالْعِرَاقِيِّينَ وَالشَّامِيِّينَ . وَاعْتَمَدَ مِنْهَا مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ دُونَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَكَرَّرَ  
 الْأَحَادِيثَ يَسُوقُهَا فِي كُلِّ بَابٍ بِمَعْنَى ذَلِكَ الْبَابِ الَّذِي تَضَمَّنَهُ الْحَدِيثُ فَتَكَرَّرَتْ  
 لِذَلِكَ أَحَادِيثُهُ حَتَّى يُقَالُ : إِنَّهُ اشْتَمَلَ عَلَى تِسْعَةِ <sup>(١)</sup> آلَافِ حَدِيثٍ وَمِائَتَيْنِ ، مِنْهَا  
 ثَلَاثَةُ آلَافٍ مُتَكَرِّرَةٌ وَفَرَقَ الطَّرِيقَ وَالْأَسَانِيدَ عَلَيْهَا مُخْتَلِفَةً فِي كُلِّ بَابٍ . ثُمَّ  
 جَاءَ الْإِمَامُ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ الْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَالَّفَ مُسْنَدَهُ  
 الصَّحِيحَ . حَذَا فِيهِ حَدُوثُ الْبُخَارِيِّ فِي تَقْلِ الْمَجْمَعِ عَلَيْهِ وَحَذْفِ الْمُتَكَرَّرِ مِنْهَا وَجَمَعَ  
 الطَّرِيقَ وَالْأَسَانِيدَ وَبَوَّبَهُ عَلَى أَبْوَابِ الْفِقْهِ وَتَرَاجَمَهُ . وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَوْعِبَا  
 الصَّحِيحَ كُلَّهُ . وَقَدْ اسْتَدْرَكَ النَّاسُ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ . ثُمَّ كَتَبَ أَبُو دَاوُدَ السُّجِسْتَانِيُّ  
 وَأَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ فِي السُّنَنِ بِأَوْسَعِ مِنَ الصَّحِيحِ  
 وَقَصَدُوا مَا تَوَفَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ الْعَمَلِ إِمَّا مِنَ الرَّثَبَةِ الْعَالِيَةِ فِي الْأَسَانِيدِ وَهُوَ الصَّحِيحُ  
 كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَإِمَّا مِنَ الَّذِي دُونَهُ مِنَ الْحَسَنِ وَغَيْرِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ إِمَامًا لِلْسُّنَّةِ  
 وَالْعَمَلِ . وَهَذِهِ هِيَ الْمَسَانِيدُ الْمَشْهُورَةُ فِي الْمِلَّةِ وَهِيَ أُمَّهَاتُ كُتُبِ الْحَدِيثِ فِي  
 السُّنَّةِ فَإِنَّهَا وَإِنْ تَعَدَّدَتْ تَرْجَعُ إِلَى هَذِهِ فِي الْأَغْلِبِ . وَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الشُّرُوطِ  
 وَالْإِصْطِلَاحَاتِ كُلِّهَا هِيَ عِلْمُ الْحَدِيثِ وَرُبَّمَا يُفْرَدُ عَنْهَا النَّاسُخُ وَالْمَنْسُوخُ فَيُجْعَلُ  
 فَنًا بِرَأْسِهِ وَكَذَا الْغَرِيبُ . وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَأْلِيفٌ مَشْهُورَةٌ ثُمَّ الْمُؤْتَلَفُ وَالْمُخْتَلَفُ . وَقَدْ  
 أَلَّفَ النَّاسُ فِي عُلُومِ الْحَدِيثِ وَأَكْثَرُوا . وَمِنْ فُحُولِ عُلَمَائِهِ وَأَثْمَتِهِمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ  
 الْحَاكِمُ وَتَأْلِيفُهُ فِيهِ مَشْهُورَةٌ وَهُوَ الَّذِي هَذَبَهُ وَأَظْهَرَ مَحَاسِنَهُ . وَأَشْهَرُ كِتَابٍ  
 لِلْمَتَأَخِّرِينَ فِيهِ كِتَابُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الصَّلَاحِ كَانَ لِعَمْدِ أَوَائِلِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ وَتَلَاةِ

(١) قوله تسعة الذي في النووي على مسلم انها سبعة بتقديم السين فحرره نصر .

مُحِبِّي الدِّينِ النَّوَوِيِّ بِمِثْلِ ذَلِكَ . وَالْفَنُّ شَرِيفٌ فِي مَعْرَاةٍ لِأَنَّهُ مَعْرِفَةٌ مَا يُحْفَظُ بِهِ  
السُّنَنُ الْمُنْقُولَةُ عَنِ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ . وَقَدْ انْقَطَعَ لِهَذَا الْعَهْدِ تَخْرِيجُ شَيْءٍ مِنَ  
الْأَحَادِيثِ وَاسْتِدْرَاكِهَا عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ إِذِ الْعَادَةُ تَشْهَدُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَيْمَةَ عَلَى  
تَعَدُّدِهِمْ وَتَلَاخُقِ عَضُورِهِمْ وَكِفَايَتِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ لَمْ يَكُونُوا لِيُغْفِلُوا شَيْئًا مِنَ السُّنَّةِ أَوْ  
يَتْرُكُوهُ حَتَّى يَعْثَرَ عَلَيْهِ الْمَتَأَخَّرُ ، هَذَا يَبْعِدُ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا تَنْصَرِفُ الْعِنَايَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ  
إِلَى تَصْحِيحِ الْأَمْهَاتِ الْمَكْتُوبَةِ وَضَبْطِهَا بِالرُّوَايَةِ عَنِ مُصَنِّفِيهَا وَالنَّظَرِ فِي أَسَانِيدِهَا  
إِلَى مُؤَلِّفِهَا وَعَرْضِ ذَلِكَ عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ مِنَ الشُّرُوطِ وَالْأَحْكَامِ لِتَتَّصِلَ  
الْأَسَانِيدُ مُحْكَمَةً إِلَى مُنْتَهَاهَا . وَلَمْ يَزِيدُوا فِي ذَلِكَ عَلَى الْعِنَايَةِ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذِهِ  
الْأَمْهَاتِ الْخَمْسِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ . فَأَمَّا الْبُخَارِيُّ وَهُوَ أَعْلَاهَا رُتْبَةً فَاسْتَضَعَبَ النَّاسُ  
شَرْحَهُ وَاسْتَعْلَقُوا مَنْحَاهُ مِنْ أَجْلِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ الْمُتَعَدِّدَةِ  
وَرِجَالِهَا مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ وَاجْتِلَافِ النَّاسِ فِيهِمْ .  
وَلِذَلِكَ يُحْتَاجُ إِلَى إِعْمَانِ النَّظَرِ فِي التَّفَقُّهِ فِي تَرَاجِمِهِ لِأَنَّهُ يَتَرَجَّمُ التَّرْجَمَةَ وَيُورِدُ  
فِيهَا الْحَدِيثَ بِسَنَدٍ أَوْ طَرِيقٍ ثُمَّ يَتَرَجَّمُ أُخْرَى وَيُورِدُ فِيهَا ذَلِكَ الْحَدِيثَ بِعَيْنِهِ  
لِمَا تَضْمَنَهُ مِنَ الْمَعْنَى الَّذِي تَرَجَّمَ بِهِ الْبَابُ . وَكَذَلِكَ فِي تَرْجَمَةِ وَتَرْجَمَةِ إِلَى أَنْ  
يَتَكَرَّرَ الْحَدِيثُ فِي أَبْوَابٍ كَثِيرَةٍ بِحَسَبِ مَعَانِيهِ وَاجْتِلَافِهَا وَمِنْ شَرْحِهِ وَلَمْ  
يَسْتَوْفِ هَذَا فِيهِ فَلَمْ يُؤَفِّ حَقَّ الشَّرْحِ كَأَبْنِ بَطَّالٍ وَابْنِ الْمُهَلَّبِ وَابْنِ التَّيْنِ  
وَنَحْوِهِمْ . وَلَقَدْ سَمِعْتُ كَثِيرًا مِنْ شُيُوخِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقُولُونَ : شَرَحَ كِتَابَ  
الْبُخَارِيِّ دَيْنٌ عَلَى الْأُمَّةِ يَعْنُونَ أَنَّ أَحَدًا مِنَ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ لَمْ يُؤَفِّ مَا يَجِبُ لَهُ مِنَ  
الشَّرْحِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ . وَأَمَّا صَحِيحُ مُسْلِمٍ فَكَثَّرَتْ عِنَايَةُ عُلَمَاءِ الْمَغْرِبِ بِهِ وَأَكْبَرُوا  
عَلَيْهِ وَأَجْمَعُوا عَلَى تَفْصِيلِهِ عَلَى كِتَابِ الْبُخَارِيِّ مِنْ غَيْرِ الصَّحِيحِ مِمَّا لَمْ يَكُنْ عَلَى  
شَرْطِهِ وَأَكْثَرَ مَا وَقَعَ لَهُ فِي التَّرَاجِمِ . وَأَمَلَى الْإِمَامُ الْمَارِزِيُّ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ عَلَيْهِ  
شَرْحًا وَسَمَّاهُ ( الْمُعَلِّمُ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ ) اشْتَمَلَ عَلَى عِيُونٍ مِنْ عِلْمِ الْحَدِيثِ وَفُنُونٍ مِنْ  
الْفِقْهِ ثُمَّ أَكْمَلَهُ الْقَاضِي عِيَّاضٌ مِنْ بَعْدِهِ وَتَمَّمَهُ وَسَمَّاهُ إِكْمَالَ الْمُعَلِّمِ وَتَلَاهُمَا مُحِبِّي



الَّذِينَ النَّوَوِيُّ بِشَرْحِ اسْتَوْفَى مَا فِي الْكِتَابَيْنِ وَزَادَ عَلَيْهِمَا فَجَاءَ شَرْحًا وَافِيًا . وَأَمَّا كُتُبُ السُّنَنِ الْأُخْرَى وَفِيهَا مُعْظَمُ مَا خِذَ الْفُقَهَاءُ فَأَكْثَرُ شَرْحَهَا فِي كُتُبِ الْفِقْهِ إِلَّا مَا يُخْتَصُّ بِعِلْمِ الْحَدِيثِ فَكُتِبَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَاسْتَوْفَوْا مِنْ ذَلِكَ مَا يُخْتِجُ إِلَيْهِ مِنْ عِلْمِ الْحَدِيثِ وَمَوْضُوعَاتِهَا وَالْأَسَانِيدِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَحَادِيثِ الْمَعْمُولِ بِهَا مِنَ السُّنَّةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَحَادِيثَ قَدْ تَمَيَّزَتْ مَرَاتِبَهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بَيْنَ صَحِيحٍ وَحَسَنٍ وَضَعِيفٍ وَمَعْلُولٍ وَغَيْرِهَا تَنْزِلُهَا أَيْمَةُ الْحَدِيثِ وَجَهًا بَدْتَهُ وَعَرَفُوهَا . وَلَمْ يَنْتَقِ طَرِيقَ فِي تَصْحِيحِ مَا يَصْحُ مِنْ قَبْلُ . وَلَقَدْ كَانَ الْأَيْمَةُ فِي الْحَدِيثِ يَعْرِفُونَ الْأَحَادِيثَ بِطَرِيقِهَا وَأَسَانِيدِهَا بِحَيْثُ لَوْ رَوَى حَدِيثٌ بِغَيْرِ سَنَدِهِ وَطَرِيقِهِ يَفْطَنُونَ إِلَى أَنَّهُ قَلْبٌ عَنْ وَضْعِهِ وَلَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ حِينَ وَرَدَ عَلَى بَغْدَادَ وَقَصَدَ الْمُحَدِّثُونَ امْتِحَانَهُ فَسَأَلُوهُ عَنْ أَحَادِيثَ قَبِلُوا أَسَانِيدَهَا فَقَالَ : « لَا أَعْرِفُ هَذِهِ وَلَكِنْ حَدَّثَنِي فُلَانٌ » . ثُمَّ أَتَى بِجَمِيعِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ عَلَى الْوَضْعِ الصَّحِيحِ وَرَدَّ كُلَّ مَثْنٍ إِلَى سَنَدِهِ وَأَقْرَأُوهُ بِالْإِمَامَةِ . وَاعْلَمْ أَيْضًا أَنَّ الْأَيْمَةَ الْمُجْتَهِدِينَ تَفَاوَتُوا فِي الْإِكْتَارِ مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَالْإِقْلَالِ فَأَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يُقَالُ بَلَغَتْ رِوَايَتُهُ إِلَى سَبْعَةِ عَشَرَ حَدِيثًا أَوْ نَحْوَهَا وَمَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ إِنَّمَا صَحَّ عِنْدَهُ مَا فِي كِتَابِ الْمَوْطَأِ<sup>(١)</sup> وَغَايَتُهَا ثَلَاثُمِائَةِ حَدِيثٍ أَوْ نَحْوَهَا . وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مُسْنَدِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَدِيثٍ وَلِكُلِّ مَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ فِي ذَلِكَ . وَقَدْ تَقَوْلُ بَعْضُ الْمُبْتَغِضِينَ الْمُتَعَسِّفِينَ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَاعَةِ فِي الْحَدِيثِ فَلِهَذَا قُلْتُ رِوَايَتُهُ . وَلَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا الْمُعْتَقِدِ فِي كِبَارِ الْأَيْمَةِ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ إِنَّمَا تُوَخَّذُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَمَنْ كَانَ قَلِيلَ الْبِضَاعَةِ مِنَ الْحَدِيثِ فَيَتَعَمَّنُ عَلَيْهِ طَلْبُهُ وَرِوَايَتُهُ وَالْجِدُّ وَالتَّشْمِيرُ فِي ذَلِكَ لِيَأْخُذَ الَّذِينَ عَنْ أَصُولٍ صَحِيحَةٍ وَيَتَلَقَّى الْأَحْكَامَ عَنْ صَاحِبِهَا الْمُبْلِغِ لَهَا . وَإِنَّمَا قَلَّلَ مِنْهُمْ مَنْ قَلَّلَ

(١) الذي في شرح الزرقاني على الموطأ حكاية أقوال خمسة في عدة أحاديثه أولها ٥٠٠ ثانيها ٧٠٠ ثالثها ألف

ونيف رابعها ١٧٢٠ خامسها ٦٦٦ وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر الهوريني .

الرَّوَايَةَ لِأَجْلِ الْمَطَاعِنِ الَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِيهَا وَالْعِلَلِ الَّتِي تَعْرِضُ فِي طَرَقِهَا سِيَّمَا  
وَالجَرَحِ مُقَدِّمَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ فَيُؤَدِّيهِ الْاجْتِهَادُ إِلَى تَرْكِ الْأَخْذِ بِمَا يَعْزِضُ مِثْلَ ذَلِكَ  
فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَطَرَقِ الْأَسَانِيدِ وَيَكْتَفُرُ ذَلِكَ فَتَقِلُّ رِوَايَتُهُ لِضَعْفِ فِي الطَّرِيقِ .  
هَذَا مَعَ أَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ أَكْثَرُ رِوَايَةَ لِلْحَدِيثِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ لِأَنَّ الْمَدِينَةَ دَارَ  
الْهَجْرَةِ وَمَأْوَى الصَّحَابَةِ وَمِنْ انْتَقَلَ مِنْهُمْ إِلَى الْعِرَاقِ كَانَ شَغْلُهُمْ بِالْجِهَادِ أَكْثَرَ .  
وَالْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ إِنَّمَا قَلَّتْ رِوَايَتُهُ لِمَا شَدَّدَ فِي شُرُوطِ الرِّوَايَةِ وَالتَّحْمِلِ وَضَعْفِ  
رِوَايَةِ الْحَدِيثِ الْيَقِينِيِّ إِذَا عَارَضَهَا الْفِعْلُ النَّفْسِيُّ . وَقَلَّتْ مِنْ أَجْلِهَا رِوَايَةُ فَقَلَّ  
حَدِيثُهُ . لِأَنَّهُ تَرَكَ رِوَايَةَ الْحَدِيثِ مُتَعَمِّدًا فَحَاشَاةً مِنْ ذَلِكَ . وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ  
كِبَارِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ اعْتِمَادُ مَذْهَبِهِ بَيْنَهُمْ وَالتَّعْوِيلُ عَلَيْهِ وَاعْتِبَارُهُ رَدًّا  
وَقَبُولًا . وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَهُمْ الْجُمْهُورُ فَتَوَسَّعُوا فِي الشُّرُوطِ وَكَثُرَ حَدِيثُهُمْ  
وَالكُلُّ عَنِ اجْتِهَادِ وَقَدْ تَوَسَّعَ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ فِي الشُّرُوطِ وَكَثُرَتْ رِوَايَتُهُمْ .  
وَرَوَى الطُّحْطَاوِيُّ <sup>(١)</sup> فَأَكْثَرَ وَكَتَبَ مُسْنَدَهُ وَهُوَ جَلِيلُ الْقَدْرِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْدُلُ  
الصَّحِيحِينَ لِأَنَّ الشُّرُوطَ الَّتِي اعْتَمَدَهَا الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابَيْهِمَا مُجْمَعٌ عَلَيْهَا  
بَيْنَ الْأُمَّةِ كَمَا قَالُوهُ . وَشُرُوطُ الطُّحْطَاوِيِّ غَيْرُ مُتَّفِقٍ عَلَيْهَا كَالرِّوَايَةِ عَنِ الْمَسْتُورِ  
الْحَالِ وَغَيْرِهِ فَلِهَذَا قَدَّمَ الصَّحِيحَانَ بَلْ وَكَتَبَ السُّنَنِ الْمَعْرُوفَةَ عَلَيْهِ لِتَأْخِرَ شُرُوطِهِ  
عَنْ شُرُوطِهِمْ . وَمِنْ أَجْلِ هَذَا قِيلَ فِي الصَّحِيحِينَ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى قَبُولِهِمَا مِنْ جِهَةِ  
الْإِجْمَاعِ عَلَى صِحَّةِ مَا فِيهِمَا مِنَ الشُّرُوطِ الْمُتَّفِقِ عَلَيْهَا . فَلَا تَأْخُذُكَ رَيْبَةٌ فِي ذَلِكَ  
فَالْقَوْمُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالظَّنِّ الْجَمِيلِ بِهِمْ وَالتَّمَسُّكِ الْمَخَارِجِ الصَّحِيحَةِ لَهُمْ . وَاللَّهُ  
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا فِي حَقَائِقِ الْأُمُورِ .

(١) وفي نسخة أخرى : الطحاوي .

## الفصل السابع

### في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحذر<sup>(١)</sup> والنذبة والكراهة والإباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه . وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم . ولا بد من وقوعه ضرورة . فإن الأدلة غالبها من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضاءات ألفاظها لكثير من معانيها وخصوصاً الأحكام الشرعية اختلاف بينهم معروف . وأيضاً فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت وتتعارض في الأكثر أحكامها فتحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضاً . فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها وأيضاً فالوقائع المتجددة لا توفى بها النصوص . وما كان منها غير ظاهر في المنصوص<sup>(٢)</sup> فيحمل على المنصوص لمشابهة بينهما وهذه كلها إشارات<sup>(٣)</sup> للخلاف ضرورة الوقوع . ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم . ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتياً ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم . وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه من النبي ﷺ أو ممن سمعه منهم ومن عليتهم . وكانوا يسمون لذلك القراء أي الذين يقرأون الكتاب لأن العرب كانوا أمة أمية . فاخص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ . وبقي الأمر كذلك صدر الملة . ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط

(١) وفي نسخة أخرى : والحظر .

(٢) وفي نسخة أخرى : النصوص .

(٣) وفي نسخة أخرى : مشارا .

وَكَمَّلَ الْفِقْهَ وَأَصْبَحَ صِنَاعَةً وَعِلْمًا فَبَدَّلُوا بِاسْمِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ مِنَ الْقُرَّاءِ . وَأَنْقَسَمَ الْفِقْهَ فِيهِمْ إِلَى طَرِيقَتَيْنِ : طَرِيقَةَ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ وَهُمْ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَطَرِيقَةَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَهُمْ أَهْلُ الْحِجَازِ . وَكَانَ الْحَدِيثُ قَلِيلًا فِي أَهْلِ الْعِرَاقِ لِمَا قَدَّمَ نَاهُ فَاسْتَكْتَرُوا مِنَ الْقِيَاسِ وَمَهَرُوا فِيهِ فَلِذَلِكَ قِيلَ أَهْلُ الرَّأْيِ . وَمُقَدَّمُ جَمَاعَتِهِمُ الَّذِي اسْتَقَرَّ الْمَذْهَبُ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ أَبُو حَنِيفَةَ وَإِمَامُ أَهْلِ الْحِجَازِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَالشَّافِعِيُّ مِنْ بَعْدِهِ . ثُمَّ أَنْكَرَ الْقِيَاسَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَبْطَلُوا الْعَمَلَ بِهِ وَهُمْ الظَّاهِرِيَّةُ . وَجَعَلُوا الْمَدَارِكَ<sup>(١)</sup> كُلَّهَا مُنْخَصِرَةً فِي النُّصُوصِ وَالْإِجْمَاعِ وَرَدُّوا الْقِيَاسَ الْجَلْبِيَّ وَالْعِلَّةَ الْمَنْصُوصَةَ إِلَى النَّصِّ . لِأَنَّ النَّصَّ عَلَى الْعِلَّةِ نَصٌّ عَلَى الْحُكْمِ فِي جَمِيعِ مَحَالِّهَا . وَكَانَ إِمَامُ هَذَا الْمَذْهَبِ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ وَابْنُهُ وَأَصْحَابُهُمَا . وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الثَّلَاثَةُ هِيَ مَذَاهِبُ الْجُمْهُورِ الْمُشْتَهَرَةِ بَيْنَ الْأُمَّةِ . وَشَدَّ أَهْلُ الْبَيْتِ بِمَذَاهِبِ ابْتَدَعُوهَا وَفَقَّهَ أَنْفَرَدُوا بِهِ وَبَنَوْهُ عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي تَنَاوُلِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ بِالْقُدْحِ . وَعَلَى قَوْلِهِمْ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ وَرَفَعَ الْخِلَافَ عَنْ أَقْوَالِهِمْ وَهِيَ كُلُّهَا أَصُولٌ وَاهِيَةٌ وَشَدَّ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْخَوَارِجُ وَلَمْ يَحْتَفِلِ<sup>(٢)</sup> الْجُمْهُورُ بِمَذَاهِبِهِمْ بَلْ أَوْسَعُوهَا جَانِبَ الْإِنْكَارِ وَالْقُدْحِ . فَلَا نَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ مَذَاهِبِهِمْ وَلَا نَرُوي كُتُبَهُمْ وَلَا أَثَرِ لَشَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا فِي مَوَاطِنِهِمْ . فَكُتِبَ الشَّيْعَةَ فِي بِلَادِهِمْ وَحَيْثُ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ<sup>(٣)</sup> قَائِمَةً فِي الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ وَالْيَمَنِ وَالْخَوَارِجُ كَذَلِكَ . وَلِكُلِّ مِنْهُمْ كُتُبٌ وَتَأَلِيفٌ وَأَرَاءٌ فِي الْفِقْهِ غَرِيبَةٌ . ثُمَّ دَرَسَ مَذْهَبُ أَهْلِ الظَّاهِرِ الْيَوْمَ بِدُرُوسِ أَيْمَتِهِ وَإِنْكَارِ الْجُمْهُورِ عَلَى مُنْتَحَلِهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فِي الْكُتُبِ الْمُجَلَّدَةِ<sup>(٤)</sup> وَرَبِّمًا يَعْكُفُ كَثِيرٌ مِنَ الطَّالِبِينَ مِمَّنْ تَكَلَّفَ بِاتِّخَالِ مَذْهَبِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ يَرُومُ أَخَذَ فِقْهَهُمْ مِنْهَا وَمَذْهَبِهِمْ فَلَا يَخْلُو بِطَائِلٍ وَيَصِيرُ إِلَى مُخَالَفَةِ الْجُمْهُورِ وَإِنْكَارِهِمْ عَلَيْهِ وَرَبِّمًا عَدَّ بِهَذِهِ النُّحْلَةَ مِنْ أَهْلِ

(١) وفي نسخة أخرى : مدارك للشرح .

(٢) وفي نسخة أخرى : ولم يحفل .

(٣) وفي نسخة أخرى : دولهم .

(٤) وفي النسخة الباريية : في الكتب المجلدة .

الْبَدْعِ بِنَقْلِهِ <sup>(١)</sup> الْعِلْمَ مِنَ الْكُتُبِ مِنْ غَيْرِ مِفْتَاحِ الْمُعَلِّمِينَ . وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ ابْنُ حَزْمٍ  
 بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى غُلُوبِ رُتْبَتِهِ فِي حِفْظِ الْحَدِيثِ وَصَارَ إِلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الطَّاهِرِ وَمَهْرَ فِيهِ  
 بِاجْتِهَادِ زَعْمِهِ فِي أَقْوَالِهِمْ . وَخَالَفَ إِمَامَهُمْ دَاوُدَ وَتَعَرَّضَ لِلْكَثِيرِ مِنَ الْأَئِمَّةِ  
 الْمُسْلِمِينَ فَنَقِمَ النَّاسُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَأَوْسَعُوا مَذْهَبَهُ اسْتِهْجَانًا وَإِنْكَارًا . وَتَلَقَّوْا كُتُبَهُ  
 بِالْإِغْفَالِ وَالتَّرْكِ حَتَّى إِنَّهَا لِيُحْضَرُ بَيْعُهَا بِالْأَسْوَاقِ وَرُبَّمَا تَمَزَّقَ فِي بَعْضِ  
 الْأَحْيَانِ . وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَذْهَبُ أَهْلِ الرَّأْيِ مِنَ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ مِنَ الْحِجَازِ .  
 فَأَمَّا أَهْلُ الْعِرَاقِ فِيمَا مَهَّمُ الَّذِي اسْتَقَرَّتْ عِنْدَهُ مَذَاهِبُهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ النَّعْمَانُ بْنُ  
 ثَابِتٍ وَمَقَامُهُ فِي الْفِقْهِ لَا يُلْحَقُ شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ أَهْلُ جِلْدَتِهِ وَخُصُوصًا مَالِكٌ  
 وَالشَّافِعِيُّ . وَأَمَّا أَهْلُ الْحِجَازِ فَكَانَ إِمَامُهُمْ مَالِكُ ابْنِ أَنَسِ الْأَصْبَحِيِّ إِمَامَ دَارِ  
 الْهُجْرَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَاخْتَصَّ بِزِيَادَةِ مُدْرِكِ آخِرِ الْأَحْكَامِ غَيْرِ الْمُبْدَارِكِ  
 الْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَ غَيْرِهِ وَهُوَ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّهُمْ فِيمَا يَنْفُسُونَ <sup>(٢)</sup> عَلَيْهِ مِنْ  
 فِعْلِ أَوْ تَرْكِ مُتَابِعُونَ لِمَنْ قَبْلَهُمْ ضُرُورَةٌ لِيَدِينَهُمْ وَأَقْتِدَائِهِمْ . وَهَكَذَا إِلَى الْجَبَلِ  
 الْمُبَاشِرِينَ لِفِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ الْأَخْذِينَ ذَلِكَ عَنْهُ . وَصَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُ مِنْ أَصُولِ  
 الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ . وَظَنَّ كَثِيرٌ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِ الْإِجْمَاعِ فَأَنْكَرَهُ لِأَنَّ دَلِيلَ الْإِجْمَاعِ  
 لَا يَخْصُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنْ سِوَاهُمْ بَلْ هُوَ شَامِلٌ لِلْأُمَّةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِجْمَاعَ إِنَّمَا هُوَ  
 الْإِتْفَاقُ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي نَبِيٌّ عَنِ اجْتِهَادِهِ . وَمَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَعْتَبِرْ عَمَلَ أَهْلِ  
 الْمَدِينَةِ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى وَإِنَّمَا اعْتَبَرَهُ مِنْ حَيْثُ  
 اتَّبَاعِ الْجَبَلِ بِالْمُشَاهَدَةِ لِلْجَبَلِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .  
 وَضُرُورَةُ اقْتِدَائِهِمْ بَعَيْنِ ذَلِكَ يَعُمُّ الْمِلَّةَ <sup>(٣)</sup> ذُكِرَتْ فِي بَابِ الْإِجْمَاعِ وَالْأَنْبَوَاءِ بِهَا  
 مِنْ حَيْثُ مَا فِيهَا مِنَ الْإِتْفَاقِ الْجَامِعِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِجْمَاعِ . إِلَّا أَنَّ اتَّفَاقَ أَهْلِ

(١) وفي نسخة أخرى : بتلقيه .

(٢) وفي نسخة أخرى : يتفقون .

(٣) وفي النسخة الباريسية : ( تعين ذلك نعم المسئلة ) وهو تحريف .

الإجماع عن نظره واجتهاده في الأدلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين إلى  
مُشاهدة من قبلهم . ولو ذُكرت المسألة في باب فعل النبي ﷺ وتقريره أو مع  
الأدلة المختلف فيها مثل مذهب الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب لكان  
التيق بها ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن إدريس المطلب الشافعي  
رحمهما الله تعالى . رحل إلى العراق من بعد مالك ولقي أصحاب الإمام أبي  
حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص  
بمذهب . وخالف مالكاً رحمه الله تعالى في كثير من مذهبه . وجاء من بعدهما  
أحمد بن حنبل رحمه الله . وكان من عليّة المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب  
الإمام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر . ووقف  
التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم . وسد الناس  
باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاضطلاحات في العلوم . ولما عاق عن  
الوصول إلى رتبة الاجتهاد ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق  
برأيه ولا يدينه فصرحوا بالعجز والإعواز وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من  
اختص به من المقلدين . وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ولم  
يبق إلا نقل مذاهبهم . وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح  
الأصول واتصال سندها بالرواية لا محصول اليوم للفقهاء غير هذا . ومدعي  
الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده وقد صار أهل الإسلام اليوم على  
تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة . فأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن  
الاجتهاد وأصلته في معاضدة الرواية وللأخبار بعضها ببعض . وأكثرهم بالشام  
والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث وميلاً  
بالإستنباط إليه عن القياس ما أمكن . وكان لهم ببغداد صولة وكثرة حتى كانوا  
يتوابعون مع الشيعة في نواحيها . وعظمت الفتنة من أجل ذلك ثم انقطع ذلك عند  
استيلاء التتر عليها . ولم يراجع وصارت كثرتهم بالشام . وأما أبو حنيفة فقلده

الْيَوْمَ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَمُسْلِمَةَ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الْعَجَمِ كُلِّهَا . وَلَمَّا  
 كَانَ مَذْهَبُهُ أَحْصَى بِالْعِرَاقِ وَدَارِ السَّلَامِ وَكَانَ تَلْمِيذُهُ صَحَابَةَ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي  
 الْعَبَّاسِ فَكَثُرَتْ تَالِيفُهُمْ وَمُنَاطِرَاتُهُمْ مَعَ الشَّافِعِيَّةِ وَحَسُنَتْ مَبَاحِثُهُمْ فِي الْخِلَافِيَّاتِ ،  
 وَجَاءُوا مِنْهَا بِعِلْمٍ مُسْتَظَرَفٍ وَأَنْظَارٍ غَرِيبَةٍ وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ . وَبِالْمَغْرِبِ  
 مِنْهَا شَيْءٌ قَلِيلٌ نَقَلَهُ إِلَيْهِ الْقَاضِي بْنُ الْعَرَبِيِّ وَأَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِي فِي رِخْلَتَيْهِمَا .  
 وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ فَمَقْلُدُوهُ بِمِصْرَ أَكْثَرَ مِمَّا سِوَاهَا وَقَدْ كَانَ انْتَشَرَ مَذْهَبُهُ بِالْعِرَاقِ  
 وَخُرَّاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَقَاسَمُوا الْحَنْفِيَّةَ فِي الْفُتُوى وَالتَّدْرِيسِ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ .  
 وَعَظَّمَتْ مَجَالِسُ الْمُنَاطِرَاتِ بَيْنَهُمْ وَشَحِنَتْ كُتُبُ الْخِلَافِيَّاتِ بِأَنْوَاعِ  
 اسْتِدْلَالَاتِهِمْ . ثُمَّ دُرِسَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِدُرُوسِ الْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ . وَكَانَ الْإِمَامُ  
 مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ لَمَّا نَزَلَ عَلَى بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ بِمِصْرَ أَخَذَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ  
 مِنْهُمْ . وَكَانَ مِنْ تَلْمِيذِهِ بِهَا : الْبُؤَيْطِيُّ وَالْمَزْنِيُّ وَغَيْرُهُمْ ، وَكَانَ بِهَا مِنَ الْمَالِكِيَّةِ  
 جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ وَأَشْهَبُ وَابْنُ الْقَاسِمِ وَابْنُ الْمَوَازِ وَغَيْرُهُمْ ثُمَّ  
 الْحَارِسُ بْنُ مِسْكِينَ وَبَنُوهُ ثُمَّ الْقَاضِي أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ شَعْبَانَ وَأَوْلَادِهِ . ثُمَّ انْقَرَضَ  
 فِقْهُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ مِصْرَ بِظُهُورِ دَوْلَةِ الرَّافِضَةِ وَتَدَاوَلَ بِهَا فِقْهُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَتَلَاشَى  
 مِنْ سِوَاهُمْ <sup>(١)</sup> وَارْتَحَلَ إِلَيْهَا الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ مِنْ بَغْدَادَ ، آخِرَ الْمَائَةِ الرَّابِعَةِ عَلَى  
 مَا أَعْلَمُ ، مِنَ الْحَاجَةِ وَالتَّقْلِيْبِ فِي الْمَعَاشِ . فَتَأَذَّنَ خُلَفَاءُ الْعُبَيْدِيِّينَ بِإِكْرَامِهِ ،  
 وَإِظْهَارِ فَضْلِهِ نَعِيماً عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ فِي إِطْرَاحِ مِثْلِ هَذَا الْإِمَامِ ، وَالْإِعْتِبَاطِ بِهِ .  
 فَتَفَقَّتْ سُوقُ الْمَالِكِيَّةِ بِمِصْرَ قَلِيلاً ، إِلَى أَنْ ذَهَبَتْ دَوْلَةُ الْعُبَيْدِيِّينَ مِنَ الرَّافِضَةِ عَلَى  
 يَدِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ فَذَهَبَ مِنْهَا فِقْهُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَعَادَ فِقْهُ الْجَمَاعَةِ  
 إِلَى الظُّهُورِ بَيْنَهُمْ وَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فِقْهُ الشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ فَعَادَ  
 إِلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ وَتَفَقَّتْ سُوقُهُ وَاشْتَهَرَ مِنْهُمْ مُخِيْبِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ مِنَ الْخَلْبَةِ الَّتِي  
 رَبَّيْتُ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ بِالشَّامِ وَعَزَّ الدِّينَ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ أَيْضاً . ثُمَّ ابْنُ

(١) وفي نسخة أخرى ، وكاد من سواهم يتلاشوا ويندبوا .

الرُّقْعَةَ بِمِصْرَ وَتَقِيُّ الدِّينِ بِنُ دَقِيقِ الْعِيدِ ثُمَّ تَقِيُّ الدِّينِ السُّبْكِيُّ بَعْدَهُمَا إِلَى أَنْ  
 أَنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى شَيْخِ الْإِسْلَامِ بِمِصْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ سِرَاجُ الدِّينِ الْبَلْقِينِيُّ فَهُوَ الْيَوْمَ  
 أَكْبَرُ الشَّافِعِيَّةِ بِمِصْرَ كَبِيرُ الْعُلَمَاءِ بَلْ أَكْبَرُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ<sup>(١)</sup>. وَأَمَّا مَالِكُ  
 رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَاخْتَصَّ بِمَذْهَبِهِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ . وَإِنْ كَانَ يُوجَدُ فِي  
 غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يُقَلِّدُوا غَيْرَهُ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ لِمَا أَنْ رَحَلْتَهُمْ كَانَتْ غَالِبًا إِلَى الْحِجَازِ  
 وَهُوَ مُنْتَهَى سَفَرِهِمْ . وَالْمَدِينَةُ يَوْمَئِذٍ دَارُ الْعِلْمِ وَمِنْهَا خَرَجَ إِلَى الْعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنْ  
 الْعِرَاقُ فِي طَرِيقِهِمْ فَاقْتَصَرُوا عَنِ الْأَخْذِ عَنْ عُلَمَاءِ الْمَدِينَةِ . وَشَيْخُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَإِمَامُهُمْ  
 مَالِكُ وَشُيُوخُهُ مِنْ قَبْلِهِ وَتَلْمِيزُهُ مِنْ بَعْدِهِ . فَرَجَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ  
 وَقَلَّدُوهُ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِمْ طَرِيقَتُهُ . وَأَيْضًا فَالْبِدَاوَةُ كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى  
 أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُونُوا يُعَانُونَ الْحِضْرَةَ الَّتِي لِأَهْلِ الْعِرَاقِ فَكَانُوا إِلَى  
 أَهْلِ الْحِجَازِ أَمِيلٌ لِمُنَاسَبَةِ الْبِدَاوَةِ . وَلِهَذَا لَمْ يَزَلِ الْمَذْهَبُ الْمَالِكِيُّ غَضًا عِنْدَهُمْ ،  
 وَلَمْ يَأْخُذْهُ تَنْقِيحُ الْحِضْرَةِ وَتَهْدِيبُهَا كَمَا وَقَعَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَذَاهِبِ . وَلَمَّا صَارَ  
 مَذْهَبُ كُلِّ إِمَامٍ عِلْمًا مَخْصُوصًا عِنْدَ أَهْلِ مَذْهَبِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى الْإِجْتِهَادِ  
 وَالْقِيَاسِ فَاحْتَجَّوْا إِلَى تَنْظِيرِ الْمَسَائِلِ فِي الْإِلْحَاقِ وَتَفْرِيقِهَا عِنْدَ الْإِشْتِبَاهِ بَعْدَ  
 الْإِسْتِنَادِ إِلَى الْأُصُولِ الْمُقَرَّرَةِ مِنْ مَذَاهِبِ إِمَامِهِمْ . وَصَارَ ذَلِكَ كُلُّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَلَكَةِ  
 رَاسِخَةٍ يُقْتَدِرُ بِهَا عَلَى ذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّنْظِيرِ أَوْ التَّفْرِيقِ وَاتَّبَاعَ مَذْهَبِ إِمَامِهِمْ فِيهِمَا  
 مَا اسْتَطَاعُوا . وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ هِيَ عِلْمُ الْفِقْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَأَهْلُ الْمَغْرِبِ جَمِيعًا  
 مُقَلِّدُونَ لِمَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَقَدْ كَانَ تَلَامِيذُهُ افْتَرَقُوا بِمِصْرَ وَالْعِرَاقِ . فَكَانَ  
 بِالْعِرَاقِ مِنْهُمْ الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَطَبَقْتُهُ مِثْلُ ابْنِ حَوْزِيزِ مَنْدَادَ وَابْنِ اللَّبَّانِ<sup>(٢)</sup>  
 وَالْقَاضِي وَأَبِي بَكْرٍ الْأَبْهَرِيُّ وَالْقَاضِي أَبِي حُسَيْنِ<sup>(٣)</sup> بِنِ الْقِصَارِ وَالْقَاضِي عَبْدُ  
 الْوَهَّابِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ . وَكَانَ بِمِصْرَ ابْنُ الْقَاسِمِ وَأَشْهَبُ وَابْنُ عَبْدِ الْحَكِّمِ

(١) وفي نسخة أخرى : فهو اليوم كبير الشافعية بمصر . لا بل كبير العلماء من أهل العصر .

(٢) وفي النسخة الباريسية : ابن المنجاب .

(٣) وفي النسخة الباريسية : أبو الحسن .



وَالْحَارِثُ بْنُ مَسْكِينٍ وَطَبَقْتُهُمْ وَرَحَّلَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى اللَّيْثِيُّ ،  
وَلَقِيَ مَالِكًا . وَرَوَى عَنْهُ كِتَابَ الْمَوْطَأِ ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ أَصْحَابِهِ . وَرَحَّلَ بَعْدَهُ  
عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ حَبِيبٍ فَأَخَذَ عَنِ ابْنِ الْقَاسِمِ وَطَبَقْتِهِ وَبَثَّ مَذْهَبَ مَالِكٍ فِي  
الْأَنْدَلُسِ وَدَوَّنَ فِيهِ كِتَابَ الْوَاضِحَةِ . ثُمَّ دَوَّنَ الْعَتَبِيُّ مِنْ تَلَامِيذِهِ كِتَابَ الْعَتَبِيَّةِ .  
وَرَحَّلَ مِنْ أَفْرِيْقِيَّةِ أَسَدُ بْنُ الْفُرَاتِ فَكَتَبَ عَنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ أَوَّلًا ، ثُمَّ انْتَقَلَ  
إِلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ . وَكَتَبَ عَلَى ابْنِ الْقَاسِمِ <sup>(١)</sup> فِي سَائِرِ أَبْوَابِ الْفِقْهِ وَجَاءَ إِلَى الْقَيْرَوَانِ  
بِكِتَابِهِ وَسُمِّيَ الْأَسَدِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ ، فَقَرَأَ بِهَا سُخُونٌ عَلَى أَسَدٍ ثُمَّ  
ارْتَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ وَلَقِيَ ابْنَ الْقَاسِمِ وَأَخَذَ عَنْهُ وَعَارَضَهُ بِمَسَائِلِ الْأَسَدِيَّةِ فَرَجَعَ عَنْ  
كَثِيرٍ مِنْهَا . وَكَتَبَ سُخُونٌ مَسَائِلَهَا وَدَوَّنَهَا وَأَثَبَتْ مَا رَجَعَ عَنْهُ مِنْهَا وَكَتَبَ  
لَأَسَدٍ <sup>(٢)</sup> وَأَنْ يَأْخُذَ بِكِتَابِ سُخُونٍ فَأَنْفَ مِنْ ذَلِكَ فَتَرَكَ النَّاسُ كِتَابَهُ وَاتَّبَعُوا  
مُدَوَّنَةَ سُخُونٍ عَلَى مَا كَانَ فِيهَا مِنْ اخْتِلَاطِ الْمَسَائِلِ فِي الْأَبْوَابِ فَكَانَتْ تُسَمَّى  
الْمُدَوَّنَةَ وَالْمُخْتَلِطَةَ . وَعَكَفَ أَهْلُ الْقَيْرَوَانِ عَلَى هَذِهِ الْمُدَوَّنَةِ وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ عَلَى  
الْوَاضِحَةِ وَالْعَتَبِيَّةِ . ثُمَّ اخْتَصَرَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ الْمُدَوَّنَةَ وَالْمُخْتَلِطَةَ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى  
بِالْمُخْتَصَرِ وَلَخَّصَهُ أَيْضًا أَبُو سَعِيدٍ الْبَرَادِعِيُّ مِنْ فُقَهَاءِ الْقَيْرَوَانِ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى  
بِالتَّهْذِيبِ وَاعْتَمَدَهُ الْمَشِيخَةُ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيْقِيَّةِ وَأَخَذُوا بِهِ وَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ . وَكَذَلِكَ  
اعْتَمَدَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ كِتَابَ الْعَتَبِيَّةِ وَهَجَرُوا الْوَاضِحَةَ وَمَا سِوَاهَا . وَلَمْ تَزَلْ عُلَمَاءُ  
الْمَذْهَبِ يَتَعَاهَدُونَ هَذِهِ الْأَمْهَاتِ بِالشَّرْحِ وَالْإِيضَاحِ وَالْجَمْعِ فَكَتَبَ أَهْلُ أَفْرِيْقِيَّةِ  
عَلَى الْمُدَوَّنَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوا مِثْلَ ابْنِ يُونُسَ وَاللَّخْمِيِّ وَابْنِ مُحْرِزِ التُّونِسِيِّ  
وَابْنِ بَشِيرٍ وَأَمْثَالِهِمْ . وَكَتَبَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ عَلَى الْعَتَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوا مِثْلَ  
ابْنِ رُشَيْدٍ وَأَمْثَالِهِ . وَجَمَعَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ جَمِيعَ مَا فِي الْأَمْهَاتِ مِنَ الْمَسَائِلِ وَالْخِلَافِ  
وَالْأَقْوَالِ فِي كِتَابِ النُّوَادِرِ فَاسْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ أَقْوَالِ الْمَذَاهِبِ وَفَرَعَ الْأَمْهَاتِ كُلَّهَا فِي

(١) وفي النسخة الباريسية ، وكتب عن ابن القاسم .

(٢) وفي نسخة أخرى ، وكتب معه ابن القاسم إلى أسد أن يمحو من أسديته ما رجع عنه .

هَذَا الْكِتَابِ وَنَقَلَ ابْنُ يُونُسَ مُعْظَمَهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْمُدُونَةِ وَزَخَرَتْ بِحَارِ  
 الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ فِي الْأَفْقَيْنِ إِلَى انْقِرَاضِ دَوْلَةِ قُرْطَبَةَ وَالْقَيْرَوَانَ . ثُمَّ تَمَسَّكَ بِهِمَا  
 أَهْلُ الْمَغْرِبِ بَعْدَ ذَلِكَ ( إِلَى أَنْ جَاءَ كِتَابُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْحَاجِبِ لَخَصَّ فِيهِ  
 طَرُقَ أَهْلِ الْمَذْهَبِ فِي كُلِّ بَابٍ وَتَعْدِيدَ أَقْوَالِهِمْ فِي كُلِّ مَسْئَلَةٍ فَجَاءَ كَالْبُرْنَامِجِ  
 لِلْمَذْهَبِ . وَكَانَتْ الطَّرِيقَةُ الْمَالِكِيَّةُ بَقِيَّتْ فِي مِصْرَ مِنْ لَدُنِ الْحَارِثِ بْنِ مَسْكِينِ  
 وَابْنِ الْمُبَشَّرِ وَابْنِ اللَّهَيْثِ وَابْنِ الرَّشِيقِ وَابْنِ شَاسٍ . وَكَانَتْ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ فِي  
 بَنِي عَوْفٍ وَبَنِي سَنَدٍ وَابْنِ عَطَاءِ اللَّهِ . وَلَمْ أَذْرِ عَمَّنْ أَخَذَهَا أَبُو عَمْرٍو بْنِ  
 الْحَاجِبِ لَكِنَّهُ جَاءَ بَعْدَ انْقِرَاضِ دَوْلَةِ الْعَبِيدِيِّينَ وَذَهَابِ فَحِهِ أَهْلِ الْبَيْتِ وَظُهُورِ  
 فَقَهَاءِ السُّنَّةِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَلَمَّا جَاءَ كِتَابُهُ إِلَى الْمَغْرِبِ أَخْرَجَ الْمِائَةَ  
 السَّابِعَةَ <sup>(١)</sup> عَكَّفَ عَلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنْ طَلَبَةِ الْمَغْرِبِ وَخُصُوصاً أَهْلُ بَجَايَةِ لَمَّا كَانَ

(١) الموجود بين القوسين ورد في النسخة الباريسية كما يلي :

وتميزت للمذهب المالكي ثلاث طرق : للقرويين وكبيرهم سحنون الآخذ عن أبي القاسم . وللقرطبيين  
 وكبيرهم ابن حبيب . الآخذ عن مالك ومطرف وابن الماحشون وأصبح . وللعراقيين وكبيرهم القاضي إسماعيل  
 وأصحابه . وكانت طريقة المصريين تابعة العراقيين وإن القاضي عبد الوهاب انتقل إليها من بغداد آخر المائة  
 الرابعة وأخذ أهلها عنه . وكانت للطريقة المالكية بمصر من لدن الحارث بن مسكين وابن ميسر وابن اللهب  
 وابن رشيق وكانت خافية بسبب ظهور الرافضة وفقه أهل البيت . وأما طريقة العراقيين . فكانت مهجورة عند  
 أهل القيروان والأندلس لبعدها وخفاء مدرستها وقلة اطلاعهم على ماخذهم فيها . والقوم أهل اجتهاد . وإن كان  
 خاصاً . لا يرون التقليد ولا يرضونه طريقاً . وكذلك نجد أهل المغرب والأندلس لا يأخذون برأي العراقيين فيما  
 لا يجدون فيه رواية عن الإمام أو أحد من أصحابه . ثم امتزجت الطرق بعد ذلك ورحل أبو بكر الطرطوشي من  
 الأندلس في المائة السادسة . ونزل البيت المقدس وأوطنه . وأخذ عنه أهل مصر والإسكندرية ومزجوا طريقة  
 الأندلسية بطريقتهم المصرية . وكان من جملة أصحابه الفقيه سند صاحب الطراز وأصحابه . وأخذ عنهم جماعة .  
 كان منهم بنو عوف وأصحابه . وأخذ عنهم أبو عمر بن الحاجب وبعده شهاب الدين القرافي . واتصل ذلك في تلك  
 الأمصار . وكان فقه الشافعية أيضاً قد انقرض بمصر منذ دولة العبيديين من أهل البيت . فظهر بعدهم في الفقهاء  
 الذين جدده : الرافعي فقيه خراسان منهم . وظهر بالشام محي الدين النووي من تلك الحيلة ثم امتزجت طريقة  
 المغاربة من المالكية أيضاً بطريقتهم العراقيين . من لدن الشرماسحي . كان بالإسكندرية ظاهراً في الطريقة المغربية  
 والمصرية . فبنى المستنصر العباسي أبو المعتمد وابن الظاهر مدرسته ببغداد واستدعاه لها من خلفاء العبيديين  
 الذين كانوا يومئذ بالقاهرة فأذنوا له في الرحيل إليه . فلما قدم بغداد وولاه تدريس المستنصرية . وأقام هنالك إلى  
 أن استولى هولوكو على بغداد سنة ست وخمسين من المائة السابعة . وخلص من تيار تلك النكبة وخلا سبيله .  
 فعاش هنالك إلى أن مات في أيام ابنه أحمد ابغا . وتلخصت طرق هؤلاء المصريين بمتزجة بطرق المغاربة كما =

كَبِيرٌ مَشِيخَتِهِمْ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ الدِّينِ الزَّوَاوِيُّ هُوَ الَّذِي جَلَبَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ . فَإِنَّهُ كَانَ قَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ بِمِصْرَ وَنَسَخَ مُخْتَصَرَهُ ذَلِكَ فَجَاءَ بِهِ وَانْتَشَرَ بِقَطْرِ بَجَايَةَ فِي تَلْمِيذِهِ ، وَمِنْهُمْ انْتَقَلَ إِلَى سَائِرِ الْأَمْصَارِ الْمَغْرِبِيَّةِ وَطَلَبَهُ الْفُقَهَ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ يَتَدَاوَلُونَ قِرَاءَتَهُ وَيَتَدَارَسُونَهُ لِمَا يُؤَثَّرُ عَنِ الشَّيْخِ نَاصِرِ الدِّينِ مِنَ التَّرْغِيبِ فِيهِ . وَقَدْ شَرَحَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِهِمْ : كَابُنُ عَبْدِ السَّلَامِ وَابْنُ رَشِيدٍ <sup>(١)</sup> وَابْنُ هَارُونَ وَكُلُّهُمْ مِنْ مَشِيخَةِ أَهْلِ تُونِسَ وَسَابِقِ حَلَّتِيهِمْ فِي الْإِجَادَةِ فِي ذَلِكَ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَتَعَاهَدُونَ كِتَابَ التَّهْذِيبِ فِي دُرُوسِهِمْ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

## الفصل الثامن

### في علم الفرائض

وهو معرفة فروض الوراثة وتصحیح سهام الفريضة مما تصحح باعتبار فروضها الأصول أو مناسختها . وذلك إذا هلك أحد الورثة وانكسرت سهامه على فروض ورثته فإنه حينئذ يحتاج إلى حسب تصحيح <sup>(٢)</sup> الفريضة الأولى حتى يصل أهل الفروض جميعاً في الفريضتين إلى فروضهم من غير تجزئة . وقد تكون هذه المناسخات أكثر من واحد وأثنى وتتعدد لذلك بعدد أكثر . ويقدر ما تحتاج إلى الحسبان وكذلك إذا كانت فريضة ذات وجهين مثل أن يقر بعض الورثة بوارث وينكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ . وينظر مبلغ السهام ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة . وكل ذلك يحتاج إلى الحسبان وكان

= ذكرناه في مختصر أبي عمر ماجب . بذكر فقه الباب في مسائل المتفرقة . وبذكر الأقوال في كل مسألة على تعدادها فجاء كالبرنامج للمذهب . ولما ظهر بالمغرب آخر المائة السابعة .

(١) وفي النسخة الباريسية : ابن راشد .

(٢) وفي نسخة أخرى : حبان يصحح .

غالباً فيه وجعلوه فنا مفرداً . وللناس فيه تاليف كثيرة أشهر ما عند المالكية من متأخري الأندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي ثم الجعدي ومن متأخري أفريقية ابن النمر<sup>(١)</sup> الطرابلسي وأمثالهم . وأما الشافعية والحنفية والحنابلة فلهم فيه تاليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة شاهدة لهم باتساع الباع في الفقه والحساب وخصوصاً أبا المعالي رضي الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول والوصول به إلى الحق في الوراثة بوجوه صحيحة يقينية عندما تجهل الحظوظ وتشكل على القاسمين . وللعلماء من أهل الأضرار بها عناية . ومن المصنفين من يحتاج فيها إلى العلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج إلى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور وأمثال ذلك فيملأون بها تاليفهم . وهو وإن لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم لغرابيته وقلة وقوعه فهو يفيد المران وتحصيل الملكة في المتداول على أكمل الوجوه . وقد يحتج الأكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الفرائض ثلث العلم وأنها أول ما ينسى وفي رواية نصف العلم خرجه أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة . والذي يظهر أن هذا المحل<sup>(٢)</sup> يعيد وأن المراد بالفرائض إنما هي الفرائض التكليفية في العبادات والعادات والموارث وغيرها . وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والثلثية . وأما فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علم<sup>(٣)</sup> الشريعة كلها يعني هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص أو تخصيصه بفروض الوراثة إنما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء

(١) وفي النسخة الباريبية : ابن المنمر .

(٢) وفي نسخة أخرى : المحمل

(٣) وفي نسخة أخرى : علوم .

عِنْدَ حَدُوثِ الْفُنُونِ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ . وَلَمْ يَكُنْ صَدْرَ الْإِسْلَامِ يُطْلَقُ عَلَى هَذَا إِلَّا عَلَى عَمُومِهِ مُشْتَقًّا مِنَ الْفَرَضِ الَّذِي هُوَ لُغَةٌ التَّقْدِيرُ أَوْ الْقَطْعُ . وَمَا كَانَ الْمُرَادُ بِهِ فِي إِطْلَاقِهِ إِلَّا جَمِيعَ الْفُرُوضِ كَمَا قُلْنَا وَهِيَ حَقِيقَتُهُ الشَّرْعِيَّةُ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى مَا كَانَ يُحْمَلُ فِي عَصْرِهِمْ فَهُوَ الْيَقِينُ بِمُرَادِهِمْ مِنْهُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ .

## الفصل التاسع

في أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

إِعْلَمُ أَنَّ أَصُولَ الْفِقْهِ مِنْ أَعْظَمِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَأَجْلَهَا قَدْرًا وَأَكْثَرَهَا فَائِدَةً وَهُوَ النَّظَرُ فِي الْأَدْلِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ تُؤْخَذُ مِنْهَا الْأَحْكَامُ وَالتَّالِيفُ <sup>(١)</sup> . وَأَصُولُ الْأَدْلِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ هِيَ الْكِتَابُ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ ثُمَّ السُّنَّةُ الْمَبْنِيَّةُ لَهُ . فَعَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتِ الْأَحْكَامُ تُتَلَقَّى مِنْهُ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَيُبَيِّنُهُ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ بِخِطَابِ شِفَاهِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى نَقْلِ وَلَا إِلَى نَظَرٍ وَقِيَاسٍ . وَمَنْ بَعْدَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ تَعَدَّرَ الْخِطَابُ الشِّفَاهِيَّ وَأَنْحَفَظَ الْقُرْآنُ بِالتَّوَاتُرِ . وَأَمَّا السُّنَّةُ فَأَجْمَعَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى وُجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِلُ إِلَيْنَا مِنْهَا قَوْلًا أَوْ فِعْلًا بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقُهُ . وَتَعَيَّنَتْ دَلَالَةُ الشَّرْعِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ ثُمَّ نَزَلُ الْإِجْمَاعُ مَنْزِلَتَهُمَا لِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ عَلَى النِّكَيرِ عَلَى مُخَالَفِيهِمْ . وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا عَنِ مُسْتَنَدٍ لِأَنَّ مِثْلَهُمْ لَا يَتَّفِقُونَ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ ثَابِتٍ مَعَ شَهَادَةِ الْأَدْلِيَّةِ بِعِضْمَةِ الْجَمَاعَةِ فَصَارَ الْإِجْمَاعُ دَلِيلًا ثَابِتًا فِي الشَّرْعِيَّاتِ . ثُمَّ نَظَرْنَا فِي طُرُقِ اسْتِدْلَالِ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَإِذَا هُمْ يَقِيسُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِنْهُمَا . وَيُنَاطِرُونَ الْأَمْثَالَ بِالْأَمْثَالَ بِإِجْمَاعِ مِنْهُمْ .

(١) وفي نسخة أخرى : التكاليف .

وَتَسْلِيمَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِي ذَلِكَ . فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْوَاقِعَاتِ بَعْدَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ  
 عَلَيْهِ لَمْ تَنْدِرْجْ فِي النُّصُوصِ الثَّابِتَةِ فَقَاسُوهَا بِمَا ثَبَتَ وَالْحَقُّوْهَا بِمَا نَصَّ عَلَيْهِ  
 بِشُرُوطٍ فِي ذَلِكَ الْإِلْحَاقِ . تَصَحُّحُ تِلْكَ الْمَسَاوَاةِ بَيْنَ الشَّيْبَيْنِ أَوْ الْمُثْلَيْنِ . حَتَّى  
 يَغْلِبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمَا وَاحِدٌ وَصَارَ ذَلِكَ دَلِيلًا شَرْعِيًّا بِإِجْمَاعِهِمْ  
 عَلَيْهِ . وَهُوَ الْقِيَاسُ وَهُوَ رَابِعُ الْأَدَلَّةِ . وَاتَّفَقَ جَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ هِيَ أَصُولُ  
 الْأَدَلَّةِ وَإِنْ خَالَفَ بَعْضُهُمْ فِي الْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ إِلَّا أَنَّهُ شُدُودٌ . وَالْحَقُّ بَعْضُهُمْ بِهِدَى  
 الْأَدَلَّةِ الْأَرْبَعَةَ أَدَلَّةً أُخْرَى لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا ، لِضَعْفِ مَدَارِكِهَا وَشُدُودِ الْقَوْلِ  
 فِيهَا . فَكَانَ مِنْ أَوَّلِ مَبَاحِثِ هَذَا الْفَنِّ النَّظَرُ فِي كَوْنِ هَذِهِ أَدَلَّةً . فَأَمَّا الْكِتَابُ  
 فَدَلِيلُهُ الْمُعْجَزَةُ الْقَاطِعَةُ فِي مَتْنِهِ وَالتَّوَاتُرُ فِي تَقْلِيدِهِ . فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ مَجَالٌ لِلِإِحْتِمَالِ .  
 وَأَمَّا السُّنَّةُ وَمَا نَقَلَ إِلَيْنَا مِنْهَا فَالْإِجْمَاعُ عَلَى وَجُوبِ الْعَمَلِ بِمَا يَصِحُّ مِنْهَا كَمَا  
 قُلْنَا . مُعْتَصِدًا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ فِي حَيَاتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ إِنْفَاقِ  
 الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ إِلَى النَّوَاحِي بِالْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ أَمْرًا وَنَاهِيًّا . وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ  
 فَلِاتِّفَاقِهِمْ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ عَلَى إِنْكَارِ مُخَالَفَتِهِمْ مَعَ الْعِصْمَةِ الثَّابِتَةِ لِلْأُمَّةِ .  
 وَأَمَّا الْقِيَاسُ فَبِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَيْهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . هَذِهِ أَصُولُ  
 الْأَدَلَّةِ . ثُمَّ إِنَّ الْمُنْقُولَ مِنَ السُّنَّةِ مُحْتَاجٌ إِلَى تَصْحِيحِ الْخَبَرِ بِالنَّظَرِ فِي طَرِيقِ النُّقْلِ  
 وَعَدَالَةِ النَّاقِلِينَ لِتَسْمِيَةِ الْحَالَةِ الْمُحْصَلَةِ لِلظَّنِّ بِصِدْقِهِ الَّذِي هُوَ مَنْطِقُ وَجُوبِ الْعَمَلِ  
 بِالْخَيْرِ . وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ قَوَاعِدِ الْفَنِّ . وَيُلْحَقُ بِذَلِكَ عِنْدَ التَّعَارُضِ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ  
 وَطَلْبِ الْمُتَقَدِّمِ مِنْهُمَا مَعْرِفَةَ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَهِيَ مِنْ فُصُولِهِ أَيْضًا وَأَبْوَابِهِ . ثُمَّ  
 بَعْدَ ذَلِكَ يَتَعَيَّنُ النَّظَرُ فِي دَلَالَةِ<sup>(١)</sup> الْأَلْفَاظِ وَذَلِكَ أَنَّ اسْتِفَادَةَ الْمَعَانِي عَلَى الْإِطْلَاقِ  
 مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ عَلَى الْإِطْلَاقِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ مُفْرَدَةً  
 وَمُرَكَّبَةً . وَالْقَوَانِينُ اللَّسَانِيَّةُ فِي ذَلِكَ هِيَ غُلُومُ النَّحْوِ وَالتَّصْرِيْفِ وَالْبَيَانِ . وَحِينَ

(١) وفي نسخة أخرى . دلالات .

كَانَ الْكَلَامُ <sup>(١)</sup> مَلَكَهٗ لِأَهْلِهِ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ عُلُومًا وَلَا قَوَانِينٍ وَلَمْ يَكُنِ الْفِقْهُ حِينِيذٍ  
يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا جِلَّةٌ وَمَلَكَهٗ . فَلَمَّا فَسَدَتِ الْمَلَكَهٗ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ قَبْدَهَا  
الْجَهَابِذَةُ الْمُتَجَرِّدُونَ لِذَلِكَ بِنَقْلِ صَحِيحٍ وَمَقَائِيسٍ مُسْتَنْبَطَةٍ صَحِيحَةٍ وَصَارَتْ  
عُلُومًا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْفَقِيهَ فِي مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى . ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ اسْتِفَادَاتٍ أُخْرَى  
خَاصَّةً مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ وَهِيَ اسْتِفَادَةُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ الْمَعَانِي مِنْ أَدْلِيَّتِهَا  
الْخَاصَّةِ مِنْ تَرَكَيبِ الْكَلَامِ وَهُوَ الْفِقْهُ . وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَعْرِفَةُ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ  
عَلَى الْأَطْلَاقِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أُمُورٍ أُخْرَى تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا تِلْكَ الدَّلَالَاتُ الْخَاصَّةُ  
وَبِهَا تُسْتَفَادُ الْأَحْكَامُ بِحَسَبِ مَا أَصَلَ أَهْلُ الشَّرْعِ وَجَهَا بِدَّةُ الْعِلْمِ مِنْ ذَلِكَ وَجَعَلُوهُ  
قَوَانِينٍ لِهَذِهِ الْاسْتِفَادَةِ . مِثْلُ أَنَّ اللَّغَةَ لَا تُثَبَّتُ قِيَاسًا وَالْمُشْتَرِكُ لَا يُرَادُ بِهِ مَعْنَاةٌ  
مَعًا وَالْوَاوُ لَا تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ وَالْعَامُّ إِذَا أُخْرِجَتْ أَفْرَادُ الْخَاصِّ مِنْهُ هَلْ يَبْقَى حُجَّةٌ  
فِيمَا عَدَاهَا ؟ وَالْأَمْرُ لِلْوَجُوبِ أَوْ النَّدْبِ وَلِلْفُورِ أَوْ التَّرَاخِي وَالنَّهْيُ يَقْتَضِي الْفُسَادَ  
أَوْ الصَّحَّةَ وَالْمُطْلَقُ هَلْ يُحْمَلُ عَلَى الْمُقَيَّدِ ؟ وَالنَّصُّ عَلَى الْعِلَّةِ كَافٍ فِي التَّعَدُّدِ أَمْ  
لَا <sup>(٢)</sup> ؟ وَأَمْثَالُ هَذِهِ . فَكَانَتْ كُلُّهَا مِنْ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ . وَلِكُونِهَا مِنْ مَبَاحِثِ الدَّلَالَةِ  
كَانَتْ لِعَوِيَّةٍ . ثُمَّ إِنَّ النَّظَرَ فِي الْقِيَاسِ مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ هَذَا الْفَنِّ لِأَنَّ فِيهِ تَحْقِيقَ  
الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ فِيمَا يُقَاسُ وَيُمَاتَلُ مِنَ الْأَحْكَامِ وَيُنْفَتِحُ <sup>(٣)</sup> الْوُصْفُ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى  
الظَّنِّ أَنَّ الْحُكْمَ عَلِقَ بِهِ فِي الْأَصْلِ مَنْ تَبَيَّنَ أَوْصَافُ ذَلِكَ الْمَحَلِّ أَوْ وُجُودُ ذَلِكَ  
الْوُصْفِ فِي الْفَرْعِ مِنْ غَيْرِ مُعَارِضٍ يَمْنَعُ مِنْ تَرْتِيبِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ فِي مَسَائِلٍ أُخْرَى مِنْ  
تَوَاجِعِ ذَلِكَ كُلِّهَا قَوَاعِدُ لِهَذَا الْفَنِّ . (واعلم ) أَنَّ هَذَا الْفَنَّ مِنَ الْفُنُونِ الْمُسْتَحْدَثَةِ فِي  
الْمِلَّةِ وَكَانَ السَّلْفُ فِي غَنِيَّةٍ عَنْهُ بِمَا أَنَّ اسْتِفَادَةَ الْمَعَانِي مِنَ الْأَلْفَاظِ لَا يَحْتَاجُ فِيهَا  
إِلَى أَرْيَدٍ مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَلَكَهٗ اللَّسَانِيَّةِ . وَأَمَّا الْقَوَانِينُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي  
اسْتِفَادَةِ الْأَحْكَامِ خُصُوصًا فَمِنْهُمْ أَخَذَ مُعْظَمُهَا . وَأَمَّا الْأَسَانِيدُ فَلَمْ يَكُونُوا

(١) وفي النسخة الباريية : اللسان .

(٢) وفي النسخة الباريية : في التعدي أولاً .

(٣) وفي نسخة أخرى : وتنتيح .

يَحْتَاجُونَ إِلَى النَّظَرِ فِيهَا لِقُرْبِ الْعَصْرِ وَمُمَارَسَةِ النَّقْلَةِ وَخُبْرَتِهِمْ بِهِمْ . فَلَمَّا انْقَرَضَ  
السَّلْفُ وَذَهَبَ الصُّدْرُ الْأَوَّلُ وَانْقَلَبَتِ الْعُلُومُ كُلُّهَا صِنَاعَةً كَمَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ اِحْتِاجَ  
الْفُقَهَاءِ وَالْمُجْتَهِدُونَ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ وَالْقَوَاعِدِ لِاسْتِفَادَةِ الْأَحْكَامِ مِنْ  
الْأَدَلَّةِ فَكَتَبُوهَا فَنَاءً قَائِمًا بِرَأْسِهِ سَمَّوْهُ أَصُولَ الْفِقْهِ . وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهِ  
الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ . أَمَلَى فِيهِ رِسَالَتَهُ الْمَشْهُورَةَ تَكَلَّمَ فِيهَا فِي الْأَوَامِرِ  
وَالنَّوَاهِي وَالْبَيَانِ وَالْخَبَرِ وَالنَّسْخِ وَحُكْمِ الْعِلَّةِ الْمَنْصُوصَةِ مِنَ الْقِيَاسِ . ثُمَّ كَتَبَ  
فُقَهَاءُ الْحَنْفِيَّةِ فِيهِ وَحَقَّقُوا تِلْكَ الْقَوَاعِدَ وَأَوْسَعُوا الْقَوْلَ فِيهَا . وَكَتَبَ الْمُتَكَلِّمُونَ  
أَيْضًا كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّ كِتَابَةَ الْفُقَهَاءِ فِيهَا أَمَسُ بِالْفِقْهِ وَالْيَقُ بِالْفُرُوعِ لِكَثْرَةِ الْأُمْتِلَةِ  
مِنْهَا وَالشَّوَاهِدِ وَبَاءَ الْمَسَائِلِ فِيهَا عَلَى النَّكْتِ الْفِقْهِيَّةِ . وَالْمُتَكَلِّمُونَ يُجَرِّدُونَ  
صُورَ تِلْكَ الْمَسَائِلِ عَنِ الْفِقْهِ وَيَمِيلُونَ إِلَى الْإِسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ مَا أَمَكْنَ لِأَنَّهُ غَالِبُ  
فُنُونِهِمْ وَمُقْتَضَى طَرِيقَتِهِمْ فَكَانَ لِفُقَهَاءِ الْحَنْفِيَّةِ فِيهَا أَيْدٍ طَوَّلَى مِنَ الْعَوَصِ عَلَى  
النَّكْتِ الْفِقْهِيَّةِ وَالنِّقَاطِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ مِنْ مَسَائِلِ الْفِقْهِ مَا أَمَكْنَ . وَجَاءَ أَبُو زَيْدٍ  
الدُّبُوسِيُّ مِنْ أُمَّتِهِمْ فَكَتَبَ فِي الْقِيَاسِ بِأَوْسَعٍ مِنْ جَمِيعِهِمْ وَتَمَّمَ الْأَبْحَاثَ وَالشُّرُوطَ  
الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِيهِ وَكَمَلَتْ صِنَاعَةُ أَصُولِ الْفِقْهِ بِكَمَالِهِ وَتَهَدَّيَتْ مَسَائِلُهُ  
وَتَمَهَّدَتْ قَوَاعِدُهُ وَعَيَّنِي النَّاسُ بِطَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِيهِ . وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ مَا كَتَبَ  
فِيهِ الْمُتَكَلِّمُونَ كِتَابَ الْبُرْهَانِ لِأَمَامِ الْحَرَمِيِّنِ وَالْمُسْتَضْفَى لِلْفَرَايِي وَهُمَا مِنْ  
الْأَشْعَرِيَّةِ وَكِتَابَ الْعَهْدِ<sup>(١)</sup> لِعَبِيدِ الْجَبَّارِ وَشَرَحَهُ الْمُعْتَمَدُ لِأَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ  
وَهُمَا مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ . وَكَانَتِ الْأَرْبَعَةُ قَوَاعِدَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ . ثُمَّ لَخَّصَ هَذِهِ الْكُتُبَ  
الْأَرْبَعَةَ فَخَلَّانِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَهُمَا الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ فِي  
كِتَابِ الْمَخْصُولِ وَسَيْفُ الدِّينِ الْأَمِدِيُّ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ . وَاخْتَلَفَتْ طَرَائِقُهُمَا فِي  
الْفَنِّ بَيْنَ التَّحْقِيقِ وَالْحِجَاجِ . فَابْنُ الْخَطِيبِ أَمِيلٌ إِلَى الْإِسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَدَلَّةِ  
وَالِإِحْتِجَاجِ وَالْأَمِدِيُّ مَوْلَعٌ بِتَحْقِيقِ الْمَذَاهِبِ وَتَفْرِيعِ الْمَسَائِلِ . وَأَمَّا كِتَابُ

(١) وفي النسخة الباريسية : كتاب العهد .



الْمَحْصُولِ فَاخْتَصَرَهُ تَلْمِيزُ الْإِمَامِ سِرَاجِ الدِّينِ الْأَرْمَوِيِّ فِي كِتَابِ التَّحْصِيلِ وَتَاجِ  
 الدِّينِ الْأَرْمَوِيِّ فِي كِتَابِ الْحَاصِلِ وَاقْتَطَفَ شَهَابُ الدِّينِ الْفِرَافِيُّ مِنْهُمَا مُقَدِّمَاتِ  
 وَقَوَاعِدَ فِي كِتَابِ صَغِيرِ سَمَاءِ التَّنْقِيحَاتِ . وَكَذَلِكَ فَعَلَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي كِتَابِ  
 الْمِنْهَاجِ . وَعُنِيَ الْمُتَبَدِّلُونَ بِهَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ وَشَرَحَهُمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ . وَأَمَّا  
 كِتَابُ الْإِحْكَامِ لِلْإِمَامِ وَهُوَ أَكْثَرُ تَحْقِيقًا فِي الْمَسَائِلِ فَلَخَّصَهُ أَبُو عَمَرَ بْنُ الْحَاجِبِ  
 فِي كِتَابِهِ الْمَعْرُوفِ بِالْمُخْتَصَرِ الْكَبِيرِ . ثُمَّ اخْتَصَرَهُ فِي كِتَابِ آخِرَتَاوَلَهُ طَلَبَةُ الْعِلْمِ  
 وَعُنِيَ أَهْلُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ بِهِ وَبِمَطَالَعَتِهِ وَشَرْحِهِ وَحَصَلَتْ زُبْدَةٌ طَرِيقَةً  
 الْمُتَكَلِّمِينَ فِي هَذَا الْفَنِّ فِي هَذِهِ الْمُخْتَصَرَاتِ . وَأَمَّا طَرِيقَةُ الْحَنْفِيَّةِ فَكُتِبُوا فِيهَا  
 كَثِيرًا وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ كِتَابِيَةٍ فِيهَا . لِلْمُقَدِّمِينَ تَأْلِيفُ أَبِي زَيْدِ الدُّبُوسِيِّ وَأَحْسَنِ  
 كِتَابِيَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِيهَا تَأْلِيفُ سَيْفِ الْإِسْلَامِ الْبِرْدُودِيِّ مِنْ أُمَّتِهِمْ وَهُوَ مُشْتَوِعٌ  
 وَجَاءَ ابْنُ السَّاعَاتِيِّ مِنْ فُقَهَاءِ الْحَنْفِيَّةِ فَجَمَعَ بَيْنَ كِتَابِ الْإِحْكَامِ وَكِتَابِ الْبِرْدُودِيِّ  
 فِي الطَّرِيقَتَيْنِ وَسَمَّى كِتَابَهُ بِالْبَدَائِعِ فَجَاءَ مِنْ أَحْسَنِ الْأَوْضَاعِ وَأَبْدَعِهَا وَأَيْمَنُ  
 الْعُلَمَاءِ لِهَذَا الْعَهْدِ يَتَدَاوَلُونَهُ قِرَاءَةً وَبَحْثًا . وَأَوْلَعَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَجَمِ بِشَرْحِهِ .  
 وَالْحَالُ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ . هَذِهِ حَقِيقَةُ هَذَا الْفَنِّ وَتَعْيِينُ مَوْضُوعَاتِهِ وَتَعْدِيدُ  
 التَّأْلِيفِ الْمَشْهُورَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ فِيهِ . وَاللَّهُ يَنْفَعُنَا بِالْعِلْمِ وَيَجْعَلُنَا مِنْ أَهْلِهِ بِصِيَّةٍ  
 وَكَرَمِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

( وأما الخلافات ) . فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية أكثر فيه  
 الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافا لا بد من وقوعه لما  
 قدمناه . واتسع ذلك في الملة اتساعاً عظيماً وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاءوا  
 منهم ثم لما انتهت ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار وكانوا بإمكان من  
 حسن الظن بهم اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم لذهاب  
 الاجتهاد لصغورته وتشعب العلوم التي هي موادها باتصال الزمان واقتتاد من يقوم  
 على سوى هذه المذاهب الأربعة . فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصول الملة

وَأَجْرِي الْخِلَافِ بَيْنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهَا وَالْآخِذِينَ بِأَحْكَامِهَا مَجْرَى الْخِلَافِ فِي  
النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأُصُولِ الْفِقْهِيَّةِ . وَجَزَتْ بَيْنَهُمُ الْمُنَاطَرَاتُ فِي تَصْحِيحِ كُلِّ  
مِنْهُمْ مَذْهَبَ إِمَامِهِ تَجْرِي عَلَى أُصُولٍ صَحِيحَةٍ وَطَرَائِقَ قَوِيمَةٍ يَخْتَجُّ بِهَا كُلُّ عَلَى  
صِحَّةِ مَذْهَبِهِ الَّذِي قَلَّدَهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ وَأَجْرِيَتْ فِي مَسَائِلِ الشَّرِيعَةِ كُلِّهَا وَفِي كُلِّ بَابٍ  
مِنْ أَبْوَابِ الْفِقْهِ فَتَارَةً يَكُونُ الْخِلَافُ بَيْنَ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَأَبُو حَنِيفَةَ يُوَافِقُ  
أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ  
الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَكَانَ فِي هَذِهِ الْمُنَاطَرَاتِ بَيَانُ مَا خِذَ  
هُوَ لِأَيِّ الْأَيْمَةِ وَمَشَارَاتُ اخْتِلَافِهِمْ وَمَوَاقِعُ اجْتِهَادِهِمْ . كَانَ هَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْعِلْمِ  
يُسَمَّى بِالْخِلَافِيَّاتِ . وَلَا بُدَّ لِصَاحِبِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى  
سِتْنَابِ الْأَحْكَامِ كَمَا يَخْتَاجُ إِلَيْهَا الْمُجْتَهِدُ إِلَّا أَنَّ الْمُجْتَهِدَ يَخْتَاجُ إِلَيْهَا  
لِلِاسْتِنْبَاطِ وَصَاحِبِ الْخِلَافِيَّاتِ يَخْتَاجُ إِلَيْهَا لِحِفْظِ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْ  
أَنْ يَهْدِمَهَا الْمُخَالَفُ بِأَدْلَتِهِ . وَهُوَ لِعَمْرِي عِلْمٌ جَلِيلٌ الْفَائِدَةُ فِي مَعْرِفَةِ مَا خِذَ الْأَيْمَةِ  
وَأَدْلَتِهِمْ وَمَرَانٍ <sup>(١)</sup> الْمُطَالَعِينَ لَهُ عَلَى الْإِسْتِدْلَالِ فِيمَا يَرُومُونَ الْإِسْتِدْلَالَ عَلَيْهِ .  
وَتَأَلِيفُ الْحَنْفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ تَأَلِيفِ الْمَالِكِيَّةِ لِأَنَّ الْقِيَاسَ عِنْدَ الْحَنْفِيَّةِ  
أَصْلٌ لِلْكَثِيرِ مِنْ فُرُوعِ مَذْهَبِهِمْ كَمَا عَرَفَتْ فَمِنْ ذَلِكَ أَهْلُ النَّظَرِ وَالْبَحْثِ . وَأَمَّا  
الْمَالِكِيَّةُ فَالْأَثَرُ أَكْثَرُ مُعْتَمِدِهِمْ وَلَيْسُوا بِأَهْلِ النَّظَرِ وَأَيْضًا فَأَكْثَرُهُمْ أَهْلُ الْعَرَبِ وَهُمْ  
بَادِيَةٌ غَفْلٌ مِنَ الصَّنَائِعِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ . وَلِلْغَزَالِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ كِتَابُ الْمَاخِذِ  
وَلَأَبِي بَكْرٍ الْعَرَبِيِّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ كِتَابُ التَّلْخِيصِ جَلَبَهُ مِنَ الْمَشْرِقِ . وَلَأَبِي زَيْدٍ  
الدُّبُوسِيِّ كِتَابُ التَّغْلِيْقَةِ وَلَا بِنِ الْقُصَارِ مِنْ شُيُوخِ الْمَالِكِيَّةِ عِيُونَ الْأَدْلَةِ وَقَدْ جَمَعَ  
ابْنُ السَّاعَاتِيِّ فِي مُحْتَصَرِهِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ جَمِيعَ مَا يَنْبَنِي عَلَيْهَا مِنَ الْفِقْهِ الْخِلَافِيِّ  
مُدْرَجًا فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ مَا يَنْبَنِي عَلَيْهَا مِنَ الْخِلَافِيَّاتِ .

( وأما الجدال ) وَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ الْمُنَاطَرَةِ الَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ

( ١ ) وفي النسخة الباريسية : وميزات .

الْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ الْمُنَاطَرَةِ فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ مُتَّسِعاً وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ  
 الْمُتَنَاطِرِينَ فِي الْإِسْتِدْلَالِ وَالْجَوَابِ يُرْسَلُ عِنَانَهُ فِي الْإِحْتِجَاجِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ  
 صَوَاباً وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطْباً فَاحْتِجَاجُ الْأَيْمَةِ إِلَى أَنْ يَصْعُوا آدَاباً وَأَحْكَاماً يَقِفُ  
 الْمُتَنَاطِرَانِ عِنْدَ حُدُودِهَا فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمُسْتَدِلِّ وَالْمُجِيبِ  
 وَحَيْثُ يَسُوعُ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَدِلاً وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصاً<sup>(١)</sup> مُنْقَطِعاً وَمَحَلُّ  
 اعْتِرَاضِهِ أَوْ مَعَارَضَتِهِ وَأَيْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ السُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ الْكَلَامُ وَالْإِسْتِدْلَالُ .  
 وَلِذَلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَوَاعِدِ مِنَ الْحُدُودِ وَالْآدَابِ فِي الْإِسْتِدْلَالِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ  
 بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ سِوَاةَ كَانَ ذَلِكَ الرَّأْيُ مِنَ الْفِقْهِ أَوْ غَيْرِهِ . وَهِيَ طَرِيقَتَانِ  
 طَرِيقَةُ الْبَرْدَوِيِّ وَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَالْإِسْتِدْلَالِ  
 وَطَرِيقَةُ الْعَمِيدِيِّ وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ أَيْ عِلْمٍ كَانَ وَأَكْثَرُهُ  
 اسْتِدْلَالٌ . وَهُوَ مِنَ الْمَنَاحِي الْحَسَنَةِ وَالْمُعَالِطَاتِ فِيهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَثِيرَةٌ . وَإِذَا  
 اعْتَبَرْنَا النَّظَرَ الْمُنْطِقِيَّ كَانَ فِي الْغَالِبِ أَشْبَهَ بِالْقِيَاسِ الْمَغَالِطِيِّ وَالسُّوفِسْطَائِيِّ .  
 إِلَّا أَنَّ صُورَ الْأَدِلَّةِ وَالْأَقْيَسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةً يُتَحَرَّى فِيهَا طَرُقَ الْإِسْتِدْلَالِ كَمَا  
 يَنْبَغِي . وَهَذَا الْعَمِيدِيُّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ الطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ . وَضَعَ الْكِتَابَ  
 الْمُسَمَّى بِالْإِرْشَادِ مُخْتَصِراً وَتَبِعَهُ مَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ كَالنَّسْفِيِّ وَغَيْرِهِ جَاءُوا  
 عَلَى أَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي الطَّرِيقَةِ التَّالِيفُ . وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ  
 لِنَقْصِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الْأَمْصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ . وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَمَالِيَّةٌ وَلَيْسَتْ ضَرُورِيَّةً  
 وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

(١) وفي نسخة أخرى : مخصوصاً .

## الفصل العاشر

### في علم الكلام

هُوَ عِلْمٌ يَتَضَمَّنُ الْحِجَاجَ عَنِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرَّدَّ عَلَى الْمُبْتَدِعَةِ الْمُنْحَرِفِينَ فِي الْإِعْتِقَادَاتِ عَنْ مَذَاهِبِ السَّلَفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ . وَسِرُّ هَذِهِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ هُوَ التَّوْحِيدُ . فَلْنُقَدِّمَ هُنَا لَطِيفَةً فِي بُرْهَانِ عَقْلِيٍّ يَكْشِفُ لَنَا عَنِ التَّوْحِيدِ عَلَى أَقْرَبِ الطَّرِيقِ وَالْمَآخِذِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى تَحْقِيقِ عِلْمِهِ <sup>(١)</sup> وَفِيمَا يُنظَرُ وَيُشِيرُ إِلَى حُدُوثِهِ فِي الْمِلَّةِ وَمَا دَعَا إِلَى وَضْعِهِ فَنَقُولُ : إَعْلَمُ أَنَّ الْحَوَادِثَ فِي عَالَمِ الْكَائِنَاتِ سِوَاءَ كَانَتْ مِنَ الذَّوَاتِ أَوْ مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ أَوْ الْحَيَوَانِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَسْبَابٍ مُتَقَدِّمَةٍ عَلَيْهَا بِهَا تَقَعُ فِي مُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ وَعَنْهَا يَتِمُّ كَوْنُهُ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ حَادِثٌ أَيْضاً فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَسْبَابٍ أُخْرَى وَلَا تَزَالُ تِلْكَ الْأَسْبَابُ مُرْتَقِيَةً حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ وَمُوجِدِهَا وَخَالِقِهَا سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . وَتِلْكَ الْأَسْبَابُ فِي ارْتِقَائِهَا تَتَفَسَّخُ وَتَتَضَاعَفُ <sup>(٢)</sup> طَوَّلاً وَعَرْضاً وَيَحَارُ الْعَقْلُ فِي إِدْرَاكِهَا وَتَعْدِيدِهَا . فَإِذَا لَا يَخْصِرُهَا إِلَّا الْعِلْمُ الْمُحِيطُ سَيِّمًا الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِهَا فِي الشَّاهِدِ الْقُصُودَ وَالْإِرَادَاتِ إِذْ لَا يَتِمُّ كَوْنُ الْفِعْلِ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَالْقُصْدِ إِلَيْهِ . وَالْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ أُمُورٌ نَفْسَانِيَّةٌ نَاشِئَةٌ فِي الْغَالِبِ عَنْ تَصَوُّرَاتٍ سَابِقَةٍ يَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضاً . وَتِلْكَ التَّصَوُّرَاتُ هِيَ أَسْبَابُ قُصْدِ الْفِعْلِ وَقَدْ تَكُونُ أَسْبَابَ تِلْكَ التَّصَوُّرَاتِ تَصَوُّرَاتٍ أُخْرَى وَكُلُّ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ مِنَ التَّصَوُّرَاتِ مَجْهُولٌ سَبَبُهُ . إِذْ لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ عَلَى مَبَادِيءِ الْأُمُورِ النَّفْسَانِيَّةِ وَلَا عَلَى تَرْتِيبِهَا . إِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءٌ يُلْقِيهَا اللَّهُ فِي الْفِكْرِ يَتَنَعَّ بَعْضُهَا بَعْضاً وَالْإِنْسَانُ عَاجِزٌ عَنِ مَعْرِفَةِ مَبَادِيئِهَا وَغَايَاتِهَا . وَإِنَّمَا يَحِيطُ عِلْمًا فِي الْغَالِبِ بِالْإِسْبَابِ الَّتِي هِيَ طَبِيعَةٌ ظَاهِرَةٌ

(١) أي علم الكلام .

(٢) وفي نسخة أخرى : تتضاعف فتتفسخ .

وَيَقَعُ فِي مَدَارِكِهَا عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ مَخْصُورَةٌ لِلنَّفْسِ وَتَحْتَ طَوْرِهَا .  
وَأَمَّا التَّصَوُّرَاتُ فَنِطَاقُهَا أَوْسَعُ مِنَ النَّفْسِ لِأَنَّهَا لِلْعَقْلِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ طَوْرِ النَّفْسِ فَلَا  
تُذْرِكُ الْكَثِيرَ مِنْهَا فَضْلاً عَنِ الْإِحَاطَةِ . وَتَأْمُلُ مِنْ ذَلِكَ حِكْمَةَ الشَّارِعِ فِي نَهْيِهِ عَنِ  
النَّظَرِ إِلَى الْأَسْبَابِ وَالْوُقُوفِ مَعَهَا فَإِنَّهُ وَإِذْ يَهَيِّمُ فِيهِ الْفِكْرُ وَلَا يَحْلُو<sup>(١)</sup> مِنْهُ بِطَائِلٍ  
وَلَا يَظْفُرُ بِحَقِيقَةٍ . قَالَ اللَّهُ : « ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » . وَرَبَّيْمَا انْقَطَعَ فِي  
وُقُوفِهِ عَنِ الْإِرْتِقَاءِ إِلَى مَا فَوْقَهُ فَزَلَّتْ قَدَمُهُ وَأَصْبَحَ مِنَ الضَّالِّينَ الْهَالِكِينَ نَعُودُ بِاللَّهِ  
مِنَ الْحِزْمَانِ وَالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ . وَلَا تَحْسِبَنَّ أَنَّ هَذَا الْوُقُوفَ أَوْ الرَّجُوعَ عَنْهُ فِي  
قُدْرَتِكَ وَاخْتِيَارِكَ بَلْ هُوَ لَوْنٌ يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ وَصِنْفَةٌ تَسْتَحْكِمُ مِنَ الْخَوْضِ فِي  
الْأَسْبَابِ عَلَى نِسْبَةِ لَا نَعْلَمُهَا . إِذْ لَوْ عَلِمْنَاهَا لَتَحَرَّزْنَا مِنْهَا . فَلْتَحَرَّزْ مِنْ ذَلِكَ  
بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا جُمْلَةً . وَأَيْضاً فَوَجْهُ تَأْثِيرِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ مُسَبِّبَاتِهَا  
مَجْهُولٌ لِأَنَّهَا إِنَّمَا يُوقَفُ عَلَيْهَا بِالْعَادَةِ لِاقْتِرَانِ الشَّاهِدِ بِالْإِسْتِنَادِ إِلَى الظَّاهِرِ .  
وَحَقِيقَةُ التَّأْثِيرِ وَكَيْفِيَّتُهُ مَجْهُولَةٌ . « وَمَا أوتَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » . فَلِذَلِكَ أَمَرْنَا  
بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا وَالْعَائِثِهَا جُمْلَةً وَالتَّوَجُّهِ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ كُلِّهَا وَفَاعِلِهَا  
وَمُوجِدِهَا لِتَرْسُخِ صِفَةِ التَّوْحِيدِ فِي النَّفْسِ عَلَى مَا عَلَّمْنَا الشَّارِعَ الَّذِي هُوَ أَعْرَفُ  
بِمَصَالِحِ دِينِنَا وَطُرُقِ سَعَادَتِنَا لِاطِّلَاعِهِ عَلَى مَا وَرَاءَ الْحِسِّ . قَالَ ﷺ : « مَنْ  
مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » . فَإِنْ وَقَفَ عِنْدَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ فَقَدِ  
انْقَطَعَ وَحَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْكُفْرِ وَأَنْ سَبَّحَ فِي بَحْرِ النَّظَرِ وَالبَحْثِ عَنْهَا وَعَنْ أَسْبَابِهَا  
وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَنَا الضَّامِنُ لَهُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَّا بِالْخَبِيَّةِ . فَلِذَلِكَ نَهَانَا  
الشَّارِعُ عَنِ النَّظَرِ فِي الْأَسْبَابِ وَأَمَرْنَا بِالتَّوْحِيدِ الْمُطْلَقِ « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ  
الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْواً أَحَدٌ »<sup>(٢)</sup> وَلَا تَتَّقَنَّ بِمَا يَزْعُمُ لَكَ الْفِكْرُ مِنْ  
أَنَّهُ مُقْتَدِرٌ عَلَى الْإِحَاطَةِ بِالْكَائِنَاتِ وَأَسْبَابِهَا وَالْوُقُوفِ عَلَى تَفْصِيلِ الْوُجُودِ كُلِّهِ

(١) لم يحل بطائل ، أي لم يظفر ولم يستفد منه ( لسان العرب )

(٢) سورة الإخلاص .

وَسَفِهَ رَأْيِهِ فِي ذَلِكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ فِي بَادِي رَأْيِهِ مُنْحَصِرٌ فِي  
 مَدَارِكِهِ لَا يَغْدُوهَا وَالْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ . الْأَتْرَى الْأَصَمُّ  
 كَيْفَ يَنْحَصِرُ الْوُجُودُ عِنْدَهُ فِي الْمَحْسُوسَاتِ الْأَرْبَعِ وَالْمَعْقُولَاتِ وَيَسْقُطُ مِنَ الْوُجُودِ  
 عِنْدَهُ صِنْفُ الْمَسْمُوعَاتِ . وَكَذَلِكَ الْأَعْمَى أَيْضاً يَسْقُطُ عِنْدَهُ صِنْفُ الْمَرْتَبَاتِ وَلَوْلَا  
 مَا يَرُدُّهُمْ إِلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الْأَبَاءِ وَالْمَشِيخَةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِمْ وَالْكَافَّةَ لَمَا أَقْرَأُوا بِهِ  
 لَكِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكَافَّةَ فِي إِثْبَاتِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ لَا بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ وَطَبِيعَةِ  
 إِدْرَاكِهِمْ وَلَوْ سُئِلَ الْحَيَوَانُ الْأَعْجَمُ وَنَطَقَ لَوَجَدْنَاهُ مُنْكَرًا لِلْمَعْقُولَاتِ وَسَاقِطَةً لَدَيْهِ  
 بِالْكَلْبِيَّةِ فَإِذَا عَلِمَتْ هَذَا فَلَعَلَّ هُنَاكَ ضَرْبًا مِنَ الْإِدْرَاكِ غَيْرِ مُدْرَكَاتِنَا لِأَنَّ إِدْرَاكَاتِنَا  
 مُخْلُوقَةٌ مُحَدَّثَةٌ وَخَلَقَ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ . وَالْحَضْرُ مَجْهُولٌ وَالْوُجُودُ أَوْسَعُ  
 نِطَاقًا مِنْ ذَلِكَ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ . فَاتَّهَمُوا إِدْرَاكَكَ وَمُدْرَكَاتِكَ فِي الْحَضْرِ وَاتَّبَعُوا  
 مَا أَمَرَكَ الشَّارِعُ بِهِ مِنْ اِغْتِقَادِكَ وَعَمَلِكَ فَهُوَ أَحْرَصُ عَلَى سَعَادَتِكَ وَأَعْلَمُ بِمَا  
 يَنْفَعُكَ لِأَنَّهُ مِنْ طُورِ فَوْقِ إِدْرَاكَكَ وَمِنْ نِطَاقِ أَوْسَعٍ مِنْ نِطَاقِ عَقْلِكَ وَلَيْسَ ذَلِكَ  
 بِقَادِحٍ فِي الْعَقْلِ وَمَدَارِكِهِ بَلِ الْعَقْلُ مِيزَانٌ صَحِيحٌ فَأَحْكَامُهُ يَقِينِيَّةٌ لَا كَذِبَ فِيهَا .  
 غَيْرَ أَنَّكَ لَا تَطْمَعُ أَنْ تَزْنَ بِهِ أُمُورَ التَّوْحِيدِ وَالْآخِرَةِ وَحَقِيقَةَ النُّبُوَّةِ وَحَقَائِقَ  
 الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَكُلَّ مَا وَرَاءَ طُورِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ طَمَعٌ فِي مَحَالٍ . وَمِثَالُ ذَلِكَ مِثَالُ  
 رَجُلٍ رَأَى الْمِيزَانَ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ الذَّهَبُ فَطَمَعُ أَنْ يَزْنَ بِهِ الْجِبَالَ وَهَذَا  
 لَا يُدْرِكُ . عَلَى أَنَّ الْمِيزَانَ فِي أَحْكَامِهِ غَيْرُ صَادِقٍ لَكِنَّ الْعَقْلَ قَدْ يَقِفُ عِنْدَهُ وَلَا  
 يَتَعَدَّى طُورَهُ حَتَّى يَكُونَ لَهُ أَنْ يُحِيطَ بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ فَإِنَّهُ دَرَّةٌ مِنْ دُرَاتِ الْوُجُودِ  
 الْحَاصِلِ مِنْهُ . وَتَقَطَّنَ فِي هَذَا الْعَلَطِ وَمَنْ يُقَدِّمُ الْعَقْلَ عَلَى السَّمْعِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ  
 الْقَضَايَا وَقُصُورِ فَهْمِهِ وَاضْمِحْلَالِ رَأْيِهِ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ الْحَقُّ مِنْ ذَلِكَ وَإِذْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ  
 فَلَعَلَّ الْأَسْبَابَ إِذَا تَجَاوَزَتْ فِي الْارْتِقَاءِ نِطَاقَ إِدْرَاكِنَا وَوُجُودِنَا خَرَجَتْ عَنْ أَنْ  
 تَكُونَ مُدْرَكَةً فَيُضِلُّ الْعَقْلُ فِي بَيْدَاءِ الْأَوْهَامِ وَيَحَارُ وَيَنْقَطِعُ . فَإِذَا التَّوْحِيدُ هُوَ  
 الْعَجْزُ عَنْ إِدْرَاكِ الْأَسْبَابِ وَكَيْفِيَّاتِ تَأْثِيرِهَا وَتَفْوِيضُ ذَلِكَ إِلَى خَالِقِهَا الْمُحِيطِ بِهَا

إِذْ لَا فَاعِلَ غَيْرُهُ وَكُلُّهَا تَرْتَقِي إِلَيْهِ وَتَرْجَعُ إِلَى قُدْرَتِهِ وَعَلِمْنَا بِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ حَيْثُ  
 صُدُورُنَا عَنْهُ لَا غَيْرَ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى مَا نَقَلَ عَنْ بَعْضِ الصِّدِّيقِينَ : « الْعَجْزُ عَنِ  
 الْإِذْرَاكِ إِذْرَاكٌ » . ثُمَّ إِنَّ الْمُعْتَبَرَ فِي هَذَا التَّوْحِيدِ لَيْسَ هُوَ الْإِيمَانُ فَقَطُّ الَّذِي هُوَ  
 تَصْدِيقٌ حُكْمِيٌّ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِيهِ حُصُولُ صِفَةٍ مِنْهُ  
 تَتَكَيَّفُ بِهَا النَّفْسُ كَمَا أَنَّ الْمُطْلُوبَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ أَيْضًا حُصُولُ مَلَكَهَ  
 الطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ وَتَفْرِيعُ الْقَلْبِ عَنْ شَوَاغِلِ مَا سِوَى الْمَعْبُودِ حَتَّى يَنْقَلِبَ الْمُرِيدُ  
 السَّالِكُ رَبَّانِيًّا . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْحَالِ وَالْعِلْمِ فِي الْعَقَائِدِ فَرْقٌ مَا بَيْنَ الْقَوْلِ  
 وَالْإِتِّصَافِ . وَشَرْحُهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّ رَحْمَةَ الْيَتِيمِ وَالْمِسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى  
 اللَّهِ تَعَالَى مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا وَيَقُولُ بِذَلِكَ وَيَعْتَرِفُ بِهِ وَيَذْكُرُ مَا أَخَذَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَهُوَ  
 لَوْ رَأَى يَتِيمًا أَوْ مِسْكِينًا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْتَضْعَفِينَ لَفَرَّ عَنْهُ وَاسْتَنكَفَ أَنْ يَبَاشِرَهُ فَضْلًا  
 عَنِ التَّمَسُّحِ عَلَيْهِ لِلرَّحْمَةِ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَطْفِ وَالْحُنُوِّ وَالصَّدَقَةِ . فَهَذَا  
 إِنَّمَا حَصَلَ لَهُ مِنْ رَحْمَةِ الْيَتِيمِ مَقَامَ الْعِلْمِ وَلَمْ يَحْضُرْ لَهُ مَقَامَ الْحَالِ وَالْإِتِّصَافِ .  
 وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْضُرُ لَهُ مَعَ مَقَامِ الْعِلْمِ وَالْإِعْتِرَافِ بِأَنَّ رَحْمَةَ الْمِسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى  
 اللَّهِ تَعَالَى مَقَامَ آخَرَ أَعْلَى مِنَ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْإِتِّصَافُ بِالرَّحْمَةِ وَحُصُولُ مَلَكَتِهَا . فَمَتَى  
 رَأَى يَتِيمًا أَوْ مِسْكِينًا بَادَرَ إِلَيْهِ وَمَسَحَ عَلَيْهِ وَالتَّمَسَّ الثَّوَابَ فِي الشَّفِيقَةِ عَلَيْهِ لَا يَكَادُ  
 يَصِيرُ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ دَفَعَ عَنْهُ . ثُمَّ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ بِمَا حَضَرَهُ مِنْ ذَاتِ يَدِهِ وَكَذَا عِلْمُكَ  
 بِالتَّوْحِيدِ مَعَ اتِّصَافِكَ بِهِ وَالْعِلْمُ حَاصِلٌ عَنِ الْإِتِّصَافِ ضَرُورَةٌ وَهُوَ أَوْثَقُ مَبْنَى مِنْ  
 الْعِلْمِ الْحَاصِلِ قَبْلَ الْإِتِّصَافِ . وَلَيْسَ الْإِتِّصَافُ بِحَاصِلٍ عَنْ مُجَرَّدِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقَعَ  
 الْعَمَلُ وَيَتَكَرَّرَ مِرَارًا غَيْرَ مُنْحَصِرَةٍ فَتَرْسُخَ الْمَلَكَهَ وَيَحْضُرَ الْإِتِّصَافُ وَالتَّحْقِيقُ  
 وَيَجِيءُ الْعِلْمُ الثَّانِي النَّافِعُ فِي الْآخِرَةِ . فَإِنَّ الْعِلْمَ الْأَوَّلَ الْمَجْرَدَ عَنِ الْإِتِّصَافِ قَلِيلٌ  
 الْجَدْوَى وَالنَّفْعُ وَهَذَا عِلْمٌ أَكْثَرَ الْبُظَّارِ وَالْمَطْلُوبُ إِنَّمَا هُوَ الْعِلْمُ الْحَالِي النَّاشِءُ عَنِ  
 الْعَادَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْكَمَالَ عِنْدَ الشَّارِعِ فِي كُلِّ مَا كَلَّفَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذَا فَمَا طَلِبَ  
 اعْتِقَادَهُ فَالْكَمَالُ فِيهِ فِي الْعِلْمِ الثَّانِي الْحَاصِلِ عَنِ الْإِتِّصَافِ وَمَا طَلِبَ عَمَلَهُ مِنْ

الْعِبَادَاتِ فَالْكَمَالُ فِيهَا فِي حُصُولِ الْإِتِّصَافِ وَالتَّحَقُّقِ بِهَا . ثُمَّ إِنَّ الْإِقْبَالَ عَلَى  
 الْعِبَادَاتِ وَالْمُوَاطَّئَةَ عَلَيْهَا هُوَ الْمُحَصَّلُ لِهَذِهِ الثَّمَرَةِ الشَّرِيفَةِ . قَالَ ﷺ : « فِي  
 رَأْسِ الْعِبَادَاتِ جَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » فَإِنَّ الصَّلَاةَ صَارَتْ لَهُ صِفَةً وَحَالًا يَجِدُ  
 فِيهَا مُنْتَهَى لَذَاتِهِ وَقُرَّةَ عَيْنِهِ وَأَيْنَ هَذَا مِنْ صَلَاةِ النَّاسِ وَمَنْ لَهُمْ بِهَا ؟ « فَوَيْلٌ  
 لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » <sup>(١)</sup> اللَّهُمَّ وَقَفْنَا « وَاهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ  
 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » <sup>(٢)</sup> فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ  
 جَمِيعِ مَا قَرَرْنَاهُ أَنَّ الْمَطْلُوبَ فِي التَّكَالِيفِ كُلِّهَا حُصُولُ مَلَكَتِهِ رَاسِخَةً فِي النَّفْسِ  
 يَحْصُلُ <sup>(٣)</sup> عَنْهَا عِلْمٌ اضْطِرَّارِيٌّ لِلنَّفْسِ هُوَ التَّوْحِيدُ وَهُوَ الْعَقِيدَةُ الْإِيمَانِيَّةُ وَهُوَ الَّذِي  
 تَحْصُلُ بِهِ السَّعَادَةُ وَأَنَّ ذَلِكَ سَوَاءٌ فِي التَّكَالِيفِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ . وَيُنْفِخُهُ مِنْهُ أَنَّ  
 الْإِيمَانَ الَّذِي هُوَ أَصْلُ التَّكَالِيفِ وَيَنْبُوعُهَا هُوَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ ذُو مَرَاتِبٍ . أُولَاهَا  
 التَّصَدِيقُ الْقَلْبِيُّ الْمَوْافِقُ لِلْسَّانِ وَأَعْلَاهَا حُصُولُ كَيْفِيَّةٍ مِنْ ذَلِكَ الْإِعْتِقَادِ الْقَلْبِيِّ وَمَا  
 يَتَّبِعُهُ مِنَ الْعَمَلِ مُسْتَوْليَّةٍ عَلَى الْقَلْبِ فَيَسْتَتِيعُ الْجَوَارِحَ . وَتَنْدَرُجُ فِي طَاعَتِهَا جَمِيعُ  
 التَّصَرُّفَاتِ حَتَّى تَنْخَرِطَ الْأَفْعَالُ كُلُّهَا فِي طَاعَةِ ذَلِكَ التَّصَدِيقِ الْإِيمَانِيِّ . وَهَذَا  
 أَرْفَعُ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ الَّذِي لَا يُقَارَفُ الْمُؤْمِنُ مَعَهُ صَغِيرَةً وَلَا  
 كَبِيرَةً إِذْ حُصُولُ الْمَلَكَتِ وَرُسُوحُهَا مَانِعٌ مِنَ الْإِنْحِرَافِ عَنْ مَنَاجِحِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ  
 قَالَ ﷺ : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » وَفِي حَدِيثِ هِرْقَلِ لَمَّا  
 سَأَلَ أَبَا سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَحْوَالِهِ فَقَالَ فِي أَصْحَابِهِ : « هَلْ  
 يَزْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سُخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ؟ قَالَ : لَا ! قَالَ : وَكَذَلِكَ  
 الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ . وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَلَكَتِ الْإِيمَانِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ عَسَرَ  
 عَلَى النَّفْسِ مَخَالَفَتُهَا شَأْنَ الْمَلَكَاتِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ فَإِنَّهَا تَحْصُلُ بِمَثَابَةِ الْجِبِلَّةِ  
 وَالْفِطْرَةِ وَهَذِهِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الْعَالِيَّةُ مِنَ الْإِيمَانِ وَهِيَ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَّةِ مِنَ الْعِصْمَةِ .

(١) سورة الماعون ، الآية ٤ و ٥ .

(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٥ و ٦ .

(٣) وفي نسخة أخرى : ينشأ .



لأن العِصْمَةَ وَاجِبَةً لِلْإِنْبِيَاءِ وَجُوباً سَابِقاً وَهَذِهِ حَاصِلَةٌ لِلْمُؤْمِنِيَّةِ حُصُولاً تَابِعاً  
لأَعْمَالِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ . وَبِهَذِهِ الْمَلَكَةِ وَرُسُوحَهَا يَقَعُ التَّفَاوُتُ فِي الْإِيمَانِ كَالَّذِي  
يُتْلَى عَلَيْكَ مِنْ أَقَاوِيلِ السَّلَفِ . وَفِي تَرَاجِمِ الْبُخَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَابِ  
الْإِيمَانِ كَثِيرٌ مِنْهُ . مِثْلُ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَأَنَّ الصَّلَاةَ  
وَالصِّيَامَ مِنَ الْإِيمَانِ وَأَنَّ تَطَوُّعَ رَمَضَانَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ . وَالْمَرَادُ  
بِهَذَا كُلِّهِ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَإِلَى مَلَكَتِهِ وَهُوَ فِعْلِيٌّ . وَأَمَّا التَّصْدِيقُ  
الَّذِي هُوَ أَوَّلُ مَرَاتِبِهِ فَلَا تَفَاوُتَ فِيهِ . فَمَنْ اعْتَبَرَ أَوَائِلَ الْأَسْمَاءِ وَحَمَلَهُ عَلَى التَّصْدِيقِ  
مَنْعَ مِنَ التَّفَاوُتِ كَمَا قَالَ أئِمَّةُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَمَنْ اعْتَبَرَ أَوَاخِرَ الْأَسْمَاءِ وَحَمَلَهُ عَلَى هَذِهِ  
الْمَلَكَةِ الَّتِي هِيَ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ ظَهَرَ لَهُ التَّفَاوُتُ . وَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِي اتِّحَادِ  
حَقِيقَتِهِ الْأُولَى الَّتِي هِيَ التَّصْدِيقُ إِذِ التَّصْدِيقُ مَوْجُودٌ فِي جَمِيعِ رُتَبِهِ لِأَنَّهُ أَقْلُ  
مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْمُخْلِصُ مِنْ عَهْدَةِ الْكُفْرِ وَالْفَيْضُ<sup>(١)</sup> بَيْنَ الْكَافِرِ  
وَالْمُسْلِمِ فَلَا يَجْزِي أَقْلُ مِنْهُ . وَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَفَاوُتُ وَإِنَّمَا التَّفَاوُتُ  
فِي الْحَالِ الْحَاصِلَةِ عَنِ الْأَعْمَالِ كَمَا قُلْنَا فَاذْكُرْهُمْ . وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّارِعَ وَصَفَ لَنَا هَذَا  
الْإِيمَانَ الَّذِي فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى الَّذِي هُوَ تَصْدِيقٌ وَعَيْنٌ أُمُوراً مَخْصُوصَةً كَلَّفْنَا  
التَّصْدِيقَ بِهَا بِقُلُوبِنَا وَاعْتِقَادَهَا فِي أَنْفُسِنَا مَعَ الْإِقْرَارِ بِهَا بِالسِّنْتِنَا وَهِيَ الْعَقَائِدُ  
الَّتِي تَقَرَّرَتْ فِي الدِّينِ . قَالَ ﷺ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ : « أَنْ تُؤْمِنَ  
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » وَهَذِهِ هِيَ  
الْعَقَائِدُ الْإِيمَانِيَّةُ الْمُقَرَّرَةُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ . وَلِنُشِرَ إِلَيْهَا مُجْمَلَةٌ لِتَسْتَبِينَ لَكَ حَقِيقَةُ هَذَا  
النَّفْسِ وَكَيْفِيَّةُ حَدُوثِهِ فَنَقُولُ . إَعْلَمْ أَنَّ الشَّارِعَ لَمَّا أَمَرْنَا بِالْإِيمَانِ بِهَذَا الْخَالِقِ الَّذِي  
رَدَّ الْأَفْعَالَ كُلَّهَا إِلَيْهِ وَأَفْرَدَهُ بِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَعَرَفْنَا أَنَّ فِي هَذَا الْإِيمَانِ نَجَاتَنَا عِنْدَ  
الْمَوْتِ إِذَا حُضِرْنَا لَمْ يَعْرِفْنَا بِكُنْهِ حَقِيقَةِ هَذَا الْخَالِقِ الْمَعْبُودِ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ مُتَعَذِّرٌ  
عَلَى إِذْرَاكِنَا وَمِنْ فَوْقِ طُورِنَا . فَكَلَّفْنَا أَوْلَى : اعْتِقَادَ تَنْزِيهِهِ فِي ذَاتِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ

(١) وفي النسخة الباريية ، الفاعل .

الْمَخْلُوقِينَ وَالْأَلْمَا صَحَّ أَنَّهُ خَالِقٌ لَهُمْ لِعَدَمِ الْفَارِقِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ ثُمَّ تَنْزِيهِهِ عَنْ  
 صِفَاتِ النَّصِّ وَالْأَلْسَابِهِ الْمَخْلُوقِينَ ثُمَّ تَوْحِيدِهِ بِالِاتِّحَادِ وَالْأَلْمَا يَتِمُّ الْخَلْقُ لِلتَّمَانِعِ  
 ثُمَّ اعْتِقَادُ أَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ فَبِذَلِكَ تَتِمُّ الْأَفْعَالُ شَاهِدٌ قَضِيَّتِهِ لِكَمَالِ الْإِتِّحَادِ <sup>(١)</sup> وَالْخَلْقُ  
 وَمُرِيدٌ وَالْأَلْمَا يَخْصُصُ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَمُقَدَّرٌ لِكُلِّ كَائِنٍ وَالْأَلْمَا فَالِإِزَادَةُ  
 حَادِثَةٌ . وَأَنَّهُ يُعِيدُنَا بَعْدَ الْمَوْتِ تَكْمِيلًا لِعِنَايَتِهِ بِالِإِجَادِ وَلَوْ كَانَ لِأَمْرِ فَإِنَّ <sup>(٢)</sup>  
 كَانَ عِبْتًا فَهُوَ لِلْبَقَاءِ السَّرْمِيدِيِّ بَعْدَ الْمَوْتِ . ثُمَّ اعْتِقَادُ بَعْثَةِ الرُّسُلِ لِلنَّجَاةِ مِنْ شَقَاءِ  
 هَذَا الْمَعَادِ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ بِالشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ وَعَدَمِ مَعْرِفَتِنَا بِذَلِكَ وَتَمَامِ لُطْفِهِ بِنَا  
 فِي الْإِيْتَاءِ <sup>(٣)</sup> بِذَلِكَ وَبَيَانِ الطَّرِيقَيْنِ . وَأَنَّ الْجَنَّةَ لِلنَّعِيمِ وَجَهَنَّمَ لِلْعَذَابِ . هَذِهِ  
 أَمْهَاتُ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ مُعَلَّلَةٌ بِأَدْلَتِهَا الْعَقْلِيَّةِ وَأَدْلَتِهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرَةٌ .  
 وَعَنْ تِلْكَ الْأَدْلَةِ أَخَذَهَا السَّلَفُ وَأَرْشَدَ إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ وَحَقَّقَهَا الْأُئِمَّةُ إِلَّا أَنَّهُ عَرَضَ بَعْدَ  
 ذَلِكَ خِلَافٌ فِي تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْعَقَائِدِ أَكْثَرَ مَثَارَهَا مِنَ الْإِي الْمُتَشَابِهَةِ فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى  
 الْخِصَامِ وَالتَّنَاطُرِ وَالِاسْتِذْلَالِ بِالْعَقْلِ وَزِيَادَةِ إِلَى النُّقْلِ . فَحَدَّثَ بِذَلِكَ عِلْمُ  
 الْكَلَامِ . وَلِنُبَيِّنَ لَكَ تَفْصِيلَ هَذَا الْمُجْمَلِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ وَرَدَّ فِيهِ وَصْفُ الْمَعْبُودِ  
 بِالتَّنْزِيهِ الْمَطْلُوقِ الظَّاهِرِ الدَّلَالَةِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ فِي آيٍ كَثِيرَةٍ وَهِيَ سُلُوبٌ <sup>(٤)</sup> كُلُّهَا  
 وَصَرِيحَةٌ فِي بَابِهَا فَوَجِبَ الْإِيمَانُ بِهَا . وَوَقَعَ فِي كَلَامِ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ  
 وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ تَفْسِيرُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا . ثُمَّ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ آيٌ أُخْرَى  
 قَلِيلَةٌ تُوهِمُ التَّشْبِيهَ مَرَّةً فِي الذَّاتِ وَأُخْرَى فِي الصِّفَاتِ . فَأَمَّا السَّلَفُ فَغَلَبُوا أَدْلَةَ  
 التَّنْزِيهِ لِكَثْرَتِهَا وَوُضُوحِ دَلَالَتِهَا . وَعَلِمُوا اسْتِحَالَةَ التَّشْبِيهِ . وَقَضَوْا بِأَنَّ الْآيَاتِ مِنْ  
 كَلَامِ اللَّهِ فَأَمَّنُوا بِهَا وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِمَعْنَاهَا بِبَحْثٍ وَلَا تَأْوِيلٍ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ

(١) وفي نسخة أخرى : الإيجاد .

(٢) وفي نسخة أخرى : ولو كان للغناء الحرف .

(٣) وفي نسخة أخرى : الإيتاء .

(٤) السلوب من النوق التي التقت ولدها لغير تمام . ووضيحه سلوب وسلب أي سلبت ولدها (السان

العرب) وهذا بمعنى يتقصبها التأويل .

الْكثير مِنْهُمْ : إقْرأوها كَمَا جَاءَتْ أَيِ آمِنُوا بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . وَلَا تَتَعَرَّضُوا  
 لِتَأْوِيلِهَا وَلَا تَفْسِرْهَا لِجَوَازِ أَنْ تَكُونَ اثْبَلَاءً ، فَيَجِبُ الْوَقْفُ وَالْإِدْعَانُ لَهُ . وَشَدَّ  
 لِعَضْرِهِمْ مُبْتَدَعَةً اتَّبَعُوا مَا تَشَابَهَ مِنَ الْآيَاتِ وَتَوَعَّلُوا فِي التَّشْبِيهِ . فَفَرِيقٌ أَشْبَهُوا<sup>(١)</sup>  
 فِي الذَّاتِ بِاعْتِقَادِ الْيَدِ وَالْقَدَمِ وَالْوَجْهِ عَمَلًا بِظَوَاهِرِ وَرَدَتْ بِذَلِكَ فَوْقَعُوا فِي التَّجْسِيمِ  
 الصَّرِيحِ وَمُخَالَفَةِ آيِ التَّنْزِيهِ الْمَطْلُوقِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلَالَةٌ لِأَنَّ  
 مَعْقُولِيَّةَ الْجِسْمِ تَقْتَضِي النَّقْصَ وَالْإِفْتِقَارَ . وَتَغْلِبُ آيَاتِ السُّلُوبِ فِي التَّنْزِيهِ  
 الْمَطْلُوقِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلَالَةٌ أَوْلَى مِنَ التَّعَلُّقِ بِظَوَاهِرِ هَذِهِ الَّتِي لَنَا  
 عَنْهَا غُنْيَةٌ وَجَمَعَ بَيْنَ الدَّلِيلَيْنِ بِتَأْوِيلِهَا ثُمَّ يَفْرُونَ مِنْ شِنَاعَةِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ جِسْمٌ  
 لَا كَالْأَجْسَامِ . وَلَيْسَ ذَلِكَ بَدَافِعَ عَنْهُمْ لِأَنَّهُ قَوْلٌ مُتَنَاقِضٌ وَجَمَعَ بَيْنَ نَفْيِ وَإْتِبَاتِ  
 إِنْ كَانَا بِالْمَعْقُولِيَّةِ وَاحِدَةً مِنَ الْجِسْمِ ، وَإِنْ خَالَفُوا بَيْنَهُمَا وَنَفَوْا الْمَعْقُولِيَّةَ  
 الْمُتَعَارِفَةَ فَقَدْ وَافَقُونَا فِي التَّنْزِيهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا جَعْلُهُمْ لَفْظِ الْجِسْمِ اسْمًا مِنْ أَسْمَائِهِ .  
 وَيَتَوَقَّفُ مِثْلُهُ عَلَى الْأُذُنِ . وَفَرِيقٌ مِنْهُمْ ذَهَبُوا إِلَى التَّشْبِيهِ فِي الصِّفَاتِ كَاتِبَاتِ الْجِهَةِ  
 وَالِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالصُّوْتِ وَالْخَرْفِ وَأُمَثَالَ ذَلِكَ . وَآلُ قَوْلِهِمْ إِلَى التَّجْسِيمِ فَنَزَعُوا  
 مِثْلَ الْأَوْلِينَ إِلَى قَوْلِهِمْ صَوْتٌ لَا كَالصُّوْتِ جِهَةٌ لَا كَالجُّهَاتِ نَزُولٌ لَا كَالنُّزُولِ  
 يَعْنُونَ مِنَ الْأَجْسَامِ . وَانْدَفَعَ ذَلِكَ بِمَا انْدَفَعَ بِهِ الْأَوَّلُ ، وَلَمْ يَبْقَ فِي هَذِهِ الظُّوَاهِرِ  
 إِلَّا اعْتِقَادَاتِ السَّلَفِ وَمَذَاهِبُهُمْ وَالْإِيمَانُ بِهَا كَمَا هِيَ لِئَلَّا يَكُرَّ<sup>(٢)</sup> النَّفْيُ عَلَى  
 مَعَانِيهَا بِنَفْيِهَا مَعَ أَنَّهَا صَحِيحَةٌ ثَابِتَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ . وَلِهَذَا تَنْظُرُ مَا تَرَاهُ فِي عَقِيدَةِ  
 الرِّسَالَةِ لِابْنِ أَبِي زَيْدٍ وَكِتَابِ الْمُخْتَصِرِ لَهُ وَفِي كِتَابِ الْحَافِظِ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ  
 وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَحُومُونَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى . وَلَا تَعْمُضُ عَيْنُكَ عَنِ الْقُرَائِنِ الدَّالَّةِ عَلَى  
 ذَلِكَ فِي غُضُونِ كَلَامِهِمْ . ثُمَّ لَمَّا كَثُرَتِ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَوَلَعَ النَّاسُ بِالتَّوْبِينِ  
 وَالْبَحْثِ فِي سَائِرِ الْأَنْحَاءِ وَأَلَّفَ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي التَّنْزِيهِ حَدَّثَتْ بِدَعَاةِ الْمُعْتَزِلَةِ فِي

(١) وفي نسخة أخرى : شَبَّهُوا .

(٢) يعود .

تَعْمِيمِ هَذَا التَّنْزِيهِ فِي آيِ السُّلُوبِ فَقَضُوا بِنَفْيِ صِفَاتِ الْمَعَانِي مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ  
وَالْإِرَادَةِ وَالْحَيَاةِ زَائِدَةً عَلَى أَحْكَامِهَا لِمَا يُلْزَمُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَعَدُّدِ الْقَدِيمِ بِزَعْمِهِمْ  
وَهُوَ مَرْدُودٌ بِأَنَّ الصِّفَاتِ لَيْسَتْ عَيْنَ الذَّاتِ وَلَا غَيْرَهَا وَقَضُوا بِنَفْيِ صِفَةِ الْإِرَادَةِ  
فَلزِمَتْهُمْ نَفْيُ الْقَدْرِ لِأَنَّ مَعْنَاهُ سَبَقَ الْإِرَادَةَ لِلْكَائِنَاتِ وَقَضُوا بِنَفْيِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ  
لِكُونِهِمَا مِنْ عَوَارِضِ الْأَجْسَامِ . وَهُوَ مَرْدُودٌ لِعَدَمِ اشْتِرَاطِ الْبُنْيَةِ فِي مَذْلُولِ هَذَا اللَّفْظِ  
وَإِنَّمَا هُوَ إِذْرَاكُ الْمَسْمُوعِ أَوْ الْمُبْصَرِ . وَقَضُوا بِنَفْيِ الْكَلَامِ لِشَبْهِهِ مَا فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ  
وَلَمْ يَغْفُلُوا صِفَةَ الْكَلَامِ الَّتِي تَقُومُ بِالنَّفْسِ فَقَضُوا بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَذَلِكَ بِدَعَا  
صُرْحِ السُّلْفِ بِخِلَافِهَا . وَعَظَمَ ضَرَرُ هَذِهِ الْبِدْعَةِ وَلَقْنَهَا بَعْضُ الْخُلَفَاءِ عَنْ أُمَّتِهِمْ  
فَحَمَلَ النَّاسَ عَلَيْهَا وَخَالَفَهُمْ أُمَّةُ السُّلْفِ فَاسْتَحَلَّ لِخِلَافِهِمْ إِسَارٌ<sup>(١)</sup> كَثِيرٌ مِنْهُمْ  
وَدَمَاؤُهُمْ . وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِانْتِهَاضِ أَهْلِ السُّنَّةِ بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى هَذِهِ الْعَقَائِدِ  
دَفْعًا فِي صُدُورِ هَذِهِ الْبِدْعِ وَقَامَ بِذَلِكَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ إِمَامُ الْمُتَكَلِّمِينَ  
فَتَوَسَّطَ بَيْنَ الطَّرِيقِ وَنَفَى التَّشْبِيهَ وَأَثَبَتِ الصِّفَاتِ الْمَعْنَوِيَّةَ وَقَصَرَ التَّنْزِيهَ عَلَى  
مَا قَصَرَهُ عَلَيْهِ السُّلْفُ . وَشَهِدَتْ لَهُ الْأَدْلَةُ الْمُخَصَّصَةُ لِعُمُومِهِ فَأَثَبَتِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ  
الْمَعْنَوِيَّةَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلامَ الْقَائِمَ بِالنَّفْسِ بِطَرِيقِ النُّقْلِ وَالْعَقْلِ . وَرَدَّ عَلَى  
الْمُبْتَدِعَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ فِيمَا مَهْدُوهُ لِهَذِهِ الْبِدْعِ مِنَ الْقَوْلِ بِالصَّلَاحِ  
وَالْأَضْلِحِ وَالتَّحْسِينِ وَالتَّقْيِيحِ وَكَمَّلَ الْعَقَائِدِ فِي الْبُعْثَةِ وَأَحْوَالِ الْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ  
وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ . وَالْحَقُّ بِذَلِكَ الْكَلَامِ فِي الْإِمَامَةِ لِمَا ظَهَرَ حِينَئِذٍ مِنْ بِدْعَةِ  
الْإِمَامِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّهَا مِنْ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ<sup>(٢)</sup> وَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى النَّبِيِّ تَعْيِينُهَا وَالْخُرُوجُ

(١) بمعنى أموال وفي نسخة أخرى إيسار .

(٢) وفي كتاب الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء النجفي ( أصل الشيعة وأصولها ) ما يلي :

الإمامة . قد أنبأناك ان هذا هو الأصل الذي امتازت به الامامية واقتربت عن سائر فرق المسلمين . وهو  
فرق جوهرى أصلي . وما عداه من الفروق فرعية عرضية . كالفروق التي تقع بين أئمة الاجتهاد عندهم كالحنفي  
والشافعي وغيرهما . وعرفت أن مرادهم بالإمامة كونها منصبا إليها يختاره الله سابق علمه بعباده كما يختار  
النبي . ويأمر النبي بأن يدل الأمة عليه ويأمرهم باتباعه . ويعتقدون أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه بأن ينص  
على علي وينصبه علما للناس من بعده . وكان النبي يعلم أن الناس ذلك اليوم وإلى اليوم ليسوا في مستوى واحد =

عَنِ الْعَهْدَةِ فِي ذَلِكَ لَمَنْ هِيَ لَهُ . وَكَذَلِكَ عَلَى الْأُمَّةِ . وَقُضِيَ أَمْرُ الْإِمَامَةِ أَنَّهَا قَضِيَّةٌ  
مُصْلِحِيَّةٌ إِجْمَاعِيَّةٌ وَلَا تَلْحَقُ بِالْعَقَائِدِ فَلِذَلِكَ أَحَقُّوْهَا بِمَسَائِلِ هَذَا الْفَنِّ وَسَمَّوْا  
مَجْمُوعَةَ عِلْمِ الْكَلَامِ : إِمَالِمًا فِيهِ مِنَ الْمُنَاطَرَةِ عَلَى الْبِدْعِ وَهِيَ كَلَامٌ صِرْفٌ وَلَيْسَتْ  
بِرَاجِعَةٍ إِلَى عَمَلٍ . وَإِمَا لِأَنَّ سَبَبَ وَضْعِهِ وَالْحَوْضَ فِيهِ هُوَ تَنَازُعُهُمْ فِي إِثْبَاتِ الْكَلَامِ  
النَّفْسِيِّ . وَكَثُرَ اتِّبَاعُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَاقْتَفَى طَرِيقَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ تَلْمِيذُهُ  
كَابْنِ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ . وَأَخَذَ عَنْهُمْ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ فَتَصَدَّرَ لِلْإِمَامَةِ فِي  
طَرِيقَتِهِمْ وَهَدَّبَهَا وَوَضَعَ الْمُقَدِّمَاتِ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا الْأَدْلَةُ وَالْأَنْظَارُ  
وَذَلِكَ مِثْلُ إِثْبَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَالْخَلَاءِ . وَأَنَّ الْعَرَضَ لَا يَقُومُ بِالْعَرَضِ وَأَنَّهُ  
لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ أُدْلَتُهُمْ . وَجَعَلَ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ تَبَعًا  
لِلْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي وُجُوبِ اعْتِقَادِهَا لِتَوَقُّفِ تِلْكَ الْأَدْلَةِ عَلَيْهَا وَأَنَّ بُطْلَانَ الدَّلِيلِ  
يُؤْذَنُ بِبُطْلَانِ الْمُدْلُولِ . وَجُمِلَتْ <sup>(١)</sup> هَذِهِ الطَّرِيقَةُ وَجَاءَتْ مِنْ أَحْسَنِ الْفُنُونِ  
النَّظَرِيَّةِ وَالْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ . إِلَّا أَنَّ صُورَةَ الْأَدْلَةِ فِيهَا بَعْضُ الْأَخْيَانِ ، عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ  
الصَّنَاعِيِّ لِسَدَاجَةِ الْقَوْمِ وَلِأَنَّ صِنَاعَةَ الْمَنْطِقِ الَّتِي تَسِيرُ بِهَا الْأَدْلَةُ وَتُعْتَبَرُ بِهَا  
الْأَقْيَسَةُ وَلَمْ تَكُنْ حِينئِذٍ ظَاهِرَةً فِي الْمِلَّةِ ، وَلَوْ ظَهَرَ مِنْهَا بَعْضُ الشَّيْءِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِهِ  
الْمُتَكَلِّمُونَ لِمَلَابَسَتِهَا لِلْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْمُبَايِنَةِ لِلْعَقَائِدِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْجُمْلَةِ فَكَانَتْ  
مَهْجُورَةً عِنْدَهُمْ لِذَلِكَ . ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ مِنْ أَيْمَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ  
إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ أَبُو الْمُعَالِي فَأَمَلَى فِي الطَّرِيقَةِ كِتَابَ الشَّامِلِ وَأَوْسَعَ الْقَوْلَ فِيهِ . ثُمَّ  
لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ الْإِرْشَادِ وَأَتَّخَذَهُ النَّاسُ إِمَامًا لِعَقَائِدِهِمْ . ثُمَّ انْتَشَرَتْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

= من الإيمان واليقين بنزاهة النبي وعصمته عن الهوى والعرض . ولكن الله سبحانه لم يعذره في ذلك فأوحى إليه .  
« يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . فلم بدا من الامتثال بعد هذا  
الانذار الشديد فخطب الناس عند منصرفه من حجة الوداع في غديره فنادى وجلهم يسمعون : « ألسن أولي  
بالمؤمنين من أنفسهم ؟ فقالوا اللهم نعم » فقال : « من كنت مولاه فهذا علي مولاه » إلى آخر ما قال . ثم أكد ذلك  
في مواطن أخرى تلويحاً وتصريحاً . وإشارة ونصحا حتى أدى الوظيفة وبلغ عند الله العذرة ( ص ١٠٧ - ١٠٨ )  
( طبعة دار البحار - بيروت )

(١) وفي نسخة أخرى : كملت .

عُلُومٌ<sup>(١)</sup> الْمَنْطِقِ فِي الْمِلَّةِ وَقَرَأَهُ النَّاسُ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ بِأَنَّهُ قَانُونٌ  
 وَمَعْيَارٌ لِلأَدَلَّةِ فَقَطُّ يُسَبَّرُ بِهِ الأَدَلَّةُ مِنْهَا كَمَا يُسَبَّرُ مِنْ سِوَاهَا . ثُمَّ نَظَرُوا فِي تِلْكَ  
 الْقَوَاعِدِ وَالْمُقَدَّمَاتِ فِي فَنِّ الْكَلَامِ لِالأَقْدَمِينَ فَخَالَفُوا الْكَثِيرَ مِنْهَا بِالْبَرَاهِينِ الَّتِي  
 أَدَلَّتْ إِلَى ذَلِكَ وَرُبَّمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْهَا مُقْتَبَسٌ مِنْ كَلَامِ الْفَلَسَفَةِ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ  
 وَالْإِلَهِيَّاتِ . فَلَمَّا سَبَرُوهَا بِمَعْيَارِ الْمَنْطِقِ رَدُّهُمْ إِلَى ذَلِكَ فِيهَا وَلَمْ يَعْتَقِدُوا بَطْلَانَ  
 الْمَدْلُولِ مِنْ بَطْلَانِ ذَلِيلِهِ كَمَا صَارَ إِلَيْهِ الْقَاضِي فَصَارَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ فِي  
 مُصْطَلِحِهِمْ مُبَايِنَةً لِلطَّرِيقَةِ الأُولَى وَتُسَمَّى طَرِيقَةُ الْمُتَأَخِّرِينَ وَرُبَّمَا أَدْخَلُوا فِيهَا  
 الرَّدَّ عَلَى الْفَلَسَفَةِ فِيمَا خَالَفُوا فِيهِ مِنَ الْعَقَائِدِ الإِيْمَانِيَّةِ وَجَعَلُوهُمْ مِنْ خُصُومِ الْعَقَائِدِ  
 لِتَنَاسُبِ الْكَثِيرِ مِنْ مَذَاهِبِ الْمُبْتَدِعَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ . وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي طَرِيقَةِ الْكَلَامِ  
 عَلَى هَذَا الْمَنْحَى الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ وَتَبِعَهُ الإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ وَجَمَاعَةٌ قَفَّوْا أَثَرَهُمْ  
 وَاعْتَمَدُوا تَقْلِيدَهُمْ ثُمَّ تَوَعَّلَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي مُخَالَطَةِ كُتُبِ الْفَلَسَفَةِ  
 وَالتَّبَسُّعِ عَلَيْهِمْ شَأْنِ الْمَوْضُوعِ فِي الْعِلْمَيْنِ فَحَسِبُوهُ فِيهِمَا وَاحِدًا مِنْ اشْتِبَاهِ الْمَسَائِلِ  
 فِيهِمَا . وَاعْلَمُ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ لَمَّا كَانُوا يَسْتَدِلُّونَ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِمْ بِالْكَائِنَاتِ  
 وَأَحْوَالِهَا عَلَى وُجُودِ الْبَارِيءِ وَصِفَاتِهِ وَهُوَ نَوْعٌ اسْتِدْلَالِيٌّ غَالِبًا . وَالْجِسْمُ الطَّبِيعِيُّ  
 الَّذِي يَنْظُرُ فِيهِ الْفَيْلَسُوفُ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ وَهُوَ بَعْضٌ مِنْ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ . إِلاَّ أَنَّ  
 نَظْرَهُ فِيهَا مُخَالَفٌ لِنَظْرِ الْمُتَكَلِّمِ وَهُوَ يَنْظُرُ فِي الْجِسْمِ مِنْ حَيْثُ يَتَحَرَّكُ وَيَسْكُنُ  
 وَالْمُتَكَلِّمُ يَنْظُرُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ يَدُلُّ عَلَى الْفَاعِلِ . وَكَذَا نَظَرُ الْفَيْلَسُوفِ فِي الإِلَهِيَّاتِ  
 إِنَّمَا هُوَ نَظَرٌ فِي الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ وَمَا يَقْتَضِيهِ لِذَاتِهِ وَنَظَرُ الْمُتَكَلِّمِ فِي الْوُجُودِ مِنْ  
 حَيْثُ إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْمَوْجِدِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَمَوْضُوعُ عِلْمِ الْكَلَامِ عِنْدَ أَهْلِهِ إِنَّمَا هُوَ  
 الْعَقَائِدُ الإِيْمَانِيَّةُ بَعْدَ فَرَضِهَا صَحِيحَةً مِنَ الشَّرْعِ مِنْ حَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهَا  
 بِالأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ فَتَرْفَعُ الْبِدْعَ وَتَزُولُ الشُّكُوكُ وَالشَّيْبَةُ<sup>(٢)</sup> عَنْ تِلْكَ الْعَقَائِدِ وَإِذَا تَأَمَّلْتَ

(١) وفي نسخة أخرى : علم .

(٢) وفي نسخة أخرى : الشبهة .

حَالِ الْفَنِّ فِي حُدُوثِهِ وَكَيْفَ تَدْرُجُ كَلَامُ النَّاسِ فِيهِ صَدْرًا بَعْدَ صَدْرٍ وَكُلُّهُمْ يَفْرَضُ  
 الْعَقَائِدَ صَحِيحَةً وَيَسْتَنْهَضُ الْحُجَجَ وَالْأَدْلَةَ عَلِمَتْ حِينَئِذٍ مَا قَرَّرْنَا لَكَ فِي مَوْضُوعِ  
 الْفَنِّ وَأَنَّهُ لَا يَعْدُوهُ . وَلَقَدْ اخْتَلَطَتِ الطَّرِيقَتَانِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَالنَّبَسَتْ  
 مَسَائِلَ الْكَلَامِ بِمَسَائِلِ الْفَلَسَفَةِ بِحَيْثُ لَا يَتَمَيَّزُ أَحَدُ الْفَنِّيْنِ مِنَ الْآخَرِ . وَلَا  
 يَخْضَلُ عَلَيْهِ طَالِبُهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ الْبَيْنِصَاوِي فِي الطُّوَالِجِ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ  
 عُلَمَاءِ الْعَجَمِ فِي جَمِيعِ تَالِيْفِهِمْ . إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ قَدْ يُعْنَى بِهَا بَعْضُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ  
 لِلإِطْلَاعِ عَلَى الْمَذَاهِبِ وَالإِغْرَاقِ فِي مَعْرِفَةِ الْحِجَاجِ لَوْفُورِ ذَلِكَ فِيهَا . وَأَمَّا مُحَادَاةُ  
 طَرِيقَةِ السَّلَفِ بِعَقَائِدِ عِلْمِ الْكَلَامِ فَإِنَّمَا هُوَ فِي الطَّرِيقَةِ الْقَدِيمَةِ لِلْمُتَكَلِّمِينَ وَأَصْلُهَا  
 كِتَابُ الإِرْشَادِ وَمَا حَذَا حَذْوَهُ . وَمَنْ أَرَادَ إِدْخَالَ الرَّدِّ عَلَى الْفَلَسَفَةِ فِي عَقَائِدِهِ فَعَلَيْهِ  
 يَكْتُبُ الْغَزَالِيَّ وَالْإِمَامَ ابْنَ الْخَطِيبِ فَإِنَّهَا وَإِنْ وَقَعَ فِيهَا مَخَالَفَةٌ لِلِإِصْطِلَاحِ الْقَدِيمِ  
 فَلَيْسَ فِيهَا مِنْ الإِخْتِلَاطِ فِي الْمَسَائِلِ وَالِالْتِبَاسِ فِي الْمَوْضُوعِ مَا فِي طَرِيقَةِ هَؤُلَاءِ  
 الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ الَّذِي هُوَ عِلْمُ  
 الْكَلَامِ غَيْرُ ضَرُورِيٍّ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ إِذِ الْمُلْحِدَةُ وَالْمُبْتَدِعَةُ قَدْ انْقَرَضُوا  
 وَالْأُئِمَّةُ . مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ كَفَوْنَا شَأْنَهُمْ فِيمَا كَتَبُوا وَدَوَّنُوا وَالْأَدْلَةُ الْعَقْلِيَّةُ إِنَّمَا اخْتَاجُوا  
 إِلَيْهَا حِينَ دَافَعُوا وَنَصَرُوا . وَأَمَّا الْآنَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا كَلَامُ تَنْزَةِ الْبَارِيءِ عَنْ كَثِيرٍ  
 مِنْهَا مَاتِهِ وَإِطْلَاقِهِ <sup>(١)</sup> وَلَقَدْ سُئِلَ الْجَنِيْدُ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ قَوْمٍ مَرَّ بِهِمْ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ  
 يَفِيضُونَ فِيهِ فَقَالَ : مَا هَؤُلَاءِ ؟ فَقِيلَ : قَوْمٌ يُنْزَهُونَ اللهُ بِالْأَدْلَةِ عَنْ صِفَاتِ  
 الْخُدُوثِ وَسِمَاتِ النَّقْصِ . فَقَالَ : « نَفِي الْعَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْبٌ »  
 لَكِنَّ فَائِدَتَهُ فِي أَحَادِ النَّاسِ وَطَلَبَةِ الْعِلْمِ فَائِدَةٌ مُعْتَبَرَةٌ إِذْ لَا يَحْسُنُ بِحَامِلِ السُّنَّةِ  
 الْجَهْلُ بِالْحُجَجِ النَّظَرِيَّةِ عَلَى عَقَائِدِهَا . وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .

## الفصل الحادي عشر

في أن عالم الحوادث الفعلية إنما يتم بالفكر<sup>(١)</sup>

إِغْلَمَ أَنَّ عَالَمَ الْكَائِنَاتِ يَشْتَمِلُ عَلَى ذَوَاتٍ مَحْضَةٍ ، كَالْعَنَاصِرِ وَأَثَارِهَا  
وَالْمَكُونَاتِ الثَّلَاثَةِ عَنْهَا ، الَّتِي هِيَ الْمَعْدِنُ وَالنَّبَاتُ وَالْحَيَوَانُ . وَهَذِهِ كُلُّهَا  
مُتَعَلِّقَاتِ الْقُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ وَعَلَى أفعالٍ صَادِرَةٍ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَاقِعَةٍ بِمَقْصُودِهَا ؛  
مُتَعَلِّقَةٌ بِالْقُدْرَةِ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَهَا عَلَيْهَا ؛ فَمِنْهَا مُنْتَظَمٌ مُرْتَّبٌ ، وَهِيَ الْأَفْعَالُ  
الْبَشَرِيَّةُ ؛ وَمِنْهَا غَيْرُ مُنْتَظَمٍ وَلَا مُرْتَّبٍ ؛ وَهِيَ أفعالُ الْحَيَوَانَاتِ غَيْرِ الْبَشَرِ . وَذَلِكَ  
الْفِكْرُ يَدْرِكُ التَّرْتِيبَ بَيْنَ الْحَوَادِثِ بِالطَّبِيعِ أَوْ بِالْوَضْعِ ؛ فَإِذَا قَصِدَ إِيجَادُ شَيْءٍ مِنْ  
الْأَشْيَاءِ ، فَلَأَجْلِ التَّرْتِيبِ بَيْنَ الْحَوَادِثِ لَا بُدَّ مِنَ التَّفَطُّنِ بِسَبَبِهِ أَوْ عِلَّتِهِ أَوْ  
شَرْطِهِ ، وَهِيَ عَلَى الْجُمْلَةِ مَبَادِيهِ ؛ إِذْ لَا يُوجَدُ إِلَّا ثَانِيًا عَنْهَا وَلَا يُمَكِّنُ إِثْفَاعُ  
الْمُتَقَدِّمِ مُتَأَخِّرًا وَلَا الْمُتَأَخِّرُ مُتَقَدِّمًا . وَذَلِكَ الْمَبْدَأُ قَدْ يَكُونُ لَهُ مَبْدَأٌ آخَرُ مِنْ تِلْكَ  
الْمَبَادِيءِ لَا يُوجَدُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا عَنْهُ ؛ وَقَدْ يَرْتَقِي ذَلِكَ أَوْ يَنْتَهِي . فَإِذَا انْتَهَى إِلَى  
آخِرِ الْمَبَادِيءِ فِي مَرْتَبَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ أَوْ أَزِيدَ ، وَشَرَعَ فِي الْعَمَلِ الَّذِي يُوجَدُ بِهِ ذَلِكَ  
الشَّيْءُ بَدَأَ بِالْمَبْدَأِ الْأَخِيرِ الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ الْفِكْرُ ؛ فَكَانَ أَوَّلَ عَمَلِهِ . ثُمَّ تَابَعَ  
مَا بَعْدَهُ إِلَى آخِرِ الْمُسَبَّبَاتِ الَّتِي كَانَتْ أَوَّلَ فِكْرَتِهِ . مَثَلًا ؛ لَوْ فَكَّرَ فِي إِيجَادِ سَقْفٍ  
يَكُونُ انْتَقَلَ بِذَهْنِهِ إِلَى الْحَائِطِ الَّذِي يَدْعُمُهُ ، ثُمَّ إِلَى الْأَسَاسِ الَّذِي يَقِفُ عَلَيْهِ  
الْحَائِطُ فَهُوَ آخِرُ الْفِكْرِ . ثُمَّ يَبْدَأُ فِي الْعَمَلِ بِالْأَسَاسِ ، ثُمَّ بِالْحَائِطِ ، ثُمَّ بِالسَّقْفِ ،  
وَهُوَ آخِرُ الْعَمَلِ .

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ ؛ ( أَوَّلُ الْعَمَلِ آخِرُ الْفِكْرَةِ ، وَأَوَّلُ الْفِكْرَةِ آخِرُ الْعَمَلِ ) ؛  
فَلَا يَتِمُّ فِعْلُ الْإِنْسَانِ فِي الْخَارِجِ إِلَّا بِالْفِكْرِ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَاتِ لِتَوْقُفِ بَعْضِهَا عَلَى

(١) هذا الفصل غير موجود في طبعة بولاق وبعض الطبعات الأخرى . نقلناه عن الطبعة الباريسية

ورددت بعد : « فصل في الفكر الإنساني » .

تحقيق



بِعَضٍ . ثُمَّ يَشْرَعُ فِي فِعْلِهَا . وَأَوَّلُ هَذَا الْفِكْرِ هُوَ الْمُسَبَّبُ الْأَخِيرُ ، وَهُوَ آخِرُهَا فِي الْعَمَلِ . وَأَوَّلُهَا فِي الْعَمَلِ هُوَ الْمُسَبَّبُ الْأَوَّلُ وَهُوَ آخِرُهَا فِي الْفِكْرِ . وَلِأَجْلِ الْعُشُورِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ يَحْصُلُ الْإِنْتِظَامُ فِي الْأَفْعَالِ الْبَشَرِيَّةِ .

وَأَمَّا الْأَفْعَالُ الْحَيَوَانِيَّةُ لِغَيْرِ الْبَشَرِ فَلَيْسَ فِيهَا انْتِظَامٌ لِعَدَمِ الْفِكْرِ الَّذِي يَعْتَرُ بِهِ الْفَاعِلُ عَلَى التَّرْتِيبِ فِيمَا يَفْعَلُ ، إِذِ الْحَيَوَانَاتُ إِنَّمَا تُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ وَمُدْرَكَاتِهَا مُتَفَرِّقَةً خَلِيَّةً مِنَ الرُّبُطِ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْفِكْرِ . وَلَمَّا كَانَتِ الْحَوَاسُّ الْمُعْتَبَرَةَ فِي عَالَمِ الْكَائِنَاتِ هِيَ الْمُنتَظِمَةُ ، وَغَيْرُ الْمُنتَظِمَةِ إِنَّمَا هِيَ تَبَعٌ لَهَا . أَنْدَرَجَتْ حِينَئِذٍ أَفْعَالُ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا ، فَكَانَتْ مُسَخَّرَةً لِلْبَشَرِ . وَاسْتَوْلَتْ أَفْعَالُ الْبَشَرِ عَلَى عَالَمِ الْحَوَادِثِ ، بِمَا فِيهِ ، فَكَانَ كُلُّهُ فِي طَاعَتِهِ وَتَسَخَّرَهُ . وَهَذَا مَعْنَى الْإِسْتِخْلَافِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً <sup>(١)</sup> » فَهَذَا الْفِكْرُ هُوَ الْخَاصَّةُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي تُمَيِّزُ بِهَا الْبَشَرَ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ . وَعَلَى قَدْرِ حُصُولِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ فِي الْفِكْرِ مُرْتَبَةً تَكُونُ إِنْسَانِيَّتُهُ . فَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَتَوَالَى لَهُ السَّبَبِيَّةُ فِي مُرْتَبَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَجَاوَزُهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَهِي إِلَى خَمْسٍ أَوْ سِتٍّ فَتَكُونُ إِنْسَانِيَّتُهُ أَعْلَى . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِلَاعِبِ الشُّطْرَنْجِ ؛ فَإِنَّ فِي اللَّاعِبِينَ مَنْ يَتَصَوَّرُ الثَّلَاثَ حَرَكَاتٍ وَالْخَمْسَ الَّذِي تَرْتِيبُهَا وَضَعِيُّ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْضِرُ عَنْ ذَلِكَ لِقُصُورِ ذَهْنِهِ . وَإِنْ كَانَ هَذَا الْمِثَالُ غَيْرَ مُطَابِقٍ ، لِأَنَّ لَعِبَ الشُّطْرَنْجِ بِالْمَلَكَةِ ، وَمَعْرِفَةَ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ بِالطَّبِيعِ ، لَكِنَّهُ مِثَالٌ يَحْتَدِي بِهِ النَّاطِرُ فِي تَعَقُّلِ مَا يُوْرَدُ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوَاعِدِ . وَاللَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَفَضَّلَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا .

(١) من آية (٣٠) من سورة البقرة .

## الفصل الثاني عشر

### في العقل التجريبي وكيفية حدوثه<sup>(١)</sup>

إِنَّكَ تَسْمَعُ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ قَوْلَهُمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ مَدْنِيٌّ الطَّبِيعِ . يَذْكُرُونَهُ فِي إِثْبَاتِ النُّبُوتِ وَغَيْرِهَا . وَالنِّسْبَةُ فِيهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَهِيَ عِنْدَهُمْ كِنَايَةٌ عَنِ الْاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ . وَمَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ ، أَنَّهُ لَا تُمْكُنُ حَيَاةَ الْمُنْفَرِدِ مِنَ الْبَشَرِ ، وَلَا يَتِمُّ وُجُودُهُ إِلَّا مَعَ أَنْبَاءِ جَنْسِهِ . وَذَلِكَ لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ اسْتِكْمَالِ وُجُودِهِ وَحَيَاتِهِ ، فَهُوَ مُخْتَاجٌ إِلَى الْمُعَاوَنَةِ فِي جَمِيعِ حَاجَاتِهِ أَبَدًا بِطَبِيعِهِ . وَتِلْكَ الْمُعَاوَنَةُ لَا بَدَّ فِيهَا مِنَ الْمَفَاوِضَةِ أَوْلًا ، ثُمَّ الْمُشَارَكَةِ وَمَا بَعْدَهَا . وَرُبَّمَا تَفْضِي الْمُعَامَلَةَ عِنْدَ اتِّحَادِ الْأَعْرَاضِ إِلَى الْمُنَازَعَةِ وَالْمُشَاجَرَةِ فَتَنْشَأُ الْمُنَافَرَةُ وَالْمُؤَالَفَةُ ، وَالصَّدَاقَةُ وَالْعِدَاوَةُ . وَيَبْوُلُ إِلَى الْحَرْبِ وَالسَّلْمِ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ . وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى أَيْ وَجْهِ اتَّفَقَ . كَمَا بَيْنَ الْهَمَلِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ؛ بَلْ لِلْبَشَرِ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِمْ مِنْ انْتِظَامِ الْأَفْعَالِ وَتَرْتِيبِهَا بِالْفِكْرِ ، كَمَا تَقَدَّمَ . جَعَلَ مُنْتَظِمًا فِيهِمْ ، وَيَسَّرَهُمْ لِإِقَاعِهِ عَلَى وُجُوهٍ سِيَاسِيَّةٍ وَقَوَانِينٍ حِكْمِيَّةٍ . يُنَكِبُونَ فِيهَا عَنِ الْمَفَاسِدِ إِلَى الْمَصَالِحِ ، وَعَنِ الْحَسَنِ إِلَى الْقَبِيحِ ، بَعْدَ أَنْ يُمَيِّزُوا الْقَبَائِحَ وَالْمَفْسَدَةَ ، بِمَا يَنْشَأُ عَنِ الْفِعْلِ مِنْ ذَلِكَ عَنِ تَجْرِبَةٍ صَحِيحَةٍ ؛ وَعَوَائِدَ مَعْرُوفَةٍ بَيْنَهُمْ ؛ فَيَفَارِقُونَ الْهَمَلَ مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَتَظْهَرُ عَلَيْهِمْ نَتِيجَةُ الْفِكْرِ فِي انْتِظَامِ الْأَفْعَالِ وَبَعْدَهَا عَنِ الْمَفَاسِدِ .

هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا ذَلِكَ لَا تَبْعُدُ عَنِ الْحَسَنِ كُلِّ الْبُعْدِ وَلَا يَتَعَمَّقُ فِيهَا النَّاطِرُ ؛ بَلْ كُلُّهَا تَذَرُكُ بِالتَّجْرِبَةِ وَبِهَا يُسْتَفَادُ ، لِأَنَّهَا مَعَانٍ جَزْئِيَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْمَحْسُوسَاتِ وَصِدْقِهَا وَكَذِبِهَا ، يَظْهَرُ قَرِيبًا فِي الْوَاقِعِ ؛ فَيَسْتَفِيدُ طَالِبُهَا حُصُولَ الْعِلْمِ بِهَا مِنْ ذَلِكَ . وَيَسْتَفِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَشَرِ الْقَدْرَ الَّذِي يُسَّرُّ لَهُ مِنْهَا مُقْتَبِصًا لَهُ بِالتَّجْرِبَةِ بَيْنَ الْوَاقِعِ فِي مُعَامَلَةِ أَنْبَاءِ جَنْسِهِ ، حَتَّى يَتَّعِنَ لَهُ مَا يَجِبُ

(١) نقل هذا الفصل أيضا عن الطبعة الباريسية .

وَيَنْبَغِي . فِعْلاً وَتَرْكاً . وَتَحْصُلُ فِي مَلَابَسَةِ الْمَلَكَةِ فِي مُعَامَلَةِ أَوْلَادِ جِنْسِهِ . وَمَنْ تَشِعَّ ذَلِكَ سَائِرَ عُمُرِهِ حَصَلَ لَهُ الْعُتُورُ عَلَى كُلِّ قَضِيَّةٍ . وَلَا بُدَّ بِمَا تَسَعُّهُ التَّجْرِبَةُ مِنَ الزَّمَنِ . وَقَدْ يُسَهِّلُ اللَّهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْبَشَرِ تَحْصِيلَ ذَلِكَ فِي أَقْرَبِ زَمَنِ التَّجْرِبَةِ ، إِذْ قَلَدَ فِيهَا الْآبَاءَ وَالْمَشِيخَةَ وَالْأَكَابِرَ ، وَلَقِّنَ عَنْهُمْ وَوَعَى تَعْلِيمَهُمْ ؛ فَيَسْتَغْنِي عَنْ طَوْلِ الْمَعَانِي فِي تَتَبُعِ الْوَقَائِعِ وَأَقْتِنَاصِ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ بَيْنِهَا . وَمَنْ فَقَدَ الْعِلْمَ فِي ذَلِكَ وَالتَّقْلِيدَ فِيهِ أَوْ أَعْرَضَ عَنْ حُسْنِ اسْتِمَاعِهِ وَاتِّبَاعِهِ ، طَالَ عَنَاؤُهُ فِي التَّادِيْبِ بِذَلِكَ ؛ فَيَجْرِي فِي غَيْرِ مَالُوفٍ وَيُدْرِكُهَا عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ ؛ فَتَوَجَّدَ آدَابُهُ وَمُعَامَلَاتُهُ سِيئَةً الْأَوْضَاعِ بَادِيَةً الْخَلَلِ . وَيَفْسُدُ حَالُهُ فِي مَعَاشِهِ بَيْنَ أَوْلَادِ جِنْسِهِ . وَهَذَا مَعْنَى الْقَوْلِ الْمَشْهُورِ : « مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ وَالِدُهُ أَدَّبَهُ الزَّمَانُ » . أَيُّ مَنْ لَمْ يَلْقَنَّ الْآدَابَ فِي مُعَامَلَةِ الْبَشَرِ مِنَ الْوَالِدِيَّةِ - وَفِي مَعْنَاهُمَا الْمَشِيخَةُ وَالْأَكَابِرُ - وَيَتَعَلَّمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، رَجَعَ إِلَى تَعَلُّمِهِ بِالطَّبِيعِ مِنَ الْوَقَائِعِ عَلَى تَوَالِي الْأَيَّامِ ؛ فَيَكُونُ الزَّمَانُ مُعَلِّمَهُ وَمُؤَدِّبَهُ لِضُرُورَةِ ذَلِكَ بِضُرُورَةِ الْمَعَاوَنَةِ الَّتِي فِي طَبِيعِهِ .

وَهَذَا هُوَ الْعَقْلُ التَّجْرِبِيُّ ، وَهُوَ يَحْصُلُ بَعْدَ الْعَقْلِ التَّمْيِيزِيِّ الَّذِي تَقَعُ بِهِ الْأَفْعَالُ كَمَا بَيَّنَّاهُ . وَبَعْدَ هَذَيْنِ مَرْتَبَةِ الْعَقْلِ النَّظْرِيِّ الَّذِي تَكْفُلُ بِتَفْسِيرِهِ أَهْلُ الْعُلُومِ ؛ فَلَا يَخْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرِهِ فِي هَذَا الْكِتَابِ . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ .

## الفصل الثالث عشر

### في علوم البشر وعلوم الملائكة

إِنَّا نَشْهَدُ فِي أَنْفُسِنَا بِالْوُجُودِ الصَّحِيحِ وَجُودَ ثَلَاثَةِ عَوَالِمَ : أَوْلَاهَا : عَالَمُ الْحِسِّ ، وَنَعْتَبِرُهُ بِمَدَارِكِ الْحِسِّ الَّذِي شَارَكْنَا فِيهِ الْحَيَوَانَاتِ بِالْإِدْرَاكِ ، ثُمَّ نَعْتَبِرُ الْفِكْرَ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ الْبَشَرُ فَنَعْلَمُ مِنْهُ وَجُودَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ عِلْماً ضَرْوَرِيّاً بِمَا بَيْنَ جَنْبَيْنَا مِنْ مَدَارِكِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي هِيَ فَوْقَ مَدَارِكِ الْحِسِّ ؛ فَتَرَاهُ عَالِماً آخَرَ فَوْقَ

عَالَمِ الْحِسِّ . ثُمَّ نَسْتَدِلُّ عَلَى عَالَمِ ثَالِثٍ فَوْقَنَا بِمَا نَجِدُ فِيْنَا مِنْ آثَارِهِ الَّتِي تُلْقَى فِي  
أَفْعِدَتِنَا كَالْإِرَادَاتِ وَالْوَجْهَاتِ ، نَحْوَ الْحَرَكَاتِ الْفِعْلِيَّةِ ، فَنَعْلَمُ أَنَّ هُنَاكَ فَاعِلًا  
يَبْعَثُنَا عَلَيْهَا مِنْ عَالَمٍ فَوْقَ عَالَمِنَا وَهُوَ عَالَمُ الْأَرْوَاحِ وَالْمَلَائِكَةِ . وَفِيهِ ذَوَاتٌ مُدْرَكَةٌ  
لِوُجُودِ آثَارِهَا فِيْنَا مَعَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا مِنَ الْمُغَايِرَةِ . وَرُبَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ  
الْأَعْلَى الرُّوحَانِيِّ وَذَوَاتِهِ بِالرُّؤْيَا وَمَا نَجِدُ فِي النَّوْمِ ، وَيُلْقَى إِلَيْنَا فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ  
الَّتِي نَحْنُ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا فِي الْيَقِظَةِ ، وَتَطَابِقُ الْوَاقِعِ فِي الصَّحِيحَةِ مِنْهَا ، فَنَعْلَمُ أَنَّهَا  
حَقٌّ وَمِنْ عَالَمِ الْحَقِّ . وَأَمَّا أَضْغَاثُ الْأَحْلَامِ فَصُورٌ خَيَالِيَّةٌ يَخْزِنُهَا الْإِدْرَاكُ فِي  
الْبَاطِنِ وَيَجُولُ فِيهَا الْفِكْرُ بَعْدَ الْغَيْبَةِ عَنِ الْحِسِّ . وَلَا نَجِدُ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ  
الرُّوحَانِيِّ بُرْهَانًا أَوْضَحَ مِنْ هَذَا ، فَنَعْلَمُهُ كَذَلِكَ عَلَى الْجُمْلَةِ وَلَا نُدْرِكُ لَهُ تَفْصِيلًا .

وَمَا يَزْعُمُهُ الْحُكَمَاءُ الْإِلَهِيُّونَ فِي تَفْصِيلِ ذَوَاتِهِ وَتَرْتِيبِهَا ، الْمُسَمَّاةِ عِنْدَهُمْ  
بِالْمَعْقُولِ ، فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ يَبْقِيَنِي لِاخْتِلَالِ شَرْطِ الْبُرْهَانِ النَّظَرِيِّ فِيهِ ، كَمَا  
هُوَ مُقَرَّرٌ فِي كَلَامِهِمْ فِي الْمَنْطِقِ . لِأَنَّ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ تَكُونَ قَضَايَاهُ أَوْلِيَّةً ذَاتِيَّةً .  
وَهَذِهِ الذَّوَاتُ الرُّوحَانِيَّةُ مَجْهُولَةٌ الذَّاتِيَّاتِ ، فَلَا سَبِيلَ لِلْبُرْهَانِ فِيهَا . وَلَا يَبْقَى لَنَا  
مُدْرِكٌ فِي تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْعَوَالِمِ إِلَّا مَا نَقْتَسِبُهُ مِنَ الشَّرْعِيَّاتِ الَّتِي يُوضِّحُهَا الْإِيمَانُ  
وَيُحْكِمُهَا . وَأَعْقَدُ هَذِهِ الْعَوَالِمِ فِي مُدْرِكِنَا عَالَمِ الْبَشَرِ ؛ لِأَنَّهُ وَجْدَانِيٌّ مَشْهُودٌ فِي  
مَدَارِكِنَا الْجِسْمَانِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ . وَيَشْتَرِكُ فِي عَالَمِ الْحِسِّ مَعَ الْحَيَوَانَاتِ وَفِي عَالَمِ  
الْعَقْلِ وَالْأَرْوَاحِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ ذَوَاتُهُمْ مِنْ جِنْسِ ذَوَاتِهِ ، وَهِيَ ذَوَاتٌ مُجَرَّدَةٌ عَنِ  
الْجِسْمَانِيَّةِ وَالْمَادَّةِ ، وَعَقْلٌ صَرَفٌ يَتَّحِدُ فِيهِ الْعَقْلُ وَالْعَاقِلُ وَالْمَعْقُولُ ، وَكَأَنَّهُ ذَاتٌ  
حَقِيقَتُهَا الْإِدْرَاكُ وَالْعَقْلُ ، فَعَلُومُهُمْ حَاصِلَةٌ دَائِمًا مُطَابِقَةٌ بِالطَّبِيعِ لِمَعْلُومَاتِهِمْ  
لَا يَقَعُ فِيهَا خَلَلٌ الْبَتَّةُ .

وَعَلِمُ الْبَشَرِ هُوَ حُصُولُ صُورَةِ الْمَعْلُومِ فِي ذَوَاتِهِمْ بَعْدَ أَنْ لَا تَكُونَ حَاصِلَةً . فَهُوَ  
كُلُّهُ مَكْتَسَبٌ ، وَالذَّاتُ الَّتِي يَحْضُلُ فِيهَا صُورُ الْمَعْلُومَاتِ وَهِيَ النَّفْسُ مَادَّةٌ  
هَيُولَانِيَّةٌ تَلْبَسُ صُورَ الْوُجُودِ بِصُورِ الْمَعْلُومَاتِ الْحَاصِلَةِ فِيهَا شَيْئًا شَيْئًا ، حَتَّى

تَسْتَكْمِلُ ، وَيَصِحُّ وُجُودُهَا بِالْمَوْتِ فِي مَادَّتِهَا وَصُورَتِهَا . فَالْمَطْلُوبَاتُ فِيهَا مُتْرَدِّدَةٌ  
بَيْنَ النَّفْسِ وَالْإِثْبَاتِ دَائِمًا ، يَطْلُبُ أَحَدُهُمَا بِالْوَسْطِ الرَّابِطِ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ . فَإِذَا  
حَصَلَ وَصَارَ مَعْلُومًا افْتَقَرَ إِلَى تَيَانِ الْمُطَابَقَةِ ، وَرُبَّمَا أَوْضَحَهَا الْبُرْهَانُ الصِّنَاعِيُّ ،  
لَكِنَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ . وَلَيْسَ كَالْمُعَايِنَةِ الَّتِي فِي عُلُومِ الْمَلَائِكَةِ . وَقَدْ يَنْكَشِفُ  
ذَلِكَ الْحِجَابَ فَيَصِيرُ إِلَى الْمُطَابَقَةِ بِالْعَيَانِ الْإِذْرَاكِيِّ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْبَشَرَ جَاهِلٌ  
بِالطَّبِيعِ لِلتَّرَدُّدِ فِي عِلْمِهِ ، وَعَالِمٌ بِالْكَسْبِ وَالصِّنَاعَةِ لِتَحْصِيلِهِ الْمَطْلُوبَ بِفِكْرَةٍ  
الشَّرُوطِ الصِّنَاعِيَّةِ . وَكَشَفَ الْحِجَابَ الَّذِي أَسْرَنَّا إِلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ بِالرِّيَاضَةِ بِالْإِذْكَارِ  
الَّتِي أَفْضَلُهَا صَلَاةٌ تَنْتَهِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَبِالتَّنَزُّهِ عَنِ الْمُتَنَاوَلَاتِ الْمُهْمَمَةِ  
وَرَأْسُهَا الصَّوْمُ ، وَبِالْوُجُوهِ إِلَى اللَّهِ بِجَمِيعِ قَوَاهِ . وَاللَّهُ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .

## الفصل الرابع عشر

### في علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إِنَّا نَجِدُ هَذَا الصَّنْفَ مِنَ الْبَشَرِ تَعْتَرِيهِمْ حَالَةٌ إلهِيَّةٌ خَارِجَةٌ عَنِ مَنَازِعِ الْبَشَرِ  
وَأَحْوَالِهِمْ فَتَغْلِبُ الْوُجْهَةَ الرَّبَّانِيَّةَ فِيهِمْ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ فِي الْقَوَى الْإِذْرَاكِيَّةِ وَالنُّزُوعِيَّةِ  
مِنَ الشَّهْوَةِ وَالغَضَبِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ الْبَدَنِيَّةِ ، فَتَجِدُهُمْ مُتَّنَزِّهِينَ عَنِ الْأَحْوَالِ  
الرَّبَّانِيَّةِ ، مِنَ الْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ لِلَّهِ بِمَا يَقْتَضِي مَعْرِفَتُهُمْ بِهِ ، مُخْبِرِينَ عَنْهُ بِمَا  
يُوحَى إِلَيْهِمْ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ ، مِنْ هِدَايَةِ الْأُمَّةِ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ وَسُنَنِ مَعْهُودٍ مِنْهُمْ  
لَا يَتَبَدَّلُ فِيهِمْ كَأَنَّهُ جِبَلَةٌ فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا الْكَلَامُ فِي الْوَحْيِ أَوَّلَ  
الْكِتَابِ فِي فَضْلِ الْمُتْرَكِّينَ لِلْغَيْبِ . وَبَيَّنَّا هُنَاكَ أَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ فِي عَوَالِمِهِ  
الْبَسِيطَةِ وَالْمُرَكَّبَةِ عَلَى تَرْكِيبِ طَبِيعِيٍّ مِنْ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلِهَا مُتَّصِلَةً كُلُّهَا اتِّصَالًا  
لَا يَنْحَرِمُ . وَأَنَّ الذَّوَاتِ الَّتِي فِي آخِرِ كُلِّ أَفْقٍ مِنَ الْعَوَالِمِ مُسْتَعِدَّةٌ لِأَنَّ تَنْقَلِبَ إِلَى  
الذَّاتِ الَّتِي تَجَاوَزُهَا مِنَ الْأَسْفَلِ وَالْأَعْلَى ، اسْتِعْدَادًا طَبِيعِيًّا ، كَمَا فِي الْعُنَاصِرِ

الْجِسْمَانِيَّةِ الْبَسِيطَةِ . وَكَمَا فِي النَّخْلِ وَالْكَرْمِ مِنْ آخِرِ أَفْقِ النَّبَاتِ مَعَ الْحَلْزُونِ  
وَالصَّدْفِ مِنْ أَفْقِ الْحَيَوَانِ وَكَمَا فِي الْقِرْدَةِ الَّتِي اسْتَجْمَعَ فِيهَا الْكَيْسُ وَالْإِذْرَاكُ مَعَ  
الْإِنْسَانِ صَاحِبِ الْفِكْرِ وَالرُّوِيَّةِ . وَهَذَا الْإِسْتِعْدَادُ الَّذِي فِي جَانِبَيْ كُلِّ أَفْقٍ مِنْ  
الْعَوَالِمِ هُوَ مَعْنَى الْإِتِّصَالِ فِيهَا .

وَفَوْقَ الْعَالَمِ الْبَشَرِيِّ عَالَمٌ رُوحَانِيٌّ . شَهِدْتُ لَنَا بِهِ الْآثَارَ الَّتِي فِيْنَا مِنْهُ ، بِمَا  
يُعْطِينَا مِنْ قُوَى الْإِذْرَاكِ وَالْإِرَادَةِ فَذَوَاتُ الْعِلْمِ الْعَالَمِ إِذْرَاكٌ صَرِفٌ وَتَعَقُّلٌ مَخْصُصٌ ،  
وَهُوَ عَالَمٌ الْمَلَائِكَةِ ؛ فَوَجِبَ مِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ اسْتِعْدَادٌ  
لِلْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ . لِتَصِيرَ بِالْفِعْلِ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ وَقْتًا مِنْ  
الْأَوْقَاتِ . وَفِي لَمَحَةٍ مِنَ اللَّمَحَاتِ . ثُمَّ تَرَاجَعُ بَشَرِيَّتَهَا وَقَدْ تَلَقَّتْ فِي عَالَمِ الْمَلَائِكَةِ  
مَا كَلَّفَتْ بِتَبْلِيغِهِ إِلَى أُنْبَاءِ جِنْسِهَا مِنَ الْبَشَرِ . وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْوَحْيِ وَخَطَابِ  
الْمَلَائِكَةِ . وَالْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ مَفْطُورُونَ عَلَيْهِ ، كَأَنَّهُ جِبِلَّةٌ لَهُمْ وَيَعَالِجُونَ فِي ذَلِكَ  
الْإِنْسِلَاحِ مِنَ الشَّدَّةِ وَالْعَطِيطِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُمْ . وَعُلُومُهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ عِلْمٌ  
شَهَادَةٌ وَعَيَانٌ ، لَا يُلْحَقُهُ الْخَطَأُ وَالزَّلَلُ ، وَلَا يَقَعُ فِيهِ الْعَلَطُ وَالْوَهْمُ ، بَلِ الْمَطَابَقَةُ  
فِيهِ ذَاتِيَّةٌ لَزْوَالِ حِجَابِ الْعَيْبِ وَحُصُولِ الشَّهَادَةِ الْوَاضِحَةِ ، عِنْدَ مَفَارِقَةِ هَذِهِ الْحَالَةِ  
إِلَى الْبَشَرِيَّةِ ، لَا يُفَارِقُ عِلْمَهُمُ الْوُضُوحَ ، اسْتِضْحَاحًا لَهُ مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ الْأُولَى ، وَلَمَّا  
هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الذِّكَاةِ الْمَفْضِي بِهَمِّ إِلَيْهَا . يَتَرَدَّدُ ذَلِكَ فِيهِمْ دَائِمًا إِلَى أَنْ تَكْمَلَ هِدَايَةُ  
الْأُمَّةِ الَّتِي يُعْثُوا لَهَا ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا  
إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا » . فَافْهَمْ ذَلِكَ وَرَاجِعْ مَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ  
أَوَّلَ الْكِتَابِ ، فِي أَصْنَافِ الْمُدْرِكِينَ لِلْعَيْبِ ، يَتَّضِحُ لَكَ شَرْحُهُ وَبَيَانُهُ . فَقَدْ  
بَسَطْنَاهُ هُنَالِكَ بَسْطًا شَافِيًا . وَاللَّهُ الْمَوْفُوقُ .

## الفصل الخامس عشر

في أن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب

قَدْ بَيَّنَّا أَوَّلَ هَذِهِ الْفُصُولِ أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ جِنْسِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَيَّزَهُ عَنْهَا بِالْفِكْرِ الَّذِي جَعَلَ لَهُ ، يُوقِعُ بِهِ أَفْعَالَهُ عَلَى انْتِظَامٍ وَهُوَ الْعَقْلُ التَّمْيِيزِيُّ أَوْ يَقْتَضِصُ بِهِ الْعِلْمَ بِالْآرَاءِ وَالْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ مِنْ أُنْبَاءِ جِنْسِهِ ، وَهُوَ الْعَقْلُ التَّجْرِبِيُّ ؛ أَوْ يَحْضُلُ بِهِ فِي تَصَوُّرِ الْمَوْجُودَاتِ غَائِبًا وَشَاهِدًا ، عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْعَقْلُ النَّظْرِيُّ . وَهَذَا الْفِكْرُ إِنَّمَا يَحْضُلُ لَهُ بَعْدَ كَمَالِ الْحَيَوَانِيَّةِ فِيهِ ، وَيَبْدَأُ مِنَ التَّمْيِيزِ ؛ فَهُوَ قَبْلَ التَّمْيِيزِ خُلُوٌّ مِنَ الْعِلْمِ بِالْجُمْلَةِ ، مَعْدُودٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ، لِأِحْقَ بِمَبْدِئِهِ فِي التَّكْوِينِ ، مِنَ النَّطْفَةِ وَالْعَلَقَةِ وَالْمُضْغَةِ . وَمَا حَصَلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ مَدَارِكِ الْحِسِّ وَالْأَفِيدَةِ الَّتِي هِيَ الْفِكْرُ . قَالَ تَعَالَى فِي الْإِمْتِنَانِ عَلَيْنَا ، « وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفِيدَةَ » فَهُوَ فِي الْحَالَةِ الْأُولَى قَبْلَ التَّمْيِيزِ هَيُولًا فَقَطْ ، لِجَهْلِهِ بِجَمِيعِ الْمَعَارِفِ . ثُمَّ تَسْتَكْمِلُ صُورَتَهُ بِأَلْعِ الَّذِي يَكْتَسِبُهُ بِآلَاتِهِ ، فَكَمَلَ ذَاتَهُ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي وُجُودِهَا . وَانظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى مَبْدَأُ الْوَحْيِ عَلَى نَبِيِّهِ « إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » أَيُّ أُكْسَبَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَكُنْ حَاصِلًا لَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَقَةً وَمُضْغَةً فَقَدْ كَشَفَتْ لَنَا طَبِيعَتَهُ وَذَاتَهُ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ الذَّاتِيِّ وَالْعِلْمِ الْكَسْبِيِّ وَأَشَارَتْ إِلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَقَرَّرُ فِيهِ الْإِمْتِنَانُ عَلَيْهِ بِأَوَّلِ مَرَاتِبِ وُجُودِهِ ، وَهِيَ الْإِنْسَانِيَّةُ . وَحَالَاتُهَا الْفِطْرِيَّةُ وَالْكَسْبِيَّةُ فِي أَوَّلِ التَّنْزِيلِ وَمَبْدَأُ الْوَحْيِ . وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

## الفصل السادس عشر

في كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة

وما حدث لأجل ذلك من طوائف السنية والمبتدعة في الاعتقادات

إِغْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ إِلَيْنَا نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ يَدْعُونَا إِلَى النَّجَاةِ وَالْفَوْزِ  
بِالنَّعِيمِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ الْكَرِيمَ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ ، يُخَاطِبُنَا فِيهِ  
بِالتَّكْلِيفِ الْمُفْضِيَةِ بِنَا إِلَى ذَلِكَ . وَكَانَ فِي خِلَالِ هَذَا الْخِطَابِ ، وَمِنْ ضَرُورَاتِهِ ،  
ذِكْرُ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَأَسْمَائِهِ ، لِيَعْرِفُنَا بِذَاتِهِ ، وَذِكْرُ الرُّوحِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِنَا ؛ وَذِكْرُ  
الْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ ، الْوَسَائِطِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُسُلِهِ إِلَيْنَا . وَذَكَرْنَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَإِنذَارَاتِهِ  
وَلَمْ يُعَيِّنْ لَنَا الْوَقْتَ فِي شَيْءٍ مِنْهُ . وَثَبَّتَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حُرُوفًا مِنْ الْهَجَاءِ  
مُقْطَعَةً فِي أَوَائِلِ بَعْضِ سُورِهِ ، لَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى فَهْمِ الْمُرَادِ بِهَا . وَسَمَّى هَذِهِ الْأَنْوَاعَ  
كُلَّهَا مِنَ الْكِتَابِ مُتَشَابِهًا . وَذَمَّ عَلَى اتِّبَاعِهَا فَقَالَ تَعَالَى : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ  
الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرَى مُتَشَابِهَاتٌ . فَأَمَّا الَّذِينَ فِي  
قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا  
اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو  
الْأَلْبَابِ <sup>(١)</sup> » وَحَمَلَ الْعُلَمَاءُ مِنْ سَلَفِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى أَنَّ  
الْمُحْكَمَاتِ هِيَ الْمُبَيِّنَاتُ الثَّابِتَةُ الْأَحْكَامَ . وَلِذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ فِي اصْطِلَاحِهِمْ :  
الْمُحْكَمُ الْمُتَّضِحُّ الْمَعْنَى . وَأَمَّا الْمُتَشَابِهَاتُ فَلَهُمْ فِيهَا عِبَارَاتٌ . فَقِيلَ هِيَ الَّتِي  
تَفْتَقِرُ إِلَى نَظَرٍ وَتَفْسِيرٍ يُصَحِّحُ مَعْنَاهَا ، لِتَعَارُضِهَا مَعَ آيَةٍ أُخْرَى أَوْ مَعَ الْعَقْلِ ،  
فَتَحْفَى دَلَالَتُهَا وَتَشْتَبِهُ . وَعَلَى هَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « الْمُتَشَابِهُ يُؤْمَنُ بِهِ وَلَا يُعْمَلُ  
بِهِ » وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعَكْرَمَةُ : « كُلَّمَا سَوَى آيَاتِ الْأَحْكَامِ وَالْقَصَصِ مُتَشَابِهًا »

(١) الآية من سورة آل عمران .



وَعَلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ وَإِمَامُ الْحَرَمَيْنِ . وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَالشَّعْبِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ : « الْمُتَشَابِهُ ، مَا لَمْ يَكُنْ سَبِيلًا إِلَى عِلْمِهِ ، كَشُرُوطِ السَّاعَةِ وَأَوْقَاتِ الْإِنذَارَاتِ وَحُرُوفِ الْهَجَاءِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ ، وَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ « هَذِهِ أُمُّ الْكِتَابِ » أَيْ مُعْظَمُهُ وَعَالِبُهُ وَالْمُتَشَابِهُ أَقْلُهُ ، وَقَدْ يَرُدُّ إِلَى الْمُحْكَمِ . ثُمَّ ذَمُّ الْمُتَّبِعِينَ لِلْمُتَشَابِهِ بِالتَّأْوِيلِ أَوْ بِحَمْلِهَا عَلَى مَعَانٍ لَا تُفْهَمُ مِنْهَا فِي لِسَانِ الْعَرَبِ الَّذِي حُوطِبْنَا بِهِ . وَسَمَّاهُمْ أَهْلَ زَيْغٍ ، أَيْ مِيلٍ عَنِ الْحَقِّ مِنَ الْكُفَّارِ وَالزَّانِدِ قَةً وَجَهْلَةِ أَهْلِ الْبِدْعِ . وَأَنْ فَعَلَهُمْ ذَلِكَ قَصْدُ الْفِتْنَةِ الَّتِي هِيَ الشَّرْكَ أَوْ اللَّبْسُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَوْ قَصْدًا لِتَأْوِيلِهَا بِمَا يَشْتَهُونَهُ فَيَقْتَدُونَ بِهِ فِي بَدْعَتِهِمْ .

ثُمَّ أُخْبِرَ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ اسْتَأْثَرَ بِتَأْوِيلِهَا وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ فَقَالَ : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . ثُمَّ أَتْنِي عَلَى الْعُلَمَاءِ بِالْإِيمَانِ بِهَا فَقَطُّ . فَقَالَ : وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ أَمْنًا بِهِ . وَلِهَذَا جُعِلَ السَّلَفُ وَالرَّاسِخُونَ مُسْتَأْنَفًا ، وَرَجَّحُوهُ عَلَى الْعَطْفِ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْغَيْبِ أُبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ وَمَعَ عَطْفِهِ إِنَّمَا يَكُونُ إِيمَانًا بِالشَّاهِدِ ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ حِينَئِذٍ فَلَا يَكُونُ غَيْبًا . وَيَعْضُدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ : « كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا » وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّأْوِيلَ فِيهَا غَيْرُ مَعْلُومٍ لِلْبَشَرِ . إِنَّ الْأَلْفَاظَ اللَّغَوِيَّةَ إِنَّمَا يُفْهَمُ مِنْهَا الْمَعَانِي الَّتِي وَضَعَهَا الْعَرَبُ لَهَا ، فَإِذَا اسْتَحَالَ إِسْنَادُ الْخَبَرِ إِلَى مُخْبِرٍ عَنْهُ جَهْلْنَا مَدْلُولِ الْكَلَامِ حِينَئِذٍ ؛ وَإِنْ جَاءَنَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَوْضًا عِلْمُهُ إِلَيْهِ وَلَا نُشْغَلُ أَنْفُسَنَا بِمَدْلُولِ نَلْتِمِسُهُ ؛ فَلَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى ذَلِكَ . وَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « إِذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي الْقُرْآنِ ، فَهَمُّ الَّذِينَ عَنِ اللَّهِ » ، فَاحْذَرُوهُمْ . هَذَا مَذْهَبُ السَّلَفِ فِي الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ . وَجَاءَ فِي السُّنَّةِ الْأَفْظَاءُ مِثْلُ ذَلِكَ مُحْمَلًا عِنْدَهُمْ مُحْمَلُ الْآيَاتِ لِأَنَّ الْمَنْبِعَ وَاحِدٌ .

وَإِذَا تَقَرَّرَتْ أَصْنَافُ الْمُتَشَابِهَاتِ عَلَى مَا قُلْنَا ، فَلَنَرْجِعْ إِلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهَا . فَأَمَّا مَا يَرْجِعُ مِنْهَا عَلَى مَا ذَكَرُوهُ إِلَى السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا وَأَوْقَاتِ الْإِنذَارَاتِ وَعَدَدِ الزَّيْبَانِيَّةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ ، فَلَيْسَ هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرُدَّ فِيهِ

لَفْظٍ مُجْمَلٍ وَلَا غَيْرُهُ وَإِنَّمَا هِيَ أَرْمَنَةٌ لِحَادِثَاتِ اسْتَأْثَرِ اللَّهِ يَعْلَمُهَا بِنَصِّهِ <sup>(١)</sup> فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ . وَقَالَ : « إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ » . وَالْعَجَبُ مِمَّنْ عَدَّهَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ . وَأَمَّا الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّورِ فَحَقِيقَتُهَا حُرُوفُ الْهَجَاءِ وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ تَكُونَ مُرَادَةً . وَقَدْ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى بُعْدِ الْغَايَةِ فِي الْإِعْجَازِ . لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْمُنَزَّلَ مُؤَلَّفٌ مِنْهَا ، وَالْبَشَرُ فِيهَا سِوَاءٌ ، وَالتَّفَاوُتُ مَوْجُودٌ فِي دَلَالَتِهَا بَعْدَ التَّالِيفِ . وَإِنْ عَدَلَ عَنْ هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الدَّلَالََةَ عَلَى الْحَقِيقَةِ فَإِنَّمَا يَكُونُ يَنْقُلُ صَحِيحًا ، كَقَوْلِهِمْ فِي طَه ، إِنَّهُ نِدَاءٌ مِنْ طَاهِرٍ وَهَادِيٍ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَالنَّقْلُ الصَّحِيحُ مُتَعَدَّرٌ ، فَيَجِيءُ الْمُتَشَابَهُ فِيهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ . وَأَمَّا الْوَحْيُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ وَالْجِنُّ ، فَاسْتِبَاهَا مِنْ حَاءِ دَلَالَتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ لِأَنَّهَا غَيْرُ مُتَعَارَفَةٍ ؛ فَجَاءَ التَّشَابُهُ فِيهَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ . وَقَدْ أَحَقَّ بَعْضُ النَّاسِ بِهَا كُلُّ مَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالِدُّجَالِ وَالْفِتَنِ وَالشَّرُوطِ ، وَمَا هُوَ بِخِلَافِ الْعَوَائِدِ الْمَأْلُوفَةِ ، وَهُوَ غَيْرُ بَعِيدٍ ؛ إِلَّا أَنَّ الْجُمْهُورَ لَا يُوَافِقُونَهُمْ عَلَيْهِ . وَسَيِّمُوا الْمُتَكَلِّمُونَ فَقَدْ عَيَّنُوا مَحَامِلَهَا عَلَى مَا تَرَاهُ فِي كُتُبِهِمْ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ إِلَّا الصِّفَاتُ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ، مِمَّا يُوهَمُ ظَاهِرُهُ نَقْصًا أَوْ تَعْيِيزًا . وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الظُّوَاهِرِ مِنْ بَعْدِ السَّلَفِ الَّذِينَ قَرَّرْنَا مَذْهَبَهُمْ . وَتَنَازَعُوا وَتَطَرَّقَتِ الْبِدْعُ إِلَى الْعَقَائِدِ . فَلنُنَشِرْ إِلَى تَيَّانِ مَذَاهِبِهِمْ وَإِيثارِ الصَّحِيحِ مِنْهُ عَلَى الْفَاسِدِ فَنَقُولُ ، « وَمَا تُوَفِّقُنِي إِلَّا بِاللَّهِ » ؛ إِعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَصَفَ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ بِأَنَّهُ عَالِمٌ ، قَادِرٌ ، مُرِيدٌ ، حَيٌّ ، سَمِيعٌ ، بَصِيرٌ ، مُتَكَلِّمٌ ، جَلِيلٌ ، كَرِيمٌ ، جَوَادٌ ، مُنِيعٌ ، عَزِيزٌ ، عَظِيمٌ . وَكَذَا أُثْبِتَ لِنَفْسِهِ الْيَدَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالْوَجْهَ وَالْقَدَمَ وَاللِّسَانَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ ؛ فَمِنْهَا مَا يَقْتَضِي صِحَّةَ الْوَهْيَةِ ، مِثْلَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ ، ثُمَّ الْحَيَاةُ الَّتِي هِيَ شَرْطُ جَمِيعِهَا ، وَمِنْهَا مَا هِيَ صِفَةٌ كَمَالٍ ، كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ ؛ وَمِنْهَا مَا يُوهَمُ النِّقْصَ كَالِاسْتِثْوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْمَجِيءِ

(١) كذا . وفي نسخة . بنعته .

وَكَاوُجِهِ وَالْيَدَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ الَّتِي هِيَ صِفَاتُ الْمُحَدَّثَاتِ . ثُمَّ أَخْبَرَ الشَّارِعَ أَنَا نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، لَا نُضَامُ فِي رُؤْيَتِهِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ . فَأَمَّا السَّلْفُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَأَثْبَتُوا لَهُ صِفَاتِ الْأُلُوْهِيَّةِ وَالْكَمَالِ وَقَوَّضُوا إِلَيْهِ مَا يُوهِمُ النَّقْصَ سَاكِتِينَ عَنْ مَذْلُومِهِ . ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَجَاءَ الْمُعْتَزِلَةُ فَأَثْبَتُوا هَذِهِ الصِّفَاتِ أَحْكَاماً ذَهْنِيَّةً مُجَرَّدَةً ؛ وَلَمْ يَنْبِتُوا صِفَةَ تَقْوَمِ بِذَاتِهِ ، وَسَمَّوْا ذَلِكَ تَوْحِيداً ، وَجَعَلُوا الْإِنْسَانَ خَالِقاً لِأَفْعَالِهِ ، وَلَا تَتَعَلَّقُ بِهَا قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى ، سِيَّماً الشَّرُورَ وَالْمَعَاصِي مِنْهَا ؛ إِذْ يَمْتَنِعُ عَلَى الْحَكِيمِ فِعْلُهَا . وَجَعَلُوا مِرَاعَاةَ الْأَصْلَحِ لِلْعِبَادِ وَاجِبَةً عَلَيْهِ . وَسَمَّوْا ذَلِكَ عَدْلًا . بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَوَّلًا يَقُولُونَ بِنَفْيِ الْقَدْرِ ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ مُسْتَأْنَفٌ يَعْلَمُ حَادِثٌ وَقُدْرَةُ وَإِرَادَةٌ كَذَلِكَ ، كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ . وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ تَبَرَّأَ مِنْ مَعْبِدِ الْجَهَنِّيِّ وَأَصْحَابِهِ الْقَائِلِينَ بِذَلِكَ . وَأَنْتَهَى نَفْيُ الْقَدْرِ إِلَى وَاصِلِ بْنِ عَطَاءِ الْغَزَالِيِّ ، مِنْهُمْ . تَلْمِيزُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، لِعَبِيدِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ . ثُمَّ آخِرًا إِلَى مُعَمَّرِ السَّلْمِيِّ ، وَرَجَعُوا عَنِ الْقَوْلِ بِهِ . وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو الْهَيْذِلِ الْعَلَّافِ ، وَهُوَ شَيْخُ الْمُعْتَزِلَةِ . أَخَذَ الطَّرِيقَةَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ خَالِدِ الطَّوِيلِ عَنْ وَاصِلِ . وَكَانَ مِنْ نَفَاتِ الْقَدْرِ ، وَاتَّبَعَ رَأْيَ الْفَلَّاسِفَةِ فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ الْوُجُودِيَّةِ لِظُهُورِ مَذَاهِبِهِمْ يَوْمئِذٍ .

ثُمَّ جَاءَ إِبْرَاهِيمُ النَّظَّامُ ، وَقَالَ بِالْقَدْرِ . وَاتَّبَعُوهُ . وَطَالَعَ كُتُبَ الْفَلَّاسِفَةِ وَشَدَّدَ فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ وَقَرَّرَ قَوَاعِدَ الْإِعْتِزَالِ . ثُمَّ جَاءَ الْجَا حِظُّ وَالْكَعْبِيُّ وَالْجَبَائِيُّ ، وَكَانَتْ طَرِيقَتُهُمْ تُسَمَّى عِلْمَ الْكَلَامِ ؛ إِمَّا لِمَا فِيهَا مِنَ الْجِحَا جِ وَالْجِدَالِ ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى كَلَامًا ؛ وَإِمَّا أَنْ أَصْلَ طَرِيقَتِهِمْ نَفْيُ صِفَةِ الْكَلَامِ . فَلِهَذَا كَانَ الشَّافِعِيُّ يَقُولُ ؛ حَقُّهُمْ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَيَطَافَ بِهِمْ . وَقَرَّرَ هُوَ لَاءَ طَرِيقَتَهُمْ وَأَثْبَتُوا مِنْهَا وَرَدُّوا ، إِلَى أَنْ ظَهَرَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ وَنَظَرَ بَعْضَ مَشِيخَتِهِمْ فِي مَسَائِلِ الصَّلَاحِ وَالْأَصْلَحِ ؛ فَرَفَضَ طَرِيقَتَهُمْ ، وَكَانَ عَلَى رَأْيِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كِلَابٍ وَأَبِي الْعَبَّاسِ الْقَلَانِسِيِّ وَالْحَرْثِ ابْنِ أَسَدِ الْمُحَاسِبِيِّ مِنْ أَتْبَاعِ

السلفِ وعلى طريقةِ السُّنة . فأيدَ مقالاتَهُم بِالْحُجَجِ الْكَلَامِيَّةِ وَأَثَبَتِ الصِّفَاتِ  
لِي قَائِمَةً بِذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، مِنْ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ الَّتِي يَتِمُّ بِهَا دَلِيلُ التَّمَانِعِ  
وَتَصَحُّ الْمُعْجَزَاتِ لِلْأَنْبِيَاءِ . وَكَانَ مِنْ مَذْهَبِهِمْ إِثْبَاتُ الْكَلَامِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصْرِ لِأَنَّهَا  
وَأَنَّ أَوْهَمَ ظَاهِرًا النِّقْصُ بِالصَّوْتِ وَالْحَرْفِ الْجُسْمَانِيَيْنِ ؛ فَقَدْ وَجَدَ لِلْكَلَامِ عِنْدَ  
الْعَرَبِ مَذَلُولَ آخَرَ غَيْرَ الْحُرُوفِ وَالصَّوْتِ ، وَهُوَ مَا يَدُورُ فِي الْخُلْدِ . وَالْكَلامُ حَقِيقَةٌ  
فِيهِ دُونَ الْأَوَّلِ ؛ فَاتَّبَعُوا اللَّهَ تَعَالَى وَانْتَفَى إِيَّهَامَ النِّقْصِ . وَأَثَبُوا هَذِهِ الصِّفَةَ قَدِيمَةً  
عَامَّةً التَّعَلُّقِ بِشَأْنِ الصِّفَاتِ الْأُخْرَى . وَصَارَ الْقُرْآنُ إِسْمًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْقَدِيمِ بِذَاتِ  
اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ الْكَلَامُ النَّفْسِيُّ وَالْمُحَدَّثُ الَّذِي هُوَ الْحُرُوفُ الْمُؤَلَّفَةُ الْمُقْرُوءَةُ  
بِالْأَصْوَاتِ . فَإِذَا قِيلَ قَدِيمٌ ، فَالْمَرَادُ الْأَوَّلُ ؛ وَإِذَا قِيلَ مَقْرُوءٌ ، مَسْمُوعٌ ، فَلِدَلَالَةِ  
الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ عَلَيْهِ . وَتَوَرَّعَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ مِنْ إِطْلَاقِ لَفْظِ الْحَدُوثِ  
عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ السَّلَفِ قَبْلَهُ ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ أَنَّ الْمَصَاحِفَ الْمَكْتُوبَةَ  
قَدِيمَةٌ ؛ وَلَا أَنَّ الْقِرَاءَةَ الْجَارِيَةَ عَلَى السُّنَّةِ قَدِيمَةٌ ، وَهُوَ شَاهِدُهَا مُحَدَّثَةٌ . وَإِنَّمَا  
مَنْعَهُ مِنْ ذَلِكَ الْوَرَعُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ . وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ فَإِنْكَارُ لِلضَّرُورِيَّاتِ ، وَحَاشَاءُ  
مِنْهُ . وَأَمَّا السَّمْعُ وَالْبَصْرُ ، وَإِنْ كَانَ يُوْهَمُ إِذْرَاكَ الْجَارِحَةَ ، فَهُوَ يَدُلُّ أَيْضًا لَعْنَةً عَلَى  
إِذْرَاكِ الْمَسْمُوعِ وَالْمُبْصَرِ ، وَيَنْتَفِي إِيَّهَامَ النِّقْصِ حِينَئِذٍ لِأَنَّهُ حَقِيقَةٌ لِعُيُوبَةٍ فِيهِمَا .  
وَأَمَّا لَفْظُ الْإِسْتِوَاءِ وَالْمَجِيءِ وَالنُّزُولِ وَالْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ ؛  
فَعَدَلُوا عَنْ حَقَائِقِهَا اللَّغَوِيَّةِ لِمَا فِيهَا مِنْ إِيْهَامِ النِّقْصِ بِالتَّشْبِيهِ إِلَى مُجَازَاتِهَا ، عَلَى  
طَرِيقَةِ الْعَرَبِ ، حَيْثُ تَتَعَدَّرُ حَقَائِقُ الْأَلْفَاظِ ، فَيُرْجَعُونَ إِلَى الْمَجَازِ . كَمَا فِي قَوْلِهِ  
تَعَالَى : « يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ » وَأَمْثَالِهِ ، طَرِيقَةٌ مَعْرُوفَةٌ لَهُمْ غَيْرُ مُنْكَرَةٍ وَلَا مُبْتَدَعَةٍ .  
وَحَمَلَهُمْ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ ، وَإِنْ كَانَ مُخَالَفًا لِمَذْهَبِ السَّلَفِ فِي التَّفْوِيضِ أَنَّ جَمَاعَةً  
مِنْ أَتْبَاعِ السَّلَفِ وَهُمْ الْمُحَدَّثُونَ وَالْمَتَأَخَّرُونَ مِنَ الْحَنَابِلَةِ ارْتَكَبُوا<sup>(١)</sup> فِي مَحْمَلِ هَذِهِ  
الصِّفَاتِ فَحَمَلُوهَا عَلَى صِفَاتٍ ثَابِتَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى ، مَجْهُولَةِ الْكَيْفِيَّةِ . فَيَقُولُونَ فِي

(١) كذا . ومقتضى سياق العبارة : ارتكبوا .

« استوى على العرش » تثبت له استواء ، بحيث مدلول اللفظة ، فراراً من تعطيله . ولا نقول بكيفيته فراراً من القول بالتشبيه الذي تنفيه آيات السلوب ، من قوله « ليس كمثله شيء » ، سبحانه الله عما يصفون ، تعالى الله عما يقول الظالمون ، لم يلد ولم يولد » ولا يعلمون مع ذلك أنهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم بإثبات استواء ، والاستواء عند أهل اللغة إنما موضوعه الاستقرار والتمكن ، وهو جسماني . وأما تعطيل الذي يشنعون بالزامة ، وهو تعطيل اللفظ ، فلا محذور فيه . وإنما المحذور في تعطيل الآلة . وكذلك يشنعون بالزام التكليف بما لا يطاق ، وهو تموية . لأن التشابه لم يقع في التكليف . ثم يدعون أن هذا مذهب السلف ، وحاشا لله من ذلك . وإنما مذهب السلف ما قرزناه أولاً من تفويض المراد بها إلى الله ، والسكوت عن فهمها . وقد يحتاجون لإثبات الاستواء لله بقول مالك : « إن الاستواء معلوم الثبوت لله » وحاشاه من ذلك ، لأنه يعلم مدلول الاستواء . وإنما أراد أن الاستواء معلوم من اللغة ، وهو الجسماني ، وكيفيته أي حقيقته . لأن حقائق الصفات كلها كيفيات ، وهي مجهولة الثبوت لله . وكذلك يحتاجون على إثبات المكان بحديث السوداء ، وأنها لما قال لها النبي ﷺ : أين الله ؟ وقالت في السماء ، فقال أعتقها فإنها مؤمنة . والنبي ﷺ لم يثبت لها الإيمان بإثباتها المكان لله ؛ بل لأنها آمنت بما جاء به من ظواهر ، أن الله في السماء ، فدخلت في جملة الراسخين الذين يؤمنون بالمتشابه من غير كشف عن معناه . والقطع بنفي المكان حاصل من دليل العقل النافي للإفتقار . ومن أدلة السلوب المؤذنة بالتنزيه مثل « ليس كمثله شيء » وأشباهه . ومن قوله : « وهو الله في السموات وفي الأرض » ، إذ الموجود لا يكون في مكانين ، فليست في هذا للمكان قطعاً ، والمراد غيره . ثم طردوا ذلك المحمل الذي ابتدعوه في ظواهر الوجه والعينين واليدين ، والنزول والكلام بالحرف والصوت يجعلون لها مدلولات أعم من الجسمانية وينزهونه عن مدلول الجسماني

مِنْهَا . وَهَذَا شَيْءٌ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ . وَقَدْ دَرَجَ عَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلِ وَالْآخِرُ مِنْهُمْ  
 وَنَافَرَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْأَشْعَرِيَّةَ وَالْحَنْفِيَّةَ . وَرَفَضُوا عَقَائِدَهُمْ فِي ذَلِكَ ،  
 وَوَقَعَ بَيْنَ مُتَكَلِّمِي الْحَنْفِيَّةِ بِبُخَارَى وَبَيْنَ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ  
 مَا هُوَ مَعْرُوفٌ . وَأَمَّا الْمَجَسَّمَةُ فَفَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ فِي إِثْبَاتِ الْجِسْمِيَّةِ . وَأَنَّهَا  
 لَا كَالْأَجْسَامِ . وَلَفْظُ الْجِسْمِ لَهُ يَثْبُتُ فِي مَنْقُولِ الشَّرْعِيَّاتِ . وَإِنَّمَا جَرَّاهُمْ عَلَيْهِ  
 إِثْبَاتُ هَذِهِ الظُّوَاهِرِ ؛ فَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَيْهِ ؛ بَلْ تَوَعَّلَوْا وَأَثَبَتُوا الْجِسْمِيَّةَ ، يَزْعُمُونَ  
 فِيهَا مِثْلَ ذَلِكَ وَيُنْزَهُونَهُ بِقَوْلِ مُتَنَاقِضِ سَفْسَافٍ . وَهُوَ قَوْلُهُمْ ؛ « جِسْمٌ  
 لَا كَالْأَجْسَامِ » . وَالْجِسْمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ هُوَ الْعَمِيقُ الْمَحْدُودُ وَغَيْرُ هَذَا التَّفْسِيرِ مِنْ  
 أَنَّهُ الْقَائِمُ بِالذَّاتِ أَوْ الْمَرْكَبُ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَاصْطِلَاحَاتٌ لِلْمُتَكَلِّمِينَ  
 يُرِيدُونَ بِهَا غَيْرَ الْمَذْلُولِ اللَّغَوِيِّ . فَلِهَذَا كَانَ الْمَجَسَّمَةُ أَوْغَلَ فِي الْبِدْعَةِ بَلْ  
 وَالْكَفْرِ . حَيْثُ أَثَبَتُوا لِلَّهِ وَضْعًا مُوَهَّمًا يُوهَمُ النِّقْصَ لَمْ يَرِدْ فِي كَلَامِهِ . وَلَا كَلَامِ  
 نَبِيِّهِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ الْفَرْقُ بَيْنَ مَذَاهِبِ السَّلَفِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ السُّنِّيَّةَ وَالْمُحَدِّثِينَ  
 وَالْمُبْتَدِعَةَ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ وَالْمَجَسَّمَةَ بِمَا أَطْلَعْنَاكَ عَلَيْهِ . وَفِي الْمُحَدِّثِينَ غُلَاةٌ يَسْمُونَ  
 الْمُسَبَّهَ لِتَضْرِيحِهِمُ بِالتَّشْبِيهِ ، حَتَّى إِنَّهُ يُحْكَى عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ ؛ اغْفُونِي مِنَ  
 اللَّحْيَةِ وَالْفَرْجِ وَسَلُّوْا عَمَّا بَدَا لَكُمْ مِنْ سِوَاهِمَا . وَإِنْ لَمْ يَتَأَوَّلْ ذَلِكَ لَهُمْ ، بِأَنَّهُمْ  
 يُرِيدُونَ حَصْرًا مَا وَرَدَ مِنْ هَذِهِ الظُّوَاهِرِ الْمُوَهَّمَةِ ، وَحَمَلَهَا عَلَى ذَلِكَ الْمَحْمَلِ الَّذِي  
 لِأَثْمَتِهِمْ ؛ وَالْأَفْهَى كُفْرٌ صَرِيحٌ وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ . وَكُتِبَ أَهْلُ السُّنَّةِ مَشْخُونَةً بِالْحِجَاجِ  
 عَلَى هَذِهِ الْبِدْعِ ، وَبَسَطَ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ بِالْأَدْلَةِ الصَّحِيحَةِ . وَإِنَّمَا أَوْمَأْنَا إِلَى ذَلِكَ إِيمَاءً  
 يَتَمَيَّزُ بِهِ فُضُولُ الْمَقَالَاتِ وَجَمَلِيهَا . « وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ  
 لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » .

وَأَمَّا الظُّوَاهِرُ الْحَقِيقَةُ الْأَدْلَةُ وَالذَّلَالَةُ ، كَالْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ وَالْجَنِّ  
 وَالْبُرْزُخِ وَأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ وَالذَّجَالِ وَالْفِتَنِ وَالشُّرُوطِ ، وَسَائِرِ مَا هُوَ مُتَعَدِّرٌ عَلَى الْفَهْمِ  
 أَوْ مُخَالِفٌ لِلْعَادَاتِ ؛ فَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْأَشْعَرِيَّةُ فِي تَفَاصِيلِهِ ، وَهُمْ

أهل السُّنة . فَلَا تُشَابِه ؛ وَإِنْ قُلْنَا فِيهِ بِالتَّشَابِه ، فَلَنُوضِحَ الْقَوْلَ فِيهِ بِكَشْفِ  
الْحِجَابِ عَنْهُ فَنَقُولُ : إِعْلَمَنَّ أَنَّ الْعَالَمَ الْبَشَرِيَّ أَشْرَفُ الْعَوَالِمِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ ،  
وَأَرْفَعَهَا . وَهُوَ وَإِنْ اتَّحَدَتْ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ فَلَهُ أَطْوَارٌ يُخَالَفُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا  
الْآخَرَ بِأَحْوَالٍ تَخْتَصُّ بِهِ حَتَّى كَانَتْ الْحَقَائِقُ فِيهَا مُخْتَلِفَةً .

فَالطُّورُ الْأَوَّلُ : عَالَمُهُ الْجِسْمَانِيُّ بِحِسِّهِ الظَّاهِرِ وَفِكْرِهِ الْمَعَاشِيَّ وَسَائِرِ  
تَصْرُفَاتِهِ الَّتِي أُعْطَاهُ إِيَّاهَا وَجُودُهُ الْحَاضِرُ .

الطُّورُ الثَّانِي : عَالَمُ النَّوْمِ ، وَهُوَ تَصَوُّرُ الْخِيَالِ بِإِنْفَادِ تَصَوُّرَاتِهِ جَائِلَةً فِي بَاطِنِهِ  
فَيَذَرُكُ مِنْهَا بِحَوَاسِهِ الظَّاهِرَةَ مُجَرَّدَةً عَنِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ  
الْجِسْمَانِيَّةِ ، وَيُشَاهِدُهَا فِي إِمْكَانٍ لَيْسَ هُوَ فِيهِ . وَيَحْدُثُ لِلصَّالِحِ مِنْهَا الْبَشَرِيَّ بِمَا  
يَتَرَقَّبُ مِنْ مَسَرَّاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ ، كَمَا وَعَدَ بِهِ الصَّادِقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ .  
وَهَذَانِ الطُّورَانِ عَامَّانِ فِي جَمِيعِ أَشْخَاصِ الْبَشَرِ ، وَهُمَا مُخْتَلِفَانِ فِي الْمَدَارِكِ كَمَا  
تَرَاهُ .

الطُّورُ الثَّلَاثُ : طُورُ النُّبُوَّةِ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِإِشْرَافِ صُنْفِ الْبَشَرِ بِمَا خَصَّهُمُ اللَّهُ  
بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَتَنْزَلُ مَلَائِكَتِهِ عَلَيْهِمْ بِوَحْيِهِ ، وَتَكْلِيفِهِمْ بِإِصْلَاحِ الْبَشَرِ  
فِي أَحْوَالِ كُلِّهَا مُغَايِرَةً لِلأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ الظَّاهِرَةِ .

الطُّورُ الرَّابِعُ : طُورُ الْمَوْتِ الَّذِي تَفَارِقُ أَشْخَاصُ الْبَشَرِ فِيهِ حَيَاتَهُمُ الظَّاهِرَةَ  
إِلَى وَجُودِ قَبْلِ الْقِيَامَةِ يُسَمَّى الْبَرْزَخَ يَتَنَعَّمُونَ فِيهِ وَيَعْدُبُونَ عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ ثُمَّ  
يُفْضُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى ، وَهِيَ دَارُ الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ نَعِيمًا وَعَذَابًا فِي الْجَنَّةِ أَوْ  
فِي النَّارِ .

وَالطُّورَانِ الْأَوَّلَانِ شَاهِدُهُمَا وَجِدَانِيٌّ ، وَالطُّورُ الثَّلَاثُ النَّبَوِيُّ شَاهِدُهُ  
الْمُعْجِزَةُ وَالأَحْوَالُ الْمُخْتَصَّةُ بِالْأَنْبِيَاءِ ، وَالطُّورُ الرَّابِعُ شَاهِدُهُ مَا تَنْزَلُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ  
مِنْ وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمَعَادِ وَأَحْوَالِ الْبَرْزَخِ وَالْقِيَامَةِ ، مَعَ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي بِهِ ،

كَمَا نَبَّهَنَا اللَّهُ عَلَيْهِ ، فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ الْبُعْثَةِ . وَمِنْ أَوْضَحِ الدَّلَالَةِ عَلَى صِحَّتِهَا أَنْ  
 أَشْخَاصَ الْإِنْسَانِ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وُجُودٌ آخَرَ بَعْدَ الْمَوْتِ غَيْرُ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ يَتَلَقَّى  
 فِيهِ أَحْوَالًا تَلِيقُ بِهِ ، لَكَانَ إِجَادَةُ الْأَوَّلِ عَبَثًا . إِذِ الْمَوْتُ إِذَا كَانَ عَدَمًا كَانَ مَالُ  
 الشَّخْصِ إِلَى الْعَدَمِ ، فَلَا يَكُونُ لَوْجُودِهِ الْأَوَّلِ حِكْمَةً . وَالْعَبَثُ عَلَى الْحَكِيمِ مُحَالٌ .  
 وَإِذَا تَقَرَّرَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ الْأَرْبَعَةُ ، فَلِنَأْخُذْ فِي بَيَانِ مَدَارِكِ الْإِنْسَانِ فِيهَا كَيْفَ  
 تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا بَيْنًا يَكْشِفُ لَكَ غُورَ الْمُتَشَابِهِ . فَأَمَّا مَدَارِكُهُ فِي الطُّورِ الْأَوَّلِ  
 فَوَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ  
 شَيْئًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ <sup>(١)</sup> » . فَبِهَذِهِ الْمَدَارِكِ يَسْتَوْلِي عَلَى  
 مَلَكَاتِ الْمَعَارِفِ وَيَسْتَكْمِلُ حَقِيقَةَ إِنْسَانِيَّةِ وَيُوفِي حَقَّ الْعِبَادَةِ الْمَفْضِيَّةِ بِهِ إِلَى  
 النَّجَاةِ .

وَأَمَّا مَدَارِكُهُ فِي الطُّورِ الثَّانِي ، وَهُوَ طُورُ النَّوْمِ ، فَهِيَ الْمَدَارِكُ الَّتِي فِي الْحِسِّ  
 الظَّاهِرِ بَعَيْنِهَا . لَكِنْ لَيْسَتْ فِي الْجَوَارِحِ كَمَا هِيَ فِي الْبِقَطَةِ . لَكِنَّ الرَّأْيَ يَتَيَقَّنُ  
 كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ فِي نَوْمِهِ لَا يَشْكُ فِيهِ وَلَا يَرْتَابُ . مَعَ خُلُوقِ الْجَوَارِحِ عَنِ الْإِسْتِعْمَالِ  
 الْعَادِي لَهَا . وَالنَّاسُ فِي حَقِيقَةِ هَذِهِ الْحَالِ فَرِيقَانِ : الْحُكَمَاءُ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الصُّورَ  
 الْخَيَالِيَّةَ يَدْفَعُهَا الْخِيَالُ بِحَرَكَةِ الْفِكْرِ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ الَّذِي هُوَ الْفَضْلُ  
 الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ الْحِسِّ الظَّاهِرِ وَالْحِسِّ الْبَاطِنِ ، فَتَصَوَّرُ مَحْسُوسَهُ بِالظَّاهِرِ فِي  
 الْحَوَاسِّ كُلِّهَا . وَيُشْكَلُ عَلَيْهِمْ هَذَا بِأَنَّ الْمَرَائِي الصَّادِقَةَ الَّتِي هِيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ  
 مِنَ الْمَلِكِ أَثْبَتَتْ وَأَرْسَخَتْ فِي الْإِدْرَاكِ مِنَ الْمَرَائِي الْخَيَالِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ ، مَعَ أَنَّ الْخِيَالَ  
 فِيهَا عَلَى مَا قَرَّرُوهُ وَاحِدٌ .

الْفَرِيقُ الثَّانِي : الْمُتَكَلِّمُونَ ، أَجْمَلُوا فِيهَا الْقَوْلَ ، وَقَالُوا : هُوَ إِدْرَاكِ يَخْلُقُهُ  
 اللَّهُ فِي الْحَاسَةِ فَيَقَعُ كَمَا يَقَعُ فِي الْبِقَطَةِ ، وَهَذَا أَلِيقٌ ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَتَّصِرُ كَيْفِيَّتِهِ .

(١) آية ٧٨ من سورة النحل .



وَهَذَا الْإِذْرَاكُ النَّوْمِيُّ أَوْضَحُ شَاهِدٍ عَلَى مَا يَقَعُ بَعْدَهُ مِنَ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ فِي الْأَطْوَارِ .

وَأَمَّا الطُّورُ الثَّلَاثُ ، وَهُوَ طُورُ الْأَنْبِيَاءِ ، فَالْمَدَارِكُ الْحِسِّيَّةُ فِيهَا مَجْهُولَةٌ الْكَيْفِيَّةُ عِنْدَ وَجْدَانِيَّتِهِ عِنْدَهُمْ بِأَوْضَحٍ مِنَ الْيَقِينِ . فَيَرَى النَّبِيُّ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةَ ، وَيَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ مِنْهُ أَوْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَيَرَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، وَالْعَرْشَ وَالْكَرْسِيَّ ، وَيَخْتَرِقُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ فِي إِسْرَائِهِ وَيَرْكَبُ الْبِرَاقَ فِيهَا ، وَيُلْقَى النَّبِيِّينَ هُنَالِكَ ، وَيُصَلِّيَ بِهِمْ ، وَيَذُرُّكَ أَنْوَاعَ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ ، كَمَا يَذُرُّكَ فِي طُورِهِ الْجِسْمَانِيِّ وَالنَّوْمِيِّ ، يَعْلَمُ ضَرْوِيًّا يَخْلُقُهُ اللَّهُ لَهُ ، لَا بِالْإِذْرَاكِ الْعَادِيِّ لِلْبَشَرِ فِي الْجَوَارِحِ ، وَلَا يَلْتَفِتُ فِي ذَلِكَ إِلَى مَا يَقُولُهُ ابْنُ سِينَا مِنْ تَنْزِيلِهِ أَمْرَ النَّبُوءَةِ عَلَى أَمْرِ النَّوْمِ فِي دَفْعِ الْخَيَالِ صُورَةً إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ . فَإِنَّ الْكَلَامَ عَلَيْهِمْ هُنَا أَشَدُّ مِنَ الْكَلَامِ فِي النَّوْمِ ، لِأَنَّ هَذَا التَّنْزِيلَ طَبِيعَةً وَاحِدَةً كَمَا قَرَّرْنَا ، فَيَكُونُ عَلَى هَذَا حَقِيقَةُ الْوَحْيِ وَالرُّؤْيَا مِنَ النَّبِيِّ وَاحِدَةً فِي يَقِينِهَا وَحَقِيقَتِهَا ، وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ عَلَى مَا عَلِمْتَ مِنْ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْوَحْيِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَأَنَّهَا كَانَتْ بِمُدَّةِ الْوَحْيِ وَمُقَدِّمَتِهِ ، وَيَشْعُرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ رُؤْيَةٌ<sup>(١)</sup> فِي الْحَقِيقَةِ . وَكَذَلِكَ حَالُ الْوَحْيِ فِي نَفْسِهِ فَقَدْ كَانَ يَضَعُ عَلَيْهِ وَيُقَاسِي مِنْهُ شِدَّةً كَمَا هِيَ فِي الصَّحِيحِ ، حَتَّى كَانَ الْقُرْآنُ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ آيَاتٍ مُقَطَّعَاتٍ . وَبَعْدَ ذَلِكَ نَزَلَ عَلَيْهِ ( بَرَاءَةٌ )<sup>(٢)</sup> فِي غَزْوَةِ ( تَبُوكَ ) جُمْلَةً وَاحِدَةً ، وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى نَاقَتِهِ . فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ تَنَزُّلِ الْفِكْرِ إِلَى الْخَيَالِ فَقَطْ ، وَمِنَ الْخَيَالِ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَ هَذِهِ الْحَالَاتِ فَرْقٌ . وَأَمَّا الطُّورُ الرَّابِعُ ، وَهُوَ طُورُ الْأَمْوَاتِ فِي بَرَزَخِهِمُ الَّذِي أَوَّلُهُ الْقَبْرُ . وَهُمْ مُجَرَّدُونَ عَنِ الْبَدَنِ ، أَوْ فِي بَعْتِهِمْ عِنْدَمَا يَرْجِعُونَ إِلَى الْأَجْسَامِ ، فَمَدَارِكُهُمُ الْحِسِّيَّةُ مُوجُودَةٌ ، فَيَرَى الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ الْمَلَكَانَ يَسْأَلَانِهِ ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ بَعَيْنِي رَأْسِهِ ،

(١) كذا . وفي نسخة : دونه .

(٢) هي السورة التاسعة من القرآن الكريم . وهي سورة ( التوبة ) .

وَيَرَى شُهُودَ الْجَنَازَةِ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَخَفَقَ نِعَالَهُمْ فِي الْإِنْصِرَافِ عَنْهُ ، وَيَسْمَعُ مَا يَذْكُرُونَهُ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ أَوْ مِنْ تَقْرِيرِ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ عَلَى قَلْبِ بَدْرٍ <sup>(١)</sup> ، وَفِيهِ قَتْلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَنَادَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَتُكَلِّمُ هَؤُلَاءِ الْجَيْفِ؟ فَقَالَ ﷺ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعُ مِنْهُمْ لِمَا أَقُولُ . ثُمَّ فِي الْبَعْتَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَايِنُونَ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ - كَمَا كَانُوا يُعَايِنُونَ فِي الْحَيَاةِ - مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ عَلَى مَرَاتِبِهِ وَعَذَابِ النَّارِ عَلَى مَرَاتِبِهِ ، وَيَرُونَ الْمَلَائِكَةَ وَيَرُونَ رَبَّهُمْ ، كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ : إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ . وَهَذِهِ الْمَدَارِكُ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهِيَ حِسِيَّةٌ مِثْلَهَا ، وَتَقَعُ فِي الْجَوَارِحِ بِالْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ الَّذِي يَخْلُقُهُ اللَّهُ كَمَا قَلْنَا . وَسِرُّ هَذَا أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ هِيَ تَنْشَأُ بِالْبَدَنِ وَبِمَدَارِكِهِ ؛ فَإِذَا فَارَقَتْ الْبَدْنَ بِنَوْمٍ أَوْ بِمَوْتٍ أَوْ صَارَ النَّبِيُّ حَالَةَ الْوَحْيِ مِنَ الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَدَارِكِ الْمَلَائِكِيَّةِ ، فَقَدْ اسْتَضَبَحَتْ مَا كَانَ مَعَهَا مِنَ الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ مُجَرَّدَةً عَنِ الْجَوَارِحِ ، فَيُذْرِكُ بِهَا فِي ذَلِكَ الطَّوْرِ أَيُّ إِذْرَاكِ شَاءَتْ مِنْهَا ، أَرْفَعُ مِنْ إِذْرَاكِهَا ، وَهِيَ فِي الْجَسَدِ . قَالَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَزَادَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ صُورَةٌ تَبْقَى لَهَا ، بَعْدَ الْمَفَارَقَةِ فِيهَا الْعَيْنَانِ وَالْأَذْنَانِ وَسَائِرِ الْجَوَارِحِ الْمُدْرَكَةِ أَمْثَالًا لَهَا ، كَانَ فِي الْبَدَنِ وَصُورًا .

وَأَنَا أَقُولُ : إِنَّمَا يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى الْمَلَكَاتِ الْحَاصِلَةِ مِنْ تَصْرِيْفِ هَذِهِ الْجَوَارِحِ فِي بَدَنِهَا زِيَادَةً عَلَى الْإِذْرَاكِ . فَإِذَا تَفَطَّنَتْ لِهَذَا كُلِّهِ عَلِمَتْ أَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِكَ مَوْجُودَةٌ فِي الْأَطْوَارِ الْأَرْبَعَةِ ، لَكِنْ لَيْسَ عَلَى مَا كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؛ وَإِنَّمَا هِيَ تَخْتَلِفُ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ بِحَسَبِ مَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ الْأَحْوَالِ . وَيُشِيرُ الْمُتَكَلِّمُونَ إِلَى ذَلِكَ إِشَارَةً مُجَمَّلَةً بِأَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ فِيهَا عِلْمًا ضَرُورِيًّا يَتَلَكَّ الْمَدَارِكِ ، أَيُّ

(١) كان ذلك أثر انتهاء وقعة بدر الكبرى التي أظهر الله بها دين الإسلام على المشركين . انظر ابن خلدون ط دار الكتاب اللبناني - بيروت م ٢ ص ٧٤٤ - ٧٤٦ .

مَدْرِكٍ كَانَ ، وَيَعْنُونَ بِهِ هَذَا الْقَدْرَ الَّذِي أَوْضَحْنَاهُ . وَهَذِهِ نُبْدَةٌ أَوْمَانًا بِهَا إِلَى مَا يُوضِحُ الْقَوْلَ فِي الْمُتَشَابِهِ . وَلَوْ أَوْسَعْنَا الْكَلَامَ فِيهِ لَقَصْرَتِ الْمَدَارِكُ عَنْهُ . فَلِنَفْرَعُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الْهَدَايَةِ وَالْمَهْمُ عَنْ أَنْبِيَائِهِ وَكِتَابِهِ ، بِمَا يَحْصُلُ بِهِ الْحَقُّ فِي تَوْحِيدِنَا ، وَالظَّفَرُ بِنَجَاتِنَا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

## الفصل السابع عشر

### في علم التصوف

هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الْحَادِثَةِ فِي الْمِلَّةِ وَأَصْلُهُ أَنَّ طَرِيقَةَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَمْ تَزَلْ عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَكِبَارِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ طَرِيقَةَ الْحَقِّ وَالْهَدَايَةِ وَأَصْلُهَا الْعُكُوفُ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالْإِنْقِطَاعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِعْرَاضُ عَنِ زُخْرُفِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ، وَالرُّهْدُ فِيمَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ لَذَّةِ وَمَالٍ وَجَاهٍ وَالْإِنْفِرَادُ عَنِ الْخَلْقِ فِي الْخُلُوةِ لِلْعِبَادَةِ وَكَانَ ذَلِكَ عَامًّا فِي الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ . فَلَمَّا فَشَا الْإِقْبَالُ عَلَى الدُّنْيَا فِي الْقَرْنِ الثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ وَجَنَحَ النَّاسُ إِلَى مُخَالَطَةِ الدُّنْيَا اخْتَصَّ الْمُقْبِلُونَ عَلَى الْعِبَادَةِ بِاسْمِ الصُّوفِيَّةِ وَالْمُتَّصِفَةِ . وَقَالَ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَلَا يَشْهَدُ لِهَذَا الْإِسْمِ اشْتِقَاقٌ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلَا قِيَاسٌ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَقَبٌ . وَمَنْ قَالَ اشْتِقَاقَهُ مِنَ الصَّفَاءِ أَوْ مِنَ الصِّفَةِ فَبَعِيدٌ مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ اللَّغَوِيِّ ، قَالَ : وَكَذَلِكَ مِنَ الصُّوفِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُخْتَصُّوا بِلَبْسِهِ . قُلْتُ : وَالْأَظْهَرُ إِنْ قِيلَ بِالِاشْتِقَاقِ أَنَّهُ مِنَ الصُّوفِ وَهُمْ فِي الْغَالِبِ مُخْتَصُّونَ بِلَبْسِهِ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مُخَالَفَةِ النَّاسِ فِي لُبْسِ فَاخِرِ الثِّيَابِ إِلَى لُبْسِ الصُّوفِ فَلَمَّا اخْتَصَّ هَؤُلَاءِ بِمَذْهَبِ الرُّهْدِ وَالْإِنْفِرَادِ عَنِ الْخَلْقِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَةِ اخْتَصُّوا بِمَا خَذَ مَدْرَكَةَ لَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِمَا هُوَ إِنْسَانٌ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَ بِالْإِدْرَاكِ وَإِدْرَاكُهُ نَوْعَانِ : إِدْرَاكٌ لِلْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مِنَ الْيَقِينِ وَالظَّنِّ وَالشَّكِّ وَاللَّوْهَمِ وَإِدْرَاكٌ لِلْأَحْوَالِ الْقَائِمَةِ مِنَ الْفَرَحِ وَالْحُزْنِ وَالْقُبْضِ

وَالْبَسْطِ وَالرِّضَى وَالْفَضْبِ وَالصَّبْرَ وَالشُّكْرَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ . فَالرُّوحُ الْعَاقِلُ  
وَالْمُتَصَرِّفُ فِي الْبَدَنِ تَنْشَأُ<sup>(١)</sup> مِنْ إِذْرَاكَاتٍ وَإِرَادَاتٍ وَأَحْوَالٍ وَهِيَ الَّتِي يُمَيِّزُ بِهَا  
الْإِنْسَانَ . وَبَعْضُهَا يَنْشَأُ مِنْ بَعْضِ كَمَا يَنْشَأُ الْعِلْمُ مِنَ الْأَدْلَةِ وَالْفَرْحُ وَالْحُزْنُ عَنْ  
إِذْرَاكِ الْمَوْلَمِ أَوْ الْمُتَلَذِّذِ بِهِ وَالنَّشَاطُ عَنِ الْحَمَامِ وَالْكَسَلُ عَنِ الْإِعْيَاءِ . وَكَذَلِكَ  
الْمُرِيدُ فِي مُجَاهَدَتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَنْشَأَ لَهُ عَنْ كُلِّ مُجَاهَدَةٍ حَالٌ نَتِيجَةٌ تِلْكَ  
الْمُجَاهَدَةِ . وَتِلْكَ الْحَالُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ نَوْعَ عِبَادَةٍ فَتَرْسُخُ وَتَصِيرُ مَقَامًا لِلْمُرِيدِ وَإِمَّا  
أَنْ لَا تَكُونَ عِبَادَةً وَإِنَّمَا تَكُونُ صِفَةً حَاصِلَةً لِلنَّفْسِ مِنْ حُزْنٍ أَوْ سُرُورٍ أَوْ نَشَاطٍ أَوْ  
كَسَلٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَامَاتِ . وَلَا يَزَالُ الْمُرِيدُ يَتَرَقَّى مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ إِلَى أَنْ  
يَنْتَهِيَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي هِيَ الْغَايَةُ الْمَطْلُوبَةُ لِلسَّعَادَةِ . قَالَ ﷺ :  
« مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » فَالْمُرِيدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ التَّرَقِّي فِي  
هَذِهِ الْأَطْوَارِ وَأَصْلُهَا كُلُّهَا الطَّاعَةُ وَالْإِخْلَاصُ وَيَتَقَدَّمُهَا الْإِيمَانُ وَيُصَاحِبُهَا . وَتَنْشَأُ  
عَنْهَا الْأَحْوَالُ وَالصِّفَاتُ نَتَائِجٌ وَثَمَرَاتٌ . ثُمَّ تَنْشَأُ عَنْهَا أُخْرَى وَأُخْرَى إِلَى مَقَامِ  
التَّوْحِيدِ وَالْعِرْفَانِ . وَإِذَا وَقَعَ تَقْصِيرٌ فِي النَّتِيجَةِ أَوْ خَلَلَ فَنَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَتَى مِنْ قَبْلِ  
التَّقْصِيرِ فِي الَّذِي قَبْلَهُ . وَكَذَلِكَ فِي الْخَوَاطِرِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْوَارِدَاتِ الْقَلْبِيَّةِ . فَلِهَذَا  
يَحْتَاجُ الْمُرِيدُ إِلَى مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ فِي سَائِرِ أَعْمَالِهِ وَيَنْظُرُ فِي حَقَائِقِهَا لِأَنَّ حُصُولَ  
النَّتَائِجِ عَنِ الْأَعْمَالِ ضَرُورِيٌّ وَقُصُورُهَا مِنَ الْخَلَلِ فِيهَا كَذَلِكَ . وَالْمُرِيدُ يَجِدُ ذَلِكَ  
بِذَوْقِهِ وَيُحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى أَسْبَابِهِ . وَلَا يُشَارِكُهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ لِأَنَّ  
الْغَفْلَةَ عَنْ هَذَا كَانَتْهَا شَامِلَةً . وَغَايَةُ أَهْلِ الْعِبَادَاتِ إِذَا لَمْ يَنْتَهُوا إِلَى هَذَا النَّوعِ أَنَّهُمْ  
يَأْتُونَ بِالطَّاعَاتِ مُخْلِصَةً مِنْ نَظَرِ الْفِقْهِ فِي الْأَجْزَاءِ وَالْإِمْتِنَانِ . وَهَؤُلَاءِ يَبْحَثُونَ  
عَنْ نَتَائِجِهَا بِالْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ لِيَطَّلِعُوا عَلَى أَنَّهَا خَالِصَةٌ مِنَ التَّقْصِيرِ أَوْ لَا . فَظَهَرَ  
أَنَّ أَصْلَ طَرِيقَتِهِمْ كُلُّهَا مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ عَلَى الْأَفْعَالِ وَالْتِرُوكِ وَالْكَلامِ فِي هَذِهِ  
الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ الَّتِي تَحْصُلُ عَنِ الْمُجَاهَدَاتِ ثُمَّ تَسْتَقِرُّ لِلْمُرِيدِ مَقَامًا يَتَرَقَّى مِنْهَا

(١) وفي النسخة الباريسية : فاللعنى العاقل والمتصرف في البدن ينشأ .

إِلَى غَيْرِهَا ثُمَّ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ آدَابٌ مَخْصُوصَةٌ بِهِمْ وَاصْطِلَاحَاتٌ فِي الْأَفَاظِ تَدُورُ بَيْنَهُمْ إِذَا الْأَوْضَاعُ اللَّغَوِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْمَعَانِي الْمُتَعَارِفَةِ . فَإِذَا عَرَضَ مِنَ الْمَعَانِي مَا هُوَ غَيْرُ مُتَعَارِفٍ اصْطَلَحْنَا عَنِ التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِالْفِظِ يَتَيَسَّرُ فَهْمُهُ مِنْهُ . فَلِهَذَا اخْتَصَّ هَؤُلَاءُ بِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي لَيْسَ لِوَاحِدٍ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ الْكَلَامِ فِيهِ . وَصَارَ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ عَلَى صِنْفَيْنِ : صِنْفٍ مَخْصُوصٍ بِالْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْفِتْيَا وَهِيَ الْأَحْكَامُ الْعَامَّةُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْعَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ ، وَصِنْفٍ مَخْصُوصٍ بِالْقَوْمِ فِي الْقِيَامِ بِهِذِهِ الْمَجَاهِدَةِ وَمَحَاسِبَةِ النَّفْسِ عَلَيْهَا وَالْكَلَامِ فِي الْأَدْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ الْعَارِضَةِ فِي طَرِيقِهَا وَكَيْفِيَّةِ التَّرْقِي مِنْهَا مِنْ ذَوْقٍ إِلَى ذَوْقٍ وَشَرَحَ الْإِصْطِلَاحَاتِ الَّتِي تَدُورُ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ . فَلَمَّا كُتِبَتِ الْعُلُومُ وَدَوَّنَتْ وَأَلْفَ الْفُقَهَاءُ فِي الْفِقْهِ وَأَصُولِهِ وَالْكَلَامِ وَالتَّفْسِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . كَتَبَ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي طَرِيقِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ كَتَبَ فِي الْوَرَعِ وَمَحَاسِبَةِ النَّفْسِ عَلَى الْإِقْتِدَاءِ فِي الْأَخْذِ وَالتَّرْكِ كَمَا فَعَلَهُ التُّشَيْرِيُّ فِي كِتَابِ الرِّسَالَةِ وَالسَّهْرُورِيُّ فِي كِتَابِ عَوَارِفِ الْمَعَارِفِ وَأَمْثَالَهُمْ . وَجَمَعَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِي كِتَابِ الْإِحْيَاءِ فَدَوَّنَ فِيهِ أَحْكَامَ الْوَرَعِ وَالْإِقْتِدَاءِ ثُمَّ بَيَّنَّ آدَابَ الْقَوْمِ وَسُنَنَهُمْ وَشَرَحَ اصْطِلَاحَاتِهِمْ فِي عِبَارَاتِهِمْ وَصَارَ عِلْمُ التَّصَوُّفِ فِي الْمِلَّةِ عِلْمًا مَدُونًا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الطَّرِيقَةَ عِبَادَةً فَقَطُّ وَكَانَتْ أَحْكَامُهَا إِنَّمَا تَتَلَقَّى مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ كَمَا وَقَعَ فِي سَائِرِ الْعُلُومِ الَّتِي دَوَّنَتْ بِالْكِتَابِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالحَدِيثِ وَالفِقْهِ وَالْأَصُولِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْمَجَاهِدَةَ وَالْخُلُوعَ وَالتَّذَكُّرَ يَتَّبِعُهَا غَالِبًا كَشَفَ حِجَابِ الْحِسِّ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى عَوَالِمٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ لِصَاحِبِ الْحِسِّ إِدْرَاكُ شَيْءٍ مِنْهَا . وَالرُّوحُ مِنْ تِلْكَ الْعَوَالِمِ . وَسَبَبُ هَذَا الْكَشْفِ أَنَّ الرُّوحَ إِذَا رَجَعَ عَنِ الْحِسِّ الظَّاهِرِ إِلَى الْبَاطِنِ ضَعُفَتْ أَحْوَالُ الْحِسِّ وَقَوِيَتْ أَحْوَالُ الرُّوحِ وَعَلَبَ سُلْطَانُهُ وَتَجَدَّدَ نَشْوُهُ وَأَعَانَ عَلَى ذَلِكَ التَّذَكُّرَ فَإِنَّهُ كَالغَدَاءِ لِتَنْمِيَةِ الرُّوحِ وَلَا يَزَالُ فِي نَمْوٍ وَتَرْيُدٍ إِلَى أَنْ يَصِيرَ شُهُودًا بَعْدَ أَنْ كَانَ عِلْمًا . وَيَكْشَفُ حِجَابَ الْحِسِّ . وَيَتِمُّ وَجُودُ النَّفْسِ الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا . وَهُوَ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ . فَيَتَعَرَّضُ حِنْدٌ لِلْمَوَاهِبِ

الرُّبَانِيَّةِ وَالْعُلُومِ اللَّدْنِيَّةِ وَالْمَفْتَحِ الْإِلَهِيِّ وَتَقَرَّبُ ذَاتُهُ فِي تَحْقِيقِ حَقِيقَتِهَا مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى أَفْقِ الْمَلَائِكَةِ . وَهَذَا الْكَشْفُ كَثِيراً مَا يَعْزُضُ لِأَهْلِ الْمُجَاهَدَةِ فَيُدْرِكُونَ مِنْ حَقَائِقِ الْوُجُودِ مَا لَا يُدْرِكُ سِوَاهُمْ وَكَذَلِكَ يُدْرِكُونَ كَثِيراً مِنَ الْوَأَقَاعَاتِ قَبْلَ وَقُوعِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ بِهَمَمِهِمْ وَقُوَى نَفْسِهِمْ فِي الْمَوْجُودَاتِ السُّفْلِيَّةِ وَتَصِيرُ طُوعَ إِرَادَتِهِمْ . فَالْعُظْمَاءُ مِنْهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ هَذَا الْكَشْفَ وَلَا يَتَصَرَّفُونَ وَلَا يُخْبِرُونَ عَنْ حَقِيقَةِ شَيْءٍ لَمْ يُؤْمَرُوا بِالتَّكَلُّمِ فِيهِ بَلْ يَعْذُونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِحْنَةً وَيَتَعَوَّدُونَ مِنْهُ إِذَا هَاجَمَهُمْ . وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمُجَاهَدَةِ وَكَانَ حَظُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الْكِرَامَاتِ أَوْفَرَ الْحُظُوظِ لِكِنَّهُمْ لَمْ يَقَعْ لَهُمْ بِهَا عِنَايَةٌ . وَفِي فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْهَا . وَتَبِعَهُمْ فِي ذَلِكَ أَهْلُ الطَّرِيقَةِ مِمَّنْ اشْتَمَلَتْ رِسَالَةُ التَّقْشِيرِيِّ عَلَى ذِكْرِهِمْ وَمَنْ تَبَعَ طَرِيقَتَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ . ثُمَّ إِنَّ قَوْماً مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ انْصَرَفَتْ عِنَايَتُهُمْ إِلَى كَشْفِ الْحِجَابِ وَالْكَلامِ فِي الْمَدَارِكِ الَّتِي وَرَاءَهُ وَاخْتَلَفَتْ طُرُقُ الرِّيَاضَةِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ تَعْلِيمِهِمْ فِي إِمَاتَةِ الْقُوَى الْحِسِّيَّةِ وَتَغْذِيَةِ الرُّوحِ الْعَاقِلِ بِالذِّكْرِ حَتَّى يَخْضَلَ لِلنَّفْسِ إِذْرَاكُهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا بِتَمَامِ نَشْوَتِهَا وَتَغْذِيَتِهَا فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ زَعَمُوا أَنَّ الْوُجُودَ قَدْ انْحَصَرَ فِي مَدَارِكِهَا حِينَئِذٍ وَأَنَّهُمْ كَشَفُوا ذَوَاتِ الْوُجُودِ وَتَصَوَّرُوا حَقَائِقَهَا كُلَّهَا مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الطُّشِّ . هَكَذَا قَالَ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ الْإِحْيَاءِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ صُورَةَ الرِّيَاضَةِ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْكَشْفَ لَا يَكُونُ صَحِيحاً كَامِلاً عِنْدَهُمْ إِلَّا إِذَا كَانَ نَاشِئاً عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ لِأَنَّ الْكَشْفَ قَدْ يَخْضَلُ لِصَاحِبِ الْجُوعِ وَالْخَلْوَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ اسْتِقَامَةٌ كَالسَّحَرَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُرْتَابِينَ . وَلَيْسَ مُرَادُنَا إِلَّا الْكَشْفَ النَّاشِئَ عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ وَمِثَالُهُ أَنَّ الْمِرَاةَ الصَّقِيلَةَ إِذَا كَانَتْ مُحَدَّبَةً أَوْ مَقْعَرَةً وَحُودِي بِهَا جِهَةً الْمَرْتَبِيِّ فَإِنَّهُ يَتَشَكَّلُ فِيهِ مُعْوجاً عَلَى غَيْرِ صُورَتِهِ . وَإِنْ كَانَتْ مُسَطَّحَةً تَشَكَّلُ فِيهَا الْمَرْتَبِيُّ صَحِيحاً . فَالْإِسْتِقَامَةُ لِلنَّفْسِ كَالْإِنْسِاطِ لِلْمِرَاةِ فِيمَا يَنْطَبِعُ فِيهَا مِنَ الْأَحْوَالِ . وَلَمَّا عَنِيَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِهَذَا النُّوعِ مِنَ الْكَشْفِ تَكَلَّمُوا فِي حَقَائِقِ

الموجودات العلوية والسفلية وحقائقي الملك والروح والعرش والكرسي وأمثال ذلك . وقصرت مدارك من لم يُشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك . وأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلم لهم . وليس البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق رداً وقبولاً إذ هي من قبيل الوجدانيات .

تفصيل وتحقيق : يقع كثيراً في كلام أهل العقائد من علماء الحديث والفقه أن الله تعالى مبين لمخلوقاته . ويقع للمتكلمين أنه لا مبين ولا متصل . ويقع للفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه . ويقع للمتأخرين من المتصوفة أنه متحد بالمخلوقات ، إما بمعنى الحلول فيها ، أو بمعنى أنه هو عينها ، وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلاً . فلنبين تفصيل هذه المذاهب ونشرح حقيقة كل واحد منها ، حتى تتضح معانيها فنقول ، إن المباشرة تقال لمعنيين :

أحدهما المباشرة في الحيز والجهة ، ويقابله الإتصال . ونشعر هذه المقابلة على هذه التقييد بالمكان إما صريحاً وهو تجسيم ، أو لزوماً وهو تشبيه من قبيل القول بالجهة . وقد نقل مثله عن بعض علماء السلف من التصريح بهذه المباشرة ، فيحتمل غير هذا المعنى . ومن أجل ذلك أنكروا المتكلمون هذه المباشرة وقالوا : لا يقال في الباري أنه مبين لمخلوقاته ، ولا متصل بها ، لأن ذلك إنما يكون للمتخيزات . وما يقال من أن المحل لا يخلو عن الإتيان بالمعنى وضده ، فهو مشروط بصحة الإتيان أولاً ، وأما مع امتناعه فلا ، بل يجوز الخلو عن المعنى وضده ، كما يقال في الجماد ، لا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز ولا كاتب ولا أمي . وصحة الإتيان بهذه المباشرة مشروط بالحصول في الجهة على ما تقرر من مدلولها . والباريء سبحانه منزلة عن ذلك . ذكره ابن التلمساني في شرح اللمع لإمام الحرميين وقال : « لا يقال في الباري مبين للعالم ولا متصل به ، ولا داخل فيه ولا خارج عنه . وهو معنى ما يقوله الفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، بناء على وجود الجواهر غير المتخيزة . وأنكرها

الْمُتَكَلِّمُونَ لِمَا يَلْزَمُ مِنْ مُسَاوَاتِهَا لِلْبَارِيءِ فِي أَحْصِ الصِّفَاتِ ، وَهُوَ مَبْسُوطٌ فِي عِلْمِ  
الْكَلَامِ .

وَأَمَّا الْمَعْنَى الْآخِرُ لِلْمُبَايَنَةِ ، فَهِيَ الْمُعَايِرَةُ وَالْمُخَالَفَةُ فَيُقَالُ : الْبَارِيءُ مُبَايِنٌ  
لِمَخْلُوقَاتِهِ فِي ذَاتِهِ وَهَوِيَّتِهِ وَوُجُودِهِ وَصِفَاتِهِ . وَيُقَابَلُهُ الْإِتْحَادُ وَالْإِمْتِزَاجُ  
وَالْإِخْتِلَاطُ . وَهَذِهِ الْمُبَايَنَةُ هِيَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ كُلِّهِمْ مِنْ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَعُلَمَاءِ  
الشَّرَائِعِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالْمُتَصَوِّفَةِ الْأَقْدَمِينَ كَأَهْلِ الرَّسَالَةِ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُمْ . وَذَهَبَ  
جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ صَيَّرُوا الْمَدَارِكَ الْوُجْدَانِيَّةَ عِلْمِيَّةً نَظْرِيَّةً ،  
إِلَى أَنَّ الْبَارِيءَ تَعَالَى مُتَّحِدًا بِمَخْلُوقَاتِهِ فِي هَوِيَّتِهِ وَوُجُودِهِ وَصِفَاتِهِ . وَرُبَّمَا زَعَمُوا أَنَّهُ  
مَذْهَبُ الْفَلَّاسِفَةِ قَبْلَ أَرِسْطُو ، مِثْلَ أَفْلَاطُونِ وَسُقْرَاطِ ، وَهُوَ الَّذِي يُقَيِّنُهُ  
الْمُتَكَلِّمُونَ حَيْثُ يَنْقُلُونَهُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ عَنِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَيَحَاوِلُونَ الرَّدَّ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ  
ذَاتَانِ ، تَتَنَفَّى إِحْدَاهُمَا ، أَوْ تَنْدَرِجُ أُخْرَى فِي الْجُزْءِ ، فَإِنَّ تِلْكَ مُعَايِرَةٌ صَرِيحَةٌ ، وَلَا  
يَقُولُونَ بِذَلِكَ . وَهَذَا الْإِتْحَادُ هُوَ الْحُلُولُ الَّذِي تَدْعِيهِ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ ، وَهُوَ أَعْرَبَ لِأَنَّهُ حُلُولٌ قَدِيمٌ فِي مُحَدِّثٍ أَوْ اتِّحَادُهُ بِهِ . وَهُوَ أَيْضًا عَيْنُ  
مَا تَقُولُهُ الْإِمَامِيَّةُ مِنَ الشَّيْعَةِ فِي الْأَثْمَةِ . وَتَقْرِيرُ هَذَا الْإِتْحَادِ فِي كَلَامِهِمْ عَلَى  
طَرِيقَيْنِ :

الأولى : أَنَّ ذَاتَ الْقَدِيمِ كَائِنَةٌ فِي الْمُحَدِّثَاتِ مَحْسُوسِيهَا وَمَعْقُولِيهَا ، مُتَّحِدَةٌ بِهَا  
فِي الْمُتَصَوِّرِينَ ، وَهِيَ كُلُّهَا مَظَاهِرٌ لَهُ ، وَهُوَ الْقَائِمُ عَلَيْهَا ، أَيْ الْمَقْدَمُ لَوْجُودِهَا ،  
بِمَعْنَى لَوْلَاهُ كَانَتْ عَدَمًا وَهُوَ رَأَى أَهْلَ الْحُلُولِ .

الثانية : طَرِيقُ أَهْلِ الْوَحْدَةِ الْمَطْلَقَةِ وَكَأَنَّهُمْ اسْتَشْعَرُوا مِنْ تَقْرِيرِ أَهْلِ  
الْحُلُولِ الْغَيْرِيَّةِ الْمُنَافِيَّةِ لِمَعْقُولِ الْإِتْحَادِ ، فَنفَوْهَا بَيْنَ الْقَدِيمِ وَبَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي  
الذَّاتِ وَالْوُجُودِ وَالصِّفَاتِ . وَغَالَطُوا فِي غَيْرِيَّةِ الْمَظَاهِرِ الْمُدْرَكَةِ بِالْحِسِّ وَالْعَقْلِ  
بِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَهِيَ أَوْهَامٌ . وَلَا يُرِيدُونَ الْوَهْمَ الَّذِي هُوَ قَسِيمٌ  
الْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَالشَّكِّ ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ أَنَّهَا كُلُّهَا عَدَمٌ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَوُجُودٌ فِي الْمُدْرَكِ



البشري فقط . ولا وجود بالحقيقة إلا للقديم ، لا في الظاهر ولا في الباطن كما  
تقرره بعد ، بحسب الإمكان . والتعويل في تعقل ذلك على النظر والاستدلال ،  
كما في المدارك البشرية ، غير مفيد ، لأن ذلك إنما ينقل من المدارك الملكية ،  
وإنما هي حاصلة للأنبياء بالفطرة ومن بعدهم للأولياء بهدائيتهم . وقصد من  
يقصد الحصول عليها بالطريقة العلمية ضلالاً . ورُبما قصد بعض المصنفين ذلك  
في كشف الموجودات وترتيب حقائقه على طريق أهل المظاهر فأتى بالأغمض  
فالأغمض .

ورُبما قصد بعض المصنفين بيان مذهبيهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه  
فأتى بالأغمض فالأغمض بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل  
الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح  
فإنه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه أن الوجود كله صادر عن صفة  
الوحدانية التي هي مظهر<sup>(١)</sup> الأحدية وهما معاً صادران عن الذات الكريمة التي  
هي عين الوحدة لا غير . ويسمون هذا الصدور بالتجلي . وأول مراتب التجليات  
عندهم تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور لقوله  
في الحديث الذي يتناقلونه : « كنت كنزاً مخفياً فأخبئت أن أعرف فخلقت  
الخلق ليعرفوني » وهذا الكمال في الإيجاد المنزّل<sup>(٢)</sup> في الوجود وتفصيل الحقائق  
وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية<sup>(٣)</sup> والحقيقة المحمدية وفيها حقائق  
الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمال من أهل الملة  
المحمدية . وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية . ويصدر عن هذه الحقائق  
حقائق أخرى في الحضرة الهائية وهي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم  
الأفلاك ، ثم عالم العناصر ، ثم عالم التركيب . هذا في عالم الرُتق فإذا تجلّت فهي

(١) وفي النسخة الباريسية : مصدر .

(٢) وفي نسخة أخرى : المشترك .

(٣) وفي نسخة أخرى : والحضرة العمادية وفي النسخة الباريسية : والحضرة العمائية .

فِي عَالَمِ الْفَتْحِ . وَيُسَمَّى هَذَا الْمَذْهَبُ مَذْهَبَ أَهْلِ التَّجْلِي وَالْمُظَاهِرِ وَالْحَضْرَاتِ  
 وَهُوَ كَلَامٌ لَا يَقْتَدِرُ <sup>(١)</sup> أَهْلَ النَّظَرِ إِلَى تَحْصِيلِ مُقْتَضَاهُ لِعُمُوضِهِ وَإِنْعِلَاقِهِ وَبَعْدَ  
 مَا بَيَّنَّ كَلَامَ صَاحِبِ الْمَشَاهِدَةِ <sup>(٢)</sup> وَالْوَجْدَانَ وَصَاحِبِ الدَّلِيلِ . وَرَبُّمَا أَنْكَرَ  
 بِظَاهِرِ الشَّرْعِ . هَذَا التَّرْتِيبُ وَكَذَلِكَ ذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِالْوَحْدَةِ  
 الْمُطْلَقَةِ وَهُوَ رَأْيُ أَغْرَبِ مَنْ الْأَوَّلِ فِي تَعْقُلِهِ وَتَفَارِيغِهِ . يَزْعُمُونَ فِيهِ أَنَّ الْوُجُودَ لَهُ  
 قُوَى فِي تَفَاصِيلِهِ بِهَا كَانَتْ حَقَائِقُ الْمَوْجُودَاتِ وَصُورُهَا وَمَوَادِّهَا . وَالْعُنَاصِرُ إِنَّمَا  
 كَانَتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْقُوَى وَكَذَلِكَ مَادَّتُهَا لَهَا فِي نَفْسِهَا قُوَّةٌ بِهَا كَانَ وَجُودُهَا . ثُمَّ إِنَّ  
 الْمُرَكَّبَاتِ فِيهَا تِلْكَ الْقُوَى مُتَضَمِّنَةٌ فِي الْقُوَّةِ الَّتِي كَانَ بِهَا التَّرْكِيبُ . كَالْقُوَّةِ  
 الْمَعْدِنِيَّةِ فِيهَا قُوَى الْعُنَاصِرِ بِهِيُولَاهَا وَزِيَادَةُ الْقُوَّةِ الْمَعْدِنِيَّةِ ثُمَّ الْقُوَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ  
 تَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ الْمَعْدِنِيَّةَ وَزِيَادَةُ قُوَّتِهَا فِي نَفْسِهَا وَكَذَا الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مَعَ الْحَيَوَانِيَّةِ ثُمَّ  
 الْفَلَكَ يَتَضَمَّنُ الْقُوَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ وَزِيَادَةَ . وَكَذَا الذَّوَاتُ الرُّوحَانِيَّةُ وَالْقُوَّةُ الْجَامِعَةُ  
 لِلْكَلِّ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ هِيَ الْقُوَّةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي انبَثَّتْ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّيَّةً  
 وَجُزْئِيَّةً وَجَمَعَتْهَا وَأَحَاطَتْ بِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ . لَا مِنْ جِهَةِ الظُّهُورِ وَلَا مِنْ جِهَةِ  
 الْخِفَاءِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْمَادَّةِ فَالْكَلُّ وَاحِدٌ وَهُوَ نَفْسُ الذَّاتِ  
 الْإِلَهِيَّةِ وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ وَاحِدَةٌ بَسِيطَةٌ وَالْإِعْتِبَارُ هُوَ الْمَفْضَلُ لَهَا كَالْإِنْسَانِيَّةِ مَعَ  
 الْحَيَوَانِيَّةِ . أَلَا تَرَى أَنَّهَا مُنْدرَجَةٌ فِيهَا وَكَائِنَةٌ بِكُونِهَا . فَتَارَةً يُمَثِّلُونَهَا بِالْجِنْسِ مَعَ  
 النَّوْعِ . فِي كُلِّ مَوْجُودٍ كَمَا ذَكَرْنَا وَتَارَةً بِالْكَلِّ مَعَ الْجُزْءِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمِثَالِ . وَهُمْ  
 فِي هَذَا كُلِّهِ يَفْرُونَ مِنَ التَّرْكِيبِ وَالكَثْرَةِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَإِنَّمَا أَوْجَبَهَا عِنْدَهُمْ  
 الْوَهْمُ وَالْخِيَالُ . وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ دَهْقَانَ فِي تَقْرِيرِ هَذَا الْمَذْهَبِ أَنَّ  
 حَقِيقَةَ مَا يَقُولُونَهُ فِي الْوَحْدَةِ شَبِيهَةٌ بِمَا تَقُولُهُ الْحُكَمَاءُ فِي الْأَلْوَانِ مِنْ أَنَّ وَجُودَهَا  
 مَشْرُوطٌ بِالضَّوِّ فَإِذَا عَدِمَ الضَّوُّ لَمْ تَكُنِ الْأَلْوَانُ مَوْجُودَةً بِوَجْهِهِ . وَكَذَا عِنْدَهُمْ  
 الْمَوْجُودَاتُ الْمَحْسُوسَةُ كُلُّهَا مَشْرُوطَةٌ بِوُجُودِ الْمُدْرِكِ الْحِسِّيِّ ، بَلْ وَالْمَوْجُودَاتُ

(١) وفي نسخة أخرى : يقدر .

(٢) وفي النسخة الباريسية : صاحب المشاهد .

الْمَعْقُولَةُ وَالْمَتَوَهَّمَةُ أَيْضاً مَشْرُوطَةٌ بِوُجُودِ الْمُدْرِكِ الْعَقْلِيِّ فَإِذَا الْوُجُودُ الْمَفْصَلُ  
 كُلُّهُ مَشْرُوطٌ بِوُجُودِ الْمُدْرِكِ الْبَشَرِيِّ . فَلَوْ فَرَضْنَا عَدَمَ الْمُدْرِكِ الْبَشَرِيِّ جُمْلَةً لَمْ  
 يَكُنْ هُنَاكَ تَفْصِيلُ الْوُجُودِ بَلْ هُوَ بَسِيطٌ وَاحِدٌ فَالْحَرُّ وَالْبَرْدُ وَالصَّلَابَةُ وَاللِّينُ بَلْ  
 وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَالنَّارُ وَالسَّمَاءُ وَالْكَوَاكِبُ ، إِنَّمَا وَجَدَتْ لَوْجُودِ الْحَوَاسِّ الْمُدْرِكَةِ  
 لَهَا لِمَا جَعَلَ فِي الْمُدْرِكِ مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَوْجُودِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْمَدَارِكِ  
 فَقَطْ فَإِذَا قُدِّمَتِ الْمَدَارِكُ الْمَفْصَلَةُ فَلَا تَفْصِيلَ إِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكٌ وَاحِدٌ وَهُوَ أَنَا  
 لَا غَيْرُهُ . وَيَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ بِحَالِ النَّائِمِ فَإِنَّهُ إِذَا نَامَ وَقَدَّ الْحِسُّ الظَّاهِرَ فَقَدَّ كُلَّ  
 مَحْسُوسٍ وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ إِلَّا مَا يُفْصَلُهُ لَهُ الْخَيَالُ . قَالُوا ، فَكَذَا الْيَقِظَانُ إِنَّمَا  
 يَعْتَبِرُ تِلْكَ الْمُدْرَكَاتِ كُلَّهَا عَلَى التَّفْصِيلِ بِنَوْعِ مُدْرِكِهِ الْبَشَرِيِّ وَلَوْ قَدَّرَ فَقَدَّ مُدْرِكِهِ  
 فَقَدَّ التَّفْصِيلَ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمُ الْمَوْهَمُ لَا الْوَهْمُ الَّذِي هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَدَارِكِ  
 الْبَشَرِيَّةِ . هَذَا مُلَخَّصٌ رَأَيْتُمْ عَلَى مَا يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ دَهْقَانَ وَهُوَ فِي غَايَةِ  
 السُّقُوطِ لِأَنَّا نَقْطَعُ بِوُجُودِ الْبَلَدِ الَّذِي نَحْنُ مُسَافِرُونَ عَنْهُ وَإِلَيْهِ يَقِيناً مَعَ غَيْبَتِهِ عَنْ  
 أَعْيُنِنَا وَبِوُجُودِ السَّمَاءِ الْمُظَلَّةِ وَالْكَوَاكِبِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْغَائِبَةِ عَنَّا . وَالْإِنْسَانُ  
 قَاطِعٌ بِذَلِكَ وَلَا يُكَايِرُ أَحَدٌ نَفْسَهُ فِي الْيَقِينِ مَعَ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ  
 الْمُتَأَخِّرِينَ يَقُولُونَ إِنَّ الْمُرِيدَ عِنْدَ الْكَشْفِ رُبَّمَا يَعْزُضُ لَهُ تَوْهَمٌ هَذِهِ الْوَحْدَةِ  
 وَيُسَمَّى ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مَقَامَ الْجَمْعِ ثُمَّ يَتَرَقَّى عَنْهُ إِلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ  
 وَيَعْبُرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِمَقَامِ الْفَرْقِ وَهُوَ مَقَامُ الْعَارِفِ الْمُحَقِّقِ وَلَا بُدَّ لِلْمُرِيدِ عِنْدَهُمْ  
 مِنْ عَقَبَةِ الْجَمْعِ وَهِيَ عَقَبَةٌ صَعْبَةٌ لِأَنَّهُ يُخْشَى عَلَى الْمُرِيدِ مِنْ وَقُوفِهِ عِنْدَهَا فَتَخَسَّرُ  
 صَفَقَتَهُ فَقَدَّ تَبَيَّنَتْ مَرَاتِبُ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ  
 الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْكَشْفِ وَفِيهَا وَرَاءَ الْحِسِّ تَوَعَّلَوْا فِي ذَلِكَ فَذَهَبَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ إِلَى  
 الْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَمَلَأُوا الصُّحُفَ مِنْهُ مِثْلَ الْهَرَوِيِّ فِي كِتَابِ  
 الْمَقَامَاتِ لَهُ وَغَيْرِهِ . وَتَبِعَهُمُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَابْنُ سَبْعِينَ وَتَلْمِيزُهُمَا ابْنُ الْعَفِيفِ  
 وَابْنُ الْفَارِضِ وَالنَّجْمُ الْإِسْرَائِيلِيُّ فِي قِصَائِدِهِمْ . وَكَانَ سَلْفُهُمْ مُخَالَطِينَ لِلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ

المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول والهيئة الأئمة مذهباً لم يعرف  
 لأولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر . واختلط كلامهم وتشابهت  
 عقائدهم . وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين .  
 يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله . ثم  
 يورث مقامه لآخر من أهل العرفان . وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب  
 الإشارات في فصول التصوف منها فقال : « جُل جناب الحق أن يكون شرعة لكل  
 وارد أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد » . وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية .  
 ولا دليل شرعي وإنما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما تقول الرافضة ودانوا  
 به . ثم قالوا بترتيب وجود الإبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء .  
 حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم ونحلتهم رفعوه  
 إلى علي رضي الله عنه وهو من هذا المعنى أيضاً . وإلا فعلي رضي الله عنه لم  
 يختص من بين الصحابة بتخليية ولا طريقة في لباس ولا حال . بل كان أبو بكر  
 وعمر رضي الله عنهما أزهى الناس بعد رسول الله ﷺ وأكثرهم عبادة . ولم  
 يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم  
 أسوة في الدين والزهد والمجاهدة .

تشهد بذلك سيرهم وأخبارهم . نعم إن الشيعة يخيلون بما ينعلون من ذلك  
 اختصاص علي رضي الله عنه ( رضي الله عنه ) بالفضائل دون من سواه من الصحابة ذهاباً مع  
 عقائد الشيعة المعروفة لهم . والذي يظهر أن المتصوفة بالعراق ، لما ظهرت  
 الإسماعيلية من الشيعة ، وظهر كلامهم في الإمامة وما يرجع إليها ما هو معروف ،  
 فاقتبسوا من ذلك الموزانة بين الظاهر والباطن وجعلوا الإمامة لسياسة الخلف في  
 الإنقياد إلى الشرع ، وأفردوه بذلك أن لا يقع اختلاف كما تقرر في الشرع . ثم  
 جعلوا القطب لتعليم المعرفة بالله لأنه رأس العارفين ، وأفردوه بذلك تشبيهاً  
 بالإمام في الظاهر وأن يكون على وزانه في الباطن وسموه قطباً لمدار المعرفة

عَلَيْهِ ، وَجَعَلُوا الْأَبْدَالَ كَالنُّقَبَاءِ مُبَالَغَةً فِي التَّشْبِيهِ فَتَأْمَلْ ذَلِكَ .  
يَشْهَدُ لِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِي أَمْرِ الْفَاعِطِيِّ وَمَا شَخَّنُوا كُتُبَهُمْ فِي  
ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ لِسَلَفِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِيهِ كَلَامٌ بِنَفْيِ أَوْ إِثْبَاتٍ وَإِنَّمَا هُوَ مَاخُودٌ مِنْ كَلَامِ  
الشَّيْخَةِ وَالرَّافِضَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ فِي كُتُبِهِمْ . وَاللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .  
تَذِيلٌ : وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُجْلِبَ هُنَا فَضْلاً مِنْ كَلَامِ شَيْخِنَا الْعَارِفِ كَبِيرِ الْأَوْلِيَاءِ  
بِالْأَنْدَلُسِ ، أَبِي مَهْدِي عَيْسَى بْنِ الزِّيَّاتِ كَانَ يَقَعُ لَهُ أَكْثَرُ الْأَوْقَاتِ عَلَى أُبَيَّاتِ  
الْهَرَوِيِّ الَّتِي وَقَعَتْ لَهُ فِي كِتَابِ الْمَقَامَاتِ تُوهِمُ الْقَوْلَ بِالْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ أَوْ يَكَادُ  
يُصْرِحُ بِهَا وَهِيَ قَوْلُهُ :

مَا وَحَدَ الْوَاحِدُ مِنْ وَاحِدٍ      إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَدَهُ جَاوِدٌ  
تَوْحِيدٌ مَنْ يُنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ      تَثْنِيَةٌ أَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ  
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ      وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لِأَحَدٍ

فَيَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْعُذْرِ عَنْهُ : « اسْتَشْكَلَ النَّاسُ إِطْلَاقَ لَفْظِ الْجُمُودِ  
عَلَى كُلِّ مَنْ وَحَدَ الْوَاحِدَ وَلَفْظِ الْإِلْحَادِ عَلَى مَنْ نَعَتَهُ وَوَصَفَهُ . وَاسْتَبْشَعُوا هَذِهِ  
الْأُبَيَّاتِ وَحَمَلُوا قَائِلِيهَا عَلَى الْكُفْرِ وَاسْتَخْفَوْهُ . وَنَحْنُ نَقُولُ عَلَى رَأْيِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ أَنَّ  
مَعْنَى التَّوْحِيدِ عِنْدَهُمْ انْتِفَاءُ عَيْنِ الْحُدُوثِ بِثُبُوتِ عَيْنِ الْقِدَمِ وَأَنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ  
حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنِّيَّةٌ وَاحِدَةٌ . وَقَدْ قَالَ أَبُو سَعِيدِ الْجَزَّارُ مِنْ كِبَارِ الْقَوْمِ : الْحَقُّ عَيْنٌ  
مَا ظَهَرَ وَعَيْنٌ مَا بَطَنَ . وَيَرَوْنَ أَنَّ وَقُوعَ التَّعَدُّدِ فِي تِلْكَ الْحَقِيقَةِ وَجُودَ الْاِثْنَيْنِيَّةِ .  
وَهُمْ بِإِعْتِبَارِ حَضْرَاتِ الْحِسِّ بِمَنْزِلَةِ صُورِ الضَّلَالِ وَالصِّدَا وَالْمَرَأَى . وَأَنَّ كُلَّ  
مَا سِوَى عَيْنِ الْقِدَمِ ، إِذَا اسْتَشْبَعَ فَهُوَ عَدَمٌ . وَهَذَا مَعْنَى : كَانَ اللَّهُ ، وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ،  
وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ كَانَ عِنْدَهُمْ . وَمَعْنَى قَوْلِ كَبِيرِ الَّذِي صَدَّقَهُ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ : « أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ، مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ » . قَالُوا : فَمَنْ وَحَدَ  
وَنَعَتَ ، فَقَدْ قَالَ بِمَوْجِدٍ مُحَدَّثٍ ، هُوَ نَفْسُهُ ، وَتَوْحِيدٍ مُحَدَّثٍ هُوَ فِعْلُهُ ، مُوجُودٍ  
قَدِيمٍ ، هُوَ مَعْبُودٌ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى التَّوْحِيدِ انْتِفَاءُ عَيْنِ الْحُدُوثِ ، وَعَيْنُ الْحُدُوثِ ، الْآنَ ثَابِتَةٌ  
 بَلْ مُتَعَدِّدَةٌ ، وَالتَّوْحِيدُ مَجْهُودٌ وَالدَّعْوَى كَاذِبَةٌ . كَمَنْ يَقُولُ لِغَيْرِهِ ، وَهَمَّا مَعًا فِي  
 بَيْتٍ وَاحِدٍ ؛ لَيْسَ فِي الْبَيْتِ غَيْرُكَ ، فَيَقُولُ الْآخَرُ بِلِسَانِ حَالِهِ ؛ لَا يَصِحُّ هَذَا إِلَّا  
 لَوْ عُدِمَتْ أَنْتَ ! وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ فِي قَوْلِهِمْ ؛ « خَلَقَ اللَّهُ الزَّمَانَ » هَذِهِ  
 الْأَفَاطُ تَنَاقُضُ أَصُولَهَا لِأَنَّ خَلْقَ الزَّمَانِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الزَّمَانِ وَهُوَ فِعْلٌ لَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهِ  
 فِي الزَّمَانِ ، وَإِنَّمَا حَمَلَ ذَلِكَ ضَيْقُ الْعِبَارَةِ عَنِ الْحَقَائِقِ وَعَجْزُ اللُّغَاتِ عَنْ تَأْدِيَةِ  
 الْحَقِّ فِيهَا وَبِهَا . فَإِذَا تَحَقَّقَ أَنَّ الْمَوْحَدَ هُوَ الْمَوْحَدُ ، وَعَدَمَ مَا سِوَاهُ جُمْلَةً ، صَحَّ  
 التَّوْحِيدُ حَقِيقَةً . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ « لَا يَعْرِفُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ » وَلَا حَرَجَ عَلَى مَنْ  
 وَخَدَ الْحَقَّ مَعَ بَقَاءِ الرُّسُومِ وَالْآثَارِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ ؛ « حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ  
 الْمُقْرَبِينَ » . لِأَنَّ ذَلِكَ لِأَزْمِ التَّقْيِيدِ وَالْعُبُودِيَّةِ وَالشَّفَعِيَّةِ . وَمَنْ تَرَقَّى إِلَى مَقَامِ  
 الْجَمْعِ كَانَ فِي حَقِّهِ نَقْصًا ، مَعَ عِلْمِهِ بِمَرْتَبَتِهِ ، وَأَنَّهُ تَلَيْسَ تَسْتَلْزِمُهُ الْعُبُودِيَّةُ  
 وَيَزِمَعُهُ الشُّهُودُ وَيُطَهِّرُ مِنْ دَنَسِ حُدُوثِهِ عَيْنَ الْجَمْعِ . وَأَعْرَقَ الْأَصْنَافُ فِي هَذَا  
 الزَّرْعِ الْقَائِلُونَ بِالْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ . وَمَدَارُ الْمَعْرِفَةِ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ عَلَى الْإِنْتِهَاءِ إِلَى  
 الْوَاحِدِ ، وَإِنَّمَا صَدَرَ هَذَا الْقَوْلُ مِنَ النَّاطِمِ عَلَى سَبِيلِ التَّخْرِيفِ وَالتَّنْبِيهِ وَالتَّفْطِينِ  
 لِمَقَامِ أَعْلَى تَرْتَفَعُ فِيهِ الشَّفَعِيَّةُ وَيَحْضُلُ التَّوْحِيدُ الْمُطْلَقُ عَيْنًا لَا خِطَابًا . وَعِبَارَةٌ ؛  
 فَمَنْ سَلَّمَ اسْتِرَاحَ وَمَنْ نَازَعْتَهُ حَقِيقَةً أَنْسَ بِقَوْلِهِ ؛ كُنْتُ سَمِعُهُ وَبَصَرُهُ . وَإِذَا عَرَفْتَ  
 الْمَعَانِي لَا مَشَاحَةَ فِي الْأَفَاطِ . وَالَّذِي يُفِيدُهُ هَذَا كُلُّهُ تَحَقُّقُ أَمْرِ فَوْقَ هَذَا الطُّورِ ،  
 لَا نَطَقَ فِيهِ وَلَا خَبَرَ عَنْهُ . وَهَذَا الْمِقْدَارُ مِنَ الْإِشَارَةِ كَافٍ . وَالتَّعَمُّقُ فِي مِثْلِ هَذَا  
 حِجَابٌ ، وَهُوَ الَّذِي أَوْقَعَ فِي الْمَقَالَاتِ الْمَعْرُوفَةِ . إِنْتَهَى كَلَامُ الشَّيْخِ أَبِي مَهْدِي  
 الزِّيَّاتِ ، وَنَقَلْتُهُ مِنْ كِتَابِ الْوَزِيرِ ابْنِ الْخَطِيبِ الَّذِي أَلْفَهُ فِي الْمَحَبَّةِ ، وَسَمَّاهُ  
 التَّعْرِيفُ بِالْحُبِّ الشَّرِيفِ . وَقَدْ سَمِعْتُهُ مِنْ شَيْخِنَا أَبِي مَهْدِي مِرَارًا ، إِلَّا أَنِّي  
 رَأَيْتُ رُسُومَ الْكِتَابِ أَوْعَى لَهُ ، لِطَوْلِ عَهْدِي بِهِ . وَاللَّهُ الْمَوْفُوقُ .

ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْفُتْيَا اتْتَدَبُوا لِلرَّدِّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي هَذِهِ

المَقَالَاتِ وَأَمْثَالِهَا وَشَمَلُوا بِالنُّكْيَرِ سَائِرَ مَا وَقَعَ لَهُمْ فِي الطَّرِيقَةِ . وَالْحَقُّ أَنْ كَلَامَهُمْ  
مَعَهُمْ فِيهِ تَفْصِيلٌ فَإِنَّ كَلَامَهُمْ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ : أَحَدُهَا الْكَلَامُ عَلَى الْمَجَاهِدَاتِ وَمَا  
يَحْضُلُ مِنَ الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ وَمَحَاسِبَةِ النَّفْسِ عَلَى الْأَعْمَالِ لِتَحْضُلِ تِلْكَ الْأَذْوَاقِ  
الَّتِي تَصِيرُ مَقَامًا وَيَتَرَقَّى مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ كَمَا قُلْنَا . وَثَانِيهَا الْكَلَامُ فِي الْكَشْفِ  
وَالْحَقِيقَةِ الْمُدْرِكَةِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ مِثْلَ الصِّفَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ  
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْوَحْيِ وَالنُّبُوَّةِ وَالرُّوحِ وَحَقَائِقِ كُلِّ مَوْجُودٍ غَائِبٍ أَوْ شَاهِدٍ وَتَرْكِيْبِ  
الْأَلْوَانِ فِي صُدُورِهَا عَنْ مَوْجُودِهَا وَتَكْوِينِهَا كَمَا مَرَّ . وَثَالِثُهَا التَّصَرُّفَاتُ فِي الْعَوَالِمِ  
وَالْأَكْوَانِ بِأَنْوَاعِ الْكِرَامَاتِ ، وَرَابِعُهَا الْفَاطُ مَوْهَمَةُ الظَّاهِرِ ضَدَرَتْ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ  
أُمَّةِ الْقَوْمِ يُعْبَرُونَ عَنْهَا فِي اضْطِلَاحِهِمْ بِالشُّطْحَاتِ تُسْتَشْكَلُ ظَوَاهِرُهَا فَمُنْكَرٌ  
وَمُحْسِنٌ وَمَتَأَوَّلٌ . فَأَمَّا الْكَلَامُ فِي الْمَجَاهِدَاتِ وَالْمَقَامَاتِ وَمَا يَحْضُلُ مِنَ الْأَذْوَاقِ  
وَالْمَوَاجِدِ فِي نَتَائِجِهَا وَمَحَاسِبَةِ النَّفْسِ عَلَى التَّقْصِيرِ فِي سَبَابِهَا فَأَمْرٌ لَا مَدْفَعَ فِيهِ  
لِأَحَدٍ وَأَذْوَابُهُمْ فِيهِ صَحِيحَةٌ وَالتَّحَقُّقُ بِهَا هُوَ عَيْنُ السَّعَادَةِ . وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي كِرَامَاتِ  
الْقَوْمِ وَأَخْبَارِهِمْ بِالْمَغْيِبَاتِ وَتَصَرُّفِهِمْ فِي الْكَائِنَاتِ فَأَمْرٌ صَحِيحٌ غَيْرٌ مُنْكَرٌ . وَإِنْ  
مَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى إِنْكَارِهَا فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْحَقِّ . وَمَا اِحْتَجَّ بِهِ الْأَسْتَاذُ أَبُو  
إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَائِينِيَّ مِنْ أُمَّةِ الْأَشْعَرِيَّةِ عَلَى إِنْكَارِهَا لِإِتْبَاسِهَا بِالْمُعْجِزَةِ فَقَدْ قَرَّقَ  
الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ بَيْنَهُمَا بِالتَّحْدِي وَهُوَ دَعْوَى وَقُوعِ الْمُعْجِزَةِ عَلَى وَفْقِ  
مَا جَاءَ بِهِ . قَالُوا : ثُمَّ إِنْ وَقُوعُهَا عَلَى وَفْقِ دَعْوَى الْكَادِبِ غَيْرٌ مَقْدُورٌ لِأَنَّ دَلَالََةَ  
الْمُعْجِزَةِ عَلَى الصِّدْقِ عَقْلِيَّةٌ فَإِنَّ صِفَةَ نَفْسِهَا التَّصْدِيقُ . فَلَوْ وَقَعَتْ مَعَ الْكَادِبِ  
لَتَبَدَّلَتْ صِفَةَ نَفْسِهَا وَهُوَ مُحَالٌ . هَذَا مَعَ أَنَّ الْوُجُودَ شَاهِدٌ بِوُقُوعِ الْكَثِيرِ مِنْ هَذِهِ  
الْكِرَامَاتِ وَإِنْكَارُهَا نَوْعٌ مُكَابَرَةٌ . وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ وَأَكَابِرِ السُّلْفِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ  
وَهُوَ مَعْلُومٌ مَشْهُورٌ . وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي الْكَشْفِ وَإِعْطَاءِ حَقَائِقِ الْعُلُويَاتِ وَتَرْتِيْبِ  
صُدُورِ الْكَائِنَاتِ فَأَكْثَرُ كَلَامِهِمْ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ الْمُتَشَابِهِ لِمَا أَنَّهُ وَجَدَانِيٌّ عِنْدَهُمْ وَفَاقِدٌ  
الْوَجْدَانِ عِنْدَهُمْ بِمَعْرُزٍ عَنْ أَذْوَابِهِمْ فِيهِ . وَاللُّغَاتُ لَا تَعْطَى لَهُ دَلَالََةُ عَلَى مُرَادِهِمْ

مِنْهَا لِأَنَّهَا لَمْ تُؤْضَعْ إِلَّا لِلْمُتَعَارِفِ وَأَكْثَرُهُ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ . فَيَنْبَغِي أَنْ لَا تَنْعَرِضَ  
 لِكَلَامِهِمْ فِي ذَلِكَ وَتَتْرَكَهُ فِيمَا تَرَكْنَاهُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ وَمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ فَهَمَّ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ  
 الْكَلِمَاتِ عَلَى الْوَجْهِ الْمُوَافِقِ لِظَاهِرِ الشَّرِيعَةِ فَأَكْرَمَ بِهَا سَعَادَةً . وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ  
 الْمُؤَهَّمَةُ الَّتِي يُعْبَرُونَ عَنْهَا بِالشُّطْحَاتِ وَيُوَاخِذُهُمْ بِهَا أَهْلُ الشَّرْعِ فَأَعْلَمُ أَنَّ  
 الْإِنْصَافَ فِي شَأْنِ الْقَوْمِ أَنَّهُمْ أَهْلُ غَيْبَةٍ عَنِ الْحِسِّ وَالْوَارِدَاتُ تَمْلِكُهُمْ حَتَّى يَنْطَلِقُوا  
 عَنْهَا بِمَا لَا يَقْصِدُونَهُ وَصَاحِبُ الْغَيْبَةِ غَيْرُ مُخَاطَبٍ وَالْمَجْبُورُ مَعْدُورٌ . فَمَنْ عَلِمَ  
 مِنْهُمْ فَضْلَهُ وَاقْتِدَاؤَهُ حَمَلَ عَلَى الْقَضْدِ الْجَمِيلِ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ وَأَنَّ الْعِبَارَةَ عَنِ  
 الْمَوَاجِدِ صَعْبَةٌ لِفَقْدَانِ الْوَضْعِ أَيْهَا كَمَا وَقَعَ لِأَبِي يَزِيدَ الْبُسْطَامِيِّ وَأَمْثَالِهِ . وَمَنْ لَمْ  
 يُعْلَمْ فَضْلُهُ وَلَا اشْتَهَرَ فَمُوَاخَذَ بِمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَنَا مَا يَحْمِلُنَا  
 عَلَى تَأْوِيلِ كَلَامِهِ . وَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمِثْلِهَا وَهُوَ حَاضِرٌ فِي حِسِّهِ وَلَمْ يَمْلِكْهُ الْحَالُ  
 فَمُوَاخَذَ أَيْضًا . وَلِهَذَا أَفْتَى الْفُقَهَاءُ وَأَكَابِرُ الْمُتَصَوِّفَةِ بِقَتْلِ الْجِلَاجِ لِأَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي  
 حُضُورِهِ وَهُوَ مَالِكٌ لِحَالِهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَسَلَفَ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ أَهْلِ الرَّسَالَةِ أَعْلَامُ الْمِلَّةِ  
 الَّذِينَ أَسْرَنَّا إِلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حِرْصٌ عَلَى كَشْفِ الْحِجَابِ وَلَا هَذَا النُّوعِ مِنَ  
 الْإِذْرَاكِ إِنَّمَا هُمُ الْإِتْبَاعُ وَالْإِقْتِدَاءُ مَا اسْتَطَاعُوا . وَمَنْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ  
 أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَحْفَلْ بِهِ بَلْ يَفِرُّونَ مِنْهُ وَيَرَوْنَ أَنَّهُ مِنَ الْعَوَائِقِ وَالْمِحَنِ وَأَنَّهُ  
 إِذْرَاكٌ مِنْ إِذْرَاكَاتِ النَّفْسِ مَخْلُوقٌ حَادِثٌ وَأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ لَا تَنْحَصِرُ فِي مَدَارِكِ  
 الْإِنْسَانِ . وَعَلِمَ اللَّهُ أَوْسَعَ وَخَلَقَهُ أَكْبَرَ وَشَرِيعَتُهُ بِالْهِدَايَةِ أَمْلَكُ فَلَا يَنْطَلِقُونَ بِشَيْءٍ  
 مِمَّا يُدْرِكُونَ . بَلْ حَظَرُوا الْخَوْضَ فِي ذَلِكَ وَمَنَعُوا مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْحِجَابَ مِنْ  
 أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْخَوْضِ فِيهِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَهُ بَلْ يَلْتَزِمُونَ طَرِيقَتَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي عَالَمِ  
 الْحِسِّ قَبْلَ الْكَشْفِ مِنَ الْإِتْبَاعِ وَالْإِقْتِدَاءِ وَيَأْمُرُونَ أَصْحَابَهُمْ بِالتِّزَامِهَا . وَهَكَذَا  
 يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَالُ الْمُرِيدِ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ .



## الفصل الثامن عشر

### في علم تعبير الرؤيا

هَذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَهُوَ حَادِثٌ فِي الْمِلَّةِ عِنْدَمَا صَارَتْ الْعُلُومُ صَنَائِعَ وَكَتَبَ النَّاسُ فِيهَا . وَأَمَّا الرُّؤْيَا وَالتَّعْبِيرُ لَهَا فَقَدْ كَانَ مَوْجُودًا فِي السَّلَفِ كَمَا هُوَ فِي الْخَلْفِ . وَرَبَّمَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ <sup>(١)</sup> وَالْأَمَمِ مِنْ قَبْلِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا لِلْإِكْتِفَاءِ فِيهِ بِكَلَامِ الْمُعْبِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ . وَإِلَّا فَالرُّؤْيَا مَوْجُودَةٌ فِي صِنْفِ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَا بُدَّ مِنْ تَعْبِيرِهَا . فَلَقَدْ كَانَ يُوسُفُ الصَّدِيقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُعَبِّرُ الرُّؤْيَا كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ . وَكَذَلِكَ ثَبَتَ عَنِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالرُّؤْيَا مُدْرَكٌ مِنْ مَدَارِكِ الْغَيْبِ . وَقَالَ ﷺ : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ » . وَقَالَ : « لَمْ يَتَّقِ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تَرَى لَهُ » . وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْهُ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ . وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا انْفَتَلَ <sup>(٢)</sup> مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : « هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا ؟ يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ لِيَسْتَبَشِّرَ بِمَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ ظُهُورُ الدِّينِ وَإِعْزَازُهُ . وَأَمَّا السَّبَبُ فِي كَوْنِ الرُّؤْيَا مُدْرَكًا لِلْغَيْبِ فَهُوَ أَنَّ الرُّوحَ الْقَلْبِيَّ وَهُوَ الْبُخَارُ اللَّطِيفُ الْمُنْبِعُثُ مِنْ تَجْوِيفِ الْقَلْبِ اللَّحْمِيِّ يَنْتَشِرُ فِي الشَّرْيَاطِينِ وَمَعَ الدَّمِ فِي سَائِرِ الْبَدَنِ وَبِهِ تَكْمُلُ أَعْمَالُ الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ وَإِحْسَاسُهَا . فَإِذَا أُدْرِكَهُ الْمَلَالُ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ فِي الْإِحْسَاسِ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ وَتَصْرِيفِ الْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَعَشَى سَطْحَ الْبَدَنِ مَا يَعْشَاهُ مِنْ بَرْدِ اللَّيْلِ انْحَبَسَ الرُّوحُ مِنْ سَائِرِ أَقْطَارِ الْبَدَنِ إِلَى مَرَكِزِهِ الْقَلْبِيِّ فَيَسْتَجِمُّ بِذَلِكَ لِمَعَاوَدَةِ فِعْلِهِ فَتَعَطَّلَتِ الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ كُلُّهَا

(١) وفي النسخة الباريسية : في الملل والأمم .

(٢) وفي نسخة أخرى : انتقل .

وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى النَّوْمِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا الرُّوحَ الْقَلْبِيَّ هُوَ مَطِيئَةٌ  
لِلرُّوحِ الْعَاقِلِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالرُّوحُ الْعَاقِلُ مُدْرِكٌ لِجَمِيعِ مَا فِي عَالَمِ الْأَمْرِ بِدَاتِهِ إِذْ  
حَقِيقَتُهُ وَذَاتُهُ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ . وَإِنَّمَا يُمْنَعُ مِنْ تَعَلُّقِهِ <sup>(١)</sup> لِلْمَدَارِكِ الْغَيْبِيَّةِ مَا هُوَ فِيهِ  
مِنْ حِجَابِ الْإِشْتِعَالِ بِالْبَدَنِ وَقَوَاهُ وَحَوَاسِهِ . فَلَوْ قَدْ خَلَا مِنْ هَذَا الْحِجَابِ وَتَجَرَّدَ  
عَنْهُ لَرَجَعَ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَهُوَ عَيْنُ الْإِدْرَاكِ فَيَعْقِلُ كُلَّ مُدْرِكٍ . فَإِذَا تَجَرَّدَ عَنْ بَعْضِهَا  
خَفَّتْ شَوَاعِلُهُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ إِدْرَاكِ لِمُحَةٍ مِنْ عَالَمِهِ بِقَدْرِ مَا تَجَرَّدَ لَهُ وَهُوَ فِي هَذِهِ  
الْحَالَةِ قَدْ خَفَّتْ شَوَاعِلُ الْحِسِّ الظَّاهِرِ كُلِّهَا وَهِيَ الشَّاعِلُ الْأَعْظَمُ فَاسْتَعَدَّ لِقَبُولِ  
مَا هُنَالِكَ مِنَ الْمَدَارِكِ اللَّائِقَةِ مِنْ عَالَمِهِ . وَإِذَا أُدْرِكَ مَا يُدْرِكُ مِنْ عَوَالِمِهِ رَجَعَ بِهِ  
إِلَى بَدَنِهِ . إِذْ هُوَ مَا دَامَ فِي بَدَنِهِ جِسْمَانِيًّا لَا يُمَكِّنُهُ التَّصَرُّفُ إِلَّا بِالْمَدَارِكِ  
الْجِسْمَانِيَّةِ . وَالْمَدَارِكُ الْجِسْمَانِيَّةُ لِلْعِلْمِ إِنَّمَا هِيَ الدَّمَاغِيَّةُ وَالْمُتَصَرِّفُ مِنْهَا هُوَ  
الْخِيَالُ . فَإِنَّهُ يَنْتَزِعُ مِنَ الصُّورِ الْمَحْسُوسَةِ صُورًا خِيَالِيَّةً ثُمَّ يَدْفَعُهَا إِلَى الْحَافِظَةِ  
تَحْفِظُهَا لَهُ إِلَى وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا عِنْدَ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ . وَكَذَلِكَ تَجَرَّدُ النَّفْسُ  
مِنْهَا صُورًا أُخْرَى نَفْسَانِيَّةً عَقْلِيَّةً فَيَتَرَقَّى التَّجْرِيدُ مِنَ الْمَحْسُوسِ إِلَى الْمَعْقُولِ  
وَالْخِيَالِ وَاسِطَةً بَيْنَهُمَا . وَلِذَلِكَ إِذَا أُدْرِكْتَ النَّفْسُ مِنْ عَالَمِهَا مَا تُدْرِكُهُ أَلْقَتْهُ إِلَى  
الْخِيَالِ فَيَصُورُهُ بِالصُّورَةِ الْمُنَاسِبَةِ لَهُ وَيَدْفَعُهُ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرِكِ فَيَرَاهُ النَّائِمُ كَأَنَّهُ  
مَحْسُوسٌ فَيَتَنَزَّلُ الْمُدْرِكُ مِنَ الرُّوحِ الْعَقْلِيِّ إِلَى الْحِسِّيِّ . وَالْخِيَالُ أَيْضًا وَاسِطَةٌ .  
هَذِهِ حَقِيقَةُ الرُّؤْيَا . وَمِنْ هَذَا التَّقْرِيرِ يَظْهَرُ لَكَ الْفَرْقُ بَيْنَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ  
وَأَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ الْكَاذِبَةِ فَإِنَّهَا كُلُّهَا صُورٌ فِي الْخِيَالِ خَالَةٌ النَّوْمِ . وَلَكِنْ إِنْ كَانَتْ  
تِلْكَ الصُّورُ مُتَنَزِّلَةً مِنَ الرُّوحِ الْعَقْلِيِّ الْمُدْرِكِ فَهِيَ رُّؤْيَا . وَإِنْ كَانَتْ مَأْخُودَةً مِنْ  
الصُّورِ النَّبِيِّ فِي الْحَافِظَةِ الَّتِي كَانَ الْخِيَالُ أَوْدَعَهَا إِيَّاهَا مُنْذُ الْيَقَظَةِ فَهِيَ أَضْغَاثُ  
أَحْلَامٍ .

وَاعْلَمْ أَنَّ لِلرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ عِلَامَاتٍ تُؤَدِّنُ بِصِدْقِهَا وَتَشْهَدُ بِصِحَّتِهَا فَيَسْتَشْعِرُ

(١) وفي نسخة أخرى - تعقله .

الرائي البشارة من الله مما ألقى إليه في نومه ، فمنها سرعة انتباه الرائي عندما  
 يذرك الرؤيا ، كأنه يعاجل الرجوع إلى الحس باليقظة ولو كان مستغرقاً في  
 نومه ، لتقل ما ألقى عليه من ذلك الإدراك فيفتر من تلك الحالة إلى حالة الحس  
 التي تبقى النفس فيها منغمسة بالبدن وعوارضه ، ومنها ثبوت ذلك الإدراك  
 ودوامه بانطباع تلك الرؤيا بتفاصيلها في حفظه ، فلا يتخللها سهو ولا نسيان .  
 ولا يحتاج إلى إحضارها بالفكر والتذكير ، بل تبقى متصورة في ذهنه إذا انتبه .  
 ولا يعرب عنه شيء منها ، لأن الإدراك النفساني ليس بزمني ولا يلحقه  
 ترتيب ، بل يدرکه دفعة في زمن فرد . وأضغاث الأخلام زمانية ، لأنها في القوى  
 الدماغية يستخرجها الخيال من الحافظة إلى الحس المشترك كما قلناه . وأفعال  
 البدن كلها زمانية فيلحقها الترتيب في الإدراك والمتقدم والمتأخر . ويعرض  
 النسيان العارض للقوى الدماغية . وليس كذلك مدارك النفس الناطقة إذ ليست  
 بزمانية ، ولا ترتيب فيها . وما ينطبع فيها من الإدراكات فينطبع دفعة واحدة في  
 أقرب من لمح البصر . وقد تبقى الرؤيا بعد الإنتباه حاضرة في الحفظ أياماً من  
 العمر ، لا تشد بالغفلة عن الفكر بوجه إذا كان الإدراك الأول قوياً ، وإذا كان  
 إنما يتذكر الرؤيا بعد الإنتباه من النوم بإعمال الفكر والوجهة إليها ، وينسى  
 الكثير من تفاصيلها حتى يتذكرها فليست الرؤيا بصادقة ، وإنما هي من  
 أضغاث الأخلام . وهذه العلامات من خواص الوحي . قال الله تعالى  
 لَنبِيِّهِ ﷺ « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه  
 فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » والرؤيا لها نسبة من النبوة والوحي كما في  
 الصحيح . قال ﷺ « الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » فلخواصها  
 أيضاً نسبة إلى خواص النبوة ، بذلك القدر ، فلا تستبعد ذلك ، فهذا وجه الحق .  
 والله الخالق لما يشاء .

وأما معنى التعبير فاعلم أن الروح العقلي إذا أدرك مدركه وألقاه إلى الخيال

فَصُورُهُ فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ فِي الصُّورِ الْمُنَاسِبَةِ لِذَلِكَ الْمَعْنَى بَعْضَ الشَّيْءِ كَمَا يُدْرِكُ  
مَعْنَى السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ فَيُصَوِّرُهُ الْخَيَالَ بِصُورَةِ الْبَحْرِ أَوْ يُدْرِكُ الْعِدَاوَةَ فَيُصَوِّرُهَا  
الْخَيَالَ فِي صُورَةِ الْحَيَّةِ . فَإِذَا اسْتَيْقَظَ وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَأَى الْبَحْرَ أَوْ  
الْحَيَّةَ فَيَنْظُرُ الْمَعْبَرُ بِقُوَّةِ التَّشْبِيهِ بَعْدَ أَنْ يَتَيَقَّنَ أَنَّ الْبَحْرَ صُورَةٌ مَحْسُوسَةٌ وَأَنَّ  
الْمُدْرِكََ وَرَاءَهَا وَهُوَ يَهْتَدِي بِقَرَائِنَ أُخْرَى تُعَيِّنُ لَهُ الْمُدْرِكََ فَيَقُولُ مِثْلًا : هُوَ  
السُّلْطَانُ لِأَنَّ الْبَحْرَ خَلَقَ عَظِيمٌ يُنَاسِبُ أَنْ يُشَبَّهَ بِهَا السُّلْطَانُ وَكَذَلِكَ الْحَيَّةُ  
يُنَاسِبُ أَنْ تُشَبَّهَ بِالْعَدُوِّ لِعَظِيمِ ضَرَرِهَا وَكَذَا الْأَوَانِي تُشَبَّهُ بِالنِّسَاءِ لِأَنَّهِنَّ أَوْعِيَةٌ  
وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَمَنْ الْمَرْثِيَّ مَا يَكُونُ صَرِيحًا لَا يَفْتَقِرُ إِلَى تَعْيِيرٍ لَجَلَّتْهَا وَوُضُوحًا  
أَوْ لِقُرْبِ الشَّبهِ <sup>(١)</sup> فِيهَا بَيْنَ الْمُدْرِكَِ وَشَبِّهِ . وَلِهَذَا وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ الرَّوْيَا ثَلَاثًا :  
رَوْيَا مِنْ اللَّهِ وَرَوْيَا مِنْ الْمَلِكِ وَرَوْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ . فَالرُّوْيَا الَّتِي مِنَ اللَّهِ هِيَ  
الصَّرِيحَةُ الَّتِي لَا تَفْتَقِرُ إِلَى تَأْوِيلٍ وَالَّتِي مِنَ الْمَلِكِ هِيَ الرَّوْيَا الصَّادِقَةُ تَفْتَقِرُ إِلَى  
التَّعْيِيرِ <sup>(٢)</sup> وَالرُّوْيَا الَّتِي مِنَ الشَّيْطَانِ هِيَ الْأَضْغَاثُ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَيَالَ إِذَا أَلْقَى إِلَيْهِ  
الرُّوحُ مُدْرِكَهُ . فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ فِي الْقَوَالِبِ الْمُعْتَادَةِ لِلْحِسِّ وَمَا لَمْ يَكُنِ الْحِسُّ أَذْرَكَهُ  
قَطُّ مِنَ الْقَوَالِبِ فَلَا يُصَوِّرُ فِيهِ شَيْئًا فَلَا يُمْكِنُ مِنْ وِلْدِ أَعْمَى أَنْ يُصَوِّرَ لَهُ السُّلْطَانُ  
بِالْبَحْرِ وَلَا الْعَدُوَّ بِالْحَيَّةِ وَلَا النِّسَاءَ بِالْأَوَانِي لِأَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ وَإِنَّمَا  
يُصَوِّرُ لَهُ الْخَيَالَ أَمْثَالَ هَذِهِ فِي شَبِّهَا وَمُنَاسِبِهَا مِنْ جِنْسِ مَدَارِكِهِ الَّتِي هِيَ  
الْمُسْمُوعَاتُ وَالْمَشْمُومَاتُ . وَلِيَتَحَفَّظَ الْمَعْبَرُ مِنْ مِثْلِ هَذَا فَرُبَّمَا اخْتَلَطَ بِهِ التَّعْيِيرُ  
وَفَسَدَ قَانُونُهُ . ثُمَّ إِنَّ عِلْمَ التَّعْيِيرِ عَلَيْهِ بِقَوَانِينِ كَلِمَةٍ يَبْنِي عَلَيْهَا الْمَعْبَرُ عِبَارَةَ  
مَا يَقْصُ عَلَيْهِ . وَتَأْوِيلَهُ كَمَا يَقُولُونَ : الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى السُّلْطَانِ . وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ  
يَقُولُونَ : الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى الْغَيْظِ . وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ : الْبَحْرُ يَدُلُّ عَلَى النَّهْمِ  
وَالْأَمْرِ الْفَادِحِ . وَمِثْلُ مَا يَقُولُونَ : الْحَيَّةُ تَدُلُّ عَلَى الْعَدُوِّ . وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ

(١) وفي نسخة أخرى : النسبة .

(٢) وفي النسخة الباريسية : إلى تأويل .

يَقُولُونَ : هِيَ كَاتِمٌ سِرٌّ ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ : تَدُلُّ عَلَى الْحَيَاةِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ .  
فِيحْفَظُ الْمُعَبَّرُ هَذِهِ الْقَوَائِنَ الْكَلِيَّةَ ، وَيُعَبَّرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْقَرَائِنُ الَّتِي  
تُعَيِّنُ مِنْ هَذِهِ الْقَوَائِنِ مَا هُوَ أَلْيَقُ بِالرُّؤْيَا . وَتِلْكَ الْقَرَائِنُ مِنْهَا فِي الْيَقْظَةِ وَمِنْهَا فِي  
النُّوْمِ وَمِنْهَا مَا يَنْقَدِحُ فِي نَفْسِ الْمُعَبَّرِ بِالْخَاصِيَّةِ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهِ وَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا  
خُلِقَ لَهُ . وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الْعِلْمُ مُتَنَاقِلًا بَيْنَ السَّلَفِ . وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سَيْرِينَ فِيهِ مِنْ  
أَشْهَرِ الْعُلَمَاءِ وَكُتِبَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْقَوَائِنُ وَتَنَاقَلَهَا النَّاسُ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَأَلْفُ  
الْكَرْمَانِيِّ فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ . ثُمَّ أَلْفُ الْمُتَكَلِّمُونَ الْمُتَأَخَّرُونَ وَأَكْثَرُوا . وَالْمُتَدَاوِلُ بَيْنَ  
أَهْلِ الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ كُتِبَ ابْنُ أَبِي طَالِبِ الْقَيْرَوَانِيِّ مِنْ عُلَمَاءِ الْقَيْرَوَانِ مِثْلَ  
الْمَمْتَعِ وَغَيْرِهِ وَكِتَابُ الْإِشَارَةِ لِلْسَّالِمِيِّ مِنْ أَنْفَعِ الْكُتُبِ فِيهِ وَأَحْضَرَهَا . وَكَذَلِكَ  
كِتَابُ الْمَرْقَبَةِ الْعُلْيَا لِابْنِ رَاشِدٍ مِنْ مَشِيخَتِنَا بِتُونِسَ . وَهُوَ عِلْمٌ مُضِيٌّ بِنُورِ النُّبُوَّةِ  
لِلْمُنَاسِبَةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا وَلِكُونِهَا كَانَتْ مِنْ مَدَارِكِ الْوَحْيِيِّ كَمَا وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ وَاللَّهِ  
عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

## الفصل التاسع عشر

### في العلوم العقلية وأصنافها

وَأَمَّا الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ذُو فِكْرٍ فَبِهَا غَيْرُ  
مُخْتَصَّةٍ بِمِلَّةٍ بَلْ بَوَاجِهَ النَّظَرِ <sup>(١)</sup> فِيهَا إِلَى أَهْلِ الْمِلَلِ كُلِّهِمْ وَيَسْتَوُونَ فِي مَدَارِكِهَا  
وَمَبَاحِثِهَا . وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ مُنْذُ كَانَ عُمَرَانُ الْخَلِيقَةَ . وَتَسْمَى  
هَذِهِ الْعُلُومُ عُلُومَ الْفَلَسَفَةِ وَالْحِكْمَةِ وَهِيَ مُشْتَمَلَةٌ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ : الْأَوَّلُ عِلْمُ  
الْمَنْطِقِ وَهُوَ عِلْمٌ يَعْصِمُ الذَّهْنَ عَنِ الْخَطَا فِي اقْتِنَاصِ الْمَطَالِبِ الْمَجْهُولَةِ مِنَ الْأُمُورِ  
الْحَاصِلَةِ الْمَعْلُومَةِ وَفَائِدَتُهُ تَمْيِيزُ الْخَطَا مِنَ الصَّوَابِ . فِيمَا يَلْتَمِسُهُ النَّاطِرُ فِي

(١) وفي نسخة أخرى : يوجد النظر .

( الْمَوْجُودَاتِ وَعَوَارِضِهَا )<sup>(١)</sup> لِيَقِفَ عَلَى تَحْقِيقِ الْحَقِّ فِي الْكَائِنَاتِ نَفِيًّا وَثُبُوتًا بِمُنْتَهَى فِكْرِهِ . ثُمَّ النَّظْرُ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ إِمَّا فِي الْمَحْسُوسَاتِ مِنَ الْأَجْسَامِ الْعُنْصَرِيَّةِ وَالْمَكُونَةِ عَنْهَا مِنَ الْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ وَالْأَجْسَامِ الْفَلَكَيَّةِ وَالْحَرَكَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ . وَالنَّفْسُ الَّتِي تَتْبَعُ عَنْهَا الْحَرَكَاتُ وَغَيْرَ ذَلِكَ . وَيُسَمَّى هَذَا الْفَنُّ بِالْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ وَهُوَ الْعِلْمُ الثَّانِي مِنْهَا . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ النَّظْرُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ مِنَ الرُّوحَانِيَّاتِ وَيُسَمُّونَهُ الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ وَهُوَ الثَّلَاثُ مِنْهَا . وَالْعِلْمُ الرَّابِعُ وَهُوَ النَّظْرُ فِي الْمَقَادِيرِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ وَتُسَمَّى التَّعَالِيمَ . أُولَاهَا : عِلْمُ الْهَنْدَسَةِ وَهُوَ النَّظْرُ فِي الْمَقَادِيرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ . إِمَّا الْمُنْفَصِلَةَ مِنْ حَيْثُ كُونُهَا مَعْدُودَةٌ أَوْ الْمُتَّصِلَةَ وَهِيَ إِمَّا ذُو بُعْدٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْخَطُّ أَوْ ذُو بُعْدَيْنِ وَهُوَ السُّطْحُ ، أَوْ ذُو أَعْيَادٍ ثَلَاثَةٍ وَهُوَ الْجِسْمُ التَّعْلِيمِيُّ . يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْمَقَادِيرِ وَمَا يَعْضُرُ لَهَا إِمَّا مِنْ حَيْثُ دَاتُهَا أَوْ مِنْ حَيْثُ نَسْبَةُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ . وَثَانِيهَا عِلْمُ الْأَرْتِمَاتِيْقِي وَهُوَ مَعْرِفَةُ مَا يَعْضُرُ لِلْكَمِّ الْمُنْفَصِلِ الَّذِي هُوَ الْعَدَدُ وَيُوْخَذُ لَهُ مِنَ الْخَوَاصِّ وَالْعَوَارِضِ اللَّاحِقَةِ . وَثَالِثُهَا عِلْمُ الْمَوْسِقَى وَهُوَ مَعْرِفَةُ نَسَبِ الْأَصْوَاتِ وَالنَّغَمِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَتَقْدِيرُهَا بِالْعَدَدِ وَثَمَرَتُهُ مَعْرِفَةُ تَلَاْحِينِ الْغِنَاءِ . وَرَابِعُهَا عِلْمُ الْهَيْئَةِ وَهُوَ تَعْيِينُ الْأَشْكَالِ لِلْأَفْلَاقِ وَحَضْرُ أَوْضَاعِهَا وَتَعْدُّدُهَا لِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنَ السَّيَّارَةِ وَالثَّابِتَةِ وَالْقِيَامِ عَلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْحَرَكَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الْمَشَاهِدَةِ الْمَوْجُودَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَمِنْ رُجُوعِهَا وَاسْتِقَامَتِهَا وَإِقْبَالِهَا وَإِدْبَارِهَا . فَهَذِهِ أَصُولُ الْعُلُومِ الْفَلْسَفِيَّةِ وَهِيَ سَبْعَةٌ : الْمَنْطِقُ وَهُوَ الْمَقْدَمُ مِنْهَا وَبَعْدَهُ التَّعَالِيمُ فَالْأَرْتِمَاتِيْقِي أَوْلًا ثُمَّ الْهَنْدَسَةُ ثُمَّ الْهَيْئَةُ ثُمَّ الْمَوْسِقَى ثُمَّ الطَّبِيعِيَّاتُ ثُمَّ الْإِلَهِيَّاتُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فُرُوعٌ تَتَفَرَّعُ عَنْهُ . فَمِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ الطَّبُّ وَمِنْ فُرُوعِ الْعَدَدِ عِلْمُ الْحِسَابِ وَالْفَرَائِضِ وَالْمَعَامِلَاتِ وَمِنْ فُرُوعِ الْهَيْئَةِ الْأَزْيَاجُ وَهِيَ قَوَانِينُ لِحْسَابِ<sup>(٢)</sup> حَرَكَاتِ الْكَوْكَبِ وَتَعْدِيلِهَا لِلْوَقُوفِ عَلَى مَوَاضِعِهَا مَتَى قُصِدَ ذَلِكَ ( وَمِنْ فُرُوعِهَا النَّظْرُ فِي

(١) وفي النسخة الباريسية : في التصورات والتصديقات الذاتية والعرضية .

(٢) وفي نسخة أخرى : حسابات .

النجوم على الأحكام النجومية<sup>(١)</sup> ونحن نتكلم عليها واحداً بعد واحد إلى آخرها .  
واعلم أن أكثر من عني بها في الأجيال الذين عرفنا أخبارهم الأمان العظيمتان في  
الدولة قبل الإسلام وهما فارس والروم فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على  
ما بلغنا لما كان العمران موفوراً فيهم والدولة والسلطان قبل الإسلام وعصره لهم  
فكان لهذه العلوم بحور زاخرة في آفاقهم وأمصارهم . وكان للكلدانيين ومن قبلهم  
من السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من  
الطلاسم<sup>(٢)</sup> وأخذ ذلك عنهم الأمم من فارس ويونان فاخص بها القبط وطمس  
بحرها فيهم كما وقع في المتلو من خبر هاروت وماروت وشان السحرة وما نقله  
أهل العلم من شأن البراري<sup>(٣)</sup> بصعيد مصر . ثم تتابعت الملل بحظر ذلك  
وتحريمه فدرست علومه وبطلت كأن لم تكن إلا بقايا يتناقلها منتحلوه هذه  
الصنائع . والله أعلم بصحتها . مع أن سيوف الشرع قائمة على ظهورها مائة من  
اختبارها . وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيماً ونطاقها متسعاً  
لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملك . ولقد يقال إن هذه العلوم إنما  
وصلت إلى يونان منهم حين قتل الإسكندر داراً وعلب على مملكة الكينية فاستولى  
على كتبهم وعلومهم . إلا أن المسلمين لما افتتحو بلاد فارس ، وأصابوا من كتبهم  
وصحائف علومهم مما لا يأخذه الحصر ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً  
كثيرة كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتنقيتها  
للمسلمين . فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء . فإن يكن ما فيها هدى فقد  
هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله . فطرحوها في الماء أو في  
النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا . وأما الروم فكانت الدولة منهم  
ليونان أولاً وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب وحملها مشاهير من رجالهم مثل

(١) وفي نسخة أخرى : ومن فروع النظر في النجوم علم الأحكام النجومية .

(٢) وفي النسخة الباريسية : من التأثيرات والطلاسمات .

(٣) وفي نسخة أخرى : البرابي .

أَسَاطِينِ الْحِكْمَةِ وَغَيْرِهِمْ . وَاخْتَصَّ فِيهَا الْمَشَاءُونَ مِنْهُمْ أَصْحَابَ الرُّوَاقِ بِطَرِيقَةٍ  
 حَسَنَةٍ فِي التَّعْلِيمِ كَانُوا يَقْرَأُونَ فِي رُوَاقٍ يُظِلُّهُمْ مِنَ الشَّمْسِ وَالْبَرْدِ عَلَى مَا زَعَمُوا .  
 وَاتَّصَلَ فِيهَا سَنَدُ تَعْلِيمِهِمْ عَلَى مَا يَزْعُمُونَ مِنْ لَدُنْ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ فِي تَلْمِيذِهِ بِقَرَاطِ  
 الدَّنِّ ، ثُمَّ إِلَى تَلْمِيذِهِ أَفْلَاطُونُ ثُمَّ إِلَى تَلْمِيذِهِ أَرِسْطُو ثُمَّ إِلَى تَلْمِيذِهِ الإسْكَنْدَرُ  
 الأَفْرُودَسِيُّ ، وَتَامِسْطِيُونُ وَغَيْرِهِمْ . وَكَانَ أَرِسْطُو مُعَلِّمًا لِلْإِسْكَنْدَرِ مَلِكِهِمُ الَّذِي  
 غَلَبَ الْفَرَسَ عَلَى مُلْكِهِمْ وَانْتَرَعَ الْمُلْكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ . وَكَانَ أَرِسْخَهُمْ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ  
 قَدَمًا وَأَبْعَدَهُمْ فِيهِ صَيْتًا وَشَهْرَةً . وَكَانَ يُسَمَّى الْمُعَلِّمَ الأَوَّلَ فَطَارَ لَهُ فِي الْعَالَمِ ذِكْرٌ .  
 وَلَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ الْيُونَانِ وَصَارَ الأَمْرُ لِلْقِيَاصِرَةِ وَأَخَذُوا بِدِينِ النُّصْرَانِيَّةِ هَجَرُوا تِلْكَ  
 الْعُلُومَ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْمَلَلُ وَالشَّرَائِعُ فِيهَا . وَبَقِيَتْ فِي صُحُفِهَا وَدَوَابِئِهَا مُخَلَّدَةٌ  
 بَاقِيَةً فِي خَزَائِنِهِمْ ثُمَّ مَلَكُوا الشَّامَ وَكُتِبَ فِيهَا هَذِهِ الْعُلُومُ بَاقِيَةً فِيهِمْ . ثُمَّ جَاءَ اللهُ  
 بِالإِسْلَامِ وَكَانَ لِأَهْلِهِ الظُّهُورُ الَّذِي لَا كِفَاءَ لَهُ وَابْتَزَرُوا الرُّومَ مُلْكَهُمْ فِيمَا ابْتَزَرُوهُ  
 لِلْأَمَمِ . وَابْتَدَأَ أَمْرُهُمْ بِالسَّدَاجَةِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ الصَّنَائِعِ حَتَّى إِذَا تَبَخَّحَ <sup>(١)</sup> مِنْ  
 السُّلْطَانِ وَالدَّوْلَةِ وَأَخَذَ الْحِضَارَةَ <sup>(٢)</sup> بِالْحِظِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِعَيْرِهِمْ مِنَ الأَمَمِ وَتَفَنَّنُوا  
 فِي الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ . تَشَوَّقُوا إِلَى الإِطْلَاعِ عَلَى هَذِهِ الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ بِمَا سَمِعُوا مِنْ  
 الأَسَافَةِ وَالإِقْتِسَابِ الْمُعَاهِدِينَ بَعْضَ ذِكْرِ مِنْهَا وَبِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ أَفْكَارَ الإِنْسَانِ فِيهَا .  
 فَبَعَثَ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِكُتُبِ التَّعَالِيمِ مُتَرَجِمَةً  
 فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِكِتَابِ أَوْقَلِيدِسَ وَبَعْضَ كُتُبِ الطَّبِيعِيَّاتِ . فَقَرَأَهَا الْمُسْلِمُونَ وَاطَّلَعُوا  
 عَلَى مَا فِيهَا وَازْدَادُوا حِرْصًا عَلَى الطَّفَرِ بِمَا بَقِيَ مِنْهَا . وَجَاءَ المَأْمُونُ بَعْدَ ذَلِكَ  
 وَكَانَتْ لَهُ فِي الْعِلْمِ رَغْبَةٌ بِمَا كَانَ يَنْتَحِلُهُ فَانْبَعَثَ لِهَذِهِ الْعُلُومِ حِرْصًا وَأَوْفَدَ الرُّسُلَ  
 عَلَى مُلُوكِ الرُّومِ فِي اسْتِخْرَاجِ عُلُومِ الْيُونَانِيِّينَ وَانْتِسَاحِهَا بِالْحِطِّ الْعَرَبِيِّ وَبَعَثَ  
 الْمُتَرَجِمِينَ لِذَلِكَ فَأَوْعَى مِنْهُ وَاسْتَوْعَبَ . وَعَكَّفَ عَلَيْهَا النُّظَارَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ  
 وَحَذَقُوا فِي فُنُونِهَا وَانْتَهَتْ إِلَى الغَايَةِ أَنْظَارُهُمْ فِيهَا . وَخَالَفُوا كَثِيرًا مِنْ آرَاءِ الْمُعَلِّمِ

(١) وفي النسخة الباريبية : انتجع .

(٢) وفي نسخة أخرى : وأخذوا من الحضارة .



الأولِ واختصوه بالردِّ والقبولِ لوقوفِ الشهرةِ عنده . ودونوا في ذلك الدواوينِ  
 وأرَبوا على من تقدّمهم في هذه العلومِ وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابيُّ  
 وأبو عليِّ بن سينا بالمشرقِ والقاضي أبو الوليد بن رشدٍ والوزير أبو بكر بن  
 الصائغ بالأندلسِ إلى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلومِ . واختص هؤلاء بالشهرةِ  
 والذكرِ واقتصر كثيرون على انتحالِ التعاليمِ وما ينضاف إليها من علومِ النجامةِ  
 والسحرِ والطلسماتِ . ووقفت الشهرة في هذا المُنْتَحَلِ على جابر بن حيان من  
 أهلِ المشرقِ ومسلمة بن أحمد المجرطي من أهلِ الأندلسِ وتلميذه . ودخل  
 على الملة من هذه العلومِ وأهلها داخلة واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا إليها  
 وقلدوا آراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه . ولو شاء الله ما فعلوه . ثم إن المغرب  
 والأندلس لما ركذت ریح العُمرانِ بهما وتناقصت العلومُ بتناقصه اضمحل ذلك  
 منهما إلا قليلاً من رُسومه تجدّها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء  
 السنة . ويبلغنا عن أهلِ المشرقِ أن بضائع هذه العلومِ لم ترل عندهم موفورةً  
 وخصوصاً في عراقِ العجمِ وما بعده فيما وراء النهرِ وأنهم على بح<sup>(١)</sup> من العلومِ  
 العقلية لتوفرِ عُمرانهم واستحكامِ الحضارةِ فيهم . ولقد وقفت بمصر على تأليفِ في  
 المعقولِ متعدّدة لرجل من عظماء هرة من بلادِ خراسان يُشهر بسعد الدين  
 التفتازاني منها في علمِ الكلامِ وأصولِ الفقه والبيانِ تشهد بأن له ملكة راسخة في  
 هذه العلومِ . وفي أثنائها ما يدلُّ على أن له اطلاعاً على العلومِ الحكيمية وقدماً عاليةً  
 في سائرِ الفنونِ العقليةِ والله يؤيد بنصره من يشاء . كذلك بلغنا لهذا العهد أن  
 هذه العلومِ الفلسفيةِ ببلادِ الإفرنجية من أرضِ رومة وما إليها من العُدوة الشماليةِ  
 نافقة الأسواقِ وأن رُسومها هناك متعدّدة ومجالسُ تعليمها متعدّدة ودواوينها  
 جامعة موفورة وطلبتها متكرّرة<sup>(٢)</sup> والله أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء  
 ويختار .

(١) وفي النسخة الباريسية : على نهج . وفي نسخة أخرى : على نهج .

(٢) وفي نسخة أخرى : ودواوينها جامعة وحملتها متوفرون وطلبتها متكررون .

## الفصل العشرون

### في العلوم العددية

وَأُولَاهَا الْأَرْتَمَاطِيْقِيُّ وَهُوَ مَعْرِفَةُ خَوَاصِّ الْأَعْدَادِ مِنْ حَيْثُ التَّالِيفُ إِمَّا عَلَى التَّوَالِي أَوْ بِالتَّضْعِيفِ مِثْلُ أَنَّ الْأَعْدَادَ إِذَا تَوَالَتْ مُتَفَاضِلَةً بَعْدَ وَاحِدٍ فَإِنَّ جَمْعَ الطَّرْفَيْنِ مِنْهَا مَسَاوِلِجْمَعِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بَعْدَهُمَا مِنَ الطَّرْفَيْنِ بَعْدَ وَاحِدٍ وَمِثْلُ ضَعْفِ الْوَاسِطَةِ إِنْ كَانَتْ عِدَّةُ تِلْكَ الْأَعْدَادِ فَرْدًا مِثْلُ الْأَفْرَادِ<sup>(١)</sup> عَلَى تَوَالِيهَا وَالْأَزْوَاجِ عَلَى تَوَالِيهَا وَمِثْلُ أَنَّ الْأَعْدَادَ إِذَا تَوَالَتْ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ يَكُونُ أُولَاهَا نِصْفُ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا نِصْفُ ثَالِثِهَا الْخ. أَوْ يَكُونُ أُولَاهَا ثُلُثُ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا ثُلُثُ ثَالِثِهَا الْخ. فَإِنْ ضَرَبَ الطَّرْفَيْنِ أَحَدَهُمَا فِي الْآخِرِ كَضْرَبِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بَعْدَهُمَا مِنَ الطَّرْفَيْنِ بَعْدَ وَاحِدٍ أَحَدَهُمَا فِي الْآخِرِ. وَمِثْلُ مَرَبِّعِ الْوَاسِطَةِ إِنْ كَانَتْ الْعِدَّةُ فَرْدًا وَذَلِكَ مِثْلُ أَعْدَادِ زَوْجِ الزَّوْجِ الْمُتَوَالِيَةِ مِنْ اثْنَيْنِ فَأَرْبَعَةٌ فَثَمَانِيَّةٌ فَسِتَّةٌ عَشْرٌ وَمِثْلُ مَا يَخْدُثُ مِنَ الْخَوَاصِّ الْعَدَدِيَّةِ فِي وَضْعِ الْمُثَلَّثَاتِ الْعَدَدِيَّةِ وَالْمَرْبَعَاتِ وَالْمُخَمَّسَاتِ وَالْمُسَدَّسَاتِ إِذَا وَضِعَتْ مُتتَالِيَةً فِي سَطُورِهَا بِأَنْ يُجْمَعَ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْعَدَدِ الْآخِرِ فَتَكُونُ مُثَلَّثَةً. وَتَتَوَالَى الْمُثَلَّثَاتُ هَكَذَا فِي سَطْرِ تَحْتِ الْأَضْلَاعِ ثُمَّ تَزِيدُ عَلَى كُلِّ مُثَلَّثِ ثُلُثِ الضَّلْعِ الَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مَرْبَعَةً. وَتَزِيدُ عَلَى كُلِّ مَرْبِيعِ مُثَلَّثِ<sup>(٢)</sup> الضَّلْعِ الَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مُخَمَّسَةً وَهَلُمَّ جَرًّا. وَتَتَوَالَى الْأَشْكَالُ عَلَى تَوَالِي الْأَضْلَاعِ وَيَخْدُثُ جَدْوَلٌ دُو طُولٍ وَعَرْضٍ. فَمِنِ عَرْضِ الْأَعْدَادِ عَلَى تَوَالِيهَا ثُمَّ الْمُثَلَّثَاتُ عَلَى تَوَالِيهَا ثُمَّ الْمَرْبَعَاتُ ثُمَّ الْمُخَمَّسَاتُ الْخ وَفِي طُولِهِ كُلُّ عَدَدٍ وَأَشْكَالُهُ بِالْغَا مَا بَلَغَ وَتَخْدُثُ فِي جَمْعِهَا وَقِسْمِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضِ طُولًا وَعَرْضًا خَوَاصُّ غَرِيبَةٌ اسْتَقْرَيْتُ مِنْهَا وَتَقَرَّرَتْ فِي دَوَائِبِهِمْ مَسَائِلُهَا كَذَلِكَ مَا يَخْدُثُ لِلزَّوْجِ وَالْفَرْدِ وَزَوْجِ الزَّوْجِ وَزَوْجِ

(١) وفي نسخة أخرى : الاعداد .

(٢) وفي النسخة الباريسية : مثل الضلع .

الْفَرْدُ وَزَوْجُ الزَّوْجِ وَالْفَرْدُ فَإِنَّ لِكُلِّ مِنْهَا خَوَاصَّ مُخْتَصَّةً بِهِ تَضَمَّنَهَا هَذَا الْفَنُّ  
 وَلَيْسَتْ فِي غَيْرِهِ . وَهَذَا الْفَنُّ أَوَّلُ أَجْزَاءِ التَّعَالِيمِ وَأَثْبَتَهَا وَيَدْخُلُ فِي بَرَاهِينِ  
 الْحِسَابِ . وَلِلْحُكَمَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فِيهِ تَأْلِيفٌ ، وَأَكْثَرُهُمْ يَدْرَجُونَهُ فِي  
 التَّعَالِيمِ وَلَا يُفَرِّدُونَهُ بِالتَّأْلِيفِ . فَعَلَّ ذَلِكَ ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالنَّجَاةِ وَغَيْرُهُ  
 مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ . وَأَمَّا الْمُتَأَخِّرُونَ فَهُوَ عِنْدَهُمْ مَهْجُورٌ إِذْ هُوَ غَيْرُ مُتَدَاوِلٍ وَمَنْفَعَةٌ فِي  
 الْبَرَاهِينِ لَا فِي الْحِسَابِ فَهَجَرُوهُ لِذَلِكَ بَعْدَ أَنْ اسْتَخْلَصُوا زُبْدَتَهُ فِي الْبَرَاهِينِ  
 الْحِسَابِيَّةِ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ الْبَنَاءِ فِي كِتَابِ رَفْعِ الْحِجَابِ وَغَيْرِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى  
 أَعْلَمُ . ( وَمَنْ فُرِعَ عِلْمُ الْعَدَدِ صِنَاعَةُ الْحِسَابِ ) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ عِلْمِيَّةٌ فِي حِسَابِ  
 الْأَعْدَادِ بِالضَّمِّ وَالتَّفْرِيقِ . فَالضَّمُّ يَكُونُ فِي الْأَعْدَادِ بِالْأَفْرَادِ وَهُوَ الْجَمْعُ .  
 وَبِالتَّضْعِيفِ تَضَاعَفَ عَدَدًا بِأَحَادٍ عَدَدٍ آخَرَ وَهَذَا هُوَ الضَّرْبُ وَالتَّفْرِيقُ أَيْضًا يَكُونُ  
 فِي الْأَعْدَادِ إِمَّا بِالْأَفْرَادِ مِثْلَ إِزَالَةِ عَدَدٍ مِنْ عَدَدٍ وَمَعْرِفَةَ الْبَاقِي وَهُوَ الطَّرْحُ أَوْ تَفْصِيلُ  
 عَدَدٍ بِأَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ تَكُونُ عِدَّتُهَا مُحْصَلَةٌ وَهُوَ الْقِسْمَةُ . وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا الضَّمُّ  
 وَالتَّفْرِيقُ فِي الصَّحِيحِ مِنَ الْعَدَدِ أَوْ الْكَسْرِ . وَمَعْنَى الْكَسْرِ نِسْبَةُ عَدَدٍ إِلَى عَدَدٍ وَتِلْكَ  
 النِّسْبَةُ تُسَمَّى كَسْرًا . وَكَذَلِكَ يَكُونُ بِالضَّمِّ وَالتَّفْرِيقِ فِي الْجُذُورِ وَمَعْنَاهَا الْعَدَدُ  
 الَّذِي يُضْرَبُ فِي مِثْلِهِ فَيَكُونُ مِنْهُ الْعَدَدُ الْمُرَبَّعُ . فَإِنَّ تِلْكَ الْجُذُورَ أَيْضًا يَدْخُلُهَا  
 الضَّمُّ وَالتَّفْرِيقُ وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ حَادِثَةٌ احْتِيَاجٌ إِلَيْهَا لِلْحِسَابِ فِي الْمَعَامَلَاتِ وَالْأَلْفِ  
 النَّاسُ فِيهَا كَثِيرًا وَتَدَاوَلُوهَا فِي الْأَمْصَارِ بِالتَّعْلِيمِ لِلْوِلْدَانِ . وَمِنْ أَحْسَنِ التَّعْلِيمِ  
 عِنْدَهُمْ الْإِبْتِدَاءُ بِهَا لِأَنَّهَا مَعَارِفٌ مُتَّضِحَةٌ وَبَرَاهِينٌ مُنْتَظِمَةٌ فَيَنْشَأُ عَنْهَا فِي الْعَالِمِ  
 عَقْلٌ مُضِيءٌ دَرَبٌ عَلَى الصَّوَابِ . وَقَدْ يُقَالُ مَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِتَعْلِيمِ الْحِسَابِ أَوَّلَ أَمْرِهِ  
 إِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الصَّدْقُ لِمَا فِي الْحِسَابِ مِنْ صِحَّةِ الْمَبَانِي وَمُنَاقَشَةِ النَّفْسِ فَيَصِيرُ  
 ذَلِكَ خُلُقًا وَيَتَعَوَّدُ الصَّدْقَ وَيَلْزِمُهُ مَذْهَبًا . وَمِنْ أَحْسَنِ التَّأْلِيفِ الْمُبْسُوطَةِ فِيهَا  
 لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ كِتَابُ الْحِصَارِ الصَّغِيرِ . وَابْنُ الْبَنَاءِ الْمَرَاكِشِيُّ فِيهِ تَلْخِيصٌ  
 ضَاطِعٌ لِقَوَانِينِ أَعْمَالِهِ مُفِيدٌ ثُمَّ شَرَحَهُ بِكِتَابِ سَمَاءِ رَفْعِ الْحِجَابِ وَهُوَ مُسْتَعْلَقٌ عَلَى

الْمُبْتَدِيءِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْوَثِيقَةِ الْمَبَانِي وَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلٌ الْقَدْرِ أَدْرَكْنَا  
 الْمَشِيخَةَ تَعْظُمُهُ وَهُوَ كِتَابٌ جَدِيرٌ بِذَلِكَ . وَسَاوَقَ فِيهِ الْمُؤَلَّفُ رَحْمَةَ اللَّهِ كِتَابٌ  
 فِيهِ الْحِسَابُ ، لِإِثْنِ مُنْعِمٍ وَالْكَامِلِ لِلْأَخْذِ ، وَلِخَصِّ بَرَاهِينِهَا وَغَيْرِهَا عَنْ  
 اضْطِلَاحِ الْحُرُوفِ فِيهَا إِلَى عِلَلٍ مَعْنَوِيَّةٍ ظَاهِرَةٍ ، هِيَ سِرُّ الْإِشَارَةِ بِالْحُرُوفِ  
 وَزَبَدَتِهَا . وَهِيَ كُلُّهَا مُسْتَعْلَقَةٌ ، وَإِنَّمَا جَاءَهُ الْإِسْتِعْلَاقُ مِنْ طَرِيقِ الْبُرْهَانِ  
 بَيِّنٍ <sup>(١)</sup> عُلُومِ التَّعَالِيمِ لِأَنَّ مَسَائِلَهَا وَأَعْمَالَهَا وَاضِحَةٌ كُلُّهَا . وَإِذَا قُصِدَ شَرْحُهَا فَإِنَّمَا  
 هُوَ إِعْطَاءُ الْعِلَلِ فِي تِلْكَ الْأَعْمَالِ . وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْعُسْرِ عَلَى الْفَهْمِ مَا لَا يُوْجَدُ فِي  
 أَعْمَالِ الْمَسَائِلِ فَتَأَمَّلْهُ . وَاللَّهُ يَهْدِي بِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ . ( ومن  
 فروع الجبر والمقابلة ) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ يُسْتَخْرَجُ بِهَا الْعَدَدُ الْمَجْهُولُ مِنْ قَبْلِ  
 الْمَعْلُومِ الْمَفْرُوضِ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا نِسْبَةٌ تَقْتَضِي ذَلِكَ . فَاضْطَلَحُوا فِيهَا عَلَى أَنْ  
 جَعَلُوا لِلْمَجْهُولَاتِ مَرَاتِبَ مِنْ طَرِيقِ التَّضْعِيفِ بِالضَّرْبِ . أَوْلَاهَا الْعَدَدُ لِأَنَّهُ بِهِ  
 يَتَعَيَّنُ الْمَطْلُوبُ الْمَجْهُولُ بِاسْتِخْرَاجِهِ مِنْ نِسْبَةِ الْمَجْهُولِ إِلَيْهِ وَثَانِيهَا الشَّيْءُ لِأَنَّ  
 كُلَّ مَجْهُولٍ فَهُوَ مِنْ جِهَةٍ إِبْهَامِهِ شَيْءٌ وَهُوَ أَيْضاً جَذْرٌ لِمَا يَلْزَمُ مِنْ تَضْعِيفِهِ فِي  
 الْمُرْتَبَةِ الثَّانِيَّةِ وَثَالِثُهَا الْمَالُ وَهُوَ أَمْرٌ مَبْهُمٌ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَى نِسْبَةِ الْأَسِّ فِي  
 الْمَضْرُوبَيْنِ . ثُمَّ يَقَعُ الْعَمَلُ الْمَفْرُوضُ فِي الْمَسْأَلَةِ فَتَخْرُجُ إِلَى مُعَادَلَةٍ بَيْنَ مُخْتَلِفَيْنِ  
 أَوْ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ فَيَقَابِلُونَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ وَيَجْبُرُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْكُسْرِ  
 حَتَّى يَصِيرَ صَاحِحاً . وَيَخْطُونَ الْمَرَاتِبَ إِلَى أَقْلِ الْأَسُوسِ إِنْ أُمِكنَ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى  
 الثَّلَاثَةِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْجَبْرِ عِنْدَهُمْ وَهِيَ الْعَدَدُ وَالشَّيْءُ وَالْمَالُ . فَإِنْ كَانَتْ  
 الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَوَاحِدٍ تَعَيَّنَ الْمَالُ وَالْجَذْرُ يَزُولُ إِبْهَامُهُ بِمُعَادَلَةِ الْعَدَدِ وَيَتَعَيَّنُ .  
 وَالْمَالُ وَإِنْ عَادَلَ الْجَذُورَ فَيَتَعَيَّنُ بِعَدَّتِهَا . وَإِنْ كَانَتْ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ  
 أَخْرَجَهُ الْعَمَلُ الْهِنْدَسِيُّ مِنْ طَرِيقِ تَفْصِيلِ الضَّرْبِ فِي الْإِثْنَيْنِ وَهِيَ مُبْهَمَةٌ فَيَعَيَّنُهَا  
 ذَلِكَ الضَّرْبُ الْمُفْصَلُ . وَلَا يُمَكِّنُ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ . وَأَكْثَرَ مَا انْتَهَتْ

(١) وفي نسخة أخرى : شان .

الْمُعَادَلَةُ بَيْنَهُمْ إِلَى سِتِّ مَسَائِلٍ لِأَنَّ الْمُعَادَلَةَ بَيْنَ عَدَدٍ وَجَذْرٍ وَمَالٍ مُفْرَدَةٌ أَوْ مُرَكَّبَةٌ  
 تَجِيءُ سِتَّةَ . وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي هَذَا الْفَنِّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْخَوَارِزْمِيُّ وَبَعْدَهُ أَبُو كَامِلٍ  
 شُجَاعُ بْنُ أَسْلَمَ . وَجَاءَ النَّاسُ عَلَى أَثَرِهِ فِيهِ . وَكِتَابُهُ فِي مَسَائِلِهِ السَّتِّ مِنْ أَحْسَنِ  
 الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ فِيهِ . وَشَرَحَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فَأَجَادُوا وَمِنْ أَحْسَنِ  
 شُرُوحَاتِهِ كِتَابُ الْقُرَشِيِّ . وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ بَعْضَ أُمَّةِ التَّعَالِيمِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ أَنَّهُمْ  
 الْمُعَامَلَاتِ <sup>(١)</sup> إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هَذِهِ السَّتِّ الْأَجْنَاسِ . وَبَلَّغَهَا إِلَى فَوْقِ الْعِشْرِينَ  
 وَاسْتَخْرَجَ لَهَا كُلَّهَا أَعْمَالًا وَاتَّبَعَهُ بِيْرَاهِينَ هَنْدَسِيَّةَ . وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ  
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . ( وَمِنْ فُرُوعِهِ أَيْضًا الْمَعَامَلَاتُ ) . وَهُوَ تَضْرِيْفُ الْحِسَابِ فِي  
 مُعَامَلَاتِ الْمُدْنِ فِي الْبِيَاعَاتِ وَالْمَسَاحَاتِ وَالزُّكُوتِ وَسَائِرِ مَا يَعْرُضُ فِيهِ الْعَدَدُ  
 مِنَ الْمُعَامَلَاتِ يُصْرَفُ فِي صِنَاعَتِنَا ذَلِكَ الْحِسَابِ <sup>(٢)</sup> فِي الْمَجْهُولِ وَالْمَعْلُومِ وَالْكَسْرِ  
 وَالصَّحِيحِ وَالْجُذُورِ وَغَيْرِهَا . وَالْعَرَضُ مِنْ تَكْثِيرِ الْمَسَائِلِ الْمَفْرُوضَةِ فِيهَا حُصُولُ  
 الْمِرَانِ وَالذُّرْبَةِ بِتَكَرُّرِ الْعَمَلِ حَتَّى تَرْتَسِّخَ الْمَلَكَةُ فِي صِنَاعَةِ الْحِسَابِ . وَلِأَهْلِ  
 الصَّنَاعَةِ الْحِسَابِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ تَالِيفٌ فِيهَا مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ أَشْهَرِهَا مُعَامَلَاتُ  
 الزُّهْرَاوِيِّ وَابْنِ السَّمُحِ وَأَبِي مُسْلِمِ بْنِ خَلْدُونَ مِنْ تَلْمِيذِ مَسْلَمَةَ الْمَجْرِيطِيِّ  
 وَأَمْثَالِهِمْ . ( وَمِنْ فُرُوعِهِ أَيْضًا الْفَرَائِضُ ) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ فِي تَصْحِيحِ السَّهَامِ  
 لِذَوِي الْفُرُوضِ فِي الْوَرَاثَاتِ إِذَا تَعَدَّدَتْ وَهَلَكَ بَعْضُ الْوَارِثِينَ وَأَنْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى  
 وَرَثَتِهِ أَوْ زَادَتْ الْفُرُوضُ عِنْدَ اجْتِمَاعِهَا وَتَزَاحُمِهَا عَلَى الْمَالِ كُلِّهِ أَوْ كَانَ فِي الْفَرِيضَةِ  
 إِقْرَارٌ وَإِنْكَارٌ مِنْ بَعْضِ الْوَرَثَةِ فَتَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى عَمَلٍ يُعَيِّنُ بِهِ سِهَامَ الْفَرِيضَةِ  
 مِنْ كَمْ تَصَحُّ وَسِهَامِ الْوَرَثَةِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ مُصْحَحًا حَتَّى تَكُونَ حُظُوظُ الْوَارِثِينَ مِنْ  
 الْمَالِ عَلَى نِسْبَةِ سِهَامِهِمْ مِنْ جُمْلَةِ سِهَامِ الْفَرِيضَةِ . فَيَدْخُلُهَا مِنْ صِنَاعَةِ الْحِسَابِ  
 جُزْءٌ كَبِيرٌ مِنْ صَحِيحِهِ وَكُسْرُهُ وَجَذْرُهُ <sup>(٣)</sup> وَمَعْلُومِهِ وَمَجْهُولِهِ وَتَرْتَّبُ عَلَى تَرْتِيبِ

(١) وفي نسخة أخرى : المعادلات .

(٢) وفي نسخة أخرى : تصرف في ذلك صناعتنا الحساب .

(٣) وفي نسخة أخرى : كسوره وجذوره .

أَبْوَابِ الْفَرَائِضِ الْفِقْهِيَّةِ وَمَسَائِلِهَا . فَتَشْتَمِلُ حِينَئِذٍ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ عَلَى جُزْءٍ مِنَ الْفَقْهِ  
وَهُوَ أَحْكَامُ الْوَرَاثَةِ<sup>(١)</sup> مِنَ الْفُرُوضِ وَالْعَوْلِ وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ وَالْوَصَايَا وَالتَّدْبِيرِ  
وَعَيْرُ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِهَا وَعَلَى جُزْءٍ مِنَ الْحِسَابِ وَهُوَ تَصْحِيحُ السُّهْمَانِ بِإِعْتِبَارِ  
الْحُكْمِ الْفِقْهِيِّ وَهِيَ مِنْ أَجْلِ الْعُلُومِ . وَقَدْ يُورَدُ أَهْلُهَا أَحَادِيثَ نَبَوِيَّةً تَشْهَدُ بِفَضْلِهَا  
مِثْلَ الْفَرَائِضِ ثَلَاثُ الْعِلْمِ وَأَنَّهَا أَوْلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ الْعُلُومِ وَعَيْرُ ذَلِكَ . وَعِنْدِي أَنَّ  
ظَوَاهِرَ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي الْفَرَائِضِ الْعَيْنِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ لَا فَرَائِضِ  
الْوَرَاثَاتِ فَإِنَّهَا أَقْلُ مَنْ أَنْ تَكُونَ فِي كَمِّيَّتِهَا ثَلَاثُ الْعِلْمِ . وَأَمَّا الْفَرَائِضُ الْعَيْنِيَّةُ  
فَكَثِيرَةٌ وَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْفَنِّ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَأَوْعَبُوا وَمِنْ أَحْسَنِ التَّالِيفِ فِيهِ  
عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابُ ابْنِ ثَابِتٍ وَمُخْتَصَرُ الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ  
الْحَوْفِيِّ وَكِتَابُ ابْنِ الْمُنَمَّرِ وَالْجَعْدِيِّ وَالصُّرَدِيِّ<sup>(٢)</sup> وَعَيْرِهِمْ . لَكِنَّ الْفَضْلَ لِلْحَوْفِيِّ  
فَكِتَابُهُ مُقَدَّمٌ عَلَى جَمِيعِهَا . وَقَدْ شَرَحَهُ مِنْ شُيُوخِنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ  
الشَّطِّيُّ كَبِيرُ مَشِيخَةِ فَاسَ فَأَوْضَحَ وَأَوْعَبَ . وَإِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِيهَا تَالِيفٌ عَلَى  
مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ تَشْهَدُ بِاتِّسَاعِ بَاعِهِ فِي الْعُلُومِ ، وَرَسُوخِ قَدَمِهِ ، وَكَذَا لِلْحَنْفِيَّةِ  
وَالْحَنَابِلَةِ . وَمَقَامَاتُ النَّاسِ فِي الْعُلُومِ مُخْتَلِفَةٌ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِمَنْهٍ وَكَرَمِهِ  
لَا رَبَّ سِوَاهُ .

(١) وفي نسخة أخرى : الوراثة .

(٢) وفي النسخة الباريسية : والضوذي .

## الفصل الحادي والعشرون

### في العلوم الهندسية

هَذَا الْعِلْمُ هُوَ النَّظَرُ فِي الْمَقَادِيرِ إِذَا الْمُتَّصِلَةَ كَالْحَطِّ وَالسُّطْحِ وَالْجِسْمِ وَإِذَا الْمُنْفَصِلَةَ كَالْأَعْدَادِ وَفِيمَا يَعْضُرُ لَهَا مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّائِيَّةِ . مِثْلُ أَنْ كُلُّ مُثَلَّثٍ فَرْوَايَاهُ مِثْلُ قَائِمَتَيْنِ . وَمِثْلُ أَنْ كُلَّ خَطِّينِ مُتَوَازِيَيْنِ لَا يَلْتَقِيَانِ فِي وَجْهِهِ وَلَوْ خَرَجَا إِلَى غَيْرِ نَهَائِهِ . وَمِثْلُ أَنْ كُلَّ خَطِّينِ مُتَقَاطِعَيْنِ فَالزَّائِيَتَانِ الْمُتَقَابِلَتَانِ مِنْهُمَا مُتَسَاوِيَتَانِ . وَمِثْلُ أَنْ الْأَرْبَعَةَ مَقَادِيرَ الْمُتَنَاسِبَةِ ضَرْبُ الْأَوَّلِ مِنْهَا فِي الثَّلَاثِ كَضَرْبِ الثَّانِي فِي الرَّابِعِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَالْكِتَابُ الْمُتَرْجَمُ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ كِتَابُ أَوْقْلِيدِسَ وَيُسَمَّى كِتَابَ الْأَصُولِ وَكِتَابَ الْأَرْكَانِ وَهُوَ أَبْسَطُ مَا وُضِعَ فِيهَا لِلْمُتَعَلِّمِينَ وَأَوَّلُ مَا تُرْجِمَ مِنْ كِتَابِ الْيُونَانِيِّينَ فِي الْمِلَّةِ أَيَّامَ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ وَنَسْخُهُ مُخْتَلِفَةٌ بِاخْتِلَافِ الْمُتَرْجِمِينَ . فَمِنْهَا لِخُنَيْنِ بْنِ إِسْحَاقَ وَلِثَابِتِ بْنِ قِرَّةَ وَلِيُوسُفَ بْنِ الْحَجَّاجِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسِ عَشْرَةَ مَقَالَةً ، أَرْبَعٌ فِي السُّطُوحِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْأَقْدَارِ الْمُتَنَاسِبَةِ وَأُخْرَى فِي نِسْبِ السُّطُوحِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَلَاثٌ فِي الْعِدَدِ وَالْعَاشِرَةَ فِي الْمُنْطِقَاتِ وَالْقَوَى عَلَى الْمُنْطِقَاتِ وَمَعْنَاهُ الْجُدُورُ وَخَمْسٌ فِي الْمَجَسَّمَاتِ . وَقَدْ اخْتَصَرَهُ النَّاسُ اخْتِصَارَاتٍ <sup>(١)</sup> كَثِيرَةً كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ سِينَا فِي تَعَالِيمِ الشِّفَاءِ . أَفْرَدَ لَهُ جُزْءًا مِنْهَا اخْتِصَصَهُ بِهِ . وَكَذَلِكَ ابْنُ الصَّلْتِ فِي كِتَابِ الْإِقْتِصَارِ وَغَيْرِهِمْ . وَشَرَحَهُ آخَرُونَ شُرُوحًا كَثِيرَةً وَهُوَ مَبْدَأُ الْعُلُومِ الْهِنْدِيَّةِ بِإِطْلَاقٍ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْهِنْدُسَةَ تَمِيدُ صَاحِبَهَا إِضَاءَةً فِي عَقْلِهِ وَاسْتِقَامَةً فِي فِكْرِهِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا كُلَّهَا بَيِّنَةٌ الْإِنْتِظَامِ جَلِيلَةٌ التَّرْتِيبِ لَا يَكَادُ الْغَلَطُ يَدْخُلُ أَقْسِمَتَهَا لِتَرْتِيبِهَا وَإِنْتِظَامِهَا فَيَبْعُدُ الْفِكْرُ بِمُمَارَسَتِهَا عَنِ الْخَطَا وَيَنْشَأُ لِصَاحِبِهَا عَقْلٌ عَلَى ذَلِكَ الْمُهَيِّعِ وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِ أَفْلَاطُونِ : « مَنْ لَمْ يَكُنْ مَهْنِدِسًا

(١) وفي نسخة أخرى : مختصرات .

وَلَا يَدْخُلْنَ مَنْزِلَنَا » وَكَانَ شَيْوُخُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقُولُونَ : « مُمَارَسَةُ عِلْمِ الْهِنْدَسَةِ  
 لِلْفِكْرِ بِمَثَابَةِ الصَّابُونِ لِلثُّوبِ الَّذِي يَغْسِلُ مِنْهُ الْأَقْدَارَ وَيُنْقِيهِ مِنَ الْأَوْصَارِ  
 وَالْأَذْرَانِ » . وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنْ تَرْبِيئِهِ وَانْتِظَامِهِ . ( ومن فروع هذا الفن  
 الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية والمخروطات ) . أَمَّا الْأَشْكَالُ الْكُرْوِيَّةُ  
 فَفِيهَا كِتَابَانِ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِيِّينَ لِثَاوَدُوسِيوسَ وَمِيلَاوُشَ فِي سَطُوحِهَا وَقَطُوعِهَا  
 وَكِتَابُ ثَاوَدُوسِيوسَ مُقَدِّمٌ فِي التَّعْلِيمِ عَلَى كِتَابِ مِيلَاوُشَ لِتَوْقُفِ كَثِيرٍ مِنْ بَرَاهِينِهِ  
 عَلَيْهِ . وَلَا بَدَّ مِنْهُمَا لِمَنْ يُرِيدُ الْخَوْضَ فِي عِلْمِ الْهَيْئَةِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا مُتَوَقِّفَةٌ عَلَيْهِ .  
 فَالْكَلَامُ فِي الْهَيْئَةِ كُلُّهُ كَلَامٌ فِي الْكُرَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهَا مِنَ الْقَطُوعِ  
 وَالذَّوَائِرِ بِأَسْبَابِ الْحَرَكَاتِ كَمَا نَذَكُرُهُ فَقَدْ تَيَقَّفَ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ الْأَشْكَالِ  
 الْكُرْوِيَّةِ سَطُوحِهَا وَقَطُوعِهَا . وَأَمَّا الْمَخْرُوطَاتُ فَهِيَ مِنْ فُرُوعِ الْهِنْدَسَةِ أَيْضًا . وَهُوَ  
 عِلْمٌ يَنْظُرُ فِيَمَا يَقَعُ فِي الْأَجْسَامِ الْمَخْرُوطَةِ مِنَ الْأَشْكَالِ وَالْقَطُوعِ وَيَبْرَهُنَ عَلَى  
 مَا يَعْرِضُ لِذَلِكَ مِنَ الْعَوَارِضِ بِبَرَاهِينِ هِنْدَسِيَّةٍ مُتَوَقِّفَةٍ عَلَى التَّعْلِيمِ الْأَوَّلِ .  
 وَفَائِدَتُهَا تَظْهَرُ فِي الصَّنَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي مَوَادُّهَا الْأَجْسَامُ مِثْلَ النَّجَارَةِ وَالْبِنَاءِ وَكَيْفَ  
 تُصْنَعُ التَّمَائِيلُ الْغَرِيبَةُ وَالْهَيْكَلُ النَّادِرَةُ وَكَيْفَ يُتَخَيَّلُ عَلَى جَرِّ الْأَثْقَالِ وَنَقْلِ  
 الْهَيْكَلِ بِالْهِنْدَامِ وَالْمِيخَالِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَقَدْ أَفْرَدَ بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ فِي هَذَا الْفَنِّ  
 كِتَابًا فِي الْحِيلِ الْعِلْمِيَّةِ يَتَّصِفُ مِنَ الصَّنَاعَاتِ الْغَرِيبَةِ وَالْحِيلِ الْمُسْتَظْرَفَةِ كُلِّ  
 عَجِيبَةٍ . وَرُبَّمَا اسْتَعْلَقَ عَلَى الْفُهُومِ لِصُعُوبَةِ بَرَاهِينِ الْهِنْدَسِيَّةِ وَهُوَ مُوجُودٌ بِأَيْدِي  
 النَّاسِ يَنْسِبُونَهُ إِلَى بَنِي شَاكِرٍ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . ( ومن فروع الهندسة المساحة )  
 وَهُوَ فَنٌّ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مَسْحِ الْأَرْضِ وَمَعْنَاهُ اسْتِخْرَاجُ مِقْدَارِ الْأَرْضِ الْمَعْلُومَةِ بِنِسْبَةِ  
 شِبْرٍ أَوْ ذِرَاعٍ أَوْ غَيْرِهِمَا وَنِسْبَةِ أَرْضٍ مِنْ أَرْضٍ إِذْ قَوِيستَ بِمِثْلِ ذَلِكَ . وَيُحْتَاجُ إِلَى  
 ذَلِكَ فِي تَوْظِيفِ الْخَرَاجِ عَلَى الْمَزَارِعِ وَالْقُدُنِ وَبَسَاتِينِ الْغِرَاسَةِ وَفِي قِسْمَةِ الْحَوَائِطِ  
 وَالْأَرْضِي بَيْنَ الشُّرَكَاءِ أَوْ الْوَرَثَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَلِلنَّاسِ فِيهَا مَوْضُوعَاتٌ حَسَنَةٌ  
 وَكَثِيرَةٌ وَاللَّهُ الْمُؤَقُّ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ . ( المناظرة من فروع الهندسة ) وَهُوَ



عَلْمٌ يَتَّبِعُنُ بِهِ أَسْبَابَ الْغَلَطِ فِي الْإِذْرَاكِ الْبَصْرِيِّ بِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ وَقُوعِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ  
 إِذْرَاكَ الْبَصْرِ يَكُونُ بِمَخْرُوطٍ شُعَاعِي رَأْسُهُ نَقْطَةُ الْبَاصِرِ وَقَاعِدَتُهُ الْمَرْئِيُّ . ثُمَّ يَقَعُ  
 الْغَلَطُ كَثِيراً فِي رُؤْيَةِ الْقَرِيبِ كَثِيراً وَالْبَعِيدِ صَغِيراً . وَكَذَا رُؤْيَةُ الْأَشْبَاحِ الصَّغِيرَةِ  
 تَحْتَ الْمَاءِ وَوَرَاءَ الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ كَبِيرَةً وَرُؤْيَةُ النُّقْطَةِ النَّازِلَةِ مِنَ الْمَطَرِ خَطاً  
 مُسْتَقِماً وَالسَّلْقَةَ <sup>(١)</sup> دَائِرَةً وَأَمْثَالَ ذَلِكَ . فَيَتَّبِعُنُ فِي هَذَا الْعِلْمِ أَسْبَابَ ذَلِكَ وَكَيْفِيَّاتَهُ  
 بِالْبَرَاهِينِ الْهَنْدَسِيَّةِ وَيَتَّبِعُنُ بِهِ أَيْضاً اخْتِلَافَ الْمَنْظَرِ فِي الْقَمَرِ بِاخْتِلَافِ  
 الْعُرُوضِ <sup>(٢)</sup> الَّذِي يَنْبَغِي عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ رُؤْيَةِ الْأَهْلَةِ وَحُصُولِ الْكُسُوفَاتِ وَكَثِيرٍ مِنْ  
 أَمْثَالِ هَذَا . وَقَدْ أَلَّفَ فِي هَذَا الْفَنِّ كَثِيراً مِنَ الْيُونَانِيِّينَ . وَأَشْهُرُهُمْ مِنْ أَلْفٍ فِيهِ مِنَ  
 الْإِسْلَامِيِّينَ ابْنُ الْهَيْثَمِ . وَلِغَيْرِهِ أَيْضاً تَأْلِيفٌ وَهُوَ مِنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ وَتَفَارِيعِهَا .

## الفصل الثاني والعشرون

### في علم الهيئة

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي حَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَالْمُحْرَكَةِ وَالْمُتَحَيِّرَةِ . وَيَسْتَدَلُّ  
 بِكَيْفِيَّاتِ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ عَلَى أَشْكَالِ وَأَوْضَاعِ الْأَفْلَاقِ لَزِمَتْ عَنْهَا لِهَذِهِ الْحَرَكَاتِ  
 الْمَحْسُوسَةِ بِطَرِيقِ هَنْدَسِيَّةٍ . كَمَا يُبْرَهَنُ عَلَى أَنَّ مَرَكْزَ الْأَرْضِ مَبَايِنٌ لِمَرَكْزِ فَلَكِ  
 الشَّمْسِ بِوُجُودِ حَرَكَةِ الْإِقْبَالِ وَالْإِذْبَارِ وَكَمَا يُسْتَدَلُّ بِالرُّجُوعِ وَالِاسْتِقَامَةِ  
 لِلْكَوَاكِبِ عَلَى وُجُودِ أَفْلَاقٍ صَغِيرَةٍ حَامِلَةٍ لَهَا مُتَحَرِّكَةٌ دَاخِلٌ فَلَكِهَا الْأَعْظَمُ وَكَمَا  
 يُبْرَهَنُ عَلَى وُجُودِ الْفَلَكَ الثَّامِنِ بِحَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَكَمَا يُبْرَهَنُ عَلَى تَعَدُّدِ  
 الْأَفْلَاقِ لِلْكَوَاكِبِ الْوَاحِدِ بِتَعَدُّدِ الْمَيُولِ لَهُ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَإِذْرَاكَ الْمَوْجُودِ مِنَ  
 الْحَرَكَاتِ وَكَيْفِيَّاتِهَا وَأَجْنَاسِهَا إِنَّمَا هُوَ بِالرُّضْدِ فَإِنَّمَا عَلِمْنَا حَرَكَةَ الْإِقْبَالِ

(١) ورد في لسان العرب : « ابن شميل : السلق القاع المطنن المستوي لا شجر فيه . ولم ترد في لسان

العرب كلمة سلقة ولعلها محرفة عن السلق . وفي النسخة الباريسية : والشلمة .

(٢) هي خطوط العرض بخلاف خطوط الطول .

وَالْإِدْبَارَ بِهِ . وَكَذَا تَرْكِيبَ الْأَفْلَاقِ فِي طَبَقَاتِهَا وَكَذَا الرَّجُوعَ وَالِاسْتِقَامَةَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ . وَكَانَ الْيُونَانِيُّونَ يَعْتَنُونَ بِالرُّصْدِ كَثِيراً وَيَتَّخِذُونَ لَهُ الْآلَاتِ الَّتِي تَوْضَعُ لِيُرْصَدَ بِهَا حَرَكَةُ الْكَوْكَبِ الْمَعْيِنِ . وَكَانَتْ تُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَاتُ الْحَلْقِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِهَا وَالْبَرَاهِينُ عَلَيْهِ فِي مُطَابَقَةِ حَرَكَتِهَا بِحَرَكَةِ الْفَلَكَ مَنْقُولٌ بِأَيْدِي النَّاسِ . وَأَمَّا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ تَقَعْ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ . وَكَانَ فِي أَيَّامِ الْمَأْمُونِ شَيْءٌ مِنْهُ وَضَعُ هَذِهِ الْآلَةَ الْمَعْرُوفَةَ لِلرُّصْدِ الْمُسَمَّاءُ ذَاتُ الْحَلْقِ . وَشَرَعَ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَتِمَّ . وَلَمَّا مَاتَ ذَهَبَ رَسْمُهُ وَأَغْفَلَ وَعَاطَمَدَ مَنْ بَعْدَهُ عَلَى الْأُرْصَادِ الْقَدِيمَةِ وَلَيْسَتْ بِمُعْنِيَةٍ لِاخْتِلَافِ الْحَرَكَاتِ بِاتِّصَالِ الْأَحْقَابِ . وَأَنَّ مُطَابَقَةَ حَرَكَةِ الْآلَةِ لِلرُّصْدِ بِحَرَكَةِ الْأَفْلَاقِ وَالْكَوْكَبِ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقْرِيبِ . وَهَذِهِ الْهَيْئَةُ صِنَاعَةُ شَرِيفَةٌ وَلَيْسَتْ عَلَى مَا يُفْهَمُ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّهَا تُعْطِي صُورَةَ السَّمَاوَاتِ وَتَرْتِيبَ الْأَفْلَاقِ وَالْكَوْكَبِ بِالْحَقِيقَةِ بَلْ إِنَّمَا تُعْطِي أَنَّ هَذِهِ الصُّورَ وَالْهَيْئَاتِ لِلْأَفْلَاقِ لَرِمَتْ عَنْ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ . وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ لِأَزْمًا لِمُخْتَلَفَيْنِ وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْحَرَكَاتِ لِأَزْمَةٍ فَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِاللَّازِمِ عَلَى وُجُودِ الْمَلْزُومِ وَلَا يُعْطِي الْحَقِيقَةَ بِوَجْهِهِ عَلَى أَنَّهُ عِلْمٌ جَلِيلٌ وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ التَّعَالِيمِ . وَمِنْ أَحْسَنِ التَّلَايفِ فِيهِ كِتَابُ الْمِحْطِيِّ مَنْسُوبٌ لِطَبْلِيمُوسَ . وَلَيْسَ مِنْ مُلُوكِ الْيُونَانِ الَّذِينَ أَسْمَأَوْهُمْ بِطَبْلِيمُوسَ عَلَى مَا حَقَّقَهُ شُرَاحُ الْكِتَابِ . وَقَدْ اخْتَصَرَهُ الْأَيْمَةُ مِنْ حُكَمَاءِ الْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ سِينَا وَأَدْرَجَهُ فِي تَعَالِيمِ الشِّفَاءِ . وَلِخَصَّةِ ابْنِ رُشْدٍ أَيْضاً مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَابْنِ السَّمُحِ وَابْنِ أَبِي الصَّلْتِ فِي كِتَابِ الْإِقْتِصَارِ . وَابْنُ الْفَرُغَانِيِّ هَيْئَةُ مُلْخَصَّةٌ قَرَّبَهَا وَحَدَفَ بَرَاهِينَهَا الْهَنْدَسِيَّةَ . وَاللَّهُ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . ( وَمِنْ فُرُوعِهِ عِلْمُ الْإِزْيَاجِ <sup>(١)</sup> ) . وَهِيَ صِنَاعَةُ حِسَابِيَّةٌ عَلَى قَوَانِينٍ عَدَدِيَّةٍ فِيمَا يَخْصُ كُلَّ كَوْكَبٍ مِنْ طَرِيقِ حَرَكَتِهِ وَمَا أَدَّى إِلَيْهِ بُرْهَانُ الْهَيْئَةِ فِي وَضْعِهِ مِنْ سُرْعَةٍ وَبُطْءٍ وَاسْتِقَامَةٍ وَرُجُوعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ يُعْرَفُ بِهِ مَوَاضِعُ

(١) وفي النسخة الباريسية : حساب الازياج . وفي نسخة أخرى حساب الزيج .

الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا لِأَيِّ وَقْتٍ فُرِضَ مِنْ قَبْلِ حِسَابِ حَرَكَاتِهَا عَلَى تِلْكَ الْقَوَانِينِ  
 الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ كُتُبِ الْهَيْئَةِ . وَلِهَذَا الصَّنَاعَةُ قَوَانِينُ كَالْمُقَدَّمَاتِ وَالْأَصُولِ لَهَا فِي  
 مَعْرِفَةِ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ وَالتَّوَارِيخِ الْمَاضِيَةِ وَأَصُولٌ مُتَقَرَّرَةٌ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَوْجِ  
 وَالْحَضِيضِ وَالْمِيُولِ وَأَصْنَافِ الْحَرَكَاتِ وَاسْتِخْرَاجِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ يَضْعُونَهَا فِي  
 جَدُولٍ مُرْتَبَةٍ تَسْهِيلاً عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ وَتُسَمَّى الْأَزْيَاجِ . وَيُسَمَّى اسْتِخْرَاجِ مَوَاضِعِ  
 الْكَوَاكِبِ لِلْوَقْتِ الْمَفْرُوضِ لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ تَعْدِيلاً وَتَقْوِيماً . وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَأْلِيفُ  
 كَثِيرَةٌ لِلْمُقَدَّمِينَ وَالتَّأَخِّرِينَ مِثْلَ الْبَتَّانِيِّ <sup>(١)</sup> وَابْنِ الْكَمَّادِ . وَقَدْ عَوَّلَ الْمُتَأَخِّرُونَ  
 لِهَذَا الْعَهْدِ بِالمَغْرِبِ عَلَى زَيْجِ مَنْسُوبِ لِابْنِ إِسْحَاقَ مِنْ مَنْجَمِيِّ تُونِسَ فِي أَوَّلِ الْمِائَةِ  
 السَّابِعَةِ . وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ عَوَّلَ فِيهِ عَلَى الرَّصِدِ . وَأَنَّ يَهُودِيًّا كَانَ بِصِفَلِيَّةَ  
 مَاهِرًا فِي الْهَيْئَةِ وَالتَّعَالِيمِ وَكَانَ قَدْ عَنِيَ بِالرَّصِدِ وَكَانَ يُبْعَثُ إِلَيْهِ بِمَا يَقَعُ فِي  
 ذَلِكَ <sup>(٢)</sup> مِنْ أَحْوَالِ الْكَوَاكِبِ وَحَرَكَاتِهَا فَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ لِذَلِكَ عُنُوا بِهِ لِوَثَاقَةِ  
 مَبْنَاءِ عَلَى مَا يَزْعُمُونَ . وَلِخُصَّةِ ابْنِ الْبَنَاءِ فِي آخِرِ سَمَاءِ الْمَنْهَاجِ فَوَلَعَ بِهِ النَّاسَ لِمَا  
 سَهَّلَ مِنَ الْأَعْمَالِ فِيهِ وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَى مَوَاضِعِ الْكَوَاكِبِ مِنَ الْفَلَكَ لِتَنْبِيهِ عَلَيْهَا  
 الْأَحْكَامَ النُّجُومِيَّةَ وَهُوَ مَعْرِفَةُ الْأَنْوَارِ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا بِأَوْضَاعِهَا فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ  
 مِنَ الْمَلِكِ وَالدُّوَلِ وَالمَوَالِيدِ الْبَشَرِيَّةِ وَالكَوَانِينِ الْحَادِثَةِ كَمَا نُبَيِّنُهُ بَعْدَ وَنُوضِحُ فِيهِ  
 أَدَلَّتْهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ لَا مَعْبُودَ سِوَاهُ .

(١) قوله البتاني يفتح للموحدة وتشديد المثناة كما ضبطه ابن خلكان في ترجمته قبيل آخر المحدثين .

(٢) وفي النسخة الباريسية ، بما يصح له من ذلك .

## الفصل الثالث والعشرون

### في علم المنطق

وَهُوَ قَوَانِينٌ يُعْرَفُ بِهَا الصَّحِيحُ مِنَ الْفَاسِدِ فِي الْحُدُودِ الْمَعْرِفَةِ<sup>(١)</sup> لِلْمَاهِيَّاتِ  
وَالْحَجَجِ الْمُفِيدَةِ لِلتَّصَدِيقَاتِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْإِدْرَاكِ إِنَّمَا هُوَ الْمَحْسُوسَاتُ  
بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ . وَجَمِيعَ الْحَيَوَانَاتِ مُشْتَرِكَةٌ فِي هَذَا الْإِدْرَاكِ مِنَ النَّاطِقِ وَغَيْرِهِ  
وَإِنَّمَا يَتَمَيَّزُ الْإِنْسَانُ عَنْهَا بِإِدْرَاكِ الْكُلِّيَّاتِ وَهِيَ مُجَرَّدَةٌ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ . وَذَلِكَ  
بِأَنَّ يَحْضُلَ فِي الْخَيَالِ مِنَ الْأَشْخَاصِ الْمُتَّفِقَةِ صُورَةٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ تِلْكَ  
الْأَشْخَاصِ الْمَحْسُوسَةِ وَهِيَ الْكُلِّيُّ . ثُمَّ يَنْظُرُ الذَّهْنُ بَيْنَ تِلْكَ الْأَشْخَاصِ الْمُتَّفِقَةِ  
وَأَشْخَاصٍ أُخْرَى تَوَافِقُهَا فِي بَعْضٍ فَيَحْضُلُ لَهُ صُورَةٌ تُنْطَبِقُ أَيْضاً عَلَيْهِمَا بِاعْتِبَارِ  
مَا اتَّفَقَا فِيهِ . وَلَا يَزَالُ يَرْتَقِي فِي التَّجْرِيدِ إِلَى الْكُلِّ الَّذِي لَا يَجِدُ كُلِّيًّا آخَرَ مَعَهُ  
يُؤَافِقُهُ فَيَكُونُ لِأَجْلِ ذَلِكَ بَسِيطاً . وَهَذَا مِثْلُ مَا يَجْرُدُ مِنَ أَشْخَاصِ الْإِنْسَانِ صُورَةٌ  
النَّوعِ الْمُنْطَبِقَةَ عَلَيْهَا . ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَوَانِ وَيَجْرُدُ صُورَةٌ الْجِنْسِ  
الْمُنْطَبِقَةَ عَلَيْهِمَا . ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ النَّبَاتِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْجِنْسِ الْعَالِيِّ  
وَهُوَ الْجَوْهَرُ فَلَا يَجِدُ كُلِّيًّا يُؤَافِقُهُ فِي شَيْءٍ فَيَقِفُ الْعَقْلُ هُنَالِكَ عَنِ التَّجْرِيدِ . ثُمَّ إِنَّ  
الْإِنْسَانَ لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ لَهُ الْفِكْرَ الَّذِي بِهِ يُدْرِكُ الْعُلُومَ وَالصَّنَائِعَ وَكَانَ الْعِلْمُ ، إِمَّا  
تَصَوُّراً لِلْمَاهِيَّاتِ وَيَعْنَى بِهِ إِدْرَاكٌ سَادِحٌ مِنْ غَيْرِ حَكْمٍ مَعَهُ وَإِمَّا تَصَدِيقاً أَيْ حُكْماً  
بِثْبُوتِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ فَصَارَ سَعْيُ الْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبَاتِ إِمَّا بِأَنَّ تُجْمَعَ تِلْكَ  
الْكُلِّيَّاتُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ التَّأْلِيفِ فَتَحْضُلُ صُورَةٌ فِي الذَّهْنِ كُلِّيَّةٌ مُنْطَبِقَةٌ  
عَلَى أَفْرَادٍ فِي الْخَارِجِ فَتَكُونُ تِلْكَ الصُّورَةُ الذَّهْنِيَّةُ مُفِيدَةً لِمَعْرِفَةِ مَا هِيَ تِلْكَ  
الْأَشْخَاصِ وَإِمَّا بِأَنَّ يُحْكَمَ بِأَمْرٍ عَلَى أَمْرٍ فَيُثْبِتَ لَهُ وَيَكُونُ ذَلِكَ تَصَدِيقاً . وَعَايَتُهُ  
فِي الْحَقِيقَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى التَّصَوُّرِ لِأَنَّ فَائِدَةَ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ

(١) وفي نسخة أخرى : المعروفة .

الأشياء التي هي مقتضى العلم الحكمي . وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد فاقضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية ليمتيز الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق . وتكلم فيه المتقدمون أول ما تكلموا به جملاً وجملاً ومفترقاً مفترقاً . ولم تهذب طرقة ولم تجمع مسائله حتى ظهر في يونان أرسطو فهذب مباحثه<sup>(١)</sup> ورتب مسائله وفصوله وجعله أول العلوم الحكمية وفتحها . ولذلك يسمى بالمعلم الأول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى النص وهو يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة<sup>(٢)</sup> في مادته . وذلك أن المطالب التصديقية على أنحاء . فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبيعته ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهو على مراتب فينظر في القياس من حيث المطلوب الذي يفيد وما ينبغي أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار ومن أي جنس يكون من العلم أو من الظن . وقد ينظر في القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة إنتاجه خاصة . ويقال للنظر الأول إنه من حيث المادة ونعني به المادة المنتجة للمطلوب المخصوص من يقين أو ظن ويقال للنظر الثاني إنه من حيث الصورة وإنتاج القياس على الإطلاق فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية : الأول في الأجناس العالية التي ينتهي إليها تجريد المحسوسات وهي التي ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات . والثاني في القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب العبارة . والثالث في القياس وصورة إنتاجه على الإطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة . ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنتج لليقين وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية . ويختص بشروط أخرى لإفادة اليقين المذكورة فيه مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك . وفي هذا الكتاب الكلام في المعارف والحدود إذ المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب

( ١ ) وفي النسخة الباريسية : مناخيه .

( ٢ ) وفي النسخة الباريسية : وخسة .

المطابقة بين الحد والمحدود لا تختمل غيرها فإذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب . والخامس : كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإفحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات ويختص أيضاً من جهة إفادته لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث إفادته لهذا الغرض وهي مذكورة هناك . وفي هذا الكتاب يذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه وفيه عكوس القضايا . والسادس : كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد لاف الحق ويعالط به المناظر صاحبه وهو فاسد وهذا إنما كتب ليعرف به القياس المغالطي فيحذر منه . والسابع : كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات . والثامن : كتاب الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للإقبال على الشيء أو النفرة عنه وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا الخيلية . هذه هي كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين . ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذببت الصناعة ورثبت رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمس المفيدة للتصور المطابق للماهيات في الخارج ، أو لأجزائها أو عوارضها وهي الجنس والفضل والنوع والخاص والعرض العام ، فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي الفن فصارت تسعاً وترجمت كلها في الملة الإسلامية . وكتبها وتداولها<sup>(١)</sup> فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الأندلس . ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها . ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته وهي الكلام في الحدود والرُسوم نقلوها من كتاب البرهان . وحذفوا كتاب المقولات لأن نظر المنطقي في العرض لا بالذات . وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس<sup>(٢)</sup> . وإن كان من كتاب الجدل في كتب المتقدمين لكان من

(١) وفي نسخة أخرى : تناولها .

(٢) فن الموضوعات المنطقية .

تَوَابِعِ الْكَلَامِ فِي الْقَضَايَا بِنِعْضِ الْوُجُوهِ ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِي الْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ إِنْتَاجُهُ  
لِلْمَطَالِبِ عَلَى الْعُمُومِ لَا بِحَسَبِ مَادَّةٍ وَحَدَّقُوا النَّظَرَ فِيهِ بِحَسَبِ الْمَادَّةِ وَهِيَ  
الْكَتُبُ الْخَمْسَةُ ، الْبُرْهَانُ وَالْجَدَلُ وَالْحِطَابَةُ وَالشُّعْرُ وَالسُّفْسُطَةُ . وَرَبَّمَا يَلُمُّ  
بَعْضُهُمْ بِالْيَسِيرِ مِنْهَا إِلْمَامًا وَأَغْفَلُوهَا كَأَن لَّمْ تَكُنْ هِيَ الْمَهْمُ الْمُعْتَمَدَ فِي الْفَنِّ . ثُمَّ  
تَكَلَّمُوا فِيهَا وَضَعُوهُ مِنْ ذَلِكَ كَلَامًا مُسْتَبِحْرًا وَنَظَرُوا فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَنٌّ بِرَأْسِهِ  
لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ آلَةٌ لِلْعُلُومِ فَطَالَ الْكَلَامُ فِيهِ وَاتَّسَعَ . وَأَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ الْإِمَامُ فَخَرُّ  
الَّذِي بَنَى الْخَطِيبِ وَمِنْ بَعْدِهِ أَفْضَلُ الَّذِينَ الْخَوْنَجِيُّ وَعَلَى كُتُبِهِ مُعْتَمَدُ الْمَشَارِقَةِ  
لِهَذَا الْعَهْدِ . وَهُوَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ كِتَابٌ كَشَفَ الْأَسْرَارَ وَهُوَ طَوِيلٌ وَاخْتَصَرَ فِيهَا  
مُخْتَصَرَ الْمَوْجِزَ وَهُوَ حَسَنٌ فِي التَّعْلِيمِ ثُمَّ مُخْتَصَرَ الْجَمَلِ فِي قَدَرِ أَرْبَعَةِ أَوْزَاقٍ أَخَذَ  
بِمَجَامِعِ الْفَنِّ وَأَصُولِهِ فَتَدَاوَلَهُ الْمُتَعَلِّمُونَ لِهَذَا الْعَهْدِ فَيَنْتَفِعُونَ بِهِ . وَهَجَرَتْ كُتُبُ  
الْمُتَقَدِّمِينَ وَطَرَفُهُمْ كَأَن لَّمْ تَكُنْ وَهِيَ مُمْتَلِئَةٌ مِنْ ثَمَرَةِ الْمَنْطِقِ وَفَائِدَتِهِ كَمَا قُلْنَا .  
وَاللَّهُ الْهَادِي لِلصَّوَابِ .

إِعْلَمَنَّ أَنَّ هَذَا الْفَنَّ قَدْ اشْتَدَّ النِّكَيرُ عَلَى انْتِحَالِهِ مِنْ مُتَقَدِّمِي السَّلَفِ  
وَالْمُتَكَلِّمِينَ ، وَبِالْعَوَا فِي الطَّغْنِ عَلَيْهِ وَالتَّخْذِيرِ مِنْهُ ، وَحَظَرُوا تَعَلُّمَهُ وَتَعْلِيمَهُ .  
وَجَاءَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ لَدُنِ الْغَزَالِيِّ وَالْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ ، فَسَامَحُوا فِي  
ذَلِكَ بَعْضَ الشَّيْءِ . وَأَكْبَ النَّاسُ عَلَى انْتِحَالِهِ مِنْ يَوْمِئِذٍ إِلَّا قَلِيلًا ، يَجْنَحُونَ فِيهِ  
إِلَى رَأْيِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، فَيَنْفِرُونَ عَنْهُ وَيُبَالِغُونَ فِي انْكَارِهِ . فَلَنْبِيَنَّ لَكَ نَكْتَةُ الْقَبُولِ  
وَالرَّدِّ فِي ذَلِكَ ، لِتَعَلُّمِ مَقَاصِدِ الْعُلَمَاءِ فِي مَذَاهِبِهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ لَمَّا وَضَعُوا  
عِلْمَ الْكَلَامِ لِنُصْرِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْحُجْجِ الْعَقْلِيَّةِ ، كَانَتْ طَرِيقَتُهُمْ فِي ذَلِكَ  
بِأَدِلَّةٍ خَاصَّةٍ وَذَكَرُوهَا فِي كُتُبِهِمْ كَالدَّلِيلِ عَلَى حَدِيثِ الْعَالَمِ بِإِثْبَاتِ الْأَعْرَاضِ  
وَخُدُوثِهَا ، وَامْتِنَاعِ خُلُوقِ الْأَجْسَامِ عَنْهَا ، وَمَا لَا يَخْلُوقُ عَنِ الْحَوَادِثِ حَدِيثٌ .  
وَكَإِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ بِدَلِيلِ التَّمَانِعِ ، وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ الْقَدِيمَةِ بِالْجَوَامِعِ الْأَرْبَعَةِ  
إِلْحَاقًا لِلغَائِبِ بِالشَّاهِدِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُدْلِيَّتِهِ الْمَذْكُورَةِ فِي كُتُبِهِمْ . ثُمَّ مَرَّرُوا تِلْكَ

الادلة بتمهيد قواعد و اصول هي كالمقدمات لها مثل اثبات الجوهر الفرد والزمن  
الفرد والخلاء بين الاجسام ونفي الطبيعة والتركيب العقلي للماهيات . وان  
العرض لا يبقى زمنين واثبات الحال وهي صفة لموجود ، لا موجودة ولا معدمة  
وغير ذلك من قواعدهم التي بنوا عليها ادلتهم الخاصة . ثم ذهب الشيخ ابو  
الحسن ، والقاضي ابو بكر والاشناذ ابو اسحاق إلا أن أدلة العقائد منعكسة  
بمعنى أنها إذا بطلت بطل مدلولها . ولهذا رأى القاضي أبو بكر أنها بمثابة  
العقائد والمدح فيها قدح في العقائد لإتنائها عليها . وإذا تأملت المنطق وجدته  
كله يدور على التركيب العقلي ، واثبات الكلي الطبيعي في الخارج لينطبق عليه  
الكلي الذهني المنقسم إلى الكليات الخمس ، التي هي الجنس والنوع والفصل  
والخاصة والعرض العام ، وهذا باطل عند المتكلمين . والكلي الذاتي عندهم  
إنما اعتبار ذهني ليس في الخارج ما يطابقه ، أو حال عند من يقول بها فتبطل  
الكليات الخمس والتعريف المبني عليها . والمفولات العشر ، ويبطل العرض  
الذاتي ، فتبطل بطلانه القضايا الضرورية الذاتية المشروطة في البرهان وتبطل  
المواضع التي هي لباب كتاب الجدال . وهي التي يؤخذ منها الوسط الجامع بين  
الطرفين في القياس ، ولا يبقى إلا القياس الصوري ، ومن التعريفات المساوية في  
الصادقية على أفراد المحمود ، لا يكون أعم منها ، فيدخل غيرها ، ولا أخص  
فيخرج بعضها ، وهو الذي يعبر عنه النحاة بالجمع والمنع والمتكلمون بالطرذ  
والعكس ، وتبطل أركان المنطق جملة . وإن أثبتنا هذه كما في علم المنطق  
أبطلنا كثيراً من مقدمات المتكلمين فيؤدي إلى إبطال أدلتهم على العقائد كما  
مر . فلماذا بالغ المتقدمون من المتكلمين في النكير على انتحال المنطق وعده  
بدعة أو كفراً على نسبة الدليل الذي يبطل . والمتأخرون من لذن الغزالي لما  
أنكروا انعكاس الأدلة ، ولم يلزم عندهم من بطلان الدليل بطلان مدلوله ، وصح  
عندهم رأي أهل المنطق في التركيب العقلي ووجود الماهيات الطبيعية وكلياتها



في الخارج ، قضا بأن المنطق غير منافي للعقائد الإيمانية ، وإن كان منافياً لبعض أدلتها ، بل قد يستدلون على إبطال كثير من تلك المقدمات الكلامية . كنفى الجوهر الفرد والخلاء وبقاء الأغراض وغيرها ، ويستبدلون من أدلة المتكلمين على العقائد بأدلة أخرى يصححونها بالنظر والقياس العقلي . ولم يفتح ذلك عندهم في العقائد السنية بوجه . وهذا رأي الإمام والغزالي وتابعيهما لهذا العهد ، فتأمل ذلك واعرف مدارك العلماء وما أخذهم فيما يذهبون إليه . والله الهادي والموفق للصواب .

## الفصل الرابع والعشرون

### في الطبيعيات

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعين وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك . وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو النفس على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات . وكتب أرسطو فيه موجوده بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون وألف الناس على حذوها مستشيعين لها بالبيان والشرح وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا ثم لخصه في كتاب النجا وفي كتاب الإشارات وكأنه يخالف أرسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها . وأما ابن رشد فلخص كتب أرسطو وشرحها متبعاً له غير مخالف . وألف الناس في ذلك كثيراً لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة . ولأهل المشرق عناية بكتاب الإشارات لابن سينا ولالإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الأبيدي وشرحه

أيضاً نصيرُ الدين الطوسيَ المعروفَ بِخواجه من أهل المشرق<sup>(١)</sup> وَبَحَثَ مَعَ الإِمَامِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِهِ فَأَوْفَى عَلَى أَنْظَارِهِ وَبُحُوثِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

## الفصل الخامس والعشرون

### في علم الطب

وَمِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ صِنَاعَةُ الطَّبِّ وَهِيَ صِنَاعَةٌ تَنْظُرُ فِي بَدَنِ الإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ يَمْرُضُ وَيَصْحُ فَيَحَاوِلُ صَاحِبُهَا حِفْظَ الصِّحَّةِ وَبُرْءَ المَرَضِ بِالأَدْوِيَةِ وَالأَغْذِيَةِ بَعْدَ أَنْ يَتَبَيَّنَ المَرَضُ الَّذِي يَخْصُ كُلُّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ البَدَنِ وَأَسْبَابِ تِلْكَ الأَمْرَاضِ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْهَا وَمَا لِكُلِّ مَرَضٍ مِنَ الأَدْوِيَةِ مُسْتَدَلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِأَمْرَجَةِ الأَدْوِيَةِ وَقَوَاهَا وَعَلَى المَرَضِ بِالعَلَامَاتِ المُؤَدِّنِ بِنُضْجِهِ وَقَبُولِهِ الدَّوَاءَ أَوَّلًا ، فِي السَّجِيَّةِ وَالفَضَلَاتِ وَالنَّبْضِ مُحَاذِينَ لِذَلِكَ قُوَّةَ الطَّبِيعَةِ فَإِنَّهَا المُدَبِّرَةُ فِي حَالَتِي الصِّحَّةِ وَالمَرَضِ . وَإِنَّمَا الطَّبِيبُ يُحَاذِيهَا وَيُعِينُهَا بَعْضَ الشَّيْءِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ المَادَّةِ وَالفَضْلِ وَالسَّنِّ وَيُسَمَّى العِلْمُ الجَامِعُ لِهَذَا كُلَّهُ عِلْمَ الطَّبِّ . وَرُبَّمَا أَفْرَدُوا بَعْضَ الأَعْضَاءِ بِالكَلَامِ وَجَعَلُوهُ عِلْمًا خَاصًّا ، كَالعَيْنِ وَعِلْمِهَا وَأَكْحَالِهَا . وَكَذَلِكَ أَلْحَقُوا بِالفِنِّ مِنْ مَنَافِعِ الأَعْضَاءِ وَمَعْنَاهَا المُنْفَعَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا خُلِقَ كُلُّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ البَدَنِ الحَيَوَانِيِّ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ الطَّبِّ إِلَّا أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ مِنْ لَوَاحِقِهِ وَتَوَابِعِهِ . وَإِمَامُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الَّتِي تُرْجِمَتْ كُتُبُهُ فِيهَا مِنَ الأَقْدَمِينَ جَالِينُوسُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مُعَاصِرًا لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيُقَالُ إِنَّهُ مَاتَ بِصِقْلِيَّةٍ فِي سَبِيلِ تَغْلِبِ<sup>(٢)</sup> وَمُطَاوَعَةِ اغْتِرَابِ - وَتَأَلَّفَهُ فِيهَا هِيَ الأَمَهَاتُ الَّتِي

(١) وفي النسخة الباريسية: من أهل العراق. ومقتضى السياق، المعروف بين أهل العراق بخواجه

والذکور ولد بطوس من أعمال ایران وتوفي في بغداد ( كتاب الاعلام لخير الدين الزركلي ) ج ١

(٢) وفي النسخة الباريسية: تغلب .

اقْتَدَى بِهَا جَمِيعُ الْأَطِبَّاءِ بَعْدَهُ . وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَيْمَّةً جَاءُوا مِنْ  
 وَرَاءِ الْغَايَةِ مِثْلَ الرَّازِي وَالْمَجُوسِي وَابْنِ سِينَا وَمِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ أَيْضاً كَثِيراً  
 وَأَشْهُرَهُمْ ابْنُ زُهَيْرٍ . وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْمُدُنِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَأَنَّهَا تَقَصَّتْ لِقُوفِ  
 الْعُمَرَانَ وَتَنَاقُصِهِ وَهِيَ مِنَ الصَّنَائِعِ الَّتِي لَا تَسْتَدْعِيهَا إِلَّا الْحَضَارَةُ وَالتَّرَفُ كَمَا  
 نَبَّيْنَهُ بَعْدَ . وَلِلْبَادِيَةِ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَانَ طِبٌّ يَبْنُونَهُ فِي غَالِبِ الْأُمْرِ عَلَى تَجْرِبَةِ  
 قَاصِرَةٍ عَلَى بَعْضِ الْأَشْخَاصِ مُتَوَارِثاً عَنْ مَشَايخِ الْحَيِّ وَعَجَائِزِهِ ، وَرُبَّمَا يَصْحُ مِنْهُ  
 الْبُغْضُ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى قَانُونِ طَبِيعِيٍّ وَلَا عَلَى مُوَافَقَةِ الْمِرْجَاجِ . وَكَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ  
 مِنْ هَذَا الطَّبِّ كَثِيراً وَكَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ مَعْرُوفُونَ كَالْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَغَيْرِهِ .  
 وَالطَّبُّ الْمُنْقُولُ فِي الشَّرْعِيَّاتِ <sup>(١)</sup> مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَلَيْسَ مِنَ الْوَحْيِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ  
 أَمْرٌ كَانَ عَادِيًّا لِلْعَرَبِ . وَوَقَعَ فِي ذِكْرِ أَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ نَوْعِ ذِكْرِ أَحْوَالِهِ  
 الَّتِي هِيَ عَادَةٌ وَجِبَلَةٌ لَا مِنْ جِهَةٍ أَنْ ذَلِكَ مَشْرُوعٌ عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ مِنَ الْعَمَلِ .  
 فَإِنَّهُ ﷺ إِنَّمَا يُعْتَلَمُنَا الشَّرَائِعَ وَلَمْ يُبْعَثْ لِتَعْرِيفِ الطَّبِّ وَلَا غَيْرِهِ مِنْ  
 الْعَادِيَّاتِ . وَقَدْ وَقَعَ لَهُ فِي شَأْنِ تَلْقِيحِ النَّخْلِ مَا وَقَعَ فَقَالَ : « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ  
 دُنْيَاكُمْ » . فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ شَيْءٌ مِنَ الطَّبِّ الَّذِي وَقَعَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ  
 الْمُنْقُولَةِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا اسْتَعْمَلَ عَلَى جِهَةِ  
 التَّبَرُّكِ وَصَدَقَ الْعَقْدُ الْإِيمَانِيُّ فَيَكُونُ لَهُ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي النَّفْعِ . وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الطَّبِّ  
 الْمِرْجَاجِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَثَارِ الْكَلِمَةِ الْإِيمَانِيَّةِ كَمَا وَقَعَ فِي مُدَاوَاةِ الْمَبْطُونِ بِالْعَسَلِ  
 وَنَحْوِهِ وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

(١) وفي النسخة الباريسية : في النبوات .

## الفصل السادس والعشرون

### في الفلاحة

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ مِنْ فُرُوعِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَهِيَ النَّظَرُ فِي النَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ تَنْمِيَّتُهُ وَنُشُوءُهُ بِالسَّقْيِ وَالْعِلَاجِ وَتَعَهُدُهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ <sup>(١)</sup> وَكَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ بِهَا عِنَايَةٌ كَثِيرَةٌ وَكَانَ النَّظَرُ فِيهَا عِنْدَهُمْ عَامًّا فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَتَنْمِيَّتِهِ وَمِنْ جِهَةِ خَوَاصِّهِ وَرُوحَانِيَّتِهِ وَمَشَاكِلَتِهَا لِرُوحَانِيَّاتِ الْكَوَاكِبِ وَالْهَيَاكِلِ الْمُسْتَعْمَلِ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي بَابِ السَّحْرِ فَعَظُمَتْ عِنَايَتُهُمْ بِهِ لِأَجْلِ ذَلِكَ . وَتُرْجَمَ مِنْ كُتُبِ الْيُونَانِيِّينَ كِتَابُ الْفِلَاحَةِ النَّبَطِيَّةِ مَنْسُوبَةً لِعُلَمَاءِ النَّبَطِ مُشْتَمَلَةٌ مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ كَبِيرٍ . وَلَمَّا نَظَرَ أَهْلُ الْمِلَّةِ فِيهَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ وَكَانَ بَابُ السَّحْرِ مَسْبُودًا وَالنَّظَرُ فِيهِ مَحْظُورًا فَاقْتَصَرُوا مِنْهُ عَلَى الْكَلَامِ فِي النَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَعِلَاجِهِ وَمَا يَغْرُضُ لَهُ فِي ذَلِكَ وَحَدَفُوا الْكَلَامَ فِي الْفَنِّ الْآخَرَ مِنْهُ جُمْلَةً . وَاخْتَصَرَ ابْنُ الْعَوَامِ كِتَابَ الْفِلَاحَةِ النَّبَطِيَّةِ عَلَى هَذَا الْمِنْهَاجِ وَبَقِيَ الْفَنُّ الْآخَرُ مِنْهُ مُغْفَلًا . نَقَلَ مِنْهُ مَسْلَمَةٌ فِي كُتُبِهِ السَّحْرِيَّةِ أَمْهَاتٍ مِنْ مَسَائِلِهِ كَمَا نَذَكُرُهُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى السَّحْرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَكُتِبَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْفِلَاحَةِ كَثِيرَةٌ وَلَا يَعْدُونَ فِيهَا الْكَلَامَ فِي الْغِرَاسِ وَالْعِلَاجِ وَحَفِظَ النَّبَاتِ مِنْ حَوَائِجِهِ وَعَوَائِقِهِ وَمَا يَغْرُضُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ .

(١) وفي نسخة أخرى : بالسقي والعلاج واستجادة النبات وصلاحيه الفصل وتماهده بما يصلحه ويتمه من

ذلك كله .

## الفصل السابع والعشرون

### في علم الإلهيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي الوجودِ الْمُطْلَقِ فَأَوَّلًا فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ لِلْجِسْمَانِيَّاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ مِنَ الْمَاهِيَّاتِ وَالْوَحْدَةِ وَالْكَثْرَةِ وَالْوُجُوبِ وَالْإِمْكَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ثُمَّ يَنْظُرُ فِي مَبَادِيءِ الْمَوْجُودَاتِ وَأَنَّهَا رُوحَانِيَّاتٌ ثُمَّ فِي كَيْفِيَّةِ صُدُورِ الْمَوْجُودَاتِ عَنْهَا وَمَرَاتِبِهَا <sup>(١)</sup> ثُمَّ فِي أَحْوَالِ النَّفْسِ بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْأَجْسَامِ وَعَوْدِهَا إِلَى الْمَبْدَأِ . وَهُوَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ شَرِيفٌ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُوقِفُهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ الوجودِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَنَّ ذَلِكَ عَيْنُ السَّعَادَةِ فِي زَعْمِهِمْ . وَسَيَاتِي الرُّدُّ عَلَيْهِمْ بَعْدُ . وَهُوَ تَالٍ لِلطَّبِيعِيَّاتِ فِي تَرْتِيبِهِمْ وَلِذَلِكَ يُسَمُّونَهُ عِلْمًا مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ . وَكُتِبَ الْمُعَلِّمُ الْأَوَّلُ فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ . وَلِخَصَّةِ <sup>(٢)</sup> ابْنِ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالنَّجَاةِ وَكَذَلِكَ لِخَصَّةِ <sup>(٣)</sup> ابْنِ رُشْدٍ مِنْ حُكَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ . وَلَمَّا وَضَعَ الْمُتَأَخَّرُونَ فِي عُلُومِ الْقَوْمِ وَدَوَّنُوا فِيهَا وَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْغَزَالِيُّ مَا رَدَّ مِنْهَا ثُمَّ خَلَطَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَسَائِلِ الْفَلَسَفَةِ لِاشْتِرَاكِهَمَا فِي الْمَبَاحِثِ ، وَتَشَابَهَ مَوْضُوعِ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَوْضُوعِ الْإِلَهِيَّاتِ وَمَسَائِلُهُ بِمَسَائِلِهَا فَصَارَتْ كَأَنَّهَا فَنٌ وَاحِدٌ ثُمَّ غَيَّرُوا تَرْتِيبَ الْحُكَمَاءِ فِي مَسَائِلِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ وَخَلَطُوهُمَا فَنَّا وَاحِدًا قَدَّمُوا الْكَلَامَ فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ ثُمَّ اتَّبَعُوهُ بِالْجِسْمَانِيَّاتِ وَتَوَابَعَهَا ثُمَّ بِالرُّوحَانِيَّاتِ وَتَوَابَعَهَا إِلَى آخِرِ الْعِلْمِ كَمَا فَعَلَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي الْمَبَاحِثِ الْمَشْرِقِيَّةِ وَجَمِيعٍ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ . وَصَارَ عِلْمُ الْكَلَامِ مُخْتَلِطًا بِمَسَائِلِ الْحِكْمَةِ وَكُتِبَتْ مَحْشُوءَةٌ بِهَا كَأَنَّ الْغَرَضَ مِنْ مَوْضُوعِهَا وَمَسَائِلِهَا وَاحِدٌ . وَالتَّبَسُّسُ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ وَهُوَ صَوَابٌ لِأَنَّ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ إِنَّمَا هِيَ عَقَائِدٌ مُتَلَقَّاةٌ مِنَ الشَّرِيعَةِ كَمَا نَقَلَهَا السَّلْفُ مِنْ غَيْرِ رُجُوعٍ فِيهَا إِلَى الْعَقْلِ وَلَا

(١) وفي النسخة الباريية : وترتيبها .

(٢) وفي النسخة الباريية : ولخصها ( والضمير يعود إلى الكتب ) .

(٣) الضمير يعود إلى كتب المعلم الأول .

تَعْوِيلٍ عَلَيْهِ بِمَعْنَى أَنَّهَا لَا تَثْبُتُ إِلَّا بِهِ فَإِنَّ الْعَقْلَ مَعْرُوفٌ عَنِ الشَّرْعِ وَأَنْظَارِهِ وَمَا تَحَدَّثَ فِيهِ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ إِقَامَةِ الْحُجَجِ فَلَيْسَ بِنَحْثٍ عَنِ الْحَقِّ فِيهَا فَالتَّغْلِيلُ<sup>(١)</sup> بِالذَّلِيلِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا هُوَ شَأْنُ الْفَلَسَفَةِ بَلْ إِنَّمَا هُوَ التَّمَّاسُ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ تَعَضُّدٌ عَقَائِدِ الْإِيْمَانِ وَمَذَاهِبِ السَّلَفِ فِيهَا وَتَدْفَعُ شَبَهَ أَهْلِ الْبِدْعِ عَنْهَا الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ مَدَارِكَهُمْ فِيهَا عَقْلِيَّةٌ . وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَفَرَّضَ صَحِيحَةٌ بِالْأَدَلَّةِ النَّقْلِيَّةِ كَمَا تَلَقَّاهَا السَّلَفُ وَاعْتَقَدُوهَا وَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ الْمُقَامَيْنِ . وَذَلِكَ أَنَّ مَدَارِكَ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ أَوْسَعُ لِاتِّسَاعِ نِطَاقِهَا عَنْ مَدَارِكَ الْأَنْظَارِ الْعَقْلِيَّةِ فِيهَا فَوْقَهَا وَمُحِيطَةٌ بِهَا لِاسْتِمْدَادِهَا مِنَ الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ فَلَا تَدْخُلُ تَحْتَ قَانُونِ النَّظَرِ الضَّعِيفِ وَالْمَدَارِكَ الْمُحَاطِ بِهَا . فَإِذَا هَدَانَا الشَّرْعُ إِلَى مُدْرِكٍ فَيَنْبَغِي أَنْ نُقَدِّمَهُ عَلَى مَدَارِكِنَا وَنَثِقَ بِهِ دُونَهَا وَلَا نَنْظُرَ فِي تَصْحِيحِهِ بِمَدَارِكَ الْعَقْلِ وَلَوْ عَارِضُهُ بَلْ نَعْتَمِدُ مَا أَمَرْنَا بِهِ اعْتِقَادًا وَعِلْمًا وَنَسَكْتُ عَمَّا لَمْ نَفْهَمْ مِنْ ذَلِكَ وَنَفُوضُهُ إِلَى الشَّرْعِ وَنَعْرِلُ الْعَقْلَ عَنْهُ . وَالْمُتَكَلِّمُونَ إِنَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ كَلَامُ أَهْلِ الْإِلْحَادِ فِي مُعَارَضَاتِ الْعَقَائِدِ السَّلَفِيَّةِ بِالْبِدْعِ النَّظَرِيَّةِ فَاحْتَجَّوْا إِلَى الرَّدِّ عَلَيْهِمْ مِنْ جِنْسِ مُعَارَضَاتِهِمْ وَاسْتَدْعَى ذَلِكَ الْحُجَجَ النَّظَرِيَّةَ وَمُحَادَاةَ الْعَقَائِدِ السَّلَفِيَّةِ بِهَا وَأَمَّا النَّظَرُ فِي مَسَائِلِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ بِالتَّصْحِيحِ وَالْبُطْلَانِ فَلَيْسَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ الْكَلَامِ وَلَا مِنْ جِنْسِ أَنْظَارِ الْمُتَكَلِّمِينَ . فَاعْلَمْ ذَلِكَ لِتَمَيُّزِ بِهِ بَيْنَ الْفَنَيْنِ فَإِنَّهُمَا مُخْتَلِطَانِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْوَضْعِ وَالتَّأْلِيفِ وَالْحَقُّ مُغَايِرَةٌ كُلُّ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ بِالْمَوْضُوعِ وَالْمَسَائِلِ وَإِنَّمَا جَاءَ الْإِلْتِبَاسُ مِنْ اتِّحَادِ الْمَطَالِبِ عِنْدَ الْاسْتِدْلَالِ وَصَارَ احْتِجَاجُ أَهْلِ الْكَلَامِ كَأَنَّهُ انْشَاءٌ لِطَلْبِ الْإِعْتِدَادِ بِالذَّلِيلِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ إِنَّمَا هُوَ رَدٌّ عَلَى الْمُلْحِدِينَ وَالْمَطْلُوبُ مَفْرُوضُ الصِّدْقِ مَعْلُومُهُ . وَكَذَا جَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ غُلَاةِ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ بِالْمَوْجِدِ أَيْضًا فَخَلَطُوا مَسَائِلَ الْفَنَيْنِ بَيْنَهُمْ وَجَعَلُوا الْكَلَامَ وَاحِدًا فِيهَا كُلَّهَا مِثْلَ كَلَامِهِمْ فِي النُّبُوتِ وَالْإِتِّحَادِ وَالْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَالْمَدَارِكَ فِي هَذِهِ

(١) وفي نسخة أخرى : ليعلم .

الْفُنُونِ الثَّلَاثَةِ مُتَغَايِرَةً مُخْتَلِفَةً وَأَبْعَدَهَا مِنْ جِنْسِ الْفُنُونِ وَالْعُلُومِ مَدَارِكِ الْمُتَّصِفَةِ  
لَأَنَّهُمْ يَدْعُونَ فِيهَا الْوُجْدَانَ وَيَفِرُّونَ عَنِ الدَّلِيلِ وَالْوُجْدَانَ يَبْعِدُ عَنِ الْمَدَارِكِ  
الْعِلْمِيَّةِ وَأَبْحَاثِهَا<sup>(١)</sup> وَتَوَابِعِهَا كَمَا بَيَّنَّاهُ وَبَيَّنَّهُ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقِ  
مُسْتَقِيمٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالضُّوَابِ .

## الفصل الثامن والعشرون

### في علوم السحر والطلسمات

وَهِيَ عُلُومٌ بِكَيْفِيَّةِ اسْتِعْدَادَاتِ تَقْتَدِرُ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ بِهَا عَلَى التَّأثيرَاتِ فِي  
عَالَمِ الْعُنَاصِرِ إِمَّا بِغَيْرِ مَعِينٍ أَوْ بِمَعِينٍ مِنَ الْأُمُورِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَوَّلُ هُوَ السَّحْرُ  
وَالثَّانِي هُوَ الطَّلَسْمَاتُ وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ مَهْجُورَةً عِنْدَ الشَّرَائِعِ لِمَا فِيهَا مِنْ  
الضَّرَرِ وَلَمَّا يُشْتَرَطُ فِيهَا مِنَ الْوَجْهِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ مِنْ كَوْكَبٍ أَوْ غَيْرِهِ كَانَتْ كُتُبُهَا  
كَالْمَقْقُودَةِ بَيْنَ النَّاسِ . إِلَّا مَا وَجَدَ فِي كُتُبِ الْأَقْدَمِينَ فِيمَا قَبْلَ نُبُوءَةِ مُوسَى  
عَلَيْهِ السَّلَامُ مِثْلَ النَّبِطِ وَالْكَلدَانِيِّينَ فَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَشْرَعُوا  
الشَّرَائِعَ وَلَا جَاءُوا بِالْأَحْكَامِ إِنَّمَا كَانَتْ كُتُبُهُمْ مَوَاعِظَ وَتَوْحِيداً لِلَّهِ وَتَذْكِيراً بِالْجَنَّةِ  
وَالنَّارِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ فِي أَهْلِ بَابِلَ مِنَ السَّرْيَانِيِّينَ وَالْكَلدَانِيِّينَ وَفِي أَهْلِ مِصْرَ  
مِنَ الْقَبِطِ وَغَيْرِهِمْ . وَكَانَ لَهُمْ فِيهَا التَّالِيفُ وَالْإِتَارُ وَلَمْ يُتْرَجَمَ لَنَا مِنْ كُتُبِهِمْ فِيهَا  
إِلَّا الْقَلِيلُ مِثْلَ الْفِلَاحَةِ النَّبْطِيَّةِ مِنْ أَوْضَاعِ أَهْلِ بَابِلَ فَأَخَذَ النَّاسُ مِنْهَا هَذَا الْعِلْمَ  
وَتَفَنَّنُوا فِيهِ وَوَضَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَوْضَاعَ مِثْلَ مَصَاحِفِ الْكُوكَابِ السَّبْعَةِ وَكِتَابِ  
طَمْطَمِ الْهِنْدِيِّ فِي صُورِ الدَّرَجِ وَالْكُوكَابِ وَغَيْرِهَا . ثُمَّ ظَهَرَ بِالمَشْرِقِ جَابِرُ بْنُ  
حَيَّانَ كَبِيرُ السَّحْرَةِ فِي هَذِهِ الْعِلْمَةِ فَتَصَفَّحَ كُتُبَ الْقَوْمِ وَاسْتَخْرَجَ الصَّنَاعَةَ وَغَاصَ فِي  
زَبَدَتِهَا وَاسْتَخْرَجَهَا وَوَضَعَ فِيهَا غَيْرَهَا مِنَ التَّالِيفِ وَأَكْثَرَ الْكَلَامِ فِيهَا وَفِي صِنَاعَةِ

(١) وفي النسخة الباريسية : وأنحائها .

السِّمِّيَاءُ<sup>(١)</sup> لِأَنَّهَا مِنْ تَوَابِعِهَا لِأَنَّ إِحَالَةَ الْأَجْسَامِ النَّوْعِيَّةِ مِنْ صُورَةٍ إِلَى أُخْرَى إِنَّمَا يَكُونُ بِالْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ لَا بِالصَّنَاعَةِ الْعَمَلِيَّةِ فَهَوَ مِنْ قَبِيلِ السَّحْرِ كَمَا نَذَكُرُهُ فِي مَوْضِعِهِ . ثُمَّ جَاءَ مَسْلَمَةُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَجْرِيطِيُّ إِمَامُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي التَّعَالِيمِ وَالسَّحْرِيَّاتِ فَلَخَّصَ جَمِيعَ تِلْكَ الْكُتُبِ وَهَدَّبَهَا وَجَمَعَ طُرُقَهَا فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ غَايَةَ الْحَكِيمِ وَلَمْ يَكْتُبْ أَحَدٌ فِي هَذَا الْعِلْمِ بَعْدَهُ . وَلْتَقَدَّمَ هُنَا مُقَدِّمَةٌ يَتَبَيَّنُ بِهَا حَقِيقَةُ السَّحْرِ وَذَلِكَ أَنَّ النَّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً بِالنُّوعِ فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ بِالْخَوَاصِّ وَهِيَ أَصْنَافٌ كُلُّ صِنْفٍ مُخْتَصٌّ بِخَاصِيَّةٍ وَاحِدَةٍ بِالنُّوعِ لَا تُوَجَدُ فِي الصِّنْفِ الْآخَرَ . وَصَارَتْ تِلْكَ الْخَوَاصُّ فِطْرَةً وَجِبَلَةً لِصِنْفِهَا فَنَفُوسُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهَا خَاصِيَّةٌ تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْإِنْسِلَاخِ مِنَ الرُّوحَانِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الْمَلَكِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ مَلِكًا فِي تِلْكَ اللَّمْحَةِ الَّتِي أَنْسَلَخَتْ فِيهَا ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْوَحْيِ كَمَا مَرَّ فِي مَوْضِعِهِ ، وَهِيَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مُحَصَّلَةٌ لِلْمَعْرِفَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَمُخَاطَبَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا مَرَّ . وَمَا يَتَسَعُّ<sup>(٢)</sup> فِي ذَلِكَ مِنَ التَّأثيرِ فِي الْأَكْوَانِ وَنَفُوسِ السَّحْرَةِ لَهَا خَاصَةٌ التَّأثيرِ فِي الْأَكْوَانِ وَاسْتِجْلَابِ رُوحَانِيَّةِ الْكَوَاكِبِ لِلتَّصَرُّفِ فِيهَا وَالتَّأثيرِ بِقُوَّةِ نَفْسَانِيَّةٍ أَوْ شَيْطَانِيَّةٍ . فَأَمَّا تَأثيرُ الْأَنْبِيَاءِ فَمَدَّدَ إِلَيْهِمْ وَخَاصِيَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ وَنَفُوسُ الْكُهَنَةِ لَهَا خَاصِيَّةٌ الْإِطْلَاعِ عَلَى الْمُغْيِبَاتِ بِقُوَّةِ شَيْطَانِيَّةٍ . وَهَكَذَا كُلُّ صِنْفٍ مُخْتَصٌّ بِخَاصِيَّةٍ لَا تُوَجَدُ فِي الْآخَرَ . وَالنَّفُوسُ السَّاحِرَةُ عَلَى مَرَاتِبِ ثَلَاثٍ يَأْتِي شَرْحُهَا فَأَوْلُهَا الْمُؤَثَّرَةُ بِالْهَيْمَةِ فَقَطُّ مِنْ غَيْرِ آلَةٍ وَلَا مُعِينٍ وَهَذَا هُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْفَلَسَافَةُ السَّحْرَ وَالثَّانِي بِمَعِينٍ مِنْ مِرَاجِ الْأَفْلَاقِ أَوْ الْعُنَاصِرِ أَوْ خَوَاصِّ الْأَعْدَادِ وَيُسَمُّونَهُ الطَّلَسْمَاتِ وَهُوَ أضعفُ رُتْبَةً مِنَ الْأَوَّلِ وَالثَّالِثُ تَأثيرٌ فِي الْقُوَى الْمُتَخَيَّلَةِ . يَعْمَدُ صَاحِبُ هَذَا التَّأثيرِ إِلَى الْقُوَى الْمُتَخَيَّلَةِ فَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِنَوْعٍ مِنَ التَّصَرُّفِ وَيُلْقِي فِيهَا أَنْوَعًا مِنَ الْخِيَالَاتِ

(١) وفي النسخة الباريسية : الكيمياء .

(٢) وفي نسخة أخرى : يتبع .



وَالْمُحَاكَاةَ وَضُورًا مِمَّا يَقْصِدُهُ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ يُنْزِلُهَا إِلَى الْحِسِّ مِنَ الرَّائِنِ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ  
 الْمُؤَثَّرَةِ فِيهِ فَيَنْظُرُ الرَّأُونُ كَأَنَّهَا فِي الْخَارِجِ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ . كَمَا  
 يُحْكِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يَرِي الْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ وَالْقُصُورَ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ  
 وَيُسَمَّى هَذَا عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ الشَّعُودَةَ أَوْ الشَّعْبَذَةَ . هَذَا تَفْصِيلُ مَرَاتِبِهِ ثُمَّ هَذِهِ الْخَاصِيَّةُ  
 تَكُونُ فِي السَّاحِرِ بِالْقُوَّةِ شَأْنِ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا وَإِنَّمَا تَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ بِالرِّيَاضَةِ  
 وَرِيَاضَةِ السَّحْرِ كُلِّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْعَوَالِمِ الْعُلُويَّةِ  
 وَالشَّيَاطِينِ بِأَنْوَاعِ التَّعْظِيمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ فَهِيَ لِذَلِكَ وَجْهَةٌ إِلَى غَيْرِ  
 اللَّهِ وَسُجُودَ لَهُ . وَالْوَجْهَةُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ كُفْرٌ فَلِهَذَا كَانَ السَّحْرُ كُفْرًا وَالْكَفْرُ مِنْ مَوَادِّهِ  
 وَأَسْبَابِهِ كَمَا رَأَيْتَ . وَلِهَذَا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي قَتْلِ السَّاحِرِ هَلْ هُوَ لِكُفْرِهِ السَّابِقِ  
 عَلَى فِعْلِهِ أَوْ لِتَصْرِفِهِ بِالْإِفْسَادِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَكْوَانِ وَالْكَوْنِ حَاصِلٍ  
 مِنْهُ . وَلَمَّا كَانَتِ الْمَرْتَبَتَانِ الْأُولَيَانِ مِنَ السَّحْرِ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ وَالْمَرْتَبَةُ  
 الْأَخِيرَةُ الثَّلَاثَةُ لَا حَقِيقَةَ لَهَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي السَّحْرِ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّمَا هُوَ  
 تَخْيِيلٌ فَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ لَهُ حَقِيقَةً نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ  
 لَا حَقِيقَةَ لَهُ نَظَرُوا إِلَى الْمَرْتَبَةِ الثَّلَاثَةِ الْأَخِيرَةِ . فَلَيْسَ بَيْنَهُمْ اخْتِلَافٌ فِي نَفْسِ  
 الْأَمْرِ بَلْ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قَبْلِ اشْتِبَاهِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَاعْلَمْ أَنَّ وُجُودَ السَّحْرِ  
 لَا مِرْيَةَ فِيهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَجْلِ التَّأثيرِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ . قَالَ  
 اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ  
 بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ  
 فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا  
 بِإِذْنِ اللَّهِ » <sup>(١)</sup> . وَسُحِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُهُ وَجَعَلَ  
 سِحْرَهُ فِي مِشْطٍ وَمِشَاقَةٍ وَجَفَّ طَلْعَةً وَدَفِنَ فِي بئرِ ذُرْوَانَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فِي  
 الْمَعُودَتَيْنِ : « وَمِنْ بَشَرِ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ » <sup>(٢)</sup> قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « كَانَ

(١) سورة البقرة من الآية ١٠٢

(٢) سورة الفلق الآية الرابعة .

لَا يَقْرَأُ عَلَى عَقْدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْعَقْدِ الَّتِي سَحَرَ فِيهَا إِلَّا انْحَلَّتْ . وَأَمَّا وَجُودُ السَّحْرِ فِي  
 أَهْلِ بَابِلَ وَهُمْ الْكَلْدَانِيُّونَ مِنَ النَّبَطِ وَالسَّرْيَانِيِّينَ فَكَثِيرٌ وَنَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ وَجَاءَتْ  
 بِهِ الْأَخْبَارُ وَكَانَ لِلْسَّحْرِ فِي بَابِلَ وَمِصْرَ أَرْزَمَانٌ بَعْثَةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْوَأُ  
 نَافِقَةٍ . وَلِهَذَا كَانَتْ مُعْجِزَةُ مُوسَى مِنْ جِنْسِ مَا يَدْعُونَ وَيَتَنَاغُونَ فِيهِ وَبَقِيَ مِنْ  
 آثَارِ ذَلِكَ فِي الْبَرَابِرِيِّ<sup>(١)</sup> بِصَعِيدِ مِصْرَ شَوَاهِدٌ دَالَّةٌ عَلَى ذَلِكَ وَرَأَيْنَا بِالْعِيَانِ مَنْ يُصَوِّرُ  
 صُورَةَ الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ بِخَوَاصِّ أَشْيَاءٍ مُقَابِلَةً لِمَا نَوَاهُ وَحَاوَلَهُ مَوْجُودَةً بِالْمَسْحُورِ  
 وَأَمْثَالُ تِلْكَ الْمَعَانِي مِنْ أَسْمَاءِ وَصِفَاتٍ فِي التَّأْلِيفِ وَالتَّفْرِيقِ . ثُمَّ يَتَكَلَّمُ عَلَى تِلْكَ  
 الصُّورَةِ الَّتِي أَقَامَهَا مَقَامَ الشَّخْصِ الْمَسْحُورِ عَيْنًا أَوْ مَعْنَى ثُمَّ يَنْفُثُ مِنْ رِيقِهِ بَعْدَ  
 اخْتِمَاعِهِ فِي فِيهِ بِتَكَرُّرِ مَخَارِجِ تِلْكَ الْحُرُوفِ مِنْ الْكَلَامِ السُّوءِ وَيَعْقُدُ عَلَى ذَلِكَ  
 الْمَعْنَى فِي سَبَبِ أَعْدَهُ لِذَلِكَ تَفَاؤُلًا بِالْعَقْدِ وَاللِّزَامِ وَأَخَذَ الْعَهْدَ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ بِهِ مِنَ  
 الْجِنِّ فِي نَفْثِهِ فِي فِعْلِهِ ذَلِكَ اسْتِشْعَارًا لِلْعَزِيمَةِ بِالْعَزْمِ . وَلِتِلْكَ الْبِنْيَةِ وَالْأَسْمَاءِ  
 السَّيِّئَةِ رُوحَ خَبِيثَةٍ تَخْرُجُ مِنْهُ مَعَ النَّفْخِ مُتَعَلِّقَةٌ بِرِيقِهِ الْخَارِجِ مِنْ فِيهِ بِالنَّفْثِ  
 فَتَنْزِلُ عَنْهَا أَرْوَاحُ خَبِيثَةٍ وَيَقَعُ عَنْ ذَلِكَ بِالْمَسْحُورِ مَا يُحَاوَلُهُ السَّاحِرُ . وَشَاهَدْنَا  
 أَيْضًا مِنَ الْمُنتَجِلِينَ لِلْسَّحْرِ وَعَمَلِهِ مَنْ يُشِيرُ إِلَى كِسَاءٍ أَوْ جِلْدٍ وَيَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ فِي سِرِّهِ  
 فَإِذَا هُوَ مَقْطُوعٌ مُتَخَرِّقٌ . وَيُشِيرُ إِلَى بَطُونِ الْغَنَمِ كَذَلِكَ فِي مَرَاعِيهَا بِالنَّفْخِ فَإِذَا  
 أَمْعَاوَهَا سَاقِطَةٌ مِنْ بَطُونِهَا إِلَى الْأَرْضِ . وَسَمِعْنَا أَنَّ بِأَرْضِ الْهِنْدِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَنْ  
 يُشِيرُ إِلَى إِنْسَانٍ فَيَتَحَتَّتُ<sup>(٢)</sup> قَلْبُهُ وَيَقَعُ مَيْتًا وَيَنْقَلِبُ عَنْ قَلْبِهِ فَلَا يُوجَدُ فِي حَشَاءِ  
 وَيُشِيرُ إِلَى الرُّمَانَةِ وَتَفْتَحُ فَلَا يُوجَدُ مِنْ حُبُوبِهَا شَيْءٌ . وَكَذَلِكَ سَمِعْنَا أَنَّ بِأَرْضِ  
 السُّودَانِ وَأَرْضِ التُّرْكِ مَنْ يَسْحَرُ السَّحَابَ فَيَمْطِرُ الْأَرْضَ الْمَخْصُوصَةَ . وَكَذَلِكَ  
 رَأَيْنَا مِنْ عَمَلِ الطَّلَسْمَاتِ عَجَائِبَ فِي الْأَعْدَادِ الْمُتَحَايَةِ وَهِيَ ر ك ر ف د أَحَدُ  
 الْعَدَدَيْنِ مِائَتَانِ وَعِشْرُونَ وَالْآخَرُ مِائَتَانِ وَأَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ وَمَعْنَى الْمُتَحَايَةِ أَنَّ

(١) وفي نسخة أخرى : البرابي .

(٢) وفي النسخة الباريسية : فينخب .

أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلاث وربع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان متساوياً للعدد الآخر صاحبه فتسمى لأجل ذلك المتحابّة . ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثراً في الإلقة بين المتحابين واجتماعهما إذا وضع لهما مثالان<sup>(١)</sup> أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها ناظرة إلى القمر نظراً مودّة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الأول ويضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر . ويقصد بالأكثر الذي يراد اثتلافه أغني المحبوب ما أذري الأكثر كميّة أو الأكثر أجزاء فيكون لذلك من التالف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر . قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة . وكذا طابع الأسد ويسمى أيضاً طابع الحصى وهو أن يرسم في قالب ( هند إصبع ) صورة أسد شائلاً ذنبه عاضاً على خصاة قد قسمها بنصفين وبين يديه صورة حيّة منساية من رجليه إلى قبالة وجهه فاغرة فاهاً فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب . ويتحىن برسمه حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالث من الأسد بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس . فإذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار المثقال فما دونه من الذهب وغمس بعد في الزعفران مخلولاً بماء الورد ورفع في خرقة حرير صفراء فإنهم يزعمون أن لمسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له مالا يعبر عنه . وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم . ذكر ذلك أيضاً أهل هذا الشأن في الغاية وغيرها وشهدت له التجربة . وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس ذكروا أنه يوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه نظراً صاحب العاشر لصاحب الطالع نظراً مودّة وقبول ويصلح فيه ما يكون من مواليد الملوك من الأدلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس في الطيب . فزعموا إن

(١) وفي نسخة أخرى : تماثلان .

لَهُ أَثَرًا فِي صِحَايَةِ الْمُلُوكِ وَخِدْمَتِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ . وَكِتَابُ  
الْغَايَةِ لِمَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْمَجْرِيطِيِّ هُوَ مُدَوَّنَةٌ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَفِيهِ اسْتِيفَاؤُهَا  
وَكَمَالُ مَسَائِلِهَا وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ الْإِمَامَ الْفَخْرَ بْنَ الْخَطِيبِ وَضَعَ كِتَابًا فِي ذَلِكَ وَسَمَّاهُ  
بِالسَّرِّ الْمَكْتُومِ وَأَنَّهُ بِالْمَشْرِقِ يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُهُ وَنَحْنُ لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ . وَالْإِمَامُ لَمْ يَكُنْ  
مِنْ أُمَّةٍ هَذَا الشَّانِ فِيمَا نَظَنُّ وَلَعَلَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِ ذَلِكَ . وَبِالْمَغْرِبِ صَنَفٌ مِنْ  
هُؤُلَاءِ الْمُتَحَلِّينَ لِهَذِهِ الْأَعْمَالِ السَّحْرِيَّةِ يُعْرِفُونَ بِالْبَعَّاجِينَ وَهُمْ الَّذِينَ ذَكَرْتُ  
أَوَّلًا أَنَّهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى الْكِسَاءِ أَوْ الْجِلْدِ فَيَتَخَرَّقُ وَيُشِيرُونَ إِلَى بُطُونِ الْغَنَمِ بِالْبَعْجِ  
فَتَنْبَعُجُ . وَيُسَمَّى أَحَدُهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ بِاسْمِ الْبَعْجِ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا يَنْتَحِلُ مِنَ السَّحْرِ  
بَعْجُ الْأَنْعَامِ يَرْهَبُ بِذَلِكَ أَهْلَهَا لِيُعْطَوْهُ مِنْ فَضْلِهَا وَهُمْ مُسْتَبْرُونَ بِذَلِكَ فِي الْغَايَةِ  
خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْحُكَّامِ ، لَقِيَتْ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ وَشَاهَدَتْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ هَذِهِ بِذَلِكَ  
وَأَخْبَرُونِي أَنَّ لَهُمْ وَجْهَةً وَرِيَاضَةً خَاصَّةً بِدَعْوَاتِ كُفْرِيَّةٍ وَإِشْرَاكِ لِرُوحَانِيَّاتِ الْجِنِّ  
وَالْكَوَكِبِ ، سَطَّرَتْ فِيهَا صَحِيفَةٌ عِنْدَهُمْ تُسَمَّى الْخَزِيرِيَّةَ <sup>(١)</sup> يَتَدَارَسُونَهَا وَأَنَّهُمْ  
بِهَذِهِ الرِّيَاضَةِ وَالْوَجْهَةِ يَصِلُونَ إِلَى حُصُولِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ لَهُمْ وَأَنَّ التَّأثيرَ الَّذِي لَهُمْ  
إِنَّمَا هُوَ فِيمَا سِوَى الْإِنْسَانِ الْحُرِّ <sup>(٢)</sup> مِنَ الْمَتَاعِ وَالْحَيَوَانَ وَالرَّفِيقِ وَيُعْبَرُونَ عَنْ ذَلِكَ  
بِقَوْلِهِمْ إِنَّمَا نَفْعُلُ فِيمَا تَمْشِي فِيهِ الدَّرَاهِمُ أَيُّ مَا يَمْلِكُ وَيَبَاعُ وَيُشْتَرَى مِنْ سَائِرِ  
الْمَتَمَلِّكَاتِ هَذَا مَا زَعَمُوهُ . وَسَأَلْتُ بَعْضَهُمْ فَأَخْبَرَنِي بِهِ وَأَمَّا أَعْمَالُهُمْ فَظَاهِرَةٌ  
مَوْجُودَةٌ وَقَفْنَا عَلَى الْكَثِيرِ مِنْهَا وَعَايَنْتُهَا مِنْ غَيْرِ رِيَّةٍ فِي ذَلِكَ . هَذَا شَأْنُ السَّحْرِ  
وَالطَّلَسْمَاتِ وَأَثَارُهُمَا فِي الْعَالَمِ فَأَمَّا الْفَلَّاسِفَةُ فَفَرَّقُوا بَيْنَ السَّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ بَعْدَ  
أَنْ أَثَبَتُوا أَنَّهُمَا جَمِيعًا أَثَرٌ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَاسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُودِ الْأَثَرِ لِلنَّفْسِ  
الْإِنْسَانِيَّةِ بِأَنَّ لَهَا أَثَارًا فِي بَدَنِهَا عَلَى غَيْرِ الْمَجْرَى الطَّبِيعِيِّ وَأَسْبَابِهِ الْجِسْمَانِيَّةِ بَلْ  
أَثَارٌ عَارِضَةٌ مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْأَرْوَاحِ تَارَةً كَالسُّخُونَةِ الْحَادِثَةِ عَنِ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَمِنْ

(١) وفي النسخة الباريسية : الخنزيرية .

(٢) وفي النسخة الباريسية : الانسان والجن .

جِهَةِ التَّصَوُّرَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أُخْرَى كَالَّذِي يَقَعُ مِنْ قِبَلِ التَّوَهُّمِ . فَإِنَّ المَاشِيَّ عَلَى حَرْفِ حَائِطٍ أَوْ جَبَلٍ مُنْتَصِبٍ إِذَا قَوِيَ عِنْدَهُ تَوَهُّمُ السُّقُوطِ سَقَطَ بِلا شَكٍّ . وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُعَوِّدُونَ أَنْفُسَهُمْ ذَلِكَ بِالدَّرْتِيَةِ عَلَيْهِ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُمْ هَذَا الوَهُمُ فَتَجِدُهُمْ يَمْشُونَ عَلَى حَرْفِ الحَائِطِ وَالحَبْلِ المُنْتَصِبِ وَلَا يَخَافُونَ السُّقُوطَ . فَثَبَّتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ آثَارِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ وَتَصَوُّرِهَا لِلسُّقُوطِ مِنْ أَجْلِ الوَهُمِ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ أَثَرًا لِلنَّفْسِ فِي بَدَنِهَا مِنْ غَيْرِ الأَسْبَابِ الجِسْمَانِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لَهَا مِثْلُ هَذَا الأَثَرِ فِي غَيْرِ بَدَنِهَا إِذْ نَسَبَتْهَا إِلَى الأَبْدَانِ فِي ذَلِكَ النُّوعِ مِنَ التَّأثيرِ وَاحِدَةً لِأَنَّهَا غَيْرُ حَالَةٍ فِي البَدَنِ وَلَا مُنْطَبِعَةٍ فِيهِ فَثَبَّتَ أَنَّهَا مُؤَثَّرَةٌ فِي سَائِرِ الأَجْسَامِ . وَأَمَّا التَّفَرُّقَةُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ السَّحْرِ وَالتَّطَلُّمَاتِ فَهُوَ أَنَّ السَّحْرَ لَا يَحْتَاجُ السَّاحِرَ فِيهِ إِلَى مُعِينٍ وَصَاحِبِ التَّطَلُّمَاتِ يَسْتَعِينُ بِرُوحَانِيَّاتِ الكَوَاكِبِ وَأَسْرَارِ الأَعْدَادِ وَخَوَاصِّ المَوْجُودَاتِ وَأَوْضَاعِ الفَلَكِ المُؤَثَّرَةِ فِي عَالَمِ العُنَاصِرِ كَمَا يَقُولُهُ المُنْجَمُونَ وَيَقُولُونَ : السَّحْرُ اتِّحَادُ رُوحِ بَرُوجِ وَالتَّطَلُّمُ اتِّحَادُ رُوحِ بِجِسْمٍ وَمَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ رَبْطُ الطَّبَائِعِ العُلُويَّةِ السَّمَاوِيَّةِ بِالتَّبَائِعِ السُّفْلِيَّةِ . وَالتَّبَائِعُ العُلُويَّةُ هِيَ رُوحَانِيَّاتِ الكَوَاكِبِ وَلِذَلِكَ يَسْتَعِينُ صَاحِبُهُ فِي غَالِبِ الأَمْرِ بِالنَّجَامَةِ . وَالسَّاحِرُ عِنْدَهُمْ غَيْرُ مُكْتَسِبٍ لِسِحْرِهِ بَلْ هُوَ مَفْطُورٌ عِنْدَهُمْ عَلَى تِلْكَ الجِبِلَّةِ المُخْتَصَّةِ بِذَلِكَ النُّوعِ مِنَ التَّأثيرِ . وَالفَرْقُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ المُعْجِزَةِ وَالسَّحْرِ أَنَّ المُعْجِزَةَ قُوَّةُ الإِلهِيَّةِ تَبْعَثُ عَلَى النَّفْسِ ذَلِكَ التَّأثيرَ فَهُوَ مُؤَيَّدٌ بِرُوحِ اللهِ عَلَى فِعْلِهِ ذَلِكَ . وَالسَّاحِرُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ لَدُنْ نَفْسِهِ وَبِقُوَّتِهِ النَّفْسَانِيَّةِ وَبِإِمْدَادِ الشَّيَاطِينِ فِي بَعْضِ الأَحْوَالِ فَبَيْنَهُمَا الفَرْقُ فِي المَعْقُولِيَّةِ وَالحَقِيقَةِ وَالذَّاتِ فِي نَفْسِ الأَمْرِ وَإِنَّمَا نَسْتَدِلُّ نَحْنُ عَلَى التَّفَرُّقَةِ بِالأَعْلَامَاتِ الظَّاهِرَةِ وَهِيَ وَجُودُ المُعْجِزَةِ لِصَاحِبِ الخَيْرِ وَفِي مَقَاصِدِ الخَيْرِ وَلِلنَّفُوسِ المُتَمَحِّصَةِ<sup>(١)</sup> لِلخَيْرِ وَالتَّحَدِّيِّ بِهَا عَلَى دَعْوَى النُّبُوَّةِ . وَالسَّحْرُ إِنَّمَا يُوجَدُ لِصَاحِبِ الشَّرِّ وَفِي أفعالِ الشَّرِّ فِي الغَالِبِ مِنَ التَّفَرِيقِ بَيْنَ الرُّوحَيْنِ وَضَرَرَ الأَعْدَاءِ

(١) وَفِي النسخة الباريية : التَّمَحُّصَةُ .

وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَلِلنُّفُوسِ الْمَتَمَخِّصَةِ لِلشَّرِّ . هَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَ الْحُكَمَاءِ  
 الْإِلَهِيِّينَ : وَقَدْ يُوجَدُ لِبَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَأَصْحَابِ الْكِرَامَاتِ تَأْتِيرٌ أَيْضاً فِي أَحْوَالِ  
 الْعَالَمِ وَلَيْسَ مَعْدُوداً مِنْ جِنْسِ السَّحْرِ وَإِنَّمَا هُوَ بِالْإِمْدَادِ الْإِلَهِيِّ لِأَنَّ طَرِيقَتَهُمْ  
 وَنَحْلَتَهُمْ مِنْ آثَارِ النُّبُوَّةِ وَتَوَابِعِهَا وَلَهُمْ فِي الْمَدَدِ الْإِلَهِيِّ حِفْظٌ عَلَى قَدْرِ خَالِهِمْ  
 وَإِيمَانِهِمْ وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ <sup>(١)</sup> وَإِذَا اقْتَدَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَفْعَالِ الشَّرِّ لَا يَأْتِيهَا  
 لِأَنَّهُ مُتَقَيِّدٌ فِيمَا يَأْتِيهِ يَذَرُهُ لِلْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ . فَمَا لَا يَقَعُ لَهُمْ فِيهِ الْإِذْنُ لَا يَأْتُونَهُ  
 بِوَجْهِهِ وَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَقَدْ عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَرَبَّمَا سَلَبَ خَالَهُ . وَلَمَّا كَانَتْ  
 الْمُعْجِزَةُ بِإِمْدَادِ رُوحِ اللَّهِ وَالْقُوَى الْإِلَهِيَّةِ فَلِذَلِكَ لَا يُعَارِضُهَا شَيْءٌ مِنَ السَّحْرِ .  
 وَانظُرْ شَانَ سَحْرَةِ فِرْعَوْنَ مَعَ مُوسَى فِي مُعْجِزَةِ الْعَصَا كَيْفَ تَلَقَّفَتْ مَا كَانُوا بِهِ  
 يَأْفِكُونَ وَذَهَبَ سَحْرُهُمْ وَأَضْمَحَلَّ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ . وَكَذَلِكَ لَمَّا أُنزِلَ عَلَى  
 النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَعْوِذَتَيْنِ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهَا : « فَكَانَ لَا يَقْرَأُهَا عَلَى عُقْدَةٍ مِنَ الْعُقَدِ الَّتِي سَجَرَ فِيهَا إِلَّا انْحَلَّتْ » .  
 فَالسَّحْرُ لَا يَثْبُتُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ وَذَكَرِهِ بِالْهِمَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ وَقَدْ نَقَلَ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ  
 زَرْكَشَ <sup>(٢)</sup> كَاوِيَانَ وَهِيَ رَايَةٌ كِسْرَى كَانَتْ فِيهَا الْوُفُقُ الْمِئِينِيُّ الْعَدَدِيُّ مَنْسُوجاً  
 بِالذَّهَبِ فِي أَوْضَاعِ <sup>(٣)</sup> فَلِكَيْتِي رُصِدَتْ لِذَلِكَ الْوُفُقِ . وَوُجِدَتْ الرَّايَةُ يَوْمَ قُتِلَ رُسْتَمُ  
 بِالْقَادِسِيَّةِ وَاقِعَةً عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ انْهِزَامِ أَهْلِ فَارِسَ وَشَتَاتِهِمْ . وَهُوَ فِيمَا تَزَعَمُ أَهْلُ  
 الطَّلَسْمَاتِ وَالْأَوْفَاقِ مَخْضُوضٌ بِالْغَلْبِ فِي الْحُرُوبِ وَأَنَّ الرَّايَةَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا أَوْ  
 مَعَهَا لَا تَنْهَزِمُ أَصلاً . إِلَّا أَنَّ هَذِهِ عَارِضُهَا الْمَدَدُ الْإِلَهِيُّ مِنْ إِيْمَانِ أَصْحَابِ رَسُولِ  
 اللَّهِ ﷺ وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ فَانْحَلَّ مَعَهَا كُلُّ عُقْدِ سَحْرِيٍّ وَلَمْ يَثْبُتْ وَيَطَّلِ  
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأَمَّا الشَّرِيعَةُ فَلَمْ تَفْرُقْ بَيْنَ السَّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ وَجَعَلَتْهُ كُلَّهُ  
 بَاباً وَاحِداً مَحْظُوراً . لِأَنَّ الْأَفْعَالَ إِنَّمَا أَبَاحَ لَنَا الشَّارِعُ مِنْهَا مَا يُهْمُنَا فِي دِينِنَا

(١) وفي النسخة الباريسية : بكلمة التوحيد .

(٢) وفي النسخة الباريسية : درفش

(٣) وفي النسخة الباريسية : طوالع .

الَّذِي فِيهِ صَلَاحُ آخِرَتِنَا أَوْ فِي مَعَاشِنَا الَّذِي فِيهِ صَلَاحُ دُنْيَانَا وَمَا لَا يُهْمُنَا فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا فَإِنْ كَانَ فِيهِ ضَرَرٌ أَوْ نَوْعٌ ضَرَرَ كَالسَّحْرِ الْحَاصِلِ ضَرُّهُ بِالْوُقُوعِ وَيُلْحَقُ بِهِ الطَّلَسَّمَاتُ لِأَنَّ أَثْرَهُمَا وَاحِدٌ وَكَالنَّجَامَةِ الَّتِي فِيهَا نَوْعٌ ضَرَرَ بِإِعْتِقَادِ التَّأثيرِ فَتَفْسُدُ الْعَقِيدَةُ الْإِيمَانِيَّةُ بِرَدِّ الْأُمُورِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فَيَكُونُ حِينئِذٍ ذَلِكَ الْفِعْلُ مَحْظُورًا عَلَى نَسَبَتِهِ فِي الضَّرَرِ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَهْمًا عَلَيْنَا وَلَا فِيهِ ضَرَرٌ فَلَا أَقْلٌ مِنْ تَرْكِهِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ فَإِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ . فَجَعَلَتِ الشَّرِيعَةُ بَابَ السَّحْرِ وَالطَّلَسَّمَاتِ وَالشَّعُودَةِ بَابًا وَاحِدًا لِمَا فِيهَا مِنَ الضَّرَرِ وَخَصَّتْهُ بِالْحَظَرِ وَالتَّحْرِيمِ . وَأَمَّا الْفَرْقُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ الْمُعْجِزَةِ وَالسَّحْرِ فَالَّذِي ذَكَرَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى التَّحْدِي وَهُوَ دَعْوَى وَقُوعِهَا عَلَى وَفْقِ مَا ادَّعَاهُ . قَالُوا : وَالسَّاحِرُ مَضْرُوفٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا التَّحْدِي فَلَا يَقَعُ مِنْهُ . وَوُقُوعُ الْمُعْجِزَةِ عَلَى وَفْقِ دَعْوَى الْكَاذِبِ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِأَنَّ دَلَالََةَ الْمُعْجِزَةِ عَلَى الصِّدْقِ عَقْلِيَّةٌ لِأَنَّ صِفَةَ نَفْسِهَا التَّصْدِيقُ فَلَوْ وَقَعَتْ مَعَ الْكَذِبِ لَاسْتَحَالَ الصَّادِقُ كَاذِبًا وَهُوَ مُحَالٌ فَإِذَا لَاتَفَعُ الْمُعْجِزَةُ مَعَ الْكَاذِبِ بِإِطْلَاقِ . وَأَمَّا الْحُكْمَاءُ فَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَهُمْ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فَرْقٌ مَا بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي نَهَايَةِ الطَّرْفَيْنِ . فَالسَّاحِرُ لَا يَصْدُرُ مِنْهُ الْخَيْرُ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِي أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَصَاحِبُ الْمُعْجِزَةِ لَا يَصْدُرُ مِنْهُ الشَّرُّ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِي أَسْبَابِ الشَّرِّ وَكَأَنَّهُمَا عَلَى طَرَفِي النِّقِيزِ فِي أَصْلِ فِطْرَتِهِمَا . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ لَا رَبَّ سِوَاهُ وَمَنْ قَبِيلَ هَذِهِ التَّأثيرَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْإِصَابَةَ بِالْعَيْنِ وَهُوَ تَأثيرٌ مِنْ نَفْسِ الْمَعْيَانِ عِنْدَمَا يَسْتَحْسِنُ بَعَيْنِهِ مُدْرِكًا مِنَ الذَّوَاتِ أَوْ الْأَحْوَالِ وَيَفْرِطُ فِي اسْتِحْسَانِهِ وَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ الْاسْتِحْسَانِ حَسَدٌ يَرُومُ مَعَهُ سَلْبَ ذَلِكَ الشَّيْءِ عَمَّنْ اتَّصَفَ بِهِ فَيُؤَثِّرُ فَسَادَهُ . وَهُوَ جِبِلَّةٌ فِطْرِيَّةٌ أُعْنِي هَذِهِ الْإِصَابَةَ بِالْعَيْنِ . وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ التَّأثيرَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أَنَّ صُدُورَهُ فِطْرِيٌّ جِبِلِّيٌّ لَا يَتَخَلَّفُ وَلَا يَرْجِعُ اخْتِيَارًا صَاحِبِهِ وَلَا يَكْتَسِبُهُ . وَسَائِرُ التَّأثيرَاتِ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مَا لَا يَكْتَسِبُ فَصُدُورُهَا رَاجِعٌ إِلَى اخْتِيَارِ فَاعِلِهَا وَالْفِطْرِيُّ مِنْهَا قُوَّةٌ صُدُورُهَا وَلِهَذَا قَالُوا : الْقَاتِلُ بِالسَّحْرِ أَوْ بِالْكَرَامَةِ

يُقْتَلُ وَالْقَاتِلُ بِالْعَيْنِ لَا يُقْتَلُ . وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُرِيدُهُ وَيَقْصِدُهُ أَوْ  
يَتْرُكُهُ وَإِنَّمَا هُوَ مُجْبُورٌ فِي صُدُورِهِ عَنْهُ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي الْغُيُوبِ وَمُطَّلَعٌ عَلَى مَا فِي  
السَّرَائِرِ .

## الفصل التاسع والعشرون

### علم أسرار الحروف

وَهُوَ الْمُسَمَّى لِهَذَا الْعَهْدِ بِالسِّمِّيَا . نُقِلَ وَضَعُهُ مِنَ الطَّلَسَمَاتِ إِلَيْهِ فِي  
اصْطِلَاحِ أَهْلِ التَّصْرِيفِ مِنَ الْمُتَّصُوفَةِ ؛ فَاسْتَعْمَلَ اسْتِعْمَالَ الْعَامِّ فِي الْخَاصِّ . وَحَدَّثَ  
هَذَا الْعِلْمُ فِي الْمِلَّةِ بَعْدَ صَدْرِ مَنْهَا ، وَعِنْدَ ظُهُورِ الْغَلَاةِ مِنَ الْمُتَّصُوفَةِ وَجُنُوحِهِمْ إِلَى  
كَشْفِ حِجَابِ الْحِسِّ ، وَظُهُورِ الْخَوَارِقِ عَلَى أَيْدِيهِمْ وَالتَّصْرِفَاتِ فِي عَالَمِ الْغِنَاصِرِ ،  
وَتَدْوِينِ الْكُتُبِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ ، وَمَزَاعِمِهِمْ فِي تَنْزِيلِ الْوُجُودِ عَنِ الْوَاحِدِ وَتَرْتِيبِهِ .  
وَزَعَمُوا أَنَّ الْكَمَالَ الْإِسْمَائِيَّ مَظَاهِرُهُ أَرْوَاحُ الْأَفْلَاقِ وَالْكَوَاكِبِ ، وَأَنَّ طِبَاعَ  
الْحُرُوفِ وَأَسْرَارَهَا سَارِيَّةٌ فِي الْأَسْمَاءِ ، فَهِيَ سَارِيَّةٌ فِي الْأَكْوَانِ عَلَى هَذَا النِّظَامِ .  
وَالْأَكْوَانُ مِنْ لَدُنِ الْإِبْدَاعِ الْأَوَّلِ تَتَنَقَّلُ فِي أَطْوَارِهِ وَتُعْرَبُ عَنْ أَسْرَارِهِ . فَحَدَّثَ  
لِذَلِكَ عِلْمُ أَسْرَارِ الْحُرُوفِ ، وَهُوَ مِنْ تَفَارِيعِ عِلْمِ السِّمِّيَا لَا يُوقَفُ عَلَى مَوْضُوعِهِ وَلَا  
تُحَاطَ بِالْعَدَدِ مَسَائِلُهُ . تَعَدَّدَتْ فِيهِ تَأْلِيفُ الْبُونِيِّ وَابْنِ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ اتَّبَعَ  
آثَارَهُمَا . وَحَاصِلُهُ عِنْدَهُمْ وَتَمَرَّتُهُ تَصْرُفُ النُّفُوسِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ  
بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالْكَلِمَاتِ الْإِلَهِيَّةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْجُرُوفِ الْمُحِيطَةِ بِالْأَسْرَارِ  
السَّارِيَّةِ فِي الْأَكْوَانِ .

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي سِرِّ التَّصْرِيفِ الَّذِي فِي الْحُرُوفِ <sup>(١)</sup> بِمَا هُوَ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ

(١) علق الهوريني على هذه العبارة بقوله: ترتيب طبائع الحروف عند المغاربة غير ترتيب المشاركة .  
ومنهم الغزالي . كما أن الجمل عندهم مخالف في ستة أحرف . فان الصاد عندهم بستين والضاد بتسعين والسين  
المهمله بثلاثمائة والطاء بثمانمائة والعين بتسعمائة والشين بألف . ١ هـ .



لِلْمِزَاجِ الَّذِي فِيهِ ، وَقَسَمَ الْحُرُوفَ بِقِسْمَةِ الطَّبَائِعِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ كَمَا لِلْعُنَاصِرِ .  
وَاخْتَصَّتْ كُلُّ طَبِيعَةٍ بِصِنْفٍ مِنَ الْحُرُوفِ يَقَعُ التَّصَرُّفُ فِي طَبِيعَتِهَا فِعْلاً وَانْفِعَالاً  
بِذَلِكَ الصِّنْفِ ؛ فَتَنَوَّعَتِ الْحُرُوفُ بِقَانُونِ صِنَاعِيٍّ يُسَمُّونَهُ التَّكْسِيرَ إِلَى نَارِيَّةٍ  
وَهَوَائِيَّةٍ وَمَائِيَّةٍ وَتُرَابِيَّةٍ عَلَى حَسَبِ تَنَوُّعِ الْعُنَاصِرِ ، فَلِأَلْفِ لِلنَّارِ وَالْبَاءِ لِلهَوَاءِ  
وَالجِيمِ لِلْمَاءِ وَالدَّالِ لِلتُّرَابِ . ثُمَّ تَرَجَّعَ كَذَلِكَ عَلَى التَّوَالِي مِنَ الْحُرُوفِ وَالْعُنَاصِرِ  
إِلَى أَنْ تَنْفَذَ . فَتَعَيَّنَ لِعُنْصُرِ النَّارِ حُرُوفٌ سَبْعَةٌ : الْأَلْفُ وَالْهَاءُ وَالطَّاءُ وَالْمِيمُ وَالْفَاءُ  
وَالسِّينُ وَالدَّالُ ؛ وَتَعَيَّنَ لِعُنْصُرِ الْهَوَاءِ سَبْعَةٌ أَيْضاً : الْبَاءُ وَالْوَاوُ وَالْيَاءُ وَالنُّونُ وَالضَّادُ  
وَالتَّاءُ وَالطَّاءُ ؛ وَتَعَيَّنَ لِعُنْصُرِ الْمَاءِ أَيْضاً سَبْعَةٌ : الْجِيمُ وَالزَّايُ وَالْكَافُ وَالضَّادُ  
وَالْقَافُ وَالثَّاءُ وَالغَيْنُ ؛ وَتَعَيَّنَ لِعُنْصُرِ التُّرَابِ أَيْضاً سَبْعَةٌ : الدَّالُ وَالْحَاءُ وَاللَّامُ  
وَالغَيْنُ وَالرَّاءُ وَالخَاءُ وَالشَّيْنُ .

وَالْحُرُوفُ النَّارِيَّةُ لِدَفْعِ الْأَمْرَاضِ الْبَارِدَةِ وَلِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الْحَرَارَةِ حَيْثُ تُطَلَّبُ  
مُضَاعَفَتُهَا ، إِمَّا حِسّاً أَوْ حُكْماً ، كَمَا فِي تَضْعِيفِ قُوَى الْمَرِيخِ فِي الْحُرُوبِ وَالْقَتْلِ  
وَالْفَتْكِ . وَالْمَائِيَّةُ أَيْضاً لِدَفْعِ الْأَمْرَاضِ الْحَارَّةِ مِنْ حُمَيَاتٍ وَغَيْرِهَا ، وَلِتَضْعِيفِ  
القُوَى الْبَارِدَةِ حَيْثُ تُطَلَّبُ مُضَاعَفَتُهَا حِسّاً أَوْ حُكْماً ، كِتَضْعِيفِ قُوَى الْقَمَرِ وَأَمْثَالِ  
ذَلِكَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ سِرَّ التَّصَرُّفِ الَّذِي فِي الْحُرُوفِ لِلنِّسْبَةِ الْعَدَدِيَّةِ ؛ فَإِنَّ حُرُوفَ  
أَبْجَدٍ دَالَّةً عَلَى أَعْدَادِهَا الْمُتَعَارِفَةِ وَضِعاً وَطَبْعاً فَبَيَّنَهَا مِنْ أَجْلِ تَنَاسُبِ الْأَعْدَادِ  
تَنَاسُبٍ فِي نَفْسِهَا أَيْضاً ؛ كَمَا بَيَّنَّ الْبَاءُ وَالْكَافُ وَالرَّاءُ لِدَلَالَتِهَا كُلِّهَا عَلَى الْإِثْنَيْنِ  
كُلٌّ فِي مَرْتَبَتِهِ ؛ فَالْبَاءُ عَلَى إِثْنَيْنِ فِي مَرْتَبَةِ الْآحَادِ ، وَالْكَافُ عَلَى إِثْنَيْنِ فِي مَرْتَبَةِ  
الْعَشْرَاتِ ، وَالرَّاءُ عَلَى إِثْنَيْنِ فِي مَرْتَبَةِ الْمِئِينَ . وَكَالَّذِي بَيَّنَّهَا وَبَيَّنَّ الدَّالِ وَالْمِيمِ  
وَالتَّاءَ لِدَلَالَتِهَا عَلَى الْأَرْبَعَةِ ، وَبَيَّنَّ الْأَرْبَعَةَ وَالْإِثْنَيْنِ نِسْبَةَ الضَّعْفِ . وَخَرَجَ لِلْأَسْمَاءِ  
أَوْفَاقٌ كَمَا لِلْأَعْدَادِ يَخْتَصُّ كُلُّ صِنْفٍ مِنَ الْحُرُوفِ بِصِنْفٍ مِنَ الْأَوْفَاقِ الَّذِي  
يُنَاسِبُهُ مِنْ حَيْثُ عَدَدُ الشَّكْلِ أَوْ عَدَدُ الْحُرُوفِ ، وَامْتَرَجَ التَّصَرُّفُ مِنَ السِّرِّ الْحَرْفِيِّ

وَالسِّرِّ الْعَدَدِيِّ لِأَجْلِ التَّنَاسُبِ الَّذِي بَيْنَهُمَا . فَأَمَّا سِرُّ التَّنَاسُبِ الَّذِي بَيْنَ هَذِهِ  
 الْحُرُوفِ وَأَمْزَجَةِ الطَّبَائِعِ ، أَوْ بَيْنَ الْحُرُوفِ وَالْأَعْدَادِ ، فَأَمْرٌ عَسِيرٌ عَلَى الْفَهْمِ ، إِذْ  
 لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْعُلُومِ وَالْقِيَاسَاتِ ، وَإِنَّمَا مُسْتَنَدُهُمْ فِيهِ الذُّوقُ وَالْكَشْفُ . قَالَ  
 الْبُؤَيْبِيُّ : وَلَا تَظُنُّ أَنَّ سِرَّ الْحُرُوفِ مِمَّا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْقِيَاسِ الْعَقْلِيِّ ، وَإِنَّمَا هُوَ  
 بِطَرِيقِ الْمَشَاهِدَةِ وَالتَّوْفِيقِ الْإِلَهِيِّ . وَأَمَّا التَّصْرُفُ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ  
 وَالْأَسْمَاءِ الْمُرَكَّبَةِ فِيهَا وَتَأْتُرُ الْأَكْوَانِ عَنْ ذَلِكَ فَأَمْرٌ لَا يَنْكُرُ لِثُبُوتِهِ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ  
 تَوَاتُرًا . وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّ تَصْرُفَ هَؤُلَاءِ وَتَصْرُفَ أَصْحَابِ الطَّلْسَمَاتِ وَاحِدٌ ، وَلَيْسَ  
 كَذَلِكَ ؛ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الطَّلْسِمِ وَتَأْتِيرَهُ عَلَى مَا حَقَّقَهُ أَهْلُهُ أَنَّهُ قُوَى رُوحَانِيَّةٌ مِنْ جَوْهَرِ  
 الْقَهْرِ ، تَفْعَلُ فِيمَا لَهُ رُكْبَ فِعْلٍ غَلْبَةٍ وَقَهْرٍ ، بِأَسْرَارٍ فَلَكِيَّةٍ وَنَسَبِ عَدَدِيَّةٍ  
 وَبُخُورَاتِ جَالِبَاتِ لِرُوحَانِيَّةِ ذَلِكَ الطَّلْسِمِ ، مُشْدُودَةٍ فِيهِ بِالْهَيْمَةِ ؛ فَأَيْدَتْهَا رَبْطُ  
 الطَّبَائِعِ الْعُلُويَّةِ بِالطَّبَائِعِ السُّفْلِيَّةِ ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ كَالْخَمِيرَةِ الْمُرَكَّبَةِ مِنْ هَوَائِيَّةٍ  
 وَأَرْضِيَّةٍ وَمَائِيَّةٍ وَنَارِيَّةٍ حَاصِلَةٍ فِي جُمْلَتِهَا ، تُخَيَّلُ وَتَصْرُفُ مَا حَاصَلَتْ فِيهِ إِلَى ذَاتِهَا  
 وَتَقْلِبُهُ إِلَى صُورَتِهَا . وَكَذَلِكَ الْإِكْسِيرُ لِلْأَجْسَامِ الْمَعْدِنِيَّةِ ، كَالْخَمِيرَةِ تَقْلِبُ الْمَعْدِنِ  
 الَّذِي تَسْرِي فِيهِ إِلَى نَفْسِهَا بِالْإِحَالَةِ . وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ : مَوْضُوعُ الْكَيْمِيَاءِ جَسَدٌ فِي  
 جَسَدٍ لِأَنَّ الْإِكْسِيرَ أَجْزَاؤُهُ كُلُّهَا جَسَدَانِيَّةٌ . وَيَقُولُونَ : مَوْضُوعُ الطَّلْسِمِ رُوحٌ فِي  
 جَسَدٍ لِأَنَّهُ رَبْطُ الطَّبَائِعِ الْعُلُويَّةِ بِالطَّبَائِعِ السُّفْلِيَّةِ . وَالطَّبَائِعُ السُّفْلِيَّةُ جَسَدٌ  
 وَالطَّبَائِعُ الْعُلُويَّةُ رُوحَانِيَّةٌ . وَتَحْقِيقُ الْفَرْقِ بَيْنَ تَصْرُفِ أَهْلِ الطَّلْسَمَاتِ وَأَهْلِ  
 الْأَسْمَاءِ ، بَعْدَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ التَّصْرُفَ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ  
 وَالْهَيْمِ الْبَشَرِيَّةِ أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ مُحِيطَةٌ بِالطَّبِيعَةِ وَحَاكِمَةٌ عَلَيْهَا بِالذَّاتِ ؛ إِلَّا  
 أَنْ تَصْرُفَ أَهْلَ الطَّلْسَمَاتِ إِنَّمَا هُوَ فِي اسْتِنزَالِ رُوحَانِيَّةِ الْأَفْلَاكِ وَرَبْطِهَا بِالصُّورِ أَوْ  
 بِالنِّسَبِ الْعَدَدِيَّةِ ، حَتَّى يَخْضَلَ مِنْ ذَلِكَ نَوْعٌ مِزَاجٌ يَفْعَلُ الْإِحَالَةَ وَالْقَلْبَ  
 بِطَبِيعَتِهِ ، فِعْلُ الْخَمِيرَةِ فِيمَا حَاصَلَتْ فِيهِ . وَتَصْرُفُ أَصْحَابِ الْأَسْمَاءِ إِنَّمَا هُوَ بِمَا  
 حَصَلَ لَهُمْ بِالْمُجَاهَدَةِ وَالْكَشْفِ مِنَ النُّورِ الْإِلَهِيِّ وَالْإِمْدَادِ الرَّبَّانِيِّ ؛ فَيَسْخَرُ

الطبيعة لذلك طائفة غير مستعصية ، ولا يحتاج إلى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها ، لأن مدده أعلى منها .

ويحتاج أهل الطلسمات إلى قليل من الرياضة تقيد النفس قوة على استنزال روحانية الأفلاك . وأهون بها وجهة ورياضة . بخلاف أهل الأسماء فإن رياضتهم هي الرياضة الكبرى ، وليست لقصد التصرف في الأكوان إذ هو حجاب . وإنما التصرف حاصل لهم بالعرض ، كرامة من كرامات الله لهم . فإن خلا صاحب الأسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت ، الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف ، واقتصر على مناسبات الأسماء وطبائع الحروف والكلمات ، وتصرف بها من هذه الحيثية وهؤلاء هم أهل السنياء في المشهور - كأن إذا لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات ؛ بل صاحب الطلسمات أوثق منه لأنه يرجع إلى أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة . وأما صاحب أسرار الأسماء إذا فاتته الكشف الذي يطلع به على حقائق الكلمات وأثار المناسبات بفوات الخلوص في الوجهة ، وليس له في العلوم الإصطلاحية قانون برهاني يعول عليه يكون حاله أضعف رتبة . وقد يمزج صاحب الأسماء قوى الكلمات والأسماء بقوى الكواكب ، فيعين لذكر الأسماء الحسنى ، أو ما يرسم من أوقافها . بل ولسائر الأسماء ، أوقاتا تكون من حظوظ الكواكب الذي يناسب ذلك الاسم ؛ كما فعله البوني في كتابه الذي سماه الأنماط . وهذه المناسبة عندهم هي من لدن الحضرة العمائية . وهي برزخية الكمال الأسماني ، وإنما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة . وإثبات هذه المناسبة عندهم إنما هو بحكم المشاهدة . فإذا خلا صاحب الأسماء عن تلك المشاهدة ، وتلقى تلك المناسبة تقليدا ، كأن عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم ؛ بل هو أوثق منه كما قلناه . وكذلك قد يمزج أيضاً صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكب بقوى الدعوات المؤلفة من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب ، إلا أن مناسبة الكلمات عندهم ليست كما هي عند أصحاب

الأسماء من الإطلاع في حال المشاهدة ، وإنما يرجع إلى ما اقتضته أصول طريقتهم  
 السخرية ، من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكنونات ، من جواهر وأعراض  
 وذوات ومعانٍ ، والحروف والأسماء من جملة ما فيه .

فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه ، ويبنون على ذلك مبانى غريبة  
 منكرة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو ، كما فعله مسلمة المجريطي في  
 الغاية . والظاهر من حال البونبي في أنماطه أنه اعتبر طريقتهم . فإن تلك  
 الأنماط إذا تصفحتها ، وتصفحت الدعوات التي تضمنتها ، وتقسيمها على ساعات  
 الكواكب السبعة ؛ ثم وقفت على الغاية ، وتصفحت قيامات الكواكب التي فيها ،  
 وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب ، ويسمونها قيامات الكواكب ، أي  
 الدعوة التي يقام له بها ، شهد له ذلك ؛ إما بأنه من مادتها ؛ أو بأن التناسب  
 الذي كان في أصل الإبداع وبرزخ العلم قضى بذلك كله . « وما أوتيتم من العلم  
 إلا قليلاً » . وليس كل ما حرّمه الشارع من العلوم بمنكر الثبوت ، فقد ثبت أن  
 السحر حق مع حظره . لكن حسبنا من العلم ما علمنا .

ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الأجوية من الأسئلة ،  
 بازتباطات ش بين الكلمات - حرفية ، يوهمون أنها أصل في معرفة  
 ما يحاولون علمه من الكائنات الاستقبالية ؛ وإنما هي شبه المعاينة والمسائل  
 السائلة . ولهم في ذلك كلام كثير من أدعية وأوراد . وأعجبه زايجة العالم  
 للسيتي . وقد تقدم ذكرها . وتبين هنا ما ذكروه في كيفية العمل بتلك الزايجة  
 بدائرتها وجدولها المكتوب حولها ؛ ثم كشف عن الحق فيها وأنها ليست من  
 الغيب ، وإنما هي مطابقة بين مسألة وجوابها في الإفادة فقط . وقد أشرنا إلى  
 ذلك من قبل . وليس عندنا رواية يعول عليها في صحة هذه الفصيحة إلا أننا  
 تحريئنا أصح النسخ منها في ظاهر الأمر . والله الموفق بمنه . وهي هذه ؛

يَقُولُ سُبَّيْتِي وَيَحْمَدُ رَبِّه  
مُحَمَّدِ الْمَبْعُوثِ خَاتِمِ الْأَنْبِيَا  
أَلَا هَذِهِ زَايِرَجَةُ الْعَالِمِ الَّذِي  
فَمَنْ أَحْكَمَ الْوَضْعَ فَيَحْكُمُ جِسْمَهُ  
وَمَنْ أَحْكَمَ الرَّبْطَ فَيَدْرِكُ قُوَّةَ  
وَمَنْ أَحْكَمَ التَّصْرِيفَ يَحْكُمُ سِرَّهُ  
وَفِي عَالِمِ الْأَمْرِ تَرَاهُ مُحَقِّقًا  
فَهَذَا سِرَائِرُ عَلَيْكُمْ بِكْتِمِهَا  
فَطَاءَ لَهَا عَرْشٌ وَفِيظُ نَقُوشِنَا  
وَنَسَبُ دَوَائِرِ كُنْسِيَةِ فُلُكِيهَا  
وَأَخْرَجَ لِأَوْتَارِ وَارِسْمِ حُرُوفِهَا  
أَقَمَ شَكْلَ زِيَرِهِمْ وَسَوَّ بِيُوتَهُ  
وَحَصَلَ عُلُومًا لِلطَّبَّاعِ مَهْنِدِسًا  
وَسَوَّ لِمُوسِيقَى وَعَلِمَ حُرُوفِهِمْ  
وَسَوَّ دَوَائِرِهَا وَنَسَبَ حُرُوفِهَا  
أَمِيرَ لَنَا فَهُوَ نِهَائِيَّةَ دَوْلَةِ  
وَقَطَرِ لِأَنْدَلُسِ فَايُنْ لِهَوْدِهِمْ  
مُلُوكَ وَفُرْسَانَ وَأَهْلَ لِجِحْمَةِ  
وَمَهْدِي تَوْحِيدِ بَتُونِسِ حُكْمِهِمْ  
وَأَقْسِمَ عَلَى الْقَطْرِ وَكُنْ مُتَّفَقِدًا  
فَفَنَسُ وَبَرَشْنُونَ الرَّاءِ حَرْفِهِمْ  
مُلُوكَ كِنَاوَةَ ذَلُوا لِقَافِيهِمْ  
فَهَذَا حَبَاشِيَّ وَسِنْدَ فَهَرِمِسَ

مُصَلَّ عَلَى هَادٍ إِلَى النَّاسِ أُرْسِلَا  
وَيَرْضَى عَنِ الصَّحْبِ وَمِنْ لَهُمْ تَلَا  
تَرَاهُ بِحِيَّتِكُمْ وَبِالْعَقْلِ قَدْ حَلَا  
وَيَدْرِكُ أَحْكَامًا تَدَبَّرَهَا الْعِلَا  
وَيَدْرِكُ لِلتَّقْوَى وَلِلْكَلِّ حَصَلَا  
وَيَعْقِلُ نَفْسَهُ وَصَحَّ لَهُ الْوَلَا  
وَهَذَا مَقَامٌ مِنَ الْأَذْكَارِ كَمَلَا  
أَقْمَهَا دَوَائِرَ وَلِلْحَاءِ عَدَلَا  
بِنِظْمِ وَنَثَرٍ قَدْ تَرَاهُ مَجْدُولَا  
وَارِسْمِ كَوَاكِبًا لِأَدْرَاجِهَا الْعِلَا  
وَكُورٍ يَمِثْلُهُ عَلَى حَدِّ مَنْ خَلَا  
وَحَقَّقَ بِهَامِهِمْ وَنُورَهُمْ جَلَا  
وَعَلِمًا لِمُوسِيقَى وَالْأَرْبَاعِ مَثَلَا  
وَعَلِمَ بِالْآلِ فَحَقَّقَ وَحَصَلَا  
وَعَالِمَهَا أَطْلِقَ وَالْإَقْلِيمِ جَدُولَا  
زَنَاتِيَّةَ آبَتِ وَحُكْمَ لَهَا خَلَا  
وَجَاءَ بَنُو نَصْرٍ وَظَفَرُهُمْ تَلَا  
فَإِنْ شِئْتَ نَصَّبَهُمْ وَقَطَرُهُمْ حَلَا  
مُلُوكَ وَبِالشَّرْقِ بِالْأَوْفَاقِ نَزَلَا  
فَإِنْ شِئْتَ لِلرُّومِ فَبِالْحَرِّ شَكَلَا  
وَإِفْرَنْسِهِمْ ذَالَ وَبِالطَّاءِ كَمَلَا  
وَإِعْرَابَ قَوْمِنَا بِتَرْقِيقِ أَعْمَلَا  
وَفُرْسَ طَطَارِي وَمَا بَعْدَهُمْ طَلَا

فقيصرهم جاء وَيَزْدَجُرُهُمْ  
 وَعَبَّاسُ كُلُّهُمْ شَرِيفٌ مُعْظَمٌ  
 فَإِنْ شِئْتَ تَدْقِيقَ الْمُلُوكِ وَكُلُّهُمْ  
 عَلَى حُكْمِ قَانُونِ الْحُرُوفِ وَعَلِمَهَا  
 فَمَنْ عَلِمَ الْعُلُومَ تَعَلَّمَ عَلِمْنَا  
 فَيَرْسُخُ عِلْمُهُ وَيَعْرِفُ رَبَّهُ  
 وَحَيْثُ أَتَى اسْمٌ وَالْعَرُوضُ يَشْفُهُ  
 وَتَأْتِيكَ أَحْرَفٌ فَسَوْ إِضْرِبَهَا  
 فَمَكَّنَ بِتَنْكِيرٍ وَقَابِلٌ وَعَوْضُنُ  
 وَفِي الْعَقْدِ وَالْمَجْزُورِ يَعْرِفُ غَالِبًا  
 وَاخْتَرِ لِمَطْلَعٍ وَسَوِيهِ رُبَّةً  
 وَيُدْرِكُهَا الْمَرْءُ فَيَبْلُغُ قَصْدَهُ  
 إِذَا كَانَ سَعْدٌ وَالْكَوَاكِبُ اسْعَدَتْ  
 وَإِيقَاعُ دَالِهِمْ بِمَرْمُوزِ ثَمَّةٍ  
 وَأُوتَارُ زِيرِهِمْ فَلِلْحَاءِ بِمِهِمْ  
 وَأَدْخَلَ بِأَفْلَاكِ وَعَدَّلَ بِجَدُولٍ  
 وَجَوَّزَ شُدُودَ النُّوِّ تَجْرِي وَمِثْلَهُ  
 فَأَصَلَ لِدِينِنَا وَأَصَلَ لِفِقْهِنَا  
 فَادْخُلْ لِفِسْطَاطِ عَلَى الْوُفُوقِ جَذْرَهُ  
 فَتَخْرُجْ أُبْيَاتًا وَفِي كُلِّ مَطْلَبٍ  
 وَتَفْنِي بِحَصْرِهَا كَذَا حُكْمَ عَدِّهِمْ  
 فَتَخْرُجْ أُبْيَاتًا وَعِشْرُونَ ضَعْفَتْ  
 تَرِيكَ صَنَائِعًا مِنَ الصَّرْبِ أَكْمَلْتَ

لِكَافٍ وَقَبْطِيهِمْ بِلَامِهِ طَوَّلًا  
 وَلَكِنْ تَرِكِي بِذَا الْفِعْلِ عَطَّلًا  
 فَحَتَمَ بِيُوتًا ثُمَّ نَسَبَ وَجَدُولًا  
 وَعَلِمَ طِبَائِعَهَا وَكُلَّهُ مِثْلًا  
 وَيَعْلَمُ أَسْرَارَ الْوُجُودِ وَأَكْمَلًا  
 وَعَلِمَ مَلَا حِيَمٍ بِحَامِيَمٍ فَضَّلًا  
 فَحَكَّمَ الْحَكِيمَ فِيهِ قَطْعًا لِيَقْتَلَا  
 وَأَحْرَفَ سَيَبُويِهِ تَأْتِيكَ فَيَصْلَا  
 بِتَرْنِيمِكَ الْغَالِي لِلْأَجْزَاءِ خَلْجَلَا  
 وَزِدْ لِمَحٍ وَصْفِيهِ فِي الْعَقْلِ فَعْمَلَا  
 وَاعْكِسْ بِجَذْرِيهِ وَبِالدُّورِ عَدْلَا ؟  
 وَتَعْطِي حُرُوفَهَا وَفِي نَظْمِهَا انْجَلَا  
 فَحَسْبُكَ فِي الْمَلِكِ وَنَيْلِ اسْمِهِ الْعَلَا  
 فَنَسَبُ دَنَادِينَا تَجِدُ فِيهِ مَنْهَلَا  
 وَمِثْنَاهُمْ الْمِثْلُثُ بِحِيَمِهِ قَدْ جَلَا  
 وَأَرْسَمَ أَبَا جَادٍ وَبَاقِيَهُ جِمَلَا  
 أَتَى فِي عَرُوضِ الشُّعْرِ عَنْ جُمْلَةٍ مَلَا  
 وَعَلِمَ لَنَحُونَا فَاحْفَظْ وَحَصَّلَا  
 وَسَبَّحْ بِاسْمِهِ وَكَبَّرْ وَهَلَّلَا  
 بِنَظْمِ طَبِيعِي وَسِرِّ مِنَ الْعَلَا  
 فَعَلِمَ الْفَوَاتِيحَ تَرَى فِيهِ مَنْهَلَا  
 مِنَ الْأَلْفِ طَبِيعِيًّا فَيَا صَاحِ جَدُولَا  
 فَصَحَّ لَكَ الْمُنَى وَصَحَّ لَكَ الْعَلَا

وَسَجَّعَ بِزَيْرِهِمْ وَأَثْنِي بِنَقْرَةٍ      أَقْمَهَا دَوَائِرَ الزَّيْرِ وَحَصَلَا  
 أَقْمَهَا بِأَوْفَاقٍ وَأَصْلُ لِعَدْهَا      مِنْ أَسْرَارِ أَحْرَفِهِمْ فَعَذَبَهُ سِلْسِلَا  
 ٤٣ ك ١ ك و ك ح و ا ه عم له ر ل اسع ك ط ١ ل م ن ح ع ف و ل

الكلام على استخراج نسبة الأوزان وكميياتها ومقادير المقابل منها  
 وقوة الدرجة المتميزة بالنسبة إلى موضع المعلق من امتزاج

### طبائع وعلم طب أو صناعة الكيمياء

أَيَا طَالِبًا لِلطَّبِّ مَعَ عِلْمِ جَابِرٍ      وَعَالِمٍ مَقْدَارِ المَقَادِيرِ بِالْوَلَا  
 إِذَا شِئْتَ عِلْمَ الطَّبِّ لَا بُدَّ نِسْبَةً      لِأَحْكَامِ مِيزَانٍ تُصَادَفُ مِنْهَا  
 فَيُشْفَى عَلَيْكُمْ وَالْأَكْسِيرُ مُحَكَّمٌ      وَأَمْزَاجٌ وَضَعْتُمْ بِتُصْحِيحِ أَنْجَلَا

### الطب الروحاني

وَشِئْتَ إِيلَاوَشَ ٥٦٥ هـ وَدَهْنَهُ بِحَلَا      لِبِهْرَامِ بَرَجِيسٍ وَسَبْعَةَ أَكْمَلَا  
 لِتَحْلِيلِ أَوْجَاعِ البُورَادِ صَحْحُوا      كَذَلِكَ وَالتَّرْكِيبِ حَيْثُ تَنْقَلَا

كُدْ مَنْعُ مَهْمٍ ٣٥٥ وَهَجَّ ٦ صَحَّ لَهَايَ وَلِجِ ١١١ وَهَجَّ وَيُ سَكْرَهُ لَالَ ح مَهْمَتِ  
 مَهْمٍ ٤٤ مِ مِ مِرْحَ ح ٢٢٤٢ ل ك عَا عِرْ .

### مطاريح الشعاعات في مواليد الملوك وبنبيهم

وَعَلَّمَ مَطَارِيحَ الشُّعَاعَاتِ مُشْكَلاً      وَضَلَعَ قَسِيهَا بِمَنْطِقَةِ جَلَا  
 وَلَكِنْ فِي حَجِّ مَقَامِ إِمَامِنَا      وَيَبْدُو إِذَا عَرَضَ الكَوَاكِبِ عَدَلَا  
 بِدَالَ مَرَكَزِ بَيْنِ طُولٍ وَعَرْضِهَا      فَمَنْ أَذْرَكَ المَعْنَى عَلَا ثُمَّ فَوْضِلَا  
 مَوَاقِعَ تَرْبِيعٍ وَسَهِّ مُسْقَطٍ      لِتَسْدِيسِهِمْ تَثْلِيثُ بَيْتِ التِّي تَلَا

يزاد لتربيع وهذا قياسه يقينا وجذره وبالعين أعمالا  
ومن نسبة الربعين ركب شعاعك بصاد وضعفه وتربيعة أنجلا

اختص صح ع ٨ سع وى هذا العمل هنا للملوك والقانون مطرد عمله  
ولم ير أعجب منه .

مقامات الملوك المقام الأول ه المقام الثاني

ع ع والمقام الرابع للح المقام الخامس لاي المقام السادس بير المقام السابع عره

خط الاتصال والانفصال

خط الاتصال

خط الانفصال

الوتر للجميع وتابع الجرر التام

الاتصال والانفصال

الواجب التام في الاتصالات

إقامة الأنوار

الجزر المجيب في العمل

إقامة السؤال عن الملوك

مقام الأولا نورعه ي مقام بها ه حج لا

الانفعال الروحاني والانتقياد الرباني

أيا طالب السر لتهيل ربه لدى أسمائه الحسنى تضادف منهلأ  
تطيمك أخيار الأنام بقلبيهم كذلك ريسهم وفي الشمس أعمالا



ترى عامة الناس إليك تقيّدوا  
 طريقك هذا السيل والسبل الذي  
 إذا شئت تحيا في الوجود مع التقى  
 كذي النون والجنيد مع سرّ صنعة  
 وفي العالم العلوي تكون محدثا  
 طريق رسول الله بالحق ساطع  
 فبطشك تهليل وقوسك مطلع  
 وفي جمعة أيضاً بالأسماء مثله  
 وفي طائه سرّ في هائه إذا  
 وساعة سعد شرطهم في تقوشها  
 وتتلو عليها آخر الحشر دعوة

اتصال أنوار الكواكب ( بلعاني لاهي ) لا ظ غ لدسع ق صح م ف و ي

وفي يدك اليمنى حديد وخاتم  
 وآية حشر فاجعل القلب وجهها  
 هي السر في الأكوان لاشيء غيرها  
 تكون بها قطباً إذا جدت خدمة  
 سري بها ناجي ومعروف قبله  
 وكان بها الشبلي يدأب دائماً  
 فصّف من الأدناس قلبك جاهداً  
 فما نال سرّ القوم إلا محقق

وكل برأسك وفي دعوة فلا  
 واتلو إذا نام الأنام ورتلا  
 هي الآية العظمى فحقّق وحصلا  
 وتدرّك أسراراً من العالم العلا  
 وباح بها الحلاج جهراً فأعقلا ؟  
 إلى أن رقى فوق المريدين واعتلى  
 ولازم لاذكار وضم وتقللا  
 علّم بأسرار العلوم محصلا

## مقامات المحبة وميل النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب وتعشق

### وفناء الفناء وتوجه ومراقبة وخلة وأئمة

#### الانفعال الطبيعي

لبرجيس في المحبة الوفق صرّفوا  
وقيل بفضة صحيحاً رأيتُهُ  
توخّ به زيادة النور للقمر  
ويومُهُ والبخورُ عودٌ لهنديهم  
ودعوتُهُ بغاية فهي أعملت  
وقيل بدعوة حروف لوضعها  
فتنقش أحرفاً بدالٍ ولأمها  
إذا لم يكن يهوى هواك دلالاتها  
فحسن لبائهُ وبائهم إذا  
ونقش مشاكل بشرط لوضعهم  
ومفتاح مريم ففعلهما سوا  
وجعلك بالقصد وكن متفقداً  
فاعكس بيوتها بألف وثيف

بقزدير أو نحاس الخلط أكملًا  
فجعلك طالماً خطوطُهُ ماعلاً  
وجعلك للقبول شمسُهُ أصلاً  
ووقتٌ لساعة ودعوتُهُ ألا  
وعن طسيمان دعوة ولها جلا  
بحرّ هواءٍ أو مطالب أهلاً  
وذلك وفق للمربّع حصلاً  
فدال ليبدو واو زينب معطلا  
هواك وباقيهم قليلة جملاً  
وما زدت أنسبه لفعلك عدلاً  
فبوري وبسطامي بسورتها تلا  
أدلة وحشي لقبضة ميلاً  
فباطنها سرٌّ وفي سرّها انجلاً

#### فصل في المقامات للنهائية

لك الغيب صورةً من العالم العُلا  
ويوسف في الحسن وهذا شبيهه  
وفي يده طول وفي الغيب ناطق  
وقد جن بهلول بعشق جمالها

وتوجدها دار أو ملبسها الحلا  
بنشر وترتيل حقيقة أنزلا  
فيحكي إلى عود يجاوب بلبلا  
وعند تجليها لبسطام أخذلا



كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من زايرجة العالم بحول الله

منقولاً عن لقيناه من القائمين عليها

السؤال له ثلثمائة وستون جواباً عدّة الدرج ، وتختلف الأجوبة عن سؤال واحد في طالع مخصوص باختلاف الأسئلة المضافة إلى حروف الأوتار ، وتناسب العمل من استخراج الأحرف من بيت القصيد .

( تنبيه ) - تركيب حروف الأوتار والجداول على ثلاثة أصول : حروف عربية تنقل على هيأتها ، وحروف برسم الغبار . وهذه تتبدل ، فمنها ما ينقل على هيئته متى لم تزد الأوتار عن أربعة ، فإن زادت عن أربعة نقلت إلى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات ، وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل كما سنبينه ؛ ومنها حروف برسم الزمام كذلك ، غير أن رسم الزمام يعطى نسبة ثانية ، فهي بمنزلة واحد ألف وبمنزلة عشرة ، ولها نسبة من خمسة بالعربي ، فاستحق البيت من الجدول أن توضع فيه ثلاثة حروف في هذا الرسم وحرفان في الرسم ، فاختصروا من الجدول بيوتاً خالية . فمتى كانت أصول الأوتار زائدة على أربعة حسبت في العدد في طول الجدول ، وإن لم تزد على أربعة لم يحسب إلا العامر منها .

والعمل في السؤال يفتقر إلى سبعة أصول : عدّة حروف الأول حساب أدوارها بعد طرحها ، إثني عشر إثني عشر ؛ وهي ثمانية أحرف في الكامل وستة في الناقص أبداً . ومعرفة درج الطالع وسُلطان البرج ، والدور الأكبر الأصلي ، وهو واحد أبداً . وما يخرج من إضافة الطالع للدور الأصلي ، وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج . وإضافة سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة أدوار مضروبة في أربعة ، تكون إثني عشر دوراً . ونسبة هذه الثلاثة

الأدوار التي هي كل دور من أربعة نشأة ثلاثية ، كل نشأة لها ابتداء . ثم إنها تضرب أدواراً رباعية أيضاً ثلاثية . ثم إنها من ضرب ستة في اثنين ، فكان لها نشأة . يظهر ذلك في العمل . ويتبع هذه الأدوار الإثنى عشر نتائج ، وهي في الأدوار ، إما أن تكون نتيجة أو أكثر إلى ستة .

فأول ذلك نفرض سؤالاً عن الزايرة ، هل هي علم قديم ، أو محدث يطالع أول درجة من القوس أثناء حروف الأوتار ؟ ثم حروف السؤال . فوضعنا حروف وتر رأس القوس ونظيره من رأس الجوزاء . وثالثه وتر رأس الدلو إلى حد المركز . وأضفنا إليه حروف السؤال ، ونظرنا عدتها وأقل ما تكون ثمانية وثمانين ، وأكثر ما تكون ستة وتسعين ، وهي جملة الدور الصحيح ، فكانت في سؤالنا ثلاثة وتسعين . ويختصر السؤال إن زاد عن ستة وتسعين ، بأن يسقط جميع أدواره الإثنى عشرية ، ويحفظ ما خرج منها وما بقي . فكانت في سؤالنا سبعة أدوار ، الباقية تسعة . أثبتنا في الحروف ما لم يبلغ الطالع إثنى عشرة درجة ، فإن بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور .

ثم تثبت أعدادها أيضاً إن زاد الطالع عن أربعة وعشرين في الوجه الثالث ، ثم تثبت الطالع وهو واحد ، وسلطان الطالع وهو أربعة ، والدور الأكبر وهو واحد ، وأجمع ما بين الطالع والدور وهو اثنان في هذا السؤال ، واضرب ما خرج منهما في سلطان البرج يبلغ ثمانية ، وأضف السلطان للطالع فيكون خمسة ، فهذه سبعة أصول . فما خرج من ضرب الطالع والدور الأكبر في سلطان القوس ، مما لم يبلغ إثنى عشر فيه تدخل في ضلع ثمانية من أسفل الجدول صاعداً ، وإن زاد على إثنى عشر طرح أدواراً ، وتدخل بالباقي في ضلع ثمانية ، وتعلم على منتهى العدد والخمسة المستخرجة من السلطان والطالع ، يكون الطالع في ضلع السطح المنبسط الأعلى من الجدول ، وتعد متوالياً خمسات أدواراً ، وتحفظها إلى أن يقف العدد على حرف من أربعة ، وهي ألف أو باء أو جيم أو زاي . فوقع العدد في عملنا

على حَرْفِ الألفِ وَخَلْفَ ثَلَاثَةِ أَدْوَارٍ ، فَضَرَبْنَا ثَلَاثَةً فِي ثَلَاثَةِ كَانَتْ تِسْعَةً ، وَهُوَ عَدَدُ الدَّوْرِ الأَوَّلِ . فَأَثْبَتَهُ وَاجْمَعْ مَا بَيْنَ الصُّلْعَيْنِ ، الْقَائِمِ وَالْمَنْسُوطِ يَكُنْ فِي بَيْتِ ثَمَانِيَّةٍ فِي مُقَابَلَةِ البُّيُوتِ العَامِرَةِ بِالعَدَدِ مِنَ الجَدُولِ ؛ وَإِنْ وَقَفَ فِي مُقَابَلَةِ الخَالِي مِنْ بُّيُوتِ الجَدُولِ عَلَى أَحَدِهَا ، فَلَا يُعْتَبَرُ وَتَسْتَمِرُّ عَلَى أَدْوَارِكَ . وَأَدْخَلَ بِعَدَدِ مَا فِي الدَّوْرِ الأَوَّلِ ، وَذَلِكَ تِسْعَةً فِي صَدْرِ الجَدُولِ مِمَّا يَلِي البَيْتَ الَّذِي اجْتَمَعَا فِيهِ ، وَهِيَ ثَمَانِيَّةٌ ، مَاراً إِلَى جِهَةِ اليسَارِ ؛ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ لامِ أَلِفٍ وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبْدأ حَرْفِ مُرْكَبٍ . وَإِنَّمَا هُوَ إِذَنْ حَرْفُ تَاءٍ أَرْبَعُمَائَةِ بِرَسْمِ الزَّمَامِ ، فَعَلِمَ عَلَيْهَا بَعْدَ نَقْلِهَا مِنْ بَيْتِ القَصِيدِ ، وَاجْمَعْ عَدَدَ الدَّوْرِ لِلسُّلْطَانِ يَبْلُغُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ ، أَدْخَلَ بِهَا فِي حُرُوفِ الأَوْتَارِ ، وَأَثْبَتَ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ العَدَدُ وَعَلِمَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ القَصِيدِ . وَمِنْ هَذَا القَانُونِ تَدْرِي كَمْ تَدُورُ الحُرُوفُ فِي النِّظْمِ الطَّبِيعِيِّ ، وَذَلِكَ أَنْ تَجْمَعَ حُرُوفَ الدَّوْرِ الأَوَّلِ وَهُوَ تِسْعَةٌ لِلسُّلْطَانِ البُرْجِ وَهُوَ أَرْبَعَةٌ تَبْلُغُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ ، أَضْعَفُهَا بِمِثْلِهَا تَكُونُ سِتَّةً وَعَشْرِينَ ، أَسْقِطْ مِنْهَا دَرَجَ الطَّالِعِ وَهُوَ وَاحِدٌ فِي هَذَا السُّؤَالِ البَاقِي خَمْسَةٌ وَعَشْرُونَ .

فَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ نِظْمُ الحُرُوفِ الأَوَّلِ ، ثُمَّ ثَلَاثَةٌ وَعَشْرُونَ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ إِثْنَانِ وَعَشْرُونَ مَرَّتَيْنِ ، عَلَى حَسَبِ هَذَا الطَّرْحِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ لِلوَاحِدِ مِنْ آخِرِ البَيْتِ المَنْظُومِ . وَلَا تَقِفْ عَلَى أَرْبَعَةٍ وَعَشْرِينَ لِطَّرْحِ ذَلِكَ الوَاحِدِ أَوَّلًا . ثُمَّ ضَعِ الدَّوْرَ الثَّانِي وَأَضِفْ حُرُوفَ الدَّوْرِ الأَوَّلِ إِلَى ثَمَانِيَّةٍ ، الخَارِجَةِ مِنْ ضَرْبِ الطَّالِعِ وَالدَّوْرِ فِي السُّلْطَانِ تَكُنْ سَبْعَةٌ عَشَرَ البَاقِي خَمْسَةٌ . فَاضْعُدْ فِي ضِلْعِ ثَمَانِيَّةٍ بِخَمْسَةِ مِنْ حَيْثُ انْتَهَيْتَ فِي الدَّوْرِ الأَوَّلِ وَعَلِمَ عَلَيْهِ ، وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ الجَدُولِ بِسَبْعَةِ عَشَرَ ، ثُمَّ بِخَمْسَةِ . وَلَا تَعُدَّ الخَالِي ، وَالدَّوْرَ عَشْرُونَ ، فَوَجَدْنَا حَرْفَ تَاءٍ خَمْسُمَائَةِ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ نُونٌ لِأَنَّ دَوْرَنَا فِي مَرْتَبَةِ العَشْرَاتِ ، فَكَانَتِ الخَمْسُمَائَةُ بِخَمْسِينَ لِأَنَّ دَوْرَهَا سَبْعَةٌ عَشَرَ فَلَوْلَمْ تَكُنْ سَبْعَةٌ عَشَرَ لَكَانَتْ مِئِينَ . فَأَثْبَتْنَا نُونًا ثُمَّ أَدْخَلَ بِخَمْسَةِ أَيْضًا مِنْ أَوَّلِهِ . وَانظُرْ مَا حَادَى ذَلِكَ مِنَ السُّطْحِ تَجِدُ وَاحِدًا ، فَفَقَهَرِ العَدَدُ وَاحِدًا يَقَعُ عَلَى

خَمْسَةَ ، أَضِفْ لَهَا وَاحِدًا لِسَطْحِ تَكُنْ سِتَّةَ . أُثْبِتْ وَاوًا وَعَلِّمْ عَلَيْهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ  
أَرْبَعَةَ ، وَأَضِفْهَا لِلثَّمَانِيَةِ الْخَارِجَةِ مِنْ ضَرْبِ الطَّالِعِ مَعَ الدَّوْرِ فِي السُّلْطَانِ تَبْلُغُ إِثْنَيْ  
عَشَرَ ، أَضِفْ لَهَا الْبَاقِي مِنَ الدَّوْرِ الثَّانِي وَهُوَ خَمْسَةٌ تَبْلُغُ سَبْعَةَ عَشَرَ ، وَهُوَ مَا لِلدَّوْرِ  
الثَّانِي . فَدَخَلْنَا بِسَبْعَةَ عَشَرَ فِي حُرُوفِ الْأُوتَارِ ، فَوَقَعَ الْعَدَدُ عَلَى وَاحِدٍ . أُثْبِتْ  
الْأَلِفَ وَعَلِّمْ عَلَيْهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ وَأَسْقِطْ مِنْ حُرُوفِ الْأُوتَارِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ عِدَّةَ  
الْخَارِجِ مِنَ الدَّوْرِ الثَّانِي ، وَضَعْ الدَّوْرَ الثَّالِثَ وَأَضِفْ خَمْسَةَ إِلَى ثَمَانِيَةٍ تَكُنْ ثَلَاثَةَ  
عَشَرَ ، الْبَاقِي وَاحِدًا . انْقَلَبَ الدَّوْرَ فِي ضِلْعِ ثَمَانِيَةٍ بِوَاحِدٍ وَأَدْخَلَ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ  
بِثَلَاثَةِ عَشَرَ ، وَخَذَ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ الْعَدَدُ وَهُوَ ( ق ) وَعَلِّمْ عَلَيْهِ . وَأَدْخَلَ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ  
فِي حُرُوفِ الْأُوتَارِ وَأُثْبِتْ مَا خَرَجَ . وَهُوَ سَيْنٌ ، وَعَلِّمْ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ ، ثُمَّ  
أَدْخَلَ مِمَّا يَلِي السَيْنَ الْخَارِجَةَ بِالْبَاقِي مِنْ دَوْرِ ثَلَاثَةِ عَشَرَ وَهُوَ وَاحِدًا ، فَخَذَ مِمَّا  
يَلِي حَرْفَ سَيْنَ مِنَ الْأُوتَارِ فَكَانَ ( ب ) أُثْبِتْهَا وَعَلِّمْ عَلَيْهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ . وَهَذَا  
يُقَالُ لَهُ : الدَّوْرُ الْمَعْطُوفُ ، وَمِيزَانُهُ صَحِيحٌ ، وَهُوَ أَنْ تُضَعَّفَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ بِمِثْلِهَا ،  
وَتُضَيَّفَ إِلَيْهَا الْوَاحِدَ الْبَاقِي مِنَ الدَّوْرِ تَبْلُغُ سَبْعَةَ وَعِشْرِينَ ، وَهُوَ حَرْفُ بَاءٍ  
الْمُسْتَخْرَجِ مِنَ الْأُوتَارِ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ . وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ ،  
وَانظُرْ مَا قَابَلَهُ مِنَ السُّطْحِ وَأَضِعْفُهُ بِمِثْلِهِ ، وَزِدْ عَلَيْهِ الْوَاحِدَ الْبَاقِي مِنْ ثَلَاثَةِ  
عَشَرَ ؛ فَكَانَ حَرْفُ جِيمٍ ، وَكَانَتْ لِلْجُمْلَةِ سَبْعَةٌ ، فَذَلِكَ حَرْفُ زَايٍ فَأُثْبِتْنَاهُ وَعَلِّمْنَا  
عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ . وَمِيزَانُهُ أَنْ تُضَعَّفَ السَّبْعَةَ بِمِثْلِهَا وَزِدْ عَلَيْهَا الْوَاحِدَ الْبَاقِي  
مِنْ ثَلَاثَةِ عَشَرَ يَكُنْ خَمْسَةَ عَشَرَ ، وَهُوَ الْخَامِسُ عَشَرَ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ وَهَذَا آخِرُ  
أَدْوَارِ الثَّلَاثِيَّاتِ ، وَضَعْ الدَّوْرَ الرَّابِعَ وَلَهُ مِنَ الْعَدَدِ تِسْعَةٌ بِإِضَافَةِ الْبَاقِي مِنَ الدَّوْرِ  
السَّابِقِ ، فَاضْرِبِ الطَّالِعَ مَعَ الدَّوْرِ فِي السُّلْطَانِ ، وَهَذَا الدَّوْرُ آخِرُ الْعَمَلِ فِي الْبَيْتِ  
الْأَوَّلِ مِنَ الرُّبَاعِيَّاتِ .

فَاضْرِبْ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأُوتَارِ وَاصْعِدْ بِتِسْعَةٍ فِي ضِلْعِ ثَمَانِيَةٍ وَأَدْخَلَ بِتِسْعَةَ  
مِنْ دَوْرِ الْحَرْفِ الَّذِي أَخَذْتَهُ آخِرًا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ ، فَالْتَّاسِعُ حَرْفُ رَاءٍ ، فَأُثْبِتْهُ

وَعَلَّمَ عَلَيْهِ . وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ تِسْعَةَ وَأَنْظَرَ مَا قَابَلَهَا مِنَ السُّطْحِ يَكُونُ  
( ج ) ؛ فَهَقِرَ الْعَدَدُ وَاحِدًا يَكُونُ أَلْفٌ وَهُوَ الثَّانِي مِنْ حَرْفِ الرَّاءِ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ  
فَأَثْبَتَهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ . وَعَدَّ مِمَّا يَلِي الثَّانِي تِسْعَةَ يَكُونُ أَلْفٌ أَيْضًا أَثْبَتَهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ  
وَأَضْرَبَ عَلَى حَرْفٍ مِنَ الْأَوْتَارِ ، وَأَضِيفَ تِسْعَةٌ بِمِثْلِهَا تَبْلُغُ ثَمَانِيَةَ عَشْرَ ، أَدْخَلَ بِهَا  
فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقَفَ عَلَى حَرْفِ رَاءٍ ، أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ ثَمَانِيَةَ  
وَأَرْبَعِينَ . وَأَدْخَلَ بِثَمَانِيَةَ عَشْرَ فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقَفَ عَلَى ( س ) أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ  
عَلَيْهَا إِثْنَيْنِ ، وَأَضِيفَ إِثْنَيْنِ إِلَى تِسْعَةٍ تَكُونُ أَحَدَ عَشْرَ . أَدْخَلَ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ  
بِأَحَدِ عَشْرَ تَقَابُلَهَا مِنَ السُّطْحِ أَلْفٌ أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا سِتَّةَ ، وَضَعُ الدُّورَ الْخَامِسَ  
وَعَدَّتُهُ سَبْعَةَ عَشْرَ الْبَاقِي خَمْسَةَ . إِضْعُدْ بِخَمْسَةِ فِي ضَلْعِ ثَمَانِيَةَ وَأَضْرَبْ عَلَى حَرْفَيْنِ  
مِنَ الْأَوْتَارِ وَأَضِيفْ خَمْسَةَ بِمِثْلِهَا ، وَأَضِيفْهَا إِلَى سَبْعَةِ عَشْرَ عَدَدِ دُورِهَا الْجُمْلَةَ سَبْعَةَ  
وَعِشْرُونَ ؛ أَدْخَلَ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقَفَ عَلَى ( ب ) أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا إِثْنَيْنِ  
وِثَلَاثِينَ وَأَطْرَحَ مِنْ سَبْعَةِ عَشْرَ إِثْنَيْنِ الَّتِي هِيَ فِي أَسِّ إِثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ الْبَاقِي خَمْسَةَ  
عَشْرَ . أَدْخَلَ فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقَفَ عَلَى ( ق ) أَثْبَتَهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا سِتَّةَ وَعِشْرِينَ ،  
وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ بِسِتِّ وَعِشْرِينَ تَقَفَ عَلَى إِثْنَيْنِ بِالْغَبَارِ ، وَذَلِكَ حَرْفُ  
( ب ) أَثْبَتَهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ وَخَمْسِينَ ، وَأَضْرَبْ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ وَضَعُ  
الدُّورَ السَّادِسَ ، وَعَدَّتُهُ ثَلَاثَةَ عَشْرَ ، الْبَاقِي مِنْهُ وَاحِدٌ ، فَتَبَيَّنَ إِذْ ذَاكَ أَنَّ دُورَ النُّظْمِ  
مِنْ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ ، فَإِنَّ الْأَدْوَارَ خَمْسَةَ وَعِشْرُونَ وَسَبْعَةَ عَشْرَ وَخَمْسَةَ وَثَلَاثَةَ عَشْرَ  
وَوَاحِدٌ ؛ فَاضْرِبْ خَمْسَةَ فِي خَمْسَةِ تَكُنْ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ ، وَهُوَ الدُّورُ فِي نَظْمِ  
الْبَيْتِ ، فَانْقَلِ الدُّورَ فِي ضَلْعِ ثَمَانِيَةَ بِوَاحِدٍ . وَلَكِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ  
بِثَلَاثَةِ عَشْرَ كَمَا قَدَّمَاهُ ، لِأَنَّهُ دُورٌ ثَانٍ مِنْ نَشْأَةِ تَرْكِيبِيَّةِ ثَانِيَةِ ؛ بَلْ أَضْفَأُ الْأَرْبَعَةَ  
الَّتِي مِنْ أَرْبَعَةَ وَخَمْسِينَ الْخَارِجَةَ عَلَى حُرُوفِ ( ب ) مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ إِلَى الْوَاحِدِ  
تَكُونُ خَمْسَةَ ، تُضِيفُ خَمْسَةَ إِلَى ثَلَاثَةِ عَشْرَ الَّتِي لِلدُّورِ تَبْلُغُ ثَمَانِيَةَ عَشْرَ ، أَدْخَلَ  
بِهَا فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ وَخَذَ مَا قَابَلَهَا مِنَ السُّطْحِ وَهُوَ أَلْفٌ ، أَثْبَتَهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ



بَيَّتِ الْقَصِيدَ إِثْنَيْ عَشَرَ وَاضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأُوتَارِ . وَمِنْ هَذَا الْجَدْوَلِ تَنْظُرُ  
أَحْرَفَ السُّؤَالِ ؛ فَمَا خَرَجَ مِنْهَا زِدَهُ مَعَ بَيَّتِ الْقَصِيدِ مِنْ آخِرِهِ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ  
حُرُوفِ السُّؤَالِ لِيَكُونَ دَاخِلًا فِي الْعَدَدِ فِي بَيَّتِ الْقَصِيدِ ، وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ بِكُلِّ حَرْفٍ  
بَعْدَ ذَلِكَ مُنَاسِبًا لِحُرُوفِ السُّؤَالِ ؛ فَمَا خَرَجَ مِنْهَا زِدَهُ إِلَى بَيَّتِ الْقَصِيدِ مِنْ آخِرِهِ  
وَعَلَّمَ عَلَيْهِ . ثُمَّ أَضْفِ إِلَى ثَمَانِيَّةٍ عَشَرَ مَا عَلَّمْتَهُ عَلَى حَرْفِ الْأَلْفِ مِنَ الْآحَادِ ، فَكَانَ  
إِثْنَيْنِ تَبْلُغُ الْجُمْلَةَ عِشْرِينَ . أَدْخِلْ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأُوتَارِ تَقَفْ عَلَى حَرْفِ رَاءٍ ،  
أَثْبِتْهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ بَيَّتِ الْقَصِيدِ ، سِتَّةً وَتَسْعِينَ ، وَهُوَ نِهَآيَةُ الدَّوْرِ فِي الْحَرْفِ  
الْوَتْرِيِّ . فَأَضْرِبْ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأُوتَارِ وَضَعْ الدَّوْرَ السَّابِعَ ، وَهُوَ إِتْدَاءُ لِمُخْتَرَعِ  
ثَانٍ يَنْشَأُ مِنَ الْإِخْتِرَاعَيْنِ . وَلِهَذَا الدَّوْرُ مِنَ الْعَدَدِ تِسْعَةٌ ، تُضِيفُ لَهَا وَاحِدًا تَكُونُ  
عَشْرَةً لِلنَّشْأَةِ الثَّانِيَّةِ ، وَهَذَا الْوَاحِدُ تَزِيدُهُ بَعْدَ إِلَى إِثْنَيْ عَشَرَ دَوْرًا ، إِذَا كَانَ مِنْ هَذِهِ  
النَّسَبَةِ ، أَوْ تَنْقُصُهُ مِنَ الْأَصْلِ تَبْلُغُ الْجُمْلَةَ خَمْسَةَ عَشَرَ . فَاصْعَدْ فِي ضَلْعِ ثَمَانِيَّةٍ  
وَتَسْعِينَ وَأَدْخِلْ فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ بَعَشْرَةَ تَقَفْ عَلَى خَمْسِمِائَةٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ خَمْسُونَ ،  
نُونَ مُضَاعَفَةٌ بِمِثْلِهَا ؛ وَتِلْكَ ( ق ) أَثْبِتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا مِنْ بَيَّتِ الْقَصِيدِ إِثْنَيْنِ  
وَخَمْسِينَ ، وَأَسْقِطْ مِنْ إِثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ إِثْنَيْنِ ، وَأَسْقِطْ تِسْعَةَ الْتِي لِلدَّوْرِ ؛ الْبَاقِي  
وَاحِدٌ وَأَرْبَعُونَ ؛ فَأَدْخِلْ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأُوتَارِ تَقَفْ عَلَى وَاحِدِ أَثْبِتْهُ . وَكَذَلِكَ  
أَدْخِلْ بِهَا فِي بَيَّتِ الْقَصِيدِ تَجِدْ وَاحِدًا ، فَهَذَا مِيزَانُ هَذِهِ النَّشْأَةِ الثَّانِيَّةِ فَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ  
بَيَّتِ الْقَصِيدِ عَلَامَتَيْنِ . عَلَامَةٌ عَلَى الْأَلْفِ الْأَخِيرِ الْمِيزَانِيِّ ؛ وَأُخْرَى عَلَى الْأَلْفِ  
الْأُولَى فَقَطْ ، وَالثَّانِيَّةُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ وَاضْرِبْ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأُوتَارِ ، وَضَعْ الدَّوْرَ  
الثَّامِنَ وَعَدَّتْهُ سَبْعَةٌ عَشَرَ الْبَاقِي خَمْسَةَ ، أَدْخِلْ فِي ضَلْعِ ثَمَانِيَّةٍ وَخَمْسِينَ وَأَدْخِلْ فِي  
بَيَّتِ الْقَصِيدِ بِخَمْسَةِ تَقَفْ عَلَى عَيْنٍ بِسَبْعِينَ ، أَثْبِتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا . وَأَدْخِلْ فِي  
الْجَدْوَلِ بِخَمْسَةِ ، وَخُذْ مَا قَابَلَهَا مِنَ السَّطْحِ ، وَكَذَلِكَ وَاحِدًا ، أَثْبِتْهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ  
الْبَيَّتِ ثَمَانِيَّةٍ وَأَرْبَعِينَ ، وَأَسْقِطْ وَاحِدًا مِنْ ثَمَانِيَّةٍ وَأَرْبَعِينَ لِلْأَسْرِ الثَّانِي وَأَضْفِ  
إِلَيْهَا خَمْسَةَ ، الدَّوْرِ . الْجُمْلَةُ إِثْنَانِ وَخَمْسُونَ . أَدْخِلْ بِهَا فِي صَدْرِ الْجَدْوَلِ تَقَفْ

على حرف ( ب ) غبارية وهي مرتبة مبيّنة لتزايد العدد . فتكون مائتين وهي  
حرف راء ، أثبتنا وعلم عليها من القصيد أربعة وعشرين ، فانتقل الأمر من ستة  
وتسعين إلى الابتداء وهو أربعة وعشرون ، فأضف إلى أربعة وعشرين خمسة ،  
الدور ، وأسقط واحداً تكون الجملة ثمانية وعشرين . أدخل بالنصف منها في بيت  
القصيد تقف على ثمانية ، أثبت ( ٢ ) وعلم عليها وضع الدور التاسع ، وعدده ثلاثة  
عشر الباقي واحداً ، إضعف في ضلع ثمانية بواحد . وليست نسبة العمل هنا كسببها  
في الدور السادس لتضاعف العدد ، ولأنه من النشأة الثانية ، ولأنه أول الثلث  
الثالث من مربعات البروج وآخر الستة الرابعة من المثلثات . فأضرب ثلاثة عشر  
التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة ، الجملة إثنان وخمسون ،  
أدخل بها في صدر الجدول تقف على حرف إثنين غبارية ، وإنما هي مبيّنة  
لتجاوزها في العدد عن مرتبتي الأحاد والعشرات ، فأثبت مائتين راء ، وعلم عليها  
من بيت القصيد ثمانية وأربعين ، وأضف إلى ثلاثة عشر ، الدور ، واحد الأس ،  
وأدخل بأربعة عشر في بيت القصيد تبلغ ثمانية ، فعلم عليها ثمانية وعشرين ،  
وأطرح من أربعة عشر سبعة يبقى سبعة أضرب على حرفين من الأوتار ، وأدخل  
بسبعة تقف على حرف لام ، أثبتنا وعلم عليه من البيت . وضع الدور العاشر وعدده  
تسعة ، وهذا ابتداء المثلثة الرابعة ، وأضعف في ضلع ثمانية بتسعة ، تكون خلاء ؛  
فأضعف بتسعة ثانية تصير في السابع من الابتداء . أضرب تسعة في أربعة لصعودنا  
بتسعتين ، وإنما كانت تضرب في إثنين ، وأدخل في الجدول ستة وثلاثين تقف  
على أربعة زمامية وهي عشرية ؛ فأخذناها أحادية لقلّة الأدوار ، فأثبت حرف  
دال ؛ وإن أضفت إلى ستة وثلاثين واحد الأس كان حدها من بيت القصيد ، فعلم  
عليها ؛ ولو دخلت بالتسعة لا غير من ضرب في صدر الجدول لوقف على ثمانية ،  
فأطرح من ثمانية أربعة الباقي وهو المقصود . ولو دخلت في صدر الجدول  
بثمانية عشر التي هي تسعة في إثنين لوقف على واحد زمامي وهو عشري ، فأطرح

مِنْهُ إِثْنَيْنِ تَكَرَّرَ التَّسْعَةَ ، الْبَاقِي ثَمَانِيَةَ نِصْفِهَا الْمَطْلُوبُ . وَلَوْ دَخَلَتْ فِي صَدْرِ  
 الْجَدُولِ سَبْعَةَ وَعَشْرِينَ بِضَرْبِهَا فِي ثَلَاثَةِ لَوْقَعَتْ عَلَى عَشْرَةِ زَمَامِيَّةٍ ، وَالْعَمَلُ  
 وَاحِدٌ . ثُمَّ أَدْخَلَ بِتِسْعَةِ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ وَأَثْبِتَ مَا خَرَجَ وَهُوَ أَلْفٌ ، ثُمَّ أَضْرَبَ  
 تِسْعَةَ فِي ثَلَاثَةِ الَّتِي هِيَ مُرَكَّبُ تِسْعَةِ الْمَاضِيَةِ وَأَسْقَطَ وَاحِدًا وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ  
 الْجَدُولِ بِسِتَّةٍ وَعَشْرِينَ ، وَأَثْبِتَ مَا خَرَجَ وَهُوَ مَائَتَانِ بِحَرْفِ رَاءٍ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ  
 بَيْتِ الْقَصِيدِ سِتَّةً وَتِسْعِينَ . وَأَضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأُوتَارِ وَضَعُ الدَّوْرَ الْحَادِي  
 عَشَرَ وَلَهُ سَبْعَةُ عَشَرَ الْبَاقِي خَمْسَةَ ، إِضْعَدَ فِي ضَلْعِ ثَمَانِيَةَ بِخَمْسَةِ وَتَحَسَّبُ مَا تَكَرَّرَ  
 عَلَيْهِ الْمَشْيُ فِي الدَّوْرِ الْأَوَّلِ ، وَأَدْخَلَ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ بِخَمْسَةِ تَقَفَ عَلَى خَالٍ ؛ فَخُذْ  
 مَا قَابَلَهُ مِنَ السَّطْحِ وَهُوَ وَاحِدٌ ، فَأَدْخَلَ بِوَاحِدٍ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ تَكُنْ سِينٌ ، أَثْبِتْهُ  
 وَعَلَّمَ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ . وَلَوْ يَكُونُ الْوَقْفُ فِي الْجَدُولِ عَلَى بَيْتِ عَامِرٍ لِأَثْبِتْنَا الْوَاحِدَ  
 ثَلَاثَةَ . وَأَضْعَفَ سَبْعَةَ عَشَرَ بِمِثْلِهَا وَأَسْقَطَ وَاحِدًا وَأَضْعَفَهَا بِمِثْلِهَا وَزِدْهَا أَرْبَعَةَ تَبْلُغُ  
 سَبْعَةَ وَثَلَاثِينَ ، أَدْخَلَ بِهَا فِي الْأُوتَارِ تَقَفَ عَلَى سِتَّةٍ أَثْبِتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا ، وَأَضْعَفَ  
 خَمْسَةَ بِمِثْلِهَا . وَأَدْخَلَ فِي الْبَيْتِ تَقَفَ عَلَى لَامٍ أَثْبِتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا عَشْرِينَ ، وَأَضْرَبَ  
 عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأُوتَارِ . وَضَعُ الدَّوْرَ الثَّانِي عَشَرَ وَلَهُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ الْبَاقِي وَاحِدٌ ،  
 إِضْعَدَ فِي ضَلْعِ ثَمَانِيَةَ بِوَاحِدٍ ، وَهَذَا الدَّوْرُ آخِرُ الْأَدْوَارِ وَآخِرُ الْإِخْتِرَاعَيْنِ وَآخِرُ  
 الْمُرَبَّعَاتِ الثَّلَاثِيَّةِ وَآخِرُ الْمُثَلَّثَاتِ الرَّبَاعِيَّةِ . وَالْوَاحِدُ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ يَقَعُ عَلَى  
 ثَمَانِينَ زَمَامِيَّةٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ آحَادُ ثَمَانِيَّةٍ ، وَلَيْسَ مَعْنَا مِنَ الْأَدْوَارِ إِلَّا وَاحِدٌ ؛ فَلَوْ زَادَ  
 عَنْ أَرْبَعَةَ مِنْ مُرَبَّعَاتِ إِثْنِي عَشَرَ أَوْ ثَلَاثَةَ مِنْ مُثَلَّثَاتِ إِثْنِي عَشَرَ لَكَانَتْ ( ح ) ،  
 وَإِنَّمَا هِيَ ( د ) ؛ فَأَثْبِتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ أَرْبَعَةَ وَسَبْعِينَ ؛ ثُمَّ أَنْظِرْ  
 مَا نَاسَبَهَا مِنَ السَّطْحِ تَكُنْ خَمْسَةَ ، أَضْعَفْهَا بِمِثْلِهَا لِلَّاسِ تَبْلُغُ عَشْرَةَ ، أَثْبِتْ ( ي )  
 وَعَلَّمَ عَلَيْهَا ، وَأَنْظِرْ فِي أَيِّ الْمَرَاتِبِ وَقَعَتْ ؛ وَجَدْنَاهَا فِي الرَّابِعَةِ ، دَخَلْنَا بِسَبْعَةِ فِي  
 حُرُوفِ الْأُوتَارِ ، وَهَذَا الْمُدْخَلُ يُسَمَّى التَّوْلِيدَ الْحَرْفِيُّ فَكَانَتْ ( ف ) ، أَثْبِتْهَا  
 وَأَضْفِ إِلَى سَبْعَةِ وَاحِدِ الدَّوْرِ ، الْجُمْلَةُ ثَمَانِيَةَ . أَدْخَلَ بِهَا فِي الْأُوتَارِ تَبْلُغُ ( س )

أُثْبِتْهَا وَعَلِّمْ عَلَيْهَا ثَمَانِيَةً ، وَأَضْرِبْ ثَمَانِيَةً فِي ثَلَاثَةِ الرَّائِدَةِ عَلَى عَشْرَةِ الدُّوْرِ ؛ فَإِنَّهَا  
أَخْرُمُ رَبْعَاتِ الأَدْوَارِ بِالمُثَلَّثَاتِ تَبْلُغُ أَرْبَعَةً وَعَشْرِينَ ، أَدْخُلْ بِهَا فِي بَيْتِ القَصِيدِ  
وَعَلِّمْ عَلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَهُوَ مائَتَانِ وَعَلَامَتُهَا سِتَّةٌ وَتِسْعُونَ ، وَهُوَ نَهَايَةُ الدُّوْرِ  
الثَّانِي فِي الأَدْوَارِ الحَرْفِيَّةِ ، وَأَضْرِبْ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الأَوْتَارِ وَضَعِ النَتِيجَةَ الأُولَى  
وَلَهَا تِسْعَةً . وَهَذَا العَدْدُ يَنَاسِبُ أبدأ الباقِي مِنَ حُرُوفِ الأَوْتَارِ بَعْدَ طَرَحِهَا أَدْوَاراً  
وَذَلِكَ تِسْعَةً ، فَأَضْرِبْ تِسْعَةً فِي ثَلَاثَةِ التِّي هِيَ زَائِدَةٌ عَلَى تِسْعِينَ مِنَ حُرُوفِ  
الأَوْتَارِ ، وَأَضِفْ لَهَا وَاحِداً الباقِي مِنَ الدُّوْرِ الثَّانِي عَشَرَ تَبْلُغُ ثَمَانِيَةً وَعَشْرِينَ ،  
فَأَدْخُلْ بِهَا فِي حُرُوفِ الأَوْتَارِ تَبْلُغُ ألفاً ، أُثْبِتْهُ وَعَلِّمْ عَلَيْهِ سِتَّةً وَتِسْعِينَ . وَإِنْ  
ضَرَبْتَ سَبْعَةَ التِّي هِيَ أَدْوَارُ الحُرُوفِ التِسْعِينِيَّةِ فِي أَرْبَعَةٍ وَهِيَ الثَّلَاثَةُ الزَائِدَةُ عَلَى  
تِسْعِينَ ، وَالوَاحِدُ الباقِي مِنَ الدُّوْرِ الثَّانِي عَشَرَ كَانَ كَذَلِكَ ، وَأَضَعْدُ فِي ضِلَعِ ثَمَانِيَّةِ  
يَتَسَعَةٌ وَأَدْخُلْ فِي الجَدُولِ يَتَسَعَةٌ تَبْلُغُ إِثْنَيْنِ زَمَامِيَّةِ . وَأَضْرِبْ تِسْعَةً فِيمَا نَاسِبَ مِنَ  
السُّطْحِ ، وَذَلِكَ ثَلَاثَةً ، وَأَضِفْ لَذَلِكَ سَبْعَةً ، عَدَدُ الأَوْتَارِ الحَرْفِيَّةِ ، وَأَطْرَحْ وَاحِداً  
الباقِي مِنَ دَوْرِ إِثْنَيْ عَشَرَ تَبْلُغُ ثَلَاثَةً وَثَلَاثِينَ ؛ أَدْخُلْ بِهَا فِي البَيْتِ تَبْلُغُ خَمْسَةً ،  
فَأُثْبِتْهَا وَأَضِفْ تِسْعَةً بِمِثْلِهَا وَأَدْخُلْ فِي صَدْرِ الجَدُولِ بِثَمَانِيَّةِ عَشَرَ ، وَخُذْ مَا فِي  
السُّطْحِ وَهُوَ وَاحِدٌ ، أَدْخُلْ بِهِ فِي حُرُوفِ الأَوْتَارِ تَبْلُغُ ( م ) أُثْبِتْهُ وَعَلِّمْ عَلَيْهِ ،  
وَأَضْرِبْ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الأَوْتَارِ . وَضَعِ النَتِيجَةَ الثَّانِيَّةَ وَلَهَا سَبْعَةَ عَشَرَ الباقِي  
خَمْسَةً ، فَأَضَعْدُ فِي ضِلَعِ ثَمَانِيَّةِ بِخَمْسَةِ وَأَضْرِبْ خَمْسَةً فِي ثَلَاثَةِ الرَّائِدَةِ عَلَى تِسْعِينَ  
تَبْلُغُ خَمْسَةَ عَشَرَ ، أَضِفْ لَهَا وَاحِداً الباقِي مِنَ الدُّوْرِ الثَّانِي عَشَرَ تَكُنْ تِسْعَةً ،  
وَأَدْخُلْ بِسِتَّةِ عَشَرَ فِي بَيْتِ القَصِيدِ تَبْلُغُ ( ت ) أُثْبِتْهُ وَعَلِّمْ عَلَيْهِ أَرْبَعَةً وَسِتِّينَ ،  
وَأَضِفْ إِلَى خَمْسَةِ الثَّلَاثَةِ الرَّائِدَةِ عَلَى تِسْعِينَ ، وَزِدْ وَاحِداً الباقِي مِنَ الدُّوْرِ الثَّانِي  
عَشَرَ يَكُنْ تِسْعَةً ، أَدْخُلْ بِهَا فِي صَدْرِ الجَدُولِ تَبْلُغُ ثَلَاثِينَ زَمَامِيَّةِ ، وَأَنْظُرْ مَا فِي  
السُّطْحِ تَجِدْ وَاحِداً أُثْبِتْهُ وَعَلِّمْ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ القَصِيدِ وَهُوَ التَّاسِعُ أَيْضاً مِنَ البَيْتِ ،  
وَأَدْخُلْ يَتَسَعَةٌ فِي صَدْرِ الجَدُولِ تَقِفْ عَلَى ثَلَاثَةٍ وَهِيَ عَشْرَاتٌ ، فَأُثْبِتْ ( لَام ) وَعَلِّمْ

عَلَيْهِ وَضَعِ النَّيْجَةَ الثَّلَاثَةَ وَعَدَّهَا ثَلَاثَةَ عَشَرَ الْبَاقِي وَاحِدًا . فَانْقُلْ فِي ضِلَعِ ثَمَانِيَّةٍ  
بِوَاحِدٍ وَأَصِفْ إِلَى ثَلَاثَةِ عَشَرَ الثَّلَاثَةَ الزَّائِدَةَ عَلَى التَّسْعِينَ ، وَوَاحِدَ الْبَاقِي مِنَ الدَّوْرِ  
الثَّانِي عَشَرَ تَبْلُغُ سَبْعَةَ عَشَرَ ، وَوَاحِدَ النَّيْجَةَ تَكُنْ ثَمَانِيَّةَ عَشَرَ ، أَدْخُلْ بِهَا فِي  
حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَكُنْ لَأَمَّا اثْبَتْنَا فَهَذَا آخِرُ الْعَمَلِ .

وَالْمِثَالُ فِي هَذَا السُّؤَالِ السَّابِقِ : أَرَدْنَا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الزَّائِرِجَةَ عَلِمَ مُحَدَّثٌ أَوْ  
قَدِيمٌ ، بِطَالِعِ أَوَّلِ دَرَجَةِ مِنَ الْقَوْسِ ، اثْبَتْنَا حُرُوفَ الْأَوْتَارِ ، ثُمَّ حُرُوفَ السُّؤَالِ ،  
ثُمَّ الْأَصُولِ ، وَهِيَ عِدَّةُ الْحُرُوفِ ثَلَاثَةٌ وَتَسْعُونَ أَذْوَارَهَا سَبْعَةَ الْبَاقِي مِنْهَا تِسْعَةٌ ،  
الطَّالِعِ وَاحِدٌ ، سُلْطَانُ الْقَوْسِ أَرْبَعَةٌ ، الدَّوْرُ الْأَكْبَرُ وَاحِدٌ ، دَرَجُ الطَّالِعِ مَعَ الدَّوْرِ  
إِثْنَانِ ، ضَرْبُ الطَّالِعِ مَعَ الدَّوْرِ فِي السُّلْطَانِ ثَمَانِيَّةٌ ، إِضَافَةُ السُّلْطَانِ لِلطَّالِعِ خَمْسَةٌ  
يَبْتُ الْقَصِيدِ .

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلا

حروف الأوتار : ص ط ه ر ث ك ه م ص ص و ن ب ه س ا ن ل م ن ص ع  
ف ص و ر س ك ل م ن ص ع ف ض ق ر س ت ث خ ذ ظ غ ش ط ي ع ح ص ر و  
ح ر و ح ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه و ز ح ط ي .

( حروف السؤال ) ا ل ز ا ي ر ج ة ع ل م م ح د ث ا م ق د ي م الدور الأول  
٩ الدور الثاني ١٧ الباقي ٥ الدور الثالث ١٣ الباقي ١ الدور الرابع ٩ الدور الخامس  
١٧ الباقي ٥ الدور السادس ١٣ الباقي ١ الدور السابع ٩ الدور الثامن ١٧ الباقي ٥  
الدور التاسع ١٣ الباقي ١ الدور العاشر ١٣ الدور الحادي عشر ١٧ الباقي ٥ الدور  
الثاني عشر ١٣ الباقي ١ النتيجة الأولى ٩ النتيجة الثانية ١٧ الباقي ٥ النتيجة الثالثة  
١٣ الباقي ١ .

۲۱	.	.	.	.	ذ	۶	ع	ح	و	۶	۶	ای
۲۲	.	.	.	.	ن	۱	.	.	.	.	.	س
۲۳	.	.	.	.	غ	۲	.	.	.	.	.	و
۲۴	.	.	.	.	ر	۳	.	.	.	.	.	ا
۲۵	.	.	.	.	ا	۴	.	.	.	.	.	ل
۲۶	.	.	.	.	ی	۵	.	.	.	.	.	ع
۲۷	.	.	.	.	ب	۶	.	.	.	.	.	ظ
۲۸	.	.	.	.	ش	۷	.	.	.	.	.	ی
۲۹	.	.	.	.	ك	۸	.	.	.	.	.	م
۳۰	.	.	.	.	ض	۹	.	.	.	.	.	ا
۳۱	.	.	.	.	ب	۱۰	.	.	.	.	.	ل
۳۲	.	.	.	.	ط	۱۱	.	.	.	.	.	خ
۳۳	.	.	.	.	ه	۱۲	.	.	.	.	.	ل
۳۴	.	.	.	.	ا	۱۳	.	.	.	.	.	ق
۳۵	.	.	.	.	ل	۱۴	.	.	.	.	.	ح
۳۶	.	.	.	.	ج	۱۵	.	.	.	.	.	ز
۳۷	.	.	.	.	د	۱۶	.	.	.	.	.	ن
۳۸	.	.	.	.	م	۱۷	.	.	.	.	.	ف
۳۹	.	.	.	.	ث	۱۸	.	.	.	.	.	ص
۴۰	.	.	.	.	ل	۱۹	.	.	.	.	.	ن
۴۱	.	.	.	.	ا	۲۰	.	.	.	.	.	ا

فوزاوسر را اسباب ارقاع ارض حرح لدارس ال دی وسر  
ادم ن ال ل .

دورها على خمسة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين مرتين إلى أن تنتهي إلى الواحد من آخر البيت وتنقل الحروف جميعاً والله أعلم ن ف روح الودس ادر رس ره ال درى س وان س دروا ب لا ام رب والالعلل .

هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَجْوِبَةِ مِنْ زَايِرِجَةِ الْعَالَمِ مَنْظُومَةً . وَلِلْقَوْمِ طَرَائِقُ أُخْرَى مِنْ غَيْرِ الزَّايرِجَةِ يَسْتَخْرِجُونَ بِهَا أَجْوِبَةَ الْمَسَائِلِ غَيْرُ مَنْظُومَةٍ . وَعِنْدَهُمْ أَنَّ السِّرَّ فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مَنْظُومًا مِنَ الزَّايرِجَةِ ، إِنَّمَا هُوَ مَرْجُهُمْ بَيْتُ مَالِكِ بْنِ وَهَيْبٍ وَهُوَ : سَوَّالٌ عَظِيمُ الْخَلْقِ الْبَيْتِ ، وَلِذَلِكَ يَخْرُجُ الْجَوَابُ عَلَى رَوِيهِ . وَأَمَّا الطَّرِيقُ الْأُخْرَى فَيَخْرُجُ الْجَوَابُ غَيْرُ مَنْظُومٍ . فَمِنْ طَرَائِقِهِمْ فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَجْوِبَةِ مَا نَنْقُلُهُ عَنْ بَعْضِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْهُمْ .

## ٢ - فصل في الاطلاع على الأسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية

إِعْلَمُ أَرْشَدَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفُ أَضَلُّ الْأَسْئَلَةِ فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ ، وَإِنَّمَا تَسْتَنْتِجُ الْأَجْوِبَةَ عَلَى تَجْزِئَتِهِ بِالْكَلِّيَّةِ ، وَهِيَ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ حَرْفًا كَمَا تَرَى وَاللَّهُ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ا و ل ا ع ظ س ا ل م خ ي د ل ز ق ت ا ر ذ ص ف ن غ ش ا ك ي ب م ض ب ح ط ل ج ه د ن ل ث ا .

وَقَدْ نَظَّمَهَا بَعْضُ الْفُضَلَاءِ فِي بَيْتٍ جَعَلَ فِيهِ كُلَّ حَرْفٍ مَشْدُودٍ مِنْ حَرْفَيْنِ وَسَمَاءُ الْقُطْبِ فَقَالَ :

سَوَّالٌ عَظِيمُ الْخَلْقِ حَزَتْ فَصْنَ إِذْنَ غَرَائِبَ شَكَّ ضَبْطُهُ الْجَدَّ مَثَلًا

فَإِذَا أَرَدْتَ اسْتِنْتِاجَ الْمَسْئَلَةِ فَاحْدَفْ مَا تَكَرَّرَ مِنْ حُرُوفِهَا وَأَثْبِتْ مَا فَضَّلَ مِنْهُ . ثُمَّ احْدَفْ مِنَ الْأَصْلِ وَهُوَ الْقُطْبُ لِكُلِّ حَرْفٍ فَضَّلَ مِنَ الْمَسْأَلَةِ حَرْفًا يَمَثَلُهُ ، وَأَثْبِتْ مَا فَضَّلَ مِنْهُ . ثُمَّ امْرُجِ الْفَضْلَيْنِ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ تَبْدَأُ بِالْأَوَّلِ مِنَ





ثُمَّ تَأْخُذُ وَتَرَى كُلَّ حَرْفٍ بَعْدَ ضَرْبِهِ فِي أَسْوَسِ أَوْتَادِ الْفَلَكَ الْأَرْبَعَةِ ، وَآخِذٌ  
 مَا يَلِي الْأَوْتَادَ وَكَذَلِكَ السَّوَابِقُ لِأَنَّ نِسْبَتَهَا مُضْطَرِبَةٌ . وَهَذَا الْخَارِجُ هُوَ أَوَّلُ رُتَبِ  
 السُّرِّيَانِ . ثُمَّ تَأْخُذُ مَجْمُوعَ الْعُنَاصِرِ وَتَحْطُ مِنْهَا أَسْوَسَ الْمُؤَلَّدَاتِ ، يَبْقَى أَسْ عَالَمِ  
 الْخَلْقِ بَعْدَ عُرُوضِهِ لِلْمَدَدِ الْكُونِيَّةِ ، فَتَحْمِلُ عَلَيْهِ بَعْضَ الْمُجَرَّدَاتِ عَنِ الْمَوَادِّ وَهِيَ  
 عُنَاصِرُ الْأَمْدَادِ . يَخْرُجُ أَفْقُ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ ؛ وَتَطْرَحُ أَوَّلُ رُتَبِ السُّرِّيَانِ مِنْ  
 مَجْمُوعِ الْعُنَاصِرِ يَبْقَى عَالَمُ التَّوَسُّطِ . وَهَذَا مَخْصُوصٌ بِعَوَالِمِ الْأَكْوَانِ الْبَسِيطَةِ  
 لَا الْمُرَكَّبَةِ . ثُمَّ تَضْرِبُ عَالَمَ التَّوَسُّطِ فِي أَفْقِ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ يَخْرُجُ الْأَفْقُ الْأَعْلَى ،  
 فَتَحْمِلُ عَلَيْهِ أَوَّلَ رُتَبِ السُّرِّيَانِ ، ثُمَّ تَطْرَحُ مِنَ الرَّابِعِ أَوَّلَ عُنَاصِرِ الْأَمْدَادِ الْأَصْلِيِّ  
 يَبْقَى ثَالِثُ رُتَبَةِ السُّرِّيَانِ ؛ فَتَضْرِبُ مَجْمُوعَ أَجْزَاءِ الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ أَيْدًا فِي رَابِعِ  
 مَرْتَبَةِ السُّرِّيَانِ ، يَخْرُجُ أَوَّلَ عَالَمِ التَّفْصِيلِ ؛ وَالثَّانِي فِي الثَّانِي يَخْرُجُ ثَانِي عَالَمِ  
 التَّفْصِيلِ ، وَالثَّالِثُ فِي الثَّالِثِ يَخْرُجُ ثَالِثُ عَالَمِ التَّفْصِيلِ ، وَالرَّابِعُ فِي الرَّابِعِ  
 يَخْرُجُ رَابِعُ عَالَمِ التَّفْصِيلِ . فَتَجْمَعُ عَوَالِمَ التَّفْصِيلِ وَتَحْطُ مِنْ عَالَمِ الْكُلِّ ، تَبْقَى  
 الْعَوَالِمُ الْمُجَرَّدَةُ ، فَتَقْسِمُ عَلَى الْأَفْقِ الْأَعْلَى يَخْرُجُ الْجِزْءُ الْأَوَّلُ ، وَيَقْسَمُ الْمُنْكَسِرُ  
 عَلَى الْأَفْقِ الْأَوْسَطِ يَخْرُجُ الْجِزْءُ الثَّانِي ، وَمَا انْكَسَرَ فَهُوَ الثَّالِثُ ، وَيَتَعَيَّنُ الرَّابِعُ  
 هَذَا فِي الرَّبَاعِيِّ . وَإِنْ شِئْتَ أَكْثَرَ مِنَ الرَّبَاعِيِّ فَتَسْتَكْثِرُ مِنْ عَوَالِمِ التَّفْصِيلِ وَمِنْ  
 رُتَبِ السُّرِّيَانِ وَمِنْ الْأَوْفَاقِ بَعْدَ الْحُرُوفِ . وَاللَّهُ يُرْشِدُنَا وَإِيَّاكَ . وَكَذَلِكَ إِذَا قَسَمَ  
 عَالَمَ التَّجْرِيدِ عَلَى أَوَّلِ رُتَبِ السُّرِّيَانِ خَرَجَ الْجِزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ عَالَمِ التَّرْكِيبِ ،  
 وَكَذَلِكَ إِلَى نِهَائِهِ الرُّتَبَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ عَالَمِ الْكَوْنِ . فَافْهَمْ وَتَدَبَّرْ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ  
 الْمُعِينُ .

وَمِنْ طَرِيقِهِمْ أَيْضًا فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ ، قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْهُمْ : إِعْلَمْ  
 أَيُّدُنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ بِرُوحِ مِنْهُ ، أَنَّ عِلْمَ الْحُرُوفِ جَلِيلٌ يَتَوَصَّلُ الْعَالَمَ بِهِ لِمَا  
 لَا يَتَوَصَّلُ بغيرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الْمُتَدَاوِلَةِ بَيْنَ الْعَالَمِ ، وَلِلْعَمَلِ بِهِ شَرَايِطُ تَلْتَرِمُ . وَقَدْ  
 يَسْتَخْرِجُ الْعَالَمُ أَسْرَارَ الْخَلِيقَةِ وَسَرَائِرَ الطَّبِيعَةِ ؛ فَيَطَّلِعُ بِذَلِكَ عَلَى نَتِيجَتِي

الفلسفة . أعني السيميا وأختها . ويرفع له حجاب المخمولات ويطلع بذلك على  
مكنون خبايا القلوب . وقد شهدت جماعة بأرض المغرب . ممن اتصل بذلك .  
فأظهر الغرائب وخرق العوائد وتصرف في الوجود بتأييد الله .

واعلم أن ملاك كل فضيلة الإجتهد وحسن الملكة مع الصبر . مفتاح كل  
خير . كما أن الخرق والعجلة رأس الحزمان . فأقول : إذا أردت أن تعلم قوة كل  
حرف من حروف الفايطوس أعني أبجد إلى آخر العدد . وهذا أول مدخل من علم  
الحروف . فانظر ما لذلك الحرف من الأعداد . فتلك الدرجة التي هي مناسبة  
للحرف هي قوته في الجسمانيات . ثم ضرب العدد في مثله تخرج لك قوته في  
الروحانيات وهي وتره . وهذا في الحروف المنقوطة لا يتم بل يتم لغير  
المنقوطة . لأن المنقوطة منها مراتب لمعان يأتي عليها البيان فيما بعد .

واعلم أن لكل شكل من أشكال الحروف شكلاً في العالم العلوي أعني  
الكرسي . ومنها المتحرك والسكن والعلوي والسفلي كما هو مرقوم في أماكنه من  
الجدول الموضوع في الزيارج .

واعلم أن قوى الحروف ثلاثة أقسام : الأول وهو أقلها قوة تظهر بعد  
كتابتها ؛ فتكون كتابته لعالم روحاني مخصوص بذلك الحرف المرسوم ؛ فتمت  
خرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همه كانت قوى الحروف مؤثرة في عالم  
الأجسام . الثاني قوتها في الهيئة الفكرية وذلك ما يصدُر عن تصريف  
الروحانيات لها . فهي قوة في الروحانيات العلويات . وقوة شكلية في عالم  
الجسمانيات . الثالث وهو يجمع الباطن . أعني القوة النفسانية على تكوينه ؛  
فتكون قبل النطق به صورة في النفس . بعد النطق به صورة في الحروف وقوة في  
النطق .

وأما طبائعها فهي الطبيعيات المنسوبة للمتولدات في الحروف وهي الحرارة

وَالْيَبُوسَةُ ، وَالْحَرَارَةُ وَالرُّطُوبَةُ وَالْبُرُودَةُ وَالْيَبُوسَةُ وَالْبُرُودَةُ وَالرُّطُوبَةُ ؛ فَهَذَا سِرُّ  
الْعَدَدِ الِيمَانِيِّ ، وَالْحَرَارَةُ جَامِعَةٌ لِلْهَوَاءِ وَالنَّارِ وَهُمَا ؛ ( ا ه ط م ف ش ذ ج ز ك س  
ق ث ظ ) ، وَالْبُرُودَةُ جَامِعَةٌ لِلْهَوَاءِ وَالْمَاءِ ( ب و ي ن ص ت ض د ح ل ع ر خ غ )  
وَالْيَبُوسَةُ جَامِعَةٌ لِلنَّارِ وَالْأَرْضِ ( ا ه ط م ف ش ذ ب و ي ن ص ت ض ) <sup>(١)</sup> فَهَذِهِ  
نِسْبَةُ حُرُوفِ الطَّبَائِعِ وَتَبَادُخُلُ أَجْزَاءِ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ . وَتَبَادُخُلُ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ فِيهَا  
عُلُويَّاتٌ وَسُفْلِيَّاتٌ بِأَسْبَابِ الْأَمْهَاتِ الْأَوَّلِ ، أَعْنِي الطَّبَائِعَ الْأَرْبَعَ الْمُنْفَرَدَةَ ؛  
فَمَتَى أَرَدْتَ اسْتِخْرَاجَ مَجْهُولٍ مِنْ مَسْئَلَةٍ مَا ، فَحَقِّقْ طَالِعَ السَّائِلِ أَوْ طَالِعَ مَسْئَلَتِهِ  
وَاسْتَنْطِقْ حُرُوفَ أَوْتَارِهَا الْأَرْبَعَةَ ؛ الْأَوَّلُ وَالرَّابِعُ وَالسَّابِعُ وَالْعَاشِرُ مُسْتَوِيَّةٌ  
مُرْتَبَةً ، وَاسْتَخْرِجْ أَعْدَادَ الْقَوَى وَالْأَوْتَارِ كَمَا سَنُبَيِّنُ ، وَاحْمِلْ وَأَنْسُبْ وَاسْتَنْتِجْ  
الْجَوَابَ يَخْرُجُ لَكَ الْمَطْلُوبُ ، إِمَّا بِصَرِيحِ اللَّفْظِ أَوْ بِالْمَعْنَى . وَكَذَلِكَ فِي كُلِّ  
مَسْئَلَةٍ تَقَعُ لَكَ . بَيَانُهُ ؛ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْتَخْرِجَ قَوَى حُرُوفِ الطَّلَاعِ ، مَعَ إِسْمِ السَّائِلِ  
وَالْحَاجَةِ ، فَاجْمَعْ أَعْدَادَهَا بِالْجَمَلِ الْكَبِيرِ ؛ فَكَانَ الطَّلَاعُ الْحَمَلُ رَابِعُهُ السَّرَطَانُ  
سَابِعُهُ الْمِيزَانُ عَاشِرُهُ الْجَدِي ، وَهُوَ أَقْوَى هَذِهِ الْأَوْتَادِ ، فَاسْقُطْ مِنْ كُلِّ بُرْجٍ حَرْفِي  
التَّعْرِيفِ ، وَانظُرْ مَا يَخْصُ كُلَّ بُرْجٍ مِنَ الْأَعْدَادِ الْمُنْطِقَةِ الْمَوْضُوعَةِ فِي دَائِرَتِهَا ،  
وَاحْذِفْ أَجْزَاءَ الْكُسْرِ فِي النِّسْبِ الْإِسْتِنْطَاقِيَّةِ كُلِّهَا وَأَثْبِتْ تَحْتَ كُلِّ حَرْفٍ  
مَا يَخْصُهُ مِنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَعْدَادَ حُرُوفِ الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ وَمَا يَخْصُهَا كَالأَوَّلِ . وَارْسُمْ  
ذَلِكَ كُلَّهُ أَحْرَفًا وَرَتَّبْ الْأَوْتَادَ وَالْقَوَى وَالْقَرَائِنَ سَطْرًا مُمْتَرِجًا . وَكَسِّرْ وَاضْرِبْ  
مَا يُضْرَبُ لِاسْتِخْرَاجِ الْمَوَازِينِ ، وَاجْمَعْ وَاسْتَنْتِجْ الْجَوَابَ يَخْرُجُ لَكَ الضَّمِيرُ  
وَجَوَابُهُ . مِثَالُهُ إِفْرُضْ أَنَّ الطَّلَاعَ الْحَمَلُ كَمَا تَقَدَّمَ ، تُرْسَمُ ( ح م ل ) ؛ فَلِلْحَاءِ مِنْ  
الْعَدَدِ ثَمَانِيَّةٌ لَهَا النِّصْفُ وَالرُّبْعُ وَالثُّمْنُ ( د ب ا ) الْمِيمُ لَهَا مِنَ الْعَدَدِ أَرْبَعُونَ ، لَهَا  
النِّصْفُ وَالرُّبْعُ وَالثُّمْنُ وَالْعَشْرُ وَنِصْفُ الْعَشْرِ إِذَا أَرَدْتَ التَّدْقِيقَ ( م ك ي ه د ب )  
اللَّامُ لَهَا مِنَ الْعَدَدِ ثَلَاثُونَ ، لَهَا النِّصْفُ وَالثُّلثَانِ وَالثُّلْثُ وَالْخُمْسُ وَالسُّدُسُ وَالْعَشْرُ

(١) علق الهوريني هنا بقوله ، لعل هذه عبارة بعض المشارفة . لأن هذا ترتيب المشارفة . لا ترتيب

( ك ي و ه ج ) . وَهَكَذَا تَفْعَلُ بِسَائِرِ حُرُوفِ الْمَسْئَلَةِ وَالْإِسْمِ مِنْ كُلِّ لَفْظٍ يَقَعُ لَكَ . وَأَمَّا اسْتِخْرَاجُ الْأُوتَارِ فَهُوَ أَنْ تَقْسِمَ مَرَّةً كُلَّ حَرْفٍ عَلَى أَكْثَرِ جُزْءٍ يُوجَدُ لَهُ . مِثَالُهُ : حَرْفُ ( د ) لَهُ مِنَ الْأَعْدَادِ أَرْبَعَةٌ مَرَبَّعًا سِتَّةٌ عَشَرَ ، إِقْسِمَهَا عَلَى أَكْثَرِ جُزْءٍ يُوجَدُ لَهَا وَهُوَ اِثْنَانِ يَخْرُجُ وَتَرًا لِذَلِكَ ثَمَانِيَّةٌ . ثُمَّ تَضَعُ كُلَّ وَتَرٍ مُقَابِلًا لِحَرْفِهِ . ثُمَّ تَسْتَخْرِجُ النِّسْبَ الْعُنْصُرِيَّةَ . كَمَا تَقَدَّمَ فِي شَرْحِ الْإِسْتِنطَاقِ ، وَلَهَا قَاعِدَةٌ تَطْرُدُ فِي اسْتِخْرَاجِهَا مِنْ طَبِيعِ الْحُرُوفِ وَطَبِيعِ الْبَيْتِ الَّذِي يَحِلُّ فِيهِ مِنَ الْجَدْوَلِ كَمَا ذَكَرَ الشَّيْخُ لَمَنْ عَرَفَ الْإِضْطِلَاحَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

### فصل في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية

وَذَلِكَ لَوْ سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ عَلِيلٍ لَمْ يَعْرِفْ مَرَضَهُ مَا عَلَّمَهُ ، وَمَا الْمَوْافِقُ لِبُرْئِهِ مِنْهُ ؛ فَمُرَّ السَّائِلُ أَنْ يُسَمِّيَ مَا شَاءَ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلَى إِسْمِ الْعِلَّةِ الْمَجْهُولَةِ ، لَتَحْعَلَ ذَلِكَ الْإِسْمَ قَاعِدَةً لَكَ . ثُمَّ اسْتَنْطِقِ الْإِسْمَ مَعَ إِسْمِ الطَّالِعِ وَالْعُنَاصِرِ وَالسَّائِلِ وَالْيَوْمِ وَالسَّاعَةِ إِنْ أَرَدْتَ التَّدْقِيقَ فِي الْمَسْئَلَةِ ، وَإِلَّا إِقْتَصِرْتَ عَلَى الْإِسْمِ الَّذِي سَمَّاهُ السَّائِلُ ، وَفَعَلْتَ بِهِ كَمَا نَبَّيْنُ . فَأَقُولُ مِثْلًا : سَمَى السَّائِلُ فَرَسًا فَأَثَبْتَ الْحُرُوفَ الثَّلَاثَةَ مَعَ أَعْدَادِهَا الْمُنْطَقَةَ . بَيَانُهُ : أَنَّ لِلْفَرَسِ مِنَ الْعَدَدِ ثَمَانِينَ وَلَهَا ( م ك ي ح ب ) ثُمَّ الرَّاءُ لَهَا مِنَ الْعَدَدِ مَائَتَانِ ( ق ن ك ي ) ثُمَّ السَّيْنُ لَهَا مِنَ الْعَدَدِ سِتُونَ وَلَهَا ( م ل ك ) فَأَلَوَاوُ عَدَدٌ تَامٌ لَهُ ( د ج ب ) وَالسَّيْنُ مِثْلُهُ وَلَهَا ( م ل ك ) . فَإِذَا بَسَطْتَ حُرُوفَ الْأَسْمَاءِ وَجَدْتَ عُنْصُرَيْنِ مُعَسَّوِيَيْنِ ، فَأَحْكُمُ لِأَكْثَرِهِمَا حُرُوفًا بِالْغَلْبَةِ عَلَى الْآخَرِ . ثُمَّ أَحْمِلْ عَدَدَ حُرُوفِ عُنْصُرِ إِسْمِ الْمَطْلُوبِ وَحُرُوفِهِ دُونَ بَسْطِ . وَكَذَلِكَ إِسْمُ الطَّالِبِ وَأَحْكُمُ لِلْأَكْثَرِ وَالْأَقْوَى بِالْغَلْبَةِ .

### وصفة قوى استخراج العناصر<sup>(١)</sup>

فَتَكُونُ الْغَلْبَةُ هُنَا لِلتَّرَابِ وَطَبِيعَةُ الْبُرُودَةِ ، وَالْيَبُوسَةُ طَبِيعَةُ السُّودَاءِ ، فَتَحْكُمُ

(١) بياض بالأصل مقدار ثلاثة أسطر .

عَلَى الْمَرِيضِ بِالسُّودَاءِ . فَإِذَا أُلْفَتْ مِنْ حُرُوفِ الْإِسْتِنْبَاقِ كَلَامًا عَلَى نِسْبَةِ تَقْرِيْبِيَّةٍ  
 خَرَجَ مَوْضِعُ الْوَجْعِ فِي الْحَلْقِ ، وَيُؤَافِقُهُ مِنَ الْأَدْوِيَّةِ حُقْنَةٌ ، وَمِنَ الْأَشْرِيَّةِ شَرَابٌ  
 اللَّيْمُونِ . هَذَا مَا خَرَجَ مِنْ قَوَى أَعْدَادِ حُرُوفِ إِسْمِ فَرَسٍ وَهُوَ مِثَالُ تَقْرِيْبِيٍّ  
 مُخْتَصَرٍّ . وَأَمَّا إِسْتِخْرَاجُ قَوَى الْعُنَاصِرِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْعِلْمِيَّةِ فَهُوَ أَنْ تُسَمَّى مِثْلًا  
 مُحَمَّدًا ، فَتُرْسَمُ أَحْرَفُهُ مَقْطَعَةً ، ثُمَّ تَضَعُ أَسْمَاءَ الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةَ عَلَى تَرْتِيْبِ الْفَلْكِ ،  
 يُخْرَجُ لَكَ مَا فِي كُلِّ عُنْصُرٍ مِنَ الْحُرُوفِ وَالْعَدَدِ . وَمِثَالُهُ :

فاري	ترابي	هرابي	مابي
ا ا ا	ب ب ب	ج ج ج ج ج ج ج	د د د د د د د
و و و	ز ز ز ز ز ز ز	ح ح ح ح ح ح ح	
ط ط ط	ي ي ي ي ي ي ي	ك ك ك ك ك ك ك	ل ل ل ل ل ل ل
م م م	ن ن ن ن ن ن ن	س س س س س س س	ع ع ع ع ع ع ع
ف ف ف	ض ض ض ض ض ض ض	ق ق ق ق ق ق ق	ر ر ر ر ر ر ر
س س س	ث ث ث ث ث ث ث	ث ث ث ث ث ث ث	خ خ خ خ خ خ خ
ذ ذ ذ	ط ط ط	غ غ غ غ غ غ غ	ش ش ش ش ش ش ش

فَتَجِدُ أَقْوَى هَذِهِ الْعُنَاصِرِ مِنْ هَذَا الْإِسْمِ الْمَذْكُورِ عُنْصُرَ الْمَاءِ ، لِأَنَّ عَدَدَ حُرُوفِهِ  
 عِشْرُونَ حَرْفًا ، فَجَعَلْتُ لَهُ الْغَلْبَةَ عَلَى بَقِيَّةِ عُنَاصِرِ الْإِسْمِ الْمَذْكُورِ ، وَهَكَذَا يَفْعَلُ  
 بِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ . حِينَئِذٍ تُضَافُ إِلَى أَوْتَارِهَا ، أَوْ لِوَتْرِ الْمَنْسُوبِ لِلطَّلَعِ فِي  
 الزَّايِرَةِ ، أَوْ لِوَتْرِ الْبَيْتِ الْمَنْسُوبِ لِمَالِكِ بْنِ وَهَيْبٍ ، الَّذِي جَعَلَهُ قَاعِدَةً لِمَزْجِ  
 الْأَسْمَاءِ وَهُوَ هَذَا :

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلا  
 وهو وتر مشهور لإستخراج المجهولات ، وعليه كان يعتمد ابن الرقام  
 وأصحابه . وهو عمل تام قائم بنفسه في المثالات الوضعية . وصفه العمل بهذا  
 الوتر المذكور أن ترسمه مقطعا ممتزجا بالفاظ السؤال على قانون صنعة التفسير .

وَعِدَّةُ حُرُوفِ هَذَا الْوَتْرِ أَغْنِي الْبَيْتَ ثَلَاثَةً وَأَرْبَعُونَ حَرْفًا ، لِأَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مُشَدَّدٌ مِنْ حَرْفَيْنِ .

ثُمَّ تَحْدِفُ مَا تَكَرَّرَ عِنْدَ الْمَرْجِ مِنَ الْحُرُوفِ وَمِنَ الْأَصْلِ ، لِكُلِّ حَرْفٍ فَضْلٌ مِنَ الْمَسْئَلَةِ حَرْفٌ يُمَائِلُهُ ، وَتُثَبَّتُ الْفَضْلَيْنِ سَطْرًا مُمْتَزَجًا بَعْضُهُ بِبَعْضِ الْحُرُوفِ . الْأَوَّلُ مِنْ فَضْلَةِ الْقُطْبِ وَالثَّانِي مِنْ فَضْلَةِ السُّوَالِ ، حَتَّى يَتِمَّ الْفَضْلَتَانِ جَمِيعًا ، فَتَكُونُ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعِينَ ، فَتُضَيَّفُ إِلَيْهَا خَمْسَ نَوَاتٍ لِيَكُونَ ثَمَانِيَّةً وَأَرْبَعِينَ ، لِتَعْدَلَ بِهَا الْمَوَازِينُ الْمَوْسِيقِيَّةُ . ثُمَّ تَضَعُ الْفَضْلَةَ عَلَى تَرْتِيبِهَا فَإِنْ كَانَ عَدَدُ الْحُرُوفِ الْخَارِجَةِ بَعْدَ الْمَرْجِ يُوَافِقُ الْعَدَدَ الْأَصْلِيَّ قَبْلَ الْحَدْفِ فَالْعَمَلُ صَحِيحٌ ، ثُمَّ عَمَّرَ بِمَا مَزَجَتْ جَدْوَلًا مُرَبَّعًا يَكُونُ آخِرًا مَا فِي السُّطْرِ الْأَوَّلِ أَوْ مَا فِي السُّطْرِ الثَّانِي .

وَعَلَى هَذَا النَّسَقِ حَتَّى يَعُودَ السُّطْرُ الْأَوَّلُ بِعَيْنِهِ ، وَتَتَوَالَى الْحُرُوفُ فِي الْقَطْرِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَرَكَةِ . ثُمَّ تُخْرَجُ وَتَرُ كُلُّ حَرْفٍ كَمَا تَقَدَّمَ تَضَعُهُ مَقَابِلًا لِحَرْفِهِ ، ثُمَّ تَسْتَخْرِجُ النَّسَبَ الْعُنْصُرِيَّةَ لِلْحُرُوفِ الْجَدْوَلِيَّةِ ، لِتَعْرِفَ قُوَّتَهَا الطَّبِيعِيَّةَ وَمَوَازِينَهَا الرُّوحَانِيَّةَ وَغَرَائِزَهَا النَّفْسَانِيَّةَ وَأَسُوسَهَا الْأَصْلِيَّةَ مِنَ الْجَدْوَلِ الْمَوْضُوعِ لِذَلِكَ . وَصِفَةُ اسْتِخْرَاجِ النَّسَبِ الْعُنْصُرِيَّةِ هُوَ أَنْ تَنْظُرَ الْحَرْفَ الْأَوَّلَ مِنَ الْجَدْوَلِ مَا طَبِيعَتُهُ وَطَّبِيعَةُ الْبَيْتِ الَّذِي حَلَّ فِيهِ ، فَإِنْ اتَّفَقَتْ فَحَسَنٌ ، وَإِلَّا فَاسْتَخْرِجْ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ نِسْبَةً ، وَيَتَسَّعُ هَذَا الْقَانُونُ فِي جَمِيعِ الْحُرُوفِ الْجَدْوَلِيَّةِ . وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى مَنْ عَرَفَ قَوَانِينَهُ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي دَوَائِرِهَا الْمَوْسِيقِيَّةِ . ثُمَّ تَأْخُذُ وَتَرُ كُلَّ حَرْفٍ بَعْدَ ضَرْبِهِ فِي أُسُوسِ أَوْتَادِ الْفَلَكَ الْأَرْبَعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَاحْذَرِ مَا يَلِي الْأَوْتَادَ . وَكَذَلِكَ السَّوَاقِطُ لِأَنَّ نِسْبَتَهَا مُضْطَرِبَةٌ . وَهَذَا الَّذِي يَخْرُجُ لَكَ هُوَ أَوَّلُ مَرَاتِبِ السَّرِيَانِ . ثُمَّ تَأْخُذُ مَجْمُوعَ الْعُنَاصِرِ وَتَحْطُ مِنْهَا أُسُوسَ الْمُؤَلَّدَاتِ بِيَقْيِ أُسْ عَالَمِ الْخَلْقِ بَعْدَ عُرُوضِهِ لِلْمَدَدِ الْكُونِيَّةِ . فَتَحْمِلُ عَلَيْهِ بَعْضَ الْمَجْرَدَاتِ عَنِ الْمَوَادِّ وَهِيَ عُنَاصِرُ الْإِمْدَادِ ، يَخْرُجُ أَفْقُ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ . وَتَطْرَحُ أَوَّلَ رَتَبِ السَّرِيَانِ مِنْ

مَجْمُوعِ الْعُنَاصِرِ يَبْقَى عَالَمُ التَّوَسُّطِ . وَهَذَا مَخْصُوصٌ بِعَوَالِمِ الْأَكْوَانِ الْبَسِيطَةِ لَا الْمُرَكَّبَةِ . ثُمَّ تَضْرِبُ عَالَمَ التَّوَسُّطِ فِي أَفْقِ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ يَخْرُجُ الْأَفْقُ الْأَعْلَى ، فَتَحْمِلُ عَلَيْهِ أَوَّلَ رَتَبِ السَّرِّيَانِ ، ثُمَّ تَطْرَحُ مِنَ الرَّابِعِ أَوَّلَ عُنَاصِرِ الْإِمْدَادِ الْأَصْلِيِّ يَبْقَى ثَالِثَ رُتْبَةِ السَّرِّيَانِ . ثُمَّ تَضْرِبُ مَجْمُوعَ أَجْزَاءِ الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةَ أَبْدَأُ فِي رَابِعِ رَتَبِ السَّرِّيَانِ يَخْرُجُ أَوَّلَ عَالَمِ التَّفْصِيلِ ، وَالثَّانِي فِي الثَّانِي يَخْرُجُ ثَانِي عَالَمِ التَّفْصِيلِ ، وَكَذَلِكَ الثَّالِثَ وَالرَّابِعَ ، فَتَجْمَعُ عَوَالِمَ التَّفْصِيلِ وَتَحْطُ مِنْ عَالَمِ الْكُلِّ ، يَبْقَى الْعَوَالِمُ الْمُجَرَّدَةُ ؛ فَتُقَسَّمُ عَلَى الْأَفْقِ الْأَعْلَى يَخْرُجُ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ . وَمِنْ هُنَا يَطْرُدُ الْعَمَلُ فِي التَّامَةِ . وَلَهُ مَقَامَاتٌ فِي كُتُبِ ابْنِ وَحْشِيَّةِ وَالْبُونِيِّ وَغَيْرِهِمَا . وَهَذَا التَّدْيِيرُ يَجْرِي عَلَى الْقَانُونِ الطَّبِيعِيِّ الْحِكْمِيِّ فِي هَذَا الْفَنِّ وَغَيْرِهِ مِنْ فُنُونِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَعَلَيْهِ مَدَارُ وَضْعِ الزِّيَارِجِ الْحَرْفِيِّ وَالصَّنْعَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالنِّيَرَجَاتِ الْفَلْسَافِيَّةِ . وَاللَّهُ الْمَلِيحُ وَيَهِ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

## الفصل الثلاثون

### في علم الكيمياء

وَهُوَ عَلِيمٌ يَنْظُرُ فِي الْمَادَّةِ الَّتِي يَتِمُّ بِهَا كَوْنُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِالصَّنَاعَةِ وَيَشْرَحُ الْعَمَلَ الَّذِي يُوَصِّلُ إِلَى ذَلِكَ فَيَتَصَفَّحُونَ الْمَكُونَاتِ كُلَّهَا بَعْدَ مَعْرِفَةِ أُمْرَجَتِهَا وَقَوَاهَا لَعَلَّهُمْ يَعْتَرُونَ عَلَى الْمَادَّةِ الْمُسْتَعِدَّةِ لِذَلِكَ حَتَّى مِنْ الْعُضَلَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ كَالْعِظَامِ وَالرِّيشِ وَالْبَيْضِ وَالْعُدْرَاتِ فَضْلاً عَنِ الْمَعَادِنِ . ثُمَّ يَشْرَحُ الْأَعْمَالَ الَّتِي تَخْرُجُ بِهَا تِلْكَ الْمَادَّةُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ مِثْلَ حَلِّ الْأَجْسَامِ إِلَى أَجْزَائِهَا الطَّبِيعِيَّةِ بِالتَّصْعِيدِ وَالتَّقْطِيرِ وَجَمَدِ الذَّائِبِ مِنْهَا بِالتَّكْلِيسِ وَإِمْهَاءِ الصُّلْبِ بِالقَهْرِ وَالصَّلَاةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَفِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِهَذِهِ الصَّنَاعَاتِ كُلَّهَا جِسْمٌ طَبِيعِيٌّ يُسَمُّونَهُ الْإِكْسِيرَ . وَأَنَّهُ يَلْقَى مِنْهُ عَلَى الْجِسْمِ الْمَعْدِنِيِّ الْمُسْتَعِدَّ لِقَبُولِ صُورَةِ الذَّهَبِ أَوْ الْفِضَّةِ

بِالِاسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ مِنَ الْفِعْلِ مِثْلَ الرِّضَاصِ وَالْقَصْدِيرِ وَالنَّحَاسِ بَعْدَ أَنْ يُحْمَى  
 بِالنَّارِ فَيَعُودُ ذَهَبًا اِبْرِيزًا . وَيَكُونُ عَنْ ذَلِكَ الْاِكْسِيرِ إِذَا اَلْغُرُوا فِي اَصْطِلَاحَاتِهِمْ  
 بِالرُّوحِ وَعَنِ الْجِسْمِ الَّذِي يُلْقَى عَلَيْهِ بِالْجَسَدِ . فَشَرَحَ هَذِهِ الْاِصْطِلَاحَاتِ وَصُورَةَ  
 هَذَا الْعَمَلِ الصَّنَاعِيِّ الَّذِي يَقْلِبُ هَذِهِ الْاَجْسَادَ الْمُسْتَعْدَّةَ إِلَى صُورَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ  
 هُوَ عِلْمُ الْكِيمِيَاءِ . وَمَا زَالَ النَّاسُ يُؤَلِّفُونَ فِيهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا . وَرَبَّمَا يُعْزَى  
 الْكَلَامُ فِيهَا إِلَى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا . وَإِمَامُ الْمُدُونِينَ فِيهَا جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ حَتَّى إِتْمَمَ  
 يَخْصُونَهَا بِهِ فَيَسْمُونَهَا عِلْمَ جَابِرٍ وَلَهُ فِيهَا سَبْعُونَ رِسَالَةً كُلُّهَا شَبِيهَةٌ بِالْاَلْغَازِ .  
 وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَا يَفْتَحُ مَقْفَلَهَا إِلَّا مَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِجَمِيعِ مَا فِيهَا . وَالطُّغْرَاءِيُّ مِنْ  
 حُكَمَاءِ الْمَشْرِقِ الْمُتَأَخِّرِينَ لَهُ فِيهَا دَوَاوِينُ وَمَنَاظِرَاتٌ مَعَ أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ مِنْ  
 الْحُكَمَاءِ . وَكُتِبَ فِيهَا مَسَلَمَةُ الْمَجْرِيطِيِّ مِنْ حُكَمَاءِ الْاَنْدَلُسِ كِتَابَهُ الَّذِي سَمَّاهُ  
 رُتْبَةَ الْحَكِيمِ وَجَعَلَهُ قَرِينًا لِكِتَابِهِ الْاٰخِرِ فِي السَّحْرِ وَالطَّلَسْمَاتِ الَّذِي سَمَّاهُ غَايَةَ  
 الْحَكِيمِ . وَزَعَمَ أَنَّ هَاتَيْنِ الصَّنَاعَتَيْنِ هُمَا نَتِيجَتَانِ لِلْحِكْمَةِ وَثَمَرَتَانِ لِلْعُلُومِ وَمَنْ لَمْ  
 يَقِفْ عَلَيْهِمَا فَهُوَ فَاقِدٌ ثَمَرَةَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ أَجْمَعِ . وَكَلَامُهُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ  
 وَكَلَامُهُمْ أَجْمَعُ فِي تَأْلِيْفِهِمْ هِيَ الْاَلْغَازُ يَتَعَدَّرُ فَهْمَهَا عَلَى مَنْ لَمْ يُعَانَ اِصْطِلَاحَاتِهِمْ فِي  
 ذَلِكَ . وَنَحْنُ نَذْكُرُ سَبَبَ عُدُولِهِمْ إِلَى هَذِهِ الرُّمُوزِ وَالْاَلْغَازِ . وَلَا بِنِ الْمُغْيِرِيِّ مِنْ  
 أَيْمَةِ هَذَا الشَّانِ كَلِمَاتٌ شِعْرِيَّةٌ عَلَى حُرُوفِ الْمَعْجَمِ مِنْ اَبْدَعِ مَا يَجِيءُ فِي الشَّعْرِ  
 مَلْفُوزَةٌ كُلُّهَا لُغَزُ الْاَحَاجِي وَالْمُعَايَاةِ فَلَا تَكَادُ تَفْهَمُ . وَقَدْ يَنْسُونُ لِلْغَزَالِيِّ رَحْمَةَ  
 اللّٰهِ بَعْضَ التَّأْلِيفِ فِيهَا وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ تَكُنْ مَدَارِكُهُ الْعَالِيَةَ لِتَقِفَ  
 عَنْ خَطِّ مَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَنْتَحِلَهُ . وَرَبَّمَا نَسَبُوا بَعْضَ الْمَذَاهِبِ وَالْاَقْوَالِ فِيهَا  
 لِخَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ رَبِيبِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَمِنْ الْمَعْلُومِ الْبَيِّنِ أَنَّ خَالِدًا مِنْ  
 الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ وَالْبِدَاوَةَ إِلَيْهِ أَقْرَبُ فَهُوَ يَعِيدُ عَنِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِالْجُمْلَةِ فَكَيْفَ لَهُ  
 بِصِنَاعَةِ غَرِيبَةِ الْمُنْحَى مَبْنِيَّةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ طَبَائِعِ الْمُرَكَّبَاتِ وَأَمْرَجَتَهَا وَكُتِبَ  
 النَّاطِرِينَ فِي ذَلِكَ مِنَ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالطَّبِّ لَمْ تَظْهَرَ بَعْدَ وَلَمْ تَتَرْجَمَ اَللّٰهُمَّ إِلَّا أَنْ



يَكُونُ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ آخَرَ مِنْ أَهْلِ الْمَدَارِكِ الصَّنَاعِيَّةِ تَشْبَهُ بِاسْمِهِ فَمُمْكِنٌ . وَأَنَا  
أُنْقَلُ لَكَ هُنَا رِسَالَةٌ أَبِي بَكْرٍ بْنِ بِشْرُونَ لِأَبِي السَّمْحِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكِلَاهُمَا  
مِنْ تَلَامِيذِ مُسَلَّمَةَ فَيُسْتَدَلُّ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ فِي شَأْنِهَا إِذَا أُعْطِيَتْهُ  
حَقُّهُ مِنَ التَّأْمُلِ قَالَ ابْنُ بِشْرُونَ بَعْدَ صَدْرِ مِنَ الرَّسَالَةِ خَارِجَ عَنِ الْغَرَضِ :  
« وَالْمُقَدَّمَاتُ الَّتِي لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْكَرِيمَةِ قَدْ ذَكَرَهَا الْأُولُونَ وَأَقْتَصَّ جَمِيعَهَا أَهْلُ  
الْفَلَسَفَةِ مِنْ مَعْرِفَةِ تَكْوِينِ الْمَعَادِنِ وَتَخْلُقِ الْأَحْجَارِ وَالْجَوَاهِرِ وَطَبَاعِ الْبِقَاعِ  
وَالْأَمَاكِنِ فَمِنَعْنَا اشْتِهَارَهَا مِنْ ذِكْرِهَا وَلَكِنْ أُبَيِّنُ لَكَ مِنْ هَذِهِ الصَّنَعَةِ مَا يُحْتَاجُ  
إِلَيْهِ فَتَبْدَأُ بِمَعْرِفَتِهِ فَقَدْ قَالُوا : يَنْبَغِي لِطُلَّابِ هَذَا الْعِلْمِ أَنْ يَعْلَمُوا أَوْلًا ثَلَاثَ  
خِصَالٍ : أَوْلَاهَا هَلْ تَكُونُ ؟ وَالثَّانِيَةُ مِنْ أَيِّ تَكُونُ ؟ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ أَيِّ كَيْفٍ تَكُونُ ؟  
فَإِذَا عَرَفَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ وَأَحْكَمَهَا فَقَدْ ظَفِرَ بِمَطْلُوبِهِ وَبَلَغَ نَهَائَتَهُ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ وَأَمَّا  
الْبَحْثُ عَنْ وُجُودِهَا وَالِاسْتِدْلَالُ عَنْ تَكُونِهَا فَقَدْ كَفَيْنَاكَ بِمَا بَعَثْنَا بِهِ إِلَيْكَ مِنَ  
الْإِكْسِيرِ . وَأَمَّا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَكُونُ فَإِنَّمَا يَرِيدُونَ بِذَلِكَ الْبَحْثَ عَنِ الْحَجَرِ الَّذِي  
يُمْكِنُهُ الْعَمَلُ وَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ مُوجُودًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِالْقُوَّةِ لِأَنَّهَا مِنَ الطَّبَائِعِ  
الْأَرْبَعِ مِنْهَا تَرَكَّبَتْ ائْتِدَاءً وَإِلَيْهَا تَرْجِعُ ائْتِهَاءً وَلَكِنْ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا يَكُونُ فِيهِ  
بِالْقُوَّةِ وَلَا يَكُونُ بِالْفِعْلِ وَذَلِكَ أَنْ مِنْهَا مَا يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا تَعَالِجٌ وَتُدَبَّرُ وَهِيَ الَّتِي  
تَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ وَالَّتِي لَا يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا لَا تَعَالِجٌ وَلَا تُدَبَّرُ لِأَنَّهَا فِيهَا  
بِالْقُوَّةِ فَقَطُّ وَإِنَّمَا لَمْ يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا لِاسْتِغْرَاقِ بَعْضِ طَبَائِعِهَا فِي بَعْضٍ وَفَضْلِ قُوَّةِ  
الْكَبِيرِ مِنْهَا عَلَى الصَّغِيرِ . فَيَنْبَغِي لَكَ وَقَفَّكَ اللَّهُ أَنْ تَعْرِفَ أَوْفَقَ الْأَحْجَارِ الْمُنْفَصِلَةِ  
الَّتِي يُمْكِنُ فِيهَا الْعَمَلُ وَجِنْسُهُ وَقُوَّتُهُ وَعَمَلُهُ وَمَا يَدَبَّرُ مِنَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالتَّنْفِيَةِ  
وَالْتَكْلِيسِ وَالتَّنْشِيفِ وَالتَّقْلِيْبِ فَإِنْ مِنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذِهِ الْأَصُولَ الَّتِي هِيَ عِمَادُ هَذِهِ  
الصَّنَعَةِ لَمْ يَنْجَحْ وَلَمْ يَظْفَرْ بِخَيْرٍ أَبَدًا . وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ  
يُسْتَعَانَ عَلَيْهِ بغيره أَوْ يُكْتَفَى بِهِ وَحْدَهُ وَهَلْ هُوَ وَاحِدٌ فِي الْاِئْتِدَاءِ أَوْ شَارِكُهُ غَيْرُهُ  
فَصَارَ فِي التَّدْبِيرِ وَاحِدًا فَسَمِّيَ حَجْرًا . وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ كَيْفِيَّةَ عَمَلِهِ وَكَمِيَّةَ

أَوَازِيهِ وَأَزْمَانِهِ وَكَيْفَ تَرْكِيْبِ الرُّوْحِ فِيهِ وَإِدْخَالَ النَّفْسِ عَلَيْهِ ؟ وَهَلْ تَقْدِرُ النَّارُ عَلَى تَفْصِيلِهَا مِنْهُ بَعْدَ تَرْكِيْبِهَا ؟ فَإِنَّ لَمْ تَقْدِرْ فَلِأَيِّ عِلَّةٍ وَمَا السَّبَبُ الْمَوْجِبُ لِذَلِكَ ؟ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ فَافْهَمْ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْفَلَسَفَةَ كُلَّهَا مَدَحَتِ النَّفْسَ وَزَعَمَتْ أَنَّهَا الْمُدْبِرَةُ لِلْجَسَدِ وَالْحَامِلَةُ لَهُ وَالِدَافِعَةُ عَنْهُ وَالْفَاعِلَةُ فِيهِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْجَسَدَ إِذَا خَرَجَتِ النَّفْسُ مِنْهُ مَاتَ وَبَرَدَ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالِامْتِنَاعِ مِنْ غَيْرِهِ لِأَنَّهُ لَا حَيَاةَ فِيهِ وَلَا نُورَ . وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ الْجَسَدَ وَالنَّفْسَ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ شَبِيهَةٌ بِجَسَدِ الْإِنْسَانِ الَّذِي تَرْكِيْبُهُ عَلَى الْغِذَاءِ وَالْعِشَاءِ وَقَوَامِهِ وَتَمَامِهِ بِالنَّفْسِ الْحَيَّةِ النُّورَانِيَّةِ الَّتِي بِهَا يَفْعَلُ الْعِظَائِمَ وَالْأَشْيَاءَ الْمُتَقَابِلَةَ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُهَا بِالْقُوَّةِ الْحَيَّةِ الَّتِي فِيهَا . وَإِنَّمَا انْفَعَلَ الْإِنْسَانُ لِاخْتِلَافِ تَرْكِيْبِ طَبَائِعِهِ وَلَوْ اتَّفَقَتْ طَبَائِعُهُ لَسَلِمَتْ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالتُّضَادِّ وَلَمْ تَقْدِرِ النَّفْسُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَدَنِهِ وَلَكَانَ خَالِدًا بَاقِيًا . فَسُبْحَانَ مَدْبِرِ الْأَشْيَاءِ تَعَالَى . وَاعْلَمْ أَنَّ الطَّبَائِعَ الَّتِي يَخْدُثُ عَنْهَا هَذَا الْعَمَلُ كَيْفِيَّةٌ دَافِعَةٌ فِي الْإِبْتِدَاءِ فَيَضِيئُ مَحْتَاجَةً إِلَى الْإِنْتِهَاءِ وَلَيْسَ لَهَا إِذَا صَارَتْ فِي هَذَا الْحَدِّ أَنْ تَسْتَحِيلَ إِلَى مَا مِنْهُ تَرَكَّبَتْ كَمَا قُلْنَا أَنْفَاءً فِي الْإِنْسَانِ لِأَنَّ طَبَائِعَ هَذَا الْجَوْهَرِ قَدْ لَزِمَ بَعْضُهَا بَعْضًا وَصَارَتْ شَيْئًا وَاحِدًا شَبِيهًا بِالنَّفْسِ فِي قُوَّتِهَا وَفِعْلِهَا وَبِالْجَسَدِ فِي تَرْكِيْبِهِ وَمَجَسَّتِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ طَبَائِعَ مُفْرَدَةً بِأَعْيَانِهَا . فَيَا عَجَبًا مِنْ أَفَاعِيلِ الطَّبَائِعِ إِنَّ الْقُوَّةَ لِلضَّعِيفِ الَّذِي يَقْوَى عَلَى تَفْصِيلِ الْأَشْيَاءِ وَتَرْكِيْبِهَا وَتَمَامِهَا فَلِذَلِكَ قُلْتُ قَوِيٌّ وَضَعِيفٌ . وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّغْيِيرُ وَالْفَنَاءُ فِي التَّرْكِيبِ الْأَوَّلِ لِالِاخْتِلَافِ وَعَدَمِ ذَلِكَ فِي الثَّانِي لِالِاتِّفَاقِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأَوَّلِينَ التَّفْصِيلُ وَالتَّقْطِيعُ فِي هَذَا الْعَمَلِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ وَالتَّرْكِيبُ مَوْتٌ وَفَنَاءٌ . وَهَذَا الْكَلَامُ دَقِيقٌ الْمَعْنَى لِأَنَّ الْحَكِيمَ أَرَادَ بِقَوْلِهِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ خُرُوجَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ لِأَنَّهُ مَا دَامَ عَلَى تَرْكِيْبِهِ الْأَوَّلِ فَهُوَ قَانٍ لَا مَحَالَةَ فَإِذَا رُكِّبَ التَّرْكِيبِ الثَّانِي عَدِمَ الْفَنَاءُ . وَالتَّرْكِيبِ الثَّانِي لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ التَّفْصِيلِ وَالتَّقْطِيعِ فَإِذَا التَّفْصِيلُ وَالتَّقْطِيعُ فِي هَذَا الْعَمَلِ خَاصَّةٌ . فَإِذَا بَقِيَ الْجَسَدُ الْمَحْلُولُ انْبَسَطَ فِيهِ لِعَدَمِ الصُّورَةِ لِأَنَّهُ قَدْ صَارَ

فِي الْجَسَدِ بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ الَّتِي لَا صُورَةَ لَهَا وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا وَزْنَ لَهُ فِيهِ وَسَتَرَى ذَلِكَ إِنْ  
 شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اخْتِلَاطَ اللَّطِيفِ بِاللَّطِيفِ أَهْوَنُ مِنْ  
 اخْتِلَاطِ الْعَلِيظِ وَإِنَّمَا أُرِيدُ بِذَلِكَ التَّشَاكُلَ فِي الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَتَّصِلُ  
 بِأَشْكَالِهَا . وَذَكَرْتُ لَكَ ذَلِكَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْعَمَلَ أَوْفَقَ وَأَيْسَرَ مِنَ الطَّبَائِعِ اللَّطَائِفِ  
 الرُّوحَانِيَّةِ مِنْهَا مِنَ الْعَلِيظَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ . وَقَدْ يَتَّصِرُ فِي الْعَقْلِ أَنَّ الْأَحْجَارَ أَقْوَى  
 وَأَصْبَرَ عَلَى النَّارِ مِنَ الْأَرْوَاحِ كَمَا تَرَى أَنَّ الذَّهَبَ وَالْحَدِيدَ وَالنَّحَاسَ أَصْبَرَ عَلَى النَّارِ  
 مِنَ الْكِبْرِيَّتِ وَالزُّبُقِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَرْوَاحِ فَأَقُولُ إِنَّ الْأَجْسَادَ قَدْ كَانَتْ أَرْوَاحًا فِي  
 بَدَنِهَا فَلَمَّا أَصَابَهَا حَرُّ الْكَيَانِ قَلَبَهَا أَجْسَادًا لِرَجَّةِ غَلِيظَةٍ فَلَمْ تَقْدِرِ النَّارُ عَلَى أَكْلِهَا  
 لِإِفْرَاطِ غَلِيظَتِهَا وَتَلَزُّجِهَا . فَإِذَا أَفْرَطَتِ النَّارُ عَلَيْهَا صَيَّرَتْهَا أَرْوَاحًا كَمَا كَانَتْ أَوَّلَ  
 خَلْقِهَا . وَإِنَّ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ اللَّطِيفَةَ إِذَا أَصَابَتْهَا النَّارُ أَبْقَتْ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى الْبَقَاءِ عَلَيْهَا  
 فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا صَيَّرَ الْأَجْسَادَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ وَصَيَّرَ الْأَرْوَاحَ فِي هَذَا الْحَالِ فَهُوَ  
 أَجَلُ مَا تَعْرِفُهُ . أَقُولُ إِنَّمَا أَبْقَتْ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ لِاشْتِعَالِهَا وَلَطَافَتِهَا . وَإِنَّمَا اشْتَعَلَتْ  
 لِكثْرَةِ رَطُوبَتِهَا وَلِأَنَّ النَّارَ إِذَا أَحْسَتْ بِالرُّطُوبَةِ تَعَلَّقَتْ بِهَا لِأَنَّهَا هَوَائِيَّةٌ تُشَاكِلُ  
 النَّارَ وَلَا تَزَالُ تَعْتَدِي بِهَا إِلَى أَنْ تَفْنَى . وَكَذَلِكَ الْأَجْسَادُ إِذَا أَحْسَتْ بِوُضُوعِ النَّارِ  
 إِلَيْهَا لِقَلَّةِ تَلَزُّجِهَا وَغَلِيظَتِهَا وَإِنَّمَا صَارَتْ تِلْكَ الْأَجْسَادُ لَا تَشْتَعِلُ لِأَنَّهَا مَرَكَبَةٌ مِنْ  
 أَرْضٍ وَمَاءٍ صَابِرٍ عَلَى النَّارِ فَلَطِيفَةٌ مُتَّحِدَةٌ بِكَيْفِيَّتِهِ لِطَوْلِ الطَّبَخِ اللَّيِّنِ الْمَازِجِ  
 لِلْأَشْيَاءِ . وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مُتَلَاشٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى بِالنَّارِ لِمُفَارَقَةِ لَطِيفِهِ مِنْ كَثِيفِهِ  
 وَدُخُولِ بَعْضِهِ فِي بَعْضٍ عَلَى غَيْرِ التَّحْلِيلِ وَالْمُؤَافَقَةِ فَصَارَ ذَلِكَ الْإِنْضِمَامُ وَالتَّدَاخُلُ  
 مُجَاوِرَةً لَا مُمَازَجَةً فَسَهَّلَ بِذَلِكَ افْتِرَاقَهُمَا كَالْمَاءِ وَالذَّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا . وَإِنَّمَا  
 وَصَفْتُ ذَلِكَ لِتَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى تَرْكِيبِ الطَّبَائِعِ وَتَقَابُلِهَا فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ أَنَّ شَافِيَا  
 فَقَدْ أَخَذَتْ حَظَّكَ مِنْهَا . وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَخْلَاطَ الَّتِي هِيَ طَبَائِعُ هَذِهِ  
 الصَّنَاعَةِ مُؤَافِقَةٌ لِبَعْضِهَا لِبَعْضٍ مُفْضَلَةٌ مِنْ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ يَجْمَعُهَا نِظَامًا وَاحِدًا بِتَدْبِيرِ  
 وَاحِدٍ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ غَرِيبٌ فِي الْجُزْءِ مِنْهُ وَلَا فِي الْكُلِّ كَمَا قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّكَ إِذَا

أَحْكَمَتْ تَدْبِيرَ الطَّبَائِعِ وَتَأَلِيفَهَا وَلَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهَا غَرِيباً فَقَدْ أَحْكَمَتْ مَا أُرِدَتْ  
إِحْكَامَهُ وَقَوَامَهُ إِذِ الطَّبِيعَةُ وَاحِدَةٌ لَا غَرِيبَ فِيهَا فَمَنْ أَدْخَلَ عَلَيْهَا غَرِيباً فَقَدْ زَاغَ  
عَنْهَا وَوَقَعَ فِي الْخَطْبِ . وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ إِذَا حَلَّ لَهَا جَسَدٌ مِنْ قَرَائِنِهَا عَلَى  
مَا يَنْبَغِي فِي الْحَلِّ حَتَّى يُشَاكِلَهَا فِي الرِّقَّةِ وَاللِّطَافَةِ انْبَسَطَتْ فِيهِ وَجَرَتْ مَعَهُ  
حَيْثُمَا جَرَى لِأَنَّ الْأَجْسَادَ مَا دَامَتْ غَلِيظَةً جَافِيَةً لَا تَنْبَسِطُ وَلَا تَتَزَاوَجُ وَحَلُّ  
الْأَجْسَادِ لَا يَكُونُ بغيرِ الْأَرْوَاحِ فَافْتَهَمَ هَذَاكَ اللَّهُ هَذَا الْقَوْلَ . وَاعْلَمْ هَذَاكَ اللَّهُ أَنَّ  
هَذَا الْحَلَّ فِي جَسَدِ الْحَيَوَانِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَضْمَحَلُّ وَلَا يَنْقُصُ وَهُوَ الَّذِي يَقْلِبُ  
الطَّبَائِعَ وَيُمْسِكُهَا وَيُظْهِرُ لَهَا أَلْوَاناً وَأَزْهَاراً عَجِيبَةً . وَلَيْسَ كُلُّ جَسَدٍ يَحُلُّ  
خِلَافَ هَذَا هُوَ الْحَلُّ التَّامُّ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلْحَيَاةِ . وَإِنَّمَا حَلُّهُ بِمَا يُوَافِقُهُ وَيَنْدَفِعُ عَنْهُ  
حَرَقَ النَّارِ ، حَتَّى يَزُولَ عَنِ الْغَلْظِ ، وَتَنْقَلِبُ الطَّبَائِعُ عَنْ حَالَاتِهَا إِلَى مَا لَهَا أَنْ  
تَنْقَلِبَ مِنَ اللَّطَافَةِ وَالْغَلْظِ . فَإِذَا بَلَغَتِ الْأَجْسَادُ نَهَائِتَهَا مِنَ التَّخْلِيلِ وَالتَّلْطِيفِ  
ظَهَرَتْ لَهَا هُنَالِكَ قُوَّةُ تُمْسِكُ وَتَغْوُصُ وَتَقْلِبُ وَتَنْفِذُ وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يَرَى لَهُ مُضَادَّاقَ  
فِي أَوَّلِهِ فَلَا خَيْرَ فِيهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَارِدَ مِنَ الطَّبَائِعِ هُوَ يُبَسِّسُ الْأَشْيَاءَ وَيَعْقِدُ  
رُطُوبَتَهَا وَالْحَارَّ مِنْهَا يُظْهِرُ رُطُوبَتَهَا وَيَعْقِدُ يَبَسَّهَا وَإِنَّمَا أَفْرَدَتْ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ  
لِأَنَّهُمَا فَاعِلَانِ وَالرُّطُوبَةُ وَالْيَبَسُ مُنْفَعِلَانِ وَعَلَى انْفِعَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ  
تَحْدُثُ الْأَجْسَامُ وَتَتَكَوَّنُ وَإِنْ كَانَ الْحَرُّ أَكْثَرَ فِعْلاً فِي ذَلِكَ مِنَ الْبَرْدِ لِأَنَّ الْبَرْدَ لَيْسَ  
لَهُ نَقْلُ الْأَشْيَاءِ وَلَا تَحْرُكُهَا وَالْحَرُّ هُوَ عِلَّةُ الْحَرَكَةِ . وَمَتَى ضَعُفَتْ عِلَّةُ الْكَوْنِ وَهُوَ  
الْحَرَارَةُ لَمْ يَتَمَّ مِنْهَا شَيْءٌ أَبَدًا كَمَا أَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَتِ الْحَرَارَةُ عَلَى شَيْءٍ وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّ  
بَرْدٌ أَحْرَقَتْهُ وَأَهْلَكَتَهُ . فَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْعِلَّةِ اخْتِيجُ إِلَى الْبَارِدِ فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ لِيَقْوَى  
بِهِ كُلُّ ضِدِّ عَلَى ضِدِّهِ وَيَنْدَفِعَ عَنْهُ حَرُّ النَّارِ . وَلَمْ يَحْذِرِ الْفَلَسَافَةُ أَكْبَرَ شَيْءٍ إِلَّا مِنَ  
النَّيْرَانِ الْمُحْرَقَةِ . وَأَمَرَتْ بِتَطْهِيرِ الطَّبَائِعِ وَالْأَنْفَاسِ وَإِخْرَاجِ دَنَسِهَا وَرُطُوبَتِهَا  
وَنَفْيِ آفَاتِهَا وَأَوْسَاحِهَا عَنْهَا عَلَى ذَلِكَ اسْتِقَامَ رَأْيُهُمْ وَتَدْبِيرُهُمْ فَإِنَّمَا عَمَلُهُمْ إِنَّمَا هُوَ  
مَعَ النَّارِ أَوَّلًا وَإِلَيْهَا يَصِيرُ آخِرًا فَلِذَلِكَ قَالُوا : إِيَّاكُمْ وَالنَّيْرَانَ الْمُحْرَقَاتِ . وَإِنَّمَا

أَرَادُوا بِذَلِكَ نَفْيَ الْأَفَاتِ الَّتِي مَعَهَا فَتَجَمَعُ عَلَى الْجَسَدِ آفَتَيْنِ فَتَكُونُ أَسْرَعَ لِهَلَاكِهِ .  
وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى وَيَفْسُدُ مِنْ ذَاتِهِ لِتَضَادِّ طَبَائِعِهِ وَاخْتِلَافِهِ فَيَتَوَسَّطُ  
بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَلَمْ يَجِدْ مَا يُقْوِيهِ وَيُعِينُهُ إِلَّا قَهْرَتَهُ الْآفَةُ وَأَهْلَكَتُهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْحُكَمَاءَ  
كَلَّمَهَا ذَكَرَتْ تَرْدَادَ الْأَزْوَاجِ عَلَى الْأَجْسَادِ مِرَاراً لِيَكُونَ أَلْزَمَ إِلَيْهَا وَأَقْوَى عَلَى قِتَالِ  
النَّارِ إِذَا هِيَ بَاشَرَتْهَا عِنْدَ الْإِلْفَةِ أَعْنِي بِذَلِكَ النَّارَ الْمُعْضِرِيَّةَ فَاعْلَمْهُ . وَلِنَقْلِ الْآنَ  
عَلَى الْحَجَرِ الَّذِي يُمَكِّنُ مِنْهُ الْعَمَلُ عَلَى مَا ذَكَرْتَهُ الْفَلَاسِفَةُ فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ فَمِنْهُمْ  
مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْحَيَوَانَ وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي النَّبَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْمَعَادِنِ  
وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْجَمِيعِ . وَهَذِهِ الدِّعَاوَى لَيْسَتْ بِنَا حَاجَةً إِلَى اسْتِقْصَائِهَا  
وَمُنَاطَرَةِ أَهْلِهَا عَلَيْهَا لِأَنَّ الْكَلَامَ يَطُولُ جَدًّا وَقَدْ قُلْتُ فِيمَا تَقَدَّمَ إِنَّ الْعَمَلَ يَكُونُ  
فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالْقُوَّةِ لِأَنَّ الطَّبَائِعَ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ كَذَلِكَ فَنُرِيدُ أَنْ نَعْلَمَ مِنْ  
أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ الْعَمَلُ بِالْقُوَّةِ وَالْفِعْلُ فَنَقْضُ إِلَى مَا قَالَهُ الْحَرَانِيُّ إِنَّ الصَّنْعَ كُلَّهُ أَحَدُ  
صِنْفَيْنِ : إِمَّا صِنْعَ جَسَدٍ كَالزَّرْعِ فِي الثُّوبِ الْأَبْيَضِ حَتَّى يَحُولَ فِيهِ وَهُوَ  
مُضْمَحَلٌ مُنْتَقِضُ التَّرْكِيبِ ، وَالصَّنْعَ الثَّانِي تَقْلِيْبُ الْجَوْهَرِ مِنْ جَوْهَرٍ نَفْسِهِ إِلَى  
جَوْهَرٍ غَيْرِهِ وَلَوْنِهِ كَتَقْلِيْبِ الشَّجَرِ بِلِ التُّرَابِ إِلَى نَفْسِهِ وَقَلْبِ الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ إِلَى  
نَفْسِهِ حَتَّى يَصِيرَ التُّرَابُ نَبَاتًا وَالنَّبَاتُ حَيَوَانًا وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِالرُّوحِ الْحَيِّ وَالْكَيَانَ  
الْفَاعِلِ الَّذِي لَهُ تَوْلِيدُ الْأَجْرَامِ وَقَلْبُ الْأَعْيَانِ . فَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَتَقُولُ إِنَّ الْعَمَلَ  
لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ إِمَّا فِي الْحَيَوَانَ وَإِمَّا فِي النَّبَاتِ وَبُرْهَانُ ذَلِكَ أَنَّهُمَا مَطْبُوعَانِ عَلَى  
الْعِذَاءِ وَبِهِ قَوْمُهُمَا وَتَمَامُهُمَا . فَأَمَّا النَّبَاتُ فَلَيْسَ فِيهِ مَا فِي الْحَيَوَانَ مِنَ اللَّطَافَةِ  
وَالْقُوَّةِ وَلِذَلِكَ قَلَّ خَوْضُ الْحُكَمَاءِ فِيهِ . وَأَمَّا الْحَيَوَانَ فَهُوَ آخِرُ الْإِسْتِحَالَاتِ الثَّلَاثِ  
وَنَهَائِتِهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْمَعْدِنَ يَسْتَحِيلُ نَبَاتًا وَالنَّبَاتُ يَسْتَحِيلُ حَيَوَانًا وَالْحَيَوَانَ  
لَا يَسْتَحِيلُ إِلَى شَيْءٍ هُوَ الطَّفُّ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَنْعَكِسَ رَاجِعًا إِلَى الْغِلْظِ وَأَنَّهُ أَيْضًا  
لَا يُوْجَدُ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ تَتَعَلَّقُ فِيهِ الرُّوحُ الْحَيَّةُ غَيْرَهُ وَالرُّوحُ الطَّفُّ مَا فِي الْعَالَمِ وَلَمْ  
تَتَعَلَّقِ الرُّوحُ بِالْحَيَوَانَ إِلَّا بِمُشَاكَلَتِهِ إِيَّاهَا . فَأَمَّا الرُّوحُ الَّتِي فِي النَّبَاتِ فَإِنَّهَا

يَسِيرَةٌ فِيهَا غِلْظٌ وَكَثَافَةٌ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ مُسْتَعْرِقَةٌ كَامِنَةٌ فِيهِ لِغِلْظِهَا وَعِلْظِ جَسَدِ  
النَّبَاتِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحَرَكََةِ لِغِلْظِهِ وَعِلْظِ رُوحِهِ . وَالرُّوحُ الْمَتَحَرِّكَةُ أَلْطَفُ مِنَ  
الرُّوحِ الْكَامِنَةِ كَثِيرًا وَذَلِكَ أَنَّ الْمَتَحَرِّكَةَ لَهَا قَبُولُ الْغِذَاءِ وَالتَّنْقِيلِ وَالتَّنْفُسِ وَلَيْسَ  
لِلْكَامِنَةِ غَيْرُ قَبُولِ الْغِذَاءِ وَحَدَهُ . وَلَا تَجْرِي إِذَا قِيسَتْ بِالرُّوحِ الْحَيَّةِ إِلَّا كَالْأَرْضِ  
عِنْدَ الْمَاءِ . كَذَلِكَ النَّبَاتُ عِنْدَ الْحَيَوَانَ فَالْعَمَلُ فِي الْحَيَوَانَ أَعْلَى وَأَرْفَعُ وَأَهْوَنُ  
وَأَيْسَرُ . فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ إِذَا عَرَفَ ذَلِكَ أَنْ يُجَرِّبَ مَا كَانَ سَهْلًا وَيَتْرَكَ مَا يَخْشَى  
فِيهِ عَسْرًا . وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَيَوَانَ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ يَنْقَسِمُ أَقْسَامًا مِنَ الْأَمْهَاتِ الَّتِي هِيَ  
الطَّبَائِعُ وَالْحَدِيثَةُ الَّتِي هِيَ الْمَوَالِيدُ وَهَذَا مَعْرُوفٌ مَيْسَرُ الْمُهْمِ فَذَلِكَ قَسَمَتْ  
الْحُكَمَاءُ الْعُنَاصِرَ وَالْمَوَالِيدَ أَقْسَامًا حَيَّةً وَأَقْسَامًا مَيِّتَةً فَجَعَلُوا كُلَّ مُتَحَرِّكٍ فَاعِلًا  
حَيًّا وَكُلَّ سَاكِنٍ مَفْعُولًا مَيِّتًا . وَقَسَمُوا ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ فِي الْأَجْسَادِ الذَّائِبَةِ  
وَفِي الْعَقَاقِيرِ الْمَعْدِنِيَّةِ فَسَمَوْا كُلَّ شَيْءٍ يَذُوبُ فِي النَّارِ وَيَطِيرُ وَيَشْتَعِلُ حَيًّا وَمَا  
كَانَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ سَمَوْهُ مَيِّتًا فَأَمَّا الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتُ فَسَمَوْا كُلَّ مَا انْفَصَلَ مِنْهَا  
طَبَائِعَ أَرْبَعًا حَيًّا وَمَا لَمْ يَنْفَصِلْ سَمَوْهُ مَيِّتًا ثُمَّ إِنَّهُمْ طَلَبُوا جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْحَيَّةِ . فَلَمْ  
يَجِدُوا لَوْفَقِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مِمَّا يَنْفَصِلُ فَضُولًا أَرْبَعَةً ظَاهِرَةً لِلْعَيَانِ وَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ  
الْحَجَرِ الَّذِي فِي الْحَيَوَانَ فَبَحَثُوا عَنْ جِنْسِهِ حَتَّى عَرَفُوهُ وَأَخَذُوهُ وَدَبَّرُوهُ فَتَكَيَّفَ لَهُمْ  
مِنْهُ الَّذِي أَرَادُوا . وَقَدْ يَتَكَيَّفُ مِثْلُ هَذَا فِي الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ بَعْدَ جَمْعِ الْعَقَاقِيرِ  
وَخَلْطِهَا ثُمَّ تَفْصَلُ بَعْدَ ذَلِكَ . فَأَمَّا النَّبَاتُ فَمِنْهُ مَا يَنْفَصِلُ بِبَعْضِ هَذِهِ الْفُضُولِ  
مِثْلَ الْأَشْنَانِ <sup>(١)</sup> وَأَمَّا الْمَعَادِنُ فَفِيهَا أَجْسَادٌ وَأَرْوَاحٌ وَأَنْفَاسٌ إِذَا مَزَجَتْ وَدَبَّرَتْ كَانَ  
مِنْهَا مَا لَهُ تَأْثِيرٌ . وَقَدْ دَبَّرْنَا كُلَّ ذَلِكَ فَكَانَ الْحَيَوَانَ مِنْهَا أَعْلَى وَأَرْفَعُ وَتَذْيِيرُهُ  
أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ . فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمْ مَا هُوَ الْحَجَرُ الْمَوْجُودُ فِي الْحَيَوَانَ وَطَرِيقَ  
وُجُودِهِ . إِنَّا بَيَّنَّا أَنَّ الْحَيَوَانَ أَرْفَعُ الْمَوَالِيدِ وَكَذَا مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ فَهُوَ أَلْطَفُ مِنْهُ

(١) الإشنان، ما تفصل به الأيدي من الحمض، والأشنة شيء نباتي يتكون على الشجر والصخور

(القطموس)

كَالنباتِ مِنَ الْأَرْضِ . وَإِنَّمَا كَانَ النَّبَاتُ أَلْطَفَ مِنَ الْأَرْضِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ  
جَوْهَرِهِ الصَّافِي وَجَسَدِهِ اللَّطِيفِ فَوَجَبَ لَهُ بِذَلِكَ اللَّطَافَةُ وَالرَّقَّةُ . وَكَذَا هَذَا الْحَجَرُ  
الْحَيَوَانِيُّ بِمَنْزِلَةِ النَّبَاتِ فِي التُّرَابِ . وَبِالْجُمَّلَةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَيَوَانِ شَيْءٌ يَنْفَصِلُ  
طَبَائِعَ أَرْبَعًا غَيْرَهُ فَأَفْهَمَ هَذَا الْقَوْلُ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُخْفَى إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ بَيْنَ الْجَهَالَةِ  
وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ . فَقَدْ أَخْبَرْتُكَ مَا هِيَ هَذَا الْحَجَرِ وَأَعْلَمْتُكَ جِنْسَهُ وَأَنَا أُبَيِّنُ لَكَ  
وَجُوهَ تَدَابِيرِهِ حَتَّى يَكْمَلَ الَّذِي شَرَطْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا مِنَ الْإِنْصَافِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ  
سُبْحَانَهُ . . .

(التدبير على بركة الله ) خِذِ الْحَجَرَ الْكَرِيمَ فَأُوْدِعْهُ الْقُرْعَةَ وَالْإِنْبِيقَ وَفَصِّلْ  
طَبَائِعَهُ الْأَرْبَعَ الَّتِي هِيَ النَّارُ وَالْهَوَاءُ وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ وَهِيَ الْجَسَدُ وَالصَّنْغُ فَإِذَا  
عَزَلْتَ الْمَاءَ عَنِ التُّرَابِ وَالْهَوَاءَ عَنِ النَّارِ فَارْفَعْ كُلَّ وَاحِدٍ فِي إِنَائِهِ عَلَى حِدَةٍ وَخِذِ  
الْهَابِطَ أَسْفَلَ الْإِنَاءِ وَهُوَ الثُّفْلُ <sup>(١)</sup> فَاعْسِلْهُ بِالنَّارِ الْحَارَّةِ حَتَّى تَذْهَبَ النَّارُ عَنْهُ  
سَوَادَهُ وَيَزُولَ غَلْظُهُ وَجَفَاؤُهُ وَيَبْيَضُ تَبْيِضًا مُحْكَمًا وَطَيَّرْ عَنْهُ فَضُولَ الرُّطُوبَاتِ  
الْمُسْتَحِجَّةِ فِيهِ فَإِنَّهُ يَصِيرُ عِنْدَ ذَلِكَ مَاءً أبيضَ لَا ظِلْمَةَ فِيهِ وَلَا وَسَخَ وَلَا تَصَادَ . ثُمَّ  
اعْمُدْ إِلَى تِلْكَ الطَّبَائِعِ الْأُولَى الصَّاعِدَةِ مِنْهُ فَطَهِّرْهَا أَيْضًا مِنَ السَّوَادِ وَالتَّصَادِ وَكُرِّزْ  
عَلَيْهَا الْغَسْلَ وَالتَّصْمِيدَ حَتَّى تَلْطَفَ وَتَرَقَّ وَتَضْفُو . فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ  
عَلَيْكَ فَايْدًا بِالتَّرْكِيبِ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ الْعَمَلِ . وَذَلِكَ أَنَّ التَّرْكِيبَ لَا يَكُونُ إِلَّا  
بِالتَّرْزُوبِجِ وَالتَّغْفِينِ فَأَمَّا التَّرْزُوبِجُ فَهُوَ اخْتِلَاطُ اللَّطِيفِ بِالْغَلِيظِ وَأَمَّا التَّغْفِينُ فَهُوَ  
التَّمَشِيَةُ وَالسَّخَقُ حَتَّى يَخْتَلِطَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَيَصِيرَ شَيْئًا وَاحِدًا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ  
وَلَا تَقْصَانَ بِمَنْزِلَةِ الْإِمْتِزَاجِ بِالْمَاءِ . فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقْوَى الْغَلِيظُ عَلَى إِمْسَاكِ اللَّطِيفِ  
وَتَقْوَى الرُّوحُ عَلَى مَقَابَلَةِ النَّارِ وَتَضْبُرُ عَلَيْهَا وَتَقْوَى النَّفْسُ عَلَى الْغَوْصِ فِي الْأَجْسَادِ  
وَالدَّبِيبِ فِيهَا . وَإِنَّمَا وَجَدَ ذَلِكَ بَعْدَ التَّرْكِيبِ لِأَنَّ الْجَسَدَ الْمَخْلُولَ لَمَّا ازْدَوَجَ  
بِالرُّوحِ مَارَجَهُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَدَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ لِتَشَاكُلِهَا فَصَارَ شَيْئًا وَاحِدًا

( ١ ) الثفل : ما يستقر في أسفل الشيء من كدرة ( القاموس ) .

وَوَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَعْضَ لِلرُّوحِ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ وَالْبَقَاءِ وَالشُّبُوتِ وَمَا  
يَعْضُ لِلْجَسَدِ لِمَوْضِعِ الْإِمْتِزَاجِ . وَكَذَلِكَ النَّفْسُ إِذَا امْتَزَجَتْ بِهِمَا وَدَخَلَتْ فِيهِمَا  
يُخَدِّمَةُ التَّدْبِيرِ اخْتَلَطَتْ أَجْزَاؤُهَا بِجَمِيعِ أَجْزَاءِ الْآخَرِينَ أَعْنَى الرُّوحِ وَالْجَسَدِ  
وَصَارَتْ هِيَ وَهَمَا شَيْئًا وَاحِدًا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ الْجُزْءِ الْكُلِّيِّ الَّذِي سَلِمَتْ  
طَبَائِعُهُ وَاتَّفَقَتْ أَجْزَاؤُهُ فَإِذَا أَلْقَى هَذَا الْمُرَكَّبَ الْجَسَدَ الْمَحْلُولَ وَأَلْحَ عَلَيْهِ النَّارَ  
وَأَظْهَرَ مَا فِيهِ مِنَ الرُّطُوبِيَّةِ عَلَى وَجْهِه ذَابَ فِي الْجَسَدِ الْمَحْلُولِ . وَمِنْ شَأْنِ  
الرُّطُوبِيَّةِ الْإِشْتِعَالَ وَتَعَلُّقَ النَّارِ بِهَا فَإِذَا أَرَادَتِ النَّارُ التَّعَلُّقَ بِهَا مَنَعَهَا مِنَ الْإِتِّحَادِ  
بِالنَّفْسِ مُمَازَجَةَ الْمَاءِ لَهَا . فَإِنَّ النَّارَ لَا تَتَّحِدُ بِالذَّهْنِ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا .  
وَكَذَلِكَ الْمَاءُ مِنْ شَأْنِهِ النُّفُورُ مِنَ النَّارِ . فَإِذَا أَلْحَتْ عَلَيْهِ النَّارُ وَأَرَادَتْ تَطْيِيرَهُ  
حَبَسَهُ الْجَسَدُ الْيَابِسُ الْمَمَازِجُ لَهُ فِي جَوْفِهِ فَمَنَعَهُ مِنَ الطَّيْرَانِ فَكَانَ الْجَسَدُ عَلَّةً  
لِإِمْسَاكِ الْمَاءِ وَالْمَاءُ عَلَّةً لِبَقَاءِ الذَّهْنِ وَالذَّهْنُ عَلَّةً لِثَبَاتِ الصَّنِيعِ وَالصَّنِيعُ عَلَّةً لِظُهُورِ  
الذَّهْنِ وَإِظْهَارِ الذَّهْنِيَّةِ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُظْلِمَةِ الَّتِي لَا نُورَ لَهَا وَلَا حَيَاةَ فِيهَا . فَهَذَا هُوَ  
الْجَسَدُ الْمُسْتَقِيمُ وَهَكَذَا يَكُونُ الْعَمَلُ . وَهَذِهِ التَّضْفِيَّةُ الَّتِي سَأَلْتُ عَنْهَا وَهِيَ الَّتِي  
سَمَّيْتُهَا الْحُكْمَاءَ بَيِّضَةً وَإِيَّاهَا يَعْنُونَ لَا بَيِّضَةَ الدَّجَاجِ وَاعْلَمُ أَنَّ الْحُكْمَاءَ لَمْ تَسْمَعْهَا  
بِهَذَا الْإِسْمِ لِغَيْرِ مَعْنَى بَلْ أَشْبَهْتَهَا . وَلَقَدْ سَأَلْتُ مَسَلَمَةَ عَنْ ذَلِكَ يَوْمًا وَلَيْسَ عِنْدَهُ  
غَيْرِي فَقُلْتُ لَهُ : أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ أَخْبِرْنِي لِأَيِّ شَيْءٍ سَمَّيْتُ الْحُكْمَاءَ مُرَكَّبَ  
الْحَيَوَانَ بَيِّضَةً ؟ اخْتِيَارًا مِنْهُمْ لِذَلِكَ أَمْ لِمَعْنَى دَعَاهُمْ إِلَيْهِ ؟ فَقَالَ : بَلْ لِمَعْنَى  
غَامِضٍ فَقُلْتُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ وَمَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمَنْفَعَةِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى  
الصَّنَاعَةِ حَتَّى شَبَّهُوهَا وَسَمَّوْهَا بَيِّضَةً ؟ فَقَالَ : لِشَبَّهَائِهَا وَقَرَابَتِهَا مِنَ الْمُرَكَّبِ فَفَكَّرْتُ  
فِيهِ فَإِنَّهُ سَيَظْهَرُ لَكَ مَعْنَاهُ . فَبَقِيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مُفَكِّرًا لَا أَقْدِرُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى  
مَعْنَاهُ . فَلَمَّا رَأَى مَا بِي مِنَ الْفِكْرِ وَأَنَّ نَفْسِي قَدْ مَضَتْ فِيهَا أَخَذَ بَعْضِي وَهَزَّنِي  
هَزَّةً خَفِيفَةً وَقَالَ لِي : يَا أَبَا بَكْرٍ ذَلِكَ لِلنَّسَبَةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا فِي كَمِيَّةِ الْأَلْوَانِ عِنْدَ  
إِمْتِزَاجِ الطَّبَائِعِ وَتَأْلِيفِهَا . فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ أَنْجَلْتُ عَنِّي الظُّلْمَةَ وَأَضَاءَ لِي نُورَ قَلْبِي



وَقَوِي عَقْلِي عَلَى فَنِهِمِ فَهَضْتُ شَاكِرًا اللَّهُ عَلَيْهِ إِلَى مَنْزِلِي وَأَقَمْتُ عَلَى ذَلِكَ شُكْلًا  
 هَنْدَسِيًّا يُبْرَهَنُ بِهِ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ مَسْلَمَةٌ . وَأَنَا وَاضِعُهُ لَكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ .  
 مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَرْكَبَ إِذَا تَمَّ وَكَمَلَ كَانَ نِسْبَةً مَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ إِلَى مَا فِي  
 الْبَيْضَةِ مِنْ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ كِنْسِيَّةً مَا فِي الْمَرْكَبِ مِنْ طَبِيعَةِ النَّارِ إِلَى مَا فِي الْبَيْضَةِ مِنْ  
 طَبِيعَةِ النَّارِ . وَكَذَلِكَ الطَّبِيعَتَانِ الْأَخْرَيَانِ ، الْأَرْضُ وَالْمَاءُ فَأَقُولُ ، إِنَّ كُلَّ شَيْئَيْنِ  
 مَتَنَاسِبَيْنِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ هُمَا مُتَشَابِهَانِ . وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنْ تَجْعَلَ لِسَطْحِ الْبَيْضَةِ  
 هَزُوحٌ فَإِذَا أَرَدْنَا ذَلِكَ فَإِنَّا نَأْخُذُ أَقْلَ طَبَائِعِ الْمَرْكَبِ وَهِيَ طَبِيعَةُ الْيُبُوسَةِ وَنُضِيفُ  
 إِلَيْهَا مِثْلَهَا مِنْ طَبِيعَةِ الرُّطُوبَةِ وَنُدَبِّرُهُمَا حَتَّى تَنْشَفَ طَبِيعَةُ الْيُبُوسَةِ طَبِيعَةَ  
 الرُّطُوبَةِ وَتَقْبَلَ قُوَّتَهَا . وَكَانَ فِي هَذَا الْكَلَامِ رَمْزًا وَلَكِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ . ثُمَّ تَحْمَلُ  
 عَلَيْهِمَا جَمِيعًا مِثْلَيْهِمَا مِنَ الرُّوحِ وَهُوَ الْمَاءُ فَيَكُونُ الْجَمِيعُ سِتَّةَ أَمْثَالٍ . ثُمَّ تَحْمَلُ  
 عَلَى الْجَمِيعِ بَعْدَ التَّدْبِيرِ مِثْلًا مِنْ طَبِيعَةِ الْهَوَاءِ الَّتِي هِيَ النَّفْسُ وَذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ  
 فَيَكُونُ الْجَمِيعُ تِسْعَةَ أَمْثَالِ الْيُبُوسَةِ بِالْقُوَّةِ . وَتَجْعَلُ تَحْتَ كُلِّ ضَلْعَيْنِ مِنَ الْمَرْكَبِ  
 الَّذِي طَبِيعَتُهُ مُحِيطَةٌ بِسَطْحِ الْمَرْكَبِ طَبِيعَتَيْنِ فَتَجْعَلُ أَوَّلًا الضَّلْعَيْنِ الْمُحِيطَيْنِ  
 بِسَطْحِهِ طَبِيعَةَ الْمَاءِ وَطَبِيعَةَ الْهَوَاءِ وَهُمَا ضَلْعَانِ ( ا ح د ) وَسَطْحُ ( ا ب ج د ) وَكَذَلِكَ  
 الضَّلْعَانِ الْمُحِيطَانِ بِسَطْحِ الْبَيْضَةِ اللَّذَانِ هُمَا الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ ضَلْعَانِ ( ه ز و ح ) فَأَقُولُ  
 إِنَّ سَطْحَ ( ا ب ج د ) يُشْبِهُ سَطْحَ ( ه ز و ح ) طَبِيعَةَ الْهَوَاءِ الَّتِي تُسَمَّى نَفْسًا وَكَذَلِكَ  
 ( ب ج د ) مِنْ سَطْحِ الْمَرْكَبِ . وَالْحُكْمَاءُ لَمْ تُسَمِّ شَيْئًا بِاسْمِ شَيْءٍ إِلَّا لِشَبْهِهِ بِهِ .  
 وَالْكَلِمَاتُ الَّتِي سَأَلْتُ عَنْ شَرْحِهَا الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ وَهِيَ الْمُنْعَقَدَةُ مِنَ الطَّبَائِعِ  
 الْعُلُويَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ . وَالنُّحَاسُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ سَوَادَهُ وَقَطَعَ حَتَّى صَارَ هَبَاءً ثُمَّ حُمِرَ  
 بِالزَّاجِ حَتَّى صَارَ نُحَاسِيًّا وَالْمَغْنِيسِيَّا حَجْرُهُمُ الَّذِي تَجْمَدُ فِيهِ الْأَرْوَاحُ وَتُخْرِجُهُ  
 الطَّبِيعَةُ الْعُلُويَّةُ الَّتِي تَسْتَجِنُ فِيهَا الْأَرْوَاحُ لِتُقَابِلَ عَلَيْهَا النَّارَ وَالْفَرْقَرَةُ لَوْنٌ أَحْمَرُ  
 قَانٍ يُحْدِثُهُ الْكَيَانُ . وَالرُّصَاصُ حَجَرٌ لَهُ ثَلَاثُ قُوَى مُخْتَلِفَةٌ الشُّخُوصِ وَلَكِنَّهَا  
 مُتَشَاكِلَةٌ وَمُتَجَانِسَةٌ . فَالوَاحِدَةُ رُوحَانِيَّةٌ نَبْرَةٌ صَافِيَةٌ وَهِيَ الْفَاعِلَةُ وَالثَّانِيَّةُ نَفْسَانِيَّةٌ

وهي متحركة حساسة غير أنها أغلظ من الأولى ومركزها دون مركز الأولى والثالثة  
قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة إلى مركز الأرض لثقلها وهي الماسكة الروحانية  
والنفسانية جميعاً والمحيطة بهما . وأما سائر الباقيّة فمبتدعة ومخترة ، إنساناً  
على الجاهل ، ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها . فهذا جميع ما سألتني  
عنه وقد بعثت به إليك مفسراً وترجو بتوفيق الله أن تبلغ أملك والسلام . انتهى  
كلام ابن بشرور وهو من كبار تلاميذ مسلمة المجرطي شيخ الأندلس في علوم  
الكيمياء والسيمياء والسحر في القرن الثالث وما بعده . وأنت ترى كيف صرف  
الفاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز والألغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف وذلك  
دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية . والذي يجب أن يُعتقد في أمر الكيمياء وهو  
الحق الذي يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها في عالم  
الطبيعة ، إما من نوع الكرامة إن كانت النفوس خيرة أو من نوع السحر إن كانت  
النفوس شريرة فاجرة . فأما الكرامة فظاهرة وأما السحر فلأن الساحر كما ثبت في  
مكان تحقيقه يقلب الأعيان المادية بقوته السحرية . ولا بد له مع ذلك عندهم  
من مادة تقع فعله السحري فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب أو  
الشجر والنبات وبالجملة من غير مادتها المخصوصة بها ، كما وقع لسحرة فرعون  
في الجبال والعصي وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب  
والترك في قاصية الشمال أنهم يسحرون الجو للأقطار وغير ذلك . ولما كانت هذه  
تخليقاً للذهب في غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر والمتكلمون فيه من  
أعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة . ومن كان قبلهم من حكماء الأمم إنما نحو هذا  
المنحى ولهذا كان كلامهم فيه ألغازاً حذراً عليها من إنكار الشرائع على السحر  
 وأنواعه لا أن ذلك يرجع إلى الضنابة بها كما هو رأي من لم يذهب إلى التحقيق في  
 ذلك . وانظر كيف سُمي مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم وسمى كتابه في السحر  
 والطلسمات غاية الحكيم إشارة إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه

لأن الغاية أعلى من الرتبة فكان مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات . ومن كلامه في الفئتين يتبين ما قلناه ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الأمر بالصناعة الطبيعية . والله العليم الخبير .

## الفصل الحادي والثلاثون

### في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها

هذا الفصل وما بعده مهم لأن هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن . وضررها في الدين كثير فوجب أن يصدع بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها . وذلك أن قوماً من عقلاء النوع الإنساني زعموا أن الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك أدواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية وأن توضيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع فإنها بعض من مدارك العقل . وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف وهو باللسان اليوناني محب الحكمة . فبحثوا عن ذلك وشمروا له وحوموا على إصابة الغرض منه ووضعوا قانوناً يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطقي . ومحصل ذلك أن النظر الذي يفيد تمييز الحق من الباطل إنما هو للذهن في المعاني المنتزعة من الموجودات الشخصية فيجرد منها أولاً صوراً منطبقة على جميع الأشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي ترسمها في طين أو شمع . وهذه مجردة من المحسوسات تسمى المعقولات الأوائل . ثم تجرد من تلك المعاني الكلية إذا كانت مشتركة مع معانٍ أخرى وقد تميزت عنها في الذهن فتجرد منها معانٍ أخرى وهي التي اشتركت بها . ثم تجرد ثانياً إن شاركها غيرها وثالثاً إلى أن ينتهي التجريد إلى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعاني والأشخاص ولا يكون منها تجريد بعد هذا وهي الأجناس العالية . وهذه

الْمُجَرَّدَاتُ كُلُّهَا مِنْ غَيْرِ الْمَحْسُوسَاتِ هِيَ مِنْ حَيْثُ تَأَلَّفَ بِغُضِّهَا مَعَ بَعْضٍ  
 لِتَحْصِيلِ الْعُلُومِ مِنْهَا تُسَمَّى الْمُعْقُولَاتِ الثَّوَانِي . فَإِذَا نَظَرَ الْفِكْرُ فِي هَذِهِ الْمُعْقُولَاتِ  
 الْمُجَرَّدَةِ وَطَلَبَ تَصَوُّرَ الْوُجُودِ . كَمَا هُوَ فَلَا بُدَّ لِلذَّهْنِ مِنْ إِضَافَةِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ .  
 وَتَفْيِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِالْبَرْهَانِ الْعَقْلِيِّ الْيَقِينِيِّ لِيَحْصَلَ تَصَوُّرُ الْوُجُودِ تَصَوُّراً  
 صَاحِحاً مُطَابِقاً إِذَا كَانَ ذَلِكَ بِقَانُونٍ صَاحِحٍ كَمَا مَرَّ . وَصَنَّفَ التَّصْدِيقِ الَّذِي هُوَ  
 تِلْكَ الْإِضَافَةُ وَالْحُكْمُ مُتَقَدِّمٌ عِنْدَهُمْ عَلَى صِنْفِ التَّصَوُّرِ فِي النَّهَائِيَةِ وَالتَّصَوُّرُ مُتَقَدِّمٌ  
 عَلَيْهِ فِي الْبِدَاءَةِ وَالتَّغْلِيمِ لِأَنَّ التَّصَوُّرَ التَّامَّ عِنْدَهُمْ هُوَ غَايَةُ الطَّلِبِ الْإِذْرَاقِيِّ وَإِنَّمَا  
 التَّصْدِيقُ وَسِيلَةٌ لَهُ وَمَا تَسْمَعُهُ فِي كُتُبِ الْمُنْطَقِيِّينَ مِنْ تَقَدُّمِ التَّصَوُّرِ وَتَوَقُّفِ  
 التَّصْدِيقِ عَلَيْهِ فَبِمَعْنَى الشُّعُورِ لَا بِمَعْنَى الْعِلْمِ التَّامِّ وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ كَبِيرِهِمْ  
 أَرِسْطُو ثُمَّ يَزْعُمُونَ أَنَّ السُّعَادَةَ فِي إِذْرَاقِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا مَا فِي الْحِسِّ وَمَا وَرَاءَ  
 الْحِسِّ بِهَذَا النَّظَرِ وَتِلْكَ الْبَرَاهِينُ . وَحَاصِلُ مَدَارِكِهِمْ فِي الْوُجُودِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَمَا  
 آلَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ الَّذِي فَرَعُوا عَلَيْهِ قَضَايَا أَنْظَارِهِمْ أَنَّهُمْ عَثَرُوا أَوَّلًا عَلَى الْجِسْمِ السُّفْلِيِّ  
 بِحُكْمِ الشُّهُودِ وَالْحِسِّ ثُمَّ تَرَقَّى إِذْرَاقُهُمْ قَلِيلاً فَشَعَرُوا بِوُجُودِ النَّفْسِ مِنْ قَبْلِ  
 الْحَرَكَةِ وَالْحِسِّ فِي الْحَيَوَانَاتِ ثُمَّ أَحْسَوْا مِنْ قُوَى النَّفْسِ بِسُلْطَانِ الْعَقْلِ . وَوَقَّفَ  
 إِذْرَاقَهُمْ فَقَضَوْا عَلَى الْجِسْمِ الْعَالِيِّ السَّمَاوِيِّ بِنُحُورٍ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَى أَمْرِ الذَّاتِ  
 الْإِنْسَانِيَّةِ . وَوَجَبَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ لِلْفَلَكَ نَفْسٌ وَعَقْلٌ كَمَا لِلْإِنْسَانِ ثُمَّ أَنَّهُوَ ذَلِكَ  
 نِهَائِيَّةٌ عَدَدِ الْآحَادِ وَهِيَ الْعَشْرُ . تِسْعٌ مُفْصَلَةٌ ذَوَاتُهَا جَمَلٌ وَوَاحِدٌ أَوَّلٌ مُفْرَدٌ وَهُوَ  
 الْعَاشِرُ . وَيَزْعُمُونَ أَنَّ السُّعَادَةَ فِي إِذْرَاقِ الْوُجُودِ عَلَى هَذَا النُّحُورِ مِنَ الْقَضَاءِ مَعَ  
 تَهْدِيبِ النَّفْسِ وَتَخْلُقَهَا بِالْفَضَائِلِ وَأَنَّ ذَلِكَ مُمَكِّنٌ لِلْإِنْسَانِ وَلَوْ لَمْ يَرُدْ شَرَعٌ  
 لِتَمْيِيزِهِ بَيْنَ الْفُضَيْلَةِ وَالرَّذِيلَةِ مِنَ الْأَفْعَالِ بِمُقْتَضَى عَقْلِهِ وَنَظَرِهِ وَمِثْلِهِ إِلَى الْمَحْمُودِ  
 مِنْهَا وَاجْتِنَابِهِ لِلْمَذْمُومِ بِفِطْرَتِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ لِلنَّفْسِ حَصَلَتْ لَهَا الْبَهْجَةُ  
 وَاللَّذَّةُ وَأَنَّ الْجَهْلَ بِذَلِكَ هُوَ الشَّقَاءُ السَّرْمَدِيُّ وَهَذَا عِنْدَهُمْ هُوَ مَعْنَى النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ  
 فِي الْآخِرَةِ إِلَى خَبِطِ لَهْمٍ فِي تَفَاصِيلِ ذَلِكَ مَعْرُوفٍ فِي كَلِمَاتِهِمْ . وَإِمَامٌ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ

الَّذِي حَصَلَ مَسَائِلُهَا وَدَوَّنَ عِلْمَهَا وَسَطَرَ حُجَجَهَا فِيمَا بَلَّغْنَا فِي هَذِهِ الْأَحْقَابِ هُوَ  
أَرِسْطُو الْمَقْدُونِيُّ مِنْ أَهْلِ مَقْدُونِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ مِنْ تَلَامِيذِ أَفْلَاطُونٍ وَهُوَ مُعَلِّمُ  
الإِسْكَانْدَرِ وَيُسَمُّونَهُ الْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ عَلَى الإِطْلَاقِ يَنْعُونَ مُعَلِّمَ صِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ إِذْ لَمْ  
تَكُنْ قَبْلَهُ مَهْدَبَةٌ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَتَّبَ قَانُونَهَا وَاسْتَوْفَى مَسَائِلَهَا وَأَحْسَنَ بَسْطَهَا وَلَقَدْ  
أَحْسَنَ فِي ذَلِكَ الْقَانُونِ مَا شَاءَ لَوْ تَكْفَّلَ لَهُ بِقَضِيهِمْ فِي الإِلَهِيَّاتِ ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِهِ  
فِي الإِسْلَامِ مَنْ أَخَذَ بِتِلْكَ الْمَذَاهِبِ وَاتَّبَعَ فِيهَا رَأْيَهُ حَذْوُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ إِلَّا فِي  
الْقَلِيلِ . وَذَلِكَ أَنَّ كُتُبَ أَوْلِيكَ الْمُتَقَدِّمِينَ لَمَّا تَرَجَمَهَا الخُلَفَاءُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ  
اللِّسَانِ الْيُونَانِيِّ إِلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ تَصَفَّحَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَخَذَ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ  
مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ مِنْ مُنْتَحَلِي الْعُلُومِ وَجَادَلُوا عَنْهَا وَاخْتَلَفُوا فِي مَسَائِلِ مِنْ تَفَارِيحِهَا  
وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ أَبُو نَضْرَ الْفَارَابِيُّ فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ لِعَهْدِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَأَبُو  
عَلِيٍّ بْنُ سِينَا فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ لِعَهْدِ نِظَامِ الْمَلِكِ مِنْ بَنِي بُيُوتِهِ بِأُصْبَهَانَ  
وَعَيْرُهُمَا . وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الرَّأْيَ الَّذِي ذَهَبُوا إِلَيْهِ بَاطِلٌ بِجَمِيعِ وُجُوهِهِ . فَأَمَّا  
إِسْتِدْرَاجُ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا إِلَى الْعَقْلِ الْأَوَّلِ وَاكْتِفَاؤُهُمْ بِهِ فِي التَّرْقِيِ إِلَى الْوَاجِبِ فَهُوَ  
قُصُورٌ عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ رُتْبِ خَلْقِ اللَّهِ فَالْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقًا مِنْ ذَلِكَ « وَيَخْلُقُ  
مَا لَا تَعْلَمُونَ » وَكَأَنَّهُمْ فِي اقْتِصَارِهِمْ عَلَى إِثْبَاتِ الْعَقْلِ فَقَطُّ وَالْعَقْلُ عَمَّا وَرَاءَهُ بِمِثَالِيَّةِ  
الطَّبِيعِيِّينَ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى إِثْبَاتِ الْأَجْسَامِ خَاصَّةً الْمُعْرِضِينَ عَنِ النُّقْلِ وَالْعَقْلِ  
الْمُعْتَقِدِينَ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ الْجِسْمِ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ شَيْءٌ . وَأَمَّا الْبَرَاهِينُ الَّتِي يَزْعُمُونَهَا  
عَلَى مُدْعِيَاتِهِمْ فِي الْمَوْجُودَاتِ وَيَعْرِضُونَهَا عَلَى مِغْيَارِ الْمَنْطِقِ وَقَانُونِهِ فِيهِ قَاصِرَةٌ  
وَعَيْرٌ وَافِيَةٌ بِالْعَرَضِ . أَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَوْجُودَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ الْعِلْمَ  
الطَّبِيعِيَّ فَوَجْهُ قُصُورِهِ أَنَّ الْمُطَابَقَةَ بَيْنَ تِلْكَ النَّتَائِجِ الذَّهْنِيَّةِ الَّتِي تُسْتَخْرَجُ  
بِالْحُدُودِ وَالْأَقْيَسَةِ كَمَا فِي زَعْمِهِمْ وَبَيْنَ مَا فِي الْخَارِجِ عَيْرٌ يَقِينِي لِأَنَّ تِلْكَ أَحْكَامَ  
ذَهْنِيَّةَ كُلِّيَّةَ عَامَّةً وَالْمَوْجُودَاتِ الْخَارِجِيَّةَ مُتَشَخَّصَةً بِمَوَادِّهَا . وَلَعَلَّ فِي الْمَوَادِّ  
مَا يَمْنَعُ مُطَابَقَةَ الذَّهْنِيِّ الْكُلِّيِّ لِلْخَارِجِيِّ الشَّخْصِيِّ اللَّهْمُ إِلَّا مَا لَا يَشْهَدُ لَهُ الْحِسُّ

مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلُهُ شُهُودُهُ لَا تِلْكَ الْبَرَاهِينُ فَأَيْنَ الْيَقِينُ الَّذِي يَجِدُونَهُ فِيهَا ؟ وَرُبَّمَا  
 يَكُونُ تَصَرُّفُ الذَّهْنِ أَيْضاً فِي الْمَعْقُولَاتِ الْأُولِ الْمُطَابَقَةَ لِلشُّخْصِيَّاتِ بِالصُّوَرِ  
 الْخَيَالِيَّةِ لَا فِي الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَانِي الَّتِي تَجْرِيدُهَا فِي الرُّتْبَةِ الثَّانِيَةِ فَيَكُونُ الْحُكْمُ  
 حِينَئِذٍ يَقِينِيًّا بِمَثَابَةِ الْمَحْسُوسَاتِ إِذِ الْمَعْقُولَاتِ الْأُولِ أَقْرَبُ إِلَى مُطَابَقَةِ الْخَارِجِ  
 لِكَمَالِ الْإِنْطِبَاقِ فِيهَا فَنَسَلَّمْ لَهُمْ حِينَئِذٍ دَعَاوِيَهُمْ فِي ذَلِكَ . إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا  
 الْإِعْرَاضُ عَنِ النَّظَرِ فِيهَا إِذْ هُوَ مِنْ تَرْكِ الْمُسْلِمِ لِمَا لَا يَعْنيهِ فَإِنَّ مَسَائِلَ الطَّبِيعِيَّاتِ  
 لَا تَهْمُنَا فِي دِينِنَا وَلَا مَعَاشِنَا فَوَجِبَ عَلَيْنَا تَرْكُهَا . وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَوْجُودَاتِ  
 الَّتِي وَرَاءَ الْحِسِّ وَهِيَ الرُّوحَانِيَّاتُ وَيُسَمَّوْنَ الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ وَعَلِمَ مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ  
 فَإِنَّ ذَوَاتَهَا مَجْهُولَةٌ رَأْسًا وَلَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَيْهَا وَلَا الْبُرْهَانُ عَلَيْهَا لِأَنَّ تَجْرِيدَ  
 الْمَعْقُولَاتِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْخَارِجِيَّةِ الشُّخْصِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ مُمَكِّنٌ فِيمَا هُوَ مُدْرِكٌ لَنَا .  
 وَنَحْنُ لَا نُدْرِكُ الذَّوَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ حَتَّى نُجْرِدَ مِنْهَا مَا هِيَ بِأُخْرَى بِحِجَابِ الْحِسِّ  
 بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا فَلَا يَتَأْتِي لَنَا بُرْهَانٌ عَلَيْهَا وَلَا مُدْرِكٌ لَنَا فِي إِثْبَاتِ وَجُودِهَا عَلَى  
 الْجُمْلَةِ إِلَّا مَا نَجِدُهُ بَيْنَ جَنِينِنَا مِنْ أَمْرِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَحْوَالِ مَدَارِكِهَا  
 وَخُصُوصاً فِي الرُّؤْيَا الَّتِي هِيَ وَجْدَانِيَّةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ حَقِيقَتِهَا  
 وَصِفَاتِهَا فَأَمْرٌ غَامِضٌ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَيْهِ . وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ مُحَقِّقُوهُمْ حَيْثُ  
 ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ مَا لَا مَادَّةَ لَهُ لَا يُمْكِنُ الْبُرْهَانُ عَلَيْهِ لِأَنَّ مَقْدَمَاتِ الْبُرْهَانِ مِنْ شَرْطِهَا  
 أَنْ تَكُونَ ذَاتِيَّةً . وَقَالَ كَبِيرُهُمْ أَفْلَاطُونُ : إِنَّ الْإِلَهِيَّاتِ لَا يُوَصَّلُ فِيهَا إِلَى أَيِّنِينَ <sup>(١)</sup>  
 وَإِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا بِالْأَخْلَقِ <sup>(٢)</sup> وَالْأُولَى يَعْني الظَّنَّ : وَإِذَا كُنَّا إِنَّمَا نَحْصُلُ بَعْدَ التَّعَبِ  
 وَالنَّصَبِ عَلَى الظَّنِّ فَقَطْ فَيَكْفِينَا الظَّنُّ الَّذِي كَانَ أَوَّلًا فَأَيُّ فَائِدَةٍ لِيَهْدِيهِ الْعُلُومُ  
 وَالِاشْتِعَالِ بِهَا وَنَحْنُ إِنَّمَا عِنَايَتُنَا بِتَحْصِيلِ الْيَقِينِ فِيمَا وَرَاءَ الْحِسِّ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ  
 وَهَذِهِ هِيَ غَايَةُ الْأَفْكَارِ الْإِنْسَانِيَّةِ عِنْدَهُمْ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّعَادَةَ فِي إِذْرَاكِ

(١) وفي نسخة أخرى : يقين .

(٢) وفي نسخة أخرى : بالأحق .

الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ بِتِلْكَ الْبَرَاهِينِ فَقَوْلُ مُزَيَّفٍ مَرْدُودٌ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ  
 الْإِنْسَانَ مُرَكَّبٌ مِنْ جُزْءَيْنِ أَحَدُهُمَا جِسْمَانِيٌّ وَالْآخَرُ رُوحَانِيٌّ مُمْتَرَجٌ بِهِ وَلِكُلِّ  
 وَاحِدٍ مِنَ الْجُزْءَيْنِ مَدَارِكٌ مُخْتَصَّةٌ بِهِ وَالْمَدْرِكُ فِيهِمَا وَاحِدٌ وَهُوَ الْجُزْءُ الرَّوْحَانِيُّ  
 يُدْرِكُ تَارَةً مَدَارِكَ رُوحَانِيَّةٍ وَتَارَةً مَدَارِكَ جِسْمَانِيَّةٍ إِلَّا أَنَّ الْمَدَارِكَ الرَّوْحَانِيَّةَ  
 يُدْرِكُهَا بِذَاتِهِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَالْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةَ بِوَاسِطَةِ آلَاتِ الْجِسْمِ مِنَ الدِّمَاغِ  
 وَالْحَوَاسِّ . وَكُلُّ مَدْرِكٍ فَلَهُ ائْتِهَاجٌ بِمَا يُدْرِكُهُ . وَاعْتَبِرْهُ بِحَالِ الصَّبِيِّ فِي أَوَّلِ  
 مَدَارِكِهِ الْجِسْمَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ بِوَاسِطَةِ كَيْفٍ يَنْتَهِجُ بِمَا يُبْصِرُهُ مِنَ الضَّوئِ وَبِمَا  
 يَسْمَعُهُ مِنَ الْأَصْوَاتِ فَلَا شَكَّ أَنَّ الْاِئْتِهَاجَ بِالْإِدْرَاكِ الَّذِي لِلنَّفْسِ مِنْ ذَاتِهَا بِغَيْرِ  
 وَاسِطَةٍ يَكُونُ أَشَدَّ وَالذُّدَّ . فَالْنَّفْسُ الرَّوْحَانِيَّةُ إِذَا شَعَرَتْ بِإِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا  
 بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ حَصَلَ لَهَا ائْتِهَاجٌ وَلذَلِكَ لَا يُعْبَرُ عَنْهُمَا وَهَذَا الْإِدْرَاكُ لَا يَحْصُلُ بِنَظَرٍ  
 وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا يَحْصُلُ بِكَشْفِ حِجَابِ الْحِسِّ وَنَسْيَانِ الْمَدَارِكِ الْجِسْمَانِيَّةِ  
 بِالْجُمْلَةِ . وَالْمَتَّصِفَةُ كَثِيرًا مَا يُغْنَوْنَ بِحُصُولِ هَذَا الْإِدْرَاكِ لِلنَّفْسِ بِحُصُولِ هَذِهِ  
 الْبَهْجَةِ فَيَحَاوِلُونَ بِالرِّيَاضَةِ إِمَاتَةَ الْقُوَى الْجِسْمَانِيَّةِ وَمَدَارِكِهَا حَتَّى الْفِكْرَ مِنَ  
 الدِّمَاغِ وَيَحْصُلُ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا عِنْدَ زَوَالِ الشَّوَابِغِ وَالْمَوَانِعِ  
 الْجِسْمَانِيَّةِ يَحْصُلُ لَهُمْ بَهْجَةٌ وَلذَلِكَ لَا يُعْبَرُ عَنْهُمَا . وَهَذَا الَّذِي زَعَمُوهُ بِتَقْدِيرِ  
 صِحَّتِهِ مُسَلَّمٌ لَهُمْ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ وَافٍ بِمَقْصُودِهِمْ . فَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْبَرَاهِينَ وَالْأَدْلَةَ  
 الْعَقْلِيَّةَ مَحْصَلَةٌ لِهَذَا النُّوعِ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَالْاِئْتِهَاجِ عَنْهُ فَبَاطِلٌ كَمَا رَأَيْتَهُ إِذِ الْبَرَاهِينَ  
 وَالْأَدْلَةُ مِنَ جُمْلَةِ الْمَدَارِكِ الْجِسْمَانِيَّةِ لِأَنَّهَا بِالْقُوَى الدِّمَاغِيَّةِ مِنَ الْخِيَالِ وَالْفِكْرِ  
 وَالذِّكْرِ . وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ نُغْنَى بِهِ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْإِدْرَاكِ إِمَاتَةُ هَذِهِ  
 الْقُوَى الدِّمَاغِيَّةِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا مُنَازَعَةٌ لَهُ قَادِحَةٌ فِيهِ وَتَجِدُ الْمَاهِرَ مِنْهُمْ عَاكِفًا عَلَى كِتَابِ  
 الشِّفَاءِ وَالْإِشَارَاتِ وَالنَّجَاءِ وَتَلَاخِيصِ ابْنِ رُشْدٍ لِلْقَصِّ مِنْ تَأْلِيْفِ أَرِسْطُو وَغَيْرِهِ  
 يُبْعَثُ أَوْاقِهَا وَيَتَوَقَّعُ مِنْ بَرَاهِينِهَا وَيَلْتَمِسُ هَذَا النِّسْطَ مِنَ السُّعَادَةِ فِيهَا وَلَا يَعْلَمُ  
 أَنَّهُ يَسْتَكْشِرُ بِذَلِكَ مِنَ الْمَوَانِعِ عَنْهَا . وَمُسْتَنْدَهُمْ فِي ذَلِكَ مَا يَنْقُلُونَهُ عَنْ أَرِسْطُو

وَالْفَارَابِيُّ وَابْنُ سِينَا أَنْ مَنْ حَصَلَ لَهُ إِدْرَاكُ الْعَقْلِ الْفَعَالِ وَاتَّصَلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ فَقَدْ حَصَلَ حَظُّهُ مِنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ . وَالْعَقْلُ الْفَعَالُ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ أَوَّلِ رُتْبَةٍ يَنْكَشِفُ عَنْهَا الْحِسُّ مِنْ رُتَبِ الرُّوحَانِيَّاتِ وَيَحْمِلُونَ الْإِتِّصَالَ بِالْعَقْلِ الْفَعَالِ عَلَى الْإِدْرَاكِ الْعِلْمِيِّ وَقَدْ رَأَيْتُ فِسَادَهُ وَإِنَّمَا يَغْنِيهِ أَرْسَطُو وَأَصْحَابُهُ بِذَلِكَ الْإِتِّصَالِ وَالْإِدْرَاكِ إِدْرَاكِ النَّفْسِ الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وَيَغْيِرُ وَاسِطَةً وَهُوَ لَا يَحْضُرُ إِلَّا بِكَشْفِ حِجَابِ الْحِسِّ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْبَهْجَةَ النَّاشِئَةَ عَنْ هَذَا الْإِدْرَاكِ هِيَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمُوَعُودِ بِهَا فَبَاطِلٌ أَيْضًا لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَبَيَّنَ لَنَا بِمَا قَرَّرُوهُ أَنَّ وَرَاءَ الْحِسِّ مُدْرِكًا آخَرَ لِلنَّفْسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَأَنَّهَا تَبْتَهِّجُ بِإِدْرَاكِهَا ذَلِكَ ائْتِهَاجًا شَدِيدًا وَذَلِكَ لَا يَعْنِي لَنَا أَنَّهُ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْآخَرُويَّةِ وَلَا بُدَّ بَلْ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَلَاذِ الَّتِي لِتِلْكَ السَّعَادَةِ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فَقَوْلٌ بَاطِلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا كُنَّا قَدْ مَنَّا فِي أَصْلِ التَّوْحِيدِ مِنَ الْأَوْهَامِ وَالْأَغْلَاطِ فِي أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ مُنْحَصِرٌ فِي مَدَارِكِهِ وَبَيْنَا فِسَادَ ذَلِكَ وَإِنَّ الْوُجُودَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ أَوْ يُسْتَوْفَى إِدْرَاكُهُ بِجُمْلَتِهِ رُوحَانِيًّا أَوْ جِسْمَانِيًّا . وَالَّذِي يَحْضُرُ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ أَنَّ الْجُزْءَ الرُّوحَانِيَّ إِذَا فَارَقَ الْقُوَى الْجِسْمَانِيَّةَ أَذْرَكَ إِدْرَاكًا ذَاتِيًّا لَهُ مُخْتَصًّا بِصِنْفٍ مِنَ الْمَدَارِكِ وَهِيَ الْمَوْجُودَاتُ الَّتِي أَحَاطَ بِهَا عَلْمُنَا وَلَيْسَ بِعَامِّ الْإِدْرَاكِ فِي الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا إِذْ لَمْ تَنْحَصِرْ وَأَنَّهُ يَنْتَهِجُ بِذَلِكَ النُّحُوِّ مِنَ الْإِدْرَاكِ ائْتِهَاجًا شَدِيدًا كَمَا يَنْتَهِجُ الصَّبِيُّ بِمَدَارِكِهِ الْحِسِّيَّةِ فِي أَوَّلِ نُشُوءِهِ وَمَنْ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ بِإِدْرَاكِ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ أَوْ بِحُصُولِ السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدْنَا بِهَا الشَّارِعُ إِذْ لَمْ نَعْمَلْ لَهَا ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوَعَّدُونَ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَقْبَلٌ بِتَهْدِيْبِ نَفْسِهِ وَإِضْلَاحِهَا بِمَلَابَسَةِ الْمُخْمُودِ مِنَ الْخُلُقِ وَمُجَانِبَةِ الْمَذْمُومِ فَأَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ ائْتِهَاجَ النَّفْسِ بِإِدْرَاكِهَا الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا هُوَ عَيْنُ السَّعَادَةِ الْمُوَعُودِ بِهَا لِأَنَّ الرُّذَائِلَ غَائِقَةٌ لِلنَّفْسِ عَنْ تَمَامِ إِدْرَاكِهَا ذَلِكَ بِمَا يَحْضُرُ لَهَا مِنَ الْمَلَكَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ وَالْوَانِيَا . وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ أَثَرَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ وَمَنْ وَرَاءَ الْإِدْرَاكَاتِ



الجسمانية والروحانية فهذا التهذيب الذي توصلوا إلى معرفته إنما نفعه في البهجة  
الناشئة عن الإدراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين . وأما ما وراء  
ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الأعمال  
والأخلاق فأمر لا يحيط به مدارك المدركين . وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي  
ابن سينا فقال في كتاب المبدأ والمعاد ما معناه : إن المعاد الروحاني وأحواله هو  
مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس لأنه على نسبة طبيعية محفوظة  
ووثيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة . وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا  
يمكن إدراكه بالبرهان لأنه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة الحقنة  
المحمدية فليُنظر فيها وليُرجع في أحواله إليها . فهذا العلم كما رأيته غير واف  
بمقاصدهم التي حوّموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها . وليس له  
فيما علمنا إلا ثمرة واحدة وهي شخذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل  
ملكة الجودة والصواب في البراهين . وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه  
الإحكام والإتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم  
الطبيعية وهم كثيراً ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم  
وما بعدها فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشرطها على ملكة  
الإتقان والصواب في الحجج والاستدلالات لأنها وإن كانت غير وافية بمقصودهم  
فهي أصح ما علمناه من قوانين الأنظار . هذه ثمرة هذه الصناعة مع الإطلاع على  
مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت . فليكن الناظر فيها متحرراً جنده  
مقاطبها وليكن نظره من ينظر فيها بعد الإمتلاء من الشرعيات والإطلاع على  
التفسير والفقه ولا يكن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من  
مقاطبها . والله الموفق للصواب وللحق والهادي إليه . وما كنا لنهتدي لولا أن  
هدانا الله .

## الفصل الثاني والثلاثون

في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجمعة فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية . فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصّر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن . وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آمايد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم . وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي وهو رأي فائل وقد كفونا مؤنة إبطاله . ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق . وأما بتليمس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لأن فعل النيران وأثرهما في العنصریات ظاهر لا يسع أحداً حجده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة وفواكه القناء<sup>(١)</sup> وسائر أفعاله . ثم قال : ولنا فيما بعدها من الكواكب طريقان الأولى التقليد لمن تقل ذلك عنه من أئمة الصناعة إلا أنه غير مقنع للنفس والثانية الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها إلى النير

(١) فواكه القناء : فواكه الأشجار المغروسة في الحفر .

الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك الكوكب  
عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص عنها فتعرف  
مضادته . ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال  
التثليث والتربيع وغيرهما ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضاً إلى  
النير الأعظم . وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر .  
والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات وتتخلق به  
النطف والبزُر فتصيرُ حالاً للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه  
المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال لأن كفايات البزرة  
والنطفة كفايات لما يتولد عنهما وينشأ منهما . قال : وهو مع ذلك ظني وليس  
من اليقين في شيء وليس هو أيضاً من القضاء الإلهي يعني القدر إنما هو من جملة  
الأسباب الطبيعية للكائن والقضاء الإلهي سابق على كل شيء . هذا محصل كلام  
بطليمس وأصحابه وهو منصوص في كتابه الأربع وغيره . ومنه يتبين ضعف  
مدرك هذه الصناعة وذلك أن العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل عن العلم بجملة  
أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما يتبين في موضعه . والقوى  
النجومية على ما قرروها إنما هي فاعلة فقط والجزء العنصري هو القابل ثم إن  
القوى النجومية ليست هي الفاعل بجمليتها بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في  
الجزء المادي مثل قوة التوليد للأب والنوع التي في النطفة وقوى الخاصة التي  
تميز بها صنف من النوع وغير ذلك . فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل  
العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن . ثم إنه يشترط  
مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين وحينئذ يحصل عنده الظن  
بوقوع الكائن . والحدس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من علل الكائن  
ولا من أصول الصناعة فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أذراجها عن الظن إلى  
الشك . هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سدايه ولم تغترضه آفة وهذا مغرور

لَمَا فِيهِ مِنْ مَعْرِفَةِ حِسَابَاتِ الْكَوَاكِبِ فِي سَيْرِهَا لِتَتَعَرَّفَ بِهِ أَوْضَاعُهَا وَلَمَّا أَنَّ  
اِخْتِصَاصَ كُلِّ كَوْكَبٍ بِقُوَّةٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ . وَمَذْرُوكُ بَطْلِيمُسُ فِي إِثْبَاتِ الْقُوَى  
لِلْكَوَاكِبِ الْخَمْسَةِ بِقِيَاسِهَا إِلَى الشَّمْسِ مُذْرَكٌ ضَعِيفٌ لِأَنَّ قُوَّةَ الشَّمْسِ غَالِبَةٌ لِجَمِيعِ  
الْقُوَى مِنَ الْكَوَاكِبِ وَمُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهَا فَقُلَّ أَنْ يُشْعَرَ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا أَوْ النُّقْصَانِ مِنْهَا  
عِنْدَ الْمُقَارَنَةِ كَمَا قَالَ وَهَذِهِ كُلُّهَا قَادِحَةٌ فِي تَعْرِيفِ الْكَائِنَاتِ الْوَاقِعَةِ فِي عَالَمِ  
الْعَنَاصِرِ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ . ثُمَّ إِنَّ تَأْثِيرَ الْكَوَاكِبِ فِيمَا تَحْتَهَا بَاطِلٌ إِذْ قَدْ تَبَيَّنَ فِي  
بَابِ التَّوْحِيدِ أَنَّ لَا فَاعِلَ إِلَّا اللَّهُ بِطَرِيقِ اسْتِدْلَالِيٍّ كَمَا رَأَيْتَهُ وَاجْتَحَجَّ لَهُ أَهْلُ عِلْمِ  
الْكَلَامِ بِمَا هُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْبَيَانِ مِنْ أَنَّ إِسْنَادَ الْأَسْبَابِ إِلَى الْمُسَبَّبَاتِ مَجْهُولُ الْكَيْفِيَّةِ  
وَالْعَقْلُ مِنْهُمْ عَلَى مَا يُفْضَى بِهِ فِيمَا يَظْهَرُ بِأَدَى الرَّأْيِ مِنَ التَّأْثِيرِ فَلَعَلَّ اسْتِنَادَهَا  
عَلَى غَيْرِ صُورَةِ التَّأْثِيرِ الْمُتَعَارَفِ . وَالْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ رَاطِبَةٌ بَيْنَهُمَا كَمَا رَبَطَتْ جَمِيعَ  
الْكَائِنَاتِ عَلَوًا وَسَفْلًا سِيمَا وَالشَّرْعُ يَرُدُّ الْحَوَادِثَ كُلُّهَا إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَيَبْرَأُ مِمَّا  
سِوَى ذَلِكَ . وَالنَّبُوءَاتُ أَيْضًا مُنْكَرَةٌ لِشَأْنِ النُّجُومِ وَتَأْثِيرَاتِهَا . وَاسْتِقْرَاءُ الشَّرْعِيَّاتِ  
شَاهِدٌ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يُخَسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ  
وَفِي قَوْلِهِ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي . فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطْرِنَا يَفْضِلُ اللَّهُ  
وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطْرِنَا بِنُوءِ كَذَا فَذَلِكَ  
كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ . فَقَدْ بَانَ لَكَ بَطْلَانُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ  
مِنْ طَرِيقِ الشَّرْعِ وَضَعْفُ مَدَارِكِهَا مَعَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ مَعَ مَا لَهَا مِنَ الْمَضَارِّ  
فِي الْعَمْرَانِ الْإِنْسَانِيِّ بِمَا تَبَعَتْ مِنْ عَقَائِدِ الْعَوَامِّ مِنَ الْفَسَادِ إِذَا اتَّفَقَ الصَّدَقُ مِنْ  
أَحْكَامِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ اتَّفَاقًا لَا يَرْجَعُ إِلَى تَعْلِيلٍ وَلَا تَحْقِيقٍ فَيَلْهَجُ بِذَلِكَ مَنْ  
لَا مَعْرِفَةَ لَهُ وَيَظُنُّ اِطْرَادَ الصَّدَقِ فِي سَائِرِ أَحْكَامِهَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ . فَيَقَعُ فِي رَدِّ  
الْأَشْيَاءِ إِلَى غَيْرِ خَالِقِهَا . ثُمَّ مَا يَنْشَأُ عَنْهَا كَثِيرًا فِي الدُّوَلِ مِنْ تَوَقُّعِ الْقَوَاطِعِ وَمَا  
يَنْبَعُ عَلَيْهِ ذَلِكَ التَّوَقُّعُ مِنْ تَطَاوُلِ الْأَعْدَاءِ وَالْمُتَرَبِّصِينَ بِالدُّوَلَةِ إِلَى الْفَتْكِ  
وَالثُّورَةِ . وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ ذَلِكَ كَثِيرًا فَيَنْبَغِي أَنْ تُحْظَرَ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ

الْعُمَرَانِ لِمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَضَارِّ فِي الدِّينِ وَالدُّوَلِ . وَلَا يَقْدَحُ فِي ذَلِكَ كَوْنُ  
 وَجُودِهَا طَبِيعِيًّا لِلْبَشَرِ بِمُقْتَضَى مَدَارِكِهِمْ وَعُلُومِهِمْ . فَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ طَبِيعَتَانِ  
 مَوْجُودَتَانِ فِي الْعَالَمِ لَا يُمَكِّنُ نَزْعُهُمَا وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ التَّكْلِيفُ بِأَسْبَابِ حُصُولِهِمَا  
 فَيَتَمَعَّنُ السُّعْمِيُّ فِي اِكْتِسَابِ الْخَيْرِ بِأَسْبَابِهِ وَدَفْعِ أَسْبَابِ الشَّرِّ وَالْمَضَارِّ . هَذَا هُوَ  
 الْوَاجِبُ عَلَى مَنْ عَرَفَ مَفَاسِدَ هَذَا الْعِلْمِ وَمَضَارَّهُ . وَلْيَعْلَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ  
 صَحِيحَةً فِي نَفْسِهَا فَلَا يُمَكِّنُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ تَحْصِيلَ عِلْمِهَا وَلَا مَلَكَتِهَا بَلْ إِنْ  
 نَظَرَ فِيهَا نَاطِرٌ وَظَنَّ الْإِحَاطَةَ بِهَا فَهُوَ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . فَإِنَّ  
 الشَّرِيعَةَ لَمَّا حَظَرَتْ النُّظَرَ فِيهَا فَقَدَ الْاجْتِمَاعُ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَانِ لِقِرَائَتِهَا وَالتَّحْلِيْقِ  
 لِتَعْلِيمِهَا وَصَارَ الْمَوْلَعُ بِهَا مِنَ النَّاسِ وَهُمْ الْأَقْلُ وَأَقْلُ مِنَ الْأَقْلِ إِنَّمَا يُطَالَعُ كُتُبُهَا  
 وَمَقَالَاتِهَا فِي كِسْرِ بَيْتِهِ مُتَسْتَرًا عَنِ النَّاسِ وَتَحْتَ رِبْقَةِ الْجُمْهُورِ مَعَ تَشَعُّبِ الصَّنَاعَةِ  
 وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا وَإِعْتِيَاصِهَا عَلَى الْفَهْمِ فَكَيْفَ يَحْضُلُ مِنْهَا عَلَى طَائِلٍ ؟ وَنَحْنُ نَجِدُ  
 الْفِقْهَ الَّذِي عَمَّ نَفْعُهُ دِينًا وَدُنْيَا وَسَهَلَتْ مَآخِذُهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَعَكَفَ الْجُمْهُورُ  
 عَلَى قِرَائَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ ثُمَّ بَعْدَ التَّحْقِيقِ وَالتَّجْمِيعِ وَطُولِ الْمُدَارَسَةِ وَكَثْرَةِ الْمَجَالِسِ  
 وَتَعَدُّدِهَا إِنَّمَا يَحْذُقُ فِيهِ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي الْأَعْصَارِ وَالْأَجْيَالِ . فَكَيْفَ يَعْلَمُ  
 مَهْجُورٌ لِلشَّرِيعَةِ مَضْرُوبٌ دُونَهُ سُدُّ الْخَطَرِ وَالتَّخْرِيمُ مَكْتُومٌ عَنِ الْجُمْهُورِ صَغْبُ  
 الْمَآخِذِ مُحْتَاجٌ بَعْدَ الْمُمَارَسَةِ وَالتَّحْصِيلِ لِأَصُولِهِ وَفُرُوعِهِ إِلَى مَزِيدٍ حَدَسٍ وَتَخْمِينِ  
 يَكْتَنِفَانِ بِهِ مِنَ النَّاطِرِ فَأَيْنَ التَّحْصِيلُ وَالْحِذْقُ فِيهِ مَعَ هَذِهِ كُلِّهَا . وَمُدْعَى ذَلِكَ  
 مِنَ النَّاسِ مَرْدُودٌ عَلَى عَقْبِهِ وَلَا شَاهِدَ لَهُ يَقُومُ بِذَلِكَ لِغَرَايَةِ الْفَنِّ بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَّةِ  
 وَقَلَّةِ حَمَلَتِهِ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ لَكَ صِحَّةُ مَا دَهَبْنَا إِلَيْهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْغَيْبِ فَلَا  
 يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . وَمِمَّا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَعْنَى لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ  
 عِنْدَمَا غَلَبَ الْعَرَبُ عَسَاكِرَ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَحَاصِرُوهُ بِالْقَيْرَوَانِ وَكَثُرَ  
 إِزْجَافُ الْفَرِيقَيْنِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَعْدَاءِ وَقَالَ فِي ذَلِكَ أَبُو الْقَاسِمِ الرُّوحِيُّ مِنْ شُعْرَاءِ أَهْلِ  
 تُونِسَ :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ حِينٍ  
أَصْبَحُ فِي تُونِسٍ وَأَمْسِي  
الْخَوْفُ وَالْجُوعُ وَالْمَنَايَا  
وَالنَّاسُ فِي مِرْيَةٍ وَحَرْبٍ  
فَأَحْمَدِي يَرَى عَلِيًّا  
وَأَخَّرَ قَالَ سَوْفَ يَأْتِي  
وَاللَّهُ مِنْ فَوْقِ ذَا وَهَذَا  
يَا رَاصِدَ الْخُنُسِ الْجَوَارِي  
مَطَلْتُمُونَا وَقَدْ زَعَمْتُمْ  
مَرَّ خَمِيسٍ عَلَى خَمِيسٍ  
وَنَصَفَ شَهْرٍ وَعَشْرُ ثَانٍ  
وَلَا نَرَى غَيْرَ زُورٍ قَوْلٍ  
إِنَّا إِلَى اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا  
رَضِيَتْ بِاللَّهِ لِي إِلَهًا  
مَا هَذِهِ الْأَنْجُمُ السُّوَارِي  
يَقْضَى عَلَيْهَا وَلَيْسَ تَقْضِي  
ضَلَّتْ عَقُولُ تَرَى قَدِيمًا  
وَحَكَمَتْ فِي الْوُجُودِ طَبِيعًا  
لَمْ تَرَ حُلُومًا إِزَاءَ مُرٍّ  
اللَّهُ رَبِّي وَلَسْتُ أَذْرِي  
وَلَا الْهَيُولَى الَّتِي تُنَادِي  
وَلَا وُجُودَ وَلَا انْعِدَامَ  
وَالْكَسْبُ لَمْ أَذْرِ فِيهِ إِلَّا

قَدْ ذَهَبَ الْعَيْشُ وَالنَّهَاءُ  
وَالصُّبْحُ لِلَّهِ وَالْمَسَاءُ  
يُخَدِّثُهَا الْهَرَجُ وَالْوَبَاءُ  
وَمَا عَسَى يَنْفَعُ الْمِرَاءُ  
حَلَّ بِهِ الْهَلْكَ وَالتَّوَاءُ  
بِهِ إِلَيْكُمْ صَبًا رَخَاءُ  
يَقْضِي لِعَبْدِيهِ مَا يَشَاءُ  
مَا فَعَلْتُ هَذِهِ السَّمَاءُ  
أَنْتُمْ الْيَوْمَ أُمَّلِيَاءُ  
وَجَاءَ سَبْتُ وَأَرْبَعَاءُ  
وَتَالِثَ ضَمُّهُ الْقَضَاءُ  
أَذَاكَ جَهْلٌ أَمْ أزدْرَاءُ  
أَنْ لَيْسَ يُسْتَدْفَعُ الْقَضَاءُ  
حَسْبُكُمْ الْبَدْرُ أَوْ ذُكَاءُ  
إِلَّا عَبَادِيدُ أَوْ إِمَاءُ  
وَمَا لَهَا فِي الْوَرَى اقْتِضَاءُ  
مَا شَأْنُهُ الْجُرْمُ وَالْفَنَاءُ  
يُخَدِّثُهُ الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ  
تَغْدُوهُمْ تَرْبَةً وَمَاءُ  
مَا الْجَوْهَرُ الْفَرْدُ وَالْخَلَاءُ  
مَا لِي عَنْ صُورَةِ عَرَاءُ  
وَلَا ثُبُوتَ وَلَا انْتِفَاءُ  
مَا جَلَبَ الْبَيْعُ وَالشَّرَاءُ

وَأِنَّمَا مَذْهَبِي وَدِينِي	مَا كَانَ لِلنَّاسِ أَوْلِيَاءَ
إِذْ لَا فُضُولَ وَلَا أَصُولَ	وَلَا جِدَالَ وَلَا رِيَاءَ
مَا تَبَعَ الصُّدْرَ وَاقْتَفَيْنَا	يَا حَبْذَا كَانَ الْإِقْتِفَاءُ
كَانُوا كَمَا يَعْلَمُونَ مِنْهُمْ	وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْهَذَا
يَا أَشْعَرِي الزَّمَانِ إِنِّي	أَشْعَرِي الصِّيفِ وَالشِّتَاءِ
لَمْ أَجْزْ بِالشَّرِّ غَيْرَ شَرٍّ	وَالْخَيْرِ عَنِ مِثْلِهِ جَزَاءُ
وَإِنِّي إِنْ أَكُنْ مُطِيعاً	فَلَسْتُ أَغْصَى وَلي رَجَاءُ
وَإِنِّي تَحْتَ حُكْمِ بَارٍ	أَطَاعَهُ الْعَرْشُ وَالشَّرَاءُ
لَيْسَ انْتِصَارَ بِكُمْ وَلَكِنْ	أَتَاخَهُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ
لَوْ حَدَّثَ الْأَشْعَرِي عَمَّنْ	لَهُ إِلَى رَأْيِهِ انْتِمَاءُ
لَقَالَ أَخْبِرْهُمْ بِأَنِّي	مِمَّا يَقُولُونَهُ بَرَاءُ

### الفصل الثالث والثلاثون

في انكار ثمره الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن  
انتحالها

إِعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَاجِزِينَ عَنِ مَعَاشِهِمْ تَحْمِلُهُمُ الْمَطَامِعُ عَلَى انْتِحَالِ هَذِهِ  
الصَّنَائِعِ وَيَرَوْنَ أَنَّهَا أَحَدُ مَذَاهِبِ الْمَعَاشِ وَوَجُوهِهِ وَأَنَّ اقْتِنَاءَ الْمَالِ مِنْهَا أَيْسَرُ  
وَأَسْهَلُ عَلَى مُبْتَغِيهِ فَيَرْتَكِبُونَ فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْمَشَاقِّ وَمَعَانَاةِ الصَّعَابِ وَعَسْفِ  
الْحُكْمِ وَخَسَارَةِ الْأَمْوَالِ فِي التَّنْفِقَاتِ زِيَادَةً عَلَى النَّيْلِ مِنْ غَرَضِهِ وَالْعَطْبِ آخِرًا إِذَا  
ظَهَرَ عَلَى حَيِيَّةٍ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . وَإِنَّمَا أَطْمَعَهُمْ فِي ذَلِكَ رُؤْيَةُ أَنَّ  
الْمَعَادِنَ تَسْتَحِيلُ وَيَنْقَلِبُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضِ اللَّمَادَةِ الْمُشْتَرَكَةِ فَيُحَاوِلُونَ بِالْعِلَاجِ  
صَيْرُورَةَ الْفِضَّةِ ذَهَبًا وَالنَّحَاسِ وَالْقَصْدِيرِ فِضَّةً وَيَحْسِبُونَ أَنَّهَا مِنْ مُمْكِنَاتِ عَالَمٍ

الطبيعة ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته  
وفي المادة الموضوعية عندهم للعلاج المسماة عندهم بالحجر المكرم هل هي العذرة  
أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك . وجملة التدبير عندهم  
بعد تعيين المادة أن تمهي بالفهر على حجر صلد أملس وتسقى أثناء إمهايتها بالماء  
وبعد أن يضاف إليها من العقاقير والأدوية ما يناسب القصد منها ويؤثر في  
انقلابها إلى المعدن المطلوب . ثم تحفف بالشمس من بعد السقي أو تطبخ بالنار  
أو تصعد أو تكلس لاستخراج ماؤها أو ترابها فإذا رضي بذلك كله من علاجها وتم  
تدبيره على ما اقتضته أصول صنعيته حصل من ذلك كله تراب أو مائع يسمونه  
الإكسير ويزعمون أنه إذا ألقى على الفضة المحماة بالنار عادت ذهباً أو النحاس  
المحمى بالنار عاد فضة على ما قصد به في عمله . ويزعم المحققون منهم أن ذلك  
الإكسير مادة مركبة من العناصر الأربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص  
والتدبير مزاج ذو قوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه إليها وتقلبه إلى صورتها  
ومزاجها وتبث فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى كالخميرة للخبز تقلب  
العجين إلى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه في  
المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء . وكذا إكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه  
من المعادن يصرفه إليهما ويقلبه إلى صورتها . هذا محصل زعمهم على الجملة  
فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يبتغون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون أحكامه  
وقواعده من كتب لأئمة الصناعة من قبلهم يتداولونها بينهم ويتناظرون في فهم  
لغورها وكشف أسرارها إذ هي في الأكثر تشبه المعنى . كتأليف جابر بن حيان  
في رسائله السبعين ومسلمة المجرطبي في كتابه رتبة الحكيم والطغرائي  
والمغيربي في قصائده العريقة في إجادة النظم وأمثالها ولا يخلون من بعد هذا كله  
بطائل منها . ففاوضت يوماً شيخنا أبا البركات التليقي<sup>(١)</sup> كبير مشيخة

(١) وفي نسخة أخرى : التليقي .



الأندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التأليف فيها فتصفحة طويلاً ثم رده إلي  
وقال لي وأنا الضامن له أن لا يعود إلى بيته إلا بالخبيثة . ثم منهم من يقتصر في  
ذلك على الدلسة فقط . إما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو  
خلطهما على نسبة جزء أو جزءين أو ثلاثة أو الخفية كإلقاء الشبه بين المعادن  
بالصناعة مثل تبييض النحاس وتليسه بالزوق المصعد فيجاء جنماً مفدياً  
شبيهاً بالفضة ويخفى إلا على النقاد المهرة فيقدر أصحاب هذه الدلس مع  
دلتهم<sup>(١)</sup> هذه سكة يسربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان تمويهاً على  
الجمهور بالخلاص . وهؤلاء أحسن الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة  
أموال الناس فإن صاحب هذه الدلسة إنما هو يدفع نحاساً في الفضة وفضة في الذهب  
ليستخلصها لنفسه فهو سارق أو شر من السارق . ومُعظم هذا الصنف لدينا  
بالمغرب من طلبة البربر المنتبذين بأطراف البقاع ومساكين الأغمار يأوون إلى  
مساجد البادية ويموهون على الأغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة  
والنفوس مولعة بحبهما والاشتهلاك في طلبهما فيحصلون من ذلك على معاش . ثم  
يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرغبة إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرون  
إلى موضع آخر ويستجدون حالاً أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا بأطماعهم فيما  
لديهم . ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لأنهم  
بلغوا الغاية في الجهل والرذاعة والاختراف بالسرقة ولا حاسم لعلتهم إلا اشتداد  
الحكام عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم لأن  
فيه إفساداً للسكة التي تعم بها البلوى وهي متمول الناس كافة . والسلطان مكلف  
بإصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها . وأما من انتحل هذه الصناعة  
ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن إفساد سكة المسلمين  
وتفودهم وإنما يطلب إحالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس والقصدير إلى

(١) الدلس : ( بفتح الدال وسكون اللام ) الخديعة والدلسة بضم الدال الظلمة ( لسان العرب ) .

الْفِضَّةُ بِذَلِكَ النَّحْوِ مِنَ الْعِلَاجِ وَبِالْإِكْسِيرِ الْحَاصِلِ عِنْدَهُ فَلَمَّا مَعَ هَؤُلَاءِ مَتَكَلَّمْتُ  
 وَبَحْتُ فِي مَدَارِكِهِمْ لِذَلِكَ . مَعَ أَنَا لَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ تَمَّ لَهُ هَذَا الْغَرَضُ  
 أَوْ حَصَلَ مِنْهُ عَلَى بُغْيَةٍ إِنَّمَا تَذَهَبُ أَعْمَارُهُمْ فِي التَّدْبِيرِ وَالْفَهْرِ (١) وَالصَّلَاةِ  
 وَالتَّضَعِيدِ وَالتَّكْلِيسِ وَاعْتِيَامِ الْأَخْطَارِ بِجَمْعِ الْعَقَائِرِ وَالبَحْثِ عَنْهَا . وَتَتَنَاقَلُونَ فِي  
 ذَلِكَ حِكَايَاتٍ وَقَعَتْ لغيرِهِمْ مِمَّنْ تَمَّ لَهُ الْغَرَضُ مِنْهَا أَوْ وَقَفَ عَلَى الْوُصُولِ يَقْنَعُونَ  
 بِاسْتِمَاعِهَا وَالْمُفَاوَضَاتِ فِيهَا وَلَا يَسْتَرِيبُونَ فِي تَصْدِيقِهَا شَأْنَ الْكَلِيفِينَ الْمُغْرَمِينَ  
 بِوَسَاوِسِ الْأَخْبَارِ فِيمَا يَكْفُونَ بِهِ فَإِذَا سُئِلُوا عَنْ تَحْقِيقِ ذَلِكَ بِالْمَعَايِنَةِ أَنْكَرُوهُ  
 وَقَالُوا إِنَّمَا سَمِعْنَا وَلَمْ نَرَ . هَكَذَا شَأْنُهُمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَجِيلٍ وَاعْلَمْ أَنَّ انْتِحَالَ هَذِهِ  
 الصَّنْعَةِ قَدِيمٌ فِي الْعَالَمِ وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهَا مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالمُتَأَخِّرِينَ فَلَنَنْقُلُ  
 مَذَاهِبَهُمْ فِي ذَلِكَ ثُمَّ نَتْلُوهُ بِمَا يَظْهَرُ فِيهَا مِنَ التَّحْقِيقِ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ  
 فَنَقُولُ إِنَّ مَبْنَى الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ عَلَى حَالِ الْمَعَادِنِ السَّبْعَةِ  
 الْمُتَطَرِّقَةِ وَهِيَ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالرُّضَاصُ وَالْقَصْدِيرُ وَالنَّحَاسُ وَالْحَدِيدُ  
 وَالخَارِصِينَ هَلْ هِيَ مُخْتَلِفَاتٌ بِالْفُضُولِ وَكُلُّهَا أَنْوَاعٌ قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهَا أَوْ إِنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ  
 بِخَوَاصِّ مِنَ الْكَيْفِيَّاتِ وَهِيَ كُلُّهَا أَصْنَافٌ لِنَوْعٍ وَاحِدٍ ؟ فَالَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو النَّضْرِ  
 الْفَارَابِيُّ وَتَابَعَهُ عَلَيْهِ حُكَمَاءُ الْأَنْدَلُسِ أَنَّهَا نَوْعٌ وَاحِدٌ وَأَنَّ اخْتِلَافَهَا إِنَّمَا هُوَ  
 بِالْكَيْفِيَّاتِ مِنَ الرُّطُوبِيَّةِ وَالْيَبُوسَةِ وَاللِّينِ وَالصَّلَاةِ وَالْأَلْوَانِ مِنَ الصُّفْرَةِ وَالْبَيَاضِ  
 وَالسَّوَادِ وَهِيَ كُلُّهَا أَصْنَافٌ لِذَلِكَ النَّوْعِ الْوَاحِدِ وَالَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ سِينَا وَتَابَعَهُ  
 عَلَيْهِ حُكَمَاءُ الْمَشْرِقِ أَنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ بِالْفُضُولِ وَأَنَّهَا أَنْوَاعٌ مُتَبَايِنَةٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا قَائِمٌ  
 بِنَفْسِهِ مُتَحَقِّقٌ بِحَقِيقَتِهِ لَهُ فَضْلٌ وَجِنْسٌ شَأْنَ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ . وَبَنَى أَبُو نَضْرٍ  
 الْفَارَابِيُّ عَلَى مَذْهَبِهِ فِي اتِّفَاقِهَا بِالنَّوْعِ إِمَّاكَانَ انْتِقَالِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ لِإِمَّاكَانِ  
 تَبَدُّلِ الْأَغْرَاضِ حِينَئِذٍ وَعِلَاجِهَا بِالصَّنْعَةِ . فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ كَانَتْ صِنَاعَةُ الْكِيمِيَاءِ

(١) الفهر: الحجر قدر ما يدق به الجوز ونحوه . وقيل هو حجر يملأ الكف ( لسان العرب ) وهما تعني

عِنْدَهُ مُمَكِّنَةٌ سَهْلَةٌ الْمَأْخِذِ . وَبَنَى أَبُو عَلِيٍّ بِنَ سِينَا عَلَى مَذْهَبِهِ فِي اخْتِلَافِهَا  
بِالنُّوعِ إِنْكَارَ هَذِهِ الصُّنْعَةِ وَاسْتِحَالَةَ وُجُودِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْفِضْلَ لَا سَبِيلَ بِالصَّنَاعَةِ  
إِلَيْهِ وَإِنَّمَا يَخْلُقُهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ وَمُقَدِّرُهَا وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَالْفُضُولُ مَجْهُولَةٌ  
الْحَقَائِقِ رَأْسًا بِالتَّصَوُّرِ فَكَيْفَ يُحَاوَلُ انْقِلَابُهَا بِالصُّنْعَةِ . وَعَلَطَهُ الطُّفْرَائِيُّ مِنْ  
أَكْبَرِ أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي هَذَا الْقَوْلِ . وَرَدَّ عَلَيْهِ بِأَنَّ التَّدْبِيرَ وَالْعِلَاجَ لَيْسَ فِي  
تَخْلِيْقِ الْفِضْلِ وَإِبْدَاعِهِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي إِعْدَادِ الْمَادَّةِ لِقَبُولِهِ خَاصَّةً . وَالْفِضْلُ يَأْتِي مِنْ  
بَعْدِ الْإِعْدَادِ مِنْ لَدُنْ خَالِقِهِ وَبَارِيهِ كَمَا يُفِيضُ النُّورُ عَلَى الْأَجْسَامِ بِالصُّقْلِ  
وَالْإِمْهَاءِ . وَلَا حَاجَةَ بِنَا فِي ذَلِكَ إِلَى تَصَوُّرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ قَالَ : « وَإِذَا كُنَّا قَدْ عَشَرْنَا عَلَى  
تَخْلِيْقِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ مَعَ الْجَهْلِ بِفُضُولِهَا مِثْلَ الْعَقْرَبِ مِنَ التُّرَابِ وَالتَّنِّينِ وَمِثْلَ  
الْحَيَاتِ الْمُتَكَوِّنَةِ مِنَ الشَّعْرِ وَمِثْلَ مَا ذَكَرَهُ أَصْحَابُ الْفِلَاحَةِ مِنْ تَكْوِينِ النَّحْلِ إِذَا  
فَقَدَتْ مِنْ عَجَاجِيلِ الْبَقْرِ . وَتَكْوِينِ الْقَصَبِ مِنْ قُرُونِ ذَوَاتِ الظُّلْفِ وَتَصْيِيرِهِ  
سُكْرًا بِخَشْوِ الْقُرُونِ بِالْعَسَلِ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ الْفُلْجِ لِلْقُرُونِ فَمَا الْمَانِعُ إِذَا مِنَ الْعُثُورِ  
عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . فَتَتَّخِذُ مَادَّةً تُضَيِّفُهَا لِلتَّدْبِيرِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا  
اسْتِعْدَادٌ أَوَّلٌ لِقَبُولِ صُورَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . ثُمَّ تُحَاوَلُهَا بِالْعِلَاجِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ فِيهَا  
الِاسْتِعْدَادُ لِقَبُولِ فَضْلِهَا » . انْتَهَى كَلَامُ الطُّفْرَائِيِّ بِمَعْنَاهُ . وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي الرَّدِّ  
عَلَى ابْنِ سِينَا صَحِيحًا . لَكِنْ لَنَا فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَأْخِذٌ آخَرَ يَتَّبَعُ مِنْهُ  
اسْتِحَالَةُ وُجُودِهَا وَبُطْلَانُ مَزْعِمِهِمْ أَجْمَعِينَ لَا الطُّفْرَائِيُّ وَلَا ابْنُ سِينَا . وَذَلِكَ أَنَّ  
حَاصِلَ عِلَاجِهِمْ أَنَّهُمْ بَعْدَ الْوُقُوفِ عَلَى الْمَادَّةِ الْمُسْتَعِدَّةِ بِالِاسْتِعْدَادِ الْأَوَّلِ يَجْعَلُونَهَا  
مَوْضُوعًا وَيَخَادُونَ فِي تَدْبِيرِهَا وَعِلَاجِهَا تَدْبِيرَ الطَّبِيعَةِ فِي الْجِسْمِ الْمَعْدِنِيِّ حَتَّى  
أَحَالَتَهُ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً وَيُضَاعِفُونَ الْقُوَى الْفَاعِلَةَ وَالْمُنْفَعِلَةَ لِيَتِمَّ فِي زَمَانٍ أَقْصَرَ . لِأَنَّهُ  
تَبَيَّنَ فِي مَوْضُوعِهِ أَنَّ مُضَاعَفَةَ قُوَّةِ الْفَاعِلِ تَنْقُصُ مِنْ زَمَنِ فِعْلِهِ وَتَبَيَّنَ أَنَّ الذَّهَبَ إِنَّمَا  
يَتِمُّ كَوْنُهُ فِي مَعْدِنِهِ بَعْدَ أَلْفِ وَثَمَانِينَ مِنَ السَّنِينَ دَوْرَةَ الشَّمْسِ الْكُبْرَى فَإِذَا  
تَضَاعَفَتِ الْقُوَى وَالْكَثِيفَاتُ فِي الْعِلَاجِ كَانَ زَمَنُ كَوْنِهِ أَقْصَرَ مِنْ ذَلِكَ ضَرُورَةً عَلَى

مَا قَلْنَاهُ أَوْ يَتَحَرَّوْنَ بِعِلَاجِهِمْ ذَلِكَ حُصُولُ صُورَةِ مِرَاجِيئِهِ لِتِلْكَ الْمَادَّةِ تُصَيِّرُهَا  
 كَالْخَمِيرَةِ فَتَفْعَلُ فِي الْجِسْمِ الْمَعَالِجَ الْأَفَاعِيلَ الْمَطْلُوبَةَ فِي إِحَالَتِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْإَكْسِيرُ  
 عَلَى مَا تَقَدَّمَ . وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مُتَكَوِّنٍ مِنَ الْمَوْلَدَاتِ الْعُنْصُرِيَّةِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ اجْتِمَاعِ  
 الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ عَلَى نِسْبَةٍ مُتَفَاوِتَةٍ إِذْ لَوْ كَانَتْ مُتَكَافِئَةً فِي النِّسْبَةِ لَمَا تَمَّ امْتِرَاجُهَا  
 فَلَا بُدَّ مِنَ الْجُزْءِ الْغَالِبِ عَلَى الْكُلِّ . وَلَا بُدَّ فِي كُلِّ مُمْتَرَجٍ مِنَ الْمَوْلَدَاتِ مِنْ حَرَارَةِ  
 غَرِيزِيَّةٍ هِيَ الْفَاعِلَةُ لِكُونِهِ الْحَافِظَةُ لِصُورَتِهِ ! ثُمَّ كُلُّ مُتَكَوِّنٍ فِي زَمَانٍ فَلَا بُدَّ مِنْ  
 اخْتِلَافِ أَطْوَارِهِ وَأَنْتِقَالِهِ فِي زَمَنِ التَّكْوِينِ مِنْ طَوْرٍ إِلَى طَوْرٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى  
 غَايَتِهِ . وَانظُرْ شَأْنَ الْإِنْسَانِ فِي طَوْرِ النُّطْفَةِ ثُمَّ الْعَلَقَةِ ثُمَّ الْمَضْغَةِ ثُمَّ التَّصْوِيرِ ثُمَّ  
 الْجَنِينِ ثُمَّ الْمَوْلُودِ ثُمَّ الرُّضِيعِ ثُمَّ إِلَى نَهَائِهِ . وَنَسَبِ الْأَجْزَاءِ فِي كُلِّ طَوْرٍ تَخْتَلِفُ فِي  
 مَقَادِيرِهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا وَإِلَّا لَكَانَ الطَّوْرُ الْأَوَّلُ بِعَيْنِهِ هُوَ الْآخِرُ وَكَذَا الْحَرَارَةُ  
 الْغَرِيزِيَّةُ فِي كُلِّ طَوْرٍ مُخَالِفَةٌ لَهَا فِي الطَّوْرِ الْآخِرِ . فَانظُرْ إِلَى الذَّهَبِ مَا يَكُونُ لَهُ  
 فِي مَعْدِنِهِ مِنَ الْأَطْوَارِ مُنْذُ أَلْفِ سَنَةٍ وَثَمَانِينَ وَمَا يَنْتَقِلُ فِيهِ مِنَ الْأَحْوَالِ فَيَحْتَاجُ  
 صَاحِبَ الْكِيمِيَاءِ إِلَى أَنْ يُسَاقِقَ فِعْلَ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَعْدِنِ وَيَحَازِيَهُ بِتَدْبِيرِهِ  
 وَعِلَاجِهِ إِلَى أَنْ يَتَمَّ . وَمِنْ شَرْطِ الصَّنَاعَةِ أَيْدًا تَصُورُ مَا يُقْصَدُ إِلَيْهِ بِالصَّنْعَةِ فَمِنْ  
 الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ لِلْحُكْمَاءِ أَوَّلُ الْعَمَلِ آخِرُ الْفِكْرَةِ وَآخِرُ الْفِكْرَةِ أَوَّلُ الْعَمَلِ . فَلَا بُدَّ  
 مِنْ تَصَوُّرِ هَذِهِ الْحَالَاتِ لِلذَّهَبِ فِي أَحْوَالِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَنَسَبِهَا الْمُتَفَاوِتَةِ فِي كُلِّ طَوْرٍ  
 وَاخْتِلَافِ الْحَارِّ الْغَرِيزِيِّ عِنْدَ اخْتِلَافِهَا وَمِقْدَارِ الزَّمَانِ فِي كُلِّ طَوْرٍ وَمَا يَنْبُؤُ عَنْهُ  
 مِنْ مِقْدَارِ الْقُوَى الْمُضَاعَفَةِ وَيَقُومُ مَقَامَهُ حَتَّى يُحَازِيَهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ فِعْلَ الطَّبِيعَةِ فِي  
 الْمَعْدِنِ أَوْ تُعَدُّ لِبَعْضِ الْمَوَادِّ صُورَةَ مِرَاجِيئِهِ كَصُورَةِ الْخَمِيرَةِ لِلْخُبْزِ وَتَفْعَلُ فِي هَذِهِ  
 الْمَادَّةِ بِالْمُنَاسِبَةِ لِقُوَاهَا وَمَقَادِيرِهَا . وَهَذِهِ كُلُّهَا إِنَّمَا يَخْصُرُهَا الْعِلْمُ الْمَحِيطُ  
 وَالْعُلُومُ الْبَشَرِيَّةُ قَاصِرَةٌ عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا حَالٌ مَنْ يَدْعِي حُصُولَهُ عَلَى الذَّهَبِ بِهَذِهِ  
 الصَّنْعَةِ بِمِثَالِيَةٍ مَنْ يَدْعِي بِالصَّنْعَةِ تَخْلِيقَ إِنْسَانٍ مِنَ الْمَنِيِّ . وَنَحْنُ إِذَا سَلَّمْنَا لَهُ  
 الْإِحَاطَةَ بِأَجْزَائِهِ وَنَسَبَتِهِ وَأَطْوَارِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ تَخْلِيقِهِ فِي رَحِمِهِ وَعَلِمَ ذَلِكَ عِلْمًا

مَحْضًا بِتَفَاصِيلِهِ حَتَّى لَا يَشُدُّ مِنْهُ شَيْءٌ عَنِ عِلْمِهِ سَلْمَنَا لَهُ تَخْلِيقَ هَذَا الْإِنْسَانِ  
وَأَنَّى لَهُ ذَلِكَ . وَلْتَقَرَّبْ هَذَا الْبُرْهَانُ بِالِاخْتِصَارِ لِيَسَهَّلَ فَهْمَهُ فَتَقُولُ : حَاصِلُ  
صِنَاعَةِ الْكِيمِيَاءِ وَمَا يَدْعُونَهُ بِهَذَا التَّذْيِيرِ أَنَّهُ مُسَاوِقَةُ الطَّبِيعَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ بِالْفِعْلِ  
الصَّنَاعِيِّ وَمَحَادَاتِهَا بِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ كَوْنُ الْجِسْمِ الْمَعْدِنِيِّ أَوْ تَخْلِيقُ مَادَّةٍ بِقُوَى  
وَأَفْعَالٍ وَصُورَةٍ مِزَاجِيَّةٍ تَفْعَلُ فِي الْجِسْمِ فِعْلًا طَبِيعِيًّا فَتَصِيرُهُ وَتَقْلِبُهُ إِلَى صُورَتِهَا .  
وَالْفِعْلُ الصَّنَاعِيُّ مَسْبُوقٌ بِتَصَوُّرَاتٍ أَحْوَالِ الطَّبِيعَةِ الْمَعْدِنِيَّةِ الَّتِي يَقْصُدُ مُسَاوِقَتَهَا  
أَوْ مُحَادَاتَهَا أَوْ فِعْلَ الْمَادَّةِ ذَاتِ الْقُوَى فِيهَا تَصَوُّرًا مَفْضَلًا وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى . وَتِلْكَ  
الْأَحْوَالُ لَا نِهَائِيَّةٌ لَهَا وَالْعِلْمُ الْبَشَرِيُّ عَاجِزٌ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِمَا دُونَهَا وَهُوَ بِمِثَالِيَّةٍ مَنْ  
يَقْصُدُ تَخْلِيقَ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانَ أَوْ نَبَاتٍ . هَذَا مُحْضَلٌ هَذَا الْبُرْهَانِ وَهُوَ أَوْثَقُ  
مَا عَلِمْتُهُ وَلَيْسَتْ الْإِسْتِحَالَةُ فِيهِ مِنْ جِهَةِ الْفُضُولِ كَمَا رَأَيْتَهُ وَلَا مِنَ الطَّبِيعَةِ إِنَّمَا هُوَ  
مِنْ تَعَدُّرِ الْإِحَاطَةِ وَقُصُورِ الْبَشْرِ عَنْهَا . وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ سِينَا بِمَعْرُوفٍ عَنِ ذَلِكَ وَلَهُ  
وَجْهٌ آخَرٌ فِي الْإِسْتِحَالَةِ مِنْ جِهَةِ غَايَتِهِ . وَذَلِكَ أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي الْحَجَرَيْنِ  
وَنَدْوَرَهُمَا أَنَّهَا قِيمٌ لِمَكَاسِبِ النَّاسِ وَمَتَمُّوْلَاتِهِمْ . فَلَوْ حَصَلَ عَلَيْهِمَا بِالصَّنْعَةِ  
لَبَطَلَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ وَكَثُرَ وَجُودُهُمَا حَتَّى لَا يَحْضَلَ أَحَدٌ مِنْ اقْتِنَائِهِمَا عَلَى  
شَيْءٍ . وَلَهُ وَجْهٌ آخَرٌ مِنَ الْإِسْتِحَالَةِ أَيْضًا وَهُوَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ لَا تَتْرُكُ أَقْرَبَ الطَّرِيقِ فِي  
أَفْعَالِهَا وَتَتْرَكِبُ الْأَعْوَصَ وَالْأَبْعَدَ . فَلَوْ كَانَ هَذَا الطَّرِيقُ الصَّنَاعِيُّ الَّذِي يَزْعُمُونَ  
أَنَّهُ صَحِيحٌ وَأَنَّهُ أَقْرَبُ مِنْ طَرِيقِ الطَّبِيعَةِ فِي مَعْدِنِهَا أَوْ أَقْلُ زَمَانًا لِمَا تَرَكَّتْهُ الطَّبِيعَةُ  
إِلَى طَرِيقِهَا الَّذِي سَلَكَتَهُ فِي كَوْنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَتَخْلِقِهَا وَأَمَّا تَشْبِيهُ الطُّغْرَاءِيِّ  
هَذَا التَّذْيِيرِ بِمَا عَثَرَ عَلَيْهِ مِنْ مُفْرَدَاتٍ لِأَمْثَالِهِ فِي الطَّبِيعَةِ كَالْمَقْرَبِ وَالنَّحْلِ وَالْحَيَّةِ  
وَتَخْلِيقِهَا فَأَمْرٌ صَحِيحٌ فِي هَذِهِ أَدَى إِلَيْهِ الْعُشُورُ كَمَا زَعَمَ . وَأَمَّا الْكِيمِيَاءُ فَلَمْ يُنْقَلْ  
عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ أَنَّهُ عَثَرَ عَلَيْهَا وَلَا عَلَى طَرِيقِهَا وَمَا زَالَ مُنْتَحِلُوهَا يَخْطِئُونَ  
فِيهَا عَشْوَاءً إِلَى هَلْمُ جَرًّا وَلَا يَظْفَرُونَ إِلَّا بِالْحِكَايَاتِ الْكَاذِبَةِ . وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لِأَحَدٍ  
مِنْهُمْ لَحَفِظَهُ عَنْهُ أَوْلَادُهُ أَوْ تَلْمِيذُهُ وَأَصْحَابُهُ وَتَنَوَّقَلُ فِي الْأَصْدِقَاءِ وَضَمِنَ تَصْدِيقَهُ

صِحَّة الْعَمَلِ بَعْدَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَشِرَ وَيَبْلُغَ إِلَيْنَا وَإِلَى غَيْرِنَا . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِكْسِيرَ بِمَثَابَةِ الْخَمِيرَةِ . وَإِنَّهُ مُرَكَّبٌ يُحِيلُ مَا يَحْصُلُ فِيهِ وَيَقْلِبُهُ إِلَى ذَلِكَ فَاعْلَمَنَّ أَنَّ الْخَمِيرَةَ إِنَّمَا تَقْلِبُ الْعَجِينَ وَتَعِدُّهُ لِلْهَضْمِ وَهُوَ فَسَادٌ وَالْفَسَادُ فِي الْمَوَادِّ سَهْلٌ يَقَعُ بِأَيْسَرِ شَيْءٍ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالطَّبَائِعِ . وَالْمَطْلُوبُ بِالْإِكْسِيرِ قَلْبُ الْمَعْدِنِ إِلَى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى فَهُوَ تَكْوِينٌ وَصَلَاحٌ وَالتَّكْوِينُ أَضْعَبُ مِنَ الْفَسَادِ فَلَا يُقَاسُ الْإِكْسِيرُ بِالْخَمِيرَةِ . وَتَحْقِيقُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكِيمِيَاءَ إِذَا صَحَّ وُجُودُهَا كَمَا تَزْعُمُ الْحُكَمَاءُ الْمُتَنَكِّلُونَ فِيهَا مِثْلُ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ وَمَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ الْمَجْرِيطِيِّ وَأَمثالِهِمْ فَلَيْسَتْ مِنْ بَابِ الصَّنَائِعِ الطَّبِيعِيَّةِ وَلَا تَنِمُّ بِأَمْرِ صِنَاعِيٍّ . وَلَيْسَ كَلَامُهُمْ فِيهَا مِنْ مَنَحَى الطَّبِيعِيَّاتِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَنَحَى كَلَامِهِمْ فِي الْأُمُورِ السَّخَرِيَّةِ وَسَائِرِ الْخَوَارِقِ وَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلْحَلَّاجِ وَغَيْرِهِ وَقَدْ ذَكَرَ مُسْلِمَةُ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ مَا يُشْبِهُ ذَلِكَ . وَكَلَامُهُ فِيهَا فِي كِتَابِ رُتْبَةِ الْحَكِيمِ مِنْ هَذَا الْمَنَحَى . وَهَذَا كَلَامُ جَابِرِ فِي رَسَائِلِهِ وَنَحْوِ كَلَامِهِمْ فِيهِ مَعْرُوفٌ وَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى شَرْحِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَأَمْرُهَا عِنْدَهُمْ مِنْ كَلِيَّاتِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ عَنِ حُكْمِ الصَّنَائِعِ فَكَمَا لَا يَتَدَبَّرُ مَا مِنْهُ الْخَشَبُ وَالْحَيَوَانُ فِي يَوْمٍ أَوْ شَهْرٍ خَشْبًا أَوْ حَيَوَانًا فِيمَا عَدَا مَجْرَى تَخْلِيْقِهِ كَذَلِكَ لَا يَتَدَبَّرُ ذَهَبٌ مِنْ مَادَّةِ الذَّهَبِ فِي يَوْمٍ وَلَا شَهْرٍ وَلَا يَتَغَيَّرُ طَرِيقُ عَادَتِهِ إِلَّا بِإِرْفَادِ مَا وَرَاءَ عَالَمِ الطَّبَائِعِ وَعَمَلِ الصَّنَائِعِ فَكَذَلِكَ مَنْ طَلَبَ الْكِيمِيَاءَ طَلَبًا صِنَاعِيًّا ضَيَّعَ مَالَهُ وَعَمَلَهُ وَيُقَالُ لِهَذَا التَّدْبِيرِ الصَّنَاعِيِّ التَّدْبِيرَ الْعَقِيمَ لِأَنَّ نَيْلَهُ إِنْ كَانَ صَحِيحًا فَهُوَ وَاقِعٌ مِمَّا وَرَاءَ الطَّبَائِعِ وَالصَّنَائِعِ كَالْمَشْيِ عَلَى الْمَاءِ وَامْتِطَاءِ الْهَوَاءِ وَالنَّفُودِ فِي كَشَائِفِ الْأَجْسَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ أَوْ مِثْلِ تَخْلِيْقِ الطَّيْرِ وَنَحْوِهَا مِنْ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ . قَالَ تَعَالَى : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهِ فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي » <sup>(١)</sup> وَعَلَى ذَلِكَ فَسَبِيلُ تَسْيِيرِهَا مُخْتَلِفٌ بِحَسَبِ حَالِ مَنْ يُؤْتَاهَا . فَرُبَّمَا أُوتِيَهَا الصَّالِحُ وَيُؤْتِيهَا غَيْرُهُ فَتَكُونُ عِنْدَهُ

(١) سورة المائدة من الآية ١١٠ .

مُعَارَةً . وَرُبَّمَا أَوْتِيهَا الصَّالِحُ وَلَا يَمْلِكُ إِيْتَاءَهَا فَلَا تَتَمُّ فِي يَدِ غَيْرِهِ . وَمِنْ هَذَا  
الْبَابِ يَكُونُ عَمَلُهَا سِحْرِيًّا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهَا إِنَّمَا تَقَعُ بِتَأْثِيرَاتِ النُّفُوسِ وَخَوَارِقِ  
الْعَادَةِ إِمَّا مُعْجِزَةً أَوْ كَرَامَةً أَوْ سِحْرًا . وَلِهَذَا كَانَ كَلَامُ الْحُكَمَاءِ كُلِّهِمْ فِيهَا الْغَازَا  
لَا يَظْفُرُ بِحَقِيقَتِهِ إِلَّا مَنْ خَاضَ لُجَّةَ مِنْ عِلْمِ السِّحْرِ وَأَطْلَعَ عَلَى تَصَرُّفَاتِ النَّفْسِ فِي  
عَالَمِ الطَّبِيعَةِ . وَأَمُورٌ خَرَقَ الْعَادَةَ غَيْرُ مُنْخَصِرَةٍ وَلَا يَقْصُدُ أَحَدٌ إِلَى تَخْصِيلِهَا . وَاللَّهُ  
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَأَكْثَرُ مَا يَحْمِلُ عَلَى التِّمَّاسِ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَإِنْتِحَالِهَا هُوَ كَمَا  
قُلْنَا الْعَجْزُ عَنِ الطَّرِيقِ الطَّبِيعِيِّ لِلْمَعَاشِ وَإِيْتَعَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ وَجُوهِهِ الطَّبِيعِيِّ  
كَالْفِلَاحَةِ وَالتَّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ فَيَسْتَضَعِبُ الْعَاجِزُ إِيْتَعَاؤَهُ مِنْ هَذِهِ وَيَرُومُ الْخُصُولَ  
عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَالِ دَفْعَةً بِوُجُوهِ غَيْرِ طَبِيعِيَّةٍ مِنَ الْكِيمِيَاءِ وَغَيْرِهَا . وَأَكْثَرُ مَنْ  
يُعْنَى بِذَلِكَ الْفُقَرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْعُمُرَانِ حَتَّى فِي الْحُكَمَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي إِنْكَارِهَا  
وَاسْتِحَالَتِهَا . فَإِنَّ ابْنَ سِينَا الْقَائِلَ بِاسْتِحَالَتِهَا كَانَ عَلَيْهِ الْوُزْرَاءُ فَكَانَ مِنْ أَهْلِ  
الْغِنَى وَالشَّرْوَةِ وَالْفَارَابِيِّ الْقَائِلَ بِإِمْكَانِهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَقْرِ الَّذِينَ يَعْوِزُهُمْ أَذْنَى  
بُلْغَةٍ مِنَ الْمَعَاشِ وَأَسْبَابِهِ . وَهَذِهِ تَهْمَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي أَنْظَارِ النُّفُوسِ الْمُوَلَعَةِ بِطَرَفِهَا  
وَإِنْتِحَالِهَا . وَاللَّهُ الرَّازِقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

## الفصل الرابع والثلاثون

في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل

إِغْلَمَ أَنَّهُ مِمَّا أَضَرَ بِالنَّاسِ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْوُقُوفِ عَلَى غَايَاتِهِ كَثْرَةُ التَّالِيفِ  
وَإِخْتِلَافُ الْإِصْطِلَاحَاتِ فِي التَّعَالِيمِ وَتَعَدُّدُ طَرَفِهَا ثُمَّ مُطَالَبَةُ الْمُتَعَلِّمِ وَالتَّلْمِيذِ  
بِاسْتِحْضَارِ ذَلِكَ . وَحِينَئِذٍ يُسَلِّمُ لَهُ مَنْصِبُ التَّحْصِيلِ فَيَحْتَاجُ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى حِفْظِهَا  
كُلِّهَا أَوْ أَكْثَرِهَا وَمَرَاعَاةِ طَرَفِهَا . وَلَا يَفِي عُمْرُهُ بِمَا كُتِبَ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِذَا  
تَجَرَّدَ لَهَا فَيَقَعُ الْقُصُورُ وَلَا بُدَّ دُونَ رُتْبَةِ التَّحْصِيلِ . وَيُمَثَّلُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ الْفِقْهِ فِي

المذهب المالكي بالكتب المدونة مثلاً وما كتب عليها من الشروحات الفقهية  
مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير والتبسيات والمقدمات والبيان  
والتخصيص على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه . ثم إنه يحتاج  
إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق  
المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها  
متكررة والمعنى واحد . والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها  
والعمر ينقضي في واحد منها . ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل  
المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير . وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً  
ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالتبيعة التي لا يمكن نقلها  
ولا تحوّلها ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه  
وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق  
المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك  
كيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في  
القليل النادر مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل  
صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هاشم ظهر من كلامه فيها أنه استولى  
على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسبويه وابن جنبي وأهل طبقتيها  
لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه . ودل  
على أن الفضل ليس مقتصراً في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب  
بتعدد المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله يؤتية من يشاء . وهذا نادر من  
نوادير الوجود وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له  
بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في  
المقصود الذي هو الثمرة ؟ ولكن الله يهدي من يشاء .



## الفصل الخامس والثلاثون

في المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف والغاء ما سواها

إِغْلَمَ أَنَّ الْعُلُومَ الْبَشَرِيَّةَ خَزَانَتُهَا النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ  
الْإِذْرَاقِ الَّذِي يُفِيدُهَا ذَلِكَ الْفِكْرَ الْمَحْضِلَ لَهَا ذَلِكَ بِالتَّصَوُّرِ لِلْحَقَائِقِ أَوَّلًا ، ثُمَّ  
بِاثْبَاتِ الْعَوَارِضِ الدَّائِيَّةِ لَهَا أَوْ نَفْيِهَا عَنْهَا ثَانِيًا ، إِمَّا بِغَيْرِ وَسْطٍ أَوْ بَوْسِطٍ ، حَتَّى  
يَسْتَنْتِجَ الْفِكْرُ بِذَلِكَ مَطَالِبَهُ الَّتِي يُعْنَى بِإِثْبَاتِهَا أَوْ نَفْيِهَا . فَإِذَا اسْتَقَرَّتْ مِنْ ذَلِكَ  
صُورَةٌ عِلْمِيَّةٌ فِي الضَّمِيرِ فَلَا بُدَّ مِنْ بَيَانِهَا لِآخَرَ ، إِمَّا عَلَى وَجْهِ التَّعْلِيمِ ، أَوْ عَلَى وَجْهِ  
الْمُفَاوِضَةِ ، تَضَلُّلِ الْأَفْكَارِ فِي تَضْحِيحِهَا . وَذَلِكَ الْبَيَانُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعِبَارَةِ ، وَهِيَ  
الْكَلَامُ الْمُرَكَّبُ مِنَ الْأَلْفَاظِ النُّطْقِيَّةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ فِي عَضْوِ اللِّسَانِ مُرَكَّبَةً مِنْ  
الْحُرُوفِ ، وَهِيَ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ الْمُقَطَّعَةِ بِعَضَلَةِ الْهَيَاةِ وَاللِّسَانِ لِيَتَبَيَّنَ بِهَا  
ضَمَائِرُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِي مُحَاطَبَاتِهِمْ وَهَذِهِ رُتْبَةٌ أُولَى فِي الْبَيَانِ عَمَّا فِي  
الضَّمَائِرِ ، وَإِنْ كَانَ مُعْظَمُهَا وَأَشْرَفُهَا الْعُلُومَ ، فَهِيَ شَامِلَةٌ لِكُلِّ مَا يَنْدَرِجُ فِي  
الضَّمِيرِ مِنْ خَبَرٍ أَوْ إِنْشَاءٍ عَلَى الْعُمُومِ . وَبَعْدَ هَذِهِ الرُّتْبَةِ الْأُولَى مِنَ الْبَيَانِ رُتْبَةٌ ثَانِيَّةٌ  
يُؤَدِّي بِهَا مَا فِي الضَّمِيرِ ، لِمَنْ تَوَارَى أَوْ غَابَ شَخْصُهُ وَبَعْدَ ، أَوْ لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَ وَلَمْ  
يُعَاصِرْهُ وَلَا لَقِيَهُ . وَهَذَا الْبَيَانُ مُنْحَصِرٌ فِي الْكِتَابَةِ ، وَهِيَ رُقُومٌ بِالْيَدِ تَدُلُّ أَشْكَالَهَا  
وَصُورُهَا بِالتَّوَاضُعِ عَلَى الْأَلْفَاظِ النُّطْقِيَّةِ حُرُوفًا بِحُرُوفٍ وَكَلِمَاتٍ بِكَلِمَاتٍ ، فَصَارَ  
الْبَيَانُ فِيهَا عَلَى مَا فِي الضَّمِيرِ بِوَسِطَةِ الْكَلَامِ الْمُنْطَقِيِّ ، فَلِهَذَا كَانَتْ فِي الرُّتْبَةِ  
الثَّانِيَّةِ وَاحِدًا ، فَسُمِّيَ هَذَا الْبَيَانُ . يَدُلُّ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ ،  
فَهُوَ أَشْرَفُهَا . وَأَهْلُ الْفُنُونِ مُعْتَنُونَ بِإِيدَاعِ مَا يَحْضَلُ فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنْ ذَلِكَ فِي  
بُطُونِ الْأَوْرَاقِ بِهَذِهِ الْكِتَابَةِ ، لِتَعْلَمَ الْفَائِدَةُ فِي حُصُولِهِ لِلْغَائِبِ وَالْمُتَأَخَّرِ ، وَهَؤُلَاءِ  
هُمُ الْمُؤَلَّفُونَ . وَالتَّأْلِيفُ بَيْنَ الْعَوَالِمِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْأُمَّمِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَثِيرٌ ، وَمُنْتَقَلَةٌ فِي  
الْأَجْيَالِ وَالْأَعْصَارِ وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الشَّرَائِعِ وَالْمَلِكِ وَالْأَخْبَارِ عَنِ الْأُمَّمِ وَالْدَوْلِ .

وَأَمَّا الْعُلُومُ الْفَلَسَفِيَّةُ ، فَلَا اخْتِلَافَ فِيهَا ، لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَأْتِي عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ ، فِيمَا تَقْتَضِيهِ الطَّبِيعَةُ الْفِكْرِيَّةُ ، فِي تَصَوُّرِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ، جِسْمَانِيَّهَا وَرُوحَانِيَّهَا وَفَلَكَيَّهَا وَغَنْصَرِيَّهَا وَمَجْرُدَهَا وَمَادَّتَيْهَا . فَإِنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ لَا تَخْتَلِفُ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ الْاِخْتِلَافُ فِي الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ لِاخْتِلَافِ الْمِلَلِ ، أَوِ التَّارِيخِيَّةِ لِاخْتِلَافِ خَارِجِ الْخَبَرِ . ثُمَّ الْكِتَابَةُ مُخْتَلِفَةٌ بِاصْطِلَاحَاتِ الْبَشَرِ فِي رُسُومِهَا وَأَشْكَالِهَا ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ قَلَمًا وَخَطًّا . فَمِنْهَا الْخَطُّ الْحَمِيرِيُّ ، وَيُسَمَّى الْمُسْنَدُ ، وَهُوَ كِتَابَةُ حَمِيرٍ وَأَهْلُ الْيَمَنِ الْأَقْدَمِينَ ، وَهُوَ يُخَالِفُ كِتَابَةَ الْعَرَبِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ مُضَرَ ، كَمَا يُخَالِفُ لُغَتَهُمْ . وَإِنَّ الْكُلَّ عَرَبِيًّا . إِلَّا أَنَّ مَلَكَةَ هَوْلَاءَ فِي اللِّسَانِ وَالْعِبَارَةِ غَيْرُ مَلَكَةَ أَوْلِكَ . وَلِكُلِّ مِنْهُمَا قَوَانِينٌ كَثِيرَةٌ مُسْتَقْرَأَةٌ مِنْ عِبَارَتِهِمْ غَيْرُ قَوَانِينِ الْآخَرِينَ . وَرُبَّمَا يَغْلُطُ فِي ذَلِكَ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَلَكَاتِ الْعِبَارَةِ . وَمِنْهَا الْخَطُّ السُّرْيَانِيُّ ، وَهُوَ كِتَابَةُ النَّبِطِ وَالْكَلْدَانِيِّينَ . وَرُبَّمَا يَزْعُمُ بَعْضُ أَهْلِ الْجَهْلِ أَنَّهُ الْخَطُّ الطَّبِيعِيُّ لِقَدَمِهِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَقْدَمَ الْأُمَمِ ، وَهَذَا وَهُمْ ، وَمَذْهَبٌ عَامِي . لِأَنَّ الْأَفْعَالَ الْاِخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا بِالطَّبِيعِ ، وَإِنَّمَا هُوَ يَسْتَمِرُّ بِالْقَدَمِ وَالْمِرَانَ حَتَّى يَصِيرَ مَلَكَةَ رَاسِخَةً ، فَيَطْبُنُّهَا الْمُشَاهِدُ طَبِيعِيَّةً كَمَا هُوَ رَأْيٌ كَثِيرٌ مِنَ الْبُلْدَاءِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ فَيَقُولُونَ : الْعَرَبُ كَانَتْ تَعْرَبُ بِالطَّبِيعِ وَتَنْطِقُ بِالطَّبِيعِ ، وَهَذَا وَهُمْ . وَمِنْهَا الْخَطُّ الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي هُوَ كِتَابَةُ بَنِي عَابِرِ بْنِ شَالِحٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ . وَمِنْهَا الْخَطُّ اللَّطِينِيُّ ، خَطُّ اللَّطِينِيِّينَ مِنَ الرُّومِ ، وَلَهُمْ أَيْضًا لِسَانٌ مُخْتَصٌّ بِهِمْ . وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ اصْطِلَاحٌ فِي الْكِتَابِ يُعْزَى إِلَيْهَا وَيُخْتَصُّ بِهَا . مِثْلَ التُّرْكِ وَالْفَرَنْجِ وَالْهِنُودِ وَغَيْرِهِمْ . وَإِنَّمَا وَقَعَتِ الْعِنَايَةُ بِالْأَقْلَامِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى . أَمَّا السُّرْيَانِيُّ فَلِقَدَمِهِ كَمَا ذَكَرْنَا ، وَأَمَّا الْعَرَبِيُّ وَالْعِبْرِيُّ فَلِتَنْزُلِ الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَةِ بِهِمَا بِلِسَانِهِمَا . وَكَانَ هَذَانِ الْخَطَّانِ بَيَانًا لِمَتَلَوَّهُمَا ، فَوَقَعَتِ الْعِنَايَةُ بِمَنْظُومِهِمَا أَوْلًا وَانْبَسَطَتْ قَوَانِينُ لِاطْرَادِ الْعِبَارَةِ فِي تِلْكَ اللُّغَةِ عَلَى اسْلُوبِهَا لِتَفْهَمَ الشَّرَائِعَ التَّكْلِيفِيَّةَ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ الرَّبَّانِيِّ . وَأَمَّا اللَّطِينِيُّ فَكَانَ الرُّومُ ، وَهُمْ أَهْلُ ذَلِكَ

اللِّسَانِ ، لِمَا أَخَذُوا بِدِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَهُوَ كُلُّهُ مِنَ التَّوْرَةِ ، كَمَا سَبَقَ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ ، تَرَجَّمُوا التَّوْرَةَ وَكُتِبَ الْأَنْبِيَاءُ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ إِلَى لُغَتِهِمْ ، لِيَقْتَنِبُوا مِنْهَا الْأَحْكَامَ عَلَى أَسْهَلِ الطَّرِيقِ . وَصَارَتْ عِنَايَتُهُمْ بِلُغَتِهِمْ وَكِتَابَتِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ سِوَاهَا . وَأَمَّا الْخُطُوطُ الْأُخْرَى فَلَمْ تَقَعْ بِهَا عِنَايَةٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ لِكُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ اضْطِرَّاحِهَا . ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ حَصَرُوا مَقَاصِدَ التَّالِيفِ الَّتِي يَنْبَغِي اعْتِمَادُهَا وَالنَّعَاءَ مَا سِوَاهَا ، فَعَدُّوْهَا سَبْعَةً :

أَوَّلُهَا ، اسْتِنْبَاطُ الْعِلْمِ بِمَوْضُوعِهِ وَتَقْسِيمُ أَسْئَلِهِ وَفُضُولِهِ وَتَتَبُّعُ مَسَائِلِهِ ، أَوْ اسْتِنْبَاطُ مَسَائِلَ وَمَبَاحِثَ تَعْرِضُ لِلْعَالِمِ الْمُحَقِّقِ وَيَخْرُصُ عَلَى إِيْصَالِهِ بِغَيْرِهِ ، لِتَعْمُّ الْمَنْفَعَةِ بِهِ فَيُودِعُ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ فِي الْمُصْحَفِ ، لَعَلَّ الْمُتَأَخَّرُ يَظْهَرُ عَلَى تِلْكَ الْفَائِدَةِ ، كَمَا وَقَعَ فِي الْأَصُولِ فِي الْفِقْهِ . تَكَلَّمَ الشَّافِعِيُّ أَوَّلًا فِي الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ اللَّفْظِيَّةِ وَلَخَصَهَا ، ثُمَّ جَاءَ الْحَنْفِيَّةُ فَاسْتِنْبَطُوا مَسَائِلَ الْفِيَّاسِ وَاسْتَوْعَبُوهَا ، وَانْتَفَعَ بِذَلِكَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَى الْآنِ .

وِثَانِيَّهَا ، أَنْ يَقِفَ عَلَى كَلَامِ الْأَوَّلِينَ وَتَالِيفِهِمْ فَيَجِدُهَا مَسْتَغْلِقَةً عَلَى الْأَفْهَامِ وَيَفْتَحُ اللَّهُ لَهُ فِي فَهْمِهَا فَيَخْرُصُ عَلَى إِبَانَةِ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ مِمَّنْ عَسَاهُ يَسْتَفْلِقُ عَلَيْهِ ، لِتَصِلَ الْفَائِدَةُ لِمُسْتَحِقِّهَا . وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْبَيَانِ لِكُتُبِ الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ ، وَهُوَ فَضْلٌ شَرِيفٌ .

وِثَالِثُهَا ، أَنْ يَعْتَرِ الْمُتَأَخَّرُ عَلَى غَلْطٍ أَوْ خَطَا فِي كَلَامِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِمَّنْ اشْتَهَرَ فَضْلُهُ وَبَعْدَ فِي الْإِفَادَةِ صِيئُهُ ، وَيَسْتَوْثِقُ فِي ذَلِكَ بِالْبُرْهَانِ الْوَاضِحِ الَّذِي لَا مَدْخَلَ لِلشُّكِّ فِيهِ ، فَيَخْرُصُ عَلَى إِيْصَالِ ذَلِكَ لِمَنْ بَعْدَهُ ، إِذْ قَدْ تَعَدَّرَ مَخَوْهُ وَنَزَعَهُ بِانْتِشَارِ التَّالِيفِ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَعْصَارِ ، وَشَهْرَةِ الْمُؤَلِّفِ وَوُثُوقِ النَّاسِ بِمَعَارِفِهِ ، فَيُودِعُ ذَلِكَ الْكِتَابَ لِيَقِفَ عَلَى بَيَانِ ذَلِكَ .

وَرَابِعُهَا ، أَنْ يَكُونَ الْفَنُّ الْوَاحِدُ قَدْ نَقَصَتْ مِنْهُ مَسَائِلُ أَوْ فُضُولٌ بِحَسَبِ

انقسام موضوعه فيقصد المطلع على ذلك أن يتمم ما نقص من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله ، ولا يبقى للنقص فيه مجال .

وخاصها : أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة ، فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها ، ويجعل كل مسألة في بابها ، كما وقع في المدونة من رواية سحنون عن ابن القاسم ، وفي العتبية من رواية العتبي عن أصحاب مالك ، فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها فهذب ابن أبي زيد المدونة وبقيت العتبية غير مهذبة . فنجد في كل باب مسائل من غيره . واستغنوا بالمدونة وما فعله ابن أبي زيد فيها والبرادعي من بعده .

وسادسها : أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى فيتنبه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجميع مسائله ، فيفعل ذلك ، ويظهر به فن ينظمه في جملة العلوم التي ينتحلها البشر بأفكارهم ، كما وقع في علم البيان . فإن عبد القاهر الجرجاني وأبا يوسف السكاكي وجدا مسائله مستقرية في كتب النحو وقد جمع منها الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مسائل كثيرة ، تنبه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراذه عن سائر العلوم ، فكتبت في ذلك تاليفهم المشهورة ، وصارت أصولاً لفن البيان ، ولقننها المتأخرون فأرَبوا فيها على كل متقدم .

وسابعها : أن يكون الشيء من التأليف التي هي أمهات للفنون مطولاً مسبباً فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك ، بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر ، إن وقع ، مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخل بمقصد المؤلف الأول .

فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف ومراعاتها . وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه وخطأ عن الجادة التي يتعين سلوكها في نظر العقلاء .

مِثْلَ انْتِحَالِ مَا تَقَدَّمَ لِغَيْرِهِ مِنَ التَّالِيفِ أَنْ يَنْسِبَهُ إِلَى نَفْسِهِ بِبَعْضِ تَلْبِيسٍ ، مِنْ تَبْدِيلِ الْأَلْفَاظِ وَتَقْدِيمِ الْمُتَأَخَّرِ وَعَكْسِهِ ، أَوْ يَخْذِفُ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْفَنِّ أَوْ يَأْتِي بِمَا لَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ ، أَوْ يُبَدِّلُ الصَّوَابَ بِالْخَطَأِ ، أَوْ يَأْتِي بِمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . فَهَذَا شَأْنُ الْجَهْلِ وَالْقِحَّةِ . وَلِذَا قَالَ أَرِسْطُو . لَمَّا عَدَّدَ هَذِهِ الْمَقَاصِدَ ، وَأَنْتَهَى إِلَى آخِرِهَا فَقَالَ : وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَفَضْلٌ أَوْ شَرٌّ ، يَعْنِي بِذَلِكَ الْجَهْلَ وَالْقِحَّةَ . نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعَمَلِ فِي مَا لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ سُلُوكُهُ . وَاللَّهُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .

## الفصل السادس والثلاثون

في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم

ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأَخَّرِينَ إِلَى اخْتِصَارِ الطَّرِيقِ وَالْإِنْخَاءِ فِي الْعُلُومِ يُوَلِّعُونَ بِهَا وَيَدُونُونَ مِنْهَا بِرَنَامَجًا مُخْتَصِرًا فِي كُلِّ عِلْمٍ يَشْتَمِلُ عَلَى حَصْرِ مَسَائِلِهِ وَأَدْلَتِهَا بِاخْتِصَارٍ فِي الْأَلْفَاظِ وَحَشْوِ الْقَلِيلِ مِنْهَا بِالْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ مِنْ ذَلِكَ الْفَنِّ . وَصَارَ ذَلِكَ مُجَلًّا بِالْبَلَاغَةِ وَعَسِرًا عَلَى الْفَهْمِ . وَرَبَّمَا عَمَدُوا إِلَى الْكُتُبِ الْأَمْهَاتِ الْمُطْوَلَةِ فِي الْفُنُونِ لِلتَّفْسِيرِ وَالْبَيَانِ فَاخْتَصَرُوهَا تَقْرِيْبًا لِلْحِفْظِ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ الْحَاجِبِ فِي الْفِقْهِ وَابْنُ مَالِكٍ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالْخَوَنْجِيُّ فِي الْمَنْطِقِ وَأَمْثَالِهِمْ . وَهُوَ فَسَادٌ فِي التَّعْلِيمِ وَفِيهِ إِخْلَالٌ بِالتَّخْصِيلِ وَذَلِكَ لِأَنَّ فِيهِ تَخْلِيطًا عَلَى الْمُبْتَدِيِّ بِالْقَاءِ الْغَايَاتِ مِنَ الْعِلْمِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَمْ يَسْتَعِدَّ لِقَبُولِهَا بَعْدَ وَهُوَ مِنْ سُوءِ التَّعْلِيمِ كَمَا سَيَأْتِي . ثُمَّ فِيهِ مَعَ ذَلِكَ شُغْلٌ كَبِيرٌ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ بِتَتَبُعِ الْأَفْظِ الْاِخْتِصَارِ الْعَوِيصَةِ لِلْفَهْمِ بِتَزَاوِجِ الْمَعَانِي عَلَيْهَا وَصُعُوبَةِ اسْتِخْرَاجِ الْمَسَائِلِ مِنْ بَيْنِهَا . لِأَنَّ الْأَفْظِ الْمُخْتَصَّرَاتِ تَجْذُهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ صَعْبَةٌ عَوِيصَةٌ فَيَنْقَطِعُ فِي فَهْمِهَا حِظٌ صَالِحٌ عَنِ الْوَقْتِ . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَالْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ مِنَ التَّعْلِيمِ فِي تِلْكَ الْمُخْتَصَّرَاتِ إِذَا تَمَّ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ تَعْقِبْهُ آفَةٌ فَهِيَ مَلَكَةٌ قَاصِرَةٌ عَنِ الْمَلَكَاتِ الَّتِي تَحْضُلُ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الْبَسِيطَةِ الْمُطْوَلَةِ لِكثْرَةِ مَا يَقَعُ

في تلك من التكرار والإحالة المفيدتين لحصول الملكة التامة . وإذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأزكبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكينها . « ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له » . والله سبحانه وتعالى أعلم .

## الفصل السابع والثلاثون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته

إعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب . ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد<sup>(١)</sup> عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة . وغايتها أنها هيئاته لفهم الفن وتحصيل مسائله . ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته . ثم يرجع به وقد شد فلا يترك عويصاً ولا مهمماً ولا معلقاً إلا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات . وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدرکنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه بإحضار

(١) وفي نسخة أخرى : يورد .

ذَهْنِهِ فِي حَلِّهَا وَيَخْسِبُونَ ذَلِكَ مَرَانًا عَلَى التَّعْلِيمِ وَصَوَابًا فِيهِ وَيَكْلَفُونَهُ رَغْمِي ذَلِكَ  
 وَتَخْصِيلَهُ وَيَخْلَطُونَ عَلَيْهِ بِمَا يُلْقُونَ لَهُ مِنْ غَايَاتِ <sup>(١)</sup> الْفُنُونِ فِي مَبَادِئِهَا وَقَبْلَ أَنْ  
 يَسْتَعِدَّ لِفَهْمِهَا فَإِنَّ قَبُولَ الْعِلْمِ وَالِاسْتِعْدَادَاتِ لِفَهْمِهِ تَنْشَأُ تَدْرِجًا وَيَكُونُ الْمُتَعَلِّمُ  
 أَوَّلَ الْأَمْرِ عَاجِزًا عَنِ الْفَهْمِ بِالْجُمْلَةِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ وَعَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيبِ وَالِإِجْمَالِ  
 وَالْأَمْثَالِ الْحَسِيَّةِ . ثُمَّ لَا يَزَالُ الْإِسْتِعْدَادُ فِيهِ يَتَدَرَّجُ قَلِيلًا قَلِيلًا بِمُخَالَفَةِ مَسَائِلِ  
 ذَلِكَ الْفَنِّ وَتَكَرُّرِهَا عَلَيْهِ وَالِإِنْتِقَالَ فِيهَا مِنَ التَّقْرِيبِ إِلَى الْإِسْتِعْيَابِ الَّذِي فَوْقَهُ .  
 حَتَّى تَتِمَّ الْمَلَكَةُ فِي الْإِسْتِعْدَادِ ثُمَّ فِي التَّخْصِيلِ وَيُحِيطُ هُوَ بِمَسَائِلِ الْفَنِّ وَإِذَا أَلْقِيَتْ  
 عَلَيْهِ الْغَايَاتُ فِي الْبِدْءَاتِ وَهُوَ حِينئِذٍ عَاجِزٌ عَنِ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ وَيَعِيدُ عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ  
 لَهُ كُلُّ ذَهْنُهُ عَنْهَا وَحَسِبَ ذَلِكَ مِنْ صُعُوبَةِ الْعِلْمِ فِي نَفْسِهِ فَتَكَاسَلَ عَنْهُ وَأَنْحَرَفَ عَنِ  
 قَبُولِهِ وَتَمَادَى فِي هُجْرَانِهِ . وَإِنَّمَا أَتَى ذَلِكَ مِنْ سُوءِ التَّعْلِيمِ . وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُعَلِّمِ أَنْ  
 يَزِيدَ مُتَعَلِّمَهُ عَلَى فَهْمِ كِتَابِهِ الَّذِي أَكَبَّ عَلَى التَّعْلِيمِ مِنْهُ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ  
 قَبُولِهِ لِلتَّعْلِيمِ مُبْتَدِئًا كَانَ أَوْ مُتَنْهِيًا وَلَا يَخْلُطُ مَسَائِلَ الْكِتَابِ بِغَيْرِهَا حَتَّى يَعِينَهُ  
 مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَيَحْصُلُ أَغْرَاضُهُ وَيَسْتَوْلِي مِنْهُ عَلَى مَلَكَةِ بِهَا يَنْفَعُ فِي غَيْرِهِ . لِأَنَّ  
 الْمُتَعَلِّمَ إِذَا حَصَلَ مَلَكَةُ مَا فِي عِلْمِهِ مِنَ الْعُلُومِ اسْتَعَدَّ بِهَا لِقَبُولِ مَا بَقِيَ وَحَصَلَ لَهُ  
 نَشَاطٌ فِي طَلَبِ الْمَزِيدِ وَالنُّهُوضِ إِلَى مَا فَوْقَ حَتَّى يَسْتَوْلِي عَلَى غَايَاتِ الْعِلْمِ وَإِذَا  
 خَلَطَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ عَجِزَ عَنِ الْفَهْمِ وَأَذْرَكَهُ الْكَلَالُ وَأَنْطَمَسَ فِكْرُهُ وَيَبْسُ مِنَ التَّخْصِيلِ  
 وَهَجَرَ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ لَا تُطْوَلَ عَلَى  
 الْمُتَعَلِّمِ فِي الْفَنِّ الْوَاحِدِ بِتَفْرِيقِ الْمَجَالِسِ وَتَقْطِيعِ مَا بَيْنَهَا لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى النُّسْيَانِ  
 وَانْقِطَاعِ مَسَائِلِ الْفَنِّ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فَيَعْسُرُ حُصُولَ الْمَلَكَةِ بِتَفْرِيقِهَا . وَإِذَا  
 كَانَتْ أَوَائِلُ الْعِلْمِ وَأَوَاخِرُهُ حَاضِرَةً عِنْدَ الْفِكْرَةِ مُجَانِبَةً لِلنُّسْيَانِ كَانَتْ الْمَلَكَةُ أَيْسَرَ  
 حُصُولًا وَأَحْكَمَ ارْتِبَاطًا وَأَقْرَبَ صِبْغَةً لِأَنَّ الْمَلَكَاتِ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِتَتَابُعِ الْفِعْلِ  
 وَتَكَرُّرِهِ وَإِذَا تَنَوَّسِيَ الْفِعْلُ تَنَوَّسِيَتِ الْمَلَكَةُ النَّاشِئَةُ عَنْهُ . وَاللَّهُ عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا

(١) وفي نسخة أخرى : غرائب .

تَعَلَّمُونَ . وَمِنَ الْمَذَاهِبِ الْجَمِيلَةِ وَالطَّرِيقِ الْوَاجِبَةِ فِي التَّعْلِيمِ أَنْ لَا يُخْلَطَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ عُلَمَانٌ مَعًا فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قَلَّ أَنْ يَظْفَرَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا لِمَا فِيهِ مِنْ تَقْسِيمِ الْبَالِ وَأَنْصِرَافِهِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى تَفْهَمِ الْآخِرِ فَيَسْتَعْلِقَانِ مَعًا وَيَسْتَضَعِبَانِ وَيَعُودُ مِنْهُمَا بِالْخَبِيئَةِ . وَإِذَا تَفَرَّغَ الْفِكْرُ لِتَعْلِيمِ مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِ فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ أَجْدَرَ لِتَحْصِيلِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُوقِفُ لِلصَّوَابِ . وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمُتَعَلِّمُ أَنِّي أَتَحَفُّكَ بِفَائِدَةٍ فِي تَعَلُّمِكَ فَإِنْ تَلَقَّيْتَهَا بِالْقَبُولِ وَأَمْسَكْتَهَا بِيَدِ الصَّنَاعَةِ ظَفِرْتَ بِكُنْزٍ عَظِيمٍ وَذَخِيرَةٍ شَرِيفَةٍ وَأَقْدَمَ لَكَ مَقْدَمَةً تُعِينُكَ فِي فَهْمِهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْفِكْرَ الْإِنْسَانِيَّ طَبِيعَةً مَخْصُوصَةً فَطَرَهَا اللَّهُ كَمَا فَطَرَ سَائِرَ مُبْتَدِعَاتِهِ وَهُوَ ( وَجَدَانُ حَرَكَةِ لِلنَّفْسِ )<sup>(١)</sup> فِي الْبَطْنِ الْأَوْسَطِ مِنَ الدِّمَاغِ . تَارَةً يَكُونُ مَبْدَأُ لِلْأَفْعَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ وَتَارَةً يَكُونُ مَبْدَأُ لِعِلْمٍ مَا لَمْ يَكُنْ حَاصِلًا بِأَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَطْلُوبِ . وَقَدْ يَصُورُ طَرَفَيْهِ<sup>(٢)</sup> يَرُومُ نَفْيَهُ أَوْ إِثْبَاتَهُ فَيَلُوحُ لَهُ الْوَسْطُ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا أَسْرَعَ مِنْ لَمْحِ الْبَصَرِ إِنْ كَانَ وَاحِدًا . أَوْ يَنْتَقِلُ إِلَى تَحْصِيلِ آخِرِ إِنْ كَانَ مُتَعَدِّدًا وَيَصِيرُ إِلَى الظَّفَرِ بِمَطْلُوبِهِ . هَذَا شَأْنُ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَمَيَّزَ بِهَا الْبَشَرُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ . ثُمَّ الصَّنَاعَةُ الْمُنْطَقِيَّةُ هِيَ كَيْفِيَّةُ فِعْلٍ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ تَصِفُهُ لِتَعَلُّمِ سِدَادِهِ مِنْ خَطِيئِهِ وَأَنَّهَا وَإِنْ كَانَ الصَّوَابُ لَهَا ذَاتِيًّا إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَعْرِضُ لَهَا الْخَطَأُ فِي الْأَقْلَ مِنْ تَصَوُّرِ الطَّرَفَيْنِ عَلَى غَيْرِ صُورَتِهِمَا مِنْ اشْتِبَاهِ الْهَيْئَاتِ فِي نِظْمِ الْقَضَايَا وَتَرْتِيبِهَا لِلنُّتَاجِ فَتُعِينُ الْمُنْطِقُ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ وَرْطَةِ هَذَا الْفَسَادِ إِذَا عَرَضَ . فَالْمُنْطِقُ إِذَا أَمَرَ صِنَاعِيًّا مُسَاقِقًا لِلطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ وَمُنْطَبِقًا عَلَى صُورَةِ فِعْلِهَا وَلِكُونِهِ أَمْرًا صِنَاعِيًّا اسْتغْنَى عَنْهُ فِي الْأَكْثَرِ . وَلِذَلِكَ تَجَدُّ كَثِيرًا مِنْ فُحُولِ النُّظَارِ فِي الْخَلِيقَةِ يَحْصُلُونَ عَلَى الْمَطَالِبِ فِي الْعُلُومِ دُونَ صِنَاعَةِ عِلْمِ الْمُنْطِقِ وَلَا سِيَّمًا مَعَ صِدْقِ النِّيَّةِ وَالتَّعَرُّضِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ

(١) وفي النسخة الباريسية : فعل حركة في النفس وقوة .

(٢) وفي النسخة الباريسية : طريقته .



ذَلِكَ أَعْظَمُ مَعْنَى . وَيَسْلُكُونَ بِالطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ عَلَى سَدَادِهَا فَيَنْضِي بِالطَّبَعِ إِلَى حُصُولِ الْوَسْطِ وَالْعِلْمِ بِالْمَطْلُوبِ كَمَا فَطَرَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ . ثُمَّ مِنْ دُونِ هَذَا الْأَمْرِ الصَّنَاعِيِّ الَّذِي هُوَ الْمَنْطِقُ مَقْدَمَةٌ أُخْرَى مِنَ التَّعَلُّمِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْأَلْفَاظِ وَدَلَالَتِهَا عَلَى الْمَعَانِي الذَّهْنِيَّةِ تَرُدُّهَا<sup>(١)</sup> مِنْ مُشَافَهَةِ الرُّسُومِ بِالْكِتَابِ وَمُشَافَهَةِ اللِّسَانِ بِالْخِطَابِ . فَلَا بُدَّ أَيْهَا الْمُتَعَلِّمُ مِنْ مُجَاوَزَتِكَ هَذِهِ الْحُجْبِ كُلِّهَا إِلَى الْفِكْرِ فِي مَطْلُوبِكَ . فَأَوْلَى ، دَلَالَةُ الْكِتَابِيَّةِ الْمَرْسُومَةِ عَلَى الْأَلْفَاظِ الْمُقُولَةِ وَهِيَ أَحْفَهَا<sup>(٢)</sup> ثُمَّ دَلَالَةُ الْأَلْفَاظِ الْمُقُولَةِ عَلَى الْمَعَانِي الْمَطْلُوبَةِ ثُمَّ الْقَوَانِينُ فِي تَرْتِيبِ الْمَعَانِي لِلِاسْتِدْلَالِ فِي قَوْلِهَا الْمَعْرُوفَةِ فِي صِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ . ثُمَّ تِلْكَ الْمَعَانِي مُجَرَّدَةٌ فِي الْفِكْرِ اشْتِرَاطًا يُقْتَنَصُ بِهَا الْمَطْلُوبُ بِالطَّبِيعَةِ الْفِكْرِيَّةِ بِالتَّعَرُّضِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ وَمَوَاهِبِهِ . وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَتَجَاوَزُ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ بِسُرْعَةٍ وَلَا يَقْطَعُ هَذِهِ الْحُجْبَ فِي التَّعْلِيمِ بِسُهُولَةٍ ، بَلْ رُبَّمَا وَقَفَ الذَّهْنُ فِي حُجْبِ الْأَلْفَاظِ بِالْمُنَاقَشَاتِ أَوْ عَثَرَ فِي اشْتِرَاكِ الْأَدِلَّةِ بِشَغْبِ الْجِدَالِ وَالشُّبُهَاتِ وَقَعَدَ عَنْ تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ . وَلَمْ يَكُنْ يَتَخَلَّصُ مِنْ تِلْكَ الْعَمْرَةِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ هَدَاهُ اللَّهُ . فَإِذَا ابْتَلَيْتَ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَعَرَضَ لَكَ ارْتِبَاكَ<sup>(٣)</sup> فِي فَهْمِكَ أَوْ تَشْغِيبَ الشُّبُهَاتِ فِي ذَهْنِكَ فَاطْرَحْ ذَلِكَ وَانْتَبِذْ حُجْبَ الْأَلْفَاظِ وَعَوَائِقَ الشُّبُهَاتِ وَاتْرِكِ الْأَمْرَ الصَّنَاعِيَّ جُمْلَةً وَاخْلُصْ إِلَى فِضَاءِ الْفِكْرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي فَطَرْتَ عَلَيْهِ . وَسَرِّحْ نَظْرَكَ فِيهِ وَفَرِّغْ ذَهْنَكَ فِيهِ لِلْفَوْصِ عَلَى مَرَامِكَ مِنْهُ وَاضْعًا لَهَا حَيْثُ وَضَعَهَا أَكَابِرُ النُّظَارِ قَبْلَكَ مُسْتَعْرِضًا لِلْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ كَمَا فَتَحَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَهْنِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَعَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ . فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ اشْرَقَتْ عَلَيْكَ أَنْوَارُ الْفَتْحِ مِنَ اللَّهِ بِالظَّفْرِ بِمَطْلُوبِكَ وَحَصَلَ الْإِمَامُ الْوَسْطُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ<sup>(٤)</sup> هَذَا الْفِكْرِ وَنَظَرَهُ عَلَيْهِ كَمَا قُلْنَا وَحِينَئِذٍ فَارْجِعْ

( ١ ) وفي النسخة الباريسية : تؤديها .

( ٢ ) وفي النسخة الباريسية : احفظها .

( ٣ ) وفي النسخة الباريسية : ارتياب .

( ٤ ) وفي النسخة الباريسية : من مفيضات .

به إلى قَوَالِبِ الأدلّةِ وَصَوْرَهَا فَأَفْرَغَهُ فِيهَا وَوَفَّهَ حَقَّهُ مِنَ القَانُونِ الصَّنَاعِيّ ثُمَّ اكْتَسَهُ  
صَوْرَ الأَلْفَاطِ وَأَبْرَزَهُ إِلَى عَالَمِ الخِطَابِ وَالمُشَافَهَةِ وَثَبِقَ العُرَى صَحِيحَ البُنْيَانِ .  
وَأَمَّا إِنْ وَقَفْتَ عِنْدَ المُنَاقَشَةِ وَالمُشَبِّهَةِ فِي الأدلّةِ الصَّنَاعِيَّةِ وَتَمْجِيسِ صَوَابِهَا مِنْ  
خَطْبِهَا وَهَذِهِ أُمُورٌ صِنَاعِيَّةٌ وَضَمِيمَةٌ تَسْتَوِي جِهَاتُهَا المْتَعَدَّةُ وَتَتَشَابَهُ لِأَجْلِ الوُضْعِ  
وَالإِضْطِلَاحِ فَلَا تَتَمَيَّزُ جِهَةٌ الحَقِّ مِنْهَا إِذْ جِهَةٌ الحَقِّ إِنَّمَا تَسْتَسِينُ<sup>(١)</sup> إِذَا كَانَتْ  
بِالطَّبِيعِ فَيَسْتَمِرُّ مَا حَصَلَ مِنَ الشُّكِّ وَالإِزْتِيَابِ وَتُسَدَّلُ الحُجُبُ عَلَى المَطْلُوبِ  
وَتَقْعُدُ بِالنَّظَرِ عَنِ تَحْصِيلِهِ . وَهَذَا شَأْنُ الأَكْثَرِينَ مِنَ النُّظَّارِ وَالمُتَأَخِّرِينَ سِيَّمَا  
مَنْ سَبَقَتْ لَهُ عَجْمَةٌ فِي لِسَانِهِ فَرَبَطَتْ عَنْ ذَهَبِهِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ شَغَبٌ بِالقَانُونِ  
المُنْطَقِيّ تَعَصَّبَ لَهُ فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ الذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ الحَقِّ بِالطَّبِيعِ فَيَقَعُ فِي الحَيْرَةِ  
بَيْنَ شَبِّهِ الأَدلّةِ وَشُكُوكِهَا وَلَا يَكَادُ يَخْلُصُ مِنْهَا . وَالذَّرِيعَةُ إِلَى إِدْرَاكِ الحَقِّ  
بِالطَّبِيعِ إِنَّمَا هُوَ الفِكْرُ الطَّبِيعِيُّ كَمَا قُلْنَا إِذَا جُرِّدَ عَنْ جَمِيعِ الأَوْهَامِ وَتَعَرَّضَ  
النَّظَرُ فِيهِ إِلَى رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَأمَّا المُنْطَقُ فَإِنَّمَا هُوَ وَاصِفٌ لِفِعْلِ هَذَا الفِكْرِ  
فَيَسَاوِقُهُ فِي الأَكْثَرِ . فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَاسْتَمْطِرْ رَحْمَةَ اللهِ تَعَالَى مَتَى أُعْزَكَ فَهَمُّ  
المَسَائِلِ تُشْرِقُ عَلَيْكَ انْوَارُهُ بِالألْهَامِ إِلَى الصَّوَابِ . وَاللهُ الهَادِي إِلَى رَحْمَتِهِ وَمَا  
العِلْمُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ .

## الفصل الثامن والثلاثون

في أن العلوم الالهية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرع المسائل

إِغْلَمَ أَنَّ العُلُومَ المْتَعَارِفَةَ بَيْنَ أَهْلِ العُمَرَانِ عَلَى صِنْفَيْنِ : عُلُومٌ مَقْصُودَةٌ  
بِالذَّاتِ كَالشَّرْعِيَّاتِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالحَدِيثِ وَالفِقهِ وَعِلْمِ الكَلَامِ وَكَالطَّبِيعِيَّاتِ  
وَالإِلَهِيَّاتِ مِنَ الفَلَسَفَةِ ، وَعُلُومٌ هِيَ وَسِيلَةٌ أَلِيَّةٌ<sup>(٢)</sup> لِهَذِهِ العُلُومِ كَالعَرَبِيَّةِ وَالحِسَابِ

(١) وفي النسخة الباريسية : تتميز .

(٢) وفي نسخة أخرى : آلة ووسيلة .

وغيرهما للشَّرْعِيَّاتِ كَالْمَنْطِقِ لِلْفَلَسَفَةِ . وَرُبَّمَا كَانَ آلَةُ لِعِلْمِ الْكَلَامِ وَأَصُولِ الْفِقْهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ مَقَاصِدٌ فَلَا حَرَجَ فِي تَوْسِيعَةِ الْكَلَامِ فِيهَا وَتَفْرِيعِ الْمَسَائِلِ وَاسْتِكْشَافِ الْأَدِلَّةِ وَالْأَنْظَارِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ طَالِبَهَا تَمَكُّنًا فِي مَلَكَتِهِ وَإيضًا حَافِظًا لِمَعَانِيهَا الْمَقْصُودَةِ . وَأَمَّا الْعُلُومُ الَّتِي هِيَ آلَةٌ لِغَيْرِهَا مِثْلَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمَنْطِقِ وَأَمْثَلِهِمَا فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا إِلَّا مِنْ حَيْثُ هِيَ آلَةٌ لِذَلِكَ الْغَيْرِ فَقَطُّ . وَلَا يُوسَعُ فِيهَا الْكَلَامُ وَلَا تُفْرَعُ الْمَسَائِلُ لِأَنَّ ذَلِكَ مُخْرَجٌ لَهَا عَنِ الْمَقْصُودِ إِذِ الْمَقْصُودُ مِنْهَا مَا هِيَ آلَةٌ لَهُ لَا غَيْرُ . فَكُلَّمَا خَرَجَتْ عَنْ ذَلِكَ خَرَجَتْ عَنِ الْمَقْصُودِ وَصَارَ الْإِشْتِغَالُ بِهَا لِنَوَاحٍ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ صُعُوبَةِ الْحُصُولِ عَلَى مَلَكَتِهَا بِطَوْلِهَا وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا . وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ غَائِقًا عَنْ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ بِالذَّاتِ لِطَوْلِ وَسَائِلِهَا مَعَ أَنَّ شَأْنَهَا أَهْمٌ وَالْعُمُرُ يَقْضُرُ عَنْ تَحْصِيلِ الْجَمِيعِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ فَيَكُونُ الْإِشْتِغَالُ بِهَذِهِ الْعُلُومِ الْآلِيَّةِ تَضْيِيعًا لِلْعُمُرِ وَشُغْلًا بِمَا لَا يَغْنِي . وَهَذَا كَمَا فَعَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ فِي صِنَاعَةِ النَّحْوِ وَصِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ وَأَصُولِ الْفِقْهِ لِأَنَّهُمْ أَوْسَعُوا دَائِرَةَ الْكَلَامِ فِيهَا وَأَكْثَرُوا مِنَ التَّفَارِيعِ وَالِاسْتِدْلالاتِ بِمَا أَخْرَجَهَا عَنْ كَوْنِهَا آلَةً وَصَيَّرَهَا مِنْ الْمَقَاصِدِ <sup>(١)</sup> وَرُبَّمَا يَقَعُ فِيهَا لِذَلِكَ أَنْظَارٌ وَمَسَائِلٌ لَا حَاجَةَ بِهَا فِي الْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ فِيهِ مِنْ نَوْعِ اللَّغْوِ وَهِيَ أَيْضًا مُضِرَّةٌ بِالْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ لِأَنَّ الْمُتَعَلِّمِينَ اِهْتِمَامَهُمْ بِالْعُلُومِ الْمَقْصُودَةِ أَكْثَرَ مِنْ اِهْتِمَامِهِمْ بِوَسَائِلِهَا <sup>(٢)</sup> فَإِذَا قَطَعُوا الْعُمُرَ فِي تَحْصِيلِ الْوَسَائِلِ فَمَتَى يَظْفَرُونَ بِالْمَقَاصِدِ ؟ فَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ لِهَذِهِ الْعُلُومِ الْآلِيَّةِ أَنْ لَا يَسْتَنْبِحُوا فِي شَأْنِهَا وَلَا يَسْتَكْشِرُوا مِنْ مَسَائِلِهَا وَيُنَبِّهُوا الْمُتَعَلِّمَ عَلَى الْغَرَضِ مِنْهَا وَيَقْفُوا بِهِ عِنْدَهُ . فَمَنْ نَزَعَتْ بِهِ هِمَّتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ التَّوَعُّلِ وَرَأَى مِنْ نَفْسِهِ قِيَامًا بِذَلِكَ وَكِفَايَةً بِهِ فَلْيُتْرَقْ <sup>(٣)</sup> لَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْمَرَاقِبِ صَغْبًا أَوْ سَهْلًا وَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ .

(١) وفي نسخة أخرى : وصيرها مقصودة بذاتها .

(٢) وفي نسخة أخرى : بهذه الآلات والوسائل .

(٣) وفي نسخة أخرى : فليختر لنفسه .

## الفصل التاسع والثلاثون

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه

إِغْلَمَ أَنْ تَعْلِيمَ الْوُلْدَانِ لِلْقُرْآنِ شِعَارُ الدِّينِ أَخَذَ بِهِ أَهْلُ الْمِلَّةِ وَدَرَجُوا عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَمْصَارِهِمْ لِمَا يَسْبِقُ فِيهِ إِلَى الْقُلُوبِ مِنْ رُسُخِ الْإِيمَانِ وَعَقَائِدِهِ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَبَعْضِ مَثُورِ الْأَحَادِيثِ . وَصَارَ الْقُرْآنُ أَصْلَ التَّعْلِيمِ الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ مَا يَخْصُلُ بَعْدَ مِنَ الْمَلَكَاتِ . وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ التَّعْلِيمَ فِي الصِّغَرِ أَشَدَّ رُسُخًا وَهُوَ أَصْلٌ لِمَا بَعْدَهُ لِأَنَّ السَّابِقَ الْأَوَّلَ لِلْقُلُوبِ كَالْأَسَاسِ لِلْمَلَكَاتِ . وَعَلَى حَسَبِ الْأَسَاسِ وَأَسَالِيهِ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَنْبَنِي عَلَيْهِ . وَاخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لِلْوُلْدَانِ بِاخْتِلَافِهِمْ بِإِعْتِبَارِ مَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ مِنَ الْمَلَكَاتِ . فَأَمَّا أَهْلُ الْمَغْرِبِ فَمَذْهَبُهُمْ فِي الْوُلْدَانِ الْإِقْتِصَارَ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ فَقَطْ . وَأَخَذَهُمْ أَثْنَاءَ الْمُدَارَسَةِ بِالرُّسْمِ وَمَسَائِلِهِ وَاخْتِلَافُ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ فِيهِ لَا يَخْلُطُونَ ذَلِكَ بِسِوَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ لَا مِنْ حَدِيثٍ وَلَا مِنْ فِقْهِ وَلَا مِنْ شِعْرِ وَلَا مِنْ كَلَامِ الْمَغْرِبِ إِلَى أَنْ يَخْتَدِقَ فِيهِ أَوْ يَنْقَطِعَ دُونَهُ فَيَكُونُ انْقِطَاعُهُ فِي الْغَالِبِ انْقِطَاعًا عَنِ الْعِلْمِ بِالْجُمْلَةِ . وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بِالْمَغْرِبِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ قُرَى<sup>(١)</sup> الْبُرْبُرِ . أُمَّةَ الْمَغْرِبِ فِي وُلْدَانِهِمْ إِلَى أَنْ يُجَاوِزُوا حَدَّ الْبُلُوغِ إِلَى الشُّبُهَةِ . وَكَذَا فِي الْكَبِيرِ إِذَا رَجَعَ<sup>(٢)</sup> مُدَارَسَةَ الْقُرْآنِ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنْ عُمُرِهِ . فَهَمَّ لِذَلِكَ أَقْوَمَ عَلَى رَسْمِ الْقُرْآنِ وَحَفِظِهِ مِنْ سِوَاهُمْ . وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَمَذْهَبُهُمْ تَعْلِيمَ الْقُرْآنِ وَالْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ هُوَ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُرَاعُونَهُ فِي التَّعْلِيمِ . إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ أَصْلَ ذَلِكَ وَأَسْأَةً وَمَنْبَعَ الدِّينِ وَالْعُلُومِ جَعَلُوهُ أَصْلًا فِي التَّعْلِيمِ . فَلَا يَقْتَصِرُونَ لِذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَطْ بَلْ يَخْلُطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوُلْدَانِ رِوَايَةَ الشُّعْرِ فِي الْغَالِبِ وَالتَّرْسُلَ وَأَخَذَهُمْ بِقَوَانِينِ

(١) وفي النسخة الباريسية : من قراء البربر .

(٢) وفي نسخة أخرى : راجع .

العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب . ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه . بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا<sup>(١)</sup> بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم . لكنهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول . وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعدادا إذا وجد المعلم . وأما أهل أفريقيا فيخطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها إلا أن عنايتهم بالقرآن واستنظار<sup>(٢)</sup> الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك . وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس . واستقروا بتونس وعندهم أخذ ولدانهم بعد ذلك . وأما أهل المشرق فيخطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا ولا أدري بم عنايتهم منها . والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة ولا يخطون بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفرادهم كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان . وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصير عن الإجابة ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه ويتتبعه من أهل صنعته . فأما أهل أفريقية والمغرب فأفادهم الإقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشَر مضر وفون عن الإتيان بمثله فهم مضر وفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاختداء بها . وليس لهم ملكة في غير

(١) شد من المعلم أخذ . ( قاموس ) .

(٢) وفي نسخة أخرى : استظهار .

أَسَالِيهِ فَلَا يَخْصُلُ لِصَاحِبِهِ مَلَكَةٌ فِي اللِّسَانِ العَرَبِيِّ وَحَظُهُ الجُمُودُ فِي العِبَارَاتِ وَقَلَّةُ التَّصْرُفِ فِي الكَلَامِ . وَرُبَّمَا كَانَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةٍ فِي ذَلِكَ أَخْفَ مِنْ أَهْلِ المَغْرِبِ لِمَا يَخْلِطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمُ القُرْآنَ بِعِبَارَاتِ العُلُومِ فِي قَوَائِنِهَا كَمَا قَلْنَا فَيَقْتَدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّصْرُفِ وَمُحَاذَاةِ المِثْلِ بِالمِثْلِ إِلَّا أَنَّ مَلَكَتَهُمْ فِي ذَلِكَ قَاصِرَةٌ عَنِ البَلَاغَةِ كَمَا سَيَأْتِي فِي فَضْلِهِ . وَأَمَّا أَهْلُ الأَنْدَلُسِ فَأَفَادَهُمُ التَّفَنُّنُ فِي التَّعْلِيمِ وَكثْرَةُ رِوَايَةِ الشُّعْرِ وَالتَّرْسُلُ وَمُدَارَسَةُ العَرَبِيَّةِ مِنْ أَوَّلِ العُمُرِ . حُصُولَ مَلَكَةٍ صَارُوا بِهَا أَعْرَفَ فِي اللِّسَانِ العَرَبِيِّ . وَقَصُرُوا فِي سَائِرِ العُلُومِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ مُدَارَسَةِ القُرْآنِ وَالحَدِيثِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ العُلُومِ وَأَسَاسُهَا . فَكَانُوا لِذَلِكَ أَهْلَ حَظٍّ وَادِبِّ بَارِعٍ أَوْ مُقْصِرٍ ، عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ التَّعْلِيمُ الثَّانِي مِنْ بَعْدِ تَعْلِيمِ الصَّبِيِّ <sup>(١)</sup> . وَلَقَدْ ذَهَبَ القَاضِي أَبُو بَكْرٍ بَنُ العَرَبِيِّ فِي كِتَابِ رَحْلَتِهِ إِلَى طَرِيقَةِ عَرَبِيَّةٍ فِي وَجْهِ التَّعْلِيمِ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَأَ وَقَدَّمَ تَعْلِيمَ العَرَبِيَّةِ وَالشُّعْرِ عَلَى سَائِرِ العُلُومِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ . قَالَ : « لَأَنَّ الشُّعْرَ دِيْوَانُ العَرَبِ وَيَدْعُو عَلَى تَقْدِيمِهِ وَتَعْلِيمِهِ <sup>(٢)</sup> العَرَبِيَّةِ فِي التَّعْلِيمِ ضَرُورَةٌ فَسَادَ اللُّغَةُ ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى الحِسَابِ فَيَتَمَرَّنُ فِيهِ حَتَّى يَرَى القَوَائِنَ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى دَرَسِ القُرْآنِ فَإِنَّهُ يَتَيَسَّرُ عَلَيْكَ بِهَذِهِ المُقَدِّمَةِ » . ثُمَّ قَالَ : « وَيَا غَفْلَةَ أَهْلِ بِلَادِنَا فِي أَنْ يُؤَخَّرَ الصَّبِيُّ بِكِتَابِ اللّهِ فِي أَوَامِرِهِ <sup>(٣)</sup> يَقْرَأُ مَا لَا يَفْهَمُ وَيَنْصَبُ فِي أَمْرٍ غَيْرِهِ أَهْمٌ مَا عَلَيْهِ مِنْهُ » . ثُمَّ قَالَ : « يَنْظُرُ فِي أَصُولِ الدِّينِ ثُمَّ أَصُولِ الفِقْهِ ثُمَّ الجَدَلِ ثُمَّ الحَدِيثِ وَعُلُومِهِ » وَنَهَى مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَخْلُطَ فِي التَّعْلِيمِ عِلْمَانِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ المُتَعَلِّمُ قَابِلًا لِذَلِكَ بِجُودَةِ الفِهْمِ وَالنَّشَاطِ . هَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ القَاضِي أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللّهُ وَهُوَ لَعَمْرِي مَذْهَبٌ حَسَنٌ إِلَّا أَنَّ العَوَائِدَ لَا تُسَاعِدُ عَلَيْهِ وَهِيَ أَمْلَكُ بِالأَحْوَالِ وَوَجْهِ مَا اخْتَصَّتْ بِهِ العَوَائِدُ مِنْ تَقَدُّمِ دِرَاسَةِ القُرْآنِ إِثَارًا لِلتَّبَرُّكِ وَالثَّوَابِ ، وَخَشْيَةِ مَا يَعرِضُ لِلوَلَدِ فِي جُنُونِ الصَّبِيِّ مِنَ الآفَاتِ وَالعَوَاطِعِ

(١) وفي نسخة أخرى : الصبا .

(٢) وفي نسخة أخرى : تقديم .

(٣) وفي نسخة أخرى : أول عمره .

عَنِ الْعِلْمِ فَيَفُوتُهُ الْقُرْآنُ . لِأَنَّهُ مَا دَامَ فِي الْحَجَرِ مُتَقَادًا لِلْحُكْمِ . فَإِذَا تَجَاوَزَ الْبُلُوغَ  
وَأَنْحَلَّ مِنْ رِبْقَةِ الْقَهْرِ فَرُبَّمَا عَصَفَتْ بِهِ رِيَاخُ الشَّيْبَةِ فَأَلْقَتْهُ بِسَاحِلِ الْبَطَالَةِ  
فَيَفْتَنُمُونَ فِي زَمَانِ الْحَجَرِ وَرِبْقَةِ الْحُكْمِ تَحْصِيلَ الْقُرْآنِ لئَلَّا يَذْهَبَ خُلُوعًا مِنْهُ . وَلَوْ  
حَصَلَ الْيَقِينُ بِاسْتِمْرَارِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَقَبُولِهِ التَّعْلِيمَ لَكَانَ هَذَا الْمَذْهَبُ الَّذِي  
ذَكَرَهُ الْقَاضِي أَوْلَى مَا أَخَذَ بِهِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ . وَلَكِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُشَاءُ  
لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ .

## الفصل الأربعون

في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم

وَذَلِكَ أَنْ إِرْهَافَ الْحَدِّ بِالتَّعْلِيمِ مُضِرٌّ بِالتَّمَتُّعِ سَيِّمًا فِي أَصَاغِرِ الْوُلْدِ لِأَنَّهُ مِنْ  
سُوءِ الْمَلَكَةِ . وَمَنْ كَانَ مَرْبَاهُ بِالْعَسْفِ وَالْقَهْرِ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ أَوْ الْمَمَالِكِ أَوْ الْخَدَمِ  
سَطَا بِهِ الْقَهْرُ وَضَيَّقَ عَنِ النَّفْسِ فِي انْبِسَاطِهَا وَذَهَبَ بِنَشَاطِهَا وَدَعَاهُ إِلَى الْكَسَلِ  
وَحَمَلَ عَلَى الْكُذِبِ وَالْخُبْثِ وَهُوَ التَّظَاهُرُ بِغَيْرِ مَا فِي ضَمِيرِهِ خَوْفًا مِنْ انْبِسَاطِ  
الْأَيْدِي بِالْقَهْرِ عَلَيْهِ وَعَلِمَهُ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ لِذَلِكَ وَصَارَتْ لَهُ هَذِهِ عَادَةٌ وَخُلُقًا  
وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ الْإِنْسَانِيَّةَ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ الْاجْتِمَاعِ وَالتَّمَرُّنُ<sup>(١)</sup> وَهِيَ الْحِمِيَّةُ  
وَالْمُدَافَعَةُ عَنِ نَفْسِهِ وَمَنْزِلِهِ . وَصَارَ عِيَالًا عَلَى غَيْرِهِ فِي ذَلِكَ بَلْ وَكَسَلَتْ النَّفْسُ عَنِ  
اِكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ وَالْخُلُقِ الْجَمِيلِ فَاتَّقَبَضَتْ عَنْ غَايَتِهَا وَمَدَى إِنْسَانِيَّتِهَا فَارْتَكَسَ  
وَعَادَ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ . وَهَكَذَا وَقَعَ لِكُلِّ أُمَّةٍ حَصَلَتْ فِي قَبْضَةِ الْقَهْرِ وَنَالَ مِنْهَا  
الْعَسْفُ وَاعْتَبَرَهُ فِي كُلِّ مَنْ يَمْلِكُ أَمْرَهُ عَلَيْهِ . وَلَا تَكُونُ الْمَلَكَةُ الْكَافِلَةُ لَهُ رَفِيقَةً  
بِهِ . وَتَجِدُ ذَلِكَ فِيهِمْ اسْتِقْرَاءً وَانظُرُهُ فِي الْيَهُودِ وَمَا حَصَلَ بِذَلِكَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ  
السُّوءِ حَتَّى إِنَّهُمْ يُوصَفُونَ فِي كُلِّ أَفْقٍ . وَعَضُرَ بِالْحَرْجِ<sup>(٢)</sup> وَمَعْنَاهُ فِي الْإِضْطِلَاحِ

(١) وفي نسخة أخرى : التمدن .

(٢) وفي نسخة أخرى : بالخرج .

المشهور التخابث والكيد وسببه ما قلناه . فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبد<sup>(١)</sup> عليهما في التأديب . وقد قال محمد بن أبي يزيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين : « لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً » . ومن كلام عمر رضي الله عنه : « من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله » . حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب وعلماً بأن المقدر الذي عينه الشرع لذلك أملك له فإنه أعلم بمصلحته . ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده . قال خلف الأحمر : بعث إلي الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين فقال : « يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة وكُنْ لَهُ بِحَيْثُ وَضَعَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَقْرَبُ الْقُرْآنَ وَعَرَفَهُ الْأَخْبَارَ وَرَوَى الْأَشْعَارَ وَعَلِمَهُ السُّنْنَ وَبَصَّرَهُ بِمَوَاقِعِ الْكَلَامِ وَبَذِيهِ وَأَمْنَعَهُ مِنَ الضَّحِكِ إِلَّا فِي أَوْقَاتِهِ وَخَذَهُ بِتَعْظِيمِ مَشَايِخِ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَرَفَعَ مَجَالِسِ الْقَوَادِ إِذَا حَضَرُوا مَجْلِسَهُ . وَلَا تَمُرَّنْ بِكَ سَاعَةً إِلَّا وَأَنْتَ مُغْتَنِمٌ فَائِدَةً تَفِيدُهُ إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخزِنَهُ فْتَمِيتَ ذَهَنَهُ . وَلَا تَمْنَعَنَّ فِي مَسَامَحَتِهِ فَيَسْتَجْلِي الْفَرَاغَ وَيَأْلَفُهُ . وَقَوْمُهُ مَا اسْتَطَعْتَ بِالْقُرْبِ وَالْمَلَانِيَةِ فَإِنَّ أَبَاهُمَا فَعَلِيكَ بِالشَّدَةِ وَالْغَلْظَةِ » . انتهى .

## الفصل الحادي والأربعون

في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل : تارة علماً وتعليماً وإلقاءً وتارة محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة . إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً . فعلى

(١) وفي النسخة الباريسية : يشدوا عليهم وفي نسخة أخرى : يستبدوا .



قَدْرَ كَثْرَةِ الشُّيُوخِ يَكُونُ حُصُولُ الْمَلَكَاتِ وَرُسُوخَهَا . وَالِإِضْطِلَاحَاتُ أَيْضًا فِي تَعْلِيمِ الْعُلُومِ مُخْلَطَةٌ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ حَتَّى لَقَدْ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الْعِلْمِ . وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ ذَلِكَ إِلَّا مَبَاشَرَتَهُ لِإِخْتِلَافِ الطَّرِيقِ فِيهَا مِنَ الْمُعَلِّمِينَ . فَلِقَاءُ أَهْلِ الْعُلُومِ وَتَعَدُّدُ الْمَشَايخِ يُفِيدُهُ تَمْيِيزَ الْإِضْطِلَاحَاتِ بِمَا يَرَاهُ مِنْ إِخْتِلَافِ طَرِيقِهِمْ فِيهَا فَيَجْرُدُ الْعِلْمَ عَنْهَا وَيَعْلَمُ أَنَّهَا أَنْحَاءُ تَعْلِيمٍ وَطُرُقُ تَوْصِلُ وَتَنْهَضُ قُوَاهُ إِلَى الرُّسُوخِ وَالِإِسْتِحْكَامِ فِي الْمَكَانِ (١) وَتُصَحِّحُ مَعَارِفَهُ وَتُمَيِّزُهَا (٢) عَنْ سِوَاهَا مَعَ تَقْوِيَةِ مَلَكَتَيْهِ بِالْمَبَاشَرَةِ وَالتَّلْقِينِ وَكَثْرَتِهِمَا مِنَ الْمَشِيخَةِ عِنْدَ تَعَدُّدِهِمْ وَتَنَوُّعِهِمْ . وَهَذَا لَمَنْ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ طُرُقَ الْعِلْمِ وَالْهِدَايَةَ . فَالرَّحْلَةَ لَا بُدَّ مِنْهَا فِي طَلْبِ الْعِلْمِ لِإِكْتِسَابِ الْفَوَائِدِ وَالْكَمَالِ بِلِقَاءِ الْمَشَايخِ وَمَبَاشَرَةِ الرَّجَالِ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

## الفصل الثاني والأربعون

في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ مُعْتَادُونَ النَّظَرَ الْفِكْرِيَّ وَالْغَوْصَ عَلَى الْمَعَانِي وَأَنْتِزَاعَهَا مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ وَتَجْرِيدَهَا فِي الذَّهْنِ ، أُمُورًا كَلِيَّةً عَامَّةً لِيُحْكَمَ عَلَيْهَا بِأَمْرِ الْعُمُومِ لَا بِخُصُوصِ مَادَّةٍ وَلَا شَخْصٍ وَلَا جَيْلٍ وَلَا أُمَّةٍ وَلَا صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ . وَيُطَبِّقُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْكُلِّيَّ عَلَى الْخَارِجِيَّاتِ . وَأَيْضًا يَقْيِسُونَ الْأُمُورَ عَلَى أَشْبَاهِهَا وَأَمْثَالِهَا بِمَا اعْتَادَوْهُ مِنَ الْقِيَاسِ الْفِقْهِيِّ . فَلَا تَزَالُ أَحْكَامُهُمْ وَأَنْظَارُهُمْ كُلِّهَا فِي الذَّهْنِ وَلَا تُصِيرُ إِلَى الْمُطَابَقَةِ إِلَّا بَعْدَ الْفِرَاقِ مِنَ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ . وَلَا تُصِيرُ بِالْجُمْلَةِ إِلَى الْمُطَابَقَةِ وَإِنَّمَا يَتَفَرَّغُ مَا فِي الْخَارِجِ عَمَّا فِي الذَّهْنِ مِنْ ذَلِكَ كَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّهَا فُرُوعٌ

(١) وفي نسخة أخرى : في الملكات .

(٢) وفي النسخة الباريسية : وتصحيح معارفها وتمييزها عن سواها .

عَمَّا فِي الْمَحْفُوظِ مِنْ أَدْلَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَتَطْلُبُ مَطَابَقَةَ مَا فِي الْخَارِجِ لَهَا عَكْسَ  
الْأَنْظَارِ<sup>(١)</sup> فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تَطْلُبُ فِي صَحَّتِهَا مَطَابَقَتَهَا لِمَا فِي الْخَارِجِ . فَهَمَّ  
مَتَعَوِّدُونَ فِي سَائِرِ أَنْظَارِهِمُ الْأُمُورَ الذَّهْنِيَّةَ وَالْأَنْظَارَ الْفِكْرِيَّةَ لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا .  
وَالسِّيَاسَةَ يَخْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلَى مُرَاعَاةِ مَا فِي الْخَارِجِ وَمَا يَلْحَقُهَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَيَتَّبِعُهَا  
فَإِنَّهَا خَفِيَّةٌ . وَلَعَلَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَا يَمْنَعُ مِنَ الْحَاقِقِ بِشِبْهِهِ أَوْ مِثَالِ وَيُنَاقِي الْكُلِّيَّ  
الَّذِي يَحَاوُلُ تَطْبِيقَهُ عَلَيْهَا . وَلَا يُقَاسُ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ عَلَى الْآخَرِ كَمَا  
اشْتَبَهَا فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ فَلَعَلَّهَا اخْتَلَفَا فِي أُمُورٍ فَتَكُونُ الْعُلَمَاءُ لِأَجْلِ مَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ  
تَعْمِيمِ الْأَحْكَامِ وَقِيَاسِ الْأُمُورِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ إِذَا نَظَرُوا فِي السِّيَاسَةَ أَفْرَعُوا ذَلِكَ  
فِي قَالِبِ أَنْظَارِهِمْ وَنَوْعِ اسْتِدْلَالِهِمْ فَيَقْعُونَ فِي الْغَلَطِ كَثِيرًا وَلَا يُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ .  
وَيَلْحَقُ بِهِمْ أَهْلُ الذِّكَاةِ وَالْكَيْسِ مِنْ أَهْلِ الْعُمَرَانِ لِأَنَّهُمْ يَنْزَعُونَ بِثَقُوبِ أَذْهَانِهِمْ  
إِلَى مِثْلِ شَأْنِ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْعُوصِ عَلَى الْمَعَانِي وَالْقِيَاسِ وَالْمَحَاكَاةِ فَيَقْعُونَ فِي  
الْغَلَطِ . وَالْعَامِيُّ السَّلِيمُ الطَّبِيعِ الْمُتَوَسِّطِ الْكَيْسِ لِقُصُورِ فِكْرِهِ عَنْ ذَلِكَ وَعَدَمِ  
اعْتِيَادِهِ إِيَّاهُ يَتَّقَصِرُ لِكُلِّ مَادَّةٍ عَلَى حُكْمِهَا وَفِي كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ  
عَلَى مَا اخْتَصَّ بِهِ وَلَا يُعَدِّي الْحُكْمَ بِقِيَاسٍ وَلَا تَعْمِيمٍ وَلَا يَفَارِقُ فِي أَكْثَرِ نَظَرِهِ  
الْمَوَادَّ الْمَحْسُوسَةَ وَلَا يُجَاوِزُهَا فِي ذَهْنِهِ كَالسَّابِحِ لَا يَفَارِقُ الْبَرَّ عِنْدَ الْمَوْجِ . قَالَ  
الشَّاعِرُ :

فَلَا تُوَعِّلَنَّ إِذَا مَا سَبَحْتَ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي السَّاحِلِ

فَيَكُونُ مَأْمُونًا مِنَ النَّظَرِ فِي سِيَاسَتِهِ مُسْتَقِيمَ النَّظَرِ فِي مُعَامَلَةِ أُنْبَاءِ جَنْسِهِ  
فَيَحْسُنُ مَعَاشَهُ وَتَتَدَفَعُ آفَاتَهُ وَمَضَارَهُ بِاسْتِقَامَةٍ نَظَرِهِ . وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .  
وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ<sup>(٢)</sup> أَنَّ صِنَاعَةَ الْمَنْطِقِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ الْغَلَطِ لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْإِنْتِرَاجِ  
وَبُعْدِهَا عَنِ الْمَحْسُوسِ فَإِنَّهَا تَنْظُرُ فِي الْمَعْقُولَاتِ الثَّوَانِي . وَلَعَلَّ الْمَوَادَّ فِيهَا

(١) الأصح أن يقول كلمة النظر لأنه لا وجود لكلمة انظار في ( لسان العرب ) .

(٢) وفي النسخة الباريسية : تعلم .

مَا يُمَانَعُ تِلْكَ الْأَحْكَامَ وَيُنَافِيهَا عِنْدَ مَرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ الْيَقِينِيِّ . وَأَمَّا النَّظَرُ فِي  
الْمَعْقُولَاتِ الْأَوَّلِ وَهِيَ الَّتِي تَجْرِيدهَا قَرِيبٌ فَلَيْسَ كَذَلِكَ لِأَنَّهَا خَيَالِيَّةٌ وَصُورُ  
الْمَحْسُوسَاتِ حَافِظَةٌ مُؤَدِّنَةٌ بِتَصْدِيقِ انْطِبَاقِهِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ  
التَّوْفِيقُ .

## الفصل الثالث والأربعون

في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم

مِنَ الْغَرِيبِ الْوَاقِعِ أَنَّ حَمَلَةَ الْعِلْمِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَكْثَرُهُمُ الْعَجَمُ لَا مِنْ  
الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَا مِنْ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ . وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ الْعَرَبِيُّ فِي  
نَسَبِهِ فَهُوَ أَعْجَمِيٌّ فِي لُغَتِهِ وَمَرْبَاهُ وَمَشِخْتِهِ مَعَ أَنَّ الْمِلَّةَ عَرَبِيَّةً وَصَاحِبَ شَرِيعَتِهَا  
عَرَبِيٌّ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمِلَّةَ فِي أَوَّلِهَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا عِلْمٌ وَلَا صِنَاعَةٌ لِمُقْتَضَى  
أَحْوَالِ السَّدَاجَةِ وَالْبِدَاوَةِ وَإِنَّمَا أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ الَّتِي هِيَ أَوْامِرُ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ كَانَ  
الرِّجَالُ يَنْقُلُونَهَا فِي صُدُورِهِمْ وَقَدْ عَرَفُوا مَأْخِذَهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِمَا تَلَقَّوهُ مِنْ  
صَاحِبِ الشَّرْعِ وَأَصْحَابِهِ . وَالْقَوْمُ يَوْمئِذٍ عَرَبٌ لَمْ يَعْرِفُوا أَمْرَ التَّعْلِيمِ وَالتَّالِيفِ  
والتَّنْذِيرِ وَلَا دَفَعُوا إِلَيْهِ وَلَا دَعَتْهُمْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ . وَجَرَى الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ زَمَنَ  
الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَكَانُوا يُسَمُّونَ الْمُخْتَصِينَ بِحَمْلِ ذَلِكَ . وَنَقَلَهُ إِلَى الْقُرَاءِ أَيِ  
الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ وَلَيْسُوا أُمَّيِّينَ لِأَنَّ الْأُمَّيَّةَ يَوْمئِذٍ صِفَةٌ عَامَّةٌ فِي الصَّحَابَةِ بِمَا  
كَانُوا عَرَبًا فَقِيلَ لِحَمَلَةِ الْقُرْآنِ يَوْمئِذٍ قُرَاءٌ إِشَارَةٌ إِلَى هَذَا . فَهُمْ قُرَاءٌ لِكِتَابِ اللَّهِ  
وَالسُّنَّةِ الْمَأْتُورَةِ عَنِ اللَّهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ إِلَّا مِنْهُ وَمِنَ الْحَدِيثِ  
الَّذِي هُوَ فِي غَالِبِ مَوَارِدِهِ تَفْسِيرُ لَهُ وَشَرْحٌ . قَالَ ﷺ : « تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ  
تَضْلُوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا : كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي » . فَلَمَّا بَعُدَ النُّقْلُ مِنْ لَدُنْ دَوْلَةِ  
الرُّشَيْدِ فَمَا بَعُدَ احْتِجَاجٌ إِلَى وَضْعِ التَّفَاسِيرِ الْقُرْآنِيَّةِ وَتَقْيِيدِ الْحَدِيثِ مَخَافَةَ ضَيَاعِهِ ثُمَّ

اِخْتِيجَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَسَانِيدِ وَتَعْدِيلِ النَّاقِلِينَ <sup>(١)</sup> لِتَلْمِيزِ بَيْنِ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَسَانِيدِ  
 وَمَا دُونَهُ ثُمَّ كَثُرَ اسْتِخْرَاجُ أَحْكَامِ الْوَاقِعَاتِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَفَسَدَ مَعَ ذَلِكَ  
 اللِّسَانُ فَاجْتِيجَ إِلَى وَضْعِ الْقَوَانِينِ النَّحْوِيَّةِ وَصَارَتِ الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ كُلُّهَا مَلَكَاتٍ فِي  
 الْإِسْتِنْبَاطَاتِ وَالْإِسْتِخْرَاجِ وَالتَّنْظِيرِ وَالْقِيَاسِ وَاجْتَاكَ <sup>(٢)</sup> إِلَى عُلُومٍ أُخْرَى وَهِيَ  
 الْوَسَائِلُ لَهَا مِنْ مَعْرِفَةِ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ وَقَوَانِينِ ذَلِكَ الْإِسْتِنْبَاطِ وَالْقِيَاسِ وَالذَّبِّ عَنِ  
 الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ بِالْأَدِلَّةِ لِكَثْرَةِ الْبِدْعِ وَالْإِلْحَادِ فَصَارَتِ هَذِهِ الْعُلُومُ كُلُّهَا عُلُومًا ذَاتَ  
 مَلَكَاتٍ مُحْتَاجَةً إِلَى التَّعْلِيمِ فَانْدَرَجَتْ فِي جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ . وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ  
 الصَّنَائِعَ مِنْ مُنْتَحَلِ الْحَضَرِ وَأَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْهَا فَصَارَتِ الْعُلُومُ لِذَلِكَ  
 حَضَرِيَّةً وَبَعْدَ عَنْهَا الْعَرَبُ وَعَنْ سَوْقِهَا . وَالْحَضَرُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ هُمُ الْعَجَمُ أَوْ مَنْ هُمْ فِي  
 مَعْنَاهُمْ مِنَ الْمَوَالِي وَأَهْلِ الْحَوَاضِرِ الَّذِينَ هُمْ يَوْمئِذٍ تَبَعٌ لِلْعَجَمِ فِي الْحَضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا  
 مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ لِأَنَّهُمْ أَقَوْمٌ عَلَى ذَلِكَ لِلْحَضَارَةِ الرَّاسِخَةِ فِيهِمْ مُنْذُ دَوْلَةِ الْفُرْسِ  
 فَكَانَ صَاحِبُ صِنَاعَةِ النَّحْوِ سَبْيَوِيهِ وَالْفَارِسِيُّ مِنْ بَعْدِهِ وَالزَّرْجَاجِيُّ مِنْ بَعْدِهِمَا  
 وَكُلُّهُمْ عَجَمٌ فِي أَنْسَابِهِمْ . وَإِنَّمَا رُبُّوا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَاسْتَسْبَوْهُ بِالْمَرْبِيِّ  
 وَمَخَالِطَةِ الْعَرَبِ وَصَيَّرُوهُ قَوَانِينَ وَفَنَّا لِمَنْ بَعْدَهُمْ . وَكَذَا حَمَلَةُ الْحَدِيثِ الَّذِينَ  
 حَفِظُوهُ عَنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمْ عَجَمٌ أَوْ مُسْتَعْجِمُونَ بِاللُّغَةِ وَالْمَرْبِيُّ لِاتِّسَاعِ الْفَنِّ  
 بِالْعِرَاقِ . وَكَانَ عُلَمَاءُ أَصُولِ الْفِقْهِ كُلُّهُمْ عَجَمًا كَمَا يُعْرَفُ وَكَذَا حَمَلَةُ عِلْمِ الْكَلَامِ  
 وَكَذَا أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ . وَلَمْ يَقُمْ بِحِفْظِ الْعِلْمِ وَتَدْوِينِهِ إِلَّا الْأَعَاجِمُ . وَظَهَرَ مُصْداقُ  
 قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَوْ تَعَلَّقَ الْعِلْمُ بِأَكْنَافِ السَّمَاءِ لَنَالَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ فَارِسَ » . وَأَمَّا  
 الْعَرَبُ الَّذِينَ أَدْرَكُوا هَذِهِ الْحَضَارَةَ وَسَوْقَهَا وَخَرَجُوا إِلَيْهَا عَنِ الْبِدَاوَةِ فَشَغَلَتْهُمْ  
 الرِّئَاسَةُ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَمَا دَفَعُوا إِلَيْهِ مِنَ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ عَنِ الْقِيَامِ بِالْعِلْمِ .  
 وَالنَّظَرِ فِيهِ . فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ الدَّوْلَةِ وَحَامِيَتِهَا وَأُولِي سِيَاسَتِهَا مَعَ مَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ

(١) وفي النسخة الباريسية : الرواة .

(٢) وفي النسخة الباريسية : واحتج .

الْأَنْفَةِ عَنِ انْتِحَالِ الْعِلْمِ حِينَئِذٍ بِمَا صَارَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ . وَالرُّؤْسَاءُ أَبْدَاءُ  
 يَسْتَنْكِفُونَ عَنِ الصَّنَائِعِ وَالْمِهَنِ وَمَا يَجْرُ إِلَيْهَا وَدَفَعُوا ذَلِكَ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ مِنَ الْعَجَمِ  
 وَالْمَوْلِدِينَ . وَمَا زَالُوا يَرَوْنَ لَهُمْ حَقَّ الْقِيَامِ بِهِ فَإِنَّهُ دِينُهُمْ وَعُلُومُهُمْ وَلَا يَحْتَفِرُونَ  
 حَمَلَتَهَا كُلَّ الْإِحْتِقَارِ . حَتَّى إِذَا خَرَجَ الْأَمْرُ مِنَ الْعَرَبِ جُمْلَةً وَصَارَ لِلْعَجَمِ صَارَتْ  
 الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ غَرِيبَةً النَّسَبَةَ عِنْدَ أَهْلِ الْمُلْكِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُعْدِ عَنْ نَسَبِهَا  
 وَامْتِنَ حَمَلَتَهَا بِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ بَعْدَاءُ عَنْهُمْ مُشْتَعِلِينَ بِمَا لَا يُغْنِي وَلَا يُجْدِي  
 عَنْهُمْ <sup>(١)</sup> فِي الْمُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي نَقْلِ <sup>(٢)</sup> الْمَرَاتِبِ الدِّيْنِيَّةِ . فَهَذَا الَّذِي  
 قَرَرْنَاهُ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنْ حَمَلَةَ الشَّرِيعَةِ أَوْعَامَتَهُمْ مِنَ الْعَجَمِ . وَأَمَّا الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ  
 أَيْضاً فَلَمْ تَظْهَرْ فِي الْمِلَّةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَمَيَّزَ حَمَلَةُ الْعِلْمِ وَمَوْلَاهُ . وَاسْتَقَرَّ الْعِلْمُ كُلُّهُ  
 صِنَاعَةً فَاخْتَصَّتْ بِالْعَجَمِ وَتَرَكَّتْهَا الْعَرَبُ وَانْصَرَفُوا عَنِ انْتِحَالِهَا فَلَمْ يَحْمِلْهَا إِلَّا  
 الْمَعْرَبُونَ مِنَ الْعَجَمِ شَأْنَ الصَّنَائِعِ كَمَا قُلْنَا أَوَّلًا . فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ  
 الْإِسْلَامِيَّةِ مَا دَامَتِ الْحَضَارَةُ فِي الْعَجَمِ وَبِلَادِهِمْ مِنَ الْعِرَاقِ وَخُرَّاسَانَ وَمَا وَرَاءَ  
 النَّهْرِ . فَلَمَّا خَرِبَتْ تِلْكَ الْأَمْصَارُ وَذَهَبَتْ مِنْهَا الْحَضَارَةُ الَّتِي هِيَ سِرُّ اللَّهِ فِي  
 حُصُولِ الْعِلْمِ وَالصَّنَائِعِ ذَهَبَ الْعِلْمُ مِنَ الْعَجَمِ جُمْلَةً لَمَّا شَمَلَهُمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَاخْتَصَّ  
 الْعِلْمُ بِالْأَمْصَارِ الْمَوْفُورَةِ الْحَضَارَةِ . وَلَا أُوفِرَ الْيَوْمَ فِي الْحَضَارَةِ مِنْ مِصْرَ فَهِيَ أُمَّ  
 الْعَالَمِ وَيَاوَانَ الْإِسْلَامِ وَيَتَبَوَّعُ الْعِلْمُ وَالصَّنَائِعِ . وَبَقِيَ بَعْضُ الْحَضَارَةِ فِي مَا وَرَاءَ  
 النَّهْرِ لَمَّا هُنَاكَ مِنَ الْحَضَارَةِ بِالذَّوْلَةِ الَّتِي فِيهَا فَلَهُمْ بِذَلِكَ حِصَّةٌ مِنَ الْعُلُومِ  
 وَالصَّنَائِعِ لَا تُنْكَرُ . وَقَدْ دَلَّنَا عَلَى ذَلِكَ كَلَامُ بَعْضِ عُلَمَائِهِمْ مِنْ تَأْلِيفِ وَصَلَتْ إِلَيْنَا  
 إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ وَهُوَ سَعْدُ الدِّينِ التَّفْتَزَانِيُّ . وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْعَجَمِ فَلَمْ نَرَلَهُمْ مِنْ بَعْدِ  
 الْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ وَنَصِيرِ الدِّينِ الطُّوسِيِّ كَلَاماً يُعَوَّلُ عَلَى نَهَائِيهِ فِي الْإِصَابَةِ .  
 فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَتَأَمَّلْهُ تَرَعَبْجاً فِي أَحْوَالِ الْخَلِيقَةِ . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لَا شَرِيكَ لَهُ

(١) وفي نسخة أخرى . عليهم

(٢) وفي نسخة أخرى . فصل

لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَالْحَمْدُ  
لِلَّهِ .

## الفصل الرابع والأربعون

في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان

قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي

وَالسَّرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ مَبَاحِثَ الْعُلُومِ كُلَّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي الْمَعَانِي الذِّهْنِيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ ،  
مِنْ بَيْنِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ ، الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَبَاحِثِهَا فِي الْأَلْفَاظِ وَمَوَادِّهَا مِنَ الْأَحْكَامِ  
الْمُتَلَقَّاةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلُغَاتِهَا الْمُؤَدِّيَّةُ لَهَا ، وَهِيَ كُلُّهَا فِي الْخِيَالِ ؛ وَبَيْنَ  
الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَهِيَ فِي الذِّهْنِ . وَاللُّغَاتُ إِنَّمَا هِيَ تَرْجُمَانُ عَمَّا فِي الضَّمَائِرِ مِنْ  
تِلْكَ الْمَعَانِي ، يُؤَدِّيهَا بَعْضٌ إِلَى بَعْضٍ بِالْمُشَافَهَةِ فِي الْمُنَاطَرَةِ وَالتَّعْلِيمِ ، وَمُمَازَسَةِ  
الْبَحْثِ بِالْعُلُومِ لِتَحْصِيلِ مَلَكَتِهَا بِطَوْلِ الْمِرَانِ عَلَى ذَلِكَ . وَالْأَلْفَاظُ وَاللُّغَاتُ  
وَسَائِطٌ وَحُجُبٌ بَيْنَ الضَّمَائِرِ ، وَرَوَابِطٌ وَخَتَامٌ عَنِ الْمَعَانِي . وَلَا بُدَّ فِي اقْتِنَاصِ  
تِلْكَ الْمَعَانِي مِنْ الْأَفَاطِهَا لِمَعْرِفَةِ دَلَالَتِهَا اللُّغَوِيَّةِ عَلَيْهَا ، وَجُودَةِ الْمَلَكَةِ لِنَاطِرِ  
فِيهَا ، وَإِلَّا فَيَقْتَنَاضُ عَلَيْهِ اقْتِنَاصُهَا زِيَادَةً عَلَى مَا يَكُونُ فِي مَبَاحِثِهَا الذِّهْنِيَّةِ مِنْ  
الِإِعْتِنَاصِ . وَإِذَا كَانَتْ مَلَكَتُهُ فِي تِلْكَ الدَّلَالَاتِ رَاسِخَةً ، يَحِثُّ يَتَبَادَرُ الْمَعَانِي  
إِلَى ذَهْنِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ عِنْدَ اسْتِعْمَالِهَا ، شَأْنُ الْبَيْدِيَّةِ وَالْجِبَلِيِّ ، زَالَ ذَلِكَ  
الْحِجَابُ بِالْجُمْلَةِ بَيْنَ الْمَعَانِي وَالْفَهْمِ ، أَوْ خَفَّ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَعَانَاةٌ مَا فِي الْمَعَانِي  
مِنْ الْمَبَاحِثِ فَقَطْ . هَذَا كُلُّهُ إِذَا كَانَ التَّعْلِيمُ تَلْقِينًا وَبِالْخِطَابِ وَالْعِبَارَةِ . وَأَمَّا إِنْ  
اِحْتَجَّ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى الدِّرَاسَةِ وَالتَّقْيِيدِ بِالْكِتَابِ وَمُشَافَهَةِ الرُّسُومِ الْخَطِيَّةِ مِنْ  
الدَّوَابِّ بِمَسَائِلِ الْعُلُومِ ، كَانَ هُنَالِكَ حِجَابٌ آخَرٌ بَيْنَ الْخَطِّ وَرُسُومِهِ فِي  
الْكِتَابِ ، وَبَيْنَ الْأَلْفَاظِ الْمُقُولَةِ فِي الْخِيَالِ . لِأَنَّ رُسُومَ الْكِتَابَةِ لَهَا دَلَالَةٌ خَاصَّةٌ عَلَى

الألفاظ المَقُولَة . وَمَا لَمْ تُعْرَفْ بِتِلْكَ الدَّلَالَةِ تَعَدَّرَتْ مَعْرِفَةَ الْعِبَارَةِ ، وَإِنْ عُرِفَتْ  
بِمَلَكَةِ قَاصِرَةٍ كَانَتْ مَعْرِفَتُهَا أَيْضاً قَاصِرَةً ، وَيَزْدَادُ عَلَى النَّاطِرِ وَالْمَتَعَلِّمِ بِذَلِكَ  
حِجَابٌ آخَرٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُطْلُوبِهِ ، مِنْ تَخْصِيلِ مَلَكَاتِ الْعُلُومِ أَعْوَصُ مِنَ الْحِجَابِ  
الْأَوَّلِ . وَإِذَا كَانَتْ مَلَكَتُهُ فِي الدَّلَالَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْخَطِيئَةِ مُسْتَحْكِمَةً ارْتَفَعَتْ الْحُجُبُ  
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْنَى . وَصَارَ إِنَّمَا يُعَانِي فِيهِمْ مَبَاحِثَهَا فَقَطْ . هَذَا شَأْنُ الْمَعْنَى مَعَ  
الْأَلْفَافِ وَالْخَطِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ لُغَةٍ . وَالْمَتَعَلِّمُونَ لِذَلِكَ فِي الضَّرْعِ أَشَدَّ اسْتِحْكَاماً  
لِمَلَكَاتِهِمْ . ثُمَّ إِنَّ الْعِلْمَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَمَّا اتَّسَعَ مُلْكُهَا وَانْدَرَجَتْ الْأُمَمُ فِي طَيْبِهَا وَدَرَسَتْ  
عُلُومُ الْأَوَّلِينَ بِنُبُوتِهَا وَكِتَابِهَا ، وَكَانَتْ أَمِيَّةَ النَّزْعَةِ وَالشَّعَارِ ، فَأَخَذَ الْمَلِكُ وَالْعَزَّةُ  
وَسُخْرِيَّةُ الْأُمَمِ لَهُمْ بِالْحَضَارَةِ وَالتَّهْذِيبِ ، وَصَيَّرُوا عُلُومَهُمُ الشَّرْعِيَّةَ صِنَاعَةً ، بَعْدَ  
أَنْ كَانَتْ نَقْلاً ، فَحَدَّثَتْ فِيهِمُ الْمَلَكَاتُ ، وَكَثُرَتْ الدَّوَابِينُ وَالتَّالِيفُ ، وَتَشَوَّفُوا إِلَى  
عُلُومِ الْأُمَمِ فَنَقَلُوهَا بِالتَّرْجِمَةِ إِلَى عُلُومِهِمْ وَأَفْرَعُوهَا فِي قَالِبِ أَنْظَارِهِمْ ، وَجَرَدُوهَا  
مِنْ تِلْكَ اللُّغَاتِ الْأَعْجَمِيَّةِ إِلَى لِسَانِهِمْ وَأَرَبَوْا فِيهَا عَلَى مَدَارِكِهِمْ ، وَبَقِيَتْ تِلْكَ  
الدَّفَاتِرُ الَّتِي بَلَّغَتْهُمُ الْأَعْجَمِيَّةَ نَسِيّاً مَنْسِيّاً وَطَلَلَا مَهْجُوراً وَهَبَاءً مَنْشُوراً . وَأَصْبَحَتْ  
الْعُلُومُ كُلُّهَا بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، وَدَوَابِينُهَا الْمُسْطَرَّةُ بِخَطِّهِمْ ، وَاحْتِجَاقُ الْقَائِمُونَ بِالْعُلُومِ  
إِلَى مَعْرِفَةِ الدَّلَالَاتِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْخَطِيئَةِ فِي لِسَانِهِمْ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَلْسِنِ ، لِدُرُوسِهَا  
وَذَهَابِ الْعِنَايَةِ بِهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ اللُّغَةَ مَلَكَتُ فِي اللِّسَانِ ، وَكَذَا الْخَطُّ صِنَاعَةٌ  
مَلَكَتُهَا فِي الْيَدِ ، فَإِذَا تَقَدَّمَتْ فِي اللِّسَانِ مَلَكَتُ الْعُجْمَةَ ، صَارَ مُقْصِراً فِي اللُّغَةِ  
الْعَرَبِيَّةِ ، لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمَلَكَتُ إِذَا تَقَدَّمَتْ فِي صِنَاعَةٍ بِمَحَلٍّ ، فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ  
صَاحِبُهَا مَلَكَتُ فِي صِنَاعَةٍ أُخْرَى ، وَهُوَ ظَاهِرٌ . وَإِذَا كَانَ مُقْصِراً فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ  
وَدَلَالَتِهَا اللَّفْظِيَّةِ وَالْخَطِيئَةِ اغْتَاصَ عَلَيْهِ فِيهِمْ الْمَعْنَى مِنْهَا كَمَا مَرَّ . إِلَّا أَنْ تَكُونَ  
مَلَكَتُ الْعُجْمَةَ السَّابِقَةَ لَمْ تَسْتَحْكِمِ حِينَ انْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، كَأَصَاغِرِ أَبْنَاءِ  
الْعَجَمِ الَّذِينَ يَرَبُّونَ مَعَ الْعَرَبِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَحْكِمَ عُجْمَتَهُمْ ، فَتَكُونَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ  
كَأَنَّهَا السَّابِقَةُ لَهُمْ ، وَلَا يَكُونُ عِنْدَهُمْ تَقْصِيرٌ فِي فِيهِمُ الْمَعْنَى مِنَ الْعَرَبِيَّةِ . وَكَذَا

أَيْضاً شَأْنٌ مَنْ سَبَقَ لَهُ تَعَلُّمُ الْخَطِّ الْأَعْجَمِيِّ قَبْلَ الْعَرَبِيِّ . وَلِهَذَا نَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْ  
عُلَمَاءِ الْأَعَاجِمِ فِي دُرُوسِهِمْ وَمَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ يَغْدِلُونَ عَنْ نَقْلِ التَّفَاسِيرِ مِنَ الْكُتُبِ  
إِلَى قِرَاءَتِهَا ظَاهِراً يُخْفِئُونَ بِذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مَوْثِقَةً بَعْضُ الْحُجُبِ لِيَقْرَبَ عَلَيْهِمْ  
تَنَاوُلُ الْمَعَانِي . وَصَاحِبُ الْمَلَكَةِ فِي الْعِبَارَةِ وَالْخَطِّ مُسْتَعْتَبٌ عَنْ ذَلِكَ ، بِتَمَامِ  
مَلَكَتِهِ . وَإِنَّهُ صَارَ لَهُ فَهْمُ الْأَقْوَالِ مِنَ الْخَطِّ ، وَالْمَعَانِي مِنَ الْأَقْوَالِ ، كَالْحِجَلَةِ  
الرَّاسِخَةِ ، وَارْتَفَعَتْ الْحُجُبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعَانِي . وَرُبَّمَا يَكُونُ الدُّوْبُ عَلَى  
التَّغْلِيمِ وَالْمِرَانِ عَلَى اللَّغَةِ ، وَمُمَارَسَةِ الْخَطِّ يُفِيضَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى تَمَكُّنِ الْمَلَكَةِ ،  
كَمَا نَجِدُهُ فِي الْكَثِيرِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَعَاجِمِ ، إِلَّا أَنَّهُ فِي النَّادِرِ . وَإِذَا قَرِنَ بِنَظِيرِهِ مِنْ  
عُلَمَاءِ الْعَرَبِ وَأَهْلِ طَبَقَتِهِ مِنْهُمْ ، كَانَ بَاعُ الْعَرَبِيِّ أَطْوَلَ وَمَلَكَتُهُ أَقْوَى ، لِمَا عِنْدَ  
الْمُسْتَعْتَبِ مِنَ التَّمَوُّرِ بِالْعَجْمَةِ السَّابِقَةِ الَّتِي يُؤَثِّرُ الْقُصُورُ بِالضَّرُورَةِ وَلَا يَغْتَرِضُ  
ذَلِكَ بِمَا تَقَدَّمَ بِأَنَّ عُلَمَاءَ الْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمْ الْعَجْمُ ، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْعَجْمِ هُنَاكَ عَجْمُ  
النَّسَبِ لِتَدَاوُلِ الْحِضَارَةِ فِيهِمْ الَّتِي قَرَّرْنَا أَنَّهَا سَبَبٌ لِانْتِحَالِ الصَّنَائِعِ وَالْمَلَكَاتِ  
وَمِنْ جُمْلَتِهَا الْعُلُومُ . وَأَمَّا عَجْمَةُ اللَّغَةِ فَلَيْسَتْ مِنْ ذَلِكَ ، وَهِيَ الْمُرَادَةُ هُنَا . وَلَا  
يَغْتَرِضُ ذَلِكَ أَيْضاً مِمَّا كَانَ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي عُلُومِهِمْ مِنْ رُسُوحِ الْقَدَمِ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا  
تَعَلَّمُوهَا مِنْ لُغَتِهِمْ السَّابِقَةِ لَهُمْ وَخَطَبِهِمْ الْمُتَعَارَفِ بَيْنَهُمْ . وَالْأَعْجَمِيُّ الْمُتَعَلِّمُ لِلْعِلْمِ  
فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ يَأْخُذُ الْعِلْمَ بِغَيْرِ لِسَانِهِ الَّذِي سَبَقَ إِلَيْهِ ، وَمِنْ غَيْرِ خَطِّهِ الَّذِي  
يَعْرِفُ مَلَكَتَهُ . فَلِهَذَا يَكُونُ لَهُ ذَلِكَ حِجَاباً كَمَا قُلْنَا . وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ  
أَهْلِ اللِّسَانِ الْأَعْجَمِيِّ مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكِ وَالتَّبَرْبَرِ وَالْفَرَنْجِ ، وَسَائِرِ مَنْ لَيْسَ  
مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . وَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِلْمُتَوَسِّمِينَ .



## الفصل الخامس والأربعون

### في علوم اللسان العربي

أركانُهُ أَرْبَعَةٌ وَهِيَ اللَّغَةُ وَالنَّحْوُ وَالْبَيَانُ وَالْأَدَبُ وَمَعْرِفَتُهَا ضَرُورِيَّةٌ عَلَى أَهْلِ الشَّرِيعَةِ إِذْ مَأْخَذُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ كُلِّهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهِيَ بِلِغَةِ الْعَرَبِ وَتَقْلُتُهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّاجِعِينَ عَرَبٍ وَشَرَحَ مُشْكِلَاتِهَا مِنْ لُغَاتِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعُلُومِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَذَا اللَّسَانِ لِمَنْ أَرَادَ عِلْمَ الشَّرِيعَةِ . وَتَتَفَاوَتْ فِي التَّأَكِيدِ بِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِهَا فِي التَّوْفِيَةِ بِمَقْصُودِ الْكَلَامِ حَسَبَمَا يَتَّبِعُن فِي الْكَلَامِ عَلَيْهَا فَنَأُ وَالَّذِي يَتَّخِصُّ أَنْ الْأَهَمُّ الْمُقَدَّمُ مِنْهَا هُوَ النَّحْوُ إِذْ بِهِ تَتَبَيَّنُ أَصُولُ الْمَقَاصِدِ بِالذَّلَالَةِ فَيُعْرَفُ الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ الْخَبَرِ وَلَوْلَا لَجُهِلَ أَصْلُ الْإِفَادَةِ . وَكَانَ مِنْ حَقِّ عِلْمِ اللَّغَةِ التَّقَدُّمُ لَوْلَا أَنَّ أَكْثَرَ الْأَوْضَاعِ بَاقِيَةٌ فِي مَوْضُوعَاتِهَا لَمْ تَتَغَيَّرَ بِخِلَافِ الْإِعْرَابِ الدَّالِّ عَلَى الْإِسْنَادِ وَالْمُسْنَدِ وَالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ تَغَيَّرَ بِالْجُمْلَةِ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ . فَلِذَلِكَ كَانَ عِلْمُ النَّحْوِ أَهَمُّ مِنَ اللَّغَةِ إِذْ فِي جِهَلِهِ الْإِخْلَالُ بِالتَّفَاهُمِ جُمْلَةً وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ اللَّغَةُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

### علم النحو

إِعْلَمُ أَنَّ اللَّغَةَ فِي الْمُتَعَارِفِ هِيَ عِبَارَةُ الْمُتَكَلِّمِ عَنْ مَقْصُودِهِ . وَتِلْكَ الْعِبَارَةُ فِعْلٌ لِسَانِيٌّ نَاشِئٌ عَنِ الْقَصْدِ بِإِفَادَةِ الْكَلَامِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَصِيرَ مَلَكَةً مُتَقَرَّرَةً فِي الْعَضْوِ الْفَاعِلِ لَهَا وَهُوَ اللَّسَانُ وَهُوَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ اضْطِلَاحَاتِهِمْ . وَكَانَتْ الْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ لِلْعَرَبِ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ الْمَلَكَاتِ وَأَوْضَحَهَا إِبَانَةً عَنِ الْمَقَاصِدِ لِذَلَالَةِ غَيْرِ الْكَلِمَاتِ فِيهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَانِي . مِثْلَ الْحَرَكَاتِ الَّتِي تُعَيِّنُ الْفَاعِلَ مِنَ الْمَفْعُولِ مِنَ الْمَجْرُورِ أَعْنِي الْمُضَافِ وَمِثْلَ الْحُرُوفِ الَّتِي تُفْضِي بِالْأَفْعَالِ أَيِ الْحَرَكَاتِ إِلَى الذَّوَاتِ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفِ الْفَاطِظِ أُخْرَى . وَلَيْسَ يُوجَدُ ذَلِكَ إِلَّا فِي لُغَةِ

العَرَبِ . وَأَمَّا غَيْرُهَا مِنَ اللُّغَاتِ فَكُلُّ مَعْنَى أَوْ حَالٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْفَافِظِ تَخْصُهُ  
بِالدَّلَالَةِ وَلِذَلِكَ نَجَدُ كَلَامَ الْعَجَمِ مِنْ مُخَاطَبَاتِهِمْ أَطْوَلَ مِمَّا تَقْدَرُهُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ .  
وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ : « أَوْتَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَاخْتَصَرْتُ لِيَ الْكَلَامَ  
اخْتِصَارًا » . فَصَارَ لِلْحُرُوفِ فِي لُغَتِهِمْ . وَالْحَرَكَاتِ وَالْهَيْئَاتِ أَيِ الْأَوْضَاعِ اعْتِبَارٌ فِي  
الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ غَيْرِ مُتَكَلِّفِينَ فِيهِ لِصِنَاعَةِ يَسْتَفِيدُونَ ذَلِكَ مِنْهَا . إِنَّمَا هِيَ  
مَلَكَتْهُ فِي أَلْسِنَتِهِمْ يَأْخُذُهَا الْآخِرُ عَنِ الْأَوَّلِ كَمَا تَأْخُذُ صَيَّانُنَا لِهَذَا الْعَهْدِ لُغَاتِنَا .  
فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامَ وَفَارَقُوا الْحِجَازَ لَطَلَبَ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ فِي أَيْدِي الْأُمَمِ وَالِدُولِ  
وَحَالَطُوا الْعَجَمَ تَغَيَّرَتْ تِلْكَ الْمَلَكَتُ بِمَا أَلْقَى إِلَيْهَا السَّمْعُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ الَّتِي  
لِلْمُسْتَعْرَبِينَ <sup>(١)</sup> . وَالسَّمْعُ أَبُو الْمَلَكَاتِ اللَّسَانِيَّةِ فَفَسَدَتْ بِمَا أَلْقَى إِلَيْهَا مِمَّا يُعَايِرُهَا  
لِجَنُوحِهَا إِلَيْهِ بِاعْتِيَادِ السَّمْعِ . وَخَشِيَ أَهْلُ الْعُلُومِ مِنْهُمْ أَنْ تَفْسُدَ تِلْكَ الْمَلَكَتُ رَأْسًا  
وَيَطْوَلَ الْعَهْدُ بِهَا فَيَنْغَلِقَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ عَلَى الْمَفْهُومِ فَاسْتَنْبَطُوا مِنْ مَجَارِي  
كَلَامِهِمْ قَوَانِينَ لِتِلْكَ الْمَلَكَتِ مُطَرَّدَةً شِبْهَ الْكُلِّيَّاتِ وَالْقَوَاعِدِ يَقِيسُونَ عَلَيْهَا سَائِرَ  
أَنْوَاعِ الْكَلَامِ وَيَلْحَقُونَ الْأَشْبَاهَ بِالْأَشْبَاهِ مِثْلُ أَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَالْمَفْعُولَ مَنْصُوبٌ  
وَالْمُبْتَدَأَ مَرْفُوعٌ . ثُمَّ رَأَوْا تَغْيِيرَ الدَّلَالَةِ بِتَغْيِيرِ حَرَكَاتِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فَاصْطَلَحُوا عَلَى  
تَسْمِيَتِهِ إِعْرَابًا وَتَسْمِيَةِ الْمَوْجِبِ لِذَلِكَ التَّغْيِيرِ عَامِلًا وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَصَارَتْ كُلُّهَا  
اصْطِلَاحَاتٍ خَاصَّةً بِهِمْ فَفَقَّيِدُوها بِالْكِتَابِ وَجَعَلُوهَا صِنَاعَةً لَهُمْ مَخْصُوصَةً .  
وَاصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَتِهَا بِعِلْمِ النَّحْوِ . وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّوَلِيُّ مِنْ  
بَنِي كِنَانَةَ . وَيُقَالُ بِإِشَارَةِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ رَأَى تَغْيِيرَ الْمَلَكَتِ فَأَشَارَ عَلَيْهِ  
بِحِفْظِهَا فَفَرَعَ إِلَى ضَبْطِهَا بِالْقَوَانِينِ الْحَاضِرَةِ الْمُسْتَقْرَأَةِ . ثُمَّ كَتَبَ فِيهَا النَّاسُ مِنْ  
بَعْدِهِ إِلَى أَنْ انْتَهَتْ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ أَيَّامَ الرَّشِيدِ وَكَانَ النَّاسُ  
أَحْوَجَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَيْهَا لِذَهَابِ تِلْكَ الْمَلَكَتِ مِنَ الْعَرَبِ . فَهَذَّبَ الصَّنَاعَةَ وَكَمَّلَ  
أَبْوَابَهَا . وَأَخَذَهَا عَنْهُ سَيِّبُونِيهِ فَكَمَّلَ تَفَارِيغَهَا وَاسْتَكْتَفَرَ مِنْ أُدْلِيَّتِهَا وَشَوَاهِدِهَا وَوَضَعَ

(١) وفي نسخة أخرى - للمتعرِّبين من العجم .

فِيهَا كِتَابُهُ الْمَشْهُورُ الَّذِي صَارَ إِمَامًا لِكُلِّ مَا كُتِبَ فِيهَا مِنْ بَعْدِهِ . ثُمَّ وَضَعَ أَبُو  
 عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ وَأَبُو الْقَاسِمِ الزُّجَاجِيُّ كِتَابًا مُخْتَصَرَةً لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَخُذُونَ فِيهَا حَذْوَ  
 الْإِمَامِ فِي كِتَابِهِ . ثُمَّ طَالَ الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَحَدَّثَ الْخِلَافَ بَيْنَ أَهْلِهَا فِي  
 الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ الْمِصْرَيْنِ الْقَدِيمَيْنِ لِلْعَرَبِ . وَكَثُرَتِ الْأَدِلَّةُ وَالْحِجَاجُ بَيْنَهُمْ  
 وَتَبَايَنَتِ الطَّرِيقُ فِي التَّعْلِيمِ وَكَثُرَ الْإِخْتِلَافُ فِي إِعْرَابِ كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ  
 بِإِخْتِلَافِهِمْ فِي تِلْكَ الْقَوَاعِدِ وَطَالَ ذَلِكَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ . وَجَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِمَذَاهِبِهِمْ  
 فِي الْإِخْتِصَارِ فَاخْتَصَرُوا كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ الطُّولِ مَعَ اسْتِيعَابِهِمْ لِجَمِيعِ مَا نُقِلَ كَمَا  
 فَعَلَهُ ابْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ التَّسْهِيلِ وَأَمْثَالِهِ أَوْ اقْتِصَارَهُمْ عَلَى الْمَبَادِيءِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ .  
 كَمَا فَعَلَهُ الرَّمَحْشَرِيُّ فِي الْمَفْضَلِ وَابْنُ الْحَاجِبِ فِي الْمَقْدَمَةِ لَهُ . وَرُبَّمَا نَظَّمُوا ذَلِكَ  
 نَظْمًا مِثْلَ ابْنِ مَالِكٍ فِي الْأَرْجُوزَيْنِ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى وَابْنُ مُعْطِيٍّ فِي الْأَرْجُوزَةِ  
 الْأَلْفِيَّةِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَالتَّالِيفُ فِي هَذَا الْفَنِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى أَوْ يُحَاطَ بِهَا وَطَرِيقُ  
 التَّعْلِيمِ فِيهَا مُخْتَلِفَةٌ فَطَرِيقَةُ الْمُتَقَدِّمِينَ مُغَايِرَةٌ لَطَرِيقَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ . وَالْكُوفِيُّونَ  
 وَالْبَصْرِيُّونَ وَالْبَغْدَادِيُّونَ وَالْأَنْدَلُسِيُّونَ مُخْتَلِفَةٌ طَرِيقُهُمْ كَذَلِكَ . وَقَدْ كَادَتْ هَذِهِ  
 الصَّنَاعَةُ تُؤَدِّنُ بِالذَّهَابِ لِمَا رَأَيْنَا مِنْ النِّقْصِ فِي سَائِرِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِتَنَاقُصِ  
 الْعُمَرَانِ وَوَصَلَ إِلَيْنَا بِالْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الْعُصُورِ دِيْوَانٌ مِنْ مِصْرٍ مَنْسُوبٌ إِلَى جَمَالِ  
 الدِّينِ بْنِ هِشَامٍ مِنْ عُلَمَائِهَا اسْتَوْفَى فِيهِ أَحْكَامَ الْإِعْرَابِ مُجْمَلَةً وَمُفْصَلَةً . وَتَكَلَّمَ  
 عَلَى الْحُرُوفِ وَالْمُفْرَدَاتِ وَالْجُمْلِ وَحَدَفَ مَا فِي الصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَكَرِّرِ فِي أَكْثَرِ  
 أَبْوَابِهَا وَسَمَّاهُ بِالْمُعْنِيِّ فِي الْإِعْرَابِ . وَأَشَارَ إِلَى نَكْتِ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا وَضَبَطَهَا  
 بِأَبْوَابِ وَفُضُولِ وَقَوَاعِدِ أَنْتَظَمَ سَائِرُهَا فَوْقَنَا مِنْهُ عَلَى عِلْمٍ جَمٍّ يَشْهَدُ بِعُلُوِّ قَدْرِهِ فِي  
 هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَوُفُورِ بَضَاعَتِهِ مِنْهَا وَكَأَنَّهُ يَنْحُو فِي طَرِيقَتِهِ مَنْحَاةَ أَهْلِ الْمَوْصِلِ  
 الَّذِينَ اقْتَنَوْا أَثَرَ ابْنِ جَنِّيٍّ وَاتَّبَعُوا مُصْطَلَحَ تَعْلِيمِهِ فَآتَى مِنْ ذَلِكَ بَشْيَءَ عَجِيبٍ  
 دَالٌّ عَلَى قُوَّةِ مَلَكَتِهِ وَاطِّلَاعِهِ . وَاللَّهُ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .

## علم اللغة

هَذَا الْعِلْمُ هُوَ بَيَانُ الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ مَلَكَةُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فِي الْحَرَكَاتِ الْمُسَمَّاةِ عِنْدَ أَهْلِ النَّخْوِ بِالْإِعْرَابِ وَاسْتَنْبَطَتِ الْقَوَائِنَ لِحِفْظِهَا كَمَا قُلْنَا. ثُمَّ اسْتَمَرَّ ذَلِكَ الْفَسَادُ بِمَلَابَسَةِ الْعَجْمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ حَتَّى تَأْدَى الْفَسَادُ إِلَى مَوْضُوعَاتِ الْأَلْفَاظِ فَاسْتُعْمِلَ كَثِيرٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي غَيْرِ مَوْضُوعِهِ عِنْدَهُمْ مَيْلًا مَعَ هَجْنَةِ<sup>(١)</sup> الْمُسْتَعْرَبِينَ<sup>(٢)</sup> فِي اضْطِلَاحَاتِهِمْ الْمُخَالَفَةَ لِصَرِيحِ الْعَرَبِيَّةِ فَاخْتِيجَ إِلَى حِفْظِ الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ بِالْكِتَابِ وَالتَّدْوِينِ خَشْيَةَ الدُّرُوسِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْجَهْلِ بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ فَشَمَّرَ كَثِيرٌ مِنْ أُمَّةِ اللِّسَانِ لِذَلِكَ وَأَمَلُوا فِيهِ الدَّوَابِينَ. وَكَانَ سَابِقَ الْحَلَبَةِ فِي ذَلِكَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ أَلْفَ فِيهَا كِتَابَ الْعَيْنِ فَحَصَرَ فِيهِ مَرْكَبَاتِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ كُلَّهَا مِنَ الثَّنَائِيِّ وَالثَّلَاثِيِّ وَالرُّبَاعِيِّ وَالْخَمَاسِيِّ وَهُوَ غَايَةٌ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ التَّرْكِيبُ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ. وَتَأْتِي لَهُ حَصْرُ ذَلِكَ بِوُجُوهٍ عِدِيدَةٍ حَاضِرَةٌ وَذَلِكَ أَنَّ جُمْلَةَ الْكَلِمَاتِ الثَّنَائِيَّةِ تَخْرُجُ مِنْ جَمِيعِ الْأَعْدَادِ عَلَى التَّوَالِي مِنَ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ وَهُوَ دُونَ نَهَائِيَةِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ بِوَاحِدٍ. لِأَنَّ الْحَرْفَ الْوَاحِدَ مِنْهَا يُؤْخَذُ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعَةِ وَالْعَشْرِينَ فَتَكُونُ سَبْعَةٌ وَعَشْرِينَ كَلِمَةً ثَّنَائِيَّةً. ثُمَّ يُؤْخَذُ الثَّنَائِيَّ مَعَ السَّبْعَةِ وَالْعَشْرِينَ كَذَلِكَ. ثُمَّ الثَّلَاثُ وَالرُّبَاعُ. ثُمَّ يُؤْخَذُ السَّابِعُ وَالْعَشْرُونَ مَعَ الثَّامِنِ وَالْعَشْرِينَ فَيَكُونُ وَاحِدًا فَتَكُونُ كُلُّهَا أَعْدَادًا عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ فَتَجْمَعُ كَمَا هِيَ بِالْعَمَلِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ أَهْلِ الْحِسَابِ وَهُوَ أَنْ تَجْمَعَ الْأَوَّلَ مَعَ الْأَخِيرِ وَتَضْرِبَ الْمَجْمُوعَ فِي نِصْفِ الْعِدَّةِ. ثُمَّ تُضَاعَفُ لِأَجْلِ قَلْبِ الثَّنَائِيِّ لِأَنَّ التَّقْدِيمَ وَالتَّأخِيرَ بَيْنَ الْحُرُوفِ مُعْتَبَرٌ فِي التَّرْكِيبِ فَيَكُونُ الْخَارِجُ جُمْلَةَ الثَّنَائِيَّاتِ. وَتَخْرُجُ الثَّلَاثِيَّاتِ مِنْ ضَرْبِ عَدَدِ الثَّنَائِيَّاتِ فِيمَا يَجْمَعُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ عَلَى

(١) الهجنة في الكلام : العيب والقبح ( قاموس ) .

(٢) وفي نسخة أخرى : التعربيين .

توالي العدد لأن كل ثنائية يزيد عليها حرفاً فتكون ثلاثية . فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفاً بعد الثنائية فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على التوالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات . ثم تضرب الخارج في ستة . جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم . وكذلك في الرباعي والخماسي . فأنحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف . واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم بعده من حروف الحنك ثم الأضراس ثم الشفة وجعل حروف العلة آخراً وهي الحروف الهوائية . وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه الأقصر<sup>(١)</sup> منها فلذلك سمي كتابه بالعين لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ . ثم بين المهمل منها من المستعمل وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقلّة استعمال العرب له لثقله ولحق به الثنائي لقلّة دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه . وضمن الخليل ذلك كله في كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه<sup>(٢)</sup> . وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد بالأندلس في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل ولخصه للحفظ أحسن تلخيص . وألف الجوهرى من المشاركة كتاب الصّحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البدء منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم فجعل ذلك باباً . ثم يأتي بالحروف أول الكلمة على ترتيب حروف المعجم أيضاً ويترجم عليها بالفصول إلى آخرها . وحضر اللغة اقتداءً بحضر الخليل . ثم ألف

(١) وفي نسخة أخرى : الأقصى .

(٢) وفي نسخة أخرى : وأوفاه .

فِيهَا مِنَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ ابْنُ سَيِّدِهِ مِنْ أَهْلِ دَانِيَّةَ فِي دَوْلَةِ عَلِيِّ بْنِ مُجَاهِدٍ كِتَابُ  
الْمُحَكِّمِ عَلَى ذَلِكَ الْمَنْحَى مِنَ الْإِسْتِيعَابِ وَعَلَى نَحْوِ تَرْتِيبِ كِتَابِ الْعَيْنِ . وَزَادَ فِيهِ  
التَّعْرُضُ لِإِسْتِيقَاتِ الْكَلِمِ وَتَصَارِيفِهَا فَجَاءَ مِنْ أَحْسَنِ الدَّوَاوِينِ . وَلِخَصَّةِ  
مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْحُسَيْنِ صَاحِبِ الْمُسْتَنْصِرِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ الْحَفْصِيَّةِ بِتُونِسَ .  
وَقَلَّبَ تَرْتِيبَهُ إِلَى تَرْتِيبِ كِتَابِ الصَّحَاحِ فِي اعْتِبَارِ أَوَاخِرِ الْكَلِمِ وَبِنَاءِ التَّرَاجِمِ عَلَيْهَا  
فَكَانَا تَوَاقِي رَحِمَ وَسَلِيلِي أَبُوهُ وَلِكِرَاعٍ مِنْ أَيْمَةِ اللُّغَةِ كِتَابُ الْمُنْجِدِ . وَلَا بِنَ دُرَيْدِ  
كِتَابِ الْجُمْهُرَةِ وَلَا بِنِ الْأَنْبَارِيِّ كِتَابُ الزَّاهِرِ هَذِهِ أَصُولُ كُتُبِ اللُّغَةِ فِيمَا عَلِمْنَا .  
وَهُنَاكَ مُخْتَصَرَاتٌ أُخْرَى مُخْتَصَّةٌ بِصِنْفٍ مِنَ الْكَلِمِ وَمُسْتَوْعِبَةٌ لِبَعْضِ الْأَنْبَابِ أَوْ  
لِكُلِّهَا . إِلَّا أَنَّ وَجْهَ الْحَضَرِ فِيهَا خَفِيٌّ وَوَجْهَ الْحَضَرِ فِي تِلْكَ جَلِيٌّ مِنْ قِبَلِ التَّرَاكِيِبِ  
كَمَا رَأَيْتَ . وَمِنَ الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ أَيْضًا فِي اللُّغَةِ كِتَابُ الزَّمْخَشَرِيِّ فِي الْمَجَازِ  
سَمَّاهُ أَسَاسُ الْبَلَاغَةِ بَيِّنَ فِيهِ كُلُّ مَا تَجَوَّزَتْ بِهِ الْعَرَبُ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَفِيمَا تَجَوَّزَتْ  
بِهِ مِنَ الْمَذَلُولَاتِ وَهُوَ كِتَابُ شَرِيفِ الْإِفَادَةِ . ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ الْعَرَبُ تَضَعُ الشَّيْءَ عَلَى  
الْعُمُومِ ثُمَّ تَسْتَعْمِلُ فِي الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ الْأَلْفَاظَ أُخْرَى خَاصَّةً بِهَا فَوْقَ ذَلِكَ عِنْدَنَا .  
وَبَيِّنَ الْوَضْعَ وَالِاسْتِعْمَالَ وَاحْتِجَّ إِلَى فَهْمِهِ فِي اللُّغَةِ عَزِيزَ الْمَأْخِذِ كَمَا وَضَعَ الْأَبْيَضُ  
بِالْوَضْعِ الْعَامِ لِكُلِّ مَا فِيهِ بَيَاضٌ ثُمَّ اخْتَصَّ مَا فِيهِ بَيَاضٌ مِنَ الْخَيْلِ بِالشَّهَبِ وَمِنَ  
الْإِنْسَانِ بِالْأَزْهَرِ وَمِنَ الْغَنَمِ بِالْأَمْلَحِ حَتَّى صَارَ اسْتِعْمَالُ الْأَبْيَضِ فِي هَذِهِ كُلِّهَا لِحُنَا  
وَخُرُوجًا عَنِ لِسَانِ الْعَرَبِ . وَاخْتَصَّ بِالتَّأْلِيفِ فِي هَذَا الْمَنْحَى الثَّعَالِبِيُّ وَأَفْرَدَهُ فِي  
كِتَابٍ لَهُ سَمَّاهُ فَهْمُ اللُّغَةِ وَهُوَ مِنْ أَكْثَرِ مَا يَأْخُذُ بِهِ اللَّغَوِيُّ نَفْسَهُ أَنْ يُحَرِّفَ اسْتِعْمَالَ  
الْعَرَبِ عَنِ مَوَاضِعِهِ . فَلَيْسَ مَعْرِفَةُ الْوَضْعِ الْأَوَّلِ بِكَافٍ فِي التَّرْتِيبِ حَتَّى يَشْهَدَ لَهُ  
اسْتِعْمَالُ الْعَرَبِ لِذَلِكَ . وَأَكْثَرُ مَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ الْأَدِيبُ فِي فَنِّي نَظْمِهِ وَتَثْرِهِ  
حَدْرًا مِنْ أَنْ يَكْثُرَ لِحُنُهُ فِي الْمَوْضُوعَاتِ اللَّغَوِيَّةِ فِي مُفْرَدَاتِهَا وَتَرَكِيِبِهَا وَهُوَ أَشَدُّ<sup>(١)</sup>  
مِنَ اللَّحْنِ فِي الْإِعْرَابِ وَأَفْحَشُ . وَكَذَلِكَ أَلْفَ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْأَلْفَاظِ

(١) وفي نسخة أخرى : أشد .

المشتركة وتكفل بحصرها وإن لم تبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مستوعب للأكثر .  
 وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير  
 الاستعمال تسهلاً لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الألفاظ لابن السكيت  
 والفصيح لثعلب وغيرهما . وبعضها أقل لغة من بعض لإختلاف نظرهم في الأهم  
 على الطالب للحفظ . والله الخلاق العليم لا رب سواه .

فصل : وأعلم أن النقل الذي تثبت به اللغة ، إنما هو النقل عن العرب أنهم  
 استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعاني ، لا تقل إنهم وضعوها لأنه متعذر ويعيد . ولم  
 يعرف لأحد منهم . وكذلك لا تثبت اللغات بقياس ما لم نعلم استعماله ، على  
 ما عرف استعماله في ماء العنب ، باعتبار الإسكار الجامع . لأن شهادة الاعتبار في  
 باب القياس إنما يندركها الشرع الدال على صحة القياس من أصله . وليس لنا مثله  
 في اللغة إلا بالعقل ، وهو محكم ، وعلى هذا جمهور الأئمة . وإن مال إلى القياس  
 فيها القاضي وابن سريج وغيرهم . لكن القول بنفيه أرجح . ولا تتوهم أن  
 إثبات اللغة في باب الحدود اللفظية ، لأن الحد راجع إلى المعاني ، بيان أن  
 مدلول اللفظ المجبول الخفي هو مدلول الواضح المشهور ، واللغة إثبات أن اللفظ  
 كذا ، لمعنى كذا ، والفرق في غاية الظهور .

### علم البيان

هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة ، وهو من العلوم اللسانية  
 لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده . ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك أن  
 الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي : إما تصور مفردات  
 تسند ويسند إليها ويفضي بعضها إلى بعض ، والدالة على هذه هي المفردات من  
 الأسماء والأفعال والحروف وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة ، ويدل  
 عليها بتغيير الحركات من الإعراب وأبنية الكلمات . وهذه كلها هي صناعة

النَّحْوِ. وَيَبْقَى مِنَ الْأُمُورِ الْمُكْتَنَفَةِ بِالْوَأَقَعَاتِ الْمُحْتَاجَةِ لِلدَّلَالَةِ أَحْوَالُ  
 الْمُتَخَاطِبِينَ أَوْ الْفَاعِلِينَ وَمَا يَقْتَضِيهِ حَالُ الْفِعْلِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ  
 مِنْ تَمَامِ الْإِفَادَةِ وَإِذَا حَصَلَتْ لِلْمُتَكَلِّمِ فَقَدْ بَلَغَ غَايَةَ الْإِفَادَةِ فِي كَلَامِهِ. وَإِذَا لَمْ  
 يَشْتَمِلْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَلَيْسَ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ الْعَرَبِ فَإِنَّ كَلَامَهُمْ وَاسِعٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ  
 عِنْدَهُمْ مَقَالٌ يُخْتَصُّ بِهِ بَعْدَ كَمَالِ الْإِعْرَابِ وَالْإِبَانَةِ. أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُمْ ( زَيْدٌ  
 جَاءَنِي ) مُغَايِرٌ لِقَوْلِهِمْ ( جَاءَنِي زَيْدٌ ) مِنْ قَبْلِ أَنْ الْمُتَقَدِّمُ مِنْهُمَا هُوَ الْأَهْمُّ عِنْدَ  
 الْمُتَكَلِّمِ فَمَنْ قَالَ : جَاءَنِي زَيْدٌ أَفَادَ أَنَّ اهْتِمَامَهُ بِالْمَجِيءِ قَبْلَ الشَّخْصِ الْمُسْتَنَدِ  
 إِلَيْهِ. وَمَنْ قَالَ : زَيْدٌ جَاءَنِي أَفَادَ أَنَّ اهْتِمَامَهُ بِالشَّخْصِ قَبْلَ الْمَجِيءِ الْمُسْتَنَدِ  
 وَكَذَا التَّعْبِيرُ عَنْ أَجْزَاءِ الْجُمْلَةِ بِمَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ مِنْ مَوْصُولٍ أَوْ مُبْتَدَأٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ.  
 وَكَذَا تَأْكِيدُ الْإِسْنَادِ عَلَى الْجُمْلَةِ كَقَوْلِهِمْ : زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ وَإِنَّ زَيْدًا لِقَائِمٌ  
 مُتَغَايِرَةٌ كُلُّهَا فِي الدَّلَالَةِ وَإِنْ اسْتَوَتْ مِنْ طَرِيقِ الْإِعْرَابِ فَإِنَّ الْأَوَّلَ الْعَارِي عَنِ  
 التَّأْكِيدِ إِنَّمَا يُفِيدُ الْخَالِي الذَّهْنَ وَالثَّانِي الْمُوَكَّدَ بَيَانَ يُفِيدُ الْمُتَرَدِّدَ وَالثَّلَاثَ يُفِيدُ  
 الْمُنْكَرَ فِيهِ مُخْتَلِفَةٌ. وَكَذَلِكَ تَقُولُ : جَاءَنِي الرَّجُلُ ثُمَّ تَقُولُ مَكَانَهُ بَعِيْنِهِ جَاءَنِي  
 رَجُلٌ إِذَا قَصَدْتَ بِذَلِكَ التَّنْكِيرَ تَعْظِيمَهُ وَأَنَّهُ رَجُلٌ لَا يُعَادِلُهُ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ. ثُمَّ  
 الْجُمْلَةُ الْإِسْنَادِيَّةُ تَكُونُ خَبْرِيَّةً وَهِيَ الَّتِي لَهَا خَارِجٌ تَطَابَقُهُ أَوْ لَا. وَإِنْشَائِيَّةً وَهِيَ  
 الَّتِي لَا خَارِجَ لَهَا. كَالطَّلَبِ وَأَنْوَاعِهِ. ثُمَّ قَدْ يَتَّعَيْنُ تَرْكُ الْعَاطِفِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ  
 إِذَا كَانَ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ : فَيُشْرِكُ<sup>(١)</sup> بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ التَّابِعِ الْمَفْرَدِ نَعْتًا  
 وَتَوْكِيدًا وَبَدَلًا بِلا عَطْفٍ أَوْ يَتَّعَيْنُ الْعَطْفُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ :  
 ثُمَّ يَقْتَضِي الْمَحَلُّ الْإِطْنَابَ وَالْإِيْجَازَ فَيُورَدُ الْكَلَامُ عَلَيْهِمَا. ثُمَّ قَدْ يَدُلُّ بِاللَّفْظِ وَلَا  
 يُرَادُ مَنْطُوقَهُ وَيُرَادُ لِأَزْمِهِ إِنْ كَانَ مُفْرَدًا كَمَا تَقُولُ : زَيْدٌ أَسَدٌ فَلَا تُرِيدُ حَقِيقَةَ  
 الْأَسَدِ الْمَنْطُوقَةَ وَإِنَّمَا تُرِيدُ شَجَاعَتَهُ اللَّازِمَةَ وَتُسْنِدُهَا إِلَى زَيْدٍ وَتُسَمَّى هَذِهِ  
 اسْتِعَارَةً. وَقَدْ تُرِيدُ بِاللَّفْظِ الْمُرَكَّبِ الدَّلَالَةَ عَلَى مَلْزومِهِ كَمَا تَقُولُ : زَيْدٌ كَثِيرٌ

(١) وفي نسخة أخرى : ينزل.



الرَّمَادِ<sup>(١)</sup> وتُرِيدُ مَا لَزِمَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنَ الْجُودِ وَقَرَى الصَّنِيفَ لِأَنَّ كَثْرَةَ الرَّمَادِ نَاشِئَةٌ عَنْهُمَا فِيهِ دَالَّةٌ عَلَيْهِمَا . وَهَذِهِ كُلُّهَا دَلَالَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى دَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ مِنَ الْمَفْرَدِ وَالْمُرَكَّبِ وَإِنَّمَا هِيَ هَيْئَاتٌ وَأَحْوَالُ الْوَاقِعَاتِ جُعِلَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهَا أَحْوَالٌ وَهَيْئَاتٌ فِي الْأَلْفَاظِ كُلِّ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ مَقَامُهُ . فَاشْتَمَلَ هَذَا الْعِلْمُ الْمُسَمَّى بِالْبَيَانِ عَلَى الْبَحْثِ عَنْ هَذِهِ الدَّلَالَةِ الَّتِي لِلْهَيْئَاتِ وَالْأَحْوَالِ وَالْمَقَامَاتِ وَجُعِلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ : الصَّنْفُ الْأَوَّلُ يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ هَذِهِ الْهَيْئَاتِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي تُطَابِقُ بِاللَّفْظِ جَمِيعَ مُقْتَضِيَّاتِ الْحَالِ وَيُسَمَّى عِلْمَ الْبَلَاغَةِ . وَالصَّنْفُ الثَّانِي يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى اللَّازِمِ اللَّفْظِيِّ وَمَلْزُومِهِ وَهِيَ الْاسْتِعَارَةُ وَالْكِنَايَةُ كَمَا قُلْنَا وَيُسَمَّى عِلْمَ الْبَيَانِ . وَالْحَقُوقَا بِهِمَا صِنْفًا آخَرَ وَهُوَ النَّظَرُ فِي تَزْيِينِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ بِنَوْعٍ مِنَ التَّنْمِيقِ إِمَّا بِسَجْعٍ يَفْصَلُهُ أَوْ تَجْنِيسٍ يُشَابِهُ بَيْنَ أَلْفَاظِهِ أَوْ تَرْصِيعٍ يَقْطَعُ أَوْ تَوْرِيحَةٍ عَنِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِإِيْهَامِ<sup>(٢)</sup> مَعْنَى أَخْفَى مِنْهُ لِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِ بَيْنَهُمَا وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ عِلْمَ الْبَدِيعِ . وَأُطْلِقَ عَلَى الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ اسْمُ الْبَيَانِ وَهُوَ اسْمُ الصَّنْفِ الثَّانِي لِأَنَّ الْأَقْدَمِينَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمُوا فِيهِ ، ثُمَّ تَلَاخَقَتْ مَسَائِلُ الْفَنِّ وَاحِدَةٌ بَعْدَ أُخْرَى وَكُتِبَ فِيهَا جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَالْجَا حِظُّ وَقَدَامَةُ وَأَمْثَالُهُمْ إِمْلَاءَاتٍ غَيْرَ وَافِيَةٍ فِيهَا . ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَسَائِلُ الْفَنِّ تَكْمَلُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ مَحَّصُ<sup>(٣)</sup> السَّكَاكِينِ زُبْدَتَهُ وَهَدَّبَ مَسَائِلَهُ وَرَتَّبَ أَبْوَابَهُ عَلَى نَحْوِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنْفَاءً مِنَ التَّرْتِيبِ وَأَلْفَ كِتَابَهُ الْمُسَمَّى بِالْمِفْتَاحِ فِي النَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَالْبَيَانِ فَجَعَلَ هَذَا الْفَنَّ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ . وَأَخَذَهُ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ كِتَابِيهِ وَلَخَّصُوا مِنْهُ أَمْهَاتٍ هِيَ الْمُتَدَاوِلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا فَعَلَهُ السَّكَاكِينُ فِي كِتَابِ التَّنْبِيْهِانِ<sup>(٤)</sup> وَابْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ الْمِضْبَاحِ وَجَلَّالُ الدِّينِ الْقُرُونِيُّ فِي كِتَابِ الْإِيضَاحِ وَالتَّلْخِيسِ وَهُوَ أَضْعُرُ حَجْمًا

( ١ ) وفي نسخة أخرى : رماد القدور .

( ٢ ) وفي نسخة أخرى : بإيهام .

( ٣ ) وفي نسخة أخرى : محض .

( ٤ ) وفي النسخة الباريسية : البيان .

مِنَ الْإِيضَاحِ وَالْإِعْجَازِ بِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَشْرِقِ فِي الشَّرْحِ وَالتَّعْلِيمِ مِنْهُ أَكْثَرُ  
 مِنْ غَيْرِهِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمَشَارِقَةُ عَلَى هَذَا الْفَنِّ أَقْوَمُ مِنَ الْمَغَارِبَةِ وَسَبَبُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ  
 كَمَالِيٌّ فِي الْعُلُومِ السَّنَائِيَّةِ وَالصَّنَائِعِ الْكَمَالِيَّةِ تُوْجِدُ فِي وَفُورِ الْعُمَرَانِ . وَالْمَشْرِقُ أَوْفَرُ  
 عُمَرَانًا مِنَ الْمَغْرِبِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ . أَوْ تَقُولُ لِعِنَايَةِ الْعَجَمِ وَهُمْ مُعْظَمُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ  
 كَتَفْسِيرِ الزَّمْخَشَرِيِّ ، وَهُوَ كُلُّهُ مَنِيٌّ عَلَى هَذَا الْفَنِّ ، وَهُوَ أَصْلُهُ . وَإِنَّمَا اخْتَصَّ  
 بِأَهْلِ الْمَغْرِبِ مِنْ أَصْنَافِهِ عِلْمَ الْبَدِيعِ خَاصَّةً ، وَجَعَلُوهُ مِنْ جُمْلَةِ عُلُومِ الْأَدَبِ  
 الشُّعْرِيَّةِ ، وَفَرَعُوا لَهُ الْقَابَا وَوَعَدُّوا أَبْوَابًا وَنَوَعُوا أَنْوَاعًا . وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ أَحْصَوْهَا مِنْ  
 لِسَانِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا حَمَلْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْوَلُوعِ بِتَرْيِينِ الْأَلْفَاظِ ، وَأَنَّ عِلْمَ الْبَدِيعِ سَهْلٌ  
 الْمَأْخُذِ . وَصَعِبَتْ عَلَيْهِمْ مَأْخُذُ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ لِدِقَّةِ أَنْظَارِهِمَا وَعُمُوضِ مَعَانِيهِمَا  
 فَتَجَافَوْا عَنْهُمَا . وَمِمَّنْ أَلَّفَ فِي الْبَدِيعِ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيْقِيَّةِ ابْنُ رَشِيْقٍ وَكِتَابُ الْعُمْدَةِ لَهُ  
 مَشْهُورٌ . وَجَرَى كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيْقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ عَلَى مَنْحَاهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ ثَمَرَةَ هَذَا  
 الْفَنِّ إِنَّمَا هِيَ فِي فَهْمِ الْإِعْجَازِ مِنَ الْقُرْآنِ لِأَنَّ إِعْجَازَهُ فِي وَفَاءِ الدَّلَالَةِ مِنْهُ بِجَمِيعِ  
 مُقْتَضِيَاتِ الْأَحْوَالِ مَنْطُوقَةٍ وَمَفْهُومَةٍ وَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ مَعَ الْكَلَامِ فِيمَا  
 يُخْتَصُّ بِالْأَلْفَاظِ فِي انْتِفَائِهَا وَجُودَةِ رَضْفِهَا<sup>(١)</sup> وَتَرْكِيْبِهَا وَهَذَا هُوَ الْإِعْجَازُ الَّذِي  
 تَقْصُرُ الْأَفْهَامُ عَنْ إِدْرَاكِهِ . وَإِنَّمَا يَذْرُكُ بَعْضُ الشَّيْءِ مِنْهُ مَنْ كَانَ لَهُ ذَوْقٌ بِمُخَالَطَةِ  
 اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ فَيَذْرُكُ مِنْ إِعْجَازِهِ عَلَى قَدْرِ ذَوْقِهِ . فَلِهَذَا كَانَتْ  
 مَذَارِكُ الْعَرَبِ الَّذِينَ سَمِعُوهُ مِنْ مُبَلِّغِهِ أَعْلَى مَقَامًا فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فُرْسَانُ الْكَلَامِ  
 وَجَهًا بِذَتِهِ وَالذَّوْقُ عِنْدَهُمْ مَوْجُودٌ بِأَوْفَرِ مَا يَكُونُ وَأَصَحُّهُ . وَأَخْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى  
 هَذَا الْفَنِّ الْمَفْسُورُونَ وَأَكْثَرُ تَفَاسِيرِ الْمُتَقَدِّمِينَ عُقِلَ عَنْهُ حَتَّى ظَهَرَ جَارُ اللَّهِ  
 الزَّمْخَشَرِيُّ وَوَضَعَ كِتَابَهُ فِي التَّفْسِيرِ وَتَتَبَعَ آيَ الْقُرْآنِ بِأَحْكَامِ هَذَا الْفَنِّ بِمَا يُبْدِي  
 الْبَعْضُ مِنْ إِعْجَازِهِ فَانْفَرَدَ بِهَذَا الْفَضْلِ عَلَى جَمِيعِ التَّفَاسِيرِ لَوْلَا أَنَّهُ يُؤَيِّدُ عَقَائِدَ أَهْلِ  
 الْبَدِيعِ عِنْدَ اقْتِبَاسِهَا مِنَ الْقُرْآنِ بِوُجُوهِ الْبَلَاغَةِ . وَلَاجِلِ هَذَا يَتَحَامَاهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ

(١) وفي النسخة الباريسية : وضعها .

السُّنَّةِ مَعَ وَفُورِ بَضَاعَتِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ . فَمَنْ أَحْكَمَ عَقَائِدَ السُّنَّةِ وَشَارَكَ فِي هَذَا الْفَنِّ  
بَعْضَ الْمُشَارَكَةِ حَتَّى يَقْتَدِرَ عَلَى الرُّدِّ عَلَيْهِ مِنْ جِنْسِ كَلَامِهِ أَوْ يَعْلَمَ أَنَّهُ بَدْعَةٌ  
فَيَعْرِضُ عَنْهَا وَلَا تَضُرُّ فِي مُعْتَقِدِهِ فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ النَّظَرُ فِي هَذَا الْكِتَابِ لِلظَّفَرِ  
بِشَيْءٍ مِنَ الْإِعْجَازِ مَعَ السَّلَامَةِ مِنَ الْبَدْعِ وَالْأَهْوَاءِ . وَاللَّهُ الْهَادِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى سَوَاءِ  
السَّبِيلِ .

### علم الآداب

هَذَا الْعِلْمُ لَا مَوْضُوعَ لَهُ يُنظَرُ فِي إِثْبَاتِ عَوَارِضِهِ أَوْ نَفْيِهَا . وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنْهُ  
عِنْدَ أَهْلِ اللِّسَانِ ثَمَرَتُهُ ، وَهِيَ الْإِجَادَةُ فِي فَنِّي الْمَنْظُومِ وَالْمَنْشُورِ ، عَلَى أَسَالِيبِ  
الْعَرَبِ وَمَنَاجِيهِمْ ، فَيَجْمَعُونَ لِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا عَسَاءَ تَحْصُلُ بِهِ الْكَلِمَةُ ،  
مِنْ شِعْرِ عَالِي الطَّبَقَةِ ، وَسَجْعِ مُتَسَاوِي الْإِجَادَةِ ، وَمَسَائِلِ مِنَ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ مَبْثُوثَةٍ  
أَثْنَاءَ ذَلِكَ ، مُتَفَرِّقَةٍ ، يَسْتَقْرِي مِنْهَا النَّاطِرُ فِي الْعَالِبِ مُعْظَمَ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ ، مَعَ  
ذِكْرِ بَعْضِ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ يَفْهَمُ بِهِ مَا يَقَعُ فِي أَشْعَارِهِمْ مِنْهَا . وَكَذَلِكَ ذِكْرُ الْمُهَمِّ  
مِنَ الْأَنْسَابِ الشَّهِيرَةِ وَالْأَخْبَارِ الْعَامَّةِ . وَالْمَقْصُودُ بِذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ لَا يَخْفَى عَلَى  
النَّاطِرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ كَلَامِ الْعَرَبِ وَأَسَالِيِبِهِمْ وَمَنَاجِيهِمْ بِلَاغَتِهِمْ إِذَا تَصَفَّحَهُ لِأَنَّهُ  
لَا تَحْصُلُ الْمَلَكَةُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيمِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ  
فَهْمُهُ . ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا حَدَّ هَذَا الْفَنِّ قَالُوا : الْآدَبُ هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ  
وَأَخْبَارِهَا وَالْأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِطَرَفٍ يُرِيدُونَ مِنْ عُلُومِ اللِّسَانِ أَوْ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ  
مِنْ حَيْثُ مُتَوْنَهَا فَقَطُّ وَهِيَ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ . إِذْ لَا مَدْخَلَ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ فِي  
كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُتَأَخِّرُونَ عِنْدَ كَلْفِهِمْ بِصِنَاعَةِ الْبَدِيعِ مِنَ التَّوْرِيَّةِ فِي  
أَشْعَارِهِمْ وَتَرْسُلِهِمْ بِالِاصْطِلَاحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ فَاحْتَاجَ صَاحِبُ هَذَا الْفَنِّ حِينَئِذٍ إِلَى  
مَعْرِفَةِ اصْطِلَاحَاتِ الْعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِمًا عَلَى فَهْمِهَا . وَسَمِعْنَا مِنْ شَيْوْخِنَا فِي مَجَالِسِ  
التَّعْلِيمِ أَنَّ أَصُولَ هَذَا الْفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةٌ دَوَاوِينُ وَهِيَ : آدَبُ الْكُتَّابِ لِابْنِ قُتَيْبَةَ  
وَكِتَابُ الْكَامِلِ لِلْمَبْرُودِ وَكِتَابُ الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ لِلْجَاحِظِ وَكِتَابُ النُّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ

القالي البغدادي . وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها . وكُتِبَ المُعْجِزِينَ في ذلك كثيرة . وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه . وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قاذحاً في العدالة والمروءة . وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم . وجعل مبناه على الغناء في المائة صوتاً التي اختارها المغنون للرشييد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه . ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يُعَدُّ به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب وَيَقِفُ عندها وأنى له بها . ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الإجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان . والله الهادي للصواب .

## الفصل السادس والأربعون

### في أن اللغة ملكة صناعية

إعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها . وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب . فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة . والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالاً . ومعنى الحال

أَنَّهَا صِفَةٌ غَيْرُ رَاسِخَةٍ ثُمَّ يَزِيدُ التَّكْرَارُ فَتَكُونُ مَلِكَةً أَيْ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ . فَالْمُتَكَلِّمُ مِنْ  
 الْعَرَبِ حِينَ كَانَتْ مَلِكَةً <sup>(١)</sup> اللَّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مُوجُودَةٌ فِيهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَ أَهْلِ جِيلِهِ  
 وَأَسَالِيِبِهِمْ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَكَيْفِيَّةِ تَغْيِيرِهِمْ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ كَمَا يَسْمَعُ الصَّبِيُّ اسْتِعْمَالَ  
 الْمَفْرَدَاتِ فِي مَعَانِيهَا فَيُلْقِنُهَا أَوَّلًا ثُمَّ يَسْمَعُ التَّرَاكِبَ بَعْدَهَا فَيُلْقِنُهَا كَذَلِكَ . ثُمَّ  
 لَا يَزَالُ سَمَاعُهُمْ لِذَلِكَ يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَمِنْ كُلِّ مُتَكَلِّمٍ وَاسْتِعْمَالُهُ يَتَكَرَّرُ إِلَى  
 أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ مَلِكَةً وَصِفَةٌ رَاسِخَةٌ وَيَكُونُ كَأَحَدِهِمْ . هَكَذَا تَصِيرَتِ الْأَلْسُنُ  
 وَاللُّغَاتُ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ وَتَعَلَّمَهَا الْعَجَمُ وَالْأَطْفَالُ . وَهَذَا هُوَ مَعْنَى مَا تَقُولُهُ  
 الْعَامَّةُ مِنْ أَنَّ اللَّغَةَ لِلْعَرَبِ بِالطَّبِيعِ أَيْ بِالْمَلَكَةِ الْأُولَى الَّتِي أَخَذَتْ عَنْهُمْ وَلَمْ  
 يَأْخُذُوهَا عَنْ غَيْرِهِمْ . ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا فَسَدَتْ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لِمُضَرِّ بِمُخَالَطَتِهِمْ الْأَعَاجِمَ  
 وَسَبَبُ فَسَادِهَا أَنَّ النَّاشِئَ مِنَ الْجِيلِ صَارَ يَسْمَعُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ كَيْفِيَّاتٍ  
 أُخْرَى غَيْرَ الْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ فَيَعْبُرُ بِهَا عَنْ مَقْصُودِهِ لِكثْرَةِ الْمُخَالَطِينَ  
 لِلْعَرَبِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَسْمَعُ كَيْفِيَّاتِ الْعَرَبِ أَيْضًا فَاخْتَلَطَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَأَخَذَ مِنْ هَذِهِ  
 وَهَذِهِ فَاسْتَحْدَثَ مَلَكَةً وَكَانَتْ نَاقِصَةً عَنِ الْأُولَى . وَهَذَا مَعْنَى فَسَادِ اللِّسَانِ  
 الْعَرَبِيِّ . وَلِهَذَا كَانَتْ لُغَةُ قُرَيْشٍ أَفْصَحَ اللُّغَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَصْرَحَهَا لِبُعْدِهِمْ عَنْ بِلَادِ  
 الْعَجَمِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ . ثُمَّ مِنَ اِكْتِنَفِهِمْ مِنْ ثَقِيفٍ وَهَذَايِلٍ وَخَزَاعَةَ وَبَنِي كِنَانَةَ  
 وَعُظْفَانَ وَبَنِي أَسَدٍ وَبَنِي تَمِيمٍ . وَأَمَّا مَنْ بَعُدَ عَنْهُمْ مِنْ رَبِيعَةَ وَلِخْمٍ وَجُدَامٍ وَعَسَانَ  
 وَإِيَادٍ وَقُضَاعَةَ وَعَرَبِ الْيَمَنِ الْمُجَاوِرِينَ لِأَمَمِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ وَالْحَبَشَةِ فَلَمْ تَكُنْ لُغَتُهُمْ  
 تَامَةً الْمَلَكَةَ بِمُخَالَطَةِ الْأَعَاجِمِ . وَعَلَى نِسْبَةِ بُعْدِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَ الْإِحْتِجَاجُ  
 بِلُغَاتِهِمْ فِي الصَّحَّةِ وَالْفَسَادِ عِنْدَ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ  
 وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

(١) الضمير يعود إلى اللغة . وفي النسخة الباريسية ملكة اللغة .

## الفصل السابع والأربعون

في أن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير

وَذَلِكَ أَنَا نَجِدُهَا فِي بَيَانِ الْمَقَاصِدِ وَالْوَفَاءِ بِالدَّلَالَةِ عَلَى سُنَنِ اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ  
وَلَمْ يَفْقَدْ مِنْهَا إِلَّا دَلَالَةَ الْحَرَكَاتِ عَلَى تَعْيِينِ الْفَاعِلِ مِنَ الْمَفْعُولِ فَاعْتَاضُوا مِنْهَا  
بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ وَبِقِرَائِنِ تَدُلُّ عَلَى خُصُوصِيَّاتِ الْمَقَاصِدِ . إِلَّا أَنَّ الْبَيَانَ وَالبَلَاغَةَ  
فِي اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ أَكْثَرُ وَأَعْرَقِي . لِأَنَّ الْأَلْفَاظَ بِأَعْيَانِهَا دَالَّةٌ عَلَى الْمَعَانِي  
بِأَعْيَانِهَا . وَيَبْقَى مَا تَقْتَضِيهِ الْأَحْوَالُ وَيُسَمَّى بِسَاطِ الْحَالِ مُحْتَاجًا إِلَى مَا يَدُلُّ  
عَلَيْهِ . وَكُلُّ مَعْنَى لَا بُدَّ وَأَنْ تَكْتَنِفَهُ أَحْوَالٌ تَخْصُهُ فَيَجِبُ أَنْ تُعْتَبَرَ تِلْكَ الْأَحْوَالُ  
فِي تَادِيَةِ الْمَقْصُودِ لِأَنَّهَا صِفَاتُهُ وَتِلْكَ الْأَحْوَالُ فِي جَمِيعِ الْأَلْسِنِ أَكْثَرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهَا  
بِالْفَاظِ تَخْصُصًا بِالْوَضْعِ . وَأَمَّا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا بِأَحْوَالِ  
وَكَيْفِيَّاتِ فِي تَرَكَيبِ الْأَلْفَاظِ وَتَأْلِيْفِهَا مِنْ تَقْدِيمٍ أَوْ تَأخِيرٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ حَرَكَةٍ  
أَعْرَابٍ . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَيْهَا بِالْحُرُوفِ غَيْرِ الْمُسْتَقْلَةِ . وَلِذَلِكَ تَفَاوُتَتْ طَبَقَاتُ الْكَلَامِ  
فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ الدَّلَالَةِ عَلَى تِلْكَ الْكَيْفِيَّاتِ كَمَا قَدْ مَنَّا فَكَانَ  
الْكَلَامُ الْعَرَبِيُّ لِذَلِكَ أَوْجَزَ وَأَقْلُّ أَلْفَاظًا وَعِبَارَةً مِنْ جَمِيعِ الْأَلْسِنِ . وَهَذَا مَعْنَى  
قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً » . واعتبر ذلك  
بِمَا يُحْكِي عَنْ عِيسَى بْنِ عِمْرَانَ وَقَدْ قَالَ لَهُ بَعْضُ النُّحَاةِ : « إِنِّي أَجِدُ فِي كَلَامِ  
الْعَرَبِ تَكَرَّرًا فِي قَوْلِهِمْ : زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنْ زَيْدًا قَائِمٌ وَإِنْ زَيْدًا لِقَائِمٌ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ » .  
فَقَالَ لَهُ : إِنَّ مَعَانِيهَا مُخْتَلِفَةٌ . فَالْأَوَّلُ : لِإِفَادَةِ الْخَالِي الذَّهْنِ مِنْ قِيَامِ زَيْدٍ .  
وَالثَّانِي : لِمَنْ سَمِعَهُ فَتَرَدَّدَ فِيهِ . وَالثَّلَاثُ : لِمَنْ عَرَفَ بِالِإِضْرَارِ عَلَى إِتْكَارِهِ  
فَاخْتَلَفَتِ الدَّلَالَةُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ . وَمَا زَالَتْ هَذِهِ الْبَلَاغَةُ وَالبَيَانُ ذَيْدًا الْعَرَبِ  
وَمَذْهَبُهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَلَا تَلْتَفِتَنَّ فِي ذَلِكَ إِلَى حَرْفِيَّةِ النُّحَاةِ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ  
الْقَاصِرَةِ مَدَارِكُهُمْ عَنِ التَّحْقِيقِ حَيْثُ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْبَلَاغَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ ذَهَبَتْ وَأَنَّ

اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَسَدَ اغْتِبَاراً بِمَا وَقَعَ فِي أَوَاخِرِ الْكَلِمِ مِنْ فَسَادِ الْإِعْرَابِ الَّذِي  
 يَتَدَارَسُونَ قَوَائِنَهُ . وَهِيَ مَقَالَةٌ دَسَّهَا التُّشَيْعُ فِي طِبَاعِهِمْ وَالْقَاهَا الْقُصُورُ فِي أَفْتِدَتِهِمْ  
 وَالْأَفْنَحُنُ نَجِدُ الْيَوْمَ الْكَثِيرَ مِنَ الْفَاطِ الْعَرَبِ لَمْ تَنْزَلْ فِي مَوْضُوعَاتِهَا الْأُولَى وَالتَّغْيِيرُ  
 عَنِ الْمَقَاصِدِ وَالتَّعَاوُنُ فِيهِ يَتَفَاوَتُ الْإِبَانَةُ مَوْجُودٌ فِي كَلَامِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ وَأَسَالِيبُ  
 اللِّسَانِ وَقُنُونُهُ مِنَ النُّظْمِ وَالنَّشْرِ مَوْجُودَةٌ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ وَفَهُمُ الْخَسِيبُ الْمِضْقَعُ فِي  
 مَحَافِلِهِمْ وَمَجَامِعِهِمْ وَالشَّاعِرُ الْمَفْلِقُ عَلَى أَسَالِيبِ لُغَتِهِمْ . وَالذُّوقُ الصَّحِيحُ وَالطَّنْبُغُ  
 السَّلِيمُ شَاهِدَانِ بِذَلِكَ . وَلَمْ يُفْقَدْ مِنْ أَحْوَالِ اللِّسَانِ الْمُدُونِ إِلَّا حَرَكَاتُ الْإِعْرَابِ فِي  
 أَوَاخِرِ الْكَلِمِ فَقَطُّ الَّذِي لَرَمَ فِي لِسَانِ مُضَرَّ طَرِيقَةٌ وَاحِدَةٌ وَمَنْعِيماً مَعْرُوفاً وَهُوَ  
 الْإِعْرَابُ . وَهُوَ بَعْضُ مِنْ أَحْكَامِ اللِّسَانِ . وَإِنَّمَا وَقَعَتِ الْعِنَايَةُ بِلِسَانِ مُضَرٍّ لَمَّا فَسَدَ  
 بِمُخَالَطَتِهِمُ الْأَعَاجِمَ حِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَى مَمَالِكِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِضَرَ وَالْمَغْرِبِ  
 وَصَارَتْ مَلَكَتُهُ عَلَى غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ أَوَّلًا فَانْقَلَبَ لُغَةً أُخْرَى . وَكَانَ الْقُرْآنُ  
 مُنْزَلاً بِهِ وَالْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ مَنْقُولاً بِلُغَتِهِ وَهُمَا أَضْلَا الدِّينَ وَالْمِلَّةَ فَخَشِيَ تَنَاسِيهِمَا  
 وَانْغِلَاقَ الْأَفْهَامِ عَنْهُمَا بِفِقْدَانِ اللِّسَانِ الَّذِي نَزَّلَا بِهِ فَاحْتِجَّ إِلَى تَدْوِينِ أَحْكَامِهِ  
 وَوَضَعَ مَقَابِيصَهُ وَاسْتَنْبَاطَ قَوَائِنِهِ . وَصَارَ عِلْماً ذَا فُصُولٍ وَأَبْوَابٍ وَمَقَدِّمَاتٍ وَمَسَائِلَ  
 سَمَّاهُ أَهْلُهُ يَعْلَمُ النَّحْوَ وَصِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ فَأَصْبَحَ فَنَاءً مَحْفُوظاً وَعِلْماً مَكْتُوباً وَسَلْماً إِلَى  
 فَهْمِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَأَفِيأً <sup>(١)</sup> . وَلَعَلَّنَا لَوْ اغْتَنَيْنَا بِهَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ  
 لِهَذَا الْعَهْدِ وَاسْتَقْرَيْنَا أَحْكَامَهُ نَعْتَاضَ عَنِ الْحَرَكَاتِ الْإِعْرَابِيَّةِ فِي دَلَالَتِهَا بِأُمُورٍ  
 أُخْرَى مَوْجُودَةٌ فِيهِ تَكُونُ بِهَا قَوَائِنُ تَخْصُهَا . وَلَعَلَّهَا تَكُونُ فِي أَوَاخِرِهِ عَلَى غَيْرِ  
 الْمِنْهَاجِ الْأَوَّلِ فِي لُغَةٍ مُضَرٍّ فَلَيْسَتْ اللُّغَاتُ وَمَلَكَاتُهَا مَجَاناً . وَلَقَدْ كَانَ اللِّسَانُ  
 الْمُضَرِّيُّ مَعَ اللِّسَانِ الْحِمَيْرِيِّ بِهَذِهِ الْمَثَانِيَةِ وَتَغْيِيرَ عِنْدَ مُضَرٍّ كَثِيرٍ مِنْ مَوْضُوعَاتِ  
 اللِّسَانِ الْحِمَيْرِيِّ وَتَصَارِيفِ كَلِمَاتِهِ . تَشْهَدُ بِذَلِكَ الْأَنْتِقَالَ الْمَوْجُودَةَ لَدَيْنَا خِلَافاً  
 لِمَنْ يَحْمِلُهُ الْقُصُورُ عَلَى أَنَّهَا لُغَةٌ وَاحِدَةٌ وَيَلْتَمِسُ إِجْرَاءَ اللُّغَةِ الْحِمَيْرِيَّةِ عَلَى

(١) وفي نسخة أخرى : راقياً .

مَقَائِسِ اللُّغَةِ الْمُضَرِّيَّةِ وَقَوَائِنِهَا كَمَا يَزْعَمُ بَعْضُهُمْ فِي اشْتِقَاقِ القِيلِ فِي اللِّسَانِ  
الْحِمَيْرِيِّ أَنَّهُ مِنَ القَوْلِ وَكثِيرٌ مِنْ أَشْبَاهِ هَذَا وَليْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ . وَلُغَةُ حَمِيرٍ لُغَةٌ  
أُخْرَى مُغَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرٍّ فِي الكَثِيرِ مِنْ أَوْضَاعِهَا وَتَصَاريفِهَا وَحَرَكَاتِ إِغْرَابِهَا كَمَا  
هِيَ لُغَةُ العَرَبِ لِعَهْدِنَا مَعَ لُغَةِ مُضَرٍّ إِلَّا أَنَّ العِنَايَةَ بِلسَانِ مُضَرٍّ مِنْ أَجْلِ الشَّرِيعَةِ  
كَمَا قُلْنَا هَمَلْ ذَلِكَ عَلَى الإِسْتِنْبَاطِ وَالإِسْتِقْرَاءِ وَليْسَ عِنْدَنَا لِهَذَا العَهْدِ مَا يَحْمِلُنَا  
عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَيَدْعُونَا إِلَيْهِ . وَمِمَّا وَقَعَ فِي لُغَةِ هَذَا الجِيلِ العَرَبِيِّ لِهَذَا العَهْدِ حَيْثُ  
كَانُوا مِنَ الأَقْطَارِ شَأْنُهُمْ فِي النُّطْقِ بِالقَافِ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْطُقُونَ بِهَا مِنْ مَخْرَجِ القَافِ  
عِنْدَ أَهْلِ الأَمْصَارِ كَمَا هُوَ مَذْكَورٌ فِي كُتُبِ العَرَبِيَّةِ أَنَّهُ مِنْ أَقْصَى اللِّسَانِ وَمَا فَوْقَهُ  
مِنَ الحَنَكِ الأَعْلَى . وَمَا يَنْطُقُونَ بِهَا أَيْضاً مِنْ مَخْرَجِ الكَافِ وَإِنْ كَانَ أَسْفَلَ مِنْ  
مَوْضِعِ القَافِ وَمَا يَلِيهِ مِنَ الحَنَكِ الأَعْلَى كَمَا هِيَ بَلْ يَحْيِيُونَ بِهَا مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ  
الكَافِ وَالقَافِ وَهُوَ مَوْجُودٌ لِلجِيلِ أَجْمَعِ حَيْثُ كَانُوا مِنْ غَرْبٍ أَوْ شَرْقٍ حَتَّى صَارَ  
ذَلِكَ عَلَامَةً عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ وَالأَجْيَالِ مُخْتَصِصاً بِهِمْ لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ .  
حَتَّى إِنْ مَنْ يُرِيدُ التَّقَرُّبَ <sup>(١)</sup> وَالإِنْتِسَابَ إِلَى الجِيلِ وَالدُّخُولَ فِيهِ يُحَاكِيهِمْ فِي  
النُّطْقِ بِهَا . وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ العَرَبِيُّ الصَّرِيحُ مِنَ الدَّخِيلِ فِي العَرُوبِيَّةِ  
وَالحَضْرِيِّ بِالنُّطْقِ بِهَذِهِ القَافِ . وَيَظْهَرُ بِذَلِكَ أَنَّهَا لُغَةُ مُضَرٍّ بِعَيْنِهَا فَإِنَّ هَذَا  
الجِيلَ البَاقِينَ مُعْظَمُهُمْ وَرُؤُسَاؤُهُمْ شَرْقاً وَغَرْباً فِي وَوَلِدِ مَنْصُورِ بْنِ عَكْرَمَةَ بْنِ  
خَصْفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ مِنْ سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ وَمِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ بْنِ  
مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ بْنِ مَنْصُورٍ . وَهُمْ لِهَذَا العَهْدِ أَكْثَرُ الأُمَمِ فِي المَعْمُورِ  
وَأَعْلَبُهُمْ وَهُمْ مِنْ أَهْقَابِ مُضَرٍّ وَسَائِرِ الجِيلِ مَعَهُمْ مِنْ بَنِي كَهْلَانَ فِي النُّطْقِ بِهَذِهِ  
القَافِ أَسْوَةً . وَهَذِهِ اللُّغَةُ لَمْ يَبْتَدِعْهَا هَذَا الجِيلُ بَلْ هِيَ مُتَوَارِثَةٌ فِيهِمْ مُتَعاقِبَةٌ  
وَيَظْهَرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا لُغَةُ مُضَرِّ الأَوَّلِينَ وَلَعَلَّهَا لُغَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنِهَا قَدْ ادَّعَى  
ذَلِكَ فَفَهَاءُ أَهْلِ البَيْتِ وَزَعَمُوا أَنَّ مَنْ قَرَأَ فِي أَمِّ القُرْآنِ « إِهْدِنَا إِلَى الصِّرَاطِ

(١) وَفِي نَسْخَةِ أُخْرَى : التَّعَرُّبِ .



المُسْتَقِيمِ « بِغَيْرِ الْقَافِ الَّتِي لِهَذَا الْجِيلِ فَقَدْ لَحَنَ وَأَفْسَدَ صَلَاتَهُ وَلَمْ أُذِرْ مِنْ أَيْنَ  
جَاءَ هَذَا ؟ فَإِنَّ لُغَةَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَيْضاً لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا وَإِنَّمَا تَنَاقَلُوهَا مِنْ لُدُنْ سَلَفِهِمْ  
وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ مُضَرٍّ لَمَّا نَزَلُوا الْأَمْصَارَ مِنْ لُدُنِ الْفَتْحِ . وَأَهْلُ الْجِيلِ أَيْضاً لَمْ  
يَسْتَحْدِثُوهَا إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْعَدُ مِنْ مُخَالَطَةِ الْأَعَاجِمِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ . فَهَذَا يَرْجَحُ فِيمَا  
يُوجَدُ مِنَ اللُّغَةِ لَدَيْهِمْ أَنَّهُ مِنْ لُغَةِ سَلَفِهِمْ . هَذَا مَعَ اتِّفَاقِ أَهْلِ الْجِيلِ كُلِّهِمْ شَرْقاً  
وَعَرْباً فِي النُّطْقِ بِهَا وَأَنَّهَا الْخَاصِيَّةُ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا الْعَرَبِيُّ مِنَ الْهَجِينِ  
وَالْحَضْرِيِّ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْقَافَ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ الْجِيلِ الْعَرَبِيُّ الْبَدَوِيُّ  
هُوَ مِنْ مَخْرَجِ الْقَافِ عِنْدَ أَوْلِيهِمْ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ ، وَأَنَّ مَخْرَجَ الْقَافِ مُتَّسِعٌ ، فَأَوَّلُهُ مِنْ  
أَعْلَى الْحَنَكِ وَآخِرُهُ مِمَّا يَلِي الْكَافِ . فَالْنُّطْقُ بِهَا مِنْ أَعْلَى الْحَنَكِ هُوَ لُغَةُ  
الْأَمْصَارِ ، وَالنُّطْقُ بِهَا مِمَّا يَلِي الْكَافِ هِيَ لُغَةُ هَذَا الْجِيلِ الْبَدَوِيِّ . وَبِهَذَا يَنْدَفِعُ  
مَا قَالَهُ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْ فَسَادِ الصَّلَاةِ بِتَرْكِهَا فِي أُمَّ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّ فَهَاءَ الْأَمْصَارِ كُلِّهِمْ  
عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ . وَبَعِيدٌ أَنْ يَكُونُوا أَهْمَلُوا ذَلِكَ ، فَوَجْهُهُ مَا قُلْنَا . نَعَمْ نَقُولُ إِنَّ  
الْأَرْجَحَ وَالْأَوْلَى مَا يَنْطِقُ بِهِ أَهْلُ الْجِيلِ الْبَدَوِيِّ لِأَنَّ تَوَاتُرَهَا فِيهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا ،  
شَاهِدٌ بِأَنَّهَا لُغَةُ الْجِيلِ الْأَوَّلِ مِنْ سَلَفِهِمْ ، وَأَنَّهَا لُغَةُ النَّبِيِّ ﷺ . وَيَرْجَحُ ذَلِكَ  
أَيْضاً إِذْغَامُهُمْ لَهَا فِي الْكَافِ لِتَقَارُبِ الْمُخْرَجِينَ . وَلَوْ كَانَتْ كَمَا يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ  
الْأَمْصَارِ مِنْ أَصْلِ الْحَنَكِ ، لَمَا كَانَتْ قَرِيبَةً الْمَخْرَجِ مِنَ الْكَافِ ، وَلَمْ تُدْعَمْ . ثُمَّ إِنَّ  
أَهْلَ الْعَرَبِيَّةِ قَدْ ذَكَرُوا هَذِهِ الْقَافَ الْقَرِيبَةَ مِنَ الْكَافِ ، وَهِيَ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ  
الْجِيلِ الْبَدَوِيِّ مِنَ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، وَجَعَلُوهَا مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ مَخْرَجِي الْقَافِ  
وَالْكَافِ . عَلَى أَنَّهَا حَرْفٌ مُسْتَقِلٌّ ، وَهُوَ بَعِيدٌ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مِنْ آخِرِ مَخْرَجِ الْقَافِ  
لِاتِّسَاعِهِ كَمَا قُلْنَا . ثُمَّ إِنَّهُمْ يُصْرِّحُونَ بِاسْتِهْجَانِهِ وَاسْتِقْبَاحِهِ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَصِحَّ  
عِنْدَهُمْ أَنَّهَا لُغَةُ الْجِيلِ الْأَوَّلِ . وَفِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ إِتِّصَالِ نَطْقِهِمْ بِهَا ، لِأَنَّهَا إِنَّمَا  
وَرِثُوهَا مِنْ سَلَفِهِمْ جَيْلاً بَعْدَ جَيْلٍ ، وَأَنَّهَا شِعَارُهُمُ الْخَاصُّ بِهِمْ ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لُغَةُ  
ذَلِكَ الْجِيلِ الْأَوَّلِ ، وَلُغَةُ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ كُلُّهُ . وَقَدْ يَزْعَمُ زَاعِمٌ أَنَّ

هَذِهِ الْقَافُ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا أَهْلُ الْأَمْصَارِ لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْحَرْفِ ، وَأَنَّهَا إِنَّمَا جَاءَتْ مِنْ مَخَالَطَتِهِمْ لِلعَجَمِ ، وَأِنَّهُمْ يَنْطِقُونَ بِهَا كَذَلِكَ ، فَلَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ . وَلَكِنَّ الْأَيْسَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّهَا حَرْفٌ وَاحِدٌ مُتَّسِعٌ الْمَخْرَجِ . فَتَمَّهْمُ ذَلِكَ . وَاللَّهُ الْهَادِي الْمُبِينُ .

## الفصل الثامن والأربعون

في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها للغة مضر

إِغْلَمُ أَنْ عَرَفَ التَّخَاطُبَ فِي الْأَمْصَارِ وَبَيْنَ الْحَضَرِ لَيْسَ بِلُغَةٍ مَضْرَ الْقَدِيمَةِ وَلَا بِلُغَةٍ أَهْلِ الْجِيلِ بَلْ هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا بَعِيدَةٌ عَنِ لُغَةِ مَضْرَ وَعَنْ لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي لِعَهْدِنَا وَهِيَ عَنِ لُغَةِ مَضْرَ أَبْعَدُ . فَأَمَّا إِنَّهَا لُغَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا فَهُوَ ظَاهِرٌ يَشْهَدُ لَهُ مَا فِيهَا مِنَ التَّغَايُرِ الَّذِي يُعَدُّ عِنْدَ صِنَاعَةِ أَهْلِ النُّحُو لِحْنًا . وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَمْصَارِ فِي اضْطِلَاحَاتِهِمْ فَلُغَةُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ مَبَايِنَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ لِللُّغَةِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَكَذَا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ مَعَهُمَا وَكُلٌّ مِنْهُمْ مُتَوَصِّلٌ بِلُغَتِهِ إِلَى تَأْدِيَةِ مَقْصُودِهِ وَالْإِبَانَةِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ . وَهَذَا مَعْنَى اللِّسَانِ وَاللُّغَةِ . وَفَقْدَانُ الْإِعْرَابِ لَيْسَ بِضَائِرٍ لَهُمْ كَمَا قُلْنَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَأَمَّا إِنَّهَا أَبْعَدُ عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ مِنْ لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ فَلَأَنَّ الْبُعْدَ عَنِ اللِّسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِمَخَالَطَةِ الْعُجْمَةِ <sup>(١)</sup> . فَمَنْ خَالَطَ الْعُجْمَةَ أَكْثَرَ كَانَتْ لُغَتُهُ عَنِ ذَلِكَ اللِّسَانِ الْأَصْلِيِّ أَبْعَدُ لِأَنَّ الْمَلِكَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِالْتَّغْلِيمِ كَمَا قُلْنَا . وَهَذِهِ مَلِكَةٌ مُمْتَزِجَةٌ مِنَ الْمَلِكَةِ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ لِلْعَرَبِ وَمِنَ الْمَلِكَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي لِلْعَجَمِ . فَعَلَى مِقْدَارِ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ الْعُجْمِ وَيَرْبُونَ عَلَيْهِ يَبْعُدُونَ عَنِ الْمَلِكَةِ الْأُولَى . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ أُفْرِيْقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ وَالْمَشْرِقِ . أَمَّا أُفْرِيْقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ فَخَالَطَتِ الْعَرَبَ فِيهَا الْبَرَابِرَةُ مِنْ

(١) وفي النسخة الباريسية : لمخالطة العجم .

العجم يوفور عُمُرَانِهَا بِهِمْ وَلَمْ يَكْذِ يَخْلُو عَنْهُمْ مِضْرَ وَلَا جِيْلَ فَعَلَبَتِ الْعُجْمَةُ فِيهَا عَلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي كَانَ لَهُمْ وَصَارَتْ لُغَةً أُخْرَى مُمْتَزِجَةً . وَالْعُجْمَةُ فِيهَا أَغْلَبَ لِمَا ذُكِرْنَا فِيهَا فِي عَنِ اللِّسَانِ الْأَوَّلِ أُنْبَعْدُ . وَكَذَا الْمَشْرِقُ لِمَا غَلَبَ الْعَرَبُ عَلَى أَمِيهِ مِنْ فَارِسَ وَالتُّرْكِ فَخَالَطُوهُمْ وَتَدَاوَلَتْ بَيْنَهُمْ لُغَاتُهُمْ فِي الْأَكْرَةِ وَالْفَلَاحِينَ وَالسُّبُهِيِّ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ خَوْلًا وَذَايَاتٍ وَأَطَارًا وَمَرَاضِعَ فَفَسَدَتْ لُغَتُهُمْ بِفَسَادِ الْمَلَكَةِ حَتَّى انْقَلَبَتْ لُغَةً أُخْرَى . وَكَذَا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ مَعَ عَجَمِ الْجَلَالِقَةِ وَالْإِفْرَنْجَةِ . وَصَارَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ كُلُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَهْلُ لُغَةٍ أُخْرَى مَخْصُوصَةً بِهِمْ تُخَالِفُ لُغَةَ مِضْرَ وَيُخَالِفُ أَيْضًا بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا نَذَكُرُهُ وَكَأَنَّهُ لُغَةً أُخْرَى لِاسْتِحْكَامِ مَلَكَتِهَا فِي أَجْيَالِهِمْ . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُقَدِّرُ .

## الفصل التاسع والأربعون

### في تعليم اللسان المصري

إِغْلَمَ أَنَّ مَلَكَةَ اللِّسَانِ الْمُصْرِيِّ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ ذَهَبَتْ وَفَسَدَتْ وَلُغَةُ أَهْلِ الْجِيْلِ كُلُّهُمْ مُغَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مِضْرَ الَّتِي نَزَلَتْ بِهَا الْقُرْآنُ وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى مِنْ امْتِزَاجِ الْعُجْمَةِ بِهَا كَمَا قَدَّمْنَا . إِلَّا أَنَّ اللُّغَاتِ لِمَا كَانَتْ مَلَكَاتٍ كَمَا مَرَّ كَانَ تَعَلُّمُهَا مُمَكِّنًا شَأْنَ سَائِرِ الْمَلَكَاتِ . وَوَجْهَ التَّعْلِيمِ لِمَنْ يَبْتَغِي هَذِهِ الْمَلَكََةَ وَيُرُومُ تَخْصِيلَهَا أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِحِفْظِ كَلَامِهِمُ الْقَدِيمِ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ السُّلْفِ وَمُخَاطَبَاتِ فُحُولِ الْعَرَبِ فِي أَسْجَاعِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَكَلِمَاتِ الْمُؤَلِّدِينَ أَيْضًا فِي سَائِرِ فُنُونِهِمْ حَتَّى يَتَنَزَّلَ لِكثْرَةِ حِفْظِهِ لِكَلَامِهِمْ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْشُورِ مَنْزِلَةً مَنْ نَشَأَ بَيْنَهُمْ وَلَقِّنَ الْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقَاصِدِ مِنْهُمْ . ثُمَّ يَتَصَرَّفُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي التَّغْيِيرِ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ عَلَى حَسَبِ عِبَارَاتِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَاتِهِمْ وَمَا وَعَاهُ وَحِفْظُهُ مِنْ

أَسَالِيهِمْ وَتَرْتِيبِ الْفَاطِمِهِمْ فَتَحْضُلُ لَهُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ بِهَذَا الْحِفْظِ وَالِاسْتِعْمَالِ وَيَزْدَادُ  
يَكْثَرْتَهُمَا رُسُوحاً وَقُوَّةً وَيَخْتِاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى سَلَامَةِ الطَّبْعِ وَالتَّفَهُمِ الْحَسَنِ لِمَنَازِعِ  
الْعَرَبِ وَأَسَالِيهِمْ فِي التَّرَاكِيِبِ وَمُرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُقْتَضِيَاتِ الْأَحْوَالِ .  
وَالذُّوقُ يَشْهَدُ بِذَلِكَ وَهُوَ يَنْشَأُ مَا بَيْنَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَالطَّبْعِ السَّلِيمِ فِيهِمَا كَمَا  
نَذَكُرُ . وَعَلَى قَدْرِ الْمَحْفُوظِ وَكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ تَكُونُ جُودَةُ الْمَقُولِ الْمَصْنُوعِ نَظْماً  
وَنَثْراً . وَمَنْ حَصَلَ عَلَى هَذِهِ الْمَلَكَاتِ فَقَدْ حَصَلَ عَلَى لُغَةٍ مُضَرَّ وَهُوَ النَّاقِدُ الْبَصِيرُ  
بِالْبَلَاغَةِ فِيهَا وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَعَلُّمَهَا . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ  
وَكَرَمِهِ .

## الفصل الخمسون

في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم  
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ قَوَانِينِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ  
وَمَقَايِسِهَا خَاصَّةً . فَهُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ لَا نَفْسُ كَيْفِيَّةِ . فَلَيْسَتْ نَفْسُ الْمَلَكَةِ وَإِنَّمَا  
هِيَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَعْرِفُ صِنَاعَةَ مِنَ الصَّنَائِعِ عِلْماً وَلَا يُحْكِمُهَا عَمَلاً . مِثْلُ أَنْ يَقُولَ  
بَصِيرٌ بِالْخِيَاطَةِ غَيْرُ مُحْكِمٍ لِمَلَكَتِهَا فِي التَّعْبِيرِ عَنْ بَعْضِ أَنْوَاعِهَا الْخِيَاطَةُ هِيَ أَنْ  
يُدْخَلَ الْخَيْطُ فِي خَزْتِ الْإِبْرَةِ ثُمَّ يَفْرَزُهَا فِي لِفْقِي الثُّوبِ مُجْتَمِعِينَ وَيُخْرِجُهَا مِنْ  
الْجَانِبِ الْآخِرِ بِمَقْدَارِ كَذَا ثُمَّ يَرُدُّهَا إِلَى حَيْثُ ابْتَدَأَتْ وَيُخْرِجُهَا قَدَامَ مَنْفَذِهَا  
الْأَوَّلِ بِمَطْرَحٍ مَا بَيْنَ الثَّقِينِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ يَتِمَادِي عَلَى ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الْعَمَلِ وَيُعْطِي  
صُورَةَ الْحَبْكِ وَالتَّشْبِيتِ <sup>(١)</sup> وَالتَّفْتِيحِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْخِيَاطَةِ وَأَعْمَالِهَا . وَهُوَ إِذَا طَوَلَبَ  
أَنْ يَعْمَلَ ذَلِكَ بِيَدِهِ لَا يُحْكِمُ مِنْهُ شَيْئاً . وَكَذَا لَوْ سُوِّلَ عَالِمٌ بِالنَّجَارَةِ عَنْ تَفْصِيلِ  
الْخَشَبِ فَيَقُولُ : هُوَ أَنْ تَضَعَ الْمِنْشَارَ عَلَى رَأْسِ الْخَشَبِ وَتُمْسِكُ بِطَرْفِهِ وَآخِرُ

(١) وفي نسخة أخرى : التشبيت .

قَبَّالَتِكَ مُنْسِكَ بِطَرَفِهِ الْآخِرِ وَتَتَعاقَبَانِيهِ بَيْنَكُمَا وَأَطْرَافُهُ الْمُضْرَسَةُ الْمُحَدَّدَةُ تَقْطَعُ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ ذَاهِبَةٌ وَجَائِيَةٌ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ<sup>(١)</sup> الْخَشْبَةِ . وَهُوَ لَوْ طَوَّلَبَ بِهَذَا الْعَمَلِ أَوْ شَيْءٍ مِنْهُ لَمْ يُحْكِمَهُ . وَهَكَذَا الْعِلْمُ بِقَوَانِينِ الْإِعْرَابِ مَعَ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي نَفْسِهَا فَإِنَّ الْعِلْمَ بِقَوَانِينِ الْإِعْرَابِ إِنَّمَا هُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ وَلَيْسَ هُوَ نَفْسُ الْعَمَلِ . وَلِلذَلِكَ نَجِدُ كَثِيرًا مِنْ جِهَاتِ بَدْءِ النُّحَاةِ وَالْمَهْرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُحِيطِينَ عِلْمًا بِتِلْكَ الْقَوَانِينِ إِذَا سُئِلَ فِي كِتَابِيَةِ سَطْرَيْنِ إِلَى أَخِيهِ أَوْ ذِي مَوَدَّتِهِ أَوْ سُكْوَى ظِلَامَةٍ أَوْ قَصْدٍ مِنْ قُصُودِهِ أَخْطَأَ فِيهَا عَنِ الصُّوَابِ وَأَكْثَرَ مِنَ اللَّحْنِ وَلَمْ يَجِدْ تَأْلِيفَ الْكَلَامِ لِلذَّكَ وَالْعِبَارَةَ عَنِ الْمَقْصُودِ عَلَى أَسَالِيبِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . وَكَذَا نَجِدُ كَثِيرًا مِمَّنْ يُحْسِنُ هَذِهِ الْمَلَكَةَ وَيُجِيدُ الْفَنَيْنِ مِنَ الْمَنْظُومِ وَالْمَنْشُورِ وَهُوَ لَا يُحْسِنُ إِعْرَابَ الْفَاعِلِ مِنَ الْمَفْعُولِ وَلَا الْمَرْفُوعِ مِنَ الْمَجْرُورِ وَلَا شَيْئًا مِنْ قَوَانِينِ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ . فَمِنْ هَذَا تَعَلَّمَ أَنَّ تِلْكَ الْمَلَكَةَ هِيَ غَيْرُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَنَّهَا مُسْتَعْنِيَةٌ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ . وَقَدْ نَجِدُ بَعْضَ الْمَهْرَةِ فِي صِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ بِصِيرًا بِحَالِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَهُوَ قَلِيلٌ وَأَتْفَاقِيٌّ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ لِلْمُخَالِطِينَ لِكِتَابِ سَيِّبُونِهِ . فَإِنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوَانِينِ الْإِعْرَابِ فَقَطْ بَلْ مَلَأَ كِتَابَهُ مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ وَشَوَاهِدِ أَشْعَارِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ فَكَانَ فِيهِ جُزْءٌ صَالِحٌ مِنْ تَعْلِيمِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فَتَجِدُ الْعَاكِفَ عَلَيْهِ وَالْمُحْضِلَ لَهُ قَدْ حَصَلَ عَلَى حَظٍّ<sup>(٢)</sup> مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَأَنْدَرَجَ فِي مَحْفُوظِهِ فِي أَمَاكِينِهِ وَمَفَاصِلِ حَاجَاتِهِ . وَتَنَبَّهَ بِهِ لِشَأْنِ الْمَلَكَةِ فَاسْتَوْفَى تَعْلِيمَهَا فَكَانَ أُبْلَغَ فِي الْإِفَادَةِ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُخَالِطِينَ لِكِتَابِ سَيِّبُونِهِ مَنْ يَفْعَلُ عَنِ التَّفَطُّنِ لِهَذَا فَيَحْضِلُ عَلَى عِلْمِ اللِّسَانِ صِنَاعَةً وَلَا يَحْضِلُ عَلَيْهِ مَلَكَةً . وَأَمَّا الْمُخَالِطُونَ لِكُتُبِ الْمُتَأَخِّرِينَ الْعَرَابِيَّةِ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ الْقَوَانِينِ النُّحَوِيَّةِ مُجْرَدَةً عَنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ . فَقَلَّ مَا يَشْعُرُونَ لِلذَّكَ بِأَمْرِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ أَوْ يَنْتَبِهُونَ لِشَأْنِهَا فَتَجِدُهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ قَدْ

(١) وفي النسخة الباريسية: أسفل .

(٢) وفي نسخة أخرى: على حظ .

حَصَلُوا عَلَى رُتْبَةٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهُ . وَأَهْلُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ  
 بِالْأَنْدَلُسِ وَمَعْلَمُوهَا أَقْرَبُ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَتَعْلِيمِهَا مِنْ سِوَاهُمْ لِقِيَامِهِمْ  
 فِيهَا عَلَى شَوَاهِدِ الْعَرَبِ وَأَمْثَالِهِمْ وَالتَّفَقُّهُ فِي الْكَثِيرِ مِنَ التَّرَاكِيِبِ فِي مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ  
 فَيَسْبِقُ إِلَى الْمُبْتَدِئِ كَثِيرٌ مِنَ الْمَلَكَةِ أَثْنَاءَ التَّعْلِيمِ فَتَنْقَطِعُ <sup>(١)</sup> النَّفْسُ لَهَا وَتَسْتَعِدُّ إِلَى  
 تَحْصِيلِهَا وَقَبُولِهَا . وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيْقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَأَجْرُوا  
 صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ مُجْرَى الْعُلُومِ بَخْشًا وَقَطَعُوا النَّظَرَ عَنِ التَّفَقُّهِ فِي تَرَكَيبِ كَلَامِ  
 الْعَرَبِ إِلَّا إِنْ أَعْرَبُوا شَاهِدًا أَوْ رَجَّحُوا مَذْهَبًا <sup>(٢)</sup> مِنْ جِهَةِ الْاِقْتِضَاءِ الذَّهْنِيِّ لَا مِنْ  
 جِهَةِ مَحَامِلِ اللِّسَانِ وَتَرَكَيبِهِ . فَأَصْبَحَتْ صِنَاعَةُ الْعَرَبِيَّةِ كَأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ قَوَانِينِ  
 الْمُنْطِقِ الْعَقْلِيَّةِ أَوْ الْجَدَلِ وَبَعْدَتْ عَنِ مَنَاجِحِ اللِّسَانِ وَمَلَكَتِهِ وَأَفَادَ ذَلِكَ حَمَلَتَهَا فِي  
 هَذِهِ الْأَمْصَارِ وَأَفَاقِهَا الْبُعْدُ عَنِ الْمَلَكَةِ بِالْكُلِّيَّةِ . وَكَأَنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ فِي كَلَامِ  
 الْعَرَبِ . وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِعُدُولِهِمْ عَنِ الْبَحْثِ فِي شَوَاهِدِ اللِّسَانِ وَتَرَكَيبِهِ وَتَمْيِيزِ أَسَالِيْبِهِ  
 وَغَفْلَتِهِمْ عَنِ الْمِرَانِ فِي ذَلِكَ لِلْمُتَعَلِّمِ فَهُوَ أَحْسَنُ مَا تَفِيْدُهُ الْمَلَكَةُ فِي اللِّسَانِ . وَتِلْكَ  
 الْقَوَانِينُ إِنَّمَا هِيَ وَسَائِلٌ لِلتَّعْلِيمِ لِكِنَّهُمْ أَجْرُوهَا عَلَى غَيْرِ مَا قُصِدَ بِهَا وَأَصَارُوهَا  
 عِلْمًا بَخْشًا وَبَعُدُوا عَنْ ثَمَرَتِهَا . وَتَعَلَّمُ مِمَّا قَرَّرْنَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ حُصُولَ مَلَكَةِ  
 اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ إِنَّمَا هُوَ بِكَثْرَةِ الْحِفْظِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى يَرْتَسِمَ فِي خِيَالِهِ  
 الْمِنْوَالُ الَّذِي نَسَجُوا عَلَيْهِ تَرَكَيبَهُمْ فَيَنْسَجُ هُوَ عَلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ بِذَلِكَ مَنزَلَةً مِنْ نَشَأِ  
 مَعَهُمْ وَخَالَطِ عِبَارَاتِهِمْ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ الْمُسْتَقْرَّةُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ  
 الْمَقَاصِدِ عَلَى نَحْوِ كَلَامِهِمْ . وَاللَّهُ مُقَدِّرُ الْأُمُورِ كُلِّهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْغَيْبِ .

(١) وفي نسخة أخرى : فتقطع .

(٢) وفي النسخة الباريبية : معنى .

## الفصل الواحد والخمسون

في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان أنه لا يحصل للمستعربين من العجم

إِغْلَمَ أَنَّ لُفْظَةَ الذُّوقِ يَتَدَاوَلُهَا الْمُعْتَنُونَ بِفُنُونِ الْبَيَانِ وَمَعْنَاهَا حُصُولُ مَلَكَةِ الْبَلَاغَةِ لِلْسَّانِ . وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ الْبَلَاغَةِ وَأَنَّهَا مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ لِلْمَعْنَى مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ بِخَوَاصِّ تَقَعِ لِلتَّرَاكِيِبِ فِي إِفَادَةِ ذَلِكَ . فَالْمَتَكَلِّمُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَالْبَلِيغُ فِيهِ يَتَحَرَّى الْهَيْئَةَ الْمُفِيدَةَ لِذَلِكَ عَلَى أَسَالِيِبِ الْعَرَبِ وَأَنْحَاءِ مُخَاطَبَاتِهِمْ وَيَنْظِمُ الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ جُهْدَهُ فَإِذَا اتَّصَلَتْ مَقَامَاتُهُ <sup>(١)</sup> بِمُخَالَطَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ وَسَهَّلَ عَلَيْهِ أَمْرَ التَّرْكِيِبِ حَتَّى لَا يَكَادُ يَنْحَوِي فِيهِ . مَنْحَى الْبَلَاغَةِ الَّتِي لِلْعَرَبِ وَإِنْ سَمِعَ تَرْكِيِبًا غَيْرَ جَارٍ عَلَى ذَلِكَ الْمَنْحَى مَجَّهَ وَنَبَا عَنْهُ سَمْعُهُ بِأَذْنَى فِكْرٍ . بَلْ وَيَغْيِرُ فِكْرًا . إِلَّا يَمَا اسْتِفَادَ مِنْ حُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ . فَإِنَّ الْمَلَكَاتِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ وَرَسَخَتْ فِي مَحَالِّهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا طَبِيعَةٌ وَجِبَلَةٌ لِذَلِكَ الْمَحَلِّ . وَلِذَلِكَ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ الْمُغْفَلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ شَأْنَ الْمَلَكَاتِ أَنَّ الصُّوَابَ لِلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ إِعْرَابًا وَبَلَاغَةً أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ . وَيَقُولُ كَانَتْ الْعَرَبُ تَنْطِقُ بِالطَّبِيعِ وَلَيْسَ بِكَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ لِسَانِيَّةٌ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ تَمَكَّنَتْ وَرَسَخَتْ فَظَهَرَتْ فِي بَادِيءِ الرَّأْيِ أَنَّهَا جِبَلَةٌ وَطَبِيعٌ . وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ كَمَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَتَكَرُّرِهِ عَلَى السَّمْعِ وَالتَّفَطُّنِ لِخَوَاصِّ تَرَكَيبِيهِ وَلَيْسَتْ تَحْصُلُ بِمَعْرِفَةِ الْقَوَائِنِ الْعِلْمِيَّةِ فِي ذَلِكَ الَّتِي اسْتَنْبَطَهَا أَهْلُ صِنَاعَةِ اللِّسَانِ فَإِنَّ هَذِهِ الْقَوَائِنَ إِنَّمَا تُفِيدُ عِلْمًا بِذَلِكَ اللِّسَانِ وَلَا تُفِيدُ حُصُولَ الْمَلَكَةِ بِالْفِعْلِ فِي مَحَلِّهَا وَقَدْ مَرَّ ذَلِكَ . وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَمَلَكَةُ الْبَلَاغَةِ فِي اللِّسَانِ تَهْدِي الْبَلِيغَ إِلَى وُجُودِ النَّظْمِ

(١) وفي نسخة أخرى : معاناته لذلك

وَحُسْنِ التَّرَكِيبِ الْمُوَافِقِ لِتَرَائِيبِ الْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ وَنَظْمِ كَلَامِهِمْ . وَلَوْ رَامَ صَاحِبُ  
هَذِهِ الْمَلَكَةِ حَيْدًا عَنْ هَذِهِ السُّبُلِ الْمُعَيَّنَةِ وَالتَّرَاكِيبِ الْمُخْصُوصَةِ لَمَا قَدَّرَ عَلَيْهِ وَلَا  
وَافَقَهُ عَلَيْهِ لِسَانُهُ لِأَنَّهُ لَا يَفْتَادُهُ وَلَا تَهْدِيهِ إِلَيْهِ مَلَكَتُهُ الرَّاسِخَةُ عِنْدَهُ . وَإِذَا عُرِضَ  
عَلَيْهِ الْكَلَامُ حَائِدًا عَنْ أَسْلُوبِ الْعَرَبِ وَبَلَغَتِهِمْ فِي نَظْمِ كَلَامِهِمْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَمَجَّهَ  
وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ الَّذِينَ مَارَسَ كَلَامَهُمْ . وَرُبَّمَا يَفْعِزُ عَنِ الْإِحْتِجَاجِ  
لِذَلِكَ كَمَا تَضَعُ أَهْلُ الْقَوَائِنِ النَّحْوِيَّةِ وَالْبَيَانِيَّةِ فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ  
الْقَوَائِنِ الْمُفَادَةِ بِالِاسْتِقْرَاءِ . وَهَذَا أَمْرٌ وَجَدَانِيٌّ حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ  
حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ . وَمِثَالُهُ : لَوْ فَرَضْنَا صَبِيًّا مِنْ صَبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِّي فِي  
جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيُحْكِمُ شَانَ الْإِعْرَابِ وَالْبَلَغَةَ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى  
غَايَتِهَا . وَلَيْسَ مِنَ الْعِلْمِ الْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ  
وَنُطْقِهِ . وَكَذَلِكَ تَخْصُلُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ  
وَأَشْعَارِهِمْ وَخُطْبَتِهِمْ وَالْمُدَاوِمَةَ عَلَى ذَلِكَ بِحَيْثُ يُحْصَلُ الْمَلَكَةُ وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ  
نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِّي بَيْنَ أَجْيَالِهِمْ <sup>(١)</sup> . وَالْقَوَائِنُ بِمَعْرِزٍ عَنْ هَذَا وَاسْتَعْمِيرَ لِهَذِهِ  
الْمَلَكَةِ عِنْدَمَا تَرَسَّخَ وَتَسْتَقَرَّ اسْمُ الذُّوقِ الَّذِي اضْطَلَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ صِنَاعَةِ الْبَيَانِ  
وَالذُّوقِ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ لِإِذْرَاكِ الطُّعُومِ . لَكِنْ لَمَا كَانَ مَحَلُّ هَذِهِ الْمَلَكَةِ فِي اللِّسَانِ  
مِنْ حَيْثُ يُنْطَقُ بِالْكَلامِ كَمَا هُوَ مَحَلُّ لِإِذْرَاكِ الطُّعُومِ اسْتَعْمِيرَ لَهَا اسْمُهُ . وَأَيْضًا  
فَهُوَ وَجَدَانِيٌّ اللِّسَانِ كَمَا أَنَّ الطُّعُومَ مَحْسُوسَةٌ لَهُ فَحَيْثُ لَهُ ذُوقٌ . وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذَلِكَ  
عَلِمْتَ مِنْهُ أَنَّ الْأَعَاجِمَ الدَّاخِلِينَ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الطَّارِئِينَ عَلَيْهِ الْمُضْطَرِّينَ إِلَى  
النُّطْقِ بِهِ لِمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ كَالْفَرَسِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكِ بِالمَشْرِقِ وَكَالْبَرْبَرِ بِالمَغْرِبِ  
فَإِنَّهُ لَا يُحْصَلُ لَهُمْ هَذَا الذُّوقُ لِقُصُورِ حَظِّهِمْ فِي هَذِهِ الْمَلَكَةِ الَّتِي قَرَّرْنَا أَمْرَهَا لِأَنَّ  
قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ العُمُرِ وَسَبَقَ مَلَكَتُهُ أُخْرَى إِلَى اللِّسَانِ وَهِيَ لُغَاتُهُمْ أَنْ يَغْتَبِنُوا  
بِمَا يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُ مِصْرَ بَيْنَهُمْ فِي المَحَاوَرَةِ مِنْ مُفْرَدٍ وَمُرْكَبٍ لِمَا يُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ مِنْ  
ذَلِكَ . وَهَذِهِ الْمَلَكَةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَبَعَدُوا عَنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ . وَإِنَّمَا لَهُمْ فِي

(١) وفي نسخة أخرى : أحيائهم .



ذَلِكَ مَلَكَةٌ أُخْرَى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكَةُ اللِّسَانِ الْمَطْلُوبَةِ . وَمَنْ عَرَفَ أَحْكَامَ تِلْكَ  
 الْمَلَكَةِ مِنَ الْقَوَائِنِ الْمُسَطَّرَةِ فِي الْكُتُبِ فَلَيْسَ مِنْ تَحْصِيلِ الْمَلَكَةِ فِي شَيْءٍ . إِنَّمَا  
 حَصَلَ أَحْكَامُهَا كَمَا عَرَفَتْ . وَإِنَّمَا تَحْصُلُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ بِالْمُمَارَسَةِ وَالِاغْتِيَادِ  
 وَالتَّكْرُرِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ . فَإِنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ أَنَّ سِينِيَوِيَهُ وَالْفَارِسِيَّ  
 وَالزَّمْخَشَرِيَّ وَأَمْثَالَهُمْ مِنْ فُرْسَانِ الْكَلَامِ كَانُوا أَعْجَامًا مَعَ حُصُولِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ لَهُمْ  
 فَأَعْلَمُ أَنَّ أَوْلِيكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ إِنَّمَا كَانُوا عَجَمًا فِي نَسَبِهِمْ فَقَطْ . وَأَمَّا  
 الْعَرَبِيُّ وَالنَّشَاءُ فَكَانَتْ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَ مِنْهُمْ فَاسْتَوْلُوا  
 بِذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى غَايَةِ لَا شَيْءَ وَرَاءَهَا وَكَانَتْهُمْ فِي أَوَّلِ نَشَأَتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ  
 نَشَأُوا فِي أَجْيَالِهِمْ حَتَّى أَدْرَكُوا كُنْهَ اللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ أَهْلِهَا فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عَجَمًا فِي  
 النِّسَبِ فَلَيْسُوا بِأَعْجَامٍ فِي اللُّغَةِ وَالْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا الْمِلَّةَ فِي عُنُقِهَا وَاللُّغَةَ فِي  
 شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبْ آثَارُ الْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى الْمُمَارَسَةِ  
 وَالْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى اسْتَوْلُوا عَلَى غَايَتِهِ . وَالْيَوْمَ الْوَاحِدُ مِنَ الْعَجْمِ إِذَا  
 خَالَطَ أَهْلَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِالْأَمْصَارِ فَأَوْلُ مَا يَجِدُ تِلْكَ الْمَلَكَةَ الْمَقْصُودَةَ مِنَ  
 اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ مُمْتَحِنَةِ الْأَثَارِ . وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمُ الْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةٌ أُخْرَى مُخَالَفَةٌ  
 لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى الْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ  
 بِالْمُدَارَسَةِ وَالْحِفْظِ يَسْتَفِيدُ تَحْصِيلَهَا فَقُلْ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمَلَكَةَ  
 إِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ أُخْرَى فِي الْمَحَلِّ فَلَا تَحْصُلُ إِلَّا نَاقِصَةً مُخْدُوشَةً . وَإِنْ فَرَضْنَا  
 أَعْجَمِيًّا فِي النِّسَبِ سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ اللِّسَانِ الْعَجَمِيِّ بِالْكَلِيَّةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هَذِهِ  
 الْمَلَكَةِ بِالْحِفْظِ وَالْمُدَارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ لِكِنَّةٍ مِنَ النُّدُورِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى  
 عَلَيْكَ بِمَا تَقَرَّرَ . وَرُبَّمَا يَدْعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْقَوَائِنِ الْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ  
 هَذَا الدُّوْقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ أَوْ مُعَالِطَةٌ وَإِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ إِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ  
 الْقَوَائِنِ الْبَيَانِيَّةِ وَلَيْسَتْ مِنْ مَلَكَةِ الْعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى  
 طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ .

## الفصل الثاني والخمسون

في أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة  
اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن  
اللسان العربي كان حصولها له أصعب وأعسر

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا يَسْبِقُ إِلَى الْمُتَعَلِّمِ مِنْ حُصُولِ مَلَكَةٍ مُنَافِيَةٍ لِلْمَلَكَةِ  
الْمَطْلُوبَةِ بِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَ اللِّسَانِ الحَضْرِيِّ الَّذِي أَفَادَتْهُ العُجْمَةُ حَتَّى نَزَلَ بِهَا  
اللسانُ عَنْ مَلَكَتِهِ الأُولَى إِلَى مَلَكَةٍ أُخْرَى هِيَ لُغَةُ الحَضْرِ لِهَذَا العَهْدِ . وَلِهَذَا نَجِدُ  
المُعَلِّمِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى المُسَابِقَةِ بِتَعْلِيمِ اللِّسَانِ لِلوُلْدَانِ . وَتَعْتَقِدُ النِّحَاةُ أَنَّ هَذِهِ  
المُسَابِقَةَ بِصِنَاعَتِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ بِتَعْلِيمِ هَذِهِ المَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ اللِّسَانِ  
وَكَلَامِ العَرَبِ . نَعَمْ صِنَاعَةُ النَّحْوِ أَقْرَبُ إِلَى مُخَالَطَةِ ذَلِكَ وَمَا كَانَ مِنْ لُغَاتِ أَهْلِ  
الأمصارِ أَعْرَقَ فِي العُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ لِسَانِ مُضَرِّ قَصَرَ بِصَاحِبِهِ عَنِ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ  
المُضَرِّيَّةِ وَحُصُولِ مَلَكَتِهَا لِتَمَكُّنِ المُنَافَاةِ<sup>(١)</sup> حِينَئِذٍ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الأمصارِ .  
فَأَهْلُ أَفْرِيْقِيَّةِ وَالمَغْرِبِ لَمَّا كَانُوا أَعْرَقَ فِي العُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنِ اللِّسَانِ الأَوَّلِ كَانَ لَهُمْ  
قُصُورٌ تَامٌ فِي تَحْصِيلِ مَلَكَتِهِ بِالتَّعْلِيمِ . وَلَقَدْ نَقَلَ ابْنُ الرِّفِيقِ أَنَّ بَعْضَ كُتَّابِ  
القَيْرَوَانِ كَتَبَ إِلَى صَاحِبِ لَهُ : يَا أَخِي وَمَنْ لَا عِدِمْتُ فَقَدَهُ أَغْلَمَنِي أَبُو سَعِيدِ  
كَلَاماً أَنَّكَ كُنْتَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ تَكُونُ مَعَ الَّذِينَ تَأْتِي وَعَاقِفَنَا اليَوْمَ فَلَمْ يَتَهَيَّأْ لَنَا  
الخُرُوجُ . وَأَمَّا أَهْلُ المَنْزِلِ الكِلَابِ<sup>(٢)</sup> مِنْ أَمْرِ الشُّنَيْنِ فَقَدْ كَذَّبُوا هَذَا بِاطِّلَائِيسَ  
مِنْ هَذَا حَرْفاً وَاحِداً . وَكِتَابِي إِلَيْكَ وَأَنَا مُشْتَاقٌ إِلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللهُ . وَهَكَذَا كَانَتْ  
مَلَكَتُهُمْ فِي اللِّسَانِ المُضَرِّيِّ شَبِيهَةً بِمَا ذَكَرْنَا . وَكَذَلِكَ أَشْعَارُهُمْ كَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ  
المَلَكَةِ نَازِلَةً عَنِ الطَّبَقَةِ وَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ لِهَذَا العَهْدِ وَلِهَذَا مَا كَانَ بِأَفْرِيْقِيَّةِ مِنْ

(١) وفي النسخة الباريسية : المكافأة .

(٢) كالب الرجل كلابا ، أي عاداه جهاراً ( قاموس )

مَشَاهِيرِ الشُّعْرَاءِ إِلَّا ابْنَ رَشِيقٍ وَابْنَ شَرْفٍ . وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ فِيهَا الشُّعْرَاءُ طَارِئِينَ  
عَلَيْهَا وَلَمْ تَزَلْ طَبَقَتْهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ حَتَّى الْآنَ مَائِلَةٌ إِلَى الْقُصُورِ . وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ  
أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِكَثْرَةِ مَعَانِيَتِهِمْ وَامْتِلَائِهِمْ مِنَ الْمَحْفُوظَاتِ  
اللُّغَوِيَّةِ نَظْمًا وَنَثْرًا . وَكَانَ فِيهِمْ ابْنُ حَيَّانَ الْمُؤَرِّخُ إِمَامُ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ فِي هَذِهِ  
الْمَلَكَةِ وَرَافِعُ الرَّايَةِ لَهُمْ فِيهَا وَابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ وَالْقَسْطَلِيُّ وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ شُعْرَاءِ مُلُوكِ  
الطُّوَائِفِ لِمَا زَحَرَتْ فِيهَا بِحَارُ اللِّسَانِ وَالْأَدَبِ وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ مِثِينَ مِنَ السِّنِينَ  
حَتَّى كَانَ الْإِنْفِصَاضُ وَالْجَلَاءُ أَيَّامَ تَغَلَّبِ النُّصْرَانِيَّةِ . وَسُغِلُوا عَنْ تَعَلُّمِ ذَلِكَ  
وَتَنَاقُصِ الْعُمَرَانَ فَتَنَاقَصَ لِذَلِكَ شَأْنُ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا فَقَصُرَتْ الْمَلَكَةُ فِيهِمْ عَنْ شَأْنِهَا  
حَتَّى بَلَغَتْ الْحَضِيضَ . وَكَانَ مِنْ آخِرِهِمْ صَالِحُ بْنُ شَرِيفٍ وَمَالِكُ بْنُ مَرْحَلٍ مِنْ  
تَلَامِيذِ الطَّبَقَةِ الْإِسْبِيلِيِّينَ بِسَبْتَةِ وَكُتَابُ دَوْلَةِ بَنِي الْأَخْمَرِ فِي أَوْلِيهَا . وَأَلْقَتْ  
الْأَنْدَلُسُ أَفْلَادَ كَبِدِهَا مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمَلَكَةِ بِالْجَلَاءِ إِلَى الْعُدُوَّةِ لِعُدُوَّةِ الْإِسْبِيلِيَّةِ إِلَى  
سَبْتَةِ وَمِنْ شَرْقِي الْأَنْدَلُسِ إِلَى أَفْرِيْقِيَّةِ . وَلَمْ يَلْبَثُوا إِلَى أَنْ انْقَرَضُوا وَانْقَطَعَ سَنَدُ  
تَعْلِيمِهِمْ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ لِعُسْرِ قَبُولِ الْعُدُوَّةِ لَهَا وَصُعُوبَتِهَا عَلَيْهِمْ بِعَوَجِ السِّنِّيَّتِهِمْ  
وَرُسُوخِهِمْ فِي الْعُجْمَةِ الْبَرْبَرِيَّةِ وَهِيَ مُنَافِيَةٌ لِمَا قُلْنَا . ثُمَّ عَادَتْ الْمَلَكَةُ مِنْ بَعْدِ  
ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ كَمَا كَانَتْ وَنَجَّمَ بِهَا ابْنُ بَشْرِينَ<sup>(١)</sup> وَابْنُ جَابِرٍ وَابْنُ الْجِيَابِ  
وَطَبَقَتْهُمْ . ثُمَّ إِبْرَاهِيمُ السَّاحِلِيُّ الطَّرِيحِيُّ<sup>(٢)</sup> وَطَبَقَتْهُ وَقَفَاهُمْ ابْنُ الْخَطِيبِ مِنْ  
بَعْدِهِمِ الْهَالِكُ لِهَذَا الْعَهْدِ شَهِيدًا بِسَعَايَةِ أَعْدَائِهِ . وَكَانَ لَهُ فِي اللِّسَانِ مَلَكَةٌ  
لَا تُدْرِكُ وَاتَّبَعَ أَثَرَهُ تَلْمِيذُهُ مِنْ بَعْدِهِ . وَيَأْجُمَلَةُ فَشَأْنُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ بِالْأَنْدَلُسِ  
أَكْثَرُ وَتَعْلِيمُهَا أَيْسَرُ وَأَسْهَلُ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ كَمَا قَدَّمْنَا مِنْ مَعَانَاةِ عُلُومِ  
اللِّسَانِ وَمَحَافِظَتِهِمْ عَلَيْهَا وَعَلَى عُلُومِ الْأَدَبِ وَسَنَدِ تَعْلِيمِهَا . وَلَآنَ أَهْلَ اللِّسَانِ  
الْعَجَمِيِّ الَّذِينَ تَفَسَّدُ مَلَكَتُهُمْ إِنَّمَا هُمْ طَارِئُونَ عَلَيْهِمْ . وَلَيْسَتْ عُجْمَتُهُمْ أَضْلًا لِلْغَةِ

(١) وفي نسخة أخرى : ابن سيرين .

(٢) وفي نسخة أخرى : الطويجن .

أهل الأندلس والبربر في هذه العُدوة وَهَمَ أَهْلُهَا وَلِسَانُهُمْ لِسَانُهَا إِلَّا فِي الْأَمْصَارِ  
فَقَطَّ . وَهَمَ مُنْعَمِسُونَ فِي بَحْرِ عَجَمَتِهِمْ وَرَطَانَتِهِمْ الْبَرْبَرِيَّةُ فَيَضَعُ عَلَيْهِمْ تَخْصِيلَ  
الْمَلَكَةِ اللَّسَانِيَّةِ بِالتَّعْلِيمِ بِخِلَافِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِحَالِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ  
لِعَهْدِ الدُّوَلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ فَكَانَ شَأْنُهُمْ شَأْنَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي تَمَامِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ  
وَإِحَادَتِهَا لِبُعْدِهِمْ لِذَلِكَ الْعَهْدِ عَنِ الْأَعَاجِمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ . فَكَانَ أَمْرُ هَذِهِ  
الْمَلَكَةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ أَقْوَمَ وَكَانَ فُحُولُ الشُّعْرَاءِ وَالْكِتَابُ أَوْفَرَ لِتَوْفُرِ الْعَرَبِ وَأَبْنَائِهِمْ  
بِالْمَشْرِقِ . وَانظُرْ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ الْأَغَانِي مِنْ نَظْمِهِمْ وَنَثْرِهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ  
الْكِتَابَ هُوَ كِتَابُ الْعَرَبِ وَدِيَوَانُهُمْ وَفِيهِ لُغَتُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَأَيَامُهُمْ وَمِلَّتُهُمْ الْعَرَبِيَّةُ  
وَسِيرَتُهُمْ <sup>(١)</sup> وَأَثَارُ خُلُقَائِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَغَنَائِهِمْ وَسَائِرُ مَعَانِيهِمْ لَهُ فَلَا كِتَابَ  
أَوْعَبَ مِنْهُ لِأَحْوَالِ الْعَرَبِ . وَبَقِيَ أَمْرُ هَذِهِ الْمَلَكَةِ مُسْتَحْكِمًا فِي الْمَشْرِقِ فِي  
الدُّوَلَتَيْنِ وَرُبَّمَا كَانَتْ فِيهِمْ أَبْلَغُ مِمَّنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَمَا نَذَرَهُ  
بَعْدُ . حَتَّى تَلَأَشَى أَمْرَ الْعَرَبِ وَدُرِسَتْ لُغَتُهُمْ وَفَسَدَ كَلَامُهُمْ وَانْقَضَى أَمْرُهُمْ  
وَدَوَلَتُهُمْ وَصَارَ الْأَمْرُ لِلْأَعَاجِمِ وَالْمُلْكُ فِي أَيْدِيهِمْ وَالتَّغَلُّبُ لَهُمْ . وَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ  
الدَّيْلَمِ وَالسَّلْجُوقِيَّةِ . وَخَالَطُوا أَهْلَ الْأَمْصَارِ وَكَثَرُوا فِيهَا فَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ بِلُغَاتِهِمْ .  
وَاسْتَوْلَتِ الْعِجْمَةُ عَلَى أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَالْحَوَاضِرِ حَتَّى بَعُدُوا عَنِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ  
وَمَلَكْتِهِ وَصَارَ مُتَعَلِّمًا مِنْهُمْ مُقْصِرًا عَنْ تَخْصِيلِهَا . وَعَلَى ذَلِكَ نَجِدُ لِسَانَهُمْ لِهَذَا  
الْعَهْدِ فِي فَنِّي الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ وَإِنْ كَانُوا مُكْثَرِينَ مِنْهُ . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ  
وَيَخْتَارُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لِأَرْبِّ سِوَاهُ .

(١) وفي نسخة أخرى : وسير نبيهم ﷺ

## الفصل الثالث والخمسون

### في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر

إِغْلَمَ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَيْنِ فِي الشُّعْرِ الْمَنْظُومِ وَهُوَ الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمُقْفَى وَمَعْنَاهُ الَّذِي تَكُونُ أَوْزَانُهُ كُلِّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَافِيَةُ . وَفِي النَّثْرِ وَهُوَ الْكَلَامُ غَيْرُ الْمَوْزُونِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَنَيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبٍ فِي الْكَلَامِ . فَأَمَّا الشُّعْرُ فَمِنْهُ الْمَدْحُ وَالْهَجَاءُ وَالرِّثَاءُ وَأَمَّا النَّثْرُ فَمِنْهُ السُّجْعُ الَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطْعاً وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ يُسَمَّى سَجْعاً وَمِنْهُ الْمُرْسَلُ وَهُوَ الَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ الْكَلَامُ إِطْلَاقاً وَلَا يُقْطَعُ أَجْزَاءً بَلْ يُرْسَلُ إِزْسَالاً مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا . وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخُطْبِ وَالِدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيْبِهِمْ . وَأَمَّا الْقُرْآنُ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلاً مُطْلَقاً وَلَا مُسْجَعاً . بَلْ تَفْصِيلُ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعِ يَشْهَدُ الذُّوقُ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ عِنْدَهَا . ثُمَّ يَعَادُ الْكَلَامُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيَبْتَدِئُ مِنْ غَيْرِ التَّرَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعاً وَلَا قَافِيَةً وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مِثَالِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » . وَقَالَ : « قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ » . وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهَا فَوَاصِلٌ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعاً وَلَا التَّرَمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السُّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضاً قَوَافٍ . وَأُطْلِقَ اسْمُ الْمِثَالِيِّ عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَا وَاخْتَصَّتْ بِأَمِّ الْقُرْآنِ لِلْعَلْبَةِ فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثَّرِيَا وَلِهَذَا سُمِّيَتْ السُّجْعُ الْمِثَالِي . وَانظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَغْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِالْمِثَالِيِّ يَشْهَدُ لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَا . وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ أَسَالِيبَ تُخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَضِلُّحُ لِلْفَنَّ الْأَخْرَى وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ النَّسِيبِ الْمُخْتَصَّرِ بِالشُّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالِدُّعَاءِ الْمُخْتَصَّ بِالْخُطْبِ وَالِدُّعَاءِ الْمُخْتَصَّ بِالْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْمَتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ الشُّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي الْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرٍ

الْأَسْجَاعِ وَالْتِزَامِ التَّقْيِيَةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَعْرَاضِ . وَصَارَ هَذَا الْمَنْشُورُ  
 إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشُّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقًا إِلَّا فِي الْوِزْنِ . وَاسْتَمَرَّ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ  
 الْكُتَابِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَاسْتَعْمَلُوهَا فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا  
 الْإِسْتِعْمَالَ فِي الْمَنْشُورِ كُلِّهِ عَلَى هَذَا الْفَنِّ الَّذِي ارْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا الْأَسَالِيبَ فِيهِ  
 وَهَجَرُوا الْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا أَهْلَ الْمَشْرِقِ . وَصَارَتِ الْمُخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ  
 لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ الْكُتَابِ الْغَفْلِ جَارِيَةً عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ غَيْرُ  
 صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ لِمَا يَلَاخِظُ فِي تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ  
 الْمُخَاطَبِ وَالْمُخَاطَبِ . وَهَذَا الْفَنُّ الْمَنْشُورُ الْمُقْفَى أَدْخَلَ الْمُتَأَخَّرُونَ فِيهِ أُسَالِيبَ  
 الشُّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تَنْزَعَهُ الْمُخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أُسَالِيبُ الشُّعْرِ تَنَافِيهَا اللَّوْذِيعِيَّةُ  
 وَخَلَطَ الْجِدَّ بِالْهَزْلِ وَالْإِطْنَابِ فِي الْأَوْصَافِ وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ وَكَثُرَتِ الشَّيْهَاتُ  
 وَالِاسْتِعَارَاتُ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضُرُورَةً إِلَى ذَلِكَ فِي الْخِطَابِ . وَالتِّزَامُ التَّقْيِيَّةُ أَيْضًا مِنْ  
 اللَّوْذِيعَةِ وَالتَّرْزِيْنِ وَجَلَالِ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ وَخِطَابِ الْجُمْهُورِ عَنِ الْمُلُوكِ  
 بِالتَّرْغِيْبِ وَالتَّرْهِيْبِ يُنَافِي ذَلِكَ وَيَبَايِنُهُ . وَالْمَخْمُودُ فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ  
 التَّرْسُلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ الْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيْعٍ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ . وَحَيْثُ  
 تَرْسَلَهُ الْمَلِكَةُ إِزْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ لَهُ ثُمَّ إِعْطَاءُ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى  
 الْحَالِ فَإِنَّ الْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةً وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِجْزَازٍ أَوْ  
 حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَضْرِيْحٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ كِنَايَةٍ وَاسْتِعَارَةٍ . وَأَمَّا إِجْرَاءُ الْمُخَاطَبَاتِ  
 السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ الَّذِي هُوَ عَلَى أُسَالِيبِ الشُّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلُ  
 الْعَصْرِ إِلَّا اسْتِيْلَاءُ الْعُجْمَةِ عَلَى السُّنَنِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذَلِكَ عَنِ إِعْطَاءِ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي  
 مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَعِجَزُوا عَنِ الْكَلَامِ الْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمْدِهِ فِي الْبَلَاغَةِ وَانْفِسَاحِ  
 خُطُوبِهِ <sup>(١)</sup> . وَوَلِعُوا بِهَذَا الْمَسْجَعِ يُلْفِقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى  
 الْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ فِيهِ . وَيُجْبِرُونَهُ بِذَلِكَ الْقَدْرِ مِنَ التَّرْزِيْنِ بِالْأَسْجَاعِ

(١) وفي نسخة أخرى : خطوته .

وَالألقابِ البديعة<sup>(١)</sup> وَيَغفلُونَ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ . وَأَكثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهَذَا الفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أُنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَابُ المَشْرِقِ وَشِعْرَاؤُهُ لِهَذَا العَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لِيُخْلُونَ بِالإِغْرَابِ فِي الكَلِمَاتِ وَالتَّضْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيَرْجَحُونَ ذَلِكَ الصَّنْفَ مِنَ التَّجْنِيسِ . وَيَدْعُونَ الإِغْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنِيَةِ الكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادَفُ التَّجْنِيسَ . فَتَأْمَلُ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْنَا لَكَ تَقَفَ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَا . وَاللهُ المَوْفِقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

## الفصل الرابع والخمسون

في أنه لا تتفق الإجابة في فني المنظوم والمنثور معا إلا للأقل

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَمَا بَيَّنَّا مَلَكَةَ فِي اللِّسَانِ إِذَا تَسَبَّغَتْ<sup>(٢)</sup> إِلَى مَحَلِّ مَلَكَةَ أُخْرَى قَصُرَتْ بِالمَحَلِّ عَنِ تَمَامِ المَلَكَةِ اللَّاحِقَةِ . لِأَنَّ تَمَامَ<sup>(٣)</sup> المَلَكَاتِ وَحُصُولَهَا لِلطَّبَائِعِ الَّتِي عَلَى الفِطْرَةِ الأُولَى أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ . وَإِذَا تَقَدَّمَتْهَا مَلَكَةُ أُخْرَى كَانَتْ مُنَازَعَةً لَهَا فِي المَادَّةِ<sup>(٤)</sup> القَابِلَةِ وَعَائِقَةً عَنِ سُرْعَةِ القَبُولِ فَوَقَعَتِ المُنَافَاةُ وَتَعَدَّرَ التَّمَامُ فِي المَلَكَةِ وَهَذَا مَوْجُودٌ بِهِ فِي المَلَكَاتِ الصَّنَاعِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى الإِطْلَاقِ . وَقَدْ بَرَهْنَا عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ بِنَحْوِ مَنْ هَذَا البُرْهَانِ . فَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي اللُّغَاتِ فَإِنَّهَا مَلَكَاتُ اللِّسَانِ وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَاعَةِ . وَانظُرْ مَنْ تَقَدَّمَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ العُجْمَةِ كَيْفَ يَكُونُ قَاصِرًا فِي اللِّسَانِ العَرَبِيِّ أبدأ . فَالْأَعْجَمِيُّ الَّذِي سَبَقَتْ لَهُ اللُّغَةُ الفَارْسِيَّةُ لَا يَسْتَوِلِي عَلَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ وَلَا يَزَالُ قَاصِرًا فِيهِ وَلَوْ تَعَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ . وَكَذَا البَرْبَرِيُّ وَالرُّومِيُّ . وَالإِفْرَنْجِيُّ قُلَّ أَنْ تَجِدَ أَحَدًا مِنْهُمْ مُحْكِمًا لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ

(١) وفي نسخة أخرى : البديعية .

(٢) وفي نسخة أخرى : سبقت .

(٣) وفي نسخة أخرى : قبول .

(٤) وفي نسخة أخرى : في المدة .

العَرَبِيَّ . وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا سَبَقَ إِلَى السِّنِّيهِمْ مِنْ مَلَكََةِ اللِّسَانِ الْآخِرِ حَتَّى إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَلْسُنِ إِذَا طَلَبَهُ بَيْنَ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ جَاءَ مُقْصِرًا فِي مَعَارِفِهِ عَنِ الْغَايَةِ وَالتَّحْصِيلِ وَمَا أُوتِيَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ اللِّسَانِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ مِنْ قَبْلُ أَنَّ الْأَلْسُنَ وَاللُّغَاتِ شَبِيهَةٌ بِالصَّنَائِعِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ أَنَّ الصَّنَائِعَ وَمَلَكَاتِهَا لَا تَزْدَحِمُ . وَأَنَّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ إِجَادَةٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقَلُّ أَنْ يُجِيدَ فِي أُخْرَى أَوْ يَسْتَوْلِيَ فِيهَا عَلَى الْغَايَةِ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .

## الفصل الخامس والخمسون

### في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هَذَا الْقَنْ مِنْ قُنُونِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالشَّعْرِ عِنْدَهُمْ وَيُوجَدُ فِي سَائِرِ اللُّغَاتِ إِلَّا أَنَّا الْآنَ إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي الشَّعْرِ الَّذِي لِلْعَرَبِ . فَإِنَّ أَمَكْنَ أَنْ تَجِدَ فِيهِ أَهْلَ الْأَلْسُنِ الْآخِرَى مَقْصُودَهُمْ مِنْ كَلَامِهِمْ وَإِلَّا فَلِكُلِّ لِسَانٍ أَحْكَامٌ فِي الْبَلَاغَةِ تَخْصُهُ . وَهُوَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ غَرِيبُ النَّزْعَةِ عَزِيزُ الْمَنْحَى إِذْ هُوَ كَلَامٌ مُفْصَلٌ قِطْعًا قِطْعًا مُتَسَاوِيَةٌ فِي الْوُزْنِ مُتَّحِدَةٌ فِي الْحَرْفِ الْأَخِيرِ مِنْ كُلِّ قِطْعَةٍ وَتُسَمَّى كُلُّ قِطْعَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَاتِ عِنْدَهُمْ بَيْتًا وَيُسَمَّى الْحَرْفُ الْأَخِيرُ الَّذِي تَتَّفَقُ فِيهِ رَوِيًّا وَقَافِيَةٌ وَيُسَمَّى جُمْلَةُ الْكَلَامِ إِلَى آخِرِهِ قَصِيدَةً وَكَلِمَةً . وَيَنْفَرِدُ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهُ بِإِفَادَتِهِ فِي تَرَكَيبِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ كَلَامٌ وَحْدَهُ مُسْتَقِلٌّ عَمَّا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ . وَإِذَا أَفْرَدَ كَانَ تَأْمًا فِي بَابِهِ فِي مَدْحٍ أَوْ تَشْبِيهِ<sup>(١)</sup> أَوْ رِثَاءٍ فَيُخْرِصُ الشَّاعِرُ عَلَى إِعْطَاءِ ذَلِكَ الْبَيْتِ مَا يَسْتَقِلُّ فِي إِفَادَتِهِ . ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ كَلَامًا آخَرَ كَذَلِكَ وَيَسْتَطْرِدُ لِلْخُرُوجِ مِنْ فَرْزٍ إِلَى فَرْزٍ وَمِنْ مَقْصُودٍ إِلَى مَقْصُودٍ بِأَنْ يُوْطِئَ الْمَقْصُودَ الْأَوَّلَ وَمَعَانِيَهُ إِلَى أَنْ يُنَاسِبَ الْمَقْصُودَ الثَّانِيَّ وَيُبْعَدُ الْكَلَامَ عَنِ التَّنَافُرِ . كَمَا يَسْتَطْرِدُ مِنَ التَّشْبِيهِ<sup>(١)</sup> إِلَى الْمَدْحِ وَمِنْ وَصْفِ الْبَيْدَاءِ وَالطُّلُولِ إِلَى وَصْفِ الرِّكَابِ أَوْ الْخَيْلِ أَوْ

(١) وفي نسخة أخرى : نسيب .



الطَّيْفِ وَمِنْ وَضْفِ الْمَمْدُوحِ إِلَى وَضْفِ قَوْمِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَمِنَ التَّفْجِيعِ وَالْعَزَاءِ فِي الرَّثَاءِ إِلَى التَّائِبِ<sup>(١)</sup> وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَيُرَاعَى فِيهِ اتِّفَاقُ الْقَصِيدَةِ كُلِّهَا فِي الْوِزْنِ الْوَاحِدِ حَذْرًا مِنْ أَنْ يَتَسَاهَلَ الطَّبَعُ فِي الْخُرُوجِ مِنْ وَزْنٍ إِلَى وَزْنٍ يُقَارِبُهُ . فَقَدْ يَخْفَى ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْمُقَارَبَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ . وَلِهَذَا الْمَوَازِينَ شُرُوطٌ وَأَحْكَامٌ تَضْمَنُهَا عِلْمُ الْعُرُوضِ . وَلَيْسَ كُلُّ وَزْنٍ يَتَّفِقُ فِي الطَّبَعِ اسْتِعْمَلْتَهُ الْعَرَبُ فِي هَذَا الْفَنِّ وَإِنَّمَا هِيَ أَوْزَانٌ مَخْصُوصَةٌ تُسَمِّيهَا أَهْلُ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ الْبُحُورَ . وَقَدْ حَصَرُوهَا فِي خَمْسَةِ عَشَرَ بَحْرًا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلْعَرَبِ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْمَوَازِينِ الطَّبِيعِيَّةِ نَظْمًا . وَاعْلَمْ أَنَّ فَنَّ الشُّعْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ كَانَ شَرِيفًا عِنْدَ الْعَرَبِ . وَلِذَلِكَ جَعَلُوهُ دِيْوَانَ عُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ وَشَاهِدَ صَوَابِهِمْ وَخَطِيئِهِمْ وَأَصْلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ عُلُومِهِمْ وَحَكْمِهِمْ . وَكَانَتْ مَلَكَتُهُ مُسْتَحْكِمَةً فِيهِمْ شَأْنَ الْمَلَكَاتِ كُلِّهَا . وَالْمَلَكَاتُ اللَّسَانِيَّةُ كُلُّهَا إِنَّمَا تَكْتَسِبُ بِالصَّنَاعَةِ وَالِإِزْتِيَاضِ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى يَخْصُلَ شِبْهُ فِي تِلْكَ الْمَلَكََةِ . وَالشُّعْرُ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْكَلَامِ صَغْبُ الْمَأْخِذِ عَلَى مَنْ يُرِيدُ اكْتِسَابَ مَلَكَتِهِ بِالصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِاسْتِقْلَالِ كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ بِأَنَّهُ كَلَامٌ تَامٌ فِي مَقْصُودِهِ وَيَضْلُحُ أَنْ يَنْفَرِدَ دُونَ مَا سِوَاهُ فَيُخْتِاجُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى نَوْعٍ تَلَطَّفَ فِي تِلْكَ الْمَلَكََةِ حَتَّى يَفْرَغَ الْكَلَامَ الشُّعْرِيَّ فِي قَوْلِيهِ الَّتِي عُرِفَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ الْمَنْحَى مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ وَيُبْرِزُهُ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ . ثُمَّ يَأْتِي بِبَيْتٍ آخَرَ كَذَلِكَ ثُمَّ يَبْنِي آخَرَ وَيَسْتَكْمِلُ الْفُنُونَ الْوَافِيَةَ بِمَقْصُودِهِ . ثُمَّ يُنَاسِبُ بَيْنَ الْبُيُوتِ فِي مَوَالِدِهَا بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْفُنُونِ الَّتِي فِي الْقَصِيدَةِ . وَلِصُعُوبَةِ مَنْحَاهُ وَعَرَابِيَّةِ فَنِّهِ كَانَ مِحْكَامًا لِلْقَرَائِحِ فِي اسْتِجَادَةِ أَسَالِيْبِهِ وَشَخْذِ الْأَفْكَارِ فِي تَنْزِيلِ الْكَلَامِ فِي قَوْلِيهِ . وَلَا يَكْفِي فِيهِ مَلَكََةُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ بَلْ يُخْتِاجُ بِخُصُوصِهِ إِلَى تَلَطُّفٍ وَمُحَاوَلَةٍ فِي رِعَايَةِ الْأَسَالِيْبِ الَّتِي اخْتَصَّتْهُ الْعَرَبُ بِهَا وَاسْتِعْمَالِهَا فِيهِ . لِنَدْرُكُ هُنَا سُلُوكَ<sup>(٢)</sup>

(١) وفي نسخة أخرى : التائبين .

(٢) وفي نسخة أخرى : مدلول لفظة .

الأشلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم . فاعلم أنها عبارة  
 عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يُفرغُ به . ولا يرجع  
 إلى الكلام باعتبار إفادته أصل<sup>(١)</sup> المعنى الذي هو وظيفة الإغراب ولا باعتبار  
 إفادته كمال<sup>(٢)</sup> المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا  
 باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض . فهذه العلوم  
 الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب  
 المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص . وتلك الصورة تنتزعها الذهن  
 من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتهي  
 التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإغراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما  
 يفعل البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب  
 الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي  
 فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فسؤال  
 الطلؤل في الشعر يكون بخطاب الطلؤل كقولهِ : « يا دار مية بالعلياء فالسند »  
 ويكون باستدعاء الصخب للوقوف والسؤال كقولهِ : « قفا نسأل الدار التي خف  
 أهلها » . أو باستبكاء الصخب على الطلل كقولهِ : « قفا نبك من ذكرى حبيب  
 ومنزل » . أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقولهِ : « ألم تسأل  
 فتخبرك الرسوم » . ومثل تحية الطلؤل بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها  
 كقولهِ : « حي الديار بجانب الغزل »<sup>(٣)</sup> . أو بالدعاء لها بالسقيا كقولهِ :

أسقى طولهم أجش هزيم . وغدت عليهم نضرة<sup>(٤)</sup> ونعيم .

أو سؤاله السقيا لها من البرق كقولهِ :

(١) وفي نسخة أخرى : كمال .

(٢) وفي نسخة أخرى : أصل .

(٣) وفي النسخة الباريسية : حي الدار بجانب الغزل .

(٤) وفي النسخة الباريسية : روضة .

يَا بَرْقُ طَالَعٍ مَنْزِلًا بِالْأَبْرِقِ      وَاحِدِ السَّحَابِ لَهَا حِدَاءُ الْأَيْتِقِ <sup>(١)</sup>  
 أَوْ مِثْلِ التَّفَجِّعِ فِي الْجَزَعِ <sup>(٢)</sup>      بِاسْتِدْعَاءِ الْبُكَاءِ كَقَوْلِهِ :  
 كَذَا فَلْيَجِلْ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ      وَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَأْوَهَا عَذْرُ  
 أَوْ بِاسْتِعْظَامِ الْحَادِثِ كَقَوْلِهِ : « أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ  
 خَبَأَ ضِيَاءَ النَّادِي » . أَوْ بِالتَّسْجِيلِ عَلَى الْأَكْوَانِ بِالصُّبْيَةِ لِفَقْدِهِ كَقَوْلِهِ :  
 مَنَابِتَ الْعِشْبِ لَا حَامٍ وَلَا رَاعٍ      مَضَى الرَّذَى بِطَوِيلِ الرُّمُحِ وَالْبَاعِ  
 أَوْ بِالْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ لَمْ يَتَفَجَّعْ لَهُ مِنْ الْجَمَادَاتِ كَقَوْلِ الْخَارِجِيَّةِ :  
 أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكٌ مُورِقًا      كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ  
 أَوْ بِتَهْنِئَةِ فَرِيْقِهِ <sup>(٣)</sup> بِالرَّاحَةِ مِنْ ثِقَلِ وَطْأَتِهِ كَقَوْلِهِ :  
 أَلْقَى الرِّمَاحَ رَيْبَعَةً بِنُ زِنَارِ      أَوْ ذَى الرَّذَى بِفَرِيْقِكَ <sup>(٤)</sup> الْمَغْوَارِ

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ سَائِرِ فُنُونِ الْكَلَامِ وَمَذَاهِبِهِ . وَتَنْتَظِمُ التَّرَاكِيْبُ فِيهِ  
 بِالْجَمَلِ وَغَيْرِ الْجَمَلِ إِنْشَائِيَّةٌ وَخَبْرِيَّةٌ ، إِسْمِيَّةٌ وَفِعْلِيَّةٌ ، مُتَّفِقَةٌ ، مَفْضُولَةٌ  
 وَمَوْضُولَةٌ ، عَلَى مَا هُوَ شَأْنُ التَّرَاكِيْبِ فِي الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ فِي مَكَانِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ  
 الْأُخْرَى . يُعْرَفُ فِيهِ مَا تَسْتَفِيدُهُ بِالْإِزْتِيَاضِ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِنَ الْقَالِبِ الْكَلْبِيِّ  
 الْمَجْرُودِ فِي الذَّهْنِ مِنَ التَّرَاكِيْبِ الْمَعْنِيَّةِ الَّتِي يَنْطَبِقُ ذَلِكَ الْقَالِبُ عَلَى جَمِيعِهَا .  
 فَإِنَّ مُؤَلَّفَ الْكَلَامِ هُوَ كَالْبِنَاءِ أَوْ النَّسَاجِ وَالصُّورَةَ الذَّهْنِيَّةَ الْمُنْطَبِقَةَ كَالْقَالِبِ الَّذِي  
 يُبْنَى فِيهِ أَوْ الْمُنْوَالِ الَّذِي يُنْسَجُ عَلَيْهِ . فَإِنَّ خَرَجَ عَنِ الْقَالِبِ فِي بِنَائِهِ أَوْ عَنِ

(١) وفي نسخة أخرى : الأيتق .

(٢) وفي نسخة أخرى : الرثاء .

(٣) وفي نسخة أخرى : قريعة .

(٤) وفي نسخة أخرى : بقريعك .

الْمِنْوَالِ فِي نَسِجِهِ كَانَ فَاسِداً . وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ مَعْرِفَةَ قَوَائِنِ الْبَلَاغَةِ كَافِيَةٌ لِذَلِكَ لِأَنَّ  
 نَقُولَ قَوَائِنِ الْبَلَاغَةِ إِنَّمَا هِيَ قَوَاعِدُ عِلْمِيَّةٍ قِيَاسِيَّةٍ تَمِيدُ جَوَازَ اسْتِعْمَالِ التَّرَاكِيِبِ  
 عَلَى هَيْئَتِهَا الْخَاصَّةِ بِالْقِيَاسِ . وَهُوَ قِيَاسٌ عِلْمِيٌّ صَحِيحٌ مُطَرَّدٌ كَمَا هُوَ قِيَاسُ  
 الْقَوَائِنِ الْإِعْرَابِيَّةِ . وَهَذِهِ الْأَسَالِيبُ الَّتِي نَحْنُ نَقَرُّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْقِيَاسِ فِي شَيْءٍ  
 إِنَّمَا هِيَ هَيْئَةٌ تَرَسُّخٌ فِي النَّفْسِ مِنْ تَتَبُعِ التَّرَاكِيِبِ فِي شِعْرِ الْعَرَبِ لِجَرَيَانِهَا عَلَى  
 اللِّسَانِ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ صُورَتَهَا فَيَسْتَفِيدَ بِهَا الْعَمَلُ عَلَى مِثَالِهَا وَالْإِحْتِدَاءُ بِهَا فِي كُلِّ  
 تَرْكِيْبٍ مِنَ الشُّعْرِ كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي الْكَلَامِ بِإِطْلَاقٍ . وَإِنَّ الْقَوَائِنَ الْعِلْمِيَّةَ مِنَ  
 الْعَرَبِيَّةِ وَالْبَيَانِ لَا يُفِيدُ تَعْلِيمَهُ بِوَجْهِ . وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَصِحُّ فِي قِيَاسِ كَلَامِ الْعَرَبِ  
 وَقَوَائِنِهِ الْعِلْمِيَّةِ اسْتِعْمَلُوهُ . وَإِنَّمَا الْمُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ أَنَحَاءُ مَعْرُوفَةٌ يُطَّلَعُ  
 عَلَيْهَا الْحَافِظُونَ لِكَلَامِهِمْ تَنْدَرُجُ صُورَتُهَا تَحْتَ تِلْكَ الْقَوَائِنِ الْقِيَاسِيَّةِ . فَإِذَا نَظَرَ  
 فِي شِعْرِ الْعَرَبِ عَلَى هَذَا النُّحْوِ وَبِهَذِهِ الْأَسَالِيبِ الذَّهْنِيَّةِ الَّتِي تَصِيرُ كَالْقَوَالِبِ كَانَ  
 نَظراً فِي الْمُسْتَعْمَلِ مِنْ تَرَكَيبِهِمْ لَا فِيمَا يَقْتَضِيهِ الْقِيَاسُ . وَلِهَذَا قُلْنَا إِنَّ الْمَحْضَلَ  
 لِهَذِهِ الْقَوَالِبِ فِي الذَّهْنِ إِنَّمَا هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ . وَهَذِهِ الْقَوَالِبُ كَمَا  
 تَكُونُ فِي الْمَنْظُومِ تَكُونُ فِي الْمَنْشُورِ فَإِنَّ الْعَرَبَ اسْتَعْمَلُوا كَلَامَهُمْ فِي كِلَا الْفَنَيْنِ  
 وَجَاءُوا بِهِ مَفْضَلاً فِي النَّوعَيْنِ . ففِي الشُّعْرِ بِالْقِطْعِ الْمَوْزُونَةِ وَالْقَوَائِنِ الْمُقَيَّدَةِ  
 وَاسْتِقْلَالِ الْكَلَامِ فِي كُلِّ قِطْعَةٍ وَفِي الْمَنْشُورِ يَغْتَبِرُونَ الْمَوَازِنَةَ وَالتَّشَابُهَ بَيْنَ الْقِطْعِ  
 غَالِباً وَقَدْ يَقَيَّدُونَهُ بِالْأَشْجَاعِ . وَقَدْ يُرْسِلُونَهُ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ مَعْرُوفَةٌ فِي لِسَانِ  
 الْعَرَبِ . وَالْمُسْتَعْمَلُ مِنْهَا عِنْدَهُمْ هُوَ الَّذِي يَبْنِي مُؤَلِّفُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ تَأْلِيْفَهُ وَلَا  
 يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ كَلَامَهُمْ حَتَّى يَتَجَرَّدَ فِي ذَهْنِهِ مِنَ الْقَوَالِبِ الْمُعَيَّنَةِ الشَّخْصِيَّةِ  
 قَالِبٌ كُلِّيٌّ مُطْلَقٌ يَخْذُو حَذْوَهُ فِي التَّأْلِيْفِ كَمَا يَخْذُو الْبِنَاءُ عَلَى الْقَالِبِ وَالنَّسَاجُ  
 عَلَى الْمِنْوَالِ . فَلِهَذَا كَانَ مِنْ تَأْلِيْفِ الْكَلَامِ مُنْفَرِداً عَنِ نَظْرِ النُّحْوِيِّ وَالْبَيَانِيِّ  
 وَالْعَرُوضِيِّ . نَعَمْ إِنَّ مَرَاعَةَ قَوَائِنِ هَذِهِ الْعُلُومِ شَرْطٌ فِيهِ لَا يَتِمُّ بِدُونِهَا فَإِذَا  
 تَحْصَلَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا فِي الْكَلَامِ اخْتَصَّ بِنَوْعٍ مِنَ النَّظْرِ لَطِيفٍ فِي هَذِهِ

الْقَوَالِبِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا أَسَالِيبَ . وَلَا يُفِيدُهُ إِلَّا حِفْظُ كَلَامِ الْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا . وَإِذَا  
 تَقَرَّرَ مَعْنَى الْأَسْلُوبِ مَا هُوَ فَلَنَذْكُرُ بَعْدَهُ حَدًّا أَوْ رَسْمًا لِلشَّعْرِ بِهِ تَهْمٌ <sup>(١)</sup> حَقِيقَتُهُ  
 عَلَى صُعُوبَةٍ هَذَا الْفَرَضِ . فَإِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِيمَا رَأَيْنَاهُ . وَقَوْلُ  
 الْعَرُوضِيِّينَ فِي حَدِّهِ إِنَّهُ الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمُقْفَى لَيْسَ بِحَدِّ لِهَذَا الشَّعْرِ الَّذِي نَحْنُ  
 بِصَدِّدِهِ وَلَا رَسْمَ لَهُ . وَصِنَاعَتُهُمْ إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي الشَّعْرِ مِنْ حَيْثُ اتَّفَقَ أَيْبَاتِهِ فِي عَدَدِ  
 الْمُتَحَرِّكَاتِ وَالسَّوَاكِينِ عَلَى التَّوَالِي . وَمُمَثَّلَةٌ عَرُوضِ أَيْبَاتِ الشَّعْرِ لِضَرْبِهَا . وَذَلِكَ  
 نَظَرٌ فِي وَزْنٍ مُجَدِّدٍ عَنِ الْأَلْفَاظِ وَدَلَالَتِهَا . فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ حَدًّا عِنْدَهُمْ . وَنَحْنُ  
 هُنَا نَنْظُرُ فِي الشَّعْرِ بِإِعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الْإِعْرَابِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْوَزْنِ وَالْقَوَالِبِ  
 الْخَاصَّةِ . فَلَا جَرَمَ إِنْ حَدَّهُمْ ذَلِكَ لَا يَضِلُّعُ لَهُ عِنْدَنَا فَلَا بُدَّ مِنْ تَعْرِيفِ يَعْطِينَا  
 حَقِيقَتَهُ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ فَنَقُولُ ، الشَّعْرُ هُوَ الْكَلَامُ الْبَلِغُ الْمُنْبِيُّ عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ  
 وَالْأَوْصَافِ ، الْمَفْضَلُ بِأَجْزَاءِ مُتَّفِقَةٍ فِي الْوَزْنِ وَالرُّوْيِ مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي  
 عَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ الْمَخْصُوصَةِ بِهِ . فَقَوْلُنَا  
 الْكَلَامُ الْبَلِغُ جِنْسٌ وَقَوْلُنَا الْمُنْبِيُّ عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ وَالْأَوْصَافِ فَضَّلَ لَهُ عَمَّا يَخْلُومِنْ  
 هَذِهِ فَإِنَّهُ فِي الْعَالِبِ لَيْسَ بِشِعْرِ وَقَوْلُنَا الْمَفْضَلُ بِأَجْزَاءِ مُتَّفِقَةٍ الْوَزْنِ وَالرُّوْيِ فَضَّلَ  
 لَهُ عَنِ الْكَلَامِ الْمَنْشُورِ الَّذِي لَيْسَ بِشِعْرِ عِنْدَ الْكُلِّ وَقَوْلُنَا مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي  
 عَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ بَيَانٌ لِلْحَقِيقَةِ لِأَنَّ الشَّعْرَ لَا تَكُونُ أَيْبَاتُهُ إِلَّا كَذَلِكَ  
 وَلَمْ يُفْضَلْ بِهِ شَيْءٌ . وَقَوْلُنَا الْجَارِي عَلَى الْأَسَالِيبِ الْمَخْصُوصَةِ بِهِ فَضَّلَ لَهُ عَمَّا لَمْ  
 يَجْرِمْنَهُ عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ <sup>(٢)</sup> الْمَعْرُوفَةِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لَا يَكُونُ شِعْرًا إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ  
 مَنْظُومٌ لِأَنَّ الشَّعْرَ لَهُ أَسَالِيبٌ تَخْصُهُ لَا تَكُونُ لِلْمَنْشُورِ . وَكَذَا أَسَالِيبُ الْمَنْشُورِ  
 لَا تَكُونُ لِلشَّعْرِ فَمَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ مَنْظُومًا وَلَيْسَ عَلَى تِلْكَ الْأَسَالِيبِ فَلَا يَكُونُ  
 شِعْرًا . وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ كَانَ الْكَثِيرُ مِمَّنْ لَقِينَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْأَدَبِيَّةِ

(١) وفي نسخة أخرى : يفهمنا .

(٢) وفي نسخة أخرى : الشعر .

يَرُونَ أَنْ نَظَّمَ الْمُتَنَبِّيَّ ، وَالْمَعْرِي لَيْسَ هُوَ مِنَ الشُّعْرِ فِي شَيْءٍ ، لِأَنَّهَا لَمْ يَجْرِيََا عَلَى  
أَسَالِيْبِ الْعَرَبِ فِيهِ ، وَقَوْلُنَا فِي الْحَدِّ الْجَارِي عَلَى أَسَالِيْبِ الْعَرَبِ فَضَّلْ لَهُ عَنْ شِعْرِ  
غَيْرِ الْعَرَبِ مِنَ الْأَمَمِ عِنْدَمَا يَرَى أَنَّ الشُّعْرَ يُوجَدُ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ . وَمَنْ يَرَى أَنَّهُ  
لَا يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ فَلَا يَخْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ وَيَقُولُ مَكَانَهُ الْجَارِي عَلَى الْأَسَالِيْبِ  
الْمَخْصُوصَةِ . وَإِذْ قَدْ فَرَعْنَا مِنَ الْكَلَامِ عَلَى حَقِيقَةِ الشُّعْرِ فَلَنَرْجِعْ إِلَى الْكَلَامِ فِي كَيْفِيَّةِ  
عَمَلِهِ فَتَقُولُ : إِغْلَمْ أَنَّ لِعَمَلِ الشُّعْرِ وَإِحْكَامِ صِنَاعَتِهِ شُرُوطًا أَوْلَاهَا : الْحِفْظُ مِنْ جِنْسِهِ  
أَيُّ مِنْ جِنْسِ شِعْرِ الْعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِي النَّفْسِ مَلَكَةٌ يُنْسَجُ عَلَى مَنَوَالِهَا وَيَتَخَيَّرُ  
الْمَخْفُوظُ مِنَ الْحُرِّ النَّقِيِّ الْكَثِيرِ الْأَسَالِيْبِ . وَهَذَا الْمَخْفُوظُ الْمُخْتَارُ أَقْلُ مَا يَكْفِي  
فِيهِ شِعْرُ شَاعِرٍ مِنَ الْفُحُولِ الْإِسْلَامِيِّينَ مِثْلِ ابْنِ رَبِيعَةَ وَكَثِيرٍ وَذِي الرُّمَّةِ وَجَرِيرِ  
وَأَبِي نُوَّاسٍ وَحَبِيبِ وَابْنِ بَحْتَرِيٍّ وَالرُّضِيِّ وَأَبِي فِرَاسٍ . وَأَكْثَرُهُ شِعْرُ كِتَابِ الْأَغَانِي  
لِأَنَّهُ جَمَعَ شِعْرَ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهِ وَالْمُخْتَارُ مِنْ شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَمَنْ كَانَ  
خَالِيًا مِنَ الْمَخْفُوظِ فَنَظْمُهُ قَاصِرٌ رَدِيءٌ وَلَا يُعْطِيهِ الرُّونُقُ وَالْحَلَاوَةُ إِلَّا كَثْرَةَ  
الْمَخْفُوظِ . فَمَنْ قَلَّ حِفْظُهُ أَوْ عَدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإِنَّمَا هُوَ نَظْمٌ سَاقِطٌ . وَاجْتِنَابُ  
الشُّعْرِ أَوَّلِيٍّ يَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَخْفُوظٌ . ثُمَّ بَعْدَ الْإِمْتِلَاءِ مِنَ الْحِفْظِ وَشَخِذِ الْقَرِيحَةِ  
لِلنَّسِجِ عَلَى الْمَنَوَالِ يُقْبَلُ عَلَى النَّظْمِ وَيَالِ الْكُثْرَةِ مِنْهُ تَسْتَحْكِمُ مَلَكَتَهُ وَتَرْسُخُ . وَرُبَّمَا  
يُقَالُ إِنَّ مِنْ شَرْطِهِ نَسِيَانُ ذَلِكَ الْمَخْفُوظِ لِتَمَحُّي رُسُومِهِ الْحَرْفِيَّةِ الظَّاهِرَةِ إِذْ هِيَ  
صَادِرَةٌ <sup>(١)</sup> عَنْ اسْتِعْمَالِهَا بَعِينِهَا . فَإِذَا نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَيَّفَتِ النَّفْسُ بِهَا انْتَقَشَ  
الْأَسْلُوبُ فِيهَا كَأَنَّهُ مَنَوَالٌ يُؤْخَذُ بِالنَّسِجِ عَلَيْهِ بِأَمْثَالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضَرُورَةٌ .  
ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْخُلُوةِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَكَانِ الْمَنْظُورِ فِيهِ مِنَ الْمِيَاهِ وَالْأَزْهَارِ وَكَذَا  
الْمَسْمُوعِ لِاسْتِنَارَةِ الْقَرِيحَةِ بِاسْتِجْمَاعِهَا وَتَشْطِيبِهَا بِمَلَادِ السُّرُورِ . ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ  
فَشَرْطُهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى جَمَامِ وَنَشَاطٍ فَذَلِكَ أَجْمَعٌ لَهُ وَأَنْشَطٌ لِلْقَرِيحَةِ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ  
ذَلِكَ الْمَنَوَالِ الَّذِي فِي حِفْظِهِ . قَالُوا : وَخَيْرُ الْأَوْقَاتِ لِذَلِكَ أَوْقَاتُ الْبَكْرِ عِنْدَ

(١) وفي نسخة أخرى : صَادَةٌ .

الْهَبُوبِ مِنَ النَّوْمِ وَفِرَاعِ الْعَمْدَةِ وَنَشَاطِ الْفِكْرِ وَفِي هَؤُلَاءِ <sup>(١)</sup> الْجَمَامُ . وَرَبَّمَا قَالُوا إِنَّ  
 مِنْ بَوَائِعِهِ الْعِشْقُ وَالْإِنْتِشَاءُ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ الْعَمْدَةِ وَهُوَ الْكِتَابُ  
 الَّذِي انْفَرَدَ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَإِعْطَاءِ حَقِّهَا وَلَمْ يَكْتُبْ فِيهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ .  
 قَالُوا : فَإِنْ اسْتَضْعَبَ عَلَيْهِ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيَتْرِكْهُ إِلَى وَقْتِ آخَرَ وَلَا يُكْرَهُ نَفْسَهُ  
 عَلَيْهِ . وَلْيَكُنْ بِنَاءُ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَةِ مِنْ أَوَّلِ صَوْغِهِ وَنَسْجِهِ بَعْضُهَا وَبَيْنِي الْكَلَامَ  
 عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ لِأَنَّهُ إِنْ غَفَلَ عَنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَةِ صَعِبَ عَلَيْهِ وَضَعَهَا فِي  
 مَحَلِّهَا . فَرَبَّمَا تَجِيءُ نَافِرَةٌ فَلِقَّةٌ وَإِذَا سَمَحَ الْخَاطِرُ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يُنَاسِبِ الَّذِي عِنْدَهُ  
 فَلْيَتْرِكْهُ إِلَى مَوْضِعِهِ الْأَلْيَقِ بِهِ فَإِنَّ كُلَّ بَيْتٍ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا الْمُنَاسَبَةُ  
 فَلْيَتَخَيَّرْ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ وَلْيَرَا جَعِ شِعْرَهُ بَعْدَ الْخُلَاصِ مِنْهُ بِالتَّنْفِيحِ وَالتَّقْدِيرِ وَلَا يَضُنُّ  
 بِهِ عَلَى التَّرِكِ إِذَا لَمْ يَبْلُغِ الْإِجَادَةَ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَفْتُونٌ بِشِعْرِهِ إِذْ هُوَ نَبَاتُ فِكْرِهِ  
 وَاخْتِرَاعُ قَرِيحَتِهِ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِيهِ مِنَ الْكَلَامِ إِلَّا الْأَفْصَحَ مِنَ التَّرَاكِيِبِ . وَالْخَالِصُ  
 مِنَ الصُّرُورَاتِ اللَّسَانِيَّةِ فَلْيَهْجُرْهَا فَإِنَّهَا تَنْزَلُ بِالْكَلامِ عَنْ طَبَقَةِ الْبَلَاغَةِ . وَقَدْ حَظَرَ  
 أئِمَّةُ اللُّسَانِ الْمُؤَلَّدُ مِنَ ازْتِكَابِ الصُّرُورَةِ إِذْ هُوَ فِي سَعَةِ مِنْهَا بِالْقُدُولِ عَنْهَا إِلَى  
 الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى مِنَ الْمَلَكَةِ . وَيَجْتَنِبُ أَيْضاً الْمُعَقَّدَ مِنَ التَّرَاكِيِبِ جُهْدَهُ . وَإِنَّمَا  
 يَقْصِدُ مِنْهَا مَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تَسَابِقُ الْفَاطِظَةَ إِلَى الْفَهْمِ . وَكَذَلِكَ كَثْرَةُ الْمَعَانِي فِي  
 الْبَيْتِ الْوَاحِدِ فَإِنَّ فِيهِ نَوْعَ تَعْقِيدٍ عَلَى الْفَهْمِ . وَإِنَّمَا الْمُخْتَارُ مِنْهُ مَا كَانَتْ الْفَاطِظَةُ  
 طَبَقاً عَلَى مَعَانِيهِ أَوْ أَوْفَى مِنْهَا . فَإِنَّ كَانَتْ الْمَعَانِي كَثِيرَةً كَانَتْ حَشْواً وَاسْتَعْمِلَ <sup>(٢)</sup>  
 الذَّهْنَ بِالْفَوْصِ عَلَيْهَا فَمَنْعَ الذُّوقَ عَنِ اسْتِيفَاءِ مُدْرَكِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ . وَلَا يَكُونُ  
 الشُّعْرُ سَهْلاً إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تَسَابِقُ الْفَاطِظَةَ إِلَى الذَّهْنِ . وَلِهَذَا كَانَ شَيْوَحْنَا  
 رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَعْيبُونَ شِعْرَ أَبِي بَكْرٍ <sup>(٣)</sup> بِنِ خَفَاجَةَ شَاعِرِ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ لِكَثْرَةِ  
 مَعَانِيهِ وَازْدِحَامِهَا فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ كَمَا كَانُوا يَعْيبُونَ شِعْرَ الْمُتَنَبِّئِ وَالْمَعْرِيِّ

(١) وفي نسخة أخرى : هواء .

(٢) وفي نسخة أخرى : اشتغل .

(٣) قوله أبي بكر وفي نسخة أبي اسحاق الخ .

بعدم النسخ على الأساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق . وليجتنب الشاعر أيضاً الحوشي من الألفاظ والمقصر<sup>(١)</sup> وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة وكذلك المعاني المبتذلة بالشهرة فإن الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضاً فيصير مبتذلاً ويقرب من عدم الإفادة كقولهم : النار حارة والسماة فوفنا . وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان . ولهذا كان الشعر في الربائيات والنبويات قليل الإفادة في الغالب ولا يحدق فيه إلا الفحول وفي القليل على العشر<sup>(٢)</sup> لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك . وإذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليأرضه ويعاوده فإن الفريخة مثل الضرع يدر بالامتراء ويحف<sup>(٣)</sup> بالترك والإهمال . وبالجملية فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيقي وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد . ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك . وهذه نبذة كافية والله المعين . وقد نظم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها . ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنه لابن رشيقي :

لَمَنْ اللهُ صَنَعَةَ الشَّعْرِ مَاذَا	مِنْ صُنُوفِ الْجَهْلِ مِنْهُ لَقِينَا
يُؤَثِّرُونَ الْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا	كَانَ سَهْلًا لِلْسَّامِعِينَ مُبِينَا
وَيَرَوْنَ الْمَحَالَ مَعْنَى صَحِيحًا	وَخَسِيسَ الْكَلَامِ شَيْئًا ثَمِينَا
يَجْهَلُونَ الصَّوَابَ مِنْهُ وَلَا يَدُ	رُونَ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَا
فَهُمْ عِنْدَ مَنْ سِوَانَا يُلَامُوا	نَ وَفِي الْحَقِّ عِنْدَنَا يُعْذَرُونَا
إِنَّمَا الشَّعْرُ مَا يُنَاسِبُ فِي النُّظْمِ	وَإِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فُنُونَا

(١) وفي نسخة أخرى : المقصر .

(٢) وفي نسخة أخرى : العشر .

(٣) وفي نسخة أخرى : يفرغ .



فَأَتَى بَعْضَهُ يُشَاكِلُ بَعْضًا  
كُلُّ مَعْنَى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا  
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ  
فَكَانَ الْأَلْفَاظُ مِنْهُ وَجُوهٌ  
إِنَّمَا فِي الْمَرَامِ حَسْبُ الْأَمَانِي  
فَإِذَا مَا مَدَحْتَ بِالشُّعْرِ حُرًّا  
فَجَعَلْتَ النَّسِيبَ سَهْلًا قَرِيبًا  
وَتَنَكَّبْتَ مَا يَهْجُنُ فِي السَّمْعِ  
وَإِذَا مَا عَرَضْتَهُ <sup>(٢)</sup> بِهَجَاءِ  
فَجَعَلْتَ التُّضْرِيحَ مِنْهُ دَوَاءً  
وَإِذَا مَا بَكَيْتَ فِيهِ عَلَى الْغَا  
خَلَّتْ دُونَ الْأَسَى وَذَلَّلَتْ مَا كَا  
ثُمَّ إِنْ كُنْتَ غَائِبًا جِئْتَ بِالْوِ  
فَتَرَكْتَ الَّذِي عَتَبْتَ عَلَيْهِ  
وَأَصْحَ الْقَرِيبِ مَا قَارَبَ النُّظْمَ  
فَإِذَا قِيلَ أَطْمَعُ النَّاسَ طُرًّا

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم وهو الناشي :

الشُّعْرُ مَا قَوِّمْتَ رِنَعَ صُدُورِهِ  
وَرَأَيْتَ بِالْإِطْنَابِ شِعْبَ صُدُوعِهِ  
وَشَدَّدْتَ بِالتَّهْدِيدِ أَسْ مُتُونِهِ  
وَفَتَحْتَ بِالْإِيْجَازِ عَوْرَ عَيْونِهِ

(١) وفي النسخة الباريسية : المسهينا .

(٢) وفي نسخة أخرى : قرضته .

(٣) وفي النسخة الباريسية : المرفتينا .

(٤) وفي نسخة أخرى : لينا .

وَجَمَعَتْ بَيْنَ قَرِيْبِهِ وَبَعِيْدِهِ  
 وَإِذَا مَدَحَتْ بِهِ جَوَاداً مَا جِداً  
 أَصْفِيْتَهُ ( بِتَفْتِيْشٍ وَرَضِيْتَهُ )<sup>(١)</sup>  
 فَيَكُونُ جَزْلاً فِي مَسَاقِ صُنُوفِهِ  
 وَإِذَا بَكَتْ بِهِ الدِّيَارَ وَأَهْلِهَا  
 وَإِذَا أُرِدَتْ كِنَايَةً عَنْ رِيْبَةٍ  
 فَجَعَلَتْ سَامِعَهُ يَشُوبُ شُكُوكَهُ  
 وَإِذَا عَتَبَتْ عَلَى أَحٍ فِي زَلَّةٍ  
 فَتَرَكْتَهُ مُسْتَأْسِئاً بِدِمَائِهِ  
 وَإِذَا نَبَذَتْ إِلَى الذِّي عَلَقْتَهَا  
 تِيْمَمَتَهَا بِلَطِيْفِهِ وَرَفِيْقِهِ  
 وَإِذَا اعْتَذَرَتْ لِسَقَطِيَّةٍ أَسْقَطْتَهَا  
 فَيَحُولُ ذَنْبُكَ عِنْدَ مَنْ يَعْتَدُهُ  
 وَجَمَعَتْ بَيْنَ مُجْمِهِ وَمَعِيْنِهِ  
 وَقَضِيْتَهُ بِالشُّكْرِ حَقَّ ذِيُونِهِ  
 وَخَصَصْتَهُ بِخَطِيْرِهِ وَثَمِيْنِهِ  
 وَيَكُونُ سَهْلاً فِي اتِّفَاقِ فُنُونِهِ  
 أَجْرِيْتِ لِلْمَحْزُونِ مَاءَ شُؤْنِهِ<sup>(٢)</sup>  
 بَايَنْتَ بَيْنَ ظَهْرِهِ وَبَطُونِهِ  
 بِثُبُونِهِ<sup>(٣)</sup> وَظُنُونِهِ بِيَقِيْنِهِ  
 أَدْمَجْتَ شِدَّتَهُ لَهُ فِي لِيْنِهِ  
 مُسْتَأْمِناً لَوْعُونِهِ وَحُزُونِهِ .  
 إِذْ صَارَ مَتَكَ بِفَاتِنَاتِ شُؤْنِهِ  
 وَشَغَفْتَهَا بِخَبِيْئِهِ وَكَمِيْنِهِ  
 وَأَشَكْتَ بَيْنَ مَخِيْلِهِ وَثَمِيْنِهِ  
 عَتَباً عَلَيْهِ مُطَالِباً بِيَمِيْنِهِ

## الفصل السادس والخمسون

في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني

إِغْلَمَ أَنَّ صِنَاعَةَ الكَلَامِ نَظْماً وَنَثْراً إِنَّمَا هِيَ فِي الأَلْفَاظِ لَا فِي المَعَانِي وَإِنَّمَا  
 المَعَانِي تَبَعٌ لَهَا وَهِيَ أَصْلٌ . فَالصَّانِعُ الَّذِي يُحَاوِلُ مَلَكَةَ الكَلَامِ فِي النِّظْمِ وَالنَّثْرِ

( ١ ) وفي نسخة أخرى : بنفسية ورضينه .

( ٢ ) مجاري الدمع .

( ٣ ) وفي نسخة أخرى : بثنائه .

إِنَّمَا يُحَاوِلُهَا فِي الْأَلْفَاظِ بِحِفْظِ أَمْثَالِهَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ لِيَكْثُرَ اسْتِعْمَالُهُ وَجَزِيئُهُ عَلَى  
 لِسَانِهِ حَتَّى تَسْتَقِرَّ لَهُ الْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ مُضْرٍ وَيَتَخَلَّصَ مِنَ الْعَجْمَةِ الَّتِي رُبِّيَ عَلَيْهَا  
 فِي جِيلِهِ وَيَفْرَضَ نَفْسَهُ مِثْلَ وَلِيدِ نَشَأَ فِي جَيْلِ الْعَرَبِ وَيُلْقَنُ لُغَتَهُمْ كَمَا يُلْقَنُهَا  
 الصَّبِيُّ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي لِسَانِهِمْ . وَذَلِكَ أَنَا قَدَّمْنَا أَنَّ لِللسانِ مَلَكَةَ مِنْ  
 الْمَلَكَاتِ فِي النُّطْقِ يُحَاوِلُ تَخْصِيلَهَا بِتَكَرُّرِهَا عَلَى اللِّسَانِ حَتَّى تَخْضَلْ شَأْنَ  
 الْمَلَكَاتِ وَالَّذِي فِي اللِّسَانِ وَالنُّطْقِ إِنَّمَا هُوَ الْأَلْفَاظُ وَأَمَّا الْمَعَانِي فَهِيَ فِي الضَّمَائِرِ .  
 وَأَيْضاً فَالْمَعَانِي مَوْجُودَةٌ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ وَفِي طَوِّعِ كُلِّ فِكْرٍ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيَرْضَى  
 فَلَا يَخْتَاجُ إِلَى تَكْلِيفِ صِنَاعَةٍ فِي تَأْلِيفِهَا وَتَأْلِيفِ الْكَلَامِ لِلعِبَارَةِ عَنْهَا هُوَ الْمُخْتَاجُ  
 لِلصَّنَاعَةِ كَمَا قُلْنَا وَهُوَ بِمَثَابَةِ الْقَوَالِبِ لِلْمَعَانِي . فَكَمَا أَنَّ الْأَوَانِي الَّتِي يُفْتَرَقُ  
 بِهَا الْمَاءُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْهَا آتِيَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالصَّدْفِ وَالزُّجَاجِ وَالْخَزْفِ وَالْمَاءِ  
 وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ . وَتَخْتَلِفُ الْجُودَةُ فِي الْأَوَانِي الْمَمْلُوءَةِ بِالْمَاءِ بِاخْتِلَافِ جِنْسِهَا  
 لَا بِاخْتِلَافِ الْمَاءِ . كَذَلِكَ جُودَةُ اللُّغَةِ وَبَلَاغَتُهَا فِي الاسْتِعْمَالِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ  
 طَبَقَاتِ الْكَلَامِ فِي تَأْلِيفِهِ بِاعْتِبَارِ تَطْبِيقِهِ عَلَى الْمَقَاصِدِ . وَالْمَعَانِي وَاحِدَةٌ فِي نَفْسِهَا  
 وَإِنَّمَا الْجَاهِلُ بِتَأْلِيفِ الْكَلَامِ وَأَسَالِيْبِهِ عَلَى مُقْتَضَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ إِذَا حَاوَلَ الْعِبَارَةَ  
 عَنْ مَقْصُودِهِ وَلَمْ يُحْسِنْ بِمَثَابَةِ الْمُقْعَدِ الَّذِي يَرُومُ النُّهُوضَ وَلَا يَسْتَطِيعُهُ لِفَقْدَانِ  
 الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ . وَاللَّهُ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

★ ★ ★

## الفصل السابع والخمسون

في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَثْرَةِ الْحِفْظِ لِمَنْ يَرُومُ تَعَلُّمَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَعَلَى قَدْرِ  
جُودَةِ الْمُحْفُوظِ وَطَبَقْتِهِ فِي جِنْسِهِ وَكَثْرَتِهِ مِنْ قَلْبِهِ تَكُونُ جُودَةُ الْمَلَكَةِ الْحَاصِلَةِ عَنْهُ  
لِلْحَافِظِ . فَمَنْ كَانَ مَحْفُوظُهُ مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيِّينَ شِعْرَ حَبِيبٍ أَوْ الْعِتَابِيِّ  
أَوْ ابْنِ الْمُعْتَزِّ أَوْ ابْنِ هَانِيءٍ أَوْ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ أَوْ رَسَائِلِ ابْنِ الْمُقَفِّعِ أَوْ سَهْلِ ابْنِ  
هَارُونَ أَوْ ابْنِ الزِّيَّاتِ أَوْ الْبَدِيعِ أَوْ الصَّابِيِّ تَكُونُ مَلَكَتُهُ أَجْوَدَ وَأَعْلَى مَقَامًا وَرَتْبَةً  
فِي الْبَلَاغَةِ مِمَّنْ يَحْفَظُ شِعْرَ ابْنِ سَهْلِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَوْ ابْنِ النَّبِيِّ أَوْ تَرَسَّلَ  
الْبَيْسَانِيُّ أَوْ الْعِمَادِ الْأَضْبَهَانِيُّ لِنُزُولِ طَبَقَةِ هَؤُلَاءِ عَنْ أَوْلِيكَ يَظْهَرُ ذَلِكَ لِلْبَصِيرِ  
النَّاقِدِ صَاحِبِ الذُّوقِ . وَعَلَى مِقْدَارِ جُودَةِ الْمُحْفُوظِ أَوْ الْمَسْمُوعِ تَكُونُ جُودَةُ  
الِاسْتِعْمَالِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ إِجَادَةُ الْمَلَكَةِ مِنْ بَعْدِهِمَا . فَبَارَتْقَاءَ الْمُحْفُوظِ فِي طَبَقَتِهِ مِنْ  
الكَلَامِ تَرْتَقِي الْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ لِأَنَّ الطَّبِيعَ إِنَّمَا يَنْسُجُ عَلَى مَنَوَالِهَا وَتَنْمُو قُوَى الْمَلَكَةِ  
بِتَفْدِيَتِهَا . وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ وَإِنْ كَانَتْ فِي جِلْبَتِهَا وَاحِدَةً بِالنَّوْعِ فَهِيَ تَخْتَلِفُ فِي  
الْبَشْرِ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ فِي الْإِذْرَاكَاتِ . وَاخْتِلَافُهَا إِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا  
مِنَ الْإِذْرَاكَاتِ وَالْمَلَكَاتِ وَالْأَلْوَانِ الَّتِي تُكَيِّفُهَا مِنْ خَارِجٍ . فَهَيْهَذِهِ يَتِمُّ وُجُودُهَا  
وَتَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ صُورَتِهَا وَالْمَلَكَاتُ الَّتِي تَحْضُلُ لَهَا إِنَّمَا تَحْضُلُ عَلَى  
التَّدْرِيجِ كَمَا قَدَّمْنَا . فَالْمَلَكَةُ الشَّعْرِيَّةُ تَنْشَأُ بِحِفْظِ الشَّعْرِ وَمَلَكَةُ الْكِتَابَةِ بِحِفْظِ  
الْأَسْجَاعِ وَالتَّرْسِيلِ . وَالْعِلْمِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ الْعُلُومِ وَالْإِذْرَاكَاتِ وَالْأَبْحَاطِ وَالْأَنْظَارِ .  
وَالْفِقْهِيَّةُ بِمُخَالَطَةِ الْفِقْهِ وَتَنْظِيرِ الْمَسَائِلِ وَتَفْرِيعِهَا وَتَخْرِيجِ الْفُرُوعِ عَلَى الْأَصُولِ .  
وَالتَّصَوُّفِيَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ بِالْعِبَادَاتِ وَالْأَذْكَارِ وَتَغْطِيلِ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ بِالْخُلُوةِ  
وَالْإِنْفِرَادِ عَنِ الْخَلْقِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى تَحْضُلَ لَهُ مَلَكَةُ الرَّجُوعِ إِلَى حِسِّهِ الْبَاطِنِ  
وَرُوحِهِ وَيَنْقَلِبُ رَبَّانِيًا وَكَذَا سَائِرُهَا . وَلِلنَّفْسِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَوْنٌ تَتَكَيَّفُ بِهِ

وَعَلَى حَسَبِ مَا نَشَأَتِ الْمَلَكَةُ عَلَيْهِ مِنْ جُودَةٍ أَوْ رَدَاءَةٍ تَكُونُ تِلْكَ الْمَلَكَةُ فِي نَفْسِهَا  
فَمَلَكَةُ الْبَلَاغَةِ الْعَالِيَةِ الطَّبَقَةِ فِي جِنْسِهَا إِنَّمَا تَحْصُلُ بِحِفْظِ الْعَالِي فِي طَبَقَتِهِ مِنْ  
الْكَلَامِ وَلِهَذَا كَانَ الْفُقَهَاءُ وَأَهْلُ الْعُلُومِ كُلُّهُمْ قَاصِرِينَ فِي الْبَلَاغَةِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا  
يَسْبِقُ إِلَى مَخْفُوظِهِمْ وَيَمْتَلِئُ بِهِ مِنَ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعِبَارَاتِ الْفَقْهِيَّةِ الْخَارِجَةِ  
عَنْ أَسْلُوبِ الْبَلَاغَةِ وَالنَّازِلَةِ عَنِ الطَّبَقَةِ لِأَنَّ الْعِبَارَاتِ عَنِ الْقَوَانِينِ وَالْعُلُومِ لَا حَظَّ  
لَهَا فِي الْبَلَاغَةِ فَإِذَا سَبَقَ ذَلِكَ الْمَخْفُوظُ إِلَى الْفِكْرِ وَكَثُرَ وَتَلَوَّنَتْ بِهِ النَّفْسُ جَاءَتِ  
الْمَلَكَةُ النَّاشِئَةُ عَنْهُ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ وَانْحَرَفَتْ عِبَارَاتُهُ عَنْ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ فِي  
كَلَامِهِمْ . وَهَكَذَا نَجَدُ شِعْرَ الْفُقَهَاءِ وَالنُّحَاةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالنُّظَّارِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَمْ  
يَمْتَلِئْ مِنْ حِفْظِ النِّقْيِ الْحَرِّ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ . أَخْبَرَنِي صَاحِبُنَا الْفَاضِلُ أَبُو  
الْقَاسِمِ بْنُ رِضْوَانَ كَاتِبُ الْعَلَامَةِ بِالذُّوْلَةِ الْمَرْيَنِيَّةِ قَالَ : ذَكَرْتُ يَوْمًا صَاحِبَنَا أَبَا  
الْعَبَّاسِ بْنِ شُعَيْبٍ كَاتِبَ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَكَانَ الْمُقَدَّمُ فِي الْبَصْرِ بِاللِّسَانِ  
لِعَهْدِهِ فَأَنْشَدْتُهُ مَطْلَعُ قَصِيدَةِ ابْنِ النَّحْوِيِّ وَلَمْ أَنْسِبْهَا لَهُ وَهُوَ هَذَا :

لَمْ أَدْرِ حِينَ وَقَفْتُ بِالْأَطْلَالِ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ جَدِيدِهَا وَالْبَالِيِ

فَقَالَ لِي عَلَى الْبَدِيهَةِ ، هَذَا شِعْرُ فِقِيهِ ، فَقُلْتُ لَهُ ، وَمِنْ أَيْنَ لَكَ ذَلِكَ ، فَقَالَ ،  
مِنْ قَوْلِهِ مَا الْفَرْقُ ؟ إِذْ هِيَ مِنْ عِبَارَاتِ الْفُقَهَاءِ وَلَيْسَتْ مِنْ أَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ ،  
فَقُلْتُ لَهُ ، اللَّهُ أَبُوكَ إِنَّهُ ابْنُ النَّحْوِيِّ . وَأَمَّا الْكُتَابُ وَالشُّعْرَاءُ فَلَيْسُوا كَذَلِكَ  
لِتَخْيِيرِهِمْ فِي مَخْفُوظِهِمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ فِي التَّرْسُلِ وَانْتِقَائِهِمْ لَهُمْ  
الْجَيِّدَ مِنَ الْكَلَامِ . ذَاكَرْتُ يَوْمًا صَاحِبَنَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ وَزَيْرَ الْمُلُوكِ  
بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ بَنِي الْأَحْمَرِ وَكَانَ الصُّدْرَ الْمُقَدَّمُ فِي الشُّعْرِ وَالْكِتَابَةِ فَقُلْتُ لَهُ ، أَجَدُّ  
اسْتِضْعَابًا عَلَيَّ فِي نَظْمِ الشُّعْرِ مَتَى رُمْتَهُ مَعَ بَصْرِي بِهِ وَحَفْظِي لِلْجَيِّدِ مِنَ الْكَلَامِ  
مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَقُنُونِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ وَإِنْ كَانَ مَخْفُوظِي قَلِيلًا . وَإِنَّمَا أَتَيْتُ  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ مِنْ قَبْلِ مَا حَصَلَ فِي حِفْظِي مِنَ الْأَشْعَارِ الْعِلْمِيَّةِ  
وَالْقَوَانِينِ التَّالِيفِيَّةِ . فَإِنِّي حَفِظْتُ قَصِيدَتِي الشَّاطِبِيِّ الْكُبْرَى وَالصُّغْرَى فِي

القِرَاءَاتِ فِي الرَّسْمِ وَاسْتَنْظَهَرْتَهُمَا وَتَدَارَسْتُ كِتَابِي ابْنِ الْحَاجِبِ فِي الْفِقْهِ وَالْأَصُولِ وَجَمَلَ الْخَوْنَجِي فِي الْمَنْطِقِ وَبَعْضَ كِتَابِ التَّسْهِيلِ وَكَثِيراً مِنْ قَوَانِينِ التَّعْلِيمِ فِي الْمَجَالِسِ فَأَمْتَلًا مَحْفُوظِي مِنْ ذَلِكَ وَخُدِشَ وَجْهَ الْمَلَكَةِ الَّتِي اسْتَعْدَدْتُ<sup>(١)</sup> لَهَا بِالْمَحْفُوظِ الْجَيِّدِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ تَعَاقُ الْقَرِيحَةِ عَنْ بُلُوغِهَا . فَنَظَرَ إِلَيَّ سَاعَةً مُعْجَبًا<sup>(٢)</sup> ثُمَّ قَالَ ، اللَّهُ أَنْتَ وَهَلْ يَقُولُ هَذَا إِلَّا مِثْلُكَ ؟ وَيَظْهَرُ لَكَ مِنْ هَذَا الْفَضْلِ وَمَا تَقَرَّرَ فِيهِ سِرٌّ آخَرٌ وَهُوَ إِعْطَاءُ السَّبَبِ فِي أَنَّ كَلَامَ الْإِسْلَامِيِّينَ مِنَ الْعَرَبِ أَعْلَى طَبَقَةٍ فِي الْبَلَاغَةِ وَأَدْوَابِهَا مِنْ كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَنْثُورِهِمْ وَمَنْظُومِهِمْ . فَإِنَّا نَجِدُ شِعْرَ حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ وَعَمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَالْحَطِيبَةَ وَجَرِيرَ وَالْفَرَزْدَقِ وَنُصَيْبَ وَعِيلَانَ ذِي الرُّمَةِ وَالْأَخْوَصَ وَبِشَارَ ثُمَّ كَلَامَ السُّلَافِ مِنَ الْعَرَبِ فِي الدَّوَلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَصَدْرًا مِنَ الدَّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي خُطْبِهِمْ وَتَرْسِيلِهِمْ وَمَحَاوِرَاتِهِمْ لِلْمَلُوكِ أَرْفَعَ طَبَقَةً فِي الْبَلَاغَةِ مِنْ شِعْرِ النَّابِغَةِ وَعَنْتَرَةَ وَابْنِ كُلْثُومٍ وَزُهَيْرٍ وَعَلْقَمَةَ بْنَ عَبْدِةَ وَطَرْفَةَ بْنَ الْعَبِيدِ وَمِنْ كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَنْثُورِهِمْ وَمَحَاوِرَاتِهِمْ وَالطَّبِيعِ السُّلَيْمِ وَالذُّوقِ الصَّحِيحِ شَاهِدَانِ بِذَلِكَ لِلنَّاقِدِ الْبَصِيرِ بِالْبَلَاغَةِ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَدْرَكُوا الْإِسْلَامَ سَمِعُوا الطَّبَقَةَ الْعَالِيَةَ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الَّذِينَ عَجَزَ الْبَشَرُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلَيْهِمَا لِكُونِهَا وَلَجَتْ فِي قُلُوبِهِمْ وَنَشَأَتْ عَلَى أَسَالِيهَا نَفُوسُهُمْ فَهَضَّتْ طِبَاعَهُمْ وَارْتَقَتْ مَلَكَاتُهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ عَلَى مَلَكَاتِ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِمَّنْ لَمْ يَسْمَعْ هَذِهِ الطَّبَقَةَ وَلَا نَشَأَ عَلَيْهَا فَكَانَ كَلَامُهُمْ فِي نَظْمِهِمْ وَنَثْرِهِمْ أَحْسَنَ دِيبَاجَةٍ وَأَضْفَى رَوْنَقًا مِنْ أَوْلَيْكَ وَأَرْصَفَ مَبْنَى وَأَعْدَلَ تَثْقِيفًا بِمَا اسْتَفَادُوهُ مِنَ الْكَلَامِ الْعَالِيِ الطَّبَقَةِ . وَتَأْمَلْ ذَلِكَ يَشْهَدُ لَكَ بِهِ ذَوْقُكَ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الذُّوقِ وَالْبَصْرِ بِالْبَلَاغَةِ . وَلَقَدْ سَأَلْتُ يَوْمًا شَيْخَنَا الشَّرِيفَ أَبَا الْقَاسِمِ قَاضِي غَرْنَاطَةَ لِمَهْدِنَا وَكَانَ شَيْخَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَخَذَ بِسَبْتَةِ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ مَشِيخَتِهَا مِنْ

(١) وفي نسخة أخرى : استعديت .

(٢) وفي نسخة أخرى : متعجبا .

تَلَامِيذِ الشُّلُوبِيِّينَ وَاسْتَبْحَرَ فِي عِلْمِ اللِّسَانِ وَجَاءَ مِنْ وَرَاءِ الْغَايَةِ فِيهِ فَسَأَلْتُهُ يَوْمًا مَا بَالُ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيِّينَ أَعْلَى طَبَقَةَ فِي الْبَلَاغَةِ مِنَ الْجَاهِلِيِّينَ ؟ وَلَمْ يَكُنْ لِيَسْتَنْكَرَ ذَلِكَ بِذَوْقِهِ فَسَكَتَ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ لِي : وَاللَّهِ مَا أَذْرِي ، فَقُلْتُ ، أَعْرَضَ عَلَيْكَ شَيْئًا ظَهَرَ لِي فِي ذَلِكَ وَلَعَلَّهُ السَّبَبُ فِيهِ . وَذَكَرْتُ لَهُ هَذَا الَّذِي كَتَبْتُ فَسَكَتَ مُعْجَبًا ثُمَّ قَالَ لِي : يَا فِقِيهَ هَذَا كَلَامٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُكْتَبَ بِالذَّهَبِ . وَكَانَ مِنْ بَعْدِهَا يُؤْتَرُ مَحَلِّي وَيُصَيخُ فِي مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ إِلَى قَوْلِي وَيَشْهَدُ لِي بِالنَّبَاهَةِ فِي الْعُلُومِ ، وَاللَّهِ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَعَلَّمَهُ الْبَيَانَ .

## الفصل الثامن والخمسون

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع

وكيف جودة المصنوع أو قصوره

إِغْلَمَ أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي هُوَ الْعِبَارَةُ وَالْخِطَابُ ، إِنَّمَا سِرُّهُ وَرُوحَهُ فِي إِفَادَةِ الْمَعْنَى . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُهْمَلًا فَهُوَ كَالْمَوَاتِ الَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ . وَكَمَالُ الْإِفَادَةِ هُوَ الْبَلَاغَةُ عَلَى مَا عَرَفْتَ مِنْ حَدِّهَا عِنْدَ أَهْلِ الْبَيَانِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ هِيَ مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ ، وَمَعْرِفَةُ الشُّرُوطِ وَالْأَحْكَامِ الَّتِي بِهَا تَطَابُقُ التَّرَاكِيِبِ اللَّفْظِيَّةُ مُقْتَضَى الْحَالِ ، هُوَ فَنُ الْبَلَاغَةِ . وَتِلْكَ الشُّرُوطُ وَالْأَحْكَامُ لِلتَّرَاكِيِبِ فِي الْمُطَابَقَةِ اسْتَقْرِيَتْ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ وَصَارَتْ كَالْقَوَانِينِ . فَالْتَّرَاكِيِبُ بِوَضْعِهَا تُفِيدُ الْإِسْنَادَ بَيْنَ الْمُسْتَنْدِينَ ، بِشُرُوطِ وَأَحْكَامِ هِيَ جُلُّ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ . وَأَحْوَالُ هَذِهِ التَّرَاكِيِبِ مِنْ تَقْدِيمِ وَتَأْخِيرِ ، وَتَعْرِيفِ وَتَنْكِيرِ ، وَإِضْمَارِ وَإِظْهَارِ ، وَتَقْيِيدِ وَإِطْلَاقِ وَغَيْرِهَا ، يُفِيدُ الْأَحْكَامَ الْمُكْتَنَفَةَ مِنْ خَارِجِ الْإِسْنَادِ ، وَبِالْمُتَخَاطِبِينَ خَالَ التَّخَاطَبِ بِشُرُوطِ وَأَحْكَامِ هِيَ قَوَانِينُ لَفْنٍ ، يُسَمُّونَهُ عِلْمَ الْمَعَانِي مِنْ فُنُونِ

البلاغة . فتندرج قَوَانِينُ الْعَرَبِيَّةِ لِذَلِكَ فِي قَوَانِينِ عِلْمِ الْمَعَانِي لِأَنَّ إِفَادَتَهَا الْإِسْنَادُ جِزْءٌ مِنْ إِفَادَتِهَا لِلْأَحْوَالِ الْمُكْتَنَفَةِ بِالْإِسْنَادِ . وَمَا قَصَرَ مِنْ هَذِهِ التَّرَاكِيْبِ عَنِ إِفَادَةِ مُقْتَضَى الْحَالِ لِخَلَلٍ فِي قَوَانِينِ الْإِعْرَابِ أَوْ قَوَانِينِ الْمَعَانِي كَانَ قَاصِرًا عَنِ الْمَطَابَقَةِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ . وَلِحَقِّ بِالْمُهْمَلِ الَّذِي هُوَ فِي عِدَادِ الْمَوَاتِ .

ثُمَّ يَتَّبِعُ هَذِهِ الْإِفَادَةَ لِمُقْتَضَى الْحَالِ التَّفْنُنُ فِي انْتِقَالِ التَّرَكِيْبِ بَيْنَ الْمَعَانِي بِأَصْنَافِ الدَّلَالَاتِ . لِأَنَّ التَّرَكِيْبَ يَدُلُّ بِالْوَضْعِ عَلَى مَعْنَى . ثُمَّ يَنْتَقِلُ الذَّهْنُ إِلَى لَازِمِهِ أَوْ مَلْزُومِهِ أَوْ شَبِيهِهِ ، فَيَكُونُ فِيهَا مُجَازًا ، إِمَّا بِاسْتِعَارَةٍ أَوْ كِنَايَةٍ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ . وَيَخْصُلُ لِلْفِكْرِ بِذَلِكَ الْإِنْتِقَالِ لَذَّةٌ كَمَا تَخْصُلُ فِي الْإِفَادَةِ وَأَشَدُّ . لِأَنَّ فِي جَمِيعِهَا ظَفْرٌ بِالْمَذَلُولِ مِنْ دَلِيلِهِ . وَالظَّفْرُ مِنْ أَسْبَابِ اللَّذَّةِ كَمَا عَلِمْتَ . ثُمَّ لِهَذِهِ الْإِنْتِقَالَاتِ أَيْضًا شُرُوطٌ وَأَحْكَامٌ كَالْقَوَانِينِ صَيْرُوهَا صِنَاعَةً . وَسَمُوهَا بِالْبَيَانِ . وَهِيَ شَقِيْقَةٌ عِلْمِ الْمَعَانِي الْمَفِيدِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ . لِأَنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى مَعَانِي التَّرَاكِيْبِ وَمَذَلُولَاتِهَا . وَقَوَانِينُ عِلْمِ الْمَعَانِي رَاجِعَةٌ إِلَى أَحْوَالِ التَّرَاكِيْبِ أَنْفُسِهَا مِنْ حَيْثُ الدَّلَالَةُ . وَاللَّفْظُ وَالْمَعْنَى مُتَلَازِمَانِ مُتَضَايِقَانِ كَمَا عَلِمْتَ . فإِذَا عِلْمُ الْمَعَانِي وَعِلْمُ الْبَيَانِ هُمَا جِزْءُ الْبَلَاغَةِ ، وَبِهِمَا كَمَالُ الْإِفَادَةِ ، فَهُوَ مُقْصَرٌّ عَنِ الْبَلَاغَةِ وَيَلْتَحِقُ عِنْدَ الْبَلْغَاءِ بِأَصْوَاتِ الْحَيَوَانَاتِ الْعَجْمِ وَأَجْدَرُ بِهِ أَنْ لَا يَكُونَ عَرَبِيًّا ، لِأَنَّ الْعَرَبِيَّ هُوَ الَّذِي يُطَابِقُ بِإِفَادَتِهِ مُقْتَضَى الْحَالِ . فَالْبَلَاغَةُ عَلَى هَذَا هِيَ أَصْلُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ وَسَجِيَّتُهُ وَرُوحُهُ وَطَبِيعَتُهُ .

ثُمَّ إِعْلَمُ أَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا : « الْكَلَامُ الْمَطْبُوعُ » فَإِنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهِ الْكَلَامَ الَّذِي كَمَلَتْ طَبِيعَتُهُ وَسَجِيَّتُهُ مِنْ إِفَادَةِ مَذَلُولِهِ الْمَقْصُودِ مِنْهُ . لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ وَخَطَابٌ . لَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ النُّطْقُ فَقَطُّ . بَلِ الْمُتَكَلِّمُ يُقْصَدُ بِهِ أَنْ يُفِيدَ سَامِعَهُ مَا فِي ضَمِيرِهِ إِفَادَةً تَامَةً . وَيَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ دَلَالَةٌ وَثِيْقَةٌ . ثُمَّ يَتَّبِعُ تَرَكِيْبَ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ السَّجِيَّةِ الَّتِي لَهُ بِالْأَصَالَةِ ضُرُوبٌ مِنَ التَّحْسِينِ وَالتَّرْزِيْنِ . بَعْدَ كَمَالِ الْإِفَادَةِ وَكَانَتْهَا تُعْطِيهَا رَوْقُ الْفَصَاحَةِ مِنْ تَنْمِيْقِ الْأَشْجَاعِ . وَالْمَوَازَنَةِ بَيْنَ حَمْلِ الْكَلَامِ وَتَقْسِيمِهِ



بِالْأَقْسَامِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَحْكَامِ وَالتَّوْرِيَةِ بِاللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ عَنِ الْخَفِيِّ مِنْ مَعَانِيهِ ،  
وَالْمَطَابَقَةِ بَيْنَ الْمُتَضَادَاتِ ، لِيَقَعَ التَّجَانُسُ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي ، فَيَحْصُلُ لِلْكَلَامِ  
رَوْنَقٌ وَلَذَّةٌ فِي الْأَسْمَاعِ وَحَلَاوَةٌ وَجَمَالٌ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى الْإِفَادَةِ .

وَهَذِهِ الصَّنْعَةُ مَوْجُودَةٌ فِي الْكَلَامِ الْمُعْجَزِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلُ : « وَاللَّيْلِ إِذَا  
يُنْفَسِي وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى » ، وَمِثْلُ : « فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » ،  
إِلَى آخِرِ التَّقْسِيمِ فِي الْآيَةِ . وَكَذَا : « فَأَمَّا مَنْ طَعَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » إِلَى آخِرِ  
الْآيَةِ . وَكَذَا : « هُمْ يَخْسَبُونَ أَنَّهُمْ يَخْسِنُونَ صُنْعًا » . وَأَمْثَالُهُ كَثِيرٌ . وَذَلِكَ بَعْدَ  
كَمَالِ الْإِفَادَةِ فِي أَصْلِ هَذِهِ التَّرَاكِبِ قَبْلَ وَقُوعِ هَذَا الْبَدِيعِ فِيهَا . وَكَذَا وَقَعَ فِي كَلَامِ  
الْجَاهِلِيَّةِ مِنْهُ ، لَكِنْ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ . وَيُقَالُ إِنَّهُ وَقَعَ فِي شِعْرِ زُهَيْرِ  
وَأَمَّا الْإِسْلَامِيُّونَ فَوَقَعَ لَهُمْ عَفْوًا وَقَصْدًا ، وَأَتَوْا مِنْهُ بِالْعَجَائِبِ . وَأَوَّلُ مَنْ أَحْكَمَ  
طَرِيقَتَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ وَالبُخْتَرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ ، فَقَدْ كَانُوا مَوْلَعِينَ  
بِالصَّنْعَةِ ، وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِالْعَجَبِ . وَقِيلَ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى مَعَانِيهَا بِشَارُ بْنُ  
بُرْدٍ وَابْنُ هِرْمَةَ ، وَكَانَا آخِرَ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . ثُمَّ اتَّبَعَهُمَا  
عَمْرُو بْنُ كَلْثُومٍ وَالْعَتَّابِيُّ وَمَنْصُورُ النَّمِيرِيِّ وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ وَأَبُو نَوَاسٍ . وَجَاءَ  
عَلَى آثَارِهِمْ حَبِيبُ وَالبُخْتَرِيُّ . ثُمَّ ظَهَرَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ فَخَتَمَ عَلَى الْبَدِيعِ وَالصَّنَاعَةِ  
أَجْمَعًا . وَلِنَذْكُرَ مِثَالًا مِنَ الْمَطْبُوعِ الْخَالِيِّ مِنَ الصَّنَاعَةِ ، مِثْلُ قَوْلِ قَيْسِ بْنِ  
دَرِيحٍ :

وَأَخْرَجَ مِنْ بَيْنِ الْبَيُوتِ لِعَلَّيْ  
أَحَدْتُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي السِّرِّ خَالِيَا  
وَقَوْلُ كَثِيرٍ :

وَأَنِّي وَتَهْيَامِي بَعِزَّةٌ بَعْدَمَا  
لِكَالْمُرْتَجِي ظِلَّ الْعِمَامَةِ كُلِّهَا  
تَخَلَّيْتُ عَمَّا بَيْنَنَا وَتَخَلَّسْتُ  
تَبَوُّاً مِنْهَا لِلْمَقِيلِ اضْمَحَلْتُ

فَتَأْمَلُ هَذَا الْمَطْبُوعَ ، الْفَقِيدَ الصَّنْعَةَ ، فِي إِحْكَامِ تَأْلِيْفِهِ وَثِقَافَةِ تَرْكِيبِهِ . فَلَوْ  
جَاءَتْ فِيهِ الصَّنْعَةُ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْأَصْلِ زَادَتْهُ حُسْنًا .

وَأَمَّا الْمَضْنُوعُ فَكَثِيرٌ مِنْ لَدُنِ بَشَّارٍ ، ثُمَّ حَبِيبٍ وَطَبَقْتُهُمَا ، ثُمَّ ابْنِ الْمُعْتَزِّ  
خَاتَمِ الصَّنْعَةِ الَّذِي جَرَى الْمُتَأَخَّرُونَ بَعْدَهُمْ فِي مَيْدَانِهِمْ ، وَنَسَجُوا عَلَى مَنَاطِحِهِمْ .  
وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَصْنَافُ هَذِهِ الصَّنْعَةِ عِنْدَ أَهْلِهَا ، وَاخْتَلَفَتْ اضْطِلَاحَاتُهُمْ فِي الْقَابِيَا .  
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُهَا مُنْدرَجَةً فِي الْبَلَاغَةِ عَلَى أَنَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي الْإِفَادَةِ ، وَأَنَّهَا هِيَ  
تُعْطِي التَّحْسِينَ وَالرُّوْنُقَ . وَأَمَّا الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَهْلِ الْبَدِيعِ ، فَهِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ  
عَنِ الْبَلَاغَةِ . وَلِذَلِكَ يَذْكُرُونَهَا فِي الْفُنُونِ الْأَدَبِيَّةِ الَّتِي لَا مَوْضِعَ لَهَا . وَهُوَ رَأْيُ  
ابْنِ رَشِيْقٍ فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ لَهُ ، وَأَدْبَاءِ الْأَنْدَلُسِ . وَذَكَرُوا فِي اسْتِعْمَالِ هَذِهِ الصَّنْعَةِ  
شُرُوطًا ، مِنْهَا أَنْ تَقَعَ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَلَا اكْتِرَاطٍ فِي مَا يَقْصَدُ مِنْهَا . وَأَمَّا الْعَفْوُ فَلَا  
كَلَامَ فِيهِ لِأَنَّهَا إِذَا بَرَزَتْ مِنَ التَّكْلُفِ سَلِمَ الْكَلَامُ مِنْ عَيْبِ الْإِسْتِهْجَانِ ، لِأَنَّ تَكْلُفَهَا  
وَمَعَانَاتِهَا يَصِيرُ إِلَى الْعُقْلَةِ عَنِ التَّرَاكِيْبِ الْأَصْلِيَّةِ لِلْكَلَامِ ، فَتُخْلُ بِالْإِفَادَةِ مِنْ  
أَصْلِهَا ، وَتَذْهَبُ بِالْبَلَاغَةِ رَأْسًا . وَلَا يَنْقَى فِي الْكَلَامِ الْإِتْلَاقُ التَّحْسِينَاتِ ، وَهَذَا هُوَ  
الْغَالِبُ الْيَوْمَ عَلَى أَهْلِ الْعَصْرِ . وَأَصْحَابُ الْأَذْوَاقِ فِي الْبَلَاغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كَلْفِهِمْ  
بِهَذِهِ الْفُنُونِ ، وَيَعْدُونَ ذَلِكَ مِنَ الْقُصُورِ عَنْ سِوَاهُ . وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا الْأَسْتَاذَ أَبَا  
الْبَرَكَاتِ الْبَلْفِيْقِي ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرِ فِي اللِّسَانِ وَالْقَرِيْبَةِ فِي ذَوْقِهِ يَقُولُ ، إِنَّ  
مِنْ أَشْهَى مَا تَقْتَرِحُهُ عَلَيَّ نَفْسِي أَنْ أَشَاهِدَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ مَنْ يَنْتَحِلُ فُنُونََ هَذَا  
الْبَدِيعِ فِي نَظْمِهِ أَوْ نَثْرِهِ ، وَقَدْ عُوِقَ بِأَشَدِّ الْعُقُوبَةِ ، وَنُودِيَ عَلَيْهِ ، يُحَذِّرُ بِذَلِكَ  
تَلْمِيْذَهُ أَنْ يَتَعَاطَوْا هَذِهِ الصَّنْعَةَ ، فَيُكَلِّفُونَ بِهَا ، وَيَتَنَاسُونَ الْبَلَاغَةَ . ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ  
اسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمْ الْإِقْتِلَالُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ فِي بَيِّنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ الْقَصِيدِ ، فَتَكْفِي فِي  
زِينَةِ الشِّعْرِ وَرُوْنُقِهِ . وَالْإِكْتِسَارُ مِنْهَا عَيْبٌ ، قَالَ ابْنُ رَشِيْقٍ وَغَيْرُهُ . وَكَانَ شَيْخَنَا  
أَبُو الْقَاسِمِ الشَّرِيْفُ السُّبَيْتِيُّ مُنْفِقَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِالْأَنْدَلُسِ لَوْقَتِهِ يَقُولُ ، هَذِهِ  
الْفُنُونُ الْبَدِيعِيَّةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَّاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَقْبَحُ أَنْ يُسْتَكْتَرَّ مِنْهَا ، لِأَنَّهَا مِنْ

مُخَسَّنَاتِ الْكَلَامِ وَمُرْتِنَاتِهِ ، فَهِيَ بِمَثَابَةِ الْخَيْلَانِ فِي الْوَجْهِ يَحْسُنُ بِالْوَاحِدِ  
وَالْإِثْنَيْنِ مِنْهَا ، وَيَقْبَحُ بِتَعْدَادِهَا . وَعَلَى نِسْبَةِ الْكَلَامِ الْمَنْظُومِ هُوَ الْكَلَامُ الْمَنْشُورُ فِي  
الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ . كَانَ أَوَّلًا مَرْسَلًا مُقْتَبَرُ الْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمْلِهِ وَتَرَاجُيْهِ ، شَاهِدَةٌ  
مُوَازِنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ ، مِنْ غَيْرِ التِّزَامِ سَجَعٍ وَلَا اكْتِرَاثٍ بِصَنْعَةٍ . حَتَّى نَبَعَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ  
هَلَالٍ الصَّابِي كَاتِبُ بَنِي بُوَيْهِ ، فَتَعَاطَى الصَّنْعَةَ وَالتَّقْفِيَةَ وَأَتَى بِذَلِكَ بِالْعَجَبِ .  
وَعَابَ النَّاسُ عَلَيْهِ كَلْفَهُ بِذَلِكَ فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ . وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ  
فِي مُلُوكِهِ مِنَ الْعُجْمَةِ وَالْبُعْدِ عَنِ صَوْلَةِ الْخِلَافَةِ الْمُنْفَقَةِ لِسُوقِ الْبَلَاغَةِ . ثُمَّ انْتَشَرَتْ  
الصَّنَاعَةُ بَعْدَهُ فِي مَنْشُورِ الْمُتَأَخَّرِينَ وَنَسِيَ عَهْدَ التَّرْسِيلِ وَتَشَابَهَتْ السُّلْطَانِيَّاتِ  
وَالْإِخْوَانِيَّاتِ وَالْعَرَبِيَّاتِ بِالسُّوقِيَّاتِ . وَاخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بِالْهَمَلِ . وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ  
عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ الْمَصْنُوعَ بِالْمَعَانَاةِ وَالتَّكْلِيفِ ، قَاصِرٌ عَنِ الْكَلَامِ الْمَطْبُوعِ ، لِقِلَّةِ  
الْإِكْتِرَاثِ فِيهِ بِأَضَلِّ الْبَلَاغَةِ ، وَالْحَاكِمِ فِي ذَلِكَ الذُّوقِ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَعَلَّمَكُمْ مَا لَمْ  
تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

## الفصل التاسع والخمسون

### في ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر

إِغْلَمَ أَنَّ الشُّعْرَ كَانَ دِيْوَانًا لِلْعَرَبِ فِيهِ عُلُومُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَحَكْمُهُمْ . وَكَانَ  
رُؤْسَاءُ الْعَرَبِ مُنَافِسِينَ <sup>(١)</sup> فِيهِ وَكَانُوا يَقْفُونَ بِسُوقِ عُكَازٍ لِإِنْشَادِهِ وَعَرَضَ كُلُّ  
وَاحِدٍ مِنْهُمْ دِيْبَاجَتَهُ عَلَى فُحُولِ الشَّانِ وَأَهْلِ الْبَصْرِ لِتَمْيِيزِ حَوَالِهِ . حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى  
الْمُنَازَعَةِ فِي تَغْلِيْقِ أَشْعَارِهِمْ بِأَرْكَانِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَوْضِعِ حَجَّتِهِمْ وَبَيْتِ أَبِيهِمْ  
إِبْرَاهِيمَ كَمَا فَعَلَ امْرَأَةُ الْقَيْسِ ابْنُ حُجْرٍ وَالنَّابِغَةُ الدُّبْيَانِيَّةُ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلْمَى  
وَعَنْتَرَةُ بْنُ شَدَادٍ وَطَرْفَةُ بْنُ الْعَبِيدِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدَةَ وَالْأَعَشَى وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ  
الْمَعْلَقَاتِ السَّيِّئِ <sup>(٢)</sup> . فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَتَوَصَّلُ إِلَى تَغْلِيْقِ الشُّعْرِ بِهَا مَنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ

(١) وفي نسخة أخرى : متنافسين .

(٢) وفي النسخة الباريسية : التسع .

على ذلك بقومه وعصيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها  
بالمعلقات . ثم انصرف العرب عن ذلك اول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين  
والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا  
عن الخوض في النظم والنثر زماناً . ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة . ولم  
ينزل الوحي في تخريم الشعر وحظره وسمة النبي ﷺ وأثاب عليه . فرجعوا  
حينئذ إلى دينهم منه . وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قرينش لذلك العهد  
مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس  
فيفق لإستماعه فمجبأ به . ثم جاء من بعد ذلك الملك الفحل والدولة العزيزة  
وتقرب إليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها . ويحيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز  
على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرصون على استهزاء أشعارهم  
يطلعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف اللسان . والعرب يطالبون ولدهم  
يحفظها . ولم يزل هذا الشأن أيام بني أمية وصدر من دولة بني العباس . وانظر  
ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد للأصمعي في باب الشعر والشعراء تجد  
ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوم فيه والعناية بانتحاله والتبصر  
بحيد الكلام ورديته وكثرة محفوظه منه . ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان  
لسانهم من أجل العجمة وتقصيرها باللسان وإنما تعلموه صناعة ثم مدحوا  
بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبيين معروفهم فقط لا سوى ذلك  
من الأغراض كما فعله حبيب والبخترى والمتمبىء وابن هاني ومن بعدهم وهلم  
جراً . فصار غرض الشعر في الغالب إنما هو الكذب<sup>(١)</sup> والإستحذاء لذهاب المنافع  
التي كانت فيه للأولين كما ذكرناه آنفاً . وأنف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من  
المتأخرين وتغير الحال وأصبح تقاطيه هجنة في الرئاسة ومدمة لأهل المناصب  
الكبيرة . والله مقلب الليل والنهار .

(١) وفي نسخة أخرى : للكذبة .

## الفصل الستون

### في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد

إِغْلَمَ أَنَّ الشُّعْرَ لَا يَخْتَصُّ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ فَقَطْ بَلْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ لُغَةٍ سِوَاهُ كَانَتْ عَرَبِيَّةً أَوْ عَجَمِيَّةً وَقَدْ كَانَ فِي الْفُرسِ شُعْرَاءُ وَفِي يُونَانَ كَذَلِكَ وَذَكَرَ مِنْهُمْ أرسطو فِي كِتَابِ الْمَنطِقِ أَوْ مِيرُوسَ الشَّاعِرِ وَأَتَى عَلَيْهِ . وَكَانَ فِي حَمِيرٍ أَيْضاً شُعْرَاءُ مُتَقَدِّمُونَ . وَلَمَّا فَسَدَ لِسَانُ مُضَرَ وَلُغَتُهُمُ الَّتِي دُونَتْ مَقَابِيِسُهَا وَقَوَائِينُ إِعْرَابِهَا وَفَسَدَتِ اللُّغَاتُ مِنْ بَعْدِ بِحَسَبِ مَا خَالَطَهَا وَمَازَجَهَا مِنَ الْعُجْمَةِ فَكَانَتْ تُحِيلُ<sup>(١)</sup> الْعَرَبَ بِأَنْفُسِهِمْ لُغَةً خَالَفَتْ لُغَةَ سَلْفِهِمْ مِنْ مُضَرَ فِي الْإِعْرَابِ جُمْلَةً وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَبِنَاءِ الْكَلِمَاتِ . وَكَذَلِكَ الْحَضْرُ أَهْلُ الْأَمْصَارِ نَشَأَتْ فِيهِمْ لُغَةٌ أُخْرَى خَالَفَتْ لِسَانَ مُضَرَ فِي الْإِعْرَابِ وَأَكْثَرَ الْأَوْضَاعِ وَالتَّصَارِيفِ وَخَالَفَتْ أَيْضاً لُغَةَ الْجَيْلِ مِنَ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَاخْتَلَفَتْ هِيَ فِي نَفْسِهَا بِحَسَبِ اضْطِلَاحَاتِ أَهْلِ الْأَفَاقِ فَلَأَهْلِ الشَّرْقِ وَأَمْصَارِهِ لُغَةٌ غَيْرُ لُغَةِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ وَتَخَالَفَهُمَا أَيْضاً لُغَةُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَأَمْصَارِهِ . ثُمَّ لَمَّا كَانَ الشُّعْرُ مَوْجُوداً بِالطَّبِيعِ فِي أَهْلِ كُلِّ لِسَانٍ لِأَنَّ الْمَوَازِينَ عَلَى نِسْبَةِ وَاحِدَةٍ فِي أَعْدَادِ الْمُتَحَرِّكَاتِ وَالسَّوَاكِينِ وَتَقَابُلِهَا مَوْجُودَةٌ فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ فَلَمْ يُهَجِرِ الشُّعْرُ بِفِقْدَانِ لُغَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ لُغَةُ مُضَرَ الَّذِينَ كَانُوا فُحُولَهُ وَفُرسَانَ مِيدَانِهِ حَسْبَمَا اشْتَهَرَ بَيْنَ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ . بَلْ كُلُّ جَيْلٍ وَأَهْلٍ كُلِّ لُغَةٍ مِنَ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْجِمِينَ وَالْحَضْرُ أَهْلُ الْأَمْصَارِ يَتَعَاطُونَ مِنْهُ مَا يُطَابِعُهُمْ فِي انْتِحَالِهِ وَرَضْفِ بِنَائِهِ عَلَى مَهْبِيعِ كَلَامِهِمْ . فَأَمَّا الْعَرَبُ أَهْلُ هَذَا الْجَيْلِ الْمُسْتَعْجِمُونَ عَنِ لُغَةِ سَلْفِهِمْ مِنْ مُضَرَ فَيَقْرُضُونَ الشُّعْرَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي سَائِرِ الْأَعَارِيزِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلْفُهُمُ الْمُسْتَعْرِبُونَ وَيَأْتُونَ مِنْهُ بِالْمَطُولَاتِ مُشْتَمِلَةً

(١) وفي نسخة أخرى : لجيل .

على مذاهب الشعر وأغراضه من السبب والمدح والرثاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام . ورُبَّما هجموا على المقصود لأول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون . فأهل أمصار المغرب من العرب يُسمون هذه القصائد بالأصمعيّات نسبة إلى الأصمعيّ زاوية العرب في أشعارهم . وأهل المشرق من العرب يُسمون هذا النوع من الشعر بالبدويّ والحورانيّ والقيسيّ . ورُبَّما يلحنون فيه الحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقيّة . ثم يُغنّون به ويسمّون الغناء به باسم الحورانيّ نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام وهي من منازل العرب البادية ومسكنهم إلى هذا العهد . ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يحيئون به معصاً على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويّه ويلتزمون القافية الرابعة في كلّ بيت إلى آخر القصيدة شبيهاً بالمرّبع والمخمس الذي أحدثه المتأخرون من المؤلّدين . ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكر صاحبها هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ويمجّ نظمهم إذا أنشد ويعتقد أنّ ذوقه إنّما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها . وهذا إنّما أتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظيره وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة إنّما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود وللمقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع يدالاً على الفاعل والنصب دالاً على المفعول أو بالعكس وإنّما يدلُّ على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه . فالدلالة بحسب ما يسطيح عليه أهل الملكة فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحة الدلالة وإذا طبقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحّت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك . وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر . ويتميّز

عِنْدَهُمُ الْفَاعِلُ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ الْخَبَرِ بِقَرَائِنِ الْكَلَامِ لَا بِحَرَكَاتِ  
الإغراب .

فَمِنْ أَشْعَارِهِمْ عَلَى لِسَانِ الشَّرِيفِ بْنِ هَاشِمٍ يَبْكِي الْجَازِيَةَ بِنْتُ سَرْحَانَ ،  
وَيَذْكَرُ ظَعْنَهَا مَعَ قَوْمِهَا إِلَى الْمَغْرِبِ :

قَالَ الشَّرِيفُ ابْنُ هَاشِمٍ عَلِي  
يَغْفِرُ لِلْإِغْلَامِ أَيْنَ مَا رَأَتْ خَاطِرِي  
وَمَاذَا شَكَاةُ الرُّوحِ مِمَّا طَرَا لَهَا  
يَحْسَ إِنْ قَطَاعِ عَامِرِ ضَمِيرِهَا  
وَعَادَتِ كَمَا خَوَارَةٌ فِي يَدِ غَاسِلِ  
تَجَابِذُهَا اثْنَيْنِ وَالنَّزْعَ بَيْنَهُمْ  
وَبَاتَتْ دَمُوعُ الْعَيْنِ ذَارِفَاتٍ لَشَانِهَا  
تَدَارِكُ مِنْهَا النُّجْمَ حَذْرًا وَزَادَهَا  
يَصُبُّ مِنَ الْقِيَعَانِ مِنْ جَانِبِ الصَّفَا  
هَذَا الْغَنَى حَتَّى تَسَابَيْتِ غَزْوَةً  
وَنَادَى الْمُنَادِي بِالرَّحِيلِ وَشَدُّوا  
وَشَدُّ لَهَا الْأَدْهَمُ دِيَابِ بْنِ غَانِمِ  
وَقَالَ لَهُمْ حَسَنُ بْنُ سَرْحَانَ غَرَّبُوا  
وَيَرْكُضُ وَيَبِيدُهُ شَهَامُهُ بِالتَّسَامُحِ  
غَدْرَنِي زِيَانَ السِّيْحِ مِنْ عَبَسِ  
غَدْرَنِي وَهُوَ زَعْمًا صَدِيقِي وَصَاحِبِي  
وَرَجَعَ يَقُولُ لَهُمْ بِلَالُ بْنُ هَاشِمِ  
حَرَامُ عَلِيٍّ بَابُ بَغْدَادِ وَأَرْضُهَا  
تَصْدَفُ رُوحِي عَنْ بِلَادِ ابْنِ هَاشِمِ

تَرَى كَيْدِي حَرَى شَكْتٍ مِنْ زَفِيرِهَا  
يَرُدُّ غَلَامَ الْبَدْوِ يَلْوِي عَصِيرِهَا  
عِدَاةُ وَزَائِعُ تَلْفِ اللَّهِ خَيْرِهَا  
طَوَى وَهَنْدُ جَانِي ذَكِيرِهَا  
عَلَى مِثْلِ شَوْكِ الطَّلْحِ عَقَدُوا يَسِيرِهَا  
عَلَى شَوْكِ لَعَةِ وَالْبَقَايَا جَرِيرِهَا  
شَبِيهِ دَوَّارِ السَّوَانِي يَدِيرِهَا  
مَرُونَ يَجِي مَتْرَاكِبًا مِنْ صَبِيرِهَا  
عَيُونَ وَلِجَازِ الْبَرَقِ فِي غَزِيرِهَا  
نَاضَتْ مِنْ بَغْدَادِ حَتَّى فَقِيرِهَا  
وَعَرَجَ عَارِيهَا عَلَى مَسْتَعِيرِهَا  
عَلَى أَيْدِينَ مَاضِي وَليدِ مَقْرَبِ مِيرِهَا  
وَسَوَقُوا النُّجُوعَ إِنْ كَانَ أَنَا هُوَ غَفِيرِهَا  
وَبِالْيَمِينِ لَا يَجِدُوا فِي مُغِيرِهَا  
وَمَا كَانَ يَرْضَى زَيْنَ حَمِيرِ وَمِيرِهَا  
وَأَنَا لِيهِ مَا مِنْ دَرَقْتِي مَا يَدِيرِهَا  
بِحَرِّ الْبِلَادِ الْعَطْشَى مَا بَخِيرِهَا  
دَاخِلٌ وَلَا عَائِدٌ رَكِيزُهُ مِنْ نَعِيرِهَا  
عَلَى الشَّمْسِ أَوْ حَوْلِ الْغُظَامِ مِنْ هَجِيرِهَا

وباتت نيران العذارى قوادح بلوذ وبجرجان يشدوا أسيرها  
وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي رِثَاءِ أَمِيرِ زَنْتَاةَ أَبِي سَعْدَى الْيَفْرَنْبِيِّ مُقَارِعَهُمْ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَأَرْضِ  
الزَّابِ وَرِثَاؤُهُمْ لَهُ عَلَى جِهَةِ التَّهْكُمِ :

تقول فتاة الحي<sup>(١)</sup> سعدى وهاضها  
أيا سائلي عن قبر الزناتي خليفه  
تراه يعالي وادي ران وفوقه  
أراه يميل النور من شارع النقا  
أيا لهف كبدي على الزناتي خليفه  
قتيل فتى الهيجا دياب بن غانم  
أيا جائزاً مات الزناتي خليفه  
ألا واش رَحَلْنَا ثلاثين مرةً  
لها في ظعون الباكرين عويلُ  
خذ النعت مني لا تكون هبيلُ  
من الربط عيساوي بناء طويلُ  
به الواد شرقاً واليراع دليلُ  
قد كان لأعقاب الجياد سليلُ  
جراحه كافواه المزاد تسييلُ  
لا ترحل إلا أن يريد رحيلُ  
وعشراً وستا في النهار قليلُ

وَمِنْ قَوْلِهِمْ عَلَى لِسَانِ الشَّرِيفِ بْنِ هَاشِمٍ يَذْكُرُ عِتَاباً وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ  
مَاضِي بْنِ مَقْرَبٍ :

تبدي ماضي الجبار وقال لي  
أشكر أعد ما بقي ود بيننا  
نحن غدينا نصدفو ما قضى لنا  
أشكر أعد إلى يزيد ملامه  
ان كان نبت الشوك يلحق بأرضكم  
أشكر ما نحنا عليك رضاش  
ورانا عريب عربا لابسين نماش  
كما صادفت طعم الزباد طشاش  
ليحدو ومن عمر بلاده عاش  
هنا العرب ما زدنا لهن ضياش

وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ رَحْلَتِهِمْ إِلَى الْغَرْبِ وَعَلَيْهِمْ زَنْتَاةَ عَلَيْهِ :

وأبي جميل ضاع لي في الشريف بن هاشم  
وأبي رجال ضاع قلبي جميلها

(١) كذا . وفي ب : نقاة الخد .



لقد كنت أنا وياه في زهو بيتنا  
 وعدت كأني شاربٌ من مدامةٍ  
 أو مثل شمطامات مظنون كبدها  
 أتاها زمان السوء حتى تدوحت  
 كذلك أنا مما لحاني من الوجى  
 وأمرت قومي بالرحيل وبكروا  
 قعدنا سبعة أيام محبوس نجعنا  
 نظل على حداب الثنايا نوازي

وَمِنْ شِعْرِ سُلْطَانِ بْنِ مُظَفَّرِ بْنِ يَحْيَى مِنَ الزَّوَادَةِ<sup>(١)</sup> أَحَدِ بَطُونِ رِيَّاحٍ  
 وَأَهْلِ الرِّيَاسَةِ فِيهِمْ ، يَقُولُهَا وَهُوَ مُعْتَقَلٌ بِالْمَهْدِيَّةِ فِي سِجْنِ الْأَمِيرِ أَبِي زَكْرِيَّا بْنِ  
 أَبِي حَفْصِ أَوْلِ مَلُوكِ أَفْرِيْقِيَّةٍ مِنَ الْمُوحِدِينَ :

يقول وفي بوح الدجا بعد وهنة  
 يا من لقلب حالف الوجد والأسى  
 حجازية بدوية عربية  
 مولعة بالبدو لا تألف القرى  
 غيات ومشتاها بها كل شتوة  
 ومرباها عشب الأراضي من الحيا  
 تشوق شوق العين مما تداركت  
 وماذا بكت بالما وماذا تناحطت  
 كأنَّ عروس البكر لاحت ثيابها  
 فلاة ودهنا واتساع ومنة  
 ومشروبها من مخض ألبان شولها

حرام على أجنان عيني منامها  
 وروح هيامي طال ما في سقامها  
 عداوية ولها بعيد مرامها  
 سوى عانك الوعسا يؤتي خيامها  
 ممحونة بيها وبيها صحيح غرامها  
 يواتي من الخور الخلايا جسامها  
 عليها من السحب السواري عمامها  
 عيون غرار الزن عذبا حمامها  
 عليها ومن نور الأقاحي خزامها  
 ومرعى سوى ما في مراعي نعامها  
 غنيم ومن لحم الجوازي طعامها

(١) كذا . وفي نسخة : الدواودة .

تَفَانَتْ عَنِ الْأَبْوَابِ وَالْمَوْقِفِ الَّذِي  
سَقَى اللَّهُ ذَا الْوَادِي الْمَشْجَرِ بِالْحَيَا  
فَكَافَأَتْهَا بِالْوَدِّ مَنِيَّ وَلِيْتَنِي  
لِيَالِي أَقْوَامِ الصَّبَا فِي سَوَاعِدِي  
وَفَرَسِي عَدِيدٍ تَحْتَ سِرْجِي مَشَاقَّةً  
وَكَمْ مِنْ رِدَاحٍ أَسْهَرْتَنِي وَلَمْ أَرَى  
وَكَمْ غَيْرَهَا مِنْ كَاعِبٍ مَرَجِحْنَةَ  
وَصَفَقْتُ مِنْ وَجْدِي عَلَيْهَا طَرِيحَةً  
وَنَارٍ بَخَطْبِ الْوُجْدِ تَوْهَجٌ فِي الْحِشَا  
أَيَا مِنْ وَعْدَتِي الْوَعْدِ هَذَا إِلَى مَتَى  
وَلَكِنْ رَأَيْتُ الشَّمْسَ تُكْسِفُ سَاعَةً  
بِنُودٍ وَرَايَاتٍ مِنَ السَّعْدِ أَقْبَلَتْ  
أَرَى فِي الْفَلَاحِ بِالْعَيْنِ أَطْعَانَ عَزْوَتِي  
يَجْرَعَا عِتَاقِ النَّوْقِ مِنْ فَوْقِ شَامِسٍ  
إِلَى مَنْزِلِ الْجَعْفَرِيَّةِ لِلْكَوَى  
وَنَلَقَى سِرَاةً مِنْ هَلَالِ بْنِ عَامِرٍ  
بِهِمْ تَضْرِبُ الْأَمْثَالَ شَرْقاً وَمَغْرِباً  
عَلَيْهِمْ وَمَنْ هُوَ فِي حِمَاهِمُ تَحِيَّةً  
فَدَعَ ذَا وَلَا تَأْسَفُ عَلَى سَالِفِ مَضَى

يشيب الفتى مما يقاسي زحامها  
وبلا ويحيى ما بلي من رمامها  
ظفرت بأيام مضت في ركامها  
إذا قمت لم تحظ من أيدي سهامها  
زمان الصبا سرجاً وبيدي لجامها  
من الخلق أبهى من نظام ابتسامها  
مطرزة الأجنان باهي وشامها  
بكفي ولم ينسى جدها ذمامها  
وتوهج لا يطفا من الماء ضرامها  
فني العمر في دار عماني ظلامها  
ويغى عليها ثم يبدأ غيامها  
إلينا بعون الله يهفو علامها  
ورمحي على كتفي وسيري أمامها  
أحب بلاد الله عندي حشامها  
مقيم بها ما لذ عندي مقامها  
يزيل الصدا والغل عني سلامها  
إذا قاتلوا قوماً سريع انهزامها  
مدى الدهر ما غنى يفينا حمامها  
فذي الدنيا ما دامت لا حد دوامها

وَمِنْ أَشْعَارِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ قَوْلُ خَالِدِ بْنِ حَمْزَةَ بْنِ عُمَرَ ، شَيْخِ الْكُعُوبِ ،  
مِنْ أَوْلَادِ أَبِي اللَّيْلِ ، يُعَاتِبُ أَقْتَالَهُمْ أَوْلَادَ مَهْلَهْلِ وَيُحِيبُ شَاعِرَهُمْ شَيْلَ بْنَ  
مُسْكِانَةَ بْنِ مَهْلَهْلِ ، عَنْ أَيْتَاتٍ فَخَرَ عَلَيْهِمْ فِيهَا بِقَوْمِهِ :

يقول وذا قول المصاب الذي نشأ قوارع قيعان يعاني صعابها

فنونا من انشاد القوافي عذابها  
تحدى بها تام الوشا ملتها بها  
محكمة القيعان دابي ودابها  
قوارع من شبل وهذي جوابها  
فراح يريح الموجهين الغنا بها  
سوى قلت في جمهورها ما أعابها  
وحمي حماها عاديا في حرابها  
رصاص بني يحيى وغلاق دابها  
وهل ريت من جاللوغى واصطلى بها  
وأثنى طفاها جاسراً لا يهابها  
لفاس إلى بيت المنى يقتدى بها  
فصار وهي عن كبر الاسنة تهابها  
رجال بني كعب الذي يتقى بها

غنيت بمعلق الشنا واغتصابها  
بأسياف ننتاش العدا من رقابها  
علينا بأطراف القنا اختصابها  
وزرق كالسنة الحناش انسلابها  
تسير السبايا والمطايا ركابها  
بلا شك والدنيا سريع انقلابها

فتوق بحوبات مخوف جنابها

يريح بها حادي المصاب إذا سعى  
محيرة مختارة من نشادها  
مغربلة عن ناقد في غضوننا  
وهيض بتذكاري لها يا ذوي الندى  
اشبل جنينا من حباك طرائفا  
فخرت ولم تقصر ولا أنت عادم  
لقولك في أم المتين بن حمزة  
أما تعلم أنه قامها بعد ما لقي  
شهاباً من أهل الأمر يا شبل خارق  
سواها طفاها أضمرت بعد طفاه  
واضمرت بعد الطفيتين ألن صحت  
وبان لوالي الأمر في ذا انشحابها  
كما كان هو يطلب على ذا تجنبت  
وَمِنْهَا فِي الْعِتَابِ :

وليذا تعاتبتموا أنا أغنى لأنسي  
عليّ ونا ندفع بها كل مبضع  
فإن كانت الأملاك بغت عرايس  
ولا بعدها الارهاف وذبل  
بني عنما ما نرتضي الذل غلمه  
وهي عالماً بأن المنايا تنيلها

وَمِنْهَا فِي وَصْفِ الظَّعَائِنِ :

قطعنا قطوع البيد لا نخشي العدا

ترى العين فيها قل لشبل عرائف  
ترى أهلها غب الصباح ان يفلها  
لها كل يوم في الأرامي قتائل  
وكل مهاة محتظيها ربابها  
بكل حلوب الجوف ما سد بابها  
ورا الفاجر المزوج عفو رضاها

وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي الْأَمْثَالِ الْحِكْمِيَّةِ

وطلبك في الممنوع منك سفاهة  
إذا رأيت أناساً يعلقوا عنك بابهم  
وصدك عن صد عنك صواب  
ظهور المطايا يفتح الله باب

وَمِنْ قَوْلِ شَيْبٍ يَذْكُرُ اتِّسَابَ الْكُعُوبِ إِلَى بُرْجَمَ :

لشيب وشبان من أولاد برجم جميع البرايا تشتكي من ضهادها

وَمِنْ قَوْلِ خَالِدِ يُعَاتِبُ إِخْوَانَهُ فِي مُوَالَاةِ شَيْخِ الْمُؤَحِّدِينَ أَبِي مُحَمَّدٍ بِنِ  
تَأْفَرَاكِينَ الْمُسْتَبِيدِ بِحِجَابَةِ السُّلْطَانِ بِنُونَسَ عَلَى سُلْطَانِهَا مَكْفُولَةِ أَبِي اسْحَقَ ابْنِ  
السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى وَذَلِكَ فِيمَا قَرَّبَ مِنْ عَصْرِنَا :

يقول بلا جهل فتى الجود خالد  
مقالة حبر ذات ذهن ولم يكن  
تهجست معنا نابها لا حاجة  
وكنت بها كبدي وهي نعم صابة  
تفوهت بادي شرحها عن مآرب  
بني كعب أدنى الأقربين لدمنا  
جری عند فتح الوطن منا لبعضهم  
وبعضهم ملنا له عن خصيمه  
وبعضهم مرهوب من بعض ملكنا  
وبعضهم جانا جريحا تسمحت  
مقالة قوال وقال صواب  
هرجبا ولا فيما يقول ذهاب  
ولا هرج ينقاد منه معاب  
حزينة فكر والحزين يصاب  
جرت من رجال في القبيل قراب  
بني عم منهم شايب وشباب  
مصافاة ود واتساع جناب  
كما يعلموا قولي يقينه صواب  
جزاعاً وفي جو الضمير كتاب  
خواطر منها للنزير وهاب

وبعضهم نظار فينا بسوء  
رجع ينتهي مما سفهنا قبيحه  
وبعضهم شاكي من أوغاد قادر  
فصنناه عنه واقتضي منه مورد  
ونحن على دافي المدى نطلب العلا  
وحزنا حمى وطن بترشيش بعدما  
ومهد من الأملاك ما كان خارجاً  
بردع قروم من قروم قبيلنا  
جرينا بهم عن كل تاليف في العدا  
إلى أن عاد من لا كان فيهم بهمة  
وركبوا السبايا المثلثات من أهلها  
وساقوا المطايا بالشر لا نسوا له  
وكسبوا من أصناف السعايا ذخائر  
وعادوا نظير البرمكيين قبل ذا  
وكانوا لنا درعاً لكل مهمة  
وخلوا الدار في جنح للظلام ولا اتقوا  
كسوا الحي جلباب البهيم لستره  
كذلك منهم حانس ما دار النبا  
يظن ظنوناً ليس نحن بأهلها  
خطا هو ومن واثاه في سوّ ظنه  
فوا عزوتي ان الفتى بو محمد  
وبرحت الأوغاد منه ويحسبوا  
جروا يطلبوا تحت السحاب شرائع

تقنها حتى ما عنا به ساب  
مراراً وفي بعض المرات يهاب  
غلق عنه في أحكام السقائف باب  
على كره مولى بالقي ودياب  
لهم ما حططنا للفجور نقاب  
نفقنا عليها سبقا ورقاب  
على أحكام والي أمرها له ناب  
بني كعب لاواها الغريم . وطاب  
وقمنا لهم عن كل قيد مناب  
ربيها وخيراته عليه نصاب  
وليسوا من أنواع الحرير ثياب  
جماهير ما يغلبوها بجلاب  
ضخام لحزات الزمان تصاب  
وإلا هلالا في زمان دياب  
إلى أن بان من نار العدو شهاب  
ملامه ولا دار الكرام عتاب  
وهم لو دروا لبسوا قبيح جباب  
ذهل حلمي ان كان عقله غاب  
تمنى يكن له في السماح شعاب  
بالاثبات من ظن القبائح عاب  
وهوب لآلاف بغير حساب  
بروحه ما يحيى بروح سحاب  
لقوا كل ما يستاملوه سراب

وهو لو عطى ما كان للرأي عارف  
وان نحن ما نستاملوا عنه راحة  
وان ما وطا ترشيش يضيأق وسعها  
وانه منها عن قريب مفاصل  
وعن فائنات الطرف بيض غوانج  
يتيه إذا تاهوا ويصبوا إذا صبوا  
يضلوه عن عدم اليمين وربما  
بهم حازله زمه وطوع أوامر  
حرام على ابن تافرकिन ما مضى  
وان كان له عقل رجيح وفتنة  
وأما البدا لا بدها من فياعل  
ويحمي بها سوق علينا سلاعه  
ويمسي غلام طالب ريح ملكنا  
أيا واكلين الخبز تبغوا أدامه

ولا كان في قلة عطاء صواب  
وانه باسهم التلاف مصاب  
عليه ويمشي بالفزوع لزاب  
خنوج عناز هوالها وقباب  
ربوا خلف استار وخلف حجاب  
بحسن قوانين وصوت رباب  
يطارح حتى ما كأنه شاب  
ولنذة مأكول وطيب شراب  
من السود إلا ما بدل بحراب  
يلجج في اليم الغريق غراب  
كبار إلى أن تبقى الرجال كباب  
ويحمار موصوف القنا وجعاب  
ندوما ولا يمسي صحيح بناب  
غلطتوا أدمتوا في السموم لباب

وَمِنْ شِعْرِ عَلِيِّ بْنِ عَمْرِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ رُؤْسَاءِ بَنِي عَامِرٍ لِهَذَا الْعَهْدِ أَحَدٍ  
بُطُونِ زُعْبَةَ يُعَاتِبُ بَنِي عَمِّهِ الْمُتَطَاوِلِينَ إِلَى رِيَاسَتِهِ :

محبرة كالدرد في يد صانع  
أباحها منها فيه أستباب ما مضى  
غدامنه لام الحي حيين وانشطت  
ولكن ضميري يوم بان بهم إلينا  
وإلا كأبراص التهامي قوادح  
والا لكان القلب في يد قابض  
لما قلت سما من شقا البين زارني

إذا كان في سلك الحرير نظام  
و شاء تبارك والضعون تسام  
عصاها ولا صنبا عليه حكام  
تبرم على شوك القتاد برام  
وبين عواج الكائفات ضرام  
أتاهم بمنشار القطيع غشام  
إذا كان ينادي بالفراق وخام

ألا يا ربوع كان بالأمس عامر  
وغيد تداني للخطا في ملاعب  
ونعم يشوف الناظرين التحامها  
وعرود باسمها ليدعو لسربها  
واليوم ما فيها سوى اليوم حولها  
وقفنا بها طورا طويلا نسالها  
وَأَصْحَ لِي مِنْهَا سِوَى وَحْشِ خَاطِرِي  
ومن بعد ذاتدى لمنصور بو علي  
وقولوا له يا بو الوفا كلح رأيكم  
زواخر ما تنقاس بالعود إنما  
ولا قستمو فيها قياسا يدلکم  
وعانوا على هلكاتکم في ورودها  
أيا عزوة ركبوا الضلالة ولا لهم  
الا غناهمو لو ترى كيف زايهم  
خلو القنا يبغون في مرقب العلا  
وحق النبي والبيت وأركانه العلى  
لبرّ الليالي فيه ان طالت الحيا  
ولا برّها تبقى البوادي عواكف  
وكل مسافة كالسد إياه عابر  
وكل كميت يكتعص عض نابه  
وتحمل بنا الأرض العقيمة مدة  
بالأبطال والقود الهجان وبالقنا  
أتجدني وأنا عقيد نقودها

بيحيى وحله والقطين لمام  
دجى الليل فيهم ساهر ونيام  
لنا ما بدا من مهرق وكظام  
واطلاق من شرب المها ونعام  
ينوح على اطلال لها وخيام  
بعين سخينا والدموع سجام  
وَسَقَمِي مِنْ أَسْبَابِ إِنْ عَرَفْتَ أَوْهَامِ  
سلام ومن بعد السلام سلام  
دخلتم بحور غامقات دهام  
لها سيلات على الفضا وأكام  
وليس البحور الطاميات تعام  
من الناس عدمان العقول لئام  
قرار ولا دنيا لهم دوام  
مثل سراب فلاه ما لهم تمام  
مواضع ما هيا لهم بمقام  
ومن زارها في كل دهر وعام  
يزوقون من خمط الكساع مدام  
بكل رديني مطرب وحسام  
عليها من أولاد الكرام غلام  
يظل يصارع في العنان لجام  
وتولدنا من كل ضيق كظام  
لها وقت وجنات البدور زحام  
وفي سن رمحي للحروب علام

ونحن كأضراس الموافي بنجعكم  
متى كان يوم القحط يا ميرأبو علي  
كذلك بو حمو إلى اليسر ابعته  
وخلّ رجالاً لا يرى الضيم جارهم  
ألا يقيموها وعقد بؤسهم  
وكم ثار طعنها على البدو سابق  
فتى ثار قطار الصوى يومنا على  
وكم ذا يجيبوا أثرها من غنيمة  
وإن جاء خافوه الملوك ووسعوا  
عليكم سلام الله من لسن فاهم

حتى يقاضوا من ديون غرام  
يلقى سعايا صايرين قدام  
وخلّى الجياد العاليات تسام  
ولا يجمعوا بدهى العدو زفام  
وهم عذر عنه دائماً ودوام  
ما بين صحاصيح وما بين حسام  
لنا أرض ترك الطاعنين زمام  
حليف الثنا قشاع كل غيام  
غدا طبعه يجدى عليه قيام  
ما غنت الورقا وناح حمام

وَمِنْ شِعْرِ عَرَبِ نَمْرِ بِنَوَاحِي حُورَانَ لِامْرَأَةٍ قُتِلَ زَوْجُهَا فَبَعَثَتْ إِلَى أَخْلَافِهِ مِنْ  
قَيْسٍ تُغْرِيبُهُمْ بِطَلَبِ ثَأْرِهِ تَقُولُ :

تقول فتاة الحيّ أم سلامه  
تبيت بطول الليل ما تألف الكرى  
على ما جرى في دارها وبو عيالها  
فقدنا شهاب الدين يا قيس كلكم  
أنا قلت إذا ورد الكتاب يسرني  
أيا حين تسريح الذوائب واللحي

بعين أزع الله من لارثي لها  
موجعة كان الشقا في مجالها  
بلحظة عين البين غير حالها  
ونمتوا عن أخذ الثار ماذا مقالها  
ويبرد من نيران قلبي ذبالها  
وبيض العذارى ما حميتو جمالها





( الموشحات والأزجال للأندلس )

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا كَثُرَ الشَّعْرُ فِي قُطْرِهِمْ وَتَهَدَّ بَت مَنَاحِيهِ وَقُنُونُهُ وَبَلَغَ التَّنْمِيقُ فِيهِ الْغَايَةَ اسْتَحْدَثَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْهُمْ فَنَأَى مِنْهُ سَمُوهُ بِالْمَوْشَحِ يَنْظِمُونَهُ أَسْمَاطًا أَسْمَاطًا وَأَعْصَانًا أَعْصَانًا يُكْثِرُونَ مِنْ أَعَارِيضِهَا الْمُخْتَلِفَةِ . وَيُسَمُّونَ الْمُتَعَدَّدَ مِنْهَا بَيْتًا وَاحِدًا وَيَلْتَزِمُونَ عِنْدَ قَوَافِي تِلْكَ الْأَعْصَانِ وَأَوْزَانِهَا مُتَتَالِيًا فِيمَا بَعْدَ إِلَى آخِرِ الْقِطْعَةِ وَأَكْثَرَ مَا تَنْتَهِي عِنْدَهُمْ إِلَى سَبْعَةِ آيَاتٍ . وَيَشْتَمِلُ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى أَعْصَانٍ عَدَدُهَا بِحَسَبِ الْأَعْرَاضِ وَالْمَذَاهِبِ وَيَنْسَبُونَ فِيهَا وَيَمْدَحُونَ كَمَا يَفْعَلُ فِي الْقَصَائِدِ . وَتَجَارَوْا فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ وَاسْتَظَرَفَهُ النَّاسُ جُمْلَةً الْخَاصَّةَ وَالْكَافَّةَ لِسَهُولَةِ تَنَاوُلِهِ وَقَرَّبِ طَرِيقِهِ . وَكَانَ الْمُخْتَرَعُ لَهَا بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ مُقَدَّمُ بْنُ مُعَاوِرِ الْقَبْرِيِّ<sup>(١)</sup> مِنْ شُعْرَاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ الْمَرْوَانِيِّ . وَأَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ كِتَابِ الْعَقْدِ وَلَمْ يَظْهَرْ لَهُمَا مَعَ الْمُتَأَخَّرِينَ ذِكْرٌ وَكَسَدَتْ مَوْشِحَاتُهُمَا . فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ بَرَعَ فِي هَذَا الشَّانِ عِبَادَةُ الْقَزَّازِ شَاعِرِ الْمُعْتَصِمِ ابْنِ صَمَادِجِ صَاحِبِ الْمِرْيَةِ . وَقَدْ ذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلِيُّوسِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَكْرٍ بْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ : كُلُّ الْوَشَّاحِينَ عِيَالٌ عَلَى عِبَادَةِ الْقَزَّازِ فِيمَا اتَّفَقَ لَهُ مِنْ قَوْلِهِ :

بَدْرُ تَمِّ . شَمْسُ ضَحَا . غُصْنُ نَقَا . مِسْكُ شَمِّ  
مَا أَنْتُمْ . مَا أَوْضَحَا . مَا أَوْرَقَا . مَا أَنْتُمْ  
لَا جَرَمَ . مَنْ لَمَحَا . قَدْ عَشَقَا . قَدْ حُرِمَ

وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْهُ وَشَاحٍ مِنْ مَعَاصِرِهِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ الطَّوَائِفِ . وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَشَائِخِ أَنَّ أَهْلَ هَذَا الشَّانِ بِالْأَنْدَلُسِ يَذْكُرُونَ أَنَّ

(١) وفي نسخة أخرى : القبريري .

(٢) الضمير يعود إلى عبادة .

جَمَاعَةٌ مِنَ الْوُشَاحِينَ اجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسٍ بِأَشْبِيلِيَّةٍ وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ اضْطَنَّعَ  
مَوْشَحَةً وَتَأْتَقُ فِيهَا فَتَقْدَمُ الْأَعْمَى الطَّلِيظِيُّ لِلْإِنْشَادِ فَلَمَّا افْتَتَحَ مَوْشَحَتَهُ الْمَشْهُورَةَ  
بِقَوْلِهِ :

ضَاحِكٌ عَنِ جَمَانَ . سَافِرٌ عَنِ دُرٍّ<sup>(١)</sup> ضَاقَ عَنْهُ الزَّمَانُ . وَحَوَاهُ صَدْرِي  
صَرَفٌ<sup>(٢)</sup> ابْنُ بَقِيٍّ مَوْشَحَتَهُ وَتَبِعَهُ الْبَاقُونَ . وَذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلِيُّوسِيَّ أَنَّهُ سَمِعَ  
ابْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ : مَا حَسَدْتُ قَطُّ وَشَاحًا عَلَى قَوْلِ ابْنِ بَقِيٍّ حِينَ وَقَعَ لَهُ .  
أَمَا تَرَى أَحْمَدَ . فِي مَجْدِهِ الْعَالِي لَا يُلْحَقُ أَطْلَعَهُ الْغَرْبُ . فَأَرِنَا مِثْلَهُ يَا مَشْرِقُ  
وَكَانَ فِي عَضْرِهِمَا مِنَ الْمَوْشَحِينَ الْمَطْبُوعِينَ أَبُو بَكْرٍ الْأَبْيَضُ . وَكَانَ فِي  
عَضْرِهِمَا أَيْضًا الْحَكِيمُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ بَاجَةَ صَاحِبُ التَّلَاحِينَ الْمَعْرُوفَةِ وَمِنَ  
الْحِكَايَاتِ الْمَشْهُورَةِ أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسَ مَخْدُومِهِ ابْنِ تَيْفَلُوتِ صَاحِبِ سِرْقَسْطَةَ  
فَأَلْقَى عَلَى بَعْضِ قَيْنَاتِهِ مَوْشَحَتَهُ الَّتِي أَوْلَاهَا :

جَرَّ الذَّيْلَ أَيَّمَا جَرٍّ وَصَلَ الشُّكْرَ مِنْكَ بِالشُّكْرِ  
فَطَرَبَ الْمَمْدُوحُ لِذَلِكَ لَمَّا خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ :

عَقَدَ اللَّهُ رَايَةَ النُّضْرِ لِأَمِيرِ الْعَلَاءِ أَبِي بَكْرٍ

فَلَمَّا طَرَقَ ذَلِكَ التَّلْحِينَ سَمِعَ ابْنَ تَيْفَلُوتِ صَاحٍ : وَاطْرَبَاهُ : وَشَقَّ ثِيَابَهُ  
وَقَالَ : مَا أَحْسَنَ مَا بَدَأَتْ وَخَتَمَتْ وَحَلَفَ بِالْإِيمَانِ الْمُغْلَظَةِ لَا يَمْشِي ابْنُ  
بَاجَةَ إِلَى دَارِهِ إِلَّا عَلَى الذَّهَبِ . فَخَافَ الْحَكِيمُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ فَاحْتَالَ بِأَنْ جَعَلَ ذَهَبًا  
فِي نَعْلِهِ وَمَشَى عَلَيْهِ . وَذَكَرَ أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ زُهَيْرٍ أَنَّهُ جَرَى فِي مَجْلِسِ أَبِي  
بَكْرٍ بْنِ زُهَيْرٍ ذَكَرَ أَبِي بَكْرٍ الْأَبْيَضِ الْوُشَاحِ الْمُتَقَدِّمِ الذِّكْرَ فَغَضَّ مِنْهُ بَعْضُ  
الْحَاضِرِينَ فَقَالَ كَيْفَ تَغْضُ مِنْ مَنْ يَقُولُ :

(١) وفي نسخة أخرى : بدر .

(٢) وفي نسخة أخرى : حرق .

لَوْلَا هَضِيمُ الْوَشَاحِ « إِذَا أَسْنَا <sup>(١)</sup> فِي الصَّبَاحِ  
مَا لِلشَّمُولِ » لَطَمْتُ خَدَيَّ ؟  
عُصْنُ اعْتِدَالٍ « ضَمُّهُ بُرْدِي  
يَا لِحِظَهُ رُدُّ نُوْبًا « وَيَا لِمَاءَ الشَّنِيْبَا  
لَا يَسْتَحِيلُ « فِيهِ عَن عَمْرِي  
يَرْجُو الْوَصَالَ « وَهُوَ فِي الصَّدِّ

مَا لَدَّلِي شَرَابُ رَاحِ « عَلَى رِيَاضِ الْأَقَاحِ  
أَوْ فِي الْأَصِيلِ « أَضْحَى يَقُولُ :  
وَلِلشَّمَالِ « هَبْتُ فَمَالَ  
مِمَّا أَبَادَ الْقُلُوبَا « يَمْشِي لَنَا مُسْتَرِيْبَا  
بَرْدٌ عَلِيْلٌ « صَبَّ عَلِيْلٌ  
وَلَا يَزَالُ « فِي كُلِّ حَالٍ

وَأَشْتَهَرَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ فِي صَدْرِ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ  
شَرَفٍ . قَالَ الْحَسَنُ بْنُ دُوَيْدَةَ : رَأَيْتُ حَاتِمَ بْنَ سَعِيدٍ عَلَى هَذَا الْإِفْتِاحِ :  
شَمْسٌ قَارَبَتْ بَدْرًا رَاحٌ وَنَوْدِيْمٌ  
وَابْنُ بَهْرُودَسِ الَّذِي لَهُ :

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ وَالسَّعُودِ بِاللَّهِ عَوْدِي  
وَابْنُ مُؤَهَّلِ الَّذِي لَهُ :

مَا الْعِيْدُ فِي حُلَّةٍ وَطَاقٍ . وَشَمٌّ وَطِيْبٌ . وَإِنَّمَا الْعِيْدُ فِي التَّلَاقِي . مَعَ الْحَبِيْبِ .

وَأَبُو إِسْحَاقَ الرَّوِيْنِيُّ <sup>(٢)</sup> قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ : سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ  
يَقُولُ : إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى ابْنِ زُهَيْرٍ وَقَدْ أَسَنَّ وَعَلَيْهِ زِيُّ الْبَادِيَةِ إِذْ كَانَ يَسْكُنُ بِحُضْنِ  
سَبْتَةَ ، فَلَمْ يَعْرِفْهُ فَجَلَسَ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ . وَجَرَتِ الْمُحَاضِرَةُ فَأَنْشَدَ لِنَفْسِهِ  
مَوْشِحَةً وَقَعَ فِيهَا :

كُحْلُ الدُّجَى يَجْرِي « مِنْ مَقْلَةٍ  
وَمِعْصَمُ النَّهْرِ « فِي حُلَلٍ  
الْفَجْرِ « عَلَى الصَّبَاحِ  
خُضْرٍ « مِنَ الْبَطَاحِ

(١) وفي نسخة أخرى : إذ أتى . . . وفي نسخة ثانية إذا انثنى .

(٢) وفي نسخة أخرى : الرديني .

(٣) وفي نسخة أخرى : ابن زهر .

(٤) وفي نسخة أخرى : حصن أُنْتبه .

فَتَحْرُكَ ابْنَ زُهَيْرٍ وَقَالَ أَنْتَ تَقُولُ هَذَا ؟ قَالَ ، اخْتَبِرْ ! قَالَ ، وَمَنْ تَكُونُ ؟  
 فَمَرَفَهُ ، فَقَالَ ، ارْتَفِعْ فَوَاللَّهِ مَا عَرَفْتُكَ ، قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ وَسَابِقُ الْحَلْبَةِ الَّذِي أَدْرَكَ  
 هَوْلَاءَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ زُهَيْرٍ وَقَدْ شَرَقَتْ مَوْشِحَاتُهُ وَعَرَبَتْ ، قَالَ ، وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ  
 سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قِيلَ لِابْنِ زُهَيْرٍ لَوْ قِيلَ لَكَ مَا أَبَدَعَ وَأَرْفَعَ مَا وَقَعَ لَكَ فِي  
 التَّوْشِيحِ قَالَ كُنْتُ أَقُولُ ،

مَا لِلْمَوْلَى مِنْ سَكْرِهِ لَا يُفِيقُ . يَا لَهُ سَكْرَانِ . مِنْ غَيْرِ خَمْرٍ . مَا لِلْكَيْبِ الْمَشُوقِ .  
 يَنْدُبُ الْأَوْطَانَ .

هل تستعاذ . أيا منا . بالخليج . وليالينا  
 أو نستفاد . من النسيم الأريج . مسك دارينا  
 أو هل يكاذ . حُسن المكان البهيج . أن يحيينا ؟  
 روض أظله . دوح عليه أنيق . موزق الأفنان . والماء يجري . وعائم وغريق .  
 من جنى الریحان .

وَأَشْهَرَ بَعْدَهُ ابْنَ حَيُّونَ الَّذِي لَهُ مِنَ الزَّجْلِ الْمَشْهُورِ قَوْلُهُ :

يُفَوِّقُ سَهْمَهُ كُلَّ حِينٍ      بِمَا شِئْتَ مِنْ يَدٍ وَعَيْنٍ  
 وَيُنْشِدُ فِي الْقَصِيدِ :

خُلِقْتَ مَلِيحٌ عَلِمْتَ رَامِي      فَلَيْسَ تَخَلَّ سَاعٍ مِنْ قِتَالٍ  
 وَتَعْمَلُ بِدِي الْعَيْنَيْنِ مَتَاعِي      مَا تَعْمَلُ يَدِي بِالنَّبَالِ

وَأَشْهَرَ مَعَهُمَا يَوْمَئِذٍ بَعْرَانَاةَ الْمُهْرُ بْنُ الْفَرَسِ ، قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ ، وَلَمَّا سَمِعَ  
 ابْنَ زُهَيْرٍ قَوْلَهُ :

لِلَّهِ مَا كَانَ مِنْ يَوْمٍ بَهِيحٍ      بِنَهْرٍ حِمَصَ عَلَى تِلْكَ الْمُرُوجِ  
 ثُمَّ أَنْعَطَفْنَا عَلَى فَمِ الْخَلِيجِ      نَفْضُ فِي حَانِهِ مِسْكَ الْخِتَامِ

عَنْ عَسْجِدِ زَانَهُ صَافِي الْمُدَامِ      وَرِدَاءِ الْأَصِيلِ ضَمَّهُ كَفَ الظَّلَامِ  
قَالَ ابْنُ زَهْرٍ : أَيْنَ كُنَّا نَحْنُ عَنْ هَذَا الرِّدَاءِ وَكَانَ مَعَهُ فِي بَلَدِهِ مُطْرَفٌ . أَخْبَرَ  
ابْنَ سَعِيدٍ عَنْ وَالِدِهِ أَنَّ مُطْرَفًا هَذَا دَخَلَ عَلَى ابْنِ الْفَرَسِ فَقَامَ لَهُ وَأَكْرَمَهُ . فَقَالَ :  
لَا تَفْعَلْ ! فَقَالَ ابْنُ الْفَرَسِ : كَيْفَ لَا أَقُومُ لِمَنْ يَقُولُ :

قُلُوبٌ تُصَابُ بِالْحَاطِظِ تُصِيبُ      فَقُلْ كَيْفَ تَبْقَى بِلا وَجَدِ  
وَبَعْدَ هَذَا ابْنُ حَزْمُونَ بِمَرْسِيَةِ . ذَكَرَ ابْنُ الرَّائِسِ أَنَّ يَحْيَى الْخَزْرَجِيَّ دَخَلَ  
عَلَيْهِ فِي مَجْلِسِهِ فَأَنْشَدَهُ مُوَشِحَةً لِنَفْسِهِ      فَقَالَ لَهُ ابْنُ حَزْمُونَ : لَا يَكُونُ الْمُوَشِحُ  
بِمُوَشِحٍ حَتَّى يَكُونَ عَارِيًّا عَنِ التَّكْلِيفِ . قَالَ عَلَى مِثْلِ مَاذَا ؟ قَالَ عَلَى مِثْلِ قَوْلِي :

يَا هَاجِرِي هَلْ إِلَى الْوُصَالِ      مِنْكَ سَبِيلٌ  
أَوْ هَلْ تَرَى عَنْ هَوَاكِ سَالِي      قَلْبُ الْعَلِيلِ  
وَأَبُو الْحَسَنِ سَهْلُ بْنُ مَالِكٍ بَغْرِنَاطَةَ . قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ كَانَ وَالِدِي يَفْجَبُ  
بِقَوْلِهِ :

إِنْ سَيْلَ الصَّبَاحِ فِي الشَّرْقِ      عَادَ بَحْرًا فِي أَجْمَعِ الْأُفُقِ  
فَتَدَاعَتْ نَوَادِبُ الْوُزُقِ  
أَتَرَاهَا خَافَتْ مِنَ الْفَرَقِ      فَبَكَتْ سَخْرَةً عَلَى الْوُزُقِ  
وَاشْتَهَرَ بِأَشْبِيلِيَّةٍ لِذَلِكَ الْعَهْدِ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْفَضْلِ . قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ عَنْ  
وَالِدِهِ . سَمِعْتُ سَهْلَ ابْنَ مَالِكٍ يَقُولُ لَهُ : يَا ابْنَ الْفَضْلِ لَكَ عَلَى الْوَشَاحِينَ الْفَضْلُ  
بِقَوْلِكَ :

وَاحْسَرَتَا لِزَمَانٍ مَضَى      عَشِيَّةً بِأَنَّ الْهَوَى وَانْقَضَى  
وَأَفْرَدَتْ بِالرَّغَمِ لَا بِالرِّضَى      وَبِتُّ عَلَى جَمْرَاتِ الْغَضَى  
أَعَانِقُ بِالْفِكْرِ تِلْكَ الطُّلُولِ      وَالْتَمُّ بِالْوَهْمِ تِلْكَ الرُّسُومِ

قَالَ وَسَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ بْنِ الصَّابُونِيِّ يُنْشِدُ الْأَسْتَاذَ أَبَا الْحَسَنِ الدُّبَاجَ  
مُوشِحَاتِهِ غَيْرَ مَا مَرَّةً ، فَمَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ لَهُ اللَّهُ دَرَكٌ ، إِلَّا فِي قَوْلِهِ :

قَسَمًا بِالْهَوَى لِيذِي حِجْرٍ مَا لِلَّيْلِ الْمَشُوقِ مِنْ فَجْرِ  
جَمَدِ الصُّبْحِ لَيْسَ يُطْرَدُ مَا لِلَّيْلِ فِيمَا أَظُنُّ غَدًا إِضْحَاحًا يَا لَيْلُ إِنَّكَ الْأَبْدُ  
أَوْ قَفَصَتْ قَوَادِمُ النَّسْرِ فَتُجُومُ السَّمَاءَ لَا تُسْرِي  
وَمِنْ مَحَاسِنِ مُوشِحَاتِ ابْنِ الصَّابُونِيِّ قَوْلُهُ :

مَا خَالَ صَبِّ ذِي ضَنْىٍ وَآكْتَابَ  
عَامِلُهُ مَجْبُوبُهُ بِاجْتِنَابِ  
جَفَا جُفُونِي النَّوْمُ لَكِنِّي  
وَذَا الْوَصَالِ الْيَوْمُ قَدْ غَرَّنِي  
أَمْرَضَهُ يَا وَيْلَتَاهُ الطَّيِّبِ  
ثُمَّ اقْتَدَى فِيهِ الْكُرَى بِالْحَيْبِ  
لَمْ أَبْكِهِ إِلَّا لِفَقْدِ الْخِيَالِ  
مِنْهُ كَمَا شَاءَ وَشَاءَ الْوَصَالِ  
فَلَسْتُ بِاللَّائِمِ مِنْ صَدْنِي  
بِصُورَةِ الْحَقِّ وَلَا بِالْمَحَالِ

وَاشْتَهَرَ بِبِرِّ أَهْلِ الْعُدُوَّةِ ابْنُ خَلْفِ الْجَزَائِرِيِّ صَاحِبِ الْمُوشِحَةِ الْمَشْهُورَةِ :

يَدُ الْإِصْبَاحِ قَدَحَتْ زِنَادَ الْأَنْوَارِ فِي مَجَازِ الزَّهْرِ  
وَابْنُ خَرَزِ الْجَائِيٍّ وَلَهُ مِنْ مُوشِحَةٍ :

ثَقُرُ الزَّمَانِ مُوَافِقُ حَبَاكَ مِنْهُ بِإِيْتِسَامِ

وَمِنْ مَحَاسِنِ الْمُوشِحَاتِ لِلْمُتَأَخِّرِينَ مُوشِحَةُ ابْنِ سَهْلِ شَاعِرِ أَشْجَلِيَّةٍ وَسَبْتَةَ  
مِنْ بَعْدِهَا فَمِنْهَا قَوْلُهُ :

هَلْ دَرَى ظَنِّي الْحَمَى أَنْ قَدْ حَمَى  
فَهُوَ فِي نَارٍ وَخَفَقَ مِثْلُ مَا  
قَلْبَ صَبِّ حَلَّةٍ عَنْ مَكْنَسِ  
لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ

وَقَدْ نَسِجَ عَلَى مَنَوَالِهِ فِيهَا صَاحِبُنَا الْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ الْخَطِيبِ شَاعِرُ  
الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ لِعَصْرِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فَقَالَ :

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى  
لَمْ يَكُنْ وَضْلَكَ إِلَّا خُلَمَا  
إِذْ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمُنَى  
زَمْرًا بَيْنَ فِرَادَى وَثَنَا  
وَالْحَيَا قَدْ جَلَلَ الرُّوْضَ سَنَى  
وَرَوَى النَّعْمَانَ عَن مَاءِ السَّمَاءِ  
فَكَسَاهُ الْحُسْنَ ثُوبًا مُعَلَّمًا  
فِي لَيْالٍ كَتَمْتَ سِرَّ الْهَوَى  
مَالَ نَجْمِ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى  
وَطَرًا مَا فِيهِ مِنْ عَيْبِ سَوَى  
حِينَ لَدَى النَّوْمِ مَنَا<sup>(١)</sup> أَوْ كَمَا  
عَارَتِ الشُّهْبُ بِنَا أَوْ رُبَّمَا  
أَيُّ شَيْءٍ لِأَمْرِيءٍ قَدْ خَلَصَا  
تَنَهَبُ الْأَزْهَارُ فِيهِ الْفُرْصَا  
فَإِذَا الْمَاءُ يُنَاجِي وَالْحَصَا  
تُبْصِرُ الْوَرْدَ عَيُورًا بَرِمَا  
وَتَسْرِى الْأَسَّ لَبِيْبًا فَهَمَا  
يَا أَهْيَلِ الْحَيِّ مِنْ وَادِي الْغَضَا  
ضَاقَ عَن وَجْدِي بِكُمْ رَحْبَ الْفَضَا

يَا زَمَانَ الْوَضْلِ بِالْأَنْدَلَسِ  
فِي الْكُرَى أَوْ خُلْسَةَ الْمُخْتَلَسِ  
يَنْقُلُ الْخَطُوبَ عَلَى مَا يَرْسِمُ  
مِثْلَ مَا يَدْعُو الْوُفُودَ<sup>(١)</sup> الْمَوْسِمُ  
فَتُغْوَرُ الزَّهْرُ<sup>(٢)</sup> فِيهِ تَبَسِمُ  
كَيْفَ يَرْوِي مَالِكٌ عَن أَنَسٍ ؟  
يَزْدَهِي مِنْهُ بِأَبْهَى مَلْبَسِ  
بِالدَّجَى لَوْلَا شَمُوسُ الْغَرْرِ<sup>(٣)</sup>  
مُسْتَقِيمَ السَّيْرِ سَعْدَ الْأَثَرِ  
أَنَّهُ مَرَّ كَلْمَجِ الْبَصْرِ  
هَجَمَ الصُّبْحُ هُجُومًا<sup>(٤)</sup> الْحَرَسِ  
أَثَرَتْ فِينَا عَيْونَ النَّرْجَسِ  
فِيكُونُ الرُّوْضُ قَدْ مَكَّنَ فِيهِ  
أَمِنْتَ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَتَّقِيهِ  
وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ  
يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي  
يَسْرِقُ الدَّمْعَ بِأَذْنِي فَرَسِ  
وَيَقْلِبِي مَسْكِنًا أَنْتُمْ بِهِ  
لَا أَبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ

(١) وفي نسخة أخرى : الحجيج .

(٢) وفي نسخة أخرى : الأزهار .

(٣) وفي نسخة أخرى : القدر .

(٤) وفي نسخة أخرى : شيئا . نجوم .

تَنْقِدُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ<sup>(١)</sup>  
 يَتَلَاشَى نَفْسًا فِي نَفْسٍ  
 أَفْتَرَضُونَ خَرَابَ الْحَبْسِ<sup>(٢)</sup>  
 بِأَحَادِيثِ الْمُنَى وَهُوَ يَعِيدُ  
 شَقْوَةَ الْمَغْرَى بِهِ وَهُوَ سَعِيدُ  
 فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعِيدِ  
 جَالٍ فِي النَّفْسِ مَجَالِ النَّفْسِ  
 بِفُؤَادِي نَبْلَةَ الْمُفْتَرِسِ<sup>(٣)</sup>  
 وَفُؤَادُ الصَّبِّ بِالشَّوْقِ يَذُوبُ  
 لَيْسَ فِي الْحُبِّ لِمَحْبُوبٍ ذُنُوبُ  
 فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَرَاهَا وَقُلُوبُ  
 لَمْ يِرَاقِبْ<sup>(٤)</sup> فِي ضِعَافِ الْأَنْفُسِ  
 وَيُجَازِي الْبِرَّ مِنْهَا وَالْمُسِي  
 عَادَهُ عِيدٌ مِنَ الشَّوْقِ جَدِيدٌ؟  
 قَوْلُهُ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ  
 فَهُوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جُهْدِ جَهْدِ  
 فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ الْيَسِّ  
 كَبَقَاءِ الصُّبْحِ بَعْدَ الْغَلَسِ

فَاعِيدُوا عَهْدَ أَنْسٍ قَدْ مَضَى  
 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَحْيُوا مَعْرَمًا  
 حَبَسَ الْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا  
 وَبِقَلْبِي مِنْكُمْ مُقْتَرِبُ  
 قَمَرٌ أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَغْرِبُ  
 قَدْ تَسَاوَى مُحْسِنٌ أَوْ مُذْنِبُ  
 سَاحِرٌ<sup>(٥)</sup> الْمُقْلَةَ مَعْسُولُ اللَّمَى  
 سَدَّدَ السَّهْمَ فَأَضْمَى إِذْ رَمَى  
 إِنْ يَكُنْ جَارَ وَخَابَ الْأَمَلُ  
 فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَيْبٌ أَوْلُ  
 أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَثَلُ  
 حَكَمَ اللَّحْظَ بِهَا فَاحْتَكَمَا  
 يُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِمَّنْ ظَلَمَا  
 مَا لِقَلْبِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا  
 كَانَ فِي اللُّوحِ لَهُ مَكْتَبَا  
 جَلَبَ الْهَمَّ لَهُ وَالْوَصْبَا  
 لَاعِجٌ فِي أَضْلَعِي قَدْ أَضْرَمَا  
 لَمْ يَدْعُ مِنْ مَهْجَتِي إِلَّا الدَّمَا<sup>(٦)</sup>

(١) وفي نسخة أخرى : تنقدوا عائدكم . الخ وفي النسخة الباريسية : تعتقوا عانيكم من كربه .

(٢) وفي النسخة الباريسية : افترضون عفاء الحبس .

(٣) وفي نسخة أخرى : احور المقله .

(٤) وفي نسخة أخرى : سدده السهم وسمى ورمى

(٥) لم يراقب : أي لم يحاذر الله .

(٦) وفي نسخة أخرى : دما والذما : بقية الروح



سَلَمِي يَا نَفْسَ فِي حُكْمِ الْقَضَا      وَاعْبُرِي الْوَقْتَ بِرُجْعِي وَمَتَابِ  
 وَاتْرُكِي<sup>(١)</sup> ذِكْرِي زَمَانَ قَدْ مَضَى      بَيْنَ عَتْبِي قَدْ تَقَضَّتْ وَعَتَابِ  
 وَاصْرِفِي الْقَوْلَ إِلَى الْمُؤَلَى الرَّضَى      مُلْهِمِ التَّوْفِيقِ فِي أَمِّ الْكِتَابِ  
 الْكَرِيمِ الْمُنتَهَى وَالْمُنْتَمَى      أَسَدِ السَّرْجِ وَبَدْرِ الْمَجْلِسِ  
 يَنْزِلُ النَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا      يَنْزِلُ الْوَحْيُ بِرُوحِ الْقُدْسِ

وَأَمَّا الْمَشَارِقَةُ فَالْتَكَلُّفُ ظَاهِرٌ عَلَى مَا عَانُوهُ مِنَ الْمَوْشَحَاتِ . وَمَنْ أَحْسَنَ  
 مَا وَقَعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مُوشِحَةٌ ابْنِ سِنَاءِ الْمَلِكِ الَّتِي اشْتَهَرَتْ شَرْقًا وَغَرْبًا وَأَوْلَاهَا

حبيبي ارفع حجاب النور      عن العذار  
 تنظر المسك على كافور      في جلنار  
 كللي يا سخب تيجان الربى      بالحللى واجعلي

سوارها منعطف الجدول

وَلَمَّا شَاعَ فَنُ التَّوْشِيحِ فِي أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ . وَأَخَذَ بِهِ الْجُمْهُورُ ، لِسَلَاسَتِهِ وَتَنْمِيقِ  
 كَلَامِهِ وَتَرْصِيعِ أَجْرَائِهِ ، نَسَجَتِ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ عَلَى مَنَوَالِهِ ، وَنَظَّمُوا فِي  
 طَرِيقَتِهِ بِلُغَتِهِمُ الْحَضْرِيَّةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْتَزِمُوا فِيهَا إِعْرَابًا . وَاسْتَحْدَثُوا فَنَاءَ سَمَوُهُ  
 بِالزَّجَلِ ، وَالتَّزَمُوا النِّظْمَ فِيهِ عَلَى مَنَاحِيهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ ، فَجَاءُوا فِيهِ بِالْفَرَائِبِ  
 وَاتَّسَعَ فِيهِ لِلْبَلَاغَةِ مَجَالٌ بِحَسَبِ لُغَتِهِمُ الْمُسْتَعْجِمَةِ .

وَأَوَّلُ مَنْ أَبْدَعَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ . الزَّجَلِيَّةُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ قَرْزَمَانَ ، وَإِنْ كَانَتْ  
 قِيلَتْ قَبْلَهُ بِالْأَنْدَلُسِ ، لَكِنْ لَمْ يَظْهَرَ حَلَاوَاهَا ، وَلَا انْتَسَبَتْ مَعَانِيهَا وَاشْتَهَرَتْ  
 رِشَاقَتُهَا إِلَّا فِي زَمَانِهِ . وَكَانَ لِعَهْدِ الْمُثَنِّينَ ، وَهُوَ إِمَامُ الزَّجَالِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ .  
 قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ ، وَرَأَيْتُ أَرْجَالَ مَرْوِيَّةَ بِنَفْدَادَ أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُهَا بِحَوَاضِرِ الْمَغْرِبِ .  
 قَالَ ، وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ بْنَ جُحْدَرَ الْأَشِيلِيَّ ، إِمَامَ الزَّجَالِينَ فِي عَضْرِنَا يَقُولُ ،

(١) وفي نسخة أخرى : ودعي .

مَا وَقَعَ لِأَحَدٍ مِنْ أُمَّةٍ هَذَا الشَّانِ مِثْلَ مَا وَقَعَ لِابْنِ قَرْمَانَ شَيْخِ الصَّنَاعَةِ ، وَقَدْ خَرَجَ إِلَى مُنْتَزَعِهِ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِيهِ ، فَجَلَسُوا تَحْتَ عَرِيشٍ وَأَمَامَهُمْ تَغْشَالُ أُسَيْدٍ مِنْ رُخَامٍ يُصَبُّ الْمَاءَ مِنْ فِيهِ عَلَى صَفَائِحٍ مِنَ الْحَجَرِ مُتَدَرِّجَةً فَقَالَ :

وَعَرِيشٍ قَدْ قَامَ عَلَى دَكَانٍ	بِحَالِ رِوَاقٍ
وَأُسْدٍ قَدْ ابْتَلَعَ ثَعْبَانَ	مِنْ غَلْظِ سَاقٍ
وَفَتَحَ فَمَّهُ بِحَالِ إِنْسَانٍ	بِيهِ الْفِرَاقُ
وَانْطَلَقَ مِنْ ثَمَّ عَلَى الصَّفَاحِ	وَأَلْقَى الصِّيَاحَ

وَكَانَ ابْنُ قَرْمَانَ ، مَعَ أَنَّهُ قُرْطُبِيُّ الدَّارِ ، كَثِيراً مَا يَتَرَدَّدُ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ وَيَنْتَابُ نَهْرَهَا ، فَاتَّفَقَ أَنْ اجْتَمَعَ ذَاتَ يَوْمٍ جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْلَامِ هَذَا الشَّانِ . وَقَدْ رَكِبُوا فِي النَّهْرِ لِلنَّزْهَةِ . وَمَعَهُمْ غُلَامٌ جَمِيلٌ الصُّورَةِ مِنْ سَرَوَاتِ أَهْلِ الْبَلَدِ وَيُيُوتُهُمْ . وَكَانُوا مُجْتَمِعِينَ فِي زُورْقٍ لِلصَّيْدِ ؛ فَظَنُّوهُ فِي وَصْفِ الْحَالِ ، وَبَدَأَ مِنْهُمْ عَيْسَى الْبَلِيدِيُّ فَقَالَ :

يَطْمَعُ بِالْخِلَاصِ قَلْبِي وَقَدْ فَاتُوا	وَقَدْ ضَمَنِي عَشَقُوا لَشَهْمَاتُوا
تَرَاهُ قَدْ حَصَلَ مَسْكِينٍ مَحَلَاتُوا	يَغْلِقُ وَكَذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ صَابَاتُوا
تَوْحَشَ الْجَفُونَ الْكُحْلَ إِنْ غَابُوا	وَذِيكَ الْجَفُونَ الْكُحْلَ أَبْلَاتُوا

ثُمَّ قَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الزَّاهِرِ الْأَشْبِيلِيُّ :

نَشِبَ وَالْهَوَى مِنْ لَجٍ فِيهِ يَنْشِبُ	تَرَى إِيشَ دَعَاهُ يَشْقَى وَيَتَعَذَّبُ
مَعَ الْعَشَقِ قَامَ فِي بِالْوَانِ يَلْعَبُ	وَخَلَقَ كَثِيرٌ مِنْ ذَا اللَّعْبِ مَاتُوا

ثُمَّ قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْمِقْرِيُّ الدَّانِيُّ :

نَهَارٌ مَلِيحٌ يَعْجِبُنْ أَوْصَافُوا	شَرَابٌ وَمَلَاخٌ مِنْ حَوْلِي قَدْ طَافُوا
وَالْمَلْقِينَ يَقُولُ مِنْ فَوْقِ صَفَافُوا	وَالْبُورِي أُخْرَى فَقَلَاتُوا

ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بَيْنَ مَرَّتَيْنِ :

الحق تريد حديث بقالي عاد  
لسنا حيتان ذيك الذي يصطاد

ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بَيْنَ قَرَمَانٍ :

إذا شمر كمامو يرميها  
وليس مرادو أن يقع فيها  
تري البوري يرشق لذاك الجيها  
إلا أن يقبل بدياتو  
وَكَانَ فِي عَصْرِهِمْ بَشْرَقِ الْأَنْدَلُسِ مُخْلِفُ الْأَسْوَدِ ، وَلَهُ مَحَاسِنٌ مِنَ الزَّجَلِ مِنْهَا

قَوْلُهُ :

قد كنت منشوب واختشيت النشب  
حتى تنظر الخدَّ الشريق البهي  
وردني ذا العشق لأمر صعب  
تنتهي في الخمر إلما تنتهي  
يا طالب الكيمياء في عيني هي  
تنظر بها الفضة وترجع ذهب

وَجَاءَتْ بَعْدَهُمْ حَلْبَةٌ كَانَ سَابِقُهَا مَدْعَلِيْسُ . وَقَعَتْ لَهُ الْعَجَائِبُ فِي هَذِهِ  
الطَّرِيقَةِ . فَمِنْ قَوْلِهِ فِي زَجَلِهِ الْمَشْهُورِ :

وَرَدَّاذُ دَقٍ يَنْزَلُ  
فَتَرَى الْوَاحِدَ يَفْضُضُ  
وَالنَّبَاتُ يَشْرَبُ وَيَسْكُرُ  
وَتَرِيدُ تَجِي إِلَيْنَا  
وشعاع الشمس يضرب  
وترى الآخر يذهب  
والغصون ترقص وتطرب  
ثم تستحي وتهرب

وَمِنْ مَحَاسِنِ أَرْجَالِهِ قَوْلُهُ :

لاح الضيا والنجوم حيارى  
شربت ممزوج من قراعا  
يا من يلمني كما تقلد  
فقم بنا نزع الكسل  
أحلى هي عندي من العسل  
قلدك الله بما تقول

يقول بان الذنوب تولد وأنه يفسد العقول  
لارض الحجاز مورىكن لك أرشد ايش ما سافك معي في ذا الفضول  
مر أنت للحج والزيارا ودعني في الشرب منهمل  
من ليس لو قدره ولا استطاع النية أبلغ من العمل  
وظهر بعد هؤلاء بأشيلية ابن جحدر الذي فضل على الزجالين في فتح  
ميورقة بالرجل الذي أوله هذا :

من عاند التوحيد بالسيف يمحق أنا بري ممن يعاند الحق  
قال ابن سعيد لقيته ولقيت تلميذه المغمع صاحب الرجل المشهور الذي  
أوله :

يا ليتني ان رأيت حبيبي أقتل اذنو بالرسلا  
ليش أخذ عنق الغزيرل وسرق فم الحجيلا  
ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل ابن مالك إمام الأدب ، ثم من بعدهم  
لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة  
الإسلامية غير مدافع ، فمن محاسنه في هذه الطريقة :

امزج الأكواس واملاي تجدد ما خلق المال إلا أن يسدد  
ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششترى منهم :

بين طلوع وبين نزول اختلطت الغزول  
ومضى من ليم يكن وبقى من لم يزول

ومن محاسنه أيضاً قوله في ذلك المعنى :

البعد عنك يا بني أعظم مصايبي وحين حصل لي قربك سببت قاربي

وَكَانَ لِعَصْرِ الْوَزِيرِ ابْنِ الْخَطِيبِ بِالْأَنْدَلُسِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَظِيمِ مِنْ أَهْلِ  
وَادِي آش ، وَكَانَ إِمَامًا فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَلَهُ مِنْ زَجَلٍ يُعَارِضُ بِهِ مَدْعَلِيسَ فِي  
قَوْلِهِ :

لاح الضياء والنجوم حيارى بقوله :

حل المجون يا أهل الشطارا	مذحلت الشمس في الحمل
تجددوا كل يوم خلاعا	لا تجعلوا بينها ثمل
إليها يتخلعوا في شنبل	على خضورة ذاك النبات
وحل بغداد واجتياز النيل	أحسن عندي من ذيك الجهات
وطاقتها أصلح من أربعين ميل	ان مرت الريح عليه وجات
لم تلتق الغبار امارا	ولا بمقدار ما يكتحل
وكيف ولاش فيه موضع رقاعا	إلا ونسرح فيه النحل

وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ الرَّجَلِيَّةُ لِهَذَا الْعَهْدِ هِيَ فَنُ الْعَامَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ مِنَ الشُّعْرِ ، وَفِيهَا  
نَظْمُهُمْ حَتَّى أَنَّهُمْ لَيَنْظِمُونَ بِهَا فِي سَائِرِ الْبُحُورِ الْخُمْسَةَ عَشْرَ ، لَكِنْ بِلُغَتِهِمُ الْعَامِيَّةِ  
وَيُسَمُّونَهُ الشُّعْرَ الرَّجَلِيَّ مِثْلَ قَوْلِ شَاعِرِهِمْ :

دهر لي نعشق جفونك وسنين	وأنت لا شفقة ولا قلب يلين
حتى ترى قلبي من أجلك كيف رجع	صنعة السكة بين الحدادين
الدموع ترشرش والنار تلتهب	والمطارق من شمال ومن يمين
خلق الله النصرى للغزو	وأنت تغزو قلوب العاشقين

وَكَانَ مِنَ الْمُجِيدِينَ لِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ لِأَوَّلِ هَذِهِ الْمَائَةِ الْأَدِيبُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ  
اللُّوشِيُّ وَلَهُ فِيهَا قَصِيدَةٌ يَمْدَحُ فِيهَا السُّلْطَانَ ابْنَ الْأَحْمَرِ :

طل الصباح قم يا نديمي نشربو	ونضحكو من بعد ما نظر بو
سبيكة الفجر أحكت شفق	في ميلق الليل فقم قلبو

فضة هو لكن الشفق ذهبو  
نور الجفون من نورها يكسبو  
عيش الغني فيه بالله ما أطيبو  
على سرير الوصل يتقلبو  
ولش ليفلت من يديه عقربو  
يشرب بيننو وياكل طيبو  
في الشرب والعشق ترى نجبو  
فقلت يا قوم من ذا تتعجبو  
علاش تكفروا بالله أو تكتبو  
يفض بكرو ويسدع ثيبو  
على الذي ما يدري كيف يشربو  
يقدر يحسن الفاظ أن يجلبو  
يفغر ذنوبهم لهذا إن أذنبو  
وقلبي في جمر الغضى يلبو  
وبالوهم قبل النظر يذهبو  
ويفرحوا من بعدما يندبو  
خطيب الأمة للقبل يخطبو  
قد صففه الناظم ولم يثقبو  
من شبهه بالمسك قد عيبو  
ليالي هجري منه يستغربو  
ما قط راعي للغنم يحلبو  
ديك الصلايا ريت ما أصلبو  
من رقتو يخفي إذا تطلبو

ترى عيارها خالص أبيض نقي  
فنتفق سكتوا عند البشر  
فهو النهار يا صاحبي للمعاش  
والليل أيضاً للقبل والعناق  
جاد الزمان من بعدما كان بخيل  
كما جرع مرو فما قد مضى  
قال الرقيب يا أدبا إيش ذا  
وتعجبوا عدالي من ذا الخبر  
نعشق مليح الا رقيق الطباع  
ليش يربح الحسن إلا شاعر أديب  
أما الكاس فحرام نعم هو حرام  
ويد الذي يحسن حسابه ولم  
وأهل العقل والفكر والمجون  
ظبي بهي فيها يظفي الجمر  
غزال بهي ينظر قلوب الأسود  
ثم يحييهم إذا ابتسم يضحكوا  
فميم كالخاتم وثغر نقي  
جوهر ومرجان أي عقد يا فلان  
وشارب أخضر يريد لاش يريد  
يسبل دلال مثل جناح الغراب  
على بدن أبيض بلون الحليب  
وزوج هندات ما علمت قبلها  
تحت العكاكن منها خصر رقيق

جديد عتبك حق ما أكذبو  
من يتبعك من ذا وذا تسلبوا  
حين ينظر العاشق وحين يرقبو  
في طرف ديسا والبشر تطلبو  
وحين تغيب ترجع في عيني تبو  
أو الرمل من هو الذي يحسبو  
من فصاحة لفظه يتقربو  
ومع بديع الشعر ما أكتبو  
وفي الرقاب بالسيف ما أضربو  
فمن يعدّ قلبي أو يحسبو  
الغيث جودو والنجوم منصبو  
الاغنيا والجند حين يركبوا  
منه بنات المعالي تطيبوا  
قاصد ووارد قط ما خيبوا  
لاش يقدر الباطل بعدما يحجبو  
من بعد ما كان الزمان خربو  
فمع سماحة وجهو ما أسيبو  
غلاب هو لا شي في الدنيا يغلبو  
فليس شيء يغني من يضربو  
للسلطنة اختار واستخبو  
يقود جيوشو ويزين موكبو  
نعم وفي تقبيل يديه يرغبوا  
يطلعوا في المجد ولا يغربوا

أرق هو من ديني فيما تقول  
أي دين بقالي معاك وأي عقل  
تحمل ارداف ثقال كالرقيب  
ان لم ينفس غدر أو ينقشع  
يصير إليك المكان حين تجي  
محاسنك مثل خصال الأمير  
عماد الأمصار وفصح العرب  
بحمل العلم انفراد والعمل  
ففي الصدور بالرمح ما أطعنه  
من السماء يحسد في أربع صفات  
الشمس نورو والقمر همتو  
يركب جواد الجود ويطلق عنان  
من خلعتو يلبس كل يوم بطيب  
نعمتو تظهر على كل من يجيه  
قد أظهر الحق وكان في حجاب  
وقد بنى بالسر ركن التقى  
تخاف حين تلقاه كما ترتجيه  
يلقى الحروب ضاحكاً وهي عابسة  
إذا جبد سيفه ما بين الردود  
وهو سمى المصطفى والاله  
تراه خليفة أمير المؤمنين  
لذي الإمارة تخضع الرؤوس  
بيته بقي بدور الزمان

وفي التواضع والحياء يقربوا  
وأشرقت شمسهِ ولاح كوكبوا  
يا شمس خدر ما لها مغربوا

وفي المعالي والشرف يبعدوا  
والله يبقِيهم ما دار الفلك  
وما يغني ذا القصيد في عروض

ثُمَّ اسْتَحَدَّثَ أَهْلَ الْأَمْصَارِ بِالْمَغْرِبِ فَنَأَى آخِرَ مِنَ الشَّعْرِ ، فِي أَعَارِضِ مُزْدَوِجَةٍ  
كَالْمَوْشِحِ ، نَظَّمُوا فِيهِ بَلْغَتِهِمُ الْحَضْرِيَّةَ أَيْضاً وَسَمَّوْهُ عَرُوضَ الْبَلَدِ ؛ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ  
اسْتَحَدَّثَهُ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ نَزَلَ بِفَاسَ يُعْرَفُ بِابْنِ عُمَيْرٍ ، فَنَظَّمَ قِطْعَةً  
عَلَى طَرِيقَةِ الْمَوْشِحِ وَلَمْ يَخْرُجْ فِيهَا عَنْ مَذَاهِبِ الْإِعْرَابِ إِلَّا قَلِيلاً مَطْلَعُهَا :

على الغصن في البستان قريب الصباح  
وماء الندى يجري بثغر الاقحاح  
كثير الجواهر في نحور الجوار  
يحاكي ثعابين حلقت بالثمار  
ودار الجميع بالروض دور السوار  
ويحمل نسيم المسك عنها رياح  
وجزّ النسيم ذيلو عليها وفاح  
قد ابتلت ارياشو بقطر الندى  
قد التف من توبو الجديد في ردا  
ينظم سلوكك جوهر ويتقلدا  
جناحا توسد والتوى في جناح  
منها ضمّ منقاره لصدرة وصاح  
أراك ما تزال تبكي بدمع سفوح  
بلا دمع نبقي طول حياتي ننوح  
ألفت البكا والحزن من عهد نوح  
انظر جفون صارت بحال الجراح

أبكاني بشاطبي النهر نوح الحمام  
وكف السحر يحو مداد الظلام  
باكرت الرياض والطل فيها افتراق  
ودمع النواير ينهرق انهراق  
لوا بالغصون خلخال على كل ساق  
وأيدي الندى تخرق جيوب الكمام  
وعاج الصبا يطلّى بمسك الغمام  
رأيت الحمام بين الورق في القضيّب  
تنوح مثل ذاك المستهام الغريب  
ولكن بما أحمر وساقو خضيب  
جلس بين الأغصان جلسة المستهام  
وصار يشتكى ما في الفؤاد من غرام  
قلت يا حمام احرمت عيني الهجوع  
قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع  
على فرخ طار لي لم يكن لورجوع  
كذا هو الوفا وكذا هو الزمام



وأنتم من بكى منكم إذا تم عام  
قلت يا حمام لو خضت بحر الضنى  
ولو كان بقلبك ما بقلبي أنا  
اليوم نقاسي الهجر كم من سنا  
ومما كسا جسمي النحول والسقام  
لوجنتى المنيا كان يموت في المقام  
قال لي لو رقدت لاوراق الرياض  
وتخضبت من دمعي وذاك البياض  
أما طرف منقاري حديثو استفاض  
يقول عناني ذا البكا والنواح  
كنت تبكي وترثي لي بدمع هتون  
ما كان يصير تحتك فروع الفصون  
حتى لا سبيل جملة تراني العيون  
أخفاني نحولي عن عيون اللواح  
ومن مات بعد يا قوم لقد استراح  
من خوفي عليه ودا النفوس للنفواد  
طوق العهد في عنقي ليوم التناد  
باطراف البلد والجسم صار في الرماد

فَاسْتَحْسَنَهُ أَهْلُ فَاسٍ وَوَلَعُوا بِهِ وَنَظَّمُوا عَلَى طَرِيقَتِهِ . وَتَرَكَوا الإِعْرَابَ الَّذِي  
لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ . وَكَثُرَ سَمَاعُهُ بَيْنَهُمْ وَاسْتَفْحَلَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَنَوَّعُوهُ أَضْافًا إِلَى  
الْمُزْدَوِجِ وَالْكَازِي وَالْمَلْعَبَةِ وَالْعَزَلِ . وَاخْتَلَفَتْ أَسْمَاؤُهَا بِاخْتِلَافِ إِزْدَوَاجِهَا  
وَمَلَاخِظَاتِهِمْ فِيهَا . فَمِنَ الْمُزْدَوِجِ مَا قَالَهُ ابْنُ شُجَاعٍ مِنْ فُصُولِهِمْ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ  
تَازَا :

المال زينة الدنيا وعز النفوس  
فها كل من هو كثير الفلوس  
يكبر من كثر مالو ولو كان صغير  
من ذا ينطبق صدري ومن ذا تغير  
حتى يلتجي من هو في قومو كبير  
لذا ينبغي يحزن على ذي العكوس  
اللي صارت الاذئاب أمام الرؤوس  
ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان  
اللي صار فلان يصبح بو فلان  
يبهي وجوها ليس هي باهيا  
ولوه الكلام والرتبة العاليا  
ويصغر عزيز القوم اذ يفتقر  
وكاد ينفقع لولا الرجوع للقدر  
لمن لا أصل عندو ولا لو خطر  
ويصبع عليه ثوب فراش صافيا  
وصار يستفيد الواد من الساقيا  
ما يدروا على من يكثر واذ العتاب  
ولو رأيت كيف يرده الجواب

عشنا والسلام حتى رأينا عيان  
كبار النفوس جدًا ضعاف الاسوس  
يروأنهم والناس يروههم تيروس  
أنفاس السلاطين في جلود الكلاب  
هم ناحيا والمجد في ناحيا  
وجوه البلد والعمدة الراسيا  
وَمِنْ مَذَاهِبِهِمْ قَوْلُ ابْنِ شُجَاعٍ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ مُزْدِجَاتِهِ :

تعب من تعب      ذا الزمان  
ما منهم مليح عاهد الا وخان  
يهبوا على العشاق ويتمنعوا  
وان واصلوا من حينهم يقطعوا  
مليح كان هويتو وشت قلبي معو  
ومهدت لو من وسط قلبي مكان  
وهون عليك ما يعتريك من هوان  
حكمتوا علي وارترضيت بو أمير  
يرجع مثل در حولي بوجه الغدير  
وتعلمت من ساعا بسبق الضمير  
ويحتل في مطلو لوان كان  
ويمشي بسوق كان ولو باصبهان

اهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك  
قليل من عليه تحبس ويحبس عليك  
ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال  
وان عاهدوا خانوا على كل حال  
وصيرت من خذي لقدمو نعال  
وقلت لقلبي اكرم لمن حل فيك  
فلا بد من هول الهوى يعتريك  
فلو كان يرى حالى اذا يبصرو  
مرديه ويتعطس بحال انحرو  
ويفهم مرادو قبل أن يذكرو  
عصر في الربيع أو في الليالي يريك  
وايش ما يقل يحتاج لو يجيك

حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهَا .

وَكَانَ مِنْهُمْ عَلِيُّ بْنُ الْمُؤَدِّينِ يَتَلَمَّسَانَ ، وَكَانَ لِهَذِهِ الْعُصُورِ الْقَرِيبَةِ مِنْ  
فُحُولِهِمْ بَزْرَهُونَ مِنْ صَوَاحِي مِكنَاسَةِ رَجُلٍ يُعْرَفُ بِالْكَفِيفِ ، أُبَدَعَ فِي مَذَاهِبِ  
هَذَا الْفَنِّ . وَمِنْ أَحْسَنِ مَا عَلِقَ لَهُ بِمَحْفُوظِي قَوْلُهُ فِي رِخْلَةِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ  
وَبَنِي مَرِينِ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ يَصِفُ هَزِيمَتَهُمْ بِالْقَيْرَوَانِ ، وَيُعَزِّبُهُمْ عَنْهَا وَيُؤَنِّسُهُمْ بِمَا  
وَقَعَ لِغَيْرِهِمْ بَعْدَ أَنْ عَيَّبَهُمْ عَلَى غَزَاتِهِمْ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ فِي مَلْعَبَةٍ مِنْ فُنُونِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ

يَقُولُ فِي مُفْتَتِحِهَا ، وَهُوَ مِنْ أُنْدَعِ مَذَاهِبِ الْبَلَاغَةِ فِي الْأَشْعَارِ بِالْمَقْصِدِ فِي مَطْلَعِ  
الْكَلَامِ وَافْتِتَاحِهِ وَيُسَمَّى بَرَاغَةَ الْإِسْتِهْلَالِ :

سبحان مالك خواطر الامرا ونواصيها في كل حين وزمان  
ان طعناه أعظم لنا نصرا وان عصيناه عاقب بكل هوان  
إلى أن يَقُولَ فِي السُّؤَالِ عَنْ جِيُوشِ الْمَغْرِبِ بَعْدَ التَّخْلِصِ :

كن مرعى قل ولا تكن راعي فالراعي عن رعيته مسؤول  
واستفتح بالصلاة على الداعي للاسلام والرضا السني المكمول  
على الخلفاء الراشدين والاتباع واذكر بعدهم اذا تحب وقول  
أحجاجا تخللوا الصحرا ودوا سرح البلاد مع السكان  
عسكر فاس المنيرة الغرا وين سارت بوغزايم السلطان  
أحجاج بالنبي الذي زرم وقطعتم لو كلاكل البيدا  
عن جيش الغرب حين يسألکم المتلوف في افريقيا السودا  
ومن كان بالعطايا يزودکم ويدع برية الحجاز رغدا  
قام قل للسد صادف الجزرا ويعجزشوط بعدما يخفان  
ويذف كر دوم تهب في الغبرا أي ما زاد غزالهم سبحان  
لو كان ما بين تونس الغربا وبلاد الغرب سدّ السكندر  
مبنى من شرقها إلى غزبا طبقا بحديد أو ثانيا بصفر  
لا بد الطير أن تجيب نبا أو يأتي الريح عنهم بفرد خبر  
ما أعوصها من أمور وما شرا لو تقرا كل يوم على الديوان  
لجرت بالدم وانصدع حجرا وهوت الخراب وخافت الغزلان  
أدرلي بعقلك الفحاص وتفكر لي بخاطرك جمعا  
ان كان تعلم حمام ولا رقاص عن السلطان شهر وقبله سبعا  
تظهر عند المهيمن القصاص وعلامات تنشر على الصمعا

مجهولين لا مكان ولا امكان  
 وكيف دخلوا مدينة القيروان  
 قضية سيرنا إلى تونس  
 واش لك في اعراب افريقيا القوبس  
 الفاروق فاتح القرى المولس  
 وفتح من افريقيا وكان  
 ونقل فيها تفرق الاخوان  
 صرح في افريقيا بذا التصريح  
 وفتحها ابن الزبير عن تصحيح  
 مات عثمان وانتقل علينا الريح  
 وبقي ما هو للسكوت عنوان  
 اش نعمل في أواخر الازمان  
 وفي تاريخ كآنا وكيوانا  
 شق وسطيح وابن مرانا  
 لجدا وتونس قد سقط بنيانا  
 عيسى بن الحسن الرفيع الشأن  
 لكن إذا جاء القدر عميت الأعيان  
 من حضرة فاس إلى عرب دياب  
 سلطان تونس وصاحب الأبواب

الا قوم عاريين فلا ستر  
 ما يدروا كيف يصوروا كسرا  
 امولاي أبو الحسن خطينا الباب  
 فقنا كنا على الجريد والزاب  
 ما بلغك من عمرفتى الخطاب  
 ملك الشام والحجاز وتاج كسرى  
 ردّ ولدت لو كره ذكرى  
 هذا الفاروق مردي الاعوان  
 وبقت حمى إلى زمن عثمان  
 لمن دخلت غنائمها الديوان  
 وافترق الناس على ثلاثة أمرا  
 اذا كان ذا في مدة البرارا  
 وأصحاب الحضري مكناساتا  
 تذكر في صحتها أبياتا  
 ان مرين إذا تكف براياتا  
 قد ذكرنا ما قال سيد الوزرا  
 قال لي رأيت وأنا بذا أدري  
 ويقول لك ما دهى المرينيا  
 أراد المولى بموت ابن يحيى

ثُمَّ أَخَذَ فِي تَرْحِيلِ السُّلْطَانِ وَجِيُوشِهِ . إِلَى آخِرِ رَحْلَتِهِ وَمُنْتَهَى أَمْرِهِ . مَعَ  
 أَعْرَابِ إِفْرِيقِيَّةٍ . وَأَتَى فِيهَا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ مِنَ الْإِبْدَاعِ . وَأَمَّا أَهْلُ تُونِسَ فَاسْتَحْدَثُوا  
 فَنَ الْمَلْعَبَةِ أَيْضاً عَلَى لُغَتِهِمُ الْحَضْرِيَّةِ . إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَهُ رَدِيءٌ وَلَمْ يَتَلَقَّ بِمَحْفُوظِي  
 مِنْهُ شَيْءٌ لِرِذَائَتِهِ .

## الموشحات والأزجال في المشرق

وَكَانَ لِعَامَّةِ بَغْدَادَ أَيْضاً فَنَ مِنَ الشِّعْرِ يُسْمَوْنَ الْمَوَالِيَا ، وَتَحْتَهُ فَنُونَ كَثِيرَةً  
يُسْمَوْنَ مِنْهَا الْقُومَا ، وَكَانَ وَكَانَ ، وَمِنْهُ مُفْرَدٌ وَمِنْهُ فِي بَيْتَيْنِ ، وَيُسْمَوْنَ دَوْبَيْتَ  
عَلَى الْإِخْتِلَافَاتِ الْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا ، وَعَالِيهَا مُزْدَوِجَةٌ مِنْ أَرْبَعَةِ  
أَغْصَانٍ . وَتَبِعَهُمْ فِي ذَلِكَ أَهْلُ مِصْرَ الْقَاهِرَةِ وَأَتَوْا فِيهَا بِالْغَرَائِبِ ، وَتَبَحَّرُوا فِيهَا فِي  
أَسَالِيبِ الْبُلَاغَةِ بِمُقْتَضَى لِقَيْتِهِمُ الْحَضْرِيَّةِ ، فَجَاءُوا بِالْعَجَائِبِ ، وَرَأَيْتُ فِي دِيْوَانِ  
الصَّفِيِّ الْحَلْبِيِّ مِنْ كَلَامِهِ « أَنَّ الْمَوَالِيَا مِنْ بَحْرِ الْبَسِيطِ ، وَهُوَ ذُو أَرْبَعَةِ أَغْصَانٍ  
وَأَرْبَعِ قَوَافٍ ، وَيُسَمَّى صَوْتاً وَبَيْتَيْنِ . وَأَنَّهُ مِنْ مُخْتَرَعَاتِ أَهْلِ وَاسِطَ ، وَأَنَّ كَانَ  
وَكَانَ فَهُوَ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَأَوْزَانٌ مُخْتَلِفَةٌ فِي أَشْطَارِهِ ، الشُّطْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الْبَيْتِ أَطْوَلُ  
مِنَ الشُّطْرِ الثَّانِيِ وَلَا تَكُونُ قَافِيَتُهُ إِلَّا مُرْدَفَةً بِحَرْفِ الْعِلَّةِ وَأَنَّهُ مِنْ مُخْتَرَعَاتِ  
الْبَغْدَادِيِّينَ . وَأَنْشَدَ فِيهِ لَنَا :

بِفَغْزِ الْحَوَاجِبِ حَدِيثُ تَفْسِيرِ وَمُنُو أُوبُو ، وَأُمُّ الْأَخْرَسِ تُعْرِفُ بِلُغَةِ  
الْخُرْسَانِ . « . إِنَّتَهَى كَلَامُ الصَّفِيِّ . وَمِنْ أَعْجَبِ مَا عَلِقَ بِحَفْظِي مِنْهُ قَوْلُ  
شَاعِرِهِمْ :

هذي جراحي طريا	والدما تنضح
وقاتلي يا أخيا	في الفلا يمرح
قالوا وناخذ بشارك	قلت ذا أقبح
إلى جرحتي يداويني	يكون أصلح

وَلِغَيْرِهِ :

طرقت باب الخبا قالت من الطارق	فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق
تبسمت لاح لي من ثغرها بارق	رجعت حيران في بحر أدمعي غارق

وَلِغَيْرِهِ :

وان شكوت الهوى قالت فدتك العين  
ذكرتها العهد قالت لك على دين

تغني عن الخمر والخمار والساقبي  
خببتها في الحشى طلت من احداقي

كم توجع القلب بالهجران أوّه أح  
كل الورى كخ في عيني وشخصك دح

جودي عليّ بقبلة في الهوى يا مي  
ما ظن ذا القطن يفشى فم من هوحى

ماط اللثام تبدي بدر في شرقه  
رجع هदानا بخيط الصبح من فرقه

وقف على منزل أحبابي قبيل الفجر  
ينهض يصلي على ميت قتيل الهجر

ترعى النجوم وبالتسفيد اقتاتت  
وسلوتي عظم الله أجركم ماتت

عهدي بها وهي لا تأمن عليّ البين  
لمن يعاين لها غيري غلام الزين  
ولغيره في وّصف الحشيش .

دي خمر صرف التي عهدي بها باقي  
قجبا ومن قجبتها تعمل على احراقبي  
ولغيره .

يا من وصالو لأطفال المحبة بح  
أودعت قلبي حوحو والتصبر بح  
ولغيره .

ناديتها ومسيبي قد طواني طيّي  
قالت وقد كوت داخل فؤادي كيّي  
ولغيره .

راني ابتسم سبقت سحب أدمعي برقه  
اسبل دجى الشعرتاه القلب في طرقه  
ولغيره .

يا حادي العيس ازجر بالمطايا زجر  
وصيح في حيمهم يا من يريد الأجر  
ولغيره .

عيني التي كنت ارعاكم بها باتت  
وأسهم البين صابنتي . ولا فاتت

ولغيره :

هويت في قنطرتكم يا ملاح الحكر      غزال يبلى الاسود الضاريا بالفكر  
غصن اذا ما انثنى يسبي البنات البكر      وان تهلل فما للبدر عندو ذكر

وَمَنْ الَّذِي يُسْمُوهُ دُوَيْبَتْ :

قد أقسم من أحبه بالباري      أن يبعث طيفه مع الاسحار  
يا نار أشواقى به فاتقدي      ليلاً ففساه يهتدي بالنار

واعلم أن الأذواق كلها في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر اشتغاله لها ومخاطبته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية . فلا يشعر الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمشرق ولا المشرقي بالبلاغة التي في شعر الأندلس والمغرب . لأن اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم . وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته وذائق لمحاسن الشعر من أهل جلدته وفي خلق السماوات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم آيات للعالمين وقد كدنا نخرج عن الغرض .

★ ★ ★

وَجَاءَ مُضَلِّياً خَلْفَهُ مِنْهُمْ ابْنُ رَافِعٍ ، رَأْسُ<sup>(١)</sup> شُعْرَاهُ الْمَأْمُونُ ابْنُ ذِي النُّونِ  
صَاحِبِ طَلَيْطِلَةَ . قَالُوا وَقَدْ أَحْسَنَ فِي ابْتِدَائِهِ فِي مُوشِحَتِهِ الَّتِي طَارَتْ لَهُ حَيْثُ  
يَقُولُ :

الْعُودُ قَدْ تَرَنَّمَ بِأَبْدَعِ تَلْحِينٍ      وَسَقَتْ الْمَذَانِبَ رِيَاضَ الْبَسَاتِينِ  
وَفِي انْتِهَائِهِ حَيْثُ يَقُولُ :

تَخَطَّرَ وَلَا<sup>(٢)</sup> تَسْلَمُ عَسَاكَ الْمَأْمُونُ      مَرْوَعُ الْكُتَابِ يَخْيِي بِنُ ذِي النُّونِ  
ثُمَّ جَاءَتْ الْعَلْبَةَ الَّتِي كَانَتْ فِي ذَوْلَةِ الْمَلْثَمِينَ ، فَظَهَرَتْ لَهُمُ الْبِدَائِعُ ، وَسَابِقُ  
فَرْسَانِ حَلِيَّتِهِمُ الْأَعْمَى الطَّلَيْطِلِيُّ<sup>(٣)</sup> ، ثُمَّ يَخْيِي بِنُ بَقِيٍّ ، وَلِلطَّلَيْطِلِيِّ مِنَ  
الْمُوشُوحَاتِ الْمَهْدِيَةِ قَوْلِهِ :

كَيْفَ السَّيْلُ إِلَى صَبْرِي وَفِي الْعَالِمِ أَشْجَانِ  
وَالرُّكْبُ وَسَطُ الْفَلَا بِالْخَرْدِ النُّوَاعِمِ قَدْ بَانَ

#### خاتمة

وَلِذَلِكَ عَزَمْنَا أَنْ نَقْبِضَ الْعِنَانَ عَنِ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ  
طَبِيعَةُ الْعُمُرَانِ وَمَا يَغْرُضُ فِيهِ وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا مِنْ مَسَائِلِهِ مَا حَسِبْنَاهُ كِفَايَةً لَهُ .  
وَلَعَلَّ مَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا مِمَّنْ يُؤَيِّدُهُ اللَّهُ بِفِكْرٍ صَحِيحٍ وَعِلْمٍ مَبِينٍ يُفَوِّضُ مِنْ مَسَائِلِهِ  
عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا كَتَبْنَا فَلْيَسْ عَلَى مُسْتَنْبِطِ الْفَنِّ إِحْصَاءَ مَسَائِلِهِ وَإِنَّمَا عَلَيْهِ تَعْيِينُ مَوْضِعِ  
الْعِلْمِ وَتَنْوِيعُ فُضُولِهِ وَمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَالْمَتَأَخَّرُونَ يُلْحِقُونَ الْمَسَائِلَ مِنْ بَعْدِهِ شَيْئاً  
فَشَيْئاً إِلَى أَنْ يَكْمُلَ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

قال مؤلف الكتاب عفى الله عنه ، اتممت هذا الجزء الأول المشتمل على  
المقدمة بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة أشهر آخرها  
منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة . ثم نقحته بعد ذلك وهذبتة والحقت به  
تواريخ الأمم كما ذكرت في أوله وشرطتة . وما العلم الا من عند الله العزيز  
الحكيم .

(١) وفي النسخة الباريية : منهم ابن ارفع رأسه شاعر المأمون .

(٢) وفي النسخة الباريية : وليست .

(٣) وفي النسخة الباريية : التطلبي .



فهرس مقدمة ابن خلدون  
وهو  
الجزء الأول من تاريخ الأمم والملوك

٧٣	الاقليم الثاني	٣	مقدمة الناشر
٧٥	الاقليم الثالث	٥	مقدمة المؤلف
٨٢	الاقليم الرابع	١٣	المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق
٩٠	الاقليم الخامس		مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين
٩٧	الاقليم السادس		من المغالط وذكر شيء من أسبابها
١٠٠	الاقليم السابع	٤٦	الكتاب الأول :
١٠٣	المقدمة الثالثة :		في طبيعة العمران في الخليقة وما
	في المعتدل من الاقاليم والمنحرف		يعرض فيها من البدو والحضر
	وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير		والتغلب والكسب والمعاش
	من أحوالهم		والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك
١٠٨	المقدمة الرابعة :		من العلل والأسباب وفيه ( ستة
	في أثر الهواء في أخلاق البشر		أبواب )
١٠٩	المقدمة الخامسة :	٥٤	الباب الأول من الكتاب الأول :
	في اختلاف أحوال العمران في		في العمران البشري على الجملة وفيه
	الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك		مقدمات
	من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم		المقدمة الأولى :
١١٥	المقدمة السادسة :		في أن الاجتماع الانساني ضروري
	في أصناف المدركين من البشر	٥٧	المقدمة الثانية :
	بالفطرة أو الرياضة ويتقدمه الكلام		في قسط العمران من الأرض
	في الوحي والرؤيا		والأشارة إلى بعض ما فيه من
١٢٠	حقيقة النبوة والكهانة والرؤيا وشأن		الأشجار والأنهار والأقاليم
	العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب	٦٣	تكلمة المقدمة الثانية :
١٢٣	الوحي		في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر
١٢٥	الكهانة		عمراناً من الربع الجنوبي وذكر
١٢٨	الرؤيا		السبب في ذلك
١٤٩	الباب الثاني من الكتاب الأول :	٦٧	تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا
	في العمران البدوي والأمم الوحشية	٦٨	الاقليم الأول

- في اختلاط الأنساب كيف يقع .  
 الفصل الحادي عشر : ١٦٤
- في أن الرياسة لا تزال في نصابها  
 المخصوص من أهل العvisية .  
 الفصل الثاني عشر : ١٦٥
- في أن الرياسة على أهل العvisية لا  
 تكون في غير نسبهم .  
 الفصل الثالث عشر : ١٦٧
- في أن البيت والشرف بالاصالة  
 والحقيقة لاهل العvisية ويكون  
 لغيرهم بالجواز والشبه .  
 الفصل الرابع عشر : ١٦٩
- في أن البيت والشرف للموالي وأهل  
 الاصطناع إنما هو بمواليهم لا  
 بانسابهم  
 الفصل الخامس عشر : ١٧٠
- في أن نهاية الحسب في العقب  
 الواحد أربعة آباء .  
 الفصل السادس عشر : ١٧٢
- في أن الأمم الوحشية أقدر على  
 التغلب ممن سواها  
 الفصل السابع عشر : ١٧٤
- في أن الغاية التي تجري اليها العvisية  
 هي الملك  
 الفصل الثامن عشر : ١٧٥
- في أن من عوائق الملك حصول  
 الترف وانغاس القبيل في النعيم  
 الفصل التاسع عشر : ١٧٦
- في أن من عوائق الملك المذلة للقبيل  
 والانقياد الى سواهم .  
 الفصل العشرون : ١٧٨

- والقبائل وما يعرض في ذلك من  
 الأحوال وفيه فصول وتمهيدات .  
 الفصل الأول : ١٤٩
- في أن أجيال البدو والحضر طبيعية .  
 الفصل الثاني : ١٥١
- في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي  
 الفصل الثالث : ١٥٢
- في أن البدو أقدم من الحضر وسابق  
 عليه وأن البادية أصل العمران  
 والامصار مدد لها .  
 الفصل الرابع : ١٥٣
- في أن أهل البدو أقرب الى الخير من  
 أهل الحضرة .  
 الفصل الخامس : ١٥٥
- في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة  
 من أهل الحضرة .  
 الفصل السادس : ١٥٧
- في أن معاناة أهل الحضرة للأحكام  
 مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنعة  
 منهم .  
 الفصل السابع : ١٥٩
- في أن سكنى البدو لا يكون الا  
 للقبائل أهل العvisية .  
 الفصل الثامن : ١٦٠
- في أن العvisية إنما تكون من  
 الالتحام بالنسب أو ما في معناه .  
 الفصل التاسع : ١٦١
- في أن الصريح من النسب إنما يوجد  
 للمتوحشين في القفر من العرب ومن  
 في معانهم .  
 الفصل العاشر : ١٦٣

- في ان البوادي من القبائل  
والعصائب مغلوبون لاهل الامصار  
الباب الثالث من الكتاب الأول : ١٩٣
- في الدولة العامة والملك والخلافة  
والمراتب السلطانية وما يعرض في  
ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد  
ومتهمات :
- الفصل الأول : ١٩٣
- في أن الملك والدولة العامة انما  
يحصلان بالقبيل والعصيبة  
الفصل الثاني : ١٩٤
- في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت  
فقد تستغنى عن العصيبة  
الفصل الثالث : ١٩٦
- في أنه قد يحدث لبعض أهل  
النصاب الملكي دولة تستغنى عن  
العصيبة .
- الفصل الرابع : ١٩٧
- في ان الدولة العامة الاستيلاء  
العظيمة الملك أصلها الدين امامن  
نبوة أو دعوة حق .
- الفصل الخامس : ١٩٨
- في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في  
أصلها قوة على قوة العصيبة التي  
كانت لها من عددها .
- الفصل السادس : ١٩٩
- في ان الدعوة الدينية من غير عصيبة  
لا تتم .
- الفصل السابع : ٢٠٢
- في ان كل دولة لها حصنة من الممالك  
والاوطان لا تزيد عليها .

- في أن من علامات الملك التنافس  
في الخلال الحميدة وبالعكس  
الفصل الحادي والعشرون : ١٨١
- في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان  
ملكها أوسع  
الفصل الثاني والعشرون : ١٨٢
- في أن الملك إذا ذهب عن بعض  
الشعوب من أمة فلا بد من عوده  
إلى شعب آخر منها ما دامت لهم  
العصيبة .
- الفصل الثالث والعشرون : ١٨٤
- في أن المغلوب مولع أبداً بالاعتداء  
بالغالب في شعاره وزيه ونخلته وسائر  
احواله وعوائده .
- الفصل الرابع والعشرون : ١٨٥
- في أن الامة اذا غلبت وصارت في  
ملك غيرها أسرع اليها الفناء
- الفصل الخامس والعشرون : ١٨٦
- في ان العرب لا يتغلبون الا على  
السائط .
- الفصل السادس والعشرون : ١٨٧
- في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان  
اسرع اليها الخراب .
- الفصل السابع والعشرون : ١٨٩
- في أن العرب لا يحصل لهم الملك  
الا بصبغة دينيه من نبوة أو ولاية أو  
أثر عظيم من الدين على الجملة
- الفصل الثامن والعشرون : ١٨٩
- في أن العرب أبعد الامم عن سياسة  
الملك .
- الفصل التاسع والعشرون : ١٩١

وخلق اهلها باختلاف الاطوار	
الفصل الثامن عشر :	٢٢١
في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها .	
الفصل التاسع عشر :	٢٢٩
في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصيته بالموالي والمصطنعين	
الفصل العشرون :	٢٣٠
في أحوال الموالى والمصطنعين في الدول	
الفصل الحادي والعشرون :	٢٣٢
فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه	
الفصل الثاني والعشرون :	٢٣٣
في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك	
الفصل الثالث والعشرون :	٢٣٤
في حقيقة الملك واصنافه .	
الفصل الرابع والعشرون :	٢٣٦
في أن ارهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر	
الفصل الخامس والعشرون :	٢٣٧
في معنى الخلافة والامامة	
الفصل السادس والعشرون :	٢٣٩
في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه .	
الفصل السابع والعشرون :	٢٤٦
في مذاهب الشيعة في حكم الامة	
الفصل الثامن والعشرون :	٢٥٣
في انقلاب الخلافة الى الملك .	
الفصل التاسع والعشرون :	٢٦١

٢٠٤	الفصل الثامن :
	في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القاطنين بها في القلة والكثرة
٢٠٦	الفصل التاسع :
	في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة .
٢٠٨	الفصل العاشر :
	في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد .
٢٠٩	الفصل الحادي عشر :
	في أن من طبيعة الملك الترف
٢١٠	الفصل الثاني عشر :
	في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون .
٢١٠	الفصل الثالث عشر :
	في أنه اذا استحكت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم
٢١٣	الفصل الرابع عشر :
	في أن الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص .
٢١٥	الفصل الخامس عشر :
	في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة .
٢١٨	الفصل السادس عشر :
	في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة الى قوتها .
٢١٩	الفصل السابع عشر :
	في اطوار الدولة واختلاف أحوالها

الخاتم .	٣٢٦
الطراز .	٣٢٩
الفساطيط والسياج .	٣٣٠
المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة .	٣٣٢
الفصل السابع والثلاثون :	٣٣٤
في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها .	
الفصل الثامن والثلاثون :	٣٤٤
في الجباية وسبب قلتها وكثرتها	
الفصل التاسع والثلاثون :	٣٤٥
في ضرب المكوس وأواخر الدولة .	
الفصل الاربعون :	٣٤٦
في التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية .	
الفصل الواحد والاربعون :	٣٤٩
في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة .	
الفصل الثاني والاربعون :	٣٥٣
في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية .	
الفصل الثالث والاربعون :	٣٥٣
في أن الظلم مؤذن بخراب العمران .	
الاحتكار .	٣٥٧
الفصل الرابع والاربعون :	٣٥٨
في أن الحجاب كيف يقع في الدول وأنة يعظم عند الهرم .	
الفصل الخامس والاربعون :	٣٦٠
في انقسام الدولة الواحدة بدولتين	
الفصل السادس والاربعون :	٣٦٢
في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع	
الفصل السابع والاربعون :	٢٦٣

في معنى البيعة	
الفصل الثلاثون :	٢٦٢
في ولاية العهد .	
الفصل الحادي والثلاثون :	٢٧٢
في الخطط الدينية الخلاقية	
الحسبة والسكة .	٢٨٠ ✓
الفصل الثاني والثلاثون :	٢٨٢
في اللقب بامير المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء .	
الفصل الثالث والثلاثون :	٢٨٧
في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود	
الفصل الرابع والثلاثون :	٢٩٢
في مراتب الملك والسلطان وألقابها	
الوزارة .	٢٩٤
الحجباية .	٢٩٩
ديوان الاعمال والجبايات .	٣٠٢
ديوان الرسائل والكتابة .	٣٠٥
الشرطة .	٣١١
قيادة الاساطيل :	٣١٢
سفائن الحرب .	
الفصل الخامس والثلاثون :	٣١٨
في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول .	
الفصل السادس والثلاثون :	٣١٩
في شارات الملك والسلطان الخاصة به .	
السريز والمنبر والتخت والكرسي .	٣٢٢
السكة .	٣٢٢
مقدار الدرهم والدينار الشرعيين .	٣٢٤

في أن الدول اقدم من المدن  
والامصار وانما توجد ثانية عن  
الملك .

٤٢٨ الفصل الثاني :

في أن الملك يدعو إلى نزول الامصار  
٤٢٩ الفصل الثالث :

في أن المدن العظيمة والهيكل  
المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير  
٤٣١ الفصل الرابع :

في أن الهيكل العظيمة جداً لا  
تستقل بينها الدولة الواحدة  
٤٣٢ الفصل الخامس :

فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن  
وما يحدث إذا غفل عن المراجعة  
٤٣٥ الفصل السادس :

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم .  
٤٤٦ الفصل السابع :

في أن المدن والامصار بافريقية  
والمغرب قليلة .  
٤٤٧ الفصل الثامن :

في أن المباني والمصانع في الملة  
الاسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها  
وإلى من كان قبلها من الدول  
٤٤٨ الفصل التاسع :

في أن المباني التي كانت تختطها  
العرب يسرع اليها الخراب في الاقل  
٤٤٩ الفصل العاشر :

في مبادئ الخراب في الامصار  
٤٥٠ الفصل الحادي عشر :

في أن تفاضل الامصار والمدن في  
كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق

في كيفية طروق الخلل للدولة .  
٣٦٧ الفصل الثامن والاربعون :

فصل في اتساع الدولة ، أولاً إلى  
نهايته ثم تضايقه واضمحلال  
الدولة .

٣٧١ الفصل التاسع والاربعون :

في حدوث الدولة وتجديدها كيف  
يقع .

٣٧٢ الفصل الخمسون :

في أن الدولة المستجدة انما تستولي  
على الدولة المستقرة بالمطاولة لا  
بالمناجزة .

٣٧٢ الفصل الحادي والخمسون :

في وفور العمران آخر الدولة وما يقع  
فيها من كثرة الموتان والمجاعات  
٣٧٧ الفصل الثاني والخمسون :

في أن العمران البشري لا بد له من  
سياسة ينتظم بها أمره .

٣٨٨ الفصل الثالث والخمسون :

في أمر الفاطمي وما يذهب إليه  
الناس في شأنه وكشف الغطاء عن  
ذلك .

٣٩٠ الفصل الرابع والخمسون :

في ابتداء الدول والامم وفيه الكلام  
على الملاحم والكشف عن مسمى  
الجفر .

٤٢٦ الباب الرابع من الكتاب الأول :

في البلدان والامصار وسائر العمران  
وما يعرض في ذلك من الاحوال  
وفيه سوابق ولواحق .

٤٢٦ الفصل الأول :

وتغلب بعضهم على بعض	
الفصل الثاني والعشرون :	٤٧٤
في لغات أهل الامصار .	
الباب الخامس من الكتاب الأول :	٤٧٦
في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل .	
الفصل الأول :	٤٧٦
في حقيقة الرزق والكسب وشرحها وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية -	
الفصل الثاني :	٤٧٩
في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه	
الفصل الثالث :	٤٨٠
في ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعي .	
الفصل الرابع :	٤٨١
في ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي	
الفصل الخامس :	٤٨٧
في ان الجاه مفيد للمال .	
الفصل السادس :	٤٨٨
في ان السعادة والكسب انما يحصل غالباً لاهل الخضوع والتلق وان هذا الخلق من أسباب السعادة	
الفصل السابع :	٤٩٢
في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب .	
الفصل الثامن :	٤٩٣

انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة	
الفصل الثاني عشر :	٤٥٣
في اسعار المدن .	
الفصل الثالث عشر :	٤٥٦
في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران .	
الفصل الرابع عشر :	٤٥٧
في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرفقة والفقير مثل الامصار .	
الفصل الخامس عشر :	٤٥٩
في تأثر العقار والضياح في الامصار وفوائدها ومستغلاتها .	
الفصل السادس عشر :	٤٦٠
في حاجات التمويل من أهل الامصار الى الجاه والمدافعة .	
الفصل السابع عشر :	٤٦١
في أن الحضارة في الامصار من قبل الدول وانها ترسخ باتصال الدولة ورسخها .	
الفصل الثامن عشر :	٤٦٥
في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده .	
الفصل التاسع عشر :	٤٦٩
في ان الامصار التي تكون كراسي للملك تحرب بخراب الدولة وانقراضها	
الفصل العشرون :	٤٧٢
في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض .	
الفصل الحادي والعشرون :	٤٧٢
في وجود العصيبة في الامصار	

- ٥٠٦ الفصل العشرون :  
في أن الامصار إذا قاربت الخراب  
انتقصت منها الصنائع .
- ٥٠٦ الفصل الحادي والعشرون :  
في أن العرب أبعد الناس عن  
الصنائع .
- ٥٠٧ الفصل الثاني والعشرون :  
فيمن حصلت له ملكة في صناعة  
فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى
- ٥٠٨ الفصل الثالث والعشرون :  
في الاشارة الى امهات الصنائع
- ٥١٠ الفصل الرابع والعشرون :  
في صناعة الفلاحة .
- الفصل الخامس والعشرون :  
في صناعة البناء .
- ٥١٤ الفصل السادس والعشرون :  
في صناعة التجارة .
- ٥١٦ الفصل السابع والعشرون :  
في صناعة الحياكة والخياطة
- ٥١٧ الفصل الثامن والعشرون :  
في صناعة التوليد .
- ٥٢٠ الفصل التاسع والعشرون :  
في صناعة الطب وانها محتاج اليها في  
الحواضر والامصار دون البادية
- ٥٢٤ الفصل الثلاثون :  
في أن الخط والكتابة من عداد  
الصنائع الانسانية
- ٥٣٢ الفصل الحادي والثلاثون :  
في صناعة الوراقة .
- ٥٣٤ الفصل الثاني والثلاثون :  
في صناعة الغناء .

- في ان الفلاحة من معاش المتضعين  
وأهل العافية من البدو .
- ٤٩٤ الفصل التاسع :  
في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها
- ٤٩٥ الفصل العاشر :  
في أي اصناف الناس يحترف  
بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب حرفها
- ٤٩٦ الفصل الحادي عشر :  
في ان خلق التجار نازلة عن خلق  
الاشراف والملوك
- ٤٩٦ الفصل الثاني عشر :  
في نقل التاجر للسلع
- ٤٩٧ الفصل الثالث عشر :  
في الاحتكار .
- ٤٩٨ الفصل الرابع عشر :  
في أن رخص الاسعار مضر بالمحترفين  
بالرخص .
- ٥٠٠ الفصل الخامس عشر :  
في أن خلق التجار نازلة عن خلق  
الرؤساء وبعيدة من المروءة .
- ٥٠١ الفصل السادس عشر :  
في أن الصنائع لا بد لها من العالم
- ٥٠٢ الفصل السابع عشر :  
في أن الصنائع انما تكمل بكمال  
العمران الحضري وكثرته .
- ٥٠٣ الفصل الثامن عشر :  
في أن رسوخ الصنائع في الامصار  
انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها .
- ٥٠٥ الفصل التاسع عشر :  
في أن الصنائع انما تستجد وتكثر  
إذا كثر طالبيها .



٥٨٠	الفصل العاشر :
	في علم الكلام .
٥٩٢	الفصل الحادي عشر :
	في أن عالم الحوادث العقلية انما يتم بالفكر .
٥٩٤	الفصل الثاني عشر :
	في العقل التجريبي وكيفية حدوده
٥٩٥	الفصل الثالث عشر :
	في علوم البشر وعلوم الملائكة .
٥٩٧	الفصل الرابع عشر :
	في علوم الانبياء عليهم الصلاة والسلام
٥٩٩	الفصل الخامس عشر :
	في أن الانسان جاهل بالذات عالم بالكسب .
٦٠٠	الفصل السادس عشر :
	في كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب السنة وما حدث لاجل ذلك من طوائف السنية والمبتدعة في الاعتقادات .
٦١١	الفصل السابع عشر :
	في علم التصوف .
٦٢٥	الفصل الثامن عشر :
	في علم تعبير الرؤيا .
٦٢٩	الفصل التاسع عشر :
	في العلوم العقلية واصنافها
٦٣٤	الفصل العشرون :
	في العلوم العددية .
٦٣٩	الفصل الحادي والعشرون :
	في العلوم الهندسية .
٦٤١	الفصل الثاني والعشرون :
	في علم الهيئة

٥٤١	الفصل الثالث والثلاثون :
	في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب .
٥٤٢	الباب السادس من الكتاب الأول :
	في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض من ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق .
٥٤٢	الفصل الأول :
	في أن العلم والتعليم طبيعي في ال عمران البشري .
٥٤٣	الفصل الثاني :
	في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع .
٥٤٨	الفصل الثالث :
	في أن العلوم انما تكثر حيث يكثر ال عمران وتغظم الحضارة .
٥٤٩	الفصل الرابع :
	في أصناف العلوم الواقعة في عمران لهذا العهد .
٥٥١	الفصل الخامس :
	في علوم القرآن من التفسير والقراءات
٥٥٦	الفصل السادس :
	في علوم الحديث .
٥٦٣	الفصل السابع :
	في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض
٥٧١	الفصل الثامن :
	في علم الفرائض .
٥٧٣	الفصل التاسع :
	في أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات .

٧١٩	الفصل الثالث والثلاثون :
	في انكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفسد عن انتحالها .
٧٢٧	الفصل الرابع والثلاثون :
	في ان كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل .
٧٢٩	الفصل الخامس والثلاثون :
	في المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف والغناء ما سواها .
٧٣٣	الفصل السادس والثلاثون :
	في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم محلة بالتعليم
٧٣٤	الفصل السابع والثلاثون :
	في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته
٧٢٨	الفصل الثامن والثلاثون :
	في ان العلوم الالهية لا توسع فيها الانتظار ولا تفرع المسائل .
٧٤٠	الفصل التاسع والثلاثون :
	في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه .
٧٤٣	الفصل الأربعون :
	في أن الشدة على المتعلمين مضرة
٧٤٤	الحادي والأربعون :
	في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم
٧٤٥	الفصل الثاني والأربعون :
	في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها .

٦٤٤	الفصل الثالث والعشرون :
	في علم المنطق .
٦٤٩	الفصل الرابع والعشرون :
	في علم الطبيعيات .
٦٥٠	الفصل الخامس والعشرون :
	في علم الطب .
٦٥٢	الفصل السادس والعشرون :
	في الفلاحة .
٦٥٣	الفصل السابع والعشرون :
	في علم الآليات .
٦٥٥	الفصل الثامن والعشرون :
	في علوم السحر والطلسمات .
٦٦٤	الفصل التاسع والعشرون :
	علم اسرار الحروف .
٦٧١	الكلام على استخراج نسبة الأوزان وكيفيةها ومقادير المقابيل منها وقوة الدرجة المتميزة .
٦٧٦	كيفية العمل في استخراج اجوبة المسائل من زايحة العالم بحول الله منقولاً عن لقبناه قائماً عليها
٦٨٧	فصل في الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية
٦٩٢	فصل في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية
٦٩٥	الفصل الثلاثون :
	في علم الكيمياء .
٧٠٧	الفصل الحادي والثلاثون :
	في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها
٧١٤	الفصل الثاني والثلاثون :
	في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها .

في أن أهل الامصار على الاطلاق	٧٤٧	الفصل الثالث والأربعون :
قاصرون في تحصيل هذه الملكة		في ان حملة العلم في الاسلام
اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن		اكثرهم العجم
كان منهم ابعد عن اللسان العربي		الفصل الرابع والأربعون :
كان حصولها له أصعب وأعسر .		في أن العجمة إذا سبقت اللسان
الفصل الثالث والخمسون :	٧٨١	العربي .
في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر		الفصل الخامس والأربعون :
الفصل الرابع والخمسون	٧٧٣	في علوم اللسان العربي .
في أنه لا تتفق الاجادة في فني		٧٥٣ علم النحو .
المنظوم والمنثور معا إلا للأقل .		٧٥٦ علم اللغة .
الفصل الخامس والخمسون :	٧٨٤	٧٥٩ علم البيان .
في صناعة الشعر ووجه تعلمه .		٧٦٣ علم الأدب .
الفصل السادس والخمسون :	٧٩٤	٧٦٤ الفصل السادس والأربعون :
في أن صناعة النظم والنثر انما هي		في أن اللغة ملكة صناعية .
في الالفاظ لا في المعاني .		٧٦٦ الفصل السابع والأربعون :
الفصل السابع والخمسون :	٧٩٦	في أن لغة العرب لهذا العهد لغة
في أن حصول هذه الملكة بكثرة		مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير .
الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ .		٧٧٠ الفصل الثامن والأربعون :
الفصل الثامن والخمسون :	٧٩٩	في ان لغة أهل الحضرة والامصار
في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع		قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر .
وكيف جودة المصنوع أو قصوره .		٧٧١ الفصل التاسع والأربعون :
الفصل التاسع والخمسون :	٨٠٣	في تعليم اللسان المضري .
في ترفع أهل المراتب عن انتحال		٧٧٢ الفصل الخمسون :
الشعر .		في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة
الفصل الستون :	٨٠٥	العربية ومستغنية عنها في التعليم .
في أشعار العرب وأهل الامصار لهذا		٧٧٥ الفصل الواحد والخمسون :
العهد .		في تفسير الذوق في مصطلح أهل
الموشحات والازجال للاندلس .	٨١٧	البيان وتحقيق معناه وبيان ان لا
خاتمة .	٨٤٠	يحصل غالباً للمستعربين من العجم .
الفهرس	٨٤١	٧٧٨ الفصل الثاني والخمسون :